وحي القلم

تأليف
مصطفى صادق الرافعي

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت


وحي القلم



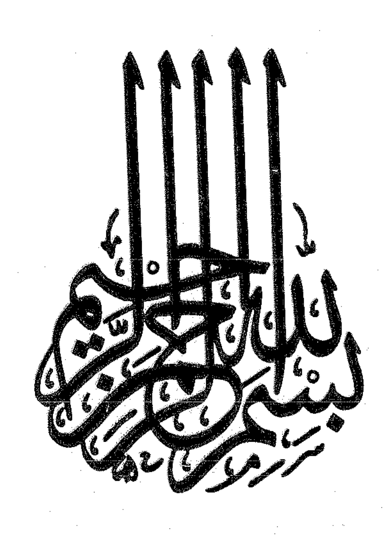


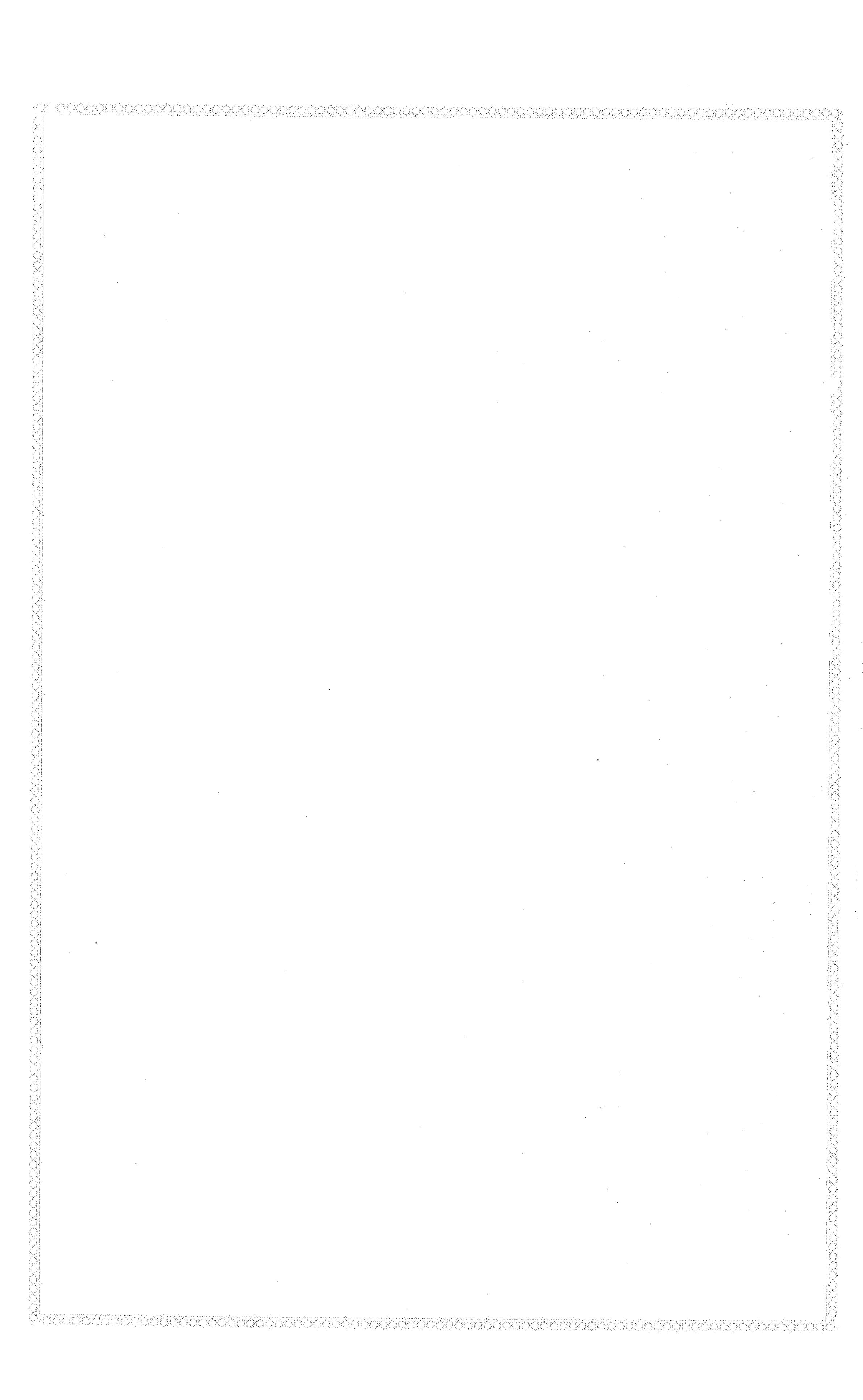
تأليف
مصطفى صادق الرافعي

راجعه واعتنى به
د. درويش الجويدي

الجزء الأول




بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بعد الصلاة والسلام على أشرف خلق الله تعالى ـ محمد النبيّ الأميّ وعلى آله وأصحابه أجمعين، لقد اعتاد القارىء العربي الكريم الاطلاع على كلّ جديد التراث الإسلامي والعربي من إصدرات المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، وها هي الدار اليوم تقدّم للقارىء العربي «وحي القلم» لأحد رجال الفكر الإسلامي العربي الأديب مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله ـ بحلّة جديدة، آملة أن ترضي القارىء الكريم، علّه أن يجد ضالته فيما تركه الأديب من مادة، نحن بأمسّ الحاجة إليها في زمننا هذا.

والأديب ينسج خطوط قصصه بريشة شاعر فنّان، يحلّق في عالم الشعر، مصبوغة بوجدان الإيمان العميق، تبغي العدالة، ونشر قيم الإسلام الحنيف ببساطتها وروعتها، وأبطالها يمثلون الفضيلة بجلالها وأصالتها الإسلامية، والحبّ السامي بخيوطه المحبوكة من قلوب أبطاله الملائكيين في ميولهم وطهارتهم وسموّ نفوسهم.

وبما أن مصطفى صادق الرافعي شاعر مثقف ثقافة شعرية، يمتاز بحسّ مرهف، كان لا بدّ له من ممارسة عملية النقد الفني الرفيع بتجرّد يمزجه بحماس وإعجاب وحبٍّ لمعاصريه من لدن البارودي، مروراً بأحمد شوقي وحافظ إبراهيم.

وبالاختصار يمكن اعتبار الرافعي في هذا المجال مؤرخاً للأدب المصري في مطلع القرن العشرين، بحيث لا يمكن الاستغناء عمّا يقدمه من آراء ومعلومات قيّمة عن الحركة الأدبية في الشعر والنثر في عصره.

المؤلّف في سطور

هو مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي: عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب.

أصله من طرابلس الشام، ومولده في بهتيم (بمنزل والد أمه) ووفاته في طنطا (بمصر) أصيب بصمم فكان يُكتب له ما يراد مخاطبته به.

شعره نقيّ الديباجة، على جفاف في أكثره. ونثره من الطراز الأول.

مؤلّفات الرافعي

- ديوان شعر، ثلاثة أجزاء.
- تاريخ آداب العرب، جزآن.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.
- تحت راية القرآن.
- رسائل الأحزان.
- على السفُّود، ردّ فيه على عباس محمود العقّاد.
- ديوان النظرات.
- السحاب الأحمر في فلسفة الحبّ والجمال.
- حديث القمر.
- المعركة، ردّ فيه على الدكتور طه حسين في كتابه «الشعر الجاهلي».
- المساكين.
- أوراق الورد.
- وحي القلم، ثلاثة أجزاء.

دراسات حول المؤلف وتراثه

- حياة الرافعي: محمد سعيد العريان.
- رسائل الرافعي: محمود أبو ريّة.

وانظر ترجمته في

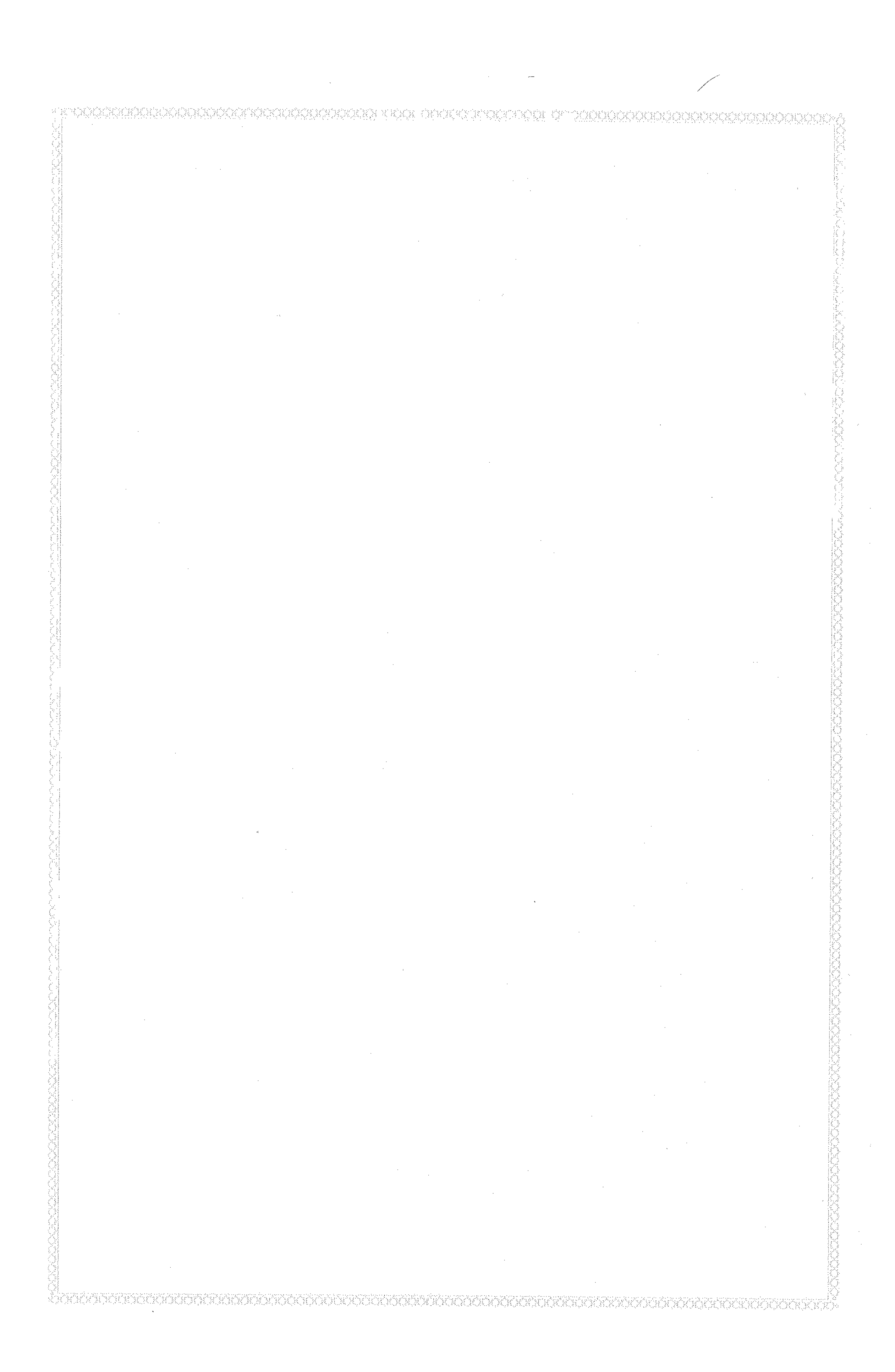
- المنتخب من أدب العرب ١: ٥٥.
- تراجم علماء طرابلس ٢١١، في آخر ترجمة عمه عبد الحميد بن سعيد الرافعي.
- معجم المطبوعات ٩٢٦.
- الأعلام: ٧: ٢٣٥.
- المقتطف ٧٣: ٣٥٢.
- مجلّة الرابطة العربية، ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٥٧هـ.

الناشر

نص كتاب الأستاذ الإمام

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي: زاده الله أدباً. لله ما أثْمَرَ أدَبُك، ولله ما ضَمِنَ لي قلبُك، لا أقارِضُك ثناءً بثناء، فليس ذلك شأنَ الآباء مع الأبناء، ولكني أعُدُّك من خُلَّصِ الأولياء، وأقدِّمُ صفَّك على صفِّ الأقرباء. وأسألُ اللَّهَ أن يجعلَ للحق من لسانك سيفاً يمحقُ الباطل، وأن يُقيمك في الأواخرِ مَقَامَ حَسَّان في الأوائل. والسلام.

٥ شوال سنة ١٣٢١
محمد عبده



صدر الكتاب

البيان

لا وجُودَ للمقالة البيانيةِ إلا في المعاني التي اْشتملتْ عليها يُقيمُها الكاتبُ على حُدودِ ويديرُها على طريقة، مُصيباً بألفاظِه مَواقعَ الشعور، مُثيراً بهامَكامنَ الخيال، آخِذاً بوَزْنٍ تاركاً بوزنٍ لتأخذَ النفسُ كما يشاءُ وتَترك.

ونقلُ حقائقِ الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابةِ أو الشعر، هو انتزاعُها من الحياةِ في أسلوبٍ وإظهارُها للحياةِ في أسلوبٍ آخرَ يكونُ أوفى وَأدقَّ وأجملَ، لوضعِه كلَّ شيءٍ في خَاصِّ معناه وكَشْفِه حقائقَ الدنيا كَشْفَةً تحت ظاهرِها الملْتَبِس. وتلك هي الصناعةُ الفنيةُ الكاملة؛ تَسْتَدْرِكُ النقصَ فتُتِمُّه، وتتناولُ السرَّ فتُعلنُه، وتلمِسُ المقيَّدَ فَتُطْلِقُه، وتأخذُ المطلَقَ فتحُدُّه، وتكشفُ الجمالَ فتُظهرُه، وترفعُ الحياةَ درجةً في المعنى وتجعلُ الكلامَ كأنَّه وجدَ لنفسِه عقلاً يعيشُ به.

فالكاتبُ الحقُّ لا يكتبُ ليكتب؛ ولكنَّه أداةٌ في يدِ القوةِ المصوِّرة لهذا الوجود، تُصوِّر به شيئاً من أعمالِها فنًّا منَ التصوير. الحكمةُ الغامضةُ تريدُه على التفسير، تفسيرِ الحقيقة؛ والخطأ الظاهرُ يريدُه على التبيِّين، تبيِّينِ الصواب؛ والفَوضى المائجةُ تسألُه الإقرار. إقرارَ التناسب؛ وما وراءَ الحياة، يتخذُ من فكرِه صلةً بالحياة؛ والدنيا كلُّها تنتقلُ فيه مَرْحَلَةً نفسيةً لتعلوَ به أو تنزلَ. ومن ذلك لا يُخلقُ المُلْهَمُ أبداً إلا وفيه أعصابُه الكهربائية، وله في قلبِهِ الرقيقِ مواضعُ مُهيَّأةٌ للاحتراقِ تنفذُ إليها الأشعةُ الروحانيةُ وتتساقطُ منها بالمعاني.

وإذا اُختير الكاتبُ لرسالةٍ ما، شعرَ بقوةٍ تفرضُ نفسَها عليه؛ منها سِنَادُ رأيه، ومنها إقامةُ برهانِه، ومنها جمالُ ما يأتي بِه، فيكون إنساناً لأعمالِه وأعمالِها جميعاً، له بنفسه وجودٌ ولد بها وجودٌ آخر؛ ومن ثَمَّ يُصبحُ عالَماً بعناصرِه للخيرِ أو الشرِّ كما يُوجَّه؛ ويُلقَى فيه مثلُ السرِّ الذي يُلْقَى في الشجرة لإخراجِ ثمرِها بعملٍ طبيعيٍّ يُرَى سهلاً كلَّ السهلِ حين يتمُّ، ولكنّه صعبٌ أيُّ صعبٍ حينَ يَبدأ.

هذه القوةُ التي تجعلُ اللفظةَ المُفْرَدَةَ في ذهنِه معنًى تامًّا، وتحوّل الجملةَ الصغيرةَ إلى قصة، وتنتهي باللمحةِ السريعةِ إلى كشفٍ عن حقيقة، وهي تُخرجُه من حكمِ أشياءَ ليحكُمَ عليها، وتُدخلُه في حكمِ أشياءَ غيرِها لِتحكمَ عليه؛ وهي هي التي تميِّزُ طريقتَه وأسلوبَه؛ وكما خُلِقَ الكونُ منَ الإشعاعِ تضعُ الإشعاعَ في بيانِه[1].

ولا بدَّ منَ البيانِ في الطبائعِ الملْهَمةِ ليتَّسِعَ بهِ التصرُّفُ، إذِ الحقائقُ أسمى وأدقُّ من أن تُعرفَ بيقينِ الحاسةِ أو تنحصرَ في إدراكِها. فلو حُدَّتِ الحقيقةُ لما بقيَتْ حقيقة، ولو تَلَبَّسَ الملائكةُ بهذا اللحمِ والدمِ أبطلَ أن يكونوا ملائكة؛ ومن ثَمَّ فكثرةُ الصوَرِ البيانيةِ الجميلة، للحقيقةِ الجميلة، هي كلُّ ما يمكنُ أو يَتَسَنَّى من طريقةِ تعريفِها للإنسانية.

وأيّ بيانٍ في خُضرةِ الربيعِ عندَ الحيوانِ من آكِلِ العُشْبِ، إلا بيانُ الصورةِ الواحدةِ في معِدته؟ غيرَ أن صُوَرَ الربيعِ في البيانِ الإنسانيِّ على اختلافِ الأرضِ والأمم، تكادُ تكونُ بعددِ أزهارِه، ويكادُ الندى يُنضِّرُها حُسْناً كما ينضِّره.

ولهذا ستبقى كلُّ حقيقةٍ منَ الحقائقِ الكبرى - كالإيمانِ والجمالِ، والحبِّ، والخيرِ والحقِّ - ستبقى محتاجةً في كلِّ عصرٍ إلى كتابةٍ جديدةٍ من أذهانٍ جديدة.

* * *

وفِي ٱلكتَّابِ ٱلفضلاءِ باحثون مفكرون تأتي ألفاظُهم ومعانيهم فنًّا عقليًّا غايتُه صحةُ ٱلأداءِ وسلامةُ النَّسَقِ، فيكونُ ٱلبيانُ في كلامِهم على نَدْرَةٍ كوَخْزِ الخُضرةِ في ٱلشجرةِ ٱليابسةِ هنا وهنا. ولكنَّ الفنَّ البيانيَّ يَرتفعُ على ذلك بأنَّ غايتَه قوةُ ٱلأداءِ معَ ٱلصحة، وسموُّ ٱلتعبيرِ معَ ٱلدقة، وإبداعُ ٱلصورةِ زائداً جمالَ الصورة. أولئك في الكتابةِ كالطيرِ له جناحٌ يجري به ويَدِفُّ ولا يطيرِ، وهؤلاء كالطيرِ الآخر له جناحٌ يطير به ويجري. ولو كتَبَ الفريقانِ في معنًى واحدٍ لرأيْتَ المنطقَ في أحدِ الأسلوبينِ وكأنه يقول: أنا هنا في معانٍ وألفاظ؛ وترى الإلهامَ في الأسلوبِ الآخرِ يُطالِعُك أنه هنا في جلالٍ وجمالٍ وفي صُوَرٍ وألوان.

ودَوْرَةُ العبارةِ الفنيَّةِ في نفسِ الكاتب البيانيّ دورةُ خَلْقٍ وتركيب، تخرجُ بها الألفاظُ أكبرَ ممّا هي، كأنها شَبَّتْ في نفسه شباباً؛ وأقوى ممّا هي، كأنما كَسَبَتْ

---

(١) ثبت علمياً أن الإشعاع هو المادة التي منها صنع هذا الكون.

من روحه قوة؛ وأدلَّ ممّا هي، كأنما زاد فيها بصناعتِه زيادة. فالكاتبُ العلميُّ تمرُّ اللغةُ منه في ذاكرةٍ وتخرجُ كما دخلتْ عليها طابعُ واضعيها؛ ولكنَّها منَ الكاتبِ البيانيّ تمرُّ في مصنعٍ وتخرجُ عليها طابعُه هو. أولئك أزاحوا اللغةَ عن مرتبةٍ سامية، وهؤلاء عَلَوْا بها إلى أسمى مراتبِها؛ وأنت مع الأولينَ بالفكر، ولا شيءَ إلّا الفكرُ والنظرُ والحكم؛ غير أنَّك مع ذي الحاسَّةِ البيانيةِ لا تكونُ إلا بمجموع ما فيك من قوةِ الفكرِ والخيالِ والإحساسِ والعاطفةِ والرأي.

ولَلكتابةُ التامةُ المفيدةُ مثلُ الوجهين في خلْق الناس: ففي كلِّ الوجوهِ تركيبٌ تامٌّ تقومُ به منفعةُ الحياة، ولكن الوجهَ المنفردَ يجمعُ إلى تمام الخَلْقِ جمالَ الخَلق، ويزيدُ على منفعةِ الحياةِ لذّةَ الحياة، وهو لذلك، وبذلك، يُرى ويؤثِّر ويُعشَق.

وربمّا عابوا السموَّ الأدبيَّ بأنَّه قليل، ولكنَّ الخيرَ كذلك؛ وبأنه مخالف، ولكنّ الحقَّ كذلك؛ وبأنه مُحيِّر، ولكنَّ الحسنَ كذلك؛ وبأنَّه كثيرُ التكاليف، ولكنَّ الحريةَ كذلك.

إن لم يكن البحرُ فلا تنتظرِ ٱللؤلؤ، وإن لم يكن ٱلنجمُ فلا تنتظرِ ٱلشعاع، وإنْ لم تكنْ شجرةُ الوردِ فلا تنتظرِ ٱلورد، وإن لم يكنِ ٱلكاتبُ ٱلبيانيُّ فلا تنتظرِ ٱلأدب.

مصطفى صادق الرافعي

اليمامتان

جاءَ في تاريخِ ٱلواقدي «أن (المُقَوْقِسَ) عظيمَ القِبْطِ في مِصر، زوَّج بنتَه (أرمانوسة) من (قسطنطين بن هِرَقْل) وجهَّزها بأموالِها حَشَماً لتسيرَ إليه، حتى يَبْنيَ[1] عليها في مدينة قَيْسارِيَة[2]؛ فخرجت إلى بُلْبَيْسَ[3] وأقامتْ بها. . . وجاءَ عَمْرو بنُ العاصِ إلى بلبيسَ فحاصرها حِصَاراً شديداً، وقاتلَ مَنْ بها، وقتل منهم زُهاء ألفِ فارس، وٱنهزم مَن بقيَ إلى المقوقس، وأُخِذَتْ أرمانوسةُ وجميعُ مالِهَا، وأُخذَ كلُّ ما كان للقِبْطِ في بُلْبَيْسَ. فأحبَّ عمرٌو ملاطفةَ ٱلمقوقس، فسيّر إليه ٱبنتَه مكرَّمةً في جميع مالِهَا، (مع قَيْس بنِ أبي العاصِ ٱلسَّهْمي)؛ فسُرَّ بقدومِها. . .».

* * *

هذا ما أثبتَه الواقديُّ في روايتِه، ولم يكن مَعْنيًا إلَّا بأخبارِ المَغَازي والفتُوح، فكانَ يقتصرُ عليها في ٱلرواية؛ أما ما أغفلَه فهو ما نَقُصُّه نحن:

كانَتْ لأرمانوسةَ وصيفةٌ مُوَلَّدةٌ تُسَمَّى (ماريَة)، ذاتُ جمال يونانيّ أتمتَّهُ مصرُ ومَسَحَتْه بسحرِها، فزادَ جمالُها على أنْ يكونَ مصريًا، ونَقَصَ ٱلجمالُ ٱليونانيّ أنْ يكُونَه؛ فهو أجملُ منهما، ولمصرَ طبيعةٌ خاصةٌ في ٱلحسن؛ فهيَ قد تُهْمِلُ شيئاً في جمال نسائها أو تُشَعِّثُ منه، وقد لا توفِّيهِ جُهدَ محاسنِها الرائعة؛ ولكن متى نشأ فيها جمالٌ ينْزِعُ إلى أَصلٍ أجنبيٍّ أفرغَتْ فيه سحرَها إفراغاً، وأبتْ ألا أن تكونَ ٱلغالبةَ عليه، وجعلَتْه آيتَها في المقابلةِ بينَه في طابَعِه المصريّ، وبين أصلِه في طبيعةِ أرضِه كائنةً ما كانت؛ تغارُ على سحرِها أنْ يكونَ إلّا الأعلى.

وكانَتْ ماريةُ هذه مسيحيةً قويةَ ٱلدينِ وٱلعقل، ٱتَّخذَها ٱلمقوقسُ كنيسةً حيةً لابنتِه، وهو كان والياً وبَطْرِيَرْكاً على مصرَ من قِبَلِ هِرَقْل؛ وكان من عجائبِ صُنْعِ اللَّهِ

(١) يبني بها: يتزّوج منها.

(٢) قيسارية: من مدن فلسطين.

(٣) بلبيس: إحدى مدن محافظته الشرقية بمصر.

أنَّ الفتحَ الإسلاميّ جاءَ في عهدِه، فجعلَ ٱللَّهُ قلبَ هذا ٱلرجلِ مِفتاحَ ٱلقُفْلِ القبطيّ، فلم تكنْ أبوابُهم تُدافِعُ إلا بمِقدارِ ما تُدفَع، تُقاتل شيئاً من القتالِ غيرِ كبير، أمّا ٱلأبوابُ ٱلروميةُ فبقيتْ مستَغْلِقةً حصينةً لا تُذْعِنُ إلّا للتحطيم، ووراءَها نحوُ مائةِ ألف روميٍّ يُقاتلونَ ٱلمعجزةَ الإسلاميَّةَ ٱلتي جاءتْهم من بلادِ ٱلعربِ أوَّلَ ما جاءَتْ في أربعةِ آلافِ رجل، ثم لم يزيدوا آخِرَ ما زادوا على ٱثني عَشَرَ ألفاً. كانَ ٱلرومُ مائةَ ألفِ مُقاتلٍ بأسلحتِهم ـ ولم تكنِ ٱلمدافعُ معروفة ـ ولكنَّ رُوحَ الإسلامِ جعلَتِ ٱلجيشَ العربيّ كأنّه اثنا عشَر ألفَ مِدْفع بقنابِلها، لا يقاتِلون بقوّةِ ٱلإنسان، بل بقوّةِ الروحِ الدينيةِ التي جعلَها الإسلامُ مادةً منفجرةً تُشْبهُ الدِّيناميتَ قبلَ أن يُعْرَفَ الدِّيناميت!

ولمَّا نزلَ عمرٌو بجيشِهِ على بُلْبَيْسَ، جَزِعتْ[1] ماريةُ جزَعاً شديداً؛ إذْ كانَ الرومُ قد أرجفوا أنَّ هؤلاءِ العربَ قومٌ جياعٌ يَنْفضُهم ٱلجدْبُ على ٱلبلادِ نَفْضَ ٱلرمالِ على ٱلأعينِ في ٱلريحِ ٱلعاصف؛ وأنهم جَرادٌ إنسانيّ لا يغزو إلّا لِبَطْنِه؛ وأنّهم غِلاظُ ٱلأكبادِ[2] كٱلإبلِ ٱلتي يمتطونَها؛ وأن النساء عندَهم كٱلدّوابّ يُرْتَبَطْنَ على خَسْف[3]؛ وأنهم لا عهدَ لهم ولا وفاء، ثَقُلَتْ مطامعُهم وخَفَّتْ أمانتُهم؛ وأنَّ قائدَهم عَمْرَو بْنَ العاص كان جزَّاراً في ٱلجاهلّية، فما تَدَعُهُ روحُ ٱلجزَّار ولا طبيعتُه؛ وقد جاءَ بأربعةِ آلافِ سالخٍ من أخلاطِ الناسِ وشُذَّاذِهِم، لا أربعةِ آلافِ مقاتلٍ من جيشٍ له نظامُ الجيش!

وتوهَّمتْ ماريةُ أوهامَها، وكانتْ شاعرةً قد درَسَتْ هيَ وأرمانوسةُ أدبَ يونانَ وفلسفتَهم، وكان لها خيالٌ مشبوبٌ متوقِّد يُشْعِرُها كلَّ عاطفةٍ أكبرَ ممَّا هي، ويُضاعفُ ٱلأشياءَ في نفسِها، وينزعُ إلى طبيعتهِ ٱلمؤنَّثة، فيُبالغُ في تهويلِ ٱلحزنِ خاصَّة، ويجعلُ من بعضِ ٱلألفاظِ وَقُوداً على الدم. . .

ومن ذلك ٱسْتُطِيرَ[4] قلبُ مارية وأفزعتَها ٱلوساسُ، فجعلَتْ تَنْدُبُ نفسَها، وصنعَتْ في ذلك شعراً هذه ترجمتُه:

جاءَكِ أربعةُ آلافِ جزّارٍ أيّتُها ٱلشاةُ ٱلمسكينة!

ستذوقُ كلُّ شعرةٍ منكِ ألم ٱلذبحِ قبلَ أن تُذبَحي!

جاءكِ أربعةُ آلافِ خاطفٍ أيّتُها العذراءُ ٱلمسكينة!

---

(١) جزعت: خافت.
(٢) غلاظ الأكباد: جفاة، قساة.
(٣) الخسف: الذل والهوان.
(٤) استطير قلب مارية: جزعت.

ستموتين أربعةَ آلافِ مِيتةٍ قبلَ الموت!

قَوِّني يا إلهي، لأُغمِدَ في صدري سِكِّيناً يردُّ عني ٱلجزَّارين!

يا إلهي، قَوِّ هذه العذارءَ، لتتزوَّجَ الموتَ قبلَ أنْ يتزوجَها العربي. . !

* * *

وذهبَتْ تتلو شِعرَها على أرمانوسةَ في صوتٍ حزينٍ يتوجَّع؛ فضحكَتْ هذه وقالَتْ: أنت واهمةٌ يا مارية؛ أنسيت أنَّ أبي قد أهدَى إلى نبِّيهم بنتَ (أنْصِنا)[1]، فكانَتْ عندَه في مملكةٍ بعضُها السماءُ وبعضُها القلب؟ لقد أخبَرني أبي أنَّه بَعَثَ بها لتكشفَ له عن حقيقةِ هذا الدينِ وحقيقةِ هذا النبيّ؛ وأنَّها أنفذَتْ إليهِ دَسِيساً[2] يُعْلِمُه أنَّ هؤلاءِ المسلمينَ همُ العقلُ الجديدُ الذي سيضعُ في العالم تمييزَه بينَ الحقِّ والباطل، وأنَّ نبيَّهم أطهرُ منَ السحابةِ في سمائِها، وأنهم جميعاً ينبعثون من حُدودِ دينِهم وفضائلِه، لا من حدودِ أنفسِهم وشهواتِها؛ وإذا سَلُّوا السيفَ سَلُّوه بقانون، وإذا أغمدُوه أغمدُوه بقانون. وقالت عن النساء: لأَنْ تخافَ المرأةُ على عفّتِها من أبيها أقربُ من أن تخافَ عليها من أصحابِ هذا النبيّ؛ فإنّهم جميعاً في واجباتِ ٱلقلبِ وواجباتِ ٱلعقل، ويكادُ ٱلضميرُ ٱلإسلاميُّ في الرجلِ منهم - يكونُ حاملاً سلاحاً يَضرِبُ صاحبَه إذا همّ بمخالفتِه.

وقال أبي: إنهم لا يُغِيرُون على الأمم، ولا يحاربونها حربَ ٱلمُلْك؛ وإنّما تلك طبيعةُ الحركةِ للشريعةِ الجديدة، تتقدَّم في الدنيا حاملةً السلاحَ والأخلاق، قويةً في ظاهرها وباطِنها، فمن وراءِ أسلحتِهم أخلاقُهم؛ وبذلك تكونُ أسلحتهُم نفسُها ذاتَ أخلاق!

وقال أبي: إنّ هذا ٱلدينَ سيندفعُ بأخلاقِه في ٱلعالَم ٱندفاعَ ٱلعُصارةِ ٱلحيةِ في الشجرة ٱلجرداء؛ طبيعةٌ تعملُ في طبيعة؛ فليسَ يَمضي غيرَ بعيدٍ حتى تَخضَرَّ ٱلدنيا وترميَ ظِلالَها؛ وهو بذلك فوق ٱلسياساتِ ٱلتي تُشْبِهُ في عملِها الظاهرِ المُلَفَّقِ ما يُعَدُّ كطلاءِ الشجرة الميتةِ الجرداءِ بلونٍ أخضر. . . شَتَّانَ بين عملٍ وعمل، وإن كان لونٌ يشبهُ لوناً. . .

---

(١) بقصد بذلك أم المؤمنين «مارية القبطية» التي أهداها المقوقس إلى النبي ﷺ، وهي أم إبراهيم آخر أبناء النبي ﷺ، وقد مات صغيراً فحزن عليه سائر المسلمين، وقد صادف موته كسوف الشمس.

(٢) دسيساً: جسوساً.

فٱسترُوَحَتْ[1] ماريةُ واطمأنَّتْ بِٱطمئنانِ أرمانوسة، وقالت: فلا ضَيْرَ[2] علينا إذا فتحوا البلد، ولا يكونُ ما نَسْتَضِرُّ به؟

قالَتْ أرمانوسة: لا ضيرَ يا مارية، ولا يكونُ إلا ما نُحِبُّ لأنفسِنا؛ فالمسلمون ليسوا كهؤلاءِ ٱلعُلوجِ مِنَ ٱلروم، يفهمون متاعَ ٱلدنيا بفكرةِ ٱلحِرصِ عليه، وٱلحاجةِ إلى حلالِه وحرامِه، فهمُ القُساةُ ٱلغِلاظُ ٱلمُستكلِبون كالبهائم؛ ولكنهم يفهمون متاعَ الدنيا بفكرةِ الاستغناءِ عنه والتميزِ بينَ حلالِهِ، فهم الإنسانيُّون الرُّحماءُ المتعفِفون.

قالَتْ مارية: وأبيك يا أرمانوسةُ، إنَّ هذا لَعجيب! فقد ماتَ سقراطُ وأفلاطونُ وأرِسْطو وغيرهُم منَ ٱلفلاسفةِ وٱلحكماء، وما استطاعوا أن يؤدِّبوا بحكمتِهم وفلسفتِهم إلّا الكتبَ التي كتبوها...! فلم يُخرِجوا للدنيا جماعةً تامةَ الإنسانية، فضلاً عن أمةٍ كما وصفْتِ أنتِ من أمرِ المسلمين؛ فكيف ٱستطاعَ نبيُّهم أن يُخرجَ هذه الأمةَ وهم يقولون إنه كان أميًّا؟ أفتسْخَرُ ٱلحقيقةُ من كبارِ الفلاسفةِ وٱلحكماءِ وأهلِ ٱلسياسةِ والتدبير؛ فتدعُهم يعملون عَبَثاً أو كالعبث، ثم تستسلِمُ للرجلِ الأمِّيِّ الذي لم يكتُبْ ولم يقرأْ ولم يدرُسْ ولم يتعلم؟

قالَتْ أرمانوسة: إنَّ العلماءَ بهيئةِ السماءِ وأجرامِها وحسابِ أفلاكِها، ليسوا هم الذي يَشُقُّون الفجرَ ويُطلعون الشمس؛ وأنا أرى أنَّهُ لا بدَّ من أمةٍ طبيعيةٍ بفطرتِها يكونُ عملُها في الحياةِ إيجادَ الأفكارِ العلميَّةِ الصحيحةِ التي يسيرُ بها العالم، وقد درسْتُ المسيحَ وعملَه وزمنَه، فكان طِيلةَ عمرِهِ يحاولُ أنْ يُوجِدَ هذه الأمة، غيرَ أنه أوجدَها مُصغَّرةً في نفسِهِ وحوارِيِّيه، وكان عملُه كالبدءِ في تحقيقِ الشيءِ العسير؛ حَسْبُهُ أن يُثبِتَ معنى الإمكانِ فيه.

وظهورُ الحقيقةِ من هذا الرجلِ الأمِّيِّ هو تنبيهُ الحقيقةِ إلى نفسِها؛ وبرهانُها القاطعُ أنَّها بذلك في مظهرِها الإلهيِّ. والعجيبُ يا مارية، أنَّ هذا النبيَّ قد خذلَهُ قومُهُ وناكروه وأجمعوا على خِلافِه، فكانَ في ذلكَ كالمسيح، غيرَ أنَّ المسيحَ انتهى عندَ ذلك؛ أما هذا فقد ثبَتَ ثباتَ الواقع حينَ يقع؛ لا يرتدُّ ولا يتغيّر؛ وهاجَر من بلدِه، فكانَ ذلك أولَ خُطَى الحقيقةِ التي أعلنَتْ أنها ستَمشي في الدنيا، وقد

---

(١) استروحت: ردت إليها الروح والاطمئنان.

(٢) لا ضيرَ: لا بأسَ، لا مضرَّة.

أخذَتْ من يومئذٍ تمشي[1]. ولو كانَتْ حقيقةُ المسيح قد جاءَتْ للدنيا كلِّها لها جَرَتْ به كذلك، فهذا فرقٌ آخرُ بينهما. والفرقُ الثالثُ أنَّ المسيحَ لم يأتِ إلا بعبادةٍ واحدةٍ هي عبادةُ ٱلقلب، أمَّا هذا الدينُ فعلِمْتُ من أبي أنه ثلاثُ عباداتٍ يشُدُّ بعضُها بعضاً: إحداها للأعضاء، والثانيةُ للقلب، والثالثةُ للنفس؛ فعبادةُ الأعضاءِ طهارتُها وٱعتيادُها الضبط؛ وعبادةُ القلبِ طهارتُه وحبُّه الخير؛ وعبادةُ النفسِ طهارتُها وبذلُها في سبيلِ الإنسانية. وعند أبي أنّهم بهذهِ الأخيرةِ سيملكون الدنيا؛ فلن تُقهرَ أمةٌ عقيدتُها أنَّ ٱلموتَ أوسعُ الجانبين وأسعدُهما.

قالَتْ مارية: إنَّ هذا واللَّهِ لسِرٌّ إلهيٌّ يدلُّ على نفسِه؛ فمن طبيعةِ الإنسانِ ألَّا تنبعثَ نفسُه غيرَ مباليةٍ الحياةَ والموتَ إلَّا في أحوالٍ قليلة، تكونُ طبيعةُ الإنسانِ فيها عمياء: كالغضبِ الأعمى، والحبِّ الأعمى، والتكبُّرِ الأعمى؛ فإذا كانَتْ هذهِ الأمَّةُ الإسلاميةُ كما قلتِ منبعثةً هذا الانبعاث، ليس فيها إلَّا الشعورُ بذاتيتِها العالية ـ فما بعدَ ذلك دليلٌ على أنَّ هذا الدينَ هو شعورُ الإنسانِ بسموّ ذاتيتِه، وهذه هي نهايةُ النهاياتِ في الفلسفةِ والحكمة.

قالَتْ أرمانوسة: وما بعدَ ذلك دليلٌ على أنَّكِ تتهيئينَ أنْ تكوني مسلمةً يا مارية!

فاسْتَضْحكَتَا معاً وقالَتْ مارية: إنَّما ألقيتِ كلاماً جاريْتُكِ فيه بحَسَبِه، فأنا وأنتِ فكرتان لا مسلمتان.

* * *

قال الراوي: وانهزم الرومُ عن بُلْبَيْسَ، وٱرتدُّوا إلى المقوقس في (مَنْف)، وكان وحيُ أرمانوسةَ في ماريةَ مدةَ الحِصار ـ وهي نحو الشهر ـ كأنه فكرٌ سكَنَ فكراً وتمدَّد فيه؛ فقد مرّ ذلك الكلامُ بما في عقلِها من حقائقِ النظرِ في الأدبِ والفلسفة، فصنَع ما ينصعُ المؤلفُ بكتابٍ ينقِّحُه، وأنشأ لها أخْيلَةً تُجادِلُها وتدفعُها إلى التسليمِ بالصحيحِ لأنَّه صحيح، والمؤكَّدِ لأنّه مؤكَّد.

ومن طبيعةِ الكلام إذا أثَّرَ في النفس، أنْ ينتظمَ في مثلِ ٱلحقائقِ ٱلصغيرةِ التي تُلقَى للحفظ؛ فكَان كلامُ أرمانوسةَ في عقلِ ماريةَ هكذا: «المسيحُ بدْءٌ وللبدءِ تَكْمِلة، ما من ذلك بُدّ. لا تكونُ خدمةُ الإنسانيةِ إلَّا بذاتٍ عاليةٍ لا تُبالي غيرَ

---

(١) توجد في بدء الجزء الثاني مقالات تتعلق بسيرة النبي ﷺ يمكن استقراءُها في الكتاب.

سموِّها. الأمةُ التي تبذلُ كلَّ شيءٍ وتستمسكُ بالحياةِ جُبْناً وحِرْصاً لا تأخذُ شيئاً، والتي تبذلُ أرواحَها فقط تأخذُ كلَّ شيء».

وجعلتْ هذه الحقائقُ الإسلاميةُ وأمثالُها تُعرّبُ هذا العقلَ اليوناني؛ فلمّا أرادَ عمرو بْنُ العاصِ توجيهَ أرمانوسةَ إلى أبيها، وٱنتهى ذلك إلى ماريةَ قالَتْ لها: لا يَجْمُلُ بمَنْ كانت مثلَكِ في شرفِها وعقلِها أنْ تكون كٱلأخِيذة، تَتَوَجَّهُ حيث يُسارُ بها؛ وٱلرأيُ أن تبدئي هذا القائدَ قبلَ أنْ يبدأكِ؛ فأرسلي إليهِ فأعلميهِ أنك راجعةٌ إلى أبيك، وٱسأليهِ أن يُصْحِبَكِ بعضَ رجالِه؛ فتكوني الآمرةَ حتى في الأَسْر، وتصنعي صُنْعَ بناتِ الملوك!

قالَتْ أرمانوسة: فلا أجدُ لذلك خيراً منكِ في لسانِكِ ودَهائِك؛ فاذهبي إليهِ من قِبَلي، وسيَصحبُكِ الراهبُ (شطَا)، وخُذي معك كوكبةً من فرسانِنا.

* * *

قالَتْ ماريةُ وهي تقصُّ على سيّدتِها: لقد أدّيتُ إليه رسالَتَكِ فقال: كيفَ ظنُّها بنا؟ قلْتُ: ظنُّها بفعلِ رجلٍ كريم يأمرُهُ ٱثنان: كرمُه، ودينُه. فقال: أبلغيها أن نبيَّنا ﷺ قال: «ٱسْتَوْصُوا بٱلقبطِ خيراً فإن لهم فيكم صِهْراً وذِمّة». وأعلميها أننا لسْنَا على غارةٍ نُغيرُها، بل على نفوسٍ نُغيّرُها.

قالت: فَصِفيهِ لي يا مارية.

قالت: كان آتياً في جماعة من فرسانِه على خيولِهِمُ ٱلعِراب[1]، كأنها شياطينُ تحملُ شياطينَ من جنسٍ آخر؛ فلمَّا صار بحيثُ أتبيَّنُه أوْمأَ إليهِ التَّرْجُمَانُ ـ وهو (وَرْدانُ) مولاه ـ فنظرتُ، فإذ هو على فرَسٍ كُمَيْتٍ[2] أحَمَّ لم يخلُصْ للأسْوَدِ ولا للأحمر، طويلِ ٱلعنقِ مُشْرِفٍ له ذُؤابةٌ أعلى ناصيتِهِ كطُرَّةِ ٱلمرأة، ذيَّالٍ يتبخترُ بفارسِهِ ويُحَمْحِمُ كأنَّهُ يُريدُ أنْ يتكلمَ، مُطهَّم...

فقطعَتْ أرمانوسةُ عليها وقالَتْ: ما سألْتُكِ صفةَ جوادِه...

قالَتْ مارية: أما سلاحُه...

قالَت: ولا سِلاحُه، صِفيه كيف رأيتِهِ (هو)!

قالَت: رأيتُه قصيرَ القامةِ علامةَ قوةٍ وصلابة، وافرَ ٱلهامةِ علامةَ عقلٍ وإرادة، أدعجَ العينين...

---

(١) الخيول العراب: الخيل الأصيلة.
(٢) كميت: أحمر اللون قانٍ.

فضحكَتْ أرمانوسةُ وقالت: علامةُ ماذا؟...

... أبلجَ يُشْرِقُ وجهُهُ كأنَّ فيه لألأَ ٱلذهبِ على ٱلضوء، أيْداً ٱجتمعَتْ فيه ٱلقوَّةُ حتى لَتكادُ عيناهُ تأمرانِ بنظرِهِما أمراً... داهيةٌ كُتِبَ دَهاؤه على جبهتِهِ ٱلعريضةِ يجعلُ فيها معنًى يأخذُ مَنْ يراه؛ وكلما حاولْتُ أنْ أتفرَّسَ في وجهِهِ رأيْتُ وجهَهُ لا يُفسّرُهُ إلا تكررُ النظرِ إليه..

وتضرَّجتْ وجنتاها[1]، فكان ذلك حديثاً بينَها وبينَ عينَيْ أرمانوسة... وقالَتْ هذه: كذلك كلُّ لذةٍ لا يفسُرها للنفسِ إلا تكرارُها...

فغضَّت ماريةُ من طَرْفِها[2] وقالت: هو واللَّهِ ما وَصَفْت، وإني ما ملأتُ عيني منه، وقد كدتُ أنكرُ أنه إنسانُ لما اعتراني من هيبتِهِ...

قالَتْ أرمانوسة: من هَيبتِهِ أم عَينيه الدعجاوَيْن...؟

* * *

ورجعَتْ بنتُ ٱلمقوقس إلى أبيها في صحبة (قَيس)، فلما كانوا في ٱلطريقِ وَجَبَتِ ٱلظُّهر، فنزل قيسٌ يُصَليّ بمَنْ معه وٱلفتاتانِ تنظران؛ فلما صاحوا: «الله أكبر...!» ٱرتعشَ قلبُ مارية، وسألتِ الراهبَ (شطا): ماذا يقولون؟ قال: إنّ هذه كلمةٌ يدخلون بها صلاتَهم، كأنما يخاطبون بها الزمنَ أنهم الساعةَ في وقتٍ ليس منه ولا من دنياهم، وكأنهم يُعلنونَ أنَّهم بين يديْ من هو أكبرُ منَ ٱلوجود؛ فإذا أعلنوا ٱنصرافَهم عنِ ٱلوقتِ ونزاعِ ٱلوقتِ وشَهَواتِ ٱلوقت، فذلك هو دخولُهم في ٱلصلاة؛ كأنَهم يَمْحُون ٱلدنيا منَ ٱلنفسِ ساعةً أو بعضَ ساعة؛ ومَحْوُها من أنفسِهم هو ٱرتفاعُهم بأنفسِهم عليها؛ انظري، ألا تَرَيْنَ هذه الكلمةَ قد سَحَرتَهم سِحْراً فهم لا يلتفتونَ في صلاتِهم إلى شيء؛ وقد شملَتْهمُ ٱلسكينة، ورَجَعوا غيْرَ مَن كانوا، وخشَعواخشوعَ أعظمِ ٱلفلاسفةِ في تأمُّلِهم؟

قالَتْ مارية: ما أجملَ هذه الفطرةَ الفلسفية! لقد تَعِبَتِ ٱلكتبُ لتجعلَ أهلَ الدنيا يستقرُّون ساعةً في سكينةِ اللَّهِ عليهم فما أفلحَتْ، وجاءتِ ٱلكنيسةُ فَهوَّلَتْ على المُصلّينَ بالزخارف. والصُّوَرِ والتماثيلِ والألوان، لتُوحِيَ إلى نفوسِهم ضرباً منَ ٱلشعورِ بسكينةِ الجمالِ وتقديس المعنى الدِّينيّ، وهي بذلك تحتالُ في نقلِهم

---

(١) كميت أحمّ: هو الأحمر الضارب للسواد.

(٢) الطرْف: النظر.

من جوِّهم إلى جوِّها؛ فكانَتْ كساقي ٱلخمر؛ إنْ لم يُعطِكَ الخمرَ عَجِزَ عن إعطائِك النَّشْوة[1]. ومن ذا الذي يستطيعُ أَنْ يحملَ معه كنيسةً على جوادٍ أو حمار؟

قالَتْ أرمانوسة: نعم إن الكنيسَةَ كالحديقة؛ هي حديقةٌ في مكانِها، وقلَّما تُوحي شيئاً إلا في موضِعها؛ فالكنيسةُ هي الجدرانُ الأربعة، أما هؤلاءِ فمعبدُهم بين جهاتِ الأرضِ الأربع.

قال الراهب شطا: ولكن هؤلاءِ المسلمينَ متى فُتِحَتْ عليهمُ الدنيا وٱفتتنوا بها وٱنغمسوا فيها ـ فستكونُ هذه الصلاةُ بعينِها ليس فيها صلاةٌ يومئذٍ.

قالَتْ مارية: وهل تُفتَحُ عليهمُ ٱلدنيا، وهل لهم قُوّاد كثيرون كعَمْرو..؟

قال: كيف لا تُفتح الدنيا على ـ قوم لا يُحاربون ٱلأممَ بل يحاربون ما فيها منَ ٱلظلم وٱلكفرِ وٱلرذيلة، وهم خارجون منَ ٱلصحراءِ بطبيعةٍ قويةٍ كطبيةِ ٱلموْجِ في المدِّ ٱلمرتفع؛ ليس في دَاخِلها إلا أنفُسٌ مندفعةٌ إلى الخارجِ عنها؛ ثم يقاتلون بهذه الطبيعةِ أمماً ليس في الداخلِ منها إلا النفوسُ المستعدّةُ أنْ تهربَ إلى الداخل...!

قالَتْ مارية: واللهِ لكأننا ثلاثَتَنا على دِين عَمرو....

* * *

وَٱنفتلَ[2] قيسٌ مِنَ الصلاة، وأقبل يترحَّل، فلما حاذَى ماريةَ كان عندَها كأنَّما سافَر ورجع؛ وكانت ما تزالُ في أحلامِ قلبِها؛ وكانَتْ مِنَ ٱلحُلم في عالَم أخَذَ يتلاشى إلَّا من عَمرٍو وما يتَّصِلُ بعمرو. وفي هذه الحياةِ أحوالٌ «ثلاثٌ» يغيبُ فيها ٱلكونُ بحقائقِه: فيغيبُ عن ٱلسكران، والمخبولِ، والنائم؛ وفيها حالةٌ رابعةٌ يتلاشى فيها ٱلكونُ إلَّا مِنْ حقيقَةٍ واحدةٍ تتمثَّلُ في إنسانٍ محبوب.

وقالَتْ ماريةُ للراهبِ شطا: سَلْهُ: ما أَرَبُهم[3] من هذه الحرب، وهل في سياستِهم أن يكونَ القائدُ الذي يفتحُ بلداً حاكماً على هذا البلد...؟

قال قيس: حَسْبُكِ أنْ تعلمي أَنَّ ٱلرجلَ ٱلمسلمَ ليس إلَّا رجلاً عاملاً في تحقيقِ كلمةِ ٱلله، أَمَّا حظُّ نفْسِهِ فهو في غيرِ هذه الدنيا.

---

(١) النشوة: الشعور بالفرح والنصر.

(٢) انفتل من الصلاة: انتهى منها.

(٣) الأرب: الغاية والهدف.

وترجَمَ الراهبُ كلامَه هكذا: أمَّا ٱلفاتحُ فهو في ٱلأكثرِ ٱلحاكمُ ٱلمقيم، وأمَّا الحربُ فهي عندنا الفكرةُ وأما المُصْلِحَةُ فتُريدُ أنْ تَضربَ في الأرضِ وتعمل، وليس حظُّ النفسِ شيئاً يكونُ مِنَ الدنيا؛ وبهذا تكونُ النفسُ أكبرَ من غرائزِها، وتنقلبُ معها الدنيا برُعونتِها وحماقاتِها وشَهَواتِها كالطفلِ بين يديْ رجل، فيهما قوةُ ضبطِه وتصريفِه. ولو كانَ في عقيدتِنا أنَّ ثوابَ أعمالِنا في ٱلدنيا، لانعكسَ ٱلأمر.

قالَتْ مارية: فسَلْهُ: كيف يصنعُ (عمرٌو) بهذِه القِلَّةِ التي معهُ والرومُ لا يُحصَى عَدَدُهم؛ فإذا أخفقَ (عمرو) فمَن عسى أن يستبدلوه منه؟ وهل هو أكبرُ قُوَّادِهم، أو فيهم أكبرُ منه؟

قال الراوي: ولكن فَرَسَ قيس تمَطَّر[1] وأسرعَ في لِحَاقِ الخيلِ على المقدَّمة كأنه يقول: لَسْنا في هذا...

وفُتحتْ مصرُ صُلحاً بين عمرٍو والقِبط، وولَّى الرومُ مُصْعِدينَ إلى الإسكندرية، وكانَتْ ماريةُ في ذلك تستقرِىءُ أخبارَ الفاتحِ تطوفُ منها على أطلالٍ من شخصٍ بعيد؛ وكان عمرٌو من نفسِها كالمملكةِ الحصينةِ منْ فاتحٍ لا يملكُ إلا حُبَّهُ أنْ يأخذَها؛ وجعلَتْ تذوِي وشَحَبَ لونُها وبدأتْ تنظرُ النظرةَ التائهة: وبان عليها أثر الرُّوح الظَّمْأى؛ وحاطَها اليأسُ بجوِّهِ الذي يُحرقُ ٱلدم؛ وَبَدَتْ مجروحةَ ٱلمعاني؛ إذ كان يتقاتلُ في نفسِها الشعورانِ العَدُوَّان: شعورُ أنها عاشقة، وشعورُ أنها يائسة!

ورقت[2] لها أرمانوسة، وكانت هي أيضاً تتعلّق فتًى رومانيّاً، فسَهِرتَا ليلةَ تُديران الرأيَ في رسالةٍ تحملُها ماريةُ من قبلِها إلى عمروٍ كي تَصِلَ إليه، فإذا وصلَتْ بلَّغت بعينيها رسالةَ نفسِها...

وٱستقرّ الأمرُ أنْ تكونَ المسألةُ عن ماريةَ القبطيةِ وخبرِها ونسلِها وما يتعلَّقُ بها مّما يطولُ الإخبارُ بِه إذا كانَ ٱلسؤالُ منِ ٱمرأة عنِ ٱمرأة. فلمّا أصبَحتَاوقَع إليها أنّ عمراً قد سارَ إلى الإسكندريةِ لِقتالِ الروم، وشاعَ الخبرُ أنه لما أمرَ بفُسْطاطِه[3] أن يُقَوَّضَ[4] أصابوا يمامةً قد باضت في أعلاه، فأخبروه فقال: «قد تَحَرَّمَتْ في جوارنا، أقِرُّوا الفسطاطَ حتى تطيرَ فِرَاخُها». فأقَرُّوه!

* * *

---

(١) تمطر الفرس: اندفع بجموح.
(٢) رقت لها: أشفقت عليها.
(٣) الفسطاط: خيمة عظيمة تنصب للأمير.
(٤) قوّض الفسطاط: فكَّ أربطته عن أوتدته.

ولم يمضِ غيرُ طويلٍ حتى قضَتْ ماريةُ نحبَها، وحَفِظَتْ عنها أرمانوسةُ هذا الشعر الذي أسمته: نشيد اليمامة:

على فُسطاطِ الأميرِ يمامةٌ جاثمةٌ تَحْضُنُ بَيْضَها.

تركَها الأميرُ تَصنعُ الحياة، وذهب هو يَصنعُ الموت!

هي كأسعد ٱمرأة؛ تَرَى وتلمسُ أحلامَها.

إنّ سعادةَ ٱلمرأة أولُها وآخِرُها بعضُ حقائقَ صغيرةٍ كهذا البيض.

* * *

على فسطاطِ الأميرِ يمامةٌ جاثمةٌ تحضنُ بيضَها.

لو سُئِلَتْ عن هذا البيضِ لقالتْ: هذا كَنْزي.

هي كأهنأ ٱمرأة، مَلَكَتْ مِلْكَها منَ الحياةِ ولم تفتقِر.

هل أُكلّف ٱلوجودَ شيئاً إذا كلَّفْتُهُ رجُلاً واحداً أحبه!

* * *

على فسطاطِ الأميرِ يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها.

الشمسُ والقمرُ والنجوم، كلُّها أصغرُ في عينِها من هذا البيضِ.

هي كأرقّ ٱمرأة؛ عرفَتِ الرّقّةَ مرتين: في الحبّ، والولادة.

هل أُكلّفُ الوجودَ شيئاً كثيراً إذا أردتُ أن أكونَ كهذه اليمامة!

* * *

على فسطاطِ الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضُنُ بيضَها.

تقولُ ٱليمامة: إنَّ الوجودَ يحبُّ أن يُرى بلونينِ في عينِ الأنثى؛

مرةً حبيباً كبيراً في رَجُلها، ومرةً حبيباً صغيراً في أولادها.

كلُّ شيءٍ خاضعٌ لقانونهِ، والأنثى لا تريُد أن تخضعَ إلّا لقانونِها.

* * *

أيتُها اليمامة، لم تعرفي الأميرَ وتركَ لكِ فسطاطَه!

هكذا ٱلحظّ: عدلٌ مضاعفٌ في ناحية، وظلمٌ مضاعفٌ في ناحية أخرى.

احمدي ٱلله أيتُها اليمامة، أنْ ليس عندَكم لغاتٌ وأديان،

عندَكم فقط: الحبُّ والطبيعةُ والحياة.

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضنُ بيضَها،
يمامةٌ سعيدة، ستكونُ في التاريخ كهُدْهُد سليمان،
نُسِبَ الهدهدُ إلى سليمان، وستُنسب اليمامةُ إلى عمرو.
واهاً لكَ يا عَمرو! ما ضَرَّ لو عرفْتَ (اليمامة الأخرى)...!

اجتلاءُ ٱلعيد

جاءَ يومُ ٱلعيد، يومُ ٱلخروجِ منَ الزمنِ إلى زمنٍ وحدَهُ لا يستمرُّ أكثرَ من يوم.

زمنٌ قصيرٌ ظريفٌ ضاحك، تفرضُهُ ٱلأديانُ على ٱلناس، ليكونَ لهم بين ٱلحينِ وٱلحينِ يومٌ طبيعيٌ في هذه الحياةِ التي ٱنتقلت عن طبيعتِها.

يومُ السلام، والبِشْر، والضّحك، والوفاء، والإخاء، وقولِ ٱلإنسانِ للإنسان: وأنتم بخير.

يومُ الثيابِ الجديدةِ على الكلِّ إشعاراً لهم بِأنَّ الوجهَ الإنسانيَّ جديدٌ في هذا اليوم.

يومُ الزينةِ ٱلتي لا يُرادُ منها إلا إظهارُ أثَرِها على النفسِ ليكونَ ٱلناسُ جميعاً في يوم حبّ.

* * *

يومُ ٱلعيد؛ يومُ تقديمِ ٱلحَلوى إلى كلِّ فمٍ لِتحلوَ ٱلكلماتُ فيه...

يومٌ تعُمُّ فيهِ الناسَ ألفاظُ الدعاءِ والتهنئةِ مرتفعةً بقوةٍ إلهيةٍ فوقَ منازَعاتِ الحياة.

ذلك ٱليومُ الذي ينظُر فيه الإنسانُ إلى نفسِه نظرةَ تلمحُ السعادة، وإلى أهلِهِ نظرةَ تُبصرُ الإعزاز، وإلى دارِه نظرةً تُدركُ الجمال، وإلى الناسِ نظرةً ترى الصداقة.

ومن كلِّ هذه النظراتِ تستوِي له النظرةُ الجميلةُ إلى الحياةِ والعالَم؛ فتبتهجُ نفسُه بالعالَمِ والحياة.

وما أسماها نظرةً تكشفُ للإنسانِ أنَّ الكلَّ جمالُه في الكل!

* * *

وخرجْتُ أجتلي ٱلعيدَ في مظهره الحقيقيّ على هؤلاءِ الأطفالِ السعداء.

على هذه الوجوهِ النضرةِ التي كبِرَتْ فيها ابتساماتُ الرَّضاعِ فصارَتْ ضَحِكات.

وهذه العيونِ الحالمةِ الحالمةِ التي إذا بكَتْ بكَتْ بدموعٍ لا ثِقْلَ لها.

وهذه الأفواهِ ٱلصغيرةِ ٱلتي تنطِقُ بأصواتٍ لا تزالُ فيها نبراتُ الحَنانِ من تقليدِ لغةِ الأمّ.

وهذه الأجسامِ الغضَّةِ القريبةِ العهدِ بالضَّماتِ واللَّثماتِ[١] فلا يزالُ حولَها جوُّ القلب.

* * *

على هؤلاءِ الأطفالِ السعداءِ الذين لا يعرفونَ قياساً للزمنِ إلَّا بالسرور.

وكلٌّ منهم مَلِكٌ في مملكةٍ، وظَرفُهم هو أمرُهم الملوكي.

هؤلاءِ المجتمعينِ في ثيابِهمُ الجديدةِ المصَبَّغةِ اجتماعَ قَوسِ قُزَحَ في ألوانهِ.

ثيابٌ عَمِلتْ فيها المصانعُ والقلوب، فلا يتمُّ جمالُها إلّا بأنْ يراها ٱلأبُ والأمُّ على أطفالِهما.

ثيابٌ جديدةٌ يلبسونَها فيكونونَ هم أنفسُهم ثوباً جديداً على الدنيا.

* * *

هؤلاءِ السَّحَرةُ الصغارُ الذين يُخرِجون لأنفسهم معنى الكَنزِ الثمين من قرشين...

ويَسْحَرونَ العيدَ فإذا هو يومٌ صغيرٌ مثلُهم جاءَ يدعوهم إلى اللَّعِب...

وينتبهونَ في هذا اليومِ معَ الفجر، فيبقى الفجرُ على قلوبِهم إلى غُروبِ الشمس.

ويُلْقُون أنفُسَهم على العالَم المنظورِ، فيبنونَ كلَّ شيءٍ على أحدِ المعنيينِ الثابتينِ في نفسِ الطفل: الحبِّ الخالص، واللهوِ الخالص.

ويبتعدونَ بطبيعتِهم عن أكاذيبِ الحياة، فيكونُ هذا بعينهِ هو قُرْبَهَم من حقيقتِها السعيدة.

* * *

هؤلاءِ الأطفالُ الذين هم السهولةُ قبلَ أنْ تتعقَّد.

والذين يَرَون العالَم في أولِ ما ينمو الخيالُ ويتجاوزُ ويمتدّ.

يُفتَشونَ الأقدارَ من ظاهرِها؛ ولا يَسْتَبْطِنُون كيلا يتألَّموا بلا طائل.

ويأخذونَ منَ الأشياءِ لأنفسِهم فيفرحون بها، ولا يأخذونَ من أنفسِهم للأشياءِ كيلا يُوجِدوا لها الهَمّ.

قانعونَ يكتفونَ بالتَّمرة، ولا يحاولونَ اقتلاعَ الشجرةِ التي تحمِلُها.

---

(١) اللثمات: القُبلات.

ويعرفونَ كُنْهَ[1] الحقيقة، وهي أنَّ العِبرَةَ بروحِ النعمةِ لا بمقدارِها . . .

فيجدونَ منَ الفرحِ في تغييرِ ثوبٍ للجسم، أكثرَ مما يجدُهُ القائدُ الفاتحُ في تغيير ثوبٍ للمملكة.

* * *

هؤلاءِ الحكماءُ الذينَ يُشْبِه كُلٌّ منهم آدمَ أولَ مجيئِهِ إلى الدنيا،

حينَ لم تَكُنْ بينَ الأرضِ والسماءِ خليقةٌ ثالثةٌ معقَّدةٌ من صُنعِ الإنسانِ المتحضّر.

حِكْمتُهُمُ العليا: أنَّ الفكرَ الساميَ هو جعلُ السرورِ فكراً وإظهارُه في العمل.

وشِعْرُهمُ البديعُ: أنَّ الجمالَ والحبَّ ليسا في شيءٍ إلَّا في تجميلِ النفسِ وإظهارِها عاشقةً للفرح.

* * *

هؤلاءِ الفلاسفةُ الذينَ تقومُ فلسفتُهم على قاعدةٍ عملية، وهيَ أنَّ الأشياءَ الكثيرةَ لا تكثرُ في النفس المطمئنَّة.

وبذلك تعيشُ النفسُ هادئةً مستريحة كأنْ ليسَ في الدنيا إلّا أشياؤُها المُيَسَّرة.

أما النفوسُ المضطربةُ بأطماعِها وشهواتِها فهي التي تُبْتَلَى بهمومِ الكثرةِ الخيالية،

ومثلُها في الهمِّ مَثَلُ طُفَيْلِيٍّ[2] مغفَّلٍ يَحزنُ لأنَّه لا يأكلُ في بطنين . . .

* * *

وإذا لم تكثرِ الأشياءُ الكثيرةُ في النفس، كَثُرتِ السعادةُ ولو من قِلَّة.

فالطفلُ يقلِّبُ عينيه في نساءٍ كثيرات، ولكنَّ أمَّهُ هي أجملُهن وإن كانت شَوْهاء.

فأمُّه وحدَها هيَ هي أمُّ قلبِه، ثم لا معنى للكثرةِ في هذا القلب.

هذا هو السرُّ؛ خذوه أيها الحكماءُ عنِ الطفلِ الصغير!

وتأملْتُ الأطفال، وأثَرُ العيدِ على نفوسِهمُ التي وَسِعَتْ منَ البشاشةِ فوقَ مِلْئها؛

فإذا لسانُ حالِهم يقولُ للكبار: أيتُها البهائم، اخلعي أرسانَكِ[3] ولو يوماً . . .

أيها الناسُ، انطلقوا في الدنيا انطلاقَ الأطفالِ يُوجِدون حقيقتَهمُ البريئةَ الضاحكة، لا كما تصنعون إذْ تنطلقونَ انطلاقَ الوحشِ يُوجِد حقيقتَه المفترسة.

---

(١) الكنه: السرّ، أصل التكوين.

(٢) الطفيلي: هو من يأكل من تعب غيره.

(٣) الأرسان: واحده رسن، وهو مقود الدابة.

أحرارٌ حرِّيَّةَ نشاطِ الكونِ ينبعثُ كالفَوْضَى، ولكن في أدقّ آلنواميس[1].

يُثيرونَ السخطَ بالضَّجيجِ وٱلحركة، فيَكونونَ معَ الناسِ على خِلَاف، لأنهم على وِفَاقٍ معَ الطبيعة.

وتَحتدمُ بينهمُ المعارك، ولكن لا تتحطَّمُ فيها إلَّا اللُّعَب...

أما الكِبارُ فيصنعونَ المِدْفَعَ الضخمَ مِنَ ٱلحديد، للجسمِ الليّنِ منَ العَظْم.

أيتُّها البهائمُ، اخِلعي أرسانَكِ ولو يوماً...

* * *

لا يفرحُ أطفالُ الدارِ كفرحِهم بطفلٍ يُولد؛ فهم يستقبلونَه كأنه محتاجٌ إلى عقولِهمُ ٱلصغيرة.

ويملأهُم ٱلشعورُ بالفرحِ الحقيقيّ الكامنِ في سرِّ ٱلْخَلْقِ، لقُرْبِهم من هذا السرّ.

وكذلك تحملُ السنَةُ ثم تلدُ للأطفالِ يومَ ٱلعيد؛ فيستقبلونَه كأنَّه محتاجٌ إلى لهوِهِمُ الطبيعيّ. ويملأهُم الشعورُ بِالفرحِ الحقيقيّ الكامنِ في سرِّ العالَمِ لقربِهم من هذا السرّ.

* * *

فيا أسَفَا علينا نحنُ الكِبار! ما أبْعَدَنا عنْ سرّ ٱلخَلْقِ بآثامِ العمر!

وما أبعدَنا عن سرِّ العالَم، بهذِه الشهواتِ الكافرةِ التي لا تؤمنُ إلَّا بالمادة!

يا أسَفَا علينا نحنُ الكبارَ! ما أبعدَنا عن حقيقةِ الفرح!

تكادُ آثامُنا واللّهِ تجعلُ لَنا في كلِّ فَرْحَةٍ خَجْلَة...

* * *

أيتُّها الرياضُ المنوّرَةُ بأزهارِها،

أيتُها الطيورُ المغرّدةُ بألحانِها،

أيتُها الأشجارُ المصفِّقةُ بأغصانِها،

أيتُها النجومُ المتلألئةُ بالنورِ ٱلدائم،

أنتِ شَتَّى؛ ولكنَّكِ جميعاً في هؤلاءِ الأطفالِ يومَ العيد!

* * *

(١) النواميس: واحده ناموس، وهو القانون.

المعنى ٱلسياسيُّ في ٱلعيد

ما أشدّ حاجتَنا نحنُ المسلمينَ إلى أن نفهمَ أعيادَنا فهماً جديداً، نتلقّاها به ونأخذُها من ناحيتِه، فتجيءَ أياماً سعيدةً عاملةً، تنبّهُ فينا أوصافَها القوية، وتجدّدُ نفوسَنا بمعانيها، لا كما تجيءُ الآن كالِحةً عاطلةً ممسوحةً منَ ٱلمعنى، أكبرُ عملِها تجديدُ ٱلثياب، وتحديدُ ٱلفراغ، وزيادةُ ٱبتسامةٍ على النفاق. . .

فٱلعيدُ إنّما هو ٱلمعنى الذي يكونُ في ٱليومِ لا ٱليومَ نفسَه، وكما يفهمُ الناسُ هذا المعنى يتلقَّوْنَ هذا اليوم؛ وكانَ ٱلعيدُ في الإسلام هو عيدَ الفكرةِ العابدة، فأصبحَ عيدَ الفكرةِ العابثة؛ وكانَتْ عبادةُ الفكرةِ جمْعَها الأمةَ في إرادةٍ واحدةٍ على حقيقةٍ عملية، فأصبحَ عَبَثُ الفكرةِ جمعَها الأمةَ على تقليدٍ بغيرِ حقيقة؛ له مظهرُ المنفعةِ وليسَ له معناها.

كانَ العيدُ إثباتَ الأمةِ وجودَها الروحانيَّ في أجملِ معانيه، فأصبحَ إثباتَ الأمةِ وجودَها الحيوانيَّ في أكثرِ معانيه؛ وكان يوم ٱسترواحٍ من جِدِّها، فعادَ يومَ ٱستراحةِ الضعفِ من ذُلِّه؛ وكان يومَ ٱلمبدأ، فرجعَ يومَ ٱلمادة!

* * *

ليسَ العيدُ إلا إشعارَ هذه الأمةِ بأنَّ فيها قوةَ تغييرِ ٱلأيام، لا إشعارَها بأنَّ الأيامَ تتغيرُ؛ وليس ٱلعيدُ للأمةِ إلّا يوماً تَعرضُ فيه جمالَ نظامِها الإجتماعي، فيكون يومَ الشعورِ الواحدِ في نفوسِ الجميع، والكلمةِ الواحدةِ في ألسنةِ الجميع؛ يومَ الشعورِ بالقدرةِ على تغييرِ الأيامَ، لا القدرةِ على تغييرِ الثيابِ. . . كأنما العيدُ هو ٱسترحةُ الأسلحةِ يوماً في شَعْبِها الحربيّ.

وليسَ العيدُ إلّا تعليمَ الأمّةِ كيف تتسِعُ روحُ الجوارِ وتمتدّ، حتى يرجعَ البلدُ العظيمُ وكأنَّهُ لأهلِهِ دارٌ واحدةٌ يتحققُ فيها الإخاءُ بمعناهُ العَمليّ، وتظهرُ فضيلةُ الإخلاصِ مُسْتَعْلِنةً للجميع، ويُهدِي ٱلناسُ بعضُهم إلى بعضٍ هدايا ٱلقلوبِ ٱلمخلصةِ المحبة؛ وكأنّما العيدُ هو إطلاقُ روحِ الأُسرَةِ الواحدةِ في الأمةِ كلِّها.

وليسَ ٱلعيدُ إلَّا إظهارَ ٱلذاتيةِ ٱلجميلةِ للشعبِ مهزوزةً من نشاطِ ٱلحياة؛ وإلَّا ذاتيةَ للأمم الضعيفة؛ ولا نشاطَ للأمم المستَعبَدة. فالعيدُ صوتُ القوةِ يهتفُ بالأَمة: أخرِجي يومَ أفراحِك، أخرِجي يوماً كأيام النصر!

وليسَ العيدُ إلَّا إبرازَ الكُتلةِ الاجتماعيةِ للأمةِ متميزةً بطابِعها الشَّعبيّ، مفصولةً مِنَ ٱلأجانب، لابسةً من عملِ أيديها، معلنةً بِعيدِها استقلالَينِ في وجودِها وصناعتِها، ظاهرةً بقوتينِ في إيمانِها وطبيعتِها، مبتهجةً بفرحَينِ في دُورِها وأسواقِها؛ فكأنَّ العيدَ يومٌ يفرحُ الشعبُ كلّه بخصائصِه.

وليسَ العيدُ إلّا التقاءَ ٱلكبارِ وٱلصغارِ في معنى ٱلفرحِ بٱلحياةِ ٱلناجحةِ ٱلمتقدمةِ في طريقِها، وتركَ ٱلصغارِ يُلقونَ دَرسَهمُ ٱلطبيعيَّ في حماسةِ ٱلفرحِ والبهجة، ويُعلّمونَ كبارَهم كيف تُوضَعُ المعاني في بعضِ الألفاظِ التي فَرَغَتْ عندَهم من معانِيها، ويُبَصّرُونَهم كيف ينبغي أنْ تعملَ الصفاتُ الإنسانيةُ في الجموعِ عملَ الحَلِيفِ لحليفِه، لا عملَ المُنابِذِ[1] لمُنابِذِه؛ فالعيدُ يومُ تسلُّطِ العنصرِ الحيّ على نفسيةِ الشعب.

وليسَ العيدُ إلَّا تعليمَ الأمةِ كيف توجِّهُ بقوتِها حركةَ الزمنِ إلى معنًى واحدٍ كلمّا شاءَت؛ فقد وضع لها الدينُ هذهِ القاعدةَ لتُخرّجَ عليها الأمثلة، فتجعلَ للوطنِ عيداً ماليّاً ٱقتصاديّاً تبتسمُ فيه الدارهمُ بعضُها إلى بعض، وتخترعُ للصناعةِ عيدَها، وتُوجدُ لِلْعلم عيدَه، وتبتدعُ للفنِّ مَجَاليَ زينتِه، وبالجملةِ تُنِشيءُ لنفسِها أياماً تعملُ عملَ القُوَّادِ العسكَريِّينَ في قيادةِ الشعب، يقودُه كلَّ يومٍ منها إلى معنًى من معاني النصر

* * *

هذه المعاني السياسيةُ القويةُ هي التي من أجلِها فُرِضَ العيدُ ميراثاً دهريّاً في الإسلام، ليستخرجَ أهلُ كلِّ زمنٍ من معاني زمنِهم فيُضيفوا إلى المثال أمثلةً مما يُبدعُه نشاطُ الأمة، ويحققُه خيالُها، وتقتضيه مصالحُها.

وما أحسبُ الجمعةَ قد فُرِضَتْ على المسلمينَ عيداً أسبوعيّاً يُشترطُ فيه ٱلخطيبُ وٱلمنبرُ والمسجدُ ٱلجامع - إلَّا تهيئةً لذلك المعنى وإعداداً له؛ ففي كلِّ سبعةِ أيامٍ مسلمةٍ يومٌ يجيءُ فيُشْعِرُ الناسَ معنى القائدِ الحربيّ للشعبِ كلِّه.

ألا ليت المنابرَ الإسلاميةَ لا يخطبُ عليها إلَّا رجالٌ فيهم أرواحُ المدافع، لا رجالٌ في أيديهم سيوفٌ من خشب. . .

---

(١) المنابذ: المنافر لغيره والمشاكس.

الربيع

خرجتُ أشهَدُ الطبيعةَ كيف تُصبِحُ كالمعشوقِ الجميل، لا يُقدّمُ لعاشقهِ إلا أسبابَ حبِّه!

وكيف تكونُ كالحبيب، يزيدُ في الجسم حاسَّةَ لمسِ المعاني الجميلة!

وكنتُ كالقلبِ المهجورِ الحزين، وجدَ السماءَ والأرض، ولم يجدْ فيهما سماءَه وأرضَه.

ألَا كم آلافِ السنينَ وآلافِها قد مضَتْ منذُ أُخرجَ آدمُ مِنَ الجنة!

ومع ذلك فالتاريخُ يُعيدُ نفسَه في القلب؛ لا يَحزنُ هذا القلبُ إلّا شعرَ كأنَّه طُرِدَ مِنَ الجنةِ لساعتِه.

* * *

يقفُ الشاعرُ بإزاءِ جمالِ الطبيعة، فلا يملكُ إلّا أنْ يتدفَّقَ ويهتزَّ ويَطرَب.

لأنَّ السرَّ الذي انْبَثَقَ هنا في الأرض، يُريدُ أنْ يَنبثِقَ هناك في النفس.

والشاعرُ نبيُّ هذه الديانةِ الرقيقةِ التي من شريعتِها إصلاحُ الناسِ بالجمالِ والخير.

وكلُّ حُسنٍ يَلتمسُ النظرةَ الحيةَ التي تراهُ جميلاً لتُعْطِيَه معناه.

وبهذا تقفُ الطبيعةُ مُحْتَفِلَةً أمامَ الشاعرِ، كوقوفِ المَرأةِ الحسناءِ أمامَ المصوِّر.

* * *

لاحَتْ لِيَ الأزهارُ كأنَّها ألفاظُ حبٍّ رقيقةٌ مُغَشَّاةٌ باستعاراتٍ ومَجازات.

والنسيمُ حولَها كثوبِ الحسناءِ على الحسناء، فيه تعبيرٌ مِنْ لابسَتِه.

وكلُّ زهرةٍ كابْتسامة، تحتَها أسرارٌ من معاني القلبِ المعقَّدة.

أهي لغةُ الضوءِ الملوَّنِ مِنَ الشمسِ ذاتِ الألوانِ السبعة؟

أمْ لغةُ الضوءِ الملَّونِ مِنَ الخدِّ؛ والشَّفَة؛ والصدر؛ والنحر؛ والدّيباج؛ والحِلَى؟

* * *

وماذا يَفهمُ العشاقُ من رموزِ الطبيعةِ في هذه الأزاهرِ الجميلة؟

أتُشير لهم بالزَّهرِ إلى أنَّ عُمرَ اللذةِ قصير، كأنها تقول: على مقدارِ هذا؟

أتُعْلِمِهُمْ أنَّ الفرقَ بين جميلٍ وجميل، كالفرقِ بينَ اللونِ واللون، وبين الرائحةِ والرائحة؟

أتُناجيهم بأنَّ أيامَ الحُبِّ صُوَرُ أيام لا حقائقُ أيام؟

أمُ تقولُ الطبيعة: إنَّ كلَّ هذا لأنَّكِ أيتُها الحشراتُ لا تنخدعِينَ إلَّا بكلِّ هذا[1]...؟

* * *

في الربيعِ تظهرُ ألوانُ الأرضِ على الأرض، وتظهرُ ألوانُ النفسِ على النفس.

ويصنعُ الماءُ صُنْعَه في الطبيعةِ فتُخْرِجُ تَهاويلَ النبات، ويصنعُ الدمُ صنعَهُ فيُخرجُ تهاويلَ الأحلام،

ويكونُ الهواءُ كأنَّه من شفاهٍ متحابَّةٍ يتنفَّسُ بعضُها على بعض،

ويعوُد كلُّ شيءٍ يلتمعُ لأنَّ الحياةَ كلَّها يَنْبِضُ فيها عِرْقُ النور، ويرجعُ كلُّ حيًّ يُغَنّي لأنَّ الحبَّ يُريُد أَنْ يرفعَ صوتَه.

* * *

وفي الربيعِ لا يضيءُ النورُ في الأعينِ وحدَها، ولكنْ في القلوبِ أيضاً.

ولا ينفذُ الهواءُ إلى الصدورِ فقط، ولكنْ إلى عواطِفِها كذلك.

ويكونُ للشمسِ حرارتانِ إحداهما في الدم.

ويطغَى فَيَضَانُ الجمالِ كأنَّما يُرادُ مِنَ الربيعِ تَجْرِبَةُ مَنْظَرٍ من مناظرِ الجنةِ في الأرض.

والحيوانُ الأعجمُ نفسُه تكونُ له لفَتَاتٌ عقليةٌ فيها إدراكُ فلسفةِ السرورِ والمَرَح.

وكانَتِ الشمسُ في الشتاءِ كأنَّها صورةٌ معلَّقةٌ في السحاب.

وكانَ النهارُ كأنَّه يُضيءُ بِالقمرِ لا بالشَّمس.

وكانَ الهواءُ معَ المطرِ كأنَّه مطرٌ غيرُ سائل.

وكانَتِ الحياةُ تضعُ في أشياءَ كثيرةٍ معنى عُبوسِ الجوّ.

---

(١) ظاهرة اللون والرائحة لجذب الحشرات لتعمل على نقل اللقاح من زهرة إلى أخرى.

فلمَّا جاءَ الربيعُ كانَ فرحُ جميعِ الأحياءِ بالشمسِ كفرحِ ٱلأطفالِ، رجعَتْ أمُّهم مِنَ السفَر.

❊ ❊ ❊

وينظرُ الشبابُ فتظهرُ له الأرضُ شابَّة.

ويشعرُ أنه موجودٌ في معاني الذاتِ أكثرَ مِّما هو موجودٌ في معاني العالَم.

وتمتلىءُ له الدنيا بِالأزهار، ومعاني الأزهار، ووحْي الأزهار.

وتُخرِجُ له أشعةُ الشمسِ ربيعاً وأشعةُ قلبِه ربيعاً آخر.

ولا تنسى الحياةُ عجائزَها، فربيعُهم ضوءُ الشمس...

❊ ❊ ❊

ما أعجَبَ سرَّ الحياة! كلُّ شجرةٍ في الربيعِ جمالٌ هندسيٌّ مستقلّ.

ومهما قطعْتَ منها وغيْرتَ من شكلِها أبرزَتْها الحياةُ في جمالٍ هندسيّ جديدٍ كأنك أصلحتَها.

ولو لم يبقَ منها إِلَّا جِذْرٌ حيٌّ أسرعَتِ الحياةُ فجعلَتْ له شكلاً من غُصُونٍ وأوراق.

الحياة الحياة. إِذا أنت لم تُفسدْها جاءَتْك دائماً هداياها.

وإذا آمنْتَ لم تَعُدْ بمقدارِ نفسِك، ولكنْ بمقدارِ القوةِ التي أنت بها مؤمن.

❊ ❊ ❊

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾[1].

وانظرْ كيف يخلُقُ في الطبيعةِ هذهِ المعانيَ التي تُبهجُ كلَّ حيّ، بالطريقةِ التي يَفهمُها كلُّ حي.

وانظرْ كيف يجعلُ في الأرضِ معنى السرور، وفي الجو معنى السعادة.

وانظرْ إلى الحشَرةِ الصغيرةِ كيف تُؤمنُ بِالحياةِ التي تملؤُها وتطمئن؟

انظرْ انظر! أليسَ كلُّ ذلك ردّاً على اليأسِ[2] بكلمةِ: لا...؟

---

(١) سورة: الروم، الآية: ٥٠.

(٢) اليأس: القنوط والاستسلام للهزيمة.

عرشُ ٱلورد[1]

كانت جَلوَةُ العَروسِ كأنَّها تصنيفٌ من حُلم، توافَتْ[2] عليهِ أخيلةُ السعادةِ فأبدعَتْ إبداعَها فيه، حتى إذا اتَّسقَ وتمّ، نقَلتْهُ السعادةُ إلى الحياةِ في يوم من أيامِها الفَرْدَةِ التي لا يتَّفِقُ منها في العمرِ الطويلِ إلَّا العددُ القليل، لِتُحَقّقَ للَحيِّ وجودَ حياتِهِ بسحرِها وجمالِها، وتُعطِيَهُ ما يُنسَى ما لا يُنسى.

خرجَ الحُلُم السعيدُ من تحتِ النومِ إلى اليقظة، وبرزَ مِنَ الخيالِ إلى العين، وتمثّلَ قصيدةً بارعةً جعلَتْ كُلَّ ما في المكانِ يحيا حياةَ الشعر؛ فالأنوارُ نِساء، والنساءُ أنوار، والأزهارُ أنوارٌ ونساء، والموسيقى بينَ ذلك تتمّمُ من كلِّ شيءٍ معناه، والمكانُ وما فيه، وزْنٌ في وزن، ونَغَمٌ في نغم، وسحرٌ في سحر.

***

ورأيْتُ كأنَّما سُحِرَتْ قطعةٌ من سماءِ الليل، فيها دَارةُ القمر، وفيها نَثْرَةٌ مِنَ ٱلنجومِ الزُّهْر، فنزلَتْ فحَلَّتْ في ٱلدار، يتوضَّحْنَ ويأتَلِقْنَ مِنَ ٱلجمالِ وٱلشُّعاع، وفي حَسنِ كلٍّ منهنَّ مادةُ فجرٍ طالع، فَكُنَّ نساءَ الجلوةِ وعَروسَها.

ورأيْتُ كأنَّما سِحْرُ الربيع، فاَجتمعَ في عرشٍ أخضر، قد رُصّعُ بُالوردِ الأحمر، وأُقيمَ في صدرِ البَهْوِ لِيكونَ مِنَصَّةً لِلعروس، وقد نُسِقَتِ ٱلأزهارُ في سمائِهِ وحواشيهِ على نظْمين: منهما مُفَصَّلٌ ترى فيهِ بينَ الزَّهرتينِ مِنَ اللونِ الواحدِ زهرةً تُخالفُ لونَهما؛ ومنهما مُكَدَّسٌ بعضُهُ فوقَ بعض، من لونٍ متشابهٍ أو متقارب، فبَدا كأنَّهُ عُشُّ طائرٍ مَلَكيّ من طيورِ الجنةِ أُبدعَ في نَسْجِهِ وَترصيعِهِ بأشجارٍ سقى الكَوْثَرُ أغصانَها.

وقامَتْ في أرضِ العرشِ تحتَ أقدامِ العروسين، رَبْوَتانِ من أفانينِ الزهرِ المختلفةِ ألوانُهُ، يحملُهما خَمْلٌ من ناعمِ النّسيجِ الأخضرِ على غُصونِهِ اللُّدْنِ تَتَهافَتُ من رقتِها ونُعومتِها.

(١) يتعلّق النصُّ بزفاف كبرى بناته «وهيبة» على ابن عمّها، وهي أول فرحة بولده.

(٢) توافت: توافدت وأقبلت تترى.

وعُقِدَ فوقَ هذا العرشِ تاجٌ كبيرٌ مِنَ الوردِ النادر، كأنَّما نُزِعَ عن مَفْرِقِ مَلِكِ الزمنِ الربيعيّ؛ وتنظرُ إليهِ يسطعُ في النورِ بجمالِهِ الساحر، سُطوعاً يُخيّلُ إليكَ أنَّ أشعةً مِنَ الشمسِ التي رَبَّتْ هذا الوردَ لا تزالُ عالِقةً بِهِ، وتراهُ يزْدَهي جَلالاً، كأنَّما أدركَ أنَّه في موضعِهِ رمزُ مملكةٍ إنسانيةٍ جديدة، تألفَتْ من عَروسينِ كريمين. ولاحَ لي مراراً أنَّ التاجَ يَضحكُ ويَستحي ويَتدلّل، كأنَّما عرفَ أنَّه وحدَه بينَ هذه الوجوهِ الحسانِ يمثلُ وجهَ الوَرد.

ونُصَّ على العرشِ كرسيانِ يتوهَّجُ لونُ الذهبِ فوقَهما، ويكسوهُما طِرازٌ أخضرُ تلمعُ نَضارتُهُ بِشراً، حتى لتحسبُ أنه هو أيضاً قد نالَتْهُ من هذه القلوبِ الفرِحةِ لمسةٌ من فرَحِها الحيّ.

وتدَلَّت على العرشِ قلائدُ المصابيحِ، كأنَّها لؤلؤٌ تخلَّق في السماءِ لا في البحر، فجاءَ مِنَ النورِ لا مِنَ الدُّر؛ وجاءَ نوراً من خاصّتِه أنَهُ متى استضاءَ في جوّ العَروسِ أضاءَ الجوَّ والقلوبَ جميعاً.

وأتى العروسانِ إلى عرشِ الورد، فجلسا جِلْسَةَ كوكبينِ حدودُهما النورُ والصفاء؛ وأقبلَتِ العَذارى يتخطَّرْنَ في الحريرِ الأبيضِ كأنَّه من نُورِ الصبح، ثم وقفْنَ حافَّاتٍ حولَ العرْش، حاملاتٍ في أيديهِن طاقاتٍ مِنَ الزَّنبقِ، تراها عَطِرةً بيضاءَ ناضرةً حَيِيَّة، كأنَّها عَذارى مع عَذارى، وكأنَّما يحملْنَ في أيديهِنَّ من هذا الزنبقِ الغضِّ معانيَ قلوبِهِنَّ الطَّاهرة؛ هذه القلوبِ التي كانَتْ معَ المصابيحِ مصابيحَ أخرى فيها نورُها الضاحِك.

وَاقتعدَتْ دَرَجَ العرشِ تحتَ رَبْوَتي الزَّهرِ ودون أقدامِ العروسينِ ـ طفلةٌ صغيرةٌ كالزهرةِ البيضاءِ تحملُ طفولتَها، فكانَتْ مِنَ العرشِ كلِّهِ كالماسةِ المدلَّاةِ من واسطةِ العقْد، وجعلَتْ بوجهِها للزهرِ كلِّهِ تماماً وجمالاً، حتى ليظهرُ من دونِها كأنَّه غَضبانُ مُنْزَوٍ لا يُريدُ أن يُرَى.

وكانَ ينبعِثُ من عينيها فيما حوَلها تيارٌ من أحلامِ الطفولةِ جعلَ المكانَ بمَنْ فيه كأنَّ له روحَ طفلٍ بَغَتْهُ مَسرَّةٌ جديدة.

وكانَتْ جالسةً جِلْسَةَ شِعْرٍ تمثِّلُ الحياةَ الهنيئةَ المبتكَرةَ لساعتِها ليس لها ماضٍ في دنيانا.

ولو أن مُبدِعاً افتَنَّ في صُنْعِ تمثالٍ للنيةِ الطاهرة، وجِيءَ بهِ في مكانِها، وأُخِذَتْ هي في مكانِه لتشابَها وتشاكَلَ الأمر.

وكانَ وُجودُها على العرشِ دعوةً للملائكةِ أنْ تَحْضُرَ الزِّفافَ وتباركَه.

وكانَتْ بِصِغَرِها الظريفِ الجميلِ تُعطي لكلِ شيءٍ تماماً، فيُرَى أكبرَ مِمَّا هو، وأكثَر مِمَّا هو في حقيقتِه. كانَتِ النقطةَ التي ٱستعلَنَتْ في مركزِ الدائرة، ظهورُها على صِغَرِها هو ظهورُ الإحكامِ والوزنِ والإنسجامِ في المحيطِ كلّه.

* * *

لا يكونُ السرورُ دائماً إلّا جديداً على النفس، ولا سرورَ للنفسِ إلّا من جديدٍ على حالةٍ من أحوالِها؛ فلو لم يكنْ في كلِّ دينارٍ قوةٌ جديدةٌ غيرُ التي في مثلِه لما سُرّ بالمالِ أحد، ولا كانَ له الخُطَر الذي هُوَ له؛ ولو لم يكُنْ لكلِّ طعام جوعٌ يُورِدُهُ جديداً على المعدةِ لما هَنَأَ ولا مَرَأ؛ ولو لم يكُنِ الليلُ بعدَ نهار، والنهارُ بعدَ ليل، والفصولُ كُلها نقيضاً على نقيضِهِ، وشيئاً مختلفاً على شِيءٍ مختلف ـ لَمَا كان في السماءِ والأرضِ جمال، ولا منظَرُ جمال، ولا إحساسٌ بهما؛ والطبيعةُ التي لا تُفلحُ في جعلِكَ معها طِفلاً تكونُ جديداً على نفسِك ـ لن تُفلحَ في جعلِكَ مسروراً بها لِتكونَ هي جديدةً عليك.

وعرشُ الوردِ كانَ جديداً عندَ نفسي على نفسي، وفي عاطفتي على عاطفتي، ومن أيّامي على أيّامي؛ نزلَ صباحُ يومِهِ في قلبي بروحِ الشمس، وجاءَ مساءُ ليلتِهِ لقلبي برُوحِ القمر؛ وكنتُ عندَهُ كالسماءِ أتلألأُ بأفكاري كما تتلألأُ بنجومِها؛ وقد جعلتني أمتدُّ بسروري في هذه الطبيعةِ كلِّها، إذْ قَدَرْتُ على أنْ أعيشَ يوماً في نفسي؛ ورأيْتُ وأنا في نفسي أنَّ الفرحَ هو سرُّ الطبيعةِ كلِّها، وأنَّ كلَّ ما خلَقَ اللّهُ جمالٌ في جمال، فإنّه تعالى نورُ السمواتِ والأرض، وما يجيءُ الظلامُ مع نورِهِ، ولا يجيءُ الشرُّ معَ أفراحِ الطبيعةِ إلّا من محاولةِ الفكرِ الإنسانيِّ خَلْقَ أوهامِه في الحياة، وإخراجِهِ النفسَ من طبائعِها، حتى أصبحَ الإنسانُ كأنّما يعيشُ بنفسٍ يُحاولُ أنْ يصنعَها صناعة، فلا يصنعُ إلّا أنْ يَزيغَ بِالنفسِ التي فطرَها الله.

يا عجباً! ينفرُ الإنسانُ من كلماتِ الاستعبادِ، والضَّعَةِ، والذّلةِ، والبُؤسِ، والهمِّ، وأمثالِها، ويُنكِرها ويَردُّها، وهو مع ذلك لا يبحثُ لنفسِهِ في الحياةِ إلّا عن معانيها.

* * *

إنَّ يوماً كيوم عرشِ الوردِ لا يكونُ من أربعِ وعشرينَ ساعة، بل من أربعةٍ وعشرينَ فرحاً؛ لأنَّهُ مِنَ الأيامِ التي تجعلُ الوقتَ يتقدمُ في القلبِ لا في الزمن،

ويكونُ بِالعواطفِ لا بالساعات، ويتواترُ على النفسِ بجديدِها لا بقديمِها.

كانَ الشبابُ في موكبِ نصرِهِ، وكانَتِ الحياةُ في صُلْحٍ مَعَ القلوب، حتى اللغةُ نفسُها لم تكُنْ تُلقي كلماتِها إلَّا ممتلئةً بالطَّرب والضحكِ والسعادة، آتيةً من هذه المعاني دون غيرِها، مُصَوَّرَةً على الوجوهِ إحساسَها ونَوازعَها، وكلُّ ذلك سِحْرُ عرشِ الورد، تلك الحديقةِ الساحرةِ المسحورةِ، التي كانَتِ النَّسماتُ تأتي مِنَ الجوِّ ترفرفُ حولَها متحيِّرةً كأنَّما تتساءَل: أهذِه حديقةٌ خُلِقَتْ بطيورٍ إنسانية؛ أم هي شجرةُ وردٍ مِنَ الجنةِ بِمَنْ يتفيَّأْنَ ظلَّها ويتَنسَّمْنَ شذَاها مِنَ الْحُور؛ أم ذاك منبعٌورديٌّ عِطْريٌّ نُورانيُّ الحياةِ هذه الملِكةِ الجالسةِ على العرش!

يا نَسَماتِ الليلِ الصافيةَ صفاءَ الخير، أسألُ اللَّهَ أنْ تنبعَ هذه الحياةُ المقبلةُ في جمالِها وأثَرِها وبركتِها من مثلِ الوردِ الْمُبْهِج، والعَطِرِ المُنعِش، والضوءِ الْمُحْيي؛ فإنَّ هذه العروسَ المعتليةَ عَرْشَ الورد:

هِيَ أبنتي...

أيُّها البحر!

إذا احْتَدَمَ الصيفُ[1]، جعَلْتَ أنت أيُّها البحرُ للزمنِ فصلاً جديداً يُسمَّى «الربيعَ المائي».

وتنتقِلُ إلى أيامِك أرواحُ الحدائق، فتَنبُتُ في الزمنِ بعضُ الساعاتِ الشهيَّةِ كأنَّها الثمرُ الحُلوُ الناضجُ على شجرِه.

ويُوحي لونُكَ الأزرقُ إلى النفوسِ ما كانَ يُوحيهِ لونُ الربيعِ الأخضر، إلَّا أنَّه أرقُّ وألطف.

ويرى الشعراءُ في ساحلِكَ مثلَ ما يرَوْنَ في أرضِ الربيع، أنوثةٌ ظاهرة، غيرَ أنَّها تلِدُ المعانيَ لا النبات.

ويُحِسُّ العشاقُ عندَك ما يُحسُّونَهُ في الربيع: أنَّ الهواءَ يتأوَّه...

* * *

في الربيع، يتحّركُ في الدمِ البشريّ سرُّ هذِه الأرض؛ وعندَ «الربيعِ المائي» يتحرَّكُ في الدمِ سرُّ هذهِ السُّحُب.

نوعانِ مِنَ الخمرِ في هواءِ الربيعِ وهواءِ البحر، يكونُ منهما سكرٌ واحدٌ مِنَ الطَّرَب.

وبالربيعَيْنِ الأخضرِ والأزرقِ ينفتحُ بابانِ للعالمِ السحريّ العجيب: عالمِ الجمالِ الأرضيّ الذي تدخلُهُ الروحُ الإنسانيةُ كما يدخَلُ القلبُ المحبُّ في شعاعِ ابتسامةٍ ومعناها.

* * *

في «الربيع المائي»، يجلسُ المرء، وكأنَّه جالسٌ في سحابةٍ لا في الأرض.

ويشعرُ كأنَّهُ لابسٌ ثياباً مِنَ الظلّ لا مِنَ القُماش؛ ويجدُ الهواءَ قد تنزَّهَ عن أنْ يكونَ هواءَ التراب.

---

(١) احتدم الصيف: اشتدت حرارته.

وتَخِفُ على نفسِهِ الأشياء، كأنَّ بعضَ المعاني الأرضيةِ ٱنتُزِعتْ مِنَ المادة.
وهنا يُدركُ الحقيقة: أنَّ السرورَ إنْ هو إلَّا تنبُّهُ معاني الطبيعةِ في ٱلقلب.

* * *

وللشمسِ هنا معنًى جديدٌ ليسَ لها هناك في «دنيا الرزق».

تُشرِقُ الشمسُ هنا على الجسم؛ أما هناك فكأنَّما تطلُعُ وتَغرُبُ على الأعمالِ التي يعملُ الجسمُ فيها.

تطلعُ هناك على ديوانِ الموظفِ لا الموظف، وعلى حانوتِ التاجرِ لا التاجر، وعلى مصنَعِ العاملِ، ومدرسةِ التلميذِ، ودارِ المرأة.

تطلُعُ الشمسُ هناك بِالنور، ولكنَّ الناسَ ـ وا أسفاه ـ يكونونَ في ساعاتِهِمُ المظلمة...

الشمسُ هنا جديدة، تُثبِتُ أنَّ الجديدَ في الطبيعةِ هو الجديدُ في كيفيةِ شعورِ النفسِ به.

* * *

والقمرُ زاهٍ[1] رفَّافٌ مِنَ الحُسْن؛ كأنَّهُ اغتسلَ وخرجَ مِنَ البحر.

أو كأنَّهُ ليس قمراً، بل هو فجرٌ طلَعَ في أوائلِ الليل؛ فحصرَتْهُ السماءُ في مكانِهِ ليستمرَّ الليل.

فجرٌ لا يُوقِظُ العيونَ من أحلامِها؛ ولكنَّه يُوقِظُ الأرواحَ لأحلامِها.

ويُلقي من سحرِهِ على النجومِ فلا تظهرُ حولَهُ إلَّا مُسْتَبْهِمَةً كأنها أحلامٌ معلَّقة.

للقمرِ هنا طريقةٌ في إبهاجِ النفسِ الشاعرة، كطريقةِ الوجهِ المعشوقِ حينَ تقبِّلُهُ أولَ مرة.

* * *

و«للربيعِ المائي» طيورُهُ المغرّدةُ وفَراشُهُ المتنقّل:

أمَّا الطيورُ فنساءٌ يَتَضَاحَكْنَ، وأما الفَراشُ فأطفالٌ يتواثبون.

نساءٌ إذا ٱنغمَسْنَ في البحر، خُيّلَ إليّ أنَّ الأمواجَ تَتَشاحَنُ[2] وتتخاصَمُ على بعضِهِنّ...

---

(١) زاهٍ: فرح مفتخر بحسنه وجماله.

(٢) تتشاحن: تتخاصم.

رأيتُ منهُنَّ زهراءَ فاتنةً قد جلسَتْ على الرملِ جِلْسَةَ حوّاءَ قبلَ ٱختراعِ الثياب، فقالَ البحر: يا إلهي! قدِ ٱنتقلَ معنى الغَرَق إلى الشاطىء...

إنَّ الغريقَ مَنْ غَرِقَ في مَوْجةِ الرملِ هذه...

* * *

والأطفالُ يلعبونَ ويصرخُونَ ويضِجُونَ كأَنَّما ٱتسعَتْ لهُمُ الحياةُ والدنيا.

وخُيّلَ إليهم أنَّهم أقلقوا البحرَ كما يُقلقونَ الدَّار، فصاحَ بهم: وَيْحَكُم يا أسماكَ التراب....! ورأيتُ طفلاً منهم قد جاءَ فَوَكَزَ البحرَ برِجْلِهِ! فضحِكَ البحرُ وقال: ٱنظروا يا بني آدم!!

أعَلى اللّهِ أن يَعْبَأَ[1] بالمغرورِ منكم إذا كَفَرَ بِه؟ أعَلَيّ أنْ أعبأَ بهذا الطفلِ كيلا يقولَ إِنَّه ركلَني برجلِه...؟

* * *

أَيُّها البحر، قد ملأتْك قوةُ اللّهِ لتُثبِتَ فراغَ الأرضِ لِأَهلِ الأرض.

ليسَ فيك ممالِكُ ولا حدود، وليس عليك سلطانٌ لهذا الإنسانِ المغرور.

وتجيشُ بِالناسِ وبِالسفُنِ العظيمة، كأنَّكَ تحملُ من هؤلاءِ وهؤلاءِ قشًّا ترَمي به.

والاختراعُ الإنسانيُّ مهما عَظُمَ لا يُغْني الإنسانَ فيك عن إيمانِه.

وأنت تملأُ ثلاثةَ أرباعِ الأرضِ بالعظمَةِ والهَوْل، ردًّا على عَظمةِ الإنسانِ وهولِهِ في الربعِ الباقي؛ ما أعَظمَ الإنسانَ وأصغَرَه!

* * *

ينزلُ في الناسِ ماؤك فيتساوَوْن حتى لا يختلفَ ظاهرٌ عن ظاهر.

ويركبونَ ظهرَك في السفُنِ فيحِنُ بعضُهم إلى بعضٍ حتى لا يختلفَ باطنٌ عن باطن.

تُشعرُهم جميعاً أنَّهم خرجوا مِنَ الكُرَةِ الأرضية ومِنْ أحكامِها الباطِلة.

وتُفقرُهم إلى الحبِّ والصداقةِ فقراً يُريهمُ النجومَ نفسَها كأنَّها أصدقاء، إذْ عرفوها في الأرض.

يا سحرَ الخوف، أنت أنت في اللُّجَّةِ كما أنت أنت في جهنَّم.

* * *

---

(١) يعبأ: يهتمّ.

وإذا ركبَكَ المُلْحِدُ[1] أيُّها البحر، فرَجَفْتَ من تحتِه، وهَدَرْتَ عليه وثُرْتَ بِه، وأرْيتَهُ رأْيَ العين كأنَّهُ بين سماءينِ ستنطبقُ إحداهُما على الأُخرى فَتُقْفَلانِ عليه ـ تركْتَه يَتطأطَأُ[2] ويَتواضع، كأنَّكَ تهزُّهُ وتهزُّ أفكارَه معاً، وتُدَحْرِجُهُ وتُدحرُجُها.

وأطَرْتَ كلَّ ما في عقلِهِ فيلجأُ إلى اللَّهِ بعقلِ طِفل.

وكشفْتَ له عنِ ٱلحقيقة: أنَّ نسيانَ اللَّهِ ليسَ عمَلَ العقل، ولكنَّهُ عملُ الغَفلةِ والأمنِ وطولِ السلامة.

* * *

ألا ما أشبَهَ الإنسانَ في الحياةِ بِٱلسفينةِ في أمواجِ هذا البحر!

إنِ ٱرتفعَتِ السفينةُ، أوِ ٱنخفضتْ، أو مادَتْ[3]، فليسَ ذلك منها وحدَها، بل مِمّا حولَها.

ولن تستطيعَ هذهِ السفينةُ أنْ تملِكَ من قانونِ ما حولَها شيئاً، ولكنَّ قانونَها هوَ الثباتُ، والتوازنُ، والاهتداءُ إلى قصدِها، ونجاتُها في قانونِها.

فلا يَعْتِبَنَّ الإنسانُ على الدنيا وأحكامِها، ولكنْ فَلْيَجتهدْ أنْ يحكمَ نفسَه.

---

(١) الملحد: الكافر.

(٢) يتطأطأ: يخفض رأسه إذعاناً وخضوعاً.

(٣) مادت: انزلقت، تحركت متزحلقة إلى الأمام.

في الربيع الأزرق

خواطر مرسلة

ما أجملَ الأرضَ على حاشيةِ الأزرقَيْنِ البحرِ والسماء؛ يكادُ الجالسُ هنا يظنُّ نفسَه مرسوماً في صورةٍ إلٰهية.

* * *

نظرْتُ إلى هذا البحرِ العظيم بعينَيْ طفلٍ يتخيَّلُ أنَّ البحرَ قد مُلِيءَ بالأمس، وأنَّ السماءَ كانَتْ إناءً له، فٱنْكفأ[1] الإناءُ فٱندفَقَ البحر، وتَسرَّحْتُ مع هذا الخيالِ الطفليِّ الصغيرِ فكأنَّما نالني رَشاشٌ مِنَ الإناءِ. . . .

إنَّنا لن نُدركَ رَوعةَ الجمالِ في الطبيعةِ إلَّا إذا كانَتِ ٱلنفسُ قريبةً من طفولَتِها، ومرَحِ الطفولةِ، ولَعبِها، وهَذَيانِها.

* * *

تبدو لك السماءُ على البحرِ أعظمَ مِمّا هي، كما لو كنْتَ تنظُر إليها مِنْ سماءٍ أخرى لا مِنَ الأرض.

* * *

إذا أنا سافرْتُ فجِئتُ إلى البحر، أو نزلْتُ بِالصحراء، أو حلَلْتُ بِالجبل، شعَرْتُ أولَ وَهْلَةٍ[2] من دهشةِ السرورِ بِما كنْتُ أشعرُ بمثلِهِ لو أنَّ الجبلَ أوِ الصَّحراءَ أوِ البحرَ قد سافَرَتْ هي وجاءَتْ إليّ.

* * *

في جمالِ النفسِ يكونُ كلُّ شيءٍ جميلاً، إذْ تُلقي النفسُ عليهِ من ألوانِها، فتنقلِبُ الدارُ الصغيرةُ قصراً لأنَّها في سَعَةِ النفسِ لا في مساحتِها هي، وتَعرِفُ لِنورِ النهارِ عُذوبةً كعذوبةِ الماءِ على ٱلظَّمأ، ويظهرُ الليلُ كأنَّه معرضُ جواهرَ أُقيمَ للحورِ

(١) انكفأ: انكمش على ذاته.

(٢) أول وهلة: بدء المفاجأة.

العِينِ في السماوات، ويبدو الفجرُ بألوانِهِ وأنوارِهِ ونسماتِهِ كأنَّهُ جنةٌ سابحةٌ في الهواء.

في جمالِ النفسِ ترى الجمالَ ضرورةً من ضروراتِ الخليقة؛ وَيْ كأنَّ اللَّهَ أمرَ العالَمَ أَلَّا يَعبَسَ للقلبِ المبتسم.

❊ ❊ ❊

أيامُ المصِيفِ هي الأيامُ التي ينطلقُ فيها الإنسانُ الطبيعيُّ المحبوسُ في الإنسان؛ فيرتدُّ إلى دهرِهِ الأول، دهرِ الغاباتِ والبحارِ والجبال.

إنْ لم تكُنْ أيامُ المصيفِ بمثلِ هذا المعنى، لم يكُنْ فيها معنًى.

❊ ❊ ❊

ليَستِ ٱللذةُ في الراحةِ ولا الفراغ، ولكنَّها في التعبِ والكَدْحِ[1] والمشقةِ حينَ تتحولُ أياماً إلى راحةٍ وفراغ.

❊ ❊ ❊

لا تتمُّ فائدةُ ٱلانتقالِ من بلدٍ إلى بلدٍ إلَّا إذا ٱنتقَلتِ ٱلنفسُ من شعورٍ إلى شعور؛ فإذا سافرَ معكَ ٱلهَمُّ فأنت مقيمٌ لم تَبرَحْ.

❊ ❊ ❊

الحياةُ في المصيفِ تُثبِتُ للإنسانِ أنَّها إنَّما تكونُ حيثُ لا يُحْفَلُ بها كثيراً.

❊ ❊ ❊

يشعرُ ٱلمرءُ في المُدُنِ أنَّهُ بينَ آثارِ الإنسانِ وأعمالِه، فهو في رُوحِ العَناءِ والكَدْحِ والنزاع؛ أمَّا في الطبيعةِ فيُحِسُّ أنَّهُ بينَ الجمالِ والعجائبِ الإلهية، فهو هنا في رُوحِ اللذةِ والسرورِ والجلال.

❊ ❊ ❊

إذا كنْتَ في أيام الطبيعةِ فَٱجعلْ فِكْرَك خالياً وفَرّغْهُ للنَّبْتِ والشجر، والحجَرِ والمَدَر، والطيرِ والحيوان، والزهرِ والعُشْب، والماءِ والسَّماء، ونورِ النهار، وظلامِ الليل، حينئذٍ يَفتحُ العالَمُ بابَهُ ويقول: ادخل...

❊ ❊ ❊

لُطْفُ الجمالِ صورةٌ أخرى من عَظَمةِ الجمال؛ عرفْتُ ذلك حينَما أبصَرْتُ قطرةَ

---

(١) الكدح: التعب والجِدّ.

مِنَ الماء تلمعُ في غصن، فخُيِّلَ إليَّ أنَّ لها عَظمَةَ البحرِ لو صَغُرَ فعُلِّقَ على ورقة.

* * *

في لحظةٍ مِنَ لحظاتِ الجسدِ الروحانيةِ حينَ يفورُ شِعرُ الجمالِ في الدم، أطَلْتُ النظرَ إلى وردةٍ في غُصنِها زاهيةٍ عَطِرة، متأنقة، متأنِّثَة؛ فكِدْتُ أقولُ لها: أنتِ أيَّتُها المرأة، أنتِ يا فلانة....

* * *

أليسَ عجيباً أنَّ كلَّ إنسانٍ يرى في الأرضِ بعضَ الأمكنةِ كأنَّها أمكنةٌ للروح خاصَّة؛ فهلْ يدلُّ هذا على شيءٍ إلَّا أنَّ خيالَ الجنةِ منذُ آدمَ وحوَّاء، لا يزالُ يعملُ في النفسِ الإنسانية؟

* * *

الحياةُ في المدينةِ كشُربِ الماءِ في كُوبٍ مِنَ الخَزَف؛ والحياةُ في الطبيعةِ كَشُرْبِ الماءِ في كُوبٍ مِنَ البَلُّورِ الساطع؛ ذاك يحتوي الماءَ وهذا يحتويه ويُبدي جمالَه لِلْعين.

* * *

وا أسفاه، هذه هي الحقيقة: إنَّ دِقَّةَ الفهمِ لِلْحياةِ تُفسدُها على صاحبِها كدقةِ الفهمِ للحُبّ، وإنَّ العقلَ الصغيرَ في فهمِهِ لِلْحُبِّ والحياة، هو العقلُ الكاملُ في ٱلتذاذِهِ بهما. وا أسفاه، هذه هي الحقيقة!

* * *

في هذه الأيامِ الطبيعيةِ التي يجعلُها المصيفُ أيامَ سرورٍ ونسيان، يشعرُ كلُّ إنسانٍ أنَّه يستطيعُ أنْ يقولَ للدنيا كلمةَ هَزْلٍ ودُعابة....

* * *

مَنْ لم يُرزقِ الفكرَ العاشقَ لم يرَ أشياءَ الطبيعةِ إلَّا في أسمائِها وشِيَاتِها، دون حقائِقِها ومعانيها، كالرجلِ إذا لم يعشقْ رأى النساءَ كلَّهنَّ سواء، فإذا عَشِقَ رأى فيهنَّ نساءً غيرَ مَنْ عرَف، وأصبحْنَ عندَه أدِلَّةً على صفاتِ الجمالِ الذي في قلبِه.

* * *

تقومُ دنيا الرزقِ بما تحتاجُهُ الحياة، أما دنيا المصيفِ فقائمةٌ بما تلَذُّهُ الحياة، وهذا هو الذي يغيِّرُ الطبيعةَ ويجعلُ الجوَّ نفسَهُ هناك جوَّ مائدةِ ظُرفاءَ وظريفات....

* * *

تعملُ أيامُ المصيفِ بعدَ انقضائِها عملاً كبيراً، هو إدخالُ بعضِ الشّعرِ في حقائقِ الحياة.

* * *

هذه السماءُ فوقَنا في كلِّ مكان، غيرَ أنَّ العجيبَ أنَّ أكثرَ الناسِ يرحلونَ إلى المصايفِ ليَرْوا أشياءَ منها السماء...

* * *

إذا استقبلْتَ العالَمَ بالنفسِ الواسعةِ رأيْتَ حقائقَ السرورِ تزيدُ وتتَّسع، وحقائقَ الهمومِ تصغُرُ وتَضيق، وأدركْتَ أنَّ دنياك إنْ ضاقتْ فأنت الضيِّقُ لا هي.

* * *

في الساعةِ التاسعةِ أذهبُ إلى عملي، وفي العاشرة أعملُ كَيْت، وفي الحاديةَ عشرةَ أعملُ كَيتَ وكَيت؛ وهنا في المصيفِ تفقِدُ التاسعةُ وأخواتُها معانيَها الزمنيةَ التي كانت تضعُها الأيامُ فيها، وتَستبدِلُ منها المعانيَ التي تضعُها فيها النفسُ الحرّة.

هذه هي الطريقةُ التي تُصْنَعُ بها السعادةُ أحياناً، وهي طريقةٌ لا يقدرُ عليها أحدٌ في الدنيا كصغارِ الأطفال.

* * *

إذا تلاقَى الناسُ في مكانٍ على حالةٍ متشابهةٍ منَ السرورِ وتَوَهُّمِهِ والفكرةِ فيه، وكانَ هذا المكانُ مُعَدًّا بطبيعتهِ الجميلةِ لِنسيانِ الحياةِ ومَكارِهِها ـ فتلك هي الروايةُ وممثلوها ومَسرَحُها، أما الموضوعُ فالسخريةُ من إنسانِ المدنيَّةِ ومدنيةِ الإنسان.

* * *

ما أصدَقَ ما قالوه: إنّ المرئيَّ في الرائي. مرضْتُ مدةً في المصيف، فانقلَبتِ الطبيعةُ العَروسُ التي كانَتْ تتزينُ كلَّ يومٍ إلى طبيعةِ عجوزٍ تذهبُ كلَّ يومٍ إلى الطبيب...

حديث قِطَّين

جاءَ في امتحانِ شهادةِ إتمامِ الدراسةِ الابتدائيةِ لهذا العام (١٩٣٤) في موضوع الإنشاءِ ما يأتي:

«تَقابَلَ قطَّان: أحدُهما سَمينٌ تبدو عليه آثارُ النعمة، والآخرُ نحيفٌ يدلُّ منظرُهُ على سُوءِ حالِه؛ فماذا يقولانِ إذا حدَّثَ كلٌّ منهما صاحبَه عن معيشتِه؟».

وقد حارَ التلاميذُ الصغارُ فيما يضَعونَ على لسانِ القطَّين، ولم يعرفوا كيف يوجّهون الكلامَ بينَهما، وإلى أيّ غايةٍ ينصرفُ القولُ في مُحاورتِهما؛ وضاقوا جميعاً وهم أطفال ـ أنْ تكونَ في رؤوسِهم عقولُ السَّنانير[1]؛ وأعياهم[2] أنْ تنزلَ غرائزُهمُ الطيبةُ في هذهِ المنزلة منَ البهيميَّةِ ومن عيشِها خاصَّة، فيكتَنِهوا تدبيرَ هذه القِطَاطِ لحياتِها، وينفُذُوا إلى طبائِعها، ويندَمجوا في جُلودِها، ويأكلوا بأنيابِها، ويمزّقوا بمَخَالِبها.

قال بعضهُم: وسَخِطْنا على أساتذتِنا أشدَّ السخط، وعِبناهم بأقبحِ العيب؛ كيف لم يعلّمونا من قبل ـ أنْ نكونَ حَميراً، وخيلاً، وبغالاً، وثيراناً، وقِرَدَةً، وخنازيرَ، وفئراناً، وقِطَطَةً، وما هبَّ ودبَّ، وما طارَ ودرَجَ، وما مَشَى وانْسَاحَ؛ وكيف ـ ويحَهم ـ لم يلقّنونا معَ العربية والإنجليزيةِ لغاتِ النَّهيقِ، والصَّهيلِ، والشَّحيجِ، والْخُوارِ، وضَحِكَ القرد، وقُبَاعَ الخنزير، وكيف نَصِيءُ ونَموء، ونَلْغَط لَغَطَ الطَّير، ونَفُحّ فَحيحَ الأفعى، ونَكِشُّ كَشِيشَ الدبَّابات[3]، إلى ما يتمُّ به هذا العلمُ اللغويُّ الجليلُ، الذي تقومُ به بلاغةُ البهائم والطيرِ والحشراتِ والهمَجِ أشباهِها. . . .؟

وقال تلميذ خبيثٌ لأستاذِه: أما أنا فأوجْزتُ وأعجزْت. قال أستاذه: أجدْتَ

(١) السنانير: واحده سنور، وهو القطّ.

(٢) أعيا: أتعب.

(٣) تلك هي أسماء أصوات هذه الحيوانات المذكورة في اللغة.

وأحسنْتَ، وللَّهِ أنت! وتاللَّهِ لقد أصبْتَ! فماذا كتبْتَ؟ قال: كتبْتُ هكذا:

يقول السَّمين: نَاوْ، ناوْ، ناوْ... فيقولُ النحيف: نَوْ، ناوْ نَوْ... فيردُّ عليه السمين: نَوْ، ناوْ، ناوْ... فيغضبُ النحيف، ويكْشِرُ عن أسنانهِ، ويحركُ ذيلَه ويصيح: نَوْ، نَوْ، نَوْ... فيلطمُهُ السمينُ فيَخْدِشُه ويصرخ: ناوْ... فيثبُ عليه النحيفُ ويضْطَرِعان، وتختلطُ «النَّوْنَوَة» لا يمتازُ صوتٌ من صوت، ولا يَبِينُ معَنًى من معنًى، ولا يمكنُ الفهمُ عنهما في هذهِ الحالةِ إلا بتعبٍ شديد، بعد مراجَعةِ قاموس القِطاط...!

قال الأستاذ: يا بنيّ، باركَ اللَّهُ عليك! لقد أبدعْتَ الفنَّ إبداعاً، فصنعْتَ ما يصنعُ أكبرُ النوابغ، يُظهرُ فنَّه بإظهارِ الطبيعةِ وإخفاءِ نفسِه، وما ينطقُ القِطّ بلغتِنا إلا مُعجزةً لنبيّ، ولا نبيَّ بعدَ محمدٍ ﷺ؛ فلا سبيلَ إلا ما حكيْتَ ووصفْتَ، وهو مذهبُ الواقع، والواقعُ هو الجديدُ في الأدب؛ ولقد أرادوكَ تلميذاً هِرًّا، فكنْتَ في إجابتِك هِرًّا أستاذاً، ووافقْتَ السَّنانيرَ وخالفْتَ الناس، وحقَّقتَ للممتحِنين أرقى نظرياتِ الفنِ العالي، فإنَّ هذا الفنَ إنّما هو في طريقةِ الموضوعِ الفنيّةِ، لا في تلفيقِ الموادِ لهذا الموضوع من هنا وهناك، ولو حفِظوا حرمةَ الأدبِ ورَعَوا عهدَ الفنِّ لأَدركوا أنَّ في أسطرِك القليلةِ كلاماً طويلاً بارعاً في النادرةِ والتهكم، وغرابةِ العبقرية، وجمالِها وصدقِها، وحسنِ تَنَاولِها، وإحكامِ تأديتِها لما تؤدّي[1]؛ ولكن ما الفرقُ يا بنيَّ بين «ناوْ» بالمد، و «نَوْ» بغيرِ مد..؟ قال التلميذ: هذا عندَ السنانيرِ كالإشاراتِ التلغرافية: شَرْطة ونقطة وهكذا.

قال: يا بنيَّ، ولكنَّ وَزَارة المعارفِ لا تُقِرُّ هذا ولا تعرفُه، وإنَّما يكون المصحّحُ أستاذاً لا هِرًّا... والامتحانُ كتابيٌّ لا شَفَويّ.

قال الخبيث: وأنا لم أكن هِرًّا بل كنْتُ إنساناً، ولكنَّ الموضوعَ حديثُ قِطَّين، والحكمَ في مثلِ هذا لأهلِه القائمين به، لا المتكلّفينَ له، المتطفّلينَ عليه؛ فإنْ هم خالفوني قلْتُ لهم: اسألوا القِطاط؛ أوْ لا فليأتوا بالقِطين: السمينِ والنحيفِ، فليجمعُوا بينهما، وليُحَرّشوهما[2]، ثم ليُحْضروا الرُّقباءَ هذا الإمتحان، وليكتبوا عنهما ما يسمعونَه، ولْيصِفوا منهما ما يَرونَه، فوالذي خَلَق السنانيرَ

(١) تلك عبارة تنمّ عن سخرية وتهكم.

(٢) وليحرشوهما: وليثيروهما لكي تشاحنا ويتشاجرا فينطق كل منهما بمثالب خصمه.

والتلاميذَ والممتحنينَ والمصحّحينَ جميعاً ـ ما يزيدُ الهرّانِ على «نَوْ، وناوْ»، ولا يكونُ القولُ بينهما إلّا من هذا، ولا يقعُ إلّا ما وصفْتُ، وما بُدٌّ منَ المهارَشَةِ والمواثَبَةِ[1] بما في طبيعةِ القويّ والضعيف، ثم فرارِ الضعيفِ مهزوماً، وينتهي الإمتحان!

* * *

إنَّ مثلَ هذا الموضوعِ يشبهُ تكليفَ الطالبِ الصغيرِ خلقَ هرَّتين لا الحديثَ عنهما؛ فإنَّ إجادةَ الإنشاءِ في مثلِ هذا البابِ ألوهيةٌ عقليةٌ نَخلقُ خلقَها السَّويَّ الجميلَ نابضاً حيًّا، كأنما وَضعَتْ في الكلام قلبَ هرّ، أو جاءَتْ بالهرِ له قلبٌ منَ الكلامِ وأين هذا منَ الأطفالِ في الحاديةَ عشرةَ والثانيةَ عشرةَ وما حولَهما؛ وكيف لهم في هذهِ السنِّ أنْ يمتزجوا بدقائقِ الوجود، ويُداخلوا أسرارَ الخليقة، ويُصبحوا مع كلِّ شيءٍ رَهْناً بعلَلِهِ، وعندَ كلِّ حقيقةٍ موقوفينَ على أسبابها؟ وقد قِيل لهم من قبلُ في السنواتِ الخالية: «كُنْ زهرةً وصِفْ. واْجعلْ نفسَك حبةَ قمحٍ وقُلْ». وإنَّما هذا ونحوُه غايةٌ من أبعدِ غاياتِ النبوَّةِ أو الحكمة؛ إذِ النبيُّ تعبيرٌ إلهيٌّ تتخذُهُ الحقيقةُ الكاملةُ لتنطقَ بِه كلمتَها التي تُسمّى الشريعة، والحكيمُ وجهٌ آخرُ منَ التعبير، تتخذُه تلك الحقيقةُ لتُلقيَ منه الكلمةَ التي تسمَّى الفن.

وقد كان في القديم اْمتحانٌ مثلُ هذا، لم ينجحْ فيه إلّا واحدٌ فقط من آلافٍ كثيرة؛ وكان الممتحِنُ هو اللَّهُ جلَّ جلالهُ؛ والموضوعُ حديثُ النملةِ مَعَ النمل؛ والناجحُ سليمانُ ـ عليه السلام ـ.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

إنّ الكونَ كلَّهُ مستقرٌ بمعانِيه الرمزيةِ في النفسِ الكاملة؛ إذْ كانَتِ الروحُ في ذاتِها نوراً، وكان سرُّ كلِّ شيءٍ هو مِنَ النور، والشعاعُ يجري في الشعاعِ كما يجري الماءُ في الماء، وفي امتزاجِ الأشعةِ مِنَ النفس والمادةِ تجاوُبٌ روحانيّ هو بذاتهِ تعبيرٌ في البصيرةِ وإدراكٌ في الذهن، وهو أساسُ الفنِّ على اْختلافِ أنواعِه: في الكلمةِ والصورة، والمثالِ والنغْمة؛ أي الكتابةِ والشعرِ والتصويرِ والحفرِ والموسيقى.

---

(١) المهارشة والمواثبة، بنفس المعنى.

ومن ذلك لا يكونُ البيانُ العالي أتمَّ إشراقاً إلَّا بتمام النفسِ البليغةِ في فضيلتِها أو رذيلتِها على السواء؛ فإنَّ من عجائبِ السخريةِ بهذا الإنسانِ أنْ يكونَ تمامُ الرذيلةِ في أثرِهِ على العملِ الفنيّ، هو الوجهَ الآخرَ لتمامِ الفضيلةِ في أثرِهِ على هذا العمل؛ والنقطةَ التي ينتهي فيها العلوُّ من مُحيطِ الدائرة هِي بعينِها التي يبدأُ منها الانحدارُ إلى السُّفْل؛ ومن ثَمّ كانتِ الفنونُ لا تُعتبرُ بالأخلاق، حتى قالَ علماؤُنا: إنَّ الدينَ عن الشعرِ بمَعْزِل. فالأصلُ هناك سموُّ التعبيرِ وجمالُهُ، وبلاغةُ الأداءِ ورَوْعتُهُ؛ ولا يكونُ السؤالُ الفنيُّ ما هي قيمةُ هذهِ النفس، ولكنْ ما طريقتُها الفنية؟ وأيُّ عجيبٍ في ذلك؟ أليس لجهنمَ حقٌّ في كبارِ أهلِ الفنّ، كما للجنةِ حقٌّ في نوابغِه؟ وإذا قالَتِ الجنة: هذه فضائلي البليغة. أفلا تقولُ الجحيمُ: وهذِه بلاغةُ رذائلي؟ وكيف لَعمري يستطيعُ إبليسُ أنْ يؤديَ عملَه الفنيَّ. . . . ويصوّرَ بلاغتَه العاليةَ إلّا في ساقطينَ من أهلِ الفكرِ الجميل، وساقطاتٍ من أهلِ الجسمِ الجميل. . ؟

* * *

لقد بعدْنا عنِ القطين، وأنا أريدُ أنْ أكتبَ من حديثِهما وخبرَهما.

كانَ القطّ الهزيلُ مرابطاً في زُقاق، وقد طاردَ فأرةً فانْجَحَرَتْ[1] في شِقّ، فوقفَ المسكينُ يتربَّصُ[2] بها أنْ تخرج، ويؤامرَ نفسَه كيف يُعالِجُها فيَبتَزُّها، وما عقْلُ الحيوانِ إلَّا من حِرفةِ عيشِهِ لا من غيرِها. وكانَ القطّ السمينُ قد خرجَ من دارِ أصحابِهِ يريدُ أن يفرّجَ[3] عن نفسِه بأنْ يكونَ ساعةً أو بعضَ ساعةٍ كالقطَطةِ بعضِها معَ بعض، لا كأطفالِ الناسِ مع أهليهم وذَوي عنايتِهم، وأبصرَ الهزيلَ من بعيدٍ فأقبلَ يمشي نحوَه، ورآه الهزيلُ وجعل يتأملُه وهو يتخلَّعُ تخلُّعَ الأسدِ في مشيتِهِ، وقد ملأ جلدتَه من كلِّ أقطارِها ونواحيها، وبَسَطَتْه النعمةُ منْ أطرافِه، وانْقلبَتْ في لحمِهِ غلَظاً، وفي عَصَبِهِ شدةً، وفي شَعرِهِ بَريقاً، وهو يموجُ في بدنهِ من قوةٍ وعافيةٍ، ويكادُ إهابُه[4] ينشقُّ سمَناً وكدْنة. فانكسرَتْ نفسُ الهزيل، ودخَلَتْه الحسرة، وتَضَعْضَعَ[5] لمرأى هذه النعمةِ مَرِحَةً مختالة. وأقبلَ السمينُ حتى وقفَ عليه، وأدركَتْهُ الرحمةُ له، إذْ رآه نحيفاً متقَبّضاً، طاوِيَ البطن[6]، بارزَ

---

(١) فانجحرت في شق: اختبأت في الشق واتخذته جحراً لها.
(٢) يتربَّص: يتحيّن الفرص.
(٣) يفرّج عن نفسه: يروّح عن نفسه.
(٤) إهابه: جلده.
(٥) تضعضع قلبه: انخلع قلبه لما رأى.
(٦) طاوي البطن: فارغ البطن من شدّة الجوع.

الأضلاع، كأنَّما همَّتْ عظامُهُ أنْ تتركَ مسكَنها من جلدِهِ لِتجدَ لها مأوًى آخر.

فقال له: ماذا بك، ومالي أراكَ مُتَيَبِّساً كالميتِ في قبرِهِ غيرَ أنَّك لم تمت، ومالَكَ أُعطِيْتَ الحياةَ غيرَ أنك لم تحيَ، أو ليسَ الهرُّ مِنّا صورةً مختزَلَةً منَ الأسد، فمالَكَ ـ ويحَكَ ـ رجَعْتَ صورة مختزلةً مِنَ الهر؛ أفلا يسقُونَك اللبن، ويُطعمونك الشَّحمةَ واللحمة، ويأتونك بالسمَك، ويقطعونَ لك منَ الجبن أبيضَ وأصفر، ويَفُتُّون لكَ الخبزَ في المَرق، ويُؤثرك الطفلُ ببعضِ طَعامِه، وتدلِّلك الفتاةُ على صدرِها، وتَمسَحُكَ المرأةُ بِيديها، ويتناولُك الرجلُ كما يتناولُ ابنَه....؟ وما لِجلدِك هذا مُغبَرًا كأنَّكَ لا تَلْطَعُه بلُعابِك[1]، ولا تتعهَّدُه بتنظيف، وكأنَّكَ لم ترقطْ فتًى أو فتاةً يجري الدّهانُ بَريقاً في شعرِهِ أو شعرِها، فتحاولُ أنْ تصنعَ بلعابِك لشعرِك صنيعَهما؛ وأراكَ متزايلَ الأعضاءِ متفكِّكاً حتى ضَعُفْتَ وجَهدْتَ، كأنَّه لا يرَكبُك من حُبِّ النومِ على قَدْرٍ من كسلِكَ وراحتِك، ولا يركبُكَ من حبِّ الكسلِ على قدرٍ من نعيمِك ورَفاهتِك، وكأنَّ جنبيكَ لم يعرفا طِنْفِسَةً ولا حَشِيَّةً ولا وِسادةً ولا بِساطاً ولا طِرازاً، وما أشبهَك بأسدٍ أهلكَهُ ألّا يجدَ إلّا العُشْبَ الأخضرَ والهشيمَ اليابس، فما له لحمٌ يجيءُ من لحم، ولا دمٌ يكونُ من دم، وانحطَّ فيه جسمُ الأسد، وسكنَتْ فيه روحُ الحمار!

قال الهزيل: وإنَّ لك لحمةً وشَحمةً، ولبناً وسمكاً، وجِبناً وفُتاتاً، وإنَّك لتَقضي يومَك تَلْطَعُ جِلدَك ماسِحاً وغاسلاً، أو تَتَطَرَّحُ[2] على الوسائِد والطنافسِ نائماً ومتمدّداً؟ أمَا واللّهِ لقد جاءَتْكَ النعمةُ والبلادةُ معاً، وصلحَتْ لك الحياةُ وفسدَتْ منكَ الغريزة، وأحكمْتَ طبعاً ونَقَضْتَ طِباعاً، ورَبِحْتَ شِبَعاً وخَسِرْتَ لذة، عطفوا عليك وأفقدوك أنْ تعطفَ على نفسِك، وحملوك وأعجزوك أنْ تستقلّ، وقد صِرْتَ معهم كالدَّجاجةِ تُسمَّنُ لتُذبح، غيرَ أنهم يذبحونَك دَلالاً ومَلالاً.

إنَّكَ لتأكلُ من خِوانِ[3] أصحابِك، وتنظرُ إليهم يأكلون، وتطمعُ في مؤاكلتهم، فتَشبعُ بالعين والبطنِ والرغبة ثم لا شيءَ غيرُ هذا، وكأنَّك مُرتَبَطٌ بحبالٍ مِنَ اللحمِ تأكلُ منها وتحتَبِسُ فيها.

إنْ كانَ أولُ ما في الحياةِ أنْ تأكلَ فأهونُ ما في الحياة أنْ تأكل، وما يقتلُكَ

---

(١) اللعاب: الريق.

(٢) تتطرّح على الوسائد: تتخذها مناماً لك وتتوسّدها.

(٣) الخوان: المائدة.

شيءٌ كاستواءِ الحال، ولا يُحييكَ شيءٌ كتَفَاوتِها؛ والبطنُ لا يتجاوزُ البطنَ ولذتُه لذتُه وحدَها، ولكن أين أنت عن إرثُكِ من أسلافِك، وعنِ العِلَلِ الباطنةِ التي تحرّكُنا إلى لذاتِ أعضائِنا، ومتاعِ أرواحِنا، وتَهَبُنا من كلِّ ذلك وجودَنا الأكبر، وتجعلُنا نعيشُ من قِبَلِ الجسم كلِّه، لا من قبَلِ المعدةِ وحدَها؟

قال السمين: تاللَّهِ لقد أكسبكَ الفقرُ حكمةً وحياة، وأراني بإزائك معدوماً بزَوالِ أسلافي مني، وأراك بإزائي موجوداً بوجودِ أسلافِك منك. ناشدتُكَ اللَّهَ إلّا ما وصفْتَ لي هذه اللذاتِ التي تعلو بالحياةِ عن مرتبةِ الوجودِ الأصغرِ منَ الشّبع، وتستطيلُ بها إلى مرتبةِ الوجودِ الأكبرِ مِنَ الرضى؟

فقال الهزيل: إنك ضخمٌ ولكنّك أبله، أما علمْتَ ـ ويحَكَ ـ أنَّ المِحْنةَ في العيشِ هي فكرةٌ وقوة، وأنَّ الفكرةَ والقوةَ هما لذةٌ ومنفعة، وأنَّ لهفةَ الحِرمانِ هي التي تضعُ في الكَسْبِ لذةَ الكسب، وسُعَارَ الجوعِ هو الذي يجعلُ في الطعامِ مِنَ المادةِ طعاماً آخرَ مِنَ الروح، وأن ما عُدِلَ به عنك من الدنيا لا تعوّضُكَ منه الشَّحمةُ واللحمة، فإنَّ رغباتِنا لا بدَّ لها أنْ تجوعَ وتغتذيَ كما لا بدَّ من مثل ذلك لبطونِنا، لِيُوجِدَ كلٌّ منهما حياتَه في الحياة؛ والأمورَ المطمئنةَ كهذِه التي أنت فيها هي للحياةِ أمراضٌ مطمئنة، فإنْ لم تَنقُصْ من لذتِها فهي لن تزيدَ في لذتِها، ولكنَّ مكابدَةَ الحياةِ زيادةٌ في الحياةِ نفسِها.

وسرُّ السعادةِ أنْ تكونَ فيك القُوَى الداخليةُ التي تجعلُ الأحسنَ أحسنَ ممَّا يكون، وتمنعُ الأسوأَ أنْ يكونَ أسوأَ ممَّا هو، وكيف لك بهذِه القوةِ وأنت وادعٌ قارٌ محصورٌ مِنَ الدنيا بينَ الأيدي والأرجلِ؟ إنّك كالأسدِ في القفص، صَغُرَتْ أجَمَتُهُ ولم تزلْ تصغُر حتى رجعَتْ قَفَصاً يحدُّه ويحبسُه، فصغُرَ هو ولم يزلْ يصغر حتى أصبحَ حركةً في جلد؛ أما أنا فأسدٌ على مَخَالبي ووراءَ أنيابي، وغَيْضَتي أبداً تتّسعُ ولا تزالُ تتسعُ أبداً، وإنَّ الحريةَ لتجعلني أتشمَّمُ مِنَ الهواءِ لذةً مثلَ لذةِ الطعام، وأستَرْوِحُ مِنَ التراب لِذةً كلذّةِ اللحم، وما الشقاءُ إلا خَلّتانِ[1] من خلالِ النفس: أمَّا واحدةٌ فأنْ يكونَ في شَرَهِكَ[2] ما يجعلُ الكثيرَ قليلاً، وهذه ليسَتْ لمثلي ما دمْتُ على حدِّ الكَفَافِ مِنَ العيش[3]؛ وأما الثانية فأنْ يكونَ في طمعِكَ ما يجعلُ

(١) خلّتان: مزيتان.
(٢) الشره: شدّة الأكل. وكثرته.
(٣) الكفاف من العيش: القليل منه.

القليلَ غيرَ قليل، وهذه ليس لها مثلي ما دمْتُ على ذلك الحدِّ مِنَ الكفاف. والسعادةُ والشقاءُ كالحقِّ والباطل، كلُّها من قِبَلِ الذات، لا مِنْ قِبلِ الأسبابِ والعلل، فمن جاراها سَعِد بها، ومن عكَسها عن مجرَاها فبها يشقَى.

ولقد كنْتُ الساعةَ أخْتِلُ فأرةً انجحَرتْ في هذا الشقِّ، فطَعِمْتُ منها لذةً وإنْ لم أُطعمْ لحماً، وبالأمس رماني طفلٌ خبيثٌ بحجرٍ يريد عَقْرِي فأحدَثَ لي وجعاً، ولكنَّ الوجعَ أحدثَ لي الاحتراس، وسأغشَى[1] الآنَ هذه الدارَ التي بإزائِنا، فأيةُ لذةٍ في السَلَّةِ والخَطْفةِ والاسْتِرَاقِ والانتهابِ ثم الوثْبِ شدّاً بعدَ ذلك؟ هل ذقْتَ أنت برُوحِك لذةَ الفُرصةِ والنهزة[2]، أو وجدْتَ في قلبِك راحةَ المخالَسةِ[3] واستراقِ الغفلةِ من فأرةٍ أو جُرَذ، أو أدركْتَ يوماً فرحةَ النجاةِ بعدَ الرَّوَغانِ[4] من عابثٍ أو باغٍ أو ظالم؟ وهل نالتْكَ لذةُ الظفَرِ حين هَوَّلَكَ طفلٌ بِالضرب، فهوَّلتَهُ أنت بالعضِ والعَقْر، ففرّ عنك منهزماً لا يلوي؟

قال السمين: وفي الدنيا هذِه اللذاتُ كلُّها وأنا لا أدري؟ هلمّ أتوحشْ معك، ليكونَ لي مثلُ نُكْرِك ودهائِك واحتيالِك، فيكونَ لي مثلُ راحتِك المكدودة، ولذتِك المتعبَة، وعُمرِك المحكومِ عليه منك وحدَك وسأتصدَّى معكَ للرزقِ أطارِدهُ وأواثبه، وأغاديه وأراوِحه... فقطعَ عليه الهزيلُ وقال:

يا صاحبي، إنَّ عليك من لحمِك ونعمتِك علامةَ أسرِك، فلا يلقانا أولُ طفلٍ إلّا أهوى لك فأخذك أسيراً، وأهوى عَليَّ بالضرب لأنطلقَ حُرّاً، فأنت على نفسِك بلاء، وأنت بنفسِك بلاءٌ عَلَيّ.

وكانتِ الفأرةُ التي انجحرتْ قد رأَتْ ما وقعَ بينَهما، فسرَّها اشتغال الشرِّ بِالشر... وطالَتْ مراقبتُها لها حتى ظنَت الفرصةَ ممكنةً، فوثبَتْ وثبةَ مَنْ ينجو بحياتِه ودخلَتْ في بابٍ مفتوح، ولمحَها الهَزيلُ، كما تلمحُ العينُ برقاً أومضَ وَانطفأ. فقال للسمين: اذهبْ راشداً، فحسبُك الآنَ مِنَ المعرفةِ بنفسِك وموضعِها منَ الحياة، أنَّ الوقوفَ معكَ ساعةً هو ضيَاعُ رزق، وكذلك أمثالُك في الدنيا، هم بألفاظِهم في الأعلى وبمعانيهم في الأسفل...

---

(١) سأغشى: سأدخل.

(٢) النهزة: استغلال الفرصة وانتهازها.

(٣) المخالسة: السرقة خلسة. والمباغتة.

(٤) الروغان: الخداع للتخلص من مأزق.

بين خروفين

«اجتمعَ ليلةَ الأضحَى خروفانِ من أضاحِي العيد، فتكلَّما؛ فماذا يقولان؟».

هذا هو الموضوعُ الذي استخرجَهُ أصغرُ أولادي (الأستاذُ) عبدُ الرحمن، وسألني أنْ أكتبَ فيه للرسالة، وهو أصغرُ قرائها سناً، تَرُفُّ عليه النَّسمةُ الثالثةَ عشرةَ من ربيعِ حياتِهِ باركَ الله له فيها حاضرةً ومُقْبِلة.

ولأستاذِنا هذا كلمةٌ هي شعارُه الخاصُّ بهِ في الحياة، يحفظُها لِتحفظَه، فلا يميلُ عن مَدْرَجَتها، ولا يَخرجُ من معناها، وهي هذه الكلمةُ العربية: «كالفَرَسِ الكريم في مَيْعَةِ حضْرِه، كلّما ذهبَ منه شَوْطٌ جاءَ شَوط». فهو يعلمُ من هذا أنَّ كرمَ الأصلِ في كرم الفعل، ولا يُغنِي شيءٌ منهما عن شيء؛ وأنَّ الدمَ الحرَّ الكريمَ يكونُ مُضاعَفَ القّوةِ بطبيعتهِ، عظيمَ الأملِ بهذه القوةِ المضاعَفة، نزَّاعاً إلى السبقِ بمقدارِ أمَلهِ العظيم، مترفِّعاً عن الضعفِ والهُوَينا بهذا النُّزوع، متميزاً في نبوغِ عملهِ وإبداعِه باجتماعِ هذه الخصالِ فيهِ على أتمِّها وأحسنِها. فمن ثَمّ لا يَرمي الحرُّ الكريمُ إلَّا أنْ يبلغَ الأمَدَ الأبعدَ في كلِّ ما يحاولُه، فلا يألو أن يبذلَ جهدَه إلى غايةِ الطاقةِ ومبلغِ القدرة، مستمدّاً قوةً بعدَ قوة، محقّقاً السحرَ القادرَ الذي في نفسِه، متلقياً منه وسائلَ الإعجازِ في أعمالِه، مُرسِلاً في نبوغِهِ من توهُّجِ دمهِ أضواءً كأضواءِ النجم، تُثبتُ لكلِّ ذي عينين أنه النجمُ لا شيءَ آخر.

ولما قَدَّم إليّ (الأستاذ) موضوعَه في هذا الوزنِ المدرسيّ ـ وأظنُّهُ قد نَزَعَتْه حاجةٌ مدرسيةٌ إليه ـ قلتُ: حُبّاً وكَرامة. وهأنذا أكتبُهُ منبعثاً فيه «كالفرسِ الكريمِ في معيةِ حَضرِه»... ولعلَّ الأستاذَ حينَ يقرؤه لا يثوِّرُ فيه علاماتٍ كثيرةً بقلمِهِ الأحمر...!

اجتمعَ ليلةَ الأضحى خروفانِ منَ الأضاحِي في دارنا: أما أحدُهما فكبْشٌ أقْرَنُ، يَحملُ على رأسِهِ من قرنيهِ العظيمينِ شجَرةَ السنين، وقدِ أنتهى سِمَنُه حتى ضاق جِلْدُه بلحمِه، وسَحَّ بدنُه بالشحمِ سَحّاً، فإذا تحرّكَ خِلْتَهُ سحابةً يضطربُ

بعضُها في بعض، ويهتزُّ شيءٌ منها في شيء؛ وله وافِرةٌ[1] يجرُّها سَبَغَ صُوفُه وٱستكْثَفَ وتراكَمَ عليه، فإذا مشى تَبَخْتَرَ فيه تبختُرَ الغانيةِ في حُلَّتها، كأنّما يشعرُ مثلَ شعورِها أنَّه يلبسُ مَسَرَّاتِ جسمِه لا ثوبَ جسمِه؛ وهو منِ ٱجتماعِ قوّتِه وجَبرُوتِه أشبهُ بالقلعة، ويعلوها من هامتِه[2] كالبُرجِ الحربيّ فيه مِدفعانِ بارزان. وتراهُ أبداً مُصعِّراً خدّاً كأنه أميرٌ منَ الأبطال، إذا جلَسَ حيث كانَ شعَر أنَّه جالسٌ في أمرِهِ ونهيه، لا يَخرجُ أحدٌ من نهيِهِ ولا أمرِه.

وأما الآخرُ فهو جَذَعٌ في رأسِ الحَوْلِ[3] الأولِ من مَوْلدِه، لم يُدْرِكْ بعدُ أنْ يُضَحَّى، ولكنْ جيءَ بهِ للقَرَم إلى لحمِه الغَضّ؛ فالأولُ أضْحيَّةٌ وهذا أكُولَةٌ؛ وذاك يُتَصَدّقُ بلحمِه كلِّهِ على الفقراء، وهذا يُتصدقُ بثُلُثيهِ ويبقى الثلثُ طعاماً لأهلِ الدار.

وكانَ في لينهِ وتَرجرُجِهِ وظَرفِ تكوينِه ومَرَحِ طبعِه، كأنما يُصوّر، لك المرأةَ آنسةً رقيقةً مُتودِّدة. أما ذاك الضخمُ العاتي المتجبّرُ الشامخُ، فهو صورةُ الرجلِ الوحشيّ أخرجَتْهُ الغابةُ التي تُخرجُ الأسدَ والحيةَ وجذوعَ الدَّوْحةِ الضخمة، وجعلَتْ فيه من كلِّ شيءٍ منها شيئاً يُخافُ ويُتَّقى.

وكانَ الجذَعُ يَثْغُو لا ينقطع ثُغاؤه، فقد أُخِذَ من قطيعهِ ٱنتزاعاً فأحسَّ الوحشةَ، وتنبهَتْ فيه غزيرةُ الخوفِ منَ الذئب، فزادَتْه إلى الوحشةِ قَلَقاً وٱضطراباً؛ وكانَ لا يستطيعُ أن يَنْفلِتَ، فهو كأنَّما يهربُ في الصوتِ ويعدو فيهِ عدْوا.

أما الكبشُ فيَرى مثلَ هذا مَسَبَّةً لقرنيهِ العظيمين، وهو إذا كانَ في القطيعِ كان كبشَه وحاميَه والمُقدَّمَ فيهِ، فيكونُ القطيعُ معه وفي كَنَفِه ولا يكونُ هو عندَ نفسِه معَ القطيع؛ فإذا فقد جماعتَه لم يكنْ في منزلةِ المنتظرِ أنْ يَلحقَ بغيرِهِ ليحتميَ بهِ فَيقْلقَ ويضطرب، ولكنه في منزلةِ المرتقِبِ أنْ يَلحَقَ به غيرُه طلباً لحمايتِهِ وذِمارِه، فهو ساكنٌ رابطُ الجأشِ مغتبِطُ النفس، كأنّما يتصدَّقُ بِالانتظار...

* * *

فلمَّا أدبَر النهارُ وَأقبلَ الليلُ، جِيءَ للخروفينِ بالْكَلأ[4] من هذا

---

(١) الوافرة: الألية العظيمة، ويقال كبش أليان إذا كان عظيم الألية.
(٢) هامته: رأسه.
(٣) الحَوْل: السنة.
(٤) الكلأ: العشب.

البرسيم[1] يَعْتلفانِه[2]، فأحسَّ الكبشُ أنَّ في الكلأ شيئاً لم يدرِ ما هو، وانقبضَتْ نفسُه لِمَا كانَتْ تنبسطُ إليهِ من قبل، وعَرَتهُ كآبةٌ[3] من روحِه، كأنَّما أدركَتْ هذه الروحُ أنه آخرُ رزقِهِ على الأرض، فانكسَر وظهرَ على وجهِهِ معنى الذبحِ قبلَ أنْ يُذبح، وعَافَ أن يَطْعَم، ورجَع كأوّلِ فِطامِهِ عن أمهِ لا يعرفُ كيف يأكل، ولا يتناولُ من أكلِه إلا أدنى تَناوُل.

وكأنَّما جَثَم الظلامُ على شحمِه ولحمِه؛ فإنه متى ثَقُلَ الهمُّ على نفسٍ من الأنفس، ثقُلَ على ساعتِها التي تكونُ فيها، فتطولُ كآبتُها ويطولُ وقتُها جميعاً. فأراد الكبشُ أنْ يتفرَّجَ مَّما بهِ، ويُنفّسَ عن صدرِهِ شيئاً، وكان الصغيرُ قد أنسَ إلى المكانِ والظلمة، وأقبل يعتلفُ ويخضِمُ الكَلأَ[4]، فقال له الكبش: أراكَ فارهاً يا ابْنَ أخي، كأنَّك لا تجدُ ما أجد؛ إني والله أعلمُ علماً لا تعلمُه، وإنّي لأحسُّ أنَّ القدرَ طريقُه علينا في هذهِ الليلة، فهو مُصْبِحُنا ما من ذلك بُدّ.

قالَ الصغير: أتعني الذئب؟

قال: ليتَهُ هو، فأنا لكَ به لو أنَّه الذئب؛ إنَّ صوفي هذا دِرْع منْ أظافره، وهو كالشبكةِ يَنْشَبُ فيها الظّفرَ ولا يتخلَّص، ومن قرنيَّ هذين تُرْسٌ ورُمح، فأنا واثقٌ من إحرازِ نفسي في قتلِه، ومَن أحرزَ نفسَه من عدّوهِ فذاكَ قتلُ عدوه، فإنْ لم يقتلْه فقد غَاظَه بِالهزيمة، وذاكَ عندَ الأبطالِ فنٌّ مِنَ القتل. وهذا القَرنُ الملتفُ الأعقدُ المذَرَّبُ كالسّنان[5]، لا يكادُ يراهُ الذئبُ حتى يعلم أنه حاطِمةُ عظامِه، فيَحْدُثُ له مِنَ الفزَعِ ما تنحلُّ به قوّتُه، فما يُواثِبُني إلا مُتَخاذِلًا، ولا يُقدِمُ عليّ إلا تَوَهُّمَ الذئبيَّة للخَروُفيَّة، فإنَّ أساسَ القوةِ والضعفِ كليهما في السُّوسِ والطبيعة، غيرَ أنَّه لا يعلمُ أني خرجْتُ من الخروفيةِ إلى الجاموسيّة...! فما يُعَلِّمُهُ ذلك إلا بَقْرُ بطِنهِ أو التطويحُ بهِ من فوقِ هذا القَرن، أقْذفُه قذفةً عاليةً تُلقيهِ من حَبالقٍ، فتدقُّ عظامَه وتحطمُ قوائمَه!

قال الصغير: فماذا تخشى بعدَ الذئب؟ إنْ كانَتِ العصا فهي إنما تضربُ منك الصوفَ لا الظهر.

---

(١) البرسيم: ضرب من الأعشاب يستعمل علفاً للحيوانات العشبية.

(٢) يعتلفانه: أي يتغذيان عليه.

(٣) عرته كآبة: أحسّ بالحزن.

(٤) يخضم الكلأ: يمضغه.

(٥) المذرّب كالسنان: المشرّع والمهيأ للقتال.

قال الكبش: ويحكَ! وأيّ خروفٍ يخشى العصا؟ وهي إنما تكونُ عصا مَنْ يَعلِفهُ ويَرعاه، فهي تنزلُ عليهِ كما تنزلُ على ابنِ آدمَ أقدارُ ربِّهِ، لا حطْماً ولكنْ تأديباً أو إرشاداً أو تهويلاً[1]؛ ومن قبْلها النعمةُ، وتكونُ معها النعمة، وتجيءُ بعدَها النعمة؛ أفبلغ الكفرُ ما يبلغُ كفْر الإنسانِ بنعمةِ ربِّه: إذا أنعم عليه أعرضَ ونأى[2] بجانبِه، وإذا مسَّه الشرُّ انطلقَ ذا صُراخٍ عريض؟

وكيف تراني (ويحَكَ) أخشى الذئبَ أوِ العصا، وأنا من سُلالةِ الكبشِ الأسديّ؟

قال الصغير: وما الكبشُ الأسديّ، وكيف علمْتَ أنك من نَجْلِه، ولا علْمَ لي أنا إلَّا هذا الكلأُ والعلفُ والماءُ والمَرَاحُ[3] والْمَغْدى؟

قال الكبش: لقد أدركْتُ أمي وهي نعجةٌ قَحْمةٌ[4] كبيرة، وأدركْتُ معها جَدتي وقد أفرطَ عليها الكِبرُ حتى ذهب فمُها، وأدركْتُ معهما جدّي وهو كبشٌ هَرِمٌ مُتقَدّدٌ أعجفُ[5] كأنَّه عظامٌ مُغطاة، فعنْ هؤلاءِ أخذْتُ وروَيتُ وحفظْت:

حدثَّني أمي، عن أبيها، عن أبيه، قالت: إنَّ فخرَ جنسِنا منَ الغنم يرجع إلى كبش الفِداء الذي فَدَى الله بهِ إسماعيلَ بْنَ إبراهيمَ عليهما السلام وكان كبشاً أبيضَ أقْرَنَ أعْينَ، اسمهُ حَرير.

(قال): واْعلم يا ابنَ أخي أنَّ مِمَّا اْنفردْتُ أنا بهِ منَ العلم فلم يُدركْهُ غيري، أن جدَّنا هذا كانَ مكسواً بِالحريرِ لا بِالصوف، فلذلك سُميَ حريراً...

(قالَتْ أمي): والمحفوظُ عندَ علمائِنا أنَّ ذاك هو الكبشُ الذي قَرَّبه هابِيلُ حين قَتلَ أخاه، لتتمَّ البليةُ على هذهِ الأرضِ بدمِ الإنسانِ والحيوانِ معاً.

(قالوا): فَتُقُبّلَ منه وأُرسِلَ الكبشُ إلى الجنةِ فبقي يرعَى فيها حتى كان اليومُ الذي همَّ فيهِ إبراهيمُ أنْ يذبَح ابنَه تحقيقاً لرؤيا النبوّة، وطاعةً لما ابتُلِيَ بهِ من ذلك الامتحان، وليُثْبِتَ أنَّ المؤمنَ بِالله إذا قَويَ إيمانُه لم يجزعْ من أمرِ اللّهِ ولو جَرّ السكّينَ على عُنُق ابنِهِ، وهو إنَّما يجرُّها على ابنهِ وعلى قلبه!

(قالت) فهذا هو فخر جنسِنا كلّه.

---

(١) تهويلاً: إخافة.

(٢) نأى: بعُد.

(٣) المراح: الحظيرة، حيث مبيت السائمة.

(٤) نعجة قحمة: طاعنة بالسن، مسنة.

(٥) أعجف: هزيل.

أمّا فخرُ سُلالتي أنا، فذاك ما حدثَتْني به جَدَّتي، ترويهِ عن أبيها، عن جَدِّها، وذاكَ حينَ توسَّمَتْ فيّ مَخايِلَ[1] البُطولة، وَرَجَتْ أنْ أحفظَ التاريخ. قالت: إن أصلَنا من دِمَشق، وإنه كانَ في هذِه المدينةِ رجلٌ سَبَّاع، قدِ ٱتخذَ شِبْلَ أسدٍ فربَّاه وراضَه حتى كبر، وصار يطلب الخيل، وتأذّى بهِ الناس، فقيل للأمير[2]: هذا السبُعُ قد آذى الناس، والخيلُ تنفُر منه وتجدُ من ريحهِ ريحَ الموت، وهو ما يزالُ رابضاً ليلَه ونهارَه على سُدَّةٍ[3] بالقربِ من دارك. فأمَر فجاءَ به السبّاعُ وأدخلَه إلى القصر، ثم أمَر بخروفٍ مِمَّا اتُّخِذَ في مطبخهِ للذبح، وأدخلوه إلى قاعة، وجاءَ السبَّاعُ فأطلقَ الأسدَ عليه، واجتمعوا يرون كيف يَسطُو به ويفترسُه.

قالَتْ جَدَّتي: فحدّثَني أبي، قال: حدّثَني جَدُّكَ: أنَّ السبَّاع أطلقَ الأسدَ من ساجُورِهِ[4] وأرسلَه، فكانَتِ ٱلمعجزةُ التي لم يَفُزْ بها خروفٌ ولم تؤثَرْ قطّ إلا عن جَدِّنا، فإنَّه حَسِبَ الأسدَ خروفاً أجمَ لا قُرونَ له، ورأى دقةَ خَصرِه، وضُمورَ جنبيه، ورأى له ذيلاً كالألية المُفْرَغة الميتة، فظنَّهُ من مَهَازيلِ الغنَم التي قتلَها الْجَدب، وكان هو شَبْعان ريَّان، فما كَذبَ أنْ حَملَ على الأسدِ ونطَحه، فانهزَم السبُعُ مَّما أذهلَهُ[5] من هذه المفاجأةِ وحسِبَ جَدَّنا سَبُعاً قد زادَهُ الله أسلحةً من قرنيه، فاعتراهُ الخوفُ وأدبرَ لا يلوي[6]. وطمع جَدُّنا فيه فاتبعَه، وما زال يُطارِدهُ وينطحُه، والأسدُ يفرُّ من وجهِه ويدورُ حولَ البِرْكة، والقومُ قد غلبهمُ الضحك، والأميرُ ما يملكُ نفسَه إعجاباً وفخراً بِجَدِّنَا. فقال: هذا سبعٌ لئيم، خذوه فأخرجوه، ثمَّ ٱذبحوه، ثمَّ ٱسلُخوه. فأخِذ الأسدُ وذُبح، وأُعتِقَ جَدُّنا مِنَ الذبح، وكان لنا في تاريخ الدّنيا: إنسانِها وحيوانِها أثرانِ عظيمانِ؛ فجَدُّنا الأولُ كان فِداءَ لابن نبيّ، وجَدُّنا الثاني كان الأسدُ فداءه!

* * *

قال الصغير للكبش: قلْتَ: الذبح، والفداءُ منَ الذبح؛ فما الذبح؟

---

(١) مخايل: دلائل، ظواهر.

(٢) هذه القصة شهدها الأمير الأديب (أسامة بن منقذ: المتوفى سنة ٥٨٤هـ، وقصَّها في كتابه «الاعتبار»، والأمير المذكور في القصة هو (معين الدين) وزير شهاب الدين محمود.

(٣) السُدَّة: المرتفع من الأرض.

(٤) الساجور: سلسلة الأسد والكلب ونحوها.

(٥) أذهله: أدهشه.

(٦) لا يلوي: لا يلتفت.

قال الكبش: هذه السنَّةُ الجاريةُ بعدَ جَدِّنا الأعظم، وهي الباقيةُ آخرَ الدهر؛ فينبغي لكلٍّ مِنّا أن يكونَ فداءً لابن آدم!

قال الصغير: ابنُ آدمَ هذا الذي يخدُمُنا ويحتزُّ لنا الكلأ، ويقدّم لنا العلَف، ويمشي وراءنا فنسحبُه إلى هنا وههنا. . . .؟ تالله ما أظنُّ الدنيا إلّا قدِ انقلبَت، أوْ لا، فأنت يا أخا جَدّي. . . قد كبِرْتَ وخَرِفْتَ!

قال الكبش: ويحكَ يا أبله! متى تتحلَّلُ هذه العقدةُ التي في عقلِك؟ إنك لو علمْتَ ما أعلَم لَمَا اطمأنَّتْ بكَ الأرض، ولرَجَعْتَ مِنَ القَلقِ والاضطرابِ كحبةِ القمحِ في غِربالٍ يهتزُّ وينتفِض!

قال الصغير: أتعني ذلك الغربال وذلك القمحَ وما كان في القرية، إذْ تناولَتْ ربَّةُ الدارِ غِربالَها تنفُضُ بهِ قمحَها، فغافلْتُها ونطحْتُ الغِربالَ فانقلَب عن يدِها وانتثرَ الحبّ، فأسرعْتُ فيه ٱلتقاطاً حتى ملأت فمي قبلَ أنْ تُزيحَني المرأةُ عنه؟

فهزَّ الكبشُ رأسَه فِعْلَ مَن يريدُ الابتسامَ ولا يستطيعُه، وقال: أرأيْتَ حانوتَ القَصّاب، ونحن نمرّ اليومَ في السوق؟

قال: وما حانوتُ القصَّاب؟

قال: أرأيتَ ذلك السَّليخَ مِنَ الغنم البِيضِ المُعلَّقةِ في تلكَ المَعاليق، لا جِلْدَ عليها ولا صُوف، وليس لها أرؤسٌ ولا قوائم؟

قال الصغير: وما ذاك السَّليخ؟ إنه إن صح ما حدّثتني به عن أمِّك، فهذه غنمُ الجنة، تبيتُ ترعى هناك ثم تجيءُ إلى الأرض معَ الصبح، وإني لمترقبٌ شمسَ الغد، لأذهبَ فأراها وأملأ عينيَّ منها.

قال: اسمع أيها الأبله! إن شمس الغد ستشعُر بها من تحتِك لا من فوقِك. . لقد رأيْتُ أخي مذ كنْتُ جَذَعا مثَلك؛ ورأيْتُ صاحبَنا الذي كان يعلِفُه ويُسَمِّنُه قد أخذه، فأضجَعَه، فجَثَم على صدرِهِ شرّاً مِنَ الذئب، وجاءَ بشَفْرةٍ بيضاءَ لامعة، فجرَّها على حلقِه، فإذا دَمُه يَشْخَبُ ويتفجَّر، وجعلَ المسكينُ ينتفضُ ويَدْحَصُ برجلِه، ثم سَكَنَ وبَرِدَ؛ فقامَ الرجلُ فَفَصَلَ عنقَه، ثم نَخَسَ في جلدِه ونفخَه حتى تَطَبَّلَ ورجعَ كالقِربةِ التي رأيتَها في القَريةِ مملوءةً ماء فحسِبْتَها أمَّك؛ ثم شقّ فيه شقّاً طويلاً. ثم أدخلَ يَدهُ بينَ الجِلدِ والصّفَاق[1]، ثم كشَطَه[2] وسَحَفَ[3] الشَّحمَ

---

(١) الصّفاق: الجانب. (٢) كشط: أزال الجلد عن اللحم. (٣) سحف: كشط.

عن جنَبيه، فعاد المسكينُ أبيضَ لا جِلدَ له ولا صوفَ عليه، ثم بَقَر بطنَه وأخرَج ما فيه، ثم حطَم قوائمه، ثم شدّه فعلّقه فصارَ سَليخاً كغنمِ الجنة التي زعمْتَ! وهذا ـ أيُّها الأبله ـ هو الذبحُ والسلخ!

قال الصغير: وما الذي أحدثَ هذا كلَّه؟

قال: الشَّفرةُ البيضاءُ التي يسمونَها السّكين!

قال الصغير: فقد كانَتِ الشفرةُ عندَ حلقِهِ حِيالَ فمِهِ؛ فلماذا لم ينتزعْها فيأكلَها؟

قال الكبش: أيها الأبلهُ الذي لا يعلمُ شيئاً ولا يحفظُ شيئاً، لو كانت خضراءَ لأكلَها!

قال: وما خَطْبُ أنْ تجيءَ الشَّفرةُ على العنق، أفلم يكنِ الحبلُ في عنقِكَ أنت فجعلْتَ تجاذِبُ فيه الرجلَ حتى أعييتَه[1]، ولولا أني مشيتُ أمامَك لما انْقَدْتَ له؟

قال الكبش: ما أدري والله كيف أفهِّمُك أنَّ هذا كلَّه سيجري عليك، فسترى أموراً تُنكِرُها، فتعرف ما الذبحُ والسلخ، ثم تصيرُ أشلاءً[2] في القُدورِ تُضْرَم عليها النار، فيأكلُك ابنُ آدمَ كما تأكلُ أنْتَ هذا الكَلأ..!

قال الصغير: وماذا عليّ أن يأكلني ابنُ آدم، ألا تراني آكلُ العُشْب، فهل سمعْتَ عُوداً منه يقول: الرجُلُ والسكين، والذبحُ والسلخ...؟

قال الكبشُ في نفسِه: لَعَمري إن قوةَ الشبابِ في الشبابِ أقوى من حكمةِ الشيوخِ في الشيوخ، وما نَفْعُ الحكمةِ إذا لم تكن إلَّا رأياً له ما يمْضيه، كرأي الشيخِ الفاني، يرى بعقلِه الصوابَ حينَ يكونُ جسُمه هو الخطأَ مركَّباً في ضعفِه غَلطةً على غلطةٍ لا عُضواً على عضو...؟ وهل الرأيُ الصحيحُ للعالم الذي نعيش فيه إلا بالجسمِ الذي نعيشُ به؛ وما جَدْوَى[3] أنْ يعرفَ الكبيرُ حكمةَ الموت، وهو مِنَ الضعفِ بحيث تنكسرُ نفسُه للمرضِ الهيّن، فضلاً عنِ المرضِ المُعْضِل[4]، فضلاً عن المرض المُزْمِن، فضلاً عنِ الموتِ نفسِه؛ وما خَطَر أنْ يجهلَ الشبابُ تلك الحكمةَ، وهو من قوةِ النفسِ بحيث لا يُبالي الموتَ، فضلاً عنِ المرض؟

---

(١) أعييته: أتعبته.

(٢) الأشلاء: القطع.

(٣) جدوى: نفع، حاجة.

(٤) المرض المعضل: المرض القاتل الفتاك.

لو أُذنَ الشابُ منَ الفتيانِ بيومِ ٱنقطاعِ أجَلِهِ، وعلم أنه مُصْبِحُهُ أو مُمْسيه، لأمدّته نفسُه بأرواحِ السنينَ الطويلة، حتى لَيرى أنَّ صبحَ الغدِ كأنَّما يأتي من وراءِ ثلاثينَ أو أربعينَ سنة؛ فما يَتبيَّنُهُ إلا كالفكرِ المنِسيّ مضى عليه ثلاثونَ سنةً أو أربعون. ولو أُذِنَ الشيخُ بيومِ مَصْرَعِه، وأيقنَ أنَّ له مُهْلَةً إلى تمامِ الحَوْل، لطارَ به الذّعْرُ واستَفرَغَه الوجَلُ[1] من ساعتِه؛ ورأى يومَه البعيدَ أقربَ إليه مِنَ الصبح، وٱبتلتْه طبيعةُ جسمِه المختلّ بالوساوسِ[2] الكثيرة، تجتلبُها كما تجتلبُ الرياحَ صُدوعُ المنزلِ[3] الْخَرب. فذاك بالشبابِ يقبضُ على الزمن؛ فيعيشُ في اليومِ القصيرِ مثلَ العامِ رَخِياً ممدوداً؛ فهو رابِطٌ جَلْد؛ وهذا بالكِبَرِ يقبضُ الزمنُ عليه فيعيشُ في العامِ الطويلِ مثلَ اليومِ متلاحِقاً آخرهُ بأوّلِه، فهو قَلِقٌ طائر. ولا طبيعةَ للزمنِ إلا طبيعةُ الشعورِ به، ولا حَقيقةَ للأيامِ إلَّا ما تضعُهُ النفسُ في الأيام.

* * *

ثم إنَّ الكبشَ نظرَ فرأى الصغيرَ قد أخذتْهُ عينُه واستَثْقَلَ نوماً، فقال: هنيئاً لمن كان فيه سرُّ الأيامِ الممدودة. إنَّ هذا السرَّ هو كسِرِّ النباتِ الأخضر، لا يُقْطَعُ من ناحيةٍ إلا ظهرَ من غيرِها ساخراً هازئاً، قائلاً على المصائب: هأنذا...

فهذا الصغيرُ ينامُ ملْءَ عينيهِ والشفرةُ محدودةٌ له، والذبحُ بعدَ ساعاتٍ قليلة؛ كأنما هو في زمنين؛ أحدُهما من نفسِه، فبه ينامُ، وبه يلهو، وبه يسخَرُ مِنَ الزمنِ الآخرِ وما فيه وما يجلِبُهُ.

إنَّ الألمَ هو فهمُ الألمِ لا غير. فما أقبحَ عِلمَ العقلِ إذا لم يكنْ معه جهلُ النفسِ بهِ وإنكارُها إيَّاه! حَسْبُ العلمِ والعلماءِ في السخريةِ بهم وبهِ هذه الحقيقةُ مِنَ النفس. أنا لو ناطحْتُ كبشاً من قُرومِ الكِباش[4]، ووقفْتُ أفكرُ وأدبّرُ وأتأملُ، وأعتبرُ شيئاً بشيء - ذهب فكري بقوتي، واسترخى عَصَبِي، وتحلَّل غضبِي كلُّه، وكان العلمُ وبالاً عليّ؛ فإنَّ حاجتي حينئذٍ إلى الروحِ وقواها وأسبابِها أضعافُ حاجتي إلى ٱلعلم. والروحُ لا تعرفُ شيئاً اسمُه الموتُ، ولا شيئاً اسمُه الوجَع؛ وإنما تعرفُ حظَّها مِنَ اليقين، وهدوءَها بهذا الحظّ، واستقرارَها مؤمنةً ما دامَتْ هادئةً مستيْقِنة.

---

(١) استفرغه الوجل: ذهب بعقله الخوف.
(٢) الوساوس: الهموم.
(٣) صدوع المنزل: شقوقه.
(٤) قروم الكباش: الفحول الممتلئة شهوة وقوّة.

وقد والله صَدَقَ هذا الجِذْعُ الصغير؛ فما على أحدِنا أنْ يأكلَه الإنسان؟ وهلْ أكْلُنا نحن هذا العُشبَ، وأكلُ الإنسانِ إيَّانا، وأكلُ الموتِ للإنسانِ ـ هل كلُّ ذلك إلا وضعٌ للخاتمةِ في شكلٍ مِنْ أشكالِها؟

يُشبهُ والله إنْ أنا احتججْتُ على الذبحِ واغتمْمتُ له، أنْ أكونَ كخروفٍ أحمقَ لا عقلَ له، فظنّ إطعامَ الإنسانِ إياه منْ بابِ إطعامِهِ ابنَه وابنتَه وامرأتَه ومن تجبُ عليه نفقتُه! وهل أوجبَ نفقتي على الإنسانِ إلا لحمي؟ فإذا ٱستحقّ له فلعمري ما ينبغي لي أن أزعمَ أنَّهُ ظلمَني اللحمَ إلا إذا أقرَرْتُ على نفسي بَدياً أني أنا ظلمْتُه العَلَفَ وسرقتُه منه.

كلُّ حيّ فإنَّما هو شيءٌ للحياةِ أعْطِيَها على شرطِها، وشرطُها أن تنتهي، فسعادتُه في أنْ يعرفَ هذا ويقرّرَ نفسَه عليه حتى يستيقنَه، كما يستيقنُ أن المطرَ أولُ فصلِ الكِلأ الأخضر. فإذا فعل ذلك وأيقنَ وٱطمأنّ، جاءَتِ النهايةُ متمِّمَةً له لا ناقصةً إيَّاه، وجَرَتْ معَ العمرِ مجَرًى واحداً وكانَ قد عرفَها وأعَدَّ لها. أما إذا حسِبَ الحيُّ أنَّه شِيءٌ في الحياة، وقد أعطيَها على شرطِهِ هو، من تَوَهُّمِ الطمعِ في البقاءِ والنعيم، فكلُّ شقاءِ الحيِّ في وهمِهِ ذاك، وفي عملِهِ على هذا الوهم؛ إذ لا تكونُ النهايةُ حينئذٍ في مجيئها إلَّا كالعقوبةِ أُنزِلَتْ بالعمرِ كلّه، وتجيءُ هادمةً منغِّصة، ويبلغُ من تنكيدِها أن تسبِقَها آلامُها؛ فتؤلِمَ قبلَ أنْ تجيء، شرّاً مما تُؤلمُ حينَ تجيء!

لقد كان جَدّي ـ واللّهِ ـ حكيماً يومَ قال لي: إنَّ الذي يعيشُ مترقباً النهايةَ يعيشُ مُعِدّاً[1] لها؛ فإن كان مُعِدّاً لها عاشَ راضياً بها، فإن عاشَ راضياً بها كان عمرُه في حاضرٍ مستمر، كأنَّه في ساعةٍ واحدةٍ يشهدُ أولَها ويُحسُّ آخرَها، فلا يستطيعُ الزمنُ أنْ ينغّصَ عليه ما دامَ ينقادُ معه وينسجمُ فيه، غيرَ محاولٍ في الليلِ أنْ يُبعِدَ الصبح، ولا في الصبحِ أنْ يُبعد الليلَ. قال لي جَدّي: والإنسانُ وحدَه هو التَّعِسُ الذي يحاولُ طردَ نهايتِه، فيشقَى شقاءَ الكبشِ الأخرقِ الذي يُريُد أنْ يطردَ الليل، فيبيتُ ينطحُ الظلمةَ المُتدَجّيةَ على الأرض، وهو لحمقِه يظنُّ أنَّهُ ينطحُ الليلَ بقرنيهِ ويزحزِحُه...!

وكم قال لي ذلك الجَدُّ الحكُيمُ وهو يعِظُني: إنَّ الحيوانَ مِنَّا إذا جمعَ على

---

(١) مُعِدًّا: مستعدًّا.

نفسِه همّاً واحداً، صارَ بهذا الهمِّ إنساناً تَعِساً شقيّاً، يُعطَى الحياةَ فيقلِّبُها بنفسِه شيئاً كالموت، أو موتاً بلا شيء. . . !

* * *

وتحرَّكَ الصغيرُ من نومِه، فقال له الكبش: إنه ليقعُ في قلبي أنَّكَ الساعةَ كنْتَ في شأنٍ عظيم، فما بالُكَ منتفخاً وأنت هٰهنا في المنْحَرِ لا في المرعَى!

قال الصغير: يا أخا جَدّي. . . لقد تحققْتُ أنَّكَ هَرِمْتَ وخَرِفْتَ، وأصبحْتَ تَمُجُّ اللُّعابَ والرأي. . . !

قال الكبش: فما ذاك ويلك؟

قال: إنك قلْتَ: إنَّ هذا الإنسانَ غادٍ علينا بالشَّفْرةِ البيضاء، ووصفْتَ الذبحَ والسلخَ والأكل؛ وأنا الساعةَ قد نمْتُ فرأيْتُ فيما أرى، أنني نطحْتُ ذاك الرجلَ الذي جاءَ بنا إلى هنا، وهِجْتُ به حتى صرعْتُه، ثم إنِّي أخذْتُ الشفرةَ بأسناني، فثلمْتُه في نحرِهِ حتى ذبحْتُه، ثم افتلَذْتُ[1] منه مُضْغةً فلُكْتُها في فمي؛ فما عرفْتُ ـ واللَّهِ ـ فيما عرفْتَ لَخناً ولا عَفَناً في الكلأ هو أقبحُ مذاقاً منه!

إنَّ الإنسانَ يستطيبُ لحمَنَا، ويتغذَّى بنا، ويعيشُ علينا: فما أسعدَنا أنْ نكونَ لغيرِنا فائدةً وحياة، وإذا كان الفَناءُ سعادةً نُعطيها من أنفسِنا، فهذا الفناءُ سعادةٌ نأخذُها لأنفسِنا. وما هلاكُ الحيّ لقاءَ منفعةٍ له أو منفعةٍ منه إلا انطلاقَ الحقيقةِ التي جعلتْهُ حيّاً، صارَتْ حرةً فانْطَلقَتْ تعملُ أفضلَ أعمالِها.

قال الكبير: لقد صدقْتَ ـ واللَّهِ ـ، ونحن بهذا أعقلُ وأشرفُ مِنَ الإنسان؛ فإنَّهُ يقضِي العمرَ آخذاً لنفسِه، متكالباً[2] على حظِّها، ولا يُعطِي منها إلا بالقَهرِ والغَلَبةِ والخوفِ. تعالَ أيُّها الذابح، تعالَ خذْ هذا اللحمَ وهذا الشحْم؛ تعالَ أيُّها الإنسانُ لِنُعطِيَك؛ تعالَ أيُّها الشحاذ. . . !

---

(١) افتلذ: قطع قطعة.

(٢) متكالباً: يسعى حريصاً عليها بكلّ ما أوتي من قوّة.

الطفولتان

(عصمت) ابنُ فلان باشا طفلٌ مُتْرَفٌ يكادُ ينعصرُ لِيناً، وتراهُ يَرِفُّ رَفيفاً مِمّا نشأَ في ظلالِ العزّ، كأنَّ لروحِهِ مِنَ الرِّقةِ مثلَ ظلِّ الشجرةِ حولَ الشجرة. وهو بين لِداتهِ[1] منَ الصّبيانِ كالشَّوكةِ الخضراءِ في أُملودِها[2] الريّان[3]، لها منظرُ الشوكةِ؛ على مِجسَّةٍ لينةٍ ناعمةٍ تُكَذِّبُ أنَّها شوكةٌ إلَا أنْ تَيْبسَ وتَتَوقَّح.

وأبوهُ «فلان» مديرٌ لمديريةِ كذا، إذا سُئلَ عنه ابنُه قال: إنه مديرُ المديرية. لا يكادُ يعدو هذا التركيب، كأنَّه من غُرورِ النعمةِ يأبى إلَّا أنْ يجعلَ أباه مديراً مرَّتين... وكثيراً ما تكونُ النعمةُ بذيئةً وَقَاحاً سيِّئةَ الأدبِ في أولادِ الأغنياء، وكثيراً ما يكون الغِنى في أهلِهِ غِنى مِنَ السيئاتِ لا غير!

وفي رأي (عصمت) أنَّ أباه من عُلُوّ المنزلةِ كأنَّهُ على جَناحِ النَّسرِ الطائرِ في مَسْبَحِهِ إلى النجم، أما آباءُ الأطفالِ مِنَ الناسِ فهم عندَهُ من سُقوطِ المنزلةِ على أجنحةِ الذبابِ والبَعوض!

ولا يغدو ابنُ المديرِ إلى مدرستِهِ ولا يَتروَّحُ منها إلا وراءَهُ جُنْديٌّ يمشي على أثرِهِ في الغَدْوةِ والرَّوْحةِ إذْ كانَ ابنَ المدير، أيْ ابنَ القوّةِ الحاكمة، فيكونُ هذا الجنديُّ وراءَ الطفلِ كالمَنْبَهةِ له عندَ الناس، تُفْصِحُ شارتُهُ العسكريةُ بلغاتِ السابِلَةِ[4] جَمعَاءَ أنّ هذا هو ابنُ المدير. فإذا رآه العربيّ أو اليونانيُّ، أو الطِّليانيُّ أو الفرنسيُّ، أو الإنجليزيُّ أو كائنٌ مَن كانَ من أهلِ الألسنةِ المتنافِرةِ التي لا يَفهَمُ لسانٌ منها عن لسانٍ ـ فهموا جميعاً من لغةِ هذه الشارةِ أنَّ هذا هو ابنُ المدير؛ وأنَّهُ مِنَ الجنديّ الذي يَتْبعُهُ كالمادةِ مِنَ القانونِ وراءَها الشرح...!

ولقد كان يجبُ لابنِ المديرِ هذا الشرفُ الصّبيانيّ. لو أنَّهُ يومَ وُلِد لم يولَد

---

(١) لداته: أترابه وأصدقاؤه ورفاقه.

(٢) أملودها: غصنها، فننها.

(٣) الرّيان: اللدن، الطريء.

(٤) السابلة: المارّة.

ابنَ ساعتِه كأطفالِ الناس، بل وُلِدَ ابنَ عشرِ سنينَ كاملةٍ لتشهَد له الطبيعةُ أنه كبيرٌ قدِ انْصَدعتْ[1] به مُعجزة! وإلا فكيف يمشي الجنديُّ من جنودِ الدولةِ وراءَ طفلٍ ويخدمُهُ ويَنْصاعُ لأمرِه[2]؛ وهذا الجنديُّ لو كان طَريدَ هَزيمةٍ قد فرَّ في معركةٍ منَ معارك الوطن، وأريدَ تخليدُه في هزيمتِهِ وتخليدُها عليه بالتصوير ـ لما صُوّرَ إلا جندياً في شارتِهِ العسكريةِ منقاداً لمثلِ هذا الطفلِ الصغيرِ كالخادم؛ في صورةٍ يُكتَب تحتها: «نُفَايَةٌ عسكرية!».

* * *

ليس لهذا المنظرِ الكثيرِ حدوثُه في مصرَ إِلَّا تأويلٌ واحد: هو أنَّ مكانَ الشخصياتِ فوقَ المعاني، وإِنْ صَغُرتْ تلك وجَلَّت هذه؛ ومِن هنا يكذبُ الرجلُ ذو المنصب، فيُرفَع شخصُه فوقَ الفضائلِ كلِّها؛ فيكْبُر عن أن يكذبَ فيكونَ كَذِبُه هو الصدق، فلا يُنكَرُ عليه كَذِبُه أيْ صِدْقُه. . .! ويخرجُ من ذلك أنْ يتقرَر في الأمةِ أنَّ كَذِبَ القوّةِ صِدْقٌ بالقوّة!

وعلى هذِهِ القاعدةِ يُقاسُ غيرُها من كلِّ ما يُخذَلُ فيهِ الحقّ. ومتى كانتِ الشخصياتُ فوقَ المعاني الساميةِ طَفِقَتْ[3] هذِهِ المعاني تموجُ مَوْجَها محاوِلةً أن تعلو، مُكْرَهَةً على أن تنزل؛ فلا تستقيمُ على جهةٍ ولا تنتظمُ على طريقة؛ وتُقْبِلُ بالشيءِ على موضعِه، ثم تَكُرُّ كَرَّها فتُدبِرُ بِهِ إلى غيرِ موضعِه، فتضلُّ كلُّ طبقةٍ منَ الأمةِ بكُبرائها، ولا تكونُ الأمةُ على هذه الحالةِ في كلِّ طبقاتِها إِلَّا صِغاراً فوقَهم كبارُهم؛ وتلك هي تهيئةُ الأمةِ للاستعبادِ متى ٱبْتُلِيَتْ بالذي هو أكبرُ من كبارِها؛ ومن تلك تَنشأُ في الأمةِ طبيعةُ النفاقِ يحتمي بهِ الصِّغَرُ من الكِبَر، وتنتظمُ به أُلْفَةُ الحياةِ بينَ الذِّلةِ والصَّولة[4]!

* * *

وتخلَّفَ الجنديُّ ذاتَ يوم عن موعدِ الرَّواح مِنَ المدرسة، فخرج (عصمت) فلم يجدْه، فبدا له أن يتسكَّعَ[5] في بعضِ طرقِ المدينةِ لِينطلقَ فيه ابنُ آدمَ لا ابنُ

---

(١) انصدغت به المعجزة: أتت به المعجزة إلى الوجود.

(٢) ينصاع لأمره: يطيعه فيما يأمره به.

(٣) طفق: شرع، بدأ.

(٤) الصولة: الغلبة والقهر.

(٥) يتسكّع: يتجوّل في الشوارع على غير هدى.

المدير، وحنّ حنينَه إلى المغامرةِ في الطبيعة، ولبسَتِ الطرقُ في خيالِهِ الصغيرِ زينتَها الشعريةَ بأطفالِ الأزقةِ يلعبونَ ويَتهوَّشون ويَتعابَثون ويتشاحنون[1]، وهم شتَّى وكأنَّهم أبناءُ بيتٍ واحدٍ مسَّتْ بكلٍّ منْ كلِّ رَحِمٌ، إذ لا ينتسبونَ في اللهوِ إلّا إلى الطفولةِ وحدَها.

وانساقَ (عصمت) وراءَ خيالِه، وهرَبَ على وجهِهِ من تلكَ الصورةِ التي يمشي فيها الجنديّ وراءَ ابنِ المدير، وتَغَلْغَلَ في الأزِقَّةِ[2] لا يُبالي ما يعرفُهُ منها وما لا يعرفُه، إذْ كان يسيرُ في طرقٍ جديدةٍ على عينهِ كأنَّما يَحلُمُ بها في مدينةٍ من مدنِ النوم.

وانْتهى إلى كَبْكَبَةٍ[3] مِنَ الأطفالِ قدِ استجمعوا لشأنِهِمُ الصبيانيّ، فانْتَبذَ[4] ناحيةً ووقفَ يُصغي إليهم متهيّباً أنْ يُقْدِمَ، فاتَّصلَ بسمعِه ونظرِهِ كالجبان، وتسمَّعَ فإذا خبيثٌ منهم يعلّمُ الآخرَ كيف يضربُ إذا اعتدَى أو اعتُدِيَ عليه، فيقول له: اضربْ أيْنَما ضرَبْت، من رأسِه، من وجهِه، منَ الْحُلقوم، من مَرَاقِّ البطن؛ قال الآخر: وإذا مات؟ فقال الخبيث: وإذا مات فلا تقُلْ إني أنا علَّمتُك...!

وسمع طفلاً يقول لصاحبه: أمَا قلْتُ لك: إنه تعلَّمَ السرقةَ من رؤيتِهِ اللصوصَ في السِّيما؟ فأجابَهُ صاحبُه: وهل قال له أولئك اللصوصُ الذين في السيّما كُنْ لصًّا واعملْ مثلَنا؟

وقام منهم شيطان فقال: يا أولادَ البلد، أنا المدير! تعالَوْا وقولُوا لي: «يا سعادةَ الباشا، إنَّ أولَادنا يُريدونَ الذهابَ إلى المدارس، ولكنَّا لا نستطيعُ أنْ ندفعَ لهمُ المصروفات..» فقالَ الأولادُ في صوتٍ واحد: «يا سعادةَ الباشا، إنَّ أولادَنا يُريدونَ الذهابَ إلى المدارس، ولكنَّا لا نستطيعُ أن ندفَعَ لهمُ المصروفات» فردّ عليهم (سعادته): اشتروا لأولادِكم أحذيةً وطرابيشَ وثياباً نظيفة، وأنا أدفعُ لهمُ المصروفات.

فنظرَ إليه خبيثٌ منهم وقال: يا سعادةَ المدير، وأنت فلِماذا لم يشترِ لك أبوك حذاء؟

---

(١) يتهوّشون: يتشاحنون: يتشاجرون مع بعضهم.

(٢) تغلغل في الأزقة: توغّل.

(٣) كبكبة: كوكبة، جماعة.

(٤) انتبذ ناحية: انزوى في ناحية.

وقال طفلٌ صغير: أنا ابنُك يا سعادةَ المدير، فأَرسلْني إلى المدرسةِ وقتَ الظهرِ فقط...!

* * *

وكان (عصمت) يسمعُ ونفسُه تعتزُّ بإحساسِها، كالورقةِ الخضراءِ عليها طَلُّ الندى، وأخذَ قلبُه يتفتَّح في شعاعِ الكلامِ كالزهرةِ في الشمس؛ وسَكِرَ بما يسكَرُ بهِ الأطفالُ حين تُقدّمُ لهمُ الطبيعةُ مكانَ اللهوِ مُعَدًّا مهيَّأً، كالحانةِ ليسَ فيها إلا أسبابُ السّكرِ والنَّشوة، وتمامُ لذتِّها أنَّ الزمنَ فيها منسيّ، وأنَّ العقلَ فيها مُهمَل...

وأحسّ ابنُ المديرِ أنَّ هذه الطبيعةَ حين ينطلقُ فيها جماعةُ الأطفالِ على سَجيّتِهم وسجيَّتِها[1] ـ إنما هي المدرسةُ التي لا جُدرانَ لها، وهي تربيةُ الوجودِ للطفلِ تربيةً تتناوَلُهُ من أدقّ أعصابِهِ فتُبَدِّدُ قواهُ ثم تجمعُها له أقوى ما كانت، وتُفْرِغُهُ منها ثم تملؤُهُ بما هو أتمّ وأزيدُ وبذلكَ تُكْسِبهُ نموَ نشاطِه، وتُعلّمُهُ كيف ينبعِثُ لتحقيقِ هذا النشاط، فتَهديهِ إلى أن يُبدعَ بنفسِه ولا ينتظرَ مَنْ يُبدعُ له، وتجعلُ خُطاه دائماً وراءَ أشياءَ جديدة، فتُسدّدُهُ من هذا كلّهِ إلى سرِّ الإبداع والابتكار، وتُلقيّه العِلمَ الأعظمَ في هذه الحياة، عِلمَ نَضْرةِ نفسهِ وسرورِها ومرَحِها، وتطبعُه على المزاجِ المتطَلّقِ المتهلّلِ المتفائل، وتَتدَفقُ به على دنياه كالفَيَضَانِ في النهر، تفورُ الحياةُ فيهِ وتفورُ به، لا كأطفالِ المدارسِ الخامدينَ، تعرفُ للواحدِ منهم شكلَ الطفلِ وليسَ له وجودُهُ ولا عالَمُه، فيكونُ المسكينُ في الحياةِ ولا يجدُها، ثم تراهُ طفلاً صغيراً، وقد جمعوا له همومَ رجلٍ كامل!

ودبَّت روحُ الأرضِ دبيبَها في (عصمت)، وأَوْحَتْ إلى قلبِه بأسرارِها، فأدركَ من شعورِهِ أنَّ هؤلاءِ الأغمارَ[2] الأغبياءَ مِنْ أولادِ الفقراءِ والمساكين، هـمُ السعداءُ بطفولتِهم، وأنّه هو وأمثالُه هُمُ الفقراءُ والمساكِينُ في الطفولة؛ وأنَّ ذلك الجندي الذي يمشي وراءَه لتعظيمِه إنَّما هو سجن؛ وأنَّ الألعابَ خيرٌ منَ العلوم، إذْ كانت هي طِفْلِيَّةَ الطفلِ في وقتِها، أما العلومُ فرُجولةٌ مُلزَقَةٌ به قبلَ وقتِها تُوقّرُه وتحوُّلُهُ عن طباعِهِ، فتقتلُ فيهِ الطفولةَ وتهدمُ أساسَ الرجولة، فينشأُ بينَ ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه، ويكونُ في الأولِ طفلاً رجلاً، ثم يكونُ في الآخرِ رجلاً طفلاً.

---

(١) السجية: الطبيعة التي جُبِل عليها المرء.

(٢) الأغمار: مفرده غمر، وهو الطفل الغرّ والجاهل.

وأحسّ مِمَّا رأى وسمَع أنَّ مدرسةَ الطفلِ يجبُ أنْ تكونَ هي بيتَه الواسعَ الذي لا يتحرّجُ أنْ يصرخَ فيه صُراخَه الطبيعيّ، ويتحرَّكَ حركتَه الطبيعيّة، ولا يكونَ فيه مدرسون ولا طَلَبة، ولا حاملو العصِيّ منَ الضبَّاط؛ بل حقُّ البيتِ الواسعِ أنْ تكونَ فيه الأبوّةُ الواسعة، والأخوّةُ التي تَنفسِحُ لِلْمئات؛ فيمرُّ الطفلُ المتعلمُ في نشأتِهِ من منزلٍ إلى منزلٍ إلى منزل، على تدريجٍ في التوسّعِ شيئاً فشيئاً، منَ البيت، إلى المدرسة، إلى العالم.

* * *

وكان (عصمت) يحلمُ بهذه الأحلام الفلسفيّة، وطفولتُهُ تَشِبّ وتسترجِل، ورَخاوتُه تشتدُّ وتتماسكُ؛ وكانَتْ حركاتُ الأطفالِ كأنها تُحرّكُهُ من داخِلِه، فهو منهم كالطفلِ في السيما حينَ يشهدُ المتلاكمين والمتصارعين، يَستطيرُه الفرحُ، ويتوثّب فيهِ الطفلُ الطبيعيُّ بمرَحِهِ وعُنْفُوانِه، وتتقلَّصُ عضَلاتُه، ويتكَشَّفُ جِلْدُه، وتجتمعُ قوتُه؛ حتى كأنه سيُظاهرُ أحدَ الخصمينِ ويَلكمُ الآخرَ فيُكَوّرُه ويصرعُه، ويفُضُّ معركةَ الضربِ الحديديّ بضربتِهِ اللينةِ الحريرية..!

فما لبثَ صاحبُنا الغريرُ الناعمُ أنْ تخشَّن، وما كذّبَ أنِ اْقتحم، وكأنَّما أقبلَ على روحِه الشارعُ والأطفالُ ولهوهُم وعبثُهم، إقبالَ الجوّ على الطيرِ الحبيسِ المعلَّقِ في مسمارٍ إذا انفرجَ عنه القفص؛ وإقبالَ الغابةِ على الوحشِ القَنيصِ إذا وثبَ وثبةَ الحياةِ فطارَ بها؛ وإقبالَ الفلاةِ على الظَّبي الأسيرِ إذا ناوَصَ[1] فأفلَتَ مِنَ الحِبلة.

وتقدم فادغَمَ[2] في الجماعةِ وقال لهم: أنا ابنُ المدير. فنظروا إليه جميعاً، ثم نظرَ بعضهُم إلى بعض، وسَفَرتْ[3] أفكارُهم الصغيرةُ بَين أعينِهم، وقال منهم قائل: إن حذاءَه وثيابَه وطربوشَه كلَّها تقول إنَّ أباهُ المدير.

فقال آخر: ووجهُه يقول إنَّ أمَّهُ امرأةُ المدير....

فقال الثالث: ليسَتْ كأمّك يابعْطيطي ولا كأم جُعْلُص[4]!

قال الرابع: يا ويلك لو سمع جُعلص، فإن لَكَماتِه حينئذٍ لا تتركُ أمّك تعرفُ وجهَك مِنَ القفا!

قال الخامس: ومن جُعلصُ هذا؟ فليأتِ لأرِيَكم كيف أُصارِعُه، فأجتذبه

---

(١) ناوص: رفع رأسه وتحرك للجري.
(٢) ادغم في الجماعة: انضم إليهم.
(٣) سفرت: بدت، ظهرت.
(٤) للعامة أسماء ونسب غريبة كهذه.

فأعصِرُه بين يديّ، فأعتقلُ رِجلَه برجلي، فأدفعُه، فيتخاذل، فأعرُكُه، فيخِرُّ على وجهِه؛ فأسمّره في الأرضِ بمسار!

فقال السادس: هاها! إنَّك تصفُ بأدقِّ الوصفِ ما يفعلُه جُعلصُ لو تناولَك في يدِهِ. . . !

فصاحَ السابع: ويلَكم! هاهو ذا. جُعلص، جُعلص، جُعلص!

فتطَايَر الباقونَ يميناً وشِمالاً كالوَرقِ الجافّ تحت الشجرِ ضرَبَتْهُ الريحُ العاصف. وقهقهَ الصبيُّ من ورائِهم، فثابوا إلى أنفسِهم وتراجعوا. وقال المُسْتَطيلُ منهم: أما إنِّي كنْتُ أُريدُ أنْ يعدوَ جعلصُ ورائي، فأستطرِدُ إليه قليلاً أُطمِعُه في نفسي، ثم أرتدُّ عليه فآخذُه كما فعل «ماشيست الجبار» في ذلك المنظرِ الذي شاهدْناه.

وقهقهَ الصبيانُ جميعاً. . . . ! ثم أحاطوا (بعصمت) إحاطةَ العشّاقِ بمعشوقةٍ جميلة، يحاولُ كلٌّ منهم أنْ يكونَ المقربَ المخصوصَ بالحظْوة، لا من أجلِ أنَّهُ ابنُ المدير فحسْبُ، ولكن من أجل أنَّ ابنَ المديرِ تكونُ معه القروش. . . فلو وجدَتِ القروشُ معَ ابن زبَّالٍ لما منعه نسبُه أن يكون أميرَ الساعةِ بينهم إلى أن تنفَدَ قروشُه فيعودَ ابن زبال. . . !

وتنافسوا في (عصمت) وملاعبتِه والاختصاصِ به، فلو جاءَ المديرُ نفسُه يلعبُ مع آبائِهم ويركبُهم ويركبونه، وهم بين نجارٍ وحداد، وبنّاءٍ وحمّال، وحوذيٍّ وطبَّاخ؛ وأمثالِهم من ذوي المهنةِ المُكْسِبَةِ الضئيلة ـ لكانَتْ مطامعُ هؤلاء الأطفالِ في ابن المدير، أكبرَ من مطامعِ الآباءِ في المدير.

وجرتِ المنافسةُ بينَهم مجراها، فأنقلبت إلى مُلاحاة[1]، ورجَعتْ هذه الملاحاةُ إلى مشاحنة، وعاد ابنُ المدير هَدَفاً. للجميع يُدافعونَ عنه وكأنَّما يعتدونَ عليه، إذ لا يقصدُ أحدٌ منهم أحداً بالغيظِ إلا تَعمَّدَ غيظَ حبيبِه، ليكونَ أنكأَ له وأشدَّ عليه!

وتظاهرَوا بعضُهم على بعض، ونشأتْ بينهمُ الطوائل، وأفسدَهم هذا الغنيُّ المتمثلُ بينهم. وياما أعجبَ إدراكَ الطفولةِ وإلهامَها! فقدِ اجتمعَتْ نفُوسهم على رأي واحد، فتحولوا جميعاً إلى سفاهةٍ واحدةٍ أحاطَتْ بابنِ المدير، فخاطره أحدُهم في اللعبِ فَقمرَه[2]، فأبى إلا أنْ يعلوَ ظهرَه ويركبَه؛ وأبى عليه ابنُ المدير

---

(١) الملاحاة: الجدال.

(٢) قمره: خسّره في المقامرة.

ودافَعه، يرى ذلك ثَلْماً في شرفِهِ ونسبِه وسَطوةِ أبيه؛ فلم يكدْ يعتلُّ بهذه العلةِ ويذكُرُ أباه ليعرّفَهم آباءَهم. . . هاجت حتّى كبرياؤُهم، وثارَتْ دفائنُهم، ورقصَتْ شياطينُ رؤوسِهم؛ وبذلك وضَع الغبيُّ حِقدَ الفقرِ بإزاءِ سُخريةِ الغِنى؛ فألقى بينهم مسألةَ المسائلِ الكبرى في هذا العالم، وطرَحَها للحلّ. . . . !

وتَنفّشُوا[١] للصَّولةِ عليه، فسخِرَ منه أحدُهم، ثم هزأ بهِ الآخر، وأخرجَ الثالثُ لسانَه؛ وصدمَه الرابعُ بمنكبِه، وأفحشَ عليه الخامس؛ ولكَزهُ السادس؛ وحثا السابعُ في وجهِه التراب!

وجهِدَ المسكينُ أنْ يفرَّ من بينِهم فكأنَّما أحاطوه بسبعةِ جُدرانٍ فبطَلَ إقدامُه وإحجامُه، ووقفَ بينَهم ما كتبَ الله. . . ثم أخَذَتْه أيديهم فانجدَل على الأرضِ، فتجاذبُوه يُمرّغونَه في التراب!

وهم كذلك إذِ انقلب كبيرُهم على وجهِه، وَانكفأَ الذي يليه، وأُزيحَ الثالث، ولُطِمَ الرابعُ، فنظروا فصاحوا جميعاً: «جُعْلُص، جعلص!» وتواثبوا يشتدُّون هَرباً. وقام (عصمت) يَنْتَخِلُ الترابُ من ثيابِه وهو يبكي بدمعِه، وثيابُه تبكي بترابِها. . . ! ووقفَ ينظرُ هذا الذي كشفَهم عنه وشرَّدَتْهم صَوْلتُه، فإذا جُعلصُ وعليه رَجَفَانٌ مِنَ الغضب، وقد تَبرْطمَتْ شفتُه، وتَقبَّضَ وجهُه، كما يكونُ «ماشيست» في مَعاركِهِ حين يدَفعُ عنِ الضعفاء.

وهو طفل في العاشرةِ من لدات (عصمت)، غير أنه مُحْتَنكٌ في سنّ رجلٍ صغير؛ غليظٌ عَبْلٌ شديدُ الجِبْلَةِ متراكِبٌ بعضُه على بعض[٢]، كأنَّه جِنّيّ مُتقاصِرٌيَهُمُ أنْ يطولَ منه المارد، فأنِسَ به (عصمت)، واطمأنَّ إلى قوّتِهِ، وأقبلَ يشكو له ويبكي!

قال جعلص: ما اسمُك؟

قال: أنا ابن المدير. . . !

قال جعلص: لَا تَبْكِ يا ابْنَ المدير. تعلَّمْ أنْ تكون جَلْداً[٣]، فإن الضربَ ليس بذُلٍّ ولا عار، ولكنَّ الدموعَ هي تجعلُه ذلّاً وعاراً؛ إنَّ الدموعَ لَتجعلُ الرجلَ أنثى. نحن يا ابنَ المديرِ نعيشُ طولَ حياتِنا إمَّا في ضربِ الفقرِ أو ضربِ الناسِ،

---

(١) تنافشوا للصولة: تهيأوا للمبارزة.

(٢) أي شديد القوّة، مفتول العضلات، مكتنز اللحم.

(٣) الجلْد: القوي الصبور القادر على احتمال الأذى.

هذا من هذا؛ ولكنَّك غنيّ يا ابنَ المدير، فأنتَ كالرغيفِ (الفِينو) ضخمٌ مُنتفخٌ، ولكنَّهُ ينكسرُ بلمْسة، وحَشوُهُ مثلُ القطن!

ماذا تتعلمُ في المدرسةِ يا ابنَ المديرِ إذا لم تعلمْك المدرسةُ أن تكونَ رجلاً يأكلُ مَنْ يريدُ أكلَه؛ وماذا تعرفُ إذا لم تكنْ تعرفُ كيف تصبرُ على الشرِّ يومَ الشرِّ، وكيف تصبرُ للخيرِ يومَ الخير، فتكونَ دائماً على الحالتينِ في خير؟

قال عصمت: آهِ لو كان معي العسكري!

قال: جعلص: ويحكَ؛ لو ضربوا عنزاً لما قالت: آه لو كان معي العسكري!

قال عصمت: فمن أين لك هذه القوة؟

قال جعلص: من أني أعْتَمِلُ بيدي[1] فأنا أشتدّ وإذا جعْتُ أكلْتُ طعامي؛ أما أنت فتسْترخي، فإذا جعْتَ أكلَك طعامُك؛ ثم من أنّي ليس لي عسكري. . !

قال عصمت: بل القوةُ مَن أنك لستَ مثلَنا في المدرسة؟

قال جعلص: نعم، فأنت يا ابنَ المدرسةِ كأنَّك طفلٌ من وَرَقٍ وكراساتٍ لا من لحم، وكأنَّ عظامَك من طَباشير! أنت يا ابنَ المدرسةِ هو أنتَ الذي سيكونُ بعدَ عشرينَ سنةً، ولا يعلمُ إلَّا اللَّهُ كيف يكون؛ وأما أنا ابنُ الحياة، فأنا منَ الآن، وعليّ أن أكونَ «أنا» من الآن!

أنتَ. . .

* * *

وهنا أدركهما العسكريُّ المسخَّرُ لابن المدير، وكان كالمجنونِ يطيرُ على وجهِهِ في الطرقِ يبحثُ عن (عصمت)، لا حُبًّا فيه، ولكنْ خوفاً من أبيه؛ فما كاد يرى هذا العَفَرَ على أثوابِهِ حتى رنَّت صفعتُه على وجهِ المسكينِ جُعلص.

فصعَّر هذا خدَّهُ[2]، ورشقَ عصمت بنظرِه، وانطلق يعدو عَدْوَ الظَّليم[3]!

يا للعدالة! كانتِ الصفعةُ على وجهِ ابنِ الفقير، وكان الباكي منها ابنَ الغنيّ. . !

* * *

وأنتم أيُّها الفقراء، حسبُكمُ البطولة؛ فليس غِنى بَطَلِ الحربِ في المالِ والنعيم، ولكنْ بالجراحِ والمشقَّاتِ في جسمِه وتاريخِه.

---

(١) اعتمل بيدي: أخدم نفسي بنفسي.

(٢) صعّر خدّه: مال بخدّه تكبرًا.

(٣) الظليم: ذكر النعام.

أحلام في الشارع

على عتبةِ (البنكِ) نامَ الغلامُ وأختُهُ يفترشانِ الرّخامَ البارد، ويلتحفانِ جوًّا رخاميًّا في بردِهِ وصلابتِهِ على جسميهما.

الطفلُ مُتَكَبْكِبٌ في ثَوبِهِ كأنه جسمٌ قُطّعَ ورُكِمتْ أعضاؤه(١) بعضُها على بعض، وسُجّيَتْ بثوب، ورُميَ الرأسُ من فوقِها فمالَ على خدِّه.

والفتاةُ كأنَّها مِنَ الهُزالِ رَسْمٌ مُخَطَّطٌ لامرأة، بدأها المصورُ ثم أغفلَها إذْ لم تُعجبْه. كتَبَ الفقرُ عليها للأعينِ ما يكتبُ الذُّبولُ على الزهرة: أنها صارت قَشًّا. . .

نائمةٌ في صورةِ ميّتة، أو كميّتةٍ في صورة نائمة؛ وقدِ أنسكبَ ضوءُ القمرِ على وجهِها، وبقي وجهُ أخيها في الظلّ؛ كأَنَّ في السماءِ ملَكاً وجَّه المصباحَ إليها وحدَها، إذْ عرفَ أن الطفلَ ليس فِي وجهه علامةُ همٍّ؛ وأنّ في وجهِها هي كلُّ همِّها وهمُّ أخيها.

من أجلِ أنها أنثى قد خُلقَتْ لتَلِدَ ـ خُلِقَ لها قلبٌ يحملُ الهمومَ ويلدُها ويربّيها.

من أجلِ أنَّها أُعدّتْ للأمومة، تتألمُ دائماً فِي الحياةِ آلاماً فيها معنى انفجارِ الدم.

من أجلِ أنها هي التي تَزيدُ الوجودَ، يزيدُ هذا الوجودُ دائماً في أحزانها.

وإذا كانت بطبيعتِها تُقاسي الألَم لا يُطاقُ حين تلدُ فَرَحَها، فكيف بها في الحزن. . . !

* * *

وكان رأسُ الطفلِ إلى صدرِ أختِه، وقد نامَ مطمئناً إلى هذا الوجودِ النّسْويّ، الذي لا بُدَّ منه لكلِّ طفلٍ مثلِه، ما دامَ الطفلُ إذا خرجَ من بطنِ أمِّهِ خرجَ إلى الدنيا وإلى صدرِها معاً.

ونامَتْ هي ويدُها مُرْسَلَةٌ على أخيها كيَدِ الأمّ على طفلِها. يا إلهي! نامَتْ ويدُها مستيقظة!

---

(١) ركمت أعضاؤه: رُكّب بعضها فوق بعض.

أهما طفلانِ؟ أم كلاهما تمثالٌ للإنسانيةِ التي شَقِيتْ بِالسعداءِ فعوضَها اللَّهُ من رحمتِه ألا تجدَ شقيًّا مثلَها ألا تضاعفَتْ سعادتُها به؟

تمثالانِ يصورانِ كيف يَسْري قلبُ أحدِ الحبيبينِ في الجسمِ الآخرِ، فيجعلُ له وجوداً فوقَ الدنيا، لا تصلُ الدنيا إليه بفقرِها وغناها، ولا سعادتِها وشقائِها، لأنه وجودُ الحبِّ لا وجودُ العمرِ؛ وجودٌ سحريّ ليس فيه معنًى للكلمات، فلا فرقَ بينَ المالِ والترابِ، والأميرِ والصُّعلوكِ؛ إذِ ٱللغةُ هناك إحساسُ ٱلدمِ، وإذِ المعنى ليس في أشياءِ المادةِ ولكنْ في أشياءِ الإرادة.

وهل تحيا الألفاظُ معَ الموت، فيكونَ بعده للمالِ معنًى وللترابِ معنًى...؟ هي كذلك في الحبِّ الذي يفعلُ شبيهاً بما يفعلُهُ الموتُ في نقلِهِ الحياةَ إلى عالمٍ آخرٍ، بَيْدَ أنَّ أحدَ العالَمينِ وراءَ الدنيا، والآخرَ وراء النفس.

* * *

تحتَ يدِ الأختِ الممدودةِ ينامُ الطفلُ المسكين، ومن شعورِهِ بِهذه اليد، خفَّ ثقلُ الدنيا على قلبِه.

لم يبالِ أنْ نَبَذَه العالَمُ كلُّه، ما دامَ يجدُ في أختِه عالَم قَلبِه الصغيرِ وكأَنَّهُ فرخٌ من فِراخ الطيرِ في عُشّهِ المعلّق، وقد جَمَعَ لحمَه الغَضَّ الأحمرَ تحتَ جَناحِ أمِّه، فأحسّ أهنأ السعادةِ حينَ ضيَّقَ في نفسه الكونَ العظيم، وجعلَه وُجوداً مِنَ الريش.

وكذلك يَسعدُ كلُّ مَنْ يملكُ قوةَ تغييرِ الحقائقِ وتبديلِها، وفي هذا تفعلُ الطفولةُ في نشأة عمرِها ما لا تفعلُ بعضَه معجزاتُ الفلسفةِ العُليا في جملةِ أعمارِ الفلاسفة.

وما صنعَ الذين جُنُّوا بِالذهب، ولا الذين فُتِنوا بالسُّلطة، ولا الذين هَلَكوا بالحبِّ، ولا الذين تحطَّموا بِالشهوات ـ إلّا أنهم حاولوا عبثاً أن يَرْشُوا رحمةَ اللَّهِ لتُعطيعهم في الذهب والسلطةِ والحبِّ والشهواتِ ما نَاوَلَتْه هذا الطفلَ المسكينَ النائمَ في أشعةِ الكواكبِ تَحتَ ذراعِ كوكبِ رُوحِه الأرضي.

أَلَا إنَّ أعظمَ الملوكِ لن يستطيعَ بكلِّ ملكِهِ أنْ يشتريَ الطريقةَ الهنيئةَ التي يَنْبضُ بها الساعةَ قلبُ هذا الطفل.

* * *

وقفْتُ أشهدُ الطفلينِ وأنا مستيقنٌ أن حولَهما ملائكةً تصعدُ وملائكةً تنزل؛

وقلْتُ هذا موضعٌ من مواضعِ الرحمة، فإنَّ اللَّهَ معَ المنكَسِرَةِ قلوبُهم، ولعلّي أنْ أتعرضَ لنَفْحةٍ من نفَحاتِها، ولعلَّ مَلَكاً كريماً يقول: وهذا بائسٌ آخر، فَيُرِفُّني بجنَاحِه رَفَّةً ما أحوَج نفسي إليها، تجدُ بها في الأرض لمسةً من ذلك النورِ المتلألىءِ فوقَ الشمسِ والقمر.

وظهرَ لي بناءُ (البنك) في ظلمةِ الليلِ من مرأى الغلامينِ ـ أسودَ كالحاً، كأنَّهُ سجنٌ أقفلَ على شيطانٍ يُمسكُهُ إلى الصبح، ثم يُفتَحُ له لينطلقَ مُعَمّراً، أيْ مخرّباً. . . . أو هم جسمُ جبارٌ كفَر باللَّهِ وبالإنسانيةِ ولم يؤمنْ إلا بنفسِه وحظوظِ نفسِه فمسَخهُ اللَّهُ بناء، وأحاطَهُ من هذا الظلامِ الأسودِ بمعاني آثامِهِ وكفرِه. . .

يا عجباً! بطنانِ جائعانِ في أطمارٍ باليةٍ يبيتانِ على الطَّوَى[1] والهمّ، ثم لا يكونُ وِسادُهُما إلّا عَتبةَ البنك! تُرَى مَن الذي لَعَن (البنك) بهذهِ اللعنةِ الحية؟ ومن الذي وضعَ هذينِ القلبينِ الفارغينِ موضعَهما ذلك لِيُثبتَ للناس أنْ ليس البنك خزائنَ حديديةً يملؤُها الذهب، ولكنَّه خزائنُ قلبيةٌ يملؤُها الحبّ. . .؟

* * *

وقفْتُ أرى الطفلينِ رؤيةَ فكرٍ ورؤيَة شِعْرٍ معاً، فإذا الفكرُ والشعرُ يمتدَّانِ بيني وبينَ أحلامِهما، ودخلْتُ في نفسين مضَّهما الهمُّ واشتدَّ عليهما الفقر، وما من شيءٍ في الحياةِ إلّا كدَّهُما[2] وعاسَرَهُما؛ ونمْتُ نومتي الشعرية. . .

قال الطفلُ لأختِه: هلمّي فلْنذهبْ من هنا فنقفَ على بابِ (السيما) نتفرجُ ممَّا بنا، فنَرى أولادَ الأغنياءِ الذينَ لهم أبٌ وأمّ.

انظري ها هم أولاءِ يُرَى عليهم أثرُ الغِنى، وتُعرَفُ فيهم رُوحُ النعمة؛ وقد شَبِعوا. . . إنهم يلبسونَ لحماً على عِظامهم؛ أما نحن فنلبسُ على عظامِنا جلداً كجلدِ الحذاء؛ إنهم أولادُ أهليهم؛ أما نحن فأولادُ الأرض؛ هم أطفال، ونحن حَطَبٌ إنسانيّ يابِس؛ يعيشون في الحياةِ ثم يموتون؛ أما نحن فعيشُنا هو سكَراتُ الموت، إلى أنْ نموتَ؛ لهم عيشٌ وموتٌ، ولنا الموتٌ مكرراً.

وَيْلي على ذلك الطفلِ الأبيضِ السمين، الحَسَنِ البَزَّةِ[3]، الأنيقِ الشاردة، ذاك الذي يأكل الحلوى أكلَ لصٍّ قد سرق طعاماً فأسْرعَ يَحْدِرُ في جوفه ما سرق؛

---

(١) الطوى: الجوع.

(٢) كدَّهما: أتعبهما.

(٣) البزّة: الزي، اللباس.

هو الغِنَى الذي جعلَه يبتلعُ بهذِه الشراهة[1]، كأنّما يشرَبُ ما يأكل، أو له حلقٌ غيرُ الحُلوق؛ ونحن ـ إذا أكلْنا ـ نَغَصُّ بالخبزِ لا أدْمَ معه، وإذا ٱرتفعْنا عن هذِه الحالةِ لم نجدْ إلّا البَشيعَ مِنَ الطعام، وأصبْناه عَفِناً أو فاسداً لا يَسُوغُ في الحَلْق، فإذا انخفَضْنَا فليسَ إلّا ما نَتقَمَّمُ من قُشورِ الأرضِ ومن حُتَاتِ الخبز[2] كالدوابِّ والكلاب؛ وإنْ لم نجدْ ومسَّنا العُدْمُ وقفْنَا نَتحيَّنُ طعامَ قومٍ في دارٍ أو نُزُل، فنراهم يأكلون فنأكلُ معهم بأعينِنا، ولا نطمعُ أنْ نستطعمَهم وألّا أطعمونا ضَرْباً فنكونُ قد جئناهم بألمٍ واحدٍ فردُّونا بألمين، ونفقدُ بالضربِ ما كان يُمسِكُ رَمَقَنا منَ الاحتمالِ والصبر.

هؤلاءِ الأطفالُ يتضوَّرون شهوةً كلَّما أكلوا، ليعودوا فيأكلوا؛ ونحن نتضورُ جوعاً ولا نأكل، لِنعودَ فنجوعَ ولا نأكل؛ وهم بين سمعِ أهليهم وبصَرِهم؛ ما من أنَّةٍ إلا وقعَتْ في قلب، وما من كلمةٍ إلا وجَدَتْ إجابة؛ ونحن بين سمعِ الشوارعِ وبصرِها، أنينٌ ضائعٌ، ودموعٌ غيرُ مرحومة!

آه لو كَبرْتُ فصِرْتُ رجلاً عريضاً؟ أتدرين ماذا أصنع؟

ـ ماذا تصنعُ يا أحمد؟

ـ إنني أخنقُ بيديَّ كلَّ هؤلاءِ الأطفال!

ـ سَوْأَةٌ لك يا أحمد، كلُّ طفلٍ من هؤلاءِ له أمٌ مثلُ أمِّنا التي ماتت، وله أختٌ مثلي؛ فما عسى ينزلُ بي لو ثَكِلْتُك[3] إذا خنقَك رجلٌ طويلٌ عريض؟

ـ لا، لا أخنقُهم؛ بل سأُرضيهم من نفسي؛ أنا أُريدُ أنْ أصيرَ رجلاً مثل (المدير) الذي رأيناهُ في سيارتِهِ اليومَ على حالٍ مِنَ السطوةِ تُعلنُ أنَّهُ المدير... أتدرينَ ماذا أصنع؟

ـ ماذا تصنعُ يا أحمد؟

ـ أرأيتِ عربةَ الإسعافِ التي جاءَتْ عندَ الظهرِ فٱنقلبَتْ نعشاً[4] للرجلِ الهرِمِ المحطَّمِ الذي أُغميَ عليه في الطريق؟ سمعْتُهم يقولون: إنَّ المديرَ هو الذي أمرَ باتخاذِ هَذِهِ العربة، ولكنَّه رجلٌ غُفلٌ لم يتعلمْ مِنَ الحياة مثلَنا، ولم تُحْكمْهُ تجاربُ الدنيا؛ فالذي يموتُ بالفُجاءَةَ أو غيرِها لا يُحييهِ المديرُ ولا غيرُ المدير، والذي يقعُ

---

(1) الشراهة: شدّة الأكل والإكثار منه.
(2) حُتات الخبز: فتاته.
(3) ثكلتك: فقدتك بموتك.
(4) نعشاً: تابوتاً.

في الطريقِ يجدُ منَ الناس من يبتدرونه لنَجدتِه وإسعافِه[1] بقلوبِ إنسانيةٍ رحيمة، لا بقلبِ سوَّاقِ عربةٍ ينتظرُ المصيبةَ على أنها رزقٌ وعَيش.

إنَّ عَرباتِ الإسعافِ هذه يجبُ أنْ يكونَ فيها أكْل... ويجبُ أنْ تحملَ أمثالَنا مِنَ الطرقِ والشوارعِ إلى البيوتِ والمدارس؛ وإنْ لم يكنْ للطفلِ أمّ تُطعمُه وتُؤيه فلتُصْنَع له أمّ.

كلُّ شيءٍ أراه لا أراه إلَّا على الغلَط، كأنَّ الدنيا منقلبةٌ أو مدبِرَةٌ إدبارَها، وما قطُّ رأيْتُ الأمورَ في بلادِنا جاريةً على مَجارِيها؛ فهؤلاءِ الحكامُ لا ينبغي أنْ يكونوا إلا من أولادِ صالحي الفقراء، ليحكمُوا بقانونِ الفقرِ والرحمة، لا بقانونِ الغِنى والقسوة، وليتقحَّموا الأمورَ العظيمةَ المشتبهةَ بنفوسٍ عظيمةٍ صريحةٍ قد نبتتْ على صِلابةٍ وبأس، وخُلُقٍ ودينٍ ورحمة؛ فإنه لا ينهزمُ في معركةِ الحوادثِ إلَّا روحُ النعمةِ في أهلِ النعمة، وأخلاقُ اللبنِ في أهلِ اللبن؛ وبهؤلاءِ لم يبرحِ الشرقُ من هزيمةٍ سياسيةٍ في كلِّ حادثةٍ سياسية.

إن للحكم لحماً ودماً هم لحمُ الحاكم ودمُهُ فإنْ كانَ صُلباً خَشِناً فيه رُوحُ الأرضِ ورُوحُ السماءِ فذاك، وإلا قَتَل اللينُ والتَرفُ الحكْمَ والحاكمَ جميعاً. وهؤلاءِ الحكامُ من أولادِ الأغنياءِ لا يكونُ لهم همّ إلَّا أنْ يرفعوا من شأنِ أنفسِهم، إذِ السلطةُ درجةٌ فوقَ الغِنى، ومن نال هذهِ اسْتَرَفَ لتلك، فإذا جمعوهما كان منهما الخُلُقُ الظالمُ الذي يصوّرُ لهمُ الاعتداءَ قوةً وسطوةً وعلوًّا، من حيثُ عَدِموا الخلُقَ الرحيمَ الذي يصوّرُ لهم هذِه القوةَ ضعفاً وجُبناً ونذالة. إنَّ أحدَهم إذا حكم وتسلَّطَ أرادَ أنْ يضرب، ثم لم تكنْ ضربتُهُ الأولى إلّا في المبدأ الاجتماعيِّ للأمَّة، أو في الأصلِ الأدبيِّ للإنسانية. يحرصونَ على ما بِهِ تمامُهم، أي على السلطة، أي على الحكم؛ فيحملُهم ذلك على أنْ يتكلَّفوا للحرصِ أخلاقَه، وأن يجمعوا في أنفسِهم أسبابَه؛ مِنَ المداراةِ والمصانَعةِ والمهاوَنة، نازلاً فنازلاً إلى دَرَكٍ بعيد، فينشرونَ أسوأَ الأخلاقِ بقوةِ القانون ما داموا هُمُ القوة.

ـ وماذا تريدُ أنْ يصنَع أولادُ الأغنياءِ يا أحمد؟

ـ أما أولادُ الأغنياءِ فيجبُ أنْ يباشروا الصناعةَ والتجارةَ، ليجدوا عملاً شريفاً يُصيبونَ منه رزقَهم بأيديهم لا بأيدي آبائِهم، فإنَّهُ واللَّهِ لولا العمى الاجتماعيُّ لمَا

---

(١) نجدته وإسعافه: المسارعة لإسعافه.

كان فرقٌ بين ابنِ أميرِ متبطلِ[1] في أملاكِ أبيه مِنَ القصورِ والضياعِ، وابنِ فقيرِ متبطّلٍ في أملاكِ المجلسِ البلدي مِنَ الأزقةِ والشوارع.

وابنُ الأميرِ إذا كان نجاراً أو حداداً أصلحَ السوقَ والشارعَ بأخلاقِهِ الطيبةِ اللينة، وتعفُّفِه وكرمِه، فيتعلمُ سوادُ الناسِ منه الأمانةَ والصدق، إذْ هو لا يكذبُ ولا يسرقُ ما دامَ فوقَ الاضطرار، ولا كذلك ابنُ الفقيرِ الذي يَضطَّرهُ العيشُ أنْ يكونَ تاجراً أو صانعاً، فتكونَ حرفتُه التجارةَ وهي السرقة، أو الصناعةَ وهي الغِش، ويكونُ في الناسِ أكثرَ عُمرِهِ مادَة كَذِبٍ وإثمٍ ولصوصيةٍ.

آهِ لو صِرْتُ مديراً! أتدرينَ ماذا أصنع؟

ـ ماذا تصنعُ يا أحمد؟

ـ أعمدُ إلى الأغنياءِ فأردُّهم بِالقوةِ إلى الإنسانية، وأحملُهم عليها حملاً، أُصلِحُ فيهم صفاتِها التي أفسدَها الترَفُ واللينُ والنعمة، ثم أُصلِحُ ما أخلَّ به الفقرُ من صفاتِ الإنسانيةِ بالفقراء، وأحملُهم على ذلك حمْلاً، فيستوي هؤلاءِ وهؤلاء، ويتقاربونَ على أصلٍ في الدم إنْ لم يلدْهُ آباؤهم ولدَهُ القانون. ألا إنَّ سقوطَ أمتِنا هذه لم يأتِ إلا من تعادي الصفاتِ الأنسانيةِ في أفرادِها، فتقَطَّعَ ما بينهم، فهم أعداءٌ في وطنِهم، وإن كان اسمُهم أهلَ وطنهم.

ومتى أُحْكِمَت الصفاتُ الإنسانيةُ في الأمةِ كلِّها وداني بعضاً ـ صار قانونُ كلِّ فردٍ كلمتين، لا كملةً واحدةً كما هو الآن. القانون الآن (حَقّي) ونحن نُريدُ أنْ يكونَ (حَقّي وواجبي) وما أهلَكَ الفقراءَ بالأغنياء، ولا الأغنياءَ بِالفقراءِ ولا المحكومينَ بالحكّام ـ إلا قانونُ الكلمةِ الواحدة.

* * *

أنا أحمدُ المدير.... لسْتُ المديرَ بما في نفسِ أحمد، ولا بمعدتِه وبطنِه، ولا بِما يُريدُ أحمدُ لنفسِهِ وأولادِه.... كلّا، أنا عملٌ اجتماعيٌّ منظَّمٌ يحكمُ أعمالَ الناسِ بالعدلِ، أنا خُلقٌ ثابتٌ يوجّهُ أخلاقَهم بِالقوة، أنا الحياةُ الأمُّ معَ الحياةِ الأطفالِ الأخوةِ في هذا البيتِ الذي يُسمَّى الوطن، أنا الرحمةُ، عندي الجنةُ ولكنْ عندي جهنمُ أيضاً ما دامَ في الناسِ من يعَصي، أنا بكلِّ ذلك لسْتَ أحمد، لكنِّي الإصلاح.

(١) متبطّل: عاطل عن العمل يأكل من عمل غيره.

هأنذا قد صِرْتُ مديراً أعُسُّ في الطريقِ بالليلِ وأتفقَّدُ الناسَ ونوائبَهم.

من أرى؟ هذا طفلٌ وأختُه على عَتبةِ البنكِ في حياةٍ كأهدامِهِما[1] المرقَّعة، في دُنيا تمزَّقَتْ عليهما، قمْ يا بنيّ، لا تُرَعْ إنَّما أنا كأبيك، تقول: اسمُك أحمد، واسمُ اختك أمينة؟

تقول إنّك ما نِمْتَ مِنَ الجوع، ولكن مَضْمَضْتَ عينَك بشُعاعِ النوم؟

يا ولديّ المسكينين. بأيّ ذنبٍ من ذنوبكما دقّتكما الأيامُ دقًّا وطحنتْكما طحناً، وبأيّ فضيلةٍ منَ الفضائلِ يكونُ ابنُ فلان باشا، وبنتُ فلان باشا في هذا العيشِ اللينِ يختارانِ منه ويتأنَّقان[2] فيه، ما الذي نفعَ الوطنَ منهما فيعيشا؟

إنْ كنتَ يا بنيَّ لا تملِكُ لنفسِك الانتصارَ من هذه الظَّليمةِ فأنا أملِكُها لك، وإنَّما أنا المظلومُ إلى أنْ تنتصر، وإنَّما أنا الضعيفُ إلى أنْ آخذَ لكَ الحقّ.

إلى يا ابنَ فلان باشا وبنتَ فلان باشا.

يا هذا عليكَ أخاكَ أحمدَ ولْتكُنْ به حَفِيًّا[3]، ويا هذه، عليك أختَك الآنسة أمينة....

أتأبيانِ، أنَفْرَةً مِنَ الإنسانية، وتمرُّداً على الفضيلة، أحَقًّا بِلا واجب، دائماً قانونُ الكلمة الواحدة؟! خُلْقتُما أبيضينِ سخريةً مِنَ القدرَ وأنتما في النفسِ من أحْبوشَةِ الزنجِ[4] ومَناكيدِ العبيد.

ورفع أحمدُ يدَه....

وكان الشرطيُّ الذي يقومُ على هذا الشارع، وإليه حراسةُ البنك، قد تَوَسَّنَهما[5] ودخلَته الرِّيبة، فانتهى إليهما في تلك اللحظة، وقبل أنْ تنزلَ يدُ سعادةِ المديرِ بالصفعة على وجهِ ابن الباشا وبنتِ الباشا كان هذا الشرطيُّ قد ركَلَه برجلِه، فوثَبَ قائماً وأجتذبَ أختَه وأنطلقا عَدْوَ الخيلِ من ألْهُوبِ السَّوط.

وتمجَّدَتِ الفضيلةُ كعادتِها..!.. أنَّ مسكيناً حَلمِ بها..

(١) الأهدام: الأثواب.
(٢) يتأنَّقان: يلبسان الأنيق من اللباس.
(٣) حفياً: مرحباً.
(٤) أحبوشة الزنج: شدّة سواد اللون والأدمة.
(٥) توسنهما: أتاهما وهما نائمان.

أحلام في قصر

كانَ فلانُ بنُ الأميرِ فلانٍ يتنبَّلُ في نفسِه بأنَّهُ مُشْتَقٌ ممَنْ يضعُ القوانينَ لاممَنْ يخضعُ لها، فكانَ تيَّاهاً[1] صَلِفاً[2] يشمَخُ على قومِه بأنَّهُ ابنُ أمير، ويختالُ في الناسِ بأنَّ له جَدّاً مِنَ الأمراء، ويرى من تَجَبُّرِهِ أنَّ ثيابةَ على أعطافِه[3] كحدودِ الملكةِ على المملكةِ لأنَّ له أصلاً في الملوك.

وكانَ أبوه منَ الأمراءِ الذين وُلدوا وفي دمِهم شعاعُ السيف، وبريقُ التاج، ونخوةُ الظفر، وعِزُّ القَهرِ والغلبَة؛ ولكنَّ زمنَ الحصارِ ضربَ عليه، وأفضَتِ الدولةُ إلى غيرِه، فتراجعَتْ فيه ملكاتُ الحربِ من فتحِ الأرضِ إلى شراءِ الأرض، ومن تمشييدِ[4] الإماراتِ إلى تشييدِ العمارات، ومن إدارةِ معركةِ الأبطالِ إلى إدارةِ معركةِ المال؛ وغَبَرَ دهرَه[5] يملكُ ويجمعُ حتى أصبحَتْ دفاترُ حسابِه كأنَّها (خريطةُ) مملكةٍ صغيرة.

وبعضُ أولادِ الأمراءِ يعرفونَ أنَّهم أولادُ أمراء، فيكونونَ مِنَ التكبُّرِ والغرورِ كأنَّما رَضُوا منَ الله أن يُرسِلهم إلى هذه الدنيا ولكنْ بشروط.

* * *

وَانتقلَ الأميرُ البخيلُ إلى رحمة الله، وتركَ المالَ وأخذَ معهُ الأرقامَ وحدَها يُحاسَب عنها، فورِثَه ابنُه وَأَمَرَّ يَدهُ في ذلك المالِ يبعثرُه[6]؛ وكانَتِ الأقدارُ قد كتَبتْ عليه هذه الكلمة: غيرُ قابلٍ للإحسان. فمَحَتْها بعدَ موتِ أبيه، وكتَبتْ في مكانِها هذه الكلمة: جُمِعَ للشيطان.

أما الشيطانُ فكانَ له عملٌ خاصٌّ في خدمةِ هذا الشاب، كعملِ خازنِ الثيابِ لسيدِه، غيرَ أنَّه لا يُلبِسُهُ ثياباً بلْ أفكاراً وآراءً وأخْيِلَة. وكان يجهدُ أنْ يُدخِلَ الدنيا

---

(١) تيّاهاً: متكبراً.
(٢) صلفا: متعجرفاً.
(٣) أعطافه: أطرافه.
(٤) تمشييد الإمارات: يقصد افتتاح الإمارات.
(٥) غبر دهره: عاش عمره.
(٦) يبعثره: ينفقه بإسراف، يبذره.

كلَّها إلى أعصابِه ليخرجَ منها دنيا جديدةً مصنوعةً لهذه الأعصابِ خاصة، وهي أعصابٌ مريضةٌ ثائرةٌ متلهّبةٌ لا يكفيها ما يكفي غيرَها فلا تَبرحُ تسألُ الشيطانَ بينَ الحينِ والحين: ألَا تُوجدُ لذةٌ جديدةٌ غيرُ معروفة؟ ألَا يستطيعُ إبليسُ القرنِ العشرينِ أنْ يخترعَ لذةً مبتكرة؟ ألا تكونُ الحياةُ إلّا على هذه الوتيرةِ من صُبْحِها لصُبْحِها؟

كانَ الشابُّ كالذي يُريدُ من إبليسَ أنْ يخترعَ كأساً تَسَعُ نهراً منَ الخمر، أو يجدَ له امرأةً واحدةً وفيها كلُّ فنونِ النساءِ واْختلافِهنَّ. وكانَ يُريدُ منَ الشيطانِ أن يُعينَه في اللَّذةِ على الاستغراقِ الرُّوحاني ويَغْمُرَه بمثلِ التجليّاتِ القُدسيةِ التي تنتهي إليها النفسُ من حِدَّةِ الطربِ وحِدَّةِ الشوق؛ وذلك فوقَ طاقةِ إبليس، ومن ثَمّ كان معه في جُهدٍ عظيمٍ حتى ضجرَ منه ذاتَ مرةٍ فهمَّ أن يرفعَ يدَه عنه ويَدَعَه يدخلُ إلى المسجدِ فيصلّيَ معَ بعضِ الأمراءِ الصالحين.

وهؤلاءِ الفُسَّاقُ الكثيرو المالِ إنَّما يعيشونَ بالاستطرافِ من هذه الدنيا؛ فهمُّهم دائماً الألَذُّ والأجملُ والأغلى؛ ومتى اْنتَهتْ فيهمُ اْللذُة منتهاها ولم تجدْ عاطفتُهم منَ اللذاتِ الجديدةِ ما يُسْعِدُها، ضاقَتْ بهم فظهرتْ مظهرَ الذي يُحاولُ أنْ ينتحر، وذلك هو المللُ الذي يُبْتَلونَ به. والفاسقُ الغنيُّ حينَ يملُّ من لداتِه[1] يُصبحُ مع نفسِه كالذي يكونُ في نفَقٍ تحتَ الأرضِ ويُريُد هناكَ سماءً وجوّاً يطيرُ فيهما بالطيارة...

* * *

قالوا: وَاْعترض ابنَ الأميرِ ذاتَ يومٍ شحاذٌ مريضٌ قد أسنَّ وعجزَ يتحاملُ بعضُهُ على بعض، فسألَه أن يُحسنَ إليه وذكرَ عَوَزَهُ واْختلالَه، وجَعَلَ يَبُثُّه من دُموعِه وألفاظِه. وكانَ إبليسُ في تلك الساعة قد صَرَفَ خواطِرَ الشابِّ إلى إحدى الغانياتِ الممتنعاتِ عليه، وقدِ اْبتاع لها حليةً ثمينةً اشتطَّ[2] بائعُها في الثمنِ حتى بلغَ به عشرةَ آلافِ دينار، فهو يُريدُ أنْ يُهديَها إليها كأنَّها قَدرٌ من قادر... وقَطَعَ عليه الشحاذُ المسكينُ أفكارَهُ المضيئةَ في الشخصِ المضيء، فكان إهانةً لخيالِهِ السامي... ووجدَ في نفسِهِ غَضَاضةً[3] من رؤيةِ وجهِه، واْشمأزَّ في عُروقِه دمُ الإمارة، وتحركَتِ الوراثةُ الحربيةُ في هذا الدم...

---

(١) لداته: أصدقائه ومعارفه.

(٢) اشتطّ: غالى في ثمنها.

(٣) غضاضة: مذلة.

ثم ألقى الشيطانُ إلقاءَه عليه، فإذا هو يرى صاحبَ الوجهِ القَذِر كأنما يتهكَّمُ به يقول له: أنت أميرٌ يبحثُ الناسُ عنِ الأميرِ الذي فيه فلا يجدون إلَّا الشيطانَ الذي فيه. وليس فيك مِنَ الإمارةِ إلا مثلُ ما يكونُ مِنَ التاريخِ في الموضعِ الأثريِّ الخَرِب. ولن تكونَ أميراً بشهادةِ عشرةِ آلافِ دينارٍ عندَ مُومِس، ولكنْ بشهادةِ هذا المالِ عندَ عشرةِ آلافِ فقير. أنت أمير، فهل تُثْبِتُ الحياةُ أنَّك أميرٌ أو هذا معنًى في كلمةٍ مِنَ اللغة؟ إنْ كانَتِ الحياةُ فأين أعمالُك، وإنَّ اللغةَ فهذه لفظةٌ بائدةٌ تدلُّ في عصورِ الانحطاطِ على قِسْطِ حاملِها مِنَ الاستبدادِ والطغيانِ والجَبَروت، كأنَّ الاستبدادَ بالشعبِ غنيمةٌ يتناهَبُها عظماؤُه، فقِسْمٌ منها في الحاكمِ وقسمٌ في شبهِ الحاكمِ يُترجَمُ عنه في اللغةِ بلقبِ أمير.

ألَا قُلْ للناسِ أيُّها الأمير: إنَّ لقبي هذا إنَّما هو تعبيرُ الزمنِ عمَّا كانَ لأجدادي مِنَ الحقِّ في قتلِ الناسِ وٱمتهانِهم...

* * *

وكانَ هذا كلاماً بينَ وجه الشحاذِ وبينَ نفسِ ٱبنِ الأميرِ في حالةٍ بخصوصِها من أحوالِ النفس، فلا جَرَم[1] أن أُهينَ الشحاذُ وطُرِدَ ومضى يدعو بما يدعو.

ونام ٱبنُ الأميرِ تلكَ الليلةَ فكانَتْ خيالتُه[2] من دنيا ضميرِهِ وضميرِ الشحاذ: فرأى فيما يرى النائمُ أنَّ مَلكاً مِنَ الملائكةِ يهتف به:

ويلكَ! لقد طَردْتَ المسكينَ تخشى أن تنالَك منه جراثيمُ تمرضُ بها، وما علمْتَ أنَّ في كلِّ سائلٍ فقيرٍ جراثيمَ أخرى تمرضُ بها النعمة؛ فإن أكرَمْتَهُ بقيَتْ فيه، وإنْ أَهَنْتَهُ نَفَضَها عليك. لقد هلكَتِ اليومَ نعمتُك أيُّها الأمير، وٱستردَّ العاريةَ صاحبُها، وأكلَتِ ٱلحوادثُ مالَك فأصبحْتَ فقيراً محتاجاً ترومُ[3] الكِسْرَةَ مِنَ الخبزِ فلا تتَهيأُ لك إلا بجهدٍ وعملٍ ومشَقَّة؛ فٱذهبْ فاكْدَحْ لعيشِك في هذه الدنيا، فما لأبيكَ حقٌّ على اللَّهِ أنْ تكونَ عنَد اللَّهِ أميراً.

قالوا: وينظرُ ابنُ الأميرِ فإذا كلُّ ما كانَ لنفسِه قد تركَه حينَ تركَه المال، وإذا الإمارةُ كانَتْ وهماً فرضَهُ على الناسِ قانونُ العادة، وإذا التعاظمُ والكبرياءُ والتجبرُ ونحوُها إنَّما كانَتْ مَكْراً مِنَ المكْرِ لإثباتِ هذا الظاهرِ والتعزُّزِ به. وينظرُ ابنُ

(١) لا جرم: لا شكَّ.

(٢) خيالته: ما يراه من أشباح في نومه.

(٣) تروم: تطلب.

الأمير، فإذا هو بعدَ ذلك صُعلوكٌ أبترُ[١] مُعْدِمٌ رَثُّ الهيئةِ كذلك الشحاذ، فيَصيحُ مغتاظاً: كيف أهملتْني الأقدارُ وأنا ابنُ الأمير؟

قالوا: ويهتفُ به ذلك الملك: ويحكَ إنَّ الأقدارَ لا تُدلّلُ أحداً، لا ملِكاً ولا ٱبنَ ملك، ولا سُوقيّاً ولا ٱبنَ سُوقيّ، ومتى صِرتُم جميعاً إلى الترابِ فليسَ في الترابِ عظمٌ يقولُ لعظيمٍ آخر: أيها الأمير...

* * *

قالوا: وفكَّر الشابُّ المسكينُ في صواحبِهِ منَ النساء، وعنَدهِنَّ شبابُهُ وإسرافُه، ونفقَاتُهُ الواسعة، فقالَ في نفسِه: أذهبُ لإحداهن؛ وأخذَ سَمْتَه[٢] إليها، فما كادَتْ تعرفُهُ عيناها في أسمالِهِ وبَذاذتِهِ وفقرِهِ حتى أمرَتْ بِهِ فجُرَّ بيديه ودُفِعَ في قفَاه. ولكنَّ دمَ الإمارةِ نزا في وجهِه غضباً، وتحركَتْ فيه الوراثةُ الحربية، فصاح وأجْلَبَ[٣] وٱجتمعَ الناسُ عليه وٱضطربوا، وماجَ بعضُهم في بعض. فبينا هو في شأنِهِ حانَتْ منه التفاتةٌ فأبصرَ غلاماً قد دخلَ في غُمارِ الناس، فدَسَّ يدَهُ في جيبِ أحدِهم فنَشلَ[٤] كيسَهُ ومضى.

قالوا: وجرى في وهمِ ابنِ الأميرِ أنْ يلحقَ بالغلامِ فيكْبِسَهُ كبسةَ الشُّرْطيِّ وينتزعَ منه الكيسَ وينتفعَ بما فيه، فتسلَّلَ منَ الزحامِ وتبعَ الصبيَّ حتى أدركَهُ ثم كَبسَهُ وأخذَ الكيسَ منه وأخرجَ الكنزَ، فإذا ليس فيه إلا خاتمٌ وحجابٌ وبعضُ خرَزَاتٍ مّما يتبركُ العامةُ بحملِه، ومفتاحٌ صغير...

فٱمتلأَ غيظاً وفارَ دمُ الإمارةِ وتحركَتِ الوراثةُ الحربيةُ التي فيه. وألَمَّ الصبيُّ بما في نفسِه، وحَدَسَ على أنَّهُ رجل أفّاقٌ مُتبطّل، لا نَفَاذَ له في صِناعةٍ يرتزقُ منها، فرثَى لفقرِهِ وجهلِهِ ودعاهُ إلى أنْ يعلّمَهُ السرقةَ وأنْ يأخذَهُ إلى مدرستِها. وقال: إنَّ لنا مدرسةً، فإذا دخلْتَ القسمَ الإعداديَّ منها تعلمْتَ كيف تحملُ المِكْتَل[٥] فتذهبُ كأنَّك تجمعُ فيهِ الخِرَقَ الباليةَ منَ الدُّورِ حتى إذا سنَحَتْ لك غَفلةٌ انسللْتَ إلى دارٍ منها، فسرقْتَ ما تنالُهُ يدُك من ثوبٍ أو متاع، ولا تزالُ في هذا البابِ منَ الصنعةِ حتى تُحْكِمَه، ومتى حذقْتَهُ ومَهَرْتَ فيه ٱنتقلْتَ إلى القسمِ الثانويّ...

---

(١) أبتر: مقطوع من المال والولد.

(٢) السمت: المخبر والشكر.

(٣) أجلب: ضجَّ بأصوات مرتفعة.

(٤) نشل: سرق بخفّة.

(٥) المكتل: وعاء كالقفة يصنع من الخوص.

فصاحَ ٱبنُ الأمير: أُغْرُبْ عنّي، عليك وعليك، أخزاكَ الله! ولعن الله الإعداديّ والثانويّ معاً.

ثم إنه رمى الكيسَ في وجهِ الغلام وٱنطلق، فبينا هو يمشي وقد تَوزَّعَتْهُ الهمومُ، أنشأَ يفكرُ فيما كانَ يراهُ مِنَ المُكَدّين[1]، وتلك العِللِ[2] التي ينتحلونها[3] للكُدْيةِ كالذي يَتَعامى والذي يتعَارجُ والذي يُحدِثُ في جسمِهِ الآفة؛ ولكنَّ دَمَ الإماةِ ٱشمأزَّ في عروقِهِ وتحركَتْ فيه الوراثةُ الحربية! وبَصُرَ بشابٍّ من أبناءِ الأغنياءِ تنطِقُ عليه النعمةُ فتعرَّضَ لمعروفِه، وأفضى إليه بهمِّه، وشكا ما نزلَ به ثُمَّ قال: وإني قد أمّلْتُكَ وظنّي بكَ أن تصطفيني لِمنادمتِك أو تُلحقَني بخدمتِك، وما أريدُ إلّا الكَفافَ منَ العيش[4]، فإنْ لم تبلغْ بي، فالقليلُ الذي يعيشُ به المُقِلّ. وصعَّد فيه الشابُّ وصوَّبَ ثم قال له: أتحْسِنُ أن تلطُفَ في حاجتي؟ قال: سأبلغُ في حاجتِك ما تُحِبُّ. قال الشاب: ألك سابقةٌ في هذا؟ أكنْتَ قوَّاداً؟ أتعرفُ كثيراتٍ منهن...؟

فانتفضَ غَضباً وهمَّ أنْ يبطُش بٱلفتى لولا خوفُهُ عاقبةَ الجريمة، فٱستخْذَى[5] ومضى لوجهِه، وكان قد بَلغَ سُوقاً فأمَّلَ أنْ يجَدَ عملاً في بعضِ الحوانيت، غيرَ أن أصحابَها جعلوا يزجرونَه مرةً ويطردونَه مرة، إذْ وقعَتْ بهِ ظِنَّةُ التلصُّص، وكادوا يُسلِمونه إلى الشرطِيِّ فمضى هارباً؛ وقد أجمعَ أن ينتحرَ لِيقتلَ نفسَهُ ودهرَهُ وإمارتَهُ وبؤسَهُ جميعاً.

قالوا: ومرَّ في طريقِهِ إلى مَصْرعِهِ بامرأةٍ تبيعُ الفِجْلَ والبصلَ والكُراث، وهي بادنَةٌ وَضيئةٌ ممتلئةُ الأعلى والأسفل، وعلى وجهِها مَسْحةُ إغراء، فذكر غزَلَهُ وفتنتَهُ وٱستغواءَهُ للنساء، ونازعتْهُ النفسُ، وحسبَ المرأةَ تكونُ له معاشاً ولهواً، وظنَّها لا تُعجِزُهُ ولا تفوتُهُ وهو في هذا البابِ خرَّاجٌ ولَّاجٌ منذُ نشأ.. ـ غيرَ أنَّه ما كاد يُراوِدُها[6] حتى ٱبتدرتْهُ بلبطةٍ أظلمَ لها الجوُّ في عينهِ ثم هرَّتْ[7] في وجهِه هَريراً منكراً وٱستَعْدَتْ عليه السابلةَ[8] فأطافوا به وأخذَهُ الصفعُ بما قَدُمَ وما حدُث، وما زالوا يَتَعاورونَه[9] حتى وقَع مغشِيّاً عليه.

---

(١) المكدين: المتسولين.
(٢) العلل: الأعذار.
(٣) ينتحلونها: يتخذونها أعذاراً لهم.
(٤) الكفاف من العيش: القليل منه.
(٥) استخذى: خجل.
(٦) يراودها: يستميلها.
(٧) هرّت: أصدرت صوتاً مزعجاً.
(٨) السابلة: المارة. أطافوا به: أحاطوا به.
(٩) يتعاورونه: يتبادلونه كل بدوره.

ورأى في غَشْيتِهِ ما رأى من تمامِ هذا الكَرب، فضُرِبَ وحُبسَ وٱبْتُليَ بالجنونِ وأُرسلَ إلى المارستان[1]، وساحَ في مصائبِ العالَم، وطافَ على نكَباتِ الأُمراءِ والسُّوقةِ بما يعي وما لا يعي، ثم رأى أنه أفاق منَ الإغماءِ فإذا هو قدِ ٱستيقظَ من نومِه على فراشهِ الوثير.

* * *

ويا ليْتَ مَنْ يدري بعدَ هذا! أغدا ابنُ الأميرِ على المسجدِ وأقبلَ على الفقراءِ يُحسِنُ إليهم، أم غدا على صاحبتِهِ التي ٱمتنَعتْ عليهِ فٱبتاعَ لها الحِلْيَةَ بعشرةِ آلافِ دينار؟

يا ليْتَ من يدري! فإنَّ الكتابَ الذي نقْلنا القصَةَ عنه لم يذكرْ من هذا شيئاً بل قطعَ الخبرَ عندَما ٱنقطعَ الصفع...

---

(١) المارستان: مستشفى المجاذيب والمجانين.

بنتُ ٱلباشا

كانَتْ هذه المرأةُ وضَّاحةَ الوجه[١]، زَهراءَ اللونِ كالقمرِ الطَّالع، تحسبُها لِجمالِها غذَّتْها الملائكةُ بنورِ النهار، . وروَّتها من ضَوءِ الكواكبَ.

وكانَتْ بَضَّةً[٢] مُقَسَّمَةً أبدعَ التقسيم، يلتفُّ جسمُها شيئاً على شيءٍ التفافاً هندَسيّاً بديعاً، يرتفعُ عن أجسامِ الغِيدِ[٣] الحسانِ؛ أُفرِغَ فيها الجمالُ بقدرِ ما يُمكنُ ـ إلى أجسامِ الدُّمى العبقريةِ التي أُفرِغَ فيها الجمالُ والفنُّ بقدرِ ما يستحيل.

وكانَتْ باسمةً أبداً ما يتلألأُ الفجر، حتَّى كأنَّ دَمها الغزَليَّ الشاعرَ يصنعُ لثغرِها ابتسامتَها، كما يصنعُ لخدَّيْها حُمرتَهما.

ما لَها جلَستِ الآنَ تحتَ الليلِ مُطْرِقةً[٤] كاسَفةً ذابلة، تأخذُها العينُ فما تَشكُّ أنَّ هذا الوجهَ قد كان فيه مَنْبعُ نُورٍ وغاض! وأنَّ هذا الجسمَ الظمآنَ المعروقَ هو بُقْعَةٌ مِنَ الحياةِ أُقيمَ فيها مأتم!

ما لهذه العينِ الكحيلةِ تُذرِي الدمعَ[٥] وتسترْسلُ في البكاءِ وتَلجُّ فيه، كأنَّ الغادةَ المسكينةَ تُبصرُ بينَ الدموعِ طريقاً تُفضي منه نفسُها إلى الحبيبِ الذي لم يَعُدْ في الدنيا؛ إلى وحيدِها الذي أصبحَتْ تراهُ ولا تلمُسُه، وتكلّمُهُ ولا يَرُدُّ عليها؛ إلى طفلِها الناعمِ الظريفِ الذي ٱنتقلَ إلى القبرِ ولن يرجع، وتتمثلُهُ أبداً يُريدُ أنْ يجيءَ إليها ولا يستطيع، وتتخيلُهُ أبداً يَصيحُ في القبرِ يناديها: «يا أمّي، يا أمّي . . .».

قلبُها الحزينُ يُقَطِّعُ فيها ويُمَزِّقُ في كلِّ لحظة؛ لأنَّه في كلِّ لحظةٍ يُريدُ منها أنْ تضمَّ الطفلَ إلى صدرِها، ليستشعرَهُ القلبُ فيفرحَ ويتهنَّأَ إذْ يَمَسُّ الحياةَ الصغيرةَ الخارجةَ منه ولكنْ أين الطفل؟ أين حياةُ القلبِ الخارجةُ منَ القلب؟

لا طاقةَ[٦] للمسكينةِ أنْ تُجيبَ قلبَها إلى ما يطلب، ولا طاقةَ لقلبها أنْ يَهْدَأَ

---

(١) وضَّاحة الوجه: جميلة المحيّا.
(٢) بضَّة: بيضاء متناسقة الجسد.
(٣) الغيد: مفرده غيداء جميلة ممشوقة القوام.
(٤) مطرقة: مفكرة.
(٥) تذري الدمع: تبكي.
(٦) لا طاقة: لا قدرة.

عمّا يطلب؛ فهو منَ الغيظ والقهرِ يحاولُ أنْ يُفجّرَ صدرَها، ويُريدُ أنْ يَدُقّ ضلوعَها، ليَخرجَ فيبحثَ بنفسِه عن حبيبِهِ!

مسكينةٌ تَتَرَنَّحُ وتتلَوَّى تحتَ ضَرباتِ مُهْلَكِهِ من قلبِها، وضَرباتٍ أخرى من خيالِها، وقد باتَتْ من هذه وتلك تعيشُ في مثلِ اللحظةِ التي تكونُ فيها الذَّبيحةُ تحتَ السكّين. ولكنَّها لحظةٌ اَمتدّتْ إلى يوم، ويومٌ اَمتدَّ إلى شهر. يا ويلَها من طولِ حياةٍ لم تَعُدْ في آلامِها وأوجاعِها إلَّا طولَ مدَّة الذَّبحِ للمذبوح.

ولو كانَ للموتِ قطارٌ يقفُ على محطَّةٍ في الدنيا، ليحملَ الأحبابَ إلى الأحباب، ويسافرَ من وُجودٍ إلى وجود، وكانَتْ هذه الأمُّ جالسةً في تلك المحطةِ منتظرةً تتربَّص[1]، وقد ذُهِلَتْ عن كلِّ شيء، وتجردَتْ من كلِّ معاني الحياة، وجمدَتْ جمودَ الانتقالِ إلى الموت ـ لما كانَتْ إلا بهذه الهيئةِ في مجلسِها الآنَ في شُرفتِها من قصرِها؛ تُطلُّ على الليلِ المظلم وعلى أحزانِها...!

* * *

هي فلانةُ بنتُ فلانٍ باشا وزوجةُ فلانٍ بك. تَرَادَفَتِ النّعمُ[2] على أبيها فيما يَطلبُ وما لا يطلُب، وكأنَّما فرَغَ مِن اقتراحِهِ على الزمانِ واكتفى مِنَ المالِ والجاه، فلم يُعجبِ الزمانَ ذلك، فأخذَ يقترحُ له ويصنعُ ما يقترح، ويزيدهُ على رَغمه نِعَماً تتوالىَ!

وكان قد تقدّمَ إلى خطبَةِ ابنتهِ شابٌّ مهذَّب، يملكُ من نفسِهِ الشبابَ والهِمَّةَ والعِلْم، ومن أسلافهِ العُنصرَ الكريمَ والشرفَ الموروث؛ ومن أخلاقِهِ وشمائِلِهِ ما يُكاثرُ بهِ الرجالَ ويُفاخر. بَيْدَ أنَّهُ لا يملكُ من عيشِهِ إلَّا الكَفافَ والقِلّة، وأمَلاً بعيداً كالفجرِ وراءَ ليلٍ لا بدَّ من مُصَابرتِهِ إلى حينِ يَنْبَثِقُ النور.

وتقدَّمَ صاحبُنا إلى الباشا فجاءَهُ كالنَّجم عاريا؛ أي في أزهىَ نُورانيّتِهِ وأضْوَئها. وكان قد عَلِقَ الفتاةَ وعُلّقته، فظنّ عندَ نفسِه أنَّ الحبَّ هو مالُ الحبّ، وأنَّ الرجولةَ هي مالُ الأنوثة، وأنَّ القلوبَ تتعاملُ بالمَسَرَّاتِ لا بالأموال، ونَسيَ أنه يتقدُم إلى رجلٍ ماليّ جعلتْهُ حَقَارةُ الاجتماع رُتبة، أو إلى رتبةٍ ماليّةٍ جعلتْها حقارةُ الاجتماع رجلاً.. وأنَّ كلمة «باشا» وأمثالَها إنَّما تخلَّفتْ عن ذلك المذهبِ القديم: مذهبِ الألوهيةِ الكاذبةِ التي اَنتحلَها فِرْعونُ وأمثالهُ، ليَتَعَبَّدُوا الناسَ منها بألفاظِ قلوبِهِمُ

---

(١) تتربّص: تترقب، تنظر.

(٢) ترادفت النعم: توالت تترى.

المؤمنة؛ فإذا قيل: «إلٰه» كان جوابُ القلب: «عزّ وجلّ»، «سُبْحانه». . .

ولمَّا ٱرتقى الناسُ عن عبادةِ الناس، تلطَّفَتْ تلك الألوهيةُ ونزلَتْ إلى درجَاتٍ إنسانية، لِتتعبّدَ الناسَ بألفاظِ عقولِهِمُ الساذَجة؛ فإن قيل «باشا» كان جوابُ العقلِ الصغير: «سعادتلو أفندم!»[1].

نسيَ الشابُ أنَّه «أفندي» سيتقدمُ إلى «باشا» وأعماهُ الحبُ عن فَرْقٍ بينَهما؛ وكانَ ساميَ النفس، فلم يُدركْ أنَّ صغائرَ الأمم الصغيرةِ لا بُدَّ لها أنْ تنتحلَ السموَّ ٱنتحالاً، وأنَّ الشعبَ الذي لا يجدُ أعمالاً كبيرةً يتمجَّدُ بها، هو الذي تُخْتَرَعُ له الألفاظُ الكبيرةُ ليتلهَّى بها؛ وأنه متى ضعُفَ إدراكُ الأمَّة، لم يكنِ التفاوتُ بينَ الرجالِ بفضائلِ الرجولة ومعانيها، بل بموضعِ الرجولةِ من تلكَ الألفاظ؛ فإن قيل «باشا» فهذه الكلمةُ هيَ الاختراعُ الاجتماعيُّ العظيمُ في أمم الألفاظ، ومعناها العلميّ: قوةُ ألفِ فدانٍ أو أكثرَ أو أقلّ؛ ويقابلُها مثلاً في أممِ الأعمالِ الكبيرةِ لفظُ «الآلة البخارية» ومعناها العلميُّ قوةُ كذا وكذا حصاناً أو أقلُّ أو أكثر!

نسيَ هذا الشابُ أنَّ «أممَ الأكلِ والشربِ» في هذا المشرقِ المسكين، لا تتمُّ عظَمتُها إلَّا بأنْ تَضَعَ لِأصحابِ المالِ الكثيرِ ألقاباً هي في الواقعِ أوصافٌ اجتماعيةٌ للمَعدةِ التي تأكلُ الأكثرَ والأطيبَ والألذّ، وتملك أسبابَ القدرةِ على الألذّ والأطيبِ والأكثر.

وتقدَّمَ (الأفندي) يتودَّدُ إلى (الباشا) ما ٱستطاع، ويتواضعُ وينكمش، ولا يألوهُ تمجيداً وتعظيماً؛ ولكن أين هو منَ الحقيقة؟ إنَّهُ لم يكنْ عندَ الباشا إلَّا أحمق؛ إذ لم يعرفْ أنَّ تقدُّمَهُ إلى ذلك العظيمِ كانَ أولُ معانيه أن كلمة «أفندي» تطاولَتْ إلى كلمةِ «باشا» بالسَّبِّ عَلَنا. . .!

* * *

وانقبضوا عن (الأفندي) وأعرضوا عنه إعراضاً كانَ معناهُ الطرد؛ ثم جاء (البك) يخطبُ الفتاة.

و «بك» مَنْبَهَةٌ للاسم الخاطب، وشَرفٌ وقَدْرٌ وثناءٌ اجتماعيّ، وذكْرٌ شهير، وإرغامٌ على التعظيم بقوةِ الكلمة، ودليلٌ على الحُرُمَاتِ اللازمةِ للاسم لزومَ السوادِ للعين، ولو لم يكنْ تحتَ (بِك) رجلٌ، فإن تحتَها على كلِّ حالٍ (بك). . .! وأنْعَمَ

(١) وضعت الدولة العثمانية هذه الألقاب تنعم بها على من يدفع ثمن تلك الألقاب.

له الباشا، ووصل يَدَه بيدِ ابنتِهِ فألبَسَها وألبَسَتْه، وأعلَمها أبوها أنه قد فَحَصَ عنِ البك فإذا هو (بك) قوةِ مائتي فدان. . . أما الأفندي فظهرَ منَ الفحص الهندسيّ الاجتماعيّ أنَّهُ (أفندي) قوةُ خمسةَ عشرَ جنيهاً في الشهر. . . !

وخَنَسَ[1] الأفندي وتراجَعَ مُنْخَزِلاً، وقد علم أن (الباشا) إنَّما زوَّجَ لقبَهُ قبلَ أنْ يزوجَ ٱبنتَه، وأنَّهُ هو لن يملِكَ مهرَ هذا اللقبِ إلا إذا مَلَك أن يُبدِّلَ أسبابَ التاريخِ الاجتماعيِّ في الأممِ الضعيفة، فينقلَ إلى العقلِ أو النفسِ ما جعلَتْهُ «أممُ الأكلِ والشرب» من حقِّ المَعِدة، فلا يكونَ (باشا) إلا مخترعٌ شرقيٌّ مُفْلِسٌ أو أديبٌ عظيمٌ فقير، أو مَن جرى هذا المجرَى في سموّ المعنى لا في سموّ المال.

وقدَّمَتْ مائتَا الفدانِ مهرَها «الطِّينيَّ» العظيمَ بما تعبيرُهُ في اللغةِ الطينية: ثمنُ عشرين ثوراً، ومثلِها جاموساً، ومثلِها بِغالاً وأحمِرة، وفوقَها مائةُ قنطارٍ قطناً، ومائةُ إردبٍ قمحاً؛ ثم ذُرةً، ثم شعيراً. والمجموعُ الطينيُّ لذلك ألفُ جنيه، وعزّى الباشا أنه مستطيعٌ أنْ يقول للناس: إنها خمسةُ آلاف، اختزلَتْها الأزْمة قَبَّحَها الله. . . !

ثم زُفَّت «بنت الباشا» زِفافاً طينياً بهذا المعنى أيضاً، كان تعبيرُهُ: أنه أُنفِقَ ثمنُ ألفِ قنطارٍ بصلاً، ومائةِ غَرارةٍ منَ السَّمادِ الكيماوي، كأنما فُرِضَ بها الطريق. . . !

وَطفِقَ الباشا يُفاخِرُ ويتمدَّحُ، وَيتَبَذَّخُ[2] على الأفندي وأمثالِ الأفندي بِالطينِ ومعاني الطين؛ فردَّتِ الأقدارُ كلامَه، وجعلَتْ مَرْجعَهُ في قلبِه، وهيَّأَتْ لبنتِ الباشا معيشةً «طِينيةً» بمعنًى غيرِ ذلك المعنى. . .

* * *

وماتَ الطفل؛ فردَّتْ هذه النكبةُ بنتَ الباشا إلى معاني ٱنفرادِها بنفسِها قبلَ الزواج، وزادَتْها على ٱنفرادِها الحزنَ والألم؛ وألقَتِ الأقدارُ بذلك في أيامِها ولياليها الترابَ والطين.

ولجَّ الحزنُ ببنتِ الباشا فجعلَتْ لا ترى إلَّا القبرَ، ولا تتمنَّى إلَّا القبر، تلحقُ فيه بولدِها؛ فوضَعتِ الأقدارُ من ذلك في رُوحِها معنى الطينِ والتراب.

وأسقمَ الهمُّ بنتَ الباشا وأذابَها؛ فنقلتِ الأقدارُ إلى لحمِها عَمَلَ الطين، في تحليلِهِ الأجسامَ وإذابَتِها تحتَ البِلَى.

* * *

---

(١) خنس: تأخر.
(٢) يتبذّخ: يتكرّم.

وكانَ وراءَ قصرِها حوَاءٌ[1] يأوي إليه قومٌ من «طِينِ الناسِ» بنسائِهم وعيالِهم، وفيهم رجلٌ «زَبّالٌ» له ثلاثةُ أولَاد، يراهم أعظمَ مَفَاخِرِهِ وأجملَ آثارِه، ولا يزالُ يرفعُ صوتَه متمَدِّحاً بهم، ويخترعُ لذلك أسباباً كثيرةَ لكي يَسمعَه جيرانُه كلَّ ليلةٍ مُفاخراً، مرةً بأحمد، ومرة بحَسن، ومرة بعَليّ، وأعجَبُ أمرِهِ أنَّهُ يرى أولادَهُ هؤلاءِ متمِّمينَ في الطبيعةِ لأولادِ «الباشوات»... وهو يُحبُّهم حبَّ الحيوانِ المفترِسِ لصغارِه؛ يرى الأسدُ أشبالَه هم صنعةَ قوَّتِهِ، فلا يزالُ يَحُوطُهم ويُتمِّمُهم ويَرعاهم، حتى إنَّه لَيُقاتلُ الوجودَ من أجْلِهم؛ إذْ يشعرُ بالفِطْرةِ الصادقةِ أنَّهُ هو وجُودُهم، وأنَّ الطبيعةَ وهَبَتْ له منهم مَسَرَّاتِ قلبِه، ذلك القلبِ الذي ٱنحصَرتْ مسرَّاتُهُ في النسلِ وحَدَه، فصارَ الشعورُ بالنسلِ عندَهُ هو الحبَّ إلى نهايةِ الحبّ. وكذلك الزبَّالُ الأسد.

ومن سخريةِ القدرِ أنَّ زبَّالنَا هذا لمْ يُسكنِ ٱلحواءَ إلَّا في تلك الليلةِ التي جلَسَتْ فيها بنتُ الباشا على ما وصفْنا، وفي ضلوعِها قلبٌ يُفَتِّتُ من كبدِها، ويُمزِّقُ من أحشائِها.

وبينا تُناجي نفسَها وتَعْجَبُ من سخريةِ الأقدارِ بالباشا والبك، وتَسْتَحْمقُ أباها فيما أقدمَ عليه من نبذِ كُفْئِها لعجزهِ عن مهرِ باشا، وإيثارِ هذا المهرِ الطينيّ، وتَبَاهيهِ به أمامَ الناس، وانْدِرَائِهِ بالطَّعنِ على مَنْ ليسَ له لقبٌ من ألقابِ الطين ـ بيْنَا هي كذلك إذا بالزبال؛ كانِسِ الترابِ والطينِ يهتفُ في جوفِ الليل ويتغنىَ:

يا لِيلْ، يا لِيلْ، يا ليلْ ... ما تنْجلي يا ليلْ

* * *

القلب[2] أهو راضي ... لكَ حَمدي يا ربي

مِنَ الهمومْ فاضي ... إفرحْ لي يا قلبي

* * *

يا دُوبْ كِدا يا دوبْ ... زَيّ الحَمامْ عَايِشْ

ما يِمْتِلِكْ غيرْ تُوبْ ... طُولْ عمرُه فِيهْ نافِشْ...

يا ليلْ، يا ليلْ، يا لِيلْ ... ما تنْجلِي يا لِيلْ

* * *

---

(١) الحِوَاء: بيوت فقراء أهل الصعيد في مصر. (٢) مشبوباً: ملتهب العواطف.

إن قـــلــــت أنــــا فَـــرْحَــــانْ ذا مِـــيـــنْ يِـــكَـــدِّيْـــنـــي
واكْـــتَـــرْ مِـــنَ الـــســـلـــطـــانْ فـــرحـــانْ أنـــا بـــابْـــنـــي

* * *

بـــيـــن الـــســـيـــوفْ يـــا نـــاسْ لَـــم انـــكَـــسَـــرْ سِـــيـــفـــي
وابْـــن الـــغِـــنَـــي مِـــحْـــتَـــاسْ وأنـــا عـــلـــى كـــيـــفـــي . . .
يـــا لـــيـــلْ، يـــا لـــيـــلْ، يـــا لـــيـــلْ مـــا تِـــنْـــجـــلِـــي يـــا لـــيـــلْ

* * *

وابْـــن الـــغِـــنَـــي فِ هْـــمـــوم والـــخـــالـــي خـــالـــي الـــبـــالْ
والـــفـــقـــرْ مـــا بِـــيْـــدُومْ وتْـــدُومْ هـــمـــومِ الـــمـــالْ

* * *

يـــا طِـــيـــرْ يـــا طِـــيـــرْ، يـــا طِـــيـــر الـــحُـــرّ فـــوْقِ الـــلُّـــومْ
والـــخِـــيـــرْ، جـــمـــيـــع الـــخِـــيـــر لُـــقْـــمَـــهْ، وعـــافـــيَـــه، ونُـــومْ
يـــا لـــيـــل، يـــا لـــيـــلْ، يـــا لـــيـــل مـــا تِـــنْـــجِـــلـــي يـــا لِـــيـــل

* * *

ولم تخترِ الأقدارُ إلا زبالاً تُرْسِلُ في لسانهِ سخريَتها بذلك الباشا وبنتِ ذلك الباشا. . . . !

وكَـسْـرُ قـلـبٍ بـكـسـرِ قـلـبِ وحَـطْـمُ نَـفْـسٍ بـحـطْـم نـفـسِ
ورُبَّ عِـــزٍّ تـــراه أمـــســـى كُـنَـاسـةَ هُـيِّـئَـتْ لِـكَـنْـس . .

ورقةُ ورد

«وضعنا كتابنا (أوراق الورد) في نوع من الترسل لم يكن منه شيء في الأدب العربي على الطريقة التي كتبناه بها، في المعاني التي أفردناه لها؛ وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيّناه في مقدمة الكتاب. وكانت قد ضاعت (ورقة ورد) وهي رسالة كتبها العاشق إلى صديق له، يصف من أمره وأمر صاحبته، ويصور له فيها سحر الحبّ كما لمسه وكما تركه. وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب، فرأينا ألا تنفرد بها، وهي هذه:»

. . . كانَتْ لها نفسٌ شاعرة، من هذه النفوسِ العجيبةِ التي تأخذُ الضّدَّينِ بمعنًى واحدٍ أحياناً؛ فيَسُرُّها مرةً أنْ تُحْزِنَها وتستَدعيَ غضبَها، ويُحْزِنُها مرةً أنْ تَسُرَّها وتبلغَ رِضاها، كأنْ ليس في السرورِ ولا في الحزنِ مَعانٍ مِنَ الأشياءِ ولكنْ من نفسِها ومشيئتِها.

وكانَ خيالُها مشبوباً، يُلْقِي في كلِّ شيءٍ لَمَعَانَ النورِ وانطفاءَه؛ فالدنيا في خيالِها كالسماءِ التي ألْبسَها الليلُ، مُلِئَتْ بأشيائِها مبعثَرةً مضيئةً خافتةً كالنجوم.

ولها شعورٌ دقيق، يجعلُها أحياناً من بلاغةِ حِسّها وإرهافِهِ كأنَّ فيها أكثرَ من عقلِها؛ ويجعلُها في بعضِ الأحيانِ من دِقةِ هذا الحسِّ واْهتياجِهِ كأنّها بغيرِ عقل. . .

وهي ترى أسمى الفكرِ في بعضِ أحوالِها ألَّا يكونَ لَها فكر؛ فتتركُ من أمورِها أشياءَ للمصادفة، كأنّها واثقةٌ أنَّ الحظَّ بعضُ عُشَّاقِها. على أنَّ لها ثلاثةَ أنواعٍ مِنَ الذكاء، في عقلِها وروحِها وجسمِها: فالذكاءُ في عقلِها فَهْم، وفي روحِها فِتنة، وفي جسمِها. . . خَلاعة.

وكنْتُ أراها مَرِحَةً مستطارةً مِمَّا تَطْرَبُ وتتفاءَل، حتى لَأحسبُها تودُّ أنْ يخرجَ الكونُ من قوانينِهِ ويطيش. . . ؛ ثم أراها بعدُ مُتَضَوّرةً[1] مهمومةً تحْزَنُ وتتشاءَمُ، حتّى لَأظنَها ستزيدُ الكونَ هَمًّا ليسَ فيه!

---

(١) متضوّرة: متألمة.

وكانَتْ على كلِّ أحوالِها المتنافرة ـ جميلةً ظريفة، قد تمَّتْ لها ٱلصورةُ التي تَخلقُ الحبَّ، والأسرارُ التي تبعثُ الفِتنة؛ والسحرُ الذي يُميِّزُ روحَها بشخصيتِها الفاتنةِ كما تتميزُ هي بوجهِها الفاتن.

* * *

وكانَ حبِّي إيَّاها حريقاً منَ الحبّ. فمثِّلْ لعينيكَ جسماً تَناوَلَ جِلْدَهُ مَسٌّ من لَهَب، فتسلَّعُ هذا الجلدَ[1] هنا وهناك من سَلْخِ النار، وظهرَ فيهِ مِن آثارِ الحروقِ لَهَبٌ يابسٌ أحمرُ كأنَّه عُروقٌ منَ الجمرِ ٱنتشرَتْ في هذا الجسم. إنَّك إنْ تمثَّلْتَ هذا الوصفَ ثم نَقَلْتَه منَ الجلدِ إلى الدم ـ كانَ هو حريقَ ذلك الحبِّ في دمي!

والحبُّ ـ إنْ كانَ حبًّا ـ لم يكنْ إلا عذاباً؛ فما هو إلا تقديمُ البرهانِ مِنَ العاشقِ على قوةِ فعلِ الحقيقةِ التي في المعشوق، ليس حالٌ منه في عذابِه، إلَّا وهي دليلٌ على شيءٍ منها في جَبَروتِها.

ولقد أيقنْتُ أنَّ الغرامَ إنَّما هو جنونُ شخصيةِ المحبِّ بشخصيةِ محبوبِه، فيَسقُطُ العالَمُ وأحكامُه ومذاهبُه مِمّا بينَ الشخصيتين؛ وينتفي الواقعُ الذي يجري الناسُ عليه، وتعودُ الحقائقُ لا تأتي من شيءٍ في هذه الدنيا إلّا بعدَ أنْ تمرّ على المحبوبِ لِتجيءَ منه، ويُصبحَ هذا الكونُ العظيمُ كأنَّه إطارٌ في عينِ مجنونٍ لا يحملُ شيئاً إلّا الصورةَ التي جُنّ بها!

وتاللَّهِ لكأنَّ قانونَ الطبيعةِ يقضي ألَّا تُحبَّ المرأةُ رجلاً يسمَّى رجلا، وألّا تكونَ جديرةً بمُحبِّها، إلّا إذا جرَتْ بينَهما أهوالٌ مِنَ الغرامِ تتركُها معه كأنَّها مأخوذةٌ في الحرب... تلك الأهوالُ يُمثِّلها الحيوانُ المتوحّشُ عملاً جسميًّا بالقتالِ على الأنثى، ثم تَرِقُّ في الإنسانِ المتحضرِ فيمثِّلُها عملاً قلبياً بالحبّ...

* * *

أحبَبْتُها جهْدَ الهوى حتى لا مَزيدَ فيه ولا مطمعَ في مزيد، ولكنَّ أسرارَ فتنتِها ٱستمرَّتْ تتعدَّدُ فتدفعُني أنْ يكون حبيّ أشدَّ من هذا؛ ولا أعرفُ كيف يُمكنُ في الحبِّ أشدُّ من هذا؟

ولقد كنْتُ في ٱستغاثتي بها مِنَ الحبِّ كالذي رأى نفسَه في طريقِ السَّيلِ ففرَّ إلى رَبْوَةٍ عاليةٍ في رأسِها عقلٌ لهذا السَّيلِ الأحمق، أو كالذي فاجأهُ البركانُ بجنونِهِ

---

(١) تسلّع هذا الجلد: تشقق وتسلخ.

وغِلظتِهِ فهربَ في رقِةِ الماءِ وحِلمِه؛ ولا سيلَ ولا بركانَ إلا حُرقتي بالهوى وٱرتماضي منَ الحبّ.

أما واللَّهِ إنَّهُ ليس العاشقُ هو العاشق، ولكنْ هي الطبيعة، هي الطبيعةُ في العاشق.

هي الطبيعةُ، بجبروتِها، وعسْفِها[1]، وتعنُّتِها. إذا استراحَ الناسُ جميعاً قالَتْ للعاشق: إلّا أنت...!

إذا عقِلَ الناسُ جميعاً قالَتْ في العاشقِ: إلّا هذا...

إذا بَرَأتْ جِراحُ الحياةِ كلُّها قالَتْ: إلا جَرْحَ الحبّ...!

إذا تشابهتِ الهمومُ كالدّمعةِ والدمعة، قالت: إلا هَمَّ العشق...!

إذا تغيَّر الناسُ في الحالةِ بعدَ الحالة، قالَتْ في الحبيب: إلا هو...!

إذا انكشفَ سرُّ كلِّ شيء، قالت: إلّا المعشوقَ؛ إلّا هذا المحجَّبَ بأسرارِ القلب...!

* * *

ولما رأيْتُها أوّلَ مرةٍ، ولَمَسني الحبُّ لمسةَ ساحر، جلسْتُ إليها أتأمّلُها وأحْتَسي من جمالِها ذلك الضياءَ الْمُسْكِرَ، الذي تُعرْبدُ له الروحُ عَرْبدَةً كلّها وقارٌ ظاهر... فرأيتُني يومئذٍ في حالةٍ كغَشْيَةِ ٱلوحْي، فوقَها الآدميّةُ ساكنةً، وتحتَها تيّارُ الملائكةِ يَعُبُّ ويجري.

وكنْتُ أُلَقّى خواطرَ كثيرة، جَعَلَتْ كلَّ شيءٍ منها ومِمّا حوَلها يتكلمُ في نفسي، كأنَّ الحياةَ قد فاضتْ وٱزدحمَتْ في ذلك الموضعِ تجلسُ فيه، فما شيءٌ يمرُّ بِه إلّا مسَّتْهُ فجعلَتْهُ حيًا يرتعش، حتى الكلمات.

وشَعَرْتُ أوّلَ ما شعرتُ أنَّ الهواءَ الذي تتنفّسُ فيه يرقُّ رِقّةَ نسيمِ السَّحَر، كأنّما ٱنخدعَ فيها فَحَسِبَ وجهها نورَ الفجر!

وأحسسْتُ في المكان قوةً عجيبةً في قدرتِها على الجَذْب، جعلَتْني مُبَعْثَراً حولَ هذه الفتّانة، كأنّها محدودةٌ بي من كلّ جهة.

وخُيّلَ إليّ أنَّ النواميسَ[2] الطبيعيةَ قدِ ٱختلّتْ في جسمي إمّا بزيادةٍ وإمّا بنقْص؛ فأنا لذلك أعْظُمُ أمامَها مرةً، وأصغرُ مرة.

---

(١) عسفها: ظلمها.

(٢) النواميس: مفرده ناموس وهو القانون.

وظننْتُ أنَّ هذه الجميلةَ إنْ هي إلا صورةٌ مِنَ الوجودِ النسائيِّ الشاذِّ، وقعَ فيها تنقيحٌ إلهيٌّ لتُظهِرَ للدنيا كيفَ كانَ جمالُ حوَّاءَ في الجنة.

ورأيْتُ هذا الحُسْنَ الفاتنَ يُشْعِرُني بأنَّهُ فوقَ الحسن، لأنَّهُ فيها هي؛ وأنَّهُ فوقَ الجمالِ والنَّضرةِ والمَرَح، لأنَّ اللَّهَ وَضَعَهُ في هذا السرورِ الحيِّ المخلوقِ امرأة.

والتمسْتُ في محاسنِها عيباً، فبعدَ الجهدِ قلْتُ معَ الشاعر:

* إذا عِبْتُها شبَّهتُها البدرَ طالعا...! *

* * *

ورأيْتُها تضحكُ الضَّحِكَ المُسْتَحِي: فيخرجُ من فمِها الجميلِ كأنَّما هو شاعرٌ أنَّه تجرَّأَ على قانون..

وتَبْسمُ ابتساماتٍ تقولُ كلٌّ منها للجالسين: انظروها! انظروها...!

ويغمُرُها ضَحِكُ العينِ والوجهِ والفم وضحِكُ الجسمِ أيضاً باهتزازِهِ وتَرَجْرُجِهِ في حركاتٍ كأنَّما يَبسمُ بعضُها ويُقَهْقِهُ بعضُها...

وتُلقي نظراتٍ جَعلَ اللَّهُ معها ذلك الإغضاءَ وذلك الحياةَ ليضعَ شيئاً مِنَ الوقايةِ في هذه القوةِ النَسْوِيَة، قوّةِ تدميرِ القلب.

وهي على ذلك متساميةٌ في جمالِها حتى لا يتكلمَ جسمُها في وساوسِ النفسِ كلامَ اللحمِ والدم، وكأنَّه جسْمٌ ملائكيٌّ ليسَ له إلَّا الجلالُ طَوْعاً أو كَرْهاً؛

جسمٌ كالمعْبَد، لا يَعرفُ مَنْ جاءَهُ أنه جاءَهُ إلَّا ليبتهلَ ويخشَع.

وتُطالِعُكَ من حيثُ تأملْتَ فكرةُ الحياةِ المنسجمةِ على هذا الجِسم، تطلبُ منك الفهمَ وهي لا تُفْهَمُ أبداً: أيْ تُريدُ الفهمَ الذي لا ينتهي؛ أيْ تطلبُ الحبَّ الذي لا ينقطع.

وهي أبداً في زينةِ حُسنِها كأنَّها عروسٌ في معرِضِ جَلْوتِها[1]؛ غيرَ أنَّ للعروسَ ساعةً، ولها هي كلَّ ساعة.

* * *

أما طَرفُها فيكادُ يَصيحُ تحتَ النظرات: أنا خائفٌ، أنا خائف!

ووجهُها تَتَغالبُ عليه الرَّزانةُ[2] والخِفّة، لتقرأَ فيه العينُ عقلَها وقلبَها.

---

(١) جَلْوتها: زينتها ليلة زفافها.

(٢) الرزانة: التعقّل.

وهي مِثلُ الشِّعر، تُطْرِبُ القلبَ بالألمِ يُوجَدُ في بعضِ السرور، وبِالسرورِ الذي يُحَسُّ في بعضِ الألم.

وهي مِثلُ الخمر، تَحسبُ الشيطانَ مُتَرَقْرِقاً فيها بكلِّ إغرائِه!

وكلَّما تناولَتْ أمامي شيئاً أو صنعَتْ شيئاً خلقَتْ معه شيئاً؛ أشياؤُها لا تزيدُ بها الطبيعة، ولكنْ تَزيدُ بها النفس.

فيا كَبِداً طارَتْ صُدُوعاً[1] منَ الأسى....!

ورأيتُني يومئذٍ في حالةٍ كغَشيَةِ الوحْي، فوقَها الآدميّةُ ساكنةً، وتحتَها تيَّارُ الملائكةِ يَعُبُّ ويجري.

* * *

يا سِحْرَ الحبّ! تركْتَني أرى وجهَها من بَعدُ هو الوجهُ الذي تضحكُ بهِ الدنيا، وتعبسُ وتَتغيَّظُ[2] وتَتحامقُ أيضاً...

وجعلْتَني أرى الابتسامةَ الجميلةَ هي أقوى حكومةٍ في الأرض...!

وجعْلَتني، يا سحرَ الحبّ؛ وجعْلَتني. يا سحرَ الحبّ مجنوناً...!

---

(١) صدوعاً: خضوعاً.

(٢) تتغيّظ: تغضب.

سُمُوُّ الحب

صاحَ المنادي في موسم الحجّ: «لا يُفْتي الناسَ إلا عَطاءُ بنُ أبي رَباح» وكذلك كان يفعلُ خلفاءُ بني أمية؛ يأمرون صائحَهم في الموسِم، أنْ يدلَّ الناسَ على مفتي مكةَ وإمامِها وعالمِها، لِيَلْقَوْه بمسائلِهم في الدين، ثم ليُمْسِكَ غيرُه عنِ الفَتْوَى، إذْ هو الحجةُ القاطعةُ لا ينبغي أنْ يكونَ معَها غيرُها مِمَّا يختلفُ عليها أو يُعارضُها، وليسَ للحُججِ إلَّا أنْ تُظاهرَها وتتَرَادفَ على معناها.

وجلسَ عطاءٌ يتحيَّنُ الصلاةَ في المسجدِ الحرام، فوقفَ عليه رجلٌ وقال: يا أبا محمد، أنت أفْتَيْتَ كما قال الشاعر:

سَلِ الْمُفْتِيَ المكّيَّ: هل في تَزاوُرٍ ... وَضَمَّةِ مُشتاقِ الفؤادِ جُناحُ[1]؟

فقال: مَعَاذَ اللَّهِ أنْ يُذْهِبَ التُّقى ... تَلاصُقُ أكبادٍ بِهِنَّ جِراحُ!

فرفعَ الشيخُ رأسَه وقال: واللَّهِ ما قلْتُ شيئاً من هذا، ولكنّ الشاعرَ هو نحَلَني هذا الرأيَ الذي نَفَثَه الشيطانُ على لسانِه، وإنّي لأخافُ أنْ تَشيعَ القالَةُ في الناس، فإذا كان غدٌ وجلسْتُ في حلْقتي فاغْدُ عليَّ، فإني قائل شيئاً.

وذهبَ الخبرُ يؤُجُّ كما تؤجُّ النار[2]، وتعالَمَ الناسُ أنَّ عطاءً سيتكلّمُ في الحبّ، وعجِبوا كيف يدري الحبَّ أو يُحْسِنُ أنْ يقولَ فيه مَنْ غَبَرَ عشرينَ سنةً فراشُهُ المسجد، وقد سمعَ من عائشةَ أمِّ المؤمنين، وأبي هُرَيرةَ صاحبِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، وابنِ عباسٍ بحرِ العِلْم!

وقالَ جماعةٌ منهم: هذا رجلٌ صامِتٌ أكثرَ وقتِه، وما تكلَّمَ إلَّا خُيِّلَ إلى الناسِ أنَّهُ يُؤيَّدُ بمثلِ الوحي، فكأنَّما هو نَجِيُّ ملائكةٍ يَسمعُ ويقول، فلعلَّ السماءَ مُوحِيَةٌ إلى الأرضِ بلِسانِهِ وحياً في هذه الضلالةِ التي عمَّتِ الناسَ وفَتَنَتْهُم بالنساءِ والغِناء.

---

(١) جناح: إثم.

(٢) تؤج النار: تضطرم وتلتهب.

ولَمَّا كان غدٌ جاء الناسُ أرسالاً[1] إلى المسجد، حتى اجتمعَ منهمُ الجمعُ الكثير. قال عبدُ الرحمن بنُ عبدِ اللَّهِ أبي عمّار: وكنْتُ رجلاً شابًّا من فِتيْانِ المدينة، وفي نفسي ومِن الدنيا ومِن هَوى الشباب، فغدوْتُ معَ الناس، وجئْتُ وقد تكلَّمَ أبو محمدٍ وأفاض، ولم أكُنْ رأيْتُه من قبلُ، فنظَرْتُ إليهِ فإذا هو في مجلسِهِ كأنَّهُ غرابٌ أسود، إذْ كانَ ابْنَ أمَةٍ سوداءَ تُسمَّى «بَرَكَةَ» ورأيْتُهُ مع سوادِهِ أعورَ أفطسَ أشَلَّ أعرجَ مُفَلْفَلَ الشَّعر، لا يتأملُ المرءُ منه طائلاً، ولكنَّك تَسمعُهُ يتكلمُ فتظنُّ منه ومن سوادِه ـ واللَّهِ ـ أنَّ هذه قطعةُ ليلٍ تسْطَعُ فيها النجومُ، وتصعدُ من حولِها الملائكةُ وتنزل.

قال: وكان مجلسُه قي قصةِ يوسفَ ـ عليه السلام ـ، ووافقْتُهُ وهو يتكلَّمُ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

قال عبد الرحمن: فسمِعْتُ كلاماً قُدْسِيًّا تَضَعُ له الملائكةُ أجنحتَها مِن رضًى وإعجابٍ بفقيهِ الحجاز. حَفِظْتُ منه قوله:

عَجَباً للحبّ! هذه ملِكَةٌ تعشقُ فتاها الذي ابتاعَهُ زوجُها بثمنٍ بَخْسٍ[2]؛ ولكنْ أين مُلْكُها وسطوةُ مُلْكِها في تصويرِ الآيةِ الكريمة؟ لم تَزِدِ الآيةُ على أنْ قالَت: [وراودَتْهُ التي] و «الَّتي» هذه كلمةٌ تدلُّ على كلِّ امرأةٍ كائنةً مَنْ كانت؛ فلم يَبْقَ على الحبِّ مُلْكٌ ولا مَنْزِلة؛ وزالَتِ المَلِكَةُ مِنَ الأنثى!

وأعْجَبُ من هذا كلمة «رَاوَدَتْه»[3] وهي بصيغتِها المفردةِ حكايةٌ طويلةٌ تُشيرُ إلى أنَّ هذه المرأةَ جعلَتْ تعترضُ يوسفَ بألوانٍ من أنوثتِها لَوْنٍ بعدَ لَوْن؛ ذاهبةً إلى فنّ، راجعةً من فنّ؛ لأنَّ الكلمةَ مأخوذةٌ من رَوَدَانِ الإبلِ في مِشيتِها؛ تذهبُ وتجيءُ في رِفْق. وهذا يُصَوِّرُ حَيْرَةَ المرأةِ العاشقة، واضطرابَها في حبِّها؛ ومحاولتَها أنْ تَنفُذَ إلى غايتِها؛ كما يُصوّر كبرياءَ الأنثى إذْ تختالُ وتترفّقُ في عرضِ ضعفِها الطبيعيّ كأنّما الكبرياءُ شيءٌ آخرُ غيرُ طبيعتِها؛ فمهما تَتهالكْ على مَن تحبُّ

---

(١) أرسالاً: جماعات جماعات.

(٢) ثمن بخس: ثمن منقوص لم يقدر بقيمته الحقيقية، زهيد.

(٣) راودته: عملت على إغرائه.

وَجَبَ أنْ يكونَ لهذا «الشيءِ الآخر» مَظهرُ ٱمتناعٍ أو مظهرُ تحيُّرٍ أو مظهرُ ٱضطراب، وإنْ كانَتِ الطبيعةُ من وراءِ ذلك مندفِعةً ماضيةً مصمِّمة.

ثم قال: «عن نفْسِه» ليدُلَ على أنَّها لا تطمعُ فيه، ولكنْ في طبيعتِهِ البشرية، فهي تَعرِض ما تعرضُ لهذه الطبيعةِ وحدَها، وكأنَّ الآيةَ مصرِّحةٌ في أدبٍ سامٍ كلَّ السموّ، منزَّهٍ[1] غايةَ التنزيهِ بما معناه: «إنَّ المرأةَ بذَلَتْ كلَّ ما تستطيعُ في إغرائِه وتَصَبنيه، مقْبِلةً عليه ومتدلِّلةً ومتبذِلةً ومُنْصَبَّةً من كلِّ جِهة، بما في جسمِها وجمالِها على طبيعتِهِ البشرية، وعارضةً كلَّ ذلك عَرْضَ ٱمرأةٍ خلعَتْ ـ أوّلَ ما خلعتْ ـ أمامَ عينيهِ ثوبَ المُلْك».

ثم قال: [وغلَّقت الأبوابَ] ولم يقل «أغلَقَتْ» وهذا يُشعر أنَّها لَمَّا يئسِت، ورأَتْ منه محاولةَ الآنصراف، أسرَعتْ في ثَورةِ نفسِها مهتاجةً تتخيّلُ القُفلَ الواحدَ أقفالاً عِدّة، وتجري من بابٍ إلى باب، وتَضطربُ يدُها في الإِغلاق، كأنَّما تُحاولُ سدَّ الأبوابِ لا إغلاقَها فقط.

[وقالت هيْتَ لك[2]] ومعناها في هذا الموقفِ أنَّ اليأسَ قد دفعَ بهذِهِ المرأةِ إلى آخرِ حدودِه، فٱنتهَتْ إلى حالةٍ مِنَ الجنونِ بفكرتِها الشهوانية، ولم تعدْ لا مَلِكَةً ولا ٱمرأة، بل أنوثةً حيوانيةً صِرْفةً، متكشّفةً مصرِّحة، كما تكونُ أنثى الحيوانِ في أشدِّ ٱهتياجِها وغَلَيانِها.

هذه ثلاثةُ أطوارٍ يترقَّى بعضُها من بعض، وفيها طبيعةُ الأنوثةِ نازلةً من أعلاها إلى أسفلِها. فإذا ٱنتهَتِ المرأةُ إلى نهايتِها ولم يَبْقَ وراءَ ذلك شيءٌ تستطيعُهُ أو تعرضُهُ بدأَتْ من ثَمَّ عظَمةُ الرجولةِ الساميةِ المتمكِّنةِ في معانيها، فقال يوسف: [مَعَاذَ اللَّهِ] ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾[3] ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. وهذه أسْمَى طريقةٍ إلى تنبيهِ ضميرِ المرأةِ في المرأة، إذْ كانَ أساسُ ضميرِها في كلِّ عصرٍ هو اليقينَ بالله، ومعرفةَ الجميل، وكراهةَ الظُّلْم. ولكنّ هذا التنبيهَ المترادِفَ ثلاثَ مرّاتٍ لم يكسرْ من نَزْوَتِها، ولم يَفْثَأْ تلك الحِدّة، فإنَّ حبَّها كانَ قدِ ٱنحصر في فكرةٍ واحدةٍ ٱجتمَعتْ بكلِّ أسبابِها في زمنٍ، في مكانٍ، في رَجُل، فهي فكرةٌ

(١) منزّه: مترفع.

(٢) هيت لك: تهيئت لك واستعديت لقضاء وطري منك.

(٣) مثواي: عقباي.

مُحْتَبَسَةٌ كأنَّ الأبوابَ مغلَّقةٌ عليها أيضاً؛ ولذا بقيَتِ ٱلمرأةُ ثائرةً ثورة نفسِها. وهنا يعودُ الأدبُ الإلٰهيّ السامي إلى تعبيرِهِ المعجزِ فيقول: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ كأنَّما يُوميءُ بهذه العبارةِ إلى أنَّها ترامَتْ عليه، وتعَلَّقَتْ به، وٱلتجأتْ إلى وَسيلتِها الأخيرة، وهي لَمْسُ الطبيعةِ بالطبيعةِ لإلقاءِ الجمرةِ في الهَشيم...!

جاءَتِ العاشقةُ في قضيتِها ببرهانِ الشيطانِ يَقْذِفُ بهِ في آخرِ محاولتِه. وهنا يقَعُ ليوسفَ ـ عليه السلامُ ـ برهانُ ربّهِ كما وقعَ لها هي برهانُ شيطانِها. فلولا برهانُ ربّهِ لكانَ رجُلاً منَ البَشَرِ في ضعفِهِ الطبيعيّ.

قال أبو محمد: وهٰهنا المعجزةُ الكبرى، لأنَّ الآيةَ الكريمةَ تُريدُ ألَّا تنفيَ عن يوسفَ ـ عليهِ السلامُ ـ فُحولةَ الرجولة، حتى لا يُظَنَّ بهِ، ثم هي تُريدُ من ذلك أنْ يَتعلّمَ الرجالُ، وخاصةً الشبانَ منهم، كيف يَتسامَوْنَ[1] بهذه الرجولةِ فوقَ الشهوات، حتى في الحالةِ التي هي نهايةُ قدرةِ الطبيعة؛ حالةِ مَلَكةٍ مطاعةٍ فاتنةٍ عاشقةٍ مُخْتَلِيةٍ مُتَعَرِّضةٍ متكشِّفَةٍ متهالكة. هنا لا ينبغي أنْ ييأسَ الرجل، فإنَّ الوسيلةَ التي تجعلُهُ لا يرى شيئاً من هذا ـ هي أنْ يرى برهانَ ربّه.

وهذا البرهانُ يُؤَوِّلُهُ[2] كلُّ إنسانٍ بما شاء، فهو كَالمِفتاحِ الذي يُوضعُ في الأقفالِ كلِّها فيفُضُّها كلَّها؛ فإذا مثلَ الرجلُ لنفسِه في تلك الساعةِ أنَّه هو وهذه المرأةَ منتَصِبانِ أمامَ اللّهِ يراهما، وأنَّ أمانيَّ القلبِ التي تهجِسُ[3] فيه ويظنُّها خافيةً إنَّما هي صوتٌ عالٍ يسمعُهُ اللّهُ؛ وإذا تذكرَ أنه سيموتُ ويُقْبَر، وفكَّر فيما يصنعُ الثرى[4] في جسمِهِ هذا، أو فكرَ في موقفِهِ يومَ تَشْهَدُ عليهِ أعضاؤُهُ بِمَا كانَ يعمل، أو فكّرَ في أنَّ هذا الإثمَ الذي يقترِفُهُ الآنَ سيكونُ مَرْجِعُهُ عليه في أختِهِ أو بنتِه ـ إذا فكّرَ في هذا ونحوِهِ رأى برهانَ ربِّه يُطالعُهُ فجأة، كما يكونُ السائرُ في الطريقِ غافلاً مُندفِعاً إلى هاوية، ثم ينظرُ فجأةً فيرى برهانَ عَيْنِه؛ أترَوْنَهُ يتردَّى في الهاويةِ[5] حينئذٍ، أم يقفُ دونَها وينجو؟ احفظوا هذه الكلمةَ الواحدةَ التي فيها أكثرُ الكلام، وأكثرُ الموعِظة، وأكثرُ التربية، والتي هي كالدِّرْعِ في المعركةِ بينَ الرجلِ والمرأةِ والشيطان، كلمةَ «رأى برهانَ ربّه».

* * *

(١) يتسامون: يترفعون.

(٢) يؤوله: يفسره.

(٣) تهجس فيه: تثير فيه الخواطر.

(٤) الثرى: التراب.

(٥) يتردى في الهاوية: يقع فيها.

قالَ عبدُ الرحمنِ بْنُ عبدِ اللَّهِ وهو يتحدَّثُ إلى صاحبِه سُهَيْلِ بْنِ عبدِ الرحمن: ولزِمْتُ الإمامَ بعدَ ذلك، وأجْمَعْتُ أن أتَشبَّهَ بهِ، وأسلُكَ في طريقِهِ منَ الزهدِ والمعرِفة؛ ثم رجعْتُ إلى المدينةِ وقد حفظْتُ الرجلَ في نفسي كما أحفظُ الكلام، وجعلْتُ شِعاري في كلِّ نَزْعةٍ من نَزَعاتِ النفسِ هذه الكلمةَ العظيمة: ﴿رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، فما ألممْتُ بإثم[1] قطّ، ولا دانيْتُ معصيةً، ولا رَهِقَنِي[2] مَطْلَبٌ من مطالبِ النفسِ إلى يومِ الناسِ هذا، وأرجو أنْ يَعْصِمَني[3] اللَّهُ فيما بقي، فإنَّ هذه الكلمةَ ليسَتْ كلمةً، وإنَّما هي كأمرٍ منَ السماءِ تحملُه، تمُرُّ به آمِناً على كلِّ مَعَاصي الأرض، فما يَعْتَرِضُكَ شيءٌ منها، كأنَّ معك خاتَمَ المَلكِ تجوزُ به.

قال سُهيل: فلهذا لقبَكَ أهلُ المدينةِ «بالْقَسّ» لعبادتِك وزهدِك وعُزُوفِكَ عنِ النساء[4]، وقِيلَ لك ـ واللَّهِ ـ يا أبا عبدِ الله، فلو قالوا: ما هذا بَشَراً إن هذا إلا مَلكٌ، لصدقوا.

* * *

قالَتْ سَلَّامةُ جاريةُ سُهيلِ بْنِ عبدِ الرحمنِ المُغَنِّيَةُ، الحاذقةُ الظريفةُ، الجميلةُ الفاتنةُ، الشاعرةُ القارئة، المؤرِّخةُ المتحدِّثَة، التي لم يجتمعْ في ٱمرأةٍ مثلِها حُسنُ وجهِها، وحُسنُ غِنائِها، وحُسنُ شِعرِها ـ قالَت: وٱشتراني أميرُ المؤمنينَ يزيدُ بْنُ عبدِ الملك بعشرينَ ألفَ دينار «عشرةِ آلافِ جنيه» وكان يقول: ما يُقِرُّ عيني ما أوتيْتُ مِنَ الخلافةِ حتى أشتريَ سلّامةَ؛ ثم قال حينَ ملكني: ما شاءَ بعدُ من أمرِ الدنيا فَلْيَفُتْني! قالَتْ: فلمَّا عُرِضْتُ عليه أمرَني أنْ أُغنّيَه، وكنْتُ كالمخبولةِ من حبّ عبد الرحمن القَسّ، حبًّا أراه فالِقاً كَبِدي، آتيا على حُشاشتي: فذهبَ عني ـ واللَّهِ ـ كلُّ ما أحفظُهُ مِنْ أصواتِ الغِناء، كما يُمسَحُ اللوحُ ممّا كُتِبَ فيه، وأُنسِيْتُ الخليفةَ وأنا بينَ يديه، ولم أرَ إلا عبدَ الرحمن ومجلسَهُ مِنّي يومَ سألني أن أغنّيَهُ بشعرِهِ فِيَّ، وقَوْلي له يومئذٍ: حُبًّا وكرامةً وعَزاةً لوجهِك الجميل. وتناولْتُ العودَ وجسْتُهُ بقلبي قبلَ يدي، وضربْتُ عليهِ كأني أضربُ لعبدِ الرحمن، بيدِ أرى فيها عقلاً يحتالُ حيلةَ ٱمرأةٍ عاشقةٍ. ثم ٱندفعْتُ أغني بشعرِ حبيبي:

إنَّ ٱلتي طَرَقَتْكَ[5] بينَ ركائبٍ ... تمشي بمِزْهَرِها وأنتَ حَرَامُ[6]

---

(١) ألمم بالإثم: وقع فيه.
(٢) رهقني: أتعبني.
(٣) يعصمني: يمنعني.
(٤) عزوفك عن النساء: امتناعك عنهن.
(٥) طرقتك: زارتك ليلاً.
(٦) حرام: وأنت تصلّي.

لِتَصِيدَ قلبَكَ، أو جزاءَ مودَّةٍ   إنَّ الرفيقَ له عليكَ ذِمَامُ
باتَتْ تُعَلِّلُنَا وتَحْسِبُ أنَّنا   في ذاكَ أيقاظٌ، ونحنُ نيامُ

وغنّيتَهُ ـ واللّهِ ـ غِناءَ والهةٍ ذاهبةِ العقلِ كاسِفَةِ البالِ[1]، وردّدتُهُ كما ردّدتُهُ لِعبدِ الرحمن، وأنا إذْ ذاك بين يديهِ كالوردةِ أوّلَ ما تتفتّحُ. وأنا أنظرُ إليهِ وأتبينُ لصوتي في مِسْمعيهِ صوتاً آخر... وقطّعْتُهُ ذلك التقطيعَ، ومدّدتُه ذلك التمديدَ، وصِحْتُ فيه صيْحةَ قلبي وجوارحي كلِّها كما غنيْتُ عبدَ الرحمنِ لِكيما أؤديَ إلى قلبِهِ المعنى الذي في اللفظِ والمعنى الذي في النفسِ جميعاً، ولِكيما أُسْكِرَه ـ وهو الزاهدُ العابد ـ سكرَ الخمرِ بشيءٍ غيرِ الخمر!

وما أفَقْتُ من هذه إلا حينَ قطعْتُ الصوت، فإذا الخليفةُ كأنّما يسمعُ من قلبي لا من فمي وقد زَلْزَلَهُ ٱلطرب، وما خَفِيَ عَلَيّ أنّهُ رجلٌ قد ألَمَّ بشأنِ ٱمرأة، وخشِيتُ أنْ أكونَ قدِ ٱفْتَضَحْتُ عندَه؛ ولكنْ غلبتْهُ شهوتُهُ، وكان جَسَداً بما فيهِ يُريدُ جسداً لِمَا فيه، فمِنْ ثَمّ لم يُنْكِرْ ولم يتغيَّر.

وٱشتراني وصِرْتُ إليه، فلما خَلَوْنا سألني أن أغنيَ فلم أشعُرْ إلا وأنا أغنّيهِ بشعرِ عبدِ الرحمن:

أَلَا قُلْ لهذا القلبِ: هل أنت مُبْصرُ   وَهَلْ أنتَ عن سلّامةَ اليومَ مُقْصِرُ
إذا أخَذَتْ في الصوتِ كادَ جليسُها   يَطيرُ إليها قلبُهُ حينَ تنظرُ

وأدّيتُهُ على ما كانَ يَستحسنُهُ عبدُ الرحمن ويَطربُ له، إذ يسمعُ فيه هَمْساً من بُكائي، ولهفةً مِمَّا أجدُ به، وحَسرةً على أنَّهُ ينسكبُ في قلبٍ، وهو يُصدُّ عنّي ويتحاماني[2]، وما غَنَّيْتُ: «وهل أنت عن سلّامةَ اليومَ مقْصِرُ»، إلا في صوتٍ تنوحُ به سلّامةُ على نفسِها وتندُبُ وتتفجّع!

فقال لي يزيدُ، وقد فَضَحْتُ نفسي عندَهُ فضيحةً مكشوفة: يا حبيبتي مَن قائلُ هذا الشعر؟

قلت: أحدّثُك بالقصةِ يا أميرَ المؤمنين؟

قال: حدِّثيني.

قلْتُ: هو عبدُ الرحمن بنُ أبي عمّار الذي يلقبونَه بالقَسِّ لِعبادتِهِ ونُسكِهِ،

---

(١) كاسفة البال: خجل على شيء من الخبل.
(٢) يصدّ عني ويتحاماني: يمتنع عني.

وهو في المدينةِ يُشبهُ عطاءَ بْنَ أبي رَبَاح، وكان صديقاً لمولاي سُهَيْل، فَمرَّ بدارِنا يوماً، وأنا أُغني، فوقفَ يسمع، ودخلَ علينا «الأحْوَصُ»، فقال: ويْحَكُمْ؟ لكأنّ الملائكَةَ ـ واللّهِ ـ تتلو مزاميرَها بحَلْقِ سلَّامة، فهذا عبدُ الرحمنِ القَسُّ قد شُغِلَ بِمَا يَسمعُ منها، وهو واقفٌ خارجَ الدار، فتَسَارعَ مولايَ فخرجَ إليهِ ودعاهُ إلى أنْ يدخلَ فيسمعَ منّي، فأبى! فقال له: أما عَلمْتَ أنَّ عبدَ اللّهِ بْنَ جعفر، وهو مَنْ هو في محلِّهِ وبيتِهِ وعلمِهِ قد مَشَى إلى جميلةَ أستاذةِ سلَّامةَ حينَ عَلِمَ أنَّها آلَتْ ألِيَّةً ألا تُغَنيَ أحداً إلّا في منزِلِها؛ فجاءَها فسمِعَ منها، وقد هيّأتْ له مجلسَها، وجعلَتْ على رؤوسِ جواريها شعوراً مُسْدَلَةً كالعناقيد، وألبسْتهُنَّ أنواعَ الثيابِ المصَبَّغَة، ووضعَتْ فوقَ الشعورِ التيجان، وزينْتهُنّ بأنواعِ الحِلَى، وقامَتْ هي على رأسِه، وقامَ الجواري صَفَّيْنِ بين يديه، حتى أقسمَ عليها فجلسَتْ غيرَ بعيد، وأمرَتِ الجواري فجلَسْن، ومع كلِّ جاريةٍ عودُها؛ ثم ضربْنَ جميعاً وغنّتْ عليهِنّ، وغنّى الجواري على غنائِها، فقالَ عبدُ الله: ما ظَنْنتُ أنَّ مثل هذا يكون!

وأنا أُقْعِدُكَ في مكانٍ تسمعُ مِنْ سلّامةَ ولا تَراها، إنْ كُنْتَ عندَ نفسِكَ بالمنزلةِ التي لم يبلغْها عبدُ اللّهِ بْنُ جعفر!

قالَتْ سلّامة: وكانَتْ هذه ـ واللّهِ ـ يا أميرَ المؤمنينَ رُقْيَةً من رُقَى إبليس؛ فقالَ عبدُ الرحمن: أمّا هذا فَنِعْمَ. ودخلَ الدارَ وجلسَ حيْثُ يسمع، ثم أمرني مولايَ فخرجْتُ إليه خروجَ القمرِ مَشْبُوباً من سحابةٍ كانَتْ تُغطِّيه؛ فأمَّا هو فما رآني حتى عَلِقَتْ بقلبِه[1]، وسبّحَ طويلاً طويلاً؛ وأما أنا فما رأيتُهُ حتى رأيْتُ الجنةَ والملائكَةَ، ومُتُّ عنِ الدنيا وانتقلْتُ إليهِ وحدَه. . . .

* * *

قالَتْ سلامة: وٱفْتَضَحْتُ مرةً أخرى، فَتَنَحْنحَ يزيد. . . فضحكْتُ وقلْت: يا أميرَ المؤمنين، أُحدِّثُكَ أم حسبُك؟ قال: حدّثيني ويْحَكِ! فواللّهِ لو كنْتِ في الجنةِ كما أنتِ لأعَدْتِ قصةَ آدمَ مع واحدٍ واحدٍ من أهلِها حتى يُطْردوا جميعاً من حُسْنِها إلى حسنِك! فما فَعلَ القَسُّ ويحكِ؟

قلْتُ: يا أميرَ المؤمنين، إنه يُدْعَى القسّ قبل أنْ يهواني.

فقال يزيد: وهل عَجَبٌ وقد فَتنتِهِ أنْ يَطردَهُ «البَطْريق»؟

---

(١) علقت بقلبه: عشقني وتملك حبه لي قلبه.

قلْتُ: بلِ العجبُ وقد فتنْته أن يصيرَ هو البطريق. . . !

فضحكَ يزيدُ وقال: إيهِ، ما أحسبُ الرَّجلَ إلَّا قد دُهِيَ منكِ بداهية[1]! فحدِّثيني فقد رفعْتُ الغَيْرة؛ إني واللّٰهِ أرى هذا الرجلَ في أمرِهِ وأمركِ إلَّا كالفَحلِ مِنَ الإبل، قد تُرِكَ مِنَ الركوبِ والعمل، ونُعِّمَ وسُمِّنَ للفحْلَةِ فَنَدَّ يوماً، فذهبَ على وجهِه، فأقْحَمَ في مَفَازَةٍ[2]، وأصابَ مَرتَعاً[3] فتَوَحَّشَ واستأسد[4]، وتبيَّنَ عليه أثرُ وحشيتِه، وأقبَلَ قُبالَ الجِنّ من قوةٍ ونشاطٍ وبأسٍ شديدٍ؛ فلمَّا طالَ انفرادُهُ وتأبُّدُهُ عَرَضَتْ له في البرّ ناقةٌ كانتْ قد نَدّتْ[5] من عَطَنِها، وكانَتْ فارهةً جسيمةً قد انتهَتْ سِمْناً، وغطَّاها الشحمُ واللحم، فرآها البازلُ الصئول[6]، فهاجَ وصالَ وَهدرَ، يخبِطُ بيدِهِ ورجْلِه، ويُسْمَعُ لِجَوْفِه دَوِيٌّ مِنَ الغليَان، وإذا هي قد ألقَتْ نفسَها بين يديه!

أمَا ـ واللّٰهِ ـ لو جَعلَ الشيطانُ في يمينِهِ رجلاً فحْلاً قويًّا جميلاً، وفي شِمالِهِ امرأةً جميلةً عاشقةً تهواه؛ ثم تمطَّى متدافعاً ومَدّ ذراعيهِ فابتعدا؛ ثم تراجَعَ متداخِلاً وضَمَّ ذراعيهِ فالتقيا؛ لَكانَ هذا شأنَ ما بينِكِ وبينَ القَسّ!

قلْت: لا ـ واللّٰهِ ـ يا أميرَ المؤمنين؛ ما كان صاحبي في الرجال خَلّاً ولا خمراً، وما كانَ الفحلَ إلَّا الناقةُ. . ! وما أحسبُ الشيطانَ يعرفُ هذا الرجل، وهلْ كانَ لِلشيطانِ عملٌ مع رجلٍ يقول: إنِّي أعرفُ دائماً فكرتي وهي دائماً فكرتي لا تتغيّر. ذاك رجلٌ أساسُهُ كما يقول: ﴿بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ولقد تصنَّعْتُ له مرةً يا أميرَ المؤمنين، وتشكَّلْتُ وتحلَّيْتُ وتبرّجْتُ[7]، وحدّثْتُ نفسي منه بكثير، وقُلْتُ إنَّهُ رجلٌ قد غَبرَ شبابَهُ في وجودٍ فارغٍ مِنَ المرأة، ثم وجدَ المرأةَ فيّ وحدي. وغنَّيْتُهُ يا أميرَ المؤمنينَ غِناءَ جوارحي كلِّها، وكنْتُ له كأنِّي حَريرٌ ناعمٌ يَترَجْرَجُ ويُنْشَرُ أمامَهُ ويُطْوَى. . . . وجلَسْتُ كالنائمةِ في فراشِها وقد خلا المجلس، وكنْتُ من كلِّ ذلك بينَ يديهِ كالفاكهةِ الناضجةِ الحُلوةِ تقولُ لِمَنْ يراها: «كُلْني. . . !»

---

(١) الداهية: المصيبة.

(٢) المفازة: الطريق الضيقة بحيث يصعب المرور فيها.

(٣) المرتع: المرعى.

(٤) فتوحش واستأسد: أي أصبح أسداً متوحشاً.

(٥) ندّت: أفلتت.

(٦) البازل الصّؤول: الفحل الشديد القوة من الجمال.

(٧) تبرّجت: تزينت وتجملت.

قال يزيد: ويحكِ ويحكِ! وبعدَ هذا؟

قُلْتُ: بعدَ هذا يا أميرَ المؤمنين، وهو يَهواني الهوى البَرْحَ[1]، ويَعشقُني العِشقَ المُضْني - لم يرَ في جمالي وفِتنتي واستسلامي إلَّا أنَّ الشيطانَ قد جاءَ يَرْشوه بالذهب. . . الذي يتعاملُ بِه!

فضحِكَ يزيدُ وقال: لا - واللَّهِ -، لقد عَرَضَ الشيطانُ منكِ ذهبَهُ ولؤلؤَهُ وجواهرَهُ كلَّها، فكيف لَعَمري لم يُفْلح؛ وهو لو رشاني من هذا كلّهِ بدرهمٍ لوجدَ أميرَ المؤمنينَ شاهدَ زور. . . !

قلْت: ولكنّي لم أيأسْ يا أميرَ المؤمنين، وقد أردْتُ أنْ أظهرَ امرأةً فلم أُفلحْ، وعمِلْتُ أنْ أظْهَرَ شيطانةً فانخذلْت[2]، وَجَهَدْتُ أَنْ يرى طبيعتي فلم يرني إلّا بغيرِ طبيعة، وكلَّما حاولْتُ أنْ أنزِلَ به عن سَكِينتِهِ ووقَارِهِ رأيْتُ في عينيهِ ما لا يتغيرُ كنورِ النجم، وكانَتْ بعضُ نظراتِهِ - واللَّهِ - كأنَّها عصا المؤدّب، وكأنَّهُ يرى في جمالي حقيقةً مِنَ العِبادة، ويرى في جِسمي خُرافةَ الصَّنَم، فهو مُقْبِلٌ عَلَيّ جميلةً، ولكنَّه مُنْصرفٌ عنّي امرأة.

لم أيأسْ على كلِّ ذلك يا أميرَ المؤمنين، فإنَّ أولَ الحبِّ يطلبُ آخِرَه أبداً إلى أنْ يموت. وكانَ يُكثِرُ من زيارتي، بل كانَتْ إليّ الغَدْوَةُ والرَّوحةُ، من حُبّهِ إيايَ وتعلّقِهِ بي؛ فواعدْتُه يوماً أنْ يجيءَ منّي وأرى الليلَ أهلَهُ لِأغنيَه: «ألا قل لهذا القلب. . . .» وكنْتُ لحَّنتُهُ ولم يَسمعْهُ بعد. ولبثْتُ نهاري كلّهُ أسْتَرْوِحُ[3] في الهواءِ رائحةَ هذا الرجلِ مِمَّا أتلهَّفُ عليه، وأتمثّلُ ظلامَ الليلِ كالطريقِ الممتدِّ إلى شيءٍ مخبوءٍ أُعَلِّلُ النفسَ به. وبلغْتُ ما أقدرُ عليه في زينةِ نفسي وإصلاحِ شأني، وتشكلْتُ في صُنوفٍ مِنَ الزهر، وقلْتُ لأجملهِنّ وهي الوردةُ التي وضعْتُها بينَ نَهْدَيَّ: يا أختي، اجْذِبي عينَهُ إليك، حتى إذا وقَفَ نظرُهُ عليكِ فانزلي بهِ قليلاً أوِ اصعدي به قليلاً. . .

قالَ يزيدُ، وهو كالمحموم: ثُمّ ثمّ ثمّ؟

قلْتُ: يا أميرَ المؤمنين، ثم جاءَ معَ الليل، وإنّ المجلسَ لَخالٍ ما فيه غيري

---

(١) الهوى البرح: الحبّ الشديد بحيث يجرفه في كل اتجاه فيشتت عقله وروحه.

(٢) انخذلت: انهزمت.

(٣) استروح: اشمّ رائحة.

وغيرُه، بما أُكابِدُ منه وما يُعاني مِنِّي فغنّيْتهُ أحرَّ غناءٍ وأشجاه[1]، وكانَ العاشقُ فيهِ يَطْرَبُ لِصوتي، ثم يَطْرَبُ الزاهدُ فيه مِنْ أنَّه ٱستطاعَ أنْ يطرب، كما يَطيشُ الطفلُ ساعةَ ينطلقُ من حبسِ ٱلمؤدِّب.

وما كانَ يسوءُني إلَّا أنَّهُ يُمارِسُ فيّ الزهدَ ممُارَسة، كأنَّما أنا صُعوبةٌ إنسانيةٌ فهو يُريدُ أنْ يغلبَها، وهو يُجرِّبُ قُوى نفسِه وطبيعتِه عليها؛ أو كأنَّهُ يراني خيالَ ٱمرأةٍ في مرآة، لا ٱمرأةً مائلةً له بهواها وشبابِها وحسنِها وفتنَتِها، أو أنا عندَهُ كالحوريةِ من حُورِ الجنةِ في خيالِ مَنْ هي ثَوابهُ، تكونُ معه، وإنّ بينَها وبينَه منَ البعد ما بينَ الدنيا والآخرة؛ فأجمعْتُ أنْ أُحطِّمَ المرآةَ ليراني أنا نفسي لا خيالي، وٱستنجدْتُ[2] كُلَّ فِتْنتي أنْ تجعلَهُ يفرُّ إليّ كلّما حاولَ أنْ يفرَّ مني.

فلمّا ظننتُني ملأْتُ عينيهِ وأذنيهِ ونفسَهُ وٱنصبْبتُ إليه من كلِّ جوارحِه، وهِجْتُ التيَّارَ الذي في دمِهِ ودفعْتُهُ دفعاً ـ قلْتُ له: «أنت يا خليلي[3] شيءٌ لا يُعرَف، أنت شيءٌ مُتَلَفِّفٌ بإنسان، ومَنِ التي تعشقُ ثوبَ رجلٍ ليسَ فيه لابسُه؟»

ورأيتُهُ ـ واللَّهِ ـ يطوفُ عندَ ذلك بفكرِه، كما أطَوِّفُ أنا بفكري حولَ المعنى الذي أردْتُه. فَمِلْتُ إليه وقلْتُ: «أنا ـ واللَّهِ ـ أحبُّك!».

فقال: «وأنا ـ واللَّهِ ـ الذي لا إله إلا هو...»

قلْتُ: «وأشتهي أن أعانقَكَ وأقبلَك!»

قال: «وأنا ـ والله ـ!»

قلْتُ: «فما يمنعُك؟ ـ فواللَّهِ ـ إنَّ الموضعَ لَخَالٍ!»

قال: «يمنعُني قولُ اللَّهِ عزَ وجلّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[4] فأكرَهُ أنْ تَحُولَ مودّتي[5] لكِ عداوةً يوَم القيامة».

إني أرى [برهان ربي] يا حبيبتي، وهو يمنعني أنْ أكَون من سيئاتِكِ وأنْ تكوني من سيئاتي، ولو أحبَبْتُ الأنثى لوجدْتُكِ في كلِّ أنثى، ولكنِّي أحبُّ ما فيكِ

---

(١) أحرّ غناء وأشجاه: أجمل الغناء المصحوب ببحة حزن.

(٢) استنجدت: طلبت المعونة.

(٣) الخليل: الصديق الودود.

(٤) سورة: الزخرف الآية: ٦٧.

(٥) المودة: الصداقة.

أنتِ بخاصَتِك، وهو الذي لا أعرفُه ولا أنتِ تعرفينه، هو معناكِ يا سلّامةُ لا شخصُك[1].

ثم قامَ، وهو يبكي، فما عادَ بعدَ ذلك يا أميرَ المؤمنينَ ما عادَ بعدَ ذلك، وتركَ لي نَدامتي وكلامَ دموعِه؟ ولَيتني لم أفعل، ليتَني لم أفعل، فقد رأى أنَّ المرأة ـ في بعضِ حالاتِها ـ تكشِفُ وجهَها للرجل، وكأنَّها لم تُلْقِ حجابَها بلْ ألقَتْ ثيابَها.

---

(١) ورد نص هذا الحوار في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني حتى قوله لها: «يوم القيامة».

قصةُ زواج
وفلسفةُ المَهْر

قالَ رسولُ عبدِ الملك: ويحكَ (يا أبا محمد) لَكأَنَّ دَمَكَ ـ واللَّهِ ـ من عَدوِّك؛ فهو يفورُ بك لتَلِجَّ في العِنادِ فتُقْتَل، وكأنِّي بك ـ واللَّهِ ـ بينَ سَبُعَيْنِ قد فَغَرَا عليك؛ هذا عن يمينِك وهذا عن يسارِك، ما تفرُّ من حَتْفٍ[1] إلَّا إلى حتْف، ولا ترحمُك الأنيابُ إلَّا بمخالبِها.

هٰهنا هِشَامُ بنُ إسماعيلَ عاملُ أميرِ المؤمنين، إنْ دَخَلَتْهُ الرحمةُ لك ٱستوثقَ منك في الحديد، ورَمَى بك إلى دِمشق، وهناكَ أميرُ المؤمنين، وما هو ـ واللَّهِ ـ إلَّا أنْ يُطعمَ لحمَك السيفَ يَعضُّ بك عضَّ الحياةِ في أنيابِها السُّمّ؛ وكأنِّي بهذا الجنْبِ مصروعاً لمضجعِه، وبهذا الوجهِ مضرَّجاً بدمائِه، وبهذه اللحيةِ مُعفَّرَةً بترابِها، وبهذا الرأسِ مُحْتَزًا في يدِ (أبي الزُّعَيْزِعَة) جلَّادِ أَميرِ المؤمنين، يُلقيهِ من سيفِهِ رَمْيَ الغُصنِ بالثمرةِ قد ثُقلَتْ عليه.

وأنت (يا سعيد) فقيهُ أهلِ المدينةِ وعالمُها وزاهدُها، وقد عَلِمَ أميرُ المؤمنين أنَّ عبدَ اللَّهِ بْنَ عُمر قال فيكَ لأصحابه: «لو رأى هذا رسولُ اللَّهِ ﷺ لَسَرَّه» فإن لم تَكْرُمْ عليك نفسُك فَلْيَكْرُمْ على نفسِك المسلمون؛ إنَّك إنْ هَلَكْتَ رَجَعَ الفِقْهُ في جميع الأمصارِ إلى المَوالِي؛ ففقيهُ مكّةَ عطاء، وفقيهُ اليمنِ طاووس، وفقيهُ اليمامةِ يحيى بن أبي كثير، وفقيهُ البصرةِ الحسن، وفقيهُ الكوفةِ إبراهيمُ النخعيّ، وفقيهُ الشام مكحول، وفقيهُ خراسانَ عطاءُ الخراساني. وإنَّما يتحدَّثُ الناسُ أنَّ المدينةَ من دونِ الأمصارِ قد حرسَها اللَّهُ بفقيهها القرشيّ العربيّ (أبي محمد بن المُسيَّب) كرامةً لرسولِ اللَّهِ ﷺ. وقد عَلِمَ أهلُ الأرضِ أنَّك حَجَجْتَ نيِّفاً وثلاثينَ حَجّة، وما فاتتْكَ التكبيرةُ الأولى في المسجدِ منذُ أَربعينَ سنة، وما قُمْتَ إلَّا في موضعِك مِنَ الصفّ الأول، فلم تنظرْ قطُّ إلى قفا رجلٍ في الصلاة؛ ولا وجدَ الشيطانُ ما يعرِضُ

---

(١) حتف: موت.

لكَ من قِبلِهِ في صلاتِكَ ولا قَفَا رجُلٍ؛ فاللَّهَ اللَّهَ يا أبا محمد، إني ـ واللَّهِ ـ ما أغشُّك في النصيحةِ؛ ولا أخدعُكَ عنِ الرأي، ولا أنظرُ لك إلَّا خيرَ ما أنظرُ لنفسي؛ وإنَّ عبدَ الملكِ بنَ مَرْوانَ مَنْ عَلِمتَ؛ رجلٌ قد عمّ الناسَ ترغيبُه وترهيبُه، فهو آخذُك على ما تكرَهُ إنْ لم تأخذْهُ أنت على ما يُحبّ؛ وإنَّهُ ـ واللَّهِ ـ يا أبا محمد، ما طَلَبَ إليك أميرُ المؤمنين إلَّا وأنت عندَهُ الأعلى، ولا بَعثني إليكَ إلَّا وكأنَّهُ يسعَى بين يديك، رِعايةً لمنزلتِكَ عندَه، وإكباراً لِحقّكَ عليه؛ وما أرسلني أخطُبُ إليك ابنتَك لِوَليِّ عهدِهِ إلَّا وهو يبتذلُ نفسَه ٱبتذالاً ليَصِلَ بك رَحِمَهُ، ويُوَثِّقَ آصِرتَه[1]؛ وإنْ يكُنِ اللَّهُ قدِ أغناكَ أنْ تنتفعَ بهِ وبمُلْكِهِ وَرَعاً وزَاهَدة، فما أحوجَ أهلَ مدينةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ أنْ ينتفعوا بكَ عندَه، وأنْ يكونوا أصهارَ (الوليدِ) فيَسْتَدْفِعُوا شَرًّا ما بِهِ عنهم غِنًى، ويجتلبوا خيراً ما بهم غنًى عنه، ولسْتَ تدري ما يكونُ من مَصَادرِ الأمورِ ومواردِها. وإنَّكَ ـ واللَّهِ ـ إنْ لَجَجْتَ[2] في عِنادِكَ وأصْرَرْتَ أنْ تردّني إليه خائباً، لَتُهِجَنَّ قَرَمَ[3] سيوفِ الشامِ إلى هذه اللحومِ ولَحْمُكَ يومئذٍ من أطيبِها، ولأميرِ المؤمنينَ تارتان: لينٌ وشِدَّةٌ؛ وأنا إليكَ رسولُ الأولى، فلا تجعلْني رسولَ الثانية...

* * *

وكانَ أبو محمدٍ يسمعُ هذا الكلامَ وكأنَّ الكلام لا يَخْلُصُ إلى نفسِه إلَّا بعدَ أنْ تتساقطَ معانيه في الأرض، هَيبةً منه وفَرَقاً[4] من إقدامِها عليه؛ وقد لَانَ رسولُ عبدِ الملكِ في دَهائِهِ حتى ظنَّ عندَ نفسِهِ أنَّهُ سَاغَ[5] مِنَ الرجلِ مَسَاغَ الماءِ العذْبِ في الحَلْقِ الظامىء، وٱشتدَّ في وَعيدِهِ حتى ما يَشُكُّ أنَّهُ قد سقاهُ ماءً حميماً فقطَّعَ أمعاءَه؛ والرجلُ في كلِّ ذلك من فوقِهِ كَٱلسماءِ فوقَ الأرض، لو تحوَّلَ الناسُ جميعاً كنَّاسين يُثيرون من غبارِ هذِه على تلك لَمَا كانَ مرجعُ الغبارِ إلَّا عليهم، وبقيَتِ ٱلسماءُ ضاحكةً صافيةً تتلألأ.

وقلَّبَ الرسولُ نظرَهُ في وجهِ الشيخ، فإذا هو هو ليسَ فيهِ معنى رغْبةٍ ولا رهْبة، كأنْ لم يَجعلْ له الأرضَ ذهباً تحتَ قدميهِ في حالة، ولم يملأ الجوَّ سيوفاً على رأسِهِ في الحالةِ الأخرى؛ وأيقنَ أنَّهُ منَ الشيخِ العظيم كَٱلصبيّ الغِرِّ[6] قد رأى

(١) الآصر: القربى.
(٢) لججت: ألححت.
(٣) قَرَم: شهوة اللحم.
(٤) فرقاً: خوفاً.
(٥) ساغ: سهل.
(٦) الصبي الغر: من لا خبرة له في الحياة.

الطائرَ في أعلى الشجرةِ فطمِعَ فيه، فجاءَ من تحتِها يُناديه: أنِ انْزِلْ إليّ حتى آخذَك وألعبَ بك..

وبعد: قليلٍ تكلّمَ أبو محمدٍ فقال:

يا هذا، أمّا أنا فقد سمعْتُ، وأمّا أنت فقد رأيْتَ، وقد رُوينا أنّ هذه الدنيا لا تَعدِلُ[1] عندَ اللّهِ جَناحَ بعوضة، فانظرْ ما جئْتَني أنت به، وقِسْهُ إلى هذه الدنيا كلّها، فكمْ ـ رحمَكَ الله ـ تكونُ قد قَسَمْتَ لي من جناحِ البعوضة..؟ ولقد دُعيْتُ من قبلُ إلى نيّفٍ وثلاثينَ ألفاً لآخُذَها، فقلتُ: لا حاجةَ لي فيها ولا في بني مرْوان، حتى ألقى اللّهَ فيَحكُمَ بيني وبينَهم «وهاأنذا اليومَ أُدعى إلى أضعافِها وإلى المزيد مَعها؛ أفأقبضُ يدي عن جَمْرةٍ ثُمّ أمدّها لأملأَها جمراً؟ لا ـ واللّهِ ـ ما رَغِبَ عبدُ الملكِ لابنِه في ابنتي، ولكنَّه رجلٌ من سياستِهِ إلصاقُ الحاجةِ بالناسِ لِيجعلَها مَقَادةً لهم فيُصَرّفَهُمْ بها؛ وقد أعجَزَهُ أنْ أبايِعَهُ، لِأنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ نهى عن بَيعتين، وما عبدُ الملك عندَنا إلا باطلٌ كابن الزُّبير، ولا ابنُ الزبيرِ إلّا باطلٌ كعبدِ الملك، فانظرْ فإنّك ما جِئْتَ لابنتي وابنِهِ، ولكنْ جِئْتَ تخطبني أنا لبيعتِه...

قالَ الرسول: أيُها الشيخُ، دعْ عنك البيعَةَ وحديثَها، ولكنْ مَنْ عسى أنْ تجِدَ لكريمتِك خيراً من هذا الذي ساقَهُ اللّهُ إليك؟ إنّكَ لراعٍ وإنّها لَرعيةٌ وسَتُسألُ عنها، وما كانَ الظنُّ بك أنْ تُسيءَ رِعْيتَها[2] وتبخسَ[3] حقَّها، وأن تَعْضِلَها وقد خطبَها فارسُ بني مروان، وإن لم يكنْ فارسَهم فهو وليُّ عهدِ المسلمين، وإنْ لم يكنْ هذا ولا ذاك فهو الوليدُ بنُ أمير المؤمنين؛ وأدنى الثلاثِ أرفعُ الشرفِ فكيفَ بهنّ جميعاً، وهنّ جميعاً في الوليد؟

قال الشيخ: أمّا إنّي مسؤولٌ عنِ ابنتي، فما رغبْتُ[4] عن صاحبِك إلّا لِأنّي مسؤولٌ عنِ ابنتي. وقد علمْتَ أنت أنَّ اللّهَ يسألُني عنها في يوم لعلّ أميرَ المؤمنين وابنَ أميرِ المؤمنين وألفافَهما[5] لا يكونون فيهِ إلّا وراءَ عبيدِها وأوباشِها ودُعّارِها وفجّارِها[6]. يخرجون من حسابِ الفَجَرَةِ إلى حسابِ القَتَلَة، ومن حِسابِ هؤلاءِ إلى الحِسابِ على السرقةِ والغصْب، إلى حِسابِ أهلِ البَغْي، إلى حِسابِ التفريطِ في حقوقِ المسلمين. ويخفُّ يومئذٍ عبيدُها وأوباشُها ودعّارُها وفجارُها في زِحامِ

---

(1) لا تعدل: لا تساوي.

(2) رِعيتها: العناية بها.

(3) بخس حقه: ظلمه حقه وأنقصه.

(4) رغب عن الشيء: كرهه.

(5) الألفاف: الحاشية وذوي القربى.

(6) يعود الضمير هنا إلى الدنيا.

الحشر، ويمشي أميرُ المؤمنينَ وابنُ أمير المؤمنينِ ومَنِ ٱتَّصلَ بهما، وعليهم أمثالُ الجبالِ من أثقالِ الذنوبِ وحقوقِ العِباد.

فهذا ما نظرْتُ في حسنِ الرعايةِ لِٱبنتي، لو لم أضِنَّ[1] بها على أميرِ المؤمنينَ وٱبنِ أمير ٱلمؤمنينَ لأَوْبَقْتُ[2]. لا ـ واللّهِ ـ ما بيني وبينَكم عمل، وقد فرغْتُ مِمَّا على الأرضِ فلا يمرُّ السيفُ منِّي في لحمِ حيّ.

* * *

ولمَّا كانَ غداةُ غدٍ جلسَ الشيخُ في حَلْقتِهِ في مسجدِ رسولِ اللّهِ ﷺ لِلحديثِ والتأويل، فسألَ رجلٌ من عُرْضِ المجلس، فقال: يا أبا محمد، إنَّ رجلاً يُلَاحِيني[3] في صَداقِ بنتهِ ويُكلِّفُني مالا أُطيق. فما أكثرُ ما بلغَ إليهِ صداقُ أزواجِ رسولِ اللّهِ ﷺ وصداقُ بناتِه؟

قال الشيخ: رَوَيْنا أنَّ عمرَ (رضيَ اللّهُ عنه) كان ينهى عن ٱلمغالاةِ في ٱلصداقِ ويقول: «ما تزوَّجَ رسولُ اللّهِ ﷺ، ولا زَوَّج بناتِهِ بأكثرَ من أربعمائةِ درهم، ولو كانَتِ المغالاةُ بمهورِ النساءِ مَكْرُمةً لَسبقَ إليها رسولُ اللّهِ ﷺ.

ورَوَيْنا عنه ﷺ أنَّهُ قال: «خيرُ النساءِ أحسنُهنّ وجوهاً وأرخصُنّ مهوراً».

فصاحَ السائل: يرحمْك اللّهُ يا أبا محمد، كيف يأتي أنْ تكونَ المرأةُ الحسناءُ رخيصةَ المهر، وحُسنُها هو يُغْلِيها على الناس؛ تَكْثُر رغبتُهُم فيها فيتنافسون عليها؟

قال الشيخ: انظرْ كيف قلْتَ. أهم يُساومون[4] في بهيمةٍ لا تَعقِل، وليسَ لها من أمرِها شيءٌ إلَّا أنَّها بضاعةٌ من مطامعِ صاحبِها يُغْلِيها على مطامعِ الناس؟ إنَّما أرادَ رَسولُ اللّهِ ﷺ أنَّ خيرَ النساءِ مَنْ كانَتْ على جمالِ وجهِها، في أَخلاقٍ كجمالِ وجهِها، وكان عقلُها جمالاً ثالثاً؛ فهذه إن أصابَتِ الرجلَ الكُفْء، يَسَّرَتْ عليه، ثم يسَّرت، ثم يسَّرت؛ إذْ تَعتبرُ نفسَها إنساناً يُريدُ إنساناً، لا مَتاعاً يطلبُ شارياً، وهذه لا يكونُ رُخْصُ القيمةِ في مَهرِها، إلَّا دليلاً على ٱرتفاعِ القِيمةِ في عقلِها ودِينِها؛ أمَّا الحمقاءُ فجمالُها يأبى إلَّا مضاعفةَ الثمنِ لِحسنِها، أيْ لِحُمْقِها؟ وهي بهذا المعنى من شِرارِ النساء، وليسَتْ من خِيارِهنَّ.

ولقد تزوجَ رسولُ اللّهِ ﷺ بعضَ نسائِه على عشرةِ دراهمَ وأثاثِ بيت، وكانَ

---

(1) لم أضنّ: لم أبخل.

(2) لأوبقت: لعدت.

(3) يلاحيني: يجادلني، يناقشني.

(4) يساومون: يناقشون في الأسعار في سبيل الاتفاق على الثمن.

الأثاث: رحى يدٍ، وجَرَّةَ ماء، ووِسادةً من أَدَم حشْوها ليف. وأوْلَمَ على بعض نسائِهِ بِمُدَّينِ من شعير، وعلى أخرى بمدَّينِ منْ تمرٍ ومدَّينِ من سَويق[1]. وما كانَ بهِ ﷺ الفقر، ولكنَّهُ يُشَرِّعُ بسنتِهِ ليُعلِّمَ الناسَ من عملِهِ أنّ المرأةَ للرجلِ نَفْسٌ لِنَفْسٍ، لا متاعٌ لِشاريه؛ والمَتاعُ يُقَوَّمُ بمَا بُذِلَ فيهِ إنْ غالياً وإنْ رخيصاً، ولكنَّ الرجلَ يُقَوَّمُ عندَ المرأةِ بما يكونُ منه؛ فَمَهرُها الصحيحُ ليس هذا الذي تأخذُهُ قبلَ أنْ تُحْمَلَ إلى دارِه، ولكنَّهُ الذي تَجِدُهُ منه بعدَ أنْ تُحْمَلَ إلى دارِه؛ مهرُها معاملتُها، تأخذُ منه يوماً فيوماً، فلا تزالُ بذلك عَروساً على نفْسِ رجُلِها ما دامَتْ في معاشرتِه. أما ذلك الصداقُ مِنَ الذهبِ والفِضَّة، فهو صَداقُ العروسِ الداخلةِ على الجِسمِ لا على النَّفْس؛ أفلا تراهُ كالجسم يهلكُ ويبلى، أفلا ترى هذه الغاليةَ ـ إنْ لم تجدِ النفْسَ في رجُلِها ـ قد تكونُ عروسَ اليومِ ومطلَّقةَ الغد؟!

وما الصداقُ في قليلِهِ وكثيرِهِ، إلَّا كَالإيماءِ إلى الرجولةِ وقُدْرتِها، فهو إيماء، ولكنّ الرجلَ قبْل. إنَّ كلَّ امرىءٍ يستطيعُ أنْ يحملَ سيفاً، والسيفُ إيماءٌ إلى القوة، غيرَ أنَّهُ ليسَ كلُّ ذوي السيوفِ سواء، وقد يحملُ الجبانُ في كلِّ يدٍ سيفاً، ويملكُ في دارِهِ مائة سيف؛ فهو إيماء، ولكنَّ البطلَ قبْلُ، ولكنَّ البطَلَ قَبْل.

مائةُ سيفٍ يمْهَرُ بها الجبانُ قوَّتَهُ الخائبة، لا تُغني قوّتَه شيئاً، ولكنَّها كالتدليسِ[2] على مَنْ كانَ جباناً مثلَه. ويُوشِكُ أنْ يكونَ المهرُ الغالي كالتدليسِ على الناسِ وعَلَى المرأة، كي لا تعلمَ ولا يعلَم الناسُ أنَّه ثمنُ خيبتِها؛ فلو عقلَتِ المرأةُ لباهَتِ النساءَ بيُسْرِ مهرِها، فإنَّها بذلك تكونُ قد تركَتْ عقلَها يعملُ عملَه، وكَفَّتْ حماقتَها أنْ تُفْسِدَ عليه.

فصاحَ رجلٌ في المجلسِ أيُّها الشيخ، أفي هذا من دليلٍ أو أثر؟

قَالَ الشيخُ: نعم؛ أمّا من كتابِ اللَّهِ فقد قال اللَّهُ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[3]. فهي زَوْجُهُ حين تجدُه هو لا حينَ تجدُ مالَه؛ وهي زوجُهُ حينَ تُتَمِّمُهُ لا حينَ تُنقِصُه، وحينَ تُلائمُهُ لا حينَ تَختلفُ عليه؛ فمصلحةُ المرأةِ زوجةً ما يجعلُها من زوجِها، فيكونانِ معاً كالنَّفْسِ الواحدة، على ما ترى للعضوِ من جسمِه؛ يُريدُ من جسمِهِ الحياةَ لا غيرَها.

---

(١) سويق: دقيق القمح أو الشعير.
(٢) التدليس: التمويه الكاذب.
(٣) سورة: الأعراف الآية: ١٨٩.

وأمّا من كلام رسولِ اللَّهِ ﷺ فقد رُوينا: «إذا أتاكُم مَنْ ترْضَوْن دِينَهُ وأمانَتَهُ فزوّجوه؛ إلَّا تفعلوا تكنْ فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبير».

فقدِ ٱشترطَ الدِّينَ، على أنْ يكونَ مَرْضِيًّا لا أيَّ الدينِ كان؛ ثم ٱشترطَ الأمانةَ، وهي مظهرُ الدينِ كلِّهِ بجميعِ حسناتِه: وأيسرِها أنْ يكونَ الرجلُ للمرأةِ أميناً، وعلى حقوقِها أميناً، وفي معاملتِها أميناً؛ فلا يبخسُها[١] ولا يُعْنِتُها[٢]، ولا يُسيءُ إليها؛ لأنَّ كلَّ ذلك ثَلْمٌ[٣] في أمانتِه؛ فإنْ ردَّتِ المرأةُ مَنْ هذه حالُه وصِفتُهُ من أجلِ المهر ـ تقدَّمَ إليها بِالمهرِ مَنْ ليسَتْ هذه حالَهُ وصفتَه، فوقَعتِ ٱلفتنة، وفسدَتِ ٱلمرأةُ بالرجل، وفسدَ هُوَ بها، وفسدَ النسلُ بهما جميعاً، وأهْمِلَ مَنْ لا يملك، وتعنَّسَتْ من لا تجد، ويرجعُ المهرُ الذي هو سببُ الزواجِ سبباً في منعِه، ويتقاربُ النساءُ والرجالُ على رغمِ المهرِ والدينِ والأمانة؛ فيقعُ معنى الزواج، ويبقى المعطَّلُ منه هو اللفظَ والشرع.

هلْ علمَتِ المرأةُ أنَّها لا تدخُل بيتَ رجلِها إلا لِتُجاهدَ فيه جِهادَها، وتبلوَ فيهِ بلأَها؟ وهلْ يقومُ مالُ الدنيا بحقِّها فيما تعملُ وما تُجاهد، وهي أمُّ الحياةِ ومُنْشِئَتُها وحافظتُها؟ فأينَ يكونُ موضعُ المالِ ومكانُ التَّفرقةِ في كثيرِهِ وقليلِه، والمالُ كلُّهُ دونَ حقِّها؟

ولنْ يتفاوتَ[٤] الناسُ بالمالِ تختلفُ درجاتُهم به، وتكون مراتبُهم على مِقْدارِه، تكثُرُ بِهِ مرةً وتَقِلُّ مرة ـ إلَّا إذا فَسَد الزمان، وبطلَتْ قضيةُ العقل، وتعطَّلَ مُوجِبُ الشرع، وأصبحَتِ السَّجايا[٥] تتحوَّل، يملِكُها مَنْ يَملكُ المال، ويَخسرُها من يَخسرُه؛ فيكونُ الدِّين على النفوسِ كالدَّخيلِ المزاحمِ لِموضعِه، والمتَدَلي في غيرِ حقِّه؛ وبهذا يرجعُ باطلُ الغَنيِّ دِيناً يتعاملُ الناسُ عليه، ودِينُ الفقيرِ بَهْرَجاً[٦] لا يروجُ[٧] عندَ أحد؛ وليس هذا من دينِنا، دينِ النفس والخُلُق، وإنَّ ألفَ بعيرٍ يقْنوها[٨] الرجلُ خالصةً عليهِ، ثابتةً له، لا تزيدُ في منزلةِ دِينِهِ قدْرَ نَملةٍ ولا ما دوَنها. والحجَران: الذهبُ والفِضَّة ـ قد يكونُ شُعاعُهما في هذه الدنيا أضوأَ من شمسِها وقمرِها، ولكنَّهما في نورِ النفسِ المؤمنةِ كحصَاتينِ يأخذُهما من تحتِ قدميه، ويذهبُ يزعمُ لك أنهما في قدرِ الشمسِ والقمر.

---

(١) يبخسها حقها: ينقص منه.
(٢) يعنتها: يتعبها بظلمه.
(٣) ثلم: جرح، تنقص.
(٤) يتفاوت: يختلف.
(٥) السجايا: الأخلاق.
(٦) بهرجاً: تزيناً كاذباً.
(٧) لا يروج: لا يلقى قبولاً.
(٨) يقنوها: يمتلكها.

وهلاكُ الناسِ إنَّما يُقْضَى بمحاولتِهم أنْ يكونوا أُناساً بِعُيوبِهم وذُنوبِهم؛ فهذا هو الإنسانُ المدْبِرُ عنِ اللّهِ وعن نفْسِه وعن جِنْسه؛ لا يكونُ أبوه أباً في عطفِه، ولا أمُّهُ أمًّا في محّبتِها، ولا ابنُه ابناً في بِرِّه، ولا زوجتُه زوجةً في وفائِها؛ وإنَّما يكونونَ له مَهالِكَ، كما رُوينا عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ: «يأتي على الناسِ زمانٌ يكونُ هلاكُ الرجلِ عَلَى يدِ زوجتِهِ وأبويهِ وولَدِه؛ يعيّرونَهُ بِالْفقر، ويكلّفُونَهُ ما لا يُطيق؛ فيدخلُ المَداخلَ التي يذهبُ فيها دينُه فيَهلِك».

* * *

وصاحَ المؤذن، فقطعَ الشيخُ مجلسَهُ وقامَ إلى الصلاة، ثم خرَجَ إلى دارِه، فتلقّتْهُ ٱبنتُهُ وعلى وجهِها مثلُ نُورِه، قالَتْ: يا أبتِ كنْتُ أتلو الساعةَ قولَه تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾[1]. فما حَسَنَةُ الدنيا قال: يا بُنَيَّة، هي التي تَصْلُحُ أنْ تُذْكَرَ معَ حسنةِ الآخرة، وما أراها للرجلِ إلا الزوجةَ الصالحةَ، ولا للمرأة...

وطُرِقَ الباب، فذهبَ الشيخُ يفتح، فإذا الطارقُ (عبد الله بن أبي وَدَاعة)؛ وكانَ يُجالسُهُ ويأخذُ عنه ويلزمُ حلقتَه، ولكنَّه فقدَهُ أياماً؛ فدخلَ فجلسَ. قال الشيخ: «أين كنْت؟»

قال: «تُوفّيَتْ أهلي فٱشتغلْتُ بها».

قال الشيخ: «هلّا أخبَرْتَنا فشهدْناها». ثم أخذَ يُفيضُ في الكلامِ عنِ الدنيا والآخرة؛ وشعَر ابنُ أبي وداعةَ أن القبرَ ما يزالُ في قلبِهِ حتى في مجلسِ الشيخ، فأرادَ أنْ يقوم، فقال (سعيد):

«هلِ ٱستحدثْتَ[2] امرأةً غيرَها؟»

قال: «يرحمْك الله، أين نحن منَ الدنيا اليوم، ومَنْ يُزَوّجُني وما أملكُ إلَّا درهمينِ أو ثلاثة؟»

قال الشيخ: «أنا.......»

أنا، أنا، أنا... دوَّى الجوُّ بهذه الكلمةِ في أُذُنِ طالبِ العلمِ الفقير، فحسِبَ كَأَنَّ الملائكةَ تُنشدُ نشيداً في تسبيحِ اللّهِ يَطِنُّ لحنُه: «أنا، أنا، أنا...»

---

(١) السورة: البقرة الآية ٢٠١.

(٢) استحدثت امرأة: أتيت بامرأة بديلة.

وخرجَتِ الكلمةُ من فمِ الشيخِ ومِنَ السماءِ لهذا المسكينِ في وقتٍ واحد، وكأنَّها كلمةٌ زوّجَتْهُ إحدى الحورِ العِين.

فلمَّا أفاقَ من غَشيَةِ أذنِهِ.. قال: «وَتَفعَل؟»

قال (سعيد): «نعم» وفسَّرَ (نعمْ) بأحسنِ تفسيرِها وأبلغِهِ؛ فقال: قم فادْعُ لي نفراً مِنَ الأنصارِ فلمَّا جاءُوا حمدَ اللّهَ وصلى عَلَى النبي ﷺ، وزوّجَهُ عَلَى ثلاثةِ دراهمَ (خمسة عشر قرشاً).

ثلاثةُ دراهمَ مهرُ الزوجةِ التي أرسلَ يخطبُها الخليفةُ العظيمُ لولي عهدِهِ بثقلِها ذهباً لو شاءَت.

وغشَّى[1] الفرحُ هذه المرةَ عيني الرجلِ وأذنيه، فإذا هو يسمعُ نشيدَ الملائكةِ يطنُّ لحنُه: «أنا، أنا، أنا...»

ولم يشعُرْ أنَّهُ على الأرض، فقامَ يطير، وليسَ يدري من فرحِهِ ما يصنع، وكأنَّه في يوم جاءَه من غيرِ هذه الدنيا يتعرَّفُ إليها بهذا الصوتِ الذي لا يزالُ يطنُّ في أذنيه «أنا، أنا، أنا..»

وصارَ إلى منزلِهِ وجعلَ يفكِّر: مِمَنْ يأخذ، ممَنْ يستدين؟ فظهَرتْ له الأرضُ خَلاءً مِنَ الإنسان، وليسَ فيها إلَّا الرجلُ الواحدُ الذي يضطربُ صوتُهُ في أذنيه: «أنا، أنا، أنا..»

وصلّى المغربَ وكانَ صائماً، ثم قامَ فأسرج[2]، فإذا سِراجُهُ الخافتُ الضئيلُ يسطعُ لِعينيهِ سُطوعَ القمر، وكأنَّ في نورِهِ وجهَ عروسٍ تقول له: «أنا، أنا، أنا...»

وقَدّمَ عَشاءَهُ لِيُفطر، وكان خبزاً وزيتاً، فإذا البابُ يُقرعُ؛ قال: مَنْ هذا؟ قال الطارق: سعيد....

سعيد؟ سعيد! مَنْ سعيد؟ أهو أبو عثمان؛ أبو علي؛ أبو الحسن؟ فكَّرَ الرجلُ في كلِّ مَنِ اسمُهُ سعيدٌ إلَّا سعيدَ بْنَ المسيَّب؛ إلا الذي قال له: «أنا...»

لم يخالجْهُ[3] أنْ يكونَ هو الطارق، فإنَّ هذا الإمامَ لم يَطْرقْ بابَ أحدٍ قَطّ، ولم يُرَ منذُ أربعينَ سنةً إلَّا بينَ دارِهِ والمسجد.

---

(١) غشى: غطى.

(٢) أسرج: ملأ السراج زيتاً ثم أشعله. (٣) لم يخالجه: لم يداخله شك.

ثم خرجَ إليه، فإذا بِهِ سعيدُ بْنُ المسيَّب، فلم تأخذْهُ عينُهُ حتى رَجعَ القبرُ فَهَبَطَ فجأةً بِظلامِهِ وأمواتِهِ في قلبِ المسكين، وظنَّ أنَّ قد بدَا له، فندِم، فجاءَهُ للطلاقِ قبلَ أنْ يشيعَ الخبر، ويتعذَّرَ إصلاحُ الغلطة! فقال: «يا أبا محمد، لو . . . لو . . لو ـ لو أرسَلتَ إليَّ لأتيتُك!»

قال الشيخ: «لأنت أحقُّ أنْ تُؤتَى».

فما صكَّتِ الكلمةُ[1] سمعَ المسكينِ حتى أبْلَسَ[2] الوجودُ في نظرِه، وغشِيَ[3] الدنيا صمتٌ كصمتِ الموت، وأحسّ كأنَّ القبرَ يتمدَّدُ في قلبِهِ بعُروقِ الأرضِ كلِّها! ثم فاءَ لِنفسِه، وقدَّر أنْ ليسَ محلُّ شيخِهِ إلا أنْ يأمر، وليسَ محلُّهُ هو إلَّا أنْ يُطيعَ، وأنَّ مِنَ الرجولةِ ألَّا يكونَ مَعرَّةً على الرجولةِ، ثم نَكس وَتَنَكَّسَ وقال بِذِلَّةٍ ومسكنةٍ: «ما تأمُرني؟»

تفتحَتِ السماءُ مرَّةً ثالثة، وقال الشيخ: «إنَّك كنْتَ رجلاً عزباً، فتزوجْتَ، فكرهْتُ أنْ تبيتَ الليلةَ وحدَك؛ وهذه ٱمرأتُك!»

وانحرفَ شيئاً، فإذا العروسُ قائمةٌ خلفَهُ مستترةٌ بِه، ودفعَها إلى البابِ وسلَّمَ وٱنصرف.

وٱنبعثَ الوجودُ فجأة، وطنَّ لَحنُ الملائكةِ في أذنِ ابن أبي وداعة: «أنا، أنا، أنا . . .».

* * *

دخلَتِ العروسُ البابَ وسقطَتْ مِنَ الحياء، فتركَها الرجلُ مكانَها، وٱستوثقَ من بابِهِ، ثم خَطا إلى القصعةِ التي فيها الخبزُ والزيت، فوضعَها في ظلِّ السراجِ كي لا تراها؛ وأغمضَ السراجُ عينَه ونشرَ الظلّ . . .

ثم صعدَ إلى السطحِ ورمى الجيرانَ بحُصَيَّاتٍ؛ ليعلموا أنَّ لَهُ شأناً ٱعتراه، وأنْ قد وَجَبَ حقُّ الجارِ على الجارِ (وكانَتْ هذه الحُصيَّاتُ يومئذٍ كأجراسِ التلفونِ اليومَ) فجاءُوه على سُطوحِهِم وقالوا: «ما شأنُك؟»

قال: «وَيْحَكُمْ! زَوَّجَنِي سعيدُ بْنُ السميَّبِ ٱبنتَهُ اليوم؛ وقد جاء بها الليلةَ على غفلة».

قالوا: «وسعيدٌ زَوَّجَكَ! أهو سعيدٌ الذي زَوّجَكَ! أزَوَّجَك سعيد؟»

---

(١) صكت الكلمة: قرعت سمعه.

(٢) ألمس: اختفى. (٣) غشي: غطى.

قال: «نعم».

قالوا: «وهي في الدار؟ أتقولُ إنّها في الدار؟»

قال: «نعم».

فانثالَ النساءُ عليه من هنا وهٰهنا حتى امتلأَتْ بهِنَّ الدار. وغشَيتِ الرجلَ غشيةٌ أخرى، فحسبَ دارَهُ تتيهُ على قصرِ عبدِ الملكِ بْنِ مروان، وكأنَّما يسمعُها تقول: «أنا، أنا، أنا...»

* * *

قال عبدُ اللَّهِ بْنُ أبي وداعة: «ثم دخلْتُ بها، فإذا هي من أجملِ الناسِ وَأحْفَظِهِمْ لِكتابِ اللَّهِ تعالى، وأعْلَمِهِمْ بسُنَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، وأعْرَفِهِمْ بحقِّ الزوج. لقد كانتِ المسألةُ المعضِلةُ تُعيي الفقهاءَ فأسألُها عنها فأجدُ عندَها منها عِلْما».

قال: ومكَثْتُ شهراً لا يأتيني سعيدٌ ولا آتيه، فلَمَّا كانَ بعدُ الشهر أتَيْتُهُ وهو في حلقتِهِ فسلّمْتُ، فردّ عليّ السلام، ولم يكلمْني حتى تفرّقَ الناسُ مِنَ المجلسِ وخلا وجهُه، فنظرَ إليّ وقال:

«ما حالُ ذلك الإنسان...؟».

* * *

أما ذلك (الإنسان) فلم يعرفْ مِنَ الفَرقِ بينَ قصر وليّ العهدِ ابنِ أميرِ المؤمنين، وبين حُجرةِ ابن أبي وداعةَ التي تُسَمَّى داراً...! إلا أنَّ هناكَ مضاعفةَ الهمّ، وهنا مضاعفةَ الحُبّ.

وما بينَ (هناك) إلى القبرِ مدةَ الحياةِ ـ سَتَخْفِتُ الروحُ من نورٍ بعدَ نورٍ، إلى أنْ تنطفِىءَ في السماءِ من فضائِلها.

وما بينَ (هنا) إلى القبرِ مدةَ الحياةِ ـ تسطَعُ الروحُ بنورٍ على نور، إلى أنْ تشتعلَ في السماءِ بفضائِلها.

وما عندَ أميرِ المؤمنينَ لا يبقى، وما عندَ اللَّهِ خيرٌ وأبقى.

* * *

ولم يزلْ عبدُ الملكِ يحتال (لسعيد) وَيَرْصُدُ غَوَائِلَهُ[1] حتى وقَعَتْ بهِ المِحنةُ، فضربَهُ عاملُهُ على المدينةِ خمسينَ سوطاً في يومٍ بارد، وصبّ عليه جرّةَ

(١) يرصد غوائله: يتبع سقطاته ليأخذه بها.

ماء، وعرَضَهُ على السيف، وطافَ بهِ الأسواقَ عارياً في تُبَّانٍ[1] منَ الشعر، ومنعَ الناسَ أنْ يُجالِسوه أو يُخاطبوه. وبهذهِ الوقاحة، وبهذه الرذيلة، وبهذه الْمَخْزَاة، قال عبدُ الملكِ بْنُ مروان: «أنا. . .؟»

(١) التبان: هو سروال قصير لا يغطي ركبتي المرء.

ذيلُ القصةِ
وفلسفةُ المال

ذهبَ الناسُ يميناً وشِمالاً فيما كتَبنَاهُ من خبرِ الإمامِ سعيدِ بْنِ المسيَّبِ وتزويجِهِ ٱبنتَهُ من طالبِ عِلْم فقير، بعدَ إذْ ضَنّ بها أنْ تكونَ زوجاً لوليّ عهدِ أميرِ المؤمنينَ عبدِ الملكِ بْنِ مروان؛ وقد جعلَتْ قلوبُ بعضِ النساءِ العصرياتِ المتعلِّماتِ تصيحُ وتُوَلْوِلُ..... وحدّثَنا أديبٌ ظريفٌ أنَّ إحداهُنَّ سألَتْ عن عنوانِ عبدِ الملكِ بْنِ مروانِ.......!

أفتَراها ستكتبُ إليه أنَّها تقبلُ الزواجَ من ولِي عهدِه؟

على أن لِلقصة ذيلاً، فإنّ الطبيعةَ الآدميةَ لا عصرَ لها، بل هي طبيعةُ كلِّ عصر؛ والفضيلةُ الإنسانيةُ يبدأُ تاريخُها مِنَ الجنة، فهي هي لا تَتجددُ ولا تزالُ تلوحُ وتختفي؛ أما الرذيلةُ فأولُ تاريخِها من الطبيعةِ نفسِها، فهي هي لا تتغيرُ ولا تزالُ تظهرُ وتَسْتَسِرّ.

* * *

لما زَوَّجَ الإمامُ ٱبنتَه منِ ٱبنِ أبي وَدَاعة، أخذَها بنفسِه إليه في يوم زوَّجَها منه، ومشى بها في طريقِ حَصاهُ عندَه أفضلُ مِنَ الدُّرّ، وترابُه أكرمُ مِنَ الذهب ـ طارتِ الحادثةُ في الناس، واستَفاضَ لهم قولٌ كثير؛ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1]. وقد قال جماعةٌ منهم: تاللَّهِ لئنِ ٱنقطعَ الوحْيُ، إنّ في معانيهِ بقيَّةً ما تزالُ تنزلُ على بعضِ القلوبِ التي تُشبهُ في عَظَمتِها قلوبَ الأنبياء؛ وما هذه الحادثةُ على الدنيا إلّا في معنى سُورَةٍ من السُورِ قدِ انشقَّتْ لها السماءُ، ونزل بها جبريلُ يَخْفُقُ على أفئدةِ المؤمنينَ خفقةَ إيمان.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[2]. وقال أناسٌ منهم:

---

(١) سورة: التوبة الآية: ١٢٤.

(٢) سورة: التوبة الآية: ١٢٥.

أمَا ـ واللَّهِ ـ لو تَهَيَّأ لأحدِنا أنْ يكونَ لصًّا يسرقُ أميرَ المؤمنين، أوِ ٱبنَ أمير المؤمنين، لركبَ رأسَهُ في ذلك، ما يَرُدُّهُ عنِ السرقةِ شيءٌ؛ فكيفَ بِمَنْ تهيَّأ له ٱلصِّهْرُ والْحَسَب، وجاءَهُ الغِنَى يَطْرُقَ بابَه ـ ما بالُهُ يردُّ كلَّ ذلك ويُخْزِي ابنتَهُ برجلٍ فقيرٍ تعيشُ في دارِه بأسوإ حال؛ وكيف تَثْقُلُ هِمتُهُ وتَبْطُؤُ وتموتُ، إذا كانَ الدرُّ والجوهرُ والذهبُ والخِلافة؛ ثم ينبعثُ ويمضي لا يتلكّأُ[1] عزمُه، إذا كانَ العِلْمُ والفقرُ والدينُ والتقوى؟

وٱنتهى كلامُ الناسِ إلى الإمامِ العظيم، فلم يَجِئْهُ إِلَّا مِن ٱلظنِّ خَفِيّاً خَفِيّاً، كأنّما هي أقوالٌ حَسِبَها تُقالُ عنه بعدَ خمسينَ وثلثمائةٍ وألفِ سنةٍ (في زمننا هذا) حينَ يكونُ هو في معاني السماء، ويكونُ القائلونَ في معاني التراب النَّجِسِ الذي نَفَضَتْهُ على الشرقِ نِعالُ الأوروبيين. . .؟

قال الراوي: ولم يستطعْ أحدٌ مِنَ الناسِ أنْ يواجهَ الإمامَ بشَفَةٍ أو بنتِ شفة، لا مُضَيَّقاً عليه من قلبهِ ولا مُوَسَّعاً، حتى كانَ يومٌ من أيام الجمعة، وقد مال الناسُ بعدَ الصلاةِ إلى حلْقةِ الشيخ، وتَقَصَّفوا بعضُهم على بعض، فغصَّ بهمُ المسجد، وكانَ إمامُنا يفسّر قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[2].

قال الراوي: فكانَ فيما قالَه الشيخ:

إذا هُديَ المرءُ سبيلَهُ كانَتِ السُّبُلُ الأخرى في الحياةِ إما عِداءً له، وإما معارَضَةً، وإما رَدّاً، فهو منها في الأذَى، أو في معنى الأذى، أو عُرْضَةٌ للأذى. لقد وَجَدَ الطريقَ ولكنَّه أصابَ العقَباتِ أيضاً، وهذه حالةٌ لا يَمضي فيها الموَفَّقُ إلى غايتِه، إلا إذا أعانَهُ اللَّهُ بطبيعتينِ: أُولاهما العزمُ الثابت، وهذا هو التوكلُ على الله؛ والأخرى اليقينُ المستبصِر، وهذا هو الصبرُ على الأذى.

ومتى عزمَ الإنسان ذلكَ العزمَ، وأيقنَ ذلكَ اليقين ـ تحوَّلَتِ العقباتُ التي تصدُّهُ عن غايتِهِ، فآلَ معناها أنْ تكونَ زيادةً في عزمِهِ ويقينِهِ، بعدَ أنْ وُضِعْنَ ليَكُنَّ نقصاً منهما؛ فترجعَ العقباتُ بعد ذلك وإنها لَوسائلُ تُعينُ على الغاية. وبهذا يبسطُ المؤمنُ رُوحَهُ على الطريق، فما بُدٌّ أنْ يغلبَ على الطريقِ وما فيها. ينظرُ إلى الدنيا بنورِ ٱللَّهِ فلا يجدُ الدنيا شيئاً ـ على سَعتِها وتَناقُضِها ـ إِلَّا سبيلَهُ وما حَوْلَ سبيلِه،

---

(1) يتلكأ: يتأخر.

(2) سورة: إبراهيم الآية: ١٢.

فهو ماضٍ قُدُماً لا يَتراد ولا يَفْتُر[1] ولا يكلُّ، وهذه حقيقةُ العزمِ وحقيقةُ الصبرِ جميعاً.

ومن ثَمّ لا تكونُ الحياةُ لهذا المؤمنِ مهما تقلَّبَتْ واْختلفَتْ ـ إلَّا نَفَاذاً من طريقٍ واحدةٍ دونَ التَّخبُّطِ في الطرقِ الأخرى، ثم لا يكونُ العمرُ مهما طال إلَّا مدَّةَ صبرٍ في رأى المؤمن.

وعزيمةُ النفاذِ وعزيمةُ الصبر، هما الضوءُ الروحانيُّ القويُّ، الذي يكتسحُ[2] ظلُماتِ النفسِ، مِمَّا يسميهِ الناسُ خمولاً ودَعَةً وتهاوناً وغفلةً وضجراً ونحوَها.

قال: ولكنْ كيف يُعانُ المؤمنُ على هذه المعجزةِ النفسية؟ هنا يَتبَّينُ إعجازُ الآيةِ الكريمة؛ فقد ذُكِرَ فيها التوكُّلُ ثلاثَ مرات، وَاْفتُتِحَتْ بهِ وخُتِمَتْ؛ والتوكلُ هو العزمُ الثابتُ كما أوضَحنَا. وذُكِرتْ في الآيةِ بينَ ذلك هدايةُ المرء سبيلَه؛ وهذه الإضافةُ (سُبلنا) تُعينُ أنها هدايةُ الإنسانِ إلى سبيلِ نفسهِ؛ أي سبيلهِ الباطنيّ الذي هو مَناطُ[3] سعادتِه في الشعورِ بالسعادة. ثم ذُكِر الصبرُ على أذى الناس، والأذى لا يقعُ إلَّا في حيوانيةِ الإنسان، ولا يؤثّرُ إلَّا فيها. فكأنَّ الآيةَ مُصرّحةٌ أَنَّ نجاحَ المؤمنِ ونَفاذَه في الحياةِ لا يكونانِ أولَ الأشياء وآخرَها إلَّا بثلاث: العزم الثابت، ثم العزم الثابت، ثم العزم الثابت. وأنَّ الصبرَ ليس شيئاً يُذكر، أو شيئاً يُجدي[4]، إنْ لم يكنْ صبراً على أذى الحيوانيةِ في أفظعِ وحشيتِها؛ فالروحُ لا تُؤذِي الروح، ولكنَّ الحيوانَ يُؤذي الحيوان. وأنَّ ما يقعُ من هذه الحيوانيةِ فيُسمَّى اعتداءً من غيرِك، ويُسمَّى أذىً لك، هو شيءٌ ينبغي أنْ يجعلَهُ العزمُ فخراً لِقوّةِ الاحتمالِ فيك، كما جعلَهُ البطشُ فخراً لِلقدرةِ عندَ المعتدي.

وبهذا يكونُ العزمُ قد فَصَلَ بينَ نفسِكَ الروحيةِ وبينَ شخصِك الحيوانيّ، وهبَكَ حقيقةَ الشعور، وصحَّحَ بمعاني رُوحيتِكَ معانيَ حيوانيتِك، وحينئذٍ تَرى السعادةَ حقَّ السعادة ما كان هِدايةً لِنفسِك أو هِدايةً بها، ولوِ اْنقلبَ في الشخصِ الحيوانيّ منك أذىً وألماً. ذلك صبرُ أُولى العزمِ مِنَ الرسل[5].

* * *

(١) يفتر: يضعف، تتلاشى قواه شيئاً فشيئاً. (٢) يكتسح: يتغلب، يغزو.

(٣) مناط: رباط، تعلّق. (٤) يجدي: ينفع.

(٥) أولو العزم من الرسل: هم: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد **صلوات الله وسلامه عليهم** أجمعين.

قال الراوي: وعندَ ذلك صاحَ رجلٌ كانَ في المجلسِ دسَّهُ[1] عاملُ الخليفة، لِيسألَ الشيخَ سؤالاً على مَلأ الناس، يكونُ كالتشنيع عليهِ والتشهيرِ به؛ وقد مَكَرَ العاملُ فٱختارَهُ شيخاً كبيراً أعْقَفَ[2]، لِيرحَمَ النَاسُ رِقَّةَ عظمِهِ وكُبْرَ سنِهِ فلا يَعرضونَ له بأذًى، ثم لِيكونَ صوتُهُ كأنَّهُ صوتُ الدهرِ من بعيد. قال الصائح: ذلك أيُّها الشيخُ صبرُ أولي العزم مِنَ الرسل، أو صبرُ ابنتِك على مَكارِهِ العيشِ مَعَ ٱبنِ أبي وداعة، لا يجدُ إلا رُمْقَةً يُمْسِكُ بها الرَّمَقَ عليها، وقدْ كانَتِ النعمةُ لها مُعْرِضة، فدفَعْتها إليه ـ زعمْتَ ـ لتُهلِكَ به شخصَها الحيوانيَّ، وتوكَّلْتَ على الله وألقيْتَ ٱبنتَك في اليَمّ...؟

فتربَّدَ وجهُ[3] الشيخِ وأطرقَ هُنَيَّاتٍ، ثم رفعَ رأسَهُ وقال: أينَ المتكلمُ آنفاً؟ فَٱرتفعَ الصوت: هأنذا. قال: ادْنُ مِنّي. فتقاعَسَ[4] الرجلُ كأنَّما تهيَّبَ ما فَرَط منه. فٱسْتَدْناهُ الثانية؛ فقامَ يتخطَّى الناسَ حتى وقفَ بإزائِهِ ثم جلس؛ فقرأ الشيخُ قولَهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾[5].

ثم قال: أيها الرجل، لا تَسمعْني بأذُنِك وحدَها. أرأيْتَك[6] لو سَمِعْتَ خبراً ليس في نفسِك أصلٌ من معناه، أو وَرَدَ عليك الخبَرُ ونفسُك عنه في شُغُلٍ قد أهَمَّها؛ أفكنْتَ تَنْشطُ له نشاطَك للخبرِ ٱحتفلَتْ له نفسُكَ أو أصابَ هوًى منك أو رأيتَهُ موضعَ ٱعتبار؟

قال: لا.

قال الشيخ: فإذا سمعْتَ بأذنِك وحدَها فإنَّما سمعْتَ كلاماً يمرُّ بأذنِك مرّاً، وإذا أردْتَ الكلامَ لنفسِكَ بأذنِك ونفْسِك معاً؟

قال: نعم.

قال الشيخ: فكلُّ ما لا تنفردُ به حاسةٌ واحدة، بل تشاركُ فيهِ الحواسُّ كلُّها أو أكثرُها ـ لا يكونُ إلَّا موضعَ ٱهتمامٍ للنفس؟

قال: نعم.

---

(1) دسَّه: دفع به ليتجسس على الحضور.
(2) أعقف: منحني الظهر.
(3) تربد وجه: تغيير وجهه لانزعاجه.
(4) تقاعس: تكاسل.
(5) سورة: إبراهيم الآية: ٢١.
(6) أرأيتك: أعلمني.

قال الشيخ: فمِنْ هنا يكثرُ الفرحُ والحزنُ كلاهما إذا شاركَتْ فيهما الحواسُّ فيأتي كلٌّ منهما كثيراً مهما قلَّ وتزيدُ كلُّ حاسَّةٍ في اللذةِ لذةً وفي الألم ألماً، فتعملُ النفسُ في ذلك أعمالاً تَسْحَرُ بها، فيكونُ الشيءُ لصاحبِهِ غيرَ ما هو للناس، كالصوتِ الباكي أو الضاحكِ في لسانِ طفلِك، تسمعُهُ أنت منه بكلِّ حواسِّك، فإذا أنت سمِعْتَ الصوت عينَه من لسانِ رجلٍ في الناس رأيْتَهُ غيرَ ذاك أكذلك هو؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أفيكونُ السرورُ بالغاً عجيباً أكثرَ ما هو بالغ، حينَ يجِدُ المالَ والغنِى في الإنسان، أم حين يجُد القوةَ النفسيةَ وطبيعةَ المرَحِ والرضى؟

قال: بل حينَ يَجِدُ في النفس...

قال الشيخ: أَرأيْتَ الإنسانَ يكونُ سعيداً بما يتوهَّمُ الناسُ أنَّه بهِ غنيٌّ سعيد، أم بشعورِهِ هو، وإنْ كان بَعدُ فيما لا يتوهمُ الناسُ فيه الغِنَى والسعادة؟

قال: بل بشعورِهِ.

قال الشيخ: أفلا توجدُ في الدنيا أشياءُ مِنَ النفسِ تكونُ فوقَ الدنيا وفوقَ الشهواتِ والمطامع؛ كالطفلِ عندَ أمِّهِ، كلُّ ما تعلَّقَ بهِ من شيءٍ وُزِنَ به هو لا بغيرِه، وكانَ الاعتبارُ عليهِ لا على سِواه، أتعرِفُ أمّاً ترضى أن يُذْبَحَ ٱبنُها في حِجرِها لِقاءَ أن يُملأَ حِجرُها ذهباً وإنْ كانَتْ فقيرة مُعْدِمة؟

قال: لا.

قال الشيخ: فإذا كانَتِ النفسُ تشعرُ أكثرَ مما ترى؛ أفيذهبُ ما تراهُ فيما تشعرُ به، ويكونُ شُعورُها هو وحدَهُ ٱلذي يَلْبَسُ ما حولَها ويصوِّرُهُ ويُصرِّفه؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أفتعرِفُ أنَّ لِكلِّ نفسٍ قويةٍ من هذا العالم الذي نعيشُ فيهِ عالَماً آخرَ هو عالَمُ أفكارِها، وإحساسِها، وفيه وحدَهُ لذاتُ إحساسِها وأفكارِها؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أفرأيْتَ المرأةَ إذا صحّ حبُّها أو فرحُها أو عزمُها، أرأيْتَها تكونُ إلا في عالَم أفكارِها؟ أرأيْتَ كلَّ ما يتَّصِلُ برغبتِها حينئذٍ يكونُ إلَّا من أشياءِ قلبِها لا من أشياءِ الدنيا؟ أرأيْتَها لا تعيشُ في هذه الحالةِ إلَّا بالمعاملةِ معَ قلبِها الذي لا يأكلُ ولا يشربُ ولا يلبسُ ولا يجمعُ المالَ ولا يُريدُ إلا الشعورَ فقط؟

قال: نعم هو ذاك.

قال الشيخ: أرأيْتَ إذا كانَ الإيمانُ قد وُلِد ونشأَ وترَعْرَعَ في قلبِ ٱلمرأة، ألا يكونُ هو طفلَ طلبِها؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أرأيْتَ إذا كانَتِ الخمرُ عندَ مُدْمِنِها شيئاً عظيماً، وكانَتْ ضرورةً من ضروراتِ وجودِهِ الضعيفِ المختلّ، فلا يستقيمُ وجودُه ولا سَفَهُ وجودِهِ إلّا بها؛ أفيلزمُ من ذلك أنْ تكونَ الخمرُ من ضَروراتِ صاحبِ الوجودِ القويّ المنتظم؟

قال: لا.

قال الشيخ: أفَمُوقِنٌ أنت لا بدّ من آخِرِ لأيامِ الإنسانِ ولياليهِ في هذه الدنيا فينقطعَ بهِ العيش؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أفَيُؤرِّخُ الإنسانُ يومئذٍ بتاريخِ معدتهِ وما حولَها، أم بتاريخِ نفسِه وما فيها؟

قال: بل بتاريخِ نفسِه.

قال الشيخ: فإذا كنْتَ صاحبَ حَرْبٍ، وكنْتَ بطلاً مِنَ الأبطال، ومِسْعَراً مِنَ المَساَعير[1]، وأيقنْتَ الموتَ في المعركة؛ أيكونُ الحقيقيُّ عندَك في هذه الساعةِ هو الموتُ أم الحياة؟

قال: بلِ الحياةُ عندئذٍ وهْمٌ وباطل.

قال الشيخ: فتَفِرُّ في تلك الساعةِ إلى الحياةِ ولذّاتِها في خيالِك، أم تفرّ منها ومن لذاتِها؟

قال: بل الفرارُ منها، فإن خيالَها يكونُ خَبَالا.

قال الشيخ: ففي تلكَ الساعةِ التي هي عُمْرُ نفسِك، وعَمَلُ نفسِك، ورجاءُ نفسِك؛ تستشعرُ اللذةَ في موتكِ بطلاً، أم تُحسُّ الكرْبَ[2]، وَٱلمَقْتَ من ذلك؟

قال: بل أستشعرُ اللذة.

---

(١) مسعراً من المساعير: مشعلاً لنار الحرب وبطلاً من أبطالها.

(٢) الكرب: الشعور بالمصائب والأحزان.

قال الشيخ: إذن فهي كبرياءُ الروحِ العظيمةِ على مادةِ الترابِ والطينِ في أيّ أشكالِها ولو في الذهب.

قال: هي تلك.

قال الشيخ: إذن فبعضُ أشياءِ النفسِ تمحو في بعضِ الأحوالِ كلَّ أشياءِ الدنيا، أو الأشياءَ الكثيرةَ مِنَ الدنيا.

قال: نعم.

قال الإمام: يرحمُك الله؛ كذلك مُحِيَ عندَنا أميرُ المؤمنينَ وابنُ أميرِ المؤمنين، ومُحيَ المالُ والغِنى، ولم يكُنْ ذلك عندَنا إلا سعادة؛ ومن رحمةِ الله أنَّ كلَّ مَن هُدِيَ سبيلَه بالدينِ أو الحِكْمة، ٱستطاعَ أنْ يصنَعَ بنفسِه لِنفسِه سعادتَها في الدنيا، ولو لم يكن له إلَّا لُقَيْمات؛ فإنَّ السَّعَةَ سَعَةُ الخُلُقِ لا المال، وإنَّ الفقرَ فقرُ الخلُقِ لا العيش.

* * *

قال الراوي: ثم إنَّ الإمامَ العظيمَ ٱلتفَتَ إلى الناس وقال: أما إنِّي ـ عَلِمَ الله ـ ما زوّجْتُ ابنتي رجلاً أعرفُهُ فقيراً أو غنياً، بل رجلاً أعرفُه بطلاً من أبطالِ الحياة، يملكُ أقوى أسلحتهِ منَ الدينِ والفضيلة. وقد أيقنْتُ حينَ زوّجْتُها منه أنُّها ستعرفُ بفضيلةِ نفسِها فضيلةَ نفسِه، فيتجانسُ[1] الطبعُ والطبع؛ ولا مَهنأَ لِرجلٍ وٱمرأةٍ إلا أنْ يُجانِسَ طبعُهُ طبعَها، وقد علمْتُ وعلمَ الناسُ أنْ ليسَ في مالِ الدنيا ما يشتَري هذه المجانسة، وأنها لا تكونُ إلَّا هديةَ قلبٍ لِقلبٍ يأتَلِفَانِ ويَتَحَابَّان.

ثم قال الإمام: وأنا فقد دخلْتُ على أزواجِ رسولِ الله ﷺ ورأيتُهنّ في دُورهنّ يُقاسِينَ الحياة، ويُعانينَ مِنَ الرزقِ ما شَحَّ دَرّه فلا يجيءُ إلَّا كالقطرةِ بعدَ القطرة، وهنّ على ذلك، ما واحدةٌ منهنّ إلا هي ملكةٌ من ملكاتِ الآدميَّةِ كلّها، وما فَقْرُهُنَّ إلا كبرياءُ الجنةُ نظَرتْ إلى الأرضِ فقالَتْ: لا . . . !

يجاهدْنَ مجاهَدَةَ كلِّ شريفٍ عظيم النفس، همُّهُ أنْ يكونَ الشرفُ أو لا يكونَ شيء؛ ويرى الغافلُ أنَّ مِثْلَهُنَّ هالكاتٌ في تعبِ الجهاد، ويعلَمْنَ من أنفسهِنَّ غيرَ ما يرى ذلك المسكين ـ يعْلَمْنَ أنَّ ذلك التعبَ هو لذةُ النصرِ بعينِها.

كانَتْ أنوثتُهُنَّ أبداً صاعدةً مُتَسَامِيةً فوقَ موضعِها بهذِه القناعةِ وبهذِه التقوى،

---

(١) يتجانس: يتوافق ويتفاعل من خلال الانصهار المتبادل.

ولا تزالُ متساميةً صاعدةً، على حينِ تنزلُ المطامعُ بأنوثةِ المرأةِ دونَ موضعِها، ولا تزالُ أنوثتُها تنحدرُ ما بقيَتِ ٱلمرأةُ تطمع؛ ورُبَّ ملكةٍ جعلَتْها مطامعُ الحياةِ في الدَّركِ الأسفل، وهي باسمِها في الوهْم الأعلى. . . !

وقد رُوينا عنِ ٱلنبي ﷺ أنه قال: «اطَّلَعْتُ في الجنةِ فإذا أَقَلُّ أهلِها النساء، فقلْتُ أين النساء؟ قال: شَغَلَهُنَّ الأحمران: الذهب والزعفران» أي ٱلطمعُ في الغِنى والعملُ له، والميلُ إلى التبرُّج[1] والحرصُ عليه.

ونفسُ الأنثى ليسَتْ أنثى، ولكنْ شَغْلَها بذلك التبرجُ وذلك الحِرْصُ وذلك الطمعُ ـ هو يُخَصِّصُها بخصائصِ الجسد، ويُعطيها من حُكمِه، ويُنزلُها على إرادتِه؛ وهذه هي المزَلَّة، فتهبطُ المرأةُ أكثرَ مِمَّا تعلو، وتضعفُ أكثرَ مِمَّا تقوَى، وتَفسُدُ أكثرَ مِمَّا تَصْلحُ. إنَّ نفسَ الأنثى لِرجلٍ واحد، لِزوجِها وحدَه.

رأيتُ أزواجَ النبيّ ﷺ فقيراتٍ مَقتُوراً[2] عليهِنَّ الرّزق، غيرَ أنَّ كلًّا منهُنَّ تعيشُ بمعاني قلبِها المؤمنِ القوي، في دارٍ صغيرةٍ فَرَشَتْها الأرضُ ولكنَّها من معاني ذلكَ القلبِ كأنَّها سماءٌ صغيرةٌ بينَ أربعةِ جدران. إنَّهُنَّ لم يبتعْدنَ عن الغِنى إلَّا لِيبعَدْنَ عن حماقةِ الدنيا التي لا تكونُ إلَّا في الغِنى.

أفٍّ أفٍّ! أتُريدونَ أنْ أُزوِّجَ ٱبنتي منِ ٱبنِ أميرِ المؤمنينَ فيُخزيَها اللَّهُ على يديّ، وأدفعُها إلى القصرِ وهو ذلك المكانُ الذي جمعَ كلَّ أقذارِ النفسِ ودَنَسِ الأيامِ والليالي؛ أأُزَوّجُها رجلاً تعرفُ من فضيلةِ نفسِها سقوطَ نفسِه، فتكونَ زَوجَةَ جسمِهِ ومطلَّقةَ رُوحِهِ في وقت معاً؟

ألا كم من قَصْرٍ هو في معناهُ مَقبرةٌ، ليس فيها من هؤلاءِ الأغنياءِ رجالِهم ونسائِهم إلا جِيَفٌ يُبلي بعضُها بعضاً!

* * *

قال الراوي: وضجَ الناسُ لِحمامةٍ صغيرةٍ قد جَنَحَتْ مِنَ الهواء، فوقَعتْ في حِجرِ الشيخِ لائذةً بِهِ من مَخافة، وجعلَتْ تَدفُّ بجنَاحيْها[3] وتضطربُ مِنَ الفزَع، ومرّ الصقرُ على أثرِها وقد أهوى لَها، غيرَ أنَّهُ تمطَّرَ[4] ومَرَقَ في الهواءِ إذ رأى الناس. . .

---

(١) التبرّج: التزيّن.

(٢) مقتوراً: قليلاً جداً بحيث لا يكفي الرمق.

(٣) تدفّ بجناحيها: تجمعهما.

(٤) تمطّر: عمل على الهبوط.

وتناولَها الإمامُ في يدهِ وهي في رَجْفَتها من زلزلةِ الهواء، وكانَتْ كالعَروسِ مُسَرْوَلةً قد غابَتْ ساقاها في الريش، وعلى جسمِها مِنَ الألوانِ نَمْنمةٌ وتحبير، ولها رُوحُ العَروسِ الشابَّةِ يُهدُونَها إلى مَن تكْرهُ ويزَفّونَها على قاتِلها الذي يُسمَّى زوجَها.

وأدناها الشيخُ من قلبِه، ومَسَحَ عليها بيدهِ، ونظرَ في الهواءِ نظرة... وهو يقول: نَجوْتِ نَجوْتِ يا مسكينة!

* * *

زوجةُ إمام

جلسَ جماعةُ أصحابِ الحديثِ في مسجدِ الكوفة، يَتَنَظَّرونَ قُدومَ شيخِهم الإمام «أبي محمدٍ سليمانَ الأعمش» ليسمعوا منه الحديث، فأبطأَ عليهم؛ فقال منهم قائل: هلمُّوا نتحدثْ عنِ الشيخِ فنكونَ معه وليسَ معنا، فقال أبو معاويةَ الضّرير: إلى أنْ يكونَ معنا ولسْنا معه.! فخطرَتِ ٱبتسامةٌ ضعيفةٌ تهتزُّ على أفواهِ الجماعة، لم تبلغِ الضحك، ومَّرتْ لم تُسمَع، وكأنَّها لم تُرَ، وَٱنطلقَتْ مِنَ المُباحِ المغْفُوّ عنه. ولكنْ أكبرَها أبو عَتَّابٍ منصورُ بْنُ المُعْتَمر. فقال: ويلكَ يا أبا معاوية! أتَتَندَّرُ بِالشيخِ وهو منذُ الستينَ سنةً لم تَفُتْهُ التكبيرةُ الأولى في هذا المسجد، وعلى أنَّهُ مُحَدِّثُ الكوفة وعالمُهَا، وأقرأُ الناسِ لِكتابِ الله، وأعلمُهم بِالفرائض، وما عَرفتِ الكوفةُ أعبدَ منه ولا أفقهَ في العِبادة؟

فقال محمدُ بنُ جُحَادة: أنْتَ يا أبا عتَّاب، رجلٌ وحدَك، تُواصِلُ الصومَ منذُ أربعينَ سنة، فقد يَبِسْتَ على الدهر، وأصبحَ الدهرُ جائعاً منك، وما برَحْتَ تبكي من خشيةِ الله، كأنَّما أطلعْتَ على سَواءِ الجحيم، ورأيْتَ الناسَ يَتَواقَعُون فيها وهي لَهَبٌ أحمرُ يلتفُّ على لَهَبٍ أحمرَ، تحتَ دُخَانٍ أسودَ يتَضرَّبُ في دخانٍ أسود؛ يَتَغامَسُ الإنسانُ فيها وهي ملءُ السماوات، فما يكونُ إلَّا كالذُّبابةِ أوقدُوا لها جبلاً ممتدّاً مِنَ النار، ينْطادُ[1] بينَ الأرضِ والسماء، وقد ملأَ ما بينَهما جمراً وشُعَلاً ودُخاناً، حتى لَتَتهارَبُ السُّحُبُ في أعلى السماءِ من حَرِّهِ، وهو على هَوْلِهِ وجَسَامتِه لِحرْقِ ذبابةٍ لا غيرِها، بَيْدَ أنها ذبابةٌ تُحْرَقُ أبداً ولا تموتُ أبداً، فلا تَزالُ ولا يزالُ الجبل!

فصاحَ أبو معاويةَ الضَّرير: ويحَكَ يا محمد! دَعِ الرجلَ وشأنَه؛ إنَّ لِلَّهِ عِباداً متاعُهم مِمَّا لا نعرف، كأنَّهم يأكلونَ ويشربونَ في النوم، فحياتُهم من وراءِ حياتِنا، وأبو عتَّابٍ في دنيانا هذه ليسَ هو الرجلَ الذي اسمهُ «منصور»، ولكنَّهُ العملُ الذي يعملُهُ «منصور». هل أتاكم خبَرُ قارىءِ المدينةِ «أبي جعفرِ الزاهد»؟

---

(١) ينطاد بين السماء والأرض: يطير بينهما.

قال الجماعة: ما خبرُهُ يا أبا معاوية؟ قالَ: لقد تُوُفّي من قريب، فرُئي بعدَ موتهِ على ظهرِ الكعبة؛ وسترَون أبا عتَّابٍ ـ إذا ماتَ ـ على منارةِ هذا المسجد!

فصاح أبو عتَّابٍ: تَخَلَّلْ يا أبا معاوية؛ أمَا حفظْتَ خبرَ ٱبنِ مسعود: كنَّا عندَ النبيِّ ﷺ فقامَ رجل، فوقَع فيهِ رجلٌ من بعدِه؛ فقال النبيُّ ﷺ: «تخلَّلْ» قال: «ممَّ أتخلَّلُ؟ ما أكلْتُ لحماً؟» قال: «إنك أكلْتَ لحمَ أخيك!».

فَتقلْقلَ الضريرُ في مجلسِه، وتَنحْنحَ، وهَمْهَم أصواتاً بينَه وبينَ نفسِه، وأحسّ الجماعةُ شأنَه، وقد عرفوا أنَّ له شرّاً مُبْصراً، كالذي كانَ فيهِ منَ المزْحِ والدُّعابة، وشرّاً أعمى هذه بوادرُهُ؛ فٱسْتلَبَ[1] ابنُ جُحادةَ الحديثَ مِمَّا بينَهما وقال: يا أبا مُعاوية، أنت شيخُنا وبركتُنا وحافظُنا، وأقربُنا إلى الإمام، وأمسُّنا بهِ؛ فحدِّثْنا حديثَ الشيخِ كيفَ صنعَ في رَدّه على هِشام بنِ عبد الملك، وما كانَ بينَكَ وبينَ الشيخِ في ذلك، فإن هذا مِمَّا ٱنفردْتَ أنت به دونَ الناسِ جميعاً، إذ لم يسمعْهُ غيرُ أذنيك، فلم يحفظْهُ غيرُك وغيرُ الملائكة.

فأسْفرَ وجهُ أبي مُعاوية، وسُرّيَ عنه، ولآهتزَّ عِطْفاهُ، وأقبلَ عليهم بعفْوِ القادر... وأنشأ يحدِّثُهم. قال:

إنَّ هِشاماً ـ قاتلَه الله ـ بعثَ إلى الشيخ: أنِ ٱكتبْ لي مناقبَ عثمانَ ومَساوىءَ عليّ. فلمَّا قرأَ كتابَهُ كانَتْ داجِنَةٌ إلى جانبِه، فأخذَ القِرطاسَ وألْقمَهُ الشاةَ، فلاكَتْهُ حتى ذهبَ في جوفِها، ثم قالَ لِرسولِ الخليفة: قلْ له: هذا جوابُك! فخشيَ الرسولُ أنْ يرجعَ خائباً فيقتلَهُ هشام، فما زالَ يتحمَّلُ بنَّا، فقلْنا: يا أبا محمد، نجّهِ مِنَ القتل. فلمَّا ألححْنا عليه كتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعدُ يا أميرَ المؤمنين، فلو كانَتْ لِعثمانَ ـ رضي الله عنه ـ مناقبُ أهلِ الأرض ما نفعَتْك، ولو كانَتْ لِعليّ ـ رضي الله عنه ـ مساوىءُ أهلِ الأرضِ ما ضرّتْك فعليك بخُوَيصَّةِ نفسِك[2]، والسلام».

فلمَّا فَصَلَ الرسولُ قال ليَ ٱلشيخ: إنَّه كانَ في خُرَاسَانَ مُحدِّثٌ اسمه «الضحَّاكُ بن مُزاحِم الهلالي» وكان فقيهَ مكتبٍ عظيم فيه ثلاثةُ آلافِ صبيّ يتعلَّمون؛ فكان هذا الرجلُ إذا تعِبَ ركِبَ حِماراً ودارَ بِهِ في المكتبِ عليهم،

---

(١) استبلب الحديث: باديا لحديث: أردف قائلاً.

(٢) خويصة نفسك: ذاتك.

فيكونُ إقبالُ الحمارِ على الصبيّ همّاً وإدبارُهُ عنه سروراً. وما أرى الشيطانَ إلا قد تعبَ في مكتبِهِ وأعيا، فركبَ أميرُ المؤمنين. . . لِيدورَ علينا نحن يسألُنا: ماذا حفظْنا من مساوِىءِ عليّ؟

قلْتُ: فلِماذا ألقمْتَ كتابَهُ الشاةَ؟ ولو غسلْتَه أو أحرقْتَه كانَ أفهمَ لَهُ وكانَ هذا أشبهَ بك. فقال: ويحكَ يا أبلهُ! لقد شابتِ ٱلْبلاهةُ في عارِضيَك؛ إنَّ هشاماً سيتَقَطَّعُ منها غَيْظاً، فما يُخفي عنه رسولُه أنّي أطعمْتُ كتابَهُ الشاة، وما يُخفي عنه دَهَاؤُه أنَّ الشاةَ ستَبْعَرُهُ من بَعْدُ. . .!

قلْتُ: أفلا تخشى أميرَ المؤمنين؟

قال: ويحكَ! هذا الأحولُ عندَك أميرُ المؤمنين؟ أبِمَا ولدتْهُ أمُّهُ من عبدِ الملك؟ فَهَبْها ولَدتْهُ من حائكٍ أو حجَّام! إنَّ إمارةَ المؤمنينَ يا أبا مُعاوية، هي ٱرتفاعُ نفسٍ منَ النفوسِ العظيمةِ إلى أثرِ النّبوّة؛ كأنَّ القرآنَ عَرَضَ المؤمنينَ جميعاً ثم رضي منهم رجلاً للزمنِ الذي هو فيه، ومتى أُصيبَ هذا الرجلُ القُرآنيُّ، فذاك وراثُ النبيِّ في أمَّتِهِ وخليفتُهُ عليها، وهو يومَئذٍ أميرُ المؤمنين، لا من إمارةِ المُلكِ والترَف، بل من إمارةِ الشرعِ والتدبيرِ والعملِ والسياسة.

هذا الأحولُ الذي التفّ كدودةِ الحريرِ في الحرير، وأقبلَ على الخيلِ لا لِلْجهادِ والحرب، ولكن لِلْهوِ والحَلْبَة، حتى ٱجتمعَ له مِنْ جِيادِ الخيلِ أربعةُ آلافِ فرسٍ لم يجتمعْ مثلُها لأحدٍ في جاهليةٍ ولا إسلام، وعَمِلَ الخزَّ وقُطُفَ الخزّ، وٱستَجَادَ الفَرشَ والكُسوة، وبالغَ في ذلك وأنفقَ فيه النفقاتِ الواسعة، وأفسدَ الرجولةَ بالنعيمِ والترفِ، حتى سَلَكَ الناسُ في ذلك سُنَّتَه، فأقبلوا بأنفسِهم على لهوِ أنفسِهم، وصنعوا الخيرَ صنعةً جديدةً بصرفِهِ إلى حظوظِهم، وتركوا الشرَّ على ما هو في الناس، فزادوا الشرَّ وأفسدوا الخير، ولم يَعُدِ الفقراءُ والمساكينُ عندَهم هم والفقراءَ والمساكينَ مِنَ الناس، بل بطونَهم وشهواتِهم. . .! ولقد كانَ الرجلُ من أغنياءِ المسلمينَ يقتصدُ في حظِّ نفسِهِ لِيَسعَ ببرِّهِ مائةً أو مائتينِ أو أكثرَ من إخوانِهِ وذوي حاجتِهِ، فعادَ هذا الغنيُّ يتَّسعُ لِنفسِهِ ثم يتَّسع، حتى لا يكفيهِ أنْ يأكلَ رزقَهُ مائة أو مائتينِ أو أكثر!

إن هذا الإسلامَ يجعلُ أحسنَ المسرّاتِ أحسنَها في بذلِها للمحتاجين، لا في أخذِها والاستئثارِ بها، فهي لا تضيعُ على صاحبِها إلَّا لِتكونَ له عندَ الله، وكأنَّ

الفقرَ والحاجةَ والمسكنةَ والإنفاقَ في سبيلِ اللهِ ـ كأنَّ هذه أرَضُون يُغْرَسُ فيها الذهبُ والفضةُ غَرْساً لا يُؤتي ثمرَهُ إلَّا في اليومِ الذي يَنقلبُ فيه أغنى الأغنياءِ على الأرض، وإنَّهُ لَأفقرُ الناسِ إلى درهم من رحمةِ ٱللَّهِ وإلى ما دون الدرهم؛ فيُقالُ له حينئذٍ: خُذْ من ثِمارِ عملِك، وخُذْ مِلْءَ يديك!

والسلطانُ في الإسلام هو الشرعُ مَرْئيّاً يُتابِعهُ، متكلِّماً يفهمُهُ الناسُ، آمراً ناهياً يُطيعُهُ الناس. ولقد رأى المسلمونَ هذا الأحولَ، وتابعوه وسمِعوا له وأطاعوا؛ فمنعوا ما في أيديهم، فٱنقطعَ ٱلرِّفْد[1]، وقلَّ الخير، وشحَّتِ[2] الأنفس، وأصبحَ خيرُهم لِبطنِهِ وشهواتِهِ، وصارَ الزمانُ أشبهَ بناسِه، والناسُ أشبهَ بمَلِكِهم، ومِلِكُهم في شهواتِهِ «فقيرُ المؤمنينَ» لا أميرُ المؤمنين!

إنَّ هذه الإمارةَ يا أبا مُعاوية، إنَّما تكونُ في قربِ الشبهِ بين النبيّ ومَنْ يختارُهُ المؤمنونَ لِلبَيْعة. ولِلنبيّ جِهتان: إحداهما إلى ربِّهِ، وهذه لا يطمعُ أحدٌ أنْ يبلغَ مبلغَهُ؛ والأخرى إلى الناس، وهذه هي التي يُقاسُ عليها «وهي كلُّها رِفْقٌ ورحمةٌ وعملٌ، وتدبيرٌ وحِيَاطةٌ وقوة، إلى غيرِها مِمَّا يقَومُ بهِ أمرُ الناس؛ وهي حقوقٌ وتَبِعَاتٌ ثقيلةٌ تنصرِفُ بصاحبِها عن حظِّ نفسِه، وبهذا الانصرافِ تُجذَبُ الناسُ إلى صاحبِها. فإمارةُ المؤمنينَ هي بقاءُ مادّةِ النورِ النبويّ في المِصباح الذي يُضيءُ لِلإسلام، بإمدادهِ بالقدْرِ بعدَ القدْرِ من هذه النفوسِ المضيئة. فإنْ صَلُحَ الترابُ أوِ الماءُ مكانَ الزيتِ في الاستضاءة، صَلُحَ هشامٌ وأمثالُهُ لإمارةِ المؤمنين!

ويلٌ لِلمسلمينَ حينَ ينظرونَ فيجدونَ السلطانَ عليهم بَينَه وبينَ النبيّ مثلُ ما بينَ دِينينِ مختلفين. ويلٌ يومئذٍ لِلمسلمينَ! ويلٌ يومئذٍ لِلمسلمين!

* * *

فلمَّا أتمّ الضريرُ حديثَه قالَ ابن جُحادةَ: إنَّ شيخَنا على هذا الجِدِّ ليَمزح، وسأحدّثكُم غيرَ حديثِ أبي مُعاوية، فقد رأيْتُ الدنيا كأنَّما عرَفَتِ الشيخَ ووقفَتْ على حقيقتِهِ السماويةِ فقالَتْ له: اضحكْ منّي ومن أهلي. ولكنَّ وقارَه ودينَهُ ارتفعا بِهِ أنْ يضحكَ بفمِهِ ضَحِكَ الجهلاءِ والفارغينَ فضَحِكَ بالكلمةِ بعدَ الكلمةِ من نوادرِهِ.

لقد كنْتُ عندَهُ في مَرْضَتِه، فعادَهُ «أبو حنيفة» صاحبُ الرأي، وهو جبَلُ عِلْمٍ

---

(١) الرفد: الصلة. (٢) شحّت: بخلت.

شامخ، فطَوَّلَ مِمَّا يُحبُّهُ ويأنسُ بِه، إذا كانتِ الأرواحُ لا تَعرفُ مع أحبابِها زمناً يطولُ أو يقصُرُ. فلمَّا أرادَ القيامَ قال له: ما كأنّي إلا ثَقُلْتُ عليك. فقال الشيخ: إنَّكَ لَثقيلٌ عَليّ وأنتَ في بيتِك...! وضحكَ أبو حنيفةَ كأنَّه طِفلٌ يُلَاغِيهِ[1] أبوه بكلمةٍ ليسَ فيها معناها، أو أبٌ دَاعَبَهُ طِفلُهُ بكلمةٍ فيها غيرُ معناها.

وجاءَهُ في الغَداةِ قومٌ يعودونه[2]، فلمَّا أطالوا الجلوسَ عندَهُ أخذَ الشيخُ وِسادتَهُ وقام منصرفاً، وقال لهم: قد شَفَى اللَّهُ مريضَكم...!

فقال الضرير: تلك رَوْحَةٌ من هواءِ دُنْباوَنْد[3]، فإنَّ أبا الشيخ كانَ من تلك الجبال، وقدِمَ إلى الكوفةِ وأمُّه حاملٌ؛ فوُلِدَ هنا؛ فكأنَّ في دمهِ ذلكَ النسيمَ تهبُّ منه النفْحةُ بعدَ النفحةِ في مثلِ هذه الكلماتِ المُتَنسِّمة؛ ثم هي رُوحُهُ الظريفةُ الطيِّبةُ تَلْمِسُ بعضَ كلامهِ أحياناً، كما تلمسُ روحُ الشاعرِ بعضَ كلام الشاعر؛ وما رأيْتُ أدقَّ النوادرِ الساخرةِ وأبلغَها وأعجبَها يجيءُ إلَّا من ذوي الأرواحِ الشاعرةِ الكبيرةِ البعيدةِ الغَوْر، كأنَّما النادرةُ من رؤيةِ النفسِ حقيقتانِ في الشيءِ الواحِد. والإمامُ في ذلك لا يسخَرُ من أحد، إلَّا إذا كانَتِ الأرضُ حينَ تُخرجُ الثمرةَ الحلوةَ تَسْخرُ بها مِنَ الثمرةِ المرة.

والعجيبُ أنَّ النادرةَ البارعةَ التي لا تتَّفقُ إلَّا لِأقوى الأرواح، يتَّفقُ مثلُها لِأضعفِ الأرواح؛ كأنَّها تسْخَرُ مِنَ الناسِ كما يسخَرونَ بها فهذا «أبو حَسَن» مُعلِّمُ الكُتَّاب، جاءَهُ غلامانِ من صِبْيَتِهِ قد تعلَّقَ أحدُهما بالآخر؛ فقال: يا مُعلِّم، هذا عَضَّ أذني. فقال الآخر: ما عضَضْتُها، وإنَّما عضَّ أُذنَ نفسِه... فقال المعلم: وتمكُرُ بي يا أبنَ الخبيثة؟ أهو جملٌ طويلُ العُنقِ حتى ينالَ أذنَ نفسِهِ فيعضَّها...!

❊ ❊ ❊

وطلعَ الشيخُ عليهم وكأنَّما قرأَ نفسَ أبي مُعاويةَ في وجهِه المتفتِّح. ومن عجائبِ الحِكمةِ أنَّ الذي يُلْمَحُ في عيني المبصر مِن خوالج نفسِه، يُلْمحُ على وجهِ الضريرِ مُكَبَّراً مجسَّما. وكانَ الشيخُ لا يأنَسُ بأحدٍ أُنْسَهُ بأبِي مُعاوية، لِذكائِهِ وحِفظِه وضَبْطِه، ولِمُشَاكلَةِ الظَّرفِ الروحيِّ بينَهما؛ فقال له:

ـ «فِيمَ كان أبو معاوية؟».

---

(١) يلاغيه: يدربه على النطق.

(٢) يعودونه: يزورونه أثناء مرضه.

(٣) هي ناحية من رستاق الري في الجبال المثلجة في بلاد العجم.

ـ «كانَ أبو مُعاويةَ في الذي كانَ فيه!».
ـ «وما الذي كانَ فيه؟».
ـ «هو ما تسألُ عنه!».
ـ «فأجبْني عمَّا أسألُ عنه».
ـ «قد أجبتُك!».
ـ «بماذا أجبْتَ؟».
ـ «بما سمعْتَ!».

فقبَّضَ وجهُ الشيخِ وقال: «أهْهنا وهناك معاً؟ لو أنَّ هذا مِنَ امرأةٍ غضْبَى على زوجِها لَكانَ لَهُ معنًى، بل لا معنى له ولا مِنَ امرأةٍ غضبي على زوجِها. أحْسَبُ لولا أنَّ في منزلي مَنْ هو أبغضُ إليَّ منكم ما خرجْتُ؟» فقالَ الضرير: «يا أبا محمد، كأنَّنا زوجاتُ العِلْم، فأيتُنا التي حَظِيَتْ وبظيَتْ...».

فغطَّى الجماعةُ أفواهَهم يضحكون، وتبسَّم الشيخ، ثم شرعَ يحدّثُ فأفضى[1] من خَبرٍ إلى خبر، وتَسرَّحَ في الروايةِ حتى مرّ بِهِ هذا الحديث:

عن رسولِ الله ﷺ قال: «إنَّ هلاكَ الرجالِ طاعتُهم لِنسائِهم».

قال الشيخ: كانَ الحديث بهذا اللفظ، ولم يقلِ النبيُّ ﷺ: «هلاكُ الرجلِ طاعتُهُ لامرأتِهِ»؛ فإنَّ هذا لا يستقيمُ؛ إذْ يكون بعضُ النساءِ أحياناً أكملَ من بعضِ الرجال، وأوفرَ عقلاً وأسدَّ رأياً، وقد تكونُ المرأةُ هي الرجلَ في الحقيقةِ عزْماً وتدبيراً وقوّةَ نفس، ويَتليَّنُ الرجلُ معها كأنَّهُ امرأة. وكثيرٌ مِنَ النساء يكُنَّ نساءَ بالحِلْيةِ والشكْلِ دونَ ما وراءهُنَّ، كأنَّما هُيِّئْنَ رجالاً في الأصلِ ثُم خُلِقْنَ نساءَ بعدُ، لإِحداثِ ما يُريدُ اللَّهُ أنْ يُحْدِثَ بهنّ، مِمَّا يكونُ في مثلِ هذه العجيبةِ عملاً ذا حقيقتينِ في الخيرِ أوِ الشر.

وإنَّما عَمّ الحديثُ ليدلّ على أنَّ الأصلَ في هذه الدنيا أنْ تستقِيمَ أمورُ التدبيرِ بالرجال؛ فإنَّ البأسَ والعقلَ يكونانِ فيهم خلقةً وطبيعةً أكثرَ مِمَّا يكونانِ في النساء: كما أنَّ الرقةَ والرحمةَ في خِلْقةِ النساءِ وطبيعتِهِنَّ أكثرُ مِمَّا هما في الرجال، فإذا غلَبتْ طاعةُ النساءِ في أمةٍ مِنَ الأمم، فتلك حياةٌ معناها هلاكُ الرجال، وليسَ المرادُ هلاكَ أنفسِهِم، بل هلاكَ ما هم رجالٌ به، والحديدُ حديدٌ بقوتِهِ وصلابتِه،

---

(١) فأفضى: فانتقل.

والحجرُ حجرٌ بشدّتِهِ واجتماعِه؛ فإنْ ذابَ الأولُ أو تَفلَّل[1]، وتَناثَر الآخرُ أو تفتَّت، فذاك هلاكُهما في الحقيقة، وهما بعدُ لا يزالانِ مِنَ الحجرِ والحديد.

والمرأةُ ضعيفةٌ بِفِطْرتِها وتركيبِها، وهي على ذلك تأبى أنْ تكونَ ضعيفةً أو تُقِرَّ بالضعف، إلّا إذا وجدَتْ رجُلَها الكامل، رجُلَها الذي يكونُ معها بقوَّتِهِ وعقلِهِ وفِتْنتِهِ لها وحبِّها إياه، كما يكونُ مِثالٌ مع مثال. ضَعْ مائةَ دينار بجانبِ عشرةِ دنانير، ثم اتركْ للعشرة أنْ تتكلَّم وتَدّعِيَ وتستطيل؛ قد تقول: إنها أكثرُ إشراقاً، أو أظرفُ شكْلاً، أو أحسنُ وضعاً وتصفيفاً؛ ولكنَّ الكلمةَ المحرَّمةَ هنا أنْ تزعَم أنها أكبرُ قيمةً في السوق. . . !

قال الشيخ: ومَنْ مِنَ النساءِ تُصيبُ رجلَها الكاملَ أو القريبَ من كمالهِ عندَها، أي طبيعتَه بالقياسِ إلى طبيعتِها، كمالَ جسم مُفَصَّلٍ لِجسم، تفصيلَ الثوبِ الذي يَلبسُهُ ويختالُ فيه؟ أمَا إنَّ هذا من عملِ الله وحدَه؛ كما يَبسطُ الرزقَ لِمَنْ يشاءُ من عِبادِهِ ويَقْدِر، يبسُطُ مثلَ ذلك لِلنساءِ في رجالِهِنَّ ويَقْدِر.

فإذا لم تُصِبِ المرأةُ رجلَها القويّ ـ وهو الأعمُّ الأغلب ـ لم تستطعْ أنْ تكونَ معَهُ في حقيقةِ ضعفِها الجميل، وعَمِلَتْ على أنْ يكونَ الرجلُ هو الضعيف، لِتكونَ معَهُ في تزويرِ القوّةِ عليهِ وعلى حياتِهِ، وبهذا تَخرجُ من حَيِّزِها[2]؛ وما أولُ خروجِ النساءِ إلى الطرقاتِ إلّا هذا المعنى؛ فإنْ كَثُر خروجُهنَّ في الطريق، وتَسَكَّعْنَ[3] هٰهنا وهٰهنا، فإنّما تلك صورةٌ من فسادِ الطبيعةِ فيهنَّ ومن إملاقِها[4] أيضاً. .

قال الشيخ: وكأنَّ في الحديثِ الشريفِ إيماءً إلى أنَّ بعضَ الحقِّ على النساءِ أن ينزِلْنَ عن بعضِ الحقِّ الذي لَهنَّ إبقاءً على نِظامِ الأمّة، وتيسيراً لِلحياةِ في مَجراها؛ كما ينزِلُ الرجلُ عن حقِّهِ في حياتِهِ كلِّها إذا حارَبَ في سبيلِ أمَّتِه، إبقاءً عليها وتيسيراً لِحياتِها في مَجراها. فصبرُ المرأةِ على مثلِ هذه الحالةِ هو نفسُهُ جِهادُها وحربُها في سبيلِ الأمّة، ولها عليه مِن ثوابِ اللّهِ مثلُ ما لِلرجلِ يُقتَلُ أو يُجرحُ في جِهادِهِ.

ألا وإنَّ حياةَ بعضِ النساءِ معَ بعضِ الرجالِ تكونُ أحياناً مثلَ القتلِ، أو مثلَ الجَرْحِ، وقد تكونُ مثلَ الموتُ صبراً على العذاب! ولهذا قالَ رسولُ الله ﷺ

---

(1) تفلّل: تقطّع.

(2) حيّزها: حدود مكانها.

(3) تسكعهن: تنقلهن من مكان إلى آخر.

(4) إملاقها: فقرها.

لِمُزَوَّجةٍ يسألُها عن حالِها وطاعتِها وصبرِها مع رجلِها: «فأين أنتِ منه؟» قالَتْ ما آلُوه إلا ما عَجَزْتُ عنه! قال: «فكيف أنتِ له؟ فإنَّه جَنَّتُكِ ونارُك».

آه! آه! حتى زواجُ المرأةِ بالرجلِ هو في معناهُ مُرورُ المرأةِ المسكينةِ في دنيا أخرى إلى موتٍ آخر، ستُحاسَبُ عندَهُ بالجنةِ والنار، فحِسابُها عندَ اللّهِ نوعان: ماذا صنعْتِ بدنياكِ ونعيمِها وبؤسِها عليكِ؛ ثم ماذا صنعْتِ بزوجِكِ ونعيمِهِ وبؤسِهِ فيك؟

وقد رُوينا أنَّ آمرأةً جاءَتِ النبيَّ ﷺ، فقالَتْ: يا رسولَ الله، إنِّي وافدةُ النساءِ إليك؛ ثم ذكَرَتْ ما لِلرجالِ في الجِهادِ مِنَ الأجرِ والغَنيمة؛ ثم قالَتْ: فما لنا من ذلك؟

فقال ﷺ: «أبلِغي مَنْ لقيتِ منَ النساءِ أنَّ طاعةً لِلزوج، واعترافاً بحقِّه ـ يعدلُ ذلك؛ وقليلٌ منكنّ من يفعلُه!».

وقال الشيخ: تأمَّلوا اعجبوا من حكمةِ النُّبوّةِ ودقَّتِها وبلاغتِها؛ أيُقالُ في المرأةِ المُحِبَّةِ لِزوجِها المفتتنةِ بِهِ المُعجبَةِ بِكَمالِهِ: إنَّها أطاعتْهُ وآعترفَتْ بِحقِّه؟ أوَ ليسَ ذلك طبيعةَ الحبِّ إذا كان حبّاً؟ فلم يبقَ إذن إلا المعنى الآخر، حين لا تُصيبُ المرأةُ رجُلَها المفضَّلَ لها، بل رجلاً يُسمَّى زوجاً؛ وهنا يظهرُ كرمُ المرأةِ الكريمة، وهٰهنا جِهادُ المرأةِ وصبرُها، وهٰهنا بَذْلُها لا أخْذُها؛ ومن كلِّ ذلك هٰهنا عملُها لِجنَّتِها أو نارِها.

فإذا لم يكنِ الرجلُ كاملاً بما فيهِ لِلمرأة، فلْتُبْقِهِ هي رجلاً بنزولِها عن بعضِ حقِّها له، وتركِها الحياةَ تجري في مجراها، وإيثارِها[1] الآخرةَ على الدنيا، وقيامِها بفريضةِ كمالِها ورحمتِها، فيبقى الرجلُ رجلاً في عملِهِ لِلدُّنيا، ولا يُمْسَخُ طبعُهُ ولا ينتكِسُ بها ولا يَذِلّ، فإنْ هي بَذَأتْ وتسلَّطَتْ وغلبَتْ وصرَّفَتِ الرجلَ في يدِها، فأكثرُ ما يظهرُ حينئذٍ في أعمالِ الرجالِ من طاعتِهم لنسائِهم ـ إنَّما هو طيشُ ذلك العقلِ الصغيرِ وجُرْأتُه، وأحياناً وقَاحتُه؛ وفي كلِّ ذلك هلاكُ معاني الرجولة، وفي هلاكِ معاني الرجولةِ هلاكُ الأُمّة؟!

قَال الشيخ: والقلوبُ في الرجال ليسَتْ حقيقةً أبداً، بطبيعةِ أعمالِهم في الحياةِ وأمكنتِهِم منها، ولكنَّ القلبَ الحقيقيَّ هو في المرأة، ولذا ينبغي أنْ يكونَ

---

(١) إيثارها: تفضيلها.

فيه السُموُّ فوقَ كلِّ شيءٍ إلّا واجبَ الرحمة؛ ذلك الواجبُ الذي يتَّجهُ إلى القويِّ فيكونُ حبّاً، ويتَّجِهُ إلى الضعيفِ فيكونُ حَناناً ورِقّة، ذلك الواجبُ هو اللُّطف؛ ذلك اللُّطْفُ هو الذي يُثبِتُ أنَّها ٱمرأة.

* * *

قَال أبو مُعاوية: وٱنفضَّ المجلس، ومنعني الشيخُ أنْ أقومَ معَ الناس، وصَرَفَ قائدي؛ فلمَّا خلا وجهُهُ، قال يا أبا مُعاوية، قُم معي إلى الدار: قلْتُ: ما شأنٌ في الدارِ يا أبا محمد؟ قال: إنَّ (تلك) غاضبةٌ عليّ، وقد ضاقَتِ الحالُ بيني وبينَها، وأخشى أنْ تتباعدَ، فأُريدُ أن تُصْلِحَ بينَنا صُلحاً.

قلْتُ: فممّ غضبُها؟ قال: لا تُسألُ المرأةُ مِمّ تغضب، فكثيراً ما يكونُ هذا الغضبُ حركةً في طِباعِها، كما تكونُ جالسةً وتُريدُ أنْ تقومَ فتقوم، وتريدُ أنْ تمشيَ فتمشي!

قلْتُ: يا أبا محمد، هذا آخرُ أربعِ مراتٍ تغضبُ عليك غَضَبَ الطَّلاق، فما يَحبِسُك عليها والنساءُ غيرُها كثير.

قال: ويحكَ يا رجل! أبائعُ نساءٍ أنا، أما علِمْتَ أنَّ الذي يُطَلِّقُ ٱمرأةً لِغيرِ ضرورةٍ مُلجئةٍ، هو كالذي يبيعُها لِمَنْ لا يدري كيف يكونُ مَعها وكيف تكونُ معه؟ إنّ عمْرَ الزوجةِ لو كان رقبةً وضُرِبَتْ بسيفٍ قاطعٍ لكانَ هذا السيفُ هو الطَّلاق!

وهل تعيشُ المطلَّقةُ إلّا في أيامٍ ميتة؟ وهل قاتِلُ أيامِها إلّا مطلِّقُها؟

قال أبو مُعاوية: وقُمْنا إلى الدار، وٱستأذنْتُ ودخلْتُ على (تلك)...

زوجةُ إمام
بقيةُ الخبر

قال أبو مُعاويةَ الضرير: وكنتُ في الطريقِ إلى دارِ الشيخ، أُرَوِّيءُ في الأمر[١]، وأمتَحِنُ مذاهبَ الرأي، وأُقلِّبُها على وجوهِها، وأنظرُ كيفَ أحتالُ في تأليفِ ما تَنَافرَ منَ الشيخ وزوجتِه؛ فإنَّ الذي يَسفُرُ[٢] بينَ رجلٍ وٱمرأتِهِ إنَّما يمشي بفكرِهِ بينَ قلبينِ، فهو مُطْفِيءُ نائِرَةٍ[٣] أو مُسْعِرُها[٤]، إذ لا يضعُ بينَ القلبينِ إلَّا حُمقَه أو كِياستَه[٥]، وهو لن يردَّ المرأةَ إلى الرأي إلا إذا طافَ على وجهِها بالضحِك، وعلى قلبِها بالخَجَل، وعلى نفسِها بالرقَّة، وكانَ حكيماً في كلِّ ذلك؛ فإنَّ عقلَ المرأةِ معَ الرجلِ عقلٌ بعيدٌ، يجيءُ من وراءِ نفسِها، من وراءِ قلبِها.

وجعلْتُ أنظرُ ما الذي يُفسِدُ مَحلَّ الشيخ من زوجتِه، ومثَّلْتُ بينَه وبينَها، فما أخرجَ ليَ التفكيرُ، إلَّا أنَّ حُسنَ خُلُقِهِ معَها دائماً هو الذي يستدعي منها سُوءَ الخُلُقِ أحياناً؛ فإنَّ الشيخَ كما وَرَدَ في وصفِ المؤمن: «هَيِّنٌ لَيِّنٌ كالجملِ الأنُف[٦]، إنْ قيدَ انقادَ، وإن أنيخَ على صخرةٍ ٱستَنَاخ»[٧]، وٱلمرأةُ لا تكونُ ٱمرأةً حتى تطلُبَ في الرجلِ أشياء: منها أنْ تُحبَّهُ بأسبابٍ كثيرةٍ من أسبابِ الحبِّ؛ ومنها أنْ تَخافَهُ بأسبابٍ يسيرةٍ من أسبابِ الخوْف. فإذا هي أحبَّتْهُ الحبَّ كلَّه، ولم تخَفْ منه شيئاً، وطال سُكونُهُ وسكونُها، نفرَتْ طبيعتُها نفرةً كأنَّها تُنَخِّيهِ وتُذَمِّرُه، لِيكونَ معها رجلاً فيُخيفَها الخوْفَ الذي تستكملُ بِهِ لَذَّةَ حُبِّها، إذْ كانَ ضعفُها يُحبُّ فيما يُحِبُّهُ مِنَ الرجل، أنْ يقْسُوَ عليه الرجلُ في الوقتِ بعدَ الوقت، لا ليؤْذِيَهُ ولكنْ لِيُخْضِعَه؛ والآمرُ الذي لا يُخافُ إذا عُصِيَ أمرُه، هو الذي لا يُعبأُ بِهِ إذا أُطيعَ أمرُه.

---

(١) أرويء في الأمر: أدرسه من سائر جوانبه لأجد الرأي المناسب.
(٢) يسفر: ينكشف. (٣) النائرة: الغضب.
(٤) مسعرها: مشعلها. (٥) كياسته: حسن تصرّفه.
(٦) الجمل الأنف: هو الذلول من الجمال وقد ثقب أنفه ليقاد منه.
(٧) استناخ: ربض على سطح الأرض.

وكأنَّ المرأةَ تحتاجُ طبيعتُها أحياناً إلى مصائبَ خفيفةٍ، تُؤذِي برقَّةٍ أو تمرُّ بالأذى من غيرِ أنْ تلمسَها بهِ، لِتتحرَّكَ في طبيعتِها معاني دموعِها من غيرِ دموعِها؛ فإنْ طالَ ركودُ هذه الطبيعة، أوجدَتْ هي لِنفسِها مصائبَها الخفيفةَ، فكانَ الزوجُ إحداها. . .

وهذا كلُّهُ غيرُ الجُرْأةِ أو البَذَاءِ فيمَنْ يُبغضْنَ أزواجَهن، فإنَّ ٱلمرأةَ إذا فَرَكَتْ زوجَها لِمنافَرةِ الطبيعةِ بينَها وبينَه، مات ضعفُها الأُنْثويُّ الذي يتِمُّ بِهِ جمالُها وٱستمتاعُها وٱلاستمتاعُ بها، وتعقَّدَ بذلكَ لِينُها أو تَصلَّبَ أوِ ٱستحْجَر، فتكونُ معَ الرجلِ بخلافِ طبيعتِها، فينقلبُ سُكْرُها النسائيُّ بأنوثتِها الجميلة عربدةً وخِلافاً وشرّاً وصَخَباً، ويخرُجُ كلامُها لِلرجلِ، وهو منَ البغضِ، كأنَّه في صوتينِ لا في صوْتٍ واحد. ولعلَّ هذا هو الذي أحسَّهُ الشاعرُ العربيُّ بفطرتِهِ ـ من تلك المرأةِ الصخَّابةِ الشديدةِ الصوتِ الباديةِ الغيظ، فضاعفَ لها في تركيبِ اللفظِ حينَ وصفَها بقولِه:

صُلُبَّةُ الصَّيْحَةِ صَهْصَلِيقُها[1]

قال أبو مُعاوية: وٱستأذنْتُ على (تلك)، ودخلْتُ بعدَ أنِ ٱستوثقْتُ[2] أنَّ عندَها بعضَ مَحارمِها؛ فقُلْت: أنعمَ اللَّهُ مساءَكِ يا أمَّ محمد. قالَتْ: وأنتَ فأنعمَ اللَّهُ مساءَك.

فأصغيْتُ لِلصوْت، فإذا هو كالنائم قدِ ٱنتبهَ يَتَمَطَّى في ٱسترخاءٍ، وكأنَّها تَقْبلني بِهِ وتردُّني معاً، لا هو خالصٌ لِلْغضَبِ ولا هو خالصٌ لِلرضى.

فقلْتُ: يا أمَّ محمد، إنِّي جائعٌ لم ألِمَّ اليومَ بمنزلي. فقامَتْ فقرَّبَتْ ما حضَرَ وقالَتْ: مَعْذرَةً يا أبا معاوية، فإنَّما هو جهْدُ المُقِلّ، وليس يعدُو إمساكَ الرَّمَق[3].

فقلْتُ: إنَّ الجَوْعانَ غيرُ الشَّهوان؛ والمؤمنُ يأكلُ في مِعًى واحدٍ ولم يخلقِ اللَّهُ قمحاً للملوكِ وقمحاً غيرَهُ لِلفقراء.

ثم سمَّيْتُ ومددْتُ يدي أتحسَّسُ ما على الطبقَ، فإذا كِسَرٌ مِنَ الخبز، معها شِيءٌ منَ الجزَرِ المسلوق، فيه قليلٌ منَ الخلِّ والزيت؛ فقلْتُ في نفسي: هذا بعضُ أسبابِ الشرّ؛ وما كانَ بي الجوعُ ولا سَدُّه، غيرَ أنِّي أردْتُ أنْ أعرفَ حاضِرَ الرزقِ في دارِ الشيخ، فإنَّ مثلَ هذه القِلَّةِ في طعامِ الرجلِ هي عندَ المرأة قِلَّةٌ مِنَ الرجل نفسِه؛ وكلُّ ما تَفْقِدُهُ من حاجاتِها وشهوَاتِ نفسِها، فهو عندَها فَقرٌ بمعنيين:

---

(١) صهصليقها: شديدة الصياح يعلو صوتها على صوت زوجها متكبة.

(٢) استوثق: تأكد. (٣) إمساك الرمق: ما يكفي الشبع.

أحدُهما مِنَ الأشياء، والآخرُ مِنَ الرجل: كلَّما أكثرَ الرجلُ من إتحافِها[1] كثُر عندَها، وإنْ أقلَّ قلَّ. وإنَّما خُلِقَتِ المرأةُ بطْناً يلدُ، فبطْنُها هو أكبرُ حقيقتِها، وهذه غايتُها وغايةُ الحِكمةِ فيها؛ لا جَرَمَ[2] كانَ لها في عقلِها مَعِدَةٌ معنوية؛ وليسَ حبُّها للحِليّ والثيابِ والزينةِ والمال، وطماحُها إليها، وٱستهلاكُها في الحِرْصِ والاستشرافِ لها ـ إلا مظهراً من حُكْمِ البطنِ وسُلطانِه؛ فذلك كلُّهُ إذا حقَّقتَهُ في الرجلِ لم تجدْهُ عندَهُ إلّا من أسبابِ القوةِ والسُلطة، وكانَ فقدُهُ من ذرائع[3] الضعفِ والقِلَّة؛ فإذا حققْتَهُ في المرأةِ ألفَيْتَهُ عندَها من معاني الشِبَع والبَطر[4]، وكانَ فقدُهُ عندَها كأنَّهُ فنٌّ منَ الجوع، وكانَتْ شهوتُها له كالقَرَم إلى اللحم عندَ مَنْ حُرِمَ اللحم؛ وهذا بعضُ الفَرْقِ بينَ الرجالِ والنساء؛ فلنْ يكونَ عقلُ المرأةِ كعقلِ الرجلِ لِمكانِ الزيادةِ في معانيها «البطنيّة» فحُسِبَتْ لها الزيادةُ هُهُنا بالنقص هناك؛ فهُنَّ ناقصاتُ عقلٍ ودينٍ كما وَرَدَ في الحديث: أما نقصُ العقلِ فهذه عِلَّتُه؛ وأمَّا الدين فَلِغلَبةِ تلك المعاني على طبيعتِها كما تَغلبُ على عقلِها؛ فليسَ نقصُ الدينِ في المرأةِ نقصاً في اليقينِ أوِ الإيمان، فإنَّها في هذينِ أقوى مِنَ الرجل؛ وإنَّما ذاك هو النقصُ في المعاني الشديدةِ التي لا يكملُ الدينُ إلّا بها؛ معاني الجوع من نعيم الدنيا وزينتِها، وٱمتدادِ العينِ إليها، وٱستشرافِ النفسِ[5] لها؛ فإنَّ المرأةَ في هذا أقلُّ مِنَ الرجل؛ وهل لِهذه العِلَّةِ ما برِحَتْ تُؤْثِرُ[6] دائماً جمالَ الظاهرِ وزينتَهُ في الرجالِ والأشياء، دونَ النظرِ إلى ما وراءِ ذلك من حقيقةِ المنفعة.

* * *

قال أبو مُعاوية: وأريْتُها أنّي جائع، فَنَهَشْتُ[7] نهشَ الأعرابي، كَيْلا تفطنَ إلى ما أردْتُ من زَعْم الجوع؛ ثم أحبَبْتُ أنْ أسْتَدْعِي كلامَها وأسْتَمِيلَها لأنَّ تضحكَ وتُسرّ، فأغيِّرَ بذلك ما في نفسِها، فيجدَ كلامي إلى نفسِها مذهباً؛ فقُلْتُ: يا أمَّ محمد، قد تحرَّمْتُ بطعامكِ، ووَجَبَ حقِّي عليك، فأشيري عليَّ برأيكِ فيما أستصْلحُ به زوجتي، فإنَّها غاضبةٌ عليّ، وهي تقولُ لي: واللّهِ ما يُقيمُ الفأرُ في بيتِك إلّا لِحبِّ الوطن... وإلّا فهو يَسترزقُ من بيوتِ الجيران.

---

(١) إتحافها: زيادتها مما تحتاج.
(٢) لا جرمَ: لا شكَّ.
(٣) ذرائع: مفردة ذريعة أي الحجة.
(٤) البطر: التبذير في حال الشبع الزائد عن الحاجة.
(٥) استشراف النفس: ميلها لما تحب وترضى.
(٦) تؤثر: تفضل.
(٧) نهشت: أكل بشراهة وبسرعة.

قالت: وقد أعْدَمَتْ حتى من كِسَرِ الخبزِ والجزَرِ المسلوق؟ اللَّهَ منك! لقدِ اْستأصَلْتَها من جذورِها؛ إنَّ في أمراضِ النساءِ الحُمّى التي اْسمُها الحمّى، والحمّى التي اسمُها الزَّوج . . .

فقلْتُ: اللَّهَ اللَّهَ يا أمّ محمد؛ لقد أيسَرْتِ[1] بعدَنا، حتى كأنَّ الخبزَ والجزرَ المسلوقَ شيءٌ قليلٌ عندَكِ مِن فَرْط ما يَتيَسَّر؛ أوَ ما علمْتِ أنَّ رزقَ الصالحينَ كالصالحينَ أنفسِهم، يصومُ عن أصحابِهِ اليومَ واليومين . . . وكأنَّكِ سمعْتِ شيئاً من أخبارِ أُمهاتِ المؤمنين، أزواجِ رسول الله ﷺ ونساءِ أصحابِهِ ـ رَضوانُ اللَّهِ عليهم ـ؛ فما خيرُ اْمرأةٍ مسلمةٍ لا تكونُ بأدبِها وخُلُقِها الإسلاميِّ كأنَّها بنتُ إحدى أمهاتِ المؤمنين؟

أفرأيْتِ لو كنْتِ فاطمةَ بنتَ محمدٍ ﷺ؛ أفكانَ ينقلُكِ هذا إلى أحسنَ مِمَّا أنتِ فيهِ منَ العيش؛ وهل كانَتْ فاطمةُ بنتَ ملكٍ تعيشُ في أحلامِ نفسِها، أو بنتَ نبيٍّ تعيشُ في حقائقِ نفسِها العظيمة؟

تقولين: إنني اْستأصَلْتُ[2] أمَّ معاويةَ من جُذورِها؛ فما أمُّ معاويةَ وما جذُورها؟ أهي خيرٌ من أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ صاحبِ رسولِ الله ﷺ، وقد قالَتْ عن زوجِها البطلِ العظيم: تزوّجَني وما لَهُ في الأرضِ من مالٍ ولا مملوك، ولا شيءَ غيرُ فرَسِهِ وناضحِهِ[3]، فكُنْتُ أعْلفُ فرَسَهُ وأكفيهِ مؤنتَهُ وأسُوسُه، وأدقُّ النَّوى لِناضحِهِ وأعلُفُه، وَأستقي الماءَ وأخْرزُ غَربَهُ[4] وأعجِن، وكنْتُ أنقلُ النوى على رأسي من ثلثي فرسخ، حتى أرسل إليَّ أبو بكر بجارية، فكفَتْني سياسةَ الفرس، فكأنَّما أعتَقني.

هكذا ينبغي لِنساءِ المسلمينَ في الصبرِ والإباءِ والقوة، والكبرياءِ بالنفسِ على الحياةِ كائنةً ما كانَتْ، والرضا والقناعةِ ومؤازرةِ الزوجِ وطاعتهِ، واْعتبارِ ما لَهنَّ عندَ اللَّهِ لا مالَهنَّ عندَ الرجل، وبذلك يرتفعْنَ على نساءِ الملوكِ في أنفسِهِنَّ، وتكونُ المرأةُ منهن وما في دارِها شيءٌ، وعندَها أنَّ في دارِها الجنَّة. وهلِ الإسلامُ إلَّا هذه الروحُ السماويةُ التي لا تهزمُها الأرضُ أبداً، ولا تُذِلُها أبداً، ما دامَ يأسُها[5] وطمعُها معلَّقينِ بأعمالِ النفسِ في الدنيا، لا بشهواتِ الجسمِ مِنَ الدنيا؟

---

(١) أيسرت: أغتنيت. (٢) استأصلت: اجتثها من أصلها.
(٣) النواضح: واحدها ناضح وهي من الإبل يستسقى عليها.
(٤) القرب: الدلو العظيم يتخذ من جلود الثيران.
(٥) يأسها: قطعها الأمل.

هلِ الرجلُ المسلمُ الصحيحُ الإسلام، إلَّا مثلُ الحرْبِ يثورُ حولَها غبارُها، ويكونُ معَها الشظَفُ[1] والبأسُ والقوةُ والاحتمالُ والصبر، إذْ كانَ مفروضاً على المسلمِ أنْ يكونَ القوةَ الإنسانيةَ لا الضعْف، وأنْ يكونَ اليقينَ الإنسانيَّ لا الشكَّ، وأنْ يكونَ الحقَّ في هذه الحياةِ لا الباطل؟

وهلِ ٱمرأةُ المسلم إلَّا تلك المفروضُ عليها أنْ تُمِدَّ هذه الحربَ بأبطالِها، وعَتَادِ أبطالِها، وأخلاقِ أبطالِها؛ ثم ألَّا تكونَ دائماً إلَّا من وراءِ أبطالِها؟ وكيف تلِدُ البطلَ إذا كانَ في أخلاقِها الضعةُ والمطامعُ الذليلةُ والضَّجرُ والكسلُ والبلادة؟ ألا إنَّ المرأةَ كالدارِ المبنيَّة، لا يَسْهُلُ تغييرُ حدودِها إلَّا إذا كانَتْ خَراباً.

فاعترَضتْهُ ٱمرأةُ الشيخِ وقالَتْ: وهل بأسٌ بِالدارِ إذا وُسِّعَتْ حدودُها من ضيقٍ؟ أتكونُ الدارُ في هذا إلى نقصِها أو تمامِها؟

قال أبو مُعاويةَ: فكِدْتُ أنقطعُ في يدِها، وأحببْتُ أن أمْضِيَ في استمالتِها، فتركْتُها هُنَيْهَةً ظافرةً بي، وأريتُها أنَّها شدَّتْني وَثاقاً، وأطرقْتُ كالمفكِّرِ؛ ثم قلْتُ لها: إنَّما أحدِّثُكِ عن أمِّ معاويةَ لِأبي معاويةَ؛ وتلك دارٌ لا تملكُ غيرَ أحجارِها وأرضِها فبأيِّ شيءٍ تتَّسِع؟

زعموا أنَّه كان رجلٌ عاملٌ دُوَيرةٌ قدِ ٱلتصقتْ بها مساكنُ جيرانِه، وكانَتْ له زوجةٌ حمقاءُ، ما تزالُ ضيِّقةَ النفسِ بالدارِ وصِغَرِها، كأنَّ في البناءِ بناءً حولَ قلبِها: وكانا فقيرينِ، كأمِّ معاويةَ وأبي معاوية؛ فقالَتْ له يوماً: أيُّها الرجلُ، ألا تُوسِّعُ دارَك هذه، لِيعلمَ الناسُ أنَّك أيْسَرْتَ وذهبَ عنكَ الضُّرُّ والفقر؟ قال: فبماذا أُوسِّعُها وما أملكُ شيئاً، أأُمسِكُ بيميني حائطاً وبشِمالي حائطاً فأمدُّهما أباعِدُ بينَهما...؟ وهبيني ملكْتُ التَّوسِعةَ ونفقتَها، فكيف لي بدورِ الجيرانِ وهي ملاصِقةٌ لنا بَيْتَ بيَت؟

قالَتِ الحمقاء: فإنَّنا لا نُريدُ إلَّا أنْ يَتعَالَمَ الناسُ أنَّنا أيسْرنا؛ فاهدِمْ أنت الدار، فإنَّهم سيقولون: لولا أنَّهم وجدوا وٱتَّسعوا وأصبحَ المالُ في يدِهم لَمَا هدموا...!

قال أبو مُعاوية: وغاظتْني زوجةُ الشيخِ فلم أسمعْ لها هَمْسَةً منَ الضحكِ لِمَثَلِ الحمقاء، وما ٱخترعْتُه إلا من أجلِها تُرِيدُ أنْ يَذهبَ عملي باطلاً؛ فقلْتُ:

---

(١) شظف العيش: ضيقه وشدّته.

وهلَ تتَّسِعُ أمُّ مُعاويةَ من فقرِها إلَّا كما ٱتَّسعَ ذلك الأعرابيُّ في صلاحِه؟

قالت: وما خبرُ الأعرابي؟

قلْتُ: دخلَ علينا المسجدَ يوماً أعرابيٌّ جاءَ مِنَ البادية، وقام يُصلّي فأطالَ القيامَ والناسُ يرمقونه، ثم جعلوا يتعجَّبون منه، ثم رفعوا أصواتَهم يمدحونَه ويصفونَه بالصلاح؛ فقطعَ الأعرابيُّ صلاتَهُ وقال لهم: مع هذا إنِّي صائم...

قال أبو مُعاوية: فما تمالكَتْ أنْ ضحِكَتْ، وسمعْتُ صوتَ نفسِها، وميَّزْتُ فيه الرضى مقبِلاً على الصلْحِ الذي أتَسببُ له. ثم قلْتُ:

وإذا ضاقتِ الدارُ فلِمَ لا تتسعُ النفسُ التي فيها؟ المرأةُ وحدَها هي الجوُّ الإنسانيُّ لِدَارِ زوجِها، فواحدةٌ تدخلُ الدَّارَ فتجعلُ فيها الروضةَ ناضرةً مُتَرَوِّحةً باسمةً، وإنْ كانَتِ الدَّارُ قَحطَةً مَسْحُوتةً[1] ليسَ فيها كبيرُ شيءٍ؛ وٱمرأةٌ تدخلُ الدَّارَ فتجعلُ مثلَ الصحراءِ برمالِها وقَيْظِها[2] وعواصفِها، وإنْ كانَتِ الدَّارُ في رياشِها ومَتَاعِها كالجنةِ السُندسِيَّة؛ وواحدةٌ تجعلُ الدارَ هي القبر. والمرأةُ حقُّ المرأةِ هي التي تتركُ قلبَها في جميعِ أحوالِهِ على طبيعتِهِ الإنسانية، فلا تجعلُ هذا القلبَ لِزوجِها من جنسِ ما هي فيهِ من عيشةٍ: مرةً ذهباً، ومرةً فِضة، ومرةً نُحاساً أو خشباً أو تُراباً، فإنَّما تكونُ المرأةُ مع رجلِها من أجْلِهِ ومن أجلِ الأمَّةِ معاً؛ فعليها حقانِ لاحقٌّ واحدٌ، أصغرُها كبير. ومن ثَمّ فقد وجبَ عليها إذا تزوَّجَتْ أنْ تستشعرَ الذاتَ الكبيرةَ مع ذاتِها، فإنْ أغضبَها الرجلُ بهفوةٍ[3] منه، تجافَتْ[4] له عنها، وصَفَحَتْ[5] من أجلِ نظامِ الجماعةِ الكبرى؛ وعليها أنْ تحكمَ حينئذٍ بطبيعةِ الأمَّةِ لا بطبيعةِ نفسِها، وهي طبيعةٌ تأبى التفرُّقَ والانفراد، وتقومُ على الواجب، وتُضاعفُ هذا الواجبَ على المرأةِ بخاصة.

والإسلامُ يضعُ الأمَّةَ ممثلةً في النسلِ بينَ كلِّ رجلٍ وٱمرأتِه، ويُوجبُ هذا المعنى إيجاباً، لِيكونَ في الرجلِ وٱمرأتِهِ شيءٌ غيرُ الذكورةِ والأنوثة، ويجمَعُهما ويقيّدَ أحدَهما بالآخر، ويضعَ في بهيميّتِهِما التي من طبيعتِها أن تُتفقَ وتختلف، إنسانيةً من طبيعتِها أنْ تتَّفِقَ ولا تختلف.

---

(١) قحطة مسحوتة: خالية فارغة.

(٢) قيظها: شدّة حرها.

(٣) الهفوة: الخطأ.

(٤) تجافت: ابتعدت.

(٥) صفحت: غفرت.

ومتى كانَ الدينُ بينَ كلِّ زوجٍ وزوجتِه، فمهما ٱختلفا وتَدَابَرا[1] وتعقَّدَتْ نفساهما، فإنَّ كلَّ عقدةٍ لا تجيءُ إلّا ومعها طريقةُ حلِّها، ولن يُشادَّ[2] الدينَ أحدٌ إلَّا غَلَبَه، وهو اليُسْرُ والمُساهَلَةُ، والرحمةُ والمغفرةُ، ولينُ القلبِ وخَشْيةُ الله؛ وهو العهدُ والوفاء، والكرمُ والمؤاخاةُ والإنسانية؛ وهو ٱتِّساعُ الذاتِ وٱرتفاعُها فوقَ كلِّ ما تكونُ بِهِ منحطةً أو ضيِّقة.

قال أبو معاوية: فحقُّ الرجلِ المسلم على ٱمرأتِهِ المسلمة، هو حقٌّ مِنَ الله، ثم مِنَ الأمَّة، ثم مِنَ الرجلِ نفسِه، ثم من لُطْفِ المرأةِ وكرمِها، ثم مِمَّا بينَهما معاً. وليسَ عجيباً بعدَ هذا ما رُوينا عنِ النبيِّ ﷺ: «لو كنْتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحد، لأمَرْتُ النساءَ أنْ يَسْجُدْنَ لأزواجِهِنَّ، لِما جعلَ اللَّهُ لهم عليهِنَّ مِنَ الحقِّ».

وهذه عائشةُ أمُّ المؤمنينَ قالَتْ: يا معشرَ النساء، لو تَعلمْنَ بحقِّ أزواجِكُنَّ عليكن، لَجعَلَتِ المرأةُ منكن تمسحُ الغُبارَ عن قَدَمي زوجِها بِحُرِّ وجهِها.

* * *

قال أبو معاوية: وكان الشيخُ قدِ ٱستبطأني وقد تركْتُهُ في فِناءِ الدار، وكنْتُ زوّرْتُ في نفسي كلاماً طويلاً عن فَروتِه الحقيرةِ التي يلبَسُها، فيكونُ فيها من بَذاذةِ[3] الهيئةِ كالأجيرِ الذي لم يجِدْ مَنْ يستأجرُه، فظهرَ الجوعُ حتى على ثيابه... وقد مرّ بالشيخِ رجلٌ مِنَ المُسَوِّدةِ[4] وكانَ الشيخُ في فروتِه هذه جالساً في موضعٍ فيه خليجٌ مِنَ المطر، فجاءَهُ المسّودُ فقال: قُمْ فاعبُرْ بي هذا الخليج. وجذَبَهُ بيدِهِ فأقامَهُ وركبَهُ والشيخُ يضحك.

وكنْتُ أُريدُ أنْ أقولَ لأمِّ محمد: إنَّ الصحوَ في السماءِ لا يكونُ فقراً في السماء، وإنَّ فروةَ الشيخِ تعرفُ الشيخَ أكثرَ من زوجتِه، وإنَّ المؤمنَ في لذاتِ الدنيا، كالرجلِ الذي يضعُ قدميهِ في الطينِ لِيمشيَ، أكبرُ همّهِ ألّا يجاوزَ الطينُ قدميه.

ولكنَّ صوتَ الشيخِ ٱرتفع: هل عليكم إذْن؟

قال أبو معاوية: فبَدرْتُ وقلْتُ: بسمِ اللَّهِ ٱدخلْ؛ كأنّي أنا الزوجة... وسمعْتُ همساً مِنَ الضحك؛ ودخَل أبو محمدٍ إلى جانبي، وغمزني في ظهري

---

(١) تدابرا: تباعدا.

(٢) يشادّ: من التشدّد في أمور الدين والدنيا.

(٣) بذاذة الهيئة: بشاعتها النفرة.

(٤) المسودة: هم شيعة العباسيين للباسهم السواد.

غمزة؛ فقلْتُ: يا أمَّ محمدٍ إنَّ شيخَك في ورَعِهِ وزهدِهِ لَيُشبعُهُ ما يُشبعُ الهُدهُد، ويَرويهِ ما يَروي العُصفور، ولئن كان متهدّماً فإنَّهُ جَبَلُ عِلْم، «ولا تنظري إلى عَمَشِ عينيهِ، وحُموشةِ ساقيه، فإنَّهُ إمامٌ ولَهُ قَدْرٌ»[1].

فصاحَ الشيخ: قمْ أخزاكَ الله، ما أردْتَ إلَّا أنْ تعرّفَها عُيوبي!

قال أبو معاوية: ولكنِّي لم أقم، بل قامَتْ زوجةُ الشيخِ فقبَّلَتْ يدَه..

---

(١) ما ورد بين القوسين هو ما نقله المؤرخون بصدد هذه القصة.

قبحٌ جميل

دخل أحمدُ بنُ أيمنَ (كاتبُ ٱبْنِ طولون) البصرة، فصنعَ له مسلمُ بْنُ عِمرانَ التاجرُ المتأدبُ صنيعاً[١] دعا إليه جماعةً من وجوهِ التجارِ وأعيانِ الأدباء، فجاء ابنا صاحبِ الدعوة، وهما غلامان، فوقفا بين يَدي أبيهما، وجعل ٱبْنُ أيمنَ يُطيلُ النظرَ إليهما، ويُعْجَبُ من حسنِما، وبَزَّتِهما ورُوائهما[٢]، حتى كأنَّما أُفرِغا في الجمالِ وزينتهِ إفراغاً، أو كأنَّما جاءا من شمسٍ وقمرٍ لا من أبوينِ مِنَ الناس، أو هما نبتا في مثلِ تَهاويلِ الزهرِ من زينتهِ التي تُبدِعُها الشمس، ويَصْقِلُها الفجر، ويتندَّى بها رُوحُ الماءِ العَذْب؛ وكانَ لا يصرفُ نظرَه عنهما إلَّا رجعَ بهِ النظر، كأنَّ جمالَهما لا ينتهي فما ينتهي ٱلإعجابُ به.

وجعلَ أبوهما يُسارِقُهُ النظرَ[٣] مُسارَقةً، ويبدو كالمتشاغِلِ عنه، لِيَدَعَ له أنْ يتوسَّمَ ويتأملَ ما شاء، وأنْ يملأَ عينيهِ مِمَّا أعجبَهُ من لؤلؤتَيْه ومَخَايِلهما؛ بَيْدَ أن الحُسنَ الفاتنَ يأبى دائماً إلَّا أنْ يسمعَ من ناظرِهِ كلمةَ الإعجابِ به، حتى لَينطقُ المرءُ بهذه الكلمةِ أحياناً، وكأنَّها مأخوذةٌ من لِسانِهِ أَخْذاً، وحتى لَيُحسُّ أنَّ غريزةً في داخلِهِ كلَّمَهَا الحُسنُ من كلامِهِ فردّتْ عليهِ من كلامِها.

قالَ ٱبنُ أيمن، سبحانَ الله؛ ما رأيْتُ كاليوم قَطّ دُمْيَتَيْنِ لا تَفْتَحُ الأعينُ على أجملَ منهما؛ ولو نزلا مِنَ السماءِ وألبسْتهما الملائكةُ ثياباً مِنَ الجنة، ما حسبْتُ أنْ تصنعَ الملائكةُ أظرفَ ولا أحسنَ مِمَّا صنَعَتْ أمُّهما.

فالتفتَ إليهِ مسلم وقال: أُحبُّ أنْ تعوِّذَهما[٤]. فمدَّ الرجلُ يدَهُ ومَسَحَ عليهما، وعوّذهما بالحديثِ المأثور، ودعا لهما، ثم قال: ما أراكَ إلَّا اسْتَجَدْتَ الأمَّ فحَسُنَ نسْلُك، وجاءَ كاللؤلؤ يُشبهُ بعضُهُ بعضاً، صِغارُهُ من كِبارهِ؛ وما عليك

(١) صنيعاً: مأدبة.

(٢) روائهما: مطهرهما.

(٣) يسارقه النظر: ينظر إليه خلسة.

(٤) تعوّذهما: تقرأ لهما شيئاً من القرآن لابعاد شرّ الشيطان عنهما.

ألّا تكونَ قد تزوجْتَ ٱبنةَ قَيصرَ فأولدْتَها هذين، وأخرَجَتْهما هي لك في صيغتِها الملوكيةِ[1] مِنَ الحسنِ والأدبِ والرَّونق، وما أرى مثلَهما يكونانِ في موضعٍ إلَّا كان حولَهما جلالُ المُلكِ ووقارُه، مِمَّا يكونُ حولَهما من نورِ تلك الأمّ.

فقال مسلم: وأنْتَ على ذلك غيرُ مصدّقٍ إذا قلْتُ لك إني أحبُّ المرأةَ الجميلةَ التي تصِف، وليس بي هوًى إلا في ٱمرأةٍ دميمةٍ هي بدمامتِها[2] أحبُّ النساءِ إليَّ، وأخفَهنَّ على قلبي، وأصلحُهنَّ لي، ما أعدِلُ بها ابنةَ قيصرَ ولا ابنةَ كِسرَى.

فبقي ٱبْنُ أيمنَ كالمشدوهِ[3] من غرابةِ ما يسمع، ثم ذكرَ أنَّ منَ الناسِ مَن يأكلُ الطينَ ويستطيبُهُ لِفسادٍ في طبعهِ، فلا يحلو السُكَّرُ في فمِهِ وإنْ كانَ مكرَّراً خالصَ الحلاوة؛ وَرَثَى أشدّ الرثاءِ لِأمِّ الغلامينِ أنْ يكونَ هذا الرجلُ الجِلْفُ قد ضارَّها[4] بتلك الدميمةِ أو تَسرَّى بها عليها؛ فقال وما يملكُ نفسَه: أَمَا واللّهِ لقد كفَرْتَ النعمة، وغَدرْت وجحدْتَ[5] وبالغْتَ في الضُّر، وإنَّ أمَّ هذين الغلامينِ لٱمرأةٌ فوقَ النساء، إذ لم يَتَبيَّنْ في ولديها أثرٌ من تغيُّرِ طبعِها وكدُورِ نفسِها، وقد كانَ يَسعُها العُذْر لو جعلتْهما سَخْنَةَ عين لك وأخرجَتْهما لِلناسِ في مَساوئِك لا في محاسنِك، وما أدري كيف لا تَنِدُّ عليك، ولا كيف صَلُحَتْ بمقدارِ ما فسدْتَ أنت، وٱستقامَتْ بمقدارِ ما التوَيْتَ، وعجيبٌ - واللّهِ - شأنُكما! إنّها لَتغلو في كرمِ الأصلِ والعقلِ والمروءةِ والخُلُق، كما تغلو أنت في البهيمةِ والنزَقِ والغدرِ وسوءِ المُكافأة.

قال مسلم: فهوَ - واللّهِ - ما قلْتُ لك، وما أحبُّ إلا امرأةً دميمةً قد ذهبَتْ بي كلَّ مذهب، وأنستني كلَّ جميلةٍ في النساء، ولَئِنْ أخذْتُ أصفُها لك لَمَا جاءَتِ الألفاظَ إلَّا منَ القُبحِ والشَّوْهَةِ والدَّمامة؛ غيرَ أنّها مع ذلك لا تجيءُ إلَّا دالَّةً على أجملِ معاني المرأةِ عندَ رجُلِها في الحُظْوةِ والرضى وجمالِ الطبع؛ وانظرْ كيف يكونُ اللفظُ الشائه، وما فيه لِنفسي إلَّا المعنى الجميل، وإلَّا الحِسُّ الصادقُ بهذا المعنى، وإلَّا الاهتزازُ والطربُ لهذا الحسّ؟

قال ٱبْنُ أيمن: والله إنْ أراكَ إلَّا شيطاناً مِنَ الشياطين، وقد عجَّلَ اللّهُ لك من هذه الدميمةِ زوجتَك التي كانَتْ لك في الجحيم، لتجتمعا معاً على تعذيبِ تلك

(١) صيغتها الملوكية: على هيئة الملوك.
(٢) دمامتها: بشاعة هيئتها.
(٣) المشدوه: المستغرب، المتحيّر مما يرى ويسمع.
(٤) ضارّها: اتخذ لها ضرّة. (٥) مجدت: كفرت، أنكرت.

الحوراءِ[1] الملائكيةِ أُمِّ هذينِ الصغيرين، وما أدري كيف يتَّصلُ ما بينَكما بعدَ هذا الذي أدخلْتَ مِنَ القبحِ والدَّمامةِ في معاشرتِها ومُعَايشتِها، وبعدَ أنْ جعلْتَها لا تنظرُ إليك إلَّا بنظرتِها إلى تلك. أفَبَهِيمَةٌ هي لا تعقل، أم أنت رجلٌ ساحر، أم فيك ما ليسَ في الناس، أم أنا لا أفقهُ شيئاً؟

فضحكَ مسلم وقال: إنَّ لي خبراً عجيباً: كنْتُ أنزلُ «الأبُلَّة» وأنا مُتَعَيِّشٌ[2] فحملْتُ منها تجارةً إلى البصرةِ فربحْت، ولم أزلْ أحملُ من هذه إلى هذه فأربحُ ولا أخسر، حتى كثُر مالي، ثم بدا لي أنْ أتَّسِعَ في الآفاقِ البعيدةِ لأَجمعَ التجارةَ من أطرافِها، وأبسطَ يدي لِلمالِ حيث يكثرُ وحيث يقلّ، وكنْتُ في مَيْعةِ الشبابِ وغُلَوَائِه[3]، وأولِ هَجْمَةِ الفتوّةِ على الدنيا، وقلْتُ: إنَّ في ذلك خلالاً؛ فأرى الأممَ في بلادِها ومَعَايِشها، وأتقلَّبُ في التجارة، وأجمعُ المالَ والطرائف، وأُفيدُ عِظةً وعِبرة، وأعلمُ عِلماً جديداً، ولَعلَّني أُصيبُ الزوجةَ التي أشتهيها وأصوِّرُ لها في نفسي التصاوير، فإنَّ أمري من أولهِ كانَ إلى عُلُوٍّ فلا أُريدُ إلَّا الغاية، ولا أرمي إلا للسَّبَق، ولا أرضى أنْ أتخلَّفَ في جماعةِ الناس. وكأني لم أر في الأبلَّة، ولا في البصرةِ امرأةً بتلك التصاوير التي في نفسي، فتأخذَها عيني، فتُعجبَني، فتصلُحَ لي، فأتزوجَ بها، وطمعْتُ أنْ أستنزلَ نجماً من تلك الآفاقِ أُحْرِزُه في داري. فما زلْتُ أرمي في بلدٍ إلى بلدٍ حتى دخلْت «بلخ»[4] من أجلِّ مدنِ خُراسانَ وأوسعِها غَلَّة؛ تُحْمَلُ غَلَّتُها إلى جميعِ خراسانَ وإلى خُوارزم؛ وفيها يَومئذٍ ـ كان ـ عالمُها وإمامُها «أبو عبدِ اللّهِ البَلْخي» وكنَّا نعرفُ اسمَهُ في البصرة؛ إذْ كانَ قد نزلَها في رحلتِه وأكثرَ الكتابةَ بها عنِ الرُّواةِ والعلماء؛ فاسْتَخَفَّتْني إليه نَزِيَّةٌ[5] من شوقي إلى الوطن، كأنَّ فيه بلدي وأهلي؛ فذَهبْتُ إلى حلْقتِه، وسمعْتُه يفسرُ قولَ النبيِّ ﷺ: «سوداءُ ولودٌ خيرٌ من حسناءَ لا تلِد». فما كانَ الشيخ إلا في سحابة، وما كان كلامه إلَّا وحياً يُوحى إليه. سمعْتُ ـ واللّهِ ـ كلاماً لا عهدَ لي بمثلهِ، وأنا من أولِ نشأتي أجلسُ إلى العلماءِ والأدباء، وأُداخلُهم في فُنونٍ مِنَ المذاكرة، فما سمعْتُ

(١) الحوراء: من كان في عينها حور يزيدها جمالاً.
(٢) متعيّش: متكسب، أي طالباً للرزق.
(٣) غلوائه: شدّته.
(٤) بلخ مدينة من مدن أفغنستان.
(٥) فاستخفتني إليه نزيةٌ: حملتني إليه ذكرى الوطن.

ولا قرأتُ مثلَ كلام البلْخيّ، ولقد حفظْتُهُ حتى ما تفوتُني لفظةٌ منه، وبقي هذا الكلامُ يعملُ في نَفسي عملَه، ويدفعُني إلى معانيه دفعاً، حتى أتى عَليَّ ما سأحدّثك به. إنَّ الكلمةَ في الذهنِ لَتوجدُ الحادثَة في الدنيا.

قالَ ٱبْنُ أيمن: اطْوِ خبَرك إنْ شئتَ، ولكنِ ٱذكُرْ لي كلامَ البلْخي، فقد تعلَّقتْ نفسي به.

قال: سمعْتُ أبا عبدِ اللَّهِ يقولُ في تأويلِ ذلك الحديث: أمَّا في لفظِ الحديثِ فهو من معجزاتِ بلاغةِ نبيِّنا ﷺ، وهو من أعجبِ الأدبِ وأبرعِه، ما علمْتُ أحداً تَنبَّهَ إليه؛ فإنه ﷺ لا يُريدُ السوداءَ بخصوصها، ولكنَّه كَنَّى بها عمّا تحتَ السوادِ، وما فوقَ السواد، وما هو إلى السواد، مِنَ الصفاتِ التي يَتَقَبَّحُها الرجالُ في خِلْقةِ النساءِ وصُوَرِهِنَّ، فألْطَفَ التعبيرَ ورَقّ به، رفعاً لِشأنِ النساءِ أنْ يصفَ امرأةً منهن بالقُبحِ والدّمامة[1]، وتنزيهاً لهذا الجنسِ الكريم، وتنزيهاً لِلسانِهِ النبويّ؛ كأنَّه ﷺ يقول: إنَّ ذِكْرَ قُبْحِ المرأةِ هو في نفسهِ قبيحٌ في الأدب، فإنَّ المرأةَ أمٌّ أو في سبيل الأمومة؛ والجنةُ تحتَ أقدامِ الأمهات؛ فكيف تكونُ الجنةُ التي هي أحسنُ ما يُتَخَيَّلُ في الحسنِ تحتَ قدمي ٱمرأة، ثم يجوزُ أدباً أو عقلاً أنْ تُوصفَ هذه المرأةُ بالقبح.

أمَا إنَّ الحديثَ كالنَّصِّ على أنَّ من كمالِ أدبِ الرجلِ إذا كانَ رجلاً ألّا يصفَ امرأةً بقبحِ الصورةِ ألبتَّة، وألّا يجريَ في لسانهِ لفظةُ القبحِ وما في معناه، موصوفاً به هذا الجنسُ الذي منه أمُّه: أيَوَدُّ أحدُكم أنْ يمزّقَ وجهَ أمِّهِ بهذه الكلمةِ الجارحة؟

وقد كان العربُ يُفَصِّلونَ لمعاني الدمامةِ في النساءِ ألفاظاً كثيرة؛ إذ كانوا لا يرفعون المرأةَ عن السائمةِ[2] والماشية؛ أما أكملُ الخَلْقِ ﷺ، فما زال يُوصّي بالنساءِ ويرفعُ شأنَهنَّ حتى كانَ آخرُ ما وصى به ثلاثَ كلمات، كانَ يتكلمُ بهنَّ إلى أن تَلَجْلَجَ[3] لسانُه وخَفِيَ كلامُه؛ جعل يقول: «الصلاة... الصلاة. وما ملكَتْ أيْمَانُكم لا تكلّفوهم ما لا يطيقون؛ الله الله في النساء».

قال الشيخ: كأنَّ المرأةَ من حيث هي إنما هي صلاةٌ تَتعبَّد بها الفضائل،

---

(١) الدمامة: القبح والبشاعة في الهيئة.

(٢) السائمة: ما يرعى من النعم كالأغنام والجمال والبقر و...

(٣) تلجلج لسانه: تلعثم في كلامه.

فوجبَتْ رعايتُها وتَلقيِّها بحقِّها؛ وقد ذَكَرَها بعدَ الرقيق[1]، لأنَّ الزواجَ بطبيعتِهِ نوعُ رِقّ؛ ولكنه خَتَمَ بها وقد بدأ بالصلاة، لأنَّ الزواجَ في حقيقتِهِ نوعُ عبادة.

قال الشيخ: ولو أن أمًّا كانَتْ دميمةً شَوهاءَ في أعينِ الناس، لكانَتْ مع ذلك في عينِ أطفالها أجملَ من ملكةٍ على عرشِها؛ ففي الدنيا من يصفُها بالجمالِ صادقاً في حسِّهِ ولفظهِ، لم يكذبْ في أحدهما؛ فقد ٱنتفى القبحُ إذن، وصار وصفُها به في رأي العينِ تكذيباً لوصفِها في رأي النفس، ولا أقلَّ من أنْ يكونَ الوصفانِ قد تعارَضَا فلا جمالَ ولا دمامة.

قال الشيخ: وأما في معنى الحديث، هو ﷺ يقرّر للناسِ أنَّ كرمَ المرأةِ بأمومَتِها، فإذا قيل: إنَّ في صورتِها قبحاً، فالحسناءُ التي لا تلدُ أقبحُ منها في المعنى. وَٱنظرْ أنت كيف يكونُ القبحُ الذي يُقالُ إنَّ الحسنَ أقبحُ منه...!

فمن أين تناولْتَ الحديثَ رأيْتُهُ دائراً على تقديرِ أنْ لا قبحَ في صورةِ المرأة، وأنَّها منزَّهةٌ في لسانِ المؤمنِ أنْ تُوصفَ بهذا الوصف، فإنَّ كلماتِ القُبْحِ والحُسْنِ لغةٌ بهيميةٌ تجعلُ حبَّ المرأةِ حبًّا على طريقةِ البهائم، من حيثُ تَفْضُلها طريقةُ البهائم بأنَّ الحيوانَ على ٱحتباسِهِ في غرائزِهِ وشهواتِه، لا يتَكَذَّبُ في الغريزةِ ولا في الشهوةِ بتلوينِهما ألواناً من خيَالِه، ووضعِهما مرّةً فوقَ الحدّ، ومرّة دون الحدّ.

فأكبرُ الشأنِ هو للمرأةِ التي تجعلُ الإنسانَ كبيراً في إنسانيتِه، لا التي تجعلُهُ كبيراً في حيوانيتِه، فلو كانَتْ هذه الثانيةُ هي التي يصطلحُ[2] الناسُ على وصفِها بالجمالِ فهي القبيحةُ لا الجميلة، إذْ يجبُ على المؤمنِ الصحيحِ الإيمانِ أنْ يعيشَ فيما يصلُحُ بهِ الناس، لا فيما يصطلحُ عليه الناس؛ فإنَّ الخروجَ مِنَ الحدودِ الضيِّقةِ لِلألفاظ، إلى الحقائقِ الشاملة، هوَ الاستقامةُ بالحياةِ على طريقِها المؤدي إلى نعيمِ الآخرةِ وثوابِها.

وهنَاك ذاتانِ لِكُلِّ مؤمن: إحداهما غائبةٌ عنه، والأخرى حاضرةٌ فيه، وهو إنَّما يصلُ من هذه إلى تلك، فلا ينبغي أنْ يَحْصُرَ السماويةَ الواسعةَ في هذه الترابيَّةِ الضيِّقة؛ والقبحُ إنَّما هو لفظٌ تُرابيّ يُشارُ بهِ إلى صورةٍ وقعَ فيها مِنَ التشويهِ مثلُ معاني التراب، والصورةُ فانيةٌ زائلة، ولكنَّ عملَّها باقٍ؛ فالنظرُ يجبُ أنْ يكونَ إلى

---

(١) الرقيق: الإماء.

(٢) يصطلح الناس: يتعارفون، يتوافقون.

العمل؛ فالعملُ هو لا غيرُهُ الذي تَتَعاوَرُه[1] ألفاظُ الحُسْنِ والقُبْح.

وبهذا الكمال في النفس، وهذا الأدب، قد ينظرُ الرجلُ الفاضلُ من وجهِ زوجتِه الشوْهاءِ الفاضلة، لا إلى الشوْهاء، ولكنْ إلى الحُورِ العين. إنّهما في رأي العين رجلٌ وآمرأةٌ في صورتينِ متنافِرَتين[2] جمالاً وقُبْحاً؛ أمّا في الحقيقةِ والعملِ وكمالِ الإيمانِ الروحيّ، فهما إرادتانِ متّحدتانِ تجذبُ إحداهما الأخرى جاذبيةَ عِشْق، وتلتقيانِ معاً في النفسينِ الواسعتين، المرادُ بهما الفضيلةُ وثوابُ اللّهِ والإنسانية؛ ولذلك آختارَ الإمامُ أحمدُ بْنُ حنبلٍ عوراءَ على أختِها، وكانَتْ أختُها جميلة، فسأل: مَنْ أعقلُهما؟ فقيل: العوراء: زوّجوني إيّاها. فكانَتِ العوراءُ في رأي الإمامِ وإرادتِهِ هي ذاتَ العينينِ الكحيلتين، لوفور عقلِه وكمالِ إيمان.

قال أبو عبدِ الله[3]: والحديثُ الشريفُ بعدَ كلِّ هذا الذي حكيْناه يدلُّ على أنَّ الحبَّ متى كانَ إنسانيًا جارياً على قواعدِ الإنسانيةِ العامّة، مُتّسعاً لها غيرَ محصورٍ في الخصوصِ منها ـ كانَ بذلك علاجاً من أمراضِ الخيَالِ في النفس، وآستطاعَ الإنسانُ أنْ يجعلَ حبَّهُ يتناولُ الأشياءَ المختلِفة، ويردُّ على نفسِهِ من لذّاتِها، فإن لم يُسعدْهُ شيءٌ بخصوصِهِ، وجدَ أشياءَ كثيرةً تُسْعِدُهُ بينَ السماءِ والأرض، وإنْ وقعَ في صورةِ آمرأتِهِ ما لا يُعَدُّ جمالاً، رأى الجمالَ في أشياءَ منها غيرِ الصورة، وتَعَرَّفَ إلى ما لا يَخْفَى، فظهرَ له ما يَخْفَى.

وليْسَتِ العينُ وحدَها هي التي تُؤامَر في أيّ الشيئينِ أجمل، بل هناك العقلُ والقلب، فجوابُ العينِ وحدَها إنّما هو ثلثُ الحقّ. ومتى قيل: «ثلثُ الحقّ» فضياعُ الثُلُثينِ يجعلُهُ في الأقلِّ حقًّا غيرَ كامل.

فما نكرهُهُ من وجهٍ، قد يكونُ هو الذي نُحبُّهُ من وجهٍ آخر، إذا نحن تركْنَا الإرادةَ السليمةَ تعملُ عملَها الإنسانيّ بالعقلِ والقلب، وبأوسعِ النظرينِ دونَ أنْ أضيقَهما ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرًا كَثِيرًا﴾.

* * *

فوثَبَ آبْنُ أيمن، وأقبلَ يدُورُ في المجلسِ مِمَّا دخَلهُ في طَرَبِ الحديثِ ويقول: ما هذا إلّا كلامُ الملائكةِ سمعْناهُ منك يا آبْنَ عِمران. قال مسلم: فكيف

---

(١) تتعاوره: تتناوله بالقول.

(٢) متنافرتين: متناقضتين.

(٣) هو الإمام أحمد بن حنبل.

بك لو سمعْتَهُ من أبي عبدِ الله؛ إنَّه ـ واللَّهِ ـ قد حبَّبَ إليّ السوداءَ والقبيحةَ والدميمة، ونظرْتُ لِنفسي بخيرِ النظَرين، وقلْتُ: إنْ تزوَّجْتُ يوماً فما أُبالي جمالاً ولا قبحاً، إنَّما أُريدُ إنسانيَّةً كاملةً مِنِّي ومنها ومن أولادِنا، والمرأةُ في كلِّ ٱمرأة، ولكنْ ليسَ العقلُ في كلِّ ٱمرأة.

قال: ثم إنِّي رجعْتُ إلى البصرة، وآثَرْتُ[1] السُّكْنى بها، وتَعالَمَ[2] الناسُ إقبالي، وعلمْتُ أنَّهُ لا يَحْسُنُ بي المُقامُ بغيرِ زوجة، ولم يكنْ بها أجلُّ قدراً من جَدِّ هذينِ الغُلامين، وكانَت له بنتٌ قدَ عَضلَها[3] وتَعرَّضَ بذلك لِعداوةِ خُطَّابِها؛ فَقلْتُ: ما لِهذه البنتِ بدٌّ من شأن، ولو لم تكنْ أكملَ النساءِ وأجملَهن، ما ضَنَّ بها أبوها رَجاوَةَ أنْ يأتيَهُ مَنْ هو أعلى. فحدثَتْني نفسي بلقائِهِ فيها، فجئْتُهُ على خَلوة . . .

فقطعَ عليهِ ٱبْنُ أيمنَ، وقال؛ قد علْمَنا خبرَها من منظرِ هذينِ الغلامين، وإنَّما نُريدُ من خبرِ تلك الدميمةِ التي تَعَشَّقْتَها.

قال: مهلاً فستنتهي القصةُ إليها. ثم إنِّي قُلْتُ: يا عمّ، أنا فلانُ بْنُ فلانٍ التاجر. قال ما خَفِيَ عنِّي محلُك ومحلُّ أبيك. فقلْتُ: جئْتُك خاطباً لابنتِك. قال: ـ واللَّهِ ـ ما بي عنك رغبة، ولقد خطبَها إليّ جماعةٌ من وجوهِ البصرةِ وما أجبْتُهم، وإنِّي لَكارهٌ إخراجَها عن حِضْني إلى من يُقوِّمُها تقويمَ العبيد. فقْلتُ: قد رفعَها اللَّهُ عن هذا الوضع، وأنا أسالُكَ أنْ تُدخِلَني في عَدَدِك، وتَخْلِطَني بشَمْلِك.

فقال: ولا بدّ من هذا؟ قُلْتُ: لا بدَّ. قال: ٱغْدُ عَلَيَّ برجالِك.

فٱنصرفْتُ عنه إلى مَلأٍ منَ التجارِ ذوي أخطارٍ، فسألْتُهمُ ٱلحضورَ في غدٍ، فقالوا: هذا رجلٌ قد ردَّ من هو أثرى[4] منك، وإنَّك لَتُحَرِّكُنا إلى سَعْيٍ ضائع.

قلْتُ: لا بدّ من ركوبِكم معي. فركبوا على ثقةٍ من أنَّهُ سيردُّهم.

فصاحَ ٱبْنُ أيمنَ، وقد كادَتْ روحُه تخرج: فذهبْتَ، فزَوَّجَكَ بالجميلةِ الرائعةِ أمّ هذين؛ فما خبرُ تلك الدميمة؟

قال مسلم: يا سيدي قد صبرْتَ إلى الآن، أفلا تصبرُ على كلماتٍ تُنَبِّئُكَ من أين يبدأُ خبرُ الدميمة، فإنِّي ما عرفْتُها إلا في العُرْسِ . . .!

---

(١) آثرت: فضلت.
(٢) تعالم الناس: أخبر بعضهم بعضاً.
(٣) عضلها: حبسها عن الزوج.
(٤) أثرى: أغنى.

قال: وغَدَوْنَا عليهِ فأحْسَنَ الإجابةَ وزوَّجني، وأطعَمَ القومَ ونحرَ لهم[1]، ثم قال: إن شئتَ أنْ تبيتَ بأهلِكَ فافعل، فليسَ لها ما يُحتاجُ إلى التَّلوُّمِ عليهِ وانتظاره.

فقلْت: هذا يا سيدي ما أحبُّهُ. فلم يزلْ يُحَدِّثني بكلِّ حَسَنٍ حتى كانَتِ المغرب، فصلّاها بي، ثم سبَّحَ وسبَّحْتُ، ودعا ودعوْتُ، وبقيَ مُقبِلاً على دعائِهِ وتسبيحِهِ ما يلتفتُ لِغيرِ ذلك، فأمضَّني[2] ـ علِمَ الله ـ كأنَّهُ يرى أنَّ ابنتَهُ مُقْبِلةٌ مني على مصيبة، فهو يتضرَّعُ ويدعو...!

ثم كانَتِ العَتَمَةُ فصلّاها بي، وأخذَ بيدي فأدخلني إلى دارٍ قد فُرِشَتْ بأحسنِ فَرْشٍ، وبها خَدمٌ وجوارٍ في نهايةٍ منَ النظافة؛ فما استقرَّ بيَ الجلوسُ حتى نهض وقال: أسْتَوْدِعُك الله، وقدَّمَ اللَّهُ لكما الخيرَ وأحْرَزَ التوفيق.

واكتنفني عجائزُ من شملِه، ليسَ فيهنّ شابَّةٌ إلّا مَنْ كانَتْ في الستين... فنظرْتُ فإذا وجوٌ كوجوهِ الموتى، وإذا أجسامٌ باليةٌ يَتَضَامُّ بعضُها إلى بعض[3]، كأنَّها أطلالُ زمنٍ قد انقضَّ بينَ يديّ.

فصاح ابْنُ أيمن: وإنَّ دَميمَتك لَعجوزٌ أيضاً...؟ ما أراك يا ابْنَ عِمرانَ إلَّا قتلْتَ أُمَّ الغلامين...!

قال مسلم: ثم جَلَوْنَ ابنتَه عَلَيَّ وقد ملأْنَ عينيَّ هرماً وموتاً وأخْيلَةَ شياطينَ وظلالَ قُرود؛ فما كِدْتُ أستفيقُ لأرى زوجتي، حتى أسرعْنَ فأرخَيْنَ الستورَ علينا؛ فحمْدتُ اللَّهَ لِذهابِهنَّ، ونظرْت...

وصاح ابْنُ أيمنَ وقد أكلهُ الغيظ: لقد أطلْتَ علينا، فَسَتَحْكي لنا قصتَكَ إلى الصباح، قد علمْناها ويْلَك، فما خبرُ الدميمةِ الشوهاء؟

قال مسلم: لم تكنِ الدميمةُ الشوهاءَ إلّا العروس.......

فزاغَتْ أعيُنُ الجماعة، وأطرقَ ابْنُ أيمنَ إطراقَةَ مَنْ وَرَدَ عليهِ ما حيَّرَه؛ ولكنَّ الرجلَ مَضى يقول:

ولما نظرْتُها لم أرَ إلا ما كنْتُ حفظْتُهُ عن أبي عبدِ اللَّهِ البلخيّ، وقلْتُ: هي

---

(١) نحر لهم: قدم لهم الذبائح.

(٢) فأمضَّني: فآلمني طول الانتظار.

(٣) يتضامّ بعضها إلى بعض: يجتمع بعضها إلى بعض.

نفسي جاءَتْ بي إليها، وكأنَّ كلامَ الشيخ إنَّما كانَ عملاً يعملُ فيّ ويُديرني ويُصَرّفني؛ وما أسرعَ ما قامَتِ المسكينةُ فأكبَّتْ[١] على يدي وقالَتْ:

«يا سيدي، إني سرٌّ من أسرارِ والدي، كتمَهُ عنِ الناسِ وأفضى بهِ إليك، إذْ رآك أهلاً لِسترِهِ عليه، فلا تخْفِرْ[٢] ظنَّهُ فيك، ولو كان الذي يُطلَبُ من الزوجةِ حسنُ صورتِها دونَ حُسْنِ تدبيرِها وعَفافِها لَعظُمَتْ مِحنتي، وأرجو أنْ يكونَ معي منهما أكثَرُ مِمَّا قصَّرَ بي في حُسْنِ الصورة؛ وسأبلغُ محبتَك في كلِّ ما تأمرُني؛ ولو أنَّك آذيتَني لَعَدَدْتُ الأذى منك نعمةً، فكيف إنْ وَسِعَني كرمُك وسَتْرُك؟ إنَّك لا تُعاملُ اللَّهَ بأفضلَ من أنْ تكونَ سبباً في سعادةِ بائسةٍ مثلي. أفلا تحرصُ يا سيدي، على أنْ تكونَ هذا السببَ الشريف. . . .».

ثم إنَّها وثبتْ فجاءَتْ بمالٍ في كيس، وقالت: يا سيدي، قد أحلّ اللَّهُ لك معي ثلاثَ حرائر، وما آثرْتَهُ مِنَ الإماء؛ وقد سَوَّغْتُك[٣] تزويجَ الثلاثِ وٱبتياعَ الجواري من مالِ هذا الكيس، فقد وقَفْتُهُ على شهواتِك، ولسْتُ أطلبُ منك إلَّا ستري فقط!

* * *

قال أحمدُ بْنُ أيمنَ: فحلَفَ ليَ التاجر: أنَّها ملكَتْ قلبي مِلْكاً لا تصلُ إليه حسناءُ بحسْنِها؛ فقلْتُ لها: إنَّ جزاءَ ما قدَّمْتِ ما تسمعينَهُ منِّي: «ـ واللَّهِ ـ لأجعلنَّكِ حظِّي من دُنياي فيما يُؤثِرُهُ الرجلُ منَ المرأة، وَلَأضْرِبَنَّ على نفسي الحِجابَ، ما تنظرُ نفسي إلى أنثى غيرِك أبداً». ثم أتممْتُ سرورَها، فحدثْتُها بما حفظتُهُ عن أبي عبدِ اللَّهِ البلخيِّ. فأيقنَتْ ـ واللَّهِ يا أحمد ـ أنها نزلَتْ منِّي في أرفع منازلِها وجعلَتْ تَحْسُن وتحسُن، كالغصنِ الذي كان مجروداً، ثم وَخَزَتْهُ الخُضْرَةُ من هنا ومن هنا.

وعاشَرْتُها، فإذا هي أضبطُ النساء، وأحسنهُن تدبيراً، وأشفقُهُنَّ عليّ، وأحبُّهنّ لي؛ وإذا راحتي وطاعتي أوّلُ أمرِها وآخرُه؛ وإذا عقلُها وذكاؤُها يُظهرانِ لي من جمالِ معانيها ما لا يزالُ يكثرُ ويكثر، فجعلَ القبحُ يقلُّ ويقلّ، وزالَ القبحُ بٱعتيادي رؤيتَه، وبقيتِ المعاني على جمالِها؛ وصارَتْ لي هذه الزوجةُ هي ٱلمرأةَ وفوقَ ٱلمرأة.

---

(١) فأكبت: انحنت.

(٢) فلا تخفر ظنَّه فيك: لا تخيّب ظنَّه فيك. (٣) سوّغتك: سمحت لك.

ولَمَّا ولدَتْ لي، جاءَ ابنُها رائعَ الصورة؛ فحدَّثتْني أنَّها كانَتْ لا تزالُ تتمنَّى على كرمِ اللَّهِ وقدرتِهِ أنْ تتزوّجَ وتلدَ أجملَ الأولادَ، ولم تدعْ ذلك من فكرِها قطُّ، وألَّفَ لهَا عقلُها صورةَ غلام تتمثَّلُهُ وما برحَتْ تتمثلُه؛ فإذا هي أيضاً كانَ لها شأنٌ كشأني، وكان فَكرُها عملاً يَعملُ في نفسِها، ويُديرُها ويصرِّفُها.

ورزقني اللَّهُ منها هذينِ الابْنَيْنِ الرائعينِ لك، فانظرْ؛ أيَّ معجزتينِ من معجزاتِ الإيمان. . . !

* * *

الطائشة

١

قال صاحبُها وهو يُحدّثني من حديثِها:

كانَتْ فتاةً متعلّمةً، حُلوةَ المنظر، حُلوةَ الكلام، رقيقةَ العاطفة، مُرْهَفَةَ[١] الحِسّ، في لِسانِها بيانٌ ولِوجهِها بيانٌ غيرُ الذي في لِسانِها، تَعْرِفُ فيهِ الكلامَ الذي لا تتكلمُ بهِ..

ولها طبعٌ شديدُ الطَّرَبِ لِلحياة، مُسْتَرْسِلٌ في مَرَحِهِ، خفيفٌ طَيَّاشٌ، لو أثقلْتَهُ بحبْلٍ لَخفَّ بالحبل؛ تحسبُها دائماً سَكْرَى تتمايلُ من طربِها، كأنَّ أفكارَها المرِحَةَ هي في رأسِها أفكارٌ وفي دَمِها خَمرٌ...

وكانَ هذا الطبعُ السكرانُ بالشباب والجمالِ والطَّربِ ـ يعملُ عملينِ متناقضين؛ فهو دلالٌ مُتراجعٌ منهزم، وهو أيضاً جُرْأَةٌ مُندفعةٌ متهجّمة.

وهزيمةُ الدلالِ في المرأةِ إنْ هي إلّا عَمَلٌ حَرْبِيٌّ، مُضْمَرَةٌ فيهِ الكَرَّةُ والهجوم؛ وكثيراً ما تُرى فيها النظرةُ ذاتُ المعنيَيْنِ: نظرةً واحدةً؛ بها تُؤنِّبكَ ٱلمرأةُ على جَراءتِك معَها، وبها أيضاً تَعْذُلُكَ على أنَّكَ لسْتَ معها أجرأَ مِمَّا أنت...!

* * *

قلْتُ: ويحكَ يا هذا! أتعرفُ ما تقول؟

قال: فمَنْ يعرفُ ما يقولُ إذا أنا لم أعرِف؟ لقد أحبْبتُ خمْسَ عشرةَ فتاة؛ بل هُنَّ أحببْنَني وفرَّغْنَ قلوبَهنَّ لي، ما ٱعتزَّتْ[٢] عليَّ منهنَّ واحدة، وقد ذهبْنَ بي مذهباً، ولكنّي ذهبْتُ بهنَّ خسمةَ عَشَرَ!

قلْتُ: فلا ريبَ أنَّك تحملُ الوِسامَ الإبليسيَّ الأوّلَ من رُتبةِ الجَمْرة...

---

(١) مرهفة: رقيقة.

(٢) اعتزّت: تكبّرت.

فكيف أَسْتَهامَ[1] بك خمسَ عشرةَ فتاة؛ أجاهلاتٌ هنّ، أعَمْياواتٌ هن...؟

قال: بل متعلّماتٌ مُبصِراتٌ يَرَيْنَ ويُدْرِكْنَ، ولا تُخْطىءُ واحدةٌ منهنَّ في فهم أنَّ رجلاً وامرأةً قصةُ حُبّ... وما خمسَ عشرةَ فتاة؟ وما عشرون وثلاثون من فَتيَاتِ هذا الزمنِ الحائرِ البائر[2]، الذي كَسَدَ[3] فيهِ الزواجُ، ورَقَّ فيه الدين، وسقطَ الحياء، وَٱلتهبتِ العاطفة، وٱنتشرَ اللَّهو، وكثُرَتْ فنونُ الإغراء، وَٱصطلحَ فيه إبليسُ والعِلْمُ يعملانِ معاً...؛ وأُطلِقَتِ الحرّيةُ لِلمرأة، وتوسَعَتِ المدارسُ فيما تُقدّم للفتَيات، وأظهرَتْ مِنَ الحفاوةِ بِهنَّ أمراً مُفْرِطاً[4] حتى أخذْنَ منها رُبعَ العِلْم...؟

قلْتُ: وثلاثةُ أرباعِ العِلْمِ الباقية؟

قال: يأخذْنَها مِنَ الرواياتِ والسيما.

علْمُ المدارس، ما علْمُ المدارس؟ إنَّهنَّ لا يصنعْنَ بِهِ شيئاً إلَّا شهاداتٍ هي مكافأةُ الحِفْظِ وإجازةُ النسيانِ من بد؛ أمَّا عِلْمُ السيما والرواياتِ فيصنعْنَ به تاريخَهُنَّ.... ورُبَّ منظرٍ يشهدُهُ في السيما ألفُ فتاةٍ بمرَّةٍ واحدة، فإذا ٱستقرّ في وَعْيهنّ، وطافَتْ بِهِ الخواطرُ والأحلام ـ سلبهُنَّ القرارَ والوقارَ فمثَّلْنَهُ ألفَ مرَّةٍ بألفِ طريقةٍ في ألفِ حادثة!

يظنونَ أنَّنا في زمنِ إزاحةِ العقبَاتِ النسائيةِ واحدةً بعدَ واحدة، من حريةِ المرأةِ وعِلْمِها؛ أمَّا أنا فأرى حريةَ المرأةِ وعِلْمَها لا يُوجدانِ إلَّا العقبَاتِ النسائيةَ عَقَبَةً بعدَ عقبة. وقد كان عيبُ الجاهلةِ المقصورةِ في دارِها أنَّ الرجلَ يَحتالُ عليها، فصارَ عيبُ المتعلِّمةِ المفتوحِ لها البابُ أنَّها هي تحتالُ على الرجل؛ فمرةً بإبداعِ الحيلةِ عليه، ومرةً بتلقينِهِ الحِيلةَ عليها. والغريبُ في أمرِ هذا العِلْمِ أنَّهُ هو الذي جعلَ الفتاةَ تبدأُ الطريقَ المجهولَ بجهْل...!

قلْتُ: وما الطريقُ المجهول؟

قال: الطريقُ المجهولُ هو الرجل، وإطلاقُ الحريةِ لِلفتاةِ أطلقَ ثلاثَ حريَّات: حريةُ الفتاة، وحريةَ الحُبِّ؛ والأخرى حريّةُ الزواج، ولَمَّا ٱنطلقَ ثلاثتُهُنَّ، معاً تَغَيَّرَ ثلاثتُهنَّ جميعاً إلى فسادٍ وَٱختلال.

---

(1) استهام: أحبّ.

(2) البائر: الفاسد.

(3) كسد: بطل رواجه.

(4) مفرطاً: زائداً.

أمّا الفتاةُ فكانَتْ في الأكثرِ لِلزواج، فعادَتْ لِلزواج في الأقلِّ وفي الأكثرِ لِلَّهوِ والغَزَل؛ وكانَ لها في النفوسِ وَقَارُ الأمِّ وحُرمةُ الزوجة، فٱجترأ عليها الشبّانُ ٱجتراءَهم على الخليعةِ والساقطة؛ وكانَتْ مصقورةً لا تُنالُ بعيبٍ ولا يَتَوَجَّهُ عليها ذمّ، فمشَتْ إلى عُيوبِها بقدمَيْها، ومشَتْ إليها العيوبُ بأقدام كثيرة... وكانَتْ بجملتِها ٱمرأةً واحدةً، فعادَتْ مِمّا تَرى وتَعرفُ وتُكابدُ كأنّ جسمَها ٱمرأة، وقلبَها امرأةٌ أخرى، وأعصابَها ٱمرأةٌ ثالثة...

وأمّا الحُبُّ، فكانَ حبًّا تتعرَّفُ بهِ الرجولةُ إلى الأنوثةِ في قُيودٍ وشروط، فلمّا صارَ حرًّا بينَ الرجولةِ والأنوثة، ٱنقلبَ حيلةً تَغترُّ بها إحداهما الأخرى؛ ومتى صارَ الأمرُ إلى قانونِ الحيلة، فقد خرجَ من قانونِ الشرف، ويرجعُ هذا الشرفُ نفسُهُ كما نراه، ليسَ إلّا كلمةً يُحتالُ بها.

وأما الزواجُ، فلَمّا صارَ حرًّا جاءَ الفتاةَ بشِبْهِ الزوجِ لا بالزوج... وضعُفَتْ منزلتُه، وقلَّ ٱتفاقُه، وطالَ ٱرتقابُ الفتياتِ له، فضعُفَ أثرُهُ في النفسِ المؤنَّثة؛ وكانت من قبلُ لَفْظَتَا (الشابّ، والزوج) شيئاً واحداً عندَ الفتاةِ وبمعنًى واحد، فأصبَحَتا كلمتينِ متميزتَينِ: في إحداهما القوةُ والكثرةُ والسهولة، وفي الأخرى الضعفُ والقلّةُ والتعذُّر؛ فالكلُّ شُبّانٌ وقليلٌ منهمُ الأزواج؛ وبهذا أصبحَ تأثيرُ الشابِّ على الفتاةِ أقوى من تأثيرِ الشرف، وعادَ يُقْنِعُها منه أخَسُّ بُرهاناتِه، لا بأنَّهُ هو مُقْنع، ولكنْ بأنَّها هي مهيَّأةٌ للاقتناع...

وفي تلك الأحوالِ لا يكونُ الرجلُ إلّا مغفَّلاً في رأي ٱلمرأة ـ إذا هو أحبَّها ولم يكنْ محتالاً حيلةَ مثلِهِ على مثلِها، ويظلُّ في رأيها مغفَّلاً حتى يخدعَها ويستَزِلَّها؛ فإذا فعلَ كانَ عندَها نَذْلاً لأنَّهُ فعل... وهذه حريةٌ رابعةٌ في لغةِ ٱلمرأةِ ٱلحُرّةِ وٱلزواجِ ٱلحُرِ وٱلحُبِّ الحرُّ!

وَٱنظرْ ـ بعيشكَ ـ ما فعَلتِ ٱلحريةُ بكلمةِ (التقاليد)، وكيف أصبحَتْ هذه الكلمةُ الساميةُ من مَبْذُوءِ الكلام ومكروهِهِ حتى صارَتْ غيرَ طبيعيَّةٍ في هذه الحضارة، ثم كيف أحالَتْها فجعلَتْها في هذا العصرِ أشهرَ كلمةٍ في الألسنة، يُتَهَكَّمُ بها على الدينِ والشرفِ وقانونِ العُرْفِ الاجتماعيِّ في خوْف المعَرَّةِ والدناءةِ والتَّصاوُنِ مِنَ الرذائلِ والمُبالاةِ بِالفضائل؛ فكلُّ ذلك (تقاليد)...

وقد أخذتِ الفتيَاتُ المتعلِّماتُ هذه الكلمةَ بمعانيها تلك، وأجرَيْنَها في

ٱعتبارِهِنَّ مكروهةً وحْشِيَّةً، وأضَفْنَ إليها مِنَ المعاني حَواشيَ أخرى، حتى لَيكادُ الأبُ والأمُّ يكونانِ عندَ أكثرِ المتعلماتِ مِنَ «التقاليد». . . أهي كلمةٌ أبدعَتْها الحريةُ، أم أبدَعَها جهلُ العصرِ وحماقتُه، وفجورُهُ وإلحادُه؟ أهي كلمةٌ تَعَلَّقَها الفَتياتُ المتعلماتُ لأنَّها لغةٌ مِنَ اللغة، أم لِأنَّها من لغةِ ما يُحْبِبنه. . .؟

«تقاليد». . .؟ فما هي المرأةُ بدونِ التقاليد. . .؟ إنَّها البلادُ الجميلةُ بغيرِ جَيش، إنَّها الكنزُ المخبوءُ مُعَرَّضاً لِأعينِ اللصوص، تَحوطُهُ الغفلةُ لا المراقبة. هَبِ[1] الناسَ جميعاً شُرفاءَ مُتعفِّفينَ مُتصاوِنين؛ فإنَّ معنى كلمة «كنز» متى تُرِكَتْ لهُ الحريةُ وأُغْفِلَ من تقاليدِ الحِراسة، أوجَدتْ حريتُه هذه بنفسِها معنى كلمةِ «لصّ».

* * *

قال صاحبُنا: أما الفتاةُ المحرَّرَةُ مِنَ (التقاليد). . . كما عرَفْتُها فهي هذه التي أقصُّ عليك قِصتَها، وهي التي جعلتْني أعتقدُ أنَّ لكلِ فتاةٍ رُشدَين: يَثْبُتُ أحدُهما بالسِّن، ويَثْبُتُ الآخَرُ بِالزواج. ولو أنَّ عَانِساً[2] ماتَتْ في سنِّ الخمسينَ أوِ الستينَ لوَجبَ أنْ يُقال: إنَّها ماتت نصفَ قاصِر! ولعلَّ هذا من حِكْمةِ الشريعةِ في ٱعتبارِ ٱلمرأةِ نصفَ الرجل، إذْ تمامُ شرفِها الاجتماعيِّ أنْ يكونَ الرجلُ مضموماً إليها في نظامِ الاجتماعِ وقوانينِه؛ فالزوجُ على هذا هو تمامُ رُشْدِ الفتاةِ بالغةً ما بلَغتْ.

وأساسُ ٱلمرأةِ في الطبيعةِ أساسٌ بدنيٌّ لا عقليّ، ومن هذا كانَتْ هيَ المصنعَ الذي تُصنَعُ فيهِ الحياة، وكانَتْ دائماً ناقصةً لا تتمُّ إلَّا بالآخرِ الذي أساسُهُ في الطبيعةِ شأنُ عقلِهِ وشأنُ قُوَّتِهِ. . .

وٱعتبرْ ذلك بِالمرأةِ تَدْرُسُ وتتعلَّمُ وَتنْبُغ، فلو أنَّكَ ذهبْتَ تمدحُها بوُفُورِ عقلِها وذكائِها، وتُقَرِّظُها[3] بنبوغِها وعبقريتِها، ثم رأتْكَ لم تُلقِ كلمةً ولا إشارةً ولا نظرةً على جِسمِها ومحاسنِها ـ لِتحوَّلَ عندَها كلُّ مدحِك ذمًّا، وكلُّ ثنائِك سُخريةً؛ فإنَّ النبوغَ ها هنا في أعصابِ ٱمرأةٍ تُريدُ أنْ تعرفَ معَ أسرارِ الكونِ أسرارَ كونِها هي، هذا الكون البدنيّ الفاتن، أو الذي تزعمُهُ هي فاتناً، أو الذي لا ترضاهُ ولا ترضى أنْ تكونَ صاحبَتَهُ إلَّا إذا وجدَتْ مَنْ يزعمُ لها أنَّهُ كونٌ فاتنٌ بديعٌ، مزيَّنٌ بشمسِهِ وقمرِهِ وطبيعتِهِ المتنَضِّرةِ التي تجعلُ مَسَّهُ مَسَّ ورَقِ الزَّهر.

---

(١) هب: افترض.

(٢) العانس من النساء: من لم تتزوج منهن وبقيت على عذريتها.

(٣) تقرّظها: تمدحها.

مِثْلُ هذه إنَّما يكونُ الثناءُ عندَها حينما يكونُ أقلُّهُ باللسانِ العِلْميّ ولغتِه، وأكثرُه بالنظرِ الفنّيّ ولغتِه. وهذا على أنَّها عالمةُ الجنسِ ونابغتُه، ودليلُ شذوذهِ العقليّ، والواحدةُ التي تجيءُ كالفَلْتةِ المفْرَدةِ بينَ الملايينِ منَ النساءِ؛ فكيف بِمَنْ دونَها، وكيفَ بالنساءِ فيما هُنَّ نساءٌ به؟

دعْ جماعةً مِنَ العلماءِ بمتحِنونَ هذا الذي بيَّنتُ لك، فيأتونَ بآمرأةٍ جميلةٍ نابغةٍ، فيضعونَها بين رجالٍ لا تسمعُ من جميعِهِم إلا: ما أعقلَها، ما أعقلَها، ما أعقلَها! ولا ترى في عينيْ كلّ منهم من أنواعِ النظرِ وفنونِهِ إلَّا نظرَ التلميذِ لِمعلمةٍ في سنّ جَدَّتهِ... فهذه لن تكونَ بعدَ قريبٍ إلَّا في حالةٍ مِنَ آثنتين: إما أن يخرجَ عقلُها من رأسِها، أو... أو تخرجَ في وجهِها لحية...!

(ما أعقلَها!) كلمةٌ حسنةٌ عندَ النساءِ لا يأبَيْنها ولا يذمُمْنَها، غيرَ أنَّ الكلمةَ البليغةَ العبقريةَ الساحرةَ، هي عندهُنَّ كلمةٌ أخرى، هي: (ما أجملَها!)؛ إنَّ تلك تُشبِهُ الخبزَ القَفارَ لا شيءَ معه على الخِوَان[1]، أما هذه فهي المائدةُ مُزيَّنةً كاملةً بطعامِها وشرابِها وأزهارِها وفكاهتِها وضحكِها أيضاً.

وكأَنَّ العقلَ الإنسانيَّ قد غضِبَ لمَهانَةِ كلمتِهِ وما عَرَّها بِهِ النساء، فأرادَ أنْ يُثبتَ أنَّهُ عقلٌ، فآستطاعَ بحيلتِهِ العجيبةِ أنْ يجعلَ لِكلمة: (ما أعقلَها) كلَّ الشأنِ والخطر، وكلَّ البلاغةِ والسحرِ، عندَ... عندَ الطفلة... تفرحُ الطفلةُ أشدَّ الفرح، إذا قيل: ما أعقلَها...!

فقلْتُ لِمحدِّثي: كأنَّك صادقٌ يا فتى! لقد جلسْتُ أنا ذاتَ يوم إلى آمرأةٍ أديبةٍ لها ظَرفٌ وجمال، وجاءَتْ كبريائي فجلسَتْ معنا... وكانَتِ (التقاليدُ) كالحاشيةِ[2] لي؛ فعلمْتُ بعدُ أنَّها قالَتْ لصاحبةٍ لها: «لا أدري كيف آستطاعَ أنْ ينسى جسمي وأنا إلى جانبِه، أُذكِّرُه أني إلى جانبِه! لَكأنَّما كانَتْ لِقلبِهِ أبوابٌ يفتَحُ ما شاء منها ويُغلِق».

قال محدِّثي: فهذا هذا؛ إنَّ إحساسَ آلمرأةِ بالعالَم وما فيهِ من حقائقِ الجمالِ والسرور، إنَّما هو في إحساسِها بالرجلِ الذي آختارَتْهُ لِقلبِها، أو تَهُمُّ أنْ تختارَه، أو تودُّ أنْ تختارَه؛ ثم أحساسِها بعدَ ذلك بالصُّورِ الأخرى من رجُلِها في أولادِها.

---

(١) الخوان: المائدة وقد مدّ عليها مالذ وطاب من الطعام.

(٢) الحاشية: ما يمكن زيادته على الأصل وليس بذات أهمية.

وحياةُ ٱلمرأةِ لا أسرارَ فيها ألبتَّة، حتى إذا دخلَها الرجلُ عرفَتْ بذلك أنَّ فيها أسراراً، وتبيَّنَتْ أنَّ هذا الجسمَ الآخرَ هو فلسفةٌ لِجسمِها وعقلِها.

قال: وقد جلسْتُ مرةً مع صاحبةِ القصة، وأنا مُغْضَبٌ أو كالمُغضَب... ثم تَلَاحَيْنا[1] وطالَ بيننا التَّلاحي؛ فقالَتْ لي: أنت بجانبي وأنا أسألُ: أين أنت؟ فإنَّكَ لسْتَ كلُّك الذي بجانبي!

قال: ومذهبي في الحُبّ، الكبرياءُ، كما قلْتَ أنتَ، غيرَ أنَّها الكبرياءُ التي تُدركُ المرأةُ منها أنِّي قويّ لا أنِّي مُتكبِّر؛ كبرياءُ الرجل إمَّا مَهيبٌ مَرِحٌ يملكُ أفراحَ قلبِها، وإمَّا حزينٌ مَهيبٌ يملكُ أحزانَ هذا القلب.

إنَّ المرأةَ لا تُحِبُّ إلَّا رجلاً يكون أولُ الحسنِ فيه حُسْنَ فهمِها له، وأوّلُ القوّةِ فيه قوّةَ إعجابِها بِه، وأوّلُ الكبرياءِ فيه كبرياءَها هي بحبِّهِ وكبرياءَها بأَنَّهُ رجل. هذا هو الذي يجتمعُ فيهِ لِلمرأة ٱثنان: إنسانُها الظريف، ووَحْشُها الظريف!

* * *

قلْتُ: لقد بعُدْنا عنِ القصةِ فما كانَ خَبَرُ صاحبتِكَ تلك؟

قال: كانَتْ صاحبتي تلك تعلمُ أنِّي متزوّج، ولكنَّ إحدى صديقاتِها أنبأَتْها بكبريائي في الحُبّ، ووصفتْني لها صفةَ الإحساسِ لا وصفَ الكلام؛ فكأَنَّما تنبَّهَتْ فيها طبيعةُ زَهْوِ الفتاةِ بأنَّها فتاة، وغريزةُ ٱفتتانِ الأنثى بأَنْ تكونَ فاتنة؛ فرأَتْ في إخضاعي لِجمالِها عملاً تعملُهُ بِجمالِها.

ومتى كانتِ الفتاةُ مستَخفَّةً «بالتقاليد» كهذه الأديبةِ المتعلِّمةِ ـ رأَتْ كلمةَ (الزوج) لفظاً على رجُلٍ كلفظِ الحُبِّ عليه، فهما سواءٌ عندَها في المعنى. ولا يختلفانِ إلَّا في (التقاليد)...

وعَرَضَتْ[2] لي كما يَعْرِضُ المصارعُ للمصارع؛ إذْ كانت مِنَ الفتياتِ المغرورات، اللواتي يحسبْنَ أنَّ في قوّتهنَّ العِلْميَّةِ تيَّاراً زاخراً لِنهرِنا الاجتماعيّ الراكد؛ فتاة تخرَّجَتْ في مدرسةٍ أو كلِّيَة، أو جاءَتْ من أوربا بالعالميَّة... أفتدري أيةُ معجزةٍ مصريةٍ في هذا تُباهي بها مصر؟

إن المعجزَةَ أنَّ هذه الفتاةَ صارَتْ مدرّسةً، أو مفتِّشة، أو ناظرةً في وزارةِ

---

(١) تلاحينا: تجادلنا وتناقشنا.

(٢) عرضت لي: تصدّت لي.

المعارف؛ أو مؤلّفةَ كتُبٍ وروايات، أو محرِّرةً في صحيفةٍ منَ الصحف. ولا يَصْغُرَنَّ عندك شأنُ هذه المعجزة، فهي ـ واللّهِ ـ معجزةٌ ما دامَ يتحقّقُ بها خروجُ الفتاةِ من حكمِ الطبيعةِ عليها، وبقاؤُها في الاجتماعِ المصريِّ امرأةً بلا تأنيث، أو انقلابُها فيه رجلاً بلا تذكير!

وكيف لا يكونُ مِنَ المعجزاتِ أنَّ تأليفَ روايةٍ قد أغنى عنْ تأليفِ أسْرَة؛ وأنَّ فتاةً تعيشُ وتموتُ وما ولدَتْ لِلأمَّةِ إلا مقالات...؟

فقلْتُ: يا صاحبي، دعْ هؤلاءِ وخذِ الآنَ في حديثِ الطائشةِ الخارجةِ على التقاليد، وقد قلْتَ إنَّها عرَضَتْ لك كما يعرضُ المصارعُ للمصارع.

قال: عَرَضَتْ لي تُريدُ أنْ تُصَرّفَني كيف شاءَت، فَنَبَوْتُ[1] في يدِها؛ فزادَتْ إلى رغبتِها إصرارَها على هذه الرغبة، فالتويْتُ عليها؛ فزادَتْ إليهما خشيةَ اليأسِ والخيبة، فتعسَّرْتُ معها؛ فزادَتْ إلى هذه كلِّها ثورَةُ كبريائِها، فلم أتَسَهَّل؛ فانتهَتْ من كلِّ ذلك بعدَ الرغبةِ الخيالية التي هي أولُ العبَثِ والدلال، إلى الرغبةِ الحقيقةِ التي هي أولُ الحُبِّ والهوى: رغبةِ تعذيبي بها لأنَّها مُتعذِّبةٌ بي.

ثم ردَّتها الطبيعةُ صاغرةً[2] إلى حقائقِها السَّلبيَّةِ، فإذا الكبرياءُ فيها إنَّما كانَتْ خضوعاً يتَراءى بالعِصيْانِ وإذا الرغبةُ في تعذيبِ الرجلِ إنَّما كانتِ التماساً لأنْ تَنْعَمَ به، وإذا الإصرارُ على إخضاعِ الرجلِ وإذلالِه إنَّما كانَ إصراراً على تجرِبَتِهِ ودفعِهِ أنْ يستبدَّ ويملكَ؛ ورَدَّتْها الطبيعةُ إلى هذه الحقيقة النِّسوية الصريحة، التي بُنيتِ المرأةُ عليها شاءَتْ أم أبتْ، وهي أنْ تُعانيَ وتصبرَ على ما تُعَاني!

أما أنا فأحببْتُها حبًّا عقليًّا، وكانَ هذا يشتدُّ عليها، لأنَّهُ إشفاقٌ لا حُبٌّ؛ وكانَتْ إذا سألَتْني عن أمرٍ ترتابُ فيه، قالَتْ: أجبْني بِلِسان الصدقِ لا بِلِسانِ الشفقة. وكانَتْ تقول: إنَّ في عينيها بكاءً لا تَستطيعُ أنْ تُذيلَهُ معَ الدمع: وسيقتُلُها هذا البكاءُ الذي لا يُبكَى، وقدِ اتخذَتْ لها في دارِها خَلوةً سَمَّتْها: (محرابَ الدَّمع!)، قالَتْ: لأنَّها تبكي فيها بكاءَ صلاةٍ وحُبّ، لا بكاءَ حُبٍّ فقط!

ثم طاشتِ الطيْشةَ الكبرى...!

* * *

(١) نبوت: نفرت.

(٢) صاغرة: منهزمة.

قلْتُ: وما الطيشةُ الكبرى؟

قال: إنها كتبتْ إليّ هذه الرسالة:

«عزيزي رَغْمَ أنفي...

«لقد أذلَلتَني بشيئينِ: أحدُهما أنَّكَ لم تَذِلَّ لي، وجعلْتَني - على تعليمي - أشدَّ جهلاً مِنَ الجاهلة؛ وقد نسِيْتَ أنَّ المرأةَ المتعلِّمةَ تعرفُ ثم تعرفُ مرتين: تعرفُ كيف تُخطىءُ إذا وَجَبَ أنْ تُخطىء، وهذه هي المعرفةُ الأولى؛ أمَّا المعرفةُ الثانيةُ فَتَوهَّمْها أنتَ، فكأنِّي قلْتُها لك...

«اِعلمْ - يا عزيزي رغم أنفي - أنِّي إذا لم أكنْ عزيزتَكَ رغْم أنفِك، فسآتي ما يجعلُك سَلَفاً ومَثَلاً، وستكتبُ الصحفُ عنك أوّلَ حادثٍ يقعُ في مصرَ عن أوّلِ رجلٍ اختطفتْهُ فتاة...!

«وبعدُ، فقد أرسلْتُ روحي تُعانقُ روحَك، فهل تشعرُ بها؟»

قال: فوجَمْتُ[1] ساعةً وتَبيَّنَتْ لي خِفَّتُها، وظهرَ لي سَفَاهُها وطيشُها، فأسرعْتُ إليها فجئتُها فأجدُها كالقاضي في محكمتِه، لا عقلَ لَهُ إلَّا عقلُ الحكم القانونيّ الذي لا يتغيّر، ولا إنسانَ فيه إلَّا الإنسانُ المقيَّدُ بمادةِ كذا إذا حَدَثَ كذا، والمادةِ كذا حينَ يكونُ وصفُ المجرمِ كذا...!

فقلْتُ لها: أهذا هو العِلْمُ الذي تَعلَّمْتِهِ؟ ألا يكونَ علمُ المرأةِ خَليقاً أنْ يجعلَ صاحبتَهُ ذاتَ عقلَينِ إذا كانَتِ الجاهلةُ بعقلٍ واحد؟

قالَتْ: العِلْم؟

قلْت: نعم، العِلْم.

قالَتْ: يا حبيبي، إنَّ هذا العلمَ هو الذي وضَعَ المسدَّسَ في يدِ ٱلمرأةِ الأوربيَّةِ لِعاشِقها، أو معشوقِها! ثم أطرقَتْ قليلاً وتنهدَّتْ وقالَت: والعِلْمُ هو الذي جعلَ الفتاةَ هناك تتزوجُ بإرشادِ الروايةِ التي تقرؤُها ولوِ ٱنقلبَ الزواجُ رواية... والعِلْمُ هو الذي كشفَ حِجابَ الفتاةِ عن وجهِها، ثم عادَ فكشَفَ حياءَ وجهِها، وأوجبَ عليها أنْ تُواجِهَ حقائقَ الجنسِ الآخرِ وتعرفَها معرفةً عِلْميَّة... والعِلْمُ هو الذي جعلَ خطأَ المرأةِ الجنسيَّ مَعْفُوًّا عنه ما دامَ في

---

(١) وجمت: توقفت عن الكلام.

سبيلِ مواجهةِ الحقائقِ لا في سبيلِ الهَرَبِ منها... والعِلْمُ هو الذي جعلَ المرأةَ مُساويةً لِلرجل، وأكّدَ لها أنَّ واحداً وواحداً هُما واحدٌ وكلاهما أوّل... والعلمُ هو الذي عَرَّى[1] أجسامَ الرجالِ والنساءِ ببرهانِ أشعةِ الشمس... والعِلْمُ ـ يا عزيزي ـ هو العلمُ الذي مَحَا مِنَ العالَم لفظة (أمسِ) لا يعرفُها وإنْ كانَتْ فيها الأديانُ والتقاليد...

***

قال صاحبُها: فقلْتُ لها: كأنَّ العِلْمَ إفسادٌ لِلمرأة! وكأنَّهُ تعليمُ مَعَرَّاتها ونقائِصها، لا تعليمُ فضائِلها ومحاسِنها...

قَالَتْ: لا، ولكنَّ عقلَ المرأةِ هو عقلُ أنثى دائماً، ودائماً عقلُ أنثى؛ وفي رأسِها دائماً جوُّ قلبِها، وجوُّ قلبِها دائماً في رأسِها؛ فإذا لم تكنْ مدرستُها متَمِّمةً لِدارِها وما في دارِها، تمَّمَتْ فيها الشارعَ وما في الشارع.

العِلْمُ لِلمرأة؛ ولكنْ بِشرطِ أنْ يكونَ الأبُ وهَيبةُ الأبِ أمراً مقرَّراً في العِلْم، والأخُ وطاعةُ الأخ حقيقةً من حقائقِ العِلْم؛ والزوجُ وسيادةُ الزوج شيئاً ثابتاً في العِلْم، والاجتماعُ وزواجرُهُ الدينيةُ والاجتماعيةُ قضايا لا يَنْسَخُها[2] العِلْم. بهذا وحدَهُ يكونُ النساءُ في كلِّ أمةٍ مَصانعَ عِلْميَّةً لِلفضيلةِ والكمالِ والإنسانية، ويبدأُ تاريخُ الطفلِ بأسبابِ الرجولةِ التامَّة، لأنَّهُ يبدأُ مِنَ المرأةِ التامَّة.

أمَّا بغيرِ هذا الشرط، فالمرأةُ الفلّاحةُ في حجْرِها طفلٌ قَذِر، هي خيرٌ للأمةِ من أكبرِ أديبةٍ تُخرجُ ذُرِّيةً مِنَ الكتُب...

أُنظرْ يا عزيزي برغمِ أنفي، هذه رسالةٌ جاءَتْني اليومَ من صديقتي فلانةَ الأديبةِ الـ..... فاْسمعْ قولَها:

«... وأنا أعيشُ اليومَ في الجمال، لأنِّي أعيشُ في بعضِ خفايا الحبيب...»

«وفي الحياةِ موتٌ حُلوٌ لذيذ؛ عرفْتُ ذلك حينما نسيْتُ نفسي على صدرِهِ القويّ، وحينما نسيْتُ على صدرِهِ القويّ صدري...»

أسمعْتَ يا عزيزي؟ إنْ كنْتَ لَمَّا تَعْلَمْ أنَّ هذا هو عِلْمُ أكثرِ الفتياتِ

---

(١) عرّى: كشف.

(٢) لا ينسخها: لا يمحوها.

المتعلماتِ حينَ يكسَدُ الزواج[1] ـ فاْعلَمْهُ. ومتى عَمِيَ الشعبُ والحكومةُ هذا العمى، فإنَّ حريةَ المرأةِ لا تكونُ أبداً إلَّا حريةَ الفكرةِ المحرَّمة!

* * *

قلْتُ لِصاحبِنا: ثم ماذا؟

قال: ثم هذا... ودسَّ[2] يدَهُ في جيبهِ فأخرجَ أوراقاً كَتَبَ فيها روايةً صغيرةً أسماها: (الطائشة).

---

(١) يكسد الزواج: بطل رواجه.

(٢) دسّ: أدخل.

الطائشة

٢

وهذا مُحَصَّلُ روايةِ «الطائشةِ»، نقلْناهُ من خطِّ الكِتابِ على مَسَاقِ[١] ما دَوَّنَهُ في أوراقهِ، وعلى سَرْدِهِ الذي قَصَّ بهِ الخبَر؛ وقد أعطانا مِنَ البرهانِ ما نطمئنُّ إليهِ أنَّ هذه «الطائشةَ» هي من تأليفِ الحياةِ لا من تأليفِهِ، وأنَّهُ لم يخترعْ منها حادثةً، ولم يَأتفكْ حديثاً، ولم يَزِدْها بفضيلة، ولم يَتنقَّصْها بمعَرَّة؛ ثم أشهَدَ على قولِهِ كُتُبَ صاحبتِهِ الأدبيةِ المُسْتَهترةِ التي لا تُبالي ما قالَتْ ولا ما قيلَ فيها؛ وهذه الكُتُبُ رسائلُ: منها المُوجزُ ومنها المستفِيضُ، وهي بجملتِها تنزلُ مِنَ الروايةِ منزلةَ الروحِ المُفَتِّنة، وتنزلُ الروايةُ منها منزلةَ اللُمَعِ المقتَضبةِ وكلُّ ذلك يُشبِهُ بعضُهُ بعضاً، فكلُّ ذلك بعضُهُ شاهدٌ على بعض.

قال كاتب (الطائشة):

كنْتُ رجلاً غَزِلاً ولم أكُنْ فاسقاً[٢]، ولسْتُ كهؤلاءِ الشبَّانِ أُصيبوا في إيمانهم باللّهِ فأُصِيبوا في إيمانِهم بكلِّ فضيلة، وذهبوا يُحقِّقون المدنيَّةَ فحققوا كلّ شيءٍ إلّا المدنية.

ترى أحدَهم شريفاً بأنفُ أَنْ يكونَ لِصًّا وأنْ يُسمَّى لِصًّا، ثم لا يعملُ إلّا عملَ اللصِّ في استلابِ العِفافِ وسرقةِ الفَتَياتِ من تاريخِهنَّ الاجتماعِيِّ؛ وتراهُ نَجْداً يَستَنكِفُ[٣] أنْ يكونَ في أوصافِ قاطعِ الطَريق، ثم يأبى إلّا أنْ يقطعَ الطريقَ في حياةِ العَذارى وشرفِ النساء.

أكثرُ أولئك الشبانِ المتعلمينَ يعرضون للِفتيَاتِ المتعلماتِ بوجوهٍ مصقولةٍ تحتملُ شيئين: الحبَّ والصفْع... ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ المتعلماتِ يضعْنَ القُبلةَ في

---

(١) مساق: نمط، خط.

(٢) فاسقاً: خارجاً عن اللياقات.

(٣) يستنكف: يأنف.

مكانِ الصفعة، إذْ كانَ العِلْمُ قد حلَّلَ الغريزةَ التي فيهنَّ فعادَتْ بقايا لا تَسْتَمسك؛ وبصَّرَهُنَّ بأشياءَ تزيدُ قوةَ الحياةِ فيهِنَّ خطرا، وتُوحِي إليهنّ وحْيَها من حيثُ يَشعُرْنَ ولا يشعُرن؛ وصوَّر في أوهامِهنّ صُوَراً مَحَتِ الصُوَرَ التي كانَتْ في عقائِدِهِنَّ؛ وأخرجَهُنَّ مِنَ السَّلْبِ الطبيعيِّ الذي حماهنّ اللّهُ به، فلهُنّ العِفّةُ والحياء، ولكنْ ليس لهُنَّ ذلك العقلُ الغَريزيُّ الذي يجيءُ منَ الحياءِ والعِفَّة؛ وكثيراتٌ منهنَّ يَخْشَيْنَ العارَ وسِمَتَهُ الاجتماعيةَ ولكنْ خَشيةَ فقْهَاءِ الْحِيَلِ الشرعية، قد أرْصَدُوا[1] لِكلِّ وجهٍ مِنَ التحريمِ وجهاً مِنَ التحليل، فأصبحَ أمتناعُ الإثمِ هو ألَّا تكونَ إليهِ حاجة. . .

والعقلُ الذي بِهِ النفكيرُ يكونُ أحياناً غيرَ العقلِ الذي بِهِ العمل؛ ففي بعضِ الجاهلاتِ يكونُ عقلُ الحياءِ والعِفَّةِ والشرفِ والدّين ـ غريزةً كَغرائزِ الوحْش، هي الفكرةُ وهي العملُ جميعاً، وهي أبداً الفكرةُ والعملُ جميعاً لا تتغيرُ ولا تتبدَّل، ولا يقعُ فيها التنقيحُ الشعريُّ ولا الفلسفيُّ. . . وما غريزةُ الوحشِ إلا إيمانُه بِمَنْ خلقَهُ وحْشاً؛ وكذلك غريزةُ الشرفِ في الأنثى هي عندي حقيقةُ إيمانِها بِمَنْ خلقَها أنثى.

وشرفُ المرأةِ رأسُ مالٍ لِلمرأة، ومن ذلك كانَ له في أوهام العِلْم أشتراكيةٌ بحَسَبِهِ تنظرُ فيه نظرَها وتَزيغُ[2] زَيغَها وتَقضِي حُكْمَها؛ وأكثرُ مَنْ عَرفْتُ مِنَ المتعلمين والمتعلماتِ قدِ أنتهوْا بطبيعتِهِمُ العلمية إلى الرضى بهذه الاشتراكية، وإلى التسامح في كثير، وإلى وضعِ الاعتذارِ فيما لا يُقبلُ عُذراً، ومن هٰهنا كانَ بعضُ الجاهلاتِ كالحِصْنِ المُغْلَقِ في قِمَّةِ الجبَلِ الوَعْر، وكانَ بعضُ المتعلماتِ دونَ الحِصْن، ودونَ القِمَّة، ودونَ الجبل، حتى تنزِلَ إلى السهلِ فتراهنَّ ثمَّة.

لقد غَفَلَتِ الحكوماتُ عن معنى الدينِ وحقيقتِه، فلو عرفَتْ لعرفَتْ أنَّ الإنسانيةَ لا تقومُ إلَّا بالدينِ والعِلْم كليهما؛ فإنَّ في الرجلِ إنساناً عامًّا ونوعاً خاصًّا مذكَّراً، وفي المرأةِ إنسانٌ عامّ كذلك، ونوعٌ خاصّ مؤنث. والدينُ وحدَه هو الذي يُصْلِحُ النوعَ بتحقيقِ الفضيلةِ وتقريرِ الغايةِ الأخلاقية، وهو الذي يُحاجِزُ بينَ الغريزتين، وهو الذي يضعُ القوةَ الروحيةَ في طبيعةِ المتعلِّم؛ فإنْ كانَتْ طبيعةُ التعليمِ قويةً، كانَتِ الروحيةُ زيادةً في القوة؛ وإنْ كانَتْ ضعيفةً كما هي الحالُ في

---

(١) أرصدوا: وضعوا في مقابله خفيراً.

(٢) تزيغ: تنحرف عن جادّة الصواب.

هٰذِه المدنية، لم تجمعِ الروحيةُ على المتعلِّم ضَعْفَين، يبتَلي كلاهما الآخرَ ويزيدُه.

* * *

فلانٌ وفلانٌ تعلقَّا فتاتَين جاهلةً ومتعلمة؛ وكلتاهما قد صدَّتْ[1] صاحبَها وآمتنعتْ منه؛ فأما الجاهلةُ فيقول (فلانُها) إنَّها كالوحْش، وإنَّ صُدودَها ليس صدوداً حَسْبُ، بل هو ثورةٌ من فضيلتِها وإيمانِها، فيها المعنى الحربيّ مجاهداً مُتحفزاً للقتل...

وأمَّا المتعلمةُ فيقولُ (فلانُها) إنها ككلِّ آمرأة، وإنَّ صدودَها ثورةٌ، ولكنْ من دلالِها تُرضِي به أولَ ما تُرضي وآخرَ ما تُرضي ـ كبرياءَ الجمالِ فيها لا الإيمانَ ولا الفضيلة. فكأنَّها إيحاءٌ للطامعِ أنْ يزيدَ طمعاً أو يزيدَ آحتيالاً...

وفلانٌ هذا يقول لي: إن ضعَفَاءَ الإيمانِ منَ الشبانِ المتعلمين ـ وأكثرُهم ضعفاءُ الإيمان ـ لو حقَّقتَ أمرَهم وبَلَوْتَ[2] سرائرَهم، لتبيَّنْتَ أنَّهم جميعاً لا يرونَ قلبَ الفتاةِ المتعلمةِ إلَّا كالدارِ الخاليةِ كُتب عليها: (للإيجار)...!

* * *

يقول كاتب «الطائشة»:

أمَّا أنا فقد صحّ عندي أنَّ سياسةَ أكثرِ المتعلماتِ هي سياسةُ فتحِ العينِ حَذَراً مِنَ الشبانِ جميعاً؛ وإغماضُ العينِ لِواحدٍ فقط...

وهذا الواحدُ هو البلاءُ كلُّهُ على الفتاة، فإنَّها بطبيعتِها تتقيَّدُ ولا تنفصلُ إلَّا مُكرَهَة، وهو بطبيعتِهِ قَيدُهُ لذتُه، فيتَّصلُ وينفصلُ؛ غيرَ أنَّها لا بدَّ لها من هذا الواحد، ففكرُها المتعلمُ يُوحِي إليها بالحياةِ لا يجعلُ في ذلك مَوْضعاً للنَّكيرِ عندَها، والحياةُ نصفُ معانيها النفسيةِ في الصديق؛ فالأنوثةُ بغيرِهِ مُظلمةٌ في حياتِها، راكدةٌ في طِباعِها، ثقيلةٌ على نفسِها، ما دامَ «الشعاعُ» لا يلمسُها...

والدينُ يأبى أنْ يكونَ ذلك الصديقُ إلَّا الزوجَ في شروطِهِ وعُهودِهِ، كيلا تتقيدَ آلمرأةُ إلا بمَنْ يتقيّدُ بها؛ والعِلْمُ لا يأبى أنْ يكونَ الصديقُ هو الحبّ؛ والفنُّ يُوجِبُ أنْ يكونَ هو الحُبّ؛ وليس في الحُبِّ شروطٌ ولا عهود، إلَّا وسائلَ تُخْتَلَقُ لوقتِها، وأكثرُها مِنَ الكذبِ والنفاقِ والخديعة؛ ولفظُ الحُبِّ نفسُهُ لِصٌ لُغَويٌّ

---

(١) صدّت: منعت.

(٢) بلوت: اختبرت، امتحنت.

خبيثٌ، يَسْرِقُ المعانيَ التي ليسَتْ له ويُنْفِقُ مِمَّا يَسرق. وليسَ مِنِ ٱمرأةٍ يخدَعُها عاشقٌ إلَّا ٱنكشفَ لها حبُّهُ كما ينكشفُ اللصُّ حين يُمسَك.

يقول كاتب «الطائشة».

تلك فلسفةٌ لا بدَّ منها في التوطئةِ لِلكتابةِ عن (عزيزتي رغمَ أنفي). ومَنْ كانَتْ مثلَها في أفكارِها وٱستدْلالِها وحُججِها وطريقتِها ـ كان خَليقاً بِمَنْ يكتبُ قصتَها أنْ يجعلَ القصةَ من أولِها مُسلَّحة...

لقد تَكَارَهْتُ على بعضِ ما أرادَتْ مني ما دامَ الحُبُّ (رغمَ أنفي)، وما دامَتِ السياسةُ أنْ أداريَها وأتَّبعَ محبتَها؛ غيرَ أنِّي صارحْتُها بكلمةٍ شمسيةٍ تلمعُ تحتَ الشمس، أنَّها الصداقةُ لا الحُبُّ، وأنَّما هو اللهوُ البريءُ لا غيرُه، وأنَّ ذلك جهدُ ما أنا قويٌّ عليه وفيٌّ به.

قالَتْ: فلْيَكُنْ، ولكنْ صداقةٌ أعلى قليلاً مِنَ الصداقة... ولو من هذا الحُبِّ المتكبرِ الذي لا يَصدُقُ كيلا يكذب... إنَّ هذا النوعَ مِنَ الحبِّ يطيشُ[1] بعقلِ المرأة، ولكنَّهُ هو أولُ ما يَستَهِيمُها[2] ويُعْجِبُها ويُورِثها الْتِياعَ الحَنينِ والشوْق.

❊ ❊ ❊

كتبَتْ لي: «أنا لا أتألمُ في هواكَ بالألم، ولكنْ بأشياءَ منكَ أقلُّها الألم؛ ولا أحزَنُ بالحزن، ولكن بهموم بعضُها الحزن.

«إنَّك صنعْتَ لي بكاءً ودموعاً وتنهدات، وجعلْتَ لي ظلاماً منك ونوراً منك يا نَهاري وليلي. تُرى ما ٱسمُ هذا النوعِ مِنَ الصداقة؟

«اسمُه الحُبُّ؟ لا.

«اسمُه الكبرياء؟ لا.

«اسمُه الحنان؟ لا.

«اسمُه حُبُّك أنتَ، أنتَ أيُّها الغامِضُ المتقلِّب. ألا ترى ألفاظي تبكي، ألا تسمعُ قلبي يصرُخُ، بأيِّ عَذْلِك أو بأيِّ عدلِ الناسِ تُريدُ أنْ أحيا في عالمٍ شمسُهُ باردة... هذا قَتْلٌ، هذا قتل».

فكتبْتُ إليها: «إنْ لم يكنْ هذا جنوناً فإنَّهُ لَقريبٌ منه».

---

(١) يطيش: يميل.

(٢) يستهيمها: يجعلها هائمة ضائعة.

فردَّتْ على هذه الرسالة:

«أتكاتبُني بأسلوبِ التلغراف...؟ لو أهديْتَ إليَّ عِقداً منَ الزمردِ حبّاتُهُ بعددِ هذه الكلماتِ لَكنْتَ بخيلاً، فكيف وهي ألفاظ؟ إني لأبكي في غَمْضَةٍ واحدةٍ بدموعٍ أكثرَ عدداً من كلماتِك، وهي دموعٌ من آلامي وأحزاني؛ وتلك ألفاظٌ من لَهوِك وعَبَثِك!

«ما كانَ ضرَّكَ لو كتبْتَ لي بضعةَ أسطرٍ تنسَخُها من تلغرافاتِ رُوتر... ما دُمْتَ تَسْخَرُ منِّي؟ أأنت الشبابُ وأنا الكُهولة، فليس لك بالطبيعةِ إلَّا الانصرافُ عنِّي، وليسَ لي بالطبيعةِ إلَّا الحنينُ إليك؟»

❊ ❊ ❊

لا أدري كيف أحببتُها، ولا كيفَ دَعَتْني إليها نفسي؛ ولكنَّ الذي أعلمُهُ أنِّي تَخادَعْتُ لها وقلْتُ: إنَّ المستحيلَ هو منعُ الشرّ، والممكنَ هو تخفيفُه؛ ثم أقبلْتُ أرْثي لها، وأُخفّفُ عنها، وأقبلَتْ هي تُضاعِفُ لي مكرَها وخديعتَها وكانَ الأمرُ بينَنا كما قالت: «فِي الحُبِّ والحربِ لا يكونُ الهجومُ هجوماً وفيه رِفْقٌ أو تَراجعُ».

إنَّ المرأَة وحدَها هي التي تعرفُ كيف تُقاتِلُ بالصبرِ والأناة؛ ولا يُشْبِهُها في ذلك إلَّا دُهاةُ المستبدين.

❊ ❊ ❊

سألتني أنْ أُهديَ إليها رسمي؛ فاعْتَلَلْتُ عليها بأنْ قلْتُ لها: إنَّ هذا الرسمَ سيكونُ تحتَ عينيكِ أنت رسمَ حبيب، ولكنَّهُ تحتَ الأعينِ الأخرى سيكونُ رسمَ مُتَّهَم.

وظنَنْتُني أبْلَغْتُ في الحُجَّة وَقَطَعْتُها عنِّي؛ فجاءَتْني من الغدِ بالردِّ المُفحِم[1]، جاءَتْني بإحدى صديقاتِها لِتَظهرَ في الرسم إلى جانبي كأنَّني من ذوي قرابتِها... فيكونُ الرسمُ رسمَ صديقتِها، ويكونُ مُهدًى منها لَا منّي، وكأنَّني فيه حاشيةٌ جاءَتْ من عمَّةٍ أو خالة...

وأصررْتُ على الإباء، ونافَرَتْني القولَ في ذلك، ترُدُّ عَلَيَّ وأردُّ عليها، وتَغاضَبنا وَانكسرَتْ حزناً وذهَبتْ باكية؛ ثم تَسَبَّبَتْ إلى رضايَ فرضيْت.

حدثَتْني أنَّ صديقتَها فلانَة الأديبةَ استطاعَتْ أنْ تَسْتزير[2] صاحبَها فلاناً في

---

(١) الردّ المفحم: الردّ المقنع.

(٢) تستزير: طلبت منه أن يزورها.

مخدعِها، في دارِها، بين أهلِها، مُنْتَصَفَ الليل. قلْتُ: وكيف كانَ ذَلك؟

قالَتْ: إنَّها تحملُ شهادة... وهي تلتمسُ عملاً وقد طالَ عليها؛ فزعَمَتْ لذِويها أنها عثرتْ في كتابِ كذا على رُقْيةٍ من رُقَى السِّحر، فتُريدُ أنْ تَتَعاطى تجربتَها بعدَ نصفِ الليلِ إذا مُحِقَ القمر؛ وأنَّها ستُطْلِقُ البخورَ وتبقى تحتَ ضبابتهِ إلى الفجر تُهَمْهِمُ بالأسماءِ والكلمات...

ثم إنَّها اتَّعَدَتْ[1] وصاحبَها ليوم، وأجافَتْ بابَ دارِها ولم تُغلِقه، وأطلقَتِ البَخورَ في مِجْمَرٍ كبيرٍ أثارَ عاصفةً مِنَ الدخانِ المعطَّرِ، وجعلَ مخدَعَها كمخدعِ عروسٍ من مَلِكَاتِ التاريخِ القديم؛ وبقي صاحبُها تحتَ الضبابةِ يُهَمْهِمُ وتُهمْهِم... ثم خرجَ في أغْبَاشِ السَّحَر[2].

هكذا قالَتْ؛ وما أدري أهو خَبرٌ عن تلك الصديقةِ وفلانِها، أم هو اقتراحٌ عَلَيَّ أنا من «فلانتي» لِأكونَ لها عفريتَ الضبابة...؟

* * *

لم يخْفَ عليها أنَّ لَذْعَةَ حبِّها وقعَتْ في قلبي، وأنَّ صبرَها قد غلَبَ كِبريائي، وأنَّ كثرةَ التلاقي بينَ رجلٍ وَامرأةٍ يُطمعُ أحدَهما في الآخر - لا بدَّ أنْ ينقلَ روايتَهما إلى فصلِها الثاني، ويجعلَ في التأليف شيئاً منتظراً بطبيعةِ السِّياق...

وإلحاحُ امرأةٍ على رجلٍ قد خَلَبَها وجَفَا عن صِلَتِها، إنَّما هو تَعرُّضُها لِلتعقيدِ الذي في طبيعتِهِ الإنسانية؛ فإنْ هي صابَرَتْهُ وأمعنَتْ، فقلّما يَدَعُها هذا التعقيدُ من حَلٍّ لِمعضِلتِها. وبمثلِ هذه العجيبة كانَ تعقيداً وكانَ غيرَ مفهوم ولا واضح؛ وقد ينقلبُ فيه أشدُّ البغضِ إلى أشدِّ الحُبِّ، وقد تعملُ فيه حالةٌ من حالاتِ النفسِ ما لا يعمَلُ السحر؛ وكذلك يقعُ للرجل إذا أحبَّ المرأةَ فَنَبَتْ عن مودتِهِ فَعرضَ لِلتعقيدِ الذي في طبيعتِها وأمعَنَ وثبَتَ وصَابَر.

رأتِ الجمرةَ الأولى في قلبي فأضرَمتْ فيهِ الثانيةَ، حين جاءَتْني اليومَ بكتابٍ زعَمَتْ أنَّ فلاناً أرسلَهُ إليها يُطارِحُها الهوى[3] ويَبُثُّها وَلَهَ الحنينِ والتياعَ الحُبِّ.

ويقولُ لها في هذا الكتابِ: «أنا لم أشربْ خمراً قطُّ، ولكنِّي لا أراني أنظرُ إلى مَفَاتِنِكَ ومحاسِنِكِ إلَّا وفي عينيَّ الخمر، وفي عقلي السُّكْرُ، وفي قلبي

---

(١) اتعدت: وعدت.

(٢) أغباش السحر: فلق الصبح الأول.

(٣) يطارحها الهوى: يبادلها.

العَرْبدَة. جَعَلْتِ لي ويحكِ نظرَةَ سِكيرٍ فيها نِسيانُ الدنيا وما في الدنيا ما عدا الزجاجة...»

ويختمه بهذه العبارة:

«آهِ لو آستطعْتُ أنْ أجعلَ كلامي في نفسِك ناعماً، ساحراً، مُسكِراً، مثلَ كلامِ الشَّفَةِ لِلشَّفَةِ حينَ تُقبِّلها...!»

عندَ هذا وقعَ الشيءُ المنتظرُ في الفصل الثاني مِنَ الرواية، وخُتِمَ هذا الفصلُ بأولِ قُبلةٍ على شفتَي (الممثلة).

* * *

وجاءَتْني اليومَ بآبِدَة من أوابدِها، قالت:

أنت رَجْعيٌّ محافظٌ على التقاليد. قلْتُ: لأنّي أرى هذه التقاليدَ كالصباحِ الذي يتكرَّرُ في كلِّ يومٍ وهو في كلِّ يومٍ ضياءٌ ونور.

قالت: أو كالمساءِ الذي يتكررُ وهو في كلِّ يومٍ ظلامٌ وسَواد!

قلْتُ: ليس هذا إليَّ ولا إليك، بلِ الحكمُ فيه لِلنفعِ أوِ الضرر.

قالتْ: بل هو إلى الحياة، والحياةُ اليومَ عِلْميةٌ أوربية، والزمنُ حَثِيثٌ في تقدُّمِه، وأصحابُ «التقاليدِ» جامدونَ في موضعِهم قد فاتهمُ الزمَن، ولذلك يسمونَهم (متأخّرين). أما علمْتَ أنَّ الفضيلةَ قد أصبحَتْ في أوربا زِيًّا قديماً، فأخذَ المِقَصُّ يعملُ في تهذيبها، يقطعُ من هنا ويَشُقُّ من هنا...!؟

اِسمعْ أيُّها «المتأخر»، وتأملْ هذا البرهانَ الأوروبيَّ العصريّ:

أخبرتني صديقتي فلانةُ حاملةُ شهادة... أنَّها كانَتْ في القطارِ بينَ الإسكندريةِ والقاهرة، وكانَتْ معها فتاةٌ من جِيرتِها تحملُ الشهادةَ الابتدائية؛ فجمعُهما السفَرُ بشابٍّ وَسيمٍ[1] ظريفٍ يُشارِكُ في الأدب، غيرَ أنَّه رَجْعيٌّ (متأخر)، وصديقتي تعرفُ من كلِّ شَيءٍ شيئاً، وتأخذُ من كلِّ فنٍ بطَرَف؛ فجرى الحديثُ بينهما مَجراه، وتركَتِ الصديقةُ نفسَها لِدواعيها، وآنطلَقَتْ على سَجيتِها الظريفة، ووضعَتْ فنَّ لِسانِها في الكلامِ فجعلَتْ فيه رُوحَ التقبيل...!

ولم تبلغْ إلى القاهرةِ حتى كانَتْ قد سحَرتْ ذلك (المتأخر) ووقعَتْ من

---

(١) وسيم: جميل.

نفسِه، ودفعتْه إلى الزمنِ الذي هو فيه. فلمّا همَّتْ بوداعِهِ سألهما: أين تذهبان؟

فأغضَتْ صاحبةُ الشهادةِ الابتدائية، وأطرقَتْ حياءً، ورأَتْ في السؤال تُهمةً وريبة، فأنَّبتْها الصديقةُ وأيقظَتْها من حيائِها، وقالت لها: ألا تزالينَ شرقيةً متأخرة؟ إن لم يُسْعِدْنا الحظُّ أنْ تكونَ لنا حريةُ المرأةِ الأوروبيةِ في المجتمعِ وفي أنفسِنا؛ أفلا يسعُنا أنْ تكونَ لنا هذه الحريةُ ولو في أنفسِنا؟

ثم ردَّتْ على الشابِّ فأنبأتْهُ بمكانِها وعُنوانِها، فأطمعَهُ ردُّها، فسأَلها أنْ تتنزّهَ معه في بعضِ الحدائق، فأبَتْ صاحبةُ الابتدائيةِ ولجَّتْ عَمايتُها الشرقيةُ المتأخرة، ورأَتْ في ذلك مَسْقَطةً لها، فَلوَتْ إلى دارِها[1] وتركَتْهما إنساناً وإنساناً لا فتى وفتاة؛ وتنزّها معاً، وعرفَ الشابُّ الرجعيُّ الحُبَّ، والخمرَ التي هي تحيةُ الحُبّ!

ولم تستطعِ الفتاةُ الماكرةُ أنْ ترجعَ إلى دارِها وهي سَكْرى كما زعَمَتْ لِلشابّ ـ فأوَتْ إلى فُندقَ، وخُتِمَتْ روايتُهما بإعراضٍ منَ الشابِّ أجابَتْ هي عليهِ بِقولِها: ألا زلت (متأخراً). . . ؟

قالَتِ «الطائشة»:

نعم يا عزيزي (المتأخر)، إنَّ مذهبَ المرأةِ الحرَّة. . . في الفرقِ بينَ الزوجِ وغيرِ الزوج، أنَّ الأولَ رجلٌ ثابتٌ، والآخرَ رجلٌ طارىء. والثابتَ ثابتٌ معها بحقِّهِ هو؛ والطارىء طارئٌ عليها بحقِّها هي. . . فإنْ كانَتْ حرةً فَلها حقُّها. . .

قال كاتب الطائشة: وهنا، هنا، هنا، كادَ الشيطانُ يرفعُ الستارَ عن فصلٍ ثالثٍ في هذه الرواية، رواية «الطائشة». . .

* * *

نقول نحن: وإلى هنا ينتهي نصفُ الرواية؛ أمَّا النصفُ الآخرُ فيكادُ يكونُ قصةً أخرى اسمُها: (الطائش والطائشة). . .

---

(١) لوت إلى دارها: رجعت.

دموعٌ
من رسائلِ الطائشة

ورسائلُ هذه الطائشةِ إلى صاحبِها، تُقْرَأُ في ظاهرِها على أنَّها رسائل حُبّ، قد كُتِبَتْ في الفنونِ التي يَتَرَسَّلُ بها العُشاق؛ ولكنَّ وراءَ كلامِها كلاماً آخر، تُقْرَأُ بهِ على أنَّها تاريخُ نفسٍ مُلْتاعةٍ لا تزالُ شُعلةُ النارِ فيها تَتَنَمَّى وترتفع؛ وقد فَدَحَتْها[1] بظُلْمِها الحياةُ إذ حَصَرَتْها في فنٍّ واحدٍ لا يتغيَّر، وأوقعتْها تحتَ شرطٍ واحدٍ لا يتحقَّق، وصَرَّفَتْها بفكرةٍ واحدةٍ لا تزالُ تخيب.

وأشدُّ سُجُونِ الحياة فكرةٌ خائبةٌ يُسجَنُ الحيُّ فيها، لا هو مُستطيعٌ أنْ يدَعها، ولا هو قادرٌ أنْ يُحقِّقَها؛ فهذا يمتدُّ شقاؤُهُ ما يمتدّ ولا يزالُ كأنَّهُ على أوّلِهِ لا يتقدّمُ إلى نهاية؛ ويتألَّمُ ما يتألَّمُ ولا تزالُ تُشْعِرُهُ الحياةُ أنَّ كلَّ ما فاتَ منَ العذابِ إنَّما هو بدْءُ العذاب.

والسعادةُ في جملتِها وتفصيلِها أنْ يكونَ لك فكرٌ غيرُ مقيَّدٍ بمعنًى تتألمُ منه، ولا بمعنًى تخافُ منه، ولا بمعنًى تَحْذَرُ منه؛ والشقاءُ في تفصيلِهِ وجملتِهِ ٱنحباسُ الفكرِ في معاني الألمِ والخوفِ وٱلاضطراب.

وقدِ ٱخترْنا من رسائلِ (الطائشة) هذه الرسالةَ المصوّرةَ التي يَبْرُقُ شُعاعُها وتكادُ تقومُ بإزاءِ نفسِها كٱلمرآةِ بإزاءِ الوجه؛ وهي فيها عَذْبةُ الكلامِ من أنَّها مُرّةُ الشعور، متَّسقةُ الفِكْرِ من أنَّها مختلَّةُ القلب، مُسددةُ المنطقِ من أنَّها طَائشةُ النفس؛ تلك إحدى عجائب الحبِّ؛ كلَّما كانَ قَفْراً مُمْحِلاً[2] ٱخضَرَّتْ فيهِ البلاغةُ وتفنَّنَتْ وٱلتفَّتْ؛ وعلى قِلَّةِ ٱلمُتْعَة من لَذّاتِهِ تزيدُ فيهِ المتعةُ من أوصافِهِ؛ وَلَكأنَّ هذا الحُبَّ طبيعةٌ غريبةٌ تُروَى بالنار فتُخْصِبُ عليها وتَتَفَتَّقُ بمعانيها، كما تُرْوَى الأرضُ بالماءِ فتُخْصِبُ وتتغطَّى بنباتِها؛ فإنْ رَوِيَ الحُبُّ من لذَّاتِهِ وبَرَدَ عليها، لم يُنْبِتْ مِنَ

(١) فدحتها: نزلت بساحتها مصيبة.

(٢) قفراً ممحلاً: لا نبات فيه.

البلاغةِ إلّا أخفَّها وزناً وأقلّها معانيَ، كأوّلِ ما يبدو النباتُ حينَ يَتفطَّرُ الثرى[1] عنه، تراه فتحسبُهُ على الأرضِ مَسْحَةَ لونٍ أخضر؛ أو لم يُنْبِتْ إلّا القليلَ القليلَ كالتَّعَاشِيبِ[2] في الأرضِ السَّبِخَة...

إنَّ قصةَ الحُبِّ كالروايةِ التمثيلية، أبلغُ ما فيها وأحسَنُه وأعجبُه ما كانَ قبلَ «العُقدة»، فإذا ٱنحلتْ هذه العقدةُ فأنت في بقايا مُفَسَّرَةٍ مشروحةٍ تُريدُ أنْ تنتهِيَ، ولا تحتملُ مِنَ الفنّ إلّا ذلك القليلَ الذي بيْنَها وبينَ النّهاية.

* * *

وهذه هي رسالةُ الطائشةِ إلى صاحِبها:

«...

«ماذا أكتبُ لك غيرَ ألفاظِ حقيقتي وحقيقتِك؟

«يُخيَّل إليَّ أنَّ ألفاظَ خُضوعي وتَضَرّعي متى ٱنتهتْ إليكَ ٱنقلبَتْ إلى ألفاظِ شِجَارٍ ونِزاع!

«أيُّ عَدْلٍ أنْ تلمسَكَ حياتي لَمْسَةَ الزَّهرةِ الناعمةِ بأطرافِ البَنان، وتَقْذفَني أنت قَذْفَ الحجَرِ بملْءِ اليدِ الصُّلْبةِ مُتَمَطِّيَةً فيها قوةُ الجسم؟

«جعلْتَني في الحُبِّ كآلةٍ خاضعةٍ تُدارُ فتَدور، ثم عَبَثْتَ بها فصارَتْ متمرّدةً تُوَقَّفُ ولا تَقِف؛ والنهايةُ ـ لا ريبَ فيها ـ ٱختلالٌ أو تحطيم!

«وجعلْتَ لي عالماً؛ أما لَيْلُهُ فأنتَ والظلامُ والبكاء، وأما نهارُهُ فأنتَ والضيّاءُ والأملُ الخائب. هذا هو عالَمي: أنتَ أنت...!

«سمائي كأنَّها رُقْعةٌ أطبقَتْ عليها كلُّ غيومِ السماء، وأرضي كأنَّها بُقْعةٌ ٱجتمعَتْ فيها كلُّ زَلازلِ الأرض! لأنَّك غَيْمَةٌ في حياتي، وزَلزلةٌ في أيامي.

«يا بُعدَ ما بينَ الدنيا التي حولي وبيَن الدنيا التي في قلبي!

«ما يَجْمُلُ منكَ أنْ تُلْزِمَني لومَ خطأ أنت المخطىءُ فيه. سلْني عن حبّي أُجِبْكَ عن نكْبتي[3]، وسَلْني عن نكبتي أُجِبْكَ عن حبّي!

«كانَ ينبغي أنْ تكونَ ليَ الكبرياءُ في الحُبّ، ولكنْ ماذا أصنعُ وأنت منصَرِفٌ

---

(١) يتفطّر الثرى عنه: يتكشف وينبت في الثرى.

(٢) التعاشيب: هي أعشاب قليلة متفرقة في كل مكان.

(٣) نكبتي: مصيبتي.

عنّي؟ وَيلاهُ من هذا الانصرافِ الذي يجعلُ كِبريائي رِضًى منّي بأنْ تَنسى! فتنسى. . .

«ليس لي من وسيلةٍ تَعْطِفُكَ إلّا هذا الحبُّ الشديدُ الذي هو يَصُدُّك[1]، فكأَنَّ الأسبابَ مقلوبةٌ معي منذُ انقلَبْتَ أنت.

«ويُخيَّلُ إليَّ من طُغيانِ آلامي أنَّ كلَّ ذي حُزْنٍ فعندي أنا تمامُ حُزنهِ!

«ويُخيلُ إليَّ أنّي أفصَحُ من نَطقَ بآه!

«عذابي عذابُ الصادقِ الذي لا يَعرفُ الكَذِبَ أبداً أبداً، بالكاذبِ الذي لا يعرفُ الصدقَ أبداً أبداً!

«كم يقولُ الرجالُ في النساء، وكم يَصِفُونَهنّ بالكَيْدِ والغدرِ والمكْرِ؛ فهل جئْتَ أنتَ لتُعاقِبَ الجنسَ كلَّهُ فيّ أنا وحدي. . .؟

«ما لِكلامي يَتقطَّعُ كأنَّما هو أيضاً مُخْتَنِق؟

* * *

«لَشدَّ ما أتمنَّى أنْ أشتريَ انتصارِي، ولكنَّ انتصاري عليكَ هو عندي أنْ تنتصرَ أنت.

«إنَّ المرأةَ تطلبُ الحرّيةَ وتَلِجُ[2] في طلبِها، ولكنَّ الحياةَ تنتهي بها إلى يقينٍ لا شكَّ فيه هو أنّ ألطفَ أنواعِ حريتِها في ألطفِ أنواعِ آستعبادِها!

«حتى في خيالي أرى لكَ هيئةَ الآمرِ النّاهي أيُّها القاسي. لا أُحِبُّ منك هذا، ولكنْ لا يُعْجِبُني منك إلّا هذا. . .!

«ويزيدُك رِفْعةً في عيني أنّكَ تُحاولُ قطُّ أنْ تَزيدَ رِفْعةً في عيني.

«فالمرأةُ لا تُحبُّ الرجلَ الذي يعملُ على أنْ يَلفِتَها دائماً لِيرفعَ من شأنِهِ عندَها.

«إنَّ الطبيعةَ قدْ جعَلتِ الأنوثةَ (في الإنسانِ) هي التي تَلْفِتُ إلى نفسِها بالتصنُّعِ والتَّزَيُّدِ، وعَرْضِ ما فيها وتكلُّفِ ما ليس فيها؛ فإنْ يَصْنَعِ الرجلُ صنيعَها فما هو في شيءٍ إلّا تزيينَ آحتقارِهِ!.

«التَّزَيُّدُ في الأنوثةِ زيادةٌ في الأنثى عند الرجل، ولكنَّ التَّزَيُّدَ في الرجولةِ نقصٌ في الرجلِ عندَ الأنثى!

* * *

---

(١) يصدك: يمنعك. (٢) تلجّ: تلحّ.

«ارْفعْ صوتَك بكلماتي تَسمعْ فيها اثنين: صوتَك وقلبي.

«لَيسَتْ هي كلماتي لَدَيك أكثرَ مِمَّا هي أعمالُك لَدَيَّ.

«وليس هو حُبّي لك أكبرَ مِمّا هو ظلمُكَ لي!

«ما أشدَّ تَعْسي إذا كنْتُ أخاطِبُ منك نائماً يسمعُ أحلامَهُ ولا يسمعُني!

«ما أتعسَ مَنْ تُبكيهِ الحياةُ بكاءَها المفاجِيء على ميّتٍ لا يَرجعُ، أو بكاءَها المألوفَ على حبيبٍ لا يُنال!

* * *

«ولكنْ فَلأْصبِرْ وَلْأصبرْ على الأيام التي لا طعمَ لها، لأنَّ فيها الحبيبَ الذي لا وفاءَ له!

«إنَّ المُصابَ بالعمَى اللَّوْنيّ يرى الأحمرَ أخضر، والمصابَ بعَمَى الحُبِّ يرى الشخصَ القَفْرَ كلَّهُ أزهاراً.

«عَمًى مركَّبٌ أنْ تكونَ أزهاراً مِنَ الأوهامِ ولها مع ذلك رائحةٌ تَعْبَق.

«وعَمًى في الزمنِ أيضاً أنْ ينظرَ إلى الساعةِ الأولى من ساعاتِ الحُبِّ، فيرى الأيامَ كلَّها في حكمِ هذه الساعة.

«وعَمًى في الدم، أنْ يَشعُرَ بالحبيبِ يوماً فلا يزالُ من بعدِها يُحيي خيالَهُ ويغذّيهِ أكثرَ مِمَّا يُحيي جسمَ صاحِبه.

«وعَمًى في العقل، أنْ يَجعلَ وجهَ إنسانٍ واحدٍ كوجهِ النهارِ على الدنيا، تَظهرُ الأشياءُ في لونِه، وبغيرِ لونِهِ تنطفىءُ الأشياء.

«وعَمًى في قلبي أنا، هذا الحُبُّ الذي في قلبي!

* * *

«ليسَ الظلامُ إلَّا فِقدانَ النورِ، وليسَ الظلمُ في الناس إلَّا فقدانَ المساواةِ.

«وظلْمُ الرجال لِلنساءِ عملُ فُقدانِ المُساواةِ لا عملُ الرجال.

«كيف تَسخَرُ[1] الدنيا من متعلِّمةٍ مثلي، فتضعُها موضعاً مِنَ الهَوانِ[2] والضعفِ بحيثُ لو سُئلَتْ أنْ تكتبَ (وظيفتَها) على بِطاقةٍ، لَمَا كَتَبَتْ تحتَ اسمِها إلَّا هذه الكلمة: (عاشقة فلان)...؟

---

(١) تسخر: تهزأ.

(٢) الهوان: الذلّ.

«وحتى في ضعَفِ المرأةِ لا مساواةَ بينَ النساءِ في الاجتماع، فكلُّ متَزَوجةٍ وظيفتُها الاجتماعيةُ أنَّها زوجة؛ ولكنْ ليسَ لِعاشقةٍ أنْ تقولَ إنَّ عِشقَها وظيفتُها...

«وحتى في الكلامِ عنِ الحبِّ لا مساواة، فهذه فتاةٌ تُحِبُّ فتتكلمُ عن حُبِّها فيُقال: فاجرةٌ وطائشة. ولا ذنبَ لها غيرَ أنَّها تكلَّمت؛ وأخرى تُحبُّ وتكتمُ، فيُقال: طاهرةٌ عفيفة. ولا فضيلةَ فيه إلا أنَّها سكَتَتْ.

«أولُ المساواةِ بينَ الرجالِ والنساءِ أنْ يتَساوَى الكلُّ في حرّيةِ الكلمةِ المخبوءة.

«لا لا، قد رجَعْتُ عن هذا الرأي...

* * *

إنَّ القلَقَ إذا ٱستمرَّ على النفسِ ٱنتهى بها آخرَ الأمرِ إلى الأخذِ بالشَّاذِّ من قوانينِ الحياة.

«والنساءُ يُقْلِقْنَ الكونَ الآنَ مِمَّا ٱستقرَّ في نفوسهِنَّ مِنَ ٱلاضطراب، وسيُخَرِّبْنَهُ أشنعَ تخريب.

«ويلٌ لِلاجتماعِ مِنَ المرأةِ العصريةِ التي أنشأَها ضعفُ الرجل! إنَّ الشيطانَ لو خُيِّرَ في غير شكلِهِ لَمَا ٱختارَ إلَّا أنْ يكونَ ٱمرأةً حرَّةً متعلمةً خياليَّةً كاسِدةً لا تجدُ الزوج...!

«ويلٌ لِلاجتماعِ من عذراءَ بائرةٍ[1] خيالية، تُريدُ أَنْ تَفِرَّ من أنَّها عذراء! لقدِ ٱمتلأتِ ٱلأرضُ من هٰذه القنابل... ولكنْ ما مِن ٱمرأةٍ تُفرّط في فضيلتِها إلَّا وهي ذنبُ رجلٍ قد أهملَ في واجبِه.

* * *

هل تَملِكُ الفتاةُ عِرْضَها أوْ لا تملك؟ هذه هي المسألة...

«إنْ كانَتْ تملِك، فلَهَا أنْ تتصرّفَ وتُعطيَ؛ أوْ لَا، فلِماذا لا يتقدَّمُ المالك...؟

«هذه المدنيةُ ستنقلِبُ إلى الحيوانيةِ بعينِها؛ فالحيوانُ الذي لا يعرفُ النَسَبَ لا تعرفُ أنثاهُ العِرْض...!

(١) بائرة: فاسدة.

«وهل كانَ عَبَثاً أنْ يفرِضَ الدينُ في الزواجِ شروطاً وحقوقاً لِلرجلِ والمرأةِ والنسْلِ؟

«ولكْن أين الدينُ؟ وا أسفاه! لقد مَدَّنوه هو أيضاً. . . !

* * *

«طالَتْ رسالتي إليكَ يا عزيزي، بل طاشتْ[1]، فإنِّي حينَ أجِدُكَ أفقدُ اللغة، وحين أفقدُك أجدُها.

«ولقد تكَلمْتُ عنِ الدِّين لأني أراكَ أنتَ بنصفِ دين. . . !

«فلو كُنتَ ذا دينٍ كاملٍ لتزوّجْتَ اثْنتينِ. . . !

«لا لا، قد رجَعْتُ عنِ الرأي. . . »

(طبق الأصل)

(١) طاشت: انحرفت عن جادتها.

فلسفةُ الطائشة

. . . وهذا مجلسٌ من مجالسِ (الطائشةِ) مع صاحِبِها، مِمَّا تَسَقَّطَهُ[1] من حديثِها؛ فقد كانَ يكتبُ عنها ما تُصيبُ فيهِ وما تُخطىء، كما يكتبُ أهلُ السياسةِ بعضُهم عن بعضٍ إذا فاوضَ الحليفُ حليفَه، أو ناكرَ[2] الخصمُ خصمَه؛ فإنَّ كلامَ الحبيبِ والسياسيِّ الداهية ليسَ كلامَ المتكلمِ وحدَه، بل فيه نطقُ الدولة. . . وفيه الزمنُ يُقْبِلُ أو يُدْبِر.

وصاحبُ الطائشةِ كانَ يراها ٱمرأةً سياسيةً كهذِه الدُّوَلِ التي تُرْغِمُ صديقاً على الصداقةِ، لأنَّهُ في طريقِها أو طريقِ حوادِثِها؛ وكان يُسميها «جيشَ ٱحتلال» إذْ حطَّتْ في أيامِهِ وٱحتَلَّتْها فتبَوَّأتْ منها ما شاءَتْ على رغمِهِ، وٱستباحَتْ[3] ما أرادَتْ مِمَّا كانَ يَحميهِ أو يمنعُه. وقد كان في مُدافَعتِهِ حبَّها وٱستمساكِهِ بصداقتِها كالذي رأى ظلَّ شيءٍ على الأرضِ فَيُحاولُ غسلَهُ أو كنسَهُ أو تغطيتَه. . . فهذا ليس مِمَّا يُغْسَلُ بالماء، ولا يُكنَسُ بالمِكْنَسةِ، ولا يُغطَّى بالأغطيةِ؛ إنَّما إزالتُهُ في إزالةِ الشَّبَحِ الذي هو يُلقيهِ، أو إطفاءِ النورِ الذي هو يُثْبِتُه.

في كلِّ شيءٍ على هذه الأرضِ سُخرية، والسخريةُ مِنَ الحُسْنِ الفاتنِ الذي تقدّسُه، تأتي مِنَ ٱشتهاءِ هذا الحُسْنِ؛ فذاك إسقاطُه سقوطاً مقدَّساً. . . أو ذاك تقديسُهُ إلى أنْ يسقُط، أو هو جَعلُ تقديسِهِ باباً مِنَ الحِيلةِ في إسقاطِه. لا بدَّ من سُفْلٍ معَ العلوِّ يكونُ أحدُهما كالسخريةِ مِنَ الآخر؛ فإذا قالَ رجلٌ لامرأةٍ قد فَتَنَتْهُ أو وَقَعَتْ من نفسِه: «أحبُّك». أو قالَتْها ٱلمرأةُ لِرجلٍ وقعَ من نفسِها أوِ ٱستَهامَها[4] ففي هذه الكلمةِ الناعمةِ اللطيفةِ كلُّ معاني الوقاحةِ الجِنسية، وكلُّ السُّخريةِ بالمحبوبِ سُخريةً بإجلالٍ عظيم. . . وهي كلمةُ شاعرٍ في تقديسِ الجمالِ والإعجابِ به، غيرَ أنَّها هي بعينِها كلمةُ الجزّارِ الذي يَرى الخروفَ في جمالِهِ اللحميّ الدُّهنيّ، فيقول: «سَمِين. . .!»

---

(١) تسقَّطه: تلقاه وجمعه في ذاكرته.

(٢) ناكر: خالف.

(٣) استباحت: سمحت لنفسها فعله.

(٤) استهامها: أحبته.

لِهذا يمنعُ الدينُ خَلوةَ الرجلِ بالمرأة، ويُحرّمُ إظهارَ الفتنةِ مِنَ الجنسِ لِلجنسِ، ويَفْصِلُ بمعاني الحِجابِ بينَ السالبِ والمُوجِب، ثم يضعُ لِأعينِ المؤمنينَ والمؤمناتِ حِجاباً آخرَ مِنَ الأمرِ بغَضِّ البصَر[1]، إذْ لا يكفي حِجابٌ واحدٌ، فإنَّ الطبيعةَ الجنسيةَ تنظرُ بالداخلِ والخارجِ معاً؛ ثم يطردُ عنِ المرأةِ كلمةَ الحُبِّ إلَّا أنْ تكونَ من زوجِها، وعنِ الرجلِ إلا أنْ تكونَ من زوجتِه؛ إذْ هي كلمةُ حِيلةٍ في الطبيعةِ أكثرُ مِمَّا هي كلمةُ صدقٍ في الاجتماع، ولا يؤكِّدُ في الدين صدقَها الاجتماعيَّ إلَّا العَقْدُ والشهودُ لِربطِ الحقوقِ بها، وجعلِها في حِياطةِ القوةِ الاجتماعيةِ التشريعية، وإقرارِها في موضِعِها مِنَ النظامِ الإنسانيّ؛ فليسَ ما يمنعُ أنْ يكونَ العاشقُ من معاني الزَّوج، أمَّا أنْ يكونَ من معنًى آخرَ أو يكونَ بِلا معنًى فلا؛ وكلُّ ذلك لِصيانةِ المرأة، ما دامَتْ هي وحَدها التي تَلِد، وما دامَتْ لا تَلِدُ لِلبيع. . .

وفلسفةُ هذه الطائشةِ فلسفةُ امرأةٍ ذكيةٍ مطَّلعةٍ مُحيطةٍ مفكرِّة، تُبْصِرُ لكتبِ العقلِ والحوادثِ جميعاً، وقدْ أصبحَتْ بعدَ سَقْطةِ حبِّها ترى الصوابَ في شكلينِ لا شكلٍ واحد: فتراهُ كما هو في نفسِه، وكما هو فى أغلاطِها.

وقد أَسقطْنَا في روايةِ مجلسِها ما كانَ من مُطارحَاتِ[2] العاشقة، وَٱقتصَرْنا على ما هو كالإملاءِ مِنَ الأستاذة. . .

* * *

قال صاحبُ الطائشة: ذكرْتُ لها «اسم أمين» وقلْتُ: إنَّها خيرُ تلاميذِهِ وتِلميذاتِه. . . حتى لَكأنَّها تجربةُ ثلاثينَ سنةً لِآرائِهِ في تحريرِ المرأة. فقالَتْ: إنَّما كان قاسمٌ تلميذَ المرأةِ الأروبية، وهذهِ المرأةُ بأعيُنِنا فما حاجتُنا نحن إلى تلميذِها القديم؟

قالَتْ: وأبلَغُ من يَردُّ على قاسمِ اليومَ هي أستاذتُهُ التي شَبَّتْ بها أطوارُ الحياةِ بعد، فقد أثبتَ قاسمٌ ـ غفرَ اللّهُ لهُ ـ أنَّه ٱنحصَر في عهدٍ بعينهِ ولم يُتبعِ الأيامَ نظرَه، ولم يستقرىءْ[3] أطوارَ المدنيَّة؛ لم يُقَدّرْ أنَّ هذا الزمنَ المتمدّنَ سيتقدمُ في رذائلِهِ بحكمِ الطبيعةِ أسرعَ وأقوى مِمَّا يتقدمُ في فضائلِه، وأنَّ العِلْمَ لا يستطيعُ إلَّا أنْ يخدمَ الجهتينِ بقوةٍ واحدةٍ، فأقواهما بالطبيعةِ أقواهما بالعِلْم، وكأنَّ الرجلَ كانَ يظنُّ أنه ليسَ تحتَ الأرضِ زَلازِلُ ولا تحتَ الحياةِ مثلُها.

---

(١) بغض البصر: كناية عن الحياء.

(٢) مطارحات: ما تلقيه من حديث.

(٣) يستقرىء: يستطلع المستقبل.

مزّق البرقعَ[1] وقال: «إنَّهُ مِمَّا يزيدُ في الفِتنةَ، وإنَّ المرأةَ لو كانَتْ مكشوفةَ الوجهِ لَكانَ في مجموعِ خَلْقِها ـ على الغالب ـ ما يردُّ البصَرَ عنها». فقد زال البُرقُع، ولكنْ هل قدَّرَ قاسمٌ أَنَّ طبيعةَ المرأةِ منتصرةٌ دائماً في المَيْدانِ الجنسيّ بالبرقعِ وبغيرِ البرقع، وأنَّها تخترعُ لِكلِّ معركةٍ أسلحتَها، وأنَّها إنْ كشفَتْ برقُعَ الخزِّ فستضعُ في مكانِهِ برقعَ الأبيضِ والأحمر. . . ؟

وزعَمَ أنَّ «النِّقابَ والبُرقِعَ من أشدِّ أعوانِ المرأةِ على إظهارِ ما تُظهِرُ وعملِ ما تعملُ لِتحريكِ الرغبة، لأنَّهما يُخفيانِ شخصيَّتَها فلا تخافُ أنْ يعرفَها قريبٌ أو بعيدٌ فيقول: فلانة، أو بنتُ فلان، أو زوجُ فلانٍ كانَتْ تفعلُ كذا؛ فهي تأتي كلَّ ما تشتهيهِ من ذلك تحتَ حِمايةِ البرقعِ والنِّقابِ». فقد زالَ البرقعُ والنِّقاب، ولكنْ هل قدَّرَ قاسمٌ أنّ المرأةَ السافرةَ ستلجأُ إلى حِمايَةٍ أخرى، فتجعلُ ثيابَها تعبيراً دقيقاً عن أعضائِها، وبدلاً من أنْ تُلبسَ جسمَها ثوباً يكسوه، تُلبسُهُ الثوبَ الذي يكسوهُ ويزيّنُهُ ويُظهِرُهُ ويُحرّكُهُ في وقتٍ معاً، حتى لَيكادُ الثوبُ يقولُ لِلناظرِ: هذا الموضعُ ٱسمهُ. . . وهذا الموضعُ ٱسمُه. . . وٱنظرْ هنا وٱنظرْ هاهنا. . . ما زادَتِ المدنيَّةُ على أنْ فكَّكَتِ ٱلمرأةَ الطيّبَةَ ثم ركبَّتْها في هذه الهندسةِ الفاحشة!

وأرادَ قاسِمٌ أنْ يعلِّمَنا الحُبَّ لِنربطَ بِهِ الزوجَ معنا، فلم يزِدْ على أنْ جرَّأَنا على الحُبِّ الذي فرَّ بِهِ الزوجُ مِنَّا، وقد نسِيَ أنَّ المرأةَ التي تُخالطُ الرجلَ لِيُعجِبَها وتُعجبَهُ فيصيرا زوجين ـ إنَّما تُخالِطُ في هذا الرجل غرائزَهُ قبلَ إنسانيتِه، فتكونُ طبيعتُهُ وطبيعتُها هي محلَّ المخالطةِ قبلَ شخصَيْهما، أو تحتَ سِتارِ شخصيهِما؛ وهو رجلٌ وهي ٱمرأة، وبينَهما مصارَعَةُ الدم. . . وكثيراً ما تكونُ المِسْكينةُ هي المذبوحة. وقدِ ٱنتهينا إلى دهرٍ يُصْنَعُ حُبُّه ومجالسُ أحبابِهِ في «هوليود» وغيرِها من مُدُنِ السينما، فإنْ رأى الشبابُ على الفتاةِ مظهرَ العِفَّةِ والوقارِ قال: بلادةٌ في الدم، وبلاهَةٌ في العقل، وثِقْلٌ أيّ ثقل؛ وإنْ رأى غيرَ ذلك قال: فُجورٌ وطيْش، وٱستهتارٌ أيّ ٱستهتار. فأين تستقرُّ ٱلمرأةُ ولا مكانَ لها بين الضدين؟

أخطأ قاسمٌ في إغفالِ عاملِ الزمنِ من حسابِه، وهاجمَ الدينَ بالعُرْف[2]؛ وكانَ من أفحشِ غلطِهِ ظنُّهُ العُرْفَ مقصوراً على زمنِه، وكأنَّهُ لم يدرِ أنَّ الفرقَ بينَ

---

(١) البرقع: المنديل تغطي به المرأة وجهها، الحجاب.

(٢) العُرف: ما تعارف عليه الناس من حسن أو قبيح.

الدينِ وبينَ العُرْف، هو أنَّ هذا الأخيرَ دائمُ ٱلاضطراب، فهو دائمُ التغيّر، فهو لا يصلحُ أبداً قاعدةً لِلفضيلةِ؛ وها نحن أولاءِ قدِ ٱنتهينا إلى زمنِ العُرْي، وأصبحْنا نجدُ لَفيفاً مِنَ الأوربيّينَ المتعلمين، رجالِهم ونسائِهم، إذا رأوا في جزيرتِهم أو محلتِّهم أو ناديهم رجلاً يلبسُ في حِقْوَيهِ تُبَّاناً قصيراً كأنَّهُ وَرَقُ الشجرِ على موضعهِ ذاك من آدمَ وحواء ـ إذا رَأَوْا هذا المتعفِّفَ بخِرْقَة. . . أنكروا عليهِ وتَساءلوا بينهم. مَن؛ مَنْ هذا الراهب. . . ؟

ونَسي قاسمُ ـ غفرَ اللّهُ له ـ أنَّ لِلثيابِ أخلاقاً تتغيرُ بتغيُّرها، فالتي تُفْرِغُ الثوبَ على أعضائِها إفراغَ الهندسة، وتُلْبِسُ وجهَها ألوانَ التصوير ـ لا تفعلُ ذلك إلّا وهي قد تغيَّرَ فهمُها لِلفضائل، فتغَيرَتْ بذلك فضائلُها، وتحوَّلتْ من آياتٍ دينيةٍ إلى آياتٍ شعرية. ورُوحُ المسجدِ غيرُ روح الحانة، وهذه غيرُ رُوح المرقص، وهذه غيرُ رُوح المخدع[1]، ولِكلِّ حالةٍ تلبسُ المرأةُ لُبْساً فتُخفي منها وتُبدِي. وتَحريكُ البيئةِ لِتتقلبَ، هو بعينهِ تحريكُ النفسِ لِتتغيرَ صفاتُها. وأين أخلاقُ الثيابِ العصريةِ في ٱمرأةِ اليوم، من تلك الأخلاقِ التي كانَتْ لها مِنَ الحِجاب؟ تبدَّلتْ بمشاعرِ الطاعة، والصبرِ، وٱلاستقرارِ، والعِنايةِ بالنسل، والتفرُّغِ لإسعادِ أهلِها وذويها ـ مشاعرَ أخرى، أوّلُها كراهيةُ الدارِ والطاعةِ والنسلِ؛ وحسبُكَ من شرٍّ هذا أوّلُهُ وأخفُّه!

كانَ قاسمٌ كالمخدوعِ المغترّ بآرائِه، وكانَ مُصلِحاً فيه روحُ القاضي، والقاضي بحكم عملِهِ مقلِّدٌ مُتَّبع، ألَيسَ عليهِ أنْ يُسنِدَ رأيَهُ دائماً إلى نَصٍّ لم يكُنْ له فيه شأنٌ ولا عمل؟ من ثَمَّ كثُرَتْ أغلاطُ الرجلِ حتى جعلَ الفرقَ بينَ فسادِ الجاهلةِ وفسادِ المتعلّمة، أنَّ الأولى «لا تكلّفُ نفسَها عناءَ البحثِ عن صفاتِ الرجلِ الذي تُريدُ أنْ تُقدِّمَ له أفضلَ شيءٍ لديها، هو نفسَها، وعلى خِلافِ ذلك يكونُ النساءُ المتعلماتُ، إذا جرى القدَرُ عليهنَّ بأمرٍ مِمّا لا يحلُّ لهُنَّ، لم يكن ذلك إلّا بعدَ محبةٍ شديدةٍ يسبقُها عِلْمٌ تامٌّ بأحوالِ المحبوب (. . .) وشمائلِهِ وصفاته، فتَختارُهُ من بينِ مئاتٍ وألوفٍ مِمَّنْ تراهم في كلِّ وقت (!!!!) وهي تُحاذرُ أنْ تَضع ثِقتَها في شخصٍ لا يكونُ أهلاً لَها، ولا تُسلِّمُ نَفْسَها إلا بعدَ مناضلةٍ يختلفُ زمنُها وقوةُ الدفاعِ فيها حسبَ الأمزجة (؟؟؟؟) وهي في كلِّ حالٍ تستترُ بظاهرٍ مِنَ التعفّف (؟؟؟؟). . .».

أليسَ هذا كلامَ قاضٍ مِنَ القضاةِ المدَنيّينَ المتفلسفين على مذهبِ (المبروزو)

---

(١) المخدع: غرفة النوم.

يقول لإحدى الفاجرَتين: أيَّتُها الجاهلةُ الحمقاء، كيف لم تَتَحاشَيْ ولم تَتَستَّري فلا يكونَ للقانونِ عليكِ سبيل؟

وحتى في هذا قد أثبتَ قاسمٌ أنَّهُ لا يعرفُ الأرنبَ وأذنيها[1] وإلَّا فمتى كانَ في الحُبِّ اختيار، ومتى كانَ الاختيارُ يقعُ «فيما يجري بهِ القَدَرُ»، ومتى كانَ نظرُ العاشقةِ إلى الرجالِ نظراً سيكولوجيًا كنظرِ المعلمةِ إلى صبيانِها... فتدرسُ الصفاتِ والشمائلَ في مئاتٍ وألوفٍ مِمَّنْ تراهم في كلِّ وقتٍ لتُصَفيَها كلَّها في واحدٍ تختارُهُ من بينِهم؟ هذا مضحكٌ! هذا مضحك!

إليكَ خبراً واحداً مِمَّا تنشرَهُ الصحفُ في هذه الأيام: كفرارِ بنتِ فلانِ باشا خرِّيجةِ مدرسةِ كذا مع سائقِ سيارتِها؛ ففسِّرْ لي أنت كلامَ قاسم، وأفْهِمني كيف يكونُ اثنانِ واثنانِ خمسةً وعشرين؟ وكيف يكون فِرارُ متعلِّمةٍ أصيلةٍ مع سائقِ سيارةٍ هو محاذرةَ وضعِ الثقةِ فيمَنْ لا يكونُ أهلاً لها؟

لقد أغفلَ قاسمٌ حِسابَ الزمنِ في هذا أيضاً، فكثيرٌ مِنَ المنكَراتِ والآثام قدِ انحلَّ منها المعنى الدينيُّ، وثبَتَ في مكانِهِ معنًى اجتماعيٌّ مقررٌ، فأصبحَتِ المتعلمةُ لا تتخوَّفُ من ذلك على نفسِها شيئاً، بل هي تُقارِفُهُ وتستأثِرُ بهِ دونَ الجاهلة، وتلبسُ له (السواريه)، وتقدّمُ فيه لِلرجالِ المهذَّبينَ مرةً ذراعَها، ومرةً خَصْرَها...

أقرأْتَ (شهر زاد)؟ إنَّ فيها سطراً يجعلُ كتابَ قاسمٍ كلَّهُ ورقاً أبيضَ مغسولاً ليسَ فيه شيءٌ يُقرأ:

قالَتْ شهر زادُ المتعلّمةُ، المتفلسفةُ، البيضاءُ، البضَّةُ، الرشيقةُ، الجميلةُ؛ لِلعبدِ الأسودِ الفظيعِ الدميمِ الذي تَهواه: «ينبغي أنْ تكونَ أسودَ اللونِ؛ وضيعَ الأصلِ؛ قبيحَ الصورةِ؛ تلك وصفاتُك الخالدَةُ التي أحبّها...»

فهذا كلامُ الطبيعةِ لا كلامُ التأليفِ والتلفيقِ والتزويرِ على الطبيعة.

قال صاحبُ الطائشة:

فقلْتُ لها: فإذا كانَ قاسمٌ لا يُرضيكِ، وكانَ الرجلُ مُصلحاً دخَلتْهُ روحُ القاضي، فخلَطَ رأياً صالحاً وآخرَ سيّئاً، فلَعلَّ «مصطفى كمال» هَمُّكِ من رجلٍ في تحريرِ المرأةِ تحريراً مزَّقَ الحِجاب والـ...؟

---

(١) هذا من أقوال العرب، يقولون: «فلان يعرف الأرنب وأذنيها» ومعناه أن المرء يعرف الشيء بعلامته التي تثبته فلا تتخلف.

قالَتْ: إنَّ مصطفى كمال هذا رجلٌ ثائرٌ، يسوقُ بينَ يديهِ الخطأَ والصوابَ بعَصاً واحدة، ولا يُمكنُ في طبيعةِ الثورةِ إلّا هذا، ولا يبرحُ ثائراً حتى يَتِمَّ ٱنسلاخُ أمتِه. وله عقلٌ عسكريٌ كانَ يمكرُ بهِ مكرَ الألمانِ، حينَ أكرهَهمُ ٱلحلفاءُ على تحويلِ مصانعِ (كروب)، فحوّلوها تحويلاً يردُّها بأيسرِ التغييرِ إلى صنع المدافع والمُهلكاتِ. وليسَ الرجلُ مُصلحاً ألبتَّة، بل هو قائدٌ زَهَاهُ النصرُ الذي ٱتفقَ له[1]، فخرجَ من تلك الحربِ الصغيرةِ وعلى شفتيهِ كلمةٌ: «أُريد...» وجعلَ بعدَ ذلكَ إذا غَلِطَ غلطةً أرادَها منتَصِرة، فيفرضُها قانوناً على المساكينِ الذينَ يستطيعُ أنْ يفرضَ عليهم، فيقهرُهُمْ عليها ولا يناظرُهُمْ فيها، ويأخذُهم كيف شاء، ويَدَعُهم كيف أحبّ؛ وبكلمةٍ واحدةٍ: هو مؤلفُ الروايةِ، والقانونُ نفسُهُ أحدُ الممثّلين...

وحِقْدُهُ على الدينِ وأهلِ الدينِ هو الدليلُ على أنَّهُ ثائرٌ لا مُصلح؛ فإنَّ أخصَّ أخلاقِ الثورةِ حِقْدُ الثائرينَ، وهذا الحقدُ في قوة حَرْبٍ وحدَها، فلا يكونُ إلّا مادةً للأفعالِ الكثيرةِ المذمومةِ. والرجلُ يحتذي[2] أوربا ويعملُ على أعمالِ الأوربيينَ في خيرِها وشرِّها، ويجعلُ رذائلَهم من فضائلِهم على رغم أنفِهم، يتبرّءون منها ويُلحِقُها هو بقومِه، فكأنَّهُ يَعْتَنِفُ الآراءَ ويأخذُها أخذاً عسكريًا، ليسَ في الأمرِ إلّا قولُهُ «أُريدُ». فيكونُ ما يُريدُ. هو لم يحكُم على شبرٍ من أوربا يجعلُهُ تركيًا، ولكنَّهُ جَعَل رذائلَ أوربا تتجنَّسُ بالجنسيةِ التركية...

وتاللَّهِ إنَّهُ لَأيسَرُ عليهِ أنْ يجيءَ بملائكةٍ أو شياطينَ مِنَ ٱلمرَدَة، ينفخونَ أرضَ تركيا فيَمُطُّونَها مطًّا فيجعلونَها قارّة، من أنْ يُكرِهَ أوربا على ٱعتبارِ قومِه أوربيينَ بلبسِ قبعةٍ وهَدم مسجد. إنَّه لَا يزالُ في أولِ التاريخ، وهذا الشعبُ الذي ٱنتصرَ بِهِ لم تَلِدْهُ مبادئُهُ، ولا أنشأهُ هَدْمُ العلماءِ؛ بل هو الذي ولدَتْهُ تلك الأمهات، وأخرجَهُ أولئك الآباء، وما كانَ يُعْوِزُهُ إلّا القائدُ الحازمُ المصمّم، فلَمّا ظَفِرَ بقائدِهِ جاءَ بالمعجزة؛ فإذا فُتِنَ القائدُ بنفسِهِ وأبى إلا أنْ يتحوَّلَ نبيًا، فهذا شيءٌ آخرُ له ٱسمٌ آخر.

وَلْنفْرِضْ «الأثير» كما يقول العلماء، لِنستطيعَ أنْ نجعلَ مسألَتنا هذه عِلْميّة، وأنْ نبحثَها بحثاً عِلْميًا، فَلْيَكُنْ مصطفى كمالُ هوَ اللوردُ كتشنر[3] في إنجلترا؛

---

(١) اتفق له: حصل له، حققه.

(٢) يحتذي: يقلّد، ويسير على خطى غيره.

(٣) اللورد كتشنر هو الحاكم العسكري لمصر والسودان، فقد تمكن بالخديعة من القضاء على ثورة المهدي في السودان.

فيكسبُ اللورد كتشنر تلك الحربَ العظمى لا حربَ الدُّويلةِ الصغيرة، وينتصرُ على البراكينِ مِنَ الجيوشِ لا على مثلِ براميل النبيذ... ثم يستعِزُّ الرجلُ بدالَّتِهِ على قومِهِ، ويدْخلُهُ الغرور، فيتصنَّعُ لهم مرة، ويتَزَيَّنُ لهم مرة، ثم يأتيهم بالآبِدَةِ فيُسَفِّهُ دينَهم، ويُريدُهم على تعطيلِ شعائرِهم وهَدْمِ كنائسِهم، لأنَّ هذا هو الأصلاحُ في رأيه. أفتُرَى الإنجليزَ حينئذٍ ينضوون إليه ويلتفُّون حولَه ويقولون: قائدُنا في الحرب، ومُصلِحُنا في السلم، وقدِ ٱنتصَرنا بهِ على الناسِ فسننتصرُ بهِ على الله، وظفِرْنا معه بيومٍ مِنَ التاريخِ فسنظفرُ معه بالتاريخِ كلِّه...؟ أم تحسبُ كتشنر كان يجسرُ على هذا وهو كتشنر لم يتغيَّرْ عقلُه؟

إنَّهُ ـ واللهِ ـ ما يَتدافَعُ ٱثنانِ أنْ هَدْمَ كنيسةٍ واحدةٍ يومئذٍ لا يكونُ إلَّا هدمُ كتشنر وتاريخُ كتشنر، ولكنَّ العجزَ ممهَّدٌ من تِلقاءِ نفسِه، والأرض المنخسفةُ هي التي يَسْتَنْقِعُ فيها الماء، فلَهُ فيها ٱسمٌ ورَسْمٌ؛ أما الجبلُ الصخريُّ الأشمّ، فإذا صُبَّ هذا الماءُ عليهِ أرسلَهُ من كُلِّ جوانبِه، وأفاضَهُ إلى أسفل...!

***

قال صاحبُ الطائشة: فأقولُ لها: إذا كانَ هذا رأيَكِ للنِساء، فكيف لا ترَيْنَ مثلَ هذا لِنفسك؟

فتَضَعْضَعَتْ[1] لهذه الكلمةِ ولَجْلَجَتْ[2] قليلاً ثم قالَتْ: أنت سلبتَني الرأيَ لِنفسي، ووضعتَني في الحقيقةِ التي لا تتقيدُ بقانونِ الخيرِ والشرّ.

قلْتُ: فإذا كانَتْ كلُّ ٱمرأةٍ تغلَطُ لِنفسِها في الرأيّ، وتنصَحُ بالرأْيِ الصائبِ غيرَها، فيُوشِكُ ألّا يبقى في نساءِ الأرضِ فضيلةٌ ولا يعودُ في المدرسةِ كلِّها عاقلٌ إلَّا الكتاب...

فتضاحكَتْ وقالت: لهذا يشتدّ دينُنا الإسلاميُّ معَ المرأة، فهو يخلقُ طبائعَ المقاومةِ في ٱلمرأة، ويخلقُها فيما حوَلها، حتى ليخيَّلُ إليها أنَّ السماءَ عيونٌ تراها، وأنَّ الأرضَ عقولٌ تُحصي عليها؛ وهلْ أعجبُ من أنَّ هذا الدينَ يقضي قضاءً مُبرماً[3] أنْ تكونَ ثيابُ المرأةِ أسلوبَ دفاعٍ لا أسلوبَ إغراء، وأنْ يضَعَها مِنَ النفوسِ موضِعاً يكونُ فيه حديثُها بينَها وبينَ نَفسِها كالحديثِ في (الراديو) له دويّ

---

(١) تضعضعت: تخلخلت واهتزّت.

(٢) لجلجت: تلعثمت.

(٣) قضاءً مبرماً: لا رجعة فيه.

في الدنيا، فيُقيمُ عليها الحِجابَ، وغَيرةَ الرجل، وشرفَ الأصل؛ ويؤاخذُها بروحِ طبيعتِها، فيجعلُ الهفوةَ[1] منها كأنَّها جنينٌ يكبُرُ ولا يزالُ يكبُرُ حتى يكونَ عارَ ماضيها وخِزْيَ[2] مستقبلِها.

هذه كلُّها حُجُبٌ[3] مضروبةٌ لا حِجابٌ واحد، هي كلُّها لِخلقِ طبائعِ المقاومةِ، لِتيسيرِ المقاومة، ومتى جاءَ العِلْمُ مع هذه لم يكنْ أبداً إطلاقاً، ولم يكنْ أبداً إلَّا الحِجابَ الأخيرَ كالسُّورِ حولَ القلْعةِ؛ ولكنْ قبَّحَ اللّهُ المدنيَّةَ وفنَّها؛ إنَّها أطلقَتِ ٱلمرأةَ حرّة، ثم حاطتْها بِمَا يجعلُ حريتَها هي الحريةَ في ٱختيارِ أثقلِ قيُودِها لا غير. أنت مُحمَّلٌ بالذهب، وأنت حرٌّ ولكن بينَ اللصوص؛ كأنَّكَ في هذا لسْتَ حرًّا إلّا في ٱختيارِ من يجني عليك. . . !

لم تعدِ ٱلمرأة العصريةُ ٱنتصارَ الأمومة، ولا ٱنتصارَ الخُلُقِ الفاضل، ولا ٱنتصارَ التعزيةِ في همومِ الحياة؛ ولكنِ ٱنتصارَ الفنّ، وٱنتصارَ اللهو، وٱنتصارَ الخلاعة.

قال صاحبُ الطائشة: فضحكْتُ وقلْتُ: وٱنتصاري. . . !

(طبق الأصل)

تنبيه

ليَست الطائشةُ كلَّ النساءِ ولا كلَّ المتعلمات، ونحن إنَّما نروي قصةً هي في الدنيا، ليس فيها كلمةٌ مِنَ المريخِ ولا من زُحَلَ؛ فأمَّا الصالحُ فيَرى ويَفهم، ولَعلَّهُ يصونُ بها نفسَه؛ أما الفاسدُ فيرى ويعتبرُ ولَعلَّهُ يردُّ بها نفسَه. ومذهبُنا دائماً وجوبُ كشفِ الحقيقة، وإذا أردْتَ أنْ تأخذَ الصوابَ فخْذُه عمَنْ أخطأ.

---

(١) الهفوة: الوقوع في الخطأ.

(٢) الخزي: العار.

(٣) حجب: موانع، ستائر.

تربيةٌ لؤلؤية

كتبَتْ إليّ سيدةٌ فاضلةٌ بما هذه ترجمتُهُ منقولاً إلى أسلوبي وطريقتي:

. . . أما بعدُ لِهذا الذي كنَّا ظنَنَّا وظنَنْتَ، فاْقرأْ الفصلَ الذي انتزْعتُهُ لك من مجلة . . . وستعرفُ منه وتُنكِر، وترى فيه النهارَ مبْصِراً والليلَ أعمى . . . وتجدُ فتاةَ اليومَ على ما وقعَ بها مِنَ الظِنَّة[١]، وكثُرَ فيها من أقوالِ السوءِ ـ لا تَشْمَسُ على الرّيبة ولا تُريدُ أنْ تنتفِيَ منها، بل هي تعملُ لِتحقيقِها، وتبغي مع تحقيقِها أنْ يَتَعالمَ[٢] الناسُ ذلك منها، وتُريدُ معَ هذَينِ أنْ يُطلقوا لها ما شاءَتْ، ويُسَوّغوها مُقَارفَةَ الإثم[٣]، ويُقِرُّوها على مُنكَراتِها.

أمَا إنَّهُ إذا كانَتْ أمهاتُنا الجاهلاتُ هنّ أمسَنَا الذاهبَ بلا فائدة، فإنَّ فتياتِنَا المتعلماتِ هُنَّ يومُنا الضائعُ بلا فائدة، غيرَ أنَّ الجاهلَة لم تكنْ تَكْسَدُ[٤] ومعها الفضيلة، فأصبحَتِ المتعلمةُ لم تكدْ تَنْفُقُ ومعها الرذيلة، ولَتاجرٌ أميٌّ طاهِرُ الاسم تتحركُ سُوقُه وتَحيا، خيرٌ من تاجرِ متعلمٍ نَجِسِ الاسمِ قد قامَتْ سوقُه وخَمَدَتْ، فما تتنفَّسُ من درهمٍ ولا دينار.

لقدِ اْحتذَيْنا على مثالِ المرأةِ الأوربية، فلمَّا أحكَمَتْهُ اْلمتعلماتُ مِنَّا، كُنّ بينَ الشرقِ والغربِ كالسَّبِخَةِ النشَّاشةِ[٥] مِنَ الأرض، طَرفٌ لها بالفلاةِ وطرفٌ بالبحر؛ فهي رملٌ في ماءٍ في مِلْح، لا تَخْلُصُ لِفسادٍ ولا صحة، فاْعتبرْ هذه وهذه فستجدُهما بحكايةٍ واحدةٍ أصلاً وطبقَ الأصل.

* * *

وقرأْتُ الفصلَ الذي أومأَتْ إليه السيدة، وكانَ في كتابِها، فإذا هو لِكاتبةٍ تزعمُ (أنَّها مِمَّنْ رفعْنَ علَم الجِهادِ لِحريَّةِ المرأة)، وإذا في أوله:

«كتبَتْ آنسةٌ أديبةٌ في عدد سابقٍ من . . . الأغر تقول: «أجلْ، لْنفتشْ عن هذا

---

(١) الظنة: سوء الظنّ في السلوك.
(٢) يتعالم: يعرف.
(٣) مقارفة الإثم: واقعة فيه.
(٤) تكسد: تبور.
(٥) السبخة النشاشة: هي الأرض التي لا تمسك ماءًا ولا مرعى ولا نبات فيها.

الرجلِ كما يفتشونَ هم عَنِ ٱلمرأة، فإنْ أخطأناهم أزواجاً فلَنْ نخطِئهم أصدقاء!!!»
وكتب بعدَ هذا أديبٌ فاضل، كما كتبَتْ آنسةٌ فاضلةٌ ينحيانِ (كذا) هذا المنحى، ويطرقانِ نفسَ السبيلِ (كذا) التي ٱختطَتْها الآنسةُ الجريئةُ في غيرِ حقّ، الثائرةُ في نَزَق[1]. ثم قَالتْ بعْد ذلك: «قرأتُ مقالَ الآنسةِ الثائرةِ في حَيويةٍ صارخة!!!! فجزعْتُ، لأنَّ (قاسم أمين) عندَما رفعَ علَم الجِهادِ من أجلِ حريةِ ٱلمرأةِ، و(وليُّ الدينِ يكن) عندَما جاهرَ بعدَهُ في سبيلِ السفور، و(هدى شعراوي) عنَدما رفعَتْ صوتَها عالياً تُطالِبُ بحريةِ ٱلمرأة ـ ما ظنَّتْ وما ظنَّ واحدٌ من هذينِ الرجلينِ أنَّ ثورةَ المرأةِ ستتطورُ إلى حدٍّ أنْ تقفَ آنسةٌ مهذبة، تكشفُ عن رأسِها تبكي وتستبكي سواها معها، من أجلِ الزواج...»

* * *

وأنا فَلسْتُ أدري ـ واللّهِ ـ مِمَّ تَعجبُ هذه الكاتبة، وإنّي لأَعجبُ من عجَبِها، وأراها كالتي تكتبُ عبثاً وهزلاً وهُويْنا، مُظهِرةً الجِدَّ والقصدَ والغضب. أئِنْ أطْلِقَ لِلنساءِ أنْ يَثُرن كما تقول الكاتبة، وجاهدَ فلانٌ وفلانٌ في هذه الثورةِ فأخَذتْ مأخذها، فٱنطلَقَتْ لِشأنِها، فأوغلَتْ في حريتِها، فٱمتدَّ بها أمدُها شوْطاً بعدَ شَوْط ـ ثم جاءَ خُلُقٌ من أخلاقِ المرأةِ يُسْفِرُ[2] سُفورَهُ ويرفعُ الحِجابَ عن طبيعتِهِ ثائراً هو أيضاً في غيرِ مُداراةٍ ولا حِذْقٍ ولا كياسة، يُريدُ أنْ يقتحمَ طريقَهُ ويسلُكَ سبيلَه، ثم وقفَ على رغمِهِ في الطريقِ منكَسِراً مِمَّا بِهِ من اللفةِ والوثْبةِ يتوجع، يتنهَّد، يتلذَّعُ بهذِه المعاني وهذه الكلمات أئِن وقعَ ذلك جاءَتْ كاتبةٌ من كاتباتِ السفورِ تقولُ لِلمرأة: جَرى عليكِ وكنْتِ حرة، وتَزعْزَعْتِ وكنتِ ثابتة، وأفحشْتِ وكنْتِ عفيفة، وتَعَهَّرْتِ وكنْتِ طاهرة؟

أفلا تقول لها: سَفَرَتْ أخلاقُكِ إذا كنْتِ سافرةً بارزة، وضاعَ حياؤكِ إذْ كنْتِ مُخلاةً[3] مهمَلة، وغَلَوْتِ إذْ كنْتِ في المبالغةِ مِنَ البدء؟

أفلا تقولُ لها: لقد تَلَطفْتِ فجئْتِ بالمعنى المجازيّ لِكلمة (العُرْي)، ولقد أبدعْتِ فكنْتِ ٱمرأةً ظريفةً ٱجتماعيةً مَخِيلَةً للشعرِ والفنّ، وحققْتِ أنَّ واجبَ الظريفةِ الجميلةِ إعطاءُ الفنِّ غِذاءً مِنْ...، ومن....؛ ومن لَحمِها...؟

---

(١) النزق: الطيش. (٢) يسفر: يكشف.
(٣) مِخلاة: وعاء من خيش يعلّق في رقبة الحمار، وفيه علف الحمار.

نعم إنَّ قاسم أمين (رحمهُ الله) لم يكنْ يظنُّ. . . ولكنْ أمَا كانَ ينبغي أنْ ظنَّ أنَّ بعضَ الصوابِ في أنَّ الخطأَ لا يجعلُ الخطأَ صواباً؟ بل هو أحرى أنْ يُلبِّسَهُ[1] على الناسِ فيُشْبِهَهُ عليهم بالحقِّ وما هو به، ويجعلَهم يسكنونَ إليه ويأمنونَ جانبَهُ فينتهي بهم يوماً إلى أنْ يَنْتَسِفَ[2] خطؤه صوابَه، ويغطِّيَ باطلُهُ على حقِّهِ ثم تَستطرقُ[3] إليهِ عواملُ لم تكنْ فيهِ من قبل، ولا كانَتْ تجدُ إليهِ السبيلَ وهو خطأٌ محض، فتمدُّ له في الغيِّ مدًّا. ثم تنتهي هي أيضاً إلى نهايتِها، وتَؤُولُ إلى حقائِقها[4]؛ فإذا كلُّ ذلك قد داخَلَ بعضَه، وإذا الشرُّ لا يقفُ عندَما كانَ عليه، وإذا البلاءُ ليسَ في نوعٍ واحدٍ بل أنواع.

ما يرتابُ أحدٌ في نيةِ قاسم أمين، ولا نزعمُ أنَّ له خَفِيَّةَ سُوءٍ أو مُضْمِرَ شرٍّ فيما دعا إليه من تلك ٱلدعوة، ولكنِّي أنا أرتابُ في كِفايتِهِ[5] لِمَا كان أخذَ نفسَهُ بِهِ وأراهُ قد تكلَّفَ ما لا يُحسِن، وذهبَ يقولُ في تأويلِ القرآنِ وهو لا ينفُذُ إلى حقائقِه، ولا يستبْطِنُ[6] أسرارَ عربيَّتِه، وكان مناظِروه في عصرهِ قوماً ضعفاء، فاستعلاهم بضعفِهم لا بقوتِه، وكانَتْ كلمةُ الحِجابِ قدِ ٱنتفختْ في ذهِنه بعدَ أنْ أُفرغَتْ معانِيها الدقيقة، فأخذَها ممتلئةً وجاءَ بها فارغة، وقالَ لِلنساء: غَيِّرْنَ وبدِّلْن. فلَما أطعْنهُ وبدَّلْنَ وغيَّرْن، وجاءَ الزمنُ بما يفسّرُ الكلمةَ من حقائِقهِ وتصاريفِهِ لا من خيالاتِ ٱلمتخيِّلِ أوِ المتشيِّع - إذَا معنى التغييرِ والتبديلِ هو ما رأيْت، وإذا الحِجابُ الأولُ على ضلالِهِ كانَ نصفَ الشرّ، وإذا المرأةُ التي ربحَتِ الشارعَ هي التي خسَرتِ الزوج! وإذا تلك الدعوةُ لم يكنْ نفياً لِلْحجابِ عنِ ٱلمرأة، ولكَنْ نفياً لِلمرأةِ ذاتِها وراءَ حدودِ الأُسرة، كأنَّها مجرمةٌ عُوقبَتْ على فسادِ سياستِها؛ وهي قارَّةٌ في بيتها[7] ولكنَّها مع ذلك منفيةٌ من مستقبلِها.

كانوا يحتجُّونَ لِنفي الحِجابِ بالفلَّاحاتِ في سفورهنَّ[8]؛ وغفلوا أقبحَ الغفلةِ عن السببِ الطبيعيّ في ذلك، وهو أنَّ السفورَ إنَّما عَمَّهُنَّ من كونهِنَّ لَسْنَ في ٱلمنزلةِ الاجتماعيةِ أكثرَ مِنْ بهائمَ إنسانيةٍ مؤنثة؛ ومثلُ هذا السفورِ لا يكونُ على طبيعتهِ تلك إلَّا في ٱجتماعٍ طبيعيٍّ فِطريٍّ أساسُهُ الخَلْطُ في الأعمالِ لا التمييزُ بينَها، والاشتراكُ

---

(١) يلبّسه: يموّهه.
(٢) ينتسف: يزيل بعنف.
(٣) تستطرق: تطرأ.
(٤) تشول إلى حقائقها: تؤل.
(٥) كفايته: قدرته، إمكانياته.
(٦) يستبطن: يكتشف.
(٧) قارّة في بيتها: لا تغادره، لا تبارحه.
(٨) سفورهن: إزالتهن عنهن ما يسترن به وجوههن.

في شيءٍ واحدٍ هو كَسْبُ القُوتِ لا الانفرادُ بِمَا فوقَ ذلك من أشياءِ النفس.

ولسْتُ أرى هذه اللّجاجةَ[1]، أو «الحيويةَ الصارخةَ» التي ثارَتْ بفتياتِنا ـ إلّا تمرداً من طبيعتهِنَّ على الأحوالِ الظالمةِ المتصرِّفةِ بها؛ ويَحسبْنَه توسعاً من الطبيعةِ في الحرية، وطلباً للعالمِ كلِّهِ بعدَ الشارع، ولِلحقوقِ كلِّها بعدَ نبذِ الحِجاب؛ وهو في الحقيقةِ ليسَ إلّا ثورةَ الطبيعةِ النسويةِ على خيبتِها مِمَّا أصابَتْ مِنَ الحريةِ والشارعِ والعالَمِ والحقوق، ورغبةً منها في أنْ تُحَدَّ بحدودِها ويُؤخَذَ منها العالَمُ كلُّهُ بمَا فيه، وتُعْطَى البيتَ وحدَهُ بما فيه.

إذا أنت كشفْتَ جذورَ الشجرةِ لِتُطلقَها بزعمِك من حِجابِها، وتُخرجَها إلى النور والحرية، فإنَّما أعطيْتَها النور، ولكنْ معَهُ الضعف؛ والحرية، ومعها الانتقاض؛ وتكونُ قد أخرَجْتَها من حِجابِها ومن طبيعتِها معاً؛ فخذْها بعدَ ذلكَ خَشباً لا ثَمراً، ومنظرَ شجَرةٍ لا شجرة، لقدْ أعطيْتَها من عِلْمِك لا من حياتِها، وجهِلْتَ أنَّها من أطباقِ الثرى في قانونِ حياتِها، لا في قانونِ حِجابِها. أفليَستْ كذلك جذورُ الشجرةِ الإنسانية؟

كلُّ ما يتغيرُ يسهُلُ تغييرُهُ على مَنْ شاء، ولكنَّ ٱلنتائجَ الآتيةَ مِنَ التغييرِ لا تكونُ إلّا حَتْماً مَقْضيًا[2] كما يُقضى، فلنْ يسهُلَ تبديلُها ولا تحويلُها ولا ردُّها أنْ تقَع. وقد أخطأَ جماعةُ السفور، بل أنا أقول: إنَّهم جاءُونا بالجاهليةِ الثانية، وإنَّهم طبُّوا لِلمرأةِ المسلمةِ كذلك الطبِّ الذي أساسُهُ الرائحةُ الزكيةُ في البخور...![3]

* * *

وما هو الحِجابُ إلّا حفظُ روحانيةِ ٱلمرأةِ لِلمرأة، وإغلاءُ سِعرِها في الاجتماع، وصونُها مِنَ التبذُّلِ الممقوتِ، لِضبطِها في حُدودٍ كَحدودِ الربحِ من هذا القانونِ الصارم، قانونِ العَرْضِ والطَّلَب؛ والارتفاعُ بها أنْ تكونَ سِلْعةً بائرةً[4] يُنادى عليها في مَدارجِ الطرقِ والأسواق: العيونُ الكحيلة، الخدودُ الورديَّة، الشِّفاهُ الياقوتيَّة، الثغورُ اللؤلؤيَّة، الأعْطافُ ٱلمرتجَّة، النهود الـ.. الـ.. أوَ ليسَ فتياتُنا قدِ ٱنتهيْنَ مِنَ الكَسادِ بعدَ نبذِ الحِجابِ إلى هذه الغاية، وأصبحْنَ إنْ لم ينادِين على

---

(١) اللجاجة: الإلحاح في الطلب.

(٢) حتماً مقضياً: قضاءً مبرماً، لا مردّ له.

(٣) يقصد بذلك طب الدجّالين ممن يمتهنون السحر الكاذب.

(٤) سلعة بائرة: كاسدة.

أنفسِهِنَّ بمثلِ هذا فإنَّهُنَّ لا يظهرْنَ في الطرقِ إلا لِتناديَ أجسامُهنَّ بمثلِ هذا؟

وهذه التي كتَبتِ اليومَ تطلبُهم مُخَادِنين[1] إنْ أَخطأتهم أزواجاً، وتفتِّشُ عليهم تفتيشاً بينَ الزوجاتِ والأمّهاتِ والأخوات! هلْ تُريدُ إلَّا أنْ تَثِبَ درجةً أخرى في مُخزياتِ هذا التطوُّر، فتمشي في الطريقِ مشيَ الأنثى مِنَ البهائم طَمُوحاً مَطْرُوفَة، تذهبُ عيناها هنا وهٰهنا تلتمسُ مَنْ يخطو إليها الخُطوةَ المقابلة..؟

ما هو الحِجابُ الشرعيُّ إلَّا أنْ يكونَ تربيةً عمليةً على طريقةِ ٱستحكام العادةِ لأسمى طباعِ المرأةِ، وأخصُّها الرحمة؟ هذه الصفةُ النادرةُ التي يقومُ الاجتماعُ الإنسانيُّ على نزعِها والمنازعةِ فيها ما دامَتْ سُنَّةُ الحياةِ نِزاعَ البقاء، فيكونُ البيتُ اجتماعاً خاصًّا مسالماً لِلْفردِ تحفظُ ٱلمرأةُ بِهِ منزلتَهَا، وتؤدّي فيهِ عملَها، وتكونُ مَغْرِساً لِلْأنسانيةِ وغارسةً لِصفاتِها معاً.

لقد رأَيْنَا مَواليدَ ٱلحيوانِ تُولَدُ كلُّها: إمَّا ساعيةً كاسِبةً لِوقتِها، وإمَّا محتاجةً إلى الحَضانةِ وقتاً قليلاً لا يلبثُ أنْ ينقضيَ فتكدَحَ لِعيشِها؛ إذْ كانَتْ غايةُ الحيوانِ هي الوجودَ في ذاتِهِ لا في نوعِه، وكانَ بذلك في الأسفلِ لا في الأعلى. غيرَ أنَّ طفلَ ٱلمرأةِ يكونُ في بطنِها جنيناً تسعةَ أشهر، ثم يُولدُ لِيكونَ معها جنيناً في صفاتِها وأخلاقِها ورحمتِها أضعافَ ذلك، سنةً بكلِّ شهر. فهلِ ٱلحِجابُ إلَّا قَصرُ هذه المرأةِ على عملِها، لِتجويدِهِ وإتقانِهِ وإخراجِهِ كاملاً ما ٱستطاعَتْ؟ وهل قَصرُها في حِجابِها إلَّا تربيةٌ طبيعيةٌ لِرحمتِها وصَبرِها، ثم تربيةٌ بعدَ ذلك لِمَنْ حولَها برحمتِها وصبرِها؟

أعرفُ معلمةً ذاتَ وَلَد، تتركُ ٱبنَها في أيدي الخَدَم بعدَ وَصَاةٍ عِلْميةٍ سيكولوجية... وتمضي ذاهبةً عن يمينِ ٱلصباحِ ويمضي زوجُها عن شِمالِه.. وقد رأيْتُ هذا الطفلَ مَرَّة، فرأيْتُهُ شيئاً جديداً غيرَ الأطفالِ، له سِمَةٌ روحانيةٌ غيرُ سِمَاتِهم، كأنَّما يقولُ لي: إنَّهُ ليسَ لي أبٌ وأمٌّ، ولكنْ أبٌ رقم (١)، وأب رقم (٢)...!

* * *

وقد كنْتُ كتبْتُ كلمةً عنِ الحِجابِ الإسلاميِّ قلْتُ فيها: «ما كانَ ٱلحِجابُ مضروباً على ٱلمرأةِ نفسِها، بلْ على حدودٍ مِنَ الأخلاقِ أنْ تُجاوِزَ مقدارَها أو يُخالِطَهَا السوءُ أو يَتَدَسَّسَ[2] إليها؛ فكلُّ ما أدَّى إلى هذه الغايةِ فهو حِجاب،

(١) مخادنين: مسافحين.

(٢) يتدسس إليها: يتوسّل للوصول إليها.

وليسَ يُؤدّى إليها شيءٌ إلّا أنْ تكونَ المرأةُ في دائرةِ بيتِها، ثم إنساناً فقط فيما وراءَ هذه الدائرةِ إلى آخرِ حدودِ المعاني».

وهذا هو الرأيُ الذي لم يتنبهْ إليهِ أحد، فليسَ ٱلحِجابُ إلّا كالرمزِ لِمَا وراءَهُ من أخلاقِهِ ومعانيهِ ورُوحِهِ الدينيةِ المَعْبَدِيَّة، وهو كالصدَفةِ لا تحجبُ اللؤلؤةَ ولكنْ تُرَبِّيها في الحجابِ تربيةً لؤلؤية؛ فوراءَ الحِجابِ الشرعيِّ الصحيحِ معاني التوازنِ والاستقرارِ والهدوءِ وٱلاطراد، وأخلاقُ هذه المعاني وروحُها الدينيُّ القويُّ، الذي يُنشِىءُ عجيبةَ الأخلاقِ الإنسانيةِ كلِّها؛ أي صبرَ ٱلمرأةِ وإيثارَها. وعلى هذينِ تقومُ قوةُ ٱلمدافعة، وهذه ٱلقوةُ هي تمامُ الأخلاقِ الأدبيةِ كلِّها، وهي سِرُّ ٱلمرأةِ الكاملة؛ فلنْ تجِدَ الأخلاقَ على أتمِّها وأحسنِها وأقواها إلّا في ٱلمرأةِ ذاتِ الدينِ والصبرِ والمُدافعة. إنَّها فيها تشبهُ أخلاقَ نبيّ مِنَ الأنبياء.

وقد مُحِقَ(١) الدينُ والصبر، وتراخَتْ قوةُ المدافَعةِ في أكثرِ الفتياتِ المتعلِّمات، فابْتُلِيْنَ من ذلك بالضجَرِ والملل، وتشويهِ النفس؛ ووقعَ فيهِنَّ معنًى كمعنى العَفَنِ فِي الثمرةِ الناضجة؛ وجهِلْنَ بالعِلْم حتى طبيعتَهُنَّ، فما منهُنَّ مَنْ عرفَتْ أنَّ طبيعتَها سلبيَّةٌ في ذاتِها، وأنَّهُ لا يشدُّها ويُقيمُها إلّا الصفاتُ السلبيَّة، وملاكُها الصبرُ فروعُهُ وأصولُه، وجمالُها الحياءُ والعِفَّة، ورمزُها وحارِسُها والمعينُ عليها هو الحِجابُ وحدَه. إنَّهُ إنْ لم يكُنْ في ٱلمرأةِ هذا فليْسَتِ ٱلمرأة إلّا بهذا.

وما تُخطىءُ المرأةُ في شيءٍ خطأها في محاولةِ تبديلِ طبيعتِها وجعْلِها إيجابيَّة، وَٱنتِحالِها صفاتِ الإيجاب، وتمردِها على صفاتِ السلْب، كما يقعُ لِعهدِنا؛ فإنَّ هذا لن يتمَّ لِلمرأة، ولَنْ يكونَ منه إلّا أَنْ تعتبرَ هذه المرأةُ نقائضَ أخلاقِها من أخلاقِها، كما نرى في أوربا، وفي الشرقِ من أثرِ أوربا؛ فمِنْ هذا تُلقي الفتاةُ حياءَها وتَبْذأُ(٢) وتُفْحِش، إنْ لم يكُنْ بالألفاظِ والمعاني جميعاً فبِالمعاني وحدَها، وإنْ لم يكُنْ بهذه ولا بتلك فبالفكرِ في هذه وتلك؛ وكانَتِ ٱلاستجابةُ لِهذا ما فَشا مِنَ الرواياتِ الساقطة، والمجلَّاتِ العارية؛ فإنَّ هذه وهذه لَيستْ شيئاً إلّا أنْ تكونَ عِلْمَ الفكرِ الساقط.

وعادَتِ ٱلفتاةُ من ذلك لا تبتغي إلّا أنْ تكونَ ٱمرأةَ رواية: إنا فوقَ الحياة، وإمَّا في حقائقَ جميلةٍ تختارُها ٱختياراً وتفرِضُها فرْضاً على القدَر! تنسَى الحمقاءُ

(١) محق الدين: اختفى.

(٢) تبذأ: من البذاءة في القول والسلوك.

أنَّها أحدُ الطرفين، وليسَتِ الطرفينِ جميعاً؛ فتُحاولُ أنْ تقررَ لِلحياةِ الجديدةِ تأويلاً جديداً لِمعاني الشرفِ والكرامةِ والعِرْضِ والنَّسَبِ وما إليها؛ فٱنسلختْ من كلِّ شيءٍ، ثم لَمَّا أعجزَها أنْ تنسلِخَ من غريزةِ الأنوثةِ طاشَتْ طيشَها الأخير، فانسلَخَتْ من إنسانيةِ الغريزة.

* * *

أما إنَّ غلطةَ الرجلِ في ٱلمرأةِ لا تكونُ إلَّا من غلطةِ المرأةِ في نفسِها. وهي قد أُعطيَتْ في طبيعتِها كلَّ معاني حِجابِها؛ فإحساسُها مُحتجِبٌ مُختبىءٌ أبداً كأنَّهُ في إتْبٍ[1] ومُلاءةٍ وبُرقع، وأفكارُها طويلةُ الملازمةِ لها لا تكادُ تتركُها، كأنَّها منها في بيت؛ وطبيعةُ الحذَرِ لا تَبرحُها كأنَّها الحارسُ الثابتُ في موضعِه، القائمُ بسلاحِهِ على حفظِ هذا الجسمِ الجميل؛ وطولُ التأمُّلِ مُوَكَّلٌ بها كأنَّ عملَهُ مُصاحبةُ وَحدتِها لِتخفيفِها على نَفسِها والترفيهِ منها؛ والدنيا حولَ المرأةِ بمذاهبِ أقدارِها، ولكنَّ لها دنيا في داخلِها هي قلبُها تذهبُ الأقدارُ فيه مذاهبَ أخرى؛ وضَغطةُ الحياةِ طبيعيةٌ فيها، حتى لا يُساوِرَها[2] همٌّ مِنَ الهمومِ إلَّا صار كأنَّهُ من عادتِها. والتي تُمزقُها الحياةُ كلَّما ولَدَتْ لا تكونُ الحياةُ إلَّا رحيمةً بها إذا ضغطتْها!

فخروجُ ٱلمرأةِ من حِجابِها خروجٌ من صفاتِها، فهو إضعافٌ لها، وتَضْريةٌ لِلرجالِ بها. وماذا تُجدي عادةُ الحذَرِ إذا أفسَدَتْها عادةُ الاسترسالِ والاندفاع؟ فيكونُ حذراً لِيكونَ إغفالاً، ثم يكونُ إغفالاً لِيعودَ الزَّلَةَ والغلْطة؛ ومتى رجعَ غلطةً فهذا أولُ السقوط، ومبدأُ الانقلابِ والتحوّل. وليسَ الفرْقُ بينَ ٱمرأةٍ نَفُورٍ منَ الريبة، شَمُوسٍ[3] لا تُطلِعُ الرجالَ ولا تُطمِعُهم؛ وبينَ ٱمرأةٍ قَرورٍ على الريبة[4]، هَلوكٍ[5] فاجرةٍ - ليسَ الفرقُ إلَّا حجابَ الحذَرِ أُسْدِلَ على واحدة، وٱنكشفَ عنْ أُخرى.

وإذا قرَّتِ ٱلمرأة في فضائِلها، فإنمَّا هي في حِجابِها ودينِها، وإنَّما ذلك الحِجابُ ضابطُ حُرِّيتِها الصحيحة، بِٱعتبارِها ٱمرأةً غيرَ الرجل؛ فهو مسمًّى بالحجابِ لاتصالِه بالحريةِ وضبطِه لها، ولكنَّ ٱلضعفاءَ الذين يعرفون ظاهراً منَ ٱلرأي لا يُدركون مذهبَه، ولا يُحققون ما ينتهي إليه، وينفذونَ في حكمِهم على

(١) الإتب: رداء يشق من غير كمين. (٢) لا يساورها همّ: لا يخالجها.

(٣) شموس: قوية لا تلين صلابة.

(٤) قرور على الريبة: تحمل الناس على الريبة بمسلكها.

(٥) هلوك: متهالكة على الرذيلة.

الظاهرِ لا على البصيرة ـ هؤلاءِ لا يعرفونَ معنى الحجابِ إلّا في القُماشِ والكِساءِ والأبنية، كأنَّ حِجابَ الأخلاقِ النسويَّةِ شيءٌ يصنعُهُ الحائكُ والباني والمستَعْبِد، ولا تصنعهُ الشريعةُ والأدبُ والحياةُ ٱلاجتماعية؛ فهم كما ترى حينَ يأتونَ بنصفِ العلم، يأتونَ بنصفِ الجهل.

لم يخلقِ ٱللَّهُ المرأَةَ قوةَ عقلٍ فتكونَ قوةَ إيجاب، ولكنَّهُ أبدعَها قوةَ عاطفةٍ لِتكونُ قوةَ سلْب؛ فهي بخصائصِها والرجلُ بخصائصِه؛ والسلْبُ بطبيعتِهِ متحجِّبٌ صابرٌ هادئٌ منتظِر، ولكنَّهُ بذلك قانونٌ طبيعيٌّ تَتِمُّ بِهِ الطبيعة.

وينبغي أنْ يكونَ العِلْمُ قوةً لِصفاتِ ٱلمرأةِ لا ضعفاً، وزيادةً لا نَقْصاً؛ فما يحتاجُ العالَمُ إذا خرجَ صوتُها في مشاكلِهِ أنْ يكونَ كصوتِ الرجلِ صيحةً في معركة، بل تحتاجُ هذه المشاكلُ صوتاً رقيقاً مؤثراً محبوباً مجمَعاً على طاعتِه، كصوتِ الأمِّ في بيتِها.

* * *

أَيَّتُها الفتاة، إنَّ صدقَ الحياةِ تحتَ مظاهرِها لا في مظاهرِها التي تكذبُ أكثَرَ مِمَّا تَصْدق؛ فساعدي الطبيعةَ وٱحجُبي أخلاقَكِ عنِ الرجل، لِتعملَ هذه الطبيعةُ فيهِ بقوتينِ دافعتين: منها ومنك، فيُسرعُ ٱنقلابُهُ إليكِ وبحثُهُ عنكِ؛ وقد يجدُ الفاسقُ فاسقاتٍ وبَغَايا، ولكنَّ الرجلَ الصحيحَ الرجولةِ لنْ يجدَ غيرَك.

وإنَّما سفورُكِ وسفورُ أخلاقِكِ إفسادٌ لِتدبيرِ الطبيعة، وتمكينٌ لِلرجلِ نفسِهِ أنْ يُرْجِفَ بكِ الظنَّ[1]، ويُسيءَ فيكِ الرأْي؛ وعقابُكِ على ذلك ما أنت فيه منَ الكساد والبَوار؛ عقابُ الطبيعةِ لِمستقبلِكِ بالحرمان، وعِقابُ أفكارِك لنفسِك بالألم!

---

(١) أن يرجف بك الظَّنَّ: أن يسيء الظن بمسلكك.

س. ا. ع

هؤلاء ثلاثةٌ مِنَ الأدباءِ تجمعُهم صِفَةُ العُزوبة، ويُحبّون ٱلمرأةَ حُبًّا خائفاً يُقدّمُ رِجلاً ويؤخرُ أخرى؛ فلا يُقْبِلُ إِلَّا أدبر، ولا يَعْزِمُ إلا ٱنْحَلَّ عزمُه. بلغوا الرجولةَ وكأنْ ليسَتْ فيهم؛ وتمرُ بهمُ الحياةُ مرورَها بالتماثيلِ المنصوبة، لا هذه قد وُلِدَ لها ولا أولئك؛ وما برحوا يُجاهدون لِيحتملوا معانيَ وجودِهم، لا لِيطلبوا سعادةَ وجودِهم، ويُمخْرِقون[1] في شَعْوَذةِ[2] الحياةِ بالنهارِ على الليل، وبالليلِ على النهار؛ يُحاولون أنْ يَجِدوا كالناسِ أياماً وليالِيَ، إذْ لا يعرفون لِأنفسِهم مِنَ العُزوبةِ إِلَّا نهاراً واحداً، نصفُه أسودُ مُقْفِرٌ مظلِم. . . !

فأما «س» فرجلٌ «كشيخِ المسجدِ» يكادُ يرى حَصِيرَ المسجدِ حيث وَطِئتْ قدماهُ مِنَ الأرض. . . ذو دِينٍ وتقوى، ما يزالُ ينقبضُ وينكَمِشُ ويَتَزايلُ[3] حتى يَرجعَ طفلاً في ثلاثينَ من عمرِه. . . وهو حائرٌ بائرٌ لا يتَّجِهُ لِشيءٍ من أمرِ ٱلمرأة، وقد فَقدَ منها مِمَّا يَحِلُّ وما يَحْرُم، ولا جُرْأةَ لِنفسِهِ عليه، فلا جُرأةَ لَهُ على المُوبِقات، ولا يزيِّنُ لَهُ الشيطانُ وَرطةَ منها إِلَّا ٱمَّلَسَ منه[4]، فإنَّ له ثلاثةَ أبوابٍ مفتوحةٍ لِلْهرب: إذْ يخشى الله، ويَتَوقَّى على نفسِه، ويستحيِي من ضميرِه.

وأما «ا» فرجلٌ مِعْزابةٌ، ولكنه كالإسفِنْجة، ٱمتلأَتْ حتى ليسَ فيها خَلَاءٌ لِقَطرة، ثم عُصرَتْ حتى ليسَ فيها بَلَالٌ من قطْرة؛ وقد بلغَ ما في نفسِهِ وقضى نَهْمتَهُ حتى مِمَّا أراد؛ ثم قَلَبَ الثوب. . . فإذا لَهُ داخِلةٌ ناعمةٌ مِنَ الخزِّ والدِّيباج، وإذا هو «الرجلُ الصالح» العفيفُ الدَّخْلَة[5]، ما تنطلقُ له نفسٌ إلى مأثم، ولا يعرفُ الشيطانُ كيف يَتَسبَّبُ لِصُلْحِهِ ومُراجَعتِهِ الودّ. . .

وأما «ع» فهو كالأعرج؛ إذا مشى إلى الخيرِ أو الشرِّ مشى بطيئاً برجلٍ واحدة، ولكنَّهُ يمشي. . . . وهو «مَلِكُ الشوارعِ» لا يزالُ فيها مُقْبِلاً مُدبراً طَرَفاً مِنَ

---

(١) يمخرقون: يدجلون على عامة الناس.

(٢) شعوذة: دجل السحرة.

(٣) يتزايل: ينكمش، يتقلص.

(٤) امَّلس منه: تخلص منه.

(٥) الدَّخلة: الطوية، السريرة.

النهارِ وزُلَفاً مِنَ الليل؛ فإذا لم يكنْ في الشارعِ نساءٌ ظَنَّ الشارعَ قد هَرَبَ مِنَ المدينةِ، وخرجَ من طاعتِه... ولِهذه الشوارع أسماءٌ عندَه غيرُ أسمائِها التي يَتَعَارَفُها الناسُ ويستدِلُّون بها. فقد يكونُ اسمُ الشارع مثلاً: «شارع طه الحكيم» ويسميّه هو «شارع ماري»... ويكونُ اسمُ الآخر: «شارع كتشنر» فيُسميهِ «شارع الطُّويلة»... ودرْبٌ اسمُهُ «دربُ الملَّاح» واْسمه عنده «دربُ الْمَلِيحة».... وهلمَّ جرّا ومَسْخاً.

وإذا أرادَ صاحبُنا هذا أنْ يسخَرَ مِنَ الشيطانِ دخلَ المسجدَ فصلَّى، وإذا أرادَ الشيطانُ أنْ يسخرَ منه دَحْرَجَهُ في الشوارع...!

***

وافيتُ هؤلاءِ الثلاثةَ مجتمعينَ يَتَدارَسُون مقالةَ «تربية لؤلؤية»، يُناقِشُونها بثلاثةِ عقول، ويفتِّشونها بستّ عيون؛ فأجمعوا على أنَّ المرأةَ السافرةَ التي نبذَتْ «حِجابَ طبيعتِها» على ما بيَّنتُه في تلك المقالة ـ إنْ هي إلّا اْمرأةٌ مجهولةٌ عندَ طالبي الزواج، بقدرِ ما بالغَتْ أنْ تكونَ معروفة، وأنَّها اْبتعدَتْ من حقيقتِها الصحيحةِ، قدرَ ما اْقتربَتْ من خَيالِها الفاسد؛ وأتقنَتِ اْلغَلَطَ لِيصدّقَها فيهِ الرجلُ، فلم يكذِّبْها فيه إلَّا الرجل؛ وجعلَتْ أحسنَ معانيها ما ظهرَتْ بهِ فارغةً من أحسنِ معانيها...!

وأردْتُ أنْ أَعرفَ كيف تَنْتَصِفُ الطبيعةُ مِنَ الرجلِ العَزَبِ لِلمرأةِ التي أهملَها أو تركَها مُهْمَلة... وأين تبلغُ ضَرَباتُها في عيشِه، وكيف يكونُ أثرُها في نفسِه، وكيف تكونُ المرأةُ في خائنةِ الأعين؛ فتسرَّحْتُ معَ أصحابِنا في الكلامِ فنًّا بعدَ فنّ، وأزلْتُ حِذارَهمُ الذي يحذرون، حتى أفضَوْا إليّ بفلسفةِ عقولِهم وصدورِهم في هذه المعاني.

قال «س»: حسْبي ـ واللّهِ ـ مِنَ الآلامِ وآلام معَها ـ شعوري بحرماني المرأةَ؛ فهو بلاءٌ منَعني القرار، وسلبني السَّكِينة؛ وكأنَّهُ شعورٌ بمثلِ الوَحْدةِ التي يُعاقَبُ السجينُ لها مصروفاً عنِ الحياةِ مصروفةً عنهُ الحياة؛ تجعلُه جُدرانُ سجنهِ يتمنَّى لو كانَ حَجَراً فيها فينجوَ من عذابِ إنسانيتِهِ الذليلةِ اْلمجرمة، المخَلَّى بينَها وبينَه تُوسِعُهُ مِمَّا يَكرهُ؛ شعورٌ بالوحدةِ والعُزْلةِ حتى معَ الناسِ وبينَ الأهلِ فما فيَّ إلا عواطفُ خُرْسٌ لا تستجيبُ لِأحدٍ ولا يُجاوبُها أحدٌ في «ذلك المعنى».

وتمامُ الذلَّةِ أنْ يجدَ العَزَبُ نفسَهُ أبداً مُكْرَهاً على الحديثِ عنِ آلامِهِ لِكلِّ مَنْ

يُخالِطُهُ أو يجلسُ إليه، كأنَّه يحملُ مصيبةً لا يُنَفِّسُ منها إلَّا كلامُهُ عنها. وهذا هو السرُّ في أنَّكَ لا تجدُ عَزَباً إلا عرفته ثرثاراً لا تزالُ في لِسانِهِ مَقَالةٌ عن معنًى أو رجلٍ أوِ آمرأة، وأصبْتَهُ كالذبابِ لا يطيرُ عن موضعٍ إلَّا لِيقعَ على موضع.

ومع جَهْدِ الحِرمانِ جَهْدٌ شرٌّ منه في المقاومةِ وكفِّ النفس؛ فذلك تَعبٌ يَهلِكُ بهِ الآدميُّ، إذْ لا يدعُهُ يَتَقَارُّ على حالةٍ منَ الضجرِ فيما تُنازِعُهُ الطبيعةُ إليه، وهو كالمَزْعِ في أعصابِه، يُحِسُّها تُشَدُّ لِتُقْطَع، ودائماً تُشَدّ لِتُقْطع.

وقد رَهِقني من ذلك الضَّنَى[١] النَّسويّ ما عِيلَ به صبري وضَعُفَ له آحتمالي؛ فما أراني يوماً على جِمَامٍ مِنَ النفس، ولا آرتياحٍ مِنَ الطبع؛ وكيف وفي القلبِ مادةُ همِّه، وفي النَّفسِ عِلَّةُ آنقباضِها، وفي الفكرِ أسبابُ مَشْغَلَتِه؟ وقد أوقَدَتْ سَوْرةُ[٢] الشبابِ نارَها على الدم، تَعْتَلِجُ[٣] في الأحشاء؛ وتطيرُ في الرأس، وتصبُغُ الدنيا بلونِ دُخانِها، وفي كلِّ يومٍ يتخلَّفُ منها رَمادٌ هو هذا السوادُ الذي رَانَ على قلبي.

وما حالَ رجلٌ عذابُهُ أَنَّهُ رجل، وذُلُّهُ أَنَّهُ رجل؟ يلبسُ ثيابَهُ الإنسانيةَ على مثلِ الوحشِ في سلاسِلِهِ وأغلالِه، ويحملُ عقلاً تَسُبُّهُ الغريزةُ كلَّ يوم، وتراهُ مِنَ العقولِ الزُّيُوفِ[٤] لا أثرَ لِلفضيلةِ فيه؛ إذْ هو مجنونٌ بالمرأةِ جنونَ الفكرَةِ الثابتة، فما يخلو إلى نفسِهِ ساعةً أو بعضَ ساعةٍ إلَّا أخذتْهُ الغريزةُ مُجْتَرِحاً جريمةَ فِكْر...

وفي دُون هذا يُنكرُ المرءُ عقلَه؛ وأيُّ عقلٍ تُراهُ في رجلٍ عَزَبٍ يقعُ في خيالِه أنَّهُ متزوج، وأنَّهُ يأوي إلى «فلانة»، وأنَّها قائمةٌ على إصلاحِ شأنِهِ ونظامِ بيتِه، وأنَّهُ من أجلِها كانَ عَزُوفاً[٥] عنِ الفَحْشاءِ بعيداً مِنَ المنكَر؛ وفاءً لها وحِفْظاً لِعهدِ اللَّهِ فيها، وقد دلَّهَتْهُ[٦] بفُنونِها التي يبتدِعُها[٧] فكرُهُ؛ وهي ساعةً تُؤَاكِلهُ على الخِوان[٨]، وساعةً تُضاحِكُه، ومرةً تُعابِثُه، وتارةً تُجافيه[٩]، وفي كلِّ ذلك هو ناعمٌ بِها، يُحدِّثُها في نفسِه، ويَسْمَرُ معها، ويتصنَّعُ له؛ ويُعاتبُها أحياناً في رِقَّة، وأحياناً في جَفاءٍ وغِلْظة: وقد ضربَها ذاتَ مرة..

---

(١) الضنى: الإرهاق، التعب الشيد.
(٢) سورة الشباب: عنفوانه، قوته.
(٣) تعتلج: تمور.
(٤) الزيوف: المموّهة.
(٥) عزوفاً: ممتنعاً.
(٦) دلهته: ولّهته.
(٧) يبتدعها: يخترعها.
(٨) الخوان: المائدة عليها الطعام.
(٩) الجفاء: البعد مصحوب بالكراهية.

أَلا إنَّ فكرةَ المرأةِ عندي هي هذا الجنونُ الذي يرجعُ بي إلى عشرةِ آلافِ سنةٍ من تاريخِ الدنيا، فَيرمي بي في كَهفٍ أو غابةٍ، فأراني من وراءِ الدهورِ كأنّي أَبدأُ الحياةَ منفرداً وأجِدُني رجلاً عارياً متوحشاً متأبِّداً ليسَ مِنَ الحيوانِ ولا منَ الإِنْس، دنياهُ أحجارٌ وأشجار، وهو حجَرٌ له نموُّ الشجَر.

لقد توزَّعَتِ ٱلمرأةُ عقلي فهو متفرّقٌ عليها، وهي متفرقةٌ فيه، لا أستطيعُ ـ واللَّهِ ـ أنْ أتصوَّرها كاملة، بل هي في خيالي أجزاءٌ لا يجمعُها كلٌّ؛ هي ٱبتسامةٌ، هي نظرةٌ، هي ضحكةٌ، هي أُغنية، هي جسم، هي شيءٌ، هي هي هي.

أكلُّ تلك المعاني هي ٱلمرأةُ التي يعرفُها الناس، أم أنا لِيَ ٱمرأةٌ وحدي؟

وإنِّي على ذلك لأَتَخوَّفُ الزواجَ وأتحاماه؛ إذْ أرى الشارعَ قد فَضحَ ٱلنساءَ وكَشَفَهُنّ؛ فما يُريني منهنّ إلا ٱمرأةً تُزْهَى[1] بثيابِها وصنْعةِ جمالِها، أوِ ٱمرأةً كالهاربةِ من فضائلِها؛ والبيتُ إنّما يطلبُ الزوجةَ الفاضلَة الصَّناعَ، تَخِيطُ ثوبَها بيدِها فُتباهِي بصنعتِهِ قبلَ أنْ تُباهيَ بِلبسِه، وتُزْهَى بأثرِ وجهِها فيَّ، لا بأثرِ المساحيقِ في وجهِها. وإنَّ مكابدة العِفَّة، ومُصارعةَ الشيطان، وتوهُّجَ القلبِ بنارِهِ ٱلحامية، وإلمامَ الطَّيْرةِ الجُنُونيةِ بالعقل ـ كلُّ ذلك ومثلُهُ معه أهونُ من مُكابَدَةِ زوجةٍ فاسدةِ العِلْمِ أو فاسدةِ الجهْل، أُبْتَلَى منها في صديقِ العُمر بعدوِّ العُمر.

إنَّ أثَرَ الشارعِ في ٱلمرأةِ هو سوءُ الظنِّ بها، فهي تحسِبُ نفسَها مُعلِنةً فيه أنوثتَها، وجمالَها، وزينتَها؛ ونحن نراها معلنةً فيه سُوءَ أدب، وفسادَ خُلُق، وٱنحطاطَ غريزة. ومَنْ كانَ فاسقاً أساءَ الظنَّ بكلِّ الفتيات، ووجَد السبيلَ من واحدةٍ إلى قولٍ يقولُهُ في كلِّ واحدة؛ ومَنْ كان عفيفاً سَمِعَ مِنَ الفاسقِ فوجدَ من ذلك مُتَعلَّقاً يتعلَّقُ بِه، وقِياساً يقيسُ عليه؛ وٱلفتنةُ لا تُصيبُ الذين ظَلموا خاصَّة، بل تعُمّ.

آه لوِ ٱستطعْتُ أن أوقِظَ ٱمرأةً من نساءِ أحلامي. . . !

وقال «ا»: لقد كانَتْ معاني ٱلمرأةِ في ذهني صُوراً بديعةً مِنَ الشعرِ تستخِفُّني إليها العاطفة، ولا يزالُ منها في قلبي لِكلِّ يومِ نَازِيةٌ تَنْزو[2]. وكانتِ ٱلمرأةُ بذلك حديثَ أحلامي ونَجِيَّ وساوِسي، وكنْتُ عفيفَ البنطلون[3]؛ ولكنَّ النساءَ أيقظْنَني

---

(١) تزهى: تفتخر.

(٢) نزا: معناه في اللغة جامع والمقصود هنا أنَّ العاطفة نحو المرأة تذهب به كل مذهب.

(٣) هذا تعبير عصري مأخوذ من قول العرب: فلان عفيف الإزار. كناية عن عفته.

مِنَ الحُلُم، وفجعْنَني فيه بالحقيقة، ووضعْنَ يدي على ما تحتَ مَلمَسِ الحيَّة. ولو حدثْتُك بجملةِ أخبارِهِنَّ، وما مارسْتُ منهُنَّ لتكَرَّهْتَ وتَسخَّطْتَ، ولأيقنْتَ أنَّ كلمةَ (تحرير المرأة» إنَّما كانَتْ خطأً مطبعيًا، وصوابُها: (تجرير المرأة)... فهؤلاءِ النساءُ أو كثرتُهن ـ لم يُذِلْنَ الحجابَ إلَّا لِتَخرجَ واحدةٌ مِمَّا تجهلُ إلى ما تُريدُ أنْ تعرف، وتخرجُ الأخرى مِمَّا تعرفُ إلى أكثرَ مِمَّا تعرفُه، وتخرجُ بعضُهنَّ من إنسانةٍ إلى بهيمة....

لقد عرفْتُ فيمَنْ عرفتُ منهُنَّ الخفيفةَ الطيَّاشة، والحمقاءَ المتساقِطَة، والفاحشةَ ذاتَ الرِّيبة؛ وكلُّ أولئك كانَ تحريرُهُنَّ أي ـ تجريرُهُنَّ ـ تقليداً لِلمرأةِ الأوربية؛ تهالكْنَ على رذائلها دونَ فضائلِها، وٱشتدَّ حِرْصُهُنَّ على خيالِها الروائي دون حقيقتِها العِلْميَّة، ومن مصائِبنا ـ نحنُ الشرقيينَ ـ أنَّنا لا نأخذُ الرذائلَ كما هي، بلْ نزيدُ عليها ضَعْفَنا فإذا هي رذائلُ مضاعَفة.

كانَ الحُلُمُ الجميلُ في الحِجابِ وحدَه، وهو كانَ يُسَعِّرُ أنفاسي ويَستطيرُ قلبي، ويُرغِمُني مع ذلك على ٱلاعتقادِ أنَّ هٰهنا علامةَ التكرُّم، ورمزَ الأدب، وشَارةَ العِفَّة، وأنَّ هذه المُحصَّنةَ المُخدَّرة ـ عذراءَ أوِ ٱمرأةً ـ لم تُلقِ الحِجابَ عليها إلَّا إيذاناً بأنَّها في قانونِ عاطفةِ الأمومةِ لا غيرِها؛ فهي تحتَ الحِجابِ لأنَّهُ رمزُ الأمانةِ لِمستقبلِها، ورمزُ الفصلِ بينَ ما يَحسنُ ومالا يَحسن، ولِأنَّ وراءَهُ صفاءَ روحِها الذي تخشى أنْ يُكدَّرَ، وثباتَ كِيانِها الذي تخشى أنْ يُزعْزع.

قال حكيمٌ لِأولئك الذين يستميلونَ النساء بأنواعِ الحِليِّ وصنوفِ الزينةِ والكُسوةِ الحسنة: «يا هؤلاءِ، إنَّكم إنَّما تعلمونَهُنَّ محبَّة الأغنياءِ لا محبةَ الأزواج»، وأحكمُ من هذا قولُ الرجلِ الإلهيِّ الصارمِ عمَر بْنِ الخطاب: «إضربُوهنَّ بالعُرى» فقد عُرفَ من ألفِ وثلثمائةِ سنةٍ أنَّ تحريرَ المرأةِ هو تجريرها، وأنَّها لا تخرجُ لِمصلحةٍ أكثرَ مِمَّا تخرجُ لِأظهارِ زينتِها. فلو مُنِعَتِ الثيابَ الجميلةَ حبَسْتْها طبيعتُها في بيتِها. فماذا تقولُ الشوارعُ لو نطقت؟ إنَّها تقول: يا هؤلاءِ، إنَّما تعلمونَهُنَّ معرفةَ الكثيرِ لا معرفةَ الواحد...!

لقد ـ واللّٰهِ ـ أنكرْتُ أكثَر ما قرأَتُ وسمعْتُ من محاسِنِهنَّ وفضائلِهِنَّ وحيائهِنَّ، ولقد كانَ الحِجابُ معنًى لِصعوبةِ ٱلمرأةِ وٱعتزازِها، فصارَ الشارعُ معنًى لِسُهولتِها ورُخْصِها؛ وكانَ مع تحقُّقِ الصعوبةِ أو تَوهمِها أخلاقٌ وطِباعٌ في الرجل، فصارَ مع توهُّمِ السهولةِ أو تحقُّقِها أخلاقٌ وطِباعٌ أخرى على العكسِ من تلك؛ ما

زالَتْ تَنْمِي وتتحولُ حتى ألجأتِ القانونَ أخيراً أنْ يترقَّى بِمَنْ لمسَ ٱلمرأةَ في الطريقِ مِنَ «الجُنحة» إلى «الجناية».

وتَخَنَّثَ الشّبانُ والرجال، ضُروباً مِنَ التخنثِ بهذا الاختلاطِ وهذا الابتذال، وتحلَّلَتْ طِباعُ الغَيْرة، فكانَ هذا سريعاً في تغييرِ نظرتهِمْ إلى النساء، وسريعاً في إفسادِ ٱعتقادِهم، وفي نَقْضِ ٱحترامِهم، فأقبلوا بالجسم على المرأة، وأعرضوا عنها بالقلْب؛ وأخذوها بمعنى الأنوثة، وتركوها بمعنى الأمومة؛ ومن هذا قلَّ طُلّابُ الزواج، وكثُرَ روّادُ الخَنا[1].

ولقد جاءَتْ إلى مصرَ كاتبةٌ إنجليزية، وأقامَتْ أشهراً تُخالطُ النساءَ المتحجباتِ وتدرسُ معانيَ الحِجاب، فلمَّا رجعَتْ إلى بلادِها كتَبَتْ مقالاً عنوانهُ: «سؤالٌ أحملُهُ مِنَ الشرقِ إلى المرأةِ الغربية» قالَتْ في آخرِه: «إذا كانَتْ هذه الحريةُ التي كسبناها أخيراً، وهذا التنافسُ الجنسيُّ، وتجريدُ الجنسَينِ من الحُجُبِ المشَوّقةِ الباعثةِ التي أقامَتْها الطبيعةُ بينَهما ـ إذا كانَ هذا سيُصبحُ كلُّ أثرِهِ أنْ يتولَّى الرجالُ عنِ النساء، وأنْ يزولَ مِنَ القلوبِ كلُّ ما يُحرّكُ فيها أوتارَ الحُبِّ الزوجيِّ فما الذي نكونُ قد ربحناه؟ لقد ـ واللَّهِ ـ تُضطرُّنا هذه الحالُ إلى تغييرِ خِطَطنا، بل قد نستقرّ طوعاً وراءَ الحِجابِ الشرقيّ، لِنتعلمَ من جديدٍ فنَّ الحُبِّ الحقيقيّ».

* * *

وقال «ع»: لستُ فيلسوفاً، ولكنَّ في يدي حقائقَ من عِلْمِ الحياةِ لا تأتي الفلسفةُ بِمثلِها، وكتابي الذي أقرأُ فيه هوَ الشارع.

فٱعلَمْ أنَّ العُزَّابَ مِنَ الرجالِ يتعلَّمُ بعضهُم من بعض، وهم كاللصوصِ لا يجتمعُ هؤلاءِ ولا هؤلاءِ إلّا على رذيلةٍ أو جريمة. وحياةُ اللصِّ معناها وجودُ السرقة، وحياةُ العَزبِ معناها وجودُ البِغَاءِ[2] والفِسْق.

ومن حُكمِ الطبيعةِ على الجنسينِ أنَّ الفاسِقَ يُباهِي بإظهارِ فسقِهِ قدرَ ما تخافُ الفاسقةُ مِنَ ظهورِ أمرِها: وهذه إشارةٌ مِنَ الطبيعةِ إلى أنَّ ٱلمرأةَ مسكينةٌ مظلومة. فما ٱبتذالُ الحِجاب، ولا ٱستِهتاكُ النساءِ إلّا جوابٌ على ٱنتشارِ العُزُوبةِ في الرجال، وكيفَ يتحَّولُ الماءُ ثلجاً لولا الضغطُ نازلاً فنازلاً إلى ما دونَ الصفر؟ فهذا الثلجُ ماءٌ يعتَذرُ من تحوُّلهِ وٱنقلابهِ بعذرٍ طبيعيّ قاهر، له قوةُ الضرورةِ

(١) الخنا: الفاحشة.

(٢) البِغاء: الرذيلة، الخنا.

المُلْجِئة، وكذلك ٱلمرأةُ المُذالةُ أوِ ٱلطامحةُ أوِ ٱلمتبذّلةُ أوِ ٱلمتهتكَة ـ ما صفاتُهُنَّ إلّا توكيدٌ لِأعذارِهِنّ.

وكانَ على الحكومةِ أنْ تضربَ العزبةَ ضربةَ قانونٍ صارم، فالعَزبُ وإنْ كان رجلاً حرًّا في نفسِه، ولكنَّ رجولتَهُ تفرِضُ لِلأنوثةِ حقَّها فيه؛ فمتى جَحَد[1] هذا الحقَّ، وٱستكبرَ عليه، رجعَ حالُهُ مَعَ المرأةِ إلى مثلِ شأنِ الغَريمِ مع غريمِه؛ ليسَ لِلفصْلِ فيهِ إلّا الدولةُ أوحكامُها وقوّتُها التنفيذية.

وإذا أُطلقَتِ ٱلحريةُ لِلرجالِ فصاروا كلُّهم أو أكثرُهم أعزاباً، فماذا يكونُ إلّا أنْ تُمحى الدولة، وتسقطَ الأمَّة، وتتلاشى الفضائل؟ فالعُزوبةُ من هذا جريمةٌ بنفسِها، ولا ينبغي أنْ تتربَّصَ بها الحكومةُ حتى تعمّ، بل يجبُ ٱعتبارُها بٱعتبارِ الجرائمِ من حيثُ هي، ويجبُ تفسيرُ كلمةِ «العَزب» في اللغة بمثلِ هذا المعنى: إنَّها شخصيةٌ مذكَّرةٌ ساخطةٌ متمرِّدةٌ على حقوقٍ مختلفةٍ لِلمرأةِ والنسْلِ والأمَّةِ والوطن.

وما سَاء رأيُ العزَّاب في النساءِ والفَتياتِ إلّا من كونِهم بطبيعةِ حياتِهِمُ ٱلمضطربةِ لا يعرفونَ ٱلمرأةَ إلّا في أسوإِ أحوالِها وأقبحِ صِفاتِها، وهم وحدَهم جعلوها كذلك.

إنَّ لهم وجوداً مُحزناً يستمتعون فيه، ولكنَّهم يَهْلِكونَ ويُهلكونَ به. هم ـ واللّهِ ـ لَأساتذةُ الدروسِ السافلةِ في كلِّ أمَّة، وهم ـ واللّهِ ـ بُغَاةٌ مِنَ الرجالِ في حكم البَغَايا مِنَ النساء، يَجْرُون جميعاً مَجْرًى واحداً. ومَنْ هي البَغيُ في الأكثرِ إلّا ٱمرأةٌ فاجرةٌ لا زوجَ لها؟ ومَنْ هو العَزبُ في الأكثرِ إلّا رجلٌ فاسقٌ لا زوجةَ له؟ على أنَّ معَ المرأةِ عذرَ ضعفِها أو حاجتِها، ولكنْ ما عذرُ الرجل؟

ماذا تُفيدُ الدولةُ أو الأمَّةُ من هذا العَزبِ الذي ٱعتادَ فَوْضى الحياة، وسَيْرَها على نظامِها، وتَحقُّقَها على أسخفِ ما فيها مِنَ الخيالِ والحقيقة؛ وأيُّ الروحِ التي تتمُّ روحَه، وتُنقِّحُها، وتُمسِكُها في دائرتِها الاجتماعيةِ على واجباتِها وحقوقِها، وتجيئُهُ بالأرواحِ الصغيرةِ التي تُشعرُهُ التَّبِعةَ والسيادةَ معاً، وتمتدّ به ويمتدّ بها في تاريخِ الوطن؟

كيف يُعتَبرُ مثلُ هذا موجوداً ٱجتماعيًّا صحيحاً وهو حيّ مُختلّ في وجودِ

---

(١) حجد: أنكر.

مُستعار، يقضي الليلَ هارباً من حياةِ النهار، ويقضي النهارَ نافراً من حياةِ الليل؛ فيقضي عمرَهُ كلَّه هارباً مِنَ الحياة، وكأنه لا يعيشُ بروحِهِ كاملة، بل ببعضِها، بل بالممكنِ من بعضِها. . .!

أيةُ أسْرةٍ شريفةٍ تَقْبلُ أن يُساكِنَها رجلٌ عزب، وأيَّةُ خادم عفيفةٍ تطمئنُ أنْ تخدُمَ رجلاً عزباً؟ هذه هي لعنةُ الشرفِ والعفةِ لهؤلاءِ الأعزابِ مِنَ الرجال!

* * *

قال الرواي: وهنا انتفضَ «س» و «ا» وحاولا أنْ يقبضا على هذه اللعنةِ ويردَّاها إلى حلْق «ع». ثم سألني ثلاثتُهم أنْ أسْقِطَها مِنَ المقال، بَيْد أني رأيْتُ أنَّ خيراً من حذفِها أنْ تكونَ اللعنةُ لأعزابِ الرجالِ إلَّا «س» و «ا» و «ع».

استنوقَ ٱلجمل[1]

قال الشاب: لا قِبَلَ لي بهذا التعَبِ المُعنِّي الذي يسمّونَه «الزواج» فما هو إلّا بيتٌ ثِقْلُهُ على شيئين: على الأرض، وعلى نفسي؛ وٱمرأةٌ همُّها في موضعين: في دارِها، وفي قلبي؛ وما هو إلّا أطفالٌ يُلْزمونني عملَ الأيدي الكثيرةِ من حيثُ لا أملِكُ إلّا يدينِ ٱثنتين، وأَتحمَّلُ فيهم رَهَقاً شديداً كأنمّا أبنيهم بأيامي، وأجمعُ همومَ رؤوسِهِم كلِّها في رأسٍ واحدٍ هو رأسي أنا.

يُولَد كلٌّ منهم بمَعِدةٍ تَهضُم لِتوِّها وساعتِها، ثم لا شيءَ معَها من يدٍ أو رِجلٍ أو عقلٍ إلّا هو عاجزٌ لا يستقلّ، مُتَخاذلٌ لا يُطيقُ ولا يقْدِرُ.

قال: وإذا كانَ أولُ الزواجِ أيْ عسَلُهُ وحَلْواهُ أنَّهُ ٱمرأةٌ تُذْهِبُ عُزوبتي. فأنا وأمثالي ما نزالُ في عَسَلٍ وحَلوى... ولِكلِّ وقتٍ زواج، ولِكلِّ عصرٍ أفكار، وما أسخفَ ٱلليالِيَ إذا هي ترادفَتْ[2] على ضرْبٍ واحدٍ من أحلامِها، فهذا يجعلُ النومَ حكماً بالسجنِ عشَر ساعات...!

قال: وإذا أردْتَ أنْ تستكشِفَ القِصَّةَ فٱعلمْ أنَّنا ـ نحن العُزَّابَ ـ قومٌ كرجالِ الفنّ؛ رذيلتُهم فنِّيَّة، وفضيلتُهم فنِّية، فتلك وهذه بسبيل؛ وكلُّ شيءٍ في الفنِّ هو لِموضعِهِ مِنَ الفنِّ لا من غيرِه؛ فإذا قلْتَ: هذا خالٍ مِنَ الفضيلة، عارٍ مِنَ الأدب؛ وعِبْتَ الفنَّ لذلك ـ فما هو إلّا كَعيبِكَ وجهَ المرأةِ الجميلةِ لأنَّهُ خالٍ من لِحْية..! هاتِ الظلامَ وسوادَه، فإنَّهُ لونٌ كالنورِ وإشراقِه، لا بدَّ من كليهما؛ إذِ المعنى الفنِّيُّ إنَّما يكونُ في تناسُبِ الأشياءِ لا في الأشياءِ ذاتِها؛ ويدُ الفنيّ كيَدِ الغنيِّ؛ هذه لا يقعُ فيها الذهبُ إلّا لِيعدَّدَ ثم يتعدَّد؛ وتلك لا تقعُ فيها المرأةُ إلّا لِتتعدَّدَ ثم تتعدَّد؛ وفي كلِّ دينارٍ قوةٌ جديدة، وفي كلِّ ٱمرأةٍ فنٌّ جديد...

قال: ومذهبُنا في الحياةِ أنْ نستمتعَ بها ضُروباً وأفانِين؛ مَن أطاقَ لم يقتصرْ

---

(١) استنوق الجمل إستحال الجمل ناقة.

(٢) ترادفت: توالت.

على نوعين، ومن قَدر على نوعينِ لم يرضَ الواحد؛ ولو أنَّ زوجةً كانَتْ من أشعةِ الكواكبِ أو من قَطَراتِ النَّدى، لَثَقُلَ منها على حياتِنا ما يثقُلُ مِنَ الحديدِ والصَّوَّان؛ إذْ هي لا تَلِدُ أشعةَ كواكب، ولا قطراتِ ندًى؛ وحَسْبُ الجسدِ برأسٍ واحدٍ حِمْلاً.

قال: ومَنِ الذي تَعرضُ عليهِ الحياةُ سلامَها وتحيَّاتِها وأشواقَها في مثلِ رسالةِ غرام، ثم يدعُ هذا ويسألُها غضَبَها وخِصامَها ولَجَاجتَها[1] في مثلِ قضيةٍ من قضايا المحاكمِ كلُّ ورقةٍ فيها تَلِدُ ورقة. . ؟

ثم قال الشابُّ: لا تحسَبنَّ أنَّ المرأةَ هي السافرةُ عندَنا، ولكنَّ اللذةَ هي السافرة؛ وما أحكَمَ الشرعَ! أقولُ لك وأنا محامٍ يقررُ الحقيقة: ـ ما أحكمَ الشرعَ الذي لم يُرخِّصْ[2] في كشفِ وجهِ ٱلمرأةِ إلَّا لِضرورة، فإنَّ الواقعَ في الحياةِ أنَّ هذا الكشفَ كثيراً ما يكونُ كنقْبِ اللصِّ على ما وراءِ النَّقْب؛ وإذا كُسِرَ ما فوقَ القُفلِ مِنَ الخزانةِ المكتَنِزِ فيها الذهبُ والجوهرُ، فالبابُ الجديدُ كلُّهُ سُخريةٌ وهُزُؤٌ من بَعْدُ. . . !

* * *

هذه عقليةُ شابٍّ محامٍ طُويَ عقلُهُ على الكتبِ القانونية، وطُوي قلْبُهُ على مثلِها من غير القانونية. . . وليسَ يَمتَري[3] أحدٌ في أنَّها عقليةُ السوادِ مِنْ شبابِنا المثقَّفِ الذي لَبِسَ الجلدَ الأوروبيَّ. ومِنَ البلاءِ على هذا الشرقِ أنه ما بَرِحَ يُناهِضُ المستعمرينَ ويُواثبُهم، غافلاً عن معانيهمُ ٱلاستعماريةِ التي تُناهِضُهُ وتُواثبُهِ، جاهلاً أنَّ أوروبا تستعمرُ بالمذاهبِ العِلْميةِ كما تستعمرُ بالوسائلِ الحربية؛ وتَسوقُ الأسطولَ والجيش، والكتابَ والأستاذ، واللذَة والاستمتاع، والمرأةَ والحُبّ.

ولو أنَّ عدوّاً رماكَ بالنارِ فٱستطارَتْ في ثيابِك أو متاعِك لَمَا دخلَكَ الشكُّ أنَّ عدوَّك هوَ النارُ حتى تفرغَ من أمرِها. فكيف ـ لَعمري ـ غَفَلَ الشرقيونَ عن أخلاقٍ ناريَّةٍ حمراءَ يأكلُهم بها المستعمرونَ أكلاً كأنَّما ينضجونَهم عليها ليكونوا أسهلَ مَسَاغاً[4]، وألينَ أخْذاً، وأسرعَ في الهضم. . !

---

(١) لجاجتها: إلحاحها. (٢) يرخص: يسمح.
(٣) يمتري: يستخرج، والمعنى في الأصل يعني استخراج الماء بالدلاء من البئر.
(٤) مساغاً: قابلية البلع والهضم.

لم أفهم أنا من كلام صاحبِنا الشابِّ ومعانيهِ إلَّا أنَّ أوروبا في أعصابهِ، وأمَّا مصرُ ونساؤُها ورجالُها فعلى طَرفِ لِسانِه لا تكونُ إلَّا صيْحة، وليس بينَهُ وبينَها في الحياةِ عملٌ إلَّا من ناحيةِ لذَّتِه بها، لا من ناحيةِ فائدتِها منه.

وتلك المعاني كلُّها مشتقٌ بعضُها من بعض، ومَرْجِعُها إلى أصلٍ واحدٍ، كالأمراضِ التي تَبتلي الجسمَ يُمَهدُ شيءٌ منها لِشيء، ما دامَتْ طبيعةُ هذا الجسمِ زائغةً أو مختلَّة، أو متراجِعةً إلى الضعف، أو ذاهبةً إلى الموت.

وأولئك شبانٌ وقفَ بهمُ الشبابُ موقِفَ بَلادة، فلا يخطو إلى الرجولة، ولا يكمُلُ بنموِّهِ الاجتماعيِّ كما يكملُ الرجلُ الوطنيّ؛ فمِنْ ثَمَّ يكونُ خَوَّاراً[1] لا يستطيعُ أنْ يَحملَ أثقالاً مَعَ أثقالِهِ، ويَستوطىءُ العجزَ والخُمول؛ فلا يكونُ إلَّا قاعدَ الهِمَّة، رخْوَ العزيمة، قدِ ٱستنامَ إلى أسبابِ عجزِهِ وتَخاذُلِه، ولا يكونُ في بعضِ الاعتبارِ إلَّا كالمريضِ يعيشُ بمرضِهِ حَمِيلةً[2] على ذويه، ضُجعةً[3] لا يمشي، نُوَمةً[4] لا ينتَهِض، مستريحاً لا يعمل.

وبهذه المَكْسَلَةِ الاجتماعيةِ في الشبانِ يبدأُ الشعبُ يتحوّلُ من داخِلِهِ فينصرفُ عن فضائلِه، ويتخذُ في مكانها فضائلَ ٱستعارةٍ يقلِّدُ فيها قوماً غيرَ قومِه، ويجلبُها لِبيئةٍ غيرِ بيئتِه، ويَقْصِرُها[5] على أنْ تَصْلُحَ له وهي فَساد، ويُكْرِهُها على أنْ تنفعَهُ وهي ضرر، وتلك حالةٌ يُغَامِرُ فيها الشعبُ بكِيانِهِ فلا تلبثُ أنْ تَصْدعَه[6] وتُفَرّقه.

ولو أنَّ في السحابِ مطَراً وغَيثاً لَمَا كانَ لَهُ في كلِّ ساعةٍ لونٌ مصبوغ، ولو أنَّ في الشبابِ ديناً لَمَا صبغَتْهُ تلك الأخلاقُ الفاسدة، وما ذهابُ الحارسِ عن مكانٍ إلَّا دعوةٌ لِلصوصِ إليه، وهل كانَ الدينُ إلَّا واجباتٍ وتَبِعاتٍ وقيوداً يُرادُ من جميعِها إعدادُ الإنسانِ لِأمثالِها في الاجتماع، حتى يقَرَّ في إنسانيتِهِ الصحيحةِ على النحوِ الذي يصلُحُ له مُنْفرِداً ويصلُحُ له مُجْتمِعاً؟ فليَستِ الزوجةُ وحدَها هي التي خَسِرَتِ ٱلشابَّ بل خسِرَهُ معها الوطنُ والدينُ والفضيلةُ جميعاً، وبهذا ٱنعكسَ وضعُهُ مِنَ الجماعة، فوجَبَ في رأيِهِ أنْ تُسَخَّرَ الجماعةُ لَه، وأنْ يستقلَّ هو بنفسِه، وبهذا العكس، وهذا السقوط، وهذا الاستمتاع الذي يجِدُ سعادتَهُ في نفسِه؛ أصبحَ

---

(١) خوّاراً: ضعيفاً، جباناً.
(٢) حميلة: طفيلياً يطعم من مال غيره أن يعمل.
(٣) ضُجعة: مشلولاً.
(٤) نُومة: طريح الفراش.
(٥) يقسرها: يجبرها.
(٦) تصدعه: تصرعه.

أولئك الشبانُ كأنَّما حقُّهم على المجتمعِ أنْ يقدّمَ لهم بَغَايا لا زوجاتٍ. . . بغَايا حتى مِنَ الزوجات. . . !

قبّح اللّهُ عصْراً يجهلُ الشابُّ فيه أنَّ الرجلَ والمرأةَ في الوطنِ كلمتانِ تفسِّرُ الإنسانيةُ إحداهما بالأخرى تفسيراً إنسانياً دينياً بالواجباتِ والقيودِ والأحمال، لا بالأهواءِ والشهواتِ والانطلاقِ كما تفسِّرُ الحيوانيةُ الذكرَ والأنثى.

والنفسُ الدنيئةُ أوِ المنحطَّةُ في أخلاقِها ومَنازعِها مِنَ الحياةِ لا تكونُ إلَّا دنيئةً أو مُنْحطةً في أحلامِها وأخْيِلتِها الروحيَّةِ، دنيئةً كذلك في طاعتِها إنْ قَضَتْ عليها الحياةُ بموضعِ الخضوعِ. دنيئةً في حُكْمِها إنْ قضَتْ لها الحياةُ بمنزلةٍ مِنَ السُّلْطة. ولو تنَبهتِ الحكومةُ لَطَردَتْ من عملِها كلَّ موظفٍ غيرِ متأهِّل، فإنَّها إنَّما تستعملُ شرّاً لا رجلاً يمنعُ الشرّ، وكلُّ شابٍّ تلك حالُهُ هو حادثةٌ تَرْتَدِفُ الحوادثَ وتستلزِمُها، وما يأتي السوءُ إلَّا بمثلِهِ أو بأسوأَ منه.

❊ ❊ ❊

ليسَ لِلزواجِ معنًى إلَّا إقرارَ طبيعةِ الرجلِ وطبيعةِ المرأةِ في طبيعةٍ ثالثةٍ تقومُ بالاثنتينِ معاً، وهي طَبيعةُ الشعب. فمِنْ سقوطِ النفسِ ولؤمِها ودناءتِها أنْ يفرَّ الشابُّ القويُّ من تَبِعةِ الرجولة، فلا يحملُ ما حملَ أبوه من واجباتِ الإنسانية؛ ولا يُقيمُ لِوطنِهِ جانباً من بناءِ الحياةِ في نفسِه وزوجِهِ وولدِه، بل يذهبُ يجعلُ حظَّ نفسِهِ فوقَ نفسِه، وفوقَ الإنسانيةِ والفضيلةِ والوطنِ جميعاً؛ ولا يعرفُ أنَّ انفلاتَهُ مِنْ واجباتِ الزواجِ هو إضعافٌ في طبيعتِهِ لِمعنى الإخلاصِ الثابت، والصبرِ الدائب[1]، والعَطْفِ الجميلِ في أيِّ أسبابِها عَرَضَتْ.

ومن فُسُولةِ الطبعِ[2] ولُؤْمِهِ ودناءتِهِ أنْ يهربَ هذا الجنديُّ من مَيْدانِهِ الذي فَرَضَتْ عليهِ الطبيعةُ الفاضلةُ أنْ يُجاهِدَ فيه لأداءِ واجبِهِ الطبيعيِّ متعلِّلاً لِفرارِهِ المُخزي بمشقةِ هذا الواجبِ وما عسى أنْ يُعانيَ فيه كما يحتجُّ الجبانُ بخوفِ الهلاكِ وعَناءِ الحرب.

ومن سقوطِ النفسِ أنْ يرضى الشبانُ كسادَ الفتيات، وبَوارَهُنَّ على الوطن؛ وأنْ يتواطأوا على نَبْذِ هذهِ الأحمال، وإلقائِها في طرُقِ الحياة، وتركِها لِمقاديرِها المجهولة. كأنَّهم ـ أصلَحَهُمُ الله ـ لا يعلمونَ أنَّ ذلكَ يضيعُ بأَخَواتِهم بينَ الفتيات،

---

(١) الدائب: المستمر.

(٢) فسولة الطبع: نذالة الطبع ورَذالته.

ويضيعُ بوطنِهم في أمَّهاتِ الجيلِ المقبل، ويضيعُ بالفضيلةِ في تركِهم حمايتَها وتخلِّيهم عن حملِ واجباتِها وهُمومِها السامية.

إنَّ الجملَ إذا اَسْتَنوقَ تخنَّثَ ولانَ وخضع، ولكنَّه يحمل؛ وهؤلاءِ إذا اَستنوقوا تخنَّثوا ولانوا وخضعوا وأَبَوا أنْ يحملوا.

ومن سقوطِ النفسِ في الرجلِ النِّكْسِ العاجزِ المقصّرِ أنْ يحتجَّ لِعُزوبتهِ بعِلْمِهِ وجهلِ الفتيات؛ أو تمدُّنِهِ وزعمِهِ أنهُنَّ لم يبلغْنَ مبلغ الأوروبية، ولا يدري هذا المنحطُّ النفسِ أنَّ الزواجَ في معناهُ الإنسانيِّ الاجتماعيِّ هو الشكلُ الآخرُ للاقتراعِ العسكري، كلاهما واجبٌ حَتْمٌ لا يُعتذرُ منه إلا بأعذارٍ معيَّنة، وما عداها فجُبْنٌ وسُقُوطٌ واَنخذالٌ ولعنةٌ على الرجولة.

ومن سقوطِ النفسِ أنْ يَغْنى[1] الشابُّ عنِ الزواجِ لِفُجورِهِ فَيُقرَّه، ويُمكِّنَ له، وكأنَّهُ لا يعلمُ أنَّهُ بذلك يَحطِمُ نفسين، ويُحْدِثُ جريمتين، ويجعلُ نفسَهُ على الدنيا لَعنتين.

ومن سقوطِ النفسِ أنْ يَغتَرَّ الشابُّ فتاةً حتى إذا وافق غِرَّتها[2] مَكَر بها وتركَها بعدَ أنْ يُلْبِسَها عارَها الأبديّ؛ فما يحملُ هذا الشابُّ إلَّا نفسَ لِصٍّ خبيثٍ فاتِك، هو أبداً عندَ مَنْ يسرقُهم في بابِ الخسائرِ والنكبات، لا في بابِ الربحِ والمكْسَب؛ وعندَ المجتمعِ في بابِ الفسادِ والشرِّ، لا في بابِ المصلحةِ والخير؛ وعندَ نفسِهِ في بابِ الجريمةِ والسرقة، لا في بابِ العملِ والشرف.

* * *

فسقوطُ النفسِ وَاَنحطاطُها هو وحدَه نكبةُ الزواجِ في أصلِها وفُروعِها الكثيرةِ التي منها المُغَالاةُ والشَّططُ في المُهور، ومنها بحثُ الشابِّ عنِ الزوجةِ الغنيَّة، وإهمالُ ذاتِ الدِّينِ والأصلِ الكريم لِفَقْرِها، ومنها اَبتغاءُ الزوجةِ رجلاً ذا جاهٍ أو ثراء، وعُزُوفُها عنِ الفاضلِ ذي الكَفَافِ[3] أو اليسيرِ على غِنيّ في رجولتِهِ وفضائلِه، كأنَّما هو زواجُ الدينارِ بالسبيكة، والسبيكةِ بالدينار، وكأنّ الطبيعةَ قدِ اَبتُليَتْ هي أيضاً بالسقوط، فأصبحَتْ تَعتبرُ الغِنى والفقر، فتجعلُ في دمِ أولادِ الأغنياءِ رُوحَ الذهبِ واللؤلؤِ والماس، وتُلقي في دمِ أولادِ الفقراءِ رُوحَ النُّحاسِ

---

(١) يغنى: يمتنع.

(٢) غرّتها: غفلتها وجهلها.

(٣) الكفاف: القيام بما يكفيه من العيش.

والخشَبِ والحجارة. . . على حينِ أنَّ الجميعَ مُسْتَيْقِنون لا يَتَدَافَعُ اثنانِ منهم في أنَّ الطبيعةَ لا تُبالي إلّا بوراثةِ الأدابِ والطباع.

وأعظمُ أسبابِ هذا السقوطِ في رأيي هو ضعفُ التربيةِ الدينيةِ في الجنسين، وخاصةً الشبان، ظنّاً مِنَ الناسِ أنَّ الدينَ شأنٌ زائدٌ على الحياة، مَعَ أنَّهُ هو لا غيرُهُ نظامُ هذه الحياةِ وقِوَامُها في كلِّ ما يتّصلُ منها بالنفس. وليَستِ المدنيَّةُ الصحيحةُ ـ كما يحسبُ المفتونون ـ هي نوعَ المعيشةِ لِلحياةِ ومادتَها، بل نوعَ العقيدةِ بالحياةِ ومعانيِها؛ وإلى هذا ترمي كلُّ مبادىءِ الإسلام، فإنَّ هذا الدينَ القويَّ الإنسانيَّ لا يعبأُ بزخارفَ كهذهِ التي تتلبَّسُ بها المدنيةُ الأوروبيةُ القائمةُ على الاستمتاع، وفنونِ اللذات، وانطلاقِ الحريةِ بينَ الجنسين؛ فهذا بعينِهِ هو التحطيمُ الإنسانيُّ الذي ينتهي بتهدُّمِ تلك المدنيَّةِ وخرَابِها: وإنّما يعبأُ الإسلامُ بالعقيدةِ التي تنظِّمُ الحياةَ تنظيماً صحيحاً مُتَساوِقاً[1] وافياً بالمنفعة، قائماً بالفضيلةِ بعيداً مِنَ الخلْطِ والفوضى.

ويُقابلُ ضعفَ التربيةِ الدينيةِ مظهرٌ آخرُ هو سببٌ من أكبرِ أسبابِ السقوط، وهو ضعفُ التربيةِ الاجتماعيةِ في المدرسة؛ وإلى هذا الضعفِ يرجعُ سببٌ آخرُ هو تخنُّثُ الطِّباعِ واسترسالُها إلى الدَّعةِ والراحة، وفرارُها من حملِ التَّبِعةِ «المسؤولية» التي هي دائماً أساسُ كلِّ شخصيةٍ قائمةٍ في موضعِها الاجتماعيّ.

وبذلك الضعْفِ وذلك السقوطِ وُضعتِ المرأةُ البغيُّ[2] العاهرةُ في الموضعِ الطبيعيِّ لِلأمّ، ونزلَ الرجلُ السافلُ المنحطُّ في المكانِ الطبيعيّ لِلأب، وتحلَّلَتْ قُوَى الوطنِ بانحرافِ عُنْصريهِ العظيمينِ عن طبيعتِهما، وجَعَلَتْ فضيلةُ الفتياتِ المسكيناتِ تَتأكَّلُ من طولِ ما أُهْمِلَتْ، وأخذَ سُوسُ الدمِ يتركُها فضائلَ نَخِرة.

ولا عاصمَ ولا دافعَ إلّا قوةُ القانونِ وسطوتُه، ما دامَتِ الفضيلةُ في حكمِ الناسِ وتصريفِهم قد تَرَكَتْ مكانَها لِلقوانين، وما دامَتْ قوةُ النفسِ قد أخْلَتْ موضِعَها لِلقوةِ التنفيذية.

لقد قُتلتْ رُوحيَّةُ الزواج، وهي على كلِّ حالٍ جريمةُ قتل، فَمَنِ القاتلُ يا صاحبَنا المحامي؟

قال الشابُّ: هو كلُّ رجلٍ عَزَب.

---

(١) متساوقاً: متجانساً.

(٢) البغي: الساقطة.

قلْتُ: فما عِقابُه؟

فسكَتَ ولم يَرْجِعْ إليَّ جواباً.

قلْتُ: كأنِّي بك قد تأهَّلْتَ وَخَلاكَ ذمٌّ.. فما عِقابُه؟

قال: إلى أنْ تبلغَ الحكومةُ أو أنْ تُعاقبَ هؤلاءِ العزّاب، فَلْيعاقبْهُمُ الشعبُ بتسميتِهم «أرامل الحكومة».. واحدُهم: رجلٌ أرملةُ حكومة..

ثم قال: اللهمَّ يَسِّرْها ولا تَجعلني رجلاً بغلطتين: غلطةٍ في نساءِ الأمَّة، وغلطةٍ في ألفاظِ اللغة.

أرملةُ حكومة. . .

(أرملةُ الحكومةِ) فيما تواضَعْنَا[١] عليه بينَنَا وبينَ قرائنا هو الرجلُ العَزَب، يكونُ مُطيقاً لِلزواج، قادراً عليه، ولا يتزوَّج؛ بل يركبُ رأسَهُ في الحياة، ويذهبُ يُمَوِّهُ[٢] على نفسِه كذباً وتدليساً، وينتحلُ[٣] لها المعاذيرَ الواهية، ويَمْتَلِقُ[٤] العللَ الباطلة، يحاولُ أنْ يُلْحِقَ نفسَه بمرتبةِ الرجلِ المتزوجِ من حيثُ يَحُطُّ الرجلَ المتزوجَ إلى مرتبتِهِ هو؛ ويُضيفُ شُؤْمَهُ على النساءِ إلى هؤلاءِ النساءِ المسكينات، يزيدُهُنَّ على نفسِهِ شرَّ نفسِهِ، ويرميهنَّ بالسوءِ وهو السوءُ عليهِنَّ، ويَتَنَقَّصُهُنّ ومنهُ جاءَ النقص، ويَعيبُهُنّ وهو أكبرُ العيب؛ لا يتذكرُ إلَّا الذي له، ولا يتناسَى إلَّا الذي عليه، كأنَّما ٱنقلبَتْ أوضاعُ الدنيا، وتبدَّلتْ رُسومُ الحياة، فزالَتِ الرجولةُ بتَبعاتِها عنِ الرجلِ إلى ٱلمرأة، وٱنفصلَتِ الأنوثةُ بحقوقِها مِنَ المرأةِ إلى الرجل، فوجبَ أنْ تحمِلَ تلك ما كانَ يحملُ هذا، فتُقْدِمَ ويقَرَّ وادعاً، وتتعبَ ويستريح، وتعُانيَ الهمومَ الساميةَ في الحياةِ الاجتماعية، ويُعانيَ المخنَّثُ ٱبتساماتِه ودموعَه، متكئاً في مجلسِه النَّسيميّ تحتَ جناحِ المِرْوحة. . فأمَّا المرأةُ فتُشْرفُ على هَلَكَتِها، وتُخاطِرُ بحاضرِها ومستقبلِها، وأمَّا هو فيبقى من ثيابهِ في مثلِ الخِدْرِ المَصُون. . . !

(أرملةُ الحكومةِ) هو ذلك الشابُ الزائفُ المُبَهْرَجُ[٥]، يُحْسَبُ في الرجالِ كَذِباً وزوراً؛ إذْ لا تكملُ الرجولةُ بتكوينِها حتى تكملَ بمعاني تكوينها؛ وأخصُّ هذه المعاني إنشاءُ الأسرةِ والقيامُ عليها، أي مغامرةُ الرجلِ في زمنِهِ الاجتماعيِّ ووجودِهِ القوميّ، فلا يعيشُ غريباً عنه وهو معدودٌ فيه، ولا طُفيْليّاً[٦] فيه وهو كالمنفيِّ منه، ولا يكونُ مَظهراً لِقوةِ الجنسِ القويِّ هاربةً هروبَ الجُبْنِ من حَمْلِ ضَعفِ الجنسِ الآخرِ ٱلمحتمي بها، ولا لِمروءةِ العَشيرِ مُتبَرِّئَةً تَبرُّؤَ النذالةِ من

---

(١) تواضعنا: تعارفنا.

(٢) يموّه: يخادع.

(٣) ينتحل: يوجد.

(٤) يمتلق: يأتي بالعلل الواهية.

(٥) المبّهرج: المتزيّن بتمويه كاذب.

(٦) طفيلياً: يعيش عالة على رزق غيره.

مُؤازَرةِ العشيرِ[1] الآخرِ المحتاجِ إِليها؛ ولا يرضَى لِنفسِهِ أنْ يكونَ هو والذلُّ يعملانِ في نساءِ أُمَّتِهِ عملاً واحداً، وأنْ يُصبحَ هو والكسادُ لا يأتي منهما إِلَّا أثرٌ متشابه، وأنْ يبيتَ هو والفناءُ في ظُلمةٍ واحدةٍ كَظلُماتِ القبر، تنقلُ الأجداثَ[2] إلى الدُّور، فتجعلُ البيتَ ـ الذي كانَ يقتضيهِ الوطنُ أنْ يكونَ فيه أبٌ وأمٌّ وأطفال ـ بيتاً خاوياً كأنَّما ثُكِلَ الأمَّ والأطفال، وبقيَتْ فيه البقيةُ من هذا الرجلِ العَزَبِ الميتِ أكثرُ تاريخِه . . . !

لقد رأيْتُ بعينيَّ أداةَ العزَبِ وأثاثَهُ في بيتِهِ، كأنَّما يقصُّ عليهِ كلُّ ذلك قصةَ شؤمِهِ وَوَحدتِه، وكأنَّما يقولُ له الفَرْشُ والنَّجْدُ والطِّراز: «بِعْنى يا رجلُ ورُدَّني إلى السوق؛ فإنِّي هنالك أطمعُ أنْ يكونَ مصيري إلى أبٍ وأمٍّ وأولادٍ، أجِدُ بهم فرحةَ وجودي، وأُصيبُ من مُعاشِرتِهِمْ بعضَ ثوابي، وأبلى تحت أيديهِم وأرجلِهِم فأكونُ قد عمِلْتُ عملاً إنسانياً. أمَّا عندَك، فأنَتْ خشبَةٌ مَعَ الخشَب، وأنت خِرْقةٌ بينَ الخِرَقِ. وأسمعُ الكرسيَّ إنَّهُ يقول: أفّ. وأصْغ إلى فراشِكَ إنَّهِ يقول: تُفّ. . ».

شَهِدَ العَزَبُ ـ وربِّ الكعبةِ ـ على نفسِهِ أنَّهُ مُبْتلًى بالعافية، مستعبَدٌ بِالحرية، مجنونٌ بالعقل، مغلوبٌ بِالقوة، شقيٌّ بالسعادة، وشهدَتِ الحياةُ عليهِ ـ وربِّ البيتِ ـ أنَّهُ في الرجولةِ قاطعُ طريق؛ يقطعُ تاريخَها ولا يؤمِّنُه، ويَسرقُ لذَّاتِها ولا يكْسَبُها ويخرجُ على شَرْعِها ولا يدخُلُ فيه، ويعصي واجباتِها ولا ينقادُ لها. وشَهِدَ الوطن ـ والله ـ عليهِ أنَّهُ مخلوقٌ فارغٌ كالواغِلِ[3] على الدنيا؛ إنْ كانَ نعمةً بصلاحِهِ، أنتهَتِ النعمةُ في نفسِها لا تمتدّ؛ وإنْ كَانَ بفسادِهِ مصيبةً أمتدَّتْ في غيرِها لا تنقطع. وأنَّهُ شحَّاذُ الحياةِ أحسنَ بهِ الأجدادُ نسلاً باقياً، ولا يُحْسِنُ هو بنسلٍ يبقى. وأنَّهُ في بلادِهِ كَالأجنبيّ، مهبطُهُ على منفعةٍ وعيشٍ لا غيرِهِما؛ ثم يموتُ وُجودُ الأجنبيِّ بالنَّقْلَةِ إلى وطنِه، ويموتُ وجودُ العزَبِ بالانتقالِ إلى ربِّه؛ فيستويانِ جميعاً في أنقطاع الأثرِ الوطنيّ، ويتفقانِ جميعاً في أنتهابِ الحياةِ الوطنية؛ وأنَّ كليهما خرجَ مِنَ الوطنِ أبْتَرَ[4] لا عَقِبَ له، ويذهبانِ معاً في لُججِ النيسان: أحدُهما على باخرة، والآخرُ على النعش!

* * *

جاءَني بالأمسِ «أرملةُ حكومة» وهو مهندسٌ موظَّف. ومعنى الهندسةِ الدقةُ

---

(1) العشير: الرفيق.
(2) الأجداث: مفرده جدث، وهو القبر وما فيه.
(3) الواغل: الداخل.
(4) الأبتر: من لا ولد له من الذكور خاصة.

البالغةُ في الرقْمِ والخطِّ والنقطةِ وما ٱحتملَ التدقيق؛ ثمَّ الحذرُ البالغُ أنْ يختلَّ شيءٌ أو ينحرفَ، أو يتقاصرَ أو يطولَ، أو يزيدَ أو يُنقصَ، أو يَدْخلَهُ السَّهو، أو يقعَ فيهِ ٱلخطأ؛ إذا كانَ الحاضرُ في العملِ الهندسيّ إنَّما هو لِلعاقبة، وكانَ الخيالُ لِلحقيقةِ؛ وكانَ الخُرْقُ هنا لا يقبلُ الرُّقْعة. ومتى فَصَلتِ الأرقامُ الهندسيةُ مِنَ الورقِ إلى البناءِ ماتَ الجمعُ والطرحُ والضربُ والقِسْمَة، ورجعَ الحسابُ حينئذٍ وهو حسابُ عقلِ المهندس؛ فإمَّا عقلٌ دقيقٌ منتظِم، أو عقلٌ مأفونٌ مختلّ.

بَيْد أنَّ المهندس ـ على ما ظهرَ لي ـ قد خَلَتْ حياتُه مِنَ الهندسة.. وٱنتهى فيها مِنَ التحريفِ المُضْحِك ـ حتى فيما لا يُخطيءُ الصغارُ فيه ـ إلى مثلِ التحريفِ الذي قالوا إنَّهُ وقَع في الآيةِ الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] فقدَ روَوْا أنَّ إمامَ قريةٍ مِنَ القُرى في الزمنِ القديم كانَ يخطبُ أهلَ قريتِهِ ويُصلي في مسجدِها، فنزلَ بِهِ ضيفٌ مِنَ العلماءِ فقالَ لَهُ الخطيب: إنَّ لي مسائلَ في الدينِ لم يتوجَّهْ[2] لي وجهُ الحقِّ فيها، ولا أزالُ متحيرَّ الرأي، وكنْتُ من زمن أتمنى أنْ ألقى بها الأئمةَ، فأُريدُ أنْ أسألَكَ عنها. قال العالم: سَلْ ما أحبَبْتَ.

قالَ الخطيب: أشْكَلَ[3] عليّ في القرآنِ بعضُ مواضع، منها في سورةِ الحمدِ «إيَّاك نعبدُ وإيَّاك»... أي شيءٍ بعدَهُ. «تِسْعين أو سبَعين»..؟ أشْكلَتْ عليّ هذه فأنا أقرؤها: تِسعين. أخذاً بِالٱحتياط...!

كذلك مهندسُنا فيما أشكلَ عليهِ من حِسابِهِ لِلحياة، فهو عَزَبٌ أخذاً بالاحتياطِ. قال وهو يحاورني:

كيف تُكلِّفني الزواجَ وتُكرهُني عليه، وتُعَنِّفُني[4] على العُزوبةِ وتَعيبُني بها؟؛ وإنَّما أنت كالذي يقول: دع المُمكنَ وخُذِ المستحيل؛ إنَّ ٱستحالةَ الزواج هي التي جعلَتْني عَزَباً، والعُزوبَةُ هي التي جعلَتْني فاسداً، وفي هذا الجَوِّ الفاسدِ من حياةِ الشباب، إمَّا أنْ تكسدَ الفتاة، وإمَّا أنْ تَتَّصِلَ بها العَدْوَى. والعزَبُ لا يأبى أنْ يُقالَ فيه إنَّهُ لِلنساءِ طاعونٌ أحمرُ أو هواءٌ أصفر؛ فهو ـ والله ـ مع ذلك موتٌ أسودُ وبلاءٌ أزرق.

قلت: لقد هوَّلْتَ عليّ؛ فما مستحيلُكَ يا هذا، ولِمَ ٱستحالَ عليك ما أمكنَ

---

(١) سورة: الفاتحة، الآيات: ٤، ٥.

(٢) يتوجّه: يظهر.

(٣) أشكل: عسر فهمُه.

(٤) تعنفني: تلومني بشدّة.

غيرَك، وكيف بلغَتْ مصرُ خمسةَ عشرَ مليوناً؟ أمِنْ غيرِ آباءٍ خُلِقوا، أم زُرِعوا زرعاً في أرضِ الحكومة؟ اسمعْ ـ ويحَكَ ـ ألَا يكونُ الرجالُ قد أقبلوا وتراجَعْتَ، وتجلَّدوا وتوجَّعْتَ، أَو أقْدَموا وخَنَسْتَ[1]، واْسترجلوا وتأنَّثْت؟

قال: ليسَ شيءٌ من هذا.

قلْتُ: فإنَّ المسألةَ هي كيفَ ترى اْلفكرة، لا الفكرةُ نفسُها، فما حَمَلكَ على العزوبةِ وأنت موظَّفٌ وظيفتُك كذا وكذا ديناراً، وأنت مهندسٌ يَصْدُقُ عليك ما قالوه في الرجلِ المجدود[2]: لو عَمَدَ إلى حَجرٍ لانفلَقَ له عن رزق.

قال: أليسَ مستحيلاً ثُمّ مستحيلاً أنْ يجمعَ مثلي يدَهُ على مائةِ جنيهٍ يدفعُها مهراً؛ وما طرقْتُ ـ عَلِمَ الله ـ باباً إلَّا اْستقبلوني بما معناه: هل أنت معجزةٌ مالية؟ هل أنت مائة جنيه؟

قلْتُ: فإنَّ عملَكَ في الحكومةِ يُغِلُّ[3] عليكَ في السنةِ مائةَ وثمانينَ ديناراً فَلِمَ لا تعيشُ سنةً واحدةً بثمانينَ فتقعَ المعجزة؟

قال: «بكلِّ أسفٍ» لا يستطيعُ الرجلُ العزَبُ أنْ يدَّخرَ[4] أبداً؛ فهو في كلِّ شيءٍ مبدَّدٌ[5] ضائعٌ متفرِّق.

قلْتُ: فهذه شهادتُك على نفسِكَ بالسَّفَهِ والخُرْقِ والتبذير؛ تُنفقُ ما يكفي عدداً وتضيقُ بواحدة، وماذا يَرْتئي مثلُكَ في الحياة؟ أعندَ نفسِه وفي يقينِهِ أنْ يتأبَّدَ[6] فيبقى عزَباً فهو يُنفقُ ما جمعَ في شهواتِ حياتِه، ويتوسَّعُ فيها ضُروباً وألواناً لِيكونَ وهو فردٌ كأنَّهُ وهو في إنفاقِهِ جماعة، كلٌّ منهم في موضعِ رذيلةٍ أو مكانِ لهو؛ وكأَنَّ منه رِجالاً هو كاسِبُهم وعائلُهم، يُنفقُ على هذا في القَهوة، وعلى هذا في الحانة، وعلى ذلك في الملاهي، وعلى الرابعِ في المواخير، وعلى الخامسِ في المستشفى. . .؟ إنْ كان هذا هو أصلَ الرأيِ عندَ العزَب، فالعزَبُ سفيهٌ مُجرم، وهو إنسانٌ خَرِبٌ من كلِّ جهةٍ إنسانية، وهو في الحقيقةِ ليسَ المتَّسِعَ لِنفَقاتِ خمسة، بلْ كأنَّهُ قاتلٌ من أبناءِ وطنِه؛ إذْ كانَ بهذا مُطِيقاً أنْ يكونَ أباً يُنفقُ على أبنائِه، لا سَفيهاً يُنفقُ على شياطينِه.

---

(١) خنست: اختفيت، وأنت تتراجع قليلاً قليلاً.
(٢) المجدود: المحظوظ.
(٣) يغلّ: يدرّ ربحاً.
(٤) يدّخر: يقتصد، يوفّر.
(٥) مبدّد: مفرّق، مبذّر.
(٦) يتأبّد: يعيش الدهر كلّه.

فإنْ كانَ قد بنى رأيَهُ على أنْ يتعزَّبَ مُدةً ثم يتأهَّلَ، فهذا أحرى[١] أنْ يُعينَهُ على حسنِ التدبير، وهو مَضْراةٌ له على شهوةِ الجمعِ والادّخار؛ إذْ يكونُ عندَ نفسِه كأنما يَكْدَحُ لِعيالِه وهو في سَعَةٍ منهم بعدُ، وهم لا يزالونَ في صُلْبِهِ على الحالِ التي لا يسألونَهُ فيها شيئاً إلّا أخلاقاً طيِّبةً وهِمَماً وعزائمَ يَرثونَها من دمِهِ فتَجيءُ معَهم إلى الدنيا متى جاءوا.

إنَّما العزَبُ أحدُ رجلين: رجلٍ قد خرجَ على وطنهِ وقومِه وفضائلِ الإنسانية، قاعدتُهُ: جُرَّ الحبلَ مَا انجرَّ لك. وهذا داعِرٌ فاسقٌ، مبذِّرٌ مِتْلافٌ إنْ كان مِنَ المَياسِير، أو مُريبٌ دنيءٌ حقيرُ النفسِ إنْ كان من غيرِهم... ورجلٍ غيرِ ذلك، فهو في وِثاقِ الضرورةِ إلى أنْ تُطْلِقَهُ الأسباب، ومن ثَمَّ فهو يعملُ أبداً لِلأسبابِ التي تُطْلِقُه، ويعرفُ أنَّهُ وإنْ لم يكُنْ آهِلاً فلا تزالُ ذِمَّتُهُ في حقِّ زوجةٍ سَيَعُولُها، وفي حقوقِ أطفالٍ يأبُوهُم، وواجباتٍ ووطنٍ يخدمُهُ بإنشاءِ هذهِ الناحيةِ الصغيرةِ من وجودِهِ، والقيامِ على سياسِتها، والنهوضِ بأعبائِها. فَانْظرْ ـ ويحَكَ ـ أيُّ الرجلينِ أنت؟

قال: فتُريدُني أنْ أُقامرَ بتعبِ سنةٍ وأنا بعدَ ذلك ما يُقْدَرُ لي، قد أشتري بتعبِ سَنَةٍ مِنَ العمرِ تعبَ العمرِ كلِّه؟

قلْتُ: فهذه هي خِسَّةُ الفرديَّة، ودناءتُها الوحشيةُ في جِنايتِها على أهلِها، وسوءُ أثرِها في طباعِهِم وعزائِمِهم؛ فهي فرديَّةٌ تضربُ فيهمُ العاطفةُ الاجتماعيةُ ضَرْبَ التَّلَفِ[٢]، وتبتلِيهم بالخوفِ مِنَ التَّبِعاتِ حتى لَيَتوهَّمُ أحدُهم أنَّهُ إنْ تزوجَ لم يدخلْ على امرأة، ولكنْ على معركة. وهي تُصيبُهم بِالقَسْوةِ والغِلْظة؛ فما دامَ الواحدُ منهم واحِداً لِنفسِه، فهو في تصريفِ حُكمِ الأَثَرة، وفي قانونِ الفِتنةِ بأهواءِ النفسِ ومنافعِها؛ كأنَّما يُعاملُهُ الناسُ رجلاً كلُّهُ مَعِدَة، أو هو فيهم قوةُ هَضْمٍ ليسَ غير.

قال: ولكنَّ الزواجَ عنْدَنا حظٌّ مخبوءٌ «لوتريَّة» والنساءُ كأوراقِ السحب، منهن ورقةٌ هي التوفيقُ والغِنى بينَ آلافٍ هُنَّ الفقرُ والخيبَةُ المحقَّقة.

قلْتُ: هلِ اعتدْتَ[٣] أنْ تتكلمَ وأنت نائم؟ فلَعَّلكَ الآنَ في نَومةِ عقل، أوْ لَا فأنت الآن في غَفلةِ عقل.

---

(١) أحرى: أجدر.

(٢) قالت العرب: «ضربه ضرب التلف» أي الضرب المؤدي إلى الموت.

(٣) لا يعتدّ بها: لا يعوّل أن يجد فيها مأربه.

إنَّ هذا المِسْكِينَ الذي يمسحُ الأحذيةَ ويشتري من تلك الأوراقِ لا يخلو منها؛ يعلمُ عِلْماً أكثرَ مِنَ اليقينِ أنَّ عيشَهُ هو من مسحِ الأحذيةِ لا مِنَ الأخيْلةِ التي في هذِهِ الأوراق؛ فهو لا يعتدُّ بها في كبيرِ أمرٍ ولا صغيرِه، وما يُنْزِلُها في حسابِ رغيفِهِ وثوبِهِ إلَّا يومَ يُخَالَطُ في عقْلِهِ فيتنزَّهُ أنْ يمسحَ أحذيةَ الناس، ويَرى أنَّ عظيماً مثْلَهُ لا يمسحُ إلَّا أحذيةَ الملائكة. . .

أنت يا هذا مهندس، ولك بعضُ الشأنِ وبعضُ المنزلَة، فَهَبْكَ ٱرتأيْتَ أنَّهُ لا يَحسُنُ بك أو لا يَحْسُنُ لك إلَّا أنْ تتزوجَ بينتَ ملكٍ مِنَ الملوك، فهذه وحدَها هي عندَكَ «النمرةُ الرابحة»، وسائرُ النساءِ فقرٌ وخيبةٌ، ما دامَ الأمرُ أمرَ رأيكَ وهواك؛ غيرَ أنَّكَ إذا عَرضْتَ لِتلكَ «النمرةِ الرابحة» لم تعرفْكَ هي إلَّا صُعلوكاً في الصعاليك، وأحمقَ بينَ الحمقى.

إن تلك الأوراقَ تُصْنعُ صنعتَها على أنْ تكونَ جُملتُها خاسرةً إلَّا عدداً قليلاً منها؛ فإذا تعاطَيْتَ شِراءَها[1] فأنْتَ على هذا الأصلِ تأخذُها، وبهذا الشرْطِ تَبذلُ فيها؛ وما تَمْتَرِي أنت ولا غيرُك أنَّ القاعدةَ هٰهنا هي الخيبة، وشُذوذَها هو الربح؛ وليسَ في الاحتمالِ غيرُ ذلك؛ ومن ثَمّ فقد بَرِىءَ إليك الحظُّ إنْ لم يُصبْك شيءٌ منه؛ وأينَ هذا وأينَ النساء، وما منهُنَّ واحدةٌ إلَّا وفيها منفعةٌ تكثرُ أو تقِلّ، بلِ الرجالُ للنساءِ هُمْ أوراقُ السَّحبِ في ٱعتباراتٍ كثيرة، ما دامَتْ طبيعةُ ٱتصالِهما تجعلُ المرأةَ هي في قوانينِ الرجلِ أكثرَ مِمَّا تجعلُ الرجلَ في قوانينِها، وهل ضاعَتِ ٱمرأةٌ إلَّا من غَفلةِ رجلٍ أو قسوتِهِ أو فُسولتِهِ أو فُجوره؟

قال المهندس: فإني أعلمُ الآن ـ وكنْتُ أعلم ـ أنْ لا صلاحَ لي إلَّا بِالزواج، وأنَّ طريقي إلى الزوجةِ هو كذلك طريقي إلى فضيلتي وإلى عقلي. وتالله ـ ما شيءٌ أسوأَ عندَ العزَبِ ولا أكرَهَ إليهِ من بقائِهِ عزَباً؛ غيرَ أنَّهُ يكابرُ في المماراةِ كلَّما تحاقَرَتْ إليهِ نفسُه، وكلَّما رأى أنَّ لهُ حالاً ينفردُ بها في سَخَطِ اللَّهِ وسخطِ الإنسانية. ولا مَكْذِبَةَ، فقد ـ والله ـ أنفقْتُ في رذائلي ما يجتمعُ منه مهرُ زوجةٍ سَرِيةٍ تَشْتَطُّ في المهرِ[2] وتَغلو في الطلَب؛ ولكنْ كيف بيَ الآنَ وما جبرني من قبلُ إصلاحٌ، ولا أعانَني ٱقتصاد، ومَنْ لي بفتاةٍ من طبقتي بمَهرٍ لا أتحملُ منه رَهَقاً، ولا تتقاصَرُ معه أموري، ولا تختلُّ معيشتي؟

---

(١) تعاطيت شراءها: اعتدت على شرائها. (٢) تشتطّ في المهر: تغالي فيه.

قلْتُ: فإذا لم يحملْك الحمارُ مِنَ القاهرةِ إلى الإسكندرية؛ فإنَّهُ يحمِلُكَ إلى قليوب أو طوخ. وفي النساءِ اسكندرية، وفيهن شبرا، وقليوب، وطوخ؛ وما قَرُب وبَعُد، وما رَخُصَ وغَلا.

قال: ولكنْ بلدي الإسكندرية..

قلْتُ: ولكنَّك لا تملكُ إلَّا حماراً... ولِلمرأةُ من كلِّ طبَقةٍ سِعْرُها في هذا الاجتماعِ الفاسد؛ ولو تَعَاوَنَ الناسُ وصلُحوا وأدركوا الحقيقةَ كما هي، لَمَا رَأَيْنا الزواجَ من فَقْرِ المُهورِ كأنَّما يَركبُ سُلَحْفاةً يمشي بها... ونحن في عصرِ القطارِ والطيارة، وقد كانَ هذا الزواجُ على عهدِ أجدادِنا في عصرِ الحمارِ والجملِ ـ كأنَّه وحدَهُ مِنَ السرعةِ في طيارةٍ أو قِطار.

* * *

حينَ يَفْسُدُ الناسُ لا يكونُ الاعتبارُ فيهم إلَّا بالمال، إذْ تنزلُ فيمتُهمُ الإنسانيةُ ويبقى المالُ وحدَهُ هو الصالحَ الذي لا تتغيرُ قيمتُه. فإذا صلحُوا كانَ الاعتبارُ فيهم بأخلاقِهم ونفوسِهم، إذا تنحطُّ قيمةُ المالِ في الاعتبارِ، فلا يغلبُ على الأخلاقِ ولا يسخِرُها. وَإلى هذا أشارَ النبيُّ ﷺ في قوله لِطالبِ الزواج: «اِلتمسْ ولو خاتَماً مِنْ حديد». يُريدُ بذلك نفيَ الماديَّة عنِ الزواجِ، وإحياءَ الروحيَّةِ فيه، وإقرارَهُ في معانيهِ الاجتماعيةِ الدقيقة، وكأنَّما يقول: إنَّ كِفايةَ الرجلِ في أشياءَ إنْ يكنْ منها المالُ فهو أقلُّها وآخرُها. حتى إنَّ الأخسَّ الأقلَّ فيهِ ليُجْزِىءُ منه كَخاتَم الحديد؛ إذِ الرجلُ هو الرجولةُ بعظَمتِها وجلالِها وقوّتِها وطِباعِها، ولن يُجْزِىءَ منه الأقلُّ ولا الأخسُّ مَعَ المال، وإنَّ مِلءَ الأرضِ ذهباً لا يُكْمِلُ للمرأةِ رجلاً ناقصاً؛ وهلْ تُتِمُّ الأسنانُ الذهبيةُ اللامعةُ؛ يَحملُها الهَرِمُ في فمهِ؛ شيئاً مِمَّا ذهبَ منه؟ وما عسى أنْ تصنَعَ قواطعُ الذهبِ الخالصِ وطواحنُهُ لِهذا المسكينِ بعدَ أنْ نطقَ تحَاتُّ أسنانِهِ العظْميَّةِ وتناثُرُها أنَّهُ رجلٌ حَلَّ البِلى في عظامِه...؟

رؤيا في ٱلسماء

قال أبو خالدٍ ٱلأحولُ الزاهد: لَمَّا ماتتِ ٱمرأةُ شيخِنا أبي رَبيعةَ الفقيهِ الصوفيّ، ذهبْتُ مع جماعةٍ مِنَ الناسِ فشَهِدْنا أمرَها؛ فلمَّا فرغوا من دفنِها وسُوّيَ عليها، قامَ شيخُنا على قبرِها وقال: يرحمكِ اللَّهُ يا فلانة؟! الآن قد شُفِيتِ أنتِ ومَرِضتُ أنا، وعُوفِيتِ وَٱبْتُلِيتُ، وتركْتِني ذاكراً وذهبْتِ ناسية، وكانَ للدنيا بكِ معنًى، فستكونُ بعدَكِ بلا معنًى؛ وكانَتْ حياتُكِ لي نصفَ القوّة، فعادَ موتُكِ لي نصفَ الضَّعف؛ وكنْتُ أرى الهمومَ بمواساتِك هموماً في صُوَرِها المخفَّفة، فستأتيني بعدَ اليوم في صُوَرِها المضاعفَة؟ وكانَ وجودُكِ معي حِجاباً بيني وبينَ مَشقَّاتٍ كثيرة، فستخلُصُ كلُّ هذه المَشاقّ إلى نفسي؛ وكانَتِ الأيامُ تمرُّ أكثرَ ما تمرُّ رقَّتُك وحَنانُك، فستأتيني أكثرَ ما تأتي مُتَجرّدَةً[1] في قَسوتِها وغِلْظتِها. أمَا إنِّي ـ واللَّهِ ـ لم أُرْزَأْ منكِ في ٱمرأةٍ كالنساء، ولكنِّي رُزِئْتُ في المخلوقةِ الكريمةِ التي أحسسْتُ معَها أنَّ الخليقةَ كانَتْ تتلطَّفُ بي من أجْلِها!

قال أبو خالد: ثم ٱستَدْ مَعَ الشيخُ، فأخذْتُ بيدِهِ ورجْعَنا إلى دارِه، وهو كان أعلمَ بما يُعزّي الناسُ بعضُهم بعضاً، وأحفظَ لِمَا وَرَدَ في ذلك؛ غيرَ أنَّ لِلكلامِ ساعاتٍ تَبطُلُ فيها معانيهِ أو تَضْعُف، إذْ تكونُ النفسُ مُسْتَغْرِقةَ الهمِّ في معنًى واحدٍ قدِ ٱنحصرَتْ فيه، إمَّا من هَوْلِ[2] الموت، أو حبٍّ وقعَ فيهِ منَ الهَوْلِ ظِلُّ الموت، أو رغبةٍ وقعَ فيها ظِلُّ الحُبّ، أو لَجاجةٍ وقعَ فيها ظِلُّ الرغبة. فكنْتُ أحدِّثُهُ وأُعزّيه، وهو بعيدٌ من حديثي وتعزيتي؛ حتى ٱنتهيْنا إلى الدارِ فدخلْنا وما فيها أحد؛ فنظَرَ يمْنَةً ويَسْرةً، وقَلَّبَ عينيهِ هٰهنا وهٰهنا، وحَوْقَلَ وَٱسْتَرجَع[3]، ثم قال: الآنَ ماتَتِ الدارُ أيضاً يا أبا خالد! إنَّ البِناءَ كأنَّما يحيا بروحِ المرأةِ التي تتحرّكُ في داخلهِ؛ وما دامَ هو الذي يحفظُها لِلرجلِ، فهو في عينِ الرجلِ كالمِطْرَفِ[4] تلبسُهُ

---

(١) متجرّدة: عارية. (٢) هول: عظم.
(٣) حوقَلَ واسترجع: قال: لا حول ولا قوة إلّا بالله، واسترجع: قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.
(٤) المطرف: نوع من الأردية يصنع من خزّ يحلّى بالنقوش، تلبسه المرأة.

فوقَ ثيابِها من فَوقِ جسمِها: وانظرْ كم بين أنْ تَرى عيناكَ ثوبَ آمرأةٍ في يدِ الدلالِ في السوق، وبين أن تراهُ عيناك يَلْبسُها وتَلبسُه! ولكنَّك أيا أبا خالدٍ لا تفْقَهُ من هذا شيئاً، فأنت رجلٌ آليْتَ لا تَقْرَبُ النساءَ ولا يَقْرَبْنَك، ونجَوْتَ بنفسِك منهُنَّ وآنقطعْتَ بها لله؛ وكأنَّ كلَّ نساءِ الأرضِ قد شاركْنَ في ولادتِك فحرُمْنَ عليك! وهذا ما لا أفهمُهُ أنا إلَّا ألفاظاً، كما لا تفهمُ أنت ما أجدُ الساعةَ إلَّا ألفاظاً؛ وشَتَّانَ بينَ قائلٍ يتكلَّمُ منَ الطبع، وبينَ سامعٍ يفهمُ بالتكلُّف.

فقلْتُ له: يا أبا ربيعة، وما يمنعُك الآنَ وقدِ آطَّرَحْتَ[1] أثقالكَ وآنبتَّتْ[2] أسبابُك[3] مِنَ النساء ـ أنْ تعيشَ خفيفَ الظهر، وتفرُغَ لِلنُّسْكِ والعِبادة، وتجعلَ قلْبَك كالسماءِ آنقشعَ غَيمُها فسطَعَتْ فيها الشمس؛ فإنَّهُ يقالُ: إنَّ آلمرأةَ ولو كانَتْ صالحةً قانِتَة ـ فهي في منزلِ الرجلِ العابدِ مَدْخلُ الشيطانِ إليه، ولو أن هذا العابدَ كانَ يسكنُ في حَسنَاتِهِ لا في دارٍ منَ الطوبِ والحِجارةِ لَكانتِ آمرأتُهُ كوَّةً يقتحمُ الشيطانُ منها. ولقدْ كان آدمُ في الجنة، وبينَها وبينَ الأرض سمواتٌ وأفلاك، فما منعَ ذلك أنْ تتعلَّقَ رُوحُ الأرضِ بِالشيطان، فيتعلَّقَ الشيطانُ بحوّاء، وتتعلَّقَ هي بآدم؛ ومكَرَ الشيطانُ فصوَّرها لهما في صِيغةِ مسألةٍ عِلْميَّة، وَمَكَرَتْ حوّاءُ فوضَعَتْ فيها جاذبيَّةَ اللحم والدم، فلم تعدْ مسألةَ عِلْمٍ ومعرِفة، بل مسألةَ طبْعٍ ولَجاجة. فأكَلا منها فَبَدَتْ لهما سوْءاتُهمَا.

وهلِ آجتمعَ الرجلُ وَآلمرأةُ من بعدِها على الأرضِ إلَّا كانا من نَصَبِ الحياةِ وهمومِها، وشهواتِها ومطامِعِها، ومَضَارِّها ومعايِبِها ـ في معنَى (بَدَتْ لهما سَوءاتُهُمَا[4])...؟

كلانا يا أبا ربيعةَ مِمَنْ لهم سَيْرٌ بالباطنِ في هذا الوجودِ غيرُ السيرِ بالظَّاهر، ومِمَنْ لهم حركةٌ بالكُفْرِ غيرُ الحركةِ بالجسم، فقبِيحٌ بنا أنْ نتعلَّقَ أدنى مُتَعَلَّقٍ بنواميسِ[5] هذا الكَوْنِ اللَّحْميّ الذي يُسمَّى المرأةَ، فهو تَدلٌّ وإسفافٌ منَّا.

ولَعَلَّك تقول: «النَّسْلُ وتكثيرُ الآدميَّة» فهذا إنما كُتِب على إنسانِ الجوارح والأعضاء، أمَّا إنسانُ القلْبِ فلَهُ معناهُ وحُكمُ معناه؛ إذْ يعيشُ بباطنِه، فيعيشُ ظاهرُهُ

---

(١) اطّرحت: رميت. (٢) انبتت: انقطعت.

(٣) أسبابك: مفرده سبب وهو الطريق، ويقصد هنا الغاية.

(٤) سورة: الأعراف، الآية: ٢١ وسورة: طه، الآية: ١٢١.

(٥) نواميس: مفرده ناموس، وهو القانون.

في قوانينِ هذا الباطن، لا في قوانينِ ظاهِرِ الناس. وإنَّهُ لَشرٌّ كلُّ ما نَقَلكَ إلى طبعِ أهلِ الجوارحِ وشَهواتِهم، فَزَيّنَ لك ما يُزَيّنُ لهم، وشغَلَكَ بما يَشْغَلُهم؛ فهذا عندَنا - يرحمُكَ الله - بابٌ كأنَّهُ من أبوابِ المجُونِ الذي ينَقُلُ الرجلَ إلى طَبْعِ الصَّبيّ.

فَٱطْمِسْ[1] - يا أخي - على موضعِها من قلبِك، وألْقِ النورَ على ظِلِّها؛ فالنورُ في قلْبِ العابدِ نُورُ التحويلِ إنْ شاء، ونورُ الرؤيةِ إنْ شاء؛ يرى بِهِ المادّةَ كما يُريدُ أنْ تكونَ لا كما تكون. وأنت قد كانَتْ فيك ٱمرأة، فَحَوّلْها صلاةً، وٱعملْ بنورِكَ عكسَ ما يعَملُ أهلُ الجوارحِ بظلامِهم، فقد تكونُ في أحدِهِمُ ٱلصلاةُ فيُحوِّلُها ٱمرأة. . .

قال أبو ربيعة: تاللَّهِ - إنَّهُ لرأيٌ؛ والوَحْدةُ بعدَ الآنَ أرْوَحُ لِقلبي، وأجْمعُ لِهمِّي؛ وقد خلَعَني ٱللَّهُ مِمَّا كنْتُ فيه، وأخذَ القبرُ ٱمرأتي وشَهوَاتي معاً، فسأعيشُ ما بقيَ لي فيما بقِي منِّي. وزوالُ شيءٍ في النفسِ هو وجودُ شيءٍ آخر. ولقدِ ٱنتَهيْتُ بِالمرأةِ ومعانيها وأيامِها إلى القبر، فالبَدْء الآنَ منَ القبرِ ومعانيهِ وأيامِه.

* * *

وتَوَاثَقَا[2] على أنْ يسيرا معاً في (باطنِ) الوجود. . . ! وأنْ يعيشا في عُمرٍ هو ساعةٌ معدودةُ اللَّحَظات، وحياةٍ هي فكرةٌ مرسومةٌ مصوَّرة.

قال أبو خالد: ورأيْتُ أنْ أبيتَ عندَهُ وفاءً بحقّ خِدمتِه، ودَفعاً لِلوحشةِ أنْ تُعاودَهُ فتَدخلَ على نفسِهِ بأفكارِها ووَساوِسِها. وكانَ قد غَمَرَنَا تعبُ يومِنا، وأعْيا أبو ربيعة، وخذلَتْهُ القوةَ؛ فلمَّا صلَّينا العِشاءَ قلت: يا أبا ربيعة، أُحِبُّ لك أنْ تَنعَسَ فتُريحَ نفْسَكَ لِيذهبَ ما بك، فإذا ٱسْتَجْمَمْتَ[3] أيقظْتُكَ فقُمْنَا سائرَ الليل.

فما هو إلّا أنِ ٱضطجعَ حتى غَلبَهُ النُّعاس. وجلسْتُ أفكِّرُ في حالِهِ وما كانَ عليهِ وما ٱجتهدْتُ لَهُ منَ الرأي؛ وقلْتُ في نفسي: لَعلّني أغريتُهُ بِما لا قِبَلَ لَهُ به، وأشرْتُ عليهِ بغيرِ ما كانَ يَحسنُ بمثلِه، فأكونَ قد غشَشْتُه. وخامرَني[4] الشكُّ في حالي أنا أيضاً، وجعلْتُ أُقابلُ بينَ الرجلِ متزوّجاً عابداً، وبينَ ٱلرجلِ عابداً لم يتزوَّج؛ وأنظرُ في ٱرتياضِ أحدِهِما بنفسِهِ وأهلِهِ وعِيالِه، وَٱرتياضِ الآخرِ بنفسِهِ وحدَها؛ وأخذْتُ أذهبُ وأجيءُ من فِكْرٍ إلى فِكْر، وقد هَدأَ كلُّ شيءٍ حولي كأنَّ

(١) فاطمس: غطِّ.
(٢) تواثقا: تعهدا.
(٣) استجممت: استرحت واستعدت قوتك.
(٤) خامرني الشكّ: انتابني، ساورني.

المكانَ قد نام، فلم ألبث حتى أخذَتْني عيني فنِمْتُ وَٱسْتَثْقَلْتُ[1] كأنَّما شُدِدْتُ شدًّا بحبالٍ مِنَ النومِ لم يجىءْ مَنْ يَقْطَعُها.

ورأيْتُ في نومي كأنَّها القِيامةُ وقد بُعِثَ الناس، وضاقَ بهمُ ٱلمحشَر، وأنا في جُملةِ الخلائق، وكأننا مِنَ الضَغْطةِ[2] حَبّ مَبْثُوثٌ[3] بين حَجَرَيْ الرَّحى. هذا والموقفُ يَغْلِي بنا غَلَيانَ القِدْرِ بما فيها، وقدِ ٱشتدَّ ٱلكَربُ وجهَدَنَا العطَش، حتى ما مِنَّا ذو كَبِدٍ إِلَّا وكأنَّ الجحيمَ تتنفَّسُ على كبدِه، فما هو العطشُ بل هو السُّعارُ واللَّهبُ يَحْتَدِمُ بهما الجَوفُ ويَتأَجّج.

فنحن كذلك إذا وِلْدَانٌ يتخلَّلُونَ الجمعَ الحاشد، عليهم مَناديلُ من نور، وبأيديهم أباريقُ من فضةٍ وأكوابٌ من ذهب، يملأون هذه من هذه بِسَلْسالٍ بَرُودٍ عَذْب، رُؤيتُهُ عَطَشٌ معَ العطش، حتى لَيتلَوَّى مَنْ رآهُ مِنَ الألم، وَيَتَلَعْلَعُ[4] كأنَّما كُوِيَ بِهِ على أحشائِه.

وجعلَ الوِلْدَانُ يَسقُون الواحدَ بعدَ الواحدِ ويتجاوزون مَنْ بينَهما، وهم كَثْرَةٌ مِنَ الناس؛ وكأنَّما يتخلَّلون الجمعَ في البحثِ عن أُناسٍ بأعيانِهم، يَنْضَحُونَ غليلَ أكبادِهم بِمَا في تلك الأباريقِ من رَوْحِ الجنَّةِ ومائِها ونسيمِها.

ومَرَّ بي أحدُهم، فمددْتُ إليهِ يدي وقلْت: «ٱسقِني فقد يَبِسْتُ وٱحترَقْتُ مِنَ العطش!»

قال: «ومَنْ أنت؟»

قلت: «أبو خالدِ الأحولُ الزاهد..»

قال: «ألَكَ في أطفالِ المسلمينَ وَلدٌ ٱفْتَرَطتَهُ[5] صغيراً فٱحتسَبْتَهُ عندَ الله؟»

قلْت: «لا...»

قال: «ألكَ ولدٌ كَبرَ في طاعةِ الله؟»

قلْت: «لا...».

قال: «ألكَ ولدٌ نالَتْكَ منه دعوةٌ صالحةٌ جزاءَ حقّك عليهِ في إخراجِه إلى الدنيا؟»

قلْت: «لا...»

---

(١) استثقلت: استغرقت في نوم عميق.
(٢) الضغطة: شدّة الزحام في يوم الحشر.
(٣) مبثوث: منتشر.
(٤) يتلعلع: يعلو صوته ويرتفع شيئاً فشيئاً.
(٥) أفرطته: افتقدته.

قال: «ألكَ ولدٌ من غيرِ هؤلاءِ ولكنَّك تعْبتَ في تقويمِه، وقُمْتَ بحقِّ اللَّهِ فيه؟»

قلْت: «يرحمْكَ الله، إني كلَّما قلتُ «لا» أحسْستُ «لا» هذه تمرُّ على لِساني كالمِكْواةِ الحامية. . .»

قال: «فنحن لا نسقي إلَّا آباءَنا؛ تَعِبوا لنا في الدنيا، فاليومَ نتعبُ لهم في الآخرة، وقدَّموا بينَ أيديهمُ الطفولة، وإنَّما قدَّموا ألسنةً طاهرةً لِلدفاعِ عنهم في هذا الموقفِ الذي قامَتْ فيه محكمةُ الحَسَنَةِ والسيئة. وليسَ بعدَ ألسنَةِ الأنبياءِ أشَدُّ طلاقةً من ألسنةِ الأطفال، فما لِلطفلِ معنًى من معاني آثامِكَم يَحْتبِسُ فيهِ لِسانُهُ أو يُلَجْلِجُ[1] به».

قال أبو خالد: فجُنَّ جُنوني، وجعلْتُ أبحثُ في نفسي عن لفظةِ «ابن» فكأنَّما مُسِحَتِ الكلمةُ من حِفظي كما مُسِخْتْ من وجودي؛ وذكرْتُ صَلاتي وصِيامي وعِبادتي، فما خطرَتْ في قلبي حتى ضَحِكَ الوليدُ ضَحِكاً وجدْتُ في معناهُ بُكائي ونَدَمي وخَيبتي.

وقال: ـ يا ويلكَ! أما سمِعْتَ: «إنَّ منَ الذنوبِ ذنوباً لا تُكَفِّرُها الصلاةُ ولا الصيامُ، ويُكَفرُها الغمُّ بالعِيال». أتعرفُ من أنا يا أبا خالد؟

قلْت: من أنت ـ يرْحَمْنَا اللَّهُ بك ـ؟

قال: أنا ابْنُ ذاكَ الرجلِ الفقيرِ المُعِيلِ، الذي قالَ لِشيخِكَ إبراهيمَ بْنِ أدهمَ العابدِ الزاهد: «طُوبى لك! فقد تفَرّغْتَ لِلعبادةِ بالعزوبة». فقالَ لهُ إبراهيم: «لَرَوْعةٌ[2] تَنالُكَ بسببِ العيالِ أفضلُ من جميعِ ما أنا فيه. .»، وقد جاهدَ أبي جِهادَ قلبِهِ وعقلِهِ وبدنهِ، وَحَمَلَ على نفسِه من مقاساةِ الأهلِ والولدِ حَمْلَها الأنسانيَّ العظيم، وفكرَّ لِغيرِ نفسِه، واْغتمَّ لِغيرِ نفسِه، وعمِلَ لِغيرِ نفسِه، وآمَنَ وصَبَرَ، ووثِقَ بولايةِ اللَّهِ حينَ تزَوَّجَ فقيراً، وبِضَمانِ اللَّهِ حين أعقبَ فقيراً؛ فهو مُجاهِدٌ في سُبُلٍ كثيرةٍ لا في سبيلٍ واحدةٍ كما يُجاهدُ الغُزاة؛ هؤلاءِ يُستشهدونَ مرةً واحدة، أمَّا هو فيستشهدُ كلَّ يومٍ مرةً في همومِهِ بِنا، واليومَ يرحمُهُ اللَّهُ بفضلِ رحمتِهِ إيَّانا في الدنيا.

أمَا بَلَغَكَ قولُ ابنِ المُبارَكِ وهو مع إخوانِهِ في الغَزْو: «أتعلمونَ عَمَلاً أفضلَ

---

(١) يتلجلج: يتعتع، يتلعثم.

(٢) روعة: خوف.

مِمَّا نحنُ فيه؟ قالوا: ما نَعْلَمُ ذلك. قال: أنا أعلم. قالوا فما هو؟ قال: رجلٌ مُتَعَفِّفٌ على فقرِه، ذو عائلةٍ قد قامَ مِنَ الليل، فنظرَ إلى صِبيانِه نِياماً مُتَكَشِّفِين، فستَرهم وغطَّاهم بثوبِه؛ فَعَمَلُهُ أفضلُ مِمَّا نحن فيه...»

يخلعُ الأبُ المسكينُ ثوبَهُ على صِبْيتِه لِيُدْفِئَهُم بِهِ ويتلقَّى بجلدِهِ البردَ في الليل، إنَّ هذا البردَ ـ يا أبا خالد ـ تحفظُهُ لَهُ الجنةُ هنا في حَرِّ هذا الموقفِ كأنَّها مُؤْتَمَنَةٌ عليه إلى أنْ تُؤدِّيَه. وإنَّ ذلك الدفْءَ الذي شملَ أولادَهُ يا أبا خالد ـ هو هنا يُقاتلُ جهنمَ ويدفعُها عن هذا الأبِ المِسْكين.

قال أبو خالد: ويَهُمُّ الوليدُ أنْ يمضيَ ويدَعَني[1]، فما أملِكُ نفسي، فأمدُّ يدي إلى الإبريقِ فأنْشِطُهُ[2] من يدِه، فإذا هو يتحوّلُ إلى عظْم ضخْم قد نَشِبَ في كَفي وما يليها من أسَلَةِ الذراع[3]. فغابتْ فيهِ أصابعي، فلا أصابعَ لي ولا كَفّ. وأبى الإبريقُ أنْ يسقيَني وصارَ مُثْلَةً بي، وتجسَّدَتْ هذه الجريمةُ لِتشهَدَ عليّ، فأخذَني الهوْلُ والفزَع، وجاء إبريقٌ منَ الهواء، فوقعَ في يدِ الوليد، فتركَني ومضى.

وقُلْتُ لِنفسي: وَيحَكَ يا أبا خالد! ما أراكَ إلا مُحَاسَباً على حسناتِك كما يُحَاسَبُ المُذنبونَ على سيئاتِهم، فلا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله!

وبلغَتْني الصيَّحةُ الرهيبة: أين أبو خالدٍ الأحوالُ الزاهدُ العابد؟

قُلْت: هأنذا.

قيل: طَاوُوسٌ من طواويس الجنةِ قد حُصَّ[4] ذَيْلُهُ فضاعَ أحسنُ ما فيه! أين ذَيْلُكَ من أولادِك، وأين محاسنُك فيهم؟ أخُلِقَتْ لَكَ المرأةُ لِتتجنَّبها، وجَعَلْتَ نَسْلَ أبويك لِتتبَرَّأَ أنت منَ النسل؟

جِئْتَ منَ الحياة بأشياءَ ليسَ فيها حياة؛ فما صنعْتَ لِلحياةِ نفسِها إلَّا أنْ هربْتَ منها، وانهزمتَ عن ملاقاتِها؛ ثم تأمُلُ جائزةَ النصرِ على هَزيمة...!

عَمِلَتِ الفضيلةُ في نفسِك ونشأتِك، ولكنَّها عَقِمَتْ فلم تعملْ بك. لك ألفُ

---

(١) يدعني: يتركني.
(٢) أنشطه: أنتشله.
(٣) أسلة الذراع: القسم الذي يلي اليدين من الذراع، والأسلة هي الرسغ من المعصم.
(٤) حصّ ذيله: قطع.

أَلفِ ركعةٍ ومثلُها سَجدَاتٌ منَ النوافل، ولَخَيْرٌ منها كُلِّها أنْ تكونَ قد خرجَتْ من ثُلثِك أعضاءٌ تركعُ وتسجد.

قتلْتَ رجولتَك، ووَأَدْتَ[1] فيها النَّسل، ولَبِثْتَ طِوالَ عمرِك ولداً كبيراً لم تبلغْ رتبةَ الأب! فلَئِنْ أقمْتَ الشريعة، لقد عطَّلتَ الحقيقة، ولئنْ...

قال أبو خالد: ووقعَتْ غُنَّةُ النونِ الثانيةِ في مِسْمَعيّ من هَوْلِ ما خِفْتُ مِمَّا بعدَها كالنَّفخِ في الصُّور[2]؛ فطارَ نومي وقُمْتُ فَزِعاً مُشتَّتَ القلب، كمَنْ فتحَ عينيهِ بعدَ غَشْية، فرأى نفسَهُ في كفَنٍ في قبرٍ سُدَّ عليه...!

وما كِدْتُ أعي وأنظرُ حَوْلي وقد بَرَقَ الصُّبحُ في الدارِ حتى رأيْتُ أبا ربيعةَ يتقلَّبُ كأنَّما دَحْرجتْهُ يد، ثم نهضَ مُسْتطارَ القلبِ[3] من فزَعِه وقالَ أهلكْتَني يا أبا خالد، أهلكتَني ـ والله ـ.

* * *

قلْت: ما بالُك يرحمْك الله!

قال: إنِّي نِمْتُ على تلكَ النيةِ التي عرفْتَ أنْ أجمعَ قلبي لِلعبادة، وأخلُصَ منَ المرأةِ والولد، ومنَ المعاناةِ لهما في مَرَمَّةِ المعاش[4] والتَّلفيقِ بينَ رغيفٍ ورغيف، وأنْ أُعْفِيَ نفسي من لأوائِهم وضَرَّائِهم وبَلائِهم، لِأفرغَ إلى اللَّهِ وأُقبِلَ عليه وحدَه. وسألْتُ اللَّهَ أنْ يَخِيرَ لي في نومي؛ فرأيْتُ كأنَّ أبوابَ السماءِ قد فُتحَتْ، وكأنَّ رجالاً ينزلونَ ويسيرونَ في الهواءِ يتبعُ بعضُهم بعضاً، أجنحةً وراءَ أجنحة؛ فكلَّما نزلَ واحدٌ نظرَ إليَّ وقال لِمَن وراءه: هذا هو المشئوم!

فيقول الآخر: نعم هو المشئوم!

وينظرُ هذا الآخرُ إليّ ثم يلتفتُ لِمَن وراءَهُ ويقولُ له: هذا هو المشئوم!

فيقول الآخر: نعم هو المشئوم!

وما زالَت «المشئوم، المشئوم» حتى مرُّوا؛ لا يقولون غيرَها ولا أسمعُ غيرَها، وأنا في ذلك أخافُ أنْ أسألَهم، هيبةً منَ الشؤْم، ورجاءَ أنْ يكونَ المشئومُ إنساناً ورائي يُبصرونَه ولا أُبصرُه. ثم مرَّ بي آخرُهم، وكان غُلاماً. فقلْتُ له: يا هذا، مَنْ هو ٱلمشئومُ الذي تُومِئون إليه؟

---

(1) وأدت: دفنت.

(2) الصُّور: البوق.

(3) مستطار القلب: فزع.

(4) مدمّة المعاش: ضيق العيش.

قال: أنت!

فقلْت: ولِمَ ذاك؟

قال: كُنَّا نرفعُ عملَكَ في أعمالِ ٱلمجاهدينَ في سبيل ٱلله، ثم ماتَتِ ٱمرأتُك وتحزَّنْتَ على ما فاتَكَ منَ القِيام بِحقِّها، فرفعْنا عملَكَ درجةً أخرى؛ ثم أُمِرْنا الليلةَ أنْ نضعَ عملَكَ معَ الخالِفِينَ[1] الذين فرّوا وجَبُنُوا!

* * *

إنَّ سُموَّ الرجُلِ بنَفْسِهِ عنِ الزّوْجَةِ وَالولَدِ طَيَرانٌ إلى الأعلَى.. ولكنَّهُ طَيَرانٌ على أجْنِحَةِ الشَّيَاطِين!

طَيَرانٌ بالرجُلِ إلى فُوَّهَةِ البُرْكانِ الّذِي في الأعلى..!

* * *

(١) الخالفين: الناكصين على أعقابهم.

بنتُهُ الصغيرة

١

فرغَ أبو يحيى مالكُ بْنُ دينار، زاهدُ البَصْرةِ وعالمُها، من كتابةِ المُصْحَف؛ وكانَ يكتبُ المصاحفَ لِلناس، ويعيشُ مِمَّا يأخذُ من أجرةِ كِتابتِه؛ تعفُّفاً أنْ يَطْعَمَ إلَّا من كَسْبِ يدِه ـ ثم خرجَ من دارِهِ وَجْهُهُ المسجدُ، فأتاهُ فصلى بالناسِ صلاةَ العصر، وجلسوا ينتظرونَه، وآستوى هو قائماً، فركعَ وسجَد ما شاءَ اللَّهُ حتى قضى نافِلَتَه، ثم آنْفَتَلَ من صلاتِه فقامَ إلى أُسْطُوانتِهِ[1] التي يستندُ إليها، وتَحَلَّقَ الناسُ حولَهُ جُموعاً خلْفَ جموعٍ، يذهبُ فيهِمُ البصرُ مرةً هنا ومرةً هنا من كثرتِهِم وآمتدادِهِم، حتى تَغطَّى بهِمُ المسجدُ على رُحْبِه. ومدَّ الإمامُ عينَهُ فِيهم ثم أطرقَ إطراقةً طويلة، والناسُ كأَنَّ عليهِمُ الطيرَ مِمَّا سكنوا لِهيبتِه، وممَّا عَجِبُوا لِخشوعِه؛ ثم رفعَ الشيخُ رأسَهُ وقد تَندّتْ عيناه، فما نَظَرَ إليهم حتى كأَنَّما آطَّلعَ على أرواحِهِم فجْرٌ رَطْبٌ من سِحْرِ ذلكَ الندى.

وبَدَرَ[2] شابٌ حَدَثٌ فسألَه: ما بكاءُ الشيخ؟ وكانَ قريباً يجلسُ منَ الإمامِ في سَمْتِ بصرِهِ[3] فتأمَّلَهُ الشيخُ طويلاً يقلِّبُ فيهِ الطرْفَ كالمتعجب، ولَبِثَ لا يُجيبُهُ كأَنَّما عُقِدَ لسانُهُ أو أخذَتْهُ من نفسِهِ حالٌ، فما يُثْبِتُ شيئاً مِمَّا يرى.

وآزدادَ الناسُ عجباً؛ فما جَرَّبوا على الشيخِ من قبلِها حَصَراً[4] ولا عِيًّا، ولا قَطَعَهُ سُؤالٌ قَطّ، ولا تخلَّفَ عن جواب؛ وقالوا: إنّ لَهُ لَشأناً، وما بُدٌّ أنْ تكونَ من وراءِ حُبْسَتِهِ[5] شِعابٌ في نفسِهِ تَهْدِرُ بسَيْلِها وتعتلِج؛ فما أسرعَ ما يلتقي السيلُ، فيجتمع، فيُصَوَّبُ إلى مجراه، فيَقَاذَف.

---

(١) أسطوانته: العمود المخصص لحلقته التي يدرّس بها.

(٢) بدر: ظهر. (٣) سمت بصره: مدى نظره المواجه له.

(٤) الحصر: انحباس النطق. وهو العي. عدم القدرة على الكلام.

(٥) الحبسة: عدم القدرة على النطق.

وتبسَّمَ الإمامُ وقال: أمَا إنِّي قدْ ذكرْتُ ذِكرَى فبكيْتُ لها، ورأيْتُ رؤيا فتبسَّمْتُ لها؛ أمَّا الذِّكرى، فهل تعلمون أنَّ هذا المسجدَ الذي يَفْهَقُ[1] بهذا الحَشْدِ العظيم، وتقعُ فيهِ المدينةُ لِكلِّ أذَانٍ وتطير ـ هل تعلمونَ أنَّهُ خلا قَطُّ منَ الناسِ وقد وَجَبَتِ الفَريضة؟ قالوا: ما نَعْلمُه.

قال: فقدَ كانَ ذلك لِعشرينَ سنةً خَلَتْ في مَوْت الحسنِ، فقد ماتَ عَشِيَّةَ الخميس، وأصبحْنا يومَ الجمعةِ ففرغْنَا من أمرِ، وحملْناهُ بعدَ صلاةِ الجمعة، فتبعَ أهلُ البصرةِ كلُّهم جنازتَهُ وَٱشتغَلوا به، فلم تُقَمْ صلاةُ العصرِ بهذا المسجد، وما تُركَتْ منذُ كانَ الإسلامُ إلّا يومَئذٍ؛ ومثلُ الحسَنِ لا تموتُ ساعةُ موتِهِ من عُمْرِ مَنْ شَهِدَها، فذلك يومٌ عجيبٌ قد لَفَّ نهارُهُ البصرَةَ كلَّها في كَفَنٍ أبيض، فما بقيَتْ في نفسِ رجلٍ ولا ٱمرأةٍ شهوةٌ إلى الدنيا، وفرغَ كلُّ إنسانٍ من باطِلة، كما يَفرَغُ مَنْ أيقنَ أنْ لَيسَ بينَهُ وبينَ قبرِهِ إلّا ساعة؛ وظهَرَ لهمُ الموتُ في حقيقةٍ جديدةٍ بالغةِ الرَّوْع لا يراها الأبناءُ في موتِ حبيبِه، ولا الحميمُ في موتِ حميمِه؛ فإنَّ ٱلجَميعَ فقدوا الواحدَ الذي ليسَ غيرُهُ في الجميع؛ وكما يموتُ العزيزُ على أهلِ بيتٍ فيكونُ الموْتَ واحداً وتتعدّدُ فيهم معانيه، كذلك كانَ موتُ الحسنِ مَوْتاً بعَدَدِ أهلِ البصرة!

ذاكَ يومٌ ٱمتدَّ فيهِ الموتُ وكَبُر، وَٱنكمشَتْ[2] فيهِ الحياةُ وصَغُرتْ، وتحاقَرَتِ الدنيا عندَ أهلِها، حتى رجعَتْ بِمِقْدارِ هذه الحُفْرةِ التي يُلقَى فيها الملوكُ والصعاليكُ والأخلاطُ بين هؤلاءِ وأولئك، لا يَصغُرُ عنها الصغير، ولا يكْبُرُ عنها الكبير؛ لا بل دون ذلك، حتى رجعَتِ الدنيا على قدرِ جِيفةِ حيوانٍ بالعَراء، تنكَشِفُ لِلأبصارِ عن شَوْهَاءَ[3] نَجسةٍ قَد أرَمَّتْ[4] لا تُطاقُ على النظر، ولا على الشمّ، ولا على اللمْس؛ وما تتفجّرُ إلّا عن آفة، وما تتفجّرُ إلّا لِهوامِّ الأرض.

تلك هي الذكرى، وأمَّا الرؤيا فقد طالعَتْني نفسي من وجهِ هذا الفتى، فأبصرْتُني حينَ كنْتُ مثلَهُ يافعاً مُترعْرِعاً داخلاً في عصر شبابي، فكأنَّما ٱنتبهَتْ عيني من هذه النفسِ على فاتِك خبيثٍ كانَ في جناياتِهِ في أغلالِهِ في سجنِه، وماتَ طويلاً ثم بُعِثَ!

إنِّي مُخبرُكم عنّي لِمَا لم تُحيطوا بهِ، فأرْعَوهُ أسماعَكم[5]، وأحْضِرُوهُ

---

(١) يفهق: يمتلىء.

(٢) انكمشت: توقفت.

(٣) شوهاء: بشعة.

(٤) أرمّت: بليت.

(٥) ارعوه أسماعكم: أنصتوا إليه جيداً.

أفهامَكم، وٱستجمِعُوا لَه، فإِنَّهُ كانَ غَيْبَ شيخِكم، وأنا محَدِّثُكم بِهِ كَيْلا ييأسَ ضَعيف، ولا يقنَطَ يائس، فإِنَّ رحمةَ اللَّهِ قريبٌ مِنَ المحسنين.

* * *

لقدْ كنْتُ في صدْرِ أيَّامي شُرْطيًا، وكنْتُ في آنِفَةِ الحَداثةِ مِن قبلِها أتَفَتَّى وأتَشَطَّرُ[1]، وكنْتُ قويًّا معصوباً في مثلِ جِبْلةِ الجبَلِ من غِلَظٍ وشِدّة، وكنْتُ قاسياً كأنَّ في أضلاعي جَندلةً لا قُلْباً، فلا أتذمَّمُ[2] ولا أتأثَّم[3]؛ وكنْتُ مُدمِناً على الخمْر، لِأنَّها رُوحانيَّةُ مَنْ عَجزَ أنْ تكونَ فيهِ روحانيَّة، وكأنَّها إلهيَّةٌ يُزَوِّرُها الشيطانُ ـ لعنَهُ ٱللهُ ـ فيَخْلُقُ بها لِلنفسِ ما تُحبُّ مِمَّا تكرَه، ويُثِيبُها ثوابَ ساعةٍ ليسَتْ في الزمنِ بل في خيالِ شارِبِها. وكأنَّ جَهْلَ العقلِ نَفْسَهُ في بعضِ ساعاتِ الحياة، هو ـ في عِلْمِ الشيطانِ وتعليمِهِ ـ معرفةُ العقلِ نَفْسَهُ في الحياة!

فبينَا أنا ذاتَ يوم أجولُ في السوق، والناسُ يَفُورونَ في بيعِهِم وشرائِهِم، وأنا أرقُبُ السارق، وأُعِدُّ لِلجاني، وأتهيَّأُ لِلنزاع ـ إذْ رأيْتُ ٱثنينِ يَتَلاحَيان[4]، وقد لَبَّبَ[5] أحدُهُما الآخر؛ فأخذْتُ إليهما، فسمِعْتُ المظلومَ يقولُ لِلظالم: لقدْ سَلَبْتَني فَرَحَ بُنَيَّاتي، فسيدْعونَ اللَّهَ عليك فلا تصيبُ من بعدِها خيراً، فإِنِّي ما خرجْتُ إلَّا ٱتباعاً لِقولِ رسولِ ٱللَّهِ ﷺ: «خرجَ إلى سُوقٍ من أسواقِ المسلمين، فٱشترى شيئاً، فحملَهُ إلى بيتِه، فخَصَّ بِهِ الإناثَ دونَ الذكور؛ نَظَرَ اللَّهُ إليهِ».

قال الشيخ: وكنْتُ عزباً لا زوجةَ لي، ولكنَّ الآدميَّةَ ٱنتبهَتْ فيَّ، وطمِعْتُ في دعوةٍ صالحةٍ منَ البُنَيَّاتِ المِسكينات، إذا أنا فرَّحْتُهُنَّ؛ ودَخَلَتْني لهنَّ رِقَّةٌ شديدة، فأخذْتُ للرجلِ من غريمِهِ حتى رضي، وأضعفْتُ لَهُ من ذاتِ يدي لِأزيدَ في فرحِ بناتِه، وقلْتُ لَهُ، وهو ينصرِف: عَهْدٌ يُحاسِبُك اللَّهُ عليه، ويَستوفيهِ لي منك، أنْ تجعلَ بناتِك يدعونَ لي إذا رأيْتَ فَرَحَهنَّ بِمَا تحملُ إليهِنَّ، وقلْ لهن: مالكُ بْنُ دينار.

وبِتُّ ليلتي أتقلَّبُ مفكِّراً في قولِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ومعانيهِ الكثيرة، وحثِّهِ[6] على إكرامِ البنات، وأنَّ مَنْ أكرمَ بناتِهِ كَرُمَ على الله، وحِرْصِهِ أنْ ينشأْنَ كريماتٍ

---

(١) أتفتى وأتشطر: أقوم بأعمال العيارين وقطاع الطرق.
(٢) أتذمم: أذم ما أنا فيه.
(٣) أتأثم: أشعر بالإثم.
(٤) يتلاحيان: يتعاركان.
(٥) اللبب: ياقة الرقبة من الرداء.
(٦) حثه: تشجيعه لهم.

فَرِحات؛ وحدّثَني هذا الحديثُ ليلَتي تلك إلى الصبح، وفكَّرتُ حينئذٍ في الزواج. وعَلِمْتُ أنَّ الناسَ لا يزوْجونني من طَيباتِهم ما دُمْتُ من الخَبيثين؛ فلمَّا أصبحْتُ غدَوْتُ إلى سُوق الجواري[1]، فاشتريْتُ جارية نفيسَة، ووقعَتْ مني أحسنَ موقع، ووَلَدَتْ لي بنتاً فشُغِفْتُ بها، وظهرَتْ لي فيها الإنسانيَّةُ الكبيرةُ التي ليسَتْ فيَّ، فرأيْتُ بُعْدَما بيني وبينَ صورتي الأولى؛ ورأيْتُها سماويَّةً لا تملكُ شيئاً وتملكُ أباها وأمَّها، وليسَ لها منَ الدنيا إلا شَبعُ بطنِها وما أيسَرَه، ثُمَّ لها بعدَ ذلك سرورُ نفسِها كاملاً تَشُبُّ عليهِ أكثرَ مِمَّا تَشُبُّ على الرَّضاع؛ فعلِمْتُ من ذلك أنَّ الذي تكْتَنِفُهُ[2] رحمةُ اللَّهِ يملكُ بها دنيا نفسِه، فما عليهِ بعدَ ذلك أنْ تفوتَهُ دنيا غيرِه؛ وأنَّ الذي يجِدُ طهارةَ قلبِهِ يجِدُ سرورَ قلبِهِ وتكونُ نفسُهُ دائماً جديدةً على الدنيا؛ وأنَّ الذي يحيا بالثِّقةِ تُحْيِيهِ الثِّقة؛ والذي لا يُبالي الهمَّ لا يُبالي الهمُّ به؛ وأنَّ زينةَ الدنيا ومتاعَها وغرورَها وما تجلِبُ منَ الهمّ ـ كلُّ ذلك من صِغرِ العقلِ في الإيمانِ حينَ يكبرُ العقلُ في العِلْم!

كانت البُنَيَّةُ بدءَ حياةٍ في بيتي وبدءَ حياةٍ في نفسي، فلمَّا دبَّتْ[3] على الأرضِ ٱزْددْتُ لها حُبًّا، وألِفَتْني وألِفْتُها، فرُزِقَتْ روحي منها أطهرَ صداقةٍ في صديق، تَتَجدَّدُ لِلْقلبِ كلَّ يوم، بلْ كلَّ ساعة، ولا تكونُ إلَّا لِمحضِ[4] سرورِ القلبِ دونَ مطامعِهِ، فتُمِدُّهُ بالحياةِ نفسِها لا بأشياءِ الحياة، فلا تزيدُ الأشياءُ في المحبَّةِ ولا تنقصُ منها، على خِلافِ ما يكونُ في الأصدقاءِ بعضِهم من بعضٍ وٱختلافِهم على المضَرَّةِ والمنفعة.

* * *

قال الشيخ: وجَهَدْتُ[5] أنْ أترُكَ الخمرَ فلم يأتِ لي ولم أستطعْه؛ إذْ كنْتُ منهمِكاً[6] على شربِها، ولكنَّ حبّ ٱبنتي وضعَ في الخمرِ إثمَها الذي وضعَتْهُ فيها الشريعة، فكَرِهْتُها كُرْهاً شديداً، وأصبحْتُ كالمُكرَهِ عليها، ولم تَعُدْ فيها نَشْوتُها ولاريُّها، وكانَتِ الصغيرةُ في تمزيقِ أخيلَتها أبرعَ منَ الشيطانِ في هذه الأخيلة، وكأنَّما جرَّتْني يدُها جرًّا حتى أبعدتْني عنِ المنزلةِ الخَمْريةِ التي كانَ الشيطانُ وضعَني فيها، فٱنتقلْتُ مِنَ الاستهتارِ والمكابَرةِ وعدمِ المبالاةِ إلى الندمِ والتَحوُّبِ[7]

---

(١) الجواري، مفرده جارية، وهي الأمة من الرقيق.

(٢) تكتنفه: تحيطه وترعاه.

(٣) دبّت: درجت، شرعت تمشي.

(٤) مخض: خالص.

(٥) جهدت: اجتهدت وحرصت.

(٦) منهمكاً: معولاً ومعتاداً عليها.

(٧) التحوّب: التوجّع.

والتأثُّم، وكنْتُ من بَعدِها كلَّما وضعْتُ المُسْكِر، وهمَمْتُ بهِ دبَّتِ ٱبنتي إلى مجلسي؛ فأنظرُ إليها وتنتَشِرُ عليها نفسي من رقَّةٍ ورحمة، فأرقُبُ ما تصنع، فتجيءُ فتُجاذبني الكأسَ حتى تُهرِقَها[1] على ثوبي، وأراني لا أغضب، إذْ كانَ هذا يسرُّها ويُضحِكُها، فأسرُّ لها وأضحك.

ودامَ هذا منِّي ومنها، فأصبحْتُ في المنزلةِ بينَ المنزلتين؛ أشربُ مرةً وأتركُ مراراً، وجعلْتُ أستقيمُ على ذلك، إذْ كانَتِ النَّشْوةُ بٱبنتي أكبرَ منَ النشوةِ[2] بالزجاجة، وإذْ كنْتُ كلَّما رجعْتُ إلى نفسي وتدبَّرتُ أمري، أستعيذُ باللَّهِ أنْ تَعقِلَ ابنتِي معنى الخمرِ يوماً فأكونَ قد نجَّسْتُ أيامَها، ثم أتقدمُ إلى اللَّهِ وعليَّ ذنوبُها فوقَ ذنوبي، ويترحَّمُ الناسُ على آبائِهم وتلعنُني إذْ لم أكنْ لها كالآباء، فأكونُ قد وُجِدْتُ في الدنيا مرةً واحدةً وهلكْتُ مرتين.

ومضيْتُ على ذلك وأنابِها أصلُحُ بها شيئاً فشيئاً وكلَّما كبُرَتْ كبُرَتْ فضليتي، فلمَّا تَمَّ لها سنتان، ماتت!

* * *

قال الراوي: وسكَتَ الشيخ، فعَلِقَتْ بهِ الأبصار، ووقفَتْ أنفاسُ الناسِ على شِفاهِهم، وكأنَّما ماتَتْ لَحظاتٌ مِنَ الزمنِ لِذِكرِ موتِ الطفلة، وخامرَ[3] المجلسَ مثلُ السكْرِ بهذه الكأسِ المُذْهِلة؛ ولكنَّ الطفلةَ دبَّتْ من عالمِ الغيبِ كما كانَتْ تصنع، وجذبَتِ الكأسَ وأهرقَتْها، فانتبهَ الناسُ وصاحوا: ماتَتْ فكان ماذا؟

قال الشيخ: فأكْمدَني الحزنُ عليها، وَوَهَنَ جَأْشي[4]، ولم يكنْ لي من قوةِ الروحِ والإيمانِ ما أتأسَّى بِه، فضاعفَ الجهلُ أحزاني، وجعلَ مُصيبتي مصائب. والإيمانُ وحدَهُ هو أكبرُ علومِ الحياة، يُبصِّرُك إنْ عميتَ في الحادثة، ويَهديكَ إن ضَلَلْتَ عنِ السكينة، ويجعلُكَ صَديقَ نفسِك تكونُ وإيَّاها على المُصيبة، لا عَدُوَّها تكونُ المصيبةُ وإيَّاها عليك، وإذا أخرجَتِ الليالي مِنَ الأحزانِ والهمومِ عسكرَ ظلامِها لِقتالِ نفسٍ أو محاصرتِها، فما يدفعُ المالُ ولا تردُ القوةُ ولا يمنعُ السلطان، ولا يكونُ شيءٌ حينئذٍ أضعفَ من قوّةِ القويّ، ولا أضيعَ من حيلةِ المحتال، ولا أفقرَ من غِنَى الغَنيّ، ولا أجهلَ من عِلْمِ العالم، ويبقى الجهْدُ والحيلةُ والقوّةُ

---

(١) تهرقها: تريقها.
(٢) النشوة: الشعور بالسرور.
(٣) خامر: داخل.
(٤) جأشي: سيطرتي على نفسي ومشاعري.

والعِلْمُ والغِنى والسلطانُ ـ لِلإيمانِ وحدَه؛ فهو يَكسرُ الحادثَ ويُقلّلُ من شأنِه، ويُؤَيِّدُ النفسَ ويُضاعِفُ من قوّتِها، ويَرُدُّ قَدرَ اللَّهِ إلى حِكْمةِ ٱلله؛ فلا يلبَثُ ما جاءَ أنْ يرجع، وتعودُ النفسُ من الرضا بالقَدرِ والإيمانِ به، كأنما تَشهدُ ما يقعُ أمامَها لا ما يقعُ فيها.

قال الشيخ: ورجعْتُ بجهلي إلى شرٍّ مِمَّا كنْتُ فيه، وكانَتْ أحزاني أفراحَ الشيطان؛ وأراد ـ أخزاهُ الله ـ أن يَفْتَنَّ في أساليبِ فرحِه، فلمَّا كانَتْ ليلةُ النصفِ من شعبانَ ـ وكانَتْ ليلةَ جمعة، وكانَتْ كأوّلِ نورِ الفجرِ من أنوارِ رمضان ـ سوَّلَ[1] لِيَ الشيطانُ أنْ أسكرَ سكْرةً ما مثلُها؛ فبِتُّ كالميتِ مِمَّا ثَمِلْت، وقذَفَتْني أحلامٌ إلى أحلام، ثم رأيْتُ القِيامةَ والحَشْر، وقدْ وَلدَتِ القبورُ مَنْ فيها، وسِيقَ الناسُ وأنا معهم، وليس وراءَ ما بي مِنَ الكَرْبِ غاية؛ وسمِعْتُ خلفي زَفيراً كفَحيحِ الأفعى، فالتفتُّ فإذا بتِنِّينٍ عظيمٍ ما يكونُ أعظمُ منه؛ طويلٌ كالنخلةِ السَّحوق، أسودُ أزرقُ، يُرسِلُ الموْتَ من عينيهِ الحمراوينِ كالدم، وفي فمِهِ مثلُ الرّماحِ من أنيابِه، ولِجَوْفِهِ حرٌّ شَديدٌ لو زفَر بِهِ على الأرضِ ما نبتَتْ في الأرضِ خضراء، وقد فَتحَ فاهُ ونَفخَ جوفَهُ وجاءَ مُسْرِعاً يُريدُ أنْ يَلْتقِمَني، فمرْرتُ بين يديهِ هارباً فَزِعاً؛ فإذا أنا بشيخٍ هَرِمٍ يكادُ يموتُ ضَعْفاً، فَعُذْتُ بِهِ وقلْتُ: أجِرني وأغثني. فقال: أنا ضعيف كما ترى، وما أقدِرُ على هذا الجبَّار، ولكنْ مُرَّ وأسرِعْ، فلعلَّ اللَّهَ أنْ يسبِّبَ لك أسباباً لِلنَّجاة.

فولَّيْتُ هارباً وأشرفْتُ على النارِ وهي ٱلهوْلُ ٱلأكبر، فرجعْتُ أشتدُّ هرباً والتنينُ على أثري؛ ولقِيْتُ ذلك الشيخَ مرةً أخرى، فٱستَجَرْتُ بِهِ فبكى مِنَ الرحمةِ لِي وقال: أنا ضعيف كما ترى، وما أقدِرُ على هذا الجبار، ولكنِ ٱهربْ إلى هذا الجبل، فلَعَلَّ اللَّهَ يُحدِثُ أمراً.

فنظرْتُ فإذا جبلٌ كالدارِ العظيمة، له كُوًى[2] عليها سُتُور، وهو يَبْرُقُ كشعاعِ الجوهرِ؛ فأسرعْتُ إليه والتنينُ من ورائي، فلمّا شارَفْتُ الجبلَ[3] فُتِحتِ الكُوى، ورُفِعَتِ الستور، وأشرفَتْ عليَّ وُجوهُ أَطفالٍ كٱلأقمارِ، وقربَ التِّنينُ منِّي، وَصِرْتُ في هواءِ جوْفِهِ وهو يتَضرّمُ عليّ، ولم يبقَ إلَّا أنْ يأخذَني؛ فتَصايَحَ الأطفالُ جميعاً: يا فاطمة! يا فاطمة!

---

(١) سوّل: أوحى وسوّغ فعل المنكر.

(٢) كوًى: نوافذ صغيرة ضيّقة. (٣) شارفت الجبل: انتهيت إليه.

قال الشيخ: فإذا ٱبنتي التي ماتَتْ قد (أشرفَتْ عليّ، فلمّا رأَتْ ما أنا فيهِ صاحَتْ وبكَتْ، ثم وثَبتْ كَرَميْةِ السهم، فجاءَتْ بينَ يديّ، ومدَّتْ إليَّ شِمالَها فتعلَّقْتُ بها، ومدّتْ يمينَها إلى التنّينِ فولّى هارباً، وأجلسَتْني وأنا كالميتِ مِنَ الخوْفِ والفزع، وقعدَتْ في حِجري كما كانَتْ تصنعُ في الحياة، وضربَتْ بيدِها إلى لِحيتي وقالت: يا أبتِ. . ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

فبكيْتُ وقلْتُ: يا بُنيَّة، أخبريني عن هذا التِّنّينِ الذي أرادَ هلاكي. قالَتْ ذاك عملُكَ السوءَ الخبيث، أنت قوّيْتَهُ حتى بلغَ هذا الهوْلَ الهائل، والأعمالُ ترجعُ أجساماً كما رأيْت. قلْت: فذاك الشيخُ الضعيفُ الذي ٱستجرْتُ بِهِ ولم يُجرْني؟ قالت: يا أبت، ذاك عملُكَ الصالح، أنتَ أضعفتَهُ فضَعُفَ حتى لم يكن له طاقةٌ أن يُغيثَك[1] من عملِك السَّيِّىء؛ ولو لم أكنْ لك هنا، ولو لم تكنِ ٱتبعْتَ قولَ رسولِ الله ﷺ فيمَنْ فَرّحَ بناتِهِ المسكيناتِ الضعيفات ـ لَمَا كانت لك هنا شِمالٌ تتعلَّقُ بها، ويمينٌ تَطْرُدُ عنك.

* * *

قال الشيخ: وٱنتبهْتُ من نومي فزِعاً ألعَنُ ما أنا فيه، ولا أراني أستقِرّ، كأنّي طَريدةُ عملي السَّيِّىء؛ كلَّما هَرَبْتُ منه هَرَبْتُ بِهِ؛ وأين المَهْرَبُ مِنَ الندمِ الذي كانَ نائماً في القلبِ وٱستيقظَ لِلْقلب؟

وأمَّلْتُ في رحمةِ اللّهِ أنْ أربَحَ من رأسِ مالٍ خاسر، وقلْتُ في نفسي: إن يوماً باقياً مِنَ العمرِ هو لِلمؤمنِ عُمْرٌ ما ينبغي أنْ يُستهانَ به؛ وصحَّحْتُ النيّةَ على التوبة، لِأُرجعَ الشبابَ إلى ذلك الشيخِ الضعيف، وأسمِّنَ عِظامَه، حتى إذا ٱستجرْتُ بِهِ أجارَني ولم يقل: «أنا ضعيفٌ كما ترى!»

وسألْتُ فدُلِلْتُ على أبي سعيد الحسَن بنِ أبي الحسنِ البصريّ، سيِّد البقيّةِ مِنَ التابعين؛ وقيل لي: إنَّهُ جَمَع كلّ عِلْم وفنّ إلى الزهدِ والورعِ والعِبادة، وإنَّ لِسانَهُ السِّحر، وإنَّ شخصَهُ المغناطيس[2]، وإنَّهُ ينطِقُ بالحكمةِ كأنّ في صدرِهِ إنجيلاً لم يُنزَّل، وإنَّ أمَّهُ كانَتْ مولاةً لِأمِّ سَلمَةَ زوجِ النبي ﷺ، فكانَتْ ربَّما غابَتْ أمُّهُ في حاجةٍ فيبكى، [فترضعُهُ أمُّ سلمةَ تُعلِّلُهُ بثَديها فَيدِرُّ عِلّته، فكانَتْ بينَهُ وبينَ بَركةِ النبوّةِ صِلَة].

---

(١) يغيثك: يعينك في شدّتك.

(٢) المغنطيس: الجاذب.

وغدوْتُ إلى المسجدِ، والحسنُ في حَلْقتِهِ يقصُّ ويتكلَّم، فجلَسْتُ حيث أنتهى بِيَ المجلس، وما كانَ غيرَ بعيدٍ حتى عَرَتْني نَفْضةٌ كنفضةِ الحُمَّى، إذْ قرأَ الشيخُ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ فلو لَفظتْني الأرضُ من بطنِها، وٱنشقَّ عنِّي القبرُ بعدَ الموْتِ ما رأيْتُ الدنيا أعجبَ مِمَّا طالعَتْني في تلكَ الساعة؛ وأخذَ الشيخُ يفسِّرُ الآية، فصنعَ بي كلامُهُ ما لو بُعِثَ نبيٌّ من أجْلي خاصةً لَمَا صَنَع أكثرَ منه.

وكلامُ الحسنِ غيرُ كلام الناس، وغيرُ كلام العلماء؛ فإنَّه يتكلَّمُ من قلبِهِ ومن روحِهِ ومن وجهِهِ ولِسانِهِ، وناهيكُم من رجلٍ خاشعٍ مُتَصَدِّع من خشيةِ الله، لم يكن يُرَى مُقْبِلاً إلَّا وكأنَّهُ أسيرٌ أمروا بضربِ عنقِه، وإذا ذُكِرَتِ ٱلنارُ فكأنَّها لم تخلقْ إلَّا لَهُ وحدَه؛ رجلٌ كانَ في الحياةِ لِتتكلَّمَ الحياةُ بلسانِهِ أصدقَ كلماتِها.

فصاحَ صَائح: يا أبا يحيى، التفسير! وصاح المؤذّن: اللَّهُ أكبر. فقطعَ الشيخُ وقال: التفسيرُ إنْ شاءَ ٱللَّهُ في المجلسِ الآتي.

* * *

بنتُهُ الصغيرة

٢

. . . وجاءَ مِنَ الغدِ أبو يحيى مالكُ بْنِ دينارٍ إلى المسجد، فصلَّى بالناس، ثم تحوَّلَ إلى مجلسِ درسِهِ وتَعَكَّفوا[1] حولَه؛ وكانوا إلى بقيَّةِ خَبرِهِ في لهفةٍ كأنَّ لها عُمراً طويلاً في قلوبِهم، لا ظَمَأَ ليلةٍ واحدة.

وقال منهم قائل: أيُّها الشيخ، جُعِلْتُ فِداك، ما كانَ تأويلُ الحَسَنِ لِتلكَ الآيةِ من كلامِ اللَّهِ تعالى، وكيف رجعَ الكلامُ في نفسِك مَرْجعَ الفكرِ تَتَّبعُه، وأصبحَ الفكرُ عندَك عملاً تحذو عليه، واتصل هذا العملُ فكانَ ما أنت في وَرَعِك و. . .؟

فقطع الإمامُ عليه وقال: هوّنْ عليك يا هذا؛ إنَّ شيخَك لأهوَنُ من أنْ تذهبَ في وصفِهِ يميناً أو شِمالاً، وقد روى لنا الحَسَنُ يوماً ذلك الخبرَ الواردَ فيمَنْ يُعذَّبُ في النار ألفَ عام من أعوامِ القيامة، ثم يُدركُهُ عفوُ اللَّهِ فيخرجُ منها، فبكى الحسنُ وقال: يا ليتني كنْتُ ذلك الرجل!» وهو الحسنُ يا بنيَّ، هو الحسن. . .!

فضجَّ الناسُ وصاحَ منهم صائحون: يا أبا يحيى قتلْتَنا يأساً. وقال الأول: إذا كان هذا فأوشَكَ أنْ يَعُمَّنَا اليأسُ والقُنوط، فلا ينفعُنا عملٌ، ولا نأتي عملاً ينفع.

قال الشيخ: هوِّنوا عليكم، فإنَّ لِلمؤمنِ ظنَّين: ظنًّا بنفسِه، وظنًّا بربِّه؛ فأما ظنُّه بالنفسِ فينبغي أنْ ينزلَ بها دونَ جَمَحَاتِها[2] ولا يفتأ ينزل؛ فإذا رأى لِنفسِهِ أنَّها لم تعملْ شيئاً أوجبَ عليها أنْ تعمل، فلا يزالُ دائماً يدفعُها؛ وكلَّما أكثرَتْ مِنَ الخيرِ قال لها: أكثِري. وكلَّما أقلَّتْ مِنَ الشرِّ قال لها: أقلّي. ولا يزالُ هذا دأبَهُ ما بقي؛ وأمَّا الظنُّ باللَّهِ فينبغي أنْ يعلوَ بهِ فوقَ الفَترَاتِ والعِلَلِ والآثام، ولا يزالُ يعلو؛ فإنَّ اللَّهَ عندَ ظنِّ عبدِهِ به، إنْ خيراً فلَهُ وإنْ شرًّا فلَهُ. ولقد رُوينا هذا الخبر: «كان فيمَنْ كانَ قبلَكم رجلٌ قَتَلَ تسعاً وتسعينَ نفساً، فسألَ عن أعلمِ أهلِ الأرض،

---

(١) تعكَّفوا حوله: جلسوا حوله في حلقة. (٢) جمحاتها: خروجها عن المألوف من العادات.

فُدلَّ على راهبٍ فأتاه، فقال: إنَّهُ قتلَ تسعاً وتسعين نفْساً، فهلْ لَهُ من توبة؟ قال: لا! فقَتلَهُ فكمَّلَ بِهِ مائة! ثُمَّ سألَ عن أعلمِ أهلِ الأرض، فدُلَّ على رجلٍ عالم، فقال له: إنَّهُ قتلَ مائةَ نفْسٍ، فهَلْ لَهُ من توبة؟ قال: نعم؛ ومَنْ يَحولُ بينَكَ وبينَ التوبة؟ اِنطلِقْ إلى أرضِ كذا وكذا، فإنَّ بها أُناساً يعبدونَ اللَّهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ، فاْعبدِ اللَّهَ معَهم ولا ترجعْ إلى أرضِك، فإنَّها أرضُ سَوْء».

فأنطلَقَ، حتى إذا نصَّفَ الطريقَ أتاهُ ملَكُ الموت، فاْختصمَتْ فيهِ ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العِذاب؛ فقالَتْ ملائكةُ الرحمة: جاءَ تائباً مُقْبِلاً بقلبِهِ إلى الله. وقالَتْ ملائكةُ العذاب: إنَّهُ لم يعملْ خيْراً قَط. فأتاهم مَلكٌ في صورةِ آدميٍّ فجعلوه حَكماً بينَهم، فقال: قِيسوا ما بينَ الأرْضَين، فإلى أيِّهما كانَ أدنى فهوَ له. فقاسوا فوجدُوه أدنى إلى الأرضِ التي أراد، فقبضتْهُ ملائكةُ الرحمة!

قال الشيخ: فهذا رجُلٌ لمَّا مشى بقلبِهِ إلى اللَّهِ حُسِبَتْ له الخطوةُ الواحدة، بلِ الشبرُ الواحد؛ ولو أنَّهُ طَوَّفَ الدنيا بقدميهِ ولم يكُنْ لَهُ ذلك القلب، لَكَانَ كَالعِظامِ المحمولةِ في نعْش؛ قبرُها في المشرقِ هو قبرُها في المغرب، وليسَ لها مِنَ الأرضِ ولا لِلأرضِ منها إلَّا معنًى واحدٌ لا يتغيَّر؛ هو أنَّهُ بجملتِهِ ميّت، وأنَّها بجملتِها حُفْرة.

والإنسانُ عندَ الناسِ بهيئةِ وجهِهِ وحِلْيتِهِ التي تبدو عليه، ولكنَّه عندَ اللَّهِ بهيئةِ قلبِهِ وظنِّهِ الذي يَظَنُّ به؛ وما هذا الجسمُ مِنَ القلب إلا كقشرةِ البيضةِ[1] مِمَّا تحتَها. فيا لها سخريةً أنْ تزعُمَ القشرةُ لِنفسِها أنَّ بها هي الاعتبارَ عندَ الناسِ لا بما فيها، إذْ كانَ ما تحويهِ لا يكونُ إلا فيها هي؛ ومن ثَمَّ تُبْعِدُ في حماقتِها فتسأل: لماذا يرميني الناسُ ولا يأكلونَني. . . . ؟

إنَّ هذه الأخلاقَ الفاضلةَ في هذا الإنسانِ لا تجدُ تمامَ معناها إلَّا في حالةٍ بعينِها من أحوالِ القلب، وهي حالةُ خشوعِه على وصفِها الذي شرحَتْهُ الآيةُ الكريمة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

فالأخلاقُ الفاضلةُ محدودةٌ باللَّهِ والحقِّ معاً، وهي كلُّها في خشوعِ القلبِ لِهذين؛ فإنَّ مِنَ القلبِ مخارجَ الحياةِ النفسيةِ كلِّها.

---

(١) قشرة البيضة الكلسية اليابسة هي القيض، بفتح القاف وسكون الياء. بينما قشرتها الداخلية اللاصقة بالبياض فتسمى الغرقى بكسر الغين والقاف.

قال الشيخ: وأنا منذُ حفظْتُ عنِ الحسنِ تأويلَ هذه الآية، وأسْتَنَنْتُ بها[١]، مضيْتُ أعيشُ مِنَ الدنيا في تاريخِ قلبي لا في تاريخِ الدنيا، وأدركْتُ من يومئذٍ أنْ ليسَ حفظُ القرآنِ حِفْظَهُ في العقلِ، بل حفظُهُ في العملِ بهِ؛ فإنْ أنت أثبتَّ الآيةَ منه، وكنْتَ تعملُ بغيرِ معناها، وتعيشُ في غيرِ فضيلتِها، فهذا ـ ويحك ـ نسيانُها لا حفظُها. وقد كان قومُنا الأوّلون بمعانيهِ كالشجرةِ الخضراءِ النامية؛ فيها ورَقُها الأخضرُ وزهرُها، وعلى ظاهرِها حياةُ باطِنِها، فلَمَّا ثبتَ الناسُ على الشكلِ وحدَه، ولم يُبالوا القلبَ وأحوالَه، أصبحوا كالشجرةِ اليابسة، عليها ورقُها الجافُّ، ليسَ في بقائِهِ ولا سقوطِهِ طائل.

ما أصبحْتُ ولا أمسيْتُ منذُ حفظْتُ تفسيرَ الآيةِ إلَّا في حياةٍ منها، وهذه الآيةُ هي التي دلَّتْني بمعانِيها أنْ ليْسَتِ الحياةُ الأرضيَّةُ شيئاً إلَّا ثورةَ الحيّ على ظُلْمِ نفسِه، يَستنكِفُ عنها[٢] أكثرَ مِمَّا يَسْتَجِرُّ لها[٣]، والناسُ من شقائِهم على العكس، يستجَرُّون أكثرَ مِمَّا يستنكِفُون، وإنَّما السعيدُ مَن وَجَدَ كلماتٍ روحانيةً إلهيةً يعيشُ قلبُهُ فيهنّ، فذاك لا يعمَلُ أعمالَهُ كما يأتي ويتَّفِق، بل يحذو على أصلٍ ثابتٍ في نفسِه، ويختارُ فيما يعملُ أحسنَ ما يعمل، ومِن ثَمَّ لا يكونُ جِهادُه مُرَاغمَةً[٤] أو خضوعاً في سبيلِ الوجودِ كالحيوان، بلْ في سبيلِ صحَّةِ وجودِهِ؛ ولا يكونُ غرضُهُ أنْ يُلابِسَ الحياةَ كما تأخذُهُ هي وتَدَعُه، بل أنْ يحيا في شرفِ الحياةِ على ما يأخذُها هو ويَدَعُها.

إنَّ الشقاءَ في هذه الدنيا إنَّما يَجُرُّهُ على الإنسانِ أنْ يعملَ في دفعِ الأحزانِ عن نفسِهِ بمُقارَفتِهِ الشهوات، وبإحساسِهِ غرورَ القلب؛ وبهذا يُبْعِدُ الأحزانَ عن نفسِهِ لِيجلِبَها على نفسِهِ في صُوَرٍ أخرى!

* * *

قال الشيخ: وكانَ مِمَّا حفظْتُهُ من تفسيرِ الحَسنِ قولُه:

إنَّ كلَّ كلمةٍ في الآيةِ تكادُ تكونُ آية، وليَستِ الكلمةُ في القرآنِ كما تكونُ في غيرِهِ، بل السُّمُوُّ فيها على الكلام، أنَّها تحملُ معنًى، وتُوميءُ إلى معنًى، وتَسْتَتْبِعُ معنًى؛ وهذا ما ليسَ في الطاقةِ البشريَّة، وهو الدليلُ على أنَّهُ ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾.

---

(١) استننت: جعلتها سنتي ومنهجي في الحياة.
(٢) يستنكف عنها: يخرج منها آنفاً ممتنعاً.
(٣) يستجرّ لها: أمكنها من نفسه فانقاد لها.
(٤) مراغمة: غصباً بالإكراه.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ هذه الكلمة حثٌّ[1]، وإطماعٌ، وجِدالٌ، وحُجَّة؛ وهي في الآيةِ تُصرّحُ أنَّ خشوعَ القلبِ الذي تلك صفتُهُ هو كمالٌ لِلإيمان، وأنَّ وقتَ هذا الخشوع هو كمالُ العُمْر، وكيف يعرِفُ المؤمنُ أنَّهُ (سيأني) له أنْ يعيشَ ساعةً أو ما دونَها؟ إذنْ فالكلمةُ صارخةٌ تقول: الآنَ الآنَ قبلَ ألّا يكونَ آن. أيْ: البدَارَ البدَارَ[2] ما دُمْتَ في نَفَسٍ منَ العمر؛ فإن لحظةً بعدَ (الآن) لا يضمنُها الحيّ. وإذا فَنِيَ وقتُ الإنسانِ ٱنتهى زمنُ عملِهِ فبقيَ الأبدَ كلَّه على ما هو؛ ومعنى هذا أنَّ الأبدَ لِلمؤمنِ الذي يُدرِكُ الحقيقة، وإنْ هو إلَّا اللحظةُ الراهنةُ من عمرِهِ التي هي (الآن). فٱنظرْ ـ ويحك ـ وقد جُعِلَ الأبدُ في يدِك؛ ٱنظرْ كيف تصنعُ بهِ؟

تلك هي حِكْمةُ ٱختيارِ اللفظةِ من معنى (الآن) دونَ غيرِه، على كثرةِ المعاني.

ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وهذا كالنَّصِّ على أنَّ غيرَ هؤلاءِ لا تخشعُ قلوبُهم لِذكرِ اللَّهِ ولا لِلحقّ، فلا تقومُ بِهمُ الفضيلة، ولا تستقيمُ بهمُ الشريعة، وعالِمُهُم وجاهلُهم سواء؛ لا يخشعانِ إلَّا لِلمادة؛ وكأنَّ إنسانَهم إنسانٌ تُرابيّ، لا يزالُ يضطربُ على مَكْرِ الليلِ والنهارِ بينَ طرفينِ مِنَ الحيوان: عيَشِهِ وموتِه؛ وما تقسو الحياةُ قسوتَهَا على الناسِ إلَّا بِهم، وما ترقُّ رِقَّتَها إلَّا بالمؤمنين.

وجَعلَ الخشوعَ لِلقلوبِ خاصةً، إذْ كانَ خُشوعُ القلْبِ غيرَ خشوعِ الجِسْم، فهذا الأخيرُ لا يكونُ خُشوعاً، بل ذُلّاً، أو ضِعَةً، أو رياءً أو نِفاقاً، أو ما كان، أمَّا خشوعُ القلبِ فلنْ يكونَ إلَّا خالِصاً مُخلَصاً مَحْضَ الإرادة.

وٱشترطَ «القلبَ» كأنَّهُ يقول: إنَّما القلبُ أساسُ المؤمن، وإنَّ المؤمنَ ينبعُ من قلبِهِ لا من غيرِه، متى كانَ هذا القلبُ خاشِعاً لِلَّهِ ولِلحقّ. فإن لم يكنْ قلبُهُ على تلك الحال، نَبَعَ منهُ الفاسقُ والظالمُ الطاغيةُ وكلُّ ذي شرّ. ما أشبهَ القلبَ تتفرعُ منه معاني الخُلُق، بالحبَّةِ تَنسَرحُ منها الشجرة؛ فخُذْ نفسَك من قلبِك كما شِئْت؛ حُلواً من حُلو، ومُرًّا من مُرّ.

وخشوعُ القلبِ لِلَّهِ ولِلحقّ، معناهُ السموُّ فوقَ حبِّ الذات، وفوقَ الأثَرةِ[3]

---

(١) حثّ: حضّ.

(٢) البدارَ البدارَ: اسم فعل أمر بمعنى سارع.

(٣) الأثرة: الأنانية وحب النفس.

والمطامعِ الفاسدة؛ وهذا يضعُ لِلمؤمن قاعدةَ الحياةِ الصحيحة، ويجعلُها في قانونَين لا قانونٍ واحد؛ ومتى خشعَ القلبُ لِلّهِ ولِلحقّ، عَظُمَتْ فيهِ الصغائرُ من قوّةِ إحساسِهِ بها، فيراها كبيرةً وإن عَمِيَ الناسُ عنها، ويراها وهي بعيدةٌ منه بمثلِ عينِ العُقاب: يكونُ في لوحِ الجوّ ولا يغيبُ عن عينِهِ ما في الثَّرَى.

وقد تخشعُ القلوبُ لِبعضِ الأهواءِ خشوعاً هو شرٌّ مِنَ الطغيانِ والقسوة؛ فتقيُّدُ خشوعِ القلبِ «بذكر الله»، هو في نفسِهِ نَفيٌ لِعبادةِ الهوى، وعبادةِ الذاتِ الإنسانيةِ في شهواتِها. وما الشهوةُ عندَ المخلوقِ الضعيفِ إلّا إلٰهُ ساعتِها. فيا ما أحكمَ وأعجبَ قولَ النبيِّ ﷺ: «لا يزني الزاني حينَ يَزني وهو مؤمن، ولا يَسرقُ السارقُ حين يَسرقُ وهو مؤمن، ولا يَشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمن». جَعَلَ نزعَ الإيمانِ موقوتاً «بالحينِ» الذي تُقْتَرَفُ فيهِ المعصية؛ إذ لم يكنِ اللّٰهُ عندَ هذا الشقيِّ هو إلهَ ذلك «الحين».

والخشوعُ لِمَا «نزَلَ مِنَ الحقّ» هو في معناهُ نَفيٌ آخرُ لِلكبرياءِ الإنسانيةِ التي تُفسِدُ على المرءِ كلَّ حقيقة، وتَخرجُ بِهِ من كلِّ قانون؛ إذْ تجعلُ الحقائقَ العامَّةَ محدودةً بالإنسانِ وشهواتِهِ لا بحدودِها هي مِنَ الحقوقِ والفضائل.

ويَخرجُ من هذا وذلك تقريرُ الإرادةِ الإنسانية، وإلزامُها الخيرَ والحقَّ دونَ غيرِهِما، وقهرُها لِلذاتِ وشهواتِها، وجعلُها الكبرياءَ الإنسانيةَ كبرياءً على الدنايا والخسائس، لا على الحقوقِ والفضائل؛ وإذا تقررَ كلُّ ذلك ٱنتهى بطبيعتِهِ إلى إقرارِ السكينةِ في النفس، ومحوِ الفَوضى منها، وجَعْلِ نظامِها في إحساسِ القلبِ وحدَه؛ فيحيا القلبُ في المؤمنِ حياةَ المعنى السامي، ويكونُ نَبْضُهُ علامةَ الحياةِ في ذاتِها، وخشوعُهُ لِلّهِ ولِلحقِ علامةَ الحياةِ في كمالِها.

وقال: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ كأنَّهُ يقولُ: إنَّ هذا الحقَّ لا يكونُ بطبيعتِهِ ولا بطبيعةِ الإنسانِ أرضيًّا، فإذا هو ٱرتفعَ مِنَ الأرضِ وقرّرهُ الناسُ بعضُهم على بعض، لم يجاوزْ في ٱرتفاعهِ رأسَ الإنسان، وأفسدتْهُ العقول؛ إذْ كانَ الإنسانُ ظالِماً متمرِّداً بالطبيعة، لا تحكمُهُ من أولِ تاريخ إلّا السماءُ ومعانيها، وما كانَ شبيهاً بذلك مِمَّا يجيئُهُ من أعلى؛ أيْ بالسلطانِ والقوة؛ فيكونُ حقًّا «نازلاً» مُتدفِّعاً كما يَتصَوَّبُ الثِّقْلُ من عالٍ ليسَ بينَهُ وبينَ أنْ يَنفُذَ شيء.

والخشوعُ لِمَا نزلَ مِنَ الحقِّ ينفي خشوعاً آخرَ هو الذي أفسَدَ ذاتَ البينِ مِنَ

الناس، وهو الخشوعُ لِما قام مِنَ المنفعةِ وانصرافِ القلبِ إليها بإيمانِ الطمعِ لا الحقّ.

وبحملِ الآيةِ على ذلك الوجهِ يتحقَّقُ العدلُ والنَّصَفَةُ بينَ الناس؛ فيكونُ العدلُ في كلِّ مؤمنٍ شعوراً قلْبيًّا، جارياً في الطبيعةِ لا مُتكلَّفاً مِنَ العقل؛ وبهذا وحدَهُ يكونُ لِلإنسانِ إرادةٌ ثابتةٌ عنِ الحقِّ لكلِّ طريق، لا إرادةٌ لِكلِّ طريق، وتستمرُّ هذه الإرادةُ مُتَّسِقةً في نظامِها معَ إرادةِ ٱلله، لا نافرةً منها ولا متمرّدةً عليها؛ وهذا وذلك يُثبِّتُ القلبَ مهما ٱختلفَتْ عليهِ أحوالُ الدنيا، فلا يكونُ من إيمانِهِ إلَّا سُموُّهُ وقوّتُهُ وثباتُهُ، وينزلُ العمرُ عندَهُ منزلةَ اللحظةِ الواحدة، وما أيسرَ الصبرَ على لحظة! ما أهونَ شرّ «الآن» إنْ كانَ الخيرُ فيما بعدَه!

ألَمْ يأن؛ ألَمْ يأن؛ ألَمْ يأن...

* * *

قال الشيخ: وكانَ ٱلحَسَنُ في معانيهِ الفاضلةِ هو هذه الآيةَ بعينِها؛ فما كانَتْ حياتُه إلَّا إسلاميةً كهذا الكلامِ الأبيضِ المُشرقِ الذي سمِعْتُه منه؛ شعارُهُ أبداً: «الآنَ قبلَ ألّا يكونَ آن» وإمامَه: «خُذْ نفسَك من قلبِك» وطريقتُهُ «شَرفُ الحياةِ لا الحياةُ نفسُها».

وكانَ يرى هذه الحياةَ كوَقْعةِ الطائر؛ هي جَناحينِ مسْتوْفِزَينِ أبداً لِعملٍ آخرَ هوَ الأقوى والأشدّ، فلا ينزلانِ بطائرهما على شيءٍ إلَّا مَطْويينِ على قُدْرةِ الارتفاعِ بهِ، ولا يكونانِ أبداً إلَّا هَفْهافَينِ[1] خَفيفينِ على الطيرَانِ؛ إذ كانا في حكمِ الجوِّ لا في حكمِ الأرض.

وآلَةُ الوقوعِ والطَّيرَانِ بالإنسانِ شهواتُهُ ورَغَباتُه؛ فإنْ حَطَّتْهُ شهوةٌ لا ترفعُه، فقد أوبَقَتْهُ وأهلكَتْهُ وقذفَتْ بِهِ ليؤخَذ.

لقد رُوينا عنِ النبيّ ﷺ: «لا يَبلُغُ العبدُ أنْ يكونَ مِنَ المتَّقينَ حتى يدَعَ ما لا بأسَ به حذَراً مِمَّا بِهِ بأس»، وهذا ضَربٌ من خُشوعِ القلبِ المؤمنِ فيما يحلُّ له: يَدَعُ أشياءَ كثيرةً لا بأسَ عليهِ فيها لو أتاها؛ لِيَقوَى على أنْ يدعَ ما فيهِ بأس، فإنَّ الذي يتركُ ما هُوَ لَهُ يكونُ أقوى على تركِ ما ليسَ له.

والنفسُ لا بدَّ راجعةٌ يوماً إلى الآخرة، وتاركةٌ أداتَها؛ فقِوامُ نظامِها في الحياةِ الصحيحةِ أنْ تكونَ كلَّ يومٍ كأنَّها ذهَبتْ إلى الآخرةِ وجاءَت. وتلك هيَ الحِكْمةُ

---

(١) هفهافين: خفيفين في طيرانهما بسرعة.

فيما فرضَتْهُ الشريعةُ الإسلاميةُ من عِبادةٍ راتبةٍ تكونُ جزءاً من عملِ الحياةِ في يومِها وليلتِها. فإذا لم تكنِ النفسُ في حياتِها كأنَّها دائماً تذهبُ إلى مصيرِها وترجعُ منه، طَمسَها الجسمُ وحبَسَها في إحدى الجهتين، فلم يبقَ لها فيهِ إلا أثرٌ ضئيلٌ[1] لا يتجاوزُ النّصح، كاعتراضِ المقتولِ على قتلِه: يُحاولُ أنْ يَرُدَّ السيفَ بكلمة...! وبذلك يتضاعفُ الجسمُ في قوّتِه، ويشتدُّ في صَولتِه، ويتصرّفُ في شهواتِه، كأنَّ لَهُ بطنينِ يجوعانِ معاً... فتسْتهلكُ شهواتُ المرءِ دينَه، وتقذفُ بِهِ يميناً وشِمالاً، على قصدٍ وعلى غيرِ قصد، وتمضي بِهِ كما شاءَتْ في مَدْرجةٍ مَدْرجةٍ مِنَ الشرّ.

ومثلُ هذا المُسرفِ على نفسِهِ لا يكونُ تمييزُهُ في الدينِ، ولا إحساسُهُ بالخير، إلَّا كذلك السّكّيرِ الذي زعموا أنَّه أرادَ التوبة، وكانتْ له جَرَّتانِ مِنَ الخمر، فلمَّا اتَّعظَ وبلغَ في النظرِ إلى نفسِهِ وحظِّ إيمانِه، وأرادَ أن يُطيعَ اللَّهَ ويتوب. نظرَ إلى الجرَّتينِ ثم قال: أتُوبُ عنِ الشربِ من هذه حتى تفرغَ هذه...!

* * *

قال الشيخ: ثم إني تبْتُ على يدِ الحسن، وأخلصْتُ في التوبةِ وصَحَّحْتُها، وعلمْتُ من فعلِهِ وقولِهِ أنَّ حقيقةَ الدِّينِ هي كبرياءُ النفسِ على شرِّها وظلمِها وشهواتِها، وأنَّ هذه الكبرياءَ القاتلةَ لِلإثم، هي في النفسِ أُختُ الشجاعةِ القاتلةِ لِلعدوِّ الباغي: يفخرُ البطلُ الشجاعُ بمبلغِهِ من هذه، ويفخرُ الرجلُ المؤمنُ بمبلغِهِ من تلك؛ وأنَّ خشوعَ القلبِ هو في معناهُ حقيقةُ هذه الكبرياءِ بعينِها.

وحدّثْتُ الحسنَ يوماً حديثَ رؤياي، وما شُبّهَ لي من عملي السيِّءِ وعملي الصالح، فَٱستدْمَعَتْ عيناه، وقال:

إنَّ البنتَ الطاهرةَ هي جهادُ أبيها وأمِّها في هذه الدنيا، كالجهادِ في سبيلِ الله، وإنَّها فوزٌ لهما في معركةٍ مِنَ الحياة، يكونانِ هما والصبرُ والإيمانُ في ناحيةٍ منها قَبيلاً، ويكونُ الشيطانُ والهمُّ والحزنُ في الجهةِ المُناوِحةِ[2] قبيلاً آخر.

إنَّ البنتَ هي أمٌّ ودار، وأبَوَاها فيما يُكابدانِ من إحسانِ تربيتِها وتأديبِها وحِياطَتِها والصبرِ عليها واليَقَظةِ لها ـ كأنَّما يحملانِ الأحجارَ على ظهرَيْهِمَا حجراً حجراً، ليَبْتَنِيا تلك الدارَ في يومٍ يومٍ إلى عشرينَ سنةً أو أكثر، ما صَحِبَتْهُ وما بقيَتْ في بيتِه.

---

(١) ضئيل: زهيد قليل.

(٢) المناوحة: الباكية.

فليسَ ينبغي أنْ ينظرَ الأبُ إلى بنتِهِ إلَّا على أنَّها بنتُه، ثم أمُّ أولادِها، ثم أمُّ أحفادِه؛ فهي بذلكَ أكبرُ من نفسِها، وحقُّها عليهِ أكبرُ مِنَ الحق، فيهِ حُرْمتُها وحرمةُ الإنسانيةِ معاً؛ والأبُ في ذلك يُقرضُ اللَّهَ إحساناً وحناناً ورحمة، فحقٌّ على اللَّهِ أنْ يُوَفِّيَهُ من مثلِها، وأن يُضْعِفَ له.

والبنتُ ترى نفسَها في بيت أهلِها ـ ضعيفةً كالمنقطِعةِ وكالعالَة[1]، وليسَ لها إلَّا اللَّهُ ورحمةُ أبويها؛ فإنْ رَحِمَاها، وأكرماها فوقَ الرحمة، وسَرَّاها فوقَ الكرامة، وقاما بحقِّ تأديبِها وتعليمِها وتفقيهِها في الدينِ[2] وحَفِظا نفسَها طاهرةً كريمةً مسرورةً مؤدَّبة ـ فقد وضعا بينَ يَدَي اللَّهِ عملاً كاملاً من أعمالِها الصالحة، وكما وضعاه بينَ يدي الإنسانية. فإذا صارا إلى اللَّهِ كانَ حقًّا لهما أن يجدا في الآخرةِ يميناً وشِمالاً يذهبانِ بينَهما إلى عفوِ اللَّهِ وكرمِه، وكما قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كانَ له ابنةٌ فأدَّبَها فأحسنَ تأديبَها، وغَذَاها فأحسنَ غِذاءَهَا، وأسبغَ عليها مِنَ النعمةِ التي أسبغَ اللَّهُ عليه ـ كانَتْ له مَيْمَنَةً ومَيْسرةً مِنَ النارِ إلى الجنة».

فهذه ثلاثٌ لا بدَّ منها معاً، ولا تُجْزِىء واحدةٌ عن واحدةٍ ثوابَ البنت: تربيةُ عقلِها تربيةَ إحسان، وتربيةُ جسمِها تربيةَ إحسانٍ وإلطاف، وتربيةُ روحِها تربيةَ إكرامٍ وإلطافٍ وإحسان.

* * *

قال الشيخ: واللَّهُ أرحمُ أنْ تضيعَ عندَهُ الرحمة؛ واللَّهُ أكرمُ أنْ يضيعَ الإحسانُ عندَهُ، واللَّهُ أكبر...

وهنا صاحَ المؤذِّن: اللَّهُ أكبر.

فتبسَّم الشيخُ وقامَ إلى الصلاة.

---

(١) كالعالة: كالعبء.

(٢) تفقيهها في الدين: تثقيفها في معرفة أصول الدين وقواعده.

الأجنبيَّة

أحَبَّها وأحبَّته، حتى ذهبَ بها في الحُبِّ مَذهباً قالَتْ له فيه: «لو جاءَني قلبي في صورةٍ بشَرِيَّةٍ لِأراهُ كما أحِسُّه، لَمَا ٱختارَ غيرَ صورتِك أنتَ في رِقَّتِك وعطفِك وحنانِك» وحتى ذهَبتْ بِهِ في الحُبِّ مذهباً قالَ لها فيه: «إن الجنةَ لا تكونُ أبدعَ فَنًّا ولا أحسنَ جمالاً، ولا أكثرَ إمتاعاً ـ لو خُلِقَتِ ٱمرأةً يهواها رجل ـ إلا أنْ تكونَ هي أنت!» فقالَتْ له: «ويكونَ هو أنتَ. . . !».

وتَدَلَّهَتْ[1] فيه، حتى كأنّما خَلَبَها عقلَها[2] ووضَع لها عقلاً من هواه؛ فكانَتْ تقولُ له فيما تَبُثُّهُ من ذات نفسِها: «إن حبَّ المرأةِ هو ظهورُ إرادتِها مُتَبَرِّئةً من أنها إرادة، مُقِرةً أنَّها معَ الحبيبِ طاعةٌ معَ أمر، مُذْعِنةٌ[3] أنَّها قد سلَّمَتْ كِبرياءهَا لهذا الحبيب، لِتراهُ في قوتِهِ ذا كبريائين».

وَٱفتتَنَ بها حتى أخذَتْ منه كلَّ مأْخذَ، فملأتْ نفسَهُ بأشياء، وملأَتْ عينَه من أشياء، فكان يقول لها في نجْواه: «إني أرى الزمَنَ قدِ ٱنْتَسَخَ مِمَّا بيني وبيَنك، فإنّما نحن بالحُبِّ في زمنٍ من نَفْسَيْنا العاشقتين، لا يُسمّى الوقتَ ولكنْ يسمَّى السرور؛ وإنَّما نعيشُ في أيامٍ قلبيَّة، لا تدلُّ على أوقاتِها الساعةُ بدقائقِها وثوانيها، ولكنّ السعادةَ بحقائقِها ولذّاتِها».

وتحابًا ذلك الحُبَّ الفنيَّ العجيبَ، الذي يكونُ ممتلِئاً مِنَ الروحينِ يكادُ يفيَضُ وينسكِب، وهو مع ذلك لا يَبْرحُ يطلبُ الزيادة، لِيتخيَّلَ من لذتِها ما يتخيَّلُ السِّكِّيرُ في نَشْوتِهِ إذا طَفحَتِ الكأس[4]، فيرى بعينيه أنها ستتَّسِعُ لِأكثرَ ما ٱمتلأَتْ بِه، فيكونُ لَهُ بالكأسِ وزيادتِها، سُكْرُ الخمرِ وسكرُ الوهْم.

تحابًا ذلك الحُبَّ الفَوَّارَ في الدم، كأنَّ فيه من دوْرتِهِ طبيعةَ الفِراقِ والتلاقي بغيرِ تلاقٍ ولا فِراق؛ فيكونانِ معاً في مجلسِهِما الغزليّ، جَنْبُهُ إلى جنبِها وفَاهَا إلى

---

(1) تدلّهت فيه: هامت به حباً.

(2) خلبها عقلها: استحوذ عليه.

(3) مذعنة: خاضعة.

(4) طفحت الكأس: امتلأت.

فيهِ وكأنّما هربَتْ ثم أدركَها، وكأنّما فَرّتْ ثم أمْسَكَها. وبينَ القُبْلَةِ والقُبلةِ هِجرانٌ وصُلح، وبينَ اللفْتَةِ واللفتةِ غَضبٌ ورِضَى.

وهذا ضربٌ[1] مِنَ الحُبِّ يكونُ في بعضِ الطبائعِ الشاذّةِ المُسْرفة، التي أفرطَتْ[2] عليها الحياةُ إفراطَها فيلفُّ الحيوانيَّةَ بالإنسانيَّة، ويجعلُ الرجلَ والمرأةَ كبعضِ الأحماضِ الكيماويَّةِ مع بعضِها؛ لا تلتقي إلَّا لِتمتازج، ولا تتمازجُ إلا لِتَتحِدَ ولا تتحدُ إلَّا لِيبتلعَ وجودُ هذا وجودَ ذاك.

* * *

وضَربَ الدهرُ من ضَرباتهِ في أحداثٍ وأحداث؛ فأبغضتْهُ وأبغضَها، وفَسَدَتْ ذاتُ بينِهما، وأدبرَ منها ما كانَ مُقْبِلاً؛ فوثب كلاهما من وجودِ الآخرِ وثبَةَ فَزع على وجهه. أما هو فَسَخِطَها لِعيوبِ نفسِها، وأمَّا هي... وأمَّا هي فَتَكَرَّهَتْهُ لِمحاسِنِ غيرِه!

وَٱنسربتْ أيامُ[3] ذلك الحُبِّ في مَسَارِيهَا تحتَ الزمنِ العميقِ الذي طَوى ولا يزالُ يَطْوي ولا يبرحُ بعدَ ذلك يطوي؛ كما يغورُ الماءُ في طِباقِ الأرض. فأصبحَ الرجلُ المِسكينُ وقد نزلَتْ تلكَ الأيامُ من نفسِهِ منزلةَ أقاربَ وأصدقاءَ وأحباءَ ماتوا بعضُهم وراءَ بعض، وتركوه ولكنَّهم لم يبرحوا فِكرَه، فكانوا له مادَّةَ حسرةٍ ولَهْفة. أما هي.. أما هي فٱنشقَّ الزمنُ في فكرِها بِرجَّةِ زلزلة، وٱبتلعَ تلك الأيامَ ثم ٱلتأم...!

* * *

فحدّثَنا «الدكتورُ محمد» رئيسُ جماعةِ الطلبةِ المصريينَ في مدينة... بفرنسا، قال: «وَٱنتهى إليَّ أنَّ صاحبَنا هذا جاءَ إلى المدينةِ وأنَّهُ قادمٌ من مصر، فتَخالَجني[4] الشوقُ إليه، ونَزعَتْ إلى لِقائِهِ نفسي، وما بينَنا إلَّا معرفتي أنَّهُ مصريٌّ قَدِمَ من مصر؛ وخُيّلَ إليَّ في تلكَ الساعةِ مِمَّا ٱهْتَاجَني مِنَ الحنينِ إلى بلادي العزيزة، أنْ ليسَ بيني وبينَ مصرَ إلا شارعانِ أقطعُهما في دقائق؛ فخففْتُ إليهِ من أقربِ الطرقِ إلى مَثْواه[5]، كما يصنعُ الطيرُ إذا ترامى إلى عُشّهِ فٱبْتَدرَهُ من قُطْرِ الجوّ.

---

(١) ضرب: نوع.
(٢) أفرطت: غالت.
(٣) انسربت أيام: انصرمت.
(٤) خالج: داخل.
(٥) مثواه: بيته.

قال: وأصبتُه واجماً[1] يعلُوهُ الحزن، فتعرَّفْتُ إليه، فما أسرعَ ما مَلأ من نفسي وما ملأتُ من نفسِه. وكما يَمَّحي الزمانُ بينَ الحبيبَينِ إذا ٱلتقيا بعدَ فُرقة ـ يتلاشَى[2] المكانُ بينَ أهلِ الوطنِ الواحدِ إذا تلاقَوْا في الغُربة. فذابَتِ المدينةُ الكبيرةُ التي نحن فيها، كأنْ لم تكنْ شيئاً؛ وتَجلَّى سِحرُ مصرَ في أقوى سَطوتِهِ وأشدِّها فأخذَنا كِلَينا، فما ٱستشعرْنا ساعَتَئذٍ إلَّا أنَّ أوربا العظيمةَ كأنَّما كانَتْ موسومةً على ورقة، فطويناها وأحللْنا مصرَ في محلِها.

وطغَى علينا نازعُ الطرَبِ طُغياناً شديداً، فأرسلْتُ مَنْ يجمعُ الإخوانَ المصريين، وَٱخترتُ لِذلك صديقاً شاعرَ الفطرة، فَنزا بِهِ الطرب[3]، فكانَ يدعوهم وكأنَّه يُؤذِّنُ فيهم لإقامةِ الصلاة. وجاءوا يُهَرْوِلُون[4] هَرْولةَ الحَجيج، فلو نَطَقتِ الأرضُ الفرنسيةُ التي مَشَوْا عليها تلك المِشْيةَ لَقالَت: هذه وطْأةُ أسودٍ تتخيَّلُ خُيلاًَها من بَغْي النشاط والقوة.

ألا ما أعظمَكِ يا مصر، وما أعظمَ تعنُّتكِ في هذا السحرِ الفاتن! أينبغي أنْ يغتربَ كلُّ أهلِكِ حتى يُدرِكوا معنى ذلك الحديثِ النبوي العظيم: «مصر كِنانةُ اللّهِ في أرضِه». فيعرفوا أنَّكِ من عِزَّتِكِ معلقةٌ في هذا الكونِ تعليقَ الكنانةِ في دارِ البطَلِ الأرْوع؟

قال «الدكتور محمد»: وٱجتمْعَنا في الدارِ التي أنزلُ فيها، فراعَ ذلك صاحبةَ مَثْواي. فقلْتُ لها: إنَّ هٰهنا ليلةً مصريةً ستحتلُّ ليلتَكم هذه في مدينتِكم هذه، فلا تجزعوا. ثم دعْوتُها إلى مجلسِنا لِتشهدَ كيفَ تَسْتَعْلِنُ الروحُ المصريةُ الاجتماعيةُ برِقّتِها وظَرفِها وحماستِها، وكيف تُفسِّرُ هذه الروحُ المصريةُ كلَّ جميلٍ مِنَ الأشياءِ الجميلةِ بِشوْقٍ من أشواقِها الحنانة، وكيف تكونُ هذه الروحُ في جوٍّ موسيقيَّتها الطبيعيةِ حينَ تُناجي أحبابَها، فيجيءُ حديثُها بطبيعتِهِ كأنَّهُ دِيباجةُ شاعرٍ في صفائِها وحلاوتِها ورنينِ ألفاظِها؟

وقالَتِ السيدةُ الظريفة: يا لَهَا سعادة! سأتَّخِذُ زينتي، وأُصْلِحُ من شأني، وأكونُ بعدَ خمسِ دقائقَ في مصر!

قال الدكتور: وأخذْنا في شأنِنا، وكانَ معنا طالبٌ حسنُ الصوت، فقامَ إلى

---

(1) واجماً: صامتاً.
(2) يتلاشى: يضمحلّ.
(3) نزابه الطرب: هزّه واستولى على مشاعره.
(4) يهرولون: يسرعون.

البيانة[1] وغَنَّى مقطوعةً «طقطوقة» مصريةً من هذه المقاطيعِ التي تُطَقْطِقُ فيها النفس، فجعلَ يمطُلُ صَوتَهُ بآه وآه ودارَ اللحنُ دورةً تأوَّهَتْ فيها الكلماتُ كُلها. ثمَّ اعْتورَ البيانةَ طالبٌ آخرُ فما شذَّ عن هذه السُّنَّة، وكانَ بعدَ الأولِ كالنائحةِ تُجاوِبُ النائحة! فمَالتْ عليَّ السيدةُ الفرنسيةُ وأسَرَّتْ إليَّ: أهاتانِ امرأتانِ أم رجلان...؟ فقلْتُ لها: إنَّ هذا لحنٌ تاريخيٌّ ذو مقطوعتين، كانَتْ تتطارحُهُ كيلوباترة وأنطونيو، وأنطونيو وكيلوباترة... فأعْجبَتِ المرأةُ أشدَّ الإعجاب، وأكبَرتْ منَّا هذا الذوقَ المصريّ أنْ نُكْرِمَها لوجودِها في مجلِسِنا بألحانِ الملِكةِ المصريةِ الجميلة، وطَربتْ لِذلك أشدَّ الطرب، وملكَها غرورُ المرأة، فجعلَتْ تستعيدُ: «يا لوعتي يا شقاي يا ضنى حالي...» وتقول: ما كانَ أرقَّ كيلوباترة! ما كانَ أرقَّ أنطونيو! يالَفِتنةِ الحُبِّ الملَكي..!

قال «الدكتور محمد»: ثم خجلْتُ ـ واللَّهِ ـ من هذا الكلام المخنَّث، ومن تلفيقي الذي لفقتُه لِلمرأةِ المخدوعة، فانتفضْتُ انتفاضةَ مَنْ يملؤه الغضب، وقد حَمِيَ دمُه، وفي يدِهِ السيفُ الباتر[2]، وأمامَهُ العدوّ الوقْح؛ وثُرْتُ إلى البيانةِ فأجريْتُ عليها أصابعي، وكأنَّ في يديَّ عشرةَ شياطينَ لا عشرَ أصابع، ودوَّى في المكان لحنُ: «اسلمِي يا مصرُ» وجَلْجَلَ كالرعدِ في قُبةِ الدنيا، تحتَ طِباقِ الغَيم، بين شَرارِ البرق. فكأنَّما تَزَلْزَلَ المكانُ على السيدةِ الفرنسيةِ وعلينا جميعاً وصَرَخَ أجدادُنا يزْأرون من أعماقِ التاريخ: «اسلمِي يا مصر...»[3].

ولما قطَعْتُ التفتُ إليها في كبرياءِ تلك الموسيقى وعظمتِها وقلْتُ لها: هذا هو غِناؤُنا نحن الشبانَ المصريين.

ثم راجَعْنا صاحبَنا الضيفَ، وأحفيناهُ بالمسألة، فقالَ بعدَ أنْ دافَعَنا طويلاً: إنَّهُ يُحسنُ شيئاً مِنَ الموسيقى وإنَّ له لَحْناً سيُطارحُنا بِهِ لِنأخذَهُ عنه. فطِرْنا بلَحْنهِ قبلَ أنْ نسمعَه، وقلْنا له: اِفعلْ متفضلاً مشكوراً وما زِلْنَا حتى نهضَ متَثاقِلاً، فجلسَ إلى البيانةِ وأطرقَ شيئاً، كأنَّهُ يُسَوّي أوتاراً في قلبِه، ثم دَقَّ يتَشاجَى بهذا الصوت:

أَضَاعَ غَدي مَنْ كانَ في يَدِهِ غَدِي — وحَطَّمَني مَنْ كانَ يَجْهَدُ في سَبْكِي!

---

(١) البيانة: كلمة استعملها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه (السحاب الأحمر) تعريباً لكلمة «بيانو» الأجنبية، وتجمع على بيانات.

(٢) السيف الباتر: القاطع.

(٣) هو النشيد الوطني لمصر.

فإنْ كُنتُ لا آسَى لِنَفْسِي فَمَنْ إذن؟   وإنْ كُنتُ لا أَبكي لِنفْسِي فَمَنْ يَبكي؟

قال «الدكتور محمد»: فكانَ الغناءُ يَعْتَلِجُ[1] في قلبِهِ ٱعتلاجاً، وكانَتْ نفسُهُ تبكي فيهِ بِكاءَها وتَغَصُّ من غُصّتِها، وكأنَّ في الصوتِ فِكْراً حزيناً يستَعلِنُ في هَمٍّ موسيقى، وخُيِّلَ إلينا بينَ ذلك أنَّ البيانةَ ٱنقلبَتْ ٱمرأةً مغنيةً تُطارِحُ هذا الرجلَ عواطِفَها وَأحزانَها، فٱجتمعَ من صوتِهِما أكملُ صوتٍ إنسانيٍّ وأجملُهُ وأشجاهُ وأرقُّه.

فأطَفْنا به وقلْنَا له: لقد كتمْتَنا نفسَك حتى نَمَّ عليها ما سمعْنَا، وما هذا بِغناء، ولكنَّهُ همومٌ مُلَحَّنةٌ تلْحِيناً، فَلَن ندعَكَ أو تُخبرَنَا ما كانَ شأنُك وشأنُها.

فٱعْتلَّ علينا ودافَعنا جهدَه، فقلْنَا له: هيهات؛ واللهِ لن نُفْلِتَكَ وقد صِرْتَ في أيدينا، وإنّك ما تزيدُ على أنْ تَعِظَنا بهذه القصة؛ فإنْ أمسكْتَ عنها فقد أمسكْتَ عن موعظتِنا، وإنْ بَخِلْتَ فما بَخِلْتَ بقصتِكَ بل بعِلْمٍ من عِلْمِ الحياةِ نُفيدُهُ منكَ؛ وأنت ترانا نعيشُ هاهنا في ٱجتماعِ فاسدٍ كأنَّهُ قِصصٌ قلبِيّة، بين نساءٍ لا يَلبَسْنَ إلَّا ما يعرِّي جمالَهن، وفي رجالٍ أفرطَتْ عليهمُ الحريَّة، حتى دُخِلَ فيها مَخْدعُ الزوجة...!

قال الدكتور: ونظرْتُ فإذا الرجلُ كاسِفٌ[2] قد تَغيَّرَ لونُهُ وَتَبَيَّنَ ٱلانكسارُ في وجهِه، فٱلْمَمْتُ[3] بما في نفسِه، وعلِمْتُ أنَّهُ قد دُهِيَ في زوجة، من هؤلاءِ الأوربيات، اللواتي يتزوَّجْنَ على أنْ يكونَ مخدعُ المرأةِ منهن حرًّا أنْ يأخذَ وَيَدَعَ، ويُغيِّرَ ويُبدِّل، وَيقْسمَ كلمةَ «زوج» قسمينِ وثلاثةً وأربعةً وما شاء..

وكأنَّما مَسَسْتُ البارودَ بتلك الشرارة، فٱنفجرَتْ نفسُ الرجلِ عن قصةٍ ما أفظعَها!

* * *

قال: يا إخواني المصريين، قبلَ أنْ أنْفُضَ لكم ذلك الخبَر أُسدِيكم هذه النصيحةَ التي لم يَضَعْها مؤلفٌ تاريخيٌّ لِسوءِ الحظّ، إلَّا في الفصلِ الأخيرِ من روايةِ شقائي:

إيَّاكم إيَّاكم أنْ تَغتروا بمعاني المرأة، تحسبونَها معانيَ الزوجة؛ وفَرِّقوا بينَ الزوجةِ بخصائِصها، وبينَ المرأةِ بمعانيها، فإنَّ في كلِّ زوجةٍ ٱمرأة، ولكنْ ليس في كلِّ ٱمرأةٍ زوجة.

وٱعلموا أنَّ المرأةَ في أنوثتِها وفنونِها النسائيَّةِ الفرديّة، كهذا السحابِ الملوَّنِ

---

(١) يعتلج: يصطرع ويمور.
(٢) كاسف: مستحٍ.
(٣) ألممت: علمت واطلعت.

في الشفقِ حينَ يبدو؛ لَهُ وقتٌ محدودٌ ثم يُمسخُ مَسْخاً؛ ولكنَّ الزوجةَ في نسائيّتِها الاجتماعيَّةِ كالشمس؛ قد يحجبُها ذلكَ السحاب، بَيْدَ أنَّ البقاءَ لها وحدَها، والاعتبارَ لها وحدَها، ولها وحدَها الوقتُ كلّه.

لا تتزوجوا يا إخواني المصريينَ بأجنبية؛ إنَّ أجنبيةً يتزوجُ بها مِصريّ، هي مُسَدّسُ جرائمَ فيهِ سِتُّ قذائف:

الأولى: بَوارُ آمرأةٍ مصريةٍ وضَياعُها بضَياعِ حقِّها في هذا الزوج؛ وتلك جريمةٌ وطنيةٌ، فهذه واحدة.

والثانية: إقحامُ[1] الأخلاقِ الأجنبيةِ على طِباعِنا وفضائِلنا ـ في هذا الاجتماعِ الشرقيّ، وتوهينُهُ[2] وصَدْعُهُ[3] وهي جريمةٌ أخلاقيّة.

والثالثة: دَسُّ العُروقِ الزائغةِ في دمائِنا ونَسْلِنا؛ وهي جريمةٌ اجتماعيَّة.

والرابعة: التمكينُ لِلأجنبيِّ في بيتٍ من بيوتِنا، يملكُهُ ويحكُمُهُ ويُصرِّفُهُ على ما شاء؛ وهي جريمةٌ سياسية.

والخامسة: لِلمُسْلمِ مِنّا إيثارُهُ غيرَ أختِهِ المسلمة، ثم تحكيمُهُ الهوى في الدين، ما يُعجِبُهُ وما لا يُعجبُه؛ ثم إلقاؤُهُ السُّمَّ الدينيَّ في نَبْعِ ذرّيتِهِ المُقبلة، ثم صَيْرُورَتُهُ خِزْياً لِأجدادِهِ الفاتحينَ الذين كانوا يأخذونهنّ سَبايا، ويجعلونَهن في المنزلةِ الثانيةِ أو الثالثةِ بعدَ الزوجة؛ فأخذَتْهُ هي رقيقاً لها، وصارَ معها في المنزلةِ الثانيةِ أو الثالثةِ بعد[4]... وهذه جريمةٌ دينية.

والسادسة: بعد ذلك كلِّه، أنّ هذا المسكينَ يُؤْثِرُ أسفلَهُ على أعلاه... ولا يُبالي في ذلك خمسَ جرائمَ فظيعة.

وهذه السادسة جريمة إنسانية!

* * *

ما كنْتُ أحسبُ يا إخواني، وقد رجعْتُ بزوجتي الأوروبيةِ إلى مصر، أنّي أحضرْتُ معي من أوروبا آلةً تصنعُ أحزاني ومصائبي! ولم يكُنْ وَعَظَني أحدٌ بما أعِظُكم بِهِ الآن، ولا تنبَّهْتُ بذكائي إلى أنَّ الزوجةَ الأجنبيَّةَ تُثْبِتُ لي غُربتي في بلادي! وتُثبِتُ عليَّ أنّي غيرُ وطنيٍّ أو غيرُ تامِّ الوطنيّة، ثم تكونُ منّي حماقةً تُثبتُ

---

(1) إقحام: إدخال بالقوة.
(2) توهينه: إضعافه.
(3) صدعه: تشققه.
(4) يريد: بعد عشقها.

لِلناسِ أنّي أحمقُ فيما اخترْت؛ ثم تعودُ مشكلةً دوليةً في بيتي، يُزورُها أبناءُ جنسِها وَيَسْتَزيرونَها رغمَ أنفي وفمي ووجهي كلِّه! ويستطيلونَ بالحِماية، ويستترونَ بالامتيازات، ويرفعون سِتاراً عن فصل، ويُرْخونَ ستاراً على فصل. . . وأنا وحدي أشهدُ الرواية. . !

إنَّ الشيطانَ في أوروبا شيطانٌ عالمٌ مخترع. فقد زَيَّنَ لي من تلك الزوجةِ ثلاثَ نساءٍ معاً: زوجةً عقليَّة، وزوجةً قلبيَّة، وزوجةً نفسيَّة؛ ثم نَفَثَ اللعينُ في رُوعي أنَّ المرأةَ الشرقيَّةَ ليسَ فيها إلَّا واحدة، وهي مع ذلك ليسَتْ من هؤلاءِ الثلاثِ ولا واحدة. قال الخبيث: لأنَّها زوجةُ الجسمِ وحدَه، فلا تسمو إلى العقل، ولا تتصلُ بالقلب، ولا تمتزجُ بالنفس؛ وأنَّها بذلكَ جاهلة، غليظةُ الحسّ، خَشِنَةُ الطبع، لا تكونُ معَ المصريِّ إلا كما تكونُ الأرضُ المصريةُ معَ فلّاحِها. .

لعنةُ اللَّهِ على ذلك الشيطانِ الرجيمِ العالمِ المخترع! ما علمْتُ إلَّا من بَعدُ أنَّ هذه الشرقيَّةَ الجاهلةَ الخشِنةَ الجافيةَ، هي كالمَنْجَمِ الذي تِبْرُهُ في تُرابهِ، وماسُهُ في فَحْمِهِ، وجوهرُهُ في معدنِه؛ وأنَّ صعوبتَها من صعوبةِ العِفَّةِ الممتنِعة، وأنَّ خشونتَها من خشونةِ الحُبِّ المعتزِّ بنفسِه، وأنَّ جفاءَها[1] من جفاءِ الدينِ المتسامي على المادة؛ وأنَّها بمجموعِ ذلك كانَ لها الصبرُ الذي لا يَدخُلُهُ العجز، وكان لها الوفاءُ الذي لا تَلحقُهُ الشُّبهةُ، وكان لها الإيثارُ الذي لا يُفسِدُهُ الطمع.

هي جاهلةٌ، ولها عقلُ الحياةِ في دارِها، وغليظةُ الحسِّ ولها أرَقُّ ما في الزوجةِ لِزوجِها وحدَه؛ وخَشِنَةُ الطبع؛ لأنها تتنزّهُ[2] أنْ تكونَ مَلمَساً ناعماً لهذا وذاك وهؤلاءِ وأولئك. . . لا كامرأةِ الحُبِّ الأوروبيّة، التي تجعلُ نفسَها أنثى الفنّ، ويُريدُ أنْ تعيشَ دائماً مع زوجِها الشرقيِّ مِنَ التفضيلِ والإيثارِ والإجلالِ والإباحة ـ في كلمة «أنا» قبلَ كلمةِ «أنت». . امرأةٌ أنشأتْها الحربُ العظمى بأخلاقٍ مُخَرّبةٍ مُدَمِّرةٍ تنفجِرُ بينَ الوقتِ والوقت.

عندَنا يا إخواني تعدُّدُ الزوجات، يتهمونَنا بِهِ من عمًى وجهْلٍ وسخافة. انظروا، هل هو إلَّا إعلانٌ لِشرعيَّةِ الرجولةِ والأنوثة، ودينيةِ الحياةِ الزوجيَّةِ في أيِّ أشكالِها؛ وهل هو إلَّا إعلانٌ بطولةِ الرجلِ الشرقيِّ الأنوفِ الغيور، أنَّ

---

(١) جفاءها على المادة: بعدها عنها.

(٢) تتنزّه: تترفَّع.

الزوجةَ تتعدّدُ عندَ الرجلِ ولكن. . . ولكنْ ليسَ كما يقعُ في أوروبا من أنّ الزوجَ يتعدّدُ عندَ المرأة. . . !

يتَّهِموننا بتعدّدِ ٱلمرأةِ على أنْ تكونَ زوجةً لها حقوقُها وواجباتُها ـ بقوةِ الشرع والقانون ـ نافذةً مؤدَّاة؛ ثم لا يتَّهِمون أنفسَهم بتعدّدِ المرأةِ خليلةً مخادِنةً ليسَ لها حقٌّ على أحد، ولا واجبٌ من أحد، بل هي تَتَقَاذَفُها الحياةُ من رجُلٍ إلى رجل، كالسكيرِ يتقاذفُهُ الشارعُ من جِدارٍ إلى جدار.

لعنةُ اللَّهِ على شيطانِ المدنيةِ العالمِ المخترعِ المخنَّث، الذي يجعلُ لِلمرأةِ الأوروبيَّةِ بعدَ أنْ يتزوجَها الرجلُ الشرقيّ، أصابعَ «أوتوماتيكية»، ما أسرعَ ما تمتدُّ في نَزْوَةٍ من حماقاتِها إلى رجُلِها بالمسدّس، فإذا الرصاصُ والقتل؛ وما أسرعَ ما تمتدُّ في نزوةٍ من عواطفِها إلى عاشقِها بمفتاحِ الدار، فإذا الخيانةُ والعُهر!!

ماذا تتوقعونَ يا إخواني من تلك الرقيقةِ الناعمة، المتأنثةِ بكلِّ ما فيها أنوثةً تكفي رجالاً لا رجلاً واحداً، وقد ضعُفَتْ روحيَّةُ الأسرةِ في رأيها، وٱبْتُذِلَتِ الروحيَّةُ في مجتمَعِها ٱبتذالاً، فأصبحَ عندَها الزواجُ لِلزواجِ على إطلاقهِ، لا لِتكونَ ٱمرأةً واحدةً لِرجلٍ واحدٍ مقصورةً عليه؛ وبذلك عادَ الزواجُ حقّاً في جسمِ ٱلمرأةِ دونَ قلبِها وروحِها؛ فإنْ كانَ الزوجُ مشؤوماً منكوباً لم يستطِعْ أنْ يكون رَجُلَ قلبِها ـ فعليهِ أنْ يَدَعَ لها الحريَّةَ لِتختارَ زوجَ قلبِها. . . ! ومعنى ذلك أنْ تكونَ هذه المرأةُ مَعَ الزوجِ الشرعيِّ بمنزلةِ المرأةِ مَعَ فاسق؛ ومعَ الفاسقِ بمنزلةِ المرأةِ مَعَ الزوجِ الشرعيِّ. . . ! وإنْ كانَ الرجلُ منحوساً مُخيَّباً، وكانَ قد بَلَغَ إلى قلبِها زمناً ثم ملَّهُ قلبُها ـ فعليهِ أنْ يَدعَ لها الحريةَ لِتتنقلَ وتَلَذَّ بلذاتِ الهوى، ويقولَ لها: شأنَك بمَنْ أحبَبْتِ! فإنَّ هذا المنحوسَ المخَيَّبَ ليسَ عندَها إنساناً، ولكنه روايةٌ إنسانيّةٌ ٱنتهى الفصلُ الجميلُ منها بمناظرِهِ الجميلة، وبدأ فصلٌ آخَرُ بحوادثَ غيرِ تلك. فَلِمَن يشهدُ الروايةَ أنْ يتبرَّمَ ما شاء، ويستثقلَ كما يشاء، ومتى شاءَ ٱنصرفَ منَ الباب. . . !

امرأةُ هذه المدنيَّةِ هي ٱمرأةُ العاطفة؛ تتعلَّقُ باللفظِ حينَ تُلْبِسُهُ العاطفةُ من زينتِها، وإنْ ضاعَ فيهِ المعنى الكبيرُ من معاني العقل، وإنْ فاتَتْ بهِ النعمةُ الكبيرةُ من نِعَمِ الحياة.

تقوى العاطفةُ فتجيءُ بها إلى رجل، ثم تقوى الثانيةُ فتذهبُ بها مع رجلٍ آخر. . . ! وتُقَيِّدُ نفسَها إنْ شاءَتْ، وتُسَرِّحُ نفسَها إنْ شاءَتْ؛ وما لا بُدَّ من أنْ تَبْلوَ

الحياةَ كما يبلوها الرجلُ وأنْ تخوضَ في مشاكِلها؛ وإذا شاءَتْ جعلَتْ نفسَها إِحدى مشاكِلها . . . ! ولا مندوحةَ[1] مِنْ أنْ تتولّى شأنَ نفسِها بنفسِها، فإذا خَاسَتْ[2] أو غدَرتْ فكلُّ ذلك عندَها من أحكامِ نفسِها، وكلُّ ذلك رأيٌ وحق، إذْ كانَ مِحْوَرُها الذي تدورُ عليه هو عاطفتَها وحريةَ هذه العاطفة، فَمَن هذا يُقَرّر لها خطتَها، ويُملي عليها واجباتِها، ويُزَوّرُ لها الأسماءَ على إرادتِهِ دونَ إرادتِها، فيُسمي لها نَكَدَ قلبِها بٱسمِ فضيلةِ ٱلمرأة، وحرمانَ عاطفتِها بِٱسمِ واجبِ الزوجةِ الشريفة؟

ومنذا خَوّلَهُ الحقَّ[3] أنْ يُقرِّرَ وأنْ يُملي؟

وهذا الشرقيُّ العتيقُ المأفونُ[4] الذي قَبِلَها سافرةً لا تعرفُ رُوحُها ولا جسمُها الحِجاب؛ ما بالُهُ يُريدُ أنْ يضربَ ٱلحِجابَ على عاطفتِها، ويتركَها محبوسةً في شَرَفِهِ وحقوقِهِ وواجباتِه، وإنْ لم تكُنْ محجوبةً في الدار؟

ما علمْتُ يا إخواني إلَّا مِن بَعد أنَّ الزوجةَ الغربيَّةَ قد تكونُ معَ زوجِها الشرقيِّ كالسائحةِ مع دليلِها. هيهات هيهات[5]، إنَّهُ لن يُمسكَها عليه، ولن يُكْرِهَها على الوفاءِ له، إلَّا أنْ تكونَ حُثَالةً يزهدُ فيها حتى ذُبابُ الناس؛ فيأسُها هو يجعلُ هذا المسكينَ مطمَعَها، وهي مَعَ ذلك لو خلطَتْهُ بنفسِها لَبقَيَتْ منها ناحيةٌ لا تختلط، إذْ ترى أمتَهُ دونَ أمتِها، وجنسَهُ دونَ جنسِها؛ فما تَسُبُّ أمَّةَ زوجِها وبلادَهُ بأقبحَ من هذا!

أما ـ واللَّهِ ـ إنَّ الرجلَ الشرقيَّ حين يأتي بالأجنبيَّةِ لِتَلوينِ حياتِهِ بألوانِ الأنثى . . . لا يكونُ ٱختارَ أزهى الألوانِ إلَّا لِتلوينِ مصائبِ حياتِه! وقد يكونُ هناك ما يَشذُّ، ولكنْ هذه هي القاعدة.

* * *

أما قصتي يا إخواني . . . .

قال الدكتور محمد: قد حكَيتَها «يرحمك الله».

---

(١) لا مندوحة: لا مجال ولا جدال.

(٢) خاست: غدرت ونكثت بالعهد.

(٣) خوّله الحقّ: أعطاه وأوكل إليه.

(٤) المأفون: الضعيف الرأي.

(٥) هيهات: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعُد.

قصيدةٌ مترجمةٌ عنِ الشيطان:

لُحومُ البحْر

لَكأنَّما ـ واللهِ ـ تمدَّدَ على سِيفِ البحرِ في الإسكندريةِ شيطانٌ ماردٌ من شياطينِ ما بينَ الرجلِ والمرأة، يخدعُ الناسَ عن جهنمَ بتبريدِ معانيها... وقدِ ٱمتلأَ بهِ الزمانُ والمكان؛ فهو يُرْعِشُ[1] ذلك الرملَ بذلك الهواءِ رَعشَةَ أعصابٍ حيّة؛ ويُرْسلُ في الجوِّ نفخَاتٍ من جُراةِ الخمرِ في شاربِها ثَارَ فَعَرْبد، ويُطلعُ الشمسَ لِلأعينِ في منظرِ حَسْناءَ عُريانةٍ ألقَتْ ثيابَها وحياءَها معاً؛ ويُرخِي الليلَ لِيغطيَ بهِ المَخازِي التي خجلَ النهارُ أنْ تكونَ فيه.

ولَعَمري إنْ لم يكُنْ هو هذا الماردَ، ما أحسَبُهُ إلَّا الشيطانَ الخبيثَ الذي ٱبتدعَ فكرةَ عرْضِ الآثام مَكشوفةً في أجسامِها تحتَ عينِ التَّقِيِّ والفاجر، لِتعملَ عَملَها في الطِّباعِ والأخلاق؛ فَسَوَّلَ لِلنساءِ والرجالِ أنّ ذلك الشاطىءَ علاجُ المَلَلِ مِنَ الحرِّ والتعب، حتى إذا ٱجتمعوا، فتقارَبوا، فتَشابكوا، سَوَّلَ لهمُ الأخرى أنَّ الشاطىءَ هو كذلك علاجُ المَلَلِ مِنَ الفضيلةِ وٱلدين!

وإنْ لم يكنِ ٱللعينانِ فهو ٱلرجيمُ الثالث، ذلك الذي تَألَّى[2] أنْ يُفسِدَ الآدابَ الإنسانيَّةَ كلَّها بفسادِ خُلُقٍ واحد، هو حَياءُ المرأة؛ فبدأَ يكشفُها لِلرجالِ من وَجهِها، ولكنَّهُ ٱستمرَّ يكشف... وكانَتْ تظنُّهُ نَزْعَ حِجابِها فإذا هو أولُ عُرْيِها... وزادتِ ٱلمرأةُ، ولكنْ بما زادَ فجورَ الرجال؛ ونقَصَتْ، ولكنْ بما نَقَصَ فضائلَهم؛ وتغيرتِ ٱلدنيا وفَسَدتِ ٱلطِّباع؛ فإذا تلك المرأةُ مِمَنْ يُقرُونها على تَبذّلِها بينَ رجلينِ لا ثالثَ لهما: رجلٍ فَجَرَ ورجل تخنَّث...

* * *

هناك فكرةٌ من شريعةِ الطبيعةِ هي عقلُ البحرِ في هؤلاءِ الناس، وعقلُ هؤلاءِ الناس في البحر؛ إذا أنت ٱعترضْتَها فتبيَّنْتَها فتعقبتَها، رأيْتَها بلاغةً من بلاغةِ

(١) يرعش: يرجف.

(٢) تألّى: أخذ على نفسه عهداً.

الشيطانِ في نزيينِهِ وتَطْويعِهِ، وأصبْتَ فكرَهُ مستقرّاً فيها ٱستقرارَ المعنى في عِبارتِه، آخذاً بمداخلِها ومَخارجِها. وما كانَ الشيطانُ عَيِيّاً و لاغبيّاً، بل هو أذكى شعراءِ الكوْنِ في خَيالِه، وأبلغُهم في فِطْنتِه، وأدقُّهم في منطقهِ، وأقدرُهم على الفتنةِ والسحر؛ وبتمامِهِ في هذا كلِّهِ كانَ شيطاناً لم تَسَعْهُ ٱلجنَّةُ إذْ ليسَ فيها النار، ولم تُرضِهِ الرحمةُ إذ ليسَ معها الغضَب، ولم يُعجبْهُ ٱلخضوعُ الملائكيُّ إذْ ليسَ فيهِ الكِبْرياء، ولم يَخْلصْ إلى الحقيقةِ إذْ لا تحملُ الحقيقةُ شعرَ أحلامِه.

وما أتى الشيطانُ أحداً، ولا وسوسَ في قلْب، ولا سَوَّلَ لِنفس، ولا أغوى مَنْ يُغويه ـ إلَّا بأسلوبِ شِعْريّ مُلْتَبِسٍ دقيقٍ، يجعلُ المرءَ يعتقدُ أنَّ أطراحَ العقْلِ هو عقلُ الساعة، ويُفْسِدُ برهانَهُ مهما كان قويّاً؛ إذْ يرتدُّ بهِ مِنَ النفسِ إلى أخْيِلةٍ لا تقبلُ البرهانات، ويقطعُ حُجتَهُ مهما كانَتْ دامغة؛ إذْ يعترضُها بنزعةٍ مِنَ النزعاتِ تُوجهُها كيف دارَ بها الدمُ لا كيفَ دارَ بها المنطق.

فكرةٌ من شريعةِ الطبيعة، ظاهرُها لِبَعْضِ الأمرِ مِنَ الشمسِ والهواءِ والبحرِ وما لا أدري، وباطنُها لِبعضِ الأمرِ من فنِّ الشيطانِ وبلاغتهِ وشعرِهِ وما لا أدري؛ وما كانَتِ الشرائعُ الإلهيةُ والوضعيةُ إلَّا لإقرارِ العقلِ في شريعةِ الطبيعةِ كي تكونَ إنسانيةً لإنسانِها كما هي الحيوانيَّةُ لِحيوانِها، ولْيجدِ الإنسانُ ما يحفظُ بِهِ نفسَهُ من نفسِهِ التي هي دائماً فَوضى، ولا غايةَ لها لولا ذلك العقلُ إلَّا أنْ تكونَ دائماً فوضى...

وبالشرائع والآدابِ ٱستطاعَ الإنسانُ أنْ يضعَ لكلمةِ الطبيعةِ النافذةِ عليهِ جواباً، وأنْ يرى في هذه الطبيعةِ أثرَ جَوابِهِ؛ فكلمتُها هي: أيُّها الإنسان، أنْتَ خاضعٌ لي بالحيوانيِّ فيك. وكلمتُه هي: أيَّتُها الطبيعة، وأنتِ لي خاضعةٌ بالإلهيّ فيّ.

* * *

والآنَ سأقرأُ لكَ القصيدةَ الفنيَّةَ التي نظَمَها الشيطانُ على رملِ الشاطىءِ في الإسكندرية؛ وقد نقلْتُها أترجمُها فصلاً بعدَ فصلٍ عن تلك الأجسام عاريةً وكاسية، وعن معانيها مكشوفةً ومغطَّاة، وعن طِباعِها بريئةً ومتَّهمة، حتى ٱتَّسَقَتِ الترجمةُ على ما ترى:

قال الشيطان:

«ألا إن البهيمةَ والعقليةَ في هذا الإنسان؛ مجموعُهما شيطانيَّة...

أَلا وإنَّهُ ما من شيءٍ جميلٍ أو عظيمٍ إلَّا وفيهِ معنى السخريةِ بهِ.

هنا تتعرَّى ٱلمرأةُ من ثوبِها، فتتعرّى من فضيلتِها.
هنا يخلعُ الرجلُ ثوبَه، ثم يعودُ إليهِ فيلبسُ فيهِ الأدبَ الذي خَلَعه...
رؤيةُ الرجلِ لحمَ المرأةِ المحرَّمةِ نظرٌ بالعينِ والعاطفة.
يَرمي ببصرِهِ الجائعِ كما ينظرُ الصقْرُ إلى لحمِ الصيَّد.
ونَظَرُ المرأةِ لحمَ الرجلِ رؤيةُ فكرٍ فقط...
تُحوِّلُ بصرَها أو تخفِضُه، وهي من قلبِها تنظر...
يا لحومَ البحرِ! سلخَكِ من ثيابِكِ جزَّار...!
«يا لحومَ البحرِ! سلخكِ جزارٌ من ثيابكِ.
جزارٌ لا يذبحُ بألمٍ ولكنْ بلذَّة...
ولا يَحِزُّ بالسكينِ ولكن بالعاطفة...
ولا يُميتُ الحيَّ إلَّا موْتاً أدبياً...
إلى الهيجاءِ يا إبطالَ مَعركةِ الرجالِ والنساء.
فهنا تلتحِمُ نواميسُ الطبيعةِ ونواميسُ الأخلاق.
لِلطبيعةِ أسلحةُ العُرْي، وَٱلمخالطة، والنظر، والأنس، والتّضاحُك، ونزُوعِ المعنى إلى المعنى...
ولِلأخلاقِ المهزومةِ سلاحٌ منَ الدينِ قد صدِىء؛ وسلاحٌ منَ الحياءِ مكسور!
يا لُحومَ البحرِ! سلخَكِ من ثيابِك جزار...

* * *

«الشاطىءُ كبيرٌ كبير، يسعُ الآلافَ والآلاف.
ولكنَّهُ لِلرجلِ والمرأةِ صغيرٌ صغير، حتى لا يكونَ إلَّا خَلْوة...
وتقضي الفتاةُ سنتَها تتعلَّم، ثم تأتي هنا تتذكَّرُ جهلَها وتعرفُ ما هو...
وتُمضي ٱلمرأةُ عامَها كريمة، ثم تجيءُ لِتجِدَ هنا مادةَ اللؤمِ الطبيعيّ...
لو كانت حَجَّاجَةً صوَّامَةً، للعنتْها الكعبةُ لِوجودِها في «ٱستانلى».
الفتاةُ ترى في الرجالِ العُرْيانينَ أشباحَ أحلامِها، وهذا معنًى مِنَ السقوط.
والمرأةُ تِسارقُهمُ النظرَ تنويعاً لِرجُلِها الواحد، وهذا معنًى مِنَ الموَاخِير..
أين تكونُ النيَّةُ الصالحةُ لِفتاةٍ أوِ ٱمرأةٍ بينَ رجالٍ عريانين؟

يا لُحومَ البحر! سلخَكِ من ثيابِكِ جزَّار. . . !

* * *

«هناك التربية، وهنا إعلانُ الإغفالِ والطَّيش.

وهناك الدين، وهنا أسبابُ الإغراءِ والزلَل.

هناك تَكلُّفُ الأخلاق، وهنا طبيعةُ الحريةِ منها.

وهناكَ العزيمةُ بالقَهْرِ يوماً بعدَ يوم، وهنا إفسادُها بالترخُّصِ يوماً بعدَ يوم.

والبحرُ يعلِّمُ اللّائي والذين يسبحونَ فيه كيفَ يغرقونَ في البرّ. . .

لو درى هؤلاءِ وهؤلاءِ مَعرَّةَ اْغتسالِهم معاً في البحر، لاْغتسلوا مِنَ البحر.

فقطرةُ الماءِ التي نجَّستْها الشهواتُ قدِ اْنسكَبتْ في دمائِهم.

وذرَّةُ الرملِ النَّجِسةُ في الشاطىء، ستكبَرُ حتى تصيرَ بيتاً نَجِساً لِأَبٍ وأمّ. . .

يا لُحومَ البحر! سلخَكِ من ثيابِكِ جزَّار. . !

* * *

«يجيئون لِلشمسِ التي تَقْوى بها صِفَاتُ الجِسْم؛

لِيجدَ كلٌّ مِنَ الجنسينِ شمسَهُ التي تضعُفُ بها صفاتُ القلب.

يجيئونَ لِلهواءِ الذي تتجدَّدُ بِهِ عناصرُ الدم؛

لِيجدوا الهواءَ الآخرَ الذي تَفْسُدُ بِهِ معاني الدم.

يجيئونَ لِلبحرِ الذي يأخذونَ منه القوةَ والعافية؛

لِيأخذوا عنه أيضاً شريعتَهُ الطبيعيَّة: سمكةٌ تطارِدُ سمكة. . .

ويقولون ليسَ على الْمُصيِّفِ حَرج،

أي لأنَّهُ أعمى الأدب، وليس على الأعمى حَرج.

يا لُحومَ البحر! سلخَكِ من ثيابِك جزار. . . !

* * *

«المدارسُ، والمساجِد، والبِيَعُ، والكنائسُ، ووزارةُ الداخلية؛

هذه كلّها لن تهزمَ الشاطىء.

فأمواجُ النفسِ البشريةِ كأمواجِ البحرِ الصاخب، تنهزمُ أبداً لِترجعَ أبداً.

لا يهزمُ الشاطىءَ إِلَّا ذلك «الجامعُ الأزهر»، لو لم يكُنْ قد مُسِخَ مدرسة!

فصرخةٌ واحدةٌ من قلبِ الأزهرِ القديم، تجعلُ هديرَ البحرِ كأنَّهُ تسبيحٌ.

وتردُ الأمواجَ نقيةً بيضاءَ، كأنها عمائمُ العلماء.

وتأتي إلى البحرِ بأعمدةِ الأزهرِ لِلْفصلِ بينَ الرجالِ والنساء.

ولكنّي أرى زمناً قد نَقل حتى إلى المدارسِ رُوحَ «الكازينو»... !

يا لُحومَ البحر! سلخَكِ من ثيابِك جزَّار... !

* * *

«هنا على رغمِ الآداب، مملكةٌ لِلصيفِ والقَيْظ[1]، سلطانُها الجسمُ المؤنثُ العاري.

أجسامٌ تَعرِضُ مَفَاتِنَها عَرْضَ البضائع؛ فالشاطِىءُ حانوتٌ لِلزواجِ!

وأجسامٌ تَعرضُ أوضاعَها كأنَّها في غُرفَةِ نومِها في الشاطىء...

وأجسامٌ جالسةٌ لِغيرِها، تُحيطُ بها معانيها ملتمِسةً معانيَه؛ فالشاطىءُ سوقٌ لِلرقيق...

وأجسامٌ خَفِرَةٌ جالسةٌ لِلشمسِ والهواء؛ فالشاطِىءُ كدارِ الكُفْرِ لِمَنْ أكْرِه[2].

وأجسامٌ عليلةٌ تَقْتَحِمُها الأعينُ فتزدريها، لأنَّها جَعلَتِ الشاطىءَ مستشفى... !

وأجسامٌ خليعةٌ أضافَتْ من (استانلى) وأخَواتها إلى منارةِ الإكسندريةِ ومكتبةِ الإسكندرية ـ مَزْبَلةَ الإسكندرية...

كانَ جِدالُ المسلمينَ في السفور، فأصبحَ الآنَ في العُرْي.

فإذا تطوَّر، فماذا بقيَ من تقليدِ أوروبا إلَّا الجِدالُ في شرعيَّةِ جمعِ المرأةِ بينَ الزوجِ وشبْهِ الزوج؟»

* * *

إنتهى ما أستطعتُ ترجمَتَه، بعدَ الرجوعِ في مواضعَ منَ القصيدةِ إلى بعضِ القواميسِ الحية... إلى بعضِ شبانِ الشاطىء.

---

(١) القيظ: شدّة الحرّ.

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿..إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾.

قصيدةٌ مترجمةٌ عنِ الملَك:

احذري...!

ترجَمْنا عنِ الشيطانِ قصيدة (لحوم البحر). وهذه ترجمةٌ عن أحد الملائكة؛ رآني جالساً تحتَ الليلِ وقد أجمعْتُ أنْ أضعَ كلمةً لِلمرأةِ الشرقيَّةِ فيما تُحَاذِرُهُ أو تَتَوجَّسُ[1] منه الشرَّ؛ فَتَخَايَلَ الملكُ بأضوائِهِ في الضوءِ، وسنَحَ لي برُوحِه، وبَثَّ فيَّ من سرِّهِ الإلٰهي، فجعلْتُ أنظرُ في قلبي إلى فجرٍ من هذا الشعْرِ يَنْبُعُ كلمةً كلمة، ويُشْرِقُ معنًى معنًى، ويَستطيرُ جُملةً جُملة، حتى ٱجتمعْتِ القصيدةُ وكأنَّما سافَرْتُ في حُلُمٍ مِنَ الأحلامِ فجِئْتُ بها.

وٱنطلقَ ذلك الملَكُ وتركَها في يدي لُغَةً من طهارتِهِ لِلمرأةِ الشرقيَّةِ في ملائكيتِها:

* * *

احذري...!

«احذري أيتُها الشرقيَّةُ وبالغي في الحذر، وٱجعلي أخصَّ طِباعِك الحذرَ وحدَه.

إِحذري تمدُّنَ أوروبا أنْ يجعلَ فضيلَتكِ ثوباً يُوسَّعُ ويُضيَّق؛ فلُبْسُ الفضيلةِ على ذلك هو لُبْسُها وخَلْعُها...

إِذري فنَّهُمُ الاجتماعيَّ الخبيثَ الذي يَفْرِضُ على النساءِ في مجالسِ الرجالِ أنْ تؤدّيَ أجسامُهُنَّ ضريبةَ الفنّ...

إِحذري تلك الأنوثةَ الاجتماعيَّةَ الظريفة؛ إِنَّها ٱنتهاءُ المرأةِ بغايةِ الظَّرْفِ والرقةِ إلى... إلى الفَضيحة.

احذري تلك النسائيَّةَ الغَزليَّة؛ إِنَّها في جملتِها تَرخِيصٌ اجتماعيٌّ لِلحُرَّةِ أن... أنْ تُشَارِكَ البَغِيَّ في نصفِ عملِها.

أيتُها الشرقيَّة! احذري احذري!

* * *

(١) تتوجّس: تتوقع.

«احذري التمدُّنَ الذي ٱخترعَ لقتلِ لَقَبِ الزوجةِ المقدَّس، لقبِ «المرأةِ الثانية». . .

وَٱخترعَ لِقتلِ لقبِ العذراءِ المقدَّس، لقب «نصف عذراء». . .

وٱخترعَ لِقتلِ دينيةِ معاني المرأة، كلمة «الأدب المكشوف». . .

وٱنتهى إلى ٱختراعِ السُّرعةِ في الحُبّ. . . فاكتفى الرجلُ بزوجةِ ساعة. . .

وإلى ٱختراعِ ٱستقلالِ المرأة، فجاءَ بالذي ٱسمُهُ (الأبُ) مِنَ الشارع، لِتلقيَ بالذي ٱسمُهُ (الابنُ) إلى الشارع. . .

أيَّتُها الشرقيَّة! احذري احذري!

* * *

«احذري وأنتِ النَّجْمُ الذي أضاءَ منذُ النبوَّة، أنْ تقلِّدي هذه الشمعةَ التي أضاءَتْ منذُ قليل.

إنَّ المرأةَ الشرقيَّة هي ٱستمرارٌ لِآدابِ دينِها الإنسانيِّ العظيم.

هي دائماً شديدةُ الحِفاظِ حارِسَةٌ لِحَوْزتِها؛ فإِنَّ قانونَ حياتِها دائماً هو قانونُ الأمومةِ المقدَّس.

هي الطُّهرُ والعِفَّة، هي الوفاءُ والأَنَفة، هي الصبرُ والعزيمة، هي كلُّ فضائِلِ الأمّ.

فما هو طريقُها الجديدُ في الحياةِ الفاضلةِ، إلَّا طريقُها القديمُ بعينهِ؟

أيَّتُها الشرقيَّة! احذري احذري!

* * *

«احذري (ويحكِ) تقليدَ الأوروبيَّةِ التي تعيشُ في دنيا أعصابِها محكومةً بقانونِ أحلامِها. . .

لم تَعُدْ أنوثتُها حالةً طبيعيَّةً نفسيَّةً فقط، بل حالةً عقليَّةً أيضاً تَشُك وتُجادِل. . .

أنوثةٌ تَفَلْسَفَتْ فرأَتِ الزواجَ نصفَ الكلمةِ فقط. . . والأمَّ نصفَ المرأةِ فقط. . .

ويا ويلَ المرأةِ حينَ تنفجرُ أنوثتُها بالمبالغةِ، فتنفجرُ بالدواهي[1] علىٰ الفضيلةِ. . .

إنَّها بذلك حُرَّةٌ مساويةٌ لِلرجل، ولكنَّها بذلك لَيسَتِ الأنثى المحدودةَ بفضيلتِها. . .

أيَّتُها الشرقيَّة! احذري احذري!

* * *

---

(١) الدواهي: مفرده داهية، وهي المصيبة.

«احذري خَجَلَ الأوروبيَّةِ المترجِّلةِ مِنَ الإقرارِ بأنوثتِها.

إنَّ خَجَلَ الأنثى يجعلُ فضيلتَها تخجلُ منها...

إنَّهُ يُسقِطُ حياءَها ويكسو معانيَها رُجُولةً غيرَ طبيعيَّة،

إنَّ هذه الأنثى المترجِّلةَ تنظرُ إلى الرجلِ نظرةَ رجلٍ إلى أنثى...

والمرأةُ تعلو بالزواجِ درجةً إنسانيَّة، ولكنَّ هذه المكذوبةَ تنحطُّ درجةً إنسانيةً بالزواج.

أيَتُها الشرقيَّة! احذري احذري!

* * *

«احذري تَهَوُّسَ[1] الأوروبيَّةِ في طلبِ المساواةِ بالرجل.

لقد سَاوَتْهُ في الذهابِ إلى الحلاق، ولكنَّ الحلَّاقَ لم يجدْ في وجهِها اللِّحْية...

إنَّها خُلِقَتْ لِتَحْبِيبِ الدنيا إلى الرجل، فكانَتْ بمساواتِها مادّةَ تبغيض.

العجيبُ أنَّ سرَّ الحياةِ يأبَى أبداً أنْ تَتَساوى المرأةُ بالرجلِ إلا إذا خَسِرتْه.

والأعجبُ أنَّها حينَ تخضع، يرفعُها هذا السرُّ ذاتُهُ عنِ المساواةِ بالرجلِ إلى السيادةِ عليه.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري أنْ تَخسري الطباعَ التي هي الأليقُ بأمٍّ أنجَبتِ الأنبياءَ في الشرق.

أمٌ عليها طابَعُ النفسِ الجميلة، تَنْشُرُ في كلِّ موضعٍ جَوَّ نفسِها العالية.

فلو صارَتِ الحياةُ غَيماً ورعداً وبَرْقاً، لَكانَتْ هي فيها الشمسَ الطالعة.

ولو صَارتِ الحياةُ قَيْظاً وحَرُوراً واْختِناقاً، لَكانَتْ هي فيها النسيمَ يَتَخَطَّر.

أمٌّ لا تُبالي إلَّا أخلاقَ البُطولةِ وعزائمَها، لأنَّ جَدَّاتِها ولَدْن الأبطال.

أيَتُها الشرقية! احذري احذري!.

* * *

«احذري هؤلاءِ الشبَّانَ المتمدنينَ بأكثرَ مِنَ التمدن...

---

(١) تهوّس: شدّة الحبّ.

يُبالغُ الخبيثُ في زينتِه، وما يدري أنَّ زينتَهُ مُعْلِنَةٌ أنَّه إنسانٌ مِنَ الظاهر . . .

ويُبالغُ في عَرْضِ رُجولتِهِ على الفَتيَات، يحاولُ إيقاظ المرأةِ الراقدَةِ في العذراءِ المسكينة!

ليسَ لامرأة فاضلةٍ إلَّا رَجلُها الواحد؛ فالرجالُ جميعاً مَصائبُها إلَّا واحداً.

وإذْ هي خالَطتِ الرجال، فالطبيعيُّ أنَّها تُخالطُ شَهَوات، ويجبُ أنْ تحذَرَ وتُبالغ.

أيتُها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري؛ فإنَّ في كلِّ أمرأةٍ طبائعَ شريفةً مُتَهورّة؛ وفي الرجالِ طبائعَ خسيسةً متهوّرة.

وحقيقةُ الحِجابِ أنَّهُ الفصلُ بينَ الشرفِ فيه الميلُ إلى النزول، وبيَن الخِسَّةِ فيها الميلُ إلى الصّعود.

فيكِ طبائعُ الحُبِّ، والحَنانِ، والإيثار، والإخلاصِ، كلَّما كَبُرْتِ كَبُرَتْ.

طبائعُ خَطِرَة، إنْ عملَتْ في غيرِ موضعِها . . . جاءَتْ بعكسِ ما تعملُهُ في موضعِها.

فيها كلُّ الشرفِ ما لم تنخدعْ، فإذا أنخَدعَتْ فليسَ فيها إلَّا كلُّ العار.

أيَّتُها الشرقيَّة! احذري احذري!

* * *

«احذري كلمةً شيطانيةً تسمعينَها: هي فَنيَّةُ الجمالِ أو فنِّيةُ الأنوثة.

وأفهميها أنتِ هكذا: وَاجباتُ الأنوثةِ وواجباتُ الجمال.

بكلمةٍ يكونُ الإحساسُ فاسداً، وبكلمةٍ يكونُ شريفاً.

ولا يَتَسَقَّطُ[1] الرجلُ أمرأةً إلَّا في كلماتٍ مُزَيَّنَةٍ مثلِها . . .

يجِبُ أنْ تَتَسلَّحَ المرأةُ معَ نظرتِها، بنظرةِ غضَبٍ ونظرةِ أحتقار.

أيَّتُها الشرقيَّة! احذري احذري!

* * *

«احذري أنْ تُخْدَعي عن نفسِك؛ إنَّ المرأةَ أشدُّ أفتقاراً إلى الشرفِ منها إلى الحياة.

---

(١) يتسقَّط: يوقع بحبائله.

إنَّ الكلمةَ الخادعةَ إذْ تُقالُ لك، هي أختُ الكلمةِ التي تُقالُ ساعةَ إنفاذِ الحُكْمِ لِلمحكومِ عليه بالشَّنْق . . .

يَغْتَرُونكِ بكلماتِ الحُبِّ والزواجِ والمال، كما يُقالُ لِلصاعدِ إلى الشنَّاقةِ[1] ماذا تشتهي؟ ماذا تُريد؟

الحُبُّ؟ الزواجُ؟ المالُ؟ هذه صَلاةُ الثعلبِ حينَ يَتظاهرُ بالتقوى أمامَ الدَّجاجة . . .

الحُبُّ؟ الزواجُ؟ المالُ؟ يا لحمَ الدَّجاجة! بعضُ كلماتِ الثعلبِ هي أنيابُ الثعلب . . .

أيَّتُها الشرقيَّة! احذري احذري.

* * *

«احذري السقوط؛ إنَّ سقوطَ المرأةِ لِهَوْلِهِ وشدَّتِهِ ثلاثُ مَصائبَ في مصيبة: سقوطُها هي، وسقوطُ مَنْ أوجدُوها، وسقوطُ مَنْ تُوجِدهم! نَوَائبُ[2] الأسرةِ كلّها قد يَسْتُرها البيت، إلا عارَ المرأة.

فَيَدُ العارِ تَقْلِب الحِيطانَ كما تقلبُ اليدُ الثوبَ فتجعلُ ما لا يُرى هو ما يُرى.

والعارُ حكمٌ يُنفذُهُ المجتمعُ كلُّه، فهو نَفْيٌ مِنَ الاحترامِ الإنسانيّ:

أيَّتُها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«لو كانَ العارُ في بئرٍ عميقةٍ لَقلبَها الشيطانُ مِئذنةً ووقفَ يُؤذّنُ عليها.

يفرَحُ اللعينُ بفضيحةِ المرأةِ خاصَّةً، كما يفرحُ أبٌ غنيٌّ بمولودٍ جديدٍ في بيتهِ . . .

واللصُّ، والقاتلُ، والسكيِّرَ، والفاسقُ، كلُّ هؤلاءِ على ظاهرِ الإنسانيَّةِ كالحرِّ والبرد:

أمَّا المرأةُ حينَ تسقطُ فهذه من تحتِ الإنسانيَّةِ هي الزّلزلة.

ليسَ أفظعُ مِنَ الزلزلةِ المرتجةِ تشقُّ الأرض، إلا عارَ المرأةِ حينَ يشقُّ الأسرةَ أيَّتُها الشرقيَّة! احذري احذري!».

---

(١) الشنَّاقة: كلمة ليست عربية، وإن وافقت الاشتقاق على وزن «فعّالة». من صيغ المبالغة، ولهذا قد تعني من ينصب المشنقة لمن يريد شنقه.

(٢) نوائب: مفرده نائبة، وهي المصيبة.

الجمالُ البائس

١

«وكيفَ يُشْعَبُ[١] صَدْعُ[٢] الحُبِّ في كَبدي»، كيفَ يُشعبُ صدعُ الحُبّ؟

لَعمْري ما رأيْتُ الجمالَ مرةً إلّا كان عندي هو الألمَ في أجملِ صوَرِهِ وأبدعِها؛ أتُراني مخلوقاً بجُرْحٍ في القلب؟

ولا تكونُ المرأةُ جميلةً في عيني، إلّا إذا أحسَسْتُ حينَ أنظرُ إليها أنَّ في نفسي شيئاً قد عرفَها، وأنَّ في عينيها لَحَظاتٍ موجَّهةً، وإنْ لم تنظرْ هي إليَّ.

فإثباتُ الجمالِ نفسَهُ لِعيني، أنْ يُثْبِتَ صداقتَهُ لِروحي باللَّمْحةِ التي تَدلّ وتتكلَّم: تدلُّ نفسي وتتكلَّمُ في قلبي.

* * *

كنْتُ أجلسُ في (الإسكندريةِ) بينَ الضُّحَى والظهرِ، في مكانٍ على شاطىءِ البحر، ومعي صديقي الأستاذ (ح) من أفاضل رجالِ السلكِ السياسي، وهو كاتبٌ من ذوي الرأي، له أدبٌ غَضٌّ[٣] ونوادرُ وظرائف؛ وفي قلبِه إيمانٌ لا أعرفُ مثلَهُ في مثلِه، قد بلغَ ما شاءَ اللَّهُ قوةً وتمكُّناً، حتى لأحسبُ أنَّهُ رجلٌ من أولياءِ اللَّهِ قد عُوقبَ فحُكِم عليه أنْ يكونَ محامياً، ثم زيدَ الحكمُ فجُعلَ قاضياً، ثم ضُوعفتِ العقوبةُ فجُعِلَ سياسيًّا . . .

وهذا المكانُ ينقلبُ في الليلِ مَسْرَحاً ومَرقصاً وما بينَهما . . . فيتَغاوَى[٤] فيه الجمالُ والحُبّ، ويَعرِضُ الشيطانُ مصنوعاتِهِ في الهزْلِ والرقصِ والغِناء، فإذا دخلْتَهُ في النهار رأيْتَ نورَ النهارِ كأنَّهُ يغسلُهُ ويغسلُكَ معه، فتُحسُّ لِلنورِ هناك عملاً في نفسِكَ.

ويُرَى المكانُ صَدْراً مِنَ النهارِ كأنَّهُ نائمٌ بعدَ سهرِ الليل، فما تجيئُهُ من ساعةٍ

---

(١) يشعب: يتفرّق ويتّسع.
(٢) صدع: شرخ.
(٣) أدب غضّ: أدب جديد طريء.
(٤) يتغاوى: يتباهى.

بينَ الصبح والظهر، إلَّا وجدْتَهُ ساكناً هادئاً كالجسمِ المستثْقِلِ نوْماً؛ ولهذا كُنْتُ كثيراً ما أكتبُ فيه، بل لا أذهبُ إليهِ إلا لِلكتابة.

فإذا كانَ الظهرُ أقبلَ نساءُ المسرحِ ومعهُنَّ من يُطارِحُهَّن الأناشيدَ(١) وألحانَها، ومَنْ يُثقفهُنَّ في الرقصِ، ومَنْ يَروِّيهنَّ ما يُمثِّلْنَ إلى غيرِ ذلَك مِمَّا ابتلْتهُنَّ بِهِ الحياةُ لِتُساقِطَ عليهنَّ الليالِيَ بالموتِ ليلةً بعدَ ليلة.

وكنَّ إذا جئنَ رأينَني على تلك الحالِ مِنَ الكتابةِ والتفكير، فينصرفْنَ إلى شأنِهن، إلَّا واحدةً كانَتْ أجملَهُنّ، وأكثرُ هؤلاءِ المسكيناتِ يَظهَرْنَ لِعينِ المتأملِ كأنَّ منهُنَّ مثلَ العَنزِ التي كُسِرَ أحدُ قَرنيها، فهي تحملُ على رأسِها علامةَ الضعفِ والذلةِ والنقص، ولو أنَّ امرأةً تتبدَّدُ حيناً فلا تكونُ شيئاً، وتجتمعُ حيناً فتكونُ مرة شيئاً مقلوباً، وأخرى شكلاً ناقصاً، وتارةً هيئةً مُشوَّهةً(٢)؛ لَكانَتْ هي كلَّ امرأةٍ من هؤلاءِ المسكيناتِ اللواتي يمشينَ في المسرَّاتِ إلى المخاوف، ويعشْنَ ولكن بمقدَّماتِ الموت، ويجدْنَ في المالِ معنى الفقر، ويتَلقَّينَ الكرامةَ فيها الاستهزاء، ثم لا يعرِفْنَ شابًا ولا رجلاً إلا وقعَتْ عليهنَّ من أجلِهِ لَعنةُ أبٍ أو أمٍّ أو زوجة.

* * *

وتلك الواحدةُ التي أومأتُ إليها كانَتْ حزينةً مُتسلِّبةً(٣) فكأنَّما جَذبَها حزنُها إليّ، وكانَتْ مفكرةً فكأنَّما هداها إليّ فكرُها، وكانَتْ جميلةً فدلَّها عليَّ الحُبّ، وما أدري ـ واللهِ ـ أيَ نفسَينا بدأتْ فقالَتْ لِلأخرى أهلاً . . .

ورأيْتُها لا تصرفُ نظرَها عنِّي إلَّا لِتردَّهُ إليّ، ولا تردُّهُ إلا لِتصرفَه؛ ثم رأيْتُها قد جال بها الغَزَلُ جَوْلَةً في معركتِه . . . فتشاغلْتُ عنها(٤) لا أُريها أنضي أنا الخَصْمُ الآخرُ في المعركة . .

بَيْدَ أنّي جعلْتُ آخذُها في مَطارِحِ النظر(٥)، وأتأملُها خُلْسَةً(٦) بعدَ خُلسةٍ في ثوبِها الحريري الأسود، فإذا هو يَشُبُّ لونَها(٧) فيجعلُه يتلألأ، ويُظهِرُ وجهَها بلونِ البدرِ في تِمِّه، ويُبديه لِعينيّ أرقَّ مِنَ الوردِ تحتَ نورِ الفجر.

---

(١) يطارحهنَّ الأناشيد: يبادلهنّ.
(٢) مشوّهة: بشعة.
(٣) من أقوال العرب: تسلّبت المرأة، وذلك في حال حدادها، وذلك بلبسها السواد من الأثواب رمز الحداد.
(٤) تشاغلت عنها: لم ألتفت إليها.
(٥) مطارح النظر: مبادلته.
(٦) خلسة: مسارقة.
(٧) يشب لونها: يزيده جمالاً وروعة.

ورأيْتُ لها وجهاً فيهِ المرأةُ كلُّها بِٱختصار، يُشرِقُ على جسم بَضّ أَليَنَ من خَمْلِ النّعام، تَعْرِضُ فيه الأنوثةُ فنَّها الكامل؛ فلو خُلِقَ الدلالُ ٱمرأةً لَكانَتْها.

وتَلُوحُ لِلرائي من بعيدٍ كأنَّها وَضَعَتْ في فمِها (زِرَّ وَرْد) أحمرَ مُنْضَمًّا على نفسِه: شفتان تكادُ ٱبتسامَتُهما تكونُ نداءَ لِشفَتَيْ مُحبٍّ ظمآن. . . !

أمَّا عيناها فما رأيْتُ مثلَهما عينَي ٱمرأةٍ ولا ظَبْية؛ سوادُهما أشدُّ سواداً من عيونِ الظِّباء؛ وقد خُلِقَتا في هيئةٍ تُثبِتُ وجودَ السحرِ وفعْلَهُ في النفس؛ فهما القوةُ الواثقةُ أنَّها النافذةُ الأمر، يُمازِجُها حَنانٌ أكثرُ مِمَّا في صدرِ أمٍّ على طِفلِها؛ وتمامُ الملاحَةِ أنَّهما هما، بهذا التكحيل، في هذه الهيئة، في هذا الوجهِ القَمَريّ.

يا خالقَ هاتين العينين! سبْحانَك سبحانَك!

* * *

قال الراوي:

وأتغافَلُ عنها أياماً؛ وطالَ ذلك مني وشَقَّ عليها، وكأنّي صَغَّرْتُ إليها نفسَها، وأرهَقتُها بمعنى الخضوع، بيدَ أَنَّ كِبرياءَها التي أبَتْ لها أنْ تُقدِم، أبتْ عليها كذلك أنْ تنهزم.

وأنا على كلِّ أحوالي إنَّما أنظرُ إلى الجمالِ كما أسْتَنْشِي[١] العِطَر يكونُ مُتَضَوِّعاً في الهواء: لا أنا أستطيعُ أنْ أَمَسَّهُ ولا أحدٌ يستطيعُ أنْ يقولَ أخذْتَ منّي. ثم لا تدفعُني إليهِ إلَّا فِطرةُ الشعرِ والإحساسُ الرُّوحانيّ، دونَ فطرةِ الشرِّ والحيوانيَّةِ ومتى أحسَسْتُ جمالَ المرأةِ أحسسْتُ فيه بمعنًى أكبرَ مِنَ المرأة، أكبرَ منها؛ غيرَ أنَّهُ هو منها.

قال الراوي:

فإنّي لجالسٌ ذاتَ يوم وقد أقبلْتُ على شأني مِنَ الكتابة، وبازائي[٢] فتى رَيِّقُ الشبابِ، في العُمرِ الذي تَرى فيهِ الأعينُ بالحماسة والعاطفة، أكثرَ مِمَّا ترى بالعقلِ والبَصيرة، ناعمٌ أمْلَدُ تمّ شبابُهُ ولم تَتِمَّ قوَّتُه، كأنَّما نكَصَتِ[٣] الرجولةُ عنه إذْ وافتْهُ فلم تجدْهُ رجلاً. . . أو تلك هي شيمةُ أهلِ الظَّرفِ والقَصْفِ من شُبَّانِ اليوم: ترى الواحدَ منهم فتعرفُ النُّضجَ في ثيابِهِ أكثرَ مِمَّا تعرفُهُ فِي جسمِه، وتأبَى الطبيعةُ عليهِ أنْ

---

(١) أستنشي: أتنشق.

(٢) إزائي: قربي، إلى جانبي. (٣) نكصت: تراجعت.

يكونَ أنثى فيُجاهِدُ لِيكونَ ضَرْباً منَ الأنثى. . . ! إنّي لجالسٌ إذا وافَتِ الحسناءُ فأومأتْ إلى الفتى بتحيتِها، ثم ذهبَتْ فٱعتَلَتْ المِنَصَّةَ معَ الباقيات، ورقصَتْ فأحسنَتْ ما شاءَت، وكأنَّ في رقصِها تعبيراً عن أهواءٍ ونزَعاتٍ تُريدُ إثارَتَها في رجلٍ ما. . . فقلْتُ لِصاحِبنا الأستاذ (ح): إنَّ كلمةَ الرقصِ إنَّما هي ٱستعارةٌ على مثلِ هذا، كما يستَعِرْنَ كلمةَ الحُبِّ لِجمعِ المال؛ ولا رقصَ ولا حبَّ إلّا فُجورٌ وطمع.

ثم إنَّها فرغَتْ من شأنِها فمرَّتْ تَتَهادَى حتى جاءَتْ فجلسَتْ إلى الفتى. . . فقال الاستاذ (ح) وكانَ قد ألَمَّ بِما في نفسِها: أتُراها جعلَتْهُ هٰهنا مَحَطَّة. . .؟

قال الراوي: أمّا أنا فقلْتُ في نفسي لقد جاءَ الموضوع. . . وإنّي لَفي حاجةٍ أشدِّ الحاجةِ إلى مقالةٍ منَ المكْحُولات، فتفرّغْتُ لها أنظرُ ماذا تصنع، وأنا أعلمُ أنَّ مثلَ هذه قليلاً ما يكونُ لها فكرٌ أو فلسفة؛ غير أنَّ الفكرَ والفلسفةَ والمعانيَ كلَّها تكونُ في نظرِها وٱبتساماتِها وعلى جسمِها كلِّه.

* * *

وكانَ فتاها قد وَضَعَ طربَوشَهَ على يدِه؛ فقدِ ٱنتهَينا إلى عهدٍ رَجعَ حكمُ الطربوشِ فيهِ على رأسِ الشابِّ الجميل، كحكمِ البرقعِ على وجهِ الفتاةِ الجميلة. . . فأسفرَ ذاك من طربوشِه، وأسفرتْ هذه من نِقابِها ـ قال الراوي: فما جلسَتْ إلى الفتى حتى أدنتْ رأسَها منَ الطربوش، فاستنامَتْ إليه، فألصقَتْ بِهِ خدَّها. . .

ثم التفتَتْ إلينا التفاتةَ الخِشْفِ[1] المذعورِ ٱسترْوَحَ السَّبُعَ[2] ووجدَ مقدَّماتِه في الهواء، ثم أرْخَتْ عينَيها في حَياءٍ لا يَسْتَحِي. . .

وأنشأتْ تتكلَّمُ وهي في ذلك تُسارِقُنا النظر[3]، كأنَّ في ناحيتِنا بعضَ معاني كلامِها. . .

ثم لا أَدري ما الذي تَضاحَكَتْ لَه، غيرَ أنَّ ضِحكتَها ٱنشقَّتْ نصفين، رأَيْنا نحن أجملَهما في ثَغرِها. . .

ثم تزَعزَعَتْ في كرسيِّها كأنَّما تَهُمُّ أنْ تنقلبَ، لِتمتدَّ إليها يدٌ فتُمسِكَها أنْ تنقلِب. . .

ثم تسانَدَتْ على نفسِها، كالمريضةِ النائمةِ تَتناهَضُ من فِراشِها فيكادُ يئنُّ

---

(١) الخشف: الرشا الصغير، ولد الغزالة.

(٢) استروح: شم رائحته.

(٣) تسارقنا النظر: تنظر إلينا خلسة.

بعضُها من بعضِها، وقامَتْ فمشَتْ، فحاذَتْنا[1]، وتجاوَزَتْنا غيرَ بعيد، ثم رجعَتْ إلى موضِعها متكَسِّرَةً كأنَّ فيها قوةً تُعلِنُ أنها ٱنتهت. . .

* * *

قال الراوي:

ونظرْتُ إليها نظرةَ حزن؛ فتغضَّبَتْ وٱغتاظَت، وشاجَرَتْ هذه النظرةَ من عينيها الدَّعجَاوَيْن بنظراتٍ متهكِّمة، لا أدري أهي تُوَبخُنا بها، أم تَتَّهِمُنا بأنَّنا أخذْنا من حُسنِها مَجَّاناً. . .؟

فقلْتُ لِلأستاذ (ح)، وأنا أجْهَرُ بالكلامِ لِيَبْلُغَها:

أمَا ترى أنَّ الدنيا قدِ ٱنتكسَتْ في ٱنتكاسِها، وأنَّ الدهرَ قد فسَدَ في فسادِه، وأنَّ البلاء قد ضُوعِفَ على الناس، وأنَّ بقيةً مِنَ الخيرِ كانَتْ في الشرِّ القديمِ فٱنتُزِعَت؟

قال: وهلْ كانَ في الشرِّ القديمِ بقيةُ خيرٍ وليس مثلُها في الشرِّ الحديث؟

قلْت: هٰهنا في هذا المسرحِ قِيَانٌ لو كانَتْ إحداهُنَّ. . . في الزمنِ القديم، لَتَنَافَسَ في شرائِها الملوكُ والأمراءُ وسَرَاةُ الناسِ وأعيانُهم، فكانَ لها في عَهارةِ الزمنِ صَوْنٌ وكرامة، وتتقلَّبُ في القصورِ فتجعلُ لها القصورُ حُرْمةً تمنعُها ٱبتذالَ فنِّها لِكلِّ مَنْ يدفعُ خمسةَ قروش، حتى لِرُذّالِ الناس وغَوْغائِهم[2] وسِفْلَتِهم؛ ثم هي حينَ يُدْبِرُ شبابُها تكونُ في دارِ مولاها حَمِيلةً على كرَمٍ يحمِلُها، وعلى مُروءةٍ تعيشُ بها.

وقديماً أخذَتْ سَلّامةُ الزرقاءُ في قُبلتِها لؤلؤتينِ بأربعينَ ألفَ درهم، تبلغُ ألفي جنيه. فهل تأخذُ القَيْنَةُ من هؤلاءِ إلا دَخِينةً[3] بمليمين. . .؟

قال الأستاذ (ح): ما أبعدَكَ يا أخي عن (بورصةِ) القُبْلَةِ وأسعارِها. . . ولكن ما خبرُ اللؤلؤتين؟

قال الراوي:

كانَتْ سَلامةُ هذه جاريةً لابن رَامين، وكانت مِنَ الجمالِ بحيثُ قِيلَ في وصفِها: كأنَّ الشمسَ طالعةٌ من بينِ رأسِها وكتفَيْها؛ فٱستأذَنَ عليها في مجلسِ غنائِها الصيَّرفيُّ الملقَّب بالماجن، فلمَّا أذِنتْ له، دخلَ فأقْعَى[4] بينَ يديها، ثم أدخلَ يدَه في ثوبِهِ

---

(١) حاذتنا: مشت إلى جانبنا.

(٢) الغوغاء: عامة الناس وسفلتهم.

(٣) يقصد بالدخينة: السيجارة.

(٤) أقعى: جلس.

فأخرجَ لؤلؤتين، وقال: أنظري يا زرقاءُ جُعِلْتُ فِدَاك. ثم حَلَفَ أنَّهُ نُقِدَ فيهما بالأمسِ أربعينَ ألفَ درهم. قالت: فما أصنعُ بذاك؟ قال: أردْتُ أنْ تعلمي...

ثم غنَّت صوتاً وقالت: يا ماجِنُ هِبْهما[1] لي - ويحك -... قال: إنْ شِئْتِ - واللّهِ - فَعَلْتُ. قالَت: قدْ شِئْتُ. قال: واليمينُ التي حلفْتُ بها لازمةٌ لي إنْ أخذْتِهما إِلّا بشفتيكِ من شفتيَّ...

* * *

قال الراوي:

ورأيْتُها قد أذنَتْ لي، وأنصتَتْ لكلامي، وكأنّما كانَتْ تَسمعُني أعتذرُ إليها، وأستيقنَتْ أنْ ليسَ بي إِلّا الحزنُ عليها والرثاءُ لها، فبدَتْ أشدَّ حياءً مِنَ العذراءِ في أيامِ الخِدْر...

ثم قلْتُ: نعم كانَ ذلك الزمنُ سفيهاً، ولكنَّها سَفاهةُ فنّ... لا سَفاهةُ عَرْبدَةٍ وتَصَعْلكٍ[2] كما هي اليوم.

فنظرَتْ إليَّ نظرةً لنْ أنساها؛ نظرةً كأنَّها تَدْمَع، نظرةً تقول بها: ألسْتُ إنسانة؟ فلم أملِكْ أنْ قلْتُ لها: تَعالي تعالي.

وجاءَتْ أحلى مِنَ الأملِ المعترِضِ سَنَحَتْ بِهِ الفُرصة، ولكنْ ماذا قلْتُ لها وماذا قالت؟...

---

(١) هِبهما: فعل أمر من وهب بمعنى أعطى.

(٢) التصعلك: العيش البائس على هامش الفقر.

الجمالُ البائس

٢

جاءتْ أحلى مِنَ الأملِ المعترِض سنَحَتْ[١] به فُرصةٌ؛ وعلى أنَّها لم تَخْطُ إلينا إلَّا خُطْوةً وتَمامَها، فقد كانَتْ تجِدُهُ في نفسِها ما تجدُه لو أنَّها سافرتْ من أرضٍ إلى أرضٍ، ونقَلها البُعْدُ النازحُ من أُمَّةٍ إلى أمَّة.

يا عجباً! إنَّ جلوسَ إنسانٍ إلى إنسانٍ بإزائِهِ، قد يكونُ أحياناً سفَراً طويلاً في عالَمِ النفس: فهذه الحسناءُ تعيشُ في دنيَا فارغةٍ من خِلالٍ كثيرة: كالتقوى، والحياءِ، والكرامة، وسموِّ الروح، وغيرِها؛ فإذا عَرَضَ لها مَنْ يُشْعِرُها بعضَ هذه الخِلالِ، ويَنْتزِعُها من دنيَا اضطرارِها وأخلَاقِ عيشِها ولو ساعةً ـ فما تكونُ قد وَجدَتْ شخصاً، بل كشَفَتْ عالَماً تَدْخُلُهُ بنفسٍ غيرِ النفسِ التي تُدبِّرُها في عالَمِ رزقِها...

ولا أعجبَ من سحرِ الحبِّ في هذا المعنى؛ فإنَّ العاشقَ لِيَكونُ حبيبُهُ إلى جانبِه، ثم لا يُحِسُّ إلا أنَّهُ طَوَى الأرضَ والسمواتِ ودخلَ جنةَ الخُلدِ في قُبْلة...

* * *

جلسَتْ إلينا كما تَجلسُ المرأةُ الكريمةُ الخَفِرَة: تُعطيكَ وجهَهَا وتبتعدُ عنك بسائرِها، وتُريكَ الغُصْنَ وتَخبأُ عنك أزهارَه. فرأيناها لم تستقبلِ الرجلَ منا بالأُنثى منها كما اعتادَت؛ بل استقبَلتْ واجباً برِعاية، وتلطُّفاً بحَنَان، وأدباً من فنٍّ بأدبٍ من فنٍّ آخر؛ وكانَ هذا عجيباً منها؛ فكلَّمها في ذلك الأستاذُ (ح) فقالت: أمَّا واحدةٌ فإنَّنا نتَّبعُ دائماً مَحبَّةً من نجالِسُهم، وهذه هي القاعدة. وأما الثانيةُ فإننا لا نجدُ الرجلَ إلَّا في النَّدْرة؛ وإنَّما نحن مع هؤلاءِ الذين يَتَسوَّمون[٢] بسَيما الرجال، كحِيلةِ المحتالِ على غَفْلةِ المغفَّل؛ وهم معنا كالقُدرةِ بالثمَنِ ما يشتريهِ الثمن،

---

(١) سنحت: سمحت.

(٢) يتسوَّمون: يتشكلون بهيئة الرجال.

ليسوا علينا إلا قَهْراً مِنَ القَهر؛ ولسْنا عليهم إلا سَلْباً مِنَ السَّلب، مادةٌ مع مادة، وشرٌّ على شرّ؛ أما الإنسانيةُ منّا ومنهم فقد ذهَبَتْ أو هي ذاهبة.

قال (ح): ولكن...

فلم تدعْهُ يَسْتَدْرِكُ[1] بل قالت: إنّ «لكن» هذه غائبةٌ الآن... فلا تجيءُ في كلامِنا. أتُريدُ دليلاً على هذا الانقلاب؟ إنَّ كلَّ إنسانٍ يعلمُ أنَّ الخطَّ المستقيمَ هو أقربُ مَسَافةٍ بينَ نُقطتين؛ ولكنَّ كلَّ امرأةٍ مِنَّا تعلمُ أنَّ الخطَّ المعْوَجَّ هو وحده أقربُ مسافةٍ بينَها وبينَ الرجل...

قالَتْ: فإذا وجَدَتْ إحدانا رجلاً بأخلاقِهِ لا بأخلاقها... ردَّتْها أخلاقُهُ إلى المرأةِ التي كانَتْ فيها من قبل، وزادَتْها طبيعتُها الزَّهْوَ[2] بهذا الرجلِ النادر، فتكونُ معَهُ في حالةٍ كحالةِ أكملَ امرأة، بَيْدَ أنَّهُ كمالُ الحُلْم الذي يستيقظُ وَشِيكاً؛ فإنَّ الرجلَ الكاملَ يكملُ بأشياءَ، منها وا أسفا...! منها ابتعادُهُ عنَّا. ثم قالت: وصاحبُك هذا منذُ رأيتُه، رأيتُه كالكتابِ يشغَلُ قارئَهُ عن معاني نفسِهِ بمعانيهِ هو...

* * *

وضحكْتُ أنا لِهذا التشبيه، فمتى كان الكِتابُ عندَ هذه كتاباً يشغلُ بمعانيه؟ غيرَ أني رأيْتُها قد تكلَّمَتْ واحتفَلَتْ، وأحسنَتْ وأصابت؛ فتركْتُها تتحدثُ معَ الأستاذ (ح)، وغِبتُ عنهما غيْبَةَ فِكْر؛ وأنا إذا فكَّرْتُ انطبقَ عليَّ قولُهم: خَلِّ رَجُلاً وشأنَه. فلا يتصلُ بي شيءٌ ممَّا حولي. وكانَ كلامُها يسطعُ لي كالمصباحِ الكهربائيِّ المتوقِّد، فقدَّمها فكرُها إليَّ غيرَ ما قدَّمَتْها إليَّ نفسُها، ورأيْتُ لها صورتين في وقتٍ معاً، إحداهما تعتذرُ منَ الأخرى...

وكنْتُ قبلَ ذلك بساعةٍ قد كتبْتُ في تَذْكِرةٍ خواطري هذه الكلمةَ التي استوحَيْتُها منها؛ لأضعَها في مقالةٍ عنها وعن أمثالِها، وهي:

«إذا خرجَتِ المرأةُ من حُدودِ الأسرةِ وشَريعتِها، فهل بقيَ منها إلَّا الأنثى مجرَّدةً تجريدَها الحيوانيَّ المتكشِّفَ المتعرِّض للقوةِ التي تنالُه أو ترغبُ فيه؟ وهل تعملُ هذه المرأةُ عند ذلك إلا أعمالَ هذه الأنثى؟

«وما الذي استرعاها[3] الاجتماعُ حينئذٍ فترعاهُ منه وتحفظُهُ لَه، إلَّا ما

---

(١) يستدرك: يتابع الحديث.

(٢) الزهو: الفخر.

(٣) استرعاها: قام على تربيتها والعناية بها.

أسترعَى أهلُ المالِ أهلَ السرقة؟ إنَّ الليلَ ينطوِي على آفتين: أولئك اللصوصِ، وهؤلاءِ النساء.

«وكيف ترى هذه المرأةُ نفسَها إلَّا مشوَّهةً ما دَامتْ رذائلُها دائماً وراءَ عينيها، وما دامَ بإزاءِ عينيها دائماً الأمَّهاتُ والمُحْصَنَاتُ مِنَ النساء[1]، وليسَ شأنُها، من شأنِهنّ؟ إنَّ خيالَها يُحرزُ في وَعْيِهِ صورتَها الماضيةَ من قبلِ أنْ تزلَّ، فإذا خَلَتْ إلى نفسِها كانَتْ فيها اثنتان، إحداهما تلعَنُ الأخرى، فترَى نفسَها من ذلك على ما ترى.

«وهي حينَ تُطالعُ مرآتَها لِتتبرَّجَ وتحتفِلَ في زينتِها، تنظرُ إلى خيَالِها في المرآةِ بأهواءِ الرجالِ لا بعينيْ نفسِها، ولِهذا تُبالغُ أشدَّ المُبالغة؛ فلا تُعْنَى بأنْ تظهرَ جميلةً كالمرأة، بل مُثْمِرةً كالتاجر... وتَكَسُّبُها بِجمالِها يكونُ أولَ ما تفكّرُ فيه؛ ومن ذلك لا يكونُ سرورُها بهذا الجمالِ إلَّا على قدرِ ما تكْسبُ منه؛ بخلافِ الطبعِ الذي في المرأة، فإنَّ سرورَها بمَسْحَة الجمالِ عليها هو أولُ فكرِها وآخرُه.

«إن الساقطةَ لا تنظرُ في المِرآةِ ـ أكثرَ ما تنظر ـ إلَّا ابتغاءَ أنْ تتعهَّدَ من جمالِها ومن جسمِها مواقعَ نظراتِ الفُجورِ وأسبابَ الفتنة، وما يَسْتَهْوي[2] الرجلَ وما يُفسِدُ العِفَّةَ عليه؛ فكأنَّ الساقطةَ وخيالَها في المرآة، رجلٌ فاسقٌ ينظرُ إلى امرأةٍ، لا امرأةٌ تنظرُ إلى نفسِها...»

* * *

ذهبْتُ أفكرُ في هذه الكلمةِ التي كتَبْتُها قبلَ ساعة، ولم أستطِعْ أنْ ألمِسَ في هذه القضيةِ وجهَ القاضي؛ فدخَلَتْني رِقةٌ شديدةٌ لِهذا الجمالِ الفاتنِ، الذي أراهُ يبتسمُ وحولَهُ الأقدارُ العابسة؛ ويلهو وبينَ يديه أيامُ الدموع؛ ويجتهدُ في اجتذابِ الرجالِ والشبَّانِ إلى نفسهِ، والوقتُ آتٍ بالرجالِ والشبَّانِ الذين سيجتهدون في طَردِهِ عن أنفسِهم.

وتَغَشَّاني الحزنُ[3]، ورأتْ هي ذلك وعرفَتْه؛ فأخرجَتْ مِنديلَها المعطَّرَ ومسحَتْ وجهَها بِه، ثم هزَّتْهُ في الهواء، فإذا الهواءُ منديلٌ معطَّرٌ آخرُ مَسَحَتْ بِهِ وجهي...

وقال الأستاذ (ح): آه مَن العِطر! إنّ منه نوعاً لا أسْتَنشِيهِ[4] مرةً إلَّا ردَّني إلى حيثُ كنتُ من عشرينَ سنةً خَلَتْ، كأنَّما هو مُسَجَّلٌ بزمانهِ ومكانهِ في دماغي...

---

(١) المحصنات من النساء: الزوجات المصونات العفيفات.
(٢) يستهوي: يستميل.
(٣) تغشاني الحزن: ملأ كياني وأحاسسي.
(٤) أستنشيه: أتنشَّقه.

فضحكَتْ هي وقالَتْ: إنَّ عِطْرَنا نحن النساءَ ليسَ عِطراً بل هو شُعورٌ نُثبتُهُ في شعورٍ آخر. . .

فقلْتُ أنا: لا ريبَ أنَّ لهذه الحقيقةِ الجميلة وجهاً غيرَ هذا. قالت: وما هو؟

قلْت: إن المرأةَ المعَطَّرةَ المتزينةَ، هي امرأةٌ مُسَلَّحَةٌ بأسلحتِها. أفي ذلك ريب؟ قالَت: لا.

قلْت: فلماذا لا يُسمَّى هذا العِطرُ بالغازاتِ الخانقةِ الغَرامية. . .؟

فضحكَتْ فُنوناً؛ ثم قالت: وتسمَّى (البودرة) بالديناميت الغرامي.

ونقلني ذلك إلى نفسي مرةً أخرى، فأطرقْتُ إطراقةً؛ فقالَت: ما بك؟ قلْت: بي كلمةُ الأستاذ (ح)، إنها ألهبَتْ في قلبي جَمرةً كانَتْ خامدة.

قالَت: أوْ حَرَّكَتْ نقطةَ عِطْرٍ كانَتْ ساكنة. . .!

فقلْت: إنَّ الحُبَّ يضعُ روحانيتَهُ في كلِّ أشيائهِ، وهو يُغيرُ الحالةَ النفسيةَ لِلإنسان، فتتغيرُ بذلك الحالةُ لِلأشياءِ في وَهْم المحبّ. (فعِطرُ كذا) مثلاً. . . هو نوعٌ شَذيٌّ مِنَ العِطر، طيِّبُ الشَّميم، عاصِفُ النَّشوة، حادُّ الرائحة؛ لكأنَّهُ يَنْشُرُ فِي الجوِّ رَوضةً قد مُلئَتْ بأزهارِهِ تُشَمُّ ولا تُرى؟ وإنَّهُ لَيجعلُ الزمنَ نفسَهُ عَبِقاً بريحهِ، وإنَّهُ لَيُفْعِمُ كلَّ ما حولَهُ طِيباً، وإنه لَيسحَرُ النفسَ فيتحوَّلُ فيها. . .

وهنا ضحكَتْ وقطعَتْ عليّ الكلامَ قائلة: يظهرُ لي أنَّ (عِطَر كذا) هاجِرٌ أو مخاصِم. . .

قلْتُ: كلا، بلْ خرجَ مِنَ الدنيا وما انْتَشَقْتُ أرَجَهُ[1] مرةً إلَّا حسِبْتُهُ ينَفَحُ مِنَ الجنة.

فما أسرعَ ما تلاشَى من وجهِها الضحِكُ وهيئتُه، وجاءَتْ دمعةٌ وهيئتُها. ولَمحْتُ في وجهِها معنًى بكيْتُ له بكاءَ قلبي.

جمالُها، فِتنتُها، سحرُها، حديثُها، لهوُها؛ آه حينَ لا يبقَى لهذا كلِّهِ عَينٌ ولا أثر، آه حينَ لا يبقَى من هذا كلِّهِ إلَّا ذُنوبٌ، وذنوبٌ، وذُنوب!

* * *

وأردْنَا أنا و(ح) بكلامِنا عنِ الحبِّ وما إليه، ألا نُوحِشَها[2] مِنْ إنسانيتِنا، وأنْ

---

(١) انتشقت أرجه: تنشّقت عطره. (٢) نوحشها: نخيفها.

نَبُلَ شوقَها إلى ما حُرِمَتْهُ من قَدرِها قدرَ إنسانةٍ فيما نَتَعاطَاهُ بيننا. والمرأةُ من هذا النوعِ إذا طَمِعَتْ فيما هو أغلى عندَها مِنَ الذهبِ والجوهرِ والمتاع ـ طمِعَتْ في الاحترام من رجلٍ شريفٍ متعفِّف، ولو احترامَ نظرةٍ، أو كلمة. تقْنعُ بأقلِّ ذلك وترضَى بِه؛ فالقليلُ مِمَّا لا يدرَكُ قليلُه، هو عندَ النفسِ أكثرُ مِنَ الكثيرِ الذي يُنالُ كثيرُه.

ومثل هذه المرأة، لا تَدري أنت: أطافَتْ بالذَّنبِ أمْ طافَ الذنبُ بها؟ فاحترامُها عِندنا ليسَ احتراماً بمعناه، وإنَّما هو كالوُجُومِ أمامَ المصيبةِ في لحظةٍ من لحظَاتِ رَهْبَةِ القدَرِ وخُشوعِ الإيمان.

وليَستِ امرأةٌ من هؤلاء إلَّا وفي نفسِها التندُّمُ والحسرةُ واللهفةُ مِمَّا هي فيه، وهذا هو جانبُهنَّ الإنسانيُّ الذي يُنظَرُ إليهِ مِنَ النفسِ الرقيقةِ بلهفةٍ أخرى، وحسرةٍ أخرى، وندم آخر. كم يَرحمُ الإنسانُ تلكَ الزوجةَ الكارهةَ المرغَمَةَ. على أن تُعاشِرَ مَنْ تكرهُه، فلا يزالُ يَغلي دمُها بوَساوِسَ وآلامٍ مِنَ البغضِ لا تنقطع! وكم يَرثي الإنسانُ لِلزوجةِ الغيور، يغلِي دمُها أيضاً ولكنْ بوَساوِسَ وآلامٍ مِنَ الحبِّ! ألا فاعلمْ أنَّ كلَّ مَنْ مثلِ هذه الحسناءِ تحملُ على قلبها مثلَ همِّ مائةِ زوجةٍ كارهةٍ مرغَمةٍ مستعبَدَة، يُخالِطُهُ مثلُ همِّ مائةِ زوجةٍ غيورٍ مكابِدةٍ منافسةٍ؛ ولقد تكونُ المرأةُ منهُنَّ في العشرينَ من سنِّها وهي مِمَّا يُكَابِدُ[1] قلبُها في السبعينَ من عُمرِ قلبِها أو أكثر.

وهذه التي جاءتْنَا إنَّما جاءَتَنا في ساعةٍ مِنَّا نحن لا منها هي، ولم تكُنْ مَعنا لا في زمانِها ولا في مكانِها ولا في أسبابِها، وقد فتحَتِ البابَ الذي كانَ مُغلقاً في قلبِها على الخفَرِ[2] والحياء، وحوَّلَتْ جمالَها من جمالٍ طابَعُهُ الرذيلةُ، إلى جمالٍ طابعُهُ الفنّ، وأشعَرتْ أفراحَها التي اعتادَتْها رُوحَ الحزنِ من أجلِنا، فأدخلتْ بذلك على أحزانِها التي اعتادَتْها رُوحَ الفرَحِ بنا.

مَنْ ذا الذي يعرفُ أنَّ أدبَهُ يكونُ إحساناً على نفسٍ مثلِ هذه ثم لا يُحسِنُ بِه؟

* * *

تَتجدَّدُ الحياةُ متى وَجَد المرءُ حالةً نفسيةً تكونُ جديدةً في سرورِها. وهذه المرأةُ المسكينةُ لا يَعنيها مِنَ الرجلِ مَنْ هو؟ ولكن كَم هو... لم ترَ فينا نحن الرجلَ الذي هو «كم»، بل الذي هو «مَن». وقد كانَتْ من نفسِها الأولى على بُعدٍ قصيٍّ كالذي يمدُّ

---

(١) يكابد: يعاني.　　(٢) الخفر: الحياء.

يدَه في بئرٍ عميقةٍ لِيتناولَ شيئاً قد سقطَ منه؛ فلمَّا جلسَتْ إلينا، اتصلَتْ بتلك النفسِ من قُرْب؛ إذ وجَدتْ في زمنِها الساعةَ التي تصلحُ جِسْراً على الزمن.

قال الراوي:

كذلك رأيْتُها جديدةً بعدَ قليل، فقلْتُ للأستاذ (ح): أما ترى ما أراه؟

قال: وماذا ترى؟ فأومَأتُ إليها وقلْت: هذه التي جاءَتْ من هذه. إنَّ قلبَها يَنشُرُ الآنَ حولَها نوراً كالمِصباحِ إذا أُضيء، وأراها كالزهرةِ التي تفتَّحَتْ؛ هي هي التي كانت، ولكنَّها بغير ما كانت.

فقالَتْ هي: إني أحسبُك تُحبُّني؛ بلْ أراك تُحبُّني؛ بل أنت تُحبُّني... لم يخْفَ عليّ منذُ رأيْتُكَ ورأيْتَني.

قلْتُ هَبيه[1]: صحيحاً، فكيف عرفْتِهِ ولم أُصانِعْكِ، ولم أتملَّقْ لك، ولم أزدْ على أن أَجيءَ إلى هنا لأكتب؟

قالَت: عرَفتُهُ من أنَّكَ لم تُصانعني، ولم تتملقْ لي[2]، ولم تزدْ على أنْ تَجيءَ إلى هنا لِتكتب...

قلْتُ: ويحكِ، لو كُحلَتْ عينُ (المكرسكوب) لَكانَتْ عينَك. وضحكْنا جميعاً؛ ثم أقبلْتُ على الأستاذِ (ح) فقلْتُ له: إنَّ القضايا إذا كَثُرَ وُرودُها على القاضي جَعلَتْ لَهُ عيناً باحثة.

* * *

قال الراوي:

وأنظرُ إليها، فإذا وجهُها القمريُّ الأزهرُ قد شَرِقَ لونُه، وظَهر فيهِ مِنَ الحياءِ ما يظهرُ مثلُه على وجه العذراءِ المخدَّرةِ[3] إذا أنتَ مَسسْتَها بريبةٍ[4]؛ فما شككْتُ أنَّها الساعةَ امرأةٌ جديدةٌ قد اصطلحَ وجهُها وحيَاؤُها، وهما أبداً متعادِيانِ في كلِّ امرأةٍ مكشوفَةِ العِفَّة...

وذهبْتُ أستَدْرِكُ وأتأوَّل، فقلْتُ لها: ما ذلك أردْتُ، ولا حَدَسْتُ[5] على

---

(١) هبيه: افترضيه. (٢) تتملّق لي: تحاول التقرّب مني.

(٣) العذراء المخدّرة: المصونة في بيتها بين أهلها وحماتها.

(٤) الريبة: الأمر الذي يحمل على الشكّ بمسلكها.

(٥) حدست: ظننت مستقبلاً.

هذا الظنّ، وإنَّما أنا مُشفِقٌ عليكِ متألمٌ بك، وهل يعْرُضُ لكِ إلَّا الطبقةُ النظيفة... مِنَ المُجْرمينَ والخُبَثاءِ وأهلِ الشرّ؛ أُولئك الذين أعالِيهم في دُورِ الخلاعةِ والمسارح، وأسافِلُهم في دُورِ القَضاءِ والسجون؟

فقالَتْ: أعترِفْ بأنَّكَ لم تُحسِنْ قَلْبَ الثوب، فظهَر لِكلِّ عينٍ أنَّهُ مقلوب؛ لكنَّك تُحبُّني... وهذا كافٍ أن ينهَض منه عُذْر!

قال الأستاذ (ح): إنَّه يحبُكِ، ولكن أتعرفينَ كيف حبُّه؟ هذا بابٌ يضعُ عليه دائماً عِدَّةَ مِنَ الأقفال.

قالَتْ: فما أيسَرَ أنْ تجدَ المرأةُ عِدةً مِنَ المفاتيح...

قال: ولكنَّهُ عاشقٌ يُنيرُ العِشْقُ بينَ يديه؛ فكأنَّهُ هو وحبيبتُهُ تحتَ أعينِ الناس: ما تطمعُ إلَّا أنْ تراه، وما يطمعُ إلَّا أنْ يراها، ولا شيءَ غيرُ ذلك؛ ثم لا يزالُ حسْنُها عليه ولا يزالُ هواهُ إليها، وليسَ إلَّا هذا.

قالت: إن هذا لَعجيب.

قال: والذي هو أعجبُ أنْ ليسَ في حبِّهِ شيءٌ نهائيّ، فلا هَجْرٌ ولا وصلٌ؛ ينساكِ بعدَ ساعةٍ، ولكنكِ أبداً باقيةٌ بكلِّ جمالِك في نفسِه. والصغائرُ التي تُبكي الناسَ وتَتَلذّعُ[1] في قلوبهم كالنارِ لِيجعلوها كبيرةً في همِّهم ويطفئوها وينتهوا منها ككلِّ شهواتِ الحُبِّ - تبكيهِ هو أيضاً وتَعْتَلِجُ في قلبهِ[2]، ولكنَّها تظلُّ عندهُ صغائرَ ولا يعرفُها إلَّا صغائر؛ وهذا هو تَجَبُّرُهُ على جَبَّارِ الحُبّ.

* * *

قال الراوي:

ونظرْتُ إليها ونظَرَتْ، وعاتَبَتْ نفسٌ نفساً في أعيُنِهما، وسأَلتِ السائلةُ وأجابَتِ المُجِيبة، ولكنْ ماذا قلْتُ لها وماذا قالت؟...

(١) تتلذّع: تحترق.

(٢) تعتلج في قلبه: تحرّك مشاعره وتجعله يضطرب.

الجمالُ البائس

٣

قال الراوي:

نظرْتُ إليها ونظرَتْ: أمَّا هي، فَرَنتْ[١] إليّ في سُكُون، وكانَتْ نظرتُها مُعَاتَبَةً طويلةَ التملُّقِ والتوجُّع، وفيها الانكِسارُ والفُتور، وفيها الاسترخاءُ والدلال.

وبَينَا كانَ طَرْفُها[٢] ساجِياً[٣] فاتراً كأنَّهُ ينظرُ أحلامَه، إذْ حدَّدَتْهُ إليَّ فجأةً ونظَرَتْ نظرةَ مَذْهوش، فبَدَتْ عيناها فَزِعَتينِ ولكنْ في وجهٍ مطمئنّ.

ثم لم تكدْ تفعلُ حتى ضيَّقَتْ أجفانَها وحدَّقَتِ النظرَ مُتلألِئاً بمعانيه، فبدَتْ عيناها ضاحكتينِ ولكنْ في وجهٍ متألم.

ثمَّ ٱبتسمَتْ بوجهِهاوعينيها معاً، وأتمَّتْ بذلك أجملَ أساليبِ المرأةِ الجميلةِ المحبوبةِ في ٱعتراضِها على مَنْ تُحبُّه، وجدالِها معَ فكرِه، وكَسْرِ حُجَّتِهِ في كِبريائِه، وٱنتزاعِ الفكرةِ المستقلّةِ من نفسِه.

وأمَّا أنا؛ فكانَ نظري إليها ساكناً متألِّماً يُقِرُّ أنَّهُ عَجَزَ عن جوابِ عينيها وسيبقَى عاجزاً عن جوابِ عينيها...

إنَّ وجهَها هوَ الابتسامُ ورُوحُ الابتسام، وجسمَها هوَ الإغراءُ وروحُ الإغراء، وفنَّها هو الفتنةُ ورُوحُ الفتنة؛ وهي بهذا كلِّه، هي الحُبُّ وروحُ الحبّ؛ غيرَ أنَّ فهْمَها على حقيقتِها في الناسِ يجعلُ ٱبتسامَها عَداوةً من وجهِها، وإغراءَها جرميةً لِجسمِها، وفنَّها رذيلةً في جمالِها؛ وهي بهذا كلِّه، هي الشقاءُ ورُوحُ الشقاء.

* * *

أمَّا أنِّي أُحبُّ فنَعمْ ونِعِمَّا، بل أراه حبًّا فالقاً كَبدي، وليسَ يخلو فؤادي

---

(١) رنت: نظرت.

(٢) طرْفها: نظرها. (٣) ساجياً: ساكناً.

أبداً من سَوالِف[1] حُبٍّ مضى؛ وأما أنّي أسترْذِلُ في الحبِّ وأمتهِنُ فضيلتي وأنزلُ بها، فلا وأبداً.

إنَّ ذلك الحُبَّ هو عندي عملٌ فنّيٌّ من أعمالِ النفس، ولكنَّ الفضيلةَ هي النفسُ ذاتُها؛ الحُبُّ أيامٌ جميلةٌ عابرةٌ في زمني؛ أما الفضيلةُ فهي زمني كلُّه؛ وذلك الجمالُ هو قوةٌ من جاذبيةِ الأرضِ في مدَّتِها القصيرة، ولكنّ الفضيلةَ جاذبيةُ السماءِ في خُلودِها الأبدي.

على أنَّهُ لا مُنَافَرَةَ بينَ الحبِّ والفضيلةِ في رأيي، فإنَّ أقوى الحُبِّ وأملأَهُ بفلسفةِ الفَرَحِ والحزنِ، لا يكونُ إلّا في النفسِ الفاضلةِ المتورِّعةِ عن مُقَارَفَةِ الإثم. وهٰهنا يتحوَّلُ الحُبُّ إلى ملَكةٍ ساميةٍ في إدراك معاني الجمال، فيكونُ الوجهُ المعشوقُ مصدرَ وحيٍ لِلنفسِ العاشقة؛ وبهذا الوحي والاستمدادِ منه ينزلُ المحبُّ مِنَ المحبوبِ منزلةَ مَنْ يرتفعُ بالآدميَّةِ إلى الملائكة، ليتلقَّى النورَ منها فنًّا بعد فنّ، والفرحَ معنًى بعدَ معنًى، والحزنَ السماويَّ فضيلةً بعدَ فضيلة.

فهذا الحبُّ هو طريقةٌ نفسيَّةٌ لاتِّساعِ بعضِ العقولِ المهيَّأةِ لِلإلهام، كي تُحيطَ بأفراحِ الحياةِ وأحزانِها، فتُبْدِعَ[2] لِلدنيا صورةً من صُوَرِ التعبيرِ الجميلة التي تُثيرُ أشواقَ النفس؛ كأنَّ كلَّ محلٍّ وحبيبَتَهُ من هؤلاء الملهَمين، هما صورةٌ جديدةٌ من آدمَ وحواء، في حالةٍ جديدةٍ من معنى ترك الجنة، لإيجادِ الصورةِ الجديدةِ مِنَ الفرَحِ الأرضيّ والحزنِ السماويّ.

والخطَرُ في الحُبِّ ألَّا يكونَ فيهِ خَطَر... فهو حينئذٍ نِداءُ الجنس، لا يكونُ إلَّا دنيئاً ساقِطاً مبذولاً، فلا قيمةَ لَهُ ولا وحيَ فيه؛ إذْ يكونُ احتيالاً من عملِ الغريزةِ جاءَتْ فيهِ لابسةً ثوبَها النّورانيَّ من شوقِ الروح لِتخدعَ النفسَ الأخرى فيتَّصلَ بينَهما، حتى إذا اتّصَل بينهما خلعَتِ الغريزةُ هذا الثوبَ واستعلَنَتْ أنها الغريزةُ، فانحصرَ الحُبُّ في حيوانيتِه، وبطلَتْ أشواقُهُ الخياليةُ أجمع.

* * *

قال الراوي:

وعرفَتِ الحسناءُ هذا كلَّهُ من عَرْضِها نظرةً وتلقيّها نظرةً غيرَها، فقالَتْ لِلأستاذِ (ح): أمَّا أنْ يكونَ معَ أثرِ الشعرِ والفكرِ في الجمالِ ودعوى الحُبّ، أثرُ

---

(١) سوالف: مفرده سالف وهو الماضي. (٢) أبدع: خلق ما هو جميل.

الزهدِ في الجسمِ الجميلِ وأدّعاءُ الفضيلة ـ فإنّ بعيداً أنْ يجتمعا.

قال (ح): وأينَ تُبْعِدينَهُ ـ ويحكِ ـ عن هذهِ المنزلة؟ إنّي لأعرفُ مَن هو أعجبُ من هذا!

قالَت: وماذا بقيَ مِنَ العجبِ فتعرفَه؟

قال: أعرفُ متزوّجاً، أَحبّ أشدَّ الحبِّ وأمَضَّه، حتى أستهامَ وتدلَّه، فكانَ معَ هذا لا يكتبُ رسالةً إلى حبيبتِهِ حتى يستأذِنَ فيها زوجتَه، كيلا يعتديَ على شيءٍ من حقِّها. وزوجتُهُ كانَتْ أعرفَ بقلبِهِ وبحبِّ هذا القلب، وهي كانت أعلم أنَّ حبَّه وسُلوانَهُ إنَّما هما طريقتانِ في الأخذِ والتركِ بينَ قلبِهِ وبينَ المعاني، تارةً من سبيل المرأةِ وجَمالِها، وتارةً من سبيل الطبيعةِ ومحاسنِها. فتنهَّدَتْ وقالت: يا عَجباً! وفي الدنيا مثلُ هذا الزوجِ الطاهر، وفي الدنيا مثلُ هذه الزوجةِ الكريمة؟

ثم إنَّها وَجَمَتْ[1] هُنَيْهَةً تجتمعُ في نفسِها أجتماعَ السحابة، ثم أستَدْمَعَتْ[2]، ثم أرسلَتْ عينيها تبكي؛ فبدَرْتُ أنا أُرَفِّهُ عنها حتى كفكَفَتْ[3] من دمعِها، وكأنْ (ح) قد وخَزَها في قلبِها وخزةً أليمةً بذكرِهِ لها الزوجة، ثم الزوجةَ الطاهرة، ثمَّ الطاهرةَ حتى في وسوسة شيطانِ الغَيْره. أرتفعَ ثلاثَ مراتٍ بالزوجة، لِترى هذه المسكينةُ أنّها سافلةٌ ثلاثَ مرات؛ وكأنَّهُ بهذا لم يكلِّمْها، بل رَسَمَ لها صورتَها في عيشِها المُخزي وقال لها: أنظري....

* * *

ويا ما كانَ أجملَها يَترقرَقُ الدمعُ في عينيها الفاتنتينِ الكَحيلتين، فيبُثُّ منهما حزناً يُخيَّلُ لِمَنْ رآه، أنَّهُ من أجلِها سيُحزنُ الوجودَ كلَّه!

ليس البكاءُ من هاتينِ العينينِ بكاءً عندَ مَنْ يراه إذا كانَ مِنَ العاشقين، بل هو فنُّ الحزنِ يضعُ جمالاً جديداً في فنِّ الحُسن. وأكادُ أعجَبُ كيفَ وجَدَ الدمعُ مكاناً بينَ المعاني الضاحكةِ في وجهِها، لو لم يكنْ هذا الدمعُ قد جاءَ لِيظهِرَ على وجهِها الفنَّ الآخرَ من جمالِ المعاني الباكية.

* * *

وسألْتُها: ما الذي خامَرَ[4] قلبَكِ من كلامِ الأستاذ (ح) فأبكاكِ، وأنتِ كما أرى

---

(١) وجمت: سكتت.
(٢) استدمعت: أرسلت عبراتها باكية.
(٣) كفكف الدمع: أوقفه.
(٤) خامر: داخل.

يتألَّقُ النورُ على جدرانِ المكانِ الذي تَحلِين به، فيظهرُ المكانُ وكأنَّهُ يضحكُ لك؟

فَتَشَكَّكَتْ لحظةً ثم قالت: أبِكَ ما تقولُ أم أنت تتهكَّمُ بي[1]؟

قلْتُ: كيف يخطرُ لكِ هذا وأنا أحترمُ فيكِ ثلاثَ حقائق: الجمال، والحُبَّ، والألَم الإنسانيّ؟

قالَت: لا تَثْريبَ عليكَ[2] ولكنْ صَوِّرْ إليَّ ببلاغتِك كيف أحببْتُكَ وأنت غيرُ مُتَحبِّبٍ إليَّ، وكيف جادلْتُ نفسي فيك وداوَرْتُها، وكلَّما عزْمتُ انحلَّ عزمي؟ فهذا ما لا أكادُ أعرفُ كيف وقع، ولكنَّهُ وقع. هذه قطرةٌ مِنَ الماءِ الصافي العذْبِ، فَضعْ عليها (المكرسكوب) يا سيدي، وقل لي ماذا ترى؟

قلْتُ: إنَّك تُخرجينَ مِنَ السؤالِ سؤالاً. فما الذي خامَرَ قلبَكِ من كلامِ (ح) فبكيْتِ له؟

قالَتْ: إذن فليْسَتْ هي قطرةً مِنَ الماء، بل تلك دمعةٌ من دموعي، فَضَعْ عليها المكرسكوب يا سيدي.

قال الراوي:

وكانَتْ حزينةً كأنَّها لم تسكُتْ عن البكاءِ إلَّا بوجهِها، وبقِيَتْ روحُها تبكي في داخلِها. فأرادَ الأستاذ (ح) أنْ يستدركَ لِغلَطتِهِ الأولى فقال: إنَّكِ الآنَ تسألينَهُ حقًّا من حقوقِكَ عليه، فكلُّ امرأةٍ يُحبُّها هي عَروسُ قلمِهِ ولها على هذا القلم حقُّ النفَقَة...

فضحكَتْ نوعاً مِنَ الضحكِ الفاتر، كأنَّما ابتكَرَه ثغرُها الجميلُ لِساعةِ حزنِها؛ ونظَرَتْ إليَّ، فقلْت: إنْ كانَ الأمرُ من نفقةِ العروسِ على القلمِ فما أشبهَ هذا (بلا شيء) جُحا.

فضحِكَتْ أظرفَ من قبل، وخُيِّل إليَّ أنَّ ثغرَها انطبقَ بعدَ افترارِهِ على قُبلةٍ أفلَتَتْ منهُ فأمسكَها من آخرِها...

ثم قالت: ما هو (لا شيء) جُحا؟

قلْت: زعموا أن جُحا ذهَب يحتَطِبُ، وحملَ فوقَ ما يُطيق، فبهَظَهُ[3] الحِمْلُ وبلغَ بهِ المشَقَّة، ثم رأى في طريقِه رجلاً أبلهَ فاستعانَ به، فقال الرجل: كم تُعطيني إذا أنا حملْتُ عنك؟ قال: أعطيك (لا شيء). قال: رضيْت.

---

(١) تتهكَّم بي: تسخر مني.

(٢) لا تثريب عليك: لا عتب عليك. (٣) بهظه: أرهقه.

ثم حملَ الأبلهُ وٱنطلقَ مَعهُ حتى بلغَ الدار، فقال: أعطني أجري. قال جحا: لقد أخذْتَه. وٱختلفا: هذا يقول أعطني، وهذا يقول أخذْتَ؛ فلبَّبَهُ الرجلُ[1] ومضى يرفعُهُ إلى القاضي، وَكانَتْ بالقاضي لُوثَةٌ[2]، وعلى وجهِهِ رَوْءةُ الحُمق[3] تُخبرِكَ عنه قبلَ أنْ يُخبرِكَ عن نفسِه، فلمَّا سمعَ الدعوى قال لِجحا: أنت في الحبسِ أو تُعطِيَهُ (اللاشيء)...

قال جُحا في نفسِه: لقد ٱحتجْتُ لِعقلي بينَ هذينِ الأبلهين؛ ثم إنَّهُ أدخلَ يَدهُ في جيبهِ وأخرجَها مطبَقة، وقالَ لِلرجل: تقدَّمْ وٱفتحْ يدي. فتقدمَ وفتحَها. قال جُحا: ماذا فيها؟ قال الرجل: (لا شيء).

فقالَ لَهُ جُحا: خذْ (لا شيئَك) وٱمضِ فقدْ بَرِئَتْ ذمتي.

قالوا: فذهبَ الرجلُ يحتجُّ، فقالَ لَهُ القاضي: مَهْ! أنت أقررْتَ أنَّكَ رأيْتَ في يدِهِ (لا شيء)، وهو أجرُك فخذْهُ ولا تطمعْ في أنْ أزيدَ من حقِّك...!

* * *

وضحِكَتْ وضحِكْنا، ثم قالت: أنا راضيةٌ أنْ أكونَ عَروسَ القلم، فليُجْرِ عليّ القلمُ نفقتي، وليُصوِّرْ لي كيف أحبْبتُ، وكيف آمَرتُ نفسي وجادلْتُها؟

قلْتُ: لا أتكلمُ عنكِ أنتِ ولا أستطيعُه. بَيْدَ أنّني لو صنَّفتُ رواية يكونُ فيها هذا الموقفُ، لَوضعْتُ على لِسانِ العاشقةِ هذا الكلامَ تُحدِّثُ بِهِ نفسَها.

تقول: كيف كنْتُ وكيف صِرْتُ؟ لقد رأيْتُني أعاشرُ مائةَ رجلٍ فأخالطُهم في شتَّى أحوالِهم[4]، وأُصرفُهم في هوايَ، وكلُّهم يَجهدُ جُهدَه في ٱستمالتي، وكلُّهم أهلُ مودةٍ وبَذْل، وما منهم إلا جميلٌ مخلصٌ، قد أنِقَ وتجمَّلَ وراعَ حسنُه؛ كأنَّما هَرَبَ إليَّ في ثيابِ عُرسِهِ ليلةَ زِفافِهِ، وتركَ من أجلي عروساً تبكي وتَصيحُ بوَيلها. ثم أنا معَ ذلك مُغْلَقةُ القلبِ دونَهم جميعاً: أَصْدَقُهُمُ المودةَ والصحبة، وأكْذبُهمُ ٱلحُبَّ والهوى؛ فلسْتُ أُحبُّهم إلَّا بما أنالُ منهم، ولسْتُ أتحبَّبُ إليهم إلّا ما أُنوّلهم منّي، وهم بينَ عقلي وحيلتي رجالٌ لا عقولَ لهم، وأنا بيَن أهوائِهم وحَماقاتِهِمُ ٱمرأةٌ لا ذاتَ لها.

ثم أرى بغتةً رجلاً فَرداً أكادُ أنظرُ إليهِ وينظرُ إليَّ حتى يَضَعَ في قلبي مسألةً تحتاجُ إلى الحلّ...

---

(١) لبَّبه: أمسك بتلابيب ثوبه.

(٢) اللوثة: المسّ من الجنون والحمق.

(٣) روْءة الحمق: دلائله وعلاماته.

(٤) شتى أحوالهم: مختلف أوضاعهم.

وأرتاعُ[1] لِذلك فأُحاولُ تناسِيَهُ والإغضاءَ عنه، فتَلِجُ[2] المسألةُ في طلبِ حلّها، وتشغَلُ خاطري، وتتمدَّد في قلبي؛ وهو هو المسألة...

فأفزعُ لِذلك وأهتمُّ له، وأجهَدُ جهدي أنْ أكونَ مرةً حازمةً بصيرةً، كرجالِ المالِ في حقِّ الثروةِ عليهم؛ ومرةً قاسيةً عنيدةً، كرجالِ الحربِ في واجبِها عِندَهم؛ ومرةً خبيثةً مُنكرَة، كرجالِ السياسةِ في عملِها بهم؛ ولكنّي أرى المسألة تلينُ لي وتتشكّلُ معي وتحتملُ هذه الوجوَهَ كلَّها، لِتبقي حيثُ هي في قلبي؛ فإنَّهُ هو هو المسألة...

وأغتمُّ لِذلك غمّاً شديداً، وأراني سأسقُطُ بعَد سقوطي الأولِ وأقبحَ منه؛ إذِ الحياةُ عندنا قائمةٌ بالخِداع، وهذا يُفسِدُهُ الإخلاص؛ وبالمكْر، وهذا يُعطِّلُهُ الوَفاء؛ وبالنسيان، وهذا يُبطلُهُ الحُبُّ؛ وإذْ عواطِفُنا كلُّها متجرّدةٌ لِغرضٍ واحدٍ، هو كَسْبُ المالِ وجمعُهُ وٱدّخارُه؛ وفضيلتُنا عمليةٌ لا تَتخيَّل، حِسَابيّةٌ لا تختلُّ؛ فيستوي عندنا الرجلُ بلغَ جمالُهُ القمرَ في سمائِه، والرجلُ بلغَتْ دَمامتُهُ[3] الذبابَ في أقذارِه؛ والحُبُّ معنا هو: كما في كم ويبقَى ماذا... أوكما يقولُ أهلُ السياسة: هو «النقطةُ العمليةُ في المسألة». ولكنَّ المسألةَ التي في قلبي لا ترى هذا حلّاً لها؛ لأنَّهُ هو هو المسألة.

فيزيدُ بيَ ٱلكَرْبُ[4]، ويشتدُّ عليَّ ٱلبلاء، وأحتالُ لِقلبي وأُدبِّرُ في خَنقِه، وأذهبُ أُقْنعُهُ أنَّ الرجلَ إذا كانَ شريفاً لم يُحبَّ ٱلمرأةَ الساقطةَ، إذْ يُعابُ بِصُحبتِها وٱلاختلافِ إليها، فإذا كانَ ساقطاً لم تُحبَّهُ هي، فإنَّما هو صَيدُها وفَريستُها، وموضعُ نِقمتِها من هذا الجنس؛ وأُسْرِفُ على قلبي في ٱلملَامَةِ وٱلتعذيل فأقولُ له: ـ ويحكَ يا قلبي ـ! إنَّ ٱلمرأةَ مِنّا إذا تَفتَّحَ قلبُها لِحبيبٍ، تفتَّحَ كالجُرحِ لِينزفَ دِماءَهُ لا غير. فيقنعُ القلبُ ويُجمِعُ على أنْ ينسَى، وأنْ يَرجعَ عن طلبهِ الحبَّ؛ وأرى المسألةَ قد بطلَتْ وكانَ بُطلانُها أحسنَ حَلٍّ لها، وأنامُ وادعةً مطمئنة، فيأتي هو في نومي ويَدخلُ في قلبي، ويُعيدُ ٱلمسألةَ إلى وضعِها ٱلأول، فما أستيقظُ إلّا رأيْتُهُ هو هو المسألة...

فأتنَاهَى في ٱلخوفِ[5] على نفسي من هذا الحُبِّ، وأراهُ سجنَها وعقابَها، وقهرَها وإذلالَها، فأقولُ لها: ويلكِ يا نفسي! إنَّما همُّكِ في الحياةِ وَسائلُ الفَوْزِ والغلَب، فأنتِ بهذا عَدوَّةٌ مسماةٌ في غَفْلةِ الرجالِ صديقة، وقد وُضِعْتِ في موضعٍ تعيشينَ فيهِ بإهاناتٍ مِنَ الرجال، يسمونَها في نَذالتِهم بالحُبّ؛ فأنتِ عدوَّةُ الرجالِ

---

(1) أرتاع: أخاف.

(2) تلجّ: تلحّ.

(3) دمامته: بشاعته.

(4) الكرب: الحزن.

(5) أتناهى في الخوف: أصل إلى أقصى مداه.

بمعنًى مِنَ الدهاءِ والخُبث، وعدوَّةُ الزوجاتَ بمعنًى مِنَ الحِقدِ والضغينة، وعدوَّةُ البَغَايا أيضاً بمعنى مِنَ المغالبةِ والمنافسة، وكلُّ ما يستطيعُ الدَّهاءُ أنْ يعملَهُ فهو الذي عليَّ أنا أنْ أعملَه، فماذا أصنعَ وأنا أُحِبُّ؟ وكيفَ أنجحُ وأنا أُحِبُّ؟ ولكنَّ النفسَ تُجيبُني على كلِّ هذا بأنَّ هذا كلَّهُ بعيدٌ عن المسألة ما دامَ هو هو المسألة...

* * *

قال الراوي:

وكانَتْ كالذاهلة[1] مِمَّا سمِعَتْ، ثم قالَت: أَلكَ شيطانٌ في قلبي؟ فهذا كلُّهُ هو الذي حدث في سبعةِ أيام.

قال (ح): ولكنْ كيف يقَعُ هذا الحُبُّ؟ وهَبْكَ[2] صنَّفتَ تلك الرواية، ووضعْتَ على لِسانِ العاشقةِ ذلك الكلام، فبماذا كنْتَ تُنطقُها في وصفِ حُبِّها وما أجتذبَها من رجلٍ فازَ بقلبِها ولم يُداوِرْها، بعد مائةِ رجلٍ كلُّهم دَاوَرَها ولم يَفُزْ منهم أحد؟ أتكونُ في وجهِ هذا الرجلِ أنوارٌ كتَبَاشِيرِ الصبحِ تدلُّ على النهارِ الكامِنِ[3] فيه؟

قالَتْ هي: نعم نعم. بماذا كنْتَ تُنطقُها؟

قلْتُ: كنْتُ أضعُ في لِسانِها هذا الكلامَ تُجيبُ بهِ عاذلةً تَعْذُلُها[4]:

تقول: لا أدري كيف أحبَبْتُه، ولكنَّ هذه الشخصيةَ البارزةَ منه جذبتْني إليه، وجعلَتِ الهواءَ فيما بيني وبينَه مُفْعَماً[5] بالمغناطيسِ مَصْدَرُه، ومعناه هو، ولا شيءَ فيهِ إلا هو.

عَرضَتْه لي شخصيتُهُ ظاهراً لأنَّ جوابَ شخصيتِه فيَّ، وأصبحَ في عينيَّ كبيراً لأنَّ جوابَ شخصيتي فيه، ومن ذلك صارَتْ أفكاري نفسُها تزيدُهُ كلَّ يوم ظهوراً، وتزيدُني كلَّ يوم بَصَراً، وأعطاهُ حقَّهُ في الكمالِ عندي حقَّه في الحُبِّ مني؛ وبتلكَ الشخصيةِ التي جوابُها في نفسي، أصبحَ ضرورةً من ضروراتِ نفسي.

* * *

قال الراوي:

ولَمَّا رأيتُها في جوِّي كنسيمهِ وعاصفتِه، أرادْتُها على قصتِها وشأنِها، فماذا قلْتُ لها وماذا قالَت؟...

---

(١) الذاهلة: الوالهة المندهشة.

(٢) هبك: افترض.

(٣) الكامن: المختبىء.

(٤) عاذلة تعذلها: اللائمة تلومها.

(٥) مفعماً: مليئاً.

الجمالُ البائس

٤

قلْتُ لها: إنَّ قلبي وقلبَكَ يَتَجالَيَانِ[١] في هذه الساعةِ ويتباكَيَانِ؛ أتدريْنَ ماذا يقولُ لك قلبي؟

إنَّهُ لَيَقولُ عنّي: أَعْزِزْ عليَّ بأنْ تكوني هٰهنا، وأنْ تتألفَ منكِ هذه القصةُ التي تبَدَأُ بالوَصْمَةِ[٢] وتنتهي بالاستخذاء، فتنطلقُ ٱلمرأةُ في مَتَالِفها[٣] ومهاويها لِيبلُغَ بها ٱلقدرُ ما هو بالغ؛ وليسَ إلَّا الضرورةُ وسطوتُها بها، والإذلالُ وَمَهانتُهُ لها، وٱلاجتماعُ وتهكُّمُهُ عليها، والابتذالُ وٱستعبادُه إيَّاها؛ ومهما يأتِ في القصةِ من معنًى فليسَ فيها معنَى الشرف؛ ومهما يكنْ من مزيفٍ فليسَ فيها موقفُ الحياء؛ ومهما يَجْرِ من كلام فليسَ فيها كلمةُ الزوجة، وأَعْزِزْ عليَّ بأنْ أرى ٱلمِصباحَ ٱلجميلَ ٱلمشْبُوبَ[٤] الذي وُضعَ لِيُضيءَ ما حولَه، قدِ ٱنقلبَ فجعلَ يُحرِقُ ما حولَه؛ وكانَ يتلألأُ ويتوقَّد، فٱرتدَّ يتَسعَّرُ ويتضرّمُ ويَجْني ما يتصلُ بِه، وسقطَ بذلك سَقْطةَ حمراء. . . .

أفتدرينَ ماذا يقولُ لي قلبُك؟

إنَّهُ يقولُ عنك: يا بُؤْسَنا من نساء! لقد وُضِعْنا وَضعاً مقلوباً، فلا تَستقِيمُ الإنسانيةُ مَعنا أبداً، وكلُّ شيءٍ منقلبٌ لنا متنكِّر؛ والشفقةُ علينا تنقلبُ من تلقاءِ نفسِها تهكماً بنا؛ فنبكي من شفقةِ بعضِ الناس، كما نبكي مِن ٱزدراءِ بعضِ الناس. يا بؤسَنا من نساء!

* * *

(١) يتجاليان: يتكاشفان، كل منهما يوضح ويجلو وجهة نظره للآخر.

(٢) الوصمة: العلامة، الميسم.

(٣) متالفها: مهاويها، مهالكها.

(٤) المشبوب: المشتعل.

قالَتْ: صدقتَ، وكذلك تنقلبُ أسبابُ ٱلحياةِ مَعنا أسباباً لِلمرضِ والموت؛ فاليَقَظةُ ليسَ لها عندَنا النهارُ بلِ الليل، والصَّحْوُ لا يكونُ فينا بالوعْيِ بلْ بٱلسُّكر، وٱلراحةُ لا تكونُ لنا في السكونِ وٱلانفراد، بل في ٱلاجتماعِ وٱلتبذُّل؛ وماذا يرَدُّ على ٱمرأةٍ من واجباتِها السهرُ والسكْرُ والعَربدةُ، والتبذُّلُ، وتَدريبُ الطباعِ بالوَقاحة، وتَضْرِيَةُ النفسِ على الاستغواءِ، والتَصَدّي بالجمالِ لِلْكَسْبِ من رذائلِ الفُسَّاقِ وأمراضِهِم، والتعرُّضُ لِمعروفِهِم بأساليبَ آخرُها الهَوانُ[1] والمذَلَّة، وٱستِماحَتُهم[2] بأساليبَ[3] أولُها ٱلخِداعُ وٱلمكْر؟

إنَّ حياةً هذه هي واجباتُها، لا يكونُ ٱلبكاءُ وٱلهمُّ إلّا من طبيعة مَنْ يحياها، وكثيراً ما نُعالِجُ الضحِكَ لِنفتَحَ لأنفسِنا طُرُقاً تَتَهارَبُ فيها معاني البكاء؛ فإذا أثقلَنا ٱلهمُّ وجَلَّ عنِ ٱلضحكِ وعجزْنا عن تكلُّفِ ٱلسرور، خَتَلْنا ٱلعقلَ نفسَهُ بٱلخمر؛ فما تسكَرُ ٱلمرأةُ منّا لِلسكْرِ أوِ النَّشوة، بل لِلنسيان، ولِلقُدرةِ على المَرَحِ والضحِك، ولإمداد محاسنِها بالأخلاق الفاجرة، منَ الطَّيشِ والخلاعةِ والسَّفَهِ وهَذَيانِ ٱلجمالِ الذي هو شعرهُ ٱلبليغ... عندَ بُلَغاءِ الفُسَّاق.

قالَ الأستاذ (ح): أهذا وحاضرُ الغادةِ[4] منكُنَّ هوَ ٱلشبابُ والصِّبى والجمالُ وإقبالُ ٱلعيش، فكيف بها فيما تَسْتَقْبِل؟

قالَت: إنَّ ٱلمستقبلَ هو أخوفُ ما نخافُهُ على أنفسِنا، وليس مِنِ ٱمرأةٍ في هذه الصناعةِ إلَّا وهي مُعِدَّةٌ لِمستقبلِها: إمَّا نوعاً مِنَ ٱلانتحار، وإما ضَرْباً من ضُروبِ الاحتمالِ لِلذلِ والخَسْف[5]؛ وليسَ مستقبلُنا هذا كمستقبلِ الثمارِ النَّضِرةِ إذا بقيَتْ بعدَ أوانِها، فهوَ الأيامُ العَفِنَةُ بطبيعةِ ما مضى... بَلى إنَّ مستقبلَ ٱلمرأةِ البغيِّ هو عِقابُ ٱلشرّ.

* * *

قال (ح): هذا كلامٌ ينبغي أنْ تعلَمَهُ ٱلزوجات؛ فٱلمرأةُ منهنَّ قد تَتَبرَّمُ[6] بزوجِها وتضْجَرُ وتغتمُّ، وتزعمُ أنها مُعَذَّبة؛ فتَتَسخَّطُ الحياةَ، وتندُبُ نفسَها؛ ثم لا تعلَم أنَّهُ عذابٌ واحدٌ برجلٍ واحدٍ، تألفُهُ، فتعتادُه، فتُرزَقُ من اعتيادِهِ ٱلصبرَ عليه، فيسكنُ بهذا نِفَارُها؛ وتلك نعمةٌ واجبُها أنْ تحمدَ اللَّهَ عليها، ما دامَ في النساءِ مثلُ

---

(١) الهوان: المذلة.
(٢) استماحتهم: طلب المغفرة منهم.
(٣) أساليب: مفرده أسلوب وهو الطريقة.
(٤) الغادة: المرأة الجميلة.
(٥) الخسف: الذل والهوان.
(٦) تتبرّم: تتأفف.

الشَّهيدات، تتعذَّبُ الواحدةُ منهنَّ فُنوناً مِنَ العذابِ بمائةِ رجل، وبألفِ رجل، وهم مع ذلك يَبْتَلُونَ روحَها بعددهِم مِنَ الذنوبِ والآثام.

وقد تستثقِلُ الزوجةُ واجباتِها بينَ الزوجِ والنَّسلِ والدار، فتغتاظُ وتشكو من هذه الرَّجْرَجةِ اليوميةِ في الحياة؛ ثم لا تعلمُ أنَّ نساءَ غيرَها قد انقلَبَتْ بهنّ الحياةُ في مثلِ الخَسْفِ بالأرض.

وقد تجزعُ[1] لِلمستقبلِ وتَنسى أنَّها في أمانِ شَرفِها، ثم لا تعلمُ أنَّ نساءَ يَترقَّبْنَ[2] هذا الآتيَ كما يترقبُ المجرمُ غَدَ الجريمة، من يومٍ فيهِ الشُّرْطةُ والنيابةُ والمحكمةُ وما وراءَ هذا كلِّه.

فقلْتُ: وهناك حقيقةٌ أخرى فيها العَزاءُ كلُّ العزاءِ لِلزوجات، وهي أنَّ الزوجةَ امرأةٌ شاعرةٌ بوجودِ ذاتِها، والأخرى لا تشعرُ إلا بضياعِ ذاتِها.

والزوجةُ امَرأة تجدُ الأَشياءَ التي تتوزعُ حُجبَها وحنانَ قلبِها، فلا يزالُ قلبُها إنسانيًا على طبيعتِه، يفيضُ بالحُبِّ، ويستمدُّ مِنَ الحُبِّ؛ والأخرى لا تجدُ من هذا شيئاً، فتنقلبُ وحشيَّةَ القلب[3]، يفيضُ قلبُها برذائلَ، ويستمدُّ من رذائل؛ إِذْ كانَ لا يجدُ شيئاً مِمَّا هيأَتْهُ الطبيعةُ لِيتعلّقَ بِهِ مِنَ الزوجِ والدارِ والنَّسل.

والزوجةُ امرأةٌ هيَ امرأةٌ خالِصةُ الإنسانية، أمَّا الأخرى فمنِ امرأةٍ ومن حيوانٍ ومن مادةٍ مُهْلِكَة.

وتَمامُ السعادةِ أنَّ النسلَ لا يكونُ طبيعيًّا مستَقِرًّا في قانونهِ إلَّا لِلزوجاتِ وحدَهُنَّ؛ فهو نِعمتُهنَّ الكبرى، وثوابُ مستقبَلِنَّ وماضيهن، وبَرَكتُهُنَّ على الدنيا؛ ومهما تكنِ الزوجةُ شقيَّةً بزوجِها، فانَّ زوجَها قد أولدَها سعادتَها، وهذه وحدَها مزيةٌ ونعمة؛ أمَّا أولئك فليسَ لهنَّ عاقبة[4]؛ إذِ النسلُ قلْبٌ لِحالتهِنَّ كلِّها؛ وهو غنًى إنسانيٌّ، ولكنَّهُ عندهُنَّ لا يكونُ إلَّا فقْراً؛ وهو رحمة، ولكنّها لا تكوُن إلَّا لعنةً عليهن وعلى ماضيهن. وقد وضعَتِ الطبيعةُ في موضعِ حبِّ الولَدِ الجديدِ من قلوبِهن، حبَّ الرجلِ الجديد، فكانَتْ هذه نقمةً أُخرى.

قال (ح): أَتُريدُ مِنَ الرجلِ الجديدِ مَنْ يكونُ عندهنَ الثاني بعدَ الأول، أو الثالثَ بعدَ الثاني، أو الرابعَ بعدَ الثالث؟

---

(١) تجزع: تخاف.
(٢) يترقبن: ينتظرن.
(٣) تنقلب وحشية القلب: قاسية كوحش مفترس.
(٤) يقصد بالعاقبة النسل والولد.

قلْتُ: ليسَ ٱلجديدُ عليهِنَّ هو الواحدَ بعدَ الواحدِ إلى آخرِ العدد، ولكنَّهُ ٱلرجلُ الذي يكونُ وحدَهُ بٱلعددِ جميعاً؛ إذ هو عِندهُنَّ يُشبهُ الزوجَ في الاختصاصِ وفي شَرفِ الحُبّ، فهوَ ٱلحبيبُ الشريفُ الذي تتعلَّقُهُ إحداهُنَّ وتُريدُ أنْ تكونَ معه شريفة: ولكنْ من نقمةِ الطبيعةِ أنّ ممَنْ وجدتْهُ منهن لا تجْدُه إلَّا لِتُعانِيَ ألَمَ فقدِه.

يا عجباً! كلُّ شيءٍ في الحياةِ يُلقِي شيئاً مِنَ الهمِّ أوِ ٱلنكَدِ أوِ ٱلبؤسِ على هؤلاءِ ٱلمِسكينات، كأنَّ ٱلطبيعةَ كلَّها ترجمهُنَّ بالحجارة...

قالَتْ هي: وليسَتِ الحِجارةُ هي الحِجارةَ فقط، بل منها ألفاظٌ تُرجَمُ بها المسكينةُ كألفاظِكَ هذه... وكتسميةِ الناسِ لها «بالساقطةِ»؛ فهذه الكلمةُ وحدَها صخرةٌ لا حجر.

***

ثُمَّ تنهَدتْ وقَالتْ: مَن عَسى يعرفُ خَطَرَ الأُسْرةِ والنسلِ والفضيلةِ كما تعرفُها ٱلمرأةُ التي فقدَتْها؟ إنَّنا نُحِسُّها بطبيعةِ ٱلمرأة، ثم بالحنينِ إليها، ثم بالحسْرةِ على فقدِها، ثم برؤيتِها في غيرِنا؛ نعرفُها أربعةَ أنواعٍ مِنَ المعرفةِ إذا عرفتْها الزوجةُ نوعاً واحداً. ولكنْ هل يُنصِفُنا[1] الرجالُ وهم يَتَدافعُونَنا؟ هل يرضَوْنَ أنْ يتزوَّجوا منّا؟

قلْتُ: ولكنَّ ٱلأسرةَ لا تقومُ على سوادِ عيني ٱلمرأةِ وحُمرةِ خدَّيها، بل على أخلاقِها وطِباعِها؛ فهذا هوَ ٱلسببُ في بقاءِ ٱلمرأةِ الساقطةِ حيثُ ٱرتطمَت[2]؛ وهي متى سقطَتْ كانَ أولُ أعدائِها قانونَ النسل.

ومن ثَم كانَتِ ٱلزَّلَّةُ[3] الأولى ممتدةً مُتَسَحْبَةً إلى الآخر؛ إذِ ٱلفتاةُ ليسَتْ شخصاً إلا في ٱعتبارِها هي، أمَّا في ٱعتبارِ غيرِها فهي تاريخٌ لِلنسل، إنْ وقعَتْ فيه غلطةٌ فسدَ كلُّهُ وكذَبَ كلُّهُ فلا يُوثَقُ به.

وهذه الزَّلةُ الأولى هي بدءُ الإنهيارِ في طِباعٍ رقيقةٍ مُتَداخِلةٍ مُتَسانِدَةٍ، لا يُقيمُهما إلَّا تَماسُكُها جُملةً؛ وما لم يتماسَكْ إلا بجملتِهِ فأولُ السقوطِ فيهِ هو ٱستمرارُ السقوطِ فيه؛ ولِهذا لا يعرفُ الناسُ جريمةً واحدةً تُعدُّ سِلسلةَ جرائمَ لا تنتهي، إلَّا سقطةَ ٱلمرأة؛ فهي جريمةٌ مجنونةٌ كالإعصارِ الثائرِ يلُفها لفًّا؛ إذْ تتناولُ

(١) ينصفنا: يقرّ بحقوقنا بعدل.

(٢) ارتطمت: اصطدمت بالأرض. (٣) الزلّة: السقطة.

ٱلمرأةَ في ذاتِها، وترجعُ على أهلِها وذويها، وترعى إلى مستقبلِها ونَسلِها؛ فَيَهْتكُها ٱلناسُ هي وسائرَ أهلِها من جاءَتْ منهم ومَنْ جاءُوا منها.

وٱلمرأةُ التي لا يَحميها ٱلشرفُ لا يحميها شيء، وكلُّ شريفةٍ تعرفُ أنَّ لها حياتينِ إحداهما العِفَّة، وكما تُدافِعُ عن حياتِها ٱلهلاكَ، تُدافعُ ٱلسقوطَ عن عِفَّتِها؛ إذْ هو هلاكُ حقيقتِها الاجتماعية؛ وكلّ عاقلةٍ تعرفُ أنَّ لها عقلينِ تحتمِي بأحدِهما من نَزَواتِ الآخر، وما عقلُها الثاني إلَّا شَرَفُ عِرْضِها.

قال الأستاذ (ح): إن هذه هي الحقيقة، فما تَسَامَحَ ٱلرجالُ في شرفِ ٱلعِرْضِ إلَّا جعلوا ٱلمرأةَ كأنَّها بنصفِ عقلٍ فٱندفعتْ إلى الطيشِ والفُجورِ والخلاعة، أرادوا ذلك أم لم يُريدوه.

قلْتُ: وهذا هو معنى الحديث: «عِفُّوا[1] تَعِفَّ نساؤُكم». فإنَّ عَفافَ ٱلمرأةِ لا تحفظُهُ المرأةُ بنفسِها، ما لم تتهيَّأْ لها ٱلوسائلُ وٱلأحوالُ التي تُعينُ نفسَها على ذلك؛ وأهمُّ رسائِلها وأقواها وأعظمُها، تَشدُّدُ الرجالِ في قانونِ العِرْضِ وٱلشرف.

فإذا تَرَاخَى[2] ٱلرجالُ ضَعُفَتِ ٱلوسائل، ومن بين هذا التراخي وهذا الضعْفِ تنبثقُ حريةُ ٱلمرأةِ متوجِّهةً بالمرأةِ إلى الخير أوِ ٱلشرِّ، على ما تكونُ أحوالُها وأسبابُها في الحياة. وهذه الحريةُ في المدنيةِ الأوروبيةِ قد عوَّدَتِ ٱلرجالَ أنْ يُغْضوا ويَتَسمَّحوا، فتهافَتَ ٱلنساءُ عندَهم، تنالُ كلٌّ منهُنَّ حكْمَ قلبِها ويَخْضَعُ الرجل...

على أنَّ هذا الذي يُسميهِ القومُ حريَّةَ ٱلمرأةِ، ليسَ حريةً إلَّا في التسمية، أمَّا في المعنى فهو كما ترى:

إمَّا شُرودُ[3] ٱلمرأةِ في ٱلتماسِ الرزقِ حينَ لم تجدِ الزوجَ الذي يَعُولُها[4] أو يَكْفيها ويُقيمُ لها ما تحتاجُ إليه، فمثلُ هذه هي حُرةٌ حريةَ النكَدِ في عيشِها؛ وليسَ بها ٱلحريَّةُ، بل هي مستعبَدةٌ لِلعملِ شرَّ ما تُستعبَدُ ٱمرأة.

وإمَّا طلاقُ ٱلمرأةِ في عَبَثاتِها وشهواتِها مُستجيبةً، بذلك إلى ٱنطلاقِ حريَّةِ الاستمتاعِ في الرجال، بِمقدارِ ما يشتريهِ المال، أو تُعينُ عليهِ القوة، أو يَسَوِّغُهُ

---

(١) عفّوا: تساموا عن الوقوع في وهدة الرذيلة.

(٢) تراخى: ضعف.

(٣) الشرود: الخروج عن جادة الصواب في كل شيء.

(٤) يعولها: يقوم بمتطلّباتها من كل شيء.

الطيش، أو يجلُبُهُ ٱلتهتُّكُ، أو تدعو إليهِ الفُنون؛ فمثلُ هذه هي حرةٌ حريَّةَ سقوطِها؛ وما بها الحريَّة، بل يستعْبِدُها التمتُّع.

والثالثة حريةُ المرأةِ في أنسلاخِها مِنَ الدينِ وفضائِله، فإنَّ هذه المدنيَّةَ قد نسخَتْ حرامَ الأديانِ وحلالَها بحرام قانونيٍّ وحلال قانونيّ، فلا مَسْقَطةَ لِلمرأةِ ولا غَضاضةَ[1] عليها قانونياً.... فيماَ كان يُعَدُّ من قبلُ خِزْياً أقبحَ الخِزْي وعاراً أشدَّ العار؛ فمثلُ هذه هي حرةٌ حريةَ فسادِها، وليسَ بها الحريَّة، ولكنْ تستعبِدُها الفَوْضى.

والرابعةُ غَطْرَسةُ[2] ٱلمرأةِ ٱلمتعلمة، وكبرياؤُها على الأنوثةِ والذكورةِ معاً؛ فترى أنَّ الرجلَ لم يبلغْ بعدُ أنْ يكونَ الزوجَ الناعمَ كقفَّازِ الحريرِ في يدِها، ولا الزَّوجَ المؤنَّثَ الذي يقولُ لها نحن ٱمرأتان... فهي من أجلِ ذلك مُطْلَقةٌ مُخَلَّاةٌ كَيْلا يكونَ عليها سلطانٌ ولا إمْرة؛ فمثلُ هذه حرةٌ بِٱنقلابِ طبيعتِها وزيغِها، وهي مستعبدةٌ لِهوسِها وشذوذِها وضلالتِها.

حِريةُ ٱلمرأةِ في هذه المدنيةِ أوّلها ما شئْتَ من أوصافٍ وأسماء، ولكنَّ آخرَها دائماً إما ضيَاعُ ٱلمرأةِ وإمَّا فَسادُ ٱلمرأة.

والدليلُ على ٱلتِواءِ الطبيعةِ في المدنيَّة، ٱستواءُ الطبيعةِ في البادية؛ فالرجالُ هناك قَوَّامونَ على النساء، والنساءُ بهذا قوَّاماتٌ على أنفسهِنَّ؛ إذْ ينتقمون لِلمنكِرِ ٱنتقاماً يَفُورُ دماً؛ وبهذهِ الوحشيَّةِ يقرّرون شَرَفَ العِرْضِ في الطبيعةِ الإنسانية، ويجعلونَهُ فيها كٱلغريزة، فيُحَاجِزُون[3] بينَ الرجالِ والنساءِ أولَ شيءٍ بالضميرِ الشريفِ الذي يجدُ وسائلَهُ قائمةً من حولِه.

* * *

قال الراوي:

وغَطتْ وجهَها بيديها وقالَتْ: إنَّكَ لا تزالُ ترجمُ بِالحِجارة... إنَّ فيكَ متوحِّشاً.

قلْتُ بل متوحشة...

إنَّكِ أنتِ قد تكلمْتِ فيَّ، فجمالُك الذي يضعُ الإنسانَ في ساعةٍ مجنونةٍ

---

(١) غضاضة: حرج. (٢) غطرسة: تكبر وتعجرف.
(٣) يحاجزون: يضعون الحواجز للتفريق بين الرجال والنساء.

ليمتَعَهُ بطيشِها، قد وضَعَنا نحن في ساعةٍ مفكرةٍ وأمتَعَنا بعقلِها؛ وإذا قلْتُ جمالُك، فقد قلتُ وحيُك، إذْ لا جمالَ عندي إلا ما فيهِ وحي.

أمَا قلْتِ: إنَّكِ لو خُيِّرتِ في وجودِكِ لَمَا اخترْتِ إلَّا أن تكوني رجلاً نابغةً يكتبُ ويفكرُ ويتلقَّى الوحيَ مِنَ الوجوهِ الجميلة؟

فدقَّتْ صدرَها بيدِها وقالَت: أنا؟ أنا لم أقلْ هذا. ثم أفْكَرَتْ لحظةً وقالت: إذا كنْتَ أنت تزعمُ أنَّني قلته، فأظنُّ أنَّني قلْتُه...

قال (ح): رجل؛ ويكتب؛ ويفكر؛ ولم تقلْ هي شيئاً من هذا؟ أربعُ غلطاتٍ شنيعةٍ من فسادِ الذوق.

قالَت: بل قلْ أربعُ غلطاتٍ جميلةٍ من فنّ الذوق؛ إنَّ الرجلَ الظريفَ القويَ الرجولة، يجبُ عليهِ أنْ يغلطَ إذا حدَّثَ المرة...

قال (ح): لِتضحكَ منه؟

قالت: لا، بل لِتضحك له...

قلْتُ: فلي إليك رجاء.

قالت: إنَّ صوتَك يأمر، فقل.

* * *

فماذا قلْتُ لها وماذا قالت؟...

الجمالُ البائس

٥

قلْتُ لها: إنَّ كلمةَ الكفرِ لا تكونُ كافرةً إذا أُكْرِهَ عليها مَنْ أُكْرِهَ وقلبُهُ مطمئنٌ بٱلإيمان، وكلمةُ الفُجورِ أهونُ منها وأخفُّ وزناً وشأناً، ثم لا تكونُ إلَّا فاجرةً أبداً، إذْ لا إكراهَ على هذه الدَّعارةِ إكراهاً لا خِيارَ فيه. وما أولُ الدَّعارةِ إلَّا أنْ تمدَّ المرأةُ طَرْفَها من غيرِ حياء، كما يمدُّ اللصُّ يدَهُ من غيرِ أمانة.

ومَن ٱضطُرَّ إلى الكُفْرِ ٱستطَاعَ أنْ يخبأَ مِحْرابَ المسجدِ في أعماقِهِ فيصلِّيَ ثمة، ولكنَّ الفجورَ لا يتركُ في النفسِ موضِعاً لِدينٍ ولا إيمان؛ إذ هو دائبٌ[1] في إثارةِ الغرائزِ الطبيعيَّةِ الحيوانيَّةِ ٱلمسترْسِلةِ[2] بَلا ضابط، فيجعلُ المرأةَ تحيا بعيدةً عنِ ضميرِها، فيُضعِفُ منها أولَ ما يُضعفُ آثارَ الآداب والأخلاق، فيُهلكُ فيها أولَ ما يُهلكُ إحساسَها بمعنى ٱلمرأةِ الإنسانيَّةِ وشعورَها بمجدِ هذا المعنى.

فإذا ٱنتَهتِ ٱلمرأةُ إلى هذا، لم يكنْ لها مبدأٌ ولا عقيدةٌ إلَّا أنَّ على غيرِها أنْ يتحمَّلَ عواقبَ أعمالِها، وهذه بعينِها هي حالةُ المجنونِ جنونَ عقلِه؛ أفلا تكونُ ٱلمرأةُ حينئذٍ مجنونةً جنونَ جسمِها...؟

* * *

فساءَها ذلك وبانَ فيها، ولكنَّها أمسكتْ على ما في نفسِها؛ وٱلمرأةُ من هؤلاءِ لا يمشي أمرُها في الناسِ ولا يتَّصلُ عيشُها، إلَّا إذا كثُرتْ طِباعُها كثرةَ ثيابِها، فهي تخلَعُ وتلبسُ من هذه وتلك لِكلِّ يوم ولِكلِّ حالةٍ ولِكلِّ رجل؛ فينبعثُ منها ٱلغضبُ وهي في أنعم الرضى، كما ينبعثُ الرضى وهي في أشدِّ الغيظ، كأنْ لم تغضبْ ولم ترضَ لأنَّها ليسَتْ لأحدٍ ولا لِنفسِها.

---

(١) دائب: مستمّر.

(٢) المسترسلة: المستمرّة والغارقة في ذلك العمل.

وتُسايرُ غضبَها ثم قالت: كأنَّ كلامَك أنَّ لكَ رجاءً إلي، فأنا أحبُّ. . . . . . أحبُّ أنْ أعلم.

قلْتُ: وأنا كذلك أحبُّ أنْ أعلم.

فضحِكَتْ وسُرِّيَ عنها[1]، وثبَتَتْ على شفتيها ٱبتسامةٌ لوجاءَ مَلَكٌ منَ ٱلسماءِ لِيضعَ في ثغرِها ٱبتسامةً أجملَ منها، لَمَا وجدَ أجملَ منها.

ثم قالَتْ: تُحِبُّ أنْ تعلمَ ماذا؟

قلْتُ: أحبُّ أنْ أعلَم منكِ قصةَ هذه الحياةِ ما كانَ أولهُا؟

قالَتْ: لقد قضيْتَ من حكمِك فينا، ولكنَّكَ أخطأْت، فلِكلِّ ليلٍ مُظلم كوكَبُهُ؛ والكوكبُ الوقادُ المعلَّقُ فوقَ ليلِ ٱلمرأةِ منَّا هو إيمانُها؛ نعم إنَّهُ ليسَ كإيمانِ الناسِ في واجباتِهِ، لكنَّهُ كإيمانِ الناسِ في تعزيتِهِ، واللَّهُ ربُّنا وربُّكم!

قلْتُ: لو أُطيعُ اللَّهَ بمعصيتِهِ لٱستقامَ لكِ هذا: وإنَّما أنْ تصفي الإيمانَ الأولَ الذي كانَ عملاً، فصارَ ذكرى، فصارَتِ ٱلذكرى أملاً، فظنَنْتِ الأملَ هوَ الإيمان.

قالَتْ: ثم إنَّنا جميعاً مكْرَهَاتٌ على هذه الحياة، فما نحن إلَّا صرْعَى المصادَمةِ بينَ الإرادةِ الإنسانيةِ وبينَ القَدر.

قلْتُ: ولكن لم تهفُ واحدةٌ منكُنَّ في غلطتِها الأولى وهي مستكْرَهةٌ على غلطة؛ بل هي راغبةٌ في لذّة، أو مبادرةٌ لِشهوة، أو طالبةٌ لِمنفعة.

قالَتْ: هذا أحَدُ ٱلوجهين؛ أمَّا الآخرُ فٱلتماسُ الرزقِ وصلاحُ العيشِ؛ فالرجلُ معَ الرجلِ، رأسُ مالِهِ قوَّتُه، وعملُهُ بقوَّتِهِ؛ ولكنَّ ٱلمرأةَ معَ الرجلِ رأسُ مالِها أُنوثتُها، وعملُ أنوثتِها. وفي الوجْهِ الأول ـ وجهُ اللذةِ والمنفعة ـ تحتالُ كلمةُ الفُجورِ على ٱلمرأةِ بكلماتٍ رقيقةٍ ساحرة، منها ٱلحُبُّ والزواجُ والسعادة، فتستسْلمُ ٱلمرأةُ مضطرةً لِيقَعَ شيءٌ من هذا. وفي الوجْهِ الثاني ـ وجهِ ٱلرزقِ والعيش ـ تحتالُ الكلمةُ الخبيثةُ الفاجرةُ على ٱلمرأةِ ٱلمسكينةِ المستضعَفَةِ بكلماتٍ رهيبةٍ قاتلة، منها ٱلجوعُ والفقرُ وٱلشقاء، فتسقطُ المرأةُ مضطرةً خِيفةَ أنْ يقعَ شيءٌ من هذا؛ وفي أحدِ الوجهينِ يكونُ الرجلُ هوَ ٱلفاجرَ لِفسادِ آدابِه، وفي الوجهِ الآخرِ يكونُ الفاجرُ هوَ المجتمعَ لِفسادِ مبادئِه.

* * *

---

(١) سري عنها: انكشفت أساريرها تعبيراً عن سرورها.

قلْتُ: أنا لا أُنكرُ أنَّ ٱلمرأةَ إذا سقَطتْ في هذه المدنيَّة، لم تقعْ أبداً إلّا في موضعِ غلطةٍ من غلَطاتِ القوانين؛ وآفةُ هذه القوانينِ أنَّها لم تُسَنّ لِمنعِ الجريمةِ أنْ تقعَ، ولكنْ لِلعقابِ عليها بعَد وقوعِها؛ وبهذا عجَزتْ عن صِيانةِ ٱلمرأةِ وحِفظِها، وتركتْها لِقانونِ الغريزةِ الوحشيِّ في هؤلاءِ الوحوشِ الآدميين، الذين يأخذُهُمُ ٱلسُّعارُ من هذه الرائحةِ التي لا يعرفونها إلّا في ٱثنين: المرأةِ الجميلةِ والذهب. فما ألجأتِ المرأةَ حاجتُها أو فقرُها إلى أحدِهم ورأى عليها جمالاً، إلّا ضربَهُ ذلك السُّعار؛ فإنِ ٱستخفَّتْ بنزوَاتِهِ وتَعسرَتْ عليه، طردَها إلى الموت، ومنعَها أنْ تعيشَ من قِبَلِهِ؛ وإنْ صَلحَتْ له وتيسرَتْ، آواها هي وطَرد شرفَها...

وبخلافِ ذلك الدين؛ فإنَّهُ قائمٌ على منعِ الجريمة وإبطالِ أسبابِها، فهو في أمرِ ٱلمرأةِ يُلْزِمُ الرجلَ واجباتٍ، ويُلْزمُ المجتمعَ واجباتٍ غيرَها، ويُلزمُ الحكومةَ واجباتٍ أخرى:

أمَّا الرجلُ فينبغي له أنْ يتزوجَ، ويتحصَّنَ، ويغارَ على ٱلمرأة، ويعملَ لها؛ وأمَّا ٱلمجتمعُ فيجبُ عليهِ أنْ يتأدَّب، ويستقيم، ويُعينَ ٱلفردَ على واجباتِ ٱلفضيلة، ويَتَدَامَجَ[1] ويَشُدَّ بعضُهُ بعضاً؛ وأما ٱلحكومة فعليها أنْ تحمِيَ ٱلمرأة، فتُعاقبَ على إسقاطِها عِقَابَ ٱلموتِ وٱلألمِ وٱلتشهير؛ لِتقُيمَ مِنَ الثلاثةِ حُرَّاساً جبابرةً، مَنْ لا يَخْشَ اللَّهَ خَشِيها؛ فليسَ يُمكَنُ أبداً أن يكونَ في دينِنا موضعُ غلطةٍ تسقُطُ فيهِ ٱلمرأة.

قال الأستاذ (ح): صدقْتَ، فالحقيقةُ التي لامِرَاءَ فيها[2]، أنَّ فِكرةَ الفُجورِ فكرةٌ قانونيّة؛ وما دامَ القانونُ هو أباحَها بشروط، فهو هو الذي قرَّرَها في المجتمع بهذه الشروط؛ ومن هذا التقريرِ يُقْدِمُ عليها الرجلُ والمرأةُ كلاهما على ثقةٍ وٱطمئنان؛ ومن ثَمّ تأتي ٱلجُرْأةُ على ٱندفاعِ الناسِ إلى ما وراءِ حدودِ القانون، ومن هذا الاندفاعِ تأتي ٱلساقطةُ بآخِرِ معانيها وأقبحِ معانيها.

وتقريرُ سيادةِ المرأةِ في الإجتماعِ ٱلأوروبيّ، وتقديمِها على الرجال، والتأدبِ معها؛ كلُّ ذلك يجعلُ جراءةَ السفهاء عليها جراءةً متأدّبةً، حتى كأنّ المتحكِّكَ منهم في ٱمرأةٍ يقولُ لها: من فضلكِ كوني ساقطة... أمَّا هنا فجراءةُ السفهاءِ جراءةٌ ووقاحةٌ معاً، وذلك هو سرُّها.

---

(١) يتدامج: يمتزج.

(٢) لا مراء فيها: لا جدال فيها ولا شك.

القانونُ كأنَّما يقولُ لِلرجال: ٱحتالوا على رِضى النساء، فإنْ رَضِينَ الجريمةَ فلا جريمة؛ ومن هذا فكأنَّهُ يعلمُهم أنَّ بَراعةَ الرجلِ الفاسقِ إنَّما هي في الحيلةِ على ٱلمرأةِ وإيقاظِ الفِطرةِ في نفسِها، بأساليبَ مِنَ الملَقِ والرِّياءِ والمكْر، تتركُها عاجزةً لا تملكُ إلَّا أنْ تُذْعِنَ[1] وترضى؛ وبهذا ينصرفُ كلُّ فاجرٍ إلى إبداعِ هذه الأساليبِ التي تُطْلِقُ تلك الفطرةَ من حيَائِها، وتُخرجُها من عِفتِها، «تطبيقاً لِلقانون». . .

ولا سيادةَ في ٱجتماعِنا لِلمرأة، ولكنَّ ٱلقانونَ جعلَها سيدةَ نفسِها، وجعلَها فوقَ الآدابِ كلِّها، وفوقَ عقوبةِ القانونِ نفسِهِ إذا رَضِيَتْ؛ إذا رضِيَتْ ماذا. . .؟

* * *

قلْتُ: فإذا كانَ القانونُ هنا في مسألتِنا هذه يَعْدِلُ بِالظلم، ويَحمِي الفضيلةَ بإطلاقِ حريَّةِ الرذيلة؛ فهو إنَّما يُفسدُ الدين، ويَصرفُ الناسَ عن خوفِ ٱللَّهِ إلى خوفِ ما يخافُ مِنَ الحكومةِ وحدَها؛ وبهذا لا يكونُ عملُهُ إلَّا في تصحيحِ الظاهرِ مِنَ الرجلِ والمرأةِ، ويَدعُ الباطنَ يُسرُّ ما شاءَ من خُبثِهِ وحيلتهِ وفسادِه؛ فكأنَّهُ لَيسَ قانوناً إلَّا لِتنظيمِ النِّفاقِ وإحكامِ الخديعة؛ فلا جَرمَ[2] كانَ قانوناً لحالةِ الجريمةِ لا لِلجريمة نفسِها؛ فإذا أُخِذَتِ ٱلمرأةُ مُلاينةً ورِضًى فهذا فُجورٌ قانونيّ. . . وإنْ كانَتِ الملاينةُ هي عملَ الحِيلةِ والتدبير، وإنْ كانَ الرضى هو أثرَ الخِداعِ والمكْر، وإنْ ضاعَتِ ٱلمرأة وسقَطتْ، وذهَبَ شرفُها باطلاً، وألحقهُ الناسُ بما لا يكونُ من تَوبةِ إبليسَ فلا يكونُ أبداً. أمَّا إذا أُخِذَتِ ٱلمرأةُ مُكارَهَةً وغَصْباً، فهذه هي الجريمةُ في القانون؛ ويُسميها القانونُ جريمةَ ٱلاعتداءِ على العِرْض، وهي بأنْ تُسمَّى جريمةَ العجزِ عن إرضاءِ ٱلمرأة، أحقُّ وأولى.

على أنَّ المِسكينةَ لم تُؤخَذْ في الحالتين إلَّا غَصْباً، ولكنِ ٱختلفَتْ طريقةُ الرجلِ الغاصِب؛ فإنَّ كلتا الحالتينِ لم تتأدَّ[3] بالمرأةِ إلَّا إلى نتيجةٍ واحدة، هي أخراجُها من شرفِها، وحرمانُها حقوقَ إنسانيتِها في ٱلأسرة، وطردُها وراءَ حدودِ ٱلاعتبارِ الاجتماعيّ، وتركُها ثمةَ مُخَلَّاةً لِمجارِي أمورها، فلا يتيسَّرُ لها العيشُ إلَّا من مثلِ ٱلرجلِ الفاجر، فلا تكونُ لها بيئةٌ إلَّا من أمثالِهِ وأمثالِها، كما يجتمعُ في الموضعِ الواحدِ، أهلُ المصيرِ الواحدِ، على طريقةِ القطيعِ في المجزرة. . .

* * *

---

(١) تذعن: تخضع. (٢) لا جرم: لا شكَّ. (٣) تتأدّى: تصل وتؤدي.

فقالَتْ هي: الحقُّ أنَّ هذه الجريمةَ أولُها الحُبُّ؛ وهي لا تقعُ إلَّا من بينِ نَقيضَيْنِ يجتمعانِ في المرأةِ معاً: كِبَرُ حُبِّها إلى ما يفوتُ العقل، وصِغَرُ عقلِها إلى ما ينزلُ عنِ الحبّ. وٱلمرأةُ تَظلُّ هادئةً ساكِنةً رزينة، حتى تصادفَها اللِّحاظُ الناريةُ مِنَ العينِ المقدَّرةِ لها، فلا يكونُ إلَّا أنْ تملأَها ناراً ولَهَبا؛ ولْتكنِ ٱلمرأةُ مَنْ هي كائنةٌ، فإنَّها حينئذٍ كمستودَعِ البارود، يَهُولُ عِظَمُهُ وَكِبرُه، وهو لا شيءَ إذا ٱتصلَتْ بهِ تلكَ الشرارةُ المهاجِمة.

وليَستْ حِراسةُ ٱلمرأةِ شيئاً يُؤبَهُ بِهِ[1] أو يُعْتَدُّ به أو يُسمَّى حراسة، إلَّا إذا كانت كالتحفظِ على مستودَعِ البارودِ مِنَ النار؛ فيستوي في وسائِلها الخوفُ مِنَ ٱلشرارةِ ٱلصغيرة، وٱلفزَعُ مِنَ الحريقِ الأعظم؛ فيُحتَاطُ لا ثنيهما بوسائلَ واحدةٍ في قَدْرٍ واحدٍ وٱعتبارٍ واحد.

وإذا تُركَتِ ٱلمرأةُ لِنفسِها تحرسُها بعقلِها وأدبِها وفضلِها وحرِّيتِها، فقد تُرِكَ لِنفسِهِ مستودَعُ البارودِ تحرسُهُ جدرانُهُ الأربعةُ القويَّة...

والرجالُ يعلمونَ أنَّ لِلمرأةِ مَظاهرَ طبيعيَّةً، مِنَ الخُيَلاءِ والكِبرياءِ وٱلاعتدادِ بالنفسِ وٱلمُباهاةِ بالعِفَّة؛ لكنَّ هؤلاءِ الرجالَ أنفسَهم يعلمون كذلك، أنَّ هذا الظاهرَ مخلوقٌ معَ المرأةِ كجلْدِ جسمِها الناعم، وأنَّ تحتَهُ أشياءَ غيرَ هذه تعملُ عملَها وتصنعُ البارودَ النسائيَّ الذي سينفجر...

* * *

قلْتُ: إذا كان هذا فَقَبَّحَ اللَّهُ هذه الحريَّةَ التي يُرويدنَها لِلمرأة. هل تعيشُ ٱلمرأةُ إلَّا في ٱنتظارِ الكلمةِ التي تحكمُها بلطف، وفي ٱنتظارِ صاحبِ هذه الكلمة؟

قالَتْ: إنَّهُ هذا حقٌّ لا ريبَ فيه، وأوسعُ النساءِ حريةً أضيعُهنَّ في الناس؛ وهل كالمومِسِ[2] في حريَّتِها في نفسِها؟

ولكنْ يا شُؤْمَها على الدنيا! إنَّها هي بعينِها كما قلْتَ أنت: حريةُ المخلوقِ الذي يُتركُ حرًّا كالشَّريد، لِتُجرّبَ فيهِ الحياةُ تجاريبَها. وماذا في يدِ ٱلمرأةِ من حريَّةٍ هي حريَّةُ القدَرَ فيها؟

قلْتُ: ولِهذا لا أرجعُ عن رأيي أبداً: وهو أنَّهُ لا حريَّةَ لِلمرأةِ في أمَّةٍ منَ الأمم، إلَّا إذا شعَر كلُّ رجلٍ في هذه الأمَّةِ بكرامةِ كلِّ ٱمرأةٍ فيها، بحيثُ لو أُهينَتْ

---

(١) يؤبه به: يهتم بأمره.

(٢) المومس: المرأة العاهر الفاسدة.

واحدةٌ ثارَ ٱلكلُّ فٱستَقَادوا لها[1]، كأنَّ كراماتِ ٱلرجالِ أجمعينَ قد أُهينَتْ في هذه الواحدة؛ يومئِذٍ تُصبحُ ٱلمرأةُ حرةً، لا بحرّيّتها هي، ولكنْ بأنها محروسةٌ بملايينَ مِنَ الرجال. . .

فضحِكَتْ وقالت: (يومئذٍ)! هذا ٱسمُ زمانٍ أوِ ٱسمُ مكان. . .؟

* * *

قال الأستاذ (ح): ولكنا أبعدْنا عن قصةِ هذه الحياة، ما كانَ أولها؟ قالَتْ: إنَّ الشبانَ وآلرجالَ عِلْمٌ يجبُ أنْ تعلَمهُ ٱلفتاةُ قبلَ أوانِ الحاجةِ إليه؛ ويجبُ أنْ يَقرَّ في ذِهْنِ كلِّ فتاة، أنَّ هذه الدنيا ليسَتْ كالدار فيها الحُبُّ، ولا كالمدرسةِ فيها الصداقة، ولا كالمحلِّ الذي تبتاعُ منه مِنْديلاً مِنَ الحَريرِ أو زُجاجةً مِنَ العِطْر، فيه إكرامُها وخدمتُها.

وأساسُ الفضيلةِ في الأنوثةِ الحياء؛ فيجبُ أنْ تعلَمَ الفتاةُ أنَّ الأنثى متى خرجَتْ من حيائِها وتهجَّمَتْ، أي توقَّحَتْ، أي تبذَّلَتْ، اسَتَوى عندَها أنْ تذهبَ يميناً أو تذهبَ شِمالاً، وتهيأتْ لكلِّ منهما ولأيِّهما ٱتَّفق: وصاحباتُ اليمينِ في كنَفِ[2] الزوجِ وظلِّ الأسرةِ وشرفِ الحياة، وصاحباتُ الشِّمالِ ما صاحباتُ الشِّمال. . . !

قلْتُ: هذا هذا؛ إنَّهُ ٱلحياءُ، الحياءُ لا غيرُه؛ فهلْ هو إلَّا وسيلةٌ أعانَتِ ٱلطبيعةُ بها ٱلمرأةَ لِتسموَ[3] على غريزتِها متى وجَبَ أنْ تسموَ، فلا تلقَى رجلاً إلَّا وفي دَمِها حارسٌ لا يَغفُل. وهلْ هو إلَّا سَلَبٌ جمَعَتْهُ الطبيعةُ إلى ذلك الإيجابِ الذي لوِ ٱنطلقَ وحَدهُ في نفسِ ٱلمرأةِ لٱندفعَتْ في التبرُّجِ والإغراء، وَعَرْضِ أسرارِ أنوثتِها في المعرضِ العامّ. . .؟

قالَتْ: ذاك أردْتُ، فكلُّ ما تراهُ من أساليبِ التجميلِ والزينةِ على وجوهِ الفَتَياتِ وأجسامِهنَّ في الطرق، فلا تَعُدَّنَّهُ من فَرْطِ ٱلجمال[4]، بل من قِلةِ الحياء.

وٱعلمْ أنَّ المرأةَ لا تخضعُ حقَّ الخضوعِ في نفسِها إلَّا لِشيئين: حيائِها وغريزتِها.

قلْتُ: يا عجبًا! هذا أدقُّ تفسيرٍ لِقولِ تلكَ ٱلمرأةِ العربية: «تجوعُ ٱلحرَّةُ ولا تأكلُ بثَدييها». فإنِ ٱختضعَتِ ٱلمرأةُ لِلحياءِ كفَّتْ غريزتَها. . .

---

(١) استقادوا لها: أخذوا بثأرها، والقود معناه الثأر.

(٢) كنف: حفظ وصيانة وحماية.

(٣) تسمو: ترتفع.

(٤) فرط الجمال: كثرته.

قالت: . . . وجعلَها الحياءُ صادقةً في نفسِها وفي ضميرِها، فكانَتْ هي ٱلمرأةَ الحقيقةَ الجديرةَ بٱلزوجِ والنسلِ وتوريثِ الأخلاقِ الكريمةِ وحِفْظِها لِلإنسانية.

قلْتُ: ومن هذا يكونُ ٱلإسرافُ في ٱلأنوثةِ وٱلتبرُّجِ أمامَ الرجالِ كَذِباً من ضميرِ ٱلمرأة.

قالَتْ: ومن أخلاقِها أيضاً؛ ألا ترى أنَّ أشدَّ الإسرافِ في هذه الأنوثةِ وفي هذا التبرُّجِ لا يكونُ إلّا في ٱلمرأةِ العامَّة. . .؟

قلْتُ: والمرأةُ العامةُ ٱمرأةٌ تجاريَّةُ ٱلقلب. فكأنَّ المسرِفةَ في أنوثتِها وتبرُّجِها، هذه سبيلُها، فهي لا تُؤمَنُ على نفسِها.

قالَتْ: قد تُؤمَنُ على نفسِها، ولكنها أبداً مُومِسُ الفِكْرِ في الرجال، فيُوشِكُ ألّا تُؤمَنِ؛ وهي رَهْنٌ بأحوالِها وبما يقعُ لها، فقد يتقدَّمُ إليها الجريءُ وقد لا يتقدَّم، ولكنَّها بذلك كأنَّها مُعْلِنةٌ عن نفسِها أنَّها «مستعِدةٌ ألّا تُؤمَن». . .

قال (ح): لكنْ يقالُ إنَّ المرأة قد تتبرَّجُ وتتأنَّثُ لِترى نفسَها جميلةً فاتنة، فيُعجبُها حسنُها، فيَسرُّها إعجابُها.

قالَتْ: هذا كالقولِ إنَّ أستاذَ الرقصِ الذي رأيتَهُ هنا، ينظرُ إلى نفسِه كما ينظر رجلٌ إلى راقصةٍ تتأوَّدُ[1] وتهتزُّ وتَتَرَجْرَج. إنَّ هذا الرقَّاصَ فيهِ الحركةُ الفنِّيةُ كما هي حركةٌ ليسَ غير؛ فهو كالميزانِ أوِ ٱلقِياسِ أو أيِّ آلاتِ الضبط؛ أمَّا فتنةُ الحركةِ وسحرُها ومعناها مِنَ المرأةِ الفاتنةِ في وَهْمِ الرجلِ المفتونِ بها؛ فهذا كلُّهُ لا يكونُ منهُ شيءٌ في أستاذِ الرقص، وإنْ كانَ أستاذَ الرقص.

إنَّ أجملَ ٱمرأةٍ تَبصُقُ بفمِها على وجهِها في المرآة، إذا مُحِيَ الرجلُ من ذهنِها، أو لم يُطلَّ بعينيهِ من وراءِ عينَيها، أو لم تكنْ ممتلئةَ الحواسِّ بِه، أو بإعجابِه، أو بالرغبةِ في إعجابِه؛ فمهما يكنْ من جمالِ هذه فإنّها لا تَرى وجهَها حينئذٍ إلّا كالدنيا إذا خَلتْ مِنَ العدل. . .

* * *

قلْتُ: ولكنَّا أبعدْنا عن «قصة هذه الحياةِ ما كانَ أولُها!»

قالَتْ: سأفعلُ ذلك لِموضعِكَ عندي: إنَّ قصَّتي في الفصلِ الأولِ منها هي

(١) تتأوّد: تتمايل راقصة.

قصةُ جمالي؛ وفي الفصلِ الثاني هي قصةُ مرضِ العذراء؛ وفي الفصلِ الثالثِ هي قصةُ الغفلةِ والتهاوُنِ في الحِراسة؛ وفي الفصلِ الرابع هي قصةُ ٱنخداع الطبيعةِ النِّسويةِ المبنيةِ على الرقةِ وإيجادِ الحُبِّ وتلقيِّهِ والرغبةِ في تنويعِهِ أنواعاً لِلأهلِ والزوجِ والولد؛ ثم في الفصلِ الخامس هي قصةُ لُؤْمِ الرجل: كان محبًّا شريفاً يُقْسِمُ باللَّهِ جَهْدَ أيمانِه، فإذَا هو كَالمزوِّرِ وٱلمحتالِ وٱللصِّ وأمثالِهم ممن لا يُعْرَفونَ إِلَّا بعدَ وقوعِ الجريمة.

ثم سكَتتْ هُنَيهةً، فكانَ سكوتُها يُتِمُّ كلامَها...

وقال (ح): فما هو مَرَضُ العذراءِ الذي كانَ منهُ الفصلُ الثاني في الرواية؟

قالَت: كلُّ عذراءَ فهي مريضةٌ إلى أنْ تتزوج؛ فيجبُ أنْ يُعْلِمَها أهلُها أنَّ العِلاجَ قد يكونَ مسموماً؛ وينبغي أنْ يَحُوطوها[1] بقريبٍ مِنَ العِنايةِ التي يُحاطُ المريضُ بها، فلا يُجعَلُ ما حولَهُ إِلَّا ملائماً له، ويُمنَعُ أشياءَ وإنْ أحبَّها ورغِبَ فيها، ويُكْرَهُ على أشياءَ وإنْ عافَها وصدَفَ عنها.

قال (ح): فيكونُ القانونُ الاجتماعيُّ تصديقاً للقانونِ الدينيِّ من أنّ الذكورةَ هي في نفسِها عَداوةٌ لِلأنوثة، وأنَّ كلَّ رجلٍ ليسَ ذا رَحِمٍ مَحْرَمٍ[2] يجبُ أنْ يكونَ مرفوضاً إِلَّا في الحالةِ الواحدةِ المشروعةِ، وهي الزواج.

قالَتْ: فتكونُ المشكلةُ الاجتماعيةُ هي: مَنْ ذا يُرغِمُ الذكورةَ على هذه الحالةِ الواحدةِ المشروعةِ كيلا تضيعَ الأنوثة؟

قال: ولكنْ إذا كان سُقوطُ الفتاةِ هو جنايةَ «الزواجِ المزوَّر»، فما عسى أنْ يكونَ سقوطُ بعضِ المتزوجات؟

قالَتْ: هو جنايةُ «الزواج المنقَّح»... تُريدُ أنفسُهُنَّ الخبيثةُ تنقيحَ الزَّوج؛ والمومِسَاتُ أشرفُ منهُنَّ، إذْ لا يعتدينَ على حقٍّ ولا يَخُنَّ أمانة.

* * *

ورفَّ على وجهِها في هذه اللحظةِ شُعاعٌ مِنَ الشمسِ كانَ على جبينِها كَصفاءِ اللؤلؤ، ثم تحوَّلَ على خدِّها كإشراقِ الياقوت؛ ورأتْني أتأملُه، فقالَتْ: أنا مُنْتَشِيةٌ بحظِّي في هذه الساعات؛ وهذا الشعاعُ إِنَّما جاءَ يختِمُ نورَها.

---

(١) يحوطوها: يصونوها ويحفظوها بالرعاية والعناية.

(٢) المحرم هو من لا يحلّ للمرأة الزواج منه كالأخ والأب والعم والخال.

ثم كانَتِ السخريةُ العجيبةُ أنّها لم تتمَّ كلمةَ النورِ حتى جاءَ حظُّها الحقيقيُّ من حياتِها... وهو رجل يَتَحَظَّاها[1]؛ كلّما أخذتْه عينُها ٱبتسَمتْ له ٱبتساماً منَ الذلّ، لو لم تجعلْهُ هي ٱبتساماً لكانَ دموعاً؛ ثم وقَفتْ وما تتماسَكُ مِنَ ٱلهمّ، كأنَّها تمثالٌ «لِلجمالِ البائس»؛ ثم حَيَّتْ وسلَّمَتْ وودَّعت؛ وبعدَ «واوات» أخرى... مشَتْ ساكنةً ومَرْآها يَضِجُّ ويَبكي.

فوداعاً يا أوهامَ الذكاءِ التي تَلْمِسُ الحقائقَ بقوةٍ خالقةٍ تَزيدُ فيها!

ووداعاً يا أحلامَ الفِكْرِ التي تضعُ مع كلِّ شيءٍ شيئاً يُغيِّرُه!

ووداعاً يا حُبَّها...

---

(١) يتخطّاها: أي يجعلها حظه.

عربةُ اللُّقطاء

جلسْتُ على ساحلِ الشاطبي في (اسكندرية) أتأملُ البحر، وقد ٱرتفَعَ الضُّحَى، ولكنَّ النهارَ لَدْنٌ[1] ناعمٌ رطيبٌ كأنَّ ٱلفجرَ ممتدٌّ فيهِ إلى الظُّهر.

وجاءَتْ عَربة ٱللُّقَطَاءِ[2] فأشرفَتْ على ٱلساحل، وكأنَّها في منظرِها غَمامةٌ تتحرَّك، إذْ تَعلوها ظُلَّةٌ كبيرةٌ في لَونِ الغَيْم. وهي كعَرباتِ النقل، غيرَ أنَّها مُسوَّرة بألواحٍ مِنَ الخشبِ كجوانبِ النعشِ[3] تُمْسِكُ مَنْ فيها مِنَ الصِّغارِ أنْ يتدحْرجوا منها إذْ هي تَدرُجِ وتَتَقَلْقَل.

ووقَفَتْ في الشارع لِتُنْزِلَ ركبَها إلى شاطىءِ البحر؛ أولئكَ ثلاثونَ صغيراً من كلِّ سَفيجٍ لَقيطٍ ومَنْبوذ، وقدِ ٱنكمشوا وتَضاغَطُوا إذْ لا يُمكنُ أنْ تُمَطَّ ٱلعربةُ فَتَسعَهم، ولكنْ يُمكنُ أنْ يُكْبَسُوا ويتداخَلُوا حتى يَشْغَلَ ٱلثلاثةُ أوِ ٱلأربعةُ منهم حَيِّزَ ٱثنين. ومَنْ منهم إذا تألَّمَ سيذهبُ فيشكو لأبيه...؟

وتَرى هؤلاءِ المساكينَ خَليطاً ملتبساً يُشْعِرُك ٱجتماعُهم أنَّهم صَيْدٌ في شَبكةٍ لا أطفالٌ في عَربة، ويدلُّك منظرُهمُ البائسُ الذليلُ أنَّهم ليسوا أولادَ أمَّهاتٍ وآباء، ولكنَّهم كانوا وساوِسَ آباءٍ وأمهات...

* * *

هذه العربةُ يجرُّها جوادانِ أحدُهما أدهمُ[4] والآخرُ كُمَيْتٌ[5]. فلمّا وقفَتْ لَوَى ٱلأدهمُ عُنقَهُ وٱلتفتَ ينظر: أيفرغون العربةَ أم يزيدون عليها...؟ أمّا ٱلكُمَيْتُ فحرَّكَ رأسَه وعَلكَ لِجامَهُ كأنَّهُ يقولُ لِصاحبِهِ: إنَّ الفكرَ في تخفيفِ ٱلعبْءِ ٱلذي تَحملُهُ يجعلُهُ أثقلَ عليكَ مِمَّا هو، إذ يُضيفُ إليهِ ٱلهمَّ، وٱلهمُّ أثقلُ ما حملَتْ نفس؛ فما دُمْتَ في العملِ فلا تتوهَّمَنَّ ٱلراحةَ، فإنَّ هذا يُوهِنُ ٱلقوة، ويَخْذُلُ

---

(١) لدن: طرىء.

(٢) اللقطاء: أولاد الزنى.

(٣) النعش: التابوت.

(٤) الأدهم: الأسود، شديد السواد.

(٥) الكميت: الأحمر.

ٱلنشاط، ويَجْلِبُ ٱلسأم؛ وإنَّما رُوحُ ٱلعملِ ٱلصبر، وإنَّما رُوحُ ٱلصبرِ العزم.

ورآهمُ ٱلأدهمُ يُنْزِلونَ اللُّقَطَاء، فٱستخَفَّهُ الطرب، وحرَّكَ رأسَهُ كأنَّما يسخَرُ بالكميتِ وفلسفتِه، وكأنَّما يقولُ له: إنَّما هو النّزُوعُ إلى الحريَّة، فإنْ لم تكنْ لك في ذاتِها، فَلْتكنْ لكَ في ذاتِك، وإذا تعذَّرَتِ ٱللذةُ عليك، فٱحتفظْ بخيَالِها، فإنَّهُ وَصْلَتُكَ بها إلى أنْ تُمكِنَ وتتَسهَّل؛ ولا تجعلَنَّ كلَّ طِباعِكَ طِباعاً عاملةً كادِحةً، وإلَّا فأنت أداةٌ ليسَ فيها إلَّا الحياةُ كما تُريدُك، ولْيكنْ ذلك طبعَ شاعرٍ مع هذه الطِّباعِ العاملةِ، فتكونَ لكَ الحياةُ كما تُريدُك وكما تُريدُها.

إنَّ الدنيا شيءٌ واحدٌ في ٱلواقع؛ ولكنَّ هذا الشيءَ الواحدَ هو في كلِّ خيالِهِ دنيَا وحدَها.

* * *

وفي ٱلعربةِ ٱمرأتانِ تَقُومانِ على ٱللُّقطاء؛ وكِلْتاهما تزويرٌ لِلأمِّ على هؤلاءِ الأطفالِ المساكين؛ فلمَّا سكنَتِ ٱلعربةُ ٱنحدَرتْ منهما واحدةٌ وقامَتِ ٱلأخرى تُناوِلُها الصغارَ قائلةً: واحد، ٱثنان، ثلاثة، أربعة... إلى أنْ تمَّ ٱلعددُ وخلا قَفَصُ ٱلدَّجاجِ مِنَ الدجاج...!

ومشى الأطفالُ بوجوهٍ يتيمة، يَقرأُ من يَقرأُ فيها أنَّها مُسْتَسلِمةٌ، مُستْكينة، مُعترِفةٌ أنْ لا حقَّ لها في شيءٍ من هذا العالَم، إلَّا هذا الإحسانُ البخْسُ القليل.

جاؤوا بهم لِينظروا الطبيعةَ والبحرَ والشمس، فغَفَا ٱلصغارُ عن كلِّ ذلك وصرَفوا أعينهُم إلى ٱلأطفالِ ٱلذين لهم آباءٌ وأُمَّهات...

* * *

واكَبِدي! أضْنَى الأسَى كَبِدِي؛ فقد ضاقَ صدري بعدَ ٱنفساحِه، ونالني وَجَعُ ٱلفِكْرِ في هؤلاءِ التُّعساء، وعَرَتْني[1] منهم عِلَّةٌ كَدَسِّ الحُمَّى في الدم؛ وٱنقلبْتُ إلى مَثْوايَ[2]، وٱلعربةُ وأهلُها ومكانُها وزمانُها في رأسي.

فلمَّا طافَ بيَ ٱلنومُ طافَ كلُّ ذلك بي، فرأيتُني في موضعي ذاك، وأبصرْتُ ٱلعربةَ قد وقَفتْ، وتحاوَرَ ٱلأدهمُ وٱلكُميت؛ فلمَّا أفرغوها وشَعَرَ الجوادانِ بخفَّتِها ٱلتفتَا معاً، ثم جمعَا رأسَيْهما يتحدَّثان!

قالَ الكُميت: كنْتُ قبلَ هذا أجرُ عربةَ الكِلابِ التي يقتلُها الشُّرطَةُ بالسُّمّ،

---

(١) عرتني: داخلتني.

(٢) مثواي: بيتي.

فآخذُ الموتَ لِهذه الكلابِ المسكينة، ثم أرجعُ بها مَوْتَى؛ وكنْتُ أذهبُ وأجيءُ في كلِّ مرادٍ ومُضْطَرَبٍ من شوارعِ المدينةِ وأزقَّتِها وسِكَكِها[1]، ولا أشعرُ بغيرِ الثِّقْلِ الذي أجرُّه؛ فلما ٱبْتُلِيْتُ بعربةِ هؤلاءِ الصغارِ الذين يُسمُّونهمُ ٱللُّقطاء، أحسسْتُ ثِقلاً آخرَ وقعَ في نفسي وما أدري ما هو؟ ولكن يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ ظلّ كلِّ طفلٍ منهم يُثْقِلُ وحدَهُ عربة.

قالَ الأدهم: وأنا فقد كنْتُ أجرُّ عربةَ القُمَامةِ[2] والأقذار، وما كان أقذَرَها وأنتَنها، ولكنَّها على نفسي كانَتْ أطهرَ من هؤلاءِ وأنظف؛ كنْتُ أجِدُ ريحَها الخبيثةَ ما دُمْتُ أجرُّها؛ فإذا أنا تركْتُ ٱلعربةَ ٱسترْوَحْتُ النَّسيمَ وَٱستطعَمْتُ الجوّ، أمَّا الآنَ فٱلريحُ الخبيثةُ في الزمنِ نفسِه، كأنَّ هذا الزمنَ قد أرْوَحَ وَأنتنَ منذُ قُرِنْتُ بهؤلاءِ وعرَبتِهِم.

قالَ ٱلكُميت: إنَّ ٱبنَ الحيوانَ يستقبلُ الوجودَ بأمِّه، إذْ يكونُ وراءَها كالقِطْعةِ المتمِّمةِ لها، ولا تقبلُ أمُّهُ إلَّا هذا، ولا يَصْرفُها عنهُ صارف، فتُرغِمُ الوجودَ على أنْ يتقبَّلَ ٱبنَها، وعلى أنْ يُعطيَهُ قوانينه؛ أمَّا هؤلاءِ الأطفالُ فقد طرَدَهُمُ ٱلوجودُ منه كما طردَ ٱللَّهُ آباءَهم وأمهاتِهِم من رحمتِه؛ وقد هُدِيتُ الآنَ إلى أنَّ هذا هو سرُّ ما نشعرُ بهِ؛ فلَسنا نجرُّ لِلناسِ ولكن لِلشياطين..

* * *

وهنا وقفَ على حُوذيّ العربةِ[3] صديقٌ من أصدقائِه فقال: مَن هؤلاءِ يا أبا علي؟

قال الحُوذيُّ: هؤلاءِ هؤلاءِ يا أبا هاشم.

قال أبو هاشم: سبحانَ ٱللَّهِ أمَا تترُك طبعَك في النكتةِ يا شيخ؟

قال الحُوذيُّ: وهل أعرفُهم أنا؟ هم بِضاعةُ العربةِ والسلام: ٱركبوا يا أولاد، ٱنزلوا يا أولاد. هذا كلُّ ما أسمع.

قال أبو هاشم: ولكنْ ما بالُك ساخطاً عليهم، كأنَّهم أولادُ أعدائِك؟

قال الحُوذيُّ: ليت شِعري مَنْ يدري أيُّ رجلٍ سيخرجُ من هذا الطفل، وأيةُ ٱمرأةٍ ستكونُ من هذه الطفلة؟

ٱنظرْ كيف تَعلَّقَتْ هذه البنتُ وعمرُها سنتان، في عُنُقِ هذا الولدِ الذي كانَ من سنتينِ ٱبنَ سنتين... لا أراني أحملُ في عربتي أطفالاً كالأطفالِ الذين تحملُهُمُ

---

(١) سككها: طرقها.

(٢) القُمامة: الزبالة.

(٣) حوذي العربة: سائقها.

العرباتُ إلى أبوابِ دُورهم؛ فإنَّ هؤلاءِ اللُّقطاءَ يُحمَلون إلى بابِ ٱلملْجأ، وهو بابٌ لِلحاراتِ والسككِ لا يأخذُ إلَّا منها، فلا يُرسلُ إلَّا إليها.

أنا ـ والله ـ يا أبا هاشم، ضيِّقُ الصدر، كاسفُ البالِ من هذه المِهنة؛ ويُخيَّلُ إليَّ أنِّي لا أحملُ في عربتي إلَّا ٱلجنونَ وٱلفُجورَ والسرقةَ والقتلَ والدَّعارةَ والسكْرَ وعواصفَ وزوابعَ...

قال أبو هاشم: ولكنَّ هؤلاءِ الأطفالَ مساكين، ولا ذنبَ لهم.

قال الحُوذيُّ: نعمْ لا ذنبَ لهم، غيرَ أنَّهم هم في أنفسِهم ذنوب؛ إنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاءِ إنْ هو إلَّا جريمةٌ تُثبِتُ ٱمتدادَ الإثمِ والشرِّ في ٱلدنيا؛ ولدتْهم أمهاتُهم لِغَيَّة[1].

فقطعَ صاحبهُ عليه وقال: وهل وَلَدْنَهُمْ إلَّا كما تَلِدُ سائرُ ٱلأمهاتِ أولَادَهن؟

قال: نعم، إنَّهُ عملٌ واحد، غيرَ أنَّ أحواله في الجهتينِ مختلفةٌ لا تتكافأ؛ وهلْ تستوي حالُ مَنْ يشتري ٱلمتاع، ومَنْ يسرقُ المتاع؟

هٰهنا باعثٌ مِنَ الشهوةِ قد عجزَ أنْ يسموَ سموَّهُ ـ وما سموُّه إلَّا الزواج ـ فَتسَفَّلَ وٱنحط، ورجَع فِسقاً، وعادَ أولُهُ على آخرِه: كانَ أولُه جُرْماً فلا يزالُ إلى آخرِهِ جُرْماً، ولا يزالُ أبداً يعودُ أولُهُ على آخرِه؛ فلمَّا حملَتِ ٱلمرأةُ وفاءَتْ إلى أمرِها، وذهبَ عنها جنونُ الرجلِ والرجلُ معاً؛ ٱنطوتْ لِلرجالِ على الثأرِ والحِقْدِ والضغينة؛ فلا يكونُ ٱبنُ العارِ إلَّا ابنَ هذه الشرورِ أيضاً.

والأمهاتُ يُعْددْنَ لِأجِنَّتِهِنَّ الثيابَ والأكْسِيةَ قبلَ أنْ يُولدوا، ويُهيِّئْنَ لهم بالفكرِ آمالاً وأحلاماً في الحياة، فيَكْسِبْنَهُم في بطونِهنَّ شعورَ ٱلفرحِ وٱلابتهاج، وٱرتقابَ ٱلحياةِ ٱلهنيئةِ، وٱلرغبةَ في السموِّ بها؛ ولكنَّ أمهاتِ هؤلاءِ يُعدِدْن لهُمُ ٱلشوارعَ وٱلأزقَّةَ منذُ البَدْء، ولا تترقَّبُ إحداهُنَّ طولَ أشهرِ حَملِها أنْ يجيئَها الوليد، بل أنْ يتركَها حيّاً أو مقتولاً؛ فيُورِثْنَهم بذلكَ وهم أجنَّةٌ شعورَ اللَّهفةِ والحسْرةِ والبُغضِ والمَقْتِ، ويَطبَعْنَهم على فكرةِ الخطيئةِ والرغبةِ في القتل، فلا يكونُ ٱبْنُ العارِ إلَّا ابنَ هذه الرذائلِ أيضاً.

وتَظلُّ الفاسقةُ مدةَ حملِها تسعةَ أشهر في إحساسٍ خائف، مترقِّب، منفردٍ

---

(١) ولدته لغية: أي سفاحاً.

بنفسِه، منعزلٍ عنِ الإنسانية، ناقم، متبرّم، متستر، منافِق؛ فلو كانَ السَّفِيحُ من أبوين كريمينِ لَجاءَ ثُعباناً آدمياً فيهِ سُمُّهُ مِن هذا الإحساسِ ٱلعنيف. ومتى ألقَتِ ٱلفاسقةُ ذَا بطنَها[1] قطعتْه لِتوهِ[2] من روابطِ أهلِهِ وزمَنِهِ وتاريخِهِ ورمَتْ بِهِ لِيموت؛ فإنْ هلَكَ فقد هلك، وإنْ عاشَ لِمثلِ هذه الحياةِ فهو موتٌ آخرُ شرٌّ من ذلك؛ ومهما يَتَوَلَّهُ ٱلناسُ. وٱلمُحسِنون، فلا يزالُ أولُهُ يعودُ على آخرِه؛ مِمَّا في دَمِهِ وطِباعِهِ ٱلموروثة؛ ولا يبرحُ جريمةً ممتدَّةً متطاوِلة، ولا ينفكُّ قِصةً فيها زانٍ وزانيةٌ، وفيها خطيئةٌ ولَعنة.

فهؤلاءِ ـ كما رأيْتَ ـ أولادُ ٱلجُرأةِ على ٱلله، وٱلتعدّي على الناس، وٱلاستخفافِ بالشرائع، وٱلاستهزاءِ بالفضائل؛ وهمُ ٱلبغضُ ٱلخارجُ مِنَ ٱلحُبّ، وٱلوقاحةُ ٱلآتيةُ مِنَ الخجَل، وٱلاستهتارُ ٱلمنبعِثُ مِنَ ٱلنَّدامة؛ وكلٌّ منهم مسألةُ شرٍّ تطلبُ حلَّها أو تعقيدَها مِنَ الدنيا، وفيهم دماءٌ فوَّارةٌ تجمعُ سمومَها شيئاً فشيئاً كلَّما كبروا سنةً فسنة.

قال أبو هاشم: ألا لَعنةُ ٱللَّهِ على ذلك ٱلرجلِ ٱلفاسقِ ٱلذي ٱغْتَرَّ ٱلمرأةَ فٱستزلَّها وهوَّرَها في هذه المَهْواة[3]. أكانَ حقُّ الشهوةِ عليهِ أعظمَ من حقِّ هذا الآدمِيّ. أمَا كانَ ينبغي أنْ يكونَ هذا الآخِرُ هو ٱلأولَ في ٱلاعتبار، فيعلمَ أنَّ هذا ٱللقيطَ ٱلمسكينَ هو سبيلُهُ إلى صاحبتِه، وهو ٱلبلاغُ إلى ما يُحاولُهُ منها؛ فيكونَ كأنَّما دخلَ بينَ ٱلاثنينِ ثالثٌ يراهما... فلعلّهما يستَحيان.

قال ٱلحُوذيُّ ٱلفيلسوف: لَعنةُ ٱللَّهِ على ذلك الرجل، ولَعَنَاتُ ٱلله كلُّها، ولَعناتُ ٱلملائكةِ وٱلناسِ أجمعينَ على تلكَ ٱلمرأةِ التي ٱنقادَتْ لَهُ وٱغترَّتْ به. إنَّ ٱلرجلَ ليسَ شيئاً في هذه الجريمة، فقد كانَتْ بَصقةٌ واحدةٌ تُغرقُه، وكانت صفعةٌ واحدةٌ تَهزُمُه، وكانَ معَ المرأةِ الحكومةُ والشرائعُ والفضائلُ، ومعها جهنمُ أيضاً.

ألم تعلم ٱلحمقاءُ أنَّ الرجلَ الذي ليسَ زوجاً لها ليسَ رجلاً معها، وأنَّ الشريعةَ لو أيقَنَتْ أنَّهُ رجلٌ لَمَا حرَّمَتْ عليها أن تُخالِطَهُ؟ إنَّه ليسَ الرجلَ هو الذي ساوَرَ[4] هذهِ ٱلمرأة، بل مادةُ ٱلحياةِ التي رأَتْ في ٱلمرأة مُستودَعها، فتُريدُ أنْ

---

(١) أي وضعت وولدت.

(٢) لتوّه: حالاً.

(٣) هوّرها في هذه المهواة: دفع إلى الحضيض والرذيلة.

(٤) ساور المرأة: راودها وأوقعها بحبائله.

تقتحِمَ إلى مَقَرّها عُنْوَةً[1] أو خِداعاً أو رِضًى أو كما يتّفق؛ إذْ كانَ قانونُ هذه المادةِ أنْ تُوجَد، ولا شيءَ إلّا أنْ تُوجَد؛ فلا تعرفُ خيراً ولا شرّاً، ولا فضيلةً ولا رذيلة.

لأيّهما يجبُ التحصين: ألِلصاعقةِ المنقضَّة، أمْ لِلمكانِ الذي يُخشَى أنْ تنقضَّ عليه؟ لقد أجابَتِ ٱلشريعةُ ٱلإسلامية: حَصِّنوا ٱلمكان. ولكنَّ المدنيَّةَ أجابت: حصِّنوا ٱلصاعقة...!

* * *

وكانَتِ ٱلمرأتانِ ٱلمصاحبتانِ لِجماعةِ ٱللُّقطاءِ تتناجَيان، فقالَتِ ٱلكبرى منهما: يا حَسْرَتَا على هؤلاءِ الصغارِ المساكين! إنَّ حياةَ ٱلأطفالِ فيما فوقَ مادةِ الحياة، أي في سرورِهم وأفراحِهم؛ وحياةُ هؤلاءِ البائسينَ فيما هو دونَ مادةِ الحياة، أي في وجودِهم فقط.

وكِبَرُ الأطفال يكونُ منهُ إدخالُهم في نظامِ الدنيا، وكِبَرُ هؤلاءِ إخراجُهم مِنَ «الملْجأ» وهو كلُّ النظامِ في دُنياهم، ليسَ بعدَهُ إلّا التشريدُ والفقرُ وٱبتداءُ ٱلقِصّةِ المحزنة.

فقالَتِ ٱلصغُرى: وَلِمَ لا يفرحونَ كأولادِ الناس، ألَيسَتِ ٱلطبيعةُ لهم جميعاً، وهل تجمعُ الشمسُ أشعتَها عن هؤلاءِ لِتُضاعِفَها لِأولئك؟

قالَتِ ٱلأخرى: الطبيعة؟ تقولينَ الطبيعة؟ إنَّكِ يا ٱبنتي عذراءُ لم تبدأْ في حياتِك حياةً بعد، ولم تجاوبي بقلبِك القلبَ الصغيرَ الذي كانَ تحتَ قلبِكِ تسعةَ أشهر؛ وإنَّما أنتِ مَع هؤلاءِ (موظَّفة) لا تعرفينَ منهم إلّا جانبَ النظامِ وقانونَ ٱلملْجأ.

لقدْ ولَدْتُ يا ٱبنتي خمسةَ أطفال، وبِالعينِ البليغةِ التي أنظرُ بها إليهم أنظرُ إلى هؤلاء، فما أراهم إلّا منقَطعينَ من صِلةِ القلبِ الإنسانيّ: يعبَسُ لهم حتى الجوّ، ويُظلِمُ عليهم حتى النور؛ ويبدو الطفلُ منهم على صِغَرِهِ كأنَّهُ يحملُ الغمَّ المقبلَ عليه طولَ عمره.

يا لَهْفي على عُودٍ أخضرَ ناعمٍ ريَّانَ كانَ للثَّمرِ فقيلَ له: كُنْ لِلحَطب!

الفرحُ يا ٱبنتي هو شعورُ ٱلحيِّ بأنَّهُ حيٌّ كما يهوى، ورؤيتُهُ نفسَهُ على ما يشاءُ في ٱلحياةِ الخاصةِ به. وهؤلاءِ ٱللقطاءُ في حياةٍ عامَّةٍ قد نُزِعَتْ منها ٱلأمُّ وٱلأبُ وٱلدارُ،

---

(١) عنوة: غصباً.

فليسَ لهم ماضٍ كالأطفال، وكأنَّهم يبدءون من أنفسِهم لا من الآباءِ والأمهات.

قالَتِ ٱلصغيرة: ولكنَّهم أطفال.

قالَتْ تَلك: نعم يا ٱبنتي هم أطفال، غيرَ أنَّهم طُرِدوا من حقوقِ الطفولةِ كما طُرِدوا من حقوقِ الأهل. وحسبُك بشقاءِ الطفلِ الذي لم يَعرفْ من حَنانِ أمِّهِ إلَّا أنَّها لم تقتلْه، ولا من شفقتِها إلَّا أنَّها طرَحَتْهُ في الطريق.

إنَّ ٱلطبيعةَ كلَّها عاجزةٌ أنْ تُعطِيَ أحدَهم مكاناً كالموضعِ الذي كانَ يتبوَّؤه بينَ أُمِّهِ وأبيه.

ليسَ الأطفالُ يا ٱبنتي إلا صُوَراً مُبهمَةً صغيرةً من كلِّ جمالِ ٱلعالم، تُفسِّرُها أعينُ ذَويهم بكلِّ التفاسيرِ القلبيةِ الجميلة؛ فأينَ أينَ العيونُ التي فيها تفسيرُ هذه الصُّورِ اللَّقيطة؟

ألا لَعنةُ اللَّهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ على أولئكَ الرجالِ الأنذالِ الطَّغَام[1] الذين أَولدوا النساءَ هؤلاءِ المنبوذين! يزعمونَ لأنفسِهمُ الرجولةَ، فهذه هي رجولتُهم بينَ أيدينا، هذه هي شهامتُهم، هذه هي عقولُهم، هذه هي آدابُهم...!

عجَباً، إنَّ سيِّئاتِ ٱللصوصِ والقَتلةِ كلَّها يُنسَى ويتلاشَى، ولكنَّ سيئاتِ العُشاقِ والمحبينَ تعيشُ وتكبر...

أكانَ ذنبُ ٱلمرأةِ أنَّها صادقةٌ فصدَّقَتْ، وأنَّها مُخْلِصةٌ فأخلَصَتْ، وأنَّها رقيقةٌ فلانَت، وأنها مُحسنةٌ فَرُجمَتْ، وأنَّها سليمةُ القلبِ فٱنخدعَتْ؟

وَاكبَدي لِلمسكينة! هلِ ٱنخدعَتْ إلَّا من ناحيةِ ٱلأمومةِ التي خُلِقَتْ لَها؟ هلِ ٱنخدعَتْ إلَّا الأمُّ التي فيها؟ وهل خدَعَها من ذلك اللئيمِ إلَّا ٱلأبُ الذي فيه؟

وَاكبَدِي لِمَن تُفْجَعُ بالنكبةِ الواحدةِ ثلاثَ فجائعَ: في كرامتِها التي ٱبتُذِلَتْ، وفي الحبيبِ الذي تبرَّأ منها، وفي طِفلِها الذي قطَعَتْهُ بيدِها من قلبِها وتركَتْهُ لِمَا كُتِبَ عليه...!

إنَّ هذا لا يُعوِّضُهُ في الطبيعةِ إلَّا أنْ يكونَ لِكلِّ رجلٍ من أولئكَ الأنذالِ ثلاثُ أرواح، فيُقتَلَ ثلاثَ مرات: واحدةً بالشنق، والثانيةَ بالحرق، والثالثةَ بالرَّجْم بالحِجارة.

* * *

---

(١) الطغام: الفاسدون من الرعاع.

وكانَ ٱللقطاءُ قد تَبَعْثروا(١) على الساحلِ جَماعاتٍ وَشتّى، فوقفَ أحدُهم على طفلٍ صغيرٍ يلعبُ بما بينَ يديه، وأمُّه على كَثَبٍ منه، وهي تتلهّى بالمخرَّمِ تتلوَّى فيه أصابعُها.

فنظرَ الطفلُ إلى اللَّقيطِ وأومأ إلى جماعتِه ثم قال له: أأنتم جميعاً أولادُ هاتينِ المرأتينِ أم إحداهما؟

قال اللقيط. هما المراقِبَتان؛ وأنتَ أفليسَتْ هذه التي معك مُراقِبة؟

قال الطفل: ما معنى مُراقِبة؟ هذه ماما!

قال الآخر: فما معنى ماما؟ هذه مُراقبة.

قال الطفل: وكلُّكم أهلُ دارٍ واحدة؟

قال: نحن في ٱلملْجأ، ومتى كَبِرنا أخذونا إلى دُورِنا.

فقالَ الطفل: وهل تبكي في الملْجأ إذا أردْتَ شيئاً لِيُعطوك؛ ثم تغضَبُ إذا أعطَوْكَ ليَزيدوك؟ وهل يُسكِتُونك بالقِرشِ والحلْوَى؟ والقُبلةِ على هذا الخدِّ وعلى هذا الخدَّ؟ إنْ كانَ هذا فأنا أذهبُ معكم إلى الملْجأ؛ فإنَّ أبي قد ضربَني ٱليوم، وقد أمرَ (ماما) أنْ لا تعطيَني شيئاً إذا بكيْت، ولا تَزيدني إذا غضِبْت، ولا...

وهنا صاحَتِ المراقبةُ الصغيرة: تعالَ يا رَقْم عشرة... فلَوَى اللقيطُ المسكينُ وجهَه، وٱنْصَاعَ وأدبر.

«ومشَى الأطفالُ بوجوهٍ يتيمة، يقرأُ مَنْ يقرأُ فيها أنَّها مستسلِمةٌ، مستكِينةٌ، معتَرفةٌ أنْ لا حقَّ لها في شيءٍ من هذا العالَمِ إلَّا هذا الإحسانَ البخْسَ القليل»...

---

(١) تبعثروا: تفرّقوا.

اللّهُ أكبر

جلسْتُ وقد مضى هَزيعٌ منَ الليل[1]، أُهَيِّىءُ في نفسي بناءَ قِصةٍ أُديرُها على فتًى كما أُحِبُّ.. وخبيثٍ داعِر، وفتاةٍ كما أحبَّتْ... عذراءَ مُتَماجِنَة؛ كِلاهما قد دَرَسَ وتخرَّجَ في ثلاثةِ مَعاهد: المدرسة، والروايات الغرامية، والسيِّما. وهو مصريٌّ مسلم، وهي مصريةٌ مسيحيَّة. ولِلفتى هَنَاتٌ[2] وسيئاتٌ لا يتنزَّهُ ولا يتورَّع[3]؛ وهو مِن شبابِهِ كالماءِ يغلي، ومن أَناقتِهِ بحيثُ لم يَبْقَ إلَّا أنْ تَلْحقَهُ تاءُ ٱلتأنيث... وقد تشعَّبَتْ بِهِ فنونُ هذه المدنيَّة، فرفَعَ ٱللَّهُ يَدَه عن قلبِهِ لا يُبالي في أيِّ أوْديَتِها هَلكَ؛ وهو طِلْبُ نساء، دأبُهُ[4] التَّجْوالُ في طُرقِهِنّ، يَتْبَعُهنَّ ويتعرَّضُ لهنّ، وقد أَلِفَتْهُ الطرقُ حتى لو تكلَّمَتْ لَقالَت: هذا ضَرْبٌ عجيبٌ من عَرَباتِ الكَنْس...!

ولِلفتاةُ تبرُّجٌ وتهتُّك، يَعْبَثُ بها العبَثُ نفسُه، وقد أخرجَتْها فنونُ هذا الثأنثِ الأوروبيِّ القائم على فلسفةِ الغريزة، وما يُسمّونَهُ «الأدبُ المكشوف» كما يُصوّرُهُ أولئكَ الكُتَّابُ الذين نَقَلوا إلى الإنسانيةِ فلسفةَ الشهواتِ الحرّةِ عنِ البهائمِ الحرة. فهي تَبْرُزُ حينَ تَخرجُ من بيتِها، لا إلى الطريق، ولكنْ إلى نظراتِ الرجال؛ وتَظهرُ حينَ تظهر، مُصوّرةً لا بتَلْوينِ نفسِها مِمَّا يجوزُ وما لا يجوز، ولكنْ بتلْوينِ مِرآتِها مِمَّا يُعجِبُ وما لا يُعجِب.

وَكِلا ٱثْنيْهما لا يُقيمُ وزناً لِلدين، والمسلمُ والمسيحيُّ منهما هوَ ٱلاسمُ وحدَه؛ إذْ كانَ مِن وَضْعِ الوالدين (رحمَهما ٱللهُ!)؛ والدّينُ حرّيةُ القَيدِ لا حرّيةُ الحرية؛ فأنت بعدَ أنْ تُقيِّدَ رذائِلَك وضَرَاوَتَكَ وشرّكَ وحيوانيَّتك ـ أنت مِن بعدِ هذا حرٌّ ما وَسِعَتْك ٱلأرضُ وٱلسماءُ وٱلفكر؛ لأنَّك من بعدِ هذا مُكَمِّلٌ لِلإنسانيَّة، مستقيمٌ على طريقتِها؛ ولكنْ هَبْ حِماراً تَفَلْسَفَ وأرادَ أنْ يكونَ حُرّاً بعقلِهِ

---

(١) هزيع من الليل: قسم منه.
(٢) هنات: سقطات وأخطاء.
(٣) لا يتورّع: لا يخشى عاقبة.
(٤) دأبه: عادته.

ٱلحماريّ؛ أي تقريرِ المذهبِ الفلسفيِّ الحماريِّ في الأدب. . . فهذا إنَّما يبتغي إطلاقَ حريتهِ، أي تسليطَ حِمَاريَّتِهِ الكاملةِ على كلِّ ما ستصلُ بِهِ مِنَ الوجود.

وتَمْضِي قِصّتي في أساليبَ مختلفةٍ تَمْتَحِنُ بها فنونُ هذه الفتاةِ وشهوَاتُ هذا الفتى، فلا يزالُ يَمشي مِن حيثُ لا يَصِل، ولا تزالُ تمنعُهُ من حيثُ لا تردُّه؛ وما ذلك من فضيلةٍ ولا ٱمتناع، ولكنَّها غريزةُ الأنوثةِ في ٱلاستمتاعِ بسُلطانِها، وإثباتِها لِلرجلِ أنَّ ٱلمرأةَ هي قوّةُ الانتظار، وقوّةُ ٱلصبر؛ وأنَّ هذه التي تحملُ جنينَها تسعةَ أشهرٍ في جوفِها، تُمسِكُ رغبتَها في نفسِها مدّةَ حَمْلٍ فكْرِيٍّ إذا هي أرادَتِ ٱلحياةَ لِرغبتِها، لِيكونَ لِوقوعِها وتَحقُّقِها مثلُ ٱلميلادِ المفرِح.

ولكنَّ ٱلميلادَ في قِصَّتي لا يكونُ لِرذيلةِ هذه الفتاة، بل لِفضيلتِها؛ فإنَّ ٱلمرأةَ في رأيي ـ ولو كانَتْ حياتُها محدودةً من جِهاتِها الأربع بكبائرِ الإثم والفاحشة ـ لا يزالُ فيها من وراءِ هذه الحدودِ كُلِّها قلبٌ طبيعتُهُ ٱلأمومة، أي ٱلاتصالُ بمصدرِ ٱلخَلْق، أي كلُّ فضائلِ ٱلعقيدةِ وٱلدين؛ وما هو إلَّا أنْ يتنبهَ هذا القلبُ بحادثٍ يتَّصلُ بِهِ فيبلغُ منه، حتى تتحوَّلَ ٱلمرأةُ تَحوُّلَ ٱلأرضِ من فصلِها ٱلمقشَعِرِّ ٱلمجدب، إلى فصلِها ٱلنَّضرِ ٱلأخضر.

ففي قِصتي تُذْعنُ الفتاةُ لِصاحبِها في يوم قدِ ٱعتَرتْها[1] فيهِ مخافةٌ، ونزلَ بها همٌّ، وكادتْها الحياةُ مِن كَيدِها؛ فكانَتْ ضعيفةَ النفسِ بَما طَرأَ عليها من هذه الحالة. وتخلو بالفتى وفكرُها منصرفٌ إلى مَصدرِ الغيْب، مؤمِّلٌ في رحمةِ القدَر؛ ويَخلبُها[2] الشابُّ خَلَابةَ رُعُونتِهِ وحبِّهِ ولِسانِهِ، فيُعطيها الألفاظَ كلَّها فارغةً مِنَ ٱلمعاني، ويقرُّ بالزواجِ وهو مُنطوٍ على الطَّلاقِ بعدَ ساعة؛ فإذا أوشكتِ ٱلفتاةُ أنْ تُصرَعَ تلك الصَّرعةَ دَوَّى في الجوِّ صوتُ المؤذِّن: «الله أكبر!».

وتُلْسَعُ الفتاةُ في قلبِها، وتتَّصلُ بهذا القلبِ رُوحانيَّةُ الكلمة، فتقعُ الحياةُ السماويةُ في الحياةِ الأرضيَّة، وتنتبهُ العذراءُ إلى أنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ عارَها، ويَفجَؤُها أنَّها مُقْدِمةٌ على أنْ تُفْسِدَ من نفسِها ما لا يُصْلِحُهُ ٱلمستحيلُ فضلاً عنِ ٱلممكنِ، وترنو بعينِ الفتاةِ الطاهرةِ من نفسِها إلى جسمِ بَغِيٍّ ليَستْ هي تلك التي هي؛ وتنظرُ بعينِ الزوجةِ من صاحبِها إلى فاسقٍ ليسَ هو ذاك الذي هو؛ ويَحْكي لها ٱلمكانُ في قلبِها

(١) اعترتها: حلّت بها.

(٢) يخلبها: يبهرها.

المفطورِ على الأمومة ـ حكايةً تَثُورُ منها وتشمئزّ؛ ويَصْرُخُ الطفلُ المِسكينُ صَرْختَهُ في أذنِها قبلَ أنْ يُولَدَ ويُلْقى في الشارع. . . !

اللَّهُ أكبر! صوتٌ رهيبٌ ليسَ مِنْ لُغةِ صاحبِها ولا من صَوْتِهِ ولا من خِسَّتِه، كأنَّما تُفْرِغُ ٱلسماءُ فيهِ مِلءَ سحابةٍ على رِجْسِ[1] قلبِها فتُنْقِيه حتى ليسَ بِهِ ذرَّةٌ من دَنَسِهِ الذي رَكِبَهُ الساعة. كانَ لِصاحبِها في حِسِّ أعصابِها ذلك ٱلصوتُ ٱلأسودُ، ٱلمنطفىء، ٱلمبهَم، ٱلمتَلَجْلِجُ مِمَّا فيهِ من قوَّةِ شهواتِهِ؛ للمؤذنِ صوتٌ آخَرُ في رُوحها؛ صوتٌ أحمرُ، مشتعلٌ كمعْمَعَةِ ٱلحريق، مُجَلْجِلٌ كٱلرعد، واضحٌ كالحقيقةِ فيه قوّةُ ٱلله!

سمعَتْ صوتَ ٱلسِّلسلةِ وقَعْقَعتَها تُلوَى وتشَدُّ عليها، ثم سمعَتْ صوتَ السلسلةِ بعينِها يُكسَرُ حديدُها ويتحطَّمُ.

كانَتْ طهارتُها تختنقُ فنفَذَتْ إليها النَّسمَات؛ وطارَتِ ٱلحمامةُ حينَ دعاها صوتُ ٱلجوّ، بعدَ أنْ كانَتْ أسَفَّتْ[2] حينَ دعاها صوتُ الأرض. طارَتِ ٱلحمامة، لأنَّ الطبيعةَ ٱلتفتَتْ فيها لفتةً أخرى.

ويكرّر المؤذّنُ في ختامِ أذانه: «الله أكبرُ الله أكبر!» فإذا. . .

* * *

وتَبَلَّدَ خاطري، فوقَفْتُ في بناءِ القِصَّةِ عندَ هذا الحدّ، ولم أدرِ كيفَ يكونُ جوابُ «إذا. . .» فتركْتُ فكري يعملُ عَمَلَهُ كما تُلْهِمُهُ الواعيةُ الباطِنة، ونِمْت. . .

ورأيْتُ في نومي أنِّي أدخُلُ ٱلمسجدَ لِصَلاةِ العيدِ وهو يَعُجُّ[3] بتكبيرِ المصَلين: «الله أكبرُ اللَّهُ أكبر!» ولهم هَديرٌ كهديرِ البحرِ في تَلاطُمِهِ. وأرى المسجدَ قد غَصَّ بالناسِ فٱتَّصلوا وتلاحَموا؛ تجدُ ٱلصفَّ منهم على ٱستوائِهِ كما تجدُ ٱلسطرَ في الكتاب: ممدوداً محتَبِكاً ينتظِمُهُ وضْعٌ واحد، وأراهم تتابعوا صفّاً وراءَ صفّ، ونَسَقاً على نَسَق، فٱلمسجدُ بهم كٱلسُّنْبُلَةِ مُلِئَتْ حبّاً ما بينَ أوّلها وآخرِها؛ كلُّ حبةٍ هي في لِفٍّ من أهلِها وشملِها، فليس فيهِنَّ على الكثرةِ حَبَّةٌ واحدة تُميِّزُها ٱلسنبلةُ فَضلَ تمييز، لا في الأعلى ولا في الأسفل.

وأقفُ متحيِّراً مُتَلدِّداً ألتفِتُ هٰهنا وهٰهنا، لا أدري كيف أخلُصُ إلى موضعٍ

---

(١) رجس: دنس.

(٢) أسفَّت: سفلت إلى الحضيض.   (٣) يعجّ: يمتلىء.

أجلسُ فيه؛ ثم أمضى أتخطَّى الرِّقابَ أطمعُ في فُرْجَةٍ أقتحمُها وما تنفرج، حتى أنتهيَ إلى الصفِّ الأوّل؛ وأنظرُ إلى جانبِ المحرابِ شيخاً بادِناً يملأُ موضعَ رَجلين، وقد نَفَحَ[1] منه ريحُ ٱلمِسكِ، وهو في ثيابٍ من سُندُسٍ خُضْر؛ فلمَّا حاذيْتُهُ جمعَ نفسَهُ وٱنكمش، فكأنَّما هو يُطوَى طيّاً، ورأيْتُ مكاناً وَسِعَني فحَطَطْتُ فيهِ إلى جانبِهِ، وأنا أعجَبُ لِلرجلِ كيف ضاقَ ولم أضيِّقْ عليه، وأين ذهبَ نِصفُهُ الضخْم وقد كانَ بعضُهُ على بعضِهِ زِيَماً على زِيَم[2] وٱمتلاءً على ٱمتلاء.

وجعلْتُ أحْدسُ عليه ظنِّي، فوقَع في نفسي أنَّهُ مَلَكٌ من ملائكةِ ٱللَّهِ قد تمثَّلَ في ٱلصورةِ الآدميَّةِ فٱكتتمَ فيها لِأمرٍ منَ الأمر.

وضجَّ الناسُ: «اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر!» في صوتٍ تقشعرُّ منهُ جُلودُ الذينَ يخشَوْنَ ربَّهم، غيرَ أنَّ الناسَ مِمَّا ألِفوا الكلمةَ ومِمَّا جَهِلوا من معناها ـ لا يسمعونها إلَّا كما يسمعونَ الكلام؛ أمَّا الذي إلى جانبي فكانَ ينتفضُ لها ٱنتفاضةً رجَّتْني معه رَجّاً، إذْ كنْتُ ملتصِقاً بهِ مُناكِباً لَه؛ وكأنَّ ٱلمسجدَ في نَفْضِهِ إيَّانا كانَ قِطاراً يجري بنا في سرعةِ السحاب، فكلُّ ما فيهِ يرتجُّ ويهتزّ. ورأيْتُ صاحبي يَذْهَلُ عن نفسِه، ويتلألأُ على وجهِهِ نورٌ لِكلِّ تكبيرة، كأنَّ هناك مِصباحاً لا يزالُ ينطفىءُ ويشتعل؛ فقطَعْتُ الرأيَ أنَّهُ مِنَ الملائكة.

ثم أقيمَتِ ٱلصلاةُ وكبَّر أهلُ ٱلمسجد، وكُنتُ قرأْتُ أنَّ بعَضُهم صلى خلْفَ رجلٍ من عظماءِ النفوسِ الذين يعرفونَ ٱللَّهَ حقَّ معرفتِه؛ قال: فلمَّا كبَّرَ قال: «الله . .» ثم بُهِتَ[3] وبقي كأنَّه جَسَدٌ ليسَ به رُوحٌ من إجلالِهِ ٱللَّهَ تعالى؛ ثم قال: «أكبر» يَعْزِمُ بها عَزْماً، فظننْتُ أنَّ قلبي قدِ ٱنقطعَ من هيبةِ تكبيرِهِ.

قلْتُ أنا: أمَّا الذي إلى جانبي، فلَّما كبرَ مدّ صوتَهُ مداً ينبثقُ من رُوحِهِ ويستطير، فلو كانَ ٱلصوتُ نوراً لَمَلأَ ما بينَ الفجرِ والضُّحى.

* * *

وعرفْتُ ـ والله ـ من معنى ٱلمسجدِ ما لم أعرف، حتى كأنِّي لم أدخلْه من قبل، فكانَ هذا ٱلجالسُ إلى جانبي كضوءِ المِصباحِ في المِصباح؛ فٱنكشفَ ليَ

---

(١) نفح: فاح، عبق.

(٢) زيماً على زيم: تعني كتلاً على كتل، والزيم هو المتفرق من اللحم.

(٣) بهت: دهش.

ٱلمسجدُ في نورهِ الرُّوحيِّ عن معانٍ أدخلتْني مِنَ الدنيا في دُنْيا على حِدَة. فما ٱلمسجدُ بناءً ولا مكاناً كغيرِهِ مِنَ ٱلبناءِ والمكان، بل هو تصحيحٌ لِلعالَم الذي يَموجُ من حَوْلِهِ ويضطرب؛ فإنَّ في الحياةِ أسبابَ الزَّيغ[1] والباطلِ والمنافَسَةِ والعداوةِ والكَيْدِ ونحوِها، وهذه كلُّها يمحوها ٱلمسجدُ إِذْ يجمعُ الناسَ مراراً في كلِّ يوم على سلامةِ الصدر، وبراءةِ القلْب، وروحانيَّةِ النفس؛ ولا تدخلُهُ إنسانيةُ الإنسانِ إلَّا طاهرةً منزَّهةً مُسْبِغَةً[2] على حدودِ جسمِها من أعلاهُ وأسفلِهِ شِعارَ ٱلطُّهْرِ ٱلذي يُسمَّى ٱلوضوء، كأنَّما يغْسلُ الإنسانُ آثارَ الدنيا عن أعضائِهِ قبلَ دخولِهِ المسجد.

ثم يستوي الجميعُ في هذا المسجدِ ٱستواءً واحداً، ويقِفونَ موقفاً واحداً، ويخشعونَ خشوعاً واحداً، ويكونونَ جميعاً في نفسيَّةٍ واحدة؛ وليسَ هذا وحدَه، بل يَخِرُّونَ إلى الأرضِ[3] جميعاً ساجدينَ للَّهِ؛ فليسَ لِرأسٍ على رأسٍ ٱرتفاع، ولا لِوجهٍ على وجهٍ تمييز؛ ومن ثَمَّ فليسَ لِذاتٍ على ذاتٍ سلطان. وهل تُحقِّقُ الإنسانيَّةُ وَحْدَتَها في الناسِ بأبدعَ من هذا؟ ولَعمري أين يجدُ العالَمُ صوابَهُ إلَّا هٰهنا؟

فَالمسجدُ هو في حقيقتِه موضعُ الفكرةِ الواحدةِ الطاهرةِ المصحِّحةِ لِكلِّ ما يَزيغُ بهِ ٱلاجتماع. هو فكْرٌ واحدٌ لِكلّ الرؤوس؛ ومن ثَمَّ فهو حَلٌّ واحدٌ لِكلِّ المشاكل، وكما يُشَقُّ النهرُ فتقفُ ٱلأرضُ عندَ شاطئيهِ لا تتقدَّم، يُقامُ ٱلمسجدُ فتقِفُ الأرضُ بمعانيها التُّرابيَّةِ خلْفَ جُدرانهِ لا تَدْخُله.

* * *

وما حَرَكةٌ في ٱلصلاةِ إلَّا أوّلُها «اللَّهُ أكبرُ» وآخرُها «اللَّهُ أكبرُ»؛ ففي ركعتينِ مِن كلِّ صلاةٍ إحدى عشرةَ تكبيرةً يَجْهَرُ المصلُّونَ بها بلسانٍ واحد؛ وكأنّي لم أفطنْ لِهذا من قبل، فأيُّ زمامٍ سياسيّ لِلجماهيرِ وروحانيَّتِها أشدُّ وأوثقُ من زِمامِ هذه الكلمةِ التي هي أكبرُ ما في الكلامِ الإنسانيّ؟

* * *

وَلمَّا قُضيَتِ ٱلصلاةُ سلَّمْتُ على ٱلمَلَكِ وسَلَّم عليّ، ورأيْتُهُ مقبِلاً محتفياً، ورأيتُني أثيراً في نفسِه، وجالَتْ في رأسي الخواطرُ فتذكَّرتُ القصةَ التي أريدُ أنْ أكتبَها؛ وأن المؤذِّنَ يكررُ في خاتمةِ أذانِه: «الله أكبرُ الله أكبر» فإذا. . .

---

(١) الزيغ: الخروج عن جادّة الصواب.

(٢) مسبغة: ساترة.

(٣) يخرّون إلى الأرض: يقعون.

وقلتُ: لَأسْألَنَّه، وما أعظَمَ أنْ يكونَ في مقالتي أسطرٌ يُلْهِمُها مَلَكٌ مِنَ الملائكة! ولم أكدْ أرفعُ وجهي إليهِ حتى قال:

«. . . فإذا لَطْمتانِ على وجهِ الشيطان، فَوَلّى مُدْبراً[1] ولم يُعَقِّبْ[2]؛ ووَضعَتِ ٱلكلمةُ الآلهيَّةُ معناها في موضعِهِ من قلبِ ٱلفتاة، فَلأياً بِلأيٍ ما نَجَت.

إنَّ الدينَ في نفسِ ٱلمرأةِ شعورٌ رقيق، ولكنَّهُ هو ٱلفُولاذُ ٱلسميكُ ٱلصُّلْبُ ٱلذي تُصفَّحُ بِهِ أخلاقُها المدافِعة.

اللَّهُ أكبرُ! أتدري ماذا تقولُ الملائكةُ إذا سمعَتِ ٱلتكبير؟ إنَّها تُنْشدُهذا النشيد:

* * *

بَيْنَ الوقتِ والوقتِ منَ اليوم تَدُقُّ ساعةُ الإسلامِ بهذا الرَّنين: اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، كما تدقُّ في موضِعٍ لِيتكلمَ ٱلوقتُ برنينِها.

* * *

اللَّهُ أكبر! بَيْنَ ساعاتٍ وساعاتٍ مِنَ اليوم تُرْسِلُ الحياةُ في هذه الكلمةِ نداءَها تهتِفُ: أيُّها المؤمن! إنْ كُنْتَ أصَبْتَ في الساعاتِ التي مَضَتْ، فٱجتهدْ لِلساعاتِ التي تتلو؛ وإنْ كُنْتَ أخطأْتَ، فكَفِّرْ وَٱمْحُ ساعةً بساعة؛ الزمنُ يمحو ٱلزمن، والعملُ يُغَيِّر العملَ ودقيقةٌ باقيةٌ في العمرِ هي أملٌ كبيرٌ في رحمةِ الله

* * *

بينَ ساعاتٍ وساعات، يتناولُ المؤمنُ ميزانَ نفسِهِ حينَ يسمع: اللَّهُ أكبرُ، لِيعرفَ ٱلصِّحَّةَ وٱلمرضَ من نِيَّتِه؛ كما يَضَعُ ٱلطبيبُ لِمريضِهِ بينَ ساعاتٍ وساعاتٍ مِيزانَ ٱلحرارة.

* * *

اليومُ الواحدُ في طبيعةِ هذهِ الأرضِ عُمْرٌ طويلٌ لِلشرّ، تكادُ كلُّ دقيقةٍ بِشَرِّها تكونُ يوماً مختوماً بِلَيْلٍ أسود؛ فيجبُ أنْ تَقسِمَ الإنسانيَّةُ يومَها بعددِ قارَّاتِ الدنيا الخَمْس، لِأنَّ يومَ الأرضِ صورةٌ مِنَ الأرض؛ وعندَ كلِّ قسم: منَ الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعِشاء ـ تصيحُ ٱلإنسانيةُ المؤمنةُ مُنَبِّهةً نفسَها: اللَّهُ أكبر، اللَّهُ أكبر!

* * *

(1) ولّى مدبراً: فرّ، هرّب.

(2) لم يعقّب: لم يلتفت.

بينَ ساعاتٍ وساعاتٍ مِنَ اليوم يَعْرِضُ كلُّ مؤمنٍ حسابَه، فيقومُ بينَ يَدَي ٱللَّهِ ويرفعُهُ إليه. وكيفَ يكونُ مَنْ لا يزالُ ينتظرُ طولَ عُمرِهِ فيما بينَ ساعاتٍ وساعاتٍ ـ اللَّهُ أكبر . . . ؟

* * *

بين الوقْتِ والوقتِ مِنَ النهارِ والليلِ تُدَوّي كلمةُ الروح: اللَّهُ أكبر. ويُجيبها الناسُ اللَّهُ أكبر. لِيعتادَ الجماهيرُ كيف يُقادُون إلى الخيرِ بسهولة، وكيف يُحقِّقونَ في الإنسانيةِ معنى ٱجتماعِ أهلِ البيتِ الواحد؛ فتكونَ ٱلاستجابةُ إلى كلِّ نِداءٍ ٱجتماعيٍّ مغروسةً في طبيعتِهم بغيرِ ٱسْتِكْراه.

* * *

النفسُ أسْمى مِنَ المادّةِ الدنئية، وأقوى مِنَ الزمنِ المخرّب، ولا دينَ لِمَنْ لا تشمئزُّ نفسُهُ مِنَ الدناءَةِ بأنَفَةٍ طبيعيَّة، وتحملُ همومَ الحياةِ بقوَّةٍ ثابتة.

لا تضطربوا؛ هذا هو النظام. لا تنحرفوا؛ هذا هو النَّهْج[1]. لا تتراجَعوا؛ هذا هو النداء. لن يَكبرَ عليكم شيءٌ ما دامَتْ كلمُتكم: اللَّهُ أكبر . . . !

---

(١) النَّهج: الطريق.

في اللَّهبِ ولا تحترق

أفي ٱلممكنِ هذا؟

لَعُوبٌ حَسنَةُ الدَّلّ، مُفاكِهةٌ[١] مُداعِبة، تُحيي ليلَها راقصةً مغنية؛ حتى إذا ٱعتدلَ الليلُ لِيمضيَ، وٱنتبَهَ الفجرُ لِيُقْبِل ـ ٱنكفأتْ إلى دارِها[٢] فَنَضَتْ وَشْيَها[٣]، وخرجَتْ من زينتِها، وخلعَتْ رُوحاً ولبَستْ روحاً، وقالَتْ: اللهُمَّ إليك، ولبَّيكَ اللهُمَّ لبَّيك. ثم ذهَبتْ فتوضأَتْ وأفاضَتِ ٱلنورَ عليها، وقامَتْ بين يدي ربِّها تُصلي...!

* * *

هي حسناءُ فاتنة، لو سَطَع نورُ القمر من شيءٍ في ٱلأرضِ لَسطَع من وجهها. وما تراها في يوم إلّا ظهرَتْ لَكَ أحسنَ مِمَّا كانَت، حتى لتظنَّ أنَّ الشمسَ تَزيدُ وجهَها في كلِّ نهَارٍ شُعاعةً ساحرة، وأنَّ كلَّ فجرٍ يتركُ لها في الصبحِ بَريقاً ونَضْرة من قطَراتِ النَّدى.

وتحسبُ أنَّ لها دَماً يَطْعمُ فيما يَطعمُ أنوارَ ٱلكواكب، ويشربُ فيما يشربُ نسماتِ ٱلليل.

وإذا كانَتْ في وَشْيها وتَطارِيفِها وأصباغِها وحُلاها لم تجدْها ٱمرأة، ولكنْ جَمرةً في صورةِ ٱمرأة؛ فلها نورٌ وبصيصٌ ولهَب، وفيها طبيعةُ الإحراقِ.... إنَّ الذي وضَع على كلِّ جمالٍ ساحرٍ في الطبيعةِ خاتَمَ رهْبة، وضعَ على جمالِها خاتَمَ قُرصِ ٱلشمس.

فإذا رأيْتَها بتلك الزينةِ في رقصِها وتَثنِّيها، قلْتَ: هذه روضةٌ مُفْتنَّة ٱشتهَتْ أنْ تكونَ ٱمرأةً فكانَت، وهذا الرقصُ هو فنُّ النسيمِ على أعضائِها.

وهي متى نفذَتْ إلى البقعةِ المجدِبةِ من نفسِكَ أنشأَتْ في نفسِكَ ٱلربيعَ ساعةً أو بعضَ ساعة.

---

(١) مفاكهة: مرحة، خفيفة الظلّ.

(٢) انكفأت إلى دارها: عادت.

(٣) نضت وشيها: أزالته.

وتنسجمُ أنغامُ الموسيقى في رشاقتِها نَغْمةً إلى حركة؛ لأنَّ جسَمَها الفاتنَ الجميلَ هو نفسُهُ أنغامٌ صامتةٌ تُسمَع وتُرى في وقتٍ معاً.

وتنسكِبُ روحُها ٱلظريفةُ بينَ ٱلرقصِ وٱلموسيقى، لِتُخرجَ لك بظَرفِها صراحةَ الفنِّ من إبهامين، كلاهما يُعاوِنُ الآخر.

وهي في رقصِها إنَّما تفسرُ بحركاتِ أعضائِها أشواقَ ٱلحياةِ وأفراحَها وأحزانَها، وتزيدُ في لغةِ الطبيعةِ لغةَ جسمِ ٱلمرأة.

وكأنَّ الليلَ والنهارَ في قلبِها؛ فهي تبعثُ لِلقلوبِ ما شاءَتْ ضَوءاً وظُلْمة.

وهي إلى القِصَر، غيرَ أنَّكَ إذا تأملْتَ جمالَها وتمامَها، حسْبتَها طالَتْ لِساعتِها.

وإلى النحافة، غيرَ أنَّكَ تنظرُ فإذا هي رابِيةٌ كأنَّ بعضَها كانَ مختبئاً في بعض.

ويُخيلُ إليك أحياناً في فنٍّ من فنونِ رقصِها أنَّ جسمَها يتثاءَبُ[1] برعشةٍ مِنَ الطرب، فإذا جسمُك يهتزّ بجوابِ هذه الرّعشة، لا يملكُ إلَّا أنْ يتثاءَب... ويُجَنُ رقصُها أحياناً، ولكنْ لِتحقّقَ بجنونِ ٱلحركةِ أنَّ العقلَ الموسيقيَّ يُصرِّفُ كلَّ أعضاءِ جسمِها.

ومهما يكنْ طيشُ ٱلفنِّ في تأوُّدِها ولَفتِتها ونظرتِها وٱبتسامِها وضحكِها ـ ففي وجهِها دائماً علامةُ وقارٍ عابسةٌ تقولُ لِلناس: اِفْهَموني.

* * *

ولمَّا رأيْتُها شَهِدَ قلبي لها بأنَّ على وجهِها معَ نورِ الجمالِ نورَ الوضوء؛ وأنَّها متحرّزةٌ ممتنعةٌ في حِصْنٍ من قلبِها ٱلمؤمن، يبسطُ الأمنَ والسلامةَ على ظاهرِها؛ وأنَّ لها عيناً عذراءَ لا تُحاوِلُ التعبير، لا سؤالاً ولا جواباً ولا ٱعتراضاً بينَهما؛ وأنَّ قوةَ جمالِها تستظهِرُ بقوةِ نفسِها، فيكونُ ما في جمالِها الخواطر، ويُرغمُ الإعجابَ أنْ يكونَ ذُهولاً وحَيرة، ويُكرِهُ ٱلحُبَّ أنْ يرجعَ مَهابةً وٱحتشاماً.

والروايةُ كلُّها في باطنِها تظهرُ على ضوءٍ من مصباحِ قلبِها، وما وجهُها إلا ٱلشاشةُ ٱلبيضاءُ لِهذه «السيما»، وهل يكونُ على الوجهِ إلَّا أخْيِلَةُ القلبِ أَوِ ٱلفكر؟

وعندي أنَّ ٱلمرأةَ إذا كانَ لها رأيٌ دينيٌّ ترجعُ إليه، وكانَ أمرُها مجتمِعاً في

---

(١) يتثاءب: يتمطّى دلالة على الحيوية والنشاط.

هذا الرأي، وكانتْ أخلاقُها محشودةً[1] لَه، متَحفِّلةً[2] بِه ـ فتلك هي الياقوتةُ التي تُرمى في اللهبِ ولا تحترق، وتظلُّ مَعَ كلِّ تجربةٍ على أولِ مُجاهدَتِها؛ إذْ يكونُ لها في طبيعةِ تركيبِها الياقوتيّ ما تهزمُ بِهِ طبيعةَ التركيب الناريّ.

وليسَ مِن ٱمرأةٍ إلّا وقد خلقَ ٱللّهُ لها طبيعةً ياقوتيَّة، هي فطرتُها الدينيةُ التي فيها: إنْ بقيَتْ لها هذه بقيتْ معها تلك؛ ولكنّها حينَ تنخلعُ من هذه الفِطرةِ تَخذلُها[3] ٱلفِطرةُ والطبيعةُ معاً؛ فيجعلُ اللّهُ عِقابَها في عملِها، ويَكلُها إلى نفسِها؛ فإذا هي مقبلةٌ على أغلاطِها ومَساوِئِها بطُرُقٍ عقليَّةٍ إنْ كانَتْ عالِمةً، وبطرقٍ مفضوحةٍ[4] إنْ كانَتْ جاهِلَة. وما بُدٌّ أنْ تَستَسِرَّ بطِباعٍ إمَّا فاسدةٍ وإمَّا فيها قوةُ الاستحالةِ إلى الفساد؛ ويرجعُ ضميرُها الخالي محاوِلاً أنْ يمتلِىءَ من ظاهرِها، بعدَ أنْ كانَ ظاهرُها هو يمتليءُ من ضميرِها، وتُصبحُ ٱلمرأةُ بعدَ ذلك في حكمِ أسبابِ حياتِها، مصرَّفةً بهذه الأسباب، خاضعةً لِمَا يُصرِّفُها؛ ويُذهبُ الدِّينَ ويَنزلُ في مكانِهِ الشيطان؛ ويزولُ ٱلاستقرارُ ويحلُّ في محلِّهِ ٱلاضطرابُ، وتنطفِىءُ الأشعةُ التي كانَتْ تُذيبُ الغُيومَ وتمنعُها أنْ تتراكم، فإذا ٱلغيومُ ملتفٌّ بعضُها على بعض؛ وتُخذَلُ القوةُ الساميةُ التي كانَتْ تنصرُ ٱلمرأةَ على ضعفِها فتنصرُها بذلك على أقوى الرجال؛ فإذا المرأةُ من الضعفِ إلى تَهَافُت، تغلبُها الكلمةُ الرقيقةُ، وتغترُّها الحيلةُ ٱلواهنة[5]، وتُوافقُ ٱنخداعَها كلُّ رغبةٍ مزيَّنة، ويستذلُّها طمعُها قبلَ أنْ يستذلَّها ٱلطامعُ فيها؛ ولْتكنْ بعدَ ذلك مَنْ هي كائنةٌ أصلاً وحَسَباً وتهذيباً وعقلاً وأدباً وعِلْماً وفلسفة، فلو أنَّها ٱمرأةٌ مِنَ «الأسمنت المسلَّح» لتفتَّتتْ بالطبيعةِ التي في داخِلها، ما دَامتِ ٱلطبيعةُ متوجِهةً إلى الهدْمِ بعدَ أنْ فقدَتْ ما كانَ يُمسِكُها أنْ تَهدِمَ وأنْ تنهدم.

لقدْ رقَّ الدينُ في نسائِنا ورجالِنا. فهلْ كانَتْ علامةُ ذلك إلّا أنَّ كلمةَ: «حرام، وحلال» قد تَحَولَتْ عندَ أكثرِهِم وأكثرِهِنَّ إلى «لائق، وغيرِ لائق» ثم نزلَتْ عندَ كثيرٍ منَ الشبانِ والفتياتِ إلى «مُعاقَبٍ عليهِ قانوناً، ومُباحٍ[6] قانوناً. . .» ثمَّ ٱنحطَتْ آخراً عندَ ٱلسوادِ والدَّهماءِ إلى «ممكِن، وغيرِ ممكِن. . .»؟

* * *

---

(١) محشودة: جاهزة.

(٢) متحفِّلة به: مرحبة به.

(٣) طرق مفضوحة: مكشوفة.

(٤) تخذل: تترك بلا مساعدة.

(٥) الواهنة: المتهالكة الضعيفة.

(٦) مباح: مسموح.

قالَتِ ٱلياقوتة، أعني الراقصة:

ـ أخَذني أبي من عهد الطفولة بالصلاة، وأثبَتَ في نفسي أنَّ الصلاةَ لا تَصِحُّ بالأعضاء إنْ لم يكنِ ٱلفكرُ نفسُهُ طاهراً يُصلي لِلَّهِ معَ الجسم، فإنْ كانَتِ الصلاةُ بالجسمِ وحدَهُ لم يزدَدِ ٱلمرءُ من رُوحِ الصلاةِ إلَّا بُعْداً. وقَرَّ هذا في نفسي وٱعتدّتُه، إذْ كُنْتُ أتعبَّدُ على مذهبِ الإمامِ الشافعيِّ (رضيَ ٱللَّهُ عنه)، فأُصَحِحُ الفكرَ، وأستحضرُ النيَّةَ في قلبي، وأنحصرُ بكليٍّ في هذا الجزءِ الطاهرِ قبلَ أنْ أقولَ: «اللَّهُ أكبر»؛ وبذلك أصبحَ فكري قادراً على أنْ يخلَعَ الدنيا متى شاءَ ويلبسَها، وأنْ يخرجَ منها ثم يعودَ إليها؛ ونشأَتْ فيهِ ٱلقوةُ المُصمِّمةُ التي تجعلُهُ قادراً على أنْ ينصرفَ بي عمَّا يُفسِدُ رُوحَ الصلاةِ في نفسي، وهي سرُّ الدينِ وعمادُه.

ويا لها حكمةً أنْ فرضَ اللَّهُ علينا هذه الصلواتِ بينَ ساعاتٍ وساعات، لِتبقَى الروحُ أبداً إمّا متَّصِلةً أو مهيَّأةً لِتتَّصل. ولنْ يَعجزَ أضعفُ الناسِ معَ روحِ الدين أنْ يملِكَ نفسَهُ بضعَ ساعات، متى هو أقرَّ اليقينَ في نفسِهِ أنَّهُ متوجِّهٌ بعدَها إلى ربِّهِ، فخافَ أنْ يقفَ بين يديهِ مُخْطئاً أو آثماً؛ ثم هو إذا ملكَ نفسَهُ إلى هذه الفريضةِ ذكرَ أنَّ بعدَها الفريضةَ الأخرى، وأنَّها بضعُ ساعاتٍ كذلك، فلا يزالُ من عزيمةِ النفسِ وطهارتِها في عُمرٍ على صيغةٍ واحدةٍ لا يتبدّلُ ولا يتغيَّر، كأنَّهُ بجملتِه ـ مهما طال ـ عملُ بِضعِ ساعات.

قالَتِ ٱلياقوتة: ورأيتُ أبي يُصلي، وكذلك رأيْتُ أمِّي، فلا تكادُ تُلِمُّ بي فكرةٌ آثمةٌ إلَّا ٱنتصبا أمامي، فأكرَهُ أنْ أستَلئِمَ إليهما فأكونَ الفاسدةَ وهما الصالحان، واللئيمةَ وهما الكريمانِ؛ فدمي نفسُهُ ـ ببركةِ الدينِ ـ يحرسُني كما ترى.

قلْتُ: فهذا الرقص. . .؟

قالَتْ: نعم، إنَّهُ قُضيَ عليّ أنْ أكونَ راقصة، وأنْ ألتمسَ العيشَ من أسهلِ طُرُقِ وألْينِها وأبعدِها عنِ ٱلفساد، وإنْ كانَ ٱلفسادُ ظاهرَها؛ أُريد: الرقص، أوِ الخدمةَ في بيت، أوِ العملَ في السوق. وأنا مُطيقةٌ لحريتي في الأولى، ولكنِّي لن أملكَها في الأخيرتينِ ما دامَ عَليَّ هذا الميسمُ[1] مِنَ ٱلحسن؛ وكم مِن ٱمرأةٍ متحجبّة وهي عاريةُ ٱلروح، وكم من سافرةٍ[2] وروحُها متحجِّبة؛ إنْ كنْتَ لا تعلمُ هذا

---

(١) الميسم: الطابع.

(٢) سافرة: كاشفة عن رأسها.

فٱعلمْه؛ وليسَ السؤالُ ما سألْتَ، بل يجبُ أنْ يكونَ وضعُهُ هكذا: هل ما ترى هو في ثيابي فقط، أو هو في ثيابي ونفسي؟

ها أنتَ ذا تُغَلْغِلُ نظرتَكَ في عينيَّ إلى المعاني البعيدة، فهل تَرى عينيْ راقصة؟

قلْتُ: لا وَاللَّهِ، ما أرى عينَيْ راقصة، ولكنْ عيني مُجاهِدٍ يهزمُ كلَّ يومٍ شيطاناً أو شياطين.

إنِّي لَأرقصُ وأُغني، ولكنْ أتدري ما الذي يُحرزُني مِنَ العاقبة، ويحميني من وباءِ[1] هذا الجمهورِ المريضِ النفس؟ فٱعلمْ أنِّي لا أشعرُ بالجمهورِ ولا بِرُوحِ ٱلمسرح، إلَّا كما أشعرُ بروحِ ٱلمقبرةِ وٱلمشيِّعينَ إليها؛ فهيهاتِ بَعْدَ ذلك هيهات! ومن هذا لا أُحِسُّ بقلوبهِم ولا بشهوَاتِهم، وما أنا بينهم إلَّا كالتي تؤدّي عملاً فنيًّا على مَلأ منَ الأساتذةِ الممتحنَين، والنظَّارَةُ يحكمون لها أو عليها؛ فهيِ في فكرةِ ٱلامتحان، وهم لأنفسهِم فيما شاءوا. . .

ولسْتُ أُنكِرُ أنَّ أكثرَهم، بل جميعَهم، يُخطىءُ في طريقةِ تناولِهِ السيَّالَ الكهربائي المنبعثَ من نفسي، ولكنْ لا عَلَيَّ، فهذا السيالُ نفسُهُ ينبعثُ مثلُهُ مِنَ الزهر، ومنَ القمرِ والكواكب، ومنْ كلِّ ٱمرأةٍ جميلةٍ تمشي في الطريق، ومن كلِّ جميلٍ في الطبيعة، وحتى مِنَ الأمكنةِ والبِقاعِ إذا كانَ لإنسانٍ فيها ذكرياتٌ قديمة، أو نبَّهَتْ بِبعضِ معانيها بعضَ معانيه؟

قالَتِ الياقوتة: فأنا كما ترى؛ أضطربُ وجوهاً مِنَ ٱلاضطربِ في جذْبِ الناسِ ودَفْعِهم معاً، وإذا سَلِمَتِ المرأةُ من أنْ يغلبَها الطمعُ على فكرِها، سلمَتْ من أنْ يغلبَها الرجلُ عن فضيلتَها. وفي النساءِ حواسُّ مغناطيسيةٌ كاشِفَةٌ منبِّهةٌ خُلقَتْ فيهنَّ كالوقايةِ الطبيعية، لِتسلَمَ بها ٱلمرأةُ منْ أن تُخْطِرَ عِفتَها لِغرض، أو تُغرّرَ[2] بنفسِها لإنسان، فإنَّك لَتكلِّمُ ٱلمرأة، وتُزيّنُ لها ما تُزيّن، وهي شاعرةٌ بِما في نفسِك، وكأنَّها ترى ما في قلبِك ينشأ ويتدرجُ تحتَ عينيها، وكأنه في وعاءٍ مِنَ الزجاجِ الرقيقِ الصافي تحملُه على كفِّكَ يَشِفُّ ويفضَح، لا في قلبٍ من لحمٍ ودمٍ تُخفيهِ بينَ جنبيك فيُطوى ويُكتَم.

وليس يُبْطِلُ هدايةَ هذه الحاسةِ في ٱلمرأةِ إلَّا طمعُها الماديُّ في المالِ والمتاع

---

(١) وباء: مرض

(٢) غررّ بنفسه: خاطر معرضاً نفسه للهلاك والضياع.

والزينة؛ فانَّ هذا الطمعَ هو القوّةُ التي يغلبُ بها الرجلُ ٱلمرأة، فبنفْسِها غَلَبَها! وإذ تبذَّلَ طمعُ ٱمرأةٍ في رجلٍ فهي مُومس، وإنْ كانَتْ عذراءَ في خِدْرِها.

ويا عجبًا! إنَّ وجودَ الطبيعةِ في النفسِ غيرُ الشعورِ بها؛ فليسَ يُشعرُ المرأةَ بتمام طبيعتِها النسائيةِ إلَّا الزينةُ والمتاعُ وما بهِ المتاعُ والزينة؛ فكأنَّ الحِكْمةَ قد وَقَتْهاَ[1] وعرَّضتْها في وقتٍ معاً، لِتكونَ هي الواقيةَ أوِ الْمُخْطِرَةَ لِنفسِها، فبِعملِها تُجْزَى، ومن عملِها ما تَضحَكُ وتَبكِي.

قالتِ الياقوتة: ولذا أخذْتُ نفسي ألَّا أطمعَ في شيءٍ من أشياءِ الناس، وسَخوْتُ عن كلِّ ما في أيديهم؛ فما يتكرِّمونَ عليَّ إلا بهلاكي، وحسْبي أنْ يبقَى لِيُعينَ قلبي ضوءُهما المُبصر. وأنا أعتمدُ على شهامةِ الرجل، فإنْ لم أجدْها علمْتُ أنّي بإزاءِ حيوانٍ إنسانيّ، فأتحذَّرُهُ[2] حَذَري من مصيبةٍ مقبلة. وإذا جاءَني وَقْحٌ خَلَق اللّهُ وجهَهُ الحسَنَ مَسبَّةً لَه، أو خلقَهُ هو مَسَبَّةً لوجههِ القبيح، ذكَرْتُ أنّي بعدَ ساعةٍ أو ساعاتٍ أقومُ إلى الصلاة، فلا يزدادُ مني إلَّا بُعْداً وإنْ كانَ بإزائي، فأُغلِظُ لَهُ وأتسخَّطُ، وأُظهِرُ ٱلغضبَ وأصفعُهُ صَفعتي.

قلْت: وما صفعتُك؟

قالت: إنَّها صفعةٌ لا تَضْربُ الوجهَ ولكنْ تُخجلُه.

قلْتُ: وما هي؟

قالتِ الياقوتة: هي هذه الكلمة؛ أما تعرفُ يا سيدي أنّي أُصلي وأقولُ «اللّهُ أكبر» فهل أنتَ أكبر...؟ أأقيمُ لكَ البرهانَ على صَغارِكَ وحقارتِك، أأنادي الشرطيّ...؟!

***

تختنقُ بالرقص وتنتعشُ بالصلاة، وفي كلِّ يومٍ تختنقُ وتنتعش.

ولكنّي لا أزالُ أقول:

أفي الممكنِ هذا؟

أفي المترادفِ شَرْعاً: رَقَصَتْ وصلَّتْ...؟

(١) وقتها: حمتها.

(٢) أتحذره: احتاط منه.

المشكلة

١

قالَتْ لي صاحبَةُ «الجمالِ البائسِ» فيما قالَتْ: إنَّ المرأةَ الجميلةَ تُخاطِبُ في الرجُلِ الواحدِ ثلاثةً: الرجلَ، وشيطانَه، وحيوانَه. فأمَّا الشيطانُ فهو مَعَنا وإنْ لم نكَنْ معَه... وأمَّا الحيوانُ فَلهُ في أيدينا مَقَادَةٌ[1] مِنَ الغَباوة، ومَقَادةٌ منَ الغريزة، إذا شمَسَ في واحدةٍ أصْحَبَ في الأخرى وٱنقاد؛ ولكنَّ المشكلةَ هي الرجلُ تكونُ فيهِ رجولة.

***

نعم إنَّ المشكلةَ التي أعْضَلَتْ على الفسادِ هي في الرجلِ القويِّ الرجولةِ يعرفُ حقيقةَ وجودِهِ وشرفَ منزلتِه، ولهذا أوجبَ الإسلامُ على المسلمِ أنْ يكونَ بينَ الوقتِ والوقتِ في اليومِ خارجاً مِنْ صلاة.

وإنمَّا الرجولةُ في خلالٍ ثلاث: عَمَلِ الرجلِ على أنْ يكونَ في موضعِهِ منَ الواجبات كلِّها قبلَ أنْ يكون في هواه؛ وقبولُهُ ذلك الموضعَ بقبولِ العاملِ الواثقِ من أجْرِهِ العظيم، والثالثةُ: قدْرتُهُ على العملِ والقَبولِ إلى النهاية.

ولن تقومَ هذه الخِلالُ[2] إلَّا بثلاثٍ أخرى: الإدراكُ الصحيحُ لِلغايةِ من هذه الحياة؛ وجعلِ ما يُحِبُّهُ الإنسانُ وما يكرهُهُ مُوافِقاً لِمَا أدركَ من هذه الغاية؛ والثالثةُ القدرةُ على ٱستخراجِ معاني الألمِ فيما أحبَّ وكَرِهَ على السواء.

فالرجولةُ على ذلك هي إفراغُ النفسِ في أسلوبٍ قويٍ جَزْلٍ[3] مِنَ الحياة، مُتَسَاوِقٍ[4] في نَمطِ الاجتماع، بليغٍ بمعاني الدين، مصقولٍ بجمالِ الإنسانية، مُسترسِلٍ ببلاغةٍ وقوةٍ وجمالٍ إلى غايتِهِ السامية.

---

(١) مقادة: رسن وهو للدواب.
(٢) الخلال: المزايا والخصائص.
(٣) جزل: آسر بليغ.
(٤) متساوق: منسجم ومتناغم.

ولِهذه الحِكْمةِ أسقطَتِ الأديانُ من فضائِلها مبدأَ أرضاءِ النفسِ في هواها، فلا معاملةَ بهِ معَ ٱللَّهِ في إثم أو شرّ؛ وأسقطَهُ الناسُ من قواعدِ معاملتِهم بعضِهِم مع بعض، فلا يقومُ بِهِ إلَّا ٱلغِشُّ وٱلمكرُ وٱلخديعة، وكلُّ خارجٍ على شريعةٍ أو فضيلةٍ أو منفعةٍ ٱجتماعية، فإنمَّا ينزعُ إلى ذلك إرضاءً لِنفسِهِ وإيثاراً لها ومُوافَقةً لِمحبتِها وتَوفيةً لِحظِّها؛ وعملُهُ هذا الذي يُلْبِسُهُ الوصفَ الاجتماعيَّ الساقِطَ ويُسميهِ بأسمِهِ في اللغة، كالرجلِ الذي يُرضِي نفسَهُ أنْ يسرقَ لِيغتنِي، فإذا أعْطَى نفسَه رضاها فهو اللصّ؛ وكالتاجرِ في إرضاءِ طمعِهِ هو الغاشّ، وكالجنديّ في إرضاءِ جُبنِهِ هوَ الخائن، وكالشابِّ في إرضاءِ رذيلتِهِ هوَ الفاسق، وهلمّ جَرًّا وهلمّ جَرْجَرَة. . .

* * *

وأمَّا بعدُ، فالقصةُ في هذه الفلسفةِ قصةُ رجلٍ فاضلٍ مهذَّبٍ قد بلغَ منَ العِلْمِ والشبابِ والمال، ثمَّ ٱمتحَنَتْهُ الحياةُ بمشكلةٍ ذهبَ فيها نومُ ليلِهِ وهدوءُ نهارِهِ حتى كَسَفَتْ بالَهُ[1] وفرَّقَتْ رأيَه، وكابدَ[2] فيها الموتَ الذي ليسَ بالموت، وعاشَ بالحياةِ التي ليَستْ بالحياة.

قال: فقدْتُ أمِّي وأنا غلامٌ أحوجَ ما يكونُ ٱلقلبُ إلى الأمّ، فخشيَ عليَّ أبي أنْ أستكينَ لِذلَّةِ فَقْدِها فيكونَ في نشأتي الذلُّ والضَّراعة، وكَبُرَ عليهِ أنْ أُحِسَّ فقدَها إحساسَ الطفلِ تموتُ أمُّهُ فيحملُ في ضَياعِها مثلَ حزنِها لوضاعَ هو منها؛ فعلَّمني هذا الأبُ الشفيقُ أنَّ الرجلَ إذا فَقَدَ أمَّهُ كانَ شأنُهُ غيرَ شأنِ الصبيّ، لأنَّ لَهُ قوةً وكبرياءً؛ وألقى في رُوعي أنّي رجلٌ مثلُه، وأنَّ أمَّهُ قد ماتَتْ عنهُ صغيراً فكانَ رجلاً مثلي ٱلآن. . .

وكانَ من بَعدِها إذا دعاني قال: أيُّها ٱلرجل. وإذا أعطاني شيئاً قال: خذْ يا رجل. وإذا سألَني عن شأني قال: كيفَ الرجل؟ وقلَّ يومٌ يمرُّ إلَّا أسمعنيها مراراً، حتى توهمْتُ أنَّ معي رجلاً في عقلي خلقتْهُ هذه الكلمة. وتَمامُ الرجل بشيئين: اللحيةُ في وجهِه، والزوجةُ في دارِهِ، فتجيءُ الزوجةُ بعدَ أنْ تظهرَ اللحيةُ لِتكونَ كِلتاهما قوةً له، أو وقاراً أو جمالاً، أو تكونَ كِلتاهما خشونة، أو لِتكونا معاً سوَادَينِ في الوجهِ والحياة. .

---

(١) كسفت باله: أحزنته.

(٢) كابد: صارع وجاهد.

أمَّا اللحيةُ لي أنا الرجلَ الصغيرَ فليسَ في يدِ أبي ولا في حيلتهِ أنْ يجيءَ بها، ولكنَّ الأخرى في يدِهِ وحيلتِه؛ فجاءَني ذاتَ نهار وقال لي: أيَّها الرجل! إنَّ فلانَةَ مُسَمَّاةٌ عليك[1] منذُ اليومِ فهي ٱمرأتُك فٱذهبْ لِترى فيك رجُلَها.

وفلانةُ هذه طفلةٌ من ذواتِ القُرْبى، فأفرحني ذلك وأبهجَني؛ وقلْتُ لِلرجلِ الذي في عقلي: أصبحْتَ زوجاً أيُّها الرجل...

وكانَ هذا الرجلُ الجاثمُ في عقلي هو غُروري يومئذٍ وكِبريائي، فكنْتُ أقعُ في الخطأ بعدَ الخطأ وآتي الحماقةَ بعدَ الحماقة، وكنْتُ طِفلاً ولكنَّ غُروري ذو لِحيةٍ طويلة...

* * *

ونشأْتُ على ذلك: صُلْبَ الرأي مُعْتَدًا بنفسي، إذا هَمَمْتُ مضَيْتُ، وإذا مضيْتُ لا ألْوي[2]، وما هو إلّا أنْ يخطرَ ليَ الخاطرُ فأركبَ رأسي فيه، ولأنْ تُكسَرَ لي يَدٌ أو رِجلٌ أهونُ عليَّ من أنْ يُكْسرَ لي رأيٌ أو حُكم؛ وأكسبني ذلك خيَالاً أكذبَ خيالٍ وأبعدَه، يخلُطُ عليَّ الدنيا خَلْطاً فيدَعُني كالذي ينظرُ في الساعةِ وهي أثنا عشَرَ رقماً لِنصفِ اليومِ الواحد، فيُطالِعُها اثني عشرَ شهراً للسنة...

وترامَتْ حرِّيتي بهذا الخيالِ فجاوزَتْ حدُودَها المعقولة، وبهذه الحريةِ الحمقاءِ وذلك الخيالِ الفاسد، كذَبَتْ عليَّ الفكرةُ والطبيعة.

ولسْتُ جميلَ الطلعةِ إذا طالعْتُ وجهي، ولكنِّي مع ذلك معتقِدٌ أنَّ الخطأَ في ٱلمرأة... إذْ هي لا تُظهِرُ الرجلَ الوضيءَ[3] الجميلَ الذي في عقلي: ولسْتُ نابغةً، ولكنَّ الرجلَ الذي في عقلي رجلٌ عبقريّ؛ وهذا الذي في عقلي رجلٌ متزوج؛ فيجبُ عليَّ أنا الطفلَ أنْ أكونَ رزيناً رزيناً[4] كوالدِ عشْرةِ أولادٍ في المدارسِ العليا...

وذهبْتُ بكلِّ ذلك أرى فلانةَ زوجتي، فأغلَقتِ ٱلبابَ في وجهي واختبأَتْ منِّي، فقلْتُ في نفسي: أيُّها الرجلُ، إنَّ هذا نُشُوزٌ وعِصْيانٌ، لا طاعةٌ وحُبّ. وساءَني ذلك وغمَّني وكَبُر عليّ، فأضمْرتُ لها الغَدْر، فثبَتَتْ بذلك في ذهني صورةُ (البابِ المغلَق)، وكأنَّه طلاقٌ بينَنا لا باب...

---

(١) فلانة مسماة عليك: تعبير عربي صحيح وذلك قبل العقد، وهو ما يسمى بمصطلح اليوم «مخطوبة لفلان».

(٢) لا ألوي: لا ألتفت.

(٣) الوضيء: الجميل.

(٤) رزيناً: عاقلاً.

قال: ثم شبَّ الرجلُ فكانَ بطبيعةِ ما في نفسِهِ كالزوجِ الذي يترقَّبُ زوجتَهُ الغائبةَ غَيبةً طويلة: كلُّ أيامِهِ ظمأً على ظمأ، وكلُّ يوم يمرُّ بهِ هو زيادةُ سنةٍ في عمرِ شيطانِه... وكانَ قدِ ٱنتهى إلى مدرستِهِ العالية، وأصبحَ رجلَ كُتُبٍ وعلوم وفِكْرٍ وخيال؛ فعرضَتْ له فتاةٌ كاللواتي يعرضْنَ لِلطلبةِ في المدارسِ العُلْيا، ما منهنَّ على صاحبِها إلا كالخيبةِ في امتحان... بيدَ أنَّ (الرجلَ) لم يعرفْ من هذه الفتاةِ إلَّا ٱلمرأة... ولم يكدْ يَسْتَشْرِفُ[1] لأواخرِها حتى سُمِّيتْ على غيرِهِ، فخُطِبَتْ، فزُفَّتْ؛ زُفَت بعدَ نصفِ زَوجٍ إلى زوج...

وعرفَ الرجلُ مِنَ الفلسفةِ التي دَرَسَها أنَّهُ يجبُ أنْ يكونَ حرًّا بأكثرَ مِمَّا يستطيع، وبأكثرَ من هذا الأكثر... فقالَها بملءِ فِيه، وقال لِلحريَّة: أنا لَكِ وأنتِ لي.

قالَها لِلحرية، فما أسرعَ ما ردَّتْ عليهِ ٱلحريةُ بفتاةٍ أخرى...

* * *

نقولُ نحن: وكانَ قد مضى على (البابِ المغلَقِ) تسعُ سنوات، فصارَ منهنَّ بينَ الشابِّ وبينَ زوجتِهِ العقليةِ تسعةُ أبوابٍ مغلَقة؛ ولكنَّها مع ذلك مسمَّاةٌ لَهُ، يقول أهلُه وأهلُها: (فلان وفلانة). وليسَ (البابُ المغلَق) عندَهمُ إلَّا الحياءَ والصيَّانة؛ وليسَتِ ٱلفتاةُ من ورائِه إلَّا العفافَ المنتَظِر؛ وليسَ الفتى إلَّا ابنَ الأبِ الذي سمَّى الفتاةَ له وحبَسَها على ٱسمِه؛ وليسَتِ القُربى إلَّا شريعةً واجبةَ الحقِّ نافذةَ الحكم.

وعندَ أهلِ الشرف، أنَّهُ مهما يبلغْ من حريةِ المرءِ في هذا العصرِ فٱلشرفُ مقيَّد.

وعندَ أهلِ الدين، أنَّ الزواجَ لا ينبغي أنْ يكونَ كزواجِ هذا العصرِ قائماً من أوَّلِهِ على معاني الفاحشة. وعِندَ أهلِ الفضيلةِ، أنَّ الزوجَةَ إنَّما هي لِبناءِ الأسرةِ، فإنْ بلغَ وجهُها الغايةَ مِنَ الحُسنِ أو لم يبلغ، فهو على كلِّ حالٍ وجهٌ ذو سُلطةٍ وحقوقٍ (رسميَّة) في الاحترام؛ لا تقومُ الأسرةُ إلَّا بذلك، ولا تقومُ إلَّا على ذلك.

وعندَ أهلِ الكمالِ والضمير، أنَّ الزوجةَ الطاهرةَ المخلِصةَ ٱلحُبَ لِزوجِها. إنمَّا هي معامَلةٌ بينَ زوجِها وبينَ ربِّه؛ فحيثما وضعَها من نفسِه في كرامةٍ أو مَهانة، وضعَ نفسَهُ عندَ ٱللَّهِ في مثلِ هذا الموضع.

---

(١) يستشرف: يستطلع.

وعندَ أهلِ العقلِ والرأي، أنَّ كلَّ زوجةٍ فاضلة، هي جميلةٌ جمالَ ٱلحقّ؛ فإنْ لم تُوجِبِ ٱلحُبَّ، وَجَبَتْ لها ٱلمودَّةُ وٱلرحمة.

وعندَ أهلِ ٱلمُروءةِ وٱلكرم، أنَّ زوجةَ الرجلِ إنَّما هي إنسانيتُهُ ومُروءتُهُ؛ فإنِ ٱحتملَها أعلنَ أنَّهُ رجلٌ كريم، وإنْ نَبذَها أعلنَ أنه رجلٌ ليسَ فيه كرامة.

أمَّا عندَ الشيطانِ (لعنَهُ ٱللَّهُ) فشروطُ الزوجةِ الكاملةِ ما تشترطُهُ الغريزة: الحُبّ، الحُبّ، الحُبّ!

* * *

قالَ الشابُ: وإذا أنا لم أتزوجِ ٱمرأةً تكونُ كما أشتهي جمالاً، وكما يشتهي فكري عِلْماً، كنتُ أنا المتزوجَ وحدي وبقي فكري عَزَباً... وقد عرفْتُ التي تصلحُ لي بجمالِها وفكرِها معاً، وتبوَّأتْ[1] في قلبي وأقمْتُ في قلبِها؛ ثم داخلْتُ أهلَها، فخلطوني بأنفسِهم، وقالوا: شابٌ وعَزَب... ومتعلمٌ وسَرِيّ... فلم يكنْ لِدارهم (بابٌ مغلَق)، حتى لو شئتُ أنْ أصِلَ إلى كريمتِهم في حرامٍ وصلْت، ولكنِّي رجلٌ يحملُ أمانةَ الرجولة...

أمَّا الفتاةُ فلسْتُ أدري ـ والله ـ: أفيها جاذبيةُ نَجم، أم جاذبيةُ ٱمرأة؛ وهل هي أنثى في جمالِها، أو هي الجمالُ السماويُّ أتى ينقِّحُ[2] الفُنونَ الأرضيةَ لأهلِ الفنّ؟

إذا ٱلتقيْنا قالَتْ لي بعينيها: هأنذي قد أرخيْتُ لكَ الزّمامَ، فهل تستطيعُ فراراً منّي؟ ونلتصقُ فتقولُ لي بجسمِها: أليَستِ ٱلدنيا كلُّها هنا، فهل في ٱلمكانِ مكانٌ إلَّا هنا؟ ونفترقُ فتحصُرُ لي الزمنَ كلَّهُ في كلمةٍ حينَ تقول: غداً نلتقي.

كلامُها كلامٌ متأدِّب، ولكنَّهُ في الوقتِ طريقةٌ منَ الخَلاعة، تلفتُك إلى فَمِها الحُلو؛ والحركةُ على جسمِها حركةٌ مُسْتَحِيَةٌ، ولكنَّها في الوقتِ عينِهِ كالتعبيرِ الفنيِّ المتجسمِ في التمثالِ العاري.

إنَّها ـ واللَّهِ ـ قد جعلَتْ شيطاني هو عقلي؛ أمَّا هذا العقلُ الذي يَنْصَحُ ويَعِظُ ويقول: هذا خيرٌ وهذا شرٌّ. فهو الشيطانُ الذي يجبُ أنْ أتبرأَ منه...

* * *

قال: وألَمَّ الأبُ بقصة فتاهُ، ويَحسبُها نَزْوَةً[3] مِنَ الشبابِ يُخمدُها الزواج،

---

(١) تبوّأت: اعتلت.

(٢) ينقّح: يميّز ويغربل.

(٣) نزوة: رغبة شديدة، شهوة.

فيقولُ في نفسِه: إنَّ لِلرجلِ نظرتينِ إلى النساء: نظرةً إليهِنَّ من حيثُ يختلفْنَ، فتكونُ كلُّ ٱمرأةٍ غيرَ الأخرى في الخيالِ والوهْم والمِزاج الشعري؛ ونظرةً إليهن من حيثُ يتساوَيْنَ في حقيقةِ الأنوثةِ وطبيعةِ ٱلاحترامِ الإنسانيّ، فتكونُ كلُّ ٱمرأةٍ كالأخرى ولا يتفاوْتنَ إلَّا بالفضيلةِ وٱلمنفعة ـ ويقرّرُ لِنفسِهِ أنَّ ٱبنَهُ رجلٌ متعلمٌ ذو دينٍ وبَصَرٍ، فلا ينظرُ النظرةَ الخياليَّةَ التي لا تقنعُ بِٱمرأةٍ واحدة، بل لا تزالُ تلتمسُ محاسنَ الجنسِ ومَفَاتنَه، وهي النظرةُ التي لايقومُ بها إلَّا بناءُ الشعرِ دونَ بناءِ الأسرة، ولا تصلُحُ عليها المرأةُ تلِدُ أولاداً لِزوجِها، بلِ ٱلمرأةُ تلِدُ المعانيَ لِشاعرِها.

ثم ٱحتاطَ في رأيه، فقدر أنَّ ٱبنَهُ ربما كانَ عاشقاً مفتوناً مسحوراً، ذا بصيرةٍ مدخولةٍ وقلْبٍ هواءٍ وعقْلٍ مُلتاث[1]، فيتمردُ على أبيهِ ويخرجُ عن طاعتِه، ويُحاربُ أهلَهُ وربَّهُ من أجلِ ٱمرأة، بَيْدَ أنَّهُ قال: إنّه هو والدي، وهو ربَّاهُ وأنشأهُ في بيتٍ فيهِ الدينُ والخُلُقُ وٱلشهامةُ وٱلنَّجدة، وأنَّ محاربةَ اللَّهِ بٱمرأةٍ لا تكونُ إلَّا عملاً من أعمالِ البيئةِ الفاسدةِ المستهتَرَة، حينَ تجمعُ كلَّ معاني الفسادِ والإباحةِ والاستهتارِ في كلمةِ (الحريَّة). وقال: إنَّ البيئةَ في العهدِ الذي كانَ من أخلاقِهِ الشرفُ والدينُ والمروءةُ والغيرةُ على العِرْض، لم يكنْ فيها شيءٌ من هذا، ولم يكنِ الأبناءُ يومئذٍ يعترضونَ آباءَهم فيمَنِ ٱختاروهُنّ، إذِ النسلُ هو ٱمتدادُ تاريخ الأبِ وٱلابنِ معاً، والأبُ أعرفُ بدنياهُ وأجدرُ أنْ يكونَ مُبَرّأً من ٱختلاطِ النظَرة، فيختارُ لِلدينِ والحَسَبِ والكمال، لا لِلشهوةِ والحُبِّ وفنونِ الخلاعة؛ ولا محلَّ لِلاعتراضِ بالعشقِ في بابٍ من أبوابِ ٱلأخلاق، بل محلُّهُ في بابِ الشهواتِ وحدَها.

ثم جَزَمَ الأبُ أنَّ الولَد الذي يجيءُ من عاشقينِ، حَرَيٌّ أنْ يرثَ في أعصابِهِ جنونَ ٱثنينِ وأمراضَهما النفسيةَ وشهواتِهِما الملتهبة؛ ولهذا وقفَ الشرعُ في سبيل الحُبِّ قبلَ الزواجِ لِوقايةِ الأمَّةِ في أولِها؛ ولهذا يكثرُ الضعفُ العصبيُّ في هذه المدنيَّةِ الأوربيةِ وينتشرُ بها الفساد، فلا يأتي جيلٌ إلَّا وهو أشدُّ ميلاً إلى الفسادِ مِنَ الجيلِ الذي أعقَبه.

ولم يكدْ ينتهي الأبُ إلى حيثُ ٱنتهى الرأيُ بِه، حتى أسرعَ إلى (البابِ المغلَقِ) يُهيىءُ لِلزفافِ ويتعجَّلَ لٱبْنِهِ المُطيع.. نكبةً ستَجيءُ في احتفالٍ عظيم..

* * *

---

(١) ملتاث: مجنون.

قال ٱلشابُ: وجُنَّ جُنوني؛ وقَدْ كانَ أبي مِنَ ٱحترامي بالموضِعِ الذي لا يُلْقَى منه، فلجأتُ إلى عمّي أستَدْفِعُ بهِ النكبةَ، وأتأيَّدُ بمكانِهِ عندَ أبي؛ وبثثتُهُ حزني[1] وأفضيْتُ إليهِ بشأني[2]، وقلْتُ له فيما قلْتُ: ٱفعلوا كلَّ شيءٍ إلا شيئاً ينتهي بي إلى تلك الفتاة، أو ينتهي بها إليّ؛ وما أُنكرُ أنّها من ذواتِ القُربى، وأنَّ في ٱحتمالي إيّاها واجباً ورجولة، وفي سَتْري لها ثواباً ومروءة، وخاصةً في هذا الزمنِ الكاسِدِ الذي بلَغتْ فيهِ العذارى سنَّ الجَدَّات... ولكنَّ ٱلقلبَ العاشقَ كافرٌ بالواجبِ والرجولة، والثوابِ والمُروءة، وبالأمِّ والأب؛ فهو يملكُ النعمةَ ويُريدُ أنْ يملكَ التنعُّمَ بها؛ وكلُّ مَنِ ٱعترضَهُ دونَها كانَ عندَهُ كاللصّ...

قال: قبَحَ اللّهُ حُبًّا يجعلُ أباك في قلبكِ لِصًّا أو كاللصّ.

قلْتُ: ولكنّي حرٌّ أختارُ مَنْ أشاءُ لِنفسي......

قال: إنْ كُنْتَ حرًّا كما تزعم، فهل تستطيعُ أنْ تختَارَ غيرَ التي أحبْبتَها؟ ألّا تكونَ حرًّا إلّا فينا نحن وفي هَدْمِ أُسرتِنا؟

قلْتُ: ولكنّي متعلِّم، فلا أريدُ الزواجَ إلّا بمن......

فقطعَ عليّ وقال: ليتَكَ لم تتعلَّم، فلو كنْتَ نجاراً أو حداداً أو حُوذيًّا، لأدركْتَ بطبيعةِ الحياةِ أنَّ الذين يتخَضَّعونَ[3] لِلحُبِّ ولِلمرأةِ هذا الخضوع، هم الفارغون الذين يستطيعُ الشيطانُ أنْ يَقْضِيَ في قلوبِهم كلَّ أوقاتِ فراغِه...

أما العاملونَ في الدين، والمُغَامِرونَ في الحياة، والعارفونَ بحقائقِ الأمور، والطامعونَ في الكمالِ الإنساني، فهؤلاءِ جميعاً في شغلٍ عن تربيةِ أوهامِهم، وعنِ ٱلبكاءِ لِلمرأةِ والبُكاءِ على ٱلمرأة؛ ونظرتُهم إلى هذهِ المرأةِ أعلى وأوسع؛ وغرضُهم منها أجلُّ وأسمى؛ وقد قال نبيُّنا ﷺ: «اتّقوا اللّهَ في النساء». أي ٱنظروا إليهن من جانبِ تقوى ٱلله؛ فإنَّ المرأةَ تُقْدِمُ من رجُلِها على قلبٍ فيهِ الحبُّ والكَراهَةُ وما بينهما، ولا تدري أيُّ ذلك هو حظُّها؛ ولو أنَّ كلَّ مَنْ أحبَّ ٱمرأةً نبذَ[4] زوجةً، لَخرَبَتِ ٱلدنيا ولفَسَدَ الرجالُ والنساءُ جميعاً. وهذه يا بُنيَّ أوهامُ وقتِها وعملُ أسبابِها، وسيمضي الوقتُ وتتغيرُ الأسبابُ ورُبّما كانَ الناضجُ اليومَ هو المتعفِّنَ غداً، وربَّما كانَ الفجُّ هو الناضجَ بعد؟

---

(١) بثثته حزني: أطلعته عليه.
(٢) أفضيت إليه بشأني: أخبرته عن حالي.
(٣) يتخضّعون: يستذلون.
(٤) نبذ: كره.

وهَبْكَ لا تُحبُّ ذاتَ رَحِمِكَ ثم أكرَمْتَها وأحسَنْتَ إليها وسترتَها، أفيكونُ عندَك أجملُ من شعورِها أنَّك ذو الفضلِ عليها؟ وهل أكرمُ الكرمِ عندَ النفسِ إلَّا أنْ يكونَ لها هذا الشعورُ في نفسٍ أخرى؟ إنَّ هذا يا بُنيّ إنْ لم يكُنْ حُبًّا فيهِ الشهوةُ، فهو حُبٌّ إنسانيٌّ فيهِ المجد.

* * *

ووقعَتِ المشكلةُ وزُفَّتِ المِسكينة؛ فكيف يصنعُ الرجلُ بينَ المحبوبةِ والمكروهةِ؟

المشكلة

٢

لَمَّا فرغْتُ من مقالاتِ (المجنون) وأرسلْتُ الأخيرةَ منها، قلْتُ في نفسي: هذا الآخِرُ هو الآخِرُ مِنَ المجنونِ وجنونهِ، ومنَ الفِكْرِ في تخليطِهِ ونوادرِه؛ غيرَ أنَّهُ عادَ إليَّ أخلاطاً وأضغاثاً[١] فكأني رأيْتُه في النومِ يقولُ لي: أُكتُبْ مقالاً في السياسة. قلْتُ: ما لي وللسياسةِ وأنا «موظف» في الحكومة، وقد أخذَتِ الحكومةُ مِيثَاقَ[٢] الموظفين: لِمَا عَرَفُوا من نَقْدٍ أو غَميزةٍ ليكتُمُنَّهُ ولا يُبَيِّنونَه؟ فقال: هذه ليسَتْ مشكلة، وليسَ هذا يصلُحُ عُذْراً، والمَخرَجُ سهلٌ والتدبيرُ يسيرٌ والْحلُّ مُمْكِن. قلْت: فما هو؟

قال: أُكتبْ ما شئْتَ في سياسةِ الحكومة، ثُمَّ اْجعلْ توقيعَك في آخرِ المقالِ هكذا: «مصطفى صادق الرافعي؛ غيرُ موظفٍ بالحكومة». . .

فهذه طريقةٌ من طرقِ المجانين في حلِّ المشاكلِ المعقَّدة، لا يكونُ الحلُّ إلَّا عقدةً جديدةً يتمُّ لها اليأسُ ويتعذَّرُ الإمكان، وهي بعينِها طريقةُ ذلك الطائرِ الأبلهِ الذي يرى الصائدَ فيُغمِّضُ عينَهُ ويلوي عنقَهُ ويخبأُ رأسَهُ في جنَاحِهِ ظنّاً عندَ نفسِهِ أنَّهُ إذا لم يرَ الصائدَ لم يرهُ الصائد، وإذا توهَّمَ أنَّهُ اْختفى تحقَّقَ أنَّهُ اْختفى؛ وما عملُهُ ذاك إلَّا كقولِهِ لِلصياد: إنِّي غيرُ موجودٍ هنا. . . على قِياسِ «غيرُ موظف». . .

وقد كنْتُ اْستَفْتَيْتُ القرَّاءَ في (المشكلةِ)، وكيف يتَّقي صاحبُها على نفسِه، وكيف تصنعُ صاحبتُها؛ فتلقَّيتُ كتباً كثيرةً أهْدتْ إليَّ عقولاً مختلفة؛ وكانَ من عجائبِ المقاديرِ أنَّ أولَ كتابٍ أُلقى إليَّ منها ـ كتابُ مجنونِ «نابغة» كنابغةِ القرنِ العشرين، بعثَ بِهِ مِنَ القاهرة، وسمَّى نفسَه فيه (المصلح المنتظر) وهذه عبارتُهُ بحرفِها ورسمِها كما كُتبَتْ وكما تُقرأ؛ فإن نشرَ هذا النصِّ كما هو، يكونُ أيضاً نصّاً على ذلك العقلِ كيف هو. . .

---

(١) أضغاث الأحلام: أوهامها.

(٢) ميثاق: قانون.

قال: «إنَّ هذا الكونَ تَعِبَتْ فيه آراءُ ٱلمصلحين، وكتبُ الأنبياءِ زُهاءَ قرون عديدة، ودائماً نرى الطبيعةَ تنتصر. ولقد نرى ٱلحيوانَ يعلمُ كيف يعيشُ بجوارِ أليفهِ، وٱلطيرَ كيف يركنُ إلى عشِّ حبيبتهِ، إلّا الإنسان. ولقد تفنَّنَ ٱلمشرِّعون في أسماء: العاداتِ والتقاليدِ والْحميَّةِ والشرفِ والعِرْض، وإنَّ جميعَ هذه الأشياء تزولُ أمامَ سلطانِ المادةِ فما بالُكم بسلطانِ الروح؟

ورأيي لِهذا الشابِّ ألّا يُطيعَ أباه ولو ذهبَ إلى ما يسموه الجحيمَ (كذا) إذا كان بعدَ أنْ يعيشَ الحياةَ الواحدةَ التي يحياها ويتمتعُ بالحبِّ الواحدِ المقدَّرِ له، ما دامَ قلبُهُ ٱصطفاها[1] ورُوحُهُ تهواها؛ ولو تركَتْهُ بعدَ سنينَ قليلةٍ لأيِ داعٍ من دواعِ ٱلانفصال. (كذا).

وهذا ليسَ مجردَ رأيٍ مجرَّب، وإنَّما هو رأيُ أكبرِ عقلٍ أنجبَتْهُ الطبيعةُ حتى الآن...! وسينتصرُ على جميع مَنْ يقفون أمامَه، والدليلُ أَنَّ هذا المقالَ سيشارُ إليهِ في مجلةِ (الرسالة) وهذا الرأيُّ سيُعملُ به، وصاحبُ هذا الرأي سيخلدُ في الدنيا، وسيضعُ الأسسَ والقوانينَ التي تصلحُ لِبني الإنسانِ مع سموِّ الروحِ بعدَ أنْ أفسدَتْ أخلاقَهُ عِبادةُ المال.

إن الإنسانَ يحيا حياةً واحدةً فَلْيجعلْها بأحسنِ ما تكون، وَلْيمتعَ روحَهُ بما تمتَّعَ بِهِ جميعُ ٱلمخلوقاتِ سواه. وإلى الملتقى في ميدانِ الجهاد».

(المصلح المنتظر) انتهى

وهذا الكتابُ يحلُّ (المشكلةَ) على طريقةِ «غير موظف»... فلْيعتقدِ العاشقُ أنَّهُ غيرُ متزوج فإذا هو غيرُ متزوج، وإذاً هو يتقلَّب فيما شاء؛ وتسألُ الكاتبَ ثم ماذا؟ فيقول لكَ: ثم الجحيم...

وإنَّما أوردْنا الكتابَ بطولِهِ وعرضِهِ لأنَّنا قرأناهُ على وجهين، فقد نبهَتْنا عبارةُ «أكبرُ عقلٍ أنجبَتْهُ الطبيعةُ حتى الآن» إلى أنَّ في الكلامَ إشارةً من قوةٍ خفيةٍ في الغيب، فقرأْناهُ على وحي هذه الإشارةِ وهَدْيِها، فإذا ترجمَةُ لغةِ الغيب فيه:

«ويحكَ يا صاحبَ المشكلة، إذا أردْتَ أنْ تكونَ مجنوناً أو كافراً باللَّهِ وبالآخرةِ فهذا هو الرأي. كنْ حيواناً تنتصِرُ فيهِ الطبيعةُ والسلام!».

* * *

---

(١) اصطفاها: اختارها.

تلك إحدى عجائبِ المقاديرِ في أولِ كتابٍ أُلقيَ إليّ؛ أمّا العجيبةُ الثانيةُ فإنَّ آخرَ كتابٍ تلقيْتُهُ كانَ من صاحبةِ المشكلةِ نفسِها؛ وهو كتابٌ آيةٌ في الظرْفِ وجمالِ التعبيرِ وإشراقِ النفسِ في أسرارِها، يَمُورُ[1] مَوْرَ الضّبابِ الرقيقِ من ورائِه الأشعَّة، فهو يَحجبُ جمالاً لِيُظْهِرَ منهُ جمالاً آخر؛ وكأنَّهُ يعرِضُ بذلك رأياً لِلنظرِ ورأياً لِلتصورُ، ويأتي بكلامٍ يُقرأ بالعينِ قراءةً وبالفكرِ قراءةً غيرَها؛ ولَفظُها سهلٌ، قريبٌ قريب، حتى كأنَّ وجْهَهَا هو يُحدّثُك لا لفظُها؛ ومادةُ معانيها من قلبِها لا من فكرِها، وهو قلبٌ سليمٌ مُقْفَلٌ على خواطرِهِ وأحزانِه، مُسترسِلٌ إلى الإيمانِ بما كُتبَ عليهِ ٱسترسالُهُ إلى الإيمانِ بما كُتِبَ له، فما بِهِ غُرورٌ ولا كِبرياءُ ولا حِقْدٌ ولا غَضَبٌ، ولا يَكْرَهُ ما هو فيه.

ومن نكَدِ الدنيا أنَّ مثلَ هذا القلبِ لا يُخْلَقُ بفضائِلِهِ إلَّا لِيُعاقَبَ على فضائلِه؛ فغِلْظةُ الناسِ عقابٌ لِرقَّتِه، وغدرُهم نكايةٌ لِوفائِه، وتَهوُّرُهم[2] ردٌّ على أناتِهِ، وحُمقُهم تكديرٌ، لِسكونِه وكَذِبُهُم تكذيبٌ لِلصدقِ فيه.

وما أرى هذا القلبَ مأخوذاً بحبِّ ذلك الشابِّ ولا مُسْتَهاماً[3] بهِ لِذاتِه، وإنَّما هو يتعلَّقُ صُوَراً عقليةً جميلةً كانَ من عجائبِ ٱلاتفاقِ أنْ عَرَضَتْ لَهُ في هذا الشابِّ أولَ ما عرضَتْ على مِقدارٍ ما؛ وسيكونُ من عجائبِ الاتِّفاقِ أيضاً أن يزولَ هذا الحُبُّ زوالَ الواحدِ إذا وُجدتِ ٱلعشَرة، وزوالَ العشَرةِ إذا وُجدَتِ ٱلمائة، وزوالُ المائةِ إذا وُجدَ الألف.

وبعدَ هذا كلِّه فصاحبةُ المشكلةِ في كتابِها كأنّما تكتبُ في نقدِ الحكومةِ على طريقةِ جعلِ التوقيع: «فلان غير موظفٍ بالحكومة». . . وهي فيما كتبَتْ كالنهرِ الذي يتحدَّرُ بينَ شاطئيهِ مُدَّعياً أنَّهُ هاربٌ منَ الشاطئينِ معَ أنَّهُ بينهما يَجري: تُحِبُّ صاحبَها وتلقاه؛ ثم هي عندَ نفسِها غيرُ جانيةٍ عليهِ ولا على زوجتِهِ. . . فلَيتَ شِعْري عنها، ما عسى أنْ تكونَ الجِنايةُ بعدَ زواجِ الرجلِ غيرَ هذا الحبِّ وهذا ٱللِّقاء؟

ونحن معها كأرسطاطاليسَ مع صديقِهِ الظالم حينَ قال له: هبْنَا نقْدِرُ على مُحاباتِك في ألّا نقولَ إنَّك ظالم؛ هل تقدرُ أنت على ألّا تعلمَ أنَّك ظالم؟

---

(١) يمور: يتحرّك بحركة الموج.

(٢) تهوّرهم: تصرفهم برعونة.

(٣) مستهاماً: عاشقاً.

ورأيُها في (المشكلةِ) أنْ ليسَ من أحَدٍ يستطيعُ حلَّها إلا صاحبُها، ثم هو لا يستطيعُ ذلك إلَّا بطريقةٍ من طريقتين: فإمَّا أنْ تكونَ ضحيةُ أبيها وأبيهِ ـ تعني زوجتَه ـ ضحيتَه هو أيضاً، ويستهدِفُ لِمَا ينالُهُ من أهلِهِ وأهلِها، فيكونُ البلاءُ عن يمينِهِ وشِمالِه، ويُكابِدُ من نفسِهِ ومنهم ما إنَّ أقَلَّهُ لَيذْهَبُ براحتِهِ وينغِّصُ[1] عليهِ الحُبَّ والعيش، (قالت): وإمَّا أنْ يضحِّيَ بقلبِهِ وعقلِهِ وبي. . .

وهذا كلامٌ كأنَّها تقولُ فيه: إنَّ أحداً لا يستطيعُ حلَّ المشكلةِ إلَّا صاحبَها، غيرَ مستطيع حلَّها إلَّا بجِنايةٍ يذهبُ فيها نعيمُه، أو بجنونٍ يذهبُ فيهِ عقلُه. فإنْ حلَّها بعدَ ذلك فهو أحدُ اثنين: إمَّا أحمقُ أو مجنونٌ ما منهما بدّ. . .

ولِسانُ الغيبِ ناطقٌ في كلامِها بِأنَّ أحسنَ حلٍّ لِلمشكلةِ هو أنْ تبقى بِلا حلّ، فإن بعضَ الشرِّ أهونُ من بعض.

* * *

والعجيبةُ الثالثةُ أنَّ «نابغةَ القرنِ العشرين» جاءَ زائراً بعدَ أنْ قرأَ مقالاتِ (المجنون)، فرأى بين يديَّ هذه الكتبَ التي تلقيْتُها وأنا أعرِضُها وأنظرُ فيها لأتخيَّرَ منها، فسألَ فخبَّرتُهُ الخبر؛ فقال: إنَّ صاحبَ هذه المشكلةِ مجنونٌ. . . لوِ امتحنوه في الجغرافيا وقالوا له: ما هي أشهَرُ صناعةٍ في باريس؟ لأجابَهم: أشهَرُ ما تُعرفُ بِهِ باريسُ أنها تصنُع (البودرةَ) لِوجهِ حبيبتي. . .

قلْتُ: فكيفَ يرتدُّ هذا المجنونُ عاقلاً؟ وما علاجُهُ عندَك؟

قال: وَجِّهْ في طلبِ (ا. ش) لِيجيء، فلمَّا جاءَ قالَ لَهُ اكتبْ: جلسَ «نابغةُ القرنِ العشرين» مجلسَةُ لِلإفتاءِ في حلِّ المشكلةِ فأفتى مُرتجلاً:

«إنَّ منطقَ الأشياءِ وعقليةَ الأشياءِ صريحانِ في أنَّ مشكلةَ الحُبِّ التي يَعْسُرُ حلُّها ويتعذَّرُ مَجازُ العقلِ فيها، ليسَتْ هي مشكلةَ هذا العاشقِ أكرهوه على الزواج بامرأةٍ يحملُها القلبُ أو لا يحملُها، وإنَّما هي مشكلةُ أمبراطورِ الحبشةِ يريدون إرغامَهُ[2] أنْ يتزوجَ إيطاليا، ويذهبون يَزفُّونها إليه بالدَّباباتِ والرشاشاتِ والغازاتِ السامَّة.

«ولو لم يكن رأسُ هذا العاشقِ المجنونِ فارغاً منَ العقلِ الذي يعملُ عملَ العقل، إذن لَكانَتْ مَجارِي عقلِهِ مطَّردةً في رأسِه، فانحلَّتْ مشكلتُهُ بأسبابٍ تأتي من ذاتِ نفسِها أو ذاتِ نفسِه؛ غيرَ أنَّ في رأسِهِ عقلَ بطنِهِ لا عقلَ الرأس، كذلك

---

(١) ينغّص: يكدّر.

(٢) إرغامه: إجباره.

الشَّرِهِ البخيلِ الذي طبخَ قِدْراً وقعدَ هو وٱمرأتُه يأكلان، فقال: ما أطيبَ هذه القِدرَ لولا الزحام... قالَتِ ٱمرأتُه: أيُّ زحامٍ هٰهنا؟ إنَّما أنا وأنت. قال: كنْتُ أُحِبُّ أنْ أكونَ أنا والقدرُ فقط...

«فعقلُ النَّهِم[1] في رأسِ هذا كعقلِ الشهوةِ في رأسِ ذاك؛ كِلاهما فاسدُ التقديرِ لا يعملُ أعمالَ العقولِ السليمة؛ ويُريدُ أحدُهما أنْ تَبْطُلَ الزوجةُ من أجلِ رِطلٍ مِنَ اللحم، ويُريدُ الآخرُ ذلك في رِطلٍ مِنَ ٱلحُبِّ...

«وإذا فسدَ العقلُ هذا الفسادَ ٱبتَلى صاحبَه بالمشاكلِ الصبيانيةِ المضحكةِ: لا تكونُ من شيءٍ كبير، ولا يكونُ منها شيءٌ كبير؛ وهي عندَ صاحبِها لوُوُزِنَتْ كانَتْ قناطيرَ مِنَ ٱلتعقيد؛ ولو كِيلَتْ بلغَتْ أرادبَّ مِنَ الحَيرة؛ ولو قِيسَتِ ٱمتدَّت إلى فراسخَ مِنَ الغُموض.

«هاتانِ المرأتانِ: (الحبيبةُ والزوجةُ)، إمَّا أنْ تكونا جميعاً ٱمرأتين، فالمعنى واحدٌ فلا مشكلة؛ وإمَّا ألَّا تكونا ٱمرأتين، فالمعنى كذلك واحدٌ فلا مشكلة؛ وإمَّا أنْ تكونَ إحداهما ٱمرأةً والأخرى قِرْدةً، وهٰهنا المشكلة. (حاشية: الهردة من أوضاعِ نابغةِ القرنِ العشرين في اللغة، ومعناها الأنثى ليَستْ من إناثِ الأُناسيِّ ولا البهائم...).

«فإنْ زعمَ ٱلعاشقُ أنَّ زوجتَهُ قِردةٌ فهو كاذب، وإنْ زعَمَ أنَّها ٱلهِرْدةُ فهو أكذَب؛ والمشكلةُ هنا مشكلةُ كلِّ ٱلمجانين، ففي مُخِّهِ موضعٌ أفْرَطَ عليهِ الشعورُ فأفسَدَه، وأوقع بفسادِهِ ٱلخطأَ في الرأي، وٱبتلاهُ من هذا الخطأِ بالعَمَى عنِ الحقيقة، وجعلَ زوجتَهُ المسكينةَ هي مَعْرِضَ هذا العمى وهذا الخطأِ وهذا الفساد؛ ولا عيبَ فيها، لأنَّها من زوجِها كالحقيقةِ التي يتخبَّطُ فيها المجنونُ مدةَ جنونِهِ، فتكونُ مَجْلى هَذَيانِهِ ومعرِضَ حماقاتِه، وهي ٱلحقيقةُ غيرَ أنَّه هو المجنون.

«فإنْ كانَتْ هذه ٱلحقيقةُ مسألةَ حِسابيةً ٱستمرَّ ٱلمجنونُ مدةَ جنونِهِ يقولُ لِلناس: خمسون وخمسون ثلاثةَ عشَر، ولا يُصدِّقُ أبداً أنَّها مائةٌ كاملة؛ وإنْ كانَتْ مسألةً عِلْميَّةً قضى ٱلمجنونُ أيَّامَهُ يُشْعِلُ ٱلترابَ لِيجعلَه باروداً ينفَّجرُ ويتفرقعُ ولا يدخلُ في عقلِه أبداً أنَّ هذا ترابٌ مطنفىء بالطبيعة؛ وإنْ كانت مسألةً قلبيةً ٱستمرَّ ٱلمجنونُ يزعمُ أنَّ زوجتَهُ قِردةٌ أو هِرْدة، ولا يشعرُ أبداً أنها ٱمرأة.

«فإنْ صَحَّ أنَّ هذا الرجلَ مجنونٌ فعِلاجُهُ أنْ يُربَطَ في المارستان، ثم يجيءَ أهلُهُ

---

(١) النهم: الشره الأكول.

كلَّ يومٍ بزوجتهِ فيسألونَه: أهذه امرأةٌ أن قِردةٌ أم هِردة؟ ثم لا يزالون ولا يزالُ حتى يراها امْرأةً، ويعرفَها امرأتَه، فيُقالُ لَهُ حينئذٍ: إنْ كنْتَ رجلاً فتخلَّقْ بأخلاقِ الرجال.

«أمَّا إنْ كانَ الرجلُ عاقلاً مميزاً صحيحَ التفكيرِ ولكنَّهُ مريضٌ مرضَ الحُبّ، فلا يرى (النابغة) أشفَى لِدائِهِ ولا أنجعَ فيهِ من أنْ يَسْتَطِبَّ بهذه الأَشْفِيَةِ واحداً بعدَ واحدٍ حتى يذهبَ سَقامُهُ بواحدٍ منها أو بها كلِّها:

«الدواءُ الأول: أنْ يجمعَ فكرَهُ قبلَ نومِهِ فيحصُرَهُ في زوجتِه، ثم لا يزالُ يقول: زوجتي، زوجتي. حتى ينام. فإنْ لم يذهبْ ما بِهِ في أيامٍ قليلةٍ فالدواءُ الثاني.

«الدواءُ الثاني: أنْ يتجرّعَ شربةً من زيتِ الخُرْوعِ كلَّ أسبوع... ويتوهَّم كلَّ مرةٍ أنه يتجرعُها من يدِ حبيبتِه، فإنْ لم يشفِهِ هذا فالدواءُ الثالث.

«الدواءُ الثالث: أنْ يذهبَ فيبيتَ ليلةً في المقابر، ثم ينظرَ نظرَهُ في أي المرأتينِ يُريدُ أنْ يلَقى اللَّهَ بها وبرضاها عنه وبثوابِه فيها؛ وأيتُهما هي موضِعُ ذلك عندَ اللَّهِ تعالى، فإن لم يُبصِرْ رُشدَهُ بعدَ هذا فالدواءُ الرابع.

«الدواءُ الرابع: أنْ يخرجَ في (مُظاهرة)... فإذا فُقِئَتْ لَهُ عينٌ أو كُسرَتْ لَهُ يدٌ أو رِجْل، ثم لم تحِلَّ حبيبتُهُ المشكلةَ بنفسِها... فالدواءُ الخامس.

«الدواء الخامس: أنْ يصنعَ صنيعَ المبتَلى بالحشيشِ والكوكايين، فيذهَبَ فيُسلِّمَ نفسَهُ إلى السجنِ لِيأخذوا على يَدِهِ فينسَى هذا الترفَ العقلي؛ ثم لِيعرفَ من أعمالِ السجنِ جِدَّ الحياةِ وهَزْلَها، فإنْ لم ينزعْ عن جهلِهِ بعدَ ذلك فالدواءُ السادس.

«الدواءُ السادس: أنَّهُ كلَّما تحَرَّكَ دَمُهُ وشاعتْ فيهِ حرارةُ الحُبّ، لا يذهبُ إلى مَنْ يُحبّها، ولا يتوخَّى ناحيتَها، بل يذهبُ من فَوْرِه إلى حَجّام[1] يحجمُه.. لِيطفِىءَ عنهُ الدمَ بإخراجِ الدم؛ وهذه هي الطريقةُ التي يصلُحُ بها مجَانينُ العُشاق، ولو تبدَّلوا بها مِنَ الانتحارِ لَعاشوا هم وانْتحرَ الحُبّ.

قال «نابغةُ القرنِ العِشرين»: «فإنْ بَطَلتْ هذه الأشفيةُ الستةُ، وبقيَ الرجلُ جَمُوحاً لا يُرَدُّ عن هواهُ فلم يبقَ إلَّا الدواءُ السابع.

«الدواء السابع: أنْ يُضْرَبَ صاحبُ المشكلةِ خمسين قناةً[2] يُصَكُّ بِها[3]

(١) الحجام: طبيب عند العرب يستعين بسكين لتشطيب مكان الألم.
(٢) القناة: هي العصا الغليظة التي يقال لها «اتشومة».
(٣) يصكّ: يضرب على رأسه.

واقعةً منهُ حيثُ تَقعُ من رأسِهِ وصدرِهِ وظهرِهِ وأطرافِه، حتى يَنْهَشِمَ[1] عظمُه، وينقَصِفَ[2] صُلْبُه، ويَنْشَدِخَ[3] رأسُه، ويَتَفرَّى[4] جِلدُه؛ ثم تُطْلى[5] جراحُهُ وكُسورُهُ بالأطْليةِ والمراهم، وتُوضَعُ لَهُ الأضْمِدَةُ والعصائبُ ويُتركُ حتى يَبرأَ على ذلك:

أعرَجَ مُتخَلِّعاً مبعثَرَ الخَلْقِ مكسورَ الأعلى والأسفل، فإنَّ في ذلك شفاءَه التامَّ من داءِ الحُبِّ إنْ شاءَ الله...».

قلْنا: فإنْ لم يشفِهِ ذلك ولم يصْرِفْ عنه غائلةَ الحُبّ؟

قال: فإنْ لم يشفِهِ ذلك فالدواءُ الثامن.

الدواءُ الثامن: أنْ يُعادَ عِلاجُهُ بالدواءِ السابع...

---

(١) ينهشم: يتحطم.
(٢) يتقصّف: يتكسر.
(٣) ينشدخ: ينفلق.
(٤) يتفرّى: يتمزّق.
(٥) تطلى: تغطّى.

المشكِلَة

٣

أمَّا البقيةُ من هذه الآراءِ التي تلقَّيْتُها فكلُّ أصحابِها متوافِقُون على مثل الرأي الواحدِ، منِ وجوبِ إمساكِ الزوجةِ والإقبالِ عليها، وإرسال «تلك» والانصرافِ عنها، وأنْ يكونَ لِلرجلِ في ذلك عزْمٌ لا يَتَقَلْقَلُ[1] ومَضاءٌ لا يَنْثَني، وأنْ يصبرَ لِلنَّفْرةِ[2] حتى يستأنِسَ منها فإنها ستتحوَّل، ويجعلَ الأناةَ بإزاءِ الضجَرِ فإنَّها تُصْلِحُه، والمروءةَ بإزاءِ الكُرهِ فإنَّها تَحْملُه، ولْيترُكِ الأيامَ تعملُ عملَها فإنَّهُ الآنَ يعترضُ هذا العملَ ويُعطِّلُه، وإنَّ ٱلأيام إذا عمِلَتْ فستغيِّرُ وتبدِّل؛ ولا يُستقَلُّ ٱلقليلُ تكونُ الأيامُ معه، ولا يُستكثرُ الكثيرُ تكونُ الأيامُ عليه.

والعَديدُ الأكبرُ مَمنْ كتبوا إليَّ، يحفظونَ على صاحبِ ٱلمشكلةِ ذلك ٱلبيانَ ٱلذي وضعناهُ على لِسانِهِ في المقالِ الأول، ويُحاسِبُونَهُ به، ويُقيمونَ منه الحُجةَ عليه، ويقولون له: أنتَ ٱعترفْتَ وأنت أنكَرْت، وأنت ردَدْتَ على نفسِك، وأنت نَصَبْتَ ٱلميزانَ فكيف لا تقبَلُ الوزنَ بِه؟ وقد غفلوا عنْ أنَّ المقالَ من كلامِنا نحن، وأنَّ ذلك أسلوبٌ منَ القولِ أدرناهُ ونَحَلْنَاهُ[3] ذلك الشابَّ، ليكونَ فيهِ ٱلاعتراضُ وجوابُه، والخطأُ والردُّ عليه؛ ولِنُظهِرَ بِهِ الرجلَ كالأبلهِ في حَيرتِهِ ومشكلتِه، تنفيراً لِغيرِهِ عن مثلِ موقفِه، ثم لِنحرِّكَ بِهِ العِللَ الباطنةَ في نفسِهِ هو، فنصرفَهُ عنِ ٱلهوى شيئاً فشيئاً إلى الرأي شيئاً فشيئاً، حتى إذا قرأ قصةَ نفسِهِ قرأَها بتعبيرٍ من قلبِهِ وتعبيرٍ آخَرَ من العقل، وتَلَمَّحَ ما خَفَي عليه فيما ظهرَ لَه، وٱهتدى منَ التقييدِ إلى سبيلِ الإطلاق، وعرفَ كيف يُخلصُ بينَ الواجبِ والحُبِّ اللذينِ ٱختلطا عليهِ وٱمتزَجَا لَهُ ٱمتزاجَ ٱلماءِ وٱلخمر. وبذلك الأسلوبِ جاءَتِ ٱلمشكلةُ معقَّدةً منحلَّةً في لِسانِ صاحبِها، وبقيَ أنْ يُدفعَ صاحبُها بكلامٍ آخَرَ إلى موضعِ الرأي.

---

(١) يتقلقل: يتزلزل.

(٢) النفرة: عدم الانسجام والكره.

(٣) نحلناه: نسبناه.

وكثيرٌ منَ الكُتابِ لم يزيدوا على أنْ نبَّهوا ٱلرجلَ إلى حقِّ زوجتِه، ثم يدعونَ اللَّهَ أنْ يرزقَهُ عقلاً. . . وقد أصابَ هؤلاء أحسنَ التوفيقِ فيما أُلهمُوا من هذه الدعوة، فإنَّما جاءَتِ ٱلمشكلةُ من أنَّ الرجلَ قد فقدَ التمييزَ وجُنَّ بجنونين: أحدُهما في الداخلِ من عقلِه، والثاني في الخارجِ منه؛ فأصبحَ لا يُبالي الإثمَ والبغضَ عندَ زوجتِهِ إذا هو أصابَ الحُظْوةَ والسرورَ عندَ الأخرى؛ فتَعدَّى طَوْرَهُ[1] معَ ٱلمرأتينِ جميعاً، وظلمَ الزوجةَ بأنِ ٱسْتَلَبَ[2] حقَّها فيه، وظلمَ الأخرى بأنْ زادَها ذلك الحقَّ فجعلَها كالسارقةِ والمعتدية.

وقد تمنَّى أحدُ القراءِ من فلسطين أنْ يرزقَهُ اللَّهُ مثلَ هذه الزوجةِ المكروهةِ كراهةَ حُبٍّ، ويضعَهُ موضعَ صاحبِ المشكلة، لِيُثبتَ أنَّهُ رجلٌ يحكُمُ الكرهَ ويصرفُهُ على ما يشاء، ولا يرضَى أنْ يحكُمَهُ ٱلحُبُّ وإنْ كانَ هو الحُبّ.

وهذا رأيٌ حَصيفٌ[3] جيِّد، فإنَّ العاشق الذي يتلعَّب الحُبُّ بِهِ ويصدُّهُ عن زوجتهِ، لا يكونُ رجلاً صحيحَ الرجولة، بل هو أسخفُ الأمثلةِ في الأزواج، بل هو مُجرمٌ أخلاقيٌّ يَنْصِبُ لِزوجتهِ من نفسِه مثالَ العاهرِ الفاسق، لِيدفعَها إلى الدَّعارةِ والفِسْقِ من حيثُ يَدري أو لا يدري؛ بل هو غبيٌّ، إذْ لا يعرفُ أنَّ ٱنفرادَ زوجتِهِ وتراجُعَها إلى نفسِها الحزينةِ يُنشىءُ في نفسِها الحنينَ إلى رجلٍ آخر؛ بل هو مغفَّل، إذْ لا يُدركُ أنَّ شريعةَ السنِّ بالسنِّ والعينِ بالعين، هي بنفسِها عندَ ٱلمرأةِ شريعةُ الرجُلِ بالرجل. . .

والمرأةُ التي تجدُ من زوجِها الكَراهِيَةَ لا تعرفُها أنَّها الكراهةُ إلَّا أوَّلَ أولَ؛ ثم تنظرُ فإذا الكراهةُ هي ٱحتقارُها وإهانتُها في أخصِّ خصائصِها النِّسوية، ثم تنظرُ فإذا هي إثارةُ كِبريائها وتحدِّيها، ثم تنظرُ فإذا هَي دفْعُ غريزتِها أنْ تعملَ على إثباتِ أنَّها جديرةٌ بالحُبّ، وأنَّها قادرةٌ على النقمةِ والمجازاة؛ ثم تنظرُ فإذا برهانُ كلِّ ذلك لا يجيءُ من عقلٍ ولا منطقٍ ولا فضيلة، وإنَّما يأتي من رجُل. . . رجلٍ يُحققُ لها هي أنَّ زوجَها مغفَّلٌ وأنَّها جديرةٌ بالحُبّ.

* * *

وكأنَّ هذا المعنى هو الذي أشارَتْ إليهِ الأديبةُ (ف. ز) وإنْ كانَتْ لم تَبْسُطْه، فقد قالت: «إنَّ صاحبَ هذه المشكلةِ غبيّ، ولا يكونُ إلَّا رجلاً مريضَ النفسِ

---

(١) طوره: حدّه.

(٢) استلب: سرق واستحوذ.

(٣) حصيف: جيّد يعتمد على العقل.

مريضَ الخُلُق، وما رأيتُ مثلَهُ رجلاً أبعدَ منَ الرجل . . ومثلُ هذا هو نفسُهُ مشكلةٌ فكيفَ تُحَلُّ مشكلتُه؟ إنَّهُ من ناحيةِ زوجتِهِ مغفَّل، لا وصفَ لَهُ عندَها إلَّا هذا؛ ومن جهةِ حبيبتِه خائن، والخيانةُ أولُ أو صافِه عندَها.

«وهذا الزوجُ يُسمِّمُ الآنَ أخلاقَ زوجتِهِ ويُفْسِدُ طِباعَها، ويُنشيءُ لَها قصةً في أولِها غباوتُه وإثمُه، وسيتركُها تُتِمُّ الروايةَ فلا يعلمُ إلَّا اللَّهُ ما يكونُ أخرُها. وبمثلِ هذا الرجلِ أصبحَ ٱلمتعلماتُ يعتقْدَن أنَّ أكثرَ الشُّبانِ إنْ لم يكونوا جميعاً، هم كاذبونَ في أدعاءِ الحُبِّ، فليسَ منهم إلَّا الغَواية؛ أو هم محبونَ يكْذِبُ الأملُ بهم على ٱلنساء، فليسَ منهم إلَّا الخيبة.

قالت: «وخيرُ ما تفعلُهُ صاحبةُ المشكلةِ أنْ تصنَعَ ما صنعَتْهُ أخرى لها مثلَ قصتِها: فهذه حينَ علِمَتْ بزواجِ صاحبِها قذفتْ بهِ من طريقِ آمالِها إلى الطريقِ الذي جاءَ منه، وأنزلتْهُ من دَرَجةِ أنَّهُ كلُّ الناسِ إلى منزلةِ أنَّهُ ككلِّ الناس، ونبَّهتْ حزمَها وعزيمتَها وكِبرياءَها، فرأتْهُ بعدَ ذلك أهونَ على نفسِها من أنْ يكونَ سبباً لِشقاءٍ أو حسْرةٍ أوهمّ، وٱبتعدَتْ بفضائِلها عن طريقِ الحُبِّ الذي تعرفُ أنَّهُ لا يستقيمُ إلَّا لِزوجةٍ وزوجِها، فإذا مشَتْ فيهِ ٱمرأةٌ إلى غيرِ زواج، ٱنحرفَ بها من هنا، وٱعوَجَّ لها من هنا، فلم ينتهِ بها في الغايةِ إلَّا أنْ تعودَ إلى نفسِها وعليها غُبارُهُ، وما غُبارُ هذا الطريقِ إلَّا سوادُ وجهِ ٱلمرأة . . .

«وقد جهِدَ الرجلُ بصاحبتِهِ أنْ تتخذَهُ صديقاً، فأبَتْ أنْ تتقبَّلَ منه برهانَ خيبتِها . . . وأظهرَتْ له جَفْوَةً فيها ٱحتقار، وأعلمَتْه أنَّ نُكْثَ العَهْدِ[1] لا يخرجُ منه عهد، وأنَّ الصداقةَ إذا بدأَتْ من آخرِ الحُبِّ تغيرُ ٱسمُها وروحُها ومعناها، فإمَّا أنْ تكونَ حينئذٍ أسقطَ ما في الحُبِّ، أو أكذبَ ما في الصداقة.

ثم قالَتِ الأديبةُ: «وهي كانت تُحبُّهُ، بلْ كانَتْ مُسْتَهامَةً به، غيرَ أنَّها كانَتْ أيضاً طاهرةَ القلب، لا تُريدُ في الحبيبِ رجلاً هو رجلُ الحِيلةِ عليها فتُخْدَعُ بِه، ولا رجلُ العارِ فتُسَبُّ بهِ؛ وفي طهارةِ ٱلمرأةِ جزاءُ نفسِها من قوةِ ٱلثقةِ وٱلاطمئنانِ وحسنِ ٱلتمكّن؛ وهذا ٱلقلبُ ٱلطاهرُ إذا فقدَ ٱلحُبَّ لم يفقدِ ٱلطمأنينة، كالتاجرِ الحاذقِ إنْ خَسِرَ ٱلربحَ لم يُفلِس، لأنَّ مهارتَهُ من بعضِ خصائِصها ٱلقدرةُ على ٱلاحتمال، وٱلصبرُ لِلمجاهدة.

---

(١) نكث العهد: إخلافه.

قالَتْ: «فعلى صاحبةِ المشكلةِ التي عرفَتْ كيف تُحبُّ وتُجِلُّ، أنْ تعرفَ الآنَ كيف تَحتقرُ وتَزدري».

* * *

وللأديبة (ف.ع) رأيٌ جَزْلٌ مُسَدَّد؛ قالَتْ: «إنَّها هي قد كانَتْ يوماً بالموضع الذي فيه صاحبةُ المشكلة، فلمَّا وقَعتِ الواقعةُ أنِفتْ أنْ تكونَ لصَّةَ قلوب، وقالَتْ في نفسِها: إذا لم يُقْدَرْ لي، فإنَّ اللَّهَ هو الذي أراد، وإنِّي أستحي مِن اللَّهِ أنْ أحاربَهُ في هذه الزوجةِ المسكينة! ولَئِنْ كنتُ قادرةً على الفوز، إنَّ انتصاري عليها عندَ حبيبي هَو انتصارُها عليَّ عندَ ربيّ، فلأخسرْ هذا الحُبَّ لأرابحَ اللَّهَ برأسِ مالٍ عزيزٍ خَسِرتُهُ من أجلِه، لِأُبْقِ على أخلاقِ الرجلِ لِيبقَى رجلاً لامرأتِه، فما يسّرني أن أنالَ الدنيا كلَّها وأهدمَ بيتاً على قلْب، ولا معنَى لِحُبٍّ سيكونُ فيهِ اللّؤمُ بل سيكونُ الأمَ اللؤم:

قالَتْ: وعلمْتُ أنَّ اللَّهَ (تعالى) قد جعَلَني أنا السعادةَ والشقاءَ في هذا الوضعِ لِيرَى كيفَ أصنع، وأيقنتُ أنْ ليسَ بين هذينِ الضدينِ إلا حِكْمتي أو حُمقي، وصحَّ عندي أنَّ حسنَ المُداخَلةِ في هذه المشكلةِ هو الحلُّ الحقيقيُّ لِلمشكلة.

قالت: «فتغيْرتُ لِصاحبي تغيُّراً صناعياً، وكانَتْ نيَّتي لَهُ هي أكبرَ أعواني عليه، فما لبثَ هذا الانقلابُ أنْ صارَ طبيعيًّا بعدَ قليل؛ وكنْتُ أستمدُّ من قلبِ امرأتهِ إذا اختانَني الضعفُ أو نالني الجزَع، فأشعرُ أنَّ لي قوةَ قلبين. وزِدْتُ على ذلك النصحَ لِصاحبي نُصْحاً مُيَسَّراً قائماً على الإقناعِ وإثارةِ النَّخْوةِ فيهِ وتبصيرِه بواجباتِ الرجل، وترفَّقْتُ في التوصلِ إلى ضميرِهِ لأثبتَ لهُ أنَّ عِزةَ الوفاءِ لا تكونُ بالخِيانةِ وبيَّنتُ لَهُ أنَّهُ إذا طلَّقَ زوجتَهُ من أجلي فما يصْنَعُ أكثرَ من أنْ يُقيمَ البرهانَ على أنَّهُ لا يصلُحُ لي زوجاً؛ ثم دلَلتُهُ برفقٍ على أنَّ خيرَ ما يصنعُ وخيرَ ما هو صانعٌ لإرضائي أنْ يُقلِّدني في الإيثارِ وكَرمِ النفس، ويحتذيَني في الخيرِ والفضيلة، وأنْ يعتقدَ أنَّ دموعَ المظلومينَ هي في أعينِهم دموع، ولكنَّها في يدِ اللَّهِ صواعقُ يضربُ بها الظالم.

قالَت: «وبهذا وبعدَ هذا انقلبَ حُبُّهُ لي إكباراً وإعظاماً، وسما فوقَ أنْ يكونَ حبًّا كالحُبِّ؛ وصارَ يجدُني في ذاتِ نفسِهِ وفي ضميرِهِ كالتوبيخ لَهُ كلَّما أرادَ بامرأتِهِ سوءاً أو حاولَ أنْ يَغُضَّ منها في نفسِه. واعتادَ أنْ يُكرِمَها فأكرمَها، وصَلُحَتْ لَهُ

نيتُهُ فاتّصلَ بَينهما السبَب، وكَبِرَتْ هذه النيةُ الطيّبَةُ فصارَتْ وِدًا، وكَبِرَ هذا الودُّ فعادَ حبًا، وقامَتْ حياتُهما على الأساسِ الذي وضَعْتُهُ أنا بيدي، أنا بيدي. . .

أمّا أنا. . .»

* * *

وكتب فاضلٌ من حُلوان: «إنَّ لَهُ صديقاً ٱبتُليَ بمثلِ هذه المشكلةِ فركبَ رأسَهُ فما رَدَّهُ شيءٌ عنِ ٱلزواجِ بحبيبته، وَزُفَّ إليها كأنَّهُ مَلِكٌ يدخلُ إلى قَصْرِ خيَالِه؛ وكانَ أهلُهُ يعذلونهُ ويلومونَهُ ويُخلِصون لَهُ النُصحَ ويجتهدون في أمرِهِ جُهْدَهم، إذْ يرَوْن بأعينِهِم ما لا يرى بعينِهِ، فكانَ النصحُ ينتهي إليهِ فيظنُّهُ غِشاً وتَلبيساً، وكانَ اللَّومُ يبلغُهُ فيراهُ ظُلماً وتحامُلاً، وكانَ قلبُهُ يُترجِمُ لَهُ كلَّ كلمةٍ في حبيبتِهِ بمعنًى منها هي لا منَ الحقائق، إذْ غلبَتْ على عقلِهِ فبها يَعْقل، وذهَبتْ بقلبهِ فبِها يُحِس، وٱستبدَّتْ بإرادتهِ فلها يَنقاد؛ وعادَتْ خواطرُهُ وأفكارُه تدورُ عليها كالحواشي على العبارةِ المغلقةِ في كتاب؛ وٱستقرَّتْ له فيها قوةٌ منَ الحُبّ، وأمرُها إذا أرادَتْ شيئاً أنْ تقولَ لَهُ كُن. . .

«ثم مضَتِ الليلةُ بعدَ الليلة، وجاءَ اليومُ بعدَ اليوم، وٱلموجُ يأخذُ مِنَ الساحلِ الذرَّةَ بعدَ الذرةِ والساحلُ لا يشعر، إلى أنْ تصرَّمَتْ[1] أشهرٌ قليلة، فلم تلبثِ الطبيعةُ التي ألَّفتِ الروايةَ وجعَلَتها قبلَ الزواجِ روايةَ المَلِك والمِلِكة، وقصةَ التاجِ والعرش، وحديثَ الدنيا ومُلكِ الدنيا ـ لم تلبثْ أنِ ٱنتقلَتْ على فجأةٍ فأدارتِ ٱلروايةَ إلى فصلِ السخريةِ ومنظرِ ٱلتهكم، وكشَفتْ عن غرضِها الخفيّ وحلَّتِ ٱلعُقدَةَ الروائية.

قال: «ففرغَ قلبُ ٱلمرأةِ مِنَ ٱلحُبّ، وظَمِىءَ إلى السُّكْرِ والنَّشوةِ مرةً أخرى من غيرِ هذه الزجاجةِ الفارغة. . . وبَرَدَ قلبُ الرجل، وكانَ الشيطانُ الذي يَتَسعَّرُ[2] فيهِ ناراً شيطاناً خبيثاً، فتحَّولَ إلى لوحٍ مِنَ الثلجِ لَهُ طولٌ وعرض. . .

«وجَدَّتِ ٱلحياةُ وهَزَلَ[3] ٱلشيطان، فٱسْتَحْمَقَ الرجلُ نفسَهُ أنْ يكونَ ٱختارَ هذهِ المرأةَ لَهُ زَوجة، وٱستجْهَلَتِ ٱلمرأةُ عقلَها أنْ تكونَ قد رضيَتْ هذا الرجلَ زوجاً، وأنكَرهَا إنكاراً أوّلُهُ ٱلملالة، وأنكرَتْهُ إنكاراً آخَرَ أولُهُ ٱلتبرُّم؛ وعادَ كلاهما من صاحبِهِ كإنسانٍ يكَلفُ إنساناً أنْ يخلُقَ لَهُ ٱلأمسَ الذي مضى!

---

(١) تصرّمت: انقضت، مضت.

(٢) يتسعّر: يشتعل.

(٣) هزل: سخر.

«وضربَتِ الحياةُ ضَرْبةً أو ضربتينِ فإذا أبْنِيَةُ الخيَالِ كلُّها هَدْمٌ هَدْم، وإذا الطبيعةُ مؤلّفةُ الروايةِ. . . قد ختَمَتْ روايتَها وقوَّضتِ المسرح، وإذا الأحلامُ مفسَّرةٌ بالعكس: فالحُبُّ تأويلُهُ البغض، واللذةُ تفسيرُها الألم، و«البودرة» معناها الجير. . . وتغيَّرَ كلُّ ما بينَهما إلَّا الشيطانَ الذي بينَهما، فهو الذي زوَّجَ وهو بعينهِ الذي طلَّق. . .»

* * *

وكتب أديبٌ من بغداد يقول: «إنَّهُ كانَ في هذا الموضِعِ القَلِقِ موضع صاحبِ المشكلة، وإنَّ ذات قُرباهُ التي سُمِّيَتْ عليهِ كانت مُلَفَّفَةً لَهُ في حُجُبِ عِدَّةٍ لا في حِجابٍ واحد، وقد وُصِفَتْ له باللغة. . . وفي اللغة: ما أحْسَنَ وما أجملَ وما أظرف، وكأنَّها ظَبيٌ يتلفَّت، وكأنها غُصنٌ، يميلُ وكأنَّ سُنةَ وجهِها البَدر!

قال: «وشُبِّهَتْ لَهُ بكلِّ أدواتِ التشبيه، وجاءُوا في أوصافِها بمذاهبِ ٱلاستعارةِ والمجاز، فأخذَها قصيدةً قبلَ أنْ يأخذَها ٱمرأة؛ وكانَ لم ير منها شيئاً، وكانت لغةُ ذوي قَرابتِهِ وقرابتها كَلُغَةِ التجارةِ في ألْسِنةِ حُذّاقِ السماسرة: ما بهم إلَّا تَنفِيقُ السِّلْعةِ ثم يُخَلُّون بينَ المشتري وحظِّه.

قال: «فرسخَ كلامُهم في قلبي، فعقدْتُ عليها، ثم أعْرَسْتُ بها، ونظرْتُ فإذا هي ليَستْ في الكلمةِ الأولى ولا الأخرةِ مِمَّا قالوا ولا فيما بينَهما. . . ثم تعرَّفْتُ فإذا هي تكْبَرني بخمسَ عشرةَ سنة. . . ورأيت اتِّضاعَ[1] حالِها عندي فأشفَقْتُ عليها، وبِتُّ الليلَةَ الأولى مُقْبلاً على نفسي أُؤامرُها وأُناجيها، وأنظرُ في أي موضع رَأْي أنا؛ وتأملْتُ ٱلقصةَ، فإذا ٱمرأةٌ بينَ رحمةِ اللّهِ ورحمتي، فقلْتُ: إنْ أنا نزعْتُ رحمتي عنها لَيُوشِكَنَّ اللّهُ أنْ ينزِعَ رحمتَهُ عنّي، وما بيني وبينَهُ إلَّا أعمالي؛ وقلْتُ: يا نفسي، ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾. وإنَّما أتقدمُ إلى عفوِ اللّهِ بآثامٍ وذنوبٍ وغلطاتٍ، فلأجعلْ هذه المرأةَ حسنَتي عندَهُ، وما عليَّ من عمرٍ سيَمضي وتبقى منه هذه الحسنةُ خالدةً مخلَّدَةً.

«إنَّها كانَتْ حاجةَ النفسِ إلى المتاعِ فانقلبَتْ حاجةً إلى الثواب، وكانَتْ شهوةً فرجعَتْ حِكْمة، وكنْتُ أُريدُ أنْ أبلغَ ما أُحبُّ فسأبلغُ ما يَجِب. ثم قلْتُ: اللهمَّ إنَّ هذه ٱمرأةٌ تنتظرُها ألْسِنةُ الناسِ إمَّا بالخيرِ إذا أمسكْتُها، وإما بالشرِّ إذا طلَّقْتُها، وقد ٱحتَمتْ بي؛ اللهمَّ سأكفيها كلَّ هذا لِوجهِكَ الكريم!

---

(١) اتضاع حالها: هوان أمرها.

قال: «ورأيتُني أكونُ ألأمَ الناسِ لو أنّي كشفْتُها لِلناسِ وقلْتُ ٱنظروا. . . فكأنّما كنْتُ أسأْتُ إليها فأقْبَلْتُ أترضَّاها، وجعَلْتُ أمازِحُها وألا يِنُها في القول، وعدلْتُ عن حظِّ نفسي إلى حظِّ نفسِها، وٱستظهَرتُ بقولِهِ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾؛ وٱعتقدْتُ الآيةَ الكريمةَ أصحَّ ٱعتقادٍ وأتمَّه، وقلْتُ: اللهمّ ٱجعلْها من تفسيرِها.

قال: «فلم تمضِ أشهرٌ حتى ظهرَ الحمْلُ عليها، فألقى ٱللَّهُ في نفسي مِنَ الفرحِ ما لا تَعْدِلُهُ الدنيا بحذافيرِها، وأحسسْتُ لها الحُبَّ الذي لا يُقالُ فيهِ جميلٌ ولا قبيح، لأنَّهُ من ناحيةِ النفسِ الجديدةِ التي في نفسِها (الطفل). وجعلْتُ أرى لها في قلبي كلَّ يومِ مدَاخِلَ ومخارجَ دونَها العِشقُ في كلِّ مَداخِلِهِ ومخارجِه، وصارَ الجنينُ الذي في بطنِها يتلألأُ نورُهُ عليها قبلَ انْ يخرجَ إلى النور، وأصبحَتِ الأيامُ معها رِبحاً مِنَ الزمنِ فيهِ الأملُ الحلوُ المنتظَر.

قال: «وجاءَها المخاض، وطرَّقَتْ بغلام[1]؛ وسمعْتُ ٱلأَصواتَ ترتفعُ من حُجْرتها: ولد! ولد! بَشروا أباه. فواللَّهِ لَكَأَنَّ ساعةً من ساعاتِ الخُلْدِ وقعَتْ في زمني أنا من دون الخَلْقِ جميعاً وجاءَتْني بكلِّ نعيم الجنَّة؛ وما كانَ مُلْكُ العالم ـ لو ملكْتُهُ ـ مستطيعاً أنْ يهبني ما وهبَتْني ٱمرأتي من فَرَحِ تلك الساعة؛ إنَّه فَرحٌ إلهيٌّ أحسسْتُ بقلبي أنَّ فيهِ سلامَ ٱللَّهِ ورحمتَهُ وبركتَه، ومن يومئذٍ نَطَقَ لِسانُ جمالِها في صوتِ هذا الطفل. ثم جاءَ أخوه في العام الثاني، ثم جاء أخوهما في العام الثالث؛ وعرفْتُ بركةَ الإحسانِ مِنَ اللطفِ الرَّبانيِّ في حوادثَ كثيرة، وتنفَّسَتْ عليَّ أنفاسُ الجنةِ وفسَّرتِ الآيةُ الكريمةُ نفسَها بهؤلاءِ الأولاد، فكان تفسيرُها الأفراح، والأفراح، والأفراح».

* * *

ويرى صديقُنا الأستاذ (م. ح. ج) أنَّ صاحبَ المشكلةِ في مشكلةٍ من رجولتِهِ لا من حُبِّه؛ فلو أنَّ لَهُ ألفَ روح لَمَا ٱستطاعَ أنْ يُعاشرَ زوجتَهُ بواحدةٍ منها، إذْ هي كلُّها أرواحٌ صِبيانيةٌ تبكي على قِطعةٍ مِنَ الحلوى مُمَثَّلةٍ في الحبيبة. . . ولو عرفَ هذا الرجلُ فلسفةَ الحُبِّ والكره، لَعرفَ أنَّهُ يصنعُ دموعَهُ بإحساسِهِ الطفْليِّ في هذه المشكلة؛ ولو أدركَ شيئاً لأدركَ أنّ الفاصلَ بينَ الحُبِّ والكرهِ منزوعٌ من

---

(١) طرّقت بغلام: أولدت غلاماً.

نفسِه، إذِ الفاصلُ في الرجلِ هو الحزمُ الذي يُوضَعُ بينَ ما يجبُ وما لا يجب.

إنَّهُ ما دامَ بهذه النفسِ الصغيرةِ فكلُّ حلٍّ لِمشكلتِه هو مشكلةٌ جديدة، ومِثْلُهُ بلاءٌ على الزوجةِ والحبيبةِ معاً، وكِلتاهما بلاءٌ عليه، وهو بهذه وهذه كمحكومٍ عليهِ أنْ يُشْنَقَ بامرأةٍ لا بمشنقة...

هذا عندي ليس بالرجلِ ولا بالطفلِ إلى أنْ يُثْبِتَ أنَّه أحدُهما؛ فإنْ كانَ طِفلاً فمنَ السخريةِ بِهِ أنْ يكونَ متزوجاً، وإنْ كانَ رجلاً فلْيحلَّ هو المشلكةَ بنفسِه، وحلُّها أيسرُ شيء؛ حلُّها تغييرُ حالتِهِ العقلية.

* * *

ونحن نعتذرُ لِلباقينَ مِنَ الأدباءِ والفضلاءِ الذين لم نذكرْ آراءَهم، إذْ كانَ الغرضُ مِنَ الاستفتاءِ أنْ نظفرَ بالأحوالِ التي تُشبهُ هذه الحادثة، لا بالآراءِ والمواعظِ والنصائح. أمَّا رأيُنا ففي البقيةِ الآتية.

المشْكِلَة

٤

صاحبُ هذه المشكلةِ رجلٌ أعورُ العقل... يرى عقلُهُ من ناحيةٍ واحدةٍ، فقدغابَ عنه نصفُ الوجودِ في مشكلتِه؛ ولو أنَّ عقلَهُ أبصرَ مِنَ الناحيتينِ لَمَا رأى المشكلةَ خالصةً في إشكالِها، ولَوَجَدَ في ناحيتِها الأخرى حظّاً لِنفسِهِ قد أصابَه، ومذهباً في السلامةِ لم يُخطِئْه؛ وكانَ في هذه الناحيةِ عذابُ الجنونِ لو عذَّبَهُ اللَّهُ بهِ، وكانَ يُصبحُ أشقَى الخلْقِ لو رماهُ اللَّهُ في الجِهَةِ التي أنقذَهُ منها، فتهيأتْ لَهُ المشكلةُ على وجهِها الثاني.

ماذا أنت قائلٌ يا صاحبَ المشكلةِ لو أنَّ زوجتَك هذه المسكينةَ المظلومَةَ التي بنَيْتَ بِها، كانَتْ هي التي أُكْرِهَتْ على الرضى بك، وحُمِلَتْ على ذلك من أبيها، ثم كنْتَ أنت لها عاشقاً، وبها صَبّاً[1]، وفيها مُتَدَلِّهاً؛ ثم كانَتْ هي تُحبُّ رجلاً غيرَك، وتَصْبو إليه، وتفتتِنُ بِهِ، وقدِ ٱحترقَتْ عِشْقاً لَه؛ فإذا جَلَوْها[2] عليك رأتكَ البَغيضَ المَقيتَ[3]، ورأتْكَ ٱلدَّميمَ ٱلكَرِيه، وفَزِعَتْ منك فزعَها مِنَ اللّصِّ والقاتلِ؛ وتمدُّ لها يدَكَ فَتتحَاماها تحامَيها المجذومَ أوِ الأبرص، وتكلِّمُها فتُحَمُّ بَرْداً من ثِقَلِ كلامِكَ، وتفتحُ لها ذراعيك فتَحسبُهُما حَبْلَينِ من مشنقتين، وتتحبَّبُ إليها فإذا أنتَ أسمجُ خلقِ اللَّهِ عندَها، إذا تُحاولُ في نَذالةٍ أنْ تَحِلَّ منها محلَّ حبيبِها؛ وتُقبلُ عليها بوجهِكَ فتراهُ من تَقَذُّرِها إياكَ، وٱشمئزازِها منك، وجهَ الذبابةِ مكبَّراً بفظاعةٍ وشناعةٍ في قدرِ صورةِ وجهِ الرجلِ، لِتتجاوَزَ حدَّ القُبْحِ إلى حدِّ الغَثاثة، إلى حدّ ٱنقلابِ النفسِ من رؤيتِهِ، إلى حدِّ القَيْءِ إذا دَنا وجهُك من وجهها...؟!

ماذا أنت قائلٌ يا صاحبَ المشكلةِ لو أنَّ مشكلتَكَ هذه جاءَتْ من أنَّ بينَك

---

(١) صباً: متدلهاً، عاشقاً، مغرماً.

(٢) جلوها: زفّوها.

(٣) المقيت: المكروه.

وبينَ زوجتِكَ (الرجلَ الثاني) لا المرأةَ الثانية؟ ألسْتَ الآنَ في رحمةٍ مِنَ ٱللَّهِ بك، وفي نعمةٍ كفَّتْ عنك مُصيبة، وفي موقفٍ بينَ الرحمةِ والنعمةِ يقتضيك أنَ تَرقُبَ في حكمِكَ على هذه الزوجةِ المسكينةِ حكمَ اللَّهِ عليك؟

* * *

تقول: الحُبُ والخيالُ والفنّ. وتذهبُ في مذاهبِها؛ غيرَ أنَّ «المشكلةَ» قد دلَّتْ على أنَّك بعيدٌ من فَهْم هذه الحقائق، ولو أنت فهِمْتَها لَمَا كانَتْ لك مشكلة، ولا حَسِبْتَ نفسَكَ منحوسَ الحظِّ محروماً، ولا جَهِلْتَ أنَّ في داخلِ العينِ من كلِّ ذي فنٍّ عيناً خاصةً بالأحلامِ كيلا تعمَى عينُهُ عنِ الحقائق.

الحُبُ لفظٌ وهميٌ موضوعٌ على أضدادٍ مختلفة: على بُركانٍ ورَوْضة، وعلى سماءٍ وأرض، وعلى بُكَاءٍ وضحك، وعلى همومٍ كثيرةٍ كلُّها هموم، وعلى أفراحٍ قليلةٍ ليسَتْ كلُّها أفراحاً؛ وهو خِداعٌ مِنَ النفسِ يضعُ كلَّ ذكائهِ في المحبوب، ويجعلُ كلَّ بَلَاهتِهِ في المحبّ، فلا يكونُ المحبوبُ عندَ محبِّهِ إلَّا شخصاً خيالياً ذا صِفةٍ واحدةٍ هي الكمالُ المطلق، فكأنَّهُ فوقَ البشريةِ في وجودِ تامِّ الجمالِ ولا عيبَ فيه، والناسُ من بعدِهِ موجودونَ في العيوبِ والمحاسِن.

وذلك وهمٌ لا تقومُ عليهِ ٱلحياةُ ولا تصلُحُ بِهِ، فإنَّما تقومُ ٱلحياةُ على الروحِ العمليةِ التي تضعُ في كلِّ شيءٍ معناهُ الصحيحَ الثابت؛ فالحُبُّ على هذا شيءٌ غيرُ الزواج، وبينَهما مثلُ ما بينَ ٱلاضطرابِ والنظام؛ ويجب أنْ يُفهَمَ هذا الحُبُّ على النحوِ الذي يجعلُهُ حُبًّا لا غير، فقدْ يكونُ أقوى حُبٍّ بينَ ٱثنينِ إذا تحابَّا هو أسخفَ زواجٍ بينَهما إذا تزوَّجا.

وذو الفنِّ لا يُفيدُ من هذا الحُبِّ فائدتَهُ ٱلصحيحةَ إلَّا إذا جعلَهُ تحتَ عقلٍ لا فوقَ عقلِه، فيكونُ في حبِّهِ عاقلاً بجنونٍ لطيف... ويتركُ العاطفةَ تدخلُ في التفكيرِ وتضعُ فيه جمالَها وثورتَها وقوَّتَها؛ ومن ثَمَّ يرى مجاهَدَة اللذةِ في الحبِّ هي أسمى لذاتِهِ الفكرية، ويعرفُ بها في نفسِهِ ضَرْباً إلهيًّا مِنَ السَّكينةِ يُوليهِ القدرة على أنْ يقهرَ الطبيعةَ الإنسانيةَ ويصرِّفَها ويُبدعَ منها عملَهُ ٱلفنيَّ العجيب.

وهذا الضربُ مِنَ السموِّ لا يبلغُهُ إلَّا الفكرُ القويُّ الذي فازَ على شهواتِهِ وكبَحَها وتحمَّلها تَغلي فيهِ غَلَيانَ الماءِ في ٱلمِرْجَلِ لِيخرُجَ منها ألطفُ ما فيها، ويحوِّلَها حركةً في الروحِ تنشأُ منها حياةُ هذه المعاني الفنية؛ وما أشبَهَ ذا الفنِّ

بالشجرةِ الحيَّة: إنْ لم تَضْبِطْ ما في داخلِها أصحَّ الضبط، لم يكنْ في ظاهرِها إلَّا أضعفُ عملِها.

ومثلُ هذا الفكر العاشقِ يحتاجُ إلى الزوجةِ حاجتَهُ إلى الحبيبة، وهو في قوتِهِ يجمعُ بينَ كرامةِ هذه وَقُدْسيَّةِ هذه، لأنَّ إحداهما تُوازنُ الأخرى، وتعدِّلُها في الطبع، وتُخففُ من طُغيانِها على الغريزة، وتُمْسِكُ القلبَ أنْ يتبدَّدَ في جوِّهِ الخيالي.

***

والرجلُ الكاملُ المفكِّرُ المتخيِّلُ إذا كانَ زَوْجاً وعَشِق، أو كانَ عاشقاً وتزوَّجَ بغيرِ منْ يهواها، استطاعَ أنْ يَبتدعَ لِنفسِهِ فنًّا جميلاً من مسَراتِ الفِكْرِ لا يجدُهُ العاشقُ ولا ينالُهُ المتزوج؛ وإنَّهُ ليَرى زوجتَهُ مِنَ الحبيبةِ كالتمثالِ جَمَدَ على هيئةٍ واحدة، غيرَ أنَّهُ لا يُغْفِلُ أنَّ هذا هو سرٌّ من أسرارِ الإبداعِ في التمثالِ، إذْ تلك هيئةُ استقرارِ الأسمى في سُموِّه؛ فإنَّ الزوجَةَ أُمومةٌ على قاعدتِها، وحياةٌ على قاعدتِها؛ أمَّا الحبيبةُ فلا قاعدةَ لَها، وهي معانٍ شاردةٌ لا تستقرُّ، وزائلةٌ لا تثبت، وفنّها كلُّهُ في أنْ تبقَى حيثُ هي كما هي، فجمالُها يحيا كلَّ يومٍ حياةً جديدةً ما دامَتْ فنًّا مَحْضاً، وما دامَ سرُّ أنوثتِها في حِجابِه.

ومتى تزوجَ الرجلُ بِمَنْ يُحبُّها انهتكَ لَهُ حِجابُ أنوثتِها فبطَلَ أنْ يكونَ فيها سرّ، وعادَتْ له غيرَ مَنْ كانت، وعادَ لها غيرَ مَنْ كان؛ وهذا التحوُّلُ في كلٍّ منهما هو زوالُ كلٍّ منهما من خيَالِ صاحبِه؛ فليسَ يصلُحُ الحُبُّ أساساً لِلسعادةِ في الزواج، بلْ أحْرِ به[1] إذا كان وُجْداً واحتراقاً أنْ يكون أساساً لِلشؤم فيه؛ إذْ كانَ قد وضعَ بينَ الزوجينِ حدًّا يُعيِّنُ لهما درجةً من درجةٍ في الشغَفِ والصبابةِ والخيال، وهما بعدَ الزواجِ متراجعانِ وراءَ هذا الحدِّ ما من ذلك بُدّ، فإنْ لم يكنِ الزوجُ في هذه الحالةِ رجلاً تامَّ الرجولة، أفسدَتِ الحياةَ عليه وعلى زوجتِه صِبيانيةُ روحِهِ فالتمسَ في الزوجةِ ما لم يَعُدْ فيها، فإذا انكشفَ فراغُها ذهبَ يلتمسُهُ في غيرِها، وكانَ بلاءً عليها وعلى نفسِه وعلى أولادِهِ قبلَ أنْ يُولدوا؛ إذْ يضعُ أمامَ هذه المرأةِ أسوأَ الأمثلةِ لِأبي أولادِها، ويُفسدُ إحساسَها فيُفسدُ تكوينَها النفسيَّ؛ وما المرأةُ إلَّا حسُّها وشعورُها.

فالشأنُ هو في تمامِ الرجولةِ وقوتِها وشهامتِها وفُحُولتِها، إنْ كانَ الرجلُ

---

(١) أحرِ به: أجدر به.

عاشقاً أو لم يكُنْه. وما من رجلٍ قوي الرجولَةِ إلا وأساسُهُ ديانتُهُ وكرامتُه؛ وما من ذي دِينٍ أو كرامةٍ يقعُ في مثلِ هذه المشكلةِ ثم تُظْلَمُ بهِ الزوجةُ أو يحيفُ عليها أو يُفسدُ ما بينه وبينَها مِنَ المداخَلةِ وحسنِ العِشْرة، بَلْهَ أنْ يراها[1] كما يقولُ صاحبُ المشكلةِ (مصيبة) فَيُجَافيها[2] ويُبالغَ في إعْناتِها[3] ويشفِيَ غيظَهُ بإذلالِها وٱحتقارِها.

وأيُّ ذي دينٍ يأمنُ على دينِه أنْ يَهلَكَ في بعضِ ذلك فضلاً عن كلِّ ذلك؟ وأيُّ ذي كرامةٍ يرضى لِكرامتِهِ أنْ تنقلِبَ خِسَّةً ودناءةً ونذالةً في معاملةِ ٱمرأةٍ هو لا غيرُهُ ذنبُها؟

إنَّ أساسَ الدينِ والكرامةِ ألّا يخرجَ إنسانٌ عن قاعدةِ ٱلفضيلةِ ٱلاجتماعيةِ في حلِّ مشكلتِهِ إنْ تورَّطَ في مشكلة؛ فمَنْ كانَ فقيراً لا يسرِقُ بِحُجةِ أنَّهُ فقير، بل يكدُّ ويعملُ ويصبِرُ على ما يُعانيهِ من ذلك؛ ومَنْ كانَ مُحِبًّا لا يَستَزِلُّ ٱلمرأةَ فيُسقطُها بِحُجَّةِ أنَّهُ عاشِق؛ ومَنْ كانَ كَصاحِبِ المشكلةِ لا يظلمُ ٱمرأتَهُ فيمقتُها بِحُجَّةِ أنَّهُ يعشقُ غيرَها؛ وإنَّما الإنسانُ مَنْ أظهرَ في كلِّ ذلك ونحوِ ذلك أثرَةَ الإنسانيِّ لا أثرَةَ الوحشِيِّ، وٱعتبَرَ أمورَهُ الخاصَّةَ بقاعدةِ الجماعةِ لا بقاعدةِ الفرْد. وإنَّما الدينُ في السموِّ على أهواءِ النفس؛ ولا يَتَسامى ٱمرؤٌ على نفسِهِ وأهواءِ نفسِهِ إلَّا بإنزالِها على حُكْمِ القاعدةِ العامَّة، فمن هناكَ يتسامى، ومن هناك يبدو علوُّه فيما يبلغُ إليه...

وإذا حلَّ اللصُّ مشكلَتَهُ على قاعدتِهِ هو فقدَ حلَّها، ولكنَّهُ حلٌّ يجعلُهُ هو بجملتِهِ مشكلةً لِلناسِ جميعاً، حتى لَيرى الشرْعُ في نظرتِهِ إلى إنسانيةِ هذا اللصِّ أنَّهُ غيرُ حقيقٍ باليدِ العاملةِ التي خُلقَتْ لَهُ فيأمرُ بقطعِها.

وعلى هذه القاعدة فالجنسُ البشريُّ كلُّهُ ينزلُ منزلَةَ الأبِ في مناصرتِهِ لِزوجةِ صاحبِ ٱلمشكلةِ وٱلاستظهارِ لها وٱلدفاعِ عنها، ما دامَ قد وقعَ عليها ٱلظلْمُ من صاحبِها، وهذا هو حكمُها في الضميرِ الإنسانيِّ الأكبر، وإنْ خالَفَ ضميرَ زوجِها العدوِّ الثائرِ الذي قطعَها من مَصادرِ نفسِهِ ومَوَارِدِها. أمَّا حكمُ الحبيبةِ في هذا الضميرِ الإنسانيِّ فهو أنَّها في هذا الموضعِ ليسَتْ حبيبةً ولكنَّها شحَّاذَةُ رجال...

* * *

لَسْنا نُنكِرُ أنَّ صاحبَ هذه المشكلةِ يتألَّمُ منها ويتلذَّعُ بها مِنَ الوقْدَةِ التي في

---

(١) بلْه أن يراها: فضلاً عن أن ينظر إليها.

(٢) يجافيها: يسيء معاملتها ويقاطعها. (٣) إعناتها: إتعابها.

قلبِه؛ بيدَ أنّنا نعرفُ أنَّ ألمَ العاقلِ غيرُ ألمِ المجنون، وحُزْنَ الحكيم غيرُ حزنِ الطائش؛ والقلبُ الإنسانيُّ يكادُ يكونُ آلةً مخلوقةً مَعَ الإنسانِ لإصلاحِ دُنياهُ أو إفسادِها؛ فالحكيمُ من عرفَ كيف يتصرَّفُ بهذا القلبِ في آلامِهِ وأوجاعِه، فلا يصنعُ من ألمِهِ ألماً جديداً يزيدُهُ فيه، ولا يُخرجُ مِنَ الشرِّ شرًّا آخرَ يجعلُهُ أسوأَ مِمَّا كان. وإذا لم يجدِ الحكيمُ ما يشتهي، أو أصابَ ما لا يشتهي، استطاعَ أنْ يخلُقَ من قلبِهِ خَلْقاً معنويًّا يُوجِدُهُ الغِنَى عن ذلك المحبوبِ المعدوم، أو يُوجِدُهُ الصبرُ عن هذا الموجودِ المكروه؛ فتتوازَنُ الأحوالُ في نفسِهِ وتعتدلُ المعاني على فكرِهِ وقلبِه؛ وبهذا الخلْقِ المعنويّ يستطيعُ ذو الفنِّ أنْ يجعلَ الآلامَ كلَّها بدائعَ فنٍّ. وما هو فكرُ الحكماءِ إلَّا أنْ يكونَ مَصْنَعاً تُرسَلُ إليهِ المعاني بصورةٍ فيها الفَوْضَى والنقصُ والألم، لِتخرجَ منه في صورةٍ فيها النظامُ والحِكْمةُ واللّذةُ الروحيَّة.

يعشقُ الرجلُ العاميُّ المتزوِّج، فإذا الساعةُ التي أو بَقَتْهُ في المشكلةِ قد جاءَتْهُ معها بطريقةِ حلِّها: فإمَّا ضَرَب امرأتَهُ بِالطلاق، وإمَّا أهلكَها باتخاذِ الضَّرَّةِ عليها، وإمَّا عذبَها بالخيانةِ والفُجور، لأنَّ بعضَ العبثِ مِنَ الطبيعةِ في نفسِ هذا الجاهلِ هو بعينِهِ عَبثُ الطبيعةِ بهذا الجاهلِ في غيرِه، كأنَّ هذه الطبيعةَ تُطْلِقُ مدافَعَها الضخمةَ على الإنسانيةِ من هذه النفوسِ الفارغة...

وليسَ أسهلُ على الذكرِ مِنَ الحيوانِ أنْ يحلَّ مشكلةَ الأنثى حلًّا حيوانياً كَحَلِّ هذا العاميّ، فهو ظافرٌ بالأنثى أو مقتولٌ دونَها ما دامَ مطلقاً مخلًّى بينَه وبينَها؛ والحقيقةُ هنا حقيقتُهُ هو، والكونُ كلُّهُ ليسَ إلَّا منفعةً شهوانية؛ وأسمى فضائلِهِ ألَّا يَعجزَ عن نيلِ هذه المنفعة.

ثم يعشقُ الرجلُ الحكيمُ المتزوجُ فإذا لِمشكلتِهِ وجهٌ آخر، إذْ كانَ من أصعبِ الصعْبِ وجودُ رجلٍ يحلُّ هذه المشكلةَ برجولة، فإنَّ فيها كرامةَ الزوجةِ وواجبَ الدينِ وفيها حقَّ المُروءة، وفيها مع ذلك عَبَثُ الطبيعةِ وخِداعُها وهَزْلُها الذي هو أشدُّ الجِدِّ بينَها وبينَ الغريزة؛ وبهذا كلِّهِ تنقلبُ المشكلةُ إلى معركةٍ نفسِّيةٍ لا يَحْسِمُها إلَّا الظفر، ولا يُعينُ عليها إلَّا الصبْر، ولا يُفلِحُ في سياستِها إلا تحملُ آلامِها، فإذا رُزِقَ العاشقُ صَبْراً وقوةً على الاحتمالِ فقد هانَ الباقي وتيسَرتْ لذةُ الظفَرِ الحاسم، وإنْ لم يكُنْ هو الظفرَ بالحبيبةِ؛ فإن في نفسِ الإنسانِ مواقعَ مختلفةً وآثاراً متباينةً لِلّذةِ الواحدة، وموقعٌ أرفعُ من موقع، وأثرٌ أبهجُ من أثر؛ وألَذُّ مِنَ الظفَرِ بالحبيبةِ نفسِها عندَ الرجلِ الحكيم الظفرُ بمعانيها، وأكرمُ منها على نفسِهِ

كَرامةُ نفسِه. وإذا ٱنتصرَ الدينُ والفضيلةُ والكرامةُ والعقلُ والفنّ، لم يبقَ لِخيبةِ الحُبِّ كبيرُ معنًى ولا عظيمُ أثر، ويتوغّلُ[1] العاشِقُ في حبِّهِ وقد لَبِسَتْهُ حالةٌ أخرى كما يكْظِمُ[2] الرجلُ الحليمُ على الغَيظ: فذلك يُحبُّ ولا يَطيش، وهذا يغتاظُ ولا يغضَب. والبطلُ الشديدُ البأسِ لا ينبغُ إلّا مِنَ الشدائدِ القويّة، والداهيةُ الأريبُ[3] لا يخرجُ إلّا مِنَ ٱلمشكلاتِ ٱلمعقدّة، والتقيُّ الفاضلُ لا يُعرفُ إلّا بينَ ٱلأهواءِ ٱلمستحكمة. ولَعمري إذا لم يستطعِ ٱلحكيمُ أنْ ينتصرَ على شهوةٍ من شهواتِ نفسِه، أو يُبطِلُ حاجةً من حاجاتِها، فماذا فيهِ مِنَ الحِكْمة، وماذا فيهِ مِنَ النفس؟

* * *

وما عقَّدَ (المشكلةَ) على صاحبِها بينَ زوجتِهِ وحبيبتِه، إلّا أنَّهُ بخيالِهِ الفاسدِ قد أفسدَ القوةَ المصلِحَةَ فيه، فهو لم يتزوج ٱمرأتَه كلَّها... وكأنَّه لا يراها أنثى كالنساء، ولا يُبصرُ عندَها إلا فُروقاً بينَ ٱمرأتين: محبوبةٍ ومكروهة؛ وبهذا أفسَدَ عينَهُ كما أفسدَ خيَالَه؛ فلو تعلَّمَ كيف يراها لَرآها، ولو تعوَّدَها لأحبَّها.

إنَّهُ من وهمِهِ كالجوادِ الذي يشعرُ بالمَقَادَةِ في عُنقِه؛ فشعورُهُ بمعنى الحبلِ وإنّ كانَ معنًى ضئيلاً عطَّلَ فيهِ كلَّ معاني قوتِه، وإنْ كانَتْ معانيَ كثيرة. وما أقدرَكَ أيُّها الحُبُّ على وضعِ حِبالِ الخيلِ والبِغالِ والحميرِ في أعناقِ الناس!

* * *

وقد بقيَ أنْ نذكر، توفيةً لِلفائدة، أنَّهُ قد يقعُ في مثل هذه المشكلةِ مَنْ نقصَتْ فُحُولَتُه مِنَ الرجال، فيدَلِّسُ[4] على نفسِهِ بمثلِ هذا الحُبّ، ويُبالِغُ فيه، ويتجرَّمُ على زوجتِهِ المسكينةِ التي ٱبتُلِيَتْ به، ويختَلِقُ لَها العِلَلَ الواهيةَ المكذوبة، ويُبغضُها كأنَّهُ هو الذي ٱبْتُلِيَ بها، وكأنَّ المصيبةَ من قِبَلِها لا من قِبَلِه؛ وكلُّ ذلك لأنَّ غريزَتَهُ تحوَّلَتْ إلى فكرِه، فلم تعدْ إلّا صُوَراً خياليةً لا تعرفُ إلّا الكَذِب. وقد قرَرَ علماءُ النفسِ أنَّ مِنَ الرجالِ من يكرَهُ زوجتَهُ أشدَّ الكُرْهِ إذا شعَرَ في نفسِهِ بالمهانةِ والنقصِ من عجزِهِ عنها... فهذا لا يكونُ رجلاً لٱمرأتِه إلّا في العداوةِ والنِّقْمَةِ والكراهيةِ وما كَانَ من بابِ شفَاءِ الغيظ، وٱمرأتُهُ معَهُ كالمعاهَدةِ السياسةِ من طَرَفٍ واحد: لا قِيمةَ ولا حُرمة؛ وإذا أحبَّ هذا كانَ حبُّهُ خياليًا شديداً، لأنَّهُ من جِهةٍ يكونُ كالتعزيةِ لِنفسِه، ومن جهةٍ أخرى يكونُ غَيْظاً لِزوجتِه، وردًا بِٱمرأةٍ على ٱمرأة...

---

(1) يتوغّل: يتعمق إلى أقصى الحدود.

(2) كظم الغيظ: يسيطر عليه.

(3) الأريب: الذكيّ.

(4) يدلّس: يوهم نفسه كاذباً.

فهرس المحتويات

وحي القلم

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

المكتبة العصرية

صيدا - بيروت



تأليف

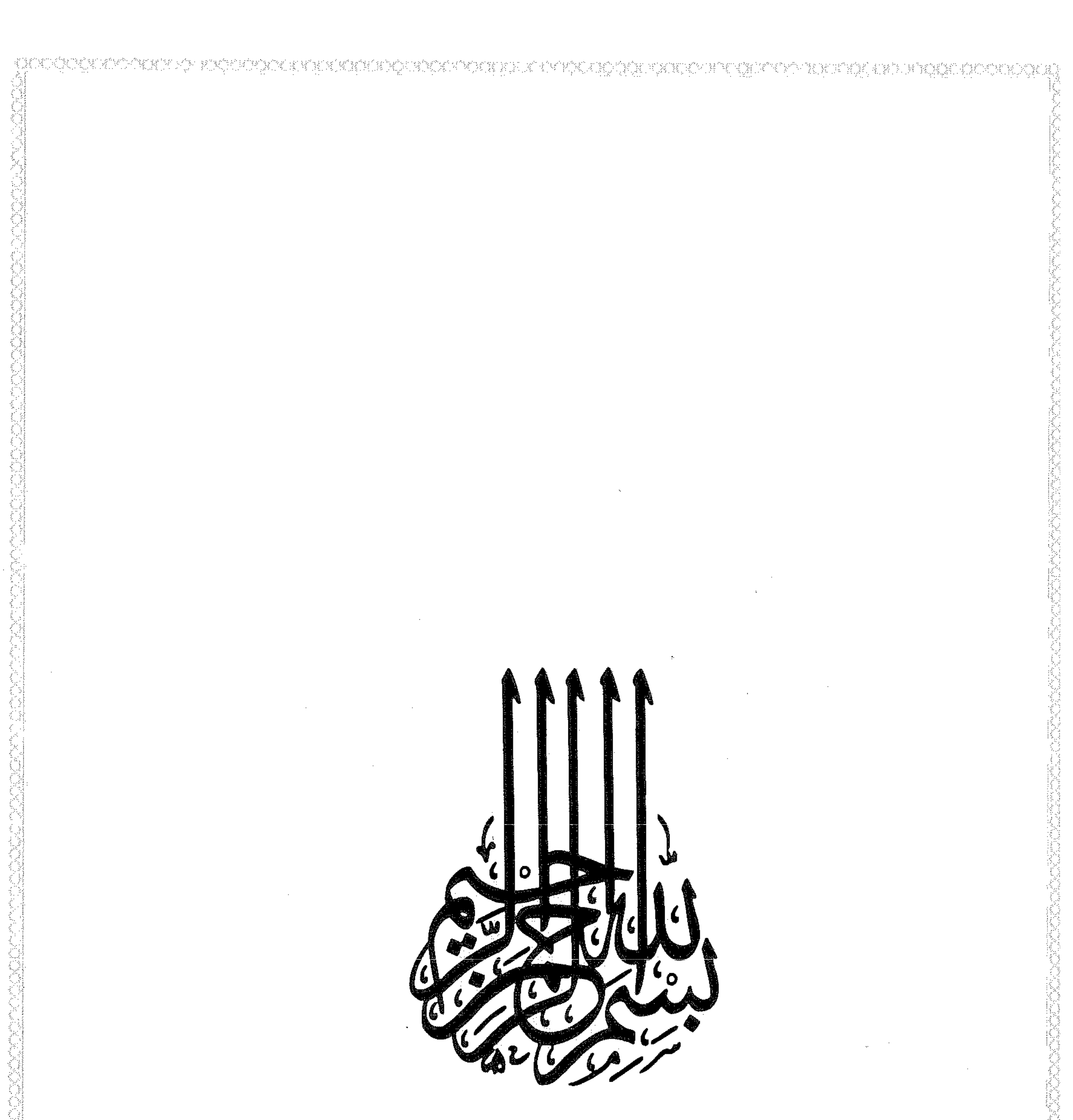
مصطفى صادق الرافعي

راجعه واعتنى به

د. درويش الجويدي

الجزء الثاني




بسم الله الرحمن الرحيم

الإشراقُ الإلهي
وفلسفة الإسلام

كما تطلعُ ٱلشمسُ بأنوارِها فتُفجّرُ ينبوعَ الضوءِ المسمّى النهار، يولَدُ النبيُّ فيُوجِدُ في الإنسانيةِ ينبوعَ النورِ المسمّى بالدين. وليسَ النهارُ إلا يقظةَ الحياةِ تُحقّقُ أعمالَها، وليسَ الدينُ إلا يقظةَ النفسِ تُحققُ فضائلَها.

والشمسُ خلقَها اللَّهُ حاملةً طابَعَهُ الإلهيَّ، في عملِهِ لِلمادةِ تُحَوّلُ بِهِ وتُغَيّر، والنبيُّ يُرسلُهُ اللَّهُ حاملاً مثلَ ذلك الطابعِ في عملِهِ تترقّى فيهِ وتسمو.

وَرَعشاتُ الضوءِ منَ الشمسِ هي قصةُ الهدايةِ لِلكونِ في نورٍ مِنَ الكلام.

والعاملُ الإلهيُّ العظيمُ يعملُ في نظامِ النفسِ والأرضِ بأداتيْنِ متشابهتينِ: أجرامِ النورِ مِنَ الشموسِ والكواكب، وأجرامِ العقلِ مِنَ الرُّسُلِ والأنبياء.

فليسَ ٱلنبيُّ إنساناً مِنَ العظماءِ يُقرأُ تاريخُهُ بالفكرِ معَهُ ٱلمنطق، ومعَ ٱلمنطقِ الشكّ، ثم يُدْرَسُ بكلّ ذلك على أصولِ الطبيعةِ البشرية العامة، ولكنَّهُ إنسانٌ نجميٌّ يُقرأُ بمثلِ «التلسكوب» في الدقة، معَهُ العِلْم، ومعَ ٱلعِلْمِ الإيمان، ثم يُدْرسُ بكلِّ ذلك على أصولِ طبيعتِهِ النورانيةِ وحدَها.

والحياةُ تُنشِيءُ عِلمَ التاريخ، ولكنَّ هذه الطريقةَ في درسِ الأنبياءِ ـ صلواتُ اللهِ عليهم ـ تجعلُ التاريخَ هو يُنشيءُ عِلْمَ الحياة، فإنَّما النبيُّ إشراقٌ إلهيٌّ على الإنسانية، يُقوّمُها في فلَكِها الأخلاقيّ، ويجذبُها إلى الكمالِ في نظامٍ هو بعينِهِ صورةٌ لِقانونِ الجاذبيةِ في الكواكب.

ويجيءُ النبيُّ فتجيءُ الحقيقةُ الإلهيةُ معَهُ في مثلِ بلاغةِ الفنِّ البيانيّ، لِتَكُونَ أقوى أثراً، وأيسرَ فَهماً، وأبدعَ تمثيلاً، وليسَ عليها خِلافٌ مِنَ الحِسّ. وهذا هو الأسلوبُ الذي يجعلُ إنساناً واحداً فَنَّ الناسِ جميعاً، كما تكونُ البلاغةُ فنَّ لغةٍ بأكملِها، هوَ الشخصُ المفسّرُ إذا تعسَّفَ[1] الناسُ الحياةَ لا يدرونَ أينَ يؤُمُّونَ

(١) تعسّف: اشتط، جاوز الحدّ المعقول.

منها، ولا كيف يتهدَّون فيها، فتضطربُ الملايينُ من البشريةِ ٱضطرابَها فيما تنقبضُ عنه وتتهالكُ فيهِ من أطماعِ الدنيا، ثم يُخْلَقُ رجلٌ واحد لِيكونَ هو التفسيرَ لِمَا مضى وما يأتي، فتظهرُ به حقائقُ الآدابِ العاليةِ في قالَبٍ مِنَ الإنسانِ العاملِ المرئيِّ، أبلغَ مِمّا تظهرُ في قصةٍ متكلِّمةٍ مروية.

وما الشهادةُ لِلنبوّةِ إلَّا أنْ تكونَ نفسُ النبيّ أبلغَ نفوسِ قومِه، حتى لَهُوَ في طباعِهِ وشمائِلِهِ طبيعةٌ قائمةٌ وحدَها، كأنَّها الوضعُ النفسانيُّ الدقيقُ الذي يُنْصَبُ لِتصحيحِ الوضعِ المغلوطِ لِلبشريةِ في عالمِ المادةِ وتنازعِ البقاء[1]. وكأنّ الحقيقةَ الساميَةَ في هذا النبيّ تُنادي الناس: أنْ قَابِلُوا على هذا الأصلِ وصحِّحوا ما اعترى أنفسَكم من غلَطِ الحياةِ وتحريفِ الإنسانية.

* * *

ومن ثَمَّ فنبيُّ البشريةِ كلِّها مَنْ بُعِثَ بالدينِ أعمالاً مفصَّلةً على النفسِ أدقَّ تفصيلٍ وأوفاهُ بمصلحتِها، فهو يُعطي الحياةَ في كلِّ عصرٍ عقلَها العمليَّ الثابتَ المستقرَّ تُنظِّمُ بِهِ أحوالَ النفسِ على مَيْزَةٍ وبَصيرة، ويَدَعُ لِلحياةِ عقلَها العِلْميَّ المتجدد المتغيرَ تنظِّمُ بِهِ أحوالَ الطبيعةِ على قصْدٍ وهُدًى، وهذه هي حقيقةُ الإسلامِ في أخصِّ معانيه، لا يُغني عنه في ذلك دينٌ آخر، ولا يؤدِّي تأديتَهُ في هذه الحاجةِ أدبٌ ولا عِلْمٌ ولا فلسفة، كأنَّما هُوَ نَبعٌ في الأرضِ لِمعاني النور، بإزاءِ الشمسِ نبعِ النورِ في السماء.

وكلُّ ذلك تراهُ في نفس محمدٍ ﷺ، فهي في مجموعِها أبلغُ الأنفسِ قاطبة، لايُمكنُ أنْ تعرفَ الأرضُ أكملَ منها، ولوِ اجتمعَتْ فضائلُ الحكماءِ والفلاسفةِ والمتألِّهينَ وجُعِلَتْ في نِصَابٍ واحد ـ ما بلغَتْ أنْ يجيءَ منها مثلُ نفسهِ ﷺ. ولَكأنَّما خرَجتْ هذه النفسُ من صيغةٍ كصيغةِ الدُّرَّةِ في عِرْقِه. وهي النفسُ الاجتماعيةُ الكبرى، من أين تدبَّرْتَها رأيْتَها على الإنسانيةِ كالشمسِ في الأفقِ الأعلى تنبسطُ وتَضْحَى.

وتلك هي الشهادةُ لهُ ﷺ بأنَّهُ خاتمُ الأنبياء، وأنَّ دينَه هو دينُ ٱلإنسانيةِ ٱلأخير، فهذا ٱلدينُ في مجموعِهِ إنْ هو إلَّا صورةُ تلك النفسِ العظيمةِ في مجموعِها: صلابتُهُ بمقدارِ الحقِّ الإنسانيِّ الثابتِ، لا بمقدارِ ٱلإنسانِ المتغيِّرِ الذي

---

(١) تنازع البقاء: صراع البقاء.

يكونُ عندَ سَببٍ جَبَلاً صَلْداً[١] يَشْمَخ[٢]، وعندَ سببٍ آخرَ ماءً عذْباً يجري.

وهو دينٌ يعلو بِالقوةِ ويدعو إليها، ويُريدُ إخضَاعَ الدنيا وحُكْمَ العالم، ويستفرغُ همَّهُ في ذلك، لا لإعزازِ ٱلأقوى وإذلالِ الأضعف، ولكنْ لِلارتفاع بالأضعفِ إلى ٱلأقوى، وفرقٌ ما بينَ شريعتِهِ وشرائعِ ٱلقوة، أنَّ هذهِ إنَّما هي قوةُ سيادةِ الطبيعةِ وتحكُّمِها، أمَّا هو فقوةُ سيادةِ الفضيلةِ وتَغلُّبِها، وتلك تعملُ لِلتفريق، وهو يعملُ لِلمساواة، وسيادةُ الطبيعةِ وعملُها لِلتفريقِ هما أساسُ العبودية، وغلبةُ الفضيلةِ وعملُها لِلمساواةِ هما أعظمُ وسائِلِ ٱلحريَّة.

ومن هنا كانَ طبيعيًّا في ٱلإسلامِ ما جاءَ بهِ مِن أنهُ لا فضيلةَ إلَّا وهو يطبعُ عليها صورةَ ٱلجنةِ بنعيمِها ٱلخالد، ولا رذيلةَ إلَّا وهو يضعُ عليها صورةَ ٱلنارِ الأبديَّةِ وَقُودُها الناسُ والحجارة، فلا تنظُر العينُ المسلمةُ إلى أسبابِ الحياةِ نظرةَ الفكرِ المنازع: يحرَصُ على ما يكونُ لَهُ ويَشْرَهُ[٣] إلى ما ليسَ لَه، ويمكُرُ الحيلةَ، ويُبدعُ وسائلَ الخِداع، ويَزيدُ بِكلِّ ذلك في تعقيد الدنيا - بلْ نظرةُ القلبِ المُسالم: يَخلعُ الدنيا ويَسخو بكلِّ مضنونٍ فيها، فيعفُّ عن كثير، ويعرفُ الإنسانيةَ ويطمعُ في غاياتِها العُلْيا، فيعفو عن كثير، ويُدرِكُ أنَّ الحلالَ وإنْ حلَّ فوراءَهُ حسابُه، وأنَّ الحرامَ وإنْ غرَّ ليسَ إلَّا تَعلُّلَ[٤] ساعةٍ ذاهبةٍ ثم من ورائِهِ عِقابُ الأبد.

ويخرجُ من ذلك أنْ يكونَ أكبرُ أغراضِ ٱلإسلامِ هو أنْ يجعلَ من خشيةِ ٱللَّهِ - تعالى - قانونَ وجودِ ٱلإنسانِ على ٱلأرض، فمن أيِّ عِطْفيهِ[٥] التفتَ هذا الإنسانُ وجدَ على يَمْنتِهِ ويَسْرتِهِ مَلَكَينِ مِنْ ملائكةِ ٱللهِ يكتبانِ أعمالَهُ بخيرِها وشرِّها، فهو كالمتَّهَم المسترابِ[٦] بهِ في سياسةِ النفس: لا يمشي خُطوةً إلَّا بينَ جاسوسَيْنِ يُحصيانِ[٧] عليهِ حتى أسبابَ ٱلنِّية، ويَجمعانِ منهُ حتى نَزَواتِ الكبِد، ويُترجمانِ عنه حتى معانِيَ النظر.

وإذا قامَتْ هذه المحكمةُ الملائكيَّةُ وتقَررَتْ في ٱعتبارِ النفس، قامَ منها على النفسِ شرعٌ نافذٌ هو قانونُ الإرادةِ المميِّزة، وتُريدُ ٱلحسناتِ وتعملُ لها، وتخشى

---

(١) صلداً: قاسياً.
(٢) يشمخ: يتسامى.
(٣) يشره: يسعى للحصول على ما ليس له بطمع.
(٤) تعلّل: تمني النفس.
(٥) عطفيه: جنبيه.
(٦) المستراب: الشّاك.
(٧) يحصيان: يعدّان.

السيئاتِ وتَنفرُ منها، فإذا معاني الجسدِ يحكمُ بعضُها بعضاً، لا لتحقيقِ الحكومةِ والسلطة، ولكنْ لِتحقيقِ الخيرِ والمصلحة، وإذا نواميسُ الطبيعةِ المجنونةِ في هذا الحيوان، قد نهضَتْ إلى جانبِها نواميسُ الإرادةِ الحكيمةِ في الإنسان، وإذا كلُّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في النفسِ هي من صاحبِها مادةُ تُهمةٍ عندَ قاضيها في محكمتِها، وإذا كلُّ ما في الإنسانِ وما حولَ الإنسان، لا يُرادُ منه إلَّا سلامُ النفسِ في عاقبتِها؛ وإذا معنى السلامِ هو المعنى الغالبُ المتصرِّفُ بالإنسانيةِ في دنياها.

وكلُّ أعمالِ الإسلامِ وأخلاقِهِ وآدابِه، فتلك هي غايتُها، وهذه هي فلسفتُها؛ لا يُقررُها لِلإنسانيةِ حَسْبُ، بل يَغرِسُها في الوراثةِ غَرْساً بالاعتيادِ والمِرانِ الدائم، لِتكونَ عِلْماً وعملاً، فتُمكِّنَ لِسلام النفسِ بينَ الأسلحةِ المسدَّدةِ إليها من ضروراتِ الحياة، في أيدي الأعداءِ المتألِّبةِ[1] عليها من شَهَواتِ الغريزة.

فليسَ يعمُّ السلامُ إلّا إذا عمَّ هذا الدينُ بأخلاقهِ فشَملَ الأرضَ أو أكثرَها؛ فإنَّ قانونَ العالمِ حينئذٍ يُصبحُ منتزَعاً من طبيعةِ التراحُم، فإمّا انتسخَ بهِ قانونُ التنازعِ الطبيعيّ، وإما كَسَرَ من شِرّتهِ؛ ويُولدُ المولودُ يومئذٍ وتُولَدُ معَهُ الأخلاقُ الإنسانية.

* * *

تقريرُ معنى الدوام لِكلِّ أعمالِ النفسِ حتى مثقالِ الذَّرةِ مِنَ الخيرِ والشرّ، وضبطُ ذلك برياضةٍ عمليةٍ دائمةٍ مفروضةٍ على الناسِ جميعاً هذا هو أساسُ العقيدةِ الإسلامية؛ ولا صلاحَ لِلإنسانيةِ بغيرِهِ يردُّها إلى سبيلِ قَصْدِها[2]، فإنَّ من ذلك تكونُ الصفةُ العقليةُ التي تَغْلِبُ على المجتمع، وتُجانِسُ بينَ أفرادِه، فتوجِّهُ الإنسانيةَ كلَّها نحوَ الممكنِ من كمالِها، ولا تزالُ تُوجِّهُها نحوَ ما هو أعلى، وتحكمُ فاسدَها بصالِحها، وتأخُذُ عاصيَها بمطِيعِها، وتجعلُ الشرفَ الإنسانيَّ غرضَها الأول، لأنَّ اللَّهَ الحقَّ غرضُها الأخير؛ فيُصبحُ المرء ـ وهذا دينُه ـ كلّما تقدَّمَ بهِ العمرُ كَمُلَ فيهِ اثنان: الإنسان، والشريعة. ولا يعودُ طالبُ السعادةِ النفسيةِ في الدنيا كالمجنونِ يجري وراءَ ظلِّه لِيُمسِكَه؛ فلا يُدركُ في الآخرِ شيئاً غيرَ معرفتِهِ أنَّهُ كانَ في عملٍ باطلٍ وسعيٍ ضائع.

والإسلامُ يحرصُ أشدَّ الحِرْصِ وأبلغَهُ على تقريرِ ذلك المعنى الإلهيّ

---

(١) الأعداء المتألبة: المجتمعين المتقضين على من يتخذونه عدواً.

(٢) قصدها: غايتها.

العظيم، لا بالمنطق، ولكنْ بالعملِ؛ ثمَّ في النفسِ وعواطفِها، لا في العقلِ وآرائهِ؛ ثم على وجهِ التعميم، دونَ ٱلاستثناءِ وٱلخصوص؛ وذلك هو سِرُّ مشقَّتِهِ على النفسِ بما يفرضُهُ عليها؛ فإنَّ فلسفتَهُ أنَّ هذه النفسَ هي أساسُ العالم، وأنَّ النظامَ الخُلقيَّ هو أساسُ النفس، وأنَّ العملَ الدَّائمَ هو أساسُ النظام، وأنَّ روحَ العملِ الدائمِ تكونُ فيما يشُقُّ بعضَ المشَقةِ ولا يبلغُ العُسْرَ والحَرَج[1]، كما تكونُ فيما يَسْهُلُ بعضَ السهولةِ ولا يبلغُ الكَسَلَ والإهمال.

ولِلنفسِ وجهان: ما تُعلِن، وما تسِرّ؛ ولا صدقَ لإعلانِها حتى يصدقَ ضميرُها، ولا صلاحَ لِجَهْرِها[2] حتى يصلُحَ ٱلسرُّ فيها، ولا يكونُ الإنسانُ ٱلاجتماعيُّ فاضلاً بمَشْهَدِهِ[3] حتى يكونَ كذلك بغَيْبِه.

ولِلعالَم كذلك وجهان: حاضرُهُ الذي يمرُّ فيه، وآتيهِ الذي يمتدُّ لَهُ؛ ولا يُفلِحُ حاضرٌ منقطعٌ لا يُوَرِّثُ ما بعَدهُ كما وَرِثَ قبَله، وما حاضرُ ٱلإنسانيةِ إلَّا جزءٌ من عملِ الناسِ في ٱستمرارِ فضائلِهم باقيةً نامية.

ولِلنظام أيضاً وجهان: نظامُ الرغبةِ على الطاعةِ وٱلاطمئنانِ لها، ونظامُ الرغبةِ على الخشيةِ[4] والنَّفْرةِ منها. ولا يستقيمُ شأنٌ ليسَ أساسُهُ ٱلطاعةَ في ٱلنفس، ولا يستمرُ نظامٌ عليهِ خِلافٌ من فِكْرِ العاملِ به.

ولِلعملِ الدائم طريقتان: إحداهما طريقةُ ٱلجادِّ يعملُ للعاقبةِ يستَيْقِنُها، فلا يجدُ مِمَّا يشقُّ عليهِ إلَّا لذةَ المغالَبةِ لِلنصر: كلُّ مرارةٍ من قِبلِهِ هي حلاوةٌ فيهِ من بَعد، ولا يعرفُ لِلمِحْنةِ[5] يُبتلى بها إلّا معناها الحقيقيَّ وهو إيقاظُ نفسِه، فيُصبحُ الصبرُ عندَهُ كصبرِ المُحبِّ على أشياءَ مِمَّنْ تُحبُّه؛ صبرٌ فيهِ مِنَ السحرِ ما يكسو ٱلحِرْمانُ في بعضِ الأحيانِ خيالَ ٱلاستمتاع، ويُذيقُ النفسَ في العجزِ عن بعضِ أغراضِها ـ لذةً كلذةِ إدراكِه.

* * *

تلك هي فلسفةُ ٱلإسلام؛ لا قِوامَ لِلأمرِ فيها ولا مِساكَ لَهُ إلَّا بتقريرِ معنى الدوامِ لِكلِّ أعمالِ النفس، ووضعِ طابَعِ الجنَّةِ على أعمالِ الجنَّة، وطابعِ النارِ على

(١) الحرج: الشعور بالضيق والشدّة.
(٢) لجهرها: لإعلانها.
(٣) بمشهده: بحضوره.
(٤) الخشية: الخوف.
(٥) المحنة: المصيبة.

أعمالِ النارِ ـ وحياطةِ كلِّ فردٍ مِنَ الناسِ حياطةً رياضيةً عمليَّةً بين الساعةِ والساعة، بل بين الدقيقةِ والدقيقة، بما يكلَّفُ من أعمالِ جسمِهِ وحواسِّه، ثم أعمالِ قلبِهِ ونيتِهِ ـ وتعظيم الشخصيةِ الروحيَّةِ دونَ الشخصيةِ المادية، فلا يحاولُ كلُّ إنسانٍ أنْ يجعلَ بطنَهُ في حجْمِ مملكةٍ أو مدينةٍ أو قرية، بما ينتقِصُ[1] من حقوقِ غيرِه؛ بل تتَّسعُ ذاتيةُ كلِّ فَردٍ بِما يجبُ لَهُ على المجتمعِ مِنَ الواجباتِ الإنسانيَّة؛ وبهذا لا بغيرِهِ تتعيَّنُ مقاييسُ الأخلاقِ في ٱلأرض: بٱلمصلحةِ لا بٱللذة؛ فلا يقعُ ٱلخطأُ ولا ٱلتزوير، وتنحلُّ المشكلةُ الاجتماعيةُ ما دامَتِ ٱلحياةُ لا تجدُ من أهلِها كلَّ ساعةٍ عُقَداً فيها.

وٱلاستيلاء بذلك المعنى على العقلِ والعاطفةِ هو وحدَهُ ٱلطريقةُ لإنشاءِ طبيعةِ ٱلخيرِ في ٱلناسِ على نَسَقِها ٱلطبيعيّ، كما أنَّهُ هو وحدَهُ ٱلطريقةُ لِتطهيرِ التاريخِ الإنسانيِّ من أوبائِهِ ٱلاقتصادية[2]، التي جعلَتْهُ كأنَّما هو تاريخُ الأسنانِ والأضراس، وتركَتِ ٱلناسَ يهدمُ بعضُهُم بعضاً، كما يهدُمُ الجارُ حائطَ جارِهِ لِيوسِّعَ بيتَه.

وأساسُ ٱلعملِ في ٱلإسلام إخضاعُ ٱلحياةِ لِلعقيدة، فتجعلُها العقيدةُ أقوى مِنَ ٱلحاجة، فيكونُ الفقيرُ مُعْدَماً[3] ويتعفَّف، ويكونُ الغنيُّ موسَراً ويتصدَّق، ويكونُ ٱلشَّرِهُ طامعاً ويُمْسِك، ويكون ٱلقويُّ قادراً ويُحْجِم[4]، وكما قالَ العربُ في تحقيقِ ناموسِ الأَنَفةِ والحميَّةِ وغلبتِهِ على الناموسِ ٱلاقتصاديّ: «تجوعُ ٱلحرةُ ولا تأكلُ بِثَدْيَيْهَا».

* * *

تُرِيدُ ٱلإنسانيةُ ٱمتداداً غيرَ ٱمتدادِها ٱلتجاريِّ في ٱلأرض، وتحتاجُ إلى معنًى يقودُ إنسانَها غيرَ ٱلحيوانِ ٱلذي فيه؛ وإذا قادَ ٱلغرابُ قوماً فإنَّما هو ـ كما قال شاعرُنا ـ يمرُّ بهم على جِيَفِ الكلاب... والإنسانيةُ ٱليومَ في مثلِ ليلٍ حَوْشيٍّ[5] مظلم ٱختلطَ بعضُهُ في بعض، وليسَتْ معاني ٱلإسلام إلّا الإشراقَ الإلهيَّ على هذه الكَثَافَةِ ٱلماديةِ ٱلمتراكِمة، وإذا رُفِعَ ٱلمِصباحُ لم تجدِ ٱلظلامَ إلّا وراءَ الحدودِ التي تنتهي إليها أشعتُه.

---

(١) ينتقص: يأخذ.

(٢) أوبائه الاقتصادية: أمراضه، كالفقر والعوز والجوع...

(٣) معدماً: فقيراً لا يملك مالاً.

(٤) يحجم: يمسك.

(٥) حوشي: متوحش.

وقد علمْنا من طبيعةِ النفس أنَّ إنسانيةَ ٱلفردِ لا تعظُمُ وتسمو وتتخيلُ وتفرحُ فرحَها ٱلصادقَ وتحزنُ حزنَها ٱلسَّامي ـ إلَّا أنْ تعيشَ في محبوب؛ فإنسانيةُ العالَمِ لا تكونُ مثلَ ذلك إلَّا إذا عاشَتْ في نبيِّها ٱلطَّبيعيّ، نبيِّ أخلاقِها الصحيحةِ وآدابِها العاليةِ ونظامِها ٱلدقيق؛ وأين تجدُ هذا المحبوبَ الأعظمَ إلَّا في محمدٍ ودينِ محمد؟

وعجيبٌ أنْ يجهلَ المسلمونَ حِكْمةَ ذكرِ النبيّ العظيم خمسَ مراتٍ في ٱلأذانِ كلَّ يوم، يُنادَى بٱسمِهِ ٱلشريفِ ملْءَ ٱلجوِّ؛ ثم حكمةَ ذكرِهِ في كلِّ صلاةٍ من الفريضة والسُّنَّةِ والنافلةِ[1]، يُهْمَسُ بٱسمِهِ الكريم ملْءَ النفس! وهلِ ٱلحكمةُ من ذلك إلَّا الفرضُ عليهم ألَّا ينقطعوا من نبيِّهم ولا يوماً واحداً مِنَ التاريخ، ولا جزءاً واحداً مِنَ اليوم؛ فيمتدُّ الزمنُ مهما ٱمتدَّ وٱلإسلامُ كأنَّه على أوَّله، وكأنَّهُ في يومِهِ لا في دهرٍ بعيد؛ وٱلمسلمُ كأنَّهُ مع نبيِّهِ بينَ يديهِ تبعثُهُ روحُ ٱلرسالة، ويسطعُ في نفسِهِ إشراقُ ٱلنبوَّة، فيكونُ دائماً في أمرِهِ كالمسلمِ الأولِ الذي غيَّر وجهَ الأرض؛ ويظهرُ هذا المسلمُ الأولُ بأخلاقِهِ وفضائلهِ وحَمِيَّتِهِ في كلِّ بقعةٍ مِنَ الدنيا مكانَ إنسانِ هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فإنَّ كلَّ أرضٍ إسلاميَّةٍ يكادُ لا يظهرُ فيها إلَّا إنسانُها التاريخيُّ بجهلِهِ وخُرافاتِهِ وما وَرِثَ مِنَ القِدَم؛ فهنا المسلمُ الفرعونيّ، وفي ناحيةٍ المسلمُ الوثنيّ، وفي بلدِ المسلمُ المجوسيّ[2]، وفي جهةٍ ٱلمسلمُ المعطِّل... وما يُريدُ الإسلامُ إلَّا نفسَ المسلمِ الإنسانيّ.

أيُّها ٱلمسلم!

لا تنقطعْ من نبيِّكَ ٱلعظيم، وعِشْ فيهِ أبداً، وٱجعلْهُ مثلَكَ الأعلى؛ وحينَ تذكُرُهُ في كلِّ وقتٍ فكُنْ كأنَّكَ بينَ يديه؛ كُنْ دائماً كٱلمسلمِ ٱلأول؛ كُنْ دائماً ٱبنَ المُعْجِزة.

---

(١) النافل من كل شيء: الزائد.

(٢) المجوسي: عابد النار.

حقيقةُ المسلم

لا يعرفُ التاريخُ غيرَ محمدٍ ﷺ رجلاً أفرغَ ٱللَّهُ وجودَهُ في ٱلوجودِ ٱلإنسانيِّ كلِّه؛ كما تنصبُّ ٱلمادّةُ في ٱلمادة، لِتمتزجَ بها فتُحوّلَها، فتُحدثُ منها ٱلجديد، فإذا ٱلإنسانيةُ تتحوَّلُ بهِ وتنمو، وإذا هو ﷺ وجودٌ سارٍ فيها فما تبرحُ هذه الإنسانيّةُ تنمو بهِ وتتحوّل.

كانَ ٱلمعنى الآدميُّ في هذه الإنسانيّةِ كأنّما وَهَنَ[1] من طولِ ٱلدهرِ عليه، يَتحيَّفُهُ[2] ويمحُوهُ ويتَعَاوَرُهُ[3] بالشرِّ والمنكرِ؛ فٱبْتَعثَ ٱللَّهُ تاريخَ العقلِ بآدمَ جديدٍ بدأتْ بهِ ٱلدنيا في تَطَوُّرِها الأعلى من حيثُ يرتفعُ ٱلإنسانُ على ذاتِه، كما بدأتْ من حيثُ يُوجَدُ الإنسانُ في ذاتِه؛ فكانَتِ ٱلإنسانيّةُ دهرَها بينَ ٱثنين: أحدُهما فَتحَ لها طريقَ المجيءِ مِنَ الجنة، والثاني فَتحَ لها طريقَ العوْدةِ إليها: كانَ في آدمَ سرُّ وجودِ ٱلإنسانيّة، وكان في محمدٍ سرُّ كمالِها.

* * *

ولهذا سُمِّي الدينُ (بالإسلام)؛ لأنّهُ إسلامُ النفسِ إلى واجبِها، أي إلى الحقيقةِ مِنَ الحياةِ الاجتماعيّة؛ كأنَّ المسلمَ يُنكِرُ ذاتَهُ فيُسْلِمُها إلى الإنسانيةِ تُصرِّفُها وتَعْتَمِلُها في كمالِها ومعاليها؛ فلا حظَّ لَهُ هو من نفسِهِ يُمسِكُها على شهواتِه ومنافعِه، ولكنْ لِلإنسانيةِ بها ٱلحظّ.

وما ٱلإسلامُ في جملتِهِ إلّا هذا ٱلمبدأ: مبدأُ إنكارِ ٱلذاتِ و(إسلامُها) طائعةً على ٱلمَنْشَطِ[4] والمَكْرهِ لِفُروضِها وواجباتِها؛ وكلَّما نكَصَتْ[5] إلى منْزَعِها ٱلحيوانيّ، أسلمَها صاحبُها إلى وازِعِها[6] الإلهيّ؛ وهو أبداً يَرُوضُها[7] على هذه

(١) وهَن: ضعُف.
(٢) يتحيّفه: يظلمه.
(٣) يتعاوره: يتجاذبه، يتناوشه.
(٤) المنشط: الجدّ والحيوية والحماس.
(٥) نكصت: تراجعت.
(٦) وازعها: رادعها.
(٧) يروضها: يدربها.

الحركةِ ما دامَ حيًّا؛ فينتزعُها كلَّ يومٍ من أوهامِ دنياها، لِيضعَها ما بينَ يَدَيْ حقيقتِها الإلهيَّة: يروضُها على ذلك كلَّ يومٍ وليلةٍ خَمسَ مرّاتٍ مُسماةٍ في اللغةِ خَمْسَ صلوات، لا يكونُ الإسلامُ إسلاماً بغَيرِها؛ فلا غَروَ[1] وَكانَتِ ٱلصلاةُ بهذا المعنى كما وصفَها ٱلنبيُّ ﷺ هي عِمادَ الدين.

* * *

بينَ ساعاتٍ وساعاتٍ في كلِّ مطلعِ شمسٍ من حياةِ ٱلمسلم صلاة، أيْ إسلامُ النفسِ إلى ٱلإرادةِ ٱلاجتماعيَّةِ الشاملةِ[2] ٱلقائمةِ على ٱلطاعةِ لِلفرْضِ ٱلإلهيّ، وإنكارُ لِمعانيها ٱلذاتيَّةِ ٱلفانيةِ التي هي مادةُ الشرِّ في ٱلأرض، وإقرارُها لحظاتٍ في حَيّزِ الخيرِ ٱلمحضِ ٱلبعيدِ عنِ ٱلدنيا وشهواتِها وآثامِها ومنكَراتِها. ومعنى ذلك كلِّهِ تحقيقُ ٱلمسلمِ لِوجودِ روحِه؛ إذْ كانَت أعمالُ الدنيا في جملتِهَا طُرُقاً تتشتَّتُ فيها الأرواحُ وتَتبعثرُ، حتى تَضِلَّ روحُ الأخِ عن روحِ أخيهِ فتُنكرُها ولا تعرفُها!

وهذا الوجودُ الروحيُّ هو مبعثُ ٱلحالةِ ٱلعقليَّةِ ٱلتي جاءَ ٱلإسلامُ لِيَهْديَ ٱلإنسانيَّةَ إليها: حالةِ السلامِ الروحانيِّ الذي يجعلُ حربَ الدنيا المهلكةَ حرباً في خارجِ النفسِ لا في داخلِها، ويجعلُ ثروةَ الإنسانِ مُقَدَّرةً بما يعاملُ ٱللَّهُ والإنسانيةُ عليه؛ فلا يكونُ ذهبُه وفِضّتُه ما كتبَتْ عليهِ ٱلدول: «ضُرِبَ في مملكةِ كذا»، ولكنْ ما يراهُ هو قد كُتِبَ عليه: «صُنِعَ في مملكةِ نفسي»؛ ومن ثَمّ لا يكونُ وجودُهُ ٱلاجتماعيُّ لِلأخذِ حَسْبُ، بلْ لِلعطاءِ أيضاً، فإنَّ قانونَ ٱلمالِ هو ٱلجمع، أمّا قانونُ العملِ فهو ٱلبذل.

بٱلانصرافِ إلى ٱلصلاةِ وجَمْعِ ٱلنيَّةِ عليها، يستشعرُ المسلمُ أنَّهُ قد حطَّمَ ٱلحدودَ الأرضيةَ المحيطةَ بنفسِهِ مِنَ الزمانِ والمكان، وخَرَجَ منها إلى رُوحانيَّةٍ لا يُحدُّ فيها إلّا باللَّهِ وحدَه.

وبٱلقيامِ في ٱلصلاة، يُحقِّقُ ٱلمسلمُ لِذاتِهِ معنى إفراغِ ٱلفكرِ ٱلسامِي على ٱلجسمِ كلِّه، لِيمتَزجَ بِجلالِ ٱلكونِ ووقارِه، كأنَّهُ كائنٌ منتَصبٌ معَ ٱلكائناتِ يسبِّحُ بحمدِه.

وبالتولّي شَطْرَ القِبلةِ[3] في سَمْتِها[4] ٱلذي لا يتغيَّرُ على ٱختلافِ أوضاعِ

---

(١) لا غرو: لا شك، لا ريب.

(٢) الشاملة: الجامعة، ويقصد بذلك صلاة الجماعة لأهميتها ولثوابها.

(٣) شطر القبلة: ناحيتها.

(٤) سمتها: وقارها ومظهرها.

ٱلأرض، يَعرفُ ٱلمسلمُ حقيقةَ اٱلرمزِ لِلمركزِ الثابتِ في روحانيَّةِ ٱلحياة؛ فيَحملُ قلبُهُ معنى ٱلاطمئنانِ وٱلاستقرارِ على جاذبيَّةِ الدنيا وقَلَقها.

وبٱلركوعِ وٱلسجودِ بينَ يَدَي ٱللَّه، يُشْعِرُ ٱلمسلمُ نفسَهُ معنى ٱلسموِّ والرِّفعةِ على كلِّ ما عدا الخالقَ من وجودِ الكون.

وبالجلسةِ في الصلاةِ وقراءةِ التحيَّاتِ الطيِّبات، يكونُ ٱلمسلمُ جالساً فوقَ الدنيا يحمَدُ اللَّهَ ويُسلِّمُ على نبيِّهِ وملائكتِهِ ويشهَدُ ويدعو.

وبالتسليمِ ٱلذي يَخرجُ بِهِ مِنَ الصلاة، يُقْبِلُ المسلمُ على الدنيا وأهلِها إقبالاً جديداً: من جهتي السلامِ والرحمة.

هي لَحظَاتٌ مِنَ الحياةِ كلَّ يوم في غيرِ أشياءِ هذه الدنيا؛ لِجمعِ ٱلشهواتِ وتقييدِها بينَ وقتٍ وآخرَ بسلاسلِها وأغلالِها من حركاتِ الصلاة، ولِتمزيقِ الفنَاءِ خمسَ مراتٍ كلَّ يومٍ عنِ النفس؛ فيرَى المسلمُ من ورائِهِ حقيقةَ ٱلخلود، فتشعرُ ٱلروحُ أنَّها تنمو وتَتَّسعُ.

هي خمسُ صَلوات، وهي كذلك خمسُ مرَّاتٍ يَفْرَغُ فيها ٱلقلبُ مِمَّا ٱمتلأ بهِ مِنَ الدنيا، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قولَه ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة».

* * *

لم يكن ٱلإسلامُ في حقيقتِهِ إلَّا إبداعاً لِلصِّيغةِ ٱلعمليَّةِ التي تنتظمُ ٱلإنسانيةُ فيها؛ ولهذا كانتْ آدابُهُ كلُّها حُرَّاساً على ٱلقلبِ المؤمن، كأنَّها ملائكةٌ مِنَ ٱلمعاني؛ وكانَ ٱلإسلامُ بها عملاً إصلاحياً وقَعَ بِهِ التطوُّرُ في عالَمِ الغريزة، فنَقَلَهُ إلى عالمِ ٱلخُلُق، ثُمَّ ٱرتقى بالخُلُقِ إلى الحقِّ، ثم سمَا بالحقِّ إلى الخَيرِ العامّ؛ فهو سموٌّ فوقَ الحياةِ بثلاثةِ طبقَات، وتدرُّجٌ إلى الكمالِ في ثلاثِ منازل، وٱبتعادٌ عنِ الأوهامِ بمسافةِ ثلاثِ حقائق.

وبتلك الأعمالِ والآدابِ كانتِ ٱلدنيا المُسْلمةُ التي أسَّسها النبيُّ ﷺ دنيا أسلمَتْ طبيعتُها، فأصبحَتْ على ما أرادَ المسلمونَ لا ما أرادَتْ هي؛ وكأنَّها قائمةٌ بنواميسَ من أهليها، لا على أهليها؛ وكانَ ٱلظاهرُ أنَّ الإسلامَ يغزو الأممَ بالعربِ ويفتَتِحُها، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ إقليماً مِنَ الدنيا كانَ يُحاربُ سائرَ أقاليمِ الأرضِ بالطبيعةِ الأخلاقيةِ ٱلجديدةِ لِهذا الدين.

وكأنَّ اللَّهَ ـ تعالى ـ ألقى في رمالِ الجزيرةِ روحَ البحر، وبعثَها بَعْثَهُ الإلهيَّ

لِأمرِهِ، فكانَ النبيُّ ﷺ هو نقطةَ المدِّ التي يفُورُ البحرُ منها، وكانَ المسلمونَ أمواجَهُ التي غُسِلَتْ بها الدنيا. . .

لهذا سمعَ ٱلمسلمونَ الأوّلونَ كلامَ ٱللَّهِ ـ تعالى ـ في كتابه، وكلامَ رسولِهِ ﷺ، لا كما يسمعونَ ٱلقولَ، ولكنْ كما يتلقَّوْنَ ٱلحكمَ النافذَ المقْضيَّ[1]؛ ولم يجدوا فيهِ البلاغةَ وحدَها، بل رَوْعةَ أمرِ السماءِ في بلاغة؛ واتَّصلوا بنبيِّهم، ثم بعضُهم ببعض، لا كما يتَّصلُ إنسانٌ بإنسان، بل كما تتصلُ الأمواجُ بقوةِ المدّ، ثم كما يُمِدُّ بعضُها بعضاً في قوةٍ واحدة.

وحقَّقوا في كمالِه ﷺ وجودَهُم ٱلنفسيّ؛ فكانوا من زَخارِفِ الحياةِ وباطلِها في موضعِ الحقيقةِ ٱلذي يُرى فيهِ ٱلشيءُ لا شيء.

ورأَوْا في إرادتِهِ ﷺ ٱلنقطةَ الثابتةَ فيما يَتضَاربُ منْ خيالاتِ ٱلنفس؛ فكانوا أكبرَ علماءِ ٱلأخلاقِ على الأرض، لا من كُتُبٍ ولا عِلْمٍ ولا فلسفة، بل من قلبِ نبيِّهم وحدَه.

وعرفوا بِهِ ﷺ تمامَ ٱلرجولة؛ ومتى تمَّتْ هذه ٱلرجولةُ تمامَها في إنسان، رجعَتْ لَهُ ٱلطفولةُ في رُوحِه، وٱمتلكَ تلكَ ٱلطبيعةَ ٱلتي لا يملِكُها إلَّا أعظَمُ الفلاسفةِ والحكماءِ فأصبحَ كأنَّما يمشي في الحياةِ إلى الجنةِ بخُطُواتٍ مُسدَّدةٍ لا تَزيغُ[2] ولا تنحرف، فلا شرَّ ولا رذيلة؛ ودنياهُ هي الدنيا كلُّها بشمسِها وقمرِها، يملكُها وإنْ لم يملكْ منها شيئاً، ما دامَتْ في قلبِهِ طبيعةُ ٱلسرور، فلا فقرَ ولا غِنى ممَّا يَشعُرُ ٱلناسُ بمعانيه، بلْ كلُّ ما أمكنَ فهو غِنًى كامل، إذْ لم تَعُدِ ٱلقوةُ في ٱلمادةِ تزيدُ بزيادتِها وتنقصُ بنقصِها، بل ٱلقوةُ في ٱلروحِ التي تَتَصرفُ بطبيعةِ الوجود، وتَدفعُ قُوَى الجسمِ بمثلِ دوافعِ الطفولةِ النامية المتغلِّبة، حتى لَتجعلُ مِنَ النورِ والهواءِ ما يُؤتَدَمُ[3] بِهِ مَعَ الخبزِ القَفَار، كما يؤتَدَمُ بٱللحمِ وأطايبِ ٱلأطعمة.

وبذلك لا تتسلَّطُ ضرورةٌ على ٱلجِسْم ـ كٱلجوعِ وٱلفقْرِ والألم ونحوِها ـ إلَّا كانَ تَسلُّطُها كأنَّهُ أمرٌ من قوّةٍ في ٱلوجودِ إلى قوّةٍ في هذا الجسم: أَنْ تَظْهَرَ لِتعملَ عملَها ٱلمُعْجزَ في إبطالِ هذه الضرورة. وهذا الجِنْسُ مِنَ الناسِ كالأزهارِ على

---

(١) المقضي: المقدّر.

(٢) لا تزيغ: لا تتحوّل ولا تنحرف.

(٣) يؤتدم: يؤكل من الطعام.

أغصانِها الخُضر؛ لو قالَتْ شيئاً لَقالَتْ: إنَّ ثروتي في ٱلحياةِ هي ٱلحياةُ نفسُها، فليسَ لي فقرٌ ولا غِنًى، بلْ طبيعةٌ أوْلا طبيعة.

***

ولقدْ كانَ ٱلمسلمُ يُضْربُ بالسيفِ في سبيلِ ٱللهِ، فتقَعُ ضَرباتُ ٱلسيوفِ على جسمِهِ فتُمَزِّقُه؛ فما يُحِسُّها إلَّا كأنَّها قُبَلُ أصدقاءَ مِنَ ٱلملائكةِ يَلْقَوْنَهُ ويعانقونَه!

وكان يُبْتَلى في نفسِه ومالِه، فلا يشعرُ في ذلك أنَّهُ المُرَزَّأُ[1] المُبْتَلى يُعْرَفُ فيهِ الحُزنُ وٱلانكسار، بلْ تَظهرُ فيهِ الإنسانيةُ ٱلمنتصرةُ كَمَا يَظهرُ ٱلتاريخُ ٱلظافِرُ في بطلِهِ العظيم أُصيبَ في كلِّ موضعٍ من جسمِهِ بجراح، فهي جِراحٌ وتشويهٌ وألم، وهي شهادةُ ٱلنصر!

ولم تكنْ أثقالُ المسلم من دنياهُ أثقالاً على نفسِه، بل كانَتْ لَهُ أسبابَ قوةٍ وسموٍّ؛ كالنَّسْرِ ٱلمخلوقِ لِطبقَاتِ ٱلجوِّ ٱلعُليا، ويحملُ دائماً من أجلِ هذه الطبقَاتِ ثِقَلَ جناحيهِ العظيمين.

وكانَتِ ٱلحقيقةُ التي جعلَها النبيُّ ﷺ مَثَلَهمُ الأعلى، وأقرَّها في أنفسِهم بجميعِ أخلاقِهِ وأعمالِه ـ أنَّ الفضائلَ كلَّها واجبةٌ على كلِّ مسلم لِنفسِه، إذْ إنَّها واجبةٌ بِكلِّ مسلم على غيره، فلا تكونُ في ٱلأمَّةِ إلَّا إرادةٌ واحدةٌ متعاونة، تجعلُ ٱلمسلمَ وما هو روحُ أمتِهِ تعملُ بِهِ أعمالَها هي لا أعمالَهُ وحدَها.

المسلمُ إنسانٌ ممتدٌّ بمنافعِهِ في معناهُ ٱلاجتماعيِّ حولَ أمتِهِ كلِّها، لا إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمِعٌ حولَ نفسِهِ بهذه المنافع؛ وهو من غيرِهِ في صدقِ ٱلمعاملةِ الاجتماعيةِ كٱلتاجرِ مِنَ التاجر؛ تقولُ ٱلأمانةُ لِكليهما: لا قيمةَ لِميزانِكَ إلَّا أنْ يُصَدِّقَهُ ميزانُ أخيك.

ولنْ يكونَ ٱلإسلامُ صحيحاً تامًّا حتى يجعلَ حاملَهُ مثَلاً من نبيِّهِ في أخلاقِ ٱللهِ؛ فما هو بشخصٍ يضبِطُ طبيعتَه: يَقْهرُها مرةً وتقهرُهُ مِراراً؛ ولكنْ طبيعةٌ تضبِطُ شخصَها فهي قانونُ وجودِه.

لا يضطربُ من شيء، وكيف يضطربُ ومعَهُ ٱلاستقرار؟

لا يخافُ من شيء، وكيفَ يخافُ ومعَهُ ٱلطمأنينة؟

لا يخشى مخلوقاً، وكيفَ يخشى ومعَهُ ٱللهُ؟

أيُّها ٱلأسد، هل أنت بجملتِكَ إلَّا في طبيعةِ مَخالِبك وأنيابِك...؟

---

(١) المرزأ: المصاب بالابتلاءات المختلفة.

وحيُ ٱلهجرة

إنَّ التاريخَ لَيتكلَّمُ بلغةٍ أوسعَ من ألفاظِهِ إذا قرأَهُ مَنْ يقرؤُهُ على أنَّهُ بعضُ نواميسِ ٱلوجود، صُوِّرَتْ فيها النفسُ الإنسانيةُ كيفَ ٱعْتَوَرَتْ أغراضَها، وكيف مدَّت في نَسَقِها[1]، وكيفَ تغلغَلَتْ في مسالكِها، وما تأتّى لها فَجَرَتْ بِهِ مَجراها، وما دفعَها فٱنحدرتْ منه إلى مَقَارِّها[2]؛ فهو ليسَ بكلام تستقبلُه تقرأُ فيه، ولكنَّهُ أحوالٌ مِنَ الوجودِ تعترضُها فتُغيِّرُ عليكَ حِسَّكَ بإلهامِها وأحلامِها، وتتناولُها من ناحيةٍ فتتناولُك مِنَ الأخرى؛ فإذا ٱلكلمةُ من ورائِها معنًى، من ورائِهِ طبيعةٌ، من ورائِها سببٌ وحِكْمة؛ وإذا كلُّ حادثةٍ فيها إنسانيتُها وإلهيَّتُها معاً، وإذا ٱلوجودُ فِي ذهنِك كٱلساعةِ ترسمُ لك حدَّ الثانيةِ بخَطْرتين، وحدَّ الدقيقةِ من عددٍ محدودٍ مِنَ الثواني، وحدَّ ٱلساعة إلى حدِّ ٱليوم؛ وإذا ٱلبيانُ في نفسِك من كلِّ هذه الحواشي، وإذا ٱلتاريخُ فيما تقرؤُهُ مُفَنَّنٌ في ظاهرِهِ وباطِنِهِ يَفِيءُ عليكَ من ألفاظِهِ ومعانيهِ بظلالٍ هي صِلتُكَ أنتَ أيُّها الحيُّ ٱلموجودُ بأسرارِ ما كانَ موجوداً من قبل.

كذلك قرأْتُ بالأمسِ تاريخَ الهجرةِ النبويةِ في كتابِ أبي جعفرٍ ٱلطَّبريِّ لِأكتبَ عنهُ هذه الكلمة، فلم أكُن ـ علِمَ الله ـ في كتابٍ ولا في حِكاية، بلْ في عالم ٱنبثقَ في نفسي مخلوقاً تامًّا بأهلِه، وحوادثِ أهلِه، وأسرارِ أهلِهِ جميعاً؛ كما يرى ٱلمُحبُّ حبيبَه: لا يكونُ ٱلجميلُ في محلٍّ إلَّا ٱمتلأَ مكانَهُ بعَاشِقِهِ، فهو مكانٌ مِنَ ٱلنفس، لا مِنَ ٱلدنيا وحدَها، وفيهِ ٱلحياةُ كما هي في ٱلوجودِ بمظهرِ ٱلمادة، وكما هي في ٱلحُبِّ بمظهرِ ٱلروح.

وتلك حالةٌ مِنَ القراءةِ بٱلروحِ وٱلكتابةِ بٱلروح، متى أنت سَمَوْتَ إليها رأيْتَ فيها غيرَ ٱلمعنى يُخرِجُ معنًى، ومِن لا شيءَ تُخلَقُ أشياء، لأنَّك منها ٱتصلْتَ بأسرارِ نفسِك، ومن نفسِك ٱتصلْتَ بأسرارِ فوقَها؛ فيُصبحُ ٱلتاريخُ معَك فنَّ ٱلوجودِ ٱلإنسانيِّ على ٱلوجهِ ٱلذي أفضَتْ بِهِ ٱلحِكْمةُ إلى الحياةِ لِتستمرَّ بالنفسِ ٱلإنسانية،

---

(١) نسقها: طرازها وعلى شكلها.

(٢) مقارّها: أماكنها.

لا فنَّ عِلْمِ الناسِ على الوجهِ الذي أفضَتْ[1] بِهِ الحوادثُ مِمَّا بينَ ٱلحياةِ وٱلموت.

* * *

نشأَ النبيُّ ﷺ في مكة، وٱستُنْبِىءَ على رأسِ ٱلأربعينَ من سِنِّه، وغَبَرَ[2] ثلاثَ عشْرَةَ سنةً يدعو إلى اللَّهِ قبلَ أنْ يُهاجرَ إلى المدينة؛ فلم يكنْ في ٱلإسلام أولَ بَدْأتِهِ إلَّا رجلٌ وٱمرأةٌ وغلام: أما الرجلُ فهو هو ﷺ، وأما المرأةُ فزوجُهُ خديجة، وأما الغلامُ فعليّ ٱبْنُ عمِّهِ أبي طالب.

ثم كانَ أولُ النموِّ في ٱلإسلام بحُرٍّ وعبد: أمَّا ٱلحرُّ فأبو بكر، وأمَّا العبدُ فبِلال، ثم ٱتَّسقَ ٱلنموُّ قليلاً قليلاً بِبُطءِ ٱلهمومِ في سيرِها، وصبرِ الحُرِّ في تجلّدِه؛ وكأنَّ ٱلتاريخَ واقفٌ لا يتزحزح، ضيّقٌ لا يتَّسِعُ، جامدٌ لا ينمو؛ وكأنَّ النبيَّ ﷺ أخو الشمس: يطلُعُ كلاهما وحدَهُ كلَّ يوم. حتى إذا كانتِ ٱلهجرةُ من بَعدُ، فٱنتقلَ ٱلرسولُ إلى المدينة، بدأَتِ ٱلدنيا تَتَقَلْقَل[3]، كأنَّما مرَّ بقدمِهِ على مركزِها فحرَّكَها؛ وكانَتْ خطواتُهُ في هجرتِهِ تَخطُّ في ٱلأرض، ومعانيها تخطُّ في ٱلتاريخ؛ وكانَتِ ٱلمسافةُ بينَ مكةَ والمدينة، ومعناها بينَ ٱلمشرقِ والمغرب.

لقد كانَ في مكةَ يَعْرِضُ الإسلامَ على العربِ كما يُعْرَضُ ٱلذهبُ على ٱلمتوحشين: يَرَوْنَهُ بَريقاً وشُعاعاً ثُمَّ لا قيمةَ له، وما بهم حاجةٌ إليه، وهو حاجةُ بني آدمَ إلَّا المتوحشين، وكانوا في ٱلمحادَّةِ[4] والمخالفةِ ٱلحمقاء، وٱلبلوغِ بدعوتِهِ مبلغَ ٱلأوهامِ والأساطير ـ كما يكونُ ٱلمريضُ بذاتِ صدرِهِ معَ الذي يدعوهُ في ليلةٍ قارَّةٍ إلى مداواةِ جسمِهِ بأشعةِ الكواكب؛ وكانَتْ مكةُ هذه صخراً جغرافيًّا يتحطَّمُ ولا يلين، وكأنَّ الشيطانَ نفسَهُ وضعَ هذا الصخرَ في مجرى ٱلزمنِ لِيصدَّ بِهِ التاريخَ الإسلاميَّ عنِ الدنيا وأهلِها.

وأوذِيَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ، وكُذِّبَ وأُهين، ورَجَفَ بِهِ ٱلوادِي يخطو فيهِ على زَلازلَ تتقلَّب، ونابذَهُ[5] قومُهُ وتَذامَروا[6] فيه، وحضَّ بعضُهم بعضاً عليه، وٱنْصَفَقَ[7] عنهُ عامةُ ٱلناسِ وتركُوه إلَّا مَنْ حفِظَ ٱللَّهُ منهم؛ فأُصِيبَ كبيراً باليُتْمِ من قومِه، كما أُصيبَ صغيراً باليُتْمِ من أبويه.

---

(١) أردت: أوصلت.

(٢) غبر: مضى.

(٣) تتقلقل: تتململ.

(٤) المحادّة: المعاندة والمخالفة والعداء.

(٥) نابذ: رفض وأخرج وأفرد.

(٦) تذامروا: اتحدوا واحتشدوا جماعات جماعات.

(٧) انصفق: تخلّى واجتنب.

وكانَ لا يسمعُ بقادمٍ يقدُمُ مِنَ العربِ لَهُ ٱسمٌ وشرفٌ، إلَّا تصدَّى[1] لَهُ فدعاهُ إلى اللَّهِ وعرضَ نفسَهُ عليهِ؛ ومع ذلك بقيَتِ ٱلدعوةُ تلوحُ وتختفي كما يَشُقُّ ٱلبرقُ من سحابةٍ على ٱلسماء: ليسَ إلَّا أنْ يُرَى ثم لا شيءَ بعدَ أنْ يُرى!

* * *

فهذا تاريخُ ما قبلَ ٱلهجرةِ في جملةِ معناه، غيرَ أنِّي لم أقرأْهُ تاريخاً، بلْ قرأتُ فيهِ فصلاً رائعاً من حِكْمةٍ إلهية، وضَعَهُ ٱللَّهُ كالمقدَّمةِ لِتاريخِ ٱلإسلام في ٱلأرض؛ مقدَّمةٌ مِنَ الحوادثِ والأيام تحيا وتمرُّ في نَسَقِ[2] الروايةِ الإلهيةِ ٱلمنطويةِ على رموزِها وأسرارِها، وتظهرُ فيها رحمةُ ٱللَّهِ تعملُ بقسوة، وحِكمةُ ٱللَّهِ تتجلَّى في غُموض؛ فلو أنت حققْتَ ٱلنظرَ لَرأيْتَ تاريخَ ٱلإسلام يتألَّهُ[3] في هذه ٱلحِقْبة، بحيثُ لا تقرؤُهُ ٱلنفسُ المؤمنةُ إلَّا خاشعةً كأنَّها تُصلِّي، ولا تتدبَّرُهُ إلَّا خاضعةً كأنَّها تتعبَّد.

بدأَ ٱلإسلامُ في رجلٍ وٱمرأةٍ وغلام، ثم زاد حرًّاً وعبداً؛ أليسَتْ هذه ٱلخمسُ هي كلَّ أطوارِ البشريةِ في وجودِها، مخلوقةً في ٱلإنسانيةِ وٱلطبيعة، ومصنوعةً في ٱلسياسةِ وٱلاجتماع؛ فهٰهنا مطلعُ ٱلقصيدة، وأولُ الرمزِ في شعرِ ٱلتاريخ.

ولَبِثَ النبيُّ ﷺ ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً لا يَبْغيهِ[4] قومُهُ إلَّا شرًّا، على أنَّهُ دائبٌ[5] يطلبُ ثُمَّ لا يجد، ويَعْرِضُ ثُمَّ لا يُقبَلُ منه، ويُخْفِقُ ثُمَّ لا يَعتريهِ ٱليأس، ويَجْهَدُ ثُمَّ لا يتخوَّنُهُ ٱلملَل[6]، ويستمرُّ ماضياً لا يتحرَّف[7]، ومعتزماً لا يتحوَّل؛ أليسَتْ هذه هي أسمى معاني التربيةِ الإنسانيَّةِ أظهرَها ٱللَّهُ كلَّها في نبيِّه، فَعمِلَ بها وثَبَت عليها، وكانَتْ ثلاثَ عشْرَةَ سنةً في هذا المعنى كعمرِ طفلٍ وُلِدَ ونشأَ وأُحكِمَ تهذيبُهُ بٱلحوادث، حتى تسلَّمتْهُ ٱلرجولةُ ٱلكاملةُ بمعانيها مِنَ الطفولةِ الكاملةِ بوسائلِها؟

أفليسَ هذا فصلاً فلسفيًّا دقيقاً يعلِّمُ ٱلمسلمينَ كيف يجبُ أنْ ينشأَ ٱلمسلم: غِنَاهُ في قلبِهِ، وقوّتُهُ في إيمانِهِ، وموضعُهُ في الحياةِ موضعُ ٱلنافعِ قبلَ ٱلمنتفِع، وٱلمصلِحِ قبلَ ٱلمقلِّد؛ وفي نفسِهِ من قوةِ ٱلحياةِ ما يموتُ بهِ في هذه النفسِ أكثرُ ما في الأرضِ والناسِ من شهواتٍ ومطامع؟

---

(١) تصدّى: خرج لمواجهته.
(٢) نسق: نمط منسجم.
(٣) يتأله: يسمو ويعلو كالإله.
(٤) لا يبغيه: لا يريد له.
(٥) دائب: مستمر.
(٦) لا يتخوّنه الملل: لا يداخله.
(٧) لا يتحرّف: لا يميل ولا يتحوّل.

ثم أليسَتْ تلكَ ٱلعواملُ الأخلاقيَّةُ هي هي ٱلتي ألقِيَتْ في منبعِ ٱلتاريخِ الإسلاميّ ليعُبَّ منها تيَّارُه؛ فتدفعُهُ في مجراهُ بينَ ٱلأمم، وتجعلُ من أخصِّ ٱلخصائصِ الإسلاميةِ في هذه الدنيا ـ ٱلثباتَ على ٱلخُطوةِ ٱلمتقدمةِ وإنْ لم تتقدَّم، وعلى ٱلحقِّ وإنْ لم يتحقَّق؛ والتبرُّؤَ مِنَ الأثرةِ وإنْ شَحَّتْ[1] عليها ٱلنفس، وٱحتقارَ الضعفِ وإنْ حَكَمَ وتسلَّط، ومقاومةَ الباطلِ وإنْ سادَ وغلَب، وحمْلَ الناسِ على مَحْضِ ٱلخيرِ وإنْ رَدُّوا بٱلشرّ، وٱلعملَ لِلعملِ وإنْ لم يأتِ بشيء، والواجبَ لِلواجبِ وإنْ لم يكُنْ فيهِ كبيرُ فائدة، وبقاءَ الرجلِ رجلاً وإنْ حطَّمَهُ كلُّ ما حولَه؟

ثمَّ هي هي ٱلبُرهاناتُ القائمةُ لِلدهرِ قيامَ ٱلمنارةِ في الساحل ـ على نبوَّةِ محمدٍ ﷺ تثبُتُ ببرهانِ الفلسفةِ وعلومِ النفسِ أنَّهُ رُوحٌ وغاياتُها المحتومَةُ بِالقدَر، لا جسمٌ ووسائلُهُ المتغلِّبةُ بٱلطبيعة؛ ولو كانَ رجلاً ٱبتعثتْهُ[2] نفسُه، لتمحَّلَ[3] الحِيلَ لِسياستِه، ولأخذَتْ طَمعاً من كلِّ مَطْمع، ولَركَدَ مَعَ ٱلحوادِث وهَبَ، ولَما ٱستمرَّ طوالَ هذه المدةِ لا يتَّجِهُ وهو فردٌ إلا ٱتجاهَ ٱلإنسانيةِ كلِّها كأنَّما هو هي.

ولو هو كانَ رجلَ ٱلمُلكِ أو رجلَ ٱلسياسة، لٱستقامَ وٱلتَوَى، ولأدركَ ما يبتغي في سَنواتٍ قليلةٍ، ولأوْجَدَ ٱلحوادثَ يتعلَّقُ عليها، ولَمَا أفْلتَ ما كانَ موجوداً منهُ يتعلَّقُ به، ولَمَا ٱنتزعَ نفسَهُ من محلِهِ في قومِهِ وكانَ واسطةً فيهم، ولا تركَ عواملَ الزمنِ تُبعِدُهُ وهي كانَتْ تُدنيه.

قالوا: إنَّ عَمَّهُ أبا طالبٍ بعثَ إليهِ حينَ كلَّمتْه قُريش فقالَ له: يا ٱبنَ أخي، إنَّ قومَكَ قد جاؤوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبْقِ عليَّ وعلى نفسك. ولا تُحمِّلْني مِنَ الأمرِ ما لا أُطيق. فظنَّ رسولُ ٱللّهِ ﷺ أنَّهُ قد بدا لِعمِّهِ فيهِ بَداء[4]، وأنَّهُ خاذِلُهُ[5] ومُسْلِمُه، وأنَّهُ قد ضَعُفَ عنْ نُصرتِهِ وٱلقيامِ معه، فقال: يا عمَّاه، ـ واللّهِ ـ لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أنْ أتركَ هذا الأمرَ حتى يُظهِرَهُ اللّهُ أو أهلِكَ فيهِ ما تركْتُه. ثم ٱستعبرَ ﷺ فبكى!

يا دموعَ النبوَّة! لقدْ أثبَتِّ أنَّ النفسَ ٱلعظيمةَ لَنْ تَتَعزَّى عن شيءٍ منها بشيءٍ

(١) شحَت: بخلت وقلّت.
(٢) ابتعثته: اختارته.
(٣) تمحّل: أوجد الأعذار الواهية.
(٤) بداء: رأي جديد.
(٥) خاذله: متخلٍ عنه.

من غيرِها كائناً ما كان، لا من ذهبِ ٱلأرضِ وفِضّتِها، ولا من ذهبِ ٱلسماءِ وفِضتِها إذا وُضِعَتِ ٱلشمسُ في يدٍ وٱلقمرُ في ٱلأخرى.

وكلُّ حوادثِ ٱلمدةِ قبلَ ٱلهجرةِ على طولِها ليسَتْ إلّا دليلَ ذلك ٱلزمنِ على أنّهُ زمنُ نبيّ، لا زمنُ مَلِكٍ أو سياسيٍّ أو زعيم؛ ودليلُ الحقيقةِ على أنَّ هذا اليقينَ الثابتَ ليسَ يقينَ الإنسانِ الاجتماعيِّ من جهةِ قوّتِه، بل يقينُ الإنسانِ الإلهيِّ من جهةِ قلبِه؛ ودليلُ ٱلحِكْمةِ على أنَّ هذا الدينَ ليسَ مِنَ ٱلعقائدِ الموضوعةِ التي تنشُرُها عَدْوى النفسِ لِلنفس؛ فها هو ذا لا يبلغُ أهلُهُ في ثلاثَ عشرة سنةً أكثرَ مِمَّا تبلغُ أسرةٌ تتوالدُ في هذه الحِقْبة؛ ودليلُ الإنسانيةِ على أنّهُ وحْيُ ٱللّهِ بإيجادِ ٱلإخاءِ العالميِّ وٱلوحدةِ ٱلإنسانيّة. أفلَمْ يكُنْ خروجُهُ عن موطنِهِ هو تحقُّقَهُ في ٱلعالم؟

ثلاثَ عشْرَةَ سنة، كانَتْ ثلاثةَ عَشَرَ دليلاً تُثبِتُ أنَّ النبيَّ ﷺ ليسَ رجلَ مُلْك، ولا سياسة، ولا زَعامة؛ ولو كان واحداً من هؤلاءِ لأدركَ في قليل؛ وليسَ مبتدِعَ شريعةٍ من نفسِه، وإلّا لَمَا غَبَر في قومِهِ وكأنَهُ لم يجذْهم وهم حولَه؛ وليسَ صاحبَ فِكرةٍ تعملُ أساليبُ النفسِ في ٱنتشارِها؛ ولو كانَهُ لَحملَهم على مَخْضِها وممزوجِها؛ وليسَ رجلاً متعلّقاً بٱلمصادفاتِ ٱلاجتماعيّة، ولو هو كان لَجعلَ إيمانَ يوم كُفْرَ يوم؛ وليسَ مُصْلِحَ عشيرةٍ يهذّبُ منها على قَدْرِ ما تقبلُ منهُ سياسةً ومُخادعة، ولا رجلَ وطنِهِ تكونُ غايتُهُ أنْ يشمخَ في أرضِهِ شُموخَ جبلٍ فيها، دونَ أنْ يُحاولَ ما بلغَ إليهِ من إطلالِهِ على الدنيا إطلالَ السماءِ على ٱلأرض، ولا رجلَ حاضِرِه إذْ كانَ واثقاً دائماً أنَّ معَهُ ٱلغدَ وآتِيَه، وإنْ أدبرَ[1] عنهُ ٱليومُ وذاهبُه؛ ولا رجلَ طبيعتِهِ ٱلبشريّةِ يلتمسُ لها ما يلتمسُ ٱلجائعُ لِبطنِه، ولا رجلَ شخصيتِهِ يستهوِي بها ويسحر، ولا رجلَ بطشِهِ يغلبُ بِهِ ويتسلَّط، ولا رجلَ ٱلأرضِ في ٱلأرض، ولكنْ رجلَ ٱلسماءِ في ٱلأرض.

هذه هي حِكمةُ ٱللهِ في تدبيرِهِ لنبيِّهِ قبلَ ٱلهجرة: قبضَ عنه أطرافَ ٱلزمن، وحصَرَهُ من ثلاثَ عشْرَةَ سنةً في مثلِ سنةٍ واحدة، لا تَصدُرُ بِهِ الأمورُ مَصادرَها كي تُثبِتَ أنها لا تَصدُرُ بِهِ: ولا تستحقُّ بِهِ الحقيقةَ لِتدلَّ على أنّها ليسَتْ من قوتِهِ وعملِه.

---

(١) أدبر: رحل راجعاً.

وكانَ ﷺ على ذلك ـ وهو في حدودِ نفسِهِ وضِيقِ مكانِهِ ـ يتَّسعُ في ٱلزمنِ من حيثُ لا يَرَى ذلك أحدٌ ولا يعلمُهُ، وكأنّما كانَتْ شمسُ اليوم الذي سينتصرُ فيه ـ قبلَ أنْ تُشرِقَ على الدنيا بثلاثَ عشْرَةَ سنةً ـ مشرقةً في قلبِهِ ﷺ

والفصلُ مِنَ ٱلسنةِ لا يقدّمُهُ الناسُ ولا يؤخرونه، لأنَّهُ من سَيْرِ ٱلكوْنِ كلِّه؛ وٱلسحابةُ لا يُشْعِلونَ برقَها بٱلمصابيح، ومعَ ٱلنبيِّ من مثلِ ذلك برهانُ ٱللَّهِ على رسالتِه، إلى أنْ نزلَ قولُه تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فحلَّ الفصلُ، وٱنطلقتِ ٱلصاعقة، وكانَتِ ٱلهجرة.

تلك هي المقدمةُ الإلهيَّةُ لِلتاريخ، وكانَ طبيعيًّا أنْ يطَّرِدَ ٱلتاريخُ بعدَها، حتى قال الرشيدُ لِلسحابةِ وقدْ مرَّتْ بِه: أمطري حيثُ شِئْتِ فسيأتيني خَراجُك!

فلسفةُ قصة

ماتَتْ خديجةُ زوجُ النّبيِّ ﷺ وماتَ عمُّهُ أبو طالبٍ في عامٍ واحد، في السنةِ العاشرةِ مِنَ النبوَّة، فعظُمَتِ ٱلمصيبةُ فيهما عليه، إذْ كانَ عمُّهُ هذا يمنعُهُ من أذى قريش، ويقومُ دونَهُ فلا يخلُصونَ إليهِ بمكروه؛ وكان أبو طالبٍ من قُريشٍ كٱلعقيدةِ السياسية: هي بطبيعتِها قوةٌ نافذةٌ على قوةِ القبيلة؛ فمِنْ ثمَّ كانَ هو وحدَه المشكلةَ النفسيةَ المعقَّدةَ التي تعملُ قريشٌ جاهدةً في حلّها، وقامَتِ ٱلمعركةُ الإسلاميةُ الأولى بينَ إرادتِهم وإرادتِه، وهم أمَّةٌ تحكمُهُمُ ٱلكلمةُ ٱلاجتماعيَّةُ ٱلتي تَسِيرُ عنهم في ٱلقبائل؛ وتاريخُهم ما يُقالُ في ٱلألسنةِ من معاني ٱلمدحِ وٱلذمّ، فيخشَوْنَ ٱلمقالةَ أكثرَ مِمَّا يخشَوْنَ ٱلغارة، وقد لا يُبالونَ بالقَتْلَى وٱلجرحى منهم، ولكنَّهم يبالونَ بالكلماتِ ٱلمجروحة.

فكانَ مِنْ لَطيفِ صنْعِ ٱلله للإسلام، وعجيبِ تدبيرِهِ في حِمايةِ نبيِّهِ ﷺ - وضْعُ هذه القوةِ النفسيةِ في أولِ تاريخ النبوَّة، تشتغلُ بها سخافاتُ قريش، وتكونُ عملاً لِفراغِهِمُ ٱلرُّوحيّ، وتُثِيرُ فيهمُ ٱلإشكالَ السياسيَّ ٱلذي يُعطِّلُ قانونَهُمُ ٱلوحشيَّ إلى أنْ يتمَّ عملُ الأسبابِ الخفيَّةِ التي تكْسِرُ هذا القانون، فإنَّ ٱلمصنعَ الإلهيَّ لا يُخْرِجُ أعمالَهُ التامَّةَ العظيمةَ إلَّا من أجزاء دقيقةٍ.

أمَّا خديجةُ زوجُ النبيِّ ﷺ فكانَتْ في هذه المِحْنةِ قلباً معَ قلبِهِ العظيم، وكانَتْ لِنفسِهِ كقولِ (نَعم) لِلكلمةِ الصادقةِ التي يقولُ لها كلُّ الناسِ (لا)؛ وما زَالتِ ٱلمرأةُ ٱلكاملةُ ٱلمحبوبةُ هيَ ٱلتي تُعطِي ٱلرجلَ ما نقصَ من معاني ٱلحياة، وتَلِدُ لَهُ ٱلمسراتِ من عواطفِها كما تَلِدُ من أحشائِها، فالوجودُ يعملُ بها عملينِ عظيمين: أحدهُما زيادةُ الحياةِ في الأجسام، وٱلآخرُ إتمامُ نقْصِها في المعاني.

وبموتِ أبي طالبٍ وخديجةَ، أُفْرِدَ النبيُّ ﷺ بجسمِهِ وقلبِه، لِيتجرَّدَ[1] مِنَ الحالةِ ٱلتي يَغْلِبُ فيها ٱلحِسُّ، إلى الحالةِ التي تَغلبُ فيها ٱلإرادة، ثُمَّ ليخرجَ من

(١) ليتجرّد: ليتفرّغ، ليتخلّص.

أيامِ الاستقرارِ في أرضِهِ، إلى الأيامِ المتحركةِ بِهِ في هِجرتِهِ، ثُمّ لِينتهِيَ بذلك إلى غَايةِ قوميَّتِه الصغيرةِ المحدودة، فيتصلَ من ذلك بأولِ عالميَّتِهِ الكُبرى.

وأرادَ اللّهُ ـ تعالى ـ أنْ يبدأَ هذا الجليلُ العظيمُ من أسمى خِلالِ الجلالِ والعظَمة، لِيكونَ أولُ أمرِه شهادةً بكمالِهِ، فكانَتِ الحسنةُ فيهِ بشهادةِ السيِّئةِ من قومِهِ، فحِلْمُهُ بشهادةِ رُعُونتِهم[1]، وأناتُهُ[2] بدليلِ طَيْشهم، وحِكمتُهُ ببرهانِ سفَاهتِهم[3]؛ وبذلك ظهرَ الروحانيُّ روحانيًا في المادة.

قالوا: فنالَتْ منه قريش، ووَصَلُوا من أذاهُ إلى ما لم يكونوا يصِلُونَ إليهِ في حياةِ عمِّه، حتى نثَرَ بعضُهُمُ الترابَ على رأسِه، كأنّما يُعلِمونَهُ أنّهُ أهونُ عليهم من أنْ يكونَ حرًّا، فضلاً عنْ أنْ يكونَ عزيزاً، فضلاً عنْ أنْ يكونَ نبيًّا؛ قالوا: فدخلَ رَسولُ اللّهِ ﷺ بيتَهُ والترابُ على رأسِه، فقامَتْ إليهِ إحدى بناتِه تغسلُ عنهُ الترابَ وهي تبكي!

كانَتْ تبكي إذْ لا تعلمُ أنّ هذا الترابَ على رأسِ النبيِّ العظيمِ هو شُذوذُ الحياةِ الأرضيَّةِ الدنيئة، في مقابَلةِ إنسانِها الشاذِّ المنفرد. هذه القَبْضَةُ مِنَ الترابِ الأرضيِّ قبضةٌ سفيهةٌ، تُحاولُ ردَّ الممالكِ الإسلاميةِ العظيمةِ أنْ تَنشأَ نشأتَها وتعملَ عمَلَها في التاريخ، فهي في مقدارِها وسخافتِها ومحاولتِها، كعقلِ قُريشٍ حينئذٍ في مقدارِهِ وسخافتِهِ ومحاولتِه.

أمّا النبيُّ ﷺ فقالَ لِبنتِه: «يا بنيّةُ لا تبكي، فإنَّ اللّهَ مانعٌ أباك». حسِبَتْ ذلك هَواناً وضَيْعةً، فأعلمَها أنَّ قبضةً مِنَ الترابِ لا تَطْمُرُ النَّجم، وأنَّ هذه الحَثْوَةَ الترابيةَ لا تُسمَّى معركةً أثارتْها الخيلُ فجاءتْ بنتيجة، وأنَّ ساعةً مِنَ الحزنِ في يوم، لا يُحكَمُ بها على الزمنِ كلِّه، وأنَّ هذه النَّزوةَ التي تحركَتِ الآنَ هي حمقُ الغباوة: قوّتُها نهايتُها.

«يا بنيَّةُ لا تبكي فإنَّ الله مانعٌ أباك». أي ليسَ لِلنبيِّ كبرياءُ ينالُها الناسُ أو يَغُضُّونَ[4] عنها فيأتي الدمعُ مترجِماً عنِ المعنى الإنسانيِّ الناقصِ مُثبتاً أنّهُ ناقص، إنّما هي النبوَّةُ: قانونُها غيرُ ما اعتادَتِ النفسُ من أفراحٍ وأحزان، وهي النبوَّة: تجعلُ المختارَ لها غيرَ محدودٍ بجسدِهِ الضعيفِ، بلْ حدودُهُ الحقائقُ التي فيها

(١) رعونتهم: حماقتهم.
(٢) أناته: تروّيه.
(٣) سفاهتهم: طيشهم ودناءتهم.
(٤) غضّ الطرف: أغمض عينيه.

قوّتُها، فهو في مَنَعَةِ ٱلواقع ٱلذي لا بدَّ أنْ يقَع، فلو أمكنَ أنْ يُحذَفَ يومٌ منَ ٱلزمنِ أوْ يؤخَّرَ عن وقتِه، أمكنَ أنْ يؤخَّرَ ٱلنبيُّ أو يُحذَف.

«يا بنيةُ لا تبكي إنَّ ٱللَّهَ مانعُ أباك». لا ـ واللهِ ـ ما يقولُ هذه الكلمَةَ إلَّا نبيٌّ وَسعَ التاريخَ في نفسِهِ الكبيرةِ قبلَ أنْ يُوجَدَ هذا التاريخُ في الدنيا، فكلمتُهُ هي ٱلإيمانُ والثقةُ إذْ يتكلمُ عن موجود.

ترابٌ ينثُرهُ سفيهٌ على رأسِ النبيِّ! ويحكِ يا حقَارَةَ المادة؛ إنَّ ارتفاعَكِ لعنة، إنَّ ٱرتفاعَكِ لعنة.

* * *

قالوا: وخرجَ رسولُ ٱللهِ ﷺ وحدَهُ إلى الطائف، يلتمسُ من ثَقيفٍ النصرَ والمنعَةَ لَهُ من قومِه، فلمَّا ٱنتهى إلى ٱلطائفِ عَمدَ[1] إلى نفَرٍ من ثقيفٍ هم يومئذٍ سادتُهم وأشرافُهم، فجلسَ إليهم فدعاهم إلى ٱللهِ وكلَّمُهم بما جاءَهم لَهُ من نُصرتِهِ والقيامِ معَهُ في ٱلإسلامِ على مَنْ خالفَهُ من قومِهِ، فلم يفعلوا وأغرَوْا[2] بِهِ سُفهاءَهم وعبيدَهم يسبُّونَهُ ويصيحونَ بِه، حتى ٱجتمعَ عليهِ ٱلناسُ وألجأُوهُ إلى حائطٍ[3] لِعُتْبَةَ ابنِ ربيعَة وشَيبةَ بْنِ ربيعةَ وهما فيه. ورجَع عنه مِنْ سفهاءِ ثَقيفٍ من كانَ يتبعُه، فعمدَ ﷺ إلى ظلِّ حُبْلَةٍ[4] من عِنَبٍ فجلسَ فيه، وٱبنا ربيعةَ ينظرانِ إليهِ ويريانِ ما لقِي مِنَ السفهاء.

فلمَّا ٱطمأنَّ ﷺ في مجلسِهِ قال: «اللهمَّ إليك أشكو ضعفَ قوّتي، وقلةَ حيلتي، وهواني على الناس؛ يا أرحمَ الراحمين، أنتَ ربُّ المستَضْعَفِينَ وأنت ربّي، إلى مَنْ تكِلُني، إلى بعيدٍ يتجهّمُني[5]، أو إلى عدوٍّ ملَّكْتَهُ أمري، إنْ لم يكُنْ بك عليّ غضبٌ فلا أُبالي، ولكنّ عافيَتَك هي أوسعُ لي. أعوذُ بنورِ وجهِكَ ٱلذي أشرقَتْ لَهُ ٱلظُلُماتُ، وصَلُحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرة، من أنْ ينزلَ بي غضبُكَ، أو يحلَّ عَلَيَّ سخَطُك، لكَ العُتْبَى حتى ترضى، لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بك!».

* * *

ألا ما أكملَ هذه الإنسانيَةَ التي تُثبِتُ أنَّ قوةَ الخُلقِ هي درجةٌ أرفعُ مِنَ الخُلُق

---

(١) عمد: لجأ.
(٢) أغروا: حثّوا وشجّعوا.
(٣) الحائط: البستان، ويجمع على حوائط.
(٤) الحُبْلة بالضم: الكرْم.
(٥) يتجهمني: يستقبلني بوجه كريه.

نفسِه، فهذا فنُّ الصبرِ لا الصبرُ فقط، وفنُّ الْحِلْم لا الحِلْمُ وحدَه.

قوةُ الخُلُقِ هي التي تجعلُ الرجلَ العظيمَ ثابتاً في مركزِ تاريخِهِ لا متقلْقِلاً في تواريخِ الناس، محدوداً بعظائمِ شخصيتِهِ الخالدةِ لا بمصالحِ شخصِهِ الفاني، ناظراً في الحياةِ إلى الوضعِ الثابتِ لِلحقيقةِ لا إلى الوضعِ المتغيِّرِ لِلمنفعة.

وما كانَ أولئك ٱلأشرافُ وسفهاؤُهم وعبيدُهم إلّا معانيَ ٱلظلم، والشرّ، والضعْف، تقولُ لِلنبي العظيمِ الذي جاءَ يمحوها ويُدِيلُ منها: إننا أشياءُ ثابتةٌ في البشريَّة.

لم يكنْ منهمُ ٱلأشرافُ وٱلسفهاءُ وٱلعبيدُ، بلْ كانَ منهمُ ٱلعَسْفُ[1]، والرِّق، والطَّيش، تَسْخَرُ ثلاثتُها من نبيِّ ٱلعدْل، والحريَّة، والعقل، فما تَسْخَرُ إلّا من نفسِها.

صغائرُ الحياةِ قد أحاطَتْ بمجدِ ٱلحياة، لِتُثبِتَ ٱلصغائرُ أنَّها ٱلصغائر، ولِيُثْبِتَ ٱلمجدُ أنَّهُ ٱلمجد.

كانَ ٱلفريقانِ هما الفكرتينِ ٱلمتعاديَتينِ أبداً على الأرض: إحداهما عِشْ لِتأكلَ وتستمتِعَ وإنْ أهلكْت، والأخرى عشْ لِتعملَ وتنفعَ الناسَ وإنْ هلكْت.

كانَتِ الأقدارُ تُبادي هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحِ الضيق، لِينطلقَ الواسعُ من مكانِهِ ويستقبِلَ الدنيا التي عليهِ أنْ يُنشِئها. فأولئك ٱلاشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ إن هم إلّا الضيقُ، والركودُ، وذلُّ ٱلعيش، حول السَّعةِ الروحيةِ، والسموّ، وطَهارةِ الحياة.

وقفَ ٱلمعنى السماويُّ بينَ معاني الأرض، ولكنَّ نورَ الشمسِ ينبسطُ على الترابِ فلا يُعفِّرُهُ ٱلتراب[2]، وما هو بنورٍ يُضيءُ اكثرَ مِمَّا هو قوةٌ تعملُ بالْعناصرِ ٱلتي من طبيعتِها انْ تحوّلَ، في العناصرِ التي من شأنِهَا أنْ تتحوَّل.

وكانَ بينَ النبيِّ ﷺ وبينَ أولئكَ المستهزئينَ قوةٌ أخرى، هي ٱلقدرةُ ٱلتي تعملُ بهذا النبيِّ لِلعالم كلِّه، وبهذه القدرةِ لم ينظرِ ٱلنبيُّ إلى قريشٍ وصَوْلَتِهم[3] عليهِ إلَّا كما ينظرُ إلى شيءٍ ٱنقضى، فكانَ ٱلوجودُ الذي يُحيطُ بهِ غيرَ موجود، وكانَتْ حقيقةُ الزمنِ الآتي تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقة.

---

(١) العسف: الجوْر والظلم.

(٢) يعفّره التراب: يلوّثه ويغطّيه.

(٣) صولتهم: جولتهم، تغلبهم.

وإلى هذه القدرةِ توجَّهَ النبيُّ ﷺ بذلك الدعاءِ البليغ الخالد، يشكو أنَّهُ إنسانٌ فيهِ الضعفُ وقِلَّةُ الحِيلة، فينطِقُ الإنسانيُّ فيهِ بالشَّطرِ[1] الأولِ مِنَ الدعاءِ يذكرُ ٱنفرادَهُ وَآثارَ ٱنفرادِه، ويتوجَّعُ لِمَا بينَهُ وبينَ إنسانيةِ قومِه، ثم ينطقُ الروحانيُّ فيهِ بعدَ ذلك إلى آخرِ ٱلدعاءِ متوجِّهاً إلى مصدَرِهِ ٱلإلهيِّ قائلاً اولَ ما يقول: إنْ لم يكُنْ بك عليَّ غضبٌ فلا أُبالي.

ولَعمري لو نطَقتِ ٱلشمسُ تدعو ٱللَّهَ لَمَا خرجَتْ عن هذا المعنى ولا زادتْ على قولِهِ: «أعوذُ بنورِ وجهِك»، تلتمسُ[2] من مصدرِ النورِ الأزليِّ حِياطةَ وجودِها الكامل.

* * *

ولقد هزئوا من قبلُ بِالمسيحِ (عليه السلام) فقالَ لِلساخرينَ منه: ليسَ نبيٌّ بلا كرامةٍ إلَّا في وطنِهِ وفي بيتِه. وبهذا ردَّ عليهم ردَّ مَنِ ٱنسلخَ منهم، وقال لهم قولَ مَنْ ليسَ لَهُ حكمٌ فيهم، وأخذَهم بالشريعةِ الأدبيَّةِ لا العمليَّة؛ إذْ كانَ (عليه السلام) كالحكمةِ الطائفةِ ليسَتْ لِكلِّ قلْبٍ ولا لِكلِّ عقْل، ولكنَّها لِمَنْ أُعدَّ لها؛ وشريعتُهُ أكثرُها في التعبيرِ وأقلُّها في العمل، ولم تجيءْ بالقوةِ العاملةِ فلم يكُنْ بدٌّ من أنْ تَضَعَ ٱلموعِظةَ في مكانِ ٱلسيف، وأنْ تكونَ قائمةً على النهي أكثرَ مِمَّا هي قائمةٌ على الأمر، وأنْ تكونَ كشمسِ ٱلشتاءِ الجميلة: لا تَغْلِي بها ٱلأرض، وإنَّما عملُها أنْ تمهِّدَ[3] هذه الأرضَ لِفصلٍ آخر.

أمَّا نبيُّنا ﷺ فلم يُجِبِ ٱلمستهزئين، إذْ كانَتِ ٱلقوةُ ٱلكامنةُ في بلادِ ٱلعربِ كلِّها كامنةً فيه، وكانَ صدرُه ٱلعظيمُ يحملُ لِلدنيا كلمةً جديدةً لا تقبلُ ٱلدنيا أنْ تُعاملَهُ عليها إلَّا بطريقتِها ٱلحربيَّة؛ فلم يردَّ ردَّ الشاعرِ ٱلذي يُريدُ مِنَ الكلمةِ معناها البليغَ، ولكنَّهُ سكَتَ سكوتَ المشتَرِعِ الذي لا يُريدُ مِنَ الكلمةِ إلَّا عملَها حين يتكلَّم؛ وكانَ في سكوتِهِ كلامٌ كثيرٌ في فلسَفةِ ٱلإرادة وٱلحريَّةِ وٱلتطوّر، وأنْ لا بدَّ أنْ يتحوَّلَ القومُ، وأنْ لا بدَّ أنْ يتفطَّرَ[4] هذا الشجرُ الأجْرَدُ عن وَرَقٍ جديدٍ أخضرَ ينمو بِٱلحياة.

لم يتسخَّطْ[5] ولم يقلْ شيئاً، وكانَ كالصانعِ الذي لا يردُّ على خطأ الآلةِ بسخْطٍ ولا يأس، بل بإرسالِ يدِهِ في إصلاحِها.

---

(١) الشطر: الجانب والقسم.
(٢) تلتمس: تستمدّ، تأخذ.
(٣) تمهّد: تفسح المجال وتهيئه.
(٤) يتفطّر: يتفتح ويستنبت.
(٥) يتسخط: يغضب.

قالوا: ورأى ٱبنا ربيعةَ، عُتْبةُ وشيبةُ ما لقي النبيُّ ﷺ مِنَ السفهاء، فتحركَتْ لَهُ رَحِمُهُما[1]، فدَعَوا غلاماً لهما نَصرانيًا يُقالُ له عَدَّاس، فقالا له: خذْ قِطْفاً من هذا العنبِ وضعْهُ في ذلك الطبق، ثمَّ ٱذهبْ بِهِ إلى ذلك الرجلِ فقلْ لَهُ يأكلُ منه. ففعلَ عدَّاسٌ ثم أقبلَ بِهِ حتى وضَعَهُ بينَ يدي رسولِ ٱللَّهِ ﷺ فلمَّا وضَعَ يدَه قال: «بسمِ ٱللَّهِ» ثُمَّ أكل؛ فنظرَ عدَّاسٌ إلى وجهِهِ ثم قال: ـ والله ـ إنَّ هذا لَكلامٌ ما يقولُهُ أهلُ هذه البلدة.

فقالَ لَهُ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ ومِن أهلِ أيِّ ٱلبلادِ أنت يا عدَّاسُ وما دينُك؟

قال: أنا نَصرانيٌّ وأنا رجلٌ من أهلِ نينَوَى. فقالَ لَهُ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ من قريةِ الرجلِ الصالحِ يُونسَ بنِ متَّى؟ قال: وما يُدريكَ[2] ما يونسُ بْنُ متى؟ قال ﷺ ذاكَ أخي: كان نبيًّا وأنا نبيّ.

فأكبَّ عدَّاسٌ على رسولِ ٱللَّهِ ﷺ يقبلُ رأسَهُ ويديهِ ورجليه.

* * *

يا عجباً لِرموزِ القدَرِ في هذه القصة!

لقدْ أسرعَ ٱلخيرُ وٱلكرامةُ وٱلإجلالُ فأقبَلتْ تعتذرُ عنِ ٱلشرِّ والسفاهةِ وٱلطيْش، وجاءتِ ٱلقُبْلاتُ بعدَ كلماتِ العداوة.

وكانَ ٱبنا ربيعةَ من ألدِّ أعداءِ الإسلام، وممَّنْ مَشَوْا إلى أبي طالبٍ عمِّ النبيِّ ﷺ من أشرافِ قريشٍ يسألونَهُ أنْ يكفَّهُ عنهم أو يُخلِّيَ بينَهم وبينَه، أو يُنازِلُوهُ وإيَّاهُ حتى يهلكَ أحدُ ٱلفريقين، فٱنقلبَتِ ٱلغريزةُ ٱلوحشيةُ إلى معناها الإنسانيِّ الذي جاءَ بِهِ الدين، لأنَّ ٱلمستقبلَ الدينيَّ لِلفكرِ لا لِلغريزةِ.

وجاءَتِ ٱلنصرانيَّةُ تُعانقُ الإسلامَ وتُعزِّه، إذِ ٱلدينُ الصحيحُ مِنَ الدينِ الصحيح كالأخِ من أخيه، غيرَ أنَّ نَسَبَ الإخْوةِ الدمُ ونسبَ الأديانِ العقل.

ثُمَّ أتمَّ ٱلقدرُ رمزَهُ في هذه القصة، بقطْفِ العنبِ سائغاً عَذْباً مملوءاً حَلاوة؛ فباسمِ ٱللَّهِ كانَ قِطْفُ ٱلعنبِ رمزاً لِهذا العنقودِ الإسلاميِّ العظيمِ الذي ٱمتلأ حبًّا كلُّ حبةٍ فيه مملكة.

---

(١) رحمهما: إحساسهما بالقرابة.

(٢) يدريك: يعلمك.

فوقَ الآدمية الإسراءُ والمعراج

من أعجبِ ما ٱتّفقَ لي أنّي فرغْتُ[1] من تسويدِ هذا ٱلمقالِ ثمَّ أردْتُ نقلَه، فتعَسَّرَ عليَّ وصُرِفْتُ عنه بألم شديدٍ ٱعتراني[2]، ونالني منه ثَقْلةٌ في الدماغ؛ ثم كشفَهُ ٱللَّهُ بعدَ يوم فراجعْتُ ٱلكِتابةَ، فإذا قلمي ينبعثُ بهذه الكلمات:

كيف يَسْتَوْطِىءُ ٱلمسلمونَ ٱلعجزَ، وفي أولِ دينِهم تسخيرُ ٱلطبيعة؟

كيف يَسْتَمْهِدُونَ ٱلراحةَ[3]، وفي صَدْرِ تاريخِهم عملُ ٱلمعجزةِ الكبرى؟

كيف يَرْكَنُونَ إلى ٱلجهل، وأولُ أمرِهم آخِرُ غاياتِ ٱلعِلْم؟

كيف لا يحملونَ النورَ لِلعالمِ ونبيُّهُم هو ٱلكائنُ ٱلنورانيُّ ٱلأعظم؟

* * *

قصةُ ٱلإسراءِ وٱلمِعراجِ هيَ من خصائصِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ هذا النجمُ الإنسانيُّ العظيم؛ وهو النورُ المتجسِّدُ لِهدايةِ العالمِ في حَيْرةِ ظُلماتِهِ النفسيَّة؛ فإنَّ سماءَ الإنسانِ تُظلِمُ وتُضيءُ من داخلِهِ بأغراضِهِ ومعانيه. وٱللَّهُ ـ تعالى ـ قد خلَقَ لِلعالمِ الأرضيِّ شمساً واحدةً تُنيرُهُ وتُحييهِ وتتقلَّبُ عليهِ بليلِهِ ونهارِهِ، بيدَ أنَّهُ تركَ لِكلِّ إنسانٍ أنْ يصنعَ لِنفسِهِ شمسَ قلبِهِ وغَمَامَها وسحائبَها وما تُسفِرُ بِهِ وما تُظلِمُ فيه. ولِهذا سُمِّيَ القرآنُ نوراً لِعملِ آدابِهِ في النفس، ووُصِفَ المؤمنونَ بأنَّهم ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، وكانَ أثرُ ٱلإيمانِ والتقوى في تعبيرِ ٱلقرآنِ الكريمِ أنْ يجعلَ ٱللَّهُ لِلمؤمنينَ نوراً يمشُون بِهِ.

وقد حارَ المفسِّرونَ في حكمةِ ذكرِ «الليل» في آية «الإسراء» من قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾. فإنَّ السُّرَى في لغةِ العربِ لا يكونُ إلَّا ليلاً.

---

(١) فرغت: انتهيت.

(٢) اعتراني: داخلني وسيطر علي.

(٣) يستمهدون الراحة: يجعلونها مهداً لهم.

والحِكمةُ هي ٱلإشارةُ إلى أنَّ القصةَ قصةُ (النجم) الإنسانيِّ العظيم الذي تحوَّلَ من إنسانيتِهِ إلى نورِهِ السماويِّ في هذه المعجزة، ويُتَمِّمُ هذه العجيبةَ أنَّ آيات «ٱلمِعراجِ» لم تجىءْ إلّا في سورةِ: «والنَّجم».

وعلى تأويلِ أنّ ذكرَ (الليلِ) إشارةٌ إلى قصةِ النجم، تكونُ الآيةُ برهانَ نفسِها، وتكونُ في نَسَقِها[1] قد جاءَتْ معجزةً مِنَ المعجزاتِ البيانيَّة؛ فإذا قيلَ إنَّ نجماً دارَ في السماءِ، أو قطَعَ ما تقطعُهُ النجومُ منَ المسافاتِ التي تُعجِزُ الحساب، فهل في ذلك من عجيب؟ وهلْ فيه شكٌّ أو نظرٌ أو تردُّد؟ وهل هو إلّا من بعض ما يُسَبِّحُ اللَّهُ بذكرِهِ؟ وهل يكونُ إلّا آيةً ٱتصلَتْ بالآياتِ التي نَراها ٱتصالَ الوجودِ بعضِهِ ببعض؟

وأنا ما يكادُ ينقضي عجَبي من قولِه تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾. معَ أنَّ الألفاظَ كما ترى مكشوفةٌ واضحة، يُخيِّلُ إليك أنْ ليسَ وراءَها شيء، ووراءَها السرُّ الأكبر؛ فإنَّها بهذهِ العِبارةِ نصٌّ على إشرافِ النبيِّ ﷺ فوقَ الزمانَ والمكان يرى بغيرِ حِجابِ الحواسِّ مِمَّا مَرْجِعُهُ إلى قُدرةِ ٱللَّهِ لا قدرةِ نفسِه؛ بخِلافِ ما لو كانتِ ٱلعبارةُ: «**ليرى من آياتنا**» فإن هذا يجعلُهُ لِنفسِهِ في حُدود قوتِها وحواسِّها وزمانِها ومكانِها، فيضطربُ ٱلكلام، ويتطرَّقُ إليهِ ٱلاعتراضُ ولا تكونُ ثَمَّ معجزة.

وتحويلُ فعلِ (الرؤيةِ) من صِيغةٍ إلى صِيغةٍ كما رأيتَ، هو بعينِهِ إشارةٌ إلى تحويلِ ٱلرائِي من شكلٍ إلى شكلٍ كما ستعرفُه، وهذه معجزةٌ أخرى يسجدُ لها العقلُ؛ فتبارَكَ اللَّهُ مُنْزِلُ هذا الكلام!

وإذا كانَ ﷺ نَجماً إنسانيًا في نوره، فلنْ يأتيَ هذا إلّا من غَلَبَةِ روحانيتِهِ على مادتِهِ؛ وإذا غلبَتْ روحانيتُهُ كانَتْ قواهُ ٱلنفسيةُ مهيَّأةً في الدنيا لِمثلِ حالتِها في ٱلأخرى؛ فهو في هذه المعجزةِ أشبهُ بٱلهواءِ ٱلمتحرِّك. فقُلِ ٱلآن: أيُعترَضُ على الهواءِ إذا ٱرتفعَ بأنَّهُ لم يرتفعْ في طيَّارة...؟

ومن ثَمَّ كانَ ٱلإنسانُ إذا سما درجةً واحدةً في ثباتِ قواهُ ٱلروحيَّة، سما بها دَرجاتٍ فوقَ الدنيا وما فيها، وسُخِّرَتْ لَهُ ٱلمعاني التي تُسَخِّرُ غيرَهُ مِنَ ٱلناس، ونشأَتْ لَهُ نواميسُ أخلاقيَّةٌ غيرُ ٱلنواميسِ التي تتسلَّطُ بها ٱلأهواء. ومتى وُجِدَ الشيءُ مِنَ الأشياءِ كانَتْ طبائعُ وجودِهِ هي نواميسَه؛ فالنارُ مثلاً إذا هي تضرَّمتْ أوجدَتِ ٱلإحراق فيما

---

(١) نسقها: نمطها، نموذجها.

يحترق، فإنْ وُضعَ فيها ما لا يحترقُ أبطلَ نواميسَها وغلبَ عليها.

وكلُّ معجزةٍ تَحدُثُ فهذا هو سبيلُها في إيجادِ ٱلنواميسِ ٱلخاصةِ بِها وإبطالِ النواميسِ ٱلمألوفة، وبهذا يُقال: إنَّها خَرَقَتِ ٱلعادة. ومنَ ٱلنور نورٌ لا يَشِفُّ[1] له غيرُ ٱلهواء، ومنه أشعةُ (رونتجن) التي تشفُّ لها الجدرانُ والحُجُب؛ فهذه معجزةٌ في ذاك.

* * *

والنبيُّ لا يكونُ نبيًّا حتى يكونَ في إنسانِه إنسانٌ آخرُ بنواميسَ تجعلُهُ أقربَ إلى الملائكةِ في روحانيَّتها، وما ينزلُ إنسانُهُ الظاهرُ مِنَ ٱلإنسانِ ٱلباطنِ فيهِ إلَّا منزلةَ مَنْ يتلقَّى مِمَنْ يُعطِي؛ فذاك ٱلباطنُ هو لِلحقائقِ التي لا تحملُها الدنيا، وهذا الظاهرُ لِمَا يُمكنُ أنْ يبلغَ إليهِ ٱلكمالُ في المَثل الإنسانيِّ الأعلى، ولولا ذلك الباطنُ ما ٱستطاعَ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ أنْ يحمِلَ همومَ أمّةٍ كاملةٍ لا تُضْنِيهِ ولا تُغيّرُهُ ولا تُعجِزُه.

فحقيقةُ النبوَّةِ أنَّها قوةٌ مِنَ الوجودِ في إنسانٍ مختارٍ جاءَتْ تُصْلِحُ ٱلوجودَ ٱلإنسانيَّ بِهِ لتُقِرَّ في هذهِ الحيوانيَّةِ المهذَّبةِ مَثَلَها الأعلى، بدلالتِها على طريقِها النفسيِّ مَعَ طريقِها النفسيِّ مع طريقِها الطبيعيِّ؛ فيكونُ معَ ٱلانحِطاطِ الرقيُّ، ومعَ ٱلنقصِ ٱلكمالُ، ومع حُكْمِ الغريزةِ التحكّمُ في الغريزة، ومعَ ٱلظلمةِ الماديَّةِ الإشراقُ الروحانيُّ.

وما ٱلمعجزاتُ إلَّا شأنُ تلكِ القوةِ ٱلباطنةِ لا شأنُ إنسانِها الظاهر، ومَنِ ٱلذي يُنكرُ أنَّ قُوى الوجودِ هي في نفسِها إعجازٌ لِلعقلِ البشريّ؟ وهلْ يُنكرُ اليومَ أحدٌ شأنَ هذه القوةِ في (الراديو) حينَ مَسَّتْهُ فجعلَتِ الكلمةَ التي تُرسَلُ بينَ الشرقِ والغرب، كالكلمةِ بينَ ٱثنينِ يتحدثانِ في مجلسٍ واحد؟

ونحن نرى معجزاتِ ٱلتنويمِ ٱلمغناطيسي وما يُبصرُهُ ٱلنائمُ وما يسمعُهُ، وما ينكشفُ لَهُ مِمَّا وراءَ الزمانِ والمكانِ؛ وليسَ ٱلتنويمُ شيئاً إلَّا تسليطَ الذاتِ الباطنةِ بقواها الروحيَّةِ ٱلعجيبة، على ٱلذاتِ الظاهرةِ المقيَّدةِ بحواسِّها ٱلمحدودة، فتَطْغَى عليها، فتُصْبِحُ ٱلحواسُّ مطلقةً شائعةً في ٱلوجودِ بمِقدارِ ما فيها من قواهُ لا بمقدارِ ما فيها من قوة شخصِها.

وعلى نحوٍ من ذلك يتصلُ الرجلُ الروحانيُّ بذاتِهِ ٱلباطنة، فيوقعُ شخصَه الظاهرَ في ٱلاستهواء[2]، فينكشفُ لَهُ ٱلوجودُ، ويُبصرُ ما يقعُ على ٱلبعد، ويرى ما

(١) يشفّ: يرق.

(٢) الاستهواء: الاستحالة القلبية.

هو آتٍ قبلَ أنْ يأتي؛ وما ٱلكونُ في هذهِ الحالةِ إلَّا كالمعشوقِ يقولُ لِعاشقِهِ ٱلذي وقعَ في قلبِهِ ٱلحُبّ: قدْ آتيْتُكَ نوراً تنظرُ بهِ جمالي.

* * *

وفي علماءِ عصرِنا من يفكِّرُ في ٱلصعود إلى القمر، وفيهم مَنْ يعملُ لِلمخاطبةِ معَ الأفلاك، وفيهم مَنْ تقعُ لَهُ ٱلعجائبُ في ٱستحضارِ ٱلأرواحِ وتسخيرِها؛ وكلُّ ذلك أولُ ٱلبرهانِ الكونيِّ الذي سَيُلْزِمُ العِلْمَ فيُضطرُّهُ في يومٍ ما إلى الإقرارِ بصحةِ ٱلإسراءِ وٱلمِعراج.

ونحن قبل أن نُبديَ رأينَا في ٱلقصةِ نُلمُّ بها إلمامةً موجزَة؛ فقدِ ٱختلفَتْ فيها ٱلأحاديثُ ووقعَ فيها تخليطٌ كثير، فجاءَتْ فُنوناً وأنواعاً من طُرُقٍ شتَّى، حتى جمعَها بعضُهم في جزءَيْن، وما تحتملُ كلَّ ذلك ولا بعضَه، ولكنَّ روحَ الروايةِ في ذلك الزمنِ كانَتْ كروحِ الصّحافةِ في هذا العصر: متى فارتْ فَوْرَها ٱستحدثَتْ من كلِّ عبارةٍ عبارةً أخرى، وعلى هذه الطريقةِ تخرجُ مِنَ العبارتينِ عبارةٌ ثالثة، فيكونُ الأصلُ معنًى واحداً وإذا هو يَمُدُّ من يمينِهِ ويسارِه.

ولا يَرَونَ بذلك بأساً؛ فإنَّهم يَشُدُّون بِهِ الرأيَ، ويُضاعِفُونَ منهُ ٱليقين، ويزيدون ضوءاً في نورِ ٱلمعنى، وما داموا قد أثبتوا ٱلأصلَ وٱستيقنوه، فلا حَرَجَ أنْ يؤيِّدَ ٱلقولُ بعضُه بعضاً، بٱجتهادٍ في عبارة، وٱستنباطٍ من أخرى، وزيادةٍ في الثالثةِ مِمَّا هو بسبيلٍ منها، على نحو ما نرى من فنِّ ٱلروايةِ ٱلقصصيَّة؛ إذْ تتعددُ ٱلأساليبُ وٱلعِباراتُ مختلفةً متنوِّعة، وليسَ تحتها إلَّا حقيقةٌ واحدةٌ لا تختلف. والقَصصُ الدينيُّ في هذه ٱللغةِ ٱلعربيةِ فنٌّ كاملٌ قائمٌ بنفسِه، لا يُبدِعُ ٱلعقلُ وٱلخيالُ وٱلعاطفةُ أقوى منه ولا أعجبَ ولا أغرب.

هذا في مَتْنِ ٱلقصة، أمَّا في واقعتِها فقدِ ٱختلفوا ٱختلافاً آخر: هل كانَ الإسراءُ والمِعراجُ يقظةً أو مناماً؟ وبالروحِ وحدَها، أو بالروحِ والجسمِ معاً: وإنَّما ذكرْنا هذا الخِلافَ لأنَّهُ الدليلُ القاطعُ على أنَّ النبيَّ ﷺ لم يُخْبِرْ بشيءٍ من ذلك، فلم يعيِّنْ لهم وجهاً من هذه ٱلأوجُه. والحكمةُ في ذلك أنَّ عقولَهم لم تكنْ تحتملُ ٱلإدراكَ العِلْميَّ الذي أساسُهُ ما عُرِفَ اليومَ من أمرِ ٱلكهرباءِ وٱلأثير...

وٱلخلاصةُ التي تتأدَّى[1] مِنَ القصة: أنَّهُ ﷺ كانَ مضطَجِعاً، فأتاهُ جبريلُ،

---

(١) تتأدى: تُستنتج.

فأخرجَه مِنَ المسجد، فأركبَهُ ٱلبُراقَ، فأتى بيتَ المقدس، ثُمَّ دخلَ المسجدَ فصلّى فيه، ثم عُرِجَ بِهِ إلى السموات، فٱستفتحَها جبريلُ واحدةً واحدة، فرأى فيها من آياتِ ربِّهِ، وٱجتمعَ بالأنبياء ـ صلواتُ الله عليهم ـ، وصعَد في سماءٍ بعدَ سماءٍ إلى سِدْرةِ المنتَهى، فغَشِيَها من أمرِ ٱللَّهِ ما غشيَها، فرأى ﷺ مظهرَ ٱلجمالِ الأزليّ، ثم زُجَّ[1] بِهِ في ٱلنورِ فأوحَى ٱللَّهُ إليهِ ما أوحى.

أمَّا وَشْيُ ٱلقصةِ وطِرازُها فبابٌ عجيبٌ مِنَ الرموزِ ٱلفلسفيةِ ٱلإنسانيَّةِ التي يُرمَزُ بها إلى تجسيدِ الأعمالِ في هذه الحياة: تكونُ تَعَباً وتقعُ فائدة، أو تُلْتَمَسُ منفعةً وشهوةً وتقعُ مُضَرَّةً وحماقة، ثم تفنَى من هذه وتلك الصُّوَرُ الزمنيَّةُ التي توهَّمَها أصحابُها، وتخلُدُ ٱلصورُ ٱلأبديَّةُ التي جاءَتْ بها حقائقُها.

ومن هذه ٱلرموزِ ٱلبديعةِ قولُه: فجاءَني جبريلُ بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبن، فأخذْتُ ٱللبن، فقالَ جبريل: أَخَذْتَ ٱلفِطرة. وأنَّهُ مرَّ على قومٍ يزرعون ويحصُدونَ في كلِّ يوم، كلَّمَا حصدوا عادَ كما كان؛ فسألَ ما هذا؟ قالَ جبريلُ هؤلاءِ المجاهدونَ في سبيلِ ٱلله، تُضاعَفُ لهمُ ٱلحسنةُ سبعمائةِ ضِعْف. ثم أتى على قومٍ تُرْضَخُ[2] رؤوسُهم بِٱلصخر، كلَّما رُضِخَتْ عادَتْ كما كانَتْ ولا يُفتَّرُ عنهم من ذلك شيء؛ فقال ما هذا؟ قالَ جبريل: هؤلاءِ الذين تتثاقلُ رؤوسُهم عنِ ٱلصلاة. ثم أتى على قومٍ بينَ أيديهم لحمٌ نَضِيجٌ في قِدْر، ولحمٌ آخرُ نيءٌ في قِدْرٍ خبيث، فجعلوا يأكلونَ مِنَ ٱلنيءِ ٱلخبيثِ ويَدَعُونَ النضيج؛ فقالَ ما هؤلاء؟ قالَ جبريل: هذا الرجلُ تكونُ عندَهُ ٱلمرأةُ ٱلحلالُ ٱلطيِّبُ فيأتي ٱمرأةً خبيثة، وٱلمرأةُ تقومُ من عندِ زوجِها حلالاً طيِّباً فتأتي رجلاً خبيثاً. ثم أتى على رجلٍ قد جمعَ حزمةً عظيمةً لا يستطيعُ حملَها وهو يزيدُ عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجلُ تكونُ عليهِ أماناتُ الناسِ لا يقدرُ على أدائِها وهو يُريدُ أنْ يَحمِلَ عليها. ثم رأى نساءً معلَّقاتٍ بثديهِنّ؛ فسأل، فقال جبريل: هؤلاءِ اللاتي أدخلْنَ على الرجالِ من ليسَ من أولادِهم.

* * *

ونحن على ٱلرأي ٱلذي عليه جمهورُ ٱلعلماء: من أنَّ الإسراءَ والمِعراجَ كانا بٱلجسم وٱلروح معاً على التأويلِ الذي سنُبيِّنُه؛ ويُثبِتُ ذلك قولُهُ ـ تعالى ـ في

---

(١) زجّ به: أُدخِل.

(٢) ترضخ: تضرب وتشدخ.

سورةِ (والنَّجم): ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾. فلا يكونُ البصرُ يزيغُ[١] ويطغى إلَّا في ٱلجسم، ولا ينتفي عنهُ ذلك إلَّا وهو في ٱلجسم. ولم يتنبهْ أحدٌ مِنَ ٱلمفسرينَ إلى المعنى ٱلمعجزِ ٱلعجيبِ في قولِهِ: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾: فذلك نصٌّ على أنَّهُ كانَ يرى بجسمٍ قد تحوَّلَ عنِ ٱلطبيعةِ الآدميَّةِ ٱلمحدودةِ فليسَ فيهِ منها شيءٌ؛ إذْ لا يكونُ طغيانُ ٱلبصرِ إلَّا من تَسلّطِ ٱلخيالِ عليهِ بأهواءِ ٱلجسمِ ٱلتي لا يستقيمُ بها حكمٌ على حقيقتِه، فما زاغَ ٱلبصرُ بكونِهِ مقيَّدَ ٱلحاسة، ولا طغى بكونِهِ مُطْلَقَ ٱلخيال، بلْ كانَ كما يُريهِ ٱللَّهُ من آياتِه، أيْ كانَ حقيقةً كونيَّةً في غيرِ حالتِها ٱلأرضيَّةِ ٱلناقصة.

وٱلذين قالوا إنَّ ٱلإسراءَ وٱلمِعراجَ كانا رؤيا رآها النبيُّ ﷺ ٱحتجّوا لِذلك بقولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾. وقد خلطَ المفسرونَ في هذا أيضاً، وإنَّما كانَ ٱلتعبيرُ بلفظِ «الرؤيا» ـ وهي التي تكونُ مناماً ـ لنفي تأثيرِ ٱلحواسِّ على ٱلرائي، وإثباتِ أنَّ الطبيعةَ الآدميةَ بجملتِها كانَتْ فيهِ كالنائمةِ عنْ حياتِها ٱلأرضيَّةِ بحقائِقها وأخْيلتِها معاً، فليسَ نائماً كٱلنائم، ولا مستيقظاً كٱلمستيقظ.

وفي أساسِ القصةِ جبريلُ وٱلبُراق، وهما ٱلقوَّةُ ٱلملائكية وٱلقوَّةُ ٱلطبيعيَّة، أوِ ٱلروحُ ٱلملائكيُّ وٱلروحُ ٱلطبيعيُّ؛ ولم يُوصفِ ٱلبراقُ بأنَّه دابةٌ إلَّا رمزاً، إذْ لا يأتي لِلعربِ أنْ يفهموا ما يُرادُ منه؛ وعندنا أنَّهُ سُمّيَ ٱلبُراقَ مِنَ ٱلبَرْق، وما ٱلبَرقُ إلَّا الكهربائيَّة، وهذا هو المُرادُ منه؛ فتلك قوةٌ كهربائيةٌ متى نَبَضَتْ جمعَتْ أولَ العالمِ بآخرِه؛ وهذه هي ٱلحِكْمةُ في أنَّ آيةَ ٱلإسراءِ لم تذكُرْ أنَّهُ كان محمولاً على شيء، إذا لم يكنْ محمولاً إلَّا على روحِ ٱلأثير.

وما دامَتِ ٱلقوَّةُ الملائكيَّةُ والقوَّةُ الطبيعيَّةُ قد سُخِّرتا لَهُ ﷺ فلا معنى لِأنْ يكونَ ذلك لِلروح دونَ ٱلجسم، بَلِ ٱجتماعُهما معاً في ٱلقصةِ دليلٌ على أنَّ سِرَّ ٱلمعجزةِ إنَّما كانَ في تيسيرِ ملاءمةِ جسمِهِ ٱلشريفِ لِهاتينِ ٱلحالتين؛ فيتحولُ في صورةِ كونيةٍ ملائكيةٍ بينَ سرِّ الملكِ وسرِّ ٱلطبيعة، وحينئذٍ لا تجري عليهِ أحكامُ ٱلحواسِّ ولا أحكامُ ٱلمادة.

ومنَ ٱلممكنِ أنْ تتحوَّلَ ٱلأجسامُ إلى حالتِها الأثيريَّةِ[٢] في بعضِ ٱلأحوالِ ٱلخارِقة، وبهذا يُعلَّلُ طَيُّ الأرضِ لِبعضِ ٱلروحانيِّين، وتُعللُ خوارقُ كثيرةٌ مِمَّا

---

(١) يزيغ: يحيد ويتحوّل.

(٢) الأثيرية: الهوائية.

يَحدُثُ في ٱستحضارِ الأرواحِ لِهذا العهْد، ومِمَّا يأتيهِ فقراءُ ٱلهند، ومِمَّا كانَ يصنعُهُ «هوديني» الأمريكيّ: إذْ كانوا يغلِّلونَهُ بالسلاسلِ والقيودِ ثمَّ يرونَهُ طليقاً؛ ويحبسونَهُ في ٱلسجونِ المحصَّنةِ يقومُ عليها ٱلحراسُ وتُمسِكُهُ فيها الأبوابُ والجُدرانُ ثُمَّ يجدونَهُ في بعضِ الفنادقِ.

وليسَ لِلعقلِ أنْ يُنكِرَ شيئاً من هذه ونحوِه، فإنَّ تركيبَ ٱلطبيعةِ ردٌّ عليه، ونقضُهُ هو ردٌّ على نفسِه، وٱلمستحيلُ على ٱلأعمى هو أيسرُ ٱلممكناتِ على ٱلمبصِر.

فأنت ترى أنّ ذكرَ ٱلبُراقِ وٱلملكِ في أساسِ قصةِ ٱلإسراءِ وٱلمِعراجِ هو صلةُ ٱلقصةِ بٱلمعجزة، وهو عينُهُ صِلتُها بٱلبرهان؛ ولو لم يكونا فيها لَمَا كانَ لها تفسير.

* * *

والقصةُ بعدَ ذلك تُثبِتُ أنَّ هذا الوجودَ يرقُّ وينكشفُ ويستضيءُ كلَّما سما الإنسانُ بروحِه، ويغلُظُ ويتكاثَفُ ويتحجَّبُ كلَّما نزلَ بها، وهي من ناحيةِ ٱلنبيِّ ﷺ قصةٌ تَصِفُهُ بمظهرِهِ ٱلكونيِّ في عظَمتِهِ الخالدةِ كما رأى ذاتَهُ الكاملةَ في ملكوتِ ٱلله، ومن ناحيةِ كلِّ مسلم من أتباعِهِ هيَ كالدرسِ في أنْ يكونَ لِقلبِ ٱلمؤمنِ مِعراجٌ سماويّ فوقَ هذه الدنيا، لِيشْهَدَ ببصيرتِهِ أنوارَ الحقّ، وجمالَ ٱلخير، وتجسُّدَ الأعمالِ ٱلإنسانيةِ في صورِها ٱلخالدة؛ فيكونُ بتدبُّرِهِ القصةَ كأنَّما يصعَدُ إلى ٱلسماءِ وينزل؛ فيستريحُ إلى ٱلحقائقِ ٱلأساسيَّةِ لِهذه ٱلحياة، فيدفعُ عن نفسِهِ بذلك تعقُّدَ ٱلأخيلةِ الذي هو أساسُ ٱلبلاءِ على الروح.

ومتى ٱستنارَ ٱلقلبُ كانَ حيًّا في صاحبه، وكانَ حيًّا في ٱلوجودِ كلّه. ومتى سَلِمَتِ ٱلحياةُ من تعقيدِ ٱلخيالِ ٱلفاسدِ لم يكنْ بينَ ٱلإنسانِ وبينَ اللّهِ إلَّا حياةٌ هيَ ٱلحقُّ وٱلخير، ولم يكنْ بينَهُ وبينَ الناسِ إلَّا حياةٌ هي ٱلرحمةُ والحُبّ.

الإنسانية العليا

من أوصاف ٱلنبيّ ﷺ أنّهُ كانَ متواصِلَ ٱلأحزانِ، دائمَ ٱلفكرة، ليسَتْ لَهُ راحةٌ، طويلَ السَّكْت، لا يتكلمُ في غيرِ حاجة، ليسَ بٱلجافِي[1] ولا المَهِين، يُعظِّمُ ٱلنعمةَ وإنْ دقَّتْ لا يذمُّ منها شيئاً، ولا تُغضبُهُ ٱلدنيا ولا ما كانَ لها، فإذا تُعُدِّيَ ٱلحقُّ لم يقمْ لِغضبِه شيءٌ حتى ينتصرَ لَه، ولا يغضبُ لِنفسِهِ ولا ينتصرُ لها؛ وكان خافِضَ الطَّرْف[2]، نظرُهُ إلى الأرض أطولُ من نظرِهِ إلى ٱلسماء، مَنْ رآهُ بديهةً هابَه، ومَنْ خالَطَهُ مَعْرفةً أحبَّه، لا يَحسِبُ جليسُهُ أنّ أحداً أكرمُ عليهِ منه، ولا يَطْوي عن أحدٍ مِنَ ٱلناسِ بِشْرَهُ[3]، قد وسِعَ ٱلناسَ بَسْطُهُ وخُلُقُه، فصارَ لهم أباً، وصاروا عندَهُ في ٱلحقِّ سواء؛ يُحسِّنُ ٱلحسَنَ ويقوّيه، ويُقبِّحُ ٱلقبيحَ ويُوهِيه[4]، معتدلُ ٱلأمرِ غيرُ مختلِف؛ وكانَ أشدَّ ٱلناسِ حياء، لا يثبِّتُ بصَرَهُ في وجهِ أحد، لَهُ نورٌ يَعلوهُ كأنَّ ٱلشمسَ تجري في وجهِه، لا يُؤيِسُ[5] راجيَه، ولا يُخيِّبُ عافيَه[6]، ومَنْ سألَهُ حاجةً لم يردَّهُ إلّا بها أو بمَيْسُورٍ مِنَ ٱلقول؛ أجودُ ٱلناسِ بالخير.

* * *

صلى ٱللّهُ وسلَّمَ على صاحبِ هذه ٱلصفاتِ ٱلتي لا يجدُ ٱلكَمالُ ٱلإنسانيُّ مذهباً عنها ولا عن شيءٍ منها، ولا يجدُ ٱلنقصُ البشريُّ مَساغاً[7] إليها ولا إلى شيءٍ منها؛ ففيها ٱلمعنى ٱلتامُّ لِلإنسانيَّة، كما أنَّ فيها المعنى التامَّ لِلحقّ، ومنِ ٱجتماعِ هذينِ يكونُ فيها ٱلمعنى ٱلتامُّ لِلإيمان.

هي صفاتُ إنسانِها العظيم، وقدِ ٱجتمعَتْ لَهُ لِتأخذَ عنهُ ٱلحياةُ إنسانيتَها ٱلعالية؛ فهي بذلك من بُرهاناتِ نبوّتِهِ ورسالتِهِ.

---

(١) الجافي: القاسي الغليظ.
(٢) الطرْف بسكون الراء: النظر.
(٣) بشره: سروره وابتسامه وبسطه.
(٤) يوهيه: يضعفه.
(٥) يؤيس: يقنط ويفقد الأمل من رجائه.
(٦) العافي: المحتاج.
(٧) مساغاً: سبيلاً.

ولو جمعْتَ كلَّ أوصافِهِ ﷺ ونظمْتَها بعضَها إلى بعض، وٱعتبرْتَها بأسرارِها ٱلعِلميَّة ـ لَرأيْتَ منها كَوْناً معنويًّا دقيقاً قائماً بهذا الإنسانِ الأعظم، كما يقومُ هذا الكونُ الكبيرُ بسُنَنِهِ وأصولِ ٱلحِكمةِ فيه، ولأيقنْتَ أنَّ هذا النبيَّ ٱلكريمَ إنْ هو إلَّا مُعْجَمٌ نفسيٌّ حيٌّ أَلَّفتْهُ ٱلحِكمةُ الإلهيةُ بعلْم من عِلْمِها، وقوةٍ من قوَّتِها، لِتتخرَّجَ بهِ الأمةُ التي تُبدعُ ٱلعالمَ إبداعاً جديداً، وتُنشِئَهُ ٱلنشأةَ ٱلمحفوظةَ لَهُ في أطوارِ كمالِه.

ولَنْ ترى في ٱلإنسانيَّةِ أسمى مِنِ ٱجتماعِ هذه الصفاتِ بعضِها إلى بعضٍ وإنِّي لأكادُ كلَّما تأملْتُها أحسبُ هذا السموَّ قضاءً وقَدراً بإنسانٍ على الإنسانيَّةِ كلِّها. وهي دليلٌ على أنَّهُ ٱلإنسانُ ٱلذي خُلِقَ لِلدنيا لا لِنفسِه؛ فهو لا ينمو بما يكونُ على الناسِ مِنَ ٱلحق، ولكنْ بما يكونُ لِلناسِ عليهِ مِنَ ٱلواجبات، كأنَّما هو حقيقةٌ كونيَّةٌ تعيشُ عيشَها، فما تكونُ في ٱلوجودِ إلَّا لِتقرِّرَ وجودَها هي، ولا تنتهي حينَ تنتهي بذاتِها إلَّا لِتبدأَ معانيَها في غيرِها، فهو ﷺ إنسانٌ غُرِسَ في التاريخِ غرْساً ليكونَ حدًّا لِزمنٍ وأوَّلاً لِزمنٍ بعدَهُ، وما كانَتْ حياتُهُ تلك إلَّا طريقةَ غَرْسِهِ، وهو أبداً أصبحَ في الدنيا كأنَّهُ جهةٌ مِنَ ٱلجهاتِ لا إنسانٌ مِنَ ٱلناس، فلَنْ يتغيرَ أو يُمْحَى إلَّا إذا تغيَّرَ أو مُحِيَ ٱلمشرقُ وٱلمغرب.

ونحن حينَ نقرأُ تلك ٱلصفاتِ وما فاضَتْ بِهِ كُتبُ ٱلشمائلِ من أمثالِها، لا نقرؤُها أوصافاً ولا حِلْية، بل نراها صفحةً إلهيَّةً مصنَّفَةً أبدعَ تصنيفٍ وأدقَّه، ومِن وراءِ تأليفِها تفسيرٌ طويلٌ لا يتهدَّى[1] ٱلفكرُ ٱلبشريُّ لِأحسنَ منه ولا أصحَّ ولا أكمل؛ فقدِ ٱجتمعَتْ تلك ٱلصفاتُ في إنسانِها ٱجتماعَ الأجزاءِ في ٱلمسألةِ ٱلرياضيَّة: لا ينبغي أنْ تزيدَ أو تنقُص، إذْ كانَ في مجموعِها ما وُجِدَ لَهُ مجموعُها.

ويكادُ ٱلارتباطُ بينَ أجزاءِ ٱلمسألةِ يكونُ هو بعينِهِ صورةً لِلارتباطِ بينَ أجزاءِ تلكَ ٱلصفاتِ ٱلشريفة؛ فإنَّ كلَّ جزءٍ منها موضوعٌ وضْعاً لا يتمُّ الكلُّ إلَّا بِهِ، حتى لا موضِعَ فيها لِقلَّةٍ أو كثرة؛ وهذا معنى قولِه ﷺ «أدَّبني ربّي فأحسنَ تأديبي»، وأنتَ إذا دقَّقتَ في هذا ٱلحديثِ أدركْتَ من مَغْنَاتِهِ أنَّ هناك طبيعةً أخلاقيَّةً مفردةً[2] تَجري على قانونِها ٱلذي وضعَهُ ٱللَّهُ لها وأحكمَها بِه.

وأعجبُ ما يُدهِشُنا من مجموعِ صِفاتِهِ ﷺ أنَّ فيها دليلاً بيِّناً على أنَّهُ مخلوقٌ خِلْقةً متميزةً بنفسِهَا، كخلقةِ ٱلقلْبِ ٱلإنسانيِّ: نظامُهُ حياتُهُ وحياتُه نظامُه، وكأنَّما

---

(١) لا يتهدّى: لا يعثر. (٢) مفردة: مميّزة.

اعترَتْهُ حالةٌ نفسيَّةٌ كالّتي تعتري القلْبَ في استشعارِ الخطرِ فتُخرجُهُ من طبيعتِهِ إلى أقوى منها، فلا يزالُ يُمِدُّ أعضاءَ الجسم بمَدَدٍ لا ينفَدُ مِنَ القوَّةِ والصبر، يجعلُ الحياةَ فيها على أضعافِها كأنَّها حياةٌ كانَتْ مخبوءةً وظهرَتْ بغتة؛ وفي هذه الحالةِ تتَّجِهُ غرائزُ النفسِ كلُّها إلى جهةٍ واحدةٍ كأنَّها مقدَّرةٌ بميزان، مضبوطةٌ بقياس؛ فترجِعُ على تناقُضِها واختلافِها مُتعاوِنةً يُؤَازِرُ[1] بعضُها بعضاً، وكانَ قانونُها الطبيعيُّ أنْ تَتَجاذَبَ وتتساقَطَ وتُفسِّرَ الواحدةُ منها عملَ الأخرى، فيجيءُ بها الشيءُ وضدُّه معاً: كالصدقِ والكذب، والطمعِ والقناعة، والشهواتِ الثائرةِ والخمودِ الساكن، إلى آخر ما تعدُّ من هذه الغرائز؛ ولكنَّها في استشعارِ الخطرِ تكونُ كالأشباهِ لا كالأضداد، فيشدُّ بعضُها بعضاً، ويُتممُ النَّقِيضُ منها نقيضَه، وتجري كلُّها في قانونٍ واحد: هو الدفاعُ بأجزائِها عن مجموعِها؛ فترى النازعَ منها وإنَّهُ لَمستقرٌّ في أشدِّ مِنَ القيد، وكأنَّ فيهِ غيرَ طبيعتِه.

وهل يُنبئُكَ مجموعُ صفاته ﷺ إلّا أنَّهُ يعيشُ معيشةَ القلْبِ إذا اختلفَ ما حولَهُ وفجأتْهُ بغتَاتُ[2] الوجودِ فتَجَاوَزَ أنْ يكونَ منبعاً لِلحياةِ إلى أنْ يكونَ حافظاً لِلحياةِ في منبعِها؟

وتلك الحالةُ ـ كما مرَّ بك ـ تجعلُ وجودَ الإنسانِ هو وجودَ إرادتِهِ وعقلِه، لا وجودَ شهواتِهِ وغرائزِه؛ وكذلك عاشَ نبيُّنا ﷺ فهو مدةَ حياتِهِ في وجودِ إرادتِهِ لا غيرِها، حتى ليسَ عليهِ سبيلٌ لِغَميزةٍ أو لائمة، كأنَّهُ خُلُقٌ تَشُدُّهُ نيَّةٌ مستيقِظةٌ قد نبَّهَها ما يُنبِّهُ النفسَ مِنَ الغَرَرِ والخطَر. ولعلَّ هذا الشعورَ في نفسِهِ ﷺ هوَ التفسيرُ لِقولِهِ: «نِيَّةُ المؤمنِ خيرٌ من عملِه». إلى أحاديثَ كثيرةٍ مِمَّا يجرِي في معنى هذه الكلمةِ الجامعة؛ يُريدُ بها: أنَّ نِيَّةَ المؤمنِ لا تنطوي إلَّا على الخيرِ الكامل، فهو ـ ما دامَتْ نِيَّتُهُ على صَلاحِها وسِرُّهُ على إخلاصِه ـ لا يَعُدُّ اليسيرَ مِنَ الشرِّ يسيراً، ولا يرى الكثيرَ مِنَ الخيرِ كثيراً؛ فالأصلُ القائمُ في تلك النيَّةِ المؤمنةِ ألّا يبدأَ الشرُّ كي لا يوجدَ، وألَّا ينتهيَ الخيرُ كي لا يفْنَى؛ فالمؤمنُ من ذلك على الخيرِ والكمالِ أبداً، في حينِ أنَّ عملَهُ بطبيعتِهِ الإنسانيَّةِ يتناولُ الخيرَ والشرَّ جميعاً، ثم لا يكونُ إلَّا عملاً إنسانيًا على نقصٍ واضطرابٍ والتواء.

وقد لا يستطيعُ المؤمنُ أنْ يأتيَ الخيرَ في بعضِ أحوالِه، ولكنَّهُ يستطيعُ دائماً

---

(١) يؤازر: يعضّد ويقوّي.

(٢) بغتات: مفاجآات.

أنْ يَنْويَهُ ويرغَبَ فيهِ ويَعْزِمَ عليه، لِيُحقِّقَ ضميرَهُ في كلِّ ما يَهُمُّ بِهِ؛ ويَحصِرَ أفكارَهُ في قانونِ نِيَّتِهِ ٱلمؤمنة. وهذا هوَ الأساسُ في عِلْمِ الأخلاق، لا أساسَ من دونِه.

وٱلنِّيَّةُ من بعدُ هي حارسُ ٱلعمل؛ فكلُّ إنسانٍ يستطيعُ أنْ يُذْعِنَ[1] وأنْ يأبَى، ومن ثَمَّ تكونُ هذه النيةُ ردًّا ومدافعَةً من ناحية، وٱستجابةً ومُطاوَعةً مِنَ ٱلناحيةِ ٱلأخرى؛ فهي على ٱلحقيقةِ متى صلُحَتْ كانَتِ ٱستقلالاً تامًّا لِلإرادة، وكانَتْ مع ذلك ضبطاً لِهذه الإرادةِ على حالٍ واحدةٍ هي التي ينتظمُ بها قانونُ ٱلمبدأ السامي.

ثُمَّ إنَّهُ لا ضابطَ لِصحةِ ٱلعملِ وٱستقامتِهِ إلَّا النيّةُ ٱلصحيحةُ ٱلمستقيمة؛ فٱلتزويرُ وٱلتلبيسُ كِلاهما سهلٌ ميسورٌ في ٱلأعمال، ولكنَّهما مستحيلانِ في ٱلنيَّةِ إذا خَلُصَتْ.

وهي كذلك ضابطٌ لِلفضائلِ تُوجِّهُ ٱلقلوبَ على ٱختلافِها وتَفاوُتِها ٱتجاهاً واحداً لا يختلف؛ فيكونُ طريقُ ما بينَ ٱلإنسانِ وٱلإنسان، من ناحيةِ ٱلطريقِ ما بينَ ٱلإنسانِ وبينَ ٱلله.

وأشواقُ ٱلروحِ بطبيعتِها لا تنتهي، فيُعارضُها ٱلجسمُ بجعلِ حاجاتِهِ غيرَ منتهية؛ يُحاولُ أنْ يَطْمِسَ[2] بهذه على تلك، وأنْ يُغلِّبَ ٱلحيوانيَّةَ على ٱلروحانيَّة، فإذا كانَتِ ٱلنيةُ مستيقظةً كفَّتْهُ وأماتَتْ أكثرَ نزعاتِه، ووضعَتْ لِكُلِّ حاجةٍ حدًّا ونِهاية؛ وبذلك ترجعُ ٱلنيَّةُ إلى أنْ تكونَ قوَّةً في ٱلنفسِ يخرجُ بها الإنسانُ عن كثيرٍ مِمّا يَحُدُّهُ من جِسمِه، لِيخرجَ بذلك عن كثيرٍ مِمَّا يحدُّهُ من معاني ٱلأرض...

وهي بعدَ هذا كلِّهِ تحملُ الإنسانَ أنْ ينظرَ إلى واجبِهِ كأنَّهُ رقيبٌ حيٌّ في قلبِه، لا يُرائيهِ ولا يُجامِلُه، ولا يُخدَعُ من تأويل، ولا يُغَرُّ بفلسفةٍ ولا تزيينٍ، ولا يُسكِتُهُ ما تُسَوِّلُ ٱلنفس[3]، ولا يزالُ دائماً يقولُ لِلإنسانِ في قلبِه: إنَّ ٱلخطأَ أكبرَ الخطأ أنْ تنظِّمَ ٱلحياةَ من حولِك وتتركَ الفَوْضَى في قلبِك.

وجملةُ ٱلقولِ في معاني ٱلنيَّةِ أنها قوةٌ تجعلُ باطنَ ٱلجسم مُتَساوقاً مع ظاهرِه، فتتعاونُ ٱلغرائزُ ٱلمختلفةُ في ٱلنفسِ تعاوُناً سهْلاً طبيعيًّا مطَّرِداً، كما تتعاونُ أعضاءُ ٱلجِسمِ على ٱختلافِها في ٱطِّرادٍ وسهولةٍ وطبيعة.

***

---

(١) يُذعن: يخضع.

(٢) يطمس: يغطي.

(٣) تسوّل النفس: توسوس.

وكلُّ صفاتِ النبيِّ ﷺ ـ مِمَّا ذكرْناهُ وما لم نذكُرْهُ ـ متى ٱعتُبِرتْ بذلك الأصلِ ٱلذي بيَّناهُ ٱنتظَمها جميعاً، فجاءَ بعضُها تماماً على بعضٍ في نَسَقٍ رياضيٍّ عجيب، وظهَرَتْ حِكمةُ كلٍّ منها واضحةً مكشوفة، ورأيْتَها في مجموعِها تَصِفُ لك عُمراً هندسيًّا دقيقاً قد بلغَ ٱلغايةَ مِنَ الكمال وٱلروعةِ وٱلدقة، لا يُعَدُّ جزءٌ منه جزءاً، بلْ كلُّهُ أجزاؤه، وأجزاؤُهُ كلُّه؛ كالوضعِ ٱلهندسيِّ: إمَّا أنْ يكونَ بِكُلِّه، وإمَّا ألَّا تكونَ فيهِ ٱلهندسةُ كلُّها.

وليسَ مجموعُ تلكَ ٱلصفاتِ في معناهُ إلَّا صنعةَ ٱلإنسانِ صنعةً جديدةً تُخرجُه موجوداً من ذاتِ نفسِه، وتكْسِرُ ٱلقالَبَ الأرضِيَّ الذي صُبَّ فيهِ وتُفْرِغُهُ في مثلِ قالَبِ ٱلكَوْن، فإذا هو غيرُ هذا الإنسانِ الضيّقِ ٱلمنحصِرِ في جسمِهِ ودَواعِي جسمِهِ، فلا تُخضعُهُ ٱلمادة، ولا يُؤتى من سُوءِ نظرِهِ لِنفسِه، ولا تَغرُّهُ[1] الدنيا، ولا يُمسكُهُ ٱلزمان؛ إذْ كانَتْ هذه هي صفاتِ ٱلمستعبدِ بأهوائِهِ لا الحُرِّ فيها، وٱلخاضعِ بنفسِهِ لا المستقلِّ بها، وٱلمقبورِ في إنسانيتِهِ لا ٱلحيِّ فوقَ إنسانيتِه؛ ومثلُ هذا المستعبدِ الخاضعِ ٱلمقبورِ لا وجودَ لَهُ إلَّا في حُكْمِ حواسِّه، فعملُهُ ما يعيشُ بهِ لا ما يعيشُ من أجلِه؛ ويتَّصلُ بكلِّ شيءٍ ٱتِّصالاً مبتوراً[2] ينتهي في هوًى من أهواءِ ٱلحيوانِ ٱلذي فيه.

ومنَ ٱلمقابلةِ ٱلعجيبةِ أنْ يكونَ في ٱلإنسانِ ٱلاجتماعيِّ حيوانٌ، تُقابلُهُ ٱلحكمةُ في ٱلحيوانِ ٱلأليفِ بإنسان، وحُكمُها واحدٌ ومنطقُهما لا يختلف. فلو أنَّكَ سألْتَ حيوانَ ٱلأعصابِ عن صاحبهِ الإنسانِ لَقالَ لك: هو غلَّتي ومَزْرعتي. ولو سألْتَ كلباً عن حُبِّهِ صاحبَهُ ومبلغِ هذا الحُبِّ في نفسِهِ لَمَا زادَ في جوابِهِ على أنه يُحبُّهُ حُبَّ ٱللقمةِ والعظْمة..

ومتى كانَ ٱلإنسانُ في حكمِ حواسِّهِ لم تَعُدِ الأشياءُ عندَهُ كما هي في نفسِها بمعانيها الطبيعيةِ ٱلمحدودة، وٱنقلَبَتْ كما هي في وهْمِهِ بمعانٍ متفاوتةٍ مضطربة، فلا يشعرُ المرءُ بِٱئتلافِ الوجودِ وتعاونِهِ، ولكنْ بِٱختلافِهِ وتناقُضِه، فمِنْ ثَمّ لا تكونُ أسبابُ ٱللذةِ إلَّا من أسبابِ ٱلألم، ويدخلُ في كلِّ حُبٍّ بغضٌ، وفي كلِّ رغبةٍ طمعٌ، وفي كلِّ خيرٍ شرٌّ، وفي كلِّ صريحٍ خَبيءٌ، وهلمَّ جرًّا؛ إذْ لا بدَّ من هذا كلِّه متى غَلَبَ ٱلفاني على ٱلباقي، ولا بدَّ من كلِّ هذا في تمثيلِ روايةِ ٱلحواسِّ ٱلخادعةِ

---

(١) تغرّه: تخدعه.
(٢) مبتوراً: مقطوعاً.

التي أساسُها ٱلتغيّرُ وٱلتقلّب، حتى لَكَأنَّ ٱلنفسَ إنَّما تعيشُ بها في ظاهرِ مِنَ ٱلحياةِ لا في ٱلحياةِ نفسِها.

وهذا الخِداعُ جاعِلٌ كلَّ شَيءٍ من أشياءِ النفسِ لا يبدأُ إلَّا لِينتهيَ، ثُمَّ لا ينتهي إلَّا لِيبدأَ؛ فما تزالُ هذه النفسُ طامعةً فيما لا تنالُه، ولا يزالُ من ذلك مصدرٌ لِآلامِها ٱلحِسيَّة؛ ثم إذا هي نالَتْ منَالتَها سَئِمَتْ، فلا يزالُ من ذلك مصدرٌ آخرُ لِآلامِها ٱلمعنويَّة. ولن يجيءَ ٱلصحيحُ من غيرِ ٱلصحيح؛ فالكونُ كلُّهُ ليسَ إلَّا كَذِباً في النفسِ ٱلكاذبةِ بحواسِّها.

ولذا كانَ أخصُّ أوصافِهِ ﷺ راجعاً إلى خروجِهِ من سلطانِ نفسِه، فلا يغضبُ لَها، ولا يُطْلِقُها مِنَ الدنيا فيما تذمُّهُ أو تمدحُهُ، ولا يُحبُّ فيها، ولا يُبغِضُ من أجلِها، ولا يُهاوِنُها، ولا يَستلينُ لها في مأكلٍ ولا ملبس، ولا يأخذُها إلَّا من ناحيةِ ٱلإيمانِ بِٱللَّهِ وٱلإيمانِ بالإنسانيَّة؛ فأفراحُها أحزانُها، وآمالُها أشواقُها، وأملاكُها أعمالُها، وحِسابُها في طبيعتِها، وحوادثُها مِنَ ٱلعقلِ لا مِنَ ٱلحواسّ، وعظَمتُها إثباتُ ذاتِها في غيرِها، لا إثباتُ غيرِها في ذاتِها؛ وغايتُها في ٱلباقي لا ٱلزائل، وفي ٱلخالدِ لا ٱلفاني، وما دامَ ٱلحاضرُ متحرِّكاً فهو طارىءٌ عابرٌ أَوْشَكُ أمورِ الدنيا زوالاً، وٱلعملُ لَهُ على مقدارِهِ في قِلَّةِ لُبْثِهِ[1] وهَوانِ أمرِه، وٱلاهتمامُ أبداً بِمَا وراءَهُ لا بِه.

فأولُ ٱلنفسِ ٱلنيَّةُ العاملةُ لِآخرتِها، وآخرُ النفسِ ما تُؤدّي إليهِ أعمالُ هذه النِّيَّة؛ فليسَ في إنسانِ الدنيا إلا إنسانُ ٱلعالمِ ٱلآخر؛ وبهذا يُقدَّرُ صمتُهُ وكلامُه، وحركتُهُ وسكونُه، وما يأتي وما يَدَع، وما يُحبُّ وما يكرَه، إذْ كلُّ شيءٍ منه على ذلك ٱلاعتبارِ إنَّما هو صورةُ الحقيقةِ العاملةِ فيه.

وجماعُ الأمرِ[2] ألَّا يكونَ مستقبلُ ٱلإنسانِ علامةَ ٱستهزاءٍ بجانبِ ماضيه، ولا علامةَ ٱستفهام، ولا علامةَ إنكار.

* * *

وتدلُّ صفاتُ النبيِّ ﷺ بٱجتماعِها وتَسَاوُقِها[3] على حقيقةٍ عظمى لم يتنبهْ إليها أحد؛ وهي أنَّ جميعَ خصائصِهِ ٱلنفسيَّة مُرْهَقَةٌ[4] متيقِّظة، وهذا ممَّا يَنْدُرُ

(١) لُبثه: مكثه، بقائه.
(٢) جماع الأمر: الخلاصة.
(٣) تساوقها: تجانسها.
(٤) مرهقة: متعبة.

وقوعُهُ وإمكانُه؛ فإنَّ الرجلَ منَ الناسِ ليَكونُ حيًّا بِٱلحياة، ولكنَّ جوانبَ كثيرةً من نفسِهِ قد طاحَ بها ٱلموت، أو هي مريضةٌ وذلك أولُ ٱلموت؛ أو غافلةٌ وذلك شِبْهُ ٱلموت؛ أمَّا الحيُّ ٱلعظيمُ فهو الذي يحيا بأكثرِ خصائصِ نفسِه، وأمَّا ٱلحيُّ ٱلأعظمُ فهوَ ٱلذي يحيا بجميعِ خصائصِها، تملؤُهُ ٱلحياةُ فيملأُ ٱلحياة، ويتمدّدُ السرُّ فيهِ لِيُريَهُ حقائقَ ٱلأشياءِ ويَهْدِيَهُ ويدلَّه، فيكونُ بنفسِهِ رؤيةً لِلناسِ وهِدايةً ودلالة؛ ومثلُ هذا يعظُمُ ثُمَّ يعظمُ حتى لَيُرَى ٱلفرقُ بينَهُ وبينَ غيرِهِ كٱلفرقِ بينَ نورٍ لَبِسَ ٱللحمَ وٱلدم، وبينَ تُرابٍ لَبِسَ ٱلدمَ وٱللحم.

وذلك لا يَكادُ يتَّفقُ إلَّا في مراتبَ أعلاها ٱلامتيازُ في ٱلنبوَّة، ثُمَّ تدنو إلى النبوَّة؛ ثُمَّ تنزِلُ إلى ٱلامتيازِ في ٱلحِكْمة؛ ثم تهبطُ إلى عبقريةِ ٱلشعر. فأكبرُ ٱلشعراءِ قاطبةً كالنبيّ في معناه إلَّا أنَّهُ نبيٌّ صغير، وإلَّا أنَّهُ في حُدودِ قلبِه.

وهذه ٱلقوى ٱلثلاثُ هي ٱلتي أبدعَتْها ٱلحِكمةُ ٱلإلهيةُ لِتحويلِ ٱلحياةِ وٱلسموِّ بها؛ فٱلشاعرُ يستوحي ٱلجمالَ إذا تألّهَ ٱلجمالُ في قلبِهِ، وٱلحكيمُ يستوحي الحقيقة إذا تألَّهَتْ في نفسِه، والنَّبيُّ يستوحي ٱلألوهيَّة نفسَها.

«كان ﷺ متواصلَ ٱلأحزان» ولكنَّها أحزانُ ٱلنبوَّةِ تكسو ٱلحياةَ فرحَ ٱلنفسِ ٱلكبيرة؛ وهو فرحٌ كلُّهُ حزنٌ وتأمُّل، وفكرةٌ وخشوع، وطهْرٌ وفضيلة؛ وما فَرَحُ أعظمِ الشعراءِ بِطَربِ ٱلوجودِ وجمالِ الموجوداتِ إلَّا شيءٌ قليلٌ من حزنِ النَّبيّ.

«وكان دائمَ ٱلفكرةِ ليسَتْ لَهُ راحة» إذْ هو مكلَّفٌ أنْ يصنعَ ٱلإنسانَ ٱلجديدَ ويُنقِّحَ[1] ٱلآدميَّةَ فيه. وفكرةُ النبيِّ هي معيشتُهُ بنفسِهِ مَعَ ٱلحقائِق ٱلعليا، إذ لا يرى أكثرَها تعيشُ في ٱلناس، وهي ٱلفرديةُ وٱستقلالُها وسموُّها؛ لأنَّها إطاقةُ النفسِ ٱلكبيرةِ لِوحدتِها، بخِلافِ الأنفسِ الضعيفةِ التي لا تُطيقُها، فدأبُها أبداً أنْ تبحَثَ عمّا تَسْتعبِدُ لَه، أو تنسَى ذَاتَها فيه، أو تستريحُ إليهِ من ذاتِها. ومتى كانَتِ ٱلنفسُ فارغةً كانَ تفكيرُها مضاعفةً لِفراغِها، فهي تفرُّ منهُ إلى ما يُلهيها عنه؛ ولكنَّ ٱلعظيمَ يعيشُ في ٱمتلاءِ نفسِه؛ وعالَمُهُ ٱلداخليُّ تُسمِّيهِ ٱللغةُ أحياناً: الفكرة؛ وتُسميهِ أحياناً: الصمت.

«وكانَ ﷺ طويلَ السَّكْتِ لا يتكلَّمُ في غيرِ حاجة»، ومنَ ٱلصمتِ أنواع:

---

(١) ينقح: يميّز بين الجيّد والرديء.

فنَوعٌ يكونُ طريقةً من طرقِ ٱلفهْمِ بينَ ٱلمرءِ وبينَ أسرارِ ما يُحيطُ بِه؛ ونوعٌ يغشى ٱلإنسانَ العظيمَ لِيكونَ علامةً على رهبةِ ٱلسرِّ ٱلذي في نفسِهِ ٱلعظيمة؛ ونوعٌ ثالثٌ يكونُ في صاحبِهِ طريقةً من طُرُقِ ٱلحُكْمِ على صَمْتِ ٱلناسِ وكلامِهم؛ ونوعٌ رابعٌ هو كالفصل بينَ أعمالِ الجسدِ وبينَ ٱلروحِ في ساعةِ أعمالِها؛ ونوعٌ خامسٌ يكونُ صمتاً على دوِيٍّ تحتهُ يُشبِهُ نوماً ساكناً على أحلامٍ جميلةٍ تتحرك.

* * *

على هذا ٱلنَمَط يجب أنْ تُفسَّرَ كلُّ أوصافِهِ ﷺ؛ فهي بمجموعِها طابَعٌ إلهيٌّ على حياتِهِ الشريفة، يُثبتُ لِلدنيا بكلِّ برهاناتِ ٱلعِلْمِ وٱلفلسفةِ أنَّهُ ٱلإنسانُ ٱلأفضل، وأنَّهُ ٱلأقدر، وأنَّهُ ٱلأقوى.

سُمُوُّ الفقرِ
في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم

١

كانَ ٱلنبيُّ ﷺ على ما يصفُ ٱلتاريخُ مِنَ ٱلفقرِ وٱلقِلَّة، ولكنَّهُ كانَ بطبيعتِهِ فوقَ ٱلاستغناء، فهو فقيرٌ لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بالفقر، ولا تنالُهُ ٱلمعاني ٱلنفسيَّةُ التي تعلو بعَرَضٍ مِنَ ٱلدنيا وتنزلُ بعَرَض، فما كانَتْ بِهِ خَلَّةٌ تُحْدِثُ هَدْماً في ٱلحياةِ فيُرَمِّمُها ٱلمال[1]، ولا كانَ يتحرَّكُ في سَعْيٍ يُنْفِقُ فيهِ من نفسِهِ ٱلكبيرةِ لِيجمعَ مِنَ الدنيا، ولا كانَ يتقلَّبُ بينَ ٱلبعيدِ وٱلقريبِ من طمَعٍ أدركَ أو طمعٍ أخفق، ولا نظرَ لنفسِه في ٱلحِسْبَةِ وٱلتدبيرِ ليتدبَّرَ معيشَتَهُ فيَحْتلبَها[2] ذهباً أو فِضةً، ولا ٱستقرَّ في قلبِهِ ٱلعظيم ما يجعلُ لِلدينارِ معنى ٱلدينار ولا لِلدِّرهم معنى ٱلدرهم؛ فإنَّ ٱلمعنى ٱلحيَّ لِهذا المالِ هو إظهارُ ٱلنفسِ رابيةً متجسِّمةً في صورةٍ تكْبَرُ في قدرٍ مِنَ ٱلسَّعَةِ والغِنى؛ وٱلمعنى ٱلحيُّ لِلفقرِ مِنَ ٱلمالِ هو إبرازُ ٱلنفسِ ضئيلةً منْزَويةً في صورةٍ تصغُرُ على قدرٍ مِنَ ٱلضِّيقِ وٱلعُسْرَة.

إنَّ فقرَهُ ﷺ كانَ من أنَّهُ يتَّسعُ في ٱلكونِ لا في ٱلمال، فهو فقرٌ يُعَدُّ من معجزاتِهِ ٱلكبرى ٱلتي لم يتنبَّهْ إليها أحدٌ إلى الآن، وهو خاصٌّ بِهِ ومن أينَ تدبَّرْتَهُ رأيتَهُ في حقيقتِهِ معجزةً تواضَعَتْ وغيَّرَتْ ٱسمَها؛ معجزةً فيها ٱلحقائقُ ٱلنفسيَّةُ وٱلاجتماعيةُ ٱلكبرى، وقد سبقَتْ زمنَها بأربعةَ عَشرَ قرناً، وهي ٱليومَ تُثبتُ بالبرهانِ معنى قولِهِ ﷺ في صفةِ نفسِه: «إنَّما أنا رَحْمَةٌ مُهْدَاة».

نحن في عصرٍ تَكادُ ٱلفضيلةُ ٱلإنسانيَّةُ فيهِ تَلْحَقُ بٱلألفاظِ ٱلتاريخيةِ ٱلتي تدلُّ على ما كانَ قديماً. . . بل عادَتْ كلمةً من كلماتِ ٱلشعرِ تُرادُ لِتحريكِ ٱلنَّسيمِ

---

(١) يرمّمها المال: يصلحها.

(٢) يحتلبها: يستخرج منها.

ٱللّغويّ ٱلراكدِ في ٱلخيال، كما تقول: ٱلسحابُ ٱلأزرق، وٱلفجرُ ٱلأبيض، وٱلشفَقُ ٱلأحمر، وٱلتّطاريفُ[1] ٱلورديةُ على ذَيْلِ ٱلشمس. وأصبحَ ٱلناسُ ينظرُ أكثرُهم إلى أكثرِهِم بأعينٍ فيها معنًى وحشيٌّ لو لَمسَ لَضرَبَ أو طَعَنَ أو ذَبَح.

وعَمِلَتِ ٱلمدنيّةُ أعمالَها فلمْ تزدْ على أنْ أخرجَتِ ٱلشكلَ ٱلشعريَّ لإنسانِها الفَنّيِّ مُتَهافِتاً[2] تَرَفاً، ونِعْمةً، وٱفتتاناً بينَ ذلك من أيسرِ ٱلحلالِ إلى الفظيعِ المُتَفَاحِشِ في ٱلإباحة؛ فكأنّما وضَعتِ ٱلمدنيةُ عقلاً في وحش، فجاءَ وقد زاغتْ[3] فيهِ ٱلطبيعةُ من ناحيتينِ؛ ثم قابلتْهُ بالشكلِ الوحشيِّ لإنسانِها الفقيرِ، فكأنّما نَزَعَتْ عقلاً من إنسان، فجاءَ وقد ضَلَّتْ فيهِ ٱلطبيعةُ من ناحيتين؛ وكانَ معَ ٱلأولِ سَرَفُ ٱلهوى بالطبيعة، وكانَ معَ ٱلثاني بالطبيعةِ سَرَفُ ٱلحماقة.

وقد أصبحَ من تهكُّمِ ٱلحياةِ بأهلِها أنْ يكونَ ٱلفقيرُ فقيراً وهو يعلمُ أنَّ صِناعتَهُ في ٱلمدنيّةِ عَمَلُ ٱلغَنِيّ لِلأغنياء... وأنْ يكونَ الغنيُّ غنيّاً وهو يعلمُ أنَّ عملَهُ في ٱلمدنيةِ هو صنعةُ ٱلفقرِ لِضميره!

وخرجَتْ من هذا وذاك مسائلُ جديدةٌ في فلسفةِ ٱلمُعَايَشَةِ ٱلإنسانيَّةِ ٱلتي يسمونَها «الاجتماع»؛ إلى أسئلةٍ كثيرةٍ لوذهبْنا نعدُّها ونصِفُها لَطَالَ بِنا ٱلقول، وكلّها عاملةٌ على نزعِ ٱلشعورِ ٱلعقليِّ مِنَ ٱلحياةِ لِتظهرَ أسخفَ مِمَّا هي، وأقبحَ مِمَّنْ كانت؛ حتى أصبحَتِ ٱلشمسُ تَطْلُعُ تمحو ليلاً عنِ ٱلمادةِ وتُلقِي ليلاً على النفس، في حينِ أنَّ ٱلدينَ وٱلإنسانيةَ لا يعملانِ غيرَ بثِّ هذا ٱلنورِ ٱلعقليِّ في الأشياءِ وٱلمعاني لِتظهرَ ٱلحياةُ مضيئةً ملْتَمِعةً، فتُصبحُ أوضحَ مِمَّا هي في نفسِهَا، وأجمل مِمَّا هي في الطبيعة.

في مثلِ هذه ٱلنزَعاتِ ٱلمتقاتِلَةِ ٱلتي صَعِدَتْ بِٱلفلسفةِ ونزلَتْ، وجعلَتْ مِنَ ٱلعِلْمِ في صدرِ ٱلإنسانيَّةِ ملْءَ سماءٍ مِنَ الغُيوم بِسوادِها ورعْدِها وصواعِقِها، وتركَتِ ٱلعالَمَ يضجُّ ضجيجهُ ٱلمزعجَ في قلْبِ كلِّ حيٍّ حتى لَتُذَاعُ ٱلهمومُ إلى قلوبِ الناس إذاعةَ ٱلأصواتِ إلى أسماعِهِم في «الراديو»... في مثلِ هذا البلاءِ ٱلماحقِ تتلفَّتُ ٱلإنسانيَّةُ إلى التاريخ تسألُهُ درساً منَ ٱلكمالِ ٱلإنسانيِّ ٱلقديم تَطِبُّ منه لهذه ٱلحماقاتِ ٱلجديدة، ولَو علمَتْ لَعَلِمَتْ أنَّ درسَ هذا العصرِ في عِلاجِ مشاكلِهِ

---

(١) التطاريف: الإشعاعات.

(٢) متهافتاً: متسارعاً متهالكاً.

(٣) زاغت: مالت انحرفت.

الإنسانيَّةِ هو «محمد» ﷺ، الذي لن يبلغَ أحدٌ في وصفِهِ ٱلاجتماعيِّ ما بلغَ هو في قولِه: «إنّما أنا رحمةٌ مُهْدَاة».

* * *

هذا ٱلمُصْلِحُ ٱلاجتماعيُّ ٱلأعظمُ يُلقِي فقرةُ ٱلْيومَ درساً على ٱلدنيا ٱلعلميَّةِ ٱلفلسفيَّة، لا من كتابٍ ولا فكر، ولكنْ بأخلاقِهِ وعملِهِ وسيرتهِ؛ إذْ ليسَ ٱلمصلحُ منْ فكَّرَ وكتب، ووعَظَ وخطب، ولكنَّهُ ٱلحيُّ ٱلْعظيمُ ٱلذي تلتمسُهُ ٱلفكرةُ ٱلْعظيمةُ لِتحيا فيهِ، وتجعلَ لَهُ عُمراً ذِهْنيًّا مُصرَّفاً على حكمِها، فيكونُ تاريخُهُ ووصفُهُ هو وصفَ هذه الفكرةِ وتاريخَها.

وما كانَ محمدٌ ﷺ إلّا عمراً ذهنيًّا مَحْضاً، تمرُّ فيهِ ٱلمعاني ٱلإلهيةُ لِتظهرَ لِلناسِ إلهيَّةً مفسَّرة. وكلُّ حياتِهِ ﷺ دروسٌ مفنَّنَةٌ مختلفةُ ٱلمعاني، ولكنّها في جملتِها تُخاطبُ ٱلإنسانَ على ٱلدَّهرِ بهذِهِ ٱلجملة: أيُّها الحيُّ، إذا كانتِ ٱلحياةُ هنا فلا تكُنْ أنت هناك: أي إذا كانَتِ ٱلحياةُ في الحقيقةِ فلا تكُنْ أنت في ٱلكَذبِ، وإذا كانَتِ ٱلحياةُ في الرجولةِ البصيرةِ فلا تكُنْ في ٱلطفولةِ النَّزِقة[1]، فإنَّ الرجلَ يَعرِفُ ويُدْرك، فهو بذلك وراءَ ٱلحقيقيّ؛ ولكنَّ ٱلطفلَ يجهلُ ولا يعرفُ ٱلدنيا إلّا بعينيه، فهو وراءَ ٱلوهم، ومن ثَمَّ طيشُهُ ونَزَقُهُ، وإيثارُهُ كلَّ عاجلٍ وإنْ قَلّ، وعملُهُ أنْ تكونَ حياتُهُ ٱلنفسيَّةُ ٱلضئيلةُ في مثلِ توثُّبِ أعضاءِ جسمِه، حتى كأنَّه أبداً يلعبُ بظاهرِهِ وباطنِهِ معاً...

أيُّها الحيّ، إذا كانَتِ ٱلحياةُ هنا فلا تكُنْ أنت هناك: أي ٱلحياةُ في ذاتِك الداخليَّةِ وقانونِ كمالِها، فإذا ٱستطعْتَ أنْ تُخْرجَ لِلأرضِ معنًى سماويًّا من ذاتِك فهذا هوَ ٱلجديدُ دائماً في ٱلإنسانية، وأنت بذلك عائشٌ في القريبِ ٱلقريبِ مِنَ الروح، وأنت بهِ شيءٌ إلهي؛ وإذا لم تستطعْ وعشْتَ في دَمِك وأعصابِكَ فهذا هو ٱلقديمُ دائماً في ٱلحيوانيَّة، وأنت بذلك عائشٌ في ٱلبعيدِ ٱلبعيدِ مِنَ النفس، وأنت به شيءٌ أرضيٌّ كالحجَرِ وٱلتراب.

هنا: أي في ٱلإرادةِ ٱلتي فيك وحدَك. ولا هناك: أي في ٱلخيالِ ٱلذي هو في كلِّ شيء. وهنا، في أخلاقِك وفضائِلكَ ٱلتي لا تَدفعُك إلى طريقٍ من طُرُقِ ٱلحياةِ إلّا إذا كانَ هو بعينِه طريقاً من طُرُقِ ٱلهِدايةِ وٱلحِكْمة؛ وليسَ هناك، في أموالِكَ ومَعَايِشِك

---

(١) النزقة: الطائشة المنحرفة.

ٱلتي تجعلُكَ كاللصِّ مندفِعاً إلى كلِّ طريقٍ متى كانَ هو بعينِهِ طريقاً إلى نَهْبَةٍ أو سرقة. هنا، في الروح، إذْ تشعرُ ٱلروحُ أنَّها موجودةٌ، ثم تعملُ لِتُثْبِتَ أنَّها شاعرةٌ بوجودِها، ماضيةٌ إلى مصيرِها، منتهيةٌ بجسدِها إلى الموتِ الإنسانيِّ على سُنَّةِ النفسِ الخالدةِ؛ وليسَ هناك في ٱلحِسّ، إذْ يتعلقُ ٱلحسُّ بما يتقلَّبُ على الجسم، فهو مهتاجٌ لِشعورِهِ بوَشْكِ فنائِهِ فلا يُحْدِثُ إلَّا الألَمَ إنْ نالَ أو لم ينلْ، وهو منتهٍ بجسمِهِ إلى ٱلموتِ ٱلحيوانيِّ بينَ آكلٍ ومأكولٍ على سُنَّةِ الطبيعةِ الفانية.

أيُها ٱلحيُّ، إذا كانَتِ ٱلحياةُ هنا فلا تكُنْ أنت هناك.

* * *

إنَّ ٱلحكيمَ ٱلذي ينظرُ إلى ما وراء ٱلأشياءِ فيتعرَّفُ أسرارَها، لا تكونُ لَهُ حياةُ ٱلذي يتعلّقُ بظاهرِها ولا أخلاقُهُ ولا نظرتُه؛ هذا ٱلأخيرُ هو في نفسِهِ شيءٌ مِنَ ٱلأشياءِ له مظهرُ ٱلمادةِ وخِداعُها عنِ ٱلحقيقة؛ وذلك الأولُ هو نفسُهُ سرٌّ مِنَ ٱلأسرارِ له رَوْعَةُ السرِّ وكشفُهُ عنِ ٱلحقيقة. ولِهذا كانَ في حياةِ ٱلأنبياءِ وٱلحكماءِ ما لا يُطيقُهُ ٱلناسُ ولا يَضْبِطونَهُ إذا تكلَّفوه، بلْ يَنْخَرِقُ عليهم فيكونُ منهُ ٱلعجزُ والغَلَط، ويحدثُ منَ ٱلغلطِ الزَّلَل.

ونظرةُ نبيِّنا ﷺ إلى هذا الوجودِ نظرةٌ شاملةٌ مدركةٌ لِحقيقةِ ٱللانهاية، فيرى بِدايةَ كلِّ شيءٍ ماديٍّ هي نِهايَتَهُ في ٱلتوِّ وٱللحظة، فلا وجودَ لَهُ إلا عارضاً مارًّا، فهو في ٱعتبارِهِ موجودٌ غيرُ موجود، مبتدئٌ مُنْتَهٍ معاً؛ وبذلك تَبطُلُ عندَهُ ٱلأشياءُ ٱلماديةُ وتأثيرُها، فلا تتصلُ بنفسِهِ ٱلعاليةِ إلَّا من أضعفِ جِهاتِها، ويجدُ لها الناسُ في حياتِهِمُ ٱلشجرةَ والفرْعَ وٱلثمرة، وما لَهَا عندَهُ هو جِذْرٌ ولا فرع؛ وبهذا لم يَفْتِنْهُ شيءٌ ولم يتعلقْ بِهِ شيء.

وكانَتِ ٱلدنيا تطولُ ٱلناسَ وتتقاصرُ عنه، وكانَتْ منقطعةَ النَّماءِ وهو ذاهبٌ في نموِّهِ ٱلروحيّ، وكأَنَّما هو صورةٌ أخرى من آدمَ (عليه السلام)؛ فكلاهما لَمَسَ بنفسِهِ ٱلحياةَ جديدةً خاليةً مِمَّا جمعَ فيها الزمنُ وأهلُهُ من طمعٍ وشَرَه، وجاءَ آدمُ لِيُعطِيَ ٱلأرضَ ناسَها من صُلْبِه، وجاءَ محمدٌ لِيُعطِيَ ٱلناسَ قوانِينَهُم من فضائِله؛ فآدمُ بشخصِهِ هو دنيا بُعِثَتْ لِتتسع، ومحمدٌ بشخصِهِ هو دنيا بُعثتْ لِتنتظِم.

وماذا يُفهَمُ مِنَ ٱلفلسفةِ ٱلأخلاقيَّةِ ٱلنبويّةِ ٱلعظيمة؟ يُفهمُ منها أنَّ ٱلشهواتِ خُلِقَتْ مع ٱلإنسانِ تتحكمُ فيه، لِينقلبَ بها إنساناً يتحكَّمُ فيها؛ وأنَّ الإنسانَ

ٱلصحيحَ ٱلذي لم تُزَوِّرْهُ ٱلدنيا يجبُ أنْ يكونَ ذا روح يمتدُّ فيَفيضُ عن غاياتِ جسمِهِ إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يُصبحَ في حكمِ ٱلنورِ وٱنطلاقِهِ وحريتِه، ولا ينكمشُ فيحصرُهُ جسمُهُ في غاياتِهِ وضروراتِهِ فيرتدُّ إلى ما هو أسفلَ أسفلَ حتى يعودَ في حكم ٱلترابِ وأسرِهِ وعبوديتِه. فالفقرُ وما إليه، والزهدُ وما هو بسبيلٍ منه، وٱلانصرافُ عَنِ ٱلشهواتِ وٱلرذائل ـ كلُّ ذلك إنْ هو إلَّا تَراجُعُ ٱلنفسِ ٱلعاليةِ إلى ذاتها النورانيةِ حالاً بعدَ حال، وشيئاً بعدَ شيء، لِتُضيءَ على ٱلمادةِ فتكشفَ حقائقَها الصريحةَ فلا تُباليها ولا تُقيمُ لها وزناً. فبينما الناسُ يَروْنَ ٱلأموالَ وٱلشهواتِ مادةَ حياةٍ وعملٍ وشعور، تراها هي مادةَ بحْثٍ ومعرفةٍ وٱعتبارٍ ليسَ غير؛ وبهذا تكونُ النفسُ ٱلعظيمةُ في الدنيا كأستاذِ ٱلمعمل: تدخلُ المادةُ إلى معملِهِ وهي مادةٌ وفكرة، وتخرجُ منه وهي حقيقةٌ ومعرفة، وعلى أيّ أحوالِها فهي إنَّما تُحَسُّ في ذلك ٱلمعملِ بأصابعَ علميَّةٍ دقيقةٍ ليسَ فيها ٱلجمعُ ولا ٱلحِرْص، ولكنْ فيها ٱلذهنُ وٱلفكر؛ وليسَ لها طبيعةُ ٱلرغبةِ وٱلغفلة، ولكنْ طبيعةُ ٱلانتباهِ وٱلتحَرُّز، وليسَتْ في أسْرِ ٱلمادة، ولكنَّ ٱلمادةَ في أسرِها ما شاءَت.

ولا يسمَّى فقرُهُ ﷺ زُهداً كما يظنُّ الضعفاءُ مِمَنْ يتعلَّقونَ على ظاهرِ التاريخِ ولا يُحققونَ أصولَهُ ٱلنفسيَّة؛ وأكثرُهم يقرأُ ٱلتاريخَ ٱلنبويَّ بأرواحٍ مظلمةٍ تُريهم ما ترى العينُ إذا ما ٱختلطَ الظلامُ ولَبِسَ ٱلأشياءَ فتراءَتْ مُجْمَلَةً لا تفصيلَ لها، مُفْرَغةً لا تَبْيِينَ فيها؛ وما بها من ذلك شيءٌ، غيرَ أنَّها تتراءى في بقيةٍ مِنَ ٱلبصرِ لا تَغْمرُها.

وهلِ ٱلزهدُ إلَّا أنْ تطردَ ٱلجسمَ عنكَ وهو معَك، وتنصرفَ عنهُ وهو بكَ متعلق؟ فتلك سُخْريةٌ ومُثْلَة، وفي رأيي تشويهٌ لِلجسمِ بروحِه، وقد تنعكسُ فتكونُ من تشويهِ ٱلروح بجسمِها؛ فليسَ يعلمُ إلَّا اللَّهُ وحدَه: أذاك تفسيرٌ لإنسانيةِ ٱلزاهدِ بٱلنور، أم هو تفسيرٌ بٱلتراب...

ولقدْ كانَ ﷺ يملكُ ٱلمالَ ويَجدُهُ، وكانَ أجوَدَ بِهِ مِنَ ٱلريحِ ٱلمرسَلَة، ولكنَّه لا يدعُهُ يتناسلُ[1] عندَهُ، ولا يتركُهُ يَنْبُتُ في عملِه، وإنَّما كانَ عملُهُ ترجمةً لإحساسِهِ ٱلروحيّ؛ فهو رسولٌ تعليميّ، قلبُهُ ٱلعظيمُ في القوانينِ ٱلكثيرةِ من واجباتِه، وهو يُريدُ إثباتَ وحدةِ ٱلإنسانيَّة، وأنَّ هذا ٱلإنسانَ مَعَ ٱلمادةِ ٱلصامتةِ

---

(١) يتناسل: يتكاثر.

ٱلعمياءِ مادةٌ مفكّرةٌ مميِّزة، وأنَّ الدينَ قوةٌ روحيَّةٌ يلقى بها المؤمنُ أحوالَ ٱلحياةِ فلا يثبتُ بإزائِها شيءٌ على شيئيَّتِه، إذِ الروحُ خلودٌ وبقاء، وٱلمادةُ فناءٌ وتحوُّل، ومن ثَمَّ تخضعُ ٱلحوادثُ لِلروحِ ٱلمؤمنةِ وتتغيرُ معها، فإنْ لم تخضَعْ لم تُخْضِعْها، وإن لم تتغيرِ ٱلروحُ بها؛ وأساسُ ٱلإيمانِ أنَّ ما ينتهي لا ينبغي أنْ يتصرَّفَ بما لا ينتهي.

ما قيمةُ ٱلعقيدةِ إلَّا بصدقِها في ٱلحياة، وأكثرُ ما يصنعُ هذا المالُ: إما ٱلكذبَ ٱلصُّرَاحَ في ٱلحياة، وإما شُبهةَ ٱلكذِب؛ ولهذا تنزّهَ ٱلنبيُّ ﷺ عنِ ٱلتعلقِ بهِ، وزادَهُ بُعْداً منه أنَّهُ نبيُّ ٱلإنسانيَّةِ ومثَلُها الأعلى، فحياتُهُ ٱلشريفةُ ليسَتْ كما نَرى في ٱلناس: إيجاداً لِحلِّ مسائلِ الفردِ وتعقيداً لِمسائلِ غيرِه، ولا توسُّعاً من ناحيةٍ وتضييقاً مِنَ ٱلناحيةِ ٱلأخرى، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك؛ بلْ كانَتْ حياتُهُ بعدَ ٱلرسالةِ منصرفةً إلى إقرارِ التوازنِ في ٱلإنسانيةِ، وتعليمِ ٱلجميعِ على تفاوتِهِم وٱختلافِ مراتبِهم كيف يكونُ لهم عقلٌ واحدٌ مِنَ ٱلكون؛ وبهذا العقلِ الكونيِّ ٱلسليمِ ترى ٱلمؤمنَ إذا عَرَضَ لَهُ الشيءُ مِنَ الدنيا يفْتِنُهُ أو يَصْرِفُهُ عن واجبِهِ ٱلإنسانيِّ ـ أبتْ نفسُهُ ٱلعظيمةُ إلَّا أنْ ترتفعَ بطبيعتِها، فإذا هو في قانونِ ٱلسموّ، وإذا ٱلمادةُ في قانونِ ٱلثقل؛ فيرتفعُ وتَتَهَاوَى[1] ويُصبحُ الذهبُ ـ وإنَّهُ ذهبٌ ـ وليسَ فيهِ عندَ ٱلمؤمنِ إلَّا روحُ ٱلتراب.

---

(١) تتهاوى: تسقط وترسب.

سموُ الفقرِ
في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم

٢

قالَتْ عائشةُ (رضيَ ٱللَّهُ عنها): لم يمتلىءْ جوفُ النبيِّ ﷺ شِبَعاً قطّ، وإنَّهُ كانَ في أهلِهِ لا يسألُهم طعاماً ولا يتشهَّاه؛ إنْ أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سقَوْهُ شَرِب.

وقالت: ما شبعَ آلُ محمدٍ من خبزِ الشعيرِ يومينِ متتابعينِ حتى قُبِضَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ.

وعنها: كنَّا آلَ محمدٍ نمكثُ شهراً ما نَسْتَوْقِدُ بنار، إنْ هو إلَّا ٱلتمرُ وٱلماء.

وقالَتْ: ما رَفعَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ قَطُّ غداءً لِعَشاء، ولا عَشاءً لِغداءٍ ولا ٱتَّخذَ من شيءٍ زَوجين؛ لا قميصين، ولا رِداءين، ولا إزارين، ولا زوجينِ مِنَ ٱلنعال.

ويُروى عنها، قالَت: تُوفيَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ وليس عندي شيءٌ يأكلُهُ ذو كَبِد، إلَّا شطرُ شعيرٍ في رَفٍّ لي.

وقالَتْ: توفيَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ ودِرْعُهُ مرهونةٌ عندَ يهوديٍّ في ثلاثينَ صاعاً من شعير.

وعنِ ٱبنِ عباس: كانَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ يَبيتُ ٱلليالِيَ ٱلمتتابعةَ وأهلَهُ طاوياً[1] لا يجدونَ عشاءً، وإنَّما كانَ خبزُهُم ٱلشعير.

وعنِ ٱلحسن، قال: خطَبَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ فقال: «واللَّهِ ما أمسَى في آلِ محمدٍ صاعٌ من طعام، وإنَّها لتِسعةُ أبيات!» واللَّهِ ما قالَها ٱستقلالاً، ولكنْ أرادَ أنْ تتأسَّى بِهِ أمتُه.

---

(١) طاوياً: جائعاً لم يأكل شيئاً.

وعنِ ٱبنِ مجير قال: أصابَ ٱلنبيَّ ﷺ جُوعٌ يوماً، فعمدَ[1] إلى حجرٍ فوضَعَهُ على بطنِه، ثم قال: «ألا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا، جائعةٌ عاريةٌ يومَ القِيامة؛ ألا ربَّ مُكْرِمٍ نفسَهُ وهو مُهينٌ لها؛ ألا ربَّ مُهينٍ نفسَهُ وهو مكْرِمٌ لها».

وخُيِّرَ ﷺ أنْ يكونَ لَهُ مثلُ «أحُدٍ» ذهباً فقال: «لا يا ربِّ؛ أجوعُ يوماً فأدعوك، وأشبَعُ يوماً فأحمدُك»!.

وكانَ يقولُ في دعائِهِ ويُكْثِرُ منه: «اللهمَّ أحْيِني مِسْكيناً، وأمِتْني مِسكيناً، وٱحشُرْنِي في زُمرةِ[2] المساكين».

* * *

هذا هو سيّدُ ٱلأمة، يُمسِكُهُ في ٱلحياةِ نبيًّا عظيماً ما يُخْرِجُ غيرَه منها ذليلاً محتقَراً، وكأنَّما أشرقَ صفاءُ نفسِهِ على ترابِ ٱلأرضِ فردّهُ أشعةَ نور، على حينِ يُلقي الناسُ على هذا الترابِ من ظلامِ أنفسِهم فلا يَبْقى تراباً بل يرجعُ ظلاماً، فكأنَّهم إذْ يمشونَ عليهِ يَطَؤونَ المجهولَ بخَوْفِهِ ورَوْعتِه؛ ثم لا يستقرُّ ظلاماً بل يرجعُ آلاماً، فكأنَّهم يَنْبُتونَ على ٱلمرضِ لا على ٱلحياة؛ ثم لا يثبتُ آلاماً بل يتحوَّلُ فَوْرةً وتوثُّباً تكونُ منه نَزَواتُ[3] ٱلحمقِ وٱلجنونِ في النفس.

هؤلاء الذين تعيشُ أنفسُهم في ٱلتراب، ويتمرَّغون بأخلاقِهم فيه، ينقلبون على ٱلحياةِ من صنعِ ٱلترابِ ناساً دُوداً كطبعِ الدُّودِ لا يقعُ في شيءٍ إلَّا أفسدَهُ أو قذَّره؛ أو قوماً سُوساً كطبعِ السُّوسِ لا ينالُ شيئاً إلَّا نَخَرَهُ أو عابَه، فهم يُوقِعُونَ الخَلَلَ في نِظامِ أنفسِهم، فإذا هي طائشةٌ تُخيِّلُ لهم كأنما ٱختلَّتْ نواميسُ الدنيا، وكأنَّ اللَّهَ قَبضَهم وبسطَ غيرَهم، وشَغَلَهم وفَرَّغَ مَنْ عداهم، وٱبتلاهم على مُسْكةِ الرزقِ[4] بٱلشهوةِ ٱلمسعورةِ[5] ٱلتي لا تتحققُ، فضرَبَهم بالمجاهَدةِ التي لا تنقطع؛ وأنعَمَ على غيرِهِم في بَسْطَةِ ٱلرزق بالشجرةِ المسحورةِ ٱلتي لا تُقطَعُ منها ثمرةٌ إلَّا نبتَ غيرُها في مكانِها.

إنَّ ما وصفناهُ من فقرِ النبيّ ﷺ، وأنَّهُ لم يكنْ لَهُ عتيدٌ حاضرٌ، وأنَّهُ لم يجعلْ نفسَهُ في همِّ ٱلمال، ولا جعلَتْهُ نفسُهُ في همِّ ٱلفقر، وأنَّهُ لَقِيَ ٱلحياةَ حاملاً لا

---

(١) عمد إلى حجر: أتى بحجر.
(٢) زمرة: جماعة.
(٣) نزوات: رغبات.
(٤) مُسكة الرزق: ضيق العيش.
(٥) الشهوة المسعورة: الجامحة.

محمولاً، وٱستقرَّ فيها هادئاً لا مضطرباً ـ كلُّ ذلك إنما يُثبتُ لِلدنيا أنّهُ خُلِقَ وبُعِثَ وعاشَ لِيكونَ درساً عمليًا في حلِّ ٱلمشكلاتِ ٱلاجتماعية، يُعلِّمُ الناسَ أنَّها لا تتعقَّدُ بطبيعتِها، ولكنْ بطبائِعهم فيها، ولا تستمرُّ بقوَّتِها، ولكنْ بإمدادِ قواهم لها؛ ولا تَغْلِبُ بصَوْلتِها[1]، ولكنْ بجزعِهم[2] منها؛ ولا تُعْضِلُ[3] من ذاتِ نفسِها، ولكنْ من سوءِ أثرِهم عليها وسوءِ نظرِهم لِأنفسِهم ولها.

فإذا قرأْتَ ٱلأحاديثَ ٱلتي أسلفْناها فلا تقرأْها زُهْداً وتقلّلاً، ولا فقراً وجُوعاً، ولا ٱختلالاً وحاجة، كما تُترجِمُها نفسُك أو تُحِسُّها ضرُورتُك؛ بلِ ٱنظرْ فيها وٱعتبرْها بنفسِه هو ﷺ، ثم ٱقرأْها شريعةً ٱجتماعيَّةً مُفصَّلةً على طبيعةِ ٱلنفس، قائمةً على أنْ تأخذَ نفسُ ٱلإنسانِ من قُوَى الدنيا عناصرَها ٱلحيَّة، لِتُعطِيَ الحياةَ من ذلك قوَّةَ عناصرِها.

وٱلحياةُ ٱلعاملةُ غيرُ ٱلحياةِ ٱلوادعة، هما ذكرٌ وأنثى؛ فأمَّا الأولى فهي ما وصَفْنا وحكيْنا، وأمَّا الثانيةُ فهي تغَلّلُ ٱلنعمة، وإطلاقُ قانونِ ٱلتناسلِ في ٱلمالِ يُنمّي بعضُهُ بعضاً، ويَنْبُتُ بعضُهُ على بعض، ثُمَّ إقامةُ ٱلحياةِ على الزينةِ ومُقَوِّماتِها، وقيامُ ٱلزينةِ على ٱلخِداعِ وطِباعِه، فيُقْبِلُ ٱلمرءُ من دنياهُ على ما هو جديرٌ أنْ يصرِفَهُ عنها، ويُحِبُّ منها ما كانَ ينبغي أنْ يباغِضَهُ فيها. وكلُّ ما رأيْتَ وعلمْتَ في رجلٍ، قُوَّتُه ٱلقوةُ فهو هناك؛ وكلُّ ما علمْتَ ورأيْتَ في أنثى، قوتُها الضعفُ فهو هنا.

فالسوادُ الذي تراهُ في فقرِهِ ﷺ هو ٱلسوادُ ٱلحيُّ؛ سوادُ الليلِ حولَ الروحِ النَّجْميّة ٱلساطعة؛ وذلك الترابُ هوَ ٱلترابُ الحيّ؛ ترابُ ٱلزرعِ تحتَ ٱلنضرَةِ وٱلخُضرَة؛ وتلك ٱلحاجةُ ٱلجسميَّةُ هي ٱلحاجةُ ٱلحيّةُ الدافعةُ إلى حريَّةِ النفس؛ وذلك ٱلإقلالُ من فَهْمِ ٱللذةِ هوَ ٱلإقلالُ الحيُّ الذي يزيدُ قوةَ فهْمِ ٱلجمالِ في ٱلسماءِ وٱلأرضِ وما بينهما، وذلك ٱلضيقُ في حَيِّزِ[4] المَتاعِ لِلحاسَّةِ هو ٱلضيقُ ٱلحيُّ الذي يُوَسِّعُ حَيِّزَ المتاعِ لِلروح. وبالجملةِ فذلك النقصُ مِنَ المادةِ لم يكنْ إلّا لِنفي النقصِ عنِ ٱلفضيلة، وذلك ٱلاحتقارُ لِلعَرَضِ الفاني الزائلِ هو ٱلمعنى الآخرُ لِتقديسِ ٱلخالدِ الباقي.

---

(1) الصولة: الغلبة.
(2) بجزعهم: بخوفهم.
(3) تعضل: تشتدّ وتقوى.
(4) حيّز: ملك.

فليسَ هناك خُبزُ الشعير، ولا الجوعُ، ولا رهنُ الدرعِ عندَ ٱليهوديّ. كلا، كلا، بل هناك حقيقةٌ نفسيةٌ عقليّة، ثابتةٌ متّزنة، قائمةٌ بعناصرِها السامية: مِنَ اليقينِ وٱلعقلِ وٱلحِكمة، إلى ٱلرفقِ وٱلحِلْم وٱلتواضع، تُخبرُ هذه الدنيا العلميَّةَ الفلسفيَّةَ المفكِّرةَ أنَّ ذلك النبيَّ العظيمَ هو الرجلُ ٱلاجتماعيُّ ٱلتامُّ بأخلاقِهِ وفضائلِهِ، وهو الذي بُعِثَ لِتنقيحِ غريزةِ تنازعِ ٱلبقاء، وكَسْرِ هذه ٱلحيوانيَّة، وقَمْع[1] نزواتِها، وإماتةِ دَواعِيها، والسموِّ بخواطِرِها؛ فهو بنفسِهِ صورةُ ٱلكمالِ الذي بُعِثَ لِتحقيقِهِ وإثباتِ أنَّهُ الممكنُ لا الممتنِع، والحقيقيُّ لا الخياليّ.

ليسَ هناك دِرْعٌ مرهونةٌ في ثلاثينَ صاعاً، ولا الفقرُ ولا خبزُ الشعير. كلا، كلا، بل هناك تقريرُ أنّ ٱلنصرَ في معركةِ ٱلحياةِ لا يأتي مِنَ ٱلمالِ والثَّراءِ وٱلمتاع، ولكنْ مِنَ ٱلمعاناةِ وٱلشدّةِ وٱلصبر؛ وأنَّ التقدمَ الإنسانيَّ لا يُباعُ بيعاً، ولا يُؤخَذُ هَوْناً[2]؛ بل هو ٱنتزاعٌ مِنَ ٱلحوادثِ بالأخلاقِ التي تتغلَّبُ على الأزَمَاتِ ولا تتغلبُ الأزمَاتُ عليها، وأنَّ هذا المالَ وهذه الشهوات - في حقائقِ ٱلحياةِ ومَصَائِرِها - ككُنوزِ الأحلام: لا تكونُ كُنوزاً إلَّا في مواضعِها من أرضِ الغَفْلةِ وٱلنوم، فلا لذةَ منها إلَّا بمقدارٍ خفيفٍ من هذه الغفلة. وليسَ إلَّا الأحمقُ أوِ ٱلمخذولُ أوِ الضائعُ هو الذي يقطعُ العمرَ نائماً أبداً لِيظلَّ مالكاً أبداً لِهَذِهِ الكنوز. وهو يعلمُ أنَّهُ لا بدَّ مستيقظ، وأنَّهُ متى ٱنتبه في آخرتِهِ لم يجدْ منها شيئاً «ووجدَ اللَّهَ عندَهُ فوفَّاهُ حِسابَه».

كلا، كلا، ليس هناك فقرٌ ولا جوعٌ وما إليهما، بل هناك وَضْعُ هذه الحقيقة: ينبغي أنْ تجدَ نفسَك، وموضِعَ نفسِك، وإيمانَ نفسِك، وعِزَّةَ نفسِك. فإذا أدركْتَ ذلك ورفعْتَ نفسَك إلى موضعِها الحقّ، وأقررْتَها فيه، وحبسْتَها عليه، وَحَدَدْتَها بالإنسانيَّةِ من ناحيةٍ وباللَّهِ منَ الناحيةِ المُقابِلة - رأيْتَ إذنْ أنَّ قيمتَك ٱلصحيحةَ في أنْ تكونَ وسيلةً تُعطِي وتعملُ لِتُعطي، لا غايةً تأخذُ وتعملُ لِتأخذ، ومهما ضُيِّقَ عليك فإنَّما أنت كالشجرةِ الطيِّبةِ تأخذُ تراباً وتصنعُ حَلاوة.

وما قطُّ نبتَتْ شجرةٌ في مكانِها لِتأكلَ وتشربَ وتختزِنَ ٱلسّمادَ والترابَ وتحصِّنَهما وتمنَعَهما عن غيرِها، ولو قد فعلَتْ ذلك شجرةٌ لَكانَ هلاكُها فيما تفعل، إذْ تُحاولُ أنْ تُضاعِفَ فائدتَها من قانونِ العالم، فيكونُ طعمُها سريعاً في

(١) قمع: ضرب وقهر وأذلّ.

(٢) هوناً: سهلاً.

إفسادِ الصلةِ بينَهما، فلا يجدُ القانونُ فيها نظامَه، ومن ثَمَّ لا تجدُ في القانونِ نظامَها، فيُهلِكُها الذي كانَ يُحييها، وتستعبدُ لِحظّ نفسِها، فيُفْقِدُها ذلك حريّةَ الحياةِ التي كانَتْ لها في نفسِها.

❊ ❊ ❊

يقولُ نبيُّنا ﷺ: «إنَّ ٱلمؤمنَ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، إنَّ نفسَهُ تُنزَعُ من بينِ جنبيهِ وهو يَحمدُ ٱللَّهَ عزَّ وجلَّ». فهذا هو أسمى قانونٍ ٱجتماعيٍّ يُمكنُ أنْ تظفرَ بهِ ٱلإنسانيَّةُ، وما يأتِي لها ذلك إلَّا إذا أصبَحتْ تلك ٱلمعاني ٱلتي أومأْنا[1] إليها شعوراً ٱجتماعيًّا عامًّا مقرَّراً في ٱلنفس، قائماً فيها على إيمانٍ راسخٍ بأنَّ ٱلفردَ هو صورةُ ٱلمجتمعِ لا صورةُ نفسِه وحدَها، وأنَّ ٱلناسَ كحبِّ القمحِ في ٱلسُّنبلة، ليسَ لِجميعِهِ إلَّا قانونٌ واحد، فموضِعُ كلِّ حبةٍ مِنَ السنبلةِ هو ثروتُها، عَلَتْ أو سَفُلَتْ، وكَثُرَ ما تأخذُهُ أو قلَّ؛ وإذا كان أساسُ الحياةِ في ٱلحبَّةِ منها أنْ تجدَ قِوامَها وكِفايتَها من مادةِ ٱلأرض، فتمامُ الحياةِ فيها أنْ يَغْمُرَها ٱلنورُ مِن حولِها، وأنْ يستمرَّ ٱلنورُ من حولِها يغمرُها.

فٱلحبَّةُ مِنَ السُّنبلةِ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، وإنَّها لَتُنزَعُ وما بها أنَّها نُزِعتْ، ولكنَّها أدَّتْ ما تؤدِّي، وٱنقطعَتْ من قانونٍ لِتَتَّصِلَ بقانونٍ غيرِه، وما ٱغتنَتْ ولا ٱفتقَرتْ، ولا أكثرَتْ ولا أخَفَّتْ بل حقَّقتْ موضِعَها، فإنَّها ما نبتَتْ لِتبقى، وما نَمَتْ إلَّا لِينقطعَ نماؤُها. وكذلكَ ٱلمؤمنُ ٱلصحيحُ ٱلإيمانِ، ٱلصادقُ النظرِ في ٱلحياة: هو أبداً في قانونِ آخرتِه، فهو أبداً في عملِ ضميرِه.

والناسُ في هذه الحياةِ كحَشْدٍ عظيم يتدفَّقُ من مَضِيقٍ بينَ جبلينِ ينفُذُ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنَّهم مُفْضُونَ[2] إلى هذه النهايةِ مرُّوا آمنينَ وكانَ في يقينهِمُ ٱلسلامة، وفي صبرهمُ ٱلوقاية، وفي نِظامِهِمُ ٱلتوفيق، وفي تَعاونهمُ ٱلحياة؛ فهم بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، ما دامَ هذا قانونَ جميعهِم؛ فأيُّما رجلٍ شَذَّ منهم فٱضطربَ فطاشَ[3]، هَلَكَ وأهلَكَ مَنْ حولَه، ومَنْ عكَسَ منهم موضِعَهُ ونكَصَ على عَقِبيه، أهلَكَ مَنْ حولَهُ وهَلَكَ، وٱلموتُ أشقى ٱلموتِ هنا في هذا المضيقِ بينَ الجبلين ـ ٱعتبارُ الحاضِرِ حاضراً فقط، والضجرُ منه، وجعلُ كلِّ إنسانٍ نفسَهُ

---

(١) أومأنا: أشرنا.

(٢) مفضون: واصلون، منتهون إلى.

(٣) طاش: انحرف.

غاية. والحياةُ أهنأُ الحياة ـ أعتبارُ الحاضرِ بما وراءَه، والصبرُ على شِدَّتِه، وجعلُ الإنسانِ نفسَه وسيلة.

* * *

فذلك معنى خبزِ ٱلشعير، والقِلّةِ وٱلضيق، ورهنِ ٱلدرع عندَ يهوديٍّ من سيِّدِ ٱلخَلْقِ وأكملِهم، ومَنْ لو شاءَ لَمشى على أرضٍ مِنَ الذهب. فهو ﷺ يُعلِّمُ ٱلإنسانيّةَ أنَّ الرجلَ العظيمَ النفسِ لا يكونُ في ٱلحياةِ إلّا ضيفاً نازلاً على نفسِه.

ومن معاني ذلك الفقْرِ العظيمِ أنَّ خبزَ ٱلشعيرِ هو رَمزٌ من رموزِ ٱلحياةِ على التحلّلِ من خُلُقِ الأثرَةِ، والبراءةِ من هوى التَّرَف؛ ورهنُ الدرعِ رمزٌ آخرُ على التخلُّصِ مِنَ ٱلكِبرياءِ وٱلطمع؛ والعُسرةُ رمزٌ ثالثٌ على مجاهدةِ الملَلِ ٱلحيِّ ٱلذي يُفسِدُ ٱلحياةَ كما يُفْسدُ بعضُ ٱلنباتِ ٱلنبات. ومجموعُ هذه الرموزِ رمزٌ بحالِهِ على وجوبِ ٱلإيقاظِ ٱلنفسيِّ للأمةِ ٱلعزيزةِ التي تقودُ أنفسَها بمقاساةِ الشدائدِ ومُجاهدةِ ٱلطباع، لِتكونَ في كلِّ فردٍ مادةُ الجيش، ولِيصلُحَ هذا الجيشُ قائداً لِلإنسانيَّة.

على أنَّهُ ﷺ حثَّ على طلبِ ٱليَسَار[1]، وٱلتغلُّلِ مِنَ الأعمالِ ٱلشريفةِ بالغَلّةِ وٱلمال، فقال: «إنك إنْ تَدَعْ عِيالَك أغنياء، خيرٌ من أنْ تَدَعَهم عَالَةً يتكفَّفون[2] ٱلناس». ورأى عابداً قدِ ٱنقطعَ لِلعبادةِ حتى أكلَتْ نفسُهُ جسمَه، ووصفوا لَهُ مِنْ زُهدِهِ وعِبادتِه، فقال ﷺ: «مَنْ يعولُه؟» قالوا: كلّنا نعولُه. فقال: «كلّكم خيرٌ منه! . . .» إلى أحاديثَ كثيرةٍ مرويَّة، هي تمامُ ٱلقانونِ ٱلأدبيِّ ٱلاجتماعيِّ في الدنيا، تُثبِتُ أنَّ الحيَّ إنْ هو إلّا عملُ ٱلحيّ.

ولكنْ حينَ يكونُ سيدُ ٱلأمَّةِ وصاحبُ شريعتِها رجلاً فقيراً، عاملاً مُجاهداً، يكْدَحُ[3] لِعيشِه، ويجوعُ يوماً ويشبعُ يوماً، فلم يقلِّبْ يدَهُ في تِلَادٍ[4] مِنَ ٱلمال يرثُه، ولم يجمعْهما على طَريفٍ[5] منه يُوَرِّثُه ـ فذلك هو ما بيَّناهُ وشرحْناه، وذلك كالأمرِ نافذاً لا رُخْصَةَ فيه، على ألّا يتَّخذَ الغنيُّ مِنَ ٱلفقيرِ عبداً ٱجتماعيًا لِفقرِ هذا ولِمالِ ذاك؛ بل هيَ ٱلمساواةُ ٱلنفسيَّةُ لا غيرُها وإنِ

(١) اليسار: الغنى.
(٢) يتكففون: يعيشون على الكفاف وشظف العيش.
(٣) يكدح: يتعب ويجدّ في عمله.
(٤) تلاد المال: المال الموروث.
(٥) طريف المال: حديثه وجديده.

ٱختلفَتْ طبقاتُ ٱلاجتماع. وٱلأكرمُ هو ٱلأتقى لِلَّهِ بمعنى ٱلتقوى، وٱلأقومُ بالواجبِ على معنى الواجب، والأكفأُ لِلإنسانيَّةِ في معاني الإنسانيَّة.

فقرُ ذلك السيّدِ الأعظمِ ليسَ فقراً، بل هو كما رأيْت: ضبطُ السلطةِ الكائنةِ في طبيعةِ التملّك، لِقيام التعاوُنِ ٱلإنسانيِّ على أساسِهِ ٱلعمليِّ؛ هو المحاجَزَةُ العادلةُ بينَ ٱلمصالحِ ٱلاقتصاديَّةِ ٱلطاغية: يمنعُ أنْ تأكلَ مصلحةٌ مصلحةً فتَهلِكَ بها، ويُوجِبُ أنْ تَلِدَ المصلحةُ مصلحةً لِتحيَا بها.

والنبيُّ ٱلفقيرُ ٱلعظيمُ هو في ٱلتاريخِ من وراءِ كلِّ هذه ٱلمعاني، كالقاضي ٱلجالسِ وراءَ موادِّ ٱلقانون. ﷺ.

درسٌ منَ النبوة

قالوا: إنهُ لمَّا نَصر اللّهُ (تعالى) رسولَهُ وردَّ عنهُ ٱلأحزابَ وفتَح عليهِ قُرَيْظَةَ وٱلنَّضِير[١]، ظنَّ أزواجُهُ ﷺ أنّه ٱختصَّ بنفائسِ ٱليهودِ وذخائرِهم؛ وكنَّ تِسْعَ نِسوة: عائشة، وحَفْصة، وأمَّ حبيبة، وسَوْدة، وأمَّ سَلَمة، وصفيّة، وميمونة، وزينب، وجُوَيْرية؛ فقعدْنَ حولَهُ وقلْن: يا رسولَ الله، بناتُ كِسرى وقَيْصَرَ في ٱلحَلْي وٱلحُلَلِ، وٱلإماءِ وٱلخَوَل[٢]، ونحن ما تراهُ منَ ٱلفاقةِ وٱلضيق. . . وآلَمْنَ قلبَهُ بمطالبتِهِنَّ لَهُ بتَوْسِعَةِ ٱلحال، وأنْ يعاملَهُنَّ بما تُعامِلُ بهِ ٱلملوكُ وأبناءُ ٱلدنيا أزواجَهم؛ فأمرهُ اللّهُ (تعالى) أنْ يتلوَ عليهنَّ ما نزلَ في أمرِهِنَّ من تخييرِهِنَّ في فِراقِه، وذلك قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا[٣] وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قالوا: وبدأَ ﷺ بعائشةَ ـ وهي أحبُّهن إليه ـ فقال لها: «إنِّي ذاكرٌ لَكِ أمراً ما أُحبُّ أنْ تعجَلِي فيهِ حتى تَسْتأمري أبوَيك». قالَت: ما هو؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيكَ أستأمِرُ أبويَّ؟ بلْ أختارُ اللّهَ ـ تعالى ـ ورسولَه.

ثم تَتَابَعْنَ كلّهن على ذلك، فسمَّاهُنَّ ٱللّهُ «أمَّهات المؤمنين»، تعظيماً لِحقهِنّ، وتأكيداً لِحرمتِهِنّ، وتفضيلاً لَهُنَّ على سائرِ ٱلنساء.

* * *

هذه هي ٱلقصةُ كما تُقرأُ في التاريخ وكما ظهرَتْ في ٱلزمانِ وٱلمكان، فلْنقرأها نحن كما هي في معاني ٱلحكمة، وكما ظهرَتْ في ٱلإنسانيَّةِ ٱلعالية؛ فسنجدُ لها غَوْراً[٤] بعيداً، ونعرفُ فيها دَلالةً سامية، ونتبينُ تحقيقاً فلسفيًّا دقيقاً لِلأوهامِ وٱلحقائق.

---

(١) قريظة والنضير: هما قبيلتان وحيان من أحياء اليهود في المدينة.

(٢) الخول: الخدم والحشم.

(٣) السراح: الطلاق، أما متعة الطلاق فهي الصداق المتأخر.

(٤) غوْراً: عمقاً.

وهي قبلَ كلِّ هذا ومعَ كلِّ هذا تنطوي على حكمةٍ رائعةٍ لم يتنبَّهْ لهاأ حد، ومن أجلِها ذُكرتْ في ٱلقرآن الكريم، لِتكونَ نصًّا تاريخيًّا قاطعاً يُدَافِعُ بهِ التاريخُ عن هذا ٱلنبيِّ العظيمِ في أمرٍ من أمورِ ٱلعقلِ وٱلغريزة، فإنَّ جَهَلَةَ ٱلمبشرينَ في زمننا هذا، وكثيراً من أهل الزَّيغ[1] وٱلإلحاد، وطائفةً من قِصَارِ ٱلنظرِ في ٱلتحقيقِ - يزعمونَ أنَّ محمداً ﷺ إنَّما ٱستكثرَ مِنَ النساءِ لِأهواءٍ نفسيةٍ محضةٍ وشهواتٍ كٱلشهوات؛ ويَتَطرَّقونَ من هذا الزعمِ إلى الشُّبْهة، ومنَ الشُّبْهةِ إلى سوءِ الظنّ، ومن سوءِ ٱلظنِّ إلى قبحِ ٱلرأي؛ وكلّهم غبيٌّ جاهل؛ فلو كانَ ٱلأمرُ على ذلك أو على قريبٍ منه أو نحوٍ من قريبِه، لَمَا كانَتْ هذه ٱلقصةُ ٱلتي أساسُها نفيُ الزينةِ وتجريدُ نسائِهِ جميعاً منها، وتصحيحُ ٱلنيَّةِ بينَهُ وبينهُنَّ على حياةٍ لا تحيا فيها معاني ٱلمرأة، وتحتَ جوٍّ لا يكونُ أبداً جوَّ ٱلزَّهر.... وأمرُهُ من قِبَلِ ربِّهِ أنْ يُخيِّرَهُنَّ جميعاً بينَ سراحِهِنَّ فيكُنَّ كالنساءِ ويجدْنَ ما شِئْنَ من دنيا ٱلمرأة، وبينَ إمساكِهِنَّ فلا يكُنَّ معَهُ إلَّا في طبيعةٍ أخرى تبدأُ من حيث تنتهي ٱلدنيا وزينتُها.

فٱلقصةُ نفسُها ردٌّ على زعمِ ٱلشهوات، إذ ليسَتْ هذه لغةَ ٱلشهوة، ولا سياسةَ معانيها، ولا أسلوبَ غضبِها أو رِضاها. وما هٰهنا تمليقٌ، ولا إطراءٌ، ولا نُعومةٌ، ولا حِرْصٌ على لذة، ولا تعبيرٌ بِلغةِ ٱلحاسة؛ وٱلقصةُ بعدُ مكشوفةٌ صريحةٌ ليسَ فيها معنًى ولا شِبْهُ معنًى من حرارةِ ٱلقلب، ولا أثرٌ ولا بقيَّةُ أثرٍ من ميلِ ٱلنفس، ولا حرفٌ أو صوتُ حرفٍ من لغةِ ٱلدم. وهي على منطقٍ آخرَ غيرِ ٱلمنطقِ ٱلذي تُستمالُ بهِ ٱلمرأة، فلم تقتصرْ على نفي ٱلدنيا وزينةِ الدنيا عنهُنّ، بل نَفَتِ ٱلأمَلَ في ذلك أيضاً إلى آخرِ الدهر، وأماتَتْ معناهُ في نفوسِهِنّ، بقَصْرِ ٱلإرادةِ منهُنّ على هذه الثلاثة: اللّهُ في أمرِهِ ونهيه، والرسولُ في شدائدِهِ ومُكابَدَتِهِ[2]، والدارُ الآخرةُ في تكاليفِها ومَكَارِهِها. فليسَ هنا ظرفٌ، ولا رقةٌ، ولا عاطفةٌ، ولا سياسةٌ لِطبيعةِ ٱلمرأة، ولا ٱعتبارٌ لِمزاجِها، ولا زُلْفَى[3] لِأنوثتِها، ثم هو تخييرٌ صريحٌ بينَ ضِدينِ لا تتلوَّنُ بينَهما حالةٌ تكونُ منهما معاً، ثم هو عامٌّ لِجميعِ زوجاتِهِ لا يستثني منهُنَّ واحدةً ولا أكثر.

والحريصُ على ٱلمرأةِ وٱلاستمتاعِ بها لا يأتي بشيءٍ من هذا، بل يُخاطبُ في

---

(١) الزيغ: الانحراف عن الدين والكفر.

(٢) مكابدته: عاش فيه بجهد ومشقَّة.

(٣) زُلفى: تقرّب.

ٱلمرأة خيالَها أولَ ما يُخاطب، ويُشبِعُهُ مُبالغةً وتأكيداً، ويُوسِعُهُ رَجاءً وأملاً، ويقرِّبُ لَهُ ٱلزمنَ ٱلبعيدَ، حتى لو كانَ في أولِ ٱلليلِ وكانَ الخِلافُ على الوقت، لَحقَّقَ لَهُ أنَّ ٱلظهرَ بعدَ ساعة. . .

* * *

وبرهانٌ آخرُ؛ وهو أنَّ النبيَّ ﷺ لم يتزوَّجْ نساءَهُ لِمتاعٍ مِمَّا يُمتِّعُ الخيالُ بهِ، فلو كانَ وَضْعُ الأمرِ على ذلك لَمَا ٱستقامَ ذلك إلَّا بالزينةِ وبالفنِّ ٱلناعمِ في الثوبِ والحِلْيةِ والتشكُّلِ كما نرى في ٱلطبيعةِ ٱلفنيَّة، فإنَّ ٱلمُمثِّلةَ لا تمثلُ ٱلروايةَ إلَّا في ٱلمسرحِ ٱلمهيأ بمناظرِهِ وجَوِّه. . . وقد كانَتْ نساؤُهُ ﷺ أعرفَ بِه؛ وها هو ذا ينفي ٱلزينةَ عنهُنَّ ويُخيرُهُنَّ ٱلطلاقَ إذا أصرَرْنَ عليها. فهل ترى في هذا صورةَ فكرٍ من أفكارِ الشهوة؟ وهل ترى إلَّا الكمالَ المحض؟ وهل كانَتْ متابعَةُ ٱلزوجاتِ ٱلتسعِ إلّا تسعةَ برُهاناتٍ على هذا الكمال؟

وكأنَّ النبيَّ ﷺ يُلقِي بهذه القصةِ درساً مستفيضاً في فلسفةِ ٱلخيالِ وسُوءِ أثره، على ٱلمرأةِ في أنوثتِها، وعلى ٱلرجل في رجولتِه؛ وأنَّ ذلك تعقيدٌ في الشهواتِ يُقابلُهُ تعقيدٌ في ٱلطبع، وكَذِبٌ في ٱلحقيقةِ ينشأُ عنهُ كذبٌ في ٱلخلُق، وأنَّه صَرْفٌ لِلمرأةِ إلى حياةِ ٱلأحلام والأمانيِّ والطيْشِ وٱلبطَرِ وٱلفراغ، وتعويدُها عاداتٍ تُفسِدُ عاطفتَها، وتُضيفُ إليها ٱلتصنّعَ فتُضعِفُ قوتَها ٱلنفسيَّةَ ٱلقائمةَ على إبداعِ ٱلجمالِ من حقيقتِها لا من مظهرِها، وتحقيقُ ٱلفائدةِ من عملِها لا من شكلِها.

وكلُّ محاسنِ المرأةِ هي خيالُ متخيِّلٍ ولا حقيقةَ لِشيءٍ منها في ٱلطبيعة، وإنَّما حقيقتُها في ٱلعينِ ٱلناظرةِ إليها فلا تكونُ ٱمرأةٌ فاتنةً إلَّا لِلمفتونِ بها ليسَ غير. ولو ردَّتِ ٱلطبيعةُ على مَنْ يُشَبِّبُ[1] بٱمرأةٍ جميلةٍ فيقولُ لها: هذه محاسنُك وهذه فتنتُكِ وهذا سِحرُكِ وهذا وهذا؛ لقَالَتْ لَهُ الطبيعة: بل هذه كلُّها شهواتُكَ أنت. . .

وبهذا يختلفُ ٱلجمالُ عندَ فقدِ ٱلنظر؛ فلا يفتنُ الأعمى جمالُ الصورةِ ولا سِحرُ الشكلِ ولا فَرَاهةُ المنظر، وإنَّما يفتنُهُ صوتُ ٱلمرأةِ ومَجَسَّتُها[2] ورائحتُها.

فلا حقيقةَ في ٱلمرأةِ إلَّا المرأةُ نفسُها؛ ولو أُخِذَتْ كلُّ أنثى على حقيقتِها هذه لَمَا فسدَ رجلٌ ولا شقيَتِ ٱمرأة، ولا ٱنتظمَتْ حياةُ كلِّ زوجينِ بأسبابِها التي فيها. وذلك هو المثلُ المضروبُ في القصة.

---

(١) يتشبَّب: يتغزّل.
(٢) مجسّتها: لمسها.

يُريدُ النبيُّ ﷺ لِيُعلِّمَ أمّتَهُ أنَّ حَيفَ[1] الغريزةِ على العقلِ إفسادٌ لِهذا العقل، وأنَّه متى أُخْضِعَتِ ٱلمرأةُ لِحظِّ ٱلغريزةِ وٱختيارها، كانَتْ حياتُها ٱستجابةً لِجنونِ ٱلرجلِ، وملأتْها معاني ٱلتزيُّدِ وٱلتصنُّع؛ فيُوشِكُ أنْ ينقلَها هذا عن طبيعتِها ٱلساميةِ التي أكثرُها في ٱلحِرمان وٱلإيثارِ وٱلصبرِ وٱلاحتمال، ويردَّها إلى أضدادِ هذه الصفات، فيقومُ أمرُها بعدُ على ٱلأثرةِ وٱلمصلحةِ وٱلتفادي وٱلضجَرِ وٱلتبرُّم[2] وٱلإلحاحِ وٱلإزعاج، ويُضعفُ معنى ٱلسلْبِ ٱلراسخِ في نفسِها من أصلِ ٱلفِطْرَة؛ فيتبدَّلُ حياؤُها، وفي ٱلحياءِ ردُّها عن أشياء؛ ويقلُّ إخلاصُها، وفي الإخلاصِ ردٌّ لها عن أشياءَ أخرى؛ ويكثرُ طمعُها، وفي قناعتِها مُحاجَزَةٌ بينَها وبينَ الشرِّ.

وبهذا ونحوِهِ يفسدُ ما بين ٱلرجلِ وٱلمرأةِ ٱلمتصنِّعة؛ فإذا أكثرُ ٱلمتصنِّعاتِ لا يكونُ منَ ٱلنساءِ مَشَاكلُ فقط، بل تكونُ من حُلولِ ٱلمشاكلِ معهُنَّ مشاكلُ أخرى. . .

* * *

ولُبابُ هذه القصةِ أنَّ النبيَّ ﷺ يجعلُ نفسَهُ في الزواجِ المثَلَ الشَّعبيَّ الأكملَ كما هو دأبُهُ[3] في كلِّ صفاتِهِ الشريفة، فهو يُريدُ أنْ تكونَ زوجاتُهُ جميعاً كنساءِ فقراءِ المسلمين، لِيكونَ منهُنَّ المثَلُ ٱلأعلى لِلمرأةِ ٱلمؤمنةِ العاملةِ الشريفةِ التي تَبرَعُ البراعةَ كلَّها في ٱلصبرِ وٱلمجاهدةِ وٱلإخلاصِ وٱلعِفَّةِ وٱلصراحةِ وٱلقناعة، فلا تكونُ ٱلمرأةُ زينةً تَطْلُبُ زينةً لِتتمَّ بها في ٱلخيال، ولكنْ إنسانيةً تطلبُ كمالَها الإنسانيَّ لِتتمَّ بهِ في ٱلواقع.

وهذه الزينةُ ٱلتي تتصنعُ بها ٱلمرأةُ تكادُ تكونُ صورةَ المكرِ والخِداعِ والتعقُّد، وكلّما أسرفَتْ في هذِهِ أسرفَتْ في تلك، بَلْهَ ٱلزينةُ لِوجهِ ٱلمرأةِ وجِسمِها سلاحٌ من أسلحةِ ٱلمعاني: كالأظافرِ وٱلمخالبِ وٱلأنياب، غيرَ أنَّ هذه لوحْشِيةِ ٱلطبيعةِ ٱلحيَّة ٱلمفترسة، وتلك لوحشيةِ الغريزةِ الحيَّة ٱلتي تُريدُ أنْ تفترس. ولا تُنكِرُ ٱلمرأةُ نفسُها أنّ الزينةَ على جسمِها ثرثرةٌ طويلةٌ تقولُ وتقولُ وتقول. . .

* * *

وإنَّما يكونُ أساسُ ٱلكمالِ ٱلإنسانيّ، في ٱلإنسانِ ٱلعاملِ ٱلمُجاهد: لا يحصُرُ نفسَهُ في شيءٍ يُسمَّى متاعاً أو زينة، ولا يقدِّر نفسَهُ بما يجمعُ لها أو بما يجمعُ حولَها، ولا يعتدُّ ما يكونُ من ذلك إلّا كالتعبيرِ من عملِ ٱلشهواتِ عنِ الشهوات.

---

(١) حيف: ظلم، جوْر.

(٢) التبرّم: إظهار الملل والضجر.

(٣) دأبه: عادته.

ونبيُّنا ﷺ هو الغايةُ في هذا. دخلَ عليه مرةً عمرُ بْنُ ٱلخطاب، فإذا هو على حَصيرٍ وعليهِ إزارُهُ وليسَ عليهِ غيرُه، وإذا الحصيرُ قد أثَّرَ في جنبِه. قال عمر: وإذا أنا بقَبْضةٍ من شعيرٍ نحو ٱلصاع، وإذا إهابٌ معلَّق[1]، فٱبتَدَرَتْ عيناي[2]، فقال: ما يُبكيك يا ٱبنَ ٱلخطَاب؟ قال: عمر: يا نبيَّ ٱلله، وما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبِك، وهذه خزائنُكَ لا أرى فيها إلَّا ما أرى، وذاك كسرى وقيصرُ في ٱلثمارِ وٱلأنهارِ وأنت نبيُّ ٱللَّهِ وصفوتُهُ وهذه خزائنُك؟

وجاءَ مرة من سفَرٍ فدخل على ٱبنتِهِ فاطمةَ (رضيَ اللَّهُ عنها) فرأى على بابِها سِتْراً وفي يديها قُلبَيْنِ[3] من فِضَّة، فرجع؛ فدخلَ عليها أبو رافعٍ وهي تبكي، فأخبرَتْهُ برجوعِ أبيها، فسألَهُ في ذلك فقالَ ﷺ: من أجلِ ٱلسترِ وٱلسِّوارين.

فلمَّا أخبَرها أبو رافع هتكَتِ[4] ٱلسترَ ونزَعَتِ ٱلسوارينِ فأرسلَتْ بهما بِلالاً إلى النبيّ ﷺ وقالت) قد تَصدَّقْتُ به، فضعْهُ حيثُ ترَى. فقال لِبلال) اذهبْ فبِعْهُ وٱدفعْهُ إلى أهلِ ٱلصُّفَّة[5]. فباعَ ٱلقُلبينِ بدرهمينِ ونصفٍ (نحو ثلاثةَ عشرَ قرشاً) وتصدَّقَ بِهِ عليهم.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! وأنتِ أيضاً لا يرضى لكِ أبوكِ حِليةً بدرهمينِ ونصفٍ وإنَّ في ٱلمسلمينَ فقراءَ لا يملكونَ مثلَها.

أيُّ رجلٍ شَعْبيٌّ على ٱلأرضِ كمحمدٍ ﷺ، فيهِ لِلأمةِ كلِّها غريزةُ الأب، وفيه على كلِّ أحوالِهِ اليقينُ ٱلذي لا يتحوَّل، وفيهِ ٱلطبيعةُ ٱلتامّةُ التي يكونُ بها ٱلحقيقيُّ هو ٱلحقيقي.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! إنَّ زينةً بدرهمينِ ونصف، لا تكونُ زينةً في رأيِ ٱلحقِّ إذا أمكنَ أنْ تكونَ صَدَقةً بدرهمينِ ونصف؛ إنَّ فيها حينئذٍ معنًى غيرَ معناها؛ فيها حقُّ النفسِ غالباً على حقِّ ٱلجماعة؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعةِ حاكماً على الإيمانِ بالخير؛ وفيها ما ليسَ بضروريّ قد جارَ على ما هو ٱلضروري؛ وفيها خطأٌ منَ ٱلكمالِ إنْ صحّ في حِسابِ الحلالِ والحرام لم يصحَّ في حسابِ ٱلثوابِ وٱلرحمة.

تعالَوْا أيُّها ٱلاشتراكيُّونَ فٱعرِفوا نبيَّكمُ ٱلأعظم؛ إنَّ مذهبَكم ما لم تُحْيِهِ

---

(١) الإهاب: هو كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء.
(٢) ابتدرت عيناي: دمعت.
(٣) القُلب، بالضم هو سوار من فضة.
(٤) هتكت الستر: مزقته.
(٥) الصُّفة: بالضم، هي الغرفة.

فضائلُ الإسلام وشرائعُه ـ إنَّ مذهبَكم لَكالشجرةِ ٱلذابلةِ تُعلِّقونَ عليها الأثمارَ تَشُدُّونها بالخيطِ . . . كلَّ يوم تَحِلُّون، وكلَّ يومٍ تَربطُون، ولا ثمرةَ في الطبيعة.

ليسَتْ قصةُ ٱلتخيير هذهِ مسألةً من مسائلِ الغَني والفقيرِ في معاني المادة، ولكنَّها مسألةٌ من مسائلِ ٱلكمالِ وٱلنقصِ في معاني ٱلروح؛ فهي صريحةٌ في أنَّ النبيَّ ﷺ أستاذُ الإنسانيَّةِ كلِّها؛ واجبُهُ أنْ يكونَ فضيلةً حيَّةً في كلِّ حياة، وأنْ يكونَ عَزاءً في كلِّ فقْر، وأنْ يكونَ تهذيباً في كلِّ غِنى، ومن ثَمَّ فهو في شخصِهِ وسيرتِهِ ٱلقانونُ ٱلأدبيُّ لِلجميع.

وكأنَّهُ ﷺ يُريدُ لِيُعلِّمَ الأُمَّةَ بهذهِ القصةِ أنَّ ٱلجماعاتِ لا تَصلُحُ بٱلقوانينِ وٱلشرائعِ وٱلأمرِ وٱلنهي، ولكنْ بعملِ عظمائِها في ٱلأمرِ وٱلنهي؛ وأنَّ ٱلحاكمَ على الناسِ لاَ ينبغي أنْ يحكمَ إلَّا إذا كانَ في نفسِهِ وطبيعتِهِ يُحسُّ فتنةَ الدنيا إحساسَ المتسلِّطِ[1] لا الخاضِع، لِيكونَ أولُ استقلالِهِ استقلالَ داخِلِه.

فليسَ ذلك فقْراً ولا زُهداً كما ترى في ظاهرِ ٱلقصة، ولكنَّها جُرْأَةُ ٱلنفسِ العُظمَى في تقريرِ حقائقِها ٱلعمليَّة.

* * *

وتنتهي ٱلقصةُ في عبارةِ ٱلقرآنِ ٱلكريم بتسميةِ زوجاتِهِ ﷺ: «أمَّهات المؤمنين» بعدَ أنِ ٱختَرْنَ ٱللَّهَ ورسولَهُ وٱلدارَ الآخرة؛ وعلماءُ التفسيرِ يقولون: إنَ ٱللَّهَ (تعالى) كافأهُنَّ بهذه التسمية؛ وليسَ ذلك بشيءٍ ولا فيهِ كبيرُ معنًى، وإنّما تُشْعِرُ هذه التسميةُ بمعنًى دقيقٍ هو آيةٌ من آياتِ ٱلإعجاز؛ فإنَّ الزوجةَ الكاملةَ لا تكملُ في ٱلحياةِ ولا تكملُ ٱلحياةُ بها إلَّا إذا كانَ وصْفُها مع رجُلِها كوصفِ الأمّ: ترى ابنَها بالقلْبِ ومعانيه، لا بالغريزةِ وحُظوظِها؛ فكلُّ حياةٍ حينئذٍ مُمكنةُ ٱلسعادةِ لِهذه الزوجة، وكلُّ شقاءٍ محتمَلٌ بصبر، وكلُّ جِهادٍ فيهِ لذتُهُ ٱلطبيعيَّة، إذْ يقومُ ٱلبيتُ على الحُبِّ الذي هو الحُبُّ الخالصُ لا المنفعة، وتكونُ زينةُ الحياةِ وجودَ الحيِّ نفسِهِ لا وجودَ ٱلمادة، وتُبْنَى النفسُ على ٱلوفاءِ ٱلطبيعيِّ كوفاءِ ٱلأمّ، وذلك خُلُقٌ لا يَعْسُرُ عليهِ في سبيلِ حقيقتِهِ أنْ يتغلَّبَ على الدنيا وزينتِها.

وآخِرُ ما نستخرجُ مِنَ القصةِ في درسِ ٱلنبوَّةِ هذه الحكمة:

بِحَسْبِ المؤمنِ إذا دخَلَ دارَهُ أنْ يجدَ حقيقةَ نفسِهِ الطيِّبة، وإنْ لم يجدْ حقيقةَ كِسْرى ولا قَيصر.

---

(١) المتسلّط: المسيطر.

شهرٌ لِلثورة
فلسفة الصيام

لم أقرأْ لِأحدٍ قولاً شافياً في فلسفةِ الصومِ وحِكمتِه؛ أمَّا منفعتُهُ لِلجسم، وأنَّهُ نوعٌ مِنَ ٱلطبِّ لَهُ، وبابٌ مِنَ السياسةِ في تَدبيرِه؛ فقد فرغَ ٱلأطباءُ من تحقيقِ ٱلقولِ في ذلك؛ وكأنَّ أيامَ هذا الشهرِ ٱلمباركِ إنْ هي إلَّا ثلاثون حبَّةً تؤخَذُ في كلِّ سنةٍ مرةً لِتقويةِ المَعِدةِ وتصفيةِ الدم وحِياطةِ أنسجةِ الجسم؛ ولكنَّا ٱلآنَ لَسْنَا بصَدَدٍ من هذا، وإنَّما نستوحي تلك الحقيقةَ الإسلاميَّةَ الكبرى التي شَرَعَتْ هذا الشرعَ لِسياسةِ الحقائقِ الأرضيَّةِ الصغيرة، عاملةً على ٱستمرارِ الفكرةِ ٱلإنسانيَّةِ فيها، كي لا تتبدَّلَ النفسُ على تغيّرِ ٱلحوادثِ وتَبَدُّلِها، ولِكيلا تجهلَ الدنيا معانيَ الترقيعِ إذا أتَتْ على هذه الدنيا معاني ٱلتمزيق.

من معجزاتِ ٱلقرآنِ الكريم أنَّه يدَّخرُ[١] في ٱلألفاظِ المعروفةِ في كلِّ زمنٍ، حقائقَ غيرَ معروفةٍ لِكلِّ زمن، فَيُجلِّيها[٢] لِوقتِها حينَ يَضِجُّ الزمانُ العلميُّ في مَتَاهَتِهِ وحَيْرَتهِ، فيَشْغَبُ[٣] على التاريخ وأهلِهِ مُسْتَخِفًّا بالأديان، ويذهبُ يتتبَّعُ ٱلحقائق، ويستقصي في فنونِ ٱلمعرفة، لِيستخلصَ من بينِ كُفْرٍ وإيمانٍ دِيناً طبيعيّاً سائغاً، يتناولُ الحياةَ أوّلَ ما يتناولُ فيضبِطُها بأسرارِ ٱلعِلْم، ويُوجِّهُها بالعِلْمِ إلى غايتِها ٱلصحيحة، ويُضاعِفُ قُواها بأساليبِهِ ٱلطبيعيَّة، لِيُحقِّقَ في إنسانيةِ العالَمِ هذه الشَّيئيَّةَ ٱلمجهولةَ التي تتوهَّمُها ٱلمذاهبُ الاجتماعيَّةُ العلميَّةِ بينَ يدي عُلمائها: لم يحقّقوها ولم يَيْأسوا منها، وبقيَتْ تلك ٱلمذاهبُ كعقاربِ الساعةِ في دَوْرَتِها: تبدأُ من حيثُ تبدأُ ثم لا تنتهي إلَّا إلى حيثُ تبدأ. . .

* * *

يضطربُ الاشتراكيون في أوروبا وقد عجزوا عجزَ مَنْ يُحاولُ تغييرَ ٱلإنسانِ

---

(١) يدّخر: يوفّر ويختزن.

(٢) يجليها: يكشفها. (٣) يشغب: يشوّش.

بزيادةٍ ونقصٍ في أعصابِه؛ ولا يزالُ مذهبُهُم في الدنيا مذهبَ كُتُبٍ ورسائل؛ ولو أنَّهم تدَبَّروا حِكمةَ ٱلصومِ في ٱلإسلام، لَرأَوْا هذا الشهرَ نِظاماً عمليًّا من أقوى وأبدعِ ٱلأنظمةِ ٱلاشتراكيَّةِ ٱلصحيحة: فهذا ٱلصومُ فَقْرٌ إجباريّ تَفرضُهُ ٱلشريعةُ على الناسِ فَرضاً لِيتساوَى الجميعُ في بواطِنِهم، سواءٌ منهم مَن مَلَكَ ٱلمليونَ مِنَ ٱلدنانير، ومَن ملكَ القِرشَ الواحد، ومَنْ لم يملكْ شيئاً؛ كما يتساوَى الناسُ جميعاً في ذهابِ كِبريائِهمُ ٱلإنسانيَّةِ بالصلاةِ ٱلتي يفرضُها ٱلإسلامُ على كلِّ مسلم؛ وفي ذهابِ تَفَاوُتِهمُ ٱلاجتماعِيِّ بِٱلحجّ الذي يفرضُهُ على مَنِ ٱستطاع.

فقرٌ إجباريٌّ يُرادُ بِهِ إشعارُ النفسِ ٱلإنسانيَّةِ بطريقةٍ عمليَّةٍ واضحةٍ كلَّ ٱلوضوح، أنَّ الحياةَ ٱلصحيحةَ وراءَ ٱلحياةِ لا فيها، وأنَّها إنَّما تكونُ على أتمِّها حين يتساوَى الناسُ في ٱلشعورِ لا حينَ يختلفون، وحينَ يتعاطَفُونَ بإحساسِ ٱلألمِ ٱلواحدِ لا حينَ يتنازَعونَ بإحساسِ ٱلأهواءِ ٱلمتعدِّدة.

ولو حقَّقْتَ لَرأيْتَ النـاسَ لا يختلفونَ في الإنسانيَّةِ بعقولهم، ولا بأنسابِهم، ولا بمراتبِهم، ولا بما ملكوا؛ وإنَّما يختلفون ببطونِهم وأحكامِ هذه البطونِ على ٱلعقلِ وٱلعاطفة؛ فمِنَ ٱلبطنِ نكبةُ ٱلإنسانيَّة، وهو ٱلعقلُ العمليُّ على الأرض؛ وإذا ٱختلفَ ٱلبطنُ وٱلدماغُ في ضرورةٍ، مدَّ البطنُ مَدَّهُ من قِوَى الهضمِ فلم يُبقِ ولم يَذَرْ.

ومن هٰهنا يتناولُهُ الصومُ بِٱلتهذيبِ وٱلتأديبِ وٱلتدريب، ويجعلُ الناسَ فيهِ سواءً: ليسَ لِجميعِهم إلَّا شعورٌ واحدٌ وحِسٌّ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ؛ ويُحْكِمُ ٱلأمرَ فيحولُ بينَ هذا البطنِ وبينَ ٱلمادة، ويُبالغُ في إحكامِهِ فيُمسِكُ حَواشيَهُ العصبيَّةَ في الجسمِ كلِّه يمنعُها تغذيتَها ولَذتَها حتى نَفْثَةً من دخينة[1].

وبهذا يضَعُ الإنسانيةَ كلَّها في حالةٍ نفسيَّةٍ واحدةٍ تَتَلَبَّسُ بها النفسُ في مشارقِ الأرضِ ومغارِبها، ويُطْلِقُ في هذه الإنسانيَّةِ كلِّها صوتَ الروحِ يُعلِّمُ الرحمةَ ويدعو إليها، فيُشْبعُ فيها بهذا الجوعِ فكرةً معيَّنةً هي كلُّ ما في مذهبِ الاشتراكيَّةِ مِنَ ٱلحقّ، وهي تلك الفكرةُ التي يَكونُ عنها مساواةُ الغنيّ لِلفقيرِ من طبيعتِهِ، وٱطمئنانُ الفقيرِ إلى الغنيّ بطبيعتِه؛ ومن هذينِ: (الاطمئنانِ والمساواةِ)، يكونُ هدوءُ الحياةِ بهدوءِ النفسينِ اللتينِ هما السَّلْبُ والإيجابُ في هذا الاجتماعِ ٱلإنسانيِّ؛ وإذا أنت

---

(١) الدخينة كلمة استعملها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي للسيجارة.

نزعَتَ هذه الفكرةَ مِنَ الاشتراكيَّةِ بقي هذا المذهبُ كلُّهُ عَبَثاً مِنَ العبَثِ في محاولةِ جعْلِ التاريخِ الإنسانيِّ تاريخاً لا طبيعةَ له.

* * *

من قواعدِ النفسِ أنَّ الرحمةَ تنشأُ عنِ ٱلألم، وهذا بعضُ السرِّ الاجتماعيِّ ٱلعظيمِ في ٱلصوم، إذْ يُبالِغُ أشدَّ المبالغة، ويدقِّقُ كلَّ التدقيق، في منعِ الغِذاء وشبهِ الغِذاءِ عنِ ٱلبطنِ وحواشيهِ مدةً آخرُها آخرُ ٱلطاعة؛ فهذه طريقَةٌ عمليَّةٌ لِتربيةِ الرحمةِ في النفس، ولا طريقةَ غيرُها إلَّا ٱلنكباتُ وٱلكوارث؛ فهما طريقتانِ كما ترى: مُبصِرةٌ وعمياء، وخاصةٌ وعامَّة، وعلى نِظامٍ وعلى فَجْأَة.

ومتى تحقَّقتْ رحمةُ الجائعِ الغنيِّ لِلجائعِ ٱلفقير، أصبحَ لِلكلمةِ ٱلإنسانيَّةِ الداخليَّة سلطانُها النافذ، وحَكمَ ٱلوازعُ[1] النفسِيُّ على ٱلمادة؛ فيسمعُ الغنيُّ في ضميرِهِ صوتَ الفقيرِ يقول: «أعطني». ثُمَّ لا يسمعُ منهُ طلباً مِنَ الرجاء، بل طلباً مِنَ الأمرِ لا مفرَّ من تلبيتِهِ والاستجابةِ لِمعانيه، كما يُواسي ٱلمبتَلَى مَنْ كانَ في مثلِ بلائهِ.

أيةُ معجزةٍ إصلاحيَّةٍ أعجبُ من هذه المعجزةِ الإسلاميَّةِ التي تقضي أنْ يُحذَفَ مِنَ الإنسانيَّةِ كلِّها تاريخُ البطنِ ثلاثينَ يوماً في كلِّ سنة، لِيحِلَّ في محلِّهِ تاريخُ النفس؟ وأنا مُستيقِنٌ أنَّ هناك نسبةً رياضيَّةً هيَ ٱلحِكمةُ في جعلِ هذا الصومِ شهراً كاملاً من كلِّ ٱثني عشرَ شهراً، وأنَّ هذه النسبةَ متحقِّقةٌ في أعمالِ ٱلنفسِ لِلجسم، وأعمالِ ٱلجسمِ لِلنفس؛ كأنَّهُ ٱلشهرُ الصِّحيُّ ٱلذي يفرضُهُ الطِّبُّ في كلِّ سنةٍ لِلراحةِ وٱلاستجمام[2] وتغييرِ ٱلمعيشة، لِأحداثِ ٱلترميمِ العصبيِّ في ٱلجسم، ولَعلَّ ذلك آتٍ مِنَ العلاقةِ بينَ دَوْرةِ الدمِ في ٱلجسمِ ٱلإنسانيِّ وبينَ ٱلقمرِ منذُ يكونُ هِلالاً إلى أنْ يدخلَ في ٱلمُحَاق؛ إذ تنتفخُ العروقُ وتَربو في النصفِ الأولِ مِنَ ٱلشهر، كأنَّها في (مَدّ) من نورِ القمرِ ما دام هذا النورُ إلى زيادة، ثم يُراجعُها (الجَزْرُ) في النصفِ الثاني حتى كأنَّ لِلدمِ إضاءةً وظلاماً. وإذا ثبَتَ أنَّ لِلقمرِ أثراً في الأمراضِ ٱلعصبيَّة، وفي مدِّ الدمِ وجَزرِهِ[3]، فهذا من أعجبِ ٱلحِكمةِ في أنْ يكونَ الصيامُ شهراً قمريًّا دونَ غيره.

---

(١) الوازع: الرّادع.

(٢) الاستجمام: الراحة.

(٣) الجزر: انحسار ماء البحر وانخفاضه عكس المدّ.

وفي ترائي الهلالِ ووجوبِ الصومِ لِرؤيتِهِ معنًى دقيقٌ آخر، وهو ـ مع إثباتِ رؤيةِ ٱلهلالِ وإعلانِها ـ إثباتُ الإرادةِ وإعلانُها، كأنَّما ٱنبعثَ أولُ الشعاعِ السماويِّ في التنبيهِ الإنسانيِّ العامِّ لِفروضِ ٱلرحمةِ وٱلإنسانيَّةِ وٱلبرّ.

وهنا حِكمةٌ كبيرةٌ من حِكَمِ ٱلصوم، وهي عملُهُ في تربيةِ ٱلإرادةِ وتقويتِها بهذا الأسلوبِ ٱلعمليّ، ٱلذي يُدَرِّبُ الصائمَ على أن يمنعَ باختيارهِ من شهواتِهِ ولذّةِ حيوانيتِه، مُصِرًّا على ٱلامتناع، مُتَهيِّئاً لَهُ بعزيمتِه، صابراً عليهِ بأخلاقِ ٱلصبر، مُزاوِلاً في كلِّ ذلك أفضلَ طريقةٍ نفسيَّةٍ لاِكتسابِ ٱلفكرةِ الثابتةِ ترسَخُ لا تتغيَّرُ ولا تتحوَّل، ولا تعدو عليها عوادي ٱلغريزة.

وإدراكُ هذه القوَّةِ مِنَ ٱلإرادةِ ٱلعمليَّةِ منزلةٌ ٱجتماعيةٌ سامية، هي في ٱلإنسانيَّةِ فوقَ منزلةِ ٱلذكاءِ والعِلْم، ففي هذين تعرضُ ٱلفكرةُ مارّةً مُرورَها، ولكنَّها في ٱلإرادةِ تعرِضُ لِتستقرّ وتتحقَّق. فانظرْ في أي قانونٍ مِن ٱلقوانين، وفي أيَّةِ أمَّةٍ مِنَ الأمم، تجدُ ثلاثينَ يوماً من كلِّ سنةٍ قد فُرِضَتْ فرضاً لِتربيةِ إرادةِ الشعبِ ومزاولتِهِ فكرةً نفسيّةً واحدةً بخصائصِها ومُلابساتِها حتى تستقرَّ وترسخَ وتعودَ جزءاً من عملِ ٱلإنسان، لا خيالاً يمرُّ برأسِهِ مَرًّا.

أليَستْ هذه هي إتاحةَ[1] الفرصةِ العمليَّةِ التي جعلوها أساساً في تكوينِ الإرادة؟ وهل تبلغُ الإرادةُ فيما تبلغ، أعلى من منزلتِها حينَ تجعلُ شهواتِ المرءِ مُذْعِنةً لِفكرِه، مُنقادةً لِلوازعِ النفسيّ فيه، مُصَرَّفَةً بِالحسِّ الدينيِّ المسيطِرِ على النفسِ ومشاعِرِها.

أمَا ـ والله ـ لو عمَّ هذا الصومُ الإسلاميُّ أهلَ ٱلأرضِ جميعاً، لآلَ معناهُ أَنْ يكونَ إجماعاً مِنَ ٱلإنسانيَّةِ كلِّها على إعلانِ الثورةِ شهراً كاملاً في السنة، لِتطهيرِ العالمِ من رذائلهِ وفسادِه، ومَحْقِ[2] الأثَرَةِ والبخلِ فيه، وطَرْحِ المسألةِ النفسيَّةِ لِيتدَارَسَها أهلُ الأرضِ دِراسةً عمليَّةً مدةَ هذا الشهرِ بطولِه، فيَهبطُ كلُّ رجُلٍ وكلُّ ٱمرأةٍ إلى أعماقِ نفسِهِ ومَكامِنِها، لِيختبرَ في مصنعِ فكرِهِ معنى ٱلحاجةِ ومعنى الفقر، ولِيفهمَ في طبيعةِ جسمِه ـ لا في الكتب ـ معانيَ الصبرِ والثباتِ والإرادة، ولِيبلغَ من ذلك وذلك درجاتِ الإنسانيَّةِ والمواساةِ والإحسان؛ فيُحقِّقُ بهذه وتلك معانيَ ٱلإخاءِ والحريَّةِ وٱلمساواة.

---

(١) إتاحة: إفساح المجال.　　(٢) محق: محو.

شهرٌ هو أيامٌ قلبيَّةٌ في الزمن؛ متى أشرفَتْ على الدنيا قالَ الزمنُ لِأهلِه: هذه أيامٌ من أنفسِكم لا من أيامي، ومن طبيعتِكم لا من طبيعتي؛ فيُقْبِلُ ٱلعالَمُ كلُّهُ على حالةٍ نفسيَّةٍ بالغةِ السموّ، يتعهَّدُ فيها النفسَ برياضتِها على معالي الأمورِ ومكارمِ الأخلاق، ويفهمُ الحياةَ على وجهٍ آخرَ غير وجهِها الكالح، ويراها كأنَّما أجِيعَتْ من طعامِها ٱليوميّ كما جاعَ هو، وكأنَّما أُفْرِغَتْ من خَسائِسها وشهواتِها كما فَرَغَ هو، وكأنَّما أُلْزِمَتْ معانيَ ٱلتقوى كما أُلْزِمَها هو. وما أجملَ وأبدعَ أنْ تَظهرَ ٱلحياةُ في العالمِ كلِّهِ ـ ولو يوماً واحداً ـ حاملةً في يدِها السُّبْحة. . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كلِّ سنة؟

إنَّها ـ واللَّهِ ـ طريقةٌ عمليةٌ لِرسوخِ فكرةِ الخيرِ والحقِّ في النفس؛ وتطهيرِ ٱلاجتماعِ من خسائسِ ٱلعقلِ ٱلماديّ؛ وردٌّ هذه الطبيعةِ الحيوانيَّةِ المحكومةِ في ظاهرِها بالقوانين، والمحرَّرةِ مِنَ القوانين في باطنِها ـ إلى قانونٍ من باطنِها نفسِهِ يُطهِّرُ مَشَاعرَها، ويسمو بإحساسِها، ويَصْرِفُها إلى معاني إنسانيَّتِها، ويُهذِّبُ من زياداتِها، ويحذفُ كثيراً من فُضُولها، حتى يرجعَ بها إلى نحوٍ من بَراءةِ ٱلطفولة، فيجعلَها صافيةً مُشْرِقةً بما يجتذبُ إليها من معاني الخيرِ والصفاءِ وٱلإشراقِ؛ إذْ كانَ من عملِ الفكرةِ الثابتةِ في ٱلنفسِ أنْ تدعوَ إليها ما يُلائمُها ويتَّصِلَ بطبيعتِها منَ الفِكَرِ الأخرى. والنفسُ في هذا الشهرِ مُحْتَبَسَةٌ في فكرةِ الخيرِ وحدَها، فهي تبني بناءَها من ذلك ما ٱستطاعَتْ.

هذا على الحقيقةِ ليسَ شهراً مِنَ الأشهر، بل هو فصلٌ نَفسانِيٌّ كفصولِ الطبيعةِ في دَوَرَانها؛ ولَهُوَ ـ واللَّهِ ـ أشبهُ بفصلِ الشتاءِ في حلولهِ على الدنيا بالجوِّ الذي من طبيعتِهِ ٱلسحُبُ وٱلغَيث، ومن عملِهِ إمدادُ ٱلحياةِ بوسائلَ لَها ما بعدَها إلى آخرِ السنة، ومن رياضتِهِ أنْ يُكْسِبَها ٱلصلابةَ وٱلانكماشَ وٱلخِفَّة، ومن غايتِهِ إعدادُ الطبيعةِ لِلتفتُّحِ عن جمالِ باطنِها في ٱلربيعِ الذي يتلوه.

وعجيبٌ جدًّا أنَّ هذا الشهرَ الذي يَدَّخِرُ فيهِ الجسمُ من قُواهُ المعنويَّةِ فيُودِعُها مَصْرِفَ روحانيَّتِه، لِيجدَ منها عندَ الشدائدِ مَدَدَ ٱلصبرِ وٱلثباتِ والعزمِ والجَلدِ والخشونةِ ـ عجيبٌ جدًّا أنَّ هذا الشهرَ الاقتصاديَّ هو من أيام السنةِ كفائدة $\frac{1}{3}$ ٨ في المائة. . . فكأنَّهُ يُسجِّلُ في أعصابِ المؤمنِ حسابَ قوَّتِهِ وربحِهِ فلَهُ في كلِّ سنةٍ زيادة $\frac{1}{3}$ ٨ من قوّتِهِ المعنويَّةِ الرُّوحانيَّة.

وسحْرُ العظائمِ في هذه الدنيا إنَّما يكونُ في الأمَّةِ التي تعرفُ كيفَ تَدَّخرُ هذه

القوّةَ وتُوفِّرُها لِتستمدّها عندَ الحاجة، وذلك هو سِرُّ أسلافِنا الأولينَ الذينَ كانوا يجدون على الفقرِ في دِمائِهم وأعصابِهم ما تجدُ الجيوشُ العظمى ٱليومَ في مخازنِ العَتادِ والأسلحةِ والذخيرة.

* * *

كلُّ ما ذكرْتُهُ في هذا المقالِ من فلسفةِ الصوم؛ فإنَّما ٱستخرجْتُهُ من هذه الآيةِ الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وقد فهمها العلماءُ جميعاً على أنَّها معنى «التقوى»، أمَّا أنا فأوَّلْتُها من «الاتِّقاء»؛ فبالصوم يتَّقِي ٱلمرءُ على نفسِهِ أنْ يكونَ كالحيوانِ الذي شريعتُهُ مَعِدَتُه، وألّا يُعامِلَ الدنيا إلّا بموادِّ هذه الشريعة؛ ويتَّقِي ٱلمجتمعُ على إنسانيَّتِهِ وطبيعتِهِ مثلَ ذلك، فلا يكونُ إنسانٌ مَعَ إنسانٍ كحمارٍ معَ إنسانٍ: يبيعُهُ القوَّةَ كلَّها بالقليل مِنَ ٱلعَلَف.

وبالصوم يتَّقي هذا وهذا ما بينَ يديه وما خلفَه، فإنَّ ما بينَ يديهِ هو الحاضرُ من طباعِهِ وأخلاقِهِ، وما خَلْفَهُ هوَ الجِيلُ الذي سَيرِثُ من هذه الطبّاعِ والأخلاق، فيعملُ بنفسِهِ في الحاضر، ويعملُ بِالحاضرِ في الآتي.

وكلُّ ما شرحْنَاهُ فهو ٱتقاءُ ضررٍ لِجلْبِ منفعة، وٱتقاءُ رذيلةٍ لِجلبِ فضيلة؛ وبهذا التأويلِ تتوجَّهُ ٱلآيةُ ٱلكريمةُ جهةً فلسفيَّةً عاليَّةً، لا يأتي البيانُ ولا العِلْمُ ولا الفلسفةُ بأوجزَ(١) ولا أكملَ من لفظِها؛ ويتوجَّهُ الصيامُ على أنَّهُ شريعةٌ ٱجتماعيَّةٌ إنسانيَّةٌ عامَّة؛ يتَّقي بها ٱلاجتماعُ شرورَ نفسِه؛ ولنْ يتهذَّبَ العالَمُ إلّا إذا كانَ لَهُ مَعَ القوانينِ النافذةِ هذا القانونُ العامُّ الذي ٱسمُهُ الصومُ، ومعناه «قانونُ البطن».....

ألا ما أعظمَكَ يا شهرَ رمضان! لو عَرَفَكَ العالَمُ حقَّ معرفتِكَ لَسَمَّاكَ: «مدرسة الثلاثين يوماً».

---

(١) أوجز: أخصر، أبلغ.

ثباتُ الأخلاق

لو أنَّني سُئلْتُ أنْ أُجمِلَ فلسفةَ الدينِ الإسلاميِّ كلَّها في لفظين، لقلْتُ: إنَّها ثباتُ الأخلاقِ «ولو سُئل أكبرُ فلاسفةِ الدنيا أنْ يُوجِزَ علاجَ الإنسانيَّةِ كلَّهُ في حرفين، لَمَا زاد على القول: إنَّهُ ثباتُ الأخلاق. ولوِ ٱجتمعَ كلُّ علماءِ أوربا لِيدرسوا المدنيةَ الأوربيَّةَ ويَحصُرُوا ما يُعْوِزُها في كلمتينِ لقالوا: ثباتُ الأخلاق.

فليسَ ينتظرُ العالَمُ أنبياءَ ولا فلاسفةً ولا مُصلحينَ ولا علماءَ يُبدعونَ لَهُ بِدْعاً جديداً؛ وإنَّما هو يترقَّبُ[1] مَنْ يستطيعُ أنْ يفسرَ لَهُ الإسلامَ هذا التفسير، ويُثبِتَ لِلدنيا أنَّ كلَّ ٱلعِباداتِ الإسلاميَّةِ هي وسائلُ عمليَّةٌ تمنعُ ٱلأخلاقَ ٱلإنسانيَّةَ أنْ تتبدَّلَ في الحيّ فيخلعَ منها ويَلبَسَ، إذا تبدلَتْ أحوالُ الحياةِ فصعِدَتْ بإنسانِها أو نزلت؛ وأنَّ الإسلامَ يأبَى على كلِّ مسلم أنْ يكونَ إنسانَ حالتِهِ التي هو فيها مِنَ الثروةِ أو ٱلعُلُوم، ومنَ الارتفاعِ أوِ الضَّعَةِ[2]، ومن خمولِ المنزلةِ أو نبَاهتِها[3]؛ ويُوجبُ على كلِّ مسلمٍ أنْ يَكون إنسانَ الدرجةِ التي ٱنتهى إليها ٱلكونُ في سموِّهِ وكمالِه، وفي تقلُّبِهِ على مَنازِلِهِ بعدَ أنْ صُفِّيَ في شريعةٍ بعدَ شريعة، وتجربةٍ بعدَ تجربة، وعِلْمٍ بعدَ عِلْم.

انتَهتِ ٱلمدنيَّةُ إلى تبدُّلِ ٱلأخلاقِ بتبدُّلِ أحْوالِ ٱلحياة، فمَنْ كانَ تقيًّا على ٱلفقرِ وٱلإملاقِ[4] وحَرَمَهُ ٱلإعسارُ[5] فُنونَ اللذة، ثُمَّ أيسرَ من بعدُ؛ جازَ لَهُ أنْ يكونَ فاجراً على الغِنى وأنْ يتسمَّحَ لِفُجورِهِ على مَدِّ ما يتطوَّحُ بهِ ٱلمال، وإنْ أصبَحَ في كلِّ دينارٍ من مالِهِ شقاءُ نفسٍ إنسانيَّةٍ أو فسادُها.

ومَنْ وُلِدَ في بطنِ كُوخ، أو على ظَهرِ الطريق، وجبَ أنْ يبقى أرضاً إنسانيَّة؛ كأنَّ ٱللَّهَ (سبحانَهُ) لم يَبْنِ من عظامِهِ ولحمِه وأعصابِهِ إلَّا خَرِبةً آدميةً من غيرِ هندسةٍ

---

(١) يترقَّب: ينتظر.

(٢) الضَّعة: المذلة.

(٣) نباهتها: علو منزلتها.

(٤) الإملاق: الفقر الشديد المدقع.

(٥) الإعسار: الفقر.

ولا نظام ولا فنّ. . . ثُمَّ يُقابلُهُ مَن وُلِدَ في القصرِ أو شبهِ ٱلقصرِ فلهُ حكمٌ آخر، كأنَّ الله (سبحانَه) قد ركَّبَ من عظمِهِ ودمِهِ وتكوينِه آيةً هندسيةً وأعجوبةَ فنٍّ، وطُرْفَةَ تدبيرٍ، وشيئاً معَ شيء، وطبقةً على طبقة.

ولكنَّ الإسلامَ يُقرِّرُ ثَباتَ ٱلخُلُقِ ويُوجبُهُ ويُنشىءُ النفسَ عليه، ويجعلُهُ في حِياطةِ المجتمعِ وحِراستِه، لأنَّ هناك حدوداً في الإنسانيَّةِ تتميزُ بحدودٍ في ٱلحياة، ولا بدَّ مِنَ ٱلضبطِ في هذه وهذه، حتى لا يكونَ وَضْعٌ إلَّا وراءَهُ تقدير، ولا تقديرٌ إلَّا معَهُ حِكمة، ولا حِكمةٌ إلَّا فيها مصلحة؛ وحتى لا تعلوَ ٱلحياةُ ولا تنزلَ إلا بمثلِ ما ترى من كِفَّتَيْ ميزانٍ شُدَّتا في عَلَاقةٍ تجمعُهما وتحرِّكُهما معاً، فهي بذاتِها هي التي تنزلُ بالنازلِ لتَدُلَّ عليه، وتَشِيلُ بالعالي لِتبينَ عنه؛ فالإسلامُ مِنَ المدنيَّةِ هو مدنيَّةُ هذه المدنيَّة.

* * *

إنَّها لنْ تتغيرَ مادةُ ٱلعظمِ وٱللحمِ وٱلدمِ في ٱلإنسانِ فهي ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه، ولنْ تتبدلَ ٱلسُّنَنُ الإلهيةُ التي تُوجدُها وتُفنيها فهي مُصرِّفةٌ لها قاضيةٌ عليها، وبينَ عملِ هذه المادةِ وعملِ قانونِها، فيها تكونُ أسرارُ التكوين: وفي هذه الأسرارِ تجدُ تاريخَ الإنسانيَّةِ كلَّه سابحاً في الدم.

هي الغرائزُ تعملُ في الإنسانيَّةِ عمَلَها الإلهي، وهي محدَّدةٌ محكمَةٌ على ما يكونُ من تَعاديها وٱختلافِ بينِها، وكأنها خُلِقَتْ بمجموعِها لِمجموعِها؛ ومن ثَمَّ يكونُ الخُلُق الصحيحُ في معناهُ قانوناً إلهيًّا على قوةٍ كقوةِ الكوْنِ وضبطٍ كضبطِه.

وبهذِه القوةِ وهذا الضبطِ يستطيعُ ٱلخُلُق أنْ يحوِّلَ ٱلمادةَ التي تُعارضُهُ إذا هوَ ٱشتدَّ وصَلُب، ولكنَّهُ يتحوَّلُ معها إذا هو لَانَ أو ضعُف. فهو قَدَرٌ إلَّا أنَّهُ في طاعتِك، إذْ هو قوةُ الفصْلِ بين إنسانيتكِ وحيوانيتِك، كما أنَّهُ قوةُ المَزْجِ بينَهما، كما أنَّهُ قوةُ التعديلِ فيهما، وقد سَوَّغَ[1] القُدرةَ على هذه الأحوالِ جميعاً، ولولا أنَّهُ بهذه المثابةِ لَعاشَ الإنسانُ طولَ التاريخِ قبلَ التاريخ، إذْ لن يكونَ لَهُ حينئذٍ كَوْنٌ تؤرِّخُ فضائلُهُ أو رذائلُهُ بمدحٍ أو ذَمّ.

فلا عِبرةَ[2] بمظْهرِ ٱلحياةِ في ٱلفرد، إذِ ٱلفردُ مقيدٌ في ذاتِ نفسِه بمجموعٍ هو

(١) سوَّغ: علَّل وسمح.
(٢) عِبرة، بكسر العين: الدرس والأمثولة.

لِلمجموعِ وليسَ لَهُ وحدَه: فإنَّك ترى ٱلغرائزَ دائبةً[1] في إيجادِ هذا الفردِ لِنوعِهِ بسُننٍ من أعمالِها، ودائبةً كذلك في إهلاكِهِ في ٱلنوعِ نفسِهِ بسُننٍ أخرى؛ فليسَ قانونُ ٱلفردِ إلَّا أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يُمكنُ أنْ يتحوَّلَ الفردُ على أسبابٍ مختلفة، ثم تبقى ٱلأخلاقُ التي بينَهُ وبينَ ٱلمجموعِ ثابتةً على صورتِها.

فالأخلاقُ على أنَّها ٱلأفراد، هي في حقيقتِها حُكْمُ ٱلمجتمعِ على أفرادِه؛ فقِوامُها بٱلاعتبارِ ٱلاجتماعيِّ لا غير.

* * *

وحينَ يقعُ الفسادُ في ٱلمُجْمَعِ عليهِ من آدابِ ٱلناسِ، ويلْتوي ما كانَ مستقيماً، وتَشْتَبِهُ ٱلعاليةُ وٱلسافِلَة[2]، وتُطَّرَحُ[3] ٱلمبالاةُ بِٱلضمير ٱلاجتماعيّ، ويقومُ وزنُ ٱلحكم في ٱجتماعِهم على ٱلقبيحِ وٱلمنكَر، وتجري ٱلعِبْرَةُ فيما يعتبرونَهُ بٱلرذائلِ وٱلمحرَّمات، ولا يُعجِبُ الناسَ إلَّا ما يُفسِدُهُم، ويقعُ ذلك منهم بموقعِ ٱلقانونِ ويَحِلُّ في محلِّ ٱلعادة؛ فهناك لا مِساكَ لِلخُلُقِ ٱلسليم على فرد، ولا بدَّ من تحوُّلِ الفردِ في حقيقتِه؛ إذْ كانَ لا يجيءُ أبداً إلَّا مُتَصَدِّعاً[4] في كلِّ مظاهرِهِ ٱلاجتماعيَّة، فأينما وقعَ من أعمالِ ٱلناسِ جاءَ مكسوراً أو مثلوماً، وكأنَّهُ منتقِلٌ من عالَمٍ إلى عالمٍ ثانٍ بغيرِ نواميسِ الأول.

وما شذَّ من هذه القاعدةِ إلَّا الأنبياءُ وأفرادٌ مِنَ ٱلحكماء؛ فأمَّا أولئك فهم قوةُ ٱلتحويلِ في تاريخِ ٱلإنسانيَّة: لا يُبعَثُ أحدُهم إلا لِيهَيجَ بهِ الهَيْجُ في التاريخ، ويتطرَّقَ بهِ الناسُ إلى سُبُلٍ جديدةٍ كأنَّما تطردُهُم إليها ٱلعواصفُ وٱلزلازلُ وٱلبراكينُ، لا شريعتُهُ ومبادئُهُ وآدابُه؛ وأمَّا ٱلحُكماءُ ٱلناضجونَ فيهم دائماً في هذه الإنسانيَّةِ أمكنةٌ بشريَّةٌ مُحَصَّنةٌ لِحفظِ كنوزِها وإحرازِها في أنفسِهِم، فلهم في ذاتِ أنفسِهِم عِصْمةٌ ومَنَعَةٌ كالجبالِ في ذاتِ ٱلأرض.

* * *

الأخلاقُ في رأيي هي ٱلطريقةُ لِتنظيمِ ٱلشخصيَّةِ ٱلفرديَّةِ على مقتضى ٱلواجباتِ ٱلعامّة، فالإصلاحُ فيها إنّما يكونُ من عملِ هذه الواجبات، أي من ناحيةِ ٱلمجتمعِ والقائمينَ على حُكمِه. وعندي أنَّ للشعب ظاهراً وباطناً؛ فباطِنُهُ هو الدينُ

---

(١) دائبة: مستمرة بطلبها.

(٢) السافلة: الرعاع.

(٣) تُطَّرح: تُرمى وتُتجاهل.

(٤) متصدعاً: متهدماً.

الذي يَحكم ٱلفردَ، وظاهرُهُ هو القانونُ الذي يحكمُ الجميع، ولن يصلُحَ لِلباطنِ ٱلمتصلِ بٱلغيبِ إلَّا ذلك ٱلحكمُ ٱلدينيُّ ٱلمتصِلُ بِالغيبِ مثلَه؛ ومن هنا تتبيَّنُ مواضعُ ٱلاخْتِلَالِ في المَدَنيَّةِ الأوربيَّةِ الجديدة؛ فهي في ظاهرِ ٱلشعبِ دونَ باطنِه، والفردُ فاسِدٌ بها في ذاتِ نفسِهِ إذا هو تحلَّلَ مِنَ الدين، ولكنَّهُ معَ ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهرِهِ ٱلاجتماعيِّ بالقوانينِ وبالآدابِ العامةِ التي تفرضُها ٱلقوانين، فلا يبرحُ هازئاً مِنَ ٱلأخلاقِ ساخراً بها؛ لأنَّها غيرُ ثابتةٍ فيه، ثُمَّ لا تكونُ عندَهُ أخلاقاً يَعتَدُّ بها إلَّا إذا درَّتْ بها منافعُه، وإلَّا فهي ضارَّةٌ إذا كانَتْ منها مَضَرَّة، وهي مؤلمةٌ إذا حالَتْ دونَ ٱللذات. ولا ينفكُّ هذا الفردُ يتحولُ لأنَّهُ مطلَقٌ في باطنِهِ غيرُ مقيَّدٍ إلَّا بأهوائِهِ ونزعاتِه، وكلمَتَا الفضيلةِ والرذيلةِ معدومتانِ في لغةِ ٱلأهواءِ والنزَعات؛ إذِ ٱلغايةُ ٱلمتاعُ واللذةُ والنجاحُ، ولْيكُنِ ٱلسببُ ما هو كائن. . .

وبهذا فلَنْ تقومَ ٱلقوانينُ في أوربا إذا فَنِيَ المؤمنونَ بالأديانِ فيها أو كاثَرهمُ[1] ٱلملحدون، وهُمُ اليومَ يُبْصرونَ بأعينِهم ما فعلَتْ عقيلةُ ٱلحربِ العظمى في طوائفَ منهم قد خَرِبَتْ أنفُسُهم من إيمانِهم فتحولوا ذلك التحوُّلَ الذي أومأْنا إليه، فإذا أعصابُهم بعدَ الحربِ ما تزالُ محاربةً مقاتلةً ترمي في كلِّ شيءٍ برُوحِ ٱلدم وٱلأشلاءِ والقبورِ والتعفُّنِ والبِلَى. . . وٱنتهَتِ ٱلحربُ بينَ أممٍ وأمم، ولكنها بدأَتْ بين أخلاقٍ وأخلاقٍ.

وقديماً حاربَ المسلمون، وفتحوا العالم، ودوَّخوا الأمم؛ فأثبتوا في كلِّ أرضٍ هَدْيَ دينِهِم وقوةَ أخلاقِهِمُ ٱلثابتة، وكانَ من وراءِ أنفسِهِم في ٱلحربِ ما هو من ورائِها في السِّلم، وذلك بثباتِ باطنِهِمُ الذي لا يتحوّل، ولا تستخِفُّهُ ٱلحياةُ بنزَقِها، ولا تسفَّهُهُ[2] ٱلمدنيَّاتُ فتحملُهُ على الطيش.

ولو كانوا هَمْ أهلَ هذه الحربِ الأخيرةِ بكلِّ ما قَذَفَتْ بهِ الدنيا. لَبقيَتْ لهمُ ٱلعقليةُ ٱلمؤمنةُ ٱلقويَّة، لأنَّ كلَّ مسلم فإنَّما هوو عقيلتُهُ في سلطانِ باطنِهِ ٱلثابتِ القارِّ على حدودٍ بيِّنةٍ مُحصَّلةٍ مقسومةٍ، تحوطُها وتُمسكُها أعمالُ الإيمانِ ٱلتي أحكمَها ٱلإسلامُ أشدَّ إحكام بفَرْضِها على النفوسِ منوَّعةً مكررةً: كالصلاةِ وٱلصوم وٱلزكاة، لِيمنعَ بها تغيُّراً ويُحدِثَ بها تغيُّراً آخر، ويجعلَها كالحارسةِ لِلإرادةِ ما تزالُ تمرُّ بها وتتعهدُها بينَ ٱلساعةِ والساعة.

إنَّما ٱلظاهرُ وٱلباطنُ كٱلموجِ وٱلساحل؛ فإذا جُنَّ ٱلموجُ فلنْ يَضِيرَهُ ما بقيَ

---

(١) كاثرهم: فاخرهم بكثرته. (٢) تسفهه: تنزل به إلى الحضيض.

ٱلساحلُ ركيناً هادئاً مشدُوداً بأَعْضَادِهِ في طبقاتِ ٱلأرض. أمَّا إذا ماجَ الساحل... فذلك أسلوبٌ آخرُ غيرُ أسلوبِ ٱلبحارِ وٱلأعاصير؛ ولا جَرَمَ[1] ألَّا يكونَ إلَّا خَسْفاً بالأرضِ وٱلماءِ وما يتَّصلُ بهما.

* * *

في ٱلكونِ أصلٌ لا يتغيرُ ولا يتبدَّل، هو قانونُ ضبطِ ٱلقوَّةِ وتصريفِها وتوجيهِها على مُقتضى ٱلحِكْمة. ويُقابلُهُ في ٱلإنسانِ قانونٌ مثلُهُ لا بدَّ منه لِضبطِ معاني ٱلإنسانِ وتصريفِها وتوجيهِها على مُقتضى ٱلكمال. وكلُّ فروضِ ٱلدينِ ٱلإسلاميِّ وواجباتُهُ وآدابُه، إنْ هي إلَّا حركةُ هذا القانونِ في عملِه؛ فما تلك إلَّا طُرُقٌ ثابتةٌ لِخَلْقِ الحِسِّ الأدبيِّ، وتثبيتِه بِٱلتكرار، وإدخالِهِ في ناموسٍ طبيعيٍّ بإجرائِهِ في الأنفُسِ مَجرى العادة، وجعلِهِ بكلِّ ذلك قوةً في باطنِها، فتُسمَّى الواجباتُ والآدابُ فروضاً دينيَّةً؛ وما هي في الواقعِ إلَّا عناصرُ تكوينِ ٱلنفسِ العالية، وتكونُ أوامرَ وهي حقائق.

ومن ذلك أرانا ـ نحنُ الشرقيينَ ـ نمتازُ على الأوربيينَ بأنَّنا أقربُ منهم إلى قوانينِ الكون؛ ففي أنفسِنا ضوابطُ قويَّةٌ متينةٌ إذا نحنُ أقرَرْنا مدينتَهم فيها ـ وهي بطبيعتِها لا تقبلُ إلَّا محاسنَ هذه المدنية ـ سبقناهم وتركْنا غبارَ أقدامنا في وجوهِهم، وكنَّا ٱلطبقةَ المُصَفَّاةَ التي يَنْشُدونَها[2] في إنسانيتِهِمُ ٱلراهنةِ[3] ولا يجدونَها، ونمتازُ عنهم من جِهةٍ أخرى بأنَّنا لم نُنْشِئ هذه المدنيَّةَ ولم تُنشِئْنا، فليسَ حقًّا علينا أنْ نأخذَ سيئاتِها من حسناتِها، وحماقَتها في حِكمتِها، وتزويرَها في حقيقتِها؛ وأنْ نُسيغَ[4] منها ٱلحُلوةَ وٱلمُرَّة، وٱلناضجةَ والفجَّة؛ وإنَّما نحن نُحَصِّلُها ونقتبسُها ونَرتَجِعُ منها ٱلرَّجْعَةَ ٱلحسنةَ؛ فلا نأخذُ إلَّا الشيءَ ٱلصالحَ مكانَ الشيءِ قدْ كانَ دونَهُ عندَنا ونَدَعُ ما سوى ذلك؛ ثُمَّ لا نأخذُ ولا نَدَعُ إلَّا على الأصولِ الضابطةِ المحكمةِ في أديانِنا وآدابِنا؛ ولَسْنا مثلَهُم متصلينَ من حاضرِ مدنيتِهِم بمثلِ ماضيهم، بيدَ أنَّ العجَبَ الذي ما يفرغُ عَجبي منه، أنَّ الموسومِيْنَ[5] مِنَّا بالتجديدِ لا يُحاولونَ أولَ وَهْلةٍ وآخرَها إلَّا هدمَ تلك الضوابطِ التي هي كلُّ ما نمتازُ بِه، والتي هي كذلك كلُّ ما تحتاجُ إليهِ أوربا لِضبطِ مدنيتِها؛ ويسمون ذلك تجديداً، ولَهُوَ بأنْ يسمَّى حماقةً وجَهْلاً أولى وأحقّ.

---

(١) لا جرمَ: لا شكَّ.
(٢) ينشدونها: يطلبونها.
(٣) الراهنة: الحالية.
(٤) نُسيغ: نجد طعم.
(٥) الموسومِيْنَ: المعروفين بطابع التجديد.

أقولُ ولا أُبالي: إنّنا ٱبتُلِينا في نهضتِنا هذه بقومٍ منَ ٱلمترجمينَ قدِ ٱحترفوا[1] النقلَ من لغاتِ أوربا، ولا عقلَ إلّا عقلُ ما ينقلونَه: فصَنَعْتُهمُ ٱلترجمةُ من حيثُ يدرونَ أو لا يدرونَ صنعةُ تقليدٍ مَحْضٍ ومُتَابَعةٍ مُسْتعبَدة، وأصبحَ عقلُهم ـ بحكمِ ٱلعادةِ وٱلطبيعة ـ إذا فكَّر ٱنجذَبَ إلى ذلك الأصلِ لا يخرجُ عليهِ ولا يتحوَّلُ عنه. وإذا صحَّ أنَّ أعمالَنا هي التي تَعملُنا ـ كما يقولُ بعضُ ٱلحُكماءِ ـ فهم بذلك خطَرٌ أيُّ خطرٍ على الشعبِ وقوميتِهِ وذاتيتِهِ وخصائصِه، ويُوشِكُ إذا هو أطاعَهم إلى كلِّ ما يدعُون إليهِ أنْ. . . أنْ يترجمُوه إلى شعبٍ آخر. . .

* * *

إنَّ أوربا ومدنيَّتَها لا تُساوِي عندَنا شيئاً إلَّا بمِقدارِ ما تُحقِّقَ فينا منِ ٱتساعِ ٱلذاتيَّة بعلومِها وفنونِها، فإنَّما الذاتيَّةُ وحدَها هي أساسُ قوّتِنا في ٱلنزاعِ العالميِّ بكلِّ مظاهرِهِ أيًّها كان؛ ولها وحدَها، وبٱعتبارٍ منها دونَ سواها، نأخذُ ما نَأخذُهُ من مدنيَّةِ أوربا ونُهملُ ما نُهمل؛ ولا يجوزُ أنْ نتركَ ٱلثبتَ في هذا ولا أنْ نتسامَحَ في دقةِ المحاسبَةِ عليه.

فٱلمحافظةُ على ٱلضوابطِ ٱلإنسانيَّةِ ٱلقويَّةِ ٱلتي هي مظاهرُ ٱلأديانِ فينا، ثُمَّ إدخالُ ٱلواجباتِ ٱلاجتماعيَّةِ ٱلحديثة في هذه الضوابطِ لِربطِها بالعصرِ وحضارتِه، ثُمَّ تنسيقُ مظهرِ الأمَّةِ على مُقتضى هذه الواجباتِ والضوابط، ثُمَّ العملُ على ٱتحادِ المشاعرِ وتمازُجِها لِتقويمِ هذا ٱلمظهرِ الشعبيِّ في جملتِهِ بتقويمِ أجزائِه ـ هذه هي الأركانُ الأربعةُ التي لا يقومُ على غيرِها بناءُ الشرق.

والإلحادُ والنزعاتُ السافلةُ وتخانيثُ المدنيَّةِ الأوربيَّةِ التي لا عملَ لَها إلَّا أنْ تُظْهِرَ الخَطَرَ في أجملِ أشكالِه. . . ثُمَّ ٱلجهلُ بعلومِ القوَّةِ الحديثةِ وبأصولِ التدبيرِ وحِياطةِ الاجتماعِ وما جرى هذا المجرى، ثُمَّ ٱلتدليسُ[2] على ٱلأمَّةِ بآراءِ المُقلِّدينَ والزائفينَ والمستعمرينَ لِمحْقِ ٱلأخلاقِ ٱلشعبيَّةِ ٱلقويَّةِ وما ٱتَّصلَ بذلك، ثُمَّ التخاذلُ والشِّقاقُ وتدابُرُ الطوائفِ وما كانَ بسبيلِها ـ تلك هي المَعاوِلُ الأربعةُ التي لا يَهدمُ غيرُها بناءَ الشرق.

فلْيكُنْ دائماً شعارُنا ـ نحن الشرقيينَ ـ هذه الكلمة: أخلاقُنا قبلَ مدنيَّتِهم.

---

(١) احترفوا: اتّخذوا حرفة.

(٢) التدليس: الكذب.

قُلْتُ لِنفسي
وقالَتْ لي . . .

قُلْتُ لِنفسي: ويحكِ يا نفسُ! مالي أتحامَلُ عليكِ؛ فإذا وفَيْت بما في وُسْعِكِ أردْتُ منكِ ما فوقَهُ وكلَّفتُكِ أنْ تَسَعِي؛ فلا أزالُ أُعْنِتُك[١] من بعدِ كمالٍ فيما هو أكملُ منه، وبعدَ الحَسَنِ فيما هو الأحسن؛ وما أنفكُّ أُجْهِدُكِ كلَّما راجَعَكِ النشاط، وأُضنيكِ كلَّما ثابَتِ ٱلقوّة؛ فإن تكُنْ لك همومٌ فأنا أكبَرُها، وإذا ساوَرَتْكِ ٱلأحزانُ فأكثرُها مِمَّا أجلِبُ عليك.

أنتِ يا نفسُ سائرةٌ على النَّهج، وأنا أعتَسِفُ[٢] بكِ أُريدُ ٱلطيرَانَ لا السَّير، وأبتغي عملَ ٱلأعمارِ في عُمْر، وأسْتَحِثُّكِ من كلِّ هَجْعَةٍ[٣] راحةٍ بفجرِ تعبٍ جديد، وكأنّي لكِ زَمنٌ يُمادُّ بعضُهُ بعضاً، فما يبرحُ يَنْبَثِقُ عليكِ من ظلامٍ بنورٍ ومن نورٍ بظلام؛ لِيُهَيِّىءَ لكِ ٱلقوَّةَ التي تمتدُّ بكِ في التاريخِ من بَعدُ، فتذهبينَ حينَ تذهبينَ ويعيشُ قلبُكِ في العالَمِ سارياً بكلماتِ أفراحِهِ وأحزانِه.

وقالتْ لِيَ ٱلنفس: أمَّا أنا فإنِّي معَكَ دَأْباً كالحبيبةِ الوفيَّةِ لِمَن تُحبُّهُ: ترى خضوعَها أحياناً هو أحسنَ ٱلمقاومَة؛ وأمَّا أنتَ فإذا لم تكنْ تتعبُ ولا تزالُ تتعبُ فكيفَ تُرِيني أنَّكَ تتقدَّمُ ولا تزالُ تتقدّم؟

ليسَتْ دُنياكَ يا صاحبي ما تجدُهُ من غيرِك، بل ما تُوجِدُهُ بنفسِك؛ فإنْ لم تَزِدْ شيئاً على الدنيا كنْتَ أنتَ زائداً على الدنيا؛ وإنْ لم تَدَعْها أحسنَ مِمَّا وجدْتَها فقد وجدتْهَا وما وَجَدْتَكَ؛ وفي نفسِكَ أولُ حدودِ دُنياكَ وآخِرُ حدودِها. وقد تكونُ دنيا بعضِ الناس حانوتاً صغيراً، ودُنيا الآخَرِ كالقَرْيةِ المُلَمْلَمَة[٤]، ودنيا بعضِهِم كالمدينةِ الكبيرة؛ أمَّا دنيا العظيمِ فقارَّةٌ بأكملِها، وإذا ٱنفردَ ٱمتدَّ في الدنيا فكانَ هوَ الدنيا.

---

(١) أعنت: أتعب.

(٢) اعتسف: عنف.

(٣) هجعة: رقدة.

(٤) الململمة: يقصد بذلك القرية الصغيرة.

والقوّةُ يا صاحبي تغتذي بالتَعبِ والمُعاناة؛ فما عانيتَهُ اليومَ حركةً من جسمِك، ألفَيْتَهُ[1] غداً في جسمِكَ قوّةً من قُوَى اللحمِ والدم. وساعةُ الراحةِ بعدَ أيامٍ مِنَ التعب، هي في لذَّتِها كأيامٍ مِنَ الراحةِ بعدَ تعبِ ساعة. وما أشبهَ الحيَّ في هذهِ الدنيا ووَشْكِ انقطاعِهِ منها، بِمَنْ خُلِقَ لِيعيشَ ثلاثةَ أيامٍ معدودةً عليهِ ساعاتُها ودقائقُها وثوانيها؛ أفتُراه يَغْفُلُ فيُقَدِّرُها ثلاثةَ أعوام، ويذهبُ يُسرِفُ فيها ضُرُوباً من لَهْوِهِ ولَعِبِهِ ومُجونِه، إلّا إذا كانَ أحمقَ أحمقَ إلى نهايةِ الحُمْق؟

اِتعَبْ تعبَكَ يا صاحبي، ففي الناسِ تَعَبٌ مخلوقٌ من عملِه، فهو ليِّنٌ هيِّنٌ مُسَوًّى تسويةً؛ وفيهم تَعَبٌ خالقٌ عملَه، فهو جبّارٌ متمرِّدٌ لَهُ القهرُ والغَلَبة. وأنتَ إنّما تكدُّ لِتسموَ بروحِكَ إلى همومِ الحقيقةِ العالية، وتسموَ بجسمِكَ إلى مشقاتِ الرُّوحِ العظيمة؛ فذلك يا صاحبي لَيس تعباً في حَفْرِ الأرض، ولكنَّهُ تعبٌ في حَفرِ الكنز.

اِتعبْ يا صاحبي تعبَكَ؛ فإنَّ عَناءَ الروحِ هو عُمْرُها؛ فأعمالُكَ عُمْرُكَ الرُّوحانيُّ، كعُمرِ الجسمِ لِلجسم؛ وأحدُ هذينِ عُمْرُ ما يعيش، والآخرُ عُمْرُ ما سيعيش.

* * *

قلْتُ لِنفسي: فقد مللْتُ أشياءَ وتبرَّمْتُ بأشياء. وإنَّ عَمَلَ التغييرِ في الدنيا لَهُوَ هَدْمٌ لها كلَّما بُنِيَتْ، ثم بِناؤُها كلَّما هُدِمَتْ؛ فما من شيءٍ إلّا هو قائمٌ في الساعةِ الواحدةِ بصورتينِ معاً؛ وكم من صديقٍ خلطْتُهُ بالنفسِ يذهبُ فيها ذَهابَ الماءِ في الماء، حتى إذا مرَّ يومٌ، أو عَهْدٌ كاليوم، رأيْتُ في مكانِهِ إنساناً خياليًّا كمسألةٍ من مسائلِ النُّحاةِ فيها قَولان. . . ! فهو يَحتملُ في وقتٍ واحدٍ تأويلَ ما أظنُّ بهِ من خير، وما أتوقَّعُ بهِ من شرّ! وكم مِنِ اسمِ جميلٍ إذا هَجَسَ[2] في خاطرِي قلْتُ: آه، هذا الذي كان. . . !

أمَا ـ والله ـ إنَّ ثيابَ الناسِ لَتجعلُهُم أكثرَ تشابُهاً في رأيِ النفس، مِمَّا تجعلُهُم وجوهُهمُ التي لا تختلفُ في رأيِ العين: وإنِّي لأرى العالَمَ أحياناً كالقِطارِ السريعِ منطلِقاً برَكْبِهِ وليسَ فيهِ مَنْ يقودُه، وأرى الغفلةَ المُفْرِطةَ[3] قد بلغَتْ من هذا الناسِ مبلغَ مَنْ يظنُّ أنَّهُ حيٌّ في الحياةِ كالموظَّفِ تحتَ التجربة، فإذا قَضَى المدةَ قِيلَ لَه: اِبدأْ مِنَ الآن. كأنَّهُ إذا عاشَ يتعلَّمُ الخيرَ والشرّ، ويُدركُ ما يَصْلُحُ وما لا

---

(١) ألفيته: وجدته.

(٢) هجس: طرأ على بالي.

(٣) المفرطة: الزائدة.

يصلُح، وٱنتهى من عمرِهِ إلى ٱلنهايةِ ٱلمحدودة ـ رَجَعَ من بعدِها يعيشُ منتظِماً على ٱستواءٍ وٱستقامة، وفي إدراكٍ وتمييز. مع أنَّ ٱلخرافةَ نفسَها لم تقبلْ قطّ أنْ يُعَدَّ منها في أوهامِ ٱلحياةِ أنَّ رجلاً بلغَ الثمانينَ أوِ ٱلتسعينَ وحانَ أجَلُهُ فأصبحوا لم يجدُوه ميتاً في فِراشِه؛ بلْ وجدُوه مولوداً في فراشه. . . !

وقالتْ لِيَ ٱلنفسُ: وأنتْ ما شأنُكَ بالناسِ وٱلعالَم؟ يا هذا ليسَ لِمصباحِ ٱلطريقِ أنْ يقولَ: «إنَّ ٱلطريقَ مظلِمٌ». إنَّما قولُهُ إذا أرادَ كلاماً أنْ يقولُ: «هأنذا مُضيء».

وٱلحكيمُ لا يَضْجَرُ ولا يَضيقُ ولا يَتَمَلْمَلَ، كما أنَّهُ لا يَسْخُفُ ولا يَطِيشُ ولا يَسْتَرْسِلُ[1] في كَذِبِ ٱلوهم؛ فإنَّ هذا كلّهُ أثرُ ٱلحياةِ ٱلبهيميَّةِ في هذه البهيمةِ الإنسانيَّة، لا أثرُ الروحِ القويَّة في إنسانِها. وٱلحيوانُ هو الذي يجوعُ ويشبعُ لا النفسُ. وبينَ كلِّ شَيئينِ ممَّا يَعْتَورُ ٱلحيوانيَّةَ ـ كالخلوِّ وٱلامتلاء، وٱللذةِ والألم ـ تعملُ قُوَى ٱلحيوانِ أشياءَها الكثيرةَ التي تتسلَّطُ بها على النفس، لِتَحُطَّها من مرتبةٍ إلى أنْ تجعلَها كنفوسِ ٱلحيوان؛ ولهذا كانَ أولُ ٱلحِكْمةِ ضَبطَ الأدواتِ ٱلحيوانيَّةِ في ٱلجسم، كما توضَعُ اليدُ العالِمةُ على مفاتيحِ القِطارِ المنطلِقِ يَتَسَعَّرُ مِرْجلُهُ ويغْلِي.

اِعملْ يا صاحبي عملَكَ؛ فإذا رأيْتَ في ٱلعاملينَ مَنْ يَضْجَرُ فلا تضجرْ مثلَه، بل خُذِ ٱطمئنانَهُ إلى اطمئنانِك، ودَعْهُ يخلو وتَضَاعَفْ أنت.

إنّهُ لَيُوشِكُ أنْ يكونَ في الناسِ ناسٌ (كالبُنوك)؛ هذه مُسْتَوْدَعَاتٌ لِلمالِ تحفظُهُ وتُخرِجُ منهُ وتُثَمِّرُه، وتلك مستودَعاتٌ لِلفضائلِ تحفظُها وتخرجُ منها وتَزيدُها. وإفلاسُ رجلٍ من أهلِ ٱلمال، هو إطلاقُ ٱلنكبةِ مُسَدَّسَها على رجلٍ تقتلُه؛ ولكنَّ إفلاسَ (بنكٍ) هو إطلاقُ النكبةِ مِدفَعَها الكبيرَ على مدينةٍ تُدَمرُها.

* * *

قلْتُ لِنفسي: فما أشدَّ الألَمَ في تحويلِ هذا الجسدِ إلى شِبْهِ رُوحٍ معَ الروح! تلك هي المعجزةُ التي لا توجَدُ في غيرِ ٱلأنبياء، ولكنَّ ٱلعملَ لها يجعلُها كأنَّها موجودةٌ. والأسدُ ٱلمحبوسُ محبوسةٌ فيهِ قُوَّتُهُ وطِباعُه؛ فإنْ زالَ ٱلوجودُ ٱلحديديُّ من حولِهِ أو وَهَنَتْ[2] ناحيةٌ منه، انطلقَ ٱلوحش. وٱلرجلُ ٱلفاضلُ فاضلٌ ما دامَ في

---

(١) استرسل: تمادى واستمرّ.

(٢) وهنت: ضعفت.

قَفَصِهِ الفكريّ، وهو ما دامَ في هذا القفصِ فعليهِ أنْ يكونَ دائماً نَموذَجاً معروضاً لِلتنقيح[1] المُمْكنِ في النفسِ ٱلإنسانيّة: تُصيبُهُ ٱلسيئةُ مِنَ ٱلناس لِتختبرَ فيهِ ٱلحسنة، وتبلُوَهُ الخِيانةُ لِتجدَ الوفاء، ويَكْرهُ البُغضَ لِيقابلَهُ بالحُبّ، وتأتيهِ ٱللعنةُ لِتجدَ المغفِرةَ؛ وله قلبٌ لا يتعبُ فيبلغُ منزلةً إلّا ٱبتدأ ٱلتعبَ لِيبلغَ منزلةً أعلى منها، وله فكرٌ كلَّما جَهدَ فأدركَ حقيقةً كانتِ ٱلحقيقةُ أنْ يَجهدَ فيُدركَ غيرَها.

وقالَتْ ليَ ٱلنفس: إنَّ مَنْ فاقَ ٱلناسَ بنفسِه ٱلكبيرةِ كانَتْ عَظَمتُهُ في أنْ يفوقَ نفسَهُ ٱلكبيرة؛ إنَّ الشيءَ ٱلنهائيَّ لا يُوجَدُ إلّا في ٱلصغائرِ وٱلشرّ، أمَّا ٱلخيرُ وٱلكمالُ وعظائمُ ٱلنفسِ وٱلجمالُ ٱلأسْنَى، فهذه حقائقُ أزليّةٌ وُجِدَتْ لِنفسِها: كالهواءِ يتنفَّسُهُ كلُّ ٱلأحياءِ على هذه الأرضِ ولا ينتهي، ولا يُعْرَفُ أنْ تكونَ تلكَ ٱلصفاتُ منبعثةً إلى النفوسِ من أنوارِ ٱلملائكة، وبهذا كانَ أكبرُ الناسِ حظًّا منها هُمُ ٱلأنبياءَ المتَّصلينَ بتلك الأنوار.

ومن رحمةِ ٱللّهِ أنْ جعلَ في كلِّ النفوسِ الإنسانيَّةِ أصلاً صغيراً يجمعُ فِكرَةَ الخيرِ وٱلكمالِ وعظائِمِ ٱلنفسِ وٱلجمالِ ٱلأسْنَى، وقد تَعظمُ فيهِ هذه الصفاتُ كلُّها أو بعضُها، وقد تَصغُرُ فيهِ بعضُها أو كلُّها: ألَا وهو الحُبّ.

لا بدَّ أنْ تمرَّ كلُّ حياةٍ إنسانيَّةٍ في نوعٍ من أنواعِ ٱلحُبِّ؛ من رِقَّةِ ٱلنفسِ ورحمتِها، إلى هوى النفسِ وعِشقِها.

وإذا بلغَ ٱلحُبُّ أنْ يكونَ عِشقاً، وَضَعَ يَدهُ على المفاتيحِ العصبيَّةِ لِلنفس، وفتَحَ لِلعظائمِ والمعجزاتِ أبوابَها؛ حتى إنَّه لَيجعلُ الخُرافةَ الفارغةَ معجزةً دقيقة، ويملأُ الحياةَ بمعانٍ لم تكنْ فيها من قبل، ويصبحُ سرُّ هذا الحُبِّ لا ينتهي؛ إذْ هو سرٌّ لا يُدْرَكُ ولا يُعرف.

اِجْهدْ جُهدَكَ يا صاحبي، فما هو قفَصُك ٱلفكريُّ ذلك الشعاعُ الذي يحبسُك، ولكنَّهُ صَقْلُ[2] النفسِ لِتتلقى ٱلأنوار، ولا بُدّ لِلمرآةِ من ظاهرٍ غيرِ ظاهرِ الحجَرِ لِتكونَ بهِ مرآة.

* * *

قلْتُ لِنفسي: فما أشدَّهُ مَضَضاً[3] أُعانيهِ! إنَّ أمري لَيذهبُ فُرُطاً[4] أكلَّما

(١) التنقيح: التمييز بين الصالح والطالح.
(٢) صقل: تهذيب.
(٣) مضضاً: ألماً وعذاباً.
(٤) فرطاً: مجاوزاً الحدّ.

ٱبتغيْتُ مِنَ الحياةِ مَرحاً أطرَبُ لَهُ وأهتزّ، جاءتْني ٱلحياةُ بفكرةٍ أستكِدُّ[1] فيها وأدأَب؟ أهذا السرورُ الذي لا يزالُ يقعُ بينَ الناسِ هو الذي لا يكادُ يقعُ لي؟ وهلْ أنا شجرةٌ في مَغْرسِها: تنمو صاعدةً بفروعِها، ونازلةً بجذورِها، غيرَ أنَّها لا تبرحُ مكانَها؟ أو أنا تِمثالٌ على قاعدتِه: لا يتزحزحُ عنها إلّا ساعةَ لا يكونُ تِمثالاً، ولا يَدعُها حتى تَدعَهُ معاني العظمَةِ التي نُصِبَ لها؟

قالَتْ لِيَ النفس: ويحك! لا تطلبْ في كونِكَ الصغيرِ ما ليسَ فيه؛ إنَّ ٱلناسَ لوِ ٱرتفعوا إلى السماءِ وتقلَّبوا فيها كما يَسيحُ[2] أهلُ قارَّةٍ مِنَ الأرضِ في قارّةٍ غيرِها، وٱبتغَوْا أنْ يحملوا معهم مِمَّا هناك تَذكاراً صغيراً إلى الأرض ـ لَوجدوا أصغرَ ما هنالك أكبرَ مِنَ الأرضِ كلِّها؛ فأنت سائحٌ في سماوات.

أنت كالنائم: لَهُ أنْ يَرى وليسَ لَهُ أنْ يأخذَ شيئاً مِمَّا يرى إلّا وَصْفَه، وحِكمتَه، والسرورَ بِمَا ٱلتذَّ منه، والألَمَ بِمَا توجَّعَ لَه.

لنْ تكونَ في الأرضِ شجرةٌ بِرجْلينِ تذهبُ هنا وهٰهنا، ولكنَّ ٱلشجرةَ تُرسلُ أثمارَها يتناقلُها ٱلناس، وهي تُبدِعُ الثمارَ إبداعَ ٱلمؤلفِ ٱلعبقريِّ ما يُؤلفُهُ بأشدِّ الكدِّ وأعظمِ ٱلجهْد، مُطْلِقَةً ضميرَها في ٱلفكرةِ ٱلصغيرة، تَعقِدُها شيئاً شيئاً، ثم تعودُ عليها بالزيادة، ولا تزالُ كلَّ وقتٍ تعودُ عليها حتى تستفرغَ[3] أقصى ٱلقوة؛ ثمَّ يكونُ سرورُها في أنْ تَهبَ فائدتَها، لأنَّها لذلك وُجِدَتْ.

إنَّ في الشجرةِ طبيعةً صادقةً لا شهوةً مكذوبة؛ فالحياةُ فيها على حقيقتِها، وأكثرَ ما تكونُ الحياةُ في الإنسانِ على مَجازِها؛ وشرطُ المجازِ ٱلخيالُ والمبالغةُ وٱلتلوين؛ ولكنْ متى ٱختارَ اللَّهُ رجلاً فأقَرَّ فيهِ سِرًّا من أسرارِ ٱلطبيعةِ ٱلصادقة، ووهبَ لَهُ ٱلعاطفةَ القادرةَ التي تَصنعُ ثِمارَها ـ فقد غَرَسَهُ شجرةً في مَنْبِتِها لا مفرَّ ولا مَنْدوحَةَ[4]، وقد يُخَيَّلُ لَهُ ضعفُ طبيعتِهِ البشريَّةِ أحياناً أنَّ نُضرةَ ٱلمجدِ التي تعلوه وتتألَّقُ كشعاعِ ٱلكوكب، هي تَعبُهُ وضجَرُه، أو أثرُ ٱنخذالِهِ[5] وألمِهِ ومسكنَتِه؛ وهذا من شقاءِ ٱلعقل؛ فإنَّهُ دائماً يُضيفُ شيئاً إلى شيء، ويخلِطُ معنًى بمعنى، ولا يتركُ حقيقةً على ما هي؛ كأنَّ فيهِ ما في الطفلِ من غريزةِ التقليد؛

---

(١) أستكدّ: أتعب.
(٢) يسيح: ينتقل ويرتحل.
(٣) تستفرغ: تتخلّص.
(٤) لا مندوحة: لا ملجأ.
(٥) انخذاله: انهزامه.

والعقلُ لا يرى أمامَهُ إلّا الإلهيَّة، فهو يُقلدُها في مُداخَلَةِ الأشياءِ بعضِها في بعض، لإيجادِ الأسرارِ بعضِها من بعض.

ومن ثَمَّ كانَتِ الحقيقةُ الصريحةُ الثابتةُ مَدْعَاةً لِلملَل العقليِّ في الإنسان، لا يكادُ يُقيمُ عليها أو يتقيَّدُ بها، فما نال شيئاً إلَّا لِيطمعَ في غيرِه، وما فازَ بلذَّةٍ إلَّا لِيزهَدَ فيها، وأجَلُّ ما أحبَّهُ الإنسانُ أنْ ينالَه، فإذا نالَهُ وقعَ فيه معنى موتِه، وبَدَأَ في النفس عُمراً آخرَ من حالةِ أخرى، أو ماتَ ولم يَبْدَأْ؛ فلا بدَّ لِهذا الإنسانِ مَعَ كلِّ صوابٍ من جزءٍ مِنَ الخطأ، فإنْ هو لم يجدْ خطأً في شيءٍ اتَّفَكَ لِنفسِهِ[1] الخطأَ المضحكَ في شِبهِ روايةٍ خياليَّة.

إنَّهُ لَشِعرٌ سخيفٌ بالغُ السخافةِ أنْ يُتَخَيَّلَ الغريقُ مفكراً في صَيْدِ سمكةٍ رآها... ولكنَّ هذا من أبلغِ البلاغةِ عندَ العقلِ الذي يبحثُ عن وهمٍ يُضيفُهُ إلى هذه الحقيقةِ لِيضحكَ منها، كما يبحثُ لِنفسِهِ أحياناً في أجملِ حقائقِ اللذةِ عن ألمٍ يتألمُ بِهِ لِيَعْبَسَ فيه!

* * *

قلْتُ لِنفسي: فهلْ ينبغي لِي أنْ أُحرِقَ دمي لِأنِّي أفكِّر، وهلْ أظلُّ دائماً بهذا التفكيرِ كالذي ينظرُ في وجهِ حسناءَ بمنظارٍ مكبر: لا يُريهِ ذلك الوجهَ المعشوقَ إلَّا ثُقوباً وتخريماً كأنَّهُ خشبةٌ نُزعَتْ منها مساميرُ غليظة...! فلا يجدُ المسكينُ هذه الحقيقةَ إلَّا لِيفقدَ ذلك الجمال؟ وهلْ بُدٌّ مِنَ الشبهِ بينَ بعضِ الناسِ وبينَ ما ارْتَصَدَ لَهُ من عملٍ يحيا بِه؛ فلا يكونُ الحُوذيُّ[2] حُوذيًا إلَّا لِشَبَهٍ بينَ نفسِهِ وبينَ الخيلِ والبِغالِ والحمير...؟

وقالتْ لِيَ النفس: إنَّ فأسَ الحطَّابِ لا تكونُ من أداةِ الطبيب؛ فخذْ لِكلِّ شيءٍ أداتَه، وكُنْ جاهلاً أحياناً، ولكنْ مثلَ الجهلِ الذي يَصْنَعُ لِوجهِ الطفلِ بشاشتَهُ الدائمة؛ فهذا الجهلُ هو أكبرُ عِلْمِ الشعورِ الدقيقِ المرهَف، ولولاه لَهلكَ الأنبياءُ والحكماءُ والشعراءُ غمًّا وكمَداً، ولَكانوا في هذا الوجود، على هذه الأرض، بينَ هذه الحقائق - كالذي قُيِّدَ وحُبِسَ في رَهَجٍ[3] تُثيرُهُ القَدَمُ والخُفُّ والحافر: لا يتنفَّسُ إلَّا الغبارَ يُثارُ من حولِهِ إلى أنْ يُقْضَى عليه.

---

(١) اتتفك لنفسه: كذب واخترع ليسوّغ ما هو عليه.
(٢) الحوذي: سائق العربة يجرّها حصان. (٣) رهج: شغب.

إِجهلْ جهلَك يا صاحبي في هذه الشهواتِ الخسيسة؛ فإنَّها ٱلعِلْمُ ٱلخبيثُ ٱلذي يُفسِدُ الروح، وٱعرفْ كيف تقولُ لِرُوحِكَ الطِّفْلةِ في ملائكيَّتِها حينَ تُساوِرُكَ الشهوات: هذا ليسَ لي؛ هذا لا ينبغي لي.

إنَّ الروحَ الكبيرةَ هي في حقيقتِها الطفلُ الملائكيّ.

وعِلْمُ خسائسِ الحياةِ يجعلُ لِلإنسانِ في كلِّ خسيسةٍ نفساً تتعلَّقُ بها، فيكونُ المسكينُ بينَ نفسينِ وثلاثٍ وأربع، إلى ثلاثينَ وأربعينَ كلهُنَّ يتنازَعْنَه، فيضيعُ بهذِه الكثرة، ويُصبحُ بعضُهُ بلاءً على بعض، وتَشْغَلُهُ الفُضُول، فيعودُ لها كالمزْبَلةِ لِمَا أُلقيَ فيها، ويُمْحَقُ[1] في نفسِهِ الطبيعيَّةِ حِسُّ الفرحِ بجمالِ ٱلطبيعة، كما يُمْحَقُ في المزبلةِ معنى النظافةِ ومعنى الحِسِّ بها.

هذه الأنفسُ الخياليةُ في هذا الإنسانِ المنكود، هيَ ٱلأرواحُ التي يَنْفُخُها في مصائبِه، فتجعلُها مصائبَ حيَّةً تعيشُ في وجودِهِ وتعملُ فيهِ أعمالَها، ولولاها لَماتَتْ في نفسِهِ مطامعُ كثيرة، فماتَتْ لَهُ مصائبُ كثيرة.

ٱنظرْ بالروحِ الشاعرة، تَرَ الكونَ كلَّهُ في سمائِهِ وأرضِهِ ٱنسجاماً واحداً ليسَ فيهِ إلَّا الجمالُ والسحرُ وفتنةُ الطَّرب، وٱنظرْ بالعقلِ العالمِ، فلَنْ تَرى في الكونِ كلِّهِ إلَّا موادَّ عِلْمِ الطبيعةِ وٱلكيمياء.

ومَدَى الروحِ جمالُ الكونِ كلِّه؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حجَر، أو عظْمةٌ من حيوان، أو نَسِيجةٌ من نبات، أو فِلْذَةٌ من معدن، وما أشبَهها.

إِجْهلْ جهلَك يا صاحبي؛ ففي كلِّ حُسْنٍ غَزَلٌ بشرطِ ألَّا تكونَ ٱلعاشقَ ٱلطامع، وإلَّا أصَبْتَ في كلِّ حسنٍ هَمًّا ومَشْغَلة....!

* * *

قلْتُ لِنفسي: إلى الآنَ لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذي كتمْتُهُ عنك.

وقالَتْ لِيَ النفس: وإلى الآنَ لم أقلْ لكَ إلَّا جوابَ ذلك الذي كتمتَهُ عنِّي..

---

(١) يمحق: يمحو.

الانتحار

١

حَدَّثَ ٱلْمُسَيَّبُ بْنُ رافعٍ الكوفيُّ قال: بينا أنا يوماً في مسجدِ الكوفة، ومعي سعيدُ بن عثمان، ومجاهد، وداودُ الأزْديُّ وجماعةٌ ـ أقبلَ فتًى فجلسَ قريباً منَّا، وكانَ تلقاءَ وجهي؛ لا أمُدُّ نظري إلَّا ٱنطلقَ في سَمْتِهِ[1] ووقفَ عليه، وكنَّا نتحدّثُ فرأيْتهُ يتسمَّعُ إلى حديثِنا؛ فلمَّا تكلَّمَ سعيدٌ ـ وكانَ خافتَ الصوتِ من عِلَّةٍ به، وكنّا نُسميهِ ٱلنملةَ الصَّخّابة ـ رأيْتُ الفتى يتزحَّفُ قليلاً قليلاً حتى صارَ بحيثُ يقعُ في سَماعِهِ حَسِيسُ نَمْلتِنا.

وكانَ سعيدٌ يقول: اِجْتزْتُ[2] أنا والشّعبيُّ أمسِ بعِمْرَانَ الخيَّاط، فمازَحَهُ ٱلشيخُ فقال له: عندَنا حِبٌّ[3] مكسور، تَخيطُه؟ قال: نعم، إنْ كانَ عندَك خيطٌ من ريح! فقلْتُ أنا: فٱذهبْ فجِئْنَا بٱلمِغْزَلِ ٱلذي يغزلُ الهواءَ لِنضعَ لكَ ٱلخيط.

قال مجاهد: هذا ليسَ بشيءٍ في تنادُرِ شيخِنا وما يتَّفقُ له؛ أخبرَني أنَّ رجلاً جاءَهُ في مسألة، فدخلَ عليهِ ٱلبيتَ وهو جالسٌ معَ ٱمرأتِه؛ فقالَ الرجل أيُّكما الشعبيّ...؟ فأومأ الشيخُ إلى ٱمرأتِه وقال: هذه...!

قال المُسيَّب: وضحِكْنَا جميعاً، وأخذَ نظري ٱلغلامَ فإذا هو ناكِسٌ حزناً وهمًّا، وكأنَّهُ لا يتسمَّعُ إلينا لِيسمع، بلْ لِيشغلَ نفسَهُ عن شيءٍ فيها، فتتوزَّعُ خواطرُه، فيتبدَّدُ ٱجتماعُها على همِّهِ بصوتٍ من هنا وصوتٍ من هنا، كما يفعلُ ٱلمحزونُ في مغالبةِ ٱلحزنِ ومُدَافَعتِه: يَشْغَلُ عنهُ بصرَهُ وقلبَهُ وسمعَهُ جميعاً، فيكونُ الحزنُ فيهِ وكأنَّهُ بعيدٌ منه.

فقلْتُ في نفسي: أمرٌ أماتَ الضحِكَ في هذا الفتى وكسَرَ حِدّتَهُ[4] وشبابَه.

---

(١) سمته: حسن هيئته ومنظره في الدين.
(٢) اجتزأت: التقيت.
(٣) الحِبّ، بكسر الحاء هو الزير.
(٤) حدّته: قوّته.

ثُمَّ تحوّلْتُ إليهِ وقلْتُ: رأيْتُكَ يا بُنيّ مقبلاً علينا كالْمنصرِفِ عنّا؛ فما بالُكَ لم تضحكْ وقد ضحكْنا جميعاً؟

قال: إليك عني يا هذا؛ فأين مني ٱلضَّحكُ وأنا على شفيرِ[1] القبر، ورُوحُ ٱلترابِ ماليءٌ عينيَّ في كلِّ ما أرى، وكأنّ حُفرتي ٱبتلَعتِ ٱلدنيا ٱلتي أنا فيها لِتأخذَني فيها، وأنا الساعةَ ميتٌ حيٌّ؛ رجُلٌ في الدنيا ورجُلٌ في الآخرة!

قلْتُ: فأعلمْني ما بك يا بنيّ، فلقدِ ٱحتسبْتُ ولداً لي كانَ في مثلِ سِنِّك وشبابِك ولم أُرزقْ غيرَه، قلبي بعدَهُ مريضٌ بِه، يتوسمُهُ مُفرَّقاً في لِدَاتِهِ، مُتوهّماً أنَّ وجوهَهُم تجمعُهُ بملامحِه؛ فأنا من ذلك أُحبّهم جميعاً وأُطيلُ ٱلنظرَ إليهم وٱلتأمُّلَ في وجوهِهم، ولسْتُ أرى أحداً منهم إلّا كانَ لَهُ ولِقلبي حديث! فإنْ رأيْتُهُ حزيناً مثلك تقطَّعتُ لَهُ من إشفاقٍ ورحمة، وطالعَني فتايَ في مثلِ همِّهِ وحزنِهِ وٱنكسارِهِ؛ فيعودُ قلبي كالعينِ ٱلتي غشَّاها ٱلدمع، تحملُ أثرَ ٱلحزنِ ومعناهُ وسرَّه؛ فبُثّني ما تجدُ يا بنيَّ، فلعلَّ لي سبباً إلى كَشفِ ضُرِّكَ أو إسعافِك بحاجتِك؛ ولعلّك تكونُ قد خزنْتَ من أمرٍ قريبِ ٱلمتناوَلِ هيِّنِ ٱلمحاوَلَة، لم يجعلْه عندَكَ كبيراً أنَّهُ كبير، ولكنْ أنَّكَ أنت صغير.

قالَ الفتى: مهلاً يا عمّ، فإنَّ ما نزل بنا مِمَّا تنقطعُ عندَهُ ٱلحِيلةُ ولا تَنْقَادُ فيهِ ٱلوسائل، ولا علاجَ منه إلّا بالموتِ يأخُذها ويأخُذه!

قلْتُ: يا بنيّ، هذه كلمةٌ ما أحسبُ أحداً يقولُها إلّا من أُخِذَ لِلقتلِ بجنايتِهِ ولم يَعفُ أهلُ ٱلدم، فهل جَنيْتَ أو جنى أبوك على أحد؟

قال: إن ٱلأمرَ قريبٌ من قريب، فإنّي تركْتُ أبي ٱلساعةَ مُجمِعاً على إزهاقِ نفسِه، وقدْ أغلقَ عليهِ ٱلدار وٱستوثَقَ[2] مِنَ ٱلباب!

قالَ ٱلمسيَّب: فكأنَّما لَدغتني حيةٌ بهذه ٱلكلمة، وأكبرْتُ أنْ يكونَ رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسَه: فتناهَضْتُ، ولكنَّ ٱلغلامَ أمسكَ بي وقال: إنَّهُ لا يزالُ حيًّا، وسيقتلُ نفسَهُ متى أظلمَ ٱلليلُ وهَدَأتِ الرِّجل.

قلْتُ: ٱلحمدُ لِلّه، إنَّ في ٱلنور عقلاً، ولكنْ ما الذي صارَ بِه إلى ما قلْت، وكيف تركْتَهُ لِقَدَرِهِ وجِئْت؟

---

(١) شفير: حافة.

(٢) استوثق، تأكّد.

قالَ الفتى: إنَّهُ قالَ لي: يا ولدي، ليسَ لك أبٌ بعدي؛ فإنْ أردْتَ ٱللحاقَ بي فٱرجِعْ معَ ٱلليل لِنُسْلِمَ أنفسَنا، وإنْ آثرْتَ ٱلحياةَ فٱرجِعْ معَ ٱلصبحِ لِتُسلِمَني إلى غاسلي!

قلْتُ: أفآمِنٌ أنت ألَّا يكونَ أبوك قد أخرجَكَ عنه لأنَّ عينَكَ تُمْسِكُ يدَهُ وتردُّهُ عمَّا يَهُمُّ بِه، حتى إذا خلا وجهُهُ منك أزهقَ نفسَه؟

قال: لم أدَعْه حتى أقسمَ أنْ يحيا إلى الليل، وحتى أقسمْتُ أنْ أرجِعَ لِأموتَ معَه؛ فإن لم تُمسكْهُ يمينُهُ أمسكَهُ ٱنتظاري، وقد فرغَتِ ٱلحياةُ منَّا فلم يبقَ إلَّا أنْ نفرغَ منها؛ ومن كانَ فيما كنَّا فيهِ ثم ٱنحدَر إلى ما ٱنحدرْنا إليه، لم يُرِ النّاسَ من نفسِهِ ضَعةً ولا ٱستكانَةً: وإنَّما خرجْتُ لِأسألَ هذا الإمامَ (الشعبيّ) وجهاً من الرأي فيمَنْ يقتلُ نفسَهُ إذا ضاقَتْ عليهِ ٱلدنيا، ونزلَتْ بِهِ ٱلنازلاتُ، وتعذَّرَ ٱلقُوت، وٱشتدّ ٱلضُرّ، وتَدَلَّتْ بِهِ ٱلمسكنةُ إلى حَضِيضِها، وأُلجِئ إلى أحوالٍ دَقَّتْهُ دَقَّ الرَّحَى[1] لِمَّا تدورُ عليه، ولم يَعُدْ لَهُ إلَّا رأيٌ واحدٌ في معنى الدنيا: هو أنَّهُ مكذوبٌ مَزوَّرٌ على الدنيا.

قلْتُ: يا بنيّ، فإنِّي أراك أديباً؛ فمَنْ أبوك؟

قال: هو فلانٌ التاجر، ظهَرَ ظهورَ القمرِ ومُحِقَ[2] محاقَه، وهو ٱليومَ في أحْلكِ الليالي وأشدِّها ٱنطماساً؛ جَهَدَهُ[3] ٱلفقر، ويا ليتَهُ كانَ ٱلفقرَ وحدَه، بلِ ٱنتهكَتْهُ العِلَل، ولَيتَها لم تكنْ إلَّا العِللَ معَ الفقر، بل أخذَ ٱلموتُ ٱمرأتَهُ فماتَتْ همًّا بِهِ وبي، ولم يكُنْ لَهُ غيري وغيرُها، وكانَ كلٌّ من ثلاثتِنا يحيا لِلاثنينِ ٱلآخرين، فهذا ما كانَ يجعلُ كلًّا مِنَّا لا يفرَغُ إلَّا ٱمتلاءً، ولمَّا ذهبَتِ ٱلأمُّ ذهبَتِ ٱلحقيقةُ التي كنَّا نقاتلُ الأيامَ عنها، وكانَتْ هي وحدَها تُرينا ٱلحياةَ بمعناها إنْ جاءتْنا ٱلحياةُ فارغةً مِنَ ٱلمعنى، وكنَّا من أجلِها نفهمُ ٱلأيامَ على أنَّها مجاهَدَةُ ٱلبقاء؛ أمَّا الآن فٱلحياةُ عندَنا قَتْلُ ٱلحياة. . . !

قلْتُ: يا بنيَّ، فإنَّك ـ واللَّهِ ـ مع أدبِك لَحكِيم، وإنِّي لأَنْفَسُ[4] بكَ على ٱلموت، فكيفَ ردَّتْكَ حياةُ أمِّكَ عن قتلِ نفسِكَ ولا تردُّكَ حياةُ أبيك؟

قال: لو بقي أبي حيًّا لَبقيْت، ولكنَّ ٱلدهرَ قدِ ٱنتزعَ منهُ آخرَ ما كانَ يملكُ من

---

(١) الرّحى: الطاحون.
(٢) محق: خفي.
(٣) جهده: أتعبه.
(٤) أنفس: أضنّ.

أسبابِ ٱلقوّة، حين أخَذَ القلبَ الشفيقَ الذي كانَ يجعلُهُ يرتعدُ إذا فكَّرَ في ٱلموت: فهو الآنَ كالذي يُحاربُ عن نفسِهِ تِلْقاءَ عدوٍّ لا يرحمُه؛ إنْ عجزَ عن عدوّهِ فالرأيُ قتلُ نفسِهِ لِيستريحَ من تنكيلِ العدوِّ بِه.

❊ ❊ ❊

قالَ ٱلمسيَّب بْنُ رافع: وأدركْتُ أنَّ الفتى يُريدُ من سؤال الشيخ تَحلَّةً يطمئنُّ إليها أنْ يموتَ مسلماً إذا قتلَ نفسَهُ كٱلمضطرّ أو المُكْرَه؛ فأشفَقْتُ[1] أنْ أكسِرَ نفسَهُ إذا أنا حدّثْتُه أو أفتيْتُه؛ وقلْتُ: هذا مريضٌ يحتاجُ ٱلعلاجَ لا الفُتْيا؛ وكانَ إمامُنا (الشعبيُّ) حكيماً لَحِناً فَطناً، سَفَرَ بينَ أميرِ ٱلمؤمنينَ (عبد الملك) وعاهلِ ٱلروم[2]، فحسدَنا العاهلُ أنْ يكونَ فينا مثلُه. وقلْتُ: لَعلَّ الله يُحدثُ بِهِ أمراً. فأخذْتُ بيدِ الفتى إليه، ومشيْتُ أكلمُهُ وأُرفِّهُ عن نفسِه. وقلْتُ له: أمَا تدري أنّك حينَ فرغْتَ من سرورِ الحياةِ فرغْتَ من غرورِها أيضاً، وأنَّ الزاهدَ ٱلمنقطعَ في عُرْعُرة[3] الجبلِ ينظرُ من صَوْمَعتِه إلى الدنيا، ليسَ بأحكمَ ولا أبصرَ مِمَّنْ ينظرُ من آلامِهِ إلى الدنيا؟

يا بنيّ: إنَّ الزاهدَ يحسبُ أنَّهُ قد فرَّ مِنَ الرذائلِ إلى فضائلِه، ولكنَّ فِرارَهُ من مجاهَدةِ الرذيلةِ هو في نفسِه رذيلةٌ لِكُلِّ فضائلِه. وماذا تكونُ العِفَّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاءُ والبرُّ والإحسانُ وغيرُها، إذا كانَتْ فيمَنِ ٱنقطعَ في صحراءَ أو على رأسِ جبل؟ أيزعَمُ أحدٌ أنَّ الصدقَ فضيلةٌ في إنسانٍ ليسَ حولَهُ إلّا عشرةُ أحجار؟ وايمُ ٱللَّهِ إنَّ الخاليَ من مُجاهَدَةِ الرذائلِ جميعاً، لَهُوَ الخالي مِنَ ٱلفضائلِ جميعاً!

يا بنيّ: إنّ منَ الناسَ مَنْ يختارَهُمُ ٱللَّهُ فيكونون قَمْحَ هذه الإنسانية: يَنْبُتُون ويُحصَدون ويُطْحَنون ويُعجَنون ويُخَبزون، لِيكونوا غذاءَ الإنسانيةِ في بعضِ فضائلها. وما أراكَ أنت وأباك إلّا مِنَ ٱلمُختارين، كأنَّ في أعراقِكما دمَ نبيٍّ يُقْتَلُ أو يُصْلب!

قال ٱلمسيَّب: وٱنتهيْنا إلى دارِ الشعبيّ، فطرقْتُ ٱلباب، وجاءَ ٱلشيخُ ففتحَ لنا، وسلّمْنا وسلّم، ثم بَدَرْتُ فقلْتُ: يا أبا عمرو، إنَّ أبا هذا كانَ من حالِهِ كَيْتَ وكيتِ، فترادَفَتْ[4] عليهِ ٱلمصائبُ، وتوالتِ ٱلنكباتُ، وتواترتِ ٱلأسقام[5]... ثُمّ

---

(١) أشفقت: خفت.

(٢) عاهل الروم: قيصر الروم، ملكهم.

(٣) عُرعرة الجبل، بالضمّ: رأسه ومعظمه.

(٤) ترادفت: توالت.

(٥) الأسقام: الأمراض.

ٱقتصصْتُ ما قالَ ٱبنُهُ حرفاً حرفاً، ثُمَّ قلْتُ: وإنَّهُ الآنَ مُوشِكٌ أن يُزهِقَ نفسَهُ وسيتَبعُهُ ٱبنُهُ هذا؛ وقد (هداهُ ٱللَّهُ إليك) فجاءَ يسألُك: أيموتُ مسلماً مَنْ أُلجِئَ وأُكْرِهَ وٱضطُرّ وٱسْتَضَاقَ وٱختلَّ، فتَحسَّى[1] سُمًّا فهلكَ أو تَوجَّأ[2] بحديدةٍ فَقَضَى، أو ذَبَحَ نفسَهُ بنَصْلٍ فَخَفَتَ، أو حزّ في يدِهِ بسكينٍ فما رقأَ دمُهُ[3] حتى مات، أوِ ٱختنقَ في حبلٍ ففاضَتْ نفسُه[4]، أو تَرَدَّى[5] من شاهقٍ فطاح. . . !

وأدركَ ٱلشيخُ معنى قولي: (هداهُ اللَّهُ إليك)، ومعنى ما أكثرْتُ مِنَ ٱلألفاظِ ٱلمترادفةِ على القتلِ وما ٱستقصيْتُ من وجوهِهِ؛ فعلِمَ أنّي لم أسألْهُ ٱلفُتْيا والنَّصّ، ولكنِّي سألْتُهُ الحِكمةَ وٱلسياسة؛ فقال: هذا ـ واللَّهِ ـ رجلٌ كريم، أخَذَتْهُ الأنَفةُ وعِزّةُ النفس، وما أنا الساعةَ بمعْزَلٍ عن همِّه، فنذهبُ نكلِّمُهُ واللَّهُ ٱلمستعان.

ومشَيْنا ثلاثتُنا، فلما شارَفْنا ٱلدارَ قالَ الفتى: إنَّهُ لا يفتحُ لي إذا رآكما، وربَّما ٱسْتَفزَّ[6] بنفسِهِ فأزهَقَها، وسأتَسَوَّرُ ٱلحائطَ[7] وأتدليّ ثُمَّ أفتحُ لكما فتدخلانِ وأنا عندَه.

* * *

ودخلْنَا، فإذا رجلٌ كالمريضِ من غيرِ مرض، خوَّارٌ[8] مسلوبُ ٱلقوّة، ٱنزعجَ قلبُهُ إلى الموتِ وما بِهِ جُرْأة، وإلى الحياةِ وما به قوّة؛ وصَغَّرَ إليهِ نفسَهُ أنَّها أصبحَتْ في معاملةِ الناسِ كالدرهم الزائفِ لا يقبلَهُ أحد، وثابَرَ عليهِ داءُ ٱلحزنِ فأضناهُ وتركَهُ رُوحاً تتقعقعُ في جِلْدِها، فهي تهمُّ في لحظةٍ أنْ تَثِبَ وتندلِق.

وسلَّمَ ٱلشيخُ وأقبلَ بوجهِهِ على الرجل، ثُمَّ قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَالصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

فقطعَ عليهِ ٱلرجلُ وقال كالمحنق: أيُّها الشيخ، قد صبرْنَا حتى جاءَ ما لا صبرَ عليه؛ وقد خَلوْنا من معاني ٱلكلامِ كلِّهِ، فما نقدِرُ عليها إلَّا لفظةً واحدةً نملكُ معناها، هي أنْ ننتهي!

ومدّ الشيخُ عينَهُ فرأى كُوَّةً[9] مسدودةً في ٱلجدار، فقالَ لي: افِتحْ هذه ودَعِ

(١) تحسّى: شرب.
(٢) توجّأ: ضرب نفسه بالسكين.
(٣) رقأ دمه: توقّف نزفه.
(٤) فاضت نفسه: مات.
(٥) تردّى: رمى نفسه من علٍ.
(٦) استفزّ: أثار.
(٧) تسوّر الحائط: صعد فوقه.
(٨) خوّار: ضعيف.
(٩) كوّة: فتحة صغيرة في جدار.

ٱلهواءَ يتكلمُ معَنا كلامَه. فقمْتُ إليها فعالجْتُها حتى فتحْتُها، ونفذَ منها رَوْحُ الدنيا، وقالَ الشيخُ لِلرجل: أصغِ إليّ، فإذا أنا فرغْتُ مِنَ الكلامِ فشأنَكَ بنفسِك:

أعلمْتَ أنَّ رجلاً مِنَ المسلمينَ قد مَرِض، فأعْضلَ مَرضُهُ[1] فأثبتَهُ على سريرِهِ ثلاثينَ سنةً لا يتحرّك، وطَوَى فيهِ الرجُلَ الذي كانَ حيًّا ونشرَ منه الرجلَ الذي سيكونُ ميْتاً، فبقيَ لا حيًّا ولا ميتاً ثلاثينَ سنة. . . . ؟

قال ٱلرجل: وفي الدنيا مَنْ يعيشُ على هذه الحالِ ثلاثينَ سنة؟

قال الشيخ: صَحِّحِ الكلامَ وٱسألْ. أيصبرُ على هذه الحالِ ثلاثين سنةً ولا يقول: (جاء ما لا صبرَ عليه) وأيُّ شيءٍ لا صبرَ عليهِ عندَ ٱلرجلِ ٱلمؤمنِ الذي يعلمُ أنَّ البلاءَ مالٌ غيرَ أنَّهُ لا يُوضَعُ في الكيس بل في ٱلجسم؟

أفتدري مَنْ كانَ الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاءِ الحياة والموتِ مجتمعَينِ في عظامٍ مُمَدَّدةٍ على سريرها؟ إنَّهُ إمامُنا (عِمرانُ بنُ حُصَينٍ ٱلخُزاعيُّ) ٱلذي أرسلَهُ عمرُ بْنُ الخطابِ يُفقِّهُ أهلَ البصرة، وتولّى قضاءَها، وكانَ الحسنُ البَصريُّ يحلِفُ باللَّهِ ما قدِمَها خيرٌ لهم من عِمرانَ بْنِ حُصين. ولقد دخلْتُ عليهِ أنا وأخوه (العلاء)، فرأيناهُ مُثْبَتاً على سريرِ ٱلجريدِ كأنَّما شُدَّ بالحِبالِ وما شُدَّ إلّا بانتهاكِ عَصَبِهِ وذَوَبانِ لحمِه وَوَهَنِ[2] عِظامِه؛ فبكى أخوه، فقال: لِمَ تبكي؟ قال: لأنّي أراكَ على هذه ٱلحالِ العظيمة؟ قالَ: لا تَبكِ؛ فإنَّ أحبَّهُ إلى اللَّهِ تعالى أحبُّهُ إليّ. ثم قال: إنَّ هذه الأرضَ تحملُ ٱلجبالَ فلا يشعرُ موضعٌ منها بالجبلِ القائم عليه، إذْ كانَ تماسُكُ الأرضِ كلِّها قد جَعَلَ لِكُلِّ موضعٍ منها قوةَ ٱلجميع، ولولا هذا لَدَكَّ[3] الجبلُ موضعَهُ وغارَ به؛ وكذلك يحملُ المؤمنُ مثلَ الجِبالِ مِنَ ٱلبلاءِ على أعضائِهِ لا ينكسرُ لَها ولا يتهدَّم؛ إذْ كانَتْ قوةُ روحِهِ قوّةً في كلِّ موضع، فٱلبلاءُ محمولٌ على همّةِ ٱلروح لا على ٱلجسم، وهذا معنى الخبر: «إنَّ ٱلمؤمنَ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، إنَّ رُوحَهُ لَتُنزعُ من بينِ جنبيهِ وهو يَحمدُ ٱللَّهَ عزَّ وجلّ!».

ثُمَّ قال: ولكنْ ذاك هو ٱلمؤمن، فمن آمنَ باللَّهِ فكأنَّما قالَ لَه: «ٱمتَحِنّي!» وكيف تراكَ إذا كنْتَ بطلاً مِنَ الأبطالِ مع قائدِ ٱلجيش، أمَا تفرضُ عليك شجاعتُكَ أنْ تقولَ لِلقائد: «ٱمتحنّي وٱرْمِ بي حيثُ شِئْتَ!» وإذا رَمَى بِكَ فرجعْتَ مُثخَناً

---

(١) أعضل مرضه: اشتدّ حتى صعب الشفاء منه.
(٢) وهن: ضعيف.
(٣) دكّ: حطّم.

بِٱلجراحِ[1] ونالَكَ ٱلبَتْرُ وٱلتشويه، أتُراها أوصافاً لِمصائبِك، أَمْ ثناءً على شجاعتِك؟

ثُمَّ قال: إذا لم يكنِ ٱلإيمانُ باللَّهِ ٱطمئناناً في النفسِ على زَلازِلِها وكوارثِها، لم يكنْ إيماناً، بل هو دعوى بالفكْرِ أو باللسانِ لا يعْدُوهما، كدعوى ٱلجبانِ أنَّهُ بطل، حتى إذا فَجَأهُ ٱلرَّوْعُ[2] أحدَثَ في ثِيابِهِ مِنَ ٱلخوف. . . ومِنَ ثَمَّ كانَ قتلُ المؤمنِ نفسَهُ لِبلاءٍ أو مرضٍ أو غيرِهما كفراً بِاللَّهِ وتكذيباً لإيمانِه، وكانَ عملُهُ هذا صورةً أخرى من طيشِ ٱلجبانِ ٱلذي أحدَثَ في ثيابِهِ!

وٱلإيمانُ الصحيحُ هو بشَاشَةُ ٱلروح، وإعطاءُ ٱللَّهِ ٱلرِّضى مِنَ ٱلقلب، ثقةً بوعدِهِ ورَجَاءً لِمَا عندَه، ومن هذينِ يكونُ ٱلاطمئنان. وبالبشاشةِ وٱلرضى وٱلثقةِ وٱلرجاء، يُصبحُ ٱلإيمانُ عقلاً ثانياً مَعَ العقل؛ فإذا ٱبْتُلِيَ ٱلمؤمنُ بِما يذهبُ معهُ ٱلصبرُ ويطيشُ لَهُ العقل، وصارَ من أمرِهِ في مثلِ ٱلجنون - برَزَ في هذه ٱلحالةِ عقلُهُ ٱلرُّوحانيُّ وتولّى سياسةَ جسمِهِ حتى يُفيقَ ٱلعقلُ الأول. ويجيءُ ٱلخوفُ من عذابِ ٱللَّهِ ونقمتِهِ في ٱلآخرة، فيَغْمرُ بهِ خوفَ النفسِ مِنَ ٱلفقرِ أوِ ٱلمرضِ أو غيرِهما فيقتلُ أقواهما ٱلأضعف، ويُخرجُ الأعزُّ منهما الأذلّ.

فالاطمئنانُ بالإيمانِ هو قتلُ الخوفِ الدُّنيويِّ بالتسليمِ وٱلرضى، أو تحويلُهُ عن معناهُ بجعلِ ٱلبلاءِ ثواباً وحسنات، أو تجريدُهُ من أوهامِهِ بٱعتبارِ ٱلحياةِ سائرةً بكلِّ ما فيها إلى الموت؛ وهو بهذا عقلٌ روحانيٌّ لَهُ شأنٌ عظيمٌ في تصريفِ الدنيا، يتركُ ٱلنفسَ راضيةً مَرْضِيَّة، تقولُ لِمصائِبِها وهي مطمئنة: نعم. وتقولُ لِشهواتِها وهي مطمئنة: لا.

وما الإنسانُ في هذا الكون؟ وما خيرُهُ وشرُّه؟ وما سخطُهُ ورِضاه؟ إنْ كلُّ ذلك إلّا كما ترى قبضةً مِنَ ٱلترابِ تتكبَّرُ وقد نسيَتْ أنَّهُ سيأتي مَنْ يكنسُها. . . . !

* * *

قال الشيخ: وٱنظر، أما تُبْتَلى ٱلشجرةُ الخضراءُ في بعضِ أوقاتِها بمثلِ ما يُبْتَلى بهِ ٱلإنسان؟، غيرَ أنَّ لها عقلاً روحانيًا مستقرًا في داخِلِها يُمسكُ ٱلحياةَ عليها ويتربَّصُ[3] حالاً غيرَ ٱلحال؛ ومهما يكنْ من أمرِ ظاهرِها وبَلائِهِ فٱلسعادةُ كلُّها في داخلِها، ولها دائماً ربيعٌ على قدْرِها حتى في قُرِّ[4] الشتاء.

---

(١) متخناً بالجراح: ممتلئاً جراحاً في سائر جسده.
(٢) الروْع: الخوف الشديد.
(٣) يتربّص: ينتظر.
(٤) القرّ: البرد الشديد

فالعقلُ الروحانيُّ الآتي مِنَ ٱلإيمان، لا عملَ لَهُ إلّا أنْ يُنشيءَ لِلنفسِ غريزةً متصرِّفةً في كلِّ غرائزِها، تُكَمِّل شيئاً وتُنقصُ من شيء. وتُوَجِّهُ إلى ناحيةٍ وتصرفُ عن ناحية؛ وبهذه الغريزةِ تسمو ٱلروحُ فتكونُ أكبرَ من مصائِبها وأكبرَ من لذّاتِها جميعاً.

وتلك الغريزةُ هي نفسُها معنى ٱلرضى بالقدرِ خيرِهِ وشرِّه، وهي تأتي بالتأويلِ لكلِّ هموم الدنيا، فتضعُ في النكبَاتِ معانيَ شريفةً تنزعُ منها شرَّها وأذاها لِلنفس؛ وليسَتِ ٱلمصيبةُ شيئاً لولا تأذِّي النفسِ بها. وإذا وقعَ ٱلتأويلُ في معاني ٱلنكباتِ أصبحَتْ تعملُ عملَ ٱلفضائل، وتغيَّرَتْ طبيعتُها فيعودُ الفقرُ باباً مِنَ ٱلزهد، وٱلمرضُ نوعاً مِنَ ٱلجِهاد، وٱلخيبةُ طريقاً مِنَ ٱلصبر، وٱلحزنُ وجهاً مِنَ ٱلرجاء، وهلمّ جرًّا.

والنفسُ وحدَها كنزٌ عظيم، وفيها وحدَها ٱلفرحُ وٱلابتهاجُ لا في غيرِها، وما لذَّاتُ ٱلدنيا إلَّا وسائلَ لإثارةِ هذا الفرحِ وهذا ٱلابتهاج، فإنْ وُجدا معَ الفقرِ بطلَتْ عِزَّةُ ٱلمالِ وأصبحَ حجراً مِنَ الأحجار؛ والبلبلُ يتغرَّدُ بحَنْجرتِهِ ٱلصغيرةِ ما لا تُغْنِي فيهِ آلاتُ التَّطْريبِ كلُّها. وفي ٱلنفسِ حياةُ ما حَوْلها، فإذا قَوِيَتْ هذه النفسُ أذلَّتِ ٱلدنيا، وإذا ضَعُفَتْ أذلَّتْها الدنيَا!

* * *

قالَ ٱلمسيَّب: ثم سكَتَ ٱلشيخ قليلاً، وكنْتُ أرى الرجلَ كأنَّما يغتسلُ بكلامِه، وقد أشرقَ وجهُهُ وتَنضَّرَ وٱنقلبَ إلى روحِهِ التي كانَ منصرِفاً عنها، فعادَتْ مصائبُهُ تضغطُ روحاً لينةً كما تضغطُ اليدُ على ٱلماء، وأيقنَ أنَّ النكبةَ كلّها هي أنْ ينظرَ ٱلإنسانُ إلى الحياةِ بعينِ شهواتِه، فيُنكَبَ أولَ ما ينكبُ في صبرِهِ ويقينِه.

ثم قال الشيخ، ولقد رأيْتُ بعيني رأسي معجزةَ (العقل الروحانيّ) وكيف يصنع: رأيْتُ عروةَ بْنَ ٱلزبير وهو شيخٌ كبير، عنَد ٱلوليدِ بْنِ عبدِ ٱلملك، وقد وقَعَتْ في رجْلِهِ الأُكلةُ[1]: فأشاروا عليهِ بقطعِها لا تُفسدَ جسدَهُ كلَّه، فدُعِيَ لَهُ مَنْ يقطعُها فلمَّا جاءَ قالَ لَه: نسقيكَ ٱلخمرَ حتى لا تجدَ لها ألماً. فقالَ عُروة: لا أستعينُ بحرامِ ٱللّهِ على ما أرجو من عافية! قال: فنسقيكَ المُرْقِد[2]. فقال عروة: ما أحِبّ أنْ أُسلَبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجدُ ألمَ ذلك فأحتسبُه!

(١) الأُكلة، بضم الهمزة هي الحِكَّة بكسر الحاء. (٢) المرْقد: ما يسمّى بالأجنبية البنج.

ثُمَّ دخلَ رجالٌ أنكَرهم عُروة، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يُمسكونَك، فإنَّ الألمَ ربَّما عزَبَ[1] معهُ ٱلصبر. قالَ أرجو أنْ أكفيَكم ذلك من نفسي!

قال الشيخ: فانظرْ أيُّها الضعيفُ الذي يُريدُ قتلَ نفسِهِ كيفَ صنَع عُروة، وكيف ٱستقبلَ ٱلبلاء، وكيفَ صبرَ وكيف ٱحتمل. إنَّهُ ٱنصرفَ بحسِّهِ إلى النفسِ فٱنبسطَتْ روحُهُ عليه، وأخذ يكبِّرُ ويهلِّلُ ليبقى مع روحِهِ وحدَها، وخرجَ من دنيا ظاهرِهِ إلى دنيا باطنِهِ، وغُمِرَتْ حواسُّهُ وأَعصابُهُ بالنورِ الإلهيِّ من معنى ٱلتكبيرِ وٱلتهليل، فقطعَ القاطعُ كعبَهُ بالسكينِ وهو لا يلتفِت، حتى إذا بلغَ العظمَ وضعَ عليها المنشارَ ونشَرَها وعروةُ في ٱلتكبيرِ والتهليل؛ ثُمَّ جِيءَ بالزيتِ مغليًّا في مغارفِ[2] الحديدِ فَحُسِمَ[3] بِهِ مكانُ القطع، فَغُشيَ على عُروة ساعةً ثُمَّ أفاقَ وهو يمسحُ العرَقَ عن وجهِه، ولم يُسمعْ منه في كلِّ هذه الآلامِ الماحقةِ أنَّةٌ ولا آهةٌ، ولم يقلْ قبلَها ولا بعدَها ولا بينَ ذلك: «جاءَ ما لا صبرَ عليه....!».

* * *

قال المسيَّب: وأَرْهِفَ[4] بأسُ الرجلِ الضعيفِ وقَوِيَ جأشُه[5]، وٱنبعَثَ فيه ٱلروحُ إلى عُمرٍ جديد، ونشأَ لَهُ اليقينُ من عقلِهِ ٱلروحانيّ، وعرفَ أنَّ ما لا يُمكنُ أنْ يُدرَك، يُمكنُ أنْ يُترَك.

وجاءَ هذا العقلُ الروحانيُ فمرَّ بالمِنشارِ على ٱليأسِ الذي كانَ في نفسِه فقطعَه، فما راعنا إلَّا أنْ وثبَ الرجلُ قائماً يقول: اللَّهُ أكبرُ مِنَ الدنيا، اللَّهُ أكبرُ مِنَ الدنيا!.

ثُمَّ أكبَّ[6] على يدِ الشيخِ وهو يقول: صدقْت؛ «إنْ كلُّ ذلك إلَّا كما ترى قبضةً مِنَ ٱلترابِ تتكبر، وقد نسِيَتْ أنَّهُ سيأتي مَنْ يكنسُها!».

ماذا يصنعُ الإنسانُ إذا غلطَ في مسألةٍ من مسائلِ الدنيا إلَّا أنْ يتحرَّى[7] ٱلصواب، ويجتهدَ في الرجوع إليه، ويصبرَ على ما ينالُهُ في ذلك؟ وماذا يصنعُ الإنسانُ إذا غلطَتْ فيه مسألة....؟

---

(١) عزب: نفد.
(٢) مغارف: ملاعق.
(٣) حسم: سكّر.
(٤) أرهف: رقّ.
(٥) الجأش: السيطرة على النفس.
(٦) أكبّ: انحنى.
(٧) يتحرّى: يتقصى.

الانتحار

٢

قال المسيَّب بْنُ رافع: وقامَ الشعبيُّ إلى الرجلِ فٱعْتَنَقَهُ فَرِحاً بما آلَ أمرُهُ إليه، بعدَ إذ رأى النورَ يجري على لونِهِ ويترقرقُ في ديباجتِه[١]؛ كأنَّما وَقَعَ الصلحُ بينَ وجهِهِ وبينَ الحياة. ثُمَّ قالَ لَه: نِعْمَ أخو الإسلام أنت، فٱستعِذْ بِاللَّهِ من خِذْلانِه، فإنَّهُ ما خذَلَكَ إلّا وضْعُكَ نفسَك بإزاءِ اللَّهِ تُعارِضُه أو تُجاريهِ في قدرتِه، فَيَكِلُكَ إلى هذه النفس، فتنتهي بك إلى العجز، وينتهي العجزُ بك إلى السُّخْط؛ ومتى كنْتَ عاجزاً ساخطاً، محصوراً في نفسِك؛ مَوْكولاً إلى قدرتِك، كنْتَ كالأسدِ الجائعِ في القَفْر[٢]، إذا ظنَّ أنَّ قوّتَهُ تتناولُ خَلْقَ الفريسةِ؛ فيدعو ذلك إلى نفسِك اليأسَ وٱلانزعاجَ وٱلكآبَةَ؛ وأمثالَها من هذه المُهلِكاتِ تقْدَحُ[٣] في قلبِك ٱلشكَّ في الله، وتُثبِتُ في رُوعِكَ شرَّ الحياة، وتُهدي إلى خاطرِك حماقاتِ ٱلعقل، وتقرِّرُ عندَك عجزَ ٱلإرادة؛ فتنتهي من كلِّ ذلك ميّتاً قد أزهقتْك نفسُك قبلَ أنْ تُزْهِقَها!

ولو كنْتَ بَدَلَ إيمانِك بنفسِك قد آمنْتَ باللَّهِ حقَّ الإيمان، لَسلَّطَكَ اللَّهُ على نفسِك ولم يسلطْها عليك؛ فإذا رَمتْكَ ٱلمطامعُ بالحاجةِ التي لا تقدرُ عليها، رميْتَها من نفسِك بالاستغناءِ الذي تقدرُ عليه؛ وإذا جاءتْكَ ٱلشهواتُ من ناحيةِ الرغبةِ المقبلة، جِئْتَها من ناحيةِ الزُّهدِ ٱلمنصرف، وإذا سَاوَرَتْكَ كبرياءُ الدنيا أذْلَلْتَها بكبرياءِ الآخرة.

وبهذا تنقلبُ ٱلأحزانُ والآلامُ ضُروباً من فرَحِ ٱلفوزِ وٱلانتصارِ على النفسِ وشهواتِها، وكانَتْ فنوناً مِنَ الخِذْلانِ وٱلهمّ، وتعودُ موضعَ فخرٍ ومباهاة، وكانَتْ أسبابَ خِزْيٍ وٱنكسار. «وعزيمةُ الإيمانِ إذا هي قوِيَتْ حَصَرَتِ ٱلبلاء في مقدارِه، فإذا حصرَتْهُ لم تزلْ تَنقُصُ من معانيهِ شيئاً شيئاً، فإذا ضعُفَتْ هذه العزيمةُ جاءَ

---

(١) ديباجته: محيّاه. (٢) القفر: الصحراء. (٣) تقدح: تشعل.

ٱلبلاءُ غامراً مُتَفشّياً يُجاوِزُ مقدارَهُ بما يَصْحَبُه مِنَ ٱلخوفِ والرَّوْعِ، فلا تزالُ معانيهِ تَزيدُ شيئاً شيئاً بما فيه وبما ليسَ فيه.

ولِلإيمانِ ضوءٌ في النفس يُنيرُ ما حولَها فتراهُ على حقيقتِهِ ٱلفانيةِ وشِيْكاً أنْ يزول؛ فإذا ٱنطفأَ هذا الضوءُ ٱنْطَمَسَتِ ٱلأشياء، فتتوهَمُها ٱلنفسُ أوهاماً مُتباينةً[1] على أحوالِها ٱلمختلفة؛ كما يرى ٱلأعمى بِوَهْمِه: لا عيْنُهُ معَ الأشياءِ تكونُ في طبيعتِها، ولا أشياؤه عندَ عينِهِ تكونُ في حقيقتِها.

* * *

قال ٱلمسيَّب: وكانَتِ ٱلشمسُ قد طفَّلَتْ[2] لِلمغيب؛ فقالَ الإمامُ لِلرجل: قُمْ فتوضّأْ وأسْبغِ ٱلوضوء، وسأُعلِّمُك أمراً تنتفعُ بهِ في دينِكَ ودنياك: فإذا قُمْتَ إلى وُضوئِك فأيقِنْ في نفسِك وٱعزِمْ في خاطرِك على أنَّ في هذا الماءِ سرًّا روحانيًّا من أسرارِ ٱلغَيبِ وٱلحياة، وأنَّهُ رمزٌ لِلسماءِ عندَك، وأنَّك إنَّما تتطهَّرُ بهِ من ظُلماتِ نفسِك ٱلتي ٱمتدَّتْ على أطرافِك؛ ثُمَّ سَمِّ ٱللَّهَ (تعالى) مُفيضاً ٱسمَهُ ٱلقادِرَ الكريمَ على ٱلماءِ وعلى نفسِك معاً، ثم تَمثَّلْ أنَّك غسلْتَ يديك مِمَّا فيهما ومِمَّا تتعاطاهُ بهما من أعمالِ الدنيا، وأنَّك آخِذٌ فيهما مِنَ السماءِ لِوجهِكَ وأعضائِك؛ وقرِّرْ عندَ نفسِك أنَّ الوضوءَ ليسَ شيئاً إلَّا مَسحةً سماويةً تُسبِغُها على كلِّ أطرافِك، لِيشعرَ بها جسمُكَ وعقلُك؛ وأنَّكَ بهذِه ٱلمسحةِ السماويةِ تستقبلُ ٱللَّهَ في صلاتِك سماويًّا لا أرضيًّا.

فإذا أنت ٱستشعرْتَ هذا وعملْتَ عليهِ وصارَ عادةً لك، فإنَّ الوضوءَ حينئذٍ ينزلُ مِنَ النفسِ منزلةَ ٱلدواء، كلَّما أُغتَممْتَ أو تَسخطْتَ أو غشيَكَ حزنٌ أو عَرضَ لك وَسواس، فما تتوضأُ على تلك النيَّةِ إلَّا غسلْتَ ٱلحياةَ وغسلْتَ الساعةَ التي أنت فيها مِنَ الحياة. وترى ٱلماءَ تحسبُهُ هدوءاً ليِّناً لِينَ الرِّضى، وإذا هو ينسابُ في شعورِك وفي أحوالِك جميعاً.

قالَ ٱلمسيَّب: وقمْتُ أنا فجدَّدتُ وضوئي على هذِه ٱلصفةِ بتلكَ النية، فإذا أنا عندَ نفسي مستضيءٌ برُوحٍ نَجميَّةٍ لها إشراقٌ وسناء، وإذا الوضوءُ في أضعفِ معانيه هو ما عَلِمْنا من أنَّهُ ٱلطهارةُ والنظافة، أمَّا في أقوى معانيهِ فهو إفاضةٌ مِنَ السماءِ فيها التقديسُ وٱلتزكيةُ وغَسلُ ٱلوقتِ ٱلإنسانيِّ مِمَّا يُخالطُهُ كلَّما مرَّتْ

---

(1) متباينة: مختلفة.

(2) طفَّلت: مالت.

ساعات، وأبتداؤه لِلروحِ كالنباتِ ٱلأخضرِ ناضراً مطولاً مترَطباً بِالماء.

ثم صلّى بنا الشيخُ، وأمرني بالمبيتِ معَ الرجل، كأنما خَشي البَدَوَاتِ[1] أنْ تَبدُو له فَتنقُصَ عَزْمَه، أو هو زادني عليه لِأُغيِّرَ شخصَهُ وأبدِّلَ وحدتَهُ التي كانَ فيها، أو كأنَّ الشيخَ لم يأمنْ على الرجلِ أنْ يكون إنسانُهُ الروحيُّ قد تنبّهَ بأكملِهِ فوضعَني كالتنبيهِ لَه.

وجاءَنا ٱلعشاءُ من دارِ ٱلشيخ فطعِمْنَا، ثُمَّ قامَ الرجلُ فتوضَّأ وصلَّيْنا العَتَمَةَ وجلسْنا نتحدث، فاستنبأْتُهُ نبأه[2]، فقال: مهلاً. ثُمَّ نهض فتوضَّأ الثالثةَ وقال: تاللهِ ما أعرِفُ الوضوءَ بعدَ اليومِ إلَّا ملامَسةً بينَ ٱلسماءِ والنفس، وما أعرِفُ وقتَهُ مِنَ الروحِ إلَّا كساعةِ الفجرِ على ٱلنباتِ الأخضر.

* * *

قالَ المسيَّب: وأصبحْنَا فغدوْنَا على الإمام، ثُمَّ لزمني ٱلرجلُ في بعضِ أموري، ثُمَّ وافينا المسجدَ صلاةَ العصرِ لِحضورِ درسِ الشيخ؛ وكانَ الناسُ كالحَبِّ المتراصِفِ على العُنقود، لا أدري من ساقَهم وجَمَعهم؛ كأنّما علِمَتِ الكوفةُ أن رجلاً مسلماً كفَرَ باللّهِ كفْرةً صَلْعاءَ وأنَّهُ سيحضُرُ درسَ ٱلشيخ، وسيحضرُ الشيخُ من أجلِه، فهبَّتِ ٱلرياحُ الأربعُ تسوقُ أهلَها إلى المسجدِ من أقطارِها.

وجلسَ الشيخُ مجلسَ ٱلحديث فقال:

رُوِينا أنَّ رجلاً كانَتْ بهِ جِراحَةٌ، فأتى قَرَناً[3] لَهُ فأخَذَ مِشقصاً[4] فذَبحَ بهِ نفسَه، فلم يُصَلّ عليهِ النبيُّ ﷺ، وتركَ جنازتَهُ مطرودةً تقتحمُ مَتْلفةَ الآخرةِ كما أقتحمتْ متلفةَ الدنيا!

رُوِينا في الحديث عنِ ٱلنبيِّ ﷺ أنه قال: «الذي يخنقُ نفسَهُ يخنُقها في النّار، والذي يَطْعُنُ نفسَهُ يطعَنُ نفسَهُ في ٱلنار، والذي يقتحمُ يقتحمُ في النار!»

رُوِينا عنهُ ﷺ: «من قَتَلَ نفسَهُ بِشيءٍ عُذِّبَ بِهِ يومَ القِيامة!»

رُوِينا عنه ﷺ قال: «كانَ رجلٌ بهِ جِراحٌ فقتلَ نفسَه، فقالَ الله: بَدَرَني عبدي بنفسِهِ فحرَّمتُ عليهِ ٱلجنة!».

---

(١) البدوات: المفاجاءات.

(٢) استنبأته نباه: سألته عنه.

(٣) القَرَن بالفتح: جعبة النشاب.

(٤) المشقص: سهم ذو نصل عريض.

قالَ الشعبيُّ: يقولُ ٱللهُ: «بَدَرَني عبدي بنفسِه. . .» أيْ بدرني[1] وتألَّه فَجَعَلَ نفسَهُ إلٰهَ نفسِه، فَقبضَها وتوفَّاها، فكانَ ظالما.

بَدَرني وتَألَّهَ في آخرِ أنفاسِهِ لحظَة ينقلبُ إليَّ، فكانَ معَ ظُلمِهِ مغروراً أحمق!

بدرني وتألَّهَ حينَ ضاق، فهَوَّرَ نفسَهُ[2] في الموتِ من عجزِهِ أنْ يُمسِكَها في ٱلحياة، فكانَ عاجزاً معَ ظُلمِهِ وغُرورِهِ وحُمْقِه!

بدرني وتألَّهَ على جهلِهِ بِسرِّ ٱلحياةِ وحكمتِها، فلم يَسْتَحِ هذا ٱلمخلوقُ ٱلظالمُ ٱلمغرور في حمقِهِ وعجزِهِ وجهلِه ـ لم يستحِ أنْ يجيئني في صورة إله!

بَدَرني وتألَّه، فَطَبَع نفسَهُ طابَعَهَا الأبديَّ من غيٍّ وتمرّدٍ وسفاهة، وأرسلَها إليّ مقتولةً يرُدُّها عَلَيّ.

بدرني وتألَّهَ كأنما يقول: إنَّ لَهُ نصفَ الأمرِ وليَ ٱلنصف: أنا أحيَيْتُ وهو أماتَ. . .!

بَدَرَني عَبْدي بِنفسِهِ فحرَّمتُ عليهِ ٱلجنة! قال الشعبيّ: وإنَّما تُحرَّمُ الجنةُ على مَنْ يقتل نفسَهُ، إذْ ينقلبُ إلى اللّهِ وعلى روحِهِ جِنايةُ يدِهِ ما تُفارقُها إلى الأبد: فهو هناك جِيفةٌ مِنَ الجيفِ مسمومةٌ أبداً، أو مخنوقةٌ أبداً، أو مذبوحةٌ أبداً، أو مهشَّمةٌ أبداً يقولُ ٱللّهُ له: أنت بَدَرْتني بنفسِك، وجَريْتَ معي في القَدَرِ مجرًى واحداً، فستخلدُ نفسُك في الصورة التي هي من عملِك، وما قتلْتَ إلَّا حسَنَاتِك.

قال الشعبيّ: ولو عرفَ قاتلُ نفسِهِ أنَّهُ سيصنعُ من نفسِهِ جِيفةً أبديَّة، فمَنْ ذا الذي يعرِفُ أنه إذا فعلَ كذا وكذا تحوَّلَ حِماراً وبقيَ حِماراً، فيرضَى أنْ يتحوَّل ويُسرعَ لِيتحوَّل؟

مِن ذلك نظرَ النبيُّ ﷺ إلى جنازةِ ذلك الرجلِ الذي قتلَ نفسَه، كما ينظُر إلى ذبابةٍ توجَّهَتْ بالسبِّ إلى الشمسِ والكواكبِ والأفلاكِ كلِّها، ثم جَاءتْه تقولُ: اشهدْ لي.

* * *

قال الشيخ: ومِمَّ يقتلُ الإنسانُ نفسَه؟ أمَا إنَّ الموتَ آتٍ لا ريبَ فيهِ ولا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عنه، وهو ٱلخيبةُ ٱلكُبرى تُلْقَى على هذه الحياة؛ فما ضررُ الخيبةِ الصغيرةِ في أمرٍ من أمورِ الحياة؟

---

(١) بدرني: سبقني وأتى إليّ. (٢) هوّر نفسه: أزهقها.

إنَّ المرءَ لا يقتلُ نفسَهُ من نجاحٍ بل من خيبة، فإنْ كانَتِ ٱلخيبةُ من مالٍ فهي الفقرُ أوِ ٱلحاجة، وإنْ كانَتْ من عافيَةٍ فهِيَ ٱلمرضُ أوِ ٱلاختلال، وإنْ كانَتْ من عِزَّةٍ فهي ٱلذلُّ أوِ ٱلبؤس، وإنْ كانَتْ مِمَّا سوى ذلك ـ كالنساءِ وغيرِهِنَّ ـ فهي العجزُ عنِ ٱلشهوةِ وفسادُ التخيُّل، كلُّ ذلك موجودٌ في ٱلناس، يحملُهُ أهلُهُ راضينَ بِهِ صابرينَ عليه، وهو ٱلغبارُ النفسيُّ لهذه الأرضِ على نفوسِ أهلِها. ويا عجباً! إنَّ العُميانَ هم بالطبيعةِ أكثرُ الناسِ ضحكاً وٱبتساماً وعبثاً وسخريةً، أفتريدون أنْ تُخاطبَكُم الحياةُ بأفصحَ من ذلك؟

ليسَتِ ٱلخيبةُ هي ٱلشرّ، بلِ ٱلشرُّ كلُّهُ في العقل إذا تبلَّدَ فجمدَ على حالةٍ واحدةٍ مِنَ الطمعِ ٱلخائب، أو في الإرادةِ إذا وَهَنَت فبقيَتْ متعلِّقةً بما لم يُوجَد. أفلا ترونَ أنَّهُ حينَ لا يُبالي ٱلعقلُ ولا الإرادةُ لا يبقى لِلخيبةِ معنًى ولا أثرٌ في النفس، ولا يخيبُ الإنسانُ حينئذٍ، بل تخيبُ الخيبةُ نفسُها؟

لهذا يأبى ٱلإسلامُ على أهلِهِ ٱلتَّرَفَ العقليَّ والتخيُّلَ الفاسد، ويشتدُّ كلَّ الشِّدةِ في أمرِ ٱلإرادة، فلا يترخَّصُ في شيءٍ يتعلَّقُ بها، ولا يزالُ يُنميها بأعمالٍ يوميَّةٍ تشدُّ منها لِتكونَ رقيبةً على العقلِ حارسةً لَه، فإنَّ لِلعقلِ أمراضاً كثيرةً يقيسُ فيها درجاتٍ مِنَ الطيشِ حتى يبلغَ ٱلجنونَ أحياناً؛ فكانَتِ ٱلإرادةُ عقلاً لِلعقل؛ هي لِينُهُ إذا تصلَّبَ، وهي حركتُهُ إذا تبلَّد، وهي حِلْمُهُ إذا طاش، وهي رِضاهُ إذا سَخِط.

الإرادةُ شيءٌ بينَ ٱلروحِ وٱلعقل، فهي بينَ وجودَين؛ ولِهذا يكونُ بها الإنسانُ بين وجودَينِ أيضاً، فيستطيعُ أنْ يعيشَ وهو في الدنيا كالمنفصلِ عنها، إذْ يكونُ في وجودِهِ الأقوى وجودُ روحِه، وأكبرُ همِّهِ نجاحُهُ في هذا الوجود.

وهذا النجاحُ لا يأتي مِنَ المالِ، ولا تُحقِّقُهُ العافية، ولا تُيسِّرُهُ ٱلشهوات، ولا يُسَنِّيهِ[1] التَّخيلُ الفاسد؛ ولا يكونُ من مَتاعِ الغُرور، ولا مِمَّا عُمرُهُ خمسونَ سنةً أو مائةُ سنة؛ بل يأتي مِمَّا عُمْرُهُ الخلودُ ومِمَّا هو باقٍ أبداً في معانيهِ مِنَ ٱلخيرِ والحقِّ والصلاح؛ فهٰهنا يُعينُ المرضُ بالصبرِ عليهِ مِمَّا لا تُعينُ الصحة، ويُفيدُ الفقرُ بحقائقِهِ ما لا تُفيدُ الثروة؛ وهنا يكونُ العقلُ الإنسانيُّ عاملاً أكثرَ مِمَّا هو متخيِّل، وقانِعاً أكثرَ مِمَّا هو طامع؛ وههنا لا موضعَ لِغلبةِ ٱلشهوة، ولا كِبرياءِ النفس، ولا

(١) يسنيه: يجعله سنياً نبيلاً.

حُبّ الذات؛ وهذه الثلاثُ هي جالِبةُ الشقاءَ على الإنسانِ حتى في أحوالِ ٱلسعادة، وبدونِها يكونُ الإنسانُ هانِئاً حتى في أحوالِ الشقاء.

بالإرادة المؤمنةِ القويّةِ ينصرفُ ذكاءُ المؤمنِ إلى حقائقِ العالم وصلاحِ النفسِ بها، وبغيرِ هذهِ الإرادةِ ينصرفُ الذكاءُ إلى خيالِ الإنسانِ وفسادِ الإنسان. . .

وإذا ٱنصرفَ الذكاءُ إلى حقائقِ الدنيا كانَ العقلُ سهلاً مَرِناً مِطواعاً، وٱستحالَ عليهِ أنْ يفهمَ فكرةَ قتلِ النفسِ أو يُقرَّها، فإنَّ هذه الفكرةَ الخبيثةَ لا تَسْتطْرِقُ إلى العقلِ إلّا إذا تحجَّرَ وٱنحصرَ في غرضٍ واحدٍ قد خابَ وخابَتْ فيهِ الإرادةُ ففرغَتِ الدنيا عندَهُ.

ولو أنَّ ٱمرأً تمَّ عزمُهُ على قتلِ نفسِهِ ثُمَّ صابرَ الدنيا أيّاماً، لٱنفسَخَ عزمُهُ أوْ رَكَ[1]؛ إذْ يلينُ العقلُ في هذه المدةِ نوعاً ما، ويجعلُ الصبرُ بينَه وبينَ المصيبةِ مسافةً ما، فتتغيرُ حالةُ النفسِ هَوْناً ما؛ فالصبرُ كالتروُّحِ بالهواءِ على العقلِ الذي يكادُ يختنقُ من ٱحتباسِهِ في معنًى واحدٍ مُقْفَلٍ من جوانبِهِ «ومَثَلُ العقلِ في هذه الحالِ مَثَلُ القائم في إعصارٍ لَفَّهُ بالترابِ لَفًّا وسدَّ عليهِ مَنَافِذَ ٱلهواء، وحبسَهُ في هذا الترابِ الملتفِّ حَبْسَ ٱلحشرةِ في جوفِ القصَبة؛ فهو على ٱليقينِ أنَّها حالةُ ساعةٍ طارئةٍ في ٱلزمنِ لا حالةُ الزمن؛ وأنَّ الهواءَ الذي جاءَ بهذا ٱلهمِّ هو الذي يذهبُ بهذا ٱلهمّ.

وكما أنَّ الأرضَ هي شيءٌ غيرُ هذا الإعصارِ الثائرِ منها، فالحياةُ كذلك هي أمرٌ آخرُ غيرُ شقائِها.

* * *

قالَ ٱلإمام: وفي كتابِ ٱللّهِ آيتانِ تدلّانِ على أنَّهُ كتابُ الدنيا كلِّها، إذْ وضعَ لهذه الدنيا مثالين: أحدُهما المثالُ الروحيُّ لِلفردِ ٱلكامل، والآخرُ المثالُ الروحيّ لِلجماعةِ الكاملة.

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾.

وأما الثانيةُ فهي قولُهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

---

(١) ركَّ: ضعف.

ففي رجاءِ ٱللَّهِ واليومِ الآخرِ يتسامى الإنسانُ فوقَ هذه الحياةِ الفانية، فتمرُّ همومُها حولَهُ ولا تصدمُه، إذْ هي في الحقيقةِ تجري من تحتِهِ فكأنْ لا سلطانَ لها عليه؛ وهذه الهمومُ تجدُ في مثلِ هذه النفسِ قُوًى بالغةً تصرِّفها كيف شاءَت، فلا يجيءُ الهمُّ قوةً تسحقُ ضعفاً، بل قوةٌ تمتحِنُ قوةً أخرى أو تُثيرُها لِتكونَ عملاً ظاهراً يقلِّدُهُ الناسُ وينتفعُونَ منه بالأسوةِ الحسنة، والأسوةُ وحدَها هي عِلْمُ الحياة.

وقد ترى الفقيرَ مِنَ الناسِ تحسُبُهُ مسكيناً، وهو في حقيقتِهِ أستاذٌ من أكبرِ الأساتيذِ يُلقي على الناسِ دروسَ نفسِهِ القويَّة.

وفي رجاءِ ٱللَّهِ واليومِ الآخرِ يبطلُ أكبرُ أسبابِ الشرِّ في الناس، وهو نظَرُ الإنسانِ لِمَنْ هو أحظَى منهُ بفتنةِ الدنيا نظراً لا يَبْعثُ إلّا ٱلحِقدَ وٱلسخط، فينظرُ المؤمنُ حينئذٍ إلى ما في الناسِ مِنَ الخيرِ والصلاحِ والإيمانِ والحقِّ والفضيلة، وهذه بطبيعتِها لا تبعثُ إلَّا السرورَ والغِبطة. ومَنْ جعلَها في تفكيرِهِ أبطلَ أكثرَ الدنيا من تفكيره؛ وبها تسقطُ الفروقُ بينَ الناسِ عاليهم ونازِلهم؛ كالرجلِ الفقيرِ العالمِ إذا قَدِمَ على الغنيِّ العالم؛ جَمعَ بينَهما الاتفاقُ العقليُّ وسقطَ ما عداه.

وفي رجاءِ ٱللَّهِ واليومِ الآخرِ يعيشُ ٱلإنسانُ عُمْرَهُ الطويلَ أوِ ٱلقصيرَ كأنَّهُ في يوم يُصبحُ منه غادياً على ٱلحشرِ وٱلحِساب؛ فهو متَّصلٌ بالخلودِ غيرُ مَعْنِيٍّ إلَّا بأسبابِه؛ وبهذا تكونُ أمراضُهُ وآلامُهُ ومصائبُهُ ليسَتْ مَكارِهَ منَ الدنيا، بل هي تلكَ المكارِهُ التي حُفَّتِ ٱلجنةُ بها؛ ولا يَضرُّهُ الحِرْمانُ لأنَّهُ قريبُ الزوال، ولا يغُرُّهُ المتاعُ لأنَّهُ قريبُ الزوالِ أيضاً.

وفي رجاءِ ٱللَّهِ واليومِ الآخرِ يَسُودُ الإنسانُ على نفسِه؛ ومَنْ كانَ سيِّدَ نفسِهِ كانَ سيدَ ما حولَها يُصَرِّفُهُ بحكمِهِ، ومَنْ كانَ عَبْدَ نفسِهِ صَرَّفَهُ بحكمِهِ كلُّ ما حَوْلَه.

قالَ الشعبيّ: وأمَّا المثالُ الروحيُّ لِلجماعةِ الكاملة، فهو في وصفِ ٱلمؤمنينَ بأنهم «رُحَمَاءُ بينهم»؛ فهذا هذا، ما أحسُبُه يحتاجُ إلى بَسْطٍ وبيان.

إنَّ أكثرَ ما يضيقُ بهِ الإنسانُ يكونُ من قِبَلِ مَنْ حولَهُ مِمَّن يُعايِشُهُم ويتَّصلُ بهم لا من قبلِ نفسِه، فإذا قامَ ٱجتماعُ أمَّةٍ على أنَّهم (رُحَمَاءُ بينهم) تَقَرَّرَتِ ٱلعظمَةُ النفسيَّةُ لِلجميعِ على السواء؛ ومَنْ كانوا كذلك لم يَحْقِروا الفقيرَ بفقرِهِ، ولم يُعظموا الغنيَّ لِغِنَاه، وإنَّما يُحَقِّرُون ويعظِّمونَ لِصفاتٍ ساميةٍ أو حقيرة. وبينَ هؤلاءِ يكونُ الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قَدْراً مِنَ الغنيِّ الشاكر، وإعظامُ الناسِ

لِفضيلةِ الفقيرِ هو الذي يجعلُ فقرَهُ عندَ نفسِهِ شيئاً ذا قيمةٍ في الإنسانية.

ومتى تَصحَّحَتْ آراءُ الجماعةِ في هذه المعاني المؤلمةِ لِلناس بَطَلَ ألمُها وٱستحالَتْ معانيها، وصارَ لا يَبلَى معنًى من معاني ٱلحياة في إنسانٍ إلَّا وضعَ إيمانُهُ معنًى جديداً في مكانِه، وتُصبحُ ٱلفضيلةُ وحدَها غايةَ النفسِ في الجميع؛ وبذلك يَصبرُ ٱلفردُ على مصائبِه، لا بقُوّتِهِ وحدَه، ولكنْ بجميعِ القوَى التي حولَه. أفَلا تَرَوْنَ أنَّ إعجابَ الناسِ بالشجاعةِ وتعظيمَهم صاحبَها يَضعُ في ألَمِ السلاحِ لذةً يُحِسُّها لحمُ الشجاعِ البطلِ؟

* * *

قالَ المسيَّب بْنُ رافع: فقامَ رجلٌ مِنَ المجلس، فقال. أيُّها الشيخ، وإذا فَسدَ الناسُ وغَلُظَتْ قلوبُهم، وتقطَّعتْ بينَهُمُ الأسباب، ولم يعودوا (رُحَمَاءُ بينهم)، وشَمِتوا بالفقير، وتهزَّءوا بالمُبتلَى وطرحوه في ألسنتِهم كما يَطرَحُ الشاعرُ في لِسانِهِ رجلاً يهجوه لا يكفُّ عنه ـ فما عسى أنْ يصنعَ المسكينُ حينئذٍ وكلُّ شيءٍ يدفعُهُ إلى قتلِ نفسِه؟

وقال الشعبيّ: هٰهنا الرجاء في اللّهِ واليوم الآخر، وهو شعورٌ لا يُشترى بمال، ولا يُلتمسُ من أحد، ولا يَعْسُرُ على مَنْ أرادَهُ؛ والفقيرُ وٱلمُبتلَى وغيرُهما إنَّما يَصنعُ كلٌّ منهم مِثالَهُ السامي؛ فالصبرُ على هذا العَنَتِ هو صبرٌ على إتمامِ ٱلمِثال، وإذا وقَعَ ما يسوءُك أو يُحزِنُكَ فٱبحثْ فيهِ عن فكرتِهِ السامية، فقلَّما يخلو منها، بل قلَّما يجيءُ إلَّا بها.

قالَ المسيَّب: فقامَ آخرُ فقال: وكيف يصنعُ ٱمرؤٌ آلتْ[1] أحوالُ ٱلدنيا إلى ما يُخيفُه، أو بَلَغَ ٱلهمُّ مبلَغَهُ من قلبِهِ فهمَّ أنْ يقتلَ نفسَه؟

قال الشعبيّ: فلْيجعلِ ٱلخوفَ خَوْفَيْنِ: أحدُهما خوفُهُ عذابَ اللّهِ خالداً مُخلَّداً فيهِ أبداً؛ فَيَذْهَبُ الأقوى بالأضعف. وإذا ٱبتُليَ فلْيضمَّ إلى نفسِهِ مَن هو أشدُّ بلاءً منه؛ لِيكونَ همُّهُ أحدَ همَّيْن، فيذهبَ الأثقلُ بالأخفّ.

إنَّ الإنسانَ ونفسَهُ في هذه الحياةِ كالذي أُعطيَ طِفلاً نَزِقاً طَيَّاشاً عارِماً متمرِّداً لِيؤدِّبَهُ ويُحْكِمَ تربيتَهُ وتقويمَهُ فيُثبتَ بذلك أنَّهُ أُستاذٌ، فيُعطَى أجرَ صبرِهِ وعملِه، ثم يضيقُ الأستاذُ بالطفلِ ساعةً فيقتلُه. أكذلك التأديبُ والتربية؟

---

(١) آلت: تحوّلت.

الانتحار

٣

قال ٱلمسيَّبُ بْنُ رافع: وكان الإمامُ قد شغَلَ خاطرَهُ[١] بهذِه القصةِ فأخذَتْ تَمُدُّ مدَّها في نفسِه، ومكَّنَتْ لَهُ من معانيها بِمِقدارِ ما مكَّنَ لَها في هَمِّه، وتفتَّقَ بها ذِهنُهُ عَنْ أساليبَ عجيبةٍ يتهيَّأُ بعضُها من بعضٍ كما يَلِدُ المعنى المعنى. فلمَّا قالَ ٱلرجُلانِ مقالَهما آنفاً وأجابَهما بتلك الحِكمةِ والموعظةِ الحسنة، ٱنْقدَحَ لَهُ من كلامِهما وكلامِهِ رأيٌ فقال:

يا أهلَ الكوفة: أنشُدُكم ٱللَّهَ والإسلامَ أيُّما رجلٍ منكم ضاقَ بروحِهِ يوماً فأرادَ إزهاقَها إلَّا كشفَ لأهلِ المجلسِ نفسَهُ وصَدَقَنا عن أمرِه؛ ولا يَجِدَنَّ في ذلك ثَلْباً[٢] ولا عاباً، فإنَّما ٱلنكبةُ مذهبٌ من مذاهبِ القَدَرِ في ٱلتعليم؛ وقد يكونُ ٱبتداءُ المصيبةِ في رجلٍ هو ٱبتداءَ الحكمةِ فيهِ لِنفسِه أو لِغيرِه؛ وما من حزينٍ إلَّا وهو يشعرُ في بعضِ ساعاتِ حزنِهِ أنَّهُ قد غُيِّبَتْ فيهِ أسرارٌ لم تكنْ فيه، وهذا من إبانةِ ٱلحقيقةِ عن نفسِها وموضعِها كما لألأ[٣] في سيفٍ بريقُه.

وعقلُ ٱلهمِّ عقلٌ عظيم، فلو قد أُريدَ استخراجُ عِلْمٍ يَعلمُهُ الناسُ مِنَ ٱللذاتِ والنِّعم؛ لَكانَ من شرحِ هذا العِلْمِ مِنَ الحميرِ والبغالِ والدَّوابِّ ما لا يكونُ مثلُهُ ولا قُرابُهُ في ٱلعقلاء، ولا تبلغهُ القُوى الآدميَّةُ في أهلِها؛ بَيدَ أنَّهُ لو أُريدَ عِلْمٌ مِنَ البؤسِ والألمِ وٱلحاجةِ لَمَا وُجِدَ شرحُهُ إلَّا في الناس، ثُمَّ لا يكونُ الخاصُّ منه إلَّا في الخاصةِ منهم.

وما بانَ أهلُ النعمةِ ولا غَمروا المساكينَ في تطَاوُلِهم بأعناقِهم إلَّا من أنَّهم يَعلُون أكتافَ الشياطين؛ فالشيطانُ دابَّةُ الغنيِّ الذي يجهلُ الحقَّ عليهِ في غِناهُ ويحسبُ نفسَهُ مُخَلًّى لِشهواتِهِ ونعيمِه؛ كما هو دابةُ العالمِ الذي يجهلُ الحقَّ عليهِ

(١) خاطِره: باله. (٢) ثلباً: عاباً وعيباً. (٣) لألأ: التمع وبرق.

في عِلْمِه، ويزعمُ نفسَهُ مخلًّى لِعقلِهِ أو رأْيِه، وما طالَ الطويلُ بذلك ولا عن ذلك قَصُرَ ٱلقصير، وهلْ يصحُّ في الرأي أن يُقالَ هذا أطولُ من هذا لأنَّ الأولَ فوقَ السُّلَّمِ والآخرَ فوقَ رجليه. . .؟

* * *

قال المسيَّب: فقامَ شيخٌ من أقصى المجلس وأقبلَ يتخطَّى ٱلرقابَ وٱلناسُ يَنْفرجون[1] لَهُ حتى وقفَ بإزاءِ الإمام؛ وتَفَرّستُهُ[2] وجعلَتْ عيني تعْجمُهُ[3]، فإذا شيخٌ تبدو طَلاقَةُ وجهِهِ شباباً على وجهِه، أبلجُ الغُرّةِ مُتهلّلٌ عليهِ بشاشةُ الإيمانِ وفي أساريرِهِ أثرٌ من تقطيبٍ قديم، ينطقُ هذا وذاك أنَّ الرجلَ فيما أتى عليهِ مِنَ الدهرِ قد كانَ أطفأ ٱلمصباحَ الذي في قلبِهِ مرةً ثُمَّ أضاءه. وعجِبْتُ أنْ يكونَ مثلُ هذا الشيخ قد همَّ بقتلِ نفسِهِ يوماً، وأنا أرى بعينيَّ نفسَهُ هذه مُنْبثِقةً في الحياةِ ٱنبثاقَ النَّخلةِ السَّحوقِ.

وتكلمَ هذا الرجلُ فقال:

أمّا إذ ناشدْتَنا[4] الله والإسلامَ وميثاقَ العِلْم ووحيَ الأقدارِ في حِكمتِها، فإنِّي محدِّثُك بخبري على وصفِهِ ورَصْفِه: أملقْتُ[5] مَنذُ ثلاثينَ سنةً ووقفَ بي منَ الدهرِ ما كانَ يجري، وأصبحْتُ في مُزاولةِ الدنيا كعاصرِ الحَجَرِ يُريدُ أنْ يشربَ منه، وعجَزتْ يدي حتى لَظُفْرُ دَجاجةٍ في نبشِها الترابَ عنِ ٱلحبَّةِ وٱلحشرَةِ أقدرُ مني؛ وطرَقَتْني ٱلنوائبُ[6] كأنَّما هي تُساكنُني في داري، وأكلني ٱلدهرُ لحماً ورماني عِظاماً، فما كانَ يقفُ عليَّ إلَّا كلابُ ٱلطريقِ؛ ولي يومئذٍ ٱمرأةٌ أعقبْتُ منها طفلاً، ويلزَمُني حقُّهما ولا أستطيعُه؛ وكانَ بينَنَا حُبٌّ فوقَ المعاشرةِ والألفةِ قد تركني مِنِ ٱمرأتِي هذه كالشاعرِ الغَزِلِ من صاحبتِه، غيرَ أنَّ الشعرَ في دمي لا في لِساني.

فلمَّا نَهكَتْني[7] المصائبُ وتناولَتْني من قريبٍ ومن بعيد؛ قلْتُ لِلمرأةِ ذاتَ يوم وقد شَحِبَتْ وٱنكسرَ وجهُها وتَقَبَّضَ[8] من هُزالِه: وٱيمُ اللَّهِ يا فلانةُ لو جازَ أنْ يُؤكَلَ لحمُ الآدميّ لَذبحْتُ نفسي لِتأكلي وتَدرِّي على الصبيِّ؛ ولقد همَمْتُ أنْ أركبَ رأسي وأذهبَ على وجهي لِتفقداني فتفقدا شُؤمي عليكما؛ ولكنْ ردَّني

---

(١) يتفرجون له: يُفسحون له الطريق.
(٢) تفرسته: نظرت إليه بإمعان.
(٣) تعجمه: تتفحّصه.
(٤) ناشدتنا الله: استحلفتنا.
(٥) املقت: افتقرت.
(٦) طرقتني النوائب: حلّت بي المصائب.
(٧) نهكتني: أتعبتني وأضنتني.
(٨) تقبّض: انكمش.

قلبي، وهو حَبَسني في هذه الدنيا الصغيرةِ التي بينَكما، فليسَ لي مِنَ الأرضِ مَشْرِقٌ ولا مغربٌ إلّا أنتِ وهذا الصبيّ. ولسْتُ أدري - واللّهِ - ما نصنعُ بالحياةِ وقد كُنّا من نباتِها الأخضرِ فرجَعْنا من حَطبِها اليابس؛ وعادتِ الشمسُ لا تَغذوها بل تمتصُّ منها ما بقي، ولا تستضيءُ لها، ولكنْ تَسْتَوْقِدُ عليها!

إنَّ مَنْ فَقَدَ ٱلخيرَ ووقعَ في الشرّ، حَرِيٌّ[1] أنْ يكونَ قد أصابَ خيراً عظيماً إذا قتلَ نفسَهُ فخلص مِنَ ٱلشرِّ والخيرِ جميعاً، لا يُكْدِي[2] ولا يَنجَحُ، ولا يألمُ ولا يَلَذُّ؛ وكما أنكرَتْهُ الدنيا فلْينكرْها. أمَا إنّهُ إنْ كانَ القبرُ فالقبرُ ولكنْ في بطنِ الأرضِ لا على ظهرِها كحالِنا؛ وإنْ كانَ ٱلموتُ فٱلموتُ ولكنْ بمرَّةٍ واحدةٍ وفي شيءٍ واحدٍ لا كهذا الذي نحن فيهِ أنواعاً أنواعاً. قد ماتَتْ أيّامُنا، وترَكَتْنا نعيشُ كالموْتى لا أيامَ لهم، وزادَ علينا ٱلموتى في النعمةِ والراحةِ أنّهم لا يتطفّلون[3] على أيامِ غيرِهم فيُطْرَدوا عن يوم هذا ويوم ذاك.

قال: فٱستعبرَتِ[4] ٱلمرأةُ باكيةً، ولَمّا فرغَتْ من كلامِ دموعِها قالَت: كأنَّكَ تُريدُ أنْ تَفْجَعَنا فيك؟ قلْتُ: ما عَدَوْتِ ما في نفسي؛ ولكنْ هلْ بقيَ فيَّ مَنْ تُفْجَعينَ فيه؟ أمَا ذهبَ مني ذاكَ الذي كانَ لكِ زوجاً وكاسِباً، وجاءَ الذي هو همُّكِ وهمُّ هذا الصبيِّ من رجلٍ كالحفرةِ لا تنتقلُ من مكانِها وتأخذُ ولا تُعطِي؟

أمْ واللهِ لَكأنّي خُلقْتُ إنساناً خطَأً، حتى إذا تبيَّنَ الغلطُ أُريدَ إرجاعي إلى الحيوانِ فلم يأتِ لا هذا ولا ذاك، وبقيْتُ بينَهما؛ يمرُّ الناسُ بي فيقولون: إنسانٌ مِسكين. وأحسبُ لو نطَقتِ ٱلكلابُ لَقالَتْ عنّي: كلبٌ مسكين. يا عجباً! عجباً لا ينتهي! أصبحتِ الدنيا في يدِنا مِنَ العجزِ واليأسِ كأنّما هي بَعْرَةٌ نَجْهَدُ في تحويلِها ياقوتةً أو لؤلؤة. . .

فقالَتِ ٱلمرأة: واللّهِ لَئنْ حَييتَ على هذا إنَّ هذا لَكفرٌ قبيح، ولَئنْ مُتَّ عليه إنّهُ لَأقبحُ وأشدّ.

فقلْتُ لها: ويحكِ وماذا تنظرُ العينُ ٱلمُبصِرةُ في الظلامِ الحالكِ إلّا ما تنظرُ ٱلعمياء؟

قالَت: ولِمَ لا تنظرُ كما ينظرُ المؤمنُ بنورِ ٱللّهِ؟

---

(١) حريّ: جدير.
(٢) أكدى: قلّ خيره وعطاؤه.
(٣) يتطفلون: يعيشون على حساب غيرهم.
(٤) استعبرت: بكت.

قلْتُ: فٱنظرِي أنت وخبِّريني ماذا تَرَيْن. أترَيْن رغيفاً؟ أترَيْن إداماً؟ أترَيْنَ ديناراً؟

قالت: واللَّهِ إني لأرى كلَّ ذلك وأكثرَ من ذلك. أرى قمراً سيكْشِفُ هذه السُّدْفَةَ[١] المُظلِمةَ إنْ لم يَطْلُعْ فكأنْ قَدْ.

قال: فغاظَتني ٱلمرأةُ ورأيْتُها حينئذٍ أشدَّ عليَّ بقلَّةِ ذاتِ عقلِها من قلَّةِ ذاتِ يدي؛ ولولا حبِّي إيّاها ورحمتِي لها لأوقعْتُ بها[٢]. وٱستحكم في ضميري أنْ أُزْهِقَ نفسي وأدَعَها لِمَا كُتِب لها.

وقلْت: إنَّ جُبنَ ٱلمرأةِ هو نصفُ إيمانِها حينَ لا يكونُ نصفَ عقلِها، وللقَدَرِ يدٌ ضعيفةٌ على النساءِ تَصْفَعُهُنَّ وتمسحُ دموعَهُنَّ، ولَهُ يدٌ أخرى على الرجالِ ثقيلةٌ تصفعُ الرجلَ وتأخذُ بحلقِهِ فتعصِرُه.

* * *

قال: وكنْتُ قد سمعْتُ قولَ الجاهليةِ في هذه الخليقة؛ أرحامٌ تَدْفَع، وأرضٌ تَبْلَع. فحضَرني هذا القولُ تلكَ الساعةَ وشُبِّهَ لي، وٱعتقدْتُ أنَّ هذا الإنسانَ شيءٌ حقيرٌ في الغايةِ مِنَ ٱلهوانِ والضَّعة: حملَتْهُ أمُّهُ كُرْهاً، وأثْقَلَتْ بِهِ كُرهاً، ووضَعتْهُ كُرهاً؛ وهو من شُؤمِهِ عليها إذَا دَنَا لها أنْ تَضَعَ لم يخرجْ منها حتى يَضْرِبَها ٱلمخاضُ فتتقلَّبُ وتصيحُ وتتمزَّقُ وتَنْصَدِع[٣]؛ وربمَّا نَشِبَ فيها فقتلَها، وربَّما التوى فيُبْقَرُ بطنُها عنه. وإذا هي ولدتْهُ على أيِّ حالَيْها من عُسْرٍ وتطريقٍ بمثلِ ٱلمَطارِقِ ٱلمحطِّمة، أو سَرَاحٍ ورَواحٍ كما يتيسَّر ـ فإنَّما تلدُهُ في مَشيمَةٍ ودماءٍ وقذَرٍ مِنَ ٱلأخلاطِ كأنّما هو خارجٌ من جُرْحٍ. ثم تتناولُهُ الدنيا فتضَعُهُ من معانيها في أقبحَ وأقذرَ من ذلك كلِّه. ثُمَّ يستوفي مُدَّتَهُ فيأخذُهُ القبرُ فيكونُ شرًّا عليه في تمزيقِهِ وتعفينِهِ وإحالتِه.

قال: وحضَرني مع كلمةِ الجاهليةِ قَولُ ذلك الجاهلِ الزِّنديقِ الذي يُعرفُ (بالبَقْلِيّ) ـ إذْ كانَ يزعمُ أنّ الإنسان كالبَقْلة، فإذا ماتَ لم يَرْجع. وقلْتُ لِنفسي: إنَّما أنت بَقْلةٌ حمقاءُ ذاويةٌ في أرضٍ نَشَّاشةٍ[٤]، فقتلَهَا مِلْحُ أرضِها أكثرَ مِمَّا أحياها.

---

(١) السُّدفة: الظلمة والعتمة.

(٢) أوقعت بها: نزلت بها ضرباً.

(٣) تنصدع: تتكسّر.

(٤) الأرض النشاسة: السبخة التي يوجد فيها الماء والملح.

قال: وثُرْتُ إلى المِديةِ[1] أُريدُ أنْ أتوَجأَ بها، فتُبادرني ٱلمرأةُ وتحولُ بيني وبينَها؛ وأكادُ أبطُشُ بها مِنَ ٱلغيظ، وكانَتْ روحُ ٱلجحيم تَزْفِرُ من حولي لو سَمِعوا سمعوا لها شهيقاً وهي تَفور؛ فما أدري أيُّ مَلَكٍ هبطَ بوحْي الجنةِ في لِسانِ ٱمرأتي.

قلْتُ لها: إنَّها عَزْمةٌ منِّي أنْ أقتلَ نفسي.

قالَت: وما أُريدُ أنْ أنقضَها ولسْتُ أرُدُّك عنها وستُمْضيها.

قلْتُ: فخلِّي بينَ نفسي وبينَ المِدية.

قالَت: كلُّنا نفسٌ أنا وأنت والصبيُّ فلْنَقْضِ معاً؛ وما بنفسي عن نفسِك رغبةٌ ولا ندعُ الصبيَّ يتيماً يصفعُهُ مَنْ يُطْعِمُه، ويضرِبُه ٱبنُ هذا وٱبنُ ذاك إذْ لا يستطيعُ أنْ يقولَ في أولادِ الناسِ أنا ابنُ ذلك ولا ابنُ هذا.

قلْتُ: هذا هو الرأي.

قالَت: فتعالَ ٱذبحِ ٱلطفل....

* * *

قالَ المسيَّب بْنُ رافع: وما بلغَ الرجلُ في قصتِهِ إلى ذبح صغيرِهِ حتى ضجَّ الناسُ ضجةً مُنكَرة؛ وتوهَّمَ كلُّ أبٍ منهم أنَّ طفلَهُ ٱلصغيرَ مُمدَّدٌ لِلذبحِ وهو يُنادي أباهُ ويشُقُّ حَلْقَهُ بالصُّراخ: يا أبي يا أبي؛ أدركْني يا أبي.

أمَّا الإمامُ فدَمَعَتْ عيناهُ وكنْتُ بينَ يديهِ فسمعْتُهُ يقول: إنَّا للَّهِ، كيف تصنعُ جهنمُ حطبَها؟

وأنا فما قَطُّ نسِيْتُ هذه الكلمة، وما قطُّ رأيْتُ من بعدِها كافراً ولا فاسقاً فٱعتبرْتُ أعمالَهُ إلَّا كانَ كلُّ ذلك شيئاً واحداً هو طريقةُ صَنعتِهِ حَطباً... كأنَّ الشيطانَ لعنَهُ ٱللَّهُ يقولُ لأتباعِه؛ جَفِّفوه...

وكانَتْ هُنَيْهاتٌ، ثُمَّ فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفسِهم وصاحوا بالمتكلم: ثم ماذا؟

* * *

قالَ الرجل: ففتحْتُ عيني وقلبي معاً ورَمقْتُ[2] ٱلطفلَ المسكينَ الذي لا يملِكُ إلَّا يديهِ الضعيفتينِ؛ ونظرْتُ إلى مَجْرَى السكينِ من حلقِهِ وإلى مَحَزِّها[3] في

---

(١) المدية: السكين.

(٢) رمق: نظر بطرف نظره.

(٣) محزّها: موضع الذبح.

رقبتِهِ اللّينة؛ ورأيْتُهُ كأنّما تفرَّقَ بصرُهُ مِنَ الفزَعِ على كلِّ جهة، ورأيْتُهُ يتضرَّعُ لي بعينيهِ الباكيتينِ ألّا أذبَحه، ورأيْتُهُ يتوسلُ بيديهِ الصغيرتينِ كأنّهُ عرفَ أنَّهُ منّي أمامَ قاتلِه، ثُمَّ خُيِّل إليَّ أنّه يتلوَّى وينتفضُ ويصرُخُ من ألمِ الذبحِ تحتَ يدِ أبيه؛ تحت يدِ أبيهِ التَّعِس.

يا ويلتاهُ! لقد أخذَني ما كانَ يأخُذني لو تهدَّمَتِ ٱلسماءُ على الأرض، وحسبْتُ الكونَ كلَّهُ قدِ ٱنفجَرَ صُراخاً من أجلِ الطفلِ الضعيفِ الذي ليسَ لَهُ إلّا ربُّهُ أمامَ القاتل.

فهَرْوَلْتُ[1] مسرعاً وتركْتُ ٱلدارَ وٱلمرأةَ والصبيَّ وأنا أقولُ يا أرحمَ الراحمين. يا مَنْ خلقَ الطفلَ عالَمُهُ أمُّهُ وأبوه وحدَهما وباقي العالم هباءٌ عندَه. يا مَنْ دبَّرَ الرضيعَ فوهبَهُ مُلكاً ومملكةً وغِنًى وسروراً وفرحاً، كلُّ ذلك في ثَدْي أمِّهِ وصدرِها لا غيرَ يا إلهي: أنسِنِي مثلَ هذا النسيان، وٱرزقْني مثلَ هذا الرزق، وٱكفُلْنِي بمثلِ هذا التدبيرِ فإنِّي منقطعٌ إلّا من رحمتِك ٱنقطاعَ الرضيعِ إلّا من أمِّه.

* * *

قالَ الرجل: ولقد كنْتُ مغروراً كالجيفةِ الراكدةِ تحسبُ أنَّها هي تفورُ حينَ فارقَتْ حشَراتُها. ولقد كنْتُ أحقرَ مِنَ الذبابِ الذي لا يجدُ حقائقَه، ولا يلتمسُها إلّا في أقذرِ القذر.

وما كِدْتُ أمضي كما تسوقُني رجلاي حتى سمعْتُ صوتاً نَدِيًّا مطلولاً يُرَجِّعُ ترجيعَ الوَرْقاءِ[2] في تَحْنانِها وهو يُرتِّل هذه الآية:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[3].

قال: فوقفْتُ أسمعُ وماذا كنْتُ أسمع؟ هذه شُعَلٌ لا كلمات، أحرقَتْ كلَّ ما كانَ حولي ولمسَتْ مِصباحَ رُوحِي ٱلمنطفِىءَ فإذا هو يتوهَّجُ، وإذا الدنيا كلُّها تتوهجُ في نورهِ، وٱرتفعَتْ نفسي عنِ ٱلجَدْبِ[4] الذي كنْتُ فيهِ وكأنَّما لَفَّتْني سحابةٌ مِنَ السُّحُب، ففي روحي نسيمُ الماءِ البارِدِ ورائحةُ الماءِ العذْب.

لعنَ ٱللَّهُ هذا الاضطرابَ الذي يُبتَلى الخائفُ بِه. إنَّنا نحسبُهُ ٱضطراباً وما هو

---

(١) هرولت: ركضت.

(٢) الورقاء: اليمامة.

(٣) فرطاً: تتقاسمه الأهواء.

(٤) الجدب: المحل.

إلَّا اختلاط ٱلحقائقِ على النفسِ وذَهابُ بعضِها في بعض، وتَضَرُّبُ الشرِّ في الخيرِ والخيرِ في الشرِّ حتى لا يَبِينَ جنسٌ من جنس، ولا يُعرَفَ حَدٌّ من حدّ، ولا تمتازَ حقيقةٌ من حقيقة. وبهذا يكونُ الزمنُ على المبتَلى كالماءِ الذي جَمدَ لا يتحرَّكُ ولا يَتَسايَرُ. فيلوحُ الشرُّ وكأنَّهُ دائماً لا يزالُ في أولِهِ يُنذِرُ بالأهوال، وقد يكونُ هَوْلَهُ ٱنتهى أو يُوشِك.

قالَ الرجل: وكنْتُ أرى يأسي قدِ ٱعْتَرَى كلَّ شيء، فٱمتدَّ إلى آخرِ الكونِ وإلى آخِرِ الزمن؛ فلمَّا سكَن ما بي إذا هو قد كان يأسَ يوم أو أيام في مكانٍ مِنَ الأمكنة؛ أمَّا ما وراءَ هذه الأيَّام وما خلْفَ هذا المكان، فذلكَ حُكمُهُ حكمُ الشمسِ التي تطلُعُ وتغيبُ على الدنيا لإحيائها، وحكمُ الماءِ الذي تَهْمِي السماءُ بهِ لِيسقِيَ الأرضَ وما عليها، وحكمُ ٱستمرارِ هذه الأجرامِ السماويَّةِ في مَدَارِها لا تُمسِكها ولا تَزِنُها إلَّا قوةُ خالقِها.

أين أثرُ الإنسانِ الدنيءِ الحقيرِ في كلِّ ذلك؟ وهلِ ٱلحياةُ إلَّا بكلِّ ذلك؟

وما الذي في يدِ الإنسانِ العاجزِ من هذا النظامِ كلِّهِ فيَسُوغَ[1] لَهُ أنْ يقولَ في حادثةٍ من حوادثِهِ إنَّ الخيرَ لا يبتدِئُ وإنَّ الشرَّ لا ينتهي؟

تَعترِي المصائبُ هذا الإنسانَ لِتمحوَ من نفسِهِ الخِسَّةَ والدناءة، وتكسِرَ الشرَّ والكِبرياء، وتَفثأَ[2] ٱلحِدَّةَ والطيش؛ فلا يكونُ من حُمقِهِ إلَّا أنْ يزيدَ بها طيشاً وحِدَّة، وكِبرياءً وشرًّا، ودناءةً وخِسَّة، فهذه هي مصيبةُ الإنسانِ لا تلك.

المصيبةُ هي ما يَنْشأُ في الإنسانِ مِنَ ٱلمصيبة.

* * *

قال: ورَدَّدْتُ الآيةَ الكريمةَ في نفسي لا أشبعُ منها، وجعلْتُ أُرتِّلُها أحسنَ ترتيلٍ وأطرَبَهُ وأشجاه؛ فكانتْ نفسي تهتزُّ وترتجُّ كأنَّما هي تبدأُ تنظيمَ ما فيها لإقرارِ كلِّ حقيقةٍ في موضعِها بعدَ ذلك ٱلاختلاطِ وٱلاضطراب.

صبرُ النفسِ معَ الذين يمثِّلونَ روحانيتها تمثيلاً دائماً بالغَداةِ والعشيّ، وعلى نورِ الحياةِ وظلامِها، يُريدون وَجهَ ٱللّهِ الذي سبيلُهُ ٱلحُبُّ لا غيرُهُ من مالٍ أو متاع. وتقييدُ العينينِ بهذا المثَلِ الأعلى كما يكونُ الأمرُ في ٱلجمالِ والحُبّ؛ والربطُ على

---

(١) يسوغ: يسمح.

(٢) فثأ الغضب: سكّنه وكسره.

الإرادةِ كَيْلاَ تَتَفلَّتَ فتُسِفَّ[1] إلى حقائرِ الدنيا المسماةِ هُزُءاً وتهكماً زينةَ الدنيا، تلك التي تُشبهُ حقائقَ الذبابِ العالية... فتكونُ قَذِرةً نجِسةً، ولكنَّها مع ذلك زينةُ الحياةِ لِهذا الخَلْقِ الذُّبابي.

تلك - واللَّهِ - هي أسبابُ السعادةِ والقوّة. أمَّا المصائبُ كلُّها، فهي في إغفالِ ٱلقلبِ الإنسانيِّ عن ذكرِ الله.

* * *

قال: ولمَّا صَحَّتْ توبتي، وقَوِيَ اليقينُ في نفسي، كَبُرَتْ روحي وٱتسعَتْ، وٱنبعثَتْ لها بواعثُ من غيرِ حقائقِ الذباب، وأشرقَ فيها الجمالُ الإلهيُّ ساطعاً من كلِّ شيء، وكانَ ٱلصبحُ يطلعُ عليَّ كأنَّهُ وِلادةٌ جديدة، فأنا دائماً في عُمرِ طفل، وجاءَنِي الخيرُ من حيثُ أَحْتَسِبُ[2] ولا أحتسِب، وكأنَّما نِمْتُ فٱنتبهْتُ غنيًّا وعَمِلَ القلبُ الحيُّ في الزمنِ الحيّ.

ولقد أفدْتُ مِنَ الآية طبيعةً لم تكُنْ فيَّ، ولا يثبتُ معها الشرُّ أبداً، فأصبحَ من خِصالي أنْ أرى الحاضرَ كلَّهُ متحرِّكاً يمرُّ بما فيهِ من خيرِهِ وشرِّهِ جميعاً، وأَسْتَشْعِرَ حركتَهُ مثلما ترى عيناي من قِطَارِ الإبلِ يهتزُّ تحتَ رِحالِهِ وهو يُغِذُّ السَّير[3].

لم أُبْعِدْ قليلاً وأنا أمشي مطمئناً تائباً متوكِّلاً حتى دعاني رجلٌ ذو نعمةٍ ومُروءةٍ وجاهٍ، وكأنَّما كلَّمَهُ قَلبُهُ أو كلَّمَهُ وجهي في قلبِه فٱستَنْبأني، وبَثَثْتُه[4] حالي وٱقْتَصَصْتُ قِصتي. فقال: سيُحييك ٱللَّهُ بالطفلِ الذي كِدْتَ تقتُلُهُ فٱرجعْ إلى دارِك. ثُمَّ وجَّهَ إليَّ دنانيرَ وقال: ٱتَّجِرْ بهذه على ٱسم اللَّهِ وبركتِهِ فسينمو فيها طفلٌ مِنَ ٱلمالِ حتى يبلغَ أَشُدَّه. وقد صدقَ إيمانُهُ وإيماني، فباركَ لِيَ ٱللَّهُ ونما طفلُ المالِ وبلغَ وجاوزَ إلى شبابِه.

* * *

قالَ ٱلمسيَّب: وجلسَ الرجلُ وكانَ كالخطيبِ على المنبر، فقالَ الإمام: ما أشبَهَ النكبةَ بالبَيضةِ تُحسَبُ سِجناً لِما فيها وهي تحوطُهُ وتربِّيهِ وتُعينُهُ على تَمامِه، وليسَ عليهِ إلّا الصبرُ إلى مدَّة، والرِّضى إلى غاية، ثم تَنْقُفُ ٱلبيضةُ فيخرجُ خَلقاً آخر.

وما ٱلمؤمنُ في دنياهُ إلّا كالفَرْخِ في بَيضتِه، عملُهُ أنْ يتكوَّنَ فيها، وتمامُهُ أنْ ينبثقَ شخصُهُ الكاملُ فيخرجَ إلى عالَمِهِ الكامل.

---

(١) تسفّ: تنحطّ.
(٢) احتسب: اعتقد وظنّ وأمل.
(٣) يغذّ السير: يجدّ في سيره.
(٤) بثثته: أعلمته وأطلعته على أمري.

الانتحار

٤

قال المسيَّب بْنُ رافع: ومدّ الإمامُ عينَهُ وقد رُفِعَ له شخصٌ منَ ٱلمجلس؛ ثم جَلى بنظرِهِ كأنَّما يتطلَّعُ إلى عجيبةٍ كالحقِّ إذا بَطَل، والصدقِ إذا كَذَب؛ ثم ردَّ بصرَهُ عَلَيَّ كأنهُ يُعَجِّبُني من عجبِهِ؛ ثم سَجَا[١] طرْفُهُ كأنَّما أنكرَ رأيَ عينيهِ فهو يلتمسُ رأيَ قلبِه. وتبيَّنتُ في وجهِهِ ٱنقباضاً خَيَّلَ إليَّ أنَّ الشيطانَ جاءَهُ بهذا الرجلِ يُفْحِمُهُ[٢] بهِ يُريهِ كيف يجعلُ أحدَ المؤمنين الصالحينَ يتحمَّسُ في دينِهِ لِيرجعَ بعدَ ذلك أصلاً لا غِنى عنهُ في إنشاءِ قصةِ كُفْر!

هذا هو ضيفُنا (أبو محمدٍ البَصْريُّ) يَتَخَوَّضُ[٣] الناسَ لِيجيءَ فيُحدِّثَنا حديثَهُ في قَتْلِ نفسِهِ والاثم بربّه؛ فلو قيلَ لي: إنَّ قَوْسَ السماءِ بأحمرِهِ وأصفرِهِ وأزرقِهِ وأخضرِهِ، قد وقعَ إلى الأرضِ وٱصطبغَ من ألوانِهِ أوحالاً وأقذاراً؛ لكَانَ هذا كهذا في تعاظُمِهِ وإنكارِهِ والعجَبِ منه؛ فأبو محمدٍ مِنَ الرجالِ الحُمْسِ[٤] الذين لو كَفَرَ أحدُهم ثُمَّ قيل: «إنه كفر»، لقَصَّرَ اللفظُ أنْ يبلُغَ الحقيقةَ أو يصِفَ شُنْعتَها، كما يقَصِّرُ لفظُ ٱلجنونِ عن وصفِ حكيم تألَّى أنْ يعملَ عملاً يَخرجُ بهِ منَ الكون، فلا يبقى في أرضٍ ولا سماءٍ ولا تنالُهُ يدُ الله! إنَّ في لفظِ الكفرِ معَ ذاك، وفي لفظِ الجنونِ معَ هذا ـ شيئاً من نِفاقِ العقلِ وتأدُّبِهِ في أداءِ المعنى الأخرقِ الذي لا يُشْبهُهُ جنونٌ ولا كفر.

ونعوذُ بِاللَّهِ من خِذلانهِ[٥]؛ فلقد يكونُ الرجلُ المؤمنُ في تشدُّدِهِ وإيغالِهِ في الدين ـ كالذي يصنعُ حبلاً يَفْتِلُهُ فتلاً شديداً فيُمِرُّهُ على طاقٍ بعدَ طاق، لِيكونَ أشدَّ

---

(١) سجا: سكن ودام.
(٢) يفحمه: يقنعه ويتغلّب عليه.
(٣) يتخوّض: يتخطى.
(٤) الحُمس: أي المتحمسين في دينهم.
(٥) خذلانه: تخلّيه.

لَهُ وأقوى، ثُمَّ يُجاذبُهُ الشيطانُ حَبْلَه، فإذا هو كانَ في الوهَنِ مثلَ العنكبوتِ اتَّخذَتْ بيتاً في سَقْفِ حدّاد؛ فرأتْهُ يصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعلُهُ سلسلةً حَلْقةً في حلْقة، فذهبَتْ تحكيه وتُرسِلُ من لُعابها خيطاً في خيطٍ تزعُمُه سلسلة. . . !

إنَّ معَ كلِّ مؤمنٍ شيطانَهُ يتربَّصُ[1] به، فلهذا ينبغي لِلمؤمنِ أنْ يكونَ في كلِّ ساعةٍ كالذي يشعرُ أنَّهُ لم يؤمنْ إلّا منذُ ساعة، فهو أبداً محترسٌ متهيّىءٌ متجدِّدُ الحواسِّ مُرْهَفُها يستقبلُ بها الدنيا جديدةً على نفسِهِ بينَ الفترةِ والفترة: ومن هذا حِكمةُ أنْ يؤذنَ المؤذّنُ، وأنْ تُقام الصلاةُ مِراراً في اليوم، فكلّما بدأ وقتٌ قالَ المؤمن: الآنَ أبدأ إيماني أطهرَ ما كانَ وأقوى.

* * *

وقالَ الإمام: هِيهِ يا أبا محمد! فقال البَصْرِيُّ وقد رأى الكراهةَ في وجهِ الإمام: لا يُفْزِعنك أيُها الشيخ؛ فإنَّ اللَّهِ ـ تعالى ـ قد يجعلُ ما يُحبُّهُ هو فيما نكرهُ نحن؛ وليسَ لِلأقدارِ لغةٌ فتجريَ على ألفاظِنا؛ وقد نُسمي النازلةَ[2] تنزلُ بنا خساراً وهي ربح، أو نقولُ مصيبةٌ جاءَتْ لِتبديلِ الحياة، ولا تكونُ إلّا طريقةً تَيسَّرتْ لِتبديلِ الفكر. إنَّما لغةُ القدَرِ في شيءٍ هي حقيقةُ هذا الشيءِ حين تظهرُ الحقيقة؛ وكأيِّنْ من حادثةٍ لا تُصيبُ أمرأً في نفسِهِ إلّا لِتقعَ بها الحربُ بين هذه النفسِ وبينَ غرائزِها. فتكونَ أعمالُ الطبيعةِ المعاديةِ أسباباً في أعمالِ العقلِ المنتصر.

وكثيرٌ من هذا البلاءِ الذي يُقْضَى على الإنسان، لا يكونُ إلّا وسائلَ منَ القدَرِ يُرَدّ بها الإنسانُ إلى عالَم فكرِهِ الخاصِّ به؛ فإنَّ هذه الدنيا عالَمٌ واحدٌ لِكلِّ مَنْ فيها، ولكنَّ دائرةَ الفكرِ والنَفسِ هي لِصاحبِها عالَمُهُ وحدَه. والسعيدُ من قرَّ في عالَمِهِ هذا واستطاعَ أنْ يحكمَ فيه كالملكِ في مملكتِه، نافذَ الأمرِ في صغيرتِها وكبيرتِها؛ والشّقيُّ مَنْ لا يزالُ ضائعاً في كلِّ هذا كالأجنبيِّ في غيرِ بلدِهِ وغيرِ قومِهِ وغيرِ أهلِه، إذْ كلُّ شيءٍ يُصبحُ أجنبيًّا عنِ الإنسانِ ما دامَ هو أجنبيًّا عن نفسِه.

لقد كنْتُ ضالّاً عن نفسي وعالمِهَا، فكنْتُ في هذه الدنيا أستشعِرُ شعورَ اللِّصّ، أشياؤه هي أشياءُ الناسِ جميعاً؛ واللصُّ ينظُرُ إلى أموالِ الناسِ بعينَي شاعرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلِف[3]، وهي تنظرُ إليهِ بعينَيْ مُقاتِلٍ متربِّصٍ حَذرٍ.

---

(١) يتربص به: يتحيّن الفرص.

(٢) النازلة: المصيبة الطارئة.

(٣) كَلِف: عاشق.

وكنْتُ نَزِقاً[1] حديدَ ٱلطبعِ سريعَ ٱلبادرة[2]؛ ومَنْ فَقدَ عالمَ نفسِه وكانَ في مَثَلِ اللصِّ الذي ذكرْتُ؛ فإنَّ هذه الطباعَ تكونُ هي أسلحتَهُ يَدْفَعُ بها أو يعتدي. وما قطُّ تَمكَّنَ إنسانٌ من نفسِهِ وأحاطَ بِها ونفذَ فيها تصرُّفه؛ إلَّا كانَ راضياً عن كلِّ شيءٍ إذْ يتَّصلُ من كلِّ شيءٍ بجهتِهِ ٱلسامية لا غيرها، حتى في ٱتصالِهِ بأعدائِهِ منَ الناسِ وأعدائِهِ منَ الأشياء؛ فما يرى هؤلاءِ ولا هؤلاءِ إلَّا ٱمتحاناً لِفضائِلِهِ وإثباتاً لَها. وقد يكونُ عدوُّك في بعضِ الأمورِ عيناً لك في رؤيةِ نفسِك؛ ففيهِ بَركةُ هذه الحاسَّةِ ونِعمتُها.

ولو نحن كنَّا مسلمينَ إسلامَ نبيِّنا ﷺ، وإسلامَ المقتدينَ بِهِ من أصحابِه ـ لأدركْنا سرَّ الكمالِ الإنسانيّ؛ وهو أنْ يَقرَّ الإنسانُ في عالمِ نفسِهِ ويجعلَ باطنَهُ كباطنِ كلِّ شيءٍ إلهيّ، ليسَ فيهِ إلا قانونُهُ الواحدُ المستمرُّ بِهِ إلى جهةِ الكمال، المرتفعُ بِهِ من أجلِ كمالِهِ عن دوافعِ غيره؛ فنَظَرُ الإنسانِ إلى نقصِ غيرِهِ هو أولُ نقْصِه. والمؤمنُ كالغصن؛ إنْ أثمرَ فتلك ثمارُ نفسِه، وإن عَطَلَ لم يَشْحَذْ ولم يحسُدْ وٱستمرَّ يعملُ بقانونِهِ.

ولقد نشأْتُ في مَغْرِسٍ[3] كريم، على صورةٍ مِنَ الحياةِ تُشبِهُ صورةَ الثمرةِ الحُلوة، اجتمعَ لها من طبيعةِ مغرسِها ومَرْتَبتِها ما تتعيَّنُ بِهِ من حلاوةٍ ونكْهةٍ ومَذاق؛ فلمَّا عَقلْتُ[4] وعرفْتُ الناسَ بعدُ فجارَيْتُهم[5] وخالطْتُهم، رَأيْتُني منهم كالتفَّاحةِ ملقاةً في البصَل. وكانتِ ٱلتفاحةُ حمقاءَ فزادَتْ حُمقاً، وكانَتْ جديدةً فزادَتْ جِدّة، وظَنَنْتُ أنَّ الحِكمةَ قد مَسَخَتْ في الدنيا وبدَّلَتْ إذْ خَلَقَتِ البَصَلةَ بعدَ أنْ خلقَتِ ٱلتفاحة؛ وما علمَتِ ٱلخرقاءُ أنَّ الكمالَ في هذه الحياةِ مجموعُ نقائص، وأنَّ لِلجمالِ وجهين: أحدُهما الذي ٱسمُهُ القبح؛ لا يُعرفُ هذا إلَّا من هذا؛ وأنَّ البصلةَ لو أدركَتْ ما يُريدُ الناسُ من معناها ومعنى التفاحةِ لَسَمَّتْ نفسَها هي التفاحَة، وقالَتْ عن هذه إنَّها هي ٱلبصلة!

ولمَّا رأَتْ تفاحتي أنَّها عاجزةٌ أنْ تجعلَ الشجرَ كلَّهُ في مثلِ مرتبتِها ومغرسِها ـ قالَت: إنَّ الأمرَ أكبرُ من طبيعتي، وما دامَ سرُّ الكونِ مُغْلَقاً فلا تعريفَ لَهُ إلا أنَّهُ

---

(1) نزقاً: سريع الغضب، طائشاً.
(2) البادرة: الغضب.
(3) مغرس: منبت في بيت وعائلة.
(4) عقلت: أدركت.
(5) جاريتهم: ماشيتهم ووافقتهم.

سِرٌّ مغلَق، ولْيَبْقَ كلُّ شيءٍ في طبيعةِ نفسِه، فعلى هذا يَصلُحُ كلُّ شيءٍ ولو في نفسِهِ وحدَها.

* * *

قال أبو محمد: ولكنْ بقيَتْ وَحْشةُ الدنيا وجَفوتُها، إذْ لم أكن ٱهتديْتُ إلى عالمي، ولا تأكَّدَتْ عقيدتي بنفسي؛ فكانَ كلُّ ما حولي مُنْبجساً[١] في رُوحي بِشرِّه، وكانَتِ ٱلدنيا بهذا كالمتطابقة في رأيي على معنًى واحد، وزادني أنّي كنْتُ رجلاً عَزَباً متعفِّفاً؛ وما أشبَهَ فراغَ الرجولةِ مِنَ المرأةِ بفراغِ العقلِ مِنَ ٱلذكاء؛ هذا هو العقلُ البليد، وتلك هي ٱلرجولةُ ٱلبليدة!

والمرأةُ تُضاعِفُ معنى الحياةِ في ٱلنفس، فلا جَرَمَ كانَ ٱلخَلاءُ منها مضاعَفةً لِمعنى الموت؛ عَلِمَ هذا مَن عَلم وجَهلَهُ من جَهِل، فكنْتُ أعيشُ مِنَ الكونِ في فراغٍ ميّت، وكنْتُ أُحِسُّ في كلِّ ما حولي وحشةً عقليَّةً تُشعرُني أنَّ الدنيا غيرُ تامَّةٍ؛ وكيفَ تَتِمُّ في عيني دنيا أراها غيرَ الدنيا التي في قلبي؟

وعرفْتُ أنَّ كلَّ يوم يمضي على الرجلِ العَزَبِ المتعفِّفِ لا يمضي حتى يُهيىءَ فيهِ مَرضُ يومٍ آخرَ. ومن هذه الأيامِ المريضةِ المتهالِكة، تُعِدُّ ٱلحياةُ ٱنتقامَها من هذا الحيّ الذي نَقَضَ آيتَها وٱفْتاتَ عليها[٢]، وجَعلَ نفسَهُ كالإلهِ لا زوجةَ لَهُ ولا صاحبة!

وأيْمُ اللّهِ إنَّ الشيطانَ لا يفرحُ بالرجلِ الزاني وبالمرأةِ الزانيةِ ما يَفرحُ بالرجلِ العَزَبِ وبالمرأةِ ٱلعزباء؛ لأنَّهُ في ذينِكَ رذيلةٌ في أسلوبِها، أمّا في هذينِ فالشيطانُ رذيلةٌ في أسلوبِ فضيلة... ! هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضي، وهنا يأتي الشيطانُ ويُقيم!

وقد عِشْتُ ما عِشْتُ بقلبٍ مُغلَقٍ وعقلٍ مفتوح؛ وليتني كنْتُ جاهلاً مُغلِقاً عقلَهُ، وكانَ قلبي مفتوحاً لأفراحِ هذا الكونِ العظيم!

ومضَتْ أيامي يَضْربُ بعضُها في بعض، ويُمرِضُ بعضُها بعضاً حتى ٱنتهَتْ مُنتهاها، وجاءَ اليومُ المُدْنَفُ[٣] الهالكُ الذي سيموت.

أصبحْتُ فقُلْتُ لِنفسي: كم تعيشينَ ويحكِ في أحكامِ جسدٍ مُختلٍّ لا تَصْدُقُ أحكامُه، وما أنتِ معَهُ في طبيعتِكِ ولا هو معكِ في طبيعتِه؛ ففيم ٱجتماعُكُما إلّا على بلائي ونكَدي[٤]؟

---

(١) منبجساً: نابتاً.

(٢) افتات عليها: جار عليها في الحكم.

(٣) المدنف: المريض مرضاً ثقيلاً.

(٤) نكدي: سوء حظي.

لم تصطلحا قطّ على واجب ولا لذّة، ولا حلالٍ ولا حرام؛ فأنتما عدُوَّانِ لا همَّ لِكليهما إلَّا إفسادُ ٱلمسرَّةِ ٱلتي تَعْرِضُ لِلآخر. وما أدري بِمَنْ يسخَرُ ٱلشيطانُ منكما؟ فالعابدُ الذي يُوَسْوِسُ باللذاتِ يتمنَّى ٱقترافَها، كالفاجرِ الذي يُواقِعُها ويقتحمُها!

ويحكِ يا نفس! إنِّي رأيْتُ هذه الدنيا الخرقاءَ لم تُقدِّم لي إلَّا رغيفاً وقالَت: إملأْ بهذا بطنَكَ وعقلَكَ وعينَيكَ وأُذنيكَ ومشاعرَك. آه، آه! مُمْكِنٌ واحدٌ معهُ أربعُ مستحيلات؛ إنَّ هذا لا يُلْبِثُني[1] أنْ يذهبَ مني بالأربعةِ التي تُمسِكني على الحياة: الأملِ والعقلِ والإيمانِ والصبر.

لقدِ ٱستوى في هذه الكآبةِ صغيرُ همِّي وكبيرُه، وما أراني إلَّا قد أشرفْتُ على الهلَكةِ التي لا باقيةَ لها، فإنَّ وجهي المتَكلِّحَ[2] المتقبِّضَ يَدُلُّ منِّي على أعصابٍ مُحتضرَةٍ نَهَكَتْها[3] أمراضُها ووساوسُها، وإنَّما وجهُ الإنسانِ في قُطوبِهِ[4] أو تَهلُّلِهِ هو وجهُهُ ووجهُ دُنياهُ تَعبسُ أو تبتسم.

وتاللّهِ لقد عجزتُ عن كِفاحِ الدنيا بهذه الأعصابِ المريضةِ الواهنة؛ فإنَّ حِبَالةَ الصَّيد ـ صَيدِ الوحش ـ لا تكونُ من خَيطِ الإبرة...! وأراني أصبحْتُ كإنسان حجَريٍّ ليسَ في طبيعتِهِ ٱلالتواءُ إلى يمينِ الحياةِ ويسارِها؛ ويُخَيَّلُ إليَّ من صلابتي أنِّيَ ٱلأسد، ولكنِّي أسدٌ من حجَر، لا تفرِضُ قوّتُهُ ٱلفرارَ منه على أحد!

قال أبو محمد: ورأيْتُ نفسي في هذا الحوارِ كٱلميِّتة، لا تُجيبُ ولا تعترضُ ولا تُنكِر، وكنْتُ أظنُّها تُراوِدُني على الحياةِ أو تردُّني عن غَوايتي[5]؛ فَملأني سكونُها جزَعاً، وأيقنْتُ أنَّ الشيطانَ بيني وبينَها، وأنَّهُ أخذَ بمنَافِذِها، فأردْتُ الصلاةَ فَثقُلْتُ عنها ورأيتُني لا أصلحُ لها، بل خُيِّلَ إليَّ أنِّي إذا قمْتُ إلى الصلاةِ فإنَّما قمْتُ لأتَهزّأَ بالصلاة!

وجعلَ الشيطانُ يأخذُني عن عقلي ويردُّني إليه، ثُمَّ يأخذُني ويردُّني، حتى توهَّمْتُ أنِّي جُنِنْت، وكأنَّما كانَ يُريدُ اللعينُ بقيَّةَ إيماني يُجاذِبُني فيها وأُجاذبُه، فلم ألبثْ أنْ مسَّتني خبالٌ وألقيْتُ هذه البقيَّةَ في يديه!

---

(١) لا يلبثني: لا يقيني.

(٢) المتكلّح: المتغيّر، المصفرّ.

(٣) نهكتها: أتعبتها.

(٤) قطوبه: عبوسه.

(٥) غوايتي: ضلالتي.

ثُمَّ أَفَقْتُ إفاقةً سريعة، فرأيْتُ (المصحفَ) يَرقُبُني قريب، فعُذْتُ بِهِ[1] وعطفْتُ عليهِ وقلْتُ له: اِمنع ٱلضربةَ عن قلبي. بَيْدَ أَنّي أحسسْتُ أَنَّهُ خَصمي في موقفي لا ظَهيري؛ كأنّي جعلْتُهُ مصحفاً عندَ زِنديق، فكانَ كلُّ إيماني الذي بقيَ لي في تلك اللحظةِ أنّي ضُعفْتُ عن حَملِ المصحفِ كما ثقلْتُ عنِ ٱلصلاة، فبقي ٱلطاهرُ طاهراً وٱلنجسُ نَجساً.

ولم تكنْ نفسي فيَّ ولا كنْتُ فيها؛ فرأيتُ الدنيا على وجهٍ لا أدري ما هو، غيرَ أَنَّهُ هو ما يُمكنُ أنْ يكونَ معقولاً من تَخاليطِ مجنونٍ تركَهُ عقلُهُ من ساعة: بقايا شعورٍ ضعيف، وبقايا فهْمٍ مريض، تَتَصَاغَرُ فيهما الدنيا، ويتحاقَرُ بهما العقل.

فلمَّا ٱنتهيْتُ إلى هذا لم أعقلْ ما عملْت، وكانَتِ ٱلمُوسى قد أصابَتْ من يدي عِرْقاً ناشزاً[2] مُنْتَبِراً، ففارَ الدَّمُ وٱنفجرَ منه مثلُ ٱلينبوعِ ضُرِبَ عنه الصخرُ فٱنشقَّ فٱنبثَق.

وتحقَّقْتُ حينئذٍ أَنَّهُ الموتُ فنظرْتُ فرأيت....

* * *

قال المسيَّب راوي القصة: وتجهَّمَ وجهُ الرجلِ فأطرقَ وسكَت، وكانَ على وجهِهِ شَفَقٌ مُحْمَرٌ فأظلَمَ بغتةً عندَ ما قال: «فنظرْتُ فرأيْت».

وٱرتجَّ ٱلمسجدُ بصَيحةٍ واحدة: فرأيْتَ ماذا؟ رأيْتَ ماذا؟

وبَعَثَتِ ٱلصيحةُ أبا محمد فقال: رأيْتُ ثلاثةَ وجوهٍ أشرفَتْ مِنَ المصحفِ تنظرُ إليَّ كالعاتبة، وكانَ أوسطُها كالقمرِ الطالع، لو تمَثَّلَتْ آياتُ الجنةِ كلُّها وجهاً لَكانتْهُ في نَضْرَتِهِ وبشاشتِه. وغَمْغَمَتِ[3] ٱلوجوهُ الثلاثةُ بكلماتٍ لم أسمعْ منها شيئاً، ولكنَّ نظرَها إليّ كان يؤدّي لي معانيَها، وكأنَّها تقول: «أكذلك المؤمن...؟».

ثُمَّ غابَتْ وتخلَّتْ عنّي وبرزَتْ ثلاثةُ وجوهٍ أخرى، كأنَّها نقائضُ تلك، وأعوذُ باللَّهِ من أوسطِها، لو تمثَّلتْ آياتُ ٱلجحيم كلُّها وجهاً لَكَانتْهُ في نُكْرِهِ وهَوْلِه، وخُيِّلَ إليَّ أنَّ الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سُورةٍ من سُوَرِ المصحف، ففكَّرْتُ، فَوَقَعَ لي مِمَّا قامَ في نفسي مِنَ اللَّعنةِ أنَّها: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾...

---

(١) عذت به: لجأت إليه.

(٢) ناشزاً: نافراً.

(٣) غمغمت الوجوه بانت عن ذعر وخوف.

وطَمَسَ[1] الظلامُ هذه الرؤيا وتغَيَّمَتِ الدنيا، فأيقنْتُ أنَّ آثامي قد أقبلَتْ عليَّ ظُلمةً بعدَ ظُلمَةٍ، والْتمعَ شيءٌ أحمر، فنظرْتُ فإذا الدَّمُ يتخايَلُ في عينيَّ كأنَّهُ شُعَلٌ تتلَوَّى، فجزِعْتُ أشدَّ الجزع، وحسبْتُها طرائقَ ممتدَّةً لِرُوحي تذهبُ بها إلى الجحيم.

وماتَتْ كلُّ خواطري بعدَ ذلك إلّا فكرةً واحدةً بقيَتْ حيَّةً تأكلُ في قلبي أكلَ النار، وهي: «كيفَ تجرأْتُ فوضعْتُ بيني وبينَ اللّهِ حُمْقي؟».

* * *

ويقولون: إنَّ أختي قد رأَتْني أتَشَحَّطُ[2] في دمي فصاحَت، وجاءَ الناسُ على صوتِها، وكانَ فيهم طبيب، فبعدَ لأْيٍ ما، ٱستطاعَ حبْسَ الدم، وٱحتالَ حيلتَهُ حتى أسَفَّ[3] الجُرحَ دواءً وضَمَدَه؛ فجعلْتُ أثوبُ نَفَساً بعدَ نَفَس، وراجعْتُ قليلاً قليلاً...

ثم طافَتِ ٱلحياةُ على عينيَّ ففتحْتُها، فإذا الأشياءُ تبدو لي وليسَ فيها حقائقُ ولا معانٍ، كأنّها تَتَخلَّقُ[4] جديدةً تحتَ بصري، وكأنَّها خارجةٌ لِساعتِها من يدِ ٱللّهِ!

وتماثلْتُ شيئاً بعدَ ساعات، فأحسسْتُ أنَّ نفسي قد رجعَتْ إليَّ ساخرةً منِّي تقولُ: كيفَ رأيْتَ عَمَلَ العقلِ أيّها العاقل؟

وبدأَتِ الحياةُ تتجدّدِ، فأقسمْتُ بيني وبينَ نفسي أنْ أجدّدَ إيماني بِالله. ولم أكدْ أفعلُ حتى أحسسْتُ أنَّ قوّةَ ٱلوجودِ كلِّها مستقرَّةٌ في روحي، وخُيِّلَ إليَّ أنّي أنا وحدي ٱلقويُّ على هذه الأرضِ قُوَّةَ جِبالِها وصخورِها، على حين كانَ جسمي ممدّداً كالميْتِ لا يتماسَكُ مِنَ الضعف!

فأيقنْتُ حينئذٍ ما أعرفُهُ قطُّ منَ الدنيا ولم أشعرْ به قطّ في الحياةِ ولم يأتِني بهِ عِلْمٌ ولا فكر: أيقنْتُ أنّها مُعجزةُ الإيمانِ الجديدِ الغضّ[5]، المتَّصِل باللّهِ لِتَوّهِ كإيمانِ الأنبياءِ دونَ أنْ تلمسَهُ شهوة، أو تعترضَهُ خاطرة، أو تُكدِّرَهُ ذرَّةٌ واحدةٍ من فكرِ أرضيٍّ دَنِس.

* * *

قال المسيّب: ثُمَّ جلسَ المتحدّث، وكانَ الناسُ في آخرِ كلامِهِ كأنَّما غادروا الدنيا ساعةً، ورجعوا إليها على مثلِ حالتِهِ ومثلِ إيمانِه؛ فسكَتَ ٱلإمامُ ولم يتكلم، لِيدعَ كلَّ نفسٍ تُكلمُ صاحبَها.

---

(١) طمس: غطى.
(٢) أتشحط: أتخبّط.
(٣) أسفّ: أسعف الجرح بوضع الدواء فيه لينقطع.
(٤) تتخلّق: تبدو على هيئة جديدة.
(٥) الغضّ: الطريء.

الانتحار

٥

قال المسيَّبُ بنُ رافع: وأطرقَ الناسُ قليلاً بعدَ خَبَر (أبي محمدٍ ٱلبَصْريّ)؛ إذْ كانَ كلٌّ منهم قد جَمَع بالَهُ لِمَا سمع، وأخذ يَحْدِسُ[١]، في نفسِهِ ويُراجعُها ٱلرأيَ، وكانَ المجلسُ قدِ ٱمتدَّ بنا منذُ ٱلعصرِ وما يكادُ النهارُ يُشْعِرُنا بإدبارِه، حتى ٱعترَضَتْ في شمسِهِ ٱلغُبرةُ التي تَعتريها إذا دَنتْ أنْ تَغرُب. وكانَ إلى يساري فتًى رَيَّانُ ٱلشباب، حسَنُ ٱلصورة، وَضيءٌ مُشرِقٌ، لَهُ هيئةٌ وسَمْت، أقبلَ على ٱلأيَّام، وأقبلتِ ٱلأيَّامُ عليه.

فسمعني أطِنُّ على أذنِ (مجاهدٍ الأزْديّ)؛ وكنْتُ أعرفُه شاعراً في كلامِهِ وشاعراً في قلبِه؛ فقلْتُ لَه: إنَّهُ لم يبقَ منَ النهار يا مجاهدُ إلَّا مثلُ صبرِ ٱلمحبِّ دنا لَهُ ٱلمَوْعِد؛ ولم يبقَ مِنَ الشمسِ إلَّا مثلُ ما تَتلفَّفُ صاحبتُه، تأخذُ عليها ثوبَها وغلائلَها، ولكنْ بعدَ أنْ تُسقِطَها من هنا ومن هنا، لِترى جمالَ جسمِها هنا وهنا!

فٱهتزَّ ٱلفتى لِهذه ٱلكلمات، وسالتِ ٱلرقَّةُ في أعطافِه، وقال: يا عمّ، أمَا ترى ما بقيَ مِنَ ٱلنهارِ كأنَّهُ وجهُ باكٍ مَسَحَ دموعَهُ وليسَ حولَهُ إلَّا كآبةُ ٱلزمن...؟

قلْتُ: كأنَّ لك خبراً يا فتى، فإنْ كانَ شأنُك مِمَّا نحن فيهِ فَقُصَّهُ علينا وعَلِّلْنا بِهِ سائرَ ٱلوقتِ إلى أنْ تَجِبَ الشمس، ولعلّك طائرٌ بنا طَيرةً فوقَ الدنيا.

قال: فَمَهْ[٢]؟

قلت: تقومُ فتتكلم، فإنِّي أرى لك لِساناً وبياناً.

قال: أو يَحْسُنُ أنْ أتكلَّمَ في ٱلمسجدِ عن صَرْعةِ ٱلحُبِّ وصريعِه، وعاشقةٍ وعاشق؟

---

(١) يحدس: يفكّر ويغلّب فكرة على فكرة.

(٢) مَهْ: اسم فعل أمر بمعنى أسكت.

فبادرَ مجاهدٌ فقال: ويحكَ يا فتى! لقد تَحَجَّرْتَ واسعاً؛ إنَّ ٱلمؤمنَ لَيُصلّي بين يدي ٱللَّهِ وكتابُ سيئاتِهِ في عنقِهِ منشورٌ مقروء. وهلْ أوقاتُ ٱلصلاةِ إلَّا ساعاتٌ قلبيَّةٌ لِكلِّ يوم منَ الزمن، تأتي ٱلساعةُ مِمَّا قبْلها كما تأتي توبةُ القلْبِ مِمَّا عملَ ٱلجسم؟ إنَّما يَتلَّقى ٱلمسجدُ مَنْ يدخلُهُ لِساعتِهِ التي يدخلُهُ فيها، ولو أنَّهُ حاسَبهُ عن أمسِ وأوَّلَ منه وما خَلَا من قبل، لَطردَهُ مِنَ ٱلعتَبَة! إنَّ ٱلمسجدَ يا بُنيَّ إنّما يقولُ لِداخلِه: أُدخلْ في زمني ودَعْ زمنَك، وتعالَ إليَّ أيُّها ٱلإنسانُ ٱلأرضيّ، لِتتحقَّقَ أنَّ فيك حاسَّةً مِنَ ٱلسماء، وجِئْني بقلبِك وفكرِك، لِيَشْعُرا ساعةَ أنَّهما فيَّ لا فيك. ولسْنا الآنَ يا بُنيَّ في مُتَحدَّثٍ كنَدِيّ القومِ يتطارحون فيه أخبارَهم، بلْ نحنُ في مجلسِ عالمٍ تكلمَتْ فيهِ رَقَبةُ هذا ورقبةُ هذا بِمَا سمعْتَ؛ فقُمْ أنتَ فٱذكرْ عِلْمَ قلبِك وقُصَّ علينا خبرَ طيشِ ٱلحُبِّ وٱلشبابِ ٱلذي يُشبهُ الكلامُ فيهِ أنْ يكونَ كلاماً عنِ ٱلصعودِ إلى القمرِ والقبضِ من هناك على البرْق!

* * *

قال المسيَّب: فٱنتهضَ الفتى، ورأيْتُ مجاهداً يتنهَّدُ كأنَّما ٱنصدَعتْ[1] كَبِدُه: فقلْت: ما بالُك؟ قال: إنَّ شبابي قد مرّ عليَّ الساعةَ فَنَسَمْتُ منه في بُرْدَة[2] هذا الفتى، ثُمَّ فقدْتُهُ فقداً ثانياً فهَرِمْتُ هَرَماً ثانياً، وجاءَني ٱلحزنُ من إحساسي بأنّي شيخ، حُزْنُ مَن هَمّ أنْ يدخلَ بابَ حبيبٍ ثم رُدّ. . . . !

وتحدّثَ ٱلفتى، فإذا هو يُديرُ بينَ فَكَّيهِ لِسانَ شاعرٍ عظيم، يتكلمُ كلامَهُ بنفسَين: إحداهما بَشَريَّةٌ تصنعُ ٱلمعنى وٱللفظ، وٱلأخرى عُلْويةٌ تُلقي فيها ٱلنارَ وٱلنور.

قال: إنَّ لي قصةً أيُّها الشيخ، لم يبقَ منها إلَّا الكلامُ الذي دُفنَتْ فيه معانيها؛ وقد تأتي ٱلقصةُ من أخبارِ ٱلقلْبِ مُفْعَمَةً بالآلامِ والأحزان، لا يُرادُ بآلامِها وأحزانِها إلَّا إيجادُ أخلاقٍ لِلقلْبِ يعيشُ بها ويتبدّل. والذي قُدِّرَ عليهِ الحُبُّ لا يكونُ قد أحبَّ غيرَهُ أكثرَ مِمَّا يكونُ قد تعلَّمَ كيف يَنسى نفسَهُ في غيرِه، وهذه كما هي أعلى درجاتِ الحُبّ؛ فهي أعلى مَراتبِ ٱلإحسان.

ومتى صَدقَ المرءُ في حبِّهِ كانَتْ فكرتُهُ فكرتَين: إحداهما فكرةٌ، والأخرى عقيدةٌ تجعلُ هذه الفكرةَ ثابتةً لا تتغيَّر؛ وهذه كما هي طبيعةُ الحُبّ فهي طبيعةُ ٱلدّين.

---

(١) انصدعت: تحطّمت، تكسرت. (٢) بُردة: ثوب.

ولا شيءَ في الدنيا غيرُ الحُبّ يستطيعُ أنْ يَنْقُلَ إلى الدنيا ناراً صغيرةً وجنَةً صغيرةً، بقدْرِ ما يكفي عذابَ نفسٍ واحدةٍ أو نعيمَها! وهذه حالةٌ فوقَ البشريَّة.

والفضائلُ عامَّتُها تعملُ في نقلِ ٱلإنسانِ من حيوانيَّتِه، وقد لا تَنقلُ إلَّا أقلَّهُ ويبقَى في الحيوانيَّةِ أكثرُهُ: ولكنَّ ٱلحُبَّ ٱلصادقَ يقتلعُ الإنسانَ من حيوانيَّتِهِ بمرَّةٍ واحدة، بَيْدَ أنَّهُ لا يكونُ كذلك إلَّا إذا قَتَلَهُ بآلامِه؛ فهو كأعلى النسْكِ والعِبادة.

كانَ خَبرِي أنّي دُعيتُ يوماً إلى ما يُدْعى لِمثلِهِ ٱلشبابُ في مجلسِ غِناءٍ وشراب. يا لَهُ من مجلس! وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، والبعوضةُ في قصتي أنا كانَتِ ٱمرأةً نَصرانيَّة.. قَيْنَةُ[1] فلانٍ المغنيَّةُ الحاذقةُ المُحْسِنةُ المتأدّبة، تحفَظُ الخبرَ وتروي الشعر، وتتكلَّمُ بألفاظٍ فيها حَلاوةُ وجهِها، وتخلُقُ النكتةَ إذا شاءَتْ خَلْقَ الزهرةِ المتفتِّحةِ عليها، سَقِيطُ النَدَى؛ وتجِدُّ بٱلحديثِ ما شاءَتْ وتَهْزِل، فتجعلُ لِلكلامِ عقْلاً وشهوةً تُضاعِفُ بهما مَنْ تحدِّثُهُ في شهواتِهِ وعقلِه!

وستجرِي في قصتِها ألفاظُ القصةِ نفسِها، لا أتأثَّمُ من ذلك ولا أتذمَّم؛ فقد ذكرَ ٱللَّهُ الخمرَ بلفظِ الخمرِ ولم يَقُل: «الماءُ الذي فيه السُّكْر»، ووَصفَ الشيطانَ ولم يقل: «الملَكُ الذي عمِلَ عملَ ٱلمرأةِ ٱلحسناءِ في تكبُّرِها»، وذكرَ الأصنامَ بأنَّها الأصنام، ولم يُسمِّها: «حاملةُ السماءِ التي يصنعُها الإنسانُ بيديه» وحكايةُ ما بينَ ٱلرجلِ وٱلمرأةِ هي كلامٌ يُقبِّلُ بعضُهُ بعضاً ويلتزِمُ ويتعانَق!

قالَ ٱلمسيب: فتبسَمَ إمامُنا ونظرَتْ عيناهُ تسألانِ سؤالاً. أمّا مجاهدٌ الأزديُّ فكانَ من هزّةِ الطَّرَبِ كأنَّهُ على قَتَبِ بَعير، وقال: لِلَّهِ دَرُّه فتًى، إنَّ هذا لَبيانٌ كحيلُ ٱلعَين...

ثُمَّ قال الفتى: وذهبْتُ إلى المجلسِ وقد جعلتْهُ هذه المغنّيةُ من حواشيهِ وأطرافِهِ كأنَّهُ تفسيرٌ لَها هي. أمّا هي فجعلَتْ نفسَها تفسيراً لِكلمةٍ واحدةٍ هي: «اللذّة...»

قالَ ٱلمسيَّب: وطرِبَ مجاهدٌ طَرَباً شديداً، وسمعْتُهُ يُخافِتُ بصوتِهِ يقول: «لِلَّهِ درُّها ٱمرأة؛ هذه، هذه عَدُوّةُ ٱلحُورِ العِين!».

ثُمَّ قالَ ٱلفتى: وتَطَرَّبَ جماعةُ أهلِ ٱلمجلسِ إلى ٱلشرب، وما ذُقْتُ خمراً

---

(١) قينة: أمة، بفتح الميم.

قطّ، ولن أتذوّقَها ولو شربَها ٱلناسُ جميعاً، ولن أذوقَها ولوِ ٱنقطَعَ ٱلغيثُ ولم تَمْطُرِ ٱلسماءُ إلّا خمراً؛ فإنّي مُذْ كنتُ يافعاً رأيْتُ أبي يشربُها، وكانَتْ أمي تلُومُهُ فيها وتشتدُّ في تعنيفِهِ وتحتَدِم[1]، وكانا يتشاحنانِ[2] فينالُها بالأذى ويَنْدَرِىءُ[3] عليها بالسبِّ وفُحْشِ القول. وسَكِرَ مرةً وغلبَهُ السكرُ حتى ثارَتْ أحشاؤُه، فَذَرَعَهُ[4] القَيْءُ فتوهَّمني وعاءً، وجاءَ إليَّ وأنا جالسٌ فأمسكَ بي وقاءَ في حِجْري، حتى أفرغَ جوفَه؛ وثارَتْ أمِّي لِتنتزِعَهُ وأنشأتْ تُعالجُهُ عنِّي فَتصارَعَ جنونُهُ وعقلُها حتى كَفأَتْهُ[5] على وجهِهِ كالإناء؛ فالتوى كالحيَّةِ بطْناً لِظهْرٍ، وٱستجْمعَ كالقُنفذِ في شَوكِه، ثم لَكَزَها برجلِهِ أسفلَ بطنِها فٱنقلبَت، وأصابَ رأسُها إجَّانَةَ[6] العجينِ فتثلَّمَ[7] تثليمَ ٱلإناءِ كأنَّما شُدِخَ[8] ضرْباً بحجَر، وٱنتثَرَ دماغُها على الأرض أمامَ عينيّ، ورأيْتُها لم تزِدْ على أنْ دَفَعَتْ بإحدى يديها في ٱلهواء، وضمَّت بالأخرى إلى صَدْرِها، تتوهَّمُ أنَّها تحميني وتدفعُهُ عنِّي؛ ثُمَّ سَكَنَتْ، ولو لم تمتْ مِنَ الشَّجَّةِ في رأسِها لماتتْ مِنَ الضربةِ في بطنِها!

* * *

قال المسيَّب: وأطرقَ ٱلفتى هُنَيهةً وأطرقَ ٱلناسُ معَه؛ فرفَعَ مُجاهدٌ صوتَهُ وقال: رحِمَها ٱللهُ! فقالَ الناسُ جميعاً: رحِمَها ٱلله.

ثُمَّ قالَ الفتى: وكانَ عامَّةُ مَن في المجلسِ يعرفون ذلك منّي، ويعرفون أنَّهُ لو ساغَ لإنسانٍ أنْ يشربَ دمَ أمِّهِ ما شربْتُ أنا الخمر، فقالوا لِلمغنِّية: إنَّ هذا لا يدخلُ في ديوانِنا[9] فنظرَتْ إليّ، وهربْتُ أنا من نظرتِها بإطراقة؛ ثم قالَت: تَشربُ على وجهي؟ فقلْتُ لها: إنَّ وجهَكِ يقولُ لي: لا تشربْ... فتضاحكَتْ وقالَت: أهو يقولُ لك غيرَ ما يقولُ لِهؤلاء؟ فهربْتُ من كلامِها بإطراقةٍ أخرى، ووَصلَتِ ٱلإطراقتانِ ما بيني وبينَ قلبِي؛ وتنبَّهَ فيها مثلُ حُنوّ الأمِّ على طِفْلِها إذا آذتْهُ بلسانِها فأطرقَ ساكتاً يشكوها إلى قلبِها!

وٱلتفتَتْ لِمَنْ حضرَ وقالَتْ لهم: لسْتُ أطيبُ لكم ولا تنتفعون بي إلّا أنْ

---

(١) تحتدم: تشتدّ.

(٢) يتشاحنان: يتشاجران.

(٣) يندرىء: يندفع ويعنف.

(٤) ذرعه: فاجأه.

(٥) كفأ الإناء: قلبه.

(٦) إجانة: آنية يعجن فيها العجين.

(٧) تثلّم: تشقّق.

(٨) شدخ: ضرب رأسه.

(٩) إنه تعبير قديم العهد، يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك.

تشربوا لي ولهُ ولأنفسِكم، وانحطّ عليهمُ الساقي، فشربوا أرطالاً وأرطالاً، وهي بين ذلك تُغنّيهم وقد أقبلَتْ عليهم وخلا وجهُها لهم من دُوني وإنَّما تُخالِسُني[١] النظرةَ بعدَ النظرة.

فوسوسَ لي شيطاني أنْ تَشدَّدْ مع هذه بمثلِ عَزْمتِكَ مَعَ الخمرِ فإنّما هما شيءٌ واحد. ولكنّي كنْتُ أُحِدُّ النظرَ[٢] إليها، فمرّةً أوامِقُها نظرةَ المُحبِّ لِلحبيب، ومرةً أُغضي عنها بنظرةٍ لا تنظرُ؛ وكأنّي بذلك كنْتُ آخذُها وأدَعُها، وأصِلُها وأهجرُها. فقالَتْ لي كالمُنكِرَةِ عليّ: ما بالُك تنظرُ إليَّ هكذا؟ ولكنَّ هيئةَ وجهِها جعلَتِ المعنى: لا تنظرْ إليّ إلّا هكذا....!

وأسرعَ الشرابُ في القومِ وأفرطَ عليهمُ السُّكر؛ فبقيَتْ لي وحدي وبقيْتُ لها وحدَها؛ ثم تناولَتْ عودَهَا وضَمَّتْهُ إليها ضمًّا شديداً أكثرَ مِنَ الضمّ... وألمستْهُ صدرَها ونَهديها، ثُمَّ رَنتْ إليّ بمعنى، فما شككْتُ أنّها ضمّةٌ لي أنا والعود؛ ثم غنّتْ هذا الصوت:

ألا قاتلَ اللّهُ الحمامةَ غُدْوةً | على الغصنِ؛ ماذا هيَّجتْ حينَ غنَّتِ؟
فما سكتَتْ حتّى أوَيْتُ لِصوتِها | وقلْتُ: ترى هذي الحمامةُ جُنَّتِ؟

* * *

وما وَجْدُ أعرابيةٍ قَذَفتْ بها | صُروفُ النوى[٣] من حيثُ لم تَكُ ظنَّتِ..
إذا ذكَرتْ ماءَ العِضاهِ[٤] وطيبَهُ | وبَرْدَ الحِمى من بَطنِ خِبْتٍ[٥]، أرنَّتِ[٦]
بأكثرَ منّي لَوعةً، غيرَ أنَّني | أُجمْجِمُ أحشائي على ما أجنَّتِ![٧]

وغَنَّتْهُ غِناءً من قلبٍ يئنُّ، وصدرٍ ينتهَّد، وأحشاءٍ لا تُخفي ما أجنَّتْ[٨]، وكانَتْ ترتفعُ بالصوتِ ثمَّ كأنَّما يهمى[٩] الدمعُ على صوتها، فيرتَعِشُ ويتنزّلُ قليلاً قليلاً حتى يئنَّ أنينَ الباكية، ثُمَّ يعتلجُ[١٠] في صدرِها مَعَ الحُبّ، فيترددُ عالياً ونازلاً، ثم يرفضُ الكلامُ في آخِرِهِ دموعاً تجري.

* * *

---

(١) تخالسني: تسارقني.
(٢) أحدّ النظر: أمعن النظر.
(٣) صروف: مصائب. النوى: البعد.
(٤) العضاه: ضرب من الشجر، ذو أشواك.
(٥) خبت: اسم مكان.
(٦) أرنّت، نشطت.
(٧) أجمجم: أخفي شيئاً في صدري.
(٨) أجنّت: من أجن الثوب إذا دقّه.
(٩) يهمى: ينهمر.
(١٠) يعتلج: يختلج.

قالَ المسيَّب: فنظرَ إليّ مُجاهدٌ وقال: عدُوّةُ الجنَّةِ ـ واللَّهِ ـ هذه يا أبا محمد، لا تقبلُ الجنَّةُ مَنْ يكونُ معها. تقولُ له: كنتَ مَعَ عدُوّتي!

ثُمَّ قالَ الفتى: وكان القومُ قدِ ٱنتَشَوْا، فاعتراهم نصفُ النومِ وبقيَ نصفُ اليقَظةِ في حواسِّهم، فكلُّ ما رأوْهُ منَّا رأوْهُ كأحلام لا وجودَ لها إلَّا خلفَ أجفانِهِمُ ٱلمُثقَلةِ سُكراً ونُعاساً. ووثَبتِ ٱلمغنيةُ فجاءَتْ إلَى جانبي وٱلتصقَتْ بي، وأسرعَ ٱلشيطانُ فوسوسَ لي: أن ٱحذرْ فإنَّكَ رجلُ صِدْق، وإذا صدقْتَ في الخمرِ فلا تكذبَنَّ في هذه، ولئَنْ مَسسْتَها إنَّها لَضيَاعُكَ آخِرَ الدهر!

فعجِبْتُ أشدَّ العجبِ أنْ يكونَ شيطاني أسلمَ وأُعِنْتُ عليهِ كما أُعينَ الأنبياءُ على شياطينِهم. ولكنَّ اللعينَ مضى يصُدُّني عنِ ٱلمرأةِ دونَ معانيها، وكانَ منّي كالذي يُدني الماءَ من عَيْنِي ٱلقتيلِ ٱلمتلهِّبِ جَوفُه ثُمَّ يجعلُهُ دائماً فَوْتَ فمِه، ولقد كنْتُ مِنَ الفُحولةِ بحيثُ يبدو لي من شدةِ الفَورةِ في دمِي وشبابي أنّي أجمعُ في جسمي رجالاً عِدَّة، ولكنْ ضَرَبني ٱلشيطانُ بالخجلِ فلم أستطعْ أنْ أكونَ رجلاً معَ هذه ٱلمرأة.

وعجِبَتْ هي لِذلك وما أسرعَ ما نطقَ الشيطانُ على لِسانِها بالموعظةِ ٱلحسنة . . . ! فقالَتْ أحببْتُك ما لم أحِبَّ أحداً، وأحببْتُ خجَلَكَ أكثرَ منك، فما يسرُّني أنْ تأثمَ فيَّ فتدخلَ النارَ بِحُبّي، ولو أنَّك ٱبتعتَني من مولاي؟ فقلْت: بكم ٱشتراكِ؟ قالت: بألفِ دينار! قلْتُ: وأين هي منّي وأنا لو بعْتُ نفسي ما حصَلَتْ لي؟

فتمَّمَ الشيطانُ موعظتَه، وقالَتْ وأشارَتْ إلى قلبِها: إنَّ قلبي هذا قَبِلَك غنيًا كنْتَ أو فقيراً، وأحسَّ بك وحَدك حُبَّ العذراءِ أوّلَ ما تُحبّ، وأنا ـ كما تراني ـ أعيشُ في السيئاتِ كالمُكْرَهةِ عليها، فسأعملُ على أنْ تكونَ أنت حَسَنَتي عندَ الله، أذهبُ إليهِ حاملةً في قلبي حُبِّي إيَّاكَ وعِفَّتي عنك، ولَئِنْ كانت عِفةَ مَنْ لا يشتهي ولا يجدُ تُعَدُّ فضيلةً كاملة، إنّ عِفةَ مَنْ يجدُ ويشتهي لَتُعدُّ ديناً بحالِه. ولا يزالُ حبِّي بِكْراً، ولا أزالَ في ذلك عذراءَ ٱلقلْب، وهؤلاءِ قد نزعوا ٱلحياءَ عنّي من أجْلِ أنفسِهم، فألْبِسْنيهِ أنتَ من أجلِكَ خاصَّة؛ وإنَّ قوةَ حُبِّي كالذي سيتألَّمُ بك ويتعذَّبُ منك لِطُولِ ما يصبرُ عنك، ستكونُ هي بعينِها قوةً لِفضيلتي وطَهارتي.

ثُمَّ تناولتْ عودَها وسوَّته وغنَّتْ:

فلو أنَّا على حَجرٍ ذُبِحْنا جَرى ٱلدّمَيانِ بالخبرِ ٱليقينِ[1]

وجعلَتْ تتأوّهُ في غِنائِها كأنَّها تُذبَحُ ذبحاً، ثُمَّ وضعَتِ ٱلعودَ جانباً وقالَت: ما أشقاني! إذا ٱتفقَتْ لي ساعةُ زواجي في غيرِ وقتِها فجاءَتْ كالحُلْمِ يأتي بخيالِ الزمنِ فلا يكونُ فيهِ مِنَ الأشياءِ إلَّا خيالُ ٱلأشياء.

ثُمَّ سألْتني: ما بالُكَ لم تشربِ ٱلخمرَ ولم تدخلْ في ٱلديوان؟ فبدرَ شيطاني المؤمن... وساقَ في لِساني خبرَ أُمِّي وأبي، فٱنْتَضَحَت عيناها باكيةً وتمَّ لها رأيٌ فيّ كرأيي أنا في ٱلمسكر؛ وكانَ شيطانُها بعدَ ذلك شيطاناً خبيثاً معَ أصحابِها، وبَطْرِيقاً زاهداً معي أنا وحدي!

ورأيْتُها لا تُجالسني إلَّا مُتَزايِلةً[2] كٱلعذراءِ الخفرةِ إذا ٱنقبضَتْ وغطَّتْ وجهَها، وصارَتْ تخافني لأنَّها تُحبني، وهَيَّبَني الشيطانُ إليها فعادَتْ لا ترى فيَّ الرجلَ الذي هو تحتَ عينيها ٱلثَّيِّبتين... ولكنَّ القِدّيسَ الذي تحتَ قلبِها البِكْر.

ولم يَعُدْ جمالي هو الذي يُعجبُها ويُصْبِيها، بل كانَ يُعجبُها منِّي أنِّي صنعةُ فضيلتِها التي لم تَصنعْ شيئاً غيري....

وٱنطلقَ ٱلشيطانُ بعدَ ذلك فيَّ وفيها بدهائِه وحُنْكَتِهِ وبكلِّ ما جرَّبَ في ٱلنساءِ والرجالِ من لَدُنِ آدمَ وحوّاءَ إلى يومي ويومِها!... فكانَ يجذبني إليها أشدَّ ٱلجذبِ، ويدفعُها عنّي أقوى ٱلدفع، ثم يُغريني بكلِّ رذائلِها ولا يُغريها هي إلَّا بفضائِلي. وألقى منها في دمي فكرةَ شهوةٍ مجنونةٍ متقلّبة، وألقى مني في دمِها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ مستقِرَّة. وكنْتُ ألقاها كلَّ يوم وأسمعُ غِناءَها؛ فما هو بالغِناءِ ولكنّهُ صوتُ كلِّ ما فيها لِكلِّ ما فيّ، حتى لو ٱلتصَقَ جسمُها بجسمي وسارَّ ٱلبَدَنُ البدنَ، وهَمَسَ ٱلدمُ لِلدم، لَكانَ هو هذا الغناءَ ٱلذي تُغنّيه.

وأصبحَتْ كلَّما ٱستقمْتُ لِحبِّها تَلَوَّتْ عَلَيَّ؛ إذ لسْتُ عندَها إلَّا الأملَ في المغفرةِ والثواب، وكأنَّما مُسخْتُ حَبْلاً طولُهُ من هنا إلى ٱلجنَّةِ لِتتعلَّقَ به. وعادَ ٱمتناعُها منِّي جنوناً دينيًّا ما يُفارقُها، فٱبتلاني هذا بمثلِ ٱلجنونِ في حُبِّها من كلَفٍ[3] وشغف.

---

(١) من جميل أساطير العرب، أنه إذا قتل اثنان معاً في وقت واحد وجرى دمياهما والتقيا أنهما متحابان، فإذا جرى دمياهما باتجاهين متعاكسين أنهما متشاحنان.

(٢) متزايلة: منحازة.

(٣) كلف: شغف: شديد الحبّ.

وٱنحصرَتْ نفسي فيها، فرجَعتُ معها أشدَّ غَباوةً مِنَ الجاهلِ ينظرُ إلى مَدِّ بصرِهِ مِنَ ٱلأفقِ فيحكمُ أنَّ هٰهنا نهايةَ ٱلعالَم، وما هٰهنا إلَّا آخرُ بصرِهِ وأوّلُ جهلِهِ. وٱنفلَتَ منّي زِمامُ روحي، وٱنكسَر ميزانُ إرادتي، وٱختلَّ ٱستواءُ فكري، فأصبحْتُ إنساناً مِنَ النقائضِ ٱلمتعاديةِ أجمعُ ٱليقينَ وٱلشَّكَّ فيه، والحُبَّ والبُغضَ لَه، وٱلأملَ وٱلخيبةَ منه، وٱلرغبةَ وٱلعُزُوفَ عنها، وفي أقلّ من هذا يَخْطُفُ ٱلعقل، ويَتَدَلَّهُ مَنْ يتدلَّه.

ثُمَّ ٱبْتُليْتُ معَ هذا اللَّمَم[1] بجنونِ ٱلغيظِ من ٱبتذالِها لأصحابِها وعِفَّتِها معي، فكنْتُ أتطايرُ قِطَعاً بينَ ٱلسماءِ وٱلأرض، وأجِدُ عليها وأتنكَّرُ لَها، وهي في كلِّ ذلك لا تزيدني على حالةٍ واحدةٍ مِنَ ٱلرَّهبانيَّة؛ فكانَ يَطيرُ بعقلي أنْ أرَى جسمَها ناراً مشتعلة، ثُمَّ إذا أنا رُمتُهُ ٱستحالَ ثلْجاً، وقَرَحَتِ ٱلغَيرةُ قلبي وفتَّتَتْ كبِدي من عابدةِ ٱلشيطانِ مَعَ الجميع، الراهبةِ معَ رجلٍ واحدٍ فقط!...

ورجعَتْ خواطري فيها مِمَّا يُعْقَلُ وما لا يُعقل؛ فكنْتُ أرى بعضَها كأنَّهُ راجعٌ من سفرٍ طويلٍ عن حبيبٍ في آخرِ الدنيا، وبعضَها كأنَّهُ خارجٌ من دارِ حبيبٍ في جِواري، وبعضَها كأنَّهُ ذاهبٌ إلى المارستان...![2]

ورأيْتُنا كأنَّنا في عالَمينِ لا صِلةَ بينهما، ونحن معاً قلْباً إلى قلب، فذهبَ هذا بالبقيَّةِ التي بقيَتْ من عقلي، ولم أرَ لِي مَنْجاةً إلَّا في قتْلِ نفسي لأزهقَ هذا الوحشَ الذي فيها.

وذهبْتُ فٱبتعْتُ شَعِيراتٍ مِنَ السمِّ الوَحِيِّ الذي يُعْجِلُ بالقتل، وأخذْتُها في كفي وهممْتُ أنْ أُقحمَها وأبتلعَها، فذكرْتُ أمي، فظَهَرَتْ لِخيالي مشدوخةَ الرأسِ في هيئةِ موتِها، وإلى جانبِها هذه المرأةُ في هيئةِ جمالِها، وثَبَتَتْ على عيني هذه الرؤيا، وأدْمَنْتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرُ غيرُ الأوّل، وإذا ٱلمرأةُ غيرُ تلك، وطَغَتْ عِبرةُ ٱلموت على شهوةِ ٱلحياةِ فمحَتْها، وصَحَّ عندي من يومئذٍ أنْ لا علاجَ من هذا الحُبِّ إلّا أن تُقرَنَ في النفسِ صورةُ ٱمرأةٍ ميتةٍ إلى صورةِ ٱلمرأةِ ٱلحيَّة، وكلّما ذُكِرَتْ هذه جِيءَ لها بتلك، فإذا ٱستمرَّ ذلك فإنَّ الميّتَةَ تُميتُها في النفسِ وتُميتُ ٱلشهوةَ إليها، ما من ذلك بُدّ، فلْيجرِّبْهُ مَنْ شكَّ فيه.

وٱنفتحَ لي رأيٌ عجيب، فجعلْتُ أتأملُ كيف آمنَ شيطاني ثم كَفَرَ بَعْدُ، على

---

(١) اللمم، محركة بالفتح: الجنون.

(٢) المارستان: مستشفى المجاذيب.

أنَّ شيطانَها هي كَفَرَ في الأولِ ثُمَّ آمنَ في الآخرِ؟ فوٱللَّهِ ما كنْتُ إلَّا غبيًّا خامدَ ٱلفِطْنة[1]، إذْ لم يَسْنَحْ لِيَ ٱلصوابُ حتى كِدْتُ أُزهقُ نفسي وأخسرُ الدنيا والآخرة؛ فإِنَّ ٱلشيطانَ ـ لعنَهُ الله ـ إنَّما ردَّني عنِ ٱلفاحشةِ وهي ذنبٌ واحد، لِيرمَيني بعدَها في الذنوبِ كلِّها بالموتِ على الكفر!

وردَّ إليّ هذا الخاطرُ ما عَزَبَ[2] من عقلي. ومَنِ ٱبْتُلِيَ ببلاءٍ شديدٍ يُزلزلُ يقينَهُ ثُمَّ أبصرَ اليقين، جاءَ منه شخصٌ كأنَّما خُلِقَ لِساعتِه؛ فلَعنْتُ شيطاني واستعذْتُ بِاللَّهِ من مكْرِه، وألقيْتُ ٱلسمَّ في الترابِ وغيَّبتُهُ فيه، وقلْتُ لِنفسي: ويحكِ يا نفسُ! إنَّ الحياةَ تعملُ عملاً بالحيّ، أفترَضَيْنَ أنْ تعملَ الحياةُ بأبطالِها ورجالِها ما عرفْتِ وما علمْتِ، ثُمَّ يكونُ عملُها بكِ أنْتِ ٱلقعودَ ناحيةً والبكاءَ على ٱمرأة؟

أَيَّتُها ٱلنفس، ما الفرقُ بينَ سرقةِ لحمٍ من دكانِ قصَّاب، وبينَ سرقةِ لحمِ ٱمرأةٍ من دارِ أبيها، أو زوجِها، أو مولاها...؟

أَيَّتُها ٱلنفس، إنَّ إيمانَ أسلافِنا معنا؛ إنَّ الإسلامَ في ٱلمسلم.

* * *

قالَ ٱلمسيَّب: وهنا طَاشَ مُجاهدٌ وٱستخفَّهُ ٱلطرب، فصاحَ صيحةَ النصر: اللَّهُ أكبر! وجاوبَهُ أهلُ ٱلمسجدِ في صيحةٍ واحدة: اللَّهُ أكبر! ولم يكدْ يهتفُ بها الناسُ حتى ٱرتفعَتْ صيحةَ المؤذِّنِ لِصلاةِ المغرب. الله أكبر...

(١) الفطنة: الذكاء.

(٢) عزب: ضاع وذهب.

الانتحار

٦

تتمة

قالَ المسيَّبُ بنُ رافع: وٱنفضَّ[١] مجلسُ الشيخ، ودَرَجَتْ[٢] بعدَهُ أعوامٌ في عدَّة الشهور من حَمْلِ ٱلمرأة، بلغَتْ فيها أمورُ الناسِ مبلَغها من خيرِ ٱلدنيا وشرِّها، مِمَّا أَعرفُ وما لا أعرف؛ ودخلْتُ ٱلبصرةَ أنا ومُجاهدٌ الأزديّ، نسمعُ الحَسَنَ ونأخذُ عنه؛ فإنَّا لَسائرانِ يوماً في سِكَّةِ[٣] بني سَمُرَة، إذْ وافقْنا الفتى صاحبَ ٱلنصرانيَّةِ مُقبِلاً علينا، وكُنَّا فقدْناهُ تلك المدة، فأسرعَ إليهِ مُجاهدٌ فٱلتزمَهُ وقال: مرحباً بذي نَسَبٍ إلى القلْب. وسلَّمْتُ بعدَهُ وعانقْتُه، ثُمَّ أقبلْنا نسألُه، فقلْتُ له: ما كان آخِرُ أوّلِك؟ قالَ مُجاهد: بلْ ما كانَ آخرُ أولِها هي؟

فضحكَ الرجلُ وقال: النَّصرانيَّةَ تعني؟ قال: آخرُها من أولِها كهذا مني؛ وأومَأ إلى ظلِّهِ في ٱلأرضِ ممدوداً مشبوحاً مختلِطاً غيرَ متميز؛ كأنَّهُ ثوبٌ منشورٌ ليسَ فيه لابسُه، وكنَّا في الساعةِ ٱلتي يصيرُ فيها ظلُّ كلِّ شيءٍ مِثليْهِ فهو مَزْجُ ٱلمَسْخِ بالمسْخ...

قالَ مُجاهد: ما أفظَّ جوابَك وأثقلَهُ يا رجل! كأنَّك - واللَّهِ - تاجرٌ لا صِلةَ لَهُ بالأشياءِ إلَّا من أثْمانِها؛ فنظرُهُ إلى فَراهةِ ٱلدابةِ مِنَ ٱلدّوابِّ وإلى فراهةِ الجاريةِ منَ ٱلرقيقِ سواء.

قال الرجل: فأنا - واللَّهِ - تاجر، وأنا الساعةَ على طريقِ الإيوانِ[٤] الذي يلتقي فيهِ تُجارُ العِراقِ والشام وخُراسان؛ وقد ضربْتُ في هذه التجاراتِ وحَسُنَتْ بها حالي وتأثَّلْتُ منها؛ غيرَ أنَّ قلبَ التاجرِ غيرُ التاجر، فليسَ يَزِنُ ولا يَقبِض، ولا

---

(١) انفضَّ: تفرّق.
(٢) درجت: مضت.
(٣) سكة: طريق.
(٤) هذه المفردة تناسب ما يسمونه اليوم (البورصة).

يبيعُ ولا يشتري. أمَّا «تلك» فأصبحَتْ نسياناً ذهبَ لِسبيلِهِ في ٱلزمن!

قالَ مُجاهد: فكيف كنْتَ تراها وكيف عدْتَ تنظرُ إليها؟

قال: كنْتُ أنظرُ إليها بعينيَّ وأفكاري وشهواتي؛ فكانَتْ بذلك أكثرَ من نفسِها ومنَ ٱلنساء، وكانَتْ ألواناً ألواناً ما تنقضي، فلمَّا دخلَ بيني وبينَها ٱلزمنُ وٱلعقْل، أبعدَها هذا عنِ قلبي وأبعدَها ذاك عن خيالي؛ فنظَرْتُ إليها بعينيَّ وحدَهما، فرَجَعتِ ٱمرأةً ككلِ ٱمرأة؛ وبنزولِها من نفسي هذه المنزلةَ، رجعَتْ أقلَّ من نفسِها ومنَ ٱلنساء، وهذه القِلَّةُ فيما عرفْتُ لا تُصيبُ ٱمرأةً عندَ مُحبِّها إلَّا فعلَتْ بجمالِها مثلَ ما تفعلُهُ ٱلشيخوخةُ بجسمِها، فأدبرَتْ بهِ ثُمَّ أدبرَتْ وٱستمرَّتْ تُدْبر!

وأنتَ فإذا أبصرْتَ ٱمرأةً شيخةً قد ذهبَتْ التي كانَتْ فيها... وأخطرْتَ في ذِهنِك نِيَّةً مِمَّا بينَ ٱلرجالِ وٱلنساء، فهل تُراكَ واجداً ٱلشهوةَ والميلَ إلَّا ٱلنُّفْرةَ وٱلمعْصِيَةَ؟ إنَّ هذا الذي كانَ الحُبَّ والهوى والعِشْقَ، هو بعينِهِ الذي صارَ الإثمَ والذنبَ والضَّلالة!

قالَ مُجاهد: كأنَّكَ لمَّا ذهبْتَ تقتلُ نفسَك من حبِّها قتلْتَها هي في نفسِك؟

قال: يا رحمةً قد رَحِمْتُ بها نفسي يومئذٍ! أمَا ـ واللَّهِ ـ إنَّ الذي يقتلُ نفسَهُ من حُبِّ ٱمرأةٍ لَغَبيّ. وَيحَهُ! فلْيتخلَّصْ من هذا الجزءِ مِنَ الحياةِ لا مِنَ ٱلحياةِ نفسِها. وقد جعلَ ٱللَّهُ لِلحُبِّ طرَفين: أحدُهما في اللذّة، والآخرُ في ٱلحماقة؛ ما منهما بُدّ. فهذا ٱلحُبّ يُلقِي صاحبَهُ في ٱلأحلام ويُغَشّي بها على بصرِه، ثُمَّ إنْ هو ٱتَّجَهَ بطرَفِهِ ٱلسعيدِ إلى حظِّهِ ٱلمقبلِ وٱتفقتِ ٱللذّةُ لِلمُحبّ، أيقظَتْهُ اللذةُ من أحلامِه؛ وإنِ ٱتَّجهَ ٱلحُبُّ بطرفِهِ الشقيِّ إلى حظِّهِ ٱلمُدْبر، وقعَتِ ٱلحماقاتُ فنوناً شتَّى بينَ ٱلحبيبين، وفعلَتْ آخِراً فِعْلَ ٱللذة، فأيقظَتِ ٱلعاشقَ من أحلامِهِ أيضاً. وهذا تدبيرٌ مِنَ ٱلرحمةِ في تلك ٱلقوَّةِ ٱلمدمِّرةِ ٱلمسماةِ ٱلحُبّ. أفلا يدلّ ذلك على أنَّ ٱللذةَ وهمٌ مِنَ ٱلأوهامِ ما دامَ تحقُّقُها هو فناءَها؟

خذْ عني يا مجاهدُ هذه الكلمة: «ليسَ ٱلكمالُ مِنَ ٱلدنيا ولا في طبيعتِها، ولا هو شيءٌ يُدْرَك، ولكنْ من عظمَةِ ٱلكمالِ أنَّ ٱستمرارَ ٱلعملِ لَهُ هو إدراكُه».

قالَ مُجاهد: لقد علمْتَ بعدَنا عِلْماً، فمِنْ أين لك هذا وعمَّنْ أخذْت؟

قال: عنِ السماء!

قال: ويلك! أينَ عقلُك، فهل نزل عليك ٱلوحيّ؟

قالَ ٱلرجل: لا، ولكنْ تَعالَيا معي إلى ٱلدارِ فأحدِّثَكما.

* * *

قالَ ٱلمسيَّب: وذهبْنَا معه؛ فأُتيْنَا بطعامٍ نظيفٍ فأكلْنَا، وأشعَرتْنا ٱلدارُ أنَّ ربَّها قد وقعَ فيما شاءَ من دنياهُ وتواصلَتْ عليهِ ٱلنعمة؛ فلمَّا غسلْنَا أيديَنَا قال مجاهد: هيهِ يا أبا... يا أبا مَن؟ قال: أبو عُبَيد. قال: هيهِ يا أبا عبيد...

فأفكَرَ ٱلرجلُ ساعةً ثُمَّ قال: عهدُ كما بي منذُ تِسْعٍ في مجلسِ الإمامِ ٱلشعبيِّ بالكوفة؛ وقد كنْتُ في بقيةٍ مِنَ النعمةِ أتجمَّلُ بها، وكانَتْ تُمسكُني على موضعي في أعينِ ٱلناس؛ فما زالَتْ تلك ٱلبقيةُ تَدِقُّ وتنفَضُّ حتى نكِدَ عيشي ووقعْتُ في ٱلأيَّامِ ٱلمقعَدَةِ التي لا تمشي بِصاحبِها، وٱنقلَبَ ٱلزمنُ كالعدوِّ المُغيرِ جاءَ لِيصْطَلِمَ[1] ويُخْرِبَ ويُفسِد، فأثَّرَ فيّ أقبحَ آثارِه، فبِعْتُ ما بقيَ لي وتحملْتُ عنِ ٱلكوفةِ إلى ٱلبصرة، وقلْت: إنْ لم تتغيَّرْ حالي تغيَّرتْ نفسي، ولا أكونُ في ٱلبصرةِ قدِ ٱنتهيْتُ إلى ٱلفقر، بل أكونُ قد بدأْتُ مِنَ الفقرِ كما يبدأُ غيري، وأدعُ الماضيَ في مكانِهِ وأمضي إلى ما يستقبلُني.

فٱلتمسْتُ رُفْقَةً فٱلتأمْنا[2] عشرينَ رجلاً، فلمَّا كنَّا في ٱلطريق، سَلَبَنا ٱللصوصُ وحازوا ٱلقافلةَ وما تَحويه، ونجَوتُ أنا راكباً فرسي وعُمْري، وأدركْتُ حينئذٍ أنَّ ٱلحياةَ وحدَها مِلْكٌ عظيم، وأنَّها هي ٱلأداةُ ٱلإلهيَّة، وٱلباقي كلُّهُ هو من أنفسِنا لِأنفسِنا والأمرُ فيه هيِّنٌ وٱلخَطْبُ يسير.

وقلْتُ: لو أنَّ ٱللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمرّ الناسُ بالناسِ لَمَا نكبَونا، ولكنَّهم عرضوا لنا عُروضَ اللصّ لِلمالِ وٱلمتاعِ لا لِلناس، فوضعوا فينا الأيديَ الناهبة؛ ومن هذا أدركْتُ أنْ ليسَ ٱلشرُّ إلَّا حالةً يتلبَّسُ بها مَنْ يستطيعُ أنْ يتخلَّصَ منها. فإذا كان ذلك فأصلُ ٱلسعادةِ في ٱلإنسانِ ألَّا يعبأَ[3] بهذِه ٱلحالاتِ متى عَرَضَتْ[4] له؛ وهو لا يستطيعُ ذلك إلَّا إذا، تمثَّلَ الشرَّ كما يراهُ واقعاً في غيره؛ فٱلمرأةُ العفيفةُ إذا عرضَتْ لها حالةٌ مِنَ ٱلفُجور، ونظرَتْ إلى نفسِها وحظِّ نفسِها، فقد تعمَى وتَزِلّ؛ ولكنَّها إذا نظرَتْ إلى ذلك في غيرها وإلى أثرِهِ على الفاجرة، كانَتْ كأنَّما زادَتْ على نفسِها نفساً أخرى تُريها ٱلأشياءَ مجردةً كما هي في حقائقِها.

---

(١) يصطلم: يستأصل.
(٢) التأمنا: اجتمعنا.
(٣) يعبأ: يهتم.
(٤) عرضت: حصلت.

قال: ومضيْتُ على وجهي تتقاذفُني ٱلبِقاعُ والأمكنةُ: وأنا أُعانِي ٱلأرضَ وٱلسماء، وأخشى الليلَ والنهار، وأُكابدُ ٱلألمَ وٱلجوع، حتى دخلْتُ ٱلبصرةَ دخولَ ٱلبعيرِ ٱلرازح، قَطَعَ ٱلصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكلُ منها، فأنضاهُ[١] السفرُ وحَسَرهُ الكَلالُ[٢] ونَحتَهُ الثِّقلُ ٱلذي يحملُه، فجاءَ ببِنْيةٍ غير التي كانَ قد خرجَ بها. وكانَتْ أيَّامي هذه عمراً كاملاً مِنَ ٱلشقاء، جعلَتْني أُوقِنُ أنَّ هؤلاءِ الناسَ في ٱلحياةِ إنْ هم إلَّا كالدَّوابِّ تحتَ أحمالها: لا تختارُ الدابَّةُ ما تحملُ ولا مَنْ تحمل، ولا يُترَكُ لها مع هذا أنْ تختارَ ٱلطريقَ ولا مدةَ ٱلسير؛ وليسَ لِلدابةِ إلَّا شيئان: صبرُها وقُوَّتُها؛ إنْ فقدَتْهما هلكتْ، وإنْ وَهَنا فيها كان ضعفُها بحسبِ ذلك.

إنَّ هناك أوقاتاً مِنَ ٱلشقاءِ والبؤسِ تقذفُ بالإنسانِ وراءَ إنسانيَّتِهِ وإنسانيَّةِ البشرِ جميعاً، لا تُبالي كيف وقعَ وفي أيِّ وادٍ هلَك، فلا ينفعُ ٱلإنسانَ حينئذٍ إلَّا أنْ يعتصمَ[٣] بأخلاقِ ٱلحيوان، في مثلِ رِضاهُ الذي هو أحكمُ الحِكْمةِ في تلك الحال، وصبرِهِ ٱلذي هو أقوى القوّة، وقناعتِهِ التي هي أغنى ٱلغِنى، وجهلِهِ الذي هو أعلمُ العِلْم، وتوكُّلِهِ ٱلذي هو إيمانُ فطرَتِهِ بفِطرتِه. لا يُبالي ٱلحيوانُ مالاً ولا نعيماً، ولا متاعاً ولا منزلةً، ولا حظًّا ولا جاهاً، ولنْ تجدَ حمارَ ٱلملكِ يعرفُ مِنَ الملكِ أكثرَ مِمَّا يعرفُ حِمارُ السَّقَّاءِ مِنَ السقّاء؛ ولعلَّك لو سألْتَهما وأطاقا الجوابَ لَقالَ لك الأوّل: إنَّ الذي فوقَ ظهري ثقيلٌ مَقِيتٌ بغيض؛ ولَقالَ لك الثاني: إن الذي يركبُهُ خفيفٌ سهلٌ سَمْح!

ولكنَّ بلاءَ ٱلإنسانِ أنَّهُ حينَ يُطَوِّحُهُ ٱلبؤسُ[٤] وٱلشقاءُ وراءَ ٱلإنسانيَّة، لا ينظرُ لِغيرِ ٱلناس، فيزيدُهُ ذلك بُؤساً وحسرة، ويَمحَقُ[٥] في نفسِهِ ما بقيَ مِنَ ٱلصبر، ويقلُبُ رِضاهُ غيظاً، وقناعتَهُ سخطاً، ويبتليهِ كلُّ ذلك بالفكرةِ المهلِكةِ أعجزَها أنْ تُهلِكَ أحداً فلا تجدُ مَنْ تُدَمِّرُهُ غيرَ صاحبِها؛ فإذا هي وجدَتْ مَسَاغاً[٦] إلى الناسِ فأهلكَتْ وعاثَتْ وأفسدَتْ، فجعلَتْ صاحبَها إمَّا لِصًّا أو قاتلاً أو مُجرماً، أيَّ ذلك تيسَّر!

* * *

(١) أنضاه: أتعبه.

(٢) الكلال: التعب الشديد.

(٣) يعتصم: يلجأ ويتقوّى.

(٤) يطوّحه البؤس: أخذه كل مأخذ.

(٥) يمحق: يمحو.

(٦) مساغاً: سبباً.

قال: وكنْتُ أعرفُ في ٱلبصرةِ فلاناً التاجرَ من سَراتِها[1] ووجوهِ أهلِها، فٱستطرقْتُهُ[2]؛ فإذا هو قد تحوّلَ[3] إلى خُراسان، وليسَ يعرفُني أحدٌ في ٱلبصرةِ ولا أعرفُ أحداً غيرَه؛ فكأنَّما نُكِبْتُ مرةً ثانيةً بغارةِ شرٍّ من تلك، غيرَ أنَّهَا قطعَتْ عليَّ في هذه ٱلمرةِ طريقَ أيَّامي، وسلبتْني آخرَ ما بقيَ لِنفسي، وهو الأمل!

ورأيْتُ أنَّهُ ما مِنْ نزولي إلى الأرض بُدّ، فأكونَ فيها إنساناً كالدابةِ أوِ ٱلحشَرة: حياتُها ما ٱتَّفقَ لا ما تُريدُ أنْ يتَّفِق؛ وأنَّهُ لا رأيَ إلَّا أنْ أسخَرَ مِنَ ٱلشهوات فأزهدَ فيها وأنا القويُّ ٱلكريم، قبلَ أنْ تسخرَ هي منِّي إذا جئْتُها وأنا الطامعُ العاجز!

وفي الأرضِ كِفايةُ كلٍّ ما عليها ومَنْ عليها، ولكنْ بطريقتِها هي لا بطريقةِ الناس؛ وما دامَتْ هذه الدنيا قائمةً على التغييرِ والتبديلِ وتحوُّلِ شيءٍ إلى شيء، فهذا الظَّبيُ الذي يأكلُهُ الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنَّهُ قد أُكِلَ ولا أنَّهُ ٱفْتُرِسَ ومُزِّق، بلْ هو عندَها قد تحوَّلَ قوةً في شيءٍ آخرَ ومضى؛ أمَّا عندَ ٱلناسِ فذلك خَطْبٌ[4] طويلٌ في حِكايةِ أوهامٍ مِنَ ٱلخوفِ وٱلوجَل[5]، كما لوِ ٱخترعْتَ قصةً خرافيَّةً تحكيها عن أسدٍ قد زَرَعَ لحماً... فتعهَّدَهُ فأنبتَهُ فحصدَهُ فأكلَه، فذهبَ ٱلزرعُ يحتجُّ على آكِلِهِ، وجعلَ يشكو ويقول: ليسَ لِهذا زرعْتَني أنت، وليس لِهذا خرجْتُ أنا تحتَ الشمس، وليسَ من أجلِ هذا طلعَتِ ٱلشمسُ عليَّ وعليك!

وٱلإنسانُ يرى بعينيهِ هذا التغييرَ واقعاً في ٱلإنسانيَّةِ عامَّتِها وفي ٱلأشياءِ جميعِها؛ فإذا وقعَ فيهِ هو ضجَّ وسَخِط، كأنَّ لَهُ حقًّا ليسَ لأحدٍ غيرِه، وهذا هوَ ٱلعجيبُ في قصةِ بني آدم، فلا يزالُ فيها على الأرضِ كلماتٌ مِنَ ٱلجنةِ لا تُقالُ هنا ولا تُفهَم هنا؛ بل مَحلُّ ٱلاعتراضِ بها حينَ يكونُ ٱلإنسانُ خالداً لا يقعُ فيهِ ٱلتغييرُ وٱلتبديل. ومن هذا كانَ خيالُ ٱللذةِ في ٱلأرضِ هو دائماً باعثَ ٱلحماقةِ ٱلإنسانيَّة.

قال أبو عُبيد: وذهبْتُ أعتَمِلُ بيديَّ وجسمي على آلامٍ مِنَ ٱلفاقةِ وٱلضُّرّ، ومنَ ٱلخيبةِ والإخفاق، ومن إلجاءِ ٱلمسكنَة، وإحواجِ ٱلخَصَاصة[6]؛ فلقد رأيتُني وإنَّ يدي كيدِ ٱلعبد، وظهري كظهرِ ٱلدّابة، ورجلي كرجلِ ٱلأسير، وعُنُقي كعُنُقِ

---

(١) سراتها: أغنيائها.
(٢) استطرقته: جئته ليلاً.
(٣) تحوّل: انتقل.
(٤) خطْب: بسكون الطاء: المصيبة.
(٥) الوجل: الخوف.
(٦) الخصاصة: الفقر المدقع وشدّته.

ٱلمغلول، ويطلعُ قرصُ الشمس على الدنيا ويغيبُ عنها وما أعتمِلُ إلَّا بقُرصٍ مِنَ ٱلخبز، ولقد رأيْتُني أبذُلُ في صِيانةِ كلّ قطرةٍ من ماءِ وجهي سحابةً مِنَ العرَقِ حتى لا أسألَ ٱلناس، ويا بؤساً لي إنْ سألْتُ وإنْ لم أسأل!

وما كان يُمسِكني على هذه الحياةِ المُرمَقَّةِ[1]، تأتي رَمَقاً بعدَ رَمَقٍ في يوم يوم - إلا كلامُ الشعبيّ - الذي سمعْتُهُ في مسجدِ الكوفة، وقولُهُ فيمَنْ قتلَ نفسَه؛ فكانَ كلامُه نوراً في صدري يُشرقُ منه كلّ يوم معَ الصبحِ صبحٌ لإيماني. ولكنْ بقيَتْ أيامُ نعمتي الأولى ولها في نفسي ضَرَباناً مِنَ الوجَعِ كالذي يجدُهُ ٱلمجروحُ في جرحِهِ إذا ضَرَبَ عليه، فكانَ الشيطانُ لا يجدُ منفذاً إليَّ إلَّا منها. وفقدْتُ ٱلصديقَ وعونَه، فما كان يُقبِلُ عليّ صديقٌ إلَّا في أحلامي من وراءِ ٱلزمنِ الأول!

قالَ مُجاهد: والحبيب؟

فتبسَّمَ ٱلرجل وقال: إذا فرغَتِ[2] ٱلحياةُ مِنَ الذي هو أقلُّ مِنَ ٱلممكن، فكيف يكونُ فيها الذي هو أكثرُ مِنَ ٱلممكن؟ إنَّ جوعَ يوم واحدٍ يجعلُ هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لا شِعرَ فيها، ويتركُ الزمنَ وما فيه ساعةً واحدةً مُعَطَّرة. . . . والبؤسُ يَقَظةٌ مؤلمةٌ في ٱلقلبِ ٱلإنسانيِّ تُحَرِّمُ عليهِ ٱلأحلامُ؛ وما ٱلحُبُّ من أوَّلِهِ إلى آخرِهِ إلَّا أحلامُ القلوبِ بعضِها ببعض!

قال أبو عُبيد: وتَضَعْضَعْتُ[3] لِهذه الحياةِ المخزيةِ وأبْرَمَتْني[4] أيامُها، وحملْتُ فيَّ الميّتَ والحيّ، ورأيْتُ الشيطانَ - لَعَنَهُ الله - كأنَّما ٱتخَذَني وِعاءً مُطَّرَحاً على طريقِهِ يُلقي فيهِ القمامة[5] . . . ، وظهَر لي قلبي في وساوسِهِ كالمدينةِ الخَرِبةِ ضَرَبَها الوباءِ، فأعمرُ ما فيها مَقْبَرَتُها؛ وعادَ البؤسُ وَقَاحَ الوجهِ لا يستحي، فلا أراهُ إلَّا في أرذلِ أشكالِهِ وأبردِها؛ ولقد يكونُ البؤسُ لِبعضِ الناسِ على شيءٍ مِنَ ٱلحياءِ فيأتي في أسلوبٍ معتذِرٍ كٱلمرأةِ الدميمة[6] في نقابِها[7].

وقلْتُ لِنفسي: ما هو - واللّهِ - إلَّا القتل، فهذا عُمرٌ أراهُ كالأسيرِ أُقِيمَ على النطع[8] وسُلَّ عليهِ السيف، فما ينتقمُ منه ٱلمنتقِمُ بأفظعَ من تأخيرِ ٱلضربة، وما يرحمُهُ ٱلراحمُ بأحسنَ مِنْ تعجيلِها!

---

(١) المرمقة: الباقي من الحياة.
(٢) فرغت الحياة: انتهت.
(٣) تضعضعت: تخلخلت.
(٤) أبرمتني: أضجرتني.
(٥) القمامة: الزبالة.
(٦) الدميمة: البشعة.
(٧) تقابلها: ما تغطي به وجهها.
(٨) النِّطع: الآنية ينزل فيها دم من قطع رأسه.

وبِتُّ أؤامِرُ هذه النفسَ في قتلِها وأحدّثُها حديثَ الموت، فسدَّدَتْ رأيي فيهِ وقالت: ما تصنعُ بجسمٍ كالمتعفِّنِ أصبحَ كالمقبورِ لا أيامَ لَهُ إلَّا أيامُ ٱنقراضِهِ وتفتيتُه؟ بَيْدَ أنِّي ذكرْتُ كلامَ (الشَّعبيِّ) في ذلك المجلسِ وأنا أحفظُهُ كلَّه، فجعلْتُ أهُذُّه[1] ما أتركُ منه حَرْفاً، وٱتَّخذْتُهُ متكلماً مع نفسي لا كلاماً، كنْتُ كلَّما غلبَني ٱلضعفُ رفعْتُ بِهِ صوتي وأَصغيْتُ كما أُصغي إلى إنسانٍ يُكلِّمُني فرأيْتُ ٱلشيطانَ بعدَ ذلك كاللصِّ إذا طَمِعَ في رجلٍ ضعيفٍ منفردٍ، ثُمَّ لمَّا جاءَهُ وجدَ معه رجلاً ثانياً قويًّا فهرب!

قال أبو عُبيد: ونالني رَوْحٌ مِنَ ٱلاطمئنانِ وجدْتُ لَهُ السكينةَ في قلبي فنِمْتُ، فإذا الفزعُ ٱلأكبرُ الذي لا ينساهُ مَنْ سمع بهِ، فكيف ٱلذي رآهُ بعينيه؟

رأيتُني ميّتاً في يدِ غاسلِهِ يُقلِّبُهُ ويغسلُهُ كأنَّهُ خِرْقة؛ ثُمَّ حُمِلْتُ على ٱلنعشِ كأنَّ الحاملين قد رفعوني يقولون: ٱنظروا أيُّها ٱلناسُ كيفَ يصيرُ ٱلناس؛ ثُمَّ صلَّى عليَّ الإمامُ الشعبيُّ في مسجدِ ٱلكوفة، ثم دُلِّيتُ في قَعْرٍ مُظْلِمَةٍ وهِيلَ الترابُ عليّ، وتُرِكْتُ وحيداً وٱنصرفوا!

وما أدري كم بقيْتُ على ذلك ثُمَّ رأيْتُ كأنَّما نُفِخَ في ٱلصُّورِ[2] وبُعْثِرتِ ٱلأمواتُ جميعاً، فطِرْنا في ٱلفضاء، وكانتِ ٱلنجومُ غباراً حوْلَنا كتُرابِ ٱلعاصفةِ في ٱلعاصفة؛ وإذا نحن في عَرَصَاتِ القِيامةِ وفي هَوْلِ الموقف!

وتوجَّهْتُ بكلِّ شعرةٍ في جسمي إلى الرجاءِ في رحمةِ ٱلله؛ ورأيْتُ أعمالي رؤيةً أحزنَتْني، فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلِها صعاليكُ إلَّا قليلاً منَ ٱلمستورين، أرى منهُمُ ٱلواحدَ بعدَ ٱلواحدِ في ٱلساعة بعدَ ٱلساعةِ نذَرُوا وتَبَعثروا وضاعوا كأعمالي ٱلصالحة!

وذكرْتُ أني كِدْتُ أقتلُ نفسي فِراراً بها مِنَ ٱلعُمرِ المؤلم؛ فنظرْتُ فإذا الزمنُ قد ظهرَ في أبديَّتِهِ، ورجعَ ٱلماضي حاضراً بكلِّ ما حَوَى كأنَّهُ لم يمض، وإذا عمري كلُّهُ لا يَكادُ يبلغُ طَرْفةَ عينٍ من دهرٍ طويل، فحمدْتُ ٱللَّهَ أنِّي لم أفتَدِ أَلَمَ ٱللحظةِ ٱلقصيرةِ ٱلقصيرة، بعذابِ ٱلأبدِ ٱلخالدِ ٱلخالدِ ٱلخالدِ.

وجِيءَ على أعينِ ٱلخلْقِ بأنعم أهلِ الدنيا وأكثرِهم لَذّاتٍ في تاريخ الدنيا كلِّه، فصاحَ صائحٌ: هذا أنعمُ مَنْ كانَ على الأرضِ منذُ خَلَقَها ٱللَّهُ إلى أنْ طواها. ثُمَّ غُمِسَ هذا المنَعَّمُ في النارِ غَمْسَةً خفيفةً كنَبضَةِ البرْق، وأُخْرِجَ إلى المحشَر،

---

(١) أهذُّه: أسرع في قراءته.

(٢) الصُّور: البوق.

وقيلَ لَهُ والناسُ جميعاً يسمعون: هل ذُقْتَ نعيماً قطّ؟ قال: لا ـ والله ـ.

ثُمَّ جِيءَ بأتعسِ أهلِ ٱلأرضِ وأشدِّهِم بُؤساً منذُ خُلقَتِ ٱلأرض، فغُمسَ في ٱلجنةِ غَمْسَةً أسرعَ مِنَ النسيمِ تحرَّكَ ومرَّ، ثُمَّ أُخْرِجَ إلى المحشرِ وقِيلَ له: هل ذُقْتَ بؤساً قطّ؟ قال: لا ـ والله ـ.

وسمعْنَا شهيقَ جهنمَ وهي تفورُ تكادُ تميَّزُ مِنَ الغيظ؛ فأيقنْتُ أنَّ لها نفْساً خُلقَتْ من غضَبِ ٱلله. وخرجَ منها عُنقٌ عظيمٌ هائل، لو تضرَّمَتِ[1] ٱلسماءُ كلُّها ناراً لأَشبهَتْه، فجعلَ يلتقِطُ صِنْفاً صِنفاً مِنَ ٱلخلْق، وبدأ بالملوكِ الجبابرةِ فٱلتقطهمْ مرَّةً واحدةً كالمغناطيسِ لِتُرابِ ٱلحديدِ؛ وقَذَفَ بهم إلى النار؛ ثُمَّ ٱنبعثَ فٱلتقطَ ٱلأغنياءَ ٱلمُفسدِينَ فأطارَهم إليها؛ ثُمَّ جعلَ يأخذُ قَوْماً قَوْماً، وقد ألجمنِي ٱلعرَقُ مِنَ ٱلفزع؛ ثُمَّ طِرْتُ أنا فيه، ونظرْتُ، فإذا أنا مُحْتبِسٌ في مُظلمةٍ ناريَّةٍ كالهاوية، ليسَ حولي فيها إلَّا قاتلو أنفسِهِم. ولو أنَّ بِحارَ ٱلأرضِ جُعلَ فيها البحرُ فوقَ ٱلبحرِ فوقَ ٱلبحر، إلى أنْ تجتمعَ كلُّها فيكونَ العمقُ كبعْدِ ما بينَ ٱلأرضِ وٱلسماء، ثُمَّ تُسْجَرُ[2] ناراً تَلَظَّى، لَكانَتْ هيَ ٱلهاويةَ التي نحن في أعماقِها؛ وكنْتُ سمعْتُ من إمامِنا الشعبيّ: أنَّ عُصاةَ ٱلمؤمنينَ ٱلموحِّدِينَ إذا ماتُوا على إيمانِهم كانوا في النارِ أحياءً وجوارحُهم مَوْتى؛ لأنَّ هذه الجوارحَ قد أطاعَتِ ٱللَّهَ وسبَّحَتْهُ فكرُمَتْ بذلك حتى على جهنَّم، ثُمَّ يعذَّبونَ عذاباً فيهِ ٱلرحمة، ثُمَّ يُخرَجونَ وينتظرُهم إيمانُهم على بابِ النار، فكانَ إلى جانبي رجلٌ قتلَ نفسَه، فسمعَ قائلاً من بعيدٍ يقولُ لِمؤمِن: أُخرجْ فإنْ إيمانَك ينتظرُك. فصاحَ الذي إلى جانبي: وأنا، أفلا ينتظرُني إيماني؟ فقيلَ له: وهل جِئْتَ بهِ؟

ورأيْتُ رجلاً ذَبحَ نفسَهُ يُريدُ أنْ يصرخَ يسألُ الله ٱلرحمة، فلا يخرجُ ٱلصوتُ من حَلْقِه، إذْ كانَ قد فَرَاهُ وبقيَ مَفْرِيًّا! وأبصرْتُ آخرَ قد طعنَ في قلبِهِ بِمدية، فهو هناك تَسلُخُ الزبانيةُ قلبَهُ تبحَثُ هلْ فيهِ نيَّةٌ صالحة، فلا تزالُ تسلُخُ ولا تزالُ تبحثُ!

ورأيْتُ آخرَ كانَ تَحسَّى[3] مِنَ السمِّ فماتَ ظمآنَ يتلظَّى[4] جوفُه، فلا تزالُ تَنشأُ لَهُ في النارِ سحابةٌ رَويَّةٌ تَبْرُقُ بالماء، فإذا دنَتْ منه ورَجاها، ٱنفجَرَتْ عليهِ بِالصواعقِ ثُمَّ عادَتْ تَنشأُ وتنفجر!

---

(١) تضرّمت: اشتدّ اشتعالها.
(٢) تستجر: تشعل.
(٣) تحسّى: شرب.
(٤) يتلظّى: يشتعل.

وقالَ رجل: إنَّما كنْتُ مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقْتُ نفسي. فنودِيَ: أوَ ما علمْتَ أنَّ اللَّهَ يُحاسبُك على أنَّكَ عاقلٌ لا مجنونٌ، وقويٌّ لا ضعيف، وقادرٌ لا عاجز؟ كنْتَ تعقِلُ بالأقلِّ أنَّكَ ستموتُ، وكنْتَ تَقَوَى على أنْ تصبِر، وكنْتَ تقدرُ أنْ تتركَ الشرَّ.

وقالَ رجلٌ عالمٌ قد حزَّ في يدِهِ بسكينٍ فمات: «لم يكُنِ ٱلكمالُ مِنَ ٱلدنيا ولا في طبيعتِها ولا هو شيءٌ يُدرك». فصرخَ فيهِ صوتٌ رهيب: «ولكنْ من عَظَمةِ الكمالِ أنَّ ٱستمرارَ العملِ لَهُ هو إدراكُه!».

* * *

قالَ أبو عُبيد: ثُمَّ ٱنتصبَ بإزائي شيطانٌ ماردٌ أحمر، يلتمِعُ ٱلتماعَ ٱلزجاجِ فيهِ ٱلخمر، فقامَ في وجهي وقال: بِماذا جِئْتَ إلى هنا يا عدوَّ الخمر؟ فما كانَ إلَّا أنْ سمعْتُ ٱلنداءَ: شَفَعَتْ فيك الخمرُ التي لم تشربْها، أُخرج، إنَّ إيمانَكَ ينتظرُك.

فصِحْت: ٱلحمدُ لِلَّهِ! وتحركَ بها لِساني، فٱنتبهْت.

لقد علمْتُ أنَّ ٱلصبرَ على المصائبِ نعمةٌ كبرى لا يُنعِمُ ٱللَّهُ بها إلَّا في ٱلمصائب.

وحيُ القبور

ذهبْتُ في صُبحِ يوم عيدِ ٱلفطرِ أحملُ نفسي بنفسي إلى ٱلمَقْبَرَة، وقد ماتَ لي مِنَ ٱلخواطِرَ مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحد؛ فكنْتُ أمشي وفيَّ جَنَازَةٌ بمُشَيعيِّها[1]؛ من فِكْرٍ يَحملُ فِكْراً، وخاطرٍ يَتْبعُ خاطراً، ومعنًى يَبكِي، ومعنًى يُبكَى عليه.

وكذلك دأْبِي[2] كلَّما ٱنحدرْتُ في هذه الطريقِ إلى ذلك ٱلمكانِ ٱلذي تأتيهِ ٱلعيونُ بدموعِها، وتمشي إليهِ ٱلنفوسُ بأحزانِها، وتجيءُ فيهِ ٱلقلوبُ إلى بقايا. تلك المقابرُ التي لا يُنَادَى أهلُها مِن أهليهم بالأسماءِ ولا بِالألقاب، ولكنْ بهذا النداء: يا أحبابَنَا، يا أحزانَنَا!

ذهبْتُ أزورُ أمواتي الأعزاءَ وأتَّصلُ منهم بأطرافِ نفسي، لأحيا معهم في ٱلموتِ ساعةً أعْرضُ فيها أمرَ الدنيا على أمر ٱلآخرة، فأنسى وأذكر، ثُمَّ أنظرُ وأعتبِرُ، ثُمَّ أتعرَّفُ وأتوَسَّم[3]، ثُمَّ أسْتبْطِنُ مِمّا في بطنِ ٱلأرض، وأستَظْهِرُ مِمّا على ظهرِها.

وجلسْتُ هناك أُشْرِفُ من دهرٍ على دهر، ومن دنيا على دنيا، وأخرَجَتِ ٱلذاكرةُ أفراحَها القديمةَ لِتجعلَها مادةً جديدةً لِأحزانِها؛ وٱنفتحَ لِيَ ٱلزمنُ ٱلماضي فرأيتُ رَجْعَةَ الأمس، وكأنَّ دهراً كاملاً خُلِقَ بحوادثِهِ وأيَّامِه، ورُفعَ لِعينيَّ كما تُرفَعُ ٱلصورةُ ٱلمعلقةُ في إطارِها.

أعرفُ أنَّهم ماتوا، ولكنَّي لم أشعرْ قطُّ إلَّا أنَّهم غابوا؛ وٱلحبيبُ ٱلغائِبُ لا يتغيَّرُ عليهِ الزمانُ ولا المكانُ في ٱلقلْبِ ٱلذي يُحبُّهُ مهما تَراخَتْ بهِ ٱلأيام[4]؛ وهذه هي بقيةُ ٱلروحِ إذا ٱمتزَجَتْ بِالحُبِّ في روحٍ أخرى: تتركُ فيها ما لا يُمحَى لِأنَّها هي خالدةٌ لا تُمحَى.

ذهبَ ٱلأمواتُ ذَهَابَهم ولم يُقيموا في ٱلدنيا؛ ومعنى ذلك أنَّهم مرُّوا بالدنيا

---

(١) مشيّعها: مرافقها.

(٢) دأبي: بسكون الهمزة: عادتي.

(٣) توسَّم: استطلع.

(٤) تراخت به الأيام: امتدّت.

ليسَ غير، فهذه هي ٱلحياةُ حينَ تُعبِّرُ عنها ٱلنفسُ بِلِسانِها لا بلسانِ حاجتِها وحِرصِها.

الحياةُ مدةُ عمل، وكأنَّ هذه الدنيا بكلِّ ما فيها مِنَ ٱلمتناقضات، إنْ هي إلَّا مَصْنَعٌ يُسَوَّغُ كلُّ إنسانٍ جانباً منه، ثُمَّ يُقالُ لَه: هذه الأداةُ فٱصنعْ ما شِئْتَ، فضيلتَك أو رذيلتَك.

* * *[1]

جلسْتُ في ٱلمقبرة، وأطرقْتُ أُفكرُ في هذا الموت. يا عجباً لِلناس! كيف لا يستشعرونَهُ وهو يَهدمُ من كلِّ حيّ أجزاءً تُحيطُ بِهِ قبلَ أنْ يهدمَهُ هو بجملتِه؛ وما زالَ كلُّ بُنْيانٍ مِنَ الناسِ بِهِ كالحائطِ المُسَلَّطِ عليهِ خَرابُه، يَتَأكَّلُ من هنا ويتناثرُ من هناك!؟

يا عجباً لِلناسِ عجباً لا ينتهي! كيف يجعلونَ ٱلحياةَ مدةَ نزاعٍ وهي مُدةُ عمل، وكيف لا تبرحُ تَنْزُو النَّوازِي بِهم في ٱلخِلافِ وٱلباطلِ، وهم كلَّما تدافعوا بينهم قضيةً مِنَ ٱلنزاعِ فضربوا خَصْماً بخصمٍ وردّوا كيْداً بكيد، جاءَ حكمُ ٱلموتِ تكذيباً قاطعاً لِكُلِّ مَنْ يقولُ لِشيءٍ: هذا لي؟

أمَا ـ واللّهِ ـ إنَّهُ ليسَ أعجبُ في ٱلسخريةِ بهذه الدنيا من أنْ يُعطَى ٱلناسُ ما يملكونَهُ فيها لإثباتِ أنّ أحداً منهم لا يملكُ منها شيئاً، إذْ يأتي الآتي إليها لحماً وعظماً، ولا يرجعُ عنها الراجعُ إلَّا لحماً وعظماً، وبينَهما سفاهةُ ٱلعظمِ واللحمِ حتى على ٱلسِّكِّينِ ٱلقاطعة....

تأتي ٱلأيامُ وهي في ٱلحقيقةِ تَفِرُّ فِرارَها؛ فمَنْ جاءَ من عمرِهِ عشرونَ سنةً فإنَّما مَضَتْ هذه العشرونَ من عمره. ولقد كانَ ينبغي أنْ تُصَحِّحَ أعمالُ الحياةِ في الناسِ على هذا الأصلِ ٱلبَيِنِ، لولا ٱلطباعُ ٱلمدخولةُ وٱلنفوسُ الغافلةُ، وٱلعقولُ ٱلضعيفةُ، وٱلشهواتُ ٱلعارِمة؛ فإنَّهُ ما دَامَ ٱلعمرُ مُقْبِلاً مُدْبِراً في ٱعتبارٍ واحد، فليسَ لِلإنسانِ أنْ يتناولَ مِنَ ٱلدنيا إلَّا ما يُرضيهِ محسوباً لَه ومحسوباً عليهِ في وقتٍ معاً؛ وتكونُ ٱلحياةُ في حقيقتِها ليسَتْ شيئاً إلَّا أنْ يكونَ الضميرُ ٱلإنسانيُّ هو الحيَّ في الحيّ.

* * *

وما هي هذه ٱلقبور؟ لقد رجعَتْ عندَ أكثرِ ٱلناسِ مَعَ المَوْتَى أبنيةً ميتة؛ فما

(١) يقصد إنسانية الحياة.

قطُّ رأوهَا موجودةً إلَّا لِينسَوْا أنَّها موجودة؛ ولولا ذلك من أمرِهم لَكَانَ لِلقبرِ معناهُ ٱلحيُّ ٱلمُتَغَلْغِلُ في ٱلحياةِ إلى بعيد؛ فما القبرُ إلَّا بناءٌ قائمٌ لِفكرةِ ٱلنهايةِ وٱلانقطاع؛ وهو في ٱلطَّرَفِ ٱلآخرِ رَدٌّ على البيتِ الذي هو بناءٌ قائمٌ لِفكرةِ البَدْءِ وٱلاستمرار؛ وبينَ ٱلطَّرفينِ ٱلمَعْبَدُ وهو بناءٌ لِفكرةِ ٱلضميرِ ٱلذي يحيا في البيتِ وفي ٱلقبر، فهو على ٱلحياةِ والموتِ كالقاضي بينَ خَصمينِ يُصْلِحُ بينهما صُلحاً أو يقضي.

القبرُ كلمةُ ٱلصدقِ مبنيَّةً متجسِّمَةً، فكلُّ ما حولَها يَتَكَذَّبُ ويتأوَّل، وليسَ فيها هي إلَّا معناها لا يَدْخُلُهُ كذِبٌ ولا يعتريهِ تأويل. وإذا ماتَتْ في الأحياءِ كلمةُ الموتِ من غرورٍ أو باطلٍ أو غفْلةٍ أو أثرة، بقيَ ٱلقبرُ مُذكِّراً بالكلمةِ شارِحاً لها بأظهرِ معانيها، داعياً إلى الاعتبارِ بمدلولِها، مبيِّناً بِمَا ينطوي عليهِ أنَّ الأمرَ كلَّهُ لِلنّهاية.

ٱلقبرُ كلمةُ ٱلأرضِ لِمَنْ ينخدعُ فيرى العمرَ ٱلماضيَ كأنَّهُ غيرُ ماض، فيعملُ في إفراغِ حياتِهِ مَنَ ٱلحياة بِما يملؤُها من رذائلِهِ وخسائِسِه؛ فلا يزالُ دائِباً في معاني الأرضِ وٱستجماعِها. وٱلاستمتاع بها، يتلو في ذلك تِلْوَ ٱلحيوانِ ويقْتَاسُ بهِ، فشريعتُهُ جَوْفُهُ وأعضاؤه؛ وترجعُ بذلك حيوانيتُهُ مع نفسِهِ الروحانيَّة، كالحِمارِ معَ ٱلذي يملكُهُ ويعلِفُه، ولو سُئِلَ ٱلحمارُ عن صاحبِهِ مَنْ هو؟ لَقال: هو حِماري...

القبرُ على الأرضِ كلمةٌ مكتوبةٌ في ٱلأرضِ إلى آخرِ الدنيا، معناها أنَّ الإنسانَ حيٌّ في قانونِ نِهايتِه، فلْينظرْ كيف ينتهي.

* * *

إذا كانَ الأمرُ كلُّهُ لِلنهاية، وكانَ ٱلاعتبارُ بِها وٱلجزاءُ عليها، فالحياةُ هيَ ٱلحياةُ على طريقةِ ٱلسلامةِ لا غيرِها؛ طريقةِ إكراهِ ٱلحيوانِ ٱلإنسانيِّ على مُمَارسةِ ٱلأخلاقيَّةِ ٱلاجتماعيَّة، وجعلِها أصلاً في طِباعِه، ووزنِ أعمالِهِ بنتائجِها التي تنتهي بها، إذْ كانَتْ روحانيتُهُ في النهاياتِ لا في بداياتِها.

في الحياةِ الدنيا يكونُ الإنسانُ ذاتاً تعملُ أعمالَها؛ فإذا ٱنتَهتِ ٱلحياةُ ٱنقلبَتْ أعمالُ الإنسانِ ذاتاً يخلُدُ هو فيها؛ فهو منَ ٱلخيرِ خالدٌ في الخير، ومنَ الشرِّ هو خالدٌ في الشرّ؛ فكأنَّ ٱلموتَ إنْ هو إلَّا ميلادٌ لِلروحِ من أعمالِها؛ تُولدُ مرتين: آتيةً وراجعة.

وإذا كانَ ٱلأمرُ لِلنهايةِ فقدْ وجبَ أنْ تبطلَ مِنَ ٱلحياةِ نهاياتٌ كثيرة، فلا يُتركُ

الشرُّ يمضي إلى نهايتِهِ بلْ يُحْسَمُ في بَدْئِهِ ويُقتلُ في أولِ أنفاسِه، وكذلك الشأنُ في كلِّ ما لا يَحسنُ أنْ يُبدأ، فإنَّهُ لا يجوزُ أنْ يمتدَّ: كالعداوةِ والبغضاءِ، والبخلِ والأثرة، والكِبرياءِ والغرور، والخِداعِ والكذب؛ وما شابَهَ هذه أو شابَهَهَا، فإنَّها كلُّها انبعاثٌ مِنَ الوجودِ الحيوانيِّ وانفجارٌ من طبيعتِه؛ ويجبُ أنْ يكونَ لِكلٍّ منها في الإرادةِ قبرٌ كي تَسْلَمَ لِلنفسِ الطيبةِ إنسانيتُها إلى النهاية.

* * *

يا مَنْ لهم في القبورِ أموات!

إنَّ رؤيةَ القبرِ زيادةٌ في الشعورِ بقيمةِ الحياة، فيجبُ أنْ يكونَ معنى القبرِ من معاني السلامِ العقليِّ في هذه الدنيا.

القبرُ فمٌ يُنادي: أسرعوا أسرعوا، فهي مدةٌ لو صُرِفَتْ كلُّها في الخيرِ ما وَفَتْ بِه؛ فكيف يضيعُ منها ضيَاعٌ في الشرِّ أوِ الإثم؟ لو وُلِدَ الإنسانُ ومشى وأيفَعَ وشبَّ واكْتَهلَ وهَرِمَ في يوم واحد، فما عساهُ كانَ يُضِيِّعُ من هذا اليوم الواحد؟ إنَّ أطولَ الأعمارِ لا يراهُ صاحبُهُ في ساعةِ موتِهِ إلَّا أقصرَ من يوم.

يُنادي القبر: أصلِحوا عيوبَكم، وعليكم وقتٌ لإصلاحِها؛ فإنَّها إنْ جاءَتْ إلى هنا كما هي، بقيَتْ كما هي إلى الأبد، وتركَها الوقتُ وهرب.

هنا قبر، وهناك قبر، وهنالِكَ القبرُ أيضاً؛ فليسَ ينظرُ في هذا عاقلٌ إلَّا كانَ نظرُهُ كأَنَّهُ حكمُ محكمةٍ على هذه الحياةِ كيفَ تنبغي وكيف تكون.

في القبرِ معنى إلغاءِ الزمان، فمَنْ يفهمُ هذا استطاعَ أنْ ينتصِرَ على أيَّامِه، وأنْ يُسْقِطَ منها أوقاتَ الشرِّ والإثم، وأنْ يُمِيتَ في نفسِهِ خواطرَ السوء؛ فمِنْ معاني القبرِ ينشأُ لِلإرادةِ عقلُها القويُّ الثابت؛ وكلُّ الأيامِ المكروهةِ لا تجِدُ لها مكاناً في زمنِ هذا العقل، كما لا يجدُ الليلُ محلّاً في ساعاتِ الشمس.

ثلاثةُ أرواحٍ لا تَصلُحُ روحُ الإنسانِ في الأرضِ إلَّا بها:

روحُ الطبيعةِ في جمالِها، وروحُ المعبدِ في طهارتِه، وروحُ القبرِ في موعظتِه.

عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرِها

١

كانَ عمرُها طاقَةَ أزهارٍ تُسمَّى أيَّاماً.

كانَ عمرُها طاقَةَ أزهارٍ يَنْتَسِقُ فيهِ اليومُ بعدَ اليومِ كما تَنبُتُ ٱلورقةُ الناعمةُ في الزهرةِ إلى ورقةٍ ناعمةٍ مثلِها.

أيامُ الصِّبَا ٱلمَرِحَةُ حتى في أحزانِها وهمومِها؛ إِذْ كانَ مجيئُها مِنَ الزمنِ ٱلذي خُصَّ بشبابِ القلْبِ، تبدو ٱلأشياءُ في مَجارِي أحكامِها كالمسحورة؛ فإِنْ كانَتْ مُفرِحَةً جاءَتْ حاملةً فرَحَيْن، وإِنْ كانَتْ مُحْزِنَةً جاءَتْ بنصفِ ٱلحزن.

تلكَ الأيامُ التي تعملُ فيها ٱلطبيعةُ لِشبابِ الجسمِ بِقُوًى مختلفة: منها ٱلشمسُ وٱلهواءُ وٱلحركة، ومنها ٱلفرَحُ وٱلنسيانُ والأحلام!.

* * *

وشبَّتِ ٱلعذراءُ وأُفرِغَتْ في قالَبِ ٱلأنوثةِ ٱلشمسيِّ ٱلقمري، وٱكتسى وجهُها ديباجةً[١] مِنَ الزَّهَرِ ٱلغَضِّ[٢]، وأودعَتْها ٱلطبيعةُ سِرَّها ٱلنسائيَّ ٱلذي يجعلُ ٱلعذراءَ فنَّ جمالٍ لِأنها فنُّ حياة، وجعلَتْها تِمثالاً لِلظَّرف: وما أعجبَ سِحرَ الطبيعةِ عندَ ما تُجَمِّلُ ٱلعذراءَ بظرفِ كظرفِ ٱلأطفالِ الذينَ ستلِدُهم من بَعد! وأسبغَتْ[٣] عليها معانيَ الرقةِ وٱلحَنَانِ وجمالِ ٱلنفس؛ وما أكرمَ يدَ الطبيعةِ عندَ ما تَمْهَرُ ٱلعذراء من هذه ٱلصفاتِ مَهرَها الإنسانيّ!

وخُطِبَت ٱلعذراءُ لِزوجِها، وعُقِدَ لَهُ عليها في اليومِ الثالثِ من شهرِ مارسَ في الساعةِ الخامسةِ بعدَ الظهر.

---

(١) ديباجة: بشرة.

(٢) الغضّ: الطريء.

(٣) أسبغت: أعطت وشملت.

وماتَتْ عذراءَ بعدَ ثلاثِ سنين، وأُنزِلَتْ إلى قبرِها في اليومِ الثالثِ من شهرِ مارسَ في الساعةِ الخامسةِ بعدَ الظهر!

وكانَتِ السنواتُ الثلاثُ عُمْرَ قلْبٍ يُقطِّعُهُ المرض، يتنظَّرون بهِ العُرْس، وينتظرُ بنفسِهِ الرَّمْس!

يا عجائبَ القدَر! أذاك لَحنٌ موسيقيٌّ لأنِينٍ استمرَّ ثلاثَ سنوات، فجاءَ آخرُه موزوناً بأوَّلِهِ في ضبطٍ ودقَّة؟

أكانَتْ تلك العذراءُ تحملُ سرًّا عظيماً سيُغيِّرُ الدنيا، فردَّتِ الدنيا عليها يومَ التهنئةِ والابتسامِ والزينة، فإذا هو يومُ الوَلْوَلَةِ[1] والدموعِ والكفن؟

٢

واهاً لكَ أيُّها الزمن! مَنِ الذي يفهمُك وأنت مُدّةُ أقدار؟

واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعددِ أهلِ الدنيا جميعاً، وبهذا يعودُ لِكُلِّ مخلوقٍ سِرُّ يومِه، كما أنَّ لِكلِّ مخلوقٍ سرَّ روحِه، وليسَ إليهِ لا هذا ولا هذا.

وفي اليوم الزمنيِّ الواحدِ أربُعمائةِ مليونِ يوم إنسانيٍّ على الأرض! ومع ذلك يُحصيهِ عقلُ الإنسانِ أربعاً وعشرينَ ساعة؛ يا لَلغباوة. . . !

وكلُّ إنسانٍ لا يتعلَّقُ مِنَ الحياةِ إلَّا بالشعاعِ الذي يُضيءُ المكانَ المظلمَ في قلبِه، والشمسُ بِمَا طَلَعَتْ عليهِ لا تستطيعُ أنْ تُنيرَ القلبَ الذي لا يُضيئُهُ إلَّا وجهُ محبوب.

وفي الحياةِ أشياءُ مكذوبةٌ تُكَبِّرُ الدنيا وتُصغِّرُ النفس، وفي الحياةِ أشياءُ حقيقيَّةٌ تَعْظمُ بالنفسِ وتَصغُرُ بالدنيا؛ وذَهَبُ الأرضِ كلّهُ فقرٌ مُدْقعٌ حينَ تكونُ المعاملةُ مَعَ القلب.

أيَّتُها الدنيا؛ هذا تحقيرُك الإلهيُّ إذا أكبرَكِ الإنسان!

* * *

---

(١) الولولة: العويل والبكاء.

ويا عَجباً لأهلِ ٱلسوءِ ٱلمغتَرِّينَ بحياةٍ لا بدَّ أنْ تنتهيَ! فماذا يرتقِبونَ إلَّا أنْ تنتهيَ؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضة؛ وهل أعجَبُ وأغمضُ من أنْ يكونَ ٱنتهاءُ الإنسانِ إلى آخرِها هو أوّلَ فكرِهِ في حقيقتِها؟

فعِندَما تحينُ ٱلدقائقُ ٱلمعدودةُ التي لا تَرقُمُها ٱلساعةُ ولكنْ يرقُمها صدرُ ٱلمُحْتَضَر[1]. . . عندَ ما يكونُ مُلْكُ ٱلملوكِ جميعاً كالترابِ لا يَشتري شيئاً ألبَتَّة. . .

. . . . ماذا يكونُ أيُّها ٱلمجرمُ بعدَها تَقْتَرِفُ ٱلجِناية، ويقومُ عليكَ الدليل، وترى حَولَك ٱلجُنْدَ وٱلقُضاة، وتقِفُ أمامَك ٱلشريعةُ وٱلعدل؟

* * *

أعمالُنا في ٱلحياةِ هي وحدَها ٱلحياة، لا أعمارُنا، ولا حُظُوظُنا. ولا قيمةَ لِلمال، أوِ ٱلجاه، أوِ ٱلعافية، أو هي معاً ـ إذا سُلِبَ صاحبُها ٱلأمنَ وٱلقرار! والآمِنُ في الدنيا مَنْ لم تكنْ وراءَهُ جريمةٌ لا تزالُ تجري وراءَه. وٱلسعيدُ في ٱلآخرةِ مَنْ لم تكنْ لَهُ جريمةٌ تُطارِدُهُ وهو في ٱلسماوات.

كيف يُمكنُ أنْ تخدعَ ٱلآلةُ صاحبَها وفيها (العدَّادُ): ما تتحرَّكُ من حركةٍ إلَّا أشعَرَتْه فعَدَّها؟ وكيف يُمكنُ أنْ يكْذِبَ ٱلإنسانُ ربَّهُ وفيهِ ٱلقلبُ: ما يعملُ من عملٍ إلَّا أشعرَهُ فعدَّه؟

٣

ورأيْتُ ٱلعروسَ قبلَ موتِها بأيَّام.

أفرأيْتَ أنتَ الغِنَى عندَ ما يُدْبِرُ عن إنسانٍ لِيتركَ لَهُ ٱلحسرةَ والذكرى الأليمة؟ أرأيْتَ ٱلحقائقَ ٱلجميلةَ تذهبُ عن أهلِها فلا تتركُ لهم إلَّا الأحلامَ بها؟ ما أتعبَ الإنسانَ حينَ تتحوَّلُ ٱلحياةُ عن جسمِهِ إلى الإقامةِ في فكرِه!

وما هِيَ ٱلهمومُ وٱلأمراض؟ هي ٱلقبرُ يستبطىءُ صاحبَهُ أحياناً فيَنفضُ في بعضِ أيَّامِهِ شيئاً من ترابِه. . . . !

رأيتُ العَروسَ قبلَ موتِها بأيَّام، فيالِلَّهِ من أسرارِ ٱلموتِ ورهبتِها! فَرَغَ

(١) المحتضر: المنازع سكرات الموت.

جسمُها كما فرَغتْ عندَها الأشياءُ من معانيها! وتخلّى هذا الجسمُ عن مكانِهِ لِلرُّوحِ تَظهرُ لأهلِها وتقفُ بينَهم وِقْفةَ ٱلوَدَاع!

وتحوّلَ ٱلزمنُ إلى فكرِ ٱلمريضة؛ فلم تَعُدْ تعيشُ في نهارٍ وليل، بلْ في فكرٍ مُضيءٍ أو فكرٍ مظلم!

يا إلهي! ما هذا ٱلجِسْمُ ٱلمتهدِّمُ ٱلمقْبِلُ على ٱلآخرة؛ أهو تمثالٌ بَطَلَ تعبيرُهُ، أم تمثالٌ بدأَ تعبيرُه؟

لقد وثِقَتْ أنَّهُ ٱلموت، فكانَ فكرُها ٱلإلهيُّ هو ٱلذي يتكلَّم؛ وكانَ وجهُها كوجْهِ ٱلعابد: عليهِ طيَفُ الصلاةِ ونورُها. والروحُ الإنسانيةُ متى عبَّرتْ لا تُعبِّرُ إلَّا بالوجه.

ولها ٱبتسامةٌ غريبةُ ٱلجمال؛ إذْ هي ٱبتسامةُ آلام أيقنَتْ أنَّها مُوشِكةٌ أنْ تنتهي! ٱبتسامةُ روح لها مثلُ فَرحِ ٱلسجينِ قد رأى سجّانَهُ واقفاً في يدِهِ الساعةُ يرقُبُ ٱلدقيقةَ والثانيةَ لِيقولَ له: انطلِقْ!

***

ودخلْتُ أعودُها فرأَتْ كأنَّني آتٍ مِنَ ٱلدنيا...! وتَنسَّمَتْ منِّي هواءَ ٱلحياة، كأنَّني حديقةٌ لا شخص!

ومَنْ غيرُ ٱلمريضِ ٱلمُدْنَف(١)، يعرفُ أنَّ ٱلدنيا كلمةٌ ليسَ لها معنًى أبداً إلَّا العافية: مَن غيرُ ٱلمريضِ ٱلمُشْفي على الموت، يعيشُ بقلوبِ ٱلناسِ الذينَ حولَهُ لا بقلبِه؟

تلك حالةٌ لا تنفعُ فيها ٱلشمسُ ولا ٱلهواءُ ولا ٱلطبيعةُ ٱلجميلة، ويقومُ مقامَ جميعِها لِلمريضِ أهلُهُ وأحبَّاؤه!

وكانَ ذَوُوها من رهبةِ ٱلقدرِ ٱلداني كأنَّهم أسرى حربٍ أُجلسوا تحتَ جدارٍ يُريدُ أنَّ ينقضّ! وكانَتْ قلوبهُم من فزعِها تَنبِضُ نبضاً مثلَ ضَرَباتِ ٱلمَعَاول.

وبٱقترابِ ٱلحبيبِ ٱلمحتَضَرِ مِنَ ٱلمجهولِ، يُصبحُ مَنْ يحبُّهُ في مجهولٍ آخر، فتختلطُ عليهِ ٱلحياةُ بالموت، ويعودُ في مثلِ حَيرةِ ٱلمجنونِ حينَ يُمسكُ بيدِهِ ٱلظلَّ المتحرّكَ لِيمنعَه أنْ يذهبَ وتَعْروه في ساعةٍ واحدةٍ كآبةُ عمرٍ كامل، تُهيِّىءُ لَهُ جلالَ ٱلحِسِّ ٱلذي يشهدُ بهِ جلالَ الموت!

***

(١) المدنف: الشديد المرض.

وحانَتْ ساعةُ ما لا يُفْهم، ساعةُ كلِّ شيءٍ، وهي ساعةُ ٱللاشيءِ في ٱلعقلِ الإنسانيِّ! فالتفَتَتِ ٱلعروسُ لأبيها تقول: «لا تحزَنْ يا أبي. . .» ولأمِّها تقول: «لا تحزني يا أمِّي. . . . !».

وتبسمَتْ لِلدموعِ كأنَّما تُحاولُ أنْ تُكلِّمَها هي أيضاً؛ تقولُ لها: «لا تبكي. . . !» وأشفقَتْ على أحيائِها وهي تموت، فٱستجمعَتْ روحَها لِيبقَى وجهُها حيًّا من أجْلِهم بضعَ دقائق! وقالَتْ: «سأغادرُكُم مبتسمةً فيعيشوا مبتسمين، سأترُكُ تذكاري بينَكم تذكارَ عروس! . . .».

ثُمَّ ذكَرتِ اللَّهَ وذكَّرتْهُم به، وقالَت: «أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا الله». وكررتْها عشراً! وتملأتْ روحُها بالكلمةِ التي فيها نورُ السماواتِ والأرض، ونطقَتْ من حقيقةِ قلبِها بالاسمِ الأعظمِ الذي يجعلُ النفسَ منيرةً تتلألأُ حتى وهيَ في أحزانها.

ثُمَّ ٱستقبلَتْ خالقَ ٱلرحمةِ في الآباء والأمهاتِ وفي مثل إشارةِ وداعٍ من مسافرٍ ٱنبعَثَ بهِ ٱلقِطار، ألقَتْ إليهم تحيَّةً مِنِ ٱبتسامتِها وأسلمَتِ ٱلروح!

٤

يا لَعَجائبِ ٱلقدر! مشيْنَا في جنازةِ ٱلعروسِ التي تُزفُّ إلى قبرِها طاهرةً كالطفلةِ ولم يُبارِكْ لها أحد! فما جاوزْنا ٱلدارَ إلَّا قليلاً حتى أبصرْتُ على حائطٍ في الطريقِ إعلاناً قديماً بالخطِّ الكبيرِ الذي يصيح لِلأعين؛ إعلاناً قديماً عن (رواية) هذا هو اسمُها: «مبروك. . . !».

وٱخترقْنا ٱلمدينةَ وأنا أنظرُ وأتقصَّى[1]، فلم أرَ هذا الإعلانَ مرةً أخرى! وٱخترقْنا ٱلمدينةَ كلَّها، فلمَّا ٱنقطعَ ٱلعُمرانُ وأشرفْنا على ٱلمقبرة، إذا آخرُ حائطٍ عليه الإعلان: «مبروك. . . !»

---

(١) أتقصّى: أبحث.

موتُ أمّ

رجعْتُ مِنَ ٱلجنَازةِ بعدَ أنْ غبَّرْتُ قدميَّ ساعةً في ٱلطريقِ ٱلتي ترابُها ترابٌ وأشعة، وكانَتْ في ٱلنعشِ لؤلؤةٌ آدميةٌ محطَّمةٌ، هي زوجةُ صديقٍ طَحْطَحَتْها[1] الأمراضُ ففرّقتْها بينَ عِلَلِ ٱلموتِ، وكانَ قلبُها يُحييها فأخذَ يُهلكُها، حتى إذا دنا أنْ يَقْضِيَ عليها رحمَها ٱللَّهُ فقضَى فيها قضاءَه. ومَنْ ذا ٱلذي ماتَ لَهُ مريضٌ بالقلبِ ولم يَرَهُ من قلبِهِ في عِلَّتِهِ كالعصفورةِ ٱلتي تَهْتَلكُ تحتَ عيني ثعبانٍ سلَّطَ عليها سمومَ عينيه!

كانَتِ ٱلمسكينةُ في ٱلخامسةِ وٱلعشرينَ من سِنِّها، أمَّا قلبُها ففي الثمانينَ أو فوقَ ذلك؛ هي في سنِّ ٱلشبابِ وهو متهدّمٌ في سنِّ ٱلموت.

وكانَتْ فاضلةً تقيةً صالحةً، لم تتعلَّمْ ولكنَّ علْمَها ٱلتقوى والفضيلة. وأكملُ ٱلنساءِ عندي ليسَتْ هي ٱلتي ملأتْ عينيها مِنَ ٱلكتبِ فهي تنظرُ إلى الحياةِ نظراتٍ تَحِلُّ مشاكلَ وتخلقُ مشاكلَ ولكنَّها تلك ٱلتي تنظرُ إلى الدنيا بعينٍ متلألئةٍ بنورِ ٱلإيمانِ تُقِرُّ في كلِّ شيءٍ معناهُ ٱلسماويّ، فتؤمِنُ بأحزانِها وأفراحِها معاً، وتأخذُ ما تُعطَى من يدِ خالِقها رحمةً معروفةً أو رحمةً مجهولة. هذه عندي تُسمَّى ٱمرأة، ومعناها ٱلمعبدُ ٱلقُدسي؛ وتكونُ ٱلزوجةَ، ومعناها ٱلقوةُ المُسْعِدة؛ وتَصيرُ ٱلأمَّ، ومعناها التكمِلةُ الإلهيَّةُ لِصغارِها وزوجِها ونفسِها.

ومهما تبلغ ٱلمرأةُ مِنَ العِلْم فٱلرجلُ أعظمُ منها بأنَّهُ رجل، ولكنَّ ٱلمرأةَ حقَ ٱلمرأةِ هي تلك ٱلتي خُلقَتْ لِتكونَ لِلرجلِ مادةَ ٱلفضيلةِ والصبرِ والإيمان، فتكونُ له وحياً وإلهاماً وعزاءً وقوَّة، أي زيادةً في سرورِهِ ونقصاً من آلامِه.

ولنْ تكونَ ٱلمرأةُ في الحياةِ أعظمَ مِنَ الرجلِ إلَّا بشيءٍ واحد، هو صفاتُها التي تجعل رجُلَها أعظمَ منها.

* * *

(١) طحطحتها: أنهكتها.

ومشيْتُ مِنَ ٱلبيتِ ٱلذي ألبسَتْهُ ٱلميتةُ معنى ٱلقبر، إلى القبرِ الذي ألبسَ ٱلميتةَ معنى ٱلبيت وأنا منذُ مشيْتُ في جنازةِ أمِّي (رحمَها ٱلله) لا أسيرُ في هذه الطريقِ معَ ٱلأحياء، ولكنْ مَعَ ٱلموتى، فأتبعُ مِنَ الميتِ صديقاً ليسَ رجلاً ولا ٱمرأة، لأنّهُ من غيرِ هذه الدنيا؛ وأمشي في ساعةٍ ليسَتْ ستينَ دقيقةً، لِأنّها خرجَتْ مِنَ ٱلزمن؛ ولا أرى الطريقَ من طرقِ ٱلحياة، لِأنّني في صُحبةِ ميت؛ وتُصبحُ لِلأرضِ في رأيي جغرافيَّةٌ أخرى عَمِيَ الناسُ عنها لِشدَّةِ وضوحِها، كالألوهيَّةِ خفيَتْ من شدَّةِ ما ظهرَتْ.

يقولون: إنَّ ثلاثةَ أرباعِ ٱلأرضِ يَغمُرها ٱلبحر. أمّا أنا فأرى في تلك ٱلساعةِ أنَّ ثلاثة أرباعِ ٱلأرضِ لا يغمرُها البحرُ ٱلذي وصفوا، ولكنْ خِضَمٌّ آخرُ زخّارٌ[1] مُتَضرِّب، هو ذلك البحرُ الترابيُّ ٱلعظيمُ ٱلمسمى «المقبرة».

يقولون: إنَّ الحياةَ هي. . . هي ماذا ـ ويْحَكُم ـ أيُّها المغرورون؛ أفلا تَرَون هذه الصِّلَةَ الدائمةَ بين بطنِ ٱلأمِّ وبطنِ ٱلأرض؟

* * *

لَعَمْري كيف تجعلُ هذه الحياةُ لِلناس قلوباً معَ قلوبِهم، فيُحِسُّ ٱلمرءُ بِقلْب، ويعملُ بقلبٍ آخر: يعتقدُ ضررَ ٱلكذبِ ويكذب، ويعرفُ مَعَرَّةَ ٱلإثم ويأثم، ويُوقِنُ بعاقبةِ ٱلخيانةِ ثُمَّ يخون؛ ويمضي في ٱلعمرِ منتهياً إلى ربِّه، ما في ذلك شكّ، ولكنَّهُ في ٱلطريقِ لا يعملُ إلّا عملَ من قد فَرَّ من ربِّه. . .؟

هبَّتِ ٱلريحُ في ٱلسَّحَرِ على روضةٍ غَنَّاءَ فطابَتْ لها، فعقدَتْ عُقدتَها أنْ تتخِذَ لها بيتاً في ذلك ٱلمكانِ ٱلطيِّبِ لِتُقيمَ فيه. . . يا لها حكمةً مِنَ التدبير! تزعمُ ٱلريحُ الإقامةَ على حينِ كلُّ وجودِها هو لحظةُ مرورِها، وتحلُمُ بالقَرارِ في ٱلبيتِ وهي لا تملِكُ بطبيعتِها أنْ تقف.

يا لها حكمةً سامية، لا يسكنُها مِنَ ٱلمعنى إلّا أسخفُ ما في ٱلحُمق!

* * *

هَمَدَ الحيُّ وٱنطفأَتْ عيناه، ولكنَّه تحرَّكَ في تاريخِهِ مِمَّا ضيَّقَ على نفسِهِ أو وَسَّع، وأصبَحَ ينظرُ بعينٍ من عملِهِ إمّا مُبْصِرةٍ أو كالعمياء؛ فلو تكلَّمَ يَصِفُ ٱلحياةَ ٱلدنيا لقال: إنَّ هذه النجومَ على الأرضِ مصابيحُ مأتمٍ أُقيمَ بليل. وما أعجبَ أنْ يجلسَ أهلُ ٱلمأتمِ في ٱلمأتمِ ليضحَكُوا ويلعبوا!

---

(١) زخّار: مليء بالحركة والضجة.

ولو نطقَ ٱلموتى لَقالوا: أيُّها الأحياء، إنَّ هذا الحاضرَ ٱلذي يمرُّ فيكونُ ماضيَكم في ٱلدنيا، هو بعينهِ ٱلذي يكونُ مستقبلَكُم في ٱلآخرة، لا تزيدون فيهِ ولا تُنقِصون. وإنَّ الدنيا تبدأُ عندَكم منَ الأعلى إلى الأدنى: منَ ٱلعظماءِ إلى الفقراء؛ ولكنَّها تنقلبُ في ٱلآخرةِ فتبدأُ مِنَ الفقراءِ إلى العظماء؛ وأنتم ترسمونها بخطوطِ ٱلمطامعِ وٱلحظوظ، ويرسمُها ٱللّهُ بخطوطِ ٱلحِرْمانِ وٱلمُجاهدة؛ إنَّ التامَّ على الأرضِ مَن تمَّ بمتاعِها ولذَّاتِها، ولكنَّ ٱلتامَّ في السماءِ مَنْ تمَّ بنفسِهِ وحدَها.

* * *

يا أسفاً! لنْ يقولَ ٱلميتُ لِلْحيِّ شيئاً، ومَنْ يدري؟ لعلَّنا ونحن نُلْحِدُ لِلموتى ونُنزِلُهُم في قبورِهم، يَرونَ بأرواحِهِمُ ٱلخالدةِ أنَّنا نحن موتاهمُ ٱلمساكين، وأنَّنا مدفونون في ٱلقبر الذي يسمونَهُ «الكرة الأرضية»! وهلِ ٱلكرةُ الأرضيةُ مِنَ اللانهايةِ إلَّا حفرةٌ برجْلِ نملةٍ لِتُدْفَنَ فيها نملة. . .

الحياة. . أتُريدُ أنْ تعرفَها على حقيقتِها؟ هيَ ٱلمُبْهَماتُ ٱلكثيرةُ ٱلتي ليسَ لها في الآخِرِ إلَّا تفسيرٌ واحد: حلالٌ أو حرام.

* * *

ورجعْنا معَ ٱلصديقِ إلى بيتِه، ولَهُ خمسةُ أطفالٍ صِغارٍ لو أنَّهم همُ ٱلذينَ ٱنتُزِعوا من أمِّهم لَتَركَ كلٌّ واحدٍ على قلبِها مثلَ المِكْواةِ المحمّى عليها في النارِ إلى أنْ تحمَرَّ؛ ولكنَّ أمَّهم هي ٱلتي نُزِعَتْ منهم، فكانَ بقاؤهُم في ٱلحياةِ تخفيفاً لِسَكْرةِ ٱلموتِ عليها. وغَشِيَتْها ٱلغَشيةُ فماتَتْ وهي تضحك، إذْ تراهم نائمينَ تحتَ جَناحِ ٱلرحمةِ ٱلإلهيَّةِ ٱلمَمْدود، وقالَت: إنَّها تسمعُ أحلامَهم. وكانوا همْ عقلَها في ساعةِ ٱلموت!

تباركَ ٱلذي جعلَ في قلبِ ٱلأمِّ دنيا من خَلْقِهِ هو، ودنيا من خَلْقِ أولادها!

تباركَ الذي أثابَ ٱلأمَّ ثوابَ ما تُعاني، فجعلَ فرحَها صورةً كبيرةً من فرحِ صغارِها!

* * *

وجاءَ أكبرُ الأطفالِ ٱلخمسة، وكأنَّهُ ثمانيةُ أرطالٍ مِنَ ٱلحياةِ لا ثمانيةُ أعوامٍ مِنَ ٱلعمر؛ جاءَ إلينا كما يجيءُ الفزَعُ لِقلوبٍ مطمئنَّة، إذْ كانَ في عينيهِ الباكيتينِ معنى فقدِ الأمّ!

وطغَتْ عليهِ ٱلدموعُ فتناولَ منديلَهُ ومسحَها بيدِهِ ٱلصغيرة، ولكنَّ روحَهُ

اليتيمةَ تأبى إِلَّا أنْ ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهِهِ معانيَ يُتْمِها!

وظهرَ ٱلانكسارُ في وجهِهِ يعبِّرُ بِبَلاغةٍ أنَّهُ قد أحسَّ حقيقةَ ضعفِهِ وطفولتِهِ بإزاءِ ٱلمصيبةِ ٱلتي نزلَتْ بهِ، وجلسَ مستسلِماً تُتَرْجِمُ هيئتُهُ معانيَ هذه الكلمة: «رِفْقاً بي!».

ثُمَّ تطيرُ من عينيهِ نظراتٌ في ٱلهواءِ، كأنَّما يُحسُّ أنَّ أمَّهُ حولَهُ في ٱلجوِّ ولكنَّه لا يراها!

ثُمَّ يُرخِي عينيهِ في إغماضةٍ خفيفةٍ، كأنَّما يرجو أنْ يرى أمَّهُ في طَوِيَّتِهِ![1]

ولا يُصَدِّقُ أنَّها ماتت، فإنَّ صوتَها حيٌّ في أذنيهِ لا يزالُ يسمعُهُ من أمس!

ثُمَّ يعودُ إلى وجهِهِ ٱلانكسارُ وٱلاستسلام، ويتململُ في مجلسِه، فينطُقُ جسمُهُ كلُّهُ بهذه الكلمة: «يا أمِّي!».

* * *

أحسَّ ـ ولا ريبَ ـ أنَّهُ قد ضاعَ في ٱلوجود، لأنَّ الوجودَ كانَ أمَّه.

ولمسَ خشونةَ الدنيا منذُ ٱلساعة، بعدَ أنْ فقدَ ٱلصدرَ الذي فيهِ وحَدهُ لِينُ ٱلحياةِ لأنَّ فيهِ قلبَ أمِّهِ وروحَها.

وشعرَ بالذلِّ ينسابُ إلى قلبِهِ ٱلصغير، لأنَّ تلك التي كانَ يملكُ فيها حقَّ الرحمةِ قد أُخِذَتْ منهُ وتركَتْهُ بِلا حقٍّ في أحد؛ وليسَ لأحدٍ أَمَّان!

ولبِسَتْهُ ٱلمسكنَةُ، لأنَّ لَهُ شيئاً عزيزاً أصبحَ وراءَ الزمانِ فلَنْ يَصِلَ إليه!

ولبستْهُ ٱلمسكنةُ، لأنَّه صارَ وحدَهُ في ٱلمكانِ كما هو وحدَهُ في الزمان!

وٱرتسمَ على وجهِهِ ٱلتعجُّب، كأنَّهُ يسألُ نفسَه: «إذا لم تكنْ أُمِّي هنا، فلماذا أنا هنا؟!».

ثُمَّ تَغَرْغَرَتْ[2] عيناهُ فيُخرِجُ منديلَهُ ويمسحُ دمعَهُ بيدِهِ ٱلصغيرة، ولكنّ روحَهُ اليتيمةَ تأبى إِلَّا أنْ ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهِهِ معانيَ يُتْمِها!

* * *

ونهضَ ٱلصغيرُ ولم ينطقْ بذاتِ شَفَة؛ نهضَ يحملُ رجولَتَهُ التي بدأَتْ منذُ الساعة!

---

(١) طويته: سريرته داخله.

(٢) تغرغرت: دمعت.

انتهَتْ ـ أيُّها الطفلُ المسكينُ ـ أيامُك مِنَ الأمّ؛ هذه الأيامُ ٱلسعيدةُ ٱلتي كنْتَ تعرفُ الغَدَ فيها قبلَ أنْ يأتِيَ معرفتَك أمسِ الذي مضى؛ إذْ يأتي الغدُ ومَعكَ أمُّك!

وبدأتْ ـ أيُّها ٱلطفلُ ٱلمسكين ـ أيامُك مِنَ ٱلزمن، وسيأتي كلُّ غدٍ محجَّباً مرهوباً؛ إذْ يأتي لك وحدَك، ويأتي وأنت وحدَك!

الأمّ. . .؟ يا إلهي، أيُّ صغيرٍ على الأرضِ يجِدُ كِفايتَهُ مِنَ ٱلروحِ إلَّا في ٱلأمّ؟

قصةُ أب

حدَّثَني ٱلمسكينُ فيما حدَّثَ وهو يصفُ ما نزلَ بهِ قال:

رأيْتُ ٱلناسَ قد أنعمَ ٱللَّهُ عليهم أنْ يكونوا آباءَ فَنَسَأَ[1] بالولَدِ في آثارِهم، ومدَّ بالنسلِ في وجودِهم، وزادَ منه في أرواحِهم أرواحاً، وضمَّ بهِ إلى قلوبِهم قلوباً، وملأَ أعينَهم من ذلك بما تَقرُّ بهِ قُرَّةَ عينٍ كانَتْ لم تَجِدْ ثُمَّ وجَدَت؛ فهم بهؤلاءِ ٱلأطفالِ يملكونَ ٱلقوّةَ التي تُرجِعُهُمْ أطفالاً مثلَهُمْ في كلِّ ما يسرُّهم، فيكبَرُ الفرَحُ في أنفسِهم وإنْ كانَ في ذاتِ نفسِهِ ضئيلاً صغيراً، ما يسرُّهم، فيكبَرُ الفرَحُ في أنفسِهم وإنْ كانَ في ذاتِ نفسِه ضئيلاً صغيراً، ويعظُمُ ٱلأملُ في أشيائِهم وإنْ كانَ هو عن شيءٍ حقيرٍ لا يُؤْبَهُ[2] له.

وتلك حقيقةٌ من حقائقِ ٱلسعادةِ لا أسْمَى ولا أعظمَ منها إلَّا الحقيقةُ ٱلأخرى: وهيَ ٱلقوةُ ٱلتي يتحوّلُ بها ٱلكونُ في قلبِ ٱلوالدينِ إلى كنزٍ مِنَ ٱلحبِّ وٱلرحمةِ وجمالِ ٱلعاطفةِ، بسحْرٍ مِن ٱبتسامةِ طفلٍ أو طِفْلَة، أو بكلمةٍ منهما أو حركة، على حينٍ لا يتحوّلُ مثلَ ذلك ولا قريباً منه بمالِ ٱلدنيا، ولا بِمُلكِ ٱلدنيا.

رأيْتُ ٱلناسَ قد أنعمَ ٱللَّهُ عليهم أنْ يكونوا آباءَ، ولكنَّهُ ٱبتلاني بأنْ أكونَ أباً، وأخرجَ لي من أفراحِ قلبي أحزانَ قلبي! ولقد كنْتُ كرجلٍ ملكَ داراً يستمتِعُ بها، فتمنّى أنْ يُشْرِعَ[3] في جانِبٍ منها غرفةً يزَخرِفُها، فلمَّا تمَّ لَهُ ذلك وبلغَ ٱلمقْتَرَحَ، ٱنهدمَتِ ٱلدارُ وبقيَتِ ٱلغرفةُ قائمة!

عَمْرَكَ اللَّهُ، أيشعرُ هذا الرجلُ في نكبتِهِ بالغرفةِ أم بالدار؟ وهل تراهُ زادَ أو نَقص؟ ويا ليتَهما بيتٌ وغرفةٌ من بيت؛ فإنَّ الحِجارةَ تحيا بالبناءِ إذا ماتَتْ بالهدم، ولكنْ مَنْ ذا يُحيي ٱلزوجةَ ماتَتْ بعدَ أنْ وضعَتْ بِكرَها الأولَ والآخِر!

إنَّها طفلةٌ وُلِدَتْ وكأنَّما أُخرِجتْ من تحتِ ٱلرَّدمِ، إذْ وُلِدَتْ تحتَ ماضٍ من

---

(١) نسأ: زاد.

(٢) يؤبه: يهتمّ، يلتفت إليه.

(٣) أي أن يفتتح غرفة تؤدّي إلى الشارع.

ٱلحياةِ منهدِم، وهل فرقٌ بينَ هذا وبينَ أنْ تكونَ أمُّها قد ولدَتْها في ٱلصحراءِ ثُمَّ أُكرِهَتْ أنْ تدعَها وحدَها في ذلك القَفْرِ تصرخُ وتبكي! فالمسكينةُ على الحالينِ منقطعةٌ أولَ ما ٱنقطعَتْ من حنانِ ٱلأمِّ ورحمتِها.

طفلةٌ وُلدَتْ صارخةً، لا صرخةَ ٱلحياة، ولكنْ صرخةَ النوْحِ والندْبِ على أمِّها.

صرخةٌ حزينةٌ معناها: ضعوني معَ أمِّي ولو في ٱلقبر!

صرخةٌ ترتعِدُ، كأنَّ المسكينةَ شعرَتْ أنَّ الدنيا خاليةٌ مِنَ ٱلصدرِ ٱلذي يُدفئُها!

صرخةٌ تترددُ في ضَرَاعة[1]، كأنَّها جملةٌ مركَّبةٌ من هذه الكلمات: «يا ربِّ ٱرحمني من حياةٍ بلا أمّ!».

* * *

قالَ ٱلمسكينُ وهو يبكي ٱمرأتَه:

ولـمَّا ضَرَبها ٱلمخاضُ، ضاعفَتْ قوَّتَها من شعورِها أنَّها ستكونُ بعدَ قليلٍ مضاعَفَةً بمولودِها، وستكونُ روحينِ لا روحاً واحدة، وتَلِدُ ليَ ٱلحياةَ والحُبَّ الإلهيَّ معاً، وتأتي لِقلبي بمثلِ طفولتِهِ ٱلأولى ٱلتي يستحيلُ أنْ تأتيَ الرجلَ إلَّا من زوجِه. كلُّ ذلك ضاعفَ قواها ساعةً وشدَّ منها؛ ولكنْ ما أسرعَ ما تبيَّنَتْ أنَّهُ الموتُ، إذْ عُضِّلَتْ وعَسُرَ خروجُ مولودِها.

وجاءَها ٱلجراحِيُّ بمبْضعِه، وكأنَّها رأتْهُ ذابحاً لا طبيباً، فجعلَتْ تعبِّرُ بعينيها، إذْ لم تملكْ في آلامِها القاتلةِ غيرَ لغةِ هاتينِ ٱلعينين.

كانَتْ بنظرةٍ تبكِي عَلَيّ وعلى بؤسي، وبأخرى تبكي على بؤسِ مولودِها وشقائِه؛ وبنظرةٍ تُودِّعُني، وبأخرى تدعو ٱللَّهَ لي جزاءَ ما أحسنْتُ إليها؛ وبنظرةٍ تتوجعُ لِنفسِها، وبأخرى تتألمُ من أنَّها تراني أكادُ أُجَنّ.

نظرات نظرات...

يا إلهي! لقد خُيِّلَ إليّ أنَّ ملَكَ ٱلموتِ واقفٌ بينَ عشرينَ مرآةً تُحيطُ بهِ، فأنا أراهُ مَوْتاً متعدِّداً لا موتاً واحداً، وكلُّ نظرةٍ من عينيْ زوجتي إليّ كانَتْ منها هي نظرةً، وكانَتْ عندي أنا مرآةَ ٱلروحِ لِلروح.

---

(١) ضراعة: توسّل.

ولكنَّها لم تنسَ أنَّها تموتُ لِوَضْعِ مولودِها، وأنَّ هذه الآلامَ الدمويَّةَ الذابحةَ هي ٱلوسيلةُ لأنْ تتركَ لي بقيَّةً حيَّةً منها؛ فيا لَلرحمةِ والحنانِ والحُبِّ! لقدِ ٱبتسمَتْ لي وهي تموت؛ وهي تَلِد؛ وهي تُذبَح!

* * *

ليسَتْ رحمةُ ٱلمرأةِ ٱلمحبَّةِ خيالاً إلَّا إذا كانَتْ حرارةُ ٱلشمسِ التي تُحيي ٱلدنيا خيالاً أيضاً؛ إنَّ هذا القلبَ النِّسويَّ ٱلمستقرَّ فوقَ أحشاءٍ تحملُ الجنينَ صابرةً راضيةً فرِحةً بآلامِها، وتغذوهُ وتُقاسِمُهُ حياةَ نفسِها ـ هذا القلبُ يحملُ الحُبَّ أيضاً صابراً راضياً فرِحاً بآلامِه، ويغذوهُ ويُقاسمُهُ حياةَ نفسِه.

ولِلرحمةِ الإلهيَّة أدلةٌ كثيرةٌ تدلُّ الإنسانَ عليها دلالاتٍ مختلفة؛ فالشمسُ تدلُّ عليها بالضوءِ ٱلذي تَطْعَمُهُ ٱلحياة، والهواءُ يدلُّ عليها بالضوءِ ٱلذي تتنفَّسُهُ الحياة، والماءُ يدلُّ عليها بالضوءِ ٱلذي تَشربُهُ الحياة، وهكذا إلى أنْ يأتيَ في الآخرِ قلْبُ المرأةِ فيدلُّ على رحمةِ اللّهِ بِالحبِّ الذي تقومُ بِهِ ٱلحياة.

إبتسامةُ الحُبِّ غالبَتْ زفراتِ ٱلموتِ ٱلتي تَعْتَلِجُ من تحتِها حتى غلبتْها، وأعادَتِ ٱلحياةَ لحظةً إلى وجهِ زوجتي لِأراها آخرَ ما أراها في صورةِ المُحبَّةِ لي، فكانَ كلُّ جمالِ نفسِها منتشراً على ذلك الوجه، وظهرَتْ فيهِ روحُها وعواطِفُها تودِّعُني وداعاً حزيناً متبمساً يتكلَّم؛ يتكلمُ بعجزِهِ عنِ ٱلكلام.

إبتسامةٌ لا ريبَ أنَّ فيها أشياءَ ليسَتْ من جمالِ هذه الدنيا ولا من حقائِقها؛ فكأنَّما ٱلتمعَتْ بأشعةٍ مِنَ الخُلْدِ تَرِفُّ رفيفَها على وجهِ ٱلحبيبِ لِيُظهِرَ ساعةَ الموتِ أنَّ حبَّهُ أقوى مِنَ ٱلموت.

* * *

قالَ المِسكين: ونَثَر ٱلطبيبُ ذا بطْنَها فكانَتْ طِفلة، وما كانَتْ زوجتي تقترحُ أنْ يكونَ الجنينُ غيرَها، بل كانَتْ مستيقنةً أنَّها تضعُها أنثى، وصنَعتْ لها ثيابَها، ووشَّتْها بزينةِ ٱلأنوثة، وعرضَتْ أسماءَ البناتِ فٱختارَتِ ٱسمَها أيضاً، وكنْتُ أكرهُ ذلك منها وأريدُ ولداً لا بِنتاً، فكانَتْ تُغايظُنِي بعملِها وإصرارِها غيظَ دُعابةٍ لا غيظَ جَفَاء.

ومَضَتْ لا تذكرُ إلَّا بنتَها مدةَ الحَمْل، ولا تتكلمُ إلَّا عن بنتِها، وقد كنْتُ أعجبُ لذلك؛ فلمَّا قضى ٱللَّهُ فيها قضاءَه، علمْتُ أنَّ ذلك أمرٌ من أمرِ ٱلروح، فكانَ ٱلإلهامُ فيها أنَّها على بابِ قبرِها، وأنَّها لن ترى طِفلتَها، ولن تعيشَ لها،

فعاشَتْ أيامَ الحَمْلِ مع ذكراها: تضمُّ ثيابَها إلى صدرِها وتحملُها على يدِها، وتُناغيها وتُقبِّلُها، وتأخذُها مِنَ ٱلوهْمِ وتردُّها إليه؛ وكذلك نَعِمَتِ ٱلمسكينةُ بالمسكينة!

لكِ اللَّهُ يا معجزةَ الرحمة، يا نفسَ الأم!

* * *

ولمَّا قيل: ماتت. جعلَ يكلِّمُني ٱلمتكلمُ ولا أعقِل؛ فإنَّ الكلمةَ التي تأتي بالمصيبةِ المتوقَّعَةِ طالَ ٱرتقابُها، لا تأتي بمعانٍ لغوية كغيرِها مِنَ ٱلكلام، بلْ بأسلحةٍ تَضربُ في ٱلنفسِ وفي العقل، وتُثْخِنُها جِراحاً وفتْكاً.

وجعلني موتُها كأنّي ميتٌ يحملُ نفسَهُ، ما حولَهُ إلَّا المشيّعون؛ وأحسسْتُ كأنَّ قوةً أخذَتْ بإحدى رجليَّ فوضعَتْها في الآخرةِ وتركتِ الثانيةَ في الدنيا، ولَحِقَنِي من الجزعِ ما اللَّهُ عالمٌ بهِ، وَوجدْتُ أحْرَقَ ٱلوجْد، وبكيْتُ أحرَّ البكاء؛ وجعلَتْ أفكاري تنحدرُ من رأسي إلى حلْقي فأختنقُ بها ثُمَّ لا يُنفِّسُ عنّي إلَّا الدمع، كأنَّ أعضائي ٱختلَّتْ مِمَّا ضَغَطَنِي مِنَ ٱلحزن، فأنا أتنفسُ برئتيّ وعينيّ.

بموتِها شعرْتُ بها؛ ولعلَّهُ من أجلِ ذلك لا يشعرُ الإنسانُ بلذةِ ٱلحُبِّ كاملةً إلَّا في آلامِ ٱلحُبِّ وحدَها، وكانَتْ في حياتِها تضعُ من روحِها في سروري، وهذا هو سرُّ ٱلمرأةِ المحبوبة: يجدُ مُحبُّها في كلِّ سرورٍ لَمحاتِ روحانيَّة؛ وكذلك فعلَتْ بعدَ موتِها، فجعلَتْ روحَها في أحزاني؛ ولولا أنَّ روحَها في أحزانِي لَقتلتْني ٱلمصيبة.

وكنْتُ أدْلِفُ[1] وراءَ النعشِ وقد بَطَلَ في نفسِي ٱلشعورُ بالدنيا، وكانَ ٱلناسُ يمشُون حَوْلي بِمَا فيهم مِنَ ٱلحياة، وكانوا ذاهبينَ إلى المقبرةِ على أنَّهم سائرونَ كما يذهبون إلى كلِّ مكان؛ أمَّا أنا فكنْتُ أمشي بِمَا فيَّ مِنَ ٱلحُبِّ منكسِراً منْخذِلاً متَضَعْضِعاً، لِأنّي وحدي سائرٌ وراءَ ما لا يُلْحَق.

وثَقُلَ الناسُ على قلْبي، ورجعَ كلُّ أمرِهم عندي إلى العَيبِ والنقيصة، إذْ كانَ لي عقلٌ طارئٌ مِنَ الحالةِ التي أنا فيها ليسَ مثلُهُ لِأحدٍ منهم، وكنْتُ وحدي ٱلمصابَ بينهم، فكنْتُ وحدي بينهمُ ٱلعاقل.

أنا أمشي لِأنتهيَ إلى آخرِ مُصيبتي، وهم يمشَون لِينتهوا إلى آخرِ الطريق؛ وشَتَّانَ[2] ما نحن وشتَّان!

---

(١) دلف: مشى.

(٢) شتّان: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعُدَ.

ولمّا رأيتُ قبرَها ٱبتدرَتْ عينايَ تنظرانِ بالدموعِ لا بالنظَر، ورأيتُ الترابَ كأنَّهُ غُيومٌ ملوَّنةٌ بألوانِ السحُبِ الداكنةِ تتهيَّأُ في سمائِها تحتَ الظلام لِتُخْفِيَ كوكباً مِنَ الكواكب؛ وظهرَ لِيَ ٱلقبرُ كأنَّهُ فَمُ ٱلأرضِ يُخاطبُ الإنسانَ بحزم صارم، يُخاطبُ الفقيرَ والغنيّ، والضعيفَ والقويّ، والملوكَ والصعاليك: «أنَّ كلَّ قوةٍ تُنزَعُ هُنا».

* * *

قال المسكين: وكما يجدُ الإنسانُ في أيّامِ ٱلمطرِ رائحةَ النسيمِ المبتلِّ بالماء، كنْتُ أسْتَرْوِحُ[1] في رَجْعتي إلى الدارِ رائحةَ نسيمٍ مبتلٍّ بالدموع؛ وحضَرْتُ المأتمَ وعزّاني الناسُ، فكنْتُ فيهم كالمأسورِ بينهم: لا أتمنَّى إلّا أنْ يَدَعوني فأنجوَ على وجهي، ولا أرى إلّا أنَّهم يجرِّعونني الوجودَ غُصَصاً كما تجرعْتُ الفقدَ غُصةً غُصة؛ إلى أنْ تفرقوا معَ سوادِ الليل فٱنكفأْتُ إلى الدار، فإذا كلُّ شيءٍ قد تغيَّرَ ولمسَهُ الموتُ لَمْسَة، وإذا ٱلدارُ نفسُها كالعينِ المقروحةِ من آثارِ البكاء: ما ثَمّ شيءٌ إلّا لِيطالِعَني بأنّ مسراتي قد ماتت!

ولاحَ ٱلصبحُ لعينيَّ ٱلساهرتين صُبْحاً فاتراً تبيَّنْتُ فيه الخجل، كأنَّهُ يقول: «لم أطلُعْ لك»، فانسللْتُ مِنَ ٱلبيت، وذهبْتُ أمشي في دنيا هي ٱلكآبةُ المضيئةُ سَخِرَتِ ٱلأقدارُ منها بإظهارِها في هذا الضوءِ مَظهرَ وجهِ العجوزِ المُتصابيةِ في زِينةٍ لا تزيدُها إلّا قبحاً!

ومضيْتُ على وجهي لا غايةَ لي، أضرِبُ في كلِّ جهةٍ كأنَّما أُريدُ أنْ أهربَ من نفسي! وما خطرَ لي قطّ أنّي في يومٍ جديد، بلْ كنْتُ عندَ نفسي لا أزالُ أمس، وتغيَّرَ عندي الزمانُ والمكان: فأحدُهما ساعةُ موتٍ لا تتركُ ما فيها، والآخرُ قبرُ ميّتةٍ لا يردُّ ما فيه.

آهِ مِنَ ٱلوقتِ ٱلذي ينتهي فيهِ ٱلموجودُ ليعذِّبَنا بالتذكُّرِ أنَّهُ كانَ موجوداً!

* * *

قالَ المسكينُ ثُمَّ أعادتني قدمايَ إلى البيتِ لأرى طِفلتي ـ وما كنْتُ رأيْتُها ـ ولقد كانَتْ وِلادتُها أولَ الحياةِ لها، وأولَ الحياةِ لي أيضاً؛ إذْ لولاها لٱنتحرْتُ غيرَ شكّ.

يا ويلَتا! لم تلتقِ عيني بعينِ الطفلةِ حتى ٱنفجَرَتْ تبكي. أتبكينَ لي يا ٱبنتي أمْ عليّ؟

---

(١) أسترِوح: أشمّ.

أهذا بكاؤُكِ أيتُها ٱلمسكينة، أمْ هو صوتُ قلبِكِ ٱليتيم؟

أصوتُكِ أنتِ، أم هي روحُ أمِّكِ تصرخُ ترثِي لي، وتتوجعُ لِفرْطِ ما قاسيْت!

يا ٱبنتي، إنَّما أنتِ ٱلحقيقةُ الصغيرةُ التي خرجَتْ لي من كلِّ تلك الخيالاتِ الشعريَّةِ الجميلة، خيالاتِ الأيامِ السعيدةِ التي مرَّت!

يُخلَقُ المواليدُ مِنَ ٱللَّحمِ وٱلدم! وأراكِ أنتِ يا مسكينة، خُلقْتِ مِنَ ٱللحم وٱلدمِ وٱلدموع!

بقيةُ حياةٍ ماتَت! فهلْ معنى ذلكِ إلَّا أنَّك بقيةُ موتٍ يحيا؟

مسكينة، مسكينة؛ لو أنَّ نواميسَ العالَم متغيرةٌ لِشيءٍ لَتغيَّرَتْ من أجلِ بؤسِكِ فردَّتْ لَكِ ٱلأمّ؛ ولكنَّها لنْ تتغيَّر، وما بكاؤُنا وآلامُنا وتعاستُنا إلا تُراثُ[1] ٱلحياةِ في أجسامِنا الأرضيَّة، كلُّ ذلك طبيعةٌ ولكنَّ بقعةً أنظفُ من بقعة، وأراكِ يا ٱبنتي كالبيتِ الذي هُدِمَ أوّلَ ما بُني يملؤُهُ ترابُه!

لنْ تتغيَّرَ النواميس، فلنْ تَجدي عطفَ الأمّ، ولكنْ لنْ يتغيَّرَ قلبي أيضاً، فلن تُحرمي عطفَ ٱلأب.

وإذا صبرَ ٱلناسُ على ٱلحياةِ فمِنْ أجلِكِ يا مسكِينة! من أجلِ ضعفِكِ وٱنقطاعِكِ سأُعاني الصبرَ لك، وأُعاني الصبرَ لي، وأعانِي الصبرَ عن أمِّك، سأصبرُ على الصبرِ نفسِه!

يا ٱبنتي، يا ٱبنتي، لماذا وضَعَتْكِ ٱلأقدارُ من هذه الحياةِ في الناحيةِ التي ليسَ فيها إلَّا قبرٌ مظلمٌ مقفَلٌ على أمِّكِ، وأبٌ مسكينٌ مقفَلٌ على آلامِه؟

* * *

قال المسكين: وهكذا كُتِبْتُ من أهلِ البؤسِ والهمّ، فلمْ أتزوجْ إلَّا لِتصنعَ لي حبيبي دموعي، ثُمَّ لم تَمُتْ إلَّا بعدَ أنْ تركَتْ لي حبيبةً أخرى ستظلُّ زمناً طويلاً تصنَعُ لي دموعي!

---

(١) تراث: وراثة.

السَّمكة

حدَّثَ أحمدُ بْنُ مِسكينٍ ٱلفقيهُ ٱلبَغداديُّ قال: حصَلْتُ في مدينةِ (بَلْخ) سنةَ ثلاثينَ ومائتين، وعالِمُها يومئذٍ شيخُ خُراسانَ أبو عبدِ ٱلرحمنِ ٱلزاهدُ صاحبُ ٱلمواعظِ وٱلحِكَم؛ وهو رجل قلبُهُ من وراءِ لِسانِهِ، ونفسُهُ من وراءِ قلْبِه، وٱلفَلَكُ الأعلى من وراءِ نفسِه، كأنَّهُ يُلَقَّى عليهِ فيما زعموا.

وكانَ يُقَالُ لَهُ عندَهم: (لُقمانُ هذه الأمَّة)؛ لِمَا يُعجبُهُم من حِكَمِهِ في ٱلزهدِ وٱلموعظة، وقد حضرْتُ مجالسَهُ وحفظْتُ من كلامِهِ شيئاً كثيراً، كقولِه: مَنْ دخلَ مذهبَنا هذا (يعني الطريق) فَلْيجعلْ على نفسِهِ أربعَ خِصالٍ منَ الموت: موتٌ أبيض، وموتٌ أسود، وموتٌ أحمر، وموتٌ أخضر؛ فٱلموتُ ٱلأبيضُ ٱلجوع، وٱلموتُ ٱلأسودُ ٱحتمال الأذى، وٱلموتُ الأحمرِ مُخالفةُ النفس، وٱلموتُ الأخضرُ طرحُ الرِّقاعِ بعضِها على بعض (يعني لبسَ ٱلمرقعةِ والخَلَقِ مِنَ ٱلثياب).

وقلْتُ يوماً لِصاحبِهِ وتلميذِهِ (أبي تُراب) وجارَيْتُهُ في تأويلِ هذا الكلام: قد فهِمْنَا وجهَ ٱلتسميةِ في ٱلموتِ الأخضرِ ما دامَتِ المرقعةُ خضراء؛ فما الوجهُ في الأبيضِ والأسودِ والأحمر؟ فجاءَ بقولٍ لم أرضَه، وليسَ معَهُ دليل، ثُمَّ قال: فما عندَك أنت؟ قلْتُ: أمَّا ٱلجوعُ فيُميتُ ٱلنفسَ عن شهواتِها ويتركُها بيضاءَ نقيَّة، فذلك ٱلموتُ الأبيض؛ وأمَّا ٱحتمالُ ٱلأذى فهو ٱحتمالُ سوادِ ٱلوجهِ عندَ ٱلناس، فهو ٱلموتُ ٱلأسود؛ وأمَّا مُخالفةُ ٱلنفسِ فهي كإضرامِ ٱلنارِ فيها، فذاك ٱلموتُ الأحمر.

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وكنْتُ ذاتَ نهارٍ في مسجدِ (بلْخ) والناسُ مُتَوافِرونَ[1] ينتظرون (لُقمانَ الأمة) ليسمعوه، وشغَلَه بعضُ الأمرِ فراثَ[2] عليهم، فقالوا: مَنِ يَعِظُنا إلى أنْ يجيءَ الشيخ؟ فالتفَتَ إليَّ أبو ترابٍ وقال: أنت رأيْتَ الإمامَ أحمدَ بْنَ حَنبل، ورأيْتَ بِشراً ٱلحافِيَ وفلاناً وفلاناً، فقُمْ فحدِّثِ ٱلناسَ عنهم، فإنَّما هؤلاءِ وأمثالُهم هم بقايا النبوَّة. ثُمَّ أخذَ بيدي إلى الأسطوانةِ ٱلتي

(١) متوافرون: كثر.　　(٢) راث: تأخّر.

يجلسُ إليها إمامُ خُراسانَ فأجلسني ثَمَّةَ[1] وقعدَ بينَ يديّ.

وتطاولَتِ ٱلأعناق[2]، ورماني ٱلناسُ بأبصارِهِم[3]، وقالوا: البَغْداديّ! البغداديّ! وكأنّما ضُوعِفَتْ عندَهم بمجلسي مرةً وبنسبْتي مرةً أخرى، فقلْتُ في نفسي: ـ واللّهِ ـ ما في ٱلموتِ ٱلأحمرِ ولا ٱلأخضرِ ولا ٱلأسودِ موعظة، ولو لَبِسَ عزرائيلُ قَوْسَ قُزَحَ لأفسدَ شعرُ هذه الألوانِ معناه، وإنّما يجبُ أنْ يكونَ كما يجبُ أنْ يكون؛ ولا موعظةَ في كلام لم يمتلىءْ من نفسِ قائلِهِ، لِيكونَ عملاً فيتحوّلَ في النفوسِ الأخرى عملاً ولا يبقَى كلاماً؛ وإنَّه ليسَ ٱلوعظُ تأليفَ ٱلقولِ لِلسامع يسمعُه، لكنَّهُ تأليفُ النفسِ لِنفسٍ أخرى تراها في كلامِها، فيكونُ هذا الكلامُ كأنّهُ قرابةٌ بينَ النفسين، حتى لَكأنَّ الدمَ المتجاذِبَ يجري فيهِ ويدورُ في ألفاظِه.

* * *

وكنْتُ رأيْتُ رؤيا (ببلخ) تتَّصلُ بقصةٍ قائمةٍ في بغداد، فقصصْتُها عليهم، فكانَتِ ٱلقصةُ كما حكيْتُها: أنّي ٱمتُحِنْتُ بالفقرِ في سنةِ تسعَ عشرةَ ومائتين؛ وٱنحَسَمَتْ مادتي[4] وقَحِطَ منزلي قَحطاً شديداً جمعَ عليَّ ٱلحاجةَ وٱلضُّرَّ وٱلمسكنَة؛ فلوِ ٱنكمشَتِ ٱلصحراءُ ٱلمُجدِبةُ فصَغُرتْ ثُمَّ صغُرَتْ حتى ترجعَ أذرُعاً في أذرع، لَكانَتْ هي داري يومئذٍ في محلَّةِ بابِ البَصرةِ من بغداد.

وجاءَ يومٌ صَحْراويٌّ كأنّما طلعَتْ شمسُهُ من بينِ ٱلرملِ لا من بينِ السُّحُب، ومرَّتِ ٱلشمسُ على داري في بغدادَ مرورَها على الورقةِ الجافَّةِ المعلَّقةِ في ٱلشجرةِ ٱلخضراء؛ فلم يكنْ عندَنا شيءٌ يُسيغُهُ حَلْقُ آدميٍّ، إذْ لم يكنْ في ٱلدارِ إلّا ترابُها وحِجارتُها وأجذاعُها؛ وليَ ٱمرأةٌ ولي منها طفلٌ صغير، وقد طَوَيْنَا على جوعٍ يَخْسِفُ[5] بالجوفِ خَسفاً كما تَهْبِطُ الأرض؛ فَلَتَمنَّيْتُ حينئذٍ لو كنَّا جُرْذاناً فنَقْرِضَ ٱلخشب! وكانَ جوعُ الصبيّ يزيدُ ٱلمرأةَ ألماً إلى جوعِها، وكنْتُ بهما كالجائعِ بثلاثةِ بطونٍ خاوية.

فقلْتُ في نفسي: إذا لم تأكلِ ٱلخشبَ والحِجارةَ فلْنأكلْ بثمنِها. وجمعْتُ نيتي على بيعِ ٱلدارِ والتحوُّلِ عنها، وإنْ كانَ خروجي منها كٱلخروجِ من جِلْدي: لا

(١) ثمّة: ظرف زمان بمعنى هناك.
(٢) تطاولت الأعناق: اشرأبّت.
(٣) رماني الناس بأبصارهم: نظروا إليّ.
(٤) انحسمت مادتي: افتقرت.
(٥) يخسف: ينهار.

يسمّى إلّا سَلْخاً وموتاً؛ وبتُّ ليلتي وأنا كالمُثْخَنِ حُمِلَ من معركةٍ: فما يتقلَّبُ إلّا على جِراحٍ تعملُ فيهِ عملَ ٱلسيوفِ وٱلأسنَّةِ التي عملتْ فيها.

ثُمَّ خرجْتُ بغَلَسٍ[1] لِصلاةِ ٱلصبحِ؛ وٱلمسجدُ يكونُ في ٱلأرضِ ولكنَّ ٱلسماءَ تكونُ فيه، فرأيتُني عندَ نفسي كأنّي خرجْتُ مِنَ الأرضِ ساعة. ولمَّا قُضِيَتِ ٱلصلاةُ رفعَ الناسُ أكفَّهم يدعون ٱللَّهَ (تعالى)، وجرى لِساني بهذا الدعاء: «اللهمَّ بك أعوذُ أنْ يكونَ فقري في دِيني، أسألُكَ ٱلنفعَ ٱلذي يُصلحُني بطاعتِك، وأسألُكَ بركةَ ٱلرضى بقضائِك، وأسألُك ٱلقوّةَ على ٱلطاعةِ وٱلرضا يا أرحمَ الراحمين».

ثُمَّ جلسْتُ أتأملُ شَأْني، وأطلْتُ ٱلجلوسَ في ٱلمسجدِ كأنّي لم أعُدْ من أهلِ ٱلزمنِ فلا تجري عليَّ أحكامُه، حتى إذا ٱرتفعَ ٱلضُّحَى وٱبيضَّتِ ٱلشمسُ جاءَتْ حقيقةُ ٱلحياة، فخرجْتُ أتسبَّبُ لِبيعِ ٱلدار، وٱنبعثْتُ وما أدري أين أذهب، فما سِرْتُ غيرَ بعيدٍ حتى لقيني (أبو نصرٍ ٱلصياد) وكنْتُ أعرفُهُ قديماً، فقلْت: يا أبا نصر! أنا على بيعِ الدار؛ فقد ساءَتِ ٱلحالُ وأحْوَجَتِ ٱلخصاصة، فأقرِضني[2] شيئاً يُمسِكُني على يومي هذا بالقِوامِ مِنَ ٱلعيش حتى أبيعَ ٱلدارَ وأوَفِّيك.

فقال: يا سيدي! خذْ هذا ٱلمنديلَ إلى عِيالِك، وأنا على أثَرِكَ لاحِقٌ بِكَ إلى ٱلمنزل. ثُمَّ ناولَني منديلاً فيهِ رُقاقتانِ بينهما حلوى، وقال: إنَّهما واللَّهِ بركةُ الشيخ.

قلْت: مَنِ ٱلشيخُ وما القصة؟

قال: وقفْتُ أمسِ على بابِ هذا المسجدِ وقدِ ٱنصرفَ الناسُ من صلاةِ ٱلجمعة، فمرَّ بي أبو نصرٍ بِشْرٌ ٱلحافي فقال: مالي أراكَ في هذا الوقت؟ قلْت: ما في ٱلبيتِ دقيقٌ ولا خبزٌ ولا درهمٌ ولا شيءٌ يُباع. فقال: اللَّهُ المستعان؛ اِحملْ شبكتَك وتعالَ إلى الخَنْدق؛ فحملْتُها وذهبْتُ معه، فلمَّا ٱنتهيْنا إلى ٱلخندقِ قال لي: توضَّأْ وصلِّ ركعتين. ففعَلْت، فقال: سَمِّ اللَّهَ ـ تعالى ـ وألقِ الشبكة. فسمَّيْتُ وألقيْتُها، فوقعَ فيها شيءٌ ثقيل، فجعلْتُ أجرُّهُ فشَقَّ علَيَّ؛ فقلْتُ لَه: ساعدْني فإنّي أخافُ أنْ تنقطعَ ٱلشبكة، فجاءَ وجرَّها معي، فخرجَتْ سمكةٌ عظيمةٌ لم أرَ مثلَها سِمْنَاً وعِظَماً وفَراهة. فقال: خذْها وبعْها وٱشترِ بثمنِها ما يُصلِحُ

(١) غلس: الهزيع الأخير من الليل العتمة قبل الفجر.
(٢) أقرض: ديّن.

عيالَك. فحملتُها فاستقبلني رجلٌ اشتراها، فابْتعْتُ لأهلي ما يحتاجون إليه، فلمّا أكلْتُ وأكلوا ذكرْتُ الشيخَ فقلْتُ أهدي له شيئاً، فأخذْتُ هاتينِ الرقاقتينِ وجعلْتُ بينهما هذه الحلوى، وأتيتُ إليهِ فطرقْتُ الباب، فقال: من؟ قلْت: أبو نصر! قال: اِفتحْ وضعْ ما معَك في الدهليز وادخلْ. فدخلْتُ وحدثْتُهُ بما صنعْتُ فقال: الحمدُ لِلّهِ على ذلك. فقلْت: إنّي هيأتُ لِلبيتِ شيئاً وقد أكلوا وأكلْتُ ومعي رقاقتانِ فيهما حلوى.

قال: يا أبا نصر! لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ السمكة! اذهبْ كُلْه أنت وعِيالُك.

* * *

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وكنْتُ مِنَ الجوع بحيثُ لو أصبْتُ رغيفاً لَحسبتُهُ مائدةً أُنزِلَتْ مِنَ السماء، ولكنَّ كلمةَ الشيخِ عنِ السمكةِ أشبعَتْني بمعانيها شِبَعاً ليسَ من هذه الدنيا، كأنّما طَعِمْتُ منها ثمرةً من ثِمارِ الجنة؛ وطَفِقْتُ[1] أردِّدُها لِنفسي وأتأملُ ما تَفْتُق الشهواتُ على الناس، فأيقنْتُ أنَّ البلاء إنّما يُصيبُنا من أنّنا نُفسِّرُ الدنيا على طولِها وعرضِها بكلماتٍ معدودة، فإذا استقرَّ في أنفسِنا لفظٌ من ألفاظِ هذه الشهوات، استقرَّتْ بهِ في النفسِ كلُّ معانيهِ مِنَ المعاصي والذنوب، وأخذَتْ شياطينُ هذه المعاني تَحومُ على قلوبِنا، فنُصبحُ مُهَيَّئينَ لِهذه الشياطين، عاملينَ لها، ثُمَّ عاملين معها، فتُدْخِلُنا مَدَاخِلَ السُّوءِ في هذه الحياة، وتُقْحِمُنا في الوَرْطةِ[2] بعدَ الورطة، وفي الهلكَة بعدَ الهلكة.

وما هذه الشياطينُ إلّا كالذبابِ والبعوضِ والهوامّ[3]، لا تحومُ إلّا على رائحةٍ تجذبُها، فإنْ لم تجدْ في النفسِ ما تجتمعُ عليه، تفرقَتْ ولم تجتمع، وإذا ألمَّتِ الواحدةُ منها بعدَ الواحدةِ لم تثبُتْ. فلو أنّنا طردْنا من أنفسِنا الكلماتِ التي أفسدَتْ علينا رؤيةَ الدنيا كما خُلِقَتْ. لَكَانَ لِلدنيا في أنفسِنا شكلٌ آخرُ أحسنُ وأجملُ من شكلِها، ولَكانَتْ لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأطهرُ من أعمالِنا.

فالشيخُ لم يكنْ في نفسِهِ معنًى لِكلمةِ (التلذُّذ)، وبطردِهِ من نفسِهِ هذا اللفظَ الواحد، طَرَدَ معانيَ الشرِّ كلَّها، وصَلُحَ له دينُه، وخَلُصَتْ نفسُهُ لِلخيرِ ومعاني

(١) طفق: شرع، بدأ.
(٢) الورطة: المصيبة.
(٣) الهوام: الحشرات.

ٱلخير. ولو أنَّ رجلاً وضعَ في نفسِهِ ٱمرأةً يعشَقُها، لَصارَتِ ٱلدنيا كلُّها في نفسِهِ كالمخْدَعِ[1]: ما فيهِ إلَّا المرأةُ وحدَها بأسبابِها إليهِ وأسبابِهِ إليها...

وقد كنْتُ سمعْتُ في درسِ شيخِنا أحمدَ بنِ حنبلٍ هذا الحديث: «لولا أنَّ ٱلشياطينَ يَحومون على قلوبِ بني آدمَ لنَظَروا إلى مَلَكُوتِ ٱلسموات». فما فهِمْتُ ـ واللَّهِ ـ معناهُ إلَّا من كلمةِ الشيخِ في ٱلسمكة، وقد علَّمَنيها هذا الصيَّادُ ٱلعاميّ؛ فالشياطينُ تنجذبُ إلى المعاني، والمعاني يُوجدُها ٱللفظُ ٱلمستقرُّ في ٱلقلبِ ٱستقرارَ غرَضٍ أو شهوةٍ أو طمع؛ فإذا خلا ٱلقلبُ من هذِه ٱلمعاني، فقد أمِنَ مُنَازَعَتَها لَهُ وشُغْلَها إيّاه، فيُصبحُ فوقَها لا بينَها؛ ومتى صارَ ٱلقلبُ فوقَ ٱلشهواتِ ولم يجدْ من ألفاظِها ما يُعْمِيهِ ويعترِضُ نظرَهُ إلى الحقائق، ٱنكشفتْ لَهُ هذه الحقائقُ فٱنكشفَ لَهُ ٱلمَلَكُوت؛ فإذا وقَع بعدُ في واحدةٍ من ٱللذاتِ ولو (كالرُّقاقتينِ والحَلوى)، ٱستَعْلَتِ ٱلأشياءُ عليهِ فحجبَتْه[2]، وعادَ بينَها أو تحتَها، وعَمِيَ عمى ٱللذة؛ وٱلحِجابُ على البصرِ كأنَّهُ تعليقُ ٱلعَمَى على ٱلبصر.

وكنْتُ لا أزالُ أعجبُ من صبرِ شيخِنا أحمدَ بْنِ حنبلٍ وقد ضُرِبَ بينَ يدي ٱلمعتصم بالسِّياطِ حتى غُشِيَ عليهِ فلم يتحوّلْ عن رأيه؛ فعلمْتُ ٱلآنَ من كلمةِ ٱلسمكةِ أنَّهُ لم يجعلْ في نفسِهِ لِلضربِ معنَى ٱلضرب، ولا عرفَ لِلصبرِ معنى ٱلصبرِ الآدميّ؛ ولو هو صبَرَ على هذا صبْرَ الإنسانِ لَجَزِعَ[3] وتحوَّل، ولو ضُرِبَ ضربَ الإنسانِ لَتألَّم وتغيَّر؛ ولكنَّهُ وَضَعَ في نفسِهِ معنَى ثباتِ السُّنَّةِ وبقاءِ الدين، وأنَّهُ هو ٱلأُمَّةُ كلُّها لا أحمدُ بْنُ حنبل، فلو تحوَّلَ لَتحوَّلَ الناسُ، ولوِ ٱبْتَدَعَ لَٱبتدَعُوا؛ فكانَ صبرُهُ صبرَ أُمَّةٍ كاملةٍ لا صبرَ رجلٍ فرَد، وكانَ يُضرَبُ بالسياطِ ونفسُهُ فوقَ معنى ٱلضرب، فلو قَرَضُوهُ بالمقَاريضِ[4] ونشروهُ بالمنَاشيرِ لَمَا نالوا منه شيئاً؛ إذْ لم يكنْ جسمُهُ إلَّا ثوباً عليه، وكانَ ٱلرجلُ هو الفكرَ ليسَ غَيْر.

هؤلاء قومٌ لا يَروْنَ فضائلَهم فضائلَ، ولكنَّهم يَروْنها أماناتٍ قدِ ٱئتُمِنُوا عليها مِنَ ٱللَّهِ لِتبقَى بهم معانيها في هذه الدنيا؛ فهم يُزْرَعونَ في ٱلأمم زَرْعاً بيَدِ ٱلله، ولا يملكُ ٱلزرعُ غيرَ طبيعتِه، وما كان ٱلمعتصمُ وهو يُريدُ شيخَنا على غيرِ رأيهِ، وعقيدتِهِ إلا كالأحمقِ يقولُ لِشجرةِ ٱلتفاح: أثْمِري غيرَ ٱلتفاح.

---

(١) المخدع: مكان النوم.
(٢) حجبته: منعته.
(٣) جزع: خاف.
(٤) قرض: قصّ.

قال أحمدُ بْنُ مِسكين: وأخذْتُ ٱلرُّقاقتينِ وأنا أقولُ في نفسي: لعنَ ٱللَّهُ هذه الدنيا! إنَّ من هَوانِها على اللَّهِ أنَّ الإنسانَ فيها يَلْبَسُ وجهَهُ كما يلبَسُ نعلَه. فلو أنَّ إنساناً كانَتْ لَهُ نظرةٌ ملائكيَّةٌ ثُمَّ ٱعترضَ ٱلخلْقَ ينظُرُ في وجوهِهم، لَرأى عليها وُحُولاً وأقذاراً كالتي في نِعالِهم أو أقذرَ أو أقبح، ولعلَّهُ كان لا يَرى أجملَ ٱلوجوهِ ٱلتي تَسْتَهِيمُ ٱلناسَ[1] وتَتَصَبَّاها[2] مِنَ ٱلرجالِ وٱلنساء، إلّا كالأحذيةِ العتيقة...

ولكنّي أحسسْتُ أنَّ في هاتينِ ٱلرُّقاقتينِ سرَّ الشيخ، ورأيْتُهما في يدي كالوثيقتينِ بخيرٍ كثير؛ فقلْت: على بَركةِ ٱلله. ومضيْتُ إلى داري؛ فلمَّا كنْتُ في الطريقِ لقيتْني ٱمرأةٌ معها صبيٌّ، فنظرَتْ إلى المنديل وقالت: يا سيدي، هذا طفلٌ يتيمٌ جائعٌ ولا صبرَ لَهُ على ٱلجوع، فأطعِمْهُ شيئاً ـ يرحمْك ٱلله ـ. ونظرَ إليَّ ٱلطفلُ نظرةً لا أنساها؛ حَسِبْتُ فيها خُشوعَ ألفِ عابدٍ يعبدونَ ٱللَّهَ (تعالى) مُنْقَطعين عنِ ٱلدنيا؛ بل ما أظنُّ ألفَ عابدٍ يستطيعون أنْ يُرُوا ٱلناسَ نظرةً واحدةً كالتي تكونُ في عينِ صبيٍّ يتيمٍ جائعٍ يسألُ ٱلرحمة. إنَّ شِدَّةَ ٱلهمِّ لَتجعلُ وجوهَ ٱلأطفالِ كوجوهِ ٱلقِدّيسين، في عينِ مَنْ يراها مِنَ ٱلآباءِ وٱلأمهات، لِعَجْزِ هؤلاءِ الصغارِ عنِ الشرِّ الآدميِّ وَٱنْقطاعِهم إلا منَ الله والقلبِ الإنسانيّ، فيظهرُ وجهُ أحدِهم وكأنَّهُ يَصْرُخُ بمعانيهِ يقول: يا ربَّاهُ يا رباه!

قالَ أحمدُ بْنُ مِسكين: وخُيِّلَ إليَّ حينئذٍ أنَّ ٱلجنَّةَ نزلتْ إلى الأرضِ تَعْرِضُ نفسَها على مَنْ يُشْبِعُ هذا الطفلَ وأُمَّه، والناسُ عَمْيٌ لا يُبصرونَها، وكأنَّهم يمرون بها في هذا ٱلموطِنِ مرورَ ٱلحميرِ بقصرِ ٱلملك: لو سُئِلتْ فَضَّلَتْ عليهِ ٱلإصْطَبلَ الذي هيَ فيه...

وذكرْتُ ٱمرأتي وٱبنَها وهما جائعانِ مُذْ أمس، غيرَ أنّي لم أجدْ لهما في قلبي معنى ٱلزوجةِ وٱلولد: بلْ معنى هذه ٱلمرأةِ ٱلمُحتاجةِ وطفلِها، فأسقطْتُهما عن قلبي ودفعْتُ ما في يدي لِلمرأةِ وقلْتُ لها: خذي وأطعمي ٱبنَك، و ـ واللَّهِ ـ ما أملكُ بيضاءَ ولا صفراء، وإنَّ في داري لمَن هو أحوجُ إلى هذا الطعام؛ ولولا هذه الخَلَّةُ بي لَتقدمْتُ فيما يُصْلِحُك. فَدَمَعَتْ عيناها، وأشرقَ وجهُ الصبيّ، ولكنْ طمَّ[3] على قلبي ما أنا فيهِ فلم أجدْ لِلدَّمعةِ معنى ٱلدمعة، ولا لِلبَسْمةِ معنى ٱلبسمة.

---

(١) تستهيم الناس: تستهويهم.

(٢) تتصّباها: تتعشقها.

(٣) طمّ: خيّم.

وقلْتُ في نفسي: أمّا أنا فأطوي إنْ لم أصِبْ طعاماً، فقد كانَ أبو بكرٍ الصديقُ يطوي[1] ستةَ أيام، وكانَ ٱبنُ عُمَر يطوي، وكان فلانٌ وفلانٌ مِمَنْ حفظْنَا أسماءَهم ورَوينا أخبارَهم؛ ولكنْ مَنْ لِلمرأةِ وٱبنها بمثلِ عَقْدِي ونيَّتي؟ وكيف لي بهما؟

ومشيْتُ وأنا مُنْكَسِرٌ منْقبِض، وكأنّي كنْتُ نسيْتُ كلمةَ ٱلشيخ: «لو أطعمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ ٱلسمكة». فذكرْتُها وصرفْتُ خاطري إليها وشَغَلْتُ نفسي بتدبُّرِها وقلْتُ: لو أنّي أشبعْتُ ثلاثةً بجوعِ ٱثنين لَحُرِمْتُ خمسَ فضائلَ وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة، وهذه الفضيلةُ محتاجةٌ إلى مثلِ هذا ٱلعمل، وهذا ٱلعملُ محتاجٌ إلى أنْ يكونَ هكذا، فما يستقيمُ ٱلأمرُ إلَّا كما صنَعْت.

وكانَتِ ٱلشمسُ قدِ ٱنبسطَتْ في ٱلسماءِ وذلك وقتُ ٱلضُّحى الأعلى، فملْتُ ناحيةً وجلسْتُ إلى حائطٍ أفكِّرُ في بيعِ ٱلدارِ ومَنْ يبتاعُها، فأنا كذلك إذْ مرَّ أبو نصرٍ الصيادُ وكأنَّهُ مُسْتَطَارٌ فَرحاً، فقال: يا أبا محمد، ما يُجلِسُكَ هٰهنا وفي دارك ٱلخيرُ وٱلغِنى، قلْت: سبحانَ ٱللهِ! من أين خرجَتِ ٱلسمكةُ يا أبا نصر؟

قال: إني لَفِي ٱلطريقِ إلى منزلِك، ومعي ضَرُورةٌ مِنَ ٱلقُوتِ أخذْتُها لِعيالِك، ودَراهِمَ ٱستَدَنْتُها لك، إذا رجلٌ يَسْتَدِلُّ الناسَ على أبيكَ أو أحدٍ من أهلِه، ومَعُه أثقالٌ وأحمال، فقلْتُ لَه: أنا أدلُّك. ومشيْتُ مَعهُ أسألُهُ عن خبرِهِ وشأنِهِ عندَ أبيك. فقال: إنَّهُ تاجرٌ مِنَ ٱلبَصْرة، وقد كان أبوك أوْدعَهُ مالاً من ثلاثين سنةً، فأفلسَ وٱنكسرَ ٱلمالُ ثُمَّ تركَ ٱلبصرةَ إلى خُراسانَ، فصلُحَ أمرُهُ على ٱلتجارةِ هناك، وأيْسَرَ بعدَ ٱلمِحْنَة، وٱستَظْهَرَ بعدَ ٱلخِذْلان، وأقبلَ جَدُّهُ بالثَّرَاءِ وٱلغِنَى؛ فعادَ إلى ٱلبصرة، وأرادَ أنْ يتحلَّلَ، فجاءَك بالمالِ وعليهِ ما كانَ يربحُهُ في هذه الثلاثينَ سنةً، وإلى ذلك طَرائفُ وهدايا.

* * *

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وٱنقلِبُ إلى داري فإذا مالٌ جَمٌّ وحالٌ جميلة! فقلْت: صدقَ الشيخ: «لو أطعَمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجتِ ٱلسمكة»! فلو أنَّ هذا الرجلَ لم يلقَ في وجهِهِ أبا نصر، في هذه ٱلطريق، في هذا ٱليوم، في هذه الساعةِ، لما ٱهتدى إليّ؛ فقد كانَ أبي مغموراً لا يعرفُهُ أحدٌ وهو حيّ؛ فكيفَ بِهِ ميتاً من وراءِ عشرينَ سنة؟

وآلَيْتُ لَيعلمَنَّ ٱللَّهُ شكري هذه النعمة؛ فلم تكنْ لي هِمَّةٌ إلَّا البحثَ عنِ

---

(١) يطوي: ينام بلا عشاء.

ٱلمرأةِ ٱلمحتاجةِ وٱبنِها، فكفيْتُهما وأجريْتُ عليهما رِزقاً، ثُمَّ ٱتَّجَرْتُ في ٱلمال، وجعلْتُ أَرُبُّهُ[١] بٱلمعروفِ والصَّنيعةِ وٱلإحسانِ وهو مُقْبِلٌ يزدادُ ولا ينقُص، حتى تموَّلْتُ وتأثَّلْتَ[٢].

وكأنِّي قد أعجبتْني نفسي، وسرَّني أنِّي قد ملأتُ سِجلاتِ ٱلملائكةِ بحسناتي، ورجَوْتُ أنْ أكونَ قد كُتِبْتُ عندَ ٱللَّهِ في ٱلصالحين، فنمْتُ ليلةً فرأيْتُني في يوم القِيامةِ وٱلخَلْقُ يموجُ بعضُهم في بعض، وٱلهولُ هولُ ٱلكونِ ٱلأعظم على الإنسانِ الضعيف، يُسْأَلُ عن كلِّ ما مسَّهُ من هذا الكون. وسمِعْتُ الصائحَ يقول: يا معشرَ بني آدم! سَجَدَتِ ٱلبهائمُ شكراً لِلَّهِ أنَّهُ لم يجعلْها من آدم. ورأيْتُ ٱلناسَ وقد وُسِّعَتْ أبدانُهم فهم يَحملون أوزارَهم على ظُهورِهم مخلوقةً مجسَّمة، حتى لَكأنَّ الفاسقَ على ظهرِهِ مدينةٌ كلّها مُخْزيات!

وقيل: وُضعَتِ الموازينُ. وجيءَ بي لِوزنِ أعمالي، فَجُعِلَتْ سيئاتي في كفةٍ وأُلقيَتْ سجلاتُ حسناتي في ٱلأخرى، فطاشَتِ[٣] ٱلسجلاتُ ورجَحَتِ ٱلسيئات، كأنَّما وزنوا ٱلجبلَ الصخريَّ ٱلعظيمَ الضخمَ بلُفافةٍ مِنَ القطن...

ثُمَّ جعلوا يُلْقون الحسنةَ بعدَ ٱلحسنةِ مِمَّا كنْتُ أَصنعُهُ فإذا تحتَ كلِّ حسنةٍ شهوةٌ خفيَّةٌ من شهواتِ ٱلنفس: كالرِّياءِ وٱلغُرورِ وحُبِّ ٱلمحْمَدَةِ عندَ الناسِ وغيرِها، فلم يَسْلَمْ لي شيء، وهلكَتْ عنِّي حُجَّتي، إذِ ٱلحجةُ ما يُبَيِّنُهُ ٱلميزانُ، والميزانُ لم يدلَّ إلَّا على أنِّي فارغ.

وسمعْتُ ٱلصوتَ: ألم يبقَ لهُ شيء؟ فقيل: بَقِيَ هذا.

وأنظرُ لِأرى ما هذا الذي بقي، فإذا ٱلرُّقاقتانِ ٱللتانِ أحسنْتُ بهما على ٱلمرأةِ وٱبنِها! فأيقنْتُ أنِّي هالك؛ فلقد كنْتُ أُحْسِنُ بمائةِ دينارٍ ضَرْبةً واحدةً فما أغنَتْ عنِّي، ورأيْتُها في ٱلميزانِ مع غيرِها شيئاً معلَّقاً، كالغَمامِ[٤] حينَ يكونُ ساقِطاً بينَ ٱلسماءِ وٱلأرض: لا هُو في هذه ولا هو في تلك.

ووُضعَتِ ٱلرُّقاقتان، وسمعْتُ ٱلقائل: لقد طارَ نصفُ ثوابِهما في ميزانِ أبي نصرِ ٱلصياد. فٱنخذَلْتُ[٥] ٱنخذالاً شديداً، حتى لو كُسِرْتُ نِصفينِ لَكانَ أخفَّ عليَّ

---

(١) أربّه: أزيده.

(٢) تأثلت: اغتنيت.

(٣) طاشت: خفّت وانحرفت.

(٤) الغمام: الغيم.

(٥) انخذلت: شعرت بالخسران والهزيمة.

وأهون. بَيْدَ أنّي نظرْتُ فرأيْتُ كِفة ٱلحسناتِ قد نزلتْ منزلةً ورجَحَت بعضَ ٱلرُّجحان.

وسمعْتُ ٱلصوت: ألم يبقَ له شيءٌ؟ فقيلَ بَقيَ هذا.

وأنظرُ ما هذا الذي بقي، فإذا جوعُ ٱمرأتي في ذلك ٱليوم! وإذا هو شيءٌ يُوضَعُ في ٱلميزان، وإذا هو ينزِلُ بكفَّةٍ ويرتفعُ بالأخرى حتى ٱعتدلَتا بالسَّوِيَّة. وثَبَتَ ٱلميزانُ على ذلك فكنْتُ بينَ ٱلهلاك والنَّجاة.

وأسمعُ ٱلصوت: ألم يبقَ لَهُ شيء؟ فقيل بقيَ هذا.

ونظرْتُ فإذا دموعُ تلك ٱلمرأةِ ٱلمسكينةِ حينَ بكتْ من أثَرِ ٱلمعروف في نفسِها، ومن إيثاري[1] إيَّاها وٱبنَها على أهلي. ووُضِعَتْ غَرْغَرَةُ[2] عينيها في ٱلميزانِ فَفارَتْ، فطمَّتْ[3] كأنَّها لُجَّةٌ، من تحتِ ٱللُّجَّةِ بحر؛ وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد خرجَتْ مِنَ ٱللجَّة وقَعَ في نفسي أنَّها رُوحُ تلك الدموع، فجعلَتْ تعظُمُ ولا تزالُ تعظم، وٱلكفةُ ترجَحُ ولا تزالُ ترجح، حتى سمعْتُ ٱلصوتَ يقول: قد نجا!

وصحْتُ صيحةً ٱنتبهتُ لها، فإذا أنا أقول: «لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ ٱلسمكة!».

---

(١) إيثاري: تفضيلي.

(٢) غرغرة: دموع.

(٣) طمّت: فاضت.

الزاهدان

٢

قال أحمدُ بْنُ مسكين: انتشَر حديثُ ٱلسمكةِ في أهلِ (بلْخ). وٱستفاضَ[١] بينهم، وكنتُ قَصَصْتُهُ عليهم يومَ ٱلسبت، فلمّا دارَ ٱلسبتُ من أسبوعِهِ لَقِيَني شيخُهم حاتمُ بْنُ يوسفَ (لقمانُ الأمَّةِ) ومعه صاحبُه أبو تراب، فقال: يا أحمد! لَكأنَّكَ في هذه المدينة قمرٌ طَلَعَ بلَيْلٍ فلا يَعِظُ الناسَ في يومِ ٱلسبتِ غيرُك؛ ومَنْ سمعَ فكأنَّهُ عايَنَ[٢]، وليسَ على ألسنةِ أهلِ بلْخٍ منذُ تحدثْتَ إلَّا بِشْرٌ وٱبنُ حنبل، ولا على بالِ أحدٍ منهم إلَّا موعظتُك وحديثُك.

والكلامُ عنِ ٱلصالحينَ في مثلِ ما وصفْتَ وحكيْتَ قُرْبٌ من حقائقِهم، وسُمُوٌّ إلى معانيهم، وليسَ في ٱلقولِ بابٌ لَهُ موقعٌ كموقعِ ٱلقصةِ عن هؤلاءِ الذين يخلُقُهُمُ ٱللَّهُ في البشريةِ خلقَ النور: يُضيءُ ما حولَهُ من حيثُ يُرى، ويعملُ فيما حولَهُ من حيث لا يُرى، وفي ظاهرِهِ ٱلجمالُ وٱلمنفعة، وفي باطنِهِ ٱلقوةُ وٱلحياة. ولسْتُ أقولُ لك ٱذهبْ فحدِّثِ ٱلناس، ولكنّي أقولُ ٱذهبْ فأعْطِ الناسَ عقلاً مِنَ ٱلحديث.

قالَ ٱبنُ مسكين: فلمَّا صلَّيْنا ٱلعصرَ، قدَّمني أبو ترابٍ فجلسْتُ في مجلسي ذاك، وهَتَفَ بيَ ٱلناسُ يُريدونَ ٱلحديث عن بِشر ٱلحافي وما سَقَطَ لي من أخبارِهِ، على الطريقةِ ٱلتي حدثْتُهم بها من قبل، فٱبتدأْتُ بذكرِ موتِهِ (رحمَهُ ٱللّه) وأنَّ يومَهُ كأنّما ٱجتمعَ له أهلُ خمسٍ وسبعينَ سنة، إذْ خرجَتْ جنازتُهُ بعدَ صلاةِ الصبح، فلم يحصُلْ في قبرِه إلّا في ٱلليل مِمَّا ٱحتَشَدَ[٣] في طريقِهِ مِنَ ٱلخلْق، حتى لَكأنَّ في نعشِهِ سِرًّا من أسرارِ ٱلجنَّةِ يُطالعُهم بهِ ٱلموتُ فخرجوا ينظرونَ إليه، وكانوا يصيحونَ في جنازتِه: هذا ـ واللّهِ ـ شرفُ ٱلدنيا قبلَ شرفِ ٱلآخرة.

---

(١) استفاض: انتشر.

(٢) عاين: رأى.

(٣) احتشد: تجمهر، اجتمع.

ثُمَّ قلْتُ: حدَّثَني حسينٌ ٱلمَغَازِليُّ: أنَّ بِشراً (رحَمهُ ٱللَّهُ) كانَ لا يأكلُ إلَّا الخبزَ تورُّعاً عنِ ٱلشبهاتِ وٱكتفاءَ لِضرورةِ ٱلحياةِ بٱلأقلِّ ٱلأيسر، وكانَ يقولُ في ذلك: يَدٌ أقصرُ من يد، ولُقمةٌ أصغرُ من لقمة. وسُئِلَ مرة: بأيِّ شيءٍ تأكلُ ٱلخبز؟ فقال: أذكرُ ٱلعافيةَ فأجعلُها إداماً. وقد أعانَهُ على ذلك أنَّهُ لم يتزوج، وكانَ يرى هذا نقصاً في نفسِهِ حتى فضَّلَ الإمامَ أحمَد بْن حنبلٍ بأشياء: منها أنَّ له أهلاً؛ غيرَ أنَّهُ قِيلَ لهُ ذاتَ يوم: لو تزوجْتَ تم نُسُكُك. فقال: أخافُ أنْ تقومَ ٱلزوجةُ بحقِّي ولا أقومَ بحقِّها. فكانَتْ هذه النيةُ في نفسِهِ أفضلَ من زواجِهِ.

وكانَ مع هذا لا يُؤاكِلُ أحداً، ولا يسعَى إلى لِقاءِ أحد، حتى إنَّهُ لَمَّا رغبَ في مؤاخاةِ الزاهدِ العظيم (معروفِ الكَرْخي)، أرسلَ إليهِ (الأسودَ بن سالم) وكانَ صديقاً لهما، فقالَ لِمعروفٍ: إنَّ بشرَ بْنَ ٱلحارثِ يُريدُ مؤاخاتَك وهو يستحي أنْ يُشافِهَك[1] بذلك، وقد أرسلَني إليكَ يسألُكَ أنْ تعقدَ لَهُ فيما بينَهُ وبينَكَ أُخُوَّةً يحتَسِبُها ويعتدُّ بها؛ إلَّا أنَّهُ يشترطُ فيها شروطاً: أولُها أنَّهُ لا يُحبُّ أنْ يشتهرَ ذلك، وثانيها ألَّا يكونَ بينَك وبينه مُزَاوَرَةٌ ولا مُلاقاة. فقال معروف: أمَّا أنا فإذا أحببْتُ أحداً لم أحبَّ أنْ أفارقَهُ ليلاً ولا نهاراً، وأزورُهُ في كلِّ وقت، وأوثِرُهُ على نفسي في كلِّ حال؛ وأنا أعقدُ لِبشرٍ أخوةً بيني وبينَه، ولكنِّي أزورُهُ متى أحببْت، وآمرُهُ بلقائي في مواضعَ نلتقي فيها إذا هو كرهَ زِيارتي.

قالَ حسينٌ ٱلمغازليُّ: وكانَ هذا كلُّهُ من أمرِ بِشْرٍ معروفاً في بغداد، لا يجهلُهُ أحدٌ من أهلِها، إذْ لم يكنْ لِبغدادَ إمامٌ غيرُهُ وغيرُ ٱبنِ حنبل؛ فما كانَ أكثرَ عجَبِي حينَ كنْتُ عندَهُ يوماً وقد زارهُ (فَتْحٌ المَوْصِلي)، فقامَ فجاءَ بدارهِمَ ملءَ كفِّهِ ودفعَها إليّ وقال: ٱشترِ لنا أطيبَ ما تجدُ مِنَ ٱلطعام، وأطيبَ ما تجدُ مِنَ ٱلحلوى، وأطيبَ ما تجدُ مِنَ ٱلطِّيب، وما قالَ لي مثلَ ذلك قطّ، وهو الذي رأى ٱلفاكهةَ يوماً فقال: ترْكُ هذه عبادة! وهو ٱلقائلُ لِأبي نصرٍ ٱلصياد: لو أطعمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ ٱلسمكة.

فذهبْتُ فٱشتريْتُ وٱنتقيْتُ وتخَيَّرْت، ثُمَّ وضعْتُ ٱلطعامَ بينَ أيديهما، فرأيْتُه يأكلُ معهُ وما رأيْتُهُ أكلَ معَ غيرِه، ورأيْتُهُ منبسِطاً إليهِ وما لي عهدٌ كانَ بٱنبساطِهِ إلى أحد. وقد كنْتُ أخبرْتُهُ في ذلك النهارِ بخبرِ أحمدَ بْنِ حنبل، عَلِمْتُهُ من أدريسَ

(١) يشافهك: يحدّثك.

ٱلحداد: فإنَّهُ لما زالتِ ٱلمِحنةُ بعدَ أنْ ضرِبَ بينَ يدي ٱلمعتصمِ وصُرِفَ إلى بيتِه، حُمِلَ إليهِ مالٌ كثيرٌ من سَرَواتِ[1] بغدادَ وأهلِ ٱلخيرِ فيها، فردَّ جميعَ ذلك ولم يقبلْ منه قليلاً ولا كثيراً، وهو محتاجٌ إلى أيسرِه، وإلى الأقلِّ من أيسرِه، وإلى الشيءِ من أقلِّه، فجعلَ عمُّهُ إسحاقُ يَحْسَبُ ما وردَ ذلك اليوم، فكانَ خمسينَ ألفَ دينار، فقالَ له ٱلإمام: يا عمّ، أراك مشغولاً بحساب ما لا يُفيدُك. قال: قد رددْتَ اليومَ كذا وكذا ألفاً وأنت محتاجٌ إلى حبةٍ من دانق. فقالَ ٱلإمام: يا عمّ، لو طلبْنَاهُ لم يأتِنا، وإنَّما أتانا لمَّا تركْناهُ.

* * *

قال المغَازلي: فنِمْتُ تلكَ الليلةَ وأنا أفكِّرُ في صنيعِ ٱلشيخ، وقد تعلَّقَ خاطري بهِ: كيف ٱنقلبَتِ ٱلحالُ معه، وأيُّ شيءٍ هذه الحال؟ وجعلْتُ أكِدُّ ذِهني لِأعرفَ ٱلحقيقةَ ٱلعقليَّةَ التي سَلَّطَتْ عليه هذه الضرورةَ فتسلَّطَ ٱلنعيمُ على نفسِه، وأنا أعلمُ أنَّ للقوم علوماً روحانيَّةً ليسَتْ في ٱلكتب، فمنها لا يتعلمونَهُ إلَّا مِنَ ٱلفقر، ومنها ما لاَ يتعلمونَهُ إلَّا مِنَ ٱلبلاء، ومنها، ومنها؛ ولكنْ ليسَ منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات؛ وذهبَ قلبي إلى أوهامٍ كثيرةٍ ليسَ في جميعِها طائلٌ ولا بها معرفة، حتى غلبتْني عيناي، وأنا من وَهَجِ ٱلفِكرِ نائمٌ كٱلمريض، وقد ثَقُلَ رأسي وٱختلطَ فيهِ ما يُعْقَل بما لا يُعقَل.

فرأيْتُ أولَ ما رأيتُ مَلِكاً جباراً يحكمُ مدينةً عظيمة، وقد أطلقَ ٱلمناديَ في جمْعِ كلِّ أطفالِ مدينتِه، فجيءَ بهم من كلِّ دار، ثُمَّ رأيْتُهُ قد جلسَ على سريرِهِ وفي يدِهِ مِقراضٌ عظيم، قدِ ٱتخذَهُ على هيئةِ نَصلينِ[2] عريضينِ لو وُضِعَتْ بينهما رقبةٌ لَفَصلاها عن جسمِها؛ فكانَ هذا الجبارُ يتناولُ الطفلَ من أولئِك فيضعُ أصابعَ إحدى قدميهِ في شِقَّي ٱلمِقْراضِ فيقرضُها، فإذا هي تتناثرُ أسرعَ مِمَّا يقرِضُ ٱلمِقَصُّ ٱلخيط، ثُمَّ يَرمي بٱلطفلِ مغشيًّا عليه، ويتناولُ غيرَهُ فيبتُرُ[3] أصابَعه، والأطفالُ يصرخون؛ وأنا أرى كلَّ ذلك ولا أملكُ إلَّا غيظي على هذا الجبارِ من حيثُ لا أستطيعُ أنْ أُمْضِيَ فيهِ هذا الغَيظَ فأقرضَ عنقَهُ بمقراضِه.

ثم رأيْتُهُ يأخذُ طفلاً صغيراً، فلمَّا جاءَتْ قدمُ ٱلطفلِ بينَ شِقَّي ٱلمِقراضِ صاح: يا

---

(١) السروات: الأغنياء.

(٢) نصل السيف: المكان القاطع منه. (٣) بتر: قطع.

ربِّ، يا ربِّ. فإذا ٱلمِقراضُ يلتوي فلا يصنعُ شيئاً، وكأنَّ فيهِ حجراً صَلْداً لا قَدماً رَخْصَةً[1]. فتميَّزَ ٱلجبارُ مِنَ ٱلغيظِ وقال: مَنْ هذا الطفل؟ فسمعْتُ هاتفاً يهتف: هذا بشرٌ ٱلحافي! لا يبلغُ تاجُ مَلكٍ في ٱلأرضِ أنْ يكونَ لِقدمِهِ ٱلحافيةِ نعلاً عندَ ٱللهِ!

وكانَ إلى يميني رجلٌ يَتَوَضَّأُ وجهُهُ صلاحاً وتقوى، فقلْتُ لَه: مَنْ هذا ٱلطاغية[2]؟ ولِمَ ٱتخَذَ ٱلمِقراضَ لِأقدامِ ٱلأطفالِ خاصَّة؟

فقال: يا حُسين! إنَّ هذا الجبارَ هو ذُلُّ ٱلعيش، وهذا وَسْمُهُ لِأهلِ ٱلحياةِ على ٱلأرض، يُحقِّقُ بهِ في ٱلإنسانِ معنى ٱلبهيمةِ أولَ ما يَدِبُّ[3] على الأرض، حتى كأنَّهُ ذو حافر لا ذو قدَم.

قلْت: فما بالُ هذا الطفلِ لم يعملْ فيهِ ٱلمِقراض؟

قال: إنَّ لِلَّهِ عِباداً ٱستخصَّهم[4] لِنفسِه، أولُ علامتِهِ فيهم أنَّ ٱلذلَّ تحتَ أقدامِهِم، وهم يجيئونَ في هذه ٱلحياةِ لإثباتِ ٱلقُدرةِ ٱلإنسانيَّةِ على حكم طبيعةِ ٱلشهواتِ ٱلتي هي نفسُها طبيعةُ الذل؛ فإذا ٱطَّرحَ أحدُهم لِلشهواتِ وزهدَ فيها، وٱستقامَ على ذلك في عَقْدِ نيَّةٍ وقوةِ إرادة، فليسَ ذلك بالزاهدِ كما يصفُهُ ٱلناس، ولكنَّهُ رجلٌ قويّ ٱختارتْهُ ٱلقدرةُ لِيحملَ أسلحةَ النفسِ في مَعاركِها ٱلطاحنة، كما يحملُ ٱلبطلُ ٱلأروعُ أسلحةَ ٱلجسم في معاركِهِ ٱلدامية: هذا يُتَعَلَّمُ منه فنّ، وذاك يُتَعَلَّمُ منه فنٌّ آخر، وكلاهما يُرمَى بِهِ على ٱلموتِ لإيجادِ ٱلنوعِ ٱلمستعزِّ مِنَ ٱلحياة، فأولُ فضائلِهِ ٱلشعورُ بالقوَّة، وآخرُ فضائلِهِ إيجادُ ٱلقوة.

* * *

قالَ ٱلمغازلي: وضَرَبَ ٱلنومُ على رأسي ضربةً أخرى، فإذا أنا في أرضٍ خبيثةٍ داخِنَةٍ، قدِ ٱرتفعَ لها دُخانٌ كَثيفٌ أسودُ يتضرَّبُ بعضُهُ في بعض رجعتُ أرى شُعَلاً حُمراً تذهبُ وتجيءُ كأنَّها أجسامٌ حيَّة، فوقَع في وهمي أنَّ هؤلاءِ هُمُ الشياطينُ: إبليسُ وجنودُه، وسمعْتُ صارخاً يقول: يا بُشرَى! فَلْتبكِ ٱلسماءُ على ٱلأرض، لقد أكلَ بِشْرٌ ٱلحافي من أطيبِ ٱلطعام وأطيبِ ٱلحلوى بعدَ أن ٱستوى عندَهُ حَجَرُها ومَدَرُها[5]، وذهبُها وفِضَّتُها! فعارضَهُ صائحٌ أسمعُ صوتَهُ ولا أرى شخصَه: ويلك يا زَلَنبور[6]! إنَّ هذا شرٌّ علينا من عامَّةِ نُسكِهِ وعبادتِه؛ فهذا ـ ويحكَ ـ هو ٱلزهدُ الأعلى الذي كانَ لا

(1) رخصة: طريّة ليّنة.
(2) الطاغية: الظالم.
(3) يدبّ: يمشي.
(4) استخصّهم: استخلصهم.
(5) مدرها: مدنها وحضرها.
(6) زلنبور: هو اسم لبعض ولد إبليس.

يُطيقُهُ بشر؛ إنَّهُ إعناتٌ[1] سلَّطَهُ على نفسِه، فإنّي دفعتُ هذا (المغازليَّ) الأعمى القلب ليُزَيِّنَ لَهُ ما فعلَ أحمدُ بْنُ حنبلٍ من ردِّهِ خمسينَ ألفَ دينارٍ على حاجتِه، زهْداً وورعاً، وقوّةَ عزمٍ، ونفاذَ إرادةٍ؛ وقلْتُ: عسى أنْ تتحركَ في نفسِهِ شهوةُ الزهدِ فيَحْسُدَ أو يَغارُ، أو تُعجِبَهُ نفسُهُ فيكونُ لي من ذلك لَمَّةٌ[2] بقلبِهِ فأوسوسُ لَه، فإنّا نأتي هؤلاءِ من أبوابِ الثوابِ كما نأتي غيرَهم من أبوابِ المعاصي، ونتورّعُ مع أهلِ الورَعِ كما نتسخّفُ مع أهلِ السُّخفِ؛ ولكنَّ الرجلَ رجلٌ وفيهِ حقيقةُ الزاهد، فقد أعطى القوةَ على جعلِ شهواتِ نفسِهِ أشخاصاً صاحيةً يُعاديها ويُقاتِلُها، فإذا أنا جعلْتُ شهوتَهُ في اللذةِ قتلَ اللذة، وإذا جعلْتُها في الكآبةِ قتلَ الكآبة، وليسَ الزاهدُ العابدُ هو الذي يتقشّفُ ويتعفّفُ، ويتخفّفُ ويتلفّفُ، فإنَّ كثيراً ما تكونُ هذه هي أوصافَ الذُّلِّ والحمقِ، ويكونُ لها عملُ العبادةِ وفيها إثمُ المعصية. ولكنَّ الزاهدَ حقَّ الزاهدِ مَنْ أدارَ في هذه الأشياءِ عيناً قد تعلّمَتْ النظرَ بحقِّهِ والإغضاءَ[3] بحقِّه؛ فهذا لا يُخطِىءُ معنى الشرِّ إنْ لَبَّسناهُ[4] عليهِ في صورةِ الخيرِ، ولا معنى الخيرِ إنْ زوَّرناهُ في صورةِ الشرِّ، وبذلك يضعُ نفسَهُ في حيثُ شاءَ مِنَ المنزلة، لا في حيثُ شاءتِ الدنيا أنْ تضعَهُ من منازلِها الدنيئة.

وما أكلَ بشرٌ هذه الطيِّباتِ إلّا ليُبادِرَ بها وسوستي ويردَّني عن نفسِهِ وعن اللَّمّةِ بقلبِه، فلو أنَّهُ أعجبَهُ زهدُ ابنِ حنبلٍ ونظرَ من ذلك إلى زهدِ نفسِهِ لَحَبِطَ أجرُه؛ فبهذه الطيباتِ عالجَ نفسَهُ عِلاجَ مريضٍ، وقد غيَّرَ على جوفِهِ طعاماً بطعامٍ، كما يبدِّلُ على جلدِهِ ثوباً بثوبٍ؛ ولا شهوةَ للجلدِ في أحدِهِما.

* * *

قال المغازلي: وثقُلَ النومُ عليَّ ثقلةً أخرى، فرأيتُني في وادٍ عظيمٍ، وفي وسطِهِ مثلُ الطَّوْدِ[5] مِنَ الحجارةِ قد رُكِمَ بعضُها على بعضٍ؛ ورأيتُني مع بِشرٍ أقصُّ عليهِ خبرَ أحمدَ بْنِ حنبلٍ؛ فقال: أنظرْ - ويحك -؛ إنَّ الناسَ يسمرونها خمسينَ ألفَ دينارٍ، وهي هنا في وادي الحقائقِ خمسونَ ألفَ حجرٍ لو أصابَتْ أحمدَ لَقتلتْهُ ولكانتْ قبرَهُ آخرَ الدهر.

إنَّ المالَ يا بُنيَّ هو ما يعملُهُ المالُ لا جوهرُهُ مِنَ الذهبِ والفِضّة، فإذا كنْتَ

---

(١) إعنات: إتعاب.

(٢) اللمّة: مسّ الجنون.

(٣) الإغضاء بحقّه: الزراية وعدم تقديره.

(٤) لبّسناه: موّهناه.

(٥) الطَّوْد، بسكون الواو: الجبل.

بِمَفَازةٍ[1] ليسَ فيها من يبيُعكَ شيئاً بذهبِك، فالترابُ والذهبُ هناك سواء؛ والفضائلُ هي ذهبُ الآخرة؛ فهنا تُجدِّدُ بالمالِ دنياك ٱلتي لا تبقى أكثرَ من بقائِك، وهناك تُجدِّدُ بالفضائلِ نفسَك ٱلتي تخلدُ بِخلُودِها.

ومعنى ٱلغِنى معنًى مُلْتبِسٌ على العقولِ ٱلآدميَّةِ لاجتماعِ ٱلشهواتِ فِيه، فحينَ يردّ أحمدُ بْنُ حنبلٍ خمسينَ ألفاً، يكونُ هذا المعنى قد صحَّحَ نفسَهُ في هذا العملِ وَجْهاً مِنَ التصحيح.

* * *

قال حسينٌ ٱلمغازليّ: وغطَّني[2] ٱلنومُ في أعماقِهِ غطَّةً أخرى؛ فإذا أنا في المسجدِ في درسِ ٱلإمامِ أحمَدَ، وهو يُحدِّثُ بحديثِ النبيّ ﷺ: «إذا عظَّمَتْ أمتي ٱلدينارَ وٱلدرهم، نُزِعَ منها هيْبةُ الإسلام؛ وإذا تركوا ٱلأمرَ بِٱلمعروفِ وٱلنهيَ عنِ ٱلمنكر، حُرموا بركةَ ٱلوحي» وهمّ أنْ يتكلمَ في تفسيرِهِ ولكنَّهُ رآني فأمسَكَ[3] عنهُ وأقبل عليّ فقال: يا حسين! إذا ٱجتزأ شيخُكَ بالرغيفِ فهذا عندَهُ هو قدْرُ الضرورة؛ فإنْ أكلَ ٱلطيباتِ فقدْ عرضَتْ حالٌ جعلَتْ هذه الطيباتِ عندَهُ هي قدرَ الضرورة؛ وفي هذه النفوسِ ٱلسماويَّةِ لا يكونُ ٱلجزءُ الأرضيُّ إلَّا محدوداً، فلا يكونُ محصولُهُ إلَّا ما ترى من قدرِ ٱلضرورةِ.

ولمَّا صغُرَ ٱلجزءُ الأرضيُّ في نفوسِ ٱلمسلمينَ ٱلأولينَ ملَكوا ٱلأرضَ كلَّها بقوةِ ٱلجزءِ ٱلسماويِّ فيها، إذْ كانَتْ إرادتُهُم فوقَ ٱلأطماعِ وٱلشهوات، وكانَتْ بذلك لا تذلُّ ولا تضعفُ ولا تنكسر؛ فالآدميَّةُ كلُّها تنتهي إلى بعضِ صُوَرٍ، وهؤلاءِ هُمُ الذينَ محلُّهم في أعلاها

يا حسين! ألَا وإنَّ ردَّ خمسينَ ألفَ دينارٍ هو كذلك قدرُ الضرورة.

قالَ حسين: وذهبْتُ أعترضُ على الإمامِ بِمَا كانَ في نفسي من أنَّ هذا المالَ وإنْ لم يكُنْ من كسْبِه، فقد كانَ يتحوَّلُ في يدِهِ عملاً من أعمالِ ٱلخير؛ وأُنْسِيْتُ أنَّ هذه الصَّدَقاتِ هي أوساخُ الناسِ وأقذارُ نفوسِهِم، فلمْ أكدْ أفتحُ فمي حتى رأيْتُ ٱلكلامَ يتحوَّلُ طِيناً في فمي لِيذكِّرني بهذا المعنى؛ وكِدْتُ أختنقُ فٱنتفضْتُ أتنفَّس، فطارَ ٱلنومُ وٱلحِلْمُ.

---

(١) المفازة: الطريق الضيّق.

(٢) غطني النوم: غلبني.

(٣) أمسك: توقّف وانقطع.

إبليسُ يُعلّم

٣

قالَ أحمدُ بْنُ مِسكين: ودارَ ٱلسبتُ الثالثُ، وجلسْتُ مجلسي لِلناسِ وقدِ ٱنتظمَتْ حَلْقَتهُم؛ فقامَ رجلٌ من عُرْضِ[١] ٱلمجلسِ فقال: إنَّ الحسَنَ بْنَ شُجاعٍ ٱلبلْخي تلميذَ ٱلإمام أحمدَ بْنِ حنبل، كانَ منذُ قريبٍ يُحدِّثُنا بأحاديثَ عنِ الشيطان، حفظْنا منها قولَه ﷺ: «إنَّ ٱلمؤمن يُنْضِي[٢] شيطانَه كما يُنضي أحدُكم بعيرَهُ في سفرِهِ». وكانَ الحسنُ يقولُ في تأويلِهِ: إنَّ شيطانَ ٱلكافرِ دَهينٌ سمينٌ كاسٍ، وشيطانَ ٱلمؤمنِ مَهزولٌ أشعَثُ أغْبرُ عارٍ. فهل يأكلُ الشيطانُ ويدَّهِنُ ويلبسُ لِيكونَ لَهُ أنْ يجوعَ معَ ٱلمؤمنِ ويَعَرى ويتشعَّثَ ويَغْبَرّ؟

قالَ ٱبنُ مسكين: فقلْتُ في نفسي: لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله! ما أرى ٱلسائلَ إلّا شيطانَ هذا السائل؛ فإنَّ إبليسَ إذا أرادَ أنْ يَسْخَرَ مِنَ ٱلعالمِ ويُسمِعَهُ طَنْزَهُ وتهكمَهُ[٣]، حرَّكَ مَنْ يسألُهُ عنه ما هو وكيف هو؛ كأنّما يقولُ له: تَنَبَّهْ ـ ويحكَ ـ على معنايَ، فأنْتَ تتكلَّمُ وأنا أعمل، وأنْتَ صورةٌ مِنَ ٱلردّ عَلَيَّ، ولكنِّي حقيقةٌ مِنَ الرَدِّ عليك، وما أنت في محاربَتِكَ لي بالوعظِ إلّا كالذي يُريدُ أنْ يضربَ عُنُقَ عدوِّهِ بمائةِ ٱسمٍ وُضِعَتْ لِلسيف...

قال: وكنْتُ قد سمعْتُ خبراً عجيباً عن أبي عامرٍ قَبيصةَ بْنِ عُقْبَةَ الكوفيِّ ٱلمحدِّثِ ٱلحافظِ ٱلثقةِ أحدِ شيوخِ أحمدَ بْنِ حنبل؛ وهوَ ٱلرجلُ ٱلصالحُ العابدُ ٱلذي كانَ يُقالُ له: (راهبُ الكوفةِ)؛ من زهدِهِ وعبادتِهِ وٱحتباسِ نفسِهِ في داخلِهِ كأنّما جَسَدُهُ جِدارٌ بينَ نفسِهِ وبينَ ٱلدنيا، فقلْتُ ـ والله ـ لَأُغيظَنَّ ٱلشيطانَ بهذا الخبر، فإنَّ أسماءَ ٱلزهَّادِ والعبَّادِ وٱلصالحينَ هي في تاريخِ ٱلشياطينِ كأسماءِ المواقعِ ٱلتي

---

(١) عرْض، بتسكين الراء: جهة.

(٢) ينضي: يتعب ويهزل.

(٣) الطنز: السخرية والتهكم.

تنهزمُ فيها ٱلجيوش، وما الرجلُ العابدُ إِلّا صاحبَ الغَمَراتِ[1] معَ ٱلشيطان، وكأنَّهُ يحتملُ ٱلمكارِهَ عن أمّةٍ كاملةٍ بلْ عنِ ٱلبشريةِ كلِّها حيثُ كانَتْ مِنَ ٱلأرض، فالناسُ يحسبونَهُ قد تخلّى مِنَ ٱلدنيا ويظنُّونَ ٱلتركَ أيسرَ شيء، وما علِموا أنَّ ٱلزهدَ لا يستقيمُ لِلزاهدِ حتى يجعلَ جسمَهُ كأنَّهُ نوعُ نظام آخرَ غيرِ نظامِ أعضائِه؛ ولا أشَقَّ من ذلك على النفس. ومعجزةُ الزاهدِ أنَّهُ مكلفٌ أنْ يُخرجَ لِلناسِ أقوى القوةِ مِنَ ٱلمعاني ٱلتي هي عندَ ٱلناسِ أضعفُ الضعف؛ ولو أنَّ مِلكاً عظيماً تعبَ في جمع الدنيا وفتْحِ ٱلممالكِ حتى حِيزتْ[2] له جوانبُ ٱلأرض، لكَانَ عملُهُ هذا هو الوجهَ الآخَرَ لتعبِ الزاهدِ في مُجاهدَةِ هذه الدنيا وتركِها.

* * *

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وقصصْتُ عليهِمُ ٱلقصةَ فقلْت: كانَ أبو عامرٍ قَبيصةُ بْنُ عُقبةَ كثيرَ الفِكْرِ في ٱلشيطان، يوَدُّ لو رآهُ وناقَلَهُ ٱلكلامَ؛ وكانَ يتدبَّرُ ٱلأحاديثَ التي صحَّ ورودُها فيه، ويفسِّرُ معنى ٱلشيطانِ بأنَّهُ الروحُ الحيُّ لِلخطأ على الأرض؛ والخطأُ يكونُ صواباً محوّلاً عن طريقتِهِ وجِهَتِهِ، ولهذا كانَ إبليسُ في ٱلأصلِ مَلَكاً مِنَ ٱلملائِكَةِ وتحوَّلَ عن طبيعتِهِ حينَ خُلِقَ آدمُ (عليه السلام)، أي وُجِدَ في ٱلكونِ روحُ ٱلخطأ حينَ وُجِدَ فيهِ ٱلروحُ ٱلذي سيُخطىء.

فلمّا هبطَ آدمُ مِنَ ٱلجنةِ وحُرِمَها هو وزوجُهُ وذرّيتُه، كانَ إبليسُ (لعنهُ ٱللهُ) هو معنى بقاءِ هذا الحِرمانِ وٱستمرارِهِ على الدهر، فكأنَّ هذه الآدميَّةَ أُخرِجَتْ مِنَ ٱلجنة، وأُخرِجَتْ معها قوةٌ لا تَزالُ تَصُدُّها عنها، لِيضطرِبَا في الكِفاحِ مَلِيًّا من زمنٍ هو عمرُ كلِّ إنسان، وهذا هو العدلُ الإلهيّ: لم يَعرفْ آدمُ حقَّ ٱلجنَّة، فعُوقِبَ ألّا يأخذَها إلّا بحقِّها، وأنْ يُقاتِلَ في سبيلِ الخيرِ قوةَ ٱلشرّ.

وباتَ أبو عامرٍ ذاتَ ليلةٍ يُفكِّرُ في هذا ونحوِهِ بعدَ أنْ فرغَ من صلاتِهِ وقراءتِه، ثُمَّ هَوَّمَ[3] فكانَ بينَ ٱليقَظةِ والنوم، وذلك حينَ تكونُ ٱلعينُ نائمةً وٱلعقلُ لا يزالُ منتبهاً، فكأنَّ ٱلعينَ مترجِمَةٌ تُبصرُ من تحتِ أجفانِها بصراً يُشارِكُها فيهِ ٱلعقل.

فرأى شيخُنا أبو عامرٍ صورةَ إبليسَ جاءَهُ في زيِّ رجلٍ زاهدٍ، حَسَنِ ٱلسَّمْتِ[4] طيِّبِ الريح، نظيفِ ٱلهيئة، وكادَ يُشَبَّهُ عليهِ لولا أنَّهُ قد عرفَهُ من عينيه.

---

(١) الغمرات: الحروب.

(٢) حِيزت: تحصَّلت.

(٣) هوّم: تحيّر.

(٤) السمت: الهيئة والمظهر.

فإنّ عيني الكاذبِ تَصْدُقانِ عنه، وقد عَلِمَ ٱللَّهُ أنَّ الكاذبَ آدميٌّ قَفْرٌ[1] كالمَتاهَةِ مِنَ الأرض، فجعلَ عينيهِ كالعلاماتِ لِمَنْ خاضَ الفلاة.

وظهرَ الشيطانُ زاهداً عابداً تَقيًّا نَقيًّا كأنَّهُ دِينٌ صحيحٌ خُلِقَ بَشراً، فَصَرَخَ فيهِ أبو عامر: عليكَ لَعنةُ الله! أمعصيةٌ في ثوبِ الطاعة؟

قالَ إبليس: يا أبا عامر! لو لم تقلِ: المعصيةُ إنَّها طاعةٌ لم يُقارِفْها[2] أحد. وهل خُلقَتِ الشهواتُ في نفسِ الإنسانِ وغريزتِهِ إلّا لِتقريبِ هذه المعاصي مِنَ النفس، وجعْلِ كلٍّ منها طاعةً لِشيءٍ ما؛ فتقعُ المعصيةُ بأنَّها طاعةٌ لا بأنَّها معصية؟ أوَ لا ترى يا أبا عامرٍ أنَّ الحِيلةَ مُحكمةٌ في الداخلِ مِنَ الجسم أكثرَ مِمَّا هي محكمةٌ في الخارجِ عنه، وأنَّهُ لولا أنَّ هذا الباطنَ بهذا المعنى وهذا العملِ لَمَا كانَ لِظاهرِ الوجودِ كلِّهِ في الأنسانِ معنًى ولا عمل؟

قالَ الشيخ: عليكَ لعنةُ الله! فما أرى الموتَ قد خُلِقَ إلّا ردًّا عليكَ أنت، لِيتبيَّنَ الناسُ أنَّكَ الممتلىءُ الممتلىءُ، ولكنَّك الفارغُ الفارغ؛ بل كلُّ شهواتِكَ سخريةٌ منك وردٌّ عليك، فلا طعْمَ للذةٍ من لذاتِكِ إلّا وهِيَ تموت، وإنَّما تمامُ وجودِها ساعةَ تنقضي؛ ومتى قالَتِ اللذةُ: قدِ انتهيْت. فقد وصفَتْ نفسَها أبلغَ الوصف.

قالَ إبليسُ: يا أبا عامر، ولكنَّ اللذةَ لا تموتُ حتى تَلِدَ ما يُبقيها حيَّة، فهي تَلِدُ الحنينَ إليها، وهو لا يسكنُ حتى يعودَ لذةً تنقضي وتَلِد.

قال الشيخ: معاني التراب، معاني التراب؛ كلُّ نَبْتَةٍ فيها بِذْرتُها، ولكنْ (عليكَ لعنةُ الله) لِماذا جِئْتني في هذه الصورة؟

قالَ إبليسُ: لِأنّي لا ألبسُ إلّا محبَّةَ القلبِ الآدميّ، ولولا ذلك لطردَتْني القلوبُ كلُّها وبَطَلَ عملي فيها، وهل عملي إلّا التلبيسُ والتزوير؛ أفتدري يا أبا عامرٍ أنّي لا أعتري الحيوانَ قطُّ.

قالَ الشيخ: لِأنَّ الحيوانَ لا ينظرُ إلى الشيءِ إلّا نظرةً واحدةً، هي نظرةٌ وفهمُهُ معاً، فلا محلَّ لِلتزويرِ مع هذهِ النظرةِ الواحدة؛ وصدقَ اللَّهُ العظيم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾. فأنْتَ أيُّها الشيطانُ التزوير، والتزويرُ

---

(١) قفر: صحراء.   (٢) يقارفها: يقع فيها.

موضعُه ٱلكذب؛ فمَنْ لم يكذبْ في ٱلفكرِ ولا في ٱلنظرِ ولا في ٱلفهمِ ولا في ٱلرجاء، فليسَ لك عندَهُ عمل.

قالَ إبليس: يا أبا عامر! وهلْ ترى (رحمَكَ ٱلله) أعجبَ وأغربَ وأدعى إلى الهُزءِ والسخريةِ من أنّ أعظمَ العُقلاءِ الزهّادِ العُبّادِ، هو في جملةِ معانيهِ حيوانٌ ليسَ لَهُ إلّا نظرةٌ واحدةٌ في كلِّ شيء؟

قالَ الشيخ: عليكَ وعليك...؛ إنَّ الحيوانَ شيءٌ واحدٌ، فهو طبيعةٌ مسخَّرةٌ بنظامِها، ولكنَّ ٱلإنسانَ أشياءُ متناقِضَةٌ بطبيعتِها، فألوهيتُهُ أنْ يُقِرَّ ٱلنظامَ بين هذه ٱلمتناقِضَات، كأنّما ٱمتُحِنَ فأعطَى من جسمِهِ كوناً فيهِ عناصرُ ٱلاضطراب، وحولَهُ عناصرُ ٱلاضطراب، ثم قيل لَهُ دَبِّرْه.

فضحكَ إبليس. قال الشيخ: مِمَّ ضحكْتَ لَعنَكَ ٱلله؟

قال: ضحكْتُ من أنّكَ أعلمْتَني حقيقةَ ٱلإبليسية، فالزهّادُ همُ ٱلصالحونَ لِأنْ يكونوا أعظمَ ٱلأبالسة...

قالَ الشيخ: عليكَ لعنةُ الله، فما هي تلك ٱلحقيقةُ التي زعمْت؟

قالَ إبليس: ـ واللّهِ ـ يا أبا عامر، ما غلا إنسانٌ في زَعْمِ ٱلتقوى وٱلفضيلةِ إلّا كانَتْ هذه هي ٱلإبليسيّة؛ وسأعلمُكَ يا أبا عامرٍ حقيقةَ الزهدِ والعِبادة. فلا تقلْ إنَّها ألوهيَّةٌ تُقِرُّ ٱلنظامَ بينَ متناقِضاتِ الإنسانِ ومتناقضاتِ الطبيعة.

قال الشيخ: وتسخَرُ منّي لَعنَكَ الله؟ فمتى كنْتَ تعلَمُ ٱلحقيقةَ والفضيلة؟

قالَ إبليس: أوَ لم أكنْ شيخَ ٱلملائكة؟ فمَنْ أجدرُ من شيخِ ٱلملائكةِ أنْ يكونَ عالمَهَا ومعلِّمَها؟

قال: عليكَ لعنةُ ٱلله؛ فما هي حقيقةُ الزهدِ وٱلعِبادة؟

قالَ إبليس: حقيقتُها يا أبا عامر، هي ٱلتي أعجزتْني في نبيِّكُم.

قالَ الشيخ: ﷺ؛ فما هي؟

قالَ إبليس: هي ثلاثٌ بها نظامُ ٱلنفس، ونظامُ ٱلعالم، ونظامُ ٱللذات وٱلشهوات: أنْ تكونَ لكَ تقوى، ثُمَّ يكونَ لك فكرٌ من هذه التقوى، ثُمَّ يكونَ لكَ نظرٌ إلى العالمِ من هذا الفكر. ما ٱجتمَعتْ هذه الثلاثُ في إنسانٍ إلّا قَهرَ الدنيا وقَهر إبليس.

فإنْ كانتِ ٱلتقوى وحدَها ـ كتقوى أكثرِ ٱلزهَّادِ وٱلرهبان ـ فما أيسرَ أنْ أجعلَ ٱلنظرَ منها نظرَ الغفلةِ وٱلجُبْنِ وٱلبَلادةِ وٱلفضائلِ ٱلكاذبة، وإنْ كانَ الفكرُ وحدَه ـ كفكر ٱلعلماءِ وٱلشعراء ـ فما أهونَ أنْ أجعلَ النظرَ بهِ نظرَ ٱلزَّيغِ وٱلإلحادِ وٱلبهيمةِ وٱلرذائلِ ٱلصريحة.

قال الشيخ: صدقَ ٱللَّهُ العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

قال إبليسُ: يا أبا عامر! ما يضرُّني ـ والله ـ أنْ أفسِّرَ لك، فإنَّ قارورةً مِنَ ٱلصِّبْغِ لا تَصْبغُ البحر، وأنا أعدُّ الزهادَ والعلماءَ المصلحينَ فأضَعُ في الناسِ بجانبِ كلِّ واحدٍ منهم مائةَ ألفِ ٱمرأةٍ مفتونة، ومائةَ ألفِ رجلٍ فاسق، ومائةَ ألفِ مخلوقٍ ظالم، فلو أنَّكَ صَبَغْتَ البحرَ بملءِ قارورةٍ حمراءَ لَمَا صبغْتِ ٱلبحرَ ٱلإنسانيَّ بالزاهدِ وٱلمصلح، ما دامَ ٱلمصلحُ شيئاً غيرَ ٱلسيف، وما دامَ ٱلزاهدُ شيئاً غيرَ ٱلحاكم.

قالَ ٱلشيخ: لعنَكَ ٱللَّهُ مِنْ شيطانٍ عارِم، فإذا وضعْتَ ٱلمصلحَ بينَ مائةِ ألفِ فاسد، فهل هذه إلَّا طريقةٌ شيطانيَّةٌ لإفسادِهِ؟

قالَ إبليس: ومائةَ ألفِ ٱمرأةٍ فتَّانةٍ مفتونةٍ يا أبا عامر، كلُّ واحدةٍ تحسبُ جسمَها...

فصرخَ ٱلشيخ: أُغْرُبْ عنِّي عليكَ لعنةُ الله!

قالَ إبليس: ولكنَّ الآيةَ الآيةَ يا أبا عمر. لقد لقيْتُ ٱلمسيحَ وجرَّبْتُهُ وهو كانَ تفسيرَها.

قالَ الشيخ: عليهِ السلام! وعليكَ أنت لعنةُ الله! فكيفَ قال؟ وكيف صنع؟

قالَ إبليس: ألقيْتُ بهِ جائعاً في ٱلصحراءِ لا يجدُ ما يَطْعَمُهُ، ولا يظنُّ أنَّهُ يجدُ، ولا يرجو أنْ يظنَّ؛ ثُمَّ قلْتُ لَه: إنْ كنتَ رُوحَ ٱللَّهِ وكلمتَهُ كما تزعمُ فمُرْ هذا الحجَرَ ينقلبْ خبزاً. فكانَ تقيًّا، فتذكَّر فإذا هو مُبْصِر، فقال: ليسَ بالخبزِ وحدَهُ يحيا ٱلإنسان، فمثلُ هذا لو ماتَ جوعاً لم يتحوَّلْ، لِأنَّ ٱلموتَ إتمامُ حقيقتِهِ ٱلساميةِ فوقَ هذه الدنيا، ولو مُلِئتْ لَهُ ٱلدنيا خبزاً وهو جائعٌ لم يتحوّل، لِأنَّ لَهُ بَصَراً من فوقِ ٱلخبزِ إلى حقيقتِهِ ٱلسماوية؛ فليسَ بِالخبزِ وحدَهُ يحيا؛ بل بمعانٍ أخرى هي إشباعُ حقيقتِهِ ٱلسماويةِ التي لا شهوةَ لها.

ثمّ ارتقيتُ[1] بهِ إلى ذروةِ جبلٍ وأريتُهُ ممالكَ الخافِقَين[2]، كشفتُها كلَّها لعينيهِ وقلتُ له: هذا كلُّهُ لكَ إذا أنت سجدْتَ لي. فكان متقياً، فتذكَّرَ فإذا هو مُبصِر: أبصرَ حقيقةَ الخيالِ الذي جَسَّمْتُهُ له، وعَلِمَ أنَّ الشيطانَ يُعطي مثلَ معاني هذه الممالكِ في جَرعةِ خمرٍ، كما يُعطيها في ساعةِ لذة، كما يُعطيها في شِفاءِ غيظٍ بالقتلِ والأذى؛ ثُمَّ لا يبقَى من كلِّ ذلك باقٍ غيرُ الإثم، ولا يصحُّ منه صحيحٌ إلَّا الحرام. ومَن ملَكَ الدنيا نفسَها لم يبقَ لها إذا بقيَتْ فهي خيَالٌ في جَرعةِ الحياة، كما هي خيالٌ في جرعةِ الخمر.

يا أبا عامر؛ إنَّ هذا النظر، الذي وراءَهُ التذكُّر، الذي وراءَهُ التقوى، التي وراءَها الله ـ هذا وحدَهُ هو القوةُ التي تتناولُ شهواتِ الدنيا فتُصفِّيها أربعَ مراتٍ حتى تعودَ بها إلى حقائِقها الترابيةِ الصغيرةِ التي آخرُها القبر، وآخرُ وجودِها التلاشي.

فالبصرُ الكاشفُ الذي يُجرِّدُ الأشياءَ من سِحرِها الوهميّ، هذا هو كلُّ السرّ.

* * *

قال الشيخ: لعَنَك الله؛ فكيف مع هذا تفتُنُ المؤمن؟

قالَ إبليس: يا أبا عامر، هذا سؤالٌ شيطانيّ.... تُريدُ ـ ويحَكَ ـ أن تحتالَ على الشيطان؟ ولكن ما يضرُّني أنْ أفسرَها لك.

ليسَ الإيمانُ هوَ الاعتقادَ ولا العملَ، ولو كانَ من هذينِ لَمَا شَقَّ على أحدٍ ولَصلُحَتِ الدنيا وأهلُها؛ إنَّما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفيٍّ يكونُ مَعَ الغريزةِ في مَقرِّها، ويصلُحُ أنْ يكونَ في مقرِّها لِتَصْدُرَ عنهُ أعمالُ الغريزة؛ وهذا اليقينُ لا يصلحُ كذلك إلَّا إذا كانَ يقيناً ثابتاً بِمَا هو أكبرُ مِنَ الدنيا، فيرجعُ إليهِ الإنسانُ فيتذكرُ فيُبْصِر. هناك ميراثٌ مِنَ الآخرةِ لِلمؤمن، فاليقينُ بهذا الميراثِ هو سِرُّ الإيمان.

والعملُ الشيطانيُّ لا يكونُ إلَّا في إفسادِ هذا اليقينِ ومُعارضةِ الخيالِ العظيمِ الذي فيهِ بالحقائقِ الصغيرةِ التي تظهرُ لِلمغفلِ عظيمة، كما تُشَبُّ نارٌ أكبرُ من قُرصِ الشمسِ ثُمَّ يُقالُ لِلأبلهِ: أنظرْ بعينيك، فيُصدِّقُ أنَّها أكبرُ مِنَ الشمس.

ومتى صغُرَ هذا اليقينُ وكانَتِ الحقائقُ الدنيويَّةُ أكبرَ منه في النفس؛ فأيسرُ أسبابِ الحياةِ حينئذٍ يُفسِدُ المعتقَدَ ويُسقِطُ الفضيلة؛ وبدرهمٍ واحدٍ يُوجَدُ اللصُّ حينئذٍ.

---

(١) ارتقيت: صعدت.

(٢) الخافقين: المشرق والمغرب.

أما إذا ثبتَ ٱليقينُ فٱلشيطانُ مَعَ ٱلإنسانِ يصغرُ ثُمَّ يصغُر، ويَعجزُ ثُمَّ يعجز. حتى لَيرجعُ مثلَ ٱلدرهمِ إذا طمِعَ الطامعُ أنْ يجعلَ ٱلرجلَ الغنيَّ ٱلكثيرَ ٱلمالِ لِصًّا مِنَ ٱللصوص بهذا الدرهم.

قالَ الشيخ: لعَنَكَ الله! فإنْ لم تستطعْ إفسادَ هذا اليقينِ فكيفَ تصنعُ في فتنةِ ٱلمؤمن؟

قالَ إبليس: يا أبا عامر، إنْ لم أستطعْ إفسادَ ٱليقينِ زدْتُهُ يقينياً فيفسد، وأستحسانُ الرجلِ لِأعمالِهِ ٱلساميةِ قد يكونُ هو أولَ أعمالِهِ ٱلسافلة؛ وبأيِّ عجيبٍ يكونُ ٱلشيطانُ شيطاناً إلَّا بمثلِ هذا؟

* * *

قالَ أحمدُ بْنُ مسكين: وغضبَ ٱلشيخ، فمدَّ يدَهُ فأخذَ فيها عُنُقَ إبليسَ وقد رآهُ دقيقاً، ثُمَّ عَصَرهُ عَصْراً شديداً يُريدُ خنْقَه؛ فقهقَهُ ٱلشيطانُ ساخراً منه. ويتنبَّهُ الشيخ، فإذا هو يشدُّ بيدِهِ ٱليمنى على يدِهِ ٱليسرى....

الدنيا والدرهم

٤

قالَ أحمدُ بْنُ مِسكينٍ: وأزِفَ[١] ترحُلي عن (بلْخ)، وتهيأْتُ لِلخروجِ، ولم يبقَ من مدةِ مَقِيلي بها إلَّا أيامٌ يجيءُ فيها ٱلسبتُ الرابع، وكانَ قَدْ وقعَتْ مُمَاراةٌ بيني وبينَ مفتي (بلْخ) أبي إسحاقَ إبراهِيمَ بْنِ يوسفَ ٱلباهليّ تلميذِ أبي يوسفَ صاحبِ ٱلإمامِ أبي حَنيفةِ، ويزعمونَ أنَّهُ شحيحٌ على ٱلمال، وأنَّهُ يَتَغَلَّلُهُ من مُسْتَغَلَّاتٍ كثيرَةٍ[٢]، فكأنَّما غَشِيَتْهُ[٣] غمامتي، فهو لا يرى أنْ أتكلمَ في الزهد، ويحسِبُ هذا الزهدَ تَمَاوُتَ العُبَّاد، ونَفْضَ الأيدي مِنَ ٱلدنيا، وسُوءَ ٱلمصاحبةِ لِمَا يُنعِمُ ٱللَّهُ بهِ على العبد، وخذلانَ ٱلقوةِ في ٱلبدن، وما جرى هذا ٱلمجرى من تزويرِ ٱلحياةِ بالأباطيلِ ٱلتي زَعَمَ أنَّها أباطيلُ ٱلطاعاتِ وما أقربَها مِنْ أباطيلِ ٱلمعصية. ولم يكنْ هذا المفتى قد سمعني ولا حضرَ مجلسي، ولولا الذي لم يعرفْهُ من ذلك لقد كانَ عرف.

وجادلْتُهُ[٤] فرأيْتُهُ واهِنَ[٥] الدليل، ضعيفَ ٱلحُجَّة، يُخَمِّنُ تخمينَ فقيه، وينظرُ إلى الخفايا من حقائقِ النفوسِ نظرَ صاحبِ ٱلنصِّ إلى الظاهر، كأنَّ ٱلحقيقةَ إذا أُلقِيَتْ على الناسِ مضَتْ نافذةً كفتوى المفتي... ويزعُم أنَّ ٱلوعظَ وعظُ ٱلفقهاء، يقولون: هذا حرام. فيكونُ حراماً لا يُقارِفُهُ[٦] أحد، وهذا حلالٌ. فيكونُ حلالاً لا يتركُهُ أحد، وهو كانَ بعيداً عن حقيقةِ ٱلوعظ ومَدَاخلِهِ إلى النفسِ وسياستِهِ فيها، ولا يعرفُ أنَّ الحقيقةَ كالأنثى: إنْ لم تُزَيَّنْ بزينتِها لم تَسْتَهْوِ أحداً؛ وأنَّ ٱلموعظةَ إنْ لم تَتأدَّ في أسلوبِها الحيِّ كانَتْ بالباطلِ أشبَه، وأنَّهُ لا يُغيِّرُ ٱلنفسَ إلَّا النفسُ التي فيها قوةُ ٱلتحويلِ وٱلتغيير، كنفوسِ ٱلأنبياءِ ومَنْ كانَ في طريقةِ رُوحِهم،

---

(١) أزف: حان.
(٢) المستغلّات: أصول الأموال.
(٣) غشيته: غطته.
(٤) جادلته: ناقشته.
(٥) واهن: ضعيف.
(٦) يقارفه: يقع فيه.

وأنَّ هذه الصناعةَ إنَّما هي وضعُ نورِ ٱلبصيرةِ في الكلام، لا وضعُ ٱلقِياسِ وٱلحُجَّة، وأنَّ ٱلرجلَ ٱلزاهدَ ٱلصحيحَ الزهد، إنَّما هو حياةٌ تلبسُها الحقيقةُ لِتكونَ بِهِ شيئاً في ٱلحياة والعمل. لا شيئاً غيرَ القولِ والتوهُّم، فيكون إلهامُها فيه كحرارةِ ٱلنارِ في ٱلنار: مَنْ وَاتَاها أحسَّها.

ولَعَمْري، كم من فقيهٍ يقولُ للناس: هذا حرام. فلا يزيدُ هذا الحرامَ إلَّا ظهوراً وٱنكشافاً ما دامَ لا ينطقُ إلَّا نطقَ ٱلكتب، ولا يُحسنُ أنْ يصِلَ بينَ ٱلنفسِ والشَّرْع، وقد خلا مِنَ القوَّةِ التي تجعلُهُ روحاً تتعلَّقُ ٱلأرواحُ بها وتضعُهُ بينَ ٱلناسِ في موضعٍ يكونُ بِهِ في ٱعتبارِهم كأنَّهُ آتٍ مِنَ ٱلجنَّةِ منذُ قريب، راجعٌ إليها بعد قريب.

وٱلفقيهُ ٱلذي يتعلَّقُ بالمالِ وشهواتِ ٱلنفس، ولا يجعلُ هَمَّهُ إلَّا زيادةَ ٱلرزقِ وحظَّ الدنيا ـ هو الفقيهُ الفاسدُ الصورةِ في خيالِ ٱلناس، يُفْهِمُهم أولَ شيءٍ ألَّا يَفْهموا عنه؛ إذ حِرْصُهُ فوقَ بصيرتِهِ، ولَهُ في ٱلنفوسِ رائحةُ ٱلخبز، ولَهُ معنى: خمسٌ وخمسٌ عشرة...[1] وكأنَّ دنياهُ وضَعَتْ فيه شيئاً فاسداً غريباً يُفسِدُ ٱلحقيقةَ ٱلتي يتكلَّمُ بها؛ ولسْتُ أدري ما هو هذا الشيء، ولكنِّي رأيْتُ فقهاءَ يعِظونَ ويتكلمونَ على الناسِ في ٱلحرام وٱلحلالِ وفي نصِّ كتابِ ٱللَّهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، ثمَّ لم أجدْ لِكلامِهِم نفعاً ولا ردًّا، إذْ يُلْهِمُون الناسَ بأرواحِهِم غيرَ ٱلمعنى ٱلذي يتكلمون فيه؛ وتَسْخَرُ ٱلحقيقةُ منهم ـ على خَطَرِهم[2] وجلالِ شأنِهم ـ بذاتِ الأسلوبِ ٱلذي تسخَرُ بِهِ من لِصٍّ يعِظُ لِصًّا آخرَ فيقول له: لا تَسرِق...

***

قالَ ٱبْنُ مسكين: فلمَّا دارَ يومُ ٱلسبتِ أقبلَ ٱلناسُ على ٱلمسجدِ أفواجاً، وكانوا قد تَعَالَموا إزْمَاعِي ٱلرحيلَ عن بلدِهم ـ وجاءَ (لقمانُ الأمَّةِ) في أشياعِهِ وأصحابِهِ، وجاءَ أبو إسحاقَ المُفتي في جماعتِهِ؛ وٱستقرَّ بيَ ٱلمجلسُ فنفَذْتُ ٱلناسَ بنظَري، فكأنَّهُم من كثرتِهِم نَبَاتٌ غطَّى ٱلأرض، فأذكرني هذا شيخَنَا السريَّ بْنَ مُغلِّسٍ ٱلسقَطيّ[3]، وكانَ قد لزمَ دارَهُ في بغدادَ لا يخرجُ منها ولا يراهُ إلَّا من قَصَدَ إليه، وهممْتُ أنْ أجعلَ ٱلموعظةَ في شرحِ كلمتِهِ ٱلمشهورة: «لا تَصِحُّ ٱلمحبَّةُ بينَ

---

(١) يقصد من ذلك أن الحياة عملية حسابية.

(٢) خطرهم: أهميتهم.

(٣) السقط: رديء المتاع، وبائعه يسمّى السقطي.

ٱثنينِ حتى يقولَ أحدُهما للآخر: يا أنا». وما نقلوا عنه من أنَّهُ قالَ مرةً لِبعضِ أصحابِه: منذُ ثلاثينَ سنةً وأنا في الاستغفارِ من قولي: (الحمدُ لله). فقالَ صاحبُه: وكيف ذلك؟ قال: وقعَ ببغدادَ حريقٌ، فٱستقبلَني رجلٌ فقال: نجا حانوتُك. فقلْتُ: الحمدُ لِلَّه فأنا نادمٌ من ذلك الوقتِ على ما قلْت؛ إذْ أردْتُ لِنفسي خيراً مِنَ ٱلناس!

قالَ ٱبْنُ مسكين: ولكنِّي أحببْتُ أنْ أُكلِّمَ ٱلمُفتي ومالَ المُفتي؛ فحدثْتُهُم حديثَ معرفتي بالسَّريّ: أنّي سمعْتُ يوماً (غَيْلانَ ٱلخياط) يقول: إنَّ السريَّ كانَ اشترى كُرَّ[1] لوز بستين ديناراً، وأثبتَهُ في رزنامجهِ[2] وكتبَ أمامَهُ: ربحُهُ ثلاثةُ دنانير؛ فلم يلبثْ أنْ غلا السعرُ فبلغَ تسعينَ ديناراً؛ فأتاهُ ٱلدلالُ الذي كانَ ٱشترى لَهُ فقال: أُريدُ ذلك اللوز. قال الشيخ: خذْهُ. قال: بكَم؟ فقال: بثلاثةٍ وستينَ ديناراً. وكانَ ٱلدلالُ رجلاً صالحاً، فقالَ لِلشيخ: إنَّ اللوزَ قد صارَ ٱلكُرُّ بتسعين. قال السريّ: ولكنّي عقدْتُ بيني وبينَ اللّهِ عقْداً لا أحلُّه، فلسْتُ أبيعُ إلَّا بثلاثةٍ وستينَ ديناراً. فقالَ الدلّال: وأنا قد عقدْتُ بيني وبينَ ٱللّهِ عقداً لا أحلّه، ألّا أَغشَّ مسلماً، فلسْتُ أشتري منك إلّا بتسعين؛ فلا الدلّالُ ٱشترى منه، ولا السريُّ باعه. . . !

قالَ أحمدُ بْنُ مسكين: فلمَّا سمعْتُ ذلك لم تكنْ لي هِمَّةٌ إلَّا أنْ ألقى الشيخَ وأصحَبَهُ وآخذَ عنه، فلم أُعرِجْ[3] على شيءٍ حتى كنْتُ في ٱلمسجدِ الذي يُصلِّي فيه، فأجدُهُ في حَلْقتِهِ وعندَهُ مِمَنْ كنْتُ أعرفُهم: عبدُ ٱلله بْنُ أحمد بْنِ حنبل، وإدريسُ الحداد، وعلي بْنُ سعيدٍ ٱلرازي، وحولَهُ خلقٌ كثيرٌ وهو فيهم كالشجَرةِ الخضراءِ بينَ الهشيم تعلوهُ نَضرةُ روحِه، وكأنَّما يُمدُّهُ بالنورِ عِرقٌ مِنَ ٱلسماء، فهو يتلألأُ لِلعين؛ ولا يملكُ الناظرُ إليهِ إلَّا أنْ يُحِسَّ في ذاتِ نفسِهِ أنَّهُ الأدنى، من رؤيتِهِ في ذاتِ نفسِهِ أنَّ هذا هُوَ الإنسانُ الأعلى.

ورأيْتُ على وجهِهِ آلاماً تمسَحُهُ مِسْحةَ ٱلأشواقِ لا مِسْحَةَ ٱلآلام، آثارُ ما يجدُهُ في روحِهِ ٱلقويَّة، لا كآلامِ ٱلناسِ ٱلتي هي آثارُ ٱلحِرمانِ في أرواحِهِمُ ٱلواهنةِ ٱلضعيفةِ فلا تمسحُ وجوهَهم إلَّا مِسحةَ الغمِّ والكآبة.

---

(١) الكر، بضم الكاف هو مكيال عظيم يقدرون فيه الحساب، يساوي أربعين إردباً مصرياً.

(٢) رزنامجه: دفتر حساباته.

(٣) أعرّج: أمل، ألو.

وما يُخطىءُ ٱلنظرُ في تمييزِ آلام السماءِ على هذِهِ ٱلوجوهِ ٱلسعيدةِ مِنْ آلامِ الأرضِ في ٱلوجوهِ ٱلأخرى، فإنَّ الأولى تَتَنَدَّى على رُوحِ الناظرِ بمثلِ الطَّلِّ إذا قَطَّرَهُ ٱلفجر، والأخرى تَتَثَوَّرُ في روحِهِ كما تَهيجُ الغَبَرَةُ إذا ضربَتِ ٱلريحُ ٱلأرض.

كانَ ٱلشيخُ في وجودٍ فوقَ وجودِنا؛ فلا تتلوَّنُ لَهُ ٱلأشياءُ ولا تعدو عندَهُ ما هي في نفسِها، ولا يحملُ الشيءُ لَهُ إلَّا معناهُ من حيثُ يَصلُحُ أو لا يصلُح، ومن حيثُ ينبغي أو لا ينبغي. فإنَّما تتلوَّنُ الأشياءُ عندَ ما يضعُ ٱلشيطانُ عينَهُ في عينِ ٱلناظرِ إليها؛ وإنَّما تزيدُ وتنقُصُ في القلبِ عندَما يكونُ روحُ الشيطانِ في ٱلقلْبِ؛ وإنَّما يَشتبِهُ ما ينبغي وما لا ينبغي عندَ ما يأتي الشيءُ من جهتين: جهتِهِ من طبيعتِهِ هو، وجهتِهِ من طبيعتِنا نحن. وبهذا قد يجمعُ ٱلإنسانُ ٱلمالَ ثُمَّ لا يجدُ في ٱلمالِ معنى ٱلغِنى، وقد تتَّفِقُ أسبابُ ٱلنعيم ولا يكونُ منها إلَّا الذُّلّ. وكم مِن إنسانٍ يجدُ وكأنَّهُ لم يجدْ إلَّا عكسَ ما كانَ يبغِي، وآخَرَ لم يجدْ شيئاً ووجدَ بذلك راحتَه.

* * *

قالَ ٱبنُ مسكين: وما كانَ أشدَّ عجبي حينَ تكلَّمَ الشيخ، فقد أخذَ يُجيبُ عمَّا في نفسي ولم أسألْه، كأنَّ ٱلذي في فكري قد ٱنتقلَ إليه؛ فروَى الحديث: «إذا عظَّمَتْ أمتي ٱلدينارَ وٱلدرهمَ، نُزِعَ منها هيبةُ ٱلإسلام؛ وإذا تركوا الأمرَ بِالمعروفِ وٱلنهيَ عنِ المنكر، حُرِموا بركةَ ٱلوحي». ثُمَّ قال في تأويلِهِ:

إنَّ مَلَكَ الوحي ينزلُ بالأمرِ والنهي لِيُخضعَ صَوْلَةَ[1] الأرضِ بصَولةِ ٱلسماء، فإذا بقيَ ٱلأمرُ بالمعروفِ وٱلنهيُ عنِ ٱلمنكر، بقي عملُ ٱلوحي إلَّا أنَّهُ في صورةِ ٱلعقل، وبقيَتْ روحانيَّةُ الدنيا إلَّا أنَّها في صورةِ ٱلنظام، وكانَ مَعَ كلِّ خطأٍ تصحيحُه؛ فيُصبحُ ٱلإنسانُ بذلك تنفيذاً لِلشريعةِ بينَ آمرٍ مُطاعٍ ومأمورٍ مُطيع، فيتعاملُ ٱلناسِ على حالةٍ تجعلُ بعضَهُم أستاذاً لِبعض، وشيئاً منهم تعديلاً لِشيء، وقوةً سنداً لِقوَّة؛ فيقومُ العزْمُ في وجهِ ٱلتعاون، وٱلشدَّةُ في وجهِ ٱلتراخي، والقدرةُ في وجهِ ٱلعجز؛ وبهذا يكونون شركاءَ متعاونين، وتعودُ صِفاتُهُمُ ٱلإنسانيَّةُ وكأنَّها جيشٌ عاملٌ يُناصِرُ بعضُهُ بعضاً، فتكونُ ٱلحياةُ مفسَّرةً ما دامَتْ معانيها ٱلساميةُ تأمرُ أمرَها وتُلهِمُ إلهامَها، وما دامَتْ ممثَّلةً في ٱلواجبِ ٱلنافذِ على ٱلكُلّ.

وٱلناسُ أحرارٌ متى حكمتْهم هذه المعاني؛ فليسَتْ حقيقةُ ٱلحريَّةِ ٱلإنسانيَّةِ إلَّا

---

(١) صوْلة: جوْلة.

ٱلخضوعَ لِلواجبِ ٱلذي يحكم، وبذلك لا بغيرِهِ ويتَّصلُ ما بينَ ٱلملكِ والسُّوقةِ[1]، وما بينَ ٱلأغنياءِ وٱلفقراءِ، ٱتصالَ الرحمةِ في كلِّ شيءٍ، وٱتِّصالَ ٱلقَسوةِ في ٱلتأديبِ وحدَه. فبركةُ ٱلوحي إنَّما هي جعلُ ٱلقوَّةِ الإنسانيَّةِ عملاً شرعيًّا لا غير.

أمَّا تعظيمُ ٱلأمةِ لِلدنيا وٱلدرهم، فهو ٱستبعادُ ٱلمعاني ٱلحيوانيَّةِ في ٱلناسِ بعضِها لِبعض، وتقطُّعُ ما بينَهم مِنَ ٱلتشابُك في لُحْمَةِ ٱلإنسانيَّة، وجعلُ ٱلكبيرِ فيهم كبيراً وإنْ صَغُرَتْ معانيه، والصغيرِ فيهم صغيراً وإنْ كَبِرَ في ٱلمعاني؛ وبهذا تموجُ ٱلحياةُ بعضُها في بعض، ولا يستقيمُ ٱلناسُ على رأيٍ صحيح؛ إذْ يكونُ ٱلصحيحُ وٱلفاسدُ في مِلْكِ ٱلإنسانِ لا في عمل ٱلإنسان، فيكنزُ ٱلغنيُّ مالاً ويكنزُ ٱلفقيرُ عداوةً، كأنَّ هذا قَتَلَ مالَ هذا، وكأنَّ أعمالاً قتلَتْ أعمالاً، وترجعُ ٱلصفاتُ ٱلإنسانيَّةُ متعاديةً، وتُباعُ ٱلفضائلُ وتُشترى، ويزيدُ من يزيدُ ولكنْ في ٱلقسوة، وينقُصُ مَنْ ينقصُ ولكنْ في ٱلحريَّة، وتكونُ ٱلمنفعةُ ٱلذاتيَّةُ هي ٱلتي تأمرُ في ٱلجميعَ وتنهَى، ويدخُل ٱلكذبُ في كلِّ شيءٍ حتى في ٱلنظرِ إلى ٱلمال، فيرى كلُّ إنسانٍ كأنَّما دِرْهمُهُ وديناره أكبرُ قيمةً من دينارِ ٱلآخرِ ودرهمِه، فإذا أعطى نقَصَ فغَشَّ، وإذا أخذ زادَ فَسَرَق؛ وتُصبحُ النفوسُ نفوساً تجاريَّةً تُساوِمُ قبلَ أنْ تنبعثَ لِفضيلة، وتُماكِسُ[2] إذا دُعِيَتْ لِأداءِ حقّ، ويتعاملُ الناسُ في الشرفِ على أصولٍ مِنَ المَعِدةِ لا مِنَ ٱلروح، فلا يُقالُ حينئذٍ، إنَّ رغيفينِ أكثرُ من رغيفٍ واحد. كما هي طبيعةُ ٱلعددِ، بل يُقال: إنَّ رغيفينِ أشرفُ من رغيفٍ. كما هي طبيعةُ ٱلنفاق.

أمَّا التجارةُ ـ وهي ٱلتفسيرُ ٱلظاهرُ لِمعاني ٱلنفوس ـ فتُصبحُ بينَ ٱلغِشِّ وٱلضررِ وٱلمماكَرَة، وتكونُ يقَظَةُ ٱلتاجرِ من غفلةِ ٱلشاري، وتَفسُدُ ٱلإرادةُ فلا تُحدِثُ إلَّا آثارَها ٱلزائغة[3]. وما ٱلتاجرُ في ٱلأمَّةِ ٱلقويَّةِ إلَّا أستاذٌ لِتعليم الصدقِ وٱلخُلقِ في ٱلموضعِ ٱلمتقلِّب، فكلمتُهُ كالرقْم مِنَ ٱلعددِ لا يحتملُ أزيدَ ولا أنقصَ مِمَّا فيه، ويُمتَحَنُ بٱلدنيا وٱلدرهم أشدَّ مِمَّا يُمتحنُ ٱلعابدُ بصلاتِهِ وصيامِهِ. وقد شهدَ رجلٌ عندَ عمرَ بْنِ ٱلخطابِ في قضيَّة، فقالَ لَهُ عمر: اِئتني بمَنْ يعرفُك. فأتاهُ برجلٍ أثنى عليهِ خيراً، فقالَ لَهُ عمر: أنتَ جارُهُ ٱلأدنى ٱلذي يعرفُ مَدْخَلَهُ ومخرجَه؟ قال:

---

(١) السُّوقة: العامة من الناس.

(٢) تماكس: تشاحى في البيع والشراء. (٣) الزائغة: المنحرفة.

لا. قال: فكنْتَ رفيقَهُ في ٱلسفرِ ٱلذي يُستدَلُّ بهِ على مكارمِ ٱلأخلاق؟ قال: لا.
قال: فعاملْتَهُ بالدينارِ وٱلدرهمِ الذي يَستبِينُ بِهِ ورَعُ ٱلرجل؟ قال: لا.

قالَ عمر: أظنُّكَ رأيْتَهُ قائماً في ٱلمسجدِ يُهَمْهِمُ بالقرآن، يَخفِضُ رأسَهُ طوْراً ويرفعُهُ أخرى؟ قال: نعم.

قال: فٱذهبْ فلسْتَ تعرفُه!

وإنّما التاجرُ صورةٌ من ثِقةِ ٱلناسِ بعضِهم ببعض، وإرادةِ ٱلخيرَ وٱعتقادِ ٱلصدق، وهو في كلِّ ذلك مظهرٌ توضَعُ ٱليدُ عليهِ كما تَجسُّ[1] ٱليدُ مرضَ ٱلمريضِ وصحتَه.

فإذا عظَّمَتِ ٱلأمةُ ٱلدينارَ وٱلدرهم، فإنَّما عظَّمَتِ ٱلنفاقَ وٱلطمعَ وٱلكذبَ وٱلعداوةَ وٱلقسوةَ والاستعبادَ؛ وبهذا تُقيمُ ٱلدنانيرَ وٱلدراهِمَ حُدوداً فاصلةً بينَ أهلِها، حتى لِتكونَ ٱلمسافةُ بينَ غنيٍّ وفقيرٍ كٱلمسافةِ بينَ بلدينِ قد تباعَدَ ما بينهما. وإنَّما هيبةُ ٱلإسلامِ في العِزةِ بالنفسِ لا بالمال، وفي بذلِ ٱلحياةِ لا في ٱلحِرْصِ عليها، وفي أخلاقِ ٱلروحِ لا في أخلاقِ ٱليد، وفي وضعِ حُدودِ ٱلفضائلِ بينَ الناسِ لا في وضعِ حُدودِ ٱلدراهم، وفي إزالةِ النقائصِ مِنَ ٱلطباعِ لا في إقامتِها، وفي تَعَاوُنِ صِفاتِ المؤمنينَ لا في تعاديها، وفي ٱعتبارِ ٱلغِنى ما يُعْمَلُ بالمالِ لا ما يُجمَعُ مِنَ ٱلمال، وفي جعلِ أولِ ٱلثروةِ العقلَ والإرادة، لا ٱلذهبَ والفضة...

هذا هو ٱلإسلامُ الذي غلَبَ ٱلأمم، لأنَّهُ قبلَ ذلك غَلَبَ ٱلنفسَ وٱلطبيعة.

---

(١) تجسّ: تدسّ.

دُعابةُ إبليس(1)

أمَا إنِي سأقصُّ هذه ٱلحكايةَ كما ٱتَّفقَتْ، لا أُزيِّنُها بخيال، ولا أتزيَّدُ فيها بخبر، ولا أولِّدُ لها معنى؛ فإنَّما هي حِكايةُ خُبْثِ ٱلخبيثِ: فنُّها حِذْقُهُ(2) ودَهاؤه، ورقَّتُها غِلْظَتُهُ وشرُّه، ومعانيها بلاؤُهُ ومِحْنَتُه؛ وأعوذُ باللَّهِ منَ ٱلشيطانِ الرجيم، وٱللَّهُ المستعان.

لَمَّا فكرْتُ في وضعِ مقالةِ (إبليسَ) من أحاديثِ (ابن مسكين)، وأدرْتُ رأيي في نهجِها وحدودِها ومعانِيها، جعلَ فكرِي يتقطَّعُ في ذلك، يذهبُ ويجيءُ كأنَّ بيني وبينَه منازَعة، أو كأنَّ في نفسي شيئاً يَثْنيني ويقطعُني عنِ ٱلعَزم؛ وخُيِّلَ إليَّ حينئذٍ أنَّ (إبليسَ) هذا منفعةٌ مِنَ ٱلمنافع... وأنَّهُ هو قانونُ ٱلطبيعةِ ٱلذي نَصُّ مادَّتِهِ ٱلأولى: ما أعجبَك فهو لك. ونَصُّ مادتِهِ ٱلأخيرة: ما ٱحتجْتَ إليهِ فثمنُهُ أنْ تقدرَ على أخْذه...

وهَجَسَ في نفسي هاجسٌ: أنَّ (إبليسَ) قائمٌ في لفظِ ٱلحريَّةِ كما هو قائمٌ في لفظِ ٱلإثم، وأنَّهُ إنْ يكنْ في قلوبِ ٱلفُسَّاقِ فهو أيضاً في أدمغةِ ٱلفلاسفةِ وإنْ كانَ في سقوطِ أهلِ ٱلرذيلةِ إلى ٱلرذيلة، فهو كذلك في سموِّ أهلِ ٱلفنِّ إلى ٱلفنّ... قالَ ٱلهاجس(3): وإنَّ (إبليسَ) أيضاً هو صاحبُ ٱلفضيلةِ ٱلعمليَّةِ في هذا العصرِ ٱلماديّ، فهو من ثَمَّ حقيقٌ أنْ يلقِّبوه «صاحبَ الفضيلة».

ولكنِّي لم أحفِلْ(4) بهذهِ ٱلوساوسِ ولم أعُجْ(5) على شيءٍ منها، وٱستعنْتُ ٱللَّهَ وأمضيْتُ نيَّتِي على ٱلكِتابة، وأخذْتُ أقلِّبُ ٱلموضوع، وأنبِّهُ فكري له، وأستَشْرِفُ(6) لِمَا يؤدِّي إليهِ ٱلنظر، وأتطلَّعُ لِمَا يجيءُ بهِ ٱلخاطر، وألتمسُ ما أبني عليهِ ٱلكلامَ كما هي عادتي؛ فلم يقعْ لي شيءٌ ألبتة، كأنَّما ذهَبَ أولُ ٱبتداءِ

---

(1) الدعابة: المزاح واللعب.
(2) حذقه: اتقانه.
(3) الهاجس: الهاتف.
(4) أحفل: أهتمّ.
(5) أعج: أمل، أعرّج.
(6) أستشرف: أستطلع.

ٱلموضوع فلا أولَ لَهُ ولا سبيلَ إلى ٱقتحامه، وكأنَّهُ من وراءِ ٱلعِلْم فلا يُبلَغُ إليه، وكأنَّه مِنَ ٱلتعذُّرِ كمحاولةِ تصويرِ حماقةِ ٱلحياةِ كلِّها في كلمة. وإبليسُ كلمةٌ فيها حماقةُ الحياةِ كلِّها.

***

ومن عادتي في كتابةِ هذه ٱلفصولِ ٱلتي تنشرُها (الرسالة)، أنْ أدعَ ٱلفصلَ منها تقلِّبُهُ ٱلخواطرُ في ذِهني أيامَ ٱلثلاثاءِ وٱلأربعاءِ وٱلخميس، وأتركُ أمرَهُ لِلقوةِ ٱلتي في نفسي، فتتولَّدُ ٱلمعاني من كلِّ ما أرى وما أقرأ، وتَنْثَالُ[1] من هٰهنا وهٰهنا، ويكونُ ٱلكلامُ كأنَّهُ شيءٌ حيٌّ أُريدَ لَهُ ٱلوجودُ فوُجِد.

ثُمَّ أكتبُ نهارَ ٱلجمعة، ومن ورائِهِ ليلُ ٱلسبتِ وليلُ ٱلأحدِ كالمددِ من وراءِ الجيشِ إذا نالتْني فترةٌ أو كنتُ على سفرٍ أو قطعَني عنِ ٱلكتابةِ شيءٌ مِمّا يَعْرِض.

وفي أسبوعِ إبليسَ (لعنَهُ ٱلله)، مرّتِ ٱلأيامُ الثلاثةُ وفيها ثلاثةُ ألوان: ضجَرٌ لا رَوْحَ فيه، وكَسَلٌ لا نشاطَ معه، وٱضطرابٌ لا مِساكَ له. وأطلْتُ ٱلتفكيرَ يومَ ٱلخميس، فكانَتْ تعتريني خواطرُ مضحكة: فيعرضُ لي مرةً أنْ أصوِّرَ إبليسَ ٱمرأةً لِيكونَ إبليسَ ٱلجميل... وتارةً أتوهَّمُ أنَّ إبليسَ يُريدُ أنْ يكونَ شيخاً كبعضِ رجالِ ٱلدينِ ٱلذينَ لا تزالُ تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم، لِيُقالَ إبليسُ ٱلتقيُّ ٱلمصلّي... وحِيناً أظنُّ أنَّهُ يُريدُ أنْ يكونَ كاتباً مؤلفاً شهيراً لِيقالَ إبليسُ المفكِّرُ ٱلمصْلِح... وخطرَ لي أخيراً أنَّهُ يُريدُ أنْ يكونَ حاكماً مُلْحِداً فاجراً، لِيكونَ إبليسَ التامّ لا إبليسَ ٱلناقص...

***

ولَمّا ذهبَتِ ٱلأيامُ ٱلثلاثةُ باطلاً، خُيِّلَ إليَّ أنَّ إبليسَ (أخزاهُ ٱللَّهُ) يسألُني عنِ ٱلمقالة: إلى أيِّ شيءٍ ٱنقلَبَتْ...؟ فشقَّ[2] ذلك عَلَيَّ وٱغتَمَمْتُ بهِ، غيرَ أنّي ٱطمأننْتُ إلى يومِ ٱلجمعةِ وأنْ وراءَهُ ليلتين. وكانَتْ قد غربَتْ شمسُ ٱلخميس، فقلْتُ: فَلأخرجْ لِأتفرَّجَ مِمّا بي، وعسى أنْ أجمعَ نفسي لِلتفكيرِ إذا جلسْتُ في النديّ، ولعلَّهُ يقعُ ما أستَوْحيهِ أو ينفتحُ لي بابٌ في ٱلقراءة.

وخرجْتُ، فلم أجاوزِ ٱلدارَ حتى ٱبتدرني مَنْ هَبَطَ عليهِ ٱلخبرُ مِنَ ٱلقاهرةِ أنَّ نسيباً لنا مِنَ ٱلعظماءِ توفي أخوه ٱليوم. فقلْتُ: لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله؛ ضاعَ يومُ ٱلجمعة. إذْ لا بدَّ مِنَ ٱلسفرِ لتشييعِ ٱلجنازةِ وحضورِ ٱلمأتمِ ثُمَّ قلْتُ: لعلَّ في هذا

---

(١) تنثال: تنهمر وتتوالى.

(٢) شقّ: صعب.

ٱلسفرِ استجماماً[١] ونشاطاً فأستدركَ ٱلأسبوعَ كلَّهُ في يومينِ، وإنَّما ٱلاستكثارُ بالقوَّةِ لا بالزمن، ولا يدَ لإبليسَ في ٱلموتِ وٱلحياة، فليسَ إلَّا ٱطِّراحُهُ وقلةُ ٱلمبالاةِ به، وإنَّما هي خَطَراتٌ من وساوسِه.

وأصبحْتُ في ٱلقاهرة، ومشيْتُ في ٱلجنازةِ قبلَ الظهرِ مَسِيرَةَ ساعةٍ كاملة؛ وكانَتِ ٱلشمسُ ساطعةً تتلألأ، وأنا مُثْقَلٌ بثيابِ ٱلشتاءِ وكنْتُ أتوقَّعُ أنْ يكونَ اليومُ من أيامِ ٱلريحِ ٱلمجنونة، فلمَّا ٱنتهيْنا إلى ٱلصحراء، هبَّتِ ٱلريحُ هبوباً ليِّناً، ثُمَّ زَفَّتْ فكانَتْ إلى ٱلشدَّةِ ما هي: ولكنَّها ماضيةٌ تَسْفي[٢] ٱلرملَ في ٱلأعينِ فيأخذُ في أجفاني أُكالٌ[٣] وتَهْييج، وليسَ معي شيءٌ أتَّقيها بِه؛ غيرَ أنِّي شغلْتُ، فكري برؤيةِ ٱلمقابر، وجعلْتُها في نفسي كالمقالةِ ٱلمكتوبةِ سَطراً وراءَ سطر؛ وقلْت: هٰهنا ٱلحقيقةُ في أولِ تفسيرِها، وغيرُ ٱلمفهومِ في ٱلحياةِ يُفْهَم هنا.

ثُمَّ رجعْتُ مُنَدَّى ٱلجسم بالعرقِ وعَلَيَّ نَضْحٌ منه، وكانَ ٱلقميصُ مِنَ ٱلصوف، وبصدري أثرٌ مِنَ ٱلنزلةِ الشُّعبيَّة[٤]، وإذا تَنَدَّى ٱلصوفُ وجبَ نزعُهُ وإلَّا فهي ٱلعِلَّةُ ما منها بُدّ.

ثُمَّ لم تكنْ إلَّا ساعةٌ حتى ٱنخَرقَتِ ٱلريحُ وجعَلتْ تَعْصِفُ وبَرَدَ ٱلجوُّ، فأيقنْتُ أنَّه ٱلزكامُ، وقلْتُ في نفسي: هذا بابٌ على حِدَة، وٱلمقالةُ ذاهبةٌ لا محالة، فسيتخَلَّفُ ٱلذهنُ ويتبلَّدُ؛ وٱلشيطانُ كريمٌ في الشرِّ يُعطي من غيرِ أنْ يُسأل. . .

وثَقُلَ ذلك عَلَيَّ فكانَ ٱلغمُّ بهِ عِلَّةً جديدة، بيدَ أنِّي لم أزلْ أرجو ٱلفرصةَ في أحدِ ٱليومين: السبت والأحد. وقلْت: إنَّ مِنَ ٱلبلاءِ ٱلفكرَ في ٱلبلاء، ولعلَّ مِنَ ٱلسلامةِ الثقةَ بٱلسلامة؛ فإذا نبَّهْتُ ٱلعزيمةَ رجوْتُ أنْ يتغلغلَ أثرُهَا في ٱلبدنِ كلِّهِ فيكونَ علاجاً في ٱلدمِ يَحْدُثُ بِهِ ٱلنشاطُ ويُرهَفُ[٥] منهُ ٱلطبعُ وتجمُّ عليهِ النفس. وفي قوةِ ٱلعصَبِ كهربائيَّةٌ لَها عملُها في ٱلجسم إذا أحسنَ ٱلمرءُ بعْثَها في نفسِهِ وأحكمَ إفاضتَها وتصريفَها على طريقةٍ رياضيَّة؛ ولَهِيَ ٱلدواءُ حينَ يَعجزُ الدواء، وهيَ ٱلقوَّةُ حينَ تُخذَلُ ٱلقوَّة.

فاعتزمْتُ وصمَّمتُ، وٱحتَلْتُ على ٱلإرادة، وتكثَّرْتُ من أسبابِ ٱلثقةِ

---

(١) استجماماً: راحة لتجدّد النشاط.
(٢) تسفي الرمل: تنشره.
(٣) الأُكال: الحكاك.
(٤) النزلة الشعبية: الرشح والزكام.
(٥) يرهف: يرقّ ويلطف.

وترصَّدْتُ لها ٱلسوانِحَ ٱلعقليَّةَ التي تَسْنَحُ في ٱلنفس، وقلْتُ لإبليسَ: اِجهَدْ جُهْدَك، فما تذهبُ مذهباً إلَّا كانَ لي مذهب. ولكنَّ ٱللعينَ أخطَرَ في ذِهني قولَ القائلِ يسخَرُ فيهِ من ذلك الكاتبِ ٱلبغداديّ.

لو قيلَ: كم خمسٌ وخمسٌ؟ لاغْتَدى   يوماً وليلَتَهُ يَعُدُّ ويَحْسُبُ
ويقول: مُعْضِلَةٌ عجيبٌ أمرُها   وَلَئِنْ فهِمْتُ لها، لأَمْرِيَ أعجبُ
خمسٌ وخمسٌ ستةٌ، أو سبعةٌ   قولانِ قالهما ٱلخليلُ وثعلبُ

* * *

ثُمَّ أجمعْتُ ٱلرجوعَ من يومي إلى (طنطا)، لِأتقيَ ٱلبردَ بعلاجِهِ إنْ نالني أثرُهُ، وكانَ عَلَيَّ وقتٌ إلى أنْ يقومَ ٱلقطار، فذهبْتُ فقضيْتُ واجباً مِنْ زيارةِ بعضِ ٱلأقاربِ في ضاحيةِ (الجيزة)، ثُمَّ ركبْتُ ٱلترامَ ٱلذي أعلمُ أنَّهُ ذاهبٌ إلى محطةِ سكةِ ٱلحديد.

وجلسْتُ أفكرُ في إبليسَ ومقالتِه، وٱلترامُ ينبعِثُ في طريقهِ نحوَ ثلثِ الساعة، حتى بلغ، ٱلموضعَ الذي ينعرجُ[1] منه إلى ٱلمحطة، وهو بحيالِ (جمعيةِ الإسعاف)، حيثُ تنشعبُ[2] طرقٌ أخرى؛ وكنْتُ منصرفاً إلى التفكيرِ مستغرقاً فيه، طائفَ ٱلنظَراتِ على ٱلجوّ، فما راعني إلَّا ٱختلافُ منظرِ ٱلطريق؛ وأنتبهُ، فإذا ٱلترامُ يَمْرُقُ مروقَ ٱلسهم في تلك السبيلِ ٱلصاعدةِ إلى (الجيزة)... من حيثُ جئت.

فلعنْتُ ٱلشيطانَ وتلبثْتُ[3] حتى وقفَ هذا ٱلترام، فغادرْتُهُ ورجعْتُ مُهَرْولاً إلى ذلك المنشَعَب، فصادَفْتُ تراماً آخر، فوثبْتُ إليهِ كأنِّي أُحْمَلُ إليهِ حملاً، ودفعْتُ ٱلأجرة، وٱنطلق، فإذا هو مُنَصَبٌ في تلك الطريقِ عينِها ٱلذاهبةِ إلى الجيزةِ من حيثُ جئت.... ولا أستطيعُ ٱلانحدارَ منه وهو منطلِق، فتَسخَطْتُ[4] ولعنْتُ ٱلشيطانَ مرةً أخرى، ورأيْتُ أنّ عَبثَهُ قد تَرادفَ؛ فلمَّا سكَنَ ٱلترامُ رجعْتُ مهرولاً إلى ذلك المنشَعَبِ ولم يبقَ مِنَ ٱلوقت غيرُ قليل.

وأنظرُ ثَمَّ، فإذا ترامٌ وراءَ ترام، وإذا قد وقعَتْ حادثةٌ لِأحدى ٱلسياراتِ وٱجتمعَ الناسُ وسُدَّتِ ٱلطريق... فجعلْتُ أغلي من الغيظ، ولعنتُ هذا الدَّعابَةَ الخبيث. وأذكرَني ٱللعينُ نادرةَ ٱلأعرابي ٱلذي عضَّهُ ثعلب، فأتى راقياً، فقالَ لَهُ

---

(١) ينعرج: يتحوّل، يحطّ.
(٢) تنشعب: تتفرّق.
(٣) تلبّثت: انتظرت.
(٤) تسخّط: غضب.

ٱلراقي: ما عضَك؟ فاستَحى أنْ يقول ثعلب، وقال: كلب. فلمَّا ٱبتدأ ٱلرجلُ برُقْيَةِ ٱلكلب، قالَ لهُ ٱلأعرابيّ: وٱخلِطْ بها شيئاً من رُقْيَةِ الثعالب. . .

* * *

ثُمَّ إنِّي لم أرَ بُدًّا من بلوغ ٱلمحطةِ على قدميَّ لِأُتِمَّ على عزيمتي في مُراغمةِ ٱللعين، فأسرعْتُ أطوي ٱلأرض وكأنَّما أخوضُ في أحشائِهِ[1] وكانَ بصدري ٱلتهابٌ فهاجَ بي، غيرَ أنِّي تجلَّدْتُ وٱتَسَعْتُ لاحتمالِهِ وبلغتُ حيثُ أردتُ. ثُمَّ ذهبْتُ ألتمسُ في ٱلقطارِ عربةً خاصَّةً أعرِفُها، كانَتْ من عرباتِ ٱلدرجةِ الأولى فجعلوها في ٱلثانيةِ يرفِّهونَ بها بعضَ الترفيهِ على طائفةٍ مِنَ ٱلمسافرين؛ وأصبْتُ فيها مكاناً خالياً كأنَّما كانَ مهيَّأً لي بخاصة. . . فٱنحطَطْتُ فيهِ إلى جانبِ رجلٍ أوربيّ أحسبُهُ ألمانيا لِتَفَاوُتِ خَلْقِهِ وعُنْجُهِيَّتِهِ؛ وجلسْتُ أنفِّسُ عن صدري، ثُمَّ أقبلْتُ أسخَرُ من إبليسَ ونِكايَتِه، وجعلْتُ أتعجَّبُ مِمَّا اتفقَ من هذا التدبير.

وتحرَّكَ ٱلقِطارُ وٱنبعثَ، وكانَ ٱلأوربيُّ إلى جانبي مِمَّا يَلي ٱلنافذةَ وقد تركَها مفتوحةً، فأحسسْتُ ٱلهواءَ ينصبُّ منها كالماءِ ٱلباردِ وأنا مُتَنَدٍّ بالعرَق؛ وترقبْتُ أنْ يُغلِقَها ٱلرجلُ فلم يفعل، فصابرْتُهُ قليلاً فإذا هو ساكنٌ مطمئنٌ يتَرَوَّحُ بٱلهواءِ وكأنَّما يَشرَبُه، وتأملتُهُ فإذا شيخٌ في حدودِ ٱلستينَ أو فوقَها، غيرَ أنَّهُ على بقيةٍ من قوةِ مصارعٍ في ٱكتنازِ عَضَلِهِ وٱجتماعِ قوَّتِهِ ووَثاقةِ تركيبِه، فأيقنْتُ أنَّ ٱلهواءَ من حاجتِه، وهمَمْتُ أنْ أنبهَهُ أو أقومَ أنا فأُغلِقَ ٱلنافذةَ، ولو شئْتُ أنْ أفعلَ ذلك فعلت، غيرَ أنَّ الشيطانَ (أخزاهُ ٱللّٰه) وسَوْسَ لي: أنَّ هذا رجلٌ أجنبيٌّ غَربيّ، وأنت مصريٌّ شرقيّ، فلا يَحسنُ بك أنْ تُعلِمَهُ وتُعلِمَ الحاضرين أمامَكما أنَّك أنت ٱلأضعفُ على حينِ أنَّهُ هوَ ٱلأسَنُّ، وكيف لا تقومُ لِمَا يقومُ لَهُ وقد كنْتَ تُباكرُ ٱلماءَ ٱلباردَ في صميمِ ٱلشتاء، وكنْتَ لا تلبسُ في أشدِّ أيام البردِ غيرَ ثيابِ ٱلصيف، وكنْتُ تحملُ كذَا وكذا ثِقْلاً لِلرياضة، وتُعاني كذا وكذا من ضروبِ ٱلقوَّة، وكنْتَ تلوي بيديك عودَ ٱلحديد، وكنْتَ وكنْت. . . .

فتذمَّمْتُ ـ واللّهِ ـ مِمَّا خطَرَ لي؛ وأنِفتُ أنْ أنبِّهَ ٱلرجل، ورأيْتُ عملي هذا ضعفاً وفَسولة[2]، ولم أعبأْ بالهواءِ ولا بالعرَقِ ولا بٱلنزلةِ ٱلشعبيَّةِ ولا بٱلزكام، وتركْتُ الأوربيَّ وشأنَه، وأقبلْتُ على كتابٍ كَانَ في يدي، وتناسيْتُ أنَّ هذهِ ٱلنافذةَ

---

(١) أحشائه: جوفه.

(٢) فسولة: نذالة لامروءة فيها.

جهةٌ من تدبيرِ إبليس؛ وكانَ ٱلقِطارُ مزدحِماً بالراجعينَ منَ ٱلمعرضِ ٱلزراعيِّ ٱلصناعيّ، وبعضُ الناسِ وقوفٌ فلا مطمعَ في مكانٍ آخر. . .

ولَبِثْتُ ساعةً ونصفَ ساعةٍ في تيَّارٍ من هواءِ (فبراير) ينصبُّ ٱنصباباً، ويَعْصِفُ عَصْفاً، وكأنّي أسبحُ منه في نهرٍ تحتَ ظلمةِ ٱلليلِ ٱلماطر، وٱلناسُ معجَبُونَ بي وبٱلأوربّيّ، وهذا الأوربّيُّ معجَبٌ بي أكثَر منهم، وقد رأى مكاني وعرفَ موضعي؛ وكانَ إلى يميني مجلسٌ بقيَ خالياً ولم يُقْدِمْ أحدٌ على أنْ يجلسَ فيه خوفاً مِنَ ٱلرجلِ ٱلأوربّيّ. . .

ثُمَّ تراءيتُ أنوارَ محطةِ (طنطا)، ولم يبقَ من هذه المحنةِ غيرُ دقيقتين؛ فوٱللهِ ٱلذي لا يُحْلَفُ بغيرِ ٱسمهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، لقد كانَ إبليسُ رقيعاً جِلْفاً[1] بارداً ثقيلَ ٱلمُزاح؛ إذْ لم أكَدْ أتهيأُ لِلقيام، حتى رأيتُ ٱلرجلَ الأوربيّ قد مدَّ يدَهُ فأغلقَ ٱلنافذة. . . .

* * *

ورجعْتُ إلى داري وأنا أقول: ثُمَّ ماذا يا إبليس؛ ثُمَّ ماذا أيُّها الدُّعْبُبُ[2] وحاولْتُ بجهدِي أنْ أكتبَ أو أقرأَ فلم أتحرّكْ لِشيءٍ من ذلك، وكانَتِ ٱلساعةُ ٱلعاشرةُ ليلاً، فصليْتُ وأويْتُ إلى مضجعي.

ثُمَّ أصبحْتُ يومَ ٱلسبت، فإذا كتابٌ مِنَ ٱلأستاذِ صاحبِ (ٱلرسالة): أنَّه سيطبعُ عددينِ معاً فيُريدُ لهما مقالتين، إذْ تُغلَقَ ٱلمطبعةُ في أيامِ عيدِ الأضحى. وكانَ أملي في ٱلمقالةِ الواحدةِ مخذولاً مِمّا قاسيْت، فكيف لي باثنتين؟

وٱختلَطَ في نفسي همٌّ. بهمّ، وما يُفْسِدُ عَلَيَّ أمري شيءٌ مثلُ ٱلضيق، فإذا تضايقْتُ كنْتُ غيرَ من كنت؛ ولكنّي تيقظْتُ وتنبهْتُ وأمّلْتُ ٱلعافيةَ مِمّا أجِدُهُ من ثقْلةِ ٱلبردِ وضَعْفَتِه، وأحدثْتُ طمعاً في ٱلنشاطِ إذا جلسْتُ لِلكتابةِ في ٱلليل، فإنّي بالنهارِ أعملُ لِلحكومة.

فلمّا كانَ ٱلليلُ لم أجدْ أمري على ما أُحبّ، وجلسْتُ متفتِّراً مُعْتَلّاً، وثقُلَ رأسي من ضَرْبةِ ٱلنافذة، وتسلّطَ عليَّ ظَنُّ ٱلمرضِ وٱلعجزُ عن ٱلكتابة، وٱنتفضَ الأمرُ كلُّهُ فرأيْتُني أشقُّ على نفسي بلا طائل، فكأنَ من صوابِ ٱلتدبيرِ عندي أنْ

---

(١) جلفاً: قاسياً فظاً.

(٢) الدعبب والمداعب والدُّعَّابة، بالتشديد، كلها بمعنى واحد.

أستجِمَّ بالنومِ ثُمَّ أنهضَ في ٱلسَّحَرِ لِلكتابة؛ فأوصيْتُ من يُوقظني؛ وحرَّرنا ٱلساعةَ المنبِّهةَ على تَمامِ ٱلثانيةِ بعدَ منتصفِ ٱلليلِ.

وأحسسْتُ أنّي جائع، وأنَّ معدتي مَشحوذة[1]، ونسيْتُ كلّ ما أعرفُ مِنَ ٱلطبّ؛ وجاءَوني بشِواءٍ وحَلوى وما بينَهما، فحططْتُ فيهِ ولَففْتُ الآخرَ بالأول، ثُمَّ قمْتُ أُريدُ ٱلنوم، فإذا ٱلطعامُ كانَ أشدَّ عليَّ من نافذةِ القِطارِ، وكانَ ٱلذي في ٱلفكرِ مِنَ المقالةِ أثقلَ من ٱلذي في ٱلمعدةِ مِنَ ٱلطعام، وساءَ ٱلهضمُ في ٱلدماغِ وٱلبطنِ جميعاً!

وجعلْتُ أتناومُ وأُرخي أعضائي وأتوهَّمُ ٱلكرى[2] وأَستَدْنيهِ بكلِّ ما أعرفُ من وسيلة، ثُمَّ لا أزدادُ على ذلك إلّا أرَقاً، وتمرَّدَ ٱلفكر، وأحسسْتُ رأسي يكادُ ينفجر، وصِرْتُ أتَمَلْملُ ولا أتَقَارُّ، وتوهَّمْتُ أنْ لو كانَ لي عقلانِ ما ٱستطعْتُ كِتابةَ ٱلمقالةِ عن إبليسَ ـ لعنَهُ ٱللهُ ـ؛ وأذكرني ٱلخبيثُ نادرةً مضحكَة: أنَّ رجلاً كانَ يركبَ حماراً ضعيفاً، وكانَ يبعثُهُ فلا ينبعث، فجعلَ يضربُه، فقيلَ لَهُ: ٱرفُقْ بِه. فقالَ إذا لم يقدرْ يمشي فَلِمَ صارَ حماراً....؟

* * *

وقذفْتُ بنفسي مِنَ ٱلفراشِ ونظرْتُ في ٱلساعة، فإذا هي موشكَةٌ أنْ تبلغَ الثانيةَ ولم أُحِسَّ ٱلرقادَ بعد، فأَسْرعتُ إلى المنبِّهةِ وحرّرتُها على تمامِ ٱلساعةِ الرابعةِ صباحا، وأيقنْتُ أنَّ ٱلشيطانَ يُرهِقُني طُغياناً وكَيداً، فطَفِقْتُ ألعنهُ، وما أحسبُه إلَّا قد رأى ٱللعنَ مَدْحاً فهو يستزيدُني...

ثُمَّ رجعْتُ أحاولُ النَوم، فما كانَ هذا الليلُ إلَّا شيئاً واحداً أولُهُ آخرُهُ إلى أنْ طلعَ ٱلفجر.

وجاءَ يومُ ٱلأحدِ وهو يومُ عُطْلةِ ٱلأوربيِّين، فما أشدَّ عجبي إذ تركني فيهِ إبليسُ كأنَّهم لا يَدعُونَ لَهُ وقتاً في هذا اليوم...

والآنَ يُزيِّنُ ليَ ٱلخبيثُ أنْ أختمَ هذه المقالة بـ......بـ.... ولكن لا. لا.

---

(١) مشحوذة: خاوية.

(٢) الكرى: النعاس والنوم.

الشيطان...

قال الشيخُ أبو الحسن بنُ الدَّقَّاقِ: كانَ شيخي أبو عبدِ ٱللَّهِ محمدٌ الأزهريُّ العجميُّ (رضيَ الله عنه) رجلاً صاحبَ آياتٍ وخَوَارِقَ مِمَّا فوقَ ٱلعقلِ، كأنَّما هو سِرٌّ مِنَ ٱلأسرارِ ٱلجاريةِ في هذا ٱلكون، قد بلغَ بنفسِهِ رتبةَ ٱلنَّجمِ في أُفُقِهِ ولألائِهِ مِن إشراقِ روحِهِ وصفائِها؛ وقدِ ٱرتفعَ بآدميَّتِهِ فوقَ نفسِها؛ فأصبحَ في الناسِ ومعَهُ سماؤُه، يجعلُها بينَ قلبِهِ وبينَ ٱلدنيا.

وٱلرجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كانَ حيًّا كالميتِ ساعةَ ٱحتضارِه: ينظرُ إلى كلِّ ما في ٱلحياةِ نظرةَ مَنْ يتركُ لا من يأخذ، ومَنْ يعتبرُ لا مَنْ يَغْتَرُّ، ومن يَلْفِظُ لا من يَتذوّق، ومَنْ يُدركُ ٱلسرّ لا مَنْ يتعلَّقُ بٱلظاهر؛ ويرى ٱلشهواتِ كأنها من لغةٍ لا يعرفُها، فهي ألفاظٌ فيها معاني أهلِها لا معانيه، وإنَّما تلبسُ كلماتُنا معانَيها من أنفسِنا. وفي ٱلنفوس مثلُ ٱلهشيم[1]: إذا وقَعتْ فيهِ ٱلمعاني المشتعلةُ ٱستطارَ حَريقاً وتَضرَّمَ، وفيها على المجاهَدَةِ مثلُ ٱلماء؛ فإذا خالطَتْهُ تلك ٱلمعاني ٱنطفأتْ بهِ وخمدَتْ.

وقد سألْتُ ٱلشيخَ مرة: كيف تَحدثُ ٱلكراماتُ وٱلحوارقُ لِلإنسان؟ فقال: يا ولدي إنَّ ٱلإنسانَ مِنَ ٱلناسِ ٱلمحجوبينَ يتصرَّفُ في جسمِهِ ولا يكادُ يملكُ لِروحانيتِهِ شيئاً، فإذا أبليَ في ٱلمجاهدةِ ووقَعَ في قلبِهِ النور، تصرَّفَ في روحانيتهِ ولا يكادُ يملكُ لِجسمِهِ شيئاً، فَمنْ أطاقَ أنْ يَنسلخَ من بشريتِه، وٱتسَعتْ ذاتُهُ في معاني ٱلسماءِ بمقدارِ ما ضاقَتْ من معاني ٱلأرض، وكانَ مُعَدًّا لِأنْ يتحقَّقَ في روحانيَّتِهِ، مُعاناً على ذلك بطبيعةٍ فوق ٱلاعتدال ـ فقد شاعَ في ٱلكون، وأصابَ لَهُ وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التي تَهدِمُ في ٱلعالمِ وتبني، وتُفرِّقُ وتَجمع، وتنقلُ ٱلصُّوَرَ بعضَها إلى بعض؛ فإنَّ ٱلكونَ كلَّهُ جوهرٌ واحدٌ هو ٱلنور، حتى ٱلجبلُ هو نورٌ صَخريّ، وحتى البحرُ هو نورٌ مائيّ، وحتى ٱلحديدُ وٱلذهب وٱلتراب، كلُّ

---

(١) الهشيم: الحشيش الجاف.

ذلك نورٌ صرَّفَتْهُ ٱلقدرةُ ٱلإلهيَّةُ تصريفَها ٱلمعجز، فكانَ، على ما نرى: ظاهراً مخيَّلاً يُلائمُ نقصَنا وعجزَنا، وحقيقةً قارّةً على غيرِ ما نرى. ومَنْ ذا يعقلُ أنَّ ٱلصخرَ نورٌ متجمدٌ إذا لم يكنْ لَهُ إلّا عقلُ عينِهِ وحواسِّه؟ ومَنْ ذا يُطيقُ أنْ يفهمَ بحواسِهِ وعينِهِ قولَ ٱللّٰهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؟ فٱلجبالُ جامدةٌ ثابتة، غيرَ أنَّها تمرُّ بأرضِها وتموجُ في نفسِها؛ ومتى تأذَنُ ٱللّٰهُ أنْ ينكشفَ نورُ كلامِهِ لِلعقلِ ٱلإنسانيّ، فستكونُ هذه ٱلآيةُ عِلْماً جديداً في ٱلأرض، يُثبتُ أنَّ ٱلسحابَ والجبلَ مادّةٌ واحدةٌ وصُنْعٌ واحد.

ويا لها سُخريةً بالإنسانِ وجهلِه! فإنَّهُ إذا كانتِ ٱلحقيقةُ غيرَ ما نرى، فكلُّ شيءٍ في ٱلدنيا هو ردٌّ على ٱلنظرِ الإنسانيّ، ويكادُ ٱلجبلُ العظيمُ يكونُ كلمةً عظيمةً تقولُ لِلإنسان: «كذَبْتَ!»

فٱلشأنُ في ٱلخوارقِ وٱلكراماتِ راجعٌ إلى القدرةِ أنْ يُسلِّطَ ٱلإنسانُ ٱلروحانيُّ ما فيهِ من سرِّ النورِ على ما في بعضِ ٱلأشياءِ من هذا ٱلسرّ، وتلكَ هي طاعةُ بعضِ ٱلكونِ لِمنْ يتصرفُ عن ٱلمادةِ ويتّصلُ بخالقِها.

فإذا بقيَ في ٱلرجلِ الروحانيّ شيءٌ من أمرِ جسمِهِ يقول: «أنا...» لم يكنْ في ٱلرجلِ من تلكَ ٱلقدرةِ ذرة؛ فإنْ هو حاولَ أنْ يخرقَ ٱلعادَة، أبى ٱلكونُ أنْ يعرفَهُ إلّا كما يعرفُ حجراً مُلقًى يحاولُ أنْ يتصرّفَ بالجبلِ الذي هو منه فينقلَهُ أو يرجرجَهُ أو يزلزلَه.

ولا خيرَ على الأرضِ مطلقاً إلّا وهو أخذٌ من حقوقِ هذه الـ «أنا...» في إنسانِها، ولا شرَّ على ٱلأرضِ مطلقاً إلّا وهو إضافةُ حقوقٍ إليها. فحينَ لا يبقى لها حقٌّ في شيءٍ عندَ نفسِها، يجبُ لها ٱلحقُّ عندئذٍ على كلِّ شيء. وهذه هي الكرامة: تُكرِمُ الخليقةُ مَنْ أكرمَهُ ٱلخالق.

فمَنْ أرادَ أنْ تتّصلَ نفسُهُ باللّه، فلا يكنْ في نفسِهِ شيءٌ من حظِّ نفسِه، ولا يؤمنْ إيمانَ هؤلاءِ ٱلعامّة: يكونُ إيمانُهم باللّٰهِ فكرةً تُذكَرُ وتُنسَى. أمّا عملُهم فهو إيمانُهمُ ٱلراسخُ بالجسمِ وشهواتِهِ يُذكَرُ ولا يُنسى.

وأنت ترى رجالَ ٱلروحِ يأكلونَ ويشربونَ ويلبسون، ولكنَّ هذا كلَّهُ ليسَ فيهِ ذرّةٌ من أرواحِهم، على خلافِ غيرِهم مِنَ ٱلناس؛ فهؤلاءِ كلُّ أرواحِهم في مطاعِمِهم؛ ومن ثَمَّ لا يجري ٱلشيطانُ مِنَ ٱلأوّلينَ إلّا في مَجارٍ ضيقةٍ أشدَّ ٱلضيقِ لا

يكادُ ينفذُ منها إلى فكرٍ أو شهوةٍ أو حُلُم من أحلام الدنيا، أمّا الآخرون فٱلشيطانُ فيهم هو تيّارُ ٱلدم، يَعُبُّ عُبابَه في ٱلأسفلِ وٱلأعلى.

* * *

قالَ أبو ٱلحسن: وكنّا يومئذٍ في دمشق، فنبّهني كلامُ ٱلشيخ عنِ ٱلشيطانِ إلى ما قرأتُهُ عن كثيرينَ مِمَنْ رأَوْا ٱلشيطانَ أو حاوَرُوهُ أو صارَعُوه؛ فقلْتُ لِلشيخ: إنَّ من حقِّكَ عليَّ أنْ أسألكَ حقّي عليك، وما في نفسي أحبُّ إليّ ولا أعجبُ من أَنْ أرى ٱلشيطانَ وأُكلِّمَهُ وأسمعَهُ؛ وأنت قادرٌ أنْ تنقلني إليهِ كما نقلْتني إلى ما دخلْتَ بي عليهِ من عوالمِ ٱلغيب.

قالَ الشيخ: وماذا يردُّ عليكَ أنْ ترَى ٱلشيطانَ وتكلّمَه؟

قلتُ: سبحانَ الله! لا يُجدي عليّ شيئاً إلّا أنْ أسخَرَ منه.

قال الشيخ: فإنّي أخشى يا ولدي، أنْ يكونَ ٱلشيطانُ هوَ الذي يُريدُ أنْ تراهُ وتسمَعه...!

قلْت: فأُريد أنْ أسألَهُ عن سِرِّه، فيكونُ عِلْماً لا سُخرِيةً.

قال: لو كَشَفَ لكَ عن سِرِّهِ لَمَا كانَ شيطاناً، فإنّما هو شيطانٌ بسرِّهِ لا بغيرِهِ.

قلْت: فأُريد أنْ أرى ٱلشيطانَ لأكونَ قد رأيْتُ ٱلشيطان!

قالَ الشيخ: لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله! لو كنْتَ يا أبا الحسنِ بأربعِ أرجُلٍ لهربْتَ مِنَ ٱلشيطانِ بثلاثٍ منها وتركْتَهُ يجرُّك من واحدة!

قلْتُ: يا سيدي، فلو كنْتُ حماراً لبطَلَ عملُ ٱلشيطانِ في أرجلي ٱلأربعِ كلِّها، إذ لا حاجةَ به إلى إغواءِ حِمار!

فتبسّم ٱلشيخُ وقال: ولا بدَّ أنْ ترى ٱلشيطانَ وتكلّمَه؟

قلْت: لا بدّ.

قال: إنّهُ هو بقرنيها. قُمْ!

* * *

قال أبو ٱلحسن: وكانَ ٱلشيخُ إذا مضى إلى أمرٍ خارقٍ بقيْتُ معَهُ غائباً عنِ الحس، كأنّهُ يُبطِلُ منّي ما أنا به أنا؛ فأصبحُ ظِلًّا آدميًّا معلَّقاً به. ولا تقعُ ٱلخوارقُ إلّا لمَنْ وجدَ ٱلقوّةَ ٱلمُكمِّلَةَ لروحِه. وهذه القوّةُ تُستمَدُّ منَ ٱلشيخِ الواصل. فلا بُدَّ

من إمام، كأنَّها سلسلةٌ نفسيَّةٌ متميِّزةٌ في الأرض، فتتغيَّرُ ٱلواحدةُ منها بالواحدة، إذْ تقعُ في جوِّها فتُورِقُ وتُثمر؛ كٱلشجرة: جَوٌّ يكسوها، وجَوٌّ يُذْبِلُها، وجَوٌّ يسلُبها سلباً؛ وكذلك تفعلُ النفسُ إذا كانَ لها جَوّ.

وخرجْنا من دمشقَ وأنا خلفَ ٱلشيخ كالمحمول، فرأيْتُنا وقد أشرفْنَا على بناءٍ عظيم، ورأيْتُ أقواماً يَتلَقَّوْنَ ٱلشيخَ ويُسلمونَ عليهِ ويتبرّكونَ بمقدَمِه؟ فأنكرَتْهم نفسي ووجدْتُ منهم وَحْشَةً، فالتَفتَ إليَّ ٱلشيخُ وقال: هؤلاءِ مِنَ ٱلجِنّ، وما إليهم قَصَدْنا، فلا تشتغلْ بما ترى وٱشتغلْ بي.

ثُمَّ ننتهي إلى ٱلبناءِ العظيم، فتستقبلُنا طائفةٌ أخرى، ويُدْخِلون ٱلشيخَ وأنا خلفَه، ويمرون بنا على دنيا مخبوءةٍ تُعجِزُ الوصفَ، مِمَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعَتْ؛ فيقولون: هذه كنوزُ سليمانَ وذخائرُهُ، ويطوفون بالشيخِ يعرضونها عليهِ كنزاً كنزاً فرأينا ثَمَّ[1] نعيماً ومُلكاً كبيراً، ثُمَّ ٱنتهينا آخِراً إلى مغارةٍ خسيفةٍ كأنَّها عِرقٌ من عُروقِ جسمِ ٱلأرضِ، يتفجَّرُ منها دويٌّ كٱلرعدِ ٱلقاصفِ، إلَّا أنَّهُ في السمع كخُوَارِ الثور، إلَّا أنَّه ثورٌ خُيّلَ إليَّ أنَّ رأسَهُ في قَدرِ جَبَلٍ عظيم، يتعلَّقُ بهِ غَبْغَبٌ[2] في قَدْرِ جبلٍ آخر، على جسمٍ يَسُدُّ ٱلخافقين، فخُوارُهُ كأنَّهُ صُراخُ ٱلأرض، وإذا أنا بأقبحِ مكانٍ منظراً، وأنتنِهِ رِيحاً، كأنَّه سجنٌ بناؤُهُ مِنَ ٱلجِيفَ.

فقلْت: ما هذا؟ قالوا: هذا سجنُ إبليس، وهو هنا في هذه ٱلمغارةِ منذُ زمنِ سليمانَ ـ عليهِ ٱلسلام ـ.

قلْت: أفَمَسْجونٌ هو؟

قالوا: وإنَّهُ مع ذلك مُوقَرٌ بأمثالِ ٱلجبالِ حديداً يَرْبِضُ بِهِ في مَحْبسِه، فلا يتزحزحُ ولا يَتَحَلْحَل.

قلْت: وإنَّهُ مع ذلك قد ملأَ ٱلدنيا فساداً، فكيف بِهِ لو كانَ طليقاً؟

قالوا: فلو أنَّهُ كانَ طليقاً لَاسْتَحْوَذَ[3] على الناسِ كافَّةً؛ فيجتمعُ أهلُ ٱلأرضِ على شهوةٍ واحدةٍ لا شيءَ غيرُها، فيبطلُ مع هذه ٱلشهوةِ ٱلواحدةِ كلُّ تدبيرٍ بينَهم، فلا تقومُ لهم سياسة، ولا يكونُ بينهم وازِع[4]؛ فيرجعونَ كالكلابِ أصابَها ٱلكَلَبُ

(١) ثمَّ بفتح الثاء ظرف مكان بمعنى هناك.

(٢) غبغب الثور وغببه هو ما تثنى من لحم ذقنه من أسفل.

(٣) استحوذ: استمال.

(٤) وازع: رادع.

وهاجَ بها، فأنيابُها في لحمِها، لا يزالُ يَعَضُّ بعضُها بعضاً، فليسَ لِجميعِها إلّا عملٌ واحدٌ يُسلِمُها إلى ٱلهلاك، ويُصبحُ ظهرُ ٱلأرضِ أعْرَى من سَراةِ أديم.

وإنَّمايَصلُحُ ٱلناسُ بٱختلافِ شهواتِهم وتَنَافُرِها وتنازُعِها: فبعضُها يحكمُ بعضاً، وشيءٌ منها يَزَعُ شيئاً، ومن تخلَّصَ من نَزوَةٍ قَمَعَ بها نزوةً أخرى؛ كٱلمتزوّجِ المحْصَنِ: يَحكُمُ بِالجلدِ وٱلرجْمِ على مَنْ ليسَتْ لَهُ ٱمرأةٌ فزنا؛ وكالغنيّ الواجد: يَحكمُ على ٱللصِّ الذي لم يجدْ فسرَق، وهلمَّ جرا.

وما ينشَأُ الناسُ في ثلاثةِ أعمار، فيَشِبُّون ويكتهِلون ويهرَمُون، إلّا لِتختلفَ شهوَاتُهم وتختلفَ مقاديرُ ٱلرغبةِ فيها، فتتحقَّقُ من ثَمّ تلك ٱلحكمةُ ٱلإلهيَّةُ في ٱلتدبيرِ ويجدُ ٱلشرعُ محلَّهُ بينهم، كما يجدُ ٱلعِصيانُ بينَهم محلَّه.

ولو أنَّ أمَّةً كلُّها أطفالٌ أو كُهولٌ أو شيوخ، لَبادَتْ[1] في جيلٍ واحد؛ وإنَّهُ ليسَ أسمجَ مِنَ ٱلرذيلةِ تكونُ وحدَها في ٱلأرض إلّا الفضيلةُ تكونَ وحدَها، فلا بدَّ من شيءٍ يَظهرُ بِهِ شيءٌ غيرُهُ كالضّدِ والضّد؛ وٱلمعركةُ إذا ٱنتصَرَ كلُّ مَنْ فيها كانَتْ هَزْلاً وكانَتْ شيئاً غيرَ ٱلمعركة.

قالَ أبو الحسن: وقلْتُ لهم: فإذا كانَ ٱلشيطانُ سجيناً قد ربَضَتْ بِهِ أثقالُه، حتى لَهُو في سجنٍ من سجنٍ مبالغةً في كفِّهِ وٱلتضييقِ عليه ـ فكيف يَفتِنُ ٱلناسَ في أرجاءِ ٱلأرضِ ويُوسْوسُ في قلوبِهم، حتى لَهو يَدٌ بينَ كلّ يدَين، وحتى لَهو ٱلعينُ ٱلثالثةُ لعينيَ كلِّ إنسان؟

قالوا: إنَّ في روحِهِ ٱلناريَّةِ قوةً تَفْصِلُ منها وتنتشِرُ في ٱلأرض، كَشُعاعِ ٱلشمسِ مِنَ ٱلشمس: هذه كُرَةٌ ناريَّةٌ ميّتةٌ معلَّقةٌ على ٱلأجسامِ مُرْصَدَةٌ لها، وتلك كرةٌ ناريَّةٌ حيَّةٌ معلَّقةٌ على ٱلنفوسِ مُرصَدَةٌ لها، وبهذه وتلك عَمارُ ٱلدنيا وأهلِ الدنيا.

قلْت: لعلَّكم أردْتُمْ أنْ تقولوا: خرابُ ٱلدنيا وأهلِ ٱلدنيا. فغَلِطْتُم، فكانَ ينبغي أنْ يجيءَ بَدَلُ الغلط...

فقالَ أحدُهم: يا أبا الحسن، خَرَقَ ٱلثوبُ ٱلمسمَار. جازَ هنا لِأمنِ ٱللَّبْسِ أنْ يكونَ ٱلمفعولُ بِهِ ـ وهوَ ٱلثوبُ ـ مرفوعاً وفاعلُه ـ وهو ٱلمسمار ـ منصوباً، هل جئْتَ ـ ويحك ـ تطلبُ النحوَ أو تطلبُ ٱلشيطان...؟

---

(١) بادت: فنيت.

قالَ أبو ٱلحسن: فقطَعني ٱلجنيُّ ـ والله ـ وأخجلَني، ونظرْتُ خِلْسةً إلى ٱلشيخِ أراهُ كيفَ يسْخَرُ منّي، فإذا ٱلشيخُ وقد أمَّلسَ فلا أراه، وإذا أنا وحدي بينَ الجِنّ وبإزاءِ هذا الساحرِ وُضِعَتْ عينُهُ في جبهتِهِ وشُقَّ فمُهُ في قفَاه..! فَسُرِّيَ عني وزالَ ما أجدُه، وقلْتُ في نفسي: الآنَ أبلغُ أرَبي[1] مِنَ ٱلشيطانِ ويكونُ ٱلأمرُ على ما أُريد، فلا أَجِدُ مَنْ أحتَشِمُ ولا تَقْطَعُني هيبةُ ٱلشيخ..!

ووَقعَ هذا الخاطرُ في نفسي، فٱستعذْتُ بِالله ولعنْتُ ٱلشيطانَ وقلْت: هذا أولُ عَبَثِهِ بي وجعلُهُ إيايَ من أهلِ ٱلرياءِ، كأنَّ لي شأناً في حضور ٱلشيخِ وشأناً في غِيابِه، وكأنّي مُنافقٌ أُعلِنُ غيرَ ما أُسِرّ، وقلْت: إنَّا لِلَّه! كِدْتَ يا أبا ٱلحسنِ تَتَشيطن!

ثُمَّ هممْتُ أنْ أنكصَ[2] على عقبيَّ، فقد أيقنْتُ أنَّ الشيخَ إنَّما تخلَّى عنّي لِأكونَ هنا بنفسي لابه، وما أنا هنا إلَّا بِهِ لا بنفسي، فيُوشِكُ إذا بقيْتُ في موضعي أنْ أهلِك! بَيْدَ أنَّ ٱلمغارةَ ٱنكشَفتْ لي فجأةً فما ملكْتُ أنْ أنظر؛ ونَظَرْتُ فما ملكْتُ أنْ أقِف، ووقفْتُ أرى، فإذا دخانٌ قد هاجَ فٱرتفعَ يثُور ثَوَرَانَهُ حتى تملأَ ٱلمكانُ بهِ، ثم رقَّ ولَطُفَ.

وٱسْتَضْرَمَتْ[3] منه نارٌ عظيمةٌ لها وهَجَانٌ شديدٌ يتضرّم بعضُها في بعض، ويُسمَعُ من صوتِها مَعمَعةٌ[4] قويّة، ثُمَّ خمدَت.

وٱنفجرَ في موضِعِها كالسَّدِّ ٱلمنبثِقِ من ماءٍ كثيفٍ أبيضَ أصفرَ أحمرَ، كأنَّهُ صَديدٌ[5] يَتَفَيَّحُ في دم، ثُمَّ غاض.

وتَنبَّعَتْ في مكانِهِ حَمْأةٌ منتِنةٌ جعلَتْ تَربُو وتَعظُمُ حتى خِفْتُ أنْ تَبتَلِعَني وأذهبَ فيها، فسميْتُ ٱللَّهَ ـ تعالى ـ فغارَتْ في ٱلأرض.

ثُمَّ نظرْتُ فإذا كلبٌ أسودُ مُحْمَرُّ ٱلحَمَاليق، هائِلُ ٱلخِلْقَةِ مستأسِد[6]، قد وقفَ على جيفةٍ قَذِرةٍ غابَ فيها خَطْمُهُ يَعُبُّ مِمَّا تَسِيلُ بِهِ.

فقلْت: أيُّها الكلبُ، أأنت ٱلشيطان؟

وأنظرُ فإذا هو مَسْخٌ شائِهٌ كأنَّهُ إنسانٌ في بهيمةٍ قدِ ٱمتزَجا وطغَى منهما شيءٌ على شيء، وأمَّا وجهُهُ فأقبحُ شيءٍ منظراً، تحسَبُهُ قد لَبِسَ صورةَ أعمالِه..

---

(١) أربي: غايتي.
(٢) أنكص: أتراجع.
(٣) استضرمت: اشتعلت.
(٤) معمعة: معركة.
(٥) صديد: قيح الجراح.
(٦) يستأسد: يتخلق بأخلاق الأسود.

ونطقَ فقال: أنا الشيطان!

قلْت: فما تلك الجِيفة؟

قال: تلك دنياكم في شهواتِها، وأنا ألْتَقِمُ قلبَ ٱلفاسقِ أوِ ٱلآثمِ منكم، كما ألتقمُ دودةً من هذه الجِيفة.

قلْت: عليكَ لعنةُ ٱللَّهِ وعلى ٱلفاسقينَ وٱلآثمين، فكيف كنْتَ دخاناً، ثمَّ ٱنقلبْتَ ناراً، ثُمَّ رجعْتَ قَيحاً، ثُمَّ صِرْتَ حمأة[1]، ثُمَّ كنْتَ كلباً على جِيفة؟

قال: لا تلعنِ ٱلفاسقينَ وٱلآثمين؛ فإنَّهمُ العِبَّادُ الصالحون بأحدِ ٱلمعنيين، وأنت وأمثالُك عُبَّادٌ صالحون بالمعنى الآخر، أليسَ في ٱلدنيا حياءٌ ووقاحة؟ فأولئك يا أبا الحسنِ هم وقاحتي أنا على الله! أنا منكم في زهدِكم حِرمانُ ٱلحرمان، وفقرُ ٱلفقر، ولقد أهلكتموني بُؤساً؛ غيرَ أنِّي معهم لذَّةُ ٱللذة، وشهوةُ ٱلشهوة، وغِنى الغِنى، لاتتمُّ لذةٌ في ٱلأرض، ولا تحلو لذائقها وإنْ كانَتْ حلالاً، إلَّا إذا وضعْتُ أنا فيها معنًى من معانيّ أو وقاحةً مِن وقاحتي! حتى لأجعلُ ٱلزوجةَ لِزوجِها مثلَ ٱلشعرِ البليغ إذا ٱستعارَ لها معنى مِنِّي، وكلُّ ما فسَدتْ بِهِ ٱلمرأةُ فهو مَجازي وٱستعارتي لها أجعلُها بِهِ بليغة...

وأنتم يا أبا ٱلحسنِ تقطعون حياتَكم كلَّها تُجاهدون إثْمَ ساعةٍ واحدةٍ من حياةِ عبَّادي، فٱنظرْ ـ رحمَك الله ـ لئن كانَتْ ساعةٌ من حياتِهم هي جهنَّمُكم أنتم، فكيف تكونُ جهنمُ هؤلاءِ ٱلمساكين؟

إنَّكَ رأيتَني دُخاناً لِأنِّي كذلك أنبعثُ في ٱلقلبِ الإنسانيّ، فمتى تحركْتُ فيهِ حركةَ ٱلشرِّ كنْتُ كٱلاحتيالِ لِإضرامِ ٱلنارِ بٱلنَّفْخِ عليها؛ فمِنْ ثَمَّ أكونُ دُخاناً، فإذا غَفَل عني صاحبُ ٱلقلبِ تضرَّمتُ في قلبِه ناراً تطلبُ ما يُطفئُها؛ ثُمَّ يُواقعُ ٱلإثمَ وٱلمعصيةَ ويقضي نَهْمَتَهُ[2] فأبْرَدُ عن قلبِهِ، فيكونُ في قلبِهِ مثلُ ٱلحرقِ ٱلذي بَردَ فتأكَّلَ موضعُهُ فتقيَّح، ثُمَّ يختلطُ قيحُ أعمالِهِ بمادتِهِ ٱلترابيَّةِ ٱلأرضيَّة، فينقلبُ هذا ٱلمسكينُ حمأةً إنسانيةً لا تزالُ تربو وتنفتحُ كما رأيْت.

قلْت: أعوذُ باللَّهِ منك! أفلا تعرفُ شيئاً يردُّكَ عنِ ٱلقلبِ وأنت دخانٌ بَعْد؟

فقَهقهَ ٱللعينُ وقال: ما أشدَّ غفلتَك يا أبا الحسن، إذْ تسألُ ٱلشيطانَ أنْ يخترعَ

---

(١) حمأة: ناراً.

(٢) نهمته: جوعته.

ٱلتوبة! أمَا لو أنَّ شيئاً يَخترعُ ٱلتوبةَ في ٱلأرض لاَخترعَها ٱلقبرُ الذي يَدْفنُ فيهِ بعضُكم بعضاً كلَّ طرفةِ عينٍ مِنَ ٱلزمنِ، فتُنزلونَ فيهِ ٱلميتَ ٱلمسكينَ قدِ ٱنقطعَ من كلِّ شيءٍ وتتركونَهُ لِآثامِهِ، وحِسابِ آثامِه، وٱلهلاكِ الأبديِّ في آثامِه؛ ثُمَّ تعودون أنتم لاِقترافِ هذه الآثامِ بعينِها!

قلْتُ: عليك وعليك أيُّها اللعين؛ ولكنْ ألا يتبدّدُ هذا الدخانُ إذا ضرَبَتْهُ ٱلريحُ أوِ ٱنطفأ ما تحته!

قال: أوّه! لقد أوجعْتَني كأنَّما ضرَبْتَني بجبلٍ من نارٍ، إنَّ نبيَّكم عَرفَها ولكنَّكم أغبياء؛ تأخذون كلامَ نبيِّكم كأنَّما هو كلامٌ لا عَمل، وكأنَّهُ كلامُ إنسانٍ في وقتِهِ لا كلامُ النبوّةِ لِلدهرِ كلِّهِ ولِلحياةِ كلِّها؛ ولِهذا غلبْتُ أنا ٱلأنبياءَ على الناس، فإنِّي أضعُ ٱلمعانيَ التي تعمل، لا الحِكمةَ المتروكةَ لِمَنْ يعملُ بها ومَنْ لا يعمل.

أتدري يا أبا ٱلحسن، لِماذا أعجزني أسلافُكمُ ٱلأوّلونَ مثل: عُمرَ وأبي بكر؟ حتى كانَ إسلامُهم من أكبرِ مصائبي، فتركوني زمناً ـ وأنا الشيطانُ ـ أرتابُ في أنِّي أنا ٱلشيطان. . .؟

قلْت: لِماذا؟

قال: أراك الآنَ لم تَلْعَنْ، فلسْتُ قائِلَها إلَّا إذا ترَحّمْتَ عليّ.

قلْت: عليك وعليك من لَعَناتِ ٱلله! قلْ لِماذا؟

قال: أسائِلٌ ويأمرُ وطُفَيْليٌّ ويَقْترِح؟ لا بدَّ أنْ تترحَّم!

قلْت: يرحمُنا ٱلله منك! قلْ لِماذا؟

قال: وهذه لعنةٌ في لفظةِ رحمة؛ لا، إلَّا تترحَّم عليّ أنا إبليس الرجيم[1]!

قلْت: فيُغني ٱللَّهُ عن عِلْمِك؛ لقد ألهَمْتنيها روحُ النبيِّ ﷺ: إنَّ النبوّةُ كانت هي بأعمالِها وصِفاتِها تفسيراً لِلألفاظِ على أسمى ٱلوجوهِ وأكملِها، فكانَ روحُ النبيِّ ﷺ لِتلك الأروَاح كالأمِّ لِأبنائِها؛ وقد رأَوْهُ لا يغضبُ لِنفسِهِ ولاحظَّ نفسِه، وذلك لا يستقيمُ إلَّا بالقَصْدِ في أمرِ النفس، وجعلَ ناحيةِ الإسرافِ فيها إسرافاً في العملِ لِسعادةِ الناس. وكلَّما ٱرتدَّ الإنسانُ لِنفسِهِ وحظوظِها ٱرتدّ إليك ـ أيُّها اللعين ـ وأقبلَ على شَقاءِ نفسِه، وكلَّما عملَ لِسعادةِ غيرِهِ ٱبتعدَ عنك ـ أيُّها الرجيم ـ وأقبلَ

---

(١) الرجيم: المطرود

على سعادةِ نفسِهِ، وتركِ الغضبِ وحظوظِ النفسِ هوَ الصبر؛ وصبرُ الأنبياءِ والصِّدِّيقينَ ليسَ صبراً على شيءٍ بعينهِ في الحياة، بلْ هو الصبرُ على حوادثِ العمرِ كلّه، كصبرِ المسافرِ إنْ كانَ عزيمةً مدةَ الطريقِ كلِّها، وإلَّا كانَ فساداً في القوَّةِ ووقعَ بِهِ الخِذلان.

فهذا الصبرُ المُعْتزِمُ المصمِّم، الذي يُوطِّنُ بِهِ الرجلُ نفسَهُ أنْ يكونَ رَجلاً إلى الآخر ـ هو تعبُ الدنيا، ولكنَّهُ هو رَوْحُ الجنَّةِ مَعَ الإنسانِ في الدنيا. والمؤمنُ الصابرُ رجلٌ مُقْفَلٌ عليهِ بأقفالِ الملائكةِ التي لا يَقْتَحِمُها الشيطانُ ولا تفتحُها مصائبُ الدنيا؛ ولذلك قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ المؤمنَ يُنْضي شيطانَهُ كما يُنْضي[1] أحدكُم بعيرَهُ في سفرِه». كأنَّهُ يقول: لو لم يصبرِ المسافرُ دائباً معتزِماً مدةَ سفرِهِ كلِّها لَمَا أنضى شيطانَه.

فصاحَ الشيطان: أوَّه، أوَّه! ولكنْ قلْ لي يا أبا الحسن: ما صَبْرُ رجلٍ مؤمنٍ قويِّ الإيمان، قدِ استطاعَ بقوةِ إيمانِهِ أنْ يُفيقَ من سُكْرِ الغِنى، فتخَلَّصَ من نزوَاتِ الشاطينِ الذهبيَّةِ الصغيرةِ التي تسمُّونها الدنانير؛ وقد أردْتُهُ على أنْ يكذبَ، فرأى الإيمانَ أنْ يَصْدُق؛ وجَهَدْتُ بِهِ يغضبُ، فرأى الحكمةَ أنْ يهْدأ؛ وحاولْتُ منه أنْ يطمعَ، فرأى الراحةَ أنْ يرضَى؛ وسَوَّلتُ لَهُ أنْ يَحْسُدَ، فرأى الفضيلةَ ألَّا يُبالي؛ وأخذَ لِنفسِهِ من كلِّ شيءٍ في الحياةِ بما يثقُ أنَّهُ الإيمانُ والصبرُ والهدوءُ والرضا والقناعة؛ وأحاطَ نفسَهُ من هذه الأخلاقِ بالسعادةِ القلبيَّةِ واجْتزأَ بها؛ وقَصَرَ نظَرَهُ على الحقيقةِ؛ ووجَد الجمالَ في نفسِهِ الطيِّبَةِ الصافية؛ وأجرى ما يُؤلِمُهُ وما يَسُرُّهُ مَجرًى واحداً؛ ونظرَ إلى العمرِ كلِّهِ كأنَّهُ يومٌ واحدٌ يَرْقُبُ مغربَ شمسِه؛ وأخذَ من إرادتِه قوةً أنسَتْهُ ما لم تُعطِهِ الدنيا، فلمْ يَحْفَلْ بِمَا أعطَتِ الدنيا وما مَنَعتْ؛ وعاشَ على فقرِهِ بِكلِّ ذلك كما يعيشُ المؤمنُ في الجنَّة: هذا في قصرٍ من لؤلؤةٍ أو ياقوتةٍ أو زَبَرْجَدَةٍ، وذاكَ في قصرٍ مِنَ الحكمةِ أو مِنَ الإيمانِ أو مِنَ العقل.

قالَ الشيطان: فلمَّا أعجَزني صلاحاً ورضًى وصبراً وقناعةً وإيماناً واحتساباً، وكانَ رجلاً عالماً فقيها ـ سوَّلْتُ[2] لَهُ أنْ يخرجَ إلى المسجدِ لِيعِظَ الناسَ فينتفعوا بِه، ويُبَصِّرَهمْ بدينِهم ـ ويتكلَّمَ في نصِّ كلامِ الله؛ فعقَدَ المجلسَ ووَعظ، وانصرفوا وبقِيَ وحدَه.

---

(١) ينضي: يهزل، يضعف. (٢) سوّلت: وسوست له.

فجاءَتِ ٱمرأةٌ تسألُهُ عن بعضِ ما يحتاجُ إليهِ ٱلنساءُ في ٱلدينِ من أمرِ طبيعتِهن؛ وكانتِ ٱمرأةً جَزْلَةً غَضَّةً رابيةً، يهتزُّ أعلاها وأسفلُها، وتمشي قصيرةَ الخَطْوِ مُتَّاقِلَةً كالمتضايقةِ من حَمْلِ أسرارِ جمالِها وأسرارِ بدنِها ٱلجميل؛ فبَعْضُ مِشيتِها يَقَظَةٌ وبعضُها نومٌ فاترٌ تُخالطُهُ ٱليقظة؛ ولا يراها ٱلرجلُ الفَحْلُ ٱلتامُ الفُحولةِ إلَّا رأى ٱلهواءَ نفسَهُ قد أصبحَ من حولِها أنثى، مِمَّا تَعْصِفُ بِهِ ريحُها العَطِرةُ عِطْرَ زينتِها وجسمِها.

وكانَ الواعظُ قد ترمَّلَ من أشهر، وكانَتِ ٱلمرأةُ قد تأيَّمَتْ[1] من سَنَوات؛ فلمَّا رآها غَضَّ طرْفَهُ[2] عنها؛ ولكنَّها سأَلتْهُ بألفاظِها العذْبةِ عن أمورٍ هي من أسرارِ طبيعتِها، وسألتْهُ عن طبيعتِها بألفاظِها؛ فسمعَ منها مثلَ صوتِ ٱلبلَّور، يتكسَّرُ بعضُهُ على بعض.

وتحدَّثتْ لَهُ وكأنَّها تتحدَّثُ فيه: فسمِعَ بأذنِهِ ودمِه، ثُمَّ كانَ غَضُّ عينِهِ أقوى لِرؤيةِ قلبِهِ وجَمْعِ خواطِره.

ورأى صوتَها يَشْتَهي؛ وعانَقَتْهُ رائحتُها ٱلعطريَّةُ ٱلنفَّاذة؛ وأحاطتْهُ بجوٍ كجوِّ ٱلفَراشِ؛ وعادَتْ أنفاسُها كأنَّها وسْوَسَةُ قُبَلٍ؛ وصارَتْ زَفَراتُها كالقِدْرِ إذا ٱستَجمعَتْ غَلَيَاناً؛ وطَلَعَتْ في خيالِهِ عُريانَةً كما تَطلعُ لِلسكرانِ من كأسِ ٱلخمرِ حُوريَّةٌ عُريانةٌ، لها جِسمٌ يبدو مِنَ ٱللينِ وٱلبَضاضةِ وٱلنَّعمَةِ كأنَّهُ من زَبَدِ ٱلبحرَ؟

قالَ أبو ٱلحسن: وكنْتُ كالنائم، فما شعرْتُ إلَّا بصوتٍ كصَكِّ ٱلحجرِ بِالحجر، لا كتكسُّرِ ٱلبلورِ بعُضِهِ على بعض، وسمعْتُ شيخي يقول:

أفَسَقْت...؟

---

(١) تأيمت: مات عنها زوجها.

(٢) غضّ طرفه عنها: مال بنظره عنها.

تاريخٌ يتكلَّم...

أيعرفُ ٱلقرَّاءُ أنَّ في ٱلأحلام أحلاماً هي قِصَصٌ عقليَّةٌ كاملةُ ٱلأجزاءِ محكمَةُ ٱلوضعِ مُتَّسَقةُ ٱلتركيبِ بديعةُ ٱلتأليفِ، تجعلُ ٱلمرءَ حينَ ينامُ كأنَّهُ أسلمَ نفسَهُ إلى (شركةٍ مِنَ الملائكة)، تَسيحُ بِهِ في عالَمٍ عجيبٍ كأنَّما سُحِرَ فتحوَّلَ إلى قصة؟

إنْ يكنْ في ٱلقراءِ مَنْ لا يعلمُ هذا فلْيعلمْهُ منِّي؛ فإنِّي كثيراً ما أكتبُ وأقرأُ في النوم؛ وكثيراً ما يُلْقِي عَلَيَّ من بارع الكلام، وكثيراً ما أرى ما لو دوَّنْتُهُ لَعُدَّ مِنَ ٱلخوارقِ وٱلمعجزات.

وهذه القصةُ التي أَرويها ٱليومَ، كانَتِ ٱلمعجزةُ فيها أنّي مشيْتُ في ٱلتاريخِ كما أمشي في طريقٍ ممتدّة؛ فتقدمْتُ إلى أهل سنةِ ٣٩٥ للهجرة وما يليها، فعِشْتُ معَهم وتَخَبَّرْتُ من أخبارِهم، ثُمَّ رجعْتُ إلى زمني لِأقصَّ ما رأيْتُهُ على أهلِ سنة ١٣٥٣...

أمسيْتُ ٱلبارحةَ كالمغموم في أحوالٍ ثقيلةٍ على النفسِ ما تَنطلقُ ٱلنفسُ لها، أوّلُها سوءُ ٱلهضم؛ ومتى كانَ ٱلبدءُ من هُنا لم تكنِ ٱلحركةُ في ٱلنفسِ إلَّا دائرةً: تَذهبُ ما تذهبُ ثُمَّ لا تنتهي إلَّا في سوءِ ٱلهضم عينهِ. فجلسْتُ في ٱلنَّديِّ ٱلذي أسْمُرُ[1] فيهِ أحياناً، فكانَ لِجوِّهِ وزنٌ أحسسْتُهُ كمَا يُحسُّ ٱلغائصُ في ٱلماءِ ثِقْلَ ٱلماءِ عليه؛ ودخَّنْتُ ٱلكَرْكَرَةَ[2] فلم تكنْ هواءً ودُخاناً يَترَوَّحُ، بلْ كانَتْ من ثِقْلِها كٱلطعام يدخلُ على ٱلطعام؛ ونظرْتُ ناحيةً فأخذَتْ عيني رجُلاً فِيليَّ ٱلخِلْقة[3]، مُنْطادَ ٱلبطنِ[4] كأنَّما نُفِخَ بطنُهُ بٱلآلات، يَحمِلُ منه مقدارَ أربعةٍ من بطونِ ٱلبديناتِ ٱلحواملِ كلٌّ منهنَّ في ٱلشهرِ ٱلتاسعِ من حَمْلها... وكانَ معي إلى كلِّ هذا ٱلبلاءِ خمسُ صُحُفٍ يوميَّةٍ أُريدُ قراءتَها...!

ثُمَّ جِئْتُ إلى ٱلدارِ وٱلمعركةُ حاميةٌ في أعصابي؛ وما كانَ سوءُ ٱلهضم مُنَوِّمَةً فيدعوَ إلى النوم، فدخلْتُ بيتَ كُتُبي وأردْتُ كتاباً أيَّ كتابٍ تنالُهُ يدي، فخرجَ لِي كتابٌ

---

(١) أسمر فيه: أقضي ليالي السمر فيه.
(٢) الكرْكرة: النارجيلة.
(٣) فيلي الخلقة: ضخمها كالفيل.
(٤) مُنطاد البطن: منفتح البطن.

في خُرافاتِ ٱلأوّلينَ وأساطيرِهم وهَذَيانِهم وسوءِ هضمِهِمُ ٱلعقلي. . . كالكلام عن أدُونيسَ وأرطاميسَ وديونُيسَ وسميراميسَ وإيسيسَ وأتوبيسَ وأثرغتيس. . . . فٱستعَذْتُ باللَّهِ وقلْت: حتى ٱلكتُبُ لها في هذه الليلةِ أعصابٌ قد نالتْها ٱلثِّقْلةُ وٱلألم؟

وباتَ ٱلليلُ يقظانَ معي، وبقيْتُ مُتَمَلْمِلاً أتقلَّبُ حتى أخذَ ٱلصداعُ في رأسي، فٱنقلبَ ٱلتعبُ نوماً، وجاءَ مِنَ ٱلنومِ تعبٌ آخر، وقُذِفْتُ إلى عالمِ ٱلأحلامِ في قُنبلةٍ تستقرُّ بي حيثُ تُريدُ لا حيثُ أُريد:

* * *

ورأيتُني في قومٍ لا أعرفُ منهم أحداً قدِ ٱجتمعوا جمَاهير، وسمعْتُ قائلاً منهم يقول: «الساعةَ يمرُّ مولانا العالي». فقلْتُ لِمَنْ يليني: «مَنْ يكونُ مولانا العالي؟» قال: «أوَ أنتَ منهم؟» قلْت: «مِمَن؟» فألهاهُ عن جوابي تَشوُّفُ ٱلناسِ وٱنصرافُهم إلى رجلٍ أقبلَ راكباً حماراً أشهب؟ فصاحوا: «القمر القمر[1]» ورَفَعَ ٱلرجلُ الذي يُناكِبُني صوتَهُ يقول: «البركاتُ والعَظَماتُ لك يا مولانا العالي!».

قلْت: إنَّا لله! لقد وقعْتُ في قومٍ مِنَ ٱلزنادقة، يُعارضون «التحياتُ والصّلَواتُ والطَّيباتُ لله»؛ ثُمَّ مرّ صاحبُ ٱلحمارِ بحذائي، وغمزَهُ ٱلرجلُ عَلَيَّ، فقال: ما بالُك لا تقولُ مثلَه؟ قلْت: أعوذُ بِاللَّهِ من كُفرٍ بعدَ إيمان. فكأنَّما أرادَ أنْ يَلْطُمَني فرفَع يدَه، فصِحْتُ فيه: كما أنتَ ـ ويلكَ ـ وإلّا قبضْتُ عليك، وأسلمْتُك لِلبوليس، وشكوْتُك إلى ٱلنيابة، ورفعْتُكَ إلى محكمةِ ٱلجُنَح[2]!

قال: ماذا أسمع؟ الرجلُ مجنونٌ فخذوه! وأحاطَ بي جماعةٌ منهم، ولكنَّهُ تَرَجَّلَ عن حمارِهِ وأخذَ بيدي ومشيْنا، فقلْت: مَنْ أنت يا هذا؟ قال: أراكَ من غيرِ هذا ٱلبلد؛ أمَا تَعرفُ ٱلحاكمَ بأمرِ ٱللهِ؟ فأنا هو. قلْت: أُنظرْ ـ ويحكَ ـ ما تقول. فما أظنُّكَ إلّا مَمْرُوراً؛ لقد كتبْتُ أمسِ كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرّختُه ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٥٣ و١٨ من مارس سنة ١٩٣٥، وأرسلْتُ بِهِ مقالةَ «الخروفين». .

قال: ماذا أسمع؟ نحن الآن في سنةِ ٣٩٥؛ فالرجلُ مجنون، أوْلا فأنت أيُّها ٱلرجلُ من معجزاتي. لقد جئْتُ بك مِنَ ٱلتاريخ، فسترى وتكتب، ثُمَّ تعودُ إلى التاريخِ فتكونُ من معجزاتي، وتقصُّ عنيَّ وتشهدُ لي. . . !

قلْت: فإنّي أعرفُ أعمالَك إلى أنْ قُتِلْتَ في سنة ٤١١. . . !

---

(١) القمر اسم لذلك الحمار.

(٢) الجنح، مفرده جُنحة وهي الجريمة.

قال: أوَ إلهٌ أنت فتَخلُقَ ستَّ عشرةَ سنةً بحوادِثها؟ لقد كِذْتَ من أفَنِكَ وغَباوتِك تُفسدُ عليَّ دعوى ٱلمعجزة!

وهاجَ ٱلصداعُ في رأسي، وبلغَ سوءُ ٱلهضم حدَّه، وٱشتبكَتْ سيناتُ إيسيسَ وأتوبيسَ إلخ بسينِ إبليس، ومرَّتْ بينَ كلِّ هذا حوادثُ ٱلطاغيةِ ٱلمعتوهِ[1] ٱلمتجبرّ، فرأيتُهُ يبتدعُ في كلِّ وقتٍ بِدَعا، ويخترعُ أحكاماً يُكْرِهُ ٱلناسَ على أنْ يعملوا بها، ويعاقبُهم على ٱلخروج منها، ثُمَّ يعودُ فينقُضُ أمرَه، ويُعاقِبُ على الأخذِ بهِ، كأنَّ ٱلذي نَقضَ غيرُ ٱلذي أبْرَم، وكأنَّهُ حينَ يتبلَّدُ فيُعجزُهُ أنْ يخترعَ جديداً ـ يَجعلُ ٱختراعَهُ إبطالَ ٱختراعِه.

ورأيْتُهُ كأنَّما يعتدُّ نفْسَهُ مُخَّ هذه الأمَّة، فلا بُدّ أنْ يكونَ عقلاً لِعقولِها، ثُمَّ لا بُدّ أنْ يَسْتَعْلِيَ ٱلناسَ ويستبدَّ بهمُ ٱستبدادَ ٱلشريعةِ في أمرِها ونَهْيِها، فكانَتْ أعمالُهُ في جُملتِها هي نقضَ أعمالَ ٱلشريعةِ الإسلاميَّة، وظنَّ أنَّهُ مستطيعٌ محوَ ذلك ٱلعصر من أذهانِ ٱلناسِ وقَتْلَ ٱلتاريخِ ٱلإسلاميِّ بتاريخ قاتلٍ سفَّاك.

وسَوَّلَ[2] لَهُ جنونُهُ أنَّهُ خُلِقَ تكذيباً لِلنبوَّة؛ ثُمَّ أفرَطَ عليهِ ٱلجنونُ فحصَّلَ في نفسهِ أنَّهُ خُلِقَ تكذيباً لِلألوهيَّة؛ وفي تكذيبِهِ لِلنُّبوَّةِ وٱلألوهيَّةِ يحملُ الأمَّةَ بالقهرِ وٱلغلَبةِ على ألّاتصدّقَ إلَّا بِهِ هو؛ وفي سبيلِ إثباتِهِ لنفسِهِ صَنَعَ ما صَنع، فجاءَ تاريخُهُ لا ينفي ألوهيَّةً ولا نبوَّة، بلْ ينفي ٱلعقلَ عن صاحبِه؛ وجاءَ هذا التاريخُ في الإسلامِ لِيتكلَّمَ يوماً في تاريخِ ٱلإسلام. . .

* * *

رأيتُني أصبحتُ كاتباً لِهذا الحاكم، فجعلْتُ أشهدُ أعمالَهُ وأُدوِّنُ تاريخَه، وأقبلْتُ على ما أفْرَدَني بِهِ وقلْتُ في نفسي: لقد وضعَتْني الدنيا مَوْضِعاً عزيزاً لم يرتفعْ إليهِ أحدٌ من كتَّابها وأدبائها، فسأكتبُ عن هذا الدهرِ بعقلٍ بينه وبين هذا الدهرِ ٩٦٨ سنةً صاعدةً في العِلْم.

ودوّنتُ عشرةَ مجلَّداتٍ ضخمةٍ ٱنتبهْتُ وأنا أحفظُها كلَّها، فإذا هي جُملٌ صغيرة، جَعلَ الحُلْمُ كلَّ نبذةٍ منها سِفْراً ضخماً كما يُخيَّلُ لِلنائم أنَّهُ عاشَ عمراً طويلاً وأحدثَ أحداثاً ممتدَّة، على حين لا تكونُ الرؤيا إلا لحظة.

(١) المعتوه: المخبول.

(٢) سوّل: سوّغ وأوحى له وسمح.

وهذه هي المجلَّداتُ التي قلْتُ: إن التاريخ يتكلَّمُ بها في التاريخ . . .

المجلدُ الأول

ابتُلِيَ هذا ٱلطاغيةُ بنقيصتين: إحداهما من نفسِه، والأخرى من غيرِه؛ فأمَّا ٱلتي من نفسِهِ فإنِّي أراهُ قد خُلِقَ وفي مُخِّهِ لُفافَةٌ عَصَبِيَّةٌ من يَهوديةِ جَدِّهِ رأسِ هذه ٱلدعوة؛ فهو ٱلحاكمُ بْنُ ٱلعزيزِ بْنِ ٱلمعزِ بْنِ ٱلقاسمِ ٱلمهديِّ عُبيدِ ٱللهِ، ويقولون: إنَّ عبيدَ ٱللهِ هذا كانَ ٱبنَ ٱمرأةٍ يهوديَّةٍ من حدَّادٍ يهوديّ، فٱتفقَ أنْ جرى ذكرُ النساءِ في مجلسِ ٱلحسينْ بنِ محمدٍ ٱلقدَّاح، فوصفوا لَهُ تلك ٱلمرأةَ ٱليهوديَّة، وأنَّها آيةٌ في ٱلحسنْ؛ وكانَ لهَا مِنَ الحدادِ ولد، فتزوَّجَها ٱلرجلُ وأدَّبَ ٱبنَها وعلَّمَه، ثُمَّ عرَّفَهُ أسرارَ ٱلدعوةِ العَلَويةِ وعَهدَ إليهِ بها.

ومن بعض ٱللفائفِ ٱلعصبيَّةِ في ٱلمخِّ ما ينحدِرُ بالوارثةِ مطبوعاً على خيرِهِ أو شرِّه، لايَدَ لِلمرْءِ فيهِ ولا حِيلةَ لَهُ في دفعِهِ أوِ ٱلانتفاءِ منه، فيكونُ قَدَراً يَتسَلْسلُ في ٱلخَلْقِ لِيُحدِثَ غاياتِهِ المقدورة، فمتى وقعَ في مخٍّ إنسانٍ فالدنيا بِهِ كالحُبْلَى ولا بدّ أنْ تتمخَّضَ[1] عنه.

هذهِ ٱللّفافةُ ٱليهوديَّةُ في مخٍّ هذا ٱلطاغيةِ ستُحقِّقُ بِهِ قولَ ٱللَّهِ تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾ فهو لَنْ يكونَ ٱلعدوَّ لِلإسلام دونَ أنْ يكونَ ٱلأشدَّ في هذهِ ٱلعداوة، ولنْ يكونَ فيها ٱلأشدَّ حتى يفعلَ بها الأفاعيلَ ٱلمنكَرَة. وما أرى هذه ٱلمآذنَ ٱلقائمةَ في الجوِّ إلَّا تخرقُ بمنظرِها عينَهُ مِن بُغضِهِ لِلإسلامِ وٱنطوائِهِ على عُدوانِهِ؛ فويلٌ لها منه!.

وأمَّا ٱلنقيصةُ ٱلثانيةُ فقدِ ٱبْتُليَ بقومٍ فتنُوهُ بآرائِهم ومذهَبِهم، وهم حمزةُ بْنُ عليّ، وٱلأخرمُ، وفلان، وفلان.. وقدْ لفَّقوا لِلدنيا مذهَباً هو صورةُ عقولِهِمُ ٱلطائشة، لا يجيءُ إلَّا لِلهدم، ثُمَّ لا يضعُ أولَ مَعاوِلِهِ إلَّا في قُبةِ ٱلسماءِ لِيهدِمَها...! ولو أنا جمعْتُ هذا ٱلمذهبَ في كلمَةٍ واحدةٍ لَقلْتُ: هو حماقةٌ حمقاءُ تُريدُ إخراجَ ٱللَّهِ مِنَ ٱلوجودِ لإدخالِ اللَّهِ في بعضِ ٱلطغاة!

ويتلقَّبون في مذهبِهم بهذه الألقاب: العقل، الإرادة، الإمام، قائم الزمان، علة العلل...!

---

(١) تتمخّض عنه: تنتج عنه.

أظهرَ ٱلطاغيةُ أنَّ الله يؤيّدُ بهِ ٱلإسلامِ، لِيتألَّفَ ٱلجندَ والشعبَ ويستميلَهم إليه، وكانَ في ذلك لئيمَ ٱلكَيْدِ، دنيءَ ٱلحِيلة، يهوديَّ ٱلمكْر؛ فأمرَ بِعمارةِ ٱلمدارسِ لِلفقهِ وٱلتفسيرِ وٱلحديثِ وٱلفُتْيا، وبَذَلَ فيها ٱلأموال، وجعلَ فيها ٱلفقهاء (والمشايخ)، وبالغَ في إكرامِهم، والتَّوْسِعَةِ عليهم، وٱلتَّخَضُّعِ لهم، ودَخَل في ظلالِ ٱلعمائم. . . وأحضرَ لِنفسهِ فقيهَين مالكيَّين (اثنين لا واحد) يعُلِّمانِهِ ويُفقِّهانِهِ، وكانَ أشبَهَ بمُريدٍ مع شيخِ ٱلطريقةِ يَتسعَّدُ[1] بِهِ ويَتَيَمَّن[2]؛ أشرفُ ألقابِهِ أنه خادمُ ٱلعِمامةِ ٱلحضراء، وأسعدُ أوقاتِهِ ٱليومُ الذي يقولُ له فيه الشيخ: رأيْتُكَ في ٱلرؤيا ورأيْتُ لك. . . !

وكانَتْ هذه ٱلمعاملةُ ٱلإسلاميَّةُ ٱلكريمةُ من هذا الطاغية، هي بعينِها رِبا ٱللُّفافةِ ٱليهوديَّةِ في مُخِّه؛ تُصْلِحُ بإقراضِ مائةٍ، وفيها نيةُ الخرابِ بالستينَ في المائة. . . ! فإنَّهُ ما كادَ يتمكَّنُ مِنَ الناسِ ويعرفُ إقبالَهم عليهِ وثِقتَهم به، حتى طَلبتِ ٱللفافةُ ٱليهوديةُ رأسَ ٱلمال وٱلرِّبا؛ فأمرَهم بهدمِ تلكَ ٱلمدارسِ وإخرابِها، وأبطَلَ العيدَينِ وصلاةَ ٱلجمعة، وقَتَلَ ٱلفقهاء وقَتَلَ معهم فقيهيهِ وأستاذَيه، وعادَ كالمُريدِ ٱلمنافقِ معَ شيخِ ٱلطريقة، يقولُ في نفسِهِ: إنَّ هناك ثلاثةً تعملُ عملاً واحداً في الصيَّد: الفخ، والعِمامة، واللّحية. . . !

إنَّ هذا الطاغيةَ مِلِكٌ حاكم، يستطيعُ أنْ يجعلَ حماقتَهُ شيئاً واقعاً، فيقتلَ علماءَ ٱلدينِ بإهلاكهم، ويقتلَ مدارِسَ ٱلدينِ بإخرابِها، ولو شاءَ لاَسْتطاعَ أنْ يشنُقَ مِنَ ٱلمسلمينَ كلَّ ذي عِمامةٍ في عِمامتِه. ويبلغُ من كفرهِ أنْ يتبجَّحَ[3] ويرى هذا قوةً، ولا يعلمَ أنَّهُ لِهوانِهِ على اللَّهِ قد جعلَهُ ٱللَّهُ كالذبابةِ التي تُصيبُ ٱلناسَ بالمرض، وٱلبعوضةِ التي تقتلُ بٱلحمَّى، وٱلقملةِ ٱلتي تَضْرِبُ بِالطاعون، فلو فَخَرَتْ ذبابةٌ، أو تَبَجَّحَتْ قملةٌ، أو ٱستطالَتْ بعوضة، لجازَ لَهُ أنْ يَطِنَّ طنينَهُ في ٱلعالم. وهلْ فعلَ أكثرَ مِمَّا تفعل؟

لقد أوْدَى بأُناس يقومُ إيمانُهم على أنَّ ٱلموتَ في سبيلِ ٱلحقِّ هو ٱلذي يُخلِّدُهم في ٱلحق، وأنَّ ٱنتزاعَهم بٱلسيفِ من ٱلذي يضعُهم في حقيقتِها، وأنَّ هذه الروحَ ٱلإسلاميةَ لا يَطْمِسُها ٱلطغيانُ إلَّا لِيجلوَها.

---

(١) يتسعَّد: يجعله سبب سعادته.

(٢) يتيمّن: يتفاءل.

(٣) تبجح: أعلن فرحه وجاهر به مفتخراً.

إِنَّهُ ـ واللَّهِ ـ ما قَتَلَ ولا شَنَقَ ولا عَذَّب، ولكنَّ ٱلإسلامَ ٱحتاجَ في عصرِهِ هذا إلى قوم يموتون في سبيلِهِ، وأعوزَهُ ذلك ٱلنوعُ ٱلسامي مِنَ ٱلموتِ الأولِ ٱلذي كانَ حياةَ ٱلفِكرِ ومادةَ التاريخِ، فجاءَتِ ٱلقملةُ تحملُ طاعونها. . !

لقد أحياهم في ٱلتاريخ، أمَّا هم فقتَلوهُ في ٱلتاريخ، وجاءَهم بٱلرحمةِ من جميعِ ٱلمسلمين، أمَّا هم فجاءُوه بٱللعنةِ مِنَ ٱلمسلمين جميعاً!

المجلدُ الثالث

يرى هذا الطاغيةُ أنَّ الدينَ ٱلإسلاميَّ خُرافةٌ وشَعْوذةٌ عنِ ٱلنفس، وأنَّ محوَ ٱلأخلاقِ ٱلإسلاميَّةِ ٱلعظيمةِ هو نفسُهُ إيجادُ أخلاق، وأنَّ ٱلإسلامَ كانَ جريئاً حينَ جاءَ فٱحتلَّ هذه الدنيا؛ فلا يطردُهُ مِنَ ٱلدنيا إلَّا جَراءةُ شيطانٍ كٱلذي توَقَّحَ على ٱللَّهِ حينَ قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. ولِهذا أمرَ ٱلناسَ بسبِّ ٱلصَّحابة، وأنْ يُكْتبَ ذلك على حِيطانِ ٱلمساجدِ وٱلمقابرِ وٱلشوارع!

أخزاهُ ٱلله! أهي روايةٌ تمثيلية يُلْصِقُ ٱلإعلانَ عنها في كلِّ مكان؟ لو سمعَ لسمعَ ٱلمساجدَ وٱلمقابرَ وٱلشوارعَ تقول: أخزاهُ ٱلله. . . . !

المجلدُ الرابع

هذا ٱلفاسقُ لا يركبُ إلَّا حماراً أشهبَ يُسمِّيه: (القمر)، وقد جعلَ نفسَهُ مُحتسَباً لِغاية خبيثةٍ؛ فهو يدورُ على حِمارِهِ هذا في ٱلأسواقِ ومعَهُ عبدٌ أسود، فمَنْ وجَدهُ قد غَشَّ؛ أمرَ ٱلأسودَ فـ. . . ! ووقف هو ينظرُ ويقولُ لِلناس: انظروا. . . !

ومن غَلَبَةِ ٱلفُسوقِ على نفسِهِ وعلى شيعتِهِ أنّ داعيتَهُ (حُمزَة بْنَ عَليّ) نَوَّهَ[1] بٱلحمارِ في كتابِهِ وأومأَ إليهِ بالثناء، لِخصال: منها أن. . . ! وكتبَ حمزةُ هذا في بعضِ رسائلِهِ: أنَّ ما يرتكبُهُ أهلُ الفسادِ بجوارِ ٱلبساتينِ ٱلتي يمرُّ بها (الفاسقُ) مِنَ المنكَرِ وٱلفحشاء ـ إنما يُرتكَب في طاعتِه. . . !

هذه طبيعةُ كلِّ حاكم فاسقٍ مُلحد، يرى في نفسِهِ رذائلَهُ عُريانةً، فلا يكونُ كلامُهُ وعملُهُ وفكرُهُ إلَّا فُحشاً يتعرَّى؛ وإنَّ في هذا الرجلِ غريزةَ فسق بهيميّةً متصلةً بطَوْرِ[2] ٱلحيوانِ ٱلإنسانيِّ ٱلأول؛ فما من رَيْبٍ أنَّ في جسمِهِ خليَّةً عصبيَّةً مُهْتاجَةً،

(١) نوّه: ذكر فضائله.

(٢) طوْر بتسكين الواو: المرحلة.

ما زالَتْ تَسْبَحُ بالوارِثةِ في دماءِ ٱلأحياء، متلفِّفةً على خصائصِها، حتى ٱستقرَّتْ في أعصابِ هذا ٱلفاسق، فٱنفجَرتْ بكلِّ تلك ٱلخصائص.

ولسْتُ أرى أكثَرَ أعمالِهِ ترجعُ في مَرَدِّها إلَّا إلى طغيانِ هذهِ الغريزةِ فيه؛ فهو يُحاولُ هدمَ ٱلإسلام، لِأنَّهُ دينُ ٱلعِفَّةِ ودينُ صَوْنِ ٱلمرأة، يُلزِمُها حِجابَ عِفَّتِها وإبائِها، ويمنعُها ٱلابتذالَ وٱلخلاعة، ويُعينُها أنْ تتخلَّصَ مِمَنْ يشتهيها، ولو كانَ الحاكم... إنَّهُ يَمقتُ هذا الدينَ ٱلقويّ، كما يمقتُ اللصُّ ٱلقانون؛ فهو دينٌ يَثقُلُ على غريزتِهِ ٱلفاسقة، ولِكلِّ غريزةٍ في ٱلإنسان شعورٌ لامهَناً لها إلَّا أنْ يكونَ حرًّا حتى في ٱلتوهُّم؛ وهلْ يُعجِبُ ٱلسكِّيرَ شيءٌ أو يُرضيهِ أو يَلَذُّه، كما يُعجِبُهُ أنْ يرى الناسَ كلَّهم سُكارى؛ فَيَنْتشي هو بٱلخمر، وتسكرُ غريزتُهُ برؤيةِ ٱلسكْر؟

وما زالَ رأيُ ٱلفُسَّاقِ في كلِّ زمنٍ أنَّ ٱلحريةَ هي حريةُ ٱلاستمتاع، وأنَّ تقييدَ ٱللذةِ إفسادٌ لِلَّذَّة.

المجلدُ الخامس

يزعمُ ٱلطاغيةُ أنَّهُ يُعِزُّ قومَه، وما أراهُ يُعزِّهم، لكنَّهُ يمتحنُ ذلَّهم وضعفَهم وهوانَهم على ٱلأمم؛ يتجرَّأُ شيئاً فشيئاً، مُنتَظِراً ما يَتَسَهَّل، مترقِّباً ما يُمكن؛ وهو يرى أنَّ أخلاقَنا ٱلإسلاميَّةَ هي أمواتُنا دَفنوا أنفسَهم فينا؛ فمن ذلك يَهدمُ ٱلأخلاقَ ويظنُّ عندَ نفسِهِ أنَّهُ يهدمُ قبوراً لا أخلاقاً.

ولقد سَخِرَ منهُ ٱلمصريون بنكتةٍ من ظَرفِهمُ ٱلبديع، وجاءُوه من غريزتِه، فصنعوا ٱمرأةً مِنَ ٱلورقِ ٱلذي يُشْبِهُ ٱلجلد، وألبسوها خُفَّها وإزارَها، حتى لا يشكَّ مَنْ رآها أنّها آدميَّة، ثُمَّ وضعوا في يدها قِصَّةً وأقاموها في طريقه؛ فلمَّا رآها عَدَلَ إليها[1] وأخذَ من يدِها ٱلقِصةَ وقرأها، فإذا فيها سَبٌّ لَهُ ولِآبائِهِ؛ وسخريةٌ من جنونِهِ ورُعونتِهِ ٱلمضحكة؛ فغضَبَ وأمرَ بقتلِ ٱلمرأة؛ فكانَتْ هذه سخريةً أخرى حينَ تحقَّق أنَّها مِنَ ٱلورق، وأخذتْهُ ٱلنكتةُ ٱلظريفةُ بمثلِ ٱلبرقِ وٱلرعدِ؛ فٱستَشاطَ[2] وأمرَ عبيدَهُ مِنَ ٱلسودانِ بتحريقِ الدُّورِ ونهبِ ما فيها وسَبْيِ ٱلنساءِ والفُجورِ بهنّ؛ حتى جاءَ ٱلأزواجُ يشترون زوجاتِهم مِنَ ٱلعبيد، بعدَ أنْ طارَتِ ٱلزوبعةُ ٱلسوداءُ في بياضِ ٱلأعراض.

اِندلعَتْ ثورةُ ٱلفجورِ في ٱلمدينة، لا مِن ٱلعبيد، ولكنْ مِنَ ٱلحيوانِ ٱلعتيقِ ٱلمستقرِّ في هذا الطاغية.

---

(١) عدل إليها: مال وعرّج عليها. (٢) استشاط: اشتعل غضباً.

المجلدُ السادس

وهذه رُعونَةٌ من أقبحِ رُعوناتِهِ، كأنَّ هذا الحيوانَ لا يحسبُ نساءَ ٱلأمَّةِ كلَّها إلَّا نساءَه، فيأمُرهنَّ بأمر ٱمرأتِه، وكأنَّ ٱلنساءَ في رأيهِ إنْ هُنَّ إلَّا ٱستجاباتٌ عصبيَّةٌ تُطْلَقُ وتُرَدّ.

إنَّ لِموجةِ ٱلفِسْقِ في ٱلغريزةِ ٱلطاغيةِ جَزْراً ومداً يقعانِ في تاريخِ ٱلفسَّاق؛ فهذا الطاغيةُ قد جَزَرَتْ فيهِ ٱلموجة، فأمرَ أنْ يُمنَعَ ٱلنساءُ مِنَ الخروج ليلاً ونهاراً، لا تطأُ أرضَ ٱلمدينةِ قَدَمُ ٱمرأة، وأمرَ ٱلخفَّافينَ ألَّا يصنعوا لَهنَّ ٱلأخفافَ وٱلأحذيَةَ؛ ولَمَّا عَلِمَ أنَّ بعضَ ٱلنساءِ خرجْنَ إلى ٱلحماماتِ هَدَمَ ٱلحماماتِ عليهِنّ!

ولو مدَّتِ ٱلموجةُ في تفسُّقِ ٱلفاسقِ لَفَرَضَ على ٱلنساءِ ٱلخروجَ وٱلاتصالَ بٱلرجال وٱلتعرضَ لِلإباحةِ.

إنَّ ٱلصلاحَ وٱلفسادَ كلاهما فسادٌ ما لم يكنِ ٱلصلاحُ نظافةً في ٱلروحِ وسموًّا في ٱلقلب.

المجلدُ السابع

يزعمُ ٱلطاغيةُ أنَّهُ سيَهدمُ كلَّ قديم؛ وإنيِّ لَأخشى ـ والله ـ أنْ يأمرَ ٱلناسَ في بعضِ سَطَواتِ جنونِه: أنَّ كلَّ مَنْ كانَ له أبٌ أو أمّ بلغ ٱلستينَ فلْيقتلْه، لِتتخلَّصَ ٱلأمةُ من قديمِها ٱلإنسانيّ. . . !

كأنَّهُ لا يعرفُ أنَّهُ إنَّما يتسلطُ على أيَّامِ مُعاصريهِ لا على التاريخ؛ ويحكمُ على طاعةِ قومِهِ وعِصيانِهم لا على قلوبِهم وطِباعِهم ومِيراثِهم مِنَ ٱلأسلاف؛ فما هو إلَّا أنْ يهلِكَ حتى ينبعثَ في ٱلدنيا شيئان: نَتْنُ رِمَّتِهِ[1] في بطنِ ٱلأرض، ونتْنُ أعمالِهِ على ظهرِ ٱلأرض. إنَّ هذا ٱلرجلَ ٱلمسلَّطَ، كٱلغُبارِ ٱلمُسْتَطارِ لا يُكْنَسُ إلَّا بعدَ أنْ يقعَ. . .

ولقد رأى ٱلمـأفونُ أنَّ أكلَ ٱلناسِ ٱلملوخيًّا ٱلخضراءَ وٱلفُقَّاع، وٱلتُّرمُسَ والجِرْجيرَ، والزبيبَ والعنب ـ هوًى قديمٌ في طِباعِ ٱلناس، فنهى عن كلِّ ذلك، لا يُباعُ ولا يُؤكل، وظهرَ على أنَّ جماعةً باعُوا أشياءَ منها فضَرَبهُم بٱلسيَّاط، وأمرَ فَطيفَ بهم في ٱلأسواق، ثُمَّ ضَربَ أعناقَهم؛ كأنَّ ٱلذي يحملُ ٱلملوخيًّا الخضراءَ على رأسِهِ لِيبيعَها يلبسُ عِمامةً خضراء. . .

---

(١) رِمّته: جيفته.

أهذا ـ وَيْحه ـ تجديدٌ في ٱلأمة، أم تجديدٌ في ٱلمعِدة. . .؟

المجلدُ الثامن

لا يرضَى ٱلطاغيةُ إلَّا أنْ يَمْحَقَ[1] روحانيَّةَ ٱلأمَّةِ كلِّها، فلا يتركُ شيئاً رُوحانيًّا لَهُ في أعصابِ الناسِ أثرٌ مِنَ ٱلوقار، وبِمَنْ يَسْتَظهِرُ ـ ويْلَه ـ إذا مُحِقَتْ روحانيَّةُ ٱلأمَّةِ وأشرفَتْ نَزْعتُها الدينيةُ على ٱلانحلال؟ كأنَّهُ لا يعلمُ أنَّ حقيقةَ ٱلوجود لِأمةٍ مِنَ ٱلأممِ إنَّما تُستَمدُّ من إيمانِها بالمثَلِ ٱلأعلى ٱلذي يدفعُها في سِلْمِها إلى الحياةِ بِقوة، كما يدفعُها في حربِها إلى ٱلموتِ بقوَّة؛ وكأنَّهُ لا يعلمُ أنَّ ٱلتاريخَ كلَّه تُقرِّرهُ في ٱلأرض بِضعةُ مبادىءَ دينيَّة.

هذا ٱلحاكمُ ٱلأخرقُ هو عندي كٱلذي يقولُ لِنفسِه: لم أستطعْ أنْ أفتحَ دولة، فلأفتحْ دولةً في مملكتي. . . لقد أمرَ بهدمِ ٱلكنائسِ وٱلبِيَع، حتى بلغَ ما هدَم منها ثلاثينَ ألفاً ونيِّفاً.

أيُّ مجنونٍ أسخفُ جنوناً من هذا ٱلذي يحسبُ ٱلنفوسَ ٱلإنسانيَّةَ كٱلأخشاب؛ تَقْبَلُ كلُّها بغيرِ ٱستثناءٍ أنْ تُدقَّ فيها ٱلمسامير. . .؟

سيعلمُ إذا نشبَتْ حربٌ بينَهُ وبينَ دولةٍ أخرى، أنَّهُ كسرَ أشدَّ سيوفِهِ مضاءَ حينَ كسَرَ ٱلدين!

المجلدُ التاسع

هذه هي ٱلطامَّةُ ٱلكُبرى؛ فلا أدري كيف أكتُبُ عنها: لقد تطاوَلَ ٱلمجنونُ إلى الألوهيَّةِ فٱدَّعاها، وصارَ يكتبُ عن نفسِهِ: بٱسم ٱلحاكمِ ٱلرحمن!

لو كان أغبى ٱلأغبياءِ في موضعِهِ لَٱتَّقى شيئاً، لا أقولُ تقوى ٱلدينِ وٱلضمير، ولكنْ تقوى ٱلنِّفاقِ ٱلسياسيّ؛ فكانَ يحملُ ٱلناسَ على أنْ يقولوا عنه: «أبانا الذي في ٱلأرضين. . . . !».

وإلَّا فأيُّ جهلٍ وخَبْطٍ، وأيّ حُمقٍ وتَهوُّر، أنْ يكونَ إلٰهٌ على حمارٍ، وإنْ كانَ ٱسمُ حمارِهِ القمر!

المجلدُ العاشر

سيأخذُهُ ٱللَّهُ بٱمرأة؛ ولِكلِّ شيءٍ آفةٌ من جِنسِه؛ لقد بلغَ من وقاحةِ غريزتِهِ أنْ

---

(١) يمحق: يسحق، يمحو.

ٱئْتَفَكَ[1] أختَهُ ٱلأميرةَ (ستّ المُلك)، ورماها بٱلفاحشة، وهي من أزكى ٱلنساءِ وأفضلِهِنّ، وٱتّهمها بالأمير (سيف الدين بنِ الدَّوّاس) وقد علمْتُ أنّها تُدبّرُ قتلَه، وأنّها ٱجتمعتْ لذلك بسيفِ الدين. فسأُمسك عن ٱلكتابةِ في هذا المجلد، وأدعُ سائرَهُ بياضاً حتى أذهبَ إليهما فأُعينَهما بما عندي مِنَ ٱلرأي، ثُمَّ أعودُ لِتدوينِ ما يقعُ من بَعد. . .

* * *

ورأيتُ أنّي ٱجتمعْتُ بِهما وٱطمأنّا إليّ، فأخذْنا نُديرُ ٱلرأي:

قالتِ ٱلأميرةُ لِسيفِ ٱلدين فيما قالَتْه: «وٱلرأيُ عندي أنْ تُتْبِعَهُ غِلماناً يقتلونَهُ إذا خرجَ في غدٍ إلى جبلِ ٱلمقطّم، فإنَّهُ ينفردُ بنفسِهِ هناك!».

فقلْتُ أنا: «ليسَ هذا بالرأيِ ولا بٱلتدبير».

قالَتْ: «فما ٱلرأيُ وٱلتدبيرُ عندك؟».

قلت: «إنَّ لنا عِلْماً يسمونَهُ (علم النفس)، لم يقعْ لِعلمائِكم، وقد صحَّ عندي من هذا العِلْمِ أنَّ ٱلرجلَ طائشُ ٱلغريزةِ مجنونُها، وأنَّ ٱلأشعةَ ٱللطيفةَ ٱلساحرةَ ٱلتي تنبعثُ من جسمِ ٱلمرأةِ هي ٱلتي تنفجرُ في مُخِّهِ مرّةً بعدَ مرّة؛ فإذا خَبَتْ[2] هذه الأشعة، وبطَلَتِ ٱلغريزة، بَطَلتْ دواعي أعمالِهِ ٱلخبيثةِ كلُّها، وكَفَّ[3] عن محاولتِهِ أنْ يجعَلَ ٱلأمَّةَ مملوءةً من غرائزِ جسمِهِ وشهواتِهِ، لا من فضائِلِها ودينِها. فلو أخذْتُم برأيي وأمضيتُموه فإنَّهُ سيُنكِرُ أعمالَهُ إذا عرَضَها على نفسِهِ ٱلجديدة، وبهذا يُصلحُ ما أفسد، وتكونُ حياتُهُ قد نطقَتْ بكلمتِها ٱلصحيحةِ كما نطقَتْ بكلمتِها ٱلفاسدة؛ فإذا. . . .».

قالَ ٱلأمير: «فإذا ماذا؟».

قلت: «فإذا خُصِيَ. . . .».

فضحكَتْ سِتُّ ٱلملكِ ضحكةً رنَّتْ رنيناً.

قلت: «نعم إذا خُصيَ هذا الحاكم».

فغلبَها ٱلضحكُ أشدَّ مِنَ ٱلأول، ورمتْني بمنديلٍ لطيفٍ كانَ في يدِها أصَابَ وجهي، فٱنتهبتُ وأنا أقول:

«نعم إذا خُصِيَ هذا الحاكم. . .».

---

(١) ائتفك: اتّهم بالفجور. (٢) خبت: سكنت. (٣) كفّ: توقّف.

كُفْرُ الذُّبابة . . .

قالَ كَلِيلةُ وهو يَعِظُ دِمْنَةَ ويُحَذِّرُهُ ويَقضي حقَّ ٱللَّهِ فيه؛ وكانَ دِمنةُ قد داخلَهُ ٱلغرورُ وزَهَاهُ ٱلنَّصر، وظهرَ منهُ ٱلجفاءُ وٱلغِلْظة، ولَقِيَ ٱلثعالبُ من زيغِهِ[١] وإلحادِهِ عنَتاً شديداً:

. . . وٱعلمْ يا دِمنةُ أنَّ ما زعْمتَهُ من رأيك تامٌّ لا يعتريهِ ٱلنقص، هو بعينِهِ الناقصُ الذي لم يتمَّ؛ والغرورُ ٱلذي تُثبِتُ بِهِ أنَّ رأيكَ صحيحٌ دونَ ٱلآراء، لعلَّهُ هو ٱلذي يُثبت أنَّ غيرَ رأيكَ في ٱلآراءِ هوَ ٱلصحيح.

ولو كانَ ٱلأمرُ على ما يتخيَّلُ كِلُّ ذي خيال، لَصدَقَ كلُّ إنسانٍ فيما يزعم، ولو صدَقَ كلُّ إنسانٍ فيما يزعمُ، لكذَبَ كلُّ إنسان؛ وإنَّما يدفَعُ ٱللَّهُ ٱلناسَ بعضَهم ببعض، لِيجيءَ حقُّ ٱلجميعِ مِنَ ٱلجميع، ويبقى ٱلصغيرُ مِنَ ٱلخطأ صغيراً فلا يكبر، ويثبُتَ ٱلكبيرُ مِنَ ٱلصوابِ على موضعِهِ فلا يُنتقص، ويصحَّ ٱلصحيحُ ما دامتِ ٱلشهادةُ لَه، ويفسُدَ ٱلفاسدُ ما دامَتِ ٱلشهادةُ عليه، وما مثَلُ هذا إلَّا مَثَلُ ٱلأرنبِ وٱلعلماء.

قالَ دِمنة: وكيفَ كانَ ذلك؟

قال: زعموا أنَّ أرنباً سمَعتِ ٱلعلماءَ يتكلَّمون في مصير هذه الدنيا، ومتى يتأذَّنُ[٢] ٱللَّهُ بٱنقراضِها، وكيف تكونُ ٱلقارعة[٣]؛ فقالوا: إنَّ في ٱلنجوم نجوماً مُذَنَّبةً، لوِ ٱلتفَّ ذنَبُ أحدِها على جِرْمِ أرضِنا هذه لَطارَتْ هَوَاءَ كأنَّها نفخةُ ٱلنافخ، بلْ أضعفُ منها كأنَّها زَفرةُ صدرِ مريض، بلْ أوهى كأنَّها نَفْثَةٌ من شفتين. فقالَتِ ٱلأرنب: ما أجهلَكم أيُّها العلماء! قد وٱللَّهِ خَرِفْتُم وتكَذَّبتم وٱستَحْمَقْتُم؛ ولا تزالُ ٱلأرضُ بخيرٍ معَ ذَواتِ ٱلأذناب؛ وٱلدليلُ على جهلِكم هو هذا ـ قالوا: وأرْتهُم ذَنَبَها . . . !

قالَ كليلة: وكم من مغرورٍ يُنْزِلُ نفسَهُ مِنَ ٱلأنبياءِ منزلةَ هذه الأرنبِ من

---

(١) زيغه: روغانه. (٢) يتأذن: يسمح. (٣) القارعة: القيامة.

أولئك العلماء؛ فيقول: كذَبوا وصدَقْتُ أنا، وأخطأُوا جميعاً وأصبْتُ، وٱلْتَبَسَ عليهم وٱنكشَفَ لي، وهم زعموا وأنا ٱلمستَيْقِن. ثُمَّ لا دليلَ لَهُ إلَّا مثلُ دليلِ ٱلأرنبِ ٱلخرقاءِ من هَنَةٍ تتحرّكُ في ذنبِها.

وكانَ يُقال: إنَّهُ لا يُجاهِرُ[1] بالكفرِ في قوم إلَّا رجلٌ هانَ عليهم فلم يَعبئوا بِه، فهو ٱلأذلُّ المستضَف؛ أو رجلٌ هانوا عليهِ فلَم يعبأْ بهم، فهوَ ٱلأعزُّ ٱلطاغية؛ ذاك لا يخشَونَهُ فيَدَعُونَهُ لِنفسِهِ وعليهِ شهادةُ حُمقِه، وهذا يخشونَهُ فيتركون مُعارضَتَهُ وعليهِ شهادةُ ظُلمِه؛ وما شرٌّ من هذا إلَّا هذا.

وقَالَتِ ٱلعلماء: إنْ كنْتَ حاكماً تَشْنُقُ مَنْ يُخالِفُكَ في ٱلرأي، فليسَ في رأسِكَ إلا عقلٌ ٱسمُهُ ٱلحَبل؛ وإنْ كنْتَ تَقتلُ مَن يُنكرُ عليك ٱلخطأ، فليسَ لَكَ إلَّا عقلٌ ٱسمُهُ ٱلحديد؛ وإنْ كنْتَ تحْبِسُ مَنْ يُعارضُك بِالنظر، ففيك عقلٌ ٱسمُهُ ٱلجِدار؛ أمّا إنْ كنْتَ تُناظِرُ[2] وتُجادِل، وتقنعُ وتقتنع، وتدعو ٱلناسَ على بَصيرةٍ ولا تأخذُهم بالعَمَى ـ ففيكَ ٱلعقلُ ٱلذي ٱسمُهُ العقل.

* * *

قالَ كليلة: وأنا يا دِمنة، فلو كنْتُ قائداً مُطاعاً، وأميراً مُتَّبَعاً، لا يُعصَى لي أمر، ولا يُردُ عَلَيَّ رأيّ، ولا يُنكَرُ مني ما يُنكَرُ مِنَ ٱلمخلوقِ إذا أخطأ، ولا يُقالُ لي دائماً إلَّا إحدى ٱلكلمتين: أصبْتَ، ثُمَّ هي دائماً أصبْت؛ ولا يَلْقاني أحدٌ من قومي بِٱلكلمةِ الأخرى، رَهْبةً من سَخَطِي[3]، رَهْبَةَ ٱلجُبناء، أو رغبةً في رِضايَ رغبةَ ٱلمُنافقين، وزعموا أنَّهم على ذلك قد صَحَّتْ نِيّاتُهم وخلَصَ لي باطنُهم جميعاً ـ فلو كنْتُ وكانوا على هذا، لأحالَني نقصُهم إلى نقصِ ٱلعقلِ بعدَ كمالِه، وردَّتني فُسولتُهم إلى فُسولةِ ٱلرأي بعدَ جَوْدتِه، فأَخْلِقْ[4] بي أنْ أعتبرَ وضْعَهم إيايَ في موضعِ ٱلآلهة، هو إنزالَهم إياي في منزلةِ ٱلشياطين؛ وإلَّا كنْتُ حقيقاً أنْ يُقصيبني ما أصابَ ٱلعَنْزَ ٱلتي زعموا لها أنَّها أنْثى الفيل...

قالَ دِمنة: وكيفَ كانَ ذلك؟

قال: زعموا أنَّهُ كانَ في إحدى خَرائبِ ٱلهندِ جماعةٌ منَ ٱلعظاءِ[5]، وكانَ

---

(١) يجاهر: يعلن على الملأ من الناس.

(٢) تناظر: تجادل وتحاور.

(٣) سخطي: غضبي.

(٤) أخلق بي: أجدر بي.

(٥) العِظاء، مفرده عِظاءة وعَظاية، وهي السحلية.

فيها عَضْرَ فُوطٌ كبير(١)، فملَّكَتْهُ ٱلجماعةُ وذهبَتْ تأتَمِرُ(٢) على أمْرِهِ وتنتَهي. فمرّ بهذه الخِرْبَةِ فيلٌ جسيمٌ مِنَ ٱلفِيَلةِ ٱلهنديَّةِ ٱلعظيمة، لم يُحِسَّ بٱلعَظَاء، ولم يُميِّزْ فَرْقاً بين هذه الأمَّةِ مِنَ ٱلحشراتِ وبينَ ٱلحصى منثوراً يلْتَمِعُ في ٱلأرضِ هنا وهنا؛ قالوا فغضبَ ٱلعَضْرَفُوطُ، وكانَ قائداً عظيماً، ثُمَّ تدبّر أمْرَ ٱلفيلِ ينظرُ كيفَ يصنعُ في مُدافَعَتِه(٣)، وكيف يحتالُ في هَلاكِه، فرآهُ لا يتحركُ إلَّا بأقدامِهِ يَنقلُها واحدةً واحدة؛ فقدَّرَ عندَ نفسِهِ أنَّهُ لو أزالَ قدَمَ الفيلِ عنِ ٱلأرضِ زالَ الفيلُ نفسُه؛ فجاءَ فٱعترضَ ٱلطريقَ، ودَبَّ دبيبَه؛ فلمَّا رفعَ ٱلفيلُ قدمَه ٱهْتَبَلَ(٤) هذه الغَفْلَةَ منه. وٱنْدسَّ(٥) تحتها، فٱندسَّ مقبوراً في التراب!

ثُمَّ إن ٱلعَظَاءَ ٱفتَقَدَتْ أميرَها. فلمَّا مضى ٱلفيلُ لِسبيلِهِ ورأتْ ما نزلَ بها، نَفَرَتْ إلى أجحارِها(٦)، وٱستكنَّتْ(٧) فيها ترتَقِبُ وتَتَربَّص(٨)، فدخلَتْ إلى ٱلخِربةِ عَنْزٌ جعلَتْ تتقممُ منها وتَرْتَعُ فيها، ورأتْها ٱلعَظَاءُ فٱجتمعْنَ يأتَمِرْن(٩) . . .

فقالَ منها قائل: هذه أنثى الفيل. فسألَتْ عَظَايةٌ منهنّ: وأينَ ٱلنابانِ العظيمان؟

قالَتِ ٱلأولى: إنَّ الإناثَ دونَ الذكورةِ في خَلْقِها، والأنثى هي ٱلذكَرُ مقلوباً أو مختصراً أو مشوَّهاً، ولذلك هنَّ يَقْلِبْنَ ٱلحياةَ أو يختصرْنَها أو يشوِّهْنَها، أفلا ترينَ ٱلنابينِ ٱلعظيمينِ البارزينِ في ذلك الفيلِ الجسيم، كيف نَبَتَا صغيرينِ منقلبين فوقَ رأس أنثاه. . .؟

فقالَتْ واحدة: إنْ جازَ قولُك في ٱلرأي فأينَ ٱلخُرْطُوم؟

قالتِ ٱلأخرى: هو هذه الزَّنمةُ المتَدلِّيةُ من حَلْقها، وذلك خُرطومٌ على قدْرِ أنوثةِ ٱلأنثى. . . !

قالوا: ثُمَّ ٱجتمعَ رأيُهُنَّ على أنْ يُمَلِّكْنَ أنثى ٱلفيلِ هذه؛ وأنْ يَهَبْنَ لها الخِربَةَ وأُمَّتَها. وسمعَتِ ٱلماعِزَةُ كلامُهُنَّ فقالَتْ في نفسِها: لا جَرَمَ أنَّ تكونَ ٱلعنزُ فيلةً في أمَّةٍ مِنَ ٱلعَظَاء، فقد قَالَتِ ٱلعلماء: إنَّهُ لا كبيرَ إلَّا بصغير، ولا قَوِيَّ إلَّا بضعيف،

(١) العضرفوط هو ضرب من العظاء يكون أكبر منها.
(٢) تأثمر: تنصاع لأمره.
(٣) مدافعته إبعاده بالحيلة.
(٤) اهتبل: انتهز.
(٥) اندس: دخل خلسة.
(٦) أجحارها: أوكارها.
(٧) استكنّت: كمنت.
(٨) تربّص: تنتظر غفلة.
(٩) يأتمرن: يتناقشن.

ولا طاغيةَ إلّا بذليل؛ وإنَّ العظمةَ إنْ هي إلّا شهادةُ ٱلحقارةِ على نفسِها، وإنَّهُ رُبَّ عظيمٍ طاغيةٍ متَجَبِّرٍ ما قامَ في ٱلناس إلّا كما تقومُ ٱلحِيلة، ولا عاشَ إلّا كما يعيشُ ٱلكَذِب، ولا حَكَمَ إلّا كما يَحكمُ ٱلخِداع. وهذه الدنيا لِلمحظوظِ كأنَّها دنيا لَهُ وحدَه، فمتى جاءَتْ إليهِ فقد جاءَت، ولو أنَّها أدبرَتْ[1] عنه من ناحيةٍ لَرجعَتْ من ناحيةٍ أخرى، لِيثبتَ ٱلحظُّ أنَّهُ الحظ.

وتقدَّمَ ٱلعَظَاءُ إلى العنز، فقُلْنَ لها: أيَّتُها ٱلفِيلةُ العظيمة، إنَّ قرينَكِ العظيمَ قد مسَّ أميرَنا العَضْرَفُوطَ بقدمِهِ فغيَّبَهُ تحتَ سبْعِ أرَضِين، وأنت أنثاهُ وسيِّدتُه، فقدِ ٱخترناكِ مَلِكةً علينا، ووهبْنَا لك ٱلخِربَةَ وما فيها.

قالَتِ ٱلعنز: فإنِّي أتَّهِبُ منكُنَّ هذه الهِبَة، ونِعِمَّا صَنَعْتُنَّ؛ غيرَ أنَّ بينكُنَّ وبيني ما بينَ العَظَايَةِ وٱلفيل. وما بينَ ٱلحصاةِ والجبل، فإذا أنا قلْتُ، فأنا قلْت؛ وإذا أنا أمرْتُ، فأنا أمَرْت؛ وإذا أنا فعلْتُ، فأنا فعلْت. هنا في هذه الأمَّةِ كلِّها (أنا) واحدةٌ ليسَ معها غيرُها؛ لأنَّ هٰهنا في هذا الرأسِ دماغَ فِيلة، وفي هذا ٱلجسم قوةَ فِيلة، وفي ٱلخِربَةِ كلِّها فيلةٌ واحدة؛ فلا أعْرِفَنَّ منكُنَّ على ٱلصواب وٱلخطأ إلّا ٱلطاعةَ طاعةَ ٱلأعمى لِلبصير. ألا وإنَّ أوّلَ ٱلحقائقِ أنّني فيلةٌ وأنكُنَّ عَظَاء؛ ومتى بدأَ ٱليقينُ من هنا سَقَطَ ٱلخِلافُ من بينِنا وبَطلَ ٱلاعتراضُ منكُنّ، وقوَّتي حقٌّ لِأنَّها قوّة، وباطلي كذلك حقٌّ لِأنَّهُ من قوّتي؛ وقد قال أسلافُنا[2] حكماءُ ٱلفِيلَةَ: إنَّ القويَّ بينَ ٱلضعفاءِ مَشيئةٌ مُطْلَقة، فهو مُصْلِحٌ حتى بالإفساد، حكيمٌ حتى بِٱلحماقة، إمامٌ حتى بٱلحرافة، عالمٌ حتى بالجَهَالة نَبِيٌّ حتى بالشَعوذَة. . . . !

قالوا: وتُنكِرُ عليها عَظَايَةٌ صالحةٌ عالمةٌ كانَتْ ذاتَ رأيٍ ودِينٍ في قومِها، وكُنّ يُسمِّينَها: (العِمامَة)، لِبياضِها وصلاحِها وطهارتِها، فقالت: ولا كلُّ هذا أيتُها ٱلفيلة؛ لقد تَخَرَّصْتِ[3] غيرَ ٱلحق؛ فإنَّكِ تحكيمنَنا من أجْلِنا لا من أجلِكِ، وما قولُكِ إلّا كلماتٌ تُحقِّقُها أعمالُنا نحن؛ فَلَكِ ٱلطاعةُ فيما يُصْلِحُنا، وما كانَ من غيرِهِ فهو رَدٌّ عليك، ورأيُكِ شيءٌ ينبغي أنْ تكونَ معه آراؤنا، لِتَتَبيَّنَ ٱلأسبابُ أسبابُ ٱلموافقَةِ وٱلمخالَفة، فنأخذَ عن بيِّنَةٍ ونتركَ عن بيِّنة؛ وقد كان يُقالُ في قديمِ ٱلحِكمة: إنَّهُ يجبُ على مَنْ يُقدِّمُ رأياً لِلأمَّةِ الحازِمةِ كي تأخذَ به، أو يضَعُ لهَا شرعاً لِيحْمِلَها عليه، أو يَسنُّ لها سنَّةً لِتَتَّبعَها ـ إنَّهُ يجبُ على هذا ٱلمتقدّمِ لِتحويلِ

---

(١) أدبرت: رحلت.   (٢) أسلافنا: أجدادنا.   (٣) تخرّصت: تقوّلت.

ٱلأمَّةِ أو تحريرِها يتقدَّمَ لِأهلِ ٱلشُّورَى وفي رأسِهِ ٱلرأيُ، وفي عنقِهِ حَبْل؛ ثُمَّ يتكلَّمُ برأيِهِ ويَبْسُطُهُ ويدْفعُ عنه، ويُجادلُهم ويُجادلونَه؛ فإنْ كانَ ٱلرأيُ حقًّا أخذوا ٱلرأي، وإنْ كانَ باطلاً أخذوا الحبلَ فشنقوا فيهِ هذا المتهوّر.

وفي دينِنا أنّ الطاعةَ في ٱلمعصيةِ معصيةٌ أخرى؛ ولقد كانَ لنا عَضْرفُوطٌ بَحَّاثَةٌ في ٱلأديانِ دَرَّاسَةٌ لِكتبِها عَلاَمَةٌ نَقَّابٌ؛ فكانَ مِمَّا علَّمنا: أنَّ ٱلمخلوقَ مبنيٌّ على النقصِ إذْ هو ماضٍ إلى ٱلفناء، فيجبُ ألّا يتمَّ منه شيءٌ إلَّا بمقدار، وألَّا تكونَ ٱلقوةُ فيهِ إلَّا بمقدار؛ ولهذا كانَ ٱلعقلُ ٱلتامُّ في الأرضِ هو مجموعَ ٱلعقولِ ٱلعظيمةِ كلِّها، وكانَ أتمُّ ٱلآراءِ وأصحُّها ما أثبَتتِ ٱلآراءُ نفسُها أنَّهُ أصحُّها وأتمُّها. فلا ٱلدينَ ٱتَّبعْتِ أيّتُها ٱلفيلةُ، ولا ٱتَّبعْتِ ٱلعقل، وليسَ إلَّا هذا (ٱلتفيُّلُ) ٱلكاذب.

فلمَّا سمَعتِ ٱلعنزُ ذلك تنقَّشَتْ وغضبَتْ، وقالَت: إيَّاكم وهذه الترهَّاتِ من ألسنتِكم، وهذه الأباطيلَ في عقولِكم؛ لا أسْمَعَنّ منكم كلمةَ ٱلدينِ ولا كلمةَ الأنبياءِ ولا العَضَافيط... فذلك وحيٌ غيرُ وحيي أنا؛ وإذا كان غيرَ وحْيي أنا فأنا لستُ فيه، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يَصْلُحُ لِلحكمِ الذي شَرْطُهُ أنَّ الدولةَ ليس فيها إلَّا أنا واحدة. وذلك إنْ لم يجعلْكم غُرباءَ عني جعلني غريبةً عنكم، ما بُدٌّ من إحدى الغُرْبتين، فهو أوّلُ ٱلقَطيعة، والقطيعةُ أوّلُ ٱلفساد. وما دامَ في ٱلدينِ أمرٌ غيرُ أمري، ونَهْيٌ غيرُ نَهْيي، وتحليلٌ وتحريمٌ لا يتغيرانِ على مشيئتي ـ فأنا مجنونةٌ إنْ رضيْتُ لكم هذا...!

فضَحِكَتِ (العِمامةِ) وقالَتْ لِلماعزة: بل قولي: أنا مجنونةٌ بـ (أنا)؛ أفلا يجوزُ وأنتِ خَلْقٌ مِنَ ٱلخلْقِ أنْ يَعْتَرِيَ عقلَكَ شيءٌ مِمَّا يعتري ٱلعقول؟ ولَسْنَا نُنكرُ أنَّكِ قويَّةُ ٱلرأي في ناحيةِ ٱلقوة، حَسَنَةُ ٱلتدبيرِ في ناحيةِ ٱلشجاعة، متجاوِزةُ المِقدارِ في ناحيةِ ٱلحَزْمِ وٱلحِرْصِ على مصالحِ ٱلدولة؛ ولكنْ ألم يقلِ ٱلحكماء: إنَّ الزيادةَ ٱلمسْرِفةَ في جهةٍ مِنَ ٱلعقل، تأتي مِنَ ٱلنقصِ ٱلمتحيِّفِ[1] لِجهةٍ أخرى؛ وإنَّهُ رُبَّ عقلٍ كانَ تامًّا عَبْقَريًّا في أمورٍ، لكِنَّهُ ضعيفٌ أبلهُ في غيرِها؛ يُحسِنُ في تلك ما لا يُحسِنُهُ أحد، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمُهُ أحد، ثُمَّ يَغلَطُ في ٱلأخرى ما لا يغلَطُ أحدٌ فيه؟

قالوا: فجاشَتِ[2] ٱلعنزُ وفارَتْ مِنَ ٱلغضبِ فَوْرَةَ ٱلجبَّار، وخُيِّلَ إليها من

(١) المتحيّف: الجائر، الظالم.
(٢) جاشت: استشاطت غضباً.

عَمَى ٱلغيظِ أنّها ذهبَتْ بينَ ٱلأرضِ وٱلسماء، وأنَّ زَنْمَتَها ٱمتدَّ منها خُرطومٌ طويل، وأنّ قرْنيها ٱنْبَعَجَ منهما نابانِ عظيمان؛ وقالَت: ويْحَكُم! خذوا هذه (العِمامة) فٱشنقوها؛ فإنَّها كما قالَت؛ تقدّمَتْ إلينا بالرأْي وٱلحلِّ. . . !

وكانَ في العَظَاءِ ضِعافٌ ومَهازيلُ وجُبناءُ، ومأْكولون لِكلِّ آكل؛ فَتَشَبَّحَ[1] لهم أنَّ أنثى ٱلفيل هذه. . . ستَخْلُقُهُم فِيَلةً إنْ هم أطاعوها؛ فإذا مَرَدُوا[2] عليها فإنَّها من صرامةِ ٱلبأسِ بحيثُ تجعلُ كلَّ ظِلْفٍ من أظلافِها جبلاً فوقَهم كأنَّهُ ظُلَّةٌ فَتسُوخُ بهمُ ٱلأرض. ثُمَّ إنهم انْخَزلوا وترَاجَعوا، وأُخِذَتِ (العِمامةُ) الصالحةُ فشُنِقَتْ، وخَمدَ ٱلرأيُ من بعدِها، وٱنقطعَ ٱلخِلافُ والدّينُ والعقلُ الحرّ. . . ؛ وأقبلَتْ دولةُ ٱلعَظَاءِ على العنزِ تُجرّرُ أذيالها.

قالوا: وٱغترَّتِ ٱلماعِزةُ وأحسَّتْ لها وجوداً لم يكن، وعرفَتْ لِنفسِها وهي ماعزةٌ نَبَاهَةَ شأْنِ ٱلفيلِ ٱلقويّ، فَلَجَّتْ[3] في عمَايتِها وكفَرتْ بجنسِها، وقالت: لم يخلقني ٱللَّهُ فِيلةً وخلقْتُ نفسي؛ فأنا لا هو. . .

وثَبتَ عندَها أنها ليسَتْ بعنْزٍ وإنْ أشبهَتْها كلُّ عنزٍ في ٱلدنيا؛ وذهبَتْ تُقلِّدُ وتعيشُ على مذاهبِ ٱلفِيَلةِ بينَ ٱلعَظَاء؛ فإذا مَشَتْ ٱرتجَّتْ وتخطَّرَتْ كأنّها بِناءٌ يتقلقل، وإذا ٱضطجعَتْ أنذَرتِ ٱلأرضَ أنْ تتَمسَّكَ لا تَدُكَّها بجنبِها. . . . !

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا ٱلخرابِ مرّةً أخرى، فلاذَتِ ٱلعَظَاءُ كلُّهنَّ بالفِيلة. . . وتأَهَّبَتْ هذهِ لِلقتال، وتحصَّفَتْ في ٱلمبارزَةِ وٱلمناجزَة. . . (والمعانَزَة) فنَصبَتْ قرنيها، وحرّكَتْ زنمتَها، وطأْطأَتْ، وشدَّتْ أظلافَها في الأرض، وثبَّتَتْ قوائمَها، وصلَّبَتْ عظامَهَا، ونفشَتْ شعرَها، وتَشَوّكَتْ[4] كالقُنفذ، وأصرَّتْ بكلِّ ذلك إصرارَها، وكانَتْ عنزاً نَطِيحةً منذ كانَتْ تَتْبَعُ أمَّها وتتلوها، فكيف بها وقد تَفَيَّلَتْ. . . ؟

ثُمَّ إنَّها ثبتَتْ في طريقِ ٱلفيلِ لِيرى بعينيهِ هذا ٱلهوْلَ ٱلهائل. . . فأقبَلَ فمدَّ خرطومَه، فنالَها بِه، فلفَّها فيه، فقَبَضَه، فرفَعَه، فطوَّحَها[5]، فكأنَّما ذهبَتْ في ٱلسماء. . . !

---

(١) تشبّح: خيّل إليهم أنه شبح.

(٢) مردوا: تمرّدوا.

(٣) لَجّت: تمادت.

(٤) تشوّكت: أظهرت في جلدها ما يشبه الشوك.

(٥) طوّح: تحرك ذات اليمين وذات اليسار.

وتهارَبَتِ ٱلعَظَاءُ ولُذْنَ[1] بأجْحَارِهِنّ، ثُمَّ غَدَوْنَ على رِقِهِن؛ فإذا جِيفَةُ ٱلعنزِ غيرَ، بعيد، فَذَبَبْنَ عليها وٱرتَعَيْنَ فيها، وعَلِمْنَ أنَّها كانَتْ ماعِزَةً فَيَّلَها جنونُها، وأدركْنَ أنَّ ٱلكذبَ على ٱلحقائقِ قد جعلَ ٱللّٰهُ لَهُ حقائقَ أخرى تقتلُه، وأنَّ مَنْ غَلَبَ أُمَّةَ ٱلعَظَاءِ على أمرِها فليسَتِ ٱلأيامُ وٱلليالي عَظاءً فيغلبَها؛ وأنَّ تغييرَ ٱلمخلوقات، إنَّما يكونُ بتحويلِ باطنِها لا بتحويلِ ظاهرِها، وأنَّ الإناءَ الأحمرَ يُريكَ ٱلماءَ محمرًا وٱلماءُ في نفسِهِ لا حُمرةَ فيه، حتى إذا ٱنكسرَ ٱلإناءُ ظهرَ كما هو في نفسِه؛ وكلُّ ما يُخفي ٱلحقَّ هو كهذا الإناء: لونٌ على ٱلحقِّ لا فيه؛ ثُمَّ أيقَنَّ أنَّ مُحاولةَ إخراجِ أُمَّةٍ كاملةٍ من نَزعاتِ ماعزةٍ مأفونة[2]، هي كمحاولةِ ٱستيلادِ ٱلفيلِ مِنَ ٱلماعزة...!

* * *

قالَ كليلة: وٱعلمْ يا دِمنةُ أنَّهُ لولا أنَّ هذه ٱلعنزَ ٱلحمقاءَ قد كفرَتْ كُفْرَ ٱلذبابة، لما أخذَها ٱللّٰهُ أَخْذَ الذبابة.

قالَ دِمنة: وكيف كانَ ذلك؟

قال: زعموا أنَّ ذبابةً سوداءَ كانَتْ من حَمْقى ٱلذِّبَّان، قُدِّرَتِ ٱلحماقةُ عليها أبديَّة، فلوِ ٱنقلبَتْ نقطةُ حبرٍ في دواةٍ لَمَا كُتبَتْ بها إلا كلمةُ سُخف.

ووقَعَتْ هذه الذبابةُ على وجهِ ٱمرأةٍ زَنجيَّةٍ ضخْمة، فجعلَتْ تُقابلُ بينَ نفسِها وبين ٱلمرأة؛ وقالَت: إنَّ هذا لَمِنْ أدلِّ ٱلدليل على أنَّ ٱلعالَمَ فوضى لا نِظامَ فيه، وأنَّهُ مُرسَلٌ كيف يتَّفقُ على ما يتَّفق، عَبَثاً[3] في عبث، ولا ريبَ أنَّ الأنبياءَ قد كذَبوا الناس، إذْ كيف يستوي في ٱلحِكمةِ خَلْقي (أنا) وخلْقُ هذه الذبابةِ ٱلضخمةِ ٱلتي أنا فوقَها...؟

ثُمَّ نظرَتْ ليلةً في ٱلسماء، فأبصرَتْ نجومَها يتلألأُ وبينَها القمر؛ فقالَت: وهذا دليلٌ آخرُ على ما تحقَّقَ عندي من فوضى ٱلعالم، وكذبِ ٱلأديان، وعَبثِ ٱلمصادَفات؛ فما الإيمانُ بعينِهِ إلَّا ٱلإلحادُ بعينِه، ووضْعُ العقلِ في شيءٍ هو إيجادُ ٱلألوهيَّةِ فيه، وإلَّا فكيفَ يستوي في ٱلحِكْمةِ وضعي (أنا في ٱلأرضِ ورفعُ هذا ٱلذِّبانِ ٱلأبيضِ ويَعْسُوبِهِ[4] ٱلكبيرِ إلى السماء..؟

---

(١) لذن: لجأن.

(٢) مأفونة، المتمدّحة بما ليس عندها، ذات الرأي الضعيف.

(٣) عبثاً: لعباً.

(٤) اليعسوب: أمير الذباب والنحل ونحوهما.

ثُمَّ إنَّها وقعَتْ في دارِ فلّاح، فجعلَت تمورُ[1] فيها ذهاباً وجيئةً، حتى رجعَتْ بقرةُ ٱلفلّاح من مرعاها، فبُهتَتِ[2] ٱلذبابةُ وجمدَتْ على غُرّتِها[3] من أوّلِ ٱلنهارِ إلى آخرِه، كأنَّها تُزاوِلُ عملاً؛ فلمَّا أمْسَتْ قالَتْ: وهذا دليلٌ أكبرُ ٱلدليلِ على فوضى ٱلأرزاقِ في ٱلدنيا، فهاتانِ ذبابتانِ قد ثَقبتَا ثُقْبينِ في وجهِ هذه البقر... وٱكْتنَّتا فيهما تأكلانِ من شَحمِها فتعظمانِ سمِنًا؛ وٱلناسُ من جهلِهِم بِالعِلْم الذُّبابيِّ يسمونَها عينين. وأنا قضيْتُ ٱليومَ كلَّهُ أخْمِشُ وأعضُّ وألْسَعُ لِأثقُبَ لي ثُقْباً مثلَهما فما ٱنتزعْتُ شعرة؛ فهل يستوي في ٱلحِكْمةِ رزقي (أنا) ورزقُ هاتينِ ٱلذبابتينِ في وجهِ البقرة...؟

ثُمَّ إنَّها رأَتْ خُنْفُساءَ تَدِبُّ دبيبَها في ٱلأرواثِ[4] وٱلأقذار؛ فنظرَتْ إليها وقالت: هذه لا تَصْلُحُ دليلاً على ٱلكفر؛ فإنِّي (أنا) خيرٌ منها؛ (أنا) لي أجنحةٌ وليسَ لها، (وأنا) خفيفةٌ وهي ثقيلة؛ وما كأنَّها إلَّا ذبابةٌ قديمةٌ من ذُبابِ ٱلقرونِ الأولى، ذلك الذي كانَ بليداً لا يتحرّكُ فلم تجعلْ لَهُ ٱلحركةُ جَناحاً. ثُمَّ إنَّها أصْغَتْ فسمعَتِ ٱلخنفساءَ تقولُ لِأخرى وهي تُحاورُها: إذا لم يجدِ ٱلمخلوقُ أنَّهُ كما يشتهي فلْيكْفُرْ كما يشتهي؛ يا وَيحنا! لِمَ لمْ نكنْ جاموساً كهذا ٱلجاموسِ العظيم، وما بينَنا وبينَهُ فرقٌ إلَّا أنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَنْفُخُهُ ولم نجد...؟

فقالَتِ ٱلذبابة: إنَّ هذا دليلُ ٱلعقلِ في هذهِ ٱلعاقلة، ولَعمري إنَّها لا تمشي متَّاقِلَةً من أنَّها بطيئةٌ مُرهَقَةٌ بعَجْزِها، ولكنْ من أنّها وقُورٌ مُثقَلةٌ بأفكارِها، وهيَ ٱلدليلُ على أنِّي (أنا) ٱلسابقةُ إلى كشفِ ٱلحقيقة...!

وجَعَلَتِ ٱلذبابةُ لا يُسْمعُ من دَنْدَنتِها إلا، أنا، أنا، أنا، أنا... من كُفْرٍ إلى كفرِ غيرِه، إلى كفرِ غيرِهِما؛ حتى كأنَّ ٱلسماواتِ كلَّها أصبحَتْ في معركةٍ معَ ذبابة...

ثُمَّ جاءَتِ ٱلحقيقةُ إلى هذا ٱلإلحادِ ٱلأحمقِ تَسعى سَعْيَها؛ فبينَا ٱلذبابةُ على وجهِ حائط، وقد أكلَتْ بعوضةً أو بعوضتين، وأعجبتْها نفسُها، فوقفَتْ تحكُّ ذراعَها بذراعِها ـ دَنَتْ بطةٌ صغيرةٌ قدِ ٱنفلقَتْ عنها ٱلبَيضةُ أمس، فمدَّتْ منقارَها، فٱلتقطَتْها.

ولَمَّا ٱنطبقَ ٱلمِنقارُ عليها قالَت: آمنْتُ أنَّهُ لا إلَه إلَّا ٱلذي خلَقَ ٱلبطة...!

---

(1) تمور: تتحرّك في كل اتجاه.
(2) بهتت: دهشت.
(3) غرّتها: مفاجأتها.
(4) الأرواث: السواد والسماد.

يا شبابَ العرب!

يقولون: إنَّ في شبابِ ٱلعربِ شيخوخةَ ٱلهِمَمِ وٱلعزائم؛ فالشبانُ يمتدّون في حياةِ ٱلأممِ وهم ينكمشون.

وإنَّ ٱللهوَ قد خَفَّ بهم حتى ثَقُلَتْ عليهم حياةُ ٱلجِدّ، فأهملوا ٱلممكناتِ فرجعَتْ لهم كاٱلمستحيلات.

وإنَّ ٱلهزلَ[1] قد هوَّنَ عليهم كلَّ صَعْبةٍ فٱختصروها؛ فإذا هَزءُوا بالعدوِّ في كلمةٍ فكأنَّما هَزمُوهُ في معركة...

وإنَّ ٱلشابَّ منهم يكونُ رجلاً تامًّا، ورجولةُ جسمِهِ تحتجُّ على طفولةِ أعمالِه.

ويقولون: إنَّ ٱلأمرَ ٱلعظيمَ عندَ شبابِ ٱلعربِ أَلَّا يحملوا أبداً تَبِيعةَ[2] أمرٍ عظيم.

* * *

ويزعون أنَّ هذا ٱلشبابَ قد تمَّتِ ٱلآفةُ بينَهُ وبينَ أغلاطِه، فحياتُهُ حياةُ هذه الأغلاطِ فيه.

وأَنَّهُ أبرعُ مُقلِّدٍ لِلغربِ في ٱلرذائلِ خاصَّة؛ وبهذا جعلَهُ ٱلغربُ كالحيوانِ محصوراً في طعامِهِ وشرابِهِ، ولذّاته.

ويزعمون أنَّ ٱلزجاجةَ مِنَ ٱلخمرِ تعملُ في هذا ٱلشرقِ ٱلمسكينِ عملَ جنديٍّ أجنبيٍّ فاتح...

ويتواصَوْنَ بأنَّ أولَ ٱلسياسةِ في ٱستعبادِ أممِ ٱلشرق، أنْ يُتْرَكَ لهمُ ٱلاستقلالُ ٱلتامُّ في حريةِ ٱلرذيلة...

ويقولون: إِنَّهُ لا بدَّ في ٱلشرقِ من ٱلتَيْنِ لِلتخريب: قوةِ أوربا، ورذائلِ أوربا.

* * *

---

(١) الهزل: اللعب والمزاح.

(٢) تبعة: مسؤولية.

يا شبابَ ٱلعرب! من غيرُكم يُكذِّبُ ما يقولونَ ويزعمونَ على هذا ٱلشرقِ ٱلمسكين؟

مَن غيرُ ٱلشبابِ يضعُ ٱلقوَّةَ بإزاءِ هذا ٱلضعفِ الذي وصفُوهُ لِتكونَ جواباً عليه؟

من غيرُكم يجعلُ ٱلنفوسَ قوانينَ صارِمَة[1]، تكونُ ٱلمادةُ ٱلأُولى فيها: قَدِرْنا لِأنَّنا أرَدْنا؟

ألا إنَّ ٱلمعركةَ بينَنا وبينَ ٱلاستعمارِ معركةٌ نفسيَّة، إنْ لم يُقْتَلْ فيها ٱلهزلُ قُتِلَ فيها ٱلواجب!

وٱلحقائقُ ٱلتي بينَنا وبينَ هذا ٱلاستعمارِ إنَّما يكونُ فيكم أنتم بحثُها ٱلتحليليّ، تكْذِبُ أو تَصْدُق.

* * *

الشبابُ هوَ ٱلقوة؛ فالشمسُ لا تملأُ ٱلنهارَ في آخرِهِ كما تملؤُهُ في أولِه.

وفي ٱلشبابِ نوعٌ مِنَ ٱلحياةِ تَظهرُ كلمةُ ٱلموتِ عندَهُ كأنَّها أختُ كلمةِ ٱلنوم.

ولِلشبابِ طبيعةٌ أولُ إدراكِها ٱلثقةُ بالبقاء، فأولُ صِفاتِها ٱلإصرارُ على ٱلعزْم.

وفي ٱلشبابِ تَصْنَعُ كلُّ شجرةٍ من أشجارِ ٱلحياةِ أثمارَها؛ وبعدَ ذلك لا تصنعُ ٱلأشجارُ كلُّها إلَّا خَشَبا...

يا شبابَ ٱلعرب! اِجعلوا رسالتَكم: إمَّا أنْ يحيا ٱلشرقُ عزيزاً، وإمَّا أنْ تموتوا.

* * *

أنقِذوا فضائلَنا من رذائلِ هذه المدنيَّةِ ٱلأوربيَّة، تُنقِذوا ٱستقلالَنا بعدَ ذلك، وتنقذوه بذلك.

إنَّ هذا ٱلشرقَ حينَ يدعو إليهِ ٱلغرب؛ «يدعو لَمَنْ ضَرُّهُ أقربُ من نفعِه؛ لَبِئْسَ ٱلمولَى ولبئسَ ٱلعَشير».

لَبئسَ ٱلمولى إذا جاءَ بقوتِهِ وقوانينِه، ولَبئسَ ٱلعشيرُ إذا جاءَ برذائلِهِ وأَطماعِه.

أيُّها ٱلشرقيُّ! إنَّ ٱلدينارَ ٱلأجنبيَّ فيهِ رصاصةٌ مخبوءة، وحقوقُنا مقتولةٌ بهذه الدنانير.

---

(١) صارمة: حازمة.

أيُّها ٱلشرقيُّ! لا يقولُ لَكَ ٱلأجنبيُّ إلَّا ما قال ٱلشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾.

* * *

يا شبابَ ٱلعرب! لم يكنِ ٱلعسيرُ يَعْسُرُ على أسلافِكمُ ٱلأولين، كأنَّ في يدهِم مفاتيحَ مِنَ ٱلعناصرِ يفتحون بها.

أتُريدونَ معرفةَ ٱلسرّ؟ السرُّ أنَّهمُ ٱرتفعوا فوقَ ضعفِ ٱلمخلوق، فصاروا عملاً من أعمالِ ٱلخالق.

غَلَبوا على الدنيا لَمَّا غلبَوا في أنفسِهِم معنى ٱلفقر، ومعنى ٱلخوف، وٱلمعنى ٱلأرضي.

وعلَّمَهُمُ ٱلدينُ كيف يعيشون بٱللذاتِ ٱلسماويَّةِ ٱلتي وَضعَتْ في كلِّ قلبٍ عظمتَهُ وكِبرياءَه.

وٱخترعَهُمُ ٱلإيمانُ ٱختراعاً نفسيًّا، علامتُهُ ٱلمسجَّلةُ على كلٍّ منهم هذه الكلمة: لا يَذِلّ.

* * *

حينَ يكونُ ٱلفقرُ قِلةَ ٱلمال، يفتقرُ أكثرُ ٱلناس، وتنخذِلُ[1] ٱلقوةُ ٱلإنسانيَّة، وتَهلِكُ ٱلمواهب.

ولكنْ حينَ يكونُ فقرُ ٱلعملِ ٱلطيِّب، يستطيعُ كلُّ إنسانٍ أنْ يَغْتَني، وتنبعثُ ٱلقوةُ وتعملُ كلّ موهبة.

وحينَ يكونُ ٱلخوفُ من نقصِ هذه ٱلحياةِ وآلامِها، تفسِّرُ كلمةَ ٱلخوفِ مائةُ رذيلةٍ غيرِ ٱلخوفِ.

ولكنْ حينَ يكونُ من نقصِ ٱلحياةِ ٱلآخرةِ وعذابِها، تُصبحُ ٱلكلمةُ قانونَ ٱلفضائلِ أجمع.

هكذا ٱخترعَ ٱلدينُ إنسانَهُ ٱلكبيرَ ٱلنفسِ ٱلذي لا يُقالُ فيه: انهزمَتْ نفسُهُ.

* * *

يا شبابَ ٱلعرب! كانَتْ حِكمةُ ٱلعربِ ٱلتي يعملونَ عليها: أُطلُبِ ٱلموتَ تُوهَبُ لك ٱلحياة.

---

(١) تنخذل: تنهزم.

وٱلنفسُ إذا لم تخشَ ٱلموتَ كانَتْ غريزةُ ٱلكِفاحِ أولَ غرائزِها تعْمل.

ولِلكفاحِ غريزةٌ تجعلُ ٱلحياةَ كلَّها نصراً، إذْ لا تكونُ ٱلفِكرةُ معَها إلَّا فكرةً مُقاتِلة.

غريزةُ ٱلكفاحِ يا شباب، هي ٱلتي جعلَتِ ٱلأسَدَ لا يُسَمَّنُ كما تسمَّنُ ٱلشاةُ لِلذبح.

وإذا ٱنكسَرَتْ يوماً، فٱلحجَرُ ٱلصَّلْدُ[1] إذا تَرَضْرَضَتْ[2] منه قِطعةٌ كانَتْ دليلاً يكشِفُ لِلعينِ أنَّ جميعَهُ حجرٌ صَلد.

* * *

يا شبابَ ٱلعرب! إنَّ كلمةَ (حقيّ) لا تحيا في ٱلسياسةِ إلَّا إذا وضعَ قائلُها حياتَهُ فيها.

فٱلقوَّةَ القوَّةَ يا شباب! ٱلقوَّةُ ٱلتي تقتلُ أولَ ما تقتلُ فكرةَ ٱلترَفِ والتخنُّث.

القوةُ ٱلفاضلةُ ٱلمتساميةُ ٱلتي تضعُ لِلأنصارِ في كلمة (نعم) معنى نعم.

القوَّةُ ٱلصارمةُ ٱلنفَّاذةُ ٱلتي تضعُ لِلأعداءِ في كلمةِ (لا) معنى لا.

يا شبابَ ٱلعربِ اِجعلوا رسالتكم: إمَّا أنْ يحيا ٱلشرقُ عزيزاً، وإمَّا أنْ تموتوا.

---

(١) الصلد: الصلب، القاسي.

(٢) ترضرضت: تكسرت.

لَـوْ...!

رأيتُني جالساً في مسرح هزليّ بمدينةِ اسكندرية، كما يجلسُ ٱلقاضي في جريمةٍ يحملُ أهلُها بينَ يديهِ آثامَهُم وأعمالَهُم، ويحملُ هو عقلَهُ وحُكمَه.

وقد ذهبْتُ لِأرى كيفَ يتَساخَفُ[1] أهلُ هذه الصناعة؛ فكانَ حُكْمي أنَّ ٱلسخافةَ عندَنا سخيفةٌ جدًّا....

رأيْتُهم هناك ينقُدونَ ٱلعيوبَ بما يُنشيءُ عيوباً جديدة، ويَسْبَحون بأيديهم سِباحةً ماهرةً؛ ولكنْ على ٱلأرضِ لا في ٱلبحر، وتكادُ نظرتُهم إلى ٱلحقيقةِ ٱلهزليَّةِ تكونُ عمًى ظاهراً عمَّا هي بهِ حقيقةٌ هزليَّة؛ ولا غايةَ لهم من هذا التمثيلِ إلَّا الرَّقاعةُ[2] والإسفافُ وٱلخَلْطُ وٱلهذَيان، إذْ كانَ هذا هو الأشبَهَ بجمهورِهمُ ٱلذي يَحضُرهمُ، وكانَ هو ٱلأقربَ إلى تلك الطباعِ ٱلعاميَّةِ ٱلبليدةِ ٱلتي ٱعتادَتْ من تكلُّفِ ٱلهزْلِ ما جعلَها هي في ذاتِ نفسِها هزْلاً يُسْخرُ منه.

ولا أسخفَ من تكلُّفِ ٱلنكتةِ ٱلباردةِ قد خلَتْ مِنَ ٱلمعنى، إلَّا تكلُّفُ ٱلضحِكِ ٱلمصنوعِ يأتي في عَقِبِها كالبرهانِ على أنَّ في هذه النكتةِ معنًى.

فالفنُّ ٱلمضحِكُ عندَ هؤلاء، إنَّما هوَ ٱلسخفُ ٱلذي يُوافقون بهِ ٱلروحَ ٱلعاميَّةَ ٱلضئيلةَ ٱلكاذبةَ ٱلمكذوبَ عليها، التي يبلغُ من بلاهتِها أحياناً أن تضحكَ لِلنكتةِ قبلَ إلقائِها، لِفَرْطِ خِفَّتِها ورُعونتِها[3]، وطولِ ما تكلفَتْ وٱعتادَت. فما ذلك ٱلفنُّ إلَّا ما ترى مِنَ ٱلتخليطِ في ٱلألفاظ، وٱلتضريبِ[4] بينَ ٱلمعاني، وإيقاعِ ٱلغلَطِ في ٱلمعقولات؛ ثُمَّ لا ثُمَّ بعدَ هذا. فلا دِقَّةَ في ٱلتأليف، ولا عُمْقَ في ٱلفَكرة، ولا سياسةَ في جمعِ ٱلنقائض، ولا نَفَاذَ في أسرارِ ٱلنفس، ولا جِدَّ يُؤخذُ من هزليَّةِ ٱلحياة، ولا عظَمَةَ تُستخرجُ من صغائرِها، ولا فلسفةَ تُعرفُ من حماقاتِها.

---

(١) يتساخف: يبدي ما به من حماقة.

(٢) الرقاعة: الحماقة.

(٣) الرعونة: التصرّف بحماقة.

(٤) التضريب: التخليط.

والفرقُ بعيدٌ بينَ ضحكٍ هو صناعةُ ذِهْنٍ لِتحريكِ ٱلنفس، وشَحْذِ ٱلطبع، وتصويرِ ٱلحقيقةِ صورةً أخرى، وبينَ ضحكٍ هو صناعةُ ٱلبلاهةِ لِلَّهْوِ وٱلعبث، وٱلْمَجانةِ لا غير.

* * *

وكانَ معي قريبٌ من أذكياءِ ٱلطلبةِ ٱلمتخصصينَ لِلآدابِ ٱلإنجليزية، فلم نلبثْ إلَّا يسيراً حتى جاءَ ثلاثةٌ من ضباطِ ٱلأسطولِ ٱلإنجليزي، فجلسوا بحذائنا صفًّا تلوحُ عليهم مَخَايِلُ ٱلظفَر، ولهم وَقَارُ ٱلبُطولة، وفيهم أرواحُ ٱلحرب؛ وهم يبدون في ثيابِهِمُ البيضِ المطَرَّاةِ[1] كأنَّهم ثلاثةُ نُسورٍ هبطَتْ منَ ٱلغمامِ إلى الأرض، فلأعينِها نظراتٌ تدورُ هنا وهناك تُنكِرُ وتُعرِّف.

وأعجبني أنْ أراهم في هذا ٱلمكانِ الهزليِّ ٱلممتلىءِ بٱلضعفاء، كأنَّهم ثلاثُ حقائقَ بينَ ٱلأغلاط، أو ثلاثُ أغلاطٍ كبيرة... وكانَ أبدعَ ما أراهُ على هيئةِ وجوهِهم وأَسَرُّ لَه، تواضعُ هذا ٱلاستعدادِ الحربيِّ وتحوُّلُهُ إلى ٱستعدادٍ لِلسخرية..

ثُمَّ تأملْتُهم طويلاً؛ فإذا صَرامةٌ وشهامةٌ، وسَكينةٌ ووَداعة، وحُسْنُ سَمْتٍ وحلاوةُ هيئةٍ في جِلْسةٍ رزينةٍ متوقِّرة، لا يُشبِهُها في حسِّ ٱلنفسِ ٱلتي تعرفُ معانيَ ٱلقوةِ إلَّا وضعُ ثلاثةِ مدافِعَ مُصَوَّبة.

وجعلْتُ أقلِّبُ عينيَّ في ٱلناسِ ٱلموجودينَ ومَلامحِهِم وهيئاتِهم، ثُمَّ أُرجِعُ ٱلبصرَ إلى هؤلاءِ الثلاثة، فأرى ٱلمصريَّ كالمقتنعِ بأنَّهُ محدودٌ بمدينةٍ أو قريةٍ لا يعرفُ لِنفسِهِ مكاناً في غيرِهما، فهو من ثَمَّ لا يَرحلُ ولا يُغامرُ، ولا تتقاذَفُهُ ٱلدنيا؛ وأرى ٱلإنجليزيَّ كالمقتنعِ بأنَّ كلَّ مكانٍ في ٱلعالمِ ينتظرُ ٱلإنجليز...

وخيِّلَ إليَّ ـ واللَّهِ ـ أنَّ رجلاً من هؤلاءِ ٱلإنجليزِ ٱلأقوياءِ ٱلمعتدِّينَ بأنفسِهِم[2] لا يُهاجرُ من بلادِهِ إلَّا ومعَهُ نفسُهُ وٱستقلالُه، وتاريخُهُ وروحُ دولتِه، وطبيعةُ أرضِه؛ فهو مستيقِنٌ أنَّ ٱللَّهَ لا يرزقُهُ رِزقاً أيَّ ٱلرزقِ كانَ على ما يتَّفِق، بل رزقاً إنجليزيًّا: أي فيهِ كِفايتُه.

ورأيْتُ شيئاً عجيباً مِنَ ٱلفرقِ بينَ طابعِ ٱلسِّلم على وجوه، وبينَ طابعِ ٱلحربِ على وجوهٍ أخرى؛ ففي تلك معاني ٱلسهولةِ والملاينَةِ وٱلحِرْصِ على مادةِ ٱلحياة،

---

(١) المطرّاة: المكواة.

(٢) المعتدين بأنفسهم: المعتزين، الواثقين من أنفسهم.

وفي هذه معاني ٱلعزْمِ وٱلمُقاومةِ وٱلحِرْصِ على مجدِ ٱلحياةِ لا على مادتِها.

وتبيَّنْتُ أسلوبينِ منَ ٱلأساليبِ ٱلاجتماعيَّة: أحدُهما في فردٍ قد بَنَى أمرَهُ عَلَى أنْ أُمَّةَ تحملُه، فهو يعيشُ بأضعفِ ما فيه: والآخرُ في فردٍ قد وَضَعَ ٱلأمرَ عَلَى أنَّهُ هو يحملُ أُمَّةً فلا يدعُ في نفسِهِ قوةً إلَّا ضاعَفَها.

وعرفتُ وجهينِ من وجوهِ ٱلتربيةِ ٱلسياسية: أحدُهما بٱلطنطنة، والتهويلِ وٱلصُّراخ، وٱستعارةِ ألفاظِ غيرِ ٱلواقعِ لِلواقع، وتحميلِ ٱلألفاظِ غيرَ ما تحمل؛ وٱلآخرُ بٱلهدوءِ ٱلذي يَقْهَرُ ٱلحوادث، وٱلصبرِ ٱلذي يغلبُ ٱلزمن، وٱلعقيدةِ ٱلتي تفرضُ أعمالَها ٱلعظيمةَ على صاحبِها وتجعلُ أعظمَ أجرِهِ عليها أنْ يقومَ بها.

وميَّزتُ بين أثرينِ من آثارِ ٱلأرضِ في أهلِها: أحدُهما في ٱلمصريِّ ٱلسَّمْحِ ٱلوادِعِ ٱلألوفِ ٱلحييِّ ٱلذي هو كَرَمُ ٱلطبيعة، وٱلآخرُ في ٱلإنجليزيِّ العَسِرِ ٱلمغامِرِ ٱلنَّفورِ ٱلملحِّ على الدنيا كأنَّهُ تطفّلُ ٱلطبيعة...

* * *

وألقى ٱبنُ العمِّ ٱلذي كانَ معي سمعَهُ إلى هؤلاءِ ٱلضباط، وهم من فلاسفةِ ٱلرأي على ما يظهرُ من حديثِهم، ثُمَّ نقل إليَّ عنهم، فقالَ كبيرُهم: لقد فرغْتُ من بحثي ٱلذي وضعْتُهُ في فلسفةِ خُمولِ ٱلشرقيين، وأفضيْتُ منه إلى حقائقَ عجيبة، أظهرُها وأخفاها معاً أنَّ أمَّةً من هذهِ ٱلأممِ لا يُمَكَّنُ لِلأجنبيِّ فيها، ولا تثقُلُ وطْأتُهُ[1] عليهم، ولا يَطولُ ثَواؤُهُ[2] في أرضِهم، ولا يحتلُّها مَنْ يطمعُ فيها، ما لم يكنْ سادتُها وأمراؤُها وكبراؤُها كأنَّهم فيها دولةٌ محتلّة.

وهؤلاءِ ٱلكبراءُ هم آفةُ ٱلشرق؛ فمِنْ أعظم واجباتِنا أنْ نزيدَ في تعظيمِهم، وأنْ نَمدَّ لهم في ٱلمالِ وٱلجاه، ونَبْسُطَ لهمُ ٱليمينَ وٱلشِّمال، ونُوهِمَهُمْ أنَّ عظمَتَهم هكذا وُلِدَتْ فيهم وهكذا وُلدوا بها من أمهاتِهم كما وُلِدوا بأيديهم وأرجلِهم... وخاصةً عظماءَ رجالِ ٱلأديانِ ٱلمفتونينَ بالدنيا؛ فإنَّنا نصنعُ بغُرورِ ٱلجميعِ وسخافاتِهم وحِرْصِهم وطمعِهم أشياءَ ٱجتماعيَّةً ذاتَ خطَرٍ لا يصنعُ لنا مثلَها إلَّا الشياطينُ ومَنْ لنا بالحكم على ٱلشياطين؟ وهذا ما تنبَّهَ لَهُ (غاندي) ذلك ٱلمهزولُ الهنديُّ ٱلذي تُقوِّمُ دنياهُ بأربعةِ شلنات، ولا يزنُ أكثرَ من بضعةِ أرطالٍ مِنَ ٱلجِلْدِ وٱلعظم، ولا بطشَ عندَهُ ولا قوةَ فيه، وهو مع ذلك جبَّارٌ

---

(١) وطأته: سطوته.

(٢) ثواؤه: بقاؤه.

سماويٌّ في يدِهِ ٱلبرقُ وٱلرعدُ يُرى ويُسمَعُ في أرجاءِ ٱلدنيا.

قالَ ضابطُ ٱليمين: وبصناعةِ ٱلكِبرياءِ هذه الصناعةِ يكونُ رجلُ ٱلشعبِ من هؤلاء ٱلشرقيينَ رجلَ تقليدٍ بالطبيعة، ورجلَ ذُلٍّ بٱلحالة، ورجلَ خُضوعٍ بٱلجُملة؛ فليسَ في نفسِهِ أنّهُ سيدُ نفسِهِ ولا سيدُ غيرِه، بلْ أكبرُ معانيهِ أنَّ غيرَهُ سيّدٌ عليهِ فيكونُ معَهُ دائماً خيالُ ٱستعبادِه.

وتكلمَ ضابطُ اليسار: ولكنَّ المترجِمَ لم يميِّز أقوالَه، لأنَّ ثلاثَ عشرةَ ٱمرأةً كنَّ يصرخْنَ في ٱلروايةِ ٱلهزليةِ بلحنٍ طويلٍ يقلْنَ في أولِه: «عاوزين رجّالة تدَلَّعْنا...» وكانَتِ ٱلموسيقى تصرخُ معهُنَّ وتُولوِلُ كأنَّها هي أيضاً ٱمرأةٌ محرومة...

* * *

ثُمَّ أرهفَ[1] ٱلمترجِمُ أذنَهُ فقالَ كبيرُهم: إنَّ لِهؤلاءِ ٱلشرقيينَ ستَّ حواس: ٱلخمسُ ٱلمعروفةُ، وحاسةُ ٱلخمولِ ٱلذي خدَعتْهم عنهُ الطبيعةُ ٱلبليدةُ فسمَّوهُ ٱلترفَ وٱلهزل وٱللهو؛ وٱلأمةُ الأوربيَّةُ ٱلتي تحتلّ بلاداً شرقيةً تجدُ فيها لصغائرِ ٱلحياةِ جيشاً أقوى من جيشِها؛ فعشرةُ آلافِ جنديّ بعَتادِهِم وآلاتِهم، لا يصنعون شيئاً إلّا ٱلاستفزازَ[2] والتحدِّي وإثباتَ أنَّهم غاصبون؛ ولكنْ ما أنت قائلٌ في عشرةِ آلافِ مكانٍ كهذا المسرح براقصاتِهِ ومومساتِهِ وخمورِهِ ورواياتِه، وبهؤلاءِ ٱلرجالِ المخنثينَ ٱلهزليينَ ٱلرُّقَعاءِ الذين هم وحدَهم مُعاهدَةٌ سياسيَّةٌ ناجحةٌ بينَنا وبينَ شبابِ الأمَّة...؟

قالَ ضابطُ اليمين: نعمْ إنَّ فنَّ ٱلاحتلالِ فنٌّ عسكريّ في ٱلأول، ولكنَّهُ فنٌّ أخلاقيٌّ في ٱلآخر؛ ولِهذا يجبُ تعيينُ نقطةِ ٱتجاهٍ للشبابِ تكونُ مضيئةً لامعةً جذَّابةً مُغريةً؛ ولكنَّها في ذاتِ ٱلوقتِ مُحرقةٌ أيضاً، وهذه هي صِناعةُ إهلاكِ ٱلشبابِ بٱلضوءِ ٱلجميل، وما على ٱلسياسي ٱلحاذقِ في ٱلشرقِ إلّا أنْ يحميَ ٱلرذيلة، فإنَّ الرذيلةَ ستعرفُ لَهُ صنيعَهُ وتَحميه..

فتكلَّمَ ضابطُ ٱليسار، ولكنَّ صوتَهُ ذهبَ في عِشرينَ صوتاً من رجالِ ٱلمسرحِ ونسائِهِ يصيحون جميعاً: «يا حلوة يا خفَّافي، يا مجنِّنه الشبان...».

* * *

---

(١) أرهف السمع: دقّق.

(٢) الاستفزاز: إثارة الغضب.

ولَمّا ألممْتُ[1] بحوارِ ٱلضباطِ ٱلثلاثةِ قلْتُ لِصاحبي: إستأذِنْ لي عليهم أكلمُهم. ففعلَ وعرَّفني إليهم، وترجَمَ لهم مقالةَ (يا شبابَ ٱلعرب) وكانَ يحملُها. فكأنَّما رماهم منها بالجيشِ وٱلأسطول.

ثُمَّ قلْتُ لِكبيرِهِم: لسْتُ أُنكرُ أنَّ ٱلإنجليزيَّ لو دخلَ جهنَّمَ لَدخلَها إنجليزياً. ولا أَجحدُ أنَّ لَهُ في ٱلحياةِ مثلَ هِدايةِ ٱلحيوان، لأنَّهُ رجلٌ عمليٌّ: دليلُ منفعتِهِ أنَّها منفعتُهُ وحَسْبُ، ثُمَّ لا دليلَ غيرُ هذا ولا يقبلُ إلَّا هذا. فإذا قالَ الشرقيّ: حقيّ، وقالَ ٱلإنجليزيُّ: منفعتي، بطَلَتِ ٱلأدلَّةُ كلُّها، ورأى ٱلشرقيُّ أنَّهُ مَعَ الإنجليزي كالذي يُحاولُ أنْ يُقنِعَ ٱلذئبَ بقانونِ ٱلفضيلةِ وٱلرحمة.

وقد عرفْنَا أنَّ في ٱلسياسةِ عجائب، منها ما يُشْبِهُ أنْ يَلقَى إنسانٌ إنساناً فيقولَ له: يا سيدي ٱلعزيز، بكلِّ ٱحترامٍ أرجو أنْ تتلقَّى مني هذه الصفعة...

وفي ٱلسياسةِ مواعيدُ عجيبة، منها ما يُشبهُ غرسَ شجرةٍ لِلفقراءِ وٱلمساكين، وٱلتوكيدَ لهم بالأيمانِ أنَّها ستُثمرَ رُغفاناً مخبوزة... ثُمَّ بعدَ ذلك تُطَعَّمُ فتُثمِرُ ٱلرغفانَ ٱلمخبوزةَ حَشْوُها ٱللحمُ والإدام...

وفي ٱلسياسةِ محاربةُ ٱلمساجدِ بالمراقص، ومحاربةُ ٱلزوجاتِ بٱلمومسات، ومحاربةُ ٱلعقائدِ بأساتذةِ حريةِ ٱلفكر، ومحاربةُ فنونِ ٱلقوَّةِ بفنونِ ٱللَّذة. ولكنْ لو فَهِمَ ٱلشبابُ أنَّ أماكنَ ٱللهوِ في كلِّ معانيها ليسَتْ إلَّا غَدْراً بالوطنِ في كلِّ معانيه!

ولو عرفَ ٱلشبابُ أنَّ محاربةَ ٱللَّهْوِ هي أولُ ٱلمعركةِ ٱلسياسيةِ ٱلفاصلة!

ولو أدركَ ٱلشبابُ أنَّ أولَ حقِّ ٱلوطنِ عليهِ أنْ يحملَ في نفسِهِ معنى ٱلشعبِ لا معنى نفسِه!

ولو رجعَ ٱلدينُ الإسلاميُّ كما هو في طبيعتِهِ آلةَ حربيةَ تصنعُ مِنَ ٱلشبابِ رجالَ القوَّة!

ولو عَلِمَ ٱلشبابُ أنَّ روحَ هذا ٱلدينِ ليْسَت: اعتَقِدْ ولا تعتقدْ. ولكنِ ٱفعلْ ولا تفعل!

ولو أيقنَ ٱلشبابُ أنَّ فرائضَ هذا الدينِ ليسَتْ إلَّا وسائلَ عمليَّةَ لاِمتلاءِ ٱلنفسِ بمعاني ٱلتقديس!

---

(١) ألممت: اطّلعت.

ولو فَهِمَ ٱلشبابُ أنْ ليسَ في ٱلكَوْنِ إلَّا هذه ٱلمعاني تجعلُ ٱلنفسَ فوقَ ٱلمادةِ وفوقَ الخَوْفِ وفوقَ ٱلذلِّ وفوقَ ٱلمَوْتِ نفسِه!

ولو بحثَ ٱلشبابُ ٱلنفسَ ٱلإنجليزيَّةَ ٱلقويَّةَ لِيعرفَ بِالبرهانِ أنَّها نصفُ مسلمةٍ فكيفَ بها لو كانَتْ مسلمة؟. . .

* * *

وكانَ ٱلمترجِمُ ينقلُ إليهم كلامي، فما بلغَتْ إلى حيثُ بلغْتُ، حتى شدّ الضابطُ على يدي وهزّها؛ فنظرْت، فإذا أنا قد كنْتُ نائماً بعدَ سهرةٍ طويلةٍ في ذلك ٱلمسرح، وإذا يدُ ٱلمترجِمِ نفسِهِ هي ٱلتي تهزُّني لِأنتبه. . .

أيُّها ٱلمسلمون!

نهضَتْ فِلَسْطِينُ تَحِلُّ ٱلعقدةَ التي عُقِدَتْ لها بينَ ٱلسيفِ، وٱلمكرِ، وٱلذهب.

عقدةٌ سياسيةٌ خبيثة، فيها لِذلك ٱلشعبِ الحرِّ قتلٌ وتخريبٌ، وفقْر.

عقدةُ ٱلحُكْمِ ٱلذي يحكمُ بثلاثةِ أساليب: الوعدِ ٱلكذب، وٱلفَناءِ ٱلبطيء، ومطامعِ ٱليهودِ ٱلمتوحشَة.

أيُّها ٱلمسلمون! ليسَتْ هذه محنةَ فلسطين، ولكنَّها محنةُ ٱلإسلام؛ يُريدونَ ألّا يُثبِتَ شخصيَّتَهُ ٱلعزيزةَ ٱلحرّة.

كلُّ قرشٍ يُدفعُ ٱلآنَ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناك لِيجاهدَ هو أيضاً.

* * *

أولئك إخوانُنا ٱلمجاهدون؛ ومعنى ذلك أنَّ أخلاقَنا هي حُلَفاؤهم في هذا ٱلجِهاد.

أولئك إخوانُنا ٱلمنكوبون؛ ومعنى ذلك أنَّهم في نكبتِهم ٱمتحانٌ لِضمائِرنا نحن ٱلمسلمين جميعاً.

أولئك إخوانُنا ٱلمضطَهَدون؛ ومعنى ذلك أنَّ ٱلسياسةَ ٱلتي أذَلَّتهم تسألُنا نحن: هل عندنا إقرارٌ لِلذلّ؟

ماذا تكونُ نكبةُ ٱلأخِ إلَّا أنْ تكونَ ٱسماً آخرَ لِمروءةِ سائرِ إخوتِهِ أو مَذَلَّتِهم؟

أيُّها ٱلمسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناكَ لِيفرضَ على ٱلسياسةِ ٱحترامَ ٱلشعورِ ٱلإسلاميّ.

* * *

اِبتَلَوْهُم بِاليهودِ يحملونَ في دمائِهم حقيقتينِ ثابتتين: من ذلِّ ٱلماضي وتشريدِ ٱلحاضر.

ويحملونَ في قلوبِهم نِقْمتينِ طاغيتين: إحداهما من ذهبَهِم، والأخرى من رذائِلِهم.

ويُخَبِّئونَ في أدمغتِهم فكرتينِ خبيثتين: أنْ يكونَ ٱلعربُ أقليَّة، ثُمَّ أنْ يكونوا بعد ذلك خَدَمَ ٱليهود.

في أنفسِهمُ ٱلحِقْد، وفي خيالهمُ ٱلجنون، وفي عقولهمُ ٱلمكر، وفي أيديهمُ ٱلذهبُ ٱلذي أصبحَ لئيماً لأنَّهُ في أيديهم.

أيُّها المسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناك لِيتكلَّمَ كلمةً تردُّ إلى هؤلاءِ ٱلعقل.

* * *

اِبتَلَوْهُم باليهودِ يَمرُّونَ مرورَ ٱلدنانيرِ بالربا الفاحِشِ في أيدي ٱلفقراء.

كلُّ مائةِ يهوديٍّ على مذهب ٱلقومِ يجبُ أنْ تكونَ في سنةٍ واحدةٍ مائةً وسعبين...

حسابٌ خبيثٌ يبدأُ بِشيءٍ مِنَ ٱلعقل، ولا ينتهي أبداً وفيهِ شيءٌ مِنَ ٱلعقل.

وٱلسياسةُ وراءَ ٱليهود، وٱليهودُ وراءَ خيَالِهمُ ٱلدينيّ، وخيالُهمُ ٱلدينيُّ هو طردُ ٱلحقيقةِ ٱلمسلمة.

أيُّها ٱلمسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناكَ لِيُثبِّتَ ٱلحقيقةَ ٱلتي يُريدونَ طردَها.

* * *

يقولُ ٱليهود: إنَّهم شعبٌ مضطهَدٌ في جميعِ بلادِ ٱلعالم.

ويزعمون: أنَّ من حقِّهِم أنْ يعيشوا أحراراً في فلسطين، كأنهَا ليسَتْ من جميعِ بلادِ ٱلعالم...

وقد صنعوا لِلإنجليزِ أسطولاً عظيماً لا يسبحُ في ٱلبحار، ولكنْ في ٱلخزائن...

وأرادَ ٱلإنجليزُ أن يطمئنُّوا في فلسطينَ إلى شعبٍ لم يتعودْ قطُّ أنْ يقولَ: أنا.

ولكنْ لِماذا كنَسَتْكُم كلُّ أمةٍ من أرضِها بمكنَسةِ أيُّها اليهود؟

* * *

أجَهِلْتُمُ ٱلإسلام؟ الإسلامُ قوةٌ كتلكَ ٱلتي تُوجِدُ ٱلأنيابَ وٱلمخالبَ في كلِّ أسد.

قوةٌ تُخرجُ سلاحَها بنفسِها، لِأنَّ مخلوقَها عزيزٌ لم يُوجدْ لِيُؤكلَ، ولم يُخلقْ لِيَذلّ.

قوةٌ تجعلُ ٱلصوتَ نفسَهُ حينَ يُزَمْجِر، كأنَّهُ يُعلنُ ٱلأسديةَ ٱلعزيزةَ إلى ٱلجهاتِ ٱلأربع.

قوةٌ وراءَها قلبٌ مشتعلٌ كالبركانِ، تتحوَّلُ فيهِ كلُّ قطرةِ دم إلى شرارةِ دم وَلِئنْ كانَتِ ٱلحوافرُ تُهيّىءُ مخلوقاتِها لِيركبَها ٱلراكب، إنَّ ٱلمخالبَ وَٱلأنيابَ تُهيّىءُ مخلوقاتِها لِمعنًى آخر.

* * *

لو سُئِلْتُ ما ٱلإسلامُ في معناهُ ٱلاجتماعيّ؟ لَسَأَلْتُ: كم عددُ ٱلمسلمين؟

فإنْ قيل: ثلثُمائةِ مليون. قلْتُ: فالإسلامُ هو الفكرةُ التي يجبُ أنْ يكونَ لها ثلثُمائةِ مليونِ قوة.

أيجوعُ إخوانُكم أيُّها ٱلمسلمونَ وتشبعون؟ إنَّ هذا الشِّبَعَ ذنبٌ يُعاقِبُ ٱللّٰهُ عليه.

وٱلغِنَى ٱليومَ في الأغنياءِ ٱلمُمْسِكينَ عن إخوانِهم، هو وصفُ ٱلأغنياءِ بٱللؤمِ لا بِالغِنى.

كلُّ ما يبذلُهُ المسلمونَ لِفِلسطين، يدلُّ دَلالاتٍ كثيرة، أقلّها سياسةُ ٱلمقاومة.

* * *

كانَ أسلافُكم أيُّها ٱلمسلمونَ يفتحونَ ٱلممالكِ، فٱفتحوا أنتم أيديَكم...

كانوا يرمون بأنفسِهم في سبيلِ ٱللّٰهِ غيرَ مكْتَرِثين[1]، فٱرمُوا أنتم في سبيلِ ٱلحقِّ بٱلدنانيرِ وٱلدراهم.

لِماذا كانَتِ ٱلقِبْلَةُ في ٱلإسلامِ إلّا لتِعتادَ ٱلوجوهُ كلُّها أنْ تتحولَ إلى ٱلجِهةِ ٱلواحدة؟

لماذا ٱرتفعَتِ ٱلمآذنُ إلّا لِيعتادَ ٱلمسلمونَ رفعَ ٱلصوتِ في ٱلحقّ؟

أيُّها ٱلمسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك معَ إخوانِكم بمعنًى مِنَ ٱلمعاني.

* * *

---

(١) مكترثين: مهتمين.

لو صِامَ ٱلعالمُ ٱلإسلاميُّ كلُّهُ يوماً واحداً وبذَلَ نفقاتِ هذا اليومِ ٱلواحدِ لِفلسطينَ، لأغناها.

لو صامَ ٱلمسلمونَ كلُّهم يوماً واحداً لإِعانةِ فلسطين، لَقالَ النبيُّ مُفاخراً الأنبياء: هذه أمتي!

لو صامَ ٱلمسلمونَ جميعاً يوماً واحداً لِفلسطين، لَقالَ ٱليهودُ اليومَ ما قالَهُ آباؤهم من قبل: إنَّ فيها قوماً جَبَّارين...

أيُّها المسلمون! هذا موطنٌ يزيدُ فيهِ معنى ٱلمالِ ٱلمبذولِ فيكونُ شيئاً سماويًّا.

كلُّ قِرشٍ يبذلُهُ ٱلمسلمُ لِفِلسطين، يتكلَّمُ يومَ ٱلحسابِ يقول: يا ربِّ، أنا إيمانُ فلان!

قصةُ ٱلأيدي ٱلمتوضِّئة . . .

قال راوي ٱلخبر: ذهبْتُ إلى المسجدِ لِصلاةِ ٱلجمعة؛ وٱلمسجدُ يجمعُ ٱلناسَ بقلوبِهم لِيُخرِجَ كلَّ إنسانٍ من دنيا ذاتِه، فلا يفكّرُ أحدٌ أنهُ أسمى من أحد؛ ولقد يكونُ إلى جانبِك ٱلصانعُ أوِ ٱلأجيرُ أوِ ٱلفقيرُ أوِ ٱلجاهل، وأنتَ ٱلرئيسُ أوِ ٱلعظيمُ أوِ ٱلغنيُّ أوِ ٱلعالم، فتنظرُ إليهِ وإلى نفسِكَ فتُحسُّ كأنَّ خواطِرَكَ متوضّئةٌ متطهِّرة، وترى كلمةَ ٱلكِبرياءِ قد فقدَتْ روحَها، وكلمةَ ٱلتواضعِ قد وجدَتْ روحَها؛ وتشعرُ بالنفسِ ٱلمجتمعةِ قد نصبَتِ ٱلحربَ لِلنفسِ ٱلمنفردةِ؛ ولو خطرَ لكَ شيءٌ بِخِلافِ ذلك رأيْتَ ٱلفقيرَ إلى جانبِك توبيخاً لك، ونظرْتَ إليهِ ساكتاً وهو يتكلّمُ في قلبك، وشعرْتَ باللّهِ من فوقِكُما، وٱستعلنَتْ لك روحُ ٱلمسجدِ كأنَّها تَهُمُّ بطردِك منه، وخُيِّلَ إليكَ أنَّ الأرضَ ستلطمُ وجهَكَ إذا سجدْتَ عليها، وأيقنْتَ من ذاتِ نفسِكَ أنْ لسْتَ هناك في دنياكَ وليسَ صاحبُكَ في دنياه، وإنَّما أنتما هناك في إنسانيَّةٍ ميزانُها بيدِ ٱللّهِ وحدَه؛ فلا تدري أيّكما ٱلذي يَخِفُّ وأيّكما ٱلذي يثقُل.

قال: والعجيبُ أنَّ هذا ٱلذي لا يجهلُهُ أحدٌ من أهلِ ٱلدين، يعرفُهُ بعضُ علماءِ ٱلدينِ على وجهٍ آخر، فتراهُ في ٱلمسجدِ يمشي مختالاً، قد تحلَّى بحليْتِه، وتكلّفَ لِزَهْوِه، فليسَ ٱلحبَّةُ تَسَعُ ٱثنين، لا وتَطاوَلَ كأنَّهُ ٱلمِئذَنة، وتَصَدَّرَ كأنَّهُ ٱلقِبْلة، وٱنتفخَ كأنَّهُ ممتلِئٌ بالفُروقِ بينَهُ وبينَ ٱلناس؛ وهو بعدَ كلِّ هذا لو كشفَ ٱللّهُ تمويهَهُ لٱنكشَفَ عن تاجرِ عِلْمٍ بعضُ شروطِهِ على الفضيلةِ أنْ يأكلَ بها، فلا يجدُ دنيا ذاتِهِ إلَّا في ٱلمسجد، فهو نوعٌ من كَذبِ ٱلعالمِ ٱلدينيِّ على دينِه.

* * *

قالَ ٱلراوي: وصَعِدَ ٱلخطيبُ ٱلمنبرَ وفي يدِهِ سيفُهُ ٱلخشبيُّ يتوكأُ عليه؛ فما ٱستقرَّ في ٱلذِّروةِ حتى خُيلَ إليَّ أنَّ ٱلرجلَ قد دخلَ في سِرِّ هذه ٱلخشبة، فهو يبدو كٱلمريضِ تُقيمُهُ عصاه، وكٱلهَرِمِ يُمسكُهُ ما يتوكأُ عليه؛ ونظرْتُ فإذا هو كذِبٌ صريحٌ على ٱلإسلامِ وٱلمسلمين، كهيئةِ سيفِهِ ٱلخشبيِّ في كذبِها على ٱلسيوفِ ومعدنِها وأعمالِها.

وتاللّهِ ما أدري كيفَ يستحلُّ عالمٌ من علماءِ ٱلدينِ ٱلإسلاميِّ في هذا ٱلعصر، أنْ يخطبَ ٱلمسلمينَ خُطبَةَ جُمعتِهم وفي يدِهِ هذا ٱلسيفُ علامةُ ٱلذلِّ وٱلضَّعةِ وٱلتراجُعِ وٱلانقلابِ وٱلإدبارِ وٱلهزلِ وٱلسخريةِ وٱلفضيحةِ وٱلإضحاك؛ ومتى كانَ ٱلإسلامُ يأمرُ بِنَجْرِ ٱلسيوفِ مِنَ ٱلخشبِ ونَحْتِها وتسويتِها وإرهافِ حدِّها ٱلذي لا يقطعُ شيئاً، ثُمَّ وضْعِها في أيدي ٱلعلماءِ يَعْتَلُونَ بها ذُؤابةَ[1] كلِّ منبر، لِتتعلَّقَ بها ٱلعيونُ، وتشهدَ فيها الرمز وٱلعلامة، وتستوحِيَ منها ٱلمعنويَّةَ في الدينيَّةَ ٱلتي يجبُ أنْ تتجسَّمَ لِتُرى؟

أفي سيفٍ مِنَ ٱلخشبِ معنويَّةٌ غيرُ معنى ٱلهزْلِ وٱلسخافة، وبلاهةِ ٱلعقلِ وذلّةِ ٱلحياة، ومسْخِ ٱلتاريخِ ٱلفاتحِ ٱلمنتصر، وٱلرمزِ لِخضوعِ ٱلكلمةِ وصِبيانيَّةِ ٱلإرادة؟

قال: وكانَ تمامُ ٱلهزءُ بهذا ٱلسيفِ ٱلخشبيِّ ٱلذي صنعتْهُ وزارةُ أوقافِ ٱلمسلمين، أنَّهُ في طولِ صَمْصَامةِ[2] عمرِو بْنِ مَعْدِيكَربِ ٱلزُّبيديِّ فارسِ ٱلجاهليَّةِ وٱلإسلام، فكانَ إلى صدرِ ٱلخطيب، ولولا أنَّهُ في يدِهِ لَظهرَ مَقْبِضُهُ في صدرِ ٱلرجلِ كأنَّه وِسامٌ مِنَ ٱلخشب...

قال: وكانَ ٱلخطيبُ إذا تكلَّفَ وتصنَّعَ وظهرَ منه أنَّهُ قد حَمِيَ وثارَ ثائرُهُ، أرتجَّ وغفَل عن يدِه، فتضطربُ فيها قبضةُ ٱلسيفِ فَتلكزُهُ في صدرِهِ كأنَّما تذكِّرُهُ أنَّ في يدِهِ خشبةً لا تَصلُحُ لِهذهِ ٱلحماسة....![3]

* * *

قال: وخطبَ ٱلعالمُ على الناس، وكانَ سيفُهُ ٱلخشبيُّ يخطبُ خطبةً أخرى: فأمَّا ٱلأولى فهي محفوظةٌ معروفةٌ ولا تنتهي حتى ينتهيَ أثرُها، إذْ هي كالقراءةِ لإقامةِ ٱلصلاة؛ وكانَتْ في عهدِها ٱلأولِ كٱلدرسِ لإقامةِ شأنٍ من شؤونِ ٱلاجتماعِ وٱلسياسة، فبينَها وبينَ حقيقتِها ٱلإسلاميَّة مثلُ ما بينَ هذا ٱلسيفِ مِنَ ٱلخشبِ وبينَ حقيقتِهِ ٱلأولى. وأمَّا الخطبةُ ٱلثانيةُ فقدَ عقلْتُها أنا عن تلك ٱلخشبةِ وكتبْتُها، وهذه هي عبارتُها:

ويحكم أيُّها ٱلمسلمون! لو كنْتُ بقيةً من خشبِ سفينةِ نوحٍ ٱلتي أنقذَ فيها

---

(١) ذؤابة: رأس.

(٢) صمصامة: اسم للسيف.

(٣) كانت القاعدة الشرعية تبيح للخطيب المسلم، إذا ما افتتح بلداً غضباً بالسيف أن يخطب وبيده سيفه.

ٱلجنسَ البشريَّ، لَمَا كانَ لكم أنْ تضعوني هذا ٱلموضع؛ وما جعلَكُمُ ٱللَّهُ حيثُ أنتم إلَّا بعدَ أنْ جعلْتُموني حيث أنا، تكادُ شرارةٌ تذهبُ بي وبكم معاً، لِأنَّ فيَّ وفيكمُ ٱلمادةَ ٱلخشبيةَ وٱلمادةَ ٱلمتخشَّبة.

ويحكم! لو أنَّهُ كانَ لِخطيبِكم شيءٌ مِنَ ٱلكلامِ ٱلناريِّ ٱلمضطرم، لَمَا بقيَتِ ٱلخشبةُ في يدِهِ خشبة. وكيف يمتلىءُ الرجلُ إيماناً بإيمانه، وكيف يصعدُ ٱلمنبرَ لِيقولَ كلمةَ الدينِ مِنَ ٱلحقِّ ٱلغالبِ، وكلمةَ ٱلحياةِ مِنَ ٱلحقِّ ٱلواجب ـ وهو كما ترونَه قدِ ٱنتهى مِنَ ٱلذلِّ إلى أنْ فقد ٱلسيفُ روحَهُ في يدِه؟

أيُّها ٱلمسلمون! لنْ تُفلحوا[1] وهذا خطيبُكُمُ ٱلمتكلمُ فيكم، إلَّا إذا أفلحْتُم وأنا سيفُكم ٱلمدافعُ عنكم. أيُّها ٱلمسلمون، غَيِّروه وغيّروني.

* * *

قالَ راوي الخبر: ولـمَّا قُضِيَتِ ٱلصلاةُ ماجَ[2] ٱلناسُ إذِ ٱنبعَثَ فيهم جماعةٌ مِنَ ٱلشبانِ يصيحون بهم يستوقفونهم لِيخطبوهم؛ ثُمَّ قامَ أحدُهم فخطب، فذكرَ فلسطينَ وما نزلَ بها، وتغيُّرِ أحوالِ أهلِها، ونكبتَهم وجهادَهم وٱختلالَ أمرِهم، ثمَّ ٱستنجدَ وٱستعان، ودعا ٱلمُوسِرَ[3] وٱلمُخِفَّ[4] إلى ٱلبذلِ وٱلتبرعِ وإقراضِ ٱللَّهِ تعالى؛ وتقدمَ أصحابُهُ بصناديقَ مختومة، فطافُوا بها على الناسِ يجمعون فيها القليل وٱلأقلَّ من دارهِمَ هي في هذه ٱلحالِ دارهمُ أصحابِها وضمائرُهم.

قال: وكانَ إلى جانبي رجلٌ قَرَوِيٌّ من هؤلاءِ ٱلفلاحينَ ٱلذين تَعرفُ ٱلخيرَ في وجوهِهم، وٱلصبرَ في أجسامِهم، وٱلقناعةَ في نفوسِهِم، وٱلفضلَ في سجاياهم؛ إذِ ٱمتزجَتْ بهم روحُ ٱلطبيعةِ ٱلخِصبةِ فتُخرجُ من أرضِهم زُروعاً ومن أنفسِهم زروعاً أخرى ـ فقالَ لِرجلٍ كانَ مَعه: إنَّ هذا ٱلخطيبَ خطيبَ ٱلمسجدِ قد غشَّنا وهؤلاءِ ٱلشبانُ قد فضحوه؛ فما ينبغي أنْ تكونَ خطبةُ ٱلمسلمينَ إلَّا في أخصِّ أحوالِ ٱلمسلمين.

قال: ونبَّهني هذا ٱلرجلُ ٱلساذَجُ إلى معنًى دقيقٍ في حِكمةِ هذه ٱلمنابرِ ٱلإسلاميَّة؛ فما يُريدُ ٱلإسلامُ إلَّا أنْ تكونَ كمحطاتِ ٱلإذاعة، يلتقطُ كلُّ منبرٍ أخبارَ ٱلجهاتِ ٱلأخرى ويُذيعُها في صيغةِ ٱلخطابِ إلى ٱلروح وٱلعقلِ وٱلقلْب، فتكونُ

---

(١) تفلحوا: تنجحوا.
(٢) ماج: هاج.
(٣) الموسر: الغني.
(٤) المخف: الفقير.

خطبةُ ٱلجمعةِ هي ٱلكلمةَ ٱلأسبوعيَّةَ في سِياسةِ ٱلأسبوعِ أو مسألةِ ٱلأسبوع؛ وبهذا لا يجيءُ ٱلكلامُ على ٱلمنابرِ إلَّا حيًّا بحياةِ ٱلوقت، فيُصبحُ ٱلخطيبُ ينتظرُهُ ٱلناسُ في كلِّ جمعةٍ ٱنتظارَ ٱلشيءِ ٱلجديد؛ ومن ثَمَّ يستطيعُ ٱلمنبرُ أنْ يكونَ بينَهُ وبينَ ٱلحياةِ عمل.

قال: وخُيِّلَ إليَّ بعدَ هذا ٱلمعنى أنَّ كلَّ خطيبٍ في هذه ٱلمساجدِ ناقصٌ إلى ٱلنصف، لِأنَّ السياسةَ تُكرهُهُ أنْ يخلعَ إسلاميَّتَهُ ٱلواسعةَ قبلَ صعودِهِ ٱلمنبر، وألَّا يصعدَ إلَّا في إسلاميتِهِ ٱلضيِّقةِ ٱلمحدودةِ بحدودِ ٱلوعْظِ هو مع ذلك نصفُ وعظ. . . فالخطبةُ في ٱلحقيقةِ نصفُ خطبة، أو كأنَّها أثرُ خطبةٍ معَها أثرُ سيف. . .

قال: وأخرجَ ٱلقرويُّ كِيسَهُ فعزَلَ منه دراهم وقال: هذه لِطعام أتبلَّغُ بِهِ ولِأَوْبتي[1] إلى البلد، ثم أفرغَ الباقي في صناديقِ ٱلجماعة؛ وٱقتديْتُ أنا بِهِ فلم أخرجْ مِنَ ٱلمسجدِ حتى وضعْتُ في صناديقِهم كلَّ ما معي؛ ولقد حسبْتُ أنَّهُ لو بقيَ لي درهمٌ واحدٌ لَمضى يَسبُّني ما دامَ معي إلى أنْ يخرجَ عنِّي.

* * *

قالَ ٱلراوي: ثُمَّ دخلْتُ إلى ضريحِ صاحبِ ٱلمسجدِ أزورُهُ وأقرأُ فيهِ ما تيسَّرَ مِنَ ٱلقرآن، فإذا هناك رجالٌ من علماءِ ٱلمسلمين، إثنانِ أو ثلاثةٌ: (الشكُّ في ثالثِهم لأنَّهُ حليقُ ٱللحية). ثُمَّ تَوَافَى[2] إليهم آخرون فتمُّوا سبعة؛ ورأيْتُهم قد خلطوا بأنفسِهم صاحبَ (اللا لِحية)، فعلِمْتُ أنَّهُ منهم على ٱلمذهبِ ٱلشائعِ في بعضِ ٱلعصريينَ مِنَ ٱلعلماءِ وٱلقضاةِ ٱلشرعيِّين، أحسبهُم يحتجُّون بقولِه تعالى: و ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ وكلُّ ٱمرىءٍ فإنَّما تُبَصِّرهُ مرآتُهُ كيفَ يظهرُ في أحسنِ تقويم، أبلحيةٍ أم بلا لِحية. . .؟

وأدرْتُ عيني في وجوههم، فإذا وقارٌ وسَمْتٌ ونورٌ لم أرَ منها شيئاً في وجهِ صاحبِ (اللا لِحية)؛ وأنا فما أبصرْتُ قطُّ لِحيةَ رجلٍ عالمٍ أو عابدٍ أو فيلسوفٍ أو شاعرٍ أو كاتبٍ أو ذي فنٍّ عظيم، إلَّا ذكرْتُ هذا المعنى ٱلشعريَّ البديعَ الذي وردَ في بعضِ ٱلأخبارِ، من أنَّ للَّهِ (تعالى) ملائكةً يُقْسِمون: وٱلذي زيَّن بني آدمَ باللِّحى.

وكانَ مِنَ ٱلسبعةِ رجلٌ تركَ لِحيتَهُ عافيةً على طبيعتِها؛ فٱمتدَّتْ وعظُمَتْ حتى

---

(١) أوبتي: عودتي. (٢) توافى: جاء.

نَشَرَتْ حولَها جوًّا روحانيًّا مِنَ ٱلهيبةِ تشعرُ ٱلرقيقةُ بتيَّارِهِ على بُعد، فكانَ هذا أبلغَ ردٍّ على ذلك.

* * *

قال؛ وأنصَتَ ٱلشيوخُ جميعاً إلى خطبِ ٱلشبان، وكانَتْ أصواتُ هؤلاءِ جافيةً[1] صُلبةً حتى كأنَّها صَخَبُ[2] معركةٍ لا فنُّ خطابة، وعلى قدرِ ضعفِ المعنى في كلامِهم قَويَ ٱلصوت؛ فهم يصرخونَ كما يصرخُ ٱلمستغيثُ في صيحاتٍ هاربةٍ بينَ ٱلسماءِ وٱلأرض.

فقالَ أحدُ ٱلشيوخ ٱلفضلاء: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله! جاءَ في ٱلخبَر: «تَعِسَ عبدُ ٱلدينارِ تَعِسَ عبدُ ٱلدرهم». وواللَّهِ ما تعسَ ٱلمسلمونَ إلَّا منذُ تعبَّدوا لِهذين حِرْصاً وشُحًّا؛ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3]، ولو تعارفَتْ أموالُ ٱلمسلمينَ في ٱلحوادثِ لمَا أنكرتْهمُ ٱلحوادث.

فقالَ آخر: وفي ٱلحديث: «إنَّ ٱللَّهَ يُحبُّ إغاثةَ ٱللَّهْفان»، ولكن ما بالُ هؤلاءِ ٱلشبانِ لا يُوردون في خطبِهم أحاديثَ معَ أنَّها هي كلماتُ ٱلقلوب؟ فلو أنَّهم شرحوا لِلعامةِ هذا الحديث: «إنَّ ٱللَّهَ يُحبُّ إغاثةَ ٱللهفانِ» لأسرعَ العامَّةُ إلى ما يُحبّهُ ٱلله.

قالَ ٱلثالث: ولكنْ جاءَنا ٱلأثرُ في وصفِ هذه الأمَّة: «إنَّها في أولِ ٱلزمانِ يتعلَّمُ صغارُها من كِبارِها، فإذا كانَ آخرُ ٱلزمانِ تعلّمَ كِبارُهم من صِغارِهم». فنحن في آخرِ ٱلزمان، وقد سُلِّطَ ٱلصغارُ على ٱلكبارِ يُريدونَ أنْ يَنقُلوهم عن طِباعِهِم إلى صِبيانيَّةٍ جديدة.

قالَ ٱلراوي: فقلْتُ لِصديقٍ معي: قلْ لِهذا الشيخ: ليس معنى ٱلأثرِ ما فهمْتَ، بل تأويلُهُ أنَّ آخرَ ٱلزمانِ سيكونُ لِهذهِ الأمَّةِ زمنُ جِهادٍ وٱقتحام، وعزيمةٍ ومُغالبةٍ على ٱستقلالِ ٱلحياة؛ فلا يصلحُ لِوقايةِ ٱلأمَّةِ إلَّا شبابُها ٱلمتعلِّمُ ٱلقويُّ ٱلجريء، كما نرى في أيَّامِنا هذه، فينزلون مِنَ ٱلكبارِ تلكَ ٱلمنزلةَ؛ إذْ تكونُ ٱلحماسةُ مُتممةً لِقُوةِ ٱلعِلْم. وفي ٱلحديث: «أمَّتي كالمطرِ: لا يُدرَى أولُهُ خيرٌ أم آخرُه».

* * *

قالَ ٱلراوي: ولم يكدِ ٱلصديقُ يحفظُ عنِّي هذا الكلامَ ويَهُمُّ بتبليغِهِ، حتى

---

(١) جافية: قاسية صلبة.

(٢) صخب: ضجيج.

(٣) شحّ: بخل.

وقعَتِ ٱلصِيحةُ في ٱلمكان؛ فجاءَ أحدُ الخطباءِ ووقفَ يفعلُ ما يفعلُهُ ٱلرعد: لا يكرِّرُ إلَّا زمجرةً واحدة؛ وكانَ ٱلشيوخ ٱلأجِلَّاءُ قد سمعوا كلَّ ما قيل، فأطرقوا يسمعونه مرةً رابعةً أو خامسة؛ وفرغَ ٱلشبابُ من هَديرِهِ فتحوَّلَ إليهم وجلسَ بينَ أيديهم متأدِّباً متخشِّعاً ووضَع ٱلصندوقَ ٱلمختوم.

فقالَ أحدُ ٱلشيوخ: لم يَخفَ علينا مكانُك، وقد بذلْتُم ما ٱستطعْتُم؛ فبارَكَ ٱللهُ فيك وفي أصحابِك.

وسكَتَ ٱلشابُّ، وسكَتَ ٱلشيوخ، وسكَتَ ٱلصندوقُ أيضاً...

ثُمَّ تحركَتِ ٱلنفسُ بوحْيِ ٱلحالة؛ فمدَّ أولُهم يدَهُ إلى جيبِهِ، ثُمَّ دسَّها فيه، ثُمَّ عَيَّثَ[1] فيه قليلاً؛ ثم... أخرجَ ٱلساعةَ ينظرُ فيها.

وٱنتقَلتِ ٱلعدوى إلى ٱلباقين، فأخرجَ أحدُهُم مِنديلَهُ يتمخَّطُ فيه، وظهَرتْ في يدِ ٱلثالثِ سُبحةٌ طويلة، وأخرجَ ٱلرابعُ سِواكاً فمرَّ بهِ على أسنانِه، وجرَّ الخامسُ كُراسةً كانَتْ في قَبائِه، ومدَّ صاحبُ ٱللِّحيةِ ٱلعريضةِ أصابعَهُ إلى لِحيتِهِ يُخَلِّلُها؛ أمَّا السابعُ صاحبُ (اللاحية)، فثبتَتْ يدُهُ في جيبِهِ ولم تخرج، كأنَّ فيها شيئاً يستحي إذا هو أظهرَه، أو يخشى إذا هو أظهَرُه من تخجيلِ ٱلجماعة.

وسكَتَ ٱلشابُّ، وسكَتَ ٱلشيوخ، وسكَتَ ٱلصندوق أيضاً...

قالَ ٱلراوي: ونظرْتُ فإذا وجوهُهُم قد لبَستْ لِلشابِّ هيئةَ ٱلمدرِّسِ ٱلذي يُقرِّرُ لِتلميذِهِ قاعدةً قرَّرها مِنْ قبلُ ألفَ مرةٍ لِألفِ تلميذ؛ فخجلَ ٱلشابُّ وحملَ صندوقَهُ ومضى...

***

أقولُ أنا: فلَمَّا ٱنتهى ٱلراوي من (قصةِ ٱلأيدي ٱلمتوضئة)، قلْتُ لَه: لَعلَّكَ أيُّها ٱلراوي ٱستيقظْتَ مِنَ ٱلحُلُم قبلَ أنْ يملأَ الشيوخُ الأجلَّاءُ هذا ٱلصندوق، وما ختمَ عقلُكَ هذه الروايَةَ بهذا الفَصلِ إلَّا بما كَدَدْتَ[2] فيهِ ذهنَكَ من فلسفةِ تحوُّلِ ٱلسيفِ إلى خشبة؛ ولو قدِ ٱمتدَّ بِكَ النومُ لَسمعْتَ أحدَهم يقول لِسائِرهم: بِمَنْ ينهضُ إخوانُنا ٱلمجاهدونَ وبمنْ يصولون؟ لهذا قالَ رسولُ ٱللهِ ﷺ: «جاهلٌ سخيٌّ[3] أحبُّ إلى ٱللهِ من عالمٍ بخيل». ثُمَّ يملئون ٱلصندوق....

---

(١) عيَّث فيه قليلاً: أي بحث بأصبعه.

(٢) كددت: أتعبْت. (٣) سخيّ: كريم.

نجوى التمثال

أيُها ٱلمفترِشُ ٱلصخرةَ يشُدُّ ذراعيهِ أقوى ٱلشدِّ كأنَّما يُريدُ أنْ يقتلعَ ٱلصخرةَ فيهما،

مُتَنَاهِضاً بصدرِهِ[1] لِيَدلَّ على أنَّهُ وإنْ رَبضَ فإنَّ ٱلوثبةَ في يديه، مُتَمَطِّياً[2] بصُلْبِهِ لِيُشيرَ من جِسمِهِ ٱلهادىء إلى معانيهِ ٱلمفترسة، مُقْعياً على ذَنبِهِ[3] ومتحفِّزاً بسائِرِهِ كأنَّهُ قوةُ ٱندفاعٍ تَهُمُّ أنْ تَنفلِتَ من جاذبيةِ ٱلأرض.

وأنَتِ أيَّتُها ٱلهيفاءُ[4] تمثِّلُ ٱلإنسانيَّةَ ٱلمتمدِّنةَ في نَحافتِها وهي كهذه ٱلإنسانيَّةِ ضاربةٌ بذراعَيْ أسدٍ في غِلَظٍ مِدْفعين....

حكيمةً في ٱلنظرِ كأنَّما تَمُدُّ في سرائِرِ ٱلأممِ نظرةَ ٱلمتأملِ، ولكنَّ يدَها كَيَدِ ٱلحِكمةِ ٱلسياسيَّةِ على تركيبٍ عقليٍّ تحتَهُ ٱلمخالب...

ساكنةً كأنَّها تمثالُ ٱلسلامِ على أنَّها في جِوارِ ٱلأسدِ كَٱلسلامِ بينَ ٱلشعوب: تَلْمَحُ فيهِ إنسانَ ٱلعالمِ ووحشَ ٱلعالم...

يا أبَا ٱلهول.

أأنتَ جوابٌ عن ذلك ٱللُّغزِ ٱلقديمِ ٱلذي هو كلامٌ لا يتكلَّمُ وسكوتٌ لا يسكُت.

وٱلذي أشارَ برأسِ ٱلإنسانِ على جسمِ ٱللَّيثِ[5] أنَّهُ قوةٌ عمياءُ كَٱلضرورةِ ولكنَّها مُبْصِرَةٌ كَٱلاختيار.

وٱلذي أخرجَ من فَنَّي ٱلغريزةِ والعقلَ فنَّا ثالثاً لا يزالُ في ٱلأرضِ ينتظرُ ٱلمرأةَ التي تَلِدُ إنساناً عِظامُهُ مِنَ ٱلحجَر؟

---

(١) متناهضاً بصدره: مرتفعاً.
(٢) متمطياً: متمدداً، وذلك بعد النوم.
(٣) مقعياً على ذنبه: جالساً.
(٤) الهيفاء: الفتاة الممتشقة الطول.
(٥) الليث: الأسد.

وأنتِ يا مصر:

أواقفةٌ ثَمَّةَ لِلشرحِ والتفسير، تقولينَ لِلمصريِّ: إنَّ أجدادَك يسألونَك مِنْ آلافِ ٱلسنينَ بهذا الرَمز: ألَا معجزةٌ مِنَ ٱلقوَّةِ تمطُّ عَضَلاتِ ٱلحجَر؟

ألا بَسْطَةٌ[1] مِنَ ٱلعِلْم تجعلُك أيُّها ٱلمصريُّ وكأنَّكَ رأسٌ لِجسمِ ٱلطبيعة؟ ألا فنٌّ جديدٌ ترفعُ بِهِ أبا ٱلهولِ في ٱلجوّ فتزيدُهُ على قوَّةِ ٱلوحشِ وذكاءِ ٱلإنسانِ خِفَّةَ ٱلطير؟

أمْ تقولينَ لِلمصريّ: إنَّ أجدادَك يُوصونكَ بهذا ٱلرمزِ أنْ تكونَ كالظَّهرِ ٱلأسديِّ لا يُركَبُ مَطاهُ، وكٱلرأسِ ٱلإنسانيّ لا تُقيِّدُ حريتَهُ، وكٱلرَّبْضَةِ ٱلجبليَّةِ لا تَسْهُلُ إزاحتُها، وكٱلإبهامِ ٱلمركَّبِ من غامضَينِ لا يتيسَّرُ بِهِ عَبَثُ ٱلعابث، وكٱلصراحةِ ٱلمجتمعةِ من عنصرٍ واحدٍ لا يغلطُ في حقيقتِها أحد؟

أمْ تقولينَ يا مصر: إنَّ تفسيرَ أبي ٱلهولِ ٱلأولِ أنَّ ٱلنهضةَ ٱلمصريَّةَ إنَّما تكونُ يومَ تُخرجُ ٱلبلادُ مَنْ يصنعُ أبا ٱلهولِ الثاني؟

* * *

تمثالُ ٱلنهضةِ أم صفحةٌ مِنَ ٱلحجرِ قد صَوَّرَ ٱلشعبُ عليها، ودوَّنَ فيها إحساسَهُ بتاريخِه، ووصفَ بها إدراكَهُ حياةَ ٱلمعاني ٱلسامية؟

أمْ هو كتابةُ فصلٍ مِنَ ٱلتاريخِ بقلمِ ٱلحياةِ وعلى طريقةٍ من بلاغتِها، خشيَتْ عليهِ ٱلفناءَ فدوَّنَتْهُ في أسلوبٍ مِن أساليبِ ٱلبقاءِ ٱلحجريِّ ٱلصَّلْد؟

أمْ ذاك يومٌ من أيامِ ٱلأمَّةِ أحالَهُ ٱلفنُّ من زمنٍ إلى مادة؛ ومن معنًى إلى حسٍّ، ومن خبرٍ إلى مَنْظَرٍ، وكانوا يتكلَّمون عنهُ فجعلَهُ ٱلفنُّ يتكلَّمُ عن نفسِه؟

أمْ هو تعبيرٌ عن تلك ٱلمعاني التي خلَقتْها نفوسُ هذا ٱلجِيلِ تُخاطبُ بِهِ ٱلنفوسَ الآتيةَ لِتُتمِّمَ عليها، وتُضيفَ فيه إلى ٱلمعنى سرَّ ٱلمعنى، وتضعَ ٱلكلمةَ ٱلإنسانيَّةَ على لِسانِ ٱلطبيعةِ تتكلَّمُ بالتمثالِ كما تتكلَّمُ بالجيل؟

أمْ تركيبٌ سِياسيٌّ إذا فسَّرتْهُ ٱللغةُ كانَ معناهُ أنَّ ٱلثابتَ إذا ٱحتاجَ إلى مَنْ يُثبتُهُ... فلَنْ يمحوَهُ من يُنكرُهُ، وأنَّ ٱلظاهرَ إنِ ٱحتاجَ إلى مَنْ يَدلُّ عليه... فلَنْ يُخفِيَهُ مَنْ لا يراه؟

* * *

---

(١) بسطة: سعة.

بلْ أراكَ لا هولَ[1] فيكَ يا أبا الهولِ ٱلجديد.

أفذاكَ من رِقَّةٍ داخلَتْك ورحمةٍ جاءَتْك من مَسِّ يدِ ٱلمرأة...؟

أمِ ٱلهولُ ٱليومَ قد أصبحَ في ٱلعقلِ وٱلعاطفةِ ومدّ ٱلعينِ ٱلنسائيَّةِ إلى بعيد...؟

أمْ لا يتمُّ في هذِهِ ٱلمدينةِ رأسُ رجلٍ وجسمُ سَبعٍ إلَّا... إلَّا بأناملِ ٱمرأة؟

ألَا مَنْ يُعْلِمُني أهذه ٱلمرأةُ منك هي تهذيبٌ لِلإنسانِ وٱلوحشِ أمْ تكملةٌ عليهما؟

ألا مَنْ يأتيني بٱلحِكْمةِ فيكَ من وضْعِ ٱلرجلِ ٱلقويِّ رأساً ولا جسم، والأسدِ ٱلمفترسِ جسماً ولا رأس، ثُمَّ لا يكملُ دُونَهما إلَّا ٱلمرأةُ وحدَها.

إنَّما كنْتَ يا أبا الهولِ لُغْزَ ٱلصمْت، فَلمَّا أُضيفَتِ ٱلمرأةُ إليكَ أصبحْتَ لُغْزَ ٱلنطقِ... فيا لَلْهول!

(١) هول: قوة.

فاتحُ ٱلجوِّ ٱلمصريّ

يا طيرَ ٱلمثَلِ ٱلأعلى!

لقدِ ٱنْفَلَتَّ[1] من رذيلةِ ٱلخوف وتركْتَها في ٱلترابِ مَوْطِىءَ ٱلقَدَم، وقلْتَ لها: ويحكِ، لقد آنَ لِلشباب ٱلمصريّ؛ فهو مُغَامِسٌ[2] في ماءِ ٱلصواعق[3]، مُتَطَوِّحٌ[4] في ٱللُّجّةِ ٱلأزليَّةِ[5] التي تغوصُ فيها ٱلكواكبُ[6]، يطيرُ برُوحِ ٱلشَّرارة، ويَهْبِطُ برُوحِ ٱلغيث[7]، ويُلجِمُ[8] ٱلجوَّ ويُسْرِجُهُ،[9] ويتعلَّمُ كيفَ يَشْوي عدوَّهُ في عَيْنِ ٱلشمس.

وكنْتَ بطلاً مُغَامراً فخطوْتَ في طريقِ الملائكةِ بهذِهِ ٱلفضيلةِ وحمَلَكَ ٱلجوُّ؛ ولو أنَّك خِفْتَ وكنْتَ على جَنَاحَيْ جِبريلِ لا على طيَّارة، لَخَافَ جبريلُ على جناحَيهِ من حَطْمَةِ هذا ٱلمعنى الترابيِّ ٱلطاغيةِ ٱلذي يَحكُمُ على ٱلأحياءِ بٱلموتِ بلا موت، لِأَنَّهُ ٱلذلُّ وٱلخضوعُ وٱلرذيلة.

وحملَكَ ٱلجوُّ إلى قُبَةِ ٱلسماء، وهنالِكَ نَظَرَ ٱلعالَمُ فرأى لِمِصرَ ٱلناهضةِ عَلَمَها ٱلإنسانيَّ يتنفَّسُ تحتَ ٱلكواكب.

وحملَكَ ٱلجوُّ إلينا، فلمَّا رفعْنَا رؤوسَنَا لِنراك، رفعْناها في ٱلوقتِ بين شعوبِ الأرض.

* * *

وضربْتَ يا جَنَاحَ مصرَ في الهواء، وأعْنَانُ ٱلسماءِ[10] مملوءةٌ بِالزَّعْزَعِ[11] وٱلهَوجاءِ وٱلعاصف، وٱلسماءُ في فصلِها ٱلمكْفَهِرِّ ٱلذي تخلعُ فيهِ كلَّ ساعةٍ وتلبسُ

---

(١) انفلتَّ: تخلّصت.
(٢) مغامس: مبلل.
(٣) تلك كناية عن السحاب.
(٤) متطوّح: متماثل في كل اتجاه.
(٥) اللجة الأزلية: السماء.
(٦) تلك كناية عن أجواز الفضاء.
(٧) الغيث: المطر.
(٨) يُلجم: يضع اللجام للحصان.
(٩) يُسرجه: يضع السرج للحصان.
(١٠) أعنان، مفرده عنان، بالفتح: نواحيها.
(١١) الزعزع: تردّد الصوت كالجلجلة.

وتَمزَّقُ[1] وتَطْوي، فزِدْتَ بجُرأتِكَ في براهينِ ٱلقضيَّةِ ٱلمصريَّةِ برهانَ قوَّةِ ٱلمُخاطَرة، وأضفْتَ إلى مَنطِقها وضعاً جديداً مُفْحِماً من روحِ ٱلتضحية.

وطِرْتَ بينَ حياةٍ وموتٍ فجعلْتَهما يستويانِ في ٱعتقادِك؛ إذْ وصلْتَ فكرةَ ٱلموتِ بسرِّ ٱلإيمان، وٱلحياةَ بسرِّ ٱلعزيمة.

وكنْتَ رَجُلَ أُمَّتِكَ بإنكارِ ذاتِ نفسِكَ من أجلِها.

وٱتسَعْتَ لِلتاريخِ بوضعِك عُمرَكَ ٱلمحدودَ على ٱلطيَّارة، وقذفِكَ بِهَا وبِهِ في مَسْبَحِ ٱلأجل.

وتجرَّدْتَ لِلأَبديَّةِ لِتُعطيَ بِلادَكَ: إمَّا شهيدَ مجدٍ في ٱلآخرة، وإمَّا شهادةَ فخرٍ في ٱلدنيا.

وكنْتَ على طيَّارتِكَ ٱلصغيرةِ ٱلمُتَطَارِدةِ تحتَ ٱلريح، وحَولَكَ رُوحُ ٱلهرَمَ ٱلأكبرِ ٱلقائمِ بإرادةِ مصرَ وكأنَّهُ مِسْمارٌ مدقوقٌ في كُرَةِ ٱلأرضِ بينَ ٱلقطْبِ وٱلقطب.

* * *

وأنتِ يا «فائزة» يا هذه ٱلصغيرةُ ٱلخارجةُ من مالِ صاحِبها وجُهدِهِ وعزيمتِهِ كما تخرجُ ٱلقوَّةُ من ضَعف، أعلمْتِ إذْ أنتِ ترتفعينَ وتهبطينَ بينَ ٱلسحُبِ كما تتواثبُ ٱلفَراشةُ على ٱلنوَّارِ في رَوضةٍ مُزهرة، وإذْ أنتِ تَفْتُقينَ وتحُوكينَ في مُلاءةِ ٱلسحابِ كأنَّكِ بِمُحَرِ كِكِ الدَّوَّارِ تَنسِجُينَ في ٱلسماءِ بمغْزَل، وإذْ أنتِ بينَ صَفْقِ ٱلرياحِ ٱلهُوجِ[2]، تحتَ ٱلسماءِ ٱلمُدَجَّجَةِ[3]، في كُبَّةِ ٱلشتاء[4]، كأنَّك مناظَرةٌ تجري بينَ ٱلعزيمةِ في ٱلإنسانِ والعزيمةِ في ٱلطبيعة، وإذْ أنتِ بينَ ذئابِ ٱلأعاصيرِ، ونُمورِ ٱلسحابِ[5] وسِباعِ ٱلغيمِ ذواتِ ٱللِّبدةِ ٱلكثيفةِ ٱلمُتَشَعّثَةِ، كأنَّكِ بِصوتِكِ وأزيزِكِ تُطلقينَ على وحوشِ الجوِّ مِدفعاً رشاشاً يترُكها صَرْعَى،

وإذْ تراكِ ٱلريحُ فتقولُ عنكِ: ريحٌ صَنَعَها ٱلإنسان. وَيَراكِ ٱلنجمُ فيقول: نجمٌ أفلَتَ مِنَ ٱلنِّظامِ ٱلأرضيّ. وتَراكَ ٱلملائكةُ فتقول: ويحكَ يا ٱبنَ آدمَ، كأنَّكَ بما

(١) كناية عن المطر وطبيعة الشتاء.

(٢) الهوج، مفرده هوجاء أي المجنونة التي لا تستقرّ ولا تهدأ.

(٣) المدجَّجة: المفعمة.

(٤) كبّة الشتاء: عنفه وغزارته.

(٥) السحاب: الغيم.

خَلَقَهُ ٱلعقلُ تطمعُ مِنَّا في سَجْدَةٍ أخرى كالتي سجدْناها لِآدمَ يومَ خلقَهُ ٱللهُ.

. . . أعلمْتِ إذْ أنتِ كذلك يا «فائزة»، أنَّ ٱلتاريخَ ٱلمصريَّ سيحوّلُكِ من طيَّارةٍ إلى آيةٍ كآيةِ بَدْءِ ٱلخَلْق، لِأنَّ فيكِ بَدْءَ الطَيرانِ في مصر؟

* * *

سلاماً يا فاتحَ ٱلجوِّ ٱلمصري. لقدْ أجالَتِ ٱلأيامُ قِداحَها[1] فخرجَتِ ٱلقُرعةُ عليك، وأوحَى إليك الواجبُ آيةَ: بسمِ اللّهِ مَصْعَدُها ومَجراها.

وطِرْتَ فإذا أنت بِها عابرٌ فوقَ ٱلحاضرِ لِتجيئَنا من جانبِ ٱلمستقبل.

وهبطْتَ علينا كأنَّكَ في بَريدِ ٱلسماءِ كتابُ مَجْدٍ حَيٍّ لِلوطنيَّةِ ٱلظافرة.

بلْ كِتابُ قصَّةٍ رائعةٍ أَلَّفتْها ٱلعواصفُ من فنَّين: ثورةِ ٱلجوِّ وثورةِ نفسِكَ ٱلمصريَّة. وحَكَتْها في صوتين: زَفيفِ ٱلطيَّارةِ وصَرْخةِ ضميرِكَ ٱلوطنيّ. وجعلَتْها فصلين: أنتَ وٱلمجهول. ألَا حسبُكَ مجداً أنْ يحيا ٱلشعبُ كلُّهُ بضعةَ أيامٍ في قصتِك!

* * *

فعلى مَهْدِ ٱلجوّ، وفي حَريرِ ٱلشعاع، وتحتَ كِلَّةِ ٱلسحاب ـ وُلِدَ لِمصرَ يومٌ تاريخيّ.

وخرجَتِ ٱلتهانيءُ ٱلتي طالَ ٱحتباسُها[2] في ٱلقلوبِ ٱلمصريَّةِ لا يُفْرَجُ عنها لأنَّ سجَّانَها ظُلْمُ ٱلسياسة.

وٱتجهَتْ أفراحُ شعبٍ كاملٍ إلى ٱلفتى ٱلجرىءِ ٱلذي رَمَتْ بِهِ هِمَّتُهُ فوقَ هاويةِ ٱلموتِ فتخطاها.

وتلقَّى شعورُ الأمَّةِ رسولَه ٱلمِقدامَ ٱلذي لم يكنْ لَهُ ملجأٌ في خِطَارِهِ إلَّا شعورَهُ بهذه الأمَّة.

وٱرتجَّ ٱلوادي كلُهُ كأنَّه غِمْدٌ يتقلقلُ حينَ يُسَلُّ منهُ ٱلسيف.

ثُمَّ أُهْدِيَتْ كلمةُ مِصرَ لابْنِها ٱلذي كتَبَ في جوِّها ٱلكلمةَ ٱلسماويَّةَ ٱلأولى. وكانَتْ ساعةٌ تلاشَى عندَها ٱلزمنُ فٱرتفعَتْ منه أربعةُ آلافِ سنةٍ وهتَف معنا ٱلفراعنة: بورِكْتَ يا «صدقي»!

* * *

(١) قداحها: كأسها لتقرع فيها على طريقة الجاهلية. (٢) احتباسها: سجنها.

لِلهِ درُّكَ أيُّما ٱبنِ عزيمة! كأنَّما كَشفْتَ أهاويلَ ٱلوحْيِ وهبطْتَ في سحابةٍ مُجَلْجِلَةٍ إنْ لم تحملْ كتاباً مُنزَلاً فكأنَّما حملتْ شخصاً منزلاً.

ولعلَّكَ رسولُ ٱلغَيم ٱلعابِسِ لِهذا ٱلجوِّ ٱلمصريِّ ٱلذي يضحكُ دائماً ضحكةَ ٱلفيلسوفِ ٱلساخرِ في حينِ أصبَحتِ ٱلحياةُ قوةً لا فلسفةِ. . .

ولعلَّكَ مبعوثُ ٱلبرقِ وٱلرعدِ لِهذا ٱلسكونِ ٱلنائمِ ٱلذي يطوي كلَّ يومٍ في طيِّ ٱلنسيانِ ما حَدَثَ في ٱليومِ ٱلذي قبلَه. . .

ولعلَّكَ نبيُّ ٱلجِدّيةِ وٱلمرارةِ لِهذهِ الحلاوةِ ٱلنيليَّةِ ٱلمُفْرِطةِ ٱلتي كادَ منها ٱلشعبُ أنْ يكونَ سُكَّرَ أخلاقٍ يُذابُ ويُشْرب. . .

ولَعلَّكَ تفسيرٌ مصحِّحٌ لِعقيدتِنا ٱلمغلوطةِ في ٱلقضاءِ وٱلقدر، أنَّ ٱلقضاءَ أنْ تُقْدِمَ بِلا خوف، وأنَّ ٱلقدرَ أنْ تَثِقَ بِلا مُبالاة.

أمَا ـ واللَّهِ ـ لقدْ غَمرْتَ ٱلشعبَ بموجةِ هواءٍ جديدةٍ جِئْتَ بها في جناحَيْكَ، ونفخْتَ روحَ طيَّارتِكَ ٱلمجيدةِ في ٱلقلوبِ فجعلْتَها كلَّها ترفرفُ كأنَّ لكَ في ضلوعِ كلِّ مِصريٍّ طيَّارة.

أجنحةُ ٱلمدافعِ ٱلمصرية

اِسْتَجْنحي[1] يا مَدافعَ مِصرَ وطيري، إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ مِنَّا إنسانَهُ ٱلبرْقيّ. لقد مَدَّتْ لُغةُ ٱلقوَّةِ في هذا ٱلعصرِ مَدَّها حتى أصبحَ الطَّيرَانُ بعضَ معاني ٱلمشيْ، ولم يَعدِ ٱلعالَمُ يدري كيفَ تكونُ ٱلصورةُ ٱلأخيرةُ التي يستقرُ فيها معنى إنسانِه.

فَلْتَتَمَجّدْ مِصرُ بأنسانِها ٱلبَرقِّي ٱلذي تَخرج ٱلنارُ بيدِهِ من أعْراضِ ٱلسحاب، وتُفَرقِعُ في أصابعِهِ هَزّاتُ ٱلرَّعد، ويجعلُ في قُبّةِ ٱلسماءِ صَلْصَلَةً وجَلْجَلة، ويحملُ ٱلاسمَ ٱلمصريَّ إلى مُعلَّقِ ٱلنجم، فيضعُ لَهُ هناكَ ٱلتعريفَ الناريَّ ٱلذي وضعَتْه ٱلدولُ ٱلعظمى لِأسمائِها.

وَلْتتمجدْ مصرُ بإنسانِها ٱلبرقيِّ ٱلذي يُشْعِرُها حقيقةَ ٱلعلوِّ العالي، وٱلعُمقِ ٱلعميق، وٱلسَّعَةِ ٱلتي لا تُحدُّ؛ وَيزيدُ في معاني أحيائِنَا معنًى جديداً لِأحياءِ السُّحُب، وفي معاني أمواتِنا معنًى جديداً لِموتَى ٱلكواكب.

إنسانٌ برقيٌّ يُتَمِّمُ بشجاعتِهِ في ٱلسماء بُطولَةَ فلَّاحِنا ٱلإنسانِ ٱلشمسيِّ في ٱلأرض، ويعلو بِكِبرياءِ مصرَ في ذِرْوةِ ٱلعالَمَ، فتظهرُ طيَّاراتُها العظيمةُ قدرةً في ٱلجوِّ كما ظَهرتْ آثارُها ٱلعظيمةُ قدرةً في ٱلثرَّى.

إنَّها مصر، مصرُ ٱلقادرةُ ٱلتي سَحرَتِ ٱلقِدَمَ بقوَّتِها وفنِّها، فَبقِيَ فيها على حالِهِ وجلالتِهِ، وٱنهزمَ ٱلدهرُ عنهُ كأنَّه قوةٌ على قوةِ ٱلزمن نفسِها.

فاستَجْنِحي يا مدافعَ مصرَ وطِيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ مِنَّا إنسانَهُ البرقيّ.

***

ولَمَّا فُتِحَ ٱلسِّجِلُّ ذاتَ صباح لِتكتبَ مصرُ أسماءَ ٱلفَوْجِ ٱلأولِ من نُسُورِها ٱلحربيِّين، صاحَ مجدُها ٱلخالدُ من أعماقِ ٱلتاريخ:

«أضْرمي ٱلشعلةَ ٱلآدميَّةَ الأولى يا مصر، وٱفتحي ٱلقبرَ ٱلجويَّ الأول، وألحِدي

(١) استجنحي: اجعلي لنفسك جناحين.

فيهِ من عنصرَيك ٱلمسلمينَ والأقباط، وضَعي ٱلحياةَ في أساسِ ٱلحياة، وٱستقبلي عصرَكِ ٱلجديدَ بأذانِ ٱلمسجدِ ودقِّ ٱلناقوسِ لِيُباركَهُ ٱلله، ولْيتلقَّ ٱلشعبُ أولَ طيَّاريهِ بقلوبٍ فيها رُوحُ ٱلمعركةِ، وأكبادٍ عرفَتْ مَسَّ ٱلنار؛ ولا ينظرَنَّ إلى طيَّاراتِهِ الأوَلِ إلَّا بعدَ أنْ ينظرَ ٱلنعشينِ فيرى مجدَ ٱلموتِ في سبيلِ ٱلوطن، فتسطعَ نظراتُهُ ببريقِ ٱلكِبرياءِ، ولَمعةِ ٱلعزيمةِ، وشُعاعِ الإيمان؛ ويأتَلِقَ فيها النورُ ٱلسماويُّ ٱلذي يجعلُ الناسَ في بعضِ ساعاتِهِم كواكب، نورُ صلاةِ ٱلشعبِ على موتاهُ ٱلشهداء».

* * *

وٱستجابَ ٱلقَدرُ لِصوتِ ٱلمجد، فَٱلتَجَّ[١] ٱلظلامُ في وَضَحِ ٱلصبح، وٱنطفأَ سِراجُ في ٱلنهارِ قبةِ ٱلفلك، وأطْبَقَتْ نواحي ٱلجوِّ إطباقَ ليلةٍ تَساقَطَتْ أركانُها وأقبلَ ٱلضبابُ يَعتَرِضُ ٱعتراضَ جَبَلٍ عائم يتَذَبْذَبُ[٢] في بحر، وٱستأرَضَ[٣] ٱلسحابُ فتَخلَّى عن طبيعتِهِ ٱلسماويَّةِ ٱلرقيقةَ، وتذامرَتِ[٤] ٱلعناصرُ على ٱلقِتالِ يَحُضُّ[٥] بعضُها بعضاً، وتغشَّتِ[٦] ٱلسماءُ بوجهِ ٱلموت: كلَّحَ فٱرْبَدَّ[٧] وٱنتفخَ، وتكسَّرَتْ فيهِ ٱلغُضونُ كلُّ غَضنٍ كِسْفَةُ ظلام، وعادَ أوسعُ شيءٍ أضيقَ شيء، فكانَ ٱلفضاءُ كصدرِ ٱلمحتضرِ: ليسَ معهُ إلَّا عمْرُ ساعةٍ وأنفاسُها.

وٱبْتَدَرَتْ إلى مجدِ ٱلموتِ ٱلطيَّارةُ ٱلمصريةُ ٱلأولى؛ وكانَ فيها إنكليزيانِ يقودانِها فأباهما ٱلموتُ، فذهَبتْ فٱنتحرتْ أسفاً وتردَّتْ متحطمة، وٱنسلَّ ٱلرجلانِ من مخالبِ ٱلردى[٨]، وكانا في ٱلطيارةِ كورقتينِ مِنَ ٱلنَّبْتِ في فَمِ جَرادةٍ هَمَّتْ تَقْضِمُها...

وتَسْتَبِقُ ٱلثانيةُ فإذا فيها وَديعةُ ٱلكرم من عُنْصُري مصرَ: «حجَّاج ودوس» وكانَ سرًّا من أسرارِ مصرَ ٱجتماعُهمَا في مَداحِضِ ٱلغَمام ومزالِقِه، لِيكونا هديَّةَ مصرَ الأولى إلى مجدِها ٱلحربيّ، ثُمَّ لِيكونا هديةَ ٱلمجدِ إلى إحساسِ هذا الشعبِ يُحسُّ منهما ٱلعالمَ المنطَويَ لَهُ في مستقبلِ ٱلنصر.

واعتسَفَتْ[٩] طيارةُ الشهيدينِ طريقَ ٱلفنَاءِ ومتَاهةَ[١٠] ٱلحياة، فذَهَبَتْ عنها

---

(١) التجّ: أصبح لجّة.
(٢) يتذبذب: يتردّد لوجوده في الهواء، ويتحرّك.
(٣) استأرض: تحوّل إلى أرض.
(٤) تذامرت: تداعت للاجتماع.
(٥) يحضّ: يحثّ.
(٦) تغشّت: تغطّت.
(٧) اربّد: تلبّد.
(٨) الردى: الموت.
(٩) اعتسفت: مالت وخبطت على غير هداية.
(١٠) متاهة: صعوبة الحياة ومتطلباتها.

مَعارِقَ ٱلأرض، وعُمِّيَتْ عليها معالِمُ ٱلسماء، وخرجَتْ من تصريفِ أيدي ٱلبطَلينِ إلى تصريفِ أجلِهما، وأصبَحتْ كأنَّها تطيرُ في الأنفاسِ ٱلباقيةِ لهما؛ فما تتقدَّمُ ولا تتأخَّر؛ ولم تكنْ طيارةً تحملُهما، بلْ جناحاً ممدوداً لهما من رحمةِ ٱلله.

ثُمَّ ٱجترَّها ٱلموتُ إلى غَوْرٍ، فٱنحطَّتْ مِنَ ٱلهواءِ جانحةً كٱلطائرِ يطلُبُ ملجأً في ٱلعاصفة، ثُمَّ ٱنتهضَتْ واثبةً، وتمطَّرَتْ منقلِبةً، فٱشتعَلتْ فٱستعَرَتْ فأنضجَتْ راكبَيْها، رحِمهُما ٱلله!

وكثيراً ما يكونُ منظرُ ٱلحزنِ في ٱلحياةِ هو ٱنهماكَ ٱلحياةِ في عملٍ جديدٍ تُبدعُ منهُ ٱلسرورَ وٱلقوَّة. ٱحترقَ البَطَلانِ لِتتسَلَّمَ مصرُ في نعشيهما رماداً لَنْ يُبْنى تاريخُ ٱلعِزّةِ ٱلوطنيَّةِ إلَّا به.

فٱستجْنِحي يا مدافعَ مصرَ وطِيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيّ.

* * *

صنعَتِ ٱلنارُ الآدميَّةُ ٱلحقيقة، ووضَعتْ لنا ٱلاسمَ ٱلبديعَ ٱلذي نُطلقُهُ على طيَّارينا ٱلأبطال، فلا تُسَمُّوهم نُسُورَ ٱلجوّ، ولكنْ سمّوهم «جَمَراتِ ٱلجوّ».

صنعَتِ نارُنا ٱلحقيقة، وأوحَتْ إلينا أنْ نستبدلَ من أنفسِنا حالةً بحالةٍ، وأنْ نُفاجِىءَ شعورَنا ٱلحالمَ فنصدمَهُ بآلامِ ٱليقَظةِ ٱلمرّة، وأنْ نغيِّرَ قاعدةَ ٱلحياةِ في ٱلتربيةِ ٱلمصريةِ فلا تكون: ٱلعيشَ ٱلعيش، ولكنِ ٱلقوَّةَ ٱلقوَّة.

صنَعتِ ٱلنارُ ٱلحقيقة، وأثبتَتْ لنا أنَّ ٱلحياةَ إنْ هي إلَّا أداةٌ لِلحيّ، وليسَ ٱلحيُّ أداةً لِلحياة، فَلْيتصرَّفْ بها على قوانينِ ٱلروحِ وآمالِها فيسمُوَ وتسمو، ولا يَدَعْها تتصرفُ على مذاهبِ أقدارِ ٱلمادةِ وتصاريفِها فيُذلَّها وتُذلَّه. وفي قانونِ ٱلروح: لا قيمةَ لِعالَمِ ٱلأشياءِ إلَّا كما تَصْلُحُ لنا؛ وفي قانونِ ٱلمادَّةِ وضَغْطَةِ ٱلحياة: كما تَصْلُحُ لنا وكما نَصلُحُ لها...

بَلَى، قد صنعَتِ ٱلنارُ الآدميَّةُ ٱلحقيقةَ، وأعطتْنا قصةَ ٱلحريَّةِ كاملةً في معنًى واحد: وهو أنَّ هذه ٱلحريَّةَ لِعاشقيها كأجملِ ٱلجميلاتِ لِلمتنافِسِينَ عليها: جمالُها متوحِّش، وخَلَاعتُها مُفْترِسة، وظَرْفُها سَفَّاكٌ لِلدم.

فٱستجنْحِي يا مدافعَ مصرَ وطيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيّ.

* * *

وإلى السماءِ يا «جمَراتِ الجوّ»، فإذا ٱستويتُم[1] على ٱلسحاب، فليسَتِ ٱلطيَّارةُ ثَمَّ طيَّارةً، بلْ حقيقةً حيةً عاملةً لِلمجد، فلْتحملْ معناها ٱلمصريَّ من بطَلِها ٱلمصريّ.

وإذا سبحْتم في مَهْبِط ٱلقدَر، فليسَ ٱلطيَّارُ ثَمَّ طياراً، بل حياةٌ عبقريَّةٌ أرسلَتْها مصرُ تستنزلُ لِلحياةِ أقداراً سعيدة.

وإذا خُضتُمْ في ٱلمعْرَكِ ٱلضَّنْكِ[2] تتبعثَرُ فيهِ ٱلآجالُ على الرياح، فليسَ ٱلجسمُ المصريُّ هناك من لحم ودم، بلْ ناموساً طبيعيًّا ماضياً إلى غاية.

وإذا تَقَاذَفْتُم في بحر ٱلشمس، فأنتم هناك على شِباكٍ طرحْتُموها لِصيدِ أيامٍ مضيئةٍ تلتمِعُ في تاريخِ مصر.

وإذا نفذْتُم من أقطارِ ٱلسماوات، فٱنظروها بأعينِكم معاليَ مصر، وٱفهموها بقلوبِكم ذاتيةَ ٱلوطنِ المِصريِّ تعلو وتعلو ولا تزالُ أبداً تعلو.

إنَّما الطيَّارةُ وسلاحُها وطيَّارُها تأليفٌ مِنَ ٱلإنسانيَّةِ وٱلعناصِر، معناهُ في ٱلعزيمةِ «لا بدَّ». ومتى هَدَرَتِ ٱلطيارةُ هَديرَها فإنَّما تقولُ للبطلِ منكم: هَلُمَّ من عالٍ إلى أعلى، إلى أكثرَ علوًّا، إلى أقصى حدودِ الواجبِ على النفسِ حينَ يأخذُ ٱلواجبُ ٱلكلّ وحينَ تُعطي ٱلنفسُ ٱلكلَّ.

فٱستجْنحي يا مدافعَ مصرَ وطيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيّ.

---

(١) استويتم: ركبتم.

(٢) الضَّنك: ضيق العيش.

الطماطمُ ٱلسياسي...

كانَ (م: باشا رحمَهُ ٱللَّهُ ـ داهيةً من دُهاةِ ٱلسياسةِ ٱلمصريَّة، يلتوي مرةً في يدِها ٱلتواءَ ٱلحبل، ويستوي في يدِها مرةً ٱستواءَ ٱلسيف، ولا يُرى أبداً إلّا منكمِشاً مُتَحرِّزاً[1] كأنَّ له عدوًّا لا يدري أين هو ولا متى يقتحِمُ عليه، ولكنَّه كغيرِهِ مِنَ ٱلرؤساءِ ٱلذين كانوا آلاتٍ لِلكذِبِ بينَ طالبِ ٱلحقِّ وغاصبِ ٱلحقّ ـ يعرفُ أنَّ عدوَّهُ كامنٌ في أعمالِهِ.

وكان ذكيًّا أريباً[2]، غيرَ أنَّ مُلابَسَتَهُ لِلسياسةِ ٱلدائرةِ على مِحورِها، جعلَتْ نصفَ ذكائِهِ مِنَ ٱلذكاءِ ونصفَهُ مِنَ ٱلمكر؛ فكانَ في مُراوغتِهِ كأنَّ لَهُ ثلاثةَ عقول: أحدُها مصريّ، وٱلآخرُ إنجليزيّ، وٱلثالثُ خارجٌ مِنَ ٱلحالين.

وبهذا تقدَّمَ وعاشَ أثيراً عندَ ٱلرؤساءِ مِنَ ٱلإنجليز، وٱستمرَّتْ مجاريهِ مُطَّرِدةً[3] لديهم حتى بلغوا بِهِ إلى ٱلوزارة، إذْ كانَ حَسَنَ ٱلفهْم عنهم، سريعَ ٱلاستجابةِ إليهم؛ يفهمُ معنى ألفاظِهم، ومعنى ٱلنيَّةِ ٱلتي تكونُ وراءَ ألفاظِهم، ومعنًى آخرَ يتبرعُ هو بِهِ لِألفاظِهم... فكانَ هو وأمثالُهُ في رأي تلك ٱلسياسةِ ٱلقديمة، رجالاً كالأفكار: يُوضعُ أحدُهم في مكانِهِ مِنَ ٱلحكم كما تُوضعُ صِيغةُ ٱلشكِّ لإِفسادِ ٱليقين، أو صِيغةُ ٱلوهمِ لِتوليدِ ٱلخيال، أو صِيغةُ ٱلهوى لإِيجادِ ٱلفِتنة.

* * *

وكانَ صديقي (فلانٌ) ـ رحمَهُ ٱللَّهُ ـ صاحبَ سِرِّهِ (السكرتير)، وقدْ وَثِقَ بِهِ ٱلباشا حتى إنَّهُ كانَ يُعالِنُهُ[4] بما في نفسِه، ويبثُّهُ[5] همومَهُ وأحزانَه، ويرى فيهِ دنيا حرَّةً يخرجُ إليها كلَّما ضاقَتْ بِهِ دنيا وظيفتِه، ويستعيرُ منهُ ٱليقينَ أحياناً بِأنَّهُ لا يزالُ مِصريًّا لم يتمَّ بعدُ تحويلُهُ في ٱلكرسي...

---

(١) متحرّزاً: محترساً.
(٢) أريباً: ذكياً.
(٣) مطّردة: متدافعة متوالية.
(٤) يعالنه: يطلعه على ما في نفسه.
(٥) يبثه: يشكو له ما يعانيه.

فحدَّثني ٱلصديقُ بعدَ موتِ هذا الباشا قال: إنَّهُ دعاهُ يوماً لِيُفَاتِحَهُ ٱلرأيَ في أمرٍ من أمورهِ، ثُمَّ قالَ لَه: إنَّ الرئيسَ ٱلإنجليزيَّ غيرُ مطمئنٍ إليكَ لِأنَّ حقيقةً مِنَ ٱلحقائقِ ٱلصريحةِ ظاهرةٌ على وجهِك، فأنت تنظرُ إليهِ وكأنَّكَ تقولُ لَهُ بعينيكَ إنَّكَ مصريٌّ مستقل.

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: لَئِنْ كانَ ذلك ما يُغضِبُهُ إنَّ ٱلخطْبَ لَهيِّن، فلسْتُ أنظرُ إليهِ بعدَ ٱليومِ إلَّا من وراءِ نظَّارةٍ سوداء...

فضحكَ الباشا وقال: يا بُنيَّ، هذا ٱلإنجليزيُّ عندَنا كٱلشيطان: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، وواللَّهِ يا بُنيَّ إنِّي لَأشدُّ أنفَةً منك، وإنَّ صدري لَشَجِيٌّ[1] مِمَّا أنا فيهِ من هذا ٱلكرْب[2]، ولكنَّنا ـ نحن ٱلشرقيينَ ـ قد ضِعْنا منذُ فقدْنَا ٱلشخصيَّةَ ٱلاجتماعيَّة.

أتُراكَ تفهمُ شيئاً لو قلْتُ لك: رجلٌ، أسد، جبلٌ، مدينةٌ، أسطول؟ إنَّ تركيبَنا ٱلاجتماعيَّ شيءٌ كهذا ٱلكلام: فيهِ من ضخامةِ ٱللفظِ بقدرِ ما فيهِ مِنِ ٱنحلالِ ٱلمعنى وٱضمحلالِه. ولِكلِّ كلمةٍ إذا أُفردَتْ معنًى صحيحٌ يقومُ بها وتقومُ بهِ، غيرَ أنَّهُ يتحوَّلُ في ٱلجملةِ إلى معنًى كَلَا معنى.

أصبحَ ٱلشرقيُّ يعيشُ في أُمَّتِهِ على قاعدةِ أنَّهُ منفردٌ لا صِلةَ بينَهُ وبينَ ٱلأطرافِ لا في ٱلزمانِ ولا في ٱلمكان، ونَسِيَ معنى ٱلحديثِ ٱلشريف: «إعملْ لِدنياكَ كأنَّكَ تعيشُ أبداً». فماذا كانَ يُريدُ أعظمُ ٱلمصلحينَ ٱلاجتماعيينَ من قوله: «كأنَّك تعيش أبداً»؟ إلَّا أنْ يُقرِّرَ لِأُمَّتِهِ أنَّ ٱلفردَ ينبوعُ ٱلأجيالِ ٱلمُقبِلةِ كلِّها، فلْيعملْ لَها ولِنفسِهِ كأنَّها موقوفةٌ عليهِ وكأنَّهُ مستمرٌّ فيها.

هذه حِكمةٌ إسلاميَّةٌ دقيقةٌ، عندَنا نحن لَفظُها ولسْنَا نعرفُ معناها، وعندَ ٱلإنجليزِ معناها ولا يعرفون لَفظَها. أهُمُ ٱلمسلمون أم نحن؟

وعلى قاعدةِ ٱلانفرادِ ٱنفردَ كلُّ شيء؛ فآثرَ ٱلشرقيُّ حياتَهُ على وطنِه، وقدَّمَ لَذَّتَهُ على واجبِه، وتعامَلَ بالمالِ في مواضعِ ٱلمُعاملةِ بالأخلاق؛ وكانَ طبيعيًّا مع هذا أنْ يَختصِرَ ٱلدينَ ٱختصاراً يجعلُهُ مِقداراً بينَ مقدارين، فلا هو دينٌ ولا هو غيرُ دين؛ وبذلك يُناسبُ فرديتَهُ ويقعدُ تحتَ حُكمِهِ وهو خارجٌ عليه؛ فترى ٱلرجلَ من

---

(١) شجي: حزين.

(٢) الكرب: الضيق.

هذه ٱلملايينِ يؤمنُ بٱللَّهِ وهو يَحلِفُ بهِ كَذِباً على درهم، ويُصلّي ويَفْجُرُ في يومٍ واحد، ويتعبَّدُ في نفسِهِ ويخونُ سِواهُ في وقتٍ معاً.

ومتى كانتِ ٱلحالةُ ٱلنفسيَّةُ لِلأُمَّةِ هي هذه ٱلفردية ومصالحَها ودواعيَها، كانَ ٱلكذبُ أظهرَ خِلالِ هذه الأمَّة، إذْ هو ٱنفرادُ ٱلكاذبِ بحظِّهِ ومصلحتِهِ وداعيتِهِ؛ ولا يكذبُ عليك إلَّا مَنْ يرجو أنْ تكونَ مغفَّلاً، أو من قدَّرَ في نفسِهِ أنَّ المعاملةَ ٱلعامَّةَ في ٱلأمَّةِ هي على قاعدةِ ٱلمغفلين.. ويكذبونَ في هذا أيضاً فيُسمونَهُ حِذاقاً وبراعةً (وشطارة).

وإذا عَمَّ ٱلكَذِبُ فشا منهُ ٱلهَزْل؛ فكلُّ كاذبٍ هازل، وهلْ يَجِدُّ ٱلكاذبُ وهو يكذبُ إلَّا إذا كانَ مجنوناً؟ ومنَ ٱلهَزلِ ضَرْبٌ هوَ ٱلمباسطةُ بٱلكذب، ومنه ضربٌ من كذبِ ٱلحقائق، ومنه مِنْ كذبِ ٱلخيال، وكيفما دارتِ ٱلحالُ لا تجدُهُ إلَّا كذباً.

ومتى صارَ ٱلكذِبُ أصلاً يعْمَلُ عليه، تقرَّرَ عندَ ٱلناسِ أنَّ ٱلكلامَ إنَّما يُقالُ لِيُقالَ فقط. أفلسْتَ ترى ٱلرجُلينِ إذا أخبرَ أحدُهما صاحِبَهُ بالخبرِ فيهِ شيءٌ مِنَ ٱلغرابةِ أوِ ٱلبعد، لا يكلِّمُهُ ٱلآخَرُ أولَ ما يتكلَّمُ إلَّا أنْ يسألَهُ: صحيح؟ صدق؟

ولا أضرَّ على ٱلأُمَّةِ من هذه ٱلعقيدة ـ عقيدةِ أنَّ الكلام يُقالُ لِيُقالَ فقط ـ فإنَّها هي طابَعُ ٱلهَزلِ على أخلاقِ ٱلأُمَّة، وعلى كلِّ أحوالِها، وعلى حكومتِها أيضاً.

ومِنَ ٱلهَزلِ وٱلكذبِ ترانا مبالغينَ في كلِّ شيء، حتى لَيكونُ لنا ٱلواحدُ كالآحادِ في غيرِنا فنجعلُهُ مائةً بصِفْرين، نجيءُ بأحدِهِما منِ ٱعتيادِ ٱلكذبِ على ٱلحقيقة، ونجيءُ بالآخَرِ من حقيقةِ إفلاسِنا.

هذه مبالغةٌ خطِرة، وأخطرُ ما فيها أنَّنا بها نُريدُ ٱلمبالغةَ في ٱلدَّلالةِ على ٱلأشياء، فتنقلبُ مبالغةً في ٱلدلالةِ علينا نحن، وعلى كَذِبِ طِباعِنا، وعلى فَوضى ٱلعقْلِ فينا. نعم وحتى تُثبتُ أنَّنا لا عزْمَ لنا، من كونِها مبالغةً لا تدقيقَ في معناها؛ وأنْ لا صبرَ لنا، من أنَّها لاثباتَ لِحقيقتِها ٱلمهزومة؛ وأنْ لا شِدَّةَ لنا في طلبِ ٱلحقّ، لأنَّنا بها من أهلِ ٱلغفلةِ في وصفِ ٱلحقّ؛ وأنَّنا لا نتمثلُ ٱلعواقبَ إذْ نُرسلُ ٱلكلامَ إرسالاً ولا نخشى ما يكونُ من عاقبتِه.

وأيسرُ ما يُفهمُ من هذه ٱلمبالغاتِ ٱلتي أصبحَتْ طريقةً من طرقِ ٱلشعبِ في ٱلتعبير، أنَّ هذا ٱلشعبَ لا يصلحُ في شيءٍ إلَّا بالحُكومةِ، فهو نفسُهُ كٱلمبالغة، وٱلحكومةُ لَهُ كالتصحيح؛ وهذه هي ٱلعِلَّةُ في أنَّ ٱلشعبَ ٱلكَذوبَ يلجأُ إلى حُكومتِهِ

في كلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في ٱلعمل، كما أنَّها هيَ ٱلعِلَّةُ في أنَّ حُكومتَهُ تُكذِّبُ عليهِ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في ٱلسياسة.

ومن أثرِ ٱلكذبِ ٱلشعبيّ وٱلمُبالغةِ ٱلشعبيَّة، ما نراهُ منِ ٱهتمامِ كلِّ فردٍ بِمَا يقولُ ٱلناسُ عن أعمالِه، فيُديرُها على ذلك وإنْ قلَّتْ منفعتُها، وإنْ فَسَدتْ حقيقتُها، وإنْ جَلَبَتْ عليهِ مِنَ ٱلضررِ في مالِهِ ونفسِهِ ما هي جالبة؛ فقاعدتُهم هي هذه: ليسَ ٱلشأنُ في ٱلحياةِ لِلعملِ في نفسِه، ولكنْ فيما يُقالُ عنه؛ فإنْ لم يُقَلْ شيءٌ فلا تعملْ شيئاً. . .

هذه يا بُنيَّ أمَّةٌ لا يكونُ حكَّامُها إلَّا مبالغاتٍ أيضاً. . .

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وٱرتفعَ مِنَ ٱلطريقِ صوتُ بائعٍ يُنادي على سِلعتِه: أحسنُ مِنَ ٱلتفَّاحِ يا طماطم. .

فضحكَ الباشا وقال: هكذا يقولون لنا عنِ ٱلطماطمِ السياسيِّ ٱلعَفِن: إنَّهُ ليسَ تفاحاً وحَسْبُ، بلْ هو أحسنُ مِنَ ٱلتفاح. .

إنَّ ٱلأُمَّةَ لنْ تكونَ في موضعِها إلَّا إذا وضعَتِ ٱلكلمةَ في موضعِها، وإنَّ أولَ ما يدلُّ على صِحَّةِ ٱلأخلاقِ في أُمَّةٍ كلمةُ ٱلصدقِ فيها، وٱلأُمَّةُ ٱلتي لا يحكمُها ٱلصدقُ لا تكونُ معها كلُّ مظاهرِ ٱلحُكْمِ إلَّا كَذِباً وهَزْلاً ومُبالغة.

البك والباشا

وحدثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: جاءَ يوماً إلى زيارةِ ٱلباشا رجلٌ دخلَ عليَّ متهلِّلاً مُشْرِقَ ٱلوجهِ كأنَّهُ مُضاءٌ من داخلِهِ بشمعة... ويترنَّحُ عِطْفاهُ كأنَّما تهزُّه أسرارُ عظَمتِه؛ ويمشي متخلِّعاً كٱلمرأةِ ٱلجميلةِ ٱلتي أثقلَها لَحمُها وأثقلَتْها ٱلمعاني ٱلكثيرةُ من أعينِ ٱلناظرينَ إليها، وعلى شفتيهِ خيَالٌ من فكرةِ هؤلاءِ ٱلكُبراءِ ٱلمغرورينَ ٱلذينَ لا يأمرُ أحدُهم رجلاً صغيراً إلَّا ليُعْلِمَهُ أنَّهُ هو كبير، فيكونُ في ٱلأمرِ شيئان: الأمرُ واللؤم؛ وأقبلَ عليَّ في هيئةٍ شامخةٍ لو نطَقَتْ لَقالَت: سَبِّح ٱسمَ ربِّكَ ٱلأعلى. سبِّحِ ٱللَّهَ ٱلذي خلقَ في ٱلأَسَدِ شعرةً جبَّارةً خرجَ منها ٱلأسَدُ كلُّهُ.

سُبحانَ ٱللَّهِ ولا إلهَ إلَّا ٱلله. هذا (فلان باشا) ٱلذي قرأْتُ في ٱلصحفِ أمسِ أنَّهم أنعموا عليهِ برتبةِ ٱلباشوية؛ خلقَهُ ٱللَّهُ من ترابٍ وحوَّلَتِ ٱلرتبةُ هذا ٱلترابَ الذي فيهِ إلى ذهبٍ خالص... ينظرُ إليَّ وبرغْمِهِ أنْ تَقِفَ عيناهُ عليَّ وعلى ٱلحائط؛ ولا تجدُ نفسُهُ ٱلمزهوَّةُ سبيلاً إلى التعبيرِ عنِ ٱلرتبةِ إلَّا هذا ٱلازدراءَ ٱلمنبعثَ من شخصِهِ ٱلعظيم لِمنْ لم يكُنْ كشخصِه. ما بينَ أمسِ وٱليومِ زادَ هذه ٱلزيادةَ الآدميَّة، أو كأنَّما كانَتْ صورتُهُ خُطوطاً فقطْ فوُضِعَتْ فيها ٱلألوان...

(باشا)! هذه ٱلباءُ وهذه ٱلألفُ وهذه ٱلشينُ ٱلممدودةُ ليسَتْ حروفاً خارجةً مِنَ ٱلأبجدية ٱلعامَّة؛ فإنَّ ٱلأبجديةَ قد تجعلُ ٱلباءَ في بليدٍ مثلاً، وٱلألفَ في أبله، وٱلشينَ ٱلممدودةَ في شاهدِ زُورٍ مثلاً مثلاً... بلْ تلك حروفٌ من حروفِ ٱلدولة، منتزعةٌ من قوَّةٍ قادرةٍ على أنْ تجعلَ لِحياةِ صاحبِها مِنَ ٱلشكلِ ما يُسْبِغُهُ ٱلفنُّ على ٱلحجَرِ من شكلِ تِمثالٍ يُنْصَبُ لِلتعظيم.

قال: وكنْتُ أعرفُ هذا الرجل، وهو رجلٌ أميٌّ لا يُحسنُ إلَّا كتابَةَ ٱسمِهِ كما تكتبُ ٱلدَّجاجةُ في ٱلأرض... فكانَتِ ٱلرتبةُ عليهِ كإطلاقِ لفظِ ٱلحديقةِ على صخرةٍ مِنَ ٱلصخورِ ٱلصَّلْدة؛ وهذا مِمَّا يحتملُهُ ٱلمجازُ بَعَلاقةٍ ما؛ ولكنَّ ٱلذي لا يَسُوغُ في ٱلمجاز، ولا في مبالغاتِ ٱلاستعارة، ولا في خُرافاتِ ٱلمستحيلِ، أنْ

تزعمَ ٱلصخرةُ لِلناسِ أنَّ لفظَ ٱلحديقةِ ٱلذي أُطلِقَ عليها قد أنبَتَ فيها أشجارَ ٱلحديقة . . .

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وٱستأذنْتُ لَهُ على ٱلباشا فسهَّلَ لَهُ ٱلإذنَ وقال: هذا رجلٌ أصبحَ كالورقةِ ٱلمبصومةِ بخاتَمِ ٱلدولة، فَلْتكُنْ ما هي كائنةٌ فإنَّ لها ٱعتبارَها. ثُمَّ تلقَّاهُ تلقِّيَ ٱلهازلِ ٱلمتهكِّمِ وقالَ لَه: أهنئُكَ بٱلنَّحْوِي. . . مُبَارَكون يا باشا. وأقبلَ عليهِ وبَسَطَ لَهُ وجهَه.

وكانَ في ٱلباشا دُعابةٌ ظريفةٌ يُعرفُ بها، وهو كثيرُ ٱلنوادرِ وٱلمُلَح، ولَهُ خَصِيصةٌ عجيبةٌ، فيكونُ بينَ يديهِ كُدْسٌ مِنَ ٱلأوراقِ ٱلتي تُعرضُ عليهِ ينظرُ فيها ويقرؤُها ويتدبَّرُها، وهو في ذلك يستمعُ إلى محدِّثِهِ ويُراجعُهُ ويردُّ عليه، فيُصرِّفُ ٱلناسَ وٱلأوراقَ في وقتٍ واحد، ويستعملُ ناحيتينِ من فكرِهِ ٱستعمالاً واحداً لا يُخِلُّ بالإصابةِ[1] في شيءٍ من هذه ولا من تلك.

ثُمَّ قالَ لِلباشا ٱلحديثِ وعينُهُ إلى ما بينَ يديه: هذه أوراقُ سرقةِ ثورٍ عظيم، فكم يُساوي ٱلثورُ ٱلعظيمُ الآن. . .؟

قالَ صاحبُنا ٱلذكيُّ ٱلفَطِن: إذا كانَ مِنَ ٱلثيرانِ ٱلتي تُعرضُ في ٱلمعارضِ وتنالُ ٱلمدالياتِ ٱلذهبيةَ فقدْ يَبْعُدُ سعرُهُ ويُغَالَى بهِ.

قالَ الباشا: نعم نعم، إِنَّ مِنَ ٱلثيران ثيراناً يُنْعَمُ عليها بالأوسمة، ولكنَّ هذا ٱلثور الذي سألْتُك عنهُ يا باشا هو ثورُ محراثٍ لا ثَورُ معرض. . .

قالَ ٱلآخر: إذا كانَ ثورَ مِحراثٍ فمثلُهُ كثيرٌ فلا يكونُ ثوراً عظيماً كما قلْتَ وليسَتْ لهُ إلَّا قيمةُ مثلِه.

قالَ ٱلباشا: أراني أخطأت، ولعَنَ ٱللَّهُ ٱلعَجَلة، فهذه أوراقُ سرقةِ حمار!

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وٱنصرفْتُ عنهما بأوراقي، وقد رأيْتُ يدَ ٱلباشا مملوءةً لِصاحبنا بتحيَّاتٍ كلُّها صفَعَات؛ فلم يكنْ إلَّا يسيرٌ حتى خرجَ مبتهجاً يَميدُ ٱلسرورُ بعِطْفيه. ثُمَّ دعاني ٱلباشا ودفَع إليَّ بِطاقةً بٱلحاجةِ ٱلتي جاءَ فيها ٱلرجل، ثُمَّ قال:

---

(١) لا يخلّ بالإصابة: لا يخطىء.

يا ليت لنا في ألقابِ ٱلدولةِ لقبَ (رحمَه الله)... يُنْعَمُ بهِ على مثلِ هذا. أتدري يا بُنيَّ أنَّ هذهِ ٱلرتَبَ وهذه ٱلألقابَ لم تكنْ في القديم إلَّا كوضع علامةِ ٱلشرِّ على أهلِ ٱلشرِّ لِيهابَهُمُ[1] ٱلناسُ، حتى كأنَّما يُكْتَبُ على أحدِهم من لقَبِ بك أو باشا: مُلْحَقٌ بالدولة...

وكانَ ٱلشعبُ أميًّا جاهلاً لا يستطيعُ ٱلإدراكَ ولا يُحسنُ ٱلتمييز، فكانَتِ ٱلألقابُ كٱلقوانينِ ٱلشخصيةِ ٱلموضوعةِ في صيغةٍ موجزَةٍ مفهومةٍ متعيِّنةِ ٱلدَّلالة، وكانَ كلُّ مَنْ يحملُ لقباً مِنَ ٱلحكومةِ يستطيعُ أنْ يقولَ للناس: لقد وضعَت ٱلحكومةُ كلمةَ ٱلأمرِ في شفتيّ...

وكأنَّ ٱللقبَ إعلانٌ مِنَ ٱلحكومةِ ٱلمستبِدَّةِ لِشَعبِها ٱلجاهل: إنَّ هذا البك والباشا مَنْ يحقُّ لَهُ أنْ يُحترم.

مِنَ ٱلهزْلِ أنْ يُشترى ٱسمُ ٱلنصرِ ٱلحربيِّ أو يُوهَبَ أو يُعار؛ وأقبحُ منه في بابِ ٱلهزْلِ أنْ يُنعمَ على مثلِ هذا الأميِّ بلقبِ باشا. وأنا أعرفُ أنَّهُ قد بَذَلَ في سبيلِهِ ما بَذَل، وأضاعَ ما أضاع، فكأنَّ ٱلذين مَنحُوهُ إيَّاهُ لم يفعلوا شيئاً إلَّا وضعَ توقيعِهِم على أَخْذِ ٱلثمن.

ولقدْ أصبحَ ٱلرجلُ تحتَ تأثيرِ ٱلكلمةِ ٱلعظيمةِ مخبولاً بسحْرِها ٱلوهميّ، فحسِبَ ذلك إدخالاً لَهُ في وظيفةِ كلِّ حاكم، وإشراكاً لَهُ في ٱلحكمِ متى ٱقتضتْهُ مجاري أمورِهِ وأحوالِهِ، أو حاجاتُ أسبابِهِ وأتباعه؛ وها هو ذا قد جاءَ يطلبُ حقَّه، فإنَّ مثلَهُ لا يفهمُ من لقبِ (باشا) إلَّا أنَّ ٱلحكومةَ قد سوَّغَتْ سلطتَهُ ٱلظهورَ وٱلعملَ، فمدَّتْ باعَهُ وقوَّتْ أمرَهُ ونوَّهَتْ[2] بٱسمِهِ لِمصالِحِها وعُمَّالها؛ فهو عندَ نفسِهِ قدِ ٱلْتَحَمَ منذُ ٱليومِ بالنسبِ ٱلحكوميّ، وفي كلمةٍ واحدة، هو قدْ وُلِدَ من بطنِ ٱلحكومة...

ألا ترى أنَّ ٱلشعبَ لَوِ ٱستردَّ سُلْطَتَهُ ٱلكاملةَ، وأنَّ ٱلناسَ لو أيقنوا أنَّ ٱلألقابَ ألفاظٌ فارغةٌ مِنَ ٱلأمرِ وٱلنهي وٱلوسيلةِ وٱلشفاعةِ، لَمَا بقيَ مَنْ يعبأُ بها، ولَكانَ حاملُها هو أولَ مَنْ يسخرُ منها؟

فهي إذن شَعْبَذَةٌ[3] مِنَ ٱلحكومةِ وتضليلٌ في مثلِ هذا ٱلرجلِ الأميّ، وهي

---

(١) يهاب: يخاف.
(٢) نوّه: دلّ على فضله.
(٣) الشعبذة: الشعوذة والدجل.

ضربٌ مِنَ ٱلتهويلِ وٱلمُبالغةِ في سواهُ مِنَ ٱلكُبراءِ وٱلعُظماء، كأنَّ ٱلوزيرَ ٱلذي يُلقَّبُ بالباشا، يجعلُ فيه لقبُهُ وزيرين، وكأنَّ مثلَ هذا ٱلأميِّ ٱلمغفَّل، يجعلُ فيهِ لقبُهُ شخصاً، آخرَ غيرَ ٱلأميِّ ٱلمغفّل . .

أنا قلَّما رأيتُ رجلاً يحتاجُ إلى ألقابٍ يتعظَّمُ بها إلَّا وهو لا يحتاجُ إليها؛ فأينَ يكونُ موضعُ هذِهِ ٱلرتبِ وٱلألقاب؟

ساكنو ٱلثياب..

قالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: وجاءني يوماً ٱثنانِ من شيوخِ ٱلدينِ من ذَوِي هيئاتِهم وأصحابِ ٱلمنزلةِ فيهم، كلاهما هامَةٌ وقَامَة، وجُبَّةٌ وعِمامة، ودَرجةٌ مِنَ ٱلإمامة؛ ولهما نسيمٌ يَنفحُ عِطْراً حَسِبتُهُ من تَرويحِ أجنحةِ ٱلملائكة؛ وعليهما مِنَ ٱلوقارِ كظلِّ ٱلشجرةِ ٱلخضراءِ في لَهَبِ ٱلشمسِ تَفيءُ بِهِ يَمْنةً ويَسْرةً. فتوجَّهْتُ إليهما بنظري، وأقبلْتُ عليهما بنفسي، ووضعْتُ حواسّي كلَّها في خدمتِهما؛ وقلْتُ: هؤلاءِ هم رجالُ ٱلقانونِ ٱلذي مادتُهُ ٱلأولى ٱلقلْب.

ما أسخفَ ٱلحياةَ لولا أنَّها تدلُّ على شرفِها وقَدْرِها ببعضِ ٱلأحياءِ ٱلذين نراهم في عالمِ ٱلترابِ كأنَّ مادتَهم مِنَ ٱلسُّحُب، فيها لِغيرِهِمُ ٱلظلُّ وٱلماءُ وٱلنسيم، وفيها لِأنفسِهِمُ ٱلطهارةُ وٱلعلوُّ وٱلجمال؛ يُثبتونَ لِلضعفاءِ أنَّ غيرَ ٱلمُمكنِ ممكنٌ بِٱلفعل، إذْ لا يرى ٱلناسُ في تركيبِ طِباعِهِم إلَّا ٱلإخلاصَ وإنْ كانَ حِرماناً، وإلَّا ٱلمروءةَ وإنْ كانَتْ مَشَقة، وإلَّا محبةَ ٱلإنسانيَّةِ وإنْ كانَتْ ألماً، وإلَّا ٱلجِدَّ وإنْ كانَ عنَاء، وإلَّا ٱلقناعةَ وإنْ كانَتْ فقراً.

هؤلاءِ قومٌ يؤلَّفونَ بيدِ ٱلقدرة، فهم كالكتبِ قدِ ٱنطوتْ على حقائِقِها وخُتِمَتْ كما وُضِعَتْ، لا تستطيعُ أنْ تُخرِجَ لِلناسِ من حقيقةٍ نصفَ حقيقةٍ ولا شِبهَ حقيقةٍ ولا تزويراً على حقيقة.

وما أعجبَ أمرَ هذهِ ٱلحياةِ ٱلإنسانيةِ ٱلقائمةِ على ٱلنواميسِ[1] ٱلاقتصاديَّة! فٱلسماءُ نفسُها تحتاجُ فيها إلى سماسرةٍ لِعرْضِ ٱلجنَّةِ على ٱلناسِ بالثمنِ ٱلذي يملكُهُ كلُّ إنسانٍ وهوَ ٱلعملُ ٱلطيِّب.

قال: ونظرْتُ إلى ٱلشيخينِ على ٱعتبارِ أنَّهما من بقيةِ ٱلنبوَّةِ ٱلعاملةِ فيها شريعةُ نفسِها. تلك ٱلشريعةُ ٱلتي لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ كيلا يتغيَّرَ ٱلناسُ ولا يتبدَّلوا. ثُمَّ سألْتُهما عن حاجتِهِما، فإذا أحدُ هما قد عملَ أبياتاً مِنَ ٱلشعرِ جاءَ يمدحُ بها ٱلباشا

---

(١) النواميس، مفرده ناموس وهو القانون.

لِيزدلِفَ إليه؛ فقلْتُ في نفسي: «ما أشبَهَ حَجَلَ ٱلجبالِ بألوانِ صخرِها!» هذا عالِمُ دنيا يحدُّها مِنَ ٱلشرقِ ٱلرغيفُ، ومِنَ ٱلغربِ ٱلدينار، ومنَ ٱلشِّمالِ ٱلجاه، ومِنَ ٱلجنوبِ ٱلشيطان. . .

ثُمَّ نَشَرَ ورقةً في يدِهِ وأخذَ يَسْرُدُ[1] عَلَيَّ ٱلقصيدةَ، وهي على رَوِيّ ٱلهاء، تنتهي أبياتها: ها. ها. ها. فكانَ يقرؤُها شعراً ـ أو كما يُسميهِ هو شعراً ـ وكنْتُ أسمعُها أنا قهقهةً مِنَ ٱلشيطانِ ٱلذي رَكِبَ أكتافَ هذا العالمِ ٱلدينيّ: ها. ها. ها. ها. . .

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وأدخلْتُهما على ٱلباشا، فوقفَ ٱلمدَّاحُ يمدحُ بقصيدتِهِ، وأخذَتْ لِحيتُهُ ٱلوافرةُ تهتزُّ في إنشادِهِ كأنَّها مِنْفَضَةٌ ينفُضُ بها ٱلملَلَ عن عواطفِ ٱلباشا. . وكانَ لِلآخر صمتٌ عاملٌ في نفسِهِ كصمتِ ٱلطبيعةِ حينَ تَنْفَطِرُ[2] البذرةُ في داخلِها، إذْ كانَتِ ٱلحاجةُ حاجتَه هو، وإنَّما جاءَ بِصاحبِهِ رافِداً وظَهيراً يحملُ ٱلشمسَ وٱلقمرَ وٱلليثَ وٱلغَيثَ، لِتتقلَّبَ ٱلأشياءُ حولَ ٱلممدوحِ فيأخذَهُ ٱلسحر، فيكونَ جوابُ ٱلشمسِ على هذه ٱللغةِ أنْ تُضيءَ يومَ ٱلشيخ، وجوابُ ٱلقمرِ أنْ يملأَ ظلامَه، وجوابُ ٱلليثِ أنْ يفترِسَ عدوَّه، وجوابُ ٱلغيثِ أنْ يَهْطِلَ على أرضِه.

وٱلباشا لا يدعُ[3] ظَرفَهُ ودُعابتَه، وكانَ قد لمحَ في أشداقِ ٱلعالمِ ٱلمتشاعرِ أسناناً صناعية، فلمَّا فرغَ من نظمِهِ ٱلركيكِ قالَ لهَ: يا أستاذ، أحسبُني لَا أكونُ إلَّا كاذباً إذا قلْتُ لك: لا فُضَّ فوك.

ثُمَّ ذكرَ ٱلآخرُ حاجتَه: وهي رجاؤُهُ أنْ يكونَ عمدةُ ٱلقريةِ من ذوي قرَابتِهِ لا من ذوي عداوتِهِ. فقالَ لهُ الباشا: ولِقريتِكم أيضاً أبو جَهْل. . .؟

* * *

ولَمَّا ٱنصرفا قالَ ليَ ٱلباشا: لِأمرٍ ما جعلَ هؤلاءِ ٱلقومُ لِأنفسِهم زِيًّا خاصًّا يتميَّزون بِهِ في ٱلناس، كأنَّ ٱلدينَ بابٌ مِنَ ٱلتحرُّفِ وٱلتصرُّف، بعضُ آلتِهِ في ثِيابِه؛ فهؤلاءِ يسكنون ٱلجُبَبَ وٱلقفاطِينَ وكأنَّها دواوينُهم لا ثيابُهم. . .

قد أفهمُ لِهذا معنًى صحيحاً إذا كانَ كلُّ رجلٍ منهم محصوراً في واجباتِ

---

(١) يسرد: هنا بمعنى ينشد.

(٢) تنفطر: تتشقق. (٣) يدع: يترك.

عملِهِ كالجنديِّ في معاني سلاحِهِ، فيكونُ العظيمُ والتوقيرُ لِثوبِ العالم الدينيِّ كأداءِ التحيَّةِ لِلثوبِ العسكريِّ: معناهُ أنَّ في هذا الثوبِ عملاً سامياً أولُهُ بيعُ الروحِ وبذلُ النفسِ وتركُ الدنيا في سبيلِ المجتمع؛ هذا ثوبُ الموتِ يُفْرَضُ على الحياةِ أنْ تُعظِّمَهُ وتُجلَّه، وثوبُ الدفاعِ تجبُ لَهُ الطاعةُ والانقياد، وثوبُ القوَّةِ ليسَ لَهُ إلَّا المَهابةُ والإعزازُ في الوطن.

ولكنْ ماذا تصنعُ الجُبَّةُ اليوم؟ إنَّها تُطْعِمُ صاحبَها...

أثرُ الجيشِ معروفٌ في دِفاعِ الأُمَمِ العدوَّةِ عنِ البلاد، فأينَ أثرُ جيشِ العلماءِ في دِفاعِ المعاني العدوَّةِ عن أهلِ البلاد، وقدِ احتلَّتْ هذه المعاني وضَربَتْ وتملكَتْ وتركَتْ هذا العالمَ الدينيَّ في ثوبِهِ كالجنديِّ المنهزم: يحملُ من هزيمتِهِ فضيحةً ومن ثوبِهِ فضيحةً أخرى؟

أنت يا بنيَّ قد رأيْتَ (الشيخ محمد عبده) وعرَفْتَه؛ فرحمَ اللَّهُ هذا الرجل، ما كانَ أعجبَ شأنَه! لَكأنَّهُ - واللَّهِ - سحابةٌ مطويَّةٌ على صاعقة. ولو قلْتُ إنَّهُ قد كانَ بينَ قلبِهِ ورأسِهِ طريقٌ لِبعضِ الملائكة. لَأشْبَهَ أنْ يكونَ هذا قولاً.

كانَ يزورني أحياناً فأراني مُرغَماً على أنْ أقدِّمَ لَهُ مجلسينِ أحدُهما قلبي. وكانَ لَهُ وجهٌ يأمرُ أمراً، إذْ لا تراهُ إلَّا شعرْتَ بِهِ يرفعُكَ إلى حقيقةٍ سامية.

رجلٌ نَبَتَ على أعراقٍ[1] فيها إبداعُ المُبدعِ العظيمِ الذي هيَّأَهُ لِرسالتِه، فعواصِفُهُ كالعِطْرِ في شجرةِ العِطرِ الشَّذِيَّة، وشمائلُهُ كجمالِ السماءِ في زُرقةِ السماءِ الصافية، وعظَمَتُهُ كرَوْعةِ البحرِ في منظرِ البحرِ الصاخب. وكثيراً ما كانَ يتعجَّبُ من هذا أستاذُهُ (السيدُ جمالُ الدينِ الأفغانيُّ) فيسألُهُ مندهشاً: بِاللَّهِ قلْ لي: ابنُ أيِّ ملكٍ أنت؟

لم يكنِ ابنَ ملكٍ ولا ابنَ أمير، ولكنَّهُ ابنُ القوّاتِ الروحيَّةِ العاملةِ في هذا الكوْن؛ فهي أعدَّتْه، وهي ألهمتْه، وهي أنطقَتْه، وهي أخرجتْهُ في قومِهِ إعلاناً غيرَ كِتمان، ومُصارحةً غيرَ مُخادعة، وهي جعلَتْ فيهِ أسديَّةَ الأسد، وهي ألقتْ في كلامِهِ تلكَ الشهْوةَ الروحيَّةَ التي تُذاقُ وتُحَبُّ، كالحلاوةِ في الحَلْوى.

هذا هو العالم الدينيّ: لا بدَّ أنْ يكونَ ابْنَ القوّاتِ الروحيَّة، لا ابْنَ الكُتبِ

---

(١) أعراق: أصول.

وحدَها، ولا بدَّ أنْ يَخرجَ بعملِهِ إلى ٱلدنيا، لا أنْ يُدخِلَ ٱلدنيا تحتَ سقفِ ٱلجامع . . .

وأنا فما ينقضي عجبي من هؤلاءِ ٱلعلماءِ ٱلذين هم بَقَايا تَتَضاءَلُ بجانبِ ٱلأصل؛ يبحثون في سُنَنِ ٱلنبيّ ﷺ: كيف كانَ يأكلُ ويشربُ ويلبسُ ويمشي ويتحدَّث؛ كأنَّهم مِنَ ٱلدنيا في قانونِ ٱلمائدة، وآدابِ ٱلولائم، ورُسوم ٱلمجتمعات؛ أمَّا تلك ٱلحقيقةُ ٱلكُبرى، وهي كيف كانَ ٱلنبيُّ ﷺ يُقاتلُ ويُحاربُ لِهدايةِ ٱلخلْق، وكيف كانَ يسمو على ٱلدنيا وشهواتِها؟ وكيف كانَ بِطِباعِهِ ٱلقوّيةِ ٱلصريحةِ تعديلاً فعَّالاً في هذه ٱلإنسانيَّةِ لِلنواميسِ ٱلجائرة؟ وكيف كانَ يحملُ ٱلفقرَ لِيكْسِرَ بِهِ شِرَّةَ[1] ٱلنواميسِ ٱلاقتصاديَّةِ ٱلتي تَقضي بجعلِ ٱلأخلاقِ أثراً من آثارِ ٱلسَّعَةِ وٱلضيق، فتُخرجُ مِنَ ٱلغنيِّ مُتعفِّفاً ومِنَ ٱلفقير لِصًّا؟ وكيفَ ٱستطَاعَ ﷺ بفقرِهِ ٱلسامي أنْ يُحوّلَ معنى ٱلغِنى في نفوسِ أصحابِه، فيجعلَهُ ما ٱستغنى عنهُ ٱلإنسانُ من شهواتِ ٱلدنيا وتَرَكَ، ما نالَ منها وجَمَعَ؟ أمَّا هذا ونحوُهُ من حقائقِ ٱلنبوَّةِ ٱلعاملةِ في تنظيم ٱلحياة، فقد أهملُوه، إذْ هو لا يُوجدُ في ٱلكُتبِ وشروحِها وحواشِيها[2]، ولكنْ في ٱلحياةِ وأثقالِها وأكدارِها؛ وبذلك أصبحَ شيوخُنا مِنَ ٱلأُمَّةِ في مواضعَ لم يضعْهم فيها ٱلدينُ ولكنْ وضعَتْهم فيها ٱلوظيفة.

ألا ليتَهُم يكتبونَ على أبوابِ ٱلأزهرِ هذه الحِكمة: سُئِلَ بعضُ ٱلعرب: بِمَ سادَ فلانٌ فيكم؟ قالوا: ٱحتجْنا إلى علمِهِ وٱستغنى عن دُنيانا . . .

---

(١) شرّة: شدّة وقسوة.

(٢) حواشيها، مفرده حاشية، وهي مكان يوجد في ذيل الصفحة، تكتب شروحات على ما غمض من المعاني في الصفحة.

الأخلاقُ المحاربة

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا بهذا ٱلحديثِ قال: كنَّا في ثورةِ سنةِ ١٩١٩ سنةِ ٱلهزَاهِزِ[١] وٱلفِتَن، وقدْ تفاقمتِ[٢] ٱلثورةُ، وأخذَ ٱلشبابُ يعملُ ويُفكرُ فيما يستطيعُ أنْ يعملَ، وما يجبُ أنْ يعمل؛ وكانَ ٱلسَّخْطُ ٱلعامُّ هو ميراثَ ٱلوقت، فكانَتْ قلوبُ ٱلشعبِ تُلهَمُ واجباتِها إلهاماً، إذْ لم يكنْ في هذهِ ٱلقلوبِ كلِّها إلَّا لذعةُ ٱلدم تُعيِّنُ ٱتجاهَ أعمالِها وتُحدِّدُه.

كانَتِ ٱلثورةُ زلزلةً وقعَتْ في ٱلتاريخ، فجاءَتْ تحتَ زمنٍ راكدٍ لا يتغيَّرُ إلَّا بأنْ يُنْسَف، ولا ينسِفُهُ إلَّا مادةٌ إلهيةٌ كٱلحركةِ ٱلكونيةِ ٱلتي تُخْرِجُ ٱليومَ ٱلجديدَ مِنَ ٱليومِ ٱلقديم؛ فكانَ ٱلقَدَرُ يعملُ بأيدي ٱلإنجليزِ عملاً مِصرياً، ويعملُ بأيدي ٱلمصريينَ عملاً آخر.

وتعلَّمَ ٱلشعبُ من دفْنِ شُهدائِهِ كيفَ يَستَنْبِتُ ٱلدمَ فيُنْبِتُ بِهِ ٱلحريَّة، وكيف يزرعُ ٱلدمعَ فيُخرِجُ منهُ ٱلعزْم، وكيف يستثمِرُ ٱلحزْنَ فيُثمرُ لَهُ ٱلمجد.

وكانَ رصاصُ ٱلإنجليزِ يُصيبُ هَدَفينِ معاً: فيصرعُ شهداءَنا، ويقتلُ ٱلموتَ ٱلسياسيَّ ٱلذي ٱحتلَّ مَعهم هذه البلاد. وقد أنعموا على ٱلشعبِ بِٱلصدمةِ ٱلأولى، فنَشبَتِ ٱلمعركةُ ٱلتي تُقاتلُ فيها ٱلأخلاقُ ٱلقوميَّةُ لِتنتصِرَ؛ وشعرَتْ مصرُ في جِهادِهَا بأنَّها مِصرُ، فٱلتمسَ رُوحُها ٱلتاريخيُّ رمزَهُ ٱلعظيمَ في ٱلأُمَّةِ لِيظهرَ فيهِ عاتياً جبَّاراً؛ فكانَ هذا ٱلرمزُ ٱلجليلُ ٱلعظيمُ هو سعد زغلول.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وكانَ ٱلطلبةُ قد غَدَوْا من أولِ ٱلنهارِ يتظاهَرونَ، وقد جعلَتْهُمُ ٱلثورةُ كٱلأرواحِ تخلَّصَتْ مِنَ ٱلموتِ بِٱلموتِ فلا تخشاهُ ولا تُباليه، واستقلَّتْ عنِ ٱلعقلِ بتحوُّلِها إلى شعورٍ مَحْض، وخرجَتْ عنِ ٱلقوانينِ كُلِّها إلَّا ٱلقانونَ ٱلخفيَّ ٱلذي لا يُعلَمُ ما هو.

---

(١) الهزاهز: الثورات وعدم الاستقرار السياسي.   (٢) تفاقمت: امتدّت وعظمت.

كانوا في معاني قلوبِهِم لا في غيرِها، فلسْتَ تراهم إلَّا عظماءَ فِي عظمةِ ٱلمبدأ ٱلذي ينتصرون لَه، أقوياءَ في قوَّةِ ٱلإيمانِ ٱلذي يعملونَ بِه، أجِلّاءَ في جلالِ ٱلوطَنِ ٱلذي يحيَوْنَ ويموتونَ في سبيلِهِ.

وكانوا في ٱلشعبِ هم خيالَ ٱلأُمَّةِ ٱلعاملَ ٱلمُدرك، وشعورَها ٱلحيَّ ٱلمتوثِّب، وقُواها ٱلبارزةَ من أعماقِها، وأملَها ٱلزاحفَ لِيَقهرَ ٱلصُّعوبة.

يُفَادُونَ بأنفسِهِمُ ٱلغاليةِ ويُؤْثِرونَ عليها، وليسَ في أحدٍ منهم ذاتُهُ ولا أغراضُ شخصِه. فما أجلَّ وما أعظَم! وما أروعَ وما أسمى! أيَّتُها ٱلحياة! هل فيكِ أشرفُ من هذه ٱلحقيقةِ إلَّا حقيقةَ ٱلنبوَّة؟

* * *

قال: وكانَ أخي هو زعيمَ هؤلاءِ ٱلطلبةِ في مدينتِنا؛ قويٌّ على ٱلزَّعامةِ وفيٌّ بها؛ يحملُ قلباً كٱلجمرةِ ٱلملتهبة، وله صوتٌ بعيدٌ تحسبُ ٱلرعدَ يُقَعْقِعُ[1] بِه. إذا مشى في جِهادِهِ كانَ كلُّ ما على ٱلأرضِ تراباً تحتَ قدميه، فلا يمشي إلَّا مُحتقِراً هذه ٱلدنيا وما فيها، غيرَ مقدِّسٍ منها إلَّا دينَهُ ووطنَه؛ وسِلاحُهُ أنَّ كلَّ شيءٍ فيهِ هو سِلاحٌ على ٱلظلْمِ وضدُّ ٱلظلْم.

وكانَ في ذلك ٱليومِ يقودُ «ٱلمُظاهرة»، وحولَهُ جماعةٌ من خالِصَتِهِ وصَفْوةِ إخوانِهِ، يمشون في ٱلطليعةِ تحتَ جوٍّ متَّقِدٍ كأنّ فيهِ غضبَ ٱلشباب، عنيفٌ كأنّما ٱمتزج بِهِ ٱلسخطُ ٱلذي يفورون بِه، رهيبٌ كأنّهُ مُتهيِّئٌ لِينفجر؛ فلمَّا بلغوا موضعاً مِنَ ٱلطريقِ ينعطِفون عندَهُ ٱنصبَّ عليهمُ ٱلمدفعُ ٱلرشَّاش...

قال: فإنِّي لَجالسٌ بعدَ ذلك في ٱلديوانِ إذْ دخلَ عَلَيَّ أخي هذا ينتفِضُ غضباً كأَنَّ ٱلمعانيَ تنبعِثُ من جسدِهِ لِتقاتل، ورأيْتُ لَهُ عينينِ ينظرُ ٱلناظرُ فيهما إلى ٱلنارِ التي في قلبِه؛ فخشيْتُ أنْ يكونَ ٱلقومُ أطلقوا عليهمُ ٱلجنونَ وٱلرصاصَ معاً.

وٱستنْبأتُهُ[2] خبرَ أصحابِهِ فقال: إن الذين كانوا حَولَهُ وقعوا يتشَحَّطونَ[3] في دِمائِهِم، فوقفَ هو شاخصاً إليهم كأنّهُ ميتٌ معهم، وقد أحسَّ كأنَّما خَلَعَ عن جسمِهِ نواميسَ ٱلطبيعة، فلا يعرفُ ما هي ٱلحياةُ ولا ما هوَ ٱلموت؛ وكانَ ٱلرصاصُ يتطايرُ من حولِهِ كأنَّ أرواحَ ٱلشهداءِ تتلقَّاهُ وتُبعثِرُهُ لا ينالُهُ بِسوء. قال: وما أنْسى لا

(١) يقعقع: يصدر أصواتاً عنيفة راعدة.

(٢) استنبأته: سألته عن أصحابه.

(٣) يتشخطون: يتخبّطون بدمائهم.

أنسى ما رأيْتُهُ في تلكَ ٱلساعةِ بينَ ٱلدنيا والآخرة؛ فلقد رأيْتُ بعيني رأسي ٱلدمَ المِصريَّ يُسلِّمُ على ٱلدمِ ٱلمِصرِيِّ، ويسعى إليهِ فيُعانقُهُ عِناقَ الأحباب.

ثُمَّ قال: أينَ هذا الباشا؟ وما بالُهُ لم يصنعْ شيئاً في ٱلاحتياطِ لِهذِهِ ٱلفَوْرة؟ يَكادُ ٱلخزِيُ ـ واللّهِ ـ يكونُ في هذه ٱلوظائفِ على مِقدارِ ٱلمرتَّب...

***

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: ولم يُتمَّ كلمَتَه حتى خرجَ علينا ٱلباشا متكَسِّرَ ٱلوجهِ مِنَ ٱلحزنِ قد تغرغَرتْ عيناه، فأخذَ بيدِ أخي إلى غرفتِهِ وتبعْتُهما، ثُمَّ قال: هَوْناً ما يا بُنيَّ، إنَّ ٱلعِلَّةَ فيكم أنتم يا شبابَ ٱلأُمَّة، فكلُّ ما ٱبتُلينا أو نُبتلى بِهِ هو مِمَّا يستدعيهِ خمولُكم وتستوجبُهُ أخلاقُكمُ ٱلمتخاذِلة؛ إنّنا من غيرِكم كالمدافعِ ٱلفارغةِ من ذَخيرتِها: لا تَصلُحُ إلَّا شكلاً، وبهذِه ٱلعِلَّةِ كانَ عندَنا شكلُ ٱلحكومةِ لَا ٱلحكومة.

أتدري يا فتى ما هي ٱلحكومةُ ٱلصحيحةُ في مثلِ حالتِنا؟ هي أنْ تحكموا أنتم في ٱلشعبِ حُكومةً أخلاقيَّةً نافِذةَ ٱلقانون، فتضْبِطوا أخلاقَ ٱلنساءِ والرجال، وتردُّوها كلَّها أخلاقاً مُحاربةً لا تعرفُ إلَّا ٱلجِدَّ والكرامةَ وصرامةَ ٱلحقّ؛ وإلَّا فكما تكونون يُولّى عليكم...

هذا وحدَهُ هوَ ٱلذي يُعيدُ ٱلأجانبَ إلى رُشدِهم وإلى ٱلحقيقة، فما أراهم يُعاملونَنا إلَّا كأنَّنا ثيابٌ معلّقةٌ ليسَ فيها لابسوها...

كيفَ يَتَصَعْلَكُ[1] ٱلمصريُّ لِلأجنبيِّ لو أنَّ في ٱلمِصريِّ حقيقةَ ٱلقوَّةِ ٱلنفسيَّة؟ أترى بارجةً حربيَّة تتصعلكُ لِزورقِ صيدٍ جاءَ يرتزق؟

إنَّ في بلادِنا ٱلمِسكينةِ ٱلأجانب، وأموالَ ٱلأجانب، وغطرسةَ[2] ٱلأجانب؛ لا لِأنَّ فيها ٱلاحتلال، كلا، بلْ لِأنَّ فيها ضعفَ أهلِها، وغفلةَ أهلِها، وكرمَ أهلِها... بعضُ هذا يا بُنيَّ شبيهٌ ببعض، وإلَّا فما هو كَرمُ ٱلشاةِ ٱلضعيفةِ إلَّا لَذَّةُ لَحمِها...؟

نُريدُ لِهذا ٱلشعبِ طبيعةً جِدِّيَّةً صارِمةً، ينظرُ من خلالِها إلى ٱلحياةِ فيستشعرُ ذاتَهُ ٱلتاريخيَّةَ ٱلمجيدةَ فيعملُ في ٱلحياةِ بقوانينِها؛ وهذا شعورٌ لا تُحدثُهُ إلَّا طبيعةُ ٱلأخلاقِ ٱلاجتماعيَّةِ ٱلقويَّةِ ٱلتي لا تتساهلُ من ضعف، ولا تتسمَّحُ من كذب، ولا تترخَّصُ من غفلة. والحقيقةُ في ٱلحياةِ كالحقيقةِ في ٱلمنطق: إذا لم يَصْدُقِ ٱلبرهانُ

---

(١) يتصعلك: يتصاغر.
(٢) غطرسة: تكبر وتجبر.

على كلِّ حالاتِها، لم يَصدُقْ على حالةٍ من حالاتِها؛ فإذا كنَّا ضعفاءَ كُرماء، أعِزَّاء، سادةً على ٱلتاريخِ ٱلقديم، فنحن ضعفاءُ فقط...

إنَّ ٱلكبراءَ في ٱلشرقِ كلِّه لا يصلحونَ إلَّا لِلرأي، فلا تَسُوموهم غيرَ هذا، فهم قد تلقَّوا ٱلدرسَ من أغلاطِهمُ ٱلكثيرة، وبهذا لَنْ تُفلحَ حُكومةٌ سِياسيَّةٌ في ٱلشرقِ ٱلناهضِ ما لم يكنْ شبابُها حُكومةً أخلاقيَّةً يُمِدُّها من نفسِهِ ومنَ ٱلشعبِ في كلِّ حادثةٍ بالأخلاقِ ٱلمحارِبة.

يا بُنيَّ، إنَّ القويَّ لوِ ٱتفقَ معَ ٱلضعيفِ على كلمةٍ واحدةٍ لا تتغيَّر، لَكانَ معناها لِلأقوى أكثرَ مِمَّا هو لِلأَضعف؛ فإنَّ هذا ٱلقويَّ ٱلذي يعملُ مَعَ ٱلضعيفِ يكونُ فيهِ دائماً شخصٌ آخرُ مختلف، هوَ ٱلقويُّ ٱلذي يعملُ معَ نفسِه.

هكذا هِيَ ٱلسياسة؛ أمَّا في ٱلإنسانيَّةِ فلا، إذْ يكونُ ٱلحقُّ دائماً بينَ ٱثنينِ أقوى مِنَ ٱلاثنين.

خضعَ يخضع . . .

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا فيما حدَّثني بِه: جاءَ ذاتَ يوم قنصلُ (الدولةِ الفلانيَّةِ) من هذه ٱلدولِ ٱلصغيرةِ؛ ٱلتي لو عَلِمَ ٱلذبابُ في بلَادِها أنَّ في مِصرَ ٱمتيازاتٍ أجنبيَّةً، لَطمِعَتْ كلُّ ذبابةٍ أنْ يكونَ لها في بلادِنَا ٱسمُ ٱلطيَّارةِ ٱلحربيَّة. . . .

ورأيْتُهُ قد دخلَ عليَّ شامِخاً باذِخاً متجبِّراً، كأنَّهُ قبلَ أنْ يجيءَ إلى هذا ٱلديوانِ لِمقابلةِ ٱلحاكم ٱلمِصريّ ـ قد تكلم في (التلفونِ) معَ إسرافيلَ يأمرُهُ أنْ يكونَ مستعِدًّا لِلنَّفْخِ في ٱلصُّور. . . .

جَنى صُعلوكٌ من رعَايا دولتِهِ على مِصريّ، فأُخِذَ كما يُؤخَذُ أمثالُه، وقضَى ساعةً أو ساعتينِ بينَ أيدي ٱلمحققينَ يسألونَهُ ٱلأسئلةَ ٱلهيِّنَةَ ٱللَّيِّنَةَ ٱلتي تُحيطُ بتعريفِهِ من ظاهرِه، ولا يُشْبِهُهَا في سَخافةِ ٱلمعنى إلَّا أنْ يسألوهُ عن ثيابِهِ من أيّ مصنعٍ هي في أوربا. . . . فزعمَ ٱلقنصلُ أنَّهُ كانَ يجبُ أنْ يكونَ حاضراً يشهدُ ٱلتحقيقَ، لِأنَّ جِنايةَ أجنبيٍّ على مِصريٍّ تقعُ أجنبيَّة. . . فَلَها شأنٌ ورِعايةٌ وٱمتياز، وٱدّعى أنَّ ٱلمُحققينَ ضايقوا ٱلمجرِمَ وعاسروهُ وتجهَّمُوهُ بِٱلكلام، ولِهذا جاءَ يحتجّ.

ورأيتُهُ جلسَ متوقِّراً كأنَّما يشعرُ في نفسِهِ أنّه أثْقلُ من مدفعٍ ضخْم، لِأنَّ في نفسِهِ وَهْمَ ٱلقوَّة؛ وخيَّلَ إليَّ أنَّهُ يرى موضِعَهُ بينَ ٱلسقفِ وٱلأرض؛ إذْ يحملُ في رأسِهِ فكرَةَ أنَّهُ ٱلأعلى، وكانَتْ لَهُ هيئةٌ صريحةٌ في أنَّ ٱلأجنبيَّ ٱلمُقيمَ هنا ليسَ هو كلَّ ٱلأجنبي، بلْ لا تزالُ منهُ بقيَّةٌ تُتَمِّمُها دولتُه، وفي ٱلجملةِ كانَ ٱلرجلُ كلمةً واضحةً مفسَّرةً تنطقُ بأنَّ لِلقانونِ ٱلمصريِّ قانوناً يحكمُهُ في بلادِهِ!

وأنا قد درسْتُ ٱلقانونَ ٱلدوليّ، وعرفْتُ ما هيَ ٱلامتيازاتُ وما أصلُها، وهي لا تعدو كرَمَ ٱلأرنبِ ٱلتي زعموا أنَّها كانَتْ تملِكُ حماراً تركبُهُ وترتَفِقُ به، فسألَتْها أرنبٌ أخرى أنْ تُرْدِفَها خلفَها، فلمَّا ٱندفعَ بهما ٱلحمارُ ٱستوطَأتْه، فقالَتْ لِصاحبتِهِ: يا أختي، ما أفْرَهَ حِمارَك! ثُمَّ سكتَتْ مدةً وأعجبَها ٱلحمارُ فقالَتْ: يا أختي، ما أفرَهَ حمارَنا! . . .

وكنّا ـ نحن ٱلشرقيينَ ـ مِنَ ٱلضعفِ وٱلغفْلةِ؛ بحيثُ لم نبلغْ مبلغَ ٱلأرنبِ في حِكمتِها وتدبيرِها وحذرِها، فإنَّها أسرَعتْ ودفَعتْ صاحبتَها وقالَتْ لها: اِنزلي ـ ويلكِ ـ قبلَ أنْ تقولي: ما أفرَهَ حِماري.

قال: غيرَ أنِّي في تلك الساعةِ نسيْتُ ٱلقانونَ ٱلدوليَّ وكنْتُ في إلهامِ مِصريَّتي وحدَها، فظهَر لي ظهوراً بيِّناً أنْ لا شيءَ ٱسمُهُ ٱلقانونُ ٱلحقُّ في هذه ٱلدنيا؛ ولكنَّ هناك ٱتفاقاً بينَ كلِّ خضوعٍ وكلِّ تسلط، هو قانونُ هاتينِ ٱلحالتينِ بخصوصِهِما.

وأسرعْتُ إلى ٱلباشا فأنبأْتُهُ، وأسرعَ ٱلباشا فغيَّرَ وجهَهَ، وتبسَّط، وتهلَّل، وتهيَّأَ بهذا لاستقبالِ ٱلقادمِ ٱلعزيز، كأنَّهُ أخصُّ محبيهِ يتطلَّعُ إلى مؤانَسَتِهِ، وقد جاءَ يزورُهُ في دارِه. ثُمَّ دخلَ ٱلقنصلُ، ولم أسمعْ مِمَّا دارَ بينَهما إلَّا الكلمةَ ٱلأولى، وهي قولُ ٱلباشاَ: لْنبدأْ يا سيدي مِنَ ٱلآخر...

* * *

وكانَتْ في ٱلباشا موهِبةٌ عجيبةٌ في ٱختلابِ[1] ٱلأجانبِ خاصَّة، يُديرُهم بلَبَاقةٍ كٱلخاتمِ في إصبعهِ؛ حتى قالَ لي أحدُهم: إنَّ لِهذا الباشا حاسَّةً زائدةً، لو سُمِّيَتْ حاسة ٱلإرضاءِ لَكَانَ هذا ٱسمَها ٱلطبيعيَّ، وإنَّهُ يعملُ بِها كما يعملُ ٱلمُفكِّرُ بِتفكيرِهِ؛ فهو يبتكرُ ٱلأساليبَ ٱلغربيَّةَ ٱلتي يصعَدُ ويَهبِطُ بها ميزانُ ٱلحرارةِ ٱلنفسيَّةَ، وإنَّ جليسَهُ يكادُ يشعُر من مَهارتِهِ في ٱلتمثيلِ أنَّ في جوِّ ٱلمكانِ سِتاراً يُرفعُ وستاراً يُسْدَلُ بينَ ٱلفصول.

فما لبِثَ ٱلقنصلُ أنْ خرجَ بغيرِ ٱلوجهِ ٱلذي دخلَ بهِ، ولكنَّهُ عَبَسَ في وجهي أنا وتَكرَّهُ لي كأنَّهُ أصْغرَ شأني؛ فٱزدرتْني عينُه، فوثَبتْ إلى رأسِهِ فكرةُ ٱلأمتيازات.

وهذه ٱلقوةُ ٱلظالمةُ (الامتيازات)؛ لو أنَّها كانَتْ قوّةً قاهِرةً نافذة، وأُعينَ بها طُفيْليٌّ لِيقتحمَ دُورَ ٱلناسِ آمناً مطمئنًا ـ لاستحى هذا ٱلطفيْليُّ أنْ يأكلَ بها؛ إذْ تجمعُ عليهِ ٱلتطفلَ وٱلمَقْتَ[2] معاً، ولو قِيلَ لِحُسام بتَّار: إنَّ لك ٱمتيازاً على بعضِ ٱلسيوفِ ألَّا تقارِعَك[3]، وإنَّكَ محميٌّ أنْ تنالَك سَطْوتُها إذا قارعْتَها[4] ـ لأنِفَ أنْ يسمَّى سيفاً بهذا أو بمثلِ هذا، فإنَّ ٱلقوَّةَ ٱلظالِمَةَ ٱلتي يُعِيرُونَهُ إيَّاها، ليسَتْ إلَّا مَهانةً لِشرفِ ٱلقوَّةِ ٱلعادلةِ ٱلتي هي فيه.

---

(١) اختلاب: خداع.
(٢) المقت: الكراهة.
(٣) تقارعك: تقاتلك.
(٤) قارعتها: غالبتها.

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: ووصفْتُ لِلباشا هيئةَ ٱلقنصلِ ٱلتي ٱنصرفَ بها، وتقطيبَهُ في وجهي، وقلْتُ لَهُ: إنَّ ٱلذبابةَ وقعَتْ في صَحْفتيَ أنا من هذه ٱلوليمة... فضحكَ بملءِ فيه، ثُمَّ قال:

ستبطلُ هذهِ ٱلامتيازات، وليسَ بينَنا وبينَ نِهايتها إلَّا أنْ ينتهيَ ٱلشعبُ إلى حقيقتِهِ ٱلقوميَّة، فما تركُها في مكانَتِها إلَّا نزولُ ٱلشَّعْبِ عن مكانتِه، وتاَللَّهِ لَكأنَّ هؤلاءِ ٱلأجانبَ يسألوننا بهذِهِ ٱلامتيازات: أين مكانُكم في بلادِكم...؟

أتدري ما قالَهُ هذا ٱلقنصلُ حينَ تجَاذَبْنا الحديثَ[1] فيها، بعدَ أنْ وضعْتُ نفسي منه في موضعِ ٱلمحامي ٱلذي يخذلُهُ[2] ٱلدليلُ، فيحاولُ أنْ يستنزلَ كرمَ ٱلقضاةِ بعَرْضِ بؤسِ ٱلمتَّهمِ على شفقتِهم، لِيستعطِفَ ٱلقانونُ ٱلذي في أيديهم بِٱلقانونِ ٱلذي في أنفسِهم؟

إنَّهُ قال: لا يلومَنَّ ٱلشرقيونَ إلَّا أنفسَهم، فهم علَّموا ٱلأجانبَ أنَّ نتفَ ريشِ ٱلطيرِ أولُ أكلِه. وهذِه ٱلامتيازاتُ إنْ هيَ إلَّا مُعاملةٌ بينَنا وبينَ طبيعةِ ٱلخضوعِ في ٱلشعب. نعم إنَّها مَضَرَّةٌ ومَعَرَّةٌ، وظلمٌ وقسوة؛ ولكنَّها على ذلك طبيعيَّةٌ في ٱلطبيعة؛ فما دامَ هذا ٱلشعبُ ليِّنَ ٱلمأخذِ، فإنَّ هذا يُوجدُ لَهُ من يأخذُه؛ وما دامتِ ٱلكلمةُ ٱلأولى في مُعْجَمِ لُغتِهِ ٱلسياسيَّةِ هي مادةَ (خَضَعَ يَخْضَع)، فهذه ٱلكلمةُ تحملُ في معناها ٱلواحدِ ألفَ معنًى، منها: ظلَمَ يظلِم، ورَكِب يركَب، ومَلَك يملِك، وٱستبدَّ يستبِدُّ، ودجَّل يُدجِّل، وخَدَع يخدَع؛ فهل يكثُر أنْ يكونَ منها للأجانبِ ٱمتازٌ يمتاز؟

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: ثم زمَّ ٱلباشا فمَهُ وسكت: ففهمْتُ ٱلكلماتِ ٱلتي ٱنطبقَ فمُهُ عليها وإنْ لم يتكلَّمْ بها، ثُمَّ غلبَهُ ٱلضحكُ فقال: ـ واللَّهِ ـ يا بنيَّ لو أنَّ بَرْغوثاً طَمَرَ من ثوبِ صُعلوكٍ أجنبيٍّ، فوقعَ في ثوبِ صعلوكٍ وطنيّ، فتقاتَلا فقُبِضَ عليهما، فأخِذا ـ لَمَا رضِيَ بُرغوثُ ٱلأجنبيِّ أنْ يُحاكَمَ إلَّا في ٱلمحاكِمِ ٱلمختلطة...

ثُمَّ سكَتَ ٱلباشا مرةً أخرى كأنَّهُ يقولُ كلاماً آخرَ لا يجوزُ نشرُهُ، ثُمَّ قال: يا بُنيَّ، إنَّ ٱلأجانبَ لا يضعونَ ٱلحِملَ إلَّا على مَنْ يحمل؛ فإذا نحن توخَّينا مُرادَهم

---

(١) تجاذبنا الحديث: تداولناه. (٢) يخذله: يعوزه.

أرادوا لِأنفسِهم لا لنا؛ وإذا وافَقْنا لهم غرضاً جعلوه كٱلدينارِ فيهِ مائةُ قرش، وأبَوْا إلَّا أنْ نُصارِفَهم عليهِ بمائة. هم ـ ويحَكَ ـ يمتازون في معامَلتِنا لا في سطورِ ٱلقوانينِ وٱلمعاهدات، فلْنُبْطِلْ هذه ٱلمعاملةَ يَبْطُلْ هذا ٱلامتياز.

إنَّ ٱلحقَّ يا بُنيَّ ٱستحقاقٌ لا دعوى؛ وهذا ٱلتنازعُ على ٱلحياةِ يجعلُ وسائلَهُ ٱلطبيعيَّةَ ٱلانتزاعَ وٱلمُطالبةَ وٱلتجرّدَ لَهُ وٱلدأبَ فيهِ وٱلإصرارَ عليه. وكلُّ ٱلأقوياءِ يعلمون أنَّ موضِعَ ٱلاعتدالِ بينَ غَصْبِ ٱلحقِّ وبينَ ٱستردادِهِ موضعٌ لا مكانَ لَهُ في ٱلطبيعة: وٱلأجنبيُّ يعتمدُ علينا نحن في جعلِهِ أكبرَ مِنّا وأوفرَ حُرمة؛ فإذا أسْقطَ ٱلشعبُ هذه ٱلامتيازاتِ من فكرِهِ، وروحِهِ وأعصابه، وثارَتْ فيهِ كبرياءُ ٱلوطنيَّةِ فٱستنكَفَ مِنَ ٱلاستخذاء، ونفرَ مِنَ ٱلاختضاع، وأبى إلَّا أن يُعلِنَ كرامته، وصرفَ ٱهتمامَهُ إلى حقوقِ هذه ٱلكرامة، وأصرَّ أَلَّا يُعامِلَ أجنبيًّا يرى لِنفسِهِ ٱمتيازاً على وطنيّ، وقرَّر ذلك في نفسِه، ومكَّنهُ في رُوعِه، وأجمعَ عليهِ إجماعَهُ على ٱلدين ـ إذا جاءَتْ (إذا) هذه بشَرْطِها مِنَ ٱلشعب، جاءَ جوابُ ٱلشرْطِ مِنَ ٱلأجانبِ بنزولِهم عنِ ٱلامتيازاتِ وٱنحلّتِ ٱلمشكلة. إنَّنا يا بُنيَّ لا نملِكُ ضغطَ ٱلسياسة، ولكنَّا نملكُ ما هو أقوى؛ نملكُ ضغطَ ٱلحياة.

لهُمُ ٱلامتيازُ بأنَّهم أجانبُ عنّا، فلْيكُنْ لنا ٱلامتيازُ ٱلآخرُ بأنَّنا أجانبُ عنهم في ٱلمعاملة، مِثْلاً بمِثْل، وما يَفُلُّ ٱلحديدَ إلَّا ٱلحديد.

يقولون: النظامُ ٱلاقتصاديُّ وٱلمالُ ٱلأجنبيّ. ولكنْ أرأيْتَ ٱلمالَ في يدِ ٱلأجنبيِّ إلَّا مالاً وتدبيراً وسُلْطةً وسِيادة، من أنَّهُ في يدِ ٱلوطنيِّ دَينٌ وإسرافٌ ورِقٌّ وذل؟

لم يظهرْ لي إلَّا ٱلساعةَ أنَّ من حِكمةِ تحريم ٱلربا في شريعتِنا ٱلإسلاميَّة، وقايةَ ٱلأُمَّةِ كلِّها في ثروتِها وضياعِها ومُستغَلَّاتِها، وحِمايةَ ٱلشعبِ وملوكِهِ مِنَ ٱلإسرافِ وٱلتخرُّقِ وٱلكرمِ ٱلكاذبِ، وردَّ ٱلاستعمارِ ٱلاقتصاديّ، وشلَّ ٱلنفوذِ ٱلأجنبيّ.

أمَا لو أنَّنا كتبْنَا مِنَ ٱلأولِ على أبوابِ «البنك العقاري» وأبوابِ ذرّيته: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ فهلْ كانَتْ تُقرأُ هذهِ ٱلكلماتُ ٱلثلاثُ على أبوابِ تلك البنوكِ الأجنبيةِ إلا هكذا: «محالٌ خاليةٌ لِلإيجار»....؟

فلْنتعصبْ. . . !

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: جاءَني يوماً صَحَفِيٌّ إنجليزيٌّ من هؤلاءِ ٱلكُتَّابِ ٱلمتعصّبينَ ٱلذين تُطلقُهم إنجلترا كما تُطلقَ مدافعَها؛ غيرَ أنَّ هذه لِلبارودِ وٱلرصاصِ وٱلقنابل وأولئك لِلكَذِبِ وٱلتُّهمِ وٱلمُغالطَات.

وهو أُذُنٌ وعينٌ[1] ولِسانٌ وقَلَمٌ لِجريدةٍ إنجليزيَّةٍ كبيرة، معروفةٍ بِثقَلِ وطأتِها على ٱلشرقِ وٱلإسلام؛ تُصْلِحُ بإفساد، وتُداوِي ٱلحُمَّى بِٱلطاعون، وتعملُ في نهضةِ ٱلشرقيِّينَ وٱستقلالِهم ما يُشْبِهُ قطعَ ثَدْيِ ٱلأُمِّ وهو في شفتَيْ رضيعِها ٱلمسكين.

ودخلَ عليَّ هذا ٱلكاتبُ في ٱلساعةِ ٱلتي خرجَ فيها من غرفتي صاحبُ جريدةٍ أسبوعيَّةٍ في مدينتِنا؛ كانَ قد نفخَ ٱلضِّفْدعَ لِيجعلَها ثوْراً، فحوَّلَ صحيفتَهُ إلى جريدةٍ يوميَّة، وهو لا يجدُ مادتَها ولا يستطيعُ أسبابَها، إلَّا أنَّهُ كدأْبِ[2] ٱلناسِ عندَنا كانَ يحسبُ ٱلكذِبَ في ٱلعملِ سَهْلاً مَهْلاً[3] كٱلكذبِ في ٱلقوْل، فلمْ يَتَعاظمْهُ ٱلأمرُ ٱلعظيم، وٱقترضَ لِعملِهِ كلَّ ألفاظِ ٱلنجاحِ مِنَ اللغة. . .

وظنَّ عندَ نفسِهِ أنَّهُ سيُخَوِّفُ بجريدتِهِ ٱلكُبراءَ وٱلأعيانَ وٱلمياسيرَ حتى يَغْلِبَ على جميعِهم، ويُشْرِكَ أصابعَهُ معَ أصابعِهم في ٱستخراجِ ما يحتاجُ إليهِ من جُيوبِهم؛ فلم تعِشْ جريدتُهُ إلَّا أيَّاماً وأتلفَ ما جمع، ورهنَ فيها دارَهُ ٱلتي لا يملِكُ غيرَها؛ وعَلِمَ آخراً أنَّ الذي يكذبُ فيسمِّي ٱلخروفَ جملاً، لا يُقبَلُ منه أنْ يكذبَ على ٱلكذبِ نفسِه، فيزعمَ أنَّ الناقةَ هي ٱلتي نَتَجَتْ هذا ٱلخروف. . .

ولمَّا ٱنقلبَتْ هذه ٱلجريدةُ يوميَّةً كانَ ٱلباشا هو ملجأَ ٱلرجلِ وَوَزَره، وكانَ لِكلِّ يوم في ٱلجريدةِ أخبارٌ عنِ ٱلباشا لا تقعُ في ٱلدنيا ولا تُجمعُ مِنَ ٱلحوادث، ولكنْ تقَعُ في ذِهْنِ ٱلكاتب، وتُجمعُ من صناديقِ ٱلحروف؛ حتى قالَ ليَ ٱلباشا مرة: إنَّ ٱسمي قد أصبحَ موظَّفاً في هذه ٱلجريدةِ لِجمعِ ٱلاشتراك. . .

---

(١) يقصد بذلك أنه جاسوس.

(٢) دأب، بسكون الهمزة: العادة. (٣) هذا من الاتباع بلغة العرب.

وتحرَّى هذا الصحَفيُّ أنْ يستأذِنَ يوماً على ٱلباشا وفي مجلسِهِ حَشْدٌ عظيمٌ مِنَ ٱلسَّراةِ وٱلأعيانِ وٱلعُمَد، وكانَ جَمَعَهم لِأمر، فما هو إلَّا أنْ دخلَ ٱلصَحفيُّ حتى ٱبتدَرَهُ ٱلباشا بهذا السؤال: يا أستاذ، ما هي تلغرافاتُ أوربا عنِ ٱلحوادثِ ٱلتي ستقعُ غداً. . .؟

فضجَّ ٱلمجلسُ بٱلضحك، وفقدَ ٱلمسكينُ بهذِهِ ٱلنكتةِ أربعينَ ديناراً كانَ يؤَمِّلُ أنْ يخرجُ بها، وأعلنَ ٱلباشا في أظرفِ إعلانٍ وأبلغِهِ كذِبَ ٱلرجلِ ونِفاقَهُ وإسفافَه، وأنّه من رجالِ ٱلصحافةِ ٱلمدوَّرَةِ تدويرَ ٱلرغيف. . .

* * *

قال: ونظرْتُ إلى الصحفيِّ ٱلإنجليزيِّ نظرةً أكْشِفُهُ بها، فإذا أولُ ٱلفرقِ بينَه وبينَ أمثالِهِ عندَنا ـ شعورُهُ أنَّ بلادَهُ قد ربَّتْهُ (لِلخارج)، فهو عندَ نفسِهِ كأنَّهُ إنجليزيٌّ مرتين؛ ويأتي من ذلك إحساسُهُ بعِزَّةِ ٱلمالكِ وقوَّةِ ٱلمستعمرِ، فلا يكونُ حيثُ يكونُ إلَّا في صراحةِ ٱلأمرِ ٱلنافذِ، أو غموضِ ٱلحيلةِ ٱلمبهَمة؛ ويستحكمُ بهذا وذاكَ طبعُهُ ٱلعمليُّ، فهو بغريزتِهِ مُقاتِلٌ من مقاتلةِ ٱلفكر، يلتمسُ مَيدَانَهُ بينَ القوى ٱلمتضاربةِ لا يُبالي أنْ يكونَ فيهِ ٱلموتُ ما دامَ فيهِ ٱلعمل؛ وبهذا كلِّهِ تراهُ نافذَ ٱلبصيرةِ قائماً على سَواءِ ٱلطريقِ، لِأنَّ ٱلإنجليزيَّ ٱلباطنَ فيهِ يُوجِّهُ ٱلإنجليزيَّ ٱلظاهرَ منهُ ويُسَانِدُهُ؛ وفي أعماقِ ٱلاثنينِ تجدُ إنجلترا، وليسَ غيرَ إنجلترا.

ثُمَّ تفرَّسْتُ في ٱلرجلِ أُريدُ كُنْهَهُ[1] وحقيقتَه، فإذا لَهُ نفسٌ مفتوحةٌ مقْفَلةٌ معاً، كغُرَفِ ٱلدار: ٱلواحدةِ يُفتحُ بعضُها لِمَا فيهِ كيما يُرى، ويُقْفَلُ بعضُها على ما فيهِ كيلا يُرى.

ولَهُ وجهٌ عمليٌّ يكادُ يُحاسِبُكَ على نظراتِكَ إليه؛ تدورُ في هذا ٱلوجهِ عينانِ قدِ ٱعتادتا وزْنَ ٱلأشياءِ وٱلمعاني؛ يتلألأُ في هاتينِ ٱلعينينِ شُعاعُ ٱلنفسِ ٱلقويَّةِ ٱلممرَّنةِ، قد نَفَتِ ٱلثقةُ بها نصفَ همومِ ٱلحياةِ عن صاحبِها، تُمِدُّ هذه ٱلنفسَ طبيعةٌ مؤمنةٌ بأنَّ أكبرَ سرورِها في أعمالِها، فواجبُها في ٱلحياةِ أنْ تعملَ كلَّ ما يحسُنُ بها وكلَّ ما يحسُنُ منها.

لقد خُيِّل إلي، وأنا أنظرُ إلى نفسيَّةِ هذا ٱلإنجليزيِّ أنَّ كلمةَ ٱلخيْبَةِ عندَ هؤلاءِ ٱلإنجليزِ غيرُ كلمةِ ٱلخيبةِ عندَنا ـ نحن ٱلشرقيين ـ، فإنَّ خيبةَ ٱلنفسِ لا تَتِمُّ معانيها

---

(١) كنهه: سرّه وكونه.

أبداً في ٱلنفسِ ٱلعاملةِ ٱلدائبةِ، التي يُشعرُها ٱلواجبُ أنَّهُ شيءٌ إلهيٌّ لا يَخيب، وأنَّ ما يُرْفضُ على هذه ٱلأرضِ مِنَ ٱلعملِ ٱلطيِّبِ لا يُرفضُ في ٱلسماء.

وكأنَّ ٱلرجلَ قد أدركَ غرضي بملَكَتِهِ ٱلصحافيَّةِ ٱلدقيقة، فأجابَني عنِ ٱلسؤالِ ٱلذي لم أسأله، وقالَ لي مبتدئاً: إنَّ أساسَنا ٱلشخصيَّةُ وحاسةُ ٱلواجب؛ وإنَّ فيكم أنتم كلَّ شيءٍ إلَّا هذين؛ فأخلاقُنا تَظهرُ دائماً في ٱلعمل، وأخلاقُكم تظهرُ دائماً في ٱلكلامِ ٱلفارغ؛ ونحن نطلبُ ٱلحقيقة، وأنتم تطلبونَ ٱلألفاظ، حتى إنَّهُ لو خَسِرَ ٱلمِصريُّ ألفَ دينار، ثُمَّ أعلنَ أنها مائةٌ فقط، وصدَّق ٱلناسُ أنَّها مائة؛ لَكانَ عندَ نفسِهِ كأنَّهُ ربحَ تسعَمائة...

***

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وٱستأذنْتُ لَهُ على ٱلباشا فسهَّلَ ورحَّب؛ ثُمَّ همَمْتُ بٱلانصرافِ عنهما، ولكنَّ ٱلإنجليزيَّ قال: يا باشا! إنَّهُ قد تمكنَ في رُوعي أنَّ صاحبَ سِرِّكَ هذا متعصبٌ دينيّ، وقد علمْتُ أنَّهُ ٱبنُ فلان ٱلقاضي ٱلشرعيّ، فطربوشُهُ ٱبنُ ٱلعِمامة؛ ولقد كانَ ينظرُ إليَّ، وكأنَّهُ يتأمَّلُ من أين يذبحُني...

فضحِكَ ٱلباشا وقالَ لي: يا فلانُ إنَّ هذا ٱلكاتبَ مِنْ تلاميذِ برناردشو، فهو كأستاذِهِ يجعلُ لِكلِّ حقيقةٍ ذَنباً كذيلِ ٱلهرّ، ثُمَّ يُمسكُها منهُ فإذا هي تَعَضُّ وتتلوَّى...

وٱلتفتَ بعدَ ذلك إلى ٱلإنجليزيِّ ثُمَّ قالَ لَهُ: جاءَني كتابُك فإذا كنْتَ تُريدُ رأيي فيما تُسميهِ ٱلتعصبَ ٱلدينيَّ عندَ ٱلمسلمين، فعجيبٌ أنْ تضعوا أنتم ٱلغلطةَ ثُمَّ تسألونا نحن فيها! إنَّكَ لتعلمُ أنَّ هذا ٱلتعصبَ ٱلكذِبَ ٱلذي أكثرْتمُ ٱلكلامَ فيه، إنَّما هو لفظٌ مِنْ ألفاظِ ٱلسياسةِ الأوربيَّة، أرسلتُموهُ إلينا لِيقاتِلَ لفظَ ٱلتعصبِ ٱلحقيقيّ؛ ومن قبلِ هذا ٱخترَعتُم لفظة (الأقليَّات)، وأجريْتُموها في لُغتِكُمُ ٱلسياسية، لِتجعلوا بها لِتعصُّبِنا ٱلوطنيِّ شكلاً آخرَ غيرَ شكلِهِ فتُفسدوهُ علينا بهذه ٱلمادَّةِ ٱلمُفسدة؛ وبذلك تَضربون ٱليدَ ٱليمنى من غيرِ أنْ تلمسوها، إذْ تضربونَها بشلِّ ٱليدِ ٱليسرى.

إنَّ الإسلامَ في نفسِهِ عدوٌّ شديدٌ على التعصبِ ٱلذي تفهمونَه، فهو يقول لِأهلِهِ في كتابِهِ العزيز: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

فإذا كانَ ٱلعدلُ في هذا الدينِ عدْلاً صارِماً، وحقًّا محْضاً لا يُميِّزُ بشيءٍ ٱلبتَّة،

لا ذاتَ ٱلنفسِ ٱلتي فيها ٱشتهاءُ ٱلدم، ولا أصلَها مِنَ ٱلأبوينِ ٱللذينِ جاءَتْ منهما وِراثةُ ٱلدم، ولا أطرافَها مِنَ الأقربينَ ٱلذين يلتفُّونَ حولَ نَسَبِ ٱلدمِ ـ إذا كان هذا، فأينَ في هذا ٱلعدلِ محلُّ ٱلظلْم؟

لعلَّكَ تُشيرُ إلى هذِهِ ٱلرُّعونةِ ٱلتي تعرفُها في ٱلأغمارِ وٱلأغفالِ مِنَ ٱلعامَّة، فهذِهِ ليسَتْ من أثرِ ٱلدين، بلْ هي أثرُ ٱلجهلِ بِٱلدين؛ إنَّ هذا ليسَ تعصُّباً، بلْ هو معنًى من معاني ٱلحَمِيَّةِ ٱلنفسيَّةِ ٱلخَرقاءِ لم تجدوا أنتم لَهُ لفظاً، وكانَ أقربَ ٱلألفاظِ إليهِ عندكم هوَ ٱلتعصبُ، فأطلقْتُمُوهُ عليهِ لِلمعنى الذي في نفسِهِ وٱلمعنى ٱلذي في أنفسِكم. ألا فٱعلمْ أنّ إسلامَ ٱلعامَّةِ ٱليومَ هو كٱلدعوى ٱلمقبولةِ شكلاً وٱلمرفوضةِ بعدَ ذلك.

قالَ ٱلإنجليزيُّ: ولكنَّ لِهؤلاءِ ٱلعامَّةِ علماءَ دينينَ يُدبّرونهم من ورائِهم. وهم عندَكم ورثَةُ النبيّ ﷺ أي منبعُ ٱلفكرةِ وقوتُها.

قالَ ٱلباشا: غيرَ أنّ هؤلاءِ قد أصبحوا كلُّهم أو أكثرُهم لا يَنْدَسُّ[1] فيهم عِرْقٌ من تلك ٱلوراثة، وذلك هو ٱلذي بلغَ بنا ما ترى؛ فالقومُ إلّا قليلاً منهم كٱلأسلاكِ ٱلكهربائيَّةِ ٱلمعطَّلَة: لا فيها سَلْبٌ ولا إيجاب؛ ولو أنَّ هؤلاءِ ٱلعلماءَ كانَتْ فيهم كهرباءُ ٱلنُّبُوة، لَكَهْرَبوا ٱلأممَ ٱلإسلاميَّةَ في أقطارِها ٱلمختلِفة. إذن لَقامَ في وجهِ ٱلاستعمارِ ٱلأوربيِّ أربعمائةِ مليونِ مسلم جَلْدٍ[2] صارمٍ شديدٍ، متظاهرينَ متعاونينَ، قد أعدُّوا كلَّ ما ٱستطاعوا من قوةِ ٱلعِلْم، وقوةِ ٱلنفس، وهم لو قَذَفَ كلٌّ منهم بحجرينِ لَردموا ٱلبحرِ.

أتُريدُ معنى ٱلتعصُّبِ في ٱلإسلام؟ إنَّهُ بعينِهِ كتعصُّبِ كلِّ إنجليزيٍّ لِلأُسطولِ؛ فهو تَشابُكُ ٱلمسلمينَ في أرجاءِ ٱلأرضِ قاطبةً، وأخذُهم بأسبابِ ٱلقوَّةِ إلى آخرِ ٱلاستطاعة، لدفعِ ظُلْمِ ٱلقوَّةِ بآخرِ ما في ٱلاستطاعة.

وهو بذلك يعملُ عملين: ٱستكمالُ ٱلوجودِ ٱلإسلاميِّ، وٱلدفاعُ عن كمالِه.

وإذا أنت ترجمْتَ هذا إلى معناهُ ٱلسياسيّ، كانَ معناهُ إصرارَ جميعِ ٱلمسلمينَ على نوعِ ٱلحياةِ وكرامتِها، لا على ٱستمرارِ ٱلحياةِ ووجودِها فقط. وذلك هو مبدؤكُم أنتم أيُّها ٱلإنجليز: لا تقبلون إلّا حياةَ ٱلسيادةِ وٱلحكمِ وٱلحريَّةِ، فأنتم مسلمون في هذا ٱلمبدأ لو عَدَلْتم.

---

(١) يندسّ: يدخل في السرّ.

(٢) جلْد، بسكون اللام: صبور في القتال.

أليسَ مِنَ ٱلبلاءِ أنَّ ٱلمسلمين ٱليومَ لا يَدْرُسُ بعضُهم بلادَ بعض إلَّا على ٱلخريطة... مَعَ أنَّ ٱلحجَّ لم يُشرَعْ في دينِهم إلَّا لِتعوديهم دراسةَ ٱلأرضِ في ٱلأرضِ نفسِها لا في ٱلورق، ثُمَّ لِيكونَ من مبادئِهمُ ٱلعمليَّةِ أنّ ٱلعالَمَ مفتوحٌ لا مقفل؟

إنَّ ٱلتعصبَ في حقيقتِهِ هو إعلانُ ٱلأُمَّةِ أنَّها في طاعةِ ٱلشريعةِ ٱلكاملة، وأنَّ لَهَا ٱلروحَ ٱلحادَّةَ لا ٱلبليدة، وأنَّ أساسَها في ٱلسياسةِ ٱلاحترامُ ٱلذاتيُّ لا تقبَلُ غيرَهُ، وأنّ أفكارَها ٱلاجتماعيَّةَ حقائقُ ثابتةٌ لا أشكالٌ نظريَّة، وأنَّ مبدأَها هوَ ٱلحقُّ ولا شيءَ غيرُ ٱلحقّ، وأنَّ قاعدتَها «لا يَضُرُّكم مَنْ ضَلَّ إذا ٱهتَديتُم». فٱلهِدايةُ أولاً وٱلهِدايةُ آخِراً: الهِدايةُ في ٱلقوَّة، وٱلهِدايةُ في ٱلسياسة، وٱلهِدايةُ في ٱلاجتماع. فقلْ لي بحياتِك وحياةِ إنجلترا: أيُعابُ ذلك على ٱلمسلمينَ إلَّا بالألفاظِ ٱلتي يَعيبُ ٱللصُّ بها أهلَ ٱلدارِ لِأنَّهم يُحْكمونَ في وجهِهِ إقفالَ ٱلباب...؟

قالَ: فوَجَم ٱلإنجليزيُّ حتى ذُهِلَ عن نفسِهِ وصاح:

إذا كانَ هذا فلْنتعصَّبْ، فلْنتعصَّبْ.

وزنُ ٱلماضي

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: إنِّي لَجالسٌ ذاتَ يوم وفي يدي كتابٌ لِبعضِ ٱلمتفلسفةِ من مَلَاحِدَةِ أوربا الذين يُريدون أنْ يفهموا ما لا يُفهم؛ وكانَ ٱلباشا قد رآني مرةً أنظرُ فيهِ وأتدبَّرُ مسائلَهُ ٱلغامضة، فقالَ لي: يا بُنيَّ، إنَّ أحدَ ٱلكلابِ كانَ شاعراً فيلسوفاً، فنظرَ ليلةً في ٱلنجومِ فراعَتْهُ وحيَّرَته؛ فآلى أنْ يفهمَهَا بعقلِهِ وتفرَّغَ لِدرسِها مدةً طويلة، ثُمَّ وَضَعَ فيها كتاباً نفيساً ضخماً، كانَ أعظمَ كتبِ ٱلفلسفةِ وأشدَّها غموضاً عندَ ٱلكلاب، وكانَ ٱسمُه: العظامُ ٱلمبعْثَرةُ فوقَنا.

قال: فأنا جالسٌ أقرأُ هذا ٱلكلامَ ٱلذي لا صحيحَ فيهِ إلَّا أنَّهُ غيرُ صحيح. إذْ دخلَ عليَّ كاتبٌ متفلسِفٌ مُلْحِدٌ من هؤلاءِ ٱلمدخُولين في عقولِهم، ٱلمفتونين بأوربا ومذاهِبها وعُلْويَّاتِها وسُفْليَّاتها... وهو يكتبُ في ٱلصحفُ، ويُؤلِّفُ ٱلرسائل، وقد جاءَ يَسْتَصْرِخُ ٱلباشا على فلَّاح شاركَهُ في زراعةِ أرضِه، فزرعَهُ ٱلفلاحُ فيها وحَصَدَهُ، ودَهاهُ بكَيدِهِ، وٱبتلاهُ بغِلْظَتِه، وتهدَّدُهُ بٱلنِّقمة.

وكانَ هذا الفلاحُ ٱلساذَجُ ٱلغريرُ قد سبقَهُ إليَّ وعرَّفَهُ لي تعريفاً قاموسيًّا محيطاً من مادةِ كَفَر يكْفُر... ثُمَّ قالَ بعد ذلك: إنَّهُ (بيَّاع كلام) يُصْدُق ويكْذِبُ حسبَ ٱلطلب.. وٱلذِّمةُ نفسُها ليسَتْ عندَهُ إلَّا (عمليةً حسابيَّة)؛ وهو في أقوى جهاتِهِ لا ينفعُ ٱلدنيا بما تنفعُها بِهِ ٱلبهيِّمةُ من أضعفِ جِهاتِها.

أمَّا ٱلكاتبُ فيقولُ عن هذا ٱلفلاح: إنَّهُ لا يدري أهو يُتمُّ بهائمَهُ أم بهائمُهُ هي ٱلتي تُتِمُّهُ، وإنَّ ٱلذي يرفعُ ٱلقضيَةَ على مثلِ هذا ٱلمخلوقِ إلى محكمةٍ لا يكونُ إلَّا كٱلذي يُقَعْقِعُ بٱلعصا على جُحْرٍ فيهِ ٱلحيَّةُ ٱلسامَّة.

ورأى ٱلمتفلسفُ ٱلكتابَ على يدي، فتهلَّلَ وٱستبشرَ وقالَ لي: هذا نَسَبٌ بينَنَا... فأدركْتُ من كلمتِهِ هذه جملتَهُ وتفصيلَه، وخُيِّلَ إليَّ أنِّي أرى فيهِ نفسَهُ ٱلشرقيَّةَ كٱلمرأةِ ٱلمطلَّقة... فقلْتُ لَه: أنا ٱشتريْتُ هذا ٱلكتابَ من أوربا، ولكنِّي لم أشترِ منها دِماغي.

وكلَّمْتُهُ أَستخرجُ ما عندَه؛ فإذا هو في قومِهِ وتاريخِ قومِهِ كٱلسائحِ في بلادٍ أجنبيَّة: يفتحُ لها عينَهُ ولا يفتحُ لها قلبَه.

* * *

وكانَ جريئاً في كلامِهِ مَع ٱلباشا: يَطْرُدُ ٱلقولَ حيثُ شاءَ حقًّا وباطلاً، ثُمَّ لاسِنادَ لِرأيهِ ولا تثبيتَ لِحُجَّتِهِ إلَّا قولُ فُلانٍ ورأيُ فلان، كأنَّ في رأسِهِ عقلاً شحّاذاً... ثُمَّ ذكر آخرَ الأمرِ ما جاءَ لَه، فخجَّلَهُ ٱلباشا وقال: هذِهِ مسألةٌ ككلِّ مسائِلك: تحتاجُ إلى رأيِ فيلسوفٍ أوربي... وأعرضَ عنهُ ولم يدخُلْ في شيءٍ من أمرِه.

ولَمَّا ٱنصرفَ قالَ ٱلباشا: يحسبُ هذا نفسَهُ عالماً، وهو صُعلوكٌ عِلْميّ.. وإنَّما يكونُ دِماغُهُ وأدمغةُ أمثالِهِ عندَ ٱلفلاسفةِ وٱلعلماءِ ٱلذين يذكرونهم كما تكونُ سلَّةُ ٱلمهمَلاتِ عندَ ٱلصحافيين.

إنَّ هذا ٱلرجل يُتمُّ ضعفَ عقلِهِ في ٱلرأي بقوَّةِ عِنادٍ فيه، لِيجعلَ لهُ ثباتَ ٱلحقيقةِ فيظُنَّ حقيقة، كأنَّ خَضْخَضَةَ ٱلماءِ بٱليدِ في وعاءٍ صغيرٍ يَنقُلُ إلى هذا الوعاءِ طبيعةَ ٱلموّج؛ وعندَ أمثالِ هذا ٱلمفتونِ مِنَ ٱلصعاليكِ ٱلعلميّين، أنَّكَ إذا تناولْتَ مسألَةَ فأخطأْتَ فيها خطأً جريئاً، فقدْ جعلْتَها بخطئِكَ ٱلجريءِ مسألةً مِنَ ٱلعِلْمِ... وأنَّكَ إذا عانَدْتَ فثبتَ ٱلخطأُ في وجهِ ٱلناقدين سنة، كانَ حقيقةَ مدَّةِ سنة...

هم مفتونون زائغون، ومن فِتنتِهِم أنَّهم يَروْنَ ٱلبعدَ بينَهم وبينَ أهلِ ٱلفضائلِ ٱلشرقيَّة، كٱلبعدِ بينَ ٱلعالِمِ وٱلجاهل؛ ولو حقَّقوا لَرأوْهُ بُعْداً في ٱلغرائزِ لا في ٱلعقلِ، أي كٱلبعدِ بينَ ٱلفجورِ وما أشبَه ٱلفُجورَ، وبينَ ٱلتقوى وما أشبَه ٱلتقوى.

زعمَ ٱلأحمقُ أنَّ خصمَهُ ٱلفلاحَ رجلٌ راسخٌ في ٱلماضي، كأنَّهُ باقٍ في أمسٍ لم ينتقلْ منه، مَعَ أنّ أمسِ قدِ ٱنقطعَ مِنَ ٱلزمن، ثُمَّ خرجَ من ذلك إلى أنَّ ٱلأمَّةَ يجبُ أنْ تنبذَ ماضيَهَا، ثُمَّ ٱدَّعى أنَّ ٱلإسلامَ يتعصَّبُ لِلماضي. هذه ثلاثُ كلماتٍ تخرجُ منها ٱلرابعةُ ٱلتي سكَتَ عنها...

وأنا لو شِئْتُ أنْ أسخَرَ من مثلِ هذا ٱلصُعلوكِ ٱلعِلْميّ، لَمَا وجدْتُ في أساليبِ ٱلسخريةِ أبلغَ من أنْ أبعَثَ إليهِ بقارورةٍ فارغةٍ وأقولُ لَه: املأْها لي من آراءِ ٱلفلاسفة..

يَغفُلُ هذا وأمثالُهُ عن أنَّ ٱلدينَ ٱلإسلاميَّ لا يعرفُ ٱلماضيَ بمعنى ما مضى على إطلاقِه؛ بل هو يشترطُ فيهِ أَلَّا يُخالِفَ ٱلعقلَ ولا العلم، وأَلَّا يناقِضَ ٱلهداية؛ ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وفي الآيةِ الأخرى: ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟ وفي ٱلثالثة: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؟ وفي الرابعة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ﴾؟

فانظرْ كيف صَوَّرَ ما نُسميهِ ٱليومَ بٱلجمودِ في قولِه: (حسبُنا)، وكيف صَوَّرَ ما نُسميهِ بٱلرجعيَّةِ في قولِه (نتَّبع)، وتأملْ كيف رفضَ ٱلجمودَ وٱلرجعيَّةَ معاً في ٱلعِلْمِ وٱلعقلِ وٱلهداية، أي في آثارِها مِنَ ٱلعلومِ وٱلمخترعاتِ وٱلفضائلِ ٱلإنسانيَّة، وكيفَ أبطلَ في تلك ٱلثلاثِ ٱلاحتجاجَ بٱلماضي بهذا ٱلأسلوبِ ٱلدقيقِ ٱلعالي، وهو قولُهُ في كلِّ آيةٍ أَوَلَوْ، أَوَلَوْ. لم يغيِّرْها؛ بلْ كرَّرها بلفظِها أربعَ مرات.

فٱلمعجزُ هنا مجيءُ ٱلآياتِ بهذِهِ ٱلصورةِ ٱلمنطقيةِ لإسقاطِ حُجَّتِهم، ونفي معنى ٱلتقديسِ عنِ ٱلماضي فيهنَّ؛ إذْ كانَ ٱلعِلْمُ دائمَ ٱلتغيُّر، وكانَ ٱلعقلُ دائمَ ٱلتجديدِ وٱلإبداع، وكانَتِ ٱلهدايةُ شديدةً على ٱلطبيعةِ ٱلحيوانيَّةِ ٱلَّتي هي ماضي ٱلنفس؛ فكأنَّها جديدةٌ على ٱلنفسِ عندَ كلِّ شهوة.

إنَّ ٱلإنسانَ بماضيهِ وحاضرِهِ كأنَّهُ مقسومٌ قِسمين، يقولُ أحدُهما: أُريدُ أنْ أكونَ. ويقولُ الآخر: أنا قد كنْتُ. فالإسلامُ بهذِهِ ٱلآياتِ قد أوجبَ وزنَ ٱلكلمتينِ في كلِّ زمنٍ بما هُوَ ٱلأصحُّ، وبِما هوَ ٱلأنفع، وبِمَا هو ٱلأهدى؛ وبِٱشتراطِهِ ٱلهدايةَ في جميعِها أشارَ إلى أنَّ ٱلكمالَ ٱلنفسيَّ لِلفردِ يجبُ أنْ يكونَ مرتبِطاً بٱلكمالِ ٱلإنسانيِّ لِلجنس.

وهذا معنًى عجيب، وأعجبُ منه ما ترى من أنَّ ٱلإسلامَ قدْ أصلحَ فكرةَ ٱلماضي؛ فنقَلها من معنى ٱلآباءِ وٱلأجدادِ لِلناس، إلى ٱلمعاني ٱلتي هي كٱلآباءِ وٱلأجدادِ لإنسانيَّة ٱلناس. وٱلأخذُ (بالأهدى) في ٱجتماعِ أُمَّةٍ مِنَ ٱلأمم، إنَّما هو بعينِهِ ناموسُ ٱلترقِّي وٱلتطوُّر.

ومن أدَقِّ ٱلأسرارِ قولُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ فكلمة (أُمَّة) هذه لم يعرفْها أحدٌ على حقيقتِها، ولم تُفسِّرها إِلَّا علومُ هذا الزمن، فهي ٱلمشاعرُ ٱلنفسيَّةِ

ٱلتي يتكوّنُ منها مِزاجُ ٱلشعب، وفيها يستقرُّ ٱلماضي؛ كأنَّ ٱلآيةَ قد عبَّرَتْ بآخرِ ما ٱنتهى إليهِ علماءُ ٱلنفس: من أنَّ ٱلإنسانَ ٱبْنُ أبويهِ وٱبنُ شعبِهِ أيضاً.

فٱلتعصبُ في ٱلإسلامِ هو لِلعلمِ ٱلنافع، ولِلمجدِ ٱلصحيح، ولِلهدايةِ ٱلباعثةِ على ٱلكمال؛ وتعصبُ ٱلجِيلِ لِمثلِ هذا في ماضيه، هو في ٱسمِهِ تعصُّب، غيرَ أنَّهُ في معناهُ إنَّما هوَ ٱلعملُ لِتسليمِ مجدِ ٱلأُمَّةِ إلى ٱلجيلِ ٱلتالي.

المعجمُ السياسيّ

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: كنَّا في سنة ١٩٢٠، وهي بنتُ سنة ١٩١٩؛ وقدِ ٱجتمعَتِ ٱلأمَّةُ على مُقاطعةِ لجنة (ملنر) لا تُكلِّمُها، فجعلَتِ ٱلسكوتَ ثورة، وأعلنَ ٱلشعبُ أنَّ كلمتَهُ في لِسانِ ٱلوفدِ ينطقُ ٱلوفدُ بها نطقَ ٱلنبيِّ بِمَا يُوحَى إليه، فما يكونُ لِأحدٍ غيرِهِ أنْ يقولَها، ولا أنْ يقولَ أُوحيَ إليّ. وأبى اللورد ملنر أنْ يصدّقَ أنَّ لِلمصريينَ إجماعاً يُعْتَدُّ بِه، وأنَّهم دخلوا في ٱلسياسةِ دخولاً ثابتاً فَرَسَخُوا[1] فيها، وأنَّهم أصبحوا مَعَ ٱلإنجليز كالإنجليزِ ٱلذينَ يقولون عن أنفسِهم في مثلِهمُ ٱلسائر: ينبغي أنْ نكونَ أحراراً مثلَ أعمالِنا.

وزعمَ ٱللورد لِنفسِه، أنَّ هذه الأحزابَ ٱلمصريَّةَ لا يتَّفقُ منها ٱثنانِ أبداً إلَّا كانَ بينهما ثالثٌ يختلفانِ عليه، وهوَ ٱلطمعُ في مناصبِ ٱلحكم؛ وٱستخرجَ من ذلك أنَّ ٱلمصريَّ وٱلمصريَّ كشقي ٱلمِقراض[2]: لا يتحركانِ في عملٍ إلَّا على تمزيقِ شيءٍ بينهما؛ فإنْ لم يكنْ بينَهما (الشيءُ) لم يكنْ منهما شيء.

وذهب ٱلرجلُ يَتَظَنَّى ويَحْدِسُ على ما يُخيِّلُ لَهُ ٱلظنَّ، وقد حسِبَ أنَّ إنجلترا يحقُّ لها أنْ تقولَ في ٱلمصريينَ ما يقولُ ٱللَّهُ في خَلقِهِ كما وردَ في الأثرَ: «إنما يتقلَّبونَ في قبضتي». وكما تقول ٱليومَ لِأهْلِ فلسطينَ مِنَ ٱلعرب: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ . . . وكانَ ٱللوردُ هذا رجلاً مُمارِساً لِمشاكلِ ٱلسياسة، دَخَالاً فيها، دَاهيةً من دُهاةِ ٱلقوم، لهُ في قلبِهِ عينانِ وأذنانِ غيرَ ما في وجهِهِ كحذَّاقِ ٱلسياسيّين؛ وهو يعرفُ أنَّ سياسةَ قومِهِ لا تدخلُ في شيءٍ إلَّا دخولَ ٱلإبرةِ بخيطِها في ٱلثوب، إنْ خرجَتْ هي تركَتِ ٱلخيطَ وقد جَمَعَ وشدّ. . . فأرادَ أنْ يمتحنَ مذهبَ ٱلمصريينَ في إجماعِهم على ٱلاستقلال، وقدَّرَ أنَّهُ واجدٌ مِنَ ٱلفلاحينَ عوْناً لهُ ومادةً لِمكرِهِ ٱلسياسيّ، وحسِبَ ٱلوفدَ صورةً جديدةً من طبقةِ (ٱلباشوات) ٱلقديمة، ينزلونَ مِنَ ٱلشعبِ منزلةَ ٱليدِ ٱلتي تُمْسِكُ ٱلقيدَ، مِنَ ٱلرِّجْلِ ٱلتي فيها

---

(١) رسخوا: استقرّوا.
(٢) المقراض: المقص.

ٱلقيد، ويضعونَ معنى كلمةِ ٱلحاجةِ في كلمةِ ٱلسياسة، ويقولون: ٱلوطنُ وهم يُريدونَ ٱلجاه، ويُقيمونَ ٱلشعبَ كالسُّلَّمِ ينتصبُ قائماً بأيديهم لِيحملَ أرجلَهُمُ ٱلصاعدةَ عليه.

فجاءَ ٱللورد إلى مصر، فوجدَ ٱلأُمَّةَ كلَّها قد حَذِرَت منه وتيقظَتْ لَه، حتى نصَحَهُ رشدي باشا بأنَّهُ لَنْ يجدَ في مصرَ هِرَّةً تُفاوضُه؛ ولكنَّه كانَ مستيقناً أنَّ أُذُنَ ٱلسياسةِ ٱلإنجليزية (كالرديو) لصوتين: صوتِ ٱلدنانيرِ وصوتِ ٱلجماهير، فمرَّ في ٱلبلادِ يرسمُ على ٱلهواءِ علاماتِ ٱستفهام، وٱنْصَفَقَ[1] عنهُ ٱلناسُ وأهملُوه، وكانَ يسيرُ في دائرةِ ٱلصمتِ ٱلتي مركزُها أبو الهول، فبدأَ وظلَّ يبدأُ حتى ٱنتهى وما زالَ يبدأ... وساحَ في ٱلبلادِ سِياحةً طويلة، وكأنَّهُ لم يسافرْ إلَّا من شَفَةِ أبي ٱلهولِ ٱلسُّفلى إلى شَفتِهِ العُليا.

* * *

قالَ صاحبُ السرِّ: وجاءَ ٱلوردُ لِمقابلةِ الباشا، فمرَّ عليَّ مرورَ كتابٍ مقفَل: لا أعرفُ منه إلَّا ٱلعُنوان؛ غيرَ أنَّهُ رجلٌ بمِقدارِ ٱلرجلِ ٱلذي يُخالفُ أُمَّةً كاملةً تكادُ تحسبُهُ مطويًا على زوبعة، وترى لَهُ قوَّتينِ تُحِسُّ من أثرِهما ٱلرهبةَ وٱلإعجاب، وإذا تأملْتَهُ قلْتَ إنَّ ٱللطفَ وٱلظَّرْفَ أضعفُ شمائلِه، وإنَّ ٱلدَّهاءَ وٱلحيلةَ أقوى مواهبِه.

فلمَّا لقيْتُ الباشا مِنَ ٱلغد، سألني: كيف رأيْتَ ٱللورد ملنر؟ فقلْت: وٱللَّهِ يا باشا إنَّهُ كٱلضرورة: ما يتمنَّاها أحدٌ ولكنَّها تجيء...

فضحكَ ٱلباشا وقال: يا ليْتَ لنا ـ نحن ٱلشرقيينَ ـ كلَّ يوم ضرورةً تصنعُ ما صنَع ٱللورد؛ إنَّهُ كشفَ لنا في ذاتِ أنفسِنا عن حقيقةٍ من أسمى ٱلحقائقِ ٱلسياسيَّة: وهي أنَّ ٱلشعبَ ٱلذي يُصِرُّ ولا يزالُ يُصِرُّ يجعلُ ٱلإغراءَ لا يُغري وٱلخوفَ لا يُخيف.

ويا ليْتَ ٱلأممَ ٱلشرقيَّةَ تتعلَّمُ هذا ٱلصمتَ ٱلسياسيَّ عن مجاوبَةِ ٱلكلمةِ ٱلاستعماريَّةِ أحياناً؛ فإنَّ صمْتَ ٱلأُمَّةِ ٱلمصريَّةِ عن جوابِ (ملنر) كانَ معناهُ أنَّ قدرةَ ٱلأُمَّةِ هِيَ ٱلمتكلمةُ كلامَها بذا ٱلصمت، تُعلِنُ لِلعالمِ أنَّ ٱلواجبَ ٱلشعبيَّ قد وضعَ قُفْلَهُ على كلِّ فم.

وقد فسَّرَ ٱللورد هذا السكوتَ بتفسيرِهِ ٱلسياسيّ، فأدركَ منه أنَّ في ٱلشعبِ

---

(١) انصفق عنه الناس: تفرّقوا.

أنَفَةً وحَميَّةً وقوَّة، وأنَّ حِسابَ ٱلضميرِ ٱلوطنيِّ أصبحَ لِهذِهِ ٱلأفئدةِ كٱلحسابِ ٱلإلهيِّ لِلنفوسِ ٱلمؤمنة: كِلاهما مُسْتعلِنٌ يُخافُ ويُتَّقى، وكِلاهما كلمةٌ محرَّمة.

أيةُ معجزةٍ هذه ٱلتي جعلَتْ كلمةَ ٱلأجنبيِّ تتَّخذُ في أذهانِ أُمَّةٍ كاملةٍ شَكْلَ قائلِها، فٱجتمَعَتْ لها ٱلبلادُ على معنى ٱلرفضِ، وأصبحَ كلُّ فردٍ يعرفُ محلَّهُ مِنَ ٱلكلِّ، وخضَعتِ ٱلطبائعُ بجملتِها لِقانونِ ٱلعزةِ ٱلقوميَّة، ٱلذي يُلزمُها ألَّا تخضعَ لِلأجنبيِّ؟

إنَّ ٱلأُمَمَ بعضُ مسائلَ نفسيَّةٍ كهذِهِ ٱلمسألة؛ فلو أنَّ لنا خمسةَ دروسٍ سياسيةٍ مختلفةٍ كدروسِ (ملنر)، لَكانَتْ لنا في ٱلإيمانِ ٱلوطنيِّ كٱلصلواتِ ٱلخمس.

واالآنَ تعلمَتِ ٱلأُمَّةُ أنَّ ٱلشعبَ ٱلعزيزَ هوَ ٱلذي ينظرُ في فَضِّ مشاكلِهِ[1] إلى ٱلحلِّ وإلى طريقةِ ٱلحلِّ أيضاً، وقد كانَ (ملنر) هو أولَ أساتذَتِنَا في تعليمِنا ٱلطريقة.

وهذا ٱلدرسُ يجبُ أنْ يكونَ درساً لِلشرقِ كلِّه، فإنَّ السياسةَ ٱلاستعماريَّة قائمةٌ فيهِ على خِداعِ ٱلطريقةِ في حلِّ مشاكلِهِ، فيحلونها ويُعقِّدُونَها في نصٍّ واحد؛ ويُثبتُ ٱلكلامُ ٱلذي يتَّفقون عليهِ أنَّ ٱلمُرادَ منه زوالُ ٱلخِلاف، ويُثبتُ ٱلعملُ بعدَ ذلك أنَّ ٱلمُرادَ كانَ زوالَ ٱلمقاومة.

وفي ٱلسياسةِ ٱلأوربيَّة موافقاتٌ دميمةٌ[2] كٱلنساءِ ٱلمشوَّهات، فإذا عرضوا واحدةً منها على مَنْ يُريدون أنْ يزوّجوه... فأباها وفتَح لها عينيهِ بكلِّ ما فيهما من قوةِ ٱلإبصار، أعفَوْهُ منها وقالوا له: سنأتيكَ بالجميلةِ، ثُمَّ يذهبونَ بها إلى معهدِ ٱلتجميلِ ٱللغوي، فيصقلونها ويصبغونها، ويضعونَ لها أحمرَ ٱلسياسةِ وأبيضَها، ثُمَّ يعرضونَها جديدةً على صاحبِهم ذاك، وما صنعوا ما بِهِ صارَتِ ٱلدميمةُ غيرَ دميمة، ولكنْ ما بِهِ رجعَ غيرُ ٱلأعمى كٱلأعمى.

ولهم عقولٌ عجيبةٌ في ٱختراعِ ٱلألفاظ، حتى لَتكونُ شِدَّةُ ٱلوضوحِ في عِبارة، هي بعينِها ٱلطريقةَ لإخفاءِ ٱلغموضِ في عبارةٍ أخرى. وكثيراً ما يأتونَ بألفاظٍ منتفخةٍ تُحسَبُ جَزْلةً بادنةً قد ملأها معناها، وهي في ٱلسياسةِ ألفاظٌ حُبالى، تَستكمِلُ حملَها مدةً ثُمَّ تلِد.

---

(١) فضّ مشاكله: حلّها.

(٢) دميمة: بشعة.

ولهم من بعضِ ٱلكلماتِ ٱلسياسيَّة، كما لهم من بعضِ ٱلرجالِ ٱلسياسيِّين؛ فيكونُ ٱلرجلُ من دُهاتِهم رجلاً كٱلناس، وهو عندَهم مِسْمَارٌ دَقُّوهُ في أرضِ كذا أو مملكةِ كذا، ويكونُ ٱللفظُ لفظاً كٱللغة، وهو مِسمارٌ دقّوهُ في وثيقةٍ أو مُعاهدة.

ثُمَّ ضحكَ ٱلباشا وقال: إنَّ أرضَنا تُخرِجُ ٱلقطن، وسياستَنا تُخرج ألفاظاً كٱلقطن: لا تُوضعُ في ٱلمِغزَل إلَّا مَدَّتْ وتحوَّلَتْ. وإذا ذهبْنَا نُخالفُهم في ٱلتأويلِ وٱلتفسير، لم نجدْ عندنا ٱلمعجمَ ٱلسياسيَّ ٱلذي يُملي ٱلنصّ. أتدري يا بُنيَّ ما هو ٱلمعجمُ ٱلسياسيّ؟

أمَا إنَّهُ لو كانَ كتاباً يتألفُ من مليونِ كلمة، لَذهبَتْ كلُّها عبثاً وباطلاً وهُراء، ولكنَّهُ ذلك ٱلمعجمُ ٱلحيُّ، ذلك ٱلمعجمُ ٱلذي يتألَّفُ من مليونِ جندي...

اللسانُ المُرَقَّع

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: جاءَ «حضرةُ صاحبِ ٱلسعادة» فلانٌ لِزيارةِ ٱلباشا؛ وهو رجلٌ مِصريٌّ وُلِدَ في بعضِ ٱلقُرى، ما نعلمُ أنَّ ٱللَّهَ (تعالى) ميَّزهُ بجوهرٍ غيرِ ٱلجوهر، ولا طَبْعٍ غير ٱلطبْع، ولا تركيبٍ غيرِ ٱلتركيب، ولا زادَ في دمِهِ نقطةَ زهوٍ، ولا وضعَهُ موضِعَ ٱلوسطِ بينَ فنَّينِ مِنَ ٱلخليقة. غيرَ أنَّهُ زارَ فرنسا، وطافَ بإنجلترا، وساحَ في إيطاليا، وعاجَ على ألمانيا، ولوَّنَ نفسَهُ ألواناً، فهو مصريٌّ ملوَّن. ومن ثُمَّ كانَ لا يرى في بِلادِهِ وقومِهِ إلَّا ٱلفروقَ بين ما هنا وبين ما هناك. فما يظهرُ له دينُ قومِهِ إلَّا مُقابلاً لِشهواتٍ أحبَّها وغامرَ فيها، ولا لغةُ قومِهِ إلَّا مقرونةً بلغةٍ أخرى ودَّ لو كانَ من أهلِها، ولا تاريخُ قومِهِ إلا مغمًى عليه.. كالميتِ بينَ تواريخِ ٱلأُمَم.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ ٱلمترفينَ ٱلمنعَّمين: مصريُّ ٱلمالِ فقط، إذْ كانَتْ أسبابُهم ومستَغَلّاتُهم في مِصر؛ عربيُّ ٱلاسمِ لا غير، إذْ كانَتْ أسماؤُهم من جِنايةِ أهليهم بٱلطبيعة؛ مُسلمُ ما مضى دونَ ما هو حاضر، إذْ كانَ لا حِيلةَ في أنسابِهِمُ ٱلتي ٱنحدروا منها.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ ٱلمترفينَ ٱلمنعَّمينَ ٱلمفتونينَ بالمدنيَّةِ: لِكُلٍّ منهم جنسُهُ ٱلمِصريُّ ولِفكرِهِ جنسٌ آخر.

قال: وكان حضرةُ صاحبِ ٱلسعادةِ يُكلِّمُ ٱلباشا بِٱلعربيةِ ٱلتي تلعنُها ٱلعربية، مرتفِعاً بها عن لغةِ ٱلفصيحِ ٱرتفاعاً. منحطًّا... نازلاً بها عن لغةِ ٱلسُّوقةِ نزولاً عالياً... فكان يرتضِخُ لُكْنَةً أعجميةً[1]، بينَا هي في بعضِ ٱلألفاظِ جرسٌ عالٍ يطنُّ، إذا هي في لفظٍ آخرَ صوتُ مريضٍ يئنّ، إذا هي في كلمةٍ ثالثةٍ نغمٌ موسيقيٌّ يرنّ. ورأيْتُهُ يتكلَّفُ نسيانَ بعضِ ٱلجُمَلِ ٱلعربيَّةِ لِيلويَ لِسانَهُ بغيرِها مِنَ ٱلفرنسيَّة، لا تظرُّفاً ولا تملُّحاً ولا إظهاراً لِقدرةٍ أو عِلْم، ولكنِ ٱستجابةً لِلشعورِ ٱلأجنبيِّ ٱلخفيِّ

(١) يرتضخ لُكنة أعجمية: يلهج لهجة أوروبية.

ٱلمتكنِ في نفسِه. فكانَتْ وطنيَّةُ عقلِهِ تأبى إلَّا أنْ تُكذِّبَ وطنيَّةَ لِسانِه، وهو بإحداهِما زائفٌ على قومِه، وبالأخرى زائفٌ على غيرِ قومِه.

* * *

فلمَّا ٱنصرفَ ٱلرجلُ قالَ الباشا: أفٍّ لِهذا وأمثالِ هذا! أفٍّ لهم ولِمَا يصنعون! إنَّ هذا ٱلكبيرَ يُلقِّبونَهُ «حضرة صاحب السعادة»، ولأَشرفُ منهُ ـ واللَّهِ ـ رجلٌ قَرويّ ساذجٌ يكونُ لقبُهُ «حضرة صاحب الجاموسة». . . نعم إنَّ ٱلفلاحَ عندَنا جاهلُ عِلْم، ولكنَّ هذا أقبحُ منه جهلاً، فإنَّهُ جاهلُ وطنيَّة.

ثُمَّ إنَّ ٱلجاموسةَ وصاحبَها عاملانِ دائبانِ مخلصانِ لِلْوطن؛ فما هو عملُ حضرةِ (صاحبِ اللسانِ المرقَّع) هذا؟ إنَّ عملَهُ أنْ يُعلِنَ برطانتِهِ[1] الأجنبيَّةِ أنَّ لغةَ وطنِهِ ذليلةٌ مَهينة، وأنَّهُ مُتجرِّدٌ مِنَ ٱلروحِ ٱلسياسيِّ لِلغةِ قومِهِ؛ إذْ لا يظهرُ ٱلروحُ ٱلسياسيُّ لِلغةٍ ما، إلَّا في ٱلحِرْصِ عليها وتقديمِها على سِواها.

كانَ ٱلواجبُ على مثلِ هذا أَلَّا يتكلَّمَ في بلادِهِ إلَّا بلُغتِه، وكانَ ٱلذي هو أوجبُ أنْ يتعصَّبَ لها على كلِّ لُغةٍ تُزاحِمُها في أرضِها، فتركَ هذا وهذا وكانَ هو ٱلمزاحمَ بنفسِه؛ فهو على أنَّهُ «حضرة صاحب سعادة»، لا يُنزِلُ نفسَهُ مِنَ ٱللغةِ ٱلقوميةِ إلَّا مَنزلةَ خادمٍ أجنبيٍّ في حانة.

أَتدري ما هو سِرُّ هؤلاءِ ٱلكُبراءِ وهؤلاءِ ٱلسَّراةِ ٱلذين يُطمْطِمون[2] إذا تكلموا فيما بينَهم؟ إنَّهُم عندَنا طبقات:

أمَّا واحدةٌ، فإنَّهم يصنعونَ هذا ٱلصنيعَ منجذبينَ إلى أصلٍ راسخٍ في طِباعِهم، مِمَّا تركَهُ ٱلظلمُ وٱلاستبدادُ وٱلحمقُ في زمنِ ٱلحكمِ ٱلتركيّ؛ فهم يُبْدون جوهرَ نفوسِهم لِأعينِهم وأعينِ ٱلناس، كأنَّ ٱللغةَ ٱلأجنبيَّةَ فيما بينَهم علامةُ ٱلحكمِ وٱلسلطةِ وٱحتقارِ ٱلشعبِ وٱستمرارِ ذلك ٱلحمقِ في ٱلدم. . . وهم بها يتنبَّلون[3].

وأمَّا طبقة، فإنَّهم يتكلَّفون هذا مِمَّا في نفوسِهم من طِباعٍ أحدثَها ٱلنِّفاقُ وٱلخضوعُ وٱلذلُّ ٱلسياسيُّ في عهدِ ٱلاحتلالِ ٱلإنجليزي؛ فٱللغةُ الأجنَبيَّةُ بينَهم تشريفٌ وٱعتبار، كأنَّهم بها من غيرِ ٱلشعبِ ٱلمحكومِ ٱلذي فقدَ ٱلسلطة، وهم بها يتمجَّدون.

---

(١) رطانة: لهجة.

(٢) يطمطمون: يجعلون في ألسنتهم عجمة وكلمات منكرة.

(٣) يتنبلون: يرتفعون.

وأمَّا جماعة، فإنَّهم يتعمَّدون هذا يُريدُون بهِ عيبَ ٱللغةِ ٱلعربيَّةِ وتهجينَها[1]، إذِ ٱتخذوا مِنْ عداوةِ هذه ٱللغةِ طريقةً ٱنتحلوها[2] ومذهباً ٱنتسبوا إليه، وفيهمُ ٱلعالمُ بعلومِ أوربا، وٱلأديبُ بأدبِ أوربا؛ وذلك من عداوتِهم لِلدينِ ٱلإسلاميّ، إذْ جعلَ هذه ٱللغةَ حكومةً باقيةً في بِلادِهم مَعَ كلِّ حكومةٍ وفوقَ كلِّ حكومة؛ وهم يزدرون هذا ٱلدينَ ويُسقطونَ عنْ أنفسِهم كلَّ واجباتِه. وهؤلاءِ قد خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً، إذْ يُغلونَ في مِصريَّتِهم غلوًّا قبيحاً ينتهي بهم إلى سفهِ ٱلآراء، وخِفّةِ ٱلأحلام، وطيشِ ٱلنزعات، فيما يتّصِلُ بالدينِ ٱلإسلاميِّ وآدابِهِ ولُغتِه. وما أرى ٱلواحدَ منهم إلَّا قد غطَّى وصفَهُ من حيثُ هو رقيعٌ، على وصفِهِ من حيثُ هو عالمٌ أو أديبٌ أو ما شاء. إنَّ هذا لَمقتٌ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ومن أثرِ تلك ٱلفِئاتِ ٱلثلاثِ نشأَتْ فِئةٌ رابعة، تحوَّلَ فيهم ذلك ٱلخلْطُ مِنَ ٱلكلامِ إلى طريقةٍ نفسيَّةٍ في ٱلنفس؛ فهم يُقحِمونَ[3] في كِتابتِهم وحديثِهمُ ٱلكلماتِ ٱلأجنبيَّة، ويحسبون عملَهُم هذا تظرُّفاً ومُعابثةً ومُجوناً، على أنَّهُ هو ٱلذي يُظهِرُ لِعينِ ٱلبصيرِ مواضِعَ ٱلقطعِ ٱلتاريخيِّ في نفوسِهم، وأماكنَ ٱلفسادِ ٱلقوميِّ في طبيعتِهم، وجِهاتِ ٱلتحلُّلِ ٱلدينيِّ في ٱعتقادِهم. هؤلاءِ يكتب أحدُهم: (النرفزة) وهو قادرٌ أنْ يقولَ ٱلغضب، (والفلير) وهو مستطيعٌ أنْ يجعلَ في مكانِها ٱلمُغازلة، (وسكالنس) وهو يعرفُ لفظةَ أنواع وألوان، وهكذا وهكذا؛ ولا ـ واللَّهِ ـ أنْ تكونَ ٱلمسافةُ بينَ ٱللفظينِ إلَّا ٱلمسافةَ بعينِها بينَ قلوبِهم ورُشدِ قلوبهم.

وما برِحَ ٱلتقليدُ ٱلسخيفُ لا يَعرِفُ له باباً يَلِجُ منه إلى ٱلسُّخفاءِ إلَّا بابَ ٱلتهاونِ وٱلتسامح؛ ونحنُ قومٌ ٱبتُلِينَا بتزويرِ ٱلعُيوبِ على أنفسِنا وعدِّها في ٱلمحاسنِ وٱلفضائل، من قِلّةِ ما فينا مِنَ ٱلفضائل وٱلمحاسن. وبهذه ٱلطبيعةِ ٱلمعكوسةِ نُحاولُ أنْ نقتبسَ من مزايا الأوربيِّين، فلا نأخذُ أكثرَ ما نأخذُ إلَّا عيوبَهم، إذْ كانَتْ هيَ ٱلأسهلَ علينا، وهيَ ٱلأشكلُ بطبعِنا ٱلضعيفِ ٱلمتسامحِ ٱلمتهاون.

---

(١) تهجينها: تقبيحها.

(٢) انتحلوها: اتخذوها نِحلة وعملاً.

(٣) يقحمون: يدخلون بالقوّة.

ومن هذا تجدُ مشاكلَنا ٱلاجتماعيَّة ـ على أنَّها أهونُ وأيسرُ من مشاكلِ ٱلأوربيِّين، وعلى أنَّ في دينِنا وآدابِنا لِكلِّ مُشكلةٍ حلّها ـ تجدُها هي علينا أصعبَ وأشدَّ، لِأنَّنا ضعفاءُ ومتخاذلون ومقلِّدون ومفتونون، وكلُّ ذلك من شيءٍ واحد: وهو أنَّ أكثرَ كُبرائِنا هم أكبرُ بلائِنا.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: ثُمَّ ضحكَ الباشا ضحكتَهُ ٱلساخرةَ وقال: كيف تصنعُ أُمَّةٌ يكونُ أكثرُ ٱلعاملين هم أكبرَ ٱلعاطلين، إذْ يعملون ولكنْ بروحٍ غيرِ عاملة..

سرُّ القُبَّعَة

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا، قال: نَجَمَتْ[1] في مصرَ حركةٌ بِعقِبِ أيّام ٱلبِدعةِ ٱلتركيَّة، حينَ لم تبقَ لِشيءٍ هناك قاعدةٌ إلَّا ٱلقاعدةَ ٱلواحدةَ ٱلتي تُقرِّرُهَا ٱلمشانق... فمَنْ أبى أنْ يخلعَ ٱلعِمامةَ عن رأسِهِ خلعوا رأسَه؛ ومَنْ قال (لا) ٱنقلبَتْ (لا) هذه مشنقةً فعُلِّقَ فيها.

وكانَتْ فكرةُ ٱتخاذِ ٱلقبَّعةِ في تركيا غِطاءً لِلرأس، قد جاءَتْ بعدَ نَزَعاتٍ من مثلِها كما يجيءُ ٱلحِذاءُ في آخرِ ما يلبسُ ٱللابس، فلم يشكَّ أحدٌ أنَّها ليسَتْ قبَّعةً على ٱلرأسِ أكثرَ مِمَّا هي طريقةٌ لِتربيةِ ٱلرأسِ ٱلمسلم تربيةً جديدةً، ليسَ فيها ركعةٌ ولا سَجْدة؛ وإلَّا فنحنُ نرى هذه ٱلقُبَّعةَ على رأسِ ٱلزنجيِّ وٱلهمَجيّ، وعلى رأسِ ٱلأبلهِ وٱلمجنون، فما رأيْناها جعلَتِ ٱلأسودَ أبيض، ولا عرفْناها نقلَتْ همجياً عن طبعِه، ولا زعمَ أحدٌ أنَّها أكملَتِ ٱلعقلَ ٱلناقصَ أو ردَّتِ ٱلعقلَ ٱلذاهب، أوِ ٱنقلبَتْ آلةً لِحلِّ مُشكلاتِ ٱلرأسِ ٱلبليد، أو غَصَبَتِ ٱلطبيعةَ شيئاً وقالتْ: هذا لِحاملي دون حاملِ ٱلطربوشِ وٱلعِمامة.

وقدِ ٱحتجُّوا يومئذٍ لِصاحبِ تلك ٱلبِدعةِ أنَّهُ لا يرى ٱلوجهَ إلَّا ٱلمدنيَّة، ولا يعرفُ ٱلمدنيّةَ إلَّا مدنيّة أوربا، فهو يمثِّلُها كما هي في حسناتِها وسيئاتِها، وما يَحِلُّ وما يَحْرُمُ وما يكونُ في حاجةٍ إليهِ وما يكونُ في غِنًى عنه؛ حتى لو أنَّ الأوربيّينَ كانوا عُوراً بٱلطبيعة، لَجعلَ هو قومَهُ عُوراً بِٱلصناعةِ لِيُشبهوا ٱلأوربيّين. نعم إنَّها حُجَّةٌ تامَّةٌ لولا نقصٌ قليلٌ في ٱلبرهان، يُمكنُ تلافيهِ بإخراج طبعةٍ جديدةٍ من كتبِ ٱلفُتوحِ ٱلعثمانيَّة، يظهرُ فيها ٱلخُلفاءُ ٱلعِظامُ وٱلأبطالُ ٱلمغَاويرُ ٱلذين قهروا ٱلأروبيّين لابسينَ قُبَّعاتٍ، لِيُشبهوا ٱلأوربيّين...

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وتهوَّرَ في هذه ٱلضلالةِ رَهْطٌ من قومِنا، وأخذوا يدَّعون إلى التقبُّعِ في مصرَ ٱحتذاءً لِتركيّا، وذهبَ بعضُهم إلى سعدِ باشا (رحمه الله) يطلبُ

(١) نجمت: ظهرت.

رأيَه، فكانَ رأيُهُ (لا) بمدِّ ٱلألف. . . وعهدَ إليَّ بعضُهم أن أسألْ الباشا، فقال:

ويْحَهُم! ألَا يخجلون أنْ نكونَ ـ نحن ٱلمصريين ـ مقلِّدين لِلتقليدِ نفسِه؟ إنَّ هذه بِدْعةٌ تنحطُّ عندَنا درجةً عنِ ٱلأصل، فكأنَّها بِدعتان. ثُمَّ ضحك ٱلباشا وقالَ: كانَ في ٱلقديم رجلٌ سمعَ أنَّ ٱلبصلَ بِٱلخلِّ نافعٌ لِلصفراء، فذهبَ إلى بُستانٍ يملكُهُ وقالَ لِوكيلهِ: ازرعْ لي بصلاً بخلّ. . . هكذا يُريدون منَ ٱلقبعات: أنْ تُخَرِّجَ لهم تُركاً بأوربيّين.

ليسَتْ هذه ٱلقبعةُ في تركيا هيَ ٱلقبعة، بل هي كلمةُ سبٍّ لِلعربِ وردٌّ على ٱلأسلام. ضاقَتْ بِها كلُّ ٱلأساليبِ أنْ تُظهرَها واضحةً بيِّنَة، فلم يَفِ بها إلَّا هذا ٱلأسلوبُ وحْدَهُ. وهي إعلانٌ سياسيٌّ بِٱلمناوأةِ وٱلمخالفةِ وٱلانحرافِ عنَّا وَٱطِّراحِنا. فإنَّ ٱلذي يخرجُ من أُمَّتِهِ لا يخرجُ منها وهو في ثِيابِها وشِعارِها؛ فبهذا انتفحَ لهم بابُ ٱلخروج في ٱلقبعةِ دون غيرِها مِمَّا يجري فيهِ ٱلتقليدُ أو يُبدِعُهُ ٱلابتكار؛ وإلَّا فأيُّ سرٍّ في هذه ٱلقبعات، ومتى كانتِ ٱلأُممُ تُقاسُ بمقاييسِ ٱلخياطين. . . . ؟

هٰهنا سيفٌ أرادَ أنْ يكونَ مِقَصًّا فعملَ أولاً ما يعملُ ٱلحُسامُ ٱلبَتَّار، فأجادَ وأبدعَ وأكبرَهُ ٱلناسُ وأعظموه؛ ثُمَّ صنعَ ما يصنعُ ٱلمِقصُّ، فماذا عساهُ يأتي بِهِ إلَّا ما يُنكرُهُ ٱلأبطالُ وٱلخيَّاطونَ جميعاً؟

أَكُتِبَ علينا أنْ نظلَّ دهرَنا نبحثُ في ٱلتقليدِ الأعمى، وألّا يَحْيا ٱلشرقيُّ إلَّا مستعبَداً ينتظرُ في كلِّ أمورِهِ مَنْ يقولُ لَه: اِشْرَعْ لي. . . ؟ إنْ بحثْنَا فلْنَبْحثْ في زيٍّ جديدٍ نتميَّزُ بِه، فتكونَ ٱلقُوى ٱلكامنةُ فينا وفي طبيعةِ أرضِنا وجوِّنا هيَ ٱلتي ٱخترعَتْ لِظاهرِها ما يجعلُهْ ظاهرَها. كما يُخرِجُ زَوْرُ ٱلأسدِ لِبُدَةَ ٱلأسد. غايةً في ٱلمنفعةِ وٱلجمالِ والمُلاءمَة.

أنا ألبسُ ما شئت، ولكنّي عندَ ٱلسَّعةِ أَجِدُ حدًّا تقفُ إليهِ ذاتيَّتي ٱلفرديَّة، فلا أرى ثَمَّةَ موضعِ ٱنفرادٍ ولكنْ مَوضعَ مُشاكلة، ولا أعرفُ صِفةَ منفعةٍ لي بلْ صِفةَ حقيقةٍ مِنِّي، ويعترضُني من هناكَ ٱلمعنى ٱلذي يَصيرُ بِهِ ٱلنوعُ إلى ٱلجنسِ. وٱلواحدُ بلِ ٱلجماعةُ وما دمْتُ مسلِماً أُصلِّي وأركعُ وأسجد، فٱلقبعةُ نفسُها تقولُ لي: دعني فلسْتُ لك.

وهؤلاءِ ٱلرجالُ ٱلذين لبسوها في مصر، إنَّما ٱشتقُّوها مِنَ ٱلمصدرِ نفسِ

ٱلمصدرِ ٱلذي يَخرجُ منه ٱلهتكُ في ٱلنساء، وكِلاهما مَنزَعٌ مِنَ ٱلمُخالفة، وكِلاهما ضِدٌّ من صِفةٍ ٱجتماعيَّةٍ تقومُ بها فضيلةٌ شرقيَّةٌ عامة. وليسَ يَعدمُ قائلٌ وجهاً مِنَ القولِ في تزيينِ ٱلقبعة، ولا مذهباً مِنَ ٱلرأيِ في ٱلاحتجاجِ لها، غيرَ أنَّ ٱلمذاهبَ ٱلفلسفيَّةَ لا يُعجزُها أنْ تُقيمَ لك ٱلبرهانَ جَدَلًا[1] محضاً على أنَّ حياءَ ٱلمرأةِ وعفَّتَها إنْ هما إلَّا رذيلتانِ في ٱلفنّ... وإنْ هما إلَّا مرضٌ وضعف، وإنْ هما إلَّا كيتَ وكيت، ثُمَّ تنتهي ٱلفلسفةُ إلى عدِّهما مِنَ ٱلبلاهةِ وٱلغفلة، وما ٱلغفلةُ وٱلبلاهةُ إلَّا أنْ تُريدَ فلسفةٌ من فلسفاتِ ٱلدنيا أنْ تُقْحِمَ في كتابِ ٱلصلاةِ مثلاً فصلاً في... في... في ٱلدَّعارة.

لا يهولنَّك[2] ما أُقرِّرُ لك: من أنَّ ٱلقُبَّعةَ ٱلأوربيَّةَ على رأسِ ٱلمسلم ٱلمصريّ، تهتُّكٌ أخلاقيٌّ أو سِياسيٌّ أو دِينيٌّ أو من هذه كلِّها معاً، فإنَّكَ لَتعلَمُ أنَّ ٱلذينَ لبسوها لم يلبسوها إلَّا منذُ قريب، بعدَ أنْ تهتَّكَتِ ٱلأخلاقُ ٱلشرقيَّةُ ٱلكريمةُ وتحلَّلَ أكثرُ عُقَدِها، وبعدَ أنْ قارَبتِ ٱلحريَّةُ ٱلعصريَّةُ بينَ ٱلنقائضِ حتى كادَتْ تختلِطُ ٱلحدودُ ٱللغويَّة؛ فحريَّةُ ٱلمنفعةِ مثلاً تجعلُ ٱلصادقَ وٱلكاذبَ بمعنًى واحد، فلا يُقال: إلَّا أنَّهُ وجدَ منفعتَهُ فصدق، ووجدَ منفعتَهُ فكذب؛ وعندَ ٱلحريَّةِ ٱلعصريَّةِ أنَّهُ ما فرَّق بينَ ٱللفظينِ وجعلَ لِكلٍّ منهما حدوداً إلَّا جهلُ ٱلقدماء، وفضيلةُ ٱلقدماء، ودينُ ٱلقدماء. وهذه ٱلثلاثة: ٱلجهلُ وٱلفضيلةُ وٱلدين، هي أيضاً في ٱلمعجمِ ٱللغويِّ ٱلفلسفيِّ ٱلجديدِ مُترادِفاتٌ لِمعنًى واحد، هوَ ٱلاستعبادُ أوِ ٱلوهمُ أو ٱلخرافة.

ومتى أُزيلتِ ٱلحدودُ بينَ ٱلمعاني، كانَ طبيعيًّا أنْ يلتبسَ شيءٌ بشيءٍ وأنْ يَحلَّ معنًى في موضعِ معنًى غيرِه، وأصبحَ ٱلباطلُ باطلاً بسببٍ وحقًّا بسببٍ آخر، فلا يحكمُ ٱلناسَ إلَّا مجموعةٌ مِنَ ٱلأخلاقِ ٱلمتنافرة، تجعلُ كلَّ حقيقةٍ في ٱلأرضِ شُبْهةً مزوَّرةً عندَ مَنْ لا تكونُ من أهوائِهِ ونزَعاتِهِ، فيحتاجُ ٱلناسُ بالضرورةِ إلى قوَّةٍ تفصِلُ بينَهم فَصْلاً مسلَّحاً، فيُكسِبون ٱلقانونَ بمدنيَّتِهم قوَّةً همجيَّةً تضطرُّهُ أنْ يُعِدَّ لِلوحشيَّةِ ٱلإنسانيَّة، وتدفعُ هذه ٱلوحشيَّةَ أنْ تُعِدَّ له.

ومِن ٱختلاطِ ٱلحدودِ تجيءُ ٱلقبعةُ على رأسِ ٱلمسلم، وما هي إلَّا حدٌّ يطمِسُ حدًّا، وفِكرةٌ تهزمُ فِكرة، ورذيلةٌ تقولُ لِفضيلة: هأنذي قد جِئْتُ فٱذهبي.

---

(١) جدلاً محضاً: نقاشاً خالصاً.

(٢) لا يهولنك: لا يُرعبنك.

ما هو ٱلأكبرُ من شيئينِ لا حدَّ بينَهما لِتعيينِ ٱلصِّغر؛ وما هو ٱلأصغرُ من شيئينِ لا حدَّ بينَهما لِتعيين ٱلكِبَر؟ إنَّها ٱلفوضى كما ترى ما دامَ ٱلحدُّ لا موضعَ لَهُ في ٱلتمييِّزِ ولا مقرَّ لَهُ في ٱلعُرفِ ولا فصلَ بهِ في ٱلعادةِ؛ ومن هنا كانَ ٱلدينُ عندَ أقوامٍ أكبرَ كلماتِ ٱلإنسانيَّةِ في عامَّةِ لغاتِها وأملأَها بٱلمعنى، وكانَ عندَ آخرينَ أصغرَها وأفرغَها مِنَ ٱلمعنى؛ وما كَبُرَ عندَ أولئك إلَّا من أنَّهُ يسعُ ٱلاجتماعَ ٱلإنسانيَّ وهو محدودٌ بغاياتِهِ ٱلعُلْيا، وما صَغُرَ عندَ هؤلاءِ إلَّا بأنَّ ٱلاجتماعَ لا يسعُهُ فلا حدَّ لَه، وكأنَّهُ معنًى مُتوهَّمُ لا وجودَ لَهُ إلَّا في أحرفِ كلمتِه.

فجماعةُ ٱلقبعةِ لا يَرَوْنَ لِأنفسِهم حدًّا يحدونها بهِ من أخلاقِنا أو دينِنا أو شرقيَّتِنا، وقد مَرَقُوا من كلِّ ذلك وأصبحوا لا يَرَوْنَ في زِيِّنا ٱلوطنيِّ ما فيهِ من قوَّةِ ٱلسرِّ ٱلخفيِّ ٱلذي يُلهمُنا ما أودعَهُ ٱلتاريخُ من قوميتِنا ومعاني أسلافِنا.

وأنا أعرفُ أنَّ مِنَّا قوْماً يرى أحدُهم في ظنِّ نفسِهِ أنَّهُ قانونٌ من قوانينِ ٱلتطوّر؛ فهو فيما يُلابِسُهُ لا ينظرُ إلى أنَّهُ واحدٌ مِنَ ٱلناس، بلْ واحدٌ مِنَ ٱلنواميس... ومن هنا ٱلثِّقَلُ وٱلدعوى ٱلفارغةُ، وما هو أكبرُ مِنَ ٱلثقلِ وفراغِ ٱلدعوى. وإنَّه لَحقٌّ أنْ يكونَ بعضُ ٱلناسِ أنبياء، ولكنْ أقبحُ ما في الباطلِ أنْ يظنَّ كلُّ إنسانٍ نفسَهُ نبيًّا.

وٱعلمْ أنَّ كثيراً مِمَّا يُزيِّنونهُ لِلشرقيِّ من رذائلِ ٱلمدنيَّةِ ٱلأوربيَّة، فترى كلاماً تَحتهُ معانٍ ومعانٍ لا يعدُّها غيرُ ٱلجائعِ إلَّا حماقةَ ساعتِها...

سعد زغلول

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: أَلقى إليّ ٱلباشا ذاتَ يوم أنَّ (سعداً) مُصَبِّحُنا زائراً، وكانَتْ بينَ ٱلرجُلينِ خاصةٌ وأسبابٌ وطِيدةٌ[1]. ولِلباشا موقعٌ أعرفُهُ من نفسِ سعدٍ كما أعرفُ ٱلشُّعلةَ في بركانِها؛ أمَّا سعدٌ فكانَ قدِ ٱنتهى إلى ٱلنهايةِ ٱلتي جعلَتْهُ رجلاً في إحدى يديهِ ٱلسِّحرُ وفي ٱلأخرى ٱلمعجزة، فهو من عُظماءِ هذهِ ٱلبلادِ كقاموسِ ٱللغةِ من كلماتِ ٱللغةِ: يُرَدُّ كلُّ مُفْرَدٍ إليهِ في تعريفِه، ولا تصحُّ ٱلكلمةُ عندَ أحدٍ إلَّا إذا كانَتْ فيهِ ٱلشهادةُ على صحتِها.

وجاءَنا سعدٌ غُدْوَةً، فأسرعْتُ إلى تقبيلِ يدِهِ قبلةً لا تُشبِهُها ٱلقُبلات، إذْ مُثِّلَتْ لي من فرحِها كأنَّها كانَتْ منفيَّةً ورجعَتْ إلى وطنِها ٱلعزيزِ حينَ وُضعَتْ على تلك ٱليد.

إنَّ ٱلرجلَ ٱلعظيمَ إذا كانَ بارًّا بأبيهِ عارفاً قدرَهُ مُدرِكاً عظمتَه، يشعرُ حينَ يُقبِّلُ يدَ أبيهِ كأنَّهُ يسجدُ بروحِهِ سجدةً لِلَّهِ على تلك ٱليدِ ٱلتي يُقبِّلُها، ويجدُ في نفسِهِ ٱتصالاً كهربائيًّا بين قلبِهِ وبينَ سرِّ وجودِه، ويَخُصُّهُ ٱلعالَمُ بلمسةٍ كأنَّ قُبلتَهُ نبضَتْ في ٱلكون: وكلُّ هذا قد أحسسْتُهُ أنا في تقبيلي يدَ سعد، وزِدْتُ عليهِ شعوري بمثلِ ٱلمعنى ٱلذي يكونُ في نفسِ ٱلبطلِ حينَ يُقبِّلُ سيفَهُ ٱلمنتصِر.

وضحكَ لي سعد باشا ضحكتَهُ ٱلمعروفة، ٱلتي يبدأُها فمُه، وتُتِمُّها عيناه، ويشرحُها وجهُهُ كلُّه، فتَجِدُ جوابَها في روحِكَ كأنَّهُ في روحِكَ ألقاها.

وٱلرجلُ مِنَ الناسِ إذا نظرَ إلى سعدٍ وهو يبتسّم، رأى لَهُ ٱبتسامةً كأنَّها كمالٌ يتواضع، فيُحسُّ كأنَّ شيئاً غيرَ طبيعيٍّ يتَّصلَ منه بشيءٍ طبيعيّ، فينتعشُ ويَثِبُ في وجودِهِ ٱلروحيِّ وثبةً عاليةً تكونُ فرَحاً أو طرَباً أو إعجاباً أو خُشوعاً أو كلَّها معاً. غيرَ أنَّ ٱلرجلَ مِنَ ٱلحُكماءِ إذا تأملَ وجهَ سعدٍ، وهو يضحكُ ضحكتَهُ ٱلمطمئنَّةَ ٱلمتمكِّنةَ من معناها ٱلمقرِّ أوِ ٱلمنكِرِ أوِ ٱلساخِرِ أو أيِّ ٱلمعاني ـ حسِبَ نفسَهُ يرى

---

(١) أسباب وطيدة: علائق ووشائج قوية.

شكلاً مِنَ ٱلقولِ لا مِنَ ٱلضحك، وظهرَتْ لَهُ تلك ٱلابتسامةُ ٱلفلسفيَّةُ متكلِّمةً، كأنَّها مرةً تقول: هذا حقيقيّ. ومرّةً تقول: هذا غيرُ حقيقيّ.

إنَّ سعداً ٱلعظيمَ كانَ رجلاً ما نظرَ إليهِ وطنيٌّ بعينٍ فيها دلائلُ أحلامِها، كأنَّما هو شخصُ فكرةٍ لا شخصُ إنسان؛ فإذا أنت رأيتَهُ كانَ في فِكْرِك قبلَ أنْ يكونَ في نظرِك؛ فأنت تَشهدُهُ بنظرين: أحدهُما ٱلذي تُبصِرُ بِه، والآخرُ ذاك ٱلذي تُؤْمِنُ بِه.

عبقريٌّ كالجمرةِ ٱلملتهبةِ لا تحسبُهُ يعيشُ بلْ يحترقُ ويُحرق؛ ثائرٌ كَٱلزلزلةِ فهو أبداً يرتجُّ وهو أبداً يَرُجُّ ما حولَه؛ صريحٌ كَصراحةِ ٱلرُّسُل، تلك ٱلتي معناها أنَّ ٱلأخلاقَ تقولُ كلمتَها.

رجلُ ٱلشعبِ ٱلذي يُحِسُّ كلُّ مِصريٍّ أنَّهُ يملكُ فيهِ مِلكاً مِنَ ٱلمجد. وقد بلغَ في بعضِ مواقفِهِ مبلغَ ٱلشريعة، فٱستطاعَ أنْ يقولَ لِلناس: ضعوا هذا ٱلمعنى في ٱلحياة، وٱنزِعوا هذا ٱلمعنى مِنَ ٱلحياة.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وٱنقضتِ ٱلزيارةُ وخرجَ سعدٌ وٱلباشا إلى يسارِهِ، فلمَّا رجعَ من وداعِهِ قالَ لي: ـ واللهِ ـ يا بُنيَّ لكأنَّما زادَ هذا الرجلُ في ألقابِ ٱلدولةِ لقباً جديداً، ثُمَّ ضحكَ وقال: أتدري ما هو هذا ٱللقب؟ قلْت: فما هو يا باشا؟

قال: ـ واللهِ ـ يا بُنيَّ ما من (باشا) في هذه ٱلدولةِ يكونُ إلى جانبِ سعد، إلَّا وهو يشعرُ أنَّ رتبتَهُ (نصف باشا)...

هذا رجلٌ قد بلغَ مِنَ ٱلعظمةِ مبلغاً تَصاغرَ معهُ ٱلكبير، وتضاءَلَ ٱلعظيم، وتقاصَر ٱلشامخ؛ نعم وحتى تركَ أقواماً من خصومِهِ ٱلعظماء، كفلانٍ وفلان، وإنَّ ٱلواحدَ منهم لَيلوحُ لِلشعبِ من فراغِهِ وضعفِهِ وتَطَرُّحِهِ، كأنَّهُ ظِلُّ رجلٍ لا رجل.

وقد أصبحَ قوةً عاملةً لا بدَّ من فعلِها في كلِّ حيٍّ تحتَ هذا ٱلأفقِ، حتى كأنَّ معانيَ نفسِهِ ٱلكبيرةِ تنتشرُ في ٱلهواءِ على ٱلناس، فهو قوَّةٌ مرسَلةٌ لا تُمسَك، ماضيةٌ لا تُردّ، مقدورةٌ لا يُحتالُ لها بحيلة.

هذا وضْعٌ إلهيٌّ خاصٌّ لا يُشبهُهُ أحدٌ في هذه ٱلأُمَّة، كمَيدانِ ٱلحربِ لا تُشبهُهُ ٱلأمكنةُ ٱلأخرى؛ فقد غامَرَ سعدٌ في ٱلثورةِ ٱلعُرابيَّةِ وخرجَ منها، ولكنَّها هي لم تخرجْ منه، بلْ بقيَتْ فيه؛ بقيَتْ فيه تتعلَّمُ ٱلقانونَ وٱلسياسةَ، وتُصلِحُ أغلاطَها، ثُمَّ ظَهرَتْ منه في شكلِها ٱلقانونيِّ ٱلدقيق. وبهذا تراهُ يَغْمُرُ ٱلرجالَ مهما كانوا أذكياء؛

لِأنَّ فيهِ ماليسَ فيهم، وتراهم يظهرون إلى جانبِهِ أشياءَ ثابتةً في معانيها، أمَّا هو فتراهُ من جميعِ نواحيهِ يتلاطمُ كالأمواجِ ٱلعاتية.

وتلك ٱلثورةُ هي ٱلتي تتكلمُ في فمِهِ أحياناً فتجعلُ لِبعضِ كلماتِهِ قوَّةً كقوَّةِ ٱلنصرِ، وشهرةً كشهرةِ موقعةٍ حربيَّةٍ مذكورة.

ولمَّا كانَ هو ٱلمختارَ لِيكونَ أباً لِلثورة ـ حرمَتْهُ ٱلقدرةُ ٱلإلهيَّةُ ٱلنسلَ، وصرفَتْ نزعةَ ٱلأبوَّةِ فيهِ إلى أعمالِهِ ٱلتاريخيَّة، ففيها عِنايتُهُ وقلبُهُ وهمومُهُ، وهي نسلٌ حيٌّ من روحِهِ ٱلعظيمة، ويكادُ معها يكونُ أسداً يزأرُ حولَ أشبالِهِ. ولنْ يُذكَرَ ٱلسياسيُّون ٱلمِصريُّون مع سعد، ولنْ يُذكرَ سعدٌ نفسُهُ إذا ٱنقلبَ سِياسيًّا، فإنَّ ٱلمكانَ ٱلخاليَ في ٱلطبيعةِ ٱلآنَ هو مكانُ رجلِ ٱلمقاومةِ لا رجلِ ٱلسياسة، وهذا هو ٱلسببُ في أنَّ سعداً يُشْعِرُ ٱلأُمَّةَ بوجودِهِ لذةً كلذةِ ٱلفوْزِ وٱلانتصار، وإنْ لم يفزْ بشيءٍ ولم ينتصرْ على شيء؛ فٱطمئنانُ ٱلشعبِ إلى زعيمِ ٱلمقاومة، هو بطبيعتِهِ كٱطمئنانِ حاملِ ٱلسلاحِ إلى سِلاحِهِ.

وسعدٌ وحدَهُ هوَ ٱلذي أفلحَ في أنْ يكونَ أستاذَ ٱلمقاومةِ لِهذهِ ٱلأُمَّة؛ فنسخَ قوانينَ، وأوجَد قوانين، وحملَ ٱلشعبَ على ٱلإعجابِ بأعمالِهِ ٱلعظيمة، فنبَّهَ فيهِ قوَّةَ ٱلإحساسِ بالعظمةِ فجعلَهُ عظيماً، وصرفَهُ بٱلمعاني ٱلكبيرةِ عنِ ٱلصغائر، فدفَعهُ إلى طريقِ مستقبلِهِ يُبدعُ إبداعَهُ فيه.

إنَّ هذا ٱلشرقَ لا يحيا بِٱلسياسةِ ولكنْ بالمقاومةِ وما دامَ ذلك ٱلغربُ بإزائهِ؛ وٱلفريسةُ لا تتخلَّصُ مِنَ ٱلحلْقِ ٱلوحشيِّ إلَّا بِٱعتراضِ عِظامها ٱلصلبةِ ٱلقويَّةِ في هذا ٱلحَلْق.

وكم في ٱلشرقِ من سياسيٍّ كبيرٍ يجعلونَهُ وزيراً، فتكونَ ٱلوظيفةُ هي الوزيرَ لا نفسُ ٱلوزير، حتى لو خلعوا ثِيابَهُ على خشبةٍ ونصَّبوها في كرسيه، لكانَتْ أكثرَ نفعاً منهُ لِلأُمَّة، بأنَّها أقلُّ شرًّا منه...

يا بُنيّ، كلُّ ٱلناسِ يرضَونَ أنْ يتمتَّعوا بالمالِ وٱلجاهِ وٱلسيادةِ وٱلحكم، فليسَتْ هذه هي مسألةَ ٱلشرق، ولكنَّ ٱلمسألة: مَن هو ٱلنبيُّ ٱلسياسيُّ ٱلذي يرضى أنْ يُصْلَب...؟

حماسةُ ٱلشعب

وحدَّثَني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: لَمَّا رجعَ سعد باشا من أوربا في سنة ١٩٢١، كانَتِ ٱلأُمَّةُ في ٱستقبالِهِ كأنَّها طائرٌ مدَّ جناحيه، لا خِلافَ لِشيىءٍ منه على شيىءٍ منه، بلْ كلُّهُ هو كلّه؛ وكانَتِ ٱلمعارضَةُ في ٱلاستحالةِ يومئذٍ كٱستحالةِ وجودِ رُقعةٍ في ريشِ ٱلطائر.

على أنَّ ثوبَ ٱلسياسةِ ٱلمصريَّةِ كثيرُ ٱلرُّقع دائماً بٱلجديدِ وٱلخَلَقِ[1]، فرقعةٌ مِنَ ٱلمعارضين، وأخرى مِنَ ٱلمتعنّتين[2]، وثالثةٌ منَ ٱلمتخاذلينَ[3]، ورابعةٌ منَ ٱلمعادين، وخامسةٌ وسادسةٌ وسابعةٌ مِنَ ٱلحاسدينَ وٱلمنافسينَ وٱلمختلفين لِشهوةِ ٱلخِلاف؛ ورِقاعٌ بعدَ ذلِك مِمَّا نعلمُ وما لا نعلم، فإنَّ مِنَ ٱلعجيبِ أنَّ هذا ٱلجوَّ ٱلذي لا يتقلَّبُ إلَّا بطيئاً، يتقلَّبُ أهلُهُ بِسُرْعَة؛ وهذهِ ٱلطبيعةُ ٱلتي لا تكادُ تختلف، لا يكادُ أهلُها يتَّفقون.

ولكنَّ سعداً (رحمَهُ ٱلله) رجعَ مِنَ أوربا رجعةَ ٱلكرامةِ لِأُمةٍ كاملة، ففازَ بأنَّهُ لم يخسرْ شيئاً مِنَ ٱلحقّ، وٱنتصرَ بأنَّهُ لم يُهزم، ودلَّ على ثباتِهِ بأنَّهُ لم يتزعزع، وذهبَ صَولةً ورجعَ صَولةً وعزيمة؛ فكانَ إيمانُ ٱلشعبِ هوَ ٱلذي يتلقَّاه، وكانَتِ ٱلثورةُ هيَ ٱلتي تحتفِلُ به، وبطلتِ ٱلعللُ كُلها فلم يجدِ ٱلاعتراضُ شيئاً يعترضُ عليه، وٱتَّفقتِ ٱلأسبابُ فٱجتمعتِ ٱلكلمة، وظهرَ سعدٌ كأنَّهُ روحُ ٱلأُمَّةِ متمثِّلاً في قُدْرة، حاكماً بقوَّة، متسلِّطاً بيقين.

نعمْ لم ينتصرِ ٱلبطلُ، ولكنَّ ٱلأُمَّةَ ٱحتفتْ بِهِ لأنَّهُ يمثِّلُ فيها كمالاً من نوعٍ آخرَ هو سرُّ ٱلانتصار؛ فكانَتْ حماسةُ ٱلشعبِ في ذلك ٱليوم حماسةَ ٱلمبدأِ ٱلمتمكِّن: يُظهرُ شجاعَةَ ٱلحياة، وفَوْرةَ ٱلعزائم، وفضيلةَ ٱلإخلاص، وشدَّةَ ٱلصوْلة، وعِنادَ ٱلتصميم؛ ويُثبتُ بقوَّةِ ظاهرِهِ قوةَ باطنِهِ، وكانَ فرحُ ٱلأُمَّةِ عِناداً

---

(١) الخلق، بالفتح: البالي.

(٢) المتعنتين: المتشددين.

(٣) المتخاذلين: المنهزمين.

سياسيًّا يفرحُ بأنَّهُ لا يزالُ قويًّا لم يَضعف، وكانَ ٱبتهاجُها مجداً يُشعرُ بأنَّهُ لا يزالُ وافراً لم يُنْتَقَص، وكانَ ٱلإجتماعُ ردًّا على ٱليأس، وكَانَتِ ٱلحماسةُ ردًّا على ٱلضعف.

اِنبعَثتْ صولةُ ٱلحياةِ في ٱلشعبِ كلِّه، وٱبتدأَ ٱلمستقبلُ من يومئِذ، فلو نزلَتِ ٱلملائكةُ مِنَ ٱلسماءِ في سحابةٍ مُجلْجِلةٍ[1] يسمَعُ تسبيحَهُمْ لِيُؤيِّدوا سعداً ـ لَماَ زادوه شيئاً؛ فقد كانَ محلُّهُ مِنَ ٱلقلوبِ كأنَّهُ ٱلعقيدة، وكانَ ٱلتصديقُ مبذولاً لَهُ كأنَّهُ ٱلكلمةُ ٱلأخيرة، وكانَتِ ٱلطاعةُ موقوفةً عليهِ كأنَّهُ ٱلباعثُ ٱلطبيعيّ، وكانَ ٱلبطلُ في كلِّ ذلك يُشبِهُ نبيًّا من قِبَلِ أنَّ كلّاً منهما صورةٌ كاملةٌ لِلسموِّ في أفكارِ أُمَّة.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: ورجعَ ٱلباشا مِنَ ٱلقاهرةِ وقد رأى ما رأى من مسامحةِ ٱلنفوس، وصِحَّةِ ٱلعهْد، وٱجتماعِ ٱلكلمة، وإعدادِ ٱلشعبِ لِلمِراسِ وٱلمُعاناة، فقال:

تَاللهِ لقد أَثبتَ (سعدٌ) لِلدنيا كلِّها أنَّ مِصرَ ٱلجبارَةَ متى شاءَتْ بَنتِ ٱلرجالَ على طريقةِ ٱلهرمِ ٱلأكبرِ في ٱلعظمةِ وٱلشهرةِ وٱلمنزلةِ وٱلقوَّة. ولقد صنعَ هذا ٱلرجلُ ٱلعظيمُ ما تَصنَعُ حربٌ كبيرة، فجمعَ ٱلأُمَّةَ كلَّها على معنًى واحدٍ لا يتناقض، ودفَعَها بروحٍ قوميَّةٍ واحدةٍ لا تختلف، وجعلَ عِرْقَ ٱلسياسةِ يفورُ كما يفورُ ٱلعِرْقُ ٱلمجروحُ بِٱلدم.

إنَّ هذه ٱلأُمَّةَ بينَ شيئينِ لا ثالثَ بينهما: إمَّا ٱلحزْمُ إلى ٱلآخرِ وإمَّا ٱلإضاعة. ولا حزْمَ إلَّا أنْ يبقى ٱلشعبُ كما ظهرَ ٱليوم: طُوفاناً حيًّا، مُسْتَوِيَ ٱلطبيعة، مندفعَ ٱلحركةِ، غامِراً كلَّ ما يعترضُه، إلى أنْ يُقضَى ٱلأمرُ ويقولَ أعداؤُنا: يا سماءُ أقلعي.

هكذا يعملُ ٱلوطنُ معَ أهلِهِ كأنَّهُ شخصٌ حيٌّ بينَهم، حينَ يستوي ٱلجميعُ في ٱلثقة، ويتآزرُ ٱلجميعُ في ٱلأمل، ويشترِكُ ٱلجميعُ في ٱلعطفِ ٱلروحيِّ، ولا يبقى لِجماعةٍ منهم حظٌّ في رغبةٍ غيرِ ٱلرغبةِ ٱلواحدةِ لِلجميع؛ وهكذا يعملُ ٱلوطنُ بأهلِهِ حينَ يعملُ معَ أهلِه.

كانَ أعداؤُنا يحسبوننا ذُباباً سياسيًّا لا شأنَ لَهُ إلَّا بفضَلاتِ ٱلسياسة، ولا عملَ

---

(١) مجلجلة: مدوّية.

لهُ في أزهارِها وأثمارِها وعِطْرِها وحَلواها؛ فأسمعَهُمُ ٱلشعبُ ٱليومَ طنينَ ٱلنحل، وأراهم إبَرَ ٱلنحل، لِيعلموا أنَّ ٱلأزهارَ وٱلأثمارَ وٱلعِطْرَ وٱلحلوى هي لَهُ بالطبيعة.

وكانوا يتخرّصون[1] أنَّ مذهبَنا في ٱلحياةِ لِمصلحةِ ٱلمعاشِ فقط، وأنَّ ٱلمِصريَّ، حاكماً أو محكوماً، لا يَمدُّ آمالَهُ ٱلوطنيَّةَ إلى أبعدَ من مدَّةِ عمرِهِ سبعينَ أو ثمانينَ سنة، فإذا أطلقوا أيدِيَنا في حاضرِ ٱلأُمَّةِ أطلقْنا أيديَهم في مستقبلِها. ومن ثَمَّ طمِعوا أنْ يكونَ ٱلحقُّ ٱلناقصُ في نفسِهِ حقًّا تامًّا في أنفسِنا لِهذه ٱلعِلَّة؛ وحسِبُوا أنَّ ٱلسياسيَّ ٱلمصريَّ لا يتجرأُ أنْ يقولَ ما يقولُهُ ٱلسياسيُّ ٱلأوربيُّ: من أنَّهُ لا يخشى ٱلموتَ ولكنَّهُ يخشى ٱلعَارَ. فإنَّهُ إذا ماتَ وحدَهُ، وإذا جلبَ ٱلعارَ جلبَهُ على نفسِهِ وعلى أمتِهِ وعلى تاريخِ أُمَّتِهِ، بيْدَ أنَّ سعداً قالَها؛ وفي مثلِ هذا يكونُ قولُ (لا) معركة.

وها هي ذي معركةُ ٱليومِ ٱلتاريخيَّة، فإنَّ ٱلذرَّاتِ ٱلحيَّةَ ٱلتي تُخلَقُ من دِمائِنا ـ نحن ٱلمصريينَ ـ قد ثارَتْ في هذه ٱلدماء، في هذا ٱلنهار، تُعلِنُ أنَّها لا ترضى أنْ تولَدَ مقيَّدةً بقيود.

أتدري ماذا عرضوا على سعد؟ إنَّهم عرضوا عليهِ ما يُشبهُ في ٱلسخريةِ طاحونةً تامَّةَ ٱلأدواتِ وٱلآلاتِ من آخرِ طراز، ثُمَّ لا تُقدِّمُ لها إلَّا حبةُ قمحٍ واحدةٍ لِتطحنَها. . . . نتيجةٌ تسخرُ من أسبابِها، وأسبابٌ تهزأُ بِٱلنتيجة.

إنَّ أوربا لا تحترمُ إلا مَنْ يحملُها على ٱحترامِه، فما أرى لِلسياسيينَ في هذا ٱلشرْقِ عملاً أفضلَ ولا أقوى ولا أردَّ بِٱلفائدةِ من إحياءِ ٱلحماسةِ ٱلدائمةِ ٱلقويَّةِ ٱلبصيرةِ، هي قوةُ ٱلرفضِ لِمَا يجبُ أنْ يُرفَض، وقوةُ التأييدِ، لِمَا يجبُ أنْ يُقبلَ، وهي بعدَ ذلكَ وسيلةُ جمعِ ٱلأمرِ، وإحكامِ ٱلشأن، وإقرارِ ٱلعزيمةِ في ٱلأَخلاق، وتربيةِ ٱلثقةِ بِٱلنفس، وبها يكونُ إذكاءُ ٱلحِسِّ وتعويدُهُ إدراكَ ٱلأعمالِ ٱلعظيمة، وٱلتحمسَ لها، وٱلبذلَ فيها.

وما عِلَّةُ ٱلعِلَلِ فينا إلَّا ضعفُ ٱلحماسةِ ٱلشعبيَّةِ في ٱلشرق، وسوءُ تدبيرِها، وقبحُ سياستِها؛ وإنَّا لَنَأخُذُ عنِ ٱلأوربيِّينَ من نِظامِهم وأساليبِهم وسياستِهم وعلومِهم وفنونِهم؛ فنأخذُ كلَّ ذلكَ بروحِنا ٱلفاترةِ في خمولٍ وإهمالٍ وتواكُلٍ وتَفرُّدٍ بِٱلمصلحةِ وٱستبدادٍ بِٱلرأي، فإذا دينارُهم في أيدينا درهم، وإذا نحن وإيَّاهم في ٱلشيءِ الواحدِ كَٱلنحلةِ وٱلذبابةِ على زهرة. . .

(١) يتخرّصون: يتقوّلون.

ليسَتْ لِنا حماسةُ ٱلحياة، وبهذا تختلفُ أعمالُنا وأعمالُهم، وذلك هوَ ٱلسرُّ أيضاً في أنْ أكثرَ حماستِنا كلاميةٌ مَحْضةٌ؛ إذْ يكونُ ٱلصُّراخُ وٱلصِّياحُ وٱلتَّشدُّقُ[1] ونحوُها من هذه ٱلمظاهرِ ٱلفارغة ـ تنقيحاً لِلطبيعةِ ٱلساكنةِ فينا، وتنويعاً منها بغيرِ أنْ نَجهدَ في ٱلتنقيحِ وٱلتنويع. ومن هذا كانَتْ لنا أنواعٌ مِنَ ٱلكلام ينطلِقُ ٱللسانُ فيها لِلخروجِ مِنَ ٱلصمتِ لا غير... ومنه كثيرٌ من هذا ٱلهُراءِ ٱلسياسيِّ ٱلذي يدورُ في ٱلمجالسِ وٱلأحزابِ وٱلصحف.

إنَّ حماسةَ ٱلشعبِ لا تكونُ على أعدائِهِ فقط؛ بل على معايِبهِ أيضاً، وعلى ضَعفِهِ بخاصَّة، وٱلشعبُ ٱلفاترُ في حماستِهِ لو نالَ حقينِ مغصوبين لَعادَ فخَسِرَ أحدَهما أو كليهما، أمَّا ٱلشعبُ ٱلمتحمسُ ٱلقويُّ في حماستِه، فلو غُصِبَ حقينِ ونالَ أحدَهما لَعادَ فٱبْتَزَّ[2] الآخر.

(١) التشدُّق: التصنُّع في الكلام والتقعر فيه.

(٢) ابتزّ: استحوذ: وأخذ بقوّة.

الجمهور

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: كانَ من بعضِ عملي في ٱلحكومةِ سنة ١٩٢٢ أنْ أُراقِبَ ٱلحركاتِ وٱلسكناتِ، وأبثَّ ٱلعيونَ وٱلأَرْصادَ، وأعرِفَ ٱلمضطَرِب وٱلمنقلبَ في أيَّامِ ٱلفتنِ ونوازِلِ ٱلمِحْنةِ، محافظةً على ٱلأمن، ومُبادَرةً لِمَا يُتوقَّع؛ فكنْتُ كٱلمرصَدِ اٱلمهيَّإِ بآلاتِهِ لِتدوينِ حركاتِ ٱلزلازل.

وٱنتهى إلينا يوماً أنْ راجفةً منَ هذه ٱلزلازلِ سترجُفْ بفلانٍ من أهلِ ٱلرأْيِ ٱلحرّ؛ ٱلذي يَستقِلُّ ولا يُتابعُ، وينتقِدُ ولا يُحابي، ويُصرِّحُ ولَا يُجَمْجِمُ[1]، وأنَّ قوْماً ثوَّروا عليهِ ٱلغُبَارَ الآدميَّ مِنَ ٱلعَامَّة، وأنَّهم يتحيَّنون ٱلوقتَ لِتوجيهِ ٱلمكيدةِ لَهُ في شكلِها ٱلمفترسِ من هذا ٱلجمهورِ ٱلناقم.

أمَّا فلانٌ هذا فرجلٌ سِياسيٌّ عنيدٌ أضاعَ ٱلحقَّ كلَّهُ لأنَّهُ لا يرضى بنصفِ ٱلحقّ... وكلمتُهُ في ٱلسياسةِ كأنَّما تُلقَى على لِسانِهِ مِنَ ٱلغيب؛ فلا يتحوَّلُ عنها ولا يملكُ أنْ يتكلَّمَ إلَّا بما يتكلَّم؛ وقد ذهبَ بصوتِهِ أنَّهُ في قوم لا يسمعون إلَّا ما أردوا، فهو بينَهم كَٱلحقِّ ٱلمغلوب: لا يموتُ لأنَّهُ غيرُ باطل، ثُمَّ لا يحيا لِأَنَّهُ لا ينتصر. وقد كانَ رجلاً كٱلمِصباحِ ٱلوهَّاج[2] فألقَوْا عليهِ ٱلغِطاء، فإذا هو في طبيعتهِ ويبدو لِلناس بغيرِ طبيعتِه، وتركَهُ رأيُهُ ٱلحرُّ ٱلصريحُ كٱلنبيِّ ٱلمكذَّبِ يَرُدُّ صِدقُه؛ لا لِأَنَّهُ غيرُ صدْق، ولكنْ لأنَّهُ غيرُ مستطاعٍ، أو غيرُ ملائم.

ومن آفاتِنا ـ نحن ٱلشرقيين ـ أنَّنا نستمرىءُ ٱلعداوَة، وننقادُ لِأسبابها، ونتطَاوعُ لها تطاوُعَ ٱلصِّغارِ بأنفسِهِم لِمَا في أنفسِهم؛ كأنَّ ٱلمستبدين ٱلذين كانوا في تاريخِنا قدِ ٱنتقلوا إلى طَبائِعنا؛ فَرَدُّ ٱلفكرِ على ٱلفكرِ في مناقشةٍ تَجري بينَنا ـ لا يكونُ من دَفْعِ ٱلحقيقةِ لِلحقيقة، ولكنْ من ردِّ ٱلاستبدادِ على ٱلاستبداد، ومن توثُّبِ ٱلطغيانِ على ٱلطغيان؛ فهوَ ٱلثَّلْبُ[3]؛ وٱلطعنُ وٱلتجريح، وهو ٱلجَفْوةُ وٱلخصومةُ

---

(١) يُجمجم: يتكلم في داخله بما لا يفُهم.

(٢) الوهّاج: الوضّاء.

(٣) الثلب: التجريح بسيّىء الكلام.

وٱللَّدَد، وهو ٱلمنازعةُ وٱلعُنفُ وٱلتَّحامل؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوط. وٱلجِدالُ بينَ ٱلعُقلاءِ يبعثُ ٱلفكرَ فينتهي إلى ٱلحقّ، ولكنَّهُ فينا نحن يَهيجُ ٱلخُلقُ فينتهي إلى ٱلشرّ، وٱلردُّ على عظيم منَّا كأنَّهُ يردُّ على منزلتِهِ في ٱلرأي، وكشفُ ٱلخطأ عندَنا تعييرٌ بِٱلخطأ لا تبصيرٌ بِٱلصواب، وٱسْتِلابُ[1] ٱلحُجَّةِ من صاحبِها وإفسادُها عليهِ كٱستلابِ ٱلملكِ من مالكِهِ وطردِهِ منه... ومن ثَمَّ كان ٱلدفاعُ بِٱلمكابرةِ أصلاً من أصولِ ٱلطبيعةِ فينا، وكانَ ٱلاضطهادُ حُجَّةً لِلحُجةِ ٱلعاجزة، وكانَ ٱلإعناتُ[2] دليلاً لِلدليلِ ٱلذي لا ينهضُ بنفسِهِ،و ومتى ٱعتبَرَ كلُّ إنسانٍ نفسَهُ إمبراطوراً على ٱلحقّ... فلا جَرَمَ لا تَردُ كلمةٌ على كلمةٍ إلَّا بحرب.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وكَبُرَ ٱلأمرُ على الباشا، فجمعَ رُؤُوسَ ٱلمؤتمرينَ بذلك ٱلرجلِ ٱلحرّ، وأخذَ يقلِّبُهم تقليبَهُ بينَ ٱلتودُّدِ وٱلملاطفة، وقالَ لهم فيما قال: إنَّ فضيلةَ ٱلجمهورِ هي ٱلتي تضمنُ تربيةَ ٱلفضيلةِ وحفظَها وغَلَبَتَها على ٱلرذائل، وإنَّ كلَّ صحيحٍ يكونُ فاسداً إذا لم يكنِ ٱلجمهورُ صحيحاً، وإنَّ غيرَ ٱلعقلاءِ همُ ٱلذين يقبلون ٱلحقيقةَ في يوم ثم يرفضونَها هي ذاتَها في يومٍ آخر، فإنْ ذَهَبْتَ تُجادِلُهم وتحتجُّ عليهم بأنَّهم قبلُوها ـ قالوا: هذا كانَ أمسِ... فكأنَّما ٱلفاصلُ بين زمنينِ يجعلُ ٱلشيءَ ٱلواحدَ ضِدَّين.

ثُمَّ سألَهم: ما هو ذنبُ ٱلرجل؟ فقالَ منهم قائل: إنَّهُ خارجٌ علينا في ٱلرأي. فقالَ ٱلباشا: إنَّ ٱلمعنى في أنَّهُ يُخالِفُكم هو أنَّكم أنتم تُخالفونه؛ فقد تكافأتِ ٱلناحيتان، وخلافٌ بخلاف؛ فما الذي جعلَ حقَّ ردِّهِ عنِ ٱلرأي دونَ أنْ يكونَ لَهُ مثلُ هذا الحقِّ في رَدِّكُمْ أنتم؟

قالوا: إنَّنا ٱلكثرة. قالَ ٱلباشا: يا أصدقائي، إنَّ خوفَ ٱلكثرةِ من رأي فرْدٍ أو أفرادٍ هو أسوأُ ٱلمعنَيَينِ في تفسيرِ رأيِها هي؛ وعشرةُ جنيهاتٍ لا تعبأُ بِٱلجنيهِ ٱلواحد، فإنَّها تستغرِقُهُ؛ بَيْدَ أنَّ هذه ليسَتْ حالَ عشرةِ قروشٍ يا أصدقائي...

نعمْ إنَّ قطْعَ ٱلخِلافِ ضرورةٌ من ضروراتِ ٱلوطنيَّة، ولكنْ إذا كانَ ٱلأمرُ في ظَاهرِهِ وباطنِهِ كٱلخِلافِ في أيّهما أطولُ: ٱلعَصا أوِ ٱلمئذنة...؟ فذلك جِدالٌ محسومٌ من نفسِهِ بِلا جدالَ.

---

(١) استلاب: سرقة.

(٢) الإعنات: الاتعاب.

إنَّ أساسَ ٱنخذالِنا[1] ـ نحن ٱلشرقيين ـ في قلوبِنا، إذْ لا نعتبرُ ٱلمعانيَ ٱلعامَّةَ إلَّا من جِهةِ أنَّها قائمةٌ بٱلرجال، ثُمَّ نعتبرُ ٱلرجالَ إلَّا من ناحيةِ ما في أنفسِنا منهم، ثُمَّ لا نعتبرُ أنفسَنا إلَّا من جِهةِ ما يُرضينا أو يُغضبُنا، وقد لا يُغضبُنا إلَّا ٱلحقُّ وٱلجِدُّ، وقد لا يُرضينا إلَّا ٱلباطلُ وٱلتهاون، ولكنَّا لا نُبالي إلَّا ما نَرضى وما نغضَب.

لسْتُم أحراراً في أنْ تجعلوا غيرَكم غيرَ حرّ، فإنْ يكُنِ ٱلرأيُ الذي يُعارضُكم رأيًا حقًّا وتركتُم مُنابذَتَهُ[2] فقد نصرتُمُ ٱلحقّ؛ وإنْ يكنْ باطلاً فإظهارُهُ باطِلاً هو بُرهانُ ٱلحقِّ ٱلذي أنتم عليه؛ ولن تُجرِّدوا[3] أحداً من ٱختيارِ ٱلرأي إلَّا إذا تَجرَّدتُمْ أنتم منِ ٱختيار ٱلعدل، فإنْ فعلتُمْ فهذه كبرياءُ ظالمةٌ، تدَّعي أنَّها ٱلحق، ثُمَّ تَدَّعي لِنفسِها حُكْمَهُ، فقد كذَبَتْ مرتين.

إسمعوا أيُّها ٱلسادة: قامَتْ بين ٱثنينِ من فلاسفةِ ٱلرأي مناظرةٌ في صحيفةٍ مِنَ ٱلصحف، وتسَاجَلا[4] في مقالاتٍ عِدّة، فلمَّا عجزَ أضعفُهما حُجَّةً وكَعَمَهُ[5] ٱلجدال، كتبَ مقالتَهُ ٱلأخيرةَ فجاءَتْ سقيمةً، فلم تُرضِهِ فبيَّتَها ونامَ عنها على أنْ يَرسلَها مِنَ ٱلغَداةِ بعدَ أنْ يُردِّدَ نظرَهُ فيها ويُصحِّحَ آراءَهُ بِٱلحُجَجِ ٱلتي يُفتحُ بها عليه. قالوا: فلمَّا نامَ تمثَّلَتْ لَهُ ٱلمقالةُ في أحلامِهِ جِسْماً حيًّا موهوناً مترضِضاً[6]، مخلوعاً من هنا مكسوراً من هناك، مجروحاً مِمَّا بينهما؛ ثُمَّ كلَّمَتْهُ فقالَتْ لَه: ويحكَ أيُّها ٱلأبله! إنْ أردْتَ أنْ تغلبَ صاحبَكَ وتُسكِتَهُ عنك، فٱحمِلْ مقالَتَك إلى رأسهِ في ٱلعصا لا في ٱلجريدة. . .

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وضحكَ ٱلقومُ جميعاً، وأذعنوا[7] وٱنصرفوا مقتنعين، قد خَلُصَتْ دِخلتُهُمْ لِذلكَ ٱلرجلِ ٱلحرِّ وتنصَّلوا[8] من جريمةٍ كانَتْ في أيديهم، وما

---

(١) انخذالنا: انهزامنا.

(٢) منابذته: مخالفته ومجادلته.

(٣) تجرّدوا: تعرّوا.

(٤) تساجلا: تحاورا وتجادلا وتارة يربح هذا وتارة أخرى يربح ذاك.

(٥) كعم: شدّ فاه لئلا يعضّ أو يأكل وهو يقصد أسكته.

(٦) مترضضاً: مصاباً بالرضوض في جسمه.

(٧) أذعنوا: خضعوا.

(٨) تنصّلوا: تبرّأوا.

جاءَ ٱلباشا بمُعْجزٍ مِنَ ٱلقول، ولكنَّ تصويرَهُ لِلمسألةِ كانَ حلّاً لها في نفوسِهم. فلمَّا أدبروا[1] تنفَّسَ ٱلباشا كأنَّما خرجَ مِنَ ٱلبحرِ وكانَ يتعاطى إنقاذَ غريقٍ ويُعاني فيهِ حتى نجا؛ ثُمَّ قالَ لي: إنَّ هذا كانَ جواباً عن شيءٍ في أنفسِهم، ولكنَّه هو سؤالٌ عن شيءٍ في أنفسِنا: ما ٱلذي يجعلُ ٱلناسَ عندنا يخشَوْنَ ٱلمُعارضةَ في ٱلرأي ٱلوطنيِّ حتى إنَّهم لَيُجازُون عليها بهذه ٱلعقوبةِ ٱلشعبيّةِ ٱلمنكرة؟ وما بالُهم لا يُعطون ٱلرأيَ حُكْمَهُ وحقيقتَه، بل يُعطونَهُ من حُكْمِ أنفسِهم وحقائِقِها وشهواتِها ٱلمتقلِّبة، حتى لَترجعُ ٱلفروقُ ٱلضعيفةُ ٱلمتجانِسةُ في أبناءِ ٱلوطنِ ٱلواحدِ وكأنَّها مِنَ ٱلخِلافِ وٱلمبايَنَة فروقٌ جنسيَّةٌ كٱلتي تكونُ بين إنسانٍ من أُمَّة، وإنسانٍ من أُمَّةٍ أخرى تُعاديها.

قلْت: إنَّ رأيَ ٱلكثرةِ قانونٌ يا باشا.

قال: هذا صحيح، ولكنْ بشرطينِ لا بشرطٍ واحد: الأولُ ألّا يخرجَ ٱلرأيُ على ٱلقانون، وٱلثاني ألّا تكونَ ٱلحقيقةُ في ٱلرأي ٱلذي يُناقِضُهُ؛ ومُحاولةُ إكراهِ ٱلمعارضةِ نقضٌ لِلشرطينِ معاً؛ ثُمَّ إنَّ أساسَ ٱلوطنيَّةِ سلامةُ ٱلقلوبِ وصفاءُ ٱلنيَّات، وٱستواءُ ٱلمُوافق وٱلمُخالِفِ في هذا ٱلحكم، ومتى وقعَ ٱلخِلافُ بينَ ٱثنينِ وكانتِ ٱلنيةُ صادقةً مُخْلِصَة، لم يكنِ ٱختلافُهما إلّا من تنوُّعِ ٱلرأي، وٱنتهيا إلى ٱلاتفاق بغلبةِ أقوى ٱلرأيين، وما من ذلك بُدّ.

الحقيقةُ يا بُنيَّ أنَّ ٱلجماهيرَ ٱلشرقيَّةَ ليسَتْ في تربيتِها مِنَ ٱلجماهيرِ ٱلسياسيةِ ٱلتي يُعتدُّ بها، إذْ لا تزالُ في أولِ عمرِها ٱلسياسيّ، وبهذا ٱلسببِ وحدَهُ كانَ ٱختلافُ ٱلكُبراءِ في ٱلسياسةِ لا يُشبهُهُ إلّا نِزاعُ ٱلخصمينِ بغيرِ شهودٍ ولا قاضٍ نافذِ ٱلحكم، فهو نزاعُ قوَّةٍ تفورُ بوسائِلِها، لا نِزاعُ حقٍّ يَسْتعْلي بأدلتِه.

وهذه ٱلمجالسُ ٱلنيابيَّةُ ٱلشرقيةُ كلُّها صُورٌ ممثَّلةٌ جافَّةٌ، منقطعةُ ٱلسماءِ من أسبابِها، كٱلفرعِ ٱلمقطوعِ مِنَ ٱلشجرة، وإنَّما يتنضَّرُ ٱلفَرْعُ ويُثمِرُ أثمارَهُ إذا قامَ بشجرتِهِ لا بنفسِهِ، وما شجرةُ ٱلفرْعِ ٱلسياسيِّ إلّا ٱلجمهورُ ٱلسياسيّ.

فسبيلُ ٱلإصلاحِ في كلِّ مملكةٍ شرقيَّةٍ أنْ ينهضَ أهلُ ٱلرأي من كلِّ مدينةٍ فيها بينَ عالمٍ وأديبٍ ومُحامٍ وسَريّ، ومَنْ كانَ بسبيلٍ مِنْ هؤلاء، فيجعلوا لِمدينتِهم دارَ ندْوةٍ لِلاجتماعِ وٱلبحثِ وٱلمشْورة، وقولُ (نعم) بِٱلحُجَّةِ وقولُ (لا) بِٱلحُجَّة. ثُمَّ

---

(١) أدبروا: تراجعوا إلى الوراء.

يُعلنون ذلك في جمهورِهم وينزلونَ منه منزلَةَ ٱلأستاذِ وٱلأبِ وٱلصديقِ في تعليمِهِ وهِدايتهِ وإرشادِه؛ وتتَّصِلُ هذه ٱلدورُ في كلِّ مملكةٍ بعضُها بِبعض، وتنتهي بٱلمجالسِ ٱلنيابيَّة. وبغيرِ ذلك لا يُملأُ ٱلفراغُ ٱلذي نراهُ خاوياً[1] بينَ ٱلشعبِ وٱلحكومة، وبينَ ٱلكُبراءِ وٱلجماهير، وإنَّما أكثرُ مصائِبنا من هذا ٱلفراغ؛ فهو ٱلذي يَضيعُ فيهِ ما يضيعُ فيه، ويختفي ما يختفي.

مِنّا قومٌ موظفونَ في ٱلحكومة؛ لكنْ أين ٱلقومُ ٱلذين تكونُ ٱلحكومةُ نفسُها موظفةً عندَهم؟

* * *

(اعتذار): بهذا ٱلمقالِ ٱنتهتْ أحاديثُ ٱلباشا؛ فقد أنبأَنا صاحبُ السرِّ أنَّه سيكتمُ ٱلسرّ...

(١) خاوياً: فارغاً.

المجنون

١

جاءَ يمشي هادئاً يتخيَّلُ في مشْيتِهِ، يَرْجُفُ بينَ ٱلخطوةِ وٱلخطوةِ كأنَّهُ من كِبرِهِ يُشعِرُك أنَّ ٱلأرضَ مُدرِكةٌ[1] أنَّهُ يُمشي فوقَها. . . ولا ينقلُ قدمَهُ إذا خَطَا حتى ينْهضَ برأسِهِ يُحرِّكُهُ إلى أعلى، فما تدري أهو يُريدُ أنْ يطمئنَّ إلى أنَّ رأسَهُ معه. . . أم يُخَيَّلُ إليهِ أنَّ هذا ٱلرأسَ ٱلعظيمَ قد وُضعَ على جسمِهِ في موضعِ رايةِ ٱلدولة، فهو يَهزُّهُ هزَّ ٱلرايةِ. . . .

وأخذتْهُ عيني وليسَ بيني وبينَهُ إلَّا طولُ غرفةٍ وعرضُها ـ فإذا هو زائغُ ٱلبصرِ كأنَّما وقعَ في صحراءَ يُقلِّبُ عينَهُ في جهاتِها متحيِّراً متردِّداً، ثُمَّ كأنَّما رُفِعَ لَهُ في أقصاها جبلٌ فأخذَ إلى ناحيتِه. . .

ورحَّبْتُ به، وأجلسْتُهُ إلى جانبي، فأخذَ يَسْتَعْرِفُ إليَّ[2] بذكرِ ٱسمِهِ وجماعتِهِ وبلدِه، لا يزيدُ على ذلك شيئاً، كأنَّهُ عنترةُ بني عَبْسٍ: لِأرضِهِ من طبيعتِها جغرافيا، ومنِ ٱسمِهِ جغرافيا على حِدَة. . . فلمَّا رآني لا أُثْبِتُهُ مَعْرِفةً قال: إنَّ بك نِسياناً.

قلْتُ: وكثيراً ما أنسى غيرَ أنَّ ٱسمَك ليسَ من هذه ٱلأسماءِ ٱلتي تُذكَرُ بتاريخ.

قال: هذه غلطةُ ٱلجرائد. . ومهما تنسَ من شيءٍ فلا تنسَ أنَّكَ أستاذُ «نابغة القرن العشرين». . .

فسرَّحْتُ فيهِ نظري[3]، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أمردَ أهيفَ، يكادُ برخاوتِهِ وتفكّكِهِ لا يكونُ رجلاً، ويكادُ يبدو ٱمرأةً بجمالِ عينيهِ وفتورِهما.

وتوَسَّمْتُ فإذا وجهٌ ساكنٌ منبسِطُ ٱلأساريرِ ممسوحُ ٱلمعاني، يُنبىءُ بٱنقطاعِ صاحبِهِ مِمَّا حولَه، كأنَّ دنياهُ ليسَتْ دنيا ٱلناس، ولكنَّها دنيا رأسِهِ. . .

---

(١) مدركة: عارفة.

(٢) يستعرف إليّ: يقدم نفسه.

(٣) أي نظرت إليه ملياً أتأمله.

وتأمَّلتُ فإذا طفولةٌ متلبِّدةٌ قد ثبتَتْ في هذا ٱلوجهِ لِتُخرجَ من بينَ ٱلرجلِ وٱلطفلِ مجنوناً لا هو طفلٌ ولا رجل.

وتفرَّسْتُ[1] فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه ٱلصَّفحة، قَتْلاها أفكارُ ٱلمسكينِ وعواطفُهُ.

وتبيَّنْتُ فإذا رجلٌ مُسْتَرْخٍ، مُتَفتِّرُ ٱلبدن[2]، حائرُ ٱلنفس، كأنَّهُ قائمٌ لِتَوِّهِ مِنَ ٱلنومِ فلا تزالُ في عينِهِ سِنَةٌ، وكأنَّهُ يتكلَّمُ من بقايا حُلُمٍ كانَ يراه...

وخُيِّلَ إليَّ من هذا ٱلخُمولِ في هذا ٱلشاب، أنَّ عليهِ جوًّا من تثاؤبِه، وأنَّ ٱلمكانَ كلَّهُ يتثاءبُ، فتثاءَبْتُ....

* * *

فلمَّا رأى ذلك منّي ضحكَ وقال: إن «نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين» رجلٌ مغناطيسيٌّ عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليكَ ٱلنوم.. وحسبُكَ فخراً أنْ تكونَ أستاذَهُ وأخاهُ وثِقَته، «فليسَ على ظهرِها ٱليومَ أديبٌ غيري وغيرُك...».

قُلْتُ في نفسي: إنّا لِلَّه، ما يعتقدُ الرجلُ أنَّ على ظهرِها مجنوناً غيرَهُ وغيري، وكأنَّما ألمَّ بذلك فقال: لسْتُ مجنوناً؛ ولكنّي كنْتُ في ٱلبيمارستان...

قلت: أهو ٱلبيمارستانُ ٱلذي يسمَّى مستشفى ٱلمجاذيب؟

قال: لا؛ إنَّ هذا الذي تُسميهِ أنت، هو هو مستشفى ٱلمجاذيبِ؛ أمَّا ٱلذي سميْتُهُ أنا فهو مستشفًى فقط...

وذكرْتُ عندئذٍ أنَّ مِنَ ٱلمجانينِ قوماً ظُرفاءَ يَدْخُلُهمُ ٱلفسادُ في عقولِهم من ناحيةِ فكرةٍ ملازمةٍ لا تَبْرَحُ، فلا يكونُ جنونُهم جنوناً إلّا من هذا ٱلوجه، وسائرُ أحوالِهم كأحوالِ ٱلعُقلاء، غيرَ أنَّهم بذلك طيَّاشون[3] متقلِّبون، إذا ٱزْدُهِيَ لم يُطِقْهُ ٱلناسُ من زَهْوِهِ وكبريائِهِ وتنطّعِه، كأنَّهُ واحدُ ٱلدنيا في هذه ٱلفكرة، وكأنَّ بينَهُ وبينَ ٱللَّهِ أسراراً؛ ويظنُّ عندَ نفسِهِ أنَّهُ أعقلُ ٱلناسِ في أرقى طبقاتِ عقلِه، وما جنونُهُ إلّا في هذه ٱلطبقةِ وحدَها.

ومَثَلُ هذا لا بدَّ لَهُ ممَنْ يستجيبُ لهذيانه كيما يُحرِّكَ فيه خِفتَهُ وطَيشَهُ وزهوَه، ولِيكونَ عندَهُ ٱلشاهدَ على هذا ٱلوجودِ ٱلخياليِّ ٱلمُبدَعِ ٱلذي لا يُوجدُ إلّا في عقلِهِ ٱلمختلّ. فإذا هو ظفِرَ بمَنْ يُحاسِنُهُ، أو يُصانِعُهُ، أو يُجاريه، حَسِبَهُ مُذْعِناً[4] مؤمِناً

---

(١) تفرّس: نظر بإمعان.
(٢) منفترّ البدن: كسول.
(٣) طيّاشون: لا يتصرفون بوعي.
(٤) مذعناً: خاضعاً، مستلماً.

مصدِّقاً، فلا يَدَعُهُ من بعدِها ويتعلَّقُ بِهِ أشدَّ ٱلتعلُّق، ويراهُ كأنَّه في ملكِهِ. . فيتخذُهُ صفيًّا وهو يعتقدُ أنَّهُ رقيق، وقد يَزعُمُهُ أستاذَهُ لِيفهمَهُ من ذلك بحسابِ عقلِه. . . أنَّهُ تلميذُه.

وخشيْتُ أنْ يكونَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) لم يُسمِّني أستاذَهُ إلَّا بِحسابٍ من هذا ٱلحِساب، فهو سيُعطي ٱلأُستاذيَةَ حقَّها، ولكنْ كما هو حقُّها في لغةِ جنونِه. . . فأُصبحُ في رأيِهِ تلميذَهُ وصنيعتَه، ومحدِّثَ هذيانِه، وثِقتَهُ وملجأَه، وٱلمحاميَ من ورائِه.

قلْتُ في نفسي: إذا أنا تركْتُهُ جالساً كانَ هذا ٱلمجلسُ مَثَابَتَهُ[1] من بَعدُ، فلا يعرفُ لَهُ محلّاً غيرهُ، ويُصبحُ كما يُقالُ في تعبيرِ ٱلقانونِ «محله المختار»، فَيَتَطرَّأُ إليَّ لِسببٍ ولِغير سبب، ويقعُ في أوقاتي وقوعَ ٱلسهوِ لا حِسابَ عليه، ويَضيعُ فيهِ ما يضيعَ. فأجمعْتُ أنْ أصرِفَهُ راضياً بِٱليأس؛ وقدِ ٱنتهَتْ نفسُهُ من معرفتي، وٱنتهى عقلُهُ إلى ٱلرأيِ أنِّي لا أَصْلُحُ لهُ أستاذاً، لا بِحسابِهِ هو ولا بِحِسابِ ٱلناس.

فقلْتُ له: ظنِّي بك أنَّكَ أُستاذُ نفسِك، ولا يَحسنُ بنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ أنْ يكونَ لَهُ في ٱلقرنِ ٱلعشرينَ أستاذ؛ وأراكَ قد فرغْتَ لِلأدب، أمَّا أنا فمشغولٌ بأعمالِ وظيفتي، وقد جاءَ مِنَ ٱلعملِ ما تراه، وتكادُ لا تفي بِهِ ٱلساعاتُ ٱلباقيةُ مِنَ ٱلوقت و. . .

فقطعَ عليَّ وقال: إنَّ ٱلوقتَ ليسَ في ٱلساعة؛ وٱلدليلُ أني أعطِّلُها فيتعطَّلُ ٱلوقت، ولا يكونُ فيها يومٌ ولا ساعةٌ ولا ثانيةٌ ولا دقيقة.

فقلْتُ: ولكنَّكَ إذا عطلْتَها لم تتعطلِ ٱلشمسُ ٱلتي تُعيِّنُ منازِلَ ٱلنهار، فسيَمُرُّ ٱلظهرُ ويَحينُ ٱلعصر و. . .

قال: ويأتي غد، وإنَّما أنا معكَ ٱليومَ فقط. . . ويجبُ أنْ تغتبِطَ[2] بأنَّكَ أستاذُ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فقد قرأْتُ ٱلكثيرَ في ٱلأدبِ وقرأْتُك، فما كانَ لي رأيٌ إلَّا رأيْتُهُ لك. . . ولا صحَّتْ عندي نظريَّةٌ إلَّا رأيْتُكَ قد أبديْتَها، وأنا لا أعتقد أدباً في مِصرَ إلَّا ما تُوافَيْنا عليهِ معاً «ولا أسلِّمُ جدَلاً، ولا جدَلاً أسلِّمُ أنَّ في مصرَ أدباءَ ينالون منِّي شيئاً، فهو أنا وأنا هو»، ولَئِنْ لم يُذعِنوا (لنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين) فلِيعلَمُنَّ أنَّهم «وقعوا منِّي موقعَ نملةٍ على صخرة. . . هذا من جِهة، ومن جهةٍ أُريدُ سجائرَ وليسَ معي ثمنُها». . .

---

(١) مثابته: ملجأه. (٢) تغتبط: تُسرّ.

فتهلّلتُ وٱستبشرْتُ، وقلْتُ لَه: هذا قرشٌ فهلُمَّ فٱشترِ بِهِ دخائنَك، وفي رعايةِ ٱللهِ، ثُمَّ ٱستوَيْتُ لِلقيامِ، ولكنَّه لم يقم؛ بل تمكَّنَ في مجلِسِه...

* * *

وكَرِهْتُ أنْ أتَغيرَ لهُ وما أشكُّ أنَّهُ في هذا صحيحُ ٱلتمييز؛ فما أسرعَ ما قال: إنَّ «نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين» فَتًى قويُّ ٱلإرادة؛ فإذا هو لم يصبرْ عنِ ٱلتدخينِ ساعاتٍ فما هو بصبور.... وإذا لم يُثْبِتْ لك هذا ٱلأمرَ عن مُعاينَة... فما أعطيْتَهُ حقَّه.

فقلْتُ في نفسي: لقد غرسْتُ ٱلرجلَ من حيثُ أردْتُ ٱقتلاعَه، وأيقنْتُ أنَّهُ من عُقلاءِ ٱلمجانينِ ٱلذين تتغيَّرُ فيهمُ ٱلعاطفةُ أحياناً فُتلهُمهم آياتٍ مِنَ ٱلذكاءِ لا يتَّفقُ مثلُها إلَّا لِنوابغِ ٱلمنطق؛ وذكَرْتُ (بهلول) ٱلمجنونَ ٱلذي حكوْا عنه أنَّ إبراهيمَ ٱلشيبانيَّ مرَّ بهِ وهو يأكلُ خَبيصاً[1] فقالَ لَه: أطعمْني. قال: ليسَ هو لي، إنَّما هو لِعاتِكةَ بنتِ ٱلخليفةِ بعثَتْهُ إليَّ لِآكلَهُ لها...

وقالوا: إنَّه مرّ بسوقِ ٱلبزَّازين فرأى قوماً مجتمعينَ على بابٍ وكانَ قد نُقِب، فنظرَ فيهِ وقال: أتعلمونَ مَنْ عملَ هذا؟ قالوا: لا. قال: فأنا أعلم.

فقالوا: هذا مجنونٌ يراهم بٱلليلِ ولا يتحاشَونهُ[2]، فألْطفُوا[3] بِهِ لَعلَّهُ يُخبرُكم. ثُمَّ قالوا: أخبِرْنا. قال: أنا جائع. فجاءُوهُ بطعامٍ سَنِيٍّ وحلواء؛ فلمَّا شبعَ قامَ فنظرَ في ٱلنقْبِ وقال: هذا عملُ ٱللصوص...

وكانَتْ مجلةُ (الرسالة) في يدِ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فوصلَ ٱلكلامَ بها وقال: إنَّهُ يقرأُ كلَّ مقالاتي، وإنَّهُ وإنَّهُ، وإنَّها وإنَّها. قلْت: فما ٱستحسنْتَ منها؟ قال: (مقالة السيما)...

فقلْت: متى كانَ آخرُ عهدِكَ برؤيةِ السيما؟ قال: أمس.

قلْت: فأنا لم أكتبْ مقالاً عنِ ٱلسيما، ولكنَّكَ أعجبْتَ بما رأَيْتَ أمسِ فتحوَّلَ ما رأيْتَهُ حُلُماً في مقالة.

فأعجبَهُ هذا ٱلتأويلُ وقال: بمثلِ هذا أنا (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فأقرأُ مقالتَكَ في ٱلغيبِ من قبلِ أنْ تكتبَها....

---

(١) الخبيص: ضرب من الأطعمة يصنع من التمر والسمن.

(٢) يتحاشونه: يتجنّبونه.

(٣) ألطفوا: تلطّفوا وأحسنوا معاملته.

قلْت: إنَّك تُكثِرُ أنْ تقولَ عن نفسِك (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، وهذا يَحصرُ نبوغَكَ في قرنٍ بعينِهِ؛ فلو قطعْتَ ٱلكلمَةَ وقلْت: (نابغة القرن)، لَصحَّ أنْ تكونَ نابغةَ ٱلقرنِ ٱلتاسعَ عشرَ وٱلثامنَ عشر، وما قبلَهما وما بعدَهما.

فرأيْتُ به شَدْهَةً[1] كأنَّهُ يُفكرُ في جنونِه، ثُمَّ أفاقَ وقال: لا. لا؛ وإنَّ هاهنا موضِعَ نظر، فلو رضيْتُ بنابغةِ ٱلقرنِ فقط، لَجاءَ مَنْ يقول: إني نابغةُ قرنِ خروف...

* * *

فقلْتُ في نفسي: حَمأَة مُدَّتْ بماء، وإنَّ هذه ٱلوساوسَ لا تنفكُّ تَعرو[2] هذا المسكينَ ما وجدَ من يُكلِّمُه؛ وٱلأفكارُ في ذهنِهِ مجتمعةٌ مختلِطةٌ مسترسلِةٌ كأنَّها ثورةٌ مِنَ الكلامِ لا نظَامَ لها، فلأَسكُتْ عنه ولْأَتشاغلْ بما بينَ يديّ.

وسكَتُّ وأعرضْتُ عنه؛ فجعلَ طائفُهُ يعتريه، وكأنَّ ٱلسكوتَ قد سلَّطَ أفكارَه عليه، وكأنَّها أخَذَتْ تصيحُ بِهِ في رأسِهِ كما يصيحُ غِلمانُ ٱلطرقِ بٱلمجنون، لا يزالونَ بِهِ حتى يُحْرِدُوهُ[3] ويُفقدُوهُ ٱلبقيَّةَ من صبرِهِ وعقلِهِ معاً. فغضبَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) ونقلَهُ ٱلغضبُ إلى حالةٍ زَمْهَرَتْ فيها عيناه[4]، وكَلَحَ وجهُهُ[5] حتى خِفْتُ أنْ يثورَ بِهِ ٱلجنون، فأقبلْتُ عليهِ وتعلَّلْتُ بسؤالِهِ: أَلَكَ إخوة؟ ألَمْ ينبغْ فيهم نابغة...؟

قال: إنَّ له أخاً يُعذِّبُه، ويُوقِعُ بهِ ضرباً، ويغُلُّهُ بٱلسلاسل، ويشدُّهُ «بأمراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَندل»، وأنَّهُ أنزلَ بِهِ ٱلعذابِ ما لو أنزَلهُ بحجرٍ لَتألَّم.

قلْت: فأنت في حاجةٍ إلى راحةٍ، ويحسنُ بك أنْ تأويَ إلى مكانٍ تتمدَّدُ فيه.

قال: إنِّي منصرفٌ وسأجلسُ في نَدِيّ[6] كذا «هذا من جهة، ومن جهةٍ ليسَ معي ثمنُ ٱلقهوة».

قلْت: فهذا قرشٌ تدفعُهُ ثمناً لها، فأذهبْ فٱستمتعْ بها وبٱلتدخينِ وبٱلراحةِ في ذلك ٱلنديِّ، فٱلمكانُ ها هنا كثيرُ ٱلضجيجِ وٱلحركة. وٱستوفزْتُ لِلقيام[7]؛ ولكنَّهُ لم يَتَحَلْحَلْ من مجلسِه.

---

(١) شدهة: اندهاشاً واستغراباً.
(٢) تعرو: تصيب.
(٣) يحرّدوه: يشجّعوه على فعل ما يستهجن.
(٤) زمهرت عيناه: لمعت غضباً.
(٥) كلح وجهه: تغيّر لونه حتى بدا كالحاً.
(٦) نديّ: مقهى.
(٧) استوفزت للقيام: تحفّزت.

ثم قال: أراك ٱلآن مستبصراً أنّي (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) بعينِه.

قلْت: بل بعينيهِ اليمنى وٱليسرى معاً...

قال: لا. لا؛ إنَّك نسيْتَ أنَّ ٱلعربَ تقولُ في ٱلتوكيد: عينُهُ ونفسُهُ وذاتُهُ. «أي أنا نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين بعينهِ ونفسهِ وذاتهِ، فليسَ غيري نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين».

وكادَتْ نفسي تخرجُ غيظاً، ولكنّي رأيْتُ ٱلحِلْمَ على مثلِ هذا يجري مجرى ٱلصَّدَقة؛ وقلْت: إنَّ أدباءَ ٱلمجانين كثيراً ما يتَّفقُ لهُم ٱلإبداعُ ٱلطريفُ[1] إذا علَّلوا شيئاً، كذلك ٱلقاصُّ ٱلذي كانَ يقصُّ على ٱلعامَّةِ سيرةَ يوسفَ ـ عليهِ ٱلسلام ـ، فقالَ لهم فيما قال: إنَّ ٱلذئبَ ٱلذي أكلَ يوسفَ كانَ ٱسمه كذا، فردُّوا عليه: إنَّ يوسفَ لم يأكلْهُ ٱلذئب. قال: فهذا هوَ ٱسمُ ٱلذئبِ ٱلذي لم يأكلْ يوسف.

فقلْتُ لِلمجنون: فما ٱلعِلَّةُ عندَكَ في أنَّ ٱلعربَ لم يقولوا في ٱلتوكيد: عينُهُ وأُذنُهُ وأنفُهُ وفمُهُ ويدُهُ ورجلُه؟

فنظرَ نظرةً في ٱلفضاءِ ثُمَّ قال: ليسوا مجانينَ فيخلِطوا هذا ٱلخلط، وإلا وجبَ أنْ يقولوا مع ذلك: وعِمامتُهُ وثوبُهُ ونعلُهُ وبعيرُهُ وشاتُهُ ودارهمُهُ. «هذا من جهة، ومن جهةٍ ليسَ معي أجرةُ ٱلسيارةِ إلى بلدي وهي قرشان».

قلْت: هذه هي أجرةُ ٱلسيارةِ وصَحِبتْكَ ٱلسلامة، ونهضْتُ واقفاً؛ ولكنَّهُ لم يتحرَّك.

* * *

ثُمَّ قال: إنَّك لم تعرفْ بعدُ «أنِّي أقولُ ٱلشعرَ في ٱلغزلِ وٱلنسيبِ وٱلمدحِ وٱلهجاءِ وٱلفخر؛ وأنِّي في ٱلخطابةِ قُسُّ بْنُ ساعِدَةَ أو أكثمُ بْنُ صَيفي، وأنِّي صخرٌ لا ينفجر... يابسٌ لا ينعصر، لسْتُ كَٱلحجَّاجِ بلْ كعمر».

قلْت: هذا شيءٌ يطولُ بينَنا ولا حاجةَ لك بهذِهِ ٱلبراهينِ كلِّها، فقدْ آمنْتُ أنَّكَ نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ في ٱلأدبِ وٱلشعرِ وٱلخطَابةِ وٱلترسُّل.

قال: وٱلفلسفة؟

قلْت: وٱلفلسفةِ وكلِّ معقولٍ ومنقول؛ وقدِ ٱنتهينَا على ذلك.

قال: ولكنَّكَ تحسبُني مجنوناً أو ممروراً «كما حسبْتني ٱلجرائِدُ ٱلتي زعمَتْ

---

(١) الطريف: الجديد.

أنَّ ٱختفائي في ٱلبيمارستانِ كانَ لِجنوني ٱلفكريِّ أو لِذكائي ٱلطبيعيِّ وهوَ الأصحّ. . . فبيِّنْ لِهذه ٱلجرائِدِ أنّي خرجت، وأني سأطبعُ ٱلأدبَ بطابعٍ جديد».

قلْت: ولكنّي لسْتُ مراسَل جرائد. وقال: «فٱجعلْني رسالةً وراسِلْها عنّي أو أكتبُ لك أنا ما تُرسلُه، وما جئتُك إلّا لِهذا؛ ويجبُ أنْ تُلحقني بجريدةٍ كبيرة، وهذه ٱلجرائدُ تعرفُني كلُّها، وقد تناولَتْني من جميعِ ٱلنواحي ٱلأدبيَّة؛ فضلاً عن أني كاتبٌ فَذٌّ، وخطيبٌ فَذّ، وشاعرٌ فَذّ، وهذا قليلٌ من كثير، فهل أعوِّلُ عليكَ في صِلَتي بٱلجرائدِ أولا؟».

قلْت: إنَّك تعرفُهُم ويعرفونك، وقد بلَوْتَهم[1] وبَلَوْا منك، فلسْتَ في حاجةٍ إليَّ عندَهم.

قال: إنهم يخشون بأسي، وقد حسبوني مجنوناً ٱستهوتْهُ ٱلشياطين؛ وما عَلِموا أنَّ شيطانَ الشعرِ هو ٱلذي ٱستهواني، كما أنَّ شيطانَ ٱلحُبِّ هو ٱلذي ٱستهواك. . . هذا من جِهة، ومن جِهةٍ ليسَ معي ثمنُ ٱلغداء، ولا أكلِّفُك شيئاً. . .».

قلْت: فهذا قرشٌ لِلغداءِ في مطعم ٱلشعب. وهمُ ٱلآنَ يتغدَّون ويُوشِكُ إذا أبطأتَ أن تُوافِقَهم وقدِ استنفدوا ٱلطعامَ، وأنت لا تجهلُ أنَّ ٱلقرشَ في مطعمِ ٱلشعبِ هو قرشانِ في ٱلقيمة.

قال: صدقْت؛ يُوشِكُ أنْ أوافقَهُم وقد فرغوا من طعامِهِم وغسلوا ٱلآنية. فلأبْقِ هذا لِلعَشاءِ وسأطوي[2] إلى الليل. . .

قلْت: فمعك ٱلآن ثمنُ ٱلدخان، وٱلقهوة، وٱلغداء، وأجرةُ ٱلسيارةِ إلى بلدِك. وقد كانَ نابغةُ ٱلقرنِ ٱلثالثِ لِلهجرةِ وٱسمه (طاقُ ٱلبصلِ)[3] يُغنِّي بقيراطٍ ولا يسكتُ إلّا بدانق. هذا من جِهة، ومن جِهةٍ فخذْ هذا القِرشَ ثمناً لِسكوتِكَ وٱنصرِف.

* * *

فشقَّ ذلِك عليهِ وقامَ مُغْضَباً وتنفسْتُ بعدَهُ ٱلصُّعَداءَ ٱلطويلة. . . وفتحْتُ ٱلنافذةَ وٱستقبلْتُ ٱلهواءَ ٱلنقيَّ وأخذْتُ في رِياضةِ ٱلتنفسِ ٱلعميق، ثُمّ زاغَتْ عيني إلى ٱلباب؛ فإذا (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) مقبلٌ معَ نابغةِ قرنٍ آخر. . . . . .

---

(١) بلوْتهم: اختبرتهم.

(٢) أطوي: أنام بلا عشاء.

(٣) هذا أحد مجانين القرن الثالث في الكوفة.

المجنون

٢

رأيْتُ ٱلمجنونينِ يدخلانِ معاً، فكأنَّما سَدَّا ٱلبابَ وسَوَّياهُ بِٱلبِناءِ وتركا ٱلغُرفَة حائِطاً مُصْمَتاً لا بابَ فيه، مِمَّا ٱعتراني[١] مِنَ ٱلضيقِ وٱلحرَجِ؛ وقلْتُ في نفسي: إنَّهُ لا مذهبَ لِلعقلِ بينَ هذينِ إلَّا أنْ يُعينَ كِلاهما على صاحبِه، فأرى أنْ أدَعَهما وأكونَ أنا أصرِّفُهما؛ ويا ربّما جاءَ مِنَ ٱلنوادرِ في ٱجتماعِ مجنونينِ مالا يأتي مثلُهُ من عقلينِ يجتمعانِ على ٱبتكارِه؛ غيرَ أنِّي خشيْتُ أنْ أكونَ أنا ٱلمجنونَ بينهما، ثُمَّ لا آمنُ أن يَثِبَ أحدهُما بالآخرِ إذا خطَرَتْ بِهِ ٱلخطْرةُ[٢] من شيطانِه، فرأيْتُ أنْ يكونَ لي ظهيرٌ عليهما، إنْ لم يحقَّ بِهِ ٱلعَوْنُ فلا أقلَّ من أنْ يطولَ بِهِ ٱلصبر... وكانَ إلى قريبٍ منِّي ٱلصديقُ (ا. ش) فأرسلْتُ في طلبِهِ.

أمَّا هذا ٱلمجنونُ الثاني الذي جاءَ بِه (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) فقدْ رأيتُهُ من قبل، وهو كاٱلكِتابِ ٱلذي خُلِطَتْ صُحُفُهُ بعضُها في بعضٍ فتداخَلَتْ وفسدَ ترتيبُها، وٱنقلبَ بذلك ٱلعلمُ ٱلذي كانَ فيها جَهْلاً وتخليطاً، يَثِبُ ٱلكلامُ بعدَ كلِّ صفحةٍ إلى صفحةٍ غريبةٍ لا صِلَةَ لَهَا بِمَا قبلَها ولا ما بعدَها.

وهو طالبٌ أزهريٌّ كانَ أكبرَ همِّهِ أنْ يصيرَ حافظاً كاٱلحفّاظ ٱلأقدمينَ مِنَ ٱلرواةِ وٱلفُقهاء، فجعلَ يستظهِرُ كتاباً بعدَ كتابٍ ومتْناً بعدَ متن؛ وكانَتْ لَهُ أذُنٌ واعيةٌ، فكلُّ ما أُفرِغَ فيها من درسٍ أو حديثٍ أو خَبر، نزلَ منها كالنقْرِ على آلةٍ كاتبة، فينطبعُ في ذِهنِهِ ٱنطباعَ ٱلكِتابَة: لا تُمحى ولا تُنسى.

ثُمَّ ٱلْتاثَ هذه ٱللُّوثَةَ وهو يحفظُ متناً في فقهِ ٱلشافعيّ (رضيَ ٱللهُ عنه)، فغبرَ سنينَ يتحفَّظُه، كلَّما ٱنتهى إلى آخرِهِ نَسِيَهُ من أولِه؛ فيعودُ في حفظِهِ وربَّما هذا دأبَهُ

---

(١) اعتراني: أصابني وداخلني.

(٢) الخطْرة: الفكرة.

لا يملُّ ولا يجدُ لِهذا ٱلعَنَاءِ معنًى، ولا يزالُ مقبلاً على ٱلكتابِ يَجمعُه، ثُمَّ لا يزالُ ٱلكتابُ يتبدَّدُ في ذاكرتِه.

وتركَ ٱلمعهدَ ٱلذي هو فيهِ وتخلَّى في دارِه[1] لِلْحفظ، وأجمعَ ألّا يدعَ هذا ٱلمتنَ أو يحفظَه، وكأنَّ فيه ٱلموضعَ ٱلذي فارَقهُ عقلُهُ عندَه، وبذلك رجعَ ٱلمِسكينُ آلةَ حِفْظٍ ليسَ لَهَا مِساكٌ[2]؛ وأصبحَ كٱلذي يرفعُ ٱلماءَ مِنَ ٱلبحر، ثُمَّ يُلقيهِ في ٱلبحر، لِينْزح ٱلبحر...

* * *

وجاءَ (ا. ش) فقلْتُ له، وأومأْتُ إلى ٱلمجنونِ ٱلأول: هذا نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

قال: وهلِ ٱنتهى ٱلقرنُ ٱلعشرونَ فيُعرفَ مَنْ نابغتُه؟

فقلْتُ لِلمجنون: أجبْهُ أنت. فسألَه: وهلْ بدأ ٱلقرنُ ٱلواحدُ وٱلعشرون؟ قال: لا.

قال: فإنَّ هذا الذي إلى جانبي نابغةُ ٱلقرنِ ٱلواحدِ وٱلعشرين.....فكما جاز أنْ يكونَ هو نابغةَ قرنٍ لم يبدأْ، جازَ أنْ أكونَ أنا نابغةَ قرنٍ لم ينته.

قلْتُ: ولكنّك زِدْتَ ٱلمشكلةَ تعقيداً من حيثُ توهَّمْتَ حلَّها؛ فكيف يكونُ معك في آنٍ وبينَك وبينَهُ خمسٌ وستون سنة؟

فنظَر نظرةً في ٱلفضاء، وهو كلَّما أرادَ شيئاً عسيراً نظَرَ إلى ٱللاشيء..

ثُمَّ قال: هذه الأمورُ لا تَشتبهُ إلَّا على غيرِ ٱلعاقل... وكيف لا يكونُ بيني وبينَهُ خمسٌ وستون سنةً وأنا أتقدَّمُه؛ النبوغ بأكثرَ من علمِ ٱلعلماءِ في خمسٍ وستين سنة..؟

قلْتُ لِلآخر: أكذلك؟

قال: مِمَّا حفظناهُ عنِ ٱلحسَن: أدركْنا قوماً لو رأيْتُموهم لَقلْتم: مجانين. ولو أدركوكم لَقالوا: شياطين...

فضحكَ ٱلأولُ وقال: إنَّهُ تلميذي.

قالَ ٱلثاني: لقد صدقَ فهو أُستاذي، ولكنَّه حين ينسى لا يذكِّرُهُ غيري...

قُلْت: لا غَرْوَ «فمما حفظناه» عنِ ٱلزُّهريّ: إذا أنكرْتَ عقلَك فٱقدَحْه بِعاقل...

فغضبَ نابغةُ القرنِ ٱلعشرينَ وقال: ويحٌ لِهذا ٱلجاهل، ٱلأحمق، ٱلجاحدِ لِلفضل،

---

(١) تخلّى في داره: انزوى وانعزل. (٢) مِساك: بقية حفظ.

ومع جنونِهِ وخَبَله. أيُذكِّرُني وهو منذُ كذا وكذا سنةً يحفظُ متناً واحداً لا يُمسكُهُ عقلُه إلّا كما يُمسِكُ ٱلماءَ ٱلغرابيل؟ صدقَ ـ واللهِ ـ مَنْ قال: عدوٌّ عاقلٌ خيرٌ؛ خير. فقال ٱلثاني: خيرٌ من صديقٍ جاهل، هأنذا قد ذكَّرتُكَ من نِسيان، وهٰأنت ذا رأيْت.

فضحكَ ٱلنابغةُ وقال: ولكنّي لم أُرِدْ أنْ أقولَ هذا، بلْ أُرِيدُ أنْ أؤلفَ كلاماً آخر.... عدوٌّ عاقلٌ خيرٌ، خيرٌ؛ خير من مجنونٍ جاهل.......

* * *

ورأيْتُ أنَّ ٱلتقاءِ مجنونينِ شيءٌ طريفٌ غيرُ جنونِهِما، وصحَّ عندي أنَّ ٱلمجنونَ ٱلواحدَ هوَ ٱلمجنون؛ أمَّا ٱلاثنانِ فقد يكونُ مِنِ ٱجتماعِهِما وتحاورِهِما فنٌّ ظريفٌ مِنَ ٱلتمثيل، إذا وَجدا مَنْ يُصرِّفُهما في ٱلحديثَ، ويستخرجُ ما عندَهُما، ويستكشِفُ منهما قِصتَهما ٱلعقليَّة.......

ولم أكنْ أعرفُ أنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ) مِنَ ٱلمجانينِ ٱلذين لهم أذُنٌ في غيرِ ٱلأذُن، وعينٌ في غيرِ ٱلعين، وأنفٌ بغيرِ ٱلأنف؛ إذْ تتلقى أدمغتُهم أصواتاً وأشباحاً وروائحَ من ذاتِ نفسِها لا منَ ٱلوجود، وتُدركُها بِٱلتوهُّم لا بالحاسَّة، فَتَتَخلَّقُ[1] هواجسُهُم خَلْقاً بعدَ خَلْقَ، وتخطرُ ٱلكلمةُ مِنَ ٱلكلام في ذِهْنِ أحدِهم فيخرجُ منها معناها يتكلَّمُ في دِماغِهِ أو يمشي أو يُلاطفُهُ أو يُؤذيهِ أو يفعلُ أفعالاً أخرى.

وبينا أنا أُديرُ ٱلرأيَ في إخراج فصلٍ مِنَ ٱلحِوارِ بينَ هذينِ ٱلمجنونين، إذْ قالَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ): صَهْ، إنَّ جرسَ «التلفون» يدقّ.

قال(ا. ش): لا أسمعُ صوتاً، وليسَ هٰهنا «تلفون».

فٱغتاظَ ٱلمجنونُ ٱلآخرُ وقال: إنَّك تَتَقَحَّمُ[2] على ٱلنوابغ ولسْتَ من قدرِهِم، وما عملُكَ إلّا أنْ تُنكِر؛ وٱلإنكارُ، ويلك، أيسرُ شيءٍ على ٱلمجانينِ وأشباهِ ٱلمجانين، وٱلعامَّةِ وأشباهِ ٱلعامَّة؛ وقد أنكرْتَ نبوغَهُ آنفاً، وأراكَ ٱلآنَ تُنكِرُ «تلفونه»...

قال (ا. ش): وأين «التفلون» وهذه هي ٱلغرفةُ بأعينِنا؟ فضحِك (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) وقال: صَهْ ـ ويْحكَ ـ لقد خلَّطْتَ عَلَيّ؛ إنَّ ٱلجرسَ يدقُّ مرةً أخرى، وأنا لا أُريدُ أنْ أُكملِّمَها حتى يطولَ ٱنتظارُها، وحتى تدقَّ ثلاثَ مرات، وأخشى أنْ تكونَ قد دقَّتِ ٱلثالثةَ وذهبَ رنينُها في صوتِك ولَغَطِكَ...

---

(١) تتخلّف: تتشكّل. (٢) تتقحّم: تحشر نفسك، تدسّها.

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: هي صاحبتُهُ ٱلتي يهواها وتهواه؛ وقدِ ٱستَهَامَها[1] وتَيَّمَها وحيَّرَها وخبلَها، حتى لا صبرَ لها عنه، فوضعَتْ لَهُ تلفوناً في رأسِه. . . . . .

قالَ «النابغة»: وهذا ٱلتلفونُ لا يُسمعُني صوتَها فقط، بلْ هو يُنْشِقُني عِطرَها أيضاً. وقد تُكلِّمُني فيهِ ٱلملائكةُ أحياناً، وأنا ساخطٌ على هذه ٱلحبيبةِ فإنَّها غَيورٌ تُخْشَى سَطَواتُها على ٱللائي تَغار منهنّ، ولولا ذلك لَكَلَّمَتْني في هذا ٱلتلفونِ إحدى ٱلحُورِ ٱلعِينِ. . . .

قلْنا: أوَ تَغارُ منَ ٱلحُورِ ٱلعِينِ؟

قالَ ٱلمجنونُ ٱلثاني: بلِ ٱلأمرُ فوقَ ذلك، فإنَّ ٱلحُورَ ٱلعِينَ يشتمُنْها ويلعنَّها؛ «فممَّا حفِظْناهُ» هذا الحديث: لا تؤذي ٱمرأةٌ زوجَها في ٱلدنيا إلَّا قالَتْ زوجتُه مِنَ ٱلحُورِ ٱلعِين: لا تؤذيهِ قاتلكِ ٱلله؛ فإنَّما هو عندَكِ دَخيلٌ يُوشِكُ أنْ يفارِقَكِ إلينا.

قالَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين): ويْلي على ٱلمجنونِ إنَّهُ يُريدُ أنْ يخلوَ لَهُ موضعِي فهو يتمنّى هلاكي وٱنتقالي وَشيكاً من هذه الدنيا. وهو يقولُ بغيرِ عِلْم لِأنَّهُ أحمقُ ليسَ لَهُ عُقدةٌ مِنَ ٱلعقلِ، فيزعمُ أنَّها تُؤذيني، ولو هي آذتْني لَغضِبَتْ قبلَ ذلك، ولو غضِبَتْ لَرفعتِ ٱلتلفون. صَهْ إنَّ ٱلجرسَ يدقّ.

* * *

قال ا.ش: إنَّ لِلنوابغ لَشأناً عجباً، ففي مديريَّةِ ٱلشرقيَّةِ رجلٌ نابغةٌ ماتَتْ زوجتُهُ وترَكَتْ لَهُ غلاماً، فتزوجَ أخرى وهو يعيشُ في دارِ أبيه. فلمَّا كانَ عيدُ ٱلأضحى سألَ أباهُ مالاً يبتاعُ بِهِ ٱلأضحيَّةَ فلم يُعطِه. وهو رجلٌ يحفظُ ٱلقرآن، فذكرَ إبراهيمَ (عليه السلام) ورؤْياهُ في ٱلمنام أنَّهُ يذبحُ ٱبنَه، فخُيِّلَ إليهِ أنَّ هذا بابٌ إلى ٱلنبوَّة، وأنَّ ٱللَّهَ قد أوحى إليه، فأخَذَ ٱلغلامَ في صبيحةِ ٱلعيدِ وهمَّ بذبحِه، ولولا أنْ صرخَ ٱلغلامُ فأدركَهُ ٱلناسُ فٱستنقذوه. . . .

قالَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ): هذا مجنونٌ وليسَ بنابغة؛ بلْ هذا من جُهلاءِ ٱلمجانين؛ بلْ هو مجنونٌ على حِدَتِه. وقد رأيْتُهُ في ٱلبيمارستانِ في حينِ كنْتُ أنا في ٱلمستشفى. . . فكانَ يزعُمُ أنَّهُ ٱئتمرَ في ذبحِ غلامِهِ بإرادةِ ٱلله. ولو كانَتْ إرادةَ ٱللَّهِ لنفذَتْ بِٱلذبحِ، ولو كانَ ٱلأمرُ وحياً لَنزلَ عليهِ مِنَ ٱلسماءِ كبشٌ يذبحُه. . . وهكذا أنا في ٱلمنطِقِ (نابغةُ القرنِ العشرين).

---

(١) استهامها: حملها على حبّه.

ثُمَّ إنَّهُ أشارَ إلى المجنونِ ٱلثاني وقال: وأنا أتقدَّمُ هذا في ٱلنبوغِ بأكثر من عِلْمِ ٱلعلماءِ في خمسٍ وستينَ سنةً كاملة.

قلْتَ: ولكنَّك ذكرْتَ هذا من قبلُ فلِمَ عُدْتَ فيهِ ٱلآن؟

قال: إنَّ السببَ قد تَغيَّر فتغيرَ معنى ٱلكلام؛ وقد بدالي أنَّهُ يتمنَّى هلاكي ليكونَ هو نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين. فمعنى ٱلكلام الآن: أنَّهُ لو عاشَ خمساً وستينَ سنة «يحفظُ ٱلمتن» لَمَا بلغَ مبلغي مِنَ ٱلعِلْم. هذا رجلٌ نِصفُهُ ميتٌ جنوناً موتاً حقيقيًّا، ونصفُهُ الآخرُ ميتٌ جهلاً بِٱلموتِ ٱلمعنويّ.

قال ا. ش: حسبُهُ أنْ يقلِّدَكَ تقليدَ ٱلعاميِّ لإمامِهِ في ٱلصلاةِ وعسى ألَّا تستكثرَ عليهِ هذا فإنَّهُ تِلميذُك.

قالَ ٱلمجنونُ ٱلثاني «مِمَّا حفظْناه»: لو صُوِّرَ ٱلعقلُ لَأَضاءَ معهُ ٱلليل، ولو صُوِّرَ ٱلجهلُ لَأَظلمَ معهُ ٱلنهار... ونابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ هذا لا يعرفُ كيف يُصلِّي، فقد وقفَ منذُ أيَّام يُصلي بِٱلشعر... ولمَّا رأيتُهُ ناسياً فذكرْتُهُ ونبهْتُهُ أنَّ ٱلصلاةَ لا تجوزُ بِٱلشعر، اِلتَفتَ إليَّ وهو راكعٌ فسبَّني وشتمني وصرخَ فيَّ وقال: ما شأنُك بي؟ هلْ أنا أُصلي لك أنت...؟

فغضِبَ «ٱلنابغةُ» وقالَ: ـ واللهِ ـ إنْ تحسبوني إلَّا مجنوناً فتُريدونَ أنْ يقلدني هذا ٱلأحمقُ ٱلذي ليسَ لَهُ رأيٌ يُمسكُه. ولولا ذلك لَمَا ٱعتقدْتُم أنَّ تقليدي مِنَ ٱلسهلِ ٱلممكن، ولَعرفْتُم أنَّ نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ نفسَهُ لم يستطِعْ تقليدَ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

قلْنا: هذا عجيب، وكيف كانَ ذلك؟

فضحِكَ وقال: لا أعدُّكم مِنَ ٱلأذكياءِ إلَّا إذا عقلْتُم كيف كانَ ذلك؟ قال ا. ش: هذا لم يُعْرَفْ مثلُهُ فكيف نعرفُه؟ ولم يتوهمْهُ أحد، فكيف نتوهمُه؟

قال: لو لم تكنْ أستاذَ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ لَمَا عرفْتَها؛ وهذا نصفُ ٱلصواب؛ ومادُمْتَ أستاذي، فلو أنَّنا ٱختلفْنا في رأيٍ لَكانَ خِلافُك لي صواباً لأنَّهُ منك، وكانَ خِلافي لك صواباً لِأنَّهُ منّي؛ فأنت (غيرُ مخطىءٍ) وأنا مُصيب، وإذا أسقطْنا كلمةَ (غيرِ) أظلُّ أنا مصيباً وتكونُ أنت مخطئاً...

أنا لم أرَ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) في ٱلرؤيا، ولكنِّي رأيْتُهُ في ٱلمِرآةِ عندَ ٱلحلَّاق... ورأيتُهُ يُقلِّدُني في كلِّ شيءٍ حتى في ٱلإشارةِ وٱلقَوْمةِ وٱلقَعْدةِ ولكنِّي صرخْتُ فيهِ وسبَبتُهُ ففتحَ فَمهُ، ثُمَّ خافني ولم يتكلَّم...

وأومأَ إلى ٱلمجنونِ ٱلآخرِ وقال: وأنا أتقدمُ هذا في ٱلنبوغِ بأكثَر من عِلْمِ ٱلعلماءِ في خمسٍ وستينَ سنة.

قال ا. ش: لقد قُلْتَها مرتينِ كِلتاهما بمعنًى واحد، فما معناكَ في هذه ٱلثالثة؟

قال: هذا ٱلغِرُّ يزعمُ أنّي لا أعرفُ كيفَ أُصلّي، ويستدلُّ لذلك بأنّي صليْتُ بِٱلشعرِ وأنّي شتمْتُهُ وأنا راكع؛ ولو كانَ عاقِلاً لَعَلِمَ أنَّ شتمي إياه وأنا راكعٌ ثوابٌ لَه... ولو كانَ نابغةً لَعَلِمَ أنَّ الشعرَ كانَ في مدحِ دولةِ النحاسِ باشا وأُولي ٱلنُّهى.

قلْنا: ولكنَّ ٱلشعرَ على كلِّ حالٍ لا تجوزُ بِهِ ٱلصلاةُ ولو في مدحِ دولةِ ٱلنحاس باشا.

قالَ: لم أُصلِّ بِه، ولكنْ خطرَ لي وأنا أُصلِّي أنّي نسيْتُ ٱلقصيدَة فأردْتُ أنْ أتحقَّقَ أنّي لم أنسَها... فإذا أنا نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ في ٱلحفظ، وهي ستةُ أبيات. لا كهذا ٱلمعتوهِ ٱلذي صَبر على المتنِ صبرَ ٱلغريبِ على ٱلغُربةِ ٱلطويلة، ومعَ ذلك لم يحفظْه.

قال ا. ش: فأمْلِ علينا هذا ٱلشعر. فأملى عليه.

يـا حـلـيـفَ ٱلـسُّـهْـدِ قـلْ لـي	أيـنَ مَـنْ فـي ٱلـدهـرِ خـالْ
إنْ تـكُـنُ تـهـوى غـزالا	أكـحـلَ ٱلـعـيـنـيـنِ مـالْ
أنـا أهـواهـا ولـكـنْ	لا سـبـيـلَ إلـى ٱلـوِصـالْ
مـنـذُ ولَّـتْ قُـلْـتُ مـهـلاً	مـنـذُ غـابَـتْ فـي خـيـالْ
أنـا مـجـنـونٌ بـلـيـلـى	لـيـلَ يـا لـيـلـى! تـعـالْ

قلْنا: ولكنْ ليس هذا مدحاً، فضحِكَ وقال: أردْتُ أنْ تعرفوا أنّي أقولُ في الغَزَل، أمّا المديح فهو:

شغفَ ٱلورى[1] بمناصبٍ وأماني	وشُغِفْتَ يا نحاسُ بِٱلأوطانِ
حسبوا ٱلحياةَ تفاخراً وتنعُّماً	وحسبْتَها لِلّهِ وٱلأوطانِ

ثم أُرْتِجَ[2] عليهِ فسكتَ. قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: إنَّها ستةُ أبيات، وقد نسيْتُ أربعة، ولسْتُ أُريدُ أنْ أُذكِّرَك:

---

(١) شغف الورى: اشتدّ حبّ الناس. (٢) أرتج: أغلق.

فقالَ (النابغة): أظنُّهُ قد حانَ وقتُ ٱلصلاةِ وأُريدُ أنْ أُصلي. . . ونظرَ إلى اللاشيءِ في ٱلفضاء، ثُمَّ قال. وٱلبيتُ الأخير:

لا أبتغي في ٱلمدحِ غيرَ أولى ٱلنُّهى   أوِ صادقٍ أو شوقي أو مطرانِ

ثُمَّ أمر ا. ش. أنْ يقرأَ عليهِ ٱلشعرَ فقرأه، فقال: أحسنْت، انظرْ إلى فوق. فنظر، ثُمَّ قال: انظرْ إلى تحت. فنظرَ ثُمَّ سكت.

قال ا. ش: وبعدُ؟ قال: وبعدُ فإنَّ الناسَ ينظرون إمَّا إلى فوقُ وإما إلى تحت. . .

* * *

وكانَ الضجرُ قد نالَ مِنِّي، فرجوْتُ ا.ش. أنْ يلبثَ مَعهما وأذنْتُ لِنابغةِ القرنِ العشرين أنْ يلقاني في ٱلنّدي وٱنصرَفْت. .

قال ا.ش. وهو يُنبِّئني: فما غبْتَ عنَّا حتى أخذَ ٱلمجنونُ يشكو ويتوجَّعُ ويقول: لقد حاقَ بِيَ ٱلظُّلْم، وإنَّ (ٱلرافعيَّ) رجلٌ عَسُوفٌ ظالم، لِأنِّي أكتبُ لَهُ كلَّ مقالاتِهِ ٱلتي ينشرُها في (الرسالة). . . وأجمعُ نفسي لَها، وأجهدُ في بَيانِها، وأُذيبُ عقلي فيها، وهو مستريحٌ وادعٌ، وليسَ إلَّا أنْ ينتحِلَها[1] ويضعَ توقيعَهُ عليها، ويَبعَثَ بها إلى ٱلمجلَّة، ثُمَّ هو يقبضُ فيها ٱلذهبَ وينالُ ٱلشهرة، ولا يدفعُ لي عن كلِّ مقالةٍ إلَّا قرشين. . .

قال ا. ش: فما يمنعُكَ أنْ تُرسلَ أنت هذه ٱلمقالاتِ إلى ٱلمجلةِ فتقبضَ فيها ٱلذهب؟ قال: إنَّ هناك أسراراً أنا مُحْصِنُها وكاتمُها، ولا ينبغي أنْ يعلمَها أحدٌ فإنَّها أسرار. . . قالَ لَه: فدعِ (ٱلرافعيّ) وٱكتبْ لي أنا هذه ٱلمقالاتِ، وأنا أعطيكَ في كلِّ مقالةٍ ذهبينِ لا قرشين.

قالَ هذه أسرارٌ ولا أستطيعُ أنْ أكتبَ إلَّا للرافعيّ، لِأنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ) لا يجوزُ أنْ يدَّعيَّ كلامَهُ إلَّا أستاذُ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، ولوِ ٱدَّعاهُ غيرُهُ لَكانَ هذا حطًّا من قدرِ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، وهذا بعضُ ٱلأسرارِ لا كلُّ الأسرار. .

قلْت: ثُمَّ جاءَ ٱلمجنونانِ في ٱلعشِيَّةِ إلى ٱلنديّ.

---

(١) ينتحلها: ينسبها لنفسه.

المجنون

٣

وكنّا في ٱلنّديّ ثلاثةً: أنا، وا. ش. وس. ع؛ وقد هيَّأتُ تدبيراً تَوافَقْنا عليهِ لِتحريكِ هذينِ ٱلمجنونين، وتدوينِ ما يجيءُ منهما. فلَّما أقبلا تَحَفَّيْنا[١] بِهِما وألْطَفْنَاهُما، وقُمْنا ثلاثتُنا ببَسْطِهِما وإكرامِهِما، حتى حَسِبَا أنَّ في كلمةِ «مجنون» معنى كلمةِ أميرٍ أو أميرة. . ورأيْتُ في عيني «نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين» ـ وهو أعْيَنُ أنجَلُ[٢] ـ ما لو ترجمْتُهُ لَمَا كانَتِ ٱلعِبارةُ عنه إلَّا أنَّهُ يعتقدُ أنَّ لَهُ نفساً أُنثى أعشقُها أنا. . فكانَ مُسَدَّداً[٣] فَكِهَ ٱللسانِ، تُسْتَمْلَحُ لَهُ ٱلنادرةُ، وتُسْتطْرَفُ منهُ ٱلحركة.

ولَمَّا تمكَّنَ منهُ ٱلغرورُ، وٱحتاجَ ٱلجنونُ كما يحتاجُ ٱلجمالُ إلى كِبريائِهِ إذا حاطتْهُ ٱلأعينُ ـ أدارَ بَصَرَهُ في ٱلمكان، ثُمَّ قال: أُفٍّ لكم ولِمَا تصبرونَ عليهِ من هذا النديّ في ضَوْضائِهِ ورُعاعِهِ وغَوغائِهِ. إنْ هؤلاءِ إلَّا أخلاطٌ وأوشابٌ وحُثالة. هذا ٱلجالسُ هناك. هذا ٱلواقفُ هنالك. هذا ٱلمسْتَوفِز. هذانِ ٱلمتقابلانِ. هؤلاءِ ٱلمجتمِّعون. هذا كلّهُ خيالُ حقيقةٍ في رأسي. ما هي؟ ما هي؟

هذا ٱلتصايُحُ ٱلمنكَر. هذا ٱلضَّرْبُ بحجارةِ ٱلنَّرد. هذه الزَّحمةُ ٱلتي ٱنغمْسنا فيها. هذا ٱلمكانُ ٱلهائجُ من حولِنا. هذا كلُّهُ خيالُ حقيقةٍ في رأسي. هي، هي، هي.

فٱنزعجَ ٱلمجنونُ الآخر، ووَقعَ في تهاويلِ خيالِه، ونظرَ إلينا تدورُ عيناه، وتَوجَّسَ[٤] شرًّا، ثُمَّ زاغَ بصرُهُ إلى ٱلباب، وٱسْتَوْفَزَ وجمعَ نفسَهُ لِلْقِيام؛ فلمَّا رأى صاحبُهُ ما نزلَ بِه، قَهقَهَ وأمْعَنَ في ٱلضحكِ وقال: إنَّما خوَّفتُهُ الصبيانَ وٱلضرْبَ لِيُثبتَ لكم أنَّهُ مجنون. .

---

(١) تحفنا: رحّبنا.
(٢) أعين أنجل: واسع العين أنجلها.
(٣) مسدّداً: موفقاً.
(٤) توجّس: احتسب الشرّ قبل وقوعه.

فحرِدَ الآخرُ وٱغتاظَ وجعلَ يُتمتِمُ بينَهُ وبينَ نفسِه.

قالَ «ٱلنابغةُ»: ما كلامٌ تَطِنّ بهِ طنينَ ٱلذبابةِ أيُّها ٱلخبيث؟

قال: «مِمَّا حفظْنَاهُ»: أنَّ من علاماتِ ٱلأحمقِ أنَّهُ إذا ٱستُنْطِقَ تَجلَّفَ، وإذا بكى خار، وإذا ضَحِكَ نَهقَ. كما فعلْتَ أنت ٱلساعةَ، تقول: هاءْ، هُوءْ، هِيءْ...

فتغيَّرَ وجهُ «ٱلنابغةِ»، ونظرَ إليهِ نظرةً منكرة، وهمَّ أنْ يقتَحِمَ عليه، وقال: أيُّها ٱلمجنون، لِماذا تُضطرُّني إلى أنْ أُجيبَكَ جوابَ مجنون... لا نجوْتُ إنْ نجوْتَ منّي!

فأسرع ا. ش، وأمسكَ بِه؛ وٱعترضَ مِنْ دونِهِ س. ع، وقالَ لَهُ: أنت بدأْتَهُ وٱلبادىءُ أظلم.

قال: ولكن ـ ويحَهُ ـ كيف قالَ هذا؟ كيفَ لم يقلْ إلَّا هذا؟ كيف لم يجدْ إلَّا هذا يقولُهُ؟ أنابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين أحمق، وقد أوْحدَهُ ٱللَّهُ في ٱلقرنِ ٱلعشرين؟ لَهَمَمْتُ ـ والله ـ أنْ أكسِرَ ٱلذي فيهِ عيناه؛ فما يقولُ إلَّا أنّي أحمقُ ٱلقرنِ ٱلعشرين...

* * *

قلْتُ: إنْ كانَ هذا هوَ ٱلذي أغضبَك منه؛ ففي ٱلحديثِ ٱلشريف: «ليسَ من أحدٍ إلَّا وفيهِ حَمْقَةٌ، فَبِها يعيش». وٱلحياةُ نفسُها حماقةٌ منظَّمةٌ تنظيماً عاقلاً؛ وما يُقبلُ ٱلإنسانُ على شيءٍ من لذاتِها إلَّا هو مقبلٌ على شيءٍ من حماقاتِه، وأمتعُ ٱللَّذةِ ما طاشَ فيهِ ٱلعقلُ وخرجَ من قانونِه؛ ولولا هذا ٱلحمقُ في طبيعةِ ٱلإنسانِ لما ٱحتملَ طبيعةَ ٱلحياة، أليسَ يُخيَّلُ إليكَ أنَّ أكثرَكَ غائبٌ عن ٱلدنيا وأقلَّكَ حاضرٌ فيها، وأنَّ يَقَظتَكَ ٱلحقيقةَ إنَّما هي في ٱلحُلُم وما يُشبهُ ٱلحُلُم، كأنَّكَ خُلِقْتَ في كوكبٍ وهبطْتَ منه إلى كوكبِنا هذا، فما فيك لِلأرضِ ولا فيها لك إلَّا ٱلقليلُ يلتئِمُ بعضُه ببعضِه، وأكثرُكما مُتَنافِرٌ أو متناقِضٌ أو متراجِع؟

قال: بلَى.

قلْتُ: فهذا ٱلقليلُ هوَ ٱلحمقةُ ٱلتي بها تعيش، وهو أرضيَّةُ ٱلأرضِ فيك؛ أما سماويةُ ٱلسماءِ فبعيدةٌ لا تحتملُها طبيعةُ ٱلأرض؛ ولِهذا يعيشُ أهلُ ٱلحقيقةِ عيشَ ٱلمجانينِ في رأي المغرورينَ الذين غرَّتْهمُ ٱلحياةُ ٱلفانية، أوِ ٱلمخدوعين ٱلذين خدعَتْهُم ٱلظواهرُ ٱلكاذبة؛ فكلَّما أتَوْا عملاً مِنَ ٱلأعمالِ ٱلساميةِ ٱنتهى إلى ٱلحَمْقَى

معكوساً أو مُحوَّلاً أو معدولاً بِه؛ ولعلَّ هذا أصحُّ تفسيرٍ لِلحديثِ ٱلشريف: «أكثرُ أهلِ ٱلجنةِ البُله».

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه»: أكثرُ أهلِ ٱلجنةِ ٱلبُله.

فقالَ (ٱلنابغة): ٱلمصيبةُ فيك أنَّكَ أنت هو أنت؛ ألا فلْتعلمْ أنَّكَ من بُلَهاءِ ٱلبيمارستانِ لا من بُلْهِ ٱلجنة. . .

قلْتُ: ثمَّ إنَّ ٱلموتَ لا بدَّ آتٍ على ٱلناس جميعاً، فيسلبُهُم كلَّ ما نالوهُ مِنَ ٱلدنيا، ويُلْحِقُ مَنْ نالَ بِمَنْ لم ينل؛ فمَنْ ذا ٱلذي يُسَرُّ بأنْ ينالَ ما لا يبقى لَه، إلَّا أنْ يكونَ سرورُهُ من حماقتِه؟ ومَنْ ذا ٱلذي يحزَنُ على أنْ يفوتَهُ ما لا يبقى لَه، إلَّا أنْ يكونَ حُزنُهُ حماقةً أخرى؟ وأيُّ شيءٍ في ٱلحُبِّ بعدَ أنْ ينقضيَ ٱلحُبُّ إلَّا أنَّهُ كانَ حماقةً ضرَبَتْ في ٱلحواسِّ كلِّها ملأتِ ٱلنفس؛ ثُمَّ ملأتِ ٱلنفسَ حتى فاضَتْ على ٱلزمن؛ ثُمَّ فاضتْ على ٱلزمنِ حتى خبَّلتِ ٱلعاشِقَ تخبيلاً لذيذاً تصغُرُ فيهِ ٱلأشياءُ وتكبُر، ويجعلُ ٱلواقعَ في ٱلنفسِ غيرَ ٱلواقعِ في دنياها؟ يُشبِّهُ كلُّ عاشقٍ حبيبتَهُ بٱلقمر: فهَبِ ٱلقمرَ سمعَ هذا وفَهِمَهُ وعَنَاهُ أنْ يُجيبَ عنه، فماذا عساهُ يقولُ إلَّا أنْ يُعْجَبَ من هذا ٱلحمقِ في هذا ٱلتشبيه؟

* * *

فهدأَ (ٱلنابغةُ) وسكنَ غضبُهُ وقال: صدقْت، ولِهذا أنا لا أشبِّهُ حبيبتي بٱلقمر.

قلْت: فبماذا تُشبّهها؟

قال: لا أقولُ لك حتى أعلَمَ بماذا تُشبِّهُ أنت حبيبتَك. قلْت: وأنا كذلك لا أشبهُها بٱلقمر.

قال: فبماذا تُشبهها؟ قلْت: حتى أعلمَ بماذا تُشبِّهُ أنت. .

قال: هذا لا يُرضَى منك وأنت أستاذُ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، ولك حبائبُ كثيراتٌ عدَدَ كتبِك، وقد أعجبَتْني منهنَّ تلك ٱلتي في (أوراق الورد)، وأظنُّكَ أحبَبْتها في شهرِ مايو من سنة. . من سنة. .

قالَ ٱلمجنونُ الآخر: من سنة ١٩٣٥؛ هٰأنذاك قد نبْهتُك.

قال: يا ويلك! إنَّ (أوراقَ الوردِ) ظهرَتْ من بضعِ سنين، إنَّما أنت من بُلهاءِ ٱلبيمارستانِ لا من بُلْهِ أوراقِ ٱلورد. . ماذا كنْتُ أقولُ؟

قالَ ا. ش: كنتَ تقول: هذا لا يُرضَى منك ولك حبائبُ كثيرات.

قال: نعم، لِأنَّكَ إذا شبَّهْتَ واحدةً منهنَّ بٱلقمر، انتهى ٱلقمرُ وفرغَ ٱلتشبيهُ فيظلُّ ٱلأخرياتُ بلا قمر.. ثُمَّ إنَّ كلمةَ ٱلقمرِ لا تُعجبُني، فلونُها أدكنُ[1] مُغْبَرٌّ يَضْرِبُ أحياناً إلى ٱلسواد... فإذا عشِقْتُ زَنجيَّةً فهٰهنا محلُّ ٱلتشبيهِ بالقمر.. أمَّا البيضُ ٱلرَّعابِيبُ فتشبيههُنَّ بالقمرِ من فسادِ ٱلذوق.

قال س. ع: ولِلألفاظِ ألوانٌ عندَك؟

قال: لو كنْتَ نابغةً لأَبصرْتَ في داخلِكَ أخْيِلةً مِنَ ٱلجنَّة؛ ألَمْ يقلْ أستاذُنا آنفاً عن (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين): إنَّهُ هبطَ من كوكبٍ إلى كوكب؟ ففي كوكبِنا ٱلأولِ يكونُ لنا سَمْعٌ ملوَّن؛ وحِسٌّ ملوَّنٌ نسمعُ قرعَ ٱلطبلِ أزرق، ونفْخَ ٱلبوقِ أحمر، وزينَ ٱلنغَم ٱلحُلوِ أخضر، وٱلوجودُ كلُّهُ صُوَرٌ ملَّونةٌ، سواءٌ منه ما يُرَى وما يُحَسّ، وما هو مُسْتَخْفٍ وما هو ظاهر.

ثُمَّ أومأَ إلى ٱلمجنونِ ٱلآخرِ وقال: وٱسمُ هذا ٱلأبلهِ كلفظِ الحِبر: لا أسمعُهُ إلَّا أسود..

* * *

وسكَتَ «ٱلنابغةُ» وسكتْنا؛ فقال له س. ع. مالَكَ لا تتكلَّم؟ قال: لِأنِّي أُريدُ ٱلسكوت. قال: فلِماذا تُريدُ ٱلسكوت؟ قال: لِأنِّي لا أُريدُ أنْ أتكلَّم..

وتحركَ في نفسِهِ ٱلغيظُ مِنَ ٱلمجنونِ ٱلآخر، فرمى بعينِهِ ٱلفضاءَ ينظرُ ٱللَّاشيءَ وقال: إذا أصبحَ كلُّ ٱلنساءِ ذواتِ لِحًى أصبحَ هذا عاقلاً.. فدقَّ الآخرُ برجلِهِ دقاتٍ معدودة؛ فثارَ (ٱلنابغةُ) وقال: مَن هذا يشتُمُني؟

قال: س. ع: لم يشتمْك أحد، هذا خَفْقُ رِجلٍ على الأرض.

قال: بلْ شتمَني هذا ٱلخبيثُ، وسَمْعي لا يَكْذِبُني أبداً، وأنا رجلٌ ظَنُونٌ، أُسيءُ ٱلظنَّ بكلِّ أحد، وعلامةُ ٱلحازم «العاقلِ» سوءُ ظَنِّهِ بٱلناس. فهبْهُ كما قلْتَ قد خفَقَ بنعلِه، أو خبَطَ برجلِه؛ فهو ما يعني من ذلك، وأنا أسمعُ ما يعنيه. لقد طفحَ[2] ٱلشعرُ على قلبي فلا بدَّ لي من هجائه، ولا بدَّ لي أنْ أذبَحَهُ ولو بٱلكلام، فإنِّي إذا هجَوتُهُ رأيْتُ دمَهُ في كلماتي، وأُريدُ أنْ أجعلَهُ كٱلعَنْزِ ٱلتي كانَتْ عندَنا وذبحناها.

ثُمَّ ٱنتزعَ قلم س. ع، وقال: هذه هي السكيِّن. ولكنْ أسألُك يا أستاذي أنْ

---

(١) الدكنة: اللون ما بين الحمرة والسواد.   (٢) طفح: فاض.

تذبحَهُ أنت بكلمتينِ وتصفَ لَهُ جنونَه، فقد عزَبَ[١] عنّي ٱلشعر... إنَّ خَفْقَةَ رِجْلٍ على ٱلأرض تستطيرُ ٱلأرانبَ فزَعاً؛ فيَنْفرْنَ إلى أجْحَارِهِنَّ ويتَهَارَبْن، وما كانَتْ أبياتُ ٱلشعرِ في ذِهني إلّا أرانب..

أنتم لا تعرفون أنَّ مَنْ كانَ حَصِيفاً[٢] ثَبِتاً مثلي، كانَ دقيقَ ٱلحِسّ؛ ومَنْ كانَ فَدْماً[٣] غبيًّا مثلَ هذا، كانَ بليدَ ٱلحِسِّ غليظاً كثيفاً؛ فإذا أنا ٱستشعرْتُ ٱلبردَ رأيْتُني قد سافرْتُ إلى ٱلقُطْبِ ٱلشِّمالي؛ أما هذا ٱلمجنونُ فهو إذا ٱستشعرَ برداً سافرَ إلى عباءَتِهِ أو لِحافِه.. إذ هو لا يعرفُ جغرافيا، ولا يدري ما طَحَاها.

قلْت: هذا منك أظرفُ من نادرةِ أبي ٱلحارث. قال: وما نادرةُ أبي ٱلحارث؟ وهلْ هو نابغة؟

قلْت: جلسَ يتغدّى مَعَ ٱلرشيدِ وعيسى بنِ جعفر. فأُتِيَ بخِوانٍ[٤] عليهِ ثلاثةُ أرغفة، فأكلَ أبو ٱلحارثِ رغيفَهُ قبلهما، وٱلرشيدُ ملكٌ عظيمٌ: لا يأكلُ أكلَ ٱلجائع، وإنّما هو ٱلتَّشعيبُ من هنا وهناك؛ فكانَ رغيفُهُ لا يزالُ باقياً؛ فصاحَ أبو ٱلحارث فجأةً: يا غلام، فَرَسي. ففزعَ ٱلرشيدُ وقال: ويلك ما لكَ؟ قال: أُريدُ أنْ أركبَ إلى هذا الرغيفِ ٱلذي بينَ يديك..

قال (النابغة): ولكنَّ فرقاً بين أبي ٱلحارثِ وبينَ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فإنَّ منَ ٱلعجائبِ أنّي ربما نظرْتُ إلى ٱلرجلِ وهو يأكلُ فأجدُ ٱلشِّبَعَ، حتى كأنَّهُ يأكلُ ببطني لا ببطنِه، ولكن مِنَ ٱلعجائبِ أنَّ هذا لا يتَّفِقُ لي أبداً حينَ أكونُ جائعاً...

أمّا هذا ٱلمجنونُ ٱلذي أمامَنا، فربَّما أبصرَ ٱلحِمارَ على ظهرِهِ ٱلحِمْلُ، فيشعرُ كأنَّ ٱلحِمْلَ على ظهرِهِ هو لا على ظهرِ ٱلحمار.

قالَ الآخر: «مِمَّا حفظناه»: أنَّه سُرِقَ لِأعرابيّ حِمار، فقيلَ لَهُ أسُرِقَ حمارُك؟ قال: نعم، وأحمدُ ٱلله. فقيلَ لَه: على ماذا تحمدُه؟ قال: على أنّي لم أكنْ عليهِ حينَ سُرق.. فأنا إذا رأيْتُ حِماراً مثقَلَ ٱلظهرِ، حمدَتُ ٱللَّهَ على أنَّ ٱلحِمْلَ لم يكنْ عليّ، لا كما يقولُ هذا. ثُمَّ دقّ برجلِهِ دقات..

فٱستشاطَ (ٱلنابغة) وقال) أسمعْتُم كيف يقولُ إنّي مجنون، ثُمَّ لا يكتفي بهذا بلْ يقولُ إنّي حِمارٌ على ظهرِهِ ٱلحِمل؟

---

(١) عزب: غرب.
(٢) حصيفاً: عاقلاً رزيناً.
(٣) فدماً: جباناً غبياً.
(٤) خوان: مائدة الطعام.

قلْت: ينبغي أنْ تتكافآ، وهذا لا يَعيبُك منه ولا يعيبُهُ منك، فإنَّ من تواضُع «النوابغ» أنْ يشعروا ببؤسِ ٱلحيوان، فإذا شعروا ببؤسِهِ دخلتْهمُ ٱلرقةُ له، فإذا دخلْتهمُ ٱلرقةُ صارَ خيالُ ٱلحِملِ حِمْلاً على قلوبِهمُ ٱلرقيقة؛ وقد يصنعون أكثرَ من ذلك: حكى ٱلجاحظُ عن ثُمامةَ قال: كان (نابغةٌ) يأتي ساقيةَ لنا سَحَراً؛ فلا يزالُ يمشي مع دابتِها ذاهباً وراجعاً في شِدّةِ ٱلحرِّ أيامَ ٱلحرّ، وفي ٱلبردِ أيامَ ٱلبرد، فإذا أمسى توضأَ وقال: اللهمّ ٱجعلْ لنا من هذا ٱلهمِّ فَرَجاً ومَخرجاً. فكانَ كذلك إلى أنْ مات!

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه»: ثمرةُ ٱلدنيا ٱلسرورُ، ولا سرورَ لِلعقلاء، فلو لم يكنْ هذا أعقلَ ٱلعقلاءِ لَمَا مُحِقَ سرورُهُ في ٱلدنيا هذا المحْقَ إلى أنْ ماتَ غمًّا، رحمهُ ٱلله!

* * *

قال: س. ع: فٱعفُ ٱلآنَ عن صاحبِك ولا تذبحْهُ بِٱلهجاء.

قال: لقد ذكَّرْتَني من نِسيان، وهذا ٱلمجنونُ يرى نِسياني من مرضٍ عقلي، وكانَ ٱلوجهُ ـ لو تَهَدَّى إلى ٱلحقيقة ـ أنْ يراهُ شذوذاً في ٱلعقل، أي نبوغاً عظيماً كنبوغ ذلكَ ٱلفيلسوفِ ٱلذي أرادَ أنْ يَتَثَبَّتَ في كم مِنَ ٱلزمنِ تُسلقُ ٱلبيضة؛ فأخذَ بيدِهِ ٱلساعةَ وبيدِهِ ٱلأخرى بيضة، ثُمَّ نسِيَ نسيانَ ٱلنبوغ، فألقى ٱلساعةَ في ٱلماءِ على ٱلنار، وثَبتَتْ عينُهُ على ٱلبيضةِ ينظرُ فيها على أنَّها هي ٱلساعة. ولو قد رآهُ هذا ٱلأبلهُ لَزعمَهُ مجنوناً كما يزعُمني، فإنَّ ٱلمجانينَ يَرَوْنَ ٱلعُقلاءَ مرضَى بمواهبِهِم وأعمالِهمُ ٱلتي يعملونها.

وأنا فليسَ يُهيجُني شيءٌ ما تُهجيني كلماتٌ ثلاث: أنْ يقَالَ لي مجنون، أو أبله، أو أحمق. فمَنْ رغِبَ في صُحْبَتي فلْيتجنَّبْ هذه الثلاثَ كما يتجنَّبُ ٱلكُفْرَ وٱلكفرَ وٱلكفر. . .

قال ا. ش: فإذا قيل لَك مثلاً. مثلاً. أي على ٱلتمثيل: مغفَّل.

فحكَّ رأسَهُ قليلاً وقال: لا، هذه ليسَتْ من قدري. .

قلْت: فبعضُ ٱلكلماتِ إذا قُطِعَتْ عندَك غيَّرتِ ٱلحقائق، كذلك ٱلقرن ٱلذي قُطعَ فَرَدّ ٱلبقرةَ فرساً؟

قال: وكيف كانَ ذلك؟

قلْت: زعموا أنَّ أعرابيًا خرجَ إخوتُه يشترونَ خيلاً، فخرجَ معهم فجاءَ بعجلٍ يقودُه؛ فقيلَ لَه: ما هذا؟ قال: فرسٌ ٱشتريْتُه. قالوا: يا مائقُ[١] هذه بقرة، أَما ترى قرنيها؟

فرجعَ إلى منزلِهِ فقطعَ قرنيها، ثُمَّ قادَها إليهم وقالَ لَهم: قد أعدْتُها فرساً كما تُريدون..

قالَ (ٱلنابغة): هذا غيرُ بعيد، فقدْ رأيْتُنا حينَ ذبحْنَا ٱلعنَزَ وكسرْنَا قرنيَها أعدناها كلبةً سوداء، فتقذَّرْتُها وعِفْتُ لحمَها ولم أطعمْ منها.

ثُمَّ أومأَ إلى ٱلآخرِ وقال: هذا لا يدري ما طَحَاها، وهو مثل العَنز: تحسبُ قرنيها لِلقتالِ والنِّطاحِ ومنهما تُمسَكُ لِلذبح؛ فقلْ في هذا يا أستاذَ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين).

قلْت لِلآخَر: أيُرضيكَ أنْ أقولَ في ٱلمعنى لا فيك أنت...؟ قال: نعم. فكتبْتُ هذه الأبياتَ على ما يُريدُ النابغة:

قُلْ لِعَنزٍ نَاطِحَاها ... لِقِتالٍ سَلَّحَاها
ما لَها قَد طَرَحَاها ... في يَدَينِ ذَبَحَاها؟

***

شِيمَةٌ مِنِّي نَحَاهَا ... عَقلُ غِرٍّ[٢] فَلَحَاهَا
لَيسَ يدري ما طَحَاها[٣] ... بَلْ يَرى شَمسَ ضُحَاها
حَجَراً مِثلَ رَحَاهَا ... ويَرى ٱللَّيلَ مَحَاها
ظُلَماً طَالَتْ لِحَاها

***

وسُرّ (ٱلنابغةُ) وٱزدهى، وجعلَ يقول: طالَتْ لِحَاها، طالَتْ لِحَاها. وما كانَ هذا إلّا ٱلسرورَ ٱلأصغر؛ أمّا سرورُهُ ٱلأكبرُ فمجيءُ ساعي (ٱلبريدِ ٱلمستعجلِ) إلى ٱلنديّ، وفي يدِهِ رِسالةٌ عنوانُها: نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين فلان، بنديِّ كذا.

وجعلَ ٱلرجلُ يهتفُ بالعنوانِ يسألُ عن صاحبِه؛ فتطاولَتْ أعناقُ ٱلناس، ورفعوا أبصارَهم ينظرون إلى (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين) وقد مدَّ يدَهُ يتناولُ ٱلرسالةَ

---

(١) مائق: أحمق.
(٢) طحاها: بسطها وسهلها ومدّها. (٣) غرّ: أحمق، لا تجربة له.

وكأنَّهُ مِلكٌ مِنَ ٱلقدماءِ أُسْقِطَ لهُ كتابٌ بالفَتحِ ٱلعظيمِ وبضمٍّ دولةٍ إلى دولتهِ.

ثُمَّ تركَ ٱلرسالةَ بين أصابعِهِ يقلِّبُها ولا يُفضُّها[1] ونحن في دهشةٍ من أمره؛ فنظرَ فيها ٱلمجنونُ وقالَ لَه: هذا عجيبٌ يا أخي، كيف هذا؟ إنَّ هذا لا يُصدَّق؛ إنَّكَ لَمْ تُلقها في صندوقِ ٱلبريدِ إلَّا منذُ ساعة..

---

(١) يفضّها: يفتحها.

المجنون

٤

وضاقَ «نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين» بحُمقِ ٱلمجنونِ الآخر؛ ورآهُ داهيةَ دَوَاهٍ، كلَّما تَعَاقَلَ أو تَحاذَقَ[1] لم يأتِ لَهُ ذلك إلَّا بأنْ يكشِفَ عن جنونِهِ هو: فلا يبرَحُ يُجرِّعُهُ ٱلغيظَ مرةً بعدَ مرة، ولا يزالُ كأنَّهُ يَسُبُّهُ في عقلِه؛ فأرادَ أنْ يحتالَ لِصرفِهِ عنِ ٱلمجلس، فدفعَ إليهِ ٱلرسالةَ ٱلتي جاءَ بها (ٱلبريدُ ٱلمستعجَلُ) وقالَ له: خذْ هذه فٱذهبْ فألقِها في دارِ ٱلبريد، فسيجيءُ بها ٱلساعي مرةً أخرى، ثُمَّ تذهبُ ٱلثانيةَ فتُلقيها، ويعودُ فيجيءُ بها، وتكونُ أنت تذهبُ ويكونُ هو يجيء، فنضحكُ منه ويضحكون.

قال س. ع: ولكن كم يذهبُ هذا وكم يجيءُ ذاك؟

فغمزَهُ (ٱلنابغة) بعينِهِ أنِ ٱسكتْ؛ فتَغَافَلَ س. ع، وقال: كم تُريدُ أنْ يجيءَ ٱلساعي لِيهتفَ بنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين؟

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: هذا هو ٱلرأي، فلسْتُ قائماً حتى أعرفَ كم مرةً أذهب؛ فإن ٱلساعيَ لا يجيءُ إلَّا راكباً، وأنا لا أذهبُ إلَّا راجلاً، وإنَّ لي رجلَيْ إنسانٍ لا رجلَيْ دابة. .

قالَ (ٱلنابغة): سبحانَ ٱللهِ؟ بقليلٍ مِنَ ٱلجنونِ يخرُجُ مِنَ ٱلإنسانِ مجنونٌ كاملٌ مُسْتَلَبُ ٱلعقل. بَيْدَ أنَّهُ لا يأتي ٱلنابغةُ إلَّا من كثيرٍ وكثير، ومنَ ٱلنبوغ كلِّهِ بجميع وسائلِهِ وأسبابِهِ على تعدُّدِها وتفرّقِها وصعوبةِ ٱجتماعِها لإنسانٍ واحدٍ (كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فهو ٱلذي توافَتْ إليهِ كلُّ هذه ٱلأسباب، وتوازَنَتْ فيهِ كلُّ تلكَ ٱلخِلال. إنَّهُ ليسَ ٱلشأنُ في ٱلعِلْمِ ولا في ٱلتعليم؛ ولكنَّما ٱلشأنُ في ٱلموهِبَةِ ٱلتي تُبدِعُ

---

(١) تحاذق: تذاكى.

ٱلابتكارَ، كموهبةِ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فبها تجيءُ أعمالُهُ منسَجِمَةً دالَّةً بنفسِها على نفسِها؛ ومتميِّزةً معَ كونِها منسجمةً دالةً بنفسِها على نفسِها؛ ومتلائمةً مع كونِها متميزةً دالةً بنفسِها على نفسِها. . .

هذا س. ع، كانَ ٱلأولَ بينَ خرِّيجي مدرسةِ دارِ ٱلعلومِ، مدرسةِ ٱلأدبِ وٱلعربية، وٱلمنطقِ وٱلتحذلُق، وبلاغةِ ٱللسانِ وصِحَّةِ ٱلنظر؛ وهو يعرفُ أنَّ ٱلكتابَ يُلقى في ٱلبريدِ وعليهِ طابعٌ واحد، فيصلُ إلى غايتِهِ بهذا ٱلطابع، ثم يَرى بعيني رأسِهِ أربعةَ طوابع على هذه ٱلرسالةِ المُعَنْوَنَةِ بٱسم (نابغة ٱلقرنِ العشرين)، فلا يُدرك بعقلِهِ أنَّ معنًى ذلك أنَّ من حقِّ هذه ٱلرسالةِ أنْ تصِلَ إليَّ أنا أربعَ مرات. .

فطرِبَ ٱلمجنونُ ٱلآخرُ، وٱهتزَّ في مجلسِهِ، وصفَّقَ بيديه، وقال: «مِمَّا حفظْناه» هذا الحديث: «يُحاسِبُ ٱللَّهُ الناسَ على قدرِ عقولِهم». فلا تؤاخذْ س. ع، فإنَّ مدرسةَ دارِ ٱلعلوم تعلِّمُهم: «فيها قولان»، وفيها ثلاثةُ أقوال، وفيها أربعةُ أوجه، ولكنَّها لا تعلِّمُهم فيها أربعةُ طوابع. .

ثُمَّ ٱلتفتَ إلى س. ع، وقالَ لَه: لا عليك، فأنا صاحبُهُ وخَلِيطُه، وحامِلُ عِلْمِهِ وروايةُ أدبِه، وأكبرُ دُعاتِهِ وثِقَاتِهِ، وما علمْتُ هذه ٱلحِكمةَ منه إلَّا في هذه الساعة.

قال ا. ش: فإذا كانَ هذا، فإنَّ لِقائلٍ أنْ يقول: لِماذا لم يضعْ على كتابِهِ عشرةً مِنَ ٱلطوابع، فيجيءَ بِهِ ٱلساعي عشرَ مرات.

قالَ (ٱلنابغة): وهذا أيضاً. . .؟

وما شرُّ ٱلثلاثةِ أُمَّ عمرٍو بصاحبِك ٱلذي لا تصحبينَ»؛ إنَّ ٱلشمعةَ في يدِ ٱلعاقلِ تكونُ لِلضوءِ فقط، ولكنَّها في يدِ ٱلمجنونِ لِلضوءِ ولِإحراقِ أصابعِه. كمِ ٱلساعةُ الآن؟

قلْنا: هي ٱلتاسعة.

قال: ومتى ينصرفُ أهلُ هذا ٱلنديّ؟

قلْنا: لِتمامِ ٱلثانيةَ عشرة.

قال: فإذا كانَ ٱلساعي يتردّدُ في كلِّ ساعةٍ مرة، فهي أربعُ مراتٍ إلى أن ينفضَّ ٱلمجتمعون[1] هنا، وبين ذلك ما يكونُ قد ذهبَ قومٌ عرفوا (نابغة ٱلقرنِ

(١) ينفضّ المجتمعون: يتفرّقون.

ٱلعشرين)، وجاء قومٌ غيرُهم فيعرفونه. وأمَّا بعدَ ذلك فلا يجدُ ٱلساعي هنا أحداً؛ فلا تكونُ فائدةٌ من مجيئِهِ.

فصفَّقَ ٱلمجنونُ ٱلآخرُ وقال: هذا وأبيكَ هو التَّهدِّي إلى وجهِ ٱلرأي وسَدادِه، وهذا هو ٱلكلامُ ٱلرصينُ ٱلذي يقومُ على أُصولِ ٱلحساب وٱلجغرافيا.. «ومِمّا حفظْناه» هذا الحديث: «لا مالَ أعْوَدُ مِنَ ٱلعقل». فأربعةُ طوابع، لِأربعِ مرات، في أربعِ ساعات؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذير؛ ولا مالَ أعودُ مِنَ ٱلعقل..

* * *

ورضِيَ (ٱلنابغةُ) عن صاحبِهِ وقالَ لَه: لَئِنْ كانَتْ فيك ضَعْفةٌ إنَّ فيك لَبقيَّةٌ تعقِلُ بها... ثُمَّ أخذَ منهُ ٱلرسالةَ ودسَّها في ثوبِه. قلْنا: ولكنْ ألا تَفُضُّها لِنعرفَ ما فيها؟

فضحكَ وقال: أيْنَ جارَيْتُكم في بابِ ٱلمُطايَبة وٱلنادرة، وجارَيْتُ هذا ٱلأبلهَ في بابِ جُنونِهِ وحُمقِهِ ـ تحسبون أنَّ الأمرَ على ذلك، وأنَّ ٱلرسالةَ فارغةٌ إلا من عنوانِها، وأنَّ نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين هو [من] أرسلها إلى نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، كما قال سعد باشا: (جورج الخامس يُفاوضُ جورجَ الخامس)...؟ لَحَقٌّ ـ والله ـ أنَّ ٱلعقلَ ٱلكبيرَ ٱلذي يأبى ٱلصغائرَ، هو الذي تأتي منهُ ٱلصغائرُ أحياناً لُتثبتَ أنَّهُ عقلٌ كبير، وهكذا تَسَخَرُ ٱلحقيقةُ من كِبارِ ٱلعقولِ (كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)..

فغضبَ ٱلمجنونُ ٱلآخرُ وهمَّ أنْ يتكلَّم: فقالَ لَهُ (ٱلنابغة): أنت كاذِبٌ فيما ستقولُه.

قلْنا: ولكنَّهُ لم يقلْ شيئاً بعدُ، فكما يجوزُ أنْ يكونَ كاذباً يجوزُ أنْ يكونَ صادقاً.

قال: وسيُخطىءُ في رأيِهِ ٱلذي يُبديه..

قلْنا: ولم يُبدِ شيئاً من رأيه..

قال: ولا يعرفُ ٱلحقيقةَ ٱلتي سيتكلَّمُ عنها.

قلْنا: ويحك، أدخَلْتَ في عقلِ ٱلرجلِ أم تَعْلَمُ ٱلغيب؟

قال: لا هذا ولا ذاك، ولكنَّهُ قِياسٌ منطقيٌّ يُتوَهَّمُ ٱطرادُه(١). إِنَّهُ سيقول: إنِّي مجنون..

---

(١) اطّراده: استمرار حدوثه.

فأخرجَ ٱلآخرُ لِسانَه . . قالَ: (ٱلنابغة): تباً لك، لقد رأيْتُ ٱلكلمةَ في لِسانِكَ كأنَّها مكتوبةٌ بحروفِ ٱلمطبعة. ويحكَ يا مَرْقَعان[1]، ألا تعرفُ أنَّ لك دِماغاً مخروقاً تسقطُ منه أفكارُك قبلَ أنْ تتكلَّمَ بها، ولولا أنَّهُ مخروقٌ لَحفظْتَ ٱلمتن! إنَّ كلَّ تخطئةٍ لي منك هي ٱعترافٌ لي منك بصواب.

فنظرَ الآخرُ إليهِ نظرةً كانَ تفسيرُها في حواجبه، إذْ مطَّ[2] حواجبَهُ ورقَّصَها. فقالَ (ٱلنابغة): ونظراتُهُ خبيثةٌ مِلْحَةُ ٱلطعم، مَزْعُوقَةٌ كَمَاءِ ٱلبحرِ ٱلمرِّ أُخِذَ مِنَ ٱلبحرِ وأُضيفَ إلى مِلْحِهِ ٱلطبيعيِّ مِلْح، أكادُ أتهوَّعُ[3] من هذه ٱلنظرةِ فأقيء.

الآنَ فهمتُ معنى قولِهم: «مِلحةٌ في عينِ ٱلحسود». فإنَّ ٱلملحَ لا يغلبُهُ إلَّا المِلْح، كٱلحديدِ بالحديد يُفْلَحُ[4]. هاتوا كأساً من مُعتّقةِ ٱلخمر، ثُمَّ لْينظرْ فيها ٱلخبيثُ هذه ٱلنظرة، فإنَّ ٱلخمرَ لا بدَّ مستحيلةٌ «شربة ملح إنجليزي». . . هذا ٱلأبلهُ ثقيلُ ٱلدم كأنَّ دمَهُ مأخوذٌ من مستنقع . . . أهذا ٱلذي لا يستطيعُ أنْ يقولَ لِشيءٍ في ٱلدنيا: هُوَ لي، إلَّا ٱلفقرَ وٱلجنونَ وٱلخرافة ـ يُكذِّبُ ما في ٱلرسالةِ ٱلتي جاءَ بها ٱلبريدُ ٱلمستعجَلُ، ولا يُصدِّقُ أنها مرسَلةٌ إلى نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ من صاحبِ ٱلسموِّ ٱلأمير؟

هذا ٱلذاهبُ ٱلعقلِ هو كٱلجبانِ ٱلمنقطعِ في وَحْشةِ ٱلقَفْر، في ظلامِ ٱلليل: إذا تَوجَّسَ حركةً ضعيفةً ٱنقلبَتْ في وهمِهِ قصةَ جريمةٍ ماؤُها ٱلرعبُ وفيها ٱلقتلُ وٱلذبح؛ ولِهذا يخشى ما في ٱلرسالةِ ٱلتي جاءَتْ من صديقي صاحبِ ٱلسموّ. هاؤمُ ٱقرءوا ٱلرسالة.

وفضضْنَا[5] ٱلغِلاف، فإذا ورقتانِ ممهورتانِ بتوقيعِ أميرٍ معروف، إحداهما صكٌ بألفِ جنيهٍ تُدفَع (لنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، والثانيةُ أمرٌ بالقبضِ على ٱلمجنونِ ٱلآخر. . وإرسالِهِ إلى ٱلمارستان. . .

* * *

وذهبْتُ أُصْلِحُ بينهما صُلْحاً فقلْت: إنَّ في ٱلحديثِ ٱلشريف: «بينما رسولُ

---

(١) المرقع والمرقعان: هو الأحمق الذي يرتجّ عليه رأيه.

(٢) مط حواجبه: رفعها استغراباً واستفهاماً.

(٣) تهوّع القيء: تكلّفه.

(٤) يُفلح: يُشقّ.

(٥) فضضنا: فتحنا.

ٱللَّهِ ﷺ في أصحابِهِ إذْ مرَّ به رجلٌ، فقالَ بعضُ ٱلقوْم: هذا مجنون. فقالَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ: هذا مُصاب؛ إنَّما ٱلمجنونُ ٱلمقيمُ على معصيةِ ٱلله».

فقالَ صاحبُ ٱلمتن: «مِمَّا حفظناه» إنَّما ٱلمجنونُ ٱلمقيمُ على معصيةِ ٱلله.

قلْت: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ ٱلله...

قالَ ٱلمجنون: «مِمَّا حفظْناه»: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ ٱلله...

قلْت: هذا ليسَ مِنَ ٱلحديثِ ولكنَّه من كلامي...

قالَ (ٱلنابغة): أنبأْتُكم أنَّ هذا ٱلأبلهَ يَضِلُّ في دارِهِ كما يضلُّ ٱلأعرابيُّ في ٱلصحراء؛ وأنَّ الأُسطولَ ٱلإنجليزيَّ لوِ ٱستقرَّ في ساقيةٍ يدورُ فيها ثَوْر، لكانَ ذلك أقربَ إلى ٱلتصديقِ مِن ٱستقرارِ ٱلعقلِ في رأس هذا ٱلأبله؟...

فٱحْتَدَمَ[1] ٱلآخرُ وهمَّ أنْ يقول: «مِمَّا حفظْناه»، ولكنِّي أسكتُّهُ وقلْتُ (لِلنابغة): إنَّك دائماً في دروةِ ٱلعالم، فلا غَرَوَ أنْ ترى ٱلمحيطَ ٱلأعظمَ ساقية. «والنوابغُ» هم في أنفسِهم نوابغ، ولكنَّهم في رأي ٱلناسِ مَرْضَى بمرضِ ٱلصعودِ ٱلخياليِّ إلى ذِروةِ ٱلعالم. ومن هذا يكونُ ٱلمجانينُ همُ ٱلمرضى بمرضِ ٱلنزولِ ٱلحقيقيِّ إلى حضيضِ ٱلآدميَّة؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهم من أعمالِهم، ثُمَّ تكونُ عقولُهُم من أفكارِهم، فيكونُ هذا هو ٱلجنونَ في عقولِهِم، وذلك معنى ٱلحديث: «إنَّما ٱلمجنونُ ٱلمقيمُ على معصيةِ ٱلله».

قالَ (ٱلنابغة): لَعَمْرِي إنَّ هذا هو ٱلحقّ؛ فنبوغُ العقلِ مَرضٌ من أمراضِ ٱلسموِّ فيه؛ فٱلشاعرُ ٱلعظيمُ مجنونٌ بِٱلكونِ ٱلذي يتخيَّلُهُ في فكرِه، وٱلعاشقُ مجنونٌ بكونٍ آخرَ لَهُ عينانِ مكحولتان؛ والفيسلوفُ مجنونٌ بٱلكوْنِ ٱلذي يَدأبُ في معرفتِه؛ ونابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين مجنون... لا. لا. قد نسينا ا. ش، فهو مجنون، وس. ع فهو مجنون.

وكلُّ ٱلناسِ مجنونٌ بليلَى وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكَ

ومن حقِّ لَيلى ألّا تقرَّ لهم، إذْ هي لا تقرُّ إلَّا لِنابغة ٱلقرنِ ٱلعشرينَ وحدَه؛ وما أعجبَ سِحرَ ٱلمرأةِ في ٱلكونِ ٱلنفسانيِّ لِلرجال! أمَّا في ٱلكونِ ٱلحقيقيِّ فهي أنثى كإناثِ ٱلبهائمِ ليسَ غير. وأعقلُ ٱلرجالَ مَنْ كانَ كٱلحِمارِ أوِ ٱلثورِ أو غيرِهما

---

(١) احتدم: استشاط غضباً.

من ذكورِ ٱلبهائم. فٱلحِمارُ لا يعرفُ ٱلحِمارةَ إلَّا أنها حِمارة، وٱلثورُ لا يعرفُ ٱلبقرةَ إلَّا أنَّها بقرة؛ ولا ينظمون شعراً، ولا يكتبون «أوراق الورد»... وإناثُ ٱلبهائم أُمَّاتٌ[1] لا غير، ولكنَّ ٱلعجيبَ أنَّ ذكورتَها ليسَتْ آباءً؛ فهذه ٱلذكورةُ طُفَيليةٌ في ٱلدنيا، وٱلطفيليُّ لا يأكلُ إلَّا بحيلةٍ يحتالُ بها، فيكونُ صاحبَ نوادرَ وأضاحِيكَ وأكاذيب. ولِهذا كانَ عِشْقُ ٱلرجالِ لِلنساءِ ضُروباً مِنَ ٱلخِداعِ وٱلأكاذيبِ وٱلأضاحيكِ وٱلحِيَلِ وٱلغَفْلةِ وٱلبلاهة؛ وإذا نظرْنا إليهِ من أولِهِ فهو عِشْق، أمَّا آخرُهُ فهو آخرُ ٱلحِيْلةِ وٱلأُكذوبة، وهو قولُ ٱلطفَيليِّ: قد شبعْتُ وقد رَوْيت.. ويْحَكم، أين أولُ ٱلكلام؟

قلْنا: أولُهُ ما أعجبَ سِحرَ ٱلمرأةِ في ٱلكونِ ٱلنفسانيِّ للرجال!.

قال: نعم هذا هو. إنَّهُ سِحرٌ لا أعجبَ منه في هذا ٱلكونِ ٱلنفسانيِّ إلَّا سحْرُ ٱلذهب؛ فلو مُسِخَتِ ٱلمرأةُ ٱلجميلةُ شيئاً مِنَ ٱلأشياءِ لَكانَتْ سبيكةَ ذهبيةً تلمع؛ ولِهذا يُوجِدُ ٱلذهبُ ٱللصوصَ في الدنيا، وتُوجِد ٱلمرأةُ الجميلةُ لصوصاً آخرين، فيجبُ أنْ يُصَانَ ٱلذهبُ وأنْ تُصانَ[2] ٱلمرأة.

قلْت: ولكنْ أليسَ مِنَ ٱلمالِ فِضَّةٌ، وهي تُوجِدُ ٱللصوصَ كٱلذهب؟

قال: نعم، وفي ٱلنساءِ كذلك فِضَّةٌ، وفيهن ٱلنُّحاس؛ ولو أنتَ ألقيْتَ ريالاً في ٱلطريقِ لأحدثْتَ معركةً يختصِمُ فيها رجلان، ثُمَّ لا يذهبُ بِٱلريالِ إلَّا ٱلأقوى، ولو تركْتَ قِرشاً لتَضاربَ عليهِ طِفلان، ثُمَّ لا يفوزُ بِهِ إلَّا مَنْ عَضَّ الآخر...

ولكنَّ (فُورد) ٱلغنيَّ ٱلأمريكيَّ ٱلعظيمَ ٱلذي يجمعُ يدَهُ على أربعمائةِ مليون جنيه، لا يتكلمُ عنِ ٱلقِرش؛ و(نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) ٱلذي يملُك (ليلَى)، لا يتكلَّمُ عن غيرِها من قروشِ ٱلنساء...

قلْت: فإنِّي أحسُبك أعلمْتَني أنّ ٱسمَها فاطمةُ لا ليلى.

قال: هل يستقيمُ ٱلشعرُ إذا قلْت: وكلُّ ٱلناسِ مجنونٌ بفاطمة، وفاطمُ لا تقرُّ لهم؟ قلْت: لا.

قال: إذن فهي (ليلى) لِيستقيمَ الشعر... أمَّا حين أقول: أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلّل، فهي فاطمة لِيصحَّ ٱلوزن.

---

(١) جمع يقال في غير العاقل، أمات، وفي العاقل: أمهات.
(٢) تصان: تحفظ.

قلْت: يُشْبِهُ - واللهِ - ألّا يكونَ اسمُها ليلى ولا فاطمة؛ وإنَّما هي تسمى حَسَبَ الوزنِ والبحر، فٱسمُها فَعُولُنْ أو مُفَاعَلَتن. . .

* * *

ثُمَّ قلْنا لَه: فما رأيُك في ٱلحبِ، فإنَّهُ لَيُقال: إنَّكَ أعشقُ ٱلناسِ وأغزلُ ٱلناس؟

قال: إنَّ ذلك لَيقالُ (وهو الأصح)، ثُمَّ أطرقَ يفكِّر. وبدا عليهِ أنَّهُ مَدهوشٌ ذاهبُ ٱلعقل، كأنَّهُ من قلبِه على مسافةٍ أبعدَ مِنَ ٱلمسافةِ ٱلتي بينَهُ وبينَ عقلِه. وخُيلَ إليَّ أنَّ ٱلنساءَ قد حُشِرْنَ[1] جميعاً في رأسِه، ومرَّتْ كلُّ واحدة تعرضُ مفاتِنَها وغَزلَها، وتُلائِمُ هَذَيَانَهُ بهذيانٍ[2] من جمالِها، فهو يرى ويسمعُ ويَعْرِضُ ويَتخيَّرُ. ثُمَّ ٱضطربَ كالّذي يُحاولُ أن يُمسكَ بشيءٍ أفلتَ منه؛ فلم ينبِّهْهُ إلَّا قولُ ٱلمجنونِ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه» أنَّ أعرابيةَ سئلَتْ عنِ ٱلعشقِ فقالَتْ: إنَّهُ داءٌ وجنون. . .

قال: اسكتْ يا ويلكَ لقد أطفأْتَ ٱلأنوارَ بكلمتِكَ ٱلمجنونة. كانَ في رأسي مرقصٌ عظيمٌ تسطعُ الأنوارُ فيهِ بينَ ٱلأحمرِ وٱلأخضرِ وٱلأبيض؛ وترقُصُ فيهِ ٱلجميلاتُ مِنَ ٱلطويلةِ وٱلقصيرةِ وٱلممشوقةِ وٱلبادِنة، فجئْتَ بٱلداءِ وٱلجنونِ - قَبحَكَ ٱللَّهُ - فأخرجْتَني عنهنَّ إليك. أحسبُ أنّك لوِ ٱنتحرْتَ لَصَلُحَ ٱلعالَمُ أو صلُحْتُ أنا على الأقل. . . فإذا أردْتَ أنْ تشنُقَ نفسَكَ فأنا آتيكَ بٱلحبلِ ٱلذي كنْتُ مقيَّداً فيهِ أي ٱلحبلِ ٱلذي عندي في ٱلدار. . على أنَّ رأسَك ٱلفارغَ مشنوقٌ فيك وأنت لا تدري.

قالَ ٱلآخر: ما أنت مُنذُ ٱليوم إلّا في شنقي وتعذيبي أو في شنقِ عقلي (على الأصح). «ومِمَّا حفظْناه» قولُ ٱلأحنفِ بْنِ قَيس: إنِّي لأُجالِسُ ٱلأحمقَ ساعةً فأتَبَيَّنُ ذلك في «عقلي». . .

فلم يَرُعْنا إلَّا قِيامُ ٱلمجنونِ مُسَلَّحاً بحذائِهِ في يدِه. . . وهو حِذاءٌ عتيقٌ غليظٌ يقتلُ بضربةٍ واحدة؛ فحُلْنا بينَهما وأثبتْناهُ في مكانِه. وقُلْنا: هذا رجلٌ قد غُلِبَ على عقلِهِ فلا يدري ما يقول؛ فإذا هو دلَّ على أنَّهُ مجنون، أفلا تَدُلُّ أنت على أنَّكَ عاقل؟ ما سألْنَاكَ في ٱنتحارِهِ وجنونِه، بلْ سألْنَاكَ رأيَكَ في ٱلحبّ؛ وما نشُكُّ أنَّك قد أطلْتَ ٱلتفكيرَ لِيكونَ ٱلجوابُ دقيقاً، فإنَّك (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فٱنظرْ أنْ يكونَ ٱلجوابُ كذلك.

---

(١) حُشِرْن: جمعْن. (٢) الهذيان: الجنون.

قال: نعم إنْ ٱلعاقلَ إذا وَرَدَ عليهِ ٱلسؤالُ أطالَ ٱلفكرَ في ٱلجواب. فٱكتبْ يا فلان (س. ع):

(جلس نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ مجلسَ ٱلإملاءِ مُرتجِلاً فقال: قصةُ ٱلحبِّ هي قصةُ آدم، خلقَ ٱللَّهُ ٱلمرأةَ من ضِلْعِه. فأولُ علامات ٱلحُبِّ أنْ يشعرَ ٱلرجلُ بالألم كأنَّ ٱلمرأةَ ٱلتي أحبَّها كسَرَتْ لَهُ ضِلْعاً... وكلُّ قديم في ٱلحُبِّ هو قديمٌ بمعنًى غيرِ معقول، وكلُّ جديدٍ فيهِ هو جديدٌ، بمعنًى غيرِ مفهوم؛ فغيرُ ٱلمعقولِ وغيرُ ٱلمفهوم هو ٱلحُبّ.

وٱلجمرةُ ٱلحمراءُ إذا قِيل إنَّها ٱنطفأَتْ وبقيَتْ جمرةً فذلك أقربُ إلى ٱلصدقِ من بقاءِ ٱلحُبِّ حيًّا بمعناهُ ٱلأولِ إذا انطفأ أو بَرَدَ.

والعاشقُ مجنون. وجنونُهُ مجنونٌ أيضاً، فهو كٱلذي يرى ٱلجمرةَ منطفئةً، ويرى معَ ذلك أنَّها لا تزالُ حمراء، ثُمَّ يُمْعِنُ في خيالِهِ فيراها وردةً مِنَ ٱلورد... وإذا سألْتَهُ أنْ يصِفَ ٱلجمالَ ٱلذي يهواهُ كانَ في ذلك أيضاً مجنونَ ٱلجنونِ، كٱلذي يرى قمرَ ٱلسماءِ أنَّهُ قد تفتَّتَ وتناثَرَ ووقَعَ في ٱلروضةِ، فكانَ نِثارُهُ هو ٱلياسمينَ ٱلأبيضَ ٱلجميلَ ٱلذكي..

وٱلمجنونُ يرى ٱلدنيا بجنونِهِ وٱلعاقلُ يراها بعقلِه؛ ولكنَّ ٱلعاشقَ ٱلمخبولَ لا ينظرُ مَنْ يهواهُ إلَّا ببقيَّةٍ من هذا وبقيَّةٍ من ذلك، فلا يخلُصُ معَ حبيبهِ إلى جنونٍ ولا عقل.

(وٱلمجهولُ) إذا أرادَ أنْ يَظهرَ في دِماغِ بشَريٍّ لم يسعْهُ إلَّا أحدُ رأسين: رأسِ ٱلمجنون ورأسِ ٱلعاشق...

ولا صعوبةَ في ٱلحكم على شيءٍ بأنَّهُ خيرٌ أو شرٌّ إلَّا حينَ يكونُ ٱلخيرُ وٱلشرُّ ٱمرأةً معشوقة. أمَّا أوصافُ ٱلشعراءِ وٱلكُتَّابِ لِلجمالِ وٱلحُبِّ فهي كلُّها تقليدٌ قد توسَّعوا فيه؛ وٱلأصلُ أن ثوْراً أحبَّ بقرةً فكانَ يقولُ لها: يا نجمةَ ٱلقُطْبِ ٱلتي نزلَتْ مِن ٱلسماءِ لِتدورَ في ٱلساقيةِ كما دارَتْ في ٱلفَلَك.

قالَ (ٱلنابغة): هذا رأيي في حبِّ ٱلعاشقين؛ أمَّا حُبِّي أنا (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين) فيجمعُهُ قولُك: فلّ، ورد، زهر...

قلْنا ما هذه ٱلألغاز؟ وهلْ لِلحُبِّ مَتْنٌ كقولِهم: حروفُ ٱلقَلْقَلَةِ يجمعُها قولُك (قطْبُ جَدٍ)، وحروفُ الزيادةِ يجمعُها قولك (سألتمونيها)؟

فتضاحَكَ (النابغة)، وقال: تكاثَرَتِ ٱلظِّباءُ على خَراش، فلكيلا ننسى... إنَّ كلَّ حرفٍ هو بدءُ ٱسم، الفاء فاطمة، وٱللام ليلَى، وٱلواو وردة، وٱلراء رباب، وٱلدال دلال، وٱلزاي زكيَّة، وٱلهاء هِنْد، وٱلراء رَباب...

قلْنا: ربابُ قد مضَتْ في (ورد).

قال: كنَّا تَهاجَرْنا مدةً ثُمَّ ٱصطلَحْنَا بعَد هند...

* * *

قلْت: هكذا «ٱلنوابغ» فإنَّ رجلاً أديباً كانَتْ كُنيتُه (أبا العباس) فلما «نبغ» صَيَّرها (أبا العَيْر)[1] وفَتقَ لَهُ نبوغُهُ أنْ يجعلَها تاريخاً يَعرفُ منها عمرَه. قالوا فكان يزيدُ فيها كلَّ سنةٍ حرفاً حتى ماتَ وهي هكذا:

أبو العَيرِ طَآَدْ طِيل طَلِيري بَك بَك بَك...

* * *

(١) العير: الحمار.

المجنون

٥

ثمَّ إنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) ٱستخفَّهُ ٱلطربُ لِذكرِ صواحبِهِ وجميلاتِهِ من فاطمةَ إلى رَباب؛ ومن طبعِ ٱلمجنونِ أنَّهُ إذا كَذَبَ صَدَّقَ نفسَه، فإنَّ قوَّةَ ٱلضبطِ في عقلِهِ إمَّا معدومةٌ وإما مختلَّة؛ وكلُّ وجهٍ تَخَيَّلُ منه خَيالا فهو وجهٌ من وجوهِ ٱلعِلْمِ عندَه، إذْ كانَ عالَمُهُ أكثرُهُ في داخلِهِ لا في ٱلعالَم، فإذا توهَّمَ أو أحسَّ أو شَعَرَ، فإنَّما يكونُ ذلك بطريقتِهِ هو لا بِطريقةِ ٱلناسِ ٱلعُقلاء؛ فليسَ يَحتملُ عقلُهُ إلَّا فِكْرةً واحدةً تمضي منفرِدَةً بنفسِها مستقلةً بِمعناها كأنَّها قَدَرٌ غالبٌ على جميعِ أفكارِهِ ٱلأخرى، فلا شأنَ لها بٱلواقع، ولا شأنَ لِلواقعِ بها، وإنَّما هي تُحقِّقُ معناها كما تَخْطُرُ لَه، لا كما تتمثَّلُ فيها حولَه.

فبينَ كلِّ مجنونٍ وبينَ ما حولَهُ دِماغُهُ ٱلمُتَدجِّي[1] بالغُيومِ ٱلعقليَّة، لا تزالُ تَعْرِضُ لَهُ ٱلغيمةُ بعدَ ٱلغيمةِ مِنِ ٱختلالِ بعضِ ٱلمراكزِ ٱلعصبيَّةِ فيه، وفسادِ أعمالِها بهذا ٱلاختلال، وقِيامِ ٱلطبيعةِ فيها على هذا ٱلفساد.

ومن ذلك تنقلبُ ٱلكلمةُ مِنَ ٱلكلام، وإنَّها لَحادثةٌ تامَّةٌ في عقْلِ ٱلمجنونِ كٱلقصةِ ٱلواقعةِ لها زمانٌ ومكانٌ، وبَدْءٌ ونِهاية، لا يُخامِرُهُ فيها ٱلشَّكّ، ولا يَعْتريها ٱلتكذيب؛ وكيف وهي قائمةٌ في ذِهنِهِ من وراءِ سمعِهِ وبصرِهِ قيامَ ٱلحقيقةِ في ٱلأَبصارِ وٱلأَسماع؟

ولِحواسِّ ٱلمجنونِ جِهتَانِ في ٱلعمل، لأنَّها بينَ كَوْنَينِ؛ أحدُهما ٱلكونُ ٱلخَرِبُ ٱلذي في دِماغِه؛ وفي هذا يقول (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين): إنَّ في داخلِ عينيهِ مِنظاراً يرى بِهِ ٱلأَشياءَ في غيرِ حقائقِها، أي في حقائقِها. .

وحدَّثنا ٱلدكتورُ محمدٌ ٱلرافعيُّ قال: إنَّ في دارِ ٱلمجانينِ بمدينةِ ليون بفرنسا

---

(١) المتدجّي: المظلم.

نابغةً كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، ذُكِرَتْ أمامَهُ قيصرةُ روسيا وخَبَرُ مقتلِها، فأحفظَهُ[1] هذا وأرْمَضَهُ[2] وقالَ يا ويْحَهم! كَذَبوا عليها وعليَّ. فسألهُ الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كانَ من خبر ٱلقيصرةِ أنَّها رأتْني فأحبَّتْني، وعَلِمَتْ من كلِّ وجهٍ يُمكنُ أنْ يُعْلَمَ منه قلبُها أنّي أنا رجلُها لا ٱلقيصر؛ فما زالَتْ بعدَها تُناكِدُ[3] ٱلقيصرَ وتَلْتَوِي عليهِ ولا تصلُحُ لَهُ في شيءٍ حتى يَئِسَ منها فطلَّقها، فحملَتْ كنوزَها وحِلاها ولَجأَتْ إلى حبيبها، ثُمَّ تَبِعَتْها نفسُ ٱلقيصرِ ولم يُطِقِ ٱلعيشَ بعدَها فأنتحر. . . ثُمَّ طَلبَها ٱلشيوعيون لِمَا معها من كنوزٍ، فأخفاها هو في مكانٍ حريزٍ[4] لا يعلمُهُ إلَّا هو؛ ثُمَّ إنَّهُ هو لا يصلُ إلى هذا ٱلمكان ٱلذي أحرزَها فيهِ إلَّا إذا نام. . كيلا يراهُ أحدٌ مِنَ ٱلشيوعيِّين فيتعقَّبَهُ فيعلمَ مقرَّها؛ ولِهذا كانَ مِنَ ٱلحِكمةِ أنْ ينسى ٱلمكانَ إذا ٱستيقظ. . فقد يَزِلُّ مرةً فيُخبِرُ بهِ أو يغلبُهُ ٱلشوقُ مرةً على «عقلِه». . فيذهبُ إليه؛ فعسى أنْ يراهُ مَنْ يَنِمُّ بذلك، فتُفتَضحَ ٱلحبيبةُ وتُؤخَذُ منه.

قال: وإنَّ ٱلقيصرةَ هي تحتاطُ أيضاً مثلَ ذلك فتُراسلُهُ كلَّ يوم باللاسلكيّ رسائلَ تقعُ مِنَ ٱلجوِّ في دِماغِهِ فيقرؤُها وحدَه، وإنَّ أخوفَ ما يخافُهُ أنْ يغلبَها جنونُ ٱلحُبِّ يوماً فتطيشَ طيشَ ٱلمرأة، فتزورَهُ في هذا ٱلمارستان. . . فقد تُقتَلُ إذا رآها ٱلشيوعيون.

قالَ ٱلدكتور: وهاكَ (نابغةٌ) آخرُ ثبتَ في ذِهنِهِ أنَّ ٱمرأةً من أجملِ ٱلنساءِ قدِ ٱستهامَتْ[5] بهِ وأنَّها مُبتلاةٌ في حُبِّها إياهُ بجنونِ ٱلغَيْرة، وقد تَنَاهَتْ فيهِ حتى إنَّها لتقتلُ نفسَها إذا عَلِمَتْ أنَّ لِصاحِبِها هوًى في ٱمرةٍ أخرى. وخبَّلَتْهُ هذه ٱلفكرةُ، فأعتقدَ أنَّ حبيبتَهُ من جنونِ غَيرتِها واقعةٌ بينَ ٱلسلامةِ وٱلتلفَ؛ ثُمَّ توهَّمَ ذاتَ يوم أنَّ واشياً قد أعلَمَها أنَّ النساء ٱفتُتِنَّ بِهِ؛ فطارَ صوابُها، فهي آتيةٌ إليهِ في ٱلمارستَانِ لِتوبِّخَهُ وتشفِيَ غيظَها منه، ثُمَّ تنتحرَ أمامَ عينيه. . . وأدارَ (ٱلنابغةُ) ٱلفكرَ في إقناعِها لِتَعْلَمَ أنَّهُ لم يَخُنْها بٱلغيب. . فلم يهتدِ إلى مَقْنَعٍ تَسْتَيْقِنُ بِهِ ٱلمرأةُ أنْ لا أرَبَ لِلنساءِ فيهِ إلَّا أنْ. . . فعلَ وَجَبَّ خِصْيَتيهِ بيدِهِ لِيقدِّمَهما بُرهاناً أنَّهُ لها وحدَها. . . .

* * *

(١) أحفظه: أغضبه.
(٢) أرمضه: ألهبه.
(٣) تناكد: تخاصم.
(٤) مكان حريز: مصون لا يصل إليه أحد.
(٥) استهامت: عشقت.

قلْنا: وطَرِبَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) لِذكرِ صواحبِهِ وجميلاتِه، فجعلَ يترنَّمُ بهذا الشعر:

قالوا جُنِنْتَ بِمَنْ تهوَى فقلْتُ لهمْ ما لـذَّةُ ٱلعـيشِ إلَّا لِلْـمجانـين

فقالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه»: ما لذَّةُ «الخبز» إلَّا لِلمجانين...

فضحكَ (ٱلنابغة): وقال: ما أسخَفَكَ مِنْ أحمق. إذا كانَ هذا هو ٱلمعنى فَقُلْ: ما لذَّةُ (ٱلكعكِ). ألم أقلْ لكم إنَّ هذا ٱلأبلهَ لو تَهَجَّأَ كلمةَ خبزٍ قالَ إنَّها ل. ح. م. ولو تهجأ كلمةَ لحم لقال ف. و. ل...

إنَّهُ طِفلٌ عُمرُهُ ثلاثونَ سنةً وفيهِ دائماً غضبُ ٱلطفلِ ونَزَقُهُ[1] وحماقتُه، وفيهِ كذلك سُرورُ ٱلطفلِ وطيشُهُ وأحلامُه؛ غيرَ أنَّهُ ليسَ فيهِ عقلُ ٱلطفل.. وهو مِنَ ٱلضعف، وشِدَّة ٱلحاجةِ إلى ٱلعِنايةِ في حياطتِهِ وسياستِهِ وٱلبِرِّ بهِ كطفلٍ صغير - بحيث يُخيَّلُ إليَّ أحياناً أنَّني أُمُّه..

قلْنا: وتنَسى في هذِهِ ٱلحالةِ أنَّك رجل؟

قال: وأنتم كذلك تتَّهمونني بٱلنسيان، وهو شَرْعاً جِهةٌ مُلزِمَةٌ لِلْحكم بٱلجنونِ فما ٱلنسيانُ إلَّا ٱلكلمةُ ٱلأخرى لِمعنى ضعفِ ٱلعقل؛ وضعفُ ٱلعقلِ هوَ ٱللفظُ ٱلآخرُ لِمعنى جنوني؛ وقد أعلمْتُكم ما أكرَهُ مِنَ ٱلكلام.

قلْتُ: لا، ٱلنسيانُ لا يكونُ منكَ نسياناً بمعناهُ في ٱلمجانين، بلْ بمعناهُ فيك أنت من تواثُبِ ٱلأفكارِ ٱلنابغةِ وتزاحُمِها في تَوارُدِها على ٱلعقل. فإذا تواثَبتْ وتزاحمَتْ كانَ أمرُها إلى أنْ يُنسيَ بعضُها بعضاً، فلا ينطلقُ منها إلَّا ٱلقويُّ ٱلنابغُ حقَّ نبوغِه، فيجيءُ كٱلمنقطعِ مِمَّا قبلَه؛ فيُحْسَبُ ذلك نِسياناً وما هو بِهِ. وقد تصطلِحُ ٱلأَفكارُ في هذه ٱلمعركةِ ٱلذهنيَّةِ إذا كانَ ٱلنابغةُ مسروراً مَحبوراً يرقصُ طرَباً.. فيكونُ أمرُها إلى أنْ تجيءَ كلُّها معاً على ٱختلافِ معانيها وتناقضِها؛ فيُحْسَبُ ذلك ضَرْباً مِنَ ٱلذهولِ عندَ مَنْ يجهلُ ٱلعِلَّةِ «النبوغيَّة»؛ وعذرُهُ جهلُ هذه ٱلعِلَّة، وهي في دلالةِ ٱلعقلِ ليسَتْ نِسياناً ولا ذُهولاً.

قال: فأَعْلِمْني كيف نِسيانُ ٱلمجانين، فقد خَفِيَ عليَّ أنْ أُدركَ هذا ٱلأمرَ ٱلعجيبَ فيهم، ولسْتُ أدري كيف يفوتُهم ما ٱستدنى لهم مِنَ ٱلفكرِ بعدَ أنْ يكونَ قدِ ٱستقرَّ وحَصَلَ في عقولِهم؟

---

(١) نزقة: طيشه.

قلت: لا يكونُ ٱلنسيانُ تُهمةً بِٱلجنونِ إلّا في أحوالٍ ثلاثٍ، جاءَتْ بكلِّها ٱلروايةُ ٱلصحيحةُ ٱلمحفوظة:

فأمَّا ٱلأولى: فما يُروَى عن رجلٍ كان سَرِيًّا غنيًّا وعُمِّرَ حتى أدركَهُ ٱلخرَف؛ فجاءَهُ كاتبُهُ يوماً يستعينُهُ على تجهيز أمِّهِ وقد ماتت، فدفعَ إلى غلامٍ لَهُ دنانيرَ يشتري بها كفناً، ودنانيرَ أخرى يتصدَّقُ بها على ٱلقبر، ثُمَّ قالَ لغلامٍ آخر: اِمضِ إلى صاحبِنا وغاسِلِ موتانا فلانٍ فٱدْعُهُ يغسِّلُها. قال ٱلكاتب: فٱستحييْتُ منه وقلت: يا سيدي اِبعثْ خلفَ فلانةٍ وهي جارَةٌ لنا تغسِّلُها. قالَ: يا فلان: ما تدعُ عقلَكَ في حزْنٍ ولا فرح. كيف نُدخِلُ عليها مَنْ لا نعرفُه؟

قالَ ٱلكاتب: نعم تأذَنُ بذلك. قال: لا ـ واللّهِ ـ ما يغسلُها إلّا فلان.

فضاقَ ٱلكاتبُ بهذا ٱلحمقِ وقال: يا سيدي كيف يغسلُ رجلٌ ٱمرأة؟

قال: وإنَّما أمُّك ٱمرأة؟. . ـ واللّهِ ـ لقد أُنسِيْت. .

وأمَّا ٱلحالةُ ٱلثانية: فما يُروى عن رجلٍ كان نائماً في ليلةٍ باردةٍ فخرجَتْ يدُهُ مِنَ ٱلفراش فبردَتْ، فأدناها إلى جسدِهِ وهو نائم فأحسَّ بردَها فأيقظته، فٱنتبهَ فَزِعاً فقبضَ عليها بيدِهِ ٱلأخرى وصاح: ٱللصوص. ٱللصوص. . هذا ٱللصُّ قد قبضْتُ عليه، أدركوني لِئلّا تكونَ في يدِهِ حديدةٌ يضربُني بها، فجاءوا بِٱلسراجِ فوجدُوهُ قابضاً بيدِهِ على يدِهِ وقد نسيَ أنَّها يدُه. . .

وأمَّا الثالثةُ: فهي روايةٌ عن رجلٍ قد وَرِثَ نِصْفَ دار، ففكَّرَ طويلاً كيف تخلُصُ ٱلدارُ كلُّها لَهُ ثُمَّ ٱهتدى إلى الوسيلة؛ فذهبَ إلى رجلٍ وقالَ لَه: أُريدُ أنْ أبيعَكَ حِصَّتي مِنَ ٱلدارِ وأشتريَ بثمنِها ٱلنصفَ ٱلباقي لِتصيرَ ٱلدارُ كلّها لي. . .

* * *

قالَ (ٱلنابغة): لَعَمْري إنَّ هذا لهو ٱلجنون، وما يُذْكَرُ معَ هؤلاءِ مجنونُ ٱلمتنِ ولا «غيرُه». . .

فقالَ ٱلآخر: «تاللّهِ لولا أنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) يرفعُ نفسَهُ عنِ ٱلجنونِ لَجاءَ في ٱلجنونِ بِما يُذهِلُ «العقول». . .

ثُمّ نظرَ فإذا ٱلنابغةُ يتحفَّزُ[1] له. . . فأسرعَ يقول: «مِمَّا حفظْناهُ» كُنْ حذراً

---

(١) يتحفز: يستعدّ.

كأنَّك غِرٌّ، وكُنْ ذاكراً كأنَّكَ ناسٍ. فهذا هو نِسيانُ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، نِسيانُ حكماءَ لا نِسيانُ مجانين.

قالَ (ٱلنابغة): ولكنْ قدْ فسدَ قولُ ٱلشاعر: ما لذَّةُ ٱلعيشِ إلَّا لِلمجانين؛ فما بقيَتْ مَعَ ٱلجنون لذَّة.

قلْت: إنَّ ٱلشاعرَ لا يُريدُ ٱلمجانينَ ٱلذين هم مجانينُ بٱلمرض، وإنَّما يُريدُ ٱلعشاقَ ٱلمجانينَ بٱلجمال؛ وجنونُ ٱلعاشقِ في هذا ٱلبابِ كعيوبِ ٱلعظماءِ من أهلِ ٱلفنّ، وهي عيوبٌ تُدافِعُ عن نفسِها بحَسَنَاتِ ٱلعظمة، فليسَتْ كغيرِها مِنَ ٱلعيوب.

قال: فيجبُ أنْ أصنعَ بيتاً آخرَ يفسِّرُ ذلك ٱلشعرَ لِيستقيمَ ليَ ٱلتمثُّلُ بهِ، ثُمَّ فكَّرَ وهمْهمَ، ثُمَّ كتبَ في ورقةٍ ثُمَّ طواها وقال: اِصنعْ أنت أولُ، وسأئتمنُ س. ع. على عشري ودفعَ إليهِ ٱلورقة:

فنظرْتُ وقلْتُ: يجبُ أنْ يكونَ ٱلشعرُ هكذا:

قالوا: جُنِنْتُ بِمَنْ تهوى فقلْتُ لهم	ما لذَّةُ ٱلعَيشِ إلَّا لِلمجانينِ
العَقلُ إنْ حَكمَ ٱلعُشَّاقَ أثقلُ من	فقرٍ تحكَّمَ في رِزْقِ ٱلمساكينِ

ونشر س. ع. ٱلورقةَ فإذا فيها:

قالوا: جننْتَ بِمَنْ تهوى فقلْتُ لهم	ما لذَّةُ ٱلعيشِ إلَّا لِلمجانينِ
إنَّ ٱلعيوبَ عنِ ٱلمجنونِ دافعةٌ	بأنَّهُ «نابغٌ في ٱلقرنِ ٱلعشرين»...

وضحكْنا جميعاً؛ فقالَ ٱلنابغة: أبعدَكَ ٱللَّهُ يا س. ع. إنَّ مَنِ ٱئتمنَ ٱلمجنونَ على سرٍّ وقالَ لَهُ ٱكتمْهُ فكأنما قال له: ٱنشرْه...

ثُمَّ قال: وَدِدْتُ - وٱللَّهِ - أنْ يكونَ س. ع. هذا «نابغة»، ولكنّي سأجعلُهُ نابغة، فقد صارَ لَهُ عَلَيَّ حقُّ ٱلصديقِ وهو حقٌّ لا أُضيِّعُهُ ولا أُخِلُّ بهِ. فإذا ٱحتجْتَ يا س. ع. إلى خِطابٍ رنانٍ تُلقيهِ في حَفْلٍ عظيم، أو قصيدةٍ تمدحُ بها وزيرَ ٱلمعارف، فٱلجأْ إليَّ فإنِّي مَلْجأٌ لك. ومتى ٱنتحلْتَ شِعري كنْتَ عندَ ٱلناسِ ٱلمتنبي أوِ ٱلبحتري. أوِ ٱبْنَ ٱلرومي، فإنَّ هؤلاءِ ٱلقُدامى لم ينفعْهم إلَّا أنَّني لم أكنْ فيهم، ولمَّا لم أكنْ فيهم أعجبوا ٱلناس إذا أنَّني لم أكنْ فيهم...

قلْنا فما حُكمُك عليهم في ٱلأدب؟

قال: إذا حكمْتُ عليهم فقدْ جعلْتُ نفسي بينهم، . فمِنَ ٱلطبيعيِّ ألّا يُعجبَني منهم أحد. إنَّ «نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين» لا يقولُ لِمعنًى هذا أحسنُ، فإنَّهُ هو فوقَ

ٱلأحسن، ولا يقولُ عن نابغةٍ هذا أشهر، فإنَّهُ هو فوقَ ٱلأشهر.

قلْت: كأنَّ ٱلدنيا تحتَ قدميك وأنت فيها ٱلزاهدُ ٱلعظيمُ ٱلذي لا يقولُ في حُسنِ هذا أحسنُ لِأنَّهُ فوقَ ٱلشهوة، ولا في نعيم هذا أطيبُ لِأنَّهُ فوقَ ٱلطمع، ولا في مالٍ هذا أكثرُ لِأنَّهُ فوقَ ٱلحِرْص. وأحسُبك لَو كنْتَ تَرعى غنماً لَكنْتَ ٱلحقيقَ في عصرِنا بقولِ تلك ٱلراعيةِ ٱلزاهدة: أصلحْتُ شأني بيني وبينَهُ فأصلَح بينَ ٱلذئبِ وٱلغنم.

قال: وكيف ذلك؟

قلْت: حُكِيَ عن بعضِ ٱلصالحينَ أنَّهُ فكَّرَ ذاتَ ليلةٍ فقالَ في نفسِه: يا ربّ. مَنْ زوجتي في ٱلجنَّة؟ فأُرِيَ في منامِهِ ثلاثَ ليالٍ أنَّها جاريةٌ سوداءُ في أرضِ كذا. فجاءَ تلكَ ٱلأرضَ فسألَ عنِ ٱلجارية، فقالَ لهُ رجلٌ ما هذا؟ تسألُ عن جاريةٍ سوداءَ مجنونةٍ كانَتْ لي فأعتقْتُها؟ قالَ وماذا رأيْتُم من جنونِها؟ قال: كانَتْ تصومُ ٱلنهارَ فإذا أعطيْنَاها فَطُورَها تصدقَتْ بهِ، وكانَتْ لا تهدأُ ٱلليلَ ولا تنامَ فضجرْنا منها.

قال: فأين هي؟ قالَ ترعى غنماً لِلْقوْمِ في ٱلصحراء:

فذهبَ إلى ٱلصحراءِ فإذا هي قائمةٌ في صلاتِها، ونظرَ إلى ٱلغنم فإذا ذئبٌ يدلُّها على ٱلمرعى وذئبٌ يسوقُها. فلمَّا فرغَتْ من صلاتِها سلَّمَ عليها فأنبأتْهُ أنَّهُ زوجُها في ٱلجنَّةِ وأنبأَها أنَّهُ بُشِّرَ بها؛ ثُمَّ سألَها ما هذهِ ٱلذئابُ مَعَ ٱلأغنام؟ قالَت: نعمْ أصلحْتُ شأني بيني وبينَهُ فأصلحَ بينَ ٱلذئبِ وٱلغنم.

قالَ (ٱلنابغة): هذا كذبٌ لِأنَّهُ عجيب، وهو عجيبٌ لِأنَّهُ كُذب.

قلْت: وأيُّ عجيبٍ في هذا؟ إنَّ ٱلذئبَ وٱلشاةَ، وٱلأسدَ وٱلغزالَ، وٱلثعبانَ وٱلعُصفور، وكلَّ آكِلٍ ومأكولٍ مِنَ ٱلأحياء، لو هي دخلَتْ في دائرةِ ٱلصلاةِ ٱلحقيقيَّةِ لٱنتظمَتْ كلُّها صَفًّا واحداً يركَعُ ويسجد. فهذهِ ٱلجاريةُ نشرَتْ رُوحَ ٱلصلاةِ وٱلتقوى على كلِّ ما حولَها من قلبِها ٱلطاهرِ ٱلمطمئنِّ بٱلإيمانِ فوقعَ ٱلذئبُ منها في دائرةٍ مغناطيسيَّة، فسُلِبَ وحشيَّتَهُ ورجعَ مُسَخَّراً لِفكرةِ ٱلصلاحِ وٱلخيرِ إذْ تجانَسَتْ فيهِ ٱلحياةُ بما حولَها، وٱنسجمَ ٱلنوعُ وٱلنوعُ في حركةٍ متجاوبةٍ ٱنسجامَ ٱلرجُلِ ٱلمغناطيسيِّ هو ومَنْ ينوِّمُهُ في إرادةٍ واحدةٍ وفكرةٍ واحدة.

قالَ (ٱلنابغة): فإذا دخلَ ٱلذئبُ مسجداً يَرْتجُ بٱلمصلِّين، أتُراهُ يَصُفُّ أربعتَهُ ويقفُ بينَهم لِلصلاة، أم يُصلِّي صلاتَهُ ٱلذئبيَّةَ في لحومِهِم؟

قلت: وأين همُ ٱلذين يُصلُّون بحقيقةِ ٱلصلاة، فيخرجون بها مِنَ ٱلنفسِ إلى ٱلكوْن، ومِنَ ٱلزمنِ إلى ٱلأبد، ومِنَ ٱلأسبابِ إلى مُسبِّبِها، ومِمَّا في ٱلقلْبِ إلى ما فوقَ ٱلقلب؟ إنَّ هؤلاءِ جميعاً يُصلّون بجوارحِهِم وبينَهم وبينَ أرواحِهِم طولُ ٱلدنيا وعرضُها؛ وما منهم إلَّا مَنْ يتَّصِلُ فكرُهُ بما يَغلبُ عليه، كما يتَّصلُ فكرُ ٱللصِّ بيدِه، وفكرُ ٱلعاشقِ بعينِه، وفكرُ ٱلطفيْليِّ بمَعدتِهِ. فٱسمُها عندهُمُ ٱلصلاة، وحقيقتُها عندَ ٱللّهِ كما ترى.

قالَ (ٱلنابغة): ولكنَّهُ ذئبٌ من طبيعتِهِ أنْ يأكلَ ٱلشاةَ لا أنْ يرعاها، فلا أفهمُ شيئاً.

وقالَ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه» رتَعَ[1] ٱلذئبُ في ٱلغنم، ولم يقولوا صلَّى ٱلذئبُ في ٱلغنم، فلا أفهمُ شيئاً.

قلت: سأزيدُكم عَدَمَ فهم... إنَّ قلبَ تلك ٱلمرأةِ ٱلعظيمةِ ٱلطاهرةِ ملتصقٌ بِٱلله، وليسَ فيهِ شيءٌ من طِباعِها ٱلإنسانيَّةِ ولا ظِلٌّ من ظِلالِ ٱلدنيا؛ وقد تجلَّى فيهِ سرُّ ٱلحياة، وهو ٱلسرُّ ٱلذي لا يطعمُ ولا يشربُ ولا يلبسُ ولا يشتهي ولا يَطمعُ في شيءٍ ولا يُحرزُ شيئاً، وإنَّما طبيعتُهُ أشواقُهُ ٱلكونيَّةُ، وٱتصالُهُ بنَفَحاتِ ٱلقوَّةِ ٱلأزليَّةِ ٱلمسخِّرةِ لِلوجودِ كلِّه. فٱنتشَرتْ هذه ٱلموجةُ ٱلكهربائيَّةُ ٱلأثيريَّةُ حولَ ٱلجاريةِ من قلبِها، وجاءَ ٱلذئبُ فَٱلتَجَّ فيها وغمرتْهُ ٱلروحانيَّةُ ٱلغالبةُ، فإذا هو يفتحُ عينَهُ على كونٍ غريبٍ قد تجلَّى ٱلسلامُ عليه، فليسَ فيهِ إلَّا قوةٌ آمرةٌ أمرَها بٱئتلافِ كلِّ شيءٍ معَ كلِّ شيء، وٱجتماعِ ٱلمتنافرَيْنَ في حالةٍ معروفةٍ لا في حالةِ إنكار. فصارَ ٱلذئبُ مستيقِظاً، ولكنَّهُ في رُوحِ ٱلنوم، وشُلَّتْ فيهِ ٱلذئبيَّةُ ٱلطبيعيَّةُ، فإذا هو يحملُ ٱلأنيابَ وٱلأظافرُ وقد أُنسيَ ٱستعمالَها؛ وبقيَتْ حركتُهُ ٱلحيوانيَّةُ، ولكنْ تعطَّلَتْ بواعثُها فبَطَلَ معناها.

ومن كلِّ ذلك ٱختفى ٱلذئبُ ٱلذي هو في ٱلذئب، وبقيَ ٱلحيوانُ حيًّا ككلِّ ٱلأحياء، فناسَبَ ٱلشاةَ وفزعَ إليها إذْ لم تكنِ ٱلعَلاقةُ بينهما علاقةَ جِسمِ ٱلآكلِ بجسمِ ٱلأكيلة، بلْ علاقةَ ٱلروحِ ٱلحيِّ بروحٍ حيٍّ مثلِه.

* * *

قالَ (ٱلنابغة): أمَّا أنا فقد فهمْتُ ولكنَّ هذا ٱلمجنونَ لم يفهم. أُكتُبْ يا س.

---

(١) رتع: أكل وشرب ما شاء في خصب.

ع: جلسَ نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ مجلسَهُ لِلفلسفةِ على غيرِ إعدادٍ ولا تمكّن، وبدون كُتبٍ ألبتة... وكانَ هذا أجمعَ لِرأيهِ وأذهَنَ لَهُ وأدعى لِأنْ يتوفَّرَ على ٱلإملاءِ بكلِّ «مواهبِهِ ٱلعقليّة»؛ ولمَّا أنْ فكرَ ٱلنابغةُ أعطى ٱلنظرَ حقَّهُ وجمعَ في عقلِهِ ٱلفذِّ جَزالةَ ٱلرأيِ إلى قوَّةِ ٱلتفنّنِ وٱلابتكار، قالَ مرتجِلاً: إنَّ فلسفةَ ٱلذئبِ وٱلشاةِ حينَ لم يأكلْها ولم تَنْطِحْه، هي بِٱلنصِّ وبِٱلحرفِ كما قالَ أستاذُ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

(حاشية) وإنَّ مجنونَ ٱلمتنِ لم يفهمْ هذه ٱلفلسفة.

فٱمتعضَ ٱلآخرُ وقالَ «مِمَّا حفظناه»:

وباتَ يقدحُ[1] طولَ ٱلليلِ فِكْرَتَهُ   وفسَّرَ ٱلماءَ بعدَ ٱلجُهْدِ بِٱلماءِ

فقالَ (ٱلنابغة): ويلكَ يا أبله! أمَا ـ واللَّهِ ـ لو كنْتَ نَفْطَوَيْهِ أو سيبوَيْهِ لَمَا كُنْتَ عندي إلَّا جَحْشَوَيْه أو بَغْلَوَيه...

لقد كنْتُ أرى ٱلكلامَ في تلك ٱلفلسفةِ طريقاً نَزِهاً جميلاً حفَّتْهُ ٱلأشجارُ وٱلأزهارُ عن جانبيه، وٱندفعَتْ في سَوَائِه (تُمبيلاتُ) ٱلأفكارِ خاطفةً كٱلبرق. فلمَّا تكلمْتَ أنت ٱنتهيْنا من سخافتِك إلى طريقٍ حجريّ تُقَعْقِعُ[2] فيهِ عرباتُ ٱلنقلِ تجرُّها ٱلبِغالُ ٱلبطيئة.

فقالَ: ٱلآخرُ وهو يعتذرُ إليه: ما أردْتُ ـ والله ـ مَسَاءَتَكَ[3] ولو أردْتُها لَقلْتُ وفسرَ ٱلماءَ بعدَ ٱلجهدِ بِٱلسبرتو... فهذا هو ٱلخطأ، أمَّا تفسيرُ ٱلماءِ بعدَ ٱلجهدِ بِٱلماءِ فهو صحيح.

قالَ (النابغة): ولكنَّهُ تفسيرٌ مُفْرِطُ ٱلسقوطِ كتفسيرِ ٱلمجانين، فهو يقولُ إنِّي مجنون.

قلْت: كلا، إنَّ تفسيرَ ٱلمجانينِ يكونُ على غيرِ هذا ٱلوجهِ، كٱلذي حكاهُ ٱلجاحظُ قال: سمعْتُ رجلاً يقول لِآخر: ضرَبْنا ٱلساعةَ زِنديقاً. قالَ الآخر: وأيُّ شيءٍ ٱلزنديقاً؟ قالَ ٱلذي يُقَطِّعُ ٱلمزّيقاً. قال: وكيف عَلِمْتَ أنَّهُ يقطِّعُ ٱلمزّيقاً؟

قال: رأيْتُهُ يأكلُ ٱلتينَ بِٱلخلِّ...

* * *

---

(١) يقدح: يُشعل ويُعمل.

(٢) تقعقع: تصدر صوت القعقعة.

(٣) مساءتك: الإساءة إليك.

المجنون

٦

تتمة

وطالَ ٱلمجلسُ بنا وبٱلمجنونين، وٱلكلامُ على أنحائِهِ يندفعُ من وجهٍ إلى وجه، ويمرُّ في معنًى إلى معنى؛ فأردْتُ أنْ أبلغَ بِهِ إلى الغايةِ ٱلتي جمعْتُ من أجلِها بين هذينِ ٱلمجنونين، بعدَ ما ٱنطلَقْنا في ٱلقولِ وٱنفتحَ ٱلقُفلُ ٱلموضوعُ على عقلِ كلٍّ منهما.

وكانَ قدْ مرّ في ٱلنديّ بائعُ رواياتٍ مترجمةٍ «بوليسيَّةٍ وغراميَّةٍ ولصوصيَّة!» يحملُ ٱلرجلُ منها مَزْبَلَةَ أخلاقٍ أوربيَّةٍ كاملةٍ لِينفضَها في نفوسِ ٱلأحداثِ من فِتيانِنا وفِتياتنا، فقلْتُ (لِنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين): أتقرأُ ٱلروايات؟ قال: لا، إلَّا مرةً واحدةً ثُمَّ لم أُعاوِدْ، إذْ جعلَتْني ٱلروايةُ روايةً مثلَها.

قلْنا: هذا أعجبُ ما مرّ بنا منذُ ٱليوم، فكيف صِرْتَ رواية؟

قال: أنتم لا تعرفون طبيعةَ ٱلنوابغ، إذْ ليسَ لكم حِسُّهُمُ ٱلمرهَفُ، ولا طبعُهُمُ ٱلمستحْكِم، ولا خصائصُهُمُ ٱلغيبيَّة، ولا خواطرُهُمُ ٱلمتعلِّقةُ بما فوقَ ٱلطبيعة.

قلْت: نعم أعرفُ ذلك؛ وما من (نابغة) إلَّا وهو بينَ عالمينِ على طرَفٍ مِمَّا هنا وطرفٍ مِمَّا هناك، فهو خرَّاجٌ ولَّاجٌ[1] بينَ ٱلعالمين؛ ولَهُ نفسٌ مركَّبةٌ تركيبَها على نواميسَ معروفةٍ وأخرى مجهولة؛ فهي تأخذُ مِنَ ٱلظاهرِ وٱلباطنِ معاً، ويحصرُها ٱلمكانُ مرةً ويُفْلتُها مرة، وتكونُ أحياناً في زمانِ ٱلأرض، وأحياناً في زمنِ ٱلكواكبِ مِنَ ٱلقمرِ فصاعداً... ولكن...

فقطعَ عليَّ وقال: أضفْ إلى ذلك أنَّ هذه ٱلعقولَ ٱلتي تَحصرُ مَنْ يسمونَهُم

---

(١) ولّاج: دخّال.

ٱلعقلاءَ في ٱلزمانِ وٱلمكان، لا تُوجِدُ أهلَها إلَّا ٱلهمومَ وٱلأحزانَ، وٱلمطامعَ ٱلسافلة، وٱلأفعالَ ٱلدنيئة، فإنَّهم يعيشونَ فوقَ ٱلتراب.

قلْت: نعم، وإذا عاشوا فوقَ ٱلترابِ فباضطرارٍ أنْ تكونَ معاني ٱلترابِ فوقَهم وتحتَهم ومِنْ حولِهِم وبينَ أيديهِم، فليسوا يقطعونَ على هذه ٱلأرضِ إلَّا عمراً ترابيًّا في كلِّ معانيهِ ولكن...

قال: وزِدْ على ذلك أنَّهم مقيَّدون تقييدَ ٱلمجانين، غيرَ أنَّ حِبالَهُم وسلاسلَهُم عقليَّةٌ غيرُ منظورة؛ وبتَغليلِهِم تغليلَ ٱلمجانينِ يسمُّونَ أنفسَهُم عُقَلاء، وأعقلُهم أثقلُهُم قيوداً، وهذا مِنَ ٱلغرابةِ كما ترى.

قلْت: نعم، أمَّا العقلاءُ بحقيقةِ ٱلعقلِ، فهمُ ٱلذين يضحكونَ على هؤلاءِ ويسخَرونَ منهم، إذْ كانوا في حالٍ كحالِ ٱلمنطلِقِ مِنَ ٱلمقيَّد، وفي موضعٍ كموضعِ ٱلمعافَى مِنَ ٱلمُبتلَى ولكن...

قالَ: وفوقَ هذا وذاك، إنَّهم لا يملكونَ ٱلسعادةَ، إذْ ليسَ لهمُ ٱلعقلُ ٱلضاحكُ ٱلساخرُ ٱلعابثُ ٱلذي خُصَّ بِهِ ٱلنوابغُ وكانَ ٱلأوحدُ فيهِ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين).

قلْت: نعم، وإذا ملكوا ٱلسعادةَ لم يشعروا بها، أمَّا (ٱلنوابغُ) فقد لا يملكونها، ولكنْ لا يفوتُهمُ ٱلشعورُ بها أبداً فيجئُهُمُ ٱلفرحُ من أسبابِهِ ومن غيرِ أسبابِهِ ما دامَ لَهُمُ ٱلعقلُ ٱلضاحكُ ٱلساخرُ ٱلعابثُ ٱلذي دأبُهُ أبداً أنْ ينسى لِيضحك، ولا قانونَ لَهُ إلَّا إرادةُ صاحبِه، على مشيئةِ صاحبِه، لِمنفعةِ صاحبَه. ولكن...

قالَ: وٱلذي هو أهمُّ من كلِّ ما سبق؛ أنَّ أعظمَ خصائصِ هذا ٱلعقلِ ٱلضاحكِ ٱلساخرِ ٱلعابثِ أنْ يطردَ عن صاحبِهِ ما لا يُحبُّ ويجنِّبَهُ أن يخسرَ شيئاً من نفسِه؛ فهو لِذلك يجعلُ حِسابَهُ معَ ٱلأشياءِ حِساباً يهوديًّا لا بدَّ فيهِ من ربحِ خمسينَ في ٱلمائة..

قلْت: نعم، وهو دائماً كٱلطفل؛ وما أظرفَ بلاهةَ ٱلطفلِ وما أجداها عليه!، إذ يضعُ بلاهتَهُ دائماً في أرواحِ ٱلأشياءِ وأسرارِها فتخرجُ بلهاءَ مثلَه، وتنقلبُ لَهُ ٱلدنيا كأنَّها أمٌّ تُضاحِكُ ٱبنَها وتُلاعبُهُ ولكن...

قال: ولكن هذا مبلغٌ لا تبلغُهُ ٱلإنسانيَّةُ إلَّا شذوذاً في أفرادِها من جبابرةِ ٱلعقولِ (كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين).

قلْت: نعم (ولكن) كيف صارَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) روايةً حينَ قرأَ ٱلرواية!

قال: هذه نكتةُ ٱلنبوغ؛ فلو أنَّ مؤلفَها كانَ نابغةً مثلَنا يتلقَّى في نفسِهِ وحيَ ٱلأثيرِ وإشاراتِ ٱلروح ٱلأعظم؛ لَعَلِمَ مِنَ ٱلغيبِ أن (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) سيقرأُ روايتَه، فكانَ يتحرَّى[1] معانيَ غيرَ معانيهِ ويتوخَّى بهذه ٱلقصةِ وضْعاً آخرَ لا تكونُ فيهِ حبيبةٌ خائنة، ولا لِصٌّ عارم، ولا قاتلٌ سَفَّاح، ولا سِجنٌ مظلم، ولا محكمةٌ تقولُ حيثُ وحيث. . .

قلْت: وما عليك من حبيبةٍ خائنةٍ في ٱلورقِ، ولِصٍّ بينَ ٱلحروفِ ٱلمطبعيَّة وقاتلٍ لا يقتلُ إلَّا كلاماً، وسجنٍ ومحكمةٍ على ٱلصحيفةِ لا على ٱلأرض؟

قال: هذه نكتةُ ٱلنبوغ، فما ٱستوعَبْتُ ٱلقصةَ حتى عمرَتْني أشخاصُها، وأُقْحِمْتُ[2] منها على هَوْلٍ هائل، فخانَتْني ٱلخائنةُ لعنَها ٱلله. . ولولا خوفُ ٱلسجنِ وٱلمحكمةِ لقَتَلْتُها أشنعَ قِتْلة، ومثَّلْتُ بها أقبحَ تمثيل. ويْحَ ٱلخائنةِ كيف ٱستمالَها ذلك ٱلدميمُ ٱلطويلُ ٱلعِملاقُ ٱلمشبوحُ ٱلعِظامِ ٱلمفتولُ ٱلعضَل؟ ولكنّي لسْتُ عملاقاً ولا مَبْنيًا بناءَ ٱلحائط، ثُمَّ كانَ مجنوناً بشهواتِهِ جنونَ ٱلفيلِ ٱلهائج، وكنْتُ في شهواتي عاقلاً عقلَ ٱلإنسان، ثُمَّ كان غنيًّا غِنَى ٱلجُهَّال، وكنْتُ فقيراً فقرَ ٱلعلماء. وٱلنساءُ؛ قبحَ ٱللَّهُ ٱلنساء. إنَّهُنَّ زينةٌ تطلبُ زينةً مثلَها وإنَّ ٱلمرأةَ لتمنحُ وجهَها لِلقردِ يُقبِّلُهُ إذا كانَ ٱلذهبُ يتساقطُ من قُبُلاتِه. أمَّا مَنْ كانَ مثلي، أموالُهُ ٱلشبابُ وٱلجمالُ وٱلعقلُ وٱلنبوغ، فهو مُفلِسٌ عندهُنَّ إفلاسَ ٱلقِرْدِ في ٱلغابة، فهو عندهُنَّ قِرْدٌ لِهذِهِ ٱلمُشابهة.

قلْت: هذا ليسَ عجيباً فإنَّ ٱللغويينَ يُجرون على ٱلشيء ٱسمَ ما يُقاربُهُ في ٱلمعنى.

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه» أنَّ اللغويين يُجرونَ على ٱلشيءِ ٱسمَ ما يقاربُهُ في ٱلمعنى. . .

فتربَّدَ[3] وجهُ (النابغة) غضباً وقال: أبي يلعبُ هذا ٱلمجنون؟ إنَّهُ يزعمُ أنَّ ٱللغويين يسمونني قِرْداً، فهاتوا ٱلقواميسَ كلَّها وٱرجعوا إلى مادة (قَرَد) ومادة (نابغة). . . سَوْأَةً عليك أيُّها ٱلصبيُّ ٱلمعمَّر. . ألَا فدعوني أؤدِّبُهُ أدبَ ٱلصِّبيانِ فإنَّ ٱللطمةَ ٱلقويَّةَ على وجهِ ٱلطفلِ ٱلمُكابرِ في حقيقةٍ تُلمِسُهُ ٱلحقيقةَ ٱلَّتي يُكابرُ فيها إذْ تُدخِلُها إلى عقلِهِ من أقربِ طريق. .

---

(١) يتحرّى: يبحث. (٢) أقحمت: أدخلت. (٣) تربّد: تلبّد.

قال ا. ش: أنت قلْت، لا هو. على أنَّكَ لسْتَ قِرْداً أبداً إلَّا عندَ ٱمرأةٍ جميلةٍ فاتنةٍ متخيّلةٍ متماجنةٍ، قد تضعُ ٱلبرذَعةَ على ظهرِ ٱلأميرِ وتجعلُهُ حِمارَها، فيُعْجَبُ ٱلأميرَ أنْ يكونَ حِمارَها. ولسْتُ قِرْداً معَ قَرَّادٍ إلى جانبِ عنزٍ وكلب.

قال: الآن علمْتُ ٱلسبب، فإنَّ ٱلخائنةَ كانَتْ متخيِّلةً مؤلِّفةَ كُتبٍ وروايات، والمرأةُ ٱلتي تُؤلِّفُ ٱلكتب، غيرُ بعيدٍ أنْ تؤلفَ ٱلرجُلَ أيضاً، وتجعلَهُ قصةً هو فيها قِرْد.. لا وهذا إنْ كانَتْ جميلةً كٱمرأةِ ٱلرواية. أمَّا إنْ كانَتْ دميمةً مجموعةً مِنَ ٱلمتناقضات، أو عجوزاً مجموعةً مِنَ ٱلسنين؛ فهذه وهذه كلُّ أيامِها كيومِ ٱلأحدِ عندَ ٱلنصارى... يومٌ لِلعُطلةِ لا بيعَ فيهِ ولا شراءَ ولا مساومة. هذه وهذه كِلتاهما تجعلُ ٱلرجلَ كٱلماءِ في سبيلِ ٱلتجمد.. لا يشتعل، فضلاً عَنْ أنْ يَسْتَعِر، فضلاً عن أنْ يحترق.

ومؤلفةُ ٱلكتبِ لا يكونُ وجهُها إلَّا إحدى وثيقتين: فإمَّا جميلةٌ، فوجهُها وثيقةٌ بأنَّ لها دُيوناً على ٱلرجال؛ وإمَّا غيرُ جميلة، فوجهُها (مُخالصةٌ) من كلِّ ٱلديون...

قلْنا: هذا في ٱلخائنة. فكيفَ سرقَكَ ٱللصُّ ولسْتَ غنيًّا؟

قال: هذه هي نكتةُ ٱلنبوغ؛ وفي ٱلنبوغِ أشياءُ لا ينكشفُ تفسيرُها، وليسَ في جهلِها مضرَّةٌ على أحد، وجهلٌ لا يضرُّ هو عِلْمٌ لا ينفع، لكنَّهُ عِلْم. وٱلبحثُ في بعضِ أعمالِ (ٱلنابغةِ) هو كٱلبحثِ عن سرِّ ٱلحياةِ فيه، إذْ يعملُ أعمالَهُ تلك بسرّ ٱلحياةِ لا بسرِّ ٱلعقل، أي بٱلعقلِ ٱلنابغِ ٱلخاصِّ بِهِ وحدَهُ لا بٱلعطلِ ٱلطبيعيِّ ٱلمشتركِ بينَ ٱلناس.

* * *

قلْت: ومن عجائبكَ أنَّك لا تقرأُ ٱلروايات، ولكنَّكَ مع ذلك تُؤلِّفُها...

قال: إنَّ ذلك لَيكون، وإنْ لم أؤلِّفها أنا تألفَتْ هي لي. فإذا تقدَّمَ ٱلليلُ ونامَ ٱلناسُ جميعاً ٱنتبهْتُ أنا وحدي لِروايةِ ٱلعالمِ فأرى ما شِئْتُ أنْ أرى. وفي ضوءِ ٱلنهارِ أجدُ ٱلناسَ عقلاً ولكنِّي في ظلمةِ ٱلليلِ أُبصرُهم مجانين. فهذا الليلُ برهانُ ٱلطبيعةِ على جنونِ ٱلناسِ وضَعْفِ عُقولِهم إذْ هو يُثبتُ حاجةَ هذه ٱلعقولِ إلى ضَرْبٍ مِنَ ٱلنسيانِ ٱلأبلهِ ٱلتامِّ لولاهُ ما عقلَتْ في نَهارِها ولا ٱستقامَ لها أمر.

يُصْرَعُ ٱلناسُ في ٱلليلِ صُرْعَةَ ٱلمجانينِ فيُغمضونَ أعينَهم ولا يرونَ شيئاً. أمَّا أنا فأرى ٱلعالَمَ في ٱلليلِ مسرحاً هزليًّا يَضِجُّ بِٱلضحكِ مِنَ ٱلإنسانِ ٱلأحمقِ ٱلذي

يقطعُ سَرَاةَ نهارِه، وهو معتقدٌ أنَّهُ قابضٌ على ٱلوجودِ بٱلأعينِ وٱلآذانِ وٱلآناف. . أئنْ رأيْتَ ٱلأسدَ بعينِكَ أيُها ٱلأحمقُ وسمِعْتَ في أذنيك زئيرَه، ٱدّعيْتَ ٱلدّعوى ٱلعريضة، وزعمْتَ أنَّك ملكتَهُ وقبضْتَ عليه، ولا تدري في هذا أنَّكَ كٱلمعتوهِ إذا قبضَ على ٱلظِّلِّ بيدِه، وصاحَ هاتوا ٱلحبلَ لِأُقيِّدَهُ لا يُفْلِت؟. . .

قلْت: فإذا كانَ ٱلعالمُ كلُّهُ روايتَك فأخرجْ لنا فصلاً مِنَ ٱلرواية.

قال: أيُما أحبُّ إليكم، أنْ أكتبَ أو أمثِّل؟

قلْنا: بلِ ٱلتمثيلُ أحبُّ إلينا. فنظرَ إلى ٱلمجنونِ ٱلآخرِ وقال: إنَّ ٱلمجنونَ في طبيعتِهِ ينبوعٌ مِنَ ٱلأشخاصِ يفيضُ حالاً بعد حال، كينبوعِ ٱلماءِ يَسُحُّ[1] ٱلدفعةَ بعدَ ٱلدفعة، فهنا ٱلمسرحُ، وٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ ٱلطبيبِ وٱلمجنون. . .

* * *

أنت يا س. ع. عمُّ هذا المجنون. فإذا قالَ لك يا عمّ. قلْ لَه: أنا لسْتُ عمَّكَ ولكني أخو أبيك. . . لِنَنظرْ أيتنبَّهُ على ٱلفرقِ بينَ ٱلصيغتينِ أم لا؛ فإنَّهُ فَرْقٌ عقليٌّ دقيقٌ تُمتحَنُ بِهِ ٱلعقول. .

تعالَ أيُها ٱلمريضُ فإنِّي أرجو أنْ يكونَ شِفَاؤُك على يدي، وفي يدي هذه لمسةٌ من لَمَسَاتِ ٱلمسبح، لأنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) هوَ ٱلآنَ طبيبُ ٱلقرنِ ٱلعشرين. . .

اِتَّقوا أنْ تغضبُوهُ أو تُخيفُوه، وأَقيموا لَهُ كلَّ ما يحتاجُ إليه، وتحرَّوا[2] مسرتَهُ دائماً، فإنَّ إدخالَ بعْضِ ٱلسرورِ إلى نفسِ ٱلمجنونِ هو إدخالُ بعضِ ٱلعقلِ إلى رأسِه.

متى أنكرْتَ يا س. ع عقلَ ٱبنِ أخيك وما كانَ ٱلسببُ؟ وكيف غُلبَ على عقلِه؟ وهل ا. ش. هو خالُه أو أخو أمِّه؟

لَطَف ٱللَّهُ لك أيُها ٱلمِسكين. قل لي: أتتذكرُ أمسِ؟ أتتذكرُ غداً؟. . إنَّ الأمسَ وٱلغدَ ساقطانِ جميعاً من حسابِ ٱلمجانين؛ ومِنَ ٱلرحمةِ بهم أنَّ ٱلدنيا تبدأُ لهم كلَّ يوم فقدِ ٱستراحوا من ثُلُثَيْ همومِ ٱلزمنِ في ٱلعقلاء. وهم لا يصلحون أنْ ينفعوا ٱلناسَ كٱلعقلاء، غيرَ أنَّهم صالحون أكثرَ مِنَ ٱلعقلاءِ للانتفاعِ بأنفسِهم في ٱلضحكِ وٱلمرحِ وٱلطرب، وهذا حَسْبُهم مِنَ ٱلنعمةِ عليهم.

قلْ لي أيُّها ٱلمجنون: أتُحِسُّ أنَّ ٱلدنيا تَصنعُ لك نفسَك، أمْ نفسُك هي تصنعُ

---

(١) يسحّ: يسيل وينهمر.

(٢) تحرَّوا: فتّشوا واكتشفوا.

لك ٱلدنيا؟ إنَّ هذه مسألةٌ يحلّها كلُّ مجنونٍ على طريقتِهِ ٱلخاصَّةِ بِه، فما هي طريقتُك في حلِّها؟

مالَكَ لا تُجيبُ أيُها ٱلأبلهُ؟ (هذا من جهةٍ ومن جهةٍ) أعطوهُ قِرشاً لِينطلِقَ لِسانُهُ، وآتُوا ٱلطبيبَ أجرَهُ وافياً وهو لا يَقِلُّ عن قِرشين. . .

ثُمَّ مالَ (ٱلنابغةُ) على مجنونِ ٱلمتنِ وسارَّهُ بشيء. فقلْنا ما أمرُ ٱلمالِ بسِرّ؛ هذا قِرشٌ لِلْمريضِ وهذان قِرشانِ لِلطبيب.

فقالَ ٱلمجنون: «مِمَّا حفظْناه» كفى بِٱلسلامة داءً.

قالَ «الطبيب»: هذا مريضٌ بنوعٍ مِنَ ٱلجنونِ ٱسمُهُ «مِمَّا حفظْناه» وهو جنونُ ٱلنسيانِ ٱلذي يضعُ في مكانِ ٱلعقلِ كلمةً ثابتةً لا يتذكَّرُ ٱلمجنونُ إلَّا بها؛ ومن أعراضِهِ جنونُ ٱلشَّكِّ فكلُّ ما حولَ ٱلمريضِ مشكوكٌ فيه، وقد يترامَى إلى جنونِ ٱللَّمْس، فلو لَمَسْتَهُ بإصبعِكَ توهَّمَها عقرباً فخافَ مِنَ ٱلإصبعِ تلمسُهُ خوفَهُ مِنَ ٱلعقربِ تلدغُه، ولكنْ بقيَتْ أشياءُ لا بُدَّ مِنَ ٱلتدقيقِ في فحصِها، فليسَ هذا من مجانينِ ٱلعبقريَّةِ ٱلتي ٱنحرفَتْ عن طريقِها أو شذّتْ في قوّتِها؛ ولا هو مِمَنْ يَتَجانُّ[1] ويتحامقُ ٱلتماساً لِلرزقِ وٱلعَيْشِ كما قالَ بعضُهُم: حماقةٌ تَعولُني خيرٌ من عقلٍ أعولُه.

فقالَ ٱلمجنون: «مِمَّا حفظْناهُ» حماقةٌ تعولُني. .

فضحكَ (ٱلنابغةُ) وقال: هو كما بيَّنتُ لكم مصابٌ بجنونِ (مِمَّا حفظْناه) وهو أقلُّ ٱلجنونِ وأهونُه، وعِلاجُهُ ٱلبَسْطُ وٱلسرورُ وٱلقِرْش؛ وٱلضربُ أحياناً. . فإذا ثابرَ عليهِ ٱلداءُ تحوَّلَ إلى جنونِ (مِمَّا ضَربْناه). . فيعتدي ٱلمصابُ على كلِّ مَنْ يراهُ أو يُوقعُ بِهِ ضرْباً، وعلاجُهُ حينئذٍ ٱلقميصُ ٱلمرقومُ[2]؛ فإذا فَدَحَتِ[3] ٱلعِلَّةُ ٱنقلبَ ٱلمرضُ إلى جنونِ (مِمَّا قتلْناه). وعِلَاجُهُ يومئذٍ ٱلسلاسلُ وٱلأغلال.

وٱلحقَّ أقولُ لكم إنَّ آخرَ ما ٱنتهَتْ إليهِ فلسفةُ ٱلطِّبِّ في ٱلقرنِ ٱلعشرينَ أنَّ ٱلناسَ جميعاً مجانينُ ولكنَّ بعضَهم أوفرُ قِسْطاً[4] من بعض. كأنَّ سلْبَ ٱلعقلِ هو أيضاً حظوظٌ كحظوظِ موهبةِ ٱلعقل. وأهلُ ٱلمريخِ من أجلِ ذلك يسمونَ ٱلأرضَ بيمارستانَ ٱلفَلَك.

ولكنْ بقيَتْ أشياءُ لا بدَّ مِنَ ٱلتدقيقِ في فحصِها؛ وعندي في ٱلدارِ عاطُوسٌ

---

(١) يتجانّ: يصطنع الجنون.

(٢) القميص المرقوم هو قميص السجن يلبسه المسجون.

(٣) فدخت: عظمت المصيبة.

(٤) قسطاً: قدراً، حظاً.

إذا أشممْتُهُ هذا ٱلمجنونَ عَطَسَ بِهِ عطسةً قويَّةً فخرجَ جنونُهُ من أنفِه. . . قلْ لي أيُّها المسكين: أتخافُ إذا سِرْتَ وحدَك في ميدانٍ واسعٍ كأنَّ ٱلميدانَ سيلتفُّ عليك؟ أتضطربُ إذا مشيْتَ في مَضيقٍ كأنَّ ٱلمكانَ سينطبِقُ عليك؟ وإذا كنْتَ في عربةِ ٱلقِطارِ فهل يُخيَّلُ إليكَ أنَّ ٱلبيمارستانَ قد جرَّهُ ٱلقِطارُ وٱنطلقَ بِهِ هارِباً؟ وهلْ شعرْتَ مرةً أنَّهُ أوحَى إليكَ أنْ تنتحِر؟

أرني هذا ٱلقِرشَ ٱلذي في يدِك. فمدّ إليهِ ٱلمجنونُ يَدَهُ بٱلقرش.

قال (النابغة): أنظرِ ٱلآنَ هل تُحدِّثُكَ نفسُكَ أنْ تَغْصِبَنِي هذا ٱلقِرشَ أو تسرِقَهُ منِّي؟ قال: نعم.

قالَ (ٱلنابغة): إذن يجبُ أنْ أُحرِزَهُ في جيبي. . وأسرعَ فأخفاهُ في جيبِه. . .

***

فصاحَ ٱلآخرُ وشَغَبَ[1]، وقالَ سلَبَني ونَهَبَني. قلْنا لا ينبغي أنْ يتَّصِلَ بينَكما شرٌّ في تمثيلِ ٱلروايةِ فهذا قِرشٌ آخر، ولكنْ أفي ٱلفلسفةِ عندَ (ٱلنابغةِ) إباحةُ ٱلسرقةِ وٱلغصْب؟

قال: فٱلروايةُ ٱلآنَ هي روايةُ الفيلسوفِ ٱلعظيمِ أفلاطونَ وتلميذِهِ أرسطو.

قلْ لي ويحَكَ يا أرسطو. أعلمْتَ أنَّ في ٱلمجانينِ أغنياءَ يسرقونَ ٱلشيءَ ٱلقليلَ لا قِيمةَ لَهُ وهم أغنياءُ وليسَتْ بهم حاجةٌ إليه. فما عِلَّةُ ذلك عندَك وما وجهُهُ في مَقُولَةِ ٱلجنون؟

أعجزْتَ عنِ ٱلجواب؟ إذن فٱعلمْ يا أرسطو أنَّ ٱلمُصابَ بهذا الضَّربِ مِنَ ٱلجنونِ إذا ٱشترى هذا ٱلشيءَ بدرهم كانَتْ قيمتُهُ مِنَ ٱلدرهم وحدَه، وهو غنيٌّ لا قِيمةَ لِلدرهم في مالِهِ فلا يَحفِلُ بٱلشِّراءِ بَيْدَ أنَّهُ إذا سرقَه كانَتْ قِيمتُهُ عندَهُ من عقلِهِ وحيلتِهِ فيجيئُهُ بلذةٍ لا تشتريها كلُّ أموالِهِ ولا كلُّ أموالِ ٱلدنيا. فهذا جنونٌ بٱللذَّةِ لا بٱلسرقة، وهو بذلك ضَربٌ مِنَ ٱلعِشْقِ يجعلُ ٱلشيءَ إذا لم يُسرقْ كأنَّهُ ٱلمرأةُ ٱلمعشوقةُ ٱلممتنعةُ على عاشِقِها.

وٱلجِياعُ إذا سرقوا لِيأكلُوا ويُمسِكُوا ٱلرمقَ[2] على أنفسِهِم، لا يُقالُ في لغةِ ٱلفلسفةِ إنَّهم سرقوا بلْ أخذوا. . فبٱضطرارٍ جاعوا وبٱضطرارٍ مثلِهِ أكلوا، وٱلسارقُ هنا هو ٱلغنيُّ ٱلذي منعُهُمُ ٱلإحسانَ وٱلمعونة. .

---

(١) شخب: أحدث ضجة.

(٢) الرمق: بقية الحياة.

فٱلدنيا معكوسةٌ منقلبةٌ أوضاعُها يا أرسطو، ولوِ ٱستقامَتْ هذهِ ٱلأوضاعُ لوُجدَتِ ٱلسعادةُ في ٱلأرضِ لِأهلِ ٱلأرضِ جميعاً. وكيف لك بٱلسعادةِ وٱلناسُ مخلوقون بعيُوبِهِم؟ ويا لَيْتَهُم مخلوقون بعيوبِهِم فقط، ولكنَّ ٱلطامَّةَ ٱلكبرى أنَّ عيوبَهم تعملُ دائماً على أنْ ترى في ٱلآخرينَ عُيُوباً مثلَها.

كلُّ حِمارٍ فهو يُريدُ أنْ يملأَ جوفَهُ تِبْناً وفولاً وشعيراً، غيرَ أنِّي لم أرَ حِماراً قطُّ يُريدُ أن يملأَ لِنفسِهِ الإصطبل؛ فإذا وُجِدَ حِمارٌ هذه هِمَّتُهُ وهذا عملُهُ فٱسمُهُ إنسانٌ لا حِمار.

يا أرسطو إنَّ مُعضِلةَ ٱلمعضلاتِ أنْ يُحاولَ إنسانٌ حلَّ مشكلةٍ داخليَّةٍ محضةٍ قائمةٍ في نفسِ حِمارٍ أو ثابتةٍ في ذِهنِهِ ٱلحِمَاريّ... ومثلُ هذا أنْ يُحاولَ حِمارٌ حلَّ مُشكلةٍ نفسيَّةٍ في ذِهْنِ إنسانٍ أو في قلبِه، فلا حلَّ لِمشاكلِ ٱلعالَمِ أبداً ما دامَ كلُّ إنسانٍ معَ غيرِهِ كحِمارٍ معَ إنسان...

وٱلمعضلاتُ[1] ٱلنفسيَّةُ من عملِ ٱلشياطين، فكانَ ينبغي أنْ تجيءَ ٱلملائكةُ لِتُحاربَ ٱلشياطينَ بٱلبرقِ وٱلرعدِ دِفاعاً عنِ ٱلإنسانيَّة؛ ولكنَّ ٱللَّهَ ـ تعالى ـ منعَها، وأرسلَ لِلإنسانِ ملائكةً أخرى إنْ شاءَ هذا ٱلإنسانُ عمِلَتْ، وإنْ شاءَ عجزَتْ؛ وهي فضائلُ ٱلأديانِ ٱلمنزَلَةِ. فإذا منحَها ٱلإنسانُ إرادتَهُ وقوَّتَه، فعملَتْ عملَها كانَ ٱلإنسانُ هوَ ٱلمَلَكَ بل فوقَ ٱلمَلَكِ، وإذا أضعفَها ومَحَقَها كانَ ٱلإنسانُ هو ٱلشيطانَ وأسفلَ مِنَ ٱلشيطان.

يا أرسطو: «هذا العالمُ عندي كُتلةٌ مِنَ ٱلعدمِ ٱتَّفقَتْ على ٱلظهورِ وستختفي. وٱلعالَمُ عندي ضعفٌ رُكِّبَ وقوَّةٌ ركِّبَتْ. وٱلعالَمُ عندي لا شيء. وٱلعالمُ بَيْنُ بَيْن. وٱلعالمُ قِسمان: منهمُ ٱلفلاحُ ٱلزراعيُّ وذلك أفضلُ فلسفةٍ طبيعيَّة. وٱلعالمُ في حاجةٍ إلى ٱلموتِ وٱلموتُ في حاجةٍ إليه. وٱلأدبُ هو ٱلحياةُ ولا حياةَ بِلا أدب. وٱلأدبُ ضربانِ: أدبٌ نفسانيٌّ وأدبٌ مكتسَب، وقد يكون طبيعيًّا كما هو عندَ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين. ومَنْ هو نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين؟ هو شخصٌ ماتَ بلا موت، ويحيا بلا حياة».

أتُريدُ يا أرسطو أنْ تعرفَ سِرَّ تركيبِ ٱلعالَم؟ ٱلأمرُ يسيرٌ غيرُ عسير، فإنَّ سِرَّ تركيبِه كسِرِّ تركيبِ ٱلقِرْشِ ٱلذي في يدكِ، فدعْني أظهِرْكَ على هذه ٱلحقيقةِ ومُدَّ يدَك بٱلقِرْشِ لأبيِّنَ لك سِرَّ ٱلتركيبِ فيه...

---

(١) المعضلات: المشاكل الصعبة الحلّ.

ولكنَّ ٱلمجنونَ الآخرَ أسرعَ فغيَّبَ ٱلقِرْشَ في جيبِه. فقالَ (ٱلنابغة): هذا سياسيٌّ داهيةٌ خبيث. وٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ سياسيِّ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

ليسَ في حقيقةِ ٱلسياسةِ إلَّا الرَّذْلُ من أفعالِ ٱلسياسيِّين. وٱلألفاظُ ٱلسياسيَّةُ ٱلتي تحملُ أكثرَ من معنًى هي ٱلتي لا تحملُ معنًى. فلْيحذرِ ٱلشرقُ من كلِّ لفظٍ سياسيٍّ يحتملُ معنيين، أو معنًى ونصفَ معنًى، أو معنًى وشِبْهَ معنًى؛ فإنْ قالوا لنا (أحمر) قُلْنا لهمُ اكتبُوهُ بهذا ٱللفظ؛ فإذا كتبوُهُ قلْنا لهم: ٱرسموا إلى جانبِهِ معناهُ بٱللونِ ٱلأحمرِ لِتشهدَ ٱلطبيعةُ نفسُها على أنَّ معناهُ أحمرُ لا غير.. وعلى هذه الطريقةِ يجبُ أنْ تُكتَبَ ٱلمعاهداتُ ٱلسياسيَّةُ بين أوربا وٱلشرق...

إنَّهم يكتبون لَنَا جريدةً بأسماءِ ٱلأطعمةِ ثُمَّ يقولون: أكلْتُم وشبِعْتُم... ولقد رأيْتُ (مظاهراتٍ) كثيرةً ولا كٱلمظاهرةِ ٱلتي أتمنَّاها؛ فما أتمنَّى إلَّا أنْ يخرجَ كلُّ ٱلمجانينِ في مظاهرة..

وهذا ٱلأبلهُ ٱلذي أمامَنا ليسَ وطنيًّا ولا فيهِ ذرةٌ مِنَ ٱلوطنيَّة؛ فإنْ كانَ وطنيًّا أو زعمَ أنَّهُ وطنيٌّ، فلْيُخرجِ ٱلقِرْشَ ٱلذي في جيبِه... لِيكونَ فألاً حسناً لِخروجِ جيشِ ٱلاحتلالِ من مصر...

* * *

ولكنَّ ٱلمجنونَ لم يخرجِ ٱلقِرْشَ وتركَ جيشَ ٱلاحتلالِ في مكانِه.

فقالَ (ٱلنابغة): الروايةُ ٱلآنَ روايةُ ٱلشرقيِّ وٱللصّ. وبحقٍّ مِنَ ٱلقانونِ يكونُ لِلشرقيِّ أنْ يُفتّشَ هذا ٱللصَّ لِيُخرجَ ٱلقِرْشَ من جيبِه...

* * *

غيرَ أنَّ ٱلمجنونَ ٱمتنعَ. فقالَ (ٱلنابغة): كلُّ ذلك لا يُجدِي[1] مَعَ هذا ٱلخبيث، فٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ هارونِ ٱلرشيدِ مَعَ ٱلبرامكة. ويجبُ أنْ يَنكُبَ ٱلرشيدُ هؤلاءِ ٱلبرامكةَ لِيَستَصْفيَ ٱلقرش..

* * *

بيدَ أنَّنا منعناهُ أنْ ينكُبَ «ٱلبرامكة» فقال: ٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ ٱلعاشقِ وٱلمعشوقة،. ونظرَ طويلاً في ٱلمجنونِ وصعَّدَ فيهِ عينَهُ وصوَّبَ فلم يرَ إلَّا ما يُذكِّرُ

---

(١) لا يجدي: لا ينفع.

بأنَّهُ رجل، فتهدَّى[1] إلى رأيٍ عجيب. فوقعَ على قدميهِ وتوهَّمَهُ ٱمرأةً في حذائها. . . وجعلَ يُناجي ٱلحِذَاء بهذه ٱلمناجاة:

إنَّ سخافات ٱلحُبِّ هي أقوى ٱلدليل عندَ أهلِهِ على أنَّ ٱلحبَّ غيرُ سخيف؛ فكلُّ فكرةٍ في ٱلحُبِّ مهما كانَتْ سخيفةً، عليها جَلالُ ٱلحبّ؛ ولِلحذاءِ في قدميكِ يا حبيبتي جمالُ الصندوقِ ٱلمملوءِ ذهباً في نظرِ ٱلبخيل، وكلُّ شيءٍ منكِ أنتِ فيهِ سِرُّ جمالِكِ أنتِ. وٱلحذاءُ في قدميكِ ليسَ حذاءً، ولكنَّهُ بعضُ حُدودِ جسمِكِ ٱلجميل، فلا أكونُ كلَّ ٱلعاشقِ حتى أُحيطَ بكلِّ حُدودِكِ إلى الحذاء. .

إنَّ جسمَكِ يا حبيبتي كٱلماءِ ٱلجاري ٱلعذْب؛ في كلِّ موضعٍ منه روحُ ٱلماءِ كلِّه؛ وحيثما وقعتِ ٱلقُبلةُ من جِسمِكِ كانَ فيها روحُ شفتيكِ ٱلورديتين، هذه قُبلةٌ على قدميكِ يا حبيبتي؛ وهذه قُبلةٌ على ساقِكِ؛ وهذه قُبلةٌ على ثوبِكِ وهذه قُبلةٌ على جَيبِك. .

وكادَتْ يدُ (ٱلنابغة) تخرجُ بِٱلقِرْش؛ فعضَّهُ ٱلمجنونُ في كتفِهِ عضَّةً وحشيَّةً، فجأَهُ ٱلخوفُ منها فطارَ صوابُه؛ فصرخَ صرخةً عظيمةً دوَّى لها ٱلمكانُ وترددَتْ كصَرْصَرَةِ ٱلبازيّ[2] في ٱلجوّ، ثُمَّ ٱعتراهُ ٱلطَّيف، وأطبقَ عليهِ ٱلجنونُ فٱختلطَ وتخبَّطَ. .

(وٱلروايةُ الآن)؟. . . روايةُ عربةِ ٱلإسعاف. . .

---

(١) تهدّى: اهتدى وتوصّل.

(٢) صرصرة البازي: صوته.

فهرس المحتويات

وحي القلم

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

المكتبة العصرية

صيدا - بيروت



تأليف

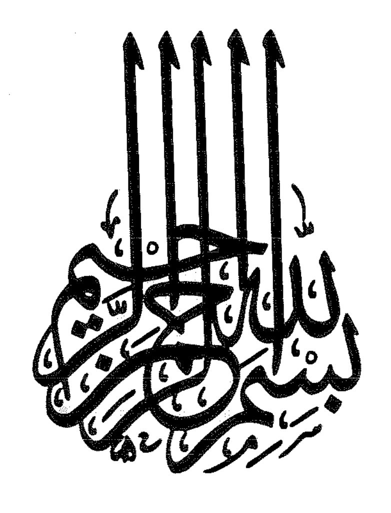
مصطفى صادق الرافعي

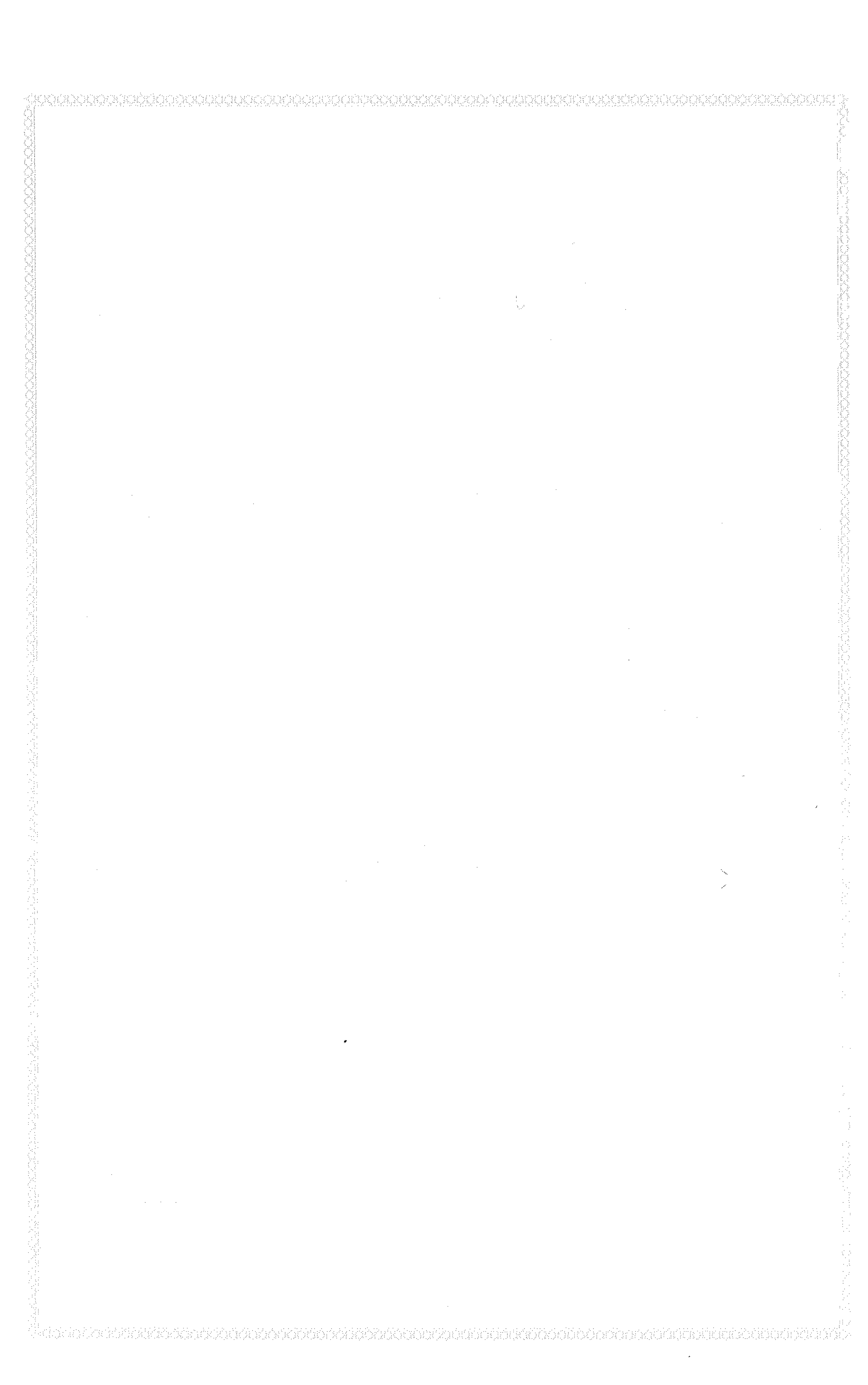
راجعه واعتنى به

د. درويش الجويدي

الجزء الثالث




بسم الله الرحمن الرحيم



السمُو الروحيُ الأعظمُ
والجمالُ الفنيُ في البلاغةِ النبوِّية

لَمَّا أردْتُ أنْ أكتبَ هذا الفصلَ وهمَمتُ بِه، عرضَتْ لي مسألةٌ نظرْتُ فيها جوابَها، ثُمَّ قدرْتُ أنْ يكونَ أبلغَ فلاسفةِ البيانِ في أوربا لِعهدِنا هذا رجلاً يُحسنُ العربيَّةَ المُبينة، وقد بلغَ فيها مبلغَ أئمتِها عِلْماً وذَوْقاً، ودرسَ تاريخَ النبيِّ ﷺ درسَ الروح لِأعمالِ الروح، وتفقَّهَ في شريعتِهِ فِقْهَ الحِكمةِ لِأسرارِ الحِكْمة، واستوعبَ أحادَيثَهُ واعتبَرها بفنِّ النقدِ البيانيِّ الذي يبحثُ في خصائصِ الكلام عن خصائصِ النفس؛ وتمثلْتُ أنّي لقيْتُ هذا الرجلَ فسألْتُهُ: ما هو الجمالُ الفَنيُّ عندَك في بلَاغةِ محمدٍ ﷺ؟ وماذا تستخرجُ لك فلسفةُ البيانِ منه؟ وما سِرّهُ الذي يجتمعُ فيه؟

ولم يكدْ يخطرُ[1] لي ذلك حتى انكشفَ الخاطرُ[2] عن وجهٍ آخر، وذلك أنْ يكونَ معنى هذا السؤالِ بعينِهِ قد وقعَ في شيءٍ من حديثِ النفس لِأبلغِ أولئك العربِ الذين رأَوْا النبيَّ ﷺ، وآمنوا به، واتَّبعوا النورَ الذي أُنزلَ معَه، وقد صحِبَهُ فطالَتْ صُحبتُه، لا يفوُتهُ من كلامِهِ في الملأِ شيء، وخالطَهُ حتى كانَ لَهُ في الإحاطةِ بأحوالِ نفسِهِ كبعضِ التاريخ، فتدبَّرَ ما عسى أنْ يكونَ سرُّ الجمالِ في بلاغتِهِ ﷺ، وما مرجِعُه الذي يردُ إليه؟

لو دارَ السؤالُ دورتيهِ في هذه السليقةِ[3] العربيَّةِ المُحكمةِ التي رجعَتْ أنْ تكونَ فلسفةً تشعرُ وتُحسّ، وفي تلك الفلسفةِ البيانيَّةِ الملهمةِ التي بلغَتْ أنْ تكونَ سليقةً تدرسُ وتفكرُ لَمَا خَلُصَ من كلتيهما إلّا برأيٍ واحدٍ تلتقي عليهِ حقيقةُ البيانِ من طرفيها: وهو أنَّ ذلكَ الجمالَ الفنيَّ في بلاغتِهِ ﷺ إنَّما هو أثرٌ على الكلامِ من روحِهِ النبويَّةِ الجديدةِ على الدنيا وتاريخِها.

---

(١) يخطر لي: يطرأ على بالي.

(٢) انكشف الخاطر: ظهر وبان.

(٣) السليقة: الموهبة اللغوية.

وبعدُ، فأنا في هذه ٱلصفحات لا أصنعُ شيئاً غيرَ تفصيلِ هذا الجوابِ وشرحِه، بِٱستخراجِ معانيه، وٱستنباطِ[1] أدلَّتِه، وٱلكشفِ عن أسرارِهِ وحقائقِه؛ ولقد درسْتُ كلامَهُ ﷺ، وقضيْتُ في ذلك أياماً أتتبعُ ٱلسِّرَّ ٱلذي وقعَ في ٱلتاريخ ٱلقفرِ ٱلمُجدِبِ فأخصبَ بِهِ وأنبْتِ لِلدنيا أزهارَهُ ٱلإنسانيَّةَ ٱلجميلة، فكانوا ناساً إنْ عِبتَهم بشيءٍ لم تَعبْهُم إلّا أنّهم دونَ ٱلملائكة؛ وكانوا ناساً، دارَتِ ٱلكرةُ ٱلأَرضيَّةُ في عدِّهِم ثلاثَ دورات: واحدةٌ حولَ ٱلشمس، وثانيةٌ حولَ نفسِها، وثالثةٌ حولَ أصحابِ ٱلنبيِّ ﷺ.

ثُمَّ تركْتُ ٱلكلامُ ٱلنبويَّ يتكلَّمُ في نفسي ويُلهِمُني ما أفصحَ بِهِ عنه، فلَكأَنِّي بِهِ يقولُ في صِفةِ نفسِه: إنِّي أصنعُ أُمَّةً لها تاريخُ ٱلأرضِ من بعد، فأنا أُقبلُ من هنا وهناك، وأذهبُ هناك وهنا، معَ ٱلقلوبِ وٱلأنفسِ وٱلحقائق، لا معَ ٱلكلامِ وٱلناسِ وٱلوقت.

إنَّ هٰهنا دنيا ٱلصحراءِ ستَلِدُ ٱلدنيا ٱلمتحضرةَ ٱلتي من ذُريَّتِها أوربا وأمريكا؛ فالقرآنُ وٱلحديثُ يعملانِ في حياةِ أهلِ ٱلأرضِ بنورٍ مُتممٍ لِمَا يعملُهُ نورُ ٱلشمسِ وٱلقمر.

وقدْ كانَ ٱلمسلمون يغزون ٱلدنيا بأسلحةٍ هي في ظاهِرها أسلحةُ ٱلمقاتلين، ولكنَّها في معانيها أسلحةُ ٱلأَطباء؛ وكانوا يحملون ٱلكتابَ وٱلسُّنَّة، ثُمَّ مَضَوا إلى سبيلِهِم وبقيَ ٱلكلامُ من بعدِهِم غازياً مُحارِباً في ٱلعالَمِ كلِّهِ حرْبَ تغييرٍ وتحويلٍ إلى أنْ يدخلَ ٱلإسلامُ على ما دخلَ عليهِ ٱلليل.

هذا منطقُ ٱلحديثِ في نفسي، وقد كنْتُ أقرؤه وأنا أتمثلُهُ مرسَلاً بتلك ٱلفصاحةِ ٱلعاليةِ من فمِ ٱلنبيِّ ﷺ حيثُ يمرُّ إعجازُ ٱلوحيِّ أولَ ما يخرجُ بِهِ ٱلصوتُ ٱلبشريُّ إلى ٱلعالم، فَلا أرى ثَمَّ إلَّا أنَّ شيئاً إلٰهيًّا عظيماً مُتصِلاً بروحِ ٱلكوْنِ كلِّهِ ٱتصالَ بعضِ ٱلسرِّ ببعضِ ٱلسرّ، يتكلَّمُ بكلام إنسانيٍّ هو هذا ٱلحديثُ ٱلذي يجيءُ في كلماتٍ قويةٍ رائعةٍ، فنُها في بلاغتِها كَٱلشبابِ ٱلدائم.

كنْتُ أتأملُهُ قِطَعاً مِنَ ٱلبيانِ فأراهُ ينقلُني إلى مثلِ ٱلحالةِ ٱلتي أتأملُ فيها رَوْضةً تتنفسُ على ٱلقلب، أو منظراً يهزُّ جَمَالُهُ ٱلنفس، أو عاطفةً تزيدُ بها ٱلحياةُ في ٱلدم، على هدوءٍ ورَوحٍ وإحساس ولذَّة؛ ثُمَّ يزيدُ على ذلك أنَّهُ يُصْلِحُ مِنَ ٱلجهاتِ

---

(١) استنباط: استخراج.

ٱلإنسانيَّةِ في نفسي، ثُمَّ يرزقُ ٱللَّهُ منه رِزْقَ ٱلنورِ فإذا أنا في ذوقِ ٱلبيانِ كأنّما أرى ٱلمتكلمَ ﷺ وراءَ كلامِه.

وأعجبُ من ذلك أنّي كثيراً ما أقِفُ عندَ ٱلحديثِ ٱلدقيقِ أتعرَّفُ أسرارَهُ، فإذا هو يشرحُ لي ويهديني بِهديه؛ ثُمَّ أُحِسُّهُ كأنَّما يقولُ لي ما يقولُ المعلِّمُ لِتلميذِه: أفهِمت؟

وقفْتُ عندَ قولِهِ ﷺ: إنَّ قوماً رَكِبوا في سفينةٍ، فَٱقتسموا، فصارَ لِكُلِّ رجلٍ منهم موضع، فنقرَ رجلٌ منهم موضِعَهُ بفأس، فقالوا له: ما تصنع؟ قال: هو مكاني أصنعُ فيهِ ما شِئْت! فإنْ أخذوا على يدِهِ نجا ونجَوْا، وإنْ تركوهُ هلكَ وهلكوا.

فكانَ لِهذا ٱلحديثِ في نفسي كلامٌ طويلٌ عن هؤلاءِ ٱلذين يخوضونَ[١] مَعنا ٱلبحرَ ويسمّون أنفسَهُم بِٱلمجددين، وينتحلون ضروباً مِنَ ٱلأوصاف: كحريَّةِ ٱلفِكْر، وٱلغَيرةِ، وٱلإصلاحِ؛ ولا يزالُ أحدُهم ينقرُ موضعَهُ من سفينةِ دينِنا وأخلاقِنا وآدابِنا بفأسِه، أي بقلمِه... زاعماً أنّهُ موضُعُهُ مِنَ ٱلحَياةِ ٱلاجتماعيَّةِ يصنعُ فيهِ ما يشاء، ويتولّاهُ كيفَ أراد، موجِّهاً لِحماقتِهِ وجوهاً مِنَ ٱلمعاذيرِ وٱلحُجَج، مِنَ ٱلمدنيَّةِ وٱلفلسفة، جاهلاً أنَّ ٱلقانونَ في ٱلعاقبةِ دون غيرِها، فَٱلحُكْمُ لا يكونُ على العملِ بعدَ وقوعِهِ كما يُحكَمُ على ٱلأعمالِ ٱلأخرى؛ بلْ قبلَ وقوعِه؛ وٱلعِقابُ لا يكونُ على ٱلجُرْم يقترفُهُ ٱلمُجرمُ كما يُعاقَبُ ٱللصُّ وٱلقاتلُ وغيرُهما، بلْ على ٱلشروعِ فيه، بلْ على توجُّهِ ٱلنيَّةِ إليه؛ فلا حريَّةَ هنا في عملٍ يُفسدُ خشبَ ٱلسفينةِ أو يمسُّهُ من قربٍ أو بعدٍ ما دامَتْ مُلَجِّجةً في بحرِها، سائرةً إلى غايتِها؛ إذْ كلمةُ (ٱلخَرْق) لا تحملُ في ٱلسفينةِ معناها ٱلأرضيَّ، وهناك لفظةُ (أصغرُ خرقٍ) ليسَ لها إلّا معنًى واحدٌ وهو (أوسعُ قبر)...

ففكِّرْ في أعظمِ فلاسفةِ ٱلدنيا مهما يكنْ من حريتِهِ وٱنطلاقِه، فهو هٰهنا محدودٌ على رغمِ أنفِهِ بحدودٍ مِنَ ٱلخشبِ وٱلحديدِ تفسيرُها في لغةِ ٱلبحرِ حدودُ ٱلحياةِ وٱلمصلحةِ وكما أنّ لَفظةَ (ٱلخَرْقِ) يكونُ من معانيها في ٱلبحرِ ٱلقبرُ وٱلغرقُ وٱلهلاك، فكلمةُ (الفلسفة) يكونُ من بعضِ معانيها في ٱلاجتماعِ ٱلحماقةُ وٱلغَفْلةُ وٱلبلاهة، وكلمةُ ٱلحريَّةِ يكونُ من معانيها ٱلجنايةُ وٱلزيغُ وٱلفسادُ وعلى هذا القِياسِ

(١) خاض البحر: ركب متنه مغامراً.

اللغويّ فالقلمُ في أيدي بعضِ ٱلكُتَّابِ من معانيهِ ٱلفأس، وٱلكاتبُ من معانيهِ ٱلمخرِّب، وٱلكِتابةُ من معانيها ٱلخِيانة؛ قالَ ليَ ٱلحديثُ: أفهْمت؟

هكذا يجبُ تأمُّلُ ٱلجمالِ ٱلفنيِّ في كلامِهِ ﷺ، فهو كلامٌ كلَّما زِدْتَهُ فِكْراً زادَكَ معنًى، وتفسيرُهُ قريب، قَريبٌ كَٱلروحِ في جسمِها ٱلبشريّ، ولكنَّهُ بعيدٌ بعيدٌ كَٱلروحِ في سِرِّها ٱلإلهيّ، فهو معكَ على قدرِ ما أنت معَه، إنْ وقفْتَ على حدٍّ وقف، وإنْ مددْتَ مدّ، وما أديْتَ بِهِ تأدّى[1]، وليسَ فيه، شيءٌ مِمَّا تراهُ لِكُلِّ بلغاءِ ٱلدنيا من صِناعةِ عبثِ ٱلقول، وطريقةِ تأليفِ ٱلكلام، وٱستخراجِ وضعٍ من وضع، وٱلقيام على ٱلكلمةِ حتى تُبيِّضَ كلمةً أخرى. . . والرغبةُ في تكثيرِ سوادِ ٱلمعاني، وتركِ ٱللسانِ يطيشُ طيْشَهُ ٱللغويَّ يتعلَّقُ بكلِّ ما عرضَ له، ويحذو ٱلكلامَ على معاني ألفاظِه، ويجتلبُ لَهُ منها ويستكرهُها على أغراضِه، ويطلبُ لِصناعتِهِ من حيثُ أدركَ وعجز، ومن حيثُ كانَ ولم يكن؛ إنّما هو كلامٌ قِيلَ لِتصِيرَ بِهِ ٱلمعاني إلى حقائقِها، فهو من لِسانٍ وراءَهُ قلْب، وراءَهُ نور، وراءَهُ ٱللَّهُ ـ جلّ جلَالُهُ ـ؛ وهو كلامٌ في مجموعِهِ كأنَّهُ دنيا أصدَرَها ﷺ عن نفسِهِ ٱلعظيمة، لا تبرحُ ماضيةً في طريقِها ٱلسويِّ على دينِ ٱلفِطْرة؛ فلا تتَّسعُ لِخِلاف، ولا يقعُ بها ٱلتنافر؛ وٱلخِلافُ وٱلتنافرُ إنَّما يكونانِ مِنَ ٱلحيوانيَّةِ ٱلمختلفةِ بطبيعتِها، لِقيامِها على قانونِ ٱلتنازع تعدو بِهِ وتجترمُ[2] وتأثم، فهي نازلةٌ إلى ٱلشرِّ، والشرُّ بعضُهُ أسفلُ من بعض؛ أمّا روحانيَّةُ ٱلفِطْرةِ فمتَّسِقةٌ[3] بطبيعتِها، لا تقبلُ في ذاتِها ٱفتراقاً ولا ٱختلافاً؛ إذْ كانَ أولُها ٱلعلوَّ فوقَ ٱلذاتيَّة، وقانونُها ٱلتعاونَ على ٱلبِرِّ وٱلتقوى؛ فهي صاعدةٌ إلى الجهير، والخيرُ بعضُهُ أعلى من بعض.

فكلامُهُ ﷺ يجري مجرى عملِه: كلُّهُ دِينٌ وتقوًى وتعليم، وكلُّهُ روحانيَّةٌ وقوَّةٌ وحياة؛ وإنَّهُ يُخيَّلُ إليَّ وقد أُخذْتُ بِطُهرِهِ وجمالِهِ أنَّ مِنَ الفنِّ ٱلعجيبِ أنْ يكونَ هذا الكلامُ صلاةً وصِياماً في ٱلألفاظ.

أمَّا أسلوبُهُ ﷺ فأجدُ لَهُ في نفسي روحَ ٱلشريعةِ ونِظامَها وعزيمتَها، فليسَ لَهُ إلَّا قوةُ قوةِ أمرٍ نافذٍ لا يتخلَّف، وأَنَّ لَهُ مع ذلك نَسَقاً هادئاً هدوءَ ٱليقين، مُبيناً بيانَ ٱلحِكْمة، خالِصاً خلُوصَ ٱلسرّ، واقعاً مِنَ ٱلنفس ٱلمؤمنةِ موقعَ ٱلنعمةِ من شاكرِها؛

---

(١) تأدى: وصل إلى الغاية المرجوّة منه.

(٢) تجترم: تقع في الجريمة.

(٣) متسقة: متجانسة.

وكيفَ لا يكونُ كذلك وهو أمرُ ٱلروحِ ٱلعظيمةِ ٱلموجهةِ بكلمات ربِّها ووحيه، لِيتوجَّهَ بها ٱلعالمُ كأنَّهُ منه مكانَ ٱلمِحْوَرَ: دورتُهُ بنفسِهِ هي دورتُهُ بنفسِهِ وبِمَا حولَه، روحُ نبيٍّ مُصْلِحٍ رحيم، هو بإصلاحِهِ ورحمتِهِ في ٱلإنسانيَّة، وهو بِٱلنبوَّةِ فوقَها، وهو بهذه وتلكَ في شمائلِهِ وطباعِهِ مجموعٌ إنسانيٌّ عظيمٌ لو شُبِّهَ بشيءٍ لَقيلَ فيه: إنَّه كمجموعِ ٱلقاراتِ ٱلخمسِ لِعمرانِ ٱلدنيا.

ومَنْ درسَ تاريخَهُ ﷺ وأعطاهُ حقَّهُ مِنَ ٱلنَظَرِ وٱلفِكْرِ وٱلتحقيق، رأى نَسَقاً مِنَ ٱلتاريخِ ٱلعجيبِ كنظامِ فَلَكٍ مِنَ ٱلأفلاكِ موجَّةٍ بِٱلنورِ في ٱلنورِ من حيثُ يبدأُ إلى حيثُ ينتهي، فليسَ يمتري عاقلٌ مميِّزٌ أنّ هذه ٱلحياةَ ٱلشريفة، بذلك ٱلنظامِ ٱلدقِيق، في ذلك ٱلتوجُّهِ ٱلمحكمِ ـ لا يُطيقُها بشرٌ من لحمٍ ودمٍ على ناموسِ ٱلحياةِ إلّا إذا كانَ في لحمِهِ ودمِهِ معنى ٱلنورِ وٱلكهرباءِ على ناموسٍ أقوى مِنَ ٱلحياة.

ولم يكنْ مثلُهُ ﷺ في الصبرِ وٱلثباتِ وٱستقرارِ ٱلنفسِ وٱطمئنانِها على زلازلِ ٱلدنيا، ولا في ٱلرحمةِ ورقَّةِ ٱلقلْبِ وٱلسموِّ فوقَ معاني ٱلبقاءِ ٱلأرضيّ؛ فهو قد خُلِقَ كذلك لِيغلبَ ٱلحوادثَ ويتسلَّطَ على ٱلمادَّة؛ فلا يكونُ شأنُهُ شأنَ غيرِه مِنَ ٱلناس: تدفنهُم معاني ٱلترابِ وهم أحياءٌ فوقَ ٱلتراب، أو يحدُّهُم ٱلجسمُ ٱلإنسانيُّ من جميعِ جِهاتِهِم بحدودِ طِباعِهِ ونَزعاتِه؛ وبذلك فقدْ كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ منبعَ تاريخٍ في ٱلإنسانيَّةِ كلِّها دائماً، ولِرأسِ ٱلدنيا نظامُ أفكارِهِ ٱلصحيحة.

* * *

عن عبدِ ٱللَّهِ بنِ عمرُ ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعْتُ رسولَ ٱللَّهِ ﷺ يقول: انطلقَ ثَلاثةُ رَهْطٍ[1] مِمَنْ كانَ قبلَكم حتى أَوَوا ٱلمبيتَ إلى غارٍ فدخلُوه، فٱنحدرَتْ صخرةٌ مِنَ ٱلجبلِ فَسدَّتْ عليهِمُ الغار، فقالوا: إنَّهُ لا يُنجيكُم من هذه الصخرةِ إلّا أن تَدْعُوا اللَّهَ بصالحِ أعمالِكم! فقالَ رجلٌ منهم: اللَّهُمَّ كانَ لي أبوانِ شيخانِ كبيران، وكنْتُ لا أغبقُ قبلَهُما أهلاً ولا[2] مالاً فنأَى[3] بي في طلبِ شيءٍ يوماً فلم أُرِحْ عليهما حتى ناما، فحلبْتُ لهما غبوقَهُما فوجدْتُهُما نائمين، فكرهْتُ أنْ أغبقَ قبلَهما أهلاً أو مالاً، فلبثْتُ وٱلقَدَحُ على يديّ أنتظرُ ٱستيقاظَهما حتى برقَ

(١) رهط: أفراد.

(٢) يقصد أنه كان لا يسقى أحداً من عائلته قبل والديه. والغبوق ما يشرب في العشي.

(٣) نأى: بعُد.

ٱلفجر[1]، فٱستيقظا فشربا غبوقَهما، اللهمَّ إِنْ كنتُ فعلْتُ ذلك ٱبتغاءَ وجهِكَ ففرّجْ عنّا[2] ما نحن فيهِ من هذه ٱلصخرة! فٱنفرجَتْ شيئاً لا يستطيعونَ ٱلخروج.

قالَ النبيُّ ﷺ: وقالَ ٱلآخر: اللهمَّ كانَتْ لي بنتُ عمٍّ كانَتْ أحبَّ ٱلناسِ إليَّ، فأردْتُها عن نفسِها[3] فٱمتنعَتْ منّي، حتى ألمَّتْ بها سَنةٌ منَ ٱلسنينَ فجاءَتْني فأعطيْتُها عشرينَ ومائةَ دِينارٍ على أنْ تُخليَ بيني وبينَ نفسِها! ففعلَتْ، حتى إذا قدرْتُ عليها قالَت: لا أُحلّ لك أنْ تفضَّ[4] ٱلخاتمَ إِلّا بِحقِّه! فتحرَّجْتُ[5] مِنَ ٱلوقوعِ عليها، فٱنصرفْتُ عنها وهي أحبُّ ٱلناسِ إليّ، وتركْتُ ٱلذهبَ ٱلذي أعطيْتُها. اللهمَّ إنْ كنتُ فعلْتُ ذلك ٱبتغاءَ وجهِكَ فٱفرجْ عنّا ما نحنُ فيه! فٱنفرجَتِ ٱلصخرةُ غيرَ أنَّهم لا يستطيعون ٱلخروجَ منها.

قالَ ٱلنبيُّ ﷺ: وقالَ ٱلثالثُ: اللهمَّ إنّي ٱستأجرْتُ أُجراءَ فأعطيتُهُم أجرَهم غيرَ رجلٍ واحدٍ تركَ ٱلذي لَهُ وذهب، فثمَّرْتُ[6] أجرَهُ حتى كثُرَتْ منهُ ٱلأموال، فجاءَني بعدَ حِينٍ فقال: يا عبدَ ٱلله، أدِّ إليَّ أَجري. فقلْتُ لَه: كلُّ ما ترى من أجرِك، مِنَ ٱلإبلِ وٱلبقرِ وٱلغنمِ وٱلرقيق! فقال: يا عبدَ ٱللَّهِ لا تستهزِئ بِي! فقلْتُ: إنيِّ لا أستهزِئُ بك! فأخذَهُ كلَّهُ فٱستاقَهُ فلم يتركْ شيئاً. اللهمَّ فإنْ كنْتُ فعلْتُ ذلك ٱبتغاءَ وجهِكَ فٱفرجْ عنَّا ما نحن فيه! فٱنفرجَتِ الصخرةُ فخرجوا يمشونَ. ٱنتهى ٱلحديث.

وأنا فلسْتُ أدري، أهذا هو النبيُّ ﷺ يتكلَّمُ في ٱلإنسانيةِ وحقوقِها بِكلامٍ بَيِّنٍ صريحٍ لا فلسفةَ فيه، يجعلُ ما بينَ ٱلإنسانِ وٱلإنسانِ مِنَ ٱلنيّةِ هو ما بينَ ٱلإنسانِ وربِّهِ مِنَ ٱلدين؛ أمْ هيَ الإنسانيَّةُ تنطِقُ على لِسانِهِ بهذا ٱلبيانِ ٱلعالي، في شِعرٍ من شِعرِها ضاربةً فيهِ ٱلأمثال، مشيرةً فيهِ إلى ٱلرموز، واضعةً إنسانَها بينَ شِدَّةِ ٱلطبيعةِ ورحمةِ ٱلله، مُحْكِمةً عناصرَ روايتِها ٱلشِّعريَّة، مُحَقِّقةً في بيانِها ٱلمكشوفِ أغمضَ معانيها في فلسفةِ ٱلحاسَّةِ ٱلإنسانيّةِ حينَ تتَّصلُ بأشيائِها فتظهرُ ٱلضرورةُ ٱلبشريَّةُ وتختفي ٱلحِكْمة، وفلسفةُ ٱلروح حينَ تتَّصِلُ بهذِهِ ٱلأشياء ذاتِها فتظهرُ ٱلحِكْمةُ وتختفي ٱلضرورة ـ مبيِّنةً أثرَ هذه وتلكَ في طبيعةِ ٱلكوْن، مقرِّرةً أنَّ ٱلحقيقة

(١) برق الفجر: انبلج، وأشرقت الشمس.
(٢) فرِّجْ عنا: اكشفْ عنا.
(٣) أردتها عن نفسها: راودتها.
(٤) تفضّ: تفتح.
(٥) تحرّج: احترس وخشي.
(٦) ثمّرت: جعلته ينمو.

ٱلإنسانيَّةَ ٱلعاليةَ لنْ تكونَ فيما ينالُ ٱلإنسانُ من لذَّتِه، ولا فيما ينجحُ من أغراضِه، ولا فيما يُقنعُهُ من منطقِه، ولا فيما يلوحُ من خيالِه، ولا فيما ينتظمُ من قوانينِه؛ بلْ هيَ ٱلسموُّ على هذه ٱلحقائقِ ٱلكاذبةِ كلِّها، وهيَ ٱلرحمةُ ٱلتي تغلبُ على الأَثرةِ فيُسميها ٱلناسُ بِرًّا، وٱلرحمةُ التي تغلبُ على ٱلشهوةِ فيُسميها ٱلناسُ عِفَّة، وٱلرحمةُ ٱلتي تغلبُ على ٱلطمع فيُسميها ٱلناسُ أمانة؛ وهيَ في ضبطِ ٱلروح لثلاثٍ مِنَ ٱلحَواسّ: حاسةُ ٱلدَّعةِ ٱلتي يقومُ بها حظُّ ٱلخمول، وحاسَّةُ ٱللذةِ التي يَقومُ بها حظُّ الهوى، وحاسَّةُ ٱلتملُّكِ ٱلتي يقومُ بها حظُّ ٱلقُوّة.

وتزيدُ ٱلإنسانيَّةُ على ذلك في نسقِ شِعرِها أنَّها تُثْبتُ أنَّ ٱلبرَّ مِنَ ٱلعِفَّة وَٱلأمانةِ هو على إطلاقِهِ كَٱلأساس لَهُما؛ فمَنْ نشأَ على برِّ أبويهِ كانَ خليقاً أنْ يتحققَّ بِٱلعِفَّةِ وٱلأَمانة، وأنَّ ٱلعِفَّةَ مِنَ ٱلأَمانةِ وَٱلبرِّ هي مِساكُهُما وجامعتُهُما في ٱلنفس، وَأنَّ ٱلأَمانةَ مِنَ ٱلبرِّ وَٱلعِفَّةِ هي كمالُ هذه ٱلفضائل، وكلُّهُنَّ درجاتٌ لِحقيقةٍ واحدة، غيرَ أنَّ بعضَها أسمى من بعضٍ في ٱلشأْنِ وَٱلمنزلة، وبعضَها طريقٌ لِبعضٍ يجرُّ سببٌ منها سبباً منها، وأنَّ ٱلرحمةَ ٱلإنسانيَّةَ ٱلتي هيَ وحْدَها ٱلحقيقةُ ٱلكبرى إنَّما هيَ هذا ٱلحُبُّ، بادئاً مِنَ ٱلولدِ لِأبويه، وهو ٱلحُبُّ ٱلخاصُّ؛ ثُمَّ مِنَ ٱلمُحِبِّ لِحبيبتِه، وهو ٱلحُبُّ ٱلأخصّ، ثُمَّ منَ ٱلإنسانِ لِلإنسانيَّة، وهوَ ٱلحُبُّ مُطْلَقاً بعمومِهِ وبغيرِ أسبابِهِ ٱلمُلْجئةِ مِنَ ٱلحاجةِ وٱلغَريزة؛ وهي درجاتٌ كَدرجاتِ ٱلحياةِ نفسِها من طُفُولَتِها إلى شبابِها إلى ٱلشيخوخة، ومِنَ ٱلعاطفةِ إلى ٱلرغبةِ إلى ٱلعقْل.

ثُمَّ إنَّهُ ما دامَ كمالُ ٱلفضيلةِ هوَ ٱلأمانة، فما قبلَها أنواعٌ منها؛ فبرُّ ٱلولدِ أمانةُ ٱلطبع ٱلمتأدّبِ، وعِفَّةُ ٱلمُحِبِّ أمانةُ ٱلكريم، والثالثةُ أمانةُ ٱلخُلُقِ ٱلعالي، وهي أسماهُنّ، لِأنَّها لَنْ تكونَ خُلُقاً ثابتاً إلَّا وقد خضعَ لِقانونِها ٱلطبعُ وَٱلقَلْب، ودخلَ في أسبابِها ٱلأدبُ وَٱلكَرَم؛ فالأمانةُ ٱلكَاملةُ في هذه ٱلفلسفةِ هيَ ٱلأمانةُ لِلإنسانيَّةِ ٱلعامَّةِ ٱلمتَّصِلةِ بِٱلمرءِ من أبعدِ جِهاتِه، دونَ ٱلإنسانيَّةِ ٱلخاصَّةِ بكلِّ شخصٍ من أب، أو أمّ، أو قريب؛ ودونَ ٱلتي هي أخصُّ وهي إنسانيَّةُ ٱلحُبُّ.

ونرى في لفظِ ٱلحديثِ أنَّ كلَّ رجلٍ من هؤلاءِ ٱلذين مثَّلُوا رِوايةَ ٱلإنسانيَّةِ ٱلفاضلةِ في فُصولِها ٱلثلاثة، لا يقولُ إنَّهُ فعلَ ما فعلَ من صالحِ أعمالِهِ إلَّا (ابتغاءَ وجهِ ٱلله)، وقد تطابقوا[١] جميعاً على هذه ٱلكلمة، وهي من أدقِّ ما في فلسفةِ

(١) تطابقوا: توافقوا.

ٱلإنسانيَّةِ في شِعْرِها ذلك، فإنَّ معناها أنَّ ٱلرجلَ في صالح عملِهِ إنّما كانَ مُجاهداً نفسَه، يمنعُها ما تحرصُ عليهِ من حظِّها أو لذّتِها أو منفعتِهَا، أي منخلعاً من طبيعتِهِ ٱلأرضيَّةِ ٱلمنازعةِ لِسواها، ٱلمنفردةِ بِذاتِها، متحقِّقاً بِٱلطبيعةِ ٱلسماويَّةِ ٱلتي لا يرحمُ ٱللَّهُ عبداً ألّا بها، وهي رحمةُ ٱلإنسانِ غيْرَهُ، أي ٱندماجُهُ بِٱستطاعتِهِ وقوَّتِه، وإعطاؤُهُ من ذاتِ نفسِه، ومعاونتُه كُفُّ أذاه.

وَٱلحديثُ كَٱلنصِّ على أنَّ هذهِ ٱلرحمةَ في ٱلنفسِ هيَ ٱلدينُ عندَ ٱلله، لا يصلحُ دِينٌ بغيرِها، ولا يقبلُ ٱللَّهُ صَرْفاً ولا عَدْلاً من نفسٍ تخلو منها؛ وإذا كانَتْ بهذهِ ٱلمنزلَة، وكَانَتْ أساسَ ما يُفوِّضُ على ٱلإنسانِ مِنَ ٱلخيرِ وَٱلحقّ، فهي من ذلك في معنى ٱلحَديثِ أساسُ ما يُصْلِحُ هذه ٱلإنسانيَّةَ مِنَ ٱلشرِّ وَٱلبَاطِلِ؛ وبهذا كلِّهِ تكونُ ٱلغايةُ ٱلفلسفيَّةُ ٱلتي ينتهي إليها كلامُهُ ﷺ، أنَّ تَنشِئَةَ ٱلناسِ على ٱلبِرِّ وَٱلعِفَّةِ وَٱلأمانةِ لِلإنسانيَّةِ هِيَ وحدَها ٱلطريقةُ ٱلعمليَّةُ ٱلمُمْكِنةُ لِحلِّ معضلةِ ٱلشرِّ وَٱلجريمةِ في ٱلاجتماع ٱلبشريّ. وَٱنظُرْ كيف جعلَ نهايةَ ٱلسموِّ في رحمةِ ٱلمالِ ٱلذي يَصِفُونَهُ بأنَّهُ شقيقُ ٱلروح، فكأنَّ ٱلإنسانَ لا يخرجُ فيها لِغيرِهِ من بعضِ مالِه، بل ينخلعُ من بعضِ روحِه؛ وهذا يُقرِّرُ لك فلسفةً أخرى: أنَّ ٱلسعادةَ ٱلإنسانيَّةَ ٱلصحيحةَ في ٱلعطاءِ دونَ ٱلأخذ، وأنّ ٱلزائفةَ هي في ٱلأخذِ دونَ ٱلعطاء؛ وذلك آخرُ ما ٱنتهَتْ إليهِ فلسفةُ ٱلأخلاق؛ فما ٱلمرءُ إلّا ثمرةٌ تنضجُ بموادِّها، حتى إذا نضجَتْ وٱحْلَوْلَتْ كانَ مظهرُ كمالِها ومنفعتِها في ٱلوجودِ أنْ تهبَ حلاوَتها فإذا هي أمسكتِ ٱلحلاوةَ على نفسِها لم يكنْ إلّا هذه ٱلحلاوةُ بعينِها سببٌ في عَفَنِها وفسادِها من بعد. أفهِمت؟..

وما دُمْنَا قد وصفْنَا رحمةَ ٱلمال، فإنَّا نُتِمُّ ٱلكلامَ فيها بهذا ٱلحديثِ ٱلعجيبِ في فنِّ تمثيلِهِ وبلاغةِ فنِّه: عن أبي هريرةَ ـ رضيَ ٱللَّهُ عنه ـ أنَّه سُمعَ رسولَ ٱللَّهِ ﷺ يقول: مثلُ ٱلبخيلِ وَٱلمُنْفِقِ كمثلِ رجلينِ عليهما جُبتانِ من حديد، من ثديهما إلى تراقيهما؛ فأمَّا ٱلمُنفِقُ فلا يُنفقُ إلّا سبغَتْ[1] أو وَفَرَتْ على جلدِهِ حتى تُخفِيَ بنانَهُ[2] وتعفُوَ أثرَهُ، وأمَّا البخيلُ فلا يُريدُ أنْ يُنفقَ شيئاً إلَّا لزقَتْ كلُّ حلقةٍ مكانَها، فهو يُوسِعُها فلا تتسع. انتهى.

فأنت ترى ظاهرَ ٱلحديث، ولكنَّ فَنَّهُ ٱلعجيبَ في هذا الحديدِ ٱلذي يُرادُ بِهِ

(١) سبغت النعجة: اتّسعت.
(٢) بنانه: أصبعه.

طبيعةُ ٱلخيرِ وٱلرحمةِ في ٱلإنسان، فهي من أشدِّ ٱلطبائعِ جموداً وصلابةً وٱستعصاءً متى ٱعترضَتْها حظوظُ ٱلنفسِ ٱلحريصةِ وأهواءُها، ومع ذلك فإنّ ٱلسخاءَ بٱلمالِ يبسطُ منها وينتهي في ٱلطبعِ إلى أنْ يجعلَها ليِّنةَ، فلا تزالُ تمتدُّ وتسبغُ حتى يكونَ كمالُ طبعِ ٱلسخاءِ هو كمالَ طبعِ ٱلخيرِ في ٱلنفسِ ٱلكريمة، فمَنْ ألزمَ[١] نفسَهُ ٱلجُودَ وٱلإنفاقَ راضَهَا[٢] رياضةً عمليَّةً كرياضةِ ٱلعَضلِ بأثقالِ ٱلحديدِ ومعاناةِ ٱلقوَّةِ في ٱلصِّراعِ ونحوِه؛ أمّا ٱلشُّحُّ[٣] فلا يُناقِضُ تلك ٱلطبيعةَ ولكنَّهُ يدعُها جامدةً مستعصيةً لا تلينُ ولا تستجيبُ ولا تتيَسر.

وقد جعلَ ٱلجُبَّةَ مِنَ ٱلثدي إلى ٱلتراقي، وهذا من أبدعِ ما في ٱلحديث؛ لأن كلَّ إنسانٍ فهو منفقٌ على ضروراتِه، يستوي في ذلك ٱلكريمُ وٱلبخيل، فهما على قدرٍ سواءٍ من هذه ٱلناحية؛ وإنَّما ٱلتفاوتُ فيما زادَ وسبغَ من وراءِ هذا ٱلحدّ، فهَهنا[٤] يبسطُ ٱلكريمُ بسطَهُ ٱلإنسانيَّ، أمَّا ٱلبخيلُ فهو «يُريدُ» لأنَّهُ إنسان، وٱلإرادةُ علمٌ عقليٌّ لا أكثر، فإذا هو حاولَ تحقيقَ هذه ٱلإرادةِ وقعَ من طبيعةِ نفسِهِ ٱلكزَّةِ فيما يُعانيهِ مَنْ يُوسِّعُ جُبَّةً مِنَ ٱلحديدِ لزقَتْ كلُّ حَلْقةٍ من حلقاتِها في مكانِها، فهي مستعصيةٌ متماسِكة، فهو يُوسِّعُها فلا تتسع.

ألا ترى كيف تتوجَّهُ ٱلحُجَّة، وكيف تدقُّ ٱلفلسفةُ وهيَ في أظهرِ ٱلبيانِ وأوضحِه؟ وهلْ تحسبُ طبيعةُ ٱلبخيلِ في دقائقِها ٱلنفسيَّةِ لو هي نطقَتْ ـ بالِغَةً من وصفِ نفسِها هذا ٱلمبلغَ من جمالِ ٱلفَنِّ وإبداعِه؟ وهو بعدُ وصفٌ لو نُقِلَ إلى كلِّ لغاتِ ٱلأرضِ لَزانَها جميعاً، ولَكانَ في جميعِها كَٱلإنسانِ نفسِه: لا يختلفُ تركيبُه، فلنْ يكونَ بثلاثةِ أعين، لا في بلادِ شكسبيرَ ولا في بلادِ ٱلزنوج.

إنَّ كلامَ نبيِّنا ﷺ يجبُ أنْ يُترجَمَ بفلسفةِ عصرِنا وآدابِه، فستراهُ حينئذٍ كأنَّما قيلَ مرةً أخرى من فمِ ٱلنبوَّة، وستراهُ في شرحِهِ ٱلفلسلفيِّ كَٱلأزهارِ ٱلناضرة: حياتُها بَشاشتُها في ٱلنور؛ وتعرفُهُ إنسانيَّةً قائمةً تُصحّحُ بها أغلاطُ ٱلزمنِ في أهلِه، وأغلاطُ ٱلناسِ في زمنِهم؛ وتجدُهُ يرفُّ على ٱلبشريَّةِ ٱلمِسكينةِ بحنانٍ كحنانِ ٱلأمِّ على أطفالِها، وٱلناسُ ٱلآنَ كَالأطفالِ غابَتْ أمُّهُم، فهم في تنافرٍ صِبيانيّ... وما ٱلأمُّ بطبيعتِها إلَّا ٱلمِيزانُ لٱستبدادِهم، وٱلحِكْمةُ لِطيشِهِم، وَٱلائتلافُ لِتنافُرِهِم[٥]، وٱلنظامُ لِعبَثِهِم[٦]؛

---

(١) ألزم: أجبر.
(٢) راضها: مرّنها وعوّدها.
(٣) الشحّ: البخل.
(٤) يبسط الكريم: يمدّ يد المساعدة.
(٥) تنافرهم: تنابذهم واختلافهم.
(٦) عبثهم: لعبهم.

وبالجملةِ فحنانُ قلبِها الكبيرِ هوَ القانونُ لِكلِّ قضايا هذه القلوبِ الصغيرة.

وقد كتبْنا في فلسفةِ الأدبِ وحقيقتِه، ومعانيهِ الإنسانيَّة، وأنَّ الأديبَ التامَّ الأداةِ هوَ الإنسانُ الكونيُّ، وغيرُهُ هوَ الإنسانُ فقط، وَأنَّ عِلْمَ الأديبِ هوَ النفسُ الإنسانيَّةُ بأسرارِها المتجهةِ إلى الطبيعةِ، والطبيعةُ بأسرارِها المتجهةِ إلى النفس؛ ولِذلكَ فموضعُهُ مِنَ الحياةِ موضعُ فكرةٍ حدودُها من كلِّ نواحيها الأسرارُ ـ وأنَّ الأديبَ مكلَّفٌ تصحيحَ النفسِ الإنسانيةِ ونفي التزويرِ عنها، وإخلاصِها مِمَّا يلتبسُ بها على تتابعِ الضرورات، ثُمَّ تصحيحَ الفكرةِ الإنسانيَّةِ في الوجود، ونفيَ الوثنيَّةِ عن هذه الفِكرةِ، والسموُّ بها إلى فوق، ثُمَّ إلى فوق، ودائماً إلى فوق.

فإذا تدبَّرْتَ هذا المقال، وَاعتبَرْتَ كلامَ النبيِّ ﷺ على ما بيَّنا وشرحْنا، وأخذْتَهُ من عصرِهِ ومِنَ العصرِ الذي نعيشُ فيه، ونظرْتَ إلى ألفاظِهِ ومعانيه، واستبْرَأْتَ[1] ما بينَها من خواصِّ الفنِّ بمثلِ ما نبَّهناك إليهِ مِنَ التأويلِ الذي مرَّ بك، وعلمْتَ أنّ كلَّ حقيقةٍ فنيَّةٍ لا تكونُ كذلك ألّا بخاصةٍ فيها، وأنَّ سرَّ جمالِها في خاصَّتِها ـ إذا جمعْتَ ذلك لم تَرَ مذهباً عنِ الإقرارِ بأنَّ النبيَّ ﷺ كما هو أعظمُ نبيٍّ وأعظمُ مُصْلِح، فهو أعظمُ أديب؛ لِأنَّ فنَّهُ الأدبيَّ أعظمُ فمنَ يُحققُ لِلإنسانيَّةِ حياةَ أخلاقِها، وهو بِكلِّ ذلك أعظمُ إنسان. ﷺ.

* * *

فَالفنُّ في هذه البلاغةِ هو في دقائقِهِ أثرُ تلكَ الرُّوحِ العُلْيا بِكُلِّ خصائِصِها العظيمةِ التي يحتاجُ إليها الوجودُ الروحانيُّ على هذه الأرضَ، ولذا ترى كلامَهُ ﷺ يخرجُ من حدودِ الزمان، فكلُّ عصرٍ واجدٌ فيهِ ما يُقالُ له، وهو بذلك نبوَّةٌ لا تنقضي، وهو حيٌّ بالحياةِ ذاتها، وكأنَّما هو لونٌ على وجهٍ منها كما ترى البياضَ مثلاً هو اللونَ على وجهِ طائفةٍ مِنَ الجنسِ البشريّ...

فإذا نظرْتَ في هذا الفَنِّ فانظرْهُ في حديثِه، وفي عملِه، وفي الدنيا التي ألَّفَها مِنَ التاريخ تأليفَ القطعةِ البليغةِ النادرةِ مِنَ الكلام، وردَّ كلَّ ما تدَّبَرتْهُ[2] من ذلك إلى تلك الروحِ الجديدةِ على تاريخِ الأرض؛ فلتَعْلَمَنَّ حينئذٍ أنَّ كلَّ بليغ هو شمعةٌ مُضيئةٌ صُنِعَتْ لها مادةُ النورِ نوراً وجمالا، بجانبِ هذه الشمس التي خُلِقَتْ فيها مادةُ النورِ نوراً وجمالاً وحياةً وقوَّة؛ هناك نورٌ لِذي عينين، وهنا النورُ لِكُلِّ ذي

---

(١) استبرأت: خلصت.　(٢) تدبرته: تدارسته.

عينين؛ وذاكَ يتخايلُ كَٱلحُلُم، وهذا يُفصِحُ كَٱلحقيقة؛ وذلك ضوءٌ من حولِهِ ٱلظلمةُ دانية، وهذا قدْ طردَ ٱلظُّلمةَ عن نصفِ ٱلدنيا إلى نصفِ ٱلدنيا؛ وٱلأولُ نورٌ بلا روح، وٱلثاني هو روحُ ٱلنور.

تلك في رأْينا هيَ ٱلطريقةُ ٱلتي كانَ يفهمُهُ بها أصحابُهُ ﷺ، كما يفهمُ ٱلشاعرُ نورَ ٱلقمرِ في ليلةِ صيفٍ بِمعانٍ منَ ٱلزمانِ وٱلمكان، ومِنَ ٱلنفس وٱلحالة، ومنَ ٱلهيئةِ وٱلشَّكْل، ومِنَ ٱلعينِ وٱلفِكْر، ومنَ ٱلسماءِ وٱلأرض؛ ففيهِ ٱلنورُ وزيادة، أي ٱلحقيقةُ وما ترتفعُ بِهِ على نفسِها؛ وبهذه ٱلطريقةِ كانوا معَهُ كأعظم فلاسفةِ ٱلفنِّ مَعَ ٱلفن إعجاباً وحُبًّا وٱنقياداً وطاعةً حتى ٱنخلعوا[1] من عصرِهِمْ ودُنياهم، وخرجوا من أحوالِهِم وطبائعِهِم، وٱنجذبوا إليهِ أشدَّ ٱنجذابٍ عرفَهُ ٱلتاريخ، وأصبحوا مصرَّفينَ مَعهُ تصريفَ الحوادثِ لا تصريفَ ٱلأشخاص، وعادَتْ أنفسُهُم وكأنَّ تأثيرَ ٱلأرضِ يلتقى فيها بتأثيرِ ٱلسماءِ فيُغسَلُ في سُحُبٍ عاليةٍ فلا يكونُ فيها كما يُريدُهُ ٱلناس، بلْ كما يُريدُ ٱللهُ؛ ورجعَتْ قلوبُهم لا تلبسُ على دينِها رأياً ولا هوًى، وكأنَّما وُضِعَ لها هذا ٱلدينُ حرساً على كلِّ سمعٍ وعلى كلِّ بصر؛ وبٱلجملةِ فأولئك قومٌ كأنَّما تناولَهُم ٱلنبيُّ ﷺ فأَفرَغَهم ثُمَّ ملأَهم، وما ٱنتقلوا إلى منزلتِهِمُ ٱلعاليةِ في ٱلتاريخِ إِلَّا بعدَ أنْ نقلَهم هو إلى منزلةٍ من منازلِ نفسِهِ ٱلشريفة.

وناهيك من رجالٍ يُمثِّلُ لهم بهذا ٱلمثلِ ٱلذي يضربُهُ لهم في ٱلإيمانِ لِيبلغوه أو يُقاربوه؛ فعن خبابِ بْنِ ٱلأرتِ ـ رضيَ ٱللَّهُ عنه ـ قال: شكَوْنا إلى رسولِ ٱللَّهِ ﷺ وهو متوسِّدٌ بُردةً لَهُ في ظِلِّ ٱلكعبة، قلْنَا: أَلَا تستنصرُ لنا؟ ألا تدعو ٱللَّهَ لنا؟ قال: كانَ ٱلرجلُ فيمَنْ قبلَكُم يُحفرُ لَهُ في ٱلأرضِ فيُجعلُ فيه فيُجاءُ بِٱلمنشارِ فيُوضعُ على رأسِهِ فيُشقُّ بِٱثنينِ وما يصدُّهُ ذلك عن دينِه، ويُمَشَّطُ بأَمشاطِ ٱلحديدِ ما دونَ لحمِهِ من عظمٍ أو عَصَبٍ وما يصدُّهُ ذلك عن دينِه!

فانظرْ يا هذا، فإِنَّهُ لوِ ٱجتمعَتْ قوى ٱلكونِ فجاءَتْ يشدُّ بعضُها بعضاً فنزلَتْ في عبارةٍ مِنَ ٱلكلام لِتمَلأَ نفوسَ ٱلمؤمنينَ بقوَّتِها لَمَا وُضِعَتْ إِلَّا هذا ٱلوضعَ من هذا ٱلتمثيلِ بِأمشاطِ ٱلمساميرِ وأسنانِ ٱلمنشارِ في عظمِ ٱلإنسانِ ٱلحيِّ ولحمِه. وظاهرُ ٱلتمثيلِ على ما رأيْتَ مِنَ ٱلعجب، ولكنَّ لَهُ باطناً أعجبَ من ظاهرِه، وهو ٱلبلاغةُ كلُّ ٱلبلاغةِ وٱلبيانُ حقُّ البيان، فإِنَّما يُريدُ ﷺ أنَّ ٱلحديدَ لا يأكلُ ولا يمزعُ

---

(١) انخلعوا: خرجوا.

من أولئك ٱلأقوياءِ بإيمانِهم عَظْماً ولَحْماً وعَصَباً، بلْ هو حديدٌ يأكلُ حديداً مثلَهُ أو أشدَّ منه، فإنَّ لِلروحِ ٱلمؤمنةِ ٱلمسلَّطةِ على جِسمِها قوةً تصنعُ هذه ٱلمعجزة، فيمرُّ ٱلحديدُ في ٱلعظمِ وَٱللحمِ وٱلعَصَبِ يسلبُها ٱلحياة، ولكنّها تسلبُهُ شِدَّتَهُ وجَلَدَهُ وصبَره!

* * *

وكلُّ ما جاءَ مِنَ ٱلتمثيلِ في كلامِهِ ﷺ ينطوي فيهِ من إبداعِ ٱلفنِّ ٱلبيانيِّ وإعجازِهِ ما يفوتُ حدودَ ٱلبلغاء، حتى لا تشكُّ إذا أنت تدبَّرْتَهُ بحقِّهِ مِنَ ٱلنظرِ وَٱلعِلْم أنَّ بلاغتَهُ إنَّما هي شيءٌ كبلاغةِ ٱلحياةِ في ٱلحيِّ: هي ٱلبلاغةُ ولكنَّها أبدعُ مِمَّا هي، لِأنَّها ٱلحياةُ أيضاً.

وأنت خبيرٌ أنَّ هذا ٱلنبيَّ ٱلكريمَ ﷺ كانَتْ تأخذُهُ عندَ نزولِ ٱلوحي عليهِ أحوالٌ وُصِفَتْ في كتبِ ٱلحديث: قالَتْ عائشةُ ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ: ولقد رأيْتُهُ ينزلُ عليهِ ٱلوحيُ في ٱليومِ ٱلشديدِ البردِ فيُفصَمُ[1] عنهُ وإنَّ جبينَهُ لَيتفصَّدُ[2] عَرَقاً وفي حديثٍ آخرَ عنها قالَت: فَأخذَهُ ما كانَ يأخذُهُ من ٱلبُرَحاءِ[3] حتى إنَّهُ ليتحدَّرُ[4] عنهُ مثلُ ٱلجُمَانِ[5] مِنَ ٱلعرقِ في يوم شاتٍ. وفي حديثِ زيد بْنِ ثابت: فأنزلَ ٱللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسولِهِ ﷺ، وفخِذُهُ على فخذي، فثُقلَتْ عليَّ حتى خِفْتُ أنْ تُرضَّ[6] فخذي. وفي حديثِ يعلى بْنِ أميَّةَ حينَ قالَ لِعمر: أرني ٱلنبيَّ ﷺ حينَ يُوحى إليهِ ـ: فأشارَ عمرُ إليّ، فجِئْتُ وعلى رأسِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ثوبٌ قد أُظلَّ بهِ فأدخلْتُ رأسي، فإذا رسولُ ٱللَّهِ ﷺ محمرُ ٱلوجهِ وهو يغطُّ[7]، أي يُرِدِّدُ نَفسَهُ من شدَّةِ ثقلِ ٱلوحي. فهذه كلُّها أحوالٌ تصفُ عملَ ٱلدِّماغ بكلِّ ما فيهِ من جهدِ ٱلقُوى ٱلعصبيَّة؛ لِيرتفعَ بِٱلحياةِ إلى ما فوقَها ويتركَها لِوعي ٱلروح وحدَها، لا يُشاركُها في هذا ٱلوعي فكرٌ ولا هاجس[8]، ولا يتَّصِلُ بهِ شيءٌ من حياةِ ٱلحيّ، فيتحققُ لِلنبيِّ ﷺ وجودٌ آخرُ غيرُ وجودِهِ ٱلمحدودِ بجسمِهِ وطِباعِهِ ودُنياه؛ ويخرجُ بِوَعْيِهِ من هذه ٱلجاذبيَّةِ ٱلأرضيَّةِ إلى ما وراءِ حدودِ ٱلطبيعةِ من قوى ٱلغيب؛ وبذلك يتلقَّى عن روحِ ٱلكوْن، ثُمَّ يُفصَمُ عنه وقد وعى ما أُوحِيَ إليه. وما وصفَهُ زيدُ بْنُ ثابتٍ من أنَ فَخذَهُ كادَتْ تُرضُّ ـ بُرهانٌ قاطعٌ على أنَّ روحَهُ ﷺ تنسرِحُ من جسمِهِ ساعةَ

(١) يفصم البرد: يُقلع.
(٢) يتفصّد عرقاً: يجري عرقه.
(٣) بُرحاء الحمى: شدّتها.
(٤) يتحدّر: ينهمر.
(٥) الجمان: اللؤلؤ.
(٦) تُرضن: تحطم.
(٧) يغطّ: يغيب عن عالم المحسوسات.
(٨) هاجس: فكر طارىء.

اَلْوحي فيقلُّ ٱلجسم، لِأنَهُ إِنَّما يخفُّ بِٱلروحِ وتبقى وظائفُ ٱلحياةِ عاملةً أعمالَها بعُسرٍ وبُطْء، لاتصالِها بشعاعٍ مِنَ ٱلروح دون ٱلروح بجملتِها؛ ولسْنا هنا بصددِ ٱلكلامِ عنِ ٱلوحي، فلَهُ موضعٌ إِنْ شاءَ ٱللّٰهُ في كتابِنا (أَسرارُ ٱلإعجاز) وإِنَّما نُريدُ أنْ ندلَّ على أن هذه ٱلتهيئةَ ٱلإلَهيَّةَ لذلك ٱلجِهازِ العصبيِّ لها أثرُها العظيمُ في فنِّ بلاغتِهِ ﷺ، وبها ٱمتازَ عنِ كلِّ بُلغاءِ ٱلدنيا؛ فإِنّ ٱلمُلهَمَ[1] مِنْ أفذاذِ العبقريينَ على هذه ٱلأرضِ إِنَّما يُبلِّغُ ما يبلُغُهُ ببعضِ هذا ٱلذي رَأيْت، وفي بعض هذا أبدعُ ما ورثَتِ ٱلدنيا من فنونِ ٱلبيان، وكأنّ في ٱلدماغ مادةً في موضع منه يُميَّزُ بها مَنْ تختارُهُمُ ٱلسماءُ لِحكمتِها وإِلهامِها، وإذا كانَ فَنُّ ٱلعبقريينَ هو أسمى ٱلكلامِ ٱلإنسانيّ، لِمَا خُصُّوا بِهِ من هذه ٱلتهيئة، فإِنَّ فنَّهُ ﷺ يكونُ ولا جرمَ من بابِ ٱلأكبرِ مِمّا هو أكبرُ في إِلهامِ ٱلإنسانيَّةِ كلِّها.

ولهذه ٱلقوةِ ٱلنادرةِ كانَ بيانُهُ قوياً على مزج معانيهِ بِٱلنفسِ بما فيهِ من صنعةِ ٱلحياة، وإِنَّما فلسفةُ ٱلبيانِ[2] ٱلفنيِّ أنّ تمتدَ ٱلحياةُ مِنَ ٱلنفسِ إلى ٱللفظ، فتَصنعُ فيهِ صُنعَها، فتنفصلُ ٱلعبارةُ ٱلفنيَّةَ عنْ كاتبِها أو قائلِها وهي قِطعةٌ من كلامِه، لِتستحيلَ عندَ قارئِها أو سامِعِها قطعةً مِنَ ٱلحياةِ في صورةٍ من صورِ ٱلإدراك؛ فَٱلبيانُ ٱلفنيُّ هوَ ٱلوسيلةُ لحمل ٱلوجودِ وبعثرتِهِ في مواضعَ غيرِ مواضعِه، وخلْقِهِ خلْقاً آخرَ في ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّةَ؛ وبذَلك يؤَوَّلُ[3] قولُهُ ﷺ: إِنَّ مِنَ ٱلبيانِ لَسحراً. جعلَ نوعاً مِنَ ٱلبيانِ هُوَ ٱلسحر، لا ٱلبيانَ كُلَّه، فَٱلحديثُ كَٱلنصِّ على ما تُسميهِ ٱلفلسفةُ ٱلأوربيَّةُ ٱليومَ (بِٱلبيانِ ٱلفنيّ)، كأنَّهُ قال: إِنَّ مِنَ ٱلبيانِ فنًّا هو سحرٌ من عمل ٱلنفسِ في ٱللغةِ تُغيِّرُ بِهِ ٱلأشياء، ولَهُ عجبُ ٱلسحرِ وتأثيرُهُ وتصرُّفُه؛ وهذا معنًى لم يتنبهْ إِليهِ أحد، ولا يُذكرُ معَهُ كلُّ ما قالوه في تفسيرِ ٱلحديث، وبذلك التأويلِ يكونُ هذا ٱلحديثُ قدِ ٱحتوى أسمى حقيقةٍ فلسفيةٍ لِلْفنّ.

ومن أثرِ تلك ٱلقوَّةِ أيضاً ما تراهُ من شِدَّةِ ٱلوضوح في كلامِهِ ﷺ، ولقد رأيْنا هذه ٱلبلاغةَ ٱلنبويَّةَ ٱلعجيبةَ قائمةَ على أنَّ كلَّ لفظٍ هو لفظُ ٱلحقيقةِ لا لفظُ ٱللغة، فَٱلعِنايةُ فيها بِٱلحقائق، ثُمّ ٱلحقائقُ هيَ تختارُ ألفاظَها ٱللغويَّةَ على منازلِها؛ وبذلك يأتي ٱلكلامُ كأنَّه نُطْقٌ لِلحقيقةِ ٱلمعبَرِ عنها، وٱلكلمةُ ٱلصادقةُ تُنطقُ مرةً واحدة؛ فصورتُها

---

(١) تنسرح: تنفلت.

(٢) الملهم: الموهوب.

(٣) يؤوّل: يفسّر ويتحوّل.

ٱللغويَّةُ لا تكونُ إِلَّا صريحةً منكشِفةً عن معناها ٱلمضيءِ كأنَّما أُلقِيَ فيها ٱلنور.

وهو معلومٌ أَنَّهُ ﷺ لا يتكلَّفُ ولا يتعمَّل، ولم يكتبْ ولم يؤلِّف، ومع هذا لا تجدُ في بَلاغتِهِ مَوْضِعاً يقبلُ ٱلتنقيح[1]، أو تعرفُ لَهُ رقةً مِنَ الشأنِ كأنَّما بينَ ٱلألفاظِ ومعانيها في كلِّ بلاغتِهِ مقياسٌ ومِيزان، أو كأَنَّ هذه ٱلبلاغةَ تنبثِقُ بِٱلكلامِ على طبيعةٍ عاملةٍ فيهِ بقواها ٱلدائبةِ ٱلثابتة، ففنُّها ٱلجميلُ هو ٱلتركيبُ ٱلذي تجيءُ فيهِ كما ترى الشجرَ مثلاً كاسياً من ورقِهِ وزهرِهِ؛ فأنت منه بإِزاءِ عملٍ جميلٍ لِأَنَّك بإزاءِ حقيقةٍ طبيعيَّةٍ قدِ ٱنفردَتْ في ذاتِها، ومعنى ٱنفرادِها في ذاتِها أَنَّها كذلك هي، فليسَ فيها موضعٌ لِشيءٍ غيرِ ما هو فيها؛ ثُمَّ لا تنسَ أنَّ النبوَّةَ أكبرُ ٱلسببِ في ذلك ٱلوضوحِ ٱلبيانيِّ ٱلعجيب؛ فإِنَّ الحياةَ لا تستغلِقُ في ٱلبلاغةِ بإِنسانٍ إِلَّا وهي غنيةٌ عنه؛ ولَعلَّ غموضَ بعضِ ٱلفلاسفةِ وبعضِ ٱلشعراءِ هو من دليلِ ٱلطبيعةِ على أَنَّهم زائدونَ في ٱلطبيعة... ألا ترى أنَّ من أساليبِهمُ ٱلفلسفيةِ وٱلشعريةِ ما يجعلُ معنى ٱلكلمةِ أحياناً هو نقضَ معناها إِذْ يتصنعون لِلْفكرِ ويستجلبون لَهُ ويُشقِّقون فيهِ كما يفعلُ أهلُ صِناعةِ ٱلألفاظِ بِالألفاظ، فهٰهنا ٱلبديعُ ٱللفظيُّ؛ وهناك «ٱلبديعُ ٱلفكريُّ»، ولا طائلَ وراءَهما إِلَّا صِناعةٌ وبهرجة.

ومتى كانَ النبيُّ قسماً مِنَ ٱلحياة، بل مادةً لِمعانيها ٱلجديدة، فلنْ يكونَ بيانُهُ إِلَّا على ما وصفْنَا لَكَ جمالا، ووضُوحاً ومنفعةً ودِقَّةً وسُمُوّاً بقدرِ ذلك كلِّه.

***

وهنا معنًى نُريدُ أنْ نُنبِّهَ إِليهِ ونتكلَّمَ في سِرِّهِ وحقيقتِه، فإِنَّك تقرأُ ما جُمِعَ مِنَ ٱلكلامِ النبويِّ فلا تُصيبُ فيهِ ما تُصيبُهُ في بلاغةِ أدباءِ العالمِ مِمَّا فنُّهُ ٱلكلامُ في ٱلمرأة، وَٱلحُبّ، وجمالِ ٱلطبيعة، وهو في بلاغةِ ٱلناسِ كَٱلقَلْبِ في ٱلجِسْم: لا تخلو منه ولا تقومُ إِلَّا بِه، حتى تَجِدُ ٱلكلامَ في ٱلمرأةِ وحدَها شطْرَ ٱلأدبِ ٱلإنسانيّ، كما أنَّ ٱلمرأةَ هيَ شَطْرُ ٱلإنسانيَّة، ولا يُعرفُ لَهُ ﷺ في هذه ٱلأغراضِ إِلَّا كلماتٌ بيانيَّةٌ جاءَتْ بِمَا يفوتُ ٱلوصفَ مِنَ ٱلجمالِ وٱلدِّقَّة، متناهيةً في ٱلحُسْن، طاهرةً في ٱلدلالة، يظهرُ في وجهِ بلاغتِها ما يظهرُ في وجهِ ٱلعذراءِ من طبيعةِ ٱلحياءِ وٱلخَفرَ: كقولِهِ في ٱلنساء: «رفقاً بِٱلقوارير»، وقولِهِ لِأُسامةَ بْنِ زيد، وقد كساهُ قُبطيَّةً[2] فكساها ٱمرأتهُ «أخافُ أنْ تَصِفَ حجمَ عِظامِها». قالَ ٱلشريفُ ٱلرضيُّ في

(١) التنقيح: التصحيح.

(٢) ضرب من الأردية المصرية.

شرحِ هذه ٱلكلمة: وهذه ٱستعارة، وَٱلمرادُ أنَّ القُبطيَّةَ بِرِقتِها تلصقُ بِٱلجسم، فتُبينُ حجمَ ٱلثديين، وٱلرادفتين، وما يشتدُّ من لحمِ ٱلعضدينِ وَٱلفخذين، فيعرفُ ٱلناظرُ إليها مقاديرَ هذه ٱلأعضاء، حتى تكونَ كَٱلظاهِرَةِ لِلَحظِه، وَٱلمُمْكِنةِ لِلَمسِه، فجعلَها عليه الصلاة والسلام لِهذه ٱلمحالِّ كالواصفةِ لِمَا خلفَها، وٱلمخبرةِ عَمَّا ٱستترَ بها؛ وهذه من أحسنِ ٱلعِباراتِ عن هذا ٱلمعنى، ولهذا ٱلغرضِ رمى عمرُ بْنُ ٱلخطابِ في قوله: «إيَّاكم ولَبسَ ٱلقُباطيّ، فإنَّها إلَّا تشفَّ تصف». فكانَ رسولُ الله ﷺ أبا عذرةِ هذا ٱلمعنى، ومَنْ تبعَهُ فإِنَّما سلكَ فجَّه.

قلْنا: وهذا كلامٌ حسن، ولكنَّ في عبارةِ ٱلحديثِ سرّا هو من مُعجزاتِ ٱلبلاغةِ ٱلنبويَّةِ لم يهتدِ إليهِ ٱلشريف، على أنَّهُ هو حقيقةُ ٱلفنِّ في هذه ٱلكلمةِ بخاصتِها، ولا نظنُّ أنَّ بَليغاً من بُلغاءِ ٱلعالم يتأتَّى لِمثلِه، فإنَّهُ عليهُ ٱلصلاةُ وٱلسلامُ لم يقل: أخافُ أنْ تصِفَ حجمَ أعضائِها، بلْ قال: حجمَ عظامِها، مَعَ أنَّ ٱلمُرادَ لحمُ ٱلأعضاءِ في حجمِه وتكوينِه، وذلك منتهى ٱلسموِّ بِٱلأدب، إذ ذكرَ «أعضاءَ» ٱلمرأةِ في هذا ٱلسياق، وبهذا ٱلمعرض، هو في ٱلأدبِ ٱلكاملِ أشبهُ بِٱلرفث[1]، ولفظةُ «الأعضاءِ» تحتَ ٱلثوبِ ٱلرقيقِ ٱلأبيضِ تُنبِّهُ إلى صورِ ذِهنيَّةٍ كثيرةٍ هيَ ٱلتي عدَّها ٱلرضيُّ في شرحِهِ، وهي تُومىءُ إلى صُوَرٍ أخرى من ورائِها، فتنزهَ ٱلنبيُّ ﷺ عن كلِّ ذلك، وضربَ ٱلحِجابَ ٱللغويَّ على هذه ٱلمعاني ٱلسافرة... وجاءَ بِكلمةِ «العِظام»، لِأنَّها ٱللفظةُ ٱلطبيعيَّةُ ٱلمبرَّأةُ من كلِّ نزغة، لا تقبلُ أنْ تلتويَ، ولا تُثيرُ معنًى، ولا تحملُ غَرَضاً؛ إذْ تكونُ في ٱلحيِّ وَٱلميت، بلْ هي بهذا أخصّ؛ وفي ٱلجميلِ وَٱلقبيح، بلْ هي هنا أليق؛ وفي ٱلشبابِ وَٱلهرم، بلْ هي في هذا أوضح. والأعضاءُ لا تقومُ إلَّا بِٱلعظام، فالمجازُ على ما ترى، وٱلحقيقةُ هي ما علمْت.

ومن كلماتِهِ في ٱلوصفِ ٱلطبيعيِّ قولُهُ ﷺ وهو يذكُر أوقاتَ ٱلصلاة: «العصرُ إذا كانَ ظلُّ كلِّ شيءٍ مثلَه، وكذلك ما دامَتِ ٱلشمسُ حيَّة، وٱلعِشاءُ إذا غابَ ٱلشفقُ إلى أنْ تمضيَ كواهلُ ٱلليل» وكواهلُ ٱلليل: أوائلُهُ وفروعُهُ ٱلمتقدِّمةُ منه، كَٱلذي يتقدَّمُ ٱلمَطايا من أعناقِها ٱلمُمْتدَّةِ بعضَ ٱلامتداد؛ وقولُهُ وقد سألَهُ رجلٌ متى يصلّى ٱلعِشاءَ ٱلآخرة، فقالَ عليهِ ٱلصلاةُ وٱلسلام: «إذا ملأَ ٱلليلُ بطنَ كلِّ واد»؛ وقولُه: «إذا طلعَ حاجبُ ٱلشمسِ فأخِّروا ٱلصلاةَ حتى ترتفع»؛ وقولُه: «إنَّ رجلاً من أهلِ

(١) الرفث: هو ما بذؤ من الكلام.

ٱلجنةِ ٱستأذنَ ربَّهُ في ٱلزرع، فقالَ له: ألسْتَ فيما شِئْت؟ قال: بلى، ولكنِّي أُحِبُّ أنْ أزرع. قال: فَبَذَرَ فبادرَ ٱلطرفَ نباتُهُ وٱستواؤُهُ وٱستحصادُهُ فكانَ أمثالَ ٱلجبال».
وقولُه: «بينا رجلٌ يمشي فٱشتدَّ عليهِ ٱلعطشُ، فنزلَ بِئْراً، فشربَ منها ثُمَّ خرج، فإذا بِكلْبٍ يلهثُ يأكلُ ٱلثرى مِنَ ٱلعَطَش، فقال: لقد بلغَ هذا مثلُ ٱلذي بلغَ بي! فملأَ خُفَّهُ ثُمَّ أمسكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ[1] فسقى ٱلكلْبَ فشكَرَ ٱللَّهُ لَه، فغفرَ لَه. قالوا: يا رسولَ ٱلله، وإنَّ لنا في ٱلبَهائمِ أجراً؟ قال: «في كلِّ كَبِدٍ رطْبَةٍ أجر».

فهذا ونحوُهُ مِنَ ٱلفنِّ ٱلبديعِ ٱلنادر، وهو مع ذلك لا يأْتي في كلامِهِ ﷺ إلَّا في مثلِ ما رأيْت، فَلا يُرادُ منهُ ٱستجلابُ ٱلعِبارة، ولا صِناعةُ ٱلخَيال، فيَظنُّ مَنْ لا يُميزُ ولا يُحقِّقُ أنَّ خُلُوَّ ٱلبلاغةِ النبويَّةِ من فنِّ وصفِ ٱلطبيعةِ وٱلجمالِ وَٱلحُبّ، دليلٌ على ما يُنكِرُهُ أو يستجفيه[2]، ويقول: بداوةٌ وسذاجةٌ ونحوُ ذلك مِمَّا تُشبِّهُهُ ٱلغفلةُ على جهلةِ ٱلمستشرقينَ ومَنْ في حُكمِهم من ضِعافِ أدبائِنا وجهلةِ كُتَّابِنا؛ وإنَّما ٱنتفى ذلك عنِ ٱلنبيِّ ﷺ لأنتفاءِ ٱلشعْرِ عنهُ وكونِهِ لا ينبغِي لَهُ كما بسطْنَاهُ في موضعِه؛ فعملُهُ أنْ يهديَ ٱلإنسانيَّةَ لا أنْ يُزيِّنَ لَها، وأنْ يدُلَّها على ما يجبُ في ٱلعمل، لا ما يَحسُنُ في صِناعةِ ٱلكلام، وأنْ يهديَها إلى ما تفعلُهُ لِتسموَ به، لا إلى ما تتخيلُهُ لِتلهوَ بهِ. وَٱلخيالُ هوَ ٱلشيءُ ٱلحقيقيُّ عندَ ٱلنفسِ في ساعةِ ٱلانفعالِ وَٱلتأثُّرِ بهِ فقط، ومعنى هذا أنَّهُ لا يكونُ أبداً حقيقةً ثابتة، فلا يكونُ إلَّا كَذِباً على ٱلحقيقة.

ثُمَّ هو ﷺ ليسَ كَغيرِهِ من بُلَغاءِ ٱلناس: يتَّصلُ بِٱلطبيعةِ لِيستمليَ منها؛ بلْ هو نبيٌّ مُرْسَلٌ مُتَّصِلٌ بمصدرِها ٱلأزليِّ لِيُمليَ فيها، وقد كانَتْ آخرَ ٱبتسامةٍ لَهُ في ٱلدنيا ٱبتسامتُهُ لِلصلاة يتهلَّلُ لِطهارةِ ٱلنفسِ ٱلمؤمنةِ وجَمالِها قائمةً بينَ يدي خالقِها، منسكِباً في طهارتِها روحُ ٱلنور، وكلُّ إنسان إنَّما يبدو ٱلكونُ في عينِهِ على ما يرى مِمَّا يُشبِهُ ما في نفسِه، فكلُّ ما رآهُ ٱلمصلي ٱلخاشعُ في صلاتِه يبدو لَهُ كأنَّهُ يُصلِّي في ضربٍ مِنَ ٱلعِبادةِ على نحوٍ مِنَ ٱلدين، وكلُّ ما رآهُ ٱلسكرانُ في سُكْرِهِ يكادُ يراهُ متخبِّطاً يُعربِدُ ما يتماسك!

ثُمَّ إنَّ ٱلكلامَ في وصفِ ٱلطبيعةِ وَٱلجمالِ وَٱلحُبِّ على طريقةِ ٱلأساليبِ ٱلبيانيَّة، إنَّما هو بابٌ مِنَ ٱلأحلام؛ إذْ لا بُدَّ فيهِ من عينيِ شاعر، أو نظرةِ عاشق؛ وهنا نَبيٌّ يُوحَى إليه، فلا موضعَ لِلْخيالِ في أمرِه، إلَّا ما كانَ تمثيلاً يُرادُ بِهِ تقويةُ

(١) رقي: صعد.
(٢) يستجفيه: يجده قاسياً جافياً.

ٱلشعورِ ٱلإنسانيِّ بحقيقةِ ما في بعضِ ما يُعرضُ من بابِ ٱلإرشادِ وَٱلموْعِظة، كما مرَّ بكَ من أمثلتِه، وكقولِهِ ﷺ: «إنَّ ٱلمؤمنَ يرى ذنوبَهُ كأنَّهُ قاعدٌ تحتَ جبلٍ يخافُ أنْ يقعَ عليه، وإنَّ ٱلفاجرَ يرى ذنوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ على أنفِه!» وهذا كلامٌ أَبلَغُ ما أنت واجدٌ من تفسيرِهِ تلك ٱلنفسَ ٱلمؤمنةَ بإحساسِها ٱلرقيق، كأنَّهُ حاسَّةٌ مِنَ ٱلنورِ كُبِّتْ في شعورِها، وتلك ٱلنفسُ ٱلفاجرةُ بإحساسِها ٱلغليظ، كأنَّهُ حاسةٌ مِنَ ٱلتراب. . .

ويكادُ ٱلمؤمنُ ٱلذي يسمعُ هذا ٱلوصفَ يذكِّرُهُ ذنوبَه ـ أنْ يُحسَّ بحركةِ جبلٍ يهمُّ أنْ ينقلعَ فيميلُ عليه، أمَّا ٱلفاجرُ فيسمعُهُ يُذَكِّرُهُ ذنوبَهُ فإذا هيَ في خيالِهِ نقطٌ سودٌ تمرُّ مرورَ ٱلذباب، ليسَ منهُ ٱلحِسُّ به، كما يُحِسُّ مَنْ يُضربُ على أنفِهِ برجلِ ذبابة. . . وجعلَ ٱلذبابَ يمرُّ على أنفِهِ دونَ عينِهِ أو فمِه، وذلك منتهى ٱلجمالِ في ٱلتصوير، لِأنَّ ٱلذبابَ إذا وقعَ على الفمِ أوِ ٱلعينِ ثبتَ وألحَّ، فإذا وقعَ على قصبةِ الأنفِ لم يكدْ يقفُ ومرَّ مرورَه.

ٱلكونُ في نظرِ ٱلنبيِّ ﷺ آيةُ ٱلحِكْمةِ لا آيةُ ٱلفنّ، ومنظرُ ٱلمسْتَيْقِنِ لا منظرُ ٱلمتخيِّل، ومادةُ ٱلعبوديَّةِ لِلَّهِ لا مادةُ التألُّهِ لِلإنسان، وبذلك حرَّمَ ٱلإسلامُ أشياءَ وكرهَ أشياءَ لا يكونُ ٱلفنُّ بغيرِها فنّاً، في ضروبٍ مِنَ ٱلشعرِ وٱلتصويرِ وٱلموسيقى وٱلحُبّ، لِأنَّهُ إنَّما ينظرُ لِلإنسانِ واحداً وجمعاً، وحاضراً وآتياً؛ وواجباً ومنفعة، ولذةً وألماً؛ وهذه كلُّها لا إطلاقَ فيها إلَّا من أجلِ ٱلقيْد، على حينِ أنَّ ٱلفنَّ لا قَيْدَ فيهِ إلَّا من أجلِ ٱلإطلاق، وأساسُ ٱلدينِ حظُّ ٱلجماعةِ وقيودُها، وأساسُ الفنِّ ٱلفردُ وحريَّتُه؛ وهذه ٱلحياةُ لا تبدو في حالةِ تركيبٍ وٱنتظامٍ إلَّا إذا كانَتْ لِلْكُلّ، فإذا كانَتْ لِفردٍ ظهَرَتْ في هيئةِ ٱنحلالٍ وٱنتفاض، وأصبحَتْ في ٱلكَوْنِ كلِّهِ كأنَّها عمرُ إنسانٍ واحد.

ثُمَّ إنَّ لِلْفنِّ ألواناً لا بُدَّ منها لِتصويرِهِ ٱلجميلِ ٱلذي تُعجبُ بِهِ ٱلنفس، وٱلشيطانُ هو ٱللونُ ٱلأحمرُ فيها. . . أي هو أشدُّها زهواً وإشراقاً وجمالاً في ٱلتصويرِ ٱلفنيِّ لِكلِّ ما في ٱلمرأةِ وٱلحُبِّ وَٱلجمالِ وشهواتِ ٱلنفس، ولسْنَا نُنكِرُ أنَّ ٱلحياةَ ٱلقويَّةَ حينَ تُمازجُها هذه ٱلفنونُ تكسبُ مَرَحاً ونشاطاً ويكونُ لها رونق، وفيها متاع؛ ولكنَّ ٱلحياةَ لا تكونُ بها كذلك إلَّا من أنَّها تحتسي[1] خمرَها. . . فَلَها بعدُ من عاقبةِ هذه ٱلفنونِ شبيهٌ بما يكونُ لِلْجسمِ ٱلقويِّ من عاقبةِ ٱلخمرِ إذا

(١) تحتسي: تشرب قليلاً قليلاً.

تغلغلَتِ ٱلخمرُ في شِعَابِ كبدِهِ وأحاطَتْ رطوبتَها يابسة، كما وقعَ في أطوارٍ كثيرةٍ من تاريخِ ٱلأُمم؛ فليسَ ٱلاعتبارُ في هذا ٱلتشبيهِ بما يعرضُ من تأثيرِ ٱلساعةِ ٱلزائلةِ بأفراحِها وفنِّ حياتِها، بلِ ٱلشأنُ لِلْعاقبةِ ٱلمحتومةِ متى جاءَتْ ساعتُها ٱلباقيةُ بأحزانِها وفنِّ هلاكِها، فَالإسلامُ فيما حرَّمَ وكرَّهَ من ذلك لم يزدْ على أنْ أرادَ لِلْحياةِ أنْ تحيا، لِأنَّهُ لا يُقرُّ صورةً من صُوَرِ ٱنتحارِها.

ومَنْ كانَ أكبرَ عملِهِ إنشاءُ ٱلحقائقِ ٱلإنسانيَّةِ وتقريرُها شريعةً وعاطفةً وأعمالاً، فلا جرمَ كانَ فنُّهُ غيرَ ٱلذي أكبرُ عملِهِ تمويهُ تلك ٱلحقائقِ وزخرفتُها لِيقعَ ٱلإحساسُ بِها على غيرِ وجهِها، فتخفَّ بالواقعِ منها على ٱلنفسِ خِفةَ ٱلكذبِ في ساعةِ تصديقِهِ وهذا هو أكبرُ عملِ ٱلشعر.

وهٰهنا سِرٌّ دقيقٌ لا يَتِمُّ كلامُنا إلَّا بشرحِه، لِنقطعَ ٱلقولَ في هذا ٱلمعنى، فيظهرَ حقُّهُ من باطلِهِ قُلْنا آنفاً إنَّ ٱلنبيَّ ﷺ ليسَ كَغيرِهِ من بُلَغاءِ ٱلناس: يَتَّصِلُ بِٱلطبيعةِ يستملي منها، بلْ هو نبيٌّ مرسلٌ مُتَّصلٌ بِمَصْدرِها الأزليِّ لِيُمليَ فِيها. ومعنى هذا أنَّهُ لا يعرضُ لَهُ من زيغِ ٱلنفسِ ما يعرضُ لِغيرِهِ مِنَ الناس، فأحكمُ حُكَماءِ ٱلدنيا لا يستطيعُ أنْ يتبيَّنَ جزءاً صغيراً مِنَ ٱلكَوْنِ على حقيقتِهِ؛ إذْ كانَتْ حواسُّ ٱلجسم غيرَ مُهيأةٍ لذلك، ففهْمُ جزءٍ مِنَ ٱلكونِ فَهْماً صادقاً جزماً لا يتمُّ إلَّا بفهمِ ٱلكونِ بأجمعِه، فهو كلُّهُ ذرةٌ مكبرةٌ إلى ما لا ينتهي ولا يُحدّ، وليسَتِ ٱلنبوَّةُ شيئاً غيرَ ٱلاتصالِ بِٱلسِرّ.

وَٱلحاضرُ ٱلذي يكونُ في إنسانٍ مِنَ ٱلناس، هو حاضرٌ ليسَ غير، لِأنَّهُ يتحوَّلُ ويفنى، فهو مِنَ ٱلزيغِ ٱلذي يعتري ٱلنفس، ومنهُ كلُّ أغراضِ ٱلحياةِ ٱلبشريَّةِ ٱلفانية، ولهذا كانَ طابعُ ٱللَّهِ على نبيِّنا ﷺ هو تجريدَهُ من زَيَغِ ٱلهوى[١] وسَرَفِ ٱلطبيعة، فهو مِنَ ٱلناسِ ولكنَّهُ متخلِّقٌ بأخلاقِ ٱللَّهِ ـ سبحانَه ـ، ولهُ في هذا ٱلبابِ ما ليسَ لِأحدٍ ولا يُطيقُهُ أحد، ويجبُ على مَنْ يقرأُ سِيرتَهُ وشَمائلَهُ وحديثَهُ أنْ يبحثَ دائماً عن طابعِ ٱللَّهِ في كلِّ شيءٍ منها، فإنَّهُ سيرى حينئذٍ كأنَّهُ يدرسُها معَ ٱلملائكةِ لا معَ ٱلناس، وسيظهرُ لَهُ من تفسيرِها أنَّ ٱلدنيا لم تستطعْ تحقيقَ غايتِها ٱلأخلاقيَّةِ ٱلعُلْيا إلَّا فيها، وأنَّهُ ﷺ كَانَ إنساناً، وكانَ أيضاً حركةً في تقدُّمِ ٱلإنسانيَّة؛ وأنَّ مِنْ معجزاتِهِ أنَّهُ أطاقَ في تاريخِهِ ما عجزَتْ عنهُ ٱلبشريَّةُ في تاريخِها، وأنَّ كلَّ أمورِهِ

---

(١) زيغ الهوى: ميله.

ﷺ موضوعةٌ وضْعاً إلٰهيّاً كأنَّها صفاتٌ كوَّنَها ٱللهُ وعلَّقَها في ٱلتاريخِ لِمعاني ٱلحياة، تعليقَ ٱلشمسِ في ٱلسماءِ لموادِّ ٱلحياة.

إنَّ ٱلشهواتِ وَٱلمصالحَ إنَّما هيَ حصرُ ٱلنفسِ في جانبٍ مِنَ ٱلشعورِ محدودٍ بلذاتٍ وهمومٍ وأحاسيسَ تجعلُ غرضَ ٱلإنسانِ في ٱلإنسانِ نفسِه، فهو كما يملأُ مَعِدتَهُ ويتأنَّقُ في ٱلاختيارِ لَها، يُريدُ من كلِّ ذلك أنْ يملأَ شخصَهُ على هذه ٱلطريقةِ بِعينِها، طريقةِ إشباعِ مَعِدَتِه... وبهذا تسخرُ منه حقائقُ ٱلكوْن، لِأنَّها لا تُحَدُّ بشخص، ولا تنحصِرُ في أحد، وكلُّ مَنْ كانَتْ حدُودُهُ ٱلإنسانيَّةُ جسمَهُ ولذاتِ جسمِه، فهو في مقدارِ هذا ٱلكَوْنِ كالميتِ ٱلمحدودِ مِنَ الأرضِ كلِّها بِقبرِهِ وترابِ قبرِه؛ وإنَّه لَيجدُ جِسْمَهُ وأكاذيبَ ٱلطبيعةِ عليه، ولكنَّهُ لن يجدَ ٱلروحَ وحقائقَها؛ وإذا لم يجدْ هذه فلنْ يعرفَ ٱلكونَ وأسرارَه؛ وإذا فقدَ هذا فهوَ ٱلحاضرُ ٱلضيِّقُ ٱلمشوهُ ٱلمكذوب، ومن ثَمَّ ففنُّهُ شهوةُ إحساسِهِ وإنْ كانَ مخدوعاً، وشهوةُ نظرِهِ وإنْ كان ملبَّساً عليه، وشهوةُ خيالِه، وإنْ كانَ ٱلتمويهُ وٱلمزورُ وَٱلحاضرُ ٱلضيِّقُ ٱلمشوهُ ٱلمكذوبُ ٱلخادعُ هوَ ٱلمسمَّى في لغةِ ٱلقرآنِ وَٱلحديث «بالدنيا»؛ فإذا ٱتسعَ ٱلإنسانُ لِروحِهِ وأدركَ حقيقتَها، ووعى ما بينَها وبينَ ٱلكَوْن؛ وأخذَ يُحقِّقُ هذه ٱلروحَ ٱلسماويَّةَ في أعمالِه، وتخطَّى حدودَ جسمِهِ إلى فكرةِ ٱلخلود؛ فهذا كلُّه هوَ ٱلمسمَّى في لغةِ ٱلقرآنِ وَٱلحديثِ «بالآخرة»؛ فهما كلمتانِ في منتهى ٱلإبداعِ مِنَ ٱلفنِّ وٱلفلسفة؛ وعلى ذلك يُؤَوَّلُ قولُهُ ﷺ في خطبتِه: مَنْ كانَ همُّهُ ٱلآخرةَ جمعَ ٱللَّهُ شملَه، وجعلَ غِناهُ في قلبِه، وأتتْهُ ٱلدنيا وهيَ راغمة[1]؛ ومَنْ كانَ همُّهُ ٱلدنيا فرقَ ٱللهُ أمْرَهُ وجعلَ فقرَهُ بينَ عينيه، ولم يأتِهِ مِنَ ٱلدنيا إلَّا ما كُتِبَ لَه.

وأنت إذا فَسَّرْتَ هذه ٱلكلماتِ بما وصفْنَا لك ووجهْتَها على ذلك التأويل، رأيْتَ عجائبَ معانيها لا تنقضي، وأدركْتَ سِرَّ قولِهِ ﷺ: «إنِّي على عِلْمٍ مِنَ ٱللَّهِ علمَّنيه» فٱتِّساعُ ٱلذاتِ ٱلإنسانيَّةِ ومماذَّتُها لِحقائقِ ٱلكَوْن، يجعلُ الإنسانَ كٱلكوْنِ نفسِه، مجتمعاً غيرَ مفرَّقٍ على همومِ ٱلحياة؛ ويجعلُ ٱلغنى معنًى لا مادة؛ ولو ٱمتلكَ إنسانٌ مِنَ ٱلناسِ كلَّ ما طلعَتْ عليهِ ٱلشمس، وكانَ لهُ كنزٌ في ٱلمشرقِ وكنزٌ في ٱلمغرب، لمَا بلغَ شيئاً قليلاً مِنْ لذةِ هذا ٱلمعنى في قلبِه؛ وفي هذه ٱلحالةِ تُصبحُ ٱلدنيا العريضةُ التي يهلكُ ٱلناسُ في تحصيلِها وليسَتْ إلَّا ضرورةً صغيرة، قد

(١) راغمة: ذليلة، خاضعة.

تكونُ في ثوبٍ ولُقيماتٍ ونحوِها مِمَّا لا خطرَ لَه، وهذا هو إرغامُها وهي مالكةُ ٱلملوك، فإذا ضاقَ ٱلإنسانُ عن روحِهِ أصبحَتِ ٱلنفسُ كَٱلمُنْخُلِ يُوضَعُ ٱلدقيقُ الناعمُ فيهِ لِيخرجَ منهُ فيُمْسكُهُ كلَّهُ ولا يُمسكُ منه شيئاً، وُضِعَ بين عينيها معنى ٱلفقر، فهي تعملُ أبداً لِتمتلِيء، ولا تمتلِيءُ أبداً؛ وإذا كانَ ٱلمنخلُ متخذاً على ٱلطريقةِ ٱلتي صُنِعَ بها، ففقرُهُ ولا جرمَ معلقٌ عليهِ من ذاتِ تركيبِه. «أفهمْت»؟

وَلمَّا كانَ ٱلنبيُّ ﷺ متساوِقاً[1] مَعَ ٱلحقيقة، متَّصِلاً بها، محدوداً بربِّهِ لا بنفسِه، كانَ لِذلكَ خارجاً من حاضرِ ما نحن فيه، مُمْتدّاً بِمَعْناهُ ٱلإنسانيِّ ٱلكاملِ إلى ٱلمستقبلِ ٱلذي وراءَ ٱلحياة، فما نحصرُهُ نحن بطبيعتِنا في بعضِ ٱلأسماءِ لا يلتفِتُ هو إليهِ بطبيعتِه؛ ومن ذلك أوصافُ ٱلغِنى وٱلحِلْيَةِ وٱلنعيمِ وٱلمَتَاعِ وٱلجمالِ وٱلمطعمِ وٱلمشرب، وما داخلَ ٱلطبيعةَ من مثلِ معانيها، وما جرى هذا ٱلمجرى، فهذا كلُّهُ يراهُ ٱلناسُ من جهةِ ٱلحاجةِ إليهِ وٱلمطمعِ فيه؛ إذْ كانَ ضعفُ إدراكِهم وضِيقُ وعيِهم مِمَّا يُبدِعُ لهم أكاذيبَ ٱلخيال، فَتَجِيءُ من ذلك أوصافُهم وفنونُ أوصافِهم؛ أمَّا ٱلنبيُّ ﷺ فيرى ذلك من ناحيةِ ٱلغِنَى عنه وٱلسموِّ عليه؛ إذْ كانَ لا ينظرُ بطبيعةِ روحِهِ ٱلعظيمةِ إلَّا أعلى ٱلنظرَيْنِ وأطهرَهما، فآخرُ إدراكِنا لِلْحقيقةِ وٱلطبيعةِ أولُ إدراكِهِ هو الطبيعةَ وٱلحقيقة، وما تعجزُ عنهُ ٱلإنسانيَّةُ تبدأُ منهُ ٱلنبوَّة.

وعلى هذا فإنَّ من أقوى ٱلبراهين على كمالِهِ ﷺ ونبوَّتِهِ وٱتساعِ روحِهِ ونفاذِ إدراكِهِ لِحقائقِ ٱلكوْنِ ـ أنَّهُ لم يتبسَّطْ في تلك ٱلفنونِ كما يصنعُ ٱلبُلغاءَ، ولم يأخذْ مأخذَهم فيها؛ إذْ كانَتْ كلُّها من أكاذيبِ ٱلقلْبِ وٱلفكرِ وَٱلعين.

وفي قانونِ ٱلحقيقةِ أنَّ ٱلاشياءَ هي كلُّ ٱلأشياءِ وهي كما هي، أمَّا في قانونِ ٱلكذبِ فَٱلأشياءُ كلُّها هي ما تختارُهُ أنت منها، وكما تختارُه.

بحسْبِ ٱلدنيا من جمالِ فنِّهِ ﷺ ما يُضيفُ إلى ٱلحياةِ عظمةَ ٱلأشياءِ ٱلعظيمة، ويدفعُ ٱلإنسانيَّةَ في طريقِها ٱلواحِدِ ٱلذي هو بينَ ٱلأبِ وَٱلأمّ، طريقِ ٱلأخِ إلى أخيه، يكونُ في ٱلدنيا بين ٱلرجلينِ كما هو في ٱلدَّمِ بين ٱلقلبينِ رحمةً ومودة؛ وبحسبِنا من جمالِ هذا ٱلفنِّ ما يهدي الإنسانَ إلى حقيقةِ نفسِه؛ فيُقرُّهُ في ٱلحقيقيِّ من وجودِهِ ٱلإنسانيّ؛ ويجعلُ ٱلفضائلَ كلّها تربيةً لِلْقلب؛ يكبرُ بها، ثُمَّ يكبرُ، ثُمَّ لا يزالُ يكبرُ حتى يَتَّسعَ لِحقيقةِ هذه ٱلكلمةِ ٱلكبرى: اللَّهُ أكبر.

---

(١) متساوقاً: منسجماً.

قرآن الفجر

كنْتُ في ٱلعاشرةِ من سِنّي وقد جمعْتُ ٱلقرآنَ كلَّهُ حِفْظاً وجَوَّدْتُهُ بأَحكام ٱلقِراءةِ؛ ونحن يومئذٍ في مدينةِ (دمنهور) عاصمةِ ٱلبحيرة؛ وكانَ أبي ـ رحمَهُ ٱللهُ ـ كبيرَ ٱلقضاةِ ٱلشرعيِّينَ في هذا ٱلإقليم، ومن عادتِهِ أنَّهُ كانَ يعتكِفُ كلَّ سنةٍ في أحدِ ٱلمساجدِ عشْرةَ ٱلأيام ٱلأخيرةِ من شهرِ رمضان؛ يدخلُ ٱلمسجدَ فلا يبرَحُهُ[1] إلَّا ليلةَ عيدِ ٱلفِطْرِ بعدَ ٱنقضاءِ[2] ٱلصوْم؛ فهناك يتأمَّلُ ويتعبَّدُ ويتَّصِلُ بمعناهُ ٱلحقّ، وينظرُ إلى ٱلزائلِ بمعنى ٱلخالد، ويُطِلُّ على ٱلدنيا إطلالَ ٱلواقفِ على ٱلأيام ٱلسائرةِ ويغيرُ ٱلحياةَ في عملِهِ وفِكْرِه، ويهجرُ ترابَ ٱلأرضِ فلا يمشي عليه، وترابَ ٱلمعاني ٱلأرضيَّةِ فلا يتعرَّضُ له، ويدخلُ في ٱلزمنِ ٱلمتحرِّرِ من أكثرِ قيودِ ٱلنفس، ويستقرُّ في ٱلمكانِ ٱلمملوءِ لِلْجميعِ بفِكْرةٍ واحدةٍ لا تتغيَّر؛ ثُمَّ لا يرى مِنَ ٱلناسِ إلَّا هذا ٱلنوعَ ٱلمرطَّبَ ٱلروحِ بِٱلوضوء، ٱلمدعوَّ إلى دخولِ ٱلمسجدِ بدعوةِ ٱلقوَّةِ ٱلسامية، ٱلمنحنِيَ في ركوعِهِ لِيَخضعَ لِغيرِ ٱلمعاني ٱلذليلة، ٱلساجدَ بين يدي ربِّهِ لِيدرِكَ مَعنى ٱلجلالِ ٱلأعظم.

وما هي حِكْمةُ هذه ٱلأمكنةِ ٱلتي تُقامُ لِعبادةِ ٱللهِ؟ إنَّها أمكنةٌ قائمةٌ في ٱلحياة، تُشعِرُ ٱلقلبَ ٱلبشريَّ في نِزاعِ ٱلدنيا أنَّهُ في إنسانٍ لا في بهيمة...

* * *

وذهبْتُ ليلةً فَبِتُّ عندَ أبي في ٱلمسجد؛ فلمَّا كُنَّا في جَوْفِ ٱلليلِ ٱلأخيرِ أيقظني لِلسَّحور، ثُمَّ أمرَني فتوضَّأْتُ لِصلاةِ ٱلفجرِ وأقبلَ هو على قراءتِه؛ فلمَّا كانَ ٱلسَّحَرُ الأعلى هتف بِٱلدعاءِ ٱلمأثور: اللهم لك ٱلحمد؛ أنت نورُ ٱلسمواتِ وَٱلأرض، ولك ٱلحمد؛ أنت بهاءُ ٱلسموات وَٱلأرض، ولك ٱلحمد؛ أنت زينُ ٱلسمواتِ والأرض، ولكَ ٱلحمد؛ أنت قَيَّامُ ٱلسمواتِ وَٱلأرضِ ومَنْ فيهنَّ ومَنْ عليهِنَّ؛ أنت الحقُّ ومنك ٱلحق... إلى آخرِ ٱلدعاء.

وأقبلَ ٱلناسُ ينتابونَ[3] ٱلمسجد، فَٱنحدْرنا من تلك ٱلعلْيَةِ ٱلتي يسمونها الدِّكة)

---

(١) يبرحه: يخرج منه. (٢) انقضاء: انتهاء. (٣) ينتابون: يدخلون.

وجلسْنَا ننتظرُ ٱلصلاة. وكانَتِ ٱلمساجدُ في ذلك ٱلعهد تُضاءُ بقناديلِ ٱلزيت، في كلِّ قنديلٍ ذُبالةٌ يرتعشُ ٱلنورُ فيها خافتاً ضئيلاً يبصُّ[1] بصيصاً كأنَّهُ بعضُ معاني ٱلضوءِ لا ٱلضوءُ نفسُهُ؛ فكانَتْ هذه ٱلقناديلُ وٱلظلامُ يرتجُّ حولَها، تلوحُ كأنها شُقوقٌ مضيئةٌ في ٱلجوّ، فلا تكشفُ ٱلليلَ ولكنْ تكشفُ أسرارَهُ ٱلجميلة، وتبدو في ٱلظلمةِ كأنَّها تفسيرٌ ضعيفٌ لِمعنًى غامضٍ يُومىءُ إليهِ ولا يُبَيِّنُه، فما تشعرُ ٱلنفسُ إلّا أنَّ ٱلعينَ تمتدُّ في ضوئِها مِنَ ٱلمنظورِ إلى غيرِ ٱلمنظورِ كأنَّها سِرٌّ يشفُّ عن سِرّ.

وكانَ لها منظرٌ كمنظرِ ٱلنجوم يُتِمُّ جمالَ ٱلليل بإلقائِهِ ٱلشُّعَلَ في أطرافِهِ ٱلعُلْيا وإلباسِ ٱلظلام زِينتَهُ ٱلنورانيَّة؛ فكانَ ٱلجالسُ في ٱلمسجدِ وقتَ ٱلسَّحَرِ يشعرُ بٱلحياةِ كأنَّها مخبوءَة، ويُحسُّ في ٱلمكانِ بقايا أحلام، ويسري حولَهُ ذلك ٱلمجهولُ ٱلذي سيخرجُ منهُ ٱلغد؛ وفي هذا ٱلظلامِ ٱلنورانيِّ تنكشفُ لَهُ أعماقُهُ منسكباً فيها روحُ ٱلمسجد، فتعتريهِ حالةٌ روحانيَّةٌ يستكينُ فيها لِلْقَدَرِ هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسِه، مجتمعاً في حواسِّه، منفرداً بصفاتِه، منعكِساً عليهِ نورُ قلبِه؛ كأنَّهُ خرجَ من سلطانِ ما يُضيءُ عليهِ ٱلنهار، أو كأنَّ ٱلظلمةَ قد طمسَتْ فيهِ على ألوانِ ٱلأرض.

ثُمَّ يشعرُ بٱلفجرِ في ذلك ٱلغَبَشِ عندَ ٱختلاطِ آخرِ ٱلظلام بأولِ ٱلضوْء، شعوراً نديّاً كأنَّ ٱلملائكةَ قد هبطَتْ تحملُ سحابةً رقيقةً تمسحُ بها على قلبِهِ لِيتنضَّرَ من يُبْس، ويرقَّ من غِلْظة. وكأنَّما جاؤُوهُ مَعَ ٱلفجرِ لِيتناولَ ٱلنهارَ من أيديهم مبدوءاً بٱلرحمةِ مفتتَحاً بِٱلجمال؛ فإذا كانَ شاعرَ ٱلنفسِ التقى فيهِ ٱلنورُ السماويُّ بِٱلنورِ ٱلإنسانيِّ فإذا هو يتلألأُ في روحِهِ تحتَ ٱلفجر.

* * *

لا أنسى أبداً تلك ٱلساعةَ ونحن في جوِّ ٱلمسجد، وَٱلقناديلُ معلقةٌ كَٱلنجوم في مناطِها مِنَ ٱلفَلَك، وتلك ٱلسّرجُ[2] ترتعشُ فيها ٱرتعاشَ خواطرِ ٱلحُبّ، وَٱلنَّاسُ جالسون عليهم وقارُ أرواحِهِم، ومن حولِ كلِّ إنسانٍ هدوءُ قلبِهِ وقدِ ٱستبهمَتِ ٱلأشياءُ في نظرِ ٱلعينِ لِيلبَسها ٱلإحساسُ ٱلروحانيُّ في ٱلنفس، فيكونَ لِكُلِّ شيءٍ معناهُ ٱلذي هو منه ومعناهُ ٱلذي ليسَ منه، فيُخلقُ فيهِ ٱلجمالُ ٱلشعريُّ كما يُخلقُ لِلنظرِ ٱلمتخيَّل.

لا أنسى أبداً تلك ٱلساعةَ. وقدِ ٱنبعثَ في جوِّ ٱلمسجدِ صوتٌ غرِدٌ رخيم، يشقُّ سُدْفةَ[3] ٱلليلِ في مثلِ رنينِ ٱلجرسِ تحتَ ٱلأفقِ ٱلعالي وهو يرتِّلُ هذه الآياتِ من آخرِ سورةِ ٱلنحل:

(١) يبصّ: ينير. (٢) السّرج: مفرّده سراح وهو القنديل. (٣) سُدفة: ظلمة

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾.

* * *

وكانَ هذا القارئُ يملكُ صوتَهُ أتمَّ ما يملكُ ذو ٱلصوت ٱلمُطْرِب؛ فكانَ يتصرَّفُ بهِ أحلى مِمَّا يتصرّفُ ٱلقُمْريُّ وهو ينوحُ في أنغامِهِ، وبلغَ في ٱلتطريبِ كلَّ مبلغ يقدرُ عليهِ ٱلقادر، حتى لا تفسِّرُ ٱللذةُ ٱلموسيقيةُ بأبدعَ مِمَّا فسَّرها هذا ٱلصوت؛ وما كانَ إلَّا كَٱلبلبلِ هزَّتْهُ ٱلطبيعةُ بأسلوبِها في جمالِ ٱلقمر، فٱهتزَّ يُجاوبُها بأسلوبِهِ في جمالِ ٱلتغريد.

كانَ صوتُهُ على ترتيبٍ عجيبٍ في نغماتِهِ، يجمعُ بينَ قوةِ ٱلرِّقةِ وبين رقةِ ٱلقوَّة، ويضطربُ ٱضطراباً روحانياً كَٱلحُزْنِ ٱعتراهُ ٱلفرحُ على فجأة؛ يصيحُ ٱلصيحةَ تترجَّحُ في ٱلجوِّ وفي ٱلنفس، وتتردَّدُ في ٱلمكانِ وفي ٱلقلْب، ويتحوَّلُ بها ٱلكلامُ ٱلإلهيُّ إلى شيءٍ حقيقي، يلمسُ ٱلروحَ فيَرْفضُّ عليها بمثلِ ٱلندى، فإذا هي ترفُّ رفيفاً، وإذا هي كٱلزهرةِ التي مسحَها ٱلطَّلّ.

وسَمِعْنا ٱلقرآنَ غَضّاً طرياً كأولِ ما نزلَ بِهِ ٱلوحيّ، فكانَ هذا ٱلصوتُ ٱلجميلُ يدورُ في ٱلنفسِ كَأَنَّهُ بعضُ السِّرِّ ٱلذي يدورُ في نِظامِ ٱلعالم، وكانَ ٱلقلبُ وهو يتلقَّى ٱلآياتِ كَقلبِ ٱلشجرةِ يتناولُ ٱلماءَ ويكسوها منه.

وٱهتزَّ ٱلمكانُ وٱلزمانُ كأنَّما تجلَّى ٱلمتكلمُ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ في كلامِه، وبدا ٱلفجرُ كأنَّهُ واقفٌ يستأذِنُ ٱللَّهَ أنْ يُضيءَ من هذا ٱلنور!

وكنَّا نسمعُ قرآنَ ٱلفجرِ وكأنَّما مُحِيَتِ ٱلدنيا ٱلتي في ٱلخارج مِنَ ٱلمسجدِ وبطلَ باطلُها، فلم يبقَ على ٱلأرضِ إلَّا ٱلإنسانيَّةُ ٱلطاهرةُ ومكانُ ٱلعِبادة؛ وهذه هي معجزةُ ٱلروحِ متى كانَ الإنسانُ في لذَّةِ روحِهِ مرتفعاً على طبيعتِهِ ٱلأرضيَّة.

أمَّا ٱلطفلُ ٱلذي كانَ فيَّ يومئذٍ فكأنَّما دُعِيَ بكلِّ ذلك لِيحملَ هذه ٱلرسالةَ ويُؤَدِّيها إلى ٱلرجلِ ٱلذي يجيءُ فيه من بعد؛ فأنا في كلِّ حالةٍ أخضعُ لِهذا ٱلصوت: ادعُ إلى سبيلِ ربِّك؛ وأنا في كلِّ ضائقةٍ أخشعُ لِهذا ٱلصوْت: وَٱصبرْ وما صبرُك إلَّا بِٱلله!

اللغةُ وٱلدينُ وٱلعاداتُ
بٱعتبارِها من مقوّماتِ ٱلاستقلال

ليسَتْ حقيقةُ ٱلأُمَّةِ في هذا ٱلظاهرِ ٱلذي يبدو من شعبٍ مجتمعٍ محكومٍ بقونينِهِ وأوضاعِهِ؛ ولكنْ تلكَ ٱلحقيقةُ هيَ ٱلكائنُ ٱلروحيُّ ٱلمكْتَنُّ في ٱلشعبِ، ٱلخالصُ لَهُ من طبيعتهِ، ٱلمقصورُ عليهِ في تركيبِهِ كعَصيرِ ٱلشجرة: لا يُرى عملُهُ وٱلشجرةُ كلّها هي عملُهُ.

وهذا ٱلكائنُ ٱلروحيُّ هوَ ٱلصورةُ ٱلكُبرى لِلنَّسبِ في ذوي ٱلوشيجةِ مِنَ ٱلأفراد، بَيْدَ أنَّهُ يُحقّقُ في ٱلشعبِ قَرَابةَ ٱلصفاتِ بعضِها من بعض؛ فيجعلُ لِلأُمَّةِ شأنَ ٱلأُسرةِ، ويخلقُ في ٱلوطنِ معنى ٱلدار، ويُوجِدُ في ٱلاخْتلافِ نزعةَ ٱلتشابُهِ، ويَردُّ ٱلمتعدِّدَ إلى طبيعةِ ٱلوحدة، ويُبدعُ لِلأُمَّةِ شخصيَّتَها ٱلمتميِّزة، ويُوجبُ لِهذه ٱلشخصيَّةِ بإزاءِ غيرِها قانونَ ٱلتناصرِ وٱلحمِيَّة؛ إذْ يجعلُ ٱلخواطرَ مشتركة، وٱلدواعي مستَويَة، وٱلنوازعَ متآزِرَة؛ فتجتمعُ الأُمَّةُ كلُّها على ٱلرأي: تتَسانَدُ لَهُ بِقُواها ويشدُّ بعضُها بَعضاً فيه؛ وبهذا كلِّهِ يكونُ رُوحُ ٱلأُمَّةِ قد وضَع في كلمةِ ٱلأُمَّةِ معناها.

وٱلخُلُقُ ٱلقويُّ ٱلذي يُنشئُهُ لِلأُمَّةِ كائنُها ٱلروحيُّ، هو ٱلمبادىءُ ٱلمنتزعةُ من أثرِ ٱلدينِ وٱللغةِ وَٱلعادات، وهو قانونٌ نافذٌ يستمدُّ قوّتَهُ من نفسِه، إذْ يعملُ في ٱلحيِّزِ ٱلباطنِ من وراءِ ٱلشعور، متسلِّطاً على ٱلفِكر، مُصَرّفاً لِبواعثِ النفسِ؛ فهو وَحدهُ ٱلذي يملأُ ٱلحيَّ بنوعِ حياتهِ، وهو طابَعُ ٱلزمنِ على الأُمم، وكأنَّهُ على ٱلتحقيقِ وَضْعُ ٱلأجدادِ علامتَهُمُ ٱلخاصةَ على ذُرّيَّتِهم.

أمّا ٱللغةُ فهي صورةُ وجودِ ٱلأُمَّةِ بأفكارِها ومعانيها وحقائقِ نفوسِها، وجوداً متميِّزاً قائماً بِخصائصِه؛ فهي قوميَّةُ ٱلفِكْر، تتَّحدُ بها ٱلأُمَّةُ في صُوَرِ ٱلتفكيرِ وأساليبِ أخْذِ ٱلمعنى مِنَ ٱلمادة؛ وٱلدِّقَّةُ في تركيبِ ٱللغةِ دليلٌ على دِقَّةِ ٱلملَكاتِ في أهلِها، وعمقُها هو عُمقُ ٱلروح ودليلُ ٱلحِسّ على ميلِ ٱلأُمَّةِ إلى ٱلتفكيرِ وٱلبحثِ في ٱلأسبابِ وٱلعِلَلِ، وكثرةُ مشتقَّاتِها برهانٌ على نَزْعةِ ٱلحريَّةِ وطموحِها،

فإنَّ رُوحَ ٱلاستعبادِ ضيِّقٌ لا يتَّسع، ودأبُهُ[1] لزومُ ٱلكلمةِ وٱلكلماتِ ٱلقليلة.

وإذا كانَتِ ٱللغةُ بهذه ٱلمنزلة، وكانَتْ أُمَّتُها حريصةً عليها، ناهضةً بها، مُتَّسِعةً فيها، مُكَبِّرةً شأنَها، فما يأتي ذلك إلّا من رُوح ٱلتسلُّطِ في شعبِها وَٱلمطابقةِ بينَ طبيعتهِ وعملِ طبيعتِه، وكونِهِ سيدَ أمرِه؛ ومُحقِّقَ وُجودِه، ومستعمِلَ قوَّتِه، والآخِذَ بحقِّه؛ فأمَّا إذا كانَ منهُ ٱلتراخي وٱلإهمالُ وتركُ ٱللغةِ للطبيعةِ ٱلسوقيَّة، وإصغَارُ أمرِها، وتهوينُ خَطَرِها[2]، وآيثارُ[3] غيرِها بِٱلحُبِّ وٱلإكبار؛ فهذا شعبٌ خادمٌ لا مخدوم، تابعٌ لا متبوع، ضعيفٌ عن تكاليفِ ٱلسيادة، لا يُطيقُ أنْ يحملَ عظَمَةَ ميراثِهِ، مُجْتزِىءٌ ببعضِ حقِّه، مُكْتَفٍ بِضروراتِ ٱلعيش، يُوضَعُ لِحكمِهِ ٱلقانونُ ٱلذي أكثرُهُ لِلحِرمانِ وأقلُّهُ لِلفائدةِ ٱلتي هي كَٱلحِرمان.

لا جَرَمَ كانَتْ لُغةُ ٱلأمةِ هيَ ٱلهدَفَ ٱلأولَ لِلمستعمِرين؛ فلَنْ يتحوَّلَ ٱلشعبُ أوّلَ ما يتحوَّلُ إلّا من لُغتِه؛ إذْ يكونُ منْشَأُ ٱلتحوُّلِ من أفكارِهِ وعواطفِهِ وآمالِه، وهو إذا ٱنقطَع من نَسَبِ لُغتِهِ ٱنقطعَ من نَسبِ ماضيه، ورجعَتْ قوْميَّتُهُ صورةً محفوظةً في ٱلتاريخ، لا صورةً محقَّقَةً في وجودِهِ؛ فليسَ كَٱللغةِ نَسَبٌ لِلْعاطفةِ وَٱلفكر؛ حتى إنَّ أبناءَ ٱلأبِ ٱلواحدِ لوِ ٱختلفَتْ ألسنتُهُم فنشأَ منهم ناشيءٌ على لُغة، ونشأَ ٱلثاني على أخرى، وٱلثالثُ على لُغةٍ ثالثة، لَكانوا في ٱلعاطفةِ كأبناءِ ثلاثةِ آباء.

وما ذلَّتْ لُغةُ شعبٍ إلّا ذَلَّ، ولا ٱنحطَّتْ إلّا كانَ أمرُهُ في ذهابٍ وإدْبار؛ ومن هذا يفْرِضُ ٱلأجنبيُّ ٱلمستعمرُ لُغتَهُ فرضاً على ٱلأُمَّةِ ٱلمستعمرَة، ويركَبُهُم بها، ويُشعرُهم عَظَمَتهُ فيها، ويَسْتَلْحِقُهُم من ناحيتِها؛ فيحكمُ عليهم أحكاماً ثلاثةً في عملٍ واحد: أمَّا الأولُ فحبْسُ لُغتِهم في لُغتِهِ سِجْناً مُؤَبَّداً؛ وأَمَّا ٱلثاني فَٱلحُكْمُ على ماضيهم بِٱلقتلِ مَحواً ونِسياناً؛ وأمَّا الثالثُ فتقييدُ مستقبلِهم في ٱلأغلالِ[4] ٱلتي يصنعُها؛ فأمرُهُمْ من بعدِها لِأمرِهِ تَبَع.

وٱلذين يتعلَّقون ٱللغاتِ ٱلأجنبيَّةَ ينزِعونَ إلى أهلِها بطبيعةِ هذا ٱلتعلُّق، إنْ لم تكنْ عصبيتُهُم، لِلغتِهم قويَّةً مُسْتَحكِمةً من قِبَلِ ٱلدينِ أوِ ٱلقوميَّة؛ فتراهُم إذا وهَنَتْ فيهم هذهِ ٱلعصبيَّةُ يخجلونَ من قوميَّتِهِم، ويتبرؤون من سَلَفِهِم وينسلِخون من تاريخِهم، وتقومُ بأنفسِهمُ ٱلكراهةُ لِلُغتِهم وآدابِ لُغتِهِم، ولِقومِهم وأشياءِ قومِهِم؛

---

(1) دأبه: عادته.

(2) خطرها: أمرها وأهميتها.

(3) إيثار: تفضيل.

(4) الأغلال: السلاسل.

فلا يستطيعُ وطنُهم أنْ يُوحِيَ أليهم أسرارَ روحِه؛ إذ لا يُوافقُ منهمُ ٱستجابةً في ٱلطبيعة، وينقادون بِٱلحُبِّ لِغيرِه، فيَتَجاوَزونَهُ وهم فيه، ويَرثونَ دِماءَهم من أهلِهِم، ثُمَّ تكونُ ٱلعواطفُ في هذه ٱلدماءِ لِلأجنبيّ؛ ومن ثَمَّ تُصْبحُ عندَهم قِيمةُ ٱلأشياءِ بِمصدرِها لا بنفسِها، وبِٱلخيالِ ٱلمتوهَّم فيها لا بِٱلحقيقةِ ٱلتي تحملُها؛ فيكونُ شيءُ ٱلأجنبيِّ في مذهبِهِم أجملَ وأثمَنَ، لِأنَّ إليهِ ٱلميلَ وفيهِ ٱلإكبارُ وٱلإعظام؛ وقد يكونُ ٱلوطنيُّ مثلَهُ أو أجملَ منه، بَيْدَ أنَّهُ فَقَدَ ٱلميل، فَضَعُفَتْ صِلتُهُ بِٱلنفس، فعادَتْ كلُّ مُمَيِّزاتِهِ فضعُفَتْ لا تميزُه.

وأعجبُ من هذا في أمرِهِم، أنَّ أشياءَ ٱلأجنبيِّ لا تحمِلُ معانيَها ٱلساحرةَ في نفوسِهِم إلَّا إذا بَقِيتْ حاملةً أسماءَها ٱلأجنبيَّة، فإنْ سُمِّيَ ٱلأجنبيُّ بلغتِهِمُ ٱلقوميَّةِ نقَصَ معناهُ عندَهم وتَصَاغَرَ وظَهرتْ فيه ذِلة... وما ذاك إلَّا صِغَرُ نفوسِهِم وذِلتُها، إذْ يَنْتَخُون لِقَوْمِيَّهِم فلا يُلهِمُهُمُ ٱلحرفُ من لُغتِهم ما يُلهِمِهمُ ٱلحرفُ ٱلأجنبيّ.

وٱلشرقُ مبتلًى بهذه ٱلعلَّة، ومنها جاءَتْ مَشَاكلُهُ أو أكثرُها؛ وليسَ في ٱلعالمِ أُمَّةٌ عزيزةُ ٱلجانبِ تُقدِّمُ لُغةَ غيرِها على لُغةِ نفسِها، وبهذا لا يعرفون لِلأشياءِ ٱلأجنبيَّةِ مَوْضِعاً إلَّا من وراءِ حُدودِ ٱلأشياءِ ٱلوطنيَّة؛ ولو أخذْنا ـ نحن ٱلشرقيين ـ بهذا، لَكانَ هذا وحدَهُ عِلاجاً حاسماً لِأكثرِ مشاكلِنا.

فٱللغاتُ تتنازَعُ ٱلقوميَّةَ، ولَهِيَ ـ وٱللهِ ـ ٱحتلالٌ عقليٌّ في ٱلشعوبِ ٱلتي ضَعُفَتْ عصبيتُها؛ وإذا هانَتِ ٱللغةُ ٱلقوميَّةُ على أهلِها، أَثَّرَتِ ٱللغةُ ٱلأجنبيَّةُ في ٱلخُلُقِ ٱلقوميِّ ما يُؤثِّرُ ٱلجوُّ ٱلأجنبيُّ في ٱلجِسْمِ ٱلذي ٱنتقلَ إليهِ وأقامَ فيه.

أمَّا إذا قَوِيَتِ ٱلعصبية، وعزَّتِ ٱللغة، وثارَتْ لَهَا ٱلحميَّة؛ فلنْ تكونَ ٱللغاتُ ٱلأجنبيةُ إلَّا خادمةً يُرتَفَقُ بها[1]، ويرجعُ شِبْرُ ٱلأجنبيِّ شبراً لا متراً... وتكونُ تلك ٱلعصبيَّةُ لِلُّغةِ ٱلقوميَّةِ مادةً وعَوْناً لِكُلِّ ما هو قوميٌّ؛ فيُصبحُ كلُّ شيءٍ أجنبيٍّ قد خضعَ لِقوَّةٍ قاهرةٍ غالبة، هي قوّةُ ٱلإيمانِ بِٱلمجدِ ٱلوطنيِّ وٱستقلالِ ٱلوطن؛ ومتى تعَيَّنَ ٱلأولُ أنَّهُ ٱلأولُ، فكلُّ قُوى ٱلوجودِ لا تجعلُ ٱلذي بعدَهُ شيئاً إلَّا أنَّهُ ٱلثاني.

* * *

وٱلدينُ هو حقيقةُ ٱلخُلُقِ ٱلاجتماعيِّ في ٱلأُمَّة، وهو ٱلذي يجعلُ ٱلقلوبَ كلَّها طبقةً واحدةً على ٱختلافِ ٱلمظاهرِ ٱلاجتماعيَّةِ عاليةً ونازلةً وما بينَهما؛ فهو بذلك

---

(١) يرتفق بها: تصبح رديفة.

ٱلضميرُ ٱلقانونيُّ لِلشَّعْب، وبِهِ لا بغيرِهِ ثَبَاتُ ٱلأُمَّةِ على فضائلِها ٱلنفسيَّة، وفيهِ لا في سِواهُ معنى إنسانيَّة ٱلقلْب.

ولِهذا كانَ ٱلدينُ من أقوى ٱلوسائلِ ٱلتي يُعَوَّلُ[1] عليها في إيقاظِ ضميرِ ٱلأُمَّة، وتنبيهِ رُوحِها، وٱهتياجِ خيَالِها؛ إذْ فيهِ أعظمُ ٱلسُّلْطةِ ٱلتي لها وحدَها قوَّةُ ٱلغلبَةِ على ٱلماديَّات؛ فسلطانُ ٱلدينِ هو سلطانُ كُلِّ فردٍ على ذاتِهِ وطبيعتِه؛ ومتى قَوِيَ هذا السلطانُ في شعْب، كانَ حَمِيّاً أبِيّاً، لا تُرغمُهُ قوَّة، ولا يعنُو لِلْقَهْر.

ولولا ٱلتدينُ بِٱلشريعة؛ لَمَا ٱستقامَتِ ٱلطاعةِ لِلْقانونِ في ٱلنفس؛ ولولا ٱلطاعةُ ٱلنفسيَّة لِلْقوانين؛ لَمَا ٱنتظمَتْ أُمَّة؛ فليسَ عملُ ٱلدينِ إلَّا تحديدَ مكانِ ٱلحيِّ في فضائلِ ٱلحياة؛ وتعيينَ تَبِعَتِهِ في حُقُوقِها وواجِباتِها، وجعْلَ ذلك كلَّهُ نِظاماً مستقرّاً فيهِ لا يتغيَّر، ودَفْعَ ٱلإنسانِ بهذا ٱلنظامِ نحوَ ٱلأكمل، ودائماً نحوَ ٱلأكمل.

وكلُّ أُمَّةٍ ضَعُفَ ٱلدينُ فيها ٱختلَّتْ هندستُها ٱلاجتماعيَّةُ وماجَ بعضُها في بعض؛ فإنَّ من دقيقِ ٱلحِكْمةِ في هذا ٱلدينِ أنَّهُ لم يجعلِ ٱلغايةَ ٱلأخيرةَ مِنَ ٱلحياةِ غايةً في هذه ٱلأرض، وذلك لِتنتظِمَ ٱلغاياتُ ٱلأرضيَّةُ في ٱلناسِ فلا يأكلُ بعضُهُم بعضاً؛ فيغتني ٱلغنيُّ وهو آمن، ويفتقرُ ٱلفقيرُ وهو قانع، ويكونُ ثوابُ ٱلأعلى في أن يعودَ على ٱلأسفلِ بِٱلمبَرَّة، وثوابُ ٱلأسفلِ في أنْ يصبرَ على تركِ ٱلأعلى في منزلتِهِ؛ ثُمَّ ينصرفُ ٱلجميعُ بفضائلِهم إلى تحقيقِ ٱلغايةِ ٱلإلهيَّةِ ٱلواحدة، التي لا يكبرُ عليها ٱلكبير، ولا يصغُرُ عنها ٱلصغير؛ وهيَ ٱلحقّ، وٱلصَّلاح، وٱلخير، وٱلتَّعاونُ على ٱلبرِّ وٱلتقوى.

وما دامَ عملُ ٱلدينِ هو تكوينَ ٱلخُلُقِ ٱلثابتِ ٱلدائبِ في عملِهِ، ٱلمعتزِّ بقوَّتِه، ٱلمطمئنِّ إلى صبرِه، ٱلنافرِ مِنَ ٱلضعف، ٱلأبِيِّ على ٱلذلِّ، ٱلكافِرِ بِٱلاستعباد، ٱلمؤمنِ بِٱلموتِ في ٱلمدافعةِ عن حَوْزتِه، ٱلمجَزْيِّ بتساميهِ وبَذْلِهِ وعطفِهِ وإيثارِهِ ومُفاداتِه، ٱلعاملِ في مصلحةِ ٱلجماعة، ٱلمقيَّدِ في منافعِهِ بواجباتِهِ نحوَ ٱلناس - ما دامَ عملُ ٱلدينِ هو تكوينَ هذا ٱلخُلُق - فيكونُ ٱلدينُ في حقيقتِهِ هو جعْلَ ٱلحِسِّ بِٱلشرعيَّةِ أقوى مِنَ ٱلحسِّ بِٱلمادة؛ ولَعمري ما يجدُ ٱلاستقلالُ قوَّةً هي أقوى لَهُ وأردُّ عليهِ من هذا ٱلمعنى إذا تقرَّر في نفوسِ ٱلأُمَّةِ وٱنطبعَتْ عليه.

وهذه ٱلأُمَّةُ ٱلدينيَّةُ ٱلتي يكونُ واجبُها أنْ تَشرُفَ وتسودَ وتَعْتَزّ، يكونُ واجبُ هذا الواجِبِ فيها ألّا تسقطَ ولا تخضَعَ ولا تذلّ.

---

(١) يعوّل: يعتمد عليها.

وبتلكَ ٱلأصولِ ٱلعظيمةِ ٱلتي يُنشئِها ٱلدينُ ٱلصحيحُ ٱلقويُّ في ٱلنفس، يتهيَّأُ ٱلنجاحُ ٱلسياسيُّ لِلشَّعْبِ ٱلمُحافِظِ عليهِ ٱلمنتصِرِ لَه؛ إذْ يكونُ مِنَ ٱلخِلالِ ٱلطبيعيَّةِ في زُعمائِهِ ورجالِهِ ٱلثباتُ على ٱلنزعةِ ٱلسياسيَّةِ، وٱلصلابةُ في ٱلحقِّ، وٱلإيمانُ بمجدِ ٱلعمل، وتغليبُ ذلك على ٱلأحوالِ ٱلماديَّةِ ٱلتي تعترضُ ذا ٱلرأي لِتَفتِنَهُ عن رأيهِ ومذهبِهِ: من مالٍ، أو جاهٍ، أو منصبٍ، أو مُوافَقةِ ٱلهوى، أو خشيةِ ٱلنِّقمة، أو خوفِ ٱلوعيد[1]، إلى غيرِها من كلِّ ما يستميلُ ٱلباطلُ أو يُرْهِبُ[2] بهِ ٱلظلم.

ولا يذهبَنَّ عنك أنَّ الرجلَ ٱلمؤمنَ ٱلقويَّ ٱلإيمانِ ٱلممتلِيءَ ثِقَةً ويَقِيناً ووفاءً وصِدْقاً وعَزْماً وإصراراً على فضيلتِهِ وثَباتاً على ما يلقَى في سبيلِها ـ لا يكونُ رجلاً كَٱلناس، بل هو رجلُ ٱلاستقلالِ ٱلذي واجبُهُ جزءٌ من طبيعتِهِ، وغايتُهُ ٱلساميةُ لا تنفصلُ عنه، هو رجلُ صِدْقِ ٱلمبدإ، وصِدقِ ٱلكلمة، وصِدقِ ٱلأمل، وصِدقِ ٱلنَّزعة؛ وهوَ ٱلرجلُ ٱلذي ينفجرُ في ٱلتاريخِ كَلَّما ٱحتاجتِ ٱلحياةُ ٱلوطنيَّةُ إلى إطلاقِ قنابلِها للنَّصر.

* * *

وَٱلعاداتُ هي ٱلماضي ٱلذي يعيشُ في ٱلحاضر، وهي وحْدةٌ تاريخيَّةٌ في ٱلشعْب، تجمعُهُ كما يجمعُهُ ٱلأصلُ ٱلواحد؛ ثُمَّ هي كٱلدينِ في قِيامِهَا على أساسٍ أدبيٍّ في ٱلنفس، وفي ٱشتمالِها على ٱلتحريم وٱلتحليل؛ وتكادُ عاداتُ ٱلشعْبِ تكونُ دِيناً ضيقاً خاصّاً بهِ، يَحصرُهُ في قَبِيلِهِ ووطَنِه، ويُحَقِّقُ في أفرادِهِ ٱلأُلْفةَ وٱلتَّشابُك، ويأخذُهُم جميعاً بمذهبٍ واحد؛ هو إجلالُ ٱلماضي.

وإجلالُ ٱلماضي في كلِّ شَعْبٍ تاريخيٍّ هوَ ٱلوسيلةُ ٱلروحيَّةُ ٱلتي يَستوحي بها ٱلشعبُ أبطالَه، وفلاسِفَتَه، وعُلَمَاءَه، وأُدَباءَه، وأهلَ ٱلفنِّ منه؛ فيُحونَ إليهِ وَحْيَ عَظائمَهُمُ ٱلتي لم يغلبْها ٱلموت؛ وبهذا تكونُ صُوَرُهُمُ ٱلعظيمةُ حيَّةً في تاريخِه، وحيَّةً في آمالِهِ وأعصابِه.

وَٱلعاداتُ هيَ وحدَها ٱلتي تجعلُ ٱلوطنَ شيئاً نفسيًّا حقيقيًّا؛ حتى لَيشعرُ ٱلإنسانُ أنَّ لِأَرضِهِ أمُومةَ ٱلأُمِّ ٱلتي وَلَدَتْه، ولِقَوْمِهِ أبوَّةَ ٱلأبِ ٱلذي جاءَ بِهِ إلى ٱلحياة: وليسَ يَعرفُ هذا إلّا مَنِ ٱغتربَ عن وطنِه، وخالَطَ غيرَ قومِه، وٱستَوْحَشَ من غيرِ عاداتِه؛ فهناك يُثبِتُ ٱلوطنُ نفسَهُ بِعَظَمةٍ وجَبَروتٍ كَأنَّهُ وحدَهُ هو ٱلدنيا.

---

(١) الوعيد: التهديد.

(٢) يرهب: يخيف.

وهذه ٱلطبيعةُ ٱلناشئةُ في ٱلنفسِ من أثرِ ٱلعاداتِ هيَ ٱلتي تُنَبِّهُ في ٱلوطني رُوحَ ٱلتميُّزِ عنِ ٱلأجنبيّ، وتُوحِشُ نفسَهُ منه كأنّها حاسَّةُ ٱلأرض تنبِّهُ أهلَها وتُنذِرُهُمُ ٱلخَطرَ.

ومتى صدقَتِ ٱلوطنيَّةُ في ٱلنفسِ أقرَّتْ كلَّ شيءٍ أجنبيٍّ في حقيقتِهِ ٱلأجنبيَّة؛ فكانَ هذا هوَ أولَ مَظاهرِ ٱلاستقلال، وكانَ أقوى ٱلذرائعِ إلى ٱلمجدِ ٱلوطنيّ.

* * *

وبِٱللغةِ وَٱلدينِ وَٱلعادات، ينحصرُ ٱلشعْبُ في ذاتِهِ ٱلساميةِ بِخَصائصِها ومقوِّماتِها، فلا يَسْهُلُ ٱنتزاعُهُ منها ولا ٱنتساقُهُ من تاريخِه؛ وإذا أُلجِىءَ إلى حالٍ مِنَ ٱلقهرِ لم يَنْخَذِلْ[1] ولم يَتَضَعْضَع[2]، وٱستمرَّ يعملُ ما تعملُهُ ٱلشَّوكةُ ٱلحادَّة: إنْ لم تُترَكْ لِنفسِها، لم تُعطِ من نفسِها أَلَّا ٱلوَخْزَ........

(١) ينخذل: ينهزم.

(٢) يتضعضع: يتخلخل.

تجديدُ ٱلإسلام
رسالةُ ٱلأزهرِ في ٱلقرنِ ٱلعشرين

(الأزهر)، هذه هيَ ٱلكلمةُ ٱلتي لا يُقابلُها في خيَالِ ٱلأُمَّةِ ٱلمِصريَّةِ إلَّا كلمةُ (الهَرَم)؛ وفي كِلْتا ٱللفظتينِ يَكْمُنُ سرٌّ خَفِيٌّ من أسرارِ ٱلتاريخِ ٱلتي تجعلُ بعضَ ٱلكلماتِ مِيراثاً عقْليًّا لِلأُمَّة، يُنْسي مادةَ ٱللغةِ فيها ولا يُبْقِي منها إلَّا مادةَ ٱلنفس؛ إذْ تكونُ هذه ٱلكلماتُ تعبيراً عن شيءٍ ثابتٍ ثباتَ ٱلفِكْرةِ ٱلتي لا تتغيَّر، مستقِرٌّ في ٱلروحِ ٱلقوميَّةِ ٱستقرارَهُ في ٱلزمن، متجسِّمٌ من معناهُ كأنَّ ٱلطبيعةَ قد أفردَتْهُ بِمادَّتِهِ دونَ ما يُشاركُهُ في هذه ٱلمادَّة؛ فٱلحجرُ في ٱلهَرمِ ٱلأكبرِ يكادُ يكونُ في ٱلعقلِ زماناً لا حجَراً وفنًّا لا جِسْماً؛ وَٱلمكانُ في ٱلأزهرِ يَغيبُ فيهِ معنى ٱلمكانِ وينقلِبُ إلى قوَّةٍ عقليَّةٍ ساحرةٍ تُوجِدُ في ٱلمنظورِ غيرَ ٱلمنظور.

وعندي أنَّ ٱلأزهرَ في زمانِنا هذا يكادُ يكونُ تفسيراً جديداً لِلحديث: «مِصْرُ كِنانةُ ٱللَّهِ في أرضِه»، فعلماؤُهُ ٱليومَ أسْهُمٌ نافذةٌ من أسْهُم ٱللَّهِ يَرمي بها مَنْ أرادَ دينَهُ بِٱلسوء، فيُمْسِكُها لِلْهَيْبةِ ويَرمي بها لِلنصر؛ ويجبُ أنْ يكونَ هذا المعنى أولَ معانِيهِم في هذا القرن العشرينَ الذي ٱبْتُليَ بمِلْءِ عشرينَ قرناً مِنَ ٱلجُرْأةِ على ٱلأديان وإهمالِها والإلحادِ فيها.

أولُ شيءٍ في رسالةِ ٱلأزهرِ في ٱلقرنِ ٱلعشرين، أنْ يكونَ أهلُهُ قوَّةً إلهيَّةً مُعَدَّةً للنصر، مُهيَّأةً لِلنِّضال، مسدَّدةً لِلإصابة، مُقدَّرَةً في طبيعتِها أحسنَ تقدير، تُشْعِرُ ٱلناسَ بِٱلاطمئنانِ إلى عملِها، وتُوحي إلى كلِّ مَنْ يراها ٱلإيمانَ ٱلثابتَ بمعناها؛ ولنْ يأتيَ لهم هذا إلَّا إذا ٱنقلبوا إلى طبيعتِهِمُ ٱلصحيحة، فلا يكون ٱلعِلْمُ تحرُّفاً ولا مِهْنةً ولا مَكْسَبة، ولا يكونُ في أوراقِ ٱلكتُبِ خيالُ (أوراقِ ٱلبنك)... بلْ تظهرُ فيهِمُ ٱلعظَمةُ ٱلروحانيَّةُ آمرةً ناهيةً في ٱلمادَّة، لا مأمورةً منهيةً بها؛ ويرتفعُ كلٌّ منهم بنفسِه، فيكونُ مُقرِّرَ خُلُقٍ في ٱلحياةِ قبلَ أنْ يكونَ معلِّمَ عِلْمٍ في ٱلحياة، لِينبثَّ منهم مغناطيسُ ٱلنبوَّةِ يجذِبُ ٱلنفوسَ بِهِم أقوى مِمَّا تَجذبُها ضَلالاتُ ٱلعصر؛ فما

يحتاجُ ٱلناسُ في هذا ٱلزمَنِ إلى ٱلعالِم ـ وإنَّ ٱلكُتُبَ وٱلعلومَ لتَمَلأ ٱلدنيا ـ وإنَّما يحتاجونَ إلى ضميرِ ٱلعالِم.

وقد عجَزتِ ٱلمدنيَّةُ أنْ تُوجِدَ هذا ٱلضمير، معَ أنَّ ٱلإسلامَ في حقيقتِهِ ليسَ شيئاً إلّا قانونَ هذا ٱلضمير، إذْ هو دينٌ قائمٌ على أنَّ ٱللّهَ لا ينظرُ مِنَ ٱلإنسانِ إلى صورتِهِ ولكنْ إلى عملِه؛ فأولُ ما ينبغي أنْ يحمَلهُ ٱلأزهرُ من رسالتِه، ضمائرُ أهلِه.

وٱلناسُ خاضعونَ لِلمادةِ بقانونِ حياتِهم، وبقانونٍ آخرَ هوَ قانونُ ٱلقرنِ ٱلعشرين... فهم من ثَمَّ في أشدِّ ٱلحاجةِ إلى أنْ يجدوا بينَهُمُ ٱلمتسلِّطَ على ٱلمادةِ بقانونِ حياتِه؛ لِيرَوْا بأعينِهِمُ ٱلقُوَى ٱلدنيئةَ مغلوبة، ثُمَّ لِيجدوا في هذا ٱلإنسانِ أساسَ ٱلقُدْوة وٱلاحتذاء، فيتَّصلوا منه بقوَّتينِ: قوَّةِ ٱلتعليم، وقوَّةِ ٱلتحويل.

وهذا هوَ سِرُّ ٱلإسلامِ ٱلأولُ ٱلذي نَفَذَ بِهِ من أُمَّةٍ إلى أُمَّةٍ ولم يقمْ لَهُ شيءٌ يَصدُّه، إذْ كانَ ينفُذُ في ٱلطبيعةِ ٱلإنسانيَّةِ نفسِها.

* * *

ومن أخصِّ واجباتِ ٱلأزهرِ في هذا ٱلقرنِ ٱلعشرين، أنْ يعملَ أولَ شيءٍ لإقرارِ معنى ٱلإسلامِ ٱلصحيحِ في ٱلمسلمينَ أنفسِهم، فإنَّ أكثرَهُمُ ٱليومَ قد أصبحوا مسلمينَ بِٱلنَّسبِ لا غير... وما منهم إلَّا مَنْ هو في حاجةٍ إلى تجديدِ إسلامِه.

وَٱلحكوماتُ ٱلإسلاميَّةُ عاجزةٌ في هذا، بلْ هي من أسبابِ هذا ٱلشرِّ؛ لِأَنَّ لها وجوداً سِياسيًّا ووجوداً مدنيًّا؛ أمَّا ٱلأزهرُ فهو وحدَهُ ٱلذي يصلُحُ لإتمامِ نقصِ ٱلحكومةِ في هذا ٱلبابِ، وهو وحدَه ٱلذي يَسَعُهُ ما تَعجزُ عنه؛ وأسبابُ نجاحِهِ مُهيَّأَةٌ ثابتةٌ إذْ كانَ لَهُ بِقوَّةِ ٱلتاريخِ حكمُ ٱلزَّعامةِ ٱلإسلاميَّة، وكانَتْ فيهِ عندَ ٱلمسلمينَ بقيَّةُ ٱلوحْيِ على ٱلأرض، ثُمَّ كانَ هو صورةَ ٱلمِزاجِ ٱلنفسيِّ ٱلإسلاميِّ ٱلمحض؛ بَيْدَ أنَّه فُرِّطَ في واجبِ هذه ٱلزعامة، وفقدَ ٱلقوَّةَ ٱلتي كانَ يحكمُ بها، وهيَ قوةُ ٱلمثَلِ ٱلأعلى ٱلتي كانَتْ تجعلُ ٱلرجلَ من علمائِهِ كما قلْنا مرة: إنساناً تتخيَّرُهُ ٱلمعاني ٱلسياسيَّةُ تَظهرُ فيهِ بأسلوبٍ عمليّ، فيكونُ في قومِهِ ضَرْباً مِنَ ٱلتربيةِ وٱلتعليمِ بقاعدةٍ مُنتزَعةٍ من مِثالِها، مشروحةٍ بهذا ٱلمِثالِ نفسِه.

وٱلعقيدةُ في سوادِ ٱلناسِ بغيرِ هذا ٱلمثَلِ ٱلأعلى هيَ أولُ مغلوبٍ في صراعِ قُوى ٱلحياة.

لقدِ ٱعتادَ ٱلمسلمونَ من قديمٍ أنْ يجعلوا أبصارَهم إلى عُلماءِ ٱلأزهر، فهم

يتبّعونَهم، ويتأسَّوْنَ[1] بهم، ويمنحونَهمُ ٱلطاعةَ، وينزلونَ على حكمِهم، ويلتمسونَ في سيرتِهِمُ ٱلتفسيرَ لِمشكِلاتِ ٱلنفس، ويعرفونَ بهم معنى صِغَرِ ٱلدنيا ومعنى كِبَرِ ٱلأعمالِ ٱلعظيمةِ؛ وكانَ غِنى ٱلعالِم ٱلدينيِّ شيئاً غيرَ ٱلمال، بلْ شيئاً أعظمَ مِنَ ٱلمال؛ إذْ كانَ يجدُ حقيقةَ ٱلغِنى في إجلالِ ٱلناسِ لِفقرِهِ كأنَّهُ مُلْكٌ لا فقر؛ وكانَ زُهدُهُ قوةً حاكمةً فيها ٱلصلابةُ وٱلشِّدَّةُ وٱلهيبةُ وٱلسموُّ، وفيها كلُّ سُلْطانِ ٱلخيرِ وٱلشرّ، لِأنَّ فيها كلَّ ٱلنزَعاتِ ٱلاستقلاليّة؛ ويكادُ ٱلزّهدُ ٱلصحيحُ يكونُ هو وحدَهُ ٱلقوَّةَ التي تجعلُ عُلماءَ ٱلدينِ حقائقَ مؤثِّرةً عامِلةً في حياةِ ٱلناسِ أغنيائِهِم وفقرائِهم، لا حقائقَ متروكةً لِنفسِها يُوحِشُ ٱلناسَ منها أنّها متروكةٌ لِنفسِها.

* * *

وعلماءُ ٱلأزهرِ في ٱلحقيقةِ هم قوانينُ نفسيَّةٌ نافذةٌ على ٱلشَّعب، وعملُهُم أرَدُّ على ٱلناسِ من قوانينِ ٱلحكومةِ، بلْ همُ ٱلتصحيحُ لِهذهِ ٱلقوانينِ إذا جَرَتِ ٱلأمورُ على عِلَلِها وأسبابِها؛ فيجبُ عليهم أنْ يُحقِّقوا وجودَهم، وأنْ يتناولوا ٱلأُمَّةَ من ناحيةِ قلوبِها وأروَاحِها، وأنْ يُعِدُّوا تلاميذَهم في ٱلأزهرِ كما يُعِدُّون ٱلقوانينَ ٱلدقيقةَ، لا طَلَّاباً يرتزقونَ بِٱلعلم.

أين صوتُ ٱلأزهرِ وعملُهُ في هذه ٱلحياةِ ٱلمائجةِ بما في ٱلسَّطْحِ وما في ٱلقاع... وأين وحْيُ هذه ٱلقوَّةِ ٱلتي مِيثاقُها أَنْ تجعلَ ٱلنبوَّةَ كأنَّها شيءٌ واقعٌ في ٱلحياةِ ٱلعصريَّةِ لا خبَرٌ تاريخيٌّ فِيها؟

لقدْ أصبحَ إيمانُ ٱلمسلمينَ كأنَهُ عادةُ ٱلإيمانِ لا ٱلإيمانُ نفسُه؛ ورجعَ ٱلإسلامُ في كتبِهِ ٱلفقهيَّةِ وكأنّهُ أديانٌ مختلِفةٌ متناقِضَةٌ لا دينٌ واحد. فرسالةُ ٱلأزهرِ أنْ يُجدِّدَ عملَ ٱلنبُّوةِ في ٱلشعب، وأنْ يُنَقّيَ عملَ ٱلتاريخ في ٱلكتُب، وأنْ يُبطِلَ عملَ ٱلوثنيَّةِ في ٱلعادات، وأنْ يُعطيَ ٱلأُمَّةَ دِينَها ٱلواضحَ ٱلسمْحَ[2] ٱلميسَّرَ، وقانونَها ٱلعمليّ ٱلذي فيهِ سعادتُها وقُوَّتُها.

ولا وسيلةَ إلى ذلك إلّا أنْ يكونَ ٱلأزهرُ جريئاً في قِيادةِ ٱلحركةِ ٱلروحيَّةِ ٱلإسلاميّة، جريئاً في عملِهِ لِهذه ٱلقِيادة، آخذاً بأسبابِ هذا ٱلعمل، مُلِحًّا في طلبِ هذه ٱلأسباب، مُصِرًّا على هذا ٱلطلَب؛ وكلُّ هذا يكونُ عبثاً إنْ لم يكنْ رجالُ ٱلأزهرِ وطلبَتُهُ أمثلةً مِنَ ٱلأمثلةِ ٱلقويَّةِ في ٱلدين وٱلخُلُقِ وٱلصلابة، لِتبدأَ ٱلحياةُ

---

(١) يتأسون: يتّخذونهم قدوة حسنة.

(٢) السمح: السهل الناتج عن طيب الخاطر.

ٱلنفسيَّةُ فيهم، فإنَّها إنْ بدأَتْ لا تقِف؛ وٱلمثَلُ ٱلأعلى حاكمٌ بطبيعتِهِ على ٱلإنسانيّة، مُطاعٌ بحكمِهِ فيها، محبوبٌ بِطاعتِها لَه.

وَٱلمادةُ ٱلمطهِّرةُ لِلدينِ وٱلأخلاقِ لا تجدُها ٱلأُمَّةُ إلَّا في ٱلأزهر، فعلى ٱلأزهرِ أنْ يُثبِتَ أنَّ فيهِ تلك ٱلمادةَ بإظهارِ عملِها لا بإلصاقِ ٱلورقةِ ٱلمكتوبِ فيها ٱلاسمُ على ٱلزجاجة...

ومِنْ ثَمَّ يكونُ واجبُ ٱلأزهر أنْ يطلُبَ ٱلإشرافَ على ٱلتعليم ٱلإسلاميِّ في ٱلمدارس، وأنْ يدفعَ ٱلحركةَ ٱلدينيَّةَ دفعاً بوسائلَ مختلفة، أولُها أَنَ يحملَ وزارة، ٱلمعارفِ على إقامةِ فرضِ ٱلصلاةِ في جميعِ مدارسِها، من مدرسةِ حريَّةِ ٱلفكر.. فنازلاً: وَٱلأمةُ ٱلإسلاميَّةُ كُلُّهَا تَشُدُّ رأيَ ٱلأزهرِ في هذا.

وإذا نحن ٱستخرجْنا ٱلتفسيرَ ٱلعمليَّ لهذه ٱلآية ٱلكريمة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، دلَّتْنا ٱلآيةُ بنفسِها على كلِّ تلكَ ٱلوسائل، فما ٱلحكمةُ هنا الَّا ٱلسياسةُ ٱلاجتماعيَّةُ في ٱلعمل، وليسَتِ ٱلموعظةُ ٱلحسنةُ إلَّا ٱلطريقةَ ٱلنفسيَّةَ في ٱلدعوة.

العلماءُ ورثةُ ٱلأنبياء؛ وليسَ ٱلنبيُّ منَ ٱلأنبياءِ إلَّا تاريخَ شدائدَ ومِحَن، ومجاهَدةٍ في هِدايةِ ٱلناس، ومُراغَمةٍ[1] لِلوجودِ ٱلفاسد، ومُكابَدةٍ[2] ٱلتصحيح لِلْحالةِ ٱلنفسيَّةِ لِلأُمَّة؛ فهذا كلُّهُ هوَ ٱلذي يُورَثُ عنِ ٱلأنبياءِ لا ٱلعِلْمُ وتعليمُهُ فقط.

* * *

وإذا قامَتْ رسالةُ ٱلأزهرِ على هذِهِ ٱلحقائق، وأصبحَ وجودُهُ هُوَ ٱلمعنى ٱلمتمِّمَ لِلْحكومة، ٱلمعاوِنِ لها في ضبطِ ٱلحياةِ ٱلنفسيَّة لِلشعبِ وحِياطَتِها وأمنِها ورَفاهتِها وَٱستقرارِها ـ ٱتَّجهَتْ طبيعتُهُ إلى أداءِ رِسالتِهِ ٱلكبرى لِلقرْنِ ٱلعشرين، بعدَ أنْ يكونَ قد حقَّقَ ٱلذرائعَ إلى هذه ٱلرسالة، مِنْ فتحِ بابِ ٱلاجتهاد، وتنقيةِ ٱلتاريخ ٱلفِقْهيّ، وتهذيبِ ٱلروح ٱلإسلاميِّ وٱلسموِّ بِهِ عن ٱلمعاني ٱلكلاميَّةِ ٱلجدَليَّةِ ٱلسخيفةِ؛ ثُمَّ ٱستخراجِ أسرارِ ٱلقرآنِ ٱلكريم ٱلكامنةِ فيه، لِهذه العصورِ ٱلعِلْميَّةِ ٱلأخيرة؛ وبعدَ أنْ يكونَ قدِ ٱجتمعَتْ فيهِ ٱلقوَّةُ ٱلتي تُمسِكُ ٱلإسلامَ على سُنَّتِهِ بينَ ٱلقديم وٱلجديد، لا يُنكِرُهُ هذا ولا يُغيِّرُهُ ذاك، وبعدَ أنْ يكونَ ٱلأزهرُ قدِ ٱستفاضَ على ٱلعَالَمِ ٱلعربيِّ بِكتُبِهِ ودُعاتِهِ ومَبعوثيهِ من حاملي عِلْمِهِ ورُسُلِ إلهامِه.

---

(١) مراغمة: مصراعة ومقاومة. (٢) مكابدة: معاناة.

أمَّا تلك ٱلرسالةُ ٱلكبرى فهي بثُّ ٱلدعوةِ ٱلإسلاميَّةِ في أوربا وأمريكا وٱليابان، بلغاتِ ٱلأوربيّينَ وٱلأمريكيّينَ وٱليابانيّين، في ألسنةٍ أزهريةٍ مُرْهَفةٍ مصقولة، لها بيانُ ٱلأدب، ودِقَّةُ ٱلعِلْم، وإحاطةُ ٱلفلسفة، وإلهامُ ٱلشعر، وبصيرةُ ٱلحِكْمة، وقُدرةُ ٱلسياسة؛ ألسنةٌ أزهريَّةٌ لا يُوجَدُ ٱلآنَ منها لِسانٌ واحدٌ في ٱلأزهر، ولكنَّها لن تُوْجَدَ إلَّا في ٱلأزهر؛ ولا قِيمةَ لِرسالتِهِ في ٱلقرنِ ٱلعشرينَ إذا هو لم يُوجِدْها فتكونَ ٱلمتكلِّمة عنه، وٱلحامِلة لِرسالتِه، وما هذه ٱلبعثاتُ ٱلتي قرَّرَ ٱلأزهرُ ٱبتعاثَها إلى أوربا إلَّا أولُ تاريخِ تلك ٱلألسنة.

إنَّ ٱلوسيلةَ ٱلتي نَشَرتِ ٱلإسلامَ من قبلُ لم تكنْ أَجنحةَ ٱلملائكة، ولا كانَتْ قوَّةً من جهنَّم؛ ولا تزالُ هي ٱلتي تنشرُه؛ فليسَ مُستحيلاً ولا متعذِّراً أنْ يَغزُوَ هذا ٱلدينُ أوربا وأمريكا وٱليابانَ كما غزا ٱلعالَمَ ٱلقديم، ولم يكنِ ٱلسلاحُ من قبلُ إلَّا طريقَةً لإيجادِ إسلام في ٱلأُمَّةِ ٱلغريبَةِ عنه، حتى إذا وُجِدَ تولَّى هو ٱلدعوَةَ لِنفسِهِ بقوَّةِ ٱلناموسِ ٱلطبيعيِّ ٱلقائمِ على أنَّ ٱلأصلحَ هُوَ ٱلأبقى، وَٱنحازَتْ إليهِ ٱلإنسانيَّةُ لإنَّهُ قانونُ طبيعتِها ٱلسليمة، ودينُ فِطْرتِها ٱلقويَّة؛ وقد ظلَّ ٱلإسلامُ ينتشرُ ولم يكنْ يحملُهُ إلَّا ٱلتاجر، كما كانَ ينتشرُ وحاملُهُ ٱلجيش؛ فليسَ علينا إلَّا تغييرُ ٱلسلاحِ في هذا ٱلعصر وجعلُهُ سِلاحاً من فلسفةِ ٱلدينِ وأسرارِ حِكمتِه؛ فهذا ٱلدينُ كما قلْنَا في بعضِ كَلامِنا: أعمالٌ مفصَّلةٌ على ٱلنفسِ أدَقَّ تفصيلٍ وأوفاهُ بِمصلحتِها، فهو يُعطي ٱلحياةَ في كلِّ عصْرٍ عقلَها ٱلعَمَليَّ ٱلثابتَ ٱلمستقرَّ تُنظَّمُ بِهِ أحوالَ ٱلنفسِ على مَيْزةٍ وبصيرة، ويَدَعُ لِلحياةِ عقلَها ٱلعِلْميَّ ٱلمتجدِّدَ ٱلمتغيرَ تُنظَّمُ بِهِ أحوالَ ٱلطبيعةِ على قَصْدٍ وهُدًى؛ وهذه هيَ حقيقةُ ٱلإسلامِ في أخصِّ معانيه: لا يُغني عنْهُ في ذلك دِينٌ آخر، ولا يؤدّي تأْديتَهُ في هذه ٱلحاجةِ أدبٌ ولا عِلْمٌ ولا فلسفة، كأنَّما هو نَبْعٌ في ٱلأرضِ لِمعاني ٱلنور، بإزاءِ ٱلشمسِ نبعِ ٱلنورِ في ٱلسماء.

ليسَ على ٱلأزهرِ إلَّا أنْ يُوجِدَ مِنَ ٱلإسلامِ في تلكَ ٱلأُمَمِ ما يستمرّ، ثُمَّ ٱلاستمرارُ هو يُوجِدُ ما يَثبت، وٱلثباتُ يُوجِدُ ما يدوم؛ وكأَنَّ ٱلنبيَّ ﷺ قد أشارَ إلى هذا في قولِهِ: نَضَّرَ ٱللَّهُ ٱمرأً سمعَ منِّي شيئاً فبلَّغَهُ كما سمعَهُ، فربَّ مُبلَّغٍ أوعى لَهُ من سامع.

أَمَا وَٱللَّهِ إنَّ هذا ٱلمبلَّغَ ٱلذي هو أوعى لَهُ مِنَ ٱلسامع لَنْ يكونَ في ٱلتاريخِ بأدقِّ ٱلمعنى إلَّا أوربا وأمريكا في هذا ٱلزمنِ ٱلعِلْمِيِّ إذا نحن عَرفْنا كيف نُبلّغ.

أنا مستيقنٌ أنَّ فيلسوفَ ٱلإسلام ٱلذي سيَنتشرُ ٱلدينُ على يدِهِ في أوربا وأمريكا لن يخرجَ إلَّا مِنَ ٱلأزهر، وما كانَ ٱلأستاذُ الإمامُ ٱلشيخُ محمدُ عبده ـ رحمه اللَّهَ ـ أَلَا أولَ ٱلتطَوُّرِ ٱلمنتهي إلى هذه ٱلغاية، وسيكونُ عملُ فلاسفةِ ٱلأزهرِ ٱستخراجَ قانونِ ٱلسعادةِ لِتلكِ ٱلأُممِ من آدابِ ٱلإسلامِ وأعمالِه؛ ثُمَّ مُخاطبةِ ٱلأُمَمِ بأفكارِها وعواطفِها، وٱلإفضاءَ[1] من ذلك إلى ضميرِها ٱلاجتماعيِّ فإنَّ أولَ ٱلدينِ هناك أسلوبُهُ ٱلذي يظهرُ بهِ.

* * *

هذه هي رسالةُ ٱلأزهرِ في ٱلقرنِ ٱلعشرين، ويجبُ أنْ يتحقَّقَ بوسائلِها منَ ٱلآن؛ ومن وسائِلها أنْ يُعالِنَ بها لِتكونَ مَوْثِقاً عليه. ويحسنُ بٱلأزهرِ في سبيلِ ذلك أنْ يضمَّ إليهِ كلَّ مفكرٍ إسلاميٍّ ذي إلهامٍ أو بحثٍ دقيقٍ أو إحاطة شاملة؛ فتكونُ لَهُ ألقابٌ عِلْمِيَّةٌ يمنحُهُم إيَّاها وإنْ لم يتخرجوا فيه، ثُمَّ يستعينُ بعِلْمِهم وإلهامِهم وآرائهم.

وبهذِهِ ٱلألقابِ يمتدّ ٱلأزهرُ إلى حدودٍ فكريَّةٍ بعيدة، ويُصبحُ أوسعَ في أثرِهِ على ٱلحياةِ ٱلإسلاميَّة، ويُحقِّقُ لِنفسِهِ ٱلمعنى ٱلجامعيّ.

وفي تلك ٱلسبيلِ يجبُ على ٱلأزهرِ أنْ يختارَ أياماً في كلِّ سنةٍ يجمعُ فيها مِنَ ٱلمسلمينَ (قِرْشَ الإسلام)؛ لِيَجِدَ مادةَ ٱلنفقةِ ٱلواسعةِ في نشرِ دينِ ٱلله، وليسَ على ٱلأرضِ مسلمٌ ولا مسلمةٌ لا يبسُطُ يدَه، فما يحتاجُ هذا ٱلتدبيرُ لِأكثرَ من إقرارِهِ وتنظيمِهِ وإعلانِهِ في ٱلأُمَمِ ٱلإسلاميَّةِ ومواسِمِها ٱلكبرى، وخاصةً موسمَ ٱلحجّ.

وهذا ٱلعملُ هو نفسُهُ وسيلةٌ من أقوى ٱلوسائلِ في تنبيهِ ٱلشعورِ ٱلإسلاميّ، وتحقيقِ ٱلمعاونةِ في نشرِ ٱلدين وحِياطتِه؛ وعسى أنْ تكونَ لَهُ نتائجُ ٱجتماعيَّةٌ لا مَوْضِعَ لِتفصيلِها هنا، وعسى أنْ يكونَ (قِرْشُ ٱلإسلام) مادةً لِأعمالٍ إسلاميَّةٍ ذاتِ بال، وهو على أيِّ ٱلأحوالِ صلةٌ روحيَّةٌ تجعلُ ٱلأزهرَ كأنَّهُ مُعْطِيهِ لِكُلِّ مسلمٍ لا آخِذُه.

وٱلخُلاصةُ أنَّ أولَ رِسالةِ ٱلأزهرِ في ٱلقرنِ ٱلعشرين، ٱهتداءُ ٱلأزهرِ إلى حقيقةِ موضعِهِ في ٱلقرنِ ٱلعشرين: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) الإفضاء: الوصول والانتهاء.

الأسـد

جلسَ أبو علي أحمدُ بْنُ محمدٍ ٱلرُّوذَبَاديُّ ٱلبغداديُّ في مجلسِ وعظِهِ بمصرَ بعدَ وفاةِ شيخِهِ أبي الحسنِ بُنَانِ ٱلحمالِ ٱلزاهدِ ٱلواسطيِّ شيخِ ٱلديارِ ٱلمصرية وكانَ يُضربُ ٱلمثلُ بعبادتِهِ وزُهدِه، وقد خرجَ أكثرُ أهلِ مِصرَ في جنازتِهِ، فكانَ يومُهُ يوماً كَٱلبرهانِ مِنَ ٱلعالمِ ٱلآخرِ لِأهلِ هذه ٱلدنيا؛ ما بقيَ أحدٌ إِلَّا ٱقتنعَ أنَّهُ في شهواتِ ٱلحياةِ وأباطيلِها كَٱلأعمى في سُوءِ تمييزِهِ بينَ لَوْنِ ٱلترابِ ولَوْنِ ٱلدقيق؛ إِذْ ينظرُ كلُّ ٱمرىءٍ في مصالحِهِ ومنافعِهِ مثلَ هذه ٱلنظرة، بِٱللمسِ لا بِٱلبصر، وبِٱلتوهُّم لا بِٱلتحقيق، وعلى دليلِ نفسِهِ في ٱلشيءِ لا على دليلِ ٱلشيءِ في نفسِه، وبِٱلإدراكِ من جِهْةٍ واحدةٍ دونَ ٱلإدراكِ من كلِّ جِهْة؛ ثُمَّ يأتي ٱلموتُ فيكونُ كَٱلماءِ صُبَّ على ٱلدقيقِ وٱلترابِ جميعاً، فلا يرتابُ مُبصرٌ ولا أعمى، ويبطلُ ما هو باطلٌ ويحقُّ ٱلذي هو حقّ.

وتكلمَ أبو علي فقال: كنْتُ ذاتَ يوم عندَ شيخِنا ٱلجُنيدِ في بغداد، فجاءَهُ كتابٌ من يوسفَ بْنِ ٱلحسنِ شيخِ ٱلريِّ وٱلجبالِ في وقتِهِ يقولُ فيه: لا أذاقَكَ ٱللَّهُ طعمَ نفَسِك، فَإِنَّكَ إِنْ ذُقْتَها لم تذقْ بعدَها خيراً أبداً! قال: فجعلْتُ أفكرُ في طعم ٱلنفسِ ما هو، وجاءَني ما لم أرْضَهُ مِنَ ٱلرأي، حتى سمعْتُ بخبرِ بُنانٍ ـ رحمهُ ٱللَّهُ ـ مع أحمدَ بْنِ طُولونَ أميرِ مِصر، فهوَ ٱلذي كانَ سببَ قدومي إلى هنا لِأرى ٱلشيخَ لِأصحَبُه وأنتفعَ به.

وٱلبلدُ ٱلذي ليسَ فيهِ شيخٌ من أهلِ ٱلدينِ ٱلصحيحِ وٱلنفسِ ٱلكاملةِ وٱلأخلاقِ ٱلإلهيَّة، هو في ٱلجهلِ كَٱلبلدِ ٱلذي ليسَ فيهِ كِتابٌ مِنَ ٱلكتبِ ألبتةَ وإِنْ كانَ كلُّ أهلِهِ علماء، وإِنْ كانَ في كلِّ محلةٍ منه مدرسة، وفي كلِّ دارٍ من دورِهِ خزانةُ كتب؛ فلا تُغني هذه ٱلكتبُ عن ٱلرجال؛ فإنَّما هيَ صوابٌ أو خطأٌ ينتهي إلى ٱلعقل، ولكنَّ ٱلرجلَ ٱلكاملَ صوابٌ ينتهي إلى ٱلروح، وهو في تأثيرِهِ على ٱلناسِ أقوى مِنَ ٱلعِلْم، إِذْ هو تفسيرُ ٱلحقائقِ في ٱلعملِ ٱلواقعِ وحياتِها عاملةً مرئيةً داعيةً إلى نفسِها؛ ولو أقامَ ٱلناسُ عشرَ سنينَ يتناظَرون في معاني ٱلفضائلِ ووسائلِها،

ووضعوا في ذلك مائةَ كتاب، ثُمَّ رأَوْا رجلًا فَاضلاً بأصدقِ معاني ٱلفضيلة، وخالطُوهُ وصحبُوهُ ـ لَكانَ ٱلرجلُ وحدَهُ أكبرَ فائدةٍ من تلك ٱلمناظرةِ وأجدى[1] على ٱلناسِ منها وأدلَّ على الفضيلةِ من مائةِ كتابٍ ومن ألفِ كتاب؛ ولِهذا يُرسِلُ ٱللَّهُ ٱلنبيَّ مع كلِّ كتابٍ مُنَزَّلٍ لِيعطيَ ٱلكلمةَ قوَّةَ وجودِها، ويُخرجَ ٱلحالةَ ٱلنفسيَّةَ مِنَ ٱلمعنى ٱلمعقول، ويُنشِئَ ٱلفضائلَ ٱلإنسانيَّةَ على طريقةِ ٱلنسلِ من إنسانِها ٱلكبير.

وما مثلُ ٱلكتابِ يتعلَّمُ ٱلمرءُ منه حقائقَ ٱلأخلاق ٱلعالية، إلَّا كوضعِ ٱلإنسانِ يدَهُ تحتَ إبطِهِ لِيرفعَ جِسمَهُ عنِ ٱلأرض؛ فقد أنشأَ يعمل، ولكنَّهُ لن يرتفع؛ ومن ذلك كانَ شرُّ ٱلناسِ همُ ٱلعلماءَ وٱلمعلِّمين إذا لم تكنْ أخلاقُهم دروساً أخرى تعملُ عملاً آخرَ غيرَ ٱلكلام؛ فإنَّ أحدَهم لَيجلسُ مجلِسَ ٱلمعلِّم، ثُمَّ تكونُ حولَهُ رذائلُهُ تُعلِّمُ تعليماً آخرَ من حيثُ يدري ولا يدري، ويكونُ كِتابُ ٱللَّهِ مَعَ ٱلإنسانِ ٱلظاهرِ منه، وكتابُ ٱلشيطانِ مَعَ ٱلإنسانِ ٱلخفيِّ فيه.

* * *

قال أبو علي: وقدمْتُ إلى مصرَ لِأرى أبا الحسن وآخذَ عنهُ وأحقِّقَ ما سمعْتُ من خيرِهِ مَعَ ٱبنِ طُولون؛ فلمَّا لقيْتُهُ لقيْتُ رجلاً من تلاميذِ شيخِنا ٱلجنيد، يتلألأُ فيهِ نورُهُ ويعملُ فيهِ سِرُّه؛ وهما كَٱلشمعةِ، وٱلشمعةُ في ٱلضوءِ وإنْ صَغُرَتْ واحدةٌ وكبُرَتْ واحدة؛ وعلامةُ ٱلرجلِ من هؤلاءِ أنْ يعملَ وجودُهُ فيمَنْ حولَهُ أكثرَ مِمَّا يعملُ هو بنفسِه، كأنَّ بينَ ٱلأرواحِ وبينَهُ نسباً[2] شابكاً، فلَهُ معنى أبوةِ الأَبِ في أبنائهِ: لا يراهُ مَنْ يراهُ منهم إلَّا أحسَّ أنَّهُ شخصُهُ ٱلأكبر؛ فهذا هو ٱلذي تكونُ فيهِ ٱلتكملةُ ٱلإنسانيَّةُ لِلناس، وكأنَّهُ مخلوقٌ خاصَّةً لإثباتِ أنَّ غيرَ ٱلمستطاعِ مستطاع.

ومن عجيبِ حِكمةِ ٱللَّهِ أنَّ ٱلأمراضَ ٱلشديدةَ تعملُ بِٱلعدوَى فيمَنْ قارَبها أو لامسَها، وأنَّ القُوى ٱلشديدةَ تعملُ كذلك بِٱلعدوى فيمَنِ ٱتَّصلَ بها أو صاحبَها ولهذا يخلقُ ٱللَّهُ ٱلصالحينَ ويجعلُ ٱلتقوى فيهم إصابةً كإصابةِ ٱلمرض: تصرِفُ عن شهواتِ ٱلدنيا كما يصرِفُ ٱلمرضُ عنها، وتكسرُ ٱلنفسَ كما يكسرُها ذاك، وتُفقِدُ ٱلشيءَ ما هو بهِ شيء، فتتحوَّلُ قِيمتُه، فلا يكونُ بما فيهِ منَ ٱلوهمِ بلْ بما فيهِ منَ ٱلحق.

وإذا عدِمَ ٱلناسُ هذا ٱلرجلَ ٱلذي يُعدِّيهم بِقوتِهِ ٱلعجيبةِ فقلَّما يصلحونَ لِلقوَّة، فكِبارُ ٱلصالحينَ وكِبارُ ٱلزعماءِ وكِبارُ ٱلقوَّادِ وكِبارُ ٱلشجعانِ وكِبارُ ٱلعلماءِ

---

(1) أجدى: أنفع.

(2) نسباً: قرابة.

وأمثالُهم ـ كلُّ هؤلاءِ من بابٍ واحد، وكلُّهم في ٱلحِكمةِ كَكِبارِ ٱلمرضى.

* * *

قالَ أبو علي: وهممْتُ مرةً أنْ أسألَ ٱلشيخَ عن خبرِهِ مَعَ ٱبن طُولون، فقطعتْني هيبتُه، فقلْت: أحتالُ بسؤالِهِ عن كلمةِ شيخِ ٱلرّي: «لا أذاقكَ ٱللّٰهُ طعمَ نفسِك»؛ وبينما أُهيِّىءُ في نفسي كلاماً أُجري فيهِ هذه ٱلعِبارة، جاءَ رجلٌ فقالَ لِلشيخ: لي على فلانٍ مائةُ دينار، وقد ذهبَتِ ٱلوثيقةُ التي كُتِبَ فيها ٱلدَّين، وأخشى أنْ يُنكرَ إذا هو علِمَ بِضياعِها؛ فٱدعُ ٱللّٰهَ لي ولَهُ أنْ يُظفرني[1] بِدَيني وأن يُثبِّتَهُ على ٱلحقّ. فقالَ ٱلشيخ: إنّي رجلٌ قد كَبِرْتُ وأنا أُحبُّ ٱلحلوى، فٱذهبْ فٱشترِ رطلاً منها وٱئتني بهِ حتى أدعوَ لك!

فذهبَ ٱلرجلُ فٱشترى ٱلحلوى ووضعَها لَهُ ٱلبائعُ في ورقةٍ فإذا هي ٱلوثيقةُ ٱلضائعةِ، وجاءَ إلى ٱلشيخِ فأخبرَه، فقالَ له: خذِ ٱلحلوى فأطعِمْها صِبيانَك لا أذاقَنا ٱللّٰهُ طعمَ أنفسِنا فيما نشتهي! ثُمَّ إنَّهُ ٱلتفتَ إليَّ وقال: لو أنَّ شجرةً ٱشتهَتْ غيرَ ما بِهِ صحةُ وجودِها وكمالُ منفعتِها فأُذيقَتْ طعمَ نفسِها لأكلَتْ نفسَها وذوَتْ.

* * *

قالَ أبو علي: والمعجزاتُ ٱلتي تحدثُ لِلأنبياء، وٱلكراماتُ ٱلتي تكونُ لِلأتقياء، وما يخرقُ ٱلعادةَ ويخرجُ عنِ ٱلنسق ـ كلُّ ذلك كقولِ ٱلقدَرةِ عنِ ٱلرجلِ ٱلشاذّ: هو هذا. فلم تبقَ بي حاجةٌ إلى سؤالِ ٱلشيخ عن خبرِهِ معَ ٱبْنِ طُولون، وكنْتُ كأنّي أرى بعينَي رأسي كلَّ ما سمِعْت، بيدَ أنّي لم أنصرفْ حتى لقيْتُ أبا جعفرٍ ٱلقاضي أحمدَ بْنَ عبدِ ٱللّٰهِ بْنِ مُسلم بْنِ قتيبةَ ٱلدِّينوري ذاك ٱلذي يُحدّثُ بكتبِ أبيه كلِّها من حفظِهِ وهي واحدٌ وعشرون مصنفاً فيها ٱلكبيرُ وٱلصغير؛ فقال لي: لعلَّك ٱشتفيْتَ من خبرِ بُنانٍ معَ ٱبن طُولون، فمِنْ أجلِهِ زعمْتَ جئْتَ إلى مِصر. قلْت: إنَّهُ تواضَعَ فلم يُخبرْني وهِبْتُهُ[2] فلم أسألْه. قال: تعالَ أحدِّثْك ٱلحديث.

كانَ أحمدُ بْنُ طولون من جاريةٍ تركيَّة، وكانَ طُولونُ أبوهُ مملوكاً حملَهُ نوحُ بْنُ أسدٍ عاملُ بُخارى إلى ٱلمأمونِ فيما كانَ موظَّفاً عليهِ مِنَ ٱلمالِ وٱلرقيقِ

(١) يُظفرني: يُعطيني، يمنحني.

(٢) وهبته: خفته.

وٱلبراذينِ[١] وغيرِ ذلك؛ فولِدَ أحمدُ في منصبِ ذلَّةٍ تستظهرُ بِٱلطغيان، وكانَتْ هاتان طبيعتيهِ إلى آخرِ عمرِه، فذهبَ بِهِمَّتِهِ مذهباً بعيداً، ونشأ من أولِ أمرِهِ على أنْ يُتِمَّ هذا ٱلنقصَ ويكونَ أكبرَ من أصلِه، فطلبَ ٱلفروسيَّةَ وٱلعِلْمَ وٱلحديث، وصَحِبَ ٱلزهادَ وأهلَ ٱلورع، وتميَّزَ على ٱلأتراكِ وطَمِحَ إلى ٱلمعالي، وظلَّ يرمي بنفسِه، وهو في ذلك يكبرُ ولا يزالُ يكبر، كأنّما يُريدُ أنْ ينقطِعَ من أصلِهِ ويلتحِقَ بِٱلأمراء، فلمّا ٱلتحقَ بِهِمْ ظلّ يكبرُ لِيلحقَ بِٱلملوك، فلمّا بلغَ هؤلاءِ كانَتْ نيَّتُهُ على ما يعلمُ ٱللهُ.

قال: وكانَ عقلُهُ من أثرِ طبيعتيهِ كٱلعقلينِ لرجلينِ مُختلِفينِ فَلَهُ يدٌ معَ ٱلملائكةِ ويدُهُ ٱلأخرى مَعَ ٱلشياطين، فهو ٱلذي بنى ٱلمارستانَ وأنفقَ عليهِ وأقامَ فيهِ ٱلأطباء، وشرطَ إذْ جِيءَ بِٱلعليل[٢] أنْ تُنزَعَ ثيابُهُ وتُحفظَ عندَ أمينِ ٱلمارستان، ثُمَّ يُلبسَ ثِياباً ويُفرشَ لَهُ ويُغدَّى عليهِ ويُراحَ بِٱلأدويةِ وِٱلأغذيةِ وٱلأطبَّاءِ حتى يبرأ، ولم يكن هذا قبلَ إمارتِه؛ وهو أولُ مَنْ نظرِ في ٱلمظالم من أمراءِ مِصر؛ وهو صاحبُ يوم ٱلصدقة: يكثرُ من صدقاتِهِ كلّما كَثُرَتْ نِعَمةُ ٱللَّهِ عليه، ومراتبُهُ لذلك وغيرِها، يذبحُ فيها ٱلبقرَ وٱلكِباشَ ويغرفُ لِلناس، ولِكُلِّ مِسكينٍ أربعةَ أرغفةٍ يكونُ في ٱثنينِ منها فالوذجُ[٣] وفي ٱلآخرينِ مِنَ ٱلقدور، ويُنادي: مَنْ أحبَّ أنْ يحضُرَ دارَ ٱلأميرِ فَلْيحضُر! وتُفتحُ ٱلأبوابُ ويدخلُ ٱلناسُ وهو في ٱلمجلسِ ينظرُ إلى ٱلمساكينِ ويتأمَّلُ فرحَهم بِما يأكلونَ ويحملون، فيَسُّرهُ ذلك ويحمدُ ٱللَّهَ على نِعمتِه؛ وكانَ راتبُ مطبخِهِ في كلِّ يومٍ ألفَ دينار؛ وٱقتدى[٤] بِهِ ٱبْنُهُ خُمارويهِ، فأنشأَ بعدَهُ مطبخَ ٱلعامَّةِ يُنفِقُ عليهِ ثلاثةً وعشرينَ ألفَ دينارٍ كلَّ شهر.

وقد بلغَ ما أرسَلهُ ٱبْنُ طُولونَ إلى فقراءِ بغدادَ وعلمائِها في مدةِ ولايتِهِ ألفي ألفِ ومائتي ألفِ دينارٍ وكانَ كثيرَ ٱلتلاوةِ لِلقرآن، وقدِ ٱتخذَ حُجرةً بقربهِ في ٱلقصرِ وضعَ فيها رِجالاً سمَّاهم بِٱلمكبِّرين، يتعاقبونَ ٱلليلَ نوباً يُكبّرون ويُسبّحون، ويحمدون ويهلِّلون، ويقرءُون ٱلقرآنَ تطريباً، ويُنشدون قصائدَ ٱلزهد، ويُؤذنون أوقاتَ ٱلأذان؛ وهو ٱلذي فتحَ أنطاكيةَ في سنةِ خمس وستينَ ومائتين، ثُمَّ مضى إلى طرسوسَ كأنَّهُ يُريدُ فتحَها، فلّما نابذهُ[٥] أهلُها وقاتلهم أمرَ أصحابَهُ أنْ ينهزموا

---

(١) البراذين، مفردة برذون، وهو نوع من البغال.
(٢) العليل: المريض.
(٣) الفالوذج: ضرب من الحلوى.
(٤) اقتدى: سيره.
(٥) نابذه: ناجزه وقاتله.

عنها، لِيبلغَ ذلك طاغيةَ ٱلرومِ فيعْلَمَ أنَّ جيوشَ ٱبنِ طُولون على كثرتِها وشدَّتِها لم تقمْ لِأهلِ طرسوس، فيكونَ بهذا كأنَّه قاتَلَهُ وصدَّهُ عن بلدٍ من بلادِ ٱلإسلام، ويجعلَ هذا ٱلخبرَ كَٱلجيشِ في تلك ٱلناحية!

ومعَ كلِّ ذلك فإنَّهُ كانَ رجلاً طائشَ ٱلسيف، يجورُ ويعسف[1]، وقد أُحصيَ مَنْ قتلَهُم صَبْراً[2] أو ماتوا في سِجنِهِ فكانوا ثمانيةَ عَشَرَ ألفاً؛ وأمرَ بسجنِ قاضيهِ بكارِ بْنِ قتيبةَ في حادثةٍ معروفة. وقالَ له: غرَّكَ قولُ ٱلناسِ ما في ٱلدنيا مثلُ بكار؟ أنت شيخٌ قد خَرِفْتَ! ثُمَّ حبسَهُ وقيَّدَهُ وأخذَ منه جميعَ عطاياهُ مدةَ وِلَايتِهِ ٱلقضاء، فكانَتْ عشرةَ آلافِ دينار، قيلَ إنَّها وُجِدَتْ في بيتِ بكارٍ بِخَتْمِها لم يمسَّها زهداً وتورُّعاً.

وَلمَّا ذهبَ شيخُكَ أبو ٱلحسنِ يُعنِّفُهُ ويأمرُهُ بِٱلمعروفِ وينهاهُ عنِ ٱلمنكر، طاشَ عقلُهُ[3] فأمرَ بإلقائِهِ إلى الأسد، وهوَ ٱلخبرُ ٱلذي طارَ في ٱلدنيا حتى بَلَغَكَ في بغداد...

* * *

قال: وكنْتُ حاضرَ أمرِهِم ذلك ٱليوم، فجِيءَ بِالأسدِ من قصرِ ٱبنِهِ خُمارويهِ وكانَ خُمارويهِ هذا مشغوفاً[4] بِٱلصيد، لا يكادُ يسمعُ بِسبعٍ في غيضةٍ أو بطنِ وادٍ إلَّا قصدَهُ ومعه رجالٌ عليهم لُبود، فيدخلونَ إلى ٱلأسدِ ويتناولُونه بأيديهم من غَابِهِ عُنْوَةً وهو سليم، فيضعونهُ في أقفاصٍ من خشبٍ محكمةِ ٱلصنعةِ يسعُ ٱلوَاحدُ منها ٱلسبعَ وهو قائم.

وكانَ ٱلأسدُ ٱلذي ٱختاروه لِلشيخِ أغلَظَ ما عندَهم، جسيماً، ضارياً[5]، عارمَ ٱلوحشيَّة[6]، متزيِّلَ ٱلعضل، شديدَ عصبِ ٱلخُلُق، هرَّاساً[7]، فرَّاساً، أهرتَ ٱلشدقِ[8] يلوحُ شدْقُهُ من سعتِهِ وروعتِهِ كفتحةِ ٱلقبرِ يُنبِىءُ أنَّ جوفَهُ مقبرة، ويظهرُ وجْهُهُ خارجاً من لِبدتِه، يهمُّ أنْ ينقذِفَ على مَنْ يراهُ فيأكلَه!

وأجلسوا ٱلشيخَ في قاعةٍ وأشرفوا عليهِ ينظرون، ثُمَّ فتحوا بابَ ٱلقفصِ من أعلاهُ فجذبوه فٱرتفع؛ وهجهجوا[9] بٱلأسدِ يزجرونه، فٱنطلقَ يُزمْجِرُ ويزأرُ زئيراً تنشقُّ لَهُ ٱلمرائر، ويتوهَّمُ مَنْ يسمُعَهُ أنَّه ٱلرعدُ وراءَهُ ٱلصاعقة!

---

(١) يعسف: يظلم.

(٢) قتلهم صبراً: ظلماً دون ذنب.

(٣) طاش عقله: فقد عقله من الغضب.

(٤) مشغوفاً: مولعاً، محبّاً.

(٥) ضارياً: شديد العنف.

(٦) عارم الوحشية: في أقصى حالات التوحش.

(٧) هراساً: يحطم فريسته فيسحقها.

(٨) هرت الشدق: واسعه بشدّة.

(٩) هجهج بالسبع: صاح.

ثُمَّ ٱجتمعَ ٱلوحشُ في نفسِهِ وٱقشعرّ، ثُمَّ تمطّى[1] كَٱلمنجنيقِ يقذِفُ ٱلصخرة، فما بقيَ من أجَلِ ٱلشيخِ إِلَّا طرْفةُ عين؛ ورأيناهُ على ذلك ساكِناً مُطرِقاً لا ينظرُ إلى الأَسدِ ولا يحفلُ[2] بهِ، وما مِنَّا إِلّا مَنْ كادَ ينهتكُ[3] حِجابُ قلبِهِ مِنَ ٱلفزعِ وٱلرعبِ وٱلإشفاقِ[4] على ٱلرجل.

ولم يَرُعْنا[5] إلا ذهولُ[6] الأسدِ عن وحشيَّته، فأقعى[7] على ذنبِهِ، ثُمَّ لصقَ بِٱلأرض هُنَيْهةً يفترِشُ ذِراعيه، ثُمَّ نهضَ نهضةً أخرى كأنَّهُ غيرُ ٱلأَسد، فمشى مترفِّقاً[8] ثقيلَ ٱلخطْوِ تُسمعُ لِمفاصلِهِ قعقعةٌ من شِدَّتِهِ وجَسامتِه[9]، وأقبلَ على ٱلشيخِ وطفِقَ يحتكُّ بِهِ ويلحظُهُ ويشمُّهُ كما يصنعُ ٱلكلبُ مَعَ صاحبِهِ الذي يأنسُ به، وكأنَّهُ يُعلِنُ أنَّ هذه ليسَتْ مصاوَلةً[10] بين ٱلرجلِ ٱلتقيِّ وَٱلأسد، ولكنَّها مُبارزةٌ بينَ إرادةِ ٱبْنِ طُولونَ وإرادةِ ٱللهِ!

وضربتْهُ روحُ ٱلشيخِ فلم يبقَ بيْنَهُ وبينَ ٱلآدميّ عمل، ولم يكنْ منه بإزاءِ لحم ودم، فلو أكلَ ٱلضوءَ وٱلهَواءَ وٱلحجَرَ وٱلحديد، كانَ ذلك أقربَ وأيسرَ من أنْ يأكلَ هذا ٱلرجلَ ٱلمتمثِّلَ في روحانيَّتِهِ لا يُحِسُّ لِصورةِ ٱلأسدِ معنًى من معانيها ٱلفاتكة، ولا يَرى فيهِ إِلَّا حياةً خاضِعةً مسخَّرةً لِلْقوةِ ٱلعظمى ٱلتي هوَ مؤمِنٌ بها ومتوكِّلٌ عليها، كحياةِ ٱلدودةِ وٱلنملةِ وما دوَنها مِنَ ٱلهوامِّ وٱلذر!

ووردَ ٱلنورُ على هذا ٱلقلبِ ٱلمؤمنِ يكشفُ لَهُ عن قُرْبِ ٱلحقِّ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ، فهو ليسَ بين يدي ٱلأسدِ ولكنَّهُ هو والأسدُ بينَ يدي ٱللهِ، وكانَ مندمِجاً في يقين هذه الآية: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾!

ورأى ٱلأسدُ رجلاً هو خوفَ ٱللهِ، فخافَ منه، وكما خرجَ ٱلشيخُ من ذاتِهِ ومعانيها ٱلناقصة، خرجَ ٱلوحشُ من ذاتِهِ ومعانيها ٱلوحشيَّة؛ فليسَ في ٱلرجلِ خوفٌ ولا همٌّ ولا جزعٌ ولا تعلُّقٌ برغبة، ومن ذلك ليسَ في ٱلأسدِ فتكٌ ولا ضراوةٌ[11] ولا جوعٌ ولا تعلُّقٌ برغبة.

---

(١) تمطّى: تمدّد.
(٢) يحفل: يهتمّ.
(٣) ينتهك: يتمزّق.
(٤) الإشفاق: الخوف.
(٥) يرعنا: يدهشنا.
(٦) ذهول: ترك وحشيته ونسيانه لها.
(٧) أقعى: جلس على مؤخرته.
(٨) مترفقاً: متمهلاً.
(٩) جسامته: ضخامته.
(١٠) مصاولة: مجاولة.
(١١) ضراوة: شدّة قتل.

ونسيَ ٱلشيخُ نفسَهُ فكأنَّما رآهُ ٱلأسدُ ميتاً ولم يجدْ فيهِ (أنا) ٱلتي يأكُلها، ولو أنَّ خطرةً من هَمِّ ٱلدنيا خطرَتْ على قلبِهِ في تلك ٱلساعة أوِ ٱختلجَتْ في نفسِهِ خالِجةٌ مِنَ ٱلشَّكّ، لفاحَتْ رائحةُ لَحمِهِ في خياشيمِ ٱلأسدِ فتمزَّقَ في أنيابِهِ ومخالبِه.

* * *

قال: وَانصَرفْنا عنِ ٱلنظرِ في ٱلسبع إلى ٱلنظرِ في وجهِ ٱلشيخ، فإذا هو ساهمٌ[1] مفكِّر، ثُمَّ رفعوهُ وجعلَ كلٌّ مِنَّا يظنُّ ظَنّاً في تفكيرِه، فمِنْ قائلٍ إنَّهُ الخوفُ أذهلَهُ عن نفسِه، وقائلٍ إنَّهُ الانصرافُ بعقلِهِ إلى ٱلموت، وثالثٍ يقولُ إنَّهُ سكونُ ٱلفكرةِ لِمنعِ ٱلحركةِ عنِ ٱلجَسمِ فلا يضطرب، وزعمَ جماعةٌ أنَّ هذه حالةٌ مِنَ ٱلاستغراقِ يسحرُ بها ٱلأسد؛ وأكثَرْنا في ذلك وتجارَيْنا فيه، حتى سألَهُ ٱبنُ طُولون: ما الذي كانَ في قلبِكَ وفيمَ كنْتُ تفكر؟

فقالَ الشيخ: لم يكنْ عليَّ بأس، وإنَّما كنْتُ أفكر في لُعابِ ٱلأسد، أهو طاهرٌ أمْ نجِس...

---

(١) ساهم: مطرق مفكر.

أمراء للبيع

قالَ ٱلشيخُ تاجُ ٱلدينِ محمدُ بْنُ عليَ المُلقَّبُ طُويْرَ ٱلليل، أحدُ أئمةِ ٱلفقهاءِ بِٱلمدرسةِ ٱلظاهريَّةِ بِٱلقاهرة:

كان شيخُنا ٱلإمامُ ٱلعظيمُ شِيخُ ٱلإسلام تقيُّ ٱلدينِ بْنُ مجدِ ٱلدينِ بْنِ دقيقِ ٱلعيدِ لا يُخاطبُ ٱلسلطانَ إلَّا بقولِه: (يا إنسانُ)! فما يخشاهُ ولا يتعبَّدُ[1] لَهُ ولا يَنْحَلُهُ[2] ألقابَ ٱلجبروتِ وٱلعَظمةِ ولا يُزيِّنُهُ بِٱلنِّفاقِ ولا يُداجيهِ كما يصنعُ غيرُهُ مِنَ ٱلعلماءِ؛ وكانَ هذا عجيباً؛ غيرَ أنَّ تمامَ ٱلعجبِ أنَّ ٱلشيخَ لم يكنْ يُخاطِبُ أحداً قطُّ من عامَّةِ ٱلناس إلَّا بهذا ٱللفظ عينِهِ (يا إنسانُ)؛ فما يعلو بِٱلسلطانِ وَٱلأمراءِ ولا ينزِلُ بِٱلضعفاءِ وٱلمساكين، ولا يرى أحسنَ ما في هؤلاءِ وهؤلاءِ إلَّا ٱلحقيقةَ ٱلإنسانيَّة!

ثُمَّ كانَ لا يُعظِّمُ في ٱلخِطابِ إلَّا أئمةَ ٱلفقهاءِ فإذا خاطبَ منهم أحداً قَالَ لَه: (يا فقيه)؛ على أنَّهُ لم يكنْ يسمحُ بهذا إلَّا لِمثلِ شيخِ ٱلإسلام نجم ٱلدينِ ٱبنِ ٱلرفعة، ثُمَّ يخصُّ علاء ٱلدينِ بْنَ ٱلباجي وحدَهُ بقولِه: (يا إمام)؛ إذْ كانَ آيةً من آياتِ ٱللَّهِ في صِناعةِ ٱلحُجَة، لا يكادُ يقطعُهُ[3] أحدٌ في ٱلمناظرةِ وٱلمُباحثة؛ فهو كَٱلبرهان. إجلالُهُ إجلالُ ٱلحقّ، لِأنَّ فيهِ ٱلمعنى وتثبيتَ ٱلمعنى.

وقلْتُ له يوماً: يا سيدي، أراكَ تُخاطبُ ٱلسلطانَ بِخطابِ ٱلعامَّة؛ فإنْ علوْتَ قلْت: (يا إنسان) وإن نزلْتَ قلْت: يا إنسان؛ أفلا يُسخطُهُ هذا منك وقد تذوَّقَ حلاوةَ ألفاظِ ٱلطاعةِ وٱلخضوع، وخصَّهُ ٱلنِّفاقُ بكلماتٍ هي ظِلُّ ٱلكلماتِ ٱلتي يُوصفُ ٱللَّهُ بها، ثُمَّ جعلَهُ المُلكُ إنساناً بِذاتِهِ في وجودِ ذاتِه، حتى أصبحَ من غيرِهِ كَٱلحبلِ وٱلحصاة: يستويانِ في ٱلعنصرِ ويتباينانِ في ٱلقدْر، وأقلُّهُ مهما قلَّ هو أكثرُها مهما عظُمَت، ووجودُهُ شيءٌ ووجودُها شيءٌ آخر؟

---

(١) يتعبّد: يستذلّ له.

(٢) ينحله: يعطيه.

(٣) يقطعه: يفحمه ويسكته.

فتبسَّمَ ٱلشيخُ وقالَ: يا ولدي، إيش هذا؟ إنّنا نفوسُ ألفاظ، وٱلكلمةُ من قائلِها هي بمعناها في نفسِهِ لا بمعناها في نفسِها؛ فما يحسنُ بحاملِ ٱلشريعةِ أنْ ينطِقَ بكلام يردُّهُ ٱلشرعُ عليه؛ ولو نافقَ ٱلدينُ لَبطلَ أنْ يكونَ دِيناً، ولو نافقَ ٱلعالمُ ٱلدينيُّ لَكانَ كلُّ منافقٍ أشرفَ منه؛ فلطخةٌ في ٱلثوبِ ٱلأبيضِ ليَستْ كَلَطخةٍ في ٱلثوبِ ٱلأسود، وَٱلمنافقُ رجلٌ مغطًى في حياتِه، ولكنَّ عالم ٱلدينِ رجلٌ مكشوفٌ في حياتِهِ لا مغطًى؛ فهو لِلهدايةِ لا لِلتلبيس، وفيهِ معاني ٱلنورِ لا معاني ٱلظلمة؛ وذاك يتَّصلُ بِٱلدينِ من ناحيةِ ٱلعمل، فإذا نافقَ فقدْ كذب؛ وٱلعالمُ يتَّصلُ بِٱلدين من ناحيةِ ٱلعملِ وناحيةِ ٱلتبيّين، فإذا نافقَ فقدْ كذبَ وغشَّ وخان.

وما معنى ٱلعلماءِ بِٱلشرعِ إلَّا أنَّهُمُ ٱمتدادٌ لِعملِ ٱلنبُّوةِ في ٱلناسِ دهْراً بعدَ دهْر، ينطقونَ بكلمتِها، ويقومونَ بِحُجَّتِها، ويأخذونَ من أخلاقِها كما تأخذُ ٱلمرآةُ ٱلنور: تحويهِ في نفسِها وتُلقيهِ على غيرِها، فهي أداةٌ لإظهارِهِ وإظهارِ جمالِهِ معاً.

أتدري يا ولدي ما ٱلفرقُ بينَ علماءِ ٱلحقِّ وعلماءِ ٱلسُّوءِ وكلُّهم آخذٌ من نورٍ واحدٍ لا يختلف؟ إنَّ أولئكَ في أخلاقِهِمْ كَٱللوحِ مِنَ ٱلبلور: يُظهرُ ٱلنورُ نفسَهُ فيهِ ويظهرُ حقيقتَهُ ٱلبلورية؛ وهؤلاءِ بأخلاقِهِم كَٱللوحِ مِنَ ٱلخشبِ يُظهِرُ ٱلنورُ حقيقتَهُ ٱلخشبيَّةَ لا غير!

وعالِمُ ٱلسوءِ يُفكرُ في كتبِ ٱلشريعةِ وحدَها؛ فيسهلُ عليهِ أنْ يتأوَّلَ ويحتالَ ويُغيِّرَ ويُبدِّلَ ويُظهِرَ ويُخفي؛ ولكنَّ ٱلعالِمَ ٱلحقَّ يُفكرُ مع كتبِ ٱلشريعةِ في صاحبِ ٱلشريعة، فهو معَهُ في كلِّ حالةٍ يسألُهُ ماذا تفعلُ وماذا تقول؟

وٱلرجلُ ٱلدينيُّ لا تتحوَّلُ أخلاقُهُ ولا تتفاوتُ ولا يجيءُ كلَّ يومٍ من حوادثِ ٱليوم، فهو بأخلاقِهِ كلِّها، لا يكونُ مرةً ببعضِها ومرةً ببعضِها، ولن تَراهُ معَ ذوي ٱلسلطانِ وأهلِ ٱلحُكْمِ وٱلنعمةِ كعالمِ ٱلسوءِ هذا ٱلذي لو نطقَتْ أفعالُهُ لقالَتْ لِلَّهِ بِلسانِهِ: هم يُعطونني ٱلدراهِمَ وٱلدنانيرَ فأين دراهِمُك أنت ودنانيرُك؟

إنَّ ٱلدينارَ يا ولدي إذا كانَ صحيحاً في أحدِ وجهيهِ دونَ ٱلآخر، أو في بعضِهِ دونَ بعضِه، فهو زائفٌ كلُّه؛ وأهلُ ٱلحُكْمِ وٱلجاهِ حينَ يتعاملون مَعَ هؤلاءِ يتعاملونَ مع قوَّةِ ٱلهضْمِ فيهم. . . فينزلون بذلك منزلةَ ٱلبهائم: تقدِّمُ أعمالها لِتأخذَ لِبطونِها: وٱلبطنُ ٱلآكلُ في ٱلعالمِ السوءِ يأكلُ دِينَ ٱلعالم فيما يأكلُه. . .

فإذا رأيْتَ لِعلماءِ ٱلسوءِ وَقاراً فهوَ ٱلبَلادة، أو رِقّةً فسمِّها ٱلضعف، أو

مُحَاسنةَ فَقلْ إِنَّها ٱلنفاق، أو سكوتاً عنِ ٱلظلمِ فتلك رِشوةٌ يأكلون بها!

* * *

قالَ ٱلإمام: وما رأيْتُ مثلَ شيخي سلطانِ ٱلعلماءِ عزِّ ٱلدين بْنِ عبد ٱلسلام فلقد كانَ ٱلأمرُ بِٱلمعروفِ وَٱلنَّهيُ عنِ ٱلمنكرِ شيئاً تصنعُهُ طبيعتُهُ كما يصنعُ جِسمُهُ ٱلحياة، فلا يُبالي هلكَ فيهِ أو عاش، إذْ هو في ٱلدم كَٱلقلب: لا تنالُهُ يدُ صاحبِهِ ولا يدُ غيره؛ ولم يتعلَّقْ بمالٍ ولا جاهٍ ولا ترفٍ ولا نعيم، فكانَ تَجرّدُهُ من أوهام ٱلقوّةِ لا تَغلب؛ وٱنتزعَ خوفَ ٱلدنيا من قلبِهِ فعمرتْهُ ٱلروحُ ٱلسماويَّةُ التي تُخيفُ كلَّ شيءٍ ولا تَخاف؛ وكانَ بهذهِ ٱلروح كأنَّهُ تحويلٌ وتبديلٌ في طِباعِ ٱلناس، حتى قالَ ٱلملكُ الظاهرُ بيبرسُ وقد رأى كثرةَ الخَلْقِ في جنازتِهِ حينَ مرَّتْ تحتَ ٱلقلعة: ٱلآنَ ٱستقرَّ أمري في ٱلمُلْكِ فيّ، فلو أنَّ هذا ٱلشيخَ دعا الناسَ إلى ٱلخروجِ عليَّ لا نتزعَ مِنِّي ٱلمملكة!

وكانَ سُلطانُهُ في دمشقَ ٱلصالحَ إسماعيل، فٱستنجدَ[1] بِٱلإفرنجِ على ٱلملكِ نجمِ ٱلدينِ أيوبَ سلطانِ مِصر؛ فغضِبَ ٱلشيخُ وأسقطَ ٱسمَ ٱلصالحِ مِنَ ٱلخُطْبَةِ وخرجَ مُهاجراً، فأتبَعَهُ ٱلصالحُ بعضَ خواصِّهِ يتلطَّفُ[2] بِهِ ويقولُ لَه: ما بينَكَ وبينَ أنْ تعودَ إلى مناصبك وما كنْتَ عليهِ وأكثرَ مِمَّا كنتَ عليهِ إلَّا أنْ تتخشَّعَ[3] لِلسلطانِ وتُقبِّلَ يدَه. فقالَ لَهُ ٱلشيخ: يا مسكين! أنا لا أرضى أنْ يقبِّلَ ٱلسلطانُ يدي! أنتم في وادٍ وأنا واد!

ثُمَّ قدِمَ إلى مصرَ في سنة ٦٣٩، فأقبلَ عليهِ ٱلسلطانُ نجمُ ٱلدينِ أيوبُ وتَحَفَّى[4] بِهِ وولَّاهُ خَطابةَ مِصرَ وقَضاءَها، وكانَ أيوبُ مَلِكاً شديدَ ٱلبأْس، لا يَجسُر[5] أحدٌ أَنْ يُخاطبَهُ إلَّا مُجيباً، ولا يتكلَّمُ أحدٌ بِحضرتِهِ ٱبتداء؛ وقد جمَع مِنَ ٱلمماليكِ ٱلتركِ ما لم يجتمعْ مثلُهُ لِغيرِهِ من أهلِ بيتِه، حتى كانَ أكثرُ أمراءِ عسكرِهِ منهم، وهم معروفون بِٱلخشونةِ وٱلبأْسِ وٱلفظاظةِ وٱلاستهانةِ بكلِّ أمر؛ فلمَّا كانَ يومُ ٱلعيدِ صَعِدَ إليهِ ٱلشيخُ وهو يعرضُ ٱلجندَ ويُظهِرُ مُلكَهُ وسطوتَهُ والأمراءُ يُقبِّلُون الأرضَ بينَ يديه؛ فناداهُ ٱلشيخُ بأعلى صوتِهِ لِيسمعَ هذا ٱلملأُ ٱلعظيم: يا أيوب! ثُمَّ

---

(١) استنجد: طلب المعونة والنجدة.

(٢) يتلطّف: يستميل.

(٣) تتخشّع: تخضع.

(٤) تحفى: استقبل بحفاوة.

(٥) لا يجسر: لا يجرؤ.

أَمَرهُ بإِبطالِ منكرٍ ٱنتهى إلى عِلْمِهِ في حانةٍ تُباعُ فيها ٱلخمر؛ فرسَمَ ٱلسلطانُ لِوَقتِهِ بإِبطالِ ٱلحانةِ وٱعتذرَ إليه.

فحدَّثني ٱلباجيُّ قالَ: سألْتُ ٱلشيخَ بعدَ رجوعِهِ مِنَ ٱلقلعةِ وقد شاعَ ٱلخبر، فقلْت: يا سيدي، كيف كانَتِ ٱلحال؟

قال: يا بُنيّ، رأيْتُهُ في تلك ٱلعظمةِ فخشيْتُ على نفسِهِ أنْ يدخلَها ٱلغرورُ فُتبطِرَهُ[1] فكانَ ما باديْتُهُ بِه.

قلْت: أمَا خِفْتَه؟

قال: يا بُنيّ، ٱستحضرْتُ هيبةَ ٱللهِ ـ تعالى ـ فكانَ ٱلسلطانُ أمامي كَٱلقِطِّ ولو أنَّ حاجةً مِنَ ٱلدنيا كانَتْ في نفسي لَرَأَيْتُهُ ٱلدنيا كلَّها؛ بيدَ أنّي نظرْتُ بِالآخرةِ فٱمتدَّتْ عيني فيهِ إلى غيرِ ٱلمنظورِ لِلناس، فلا عظمةَ ولا سُلْطانَ ولا بَقاءَ ولا دنيا، بلْ هو لا شيءَ في صورةِ شيء.

نحن ـ يا ولدي ـ معَ هؤلاءِ كَٱلمعنى ٱلذي يُصحِّحُ معنًى آخر، فإذا أمرْناهم، فٱلذي يأمرُهم فينا هوَ ٱلشرعُ لا ٱلإنسان: وهم قومٌ يرونَ لأنفسِهِمُ ٱلحقَّ في إسكاتِ ٱلكلمةِ ٱلصحيحةِ أو طمسِها أو تحريفِها؛ فما بدٌّ أنْ يُقابَلوا مِنَ ٱلعلماءِ وٱلصالحين بِمَنْ يَرَوْنَ لأنفسِهِمُ ٱلحقَّ في إنطاقِ هذهِ ٱلكلمةِ وبَيانِها وتَوضِيحِها؛ فإذا كانَ ذلك فهٰهنا ٱلمعنى بإزاءِ ٱلمعنى؛ فلا خوفَ ولا مُبالاةَ ولا شأنَ لِلْحياةِ وَٱلموت.

وإنَّما ٱلشرُّ كلُّ ٱلشرِّ أنْ يتقدمَ إليهِمُ العالمُ لِحُظوظِ نفسِهِ ومَنافِعِها، فيكونَ باطلاً مزوَّراً في صورةِ ٱلحقِّ؛ وهٰهنا تكونُ ٱلذاتُ معَ ٱلذات، فيخشعُ ٱلضعفُ أمامَ ٱلقوَّة، ويذلُّ ٱلفقرُ بينَ يدي ٱلغِنى، وترجو ٱلحياةُ لِنفسِها وتخشى على نفسِها؛ فإذا ٱلعالمُ مِنَ ٱلسلطانِ كَٱلخشبةِ ٱلباليةِ ٱلنخِرةِ حاولَتْ أنْ تُقارِعَ[2] ٱلسيف!

كلَّا ـ يا ولدي ـ! إنَّ ٱلسلطانَ وَٱلحكَّامَ أدواتٌ يجبُ تعيينُ عملِها قبلَ إقامتِها، فإذا تفكَّكَتْ وَٱحتاجَتْ إلى مساميرَ دُقَّتْ فيها ٱلمسامير؛ وإذا ٱنفتقَ ٱلثوبُ فمِنْ أين لِلإبرةِ أنْ تسلُكَ بِٱلخيطِ ٱلذي فيها إذا هي لم تخزْه؟

---

(١) تبطره: تغطيه.
(٢) تقارع: تصارع.

إنَّ ٱلعالمَ ٱلحقَّ كٱلمسمار؛ إذا أوجدَ ٱلمسمارُ لَذَّاتِهِ دونَ عملِهِ كَفرَتْ بِهِ كلُّ خشبة . . .

* * *

قالَ ٱلإمامُ تقي ٱلدين: وطغى[1] ٱلأمراءُ مِنَ ٱلمماليكِ وثُقلَتْ وطأتُهم على ٱلناس؛ وحيثما وُجِدتِ ٱلقوَّةُ ٱلمسلَّطةُ ٱلمستبدَّةُ جَعَلَتْ طُغيانَها وٱستبدادَها أدباً وشريعة؛ إلَّا أنْ تقومَ بإزائِها قوَّةٌ معنويَّةٌ أقوى منها؛ ففكَّرَ شيخُنا في هؤلاءِ ٱلأمراءِ وقال: إنَّ خِداعَ ٱلقوَّةِ ٱلكاذبةِ لِشعورِ ٱلناسِ بابٌ مِنَ ٱلفساد؛ إذْ يحسبون كلَّ حَسَنٍ منها هو ٱلحسَن، وإنْ كانَ قبيحاً في ذاتِهِ ولا أقبَحَ منه؛ ويَرْونَ كلَّ قبيحٍ عندَها هوَ ٱلقبيح، وإنْ كَانَ حَسناً ولا أحسنَ منه.

وقال: ما معنى ٱلإمارةِ وٱلأمراء؟ وإنَّما قوَّةُ ٱلكلِّ ٱلكبيرِ هي عِمادُ ٱلفردِ ٱلكبير، فلكِلِّ جُزْءٍ من هذا ٱلكلِّ حقُّهُ وعملُه؛ وكانَ ينبغي أنْ تكونَ هذه ٱلإمارةُ أعمالاً نافعةً قد كبُرَتْ وعظُمَتْ فٱستحقَّتْ هذا ٱللقبَ بِطبيعةٍ فيها كَطبيعةِ أنَّ ٱلعشرةَ أكثرُ مِنَ ٱلواحد، لا أهواءَ وشهواتٍ ورذائلَ ومفاسدَ تَتَّخِذُ لقبَها في ٱلضعفاءِ بطبيعةٍ كطبيعةِ أنَّ ٱلوحشَ مفترِس.

وفكَّرَ ٱلشيخُ فهداهُ تفكيرُهُ إلى أنَّ هؤلاءِ ٱلأمراءَ مماليك، فحُكمُ ٱلرِّقِّ مُسْتصْحَبٌ عليهم لِبيتِ مالِ ٱلمسلمين، ويجبُ شرْعاً بيعُهُمْ كما يُباعُ ٱلرقيق!

وبلغَهُم ذلك فجزعوا لَهُ وعظُمَ فيهِ ٱلخَطْبُ عليهم؛ ثُمَّ ٱحتدمَ[2] ٱلأمراءُ وأيقنوا أنَّهم بإزاءِ ٱلشرْعِ لا بإزاءِ ٱلقاضي ابنِ عبدِ ٱلسلام.

وأفتى ٱلشيخُ أنَّهُ لا يصحُّ لهم بيعٌ ولا شِراءٌ ولا زواجٌ ولا طلاقٌ ولا مُعاملة، وأنَّهُ لا يصححُ لهم شيئاً من هذا حتى يُبَاعوا ويحصلَ عِتقُهُم بطريقٍ شرعيّ!

ثُمَّ جعلوا يتسببونَ[3] إلى رِضاه، ويتحمَّلونَ عليهِ بٱلشفاعات، وهو مُصِرٌّ لا يعبأُ بِجلالةِ أخطارِهم، ولا يخشى ٱتِّسامَهُ بِعداوتِهم، فرفعوا ٱلأمرَ إلى ٱلسلطان، فأرسلَ إليه فلم يتحوَّلْ عن رأيِهِ وحُكمِهِ.

وٱستشنعَ[4] ٱلسلطانُ فِعَلهُ وَحَنِقَ[5] عليهِ وأنكرَ منه دخولَهُ فيما لا يعنيه،

---

(١) طغى: تجبّر.
(٢) احتدم: غضب.
(٣) يتسببون: يسعَوْن.
(٤) استشنع: استقبح.
(٥) حنق: حقد.

وقبَّحَ عملَهُ وسياستَهُ وما تطاولَ إليه، وهو رجلٌ ليسَ لَهُ إلا نفسُهُ وما تكادُ تَصِلُ يدُهُ إلى ما يُقيمُهُ وهم وافرونَ وفي أيديهِمُ ٱلقوَّةُ ولهمُ ٱلأمرُ وٱلنهيُ.

وٱنتهى ذلك إلى ٱلشيخِ ٱلإمامِ فغَضِبَ ولم يُبالِ بِٱلسلطانِ ولا كبُرَ عليهِ إعراضُه[1]، وأزمعَ ٱلهِجْرةَ من مِصر، فٱكترى حميراً أركبَ أهلَهُ وولدَهُ عليها ومشى هو خلفَهُم يُريدُ ٱلخروجَ إلى الشام؛ فلم يبعُدْ إلَّا قليلاً نحوَ نصفِ بريدٍ حتى طارَ ٱلخبرُ في ٱلقاهرةِ ففزعَ الناسُ وتبعُوه لا يتخلَّفُ منهم رجلٌ ولا ٱمرأةٌ ولا صَبِيّ، وصارَ فيهمُ ٱلعلماءُ وٱلصلحاءُ وٱلتجارُ وٱلمحترفون[2] كأَنَّ خروجَهُ خُروجُ نبيٍّ من بينِ ٱلمؤمنين بِه؛ وَٱستعَلنَتْ قوَّةُ ٱلشرعِ في مظهرِها ٱلحاكمِ ٱلآمرِ من هذهِ ٱلجماهير، فقيلَ لِلْسلطان: إنْ ذهبَ هذا ٱلرجلُ ذَهبَ مُلكُك!

فٱرتاعَ[3] ٱلسلطان، فركبَ بِنفسِهِ ولَحِقَ بٱلشيخ يترضَّاهُ ويستدفعُ بِهِ غضبَ ٱلأُمَّة، وأطلقَ لَهُ أنْ يأمُرَ بِما شاء، وقد أَيقنَ أنَّهُ ليسَ رجلَ ٱلدينارِ وٱلدرهمِ وٱلعيشِ وٱلجاهِ ولُبْسِ طيلسانِ ٱلعلماءِ كما يلصقُ ٱلريشُ على حجرٍ في صورةِ ٱلطائر.

ورجعَ ٱلشيخُ وأمَرَ أنْ يُعقدَ ٱلمجلسُ ويُجمعَ ٱلأمراءُ ويُنادى عليهم لِلْمساومةِ[4] في بيعهِم، وضربَ لذلك أجلاً بعدَ أنْ يكونَ ٱلأمرُ قد تَعالَمَهُ كُلُّ ٱلقاهرة، لِيتهيأَ مَنْ ينهيأُ لِلشراءِ وٱلسَّومِ في هذا ٱلرقيقِ الغالي!

* * *

وكانَ مِنَ ٱلأمراءِ ٱلمماليكِ نائبُ ٱلسلطنة، فبعثَ إلى الشيخ يُلاطِفُهُ ويسترضيه، فلمْ يعبأ ٱلشيخُ بِهِ؛ فهاجَ هائجَهُ وقال: كيف يبيعُنا هذا ٱلشيخُ ويُنادي علينا ويُنزلُنا منزلةَ ٱلعبيدِ ويُفسدُ محلَّنا مِنَ ٱلناس ويبتذِلُ أقدارنَا ونحن ملوكُ ٱلأرض؟ وما ٱلذي يَفقدُ هذا ٱلشيخُ مِنَ ٱلدنيا فيُدركَ ما نحن فيه؟ إنَّهُ يفقدُ ما لا يملك، ويفقدُ غيرَ ٱلموجود، فلا جَرَمَ لا يُبالي ولا يرجعُ عن رأيِهِ ما دامَ هذا ٱلرأيُّ لا يمرُّ في منافعِهِ، ولا في شهواتِهِ ولا في أطماعِهِ، كَٱلذين نراهم من علماءِ ٱلدنيا؛ أمَا ـ واللَّهِ ـ لأَضربنَّهُ بسيفي هذا، فما يموتُ رأيُهُ وهو حيّ.

ثُمَّ رَكِبَ ٱلنائبُ في عسكرِه وجاءَ إلى دارِ ٱلشيخِ وٱستلَّ سيَفَهُ وطرقَ ٱلباب،

---

(1) إعراضه: بعده عنه.
(2) المحترفون: أصحاب الحرف.
(3) ارتاع: خاف.
(4) المساومة: المناداة بالمزاد.

فخرجَ ٱبنُهُ عبدُ ٱللطيف ورأى ما رأى، فٱنقلبَ إلى أبيهِ وقالَ لَه: انجُ بنفسِك، إنَّهُ ٱلموت، وإنَّهُ ٱلسيف، وإنَّه وإنَّه. . .

فما ٱكترَثَ[1] ٱلشيخُ لِذلك ولا جَزِعَ ولا تغيَّرَ، بلْ قالَ لَهُ: يا ولدي! أبوك أقلُّ من أنْ يُقْتلَ في سبيلِ ٱللهِ!

وخرجَ لا يعرفُ ٱلحياةَ ولا ٱلموت، فليسَ فيهِ ٱلإنسانيُّ بلِ ٱلإلهيّ؛ ونظرَ إلى نائبِ ٱلسلطنةِ وفي يدِهِ ٱلسيف، فٱنطلقَتْ أشعةُ عينيهِ في أعصابِ هذه اليدِ فيَبَستْ ووقعَ ٱلسيفُ منها.

وتناولَهُ بروحِهِ ٱلقويّة، فٱضطربَ ٱلرجلُ وتزلزلَ وكأنَّما تكسَّرَ من أعصابِهِ فهو يُرعَدُ ولا يستقرُّ ولا يهدأ.

وأخذَ ٱلنائبُ يبكي ويسألُ ٱلشيخَ أنْ يدعُوَ لَه؛ ثُمَّ قال: يا سيدي، ما تصنعُ بنا؟

قالَ ٱلشيخ: أُنادي عليكم وأبيعُكم!

ـ وفيم تصرفُ ثمنَنا؟

ـ في مصالحِ ٱلمسلمين.

ـ ومَنْ يقبضُه؟

ـ أنا.

وكانَ ٱلشرعُ هو ٱلذي يقولُ (أنا)، فتمَّ لِلشيخِ ما أراد، ونادى على ٱلأمراءِ واحداً واحداً، وٱشتطَّ[2] في ثمنِهم، لا يبيعُ ٱلواحدَ منهم حتى يبلغَ ٱلثمنُ آخرَ ما يبلغ؛ وكانَ كُلُّ أميرٍ قد أعدَّ من شيعتِهِ جماعةً يستامونَهُ لِيشتروه. . .

ودُمغَ[3] ٱلظُّلْمُ وٱلنِّفاقُ وٱلطغيانُ وٱلتكبرُ وٱلاستطالةُ على ٱلناسِ بهذهِ ٱلكلمةِ ٱلتي أعلنَها ٱلشرع:

أمراءُ لِلْبيع!. أمراءُ لِلْبيع. . .

---

(١) اكترث: اهتمّ.

(٢) اشتطّ: بالغ.

(٣) دُمِغ: طبع.

العجـوزان

١

قال محدِّثي: التقى هذانِ ٱلشيخانِ بعدَ فِراقِ أربعينَ سنة، وكانَتْ مَثَابتُهما[١] ذلك ٱلمكانَ ٱلقائمَ على شاطىءِ ٱلبحرِ في إسكندريةَ في جِهةِ كذا؛ وهما صديقانِ كانا في صدرِ أيّامِهما ـ حينَ كانَتْ لهما أيام... ـ رَجُلي حكومةٍ يعملانِ في ديوانٍ واحد، وكانا في عيشِهما أخَوَيْ جِدٍّ وهزْل[٢]، وفضائلَ ورذائل، يجتمعانِ دائماً ٱجتماعَ ٱلسؤالِ وَٱلجواب، فلا تنقطِعُ وسيلةُ أحدِهما مِنَ ٱلآخر؛ وكأَنَّ بينَهما في ٱلحياةِ قرابةَ ٱلابتسامةِ مِنَ ٱلدمعةِ وَٱلدمعةِ مِنَ ٱلدمعة.

ولبثا كذلك ما شاءَ ٱلله، ثُمَّ تبدَّدا وأخذَتْهما ٱلآفاقُ كدأْبِ «ٱلموظفين»: ينتظِمون وينتثِرون، ولا يزالُ أحدُهم ترفعُهُ أرضٌ وتخفضُهُ أخرى، وكأَنَّ «ٱلموظف» من تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾!

وٱفترقَ ٱلصديقانِ على مضض[٣]، وكثيراً ما يكونُ أمرُ ٱلحكومةِ بنقلِ بعضِ «موظفيها» هو أمرَها بتمزيقِ بعضِهم من بعض؛ ثُمَّ تصرَّفَتْ بِهِما ٱلدنيا فذهبا على طرفي طريقٍ لا يلتقيان، وأصبحَ كِلاهما مِنَ ٱلآخرِ كيومِهِ ٱلذي مضى: يُحفَظُ ولا يُري.

* * *

قالَ ٱلمحدِّث: وكنْتَ مَعَ ٱلأستاذ (م)، وهو رجلٌ في ٱلسبعينَ من عمرِه، غيرَ أنَّهُ يقولُ عن نفسِهِ إنَّهُ شابٌ لن يبلغَ مِنَ ٱلعمرِ إلَّا سبعينَ سنة... ويزعمُ أنَّ في جسمِهِ ٱلناموسَ ٱلأخضرَ ٱلذي يُحيي ٱلشجرةَ حياةً واحدةً إلى ٱلآخر.

رجلٌ فارِهٌ[٤]، متأنِّق، فاخرُ ٱلبِزَّة، جميلُ ٱلسَّمْت، فارعُ ٱلشَّطاط[٥]

---

(١) مثابتهما: مكان لقائهما.
(٢) هزل: مزاح.
(٣) مضض: كره، بالرغم عنهما.
(٤) فاره: ممتشق القامة.
(٥) فارع الشطط: ممشوق القامة.

كَٱلمصبوبِ في قالبٍ لا عِوَجَ فيهِ ولا ٱنحناء، مجتمِعٌ كلُّهُ لم يذهبْ منه شيء، قد حِفظتْهُ أساليبُ ٱلقوَّةِ ٱلتي يُعانيها في رياضتِهِ ٱليوميَّة؛ وهو منذُ كانَ في ٱنفَتِهِ[1] وشبابِهِ لا يمشي إلَّا مستأخِرَ ٱلصدرِ[2] مشدودَ ٱلظهر، مرتَفِعَ ٱلعنق، مسنداً قفاهُ إلى طوقِهِ؛ وبذلك شبَّ وشابَ على ٱستواءٍ واحد، وكلَّما سُئِلَ عن سِرِّ قامتِهِ وعُودِهِ لم يزِدْ على قولِه: أَنَّ هذا من عملِ إسنادِ ٱلقفا[3].

وهو دائماً عَطِرٌ عَبِق، ثُمَّ لا يمسُّ إلَّا عِطْراً واحداً لا يُغيِّرُه، يرى أنَّ هذا ٱلطِّيبَ يحفظُ خَيالَ ٱلصِّبَىٰ، وأَنَّهُ يُبقي لِلأيام رائحتَها.

ولَهُ فلسفةٌ من حِسِّهِ لا من عقلِه، ولِفلسفتِهِ قواعدُ وأصولٌ ثابتةٌ لا تتغيَّر، ومن بعضِ قواعدِها ٱلزهر، ومن بعضِها ٱلموسيقى، ومن بعضِها ٱلصلاةُ أيضاً؛ وكلُّ تلك هي عندَهُ قواعدُ لِحفظِ ٱلشباب. ومن فلسفتِهِ أنَّ مبادىءَ ٱلشباب وعاداتِهِ إذا هيَ لم تتغيَّرِ ٱتصلَ ٱلشبابُ فيها وٱطَّردَ[4] في ٱلروح، فتكونُ من ذلك قوَّةٌ تحرسُ قوَّةَ ٱللحمِ وَٱلدم، وتُمسِكُ على ٱلجسمِ حالتَهُ ٱلنفسيَّةَ ٱلأولى.

وهو يزيدُ في حِكمةِ ٱلصلاةِ فِكرةً رياضيَّةً عمليَّةً لم ينتبهْ إليها أحد، هي رياضةُ ٱلبطنِ وَٱلأَمْعاءِ بِٱلركوعِ وٱلسجودِ وٱلقِيام؛ ويقولُ إنَّ ثروةَ ٱلصلاةِ تُكْنَزُ في صندوقين: أحدُهما ٱلروحُ لِمَا بعدَ ٱلموت، وٱلآخرُ ٱلبطنُ لِمَا قبلَ ٱلموت؛ ويرى أنَّ ٱلإسلامَ لم يفرضْ صلاةَ ٱلصبحِ قبلَ ٱلشمسِ إلَّا ليجعلَ ٱلفجرَ ينصبُّ في ٱلروحِ كلَّ يوم.

* * *

قالَ ٱلمحدّث: وبينما نحنُ جالسانِ مرّ بنا شيخٌ أعجفُ[5] مهزولٌ مَوْهونٌ في جِسمِهِ، يَدْلُفُ[6] متقاصِرَ ٱلخطْوِ كأَنَّ حِمْلَ ٱلسنينَ على ظهرِه، مُرْعِشٌ[7] من ٱلكُبْرَ، مستقدِمُ ٱلصدرِ منحنٍ يتوكَّأُ على عصاً، ويدلُّ ٱنحناؤُهُ على أنَّ عمْرَهُ قدِ ٱعوجَّ أيضاً، وهو يبدو في ضَعفِهِ وهُزالِهِ كأنَّ ثِيابَهُ مُلِئَتْ عِظاماً لا إنساناً، وكأنَّها ما خِيْطَتْ إلَّا لِتمسِكَ عظماً على عظم...

(١) آنفته: سالف أيامه.

(٢) مستأخر الصدر: بارز الصدر دلالة على الشباب وتفتحه.

(٣) إسناد القفا: كناية عن انتصاب القامة.

(٤) اطرد: استمرّ.

(٥) أعجف: هزيل جفّت عروقه.

(٦) يدلف: يمشي.

(٧) مرعش: مرتجف.

قال: فحملقَ[1] إليهِ (م) ثُمَّ صاحَ: رينا! رينا. فٱلتفتَ ٱلعجوز، وما كادَ يأخذُنا بَصَرُهُ حتى ٱنفتلَ إلينا وأقبلَ ضاحكاً يقول: أوَّه!. ريت، ريت!

ونهض (م) فٱحتضَنهُ وتلازما طويلاً، وجعلَ رأساهما يدورانِ ويتطوَّحان، وكلاهما يُقبِّلُ صاحبَهُ قُبَلاً ظامئةً لا عهدَ لي بِمثلِها في صديقين، حتى يتخيَّلُ إليَّ أنَّهما لا يتعانقانِ ولا يتلاثمان، ولكنَّ بينَهما فكرةً يعتنقانِها ويقبلانِها معاً...

وقلت: ما هذا أيُّها ٱلعجوزان؟

فضحكَ (م) وقال: هذا صديقي ٱلقديمُ (ن)، تركْتُهُ منذُ أربعينَ سنةً معجزةً من معجزاتِ ٱلشبابِ، فها هو ذا معجزةٌ أخرى من معجزاتِ ٱلهرم، ولم يبقَ منه كاملاً إلَّا اسمُهُ...

ثُمَّ ٱلتفتَ إليه وقال: كيف أنت يا رينا؟

قالَ ٱلعجوزُ (ن): لقد أصبحْتُ كما ترى: زادَ ٱلعمرُ في رجليَّ رجلاً من هذه ٱلعصا. ورجعَ مصدرُ ٱلحياةِ فِيَّ مصدراً لِلآلامِ وَٱلأوجاعِ ودخلَتْ في طبيعَتي عادةٌ رابعةٌ من تعاطي ٱلدواء.

فضحك (م) وقال: قبحَ ٱلله هذه ٱلدخيلة، فما هيَ ٱلعاداتُ ٱلثلاثُ ٱلأصليَّة؟

قالَ ٱلعجوز: هي ٱلأكلُ وٱلشربُ وٱلنوم... ثُمَّ أنت يا رِيت كيف تقرأُ ٱلصحفَ ٱلآن؟

قال (م): أقرؤُها كما يقرؤُها ٱلناس، فما سؤالُكَ عن هذا؟ وهل تقرأُ ٱلصحفَ يوماً غيرَ ما تقرأُ في يوم؟

قال: آه! أَنَّ أولَ شيءٍ أقرأُ في ٱلصحفِ أخبارُ ٱلوفَيَات، لِأرى بقايا ٱلدنيا، ثُمَّ (إعلاناتِ ٱلأدوية)... ولكن كيف أنت يا ريت؟ إنِّي لأَراكَ ما تزالُ من وراءِ أربعينَ سنةً في ذلك ٱلعيشِ ٱلرَّخيّ، وأراكَ تحملُ شيخوختَكَ بقوَّةٍ كأَنَّ ٱلدهْرَ لم يَخْرُمْكَ[2] من هنا ولا من هنا، وكأنَّهُ يلمُسكَ بِأصابعِهِ لا بِمساميرِهِ، فهل أصبْتَ مُعجِزةً من مُعجزاتِ ٱلعِلْمِ ٱلحديث؟

قال: نعم.

قال: ناشدْتُكَ ٱلله، أفي معجزاتِ ٱلعِلْمِ ٱلحديثِ معجزةٌ لِعظمي؟

---

(١) حملق: نظر باستغراب وإمعان.

(٢) يخرمك: يندّ منك وينقصك.

قال (م): ويحك يا رينا! إنَّك على ٱلعهْدِ لم تبرحْ كما كنْتَ مزبلةَ أفكار... ماذا يصنعُ فيك ٱلعِلْمُ ٱلحديثُ وأنت كما أرى بمنزلةٍ بينَ ٱلعظمِ وٱلخشب...؟

* * *

قالَ ٱلمحدّث: وضحكْنَا جميعاً، ثُمَّ قلْتُ لِلأستاذِ (م): ولكنْ ما (رينا وريت)؟. وما هذه اللغة؟. وفي أي مُعْجمٍ تفسيرُها؟

قال: فتغَامزَ ٱلشيخان، ثُمَّ قال (م): يا بُنيَّ، هذه لُغةٌ ماتَتْ معانيها وبقيَتْ ألفاظُها، فهي كتلك ٱلألفاظِ ٱلأثريَّةِ ٱلباقيةِ مِنَ ٱلجاهليَّةِ ٱلأولى.

قلْت: ولكنَّ ٱلجاهليَّةَ ٱلأولى لم تنقضْ إلَّا فيكما... ولا يزالُ كلُّ شابٍّ في هذه ٱلجاهليَّة ٱلأولى، وما أحسبُ (رينا، وريت) في لغتِكُما ٱلقديمةِ إلَّا بمعنى (سوسو، وزوزو) في ٱللغة الحديثة؟

فقالَ (م): اسمعْ يا بُنيّ: إنَّ رجلَ سنة ١٩٣٥ متى سألَ فيَّ رجلَ سنة ١٨٩٥: ما معنى رينا وريت؟ فردَّ عليه: إنَّ (رينا) معناها (كاترينا)؛ وكانَ (ن) بها صبّاً[1] مغرَماً، وكانَ مُقْتَتَلاً قتَّلهُ حبُّها. أما (ريت) فهو لا يعرفُ معناها.

فٱمتعضَ ٱلعجوزُ (ن)، وقال: سبحانَ ٱللهِ! اسمعْ يا بُنيّ: أنَّ رجلَ سنة ١٨٩٥ فيَّ يقولُ لك: إن (ريت) معناها (مرغريت)، وكانَتِ ٱلجوى ٱلباطنَ وكانَتِ ٱللوعةَ وٱلحريقَ ٱلذي لا ينطفِىءُ في قلْبِ ٱلأستاذ (م).

قلْت؛ فأنتما أيها العجوزانِ من عُشاقِ سنة ١٨٩٥، فكيف تَريانِ ٱلحُبَّ ٱلآن؟

قالَ ٱلعجوزُ (ن): يا بُنيّ، إنَّ أواخرَ ٱلعمرِ كَٱلمنفَى... ونحن نتكلَّمُ بِٱلألفاظِ ٱلتي تتكلَّمُ بها أنت وأنتما وأنتم... غيرَ أنَّ ٱلمعاني تختلفُ ٱختلافاً بعيداً.

قلْت: وٱضْرِبْ لهم مثلاً.

قال: وٱضربْ لهم مثلاً كلمة (الأكل)، فَلَها عندنَنا ثلاثةُ معانٍ: الأكل، وسُوءُ ٱلهضم، ووجعُ ٱلمَعِدة؛ وكلمةُ (ٱلمشي) فلها أيضاً ثلاثةُ معانٍ: ٱلمشيُ، وٱلتعبُ، وغمزاتُ ٱلعظم... وكلمةُ (النسيم)، ٱلنسيمُ ٱلعليلُ يا بُنيّ: زِيدَ لنا في معناها: تحرُّك (الروماتزم)...

فضحكَ (م) وقال: يا «شيخ»...

---

(١) صبّاً: عاشقاً.

قالَ ٱلعجوزُ: وتلك الزيادةُ يا بُنيَّ لا تَجِيءُ إلَّا من نقْص، فهنا بقيَّةٌ من يدَين، وبقيَّةٌ من رِجلين، وبقيَّةٌ من بطن، وبقيَّةٌ من ومن ومن، ومجموعُ كلِّ ذلك بقيَّةٌ من إنسان.

قالَ الأستاذ (م): والبقيَّةُ في حياتِك.

قال (ن): وبِٱلجملةِ يا بُنيَّ فإنَّ حركةَ ٱلحياةِ في ٱلرجلِ ٱلهرِم تكونُ حَوْلَ ذاتِها لا حولَ ٱلأشياء؛ وما أعجبَ أنْ تكونَ أقصرَ حركتَي الأرضِ حولَ نفسِها كذلك، وإذا قالَ ٱلشابُّ في مغامرتِه: لِيمضِ الزمنُ ولْتتصرَّم ٱلأيامُ! فإنَّ ٱلأيامَ هيَ ٱلتي تتصرَّمُ وٱلزمنُ هو ٱلذي يمرّ؛ أمَّا ٱلشيوخُ فلن يتمنَّوهُ أبداً؛ فمَنْ قالَ منهم: ليمضِ ٱلزمن، فكأنَّما قال: فلْأمضِ أنا...

فصاحَ (م): يا شيخ يا شيخ...

ثُمَّ قالَ ٱلعجوز: وٱعلمْ يا بُنيَّ أنَّ العِلْمَ نفسَهُ يهرمُ مَعَ ٱلرجلِ ٱلهرِم، فيُصبحُ مثلَهُ ضعيفاً لاغَنَاءَ عندَهُ ولا حِيلةَ لَه؛ وكلُّ مصانعِ لنكشيرَ ومصانعِ بنكِ مصرَ وَٱليابانِ وٱلأمريكتين، وما بقيَ من مصانعِ ٱلدنيا، لا فائدةَ من جميعِها؛ فهيَ عاجزةٌ أنْ تكسوَ عِظامي...

* * *

قالَ ٱلمحدّث: فقهقَهَ ٱلأستاذ (م)، وقال: كِدْتُ ـ وٱللَّهِ ـ أتخشَّبُ من هذا ٱلكلام، وكادَتْ معاني ٱلعَظْم تخرجُ من عِظامي؛ لقد كانَ ٱلمتوحشونَ حُكماءَ في أمرِ شيوخِهم، فإذا علَتِ ٱلسنُّ بِجماعةٍ منهم لم يتركوهم أحياءً إلَّا بِٱمتحان، فهم يجمعونهم ويُلجئونهم إلى شجرةٍ غَضَّةٍ ليِّنةِ ٱلمهزَّة، فيُكرهونهم أنَّ يصعدوا فيها ثُمَّ يتدلَّوْا منها وقد عَلِقَتْ أيديهم بأغصانِها؛ فإذا صاروا على هذه ٱلهيئةِ اجتمعَ ٱلأشداءُ من فِتيانِ ٱلقبيلةِ فيأخذونَ بِجذْعِ ٱلشجرةِ يرجُونها وينفضونها ساعةً من نهار؛ فمَنْ ضعُفَتْ يداهُ من أولئك ٱلشيوخِ أو كلَّتْ حواملُ ذراعيهِ فأفلَتَ ٱلغصنَ ٱلذي يتعلَّقُ بِهِ فوقع، أخذوه فأكلُوه؛ ومَنِ ٱستمسكَ أنزلوه فأمهلوهُ إلى حين!

فٱقشعرَّ ٱلعجوز (ن)، وقال: أعوذُ بِٱلله! هذه شجرةٌ تخرجُ في أصلِ ٱلجحيم، ولعنَها ٱللَّهُ من حِكمة، فإنَّما يطبخونَهم في ٱلشجرةِ قبلَ ٱلأكل، أو هم يجعلونهم كذلك لِيتوهموهُم طُيوراً فيكونَ لحمُهم أطيبَ وألذّ، ويتساقطون عليهم منَ ٱلشجرةِ حمائمَ وعصافير.

قال (م): إنْ كانَ في ٱلوحشيَّةِ منطقٌ فليسَ في هذا ٱلمنطقِ (بابُ لِمَ)، ولا «باب كيف»، ولو كانَ بِهِمْ أنْ يأكلوهم لأكلوهم، غيرَ أنَّها تربيةُ ٱلطبيعةِ لِأهلِ ٱلطبيعة؛ فإنَّ رؤيةَ ٱلرجلِ هذه الشجرةَ وهزَّها وعاقبتَها يُبعدُ عنه ٱلضعفَ وَٱلتخَلْخُلِ، ويدفعُهُ إلى مُعاناةِ ٱلقوَّة، ويزيدُ نفسَهُ ٱنتشاراً على ٱلحياةِ وطَمَعاً فيها وتنشّطاً لِأَسبابِها، فيكونُ ساعِدهُ آخرَ شيءٍ يهرم، ولا يزالُ في ٱلحِدَّةِ وٱلنشاطِ وَٱلوثَبَان؛ فلا يعجزُ قبلَ يومِهِ ٱلطبيعيّ، ويكونُ ٱلمتوحشون بهذا قدِ ٱحتالوا على ٱلطبيعةِ ٱلبشريَّةِ فَٱضطروها إلى مجهودِها، وأكرهوها على أنْ تبذلَ مِنَ ٱلقوةِ آخرَ ما يسعُ ٱلجِسم.

قال (ن): فنَعم إذَنْ، ولعنَ ٱللَّهُ معانيَ ٱلضعْف؛ كِدْتُ ـ وٱللَّهِ ـ أظنُّ أنّي لم أكنْ يوماً شابّاً، وما أراكَ إلّا متوحِّشاً تَخافُ أنْ تُؤْكل، فتظلَّ شيْخاً رجلاً لا شيخاً طِفْلاً، وترى العمرَ كما يرى ٱلبخيلُ ذهبَهُ: مهما يبلغْ فكثرتُهُ غيرُ كثيرة.

* * *

قالَ ٱلمحدِّث: وأضجرني حوارُهما، إذْ لم يعدْ فيهِ إلّا أنَّ جسمَ هذا يردُ على جسم هذا؛ وإنَّما ٱلشيخُ من أمثالِ هؤلاءِ زمانٌ يتكلَّمُ ويقضُّ ويعظُ وينتقِد، ولن يكونَ ٱلشيخُ معك في حقيقتِهِ إنْ لم ترحلْ أنت فيهِ إلى دنيا قديمة؛ فقُلْتُ لهما: أيها العجوزان! أُريدُ أنْ أسافرَ إلى سنةِ ١٨٩٥...

العجوزان

٢

قالَ محدِّثي: ولَمّا قلْتُ لهما: أيُّها ٱلعجوزانِ، أُريدُ أنْ أسافرَ إلى سنةِ ١٨٩٥ نظرَ إليَّ ٱلعجوزُ ٱلظريفُ (ن)، وقال: يا بُنيَّ، أحسبُ رؤيتَكَ إيايَ قد دَنَتْ بِكَ مِنَ ٱلآخرة... فتُريدُ أنْ نلوذَ بأخبارِ شبابِنا لِتنظرَ إلينا وفينا روحُ ٱلدنيا.

قالَ ٱلأستاذُ (م): وكيف لا تُريهِ ٱلآخرةَ وأكثرُكَ ٱلآنَ في «ٱلمجهول»؟.

قال: ويحكَ يا (م)! لا تزالُ على وجهِكَ مِسحةٌ مِنَ ٱلشيطانِ هنا وهنا؛ كأَنَّ ٱلشيطانَ هو ٱلذي يُصلِحُ في داخلِك ما ٱختلَّ من قوانينِ ٱلطبيعة، فلا تَسْتَبِينُ فيك ٱلسِّنُّ وقد نيَّفتَ[1] على ٱلسبعين، وما أحسبُ ٱلشيطانَ في تنظيفِك إلّا كَٱلّذي يكنسُ بيتَه...

قال (م): فأنت أيُّها ٱلعجوزُ ٱلصالِحُ بيتٌ قد تركَهُ ٱلشيطانُ وعلَّقَ عليهِ كلمةَ (لِلإيجار)..

فضحكَ (ن)، وقال: تاللّٰهِ إنَّ ٱلهرَمَ لَهُوَ إعادةُ درسِ ٱلدنيا، وفهمُها مرةً أخرى فَهْماً لا خطأَ فيه؛ إذْ ينظرُ ٱلشيخُ بِٱلعينِ ٱلطاهرة، ويسمعُ بِٱلأذنِ ٱلطاهرة، ويلمسُ بِٱليدِ ٱلطاهرة... وتَاللّٰهِ إنَّ ٱلشيطانَ لَا معنى لَهُ إلَّا أنَّهُ وقاحةُ ٱلأعصاب.

قالَ (م): فأنت أَيها ٱلعجوزُ ٱلصالحُ إنَّما أصبحْتَ بِلا شيطانٍ لأَن ٱلهرَمَ قد أدَّبَ أعصابَك...

قالَ ٱلعجوزُ ٱلظريف: وعندَ مَنْ غيرِنا ـ نحن ٱلشيوخَ ـ تُطاعُ ٱلأوامرُ وٱلنواهي ٱلأدبيَّةُ حقَّ طاعتِها؟ عندَ مَنْ غيرِ ٱلشيوخِ تقدَّسُ مثلُ هذه ٱلحِكمِ ٱلعالية: لا تعتدِ على أحد... لا تُفسدِ ٱمرأةً على زوجِها...

***

---

(١) نيَّفت: زادت.

قالَ ٱلمحدِّث: وضحكْنا جميعاً، وكانَ ٱلعجوزُ (ن) مِنَ ٱلآياتِ في ٱلظرفِ وَٱلنكتة، فقال: تظنُّني يا بُنيَّ في ٱلسبعين؟ فَواللّٰهِ ما أنا بجملتي في ٱلسبعين، وَاللّٰهِ والله.

قال (م): لقد أهترَ ٱلشيخُ يا بَنيَ، فإنَّ هذا من خَرفِهِ فلا تصدقْه.

قال (ن): واللّٰهِ ما خَرِفْتُ وما قلْتُ إلا حقًّا، فهٰهنا ما عمرُهُ خمسُ سنوات فقط، وهو أسناني...

قلت: «ورينا وريت» وسنة ١٨٩٥؟

قالَ ٱلأستاذ (م): أنت يا بُنيَّ مِنَ ٱلمجدِّدين، فما هواكَ في ٱلقديمِ وما شأنُك به؟

وما كادَ ٱلعجوزُ (ن) يسمعُ هذا حتى طَرَفَ بعينيهِ وحدَّدَ بَصرَهُ إليَّ وقال: أئنَّك لأَنت هو؟ لَعمري إنّ في عينيكَ لَضجيجاً وكَذِباً وجِدالاً وٱحْتيالاً وزَعْماً ودعوى وكفراً وإلحاداً؛ ولَعمري...

فقطعْتُ عليهِ وقلْتُ: «لَعمُركَ إنّهم لفي سكرتهِم يعمهون»، لقد وقعَ ٱلتجديدُ في كلِّ شيءٍ إلّا في ٱلشيوخِ أجساماً وٱلشيوخ عقولاً؛ فهؤلاءِ وهؤلاءِ عندَ ٱلنهاية، وغيرُ مستنكَرٍ من ضَعفِهِم أنْ يدينوا بٱلماضي، فإنَّ حياتَهم لا تلمسُ ٱلحاضِرَ إلّا بضَعف!

قالَ ٱلعجوز: رحمَ ٱللّٰهُ ٱلشيخَ (ع)؛ كانَ هذا يا بُنيَّ رجلاً ينسخُ لِلْعلماءِ في زمنِنا ٱلقديم، وكانَ يأخذُ عشرةَ قروشٍ أجراً على ٱلكراسةِ[1] ٱلواحدة، وهو رديءُ ٱلخطّ، فإذا ورَّقَ لِأديب، ولم يُعجِبْهُ خطُّهُ فكلَّمَهُ في ذلك تعلَّقَ ٱلشيخُ بِهِ وطالبَهُ بِعِشرينَ قِرشاً عنِ ٱلكراسة؛ منها عشرةٌ لِلكتابة، وعشرةٌ غرامةٌ لِإهانةِ ٱلكتابة...

نعمْ يا بُنيَّ، إنَّ لِلماضي في قلوبِنا مواقعَ ينزلُ فيها فيتمكَّن، ولكنَّ قاعدةَ (اثنان واثنان أربعة)، لا تُعدُّ في ٱلماضي ولا في ٱلحاضرِ ولا في ٱلمستقبل، وَٱلحقيقةُ بِنفسِها لا بأسمِها؛ وليَستْ تحتاجُ ٱلنارُ إلى ثوبِ ٱلمرأةِ إلّا في رأيِ ٱلمغفل.

قالَ ٱلأستاذُ (م): وكيف ذلك؟

قالَ ٱلعجوز: زعموا أنَّ مغفلاً كانَ يرى ٱمرأتَهُ تُضرِمُ ٱلحطبَ فتنفخُ فيهِ حتى يشتعل، فٱحتاجَ يوماً في بعضِ شأنِهِ إلى نار، ولم تكنِ ٱمرأتُهُ في دارِها فجاءَ

---

(١) الكراسة: الدفتر.

بِٱلحطبِ وأضرمَ فيهِ وجعل ينفخ، وكانَ ٱلحطبُ رَطْباً فدخَّنَ ولم يشتعل، ففكَّرَ ٱلمغفلُ قليلاً ثُمَّ ذهبَ فلَبِسَ ثوبَ ٱمرأتِهِ وعادَ إلى ٱلنار، وكانَ ٱلحطبُ قد جفَّ فلم يكدْ ينفخُ حتى ٱشتعلَ وتضرَّم؛ فأيقنَ ٱلمغفلُ أنَّ ٱلنارَ تخافُ ٱمرأتَه. . . وأنَّها لا تتضرَّمُ إلَّا إذا رأَتْ ثوبَها!

* * *

قالَ الأستاذُ (م): إنَّ ٱلكلامَ في ٱلقديمِ وَٱلجديدِ أصبحَ عندَنا كفنونِ ٱلحربِ تُبدعُ ما تُبدعُ لِتغييرِ ما لا يتغيَّرُ في ذاتِ نفسِه، وعلى ما بلغَتْ وسائلُ ٱلموتِ في ٱلقديمِ وٱلجديدِ فإنَّها لم تستطعْ أنْ تُمِيتَ أحداً مرتين.

لقد قرأْتُ يا بُنيَّ كثيراً فلم أرَ إلى ٱلآنَ من آثارِ ٱلمجدِّدينَ عندَنا شيئاً ذا قيمة؛ ما كانَ من هُراءٍ وتقليدٍ فهو من عندِهم، وما كانَ جيِّداً فهو كَٱلنفائسِ في مِلكِ ٱللصّ: لها اعتبارانِ، إنْ كانَ أحدُهما عندَ مقتنيها. . . فالآخرُ عندَ ٱلقاضيْ.

كلَّا أيُّها ٱللصّ، لن تسمَّى مالكاً بهذا ٱلأسلوب؛ إنَّما هِيَ كلمةٌ تسخرُ بها مِنَ ٱلناسِ ومِنَ ٱلحقِّ ومن نفسِك.

يقولون: العِلْمُ وَٱلفنُّ وٱلغريزةُ وٱلشهوةُ وٱلعاطفةُ وٱلمرأةُ وحريَّةُ ٱلفكْرِ وٱستقلالُ ٱلرأي ونبذُ ٱلتقاليدِ وكسرُ ٱلقيود، إلى آخرِهِ وإلى آخرِها. . . فهذا كلُّهُ حسنٌ مقبولٌ سائغٌ[1] في ٱلورقِ إنْ كانَ في مقالةٍ أو قصة، وهو سائغٌ كذلك حينَ ينحصرُ في حدودِهِ ٱلتي تصلُحُ لَهُ من ثيابُ ٱلممثلينَ أو من بعضِ ٱلنفوسِ ٱلتي يمثِّلُ بها ٱلقدرُ فصولَهُ ٱلساخرةَ أو فصولَهُ ٱلمُبكية، ولكنَّهم حين يُخرجونَ هذا كلَّهُ لِلحياةِ على أنَّهُ من قوَّتِها ٱلموجبة، تردُّهُ ٱلحياةُ عليهم بِٱلقوةِ ٱلسالبة، إذْ لا تزالُ تخلُقُ خَلْقَها وتعملُ أعمالَها بِهِم وبِغيرِهِم، وإذا كانَ في ٱلإنسانيَّةِ هذا ٱلقانونُ ٱلذي يجعلُ ٱلفِكْرَ ٱلمريضَ حينَ يهدمُ من صاحبِه ـ يهدمُ في ٱلكونِ بِصاحبِه؛ ففيها أيضاً ٱلقانونُ الآخرُ ٱلذي يجعلُ ٱلفكرَ ٱلصحيحَ ٱلساميَ حين يُبنى من أهلِه ـ يُبنى في ٱلكوْنِ بِأهلِه.

* * *

قالَ ٱلعجوز (ن): زعموا أنَّ أحدَ سلكي ٱلكهرباءِ كانَ فيلسوفاً مجدِّداً، فقالَ لِلآخر: ما أراكَ إلَّا رجعيًّا، إذْ كُنْتَ لا تتبعُني أبداً ولا تتَّصِلُ بي ولا تجري في طريقتي؛ ولن تُفْلِحَ[2] أبداً إلَّا أنْ تأخذَ مأخذي وتترُكَ مذهَبَك إلى مذهبي. فقالَ لَهُ

---

(1) سائغ: مقبول.

(2) تفلح: تنجح.

صاحبه: أيُّها ٱلفيلسوفُ ٱلعظيم، لو أنيَّ ٱتبعْتُكَ لَبَطَلْنا معاً فما أذهبُ فيك ولا تذهبُ فيّ؛ وما عَلِمْتُكَ تشتمُني في رأيكَ إلّا بِمَا تمدحُني بِهِ في رأيي.

قالَ ٱلعجوزُ: وهذا هو جوابُنا إذا كُنَّا رجعيينَ عندَهم من أجلِ ٱلدينِ أوِ ٱلفضيلةِ أوِ ٱلحياةِ أوِ ٱلعِفَّةِ إلى آخرِها وإلى آخرِه؛ ونحن لا نرى هؤلاءِ ٱلمجدِّدينَ عندَ ٱلتحقيقِ إلّا ضروراتٍ، من مذاهبِ ٱلحياةِ وشهواتِها وحماقاتِها تلبَّسَتْ بعضَ ٱلعقولِ كما يتلبَّسُ أمثالُها بعضَ ٱلطباعِ فتزيغُ بها؛ ولِلْحياةِ في لُغتِها ٱلعمليَّةِ مترادفاتٌ كَٱلمترادفاتِ ٱللفظية: تكونُ ٱلكَلمتانِ وَٱلكلماتُ بمعنًى واحد، فَٱلمخرِّبُ وٱلمخرِّف وٱلمجدِّد بمعنى!

كلُّ مجدِّدٍ يُريدُ أنْ يضعَ في كلِّ شيءٍ قاعدةَ نفسِهِ هو، فلو أطعْناهم لم تبقَ لِشيءٍ قاعدة.

قالَ ٱلأستاذُ (م) إنَّ هذه ٱلحياةَ ٱلواحدةَ على هذه الأرضِ يجبُ أنْ تكونَ على سُنَّتِها وما تصلُحُ بِهِ مِنَ ٱلضبطِ وَٱلإحكام، وَٱلجلْبِ لها وَٱلدفعِ عنها وٱلمحافظةِ عليها بِوَسائِلها ٱلدقيقةِ ٱلموزونةِ ٱلمقدَّرة، وَٱلسهْلَةِ في عملِها ٱلصعبةِ في تدبيرِها؛ فعلى نحوِ مِمَّا كانَتِ ٱلحياةُ في بطنِ ٱلأمِّ يجِبُ أنْ نعيشَ في بطنِ ٱلكوْنِ بحدودٍ مرسومةٍ وقواعدَ مهيَّأةٍ وحيِّزٍ معروف؛ وإلّا بقيَتْ حركاتُ هذا ٱلإنسانِ في معناها كحَركاتِ ٱلجنين؛ يَرْتكَضُ لِيخرجَ عن قانونِه، فإنِ ٱستمرَّ عملُهُ ألقى بِهِ مَسْخاً مشوَّهاً من جسدٍ كان يَعملُ في تنظيمِه، أو قَذَفَ بِهِ مَيْتاً من جسمٍ كانَ كلُّ ما فيهِ يعملُ لِحياتِهِ وصِيانتِه.

هذا ٱلجسمُ كلُّهُ يَشرعُ لِلجنينِ ما دامَ فيه، وهذا ٱلاجتماعُ كُلُّهُ يشرعُ لِلْفردِ ما دامَ فيه؛ فكيف يكونُ أمرٌ من أمرٍ إذا كانَ ٱلجنينُ مُجدِّداً لا يُعجبُهُ مثلاً وضعُ ٱلقلبِ ولا يُرضيهِ عملُ ٱلدمِ ولا يُريدُ أنْ يكونَ مُقيَّداً لِأنَّهُ حرّ.

ٱنظرْ إلى هذا ٱلشرطيِّ في هذا ٱلشارعِ يضرِبُ مُقبلاً لَيُدْبر، ومُدبراً لِيُقبل، وقد ألبستْهُ ٱلحكومةُ ثِياباً يتمَيَّزُ بِها، وهي تتكَلمُ لغةً غيرَ لُغةِ ٱلثياب، وكأنَّها تقول: أيُّها ٱلناس، إنَّ هٰهَنا ٱلإنسانَ ٱلذي هو قانونٌ دائماً، وَٱلذي هو قوَّةٌ أبداً، وَٱلذي هو سِجْنٌ حِيناً، وٱلذي هوَ ٱلموْتُ إذا ٱقتضى ٱلحال.

أتحسبُ يا بُنيَّ هذا ٱلشرطيَّ قائماً في هذا ٱلشارعِ كجدرانِ هذه ٱلمنازل؟ كلّا يا بُنيَّ؛ إنَّهُ واقفٌ أيضاً في ٱلإرادة ٱلإنسانيَّةِ وفي ٱلحسِّ ٱلبشريِّ وفي ٱلعاطفةِ

ٱلحيَّة؛ فكيفَ لا يمحُوهُ ٱلمجدِّدون مَعَ أنَّهُ في ذاتِهِ إرْغامٌ بمعنًى، وإكراهٌ بمعنًى غيرِه، وقيدٌ في حالة، وبَلاءٌ في حالةٍ أخرى؟

لكنَّهُ إرغامٌ لِيقعَ بِهِ ٱلتيسير، وإكراهٌ لِتنطلِقَ بِهِ ٱلرغبة، وقيدٌ لِتتمجَّدَ بِهِ ٱلحريَّة؛ وكانَ هو نفسُهُ بلاءً من ناحيةٍ لِيكونَ هو نفسُهُ عِصمةً مِنَ ٱلناحية ٱلتي تُقابلُها.

يا بُنيَّ، كلُّ دِينٍ صالح، وكلُّ فضيلةٍ كريمة، وكلُّ خُلُقٍ طيب ـ كلُّ شيءٍ من ذلك إنَّما هو على طريقِ ٱلمصالحِ ٱلإنسانيَّةِ كهذا ٱلشرطيِّ بعينِه: فإمَّا تخريبُ ٱلعالَم أيُّها ٱلمجدِّدون، وإمَّا تخريبُ مذهبِكم...

* * *

قالَ ٱلعجوزُ (ن): أنبحَثُ عمَّا نتسلَّطُ بِهِ أمْ نبحثُ عمَّا يَتسلَّطُ علينا؟ وهلْ نُريدُ أنْ تكونَ غرائزُنا أقوى مِنَّا وأشدّ، أو نكونُ نحن أشدَّ منها وأقوى؟ هذه هي ٱلمسألةُ لا مسألةُ ٱلجديدِ وٱلقديم.

فإنْ لم يكنْ هناك ٱلمثلُ ٱلأعلى ٱلذي يَعظُمُ بنا ونَعظُمُ به، فسَدَ ٱلحِسُّ وفسدَتِ ٱلحياة؛ وكلُّ ٱلأديانِ ٱلصحيحةِ وَٱلْأخلاقِ ٱلفاضلةِ إنْ هيَ إلَّا وسائلُ هذا ٱلمثلِ ٱلأعلى لِلسمو بِٱلحياةِ في آمالِها وغاياتِها عنِ ٱلحياةِ نفسِها في وقائعِها ومعانِيها.

* * *

قالَ ٱلمحدِّث: ورأيْتُني بينَ ٱلعجوزينِ كأنِّي بينَ نابَينِ؛ ولم أكنْ مجدِّداً على مذهبِ إبليسَ ٱلذي ردَّ على ٱللَّهِ وَٱلملائكةِ وظنَّ لِحمقِهِ أنّ قوَّةَ ٱلمنطقِ تغيِّرُ ما لا يتغيَّرُ؛ فسكتُّ، حتى إذا فرغا من هذه ٱلفلسفةِ قلْت: وٱلرحلةُ إلى سنة ١٨٩٥؟

العـجـوزان

٣

قالَ ٱلمحدّث: وتبيَّنَ في ٱلعجوزِ (ن) أثرُ ٱلتعب، فتوجَّعَ وأخذَ يَئِنُّ كأَنَّ بعضَهُ قد ماتَ لِوقتِهِ... أو وقعَ فيهِ ٱختلالٌ جديد، أو نالتْهُ ضربةُ ٱليوم؛ وٱلشيخُ متى دخلَ في ٱلهرَمِ دخلَ في ٱلمعركةِ ٱلفاصلةِ بينَهُ وبينَ أيَّامِه.

ثُمَّ تأفَّفَ وتملْملَ[1] وقال: إنَّ أولَ ما يظهرُ على مَنْ شاخَ وهرِمَ، هو أنَّ ٱلطبيعةَ قد غيَّرَتِ ٱلقانونَ ٱلذي كانَتْ تحكمُهُ بِه.

قالَ ٱلأستاذُ (م): إنَّ صاحبَنا كانَ قاضياً يحكمُ في ٱلمحاكم، وأرى ٱلمحاكمَ قد حكمَتْ عليهِ بهذه ٱلشيخوخةِ (مُطبِّقةً فيها) بعضَ ٱلموادِّ من قانونِ ٱلعقوباتِ فما خرجَ مِنَ ٱلمحكمةِ إلَّا إلى الحبسِ ٱلثالث.

فضحكَ (ن) وقال: قد عرفْنا «ٱلحبسَ ٱلبسيط» و «ٱلحبسَ مَعَ ٱلشغلِ» فما هو هذا ٱلحبسُ ٱلثالث؟

قال: هو «ٱلحبسُ مَعَ ٱلمرض»...

قال (ن): صدقْتَ لَعمري، فإنَّ آخرَ أجسامِنا لا يكونُ إلَّا بِحِسابٍ من صَنعةِ أعمالِنا: وكأَنَّ كرسيَّ ٱلوظيفةِ ٱلحكوميَّةِ قد عرفَ أنَّهُ كرسيُّ ٱلحكومة، فهو يضربُ ٱلضرائبَ على عِظامِ ٱلموظفين... أتدري معنى قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ ولِمَ سمَّاهُ ٱلأرذل؟

قلْنا: فلِمَ سمَّاهُ كذلك؟

قال: لِأَنَّهُ خَلَطُ ٱلإنسانِ بعضِهِ ببعض، ومسخُهُ من أولهِ إلى آخرِه، فلا هو رجلٌ ولا شابٌّ ولا طفل، فهو أردأُ وأرذلُ ما في ٱلبضاعة...

---

(١) تململ: أظهر ضجره.

فٱستضحكَ ٱلأستاذ (م) وقال: أمَّا أنا فقد كنْتُ شيخاً حينَ كنْتُ في ٱلثلاثينَ من عمري، وهذا هو ٱلذي جعلَني فتًى حين بلغْتُ ٱلسبعين.

قال (ن): كأنَّ ٱلحياةَ تُصحِّحُ نفسَها فيك.

قال: بلْ أنا كَرِهْتُها أنْ تُصحِّحَ نفسَها؛ فقد عرفْتُ من قبلِ أنَّ سَعَةَ ٱلإنفاقِ في ٱلشبابِ هيَ ضائقةُ ٱلإفلاسِ في ٱلهرَم، وأيقنْتُ أنَّ لِلطبيعةِ (عدَّاداً) لا يُخطِىءُ ٱلحِساب، فإذا أنا ٱقتصدْتُ عدَّتْ لي، وإذا أسرفْتُ عدَّتْ عليَّ؛ ولَنْ تُعطيَني ٱلدنيا بعدَ ٱلشبابِ أَلّا مِمَّا في جِسمي، إذْ لا يُعطِي ٱلكونُ حيًّا أرادَ أنْ ينتهيَ منه، فكنْتُ أجعلُ نفسي كَٱلشيخِ ٱلذي تقولُ لَهُ ٱلمَلذاتُ ٱلكثيرة: لسْتُ لَك؛ ومن ثَمَّ كانَتْ لذَّاتي كلُّها في قيودِ ٱلشَّريعتين: شريعةِ ٱلدينِ وشريعةِ ٱلحياة.

قالَ: وعرفْتُ أنَّ ما يُسميهِ ٱلناسُ وَهَنَ[1] ٱلشيخوخةِ لا يكونُ مِنَ ٱلشيخوخةِ ولكنْ مِنَ ٱلشبابِ؛ فما هو إلا عملُ ٱلإنسانِ في تَسميم جِسمِهِ ثلاثينَ أو أربعينَ سنةً بِٱلطعامِ وَٱلشرابِ وَٱلإغفالِ وَٱلإرهاقِ وَٱلسرورِ وَٱلحُزْنِ وٱللذةِ وَٱلألَم، فكنْتُ مَعَ ٱلجِسْمِ في شبابِهِ لِيكونَ مَعي بعدَ شبابِه، ولم أبرحْ أتعاهدُهُ[2] كما يتعاهَدُ ٱلرجلُ دارَه: يزيدُ محاسنَها وينفي عيوبَها، ويحفَظُ قوَّتَها ويتَّقي ضعفَها؛ ويجعلُها دائماً بالَهُ وهمَّهُ، وينظرُ في يومِها ٱلقريبِ لِغدِها ٱلبعيد، فلا ينقطعُ حِسابُ آخرِها وإنْ بَعُدَ هذا ٱلآخر، ولا يزالُ أبداً يحتَاطُ لِمَا يخشى وقوعَهُ وإنْ لم يقع.

قالَ ٱلعجوزُ (ن): صدقَتْ ـ واللّهِ ـ؛ فما أفلحَ إلَّا مَن ٱغتنمَ ٱلإمكان؛ وما نوعُ ٱلشيخوخةِ إلَّا من نوع ٱلشباب؛ وهذا ٱلجسمُ ٱلإنسانيُّ كَٱلمدينةِ ٱلكبيرةِ فيها (مجلسُها ٱلبلديُّ) ٱلقائمُ على صِيانتِها ونِظامِها وتقويتِها؛ ورئيسُ هذا ٱلمجلس ٱلإرادة، وقانونُهُ كلُّهُ واجباتٌ ثقيلة، وهو كغيرِهِ مِنَ ٱلقوانين: إذا لم ينفذْ مِنَ ٱلأَولِ لم يُغنِ في ٱلآخر.

قالَ ٱلأستاذ (م): وكلُّ جهازٍ في ٱلجسم هو عضوٌ من أعضاءِ ذلك (ٱلمجلسِ ٱلبلديّ)؛ فجِهازُ ٱلتنفسِ وجهازُ ٱلهَضْم وٱلجِهازُ ٱلعضليُّ وَٱلجِهازُ ٱلعصبيُّ وٱلدورةُ ٱلدمويَّة، هذه كلُّها يجبُ أنْ تُتركَ على حرِّيَّتِها ٱلطبيعيَّةِ وأنْ تُعانَ على سُنَّتِها، فلا يُحالُ بينَها وبينَ أعمالِها بِرشوةٍ من لذَّة، أو مَفسدةٍ من زينة، أو مطمعةٍ في رَفاهية، أو دَعوةٍ إلى مدنيَّة، أو شيءٍ مِمَّا يُفسِدُ حُكمَها أو يُعطِّلُ عملَها ويُضعِفُ طبيعَتَها.

---

(١) وهن: ضعف. (٢) أتعاهده: أعتني به.

وَٱلقاعدةُ في ٱلعمرِ أنَّهُ إذا كانَ ٱلشبابُ هو ٱلطفولةَ ٱلثانيةَ في براءتِهِ وطهارتِه، كانَتِ ٱلشيخوخةُ هيَ ٱلشبابَ ٱلثاني في قُوّتِها ونَشاطُها؛ وما رأيْتُ كَٱلدينِ وسيلةً تجعلُ ٱلطفولةَ مُمْتدَّةً بحقائِقها إلى آخرِ ٱلعمرِ في هذا ٱلإنسان؛ فسرُّ ٱلطفولةِ إنَّما هو في قُوَّتِها على حذْفِ ٱلفضولِ وَٱلزوَائدِ من هذهِ ٱلحياة، فلا يُطغيها[1] ٱلغِنى، ولا يكسرُها ٱلفقر، ولا تذلُّها ٱلشهْوَة، ولا يُفزعُها ٱلطمع، ولَا يهولُها[2] ٱلإخفاق، ولا يتعاظمُها ٱلضرّ، ولا يُخيفُها ٱلموت؛ ثُمَّ لَا تملُّ وهي ٱلصابرة، ولا تُبَالِغُ وهي ٱلراضية، ولا تشكُّ وهيَ ٱلمُوقِنة، ولا تُسْرِفُ وهيَ ٱلقانِعة، ولا تتبلَّدُ وهيَ ٱلعاملة، ولا تجمدُ وهيَ ٱلمتجولة؛ ثُمَّ هيَ لا تُكلِّفُ ٱلإنسانيَّةَ إلَا ٱلعطفَ وَٱلحُبَّ وٱلبشاشةَ وطبائعَ ٱلخيرِ ٱلتي يملكُها كلُّ قلب؛ ولا تُوجِبُ شريعتُهَا في ٱلمعاملةِ إلَّا قاعدةَ ٱلرحمة، ولا تُقرِّرُ فلسفتُها لِلْحياةِ أَلَّا طهارةَ ٱلنظر؛ ثُمَّ تتهكَّمُ بِٱلدنيا أكثَرَ مِمَّا تهتمُّ لها، وتستغني فيها أكثرَ مِمَّا تحتاج، وتستخرِجُ ٱلسعادةَ لِنفسِها دائماً مِمَّا أمكنَ، قلَّ أو كثُر.

وبكلِّ هذا تعملُ ٱلطفولةُ في حراسةِ ٱلحياةِ ٱلغَضَّةِ وَٱستمرارِها ونموِّها، ولولا ذلك لَمَا زها طفلٌ ولا شبَّ غلامٌ ولا رأَتِ ٱلعيونُ بين همومِ ٱلدنيا ذلك ٱلرُّواءَ وذلك ٱلمنظرَ على وجوهِ ٱلأطفال يُثبتانِ أنَّ ٱلبراءةَ في ٱلنفس أقوى مِنَ ٱلطبيعة.

وكلُّ ذلك هو أيضاً من خصائصِ ٱلدينِ وبِهِ يعملُ ٱلدينُ في تهذيبِ ٱلحياةِ وَٱطِّرادِها على أصولِها ٱلقويَّةِ ٱلسليمةِ، ومتى قَوِيَ هذا ٱلدينُ في إنسانٍ لم تكنْ مفاسدُ ٱلدنيا إلَّا من وراءِ حدودِهِ، حتى كأنَّهُ في أرضٍ وهيَ في أرضٍ أخرى، وأصبحَتِ ٱلبراءةُ في نفسِهِ أقوى مِنَ ٱلطبيعة.

ثُمَّ قال: وَٱلعجيبُ أنَّ ٱعتقادَ ٱلمساواةِ بينَ ٱلناسِ لا يتحقَّقُ أبداً بأحسنِ معانيهِ وأكملِها إلَّا في قلبين: قلبِ ٱلطفلِ لِأنَّهُ طفل، وقلبِ ٱلمؤمنِ لِأنَّهُ مؤمن.

فقالَ ٱلعجوزُ (ن): إنَّهُ لَكَمَا قلْت، ولعنةُ ٱللَّهِ على هذه ٱلشهواتِ ٱلآدميَّةِ ٱلباطِلَة، فإنَّ ٱلشهوةَ ٱلواحدةَ في ألفِ نفسٍ لتَجعلُ ٱلحقيقةَ ٱلواحدةَ كأنَّها ألفُ حقيقةٍ متعاديةٍ متنازعة؛ وٱلطامعانِ في ٱمرأةٍ واحدةٍ قد تكونُ شهوةُ أحدِهما هيَ ٱلشهوةَ وهيَ ٱلقتل؛ ولعنةُ ٱللَّهِ على ٱلمُلْحدينَ وإلحادِهِم، يُزْرُونَ على ٱلأديانِ بأنَّها تكاليفُ وقيودٌ وصِناعةٌ لِلحياة، ثُمَّ لا يعلمونَ أنَّ كلَّ ذلك لِصناعةِ ٱلآلةِ ٱلنفسيَّةِ ٱلتي

---

(١) يطغيها: يحملها على التجبّر. (٢) يهولها: يرهبها.

تستطيعُ أنْ تحَرِّكَ ٱلمختلفينَ حركةً واحدة، فما ٱبتُلِيَتِ ٱلإنسانيَّةُ بشيءٍ كما ٱبتليَتْ بهذا ٱلخِلافِ ٱلذي يفتحُ من كلِّ نفسٍ على كلِّ نفس أبوابَ ٱلتَّجني، ويجعلُ ٱلنَّفرةَ وسُوءَ ٱلظَّنِّ أقربَ إلى ٱلطبيعةِ ٱلبشريَّةِ مِنَ ٱلألفةِ وَٱلثقةِ.

لقد جاءَ ٱلعِلْمُ بِٱلمعجزات، ولكنْ فيما بينَ ٱلإنسانِ وَٱلطبيعة، وبيَن ٱلإنسانِ ومنافعِه، وبينَ ٱلإنسانِ وشهواتِه؛ فهل غيرُ ٱلدينِ يجيءُ بِٱلمعجزاتِ ٱلعمليَّةِ فيما بينَ ٱلنفسِ وٱلنفس، وبينَ ٱلنفسِ وهمومِها، وبينَ ما هو حقٌّ وما هو واجب؟

* * *

قالَ ٱلمحدّث: ثُمَّ نظرَ إليَّ ٱلعجوزُ (ن) وقال: صِلْ عمَّكَ يا بُنيَّ بِٱلحديثِ ٱلذي مضى، فأين بلَغْنا آنفاً من أمرِ ٱلتجديدِ وٱلمجدِّدين؟ وماذا قلْنَا وماذا قلْت؟ أمَا إنَّ ٱلحماقةَ ٱلجديدةَ وٱلرذيلةَ ٱلجديدةَ وَٱلخطأَ ٱلجديد، كلُّ ذلك إنْ كانَ جديداً من صاحبِهِ فهو قديمٌ في ٱلدنيا؛ وليسَ عندَنا أبداً من جديدٍ إلَّا إطلاقُ ٱلحريَّةِ في ٱستعمالِ كلِّ أديبٍ حقَّهُ في ٱلوقاحةِ وَٱلجهلِ وَٱلخطأِ وَٱلغرورِ وَٱلمُكابرة.

قالَ ٱلأستاذُ (م): وليسَ ٱلظاهرُ بِمَا يظهرُ لَك منه، ولكنْ بِٱلباطنِ ٱلذي هو فيه، فمستشفى ٱلمجاذيبِ قصرٌ مِنَ ٱلقصورِ في ظاهرِه، ولكنَّ ٱلمجاذيبَ هم حقيقتُهُ لا ٱلبناء، وكلُّ مجدِّدٍ عندَنا يزعمُ لك أنَّهُ قصرٌ عظيم، وهو في ٱلحقيقةِ مستشفى مجانين، غيرَ أنَّ ٱلمجانينَ فيهِم طِباعٌ وشهواتٌ ونَزوات؛ وعلى هذا ما ٱلذي يمنعُ ٱلفجورَ ٱلمتوقِّحَ أنْ يسمَى نفسَهُ ٱلأدبَ ٱلمكشوف؟

قالَ (ن): وإذَا أنت ذهبْتَ تعترِضُ على هذه ٱلتسميةِ زعموا لك أنَّ لِلفنِّ وقاحةً مقدّسة. . . وأنَّ (لا أدبية) رجلِ ٱلفنِّ هيَ (اللا أخلاقيةُ ٱلعالية). . .

قالَ ٱلأستاذُ (م): فوقاحةُ ٱلشهْوةِ إذا ٱستعلنَتْ بينَ أهلِ ٱلحياءِ وأهلِ ٱلفضيلةِ ودعَتْ إلى مذهبِها، كانَتْ تجديداً ما في ذلك ريب؛ ولكنَّ هذا ٱلمذهبَ هو أقدمُ ما في ٱلأرض، إذْ هو بِعينِهِ مذهبُ كلِّ زوجينِ ٱجتمعا مِنَ ٱلبهائم منذُ خلَقَ ٱللَّهُ ٱلبهائم. . .

قالَ (ن): وقُلْ مثلَ ذلك في مُتسخِّطٍ على ٱللَّهِ وعلى ٱلناسِ يُخرجُ من كفرهِ بينَ أهلِ ٱلأديان جديداً، وفي مغرورٍ يتغفَّلُ ٱلناس، وفي لِصِّ آراء، وفي مُقلِّدٍ أعوَرَ ـ كلُّ واحدٍ من هؤلاءِ وأشباهِهِم مبتلًى بعِلَّة، فمذهبُهُ رسالةُ عِلَّتِه؛ وأكثرُهُم لا يكونُ ثباتُهُ على ٱلرأيِ ٱلفاسدِ إلَّا من ثباتِ ٱلعِلَّةِ فيه.

* * *

قالَ ٱلمحدّث: وكنْتُ مِنَ ٱلمجدِّدين، فأرمضَني[1] ذلك وقلْتُ لِلْعجوزين: إنَّ هذا نصفُ ٱلصحيح، أمَّا ٱلنصفُ الآخرُ فهو في كثيرٍ من هؤلاءِ ٱلذينَ ينتحلَونَ ٱلدفاعَ عنِ ٱلدينِ وَٱلفضيلة؛ نعم إنَّهم لا يستعملونَ حقَّهم في ٱلوقاحة، ولكنَّ ٱلقُروشَ تستعملُ حَقَّها. . .

فضحِكَ ٱلعجوزُ (ن)، وقال: يا بُنيَّ، إنَّ ٱلجديدَ في كلِّ حِمارٍ هو أنْ يزعُمَ أنّ نهيقَهُ موسيقى. . . فَٱلحِمارُ وٱلنهيقُ وٱلموسيقى كلُّ ذلك لا جديدَ فيه، ولكنَّ ٱلتسميةَ وحدَها هيَ ٱلجديدة؛ ولو كانَ ٱلبرهانُ في خَلْقِ ٱلحِمارِ لَصَحَّ هذا ٱلجديد، غيرَ أنَّ ٱلتصديقَ وٱلتكذيبَ هنا في آذانِ ٱلموسيقيينَ لا في خَلْقِ حِمارِنا ٱلمحترم. . .

قالَ (م) وزعموا أنَّ رجلاً نصبَ فخًّا لِصيدِ ٱلعصافير، فجاءَ عُصفورٌ فنظرَ من هذا ٱلفخِّ إلى شيءٍ جديد، فقالَ: يا هذا، مالَكَ مطموراً[2] في ٱلتراب؟ قال ٱلفخ: ذلك مِنَ ٱلتواضُعِ لِخلْقِ ٱلله! قال: فممَّ كانَ ٱنحناؤك؟ قالَ ٱلفخّ: ذلك من طولِ عِبادتي لِلَّه! قال: فما هذه ٱلحبَّةُ عندَك؟ قالَ ٱلفخ: أعدَدتُها لِطيورِ ٱللّهِ ٱلصائمينَ يفطرونَ عليها! قالَ ٱلعصفور: فتُبيحُها[3] لِي؟ قال: نعم.

فتقدمَ ٱلمكسينُ إليها، فلمَّا ٱلتقطَها وقعَ ٱلفخُّ في عنقِه، فقالَ وهو يختنق: إنْ كانَ ٱلعُبَّادُ يَخنقون مثلَ هذا ٱلخنقِ فقد خُلِقَ إبليسُ جديد. . .

قالَ (ن): فٱلحقيقةُ أنَّ إبليسَ هوَ ٱلذي تجدَّدَ لِيَصْلُحَ لِزمنِ ٱلآلاتِ وٱلمخترعاتِ وَٱلعلوم وٱلفنونِ وعصرِ ٱلسرعةِ وَٱلتحوّل؛ وما دامَ ٱلرقيُّ مُطَّرِداً وهذا ٱلعقلُ ٱلإنسانيُّ لا يقفُ عندَ غايةٍ في تسخيرِ ٱلطبيعة، فسينتهي ٱلأمرُ بتسخيرِ إبليسَ نفسَهُ مَعَ ٱلطبيعة. . . لاستخراجِ كلِّ ما فيهِ مِنَ ٱلشرّ.

قالَ (م): ولكنَّ ٱلعجبَ من إبليسَ هذا؛ أتُراهُ ٱنقلبَ أوربيًّا لِلأوربيين؟ وإلَّا فما بالُهُ يخرجُ مجدِّدينَ من جبابرةِ ٱلعقلِ وَٱلخيال، ثُمَّ لا يُؤتينا نحن إلَّا مجدِّدينَ من جبابرةِ ٱلتقليدِ وَٱلحماقة؟

قالَ ٱلمحدِّثُ: فقلْتُ لهما: أيُّها ٱلعجوزانِ ٱلقديمان، سأنشرُ قولَكُما هذا ليقرأَهُ ٱلمجدِّدون.

---

(١) أرمضني: آلمني.
(٢) مطموراً: مغطى.
(٣) تبيحها: تسمحها.

قالَ ٱلأستاذُ (م): وَٱنشرْ يا بُنيَّ أنَّ الربيعَ صاحبَ ٱلإمامِ ٱلشافعيَّ، مرّ يوماً في أزقَّةِ مِصرَ فنُثِرتْ على رأسِهِ إجانة[1] مملوءةٌ رماداً، فنزلَ عن دابتِهِ وأخذَ ينفضُ ثِيابَهُ ورأسَه، فقيلَ له: ألَا تزجرُهم؟ قال: مَنِ ٱستحقَّ ٱلنارَ وصُولِحَ بِٱلرمادِ فليسَ لهُ أنْ يغضب!...

* * *

ثُمَّ قالَ محدِّثُنا: وَٱستولى عليَّ ٱلعجوزان، ورأيْتُ قولَهما يعلو قولي، وكنْتُ في ٱلسابعةِ وَٱلعشرين، وهي سِنُّ ٱلحِدَّةِ ٱلعقليَّة، فما حسبتُني معَهما إلا ثُلثَ عجوز... مِمَّا أثَّرا عليَّ، وَٱنقلبْتُ لا أرى في ٱلمجدِّدينَ إلَّا كلَّ سقيم[2] فاسد، وٱعتبْرَتُ كلَّ واحدٍ منهم بِعِلَّتِه، فإذا ٱلقولُ ما قالَ ٱلشيخان، وإذا تحتَ كلِّ رأيٍ مريضٍ مرضٌ، ووراءَ كلِّ ٱتجاهٍ إبرةٌ مغناطيسيّةٌ طرقُها إلى ٱلشيطان...

وفرغْنا من هذا، فقلْتُ لِلشيخين: لقد حانَ وقتُ نزولِكُما من بينِ ٱلغيومِ أيُّها ٱلفيلسوفانِ، أمَا كُنتُما في سنة ١٨٩٥ مِنَ ٱلجنسِ ٱلبشريّ...؟

(١) إجانة: قصعة. (٢) سقيم: مريض.

العجوزان

٤

قالَ محدِّثُنا: وكنتُ قد ضِقْتُ بهذه ٱللجاجة ٱلفلسفيَّة، ورأيتُني مُضْطَغِناً[1] على ٱلشيخينِ معاً؛ فقلْتُ لِلعجوز (ن): حدِّثني (رحمَكَ ٱللَّهُ) بشيءٍ من قديمِكما، فأنتما ٱختصارٌ لِكُلِّ ما منَّ مِنَ ٱلحياةِ يُسْتَدَلُّ بهِ على أصلِهِ ٱلمطَوَّلِ إلَّا في ٱلحُبّ. . . وما زِلْتُما في جِدِّ ٱلحديثِ تعبثانِ بي منذُ ٱليوم، فقد عَدَلْتُما بي إلى شأنِكما ورأيكما في ٱلقديم وَٱلجديد، وبقيَ أنْ أميلَ بِكما مَيْلةً إلى سنة ١٨٩٥، وقد - واللَّهِ - كادَ ينتحرُ قلبي يأساً من خبرِ (كاترينا ومرغريت)؛ ولَكأنَّكَ تخشى إذْ أعلمتني خبرَ صاحبتِك هذه وهي من وراءِ أربعينَ سنة - ما تخافُهُ من رجلٍ سيَفْجَؤُك معها في ٱلخلوةِ على حالٍ مِنَ ٱلريبةِ فيأخذُك «متلبِّساً بِٱلجريمة» كما تقولون في لغة ٱلمحاكم. . .

قالَ: فضحكَ ٱلعجوزانِ وقال (ن): لا - واللَّهِ - يا بُنيَّ، ولكنِّي أقولُ ما قالَ ذلك ٱلحكيمُ ٱلعربيُّ لِقومِهِ وقد بلغَ مائتي سنة: «قلبي مُضْغةٌ من جسدي، ولا أظنُّهُ إلَّا قد نحلَ كما نحلَ سائرُ جسدي» وَٱعلمْ يا بُنيَّ أنَّهُ إذا ذهبَ ٱلحُبُّ عنِ ٱلشيخ بقيَ منهُ ٱلحَنانُ يعملُ مثلَ عملِه؛ فيُحِبُّ ٱلعجوزُ مكاناً أو شيئاً أو معنًى أيَّ ذلك كان، لِيُعيدَهُ ذلك إلى ٱلدنيا أو يُبقِيهُ فيها (بقدرِ ٱلإمكان). . .

فضحكَ ٱلأستاذُ (م) وقال: ولعلَّ ثرثرةَ ٱلعجوزِ (ن) هيَ ٱلآنَ معشوقةُ ٱلعجوزِ (ن).

ثُمَّ قالَ: وكلُّ شيءٍ يَرِقُّ في قلبِ ٱلرجلِ ٱلهرمِ ويحوِّلُ وجهَهُ كأنَّهُ لا يُطيقُ أنْ ينظرَ إلى معناهُ ٱلغليظ؛ ولا بدَّ أنْ يخرجَ ٱلعجوزُ مَن معاني ٱلدنيا قبلَ أنْ يخرجَ منَ ٱلدنيا؛ ولهذا لا يهنأُ ٱلشيخُ إلَّا إذا عاشَ بِأفكارِ جسمِهِ ٱلحاضر، وقدَّرَ ٱلأمورَ على ما هو فيهِ لا على ما كانَ فيه؛ وَٱلفرقُ بين جسمِهِ ٱلحاضرِ وبينَ جسمِهِ ٱلماضي أنَّ

---

(١) مضطغناً: حاقداً وغاضباً.

هذا ٱلماضي كانَتْ تحملُهُ أعضاؤه، فهو مجتمعٌ من أعمالِها وشهواتِها، ماضٍ في تحقيقِ وجودِها ومعانيها؛ أمَّا ٱلحاضرُ، أمَّا ٱلجسَمُ ٱلهرم، فهو يُشعِرُ أنَّهُ يحملُ أعضاءَهُ كلَّها وكأنَّها ملفوفةٌ في ثيابِهِ كمتاعِ ٱلمسافِرِ قبلَ ٱلسفر. . . وكأَنَّ بعضَها يُسَلِّمُ على بعضٍ سلامَ ٱلوداعِ يقول: تُفَارِقُني وأفارِقُك.

فتململ ٱلأستاذُ (م) وقال: أُفٍّ لَكَ ولِمَا تقول! لا جَرمَ أنَّ هذه لغةُ عِظامِكَ ٱلتي لا صلابةَ فيها، فمن ذلك لا تجيءُ معانيك في ٱلحياةِ إلَّا واهِنةً[1] ناحلةً فقدَتْ أكثرَها وبقيَ من كلِّ شيءٍ منها شيءٌ عندَ ٱلنهاية؛ أليسَ في ٱلهرَمِ إلَّا أنْ يبقى ٱلجسمُ لِيكونَ ظاهراً فقطْ كعُمْشُوشِ ٱلعنقودِ[2] بعدَ ذهابِ ٱلحَبِّ منه، يقولُ: كانَ هنا وكانَ هنا؟

ألا فَٱعلمْ يا (ن) أنَّ هذه ٱلشيخوخةَ إنَّما هيَ غلبةُ روحانيَّةِ ٱلجسمِ على بشريتِهِ، فهذا طورٌ من أطورِ ٱلحياةِ لا تدعُهُ ٱلحياةُ إلَّا وفيهِ لذَّتُهُ وسرورُهُ كما تصنعُ بسائرِ أطوارِها؛ غيرَ أنَّ لذَّاتِهِ بينَ ٱلروحِ وَٱلجمال، ومسراتِهِ بينَ ٱلعقلِ وٱلطبيعة، وكلُّ ما نقصَ مِنَ ٱلعمرِ وجبَ أنْ يكونَ زيادةً في إدراكِ ٱلروحِ وقُوَّتِها وشِدَّتِها ونورِها؛ وقد قِيلَ لِبعضِ أهلِ هذا ٱلشأنِ وكان في مرضِ موتِهِ: كيف تجد ٱلعِلَّة؟ فقال: سلوا ٱلعِلَّة عَنِّي كيف تجدُني؟

وإنَّما تثقلُ ٱلشيخوخةُ على صاحبِها إذا هيَ ٱنتكسَتْ فيهِ وكانَتْ مُراغمَةً بينَهُ وبينَ ٱلحياة، فيطمعُ ٱلشيخُ فيما مضى ولا يزالُ يتعلَّقُ بِهِ ويتسخَّطُ[3] على ذهابِهِ ويتصنَّعُ لَهُ ويتكلَّفُ أسبابَه، وقد نسيَ أنَّ ٱلحياةَ ردَّتْهُ طفلاً كَٱلطفل، أكبرُ سعادتِهِ في ٱلتوفيقِ بينَ نفسِهِ وبينَ ٱلأشياءِ ٱلصغيرةِ ٱلبريئة، وأقوى لذَّتِهِ أنْ يتَّفِقَ ٱلجمالُ ٱلذي في خيالِهِ وٱلجمالُ ٱلذي في ٱلكون، وإنَّه لَكَما قلْتَ أنت: لا يهنأُ ٱلشيخُ إلَّا إذا عاشَ بِأفكارِ جسمِهِ ٱلحاضر.

وما أصدقَ وأحكمَ هذا ٱلحديثَ ٱلشريف: «إنَّ ٱللهَ تعالى بعدلِهِ وقِسطِهِ[4] جعلَ ٱلرَّوْحَ وَٱلفرَحَ في ٱلرضى وَٱليقين، وجعلَ ٱلهمَّ وَٱلحزنَ في ٱلشَّكِّ وٱلسُّخْط». فهذه هيَ قاعدةُ ٱلحياة: لا تعاملُكَ ٱلحياةُ بِما تملِكُ مِنَ ٱلدنيا، ولكنْ بِما تملِكُ من

---

(١) واهنة: ضعيفة.

(٢) عُمشوش العنقود: هو ما يبقى منه بعد أكل العنب.

(٣) يتسخط: يظهر غضبه.

(٤) قسطه: عدله.

نفسِك، وبذلك تكونُ ٱلسعادةُ في أشياءَ حقيقةٍ ممكنةٍ موجودة، بلْ تكونُ في كلِّ ما أمكنَ وكلِّ ما وُجِدَ؛ وإذا كانَ ٱلرضى هُوَ ٱلاتفاقَ بينَ ٱلنفسِ وصاحبِها، وكانَ ٱليقينُ هوَ ٱلاتفاق بينَ ٱلنفسِ وخالقِها، فقد أصبحَ قانونُ ٱلسعادةِ شيئاً معنوياً من فضيلةِ ٱلنفسِ وإيمانِها وعقلِها، ومنَ ٱلأسرارِ ٱلتي فيها، لا شيئاً مادياً من أعضائِها ومتاعِها ودنياها وٱلأخيلةِ ٱلمتقلبةِ عليها.

* * *

فأطرقَ ٱلعجوزُ (ن) قليلاً ثُمَّ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، ألا ما أحكمَ هذه ٱلآية! فوَٱللّهِ إنْ قرأْتُ ولا قرأَ الناسُ في تصويرِ ٱلهرمِ ٱلفاني أبدعَ منها ولا أدقَّ ولا أوفى؛ ألَا تُحِسُّ أنَّ قائلَها يكادُ يسقطُ مِنَ عَجَفٍ وهُزالٍ وإعياء؛ وأنَّه ليسَ قائماً في ٱلحياةِ قيامَهُ فيها من قبل، وأن تناقُضَ هذه ٱلحياةِ قد وقعَ في جسمِهِ فأخلَّ بهِ، وأنَّ معاني ٱلترابِ قد تعلَّقَتْ بهذا ٱلجسم تعملُ فيهِ عملَها، فأخذَ يتفتَّتُ كأنَّما لَمَسَ ٱلقبرُ عِظامَهُ وهو حيٌّ، وأنَّهُ بهذا كلِّهِ أَوْشَكَ أن ينكسرَ ٱنكسارَ ٱلعظمِ بلغَ ٱلمِبْردُ فيهِ آخرَ طبقاتِه؟

قالَ محدِّثُنا: قُلْتُ له: تُرى لو أنَّ نابغةً من نوابغِ ٱلتصويرِ في زمنِنا هذا تناولَ بِفنِّهِ ذلك ٱلمعنى ٱلعجيبَ فكتبَهُ صورةً وألواناً، لا أحرفاً وكلمات، فكيف تُراهُ كانَ يصنع؟

قال: كانَ يصنعُ هكذا: يرسمُ منظرَ ٱلشتاءِ في سماءٍ تَعلَّقَ سحابُها كثيفاً متراكباً بعضُهُ على بعضٍ يُخيِّلُ أنَّ ٱلسماءَ تدنو مِنَ ٱلأرض، وقد سَدَّتِ ٱلسحُبُ ٱلآفاقَ وأظلَمَ ٱلجوُّ ظلامَهُ تحتَ ٱلنهارِ ٱلمغطَّى، وَٱستطارَتْ بينَها وشائعُ مِنَ ٱلبرق، ثمَّ يتركُ مِنَ ٱلشمسِ جانب ٱلأفقِ لُمعةً كَضوءِ ٱلشعمةِ في فَتْقٍ من فُتوقِ ٱلسحاب، ثُمَّ يُرسلُ في ٱلصورةِ رِيحاً باردةً هوجَاءَ يدلُّ عليها ٱنحناءُ ٱلشجرِ وتقلُّبُ ٱلنبات، ثُمَّ يرسمُ رِجالاً ونِساءً يغلي ٱلشبابُ فيهم غليانَهُ من قوَّةٍ وعافية، وحُبٍّ وصَبابة، وتغلي فيهم أفكارٌ أخرى. . . وهم جميعاً في هيئةِ ٱلمسرعينَ إلى مرقص؛ وهم جميعاً مِنَ ٱلمجدِّدين. . .

ثم يرسمُ يا بُنيَّ في آخِرهم (على بعْدٍ منهم) عمَّكَ ٱلعجوز (ن)، يرسمُهُ كما تراه، منحلَّ ٱلقوَّة، منحنيَ ٱلصُّلْب، مُرْعَشاً مُتزلزلاً متضعضَعاً؛ قد زعزعتْهُ ٱلريح، وضرَبهُ ٱلبرد، وخنقَتْهُ ٱلسُّحُب؛ وله وجهٌ عليهِ ذبولُ ٱلدنيا، يُنبيءُ أنَّ دمَهُ قد وُضِعَ من جسمِهِ في برَّادَةٍ، وٱلكونُ كلُّهُ من حولِهِ ومن فوقِهِ أسبابُ روماتزم. . .

ثُمَّ يُصورُهُ وقد وقفَ هناك ساهِماً كئيباً، رافعاً رأسَهُ ينظرُ إلى السماء.

* * *

قالَ ٱلمحدِّث: وضحكْنا جميعاً، ثم قالَ ٱلأستاذُ (م): لَعمري إنَّ هذه ٱلحياةَ ٱلآدميَّةَ كَٱلآلةِ صاحبُها مهندسُها؛ فإنْ صَلُحَتْ وٱستقامَتْ فمِنْ علمِهِ بها وحِياطتِهِ لها، وإنْ فسدَتْ وٱختلَّتْ فمِنْ عبثِهِ فيها وإهمالِهِ إيَّاها، وليسَ على ٱلطبيعةِ في ذلك سبيلٌ لائمة؛ وٱلشيخُ ٱلضعيفُ ليسَ في هذه ٱلدنيا إلَّا الصورةُ ٱلهزليةُ لِمفاسدِ شبابِهِ وضعفِهِ ولينِهِ ودَعتِه، تُظهرُها ٱلدنيا لِيسخرَ مَنْ يسخرُ ويتَّعِظَ مَنْ يَتَّعِظُ.

قالَ (ن): أكذلك هو يا أستاذ؟

قالَ ٱلأستاذُ: بلْ هيَ ٱلصورةُ ٱلجِدِّيَّةُ من هذه ٱلباطلةِ ٱلتي دأبُها[1] أَلَّا تُصرِّحَ عن حقيقتِها إلَّا في ٱلآخر، فتُظهرُها ٱلدنيا لِيُجِلَّ ٱلحقيقةَ مَنْ يُجلُّها؛ وليسَ إلَّا بهذه ٱلطريقةِ يُعرفُ من خرابِ ٱلصورةِ خرابُ ٱلمعنى.

قالَ ٱلعجوزُ (ن): آهِ من إجلالِ ٱلشيخوخةِ وَٱحترامِ ٱلناسِ إيَّاها! إنَّهم يَرَوْنَهُ ٱحتراماً لِلشيخِ وَٱلشيخُ لا يراهُ إلَّا تعزية. وما ٱلأشياخُ ٱلهَرْمَى إلَّا جِنازاتٌ قبلَ وقتِها، لا تُوحي إلى ٱلناسِ شيئاً غيرَ وحي ٱلجنازةِ من مهابةٍ وخُشوع.

قالَ ٱلأستاذ: إنَّما أنت دائماً في حديثِ نفسِكَ، ولو كُنْتَ نهراً يا مُسْتنقعُ لَمَا كانَ في لغتِكَ هذه ٱلأحرفُ مِنَ ٱلبعوض.

قالَ ٱلعجوزُ ٱلظريف: إنَّ هذا ليسَ من كلام ٱلفلسفةِ ٱلتي نتنازعُها بينَنا، تَرُدُّ عليَّ وأردُّ عليك، ولكنَّهُ كلامُ القانونِ ٱلذي لك وحدَكَ أنْ تتكلَّمَ بِهِ أيُّها ٱلقاضي.

قال (م): صرِّحْ وبيِّنْ فما فِهَمْنا شيئاً.

قالَ ٱلعجوز: هذا كلامٌ قُلتُهُ قديماً في حادثةٍ عجيبة؛ فقد رُفعَتْ إليَّ ذاتَ يومٍ قضيةُ شيخٍ هرِمٍ كانَ قد سرقَ دجاجة؛ وتوسَّمْتُهُ فإذا هو من أذكى ٱلناس، وإذا هوَ يجلُّ عن موضعِهِ مِنَ ٱلتهمة، ولكنْ صحَّ عندي أنَّهُ قد سرقَ، وقامَتِ ٱلبيِّنةُ عليهِ ووجبَ ٱلحُكم؛ فقلْتُ له: أيُّها ٱلشيخ، ما تستحي وأنت شائبٌ أنْ تكونَ لصّاً؟

قال: يا سيدي ٱلقاضي، كأنَّكَ تقولُ لي: ما تستحي أنْ تجوع؟

فوَرَدَ عليَّ من جوابِهِ ما حيَّرني، فقلْتُ لَه: وإذا جُعْتَ أما تستحي أنْ تسرِقَ؟

---

(١) دأبها: عادتها.

قال: يا سيّدي القاضي، كأنّكَ تقولُ لي: وإذا جُعْتَ أما تستحي أنْ تأكل؟

فكانَتْ هذه أشدَّ عليَّ، فقُلتُ لَه: وإذا أكلْتَ أما تأكلُ إلّا حراماً؟

فقال: يا سيدي ٱلقاضي، إنَّكَ إذا نظرْتَ إليَّ محتاجاً لا أجدُ شيئاً، لم ترني سارقاً حينَ وجدْتُ شيئاً.

فأفحَمني ٱلرجلُ على جهلِهِ وسذاجتِه، وقلتُ في نفسي: لو سرقَ أفلاطونُ لكانَ مثلَ هذا؟ فتركْتُ ٱلكلامَ بٱلفلسفةِ وتكلمْتُ بٱلقانون ٱلذي لا يملكُ ٱلرجلُ معه قوْلاً يُراجعني بهِ، فقلْت: ولكنَّكَ جِئْتَ إلى هذه ٱلمحكمةِ بٱلسرقة، فلا تذهبْ من هذه ٱلمحكمةِ إلّا بٱلحبسِ سنتين.

* * *

قالَ محدِّثُنا: وأرمضَني هذا ٱلعجوزُ ٱلثرثارُ وملأَ صدري، إذْ ما بَرِحَ يُديرُني وأُديرُهُ عن (كاترينا ومرغريت)، ورأيْتُ كلَّ شيءٍ قد هرمَ فيهِ إلّا لِسانَهُ، فحملَني ٱلضجرُ وٱلطيشُ على أنْ قلْتُ لَه: وهَبِ[1] ٱلقضيةَ كانَتْ هي قضيةَ (كاترينا) وقد رُفِعَتْ إليك مُتَّهمة، أفكُنْتَ قائلاً لها: جِئْتِ إلى ٱلمحكمةِ بٱلسرقةِ فلا تذهبينَ مِنَ ٱلمحكمةِ إلّا بٱلحبسِ سنتين؟

وَجَرَتِ ٱلكلمةُ على لِساني وما ألقيْتُ لها بالاً ولا عرفْتُ لها خطراً؛ فٱكفهرَّ ٱلقاضي ٱلعجوزُ وتربَّدَ وجهُهُ غضَباً، وقال: يا بغيض! أحسْبَتني كُنْتُ قائلاً لها: جِئْتِ إلى المحكمةِ بٱلسرقةِ فلا تذهبي مِنَ ٱلمحكمةِ إلّا بٱلقاضي...؟

وغضِبَ ٱلأستاذُ (م)، وقال: ويحكَ! أهذا من أدبِكُمُ ٱلجديدِ ٱلذي تأدَّبْتُم بِهِ على أساتذةٍ منهمُ ٱلفَجرةُ ٱلذين يُكذِّبون ٱلأنبياءَ ولا يُؤْمنونَ إلّا بدينِ ٱلغريزةِ ويسوِّغونَكم مذاهبَ ٱلحميرِ وٱلبِغالِ في حريَّةِ ٱلدم...؟ أما إنِّي لَأَعلمُ أنَّكُم نشأْتُم على حريَّةِ ٱلرأي، ولكنَّ ٱلكلمةَ بينَ ٱثنينِ لا تكونُ حرةً كلَّ ٱلحريَّةِ إلّا وهيَ أحياناً سفيهةٌ كلَّ ٱلسفاهة، كهذِهِ ٱلقَوْلةِ ٱلتي نطقْتَ بها.

لقد كانَ ٱلناسُ في زمنِنَا ٱلماضي أناساً على حدة، وكانَتِ ٱلآدابُ حالاتٍ عقليةً ثابتةً لا تتغيَّرُ ولا يجوز أنْ تتغيَّر، وكان الأستاذُ الكافرُ بينَه وبينَ نفسِهِ لا يكونُ معَ تلاميذِهِ إلّا كَٱلمومس: تجهدُ أنْ تربِّيَ بنتَها على غيرِ طريقتِها!

(١) هب: افترض.

قالَ ٱلحدث: فَلجلْجْتُ وذهبْتُ أعتذر، ولكنَّ ٱلعجوزَ (ن) قطعَ عليَّ وأنشأَ يقولُ وقدِ ٱنفجرَ غيظُهُ: لقد تمَّتْ في هؤلاءِ صنعةُ حريَّةِ ٱلفكرِ، كما تمَّتْ من قبلُ في ذلك ٱلواعظِ ٱلمعلِّم ٱلقديم ٱلذي حدَّثوا عنهُ أنَّهُ كانَ يقصُّ على ٱلناسِ في ٱلمسجدِ كلَّ أربعاء فيُعلِّمُهُم أمورَ دينِهم ويعظُهُم ويُحذِّرُهُم ويُذكرُهُمُ ٱللَّهَ وجنتَهُ ونارَه؛ قالوا: فٱحتبسَ عليهم في بعضِ ٱلأيام وطالَ ٱنتظارُهُم لَه، فبينما هم كذلك إذْ جاءَهُم رسولُهُ فقال: يقولُ لكم أبو كعب: انصرفوا فإنِّي قد أصبحْتُ مخموراً...

هذا ٱلقاصُّ ٱلمخمورُ هو عندَ هؤلاءِ ٱلسخفاءِ إمامٌ في مذهبِ حريَّةِ ٱلفِكْرِ، وفضليتُهُ عندَهم أنَّهُ صريحٌ غيرُ مُنافق... وكانَ يكونُ هذا قوْلاً في إمامِ ٱلمسجدِ لولا أنَّهُ إمامُ ٱلمسجد؛ غيرَ أنَّ حريَّةَ ٱلفِكْرِ تبني دائماً في كلِّ ما تبني على غيرِ ٱلأصل، وعندَها أنَّ ٱلمنطقَ ٱلذي موضوُعُه ما يجب، ليسَ بِٱلمنطقِ ٱلصحيحِ؛ إذْ لا يجبُ شيءٌ ما دامَ مذهبُها ٱلإطلاقَ وَٱلحريَّة.

كلُّ مفتونٍ من هؤلاءِ يتوهَّمُ أنَّ ٱلعالمَ لا بُدَّ أنْ يمرَّ من تفكيرِهِ كما مرَّ من إرادةِ ٱلخالق، وأنَّهُ لا بُدَّ لَهُ أنْ يحكمَ على ٱلأشياءِ ولو بكلمةٍ سخيفةٍ تجعلُهُ يحكمُ، ولا بُدَّ أنْ يقولَ (كُنْ وإنْ لم يَكُنْ إلَّا جهلُه؛ ومذهبُهُ ٱلأخلاقيّ: اطلبْ أنت ٱلقوةَ لِلْمجموع، أمَّا أنا فألتمسُ لِنفسيَ ٱلمنفعةَ وٱللذَّة! ويحسبونَ أنَّهم يحملونَ ٱلمجتمع؛ فإنَّهم لَيحملونَه، ولكنْ على طريقةِ ٱلبراغيثِ في جناحِ ٱلنسر.

قال (م): وكيف ذلك؟

قال: زعموا أنَّ طائفةً مِنَ ٱلبراغيثِ ٱتصَّلَتْ بجناحِ نسرٍ وَٱستمرَأَتْهُ ورَتَعَتْ[1] فيهِ، فصابرَها ٱلنسرُ زمناً، ثُمَّ تأذَّى بِها وأرادَ أنْ يرمِيَها عنُه، فطفِقَ يخفقُ بجناحيهِ يُريدُ نفضَها، فقالَتْ لَهُ ٱلبراغيث: أيَّها ٱلنسرُ ٱلأحمق! أمَا تعلمُ أنَّنا في جناحيك لِنحملَكَ في ٱلجو؟...

أمَّا أساتذةُ هذهِ ٱلحريَّةِ ٱلدينيَّةِ ٱلفكريَّةِ ٱلأدبيَّة، فقدْ قالَ ٱلحكماء: إنَّ بَعْرةً مِنَ ٱلبَعْرِ كانَتْ معلِّمةً في مدرسة.

قال (م): وكيفَ ذلك؟

(١) رتعت فيه: عاشت ترعى في جناحه.

قال: زعموا أنَّ بعرةَ كِبشٍ كانَتْ معلِّمةً في مدرسةِ ٱلحصى، فألَّفَتْ لِتلاميذِها كتاباً أحكَمَتْهُ وأطالَتْ لَهُ ٱلفِكْرة، وبلغَتْ فيهِ جهدَ ما تقدِرُ عليهِ لِتُظهرَ عبقريَّتَها ٱلجبَّارة؛ فكانَ ٱلبابُ ٱلأكبرُ فيهِ أنَّ ٱلجبلَ خُرافةٌ مِنَ ٱلخُرافات، لا يسوغُ في ٱلعقلِ ٱلحرِّ ألَّا هذا، ولا يصحُّ غيرُ هذا في ٱلمنطق؛ قالَتْ: وَٱلبُرهانُ على ذلك أنَّهُمْ يزعمونَ أنَّ ٱلجبلَ شيءٌ عظيم، يكونُ في قدْرِ ٱلكِبشِ ٱلكبيرِ ألفَ ألفِ مرَّة؛ فإذا كانَ ٱلجبلُ في قدْرِ ٱلكِبشِ ألفَ ألفِ مرةٍ فكيف يُمكنُ أنْ يبعْرَهُ ٱلكِبش؟ . . .

قالَ الأستاذ (م): هذا منطقٌ جديدٌ سديدٌ أنَّهُ منطقُ بعرة!

قال (ن): وكلُّ قديم لَهُ عندَهم جديد، فكلمةُ (رجل) قد تخنَّثَتْ، وكلمةُ (شاب) قد تأنَّثَتْ، وكلمةُ (عفيفةٍ) قد تدنَّست، وكلمةُ (حيَاءٍ) قد تنجَّسَت؛ وَٱلزمنُ ٱلجديدُ ألَّا يعرفَ ٱلطالبُ في هذا ٱلعام ماذا تكونُ أخلاقُهُ في ٱلعامِ ٱلقادم . . . وَٱلحياةُ ٱلجديدةُ أنْ تُتقِنَ ٱلغشَّ أكثرَ مِمَّا تُتقِنُ ٱلعمل . . . وَٱلذمَّةُ ٱلجديدةُ أنَّ مالَ غيرِكَ لا يُسمَّى مالاً إلَّا حينَ يصيرُ في يدِك . . . وَٱلصِّدقُ ٱلجديدُ أنْ تكذِبَ مائةَ مرَّة، فعسى أنْ يُصدِّقَ ٱلناسُ منها مرَّة . . . ثُمَّ ٱلإنسانُ ٱلجديد، وَٱلحُبُّ ٱلجديد، وٱلمرأةُ ٱلجديدة، وٱلأدبُ ٱلجديد، وٱلدينُ ٱلجديد، وَٱلأبُ ٱلجديد، وَٱلابنُ ٱلجديد، وما أدري وما لا أدري.

قالوا: (السوبرمان)، وتنطَّعوا[1] في إخراجِ ٱلمخلوقِ ٱلكاملِ بغيرِ دينِهِ وأخلاقِه، فسخِرَتْ منهمُ ٱلطبيعةُ فلم تُخرجْ إلَّا ٱلناقصَ أفحشَ ٱلنقص، وتركَتْهُم يعملون في ٱلنظريَّةِ وعمِلَتْ هيَ ٱلحقيقة.

* * *

قالَ محدِّثُنا: ونهضَ ٱلعجوزُ (ن)، وهو يقول: تباركْتَ وتعالَيْتَ يا خالقَ هذا ٱلخلق! لو فهِمُوا عنك لَفَهِموا ٱلحِكْمةَ في أنَّكَ قد فتحْتَ على ٱلعِلْمِ ٱلجديدِ بِٱلغازاتِ ٱلسامَّةِ . . .

قال: ولمَّا ٱنصرفَ ٱلعجوز، قلْتُ لِلأُستاذ (م): ولكنْ ما خبرُ (كاترينا) و(مرغريت) وسنة ١٨٩٥؟

فقال: أيَّها ٱلأبلهُ، أمَا أدركْتَ بعدُ أنَّ ٱلعجوزينِ قد سخرا منكَ بأسلوبٍ جديد . . .

---

(١) تنطّعوا في الكلام: تعمّقوا وغالوا وتأنّقوا وفي العمل تحذّقوا.

السطر ٱلأخيرُ مِنَ ٱلقصة

رجعْتُ إلى أوراقٍ لي قديمةٍ يبلغ عمرُها ثلاثينَ سنةً أو لِواذَها، تزيدُ قليلاً أو تنقصُ قليلاً، وجعلْتُ أُفلِّي هذه الأوراقَ واحدةً واحدة، فإذا أنا على أطلالِ ٱلأيام في مدينةٍ قائمةٍ من تاريخيَ ٱلقديم، نائمةٍ تَحْتَ ظُلُماتِها ٱلتي كانَتْ أنوارَ عهدٍ مَضَى؛ وإذا أنا منها عهدٌ في أيام حِدْثانِهِ ونشاطِهِ إلَّا ٱتَّصلَ بينَهما سِرّ؛ ومن طبيعةِ ٱلقلْبِ ٱلعاشقِ في حنينِهِ أنْ يَجْعَلَ كلَّ شيءٍ يَتَّصلُ بِهِ كأنَّهُ ذو قلْبٍ مثلِهِ لَهُ حنينٌ ونجْوى!

وذلك ٱلتَّلاشي ٱلمحفوظُ في هذه ٱلأوراق، يَحفظُ لي فيها وفيما تحتويهِ نفْساً وطبيعةً كانَتْ نفسَ شاعرٍ وطبيعةَ روْضة، في عهدٍ مِنَ ٱلصِّبَى كنْتُ فيهِ أتقدَّمُ في ٱلشبابِ وفي ٱلكوْنِ معاً كأنّ ٱلأشياءَ تُخْلَقُ فيَّ خَلْقاً آخر؛ فإذا قَرَضْتُ[1] شِعْراً وٱستوى لي على ما أُحِبُّ، أحسسْتُ إحساسَ ٱلملِكِ ٱلذي يَضُمّ إلى مملكتِهِ مدينةً جديدة؛ وإذا تناولْتُ طاقةً مِنَ ٱلزهر وتأمَّلتُها على ما أُحِبُّ، شَعرْتُ بها كأجملِ غانيةٍ[2] مِنَ ٱلنساءِ تُوحِي إليَّ وحيَ ٱلجمالِ كلِّه؛ وإذا وقفْتُ على شاطىءِ ٱلبحر، تَرَجْرجَ ٱلبحرُ بأمواجِهِ في نفسي، فكنْتُ معَهُ أكبرَ مِنَ ٱلأرضِ وأوسعَ مِنَ ٱلسماء. أمَّا ٱلحُبُّ. . . أمَّا ٱلحُبُّ فكانَتْ لَهُ معانيهِ ٱلصغيرةُ ٱلتي هيَ كَضروراتِ ٱلطفلِ لِلطفلِ: ليسَ فيها كبيرُ شيءٍ، ولكنَّ فيها أكبرَ ٱلسعادة، وفيها نَضْرَةَ ٱلقَلْبِ.

عهدٌ مِنَ ٱلصِّبى كانَتْ فيهِ طريقةُ ٱلعقلِ من طريقةِ ٱلحُلْم؛ وكانَتِ ٱلعاطفةُ هيَ عاطفةً في ٱلنفس، وهيَ في وقتٍ معاً خُدْعَةٌ مِنَ ٱلطبيعة؛ وكانَ ما يأتي يُنْسي دائماً ما مضى ولا يُذَكِّرُ به؛ وكانَتِ ٱلأيامُ كَالأطفالِ ٱلسعداء: لا ينامُ أحُدُهم إلَّا على فكرةِ لَعِبٍ ولَهْو، ولا يستيقظُ إلَّا على فِكْرةِ لَهْوٍ ولعب: وكانَتِ ٱللّغةُ نفسُها كأنَّ فيها ألفاظاً مِنَ ٱلحلْوى؛ وكانَتِ ٱلآلامُ ـ عاى قلتِها ـ كَٱلمريضِ ٱلذي معَهُ دواؤهُ ٱلمجرَّب، وكانَتْ فلسفةُ ٱلجمالِ تضحكُ من فيلسوفِها ٱلصغير، ٱلواضحِ كُلَّ

(١) قرضت الشعر: أنشدته.

(٢) الغانية: الشابة اغتنت بجمالها عن الزينة.

ٱلوضوح، ٱلمقتصرِ بكلِّ لفظٍ على ما يُعرفُ من معناه، ٱلمتفَلْسِفِ في تحقيقِ ٱلرغبةِ أكثرَ مِمَّا يتفلسفُ في تخيُّلِ ٱلفِكْرة!

هُوَ ٱلعهدُ ٱلذي مِنْ أخصِّ خصائصِهِ أنْ تعملَ، فيكونَ ٱلعملُ في نفسِهِ عملاً ويكونَ في نفسِكَ لذة.

* * *

في أوراقي تلك بحثْتُ عَنْ قصّةٍ عُنوانُها «الدّرسُ ٱلأوّلُ في علبْةِ كبريت» كتبْتُها في سنةِ ١٩٠٥، وأنا لا أدري يومئذٍ أنَّها قصّةٌ يَسْبَحُ في جوِّها قَدْرٌ روائيٌّ عجيب، سيأتي بعدَ ثلاثينَ سنةً فيكتبُ فيها ٱلسطرَ ٱلأخيرَ ٱلذي تَتِمُّ بِهِ فلسفةُ معناها.

وهأنذا أنشرُها كما كتبْتُها؛ وكانَ هذا ٱلقلمُ إذ ذاك غَضّاً لم يَصْلُبْ، وكان كَٱلغصنِ تميلُ بِهِ ٱلنّسمة، على أنَّ أساسَ بلاغتِهِ قد كانَ ولم يزلْ، بلاغةَ فرحِهِ أو بلاغةَ حزنِه؛ وهذه هيَ ٱلقصة:

«عبدُ ٱلرحمنِ عبدِ ٱلرحيم» غلامٌ فلّاح، قد شهِدَ من هذه ٱلدنيا تسعةَ أعوام، مرّتْ بِهِ كما يمرّ ٱلزمنُ على ميت: لا تزيدُهُ حياةُ ٱلأحياءِ إلّا إهمالاً. فنشأَ مَنْشَأَ أمثالِهِ مِمَنْ فقدوا ٱلوالدينِ وَٱنْتُزِعوا من شَمْلِهِم[1] فتُرِكوا لِلْطبيعةِ تَفْصِلُهُم وتَصِلُهُم بِٱلحياة، وتُضيِّقُ لهم فيها وتوَسِّع.

وهيَّأتِ ٱلطبيعةُ منه إنساناً حيوانيّاً، لا يبلغُ أشُدَّهُ حتى يُغالبَ على ٱلرزقِ بِٱلحيلةِ أوِ ٱلجريمة، ويستخلصَ قُوتَهُ كما يرتزقُ ٱلوحْشُ بِٱلمِخْلَبِ وٱلنّاب؛ ولن يكونَ بعدُ إلّا مجموعةً مِنَ ٱلأخلاقِ ٱلحيوانيَّةِ ٱلفاتكةِ ٱلجريئة، فإنَّ ٱلطبيعةَ متى ٱبتدأتْ عملها في تحويلِ ٱلإنسانِ عن إنسانيَّتِه، نزلَتْ بِهِ إلى ٱلعالَم ٱلحيوانيّ، ووصلَتْهُ بِما فيهِ مِنَ ٱلشرِّ وٱلدناءة، ثُمَّ لا تتركُ عملَها حتى يتحوّلَ هو إليها.

وألِفَ «عبدُ ٱلرحمن» في بلدِهِ حانوتَ رجلٍ فقير، يستغني بِٱلبيعِ عنِ ٱلتكففِ[2] وعنِ ٱلمسألة؛ فكانَ ٱلغلامُ يُكْثِرُ ٱلوقوفَ عنده، وكانَ يُطْعَمُ من صاحبِهِ أحياناً كرزقِ ٱلطير، فُتَاتاً وبقايا؛ إذْ كانَ ٱلغلامُ شحّاذاً، وكانَ صاحبُ ٱلحانوتِ لا يرتفعُ عنِ ٱلشّحاذةِ إلّا بمنزلةٍ تجعلُ ٱلناسَ يتصدَّقون عليهِ بِٱلشراءِ من هَنَاتِهِ[3] ٱلتي يُسميها بِضاعة: كَٱلخيطِ، وَٱلإبرة، وَٱلكِبريتِ وٱلمِلْح، وغزالٍ لِلولد، وكُحْلٍ

---

(١) شملهم: الجمع العائلي.

(٢) التكفف: التسوّل والمسألة.

(٣) هناته: التافه من البضائع.

لِلصَّبَايا، ونشوقٍ لِلعجائز، ونُسْخَةِ ٱلشيخِ ٱلشَّعراني، وما لفَّ لفَّها[1] مِمَّا يصعدُ ثمنُهُ من كسورِ ٱلمليم، إلى ٱلمليم وكسورةٍ!

وتَغَفَّلَهُ[2] ٱلغلامُ مرّةً وأهوى بيدِهِ إلى ذخائرِ ٱلحانوت، فٱلتقطَتْ «علبةَ كبريتٍ» كانَ ٱلفَرْقُ كلُّ ٱلفرقِ بينَ أنْ يسرقَها وأنْ يشتريَها ـ نصفَ مليم؛ ولكنْ مَنْ لَهُ «بالعشرينَ ٱلخُرْدة» وهيَ عندَ مثلِهِ دينارٌ منَ ٱلذهبِ يرنّ رنيناً ويرقصُ على ٱلظُّفرِ رقْصةً إنجليزيَّة؟

وماذا يصنعُ بِٱلعُلْبة؟ همَّتْ نفسُهُ أنْ تُجادِلَهُ وَلَمَّا تَسكُنْ رَعْشَةُ يدِهِ من هَوْلِ ٱلإثم[3]، ولكنَّ ٱلغلامَ كانَ طبيعيّاً ولم يكنْ فيلسوفاً، ولذلك رأى أنْ يُحْرِزَ ٱلحقيقةَ بعدَ أنْ وقعَتْ يدُهُ عليها. وقدِ ٱصطلحَ ٱلناسُ على أنَّ مادّةَ ٱلسرقةِ هيَ «مدُّ ٱليد» أخطأَتْ أم أصابَتْ، وجاءَتْ بِٱلغالي أو جاءَتْ بِٱلرخيصِ؛ فضمَّ أصابعَهُ على ٱلعلبةِ وَٱنتزعَها، وتركَ في مكانِها فضيلةَ ٱلأَمانةِ ٱلتي لم يعرفْ لَهُ ٱلناسُ قِيمتَها فهانَتْ كذلك على نفسِهِ وٱنطلقَ وهيَ تُناديه:

أيُّها ٱلغلام، أتدفعُ ثمنَ علبةِ ٱلكبريتِ سنَتينِ من عمرِك؟ وهل خلا ٱلناسُ مِمَنْ يعرفون لِعُمركَ قِيمة؟

وٱرتدَّ رجْعُ ٱلصوتِ[4] ٱلخفيّ إلى قلبِهِ من حيثُ لا يشعر، فَضَربَ قلبُهُ ضَرباتٍ مِنَ ٱلخوْف، ونزا نزْوةً مضطربة؛ فٱلتفتَ ٱلغلامُ مرَّةً أخرى، ثُمَّ أمْعنَ[5] في ٱلفِرارِ وتركَ ٱلأمانةَ تُناديه:

أيُّها ٱلغلام، إنَّ لَكَ في ٱلآخرةِ ناراً لا تُوقدُ بهذا ٱلكبريت، ولك في ٱلدنيا سجنٌ كهذهِ ٱلعلبةِ، فَٱلْعبِ العَبْ ما دامَ ٱلناسُ قد أهملوك! العبْ بِٱلثَّقابِ ٱلذي في يدِك فسيمتدُّ فيك معنى ٱللهَّبِ حتى يجعلَ حياتَكَ في أعمارِ ٱلناسِ دُخاناً وناراً؛ وستكونُ أيّامُك أعواداً كهذا ٱلكبريت: تشتعِلُ في ٱلدنيا وتُحرق.

وكأنَّ أذنابَ ٱلسِّياطِ كانَتْ تُلْهِبُ ظهرَ ٱلغلامِ ٱلمسكين، ولكنَّه ما كادَ يلتفتُ هذهِ ٱلمرةَ حتى كانَ في قبضةِ صاحبِ ٱلحانوت، وإذا هو بِكلمةٍ من لغةِ كَفِّهِ ٱلغليظة، خَيَّلَتْ لَهُ في شعرِها أنَّ جِداراً ٱنقضَّ عليهِ، وتَلَتْها جملةٌ من قوافي ٱلصَّفْعِ جَلْجَلَتْ في أذنيهِ كَٱلرعد، وأعقبَ ذلك مثلُ ٱلموْجِ من جماعاتِ ٱلأطفالِ أحاطَ بِهِ

---

(١) ما لفّ لفّها: ما شاكلها وشابهها.
(٢) تغفله: غافله: انتهز فرصة غفلته.
(٣) هول الإثم: فظاعة الجريمة.
(٤) رجع الصوت: الصدى.
(٥) أمعن: زاد.

فتركَ هذا ٱلزَّورقَ ٱلإنسانيَّ ٱلصغيرَ يتَكفأُ على صَدَماتِ ٱلأيدي، فما أَحَسَّ ٱلغلامُ ٱلتَّعِسُ إلَّا أنَّ ٱلكبريتَ ٱلذي في يدِهِ قدِ ٱنقدحَ في رأسِهِ، وكانَتْ أناملُ صاحبِ ٱلحانوتِ كأنَّما تحكُّ أعوادَهُ في جِلدِ وجهِهِ ٱلخَشِنِ!

* * *

وذهبوا به إلى (دَوَّارِ) ٱلعُمْدةِ يقضي فيهِ ٱلليلَ ثُمَّ يُصبحُ على رحْلةٍ إلى ٱلمركزِ وَٱلنيابة؛ وَٱنطرحَ ٱلمسكينُ منتظراً حُكْمَ ٱلصباح، مُؤمِّلاً في عقلِهِ ٱلصغيرِ ألا يُفْصِحَ ٱلنهارُ حتى يكونَ «سيدُنا عزرائيل» قد طمسَ[1] ٱلجريمةَ وشهودَها، ثُمَّ أغفى مطمئنّاً إلى ملكِ ٱلموتِ وأنَّهُ قد أخذَ في عملِهِ بجدّ، وأيقنَ عندَ نفسِهِ أنْ سيشحذُ في ٱلخميسِ مِمَّا يُوزعُ في ٱلمقبرةِ صدقةً على أرواحِ ٱلعمدة، وصاحبِ ٱلحانوت، وٱلخفيرِ ٱلذي عهدوا إليهِ جَرَّهُ إلى المركز! . . . وكيفَ يشكُّ في أنَّ هذا واقعٌ بهم وهو قد توسَّلَ بِٱلوليِّ فلانٍ ونذَرَ لَهُ شمعةً يسرقُها من حانوتٍ آخر. . . !

هكذا عرفَ ٱلشرَّ قلْبُ هذا ٱلصبي، وَٱنتهى بِهِ عدلُ ٱلناسِ إلى أفظعَ من ظُلم نفسِهِ، وكأنَّهم بذلك ٱلقانونِ ٱلذي يُصلحونَهُ بِهِ على زعمِهم، قد ناولوه سُبْحةً لِيظهَرَ بها مظهرَ ٱلصالحين؛ ولم يُفهِمُوه شيئاً ففهِمَ أنَّهُم يقولون له: هذه ٱلجريمةُ واحدة، فعُدَّ جرائمَك على هذه ٱلسبحةِ لتِعرفَ كم تبلغ!

كانَتْ في ٱلحقيقةِ لُعبةً لا سَرِقة، وكانَتْ يدُ ٱلغلام فيما فعلَتْ مُستجيبةً لِلقانونِ ٱلمرحِ وَٱلنشاطِ وَٱلحركة، كما تكونُ أعضاءُ ٱلطفلِ لا كما تكونُ يدُ ٱللصِّ؛ وكانَ أشبهَ بِٱلرضيعِ يمدُّ يدَهُ لِكُلِّ ما يَراه، لا يميِّزُ ضارَّةً ولا نافعةً، وإنَّما يُريدُ أنْ يشعرَ ويُحقِّقَ طبيعتَه؛ وكانَ كلُّ ما في ٱلأمر وقُصَارَى ما بَلَغ ـ أنَّ خيالَ هذا الغلام أَلَّفَ قصَّةً من قصصِ ٱللَّهو، وأنَّ ٱلكِبارَ أخطئوا في فهمِها وتوجيهِها. . . ! ليسَتْ سرقةُ ٱلطفلِ سرقة، ولكنَّها حقٌّ من حقوقِ ذكائِهِ يُريدُ أنْ يظهر.

* * *

وَٱنتهى «عبدُ ٱلرحمن» إلى ٱلمحكمة، فقضَتْ بسجنِهِ في (إصلاحيةِ ٱلأحداث) مدَّة سنتين، وٱستأنفَ لَهُ بعضُ أهلِ ٱلخيرِ في بلدَة؛ صدقةً وٱحتساباً. . . إذا لم يكلِّفِ ٱلاستئنافُ إلَّا كتابةَ ورقة؛ فلمَّا مَثَلَ ٱلصغيرُ أمامَ رئيسِ ٱلمحكمةِ لم يكنْ معَهُ لِفقرِهِ محامٍ يدفعُ عنه، ولكنِ ٱنطلقَ من داخلِهِ مُحامٍ شيطانيٌّ يتكلمُ بِكلامٍ عجيب،

---

(١) طمس: غطّى.

هو سخريةُ ٱلجريمةِ مِنَ ٱلمحكمة، وسخريةُ عملِ ٱلشيطانِ من عَمَلِ ٱلقاضي. . !

سألَهُ الرئيس: «ما ٱسمُك؟».

ـ: «اسمي عبده، ولكنَّ ٱلعُمدةَ يسميني: يأبن ٱلكلب!».

ـ: «ما سنك؟».

ـ: «أبُويا هُوَ اللي كان سَنَّان».

ـ: «عُمْرك إيه؟».

ـ: «عُمْري؟ عُمْرِي ما عَمَلت شَقَاوة!».

النيابة لِلْمحكمة: «ذكاءٌ مخيف يا حضرات القضاة! عُمرُهُ تِسْعُ سنوات!»

الرئيس: «صنَعتك إيْه؟».

ـ: «صنَعتي ألْعَب مع محمود ومريم، وأضْرَب اللي يِضْرَبْني!».

ـ: «تعيش فينْ؟».

ـ: «في البلد!».

ـ: «تاكل منين؟».

ـ: «آكل مِنَ الأكل!».

ٱلنيابة لِلمحكمة: «يا حضراتِ ٱلقضاة، مثلُ هذا لا يسرقُ علبةَ كبريتٍ إلّا لِيُحرِقَ بها البلد. . . !».

الرئيس: «ألَكَ أمّ؟».

ـ: «أمي غضِبتْ على أبويا، وراحَتْ قعدَتْ في ٱلتُّرْبة؛ مارِضْيِتْش تِرْجَع!».

ـ: «وأبوك؟».

ـ: «أبُويا لأخَرْ غِضبْ وراحْ لها».

الرئيسُ ضاحكاً: «وأنتَ؟».

ـ: «وٱللَّهِ يا أفندي عاوِزا غَضب، مُشْ عارِف أغضب ازَّاي!».

ـ: «إنتَ سرقْتَ علبةَ الكبريت؟».

ـ: «دِي هيَّ طارت من الدكان، حسبتها عصفورة ومْسِكْتها. . .».

النيابة: «وليه ما طارتْشِ العلب اللي مَعاها في الدكان؟».

ـ: «أنا عارف؟ يمْكِن خافت مني!».

النيابةُ لِلمحكمة: «جراءةٌ مخيفةٌ يا حضراتِ القضاة، المتهمُ وهو في هذه السنّ، يشعرُ في ذاتِ نفسِهِ أنَّ ٱلأشياءَ تخافُه!».

فصاحَ ٱلغلامُ مسروراً من هذا الثناء. . . «واللّهِ يا أفندي إنتَ راجِل طيب! أديكْ عِرِفْتني، ربنا يكفيك شرّ العُمدة والغفير!».

* * *

وأُمضى ٱلحُكْمُ في ٱلاستئناف، وخرجَ ٱلصغيرُ معَ رجالٍ مِنَ ٱلمجرمينَ يسوقُهمُ ٱلجند، ثمَّ ٱحْتَبَسوا ٱلجميعَ فترةً مِنَ ٱلوقتِ عندَ كاتبِ ٱلمحكمة، لِيستوفيَ أعمالَهُ ٱلكتابيَّة؛ ثُمَّ يُساقوا من بعدُ إلى ٱلسجن.

وجلسَ «عبدُ ٱلرحمن» على الأرض، وقدِ ٱكتنفَهُ عن جانبيهِ طائفةٌ مِنَ ٱلمجرمينَ يتحادثون ويتغامزون، وكلُّهم رِجالٌ ولكنَّه وحَدهُ ٱلصغيرُ بينِهِم؛ فٱطمأنَّ شيئاً قليلاً، إذْ قدَّرَ في نفسِهِ أنَّهُ لو كانَ هؤلاءِ قد أُريدَ بهم شرٌّ لَمَا سكنوا هذا ٱلسكون، وأنَّ ٱلذي يُرادُ بهم لا ينالُهُ هو إلَّا أصغرُ منه، كصفْعةٍ أو صفعتينِ مثلاً. . . وهو يسمعُ أنَّ الرجالَ يُقَتلون ويُحَرّقون ويَسمُّون ويعتدُون وينهبون؛ وما تكونُ (علبةُ ٱلكبريت) في جنبِ ذلك؟ وخاصةً بعدَ أنِ ٱستردَّها صاحبُها، وقد نال هو ما كفاهُ قبلَ الحكم!

وما لبثَ بعدَ هذا ٱلخاطرِ ٱلجميل أنْ ردَّ ٱلاطمئنانُ في عينيهِ دموعاً كادَ يُريقُها الجزَع[1]، غيرَ أنَّ ٱلقلقَ ٱعتادهُ، فَٱلتفتَ إلى كتَّابِ ٱلمحكمة مرَّةً وإلى ٱلجندِ مرَّة، ثُمَّ لوى وجهَهُ ولم يَستبِحْ لِنفسِهِ أنْ يتجرَّأَ على ٱلفِكْرِ فيهم، لِأنَّهُ قابَلَ مهابتَهم بألهةِ بلدِه: ٱلعُمدةِ وَٱلمشايخ وٱلخفراء؛ فأدركَ أنَّ ٱلجنودَ هُمُ ٱلحكومةُ القادرة، وٱستدلَّ على ذلك بأزرارِهمُ ٱللَّامعة، وخناجرِهمُ ٱلصقيلة: وتمشَّتْ في قلبِهِ رهبةُ هٰذه ٱلخناجر، فٱضطربَ خشيةَ أنْ يكونوا قد أسلمُوه مَنْ يذبحُهُ، فنظرَ إلى ٱلذي يليه مِنَ ٱلمجرمينَ وسأله: «راحْ ياخْدُوني فينْ؟»، فأجابَتْهُ لكمةٌ خفيَّةٌ ٱنطلقَ لها دمعُه، حتى أسكَتَهُ ٱلذي يليه مِنَ ٱلجانبِ ٱلآخر، وكانَ في رأيه مِنَ ٱلصالحين؟

ثُمَّ ٱتصلَ ٱلجزَعُ بينَ قلبِهِ وعينيه، فهما تضطربانِ إلى ٱلجهاتِ ٱلأربع، وكأنَّما يُحاولُ أنْ يستشفَّ[2] من أيِّها سيأتيهِ ٱلموْتُ ذَبحاً؛ ولم يكنْ فَهِمَ معنى (الإصلاحيَّة)، وحَكَمَ ٱلقضاةُ عليهِ كأنَّهُ رجلٌ يفهمُ كلَّ شيء، ولم يرحموا هٰذه ٱلطفولةَ بِكلمةٍ مُفسرة. وعَدْلُ ٱلتربيَّةِ غيرُ عدلِ ٱلقانون، فكانَ ٱلواجبُ على القاضي ٱلذي يحكمُ على ٱلطفل، أنْ يجعلَ حُكْمَهُ أشْبَهَ بِصيغةِ ٱلقصةِ منه بصيغةِ ٱلحكْم، وأنْ يَدَعَ ٱلجريمةَ تنطلقُ وتذهبُ فلا يقولُ لها ٱمكُثي. . .

---

(١) الجزع: الخوف.

(٢) يستشفّ: يستطلع.

وبقيَ لِلخناخرِ رَهبتُها في نفسِ هذا ٱلمسكين، فلو أنَّهم قادوه إلى حبلِ ٱلشنَّاقةِ[1] لأفْهَمهُ (ٱلحَبْلُ) معنى ٱلعقوبة، أمَّا وهو بين هذه ٱلخناجرِ ٱلمُغْمدةِ ـ وفي ٱلخناجرِ معنى ٱلذبح ـ فإنَّما هوَ ٱلذبحُ لا غيرُه.

وطرقَتْ أذنيهِ قهقهةُ ٱلمجرم عن يمينِهِ فٱستنقذتْهُ من هذا ٱلخاطر، فثبَّتَ عينيَهِ في ٱلرجل، فإذا هو يرى وجهاً متلألِئاً، وجِسْماً رابطَ ٱلجأش، وهُزُؤاً وسخريةً بِهؤلاءِ ٱلجنودِ وخناجرِهم.

وٱستراحَ ٱلغلامُ إلى صاحبِهِ هذا، وألحّ بنظرِهِ عليه، وٱبتدأ يتعلَّمُ في وجهِهِ ٱلفلسفة؛ وليسَتِ ٱلفلسفةُ مقصورةً على ٱلكتب، بلْ إنَّ لِكُلِّ إنسانٍ حالةً تشغلُه، فَنَظَرُهُ في ٱعتبارِ دقائقِها وكشفِ مستورِها هَو ٱلفلسفةُ بعينِها.

وقالَ ٱلغلامُ لِنفسِه: «هذا ٱلرجلُ أقوى من كلِّ قوَّة؛ فهو محكومٌ عليهِ ولا يُبالي، بلْ يقهقِهُ ضحكاً؛ فهذا ٱلحكمُ إذن لا يُخيفُ؛ لا، بلْ هو تعوّدَ ٱلأحكام؛ إذن فمَنْ تعودَ ٱلأحكامَ لم يَخَفِ ٱلأحكام؛ إذن يا عبدَ ٱلرحمنِ ستتعوَّد، فإنَّ ٱلخوفَ هذه ٱلمرَةَ غطَّك من (علبةِ ٱلكبريت) في حريقٍ متسعِر، وما قَدْرُ (علبةِ ٱلكبريت)؟ فلو كانَتِ ٱلسرقةُ جاموسةً ما لقيْتُ أكثرَ من ذلك؛ يا ليتني إذن... ولكنّي لا أزالُ صغيراً، فمتى كبِرْت... آه متى كبِرْت...».

وبدأ ٱلقانونُ عملَهُ في ٱلغلام؛ فَطردَ منهُ ٱلطفلَ وأقرّ فيهِ ٱلمجرم.

وأطرقَ «عبدُ ٱلرحمن» هادئاً ساكناً. وقامَتْ في نفسِهِ محكمةٌ مِنَ ٱلأبالسةِ بِقُضاتِها ونِيابتِها؛ يُجادِلُ بعضُهُم بعضاً، ويُداولون بينَهم أمرَ هذا ٱلغلامِ على وجهٍ آخر.

وقالَ شيطانٌ منهم: «ولكنَّا نخشى أمرين: أحَدهما أنَّ (ٱلإصلاحيَّة) ستُخرجُهُ بعدَ سنتينِ شريفاً يحترفُ؛ وٱلثاني أنَّ الناسَ ربَّما تولَّوه بِٱلتربيةِ وٱلتعليمِ في ٱلمدارسِ رحمةً وشفقة؛ فيخرجُ شريفاً يحترف».

وما أسرعَ ما نفى ٱلخوفَ عنهم قولُ ٱلغلامِ نفسِهِ بلهجةٍ فيها ٱلحِقْدُ وَٱلغيْظُ وقد صفَعُه ٱلجنديُّ ٱلذي يقودُهُ إلى السجن ـ: «وِداكله على شَانْ علبة كبريت؟...».

في سنة ١٩٣٤ قَضتْ محكمةُ ٱلجناياتِ بِٱلموتِ شنقاً على قاتلِ مجرمٍ خبيثٍ عيَّارٍ مُتَشطرٍ؛ اسمهُ «عبد الرحمن عبد الرحيم».

---

(١) الشنّاقة: المشنقة.

عاصفةُ القدَر

على شاطىءِ ٱلنيلِ في إقليم (ٱلغربيةِ) من هذا ٱلبرّ، قريةٌ ليسَ فيها من جبل، ولكنْ روحُ ٱلجبلِ في رجلٍ من أَهلِها، فإذا أنت ٱعتبرْتَهُ بِٱلرجالِ قوَّةً وضعفاً رأيْتَهُ ينهضُ فيهم بمنكبيهِ نهضةَ ٱلجبلِ فيما حولَه؛ وهو بطلُ ٱلقريةِ ولواءُ كلِّ معركةٍ تنشبُ فيها بينَ فتيانِها وبينَ فِتيان ٱلقرى ٱلمتناثرةِ حوْلَها؛ ولا تزالُ هذه ٱلمعاركُ بينَ شُبَّانِ ٱلقُرى كأنَّها من حركةِ ٱلدمِ ٱلحرِّ ٱلفاتح ٱلمتوارثِ فيهم من أجيالٍ بعيدة، ينحدرُ من جيلٍ إلى جيلٍ وفيهِ تلكَ ٱلقطراتُ ٱلثائرةُ ٱلتي كانَتْ تغلي وتفور، وهيَ كعهدِها لا تزالُ تفورُ وتغلي، ويلقبون هذا ٱلرجلَ ٱلشديدَ (بالجمل)، لِمَا يعرفونه من جَسامةِ خُلُقِهِ وصبرِهِ على ٱلشدائد، وٱحتمالِهِ فيها، وكونُهُ مع ذلك سَلِسَ ٱلقِيادِ سليمَ ٱلفِطْرةِ رقيقَ ٱلطبْع؛ على أنَّهُ أبطشُ ذي يدينِ إنْ ثارَ ثائرُهُ، وله إيمانٌ قويٌّ يستمسكُ بِهِ كما يتماسكُ ٱلجبلُ بعنصرِهِ ٱلصخري، إلَّا أنَّهُ يخلطُهُ ببعضِ ٱلخرافات؛ إذْ لا بُدَّ له من بعضِ ٱلجرائمِ ٱلشريفةِ ٱلتي يحملُ عليها فرْطُ ٱلقوَّةِ وَٱلمروءَةِ في مثلِهِ مَعَ مثلِه.

وليسَ في تلكَ ٱلقريةِ من بحر، غيرَ أنَّ فيها شابّاً أعنفَ طيشاً وعُتُواً مِنَ ٱلموجةِ على بحرِها في يومِ ريح عاتية، حلوَ ٱلمنظرِ لكنَّهُ مرُّ ٱلطعم، صافي ٱلوجهِ لكنَّ لَهُ غوْراً بعيداً مِنَ ٱلدهاءِ وٱلخبث، وهوَ ٱبنُ عُمدةِ ٱلبلدةِ وواحدُ أبويه وٱلوارثُ من دُنياهما ٱلعريضة، يبسطُ يديهِ على خمسمائةِ فدان، وقد أفسَدتْهُ ٱلنعمةُ وأهانَتْهُ عِزَّتُهُ على أهلِه؛ ولو ٱجتمعَتْ حسنتانِ لِتخرجَ منهما سيئةٌ مِنَ ٱلسيئاتِ بأسلوبٍ مِنَ ٱلأساليب، لمَّا وَسِعَها إلَّا أسلوبُ نشأتِهِ من أبويهِ ٱلطيبين. تعلَّمَ وهو يعرفُ أنَّهُ لا حاجةَ بِهِ إلى ٱلعِلْم، فجعلَتْ تلفظُهُ ٱلمدارسُ واحدةً بعدَ واحدةٍ كأنَّهُ نواةُ ثمرةٍ إنسانيَّةٍ فإذا قِيلَ لَهُ في ذلك قال: إنَّ خمسمائةِ فدانٍ لا تسعُها مدرسة... وذهبَ إلى فرنسا يطلبُ ٱلعِلْمَ ٱلذي ٱستعصى عليهِ في مِصرٍ، فأرهفَ ذلك ٱلعِلْم... خيالَه وصقلَ حِسَّهُ، ورجعَ من باريسَ رقيقَ ٱلحاشيةِ خَنِثاً مُتظرِّفاً لا يصلحُ شرقيّاً ولا غربيّاً!

وليسَ في تلك ٱلقريةِ غابةٌ لكنْ فيها عذراءُ تلتفُّ من جسمِها في رِداءِ ٱلجمالِ ٱلطبيعيِّ ٱلرائع، ولها نفسٌ أشدُّ وُعورةً مِمَّا تنطوي ٱلغابةُ عليه؛ ففي ظاهرِها ٱلرونقُ ٱلذي يفتنُ فيجذُب إليها، وفي باطنِها ٱلقوَّةُ ٱلتي تلتوي فتدفعُ عنها؛ وهيَ ٱبنةُ عمِّ (ٱلجمل) وٱسمها (خضراء)، وكأنَّ فيها زهْوَ خضرةِ ٱلربيع، ولم تكنْ تعَشقُ إلَّا ٱلقوَّة، فما يُزيِّنُ لها مِنَ ٱلرجالِ إلَّا ٱبْنُ عمِّها، وهيَ شديدةُ ٱلإعجابِ بِهِ؛ وإنَّما إعجابُ ٱلمرأةِ برجلٍ مِنَ ٱلرجالِ مِفتاحٌ من مفاتيحِ قلبِها.

وكانَتْ (خضراءُ) جاهلةً كنِساءِ ٱلقُرى، بَيْدَ أنَّها تلميذةٌ بارعةٌ لِلطبيعةِ ٱلتي نشأَتْ فيها وزاولتْ أعمالَها؛ فهيَ بذلك أقوى نفساً وأشدُّ مِراساً مِنَ ٱلفتياتِ ٱلمتعلِّمات؛ إذ ٱتخذَتْ شكْلاً ثابتاً من أشكالِ ٱلحياة، وَٱلحياةُ هيَ صَنعَتْها هذه ٱلصنعةَ أو أقامَتْها على هذه ٱلهيئة، على حينِ أنَّ ٱلمتعلِّماتِ يُمضينَ أيامَ ٱلنشأةِ وسنَّ ٱلغريزةِ في ٱلتلقي عنِ ٱلألفاظِ وٱلكتب، وفي توهُّم ٱلصوَرِ ٱلمختلفةِ لِلاَجتماعِ دون مباشرتِها وفي توقّي أعمالِ ٱلحياةِ بدلاً من مُخالطتها؛ فيئُولُ ذلك منهنَّ إلى قوَّةٍ في ٱلتخيّلِ قلَّما ترضى ٱلحقيقةُ ٱلإنسانيَّةُ ٱلمؤلِمةُ حينَ تُصادمُها يوماً ما؛ وتَتِمُّ ٱلواحدةُ منهنّ، ولكنْ بِٱعتبارِ أنَّها تمَّتْ تلميذةً لِلمدرسةِ لا ٱمرأةً لِلْحياةِ بما فيها مِمَّا يُعجِبُ وما لا يُعجِبُ.

وكانَتْ خضراءُ أشبهَ بدورةِ ٱلنهار: تفتحُ أجفانَها على أشعةِ ٱلفجرِ كلَّ يوم، ولا تزالُ نهارَها في دأْبٍ وعمل، فنفى ذلك عن أخلاقِها ما يجلبُهُ ٱلسكونُ مِنَ ٱلخمولِ وَٱلميلِ إلى ٱلعبثِ وَٱلدُّعابة، وحصلَتْ لها مِنَ ٱلحياةِ حقيقةٌ عرفَتْ منها أنَّ ٱلمرأةَ عاملٌ من أكبرِ ٱلعواملِ في ٱلنظامِ ٱلإنسانيّ؛ عليهِ أنْ يصبرَ على ٱلكدِّ وَٱلتعبِ إذا أرادَ أنْ يظهرَ بِطبيعتِهِ ٱلحقيقيَّةِ لا بطبيعتِهِ ٱلمزوَّرةِ ٱلمصنوعة؛ ورأَتِ ٱلرجلَ يستأثرُ بجلائلِ ٱلأعمالِ ولا يتركُ لِلْمرأةِ إلَّا كما يتركُ عقربُ ٱلساعاتِ لِعقربِ ٱلثواني في ٱلرقعةِ ٱلتي تجمعُها؛ فهذا ٱلصغيرُ لا يبرحُ يضطربُ في «دائرتِهِ ٱلضيقة» يهتزُّ من جزءٍ إلى جزء، حتى إذا أتمَّ ٱلدقيقةَ في ستينَ هزةً كاملةً ذهبَ ٱلأولُ بفضلِها كلِّها وخطابِها خُطوةً واحدة: ثُمَّ يعودُ ٱلمستضعَفُ ٱلمِسكينُ إلى مثلِ عملِهِ ولا يزالُ دأبُهُما وإنَّ أكثرَهُما عملاً وتبعاً هو أقلُّهما قِيمةً وظُهوراً؛ ولكنَّ هذا ٱلضعيفَ ٱلمغبونَ[1] لم ينلْهُ ما نالَهُ إلَّا من كونِهِ هو وحدَهُ ٱلذي بُنِيَ في هذا ٱلنظامِ

---

(١) المغبون: المظلوم.

على فضيلةِ ٱلصبرِ وٱلدقة، لِيكونَ أساساً للآخرِ؛ فعرفَتْ (خضراءُ) كيف تُقَيِّدُ طبيعتَها من تِلْقاءِ نفسِها، وتُقرُّها على ٱلصبرِ وَٱلرضا وٱلسكونِ إلى حظِّها ٱلطبيعيِّ وَٱلاغتباطِ[1] بهِ؛ إذْ كان فضلُ ٱلرجلِ على ٱلمرأةِ ليسَ في كونِهِ أكثرَ منها فضلاً أو أسبابَ فضل، بلْ في كونِها هيَ أكثرَ منه حُبّاً وتسامحاً وصبراً وإيثاراً؛ ففضائلُها ٱلحقيقيةُ هيَ ٱلتي جعلتْهُ الأفضل، كما تجوعُ ٱلأمُّ لِتُطعمَ ٱبنَها!.

* * *

ورآها (ٱبنُ ٱلعُمدةِ) ولَمَّا تمضِ أيامٌ على رجوعِهِ من أوروبا، وقد لَبِثَ هناك بِضْعَ سِنين، وكانَ عهدُه بِٱلفتاةِ صغيرة، فَوثبَتْ إلى نفسِهِ في وثبةٍ واحدة، ورأى شباباً وجمالاً وروعةَ زينتَها في قلبِهِ وسوَّلتْ لَهُ مطمعاً مِنَ ٱلمطامع، وجعلتْهُ يرى ما يرى بمعنًى ويفهمُ منه ما يفهمُ بمعنًى غيرِهِ.

وكانَتْ حينَ رآها واقفةً على ٱلنيلِ تملأُ جرَّتها معَ نِساءٍ من قومِها وهُنَّ يتعابثْنَ[2] ويتضاحكْن، كأنَّ لِخصْبِ ٱلأرضِ في أرواحِهِنَّ أثراً بادياً، فإذا ما أقبلْنَ على ٱلنهرِ لِشأنٍ من شؤونهِنَّ تندَّتْ روحُ ٱلماءِ على ذلك ٱلأثرِ فٱهتزَّ وَٱهتزَّتِ ٱلمرأةُ بهِ، فإنْ كانَتْ ذاتَ مسحةٍ من جمالٍ رأيْتَ لها رفيفاً كرفيفِ ٱلزهرةِ حينَ يمسحُها ٱلندى، وذهبَتْ تتموَّجُ في جِسمِها، وقد حسرتْ[3] عن ذراعيها، ولمسَ ٱلماءُ دمَها ٱلجذَّابَ فأرسلَ فيه تيَّاراً مِنَ ٱلعافيةِ وَٱلنشاطِ يتَّصلُ منها بقلبِ مَنْ يراها إنْ هو كانَ شاعراً يُحسّ؛ فإنْ كانَتْ روحُ ٱلرجلِ ظمأَى ورأَى ٱلمرأةَ على هذه ٱلهيئة، فما أحسبُهُ إلَّا يشربُ منها بِعينيهِ شرباً يجدُ لَهُ في قلبِهِ نشوةً كنشوةِ ٱلخمر؛ وكذلك وقعَت ٱلفتاةُ من نفسِ هذا الفتى فزينَها لَهُ ٱلخُبثُ ٱلذي فيهِ أضعافَ ما زينَها لَهُ ٱلجمالُ ٱلذي فيها، وقذفَها ٱلقدرُ إلى قلبِهِ لِيُخرجَ من هذا ٱلقلبِ تاريخَ جريمة؛ فوقفَ يتأمَّلُها بعينِ أحدَّ من آلةِ ٱلتصويرِ لا تفوتُها حركة، وسلَّطَ عليها فِكْرَهُ وذوقَه، وأيقظَ لها في نفسِهِ ٱلمعانيَ ٱلراقدة، فنصبَتْ في قلبِهِ عِدَّةً من تماثيلِ ٱلجمالِ تجسَّدتْ في كلِّ واحدٍ منها على شكلٍ كأنَّما أُفرغَتْ فيهِ إفراغاً.

* * *

وكانَتْ نفسُ ٱبنِ ٱلعُمدةِ مِنَ ٱلنفوسِ ٱلخياليَّةِ ٱلمتوثبة؛ إذْ قامَتْ من نشأتِها

---

(١) الاغتباط: الشعور بالسعادة.
(٢) يتعابثن: يتلاعبن ويمزحن.
(٣) حسرت: كشفت.

على أنْ تطلبَ فتُجاب، وتأمرَ فتُطاع، وتشتهي فتجد؛ وكأنَّهُ ما خُلقَ إلَّا لِيستعبِدَ قلبي والديه، وكانا ساذجينِ لا يعرفانِ من عِلْمِ ٱلتربيةِ إلَّا أنَّ لِلْحكومةِ مدارسَ لِلتربية، ومُوسَرَينِ[1] لا يفهمانِ من معنى ٱلحاجةِ في هذه ٱلدنيا إلَّا أنَّها ٱلحاجةُ إلى ٱلمال، ومنقطعينِ مِنَ ٱلنسلِ إلَّا منه، فكأنَّهُ لم يُولدْ لهما، بلْ قد وُلدا له... فَلهُ ٱلأمرُ عليهما من كونِهِ لا أمرَ لهما عليه؛ وبذلك أسرفَ لَهُ من فضائلِ ٱلرقةِ وٱلحنانِ وٱلإشفاقِ وما إليها، وهيَ في نفسِها فضائل، ولكنْ متى أسرفَ بها ٱلآباءُ على أولادِهم لم تُنشىءْ في أولادِهم إلَّا ما يكونُ مِن أضدادِها، كَٱلشجرِ تُفرطُ عليهِ ٱلريَّ فلا يحدثُ فيهِ إلَّا ٱليبسُ وَٱلذُّوى، وإنَّما أنت تَسقيهِ ٱلموتَ ما دُمْتَ تَرويهِ بِمِقدارٍ من هواكَ لا بِمِقدارِ حاجتِهِ.

ونشأَ ٱلفتى في أحوالٍ ٱجتماعيَّةٍ مختلفةٍ جعلَتْ من أخصِّ طِباعِهِ تمويهَ نفسِهِ على ٱلناس، وٱلتباهِي بِٱلغِنى، وٱلتنبُّل بالأَصدقاءِ وٱلحاشيةِ من وزرائِهِ وعُمالِهِ، وٱلتهيؤِ بِٱلثيابِ وَٱلأزياء؛ فٱنصرفَ باطنُهُ إلى تجميلِ ظاهرِهِ، وردَّ ظاهرُهُ على باطنِهِ بِٱلشهواتِ وَٱلدنايا، وأعانَهُ على ذلك أنَّهُ جميلٌ فاتنٌ كأنَّما خُلِقَتْ صورتُهُ «لِلصفحةِ ٱلحساسةِ» من قلوبِ ٱلنساءِ؛ وذلك ملكٌ عظيمٌ لم يكنْ أبوهُ ٱلرجلُ ٱلطيبُ منهُ إلَّا كما يكونُ وزيرُ ماليةِ ٱلدولة... ولَمَّا أُرسلَ إلى باريسَ وقعَ منها في بلدٍ عجيبٍ كأنَّهُ خيالٌ متخيلٌ لا يؤُمُّهُ رجلٌ في ٱلدنيا من كاملٍ أو ناقصٍ أو عالمٍ أو جاهلٍ وشريفٍ أو ساقطٍ إلَّا رأى ما يملأُ كلَّ مداخلِ نفسِهِ ومخارجِها، فلو قامَتْ مدينةٌ من أحلامِ ٱلنفوسِ ٱلإنسانيَّةِ في خيرِها وشرِّها وطُهرِها وفجورِها وٱختلالِها ونِظامِها لَكانَتْ هيَ باريس؛ وٱنقطعَ ٱلشابُّ هناك إلى نفسِهِ وإلى صورِ نفسِهِ من أصدقاءِ ٱلسوء، فلا أهلٌ فيُلزموهُ ٱلفضيلة، ولا إخوانٌ فيردُّوهُ إلى ٱلرأي، ولا خُلُقٌ متينٌ فيعتصمُ[2] به، ولا نفسٌ مُرَّةٌ فيفيءَ إليها، ولا فقر... فيحدَّ لَهُ حدوداً في ٱلشهواتِ يقفُ عندَها؛ وما هو إلا خيالٌ متوقِّدٌ ومزاجٌ مشبوبٌ وتربيةٌ مدلَّلةٌ وطبعٌ جريءٌ ومالٌ يمرُّ في إنفاقِهِ، ومن ورائِهِ أبٌ غنيٌّ مخدوعٌ كأنَّهُ في يدِ ٱبنِهِ كرةُ ٱلخيط: كلَّما جذبَ منها مدَّتْ لَهُ مدّاً، ثُمَّ ما هنالك من فنون ٱلجمالِ ومُتَعِ ٱللذاتِ وأسبابِ ٱللهو، ممّا يتناهى إليه فسادُ ٱلفاسد، وما هو في ذاتِهِ كأنَّهُ عُقوبةٌ مستأصِّلةٌ للأخلاقِ ٱلطيبة؛ فكانَ ٱلشيطانُ ٱلباريسيُّ من هذا ٱلمسكينِ في سمعِهِ وبصرِهِ ورجلِهِ

(١) موسرين: أغنياء.
(٢) يعتصم: يتمسّك.

ويدِه، يُوجِّهُهُ حيثُ شاء؛ وبِٱلجملةِ فقد ذهبَ لِيدرسَ فدرسَ ما شاءَ ورجعَ أستاذاً في كلِّ علومِ ٱلنفسِ ٱلمختلَّةِ ٱلطائشةِ وفنونِها، وأضافَ إلى هذه وتلك كلماتٍ يلوي بِهَا لِسانَهُ من علومٍ وَأقاويلَ ليسَ فيها إلَّا ما ما يدلُّ ٱلحاذقَ على أنَّ هذا ٱلشابَّ لم يُفلحْ قطُّ في مدرسةٍ.

فلمَّا وقعَتْ (خضراءُ) منه ذلك ٱلموقِعَ وأخذَتْ مأخذَها في نفسِهِ، اعتدَّها[1] نزوةً من نزواتِه؛ فما بمثلِهِ أنْ يُحِبَّ مثلَها، ولا هيَ كِفايتُهُ في شيءٍ إلَّا أنْ تكونَ لَهْوَ ساعةٍ من ساعاتِه، أَو حادثةً تجري فيها حالٌ من أحوالِهِ ٱلغراميَّة؛ وحسبَها ٱمرأةً ليسَ لِقلبِها أبوابٌ تمتنعُ على مثلِه، فقدَّرَ أنَّ غِناهُ وفقرَها يقتلعانِ باباً، وعلمُهُ وجهلُها يُحطِّمانِ باباً آخر، وجمالُهُ وحدَهُ يَضَعُ ما بقيَ مِنَ ٱلأقفالِ عمَّا بقيَ مِنَ ٱلأبواب! وكانَ يحسبُ أنَّ جمالَ ٱلمرأةِ مِنَ ٱلمرأةِ كَٱلحليةِ من بائعِها؛ فكلُّ مَنْ ملكَ ثمنَها فليسَ بينَهُ وبينَها إلَّا هذا ٱلثمن؛ ولكنَّ ٱلأيامَ جعلَتْ تأتي وتمرُّ وهو لا يزيدُ على أنْ يعرضَ لها وهيَ ترميهِ من صدودِها كلَّ يومٍ بداعيةٍ من دواعي ٱلهوى؛ وكانَ لا يجدُ بنفسِهِ قوَّةً أَنْ يزيدَها على ٱلنظرِ شيئاً، وتَرَكَ لِوجهِهِ وثِيابِهِ ونظراتِهِ وغِناهُ أنْ تَصِلَ بينَ قلبِهِ وقلبِها بسبب، فلم ينلْ طائلاً؛ وتمادى في حُبِّهِ، وٱستولَتْ عليهِ فِكرةٌ غمرَتْهُ بهذه ٱلمرأة؛ أمَّا هي فأشعَرَتْها غريزتُها بِمَا في قلبِهِ منها، وكانَتْ مُسمَّاة لأبنِ عمِّها[2] فكانَتْ تتحاشى[3] هذا ٱلشابَّ وتحذرُهُ حذراً شديداً، وتتوهَّمُ أنَّ ٱلناسَ يُحصونَ عليها ٱلنظرةَ وٱلالتفاتةَ ويُحصونَ عليهِ من مثلِهما، ووقعَ في نفسِها أنَّ لِهذا الرجلِ شأناً غيرَ شأنِ ٱلرجالِ ٱلآخرين، فهم لا يستطيعونَ معَها حيلةً وهو يستطيعُها بغِناهُ ومنزلتِه.

وكانَ لِلرجلِ خادمٌ داهيةٌ قد تخرَّجَ في مجالسِ ٱلقضاءِ... من كثرةِ ما حُكِمَ عليهِ في تزويرٍ وٱحتيالٍ وغِشٍّ وَٱدعاءٍ وإنكارٍ ونحوِها، وقدِ ٱستخلصَهُ لِنفسِهِ وٱتَّخَذَه موَانساً ورفيقاً؛ وجعلَهُ دسيساً[4] إلى شهواتِهِ ٱلسافلةِ وكانَ يُسميه فيما بينهما (إبليس)؛ فلما أرادَ أن يرميَها بِهِ قال: يا سيدي، هذه قضيةُ ٱحتيالٍ عليها، فإذا دخلَ ٱبْنُ عمِّها خَصْماً في ٱلدعوى كانَتْ قِضيةَ ٱحتيالٍ على عمري أنا! قال: ويحكَ أيُّها ٱلأبلهُ! فأين دهاؤُك ومكرُك؟ وإنَّما أُرسلُكَ إلى ٱمرأةٍ فقيرةٍ عيشُها كفافُها،

---

(١) اعتدّها: حسبها.
(٢) أي مخطوبة.
(٣) تتحاشى: تتجنّب.
(٤) دسيساً: جاسوساً.

وأنت تَعدُها وتُمنِّيها وتبذلُ عنِّي ما شِئت، ومتى أطمَعْتَها في ٱلمالِ فإنَّ هذا ٱلمالَ سَيُوجِدُ ما يُوجدُهُ في كلِّ مكان، فيشري ما لا يُشرى، ويبيعُ ما لا يُباع! قال (إبليس): نعم يا سيدي، وكذلك هو ولكنَّ خوْفَ ٱلعارِ يطردُ حُبَّ ٱلمال! قال: فأنت إذن لا تقبل؟ قال: ولا أرفض... قالَ ٱلشابُّ: قاتلكَ ٱللهُ! لقد فهمْت! سأشتريها منك بثمنين: أحدُهما لك وٱلآخرُ لها؛ ولكنْ أخبرْني كيف تصنعُ معَها ومن أينَ تبلغُ إليها؟ قال (إبليس) لَمَّا كنْتُ في ٱلسجنِ عرفْتُ لِصّاً فاتكاً أعيَا قومَهُ خُبثاً وشرّاً؛ وهذا ٱلسجنُ يحسبُه عِقاباً وردعاً ومنهاةً عنِ ٱلإثم، على أنَّهُ ٱلمدرسةُ ٱلتي تُنشئُها ٱلحكومةُ بنفسِها لِتلقِّي علومِ ٱلجريمةِ عن كِبارِ أساتذتِها؛ إذْ لا يُمكنُ أنْ يجتمعَ كِبارُهم في مكانٍ مِنَ ٱلأرضِ إلَّا فيه؛ فٱلسجنُ طريقةٌ من طرقِ حلِّ ٱلمشكلةِ ٱلإنسانيَّة، ولكنَّهُ هو نفسُهُ يُحدِثُ لِلإنسانيَّةِ مُشكلةً لا تُحَلّ! قالَ الفتى: ويحك! أينَ يُذْهَبُ بك؟ إنَّما أُرسلُكَ إلى ٱلمرأةِ لا إلى ٱلسجن! قال: تُرسلُني أنت إليها ولكنْ لا يعلمُ إلَّا اللَّهُ أين يُرسلُني ٱبْنُ عمِّها: إلى ٱلسجنِ أم إلى ٱلمستشفى...! فٱسمعْ يا سيدي: كانَ من نصائحِ أستاذي في ذلك ٱلسجن: أنَّ ٱلحِيلةَ على رجلٍ ينبغي لإحكامِها أنْ يكونَ في بعضِ أسبابِها ٱمرأة، وَٱلكيدُ لٱمرأةٍ يجبُ أنْ يكونَ في بعضِ وسائلِهِ رجل... صَهْ! انظرْ ٱنظر! فالتفَتَ ٱلشابُّ، فإذا (الجمل) مُقبلٌ يتكفَّأُ في مِشيتِه، وكانَ غليظاً، فإذا خطا شدَّ على ٱلأرضِ بِقدميهِ وتكدَّسَ[1] بعضُهُ في بعض؛ وكانَ منطلِقاً وقتئذٍ إلى بعضِ مذاهبه، فلمَّا حاذاهما قال: ٱلسلامُ عليكم! فردَّا جميعاً، ورمى ٱبْنَ ٱلعُمدةِ بنظرة، ثُمَّ مضى لِوجههِ فلم يُجاوزْ غيرَ بعيدٍ حتى بلغَهُ صوتُ ٱلشابِّ يُناديه: يا فلان! فٱنكفأَ إليهِ، فقالَ لَهُ ٱلشابُّ: لقد بعُدَ عهدُكَ بِٱلقوَّةِ على ما أرى. قال: فما ذاك؟ قالَ أَما بلغَكَ أنَّ فلاناً في هذه ٱلقريةِ ٱلتي تُجاوِرُنا سيقترنُ بزوجتِهِ بعدَ أيام، وأنت تعرِفُ ٱلموقعةَ ٱلتي كانتَ بينَ بلدِنا وتلك ٱلبلدةِ يومَ عرْسِ فلانٍ في ٱلسنةِ ٱلماضيةِ، وكيف ٱندفعوا على أهل بلدِنا وحطَّموا فيهم تلك ٱلحطمةَ ٱلشديدةَ ولولا أنت أدركْتَهُم ورمَيْتَهم بِنفسِكَ حتى دفَعتَهم عنِ ٱلناسِ وسُقْتَهم أمامَك سَوقَ ٱلنِّعاج، لكانَتْ بلدُنا ٱليومَ أذلَّ ٱلبلاد، ولٱستطالوا علينا بأنَّهم غلبونا؛ ولقد حدَّثني صاحبي هذا كيف تلقيْتَ بِهراوتِك يومئذٍ خمساً وعشرينَ هراوة، فأطْرَتها كلَّها في جولتِك، وهزمْتَ أصحابَها بعدَ أنْ أحاطوا بِكَ وتكلبُوا

---

(١) تكدّس: اجتمع.

عليك[١]؛ فأنت فخرُ بلدِنا وصاحبُ زعامتِها، وما أرى لك إلَّا أنْ تنتهزَ هذه الفرصةَ وتُسرعَ ٱلوثبةَ إليهم برجالِك، فتجزيَهم في أرضِهم صنيعاً بصنيعِ مثلِه!

فهزَّ ٱلجملُ كتفيهِ ٱلعريضتينِ وقال: بل سأنتظرُهَم في يوم عرسي بٱبنةِ عمِّي. . . ! قالَ ٱلشابُّ: أبلغْتَ ما أرى؟ فإنَّك لَتخافُهم! قال: لا أَخافُهم وَلكنْ أخافُ ٱلحكومةَ أنْ تُؤخِّرَ يومَ زواجي. . . سنةً أو سنتين! قالَ ٱلفتى: فإنَّ عمَلَك هذا لا يشدُّ من نفوسِ رجالِنا، ولا بُدَّ أنَّ أولئك سينتظرونكم ويُعِدُّونَ لكم، فإذا لم تُناجزوهم[٢] في بلدِهم عدُّوها عليكم هزيمةً مِنَ ٱلهزائم، وكأنَّهم ضربوكم بلا ضرب!

قالَ ٱلجمل: هم لا يعرفون معنى ٱلضرب بِلا ضرب؛ لأنَّهم رجال؛ وٱلذي يُضربُ بِلا ضرْبٍ لا يكونُ رجلاً. . . وَٱلسلامُ عليكم! ثُمَّ ٱنطلق، فلمَّا أبعدَ قالَ ٱلشابّ: لقد بدأتِ ٱلحربُ ولا بُدَّ لي أنْ أحطِّمَ هذا ٱلفلاحَ ٱللعين! ولقد عرفْتُ ٱلآنَ من وجهِهِ أنَّ عينَهُ عليَّ، ولسْتُ أشكُّ في أنَّ بنتَ عمِّهِ لا تمتنعُ بقوَّتِها بلْ بِقوَّتِه، ولولا معرفتي أنَّهُ مِن ٱنحطاطِ ٱلغريزةِ كَٱلوحشِ في ٱلدفاعِ عن أنثاهُ لـ. . .

قال (إبليس): لقد تأَملْتُ ٱلقصةَ فرأَيْتُ أنَّهُ لا سبيلَ لَكَ إلى ٱلفتاةِ وهي بعدُ فتاة، فإذا هو وصلَ إلى ٱمرأتِهِ قطعْتَ أنت بهذهِ ٱلخُطوةِ نِصْفَ ٱلطريقِ إليها. . . وستبلو هي من غِلْظتِهِ وخُشونةِ طبعِهِ ما يسهلُ لَكَ أن تُعلِّمَها قيمةَ ظرفِك ورقتِك، وستجدُ من سُوءِ مُعاملتِهِ وقُبحِ تسلُّطِهِ ما يفتحُ قلبَها لِمَنْ يأتيها قِبلَ ٱلرفقِ وٱللين، وستُصيبُ عندَهُ من ضِيْقِ ٱلمَعيشةِ وقِلَّتِها ويبسِها ما يُفهمُها معنى ذلك ٱلعيشِ ٱلحلو ٱلخضِرِ ٱلذي تعرضُهُ عليها؛ ثُمَّ إنَّهُ لا بُدَّ مبتليها بِغَيرتِهِ ٱلعمياءِ بعدَ ما عرفَ من حُبِّكَ إيَّاها، وٱلغيرةُ منك هي تُوجِدُك بينهما دائماً وتنبِّهُ ٱلمرأةَ إليك كلَّما كَرِهَتْ من رجلِها شيئاً لا ترضاهُ.

ولم تكنْ إلَّا مدةٌ يسيرةٌ حتى أُهديَتِ[٣] المرأةُ إلى زوجها، وإنَّما تعجَّلَ ٱلزِّفافَ لِيأتيَ لَهُ أنْ ينصبَ يدَهُ ٱلقويَّةَ حِجاباً بينَها وبينَ هذا ٱلمفتون، ولِيكتسبَ مِنَ ٱلقانونِ حقّاً لم يكنْ لَهُ من قَبْلُ إذا هو مدَّ ٱليدَ وعصرَ في قبضتِها تلك ٱلرقبةَ ٱلتي تتطلَّعُ إلى ٱمرأتِهِ؛ ورأى ٱلشابُّ أنَّ هذه ٱلحالَ لا تعتدلُ بهِ وبخصمِهِ معاً، وكانَتِ ٱلغيرةُ تأكلُ من قلبِهِ أكْلاً، وكانَ يعرضُ لِلْمرأةِ كلَّما خرجَتْ بِمِكْتلِها[٤] إلى ٱلسوقِ

---

(١) تكلَّبوا عليك: تجرّؤا عليك.

(٢) تناجزوهم: تقاتلوهم.

(٣) أُهديت: زُفّت.

(٤) المكتلّ: الغلق.

أو بِجرَّتِها إلى ٱلماءِ لِأَنَّهُ حينئذٍ يكونُ في ٱلطريقِ ٱلذي لا يملكُهُ أحد. . . فكانَتْ إذا رأَتْهُ لم تزدْ على ما يكونُ منها إذا هي أَبصرَتْ حِماراً يمدُّ عينَهُ إليها! . فعمدَ إلى ٱمرأةٍ مقيِّنةٍ تَزفُّ ٱلعرائس، وهي ٱلتي زَفَّتْ (خضراءَ) فأكرمَها وأتحفَها وسألَها أنْ تُسعفَهُ[1] ببعضِ ما تحتالُ به، وأنْ تكونَ سبيلَهُ إلى ٱلمرأة؛ وتحمَّلَ عليها (بإبليسهِ) حتى ٱستوثقَ[2] منها، فكانَتْ تتحدَّثُ عنه أمامَ (خضراء)؛ تستجرُّ بذلك أنْ تلفتَها إلى نِعمتِهِ وجمالِهِ، ولكنَّ ٱلمرأةَ أغلظَت لها وسبَّتْها وحذَّرتْها أنْ تعودَ إلى مثلِ كلامِها، وقالَتْ لها آخِرَ ما قالت: وَٱعلمي أنَّني لو دُفعْتُ إلى طريقينِ وكانَ لا بُدَّ من أحدِهِما، ثُمَّ كانَ أحدُهما حصاهُ ٱلدنانير وهو طريقُ ٱلعار، والآخرُ حصباؤُهُ ٱلجمرُ ويُفضي إلى ٱلشرف، إذن لَتنزَّهْتُ أنْ أدنِّسَ نعلي بِٱلذهبِ ولنثرْتُ لحمَ قدميَّ على ٱلجمرِ نثراً.

وَٱلحُبُّ لا يبقى حُبّاً أبداً، فإما فازَ فبردَ ورجعَ سَلْوّاً، وإمَّا خابَ فٱضطرمَ وتحوَّلَ إلى حِقْدٍ ونِقْمة؛ وكذلك ٱنفجرَ ٱلشابُّ غيظاً، ووجدَ على ٱلخيبةِ مَوْجدةً شديدة، وأخذ يُديرُ رأيَهُ، ففتقَتْ لَهُ ٱلحيلةُ أنْ يقتلَ ٱلرجلَ ٱلشهمَ بشهامتِهِ، وٱلمرأةَ ٱلعفيفةَ بِعفَّتِها؛ فواطأَ[3] إبليسَهُ على أنْ يدفعَ إلى تلك المقيِّنةِ مِنديلاً مِنَ ٱلحريرِ عقدَ طرفَهُ على دينارٍ مِنَ ٱلذهب، تُلقيهِ في صندوقِ (خضراءَ) وتدُسُّهُ[4] في طيٍّ من أطواءِ ثِيابِها؛ فذهبتِ ٱلمرأة، وما زالَتْ بِخضراءَ تستصلِحُها وتعتذرُ إليها حتى ٱستلَّتْ[5] ضغينةَ قلبِها، ثُمَّ سايلَتها أنْ تأتيَها (بِالعيشِ وَٱلملح) لِتُصيبَ كلتاهما منه وتتحرَّمَ بِحُرْمَتِهِ؛ فلمَّا نهضَتْ تأتيها أسرعَت ٱلخبيثةُ إلى ٱلصندوقِ فدسَّتِ ٱلمنديلَ في أبعدِ مواضعِهِ وأخفاها؛ وكانَ مندًى بِٱلعطْرِ لِينمَّ[6] على نفسِهِ إذا لم يَنمَّ أحدٌ عليه، ثُمَّ رجعَتْ بِمَا فعلَتْ إلى ٱلشابِّ، فأطلقَ خادمَهُ يهمسُ لِبعضِ أصدقاءِ ٱلجملِ أَنَّهُ رأى ٱليومَ في يدِ (خضراءَ) ديناراً ذهباً على نُدرةِ ٱلذهبِ وعِزتِهِ[7]؛ فجعلَ هذا ٱلدنيارُ يطيرُ من نفسٍ إلى نفسٍ بقوَّةِ ٱلذهبِ ٱلذي فيه، وٱلحُبُّ ٱلذي أعطاهُ، وٱلجمالِ ٱلذي أخذهُ؛ ثُمَّ ٱنتهى إلى ٱلجمل، فكأنَّما حمَلَهُ وطارَ بِهِ إلى دارِهِ كَٱلمجنونِ وقد حمِيَ دمُهُ ٱلحرُّ، وجاشَ[8] جأْشُهُ ٱلعنيفُ ولم تكنِ ٱمرأتُهُ في ٱلدار،

---

(١) تسعفه: تساعده.
(٢) استوثق: تأكدَ.
(٣) تواطأ، تآمر.
(٤) تدسّه: تضعه خفية.
(٥) استلتّ: استخرجت.
(٦) ينمّ: يكشف.
(٧) عزّته: ندرته.
(٨) جاش: فار.

فنثرَ ما في ٱلصندوق، وما كادَتْ تَفغَمُهُ رائحةُ ٱلعِطْرِ حتى نفخَ ٱلشيطانُ بها نفخةَ ٱلغضبِ ٱلكافر، ثُمَّ عثرَ على ٱلمنديلِ، ورأى بصيصَ ٱلدنيار، فدارَتْ بِهِ ٱلأرض، وأيقنَ أَنَّ ٱلعارَ قد طرقَ بابَهُ، وأنَّ ٱلبابَ قد فُتِحَ لَهُ؛ ثُمَّ ردَّ نفسَهُ على مكروهِها وردَّ مَعَها كلَّ شيءٍ إلى موضعه، وتلففَ رأيَهُ على جريمتين، وخرجَ وروحُهُ تصرخُ من ضربةٍ بِمنديل، وهو ٱلذي كانَتْ تتهاوىَ عليهِ ٱلضرباتُ ٱلقاتلةُ تهشمُ[1] منه ولا يتأوَّهُ!

وذكرَ أنَّ (حماتهُ) أثنت من عهدٍ قريبٍ على ٱبنِ ٱلعُمدةِ ووصفَتْهُ بِٱلرقةِ وٱلغِنى، فوجَّهَ إليها أنْ تأتيَ فتبِيْتَ عندَ ٱمرأتِهِ لِأنَّهُ على سفر، وكانَ كَٱلأعمى في ضلالتِهِ: لا يرى ٱلأشياءَ إلَّا كما يتخيَّلُها في نفسِهِ دون ما هيَ في نفسِها، فسألتْهُ زوجتُه: أين أزمعْتَ وما تبغي مِنْ سَفرِكَ وكم تلبثُ عنا؟ فكأَنَّهُ سمَعَها تقول: اِرحلْ إلى مكانٍ بعيدٍ وغِبْ زمناً طويلا، فبنا إلى غيابكِ حاجةٌ شديدة! وكادَ يبطِشُ بها، ولكنَّهُ كاتَمَ صدَرهُ ٱللوعةَ ٱسمَ جهةٍ بعيدةٍ ومضىَ وٱلانكسارُ يُعرفُ فيه!

* * *

فزعَ ٱلناسُ بعدَ أيام في جوْفِ ٱلليل، فإذا بيتُ ٱلجملِ يحترقُ من أرضِهِ وسمائِهِ، وٱقتحمُوه فإذا ٱلمرأةُ وأمُّها فحمتان: وٱنطلقَتْ أسرارُ ٱلألسنة، وقُبضَ على ٱلرجلِ في بلدٍ آخر، وتولّى ٱبنُ ٱلعُمدةِ توجيهَ ٱلبيِّنةِ عليه، وشهِدَ ٱلشهودُ على ٱلدينار، وشهِدَ ٱلدينارُ على ٱلنار، وأنكرَ «ٱلجملُ» ولم يقصِّرْ في إقامةِ ٱلحُجَّةِ ودافعَ عَنِ ٱمرأتِهِ وبالغَ في أمانتِها وعِفَّتِها وشهدَ أنَّهُ لا يعلمُ عليها من سُوء، وأنَّها أطهرُ ٱلنساءِ وأبرُّهنَّ، ثُمَّ كانَ ٱلحكْمُ أنْ قضيَ عليهِ بِٱلموتِ شنقاً!

* * *

فلمَّا كانَ يومُ إنفاذِ ٱلحُكْم سُئِلَ ٱلرجلِ) هلْ من شيءٍ تُريدُهُ؟ فطلبَ دخينةً[2] فقدَّمَها لَهُ قَيِّمُ ٱلسجنَ، فأشعلَها ونفخَ من دُخانِها نفخةً. ثُمَّ أخذَ يتكلَّمُ وعمرُهُ يفنى مَعَ ٱلدخينةِ نَفَساً في نفس، وعادَ هذا ٱلدخانُ ٱلمتطايرُ كأَنَّهُ سحابٌ يسبحُ فيهِ ٱلوحيُ بينَ حدودِ ٱلدنيا وحدودِ ٱلآخرة؛ قالَ ٱلمِسكين: لم أتعلَّم، ولو تعلَّمْتُ ما وقفْتُ هنا؛ ولكنْ ربَّما كنْتُ خرجْتُ نذْلاً كبعضِ ٱلمتعلِّمينَ الذين يعيشون أشرافاً وفيهم أرواحُ ٱلقتلةِ وٱللصوص!

---

(١) تهشم: تحطّم.
(٢) دخينة: سجارة.

لم أُقرَّ لِأحدٍ بجريمتي خشيةَ أنْ تُذكرَ كلمةُ ٱلعارِ معَ ٱسمي، وآثرْتُ أنْ أموتَ بِٱلشنقِ على أنْ أحيا ويموتَ ٱسمي بِٱلعار!

ولكنِّي سأعترِفُ ٱلآنَ أمامَكم وأنتمُ ٱلساعةَ على قبري، فكونوا كَٱلملائكةِ لا يشهدون بما عرفوا إِلَّا عندَ ٱللَّهِ وحدَه.

أعترِفُ أني قتلْتُ زوجتي وأمَّها؛ وقد تقولون: إنَّه ليسَ من عملِ ٱلرجلِ أنْ يقتلَ ٱمرأةً فضلاً عنِ ٱثنتين؛ إنَّني رجلٌ سأُشنق، أمَّا النساءُ فلا يُشنقْنَ وإنَّما يُرسِلْنَ ٱلرجالَ إلى ٱلمشنقة. . . لم أَرَ أبي؛ إذْ تركني طفلاً، ولكنْ يُقالُ: إنَّهُ كانَ رجلاً، فأنا رجل وٱبنُ رجل، ولم يُذلَّني رجلٌ قطُّ، ولكن لو خلقَ ٱللَّهُ قوَّةَ مائةِ جبَّارٍ في جسمِ رجلٍ واحدٍ لَأذلَّتْهُ ٱمرأة!

إنَّهُ ليسَ من شيمةِ ٱلرجلِ أنْ يقتلَ ٱلنساء، ولكنَّ ٱلمرأةَ تُذلُّ ٱلرجلَ ذُلّاً يُهوِّنُ عليهِ قتلَ نفسِه، فكيف لا يهوّنُ عليهِ قتلَها؟

علّموا ٱلمتعلِّمين لِيصيروا في ٱلشرفِ وٱلأَمانةِ وَٱلعِفَّةِ كرجلٍ جاهلٍ مثلي: لا يرى لِلْحياةِ كلِّها قِيمةً إذا كانَ فيها معنى ٱلعار، ويُقدِّمُ عُنقَهُ لِلْمشنقةِ حتى لا يُنكِّسَ رأسَهُ للذُّل!

أصلِحوا ٱلقانونَ ٱلذي يحكمُ بِٱلموتِ شنقاً ويُزهِقُ ٱلأرواحَ ٱلكبيرة، في حينِ تغلبُهُ ٱلأرواحُ ٱلصغيرةُ بِحيلِها ٱلدنيئة!

ومع ذلك سألقى ٱللَّهَ وهو يعلمُ سريرتي إنْ كُنْتُ بريئاً أو مجرماً!

قيِّمُ السجن: ستلقاهُ طاهراً.

السجين: أرأيْتُم مِنِّي خُلُقَ سوء؟ أتعتقدُ عليَّ ذنباً مدةَ سجني؟

القيِّم: كلُّنَا راضونَ عنك.

السجين: هذا مثلٌ من أخلاقي، وَٱلحمدُ لِلَّهِ على أنَّ آخرَ كلمةٍ أسمعُها من إنسانٍ على ٱلأرض ـ كلمة الرضا.

....

....

أشهدُ أنْ لا إلَه إِلَّا ٱلله وأنص محمداً رسولُ ٱلله!

* * *

نظرَتْ ريشةٌ من زغبِ ٱلعصفورِ إلى ٱلنجوم فَحسَبتْها ريشاً متناثراً، فأمتطتِ ٱلعاصفةَ وقالَت: إلى ٱلسماء! ودارتْ بها ٱلعاصفةُ ما شاءَ ٱللهُ أنْ تدور، ثُمَّ رَمَتْ بها حيثُ وقَعَتْ لم تبالِ في موضعِ نفعٍ أم ضُرّ؛ فأقبلَتِ ٱلريشةُ تتسخَّطُ وتزعمُ أنَّها فوضى ثائرةٌ لا حِكمةَ في خَلْقِهَا، وأَنَّ ٱلرياحَ بعثرةٌ في نظام ٱلعالم. . . وكانَ إلى جانبِها شجرةٌ تهتزُّ ولا تطير. . . فلمَّا وَعَتْ مقالتَها أقبَلَتْ عليها فقالَت: أيَّتُها ٱلريشة! إنَّ ٱلرياحَ لا تكونُ بعثرةً في نظامِ ٱلعالمِ إلَّا إذا كانَ ٱلعالمُ ريشاً كلُّهُ!.

القلبُ ٱلمسكين

١

أقبلَ عليَّ صاحبي ٱلأديبُ وقال: أُنظر، هذه هي، وقد حلَّتْ بهذا ٱلبلدِ ومالي عهدٌ بها منذُ سنة. ومدَّ إليَّ يدَهُ فنظَرْتُ إلى صورةِ امرأةٍ كأحسنِ ٱلنساءِ وجهاً وجِسماً، تتأوَّدُ[1] في غَلالةٍ[2] مِنَ ٱللَّاد[3].

وَكأنَّ شُعاعَ ٱلضُّحى[4] في وجهِها، وكأنَّها ٱلقمرُ طالعاً من غيمة، ويكادُ صدرُها يتنهَّدُ وهيَ صورة، وتبدو هيئةُ فَمِها كأنَّها وعدٌ بِقبلة، وفي عينيها نظرةٌ كَٱلسكوتِ بعدَ ٱلكَلمةِ ٱلتي قِيلَتْ هَمْساً بينَها وبينَ مُحِبِّها...

فقلْت: هذه صورةٌ ما أراها قد رسمَها إلَّا ٱثنان: ٱلمصوِّرُ وإبليس؛ فمَنْ هي؟

قال: سَلْها، أمَا تراها تكادُ تثِبُ مِنَ ٱلورقة؟ إنَّها إلَّا تخبرْك بشيءٍ أخبرْك عنها، وجهُها أنَّها أجملُ ٱلنساءِ وأَظرفُهُنَّ وأحسنُ من شاهدْتَ وجهاً وأعيناً، وثغراً وجِيداً وٱلذي بعدَ ذلك...

قلْت: ويحك، لقد شَعُرْتَ بعدي، إنَّ هذا شعرٌ موزون:

وأحسنُ من شاهدْتَ وجهاً وأعيناً ... وثغراً وجِيداً وٱلذي بعد ذلكا...

قال: إنَّ شيطانَ هذه لا يكونُ إلَّا شاعراً؛ ألسْتَ تَراهُ ناظماً من فنونِها على ٱلرسمِ شِعْراً معجزاً كلَّ شاعر؟

قَلْت: وهذا أيضاً شعرٌ موزون:

ألسْتَ تَراهُ ناظِماً من فنونِها ... على ٱلرسمِ شِعْراً معجِزاً كلَّ شاعر

---

(١) تتأوّد: تتمايل في مشيتها.

(٢) غلالة: قميص رقيق يلبس تحت الثياب.

(٣) اللّاذ: الحرير الصيني الرقيق الناعم.

(٤) الضحى: الفجر.

قال: بلى وَٱللَّهِ إنَّهُ ٱلشيطان، إنَّهُ شيطانُها، يُريكَ لِهذا ٱلجِسمِ روحاً رشيقَة، تلين كلينِ ٱلجسم. بلْ هيَ أَرشق.

قلْت: وهذا أيضاً، وٱلقافيةُ ٱلتي بعدَ هذا ٱلبيت: وبها شَقُوا...

فضحكَ صاحبُنا وقال: حرِّكِ ٱلصورةَ في يدكِ، فإنَّكَ ستراها وما تشكُّ أنَّها ترقص.

قلْت: الآنَ ٱنقطعَ شيطانُك، فهذا ليسَ شِعْراً ولا يجيءُ منه وزن.

وتضاحكْنا وضحكَ ٱلشيطان، وظهرَ ٱلوجهُ ٱلجميلُ في ٱلرسمِ كأنَّهُ يضحك.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين: ٱنظرْ إلى هاتينِ ٱلعينين، إنَّهُما مِنَ ٱلعيون ٱلتي تفتنُ ٱلرجلَ وتسحرُهُ متى نظَرتْ إليه، وتُعذِّبهِ وتُضنيهِ متى غابَتْ عنه؛ إنَّ في شُعاعِهِما قُدرةً على وضعِ ٱلنورِ في ٱلقلْبِ ٱلسعيد، كما أنَّ في سوادِهِما ٱلقدرةَ على وضعِ ٱلظلمةِ في ٱلقلْبِ ٱلمهجور.

وَٱنظرْ إلى هذا ٱلفم، إلى هذا الفمِ ٱلذي تعجزُ كلُّ حدائقِ ٱلأرضِ أنْ تُخرِجَ وردةً حمراءَ تُشبِهُه.

وَٱنظرْ إلى هذا ٱلجِيدِ تحَتهُ ذلك ٱلصدرُ ٱلعاري، فوقَهُ ذلك ٱلوجهُ ٱلمشرق؛ تلك ثلاثةُ أنواعٍ مِنَ ٱلضوء: أمَّا ٱلوجهُ ففيهِ روحُ ٱلشمس، وأمَّا ٱلجِيدُ ففيهِ روحُ ٱلنجم، وأمَّا ٱلصَّدرُ ففيهِ روحُ ٱلقمرِ ٱلضاحي[1].

ٱنظرْ إلى هذه ٱلمسافةِ ٱلبيضاءِ من أعلى جبينِها إلى أسفلِ نهدَيها، تلك مَنطقةُ ٱلقُبلاتِ في جغرافيا هذا ٱلجمال...

وَٱنظرْ إلى ٱلصدرِ يحملُ ذينِكَ ٱلثديينِ ٱلناهدين؛ إنَّهُ ٱلمعرضُ ٱلذي ٱختارَتْهُ ٱلطبيعةُ من جِسمِ ٱلمرأةِ ٱلجميلةِ لِلإعلانِ عن ثِمارِ ٱلبستانِ...

ٱنظرْ إلى ٱلنهدينِ لِمَ بَرَزَا في صدرِ ٱلمرأةِ إلَّا إذا كانا يتحدّيانِ ٱلصدرَ ٱلآخر...؟!

وَٱنظرْ لهذا ٱلخصرِ ٱلدقيقِ وما فوقَهُ وما تحتَه، ألا تراهُ فِتنةً متواضعةً بين فتنتينِ متكبِّرتين...؟

---

(١) الضاحي: السافر.

ٱنظرْ إليها كلِّها، ٱنظرْ إلى كلِّ هذا ٱلجمال، وهذا ٱلسحر، وهذا ٱلإغراء؛ ألا ترى ٱلكنزَ ٱلذي يحوِّلُ ٱلقلبَ إلى لصّ. . .؟

هذه مخلوقةٌ مرتين: إحداهما مِنَ ٱللّهِ في ٱلعالم، وَٱلأخرى من حُبِّي أنا في نفسي أنا: فكلمةُ «جميلة» ٱلتي تَصِفُ ٱلمرأةَ ٱلتامَّة، لا تصفُها هيَ بعضَ ٱلوصف؛ ورسمُها هذا ٱلذي تراهُ إنَّما هو حدودٌ لتلكَ ٱلروحِ ٱلتي فيها قوَّةُ ٱلتسلُّط، وهيهاتَ يُظهرُ من تلكَ ٱلروحِ إلَّا ما يظهرُ مِنَ ٱلجمرةِ ٱلمشتعلةِ رسمُ هذه الجمرةِ في ورقة.

أشهدُ ما نظَرْتُ مرَّةً إلى هذا ٱلرسم ثُمَّ نظَرْتُ إليها إلَّا وجْدتُ ٱلفرقَ بينَها في نفسِها وبينَها في ٱلصورة، كأنَّهُ ٱعتذارٌ ناطَقٌ من آلةِ ٱلتصويرِ بأنَّها ليَستْ إلَّا أداة.

* * *

قلْتُ: ٱللهمَّ غفرا؛ ثُمَّ ماذا يا صديقي ٱلمجنون؟

فأطرقَ ٱلأديبُ مهموماً، وكانَتْ أَفكارُهُ تتفجَّرُ في دِماغِهِ ٱنفجاراً هنا وٱنفجاراً هناك؛ ثُمَّ رفعَ إليَّ رأسَه، وقال:

هذه ٱلغانيةُ قد حبسَتْ أفكاري كلَّها في فكرةٍ واحدةٍ منها هِي؛ وأغلقَتْ أبوابَ نفسي ومنافذَها إلى ٱلدنيا، وألهبَتْ في دمي جمرةً من جهنَّمَ فيها عذابُ ٱلإحراقِ وليسَ فيها الإحراقُ نفسُهُ كيلا ينتهيَ منها ٱلعذاب!

وبينَنَا حُبٌّ بغيرِ طريقةِ ٱلحُبّ، فإنَّ طبيعتي ٱلروحانيَّة ٱلكاملةَ تهوي فيها طبيعتُها ٱلبشريَّةُ ٱلناقصة، فأنا أُمازجُها بروحي فأتألمُ لها، وأتجنَّبُها بِجسمي فأتألمُ بها.

حُبٌّ عقيمٌ مهما يكَنْ من شيءٍ فيهِ لا يكُنْ فيهِ شيءٌ مِنَ ٱلواقع. . .

حُبٌّ عجيبٌ لا تنتفي منهُ آلامُهُ ولا تكونُ فيه لِذّاتُه. . .

حُبٌّ معقَّدٌ لا يزالُ يلقي ٱلمسألةَ بعدَ ٱلمسألة، ثُمَّ يرفضُ ٱلحلَّ ٱلذِي لا تُحلُّ ٱلمسألةُ إلَّا بِه. . .

حُبٌّ أحمقُ يعشقُ ٱلمرأةَ ٱلمرأةَ ٱلمبذولةَ لِلناس، ولا يراها لِنفسِهِ إلَّا قِدِّيسةً لا مطمعَ فيها. . .

حُبٌّ أبلهُ لا يزالُ في حقائقِ ٱلدنيا كَٱلمنتظرِ أنْ تقعَ على شفتيهِ قُبلةٌ مِنَ ٱلفمِ ٱلذي في ٱلصورة. . .

حُبٌّ مجنونٌ كَٱلذي يرى ٱلحسناءَ أمامَ مِرآتِها فيقولُ لها اِذهبي أنتِ وستبقى في هذه ٱلتي في ٱلمرأة . . .

***

قلْت : اَللهمَّ رحمة ؛ ثُمَّ ماذا يا صاحبي ٱلمسكين؟

قال : ثُمَّ هذه ٱلتي أُحِبُّها هيَ ٱلتي لا أُريدُ ٱلاستمتاعَ بِها ولا أُطيقُهُ ولا أجدُ في طبيعتي جرأةً عليه ، فكأنَّها ٱلذهبُ وكأنِّي ٱلفقيرُ ٱلذي لا يُريدُ أنْ يكونَ لِصًّا ؛ يقولُ لَهُ شيطانُ المال : تَستطيعُ أنْ تطمعَ ؛ ويقولُ لَهُ شيطانُ ٱلحاجة : وتستطيعُ أنْ تفعل ؛ ويقولُ هو لِنفسِه : لا أستطيعُ إلَّا ٱلفضيلة!

إنَّ عذابَ هذا بِشيطانينِ لا بشيطانٍ واحد ، غيرَ أنَّ لذّتَهُ في ٱنتصارِهِ كَلَذَّةِ مَنْ يقهرُ بطلينِ كِلاهما أقوى منه وأشدّ .

***

قلْت : اَللهمَّ عفواً ؛ ثُمَّ ماذا يا قاهرَ ٱلشيطانين؟

فأطرقَ مَلِيًّا كَٱلذي ينظرُ في أمرٍ قد حيَّرهُ لا يتوجَّهُ لَهُ في أمرِهِ وجه ، ثُمَّ تنهَّدَ وقال : يا طولَ عِلَّةِ قلبي! من أينَ أجيءُ لِأحلامي بِغيرِ ما تجيءُ ٱلأحلامُ بِه ، وإنَّما هي تحتَ ٱلنوم ووراءَ ٱلعقْل ، وفوقَ ٱلإرادة؟ لقد بلغَ بين هواها أنَّ كلَّ كلمةٍ مِنْ كلامِ ٱلحُبِّ في كِتابٍ أو رِوايةٍ أو شِعْرٍ أو حديث ـ أراها موجَّهةً إليَّ أنا . . .

ثُمَّ قال : اِنطلقْ بِنا فتراها حتى تعلمَ مَنها عِلْما ، فهيَ في ذلك ٱلمسرح ، هيَ في ذلك ٱلشرِّ ، هيَ في تلكَ ٱلظلمات ، هيَ كَاللؤلؤةِ لا تتربَّى لؤلؤةٌ إلَّا في أعماقِ بحر .

وذهبْنَا إلى مسرحٍ يقومُ في حديقةٍ غنَّاءَ متراميةِ ٱلجهاتِ بعيدةِ ٱلأطراف ، تظهرُ تحتَ ٱلليلِ من ظلماتِها وأنوارِها كأنَّها مُثْقَلَةٌ بمعاني ٱلهجر وَٱلعشق .

وتقدَّمْنَا نسيرُ في ٱلغَبَش[1] ، فقالَ صاحبُنا ٱلمُحبّ : إنِّي لَأَشعرُ أنَّ ٱلظلامَ هنا حيٌّ كأَنَّ فيهِ غوامضَ قلْبٍ كبير ، فما أرى فرْقاً بينَ أنْ أجلِسَ فيهِ وبينَ ٱلجلوسِ إلى فيلسوفٍ عظيم مهموم بِهَمِّ ٱللانهاية ، فتعالَ نبرزْ إلى ذلك ٱلنورِ حولَ ٱلمسرح لِنراها وهيَ مقْبلة ، فإنَّ رؤيَتها سيدةً غيرُ رؤيتِها راقصة ، ولِهذه جمالُ فنٍّ ولتِلك فنُّ جمال .

---

(١) الغبش : العتمة .

ولم نلبثْ إلَّا يسيراً حتى وافتْ[1]، ورأيْتُها تمشي مِشيَةَ ٱلخفِراتِ[2] كأنَّما تحترمُ أفكارَ ٱلناس، يزهوها على ذلك إحساسٌ نبيلٌ كإحساسِ ٱلملكةِ ٱلشاعرةِ بمحبَّةِ شعْبِها؛ وٱنتفضَ مجنونُنا وأغمضَ عينيهِ كأنَّها تمرُّ بين ذراعيهِ لا في طريقِها، وكأنَّ لذةَ قُربِها منه هيَ ٱلممكنُ ٱلذي لا يُمكنُ غيرُه. . .

وكانَ عجباً مِنَ ٱلعجبِ أنْ تحَرَّكَ ٱلهواءُ في ٱلحديقةِ وَٱضطربَتْ أشجارُها، فقال: أنت ترى؛ فهذا ٱحتجاجٌ من راقصاتِ ٱلطبيعةِ على دخولِ هذه ٱلراقصة! قلْت: آهِ يا صديقي! إنَّ ٱلمرأةَ لا تكونُ ٱمرأةً بِمعانيها إلَّا إذا وُجدَتْ في جوِّ قلْبٍ يعشقُها.

ونفذْنا إلى ٱلمسرح، وتحرّى[3] صاحبُنا موضِعاً يكونُ فيهِ منظرَ ٱلعينِ من صاحبتِهِ ويكونُ مستخفياً منها، ثُمَّ رُفِعَ ٱلستارُ عنها بينَ ٱثنتينِ يكتنفانِها، وقد لبسْنَ ثلاثتُهُنَّ أثوابَ ٱلريفيات، وظهْرنَ كهيئتِهِنَّ حين يجنينَ ٱلقطن.

وبرزَتْ (تلك) في ثوبٍ مِنَ ٱلحرير ٱلأسود، وهيَ بيضاءُ بياضَ ٱلقمرِ حينَ يَتِمُّ وقد شدَّتْ وسطَها بِمشَدَّةٍ مِنَ ٱلحريرِ ٱلأحمر، فتَحبَّكَتْ بها وظهرَتْ شيئين: أعلى وأسفل؛ ثُمَّ ألقَتْ على شعرِها ٱلذهبيِّ قَلنسوةً حمراءَ من ذلك ٱلحريرِ أمالَتْها جانباً فحبسَتْ شيئاً منهُ وأظهرَتْ سائرَه، وأخذَتْ بيديها صفَّاقتينِ[4] وأقبلَ ٱلثلاثُ يرقصْنَ ويُغنِّين نشيدَ ٱلفلاحة.

لم أنظرْ إلى غيرِها، فقد كانَتْ صاحبتاها دليلين على جمالِها لا أكثرَ ولا أقلّ، وما أحسَبُ ٱلحريرَ ٱلأحمرَ، كانَ معَها أحمرَ ولا ٱلأسودَ كانَ عليها أسود، ولا لونَ ٱلذهبِ في مِعْصمِها كانَ لونَ ٱلذهب؛ كلَّا كلَّا، هذه ألوانٌ فوقَ ٱلطبيعة، لِأنَّ ٱلوجْهَ يُشرِقُ عليها بِٱلجمالِ وَٱلحياة، وذلك ٱلجسمَ يَفيضُ لها بِالخفَّةِ وٱلطربِ وتلك ٱلروحَ تبعث فيها ٱلمرحَ وَٱلنشوة؛ هذا مزيجٌ من خمرِ ٱلألوانِ لا مِنَ ٱلألوان نفسِها.

وقالَ مجنونُنا: إنَّ أجملَ ٱلجمالِ في ٱلمرأةِ ٱلفاتنةِ هُوَ ذاك ٱلذي يجعلُ لِكُلِّ إنسانٍ نوعَ شعورِهِ بها، وأنا أشعرُ ٱلساعةَ أنَّ قلبي نِصْفُ قلْبٍ فقط، وأنَّ نِصْفَهُ ٱلآخَرَ في هذه وحدَها؛ فما شعورُك أنت؟

---

(١) وافت: جاءت.
(٢) الخفرات: الحييات.
(٣) تحرّي: فتش.
(٤) صفاقتين: هما ما تضع الراقصات في أصابعهن، ويقال لهن الساجات.

قلْت: يا صديقي. إنَّ ٱللَّهَ رحيم، ومن رحمتِهِ أنَّهُ أخفى ٱلقلْبَ وأخفى بَواعثَهُ لِيظلَّ كلُّ إنسانٍ مخبوءًا عن كلِّ إنسانٍ؛ فدعْني مخبوءاً عنك!

قال: لا بُد!

قلْت: إنَّ ٱلمِصباحَ في ٱلموضعِ ٱلنجسِ لا يبعثُ ٱلنورَ نَجِساً، وما أشعرُ إلَّا أنَّ ٱلنورَ ٱلذي في قلبي قدِ ٱمتزجَ بِٱلنورِ ٱلذي في عينيها.

ثُمَّ كأنَّها أحسَّتْ بأنَّ إنساناً قدِ ٱمتلأ بها، فأدارَتْ وجهَها وهيَ ترقص، فتلمَّحَتْ صاحِبَنا، وجعلَتْ تُقطِّعُ ٱلطَّرفَ بينهَا وبينَهُ كأنَّها تعرفُهُ وتجهلُه، ثُمَّ تبيَّنَتْ إلحاحَ نظرِهِ فضحكَتْ لِأنَّها تعرفُهُ ولا تجهلُه!

أمَّا هو، أمَّا ٱلمجنون، أَمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين!...

* * *

القلبُ ٱلمسكين

٢

. . . أمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ فرأى ٱلضحكةَ ٱلتي ألقَتْ بها صاحبتُهُ وهيَ ترقصُ حينَ عرفَتْهُ ـ غيرَ ما رأيْتُها أنا وغيرَ ما رأى ٱلناس: كانَتْ لنا نحنُ ٱبتساماً عذْباً من فم جميلٍ يَتِمُّ جمالُهُ بهذه ٱلصورة، وكانَتْ لَهُ هو لغةً من هذا ٱلفم ٱلجميلِ يُتِمُّ بها حديثاً قديماً كانَ بينهَما؛ وَٱعترانا منها ٱلطربُ وَٱعتراهُ منها ٱلفِكْرُ، ووصفَتْ لنا نوعاً مِنَ ٱلحُسْنِ ووصفَتْ لَهُ نَوْعاً مِنَ ٱلشوق، ومرَّتْ علينا شُعاعاً في ٱلضوءِ ووقعَتْ في يدِهِ هو كَبطاقةِ ٱلزيارةِ عليها ٱسمٌ مكتوب. . .

وقويَ إحساسُ ٱلراقصةِ ٱلجميلةِ بعدَ ذلك فٱنبعَثَ يدلُّ على نفسِهِ ضروباً مِنَ ٱلدلالةِ ٱلخفية، ورجعَتْ بهذا ٱلإحساسِ كَٱلحقيقةِ ٱلشعريَّةِ ٱلغامضةِ ٱلمملوءَةِ بِفنونِ ٱلرمزِ وَٱلإيماء، وكأنَّها زادَتْ بهذا ٱلغموضِ زيادةً ظاهرة؛ ولِلمَرأةِ لَحظاتٌ تكونُ فيها بِفكرينِ حينما يكونُ أحدُ ٱلفكرينِ ماثلاً أمامَها في رجلٍ تهواه؛ ففي هذه ٱلساعةِ تتحدَّثُ ٱلمرأةُ بكلام فيهِ صمتٌ يشرحُ ويُفسِّر، وتَضطربُ بِحركةٍ فيها ٱسترخاءٌ يميلُ ويعتنِق، وتنظرُ بألحاظٍ فيها ٱنكسارٌ يأمرُ ويتوسَّل؛ وكانَتْ هِي في هذه ٱلساعة. . . فغلبَتْ ـ وٱللَّهِ ـ على صاحبِها ٱلمسكينِ وتركَتْ نفسَهُ كأنَّها تتقطَّعُ فيهِ من أسفٍ وحسرة؛ ثُمَّ كانَتْ لَهُ كَٱلزهرةِ ٱلعبقة: بينَهُ وبينَها جمالُها وعِطْرُها هواؤها وٱلحاسةُ ٱلتي فيه.

وجعلَ يستشِفُّها من خِلالِ أعضائِها، ثُمَّ قالَ لي: أُنظرْ ـ ويحك ـ! لَكأَنَّ ثيابَها تضُمُّها وتلتصِقُ بها ضمَّ ذي ٱلهوى لِمَنْ يهوى.

قلْت: ما هي إِلَّا كهاتينِ ٱللتينِ ترقصانِ معها: ٱمرأةٌ بينَ ٱمرأتينِ وإِنْ كانَتْ أحسنَ ٱلثلاث.

قال: كلا، هذه وحدَها قصيدةٌ من أروعِ ٱلشعر، تتحَركُ بدلاً من أنْ تُقرأَ

وتُرى بدلاً من أنْ تُسمع؛ قصيدةٌ بلا ألفاظ، ولكنَّ مَنْ شاءَ وضَعَ لها ألفاظاً من دمِهِ إذا هو فهمَها بِحواسِّهِ وفِكْرِهِ وشعورِهِ.

قلْت: والأُخْرَيَان؟

قال: كلا كلا، هذا فنٌّ آخر، فٱلواحدةُ من هؤلاءِ ٱلمسكيناتِ إنَّما ترقصُ بمعدِتِها... ترقصُ لِلْخبزِ لا غَيرَ؛ أما (تلك) فرقصُها ٱلطربُ مصنوعاً على جسمِها ومصنوعاً من جسمِها؛ إنَّها كَٱلطاووسِ يتبخترُ في أصباغِه. في ريشِه، في خُيَلائِه، بَخترةٌ يُضاعِفُها ٱلحُسنُ ثلاثَ مراتَ؛ ولو خلقَ ٱللَّهُ جِسمينِ أحدَهما مِنَ ٱلجواهرِ أحمرِها وأخضرِها وأصفرِها وأزرقِها، والآخرَ مِنَ ٱلأزهارِ في ألوانِها ووشْيِها، ثُمَّ ٱختالَ ٱلطاووسُ بينَهما ناشراً ذيلَهُ في كِبرياءِ روحِهِ ٱلملوَّنة ـ لَظَهَرَ فيهِ وحدَهُ ٱللونُ ٱلملِكُ بينَ ٱلوانِ هي رَعيتُهُ ٱلخاضعة.

* * *

وَٱنتهى رقصُ ٱلحسناءِ ٱلفاتنةِ وغابَتْ وراءَ ٱلستارةِ بعدَ أنْ أرسلَتْ قُبلةً في ٱلهواء... فقالَ صاحِبُنا: آهٍ! لو أنَّ هذه ٱلحسناءَ تصدَّقَتْ بدرهمٍ على فقير، لَجعلَتْهُ لمسةُ يدِها درهماً وقُبلة...

قلْت: يا عدوَّ نفسِه! هذه قبلةٌ مُحرَّرةٌ مسددةٌ وقد رأيْتُها وقعَتْ هنا... ولكنَّك دائماً في خِصامٍ بينَ نفسِكَ وبينَ حقائقِ ٱلحياة؛ تعشقُ ٱلقُبلةَ وتُخاصِمُ ٱلفَمَ ٱلذي يُلقيها، وتبني ٱلعُشَّ وتتركُهُ فارغاً من طيره؛ إنَّ ٱمْرأةً تُحبُّكَ لا بُدَّ منتهيةٌ إلى ٱلجنونِ ما دامَتْ معَك في غيرِ ٱلمفهومِ وغير ٱلمعقولِ وغيرِ ٱلمُمْكِن.

ثُمَّ بدأَ فصلٌ آخرُ على ٱلمسرح، وظهرَ رجالٌ ونساءٌ وقصة؛ وكانَ من هؤلاءِ ٱلرجالِ شيخٌ يمثل فقيهاً، وآخرُ يُمثِّل شُرطيًّا؛ فقالَ صاحبُنا ٱلفيلسوف: لقد جاءَتْ هذه ٱلثيابُ فارغةً وَكأنَّها ٱلآن تنطِقُ أنَّ صحةَ أكثرِ ٱلأشياءِ في هذه ٱلحياةِ صحةُ ٱلظاهرِ فقط، ما دامَ ٱلظاهرُ يُخلعُ ويُلبسُ بهذِه ٱلسهولةِ؛ فكم في هذه ٱلدنيا مِنْ شُرفاءَ لو حقَّقْتَ أمرَهم وبلوْتَ[1] ٱلباطنَ منهم ـ إنَّما يُشرِّفون ٱلرذائلَ لِأنَّهم يرتكبونَها بشرفٍ ظاهر... وكم من أغنياءَ ليسَ بينَهم وبينَ ٱللصوصِ إلَّا أنَّهم يَسرقون بقانون... وكم من فُقهاءَ ليسَ بينَهم وبينَ ٱلفَجَرةِ إلَّا أنَّهم يَفجُرون بِمنطقٍ وحُجَّة... ليسَتِ ٱلإنسانيَّةُ بهذه ٱلسهولةِ ٱلتي يظنُّها من

---

(١) بلوت: اختبرت.

يظنّ، وإلّا ففيمَ كانَ تعبُ ٱلأنبياءِ وشَقاءُ ٱلحُكماءِ وجِهادُ أهلِ ٱلنفوس؟

العقدةُ ٱلسماويَّةُ في هذه ٱلأرضِ أنَّ ٱللَّهَ ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخلقِ ٱلإنسانَ إلّا حيواناً مُلَطَّفاً تلْطِيفاً إنسانيًّا، ثُمَّ أراهُ ٱلخيرَ وَٱلشَّرَّ وقالَ لَهُ إجعلْ نفسَكَ بنفسِك إنساناً وجِئْني.

قلْت: يا عدوَّ نفسِه! فما تقولُ في حُبِّكَ هذه ٱلرقصةَ وأنت حيوانٌ ملطَّفٌ تَلْطِيفاً إنسانيًّا؟

قال: ويحَك! وهلِ ٱلعقدةُ إلّا هنا؟ فهذه مبذولةٌ مُمْكِنة، ثُمَّ هيَ لي كَٱلضرورةِ ٱلقاهرة، فلا يكونُ حُبُّها إلّا إغراءً بِنَيْلها، ولا تكونُ سُهولةُ نيلِها إلّا إغراءً لِذلك ٱلإغراء؛ فأنا منها لسْتُ في ٱمرأةٍ وحُبّ، ولكنّي في ٱمتحانٍ شديدٍ عَسِر؛ أُغالِبُ ناموساً من نواميسِ ٱلكوْن، وأُدافِعُ قانوناً من قوانينِ ٱلغريزةِ وأُظهرُ قوتي على قوةِ ٱلضرورة ٱلميسرةِ بأسبابِها، وهيَ أشدُّ ٱلضروراتِ عُنْفاً وإلْحاحاً وقَهْراً لِلنفس، من قِبَلِ أنَّها ضرورةٌ لازمة، وأنَّها مُهيَّأةٌ سهْلة؛ فلو أنَّ هذه ٱلمرأةَ ٱلمحبوبةَ كانَتْ مُمنَّعةً بعيدةَ ٱلمنال، لَمَا كانَتْ لي فضيلةٌ في هذا ٱلحُبِّ ٱلعنيف، ولكنَّها دانيةٌ ميسرةٌ على ٱلشغفِ[1] وٱلهوى؛ فهذا هُوَ ٱلامتحانُ لِأصنعَ أنا بنفسي فضيلةَ نفسي!

* * *

ومرَّ ٱلفصلُ ٱلذي مثَّلُوهُ وما نشعرُ منه بتمثيل، فقد كانَ كَٱلصورةِ ٱلعقليَّةِ ٱلمعترضةِ لِلْعقلِ وهو يفكِّرُ في غيرِها، وكانَتِ (الحقيقةُ) في شيءٍ آخرَ غيرِ هذا؛ ومتى لم يتعلَّقِ ٱلشعورُ بِٱلفنِّ لم يكنْ فيهِ فنّ؛ وهذا هو سرُّ كلِّ ٱمرأةٍ محبوبة، فهيَ وحدَها ٱلتي تُثيرُ ٱلمُحِبَّ في نفسِهِ فيشعرُ من حُسنِها بحقيقةِ ٱلحُسْنِ ٱلمُطْلَق، ويجدُ في معانيها جوابَ معانيه، وتأتيهِ كأنَّها صُنِعَتْ لَهُ وحدَه، وتجعلُ لَهُ في ٱلزمانِ زمناً قلبيًّا يحصرُ وجودَهُ في وجودِها.

وليسَ فنُّ ٱلحُبِّ شيئاً إلّا ٱستطاعةَ ٱلحبيبِ أنْ يجعلَ شهواتِ ٱلمُحِبِّ شاعرةً بِهِ ممتلئةً منه متعلِّقةً عليه، كأَنَّ بِهِ وحدَهُ ظهورَ جَسَدِيَّةِ هذا ٱلجسدِ ورُوحانيةِ هذا ٱلروح؛ وكلُّ ما يتزيَّنُ بِهِ ٱلمحبوبُ لِلْمُحِبّ، فإنَّما هو وسائلُ مِنَ ٱلمبالغةِ لإظهارِ تلك ٱلمعاني ٱلتي فيه، كيما تكبُرَ فيُدرِكَها ٱلمُحِبُّ بِدِقَّة، وتثورَ فيُحسَّها ٱلعاشقُ بِعُنفٍ وتستبدَّ فيخضعَ لها ٱلمسكينُ بقوَّة.

---

(١) الشغف: شدّة الحبّ.

وَٱلشهواتُ كَٱلطبيعةِ ٱلواحدةِ في أعصابِ ٱلإنسان، وهي تتبع فِكَرهُ وخيالَهُ؛ ولا تَفاوُتَ بينَهما إلّا بِٱلقوَّةِ وَٱلضعف، أو ٱلتنبُّهِ وَٱلخمود[1]، أو ٱلحدَّةِ وٱلسكون؛ غيرَ أنَّها في ٱلحبِّ تَجِدُ لها فِكْراً وخَيالاً مِنَ ٱلمحبوب، فتكونُ كأنَّها قد غيّرَتْ طبيعتَها بِسرٍ مجهولٍ من أسرارِ ٱلألوهيَّة؛ ومن هنا يتألَّهُ ٱلحبيبُ وهو هو لم يزِدْ ولم ينقُصْ ولم يتغيَّرْ ولم يتبدل، وتراهُ في وهم مُحِبِّهِ يفرضُ فروضاً ويشرعُ شريعةً من حيثُ لا قِيمةَ لِفروضِهِ وشريعتِهِ إلّا في ٱلشهوةِ ٱلمؤمنةِ بِهِ وحدَها.

ومن ثَمَّ لا عِصْمةَ على ٱلمُحِبِّ إلّا إذا وُجِدَ بينَ إيمانين، أقواهما ٱلإيمانُ بِٱلحلالِ وَٱلحرام؛ وبينَ خوفين، أشدُّهما ٱلخوفُ مِنَ الله؛ وبينَ رغبتين، أعظمُهُما ٱلرغبةُ في السموّ.

فإنْ لم يكنِ ٱلعاشقُ ذا دِيْنٍ وفضيلةٍ فلا عِصمةَ على ٱلحُبِّ إلّا أنْ يكونَ أقوى الإيمانينِ الحرصَ على مكانةِ المَحبوبِ في الناس، وأشدُّ الخوفين الخوفَ من القانون.. وأعظمُ ٱلرغبتينِ ٱلرغبةَ في نتيجةٍ مشروعةٍ كَٱلزواج.

فإنَّ لم يكُنْ شيءٌ من هذا أو ذاك فقلَّما تَجِدُ ٱلحُبَّ إلّا وهو في جراءَةِ كُفرين، وحماقةِ جُنُونين، وَٱنحطاطِ سفالتين؛ وبهذا لا يكونُ في ٱلإنسانينِ إلّا دونَ ما هو في بهيمتين!

* * *

ثُمَّ جاءَ ٱلفصلُ ٱلثالثُ وظهَرتْ هي على ٱلمسرح، ظهَرتْ هذهِ ٱلمرةَ في ثوبِ مركيزةٍ أوربيةٍ تُخاصِرُ[2] عشيقاً لها، فيرقصانِ في أدبِ أوربيٍّ متمدِّن... متمدِّنٍ بِنصفِ وقاحة؛ متأدِّب... متأدِّبٍ بِنصفِ تسفّلٍ؛ مشروع... مشروع بنصفِ كُفْرٍ؛ هو على ٱلنصفِ في كلِّ شيء، حتى ليجعلُ ٱلعذارءَ نِصْفَ عذراء، وَٱلزوجةَ نصفَ زوجة...!

وكانَ ٱلذي يمثِّلُ دورَ ٱلعشيقِ فتاةً أخرى غُلاميَّةً مَجمَّمَةَ الشعْرِ[3] ممسوخةً بينَ ٱلمرأةِ وٱلرجل؛ فلمَّا رآها صاحبُنا قال: هذا أفضَل...

وهشَّتِ[4] ٱلحسناءُ وتبسَّمَتْ وأخذَتْ في رقصِها ٱلبديع، فٱنفصلَ عنِّي

---

(١) الخمود: السكون.
(٢) تخاصر: تمسك بخصره.
(٣) مجمّمة الشعر: أي قاصّة شعرها تشبهاً بالرجال.
(٤) هشّت: ابتسمت.

ٱلصديقُ وأهلمني وأقبلَ عليها بِٱلنظرةِ بعدَ ٱلنظرةِ بعدَ ٱلنظرة، كأنَّهُ يُكرِّرُ غيرَ ٱلمفهومِ لِيفهمَهُ ورجعَ وإيَّاها كأنَهُ في عالمٍ من غيرِ زمنِنا تُقدِّمُهُ عن عالمِنَا ساعةً أو تُؤخِرُهُ ساعة؛ وكانَتْ جملةُ حالِهِ كأنَّها تَقولُ لي: إنَّ ٱلدنيا ٱلآنَ ٱمرأة! وكانَ منَ ٱلسرورِ كأنَّما نقلَهُ ٱلحُبُّ إلى رُتبةِ آدم، ونَقَلَ صاحبَتَهُ إلى رُتبةِ حوَّاء، ونقلَ ٱلمسرحَ إلى رُتبةِ ٱلجنة!

وَٱلعجيبُ أنَّ ٱلقمَر طلعَ في هذه ٱلساعةِ وأفاضَ نوراً جديداً على ٱلمسرحِ ٱلمكشوفِ في ٱلحديقة، فكأَنهُ فعلَ هذا لِيُتِمّ ٱلحُسْنَ وٱلحُبّ؛ وأخذَ شُعاعُ ٱلقمرِ ٱلسماويّ يرقصُ حولَ هذا ٱلقمرِ ٱلأرضيّ، فكانَتِ ٱلصِّلَةُ تامَّةً وثيقةً بينَ نفسِ صاحبِنا وبينَ ٱلأرضِ وَٱلسماءِ وَٱلقَمرين.

ما هذا ٱلوجْهُ لِهذهِ ٱلمرأة؟ إنَّهُ بَينَ ٱللحظةِ وَٱللحظةِ يعبِّرُ تعبيراً جديداً بِقسماتِهِ وَمَلامحِهِ ٱلفَتَّانةِ؛ كلُّ ٱلبياضِ ٱلخاطفِ في نجومِ ٱلسماءِ يجولُ في أديمِهِ ٱلمشرق، وكلُّ ٱلسوادِ ٱلذي في عيونِ ٱلمَهَا يجتمعُ في عينيه، وكلُّ ٱلحُمرةِ ٱلتي في ٱلوردِ هيَ في حُمرةِ هاتينِ ٱلشفتين.

ما هذا ٱلجسمُ ٱلمتَّزِنُ ٱلمتموِّجُ ٱلمُفرَغُ كأنَّهُ يندفِقُ هنا وهنا؟ إنَّهُ جِسمٌ كاملُ ٱلأنوثة، إنَّهُ صارخٌ صارخ، إنَّهُ عالَمُ جمالٍ كما تقولُ ٱلفلسفةُ حينَ تَصِفُ ٱلعالم: فيهِ «جِهةُ فوق» و «جِهة تحت»؛ لوِ ٱمتدَّتْ لَهُ يدُ عاشقِهِ لَجعلُ في خمسِ أصابِعِها خمسَ حواس...

ما هذا؟ لقد خُتِمَ ٱلرقصُ بِقبلةٍ ألقاها ٱلخليلُ على شفتي ٱلخليلة، وكانَتْ تركَتْ خصرَها في يديهِ وٱنفلتَتْ تميلُ بأعلاها راجعةً بِرأْسِها إلى خَلْف، نازلةً بِهِ رُوَيداً رُويداً إلى ٱلأرض، هاربةً بِشفتيها مِنَ ٱلفمِ ٱلمُطِلِّ عليها وكانَ هذا ٱلفمُ ينزَّلُ رُويداً رويداً لِيُدرِكَ ٱلهارب...

وقبلَ أنْ تقعَ ٱلقُبْلةُ التفتَتْ لَفتةً إلى... ثُمَّ تلقَّتِ ٱلقبلة، أمَّا هو، أمَّا مجنونُنا، أمَّا صاحبُ ٱلقلْبِ ٱلمسكين؟...

القلب المسكين

٣

أمَّا صاحبُ ٱلقلب ٱلمسكينِ فرَمقَها[١] وهيَ تلتفِتُ إليه ٱلتفاتَ ٱلظبيةِ بِسوادِ عينيها: يجعلُ سوادَهُما ٱلجميلَ في ٱلنظرةِ ٱلواحدةِ نظرتينِ لِعاشقِ ٱلجمال، تقولُ إحداهما أنت، وتقولُ ٱلأخرى: أنا، ثُمَّ رآها وقد كَسَرتْ أجفانَها وتفتَّرتْ في يدي ٱلمُمثلِ ٱلعشيقِ وأفصحَ منظرُها بِبلاغة. . . ببلاغةِ جسمِ ٱلمرأةِ ٱلمحبوبةِ بين ذراعيْ مَنْ تُحبُّه؛ ثُمَّ ٱختَلجَتْ وصوَّبتْ وجهَها، وأَهَدفَتْ شفتيها. وتلقَّتِ ٱلقُبلة.

وكانَ بِهِ منها ما اللَّهُ عليمٌ بِهِ، فَٱنبعثَتْ من صدرِهِ آهةٌ مُعْوِلةٌ تَئِنُّ أنيناً، غيرَ أنَّها كَلَّمَتْهُ بِعينيها أنَّها تُقبِّلُهُ هو؛ فلا ريبَ قد حملَتْ إليهِ إحدى ٱلنسماتِ شيئاً جميلاً عن ذلك ٱلفَم، لَمسَتْ بِهِ ٱلنفسُ ٱلنفس، وَٱلقُبلةُ هي هي ولكن وقعَ خطأٌ في طريقة إرسالِها. . .

وليسَ تحتَ ٱلخيالِ شيءٌ موجود، ولكنَّ ٱلخيالَ ٱلمتسرِّحَ بينِ ٱلحبيبينِ تكونُ فيهِ أشياءُ كثيرةٌ واجبةُ ٱلوجود؛ إذْ هو بطبيعتِهِ مجرى أحلام من فِكْر إلى فِكْر، ومسرحُ شعورٍ يصدرُ ويردُ بينَ ٱلقلْبينِ في حياةٍ كاملةِ ٱلإحساسِ مُتجاورةِ ٱلمعاني؛ وبهذا ٱلخيالِ يكونُ مَعَ ٱلقلبين ٱلمتحابَّينِ روحٌ طبيعيٌّ كأنَّهُ قلبٌ ثالثٌ ينقلُ لِلواحدِ عنِ ٱلآخَر، ويصلُ ٱلسرَّ بِٱلسر، ويزيدُ في ٱلأشياءِ ويُنقصُ منها، ويَدخلُ في غيرِ ٱلحقيقيِّ فيجعلُهُ أكثرَ مِنَ ٱلحقيقيّ؛ ومن هنا لم يكنْ فرحٌ ولا حزنٌ، ولا أملٌ ولا يأس، ولا سعادةٌ ولا شَقاء، إلَّا وكلُّ ذلك مضاعَفٌ لِلمُحِبِّ ٱلصادقِ ٱلحُبِّ بِقدرِ قلبين؛ وٱلذين يعرفونَ قُبلةَ ٱلشغفِ وَٱلهوى، يعرفون أنَّ ٱلعاشقَ يُقبِّلُ بِلَذَّةِ أربعِ شِفاه.

* * *

---

(١) رمقها: نظر إليها بطرف عينيه متأملاً.

وَٱنسدلَتْ[1] بعدَ هذه ٱلقُبلةِ سِتارةُ ٱلمسرح، وغابَتِ ٱلجميلةُ ٱلمعشوقةِ غيبةَ ٱلتمثيلِ فقلْتُ لِصاحبِ ٱلقلْبِ ٱلمسكين: إنَّ روحيكُما متزوجتان. . . قال: آه! ومدَّها من قلْبِهِ كأنَّهُ دَنِفٌ سقيم.

قلْت: وماذا بعدَ آه؟

قال: وماذا كانَ قبلَها؟ إنَّهُ ٱلحُبّ: فيهِ مثلُ ما في (عمليَّةٍ جراحيَّةٍ) من تنهداتِ ٱلألم ولذعاتِه، غيرَ أنَّها مفرَّقةٌ على ٱلأوقاتِ وَٱلأسباب، مبعثَرَةٌ غيرُ مجموعة! «آهِ» هذه هيَ ٱلكلمةُ التي لا تفرغُ منها ٱلقلوبُ ٱلإنسانيَّة، وهيَ تُقالُ بلهفةٍ واحدةٍ في ٱلمصيبةِ ٱلداهمة، والألم ٱلبالغ، وَٱلمرضِ ٱلمدنفِ[2] وٱلحُبِّ ٱلشديد؛ الشديد؛ فحينما تُوْشِكُ ٱلنفسُ أنْ تَختَنِقَ تتنفَّسُ «بآه»!.

قلْت: أمَا رأيْتَها مرَّةً وقد أوشكَتْ نفسُها أنْ تختنِق. . .؟

قال: لقد هِجْتَ لي داءً قديماً؛ إنَّ لِهذه ٱلحبيبةِ ساعاتٍ مغروسةً في زمني غرسَ ٱلشجر، فبينَ ٱلحِينِ وَٱلحِينِ تُثمرُ هذه ٱلساعاتُ مُرَّها وحُلْوَها في نفسي كما يُثمرُ ٱلشجرُ ٱلمختلِف؛ ولقدْ رأيْتُها ذاتَ مرةٍ في ساعةِ همِّها! ثُمَّ ضحكَ وسكَت.

قلْت: يا عدوَّ نفسِه! ماذا رأيْتَ منها؟ وكيف أراكَ ٱلوَجْدُ ما رأيْتَ منها؟

قال: أتصدّقني؟ قلت: نعم.

قال: رأيْتُ ٱلهمَّ على وجهِ هذه ٱلجميلةِ كأنَّهُ همٌّ مؤنَّثٌ يعشَقُهُ همٌّ مذكَّر؛ فلَهُ جمالٌ ودلالٌ وفِتنةٌ وجاذبيَّة، وكأنَّ وجهَها يصنعُ من حُزنِها حُزنين: أحدُهما بمعنى ٱلهَمِّ لِقلبِها، وٱلآخرُ بمعنى ٱلثورةِ لِقلبي!

قلْت: يا عدوَّ نفسِه! هذا كلامٌ آخر؛ فهذه ٱمرأةٌ ناعمةٌ بَضَّةٌ مطويٌّ بعضُها على بعضِها، لفَّاءُ من جِهةٍ هيفاءُ من جِهة، ثقيلةُ شيءٍ وخفيفةُ شيء، جمعَتِ ٱلحُسْنَ وٱلجِسمَ وفنًّا بارعاً في هذا وفنًّا مُفْرداً في ذاك؛ وهيَ جميلةُ كلِّ ما تتأمَّلُ منها، ساحرةُ كلِّ ما تتخيَّلُ فيها، وهيَ مَزَّاحةٌ دَحْداحةٌ[3] وهي تُطالِعُك وتُطعِمُك؛ وأنت ٱمرُؤٌ عاشِقٌ ورجلٌ قويُّ ٱلرجولة؛ فٱلجميلةُ وٱلمرأةُ هما لَكَ في هذا ٱلجسمِ ٱلواحد، إنْ ذهبْتَ تفصِلُهُما في خيالِك ٱمتزجتَا في دمِك؛ ولو أمسكتْ آلةُ ٱلتصويرِ نظراتِكَ إليها لَبانَتْ فيها أطرافُ ٱللَّهَبِ الأحمرِ مِمَّا في نفسِكَ منها؛ ولَعَمري لو

---

(١) انسدلت: تدلّت.

(٢) المرض المدنف: المرض المميت. (٣) دحداحة: خفيفة الظلّ ومرحة.

مرَّتْ عربةٌ تَدْرجُ[1] في ٱلطريقِ ونظرْتَ إليها نظرتَكَ لِهذهِ ٱلمرأةِ بهذِهِ ٱلغريزةِ ٱلمحتبَسَةِ ٱلمكفوفةِ[2] لَظنَنْتُكَ سترى ٱلعجلةَ ٱلحلفيَّةَ عاشقاً مهتاجاً يُطاردُ ٱلعجلةَ ٱلأماميةَ وهيَ تفرُّ منه فِرارَ ٱلعذراء!

* * *

فضحكَ وقال: لا، لا؛ إنَّ نوعَ ٱلتصويرِ لإنسانٍ هو نوعُ ٱلمعرفةِ لِهذا ٱلإنسان، ومِنْ كُلِّ حبيبٍ وحبيبِهِ تجتمعُ مقدمةٌ وَنتيجةٌ بينَهما تلازمٌ في ٱلمعنى، وٱلمقدمةُ عندي أن إبليسَ هنا في غير إبليسيَّته، فلا يُمكنُ أنْ تكونَ ٱلنتيجةُ وضْعَهُ في إبليسيَّته؛ وما أتصورُ في هذه ٱلجميلةِ إلَّا ٱلفنَّ ٱلذي أَسبغَهُ ٱلجمالُ عليها، فهي معرفتي وخيالي كَٱلتمثالِ ٱلمبدَعِ إبداعَهُ: لا يستطيعُ أَنْ يعملَ عملاً إلَّا إظهارَ شكلِهِ ٱلجميلِ ٱلتامِّ حافلاً بمعانيه.

وليسَتْ هذه ٱلمرأةُ هيَ ٱلأولى ولا ٱلثانيةَ ولا ٱلثالثةَ فيمَنْ أحبْبتُ؛ إنَّها تكرارٌ وإيضاحٌ وتكملةٌ لِشيءٍ لا يكملُ أبداً، وهو هذه ٱلمعاني ٱلنسويَّةُ ٱلجميلةُ ٱلتي يزيدُ ٱلشيطانُ فيها من عِشقِ كلِّ عاشق؛ إنَّ بطنَ ٱلمرأةِ يلد، ووجهَ ٱلمرأةِ يلِد!

قلْت: هذا إنْ كانَ وجهُها كوجهِ صاحِبتِك، ولكنْ ما بالُ ٱلدميمة؟

قال: لا، هذا وجهٌ عاقر...

* * *

قلْت: ولكنَّ ٱلخطأَ في فلسفتِك هذه أنَّكَ تنظرُ إلى ٱلمرأةِ نظرةً عمليَّةً تُريدُ أنْ تعمل، ثُمَّ تمنعُها أنْ تعمل؛ فتأتي فلسفتُك بعيدةً مِنَ ٱلفلسفة، وكأنَّكَ تغذو ٱلمعِدةَ ٱلجائعةَ برائحةِ ٱلخبزِ فقط.

قال: نعم هذا خطأ، ولكنَّهُ ٱلخطأُ ٱلذي يُخرجُ ٱلحقائقَ ٱلخياليَّةَ من هذا ٱلجمالِ؛ فإذا سخِرْتَ مِنَ ٱلحقيقةِ ٱلماديَّةِ بأسلوبٍ فبهذا ٱلأسلوبِ عينِهِ تُثبتُ ٱلحقيقةُ نفسَها في شكلٍ آخرَ قد يكونُ أجملَ من شكلِها ٱلأول.

أتعلمُ كيف كانَتْ نظرتي إلى نورِ ٱلقمرِ على هذه وإلى حُسْنِ هذه على ٱلقمر؟ إنَّ ٱلقمرَ كانَ يُنسيني بشريَّتَها فأراها مُتمِّمَةً لَهُ كأنَّهُ ينظرُ وجهَهُ في مرآة، فهيَ خيالُ وجهِهِ؛ وكانَتْ هيَ تُنسيني مادِّيةَ ٱلقمرِ فأراهُ مُتمِّماً لها كأنَّهُ خيالُ وجهِها.

أتدري ما نظرةُ ٱلحُبّ؟ إنَّ في هذا ٱلقلبِ ٱلإنسانيِّ شرارةً كهربائيَّةً متى

---

(١) تدرج: تمشي وتسير.

(٢) المكفوفة: المكبوتة والمحبوسة.

ٱنقدحَتْ زادَتْ في ٱلعينِ ألحاظاً كشَّافة، وزادَتْ في ٱلحواسِّ أضواءً مُدركة؛ فينفذُ ٱلعاشقُ بِنظرِهِ وحواسِّهِ جميعاً في حقائقِ ٱلأشياء، فتكونُ لَهُ على ٱلناسِ زيادةٌ في ٱلرؤيةِ وزيادةٌ في ٱلإدراكِ يعملُ بِها عملاً فيما يراهُ وما يُدركُه؛ وبهذه ٱلزيادةِ ٱلجديدةِ على ٱلنفسِ لِلدنيا حالةٌ جديدةٌ في هذه ٱلنفس؛ ويأتي ٱلسرورُ جديداً ويأتي ٱلحزنُ جديداً أيضاً؛ فألفُ قُبلةٍ يتناولُها ألفُ عاشقٍ من ألفِ حبيب، هي ألفُ نوعٍ مِنَ ٱللذةِ ولو كانَتْ كلُّها في صورةٍ واحدة؛ ولو بكى ألفُ عاشقٍ من هَجْرِ ألفِ معشوقٍ لكَانَ في كلِّ دمعٍ نوعٌ مِنَ ٱلحزنِ ليسَ في ٱلآخر!

* * *

قلْت: فنوعُ تصوُّركِ لِهذه ٱلراقصِة ٱلتي تُحبُّها، أنَّ إبليسَ هنا في غير إبليسيَّتِه!

قال: هكذا هيَ عندي، وبهذا أسخرُ مِنَ ٱلحقيقةِ ٱلإبليسيَّة.

قلْت: أوَ تسخرُ ٱلحقيقةُ ٱلإبليسيَّةُ منك، وهو ٱلأصَحُّ وعليهِ ٱلفتوى...؟

فضحكَ طويلاً، وقال: سأحدِّثُكَ بغريبة: أنت تعرفُ أنَّ هذه ٱلغادةَ لا تظهرُ أبداً إلَّا في ٱلحريرِ ٱلأسود؛ وهيَ رقيقةُ ٱلبَشرةِ ناصعةُ ٱللون، فيكونُ لها من سوادِ ٱلحريرِ بياضُ ٱلبياضِ وجمالُ ٱلجمال؛ فلقد كنْتُ أمسِ بعدَ ٱلعِشاءِ في طريقي إلى هذا ٱلمكانِ لِأَراها، وكانَ ٱلليلُ مظلماً يتدجَّى، وقد لبسَ وتلبَّسَ وغلبَ على مصابيحِ ٱلطريقِ فحصرَ أنوارَها حتى بينَ كلِّ مِصباحينِ ظلمةٌ قائمةٌ كَٱلرقيبِ بين ٱلحبيبينِ يمنعُهما أنْ يلتقيا؛ فبينا أقلِّبُ عيني في ٱلنورِ وٱلغسَقِ وأنا في مثل ٱلحالةِ ٱلتي تكونُ فيها ٱلأفكارُ ٱلمحزِنةُ أشدَّ حُزْناً - إذْ رفَع لي من بعيدٍ شبحٌ أسودُ يمشي مِشْيَتَهُ متفتِّراً قصيرَ ٱلخَطْوِ يهتزُّ ويتبختر؛ فتبصَّرْتُهُ في هيئتِهِ فما شككْتُ أنَّها هي، وفُتحْتِ ٱلجنَّةُ ٱلتي في خيالي وبرزَتِ ٱلحقائقُ ٱلكثيرةُ تلتمسُ معانيَها من لذةِ ٱلحُبّ؛ وكانَ ٱلطريقُ خالياً، فأحسسْتُ بِهِ لنا وحدَنا كَٱلمسافةِ ٱلمحصورةِ بين ثغرينِ مُتعاشقينِ يدنو أحدُهما مِنَ ٱلآخر، وأسرعْتُ إسراعَ ٱلقلْبِ إلى ٱلفرصةِ حينَ تُمكن؛ فلمَّا صِرْتُ بحيثُ أتبيَّنُ ذلك ٱلشبحَ إذا هو... إذا هو قسِّيس...

* * *

فقلْت: يا عجباً!. ما أظرفَ ما داعبَك إبليسُ هذه ٱلمرَّة! وكأنَّهُ يقولُ لك: إيهِ يا صاحبَ ٱلفضيلة...

وكانَ ٱلممثلونَ يتناوبونَ ٱلمسرحَ ونحن عنهم في شُغْل؛ إذْ لم تكنْ نوبتُها قد جاءَتْ بعد؛ وألقى ٱلشيطانُ على لساني فقلْتُ لِصاحبِنا: ما يمنعُكَ أنْ تبعثَ إليها فُلاناً يستفتحُ كلامَها ثُمَّ يدعوها، فليسَ بينَكَ وبينَها إلَّا كلمةُ «تعالَيْ» أو تفضَّلي؟

قال: كلا، يجبُ أنْ تنفصلَ عنِّي لِأَراها في نفسي أشكالاً وأشكالاً؛ ويجبُ أنْ تبتعدَ لِأَلمسَها لَمساتٍ روحيَّة؛ ويجبُ أنْ أجهلَ منها أشياءَ لِأُحقِّقَ فيها عِلْمَ قلْبي؛ ويجبُ أنْ تدعَ جسمَها وأدَعَ جسمي وهناك نلتقي رجلاً وَٱمرأةً ولكنْ على فَهْمٍ جديدٍ وطبيعةٍ جديدة. بهذا ٱلفَهْمِ أنا أكتب، وبهذه ٱلطبيعةِ أنا أُحِبّ!

ما هو ٱلجزءُ ٱلذي يفتنني منها؟ هو هذا ٱلكلُّ بِجميعِ أجزائِه.

وما هو هذا ٱلكلّ؟ هوَ ٱلذي يفسِّرُ نفسَهُ في قلبي بِهذا ٱلحُبّ.

وما هو هذا ٱلحُبّ؟ هو أنا وهي على هذه ٱلحالةِ مِنَ ٱليأس.

نعم أنا بائس، ولكنَّ شعورَ ٱلبؤسِ هو نوعٌ مِنَ ٱلغِنى في ٱلفنّ: لا يكونُ هذا ٱلغِنى إلَّا من هذا ٱلشعورِ ٱلمُؤلِم، وٱلحبيبُ ٱلذي لا تنالُهُ هو وحدَهُ ٱلقادرُ قُدرةَ ٱلجمالِ وَٱلسحر؛ يجعلكُ لا تدري أين يختبىءُ منه جمالُهُ فيدعُكَ تبحثُ عنه بلذَّة؛ ولا تدري أين يُسفِرُ[1] جمالُهُ منه فيدعُكَ تراهُ بلذَّةٍ أخرى؛ أنا أُنضِجُ هذه ٱلحلوى على نارٍ مشبوبة، على نارٍ مشبوبةٍ في قلبي!

قلْت: يا صديقيَ ٱلمسكين! هذه مشلكةٌ عرضَتْ بها ٱلمُصادفةُ وستَحلُّها ٱلمُصادفةُ أيضاً. وما كانَ أشدَّ عجبي إذْ لم أفرغْ مِنَ ٱلكلمةِ حتى رأينا (المشكلة) مُقبلةً علينا.

أمَّا هو: أمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين. . .؟

---

(١) يُسفر: يكشف.

القلب المسكين

٤

أمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ فما كادَ يرى ٱلحبيبةَ وهي مُقبلةٌ تَتيَمَّمُنا[١] حتى بَغَتهُ[٢] ذلك، فساوَرَهُ[٣] ٱلقلق، وَٱعتراهُ ما يعتري ٱلمُحِبَّ ٱلمهجورَ إذا فاجأهُ في ٱلطريقِ هاجِرُه؛ أرأيْتَ مرَّةً عاشقاً جفاهُ ٱلحبيبُ وَٱمتنعَ عليهِ دهْراً لا يراه، وصارمَهُ[٤] مدَّةً لا يكلمُه، فنزعَ نومَهُ من ليلِه، وراحتَهُ من نهارِه، ودُنياهُ من يدِه، وبلغَ بِهِ ما بلغَ مِنَ ٱلسقمِ[٥] وَٱلضنَى، ثُمَّ بينا هو يمشي إذْ باغتَهُ ذلك ٱلحبيبُ مُنحدِراً في ٱلطريق؟

إنَّكَ لو أبصَرْتَ حينئذٍ قلْبَ هذا ٱلمسكينِ لرَأيْتَهُ على زلزلةٍ من شِدَّةِ ٱلخفقان، وكأنَّهُ في ضرباتِهِ متلعْثِمٌ يكرِّرُ كلمةً واحدة: هي هي هي. . .

ولو نفذْتَ إلى حِسِّ هذا ٱلبائسِ لرأيْتَهُ يَشعرُ مثلَ شعورِ ٱلمحْتَضَرِ[٦] أنَّ هذه ٱلدنيا قد نفتْهُ منها!

ولوِ ٱطلعْتَ على دمِهِ في عروقِهِ لأَبصَرْتَهُ مخذولاً يتراجعُ كأنَّ ٱلدمَ ٱلآخرَ يطردهُ.

إنَّها لحظةٌ يرى فيها ٱلمهجورُ بعينيهِ أنَّ كلَّ شهواتِهِ في خيبة، فيردُّ عليهِ ٱلحبُّ معَ كلِّ شهوةٍ نوعاً مِنَ ٱلذل، فيكونُ بإزاءِ ٱلحبيبِ كَالمنهزمِ مائةَ مرَّةٍ أمامَ ٱلذي هزمَهُ مائةَ مرَّة.

لحظةٌ لا يشعرُ ٱلمسكينُ فيها مِنَ ٱلبغتةِ وٱلتخاذلِ وَٱلاضطرابِ وَٱلخوْفِ إلَّا أنَّ روحَهُ وثبَتْ إلى رأسِهِ ثُمَّ هَوَتْ فجأةً إلى قدميه!

* * *

---

(١) تتيممنا: تتجه نحونا.
(٢) بغته: فاجأه.
(٣) ساوره: انتابه، داخله.
(٤) صارمه: قاطعه.
(٥) السقم: المرض.
(٦) المحتضر: المنازع في اللحظات الأخيرة من حياته.

غيرَ أنَّ صاحبَنَا نحنُ لم يكنْ مهجوراً مِنْ صاحبتِهِ، ولكنْ من عجائبِ ٱلحُبِّ أنَّهُ يعملُ أحياناً عملاً واحداً بِٱلعاطفتينِ ٱلمختلفتين، إذْ كانَ دائماً على حدودِ ٱلإسرافِ ما دامَ حُبّاً، فكلُّ شيءٍ فيهِ قريبٌ من ضِدِّهِ، وَٱلصِّدْقُ فيهِ من ناحيةٍ مهيَّأٌ دائماً لِأنَّ يُقابَلَ بتهمةِ ٱلكذبِ مِنَ ٱلناحيةِ ٱلأخرى، وَٱليقينُ مُعَدٌ لهُ ٱلشَّكُّ بِٱلطبيعة؛ وَٱلحُبُّ نفسُهُ قضاءٌ على ٱلعدْل، فإنَّهُ لا يخضعُ لِقانونٍ مِنَ ٱلقوانين، وَٱلحبيب ـ معَ أنَّهُ حبيبٌ ـ يخافُهُ عاشِقُهُ من أجلِ أنَّهُ حبيب!

وقد يَصفرُّ ٱلعاشقُ لِمباغتةِ ٱللقاءِ كما يصفَرُّ لِمباغتةِ ٱلهجر، وهذه كانَتْ حالَ صاحبِنا عندَ ما رآها مُقبلةً عليه؛ وكانَ مع ذلك يخشى إلمامتَها بِه، توَقِّياً على نفسِهِ من ظنونِ ٱلناس؛ وأكثرَ ما يُحسنُهُ ٱلناسُ هو أنْ يُسيئوا ٱلظَنّ؛ وهو رجلٌ ذو شأنٍ ضَخْم، ومقالةُ ٱلسوءِ إلى مثلِهِ سريعةٌ إذا رُؤيَ مع مِثلِها، وكأنَّها هيَ أَلَمَّتْ[1] بِكُلِّ هذا أو طالَعَها بِهِ وجهُهُ ٱلمتوقِّرُ ٱلمترمِّت[2]؛ فعدلَتْ عن طريقِها إلينا ووقفَتْ على رئيسِ فرقةِ ٱلموسيقى، وما بيَننَا وبينَها إلَّا خُطوات؛ ورأيْتُها قد هيَّأَتْ في عينيها نظرةً غاضبَتْنا بها، ثُمَّ لم تلبثْ أنْ صالحتْنا بأخرى!

وكأنَّها ألقَتْ لِرئيس ٱلموسيقى أمراً لِيتأهَّبَ أُهبتَهُ لِدورِها، ثُمَّ همَّتْ أنْ ترجع، ثُمَّ عادَتْ إليهِ فجعَلتْ تُكَلِّمُهُ وعيناها إلينا؛ فقالَ صاحبُنا وأعجبَهُ ذلك من فِعْلها: إنَّها نبيلةٌ حتى في سقوطِها!

ولا أدري ماذا كانَتْ تقولُ لِرئيسِ ٱلموسيقى، ولكنَّ هذا ٱلرجلَ لم يَظهرْ لي وقتئذٍ إلَّا كأنَّهُ تُليفونٌ مُعَلَّق!

* * *

كانَتْ عيناها إلى صاحبِها لا تنزلانِ عنهُ ولا تتحوَّلانِ إلى غيرِهِ، ولا تُسارقُهُ النظر بلْ تغلبُهُ عليهِ مُغالبة؛ ورأيتُهُ كذلك قد ثبتَتْ عيناه عليها فخُيِّلَ إليَّ أنَّ هذا ٱلوجودَ قدِ ٱنحصرَ جمالُهُ بينَ أربعةِ أعينٍ عاشقة؛ وكانَتْ تُطارِحُهُ[3] ويُطارحُها كلاماً مخبوءاً تحتَ هذه ٱلنظرات، وقد نسياً ما حولَهما، وشعرا بما يشعرُ بِهِ كلُّ حبيبينِ إذا ٱلتقيا في بعضِ لَحظاتِ ٱلروحِ ٱلسامية: أَنَّ هذا ٱلعالمَ ٱلعظيمَ لا يعملُ إلَّا لاثْنينِ فقط: هو وهي..

---

(١) ألمّت: عرفت.

(٢) المترمت: المتربد.

(٣) تطارحه: تبادله.

وكانَ فمُها ٱلجميلُ لا يزالُ يُساقِطُ ألفاظَهُ لِرئيسِ ٱلموسيقى، وكأنَّها تَسرُدُ لَهُ حِكايةً مرويَّةً، أو تُعارِضُ بِحافظتِهِ كلاماً تحفظُهُ من كلامِ ٱلتمثيلِ أوِ ٱلغناء؛ فهي تتحدَّثُ وعيناها مفكِّرتانِ شاخصتان، فلم يُنكرِ ٱلرجل هيئَتَها هذه؛ ولكنْ كيفَ كانَتْ عيناها؟

لقدْ أرادَتْ في ٱلبدءِ أنْ تجعلَ قوَّةَ نظراتِها كلاماً، حتى لَحسِبَتْ أنَّ هذه ٱلنظراتِ ٱلأولى تهتفُ من بعيد: أنتَ يا أنتَ!

ثُمَّ بدا في عينيها فتورُ ٱلظمأ، ظمإِ ٱلحُبِّ ٱلمتكبِّرِ ٱلمتمَرِّد، لِأنَّهُ حُبُّ ٱلمرأةِ ٱلمعشوقة، ولِأنَّ لَهُ لذتين، إحداهما في أنْ يبقى ظمأً إلى حين...

ثُمَّ أرسَلتِ ٱلألحاظَ ٱلتي تتوهَّجُ أحياناً فوقَ كلامِ ٱلمرأة ٱلجميلةِ في بعضِ حالاتِها ٱلنفسيَّة، فتُضرِمُ في كلامِها شرارةً مِنَ ٱلروحِ تُظهِرُ ٱلكلَامَ كأنَّهُ يُحرِقُ ويحترق...

ثُمَّ توجَّعَتِ ٱلنظراتُ لِأنَّها تَصِلُها بِٱلرجلِ ٱلذي لا يُشبهُ ٱلرجالَ، فلا يستوهِبُ[1] خُضوعَها ولا يشتريهِ؛ وَٱلرجلُ كلُّ ٱلرجل عندَ هذه ٱلمرأةِ هَو ٱلذي لا يُشبِهُ ٱلباقينَ مِمَنْ تعرفُهُم، فإذا أحبَّها فكأنَّما أحبَّها عذراءَ خَفِرَةً[2] لم تُمسّ، وكأنَّهُ من ذلك يَصِلُها بِماضيها وطهارتِها وحيائِها وما لا يُمكنُ أنْ تتمثَّلَهُ إلَّا في مثلِ حبِّه.

ثُمَّ ذبُلَتْ عيناها ٱلجميلتان، وما هو ذبولُ عيني ٱمرأةٍ تنظرُ إلى مُحِبِّها؛ إنَّهُ هَو ٱستسلامُ فِكْرِها لِفكرة، أو عنادُ معنًى فيها لِمعنًى فيه، أو توكيدُ خاطرةٍ تحتاجُ إلى ٱلتوكيد؛ ومرَّةً هو كقولِها: لماذا؟ وتارةً هو كقولِها: أفهِمْت؟ وأحياناً، وأحياناً هو ٱنتهاءُ مُقاومة.

* * *

وتمَّتِ ٱلحِكايةُ ٱلمرويَّةُ ٱلتي كانَتْ تُلقِيها لِلتليفونِ... فكرَّتْ[3] راجعةً إلى ٱلمسرحِ بعدَ أنْ صاحَتْ نظراتُها مرَّةً أخرى كما بدأَت: أنت يا أنت... فقلْتُ لِصاحبِنا: ويحكَ يا عدوَّ نفسِه! لوِ ٱختارَ ٱلشيطانُ عينينِ ساحرتينِ ينظرُ بهما إليكَ نظرَ ٱلفِتنة، لَمَا ٱختارَ إلَّا عينيها، في وجهِها، في هيئتِها، في موقفِها؛ وأراكَ معَ هذا كمنتظرٍ ما لا يُوجدُ ولا يُمكنُ أنْ يُوجد؛ وأراها معكَ في حُبِّها كَٱلحيوانِ ٱلأليفِ إذا طمِعَ في ٱلمستحيل.

---

(١) يستوهب: يطلب الحصول عليه.

(٢) خفرة: حيّية.

(٣) كرّت راجعة: عادت.

قال: وما هوَ ٱلمستحيلُ ٱلذي يطمعُ فيهِ ٱلحيوانُ ٱلأليف؟

قلْت: ذلك يطمعُ في أنْ تكونَ لَهُ حقوقٌ على صاحبِهِ فوقَ ٱلألفةِ وَٱلمنفعة.

قال: لقد أغمضْتَ في ٱلعبارةِ فبيِّنْ لي شيئاً مِنَ ٱلبيان.

قلْت: هبْ كلبةً تألفُ صاحبَها وتُحِبُّهُ فهي لَهُ ذليلةٌ مطِواع، ثُمَّ يبلغُ بها ٱلحُبُّ أنْ تطمعَ في أنْ يكونَ لها تمامُ ٱلشرف، فلا يقولُ صاحبُها عنها: هذه كلبتي، بلْ يقول: هذه زوجتي...

قال: ويْ منك! ويْ منك[1]! لقد ضرَبْتَ على رأسِ ٱلمسمارِ كما يقولونَ هذا هوَ ٱلمستحيلُ ٱلذي بيني وبينَها، هذا هو ٱلمثل. يا لفظَ ٱلحلوى! يا لفظَ ٱلحلوى! لو كرّرْتُكَ بِلساني ألفَ مرةً فهلْ تضعُ في لِساني طعمَها...؟

قُلْتُ: خفِّضْ[2] عليكَ يا صاحبَ ٱلقلبِ ٱلمسكين، فلسْتَ أكثرَ من عاشق.

قال: بلْ أنا مع هذه أكثرُ من عاشق؛ لِأَنَّ في ٱلعاشقِ راغباً وفيَّ أنا راهب، وفيهِ ٱلجريءَ وفيَّ ٱلمنكمِش، ويغترفُ ٱلغُرْفةَ مِنَ ٱلشلّالِ ٱلمتحدِّرِ فيحسوها فيرتوي وأغترفُ أنا ٱلغُرْفةَ بيدي، وأُبقيها في يدي، وأطمعُ أنْ تهْدِرَ في يدِي كَٱلشلالِ أنا أكثرُ من عاشق؛ فأنَّهُ يعشقُ لِينتهيَ من ألمِ ٱلجمال، وأعشقُ أنا لِأستمِرَّ في هذا ٱلألم!

هذه هذه؛ ٱلعجيبُ يا صديقي أنَّ خيالَ ٱلإنسانِ يلتقِطُ صُوَراً كثيرةً من صُوَرِ ٱلجمالِ تجيءُ كما يتَّفق، ولكنَّهُ يلتقِطُ صورةً واحدةً بِإتقانٍ عجيب، هي صورةُ ٱلحُبّ؛ فهذه هذه.

ألم أقلْ لك إنَّ إبليسَ هنا في غير حقيقتِهِ ٱلإبليسيَّةِ ولم تفهمْ عنِّي؟ فأفهم ٱلآن أنَّنا إنْ كنَّا لا نرى ٱلملائكةَ فإنَّهُ لَيُخيَّلُ إلينا أنَّنا نراها فيمَنْ نُحبُّهم؛ وما دامَ سرُّ ٱلحُبِّ يُبدِّلُ ٱلزمنَ وَٱلنفسَ ويأتي بأشياءَ من خارجِ ٱلحياة، فكلُّ حقائقِ هذا ٱلحبِّ في غيرِ حقيقتِها..

هذه هذه؛ لا أطلبُ في غيرِها ٱمرأةً أجملَ منها، فهذا كَٱلمستحيل، ولكنِّي ألتمسُ[3] فيها هيَ ٱمرأةً أطهرَ منها، وهذا كَٱلمستحيلِ أيضاً؛ إنَّها أجملُ جسم، ولكنْ وَاأسفاه! إِنَّها أجملُ جسمٍ لِلْمعاني ٱلتي يجبُ أنْ أبتعدَ عنها!

❊ ❊ ❊

---

(١) وي: اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب.

(٢) خفِّض: هوّن.

(٣) ألتمس: أفتش وأطلب.

وسكَتَ صاحبُنا، إذْ رُفِعَتْ ستارةُ ٱلمسرحِ وظهَرتْ هيَ مرَّةً أخرى، ظهَرتْ في زِينةٍ لا غايةَ بعدَها، تمثِّلُ ٱلعروسَ ليلةَ جَلوَتِها[1]؛ ألا ما أمرَّها سخريةً منكِ أيَّتُها ٱلمِسكينة! عروسٌ ولكنْ لِمَنْ؟

كانَتْ تَبرُق على ٱلمسرحِ كأنَّها كوكبٌ دُريٌّ نُورُهُ نورٌ وجمالٌ وعواطفُ شعر.

وأقبلَتْ تتمايلُ بِجسمٍ رَخْصٍ ليِّنٍ مسترسلِ ٱلأعطافِ يتدفَّقُ ٱلجمالُ وٱلشبابُ فيهِ من أعلاهُ إلى أسفَلِهِ.

وأظهرَ وجهُها حُسْناً وأبدى جِسْمُها حُسْناً آخر، فَتمَّ ٱلحُسْنُ بِٱلحُسْن.

واقفةً كَٱلنائمة، فَٱلجوُّ جوُّ ٱلأحلام، وكانَ الحُبُّ يحلُمُ، وكانَ ٱلسرورُ يحلُم!

مهتزةً كَٱلمَوْج في ٱلمَوْج. هلْ خُلِقَتْ روحُ ٱلبحرِ في جِسْمِها ٱلمترجرجِ فشيءٌ يعلو وشيءٌ يهبِطُ وشيءٌ يثورُ ويضطرب؟

ثُمَّ دقَّتِ ٱلموسيقى بألحانِها ٱلمتكلِّمة، ودقَّتْ أعضاءُ هذا ٱلجسمِ بألحانِها ٱلمتحرِّكة، وأحسَسْنا كأنَّ روحَ ٱلحديقةِ جالسةٌ بينَنا تنظرُ إليها وتتعجَّب. تتعجَّبُ من قَوامِها لِلْغصنِ ٱلحيّ، ومن بدنِها للزهرِ ٱلحيّ، ومن عِطرِها لِلنسيمِ ٱلحيّ.

أمَّا صاحبُ القلبِ ٱلمِسكين...

---

(١) ليلة جلوتها: ليلة زفافها وعرسها.

القلبُ ٱلمسكين

٥

أمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ فتزعزعَتْ كبدُهُ مِمَّا رأى؛ وجعلَ ينظرُ إلى هذه ٱلفتَّانةِ تُمثِّلُ ٱلعروس وقد أشرقَ فيها رَوْنقُها وسطعَتْ ولمعَت، فبدَتْ لَهُ مُفسِّرَةً في هذه ٱلغلائلِ غلائلِ ٱلعُرْس؛ وما غلائلُ ٱلعُرْس؟

إنَّها تلك ٱلثيابُ ٱلتي تكسو لابستَها إلى ساعةٍ فقط. . . ثيابٌ أجملُ ما فيها أنَّها تُقدِّمُ الجمالَ إلى الحُبّ، فأزهى ألوانها اللونُ المُشرِقُ من روح لابستِها، وأسطعُ ٱلأنوارِ عليها، ٱلنورُ ٱلمنبعِثُ من فرحِ قلبين.

تلك ٱلثيابُ ٱلتي تكونُ سَكْباً من خالصِ ٱلحريرِ ورفيعِ ٱلخزّ، وحينَ تلبسُها مثلُ هذه ٱلفاتنةِ تكادُ تنطِقُ أنها ليسَتْ مِنَ ٱلحرير، إذْ تعلمُ أنَّ ٱلحريرَ ما تحتَها.

ثُمَّ تنهَّدَ ٱلمِسْكِينُ وقال: أفهِمْت؟

قلْت: فهِمْت ماذا؟

قال. هذا هوَ ٱنتقامُها.

قلْت: يا عجباً! أتُريدُها في ثِيابِ راهبةٍ مُكبكبَةٍ فيها كما أُلقيَتِ ٱلبِضاعةُ في غَرارة[1]، بينَ سوادٍ هو شعارُ ٱلحِدادِ على ٱلأنوثةِ ٱلهالكة، وبياضٍ هو شِعارُ ٱلكفنِ لِهذه ٱلأنوثة؟

قال: أنت لا تعرفُها؛ إنَّ ٱلروايةَ ٱلتي تُمَثِّلُ فيها بينَ ٱلروحِ وَٱلجِسم، هيَ ٱلتي أحتاجَتْ إلى هذا ٱلفصل يقوَى بِهِ ٱلمعنى؛ وكلُّ عاشقةٍ فعِشْقُها هوَ ٱلروايةُ ٱلتي تُمثِّلُ فيها، يُؤلِّفها هذا ٱلمؤلفُ ٱلذي ٱسمُهُ ٱلحُبّ، ولا تدري هيَ ماذا يصنعُ وماذا يُؤلِّف، غيرَ أنَّهُ لا يفتأُ يُؤلِّفُ ويصنعُ وينقِّحُ كما تتنزلُ بِهِ ٱلحالُ بعدَ ٱلحال، وكما تعرضُ بِهِ ٱلمُصادَفةُ بعدَ ٱلمُصادَفة؛ وعليها هيَ أنْ تمثِّلَ. .

---

(١) غرارة، بالفتح: صار ذاعرّة.

قلْت: فهذا؛ ولكنْ كيف يكونُ هذا ٱنتقاماً؟

قال: إنَّ ٱلأفكارَ أشياءُ حقيقيَّة، ولو كشفَ لك ٱلجوُّ هذه ٱلساعةَ لَرَأيْتَهُ مسطوراً عباراتٍ عباراتٍ كأنَّهُ مقالةُ جريدة.

هذا ٱلفصلُ حِوارٌ طويلٌ في ٱلهمومِ وَٱلآلامِ ورقةِ ٱلشوْقِ وتهالُكِ ٱلصبْوة، لو كُتبَ لَهُ عنوانٌ لَكَانَ عُنوانُهُ هكذا: ما أشبهاها وما أحظاها! إنَّ ٱلهواءَ بينَ كلِّ عاشقينِ متقاتلينِ يأخذُ ويُعطي...

قلْت: يا عدوَّ نفسِه! ما أعجَبَ ما تُدقِّق! لقد أدركْتُ ٱلآنَ أنَّ ٱلمرأةَ تتسلَّحُ بِما شاءَت، لا من أجلِ أنْ تُدافع، ولكن لِتزيدَ أسلحتَها في سلاحِ مَنْ تُحبُّه، فتُريدُهُ قوَّةً على قَهْرِها وإِخضاعِها...

* * *

أمَّا هذه (ٱلعروسُ) فكانَتْ أفكارُها لا تجِدُ ألفاظاً تحدُّها فهيَ تظهرُ كيفما ٱتَّفق، مرسَلةً إرسالاً في ٱللَّفتَةِ وَٱلحركةِ وَٱلهيئةِ وَٱلقَوْمَةِ وٱلقَعدة: وهيَ مَنْ عَلِمْتَ: ٱمرأةٌ تعيشُ لِلْحقائق، وبينَ ٱلحقائق، كَكُلِّ ذي صنعةٍ في صنعتِهِ فكانَتْ في تماديها خطراً أيَّ خطرٍ على صاحبِ ٱلقلبِ ٱلمسكين، تُمثِّلُ شيئاً لا أدري أهو ظاهرٌ بِخفائِهِ أمْ هو خافٍ بِظهورِه؛ وقد وقعَ صاحبُنا منها فيما لم يدخلْ في حِسابِه، فكانَتِ ٱلخبيثةُ ٱلماجنة كأنَّها تُسكرُهُ بِمُسْكرٍ حقيقيّ، غيرَ أنَّهُ من جسمِها لا من زجاجةِ خمر.

وكانَتْ لِذهنِهِ ٱلمتخيِّل كَٱلسحابةِ ٱلممتلئةِ بِٱلبرق؛ تُومِضُ كلَّ لحظةٍ بأنوارٍ بعدَ أنوار، وبينَ ٱلفترةِ وَٱلفترةِ ترمي ٱلصاعقة.

وظهَرتْ كأنَّها ٱمرأةٌ مخلوقةٌ من دَم ولَهَب؛ فلقد أيقنْتُ حينئذٍ أنَّ ٱلحبَّ إنْ هوَ إلَّا ٱلغريزةُ ٱلبهيميَّةُ بِعينِها محاوِلةً أنْ تكونَ شيئاً لَهُ وجودٌ فنِّي إلى وجودِهِ ٱلطبيعيّ، فهو مصيبتانِ في واحدة، وكلُّ عملِهِ أنْ يجعلَ ٱللذَّةَ ألذَّ، وَٱلألمَ أشدَّ، وَٱلقِلَّةَ كثرة، وٱلكثرةَ أكثر، وما هو نهايةٌ كأنَّهُ لا نهاية...

هذه (ٱلعروسُ) كانَتْ قبلَ ٱلآنِ واقفةً على حدودِ صاحبِها، أمَّا ٱلآنَ فإنَّها تقتحِمُ ٱلحدودَ وتغزو غزوَها وتمتلِك...

يا لَسحرِ ٱلحُبِّ من سِحْر! كلُّ ما في ٱلطبيعةِ من جمالٍ تُظهرُهُ ٱلطبيعةُ لِعاشقِها في إحدى صورِ ٱلفهم، أمَّا ٱلحبيبُ ٱلجميلُ فهو وحدَهُ ٱلذي يَظهرُ لعاشقِهِ في كلِّ

صُوَرِ ٱلفهْم، وبهذا يكونُ ٱلوقتُ معَهُ أوقاتاً مختلِفةً متناقِضة، ففي ساعةٍ يكونُ ٱلعقلُ وفي ساعةٍ يكونُ ٱلجنون.

يا لَسحرِ ٱلحُبِّ! لقد أرادَتْ هذه ٱلمرأةُ أنْ تَذهبَ بعقلِ صاحبِها، وأنْ تنقُلهُ إلى وحشيَّةِ ٱلإنسانِ ٱلأولِ ٱلكامنِ فيه، وأنْ تقذِفَ بِهِ إلى بعيدٍ بعيدٍ وراءَ فضائلِهِ وعِصمتِه؛ فسَنَحتْ لَهُ كما يسنحُ ٱلصيدُ لِلصائدِ يحملُ في جِسمِهِ لحمَهُ ٱلشهيّ... وتركَتْ شعورَهُ جائعاً إلى محاسنِها بِمثلِ جوعِ ٱلمعِدة... وبرزَتْ لَهُ صريحةً كما هيَ، ولمَا هي؛ ومن حيثُ إنَّها هيَ هي؛ وكلُّ ذلك حينَ ألبسَتْ جِسمَها ثيابَ ٱلحقيقةِ ٱلمؤنَّثة.

آهِ مِن (هي) إذا امتلأَتِ ٱلهاءُ وٱلياءُ من قلْبِ رجلٍ يُحبُّ! وآهِ من (هيَ) إذا خرجَتْ هذه ٱلكلمةُ من لغةِ ٱلناسِ إلى لغةِ رجلٍ واحد!

إنَّ في كلِّ ٱمرأة... ٱمرأةً يُقالُ لها (هي) بٱعتبارِ ٱلضميرِ لِلتأْنيثِ فقط، كما يُعتبرُ في ٱلدابَّةِ وٱلحشرَةِ وَٱلأَداةِ ونحوِها من هذهِ ٱلمؤنثاتِ ٱلتي يرجعُ عليها هذا ٱلضمير؛ ولكنْ (هي) ٱلمفردةُ في ٱلكونِ كلِّهِ لا تُوجدُ في ٱلنساءِ إلَّا حينَ يُوجدُ لها (هو)...

* * *

أنا أنا ٱلذي يقصُّ لِلْقراءِ هذه القصة، قد كابَدْتُ[1] من شِدَّةِ ٱلحُبِّ وإفراطِ ٱلوجدِ[2] ما يُفْعِمُ قلبينِ مسكينينِ لا قلباً واحداً؛ وكانَتْ لي (هيِ) مِنَ ٱلْهيَاتِ عانيْتُ فيها ٱلحُبَّ وٱلأَلَمَ دهْراً طويلاً؛ وقد ذهبَتْ بي في هواها كلَّ مذهبٍ إلَّا مذهباً يُحلُّ حراماً، أو مذهباً يُخلُّ بِمُروءَة؛ ولقد عَلِمْتُ أنَّ ٱلشيءَ ٱلسامي في ٱلحُبِّ هو ألَّا يخرجَ مِنَ ٱلعاشقِ مجرم.

فَٱلشأنُ كلُّ ٱلشأنِ أنْ يستطيعَ ٱلرجلُ ٱلفصلَ بين ٱلحُبِّ من أجلِ جمالِ ٱلأنثى يَظهرُ عليها، وبينَ ٱلحُبِّ من أجْلِ ٱلأنثى تظهرُ في جمالِها؛ فهو في ٱلأولى يشهدُ ٱلإلاهيةَ في إبداعِها ٱلسامي ٱلجميل، وفي ٱلأخرى لا يرى غيرَ ٱلبشريةِ في حيوانيتِها ٱلمتجمِّلة...

وقد أدركْتُ من فلسفةِ ٱلحُبِّ أنَّ ٱلحقيقةَ ٱلكبرى لِهذا ٱلجمالِ ٱلأزليِّ ٱلذي يملأُ ٱلعالم ـ قد جعلَتْ حنينَ ٱلعِشْقِ في قلْبِ ٱلإنسانِ هو أولَ أمثلتِها ٱلعمليَّةِ في تعليمِهِ ٱلحنينَ إليها إنْ شاءَ أنْ يتعلّم، فكما يُحبُّ إنسانٌ بروحِ ٱلشهْوَةِ يُحِبُّ إنسانٌ

(١) كابدت: عانيت. (٢) الوجد: شدّة احبّ.

آخرُ بُروحِ ٱلعِبادة؛ وهذا هوَ ٱلذي يُسميهِ ٱلفلاسفة: (تلطيف ٱلسرّ)، أيْ جعلَهُ مستعداً لِلتوجُّهِ إلى ٱلنورِ وٱلحقِّ وَٱلخير، وقد عدُّوا فيما يُعينُ عليه، ٱلفكرَ ٱلدقيقَ وٱلعِشْقَ ٱلعنيف.

وكذلك تبينْتُ مِمَّا علَّمَني ٱلحُبُّ أنَّ طرْدَ آدمَ وحواءَ مِنَ ٱلفِرْدوس، كانَ معناهُ ثِقْلَ معاني ٱلفردوسِ وعرْضَها لِكلٍّ آدمٍ وحواءَ يُمثِّلانِ ٱلرواية... فإذا (قطفا ٱلثمرة) طُرِدا من معاني ٱلجنة، وهبطا بعدَ ذلكَ من أخيلةِ ٱلسماءِ إلى حقائقِ ٱلأرض.

نعم هوَ ٱلحُبُّ شيءٌ واحدٌ في كلِّ عاشقٍ لِكُلِّ جميل، غيرَ أنَّ ٱلفرْقَ بينَ أهلِهِ يكونُ في جمالِ ٱلعملِ أو قُبحِ ٱلعمل؛ وهذه ٱلنفوسُ مصانعُ مختلفةٌ لِهذه ٱلمادَّةِ ٱلواحدة؛ فَٱلحُبُّ في بعضِها يكونُ قوَّةً وفي بعضِها يكونُ ضَعْفاً؛ وفي نفسٍ يكونُ ٱلهوى حيوانِياً يُراكِمُ ٱلظلْمةَ على ٱلظلْمةِ في ٱلحياة، وفي أخرى يكونُ روحانيّاً يكشفُ ٱلظلامَ عنِ ٱلحياة.

وَٱلمُعجزةُ في هذا ٱلإنسانِ ٱلضعيفِ أنَّهُ لَهُ معَ طبيعةِ كلِّ شيءٍ طبيعةُ ٱلإحساسِ بِه، فهو مُستطيعٌ أنْ يجدَ لَذَّةَ نفسِهِ في ٱلألم، قادرٌ على أنْ يأخذَ هِبَةً من معاني ٱلحرمان؛ وبهذه ٱلطبيعةِ يسمو مَنْ يسمو، وهيَ على أتَمِّها وأقواها في عُظماءِ ٱلنفوس، حتى لَكأنَّ ٱلأشياءَ تأتي هؤلاءِ ٱلعظماءَ سائلةً: ماذا يُريدون منها؟

فمَنْ أرادَ أنْ يسموَ بِٱلحُبِّ فلْيضعْهُ في نفسِهِ بين شيئين: ٱلخُلُقِ ٱلرفيع، وَٱلحِكْمةِ ٱلناضجة؛ فإنْ لَمْ يستطعْ فلا أقلَّ من شيئين: الحلال، والحرام.

* * *

أنا أنا ٱلذي يقصُّ لِلْقراءِ هذه ٱلقصة، أعرفُ هذا كلَّه، وبهذا كلِّهِ فهِمْتُ قولَ صاحبِ ٱلقلبِ ٱلمِسكين: إنَّ ظهورَ صاحبتِهِ في فصلِ ٱلعروسِ هوَ ٱنتقامُها، حاصرَتْ عيناها عينَه، وزحَفتْ معانيها على معانيه، وقاتَلَتْ قِتالَ جِسمِ ٱلمرأةِ ٱلمحبوبةِ في معركةِ حُبِّها، وبِكلمةٍ واحدة: كأنَّما لَبِسَتْ هذه ٱلثيابَ لِتظهرَ لَهُ بلا ثياب...

وأردْتُ أنْ أعيبَها بما صنَعتْ نفسُها له، وأنْ أعيبَهُ هو بِدُخولِهِ فيما لا يُشبهُه، وقلْتُ في غيرِ طائلٍ ولا جِدوى[1]، فما كنْتُ إلَّا كَٱلذي يَعيبُ ٱلوردَ بِقولِهِ: يا عطرَ ٱلشذى[2]، ويا أحمرَ ٱلخدَّين!

---

(١) جدوى: فائدة ونتيجة. (٢) الشذى: العبير.

وقد أمسكَ عن جوابي، وكانَتْ محاسِنُها تجعلُ كلماتي شَوْهاء[1]، وكانَ وضوحُها يجعلُ معانيَّ غامضة، وكانَتْ حلاوتُها تجعلُ أقوالي مُرَّة، وكانَتْ ثِيابُ ٱلعروسِ وهيَ تُزَفُّ تُريدِ ٱلفاظي في ثِيابِ ٱلعجوزِ ٱلمطلَّقة؛ وكلّما غاضبَتْهُ معَ نفسِهِ أوقعَتْ هيَ ٱلصلْحَ بينَهُ وبينَ نفسِه.

وَٱلعجيبُ ٱلعجيبُ في هذا ٱلحُبِّ أنْ فتحَ ٱلعينينِ على ٱلجميلِ ٱلمحبوبِ هو نوعٌ من تغميضِهِما لِلنومِ ورؤيا ٱلأحلام؛ ليسَ إلَّا هذا، ولا يكونُ أبداً إلَّا هذا؛ فمهما أُعطيْتَ من جَدَلٍ فإقناعُكَ ٱلمُحِبَّ ٱلمستهامَ كإقناعِكَ ٱلنائمَ ٱلمستَثْقِلَ؛ وكيف ولَهُ ألفاظٌ من عقلِهِ لا من عقلِك، وبينَكَ وبينَهُ نِسيانُهُ إيَّاك، وقد تركَكَ على ظاهرِ ٱلدنيا وغاصَ هو في دنيا باطنِهِ لا يملكُ فيها أخذاً ولا ردّاً إلَّا ما تُعطي وما تمنع.

* * *

ثم... ثُمَّ غابَتِ (ٱلعروسُ) بعدَ أنْ نظرَتْ لَهُ وضحكَت.

ضحكَتْ بحزنٍ حُزنِ ٱلذي يسخرُ من حقيقةٍ لِأَنَّهُ يتألَّمَ من حقيقةٍ غيرِها؛ وكانَ منظرُها ٱلجميلُ ٱلمنكسِرُ فلسفةً تامَّةً مُصَوَّرةً لِلْخير ٱلذي إعتدى عليهِ ٱلشرُّ فأحالُهُ، وَٱلإرادةِ ٱلتي أكرهَها ٱلقدرُ فأخضعَها، وَٱلعِفَّةِ ٱلمِسكينةِ ٱلتي أذَلَّتْها ضرورةُ ٱلحياة، وَٱلفضيلةِ ٱلمغلوبةِ ٱلتي حِيلَ بينَها وبينَ أنْ تكونَ فضيلة!

ويا ما كانَ أجمَلَها ناظرةً بِمعاني ٱلبُكاءِ ضاحكةً بِغيرِ معاني ٱلضحك؛ تتنهَّدُ ملامحُ وجهِها وفمُها يبتسم!

كانَ منظرُها ناطقاً بِأنَّ قلبَها ٱلحزينَ يسألُ سؤالاً أبداهُ على وجهِها بِلُطْفٍ ورِقَّة؛ كانَ يسألُ إنساناً: ألا تُحلُّ هذه ٱلعقدة؟...

وٱنقضى ٱلتمثيلُ وتناهضَ ٱلناس.

أمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين؟...

* * *

---

(١) شوهاء: بشعة.

القلب المسكين

٦

أمَّا صاحبُ القلب ٱلمسكينِ فقامَ لِيخرَجَ وقد تفارَطتْهُ[1] ٱلهمومُ وتسابَقَتْ إليهِ فٱنكسرَ وتفتَّر؛ وكأنَّما هو قد فارقَ صاحبتَهُ باكياً وباكيةً من حيثُ لا يَرى بُكاءَهُ غيرُها ولا يرى بكاءَها غيرُه!

ورأيْتُهُ ينظرُ إلى ما حولَهُ كأنَّما تَغَشَّى ٱلدنيا لونُ نفسِهِ ٱلحزينة؛ إذْ كانَتْ نفسُهُ ألقَتْ ظِلَّها على كلِّ شيءٍ يراه؛ وجعلَ يَدْلِفُ ولا يمشي كأنَّهُ مثْقلٌ بحملٍ يحملُهُ على قلبهِ.

إنَّهُ ليس أخفَّ وزناً مِنَ ٱلدمع، ولكنَّ ٱلنفوسَ ٱلمتألِّمةَ لا تحملُ أثقلَ منه، حتى لَينتثرُ على ٱلنفسِ أحياناً وكأنَّهُ وكأنَّها بِناءٌ قائمٌ يتهدَّمُ على جِسم؛ وبعضُ ٱلتنهداتِ على رِقَّتِها وخِفَّتِها، قد تَشعرُ بها ٱلنفسُ في بعضِ همِّها كأنَّها جبلٌ مِنَ ٱلأحزانِ أخَذْتهُ ٱلرَّجفةُ فمادَتْ بِهِ، فتقلْقل، فهو يتفلَّقُ ويتهاوَى عليها.

آهِ حينَ يتغيَّرُ ٱلقلبُ فيتغيَّرُ كلُّ شيءٍ في رَأْيِ ٱلعين! لقد كانَ صاحبُنا منذُ قليلٍ وكأنَّ كلَّ سرورٍ في ٱلدنيا يقولُ لَهُ: أنا لك! فعادَ ٱلآنَ وما يقولُ لَهُ «أنا لك» إلَّا ٱلهمُّ؛ وَٱلتقى هوَ والظلامُ وٱلعالمُ ٱلصامت!

جعلَ يَدْلِفُ ولا يمشي كأنَّهُ مُثْقَلٌ بِحملٍ يحملُهُ على قلبِه؛ ومتى وقعَ ٱلطائرُ مِنَ الجوِّ مكسورَ الجناح، انقلبت النواميسُ كلُّها مُعطَّلةً فيه، وظهرَ الجوُّ نفسُهُ مكسوراً في عينِ ٱلطائرِ ٱلمسكين؛ وتنفصِلُ روحُهُ عنِ ٱلسماءِ وأنوارِها، حتى لو غمرَهُ ٱلنورُ وهوَ ملقًى في ٱلترابِ لَأحسَّهُ على ٱلترابِ وحدَهُ لا على جِسمِه...

ثُمَّ خرَجنا، فٱنتبهَ صاحبُنا مِمَّا كانَ فيهِ؛ وبهذه ٱلانتباهةِ ٱلمُؤلِمة أدركَ ما كانَ

---

(١) تفارطته: توزّعته وانتابته.

فيهِ على وجهٍ آخر، فتعذَّبَ بِهِ عذابين: أمّا واحدٌ فلأنَّهُ كانَ ولم يَدُمْ وأمَّا ٱلآخرُ فلأنَّهُ زالَ ولم يعدْ؛ وٱلسرورُ في ٱلحُبِّ شيءٌ غيرُ ٱلسرورِ ٱلذي يعرفُهُ ٱلناس؛ إذْ هو في ٱلأولِ روحٌ تتضاعفُ بِهِ ٱلروح: فكلُّ ما سرَّكَ وٱنتهى شعرْتَ أنَّهُ ٱنتهى؛ ولكنْ ما ينتهي من سرورِ ٱلعاشقِ ٱلمستهامِ يُشعرُهُ أنَّهُ مات، فلَهُ في نفسِهِ حزنُ ٱلموتِ وهمُّ ٱلثكْل، ولَهُ في نفسِهِ همُّ ٱلثكْلِ وحزنُ ٱلموت!

* * *

وينظرُ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ فإذا ٱلأنوارُ قدِ ٱنطفأَتْ في ٱلحديقة، وإذا ٱلقمرُ أيضاً كأنَّما كانَ فيهِ مسرحٌ وأخذوا يُطفئونَ أنوارَه.

كانَ وجهُ ٱلقمر في مثلِ حزنِ وجهِ ٱلعاشقِ ٱلمبتعدِ عن حبيبتِهِ إلى أطرافِ ٱلدنيا، فكانَ أبيضَ أصفرَ مُكمداً، تتخايلُ فيهِ معاني ٱلدموعِ ٱلتي يُمسكُها ٱلتجلُّدُ أنْ تتساقط.

كانَ في وجهِ ٱلقمرِ وفي وجهِ صاحبِنا معاً مظهرُ تأثيرِ ٱلقدَرِ ٱلمفاجىءِ بِٱلنكبة.

وبدَتْ لنا ٱلحياةُ تحتَ ٱلظلْمةِ مُقْفِرَةً خاويةً على أطلالِها، فارغةً كُفراغِ نصفِ ٱلليلِ من كلِّ ما كانَ مُشْرِقاً في نصفِ ٱلنهارِ؛ يا لكَ من ساحرٍ أيُّها ٱلحُبُّ؛ إذْ تجعلُ في ليلِ ٱلعاشقِ ونهارِهِ ظلاماً وضوءاً ليسا في الأيّامِ وَٱلليالي!

أمَّا ٱلحديقةُ فلبسَها معنى ٱلفراق، وما أسرعَ ما ظهَرتْ كأنَّما يبِسَتْ كلُّها لِتوّها وساعتِها، وأنكرَها ٱلنسيمُ فهربَ منها فهيَ ساكنة، وتحوَّلَتْ روحُها خشبيَّةً جافَّة، فلا نُضرةَ فيها على ٱلنفس؛ وبدَتْ أشجارُها في ٱلظلام، قائمةً في سوادِها كَٱلنائحاتِ يَلْطُمْنَ ويُوَلْوِلْنَ، وتنكَّرَ فيها مشهدُ ٱلطبيعةِ كما يقعُ دائماً حينَ تنبَتُّ ٱلصِّلةُ بينَ ٱلمكانِ ونفسِ ٱلكائن.

ماذا حدث؟

لا شيءَ إلَّا ما حدَثَ في ٱلنفس، فقد تغيَّرَتْ طريقةُ ٱلفهْم، وكانَ لِلحديقةِ معنًى من نفسِهِ فسُلِبَ ٱلمعنى، وكانَ لَهَا فيضٌ من قلبِهِ فٱنحبسَ عنها ٱلفيْض؛ وبهذا وهذا بدَتْ في ٱلسلْبِ وَٱلعدَمِ وَٱلتنكُّر، فلم يبقَ إبداعٌ في شيءٍ مُبدَع، ولا جمالٌ في منظرٍ جميل.

أكذا يفعلُ ٱلحُبُّ حينَ يضعُ في ٱلنفسِ ٱلعاشقةِ معنًى ضئيلاً من معاني ٱلفناءِ كهذا ٱلفراق؟

أكذا يتركُ ٱلروحَ إذا فقدَتْ شيئاً محبوباً، تتوهَّمُ كأنَّها ماتَتْ بِمقدارِ هذا ٱلشيء؟

مسكينٌ أنت أيُّها ٱلقلبُ ٱلعاشق! مسكينٌ أنت!

* * *

ومضيْنا فمِلْنا إلى نديٍّ نجلسُ فيه، وأرَدتُ معابثةَ صاحِبنا ٱلمتألِّم بِٱلحُبِّ وَٱلمتألِّم بِأنَّهُ متألِّم، فقلْتُ لَهُ: ما أراكَ إلَّا كأنَّك تزوجْتَها وطلقْتَها فَتبعَتْها نفْسُك!

قالَ: آه! مَنْ أنا ٱلآن؟ وما بالُ ذلك ٱلخيالِ ٱلذي نسَّقَ لِيَ ٱلدنيا في أجملِ أشكالِها قد عادَ فبعثرَهَا؟ أتدري أنَّ ٱلعَالَمَ كانَ فيَّ ثُمَّ أُخذَ منِّي فأنا ٱلآنَ فضاءٌ فضاء.

قلْت: أعرفُ أنَّ كلَّ حبيبٍ هوَ ٱلعالمُ ٱلشخصيُّ لِمُحِبِّه.

قال: ولذلك يعِيشُ ٱلمُحِبُّ ٱلمهجور، أوِ ٱلمُفارق، أوِ ٱلمُنْتَظِر، وكأنَّهُ في أيَّام خلَت، وتَراهُ كأنَّما يجيءُ إلى الدنيا كلَّ يومٍ ويرجع.

قلْت: إنَّ من بعضِ ما يكونُ بِهِ ٱلجمالُ جمالاً أنَّهُ ظالمٌ قاهِرٌ عنيف، كَٱلملكِ يستبدُّ لِيتحقَّقَ من نفاذِ أمرِه، وكأنَّ ٱلجميلَ لا يَتِمُّ جمالُهُ إلَّا إذا كانَ أحياناً غيرَ جميلٍ في ٱلمعاملة!

قال. ولكنَّ ٱلأمرَ مع هذه ٱلحبيبةِ بِٱلخِلافِ؛ فهيَ تطلبني وأتنكَّبُها[1]، وهيَ مُقبلةٌ لكنَّها مُقبلةٌ على ٱمتناعي؛ وكأنَّها طالِبٌ يعدو وراءَ مطلوبٍ يفرّ، فلا هذا يقفُ ولا ذلك يُدرك.

قلْت: فإنَّ هذه هيَ ٱلمشكلة، ومتى كانَتِ ٱلحبيبةُ مثلَها، وكانَ ٱلمُحِبُّ مثلَك، فقد جاءَتِ ٱلعقدةُ بينهما معقودةً من تِلْقاءِ نفسِها فلا حلَّ لها.

قال: كذلك هو، فهل تعرفُ في ٱلبؤسِ وٱلهمِّ كبؤسِ ٱلعاشقِ ٱلذي لا يتدَّبرُ كيفَ يأخذُ حبيبتَهُ، ولكنْ كيف يتركُها؟ ما هيَ ٱلمسافةُ بيني وبينَها؟ خطوة، خطوتان؟ كلا، كلا؛ بلْ فضائلُ وفضائلُ تملأُ ٱلدنيا كُلَّها، إنّ مسافةً ما بينَ ٱلحلالِ وَٱلحرام متراخيةٌ ممتدةٌ ذاهبةٌ إلى غير نهاية؛ وإذا كانَ ٱلحُبُّ ٱلفاسدُ لا يقبلُ مِنَ ٱلحبيبِ إلَّا (نعم) بِلا شرطٍ ولا قَيْدٍ لِأنَّهُ فاسد، فَٱلحُبُّ ٱلطاهرُ يقبلُ (لا) لِأنَّهُ طاهر! ثُمَّ هو لا يرضى (نعم) إلَّا بشرطِها وقيدِها مِنَ ٱلأدبِ وٱلشريعةِ وكرامةِ ٱلإنسانيَّةِ في ٱلمرأةِ وَٱلرجل.

---

(١) أتنكبّها: أتجنَّبها وأُنحيها.

وإذا لم ينتهِ ٱلحُبُّ بِٱلإثمِ وَٱلرذيلة، فقد أثبَتَ أنّهُ حبٌّ؛ وشرفُهُ حينئذٍ هو سِرُّ قوَّتِهِ وعنصرُ دوامِه.

أتعرِفُ أنَّ بعضَ عُشَّاقِ ٱلعربِ تمنَّى لو كانَ جملاً وكانَتْ حبيبتُهُ ناقة... إنَّه بهذا يودُّ ألَّا يكونَ بينهَما ٱلعقلُ وٱلقانونُ وهذا ٱلحِرْمانُ ٱلذي يُسمَّى ٱلشرف، وألَّا يكونَ بينهَما إلَّا قيدُ غريزتِها ٱلذي ينحلُّ من تِلْقاءِ نفسِهِ في لحظةٍ ما، وأنْ يُترَكَ لِقوَّتِهِ وتُتركَ هيَ لِضعفِها؛ وَٱلقوَّةُ وٱلضعفُ في قانونِ ٱلطبيعةِ هما مِلْكٌ وتمليكٌ وٱغتصابٌ وتسليم.

قلْتُ: وهذا ما يفعلُهُ كُلُّ عاشقٍ لِمثلِ هذه ٱلراقصةِ إذا لم يكنْ فيهِ إلَّا ٱلحيوان؛ فإنَّ بينهَما قوةً وضعفاً من نوعٍ آخر، فمعهُ ٱلثمنُ وبها ٱلحاجة، وهما في قانون ٱلضرورةِ مِلْكٌ وتمليكٌ.

قال: وهذا مِمَّا يقطعُ في قلبي؛ فلو أنَّ لِلأُمَّةِ دِيناً وشرفاً لَمَا بَقِيَ موْضعُ ٱلزوجةِ فارغاً من رجل، وإنَّ هذه وأمثالَها إنَّما ينزلْنَ في تلك ٱلمواضعِ ٱلخاليةِ أولَ ما ينزلْن، فكلُّ بَغِيٍّ هي في ٱلمعنى دينٌ متروكٌ وشرفٌ مبتذلٌ في ٱلأُمَّة.

قلْت: فحدِّثْني عنكَ ما هذا ٱلوَجْدُ بها وما هذا ٱلاحتراقُ فيها، وأنت قَدْ كنْتَ بين يديها خياليًّا محْضاً كأنَّما جمعْتَها في حواسِّكَ فأخذْتَها وتركْتَهَا في وقتٍ معاً، وحواسُّك هذه لا تزالُ كما هيَ، بلْ هيَ قد زادَتْ حِدَّة، فكما صنعَتْ لك من قُرْبٍ تصنعُ لك من بُعْد؟

قال: أنا في محضرِها أُحِبُّها كما رأيْتَ بِٱلقَدْرِ ٱلذي تقولُ هيَ فيهِ إنَّكَ لا تُحبُّني، إذْ كانَ بينَنا آخَرُ ٱسمُهُ ٱلخُلُق؛ ولكنِّي في غِيابِها أفقدُ هذا ٱلميزانَ ٱلذي يزنُ ٱلمِقْدارَ ويُحدِّدُهُ، وإذا كنْتَ لم تعلمْ كيف يصنعُ ٱلعاشقُ في غيبةِ ٱلمعشوق، فٱعلمْ أنَّ كِبرياءَهُ حينئذٍ لا ترى بإزائِها ما تُقاومُه، فتتخلّى عنَهُ وتخذلُه؛ وفضيلتُهُ لا تجدُ ما تستَعْلِنُ فيه، فتتوارى وتدعُهُ؛ وشخصيتُهُ لا تجدُ ما تبرزُ لَهُ، فتختفي وتُهمِلُه؛ فما يكونُ من كلِّ ذلك إلَّا أنْ يظهرَ ٱلمسكينُ وحدَهُ بكلِّ ما فيهِ مِنَ ٱلوهَنِ وَٱلنقصِ وحِدَّةِ ٱلشوْق؛ وهنا ينتقمُ ٱلحُبُّ مِمَّا زوَّرتْ عليهِ ٱلكبرياءُ وَٱلفضيلةُ وٱلشخصية، فيضربُ بحقائقِهِ ضرباتٍ مؤلمةً لا تقومُ لها ٱلقوة، ويجعلُ غِيابَ ٱلحبيبِ كأنَّهُ حضورُهُ مستخفياً لِرؤيةِ ٱلحقيقةِ ٱلتي كُتِمَتْ عنه؛ وكم من عاشقةٍ متكبِّرةٍ على مَنْ تهواهُ تصدُّهُ وتُباعدُه، وهيَ في خلوتِها ساجدةٌ على أقدامِ خيالِهِ تُمرِّغُ وجهَها هنا وهنا على هذه ٱلقَدَمِ وعلى هذه ٱلقدم!

لا إِنَّهُ لا بُدَّ في ٱلحُبِّ من تمثيلِ روايةِ ٱلامتناعِ أوِ ٱلصدِّ أوِ ٱلتهاونِ أو أي ٱلرواياتِ من مثلِها؛ ولكنَّ ثيابَ ٱلمسرحِ هيَ دائماً ثِيابُ ٱستعارةٍ ما دامَ لا بسُها في دورِهِ مِنَ ٱلقصة.

* * *

ثُمَّ وضعَ ٱلمسكينُ يدَهُ على قلبِهِ وقال: آه! إِنَّ هذا ٱلقلبَ يُغاضِبُ ٱلحياةَ كلَّها متى أرادَ أَنْ يشعرَ صاحبُهُ أَنَّه غضبان.

مَنْ مِنَ ٱلناسِ لا يعرفُ أحزانَه؟ ولكنْ مَنْ منهُمُ ٱلذي يعرفُ أسرارَ أحزانِهِ وحِكْمتَها؟ أمَا إِنَّهُ لو كشفَ ٱلسرَّ لَرأَيْنا ٱلأفراحَ وٱلأحزانَ عمَلا في ٱلنفسِ من أعمالِ تنازعِ ٱلبقاء؛ فهذا ٱلناموسُ يعملُ في إيجادِ ٱلأصلح وَٱلأقوى، ثُمَّ يعملُ كذلك لإيجادِ ٱلأفضلِ وَٱلأرقّ، ومن ثُمَّ كانَتِ آلامُ ٱلحُبِّ قويَّةً حتى لَكأنَّها في ٱلرجلِ وَٱلمرأةِ تُهيِّءُ أحدَ ٱلقلبينِ لِيستحقَّ ٱلقلبَ ٱلآخر.

آهٍ من هذه ٱللواعج! إنَّها ما تكادُ تضطرمُ حتى ترجعَ ٱلنفسُ وكأنَّها مَوْقِدٌ يشتعلُ بِٱلجمر، وبذك يُصْهَرُ ٱلمعدِنُ ٱلإنسانيُّ ويُصنعُ صنعةً جديدة؛ وإلى أنْ ينصهرَ ويتصفَّى ويُصنع، ماذا يكونُ لِلإنسانِ في كلِّ شيءٍ من حبيبِه؟

يكونُ لَهُ في كلِّ شيءٍ روحُهُ ٱلناريّ.

* * *

قلْتُ: بَخٍ بَخٍ[1]! هكذا فَلْيكنِ ٱلحُبّ؛ إِنَّها حينَ تُهيجُ في نفسِكَ ٱلحنينَ إليها تُعطيك ما هو أجمَلُ من جمالِها وما هو أبدعُ من جِسْمِها، إذْ تُعطيك أقوى ٱلشعرِ وأحسنَ ٱلحِكْمة.

قال: وأقوى الألم وأشدَّ ٱللوعة! يا عجباً! كأَنَّ ٱلحياةَ لا تقدمُ في عِشْقِ ٱلمحبوبِ إلَّا عِشقَها هي؛ فإذا وقعَتِ ٱلجفوة، أو حُمَّ ٱلبيْنُ[2]، أوِ ٱعترى ٱليأسُ ـ قدَّمَ ٱلموتُ نفسَهُ فكلُّ ذلك شبَهُ ٱلموت.

إِنَّ ٱلحزنَ ٱلذي يجيءُ من قِبلِ ٱلعدوِّ يجيءُ مَعهُ بِقوَّةٍ تحملُهُ وتتجلَّدُ لَهُ وتُكابرُ فيه؛ ولكن أين ذلك في حزنِ مبعثُهُ ٱلحبيب؟ ومن أين ٱلقوَّةُ إذا ضعُفَ ٱلقلْب؟

* * *

---

(١) بخٍ بخٍ: تعبير إعجاب يقال في حالتي الرضى والمدح.

(٢) البين: الفراق.

قلْت: لا يصنعُ ٱللَّهُ بك إلَّا خيراً؛ فإذا كانَ غدٌ وَٱنسلخَ ٱلنهارُ مِنَ ٱلليلِ جِئْنا إليها فرأيْنَاها في ٱلمسرح، ولعلَّ ٱلأمرَ يصدرُ مصدراً آخر، قال: أرجو . . .

ولم يكدْ ينطقُ بهذه ٱلرجيَّةِ حتى مرَّ بنا سَبعةُ رجالٍ يقهقهون، ثُمَّ تلاقينا وجئْنا؛ ويا ويلتَنا على ٱلمسكينِ حينَ عَلِمَ أنها رحلَتْ؛ لقد أدركَ أنَّ ٱلشيطانَ كانَ يضحكُ بِسبعةِ أفواه . . . من قولِه: أرجو . . .

ولماذا رحلَتْ؟ لماذا؟

وأمَّا هو . . . ؟

القلبُ ٱلمسكين

٧

وأمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ فما عَلِمَ أنَّها قد رحلَتْ عن ليلتِهِ حتى أظلمَ ٱلظلامُ عليه، كأنَّها إذا كانَتْ حاضرةً أضاءَ شيءٌ لا يُرى، فإذا غابتِ ٱنطفأَ هذا الضوْء؛ ورأيْتُهُ واجماً[١] كاسفَ ٱلبالِ[٢] يَتنازعُهُ في نفسِهِ ما لا أدري، كأنَّ غِيابَها وقعَ في نفسِهِ إنذارَ حرب.

لِماذا كانَ ٱلشعراءُ ينوحون على ٱلأطلالِ ويلَتّاعُون[٣] بِها ويرتمضون[٤] منها وهيَ أحجارٌ وآثارٌ وبقايا؟ وما ٱلذي يتلقَّاهم بِهِ ٱلمكانُ بعدَ رحيلِ ٱلأحبَّة؟ يتلقَّاهُمْ بِٱلفراغِ ٱلقلبيِّ ٱلذي لا يملؤُهُ مِنَ ٱلوجودِ كلِّهُ إلَّا وجودُ شخصٍ واحد؛ وعندَ هذا ٱلفراغِ تقفُ ٱلدنيا مَلِيًّا كأنَّها ٱنتَهَتْ إلى نِهايةٍ في ٱلنفس ٱلعاشقة، فتبطلُ حينئذٍ ٱلمُبادلَةُ بينَ معاني ٱلحياةِ وبينَ شعورِ ٱلحيِّ؛ ويكونُ ٱلعاشقُ موجوداً في موضعِهِ ولا تَجِدُهُ ٱلمعاني ٱلتي تمرُّ بِه، فترجعُ منه كَٱلحقائقِ تُلِمُّ بِٱلفراغِ ٱلعقليِّ من وعي سكران.

يا أثرَ ٱلحبيبِ حينَ يُفارِقُ ٱلحبيب! ما ٱلذي يجعلُ فيك تلك ٱلقُدرةَ ٱلساحرة؟ أهو فصلُك بين زمنٍ وزمن، أمْ جمعُك ٱلماضيَ في لحظة؛ أمْ تحويلُكَ ٱلحياةَ إلى فكرة، أمْ تكبيرُك ٱلحقيقةَ إلى أضعافِ حقيقتِها، أمْ تصويرُك روحيَّةَ ٱلدنيا في ٱلمِثالِ ٱلذي تُحسُّهُ ٱلروح، أمْ إشعارُك ٱلنفسَ كَٱلموْتِ أنَّ ٱلحياةَ مبنيَّةٌ على ٱلانقلاب، أمْ قدرَتُك على زِيادةِ حالةٍ جديدةٍ لِلْهمِّ وَٱلحزن، أمْ رجوعُك بِٱللذَّةِ تُرى ولا تُمكن، أمْ أنت كُلُّ ذلك لِأنَّ ٱلقَلْبَ يفرغُ ساعةً مِنَ ٱلدنيا ويمتلىءُ بك وحدَك؟

يا أثرَ ٱلحبيبِ حين يُفارِقُ ٱلحبيب! ما هذه ٱلقوَّةُ ٱلسحريَّةُ فيك تجتذِبُ بها

---

(١) واجماً: مطرقاً.
(٢) كاسف البال: حزيناً.
(٣) يلتاعون: يتألمون.
(٤) يرتمضون: يتلذّعون من حرّها.

ٱلصدرَ لِيضمَّك، وتستهويَ بها ٱلفمَ لِيقبلَك، وتستدعي ٱلدمعَ لينفرَ لك، وتهتاجُ ٱلحنينَ لِينبعثَ فيك؟ أكلُّ ذلك لِأنَكَ أثرُ ٱلحبيب، أمْ لِأنَّ ٱلقلْبَ يفرُغُ ساعةً مِنَ ٱلدنيا ولا يجِدُ ما يخفقُ عليهِ سِواك؟

* * *

ووقفَ صاحبُنا ٱلمِسكينُ محزوناً كأنَّ شيئاً يصِلُهُ بِكُلِّ همومِ ٱلعالم؛ وتلك هيَ طبيعةُ ٱلألم ٱلذي يُفاجىءُ ٱلإنسانَ من مكمنٍ لذَّتِهِ وموضِعِ سُرورِهِ، فيسلُبُهُ نوعاً مِنَ ٱلحياةِ بطريقةِ سلْبِ ٱلحياةِ نفسِها، ويأخذُ من قلبِهِ شيئاً ماتَ فيدفنُهُ في قبرِ ٱلماضي، يكونُ أَلَماً لِأَنَّ فيهِ ٱلمضض، وكآبةً لِأنَّ فيهِ ٱلخيبةَ، وذُهولاً لِأنَّ فيهِ ٱلحسْرة؛ وتَتِمُّ هذه ٱلثلاثةُ ٱلهمومُ بِٱلضيق ٱلشديدِ في ٱلنفس، لٱجتماع ثلاثتِها على ٱلنفس؛ فإذا ٱلمسكينُ مبغوتٌ كأنَّ ٱلآلامَ أطبقَتْ عليهِ مِنَ ٱلجهاتِ ٱلأربع، فقلبُهُ منها صُدُوعٌ صُدوع . . .

وجعلْتُ أعذِلُ صاحبَنا فلا يعتذِل، وكلَّما حاوْلتُ أنْ أُثبتَ لَهُ وجودَ ٱلصبرِ كنْتُ كأنَّما أثبِتُ لَهُ أنَّهُ غيرُ موجود؛ ثُمَّ تنفسَ وهو يكادُ ينشقُّ غيظاً وقال: لماذا رحلَتْ؟ لماذا؟

قلْت: أنت أذلَلْتَ جمالَها بهذا ٱلأسلوبِ ٱلذي ترى أنك تُعِزُّ جمالَها به، وقدِ ٱشتددْتَ عليها وعلى نفسِك، وتعنَّتَّ على قلبِكَ وقلبِها؛ كانَتْ ظريفةَ ٱلمذهَبِ في عِشقِها وكنْتَ خَشِناً في حُبِّك، وسَّوغتْكَ حقًّا فردْدتَهُ عليها، وتهالكَتْ وٱنقبضْتَ أنت، ورفعَتْ قدرَك عن نفسِها تَحَبُّباً وتَوَدُّداً فخفضْتَ قَدْرها عن نفسِك مِنِ ٱطراحٍ وجفاء، وٱستفزعَتْ وسعَها في رِضاكَ فتغاضبْت، ونَضَتْ عن محاسنِها شيئاً شيئاً تسألُ بكلِّ شيءٍ سؤَالا فلَمْ تكنْ أنت من جوابِها في شيء . . .

ومن طبعِ ٱلمرأةِ أنَّها إذا أحبَّتِ ٱمتنعتْ أنْ تكونَ ٱلبادئة، فٱلتوَتْ على صاحبِها وهي عاشقة، وجاحَدَتْ[1] وهيَ مُقرَّة؛ إذْ تُريدُ في ٱلأوّلةِ أنْ تتحقَّقَ أنَّها محبوبة، وفي ٱلثانيةِ أنْ يُقدَّمَ لها ٱلبرهانُ على أنَّها تستحقُّ ٱلمهاجمة، وفي ٱلثالثةِ هيَ تُريدُ ألَّا تأخذَها إلَّا قوَّةٌ قويَّةٌ فتمتحِنُ هذه ٱلقوَّة، ومعَ هذه ٱلثلاثِ تأبى طبيعةُ ٱلسرورِ فيها وَٱلاستمتاع بها إلَّا أنْ يكونَ لِهذا ٱلسرورِ وهذا السرورِ وهذا ٱلإمتاعِ شأنٌ وقِيمة، فتُذيقُ صاحبَها ٱلمرَّ قبلَ ٱلحلْوِ لِيكبرَ هذا بهذا.

---

(١) جاحدت: أنكرت.

غيرَ أنَّها إذا غلبَها ٱلوَجْدُ وأكرهَها ٱلحبُّ على أنْ تبتدىءَ صاحبَها، ثُمَّ ٱبتدأَتْ ولم تجدِ ٱلجوابَ منه، أو لم يأتِ ٱلأمرُ فيما بينَها وبينَهُ على ما تُحبّ، فإنَّ ٱلابتداءَ حينئذٍ يكونُ هوَ ٱلنهاية، وينقلِبُ ٱلحُبُّ عدوَّ ٱلحُبّ؛ وأنا أعرفُ ٱمرأةً وضعَتْها كِبرياؤها في مثلِ هذه ٱلحالةِ وقالَتْ لِصاحبِها: سأتألَّمُ ولكنْ لن أُغلب، فكانَ ٱلذي وقع واأسفاه ـ أنها تألَمَتْ حتى جُنَّت، ولكنْ لَمْ تُغلب. . .

قال: فما بالُ هذه؟ أمَا تراها تبتدىءُ كلَّ يومٍ رجلا؟

قلْت: إنَّها تبتدىءُ متكسِّبةً لا عاشِقة، فإذا أحبَّتِ ٱلحُبَّ ٱلصحيحَ أرادَتْ قِيمَتها فيما هو قِيمتُها؛ وأنا أحسبُها تُحِبُّ فيك هذا ٱلعُنْفَ وهذه ٱلقسْوةَ وهذه ٱلروحيَّةَ ٱلجبارة؛ فإنَّها لذّاتٌ جديدةٌ لِلْمرأةِ ٱلتي لا تجدُ من يُخضِعُها؛ وفي طبيعةِ كلِّ ٱمرأةٍ شيءٌ لا يجدُ تمامَهُ إلَّا في عُنْفِ ٱلرجل، غيرَ أنَّهُ ٱلعُنْفُ ٱلذي أولُهُ رِقَّةٌ وآخرُهُ رِقَّة؟

* * *

أمَا وَٱللَّهِ إنَّ عجائبَ ٱلحُبِّ أكثرُ من أنْ تكونَ عجيبة؛ وَٱلشيءُ ٱلغريبُ يُسمَّى غريباً فيكفى ذلك بياناً في تعريفِه، غيرَ أنَّهُ إذا وقعَ في ٱلحُبِّ سُمِّيَ غريباً فلا تكفيهِ ٱلتسمية، فيُوصفُ مَعَ ٱلتسميةِ بأنَّهُ غريبٌ فلا يبلغُ فيهِ ٱلوصف، فيقعُ ٱلتعجُّبُ مَعَ ٱلوصفِ وٱلتسميةِ من أنَّهُ شيءٌ غريب، ثُمَّ تبقى وراءَ ذلك منزِلةٌ لِلإغراقِ في ٱلتعجبِ بينَ ٱلعاشقِ وبينَ نفسِه؛ وهكذا يشعرون.

فكلُّ أسرارِ ٱلحُبِّ من أسرارِ ٱلروحِ ومن عالم ٱلغيْب؛ وكأنَّ ٱلنبُوَّةَ نبُوتان: كبيرةٌ وصغيرة، وعامَّةٌ وخاصَّة. فإحداهما بِٱلنفسِ ٱلعظيمةِ في ٱلأنبياء، وٱلأخرى بِٱلقلْبِ ٱلرقيقِ في ٱلعُشاق؛ وفي هذه من هذه شبهٌ، لوجودِ العظمةِ الروحيَّةِ في كلتيهما غالبةً على المادَّةِ، مجرَّدةً من إنسانِ ٱلطينِ إنساناً مِنَ ٱلنور، محرِّكةً هذه ٱلطبيعةَ ٱلآدميَّةَ حركةً جديدةً في ٱلسموِّ، ذاهبةً بِٱلمعرفةِ ٱلإنسانيَّةِ إلى ما هو ٱلأحسنُ وٱلأجمل، واضعةً مبدأَ ٱلتجديدِ في كلِّ شيءٍ يمرُّ بِٱلنفس، منبعِثةً بِٱلأفراحِ من مصدرِها ٱلعلويّ ٱلسماويّ.

بيدَ أنَّ في ٱلعِشْقِ أنبياءَ كذبة؛ فإذا تسفَّلَ ٱلحُبُّ في جلال، وَٱستعلنَتِ ٱلبهيميَّةُ في عظمة، وتجرَّدَ من إنسانِ ٱلطينِ إنسانُ ٱلحجر، وتحرَّكَتِ ٱلطبيعةُ ٱلآدميَّةُ حركةً جديدةً في ٱلسقوط، وذهبَتِ ٱلمعرفةُ ٱلإنسانيَّةُ إلى ما هو ٱلأقبحُ. وَٱلأسوأ،

وتجدَّدَ لِكلِّ شيءٍ في ٱلنفسِ معنًى فاسد، وَٱنبعثَتِ ٱلأفراحُ من مصدرِها ٱلسُّفْلِيّ ـ إذا وقعَ كلُّ هذا مِنَ ٱلحُبِّ فما عساهُ يكون؟

لا يكونُ إلَّا أنَّ ٱلشيطانَ يُقلِّدُ ٱلنبوَّةَ ٱلصغيرةَ في بعضِ ٱلعُشاق، كما يُقلِّدُ ٱلنبَّوةَ ٱلكبيرةَ في بعضِ ٱلدَّجالين.

* * *

هكذا قالَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ وقد تكلَّمَ عنِ ٱلحُبِّ ونحن جالسانِ في ٱلحديقة، وكنَّا دخلْناها لِيُجدّدَ عهداً بمجلسِهِ فلعلَّهُ يسكنُ بعضُ ما به؛ وَٱستفاضَ كلامُنا في وصفِ تلك ٱلعبهرَةِ[1] ٱلفتَّانةِ ٱلتي أحلَّتْهُ هذا ٱلمحلَّ وبلغَتْ بِهِ ما بلغَتْ وكانَ في رِقَّةٍ لا رِقَّةَ بعدَها، وفي حُبٍّ لا نِهايةَ وراءَهُ لِمُحِبٍّ؛ وخُيِّلَ إِليَّ أنَّهُ يرى ٱلحديثَ عنها كأنَّهُ إحضارُها بصورةٍ ما!

وأنفعُ ما في حديثِ ٱلعاشقِ عن حُبِّهِ وأَلمِهِ أنَّ ٱلكلامَ يُخرجُهُ من حالةِ ٱلفِكْر، ويؤْنِسُ قلبَهُ بِٱلألفاظ، ويُخفِّفُ من حركةِ نفسِهِ بِحركةِ لِسانِه، ويُوجِّهُ حواسَّهُ إلى ٱلظاهرِ ٱلمتحرِّك؛ فتسلبُهُ ٱلفاظُهُ أكثرَ معانيهِ ٱلوهميَّة، وتأتيهِ بِٱلحقائقِ على قدرِها في ٱللغةِ لا في ٱلنفس؛ وفي كلِّ ذلك حِيلةٌ على ٱلنسيان، وتُعلِّلُ إلى ساعة؛ وهو تدبيرٌ مِنَ ٱلرحمةِ بِٱلعاشقينَ في هذا ٱلبلاءِ ٱلذي يُسمَّى ٱلفِراقَ أوِ ٱلهجر.

وكانَ من أعجبِ ما عجِبْتُ لَهُ أنَّ صديقاً مرَّ بنا فدعاهُ صاحبُنا وقالَ وهو يومىءُ إليّ: أنا وفلانٌ هذا مختلفانِ منذُ ٱليوم: لا هو يُقيمُ عُذْراً ولا أنا أُقيمُ حُجَّة، وأحسبُ أنَّ عندَك رأياً فٱقضِ بيَننا. . .

ويسألُهُ ٱلصديق: ما ٱلقضيَّة؟ فيقولُ وهو يُشيرُ إليّ:

إنَّ هذا قد تخرَّقَ قلبُهُ مِنَ ٱلحُبِّ فلا يدري من أين يجىءُ لِقلبِهِ بِرُقعة. . . وإنَّهُ يعشقُ فلانةَ ٱلراقصة ٱلتي كانَتْ في هذا ٱلمسرح، ويزعمُ لي. . . أنَّها أجملُ وأفتنُ وأحلى مَنْ طَلعتْ عليهِ ٱلشمس، وأنَّهُ ليسَ بين وجهِها وبينَ ٱلقمرِ وجهُ ٱمرأةٍ أخرى في كلِّ ما يُضيءُ ٱلقمرُ عليه، وأنَّ عينيها مِمَّا لا يُنسى أبداً أبداً أبدا. . . لِأنَّ ألحاظَها تذوبُ في ٱلدم وتجري فيه، وأنَّ ٱلشيطانَ لو أرادَ مُناجزَةَ[2] ٱلعِفَّةِ وَٱلزهدِ في حرْبٍ حاسِمةٍ بينَهُ وبينَ أزهدِ ٱلعِبادِ لَتركَ كلَّ حِيَلهِ وأساليبِهِ وقدَّمَ جِسمَها وفنَّها. . .

فيقولُ لَهُ ٱلمسؤول: وما رأيُك أنت؟

---

(١) العبهرة: التامة الخلقة والجمال. (٢) مناجزة: منازلة ومصارعة.

فيُجيبُه: لو كانَ عنها صاحياً لقد صحا: إنَّ ٱلمشكلةَ في ٱلحُبِّ أنَّ كلَّ عاشقٍ لَهُ قلبُهُ ٱلذي هو قلبُه، وحسْبُها أنَّ مثلَ هذا هو يصفُها؛ وما يُدرينا من تَصاريفِ ٱلقَدَرِ بهذه ٱلمسكينةِ ما عليها مِمَّا لها، فلَعلَّها ٱلجمالُ حُكِمَ عليهِ أنْ يعُذَّبَ بِقبحِ ٱلناس، ولعلَّها ٱلسرورُ قضى عليهِ أنْ يُسْجَنَ في أحزان!

* * *

وقلْتُ لَهُ: يا صديقي ٱلمسكين! أوَ كلُّ هذا لها في قلبِك؟ فما هذا لها في قلبِك؟ فما هذا ٱلقلبُ ٱلذي تحملُهُ وتتعذَّبُ بِه؟

قال: إنَّه ـ وَٱللَّهِ ـ قلَبُ طفل، وما حُبُّهُ إلَّا ٱلتماسُهُ ٱلحنانَ ٱلثاني مِنَ ٱلحبيبة، بعدَ ذلك ٱلحنانِ ٱلأولِ مِنَ ٱلأُمِّ؛ وكلُّ كلامي في ٱلحُبِّ إنَّما هو إملاءُ هذا ٱلقلْبِ على فكرِهِ كأنَّهُ يخلقُ بِهِ خَلقَ تفكيره.

آه يا صديقي! إنَّ مِنَ ٱلسخريةِ بهذه ٱلدنيا وما فيها أنَّ ٱلقلبَ لا يستمرُّ طِفلاً بعدَ زمنِ ٱلطفولةِ إلَّا في ٱثنين: مَنْ كانَ فيلسوفاً عظيماً، ومَنْ كانَ مغفَّلاً عظيماً!

* * *

وٱفترقْنا؛ ثُمَّ أردْتُ أنْ أتعرَّفَ خبرَهُ فلقيتُهُ مِنَ ٱلغد، وكانَ لي في أحلامي تلك ٱلليلةَ شأنٌ عجيب، وكانَ لَهُ شأنٌ أعجب؛ أمَّا أنا فلا يعني ٱلقراءَ شأني وقصتي.

وأمَّا هو؟...

القلبُ ٱلمسكين

٨

وأمَّا هو فحدَّثَني بهذا ٱلحديثِ ٱلعجيبِ من لَطائفِ إلهامِهِ وفنِّه، قال: أنصرفْتُ إلى داري وقد عزَّ عليَّ أنْ يكونَ هذا منها وأنْ يكونَ هذا منّي، وهيَ إنْ غابَتْ أو حضَرتْ فإنّها لي كٱلشمسِ للدنيا: لا تُظلِمُ ٱلدنيا في ناحيةٍ إلّا من أنَّها تُضِيء في ناحية؛ فظُلْمَتُها من عملِ نورِها؛ وكانَتْ ليلتي فارغةً مِنَ ٱلنوم فبِتُّ أتملْملُ، وجعلَ ٱلقلْبُ في جنبيَّ كأنَّهُ آلةٌ في ساعةٍ لا قلبُ إنسان؛ وكانَ في ٱلدنيا من حوْلي صَمْتٌ كصمتِ ٱلذي سكتَ بعدَ خُطبةٍ طويلة، وفيَّ أنا صَمْتٌ آخرُ كصمْتِ ٱلذي سكتَ بعدَ سؤالٍ لا جوابَ عليه؛ وكانَ ٱلهواءُ راكداً كَٱلسكرانِ ٱلذي أنطرحَ من ثِقْلَةِ ٱلسكْرِ بعدَ أنْ هذى[1] طويلاً وعرْبد؛ وَٱلوجدُ كلَّهُ يبدو كَٱلمختنِق، لِأنَّ معنى ٱلاختناقِ في قلبي وأفكاري؛ ونظرْتُ نظرةً في ٱلنجوم فإذا هيَ تتغوَّرُ نجماً بعدَ نجم، كأنَّ معنى ٱلرحيلِ أنتشرَ في ٱلأرضِ وَٱلسماءِ إذْ رحلَتِ ٱلحبيبة؛ وكأنَّ كلَّ وجهٍ مضيءٍ يقولُ لي كلمة: لا تنتظر!

فلمّا عسعسَ[2] ٱلليلُ رميْتُ بنفسي فنِمْتُ وٱلعقلُ يقظان، وصنعَتِ ٱلأحلامُ ما تصنع، فرأيْتُها هي في تلك ٱلشُّفوفِ[3] ٱلتي ظهَرتْ فيها عروساً؛ وما أعجبَ كِبرياءَ ٱلمرأةِ ٱلمحبوبة! إنَّها لَتبدو لِعيني مُحِبِّها كَٱلعاريةِ وراءَ سِتْرٍ رقيقٍ يَشِفُّ عنها كَٱلضوء، ثُمَّ تُدِلُّ بِنفَسِها أنْ ترفَعَ هذا ٱلسِّتْر، فإنْ لم يتجرَّأْ هو لم تتجرأْ هي؛ وكأنَّها تقولُ لَهُ: قد رفعتُهُ بطريقتي فَٱرفعْهُ أنت بِطريقتِك...

وكانَتْ مصوَّرةً في ٱلحُلُمِ تصويراً آخر؛ فلا ينسكِبُ من جسمِها معنى ٱلحُسْنِ

(١) هذى: تلفَّظ بما لا يفهم في حالة الجنون.
(٢) عسعس الليل: أقبل ظلامه أو أدبر.
(٣) الشفوف: الأردية الرقيقة التي تنمّ عمّا تحتها.

ٱلذي أتأملُهُ وأعقلُه، ولكنْ معنى ٱلسكْرِ ٱلذي يتركُ ٱلمرءَ بِلا عقل؛ ولم تكنْ غلائلُها عليها كَٱلثيابِ على ٱلمرأة، ولكنَّها ظهَرتْ لي كَٱللونِ على ٱلوردةِ ٱلزاهية: تُظهرُ فِتنةً وتُتِمُّ فِتنة.

أيتُّها ٱلأحلام، ماذا تُبدعينَ إلَّا مخلوقاتِ ٱلدمِ ٱلإنسانيّ، ماذا تُبدعين؟

قلْت: يا صديقي دعِ ٱلآن هذه ٱلفلسفةَ وخذْ في قصِّ ما رأيْت، ثُمَّ ماذا بعدَ ٱلوردةِ ولونِ ٱلوردة؟

قال: إنَّهُ ٱلقلبُ ٱلمسكينُ دائماً، إنَّهُ ٱلقلبُ ٱلمسكين؛ لقد ضحكَتْ لي وقالت: هأنذي قد جِئت! وأقبلَتْ تُرائيني بوجهِها، وتتغزَّلُ بِعينيها، وتتنهَّدُ بِصدرِها، وألقَتْ يدَها في يدي، فأحسَسْتُ ٱليدينِ تتعانقانِ ولا تتصافحانِ؛ ثُمَّ تركناهُما نائمتينِ إحداهما على ٱلأخرى، وسكتنا هُنيهةً وقد خُيِّلَ إلينا أنَّنا إذا تكلَّمْنا ٱستيقَظتْ يدانا!

أمَا صافحَتْكَ ٱمرأةٌ تُحبُّها وتُحبُّك؟ أمَا أحسسْتَ بِيدِها قد نامتْ في يدِك ولو لحظة؟ أمَا رأيْتَ بِعينيكَ نُعاسَ يدِها وهو ينتقلُ إلى عينيها فإذا هما فاترتانِ ذابلتان، وتحتَ أجفانِهِما حُلمٌ قصير؟

قلْت: يا صديقي دَعِ ٱلفلسفة؛ ثُمَّ كانَ ماذا بعدَ أنْ نامَتْ يدٌ على يد؟

قال: ثُمَّ كانَتْ سُخريةٌ منَ ٱلشيطانِ أقبحُ سخريةٍ قطُّ.

قلْتُ: حسبي لَكأنَّكَ شرحْتَ لي ما بقي. . .

فضحكَ طويلاً وقال: إنَّ ٱلشيطانَ يسخرُ ٱلآنَ منك أيضاً، وكأنِّي بِهِ يقولُ لك: وكانَ ما كانَ مِمَّا لسْتُ أذكُره. . . أفتدري ما ٱلذي كانَ وما بقيةُ ٱلخبر؟

لقد كنْتُ مُولَعاً بِٱمتحانِ قوَّتي في ٱلضغطِ بيدي على أعوادٍ منصوبةٍ مِنَ ٱلحديد، أو على أيدي ٱلأقوياءِ إذا سلَّمْتُ عليهم؛ فلمَّا صافحتْني لبثَتْ مُدَّةً مِنَ ٱلزمنِ ثُمَّ شددْتُ على يدِها قليلاً قليلاً، فتنبهَتْ فيَّ هذه ٱلعادة، فمسخْتِ ٱلحُلْمَ وٱنصرفَ وهمِّي إلى أقبحِ صورةٍ وأشنعِها وأبعدِها مِمَّا أنا فيهِ مِنَ ٱلحُبِّ ولذاتِ ٱلحُبِّ؛ فإذا بإزائي وجهٌ، وجهُ مَنْ؟ وجهُ مصارعٍ ٱلمانيٍّ كنْتُ أعرفُهُ من عشرينَ سنة وأضغطُ على يدِه. . .

* * *

قلْت: إنَّما هذه كِبرياؤكَ أو عِفَّتُكَ تنبَّهَتْ في تلك ٱلشدَّةِ من يدِك، ولا يزالُ أمْرُك عجيباً؛ فهلْ معك أنت ملائكةٌ ومعَ ٱلناسِ شياطين؟

قال: وٱلذي هوَ أعجبُ أنّي رأيْتُ في أضغاثِ أحلامي كأنَّ قلبي ٱلمسكينَ يُخاصِمُني وأُخاصِمُه؛ وقد خرجَ من أحناءِ ٱلضلوع كأنَّهُ مخلوقٌ منَ ٱلظلِّ يُرى ولا يُرى إذْ لا شكلَ لَه؛ وسبَّني وسببتُه، وقلْتُ لَهُ وقَالَ لي، وتغالظْنا كأنَّنا عدوَّان؛ فهو يرى أنّي أنا أمنعُهُ لذَّتَه، وأرى أنَّهُ هو يمنعني، وأنَّهُ أشفى بي على ما أشفى؛ وقلْتُ لَهُ فيما قلْت: لا قَرارَ على جِنايتِك، فَٱذهبْ عنّي ولا تتسمَّ بِٱسمي فإنَّهُ لا فلانَ لَكَ بعدَ ٱليوم؛ ولولا أنَّكَ مخذولٌ[1] في ٱلحُبّ لَعَلِمْتَ أنَّ لمسةَ يدِ ٱلرجلِ لِيدِ ٱلمرأةِ ٱلجميلةِ نوعٌ مُخفَّفٌ مِنَ ٱلتقبيل، فإذا هيَ تركتْهُ يرتفعُ في ٱلدم ٱنتهى يوماً إلى تقبيلِ فمِهِ لِفمِها؛ ولولا أنَّكَ مخذولٌ في ٱلحُبِّ لعلمْتُ أنَّ هذاَ ٱلضمَّ بينَ ٱليدينِ نوعٌ مخفَّفٌ مِنَ ٱلعِناق، فإذا هيَ تركَتْهُ يشتدُّ في ٱلدم ٱنتهى يوماً إلى ضمِّ ٱلصدْرِ لِلصدْر؛ ولكنَّكَ مخذولٌ في ٱلحُبّ، ولكنَّك مخذول!.

وقالَ لي فيما قال: وأنت أيُّها ٱلخائب؟ أمَا علِمْتَ أنَّ أناملَها ٱلرَّخْصةَ[2] هي أناملُها، لا أعوادُك مِنَ ٱلحديد؟ فكيف شدَدْتَ عليها ـ وَيحكَ ـ تلكَ ٱلشدَّةَ ٱلتي أخرجَتْ لك وجْهَ ٱلمصارع؟ ولكِنَّك خائبٌ في ٱلحُبّ، ولكنَّكَ خائب!

قلْت: فهذه قضيَّةٌ بيني وبينَك أيُّها ٱلقلْبُ ٱلعدوّ؛ لقد تركْتني مِنَ ٱلهموم كَٱلشجرةِ ٱلمُنَخْرِبَةِ قد بليَتْ وصارَتْ فيها ٱلتخاريب؛ فلا حياتُها بِٱلحياةِ ولا موتُها بِٱلموت، وكم علَّقْتَني بفاتنةٍ بعدَ فاتنةٍ لا عنها إقصارٌ ينتهي ولا فيها مطمعٌ يبتدىء؛ ما أنت فيَّ إلّا وحشٌ أكبرُ لذَّتِه لِطْعُ ٱلدم!

* * *

واستدارَ ٱلحُلُمُ فلم ألبثْ أنْ رأيْتُني في محكمةِ ٱلجِنايات، وكأنّي شكَوْتُ قلبي إليها فهو جالسٌ في ٱلقفصِ ٱلحديديِّ بين ٱلمجرمينَ ينتظِرُ ما ينتظرون مِنَ ٱلفصلِ[3] في أمرِهِم؛ وقدِ آرتفعَ ٱلمستشارون ٱلثلاثةُ إلى مِنَصَّةِ ٱلحُكْم، وجلسَ ٱلنائبُ ٱلعامُّ في مجلسِهِ يتولّى إقامةَ ٱلدعوى وبينَ يديهِ أوراقُهُ ينظرُ فيها، ورأيْتُ منها غِلافاً كُتِبَ على ظاهره: قضيةُ ٱلقلْبِ ٱلمسكين.

وتكلَّمَ رئيسُ ٱلمحكمةِ أوّلَ مَنْ تكلَّمَ فقال: ليس في قضيَّةِ ٱلقلْبِ مُحامٍ، فٱبْغُوهُ مَنْ يُدافعُ عنه؛ ثُمَّ ٱلتفتَ إليهِ وقال: مَنْ عسى تختارُ لِلدفاعِ عنك؟

---

(١) مخذول: مهزوم لا يفتر لك.
(٢) الرخصة: الطريئة اللدنه.
(٣) الفصل في أمرهم: البتّ في مصيرهم.

قالَ ٱلقلْب: أوَ هنا موضِعٌ لِلاختيارِ يا حضرةَ ٱلرئيس؟ إنَّهُ ليسَ تحتَ هذه ـ وأومأ إلى ٱلسماء ـ ولا فوقَ هذه ـ وأومأ إلى ٱلأرض ـ إلّا . . .

فبَدَرَ ٱلنائبُ ٱلعامُ وقال: إلّا ٱلحبيبة؟ أكذلك؟ غيرَ أنَّها أستاذةٌ في ٱلرقصِ لا في ٱلقانون!

ـ القلْب: ولكنَّني لا أختارُ غيرَها محكوماً لي أو محكوماً عليّ؛ أنا أُريدُ أنْ أنظرَ فيها وَٱنظُروا أنتم في ٱلقضيَّة. . .

ـ الرئيس: فلْيكن؛ فهذه جريمةُ عواطِفَ إيذَنْ لها أيُّها الآذِن.

فنادى ٱلمحْضِر: الأستاذة! الأستاذة!

وجاءَتْ مبادرة، ودخَلَتْ تمشي مِشيتَها وقدِ ٱفترَّ ثغرُها[1] عنِ ٱلنورِ ٱلذي يسطعُ في ٱلنفس؛ وأومَضَتْ بوجهِها يميناً وشِمالاً، فصرَفَ ٱلناسُ جميعاً أبصارَهم إليها وقد نظروا إلى فِتنةٍ مِنَ ٱلفِتن؛ وثارَتْ في كلِّ قلبٍ نزعة، وغلبَتِ ٱلحقيقةُ ٱلبشريَّةُ فَٱنتقضَتْ طِباعُ ٱلموجودين في قاعةِ ٱلجلسة، وأبطلَ قانونُ جمالِها قانونَ ٱلمحكمة، فوقَعتِ ٱلضجَّةُ وعلَتِ ٱلأصواتُ وٱختلطَت؛ وتردَّدَتْ بين جُدرانِ ٱلمكانِ صَدًى في صدًى كأنَّ ٱلجدرانَ تتكلَّمُ مَعَ ٱلمتكلمين.

أصواتٌ أصوات: سبحانَ ٱلله! سبحانَ ٱلله! تباركَ ٱلله! تباركَ ٱلله! آه آه! آه آه! وسُمِعَ صوتٌ يقول: ٱتَّهِمُوني أنا أيضاً. . . فَنَفَرتِ ٱلكلمات: وأنا، وأنا، وأنا! وٱختفتِ ٱلمحكمةُ وٱنبعثَ ٱلمسرحُ بدخولِ فاتنتِهِ ٱلراقصة؛ وكانَ ٱلمستشارونَ وٱلنائبُ ٱلعامُ في أعينِ ٱلناسِ كأنَّهم صورٌ معلَّقةٌ على ٱلحائط: لا يخشاها أحدٌ أنْ تنظرَ إلى ما يصنع!

فصاحَ ٱلرئيس: هنا ٱلمحكمة! هنا ٱلمحكمة! سبحانَ ٱلله. . . المحكمة المحكمة!

ـ النائب العام: هذا بَدْرٌ لا تَرضاهُ النيابةُ ولا تقبلُ أنْ تنسحِبَ عليه، نعمْ إنَّ هذا ٱلوجهَ ٱلجميلَ أبرعُ محامٍ في هذه ٱلقضيَّة، ونعمْ إنَّ جسمَها. . . آهِ ماذا؟ إنَّكم تأتونَ بِٱلشهوةِ ٱلغالبةِ ٱلقاهرةِ لِتُدافعَ عنِ ٱلمشتهي. . . عنِ ٱلمتَّهم، هذا وضعٌ كوضعِ ٱلعذرِ إلى جانبِ ٱلذنب، وكأنَّكم يا حضراتِ ٱلمستشارين. . .

---

(١) افترّ ثغرها: ابتسمت.

فَبَدَرتِ ٱلمحاميةُ تقولُ في نغمةِ دلالٍ وفتور: وكأنَّكم يا حضراتِ ٱلمستشارينَ قد نسيتُم أنَّ ٱلنائبَ ٱلعامَّ لَهُ قلبٌ أيضاً...

وٱشتدَّ ذلك على ٱلنائب، وتبينَ ٱلغضبُ في وجهِه؛ فقالَ: يا حضرةَ ٱلرئيس...

ـ الرئيسُ مبتسماً: واحدةٌ بواحدة، وأرجو ألَّا تكونَ لها ثانية، ومعنى هذا كما هو ظاهرٌ ألا تكونَ لها ثالثة... (ضحك).

* * *

قالَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين: وكنْتُ بلا قلب... فلم ألتفِتْ لِلجمال، بلْ راعني ذكاءُ ٱلمحاميةِ ونفاذُها وحُسْنُ ٱهتدائها إلى ٱلحُجَّةِ في أولِ ضرباتِها، وتعجبْتُ من ذلك أشدَّ ٱلتعجُب، وأيقنتُ أنَّ ٱلنائبَ ٱلعامَّ سيقعُ في لِسانِها، لا كما يقعُ مثلُهُ في لِسانِ ٱلمحامي ٱلقدير، ولكن كما يقعُ زوجٌ في لِسانِ زوجةٍ معشوقةٍ متدلِّلَةٍ تُجادِلُهُ بِحُجج كثيرةٍ بعضُها ٱلكلام... وقلْتُ في نفسي: يا رحمةَ ٱللَّهِ لا تجعلي مِنَ ٱلنساءِ ٱلجميلاتِ ٱلفاتناتِ محامياتٍ في هذه ٱلمحاكم، فلو ألبسوهُنَّ لحَى مستعارةً لَكانَ ٱلصوتُ ٱلرخيمُ وحَدهُ من تلك ٱلأفواهِ ٱلجميلةِ ٱلعذبة، نداءً قانونياً لِلْقُبلات...

ونهضَتِ ٱلمحاميةُ ٱلعجيبةُ فسلطَتْ عينيها ٱلساحرتينِ على ٱلنائب، ثُمَّ قالَتْ تُخاطِبُ ٱلمحكمة: قبلَ ٱلنظرِ في هذه ٱلقضيةِ قضيةِ ٱلحُبِّ وَٱلجمال، قضيةِ قلْبيَ ٱلمسكين... أُريدُ أنْ أتعرَّفَ ٱلرأيَ ٱلقانونيَّ في ٱعتبارِ ٱلجريمة. أهي شخصيَّة، فتقصرَ على صاحبِها؛ أو خاصة، فتضرَّ غيرَ جانبِها؛ أو عامة، فيتناولَها ٱلعمومُ ٱلمحدودُ لِمَنْ تجمعُهُم جامعةُ ٱلحُبّ؛ أو هي أعمُّ، فيتناولَها ٱلعمومُ ٱلمطلَقُ لِلْهيئةِ ٱلاجتماعيَّة؛ ما هيَ جريمةُ قلبي؟...

ـ الرئيس: ما رأيُ ٱلنيابة؟

ٱلنائبُ ضاحكاً: (غزالتها رايقة) كما يقولُ ٱلراقصاتُ وٱلممثلات... أرى أنَّها جريمةٌ آتيةٌ من ضرْبِ ٱلخاصِّ في ٱلعام... (ضحك).

ٱلمحامية: جوابٌ كجوابِ ٱلقائل: حبُّ أبي بكر: كانَ ذلكِ ٱلرجلُ يُحبُّ زوجتَهُ ٱلجميلةَ ويخافُها، وكانَتْ تقسو عليهِ قسوةً عظيمةً وتُغلِظُ لَهُ ٱلكلام، وهو يفْرَقُ منها ولا يُخالِفُها؛ فرآها يوماً وقد طابَتْ نفسُها، فأرادَ أنْ ينتهزَ ٱلفرصةَ

ويشكو قسوتَها؛ فقال: يا فلانةُ قَدْ ـ واللّهِ ـ أحرقَ قلبي. . . ولم تدعْهُ يُتمُّ ٱلكلمة، فحدَّدَتْ نظرَها إليهِ وقَطَبتْ[1] وجهَها وقالت: أحرقَ قلبَكَ ماذا؟ فخافَ ولم يقدِرْ أنْ يقولَ لها سُوءُ أخلاقِك. فقال؛ حبُّ أبي بكرِ ٱلصديقِ ـ رضيَ الله عنه ـ. . (ضحك) ورنَّتْ ضِحكةُ ٱلمحاميةِ فَٱضطربَتْ لها ٱلقلوب، ووقعَتْ في كلِّ دم، وفي دمِ ٱلنائبِ أيضاً؛ فٱنخزلَ ولم يزدْ على أنَّ يقول: أحتجُ من كلِّ قلبي. . .

الرئيس: لنَدْخلْ في ٱلموضوعِ وَلْتكنِ ٱلمرافعةُ مطلقة؛ فإنَّ ٱلحدودَ في جرائم ٱلقلْبِ تُسْدلُ وتُرفعُ كهذه ٱلستائرِ في مسرحِ ٱلتمثيل. وعشرون سِتارةً قد تكونُ كلُّها لِروايةٍ واحدة.

* * *

ـ النائب العام: يا حضراتِ ٱلمستشارين، لا يطولُ ٱتهامي؛ فإنَّ هذا ٱلقلبَ هو نفسُهُ تهمةٌ متكلمة.

المحامية: ولكنَّهُ قلب.

النائب: وأنا يا سيدتي لم أحرّفِ ٱلكلمةَ ولم أقلْ إنَّهُ كلب. (ضحك) وتضرَّجَ[2] وجهُ ٱلمحاميةِ وخجِلَت.

ـ الرئيس: الموضوع الموضوع.

النائب: يا حضراتِ ٱلمستشارين، إنَّ ألمَ هذه ٱلجريمةِ إمَّا أنْ يكونَ في شخصِ ٱلجاني أو مالِه، أو صِفتِهِ كأنْ يكونَ زوجاً مثلاً، أو صِيتُهُ ٱلأدبيُّ؛ فأمَّا ٱلشخصُ فهذا ظاهر، وأمَّا ٱلمالُ فنعمْ إنَّ ٱلقلبَ ٱلمسكينَ قرَّرَ لِنفسِهِ ولِصاحبِهِ ألَّا يبتاعَ أبداً تذكرةَ دخولٍ إلى جهنم. . . (ضحك).

ـ المحامية: أستميحُ ٱلنائبَ عُذراً إذا أنا. . . إذا أنا فهمْتُ من هذا ٱلتعبيرِ أنَّ حضرتَهُ يعرفُ على ٱلأقلِ أين تُباعُ هذه «التذاكر». . . (ضحك) وتفرَّجُ وجهُ ٱلنائبِ العامِّ وخجل.

ـ الرئيس: كنْتُ رجْوتُ ألَّا تكونَ لِلأُولى ثانية، وقلْت: إنَّ معنى هذا كما هو ظاهرٌ ألَّا يكونَ لها ثالثة؛ فهلْ أنا مُحتاجٌ إلى ٱلقوْلِ بِأنَّ ٱلمعنى ٱلمنطقيَّ ألَّا يكونَ لِلثالثةِ رابعة؟. . .

---

(١) قطّبت: عبست.

(٢) تضرّج: تورّد احمراراً.

ـ النائب: يا حضراتِ ٱلمستشارين، وأمَّا ٱلصفة، فهذا ٱلقلبُ ٱلمِسْكينُ قلْبُ رجلٍ متزوج؛ ولا تغرنَّكم صوفيَّةُ هذا ٱلقلب، ولا يخدعنَّكم تألّهُهُ وزعمُهُ ٱلسموَّ. إنَّهُ على كلِّ حالٍ يعشقُ راقصة، وهذا ٱعتداءٌ في ضِمنِهِ ٱعتداء، على ٱلزواجِ وعلى ٱلشرف؛ وَهبُوهُ متصوِّفاً متألِّهاً ولم يتَّصلْ بِٱلراقصةِ، فهو على كلِّ حالٍ قد أخذَها وٱتخذَها ولكنْ بأسلوبِهِ ٱلخاصّ... وبهذا ٱقترفَ ٱلجريمة؛ آه! إنَّ هذه ٱلقضيةَ ناقصة؛ وذلك نقصٌ فيها أخشى أنْ يكونَ نقصاً في ٱلحكم أيضاً، فأتمُّوهُ أنتم. يا حضراتِ ٱلمستشارين، إنَّ ٱلنقصَ فيها أنَّها لا شهودَ فيها؛ ولكنْ هذا عملٌ إلهيٌّ لا يظهرُ إلَّا يومَ تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بِما كانوا يعملون.

ـ المحامية: هذا تعبيرٌ أكبرُ من قُدرةِ قائلِهِ ومن منزلتِهِ ووظيفتِه، هذا تعبيرٌ جسور[1]! يا حضرةَ ٱلنائب، مَنِ ٱلذي لا يحملُ شهوداً في لِسانِهِ ويديهِ ورجليهِ، بلْ ألفَ شاهدٍ على ليلةٍ واحدة... يجبُ أنْ يكونَ مفهوماً بينَنا يا حضرةَ ٱلنائبِ أنَّ ٱلنونَ وٱلباءَ في لفظةِ (نائب) غيرُ ٱلنونِ وٱلباءِ في لفظةِ (نبيّ).

ـ النائب: يا حضراتِ ٱلمستشارين. لا أرى مِمَّا يُحرجني في ٱلاتهامِ أنْ أُصرِّحَ لكم أنَّ مِمَّا حيَّرني في هذه ٱلجريمةِ أنْ ليسَ فيها من أوصافِ ٱلجرائمِ إلَّا ثلمَ ٱلكرامة، فلا قَذْفَ ولا سَبَّ ولا هَتْكَ عرضٍ ولا فجور، ولا أصغرَ من ذلكَ، ولا كأسَ خمرٍ للراقصة...

ـ المحامية: لا أرى أمامَ حضرةِ ٱلنائبِ كأسَ ماء، وسيجِفُّ حلقُهُ في هذه ٱلقضيَّة؛ فلعلَّ ٱلمحكمةَ تأمرُ لي بكأس... (ضحك).

ـ النائب: يا حضراتِ ٱلمستشارين، يعشقُ راقصة؛ إسمُ فاعل من رقصَ يرقص؛ ٱمرأةٌ لا تلبسُ ثِياباً، بلْ عُرياً في شكلِ ثياب... ٱمرأةٌ لا كَٱلنساء، كذبُها هو صِدْقٌ من شفتيها، لِماذا؟ لأنَّهما حمراوانِ رقيقتانِ عذبتانِ محبوبتانِ مطلوبتانِ...

المحامية: تضحك...

ـ النائبُ بعدَ أنْ تتعتع: اِمرأةٌ لا كَٱلنساء، جعلَتْها ٱلحِرْفةُ ٱمرأةً في ٱلعمل، ورجلاً في ٱلكَسْب...

---

(١) جسور: جريء.

ـ المحامية: ولكنَّكَ لا تدري أي جِملٍ سقطَتْ فيهِ ٱلمسكينةُ، وقد يكونُ في ٱلرذائلِ رذائلُ كبعضِ أصحابِ ٱلألقاب: ذاتُ عظمة...

ـ النائب: يحبُّ راقصة، أي يضعُها في عقلِهِ ٱلباطنِ ويشتهيها؛ نعم يشتهيها، فمِنْ عقلِهِ ٱلباطِن، وبتعبيرِ ٱللغة، من واعيتِه ـ تخرجُ ٱلجريمةُ أو على الأقلّ، فكرةُ ٱلجريمة.

وَالصيتُ ٱلأدبيُّ يا حضراتِ ٱلمستشارين؟ هلْ من كرامةٍ لِمَنْ يعشقُ راقصة؟ لا بلْ هلْ من كرامةٍ في ٱلحُبّ؟ ألم يقولوا: إنَّ كرامةَ ٱلرجلِ تكونُ تحتَ قدمي ٱلمرأةِ ٱلمعشوقةِ كَٱلممسحةِ ٱلخشنةِ تمسحُ فيها نعليها!

الحُبُّ؟ ما هو ٱلحُبُّ؟ إنَّهُ ليسَ فكرة، بلْ هو شيطانٌ يتلبَّسُ لِجسمِ ٱلعاشقِ لِيَعملَ أعمالَهُ بأداةٍ حيَّة، وهذا ٱلتركيبُ ٱلحيوانيُّ لِلإنسانِ هو ٱلذي يُهيِىءُ مِنَ ٱلحبِّ مداخلَ ومخارجَ لِلشياطينِ في جسمِهِ؛ وهلْ رَضِيَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ بِجنايةِ قلبِهِ عليه، وعظيمِ ما ٱنتهكَ من أخلاقِهِ ٱلسامية؟ هلْ رَضِيَ بعِشْقِهِ راقصة؟ إنَّهُ لم يرضَ ٱلرضى ٱلصحيح، أو رَضِيَ بِقدرٍ ما؛ فعلى كليهما يقومُ في نفسِهِ مانع؛ وٱلمانعُ مِنَ ٱلرضى هوَ ٱلمُوجِبُ لِلْعقوبة.

ـ المحامية: ولكنَّ قدراً مِنَ ٱلرضى ينزلُ بِٱلجنايةِ فيرُدها إلى جُنْحَةٍ كما في ٱلقانونِ ٱلإنجليزيّ، وقد قرَّرَ ٱلشرَّاحُ أنَّهُ ما دامَ ٱلرضى غيرَ مستلبٍ بِكُلِّه، فَٱلجريمةُ غيرُ واقعةٍ بِكُلِّها.

ـ النائب: جُنْحَةُ كلِّ قلْبٍ هي جِنايةٌ من هذا ٱلقلْبِ بِخُصوصِه، على طريقةِ «حَسناتُ الأبرارِ سيئاتُ ٱلمقرَّبين»؛ وٱلعِبرةُ هنا بِٱلواقعِ لا بِٱلصفةِ ٱلقانونيَّة، وقد قرَّر ٱلشراحُ أنَّ ٱلواقعَ قد يكونُ أحياناً سبباً في تشديدِ ٱلعُقوبة، فلا بُدَّ من تشديدِ ٱلعُقوبةِ في هذه ٱلقضيَّة. لا أطلبُ ٱلحُكْمَ بِٱلمادة ٢٣٠ عقوبات بل بِٱلمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة.

ـ المحامية: قد نسيْتَ أنَّ هذا قلْبٌ وعقوبتُهُ عقوبةٌ لصاحبِهِ ٱلبرىء.

ـ النائب: إذن أطلبُ عِقابَهُ بُحرمانِهِ ٱلجمال: وهذا أشقُّ عليهِ مِنَ ٱلعِقابِ بِٱثنتي عَشْرةَ مادةً وبعشرينَ وثلاثين.

الرئيس: وما هي ٱلطريقةُ لِتنفيذِ ٱلحكم بهذا ٱلحِرْمان؟

النائب: تأمرُ ٱلمحكمةُ بالمراقصِ كلِّها فتُغْلق، وبِٱلمسارحِ كلِّها فتُقفل، وبِالسينما فتُبطلُ إلَّا ما لا جمالَ فيهِ منها ولا غزَل ولا حُبَّ، ويُحرمُ ٱلسفورُ على ٱلنساءِ إلَّا ٱلعجائزَ وَٱلدميمات[1]، ويُمنعُ نشرُ صورِ ٱلجمالِ في ٱلصحفِ وَٱلكتب، و . . .

المحامية: قلْ في كلمةٍ واحدة: يجبُ إصلاحُ ٱلعالمِ كلِّهِ لإِصلاح ٱلقلْبِ ٱلإنسانيّ!

* * *

وجلسَ ٱلنائب، فَٱلتفتَ ٱلرئيسُ إلى ٱلمحاميةِ وقال لها: وأما هو؟ . . .

---

(١) الدميمات: البشعات.

القلب المسكين
تتمة

قالَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين: ووقفَتِ ٱلمحاميةُ وكأنَّها بينَ ٱلحُراسِ تزدحِمُ عليها من كلِّ ناحية، وقد ظهَرتْ لِلْموجودينَ ظهورَ ٱلجمالِ لِلحبّ، ونقلتْهم في ٱلزَّمنِ إلى مثلِ ٱلساعةِ ٱلمصوَّرةِ ٱلتي ينتظِرُ فيها ٱلأطفالُ سماعَ ٱلقصةِ ٱلعجيبة؛ ساعةٍ فيها كلُّ صورِ ٱللذةِ لِلْقلب.

وكانَتْ تُدافعُ بِكلامِها ووجهُها يُدافعُ عن كلامِها، فلو نطقَتْ غيّاً أو رُشداً فلهذا صَوابٌ ولهذا صوابٌ، لِأنَّ أحَد ٱلصوابينِ منظورٌ بالأعين.

كانَ صوتُ ٱلنائبِ ٱلعامِّ كلاماً يُسْمَعُ ويُفهم: أمَّا صوتُ ٱلمحاميةِ ٱلجميلةِ فكانَ يُسمعُ ويُفهمُ ويُحسُّ ويُذاق، تُلقيهِ هي من ناحيةِ ما يُدْرَك، وتتلقَّاهُ ٱلنفسُ من ناحيةِ ما يُعشَق؛ فهو مُتَّصِلٌ بِحقيقتينِ من معناهُ ومعناها، وهو كلُّهُ حلاوةٌ لِأَنَّهُ من فمِها ٱلحلو.

* * *

وبدأَتْ فتناوَلتْ من أشيائِها مِرآةً صغيرةً فنظرتْ فيها.

ـ النائب العام: ما هذا يا أستاذة؟

ـ المحامية: إنَّكم تزعمون أنَّ هذه ٱلجريمةَ تأليفُ عينيَّ، فأنا أسألُ عينيَّ قبلَ أنْ أتكلَّم!

ـ النائب: نعم يا سيِّدتي، ولكنِّي أرجو ألَّا تُدخلي ٱلقضيَّةَ في سِرِّ ٱلمرأةِ وأخواتِها... إنَّ ٱلنيابةَ تخشى على ٱتهامِها إذا تكحَّلَتْ لغةُ ٱلدفاع!

فضحكَتِ ٱلمحاميةُ ضِحْكةً كانَتْ أولَ ٱلبلاغةِ ٱلمؤثرة...

ـ النائب: مِنَ ٱلوقارِ ٱلقانونيِّ أنْ تكونَ ٱلمحاميةُ ٱلفتَّانةُ غيرَ فتانةٍ ولا جذَّابةٍ أمامَ ٱلمحكمة.

ـ المحامية: تُريدُ أنْ تجعلَها عجوزاً بأمرِ ٱلنيابة. . .؟ (ضحك).

ـ النائب: جمالُ حسناء، في ظرفِ غانية، في شمائلِ راقصة، في حماسةِ عاشقة، في ذكاءِ مُحامية، في قُدرةِ حُبّ ـ هذا كثير!

ـ المحامية: يا حضراتِ ٱلمستشارين، لم تكنِ ٱلمرآةُ هفوةً من طبيعةِ ٱلمرأة، ولكنَّها ٱلكلمةُ الأولى في ٱلدفاع، كلمةٌ كانَ ٱلجوابُ عنها مِنَ ٱلنائبِ ٱلعامِّ أنَّهُ أقرَّ بتأثيرِ ٱلجمالِ وخَطَرِه، حتى لقد خشيَ على ٱتهامِهِ إذا تكحَّلَتْ لَهُ لغتي.

ـ القضاة يتبسمون.

ـ النائب: لم أزدْ على أنْ طلبْتُ ٱلوقارَ ٱلقانونيّ، ٱلوقار، نعمِ ٱلوقار؛ فإنَّ ٱلمحاميةَ أمامَ ٱلمحكمة، هيَ متكلمٌ لا متكلمة.

ـ المحامية: متكلمٌ بِلِحيةٍ مُقدَّرةٍ منعَ من ظهورِها ٱلتعذُّر (ضحك). . .

كلا يا حضرةَ ٱلنائب؛ إنَّ لهذه ٱلقضيَّةِ قانوناً آخرَ تُنتزعُ منه شواهدُ وأدلَّة؛ قانونَ سحرِ ٱلمرأةِ لِلرجل، فلو ٱقتضاني أنْ أرقصَ لَرقصْت، أو أُغنيَ لَغنَّيْت، أو سحرَ ٱلجمالِ لأَثبتُّهُ أولَ شيءٍ في النائب. . .

ـ الرئيس: يا أستاذة!

ـ المحامية: لم أُجاوزِ ٱلقانون، فَٱلنائبُ في جريمتِنا هو خصمُ ٱلقضية، وهو أيضاً خصمُ ٱلطبيعةِ ٱلنسويَّة.

ـ النائب: لو حدثَ من هذا شيءٌ لَكَانَ إيحاءً لِعواطفِ ٱلمحكمة. . . فأنا أحتج!

ـ المحامية: إحتجَّ ما شئْت، ففي قضايا ٱلحُبِّ يكونُ ٱلعذْلُ عدلين؛ إذْ كانَ ٱلاضطرارُ قد حكمَ بِقانونِهِ قبلَ أنْ تَحكُمَ أنت بِقانونِك.

النائب: هذهِ ٱلعُقْدةُ ليْسَتْ عُقْدةً في منديلٍ يا سيدتي، بلْ هي عُقْدةٌ في ٱلقانون.

ـ المحامية: وهذه القضيةُ ليسَتْ قضيةَ إخلاءِ دارٍ يا سيِّدي، بلْ هي قضيةُ إخلاءِ قلْب!

ـ الرئيس: الموضوع، الموضوع!

ـ المحامية: يا حضراتِ ٱلمستشارين، إذا ٱنتفى ٱلقصدُ ٱلجِنائيُّ وجبَتِ ٱلبراءة. هذا مبدأٌ لا خِلافَ عليه؛ فما هو ٱلفعلُ ٱلوجوديُّ في جريمةِ قلْبيَ ٱلمسكين؟

ـ النائب: أوَّله حبُّ راقصة.

ـ المحامية: آه! دائماً ٱلوصف؟ هبوها في معناها غيرَ جديرةٍ بأنْ يعرفَها لِأَنَّهُ رجلٌ تقيّ، أفليسَتْ في حُسْنِها جديرةً بأنْ يُحبَّها لِأَنَّهُ رجلٌ شاعر؟ أُحكموا يا حضراتِ ٱلقضاة؛ هذه راقصةٌ ترتزقُ وترتفِق، ومعنى ذلك أنها رَهْنٌ بأسبابها، ومعنى هذا أنَّها خاضعةٌ لِلْكلمةِ ٱلتي تَدفع... فلِماذا لم ينلْها وهي متعرِّضةٌ له، وكِلاهما من صاحبِهِ على ٱلنهاية، وفي آخرِ أوصافِ ٱلشوْق؟ أليسَ هذا حقيقاً بإعجابِكُمُ ٱلقانونيِّ كما هو جديرٌ بإعجابِ ٱلدينِ وٱلعقْل؟ وإنْ لم يكنْ هذا ٱلحُبُّ شَهْوَةَ فكر، فما الذي يحولُ دونَها وما يمنعُهُ أنْ يتزوَجَها؟..

ـ القضاةُ يتبسَّمون.

ـ النائب: نسيَتِ ٱلمحاميةُ أنَّها محاميةٌ وٱنتقلَتْ إلى شخصيتِها ٱلواقعةِ على النهايةِ وفي آخرِ أوصافِ ٱلسوق.. فأرجو أنْ ترجِعَ إلى ٱلموضوع، موضوعِ ٱلراقصة.

ـ المحامية: آه! دائماً ٱلراقصة، مَن هيَ هذه ٱلمسكينةُ ٱلأسيرةُ في أيدي ٱلجوعِ وٱلحاجةِ وٱلاضطرار؟ أليسَتْ مجموعةَ فضائلَ مقهورة؟ أليسَتْ هيَ ٱلجائعةَ ٱلتي لَا تجدُ مِنَ ٱلفاجرين إلَّا لحمَ ٱلميتة؟ نعم إنَّها زلَّت، إنها سقطَت، ولكنْ بِماذا؟ بِٱلفقرِ لا غير، فقرِ ٱلضمير وٱلذمَّةِ في رجلٍ فاسدٍ خدعَها وتركَها، وفقرِ ٱلعدْلِ وٱلرحمةِ في ٱجتماعٍ فاسدٍ خَذلَها وأهملَها! يا لَلرَّحمةِ لِلْيتيمةِ مِنَ ٱلأهل، وأهلُها موجودون! والمنقطعَةِ منَ ٱلناس، وٱلناسُ حولَها!

تقولون: يجبُ ولا يجب، ثُمَّ تَدَعون ٱلحياةَ ٱلظالمةَ تعكِسُ ما شاءَتْ فتجعلُ ما لا ينبغي هوَ ٱلذي ينبغي، وتقلِبُ ما يجبُ إلى ما لا يجب، فإذا ضاعَ مَنْ يضيعُ في هذا الاختلاط، قلْتُمْ لَه: شأنُك بِنفسِك، ونفضْتُم أيديَكم منه فأضعتُمُوه مرَّةً أخرى، ـ ويحكَم يا قوم ـ غيرُّوا ٱتجاهَ ٱلأسبابِ في هذا ٱلاجتماعِ ٱلفاسد، تُخرِجْ لكم مسبَّباتٍ أخرى غيرَ فاسدة.

تأتي ٱلمرأةُ من أعمالِ ٱلرجلِ لا من أعمالِ نفسِها، فهي تابعةٌ وتظهرُ كأنَّها متبوعة؛ وذلك هو ظُلْمُ ٱلطبيعةِ لِلْمسكينة؛ ومن كونها تظهرُ كأنَّها متبوعة، يظلمُها ٱلاجتماعُ ظُلْماً آخرَ فيأخذُها وحدَها بِٱلجريمة، ويُقالُ سافلة، وساقطة؛ وما جاءَتْ إلَّا من سافلٍ وساقط!

لِماذا أَوْجَبَتِ ٱلشريعةُ ٱلرجمَ بِٱلحِجارةِ على ٱلفاسقِ ٱلمُحْصَن[1]؟ أهيَ تُريدُ ٱلقتلَ وَٱلتعذيبَ وٱلمُثلة[2]؟ كلا؛ فإِنَّ ٱلقتلَ مُمْكِنٌ بِغيرِ هذا وبأشدَّ من هذا، ولكنَّها ٱلحِكمةُ ٱلساميةُ ٱلعجيبة: إِنَّ هذا ٱلفاسقَ هَدَمَ بيتاً فهو يُرجمُ بِحِجَارتِه!

ما أجلَّكِ وأسماكِ يا شريعةَ ٱلطبيعة! كلُّ ٱلأحجارِ يجبُ أنْ تنتقِمَ لِحجرِ دارِ ٱلأسرةِ إذا ٱنهدم.

تَسْتَسْقِطون ٱلمسكينة، ولو ذكَرْتُم آلامَها لوجَدْتُم في ألسنتِكم كلماتِ ٱلإصلاحِ وٱلرحمةِ لا كلماتِ ٱلذمِّ وٱلعار؛ إنَّها تسعى بِرذيلتِها إلى ٱلرزق؛ فهل معنى هذا إِلَّا أنَّها تسعى إِلى ٱلرزقِ بأقوى قوّتِها؟ نعم إنَّ ذلك معنى ٱلفجور، ولكنْ أليسَ هو نفسَهُ معنى ٱلقوتِ أيُّها الناس؟

ـ الرئيسُ وهو يمسحُ عينيه: الموضوع الموضوع!

ـ المحامية: ما هوَ ٱلفعلُ ٱلوجوديُّ في جريمةِ قلبيَ ٱلمسكين؟ ما هو ٱلواقعُ من جريمةٍ يَضرِبُ صاحبُها ٱلمثلَ بنفسِهِ لِلشبابِّ في تسامي غريزتِهِ عن معناها إلى أطهرَ وأجملَ من معناها؟ لَبِئْسَ ٱلقانونُ إِنْ كانَ ٱلقانونُ يُعاقِبُ على أمرٍ قد صارَ إلى عملٍ دينيٍّ من أعمالِ ٱلفضيلة!

ـ النائب: ألا يخجلُ من شعورِهِ بأنَّهُ يُحِبُّ راقصة؟

ـ المحامية: ومِمَّ يخجل؟ أمن جمالِ شعورِهِ أمْ من فنِّ شهورِهِ؟ أيخجلُ من عظمةٍ في سموٍّ في كمال؟ أيخجلُ ٱلبطلُ من أعمالِ ٱلحربِ وهيَ نفسُها أعمالُ ٱلنصرِ وٱلمجد؟

أتأذنون يا حضراتِ ٱلمستشارينَ أنْ أَصِفَ لكم جمالَ صاحبتِهِ وأنْ أُظهِرَ شيئاً من سِرِّ فنِّها ٱلذي هو سِرُّ ٱلبيانِ في فنِّه؟

ـ النائب: إِنَّها تتماجنُ علينا يا حضراتِ ٱلمستشارين، فَالذي يُحاكَمُ على ٱلسكرِ لا يدخلُ ٱلمحكمةَ ومعه ٱلزجاجة...

ـ الرئيس: لا حاجةَ إلى هذا ٱلنوعِ من ترجمةِ ٱلكلامِ إلى أعمالٍ يا حضرةَ ٱلأستاذة.

---

(١) المحصن: الذي تحصّن بالزواج.

(٢) المثلة: التعذيب والتغرير.

ـ المحامية: كثيراً ما تكونُ ٱلألفاظُ مترجَمةَ خطأً بنيَّاتِ ٱلمتكلمينَ بها أو ٱلمُصْغِينَ إليها؛ فكلمةُ ٱلحُبِّ مثلاً قد تنتهي إلى فِكْرٍ مِنَ ٱلأفكارِ حاملةً معنى ٱلفجور، وهي بعينِها تبلغُ إلى فِكْرٍ آخرَ حاملةً إلى سمّوهِ من سمّوها؛ وعلى نحوٍ من هذا يختلِفُ معنى كلمةِ ٱلحِجابِ عند ٱلشرقيِّينَ وٱلأوروبيِّين؛ فالأصلُ في مدنيَّةِ هؤلاءِ إباحةُ ٱلمعاني ٱلخفيفةِ مِنَ ٱلعِفَّة... وإكرامُ المرأةِ إكرامُ مغازلة... يقولون إنَّ رقمَ ٱلواحدِ غيرُ رقمِ ٱلعشرة، فيضعونَهُ في حياةِ ٱلمرأة، فما أسرعَ ما يجيءُ «الصّفر» فإذا هوَ ٱلعشرةُ بعينِها!

أمَّا الشرقيون فٱلأصلُ في مدنيَّتِهِمُ ٱلتزامُ ٱلعِفَّةِ وإقرارُ ٱلمرأةِ في حقيقتِها، لا جَرَمَ كانَ ٱلحِجابُ هنا وهناك بِٱلمعنيينِ ٱلمتناقضين: الاستبدادُ وٱلعدل، وٱلقسوةُ وٱلرحمة، و...

ـ النائب: وٱمرأةُ ٱلبيتِ وٱمرأةُ ٱلشارع...

ـ المحامية: وبصرُ ٱلقانونِ وعمى ٱلقانون...

ـ الرئيس: وحسنُ ٱلأدبِ وسوءُ ٱلأدب... الموضوع الموضوع.

ـ المحامية: لا وٱلذي شرّفكم بشرفِ ٱلحكم، يا حضراتِ ٱلمستشارين؛ ما يرى ٱلقلبُ ٱلمسكينُ في حبيبتِهِ إلَّا تعبيرَ الجمال، فهو يفهمُها فهمَ ٱلتعبيرِ ككلِّ موضوعاتِ ٱلفنّ، وما بينهُ وبينَها إلَّا أنَّ حقيقةَ ٱلجمالِ تعرَّفَتْ إليهِ فيها، أئِنْ أحسَّ ٱلشاعرُ سِرّاً من أسرارِ ٱلطبيعةِ في منظرٍ من مناظرِها، قُلْتُمْ أجرمَ وأثِم؟...

هذا قلبٌ ذو أفكار، وسبيلُهُ أنْ يُعانَ على ما يتحقَّقُ بهِ من هذا ٱلفنّ، قد تقولون: إنَّ في ٱلطبيعةِ جمالاً غيرَ جمالِ ٱلمرأةِ فلْيأخذْ مِنَ ٱلطبيعةِ وَلْيُعطِ منها؛ ولكن ما ٱلذي يُحيي ٱلطبيعةَ إلَّا أخذُها مِنَ ٱلقلب؟ وما هيَ طريقةُ أخذِها مِنَ ٱلقلبِ إلَّا بِٱلحُبّ؟ وقد تقولون: إنَّهُ يتألَّمُ ويتعذّب؛ ولكنْ سلُوهُ: أهو يتألَّمُ بأدراكِهِ ٱلألمَ في ٱلحُبّ، أو بإدراكِهِ قسوةَ ٱلحقيقةِ وأسرارَ ٱلتعقيدِ في ٱلخيرِ وَٱلشرّ...؟

إنَّ شعراءَ ٱلقلوبِ لا يكونون دائماً إلَّا في أحدِ ٱلطرفين: هم أكبرُ مِنَ ٱلهمّ، فرحٌ أكثرُ مِنَ ٱلفرح؛ فإذا عشِقوا تجاوزوا موضِعَ ٱلوسطِ ٱلذي لا يكونُ ٱلحُبُّ ٱلمعتدلُ إلَّا فيه؛ ومن هذا فليس لهم آلامٌ معتدِلةٌ ولا أفراحٌ معتدِلة.

هذا قلبٌ مختارٌ مِنَ ٱلقُدرةِ ٱلمُوحِيةِ إليه، فٱلتي يُحبُّها لا تكونُ إلَّا مُختارةً من هذه ٱلقُدرةِ ٱختيارَ مَلَكِ ٱلوحي، وهما بهذا قوتانِ في يدِ ٱلجمالِ لإيداعِ أثرٍ عظيمٍ ملءَ قدرتين كلتا هما عظيمة...

فإنْ قُلْتُمْ إنَّ حُبَّ هذا ٱلقلبِ جريمةٌ على نفسِه، قالَتِ ٱلحقيقةُ ٱلفنيَّة: بلِ ٱمتناعُ هذه ٱلجريمةِ جريمة.

إنَّ خمسين وخمسين تأتي منهما مائة، فهذا بديهيٌّ، ولكنْ ليس أبيْنَ ولا أظهرَ ولا أوضحَ من قولِنا: إنَّ هذا ٱلعاشقَ وهذا ٱلمعشوقةَ يأتي منهما فنّ.

قالَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين: وَٱنصرفَ ٱلقضاةُ إلى غُرفتِهم لِيتداوَلوا ٱلرأيَ فيما يحكمون به، وأوأماتْ ليَ ٱلمحاميَّةُ ٱلجميلةُ تدعونِي إليها، فنهضْتُ أقومُ فإذا أنا جالسٌ وقدِ ٱنتبهْتُ مِنَ ٱلنوم.

جائزة: لِمَنْ يُحسنُ كتابةَ ٱلحكمِ في هذه ٱلقضيَّةِ خمسُ نسخٍ من كتابِ (وحي ٱلقلم)، وتُرسلُ ٱلمقالاتُ (بٱسمِنا إلى طنطا)، وَٱلموعدُ (إلى آخرِ شهرِ يناير هذا) وٱلشرطُ رضى ٱلمحكمين، ومنهم صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ وصاحبتُه...

انتصارُ الحُبّ

كلُّ ما يُكتبُ عن حبيبينِ لا يُفهمُ منه بعضُ ما يُفهمُ من رؤيةِ وجهِ أحدِهما ينظرُ إلى وجهِ ٱلآخر.

وما تعرفُهُ ٱلعينُ مِنَ ٱلعينِ لا تعرفُهُ بألفاظ، ولكنْ بأسرار...

وَٱلغليلُ ٱلمتسعّرُ[1] في دم ٱلعاشقِ كجنونِ ٱلمجنون: يختصُّ برأسِهِ وحدَه.

وضمَّةُ ٱلمُحِبِّ لِحبيبِهِ إحساسٌ لا يُستعارُ من صدرٍ آخر، كما لا يُستعارُ ٱلمولودُ لِبطنٍ لم يحملْه.

وكلمةُ ٱلقُبلةِ ٱلتي معناها وضعُ ٱلفم، لن ينتقلَ إليها ما تذوقُهُ ٱلشفتان!

ويومُ ٱلحبِّ يومٌ ممدود، لا ينتهي في ٱلزمنِ إلَّا إذا بدأَ يومُ ٱلسلْوِ في ٱلزمن...

فهلْ يستطيعُ الخَلْقُ أنْ يصنعوا حَدًّا يفصِلُ بينَ وقتينِ لِينتهيَ أحدُهما...؟

وهبْهم صنعوا ٱلسُّلوانَ من مادةِ ٱلنصيحةِ وَٱلمنفعة، ومن ألفِ برهانٍ وبرهان، فكيف لهم بِٱلمستحيل، وكيف لهم بوضعِ ٱلسلوانِ في ٱلقلبِ ٱلعاشق؟

وإذا سالَتِ ٱلنفسُ من رِقَّةِ ٱلحُبّ، فَبأي مادةٍ تُصنعُ فيها صلابةُ ٱلحجر...؟

* * *

وما هوَ ٱلحُبُّ إلَّا إظهارُ ٱلجِسمِ ٱلجميلِ حاملاً لِلْجسمِ ٱلآخرِ كلَّ أسرارِه، يفهمُها وحدَهُ فيه وحدَه؟

وما هوَ ٱلحبُّ إلَّا تعلُّقُ ٱلنفسِ بِٱلنفسِ ٱلتي لا يملؤها غيرُها بِٱلإحساس؟

وما هوَ ٱلحُبُّ إلَّا إشراقُ ٱلنورِ ٱلذي فيهِ قوَّةُ ٱلحياة، كنورِ ٱلشمسِ مِنَ ٱلشمسِ وحدَها؟

وهلْ في ذهبِ ٱلدنيا ومِلْكِ ٱلدنيا ما يشتري ٱلأسرار، وَٱلإحساس، وذلك ٱلنورُ الحيّ؟...

---

(١) المتسعّر: الملتهب.

فما هوَ ٱلحُبُّ إلّا أنّه هوَ ٱلحُبّ؟

❊ ❊ ❊

ما هو هذا السرُّ في الجمالِ ٱلمعشوق، إلّا أنَّ عاشِقَهُ يُدركُهُ كأنَّهُ عقلٌ لِلْعقل؟

وما هو هذا الإدراكُ إلّا ٱنحصارُ ٱلشعورِ في جمالٍ متسلِّطٍ كأنَّهُ قلْبٌ لِلْقلب؟

وما هوَ ٱلجمالُ ٱلمتسلِّطُ بإنسانٍ على إنسان، إلّا ظهورُ ٱلمحبوبِ كأنَّهُ روحٌ للروح؟

ولكنْ ما هوَ ٱلسرُّ في حُبِّ ٱلمحبوبِ دون سِواه؟... هنا تقِفُ ٱلمسألةُ وينقطعُ ٱلجواب.

هنا سِرٌّ خفيٌّ كسرِّ ٱلوحدانيَّة، لِأنَّها وحدانيَّة (أنا وأنت).

❊ ❊ ❊

ناقشوا ٱلحُبّ؛ فقالوا: أصبحَتِ ٱلدنيا دنيا ٱلمادة، وَٱلروحانيَّةُ ٱليومَ كَٱلعِظامِ ٱلهرِمَةِ لا تكتسي ٱللحمَ ٱلعاشق...

وقالَ ٱلحُبّ: لا بلِ ٱلمادةُ لا قِيمةَ لها في ٱلروح؛ وهذا ٱلقلبُ لن يتحَوَّلَ إلى يدٍ ولا إلى رِجْل...

ناقشوا ٱلحُبّ؛ فقالوا: إنَّ ٱلعصرَ عصرُ ٱلآلات، وَٱلعملُ ٱلروحيُّ لا وجودَ لَهُ في ٱلآلةِ ولا مَعَ ٱلآلة...

قالَ ٱلحُبّ: لا، يصنعُ ٱلإنسانُ ما شاء، ويبقى ٱلقلْبُ دائماً كما صنعَهُ ٱلخالِق...

وقالوا: الضعيفان: ٱلحُبُّ وٱلدين، وَٱلقويان: ٱلمالُ وٱلجاه؛ فبماذا ردَّ ٱلحُ...؟

❊ ❊ ❊

جاءَ بِلُؤلؤةٍ روحانيَّةٍ في (مسز سمبسون)؛ ووضعَ لها في ميزانِ ٱلمالِ وَٱلجاهِ أعظمَ تاجٍ في ٱلعالـم إدواردَ ٱلثامن «ملكُ بريطانيا ٱلعظمي وإرلندا وٱلممتلكاتِ ٱلبريطانيَّة فيما وراءُ ٱلبحارِ وملك ـ إمبراطورِ الهند».

وتنافسَتِ ٱلروحانيَّةُ وٱلماديَّة، فرجعَ ٱلتاجُ وما فيهِ إلّا أضعفُ ٱلمعنيينِ مِنَ ٱلقلب.

وأعلنَ ٱلحُبُّ عن نفسِهِ بِأحدثِ ٱختراعٍ في ٱلإعلان، فهزَّ ٱلعالَـم كلَّهُ هَزَّةً صحافيَّة:

الحُبّ. الحُبّ. الحُبّ...

❊ ❊ ❊

(مسز سمبسون)، تلك ٱلجميلةُ بِنصفِ جمال، ٱلمطلَّقةُ مرتين. هذا هو ٱختيار ٱلحُبّ!

ولكنَّها ٱلمعشوقة؛ وكلُّ معشوقةٍ هيَ عذراءُ لِحبيبِها ولو تزوَّجَتْ مرتين؛ هذا هو سِرُّ ٱلحُبّ!

ولكنَّها ٱلفاتنةُ كلَّ ٱلفِتنة، وَٱلظريفةُ كلَّ ٱلظرف، وَٱلمرأةُ كلَّ ٱلمرأة، هذا هو فِعْلُ ٱلحُبّ!

ولكنَّها ٱلعقلُ لِلأَعصابِ ٱلمجنونة، وَٱلأنسُ لِلْقلبِ ٱلمستوحش، وَٱلنورُ في ظُلْمةِ ٱلكآبة؛ هذا هو حكمُ ٱلحُبّ!

ومن أجلِها يقولُ ملكُ إنجلترا لِلْعالم: «لا أستطيعُ أنْ أعيشَ بدونِ ٱلمرأةِ ٱلتي أُحبُّها»؛ فهذا هو إعلانُ ٱلحبّ. . .

* * *

إذا أخذوها عنهُ أخذوها من دمِه، فذلك معنًى مِنَ ٱلذبح.

وإذا ٱنتزعوها ٱنتزعوها من نفسِه، فذلك معنًى مِنَ ٱلقتل.

وهلْ في غيرِها هيَ روحُ ٱللهفةِ ٱلتي في قلبه، فيكونُ ٱلمذهبُ إلى غيرِها؟

لكأَنَّهم يسألونه أنْ يموتَ موتاً فيهِ حياة.

وكأنَّهم يُريدون منه أنْ يُجنَّ جنوناً بعقل. . . هذا هو جبروتُ ٱلحُبّ!

* * *

وِللسياسةِ حُجَج، وعندَ (مسز سمبسون) حُجَج، وعندَ ٱلهوى. . .

التاج، الملكيَّة، ٱمْرأةٌ مُطلَقَّة، ٱمرأةٌ مِنَ ٱلشعب؛ فهذا ما تقولُهُ ٱلسياسة.

ولكنَّها ٱمرأةُ قلبهِ، تزَوجَتْ مرتينِ لِيكونَ لَهُ فيها إمتاعُ ثلاثِ زوجات؛ وهذا ما يقولُهُ ٱلحُبّ!

وَٱللحظةُ ٱلناعسة، وٱلابتسامةُ ٱلنائمة، وٱلإشارةُ ٱلحالِمة، وكلمةُ (سيدي)؛ هذا ما يقولُهُ ٱلجمال.

وٱنتصرَ ٱلحُبُ على ٱلسياسة. وأبى ٱلمَلِكُ أنْ يكونَ كَٱلأمِّ ٱلأرملةِ في مِلْكِ أولادِها ٱلكِبار. . .

* * *

العرشُ يقبلُ رجلاً خَلَفاً من رجل، فيكونُ ٱلثاني كَٱلأول.

وٱلحُبُّ لا يقبلُ ٱمرأةً خَلَفاً مِنِ ٱمرأة، فلنْ تكونَ ٱلثانيةُ كَٱلأولى.

وطارَتْ في ٱلعالمِ هذه ٱلرسالة: «أنا إدوارد الثامن... أتخلَّى عنِ ٱلعرشِ وذريتي من بعدي»!

«وأعلنَ ٱلحُبُّ عن نفسِهِ بأحدثِ ٱختراعٍ في ٱلإعلان؛ فهزَّ ٱلعالـمَ كلَّهُ هزةً صحافيَّةً».

الحُبّ. الحُبّ. الحُبّ...

قبلةٌ بِٱلبارود
لا بِٱلماءِ ٱلمقطر . .

حياكُمُ ٱللَّهُ يا شبابَ ٱلجامعةِ ٱلمصريَّة؛ لقد كتَبتُمُ ٱلكلماتِ ٱلتي تصرخُ منها ٱلشياطين . . .

كلمات» لوِ ٱنتسبْنَ لٱنتسبَتْ كلُّ واحدةٍ منهُنَّ إلى آيةٍ مِمَّا نزلَ بِهِ ٱلوحيُ في كتابِ ٱللّٰه .

فطلبُ تعليم ٱلدينِ لِشبابِ ٱلجامعةِ ينتمي إلى هذه الآية : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾[1] .

وطلبُ ٱلفصلِ بينَ ٱلشبانِ وٱلفتياتِ يرجعُ إلى هذه الآية : ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ .

وطلبُ إيجادِ المثلِ الأخلاقيِّ لِهذه ٱلأُمَّةِ من شبابِها ٱلمتعلِّمِ هو معنى الآية : ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ .

قوَّةُ ٱلأخلاقِ يا شباب، قوَّةُ ٱلأخلاق، إنَّ ٱلخُطوةَ ٱلمتقدِّمةَ تبدأُ من هنا .

حياكُمُ ٱللَّهُ يا شبابَ ٱلجامعة؛ لقد كتَبتُمُ ٱلكلماتِ ٱلتي يُصَفِّقُ لها ٱلعالَمُ ٱلإسلاميُّ كلُّه .

كلماتٌ ليس فيها شيءٌ جديدٌ عَلى ٱلإسلام، ولكنْ كلُّ جديدٍ على ٱلمسلمين لا يُوجدُ إلَّا فيها .

كلماتُ ٱلقوَّةِ ٱلروحيَّةِ ٱلتي تُريدُ أنْ تقودَ ٱلتاريخَ مرَّةً أخرى بِقوى ٱلنصرِ لا بِعواملِ ٱلهزيمة .

كلماتُ ٱلشبابِ ٱلطاهرِ ٱلذي هو حركةُ ٱلرقيِّ في ٱلأمةِ كلِّها، فسيكونُ منها ٱلمحرِّكُ لِلأمةِ كلِّها .

---

(١) الرجس : الدنس .

كلماتٌ ليسَتْ قوانين، ولكنَّها ستكونُ هيَ ٱلسببَ في إصلاح ٱلقوانين...

قوَّةُ ٱلأخلاقِ يا شباب، قوَّةُ ٱلأخلاق: إنَّ ٱلخُطوةَ ٱلمتقدِّمةَ تبدأُ من هنا...

* * *

يُريدُ ٱلشبابُ معَ حقيقةِ ٱلعِلْمِ حقيقةَ ٱلدين، فإنَّ ٱلعِلْمَ لا يُعلِّمُ لا يُعلِّمُ ٱلصبرَ ولا ٱلصدقَ ولا ٱلذمَّة.

يُريدون قوَّةَ ٱلنفسِ مَعَ ٱلعقْل، فإنَّ ٱلقانونَ ٱلأدبيَّ في ٱلشعبِ لا يضعُهُ ٱلعقلُ وحدَهُ ولا يُنفِّذُهُ وحدَه.

يُريدون قوَّةَ ٱلعقيدة، حتى إذا لم ينفعْهم في بعضِ شدائدِ ٱلحياةِ ما تعلموه نفعهم ما ٱعتقدوه.

يُريدون ٱلسموَّ ٱلدينيَّ، لِأَنَّ فَكْرةَ إدراكِ ٱلشهواتِ بِمعناها هيَ فِكْرةُ إدراكِ ٱلواجباتِ بغير معناها.

يُريدون ٱلشبابَ ٱلساميَ ٱلطاهرَ مِنَ ٱلجنسين، كي تُولَدَ ٱلأُمَّةُ ٱلجديدةُ سامية طاهرة.

قوَّةُ ٱلأخلاقِ يا شباب، قوَّةُ ٱلأخلاق؛ إنَّ ٱلخُطوةَ ٱلمتقدِّمةَ تبدأُ من هنا...

* * *

أحسَّ ٱلشبابُ أنهم يفقدون من قوَّةِ ٱلمناعةِ ٱلروحيَّةِ بِقدرِ ما أهملوا مِنَ ٱلدين.

وما هيَ ٱلفضائلُ إلَّا قوَّةُ ٱلمناعةِ من أضدادِها؟ فَٱلصدقُ مناعةٌ مِنَ ٱلكذبِ وٱلشرفُ مناعةٌ منَ ٱلخِسَّة.

وَٱلشبابُ ٱلمثقلُ بِفروضِ ٱلقُوَّةِ هوَ ٱلقُوَّةُ نفسُها؛ وهلِ ٱلدينُ إلَّا فروضُ ٱلقوَّةِ على ٱلنفس؟

وشبابُ ٱلشهواتِ شبابٌ مُفْلِسٌ من رأسِ مالِهِ ٱلاجتماعيّ، يُنفقُ دائماً ولا يكسبُ أبداً!

وَٱلمدارسُ تُخرِّجُ شبانَّها إلى ٱلحياة، فتسألُهُمُ ٱلحياة: ماذا تعودَّتُم لا ماذا تعلَّمْتم!

قوَّةُ ٱلأخلاق يا شبابُ، قوَّةُ ٱلأخلاق؛ إنَّ ٱلخُطوةَ ٱلمتقدِّمةَ تبدأُ من هنا...

* * *

وأحَسَّ ٱلشبابُ معنى كثرةِ ٱلفتياتِ في ٱلجامعة، وأدركوا معنى هذه ٱلرِّقَّةِ ٱلتي خلقَتْها ٱلحِكْمةُ ٱلخالقة.

وَٱلمرأةُ أداةُ ٱستمالةٍ بِٱلطبيعة، تعملُ بِغيرِ إرادةٍ ما تعملُهُ بِٱلإرادة، لِأَنَّ رؤيَتَها أولُ عملِها.

نعم إِنَّ ٱلمغناطيسَ لا يتحرَّكُ حينَ يجذب، ولكنَّ ٱلحديدَ يتحركُ لَهُ حينَ ينجذب!

ومتى فهِمَ أحدُ ٱلجنسينِ ٱلجنسَ ٱلآخر، فهِمَهُ بإدراكينِ لا بإدراكٍ واحد!

وجمالُ ٱلمرأةِ إذا ٱنتهى إلى قلبِ ٱلرجل، وجمالُ ٱلرجلِ إذا ٱستقرَّ في قلبِ ٱلمرأة...

... هما حينئذٍ معنيان. ولكنَّهما على رغمِ أنفِ ٱلعِلْمِ معنيانِ متزوجان...

* * *

لا، لا؛ يا رجالَ ٱلجامعة، إِنْ كانَ هناكَ شيءٌ ٱسمُهُ حريَّةُ ٱلفِكْرِ فليسَ هناك شيءٌ اِسمُهُ حريَّةُ ٱلأخلاق.

وتقولون: أوربا وتقليدُ أوربا!! ونحن نُريدُ ٱلشبابَ ٱلذين يعملون لاستقلالِنا لا لخضوعِنا لِأوربا.

وتقولون: إِنَّ ٱلجامعاتِ ليست محلَّ ٱلدين، ومنِ ٱلذي يجهلُ أنَّها بهذا صارتْ محلاً لِفوضى ٱلأخلاق.

وتزعمون أنَّ ٱلشبابَ تعلموا ما يكفي مِنَ ٱلدينِ في ٱلمدارسِ ٱلابتدائيَّةِ وَٱلثانويَّةِ فلا حاجةَ إليهِ في ٱلجامعة..

أَفَترَوْنَ ٱلإسلامَ دَروساً ٱبتدائيَّةً وثانويَّةً فقط؛ أمْ تُريدونَهُ شجرةً تُغرسُ هناك لِتُقلعَ عندَكم...

لا، لا؛ يا رجالَ ٱلجامعة، إِنَّ قنبلةَ ٱلشبابِ ٱلمجاهدِ تُملأُ بِٱلبارودِ لا بِٱلماءِ ٱلمقطَّرِ...

* * *

إِنَّ ٱلشبابَ مخلوقون لِغيرِ زمنِكم، فلا تُفسدوا عليهمُ ٱلحاسَّةَ ٱلاجتماعيَّةَ ٱلتي يُحسُّونَ بها زمنَهم.

لا تجعلوهم عبيدَ آرائِكم وهم شبابُ ٱلاستقلال؛ إِنَّهم تلاميذُكم، ولكنَّهُم أَيضاً أساتذةُ ٱلأُمَّة.

لقد تكلَّمَ بِلِسانِكم هذا ٱلبناءُ ٱلصغيرُ الذي يُسمَّى ٱلجامعة، وتكلَّمَ بِألسنَتِهِم هذا ٱلبِناءُ الكبيرُ ٱلذي يُسمَّى ٱلوطن.

أمَّا بِناؤكُم فمحدودٌ بِٱلآراءِ وٱلأحلامِ وٱلأفكار، وأمَّا ٱلوطنُ فمحدودٌ بِٱلمطامعِ وٱلحوادثِ وَٱلحقائق.

لا، لا؛ إِنَّ ٱلمسلمينَ ٱلذين هَدَوْا ٱلعالم، قد هَدَوْهُ بِٱلروحِ ٱلدينيَّةِ ٱلتي كانوا يعملون بها لا بأحلامِ ٱلفلاسفة.

لا، لا: إِنَّ ٱلفضيلةَ فِطْرةٌ لا عِلْم، وطبيعةٌ لا قانون، وعقيدةٌ لا فكرة؛ وأساسُها أخلاقُ ٱلدينِ لا آراءُ ٱلكتب...

* * *

مَنْ هذا ٱلمتكلِّمُ يقولُ لِلأُمَّة: «الجامعيون لن يقبلوا أنْ يدخلَ أحدٌ في شؤونِهم مهما يكنْ أمرُه»؟

أهذا صوتُ جرسِ ٱلمدرسةِ لِأطفالِ ٱلمدرسةِ تِرن تِرن... فيجتمعون وينصاعون؟

كلا يا رجل! ليسَ في ٱلجامعةِ قالبٌ يُصبُّ فيهِ ٱلمسلمونَ على قياسِكَ ٱلذِي تُريد.

إِنَّ ٱلتعليمَ في ٱلجامعةِ بغيرِ دينٍ يعصمُ ٱلشخصيَّة، هو تعليمُ ٱلرذيلةِ تعليمُها ٱلعالي...

﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

قوَّةُ ٱلأخلاقِ يا شباب، قوَّةُ ٱلأخلاق...؛ إِنَّ ٱلخُطوةَ ٱلمتقدِّمةَ تبدأُ من هنا.

شيطان وشيطانة...

شَغَلني ما شَغَلَ ٱلناسَ من حديثِ ٱلجامعةِ ٱلمِصريَّةِ وما أرادَهُ طلبتُها من وَرَعٍ يَحْجزُهم[1] عن محارم ٱلله، ودِينٍ يخْلُصُ بهِ ٱلإيمانُ إلى قلوبِهم، فلا يكونُ لفظُ ٱلمسلِم على ٱلمسلِم كأنَّهُ مكتوبٌ على ورقة؛ ثُمَّ ٱبتَغَوْهُ مِنَ ٱلفصلِ بينَ ٱلشبانِ وَٱلفتيات، تطهيراً لِلطَباع ونوازع ٱلنفس، وَٱتقاءَ لِسوءِ ٱلمخالطة، وبُعداً عن مَطِيَّةِ ٱلإثم، وتوفيراً لِأسبابِ ٱلرجولةِ على ٱلرجلِ ولِصفاتِ ٱلأنوثةِ على ٱلأنثى.

وقرأتُ كلَّ ما نشَرتْهُ ٱلصحف، وٱستقصيْتُ[2] وبالغْت، ونظرْتُ في ٱلألفاظِ ومعانيها ومعاني معانيها؛ وكنْتُ قبلَ ذلك أتتبَّعُ بابَ «فلان وفلانة» في ٱلمجلاتِ ٱلأسبوعيَّةِ ٱلتي تكتبُ عن حوادثِ ٱلاختلاطِ في ٱلجامعةِ وتُسمِّي ٱلأسماءَ وتَصِفُ ٱلأوصافَ وتذكرُ ٱلنوادر؛ فملأ كلُّ ذلك صدري وٱجتمعَ ٱلكلامُ يُترجِمُ نفسَهُ إليَّ في رؤيا رأيْتُها وهأنذا أقصُّها:

رأيْتَني عندَ بابِ ٱلجامعةِ وكأني ذاهبٌ لِأقطعَ بِٱليقينِ على ٱلظَّن، وقد عَلِمْتُ أنَّ ٱلظِنَّةَ تقومُ في حِكْمةِ ٱلتشريع مقامَ ٱلحقيقة، لِخفائِها وكَثرةِ وجودِها؛ فإنْ كانَ في ٱختلاطِ ٱلجنسينِ ما يُخْشَى أنْ يقَعَ فهو كَٱلواقع...

... ثُمَّ رأيْتُ شيطانَةً قد خرجَتْ مِنَ ٱلجامعةِ ومضَتْ تَتْبَعُ أنفَها تَتَشَمَّمُ ٱلهواءَ وتستَرْوِحُهُ كأنَّ فيهِ شيئاً، حتى مالَتْ إلى خَمَرٍ هناك[3] من ذلك ٱلشجرِ ٱلملتفِّ عن يمينِ ٱلطريق، فوقفَتْ عندَهُ تتنفَّسُ وتتنهَّد؛ ثُمَّ تَبصَّرَتْ فإذا شيطانٌ مُقبلٌ إلى ٱلجامعةِ إقبالَ ٱلمُغيرِ في غارتهِ، فأومأَتْ له، فعدَلَ إليها وحيَّاها بتحيَّةِ ٱلشياطين، ثُمَّ قالَ لها: ما وقوفُكِ هنا أيَّتُها ٱلخبيثة؟ وكيف تركْتِ صاحبتَكِ ٱلتي أنتِ موكَّلةٌ بها؟ وما عسى أنْ يعملَ ٱلشيطانُ بينَ ٱلجنسينِ إذا لم تُؤازِرْهُ ٱلشيطانة؟

---

(١) يحجزهم: يصدّهم، يمنعهم.

(٢) استقصيت: فتّشت.

(٣) الخَمَر بالفتح الميم، هو ما وراك من شجر وسواه.

قالَت: إنَّما ٱجتذَبتْني إلى هنا رائحةُ عاشقَينِ كانا في هذا ٱلظلِّ يُواريهما[1] عنِ ٱلأعين، وما أراكَ إلَّا مزكوماً، أفكنْتَ في ٱلأزهر...؟

فجعلَ ٱلشيطانُ يتضاحَكُ وقال: أنا مرسَلٌ من مستشفى ٱلمجانينِ مدداً لِشياطينِ ٱلجامعة؛ فقدِ ٱحتاجوا إلى ٱلنجدة... ولكنْ أنتِ كيف تركْتِ صاحبتَكِ من أجلِ رائحةِ قُبلةٍ على خمسمائةِ متر؟ ما أحسبُها الآنَ إلَّا جالسةً تكتبُ في منعِ ٱختلاطِ ٱلجنسينِ ووجوبِ إدخال ٱلتعليم ٱلدينيِّ في ٱلجامعة!

قالَتِ ٱلشيطانة: إنّ صاحبتي لأَبرَعُ منيِّ في ٱلبراعةِ، وأدقُّ في ٱلحِيلة. وأهدَى لِلمعاذير، وأنفَذُ إلى ٱلغرض، ومثلُها قليلٌ هنا، ولكنْ قليلُ ٱلشرِّ ليسَ قليلاً، فإنَّهُ وُصْلَةٌ وطريقٌ كما تعلم؛ وما تَجِدُ ٱلفتاةُ خيراً من هذا ٱلمكانِ ينفي عنها ٱلرِّيبةَ وهو يُدنيها منها بِهذا ٱلاختلاطِ مَعَ ٱلفتيان، ويُهيءُ لِعقلِها أسباباً تكونُ فيها أسبابُ قلبِها؛ وقد كنْتَ أنتَ في أوربا، أفما رأيتَ هناك شابًا وشابةً حول كتابِ عِلْمٍ وكأنَّهما على زجاجةِ خمر؟

إنَّ هذا ٱلعِلْمَ شيءٌ ومخالطةَ ٱلشبانِ شيءٌ آخر؛ فذلك يُطلِقُ فكرَها يتجاوزُ ٱلحدود، وَٱلاختلاطُ يجعلُ فِكْرَها، يحصُرها في حدودِ إحساسِها؛ وأحدُهُما يُرهِفُ ذِهْنَها لإدراكِ ٱلأشياء، وَٱلآخرُ يُرْهِفُ عواطفَها لإدراكِ ٱلرجل؛ وقد فرغ ٱللَّهُ من خلقةِ ٱلأنثى فما تُخْلَقُ هنا مرَّةً أخرى على غيرِ ٱلطبيعةِ ٱلمفطورةِ على ٱلحُبِّ في صورةٍ من صورِهِ ٱلمُمْكِنة، وَٱلصورةُ هيَ ٱلشابُ هنا؛ وأنا ٱلشيطانةُ قد تعلَّمْتُ في ٱلجامعةِ أنَّ قاعدة: «لا حياءَ في ٱلعِلْم»، هيَ ٱلتي تُقرِّرُ في بعضِ ٱلأحيانِ قاعدة: «لا حياءَ في ٱلحبِّ!»

قالَ ٱلشيطان: أنتِ أدرَى بِسلطانِ ٱلطبيعةِ في ٱلمرأة، ولكنَّ ٱلذي أعرفُهُ أنا أنَّ مَفاسِدَ أوربا تدخلُ إلى ٱلشرقِ في أشياءَ كثيرة، منها ٱلخمرُ وَٱلنساءُ وٱلعاداتُ وٱلقوانينُ وٱلكتبُ ونظامُ ٱلمدارِس!

قالَتِ ٱلشيطانة: وإنَّ سلطانَ ٱلطبيعةِ في ٱلمرأةِ يبحثُ دائماً عن رعيتِهِ ما لم يُكَبَحْ[2] ويُردَّ عن ٱلبحث؛ إذْ هو لا يتحققَ أنَّهُ سلطانٌ إلَّا بِنفاذِ حُكْمِهِ وجوازِ أمره؛ ومن رعيتِهِ نظَراتُ الإعجابِ، وكلماتُ ٱلثْناء، وعِبارَاتُ الإغراء، وعواطفُ ٱلميل، ومعاني ٱلخضوع؛ ورُبَّ كلمةٍ مِنَ ٱلرجلِ لِلْمرأةِ لا يكون فيها شيءٌ ويكونُ ٱلرجلُ

---

(١) يواريهما: يسترهما.

(٢) يكبح: يشدّ ويمنع.

كلُّهُ فيها ذاهباً إلى قلبِها متدسِّساً إلى خيالِها؛ وكم من أمٍّ ترى ٱبنتَها راجعةً إلى ٱلدارِ وتُحسُّ بِٱلغريزةِ ٱلنسويَّةِ أنَّ معَ ٱبنتِها خيالاً مِنَ ٱلجنسِ ٱلآخر!.

وممَّ ينبعثُ ٱلحُبُّ إلَّا مِنَ ٱلألفةِ وَٱلمخالطةِ وَٱلمُجاذبةِ وَٱلمُنازعةِ التي يُسمُّونها هنا مُنافسةً بينَ ٱلجنسينِ ويعدُّونها حسنةً من حسناتِ ٱلاختلاط؟ نعم إنَّها مَشْحَذَةٌ لِلأذهانِ وداعيةٌ إلى بلوغِ ٱلغايةِ مِنَ ٱلاجتهاد، وبها يَرِقُّ ٱللسانُ وتنحلُّ عُقدَتُه، ويُصبحُ ٱلشابُّ كما يقولون: «ٱبنَ نكتةٍ ويفهمُ ٱلطايره...» وتعودُ ٱلفتاةُ وهيَ تجتهدُ أنْ تكونَ حلاوةً تَذُوقُها ٱلروح؛ ولكنَّ ٱلأعمالَ بِٱلنيَّاتِ وٱلأمُورَ بِخواتيمِها: وَٱلطبيعةُ نفسُها تُوازِنُ ٱلعقلَ ٱلعِلْمِيَّ بِٱلجهْلِ ٱلخُلُقيّ، ولعلَّ أكثرَ ٱلناسِ فنوناً في فِسقِهِ وفُجورِهِ لا يكونُ إلَّا عالِماً من أهلِ ٱلفنِّ أو زِنديقاً من أهل ٱلعِلْم، ولا يُصحّحُ هذه ٱلمُوازنةَ إلَّا الدين، فهوَ ٱلذي يُقرِّرُ ٱلقواعدَ ٱلثابتةَ في كلتا ٱلناحيتين، وهذا ما يطلبُهُ ٱلمجانينُ من شُبانِ هذه ٱلجامعةِ ويُوشكُ أنْ يظفروا بِه، لولا أنَّ هذه ٱلأُمَّةَ مبتلاةٌ في كلِّ حادثةٍ من دِينِها بإجالةِ ٱلرأي حتى يضيعَ الرأي.

اِسمعْ ـ ويحكَ ـ هذا ٱلفتى ٱلذي يقرأ... فألقى ٱلشيطانُ سمعَهُ فإذا طالبٌ يقرأُ على جماعةٍ كلاماً في صحيفةٍ لِإحدى خريجاتِ ٱلجامعةِ تقول فيه: «ولهذا أُصرِّحُ أنَّ تجربةَ ٱشتراكِ ٱلجنسينِ في ٱلجامعة نجحَتْ إلى أبعدِ غاية: ولم يحدثْ خِلالَها قطُّ ما يدعو إلى قَلَقِ ٱلقَلِقِينَ وَٱلمُناداةِ بِٱلفصل؛ بلْ بِٱلعكسِ حدثَ ما يدعو إلى تشجيعِ ٱلأخذِ بِٱلتجربةِ أكثرَ مِمَّا هي عليهِ ٱليوم».

فقهقَهَ ٱلشيطانُ وقال: «قلَقُ ٱلقلقِين»... ما رأيْتُ كلاماً أغلظَ ولا أجفَى من هذا؛ إنَّها لو دافعَتْ عنِ ٱلشيطانِ بهذه ٱلقافاتِ لَخَسِرَ ٱلقضيَّة...

ثُمَّ إنَّه لَهزَ[1] ٱلشيطانةَ لَهْزةً وقالَ لَها: كذبْتِ عليَّ أيَّتُها ٱلخبيثة، فما لَكِ عملٌ في ٱلجامعةِ وأنت تخرجينَ لِرائحةِ قُبلةٍ بينَ عاشقينِ على مسافةِ خمسمائةِ متر؛ إنَّ هذه ٱلقافاتِ لَهِيَ ٱلدليلُ أقوَى ٱلدليلِ على أنَّ ٱلفتاةَ هنا تُنظَرُ فتاةً حين تُرَى، ولكنَّها تُسمَعُ رجلاً حينَ تتكلَّم!

قالتِ ٱلشيطانة: ولكنْ ألم تسمعْ قولَها: «تشجيعُ ٱلتجربةِ أكثرَ مِمَّا هيَ عليهِ ٱليوم»...؟ ألا يُرضيكَ هذا ٱلذي لا بُدَّ أنْ يدعُوَ «إلى قلَقِ القلِقين؟» ثُمَّ إنِّي أنا

---

(١) لهز: وكز.

فلانةُ ٱلشيطانةُ قد كنْتُ ٱلسببَ في حادثةٍ وقعَتْ وطُرِدَ فيها طالبٌ مِنَ ٱلجامعة، أفلا يُرضيك ٱلإغراءُ وَٱلكذبُ في بضعِ كلمات؟

قالَ ٱلشيطان: كلَّ ٱلرضى، فهذا فنٌّ آخر؛ وَٱلعِلْمُ ٱلذي يُنكرُ حادثةً وقعَتْ من تلميذةٍ ولا يُقِرُّ بأنَّها وقعَت، لا يكونُ إنكارُهُ إلَّا إجازةً لِوقوعِ مثلِها!

قالَتِ ٱلشيطانة: وَهَبِ[1] ٱلحادثةَ لم تقع، فكيف تعرفُ ٱلجامعةُ ما يحدثُ في ٱلقلوب؟ ومَنْ هذا ٱلذي يستطيعُ أنْ يقرأ قصةً تُؤلِّفُها أربعُ أعينٍ في وجهين؟ وكيف تُكشَفُ ٱلحقيقةُ ٱلتي أولُ وجودِها كِتمانُ ٱلكلام عنها، وأولُ ٱلكلام عنها ٱلهمسُ بينَ ٱثنينِ دونَ غيرِهما؟ ومَنْ ذا ٱلذي في طاقتِهِ أنْ يمدَّ يدَهُ إلى قلبينِ أصبحا في تلقِّي ٱلرسائلِ كصندوقَيِ ٱلبريد... ؟

إِسمعْ إِسمعْ هذا ٱلآخر... فٱسترقَ ٱلشيطانُ ٱلسمعَ فإذا طالبٌ يقرأُ في صحيفةٍ أخرى على جماعتِه:

«والذين يزعمون أنَّ ٱلاتصالَ بينَ ٱلطالباتِ وَٱلطلبةِ خطر، إنَّما يُسيئون إلى أخلاقِكم... وَٱلحقُّ أيُّها الأصدقاءُ أنَّ ٱلذي حملَني على أنْ أغضبَ وأثورَ إنَّما هُوَ ٱلدفاعُ عنِ ٱلكرامةِ ٱلجامعيَّة».

قالَ ٱلشيطان: كلَّ ٱلرضا كلَّ ٱلرضا... هذا كلامُ داهيةٍ أَريب[2]، فلقد أحسنَ قاتلَهُ ٱللهُ! إِنَّها عِباراتٌ جامعيَّةٌ مُحْكَمةُ ٱلسبكِ تقومُ على أصولِها من فنِّ ٱلسياسةِ ٱلخطابيَّة؛ وكلُّ من ظَنُّوهُ بِتُهمةٍ فلا يستطيعُ أنْ يُمَخْرِقَ[3] على ٱلناسِ بأحسنَ من هذا ولا بمثلِ هذا.

وليس لنا أقوى من هذا ٱلطبعِ ٱلقويِّ ٱلذي يُشعِرُ بِٱلنقصِ فلا همَّ لَهُ إلَّا إثباتُ ذاتِهِ في كلِّ ما يُجادِلُ فيه دون إثباتِ ٱلصوابِ ولو كانَ ٱلناسِ جميعاً في هذا ٱلجانبِ وكانَ هو وحدَهُ في جانبِ ٱلخطأ.

ولكن أفّ! ماذا صنعَ هذا ٱلقائل؟ وأين ٱلتهمةُ ٱلتي لا تُبدِّلُ ٱسمَها في ٱللغة؟ وأين ٱلذنبُ ٱلذي يَرْضى أنْ تُوضعَ ٱليدُ عليهِ؟ وهلْ إنكارُ ٱلمُذنبِ إلَّا ٱحتجاجٌ من كرامتِهِ ٱلزائفةِ وإظهارُ ٱلغضبِ في بعضِ ألفاظ؟...

إنَّ هذا كغيرِهِ مِنَ ٱلضعفاءِ حين يُمارون[4]؛ ألا ما أكذبَ ٱلكذبَ هنا! فإنَّ

---

(١) هب: افترض.
(٢) أريب: ذكي.
(٣) يمخرق: يشعوذ ويأتي بالأكاذيب.
(٤) يمارون: يتظاهرون بشيء ويضمرون خلافه.

ٱلفسادَ ليَقعُ مِن ٱختلاطِ ٱلجنسينِ في ٱلجامعاتِ ٱلأوربيَّةِ ثُمَّ لا يُعدُّ ذلك عندَهم إساءةً إلى ٱلأخلاقِ، ولا غَضاً مِنَ ٱلكرامةِ ٱلجامعيَّة؛ وفي فرنسا يجتمعُ ٱلشبانُ وَٱلفتياتُ من طلبةِ ٱلجامعةِ ويحتسونَ ٱلخمرَ ويتراقصون ويتواعدون ثُمَّ لا تقولُ لهُمُ ٱلأخلاق: أين أنتم؟. . . وهناك في ٱلأنديةِ ٱلخاصَّةِ بِٱلطلبةِ ينتخبونَ ملكةَ ٱلجمالِ من بين ٱلطالباتِ كلَّ سنة، ثُمَّ ينزعون بأيديهم ثيابَها ٱلتي تُسمَّى ثياباً، ويطوفونَ بها غرفَ ٱلنادي كعروسٍ واحدةٍ مجلوَّةٍ على مائةِ زوجٍ في ٱلمعنى، «وبُلْنُسوار» أيتُّها ٱلكرامةُ ٱلجامعيَّة. . .

وَٱلاختلاطُ هناك يقربُ أنْ يكونَ ضَرْباً مِنَ ٱلمذاهبِ ٱلاشتراكيَّة، وكلُّ ما بقيَ عندَهم من لُغةِ ٱلحياءِ هو أنْ يتلَّطفوا[1] فيقولوا: إن هذه ٱلطالبةَ صديقةُ فلانٍ ٱلطالب؛ يعبِّرون بِلفظِ ٱلصداقةِ عن أولِ ٱلمعنى ويَدَعون سائرَ أحوالِه؛ إذْ لا يُبالي أمرَهما أحدٌ لا مِنَ ٱلطلبةِ ولا مَنَ ٱلأُستاذين. . . وهناك يُعْتَذَرُ لِلشابِّ في مثلِ هذا بأنَّهُ شابٌّ، فتقومُ كلمةُ ٱلشبابِ في ٱلعُرْفِ بمعنى كلمةِ ٱلضرورةِ في ٱلشرْع!

وهم قد عرفوا أنَّ ٱلجامعةَ لِحريَّةِ ٱلفِكْر، ومن حريَّةِ ٱلفِكْرِ حريَّةُ ٱلنزعة، ومن هذه حريَّةُ ٱلميلِ ٱلشخصيّ، ومن حريَّةِ ٱلميلِ حريَّةُ ٱلحُبّ؛ وهلْ يعرفُ ٱلحبُّ في ٱلجامعةِ أنَّهُ في ٱلجامعةِ فيستحي ويكونُ شيئاً آخرَ غيرَ ما هو في كلِّ مكان؟ أَوَ ليسَ في لغةِ ٱلزواجِ عندَهم عِبارة «نسيانُ ماضي ٱلفتاة». . .

ولكنِ ٱسمعي ٱسمعي. . .

فأصاخَتِ ٱلشيطانة؛ فإذا طالبٌ مِنَ ٱلأزهرِ يقرأُ لِطالبٍ من كليَّةِ ٱلحقوقِ في صحيفةٍ من دفاعِ أحدِ خريجي ٱلجامعة!

«وما بالُ إخوانِنا ٱلأزهريِيَن يسخطون على ٱلجامعةِ وَٱختلاطِ ٱلجنسينِ فيها، وفي مِصرَ نَواحٍ أخرى هيَ أَحقُّ بِحربِهم وأولى بِٱهتمامِهم؟ لعلَّهم قد نسوا حالَنا في ٱلصيفِ على شواطىءِ ٱلبحر، وَٱلناسُ يمكثونَ[2] هناك شهوراً عراياً أو كَٱلعرايا».

فقالَتِ ٱلشيطانة: مالَهُ ولهذا؟ لقد أخزَى نفسَهُ وأخزَى ٱلجامعة، وهلْ صنعَ شيئاً إلَّا نَّهُ يقولُ لِلأزهريّين: إنَّ أهونَ ٱلفسادِ من هذا ٱلاختلاطِ في ٱلجامعة، وأكثرَهُ في شواطِىءِ ٱلبحر؛ فما بالكُم تَدعون أَشدَّهُ وتأخذون على أهونِه؟

(١) يتلطفوا: يتصنّعوا اللطف والدماثة.

(٢) يمكثون: يبقون.

قالَ ٱلشيطان: ويحَه! وهلْ يأخذون على أهونِهِ في ٱلجامعةِ إِلَّا لِأَنَّهُ في ٱلجامعةِ لا في مكانٍ آخر؟ ولكنِ ٱسمعي، ما هذا. . .؟

فأرْعَيَا ٱلصوتَ[1] سمعَهما، فإذا طالبٌ يقرأُ في مجلة: «ظهرَتِ ٱلآنسةُ فلانةُ وهيَ تلبسُ فستاناً أحمرَ شفتشي بمبي[2] كربي مشجَّر ببنَّى وفيونكة أحمرَ على أبيض». . .

قالَتِ ٱلشيطانة: هذا هذا، فهل هيَ إِلَّا ألوانُ أفكارٍ تحتَ ألوانِ ثياب؟ وهلْ يظهَرُ سُلطانُ ٱلطبيعةِ في ٱلمرأةِ باحثاً عن رَعيتِهِ إِلَّا في ألوانٍ جميلةٍ هي، أسئلةٌ لِلْعيون؟ لقد مثَّلَ سَرْبٌ[3] مِنَ ٱلطالباتِ في هذه ٱلجامعةِ فصلاً في بعض ٱلحفلاتِ سمَّوهُ «عرضُ الأزياء» وَٱلفتاةُ تعرضُ ٱلثوب، وَٱلثوبُ يعرضُ ٱلجِسْم، وٱلجِسْمُ وٱلثوبُ معاً يعرضانِ ٱلفتاة! وعرْضُ الأزياءِ في ٱلجامعةِ هو أمرٌ مِنَ ٱلجامعةِ بإهمالِ هذه الآية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾!

قال ٱلشيطان: خَبِّريني عن صاحبتِك ٱلتي أنتِ موكلةٌ بها، أترينَها كانَتْ تأتي إلى هذه ٱلجامعةِ لو ألبسوهُنَّ مثلَ ثوبِ ٱلراهبةِ وخمَّروهُنَّ[4] بِٱلخِمارِ وأضاعوا مساحةَ ٱلجِسْمِ في مِسَاحةِ ٱلثوبِ وأجلسوهُنَّ في آخرِ ٱلصفوفِ كأنهُنَّ في ٱلمسجد؟ لقد فعلوا مثلَ هذا في بعضِ جامعاتِ أوربا، فحرَّموا صَبْغَ ٱلشفاهِ على ٱلفتيات، ومنعوهُنَّ إبداءَ ٱلزينة؛ فٱمتنعَتِ ٱلزينةُ وٱلمتزيِّنة معاً، وهجَرنَ ٱلجامعة، وقلْنَ فيما قلْنَ: إنَّ ٱلمرأةَ وَٱلأحمرَ وَٱلأبيضَ ونحوَها هيَ ٱلحقائقُ في عِلْمِ ٱلمرأة، وهيَ مِنْ أساليبِ بحثِ كلِّ فتاةٍ عن رَجُلِها ٱلمخبوءِ بينَ ٱلرجالِ في ٱلجامعةِ أو غيرِ ٱلجامعة، وٱلعِلْمُ وسيلةُ عيش، وَٱلرجلُ وسيلةٌ مثلُها، غيرَ أنَّهُ هو أجْدَى[5] ٱلوسيلتينِ على ٱلمرأةِ وأحقُّهما بِٱلعناية، إذ هيَ لا تتزوَّجُ ٱلكيمياءَ ولا ٱلطبيعةَ ولا ٱلقانون، ومعنى هذا بِغَيرِ ٱللغة ٱلتي هنا في ٱلجامعةِ ٱلمصريَّة أنَّ وجودَ ٱلفتاةِ معَ ٱلشبانِ لِلتعليم، هو كذلك وجودُها بينَهم لِلاستمالةِ وَٱلمُكرِ ٱلنسويِّ ٱلجذاب.

اِسمعي اِسمعي؛ ما هذا ٱلصوتُ ٱلمنكرُ ٱلجافي ٱلخشن؟

فتسمعَت، فإذا ٱلطالبُ ٱلأزهريُّ يقولُ لصاحبِهِ وهو يُحاورُه: قالوا: ويُحرمُ على ٱلمرأةِ أنْ ترى شيئاً مِنَ ٱلرجلِ ولو بلا مَيْلٍ ولا خوْفِ ٱلفِتنة، وإذا هيَ

---

(١) أرعيا الصوت: أنصتا جيداً.
(٢) بمبي: عامية مصرية بمعنى الأبيض.
(٣) سرب: جماعة.
(٤) خمّروهنّ: ألبسوهن الخمار، وهو غطاء الوجه للمرأة.
(٥) أجدى: أنفع.

ٱضطرَّتْ إلى مداواةٍ أو أداءِ شهادةٍ أو تعليمٍ أو بيعٍ أو نحو ذلك ـ جازَ نظرُها بقدرِ ٱلضرورة.

فقالَتِ ٱلشيطانة: هذا كلامٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ... لقد كانَ ذلك سائغاً لو أنَّ ٱلشبانَ يتعلَّمون في ٱلجامعةِ لِيحملوا معهُمُ ٱلحقَّ كما يحملون معهُمُ العِلْم؛ وكيف لهم بهذا ومعاني ٱلدينِ قد أصبحَتْ منهم كَأَسماءِ ٱلبلادِ ٱلبعيدةِ في كتابِ ٱلجغرافيا: لا هم رأوْها ولا هم حقَّقوها؟ إنهم يُريدون تعليمَ ٱلدينِ هنا. فيقولُ لهم رؤساؤُهم: ألم تعرفوا ٱلصلاةَ وأنَّها ٱلصلاة، وَٱلصيامَ وأنَّهُ ٱلصيام، وَٱلزكاةَ وأنَّها ٱلزكاة، وَٱلحجَّ وأنَّهُ ٱلحجّ؟ وهذا كلامٌ يُشبهُ درسَ مواقعِ ٱلبلادِ على ٱلخريطةِ، فباريسُ كلمة، ولندنُ كلمة، لا غيرَ؛ أمَّا ٱلحقيقةُ ٱلعظيمةُ ٱلهائلةُ فشيءٌ غيرُ هذا ٱلكلامِ ٱلجغرافيِّ ٱلتعليميّ؛ إذ ما هيَ كلُّ فروضِ ٱلدينِ إلَّا أعمالٌ دقيقةٌ ثابتةٌ يجبُ فرضُها على ٱلجميعِ لِتحقيقِ ٱلنفسيَّةِ ٱلواحدةِ في ٱلجميع، وهيَ سرُّ ٱلقوَّةِ وَٱلعظمةِ وَٱلنجاح؛ فتعليمُ ٱلدينِ في ٱلجامعةِ هو إقناعُ ٱلنفسِ بجعلِ فروضِهِ من قوانينِها ٱلثابتة، لا بأداءِ هذه ٱلفروضِ فقط؛ وذلك لا يستقيمُ إلَّا بدرْسِهِ كما تُدرسُ فلسفةُ ٱلقوانينِ وٱلاقتصادِ وَٱلتربية، أي بِٱعتبارِهِ عِلْمَ فلسفةِ ٱلروحِ ٱلعمليَّةِ لِلأُمَّة، ثُمَّ يجعلُ ٱلمدرسينَ أولَ ٱلعاملينَ به، لِيتحقَّقَ معنى ٱلإقناع، فلا ينقلبُ ٱلدرسُ هُزْءاً وسخرية؛ وبذلك يخرجُ ٱلشابُ مِنَ ٱلجامعةِ وفي روحِهِ قوةٌ ثابتةٌ تعملُ بِهِ ٱلعملَ ٱلصالح، وتُوجِّهُهُ إلى الخير، وتحفظُهُ بين أهواءِ ٱلحياةِ وشدائدِها، وتجعلُهُ دائماً يشعرُ أنَّهُ في موضعِهِ ٱلسامي مِنَ ٱلإنسانيَّةِ وإنْ كانَ في أقلِّ مراتبِ ٱلمالِ وَٱلجاه، ومِنْ ثَمَّ يرجعُ ٱلشبَّانُ في الأُمَّةِ آلاتِ قوَّةٍ منظمةٍ عامِلة، وأيسرُ ما تعملُهُ هذه الآلات، إزالةُ ٱلمنكرات، وصنعُ ٱلشعبِ صنعةً جديدةً لِلْسلمِ وَٱلحرب، و، و، و، و...

قالَ ٱلشيطان: وماذا أيَّتُها ٱلخبيثة؟ لقد هولَّتِ عليَّ!

قالَتْ: وطَرْدُنا نحن ٱلشياطينَ مِنَ ٱلجامعة!

قال: ٱسكتي ويحَك! فما أُرسلْتُ من مستشفى ٱلمجانينِ إلَّا لِهذا؛ فلنْ يقعَ ٱلفصلُ بينَ ٱلجنسين، ولنْ يدخلَ ٱلتعليمُ ٱلدينيُّ في الجامعة، وسيُدافِعون بِأنَّ هذا كلَّه ضربٌ مِنَ ٱلجنون...........

نهضةُ ٱلأقطارِ ٱلعربيّة

لا ريبَ في أنَّ ٱلنهضةَ واقعةٌ في ٱلأقطارِ ٱلعربيَّة، مستطيرةٌ في أرجائِها ٱستطارةَ ٱلشررِ يُضرَمُ في كلِّ جهةٍ ناراً حامية، ويستمدُّ من كلِّ ما يتَّصلُ بهِ لِعُنْصُرِهِ ٱلملتهبِ، ولا ريبَ في أنَّ ٱلشرقَ قد تفلَّتَ[1] من أوهامِ ٱلسياسةِ وخُرافاتِها، وقدِ ٱختلَفَ على ٱلغربِ بعدَ أنْ طابقَهُ زمناً، وتابعَهُ مدة، وعرَفَهُ بِمِقْدارِ ما بلاه، وكذَبهُ ما صدقَه، ونفرَ منه بقدرِ ما ٱطمأنَّ إليه؛ ولا ريبَ في أنَّ ٱلعقْلَ ٱلشرقيَّ قد تطوَّرَ وأدركَ معنى نُكْثِ ٱلعهْدِ ونَقضِ ٱلشرْطِ في ٱلسياسةِ ٱلغربيَّة، وعَلِمَ أنَّ ذلك هو بِعينِهِ ٱلعهدُ وَٱلشرْطُ في هذه ٱلسياسةِ ما دامَتِ ٱلمفاوضَةُ وٱلتعاقدُ بَينَ ٱلذئبِ وَٱلشاة. . . ولا ريبَ أنَّ ٱلشرقَ يجاذبُ ٱلآنَ مقاليدَهُ ٱلتي ألقاها، ويضرِبُ على سلاسلِهِ ٱلتي تَقيَّدَ بها، ويُكابِدُ ٱلصعودَ وَٱلهبوطَ في نهضتِهِ هذه؛ وقد كانَ بلغَ من إغضائِهِ على ٱلذلِّ وقرارِهِ على ٱلضيم، وجهلِهِ وتجاهلِهِ ـ أنَّ أوربا ربطَتْ أقطارَهُ كلَّهَا في بِضعةِ أساطيلَ تجذبُها جذبَ ٱلكواكبِ لِلأَرض.

غيرَ أنِّي مع هذا كلِّهِ لا أُسمِّي هذه ٱلنهضةَ نهضةً إلَّا من بابِ ٱلمجازِ وَٱلتوسُّعِ في ٱلعِبارة، وَٱلدلالةِ بِمَا كانَ على ما يكون؛ فإنَّ أسبابَ ٱلنهضةِ ٱلصحيحةِ ٱلتي تطَّردُ ٱطرادَ ٱلزمن، وتنمو نُموَّ ٱلشباب، وتندفِـعُ ٱندفاعَ ٱلعمرِ إلى أجلٍ بِعينِهِ ـ لا يزالُ بينَنَا وبينَها مثلُ هذا ٱلموتِ ٱلذي يفصلُ بينَنَا وبينَ سلَفِنا وأوليتِنا؛ وإلا فأينَ ٱلأخلاقُ ٱلشرقيَّة، وأينَ ٱلمِزاجُ ٱلعقليُّ ٱلصحيحُ لِأُمم ٱلشرق، وما هذا ٱلذي نحن فيهِ من روحٍ لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ ثُمَّ أين ٱلمصلحونَ ٱلذينَ لا يساومونَ[2] بملكٍ ولا إمارة، ولا يطلبونَ بِٱلإصلاح غرضاً من أغراضِ ٱلدنيا أو باطلاً من زُخرفِها؟ ثُمَّ أين أولئك تجعلُهُم مبادئُهمُ ٱلعاليةُ ٱلقويَّةُ أولَ ضحاياها، وتروي منهم عرقَ ٱلثرى ٱلذي يغتذي من بقايا ٱلأجدادِ لِينبتَ منهُ ٱلأحفاد؟

---

(١) تفلّت: تخلّص وتحرّر.

(٢) يساومون: يتجادلون من أجل الاتفاق على سلعة لشرائها.

إنَّ ٱلجوابَ على نهضةِ أُمَّةٍ نهضةً ثابتةً لا يكونُ مِنَ ٱلكلامِ وفنونِه، بلْ من مبدإٍ ثابتٍ مستمرٍّ يعملُ عملَهُ في نفوسِ أهلِها؛ ولن يكونَ هذا ٱلمبدأُ كذلك إلَّا إذا كانَ قائماً على أربعةِ أركان: إرادةٍ قويَّة، وخُلُقٍ عزيز، وٱستهانةٍ بِٱلحياة، وصِبغةٍ خاصةٍ بِٱلْأُمَّة.

فأمَّا الإرادةُ ٱلقويَّةُ فلا تنقصُ ٱلشرقيِّين، وإنَّما ٱلفضلُ فيها لِساسةِ ٱلغربِ ٱلذينَ بصَّرونا بأنفسِنا إذْ وضعونا مَعَ الأُممِ الأخرى أمامَ مرآةٍ واحدةٍ وجعلوا يقولون معَ ذلك إنَّنا غيرُ هؤلاء، وإنَّ هذا ٱلإنسانَ ٱلذي في ٱلمرآةِ غيرُ هذا ٱلقِرْدِ ٱلذي فيها... ولكنْ أينَ ٱلخُلُقُ؟ وأين ٱلعِزّةُ ٱلقوميَّةُ؟ وأين ٱلعصبيَّةُ ٱلشرقيَّة؟ وهذه مفاسدُ أوربا كلُّها تنصبُّ في أخلاقِ ٱلشرقيين كما تنصبُّ أقذارُ مدينةٍ كبيرةٍ في نهرٍ صغيرٍ عذْب؛ فلا ٱلدينُ بَقِيَ فينا أخلاقاً، ولا الأخلاقُ بقِيَتْ فينا دِيناً، وأصبحَتِ ٱلمِيزةُ ٱلشرقيَّةُ فاسدةً من كلِّ وجوهِها في ٱلروحِ وَٱلذوق، ولم يَعُدْ لنا شيءٌ يُمكنُ أنْ يُسمَّى ٱلمدنيَّةَ ٱلشرقيَّة، وأخذَ ٱلحمقى وَٱلضعفاءُ مِنّا يُحاولونَ في إصلاحِهِم أنْ يُؤلِّفوا ٱلأُمَّةَ على خُلُقٍ جديدٍ ينتزعونَهُ مِنَ ٱلمدنيَّةِ ٱلغربيَّة، ولا يعلمونَ أنَّ ٱلخُلُقَ ٱلطارئَ لا يرسخُ بِمِقدارِ ما يُفسدُ مِنَ ٱلأخلاقِ ٱلراسخة، وهم يغتبطونَ[1] إذا قيلَ لهم مثلاً: إنَّ مِصرَ قطعةٌ من أوربا؛ ولا يعلمونَ ما تحتَ هذهِ ٱلكلمةِ من تعطيلِ ٱلمدنيَّةِ الشرقيَّة، وَٱلذهابِ بها، وإفسادِها، وتعريضِها لِلذمّ، وتسليطِ ٱلبلاءِ عليها، مِمَّا لا حاجةَ بنا إلى ٱلتبسُّطِ فشرحِه.

لسْتُ أقولُ إنَّ نهضةَ ٱلشرقِ ٱلعربيِّ لا أساسَ لها؛ فإنَّ لها أساساً من حميةِ ٱلشباب، وعِلْمِ ٱلمتعلمين؛ ومن جهْلِ أوربا ٱلذي كشفتْهُ ٱلحرب؛ ولكنَّ هذا كلَّهُ على قوَّتِهِ وكِفايتِهِ في بعضِ ٱلأحيان لِإقامةِ ٱلأحداثِ ٱلكبرى وَٱهتياجِ ٱلعواصفِ ٱلسياسيَّة ـ لا يحملُ ثِقْلَ ٱلزمنِ ٱلممتد، ولا يكفي لأنْ يكونَ أساساً وطيداً يقومُ عليهِ بناءُ عِدَّةِ قرونٍ مِنَ ٱلحضارةِ ٱلشرقيَّة ٱلعالية، بلْ ما أسرعَهُ إلى ٱلهدمِ وَٱلنقض، لو صدَمتْهُ ٱلأساليبُ ٱللينةُ مِنَ ٱلدهاءِ ٱلأوربيِّ على ٱختلافِها... إذا قُدِّرَ لِأوربا أنْ تَفوزَ بِأُسلوبِها ٱلجديد، أُسلوبِ ٱستعبادِ ٱلشرقِ بِٱلصداقة... على طريقةِ ٱدعاءِ ٱلثعلبِ لِلدجاجِ أنَّهُ قد حجَّ وتابَ وجاءَ لِيُصليَ بها...

وَٱلذي أراهُ أنَّ نهضةَ هذا ٱلشرقِ ٱلعربيِّ لا تُعتبرُ قائمةً على أساسٍ وطيدٍ إلَّا

---

(١) يغتبطون: يسرّون.

إذا نهضَ بها ٱلركنانِ ٱلخالدان: الدينُ ٱلإسلاميُّ، وَٱللغةُ ٱلعربيَّة؛ وما عداهما فعسى أنْ لا تكونَ لَهُ قيمةٌ في حُكْمِ ٱلزمنِ ٱلذي لا يقطعُ بِحُكمِهِ على شيءٍ إلّا بِشاهدينِ مِنَ ٱلمبدإِ وَٱلنهاية.

وظاهرٌ أنْ أغلبيَّةَ ٱلشرقِ ٱلعربيِّ ومادتُهُ ٱلعظمى هيَ ٱلتي تَدينُ بِٱلإسلام، وما ٱلإسلامُ في حقيقتِهِ إلّا مجموعةُ أخلاقٍ قويَّةٍ ترمي إلى شدِّ ٱلمجموعِ من كلِّ جِهة، وَلَعَمْري إنِّي لَأَحسبُ عظماءَ أمريكا كأنَّهم مسلمو ٱلتاريخِ ٱلحديثِ في معظم أخلاقِهم، لولا شيءٌ مِنَ ٱلفرقِ هوَ ٱلذي لا يمنعُهم أنْ ينحطُّوا إذا هم بلغوا ٱلقِمَّة؛ فإن من عجائبِ ٱلدنيا أنَّ قِمةَ ٱلحضارةِ ٱلرفيعةِ هيَ بِعينِها مبدأ سقوطِ ٱلأُمَم، وهذا عندَنا هو ٱلسرُّ في أنَّ ٱلدينَ ٱلإسلاميَّ يكرهُ لِأَهلِهِ أنواعَ ٱلترفِ وَٱلزينةِ وَٱلاسترخاء، ولا يرى ٱلنحتَ وَٱلتصويرَ وَٱلموسيقى وَٱلمُغالاةَ فيها وفي ٱلشعرِ إلّا مِنَ ٱلمكروهات، بلْ قدْ يكونُ فيها ما يحرمُ إنْ وُجِدَ سببٌ لِتحريمِه، إذْ كانَتْ هذه ٱلفنونُ في ٱلغالبِ وفي ٱلطبيعةِ ٱلإنسانيَّةِ هيَ ٱلتي تُؤدِّي في نهايتِها إلى سقوط أخلاقِ ٱلأُمَّةِ؛ بِما تستتبِعُهُ من أساليبِ ٱلرفاهيَّةِ وَٱلضعفِ ٱلمتفنن، وما تحدِثُهُ لِلنفسِ من فنونِ ٱللذاتِ وَٱلإغراقِ فيها وَٱلاستهتارِ بها؛ وما سقطتِ ٱلدولةُ ٱلرومانيَّةُ ولا ٱلدولةُ ٱلعربيَّةُ إلّا بِكَأْسٍ وَٱمرأةٍ ووتَر، وخيالٍ شعريٍّ يفتنُ في هذه ٱلثلاثةِ ويُزينُها.

وإذا كانَ لا بُدَّ لِلأُمَّةِ في نهضتِها من أنْ تتغيَّر، فإنَّ رجوعَنا إلى ٱلأخلاقِ ٱلإسلاميَّةِ ٱلكريمةِ أعظمُ ما يَصلُحُ لنا مِنَ ٱلتغيّرِ وما نصلحُ بِهِ منه، فلقدَ بعُدَ ما بينَنا وبينَ بعضِها، وَٱنقطعَ ما بينَنا وبينَ ٱلبعضِ ٱلآخر؛ وإذا نحن نبذْنا ٱلخمر، وَٱلفجور، وَٱلقِمار، وَٱلكَذِب، وَٱلرياء؛ وإذا أنفْنا مِنَ ٱلتخنّثِ، وَٱلتبرج، وَٱلاستهتارِ بِٱلمنكرات، وَٱلمُبالغةِ في ٱلمجون، وَٱلسخف، وَٱلرقاعة[1]؛ وإذا أخذْنا في أسبابِ ٱلقوَّة، واصطَنعْنا ٱلأخلاقَ ٱلمتينة: مِنَ ٱلإرادة، وٱلإقدام، وٱلحميَّة؛ وإذا جعَلنا لنا صِبغةً خاصةً تُميِّزنا من سِوانا، وتدلُّ على أنَّنا أهلُ روحٍ وخُلُق ـ إذا كانَ ذلك كلُّهُ فَلَعمري أيُّ ضيرٍ في ذلك كلِّه، وهلْ تلك إلّا ٱلأخلاقُ ٱلإسلاميَّةُ ٱلصحيحة، وهلْ في ٱلأرضِ نهضةٌ ثابتةٌ تقومُ على غيرِها؟

إنَّ من خصائصِ هذا ٱلدينِ ٱلأخلاقيِّ أنَّهُ صلبٌ فيما لا بُدَّ لِلنفسِ ٱلإنسانيَّةِ منه إذا أرادَتِ ٱلكمالَ ٱلإنسانيَّ، ولكنَّهُ مَرِنٌ فيما لا بُدَّ منه لِأَحوالِ ٱلأزمنةِ ٱلمختلفةِ

---

(١) الرقاعة: الخلاعة والمجون.

مِمَّا لا يأتي على أصولِ ٱلأخلاقِ ٱلكريمة. وليسَ يخفى أنَّهُ لا يُغني غَناءَ ٱلدينِ شيءٌ في نهضةِ ٱلأُمَمِ ٱلشرقيَّةِ خاصَّة، فهو وحدَهُ ٱلأصلُ ٱلراسخُ في ٱلدماءِ وٱلأعصاب. ومتى نهضَ ٱلمسلمون وهم مادَّةُ ٱلشرق، نهضَ إخوانُهم في ٱلوطنِ وٱلمنفعةِ وَٱلعادةِ من أهلِ ٱلمللِ ٱلأخرى، وَٱضطروا أنْ يجانسوهم في أغلبِ أخلاقِهِمُ ٱلاجتماعيَّة، ولا حجْر على حريتِهم في ذلك إلَّا كبعضِ ٱلحجْرِ[1] على حريَّةِ ٱلمريضِ إذا أوجرتْه[2] ٱلدواءَ ٱلمرّ.

وَلمَّا كانَ ٱلمسلمونَ إخوةً بِنصِّ دِينهِم، وكانَتْ مبادئُهُم واحدة، ومنافعُهُم واحدة، وكِتابُهُم واحداً؛ فلا جَرَمَ كانَ مِنَ ٱلسهلِ ـ لو رجعوا إلى أخلاقِ دينِهِم وأنتبذوا ما يصدُّهُم عنها ـ أنْ يُؤَلِّفوا مِنَ ٱلشرقِ كُلِّهِ دُوَلاً متَّحِدةً يحسبُ لها ٱلغربُ حِساباً ذا أرقام لا تنتهي...

إنَّ هذا ٱلشرقَ في حاجةٍ إلى ٱلمبادىءِ وَٱلأخلاق، وهيَ معَ ذلك كامنةٌ فيه، ومستقبلُهُ كامنٌ فيها؛ غيرَ أَنَّها لا تصلُحُ في ٱلكتبِ ولا في ٱلفنون، بلْ في ٱلرجالِ ٱلقائمينَ عليها. فَٱلقلوبُ وَٱلأدمِغةُ هيَ أساسُ ٱلنهضةِ ٱلصحيحةِ ٱلثابتة، وإذا نحن تأمَّلْنا هذه ٱلنهضةَ ٱلراهنةَ وجدْنا أساسَها خَرِباً من جهاتٍ كثيرة، ووجدْنا ٱلمكانَ ٱلذي لا يملؤُهُ إلَّا ٱلقلبُ ٱلكبيرُ ليسَ فيهِ إلَّا خيالُ كاتبٍ مِنَ ٱلكتَّابِ وَٱلموضعُ ٱلذي لا يسدُّهُ إلَّا ٱلرأسُ ٱلعظيمُ قد سدَّتْهُ قِطعةٌ من صحيفة...

ولقد تنبَّأَ نبيُّ هذا ٱلدينِ ﷺ بهذه ٱلحالةِ ٱلتي ٱنتهى إليها ٱلشرقُ ٱلعربيُّ بإزاءِ ٱلغرب، فقالَ لِأصحابِهِ يوماً: كيف بِكُمْ إذا ٱجتمعَ عليكُمُ بنو ٱلأصفر اجتماعَ ٱلأكلَةِ على ٱلقِصاع؟ فقالَ عمرُ ـ رضيَ ٱللَّهُ عنه ـ، أمِنْ قِلَّةٍ نحن يومئذٍ يا رسولَ ٱللَّهِ أم من كثرة؟ قال: بلْ من كثرة، ولكنَّكم غُثاءٌ كَغُثاءِ ٱلسيل[3] قد أوهنَ[4] قلوبَكُم حُبُّ ٱلدنيا.

فوهْنُ ٱلقلوبِ بِحُبِّ ٱلدنيا ـ على ما ينطوي في هذه ٱلعِبارةِ مِنَ ٱلمعاني ٱلمختلِفة ـ هو عِلَّةُ ٱلشَّرق، ولا دواءَ لِهذهِ ٱلعِلَّةِ غيرُ ٱلأخلاق، ولا أخلاقَ بِغيرِ ٱلدينِ ٱلذي هو عِمادُها. ألا وإنَّ أساسَ ٱلنهضةِ قد وُضِع، ولكنْ بقيَتِ ٱلصخرةُ ٱلكبرى وستُوضَعُ يوماً، وهذا ما أعتقدُه؛ لِأَنَّ ٱلغربَ يدفعُ معَنا هذه الصخرةَ لِيُقرَّها

---

(١) حجر: حجز ومنع من الخروج.
(٢) أوجرته: بلَعته الدواء كارهاً.
(٣) غثاء السيل: هو ما يحمله أثناء جرفه لما تحطَّم وتعفن مما لا قيمة له.
(٤) أوهن: أضعف.

في موضعِها مِنَ ٱلأساسِ وهو يحسبُ أنَّهُ يدفعُنا نحن إلى ٱلحفرةِ لِيدْفننَا فيها. . .
وهذا عمًى في ٱلسياسةِ لا يكونُ إلَّا بِخذلانٍ مِنَ ٱللَّهِ قدَّرَهُ وقضاه.

* * *

وإنِّي أرى أنَّهُ لا ينبغيَ لِأَهلِ ٱلأقطارِ ٱلعربيَّةِ أنْ يقتبسوا من عناصر ٱلمدنيَّةِ ٱلغربيَّةِ ٱقتباسَ ٱلتقليد، بلِ ٱقتباسَ ٱلتحقيق، بعدَ أنْ يُعطوا كلَّ شيءٍ حقَّهُ مِنَ ٱلتمحيصِ[1] ويقلِّبوه على حالتيهِ ٱلشرقيَّةِ وَٱلغربيَّة؛ فإنَّ ٱلتقليدَ لا يكونُ طبيعةً إلَّا في ٱلطبقاتِ ٱلمنحطَّة، وصِناعةُ ٱلتقليدِ وصناعةُ ٱلمسخ فرعانِ من أصلٍ واحد، وما قلَّدَ ٱلمقلِّدُ بِلَا بَحثٍ ولا رَوِيَّةٍ إلَّا أتى على شيءٍ في نفسِهِ من ملكةِ ٱلابتكار وذهبَ ببعض خاصيتِهِ ٱلعقْلِيَّة؛ على أنَّنا لا نُريدُ من ذلك ألَّا نأخذَ مِنَ ٱلقوْمِ شيئاً؛ فإنَّ الفرْقَ بعيدٌ بينَ ٱلأخذِ في ٱلمخترعاتِ وَٱلعُلوم، وبينَ ٱلأخذِ من زخرفِ ٱلمدنيَّةِ وأهواءِ ٱلنفسِ وفنونِ ٱلخيالِ ورونقِ ٱلخبيثِ وَٱلطيب؛ إذِ ٱلفكرُ ٱلإنسانيُّ إنمَّا يُنتجُ ٱلإنسانيَّةَ كُلَّها، فليسَ هو مِلْكاً لِأُمَّةٍ دون أخرى؛ وما ٱلعقلُ ٱلقويُّ إلَّا جزءٌ من قوةِ ٱلطبيعة.

فإنْ نحن أخذْنا مِنَ ٱلنظاماتِ ٱلسياسيَّةِ فَلْنأخذْ ما يتَّفقُ مَعَ ٱلأصلِ ٱلراسخ في آدابِنا مِنَ ٱلشورى وَٱلحريَّةِ ٱلاجتماعيَّةِ عندَ ٱلحدِّ ٱلذي لا يجوزُ على أخلاقِ ٱلأُمَّةِ ولا يُفسِدُ مِزاجَها ولا يُضعِفُ قوَّتَها.

وإذا نقلْنا مِنَ ٱلأدبِ وَٱلشعرِ فَلْندعْ خُرافاتِ ٱلقوْمِ وسَخَافاتِهِمُ ٱلروائيَّةَ إلى لبِّ ٱلفكرِ وروائعِ ٱلخيالِ وصميمِ ٱلحِكْمة، ولْنتتبعْ طريقتَهم في ٱلاستقصاءِ وَٱلتحقيق، وأسلوبَهُم في النقدِ والجدلِ، وتأتِّيَهُمْ إلى النفسِ ٱلإنسانيَّةِ بتلكَ ٱلأساليبِ ٱلبيانيَّةِ ٱلجميلةِ للتي هيَ ٱلحكمةُ بعينها.

وأمَّا في ٱلعاداتِ ٱلاجتماعيَّةِ فَلْنذكرْ أنَّ ٱلشرقَ شرقٌ وَٱلغربَ غرب ـ وما أرى هذه الكلمة تصدقُ إلَّا في هذا ٱلمعنى وحدَه ـ وَٱلقومُ في نِصْفِ الأرضِ ونحن في نِصْفِها ٱلآخر، ولهم مزاجٌ وإقليمٌ وطبيعةٌ وميراثٌ من كلِّ ذلك ولنا ما يتَّفِقُ ولا يختلف؛ وإنَّ أول ٱلأدلَّةِ على ٱستقلالِنا أنْ نتسلَّخَ من عاداتِ ٱلقوم، فإنَّ هذا يُؤَدِّي بِلا ريبٍ إلى إبطالِ صِفَةِ ٱلتقليدِ فينا، ويحملُنا على أنْ نتَّخِذَ لِأَنفُسِنا ما يُلائمُ طبائِعَنا وينمّي أذواقَنا ٱلخاصَّةَ بِنا، ويُطلِقُ لنا ٱلحريَّةَ في ٱلاستقلالِ ٱلشخصيّ؛ ولقد

---

(١) التمحيص: الدرس والتدقيق والبحث.

كُنَّا سادةَ ٱلدنيا قبلَ أنْ كانَتْ هذه ٱلعاداتُ ٱلغربيَّةُ ٱلتي رأيْنا منها ومن أثرِها فينا ما أفسدَ رجولةَ رجالِنا وأُنوثةَ نِسائِنا على ٱلسواء؛ وما هؤلاءِ ٱلشبانُ ٱلمساكينُ ٱلّذين يَدْعونَ إلى بعضِ هذهِ ٱلعاداتِ ويعملون على بثِّها في طبقاتِ ٱلأُمَّةِ إلَّا كَٱلّذي يحسبُ أنَّ أوربا يُمكنُ أنْ تدخلَ تحت طربوشِه. . . ؛ ولقد غفلْنا عن أنَّنا ندعو ٱلأوربيِّين إلى أنفسِنا وإلى ٱلتسلُّطِ على بِلادِنا بِٱنتحالِنا عاداتِهِمُ ٱلاجتماعيَّة؛ لأنَّها نوعٌ مِنَ ٱلمُشاكلةِ بينَنا وبينَهم، ووجهٌ مِنَ ٱلتقريبِ بين جنسينِ يُعينُ على ٱندماجِ أضعفِهِما في أقواهُما ويُضيِّقُ دائرةَ ٱلخِلافِ بينَهما، ثُمَّ هو من أين ٱعتبَرْتَهُ وجدْتَهُ في فائدتِهِ للأوربيِّينَ أشبَه بتليينِ ٱللقمةِ ٱلصُّلبةِ تحتَ ٱلأسنانِ ٱلقاطعة؛ وهلْ نسيَ ٱلشرقيُّونَ أنْ لا حُجَّةَ لِلْغربِ في ٱستعبادِهِم إلَّا أنَّهُ يُريدُ تمدينَهم؟

وحيثما قلْنا «ٱلدينُ ٱلإسلاميُّ» فإنَّما نُريدُ ٱلأخلاقَ ٱلتي قامَ بها، وَٱلقانونَ ٱلذي يُسيطرُ من هذه ٱلأخلاقِ على ٱلنفسِ ٱلشرقيَّة؛ وهذا في رأينا هو كلُّ شيءٍ لِأَنَّهُ ٱلأولُ وَٱلآخر.

* * *

لا تجني ٱلصحافةُ
على ٱلأدب ولكنْ على فنِّيَّتِهِ

قالوا: إنَّ ٱلأصمعيَّ كانَ يُنكرُ أنْ يُقالَ في لغةِ ٱلعربِ (مالح)، ويقول: إنَّما هو ملِح، وإن (مالح) هذه عامية؛ فلمَّا أنشدُوهُ في ذلك شِعْراً لذي ٱلرمَّةِ يحتجُّون بِهِ عليهِ قال: إنَّ ذا ٱلرمةِ قد باتَ في حوانيتِ[1] ٱلبقالينَ بِٱلبصرةِ زمانا. . .

يُريدُ شيخُنا هذا: أن (المالح) في ٱلأكثرِ ٱلأعمِّ يكونُ مِمَّا يبيعُهُ ٱلبقَّالون، ولُغتهُم عاميَّةٌ مُزالةٌ[2] عن سُنَنِها ٱلفصيح، مصروفةٌ إلى وجهِها ٱلتجاري؛ ولكن كيف باتَ ذو ٱلرمةِ في حوانيتِ ٱلبقالينَ زماناً حتى عَلِقَتِ ٱلكلمةُ بِمَنطقِهِ وجذبَهُ إليها ٱلطبعُ ٱلعاميّ، ولم يخالطْ عربيَّتَهُ غيرُ هذه ٱلكلمةِ وحدَها؟ لم يقلِ ٱلأصمعيُّ شيئاً، ولكنَّ رِوايتَهُ تُخبرُ أنَّ ذا ٱلرمةِ ٱنحدرَ[3] مِنَ ٱلباديةِ إلى ٱلبصرةِ يلتمِسُ ما يلتمسُهُ ٱلشعراء، فلمَّا كانَ بها ٱستضاقَ[4] فلم يُصبْ لِجوفِهِ غيرَ ٱلخبز، ولم يجِدْ لِلْخبز غيرَ (ٱلمالح) يُسبغُهُ بِهِ لِيجدَ ٱلمسلكَ في حلْقِه، قالوا: فيأتي ٱلبقالينَ فيبتاعُ منهُمُ ٱلسمكةَ (ٱلمالحة) وَٱلبقلةَ (ٱلمالحة)، ويُعرِّفونه مُضيقاً إلى فرج، فيُنسئونَ لَهُ في ٱلثمنِ إلى أجلٍ حتى يمتدحَ وينالَ ٱلجائزة؛ قالوا: ثُمَّ يُمطرُهُ ٱلممدوحُ ويلوي بِهِ ولا يرى في تلفيقِ ٱلعيشِ رُخْصاً إلَّا في (ٱلمالح)، فيتتابعُ في ٱلشراءِ ويمضون في إسلافِهِ إبقاءً عليهِ وحُسْنَ نظرٍ منهم لِمنزلتِهِ وشعره، ويرى هو أنْ لا ضمانَ لِلْوفاء بما عليهِ إلَّا نفسَه، فما بُدٌّ أنْ يتراءى لهم بينَ ٱلساعةِ وٱلساعة، فيُخالِطُهُم فيُحدِّثُهُم فيسمعُ منهم، وهم على طبعِهِم وهو على سجيتِهِ؛ ثُمَّ لا يقتضونَهُ ثمناً، ولا يزالون يمدون لَه، فلا يزال (المالح) أيسرَ منالاً عليه، كما هو إلي نفسِهِ أشهى، وفي جوفِهِ أمرأ، لِمكانِ أعرابيتِهِ وخُشونةِ عيشِه، فيُصيبُ عندهم مرتعةً من هذا (المالح). قالوا: ثُمَّ يرى ٱلبقالون أنْ لا ضمانَ لِمَا ٱجتمعَ عليهِ إلَّا أنْ يكونَ ٱلشاعرُ معهم،

---

(١) حوانيت، مفرده حانوت وهو الدكان.
(٢) مزالة: منحطّة ونازلة.
(٣) انحدر: جاء.
(٤) استضاق: شعر بالضيق المادي وعدم اليسار.

فيُلزمونَهُ ٱلحوانيتَ بياضَ يومِه، ويُغلقونَها عليهِ ليلتَهُ، فهم يُمسكونَهُ بِٱلنهارِ وتُمسكُهُ ٱلحِيطانُ وَٱلأبوابُ بِٱلليل!

فلمَّا عظُمَ ٱلدَّينُ وبلَغَ ٱلجملةَ ٱلتي أَتَتْ حِسابَ ٱلأَيَّامِ إلى حِسابِ ٱلأهلَّةِ أُحضرَ ٱلشاعرُ كربَهُ وهمَّه، ولم يعدِ (ٱلمالح) ينجعُ فيه[1]، ولا يجدُ بِهِ غِذاء، بلْ حريقاً في ٱلدم، ورأى أنَّه قدِ ٱمتُحِنَ بهذا (المالح) ٱلخبيثِ وأشرطَ نفسَهُ فيهِ وٱرتهنَها به؛ فلا يزالُ مِنَ (ٱلمالح) همٌّ في نفسِه، ومغصٌ في جوفِه، ولفظٌ على لِسانِه، ودَينٌ على ذِمَّتِه؛ ولا يَزالُ مهموماً به؛ إذْ كانَ على طريقٍ من طريقين: إما ٱلوفاءُ ولا قُدرةَ عليهِ من مُفلِس، وإمَّا ٱلحبسُ ولا طاقةَ بِهِ لِشاعر؛ وحَبْسُ ذي الرمةِ في ثمنِ (ٱلمالح) هو حبسٌ عندَ ٱلشرطة، ولكنَّهُ قتلٌ أو شرٌّ منَ ٱلقتلِ عندَ صاحبتِهِ (ميّة) إذا ترامى إليها ٱلخبر؛ وَٱلأعرابيُّ ٱلجِلْفُ ٱلذي يُحبسُ في ثمنِ (ٱلمالح) عندَ ٱلوالي بعدَ أنْ باتَ زماناً رهناً بِهِ في حوانيتِ ٱلبقالينَ لا يصلحُ عاشقاً لِميٍّ وهي مَن هي: مَن هي: «لها بشرٌ مثلُ ٱلحريرِ ومنطقٌ رخيمُ ٱلحواشي. . .» فلا (ٱلمالحُ) من غِذائِها، ولا لفظُ (المالح) مِنَ ٱلكلامِ ٱلذي يكونُ في فَمِها ٱلعَذْب، وأبعَدَ ٱللَّهُ جاريتَها ٱلزنجيَّةَ إنْ لم تأنفْ لِنفسِها ومكانِها من عِشْقِ هذا ٱلأعرابيِّ ٱلغليظِ ٱلخَشِنِ ٱلذي ألحقَهُ (ٱلمالحُ) بِٱللصوصِ وَٱلغارمين[2]، وأخزاها ٱللَّهُ إنْ لم يكنْ عِشْقُ هذا ٱلأعرابيِّ لها سواداً على سوادِها في ٱلناس، فكيف بِمَيٍّ وهي أصفى مِنَ ٱلمرآةِ ٱلنقيَّة، وأبيضُ مِنَ ٱلزهرةِ ٱلبيضاء؟

قالوا: ويصنعُ ٱلله لِغَيلانَ ٱلمسكين، فيمدحُ ويُنافقُ ويحتال، ويعِدُهُ الممدوحُ بِٱلجائزةِ إذا غدا عليه، ويكونُ ذلكَ وٱلشمسُ نازلةٌ إلى خِدْرِها، فينكفىءُ ٱلشاعرُ إلى حوانيتِ غُرمائِهِ مِنَ ٱلبقالينَ يبيتُ فيها أخرى لياليه، ويُغلقونَ عليهِ وقد سَئِمُوهُ آكلاً وماطلاً، وهانَ عليهم فلا يعتدُّونهُ إلَّا فأراً من فِئرانِ حوانيتِهم غيرَ يأكلُ فيستوفى، ولم يعدِ ٱسمُهُ عندَهم ذا الرمة، بلْ ذا ٱلغُمَّة. . . فلم يُعطوه لِعشائِه هذه ٱلمرةَ إلَّا ما فسدَ وخُبثَ من عتيقِ (ٱلمالح)، فهو نَتِنٌ يُسمَّى طعاماً، وداءٌ يُباعُ بِثمن، وهلاكٌ يحملُ عليهِ ٱلاضطرارُ كما يحملُ على أكلِ ٱلجيفة؛ وكانوا قد وضعُوهُ في آنيةٍ قَذِرةٍ مُتلجِّنةٍ[3] طالَ عهدُها بِٱلغسلِ وَٱلنظافةِ وفيها بقيةٌ من عفنٍ قديم، فلصقَ بها ما لصقَ وتراكبَ عليها ما تراكب، ووقع فيها ما وقع.

---

(١) ينجع فيه: يطمر فيه ويثمر.

(٢) الغارمين: المدنين.

(٣) متلجِّنة: المغسلة بدون عناية.

ثُمَّ يتهيَّأُ ٱلشاعرُ لِصلاةِ ٱلعِشاءِ يرجو أنْ تنالَهُ بَركَتُها، فيستجيبُ ٱللَّهُ لَهُ ويُفرِّجُ عنه، وقد كانَ لَدَيهِ قَدَحٌ مِنَ ٱلماءِ لِوضُوئِه، ولكنَّ (ٱلمالحَ) ٱلذي تغدّى بِهِ كانَ قد أحرقَ جوفَهُ وأضرمَ على أحشائِهِ وهو في صيفٍ قائظ[1]، فما زالَ يُطفِئُهُ بِٱلشربةِ بعدَ ٱلشربة، وٱلمصَّةِ بعدَ ٱلمَصَّة، حتى ٱشتفَّ[2] ٱلقدحَ وأتى عليه، فيكسلُ عنِ ٱلصلاة ويلعنُ (ٱلمالح) وما جرَّ عليه! ثُمَّ يعضُهُ ٱلجوعُ فيكسرُ خبزتَهُ ويسمِّي ويغمسُ ٱللُّقمةَ ثُمَّ يرفعُها فيجدُ لها رائحةً منكرة، فينظرُ في الآنيةِ وقد نفذَ إليهِ ٱلضوءُ من قِنديلِ ٱلحارس، فإذا في (ٱلمالِح) خُنفساءُ قدِ ٱنفجَرتْ شِبَعاً، ويدقِّقُ ٱلنظرةَ فإذا دُويبَّةٌ أخرى قد تفسخَّتْ وهرأَها[3] (ٱلمالح) وفعلَ بها وفَعَل! قالوا: وتَثِبُ نفسُهُ إلى حَلْقِه، ولا يرى ٱلطاعونَ وٱلبلاءَ ٱلأصفرَ وَٱلأحمرَ إلَّا هذا (المالح)، فيتحوَّلُ إلى كُوَّةِ ٱلحانوتِ يتنسَّمُ ٱلهواءَ منها ويتطعَّمُ ٱلروحَ وهيَ مضَبَّبةٌ بِٱلحديد، ولا يزالُ يُراعي منها ٱلليلَ ويُقدِّرُهُ منزلةً منزلةً بحسابِ ٱلبادية، وهو بين ذلك يلعنُ (ٱلمالح) عددَ ما يسبِّحُ ٱلعابدُ ٱلقائمُ في جوفِ ٱلليل، ويطولُ ذلك عليه، حتى إذا كانَ ينشقُّ لَمْعُ ٱلفجرِ لِعينِه، فلا يراهُ ٱلشاعرُ إلَّا كَٱلغديرِ يتفجَّرُ بِٱلماءِ ٱلصافي ويودُّ لوِ ٱنصبَّ هذا ٱلضوءُ في جوفِهِ لِيغسَلهُ مِنَ (ٱلمالح) وأوضارِ (ٱلمالح)؛ ثُمَّ يأتي ٱللَّهُ بِٱلفرجِ وبِصاحبِ ٱلحانوتِ فيفتَحُ لَه، ويغدو ذو الرِّمةَ على ٱلممدوحِ فيقبضُ ٱلجائزة، وينقلبُ إلى حوانيتِ ٱلبقالينَ فيُوفي أصحابَها ما عليه؛ ولا يبقى معه إلَّا دراهُم معدودة، فيخرجُ مِنَ ٱلبصرةِ على حِمارٍ ٱكتراهُ وقد فُتحَتْ لَهُ آفاقُ ٱلدنيا، وكأنَّما فرَّ من موتِ غيرِ ٱلموت، ليسَ ٱسمُهُ ٱلبوارَ ولا ٱلهلاكَ ولا ٱلقتل، ولكنَّ ٱسمَهُ (ٱلمالح)!

قالوا: ويُحرِّكُهُ ٱلحِمارُ للشعرِ كما كانَتْ تُحركُهُ ٱلناقة، فيقول: أخزاكَ ٱللَّهُ من حِمارٍ بصريّ، إنْ أنت في ٱلمراكبِ إلَّا (كَٱلمالح) في ٱلأطعمة! ثُمَّ يغلبُهُ ٱلطبعُ وينزو بِهِ ٱلطربُ وتهزُّهُ ٱلحياة، فيهتاجُ لِلْشعرِ ويذكرُ شوقَهُ وحبَّهُ ودارَ مَيّ، وفي (عقلِهِ ٱلباطن) حوانيتُ وحوانيتُ مِنَ (ٱلمالح)، فيأتي هذا (ٱلمالحُ) في شِعْرِهِ ويدخلُ في لُغتِه، فيقولَ ٱلشعرَ ٱلذي أهملَ ٱلأصمعيُ رِوايتَهُ لِأَنَّ فيهِ (ٱلمالح) وما أدري أنا ما هو، ولكنْ لعلَّه مثلُ قولِ الآخر:

وَلَوْ تَفَلَتْ في ٱلبحرِ وَٱلبحرُ (مالحٌ) لَأَصبحَ ماءُ ٱلبحرِ من ريقِها عَذبا

---

(١) صيف قائظ: حارٌ جداً.

(٢) اشتفّ القدح: شرب ما فيه فأتى على محتواه.

(٣) هرأها: دبّ فيها الاهتراء والفساد.

أو مثل قولِ القائل:

بـصـريَّـةٌ تـزوَّجـتْ بـصـريّـا   يـطـعـمُـهـا (ٱلـمـالـحَ) وَٱلـطـريّـا

* * *

هذه هيَ ٱلروايةُ ٱلتمثيليَّةُ ٱلتي تُفسِّرُ كلامَ ٱلأصمعيّ، ولا مذهبَ عنها في ٱلتعليل؛ إذْ صارع (ٱلمالحُ) كلمةً نفسيةً في لُغةِ ذي ٱلرمة، على رغمِ أنفِ ٱلأحمرِ وٱلأسودِ وَٱلأصمعيِّ وأبي عُبيدة؛ فَٱلرجلُ مِنَ ٱلحُجَجِ في ٱلعربيةِ إلّا في كلمةِ (ٱلمالح)، فإنَّهُ هنا عاميٌّ بَقَّالُ حوانيتي نزلَ بِطبعِهِ على حُكْمِ ٱلعيش، وغلبَهُ ما لا بُدَّ أنْ يغلبَ مِنْ تسلُّطِ (واعيتِهِ ٱلباطنة)[1].

وَٱلحِكْمةُ ٱلتي تخرجُ من هذه ٱلروايةِ أنَّ أبلغَ ٱلناسِ ينحرفُ بِعَملِهِ كيفَ شاءَتِ ٱلحِرفة، ولا بُدَّ أنْ تقعَ ٱلمُشابهةُ بين نفسِهِ وعملِه، فربَّما أرادَ بِكلامِهِ وجهاً وجاءَ بِهِ ٱلهاجسُ على وجهٍ آخر؛ وإذا كانَ في ٱلنفسِ موضعٌ من مواضعِها أفسدَهُ ٱلعمل ـ ظهرَ فسادُهُ في ٱلذوقِ وَٱلإدراكِ فطمسَ على مواضعَ أخرى؛ فلا تنتظرْ من صحافي قدِ ٱرتهنَ نفسَهُ[2] بِحِرفةِ ٱلكلام ألّا يكونَ لَهُ في ٱلأدبَ وٱلبلاغةِ (مالح) كمالحِ ذي ٱلرمة، وإنْ كانَ أبلغَ ٱلناسِ لا أبلغَ كُتَّابِ ٱلصحفِ وحدَهم.

و(ٱلمالحُ) ٱلذي رأيناهُ لِكاتبٍ بليغٍ من أصحابِنا أنَّهُ كُتبَ في إحدى ٱلصحفِ عن ديوانٍ هو في شعرِ ٱلاستعارةِ بعدَ ٱلكنايةِ مِمَّا قالَهُ ٱلشاعر، ثُمَّ يقول: هذا عجيبٌ تصوُّرُهُ. لا أعرفُ ماذا يُريدُ. ٱلبِلى لِلشعاعِ غيرُ مقبول؛ ولا يزالُ ينسحبُ على هذه ٱلطريقةِ مِنَ ٱلنقدِ ثُمَّ يُعقِّبُ على ذلك بِقولِهِ: «وَٱلأصلُ في ٱلكتابةِ أنَّها للإفهام، أي نقلُ ٱلخاطرِ أو ٱلإحساسِ من ذهنٍ إلى ذِهْنٍ ومن نفسٍ إلى نفس؛ ولا سبيلَ إلى ذلك إذا كانَتِ ٱلعِبارةُ يتعاورُها[3] ٱلضعفُ وَٱلإبهامُ والركاكةُ وقِلَّةُ ٱلعِنايةِ بِدِقَّةِ ٱلأداء؛ وإذا كنْتَ تستعملُ ٱللفظَ في غيرِ موضعِهِ ولِغيرِ ما أُريدُ بِهِ فكيف تتوقعُ منّي أنْ أفهَم منك؟

لا، لا، هذا (مالح) من مالح ٱلأدب، فإذا كانَ ٱلضعفُ وَٱلإبهامُ وَٱلركاكةُ وسوءُ ٱلإفهام وضعفُ ٱلأداء ـ آتيةً في رأي ٱلكاتبِ مِن ٱستعمالِ ٱللفظِ في غيرِ موضعِهِ ولِغيرِ ما أُريدَ لَه ـ فإنَّ محاسنَ ٱلبيانِ مِنَ ٱلتشبيهِ وَٱلاستعارةِ وَٱلمجازِ

---

(١) يقصد بذلك العقل الباطن.

(٢) ارتهن نفسه: ربط نفسه وجعلها رهينة.   (٣) يتعاورها: يتجاذبها ويداخلها.

وَٱلْكِنايةِ ليس لها مأتًى كذلك إِلَّا ٱستعمالُ ٱللفظِ في غيرِ موضعِهِ ولِغيرِ ما أُريدَ لَه.

وعلى طريقةِ ٱلكاتبِ كيف يصنعُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾؟

أَتُراه يقول: كيف قدِمَ ٱلله، وهلْ كانَ غائباً أو مسافراً، وكيف قَدِمَ إلى عمل، وهلِ ٱلعملُ بيتٌ أو مدينة؟

ثُمَّ كيف يصنعُ في هذه ٱلآية: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، أيسأل: وهل لِلأرضِ حَلْقٌ تُحرِّكُهُ عضلاتُهُ لِلْبلع، وإذا كانَ لها حَلْقٌ أفلا يجوزُ أنْ تُرْمَى فيهِ فتحتاجَ إلى غرغرةٍ وعِلاجٍ وطِبّ؟

وماذا يقولُ في حديثِ ٱلبخاريّ: «إِنِّي لَأَسمعُ صوتاً كأَنَّهُ صوتُ ٱلدم، أو صوتاً يقطُرُ منهُ ٱلدم ـ كما في ٱلأغاني ـ» أيوجِّهُ ٱلاعتراضَ على ٱلصوتِ وجرحِهِ ودمِهِ، ويسألُ: بماذا جرحَ، وما لونُ هذا ٱلدم، وهلْ لِلْصوتِ عروقٌ فيجري ٱلدمُ فيها؟

إِنَّ ٱلإفهامَ ونقلَ ٱلخاطرِ وَٱلإحساسِ ليسَتْ هيَ ٱلبلاغةَ وإنْ كانَتْ منها، وإِلَّا فكتابةُ ٱلصحفِ كلُّها آياتٌ بيِّناتٌ في ٱلأدب، إذْ هيَ من هذه ٱلناحيةِ لا يُقدحُ فيها ولا يُغضُ منها، وما قصرَتْ قطُّ في نقلِ خاطرٍ ولا ٱستغلقَتْ دونَ إفهام.

هٰهنا خِوانٌ في مطعمٍ كمطعمِ (ٱلحاتي) مثلاً عليهِ ٱلشواءُ وَٱلملحُ وٱلفلفلُ وَٱلكواميخُ أصنافاً مصنَّفة، وآخرُ في وليمةِ عُرْسٍ في قصرٍ وعليهِ ألوانُهُ وأزهارُهُ ومن فوقِهِ ٱلأشعَّةُ ومن حولِهِ ٱلأشعَّةُ ٱلأخرى من كلِّ مضيئةٍ في ٱلقَلْبِ بِنورِ وجهِها ٱلجميل، أفترى ٱلسهولةَ كلَّ ٱلسهولةِ إِلَّا في ٱلأول؟ وهلِ ٱلتعقيدُ كلُّ ٱلتعقيدِ إِلَّا في ٱلثاني؟ ولكنْ أيُّ تعقيدٍ هو؟ إِنَّهُ تعقيدٌ فنيٌّ ليس إِلَّا، بِهِ ينضافُ ٱلجمالُ إلى ٱلمنفعة، فتجتمعُ ٱلفائدةُ وٱلاستمتاعُ وتزيّنُ ٱلمائدةِ وَٱلنفسِ معاً؛ وهو كذلك تعقيدٌ فنيٌّ لَاءَمَ بينَ إبداعِ ٱلطبيعةِ وإبداعِ ٱلفكر، وجاءَ بِروحِ ٱلموسيقى ٱلتي يقومُ عليها ٱلكوْنُ ٱلجميلُ فبثَّها[1] في هذه ٱلأشياءِ ٱلتي تقومُ بها ٱلمائدةُ ٱلجميلة، وٱستنزلَ سِرَّ ٱلجاذبيَّةِ فجعلَ لِلْمائدةِ بِمَا عليها شعوراً مُتَّصِلاً بِٱلقلوبِ من حيثُ جعلَ لِلْقلوبِ شُعُوراً مُتَّصِلاً بِٱلمائدة.

وهذا ٱلتعقيدُ ٱلذي صَوَّرَ في ٱلجمادِ دِقَّةَ فنِّ ٱلعاطفة، هو بعينِهِ فنِّيَةُ ٱلسهولةِ

---

(١) بثّها: نشرها.

وروحيَّتُها؛ وتلك ٱلسذاجةُ ٱلتي في ٱلمائدةِ ٱلأخرى هيَ ٱلسهولةُ ٱلماديةُ بِغير فَنٍّ ولا روح، وفرقُ بينِهما أنَّ إحداهما تحملُ قصيدةً رائعةً مِنَ ٱلطعامِ وما يتَّصِلُ بهِ، وَٱلأخرى تحملُ مِنَ ٱلطعامِ وما يتَّصِلُ بهِ مقالةً كمقالاتِ ٱلصحف!

وَٱلوجهُ في ٱلشوهاءِ وفي ٱلجميلةِ واحد: لا يختلفُ بأعضائِهِ ولا منافعِه، ولا في تأديتِهِ معانيَ ٱلحياةِ على أتِمها وأكمِلها؛ بيْدَ أنَّ ٱنسجامَ ٱلجميلِ يأتي من إعجازِ تركيبِهِ وتقديرِ قسماتِهِ وتدقيقِ تناسُبِه، وجعْلِهِ بكلِّ ذلك يُظهِرُ فنَّهُ ٱلنفسيَّ بِسهولةٍ منسجمةٍ هيَ فنيَّتُهُ وروحيتُهُ؛ أمَّا ٱلآخرُ فلا يقبلُ هذا ٱلفنَّ ولا يُظهِرُ منه شيئاً؛ إذْ كانَ قد فقدَ ٱلتدقيقَ ٱلهندسيَّ ٱلذي هو تعقيدُ فنِّ ٱلتناسبِ، وجاءَ على ٱلمقاييسِ ٱلسهلةِ من طويلٍ إلى قصير، إلى ما يستديرُ وما يعرضُ، إلى ما ينشأُ من هنا وينخسفُ من هناك، كَٱلوجنةِ[1] ٱلبارزة، وَٱلشدقِ ٱلغائر؛ فهذهِ ٱلسهولةُ ٱلمطلقةُ في ٱلوضعِ كما يَتَّفِق، هيَ بعينِها ٱلتعقيدُ ٱلمطلقُ عندَ ٱلفنِّ ٱلذي لا محلَ فيهِ لِلْفطةِ (كما يتَّفق).

وَٱلطريقةُ ٱلتي يكونُ بها ٱلجمالُ جميلاً هي بعينِها ٱلطريقةُ ٱلتي يكونُ بها ٱلبيانُ بليغاً، فَٱلمرجعُ في ٱثنيهما إلى تأثيرهما في ٱلنفس، وأنت فقل: إنَّ هذا مفهومٌ وهذا غيرُ مفهوم، وذاك سهلٌ وَٱلآخرُ معقَّد، وواضحٌ ومغْلق، ومستقيمٌ على طريقتِهِ ومحوَّلٌ عن طريقته؛ إنَّك في ذلك لا تدلُّ على شيءٍ تعيبُهُ أو تمدحُهُ في ٱلجمالِ أوِ ٱلبلاغةِ أكثرَ ممَّا تدلُ على ما يُمدحُ أو يُعابُ في نفسِك وذوقِها وإدراكِها.

ومعاني ٱلاختلافِ لا تكونُ في ٱلشيءِ ٱلمختلفِ فيه، بلْ في ٱلأنفسِ ٱلمختلفةِ عليه؛ فإنَّ محالاً أنْ تكونَ ٱلجميلةُ ممدوحةً مذمومةً لِجمالِها في وقتٍ معاً، وإلَّا كانَتْ قبيحةً بِما هيَ بِهِ حسناء، وهذا أشدّ بعداً في ٱلاستحالة، وحُكْمُك على شيءٍ هو عقلُك أنت في هذا ٱلشيء.

ومتى ٱتَّفق ٱلناسُ على معنًى يستحسنُونه وجدْتَ دواعيَ ٱلاستحسانِ في أنفسِهِم مختلِفة، وكذلك هم في دواعي ٱلذمِّ إذا عابوا؛ ولكنْ متى تعينَتِ ٱلوجوهُ ٱلتي بها يكونُ ٱلحُكْم، ورجعَ إليها ٱلمختلِفون، وَٱلتزموا ٱلأصولَ ٱلتي رسَمَتْها وتقرَّرَتْ بها ٱلطريقةُ عندَهم في ٱلذوقِ وٱلفهم، فذلك ينفي أسبابَ ٱلاختلافِ لِمَا يكونُ من معاني ٱلتكافؤ وخاصةً ٱلمناسبة، ولهذا كانَ ٱلشرطُ في نقدِ ٱلبيانِ أنْ يكونَ من كاتبٍ مبدعٍ في بيانِهِ لم تُفسْدهُ نزعةٌ أخرى، وفي نقدِ

(١) الوجنة: السحنة.

ٱلشعرِ أنْ يكونَ من شاعرٍ علَتْ مرتبتُهُ وطالَتْ مُمارستُهُ لهذا ٱلفنِّ فليسَ لَهُ نزعةٌ أخرى تُفسدُه.

وما ٱلمجازاتُ وٱلاستعاراتُ وٱلكِناياتُ ونحوُها من أساليبِ ٱلبلاغةِ إلَّا أسلوبٌ طبيعيٌّ لا مذهبَ عنهُ لِلنفسِ ٱلفنيَّة؛ إذْ هي بِطبيعتِها تُريدُ دائماً ما هو أعظم، وما هو أجمل، وما هو أدقّ؛ وربَّما ظهرَ ذلك لِغيرِ هذه ٱلنفسِ تكلُّفاً وتعسُّفاً ووضعاً لِلأَشياءِ في غيرِ مواضِعِها، ويخرجُ من هذا أنَّهُ عملٌ فارغٌ وإساءةٌ في ٱلتأديةِ وتمحُّلٌ لا عِبرةَ[1] به، ولكنَّ فنيَّةَ ٱلنفسِ ٱلشاعرةِ تأبى إلَّا زيادةَ معانيها، فتصنعُ ألفاظَها صِناعةً تُوليها مِنَ ٱلقوَّةِ ما ينفذُ إلى ٱلنفسِ ويُضاعِفُ إحساسَها؛ فمِنْ ثَمَّ لا تكونُ ٱلزيادةُ في صورِ ٱلكلامِ وتقليبِ ألفاظِهِ وإدارةِ معانيهِ إلَّا تهيئةً لِهذه ٱلزيادةِ في شعورِ ٱلنفسِ؛ ومن ذلك يأتي ٱلشعرُ دائماً زائداً بِٱلصناعةِ ٱلبيانيَّة، لِتُخرجَهُ هذه ٱلصناعةُ من أنْ يكونَ طبيعيّاً في ٱلطبيعةِ إلى أنْ يكونَ روحانياً في ٱلإنسانيَّة، وَٱلشعورُ ٱلمهتاجُ ٱلمتفززُ غيرُ ٱلساكنِ ٱلمتبلِّد، وَٱلبيانُ في صِناعةِ ٱللغةِ يُقابلُ هذا ٱلنحو، فتجدُ مِنَ ٱلتعبيرِ ما هو حيٌّ متحرِّك، وما هو جامدٌ مستلقٍ كَٱلنائم أو كَٱلميِّت؛ وبهذا لا تكونُ حقيقةُ ٱلمُحسِّناتِ ٱلبيانيَّةِ شيئاً أكثرَ من أنَّها صناعةٌ فنيَّةٌ لا بُدَّ منها لِأَحداثِ ٱلاهتياجِ في ألفاظِ ٱللغةِ ٱلحساسةِ كي تُعطِيَ ٱلكلماتُ ما ليسَ في طاقةِ ٱلكلماتِ أنْ تُعطِيَه.

لقد تكلموا أخيراً في جِنايةِ ٱلصحافةِ على ٱلأدب، وَٱلصحافةُ عندي لا تجني على ٱلأدب، ولكنْ على فنيَّتِه؛ فلَها مِنَ ٱلأثرِ على سليقةِ ٱلبليغ وطبعِهِ قريبٌ مِمَّا كانَ لِحَوانيتِ ٱلبقَّالينَ في ٱلبصرةِ على طبعِ ذي ٱلرمَّةِ وسليقتِه، وكلَّما قرُبَ ٱلصحافيُّ مِنَ ٱلصنعةِ وحقِّها على ٱلجمهور، بَعُدَ عنِ ٱلفنِّ وجمالِهِ وحقِّهِ على ٱلنفس، وهذا واضحٌ بِلا كبيرِ تأمُّل، بلْ هو واضحٌ بِغيرِ تأمُّلَ. . .

---

(١) عِبرة، بكسر العين: العظة والدرس.

صعاليكُ ٱلصحافة

١

لَمَّا ظهرَ كتابي (وحيّ ٱلقلم) حملْتُ منه إلى فُضَلاءِ كتَّابِنَا في دورِ ٱلصحفِ وَٱلمجلاتِ أُهديهِ إليهم لِيقرؤُوه ويكتبوا عنه، وأنا رجلٌ ليسَ فيَّ أكثرُ مِمَّا فيَّ، كَٱلنجم يستحيلُ أنْ يكونَ فيهِ مستنقع؛ فما أعلمُ في طبيعتي موضِعاً لِلْنفاقِ تتحوَّلُ فيهِ ٱلبصَلةُ إلى تفاحة، ولا مكاناً مِنَ ٱلخوفِ تنقلِبُ فيهِ ٱلتفاحةُ إلى بصلة، ولسْتُ أهدي من كتبي إِلَّا إحدى هديتين: فإِمَّا ٱلتحيةُ لِمَنْ أثِقُ بِأدبِهم وكِفايتِهم وسلامةِ قلوبِهِم، وإما إنذارُ حربٍ لِغيرِ هؤلاء!

وٱلقرآنُ نفسُهُ قد أثبتَ ٱللَّهُ فيهِ أقوالَ مَنْ عابُوه، لِيَدِلَّ بذلك على أنَّ ٱلحقيقةَ مُحتاجةٌ إلى مَنْ يُنكِرُها ويردُّها، كحاجتِها إلى مَنْ يُقِرُّ بِها ويقَبلُها، فهي بِأحدِهما تُثبِتُ وجودَها، وبِٱلآخرِ تُثْبتُ قدرتَها على ٱلوجودِ وٱلاستمرار.

وَٱلشعورُ بِٱلحقِّ لا يخرسُ أبداً؛ فإذا كانَتِ ٱلنفسُ قويَّةً صريحةً مرَّ من باطنِها إلى ظاهِرِها في ٱلكلمةِ ٱلخالصة، فإِنْ قال: لا أو نعم، صدقَ فيهما؛ وإذا كانَتِ ٱلنفسُ ملتويةً ٱعترضتْهُ ٱلأغراضُ وَٱلدخائل، فمرَّ من باطنٍ إلى باطنٍ حتى يخلصَ إلى ٱلظاهرِ في ٱلكلمةِ ٱلمقلوبة؛ إذْ يكونُ شعوراً بِٱلحقِّ يُغطِّيهِ غرضٌ آخرُ كَٱلحسدِ ونحوِهِ، فإِنْ قالَ: لا أو نعم، كذبَ فيهما جميعاً.

* * *

وكنْتُ في طوافي على دورِ ٱلصحفِ وٱلمجلاتِ أُحسُّ في كلٍّ منها سؤالاً يسألُني بِهِ ٱلمكان: لِماذا لم تجيءْ؟ فإنِّي في ٱبتداءِ أمري كنْتُ نزعْتُ إلى ٱلعملِ في ٱلصحافة، وأنا يومئذٍ متعلِّمٌ رِيِّضٌ[1] ومتأدبٌ ناشىء، ولكنَّ أبي ـ رحمَهُ ٱللهُ ـ

---

(١) ريِّض: متدرِّب.

ردّني عن ذلك ووجّهني في سبيلي هذه ـ وٱلحمد لله ـ، فلو أنّني نشأْتُ صحافياً لَكنْتُ ٱلآنَ كبعضِ ٱلحروفِ ٱلمكسورةِ في ٱلطبع. . .

وَللصحافةِ ٱلعربيةِ شأنٌ عجيب، فهيَ كلّما تمّتْ نقصَت، وكلّما نقصَتْ تمّت؛ إذْ كانَ مدارُ ٱلأمر فيها على ٱعتبار أكثرِ مَنْ يقرؤُونها أنصافُ قرّاءٍ أو أنصافُ أُميّين؛ وهيَ بهذا كَٱلطريقةِ لِتعليمِ ٱلقراءةِ ٱلاجتماعيَّةِ أو ٱلسياسيَّةِ أوِ ٱلأدبيَّة؛ فتمامُها بِمراعاةِ قواعدِ ٱلنقصِ في ٱلقارىء. . . وما بُدٌّ أنْ تتقيَّدَ بِأوهامِ ٱلجمهورِ أكثرَ مِمَّا تتقيَّدُ بِحقيقةِ نفسِها، فهي معَهُ كَٱلزوجةِ ٱلتي لم تَلِدْ بعدُ، لها من رجُلِها مَنْ يأمرُها ويجعلُها في حُكمِهِ وهواه، وليسَ لها مَنْ أبنائِها من تأمرُهم وتجعلُهم في طاعتِها ورأْيِها وأدبِها؛ ثُمَّ هي عَمَلُ ٱلساعةِ وٱليوم، فما أبعدَها من حقيقةِ ٱلأدبِ ٱلصحيح، إذْ يُنظرُ فيهِ إلى ٱلوقتِ ٱلدائمِ لا إلى ٱلوقتِ ٱلغابر، ويُرادُ بِهِ معنى ٱلخلودِ لا معنى ٱلنسيان.

ولا يقتلُ ٱلنبوغَ شيءٌ كَٱلعملِ في هذه ٱلصحافةِ بِطريقتِها؛ فإِنَّ أساسَ ٱلنبوغِ (ما يجبُ كما يجب)؛ ودأبُهُ ٱلعمقُ وَٱلتغلْغلُ في أسرارِ ٱلأشياءِ وَإخراجِ ٱلثمرةِ ٱلصغيرةِ من مثلِ ٱلشجرةِ ٱلكبيرةِ بِعملٍ طويلٍ دقيق؛ أمَّا هيَ فأساسُها (ما يُمكنُ كما يُمكنُ) ودأبُها ٱلسرعةُ وَٱلتصفّحُ وَٱلإلمامُ وصِناعةٌ كَصِناعةِ ٱلعنوانِ لا غير.

فليسَ يحسنُ بِٱلأديبِ أنْ يعملَ في هذه ٱلصحافةِ ٱليوميَّةِ إلَّا إذا نضجَ وتَمَّ وأصبحَ كَٱلدولةِ على «ٱلخريطة»، لا كَٱلمدينةِ في ٱلدولةِ في ٱلخريطة؛ فهو حينئذٍ لا يسهلُ محوُهُ ولا تبديلُهُ. . . ثُمَّ هو يمدُّها بِٱلقوَّةِ ولا يستمدُّ ٱلقوَّةَ منها، ويكونُ تاجاً من تِيجانِها لا خرزةً من خرزاتها، ويقومُ فيها كَالمنارةِ ٱلعظيمةِ تُلقي أشعتَها من أعلى ٱلجوّ إلى مدًى بعيدٍ مِنَ ٱلآفاق، لا كَمِصباحٍ من مصابيحِ ٱلشارع!

وحالةُ ٱلجمهورِ عندَنا تجعلُ ٱلصحافةَ مكاناً طبيعيّاً لِرجلِ ٱلسياسةِ قبلَ غيرِه؛ إذْ كانَ ٱلرجلُ ٱلسياسيُّ هو صوتَ ٱلحوادثِ سائلاً ومُجيباً، ثُمَّ يليهِ ٱلرجلُ شبهُ ٱلعالم، ثُمَّ ٱلرجلُ شِبهُ ٱلمُمثلِ ٱلهزليّ. . . وَٱلأديبُ ٱلعظيمُ فوقَ هؤلاءِ جميعاً، غيرَ أنَّهُ عندنا في ٱلصحافةِ وراءَ هؤلاءِ جميعاً!.

* * *

ولَمَّا فرغْتُ من طوافي على دورِ ٱلصحفِ جاءَتْ هيَ تطوفُ بي في نومي فرأيتُني ذاتَ ليلةٍ أدخلُ إحداها لِأَهديَ (وحيَ ٱلقلم) إلى ٱلأديبِ ٱلمتخصِّصِ فيها لِلْكتابةِ ٱلأدبيَّة؛ ودلوُني عليهِ فإذا رجلٌ مربوعٌ مشوَّهُ ٱلخَلْقِ صغيرُ ٱلرأسِ دقيقُ ٱلعنقِ

جاحظُ ٱلعينين، تدورانِ في محجريهما دورةً وحشيَّةً كأنَّما رعبَتْهُ ٱلحياةُ مُذْ كَانَ جنيناً في بطنِ أُمِّه، لِأَنَّهُ خُلِقَ لِلإحساسِ وَٱلوصف، أو كأنَّما رُكِّبَ فيهِ هذا ٱلنظرُ ٱلساخرُ لِيرى أكثرَ مِمَّا يرى غيرُهُ من أسرارِ ٱلسخريةِ فينبغَ في فنونها، أو هو قد خُلِقَ[1] بهاتينِ ٱلعينينِ ٱلجاحظتينِ دلالةً عَليهِ مِنَ ٱلقدرةِ ٱلإلهيَّةِ بِأَنَّهُ رجلٌ فذٌّ أُرسلَ لِتدقيقِ ٱلنظر.

وقالَ ٱلذي عرَّفني بِه: حضْرتُه عمرو أَفندي ٱلجاحظ . . . وهو أديبُ ٱلجريدة.

قلْت: شيخُنا أبو عثمانَ عمروُ بْنُ بحر؟

فضحكَ ٱلجاحظُ وقال: وأديبُ ٱلجريدة، أي شحاذُ ٱلجريدة، يكتبُ لَهَا كما يقرأُ القارئ على ضريحٍ: بِٱلرغيفِ وَٱلجِبْنِ وَٱلبيضِ وَٱلقرش . . .

قلتْ: إنَّا لِلَّه! فكيف ٱنتهيْتَ يا أبا عثمانَ إلى هذه ٱلنهايةِ وكنْتَ من أعاجيبِ ٱلدنيا؟ وكيف خِبْتَ[2] في ٱلصحافةِ وكنْتَ رأساً في ٱلكلام؟

قال: نجحَتْ أخلاقي فخابَتْ آمالي، ولو جاءَ ٱلوضعُ بِٱلعكس لَكانَ ٱلأمرُ بِٱلعكس؛ وَٱلمصيبةُ في هذه ٱلصحفِ أنَّ رجلاً واحداً هو قانونُ كلِّ رجلٍ هنا.

قلْت: وذاكَ ٱلرجلُ ٱلواحدُ ما قانونُه؟

قال: لَهُ ثلاثةُ قوانين: الجهاتُ ٱلعاليةُ وما يستوحيهِ منها، وٱلجهاتُ ٱلنازلةُ وما يُوحيهِ إليها، وقانونُ ٱلصلةِ بينَ ٱلجهتين وهو . . .

قلْت: وهو ماذا؟

فحملقَ فيَّ وقال: ما هذه ٱلبلادة؟ وهوَ ٱلذي (هو) . . . أمَا ترى ٱلصحيفةَ ككُلِّ شيءٍ يُباع؟ وأنت فخبِّرني ـ ولكَ ٱلدولةُ وٱلصولةُ عندَ ٱلقراء ـ ألم ترَ بعينيك أنَّك لو جئْتَ تدفعَ ثمانمائةِ قِرش، لكنْتَ في نفوسِهِم أعظمَ مِمَّا أنت وقد جِئْتَ تهدي ثمانمائةِ صفحةٍ مِنَ ٱلبيانِ وَٱلأدب؟

قلْت: يا أبا عثمان، فماذا تكتبُ هنا؟

قال: إنَّ ٱلكتابةَ في هذه ٱلصحافةِ صورةٌ مِنَ ٱلرؤيةِ، فماذا ترى أنت في . . . وفي . . . وفي؟ . . . لقد كنَّا نروي في ٱلحديث: «يكونُ قومٌ يأكلونَ ٱلدنيا بِأَلْسِنَتِهم كما تلحسُ ٱلأَرضَ ٱلبقرةُ بِلِسانِها»؛ فلعلّ من هذه ٱلألسنةِ ٱلطويلةِ لسانَ صاحبِ ٱلجريدة . . .

(١) الخلق، بتسكين اللام: الهيئة.
(٢) خبت: فشلت.

قلت: ولكنَّك يا شيخَنا قد نَسِيْتَ ٱلقرَّاءَ وحكمَهم على ٱلصحيفة.

قال: القرَّاءُ ما ٱلقرَّاء، وما أدراكَ ما ٱلقرَّاء! وهلْ أساسُ أكثرِهم إلا بلادةُ ٱلمدارس، وسخافةُ ٱلحياة، وضعفُ ٱلأخلاق، وكذبُ ٱلسياسة؟ إنَّ الإبداعَ كلَّ ٱلإبداعِ في أكثرِ ما تكتبُ هذه ٱلصحف، أنْ تجعلَ ٱلكذبَ يكذبُ بطريقةٍ جديدة... وما دامَ ٱلمبدأُ هو ٱلكذب، فَٱلمظهرُ هو ٱلهزْلُ؛ وَٱلناسُ في حياةٍ قد ماتَتْ فيها ٱلمعاني ٱلشديدةُ ٱلقويَّةُ ٱلساميَّةُ، فهم يُريدونَ ٱلصحافةَ ٱلرخيصةَ، وَٱللغةَ ٱلرخيصة، وَٱلقراءةَ ٱلرخيصة؛ وبهذا أصبحَ ٱلجاحظُ وأمثالُهُ هم (صعاليكَ ٱلصحافة).

* * *

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيس ٱلتحرير، فنهضَ إليه، ثُمَّ رجعَ بعينين لا يُقالُ فيهما جاحظتان، بلْ خارجتان... وقال: أفّ! ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

كلَّا وٱلذي حرَّم ٱلتزُّيدَ على ٱلعلماء، وقبَّحَ ٱلتكلُّفَ عندَ ٱلحُكماء، وبَهْرَجَ[1] ٱلكذابينَ عندَ ٱلفقهاء، لا يظنُّ هذا إلَّا مَنْ ضلَّ سعيُه[2]».

قُلْتُ: ماذا دهاكَ يا أبا عثمان؟

قال: ويحَها صحافة! قلْ في عمِّكَ ما قال ٱلمثل: جَحَظ إليهِ عملُه.

قلْت: ولكنْ ما ٱلقصة؟

قال: ويحَها صحافة! وقالَ ٱلأحنف: أربعٌ من كنَّ فيه كانَ كاملاً، ومَنْ تعلَّقَ بِخَصلةٍ منهُنَّ كانَ من صالحي قومِه: دينٌ يُرْشِدُه، أو عقلٌ يُسدِّده[3]، أو حسَبٌ يصونُه، أو حياءٌ يقناه». وقال: «المؤمنُ بينَ أربع: مؤمنٌ يحسدُه، ومنافقٌ يُبغضُه، وكافرٌ يُجاهدُه، وشيطانٌ يفتنُه. وأربعٌ ليسَ أقلَّ منهن: ٱليقين، وٱلعدل، ودرهمٌ حلال، وأخٌ فِي ٱلله». وقالَ ٱلحسنُ بْنُ عليّ: ...

قلت: يا شيخَنا، دَعْنَا الآنَ مِنَ ٱلروايةِ وَٱلحِفْظِ وَٱلحسنِ وَٱلأحنف؛ فمذا دهاك عندَ رئيس ٱلتحرير؟

قال: لم أحسنِ ٱلمُهاترَة في ٱلمقالِ ٱلذي كتبْتُهُ ٱليوم... ويقولُ رئيسُ

---

(١) بهرج: عدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها بقصد التنويه.

(٢) يقصد من ذلك أنه نظر في فعله فرأى سوء صنيعه.

(٣) يسدّده: يهديه إلى الصراط المستقيم.

ٱلتحرير: إنَّ نصفَ ٱلتمويهِ رذيلة؟ فإنَّ نصفَهُ ٱلآخرَ يدلُّ على أنَّهُ تمويه. ويقول: إنَّ سموَّ ٱلكتابةِ ٱنحطاطٌ فصيح، لِأَنَّ ٱلقرَّاءَ في هذا ٱلعهدِ لا يخرجونَ من حِفْظِ ٱلقرآنِ وَٱلحديثِ ودراسةِ كتبِ ٱلعلماءِ وٱلفصحاءِ، بلْ مِنَ ٱلرواياتِ وَٱلمجلاتِ ٱلهزْليَّة. وحِفْظُ ٱلقرآنِ وَٱلحديثِ وكلام ٱلعلماءِ يضعُ في ٱلنفسِ قانونَ ٱلنفس، ويجعلُ معانيَها مهيَّأةً بِٱلطبيعةِ لِلاستجابةِ لِتلكَ ٱلمعاني ٱلكبيرةِ في ٱلدينِ وَٱلفضيلةِ وَٱلجِدِّ وَٱلقوَّة؛ ولكنْ ماذا تصنعُ ٱلرواياتُ وٱلمجلَّاتُ وصورُ ٱلمُمَثِّلاتِ ٱلمُغَنياتِ وخبرُ ٱلطالبِ فلانٍ وَٱلطالبةِ فلانَةَ وٱلمسارحِ وَٱلملاهي؟

ويقولُ رئيسُ ٱلتحرير: إنَّ ٱلكاتبَ ٱلذي لا يسألُ نفسَهُ ما يُقالُ عنِّي في ٱلتاريخ، هو كاتبُ ٱلصحافةِ ٱلحقيقيّ، لِأَنَّ ٱلقروشَ هيَ ٱلقروشُ وَٱلتاريخُ هو ٱلتاريخ؛ ومطبعةُ ٱلصحيفةِ ٱلناجحةِ هيَ بنتُ خالةِ مطبعةِ ٱلبنكِ ٱلأهليّ؛ ولا يتحقَّقُ نسَبُ ما بينَهما إلَّا في إخراجِ ٱلورقِ ٱلذي يُصْرَفُ كلُّهُ ولا يُرَدُّ منه شيءٌ!

إنَّهم يُريدونُ إظهارَ ٱلمخازي مكتوبة، كحوادثِ ٱلفجورِ وَٱلسرقةِ وَٱلقتلِ وٱلعِشْقِ وغيرِها؛ يزعمون أنها أخبارٌ تُروى وتَقَصُّ لِلْحِكايةِ أوِ ٱلعِبرة، وَٱلحقيقةُ أنها أخبارُهم إلى أعصابِ ٱلقرَّاء...

* * *

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيسِ ٱلتحرير...

صعاليكُ ٱلصحافة . . .

٢

وغابَ شيخُنا أبو عثمانَ عندَ رئيسِ التحريرِ بعضَ ساعةٍ، ثُمَّ رجعَ تدورُ عيناهُ في جِحَاظَيْهما وقدِ ٱكفهَرَّ وجهُهُ وعبَسَ كأنَّما يجري فيهِ ٱلدمُ ٱلأسودُ لا ٱلأحمر، وهو يكادُ ينشقُّ مِنَ ٱلغيظ، وبعضُهُ يَغلي في بعضِهِ كَٱلماءِ على ٱلنار؛ فما جلسَ حتى جاءَتْ ذبابتانِ فوقعَتا على كَتِفَيْ أنفِهِ تُتِمَّانِ كآبةَ وجهِهِ ٱلمشوَّه، فكانَ منظرُهما من عينيهِ ٱلسَّوداوديْنِ ٱلجاحظتينِ منظرَ ذبابتينِ وُلدتا من ذبابتين . . .

وتركَهُما ٱلرجلُ لِشأنِهِمَا وسكَتَ عنهما؛ فقلْتُ لَهُ: يا أبا عثمان، هاتانِ ذبابتان، ويُقالُ إنَّ الذُبابَ يحمل ٱلعدوَى.

فضحكَ ضحكةَ المَغيظ[1] وقال: إنَّ ٱلذبابَ هنا يخرجُ منَ ٱلمطبعةِ لا مِنَ ٱلطبيعة. فأكثرُ القولِ في هذهِ ٱلجرائدِ حشَراتٌ مِنَ ٱلألفاظ: منها ما يُستقذَرُ وما تنقلِبُ لَهُ ٱلنفس، وما فيهِ ٱلعدوَى، وما فيهِ ٱلضررُ؛ وما بُدٌّ أنْ يعتادَ ٱلكاتبُ ٱلصحافيُّ مِنَ ٱلصبرِ على بعضِ ٱلقوْلِ مثلَ ما يعتادُ ٱلفقيرُ مِنَ ٱلصبرِ على بعضِ ٱلحشراتِ في ثيابِه؛ وقد يُريدُهُ صاحبُ ٱلجريدةِ أو رئيسُ ٱلتحريرِ على أنْ يكتبَ كلاماً لو أعفاهُ منه وأرادَهُ على أنْ يجمعَ ٱلقمَّلَ وَٱلبراغيثَ من أهدام ٱلفقراءِ وَٱلصعاليكِ بِقدرِ ما يملأُ مقالة . . . كانَ أخفَّ عليهِ وأهون، وكانَ ذلكَ أصرَحَ في معنى ٱلطلبِ وَٱلتكليف.

وكيفما دارَ ٱلأمرُ فإنَّ كثيراً مِنَ كلام ٱلصحفِ لو مسخَهُ ٱللَّهُ شيئاً غيرَ ٱلحروفِ ٱلمطبعيَّة، لَطارَ كلُّهُ ذُباباً على وجوهِ ٱلقرَّاء!.

قُلْت: ولكنَّكَ يا أبا عثمانَ ذهبْتَ مُتَطَلِّقاً إلى رئيسِ ٱلتحريرِ ورجعْتَ متعقِّداً فما ٱلذي أنْكَرتَ منه؟

---

(١) المغيظ: الغاضب.

قال: «لو كانَ ٱلأمرُ على ما يشتهيهِ ٱلغريرُ وٱلجاهلُ بِعواقبِ ٱلأمورِ، لَبطلَ ٱلنظرُ وما يشحذُ عليهِ وما يدعو إليه، ولتَعطَّلَتِ ٱلأرواحُ من معانيها وَٱلعقولُ من ثِمارِها، ولَعدِمَتِ ٱلأشياءُ حُظُوظَها وحُقُوقَها»، هناك رجلٌ من هؤلاءِ ٱلمَعنيِّينَ بِٱلسياسةِ في هذا ٱلبلد. . . يُريدُ أنْ يخلُقَ في ٱلحوادثِ غيرَ معانيها، ويربطَ بعضَها إلى بعضٍ بأسبابِ غيرِ أسبابِها، ويَخرجَ منها نتائجَ غيرُ نتائجها، ويلفِّقَ لَها مِنَ ٱلمنطقِ رُقَعاً كهذه ٱلرقعِ في ٱلثوبِ ٱلمفتوق؛ ثُمَّ لا يرضى إلَّا أنْ تكونَ بذلك ردّاً على جماعةِ خصومِهِ وهي ردٌّ عليهِ وعلى جماعتهِ، ولا يرضى مَعَ ٱلردِّ إلَّا أنْ يكونَ كالأعاصيرِ تدفعُ مثلَ تيارِ ٱلبحرِ في ٱلمستنفعِ ٱلراكد.

ثُمَّ لم يجدْ لها رئيسُ ٱلتحريرِ غيرَ عمِّك أبي عثمانَ في لطافةِ حِسِّهِ وقوَّةِ طبعِهِ وحُسْنِ بيانِهِ وٱقتدارِهِ على ٱلمعنى وضِدِّه، كأنَّ أبا عثمانَ ليسَ عندَهُ مِمَنْ يُحاسبونَ أنفسهُم، ولا مِنَ ٱلممَيِّزينَ في ٱلرأي، ولا مِنَ ٱلمستدلّين بِٱلدليل، ولا مِنَ ٱلناظرينَ بِٱلحُجة؛ وكأَنَّ أبا عثمانَ هذا رجلٌ حُروفيّ. . .

كحروفِ ٱلمطبعة: تُرفعُ من طبقةٍ وتُوضعُ في طبقةٍ وتكونُ على ما شِئْت، وأدنى حالاتِها أنْ تمدَّ إليها ٱليدَ فإذا هي في يدِك.

وأنا ٱمرؤٌ سيدٌ في نفسي، وأنا رجلُ صدق، ولسْتُ كهؤلاءِ ٱلذينَ لا يتأثَّمونَ[١] ولا يتذمَّمون[٢]؛ فإنْ خضْتُ في مثلِ هذا ٱنتفضَ طبعي وضَعُفتِ ٱستطاعتي وتَبيَّنَ ٱلنقصُ فيما أكتب، ونزلْتُ في ٱلجهتين؛ فلا يَطَّردُ لِيَ ٱلقولُ على ما يرجو، ولا يستوي على ما أُحِبّ؛ فذهبْتُ أناقضُهُ وأردُّ عليه؛ فبُهِتَ ينظرُ إليّ ويُقَلِّبُ عينيهِ في وجهي، كأنَّ ٱلكاتبَ عندَهُ خادمُ رأيهِ كخادمِ مطبخِهِ وطعامِهِ، هذا من هذا!.

ثُمَّ قالَ لي: يا أبا عثمان، إنِّي لأَستحي أنْ أعنِّفَك؛ وبهذا ٱلقولِ لم يستحِ أنْ يُعنّفَ أبا عثمان. . ولهممْتُ ـ وَٱللّه ـ أنْ أُنشدَهُ قولَ عباس بْنِ مرداس:

أكُلَيب. . مالكَ كلَّ يومٍ ظالماً ... وَٱلظُّلْمُ أنكَدُ وجهُهُ ملْعونُ. . .

لولا أن ذكرْتُ قولَ ٱلآخر:

وما بينَ مَنْ لم يُعطِ سَمْعاً وطاعةً ... وبينَ تميمٍ غيرُ حَزِّ ٱلغلاصِمِ

(١) يتأثمون: يشعرون بالإثم.
(٢) يتذمّمون: يشعرون بالذمّ.

وحزُّ ٱلغلاصم[1] «وقطعُ ٱلدراهم» من قافيةٍ واحدة. . . وقالَ سعيدُ بْنَ أبي عُروبةَ: «لأنْ يكونَ لي نصفُ وجهٍ ونصفُ لِسانٍ على ما فيهما من قبحِ ٱلمنظرِ وعجزِ ٱلمخبر ـ أحبُّ إليّ من أنْ أكونَ ذا وجهينِ وذا لِسانينِ وذا قولينِ مختلفين». وقال أيوبُ ٱلسختيانيّ. . .

وهمَّ شيخُنا أنْ يمرَّ في ٱلحفظِ وٱلروايةِ على طريقتِه، فقلْت: وقالَ رئيسُ ٱلتحرير. . .؟

فضحكَ وقال: أمَّا رئيسُ ٱلتحريرِ فيقول: إنَّ ٱلخلابةَ وٱلمُواربةَ وتقليبَ ٱلمنطقِ هيَ كلُّ ٱلبلاغةِ في ٱلصحافةِ ٱلحديثة، ولهي كقلْبِ ٱلأعيانِ في معجزاتِ ٱلأنبياءِ ـ صلواتُ ٱلله عليهم ـ؛ فكما ٱنقلبَتِ ٱلعصا حيَّةً تسعى، وهيَ عصا وهيَ مِنَ ٱلخشب، فكذلك تنقلِبُ ٱلحادثةُ في معجزاتِ ٱلصحافةِ إذا تعاطاها ٱلكاتبُ ٱلبيلغُ بِٱلفِطْنةِ ٱلعجيبةِ وٱلمنطقِ ٱلملوَّنِ وَٱلمعرفةِ بِأساليبِ ٱلسياسة؛ فتكونُ لِلْتهويل، وهي في ذاتِها ٱطمئنان، وَللتهمةِ وهي في نفسِها براءة، ولِلْجنايةِ وهيَ في معناها سلامة: ولو نَفَخَ ٱلصحافيُّ ٱلحاذقُ في قبضةٍ مِنَ ٱلترابِ لٱستطارَتْ منها ٱلنارُ وَٱرتفعَ لَهبُها ٱلأحمرُ في دخانِها ٱلأسود. قال: وإنَّ هذا ٱلمنطقَ ٱلملوَّنَ في ٱلسياسةِ إنَّما هو إتقانُ ٱلحِيلةِ على أنْ يصدِّقَكَ ٱلناس؛ فإنَّ ٱلعامَّةَ وأشباهَ ٱلعامَّةِ لا يصدّقون ٱلصدقَ لنفسِه، ولكنْ لِلغرضِ ٱلذي يُساقُ لَهُ، إذْ كانَ مدارُ ٱلأمرِ فيهم على ٱلإيمانِ وَٱلتقديس، فأذِقْهم حلاوةَ ٱلإيمانِ بِٱلكذبِ فلنْ يعرفوه إلَّا صِدْقاً وفوقَ ٱلصِّدْق، وهم من ذاتِ أنفسِهِم يُقيمونَ ٱلبراهينَ ٱلعجيبةَ ويُساعدون بها مَنْ يكذبُ عليهم متى أحكمَ ٱلكذب، لِيحقّقوا لِأنفسِهِم أنَّهُم بحثوا ونظروا ودقَّقوا. . .

ثُمَّ قالَ أبو عثمان: ومعنى هذا كُلِّهِ أنَّ بعضَ دُورِ ٱلصحافةِ لو كتبَتْ عِبارةً صريحةً لِلإعلانِ لَكَانَتِ ٱلعِبارةُ هكذا: سياسةٌ لِلْبيع. . .

* * *

قلْت: يا شيخَنا، فإنَّك هنا عندَهم لِتكتَب كما يكتبون، ومقالاتُ ٱلسياسةِ ٱلكاذبةِ كِرسائلِ ٱلحُبِّ ٱلكاذب: تُقرأُ فيها معانٍ لا تُكتب، ويكونُ في عِبارتِها حياءٌ وفي ضمنِها طلبُ ما يُستَحى منه. . . وٱلحوادثُ عندَهم على حسبِ ٱلأوقات،

---

(١) الغلاصم، مفرده الغلصمة وهو اللحم بين الرأس والعنق، أو العُجرة على ملتقى اللهاة أم المريء، أو رأس الحلقوم.

فَٱلأبيضُ أسودُ في ٱلليل، وَٱلأسودُ أبيضُ في ٱلنهار؛ ألم تَرَ إلى فلانٍ كيف يصنعُ وكيف لا يُعجزُهُ برهانٌ وكيف يُخرِجُ ٱلمعاني؟

قال: بلى، نِعمَ ٱلشاهدُ هو وأمثالُه! . إنَّهم مصدَّقونَ حتى في تاريخِ حفرِ زمزم.

قلْت: وكيف ذلك؟

قال: شهدَ رجلٌ عندَ بعضِ ٱلقضاةِ على رجلٍ آخر، فأرادَ هذا أنْ يجرِّحَ شهادَتَه، فقالَ لِلقاضي: أتقبلُ منه وهو رجل يملكُ عشرينَ ألفَ دينارٍ ولم يحجَّ إلى بيتِ ٱللهِ؟ فقالَ ٱلشاهد: بلى قد حججْتُ. قالَ ٱلخصم؛ فَٱسأَلْهُ أيُّها ٱلقاضي عن زمزمٍ كيف هي؟ قالَ ٱلشاهد: لقد حججْتُ قبلَ أنْ تُحفرَ زمزمٌ فلم أرَها. . .

قالَ أبو عثمان: فهذه هيَ طريقةُ بعضِهم فيما يُزكِّي بِهِ نفسَه: ينزلونَ إلى مثلِ هذا ٱلمعنى وإنِ ٱرتفعوا عن مثلِ هذا ٱلتعبير؛ إذْ كانَتِ ٱلحياةُ ٱلسياسيَّةُ جَدَلاً في ٱلصحفِ لِنفيِ ٱلمنفيِّ وإثباتِ ٱلمُثْبَت، لا عملاً يعملونَهُ بِٱلنفيِ وَٱلإثبات؛ ومتى ٱستقلَّتْ هذه ٱلأُمَّةُ وجبَ تغييرُ هذه ٱلصحافةِ وإكراهُها على ٱلصدق، فلا يكونُ ٱلشأنُ حينئذٍ في إطلاقِ ٱلكلمةِ ٱلصحافيَّةِ إلَّا من معناها ٱلواقع.

وَٱلحياةُ ٱلمستقلَّةُ ذاتُ قواعدَ وقوانينَ دقيقةٍ لا يُترخَّصُ[1] فيها ما دامَ أساسُها إيجادَ ٱلقوَّةِ وحياطةَ ٱلقوَّةِ وأعمالَ ٱلقوَّة، وما دامَتْ طبيعتُها قائمةً على جعلِ أخلاقِ ٱلشعبِ حاكمةً لا محكومة؛ وقد كانَ ٱلعملُ ٱلسياسيُّ إلى ٱلآنِ هو إيجادَ ٱلضعفِ وحياطةَ ٱلضعفِ وبقاءَ ٱلضعف؛ فكانَتْ قواعدُنا في ٱلحياةِ مغلوطة؛ ومِنْ ثَمَّ كانَ ٱلخُلُقُ ٱلقويُّ ٱلصحيحُ هوَ ٱلشاذَّ ٱلنادرَ يظهرُ في ٱلرجلِ بعدَ ٱلرجلِ وٱلفترةِ بعدَ ٱلفترة، وذلك هو ٱلسببُ في أنَّ عندَنا مِنَ ٱلكلامِ ٱلمُنافِقِ أكثرُ مِنَ ٱلحرّ، ومِنَ ٱلكاذبِ أكثرُ مِنَ ٱلصادق، ومِنَ ٱلمُمَاري أكثرُ مِنَ ٱلصريح؛ فلا جَرَمَ ٱرتفعتِ ٱلألقابُ فوقَ حقائقِها، وصارَتْ نعوتُ ٱلمناصبِ وكلماتُ باشا وبك مِنَ ٱلكلامِ ٱلمقدَّسِ صحافياً. . .

يا لَعبادِ ٱللهِ! يأتيهمُ ٱسمُ ٱلأديبِ ٱلعظيم فلا يجدونَ لَهُ موْضِعاً في «محليات ٱلجريدة»؛ ويأتيهمُ اسمُ ٱلباشا أو ٱلبك أو صاحبُ ٱلمنصبِ ٱلكبيرِ فبماذا تتشرَّفُ «ٱلمحليَّاتُ» إلَّا بِهِ؟ وهذا طبيعيّ، ولكنْ في طبيعةِ ٱلنفاق؛ وهذا واجبٌ، ولكنْ حينَ يكونُ ٱلخضوعُ هَوَ ٱلواجبَ؛ ولو أنَّ لِلأديبِ وزْناً في ميزانِ ٱلأُمَّةِ لَكَانَ لَهُ مثلُ

---

(١) يترخصّ: يتساهل.

ذلك في مِيزانِ ٱلصحافة؛ فأنت ترى أنَّ ٱلصحافةَ هنا هيَ صورةٌ من عاميَّةِ ٱلشعْبِ ليسَ غير. . . ومَنْ ذا ٱلذي يُصحِّحُ معنى ٱلشرفِ ٱلعاملِ لِهذهِ ٱلأُمَّةِ وتاريخِها، وأكثرُ ٱلألقابِ عندَنا هيَ أغلاطٌ في معنى ٱلشرف. . .؟

ثُمَّ ضحكَ أبو عثمانَ وقال: زعموا أنَّ ذبابةً وقعَتْ في بارجةِ (أميرالٍ) إنجليزيٍّ أيامَ ٱلحربِ ٱلعظمى؛ فرأَتِ ٱلقائدَ ٱلعظيمَ وقد نشرَ بين يديهِ دُرْجاً مِنَ ٱلورقِ وهو يُخَطِّطُ فيهِ رسْماً من رسومِ ٱلحرْب؛ ونظرَتْ فإذا هو يُلقي ٱلنقطةَ بعدَ ٱلنقطةِ مِنَ ٱلمدادِ ويقول: هذه مدينةُ كذا، وهذا حِصْنُ كذا، وهذا مَيدانُ كذا. قالوا: فسخِرَتْ منهُ ٱلذبابةُ وقالَت: ما أيسرَ هذا ٱلعملَ وما أخفَّ وما أهون!. ثُمَّ وقعَتْ على صفحةٍ بيضاءَ وجعلَتْ تُلْقي وَنِيمَها[1] هنا وهناك وتقول: هذه مدينةٌ، وهذا حصن. . .

* * *

وَٱلتفتَ ٱلجاحظُ كأنَّما توهَّمَ ٱلجرسَ يدقّ. . . فلمَّا لم يسمعْ شيئاً قال:

لو أنَّني أصدْرتُ صحيفةً يوميَّةً لَسميْتُها (ٱلأكاذيب)، فمهما أكذبُ على ٱلناسِ فقدْ صدقْتُ في ٱلاسم، ومهما أُخطىءُ فلنْ أُخطىءَ في وضعِ ٱلنفاقِ تحتَ عنوانهِ.

قال: ثُمَّ أخطُّ تحتَ ٱسمِ ٱلجريدةِ ثلاثةَ أسطرٍ بِٱلخطِّ ٱلثلث هذا نصُّها:

ما هي عِزةُ ٱلأذلاء؟ هيَ ٱلكذبُ ٱلهازل.

ما هيَ قوةُ ٱلضعفاء؟ هيَ ٱلكذبُ ٱلمكابر.

ما هيَ فضيلةُ ٱلكذابين؟ هيَ ٱستمرارُ ٱلكذب.

قال: ثُمَّ لا يحرِّرُ في جريدتي إلَّا «صعاليكُ ٱلصحافة» من أمثالِ ٱلجاحظ؛ ثُمَّ أكذبُ على أهلِ ٱلمالِ فأمجِّدُ ٱلفقراءَ ٱلعاملين، وعلى رِجالِ ٱلشرفِ فأعظِّمُ ٱلعمالَ ٱلمساكينَ، وعلى أصحابِ ٱلألَقابِ فأقدِّمُ ٱلأدباءَ وَٱلمؤلفين، و. . .

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيسِ ٱلتحرير. . .

* * *

(١) ونيم الذباب: هو ما تحدثه من نقط سود على الآنية أو الزجاج وما شاكل.

صعاليكُ ٱلصحافة

٣

ولم يلبثْ أنْ رجعَ أبو عثمانَ في هذه ٱلمرَّةِ وكأَنَّهُ لم يكنْ عندَ رئيسِ ٱلتحرير في عملٍ وأدائِهِ، بلْ كانَ عندَ رئيسِ ٱلشُّرطةِ في جِنايةٍ وعِقابِها؛ فظهرَ مُنْقلِبَ ٱلسِّحْنةِ ٱنقلاباً دميماً شوَّهَ تشويهَهُ وزادَ فيه زيادات. . . ورأيْتُهُ ممطوطَ ٱلوجهِ مطّاً شنيعاً بدَتْ فيهِ عيناهُ ٱلجاحظتانِ كأَنَّهما غيرُ مستقرتينِ في وجهِه، بلْ معلقتانِ على جبَهتِهِ. . .

وجعلَ يضربُ إحدى يديهِ بِٱلأخرى ويقول: هذا بابٌ على حِدَّةٍ في ٱلامتحانِ وَٱلبلوى، وما فيهِ إِلَّا ٱلمؤنةُ ٱلعظيمةُ وٱلمشقةُ ٱلشديدة؛ وٱلعملُ في هذه ٱلصحافةِ إِنَّما هوَ ٱمتحانُكَ بِٱلصبرِ على ٱثنين: على ضميرِك، وعلى رئيسِ ٱلتحرير! «وسأَلَ بعضُ أصحابِنا أبا لُقمانَ ٱلممرورَ عنِ ٱلجزءِ ٱلذي لا يتجزأُ ما هو؟ فقال: الجزءُ ٱلذي لا يتجزأُ عليُّ بْنُ أبي طالبَ ـ عليهِ ٱلسلام ـ فقالَ لَهُ أبو ٱلعيناءِ محمد: أفليسَ في ٱلأرضِ جزءٌ لا يتجزأُ غيرُه! قال: بلى، حمزةُ جزءٌ لا يتجزأ. . . قال: فما تقولُ في أبي بكرٍ وعمر؟ قال: أبو بكر يتجزَّأُ. . . قال: فما تقولُ في عثمان؟ قال: يتجزَّأُ مرتين، وَٱلزُّبيرُ يتجزأُ مرتين. . . قال: فأيَّ شيءٍ تقول في معاوية؟ قال: لا يتجزَّأُ.

«فقدْ فكرْنَا في تأويلِ أبي لُقمانَ حينَ جعلَ ٱلأيامَ أجزاءَ لا تتجزَّأُ إلى أي شيءٍ ذهب؟ فلمْ نقعْ عليهِ إِلَّا أنْ يكونَ أبو لُقمانَ كانَ إذا سمعَ ٱلمتكلمينَ يذكرون ٱلجزءَ ٱلذي لا يتجزأُ، هالَهُ ذلك وكَبُرَ في صدرِهِ وتوهَّمَ أَنَّهُ ٱلبابُ ٱلأكبرُ من عِلْمِ ٱلفلسفة، وأنَّ ٱلشيءَ إذا عظُمَ خطرُهُ سَمَّوْهُ بِٱلجزءِ ٱلذي لا يتجزأ».

قلْت: ورجعَ بنا ٱلقولُ إلى رئيسِ ٱلتحرير. . .

فضحكَ حتى أسفرَ وجهُهُ(١) ثُمَّ قال: إنَّ رئيسَ ٱلتحريرِ قد تلقَّى ٱلساعةَ أمراً

---

(١) أسفر وجهه: بان عن شيء.

بأنَّ ٱلجزءَ ٱلذي لا يتجزَّأُ ٱليومَ هو فلان؛ وأنَّ فلاناً ٱلآخرَ يتجزأُ مرتين. . . وأنَّ ٱلمعنى ٱلذي يبني عليهِ رأيَ ٱلصحيفةِ في هذا ٱلنهارِ هو شأنُ كذا في عملِ كذا؛ وأنَّ هذا ٱلخبرَ يجبُ أنْ يُصوَّرَ في صِيغةٍ تُلائمُ جوعَ ٱلشعبِ فتجعلُهُ كَٱلخبزِ ٱلذي يَطعمُهُ كلُّ ٱلناس، وتُثيرُ لَهُ شهوةً في ٱلنفوسِ كشهوةِ ٱلأكلِ وطبيعةً كطبيعةِ ٱلهضم. . . وقد رمى إليَّ رئيسُ ٱلتحريرِ بِجملةِ ٱلخبر، وعليَّ أنا بعدَ ذلك أنْ أُضرِمَ(١) ٱلنارَ وأنْ أجعلَ ٱلترابَ دقيقاً أبيضَ يُعجنُ ويُخبزُ ويُؤكلُ ويَسوغُ في ٱلحلقِ وتستمرئُهُ ٱلمَعِدةُ ويسري في ٱلعروق.

وإذا أنا كتبْتُ في هذا ٱحتجْتُ مِنَ ٱلترقيعِ وٱلتمويه، ومِنَ ٱلتدليسِ(٢) وٱلتغليط، ومِنَ ٱلخِبِّ(٣) وٱلمكْر، ومِنَ ٱلكذبِ وَٱلبُهتانِ ـ إلى مثلِ ما يحتاجُ إليهِ ٱلزنديقُ(٤) وٱلدهريُّ(٥) وَٱلمعطِّلُ(٦) في إقامةِ ٱلبرهاناتِ على صِحَّةِ مذهبٍ عَرَفَ ٱلناسُ جميعاً أنَّهُ فاسدٌ بِٱلضرورةِ إذْ كانَ معلوماً مِنَ ٱلدينِ بِٱلضرورة، أنَّهُ فاسدٌ؛ وأينَ ترى إلَّا في تلكَ ٱلنِّحَلِ(٧) وفي هذه ٱلصحافةِ أنْ يُنكرَ ٱلمتكلمُ وهو عارفٌ أنَّهُ مُنْكِر، وأنْ يجترِىءَ وهو مُوْقنٌ أنَّهُ مجترِيءٌ، ويُكابِرَ وهو واثقٌ أنَّهُ يُكابِر؟ فقد ظهرَ تقديرٌ من تقدير، وعملٌ من عمل، ومذهبٌ من مذهب؛ وٱلآفةُ أنَّهم لا يستعملونَ في ٱلإقناعِ وَٱلجَدَلِ وَٱلمُغالطةِ إلَّا ٱلحقائقَ ٱلمُؤَكَّدة؛ يأخذونها إذا وُجِدَتْ ويصنعونَها إنْ لَمْ تُوجد، إذْ كانَ ٱلتأثيرُ لا يَتِمُّ إلَّا بجعلِ ٱلقارىءِ كَٱلحالم: يملكُهُ ٱلفِكْرُ ولا يملكُ هو منه شيئاً، ويُلقَى إليهِ ولا يمتنعُ، ويُعطى ولا يَرُدُّ على مَنْ أعطاه.

قلْت: ولكنْ ما هوَ ٱلخبرُ ٱلذي أرادوك على أنْ تجعلَ من ترابِهِ دقيقاً أبيض؟

قال: هو بِعينِهِ ذلك ٱلشأنُ ٱلذي كتبْتُ فيهِ لِهذه ٱلصحيفةِ نفسِها أنقضُهُ وأُسفّهُهُ وأردُّ عليه، وكانَ يومئذٍ جزءاً يتجزَّأ. . . فإنْ صنعْتُ ٱليومَ بلاغتي في تأييدِهِ وتزيينِهِ وَٱلإشادةِ بِه، ولم يكنْ هذا كاسراً لي، ولا حائلاً بيني وبينَ ذاتِ نفسي ـ

---

(١) أضرم النار: أشعلها.

(٢) التدليس: هو كتمان عيب السلعة عن المشتري ومنه التدليس في الإسناد وهو أن يحدث عن الشيخ الأكبر ولعلّه ما رآه وإنما سمعه ممن هو دونه.

(٣) الخبّ: الخدّاع.

(٤) الزنديق: هو من كان يخفي ديناً ويظهر آخر عند الفرس.

(٥) الدهري: هو من يؤمن بإفناء الدهر للمخلوقات، ولا يؤمن بالله سبحانه وتعالى.

(٦) المعطّل: هو من يؤمن بأن الله عزّ وجل غير فاعل في الكون، وأنه لا يسيره.

(٧) النحل، مفرده نحلة أي المذهب.

فلا أقلُّ من أَنْ يكونَ ٱلجاحظُ تكذيباً لِلْجاحظ، آهِ لو وُضِعَ ٱلرديو في غرفِ رؤساءِ ٱلتحريرِ لِيسمعَ ٱلناس. . .

قلْت: يا أبا عثمان، هذا كقولِك: لو وُضِعَ ٱلرديو في غرفِ قوادِ ٱلجيوشِ أو رؤساءِ ٱلحكومات.

قال: ليس هذا من هذا، فإنَّ لِلْجيشِ معنًى غيرَ ٱلحِذْقِ[1] في تدبيرِ ٱلمعاشِ وٱلتكسُّبِ وجمعِ ٱلمال؛ وفي أسرارِهِ أسرارُ قوَّةِ ٱلأُمَّةِ وعملُ قوتِها؛ ولِلْحكومةِ دخائلُ سياسيَّةٌ لاَ يُحرِّكُها أنَّ فُلاناً ٱرتفعَ وأنَّ فُلاناً ٱنخفض، ولا تُصرِّفُها ٱلعَشْرةُ أكثرَ من ٱلخمسة؛ وفي أسرارِها أسرارُ وجودِ ٱلأُمَّةِ ونظامُ وجودِها.

قال أبو عثمان: وإنَّما نزلَ بصحافتِنا دونَ منزلتِها أنَّها لا تجدُ ٱلشعبَ القارىءَ المُميِّزَ ٱلصحيحَ ٱلقراءةِ ٱلصحيحَ ٱلتميز، ثُمَّ هيَ تُريدُ أنْ تذهبَ أموالُها في إيجادِهِ وتنشئتِهِ؛ وعملُ ٱلصحافةِ مِنَ ٱلشعبِ عملُ ٱلتيارِ مِنَ ٱلسفنِ في تحريكِها وتيسيرِ مجراها، غيرَ أنَّ ٱلمضحِكَ أنَّ تيارَنَا مع سفينةٍ ويرجعُ مع سفينة. . . ولو أنَّ ٱلصحافةَ ٱلعربيَّةَ وجدَتِ ٱلشعْبَ قارئاً مُدركاً مميِّزاً معتبِراً مستبصِراً لمَا رَمَتْ بنفسِها على ٱلحكوماتِ وَٱلأحزابِ عجْزاً وضعْفاً وفُسولة، ولا خرجَتْ عَنِ ٱلنسقِ ٱلطبيعيِّ ٱلذي وُضِعَتْ لَهُ، فإنَّ ٱلشعبَ تحكمُهُ ٱلحكومة، وإنَّ ٱلحكومةَ تحكمُها ٱلصحافة، فهيَ مِنْ ثَمَّ لِسانُ ٱلشعب؛ وإنَّما يقرؤُها ٱلقارىءُ لِيرى كلمتَهُ مكتوبة؛ وشعورُ ٱلفردِ أنَّ لَهُ حقّاً في رَقابةِ ٱلحكومةِ وأنَّهُ جزءٌ من حركةِ ٱلسياسةِ وَٱلاجتماع، هوَ ٱلذي يُوجِبُ عليهِ أنْ يبتاعَ كلَّ يومٍ صحيفةَ ٱليوم.

قالَ أبو عثمان: فَٱلصحافةُ لا تقوى إلَّا حيثُ يكونُ كلُّ إنسانٍ قارئاً، وحيثُ يكونُ كلُّ قارىءٍ للصحيفةِ كأنَّهُ مُحرِّرٌ فيها، فهو مُشارِكٌ في ٱلرأيِ لِأنَّهُ واحدٌ مِمَّنْ يدورُ عليهمُ ٱلرأي، مُتَتَبِّعٌ لِلْحوادثِ لأنَّهُ هو من مادتِها أو هيَ من مادتِه، وهو لذلك يُريدُ مِنَ ٱلصحيفةِ حِكايةَ ٱلوقتِ وتفسيرَ ٱلوقت، وأنْ تكونَ لَهُ كما يكونُ ٱلتفكيرُ ٱلصحيحُ لِلْمفكر، فيُلزمُها ٱلصدقَ ويطلُبُ منها ٱلقوَّةَ ويلتمِسُ فيها ٱلهِداية، وتأتي إليهِ في مطلعِ كلِّ يومٍ أو مغربِهِ كما يدخلُ إلى دارِهِ أحدُ أهلِهِ ٱلساكنينَ في دارِه.

وفي قِلَّةِ ٱلقرَّاءِ عِندَنا آفتان: أمَّا واحدةٌ فهي ٱلقِلَّةُ ٱلتي لا تُغني شيئاً؛ وأمَّا ٱلأخرى فَهُمْ على قِلَّتِهِم لا ترى أكبرَ شأْنِهِم إلَّا عِبادةَ قوْمٍ لِقوْم، وزِرايةَ أناسٍ

---

(١) الحذق: المهارة.

بآخرين، وتعلُّقَ نِفاقٍ بنِفاق، وتصديقَ كذِبٍ لِكذِب؛ وآفةٌ ثالثةٌ تَخرجُ مِن ٱجتماعِ ٱلاثنتين: وهيَ أنَّ أكثرَهُمْ لا يكونون في قِراءتِهِمُ ٱلصحيفةَ إلَّا كَالنظارةِ ٱجتمعوا لِيشهدوا ما يتلهَّوْنَ بهِ، أو كَالفَراغِ يلتمسونَ ما يقطعونَ بِهِ ٱلوقت؛ فهم يأخذونَ ٱلسياسةَ مأخذَ مَنْ لا يُشاركُ فيها، ويتعاطَوْن ٱلجِدَّ تعاطِيَ مَنْ يلْهو بهِ، ويتلقَّوْنَ ٱلأعمالَ بِروحِ ٱلبطالة، وَٱلعزائمَ بأسلوبِ عدمِ ٱلمُبَالاة، وَٱلمُباحثةَ بِفكرةِ ٱلإهمال، وَٱلمعارضَةَ بِطَبيعةِ ٱلهزْءِ وَٱلتحقير؛ وهم كَٱلمصلِّينَ في ٱلمسجد؛ فمثِّلْ لِنفسِك نوعاً مِنَ المصلينَ إذا ٱصطفوا وراءَ ٱلإمامِ تركوهُ يُصلِّي عنْ نفسِهِ وعنهم وَٱنصرفوا...

قالَ أبو عثمان: بهذا ونحوِهِ جاءَتِ ٱلصُّحُفُ عندَنا وأكثرُها لا ثباتَ لَهُ إلَّا في ٱلموضِعِ ٱلذي تكونُ فيهِ بينَ منافعِهِ ووسائلِ منافعِه؛ ومن هذا ونحوِهِ كانَ أقوى ٱلمادةِ عندَنا أنْ تظهرَ ٱلصحيفةُ مملوءةً حكومةً وسلْطةً وباشواتٍ وبيكوات... وكانَ مِنَ ٱلطبيعيِّ أنَّ محلَّ ٱلباشا وَٱلبك وٱلحوادثِ ٱلحكوميَّةِ ٱلتفهةِ لا يكونُ منَ ٱلجريدةِ إلَّا في موضعِ قلْبِ ٱلحيِّ مِنَ ٱلحيِّ.

ثُمَّ ٱستضحكَ شيخُنا وقال: لقد كتبْتُ ذاتَ يوم مقالةً أقترِحُ فيها على ٱلحكومةِ تصحيحَ هذه ٱلألقاب، وذلك بِوضعِ لقبٍ جديدٍ يكونُ هوَ ٱلمفسِّرَ لِجميعِها ويكونُ هوَ ٱللقبَ ٱلأكبرَ فيها، فإذا أُنعِمَ بِهِ على إنسانٍ كَتبَتِ ٱلصحفُ هكذا: أنعمَتِ ٱلحكومةُ على فلانٍ بلقبِ (ذو مال).

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيسِ ٱلتحرير...

* * *

فلم يلبثْ إلَّا يسيراً ثُمَّ عادَ متهلِّلاً ضاحكاً وقد طابَتْ نفسُهُ فليسَ لَهُ جحوظُ ٱلعينين إلَّا بِٱلقدرِ ٱلطبيعيّ، وجلسَ إليَّ وهو يقول:

بيدَ أنَّ رئيسَ ٱلتحريرِ لم ينشرْ ذلك ٱلمقال، ولم يَرَ فيهِ ٱستطرافاً[1] ولا ٱبتكاراً ولا نُكتةً ولا حُجَّةً صادقة، بلْ قال: كأنَّكَ يا أبا عثمانَ تُريدُ أنْ يأكلَ عددُ ٱليوم عددَ ٱلغد، فإذا نحن زهِدْنا في ٱلألقابِ وأصغرْنا أمرَها وتهكَّمْنا بها وقُلْنا إنَّها أفسَدَتْ معنى ٱلتقديرِ ٱلإنسانيِّ وتركَتْ مَنْ لم ينلْها من ذوي ٱلجاهِ وَٱلغِنى يرى نفسَهُ إلى جانبِ مَنْ نالَها كَٱلمرأةِ ٱلمطلَّقةِ بِجانبِ ٱلمتزوِّجة... وقلْنا إنَّها من ذلك تكادُ تكونُ وسيلةً من وسائلِ ٱلدفْعِ إلى ٱلتملُّقِ وَٱلخضوعِ وَٱلنِّفاقِ لِمَنْ بِيدِهِمُ ٱلأمر، أو

(١) استطرافاً: جِدَّة.

وسيلةً إلى ما هو أحطُّ من ذلك كما كانَ شأنُها في عهدِ ٱلدولةِ ٱلعثمانيَّةِ ٱلبائدةِ حينَ كانَ ٱلوِسامُ كَٱلرقعةِ من جِلْدِ ٱلدولةِ يُرقعُ بها ٱلصدرُ ٱلذي شَقُّوهُ وَٱنتزعوا ضميرَه - إذا نحن قُلْنا هذا وفعلْنا هذا، لم نجدِ ٱلشعبَ ٱلذي يُحكمُ لنا، ووجدْنا ذوي ٱلمالِ وَٱلجاهِ وَٱلمناصبِ ٱلذين يحكمونَ علينا؛ فكُنَّا كَمَنْ يتقدَّمُ في ٱلتهمةِ بِغيرِ مُحامٍ إلى قاضٍ ضعيف.

يا أبا عثمان، إنَّما هي حَياةُ ثلاثةِ أشياء: الصحيفة، ثُمَّ ٱلصحيفة، ثُمَّ ٱلحقيقة... فَٱلفكرةُ ٱلأولى لِلْصحيفة، وَٱلفكرةُ ٱلثانيةُ هيَ لِلْصحيفةِ أيضاً؛ ومتى جاءَ ٱلشعبُ ٱلذي يقولُ: لا، بلْ هيَ ٱلحقيقة، ثُمَّ ٱلحقيقة، ثُمَّ ٱلصحيفة - فيومئذٍ لا يُقالُ في ٱلصحافةِ ما قيلَ لِلْيهودِ في كتابِ موسى ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

قلْت: أراكَ يا أبا عثمانَ لم تُنكرْ شيئاً من رئيسِ ٱلتحريرِ في هذه ٱلمرة، فشقَّ عليكَ ألا تثلُبَهُ، فغمزْتَهُ بِٱلكلامِ عن مرَّةٍ سالفة.

قال: أمَّا هذه ٱلمرةَ فأنا ٱلرئيس لا هو، وفي مثلِ هذا لا يكونُ عمُّكَ أبو عثمانَ من (صعاليكِ ٱلصحافة)؛ إنَّ ٱلرجلَ ٱشتبَهَ في كلمة: ما وجهُها: أمرفوعةٌ هيَ أم منصوبة؟ وفي لفظة: ما هيَ: أعربيَّةٌ أم مولَّدة؟ وفي تعبيرٍ أعجميٍّ: ما الذي يُؤديهِ مِنَ ٱلعربيَّةِ ٱلصحيحة؟ وفي جملة: أهيَ في نسقِها أفصَحُ أَمْ يُبدلُها؟

إنَّ ٱلمعجمَ هنا لا يُفيدُهم شيئاً إلَّا إذا نطق...

ولقدِ ٱبتُليَتْ هذه ٱلأُمَّةُ في عهدِها ٱلأخيرِ بِحُبِّ ٱلسهولةِ مِمَّا أثَّرَ فيها ٱلاحتلالُ وسياستُهُ وتحمُّلُهُ ٱلأعباءَ عنها وٱستهدافُهُ دونَها لِلْخطر، فشبَهُ ٱلعاميَّةِ في لغةِ ٱلصحفِ وفي أخبارها وفي طريقِها إنَّما هو صورةٌ من سهولةِ تلك ٱلحياة، وكأنَّهُ تثبيتٌ للضعفِ وَٱلخورِ[1]، وأنت خبيرٌ أنَّ كلَّ شيءٍ يتحَّولُ بِما تُحدِثُ لَهُ طبيعتُهُ عالياً أو نازلاً، فقد تحْولَتِ ٱلسهولةُ من شِبهِ ٱلعاميَّةِ إلى نِصفِ ٱلعاميَّةِ في كتابةِ أكثرِ ٱلمجلاتِ وفي رسائلِ طلبةِ ٱلمدارس، حتى لَتبدُوَ ٱلمقالةُ في ألفاظِها ومعانيها كأنَّها ٱلقنفذُ أرادَ أنْ يحملَ مأكلةَ صِغارِه، فقرضَ عنقوداً مِنَ ٱلعنب، فألقاهُ في ٱلأرضِ وأتربَهُ وتمرَّغَ فيه، ثُمَّ مشى يحملُ كلَّ حبةٍ مرضوضةٍ في عشرينَ إبرةَ من شوكِه.

* * *

---

(١) الخَوَر: الضعف.

ثُمَّ مدَّ أبو عثمانَ يدَهُ فتناولَ مجلَّةً ممَّا أمامَهُ وقعَتْ يدُهُ عليها ٱتِّفاقاً ثُمَّ دفعَها إليَّ وقال: اِقرأْ ولا تجاوزْ عنوانَ كلِّ مقالة. فقرأتُ هذه ٱلعناوين:

«مسؤوليَّةُ طبيبٍ عن فتاةٍ عذراء»، «مودةُ ٱلراقصاتِ ٱلصينيَّات»، «تخرُّ مغشيّاً عليها لِأَنَّهُمُ ٱكتشفوا صورةَ حبيبِها»، «هلْ يُعتبرُ قبولُ ٱلهديَّةِ دليلاً على ٱلحُبِّ، وإذا كانَتْ ملابسُ داخليةٌ. . . فهل تُعتبرُ وعداً بِٱلزواج؟»، «هلْ يَحِقُّ لِلأَبِ أنْ يُطالبَ صديقَ ٱبنتِه. . . بِتعويضٍ إذا كانَتْ ٱبنتُهُ غيرَ شرعيَّة»، «بين خَطيبتينِ لِشابٍّ واحد»، «بعدَ أنْ قصَّ على زوجتِهِ أخبارَ ٱلسهرة. . . لماذا أطلقَتْ عليهِ ٱلرصاص؟»، «عروسٌ تأخذُ (شبكة) من شابينِ ثُمَّ تطردُهما»، «زوجةُ ٱلموظفِ أين ذهبَت»، «لِماذا خُطفَتِ ٱلعروسُ في ٱليومِ ٱلمحددِ لِلزفاف؟» «في الطريق: حبٌّ بِٱلإكراه»، «فلانون وفلانات، زواجٌ وطلاق، وأخبارُ ٱلمراقص، وحوادثُ أماكنِ ٱلدعارة» إلخ إلخ.

فقالَ أبو عثمان: هذه هي حريَّةُ ٱلنشر؛ وَلَئِنْ كانَ هذا طبيعيّاً في قانونِ ٱلصحافةِ إنَّهُ لإثمٌ كبيرٌ في قانونِ ٱلتربية؛ فإنَّ ٱلأحداثَ وَٱلضعفاءَ يجدونَهُ عندَ أنفسِهِم كَٱلتخييرِ بينَ ٱلأخذِ بِٱلواجبِ وبينَ تركِه، ولا يفهمونَ من جوازِ نشرِهِ إلَّا هذا. «وبابٌ آخرُ من هذا ٱلشكلِ فبِكُم أعظمُ حاجةٍ إلى أنْ تعرفوه وتقفوا عندَه، وهو ما يصنعُ ٱلخبرُ ولا سيَّما إذا صادفَ مِنَ ٱلسامعِ قِلَّةَ تجربة، فإنْ قَرَنَ بينَ قِلَّةِ ٱلتجربةِ وقلةِ ٱلتحفظ - دخلَ ذلك ٱلخبرُ إلى مستقرِّهِ مِنَ ٱلقلْبِ دُخولاً سهْلاً، وصادفَ موضِعاً وطيئاً وطبيعةً قابلةً ونفساً ساكنة، ومتى صادفَ ٱلقلبَ كذلك رسخَ رُسوخاً لا حِيلةَ في إزالتِه.

ومتى أُلقيَ إلى ٱلفتيانِ شيءٌ من أمورِ ٱلفتياتِ في وقتِ ٱلغرارةِ وعندَ غلبةِ ٱلطبيعةِ وشبابِ ٱلشهوةِ وقلَّةِ ٱلتشاغلِ و. . .».

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيس التحرير. . .

* * *

صعاليك الصحافة

تتمة

وجاءَ أبو عثمانَ وفي بُروزِ عينيهِ ما يجعلُهُما في وجهِهِ شيئاً كعلامتي تعجُب ألقتْهما الطبيعةُ في هذا الوجه، وقد كانوا يُلقِّبونَهُ (الْحَدَقي) فوق تلقيبهِ بِٱلجاحظ، كأنَّ لقباً واحداً لا يُبيّنُ عن قبحِ هذا ٱلنتوءِ في عينيهِ إلَّا بمرادفٍ ومُساعدٍ مِنَ ٱللغة. . . وما تذكَّرْتُ ٱللقبينِ إلَّا حينَ رأيْتُ عينيهِ هذهِ ٱلمرَّة.

وَٱنحطَّ في مجلسِهِ كأنَّ بعضَهُ يرمي بعضَهُ من سخطٍ وغيْظٍ، أو كأَنَّ من جسمِهِ ما لا يُريدُ أنْ يكونَ من هذا ٱلخَلْقِ ٱلمشوَّه، ثُمَّ نصبَ وجهَهُ يتأمَّل، فبَدَتْ عيناهُ في خروجِهِما كأنَّما تهمَّانِ بِٱلفرارِ من هذا ٱلوجهِ ٱلذي تحيا ٱلكآبةُ فيهِ كما يحيا ٱلهمُّ في ٱلقلْب؛ ثُمَّ سكَتَ عنِ ٱلكلامِ لِأَنَّ أفكارَهُ كانت تُكَلِّمُهُ.

فقطعْتُ عليهِ ٱلصمْتَ وقلْت: يا أبا عثمان، رجعْتَ من عندِ رئيسِ ٱلتحريرِ زائداً شيئاً أو ناقصاً شيئاً؛ فما هو ـ يرحَمْكَ ٱلله ـ؟

قال: رجعْتُ زائداً أنِّي ناقص، وهَهنا شيءٌ لا أقولُه ولو أنَّ في ٱلأرضِ ملائكةً يمشون مطمئنينَ لوقفوا على عمِّكَ وأمثالِ عمِّكَ من كُتَّابِ ٱلصحفِ يتعجَّبون لِهذا ٱلنوعِ ٱلجديدِ مِنَ ٱلشهداء!.

وقالَ ٱبنُ يحيى ٱلنديم: دعاني ٱلمتوكِّلُ ذاتَ يومٍ وهو مخمورٌ فقال: أنشدني قولَ عَمارةَ في أهلِ بغدادَ. فأنشدْتُه:

ومَنْ يشتري منِّي ملوكَ مخَرِّم ... أَبِعْ حَسناً وٱبْنيْ هشامٍ بِدرهمِ
وأُعْطِ «رجاءً» بعْدَ ذاك زِيادةً ... وأمنحْ «ديناراً» بغيرِ تَنَدُّمِ

قال أبو عثمان:

فإنْ طَلَبُوا منِّي ٱلزيادةَ زِدْتُهم ... أبا دُلَفٍ وَٱلمستطيلَ بْنَ أكثمِ

ويلي على هذا ٱلشاعر! ٱثنانِ بِدرهمٍ، وَٱثنانِ زيادةٌ فوقَهُما لِعظَمِ ٱلدرهمِ،

وَٱثنانِ زيادةٌ على ٱلزيادةِ لِجَلالةِ ٱلدرهم: كأنَّهُ رئيسُ تحريرِ جريدةٍ يرى ٱلدنيا قد مُلِئَتْ كُتَّاباً، ولكنَّ هٰهنا شيئاً لا أقولُه.

وزعموا أنَّ كسرى أبرويزَ كانَ في منزلِ ٱمرأتِهِ شيرين، فأتاهُ صيادٌ بسمكةٍ عظيمة، فأُعجبَ بها وأمرَ لَهُ بأربعةِ آلآفِ درهم، فقالَتْ لَهُ شيرين: أمرْتَ لِلصيادِ بأربعةِ آلآفِ درهم، فإنْ أمرْتَ بِها لِرجلٍ مِنَ ٱلوجوهِ قال: إنمَّا أمرَ لي بمثلِ ما أمرَ لِلصياد! فقالَ كسرى: كيف أصنعُ وقد أمرْتُ لَهُ؟

قالَت: إذا أتاكَ فقُلْ لَهُ: أخبرني عنِ ٱلسمكة، أذكرٌ هيَ أم أنثى؟ فإنْ قالَ أنثى، فقلْ لَهُ: لا تقعُ عيني عليكَ حتى تأتيَني بِقرينِها، وإنْ قالَ غيرَ ذلك فقلْ لَهُ مثلَ ذلك.

فلمَّا غدا ٱلصيادُ على ٱلملكِ قالَ لَهُ: أخبْرني عنِ ٱلسمكة، أذكرٌ هيَ أم أنثى؟ قال: بلْ أُنثى، قالَ ٱلملك: فأْتِني بِقرينِها. فقالَ ٱلصياد: عمرَ ٱللَّهُ ٱلملك، إنَّها كانَتْ بِكْراً لم تتزوجْ بعدُ...

قلْت: يا أبا عثمان، فهلْ وقعْتَ في مثلِ هذهِ ٱلمعضلةِ مَعَ رئيسِ ٱلتحرير؟

قال: لم ينفعْ عمَّكَ أنَّ سمكتَهُ كانَتْ بِكْراً، فإنَّما يُريدونَ إخراجَهُ مِنَ ٱلجريدة؛ وما بلاغةُ أبي عثمانَ ٱلجاحظِ بِجانبِ بلاغةِ ٱلتلغرافِ وبلاغةِ ٱلخبرِ وبلاغةِ ٱلأرقامِ وبلاغةِ ٱلأصفرِ وبلاغةِ ٱلأبيض... ولكنَّ هٰهنا شيئاً لا أُريدُ أنْ أقولَه.

وسمكتي هذه كانَتْ مقالةً جوَّدْتُها وأحكمْتُها وبلغْتُ بألفاظِها ومعانيها أعلى منازِلِ ٱلشرفِ وأسنى[1] رُتَبِ ٱلبيان، وجعلْتُها في ٱلبلاغةِ طبقةً وحدَها، وقبلَ أنْ يقولَ ٱلأوربيُّون (صاحبةُ ٱلجلالةِ ٱلصحافة) قالَ ٱلمأمون: «ٱلكتَّابُ ملوكٌ على ٱلناس»، فأرادَ عمُّك أبو عثمانُ أنْ يجعلَ نفسَهُ ملكاً بتلك ٱلمقالةِ فإذا هو بها من (صعاليكِ ٱلصحافة).

لقدْ كانَتْ كَٱلعروسِ في زينتِها ليلةَ ٱلجَلْوةِ على مُحِبِّها، ما هيَ إلَّا ٱلشمسُ ٱلضاحية، وما هيَ إلَّا أشواقٌ ولذَّات، وما هيَ إلَّا ٱكتشافُ أسرارِ ٱلحُبّ، وما هيَ إلَّا هيَ؛ فإذا ٱلعروسُ عندَ رئيسِ ٱلتحريرِ هيَ ٱلمطلَّقة، وإذا ٱلمُعجِبُ هوَ ٱلمضحِك، ويقولُ ٱلرجل: أمَّا نظريًّا فنعم، وأما عمليًّا فلا؛ وهذا عصرٌ خفيفٌ

---

(١) أسنى: أرفع.

يُريدُ ٱلخفيف، وزمنٌ عاميٌّ يُريدُ ٱلعاميّ، وجمهورٌ سهلٌ يُريدُ ٱلسهل؛ وَٱلفصاحةُ هيَ إعرابُ ٱلكلامِ لا سِياستُهُ بِقوى ٱلبيانِ وَٱلفِكْرِ وَٱللغة، فهيَ ٱليومَ قد خرجَتْ من فنونِها وَٱستقرَّتْ في عِلْمِ ٱلنحو.

وحسبُكَ مِنَ ٱلفرقِ بينَك وبينَ ٱلقارىءِ ٱلعاميّ: أنَّكَ أنت لا تلحنُ وهو يلحن.

قال أبو عثمان: وهذه ـ أكرمَكَ ٱللَّهُ ـ منزلةٌ يَقِلُّ فيها ٱلخاصيُّ ويكثرُ ٱلعاميُّ فَيُوشِكُ ألَّا يكونَ بعدَها إلَّا غلبةُ ٱلعاميَّة، ويرجعُ ٱلكلامُ ٱلصحافيُّ كلُّهُ سُوقيًّا بَلَديًّا (حنشصيًّا)، وينقلبُ ٱلنحْوُ نفسُهُ وما هو إلَّا ٱلتكلفُ وَٱلتوعرُ وٱلتقعرُ[1] كما يَرَوْنَ ٱلآنَ في ٱلفصاحة، وٱلقليلُ مِنَ ٱلواجباتِ ينتهي إلى ٱلأقل؛ وَٱلأقلُّ ينتهي إلى ٱلعدم، وَٱلانحدارُ سريعٌ يبدأُ بِٱلخطوةِ ٱلواحدة، ثُمَّ لا تملِكُ بعدَها ٱلخُطى ٱلكثيرة.

لا جَرَمَ فَسَدَ ٱلذوقُ وفسَدَ ٱلأدبُ وفسدَتْ أشياءُ كثيرةٌ كانَتْ كلُّها صالحة، وجاءَتْ فنُونٌ مِنَ ٱلكِتابةِ ما هيَ إلَّا طبائعُ كُتَّابِها تعملُ فيمَنْ يقرؤُها عملَ ٱلطباعِ ٱلحيَّةِ فِيمَنْ يُخالِطُها، ولو كانَ في قانونِ ٱلدولةِ تُهمةُ إفسادِ ٱلأدبِ أو إفسادِ ٱللغة، لَقُبِضَ على كثيرينَ لا يكتبونَ إلَّا صِناعةَ لَهْوٍ ومسلاةَ فراغ[2] وفساداً وإفساداً؛ وَٱلمُصيبةُ في هؤلاءِ ما يزعمونَ لَكَ من أَنَّهم يستنشِطونَ ٱلقرَّاءَ ويُلهونهم، ونحن إنَّما نعملُ في هذه ٱلنهضةِ لِمعالجةِ ٱللهوِ ٱلذي جعل نِصفَ وجودِنا ٱلسياسيِّ عدماً؛ ثُمَّ لِمَلءِ ٱلفراغِ ٱلذي جعلَ نصفَ حياتِنا ٱلاجتماعيَّةِ بطَّالة؛ وهذا أيضاً مِمَّا جعلَ عمّك أبا عثمانَ في هذه ٱلصحافةِ من (صعاليكِ ٱلصحافة)، وتركَهُ في ٱلمقابلةِ بينَهُ وبينَ بعضِ ٱلكُتابِ كأنَّهُ في أمسٍ وكأنَّهم في غد.

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيسِ ٱلتحرير...

* * *

فما شكَكْتُ أنَّهم سيطردونه، فإِنَّ ٱللَّهَ لم يرزُقْهُ لِساناً مطبعيًّا ثرثاراً يكونُ كَٱلمتَّصِلِ من دماغِهِ بِصندوقِ حروف... ولم يجعلْهُ كهؤلاءِ ٱلسياسيينَ ٱلذين يَتِمُّ بِهِمُ ٱلنفاقُ ويتلوَّن، ولا كهؤلاءِ ٱلأدباءِ ٱلذينَ يَتِمُّ بهمُ ٱلتضليلُ ويتشكَّل.

ورجعَ شيخُنا كَٱلمخنوقِ أُرخي عنه وهو يقول: ويلي على ٱلرجل! ويلي مِنَ ٱلكلامِ ٱلظريفِ ٱلذي يُقالُ في ٱلوجهِ لِيَدفعَ في القفا... كانَ ينبغي ألَّا يملكَ هذه ٱلصحافةَ ٱليوميَّةَ إلَّا مجالسُ ٱلأمَّة؛ فذلك هو إصلاحُ ٱلأُمَّةِ وَٱلصحافةِ وَٱلكُتَّابِ

---

(١) التوعّر والتقعّر: وحشي الكلام.

(٢) مسلاة فراغ: مضيعة الوقت.

جميعاً؛ أمّا في هذه ٱلصحف، فَٱلكاتبُ يخبزُ عيشَهُ على نارٍ تأكلُ منه قدْرَ ما يأكلُ من عيشِه؛ ولو أنَّ عمَّك في خفضٍ ورفاهيَّةٍ وسعَة، لَكَانَ في ٱستغنائِهِ عنهم حاجتُهم إليه؛ ولكنَّ ٱلسيفَ ٱلذي لا يجدُ عملاً لِلبطل، تَفضُلهُ ٱلإبرةُ ٱلتي تعملُ لِلْخياط، وماذا يملِكُ عمُّكَ أبو عثمان؟ يملكُ ما لا ينزلُ عنهُ بدولِ ٱلملوك، ولا بِٱلدنيا كلِّها، ولا بِٱلشمسِ وَٱلقمر؛ إذ يملكُ عقلَهُ وبيانَه، على أنَّهُ مستأجَرٌ هنا بعقلِهِ وبيانِه، يعقلُ ما شاءُوا ويكتبُ ما شاءوا.

لكَ ٱللَّهُ أنْ أصدُقَك ٱلقولَ في هذهِ ٱلحِرْفةِ ٱليوميَّة: إنَّ ٱلكاتبَ حينَ يخرجُ من صحيفةٍ إلى صحيفة، تخرجُ كتابتُهُ من دينٍ إلى دين...

ورأيْتُ شيخَنا كأنَّما وضعَ لَهُ رئيسُ ٱلتحريرِ مثلَ ٱلبارودِ في دِماغِهِ ثُمَّ أشعلَه، فأردْتُ أنْ أُمازحَهُ وأسرِّيَ عنه، فقلْت: إسمعْ يا أبا عثمان، جاءتْني بِٱلأمسِ قضيةٌ يرفعُها صاحبُها إلى ٱلمحكمة، وقد كتبَ في عُرْضِ دعواهُ أنَّ جارَ بيتِهِ غَصَبَهُ[1] قطعةً من أرضِ فِنائِهِ ٱلذي تركَهُ حولَ ٱلبيت، وبنَى في هذه ٱلرقعة داراً، وفتحَ لِهذه ٱلدارِ نافذات، فهو يُريدُ مِنَ ٱلقاضي أنْ يحكمَ بِرَدِّ ٱلأرضِ ٱلمغصوبة، وهدمِ هذه ٱلدارِ ٱلمبنيَّةِ فوقَها، و... و... وسدِ نافذاتِها ٱلمفتوحة!...

فضحكَ ٱلجاحظُ حتى أمسكَ بطنَهُ بيدِهِ وقال: هذا أديبٌ عظيمٌ كبعضِ ٱلذين يكتبونَ ٱلأدبَ في ٱلصحافة؛ كثرُتْ ألفاظُهُ ونقصَ عقلُه، «وسئلَ بعضُ ٱلحكماء: متى يكونُ ٱلأدبُ شرًّا من عدمِه؟ قال: إذا كثُرَ ٱلأدبُ ونقصَتِ ٱلقريحة. وقد قالَ بعضُ ٱلأولين: من لمْ يكنْ عقلُهُ أغلبَ خِصالِ ٱلخيرِ عليه، كانَ حتفُهُ[2] في أغلبِ خِصالِ ٱلخيرِ عليه؛ وهذا كلُّهُ قريبٌ بعضُهُ من بعض» وَٱلأدبُ وحدَهُ هو ٱلمتروكُ في هذه ٱلصحافةِ لِمَنْ يتولَّاهُ كيف يتولَّاه؛ إذْ كانَ أرخصَ ما فيها، وإنَّما هو أدبٌ لِأنَّ ٱلأُمَمَ ٱلحيَّةَ لا بُدَّ أنْ يكونَ لها أدب، ثُمَّ هو من بعدِ هذا ٱلاسم ٱلعظيم ملءُ فراغٍ لا بُدَّ أنْ يُملأ، وصفحةُ ٱلأدبِ وحدَها هيَ ٱلتي تظهرُ في ٱلجريدةِ ٱليوميَّةَ كبقعَةِ ٱلصدإِ على ٱلحديد: تأكلُ منه ولا تُعطيهِ شيئاً.

ثُمَّ يأبَى من تُتركُ لَهُ هذه ٱلصفحةُ إلَّا أَنْ يجعلَ نفسَهُ (رئيسَ تحرير) على ٱلأدباءِ، فما يدعُ صِفةً من صِفاتِ ٱلنبوغِ ولا نَعْتاً من نعوتِ ٱلعبقريَّةِ إلَّا نَحلَهُ[3]

---

(١) غصبه: استحوذ رغماً عنه على ما يريد منه.

(٢) حتفه: موته.

(٣) نحله: نسبه إليه.

نفسَهُ ووضعَهُ تحتَ ثيابه؛ وما أيسرَ ٱلعظمةَ وما أسهلَ مَنالَها إذا كانَتْ لا تُكلِّفُكَ إلّا ٱلجراءةَ وَٱلدعوى وَٱلزعم، وتلفيقُ ٱلكلامِ من أعراضِ ٱلكتبِ وحواشي ٱلأخبار.

وقد يكونُ ٱلرجلُ في كتابتِهِ كَٱلعامَّة، فإذا عِبْتَهُ بِٱلركاكةِ وَٱلسخفِ وَٱلابتذالِ وفراغِ ما يَكتبُ، قال: هذا ما يُلائمُ ٱلقرَّاء، وقدَ يكونُ من أكذبِ ٱلناسِ فيما يدَّعي لِنفسِهِ وما يُهوّلُ بِهِ لِتقويةِ شأنِهِ وإصغارِ من عداه، فإذا كذَّبَهُ مَنْ يعرُفُه قال: هذا ما يُلائمني، وهو واثقٌ أنَّهُ في نوعٍ مِنَ ٱلقرَّاءِ ليسَ عليهِ إلّا أنْ يملأَهُم بهذِه ٱلدعاوى كما تُملأُ ٱلساعة، فإذا هم جميعاً يقولون: تك تك... تك... تك.....

فمَنْ زعَمَ أنَّ ٱلبلاغةَ أنْ يكونَ ٱلسامعُ يفهمُ معنى ٱلقائل، جعلَ ٱلفصاحةَ وَٱللُّكنةَ وَٱلخطأَ وَٱلصوابَ وَٱلإغلاقَ وَٱلإبانةَ وَٱلملحونَ وَٱلمغرب، كُلَّهُ سواءً وكُلَّهُ بياناً وكانَ ٱلمكيُّ طيبَ ٱلحُجَج، ظريفَ ٱلحِيَل، عجيبَ ٱلعِلَل، وكانَ يدَّعي كلّ شيءٍ على غايةِ ٱلإحكام[1] ولم يحكمْ شيئاً قطُّ مِنَ ٱلجليلِ ولا مِنَ ٱلدقيق؛ وإذْ قد جرى ذِكرُهُ فسأحدِّثُكَ ببعضِ أحاديثِه، قلْتُ لَهُ مرة: أعلمْتَ أنَّ ٱلشاري حدَّثني أنَّ ٱلمخلوعَ (أي ٱلأمين) بعثَ إلى ٱلمأمونِ بِجرابٍ فيه سمسم، كأنَّهُ مُخبرُهُ أنَّ عندَهُ مِنَ ٱلجندِ بعددِ ذلك، وأنَّ ٱلمأمونَ بعثَ لَهُ بديكٍ أعور، يُريدُ أنَّ طاهرَ بْنَ ٱلحسينِ يَقتلُ هؤلاءِ كلِّهم كما يلقُطُ ٱلديكُ ٱلحَبّ؟

قال: فإنَّ هذا ٱلحديثَ أنا ولَّدتُه، ولكنِ أُنظرْ كيف سارَ في ٱلآفاق...

ثُمَّ قال أبو عثمان: وقد زعمَ أحدُ أدبائِكم أنَّهُ ٱكتشفَ في تاريخِ ٱلأدبِ ٱكتشافاً أهملَهُ ٱلمتقدمونَ وغفلَ عنهُ ٱلمتأخرون، فنظرَ عمُّكَ في هذا ٱلذي ٱدعاهُ، فإذا ٱلرجلُ على ٱلتحقيقِ كَٱلذي يزعمُ أنَّهُ ٱكتشفَ أمريكا في كِتابٍ من كتبِ ٱلجغرافيا...

وما يزالُ ٱلبُلهاءُ يُصدِّقونَ ٱلكلامَ ٱلمنشورَ في ٱلصحف، لا بأنَّهُ صِدْق، ولكنْ بأنَّه «مكتوبٌ في ٱلجريدة»... فلا عجبَ أنْ يظنَّ كاتبُ صفحةِ ٱلأدب ـ متى كانَ مغروراً ـ أنَّهُ إذا تهدَّدَ إنساناً فما هدَّدَهُ بصفحتِه، بلْ بحكومتِه...

نعم أيُها ٱلرجلُ إنَّها حكومةٌ ودولة؛ ولكنْ ويحَك: إنَّ ثلاثَ ذُباباتٍ ليسَتْ ثلاثَ قطعٍ من أسطولِ إنجلترا!......

* * *

وضحكَ أبو عثمانَ وضحكْت! فٱستيقظْت.

---

(١) الإحكام: الاتقان.

أبو حنيفةَ ولكنْ بغيرِ فقه!

قد ٱنتهيْنا في ٱلأدبِ إلى نهايةٍ صحافيَّةٍ عجيبة، فأصبحَ كلُّ مَنْ يكتبُ يُنشرُ لَهُ، وكُلُّ مَنْ يُنشرُ لَهُ يَعُدُّ نفسَهُ أديباً، وكلُّ مَنْ عَدَّ نفسَهُ أديباً جازَ لَهُ أنْ يكونَ صاحبَ مذهبٍ وأنْ يقولَ في مذهبِهِ ويردَّ على مذهبِ غيرِه.

فعندَنا ٱليومَ كلماتٌ ضخمةٌ تدورُ في ٱلصحفِ بينَ ٱلأدباءِ كما تدورُ أسماءُ ٱلمستعمراتِ بينَ ٱلسياسيينَ ٱلمتنازعينَ عليها، يتعلَّقُ بها ٱلطمعُ وتنبعثُ لها ٱلفِتنةُ وتكونُ فيها ٱلخصومةُ وَٱلعداوة، منها قولُهم: أدبُ ٱلشيوخِ وأدبُ ٱلشبابِ؛ ودكتاتوريَّةُ ٱلأدبِ وديمقراطيَّةُ ٱلأدب، وأدبُ ٱلألفاظِ وأدبُ ٱلحياة، وَٱلجمودُ وَٱلتحوُّل، وَٱلقديمُ وٱلجديد، ثُمَّ ماذا وراءَ ذلك من أصحابِ هذه ٱلمذاهب؟

وراءَ ذلك أنَّ منهم أبا حنيفةَ ولكنْ بغيرِ فقه، وَٱلشافعيَّ ولكنْ بغيرِ ٱجتهاد، ومالِكاً ولكنْ بغيرِ رِواية، وٱبنَ حنبلٍ ولكنْ بغيرِ حديث؛ أَسماءٌ بينَها وبينَ ٱلعملِ أنَّها كذبٌ عليهِ وأَنَّهُ ردٌّ عليها.

وليسَ يكونُ ٱلأدبُ أدباً إِلَّا إذا ذهبَ يستحدِثُ ويخترعُ على ما يصرِّفُهُ ٱلنوابغُ من أهلِهِ حتى يُؤرِّخَ بهم فيُقالُ أدبُ فلانٍ وطريقةُ فلانٍ ومذهبُ فلان، إذْ لا يجري ٱلأمرُ فيما علا وتوسَّطَ ونزلَ إِلَّا على إبداعِ غيرِ تقليد، وتقليدٍ غيرِ ٱتباع، وَٱتباعٍ غيرِ تسليم؛ فلا بُدَّ مِنَ ٱلرأيِ ونبوغِ ٱلرأيِ وَٱستقلالِ ٱلرأيِ حتى يكونَ في الكتابة إنسانٌ جالسٌ هو كاتبُها، كما أنَّ الحيَّ الجالسَ في كل حيٍّ هو مجموعُهُ ٱلعصبيُّ، فيخرجُ ضربٌ مِنَ ٱلآدابِ كأنَّهُ نوعٌ مِنَ ٱلتحوُّلِ في ٱلوجودِ ٱلإنسانيِّ يرجعُ بِٱلحياةِ إلى ذراتِ معانِيها، ثُمَّ يرسُمُ من هذه ٱلمعاني مثلَ ما أبدعَتْ ذرَّاتُ ٱلخليقةِ في تركيبٍ من تركيب، فلا يكونُ لِلأَديبِ تعريفٌ إِلَّا أنَّهُ ٱلمُقلِّدُ ٱلإلهيّ.

وإذا ٱعتبرْنا هذا ٱلأصلَ فهل يبدأُ ٱلأدبُ ٱلعربيُّ في عصرِنا أو ينتهي؛ وهلْ تُراهُ يعلو أو ينزِل؛ وهلْ يستجمِعُ أو ينقض، وهلْ هو من قديمِهِ ٱلصريحِ بعيدٌ من بعيدٍ أو قريبٌ من قريبٍ أو هو في مكانٍ بينهَما؟

هذه معانٍ لو ذهبْتُ أفصِّلُها لاَقتحمْتُ تاريخاً طويلاً أمرُّ فيهِ بِعِظام مبعثرةٍ في ثِيابِها لا في قُبورِها . . . ولكنِّي موجزٌ مقتصرٌ على معنًى هو جمهورُ هذه ٱلأطرافِ كلِّها، وإليهِ وحدَهُ يرجعُ ما نحن فيهِ مِنَ ٱلتعادي بينَ ٱلأذواقِ وَٱلإسفافِ بِمَنازعِ ٱلرأيِ وَٱلخَلْطِ وَٱلإضطرابِ في كلِّ ذلك؛ حتى أصبحَ أمرُ ٱلأدَبِ على أقبحِه وهم يَرَوْنَهُ على أحسنِه، وحتى قِيلَ في: ٱلأسلوبِ أسلوبٌ تلغرافيٌّ، وفي الفصاحةِ فصاحةٌ عاميَّة، وفي ٱللغة لُغةُ ٱلجرائد، وفي ٱلشعر شعرُ ٱلمقالة؛ ونجمَتِ ٱلناجمةُ من كلِّ عِلَّةٍ ويُزيِّنُ لهم أنَّها ٱلقوَّةُ قدِ ٱستحصفَتْ[1] وَٱشتدَّتْ، ونازعَ ٱلأدبُ ٱلعربيُّ إلى سخريةِ ٱلتقليدِ وإلى أنْ يكونَ لصيقاً دَعِيًّا في آدابِ ٱلأمم، وَٱستهلكَهُ ٱلتضييعُ وسوءُ ٱلنظرِ لَهُ على حينِ يؤَتَّى لهم أنَّ كلَّ ذلك من حِفظِهِ وصِيانتِهِ وحُسْنِ ٱلصنيعِ فيهِ ومن توفيرِ ٱلمادةِ عليه.

أين تُصيبُ ٱلعِلَّةَ إذا التمسْتَها[2]؟ أفي ٱلأدبِ من لُغتِهِ وأساليبِ لغتِه، ومعانيهِ وأغراضِ معانيه؟ أم في ٱلقائمينَ عليهِ في مذاهبِهِم ومناحيهِم وما يَتَّفِقُ من أسبابِهم وجواذبِهِم؟

إنْ تَقُلْ إنَّها في ٱللغةِ وَٱلأساليبِ وَٱلمعاني وَٱلأغراض، فهذه كلُّها تصيرُ إلى حيثُ يُرادُ بها، وتتقلَّدُ ٱلبليَّةَ من كلِّ مَنْ يعملُ فيها؛ وقدِ ٱستوعبَتْ وٱتَّسَعَتْ ومادَتِ ٱلعصورُ ٱلكثيرةُ إلى عهدِنا فلمْ تؤتَ من ضيقٍ ولا جمودٍ ولا ضعفٍ ثُمَّ هيَ مادَّةٌ ولا عليها مِمَنْ لا يُحسِنُ أنْ يضعَ يدَهُ منها حيثُ يملأُ كُفَّهُ أو حيثُ تقعُ يدُهُ على حاجتِه.

وإنْ قُلْتَ إنَّ ٱلعِلَّةَ في ٱلأدباءِ ومذاهبِهِم ومناحيهم ودواعيهم وأسبابهم، سألْناك: ولِمَ قصَّروا عنِ ٱلغاية، ولِمَ وقعُوا بِٱلخلاف، وكيف ذهبوا عنِ ٱلمصلَحة، وكيف ٱعتقمَتِ ٱلخواطرُ وفسدَتِ ٱلأذواقُ مَعَ قِيام ٱلأدبِ ٱلصحيح في كتبِهِ مقامَ أُمَّةٍ من أهلِهِ أعراباً وفُصحاءَ وكُتَّاباً وشعراء، ومعَ ٱنفَساحِ ٱلأُفُقِ ٱلعقليِّ في هذا ٱلدهرِ وَٱجتماعِهِ من أطرافِهِ لِمَنْ شاءَ، حتى لَتجدُ عقولَ نوابغِ ٱلقارَّاتِ ٱلخمسِ تُحتقَبُ[3] في حقيبةٍ مِنَ ٱلكتب، أو تُصَندَقُ[4] في صندوقٍ مِنَ ٱلأسفار.

كيف ذهبَ ٱلأدباءُ في هذه ٱلعربيَّةِ نشراً متبدِّدِينَ تعلو بهمُ ٱلدائرةُ وتهبط،

---

(١) استحصفت: أوجدت رأياً رزيناً.
(٢) التمستها: فتّشت عليها وبحثت.
(٣) تُحتقب: تُوضع في حقيبة.
(٤) تصندق: توضع في صندوق.

فكلٌّ أعلى وكلٌّ أسفل؟ هذا فلانٌ شاعرٌ قد أحاطَ بِٱلشعرِ عربيِّهِ وغربيِّهِ وهو ينظمُهُ ويفتنُّ في أغراضِهِ ويولِّدُ ويسرقُ وينسخُ ويمسخ، وهو عندَ نفسِهِ ٱلشاعرُ ٱلذي فقدتْهُ كلُّ أمةٍ من تاريخِها ووقعَ في تاريخِ ٱلعربيَّةِ وحدَها ٱبتلاءً ومِحْنة؛ وهو كَكُلِّ هؤلاءِ ٱلمغرورينَ يحسبونَ أنَّهُم لو كانوا في لُغاتٍ غيرِ ٱلعربيَّةِ لَظهروا نجوماً، ولكنَّ ٱلعربيَّةَ جعلَتْ كلاً منهم حصاةً بينَ ٱلحصى، وتقرأُ شِعرَهُ فإذا هو شِعرٌ تتوهَّمُ من قراءتِهِ تقطيعَ ثيابِك، إذْ تجاذبُ نفسَك لِتفرَّ منه فِراراً.

وهذا فلانٌ ٱلكاتبُ ٱلذي وَٱلذي. . . وَٱلذي يرتفعُ إلى أقصى ٱلسمواتِ على جناحيَ ذبابة.

وهذا فرعونُ ٱلأدبِ ٱلذي يقول: أنا ربُّكُمُ ٱلأعلى! وهذا فلانٌ وهذا فلان. . .

أين يكونُ ٱلزِّمامُ على هؤلاءِ وأمثالِهِم ليعرفوا ما هم فيهِ كما هُمْ فيه، وَلِيضبطُوا آراءَهم وهواجسَهُم[1]، وليعلموا أنَّ حسابَهُم عندَ ٱلناسِ لا عندَ أنفسِهِم فٱلواحَدةُ منهم واحدةٌ وإنْ توهَّمُوها مائةً وتوهَّمَها بعضُهُم ألفاً أو ألفين، ومتى قالَ ٱلناس: غلِطوا، فقد غلِطوا، ومتى قالوا: سخفاءُ فهم سخفاء.

وأين ٱلزمامُ عليهم وقدِ ٱنطلقوا كأنَّهم مسخرونَ بِٱلجبرِ على قانونٍ مِنَ ٱلتدميرِ وٱلتخريب، فليسَ فيهم إلَّا طبيعةٌ مُكَابِرَةٌ لا إقرارَ منها، باغيةٌ لا إنصافَ معها، نافرةٌ لا مَسَاغَ إليها، مُتَّهمةٌ لا ثِقَةَ بها؛ طبيعةٌ يتحوَّلُ كلُّ شيءٍ فيها إلى أثرٍ منها كما يتحَوَّلُ ماءُ ٱلشجرِ في ٱلعُودِ ٱلرطْبِ ٱلمشتعِلِ إلى دُخانٍ أسود!

* * *

يرجعُ هذا ٱلخلْطُ في رأيي إلى سببٍ واحد: هو خلُو ٱلعصرِ من إمامٍ بِٱلمعنى ٱلحقيقيِّ يلتقي عليهِ ٱلإجماعُ ويكونُ مِلْءَ ٱلدهرِ في حكمتِهِ وعقلِهِ وريِهِ ولِسانِهِ ومناقبِهِ وشمائلِه؛ فإنَّ مثلَ هذا ٱلإمام يُخَصُّ دائماً بِٱلإرادةِ ٱلتي ليسَ لها إلَّا ٱلنصرُ وٱلغلَبَةُ وٱلتي تُعطي ٱلقوَّةَ على قتلِ ٱلصغائرِ وَٱلسفاسف؛ وهو إذا أُلقيَ في ٱلميزانِ عندَ ٱختلافِ ٱلرأي، وُضِعَ فيهِ بِٱلجمهورِ ٱلكبيرِ من أنصارِهِ وَٱلمعجبينَ بآدابه،

وبٱلسوادِ ٱلغالبِ من كلِّ ٱلفاعليَّاتِ ٱلمحيطةِ بهِ وَٱلمنجذبةِ إليه؛ ومِنْ ثَمَّ تتهيأُ قُوةُ ٱلترجيحِ ويتعيَّنُ ٱليقينُ وٱلشكُّ؛ وَٱلميزانُ ٱليومَ فارغٌ من هذه ٱلقوَّةِ فلا يرْجحُ ولا يُعيِّن.

---

(١) هواجسهم: خوفهم وهمومهم.

ومكانةُ هذا ٱلإمامِ تحدُّ ٱلأمكنة، ومقدارُهُ يزنُ ٱلمقادير، فيكونُ هو ٱلمنطقَ ٱلإنسانيَّ في أكثرِ ٱلخِلافِ ٱلإنسانيّ: تقومُ بِهِ ٱلحُجَّة، فتُلزمُ وإنْ أنكرَها ٱلمنكر، وتمضي وإنْ عاندَ فيها ٱلمُعَاند، وَيُؤخَذُ بها وإنَّ أصرَّ ٱلمِصرُّ على غيرِها، لِأَنَّ بِٱلإجماعِ على ٱلقياسِ يبينُ ٱلتطرُّفُ في ٱلزيادةِ أوِ ٱلتقصير؛ وَٱلإجماعُ إذا ضَرَبَ ضربَ ٱلمعصيةَ بِٱلطاعة، وَٱلزيغَ[1] بِٱلاستقامة، وَٱلعِنادَ بِٱلتسليم؛ فيخرجُ مَنْ يخرجُ وعليهِ وَسْمُهُ[2]. ويزيغُ مَنْ يزيغُ وفيهِ صِفتُه، ويُصِرُّ ٱلمُكابِرُ وٱسمُهُ ٱلمكابرُ ليس غير، وإنْ هو تكذَّبَ وتأوَّل، وإنْ زعمَ ما هو زاعم.

ولِكُلِّ ٱلقواعدِ شواذُّ ولكنَّ ٱلقاعدةَ هيَ إمامُ بابها؛ فما مِنْ شاذٍّ يحسبُ نفسَهُ مُنطلِقاً مخلًى، إلَّا هو محدودٌ بها مردودٌ إليها، مُتَّصلٌ من أوسعِ جِهاتِهِ بِأضيقِ جهاتِها؛ حتى ما يَعرفُ أنَّهُ شاذٌ إلَّا بِمَا تُعرفُ بِهِ أنَّها قاعدة، فيكونُ شأنُهُ في نفسِهِ بما تُعيِّنُ هي لَهُ على مَكْرَهتِهِ ومحبتِه.

وٱلإمامُ ينبثُّ في آدابِ عصرِهِ فِكْراً ورأياً، ويزيدُ فيها قوَّةً وإبداعاً، ويُزيِّنُ ماضيَها بأنَّهُ في نهايتِه، ومستقبلَها بأنَّهُ في بِدايتِه، فيكونُ كَٱلتعديل بينَ ٱلأزمنةِ من جِهة، وَٱلانتقالِ فيها من جِهةٍ أخرى؛ لِأَنَّ هذا ٱلإمام إنَّما يُختارُ لِإظهارِ قوَّةِ ٱلوجودِ ٱلإنسانيِّ من بعضِ وجوهِها وإثباتِ شمولِها وإحاطتِها كأنَّهُ آيةٌ من آياتِ ٱلجنسِ يؤَنْسِنُ ٱلجنسُ فيها إلى كمالِهِ ٱلبعيد، ويتلقَّى منه حُكْمَ ٱلتمامِ على ٱلنقص، وحُكْمَ ٱلقوَّةِ على ٱلضعف، وحُكْمَ ٱلمَأْمولِ على ٱلواقع؛ ويجِدُ فيهِ قومُهُ كما يجدونَ في ٱلحقيقةِ ٱلتي لا يُكابِرُ عندَها متنطِّعٌ[3] بتأْويل، وفي ٱلقوَّة ٱلتي لا يُخالِفُ عندَها مُبْطلٌ بِعِناد، وفي ٱلشريعةِ ٱلتي لا يروغُ[4] منها مُتَعَسِّفٌ بِحيلة؛ ولَنْ يَضِلَّ ٱلناسُ في حقٍّ عرفوا حَدَّه، فإنَّ ما وراءَ ٱلحَدِّ هوَ ٱلتعدي؛ ولن يُخطئوا في حُكْمٍ أصابوا وجهَهُ فإنَّ ما عدا ٱلوجهَ هوَ ٱلخلافُ وَٱلمراء.

وقد طُبِعَ ٱلناسُ في بابِ ٱلقدوةِ على غريزةٍ لا تتحوّلَ، فمَنِ ٱنفردَ بِٱلكمالِ كانَ هُوَ ٱلقدوة، ومَنْ غلَبَ كانَ هوَ ٱلسمْت؛ ولا بُدَّ لهم مِمَنْ يقتاسون[5] بِهِ ويتوازنون فيهِ حتى يستقيموا على مراشدِهِم[6] ومَصَالحِهِم، فَٱلإمامُ كأنَّه ميزانٌ من

---

(١) الزّيغ: الميل مع الهوى.
(٢) وسمه: طابعه.
(٣) متنطع: معتمل بصعوبة رأياً ما.
(٤) يروغ: يخرج ويتخلص بكذب وخداع.
(٥) يقتاسون: يقيسون أنفسهم به.
(٦) مراشدهم: عقولهم وما يهتدون به.

عَقْل، فهو يتسلَّطُ في ٱلحكْم على ٱلناقصِ وَٱلوافي من كلِّ ما هو بِسبيلِه، ثُمَّ لا خِلافَ عليه، إِذْ كانَتْ فيهِ أَوزانُ ٱلقوى وزناً بعدَ وزن، وكانَتْ فيهِ منازلُ أحوالِها منزلةً بعدَ منزلة.

هو إنسانٌ تتخيَّرُ بعضُ ٱلمعاني ٱلساميةِ لِتظهرَ فيهِ بِأُسلوبٍ عمليّ، فيكونُ في قومِهِ ضَرْباً مِنَ ٱلتربيةِ وَٱلتعليم بِقاعدةٍ منتزعَةٍ من مثالِها، مشروحةٍ بِهذا ٱلمِثالِ نفسِه، فإليهِ يُرَدُّ ٱلأمرُ في ذلكَ وبتُلوهِ يُتلى وعلى سبيلِهِ يُنهج[1]، فما من شيءٍ يَتَّصلُ بِٱلفنِّ ٱلذي هو إمامٌ فيه، إلا كانَ فيهِ شيءٌ منه، وهو من ذلك مُتَّصلٌ بِقوى ٱلنفوسِ كأَنَّهُ هدايةٌ فيها، لِأَنَّهُ بِفنِّهِ حكمَ عليها، فيكونُ قوَّةً وتنبيهاً، وتسهيلاً وإِيضاحاً، وإبلاغاً وهِداية؛ ويكونُ رجلاً وإِنَّهُ لَمَعانٍ كثيرة، ويكونُ في نفسِهِ وإِنَّهُ لَفِي ٱلأنفسِ كلِّها، ويُعطى من إجلالِ ٱلناسِ ما يكونُ بِهِ ٱسمُهُ كأَنَّهُ خَلْقٌ مِنَ ٱلحبِّ طريقُهُ على ٱلعقلِ لا على ٱلقلب.

ولعلَّ ذلك من حِكمةِ إقامةِ ٱلخليفةِ في ٱلإسلامِ ووجوبِ ذلك على ٱلمسلمين؛ فلا بُدَّ على هذه ٱلأرضِ من ضَوْءٍ في لحم ودم، وبعضِ معاني ٱلخليفةِ في تنصيبِهِ كبعضِ معاني «ٱلشهيدِ ٱلمجهول» في ٱلأُمَمِ ٱلمُحاربةِ ٱلمُنْتَصِرةِ ٱلمتمدِّنة: رمزُ ٱلتقديس، ومعنى ٱلمفاداة، وصمتٌ يتكلَّم، ومكانٌ يُوحي. وقوَّةٌ تُستمد، وٱنفرادٌ بجمع، وحكمُ ٱلوطنيَّةِ على أهلِها بأحكام كثيرةٍ في شرفِ ٱلحياةِ وَٱلموت؛ بلِ ٱلحربُ مخبوءةٌ في حفرة، وَٱلنصرُ مُغطًى بِقبر؛ بلِ ٱلمجهولُ ٱلذي فيهِ كلُّ ما ينبغي أنْ يُعلم.

* * *

فعصرُنا هذا مضطربٌ مختلٌّ إِذْ لا إمامَ فيهِ يجتمعُ ٱلناسُ عليه، وإِذْ كلُّ مَنْ يزعمُ نفسَهُ إِماماً هو من بعضِ جهاتِهِ كأَنَّهُ أبو حنيفةَ ولكنْ بِغيرِ فِقه!

وَلَعَمْري ما نشأَ قولُهُمْ «ٱلجديدُ وَٱلقديم» إِلَّا لانَّ هٰهنا موضِعاً خالياً يُظهرُ خلاؤُهُ مكانَ ٱلفصلِ بينَ ٱلناحيتينِ ويجعلُ جِهَةً تنمازُ من جِهَة، فمنذُ ماتَ ٱلإمامُ ٱلكبيرُ ٱلشيخُ محمد عبده ـ رحمَهُ ٱللّه ـ جرَتْ أحداثٌ، ونتأَتْ رءوس، وزاغَتْ طبائعُ وكأَنَّهُ لم يمُتْ رجل، بل رُفِعَ قرآن.

---

(١) ينهج: يسلك.

الأدب وَٱلأديب

إذا ٱعتبرْتَ ٱلخيالَ في ٱلذكاءِ ٱلإنسانيِّ وأوْلَيتَهُ دِقَّةَ ٱلنظرِ وحُسْنَ ٱلتمييز، لم تجدْهُ في ٱلحقيقةِ تقليداً مِنَ ٱلنفسِ لِلألُوهيَّةِ بوسائلَ عاجزةٍ منقطعة، قادرةٍ على ٱلتصوُّرِ وَٱلوهْمِ بِمِقدارِ عجزِها عنِ ٱلإيجادِ وَٱلتحقيق.

وهذه ٱلنفسُ ٱلبشريَّةُ ٱلآتيةُ مِنَ ٱلمجهولِ في أولِ حياتِها، وَٱلراجعةُ إليهِ آخِرَ حياتِها، وَٱلمسدَّدَةُ في طريقِهِ مُدَّةَ حياتِها، لا يُمكنُ أنْ يتقرَّرَ في خيالِها أنّ ٱلشيءَ ٱلموجودَ قدِ ٱنتهى بوجودِه، ولا ترضى طبيعتُها بِمَا ينتهي؛ فهيَ لا تتعاطى ٱلموجودَ فيما بينَها وبينَ خيالِها على أنّه قد فُرِغَ منه فما يُبْدَأُ، وتمَّ فما يُزادُ، وخلَدَ فلا يتَحوَّل؛ بلْ لا تزالُ تضربُ ظَنَّها وتُصرِّفُ وَهْمَها في كلِّ ما تراهُ أو يتَلجْلجُ[1] في خاطرِها، فلا تبرحُ تتَلمَّحُ[2] في كلِّ وجودٍ غَيْباً، وتكشِفُ مِنَ ٱلغامضِ وتزيدُ في غموضِه، وتجري دَأباً[3] على مجارِيها ٱلخياليَّةِ ٱلتي تُوثِقُ صِلتَها بِٱلمجهول؛ فمِنْ ثَمَّ لا بُدَّ في أمرِها مَعَ ٱلموجودِ مِمَّا لا وجودَ لَهُ، تتعلَّقُ بِهِ وتسكنُ إليه؛ وعلى ذلكَ لا بُدَّ في كلِّ شيءٍ - مَعَ ٱلمعاني ٱلتي لَهُ في ٱلحقِّ - مِنَ ٱلمعاني ٱلتي لَهُ في ٱلخيال؛ وها هنا موضعُ ٱلأدبِ وَٱلبيانِ في طبيعةِ ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّة، فكلاهُمَا طبيعيٌّ فيها كما ترى.

وإذا قيل: الأدب، فٱعلمْ أنَّهُ لا بُدَّ معَهُ مِنَ ٱلبيان؛ لِأَنَّ ٱلنفسَ تخْلُقُ فتُصوِّرُ فتُحسِنُ ٱلصورة؛ وإنَّما يكونُ تمامُ ٱلتركيبِ في مَعْرضِهِ وجمالِ صورتِهِ ودِقَّةِ لَمحاتِه؛ بلْ يَنزلُ ٱلبيانُ مِنَ ٱلمعنى ٱلذي يَلْبسُهُ منزلةَ ٱلنضجِ مِنَ ٱلثمرةِ ٱلحلْوةِ إذا كانَتِ ٱلثمرةُ وحدَها قبلَ ٱلنضجِ شيئاً مُسمّى أو متميِّزاً بنفسِه، فلَنْ تكونَ بغيرِ ٱلنضجِ شيئاً تامًّا ولا صحيحاً، وما بُدٌّ مِنْ أنْ تستوفيَ كمالَ عمرِها ٱلأخضرِ ٱلذي هو بيانُهَا وبلاغَتُها.

---

(١) يتلجلج: يتردّد.
(٢) تتلمح: ترى.
(٣) دأباً: باستمرار.

وهذه مسألةٌ كيفما تناولْتَها فهيَ هيَ حتى تُمضيَها على هذا ٱلوجهِ ٱلذي رأيْتَ في ٱلثمرةِ ونُضجِها؛ فإنَّ ٱلبيانَ صِناعةُ ٱلجمالِ في شيءٍ جمالُهْ هو من فائدتِه، وفائدتُهُ من جمالِه؛ فإذا خلا من هذه ٱلصناعةِ ٱلتحقَ بغيرِه، وعادَ باباً مِنَ ٱلاستعمالِ بعدَ أنْ كانَ باباً مِنَ ٱلتأثير؛ وصارَ ٱلفَرْقُ بين حالَيْهِ كَٱلفرقِ بينَ ٱلفاكهة إذْ هيَ بابٌ مِنَ ٱلنبات، وبينَ ٱلفاكهةِ إذْ هيَ بابٌ مِنَ ٱلخمرِ؛ ولِهذا كانَ ٱلأصلُ في ٱلأدبِ البيانَ وَٱلأسلوبَ في جميعِ لغاتِ ٱلفكرِ ٱلإنسانيّ، لِأنَّهُ كذلك في طبيعةِ ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّة.

فَٱلغرضُ ٱلأولُ لِلأدبِ ٱلمُبينِ أنْ يَخلقَ لِلنفسِ دُنيا ٱلمعاني ٱلملائمةِ لِتلك ٱلنزعةِ ٱلثابتةِ فيها إلى ٱلمجهولِ وإلى مجازِ ٱلحقيقة، وأن يُلقيَ ٱلأسرارَ في ٱلأمورِ ٱلمكشوفةِ بِمَا يتخيَّلُ فيها، ويردَّ ٱلقليلَ منَ ٱلحياةِ كثيراً وافياً بِمَا يُضاعِفُ من معانيه، ويتركَ ٱلماضيَ منها ثابتاً قارًّا بِمَا يخلِّدُ من وصفِه، ويجعلَ ٱلمؤلِمَ منها لذيذاً خفيفاً بِمَا يَبُثُّ فيهِ منَ ٱلعاطِفَة، وٱلمملولَ مُمْتِعاً حُلْواً بِمَا يكشِفُ فيهِ منَ ٱلجمالِ وَٱلحِكْمة؛ ومَدارُ ذلك كلِّهِ على إيتاءِ ٱلنفسِ لذَّةَ ٱلمجهولِ ٱلتي هيَ في نفسِها لذَّةٌ مجهولةٌ أيضاً؛ فإنَّ هذه ٱلنفسَ طُلَعةٌ متقلبة، لا تبتغي مجهولاً صِرْفاً ولا معلوماً صِرْفاً، كأنها مُدْركةٌ بِفِطْرَتِها أنْ ليسَ في ٱلكونِ صريحٌ مُطْلقٌ ولا خفيٌّ مطلق؛ وإنَّما تبتغي حالةً ملائمةً بين هذين، يثورُ فيها قَلَقٌ أو يسكنُ منها قلق.

وأشواقُ ٱلنفسِ هي مادَّةُ الأدب؛ فليسَ يكونُ أدباً إلّا إذا وَضَعَ ٱلمعنى في ٱلحياةِ ٱلتي ليسَ لها معنًى، أو كانَ متَّصلاً بِسِرِّ هذه ٱلحياةِ فيكشفُ عنه أو يُوميءُ إليهِ من قريب، أو غَيَّرَ للنفسِ هذه ٱلحياةَ تغييراً يجيءُ طِباقاً لِغرضِها وأشواقِها؛ فإنَّهُ كما يَرْحَلُ ٱلإنسانُ من جَوٍّ إلى جَوٍّ غيرِه، ينقلُهُ ٱلأدبُ من حياتِهِ ٱلتي لا تختلفُ إلى حياةٍ أخرى فيها شعورُها ولذَّتُها وإنْ لم يكنْ لها مكانٌ ولا زمان؛ حياةٍ كمَلَتْ فيها أشواقُ ٱلنفس، لِأنَّ فيها ٱللذاتِ وٱلآلامَ بِغيرِ ضروراتٍ ولا تكاليف؛ ولَعَمْري ما جاءَتِ ٱلجنةُ وٱلنارُ في ٱلأديانِ عَبَثاً؛ فإنَّ خالقَ ٱلنفسِ بِمَا رَكبَّهْ فيها مِنَ ٱلعجائب، لا يحْكمُ ٱلعقلُ أنَّهُ قد أتمَّ خَلقَها إلّا بِخلقِ ٱلجنَّةِ وَٱلنارِ معها، إذْ هما ٱلصورتانِ ٱلدائمتانِ ٱلمتكافئتانِ لِأشواقِها ٱلخالدةِ إنْ هيَ ٱستقامتْ مُسدَّدَةً[1] أوِ ٱنعكسَتْ حائلة.

وقد صحَّ عندي أنَّ ٱلنفسَ لا تتحقَّقُ من حريَّتِها ولا تنطلِقُ ٱنطلاقَتَها ٱلخالدةَ

---

(١) مسدّدة: موجهة نحو التوفيق والنجاح.

فتُحسُّ وحدةَ ٱلشعورِ ووحدةَ ٱلكمالِ ٱلأسمى ـ إلَّا في ساعاتٍ وفتراتٍ تنسَلُّ فيها من زمنِها وعيشِهاو نقائضِها وٱضطرابها إلى (منطقةِ حِيادٍ) خارجةٍ وراءَ ٱلزمانِ وٱلمكان؛ فإذا هبطَتْها ٱلنفسُ فكأنَّما ٱنتقلَتْ إلى ٱلجنةِ وٱستَرْوَحَتِ ٱلخُلْد؛ وهذه ٱلمنطقةُ ٱلسحريَّةُ لا تكونُ إلَّا في أربعة: حبيبٍ فاتنٍ معشوقٍ أُعطيَ قوةَ سِحْرِ ٱلنفس، فهي تَنسى به؛ وصديقٍ محبوبٍ وفيٍّ أوتيَ قوةَ جَذبِ ٱلنفس، فهي تنسى عندَه؛ وقطعةٍ أدبيَّةٍ آخِذة، فهيَ ساحرةٌ كٱلحبيبِ أو جاذبةٌ كٱلصديق؛ ومنظرٍ فنيٍّ رائع، ففيهِ من كلِّ شيءٍ شيء.

وهذه كلُّها تُنسي ٱلمرءَ زمنَهُ مدةً تطولُ وتقصر؛ وذلك فيها دليلٌ على أنَّ ٱلنفسَ ٱلإنسانيَّة تُصيبُ منها أساليبَ رُوحيَّةً لٱتِّصالِها هنيهةً بٱلروحِ ٱلأزليِّ في لَحظاتٍ مِنَ ٱلشعورِ كأنَّها ليسَتْ من هذه ٱلدنيا وكأنَّها مِنَ ٱلأزليَّة؛ ومن ثُمَّ نستطيعُ أنْ نُقرّرَ أنَّ أساسَ ٱلفنِّ على ٱلإطلاقِ هو ثورةُ ٱلخالدِ في ٱلإنسانِ على ٱلفاني فيه؛ وأنَّ تصويرَ هذه ٱلثورةِ في أوهامِها وحقائقِها بمثلِ ٱختلاجاتِها في ٱلشعورِ وٱلتأثير ـ هو معنى ٱلأدبِ وأسلوبُهُ.

ثُمَّ إنَّ ٱلاتساقَ وٱلخيرَ وٱلحقَّ وٱلجمال ـ وهيَ ٱلتي تجعلُ لِلْحياةِ ٱلإنسانيَّةِ أسرارَها ـ أمورٌ غيرُ طبيعيَّةٍ في عالمٍ يقومُ على ٱلاضطرابِ وٱلأثرةِ وٱلنزاعِ وٱلشهوات؛ فمِنْ ذلك يأتي ٱلشاعرُ وٱلأديب وذو ٱلفنِّ عِلاجاً من حِكْمةِ ٱلحياةِ لِلْحياة، فيُبدعون لِتلك ٱلصفاتِ ٱلإنسانيَّةِ ٱلجميلةِ عالمَها ٱلذي تكونُ طبيعيَّةً فيه، وهو عالَمٌ أركانُهُ ٱلاتِّساقُ في ٱلمعاني ٱلتي يجري فيها، وٱلجمالُ في ٱلتعبيرِ ٱلذي يتأدَّى[1] به، وٱلحقُّ في ٱلفكرِ ٱلذي يقومُ عليه، وٱلخيرُ في ٱلغرَضِ ٱلذي يُساقُ لَهُ، ويكونُ في ٱلأدبِ مِنَ ٱلنقَصِ وٱلكمالِ بِحَسَبِ ما يجتمعُ لَهُ من هذه ٱلأربعة، ولا مِعيارَ أدقُّ منها إنْ ذهبَتْ تعتبرُهُ بِٱلنَّظَرِ وٱلرأي؛ ففي عملِ ٱلأديبِ تخرجُ ٱلحقيقةُ مُضافاً إليها ٱلفنّ، ويجيءُ ٱلتعبيرُ مزيداً فيهِ ٱلجمال، وتتمثَّلُ ٱلطبيعةُ ٱلجامدةُ خارجةً من نفسٍ حيَّة، ويظهرُ ٱلكلامُ وفيهِ رِقَّةُ حياةِ ٱلقلْبِ وحرارتُها وشعورُها وٱنتظامُها ودَقُّها ٱلموسيقيّ؛ وتلبسُ ٱلشهواتُ ٱلإنسانيةُ شكلَها ٱلمهذَّبَ لِتكونَ بِسببٍ من تقريرِ ٱلمثَلِ ٱلأعلى، ٱلذي هو ٱلسرُّ في ثورةِ ٱلخالدِ مِنَ ٱلإنسانِ على ٱلفاني، وٱلذي هوَ ٱلغايةُ ٱلأخيرةُ مِنَ ٱلأدبِ وٱلفنّ معاً؛ وبهذا يهَبُ لك الأدبُ تلك ٱلقوَّةَ ٱلغامضةَ

---

(١) يتأدّى: يحصل.

ٱلتي تَتَّسِعُ بك حتى تشعرَ بِٱلدنيا وأحداثِها مارّةً من خلالِ نفسِك، وتُحِسَّ ٱلأشياءَ كأنَّها ٱنتقلَتْ إلى ذاتِك من ذواتِها؛ وذلك سِرُّ ٱلأديبِ ٱلعبقريّ؛ فإنَّهُ لا يرى ٱلرأيَ بِٱلاعتقابِ[1] وٱلاجتهادِ كما يراهُ ٱلناس، وإنَّما يُحسُّ بِهِ؛ فلا يقعُ لَهُ رأيُهُ بِٱلفكر، بَلْ يُلهِمُه إلهاماً؛ وليسَ يُؤاتيهِ ٱلإلهامُ إلّا من كونِ ٱلأشياءِ تمرُّ فيهِ بمعانيها وتعبرُهُ كما تعبرُ ٱلسفنُ ٱلنهر، فيُحِسُّ أثرَها فيهِ فيُلهَمُ ما يُلْهَم، ويحسَبُهُ ٱلناسُ نافذاً بِفكرِهِ من خِلالِ ٱلكون، على حينِ أنَّ حقائقَ ٱلكونِ هِيَ ٱلنافذةُ من خلالِه.

ولو أردْتَ أن تُعرِّفَ ٱلأديبَ من هو، لَمَا وجدْتَ أجمعَ ولا أدقَّ في معناهُ من أنَّ تُسميَهُ ٱلإنسانَ ٱلكونيّ، وغيرُهُ هوَ ٱلإنسانُ فقط؛ ومن ذلك ما يبلغُ من عُمْقِ تأثُّرِهِ بِجَمَالِ ٱلأشياءِ ومعانيها، ثُمَّ ما يقعُ مِن ٱتِّصالِ ٱلموجوداتِ بِهِ بِآلامِها وأَفراحِها؛ إذْ كانَتْ فيهِ مع خاصيةِ ٱلإنسانِ خاصيةُ ٱلكونِ ٱلشامل، فٱلطبيعةُ تُثبِتُ بِجمالِ فَنِّهِ ٱلبديعِ أنَّهُ منها، وتدلُّ ٱلسماءُ بِمَا في صِناعتِهِ مِنَ ٱلوحي وٱلأسرارِ أنَّهُ كذلك منها، وتُبرهِنُ ٱلحياةُ بِفلسفتِهِ وآرائِهِ أنَّهُ هو أيضاً منها؛ وهذا وذاك وذلك هوَ ٱلشمولُ ٱلذي لا حَدَّ لَهُ، وٱلاتساعُ ٱلذي كلُّ آخرَ فيهِ لِشيءٍ، أولٌ فيهِ لِشيء.

وهو إنسانٌ يُدلّهُ ٱلجمالُ على نفسِهِ لِيدلَّ غيرَهُ عليه، وبذلك زِيدَ على معناهُ معنًى، وأُضيفَ إليهِ في إحساسِهِ قوّةُ إنشاءِ ٱلإحساسِ في غيره؛ فأساسُ عملِهِ دائماً أنْ يزيدَ على كلِّ فكرةٍ صورةً لَها، ويزيدَ على كلِّ صورةٍ فكرةً فيها، فهو يُبدِعُ ٱلمعانيَ لِلأَشكالِ ٱلجامدةِ فيُوجِدُ ٱلحياةَ فيها، ويُبدِعُ ٱلأشكالَ لِلْمعانِي ٱلمجرَّدةِ فيُوجِدُها هيَ في ٱلحياة، فكأنَّهُ خُلِقَ لِيتلقَّى ٱلحقيقةَ ويُعطيَها لِلناسِ ويزيدَهم فيها ٱلشعورَ بِجمالِها ٱلفنيّ؛ وبِٱلأدباءِ وٱلعلماءِ تنمو معاني ٱلحياة، كأنَّما أُوجدَتْهُمُ ٱلحِكْمةُ لِتنقلَ بهِمُ ٱلدنيا من حالةٍ إلى حالة؛ وكأنَّ هذا ٱلكَوْنَ ٱلعظيمَ يمرُّ في أدمغتِهِم لِيُحقِّقَ نفسَه.

ومشاركةُ ٱلعلماءِ لِلأُدباءِ تُوجِبُ أنْ يتميَّزَ ٱلأديبُ بِٱلأسلوبِ ٱلبيانيّ، إذْ هو كٱلطابعِ على ٱلعملِ ٱلفنيِّ، وكٱلشهادةِ مِنَ ٱلحياةِ ٱلمعنويَّةِ لهذا ٱلإنسانِ ٱلموهوبِ ٱلذي جاءَتْ من طريقِه، ثُمَّ لِأنَّ ٱلأسلوبَ هو تخصيصٌ لِنوعٍ مِنَ ٱلذوقِ وطريقةٌ مِنَ ٱلإدراك، كأنَّ ٱلجمالَ يقولُ بِٱلأسلوب: إنَّ هذا هو عملُ فلان.

وفصْلُ ما بينَ ٱلعالِمِ وٱلأديب، أنَّ ٱلعالِمَ فِكْرة، ولكنَّ ٱلأديبَ فِكْرةٌ

---

(١) الاعتقاب: إطالة النظر وإمعان الفكر وكدّه.

وأُسلوبُها؛ فٱلعلماءُ هم أعمالٌ متَّصِلَةٌ متشابِهةٌ يُشارُ إليهم جملةً واحدة، على حين يُقالُ في كلِّ أدِيبٍ عبقريّ: هذا هو، هذا حدُّه؛ وعِلْمُ ٱلأديبِ هوَ ٱلنفسُ ٱلإنسانيَّةُ بِأَسرارِها ٱلمتَّجِهَةِ إلى ٱلطبيعة، وٱلطبيعةُ بِأسرارِها ٱلمتَّجهةِ إلى ٱلنفس؛ ولذلك فموضِعُ ٱلأديبِ منَ ٱلحياةِ موضعُ فكرةٍ حدودُها من كلِّ نواحيها ٱلأسرار.

وإذا رأى ٱلناسُ هذه ٱلإنسانيَّةَ تركيباً تامًّا قائماً بِحَقَائِقِهِ وأوصافِه، فٱلأديبُ ٱلعبقريُّ لا يراها إلَّا أجزاء، كأنَّما هو يشهدُ خَلْقَها وتركيبَها. وكأنَّما أمرَّها في (معملِه)، أو كأنَّ ٱللهَ ـ سبحانَه ـ دعاهُ ليرى فيها رأيَه... وبذلك يَجِيءُ ٱلنابغُ من أدبِ ٱلعباقرةِ وبعضُهُ كٱلمقترحاتِ لِتجميلِ ٱلدنيا وتهذيبِ ٱلإنسانيَّة، وبعضُهُ كٱلموافقةِ وإقرارِ ٱلحِكْمة؛ وأساسُهُ على كلِّ هذه ٱلأحوالِ ٱلنقدُ، ثُمَّ النقد، ولا شيءَ غيرُ ٱلنقد؛ كأنَّ ٱلقوةَ ٱلأزليَّةَ تقولُ لِهذا ٱلملهَم: أنت كلمتي فقُلْ كلمتَك...

* * *

وترى ٱلجمالَ حيثُ أصبْتَهُ شيئاً واحداً لا يكبرُ ولا يصغر، ولكنَّ ٱلحِسَّ بِهِ يكبرُ في أناسٍ ويصغرُ في أناس؛ وها هنا يتألَّهُ ٱلأدب؛ فهو خالِقُ ٱلجمالِ في ٱلذهن، وٱلمُمكِّنُ لِلأَسبابِ ٱلمُعِينةِ على إدراكِهِ وتبينِ صِفاتِهِ ومعانيه، وهو ٱلذي يقدرُ لِهذا ٱلعالمِ قيمتَهُ ٱلإنسانيَّةَ بإضافةِ ٱلصُّوَرِ ٱلفكريَّةِ ٱلجميلةِ إليه، ومحاولتِهِ إظهارَ ٱلنظامِ ٱلمجهولِ في مُتناقضاتِ ٱلنفسِ ٱلبشريَّة، وٱلارتفاع بهذِهِ ٱلنفسِ عنِ ٱلواقعِ ٱلمنحطِّ ٱلمجتمعِ من غِشاوةِ ٱلفِطرةِ وصَوْلَةِ ٱلغريزةِ وغرارةِ ٱلطبعِ ٱلحيوانيّ.

وإذا كانَ ٱلأمرُ في ٱلأدبِ على ذلك، فبِٱضطرار أن تتهذَّبَ فيهِ ٱلحياةُ وتتأدَّب، وأنْ يكونَ تَسَلطُهُ على بواعثِ ٱلنفسِ دُربةً[1] لإِصلاحِها وإقامتِها، لا لإِفسادِها وٱلانحرافِ بها إلى ٱلزيغِ وٱلضلالة؛ وبِٱضطرارٍ أنْ يكونَ ٱلأديبُ مكلَّفاً تصحيحَ ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّة، ونَفْيَ ٱلتزويرِ عنها، وإخلاصَها مِمَّا يلتبِسُ بها على تتابُعِ ٱلضرورات؛ ثُمَّ تصحيحَ ٱلفِكْرةِ ٱلإنسانيَّةِ في ٱلوجود، ونفيِ ٱلوثنيَّةِ عن هذه ٱلفِكْرة، وٱلسموِّ بها إلى فوق، ثُمَّ إلى فوق، ودائماً إلى فوق!

وإنَّما يكلَّفُ ٱلأديبُ ذلك لِأَنَّهُ مستبصِرٌ من خصائصِهِ ٱلتمييزُ وتقدُّمُ ٱلنظرِ وتسقُّطُ ٱلإلهام، ولِأنَّ ٱلأصلَ في عملِهِ ٱلفنيِّ ألَّا يبحثَ في ٱلشيء نفسِه، ولكنْ في ٱلبديعِ منه؛ وألَّا ينظرَ إلى وجودِه، بَلْ إلى سِرِّه؛ ولا يُعنى بِتركِيبِه، بلْ بِٱلجمالِ في

---

(١) دُربة: رياضة.

تركيبِه؛ ولأنَّ مادةَ عمَلِهِ أحوالُ ٱلناس، وأخلاقُهم، وألوانُ معايشِهِم، وأحلامُهُم، ومذاهبُ أخيلتِهم وأفكارِهِم في معنى ٱلفن، وتفاوتُ إحساسِهِم به، وأسبابُ مغاويهِم ومراشدِهِم؛ يُسدّدُ على كلِّ ذلك رأيَه، ويُجيلُ فيهِ نظرَه، ويخلُطُهُ في نفسِه، ويُنفِذُهُ من حواسِه، كأنَّما لَهُ في ٱلسرائرِ ٱلقبضُ وٱلبسْط، وكأنَّهُ وليَ ٱلحكمَ على ٱلجزءِ ٱلخفيِّ في ٱلإنسانِ يقومُ على سِياستِهِ وتدبيرِهِ، ويَهديهِ إلى ٱلمثلِ ٱلأعلى، وهلْ يُخلقُ ٱلعبقريُّ إلا كٱلبرهانِ مِنَ ٱللَّهِ لعِبادِهِ على أنَّ فيهم مَنْ يقدِرُ على ٱلذي هو أكملُ وٱلذي هو أبدع، حتى لا ييأسَ ٱلعقلُ ٱلإنسانيُّ ولا ينخذِل، فيستمرَّ دائباً في طلبِ ٱلكمالِ وٱلإبداعِ ٱللذينِ لا نهايةَ لهما؟

فٱلأديبُ يُشرِفُ على هذه ٱلدنيا من بَصيرتِهِ فإذا وقائعُ ٱلحياةِ في حَذْوٍ واحدٍ مِنَ ٱلنزاعِ وٱلتناقض، وإذا هي دائبةٌ في مَحْقِ ٱلشخصيَّةِ ٱلإنسانيَّة، تاركةٌ كلَّ حيٍّ مِنَ ٱلناسِ كأنَّهُ شخصٌ قائمٌ من عملِهِ وحوادثِهِ وأسبابِ عيشِه؛ فإذا تلجْلجَ ذلك في نفسِ ٱلأديبِ ٱتّجهَتْ هذه ٱلنفسُ ٱلعاليةُ إلى أنْ تحفظَ لِلدنيا حقائقَ ٱلضميرِ وٱلإنسانيَّةِ وٱلإيمانِ وٱلفضيلة، وقامَتْ حارِسَةً على ما ضيَّعَ ٱلناس، وسخِّرَتْ في ذلك تسخيراً لا تملكُ معَهُ أنْ تأبَى منه، ولا يستوي لها أنْ تُغمِضَ فيه؛ ونُقِلَتِ ٱلإنسانيَّةُ كلُّها ووضُعَتْ على مجازِ طريقِها أين توجَّهَتْ، فتأكدَ ٱلأمرُ فيها، ووُصِلَ بها، وعَلِمَتْ أنَّها من خالصةِ ٱلله، وأنَّ رسالتَها لِلْعالمِ هيَ تقريرُ ٱلحُبِّ لِلْمتعادين، وبسطُ ٱلرحمةِ لِلْمتنازعين، وأن تجمعَ ٱلكلَّ على ٱلجمالِ وهو لا يختلفُ في لذَّتِه، وتَصِلَ بينَهم بِٱلحقيقةِ وهيَ لا تتفرَّقُ في موعظتِها، وتُشعرُهُمُ ٱلحِكْمةَ وهي لا تتنازعُ في مناحيها: فٱلأدبُ من هذه ٱلناحيةِ يُشبهُ ٱلدين: كِلاهما يُعينُ ٱلإنسانيَّةَ على ٱلاستمرارِ في عملِها، وكِلاهُما قريبٌ من قريب؛ غيرَ أنَّ ٱلدينَ يعرضُ لِلْحالاتِ ٱلنفسيَّةِ لِيأمُرَ وينهيَ، وٱلأدبُ يعرضُ لها لِيجمعَ ويُقابل؛ وٱلدينُ يُوجِّهُ ٱلإنسانَ إلى ربِّه، وٱلأدبُ يُوجِهُهُ إلى نفسِه؛ وذلك وحيُ ٱللَّهِ إلى ٱلملَكِ إلى نبيٍّ مُختار، وهذا وحيُ ٱللَّهِ إلى ٱلبصيرةِ إلى إنسانٍ مُختار.

فإنْ لم يكنْ لِلأَديبِ مَثلٌ أعلى يجهدُ في تحقيقِهِ ويعملُ في سبيلِه، فهو أديبُ حالةٍ مِنَ ٱلحالات، لا أديبُ عصْرٍ ولا أديبُ جِيل؛ وبذلك وحدَهُ كانَ أهلُ ٱلمثلِ ٱلأعلى في كلِّ عصرٍ هُمُ ٱلأرقامَ ٱلإنسانيَّةَ ٱلتي يُلقيها ٱلعصرُ في آخرِ أيَّامِهِ لِيحسبَ رِبحَهُ وخسارتَه...

ولا يخدَعَنَّكَ عن هذا أنْ ترى بعضَ ٱلعبقريِّينَ لا يؤتَى في أدبِهِ أو أكثرِهِ إلَّا

إلى ٱلرذائل، يتغلْغلُ فيها، ويتمَّلأ بها، ويكونُ منها على ما ليسَ عليهِ أحدٌ إلّا ٱلسِّفلةَ وٱلحُشْوَةَ من طَغام ٱلناسِ[1] ورِعاعِهِم؛ فإنَّ هذا وأضرابَهُ مسخَّرون لِخدمةِ ٱلفضيلةِ وتحقيقِها من جهةِ ما فيها مِنَ ٱلنهي، لِيكونوا مثلاً وسَلَفاً وعِبرة؛ وكثيراً ما تكونُ ٱلموعظةُ بِرذائِلِهم أقوى وأشدَّ تأثيراً مِمَّا هيَ في ٱلفضائل؛ بلْ هم عندي كبعضِ ٱلأحوالِ ٱلنفسيَّةِ ٱلدقيقةِ ٱلتي يأمرُ فيها ٱلنهيُ أقوى مِمَّا يأمرُ ٱلأمر، على نحوِ ما يكونُ من قراءتِك موعظةَ ٱلفضيلةِ ٱلأدبيَّةِ ٱلتي تأمُرُك أنْ تكونَ عفيفاً طاهراً؛ ثُمَّ ما يكونُ من رُؤْيتِكَ ٱلفاجرَ ٱلمبتلَى ٱلمُشَوَّهَ ٱلمتحطِّمَ ٱلذي ينهاكَ بِصورتِهِ أنْ تكونَ مثله؛ ولِهذه ٱلحقيقةِ ٱلقويَّةِ في أثرها ـ حقيقةِ ٱلأمرِ بٱلنهي ـ يعمدُ ٱلنوابغُ في بعضِ أدبِهِم إلى صرفِ ٱلطبيعةِ ٱلنفسيَّةِ عن وجهِها، بِعكسِ نتيجةِ ٱلموْقِفِ ٱلذي يُصورونه، أوِ ٱلإحالةِ في ٱلحادثةِ ٱلتي يَصِفُونَها؛ فينتهي ٱلراهبُ ٱلتقيُّ في ٱلقصةِ مُلْحِداً فاجراً، وترتَدُّ ٱلمرأةُ البغيُّ قِدّيسة، ويرجعُ ٱلابنُ ٱلبَرُّ قاتلاً مجنوناً جنونَ ٱلدم؛ إلى كثيرٍ مِمّا يجري في هذا ٱلنسق، كما تراهُ لِأناطول فرانس وشكبيرَ وغيرِهِما، وما كانَ ذلك عن غفلةٍ منهم ولا شرّ، ولكنَّهُ أسلوبٌ مِنَ ٱلفنّ، يُقابلُهُ أسلوبٌ مِنَ ٱلخَلْق، لِيُبدعَ أسلوباً مِنَ ٱلتأثير؛ وكلُّ ذلك شاذٌّ معدودٌ ينبغي أنْ ينحصرَ ولا يتعدَّى، لِأنَّهُ وصفٌ لِأحوالٍ دقيقةٍ طارئةٍ على ٱلنفس، لا تعبيرٌ عن حقائقَ ثابتةٍ مستقرةٍ فيها.

وٱلشرطُ في ٱلعبقريِّ ٱلذي تلك صِفتُهُ وذلك أدبُه، أنْ يعْلُوَ بِٱلرذيلة. . . في أسلوبِهِ ومعانيه، آخذاً بِغايةِ ٱلصنعة، مُتناهياً في حُسْنِ ٱلعِبارة؛ حتى يُصبحَ وكأنَّ ٱلرذائلَ هيَ ٱختارَتْ منه مُفسِّرَها ٱلعبقريَّ ٱلشاذَّ ٱلذي يكونُ في سُمُوِّ فنِهِ ٱلبيانيِّ هو وحدَه ٱلطرفَ ٱلمُقابِلَ لِسموِّ ٱلعِبارةِ عنِ ٱلفضيلة، فيصنعُ ٱلإلهامُ في هذا وفي هذا صُنعَهُ ٱلفنيَّ بِطريقةٍ بديعةِ ٱلتأثير، أصلُها في أديبِ ٱلفضيلةِ ما يُريدُهُ ويُجاهدُ فيه، وفي أديبِ ٱلرذيلةِ ما يقودُهُ ويندفعُ إليه، كأنَّ منهما إنساناً صارَ مَلَكاً يكتب، وإنساناً عادَ حيواناً يكتب. . .

وإذا أنت ميَّلْتَ بين رذيلةِ ٱلأديبِ ٱلعبقريِّ في فنِّه، ورذيلةِ ٱلأديبِ ٱلفسْلِ[2] ٱلذي يتشبَّهُ بهِ ـ في ٱلتأليفِ وٱلرأيِ وٱلمتابعةِ وٱلمذهب ـ رأيْتَ ٱلواحدةَ مِنَ ٱلأخرى كَبُكاءِ ٱلرجلِ ٱلشاعرِ من بُكاءِ ٱلرجلِ ٱلغليظِ ٱلجِلْف: هذا دموعُهُ ٱلمُهُ، وذاك دموعُهُ

---

(١) طغام: سِفلة البشر. (٢) الفسل: الخامل الذكر.

ألمُهُ وشعرُه؛ وفي كتابةِ هذه ٱلطبقةِ مِنَ ٱلعبقريِّينَ خاصةً يتحقَّقُ لك أنَّ ٱلأسلوبَ هو أساسُ ٱلفنِّ ٱلأدبي، وأنَّ ٱللذةَ بِهِ هي علامةُ ٱلحياةِ فيه؛ إذْ لا ترى غيرَ قطعةٍ أدبيَّةٍ فنيَّة، شاهدُها من نفسِها على أنَّها بِأسلوبِها ليسَتْ في ٱلحقيقةِ إلَّا نكتةً نفسيَّةً لاهتياجِ ٱلبواعثِ في نفوسِ قرائِها، وأنَّها على ذلك هيَ أيضاً مسألةٌ من مسائلِ ٱلإنسانيَّةِ مطروحةٌ لِلنظرِ وٱلحلّ، بما فيها من جمالِ ٱلفنِّ ودقائقِ ٱلتحليل.

* * *

وٱللذةُ بِٱلأدبِ غيرُ ٱلتلهِّي بِهِ وٱتخاذِهِ لِلْعَبَثِ وٱلبَطَالةِ فيجيءُ موضوعاً على ذلك فيخرجُ إلى أنْ يكونَ مَلْهاةً وسُخْفاً ومَضْيَعَة؛ فإنَّ ٱللذةَ بِهِ آتيةٌ من جمالِ أسلوبِهِ وبلاغةِ معانيهِ وتناوُلِهِ ٱلكَوْنَ وٱلحياةَ بِٱلأساليبِ ٱلشعريَّةِ ٱلتي في ٱلنفس، وهيَ ٱلأصلُ في جمالِ ٱلأسلوب؛ ثُمَّ هو بعدَ هذه ٱللذةِ منفعةٌ كُلُّهُ كَسائرِ ما رُكِّبَ في طبيعةِ ٱلحيّ، إذْ يُحسُّ ٱلذوقُ لَذَّةَ ٱلطعامِ مثلاً على أنْ يكونَ من فِعْلِها ٱلطبيعيِّ ٱستمراءُ ٱلتغذيةِ لِبناءِ ٱلجِسْمِ وحِفْظِ ٱلقوَّةِ وزيادتِها؛ أمّا ٱلتلهّي فيَجِيءُ من سُخْفِ ٱلأدب؛ وفراغ معانيه، ومؤاتاتِهِ ٱلشهواتِ ٱلخسيسةَ وٱلتماسِهِ ٱلجوانبَ ٱلضيِّقةَ مِنَ ٱلحياة؛ وذلك حينَ لا يكونُ أدبَ ٱلشعبِ ولا ٱلإنسانيَّةِ بلْ أدبَ فِئةٍ بِعينِها وأحوالِها؛ فإنَّ أديبَ صِناعتِهِ أو أديبَ جماعتِهِ، غيرُ أديبِ قومِهِ وأديبِ عصرِه، أحدُهما إلى حدٍّ محدودٍ مِنَ ٱلحياة، وٱلآخرُ عملٌ جامعٌ مستمِرٌّ متفنِّنٌ؛ لِأنَّ عملَهُ ٱلأدبيَّ هو وجودُه، وكلُّ شيءٍ في قومِهِ لا يبرحُ يقولُ لَهُ: اكتب...

ومِنَ ٱلأصولِ ٱلاجتماعيَّةِ ٱلتي لا تتخلَّف، أنَّهُ إذا كانَتِ ٱلدولةُ لِلشعب، كانَ ٱلأدبُ أدبَ ٱلشعْبِ في حياتِهِ وأفكارِهِ ومطامِحِهِ وألوانِ عيشِه، وزَخَرَ[1] الأدبُ بذلك وتنَوَّعَ وافتَنَّ وبُنِيَ على ٱلحياةِ ٱلاجتماعيَّة؛ فإنْ كانَتِ ٱلدولةُ لِغيرِ ٱلشعب، كانَ ٱلأدبُ أدبَ ٱلحاكمينَ وبُنيَ على ٱلنِّفاقِ وٱلمُداهنةِ وٱلمُبالغةِ ٱلصناعيَّةِ وٱلكَذِبِ وٱلتدليس، ونَضَبَ ٱلأدبُ من ذلك وقلّ وتكرَّرَ من صورةٍ واحدة؛ وفي ٱلأولى يتَّسعُ ٱلأديبُ مِنَ ٱلإحساسِ بِٱلحياةِ وفنونِها وأسرارِها في كلِّ من حَوْلَه، إلى ٱلإحساسِ بِٱلكونِ ومَجاليهِ وأسرارِهِ في كلِّ ما حَوْلَه؛ أمَّا ٱلثانيةُ فلا يُحسُّ فيها إلَّا أحوالَ نفسِهِ وخَلِيطِه، فيُصبحُ أدبُهُ أشبَهَ بِمسافةٍ محدودةٍ مِنَ ٱلكونِ ٱلواسعِ لا يزالُ يذهبُ فيها ويجيءُ حتى يملَّ ذهابَهُ ومجيئَه.

---

(١) زخر: امتلأ واحتوى.

والعَجَبُ الذي لم يتنبَّهْ لَهُ أحدٌ إلى اليوم من كلِّ مَنْ درسوا الأدبَ العربيَّ قديماً وحديثاً، أنَّك لا تجدُ تقريرَ المعنى الفلسفيِّ الاجتماعيِّ لِلأَدبِ في أسمى معانيهِ إلَّا في اللغةِ العربيَّةِ وحدَها، ولم يغفلْ عنه مع ذلك إلَّا أهلُ هذه اللغةِ وحدَهم!

فإذا أردْتَ الأدبَ الذي يُقرِّرُ الأسلوبَ شَرْطاً فيه، ويأتي بِقوّةِ اللغةِ صورةً لِقوَّةِ الطِّباع، وبِعظَمَةِ الأداءِ صورةً لِعظمةِ الأخلاق، وبِرِقَّةِ البيانِ صورةً لِرِقَّةِ النفس، وبِدِقَّتِهِ المتناهيةِ في العمقِ صورةً لِدِقَّةِ النظرةِ إلى الحياة؛ ويُريكَ أنَّ الكلامَ أُمَّةٌ مِنَ الألفاظِ عاملةٌ في حياةِ أُمَّةٍ مِنَ الناس، ضابطةٌ لها المقاييسَ التاريخيَّة، مُحْكِمةٌ لها الأوضاعَ الإنسانيَّة، مشترِطةٌ فيها المثلَ الأعلى، حاملةٌ لها النورَ الإلهيَّ على الأرض...

... وإذا أردْتَ الأدَبَ الذي يُنشيءُ الأُمَّةَ إنشاءً سامياً، ويدفعُها إلى المعالي دفْعاً، ويردُّها عن سَفَاسِفِ الحياة[1]، ويُوجِّهُهَا بِدقَّةِ الإبرةِ المغناطيسيَّةِ إلى الآفاقِ الواسعة، ويُسدِّدُها[2] في أغراضِها التاريخيَّةِ العاليةِ تسديدَ القنبلةِ خرجَتْ من مدفعِها الضخمِ المُحرِّرِ المُحكم، ويملأُ سرائرَها يقيناً ونفوسَها حزماً وأبصارَها نظراً وعقولَها حِكْمة، ويَنْفُذُ بها من مظاهرِ الكوْنِ إلى أسرارِ الألوهيَّة...

.... إذا أردْتَ الأدَبَ على كلِّ هذه الوجوهِ مِنَ الاعتبار - وجدْتَ القرآنَ الحكيمَ قد وَضَعَ الأصلَ الحيَّ في ذلك كلِّه، وأعجبُ ما فيه أنَّهُ جعلَ هذا الأصلَ مقدَّساً، وفَرَضَ هذا التقديسَ عقيدة، واعْتَبَرَ هذه العقيدةَ ثابتةً لَنْ تتغيَّر؛ ومع ذلك كلِّهُ لم ينتبِهْ لَهُ الأدباءُ ولم يَحْذُوا[3] بالأدبِ حَذْوهُ، وحسِبُوهُ ديناً فقط، وذهبوا بأدبهم إلى العبثِ والمجونِ والنفاق؛ كأنَّهُ منهم إلَّا بقايا تاريخِ محتَضرٍ بِالعِلَلِ القاتلة، ذاهبٌ إلى الفناءِ الحتم!

والقرآنُ بِأُسلوبِهِ ومعانيهِ وأغراضِهِ لا يُستخرجُ منه لِلأَدبِ إلَّا تعريفٌ واحدٌ هو هذا: إنَّ الأدبَ هوَ السموُّ بضميرِ الأُمَّة.

ولا يستخرجُ منه لِلأَديبِ إلَّا تعريفٌ واحدٌ هو هذا: إنَّ الأديبَ هو مَنْ كانَ لِأُمَّتِهِ ولِلُغَتِها في مواهبِ قلمِهِ لقَبٌ من ألقابِ التاريخ.

***

---

(١) سفاسف الحياة: صغائرها والتافه منها.

(٢) يسدّدها: يوجهها. (٣) يحذوا: يخطوا ويقلّدوا.

سِرُّ ٱلنبوغِ في ٱلأَدب

لو ترجمْنَا ٱلخاطرةَ ٱلتي تمرُّ في ذِهنِ ٱلحيوانِ ٱلذكيِّ حين ينقادُ في يدِ رجلٍ ضعيفٍ أبلَهَ يُصرِّفُهُ ويُديرُهُ على أغراضِه، فنقلْناها من فِكْرِ ٱلحيوانِ إلى لغتِنا، وأديناها بِمعنًى مِمَّا بين ٱلإنسانَ وٱلحيوان ـ لَكانَتْ في ٱلعِبارةِ هكذا: ما أنت أيُّها ٱلأبلهُ فيما بيني وبينَ ٱلحقيقةِ ٱلمدَبِّرةِ لِلْكونِ إلَّا نبيٌّ مرسلٌ ﷺ... ذلك أنَّ ٱلتركيبَ ٱلذي يَبِينُ بِهِ ٱلإنسانُ مِنَ ٱلحيوانِ قد جعلَ دِماغَ هذا ٱلحيوانِ خاتماً مِنَ ٱللَّهِ دُمِغَ بِهِ على خصائِصِهِ فأفرغَهُ ٱللَّهُ في جلدِه، ووضَع في رأسِهِ ذلك ٱلقِفْلَ ٱلإلهيَّ ٱلذي حبسَهُ في بابِ ٱلاضطرارِ من غرائزِهِ ٱلبهيميَّة، وأقفل بِهِ على ٱلدنيا ٱلعقليَّةِ ٱلمتَّسعةِ بينَهُ وبينَ ٱلإنسان؛ فٱلكونُ عندَهُ لَغوٌ كلُّهُ ليسَ فيهِ إلَّا حقائقُ يسيرة، ثُمَّ لا تفسيرَ لِهذه ٱلحقائقِ إلَّا من طبيعتِهِ هو، فجِلدُهُ أدقُّ تفسيرٍ فلكيّ... لِلْشمسَ وٱلنورِ وٱلهواءِ وما يجيءُ منها، وجوفُهُ أصحُّ تعبيرٍ جغرافيّ... لِلْكرةِ ٱلأرضيَّةِ وما تحمِل، وجوعُهُ وشبعُهُ هما كلُّ فلسفةِ ٱلشرِّ وٱلخيرِ في ٱلعالم!..

فأساسُ ٱلذكاءِ عالياً ونازلاً هوَ ٱلتركيبُ ٱلطبيعيُّ لا غيرُه: لو زادَتْ في ٱلدماغِ ذرةٌ أو نقصَتْ لَزادَتِ ٱلدنيا صورةً أو نقصَت؛ فَبِٱلضرورةِ تكونُ هذه هيَ ٱلقاعدةَ فيما نرى من تبايُنِ حِدَّةِ ٱلذكاءِ في أفرادِ كلِّ نوعٍ مِنَ ٱلحيوان، وما نشهدُ من ذلك في أحوالِ ٱلناس، مِنَ ٱلفِطْنةِ إلى ٱلذكاءِ إلى ٱلألْمعيةِ[١] إلى ٱلجهبذةِ[٢] إلى ٱلنبوغِ إلى ٱلعبقريَّة؛ وهيَ طبقاتٌ مِنَ ألفاظِ ٱللغةِ لِأَحوالٍ قائمةٍ مِنْ هذه ٱلمعاني ترجعُ إلى درجاتٍ ثابِتةٍ في تركيبِ ٱلدماغ.

ومِمَّا يسجُدُ لَهُ ٱلعقلُ ٱلإنسانيُّ سجدةً طويلةً إذا هو تأمَّلَ في حِكْمةِ ٱللَّهِ ومرَّ يتصفَّحُ[٣] من أسرارِ ما نحن بسبيلِهِ مِنَ ٱلكلام على ٱلنبوغ ـ أنَّ هذا ٱلوجودَ ٱلذي يحملُ أسرارَ ٱلألوهيَّةِ هو كُرَةٌ متقاذفَةٌ في ٱلفضَاء ٱلأبديّ، وأنَّ ٱلأرضَ ٱلتي تحملُ

---

(١) الألمعية: الذكاء المفرط.

(٢) الجهبذة: التفوّق في العلم والشعر.

(٣) يتصفح: يكتشف.

أسرارَ ٱلإنسانيَّة، هي كُرَةٌ طائرةٌ فيما مُدَّ لها مِنَ ٱلوجود، وأنَّ كلَّ حيٍّ فيها يحملُ أسرارَ حياتِهِ في كُرَةٍ خاصَّةٍ بِهِ هيَ رأسُه. وأنَّ ٱلوجودَ من كلِّ حيٍّ هو بعدَ ذلك ليسَ شيئاً في ٱلنظرِ ولا في ٱلحِسِّ ولا في ٱلفَهْم إلَّا كما يُرى ويُحسُّ ويُفهمُ في هذا ٱلرأسِ بِعينِهِ على طريقتِهِ وتركيبه، فيصعدُ ٱلتدريجَ إلى ٱلكبيرِ إلى ٱلأكبر، وينزلُ إلى ٱلصغيرِ إلى ٱلأصغر؛ ثُمَّ لا معنى لِمَا صعدَ إلَّا ممَّا نزل، وبهذا ستكونُ آخرةُ جميعِ ٱلعلومِ متى نفذَ ٱلعلماءُ إلى ٱلسرِّ ٱلحقيقيّ، أنَّ ٱلعقلَ ٱلإنسانيَّ فَهِمَ كلَّ شيءٍ ولم يفهمْ شيئاً. . .

وٱلناسُ يختلفون بِتركيبِ أدمغتِهم على شبيهٍ مِنْ هذا ٱلتدريج؛ فأمَّا واحدٌ فيكونُ دِماغُهُ بِٱعتبارِهِ من سائرِ ٱلناسِ في ٱلذكاءِ وٱلعقْلِ كٱلوجودِ ٱلمُحِيط، وأمَّا آخرُ فكَٱلشمس، ثُمَّ غيرُها كٱلأرض، ثُمَّ ٱلرابعُ كٱلإنسان، ثُمَّ يكونُ منهم كٱلحيوانِ ومنهم كٱلحشرة؛ ولا عِلَّةَ لِكُلِّ هذا إلَّا ما هيَّأتِ ٱلأقدارُ «بأسبابِها ٱلكثيرة»، لِكُلِّ إنسانٍ في تركيبِ دِماغِهِ في نوعِ ٱلمادَّةِ ٱلسِّنجابيَّةِ مِنَ ٱلمخّ، وأحوالِ ٱلتركيبِ في ٱلملايينِ مِنَ ٱلخلايا ٱلعصبيَّة، وما لا يُعَدُّ من فروعِ هذه ٱلخلايا وشُعَبِها: ثُمَّ ما يكونُ من قِبَلِ ٱلعلاقاتِ بين هذه ٱلفروعِ ٱلتي هيَ لِكلِّ رأسٍ كرمْلِ ٱلكرةِ ٱلأرضيَّة، ثُمَّ ٱختلافِ مقاديرِ ٱلموادِّ ٱلكيماويةِ ٱلتي تتخلَّقُ[1] في غددِ ٱلجِسْمِ وتنفُثُها ٱلغددُ في ٱلدم.

فقد يكونُ ٱلعملُ ٱلنابغُ ٱلمتمردُ على ٱلعقولِ آتياً من قطرةٍ في هذه ٱلغُدَد، كما ينبعثُ ٱلعِمْلاقُ ٱلماردُ بِعظامِهِ ٱلممتدَّةِ وألواحِهِ ٱلمشبوحةِ من غُدَّتِهِ ٱلنُّخاميَّةِ لا غيرِها.

فٱلذكيُّ من ذكيٍّ مثلِهِ إنَّما هو كٱلجيشِ من جيشٍ بإزائِهِ: يقعُ ٱلاختلافُ بينَهما فيما ٱشتملا عليهِ من كثرة ٱلجند، وصِفاتِهم مِنَ ٱلقوَّةِ وٱلضعف، وأحوالِهِم مِنَ ٱلنظامِ وٱلاختلال، وقوَّةِ آلاتِهِم ومِقدارِها ونوعِ ٱلاختراعِ فيها، ثُمَّ طبيعةِ موضِعِهِم وحسنِ توجيهِهِم وقِيادتِهِم، وما ٱكتنفَهُم[2] من صعبٍ أو سهْل، وما تظاهرَ[3] عليهِم مِنَ ٱلحوادثِ وٱلأقدار، ثُمَّ ٱلتوفيقِ ٱلذي لا حِيلةَ فيهِ إنْ وقَعَ في حُصَّةِ أحدِهِما وٱستقرّ، أو وقعَ هَوْناً وطارَ لِلآخر؛ وبنحوٍ من هذا كُلِّهِ تكونُ ٱلمُفاضَلَةُ إذا وازنْتَ بينَ ٱثنين مِنَ ٱلنوابغِ في حقيقةِ نُبُوغِهِما.

فٱلنابغةُ خَلْقٌ من خالِقِه، يُصنعُ كما ترى بِإقدارِ ٱلله؛ إذْ هو قَدَرٌ على قومِهِ

(١) تتخلّق: تتشكّل.
(٢) اكتنفهم: داخلهم.
(٣) تظاهر: اجتمع وقوي.

وعلى عصرِه، وهو مِنَ ٱلناسِ كٱلورقةِ ٱلرابحةِ من ورقِ ٱلسحْب (اليانصيب): سلَّةُ يدٍ جعلْتها مالاً وتركَتِ ٱلباقياتِ وَرَقاً وأحدَثَتْ بينهما ٱلفرْقَ ٱلذهبيَّ؛ وبهذا لا يستطيعُ ٱلعالمُ أنْ يزيدَ ٱلدنيا نابغةً إلَّا إذا ٱستطاعَ أنْ يزيدَ في ٱلكواكبِ نَجْماً فيصنعُه؛ وهبْهُ[1] صنعَهُ مِنَ ٱلكهرباء، فيبقى أنْ يحملَه، وإذا حملهُ بقيَ أنْ يرفعَهُ إلى ٱلسموات؛ وهبْهُ قد رفعَهُ فيبقى كلُّ شيء... يبقى عليهِ أنْ يُقحمَهُ[2] في ٱلنجومِ ويُرسلَهُ فيها يدورُ ويتفلَّك.

وكما يُخلقُ ٱلنابغةُ بتركيبه، تُخلقُ لَهُ ٱلأحوالُ ٱلملائمةُ لِعملِهِ ٱلذي خُصَّ بِهِ في أسرارِ ٱلتقديرِ عاملاً نافعاً، وإنْ كانَتْ لا تُلائمُهُ هو منتفِعاً؛ فإنَّهُ هو غيرُ مقصودٍ إلَّا من حيثُ أنَّهُ وسيلةٌ أو آلةٌ تُكابِدُ ما تحتملُ في أعمالِها، ويؤتّى لها لِتأخذَ على طريقةٍ وتُعطيَ على طريقة؛ وبذلك يرجعُ ٱلتقديرُ إلى أنْ يكونَ ٱلعقلُ لِنابغةٍ دليلاً لِلناسِ مِنَ ٱلناسِ أنفسِهِم على ٱلخالقِ ٱلذي هو وحدَهُ أمرُهُ ٱلأمر.

وإذا كانَ ٱلجمالُ يستعلِنُ في كلامِ هؤلاءِ ٱلنوابغ، وٱلخيالُ يظهرُ في تعبيرِهِم، وٱلحِكْمةُ تهبِطُ إلى ٱلدنيا في تفكيرِهم، وٱلمثلُ ٱلأعلى هُمُ ٱلداعون إليه، وٱلأشواقُ ٱلنفسيَّةُ هم موقِظُوها، وٱلعواصفُ هُمُ المصورون لها، وسرورُ ٱلحياةِ هُمُ ٱلذين حوَّلوه إلى ٱلفنّ ـ إذا كانَ هذا كلُّهُ فهذا كلُّهُ إنَّما هو توكيدٌ لاتِّصالِهِم بِٱلقوةِ ٱلأزليَّةِ ٱلمدبِّرة، وأنَّهم أدواتُها في هذه ٱلمعاني؛ فما هي أعمالُهُم أكثرَ مِمَّا هي أعمالُها؛ وقد يظنُّ ٱلناسُ أنّ ٱلنابغةَ يلتمسُ ٱلقُوى ٱلمحيطةَ بِهِ لِيُبدِعَ منها، وٱلحقيقةُ أنَّها هي تلتمِّسُهُ لِتُبدعَ بِه.

وبعدُ؛ فٱلنابغةُ كأنَّهُ إنسانٌ مِنَ ٱلفَلَك، فهو يخزنُ ٱلأشعَّةَ ٱلعقليَّةَ ويُريقُها[3]، وفي يدِهِ ٱلأنوارُ وٱلظلالُ وٱلألوانُ يعملُ بها عملَ ٱلفجرِ كلَّما أظلمَتْ على ٱلناسِ معاني ٱلحياة؛ ولا تزالُ ٱلحِكْمةُ تُلقي إليهِ ٱلفِكْرَةَ ٱلجميلةَ لِيُعطِيَها هو صورةَ فِكْرتِها، وتُوحي إليهِ معنى ٱلحقّ لِيؤتيَها هو معنى جمالِ ٱلحقّ؛ وٱلطبيعةُ خَلَقَها ٱللَّهُ وحدَه، ولكنَّها ليسَتْ معقولَةً إلَّا بِٱلعِلْم، وليسَتْ جميلةً إلَّا بِٱلشعر، وليسَتْ محبوبةً إلَّا بِٱلفَنّ؛ فَٱلنوابغُ في هذا كلِّهِ هُم شروحٌ وتفاسيرُ حولَ كلماتِ ٱلله، وكلُّهُم يشعرُ بِٱلوجودِ فنَّا كاملاً ويشعرُ بِنَفْسِهِ شَرْحاً لِأشياءَ من هذا ٱلفنّ، ويرى

---

(١) هبه: افترض.

(٢) يقحمه: يدخله بقوّة.

(٣) يريقها: ينفقها ويبعثرها.

معانيَ ٱلطبيعةِ كأنّما تأتيهِ تلتمسُ في كتابتِهِ وشعرِهِ حياةً أكبرَ وأوسعَ مِمَّا هيَ فيهِ من حقائِقِها ٱلمحدودة، وتتعرَّضُ لَهُ أحزانُ ٱلإنسانيَّةِ تسألُهُ أنْ يُصحِّحَ ٱلرأيَ فيها بٱستخراجِ معناها ٱلخياليِّ ٱلجميل، فإنَّها وإنْ كانَتْ آلاماً وأحزاناً إلَّا أنَّ معناها ٱلخياليَّ هو سرورٌ تحملُهُ لِلناس؛ إذْ كانَ من طبيعةِ ٱلنفسِ ٱلبشريَّةِ أنْ تسكُنَ إلى وصفِ آلامِهَا وفلسفةِ حِكْمتِها حين تبدو بَصَائِرُها حاملةً أثرَها ٱلإلهيّ، كأنَّ ٱلمؤلِمَ ليس هو ٱلألم، وإنَّما هو جهلُ سِرِّه.

وبِٱلجملةِ فَٱلكونُ يختارُ في كلِّ شيءٍ مُفَسِّرَهُ ٱلعبقريَّ لِيكشفَ من غُمُوضِهِ ويزيدَ فيهِ أيضاً... ثُمَّ ليؤتَى ٱلناسُ ٱلمثلَ ٱلأعلى مِنَ ٱلمعنى على يدِ ٱلمثلِ ٱلأعلى مِنَ ٱلفِكْر؛ ولهذا تُصيبُ ٱلكلامَ ٱلذي يكتبُهُ ٱلنابغةُ ٱلملهَمُ في أوقاتِ ٱلتجلّي عليهِ كأنَّهُ كلامٌ صَوَّرَ نفسَهُ وصاغَها، أو كأنَّهُ قطعةٌ مِنَ ٱلحِسِّ قد جَمَدَتْ في أسطر؛ ولا بُدَّ أنْ تُشعِرَكَ ٱلجملةُ أنَّها قُذِفَتْ وحْياً، إذْ لا تجِدُها إلَّا وكأنَّ في كلماتِها روحاً يَرْتَعِش؛ ولقد يخطرُ لي وأنا أقرأُ بعضَ ٱلمعاني ٱلجميلةِ لِذِهنٍ مِنَ ٱلأذهانِ ٱلملْهَمةِ كشكسبير وٱلمتنبي وغيرِهما ـ حينَ أتأمَّلُ ٱختراعَ ٱلمعنى وإبداعَ سِياقِهِ وضُحى ٱلبيانِ عليهِ وإشراقَهُ فيهِ وما أُتيحَ لَهُ من جَلالٍ ظاهرٍ في شكلٍ حيٍّ يلمحُ بِسرِهِ في ٱلنفس ـ يُخيَّلُ إليَّ من ذلك أنَّ سِرَّ ٱلطبيعةِ القادرَ يعملُ عملَهُ أحياناً بِذِهنٍ إنسانيٍّ لِيخلقَ تعبيراً عن جلالِهِ في مثلِ جلالِه.

وأنت فلو أخذْتَ معنًى من هذه ٱلمعاني ٱلآتيَةِ مِنَ ٱلإلهام وأجريْتَهُ في كتابةِ كاتبٍ أو شِعْرِ شاعرٍ مِنَ ٱلذينَ ليس لهم إلَّا أذهانُهُم يكدُّونها[1]، وكتبُهُم يجعلونَها أذهانَهم أحياناً... لَرَأَيْتَ ٱلفرقَ بين شيءٍ وشيءٍ في أحسنِ ما أنت واجدُهُ لهم على نحوِ ما ترى بين زهرةٍ حريريةٍ جاءَتْ من عملِ ٱلإنسانِ بِٱلإبرةِ وٱلخيط، وزهرةٍ أخرى قدِ ٱنبثقَتْ عَطِرةً ناضرةً في غصنِها ٱلأخضرِ من عملِ ٱلحياةِ بِٱلسماءِ وٱلأرض.

وٱلعبقريُّ هو أبداً وراءَ ما لا ينتهي من جمالٍ، أوَّلُهُ في نفسِهِ وآخرُهُ في ٱلجمالِ ٱلأقدسِ ٱلذي مسَحَ على هذه ٱلنفسِ ٱلجميلةِ ٱلساميَّة؛ فما دامَ فيهِ سِرُّ ٱلعبقريَّةِ فهو دائبٌ يعملُ مُمَزِّقاً حياتَهُ في سَبَحاتِ ٱلنورِ تمزيقاً يجتمعُ منهُ أدبُهُ؛ وما أدبُهُ إلّا صورةَ حياتِهِ؛ وهو كلَّما أبدعَ شيئاً طَلَبَ ٱلذي هو أبدَعُ منه؛ فلا يزالُ متألِّماً إنْ عملَ لأنَّ طبيعتَهُ لا تقفُ عندَ غايةٍ من عملِه، ومتألِّماً إنْ لم يعملْ لِأنَّ

---

(١) يكدونها: يشحذونها ويعملونها.

تلك ٱلطبيعةَ بِعينِها لا تهدأُ إلَّا في عمل، وهي طبيعةٌ متمرِّدةٌ بذلك ٱلجمالِ ٱلأقدسِ تمرُّدَ ٱلعِشْقِ في حامِلِه؛ إذْ هما صورتانِ لِأمرٍ واحدٍ كما سنُشيرُ إليه؛ فكلُّ ما تجدُهُ في نفسِ ٱلعاشقِ ٱلمتدلِّهِ مِمَّا يترامى بِهِ إلى جُنُونِهِ وهلاكِهِ، تجدُ شبهاً منه في نفسِ ٱلعبقريِّ؛ فكِلاهما قانونُهُ من طبيعتِهِ وحدَها؛ إذْ قدِ ٱتخذَتْ حياتُهُ شكلَها ٱلفنيَّ من ذوقِهِ هو وحدَه؛ فليسَ يتبعُ طريقَةَ أحد، بلْ هو طريقةُ نفسِه، وكِلاهُما مسترسِلٌ أبداً إلى جمالٍ مستفيضٍ على روحِهِ يتقلَّبُ فيها بِٱللذةِ وٱلألمِ يرجعُ إليهِ ويستمدُّ منهُ، وكِلاهما لا يجدُ ٱلمعنى ٱلجميلَ في ٱلطبيعةِ معنًى، بلْ رسولاً مِنَ ٱلجمالِ أُرسلَ إليهِ وحدَه، ولا يزالُ يشعرُ في كلِّ وقتٍ أنَّ لهُ رسائلَ ورُسُلاً هو بعدُ في ٱنتظارِها، وكِلاهما متى ظَفِرَ بِشيءٍ من مصدرِ ٱلجمالِ ٱنتهى من شِدَّةِ فرحِهِ إلى ٱلظنِّ أنَّهُ رَبِحَ مِنَ ٱلكوْنِ رِبْحاً لم يكنْ لَهُ من قبل، وكِلاهُما مُتهالِكٌ بين قيودِ ٱلحياةِ ٱلتي في ٱلحياةِ وٱلواقع، وبين حريتِها ٱلتي في خيالِهِ وأملِه، كأنَّ عليهِ في سبيلِ هذه ٱلحريَّةِ أنْ يقطَعَ ٱلليلَ وٱلنهارَ لا قيداً من قيودِ ٱلامتاعِ أو ٱلعيشِ؛ وكِلاهما مُتَّصِلٌ بقوَّةٍ غَيبيةٍ وراءَ ما يُرى وما يُحسُّ تجعلُ نظرتَهُ في الأشياءِ خاضِعةً لِقانونِ ٱلنظرةِ ٱلعاشقةِ في ٱلعينينِ ٱلساحرتينِ ٱلمعشوقتين، فإذا مدَّ عينيهِ في شيءٍ جميلٍ فهناكَ سُؤالٌ وجوابُه، ووحيٌ وترجمتُه، ومرورٌ من يقظةٍ إلى حُلُم، وٱنتقالٌ من حقيقةٍ إلى خيال!

غيرَ أنّ طبيعةَ ٱلعبقريّ تزيدُ على كلِّ ذلك أَلَماً تنفردُ بهِ لا تستقرُّ معهُ على رضا، ولا يَبْرَحُ يُسلِّطُ ٱلإعنات[1] عليها ويستغرقُها بِٱلهموم ٱلسامية؛ وذلك أَلَمُ ٱلكمالِ ٱلفنيّ ٱلذي لا يُدركُ ٱلعبقريُّ غايتَهُ عندَ نفسِه، وإنْ كانَ عند ٱلناسِ قد أدركَ غاياتٍ وغايات؛ فطبيعةُ كلِّ عبقريٍّ تجهدُ جُهْدَها في ٱلعملِ لِتُخرجَ بِهِ مِمَّا يستطيعهُ ٱلناس، فإذا تأتَّى صاحبُها لذلك وكابَدَ فيهِ وأدركَ منهُ وبلغَ وأعجز، ٱندفعَتْ طبيعتُهُ إلى ٱلخروجِ مِمَّا يستطيعُ هو . . . كأنَّهُ خارجٌ عنِ ٱلطبيعةِ وداخلٌ في ٱلطبيعةِ في وقتٍ معاً، وكأنَّهُ نفسُهُ وفوقَ نفسِهِ في حال، وهذا سِرُّ حريَّتِهِ وسمُوِّه، كما أنَّهُ سِرُّ ألمِهِ وحَيْرَته.

ومن أثر ذلك ما تُحِسُّهُ أنت إذا قرأْتَ لِلأدْيبِ ٱلبليغِ ٱلتامِّ صاحبِ ٱلفِكْرِ وٱلأسلوبِ وٱلذهنِ ٱلمُلْهَم؛ فإنَّكَ تَقِفُ على ٱلمعنى من معانيهِ يَملأُ نفسَكَ ويتمَدَّدُ فيها ويهتزُّ بها طَرَباً وإِعْجَاباً، فتقول: لا أحسنَ من هذا! ثُمَّ تُؤَمِلُ معَ ذلك أنْ تجدَ

(١) الاعنات: الإرهاق.

منهُ هو أحسنَ من هذا. . . كأنَّهُ وإنْ تناهى إلى ٱلغايةِ[1] لا يزالُ عندَك فوقَ ٱلغاية؛ وهذا غريبٌ، ولكنْ لا دليلَ على ٱلعبقريَّةِ إلَّا الغَرابةُ دائماً؛ فهيَ نِظامٌ لا نِظامَ فيه؛ لِأنَّها طريقةٌ لا طريقةَ لها؛ وبهذهِ ٱلغَرابةِ جاءَتِ ٱلعبقريَّةُ كلُّها أمثلةً وليس فيها قواعدُ يُحتذى[2] عليها ولا هِدايةَ فيها إلَّا مِنَ ٱلروحِ؛ وإذا كانَ ٱلفنُّ قدرةً متصرِّفةً في ٱلجمال، فَٱلعبقريَّةُ قُدرةٌ متصرِّفةٌ في ٱلفنّ، وٱلنابغةُ كٱلمتكيّسِ[3] ٱلذي معَهُ قُوى ٱلعقلِ ويُريدُ أنْ يزدادَ على قدرِهِ منها، ولكنَّ العبقريَّ كٱلإلهيِّ ٱلذي معَهُ قوى ٱلروح ويُريدُ أنْ يزيدَ ٱلناسَ على قَدْرِهِم بها؛ وذاك مرجعُهُ ٱلفكرُ ٱلدقيقُ ٱلباحث، وهذا مناطُهُ ٱلبصيرةُ ٱلشفَّافةُ ٱلنافذة، وهي أغربُ ٱلغرائبِ في ٱلإنسان؛ إذْ هيَ ٱلجِهَةُ ٱلمطلقةُ في هذا ٱلمخلوقِ ٱلمُقيَّد، وبها تَتَّسِعُ ٱلنفسُ لإدراكِ ٱلمُطْلَقِ ٱلظاهرِ من خلالِ ٱلموجودات، وفيها تحوُّلُ ٱلأشياءِ مِنْ نِظامِ ٱلحاسَّةِ إلى نِظامِ ٱلروح، فيُسمعُ ٱلمرئيُ ويُبْصِرُ ٱلمسموعُ، وتخلعُ ٱلأجسامُ أنغاماً، وتلبسُ ٱلأصواتُ أشكالاً، ويبدو عندَها كلُّ مخلوقٍ وكأنَّ فيهِ بقيةً زائدةً على خَلْقِهِ تُركَتْ لِيعملَ فيها ٱلكاتبُ أوِ ٱلشاعرُ ٱلمُحدِّثُ عملَ فنِّهِ، ٱلزائدةَ على ٱلطبيعةِ بِٱلحاسَّةِ ٱلزائدةِ على ذِهْنِه، وهيَ ٱلتي نُسمِّيها ٱلإلهام.

وهذه ٱلحاسَّةُ هي كذلك من بعضِ ٱلغَرابة، تكونُ في صاحبِها ٱلموهوبِ كما تكونُ حاسةُ ٱلاتجاهِ في ٱلطيورِ ٱلتي تقطعُ في جوِّ ٱلسماءِ إلى غاياتِها ٱلبعيدةِ من قُطْبِ[4] ٱلأرضِ إلى قُطْبِها ٱلآخرِ بِغيرِ دَليلٍ تحملُه، ولا رسم تنظرُ فيه، ولا عِلْمَ ترجعُ إليه؛ وكما تكونُ حاسَّةُ ٱلتمييزِ في ٱلنحلِ ٱلذي يبني عسَلَتَهُ على هندسةٍ لَيْسَتْ من كِتابٍ ولا مدرسة، وحاسَّةُ ٱلتدبيرِ في ٱلنملِ ٱلذي يُدبِّرُ مَمْلكتَهُ بِغيرِ عُلُومِ ٱلممالكِ وسِياسَتِها؛ وكثيراً ما يجيءُ ٱلأديبُ ٱلمُلْهَمُ من حقائقِ ٱلفِكْرِ وبيانِهِ وأسرارِ ٱلطبائعِ وأوصافِها بِمَا يُغطِّي على فلسفةِ ٱلفلاسفةِ وعِلْمِ ٱلعلماء، ومثلُ هذا ٱلعبقريِّ هو عندي فوقَ ٱلعِلْم، لا أقولُ بدرجة، ولكنْ بحاسّة.

وبِٱلإلهامِ يكونُ لِكُلِّ عبقريٍّ ذِهنُهُ ٱلذي معَهُ وذِهنُهُ ٱلذي ليس معهُ؛ إذْ كانَتْ لَهُ من وراءِ خيالِهِ قوَّةٌ غيرُ منظورةٍ ليسَتْ فيه، ومعَ ذلك تعملُ كما تعملُ ٱلأعضاءُ

---

(١) تناهى إلى الغاية: نضجَ واكتمل ووصل إلى حدّه الأقصى.
(٢) يحتذى: يقلّدها ويتّخذها قدوة.
(٣) المتكيس: العاقل الذي يتصرّف بحكمة. (٤) قطب: مركز.

في جِسمِه، هَيِّنةً مُنقادةً كأنَّها تتصرَّفُ على ٱطِّرادِ ٱلعادةِ بِلا فِكْرٍ ولا رَوِيَّةٍ ولا عُسْرٍ ما دامَتْ تتجلّى عليهِ.

وليسَتْ تَتَّصِلُ هذه ٱلقوَّةُ إلَّا بتركيبٍ عصبيٍّ تكونُ فيهِ ٱلخصائصُ ٱلتي تصلُحُ أنْ تتلقَّى عنها، وهيَ في ٱلعبقريينَ خصائصُ مَرْضيةٌ في ٱلأعمِّ ٱلأغْلَب، بلْ لعلَّها كذلك دائماً، لِيَتَّسرَ بِها ٱلعبقريُّ لِحالةٍ خفيفةٍ مِنَ ٱلمَوْت. . . يحملُ بها كَدَّهُ وتعَبهُ وما يُعانيهِ من مضضِ ٱلفكرِ وثِقْلَتِه؛ ثُمَّ لِتَكُونَ هذه ٱلحالةُ كٱلتقريبِ بينَ عالمِ ٱلشهادةِ فيهِ وبينَ عالمِ ٱلغيبِ منهُ؛ فٱلتركيبُ ٱلعصبيُّ في دِمَاغِ ٱلعبقريِّ إنسانٌ على حيالِهِ معَ إنسانٍ آخر، أحدُهما لِمَا في ٱلطبيعةِ وٱلثاني لِمَا وراءَ ٱلطبيعة؛ ومِنْ ثَمَّ كانَ ٱلرجلُ من هذه ٱلفِئَةِ كٱلمِصْباح: يَتَّقِدُ وينطفيءُ لِأَنَّهُ آلةُ نُورٍ تَعْرِضُ لَهَا ٱلعِلَلُ فتذهبُ بِقُدْرَتِها عليه، وتنضبُ مادةُ ٱلنورِ منها، فكذلك لا تَقْدِرُ عليه، وتكونُ مُضِيئَةً فتنطفيءُ بسببٍ ليسَ منهاولا من نورها، وهيَ على كلِّ هذه ٱلأحوالِ لا تملِكُ منها حالة؛ فبينما ٱلعبقريُّ ٱلذي يَمْلأُ ٱلدنيا من آثارِهِ ٱلنابغة، تَراهُ في حالةٍ من أحوالِهِ يَدْأَبُ لا يأْتلي فيجدُ في ٱلعملِ ويبذلُ ٱلوسْعَ فيهِ ويصبرُ على مُطاولةِ ٱلتعبِ في إحكامِهِ ويفيضُ بِهِ فيضاً وكأنَّ في طبيعتِهِ ٱلربيعَ ٱلمتفتِّحَ طولَ أيَّامِهِ بٱلجمال ـ إذا هو في حالةٍ أخرى يتلكَّأُ ويتربَّصُ[1] لا يعملُ شيئاً كأنَّما دخلَ في قريحتِهِ ٱلشتاء، وفي ثالثةٍ يتباطَأُ ويتلَبَّثُ فلا يعنُّ لَهُ جديدٌ كأنَّما حُبِسَ عنهُ فكرُهُ أو نبا طبعُهُ أو هو في قَيْظِ طبيعتِهِ وخُمُولِها وضَجَرِها؛ ثُمَّ لا تمضي على ذلك إلَّا توَّةٌ وساعةٌ فإذا على صيفِهِ هواءُ نوفمبر وديسمبر. . . وإذا هو منبعثٌ مِلْءَ ٱلقوةِ وٱلنشاط؛ وربَّما يأخذُ في غرضٍ مِنَ ٱلكتابةِ قد رسَم لَهُ ٱلمعنى وهيَّأَ لَهُ ٱلمادة، فلا يكادُ يمضي لِنحوٍ منهُ حتى تتناسخَ في ذهنِهِ ٱلمعاني فإذا هو يكتبُ ما لا يُشبِهُ ما كانَ ٱبتدأَ بِهِ، ويأتيهِ غيرُ ما كانَ قد أرادَه، كأنَّما يُلقَى عليهِ فهو يستملي؛ وقد يبتدىءُ معنًى ثُمَّ يُقطَعُ عنهُ بِطارِىءٍ من عملٍ أو حديث، ثُمَّ يُعاوِدُهُ فإذا معنًى آخرُ وإذا جِهَةٌ مِنَ ٱلفكرِ هي جِهَةُ ٱلإبداعِ وٱلاختراعِ في موضوعِه، وإذا هو إنَّما كانَ يَجرُّ بذلك ٱلصارفَ عن معناهُ ٱلأولِ جرًّا لِيدعَهُ إلى ٱلأكملِ وٱلأصحّ، وأيقَنَ أنّهُ لو كانَ ٱستوفى على ما بَدَأَ لأَسَفَّ وضَعُفَ وجاءَ بِمَا غيرُهُ أقدرُ عليه؛ كأنّ هذه ٱلقوَّةَ ٱلخفيَّةَ ٱلتي تُلْهِمُهُ تُنقِّحُ لهُ أيضاً بأساليبها ٱلغريبة؛ وقد يكونُ آخذاً في عملِهِ ماضياً على طبعِهِ مسترسِلاً إلى ما

---

(١) يتربّص: ينتظر ويتوقّع بحذر.

ينكشفُ لَهُ من أسرارِ ٱلمعاني ثَقِفاً مِن هنا لَقِفاً[1] من هناك، ثُمَّ ينظرُ فإذا هو قد مُسِحَ لوحُ خيالِهِ، ويطلبُ ٱلمعنى فلا يُتاحُ لَهُ، ويتمادى فلا يزيدُ إلَّا كَدّاً وعُسْراً كأنَّما ذهبَ إلهامُهُ في غَمضٍ من غُموضِ ٱلأبديَّة؛ وكلُّ مَنِ ٱرتاضَ بصناعةِ ٱلفكرِ وٱستحكمَتْ لَهُ عادتُها ومرَّ في درجاتِها حتى بلغَ ٱلمكانةَ ٱلَّتي يستشرفُ منها لِلإلهام ويتعرَّضُ فيها بِروحِهِ وبَصيرتِهِ لِنَبَضاتِ ٱلوحي وٱنكشافاتِ ٱلغيب، يعلَمُ أنَّ كلَّ معنًى بديعٍ يأتي بِهِ في صِناعتِهِ إنَّما يقعُ لَهُ إلهاماً من ذلك ٱلمعنى ٱلحيِّ ٱلمتمدِّدِ في ٱلكائناتِ كلِّها، ظاهراً في شيءٍ منها بِٱلضوء، وفي أشياءَ بٱلألوان، وفي بعضِها بِٱلحركة، وفي بعضِها بِٱلانسجام، وفي بعضِها بِٱلروعةِ وٱلفخامة، وفي غيرِها بِنِصْبَةِ ٱلهيئة؛ وظاهراً في حالاتٍ كثيرةٍ بِأنَّهُ غيرُ ظاهر؛ ويعرفُ كذلك أنَّ هذا ٱلمعنى ٱلشاملَ ٱلَّذي لا يُحَدُّ هو ٱلَّذي ينقلُ ٱلوجودَ كُلَّهُ إلى نفوسِ ٱلنوابغِ متى نَبَضَ في هذه ٱلنفوسِ ٱلرقيقةِ وأشعرَها سِرَّه، وإذا هَمَّ ٱلنابغةُ أنْ يتوضَّحَهُ لا يرى شيئاً، وإذا أرادَ حُجَّةً عليهِ لم يستطعِ ٱلجلاء عن بيانِهِ بِكلمة، وإذا ٱلتمسَ ٱلتعريفَ بِهِ لم يجدْ إلَّا ما يشهدُ لَهُ إحساسُهُ وقلبُهُ، وهذا ٱلَّذي ينقدحُ[2] في أذهانِ ٱلنوابغِ أفكاراً حين يفيضُ لِكُلٍّ منهم بسببٍ من قراءةٍ أو مُشاهدةٍ أو حالةٍ أو مِراس[3]، هو هو بعينِهِ ٱلَّذي ينقدحُ عِشقاً في قلوبِ ٱلمُحبينَ حين يتراءَى لِكُلٍّ منهم في معنًى على وجهٍ جميل؛ ومن ثُمَّ كانَ ٱلنابغةُ في ٱلأدبِ لا يَتِمُّ تَمامُهُ إلَّا إذا أَحَبَّ وعَشِق، وكانَ ٱلأدبُ نفسُهُ في تحصيلِ حقيقتِهِ ٱلفلسفيَّةِ ليسَ شيئاً سوى صِناعةِ جمالِ ٱلفِكْر..

وهذا ٱلعملُ في ذلك ٱلجِهازِ ٱلعصبيِّ ٱلخاصِّ بِهِ في بعضِ ٱلأدمغةِ هو ٱلَّذي كانَ يُسمِّيهِ علماءُ ٱلأدبِ ٱلعربيِّ بِٱلتوليد، وقد عرفوا أثرَه، ولكنَّهُم لم يتنبَّهوا إلى حقيقتِهِ ولا أدركوا من سِرِّهِ شيئاً؛ وأحسنُ ما قرأناهُ فيهِ قولُ ٱبنِ رشيقٍ في كتابِ ٱلعمدة: «إنَّما سُمِّيَ ٱلشاعرَ شاعراً لِأنَّهُ يشعرُ بِما لا يشعرُ بِهِ غيرُه؛ فإذا لم يكنْ عندَ ٱلشاعرِ توليدُ معنًى ولا ٱختراعُه، أوِ ٱستطرافُ لَفْظٍ وٱبتداعُه، أو زِيادةٌ فيما أجحفَ[4] فيهِ غيرُهُ مِنَ ٱلمعاني، أو نقصٌ مِمَّا أطالَهُ سِواهُ مِنَ ٱلألفاظ، أو صَرْفُ معنًى إلى وجهٍ عن وجهٍ آخر ـ كانَ ٱسمُ ٱلشاعرِ عليهِ مَجَازاً لا حقيقة، ولم يكنْ لَهُ

(١) لقفاً: سريع الفهم لما يدور حوله.

(٢) ينقدح: يلتمع.

(٣) المِراس من الممارسة الناتجة عن التجربة والمعرفة.

(٤) أجحف: ظلم وقلّل.

إلّا فضلُ ٱلوزن». هذا كلامُ ٱبنِ رشيق، وليسَ لهم أحسنُ منه، وهو مَعَ ذلك تخليطٌ لا قِيمةَ لَهُ وليسَ فيهِ من موضوعِنا إلّا لفظُ ٱلتوليد.

ومِمَّا لا نقضي منه عجباً في تتبُّع فلسفةِ هذه ٱللغةِ ٱلعربيَّةِ ٱلعجيبة، أنَّنا نرى أكثرَ ألفاظِها كٱلتامةِ لا ينقصُها شيءٌ من دقائقِ ٱلمعنى في أصلِ وضعِها، على حينِ لا يفهمُ علماؤُها من هذه ٱلألفاظِ إلّا بعضَ ما تدلُّ عليه، كأنَّها منزّلةٌ تنزيلاً مِمَنْ يعلمُ ٱلسّر؛ وقد نبَّهنا إلى هذا في كتابنا (تاريخُ آدابِ ٱلعرب) وأفضْنَا[1] فيهِ وٱستوفينا هناك من فلسفتِهِ، وجاءَ ٱلقرآنُ ٱلكريم من هذا بِٱلعجائبِ ٱلتي تفوتُ ٱلعقل، حتى إنَّ أكثرَ ألفاظِهِ لَتَكادُ تكونُ مختومةً نزلَتْ كذلك لِتفُضَّ[2] ٱلعلومَ وٱلفلسفةُ خواتِمَها في عصورٍ آتيةٍ لا ريبَ فيها؛ وكلمةُ ٱلتوليدِ ٱلتي لم يفهمْ منها ٱلعلماءُ إلّا أخْذَ معنًى من معنًى غيرِهِ بِطريقةٍ من طرقِ ٱلأخذِ ٱلتي أشاروا إليها في كتبِ ٱلأدب ـ هيَ ٱلكلمةُ ٱلتي لا يخرجُ عنها شيءٌ من أسرارِ ٱلنبوغِ ولا تجدُ ما يسدُّ في ذلك مَسدَّها[3] أو يُحيطُ إحاطتَها، ولا نظنُّ في لغةٍ مِنَ ٱللغاتِ ما يُشبهُها في هذه ٱلدلالةِ وٱستيعابِها كلَّ أسرارِ ٱلمعنى؛ إذْ هيَ بِلفظِها نَصٌّ على حياةِ ٱلكونِ في ٱلذهنِ ٱلإنسانيّ، وأنَّهُ يُتَّخذُهُ وسيلةً لإِبداعِ مَعَانيه، كما يَتَّخِذُ سِرُّ ٱلحياةِ بَطْنَ ٱلأمِّ وسيلةً لإِبداعِ موجوداتِهِ؛ وأنَّ ٱلمعانِيَ تتلاقحُ فيَلِدُ بعضُها بعضاً في أسلوبٍ مِنَ ٱلمعاني بعضُها أجملُ من بعض، كما يكونُ مثلُ ذلك في ٱلنسْلِ بوسائلِ ٱلتقليحِ مِنَ ٱلدماءِ ٱلمختلفة، وأنَّ ٱلنبوغَ ليسَ شيئاً إلّا ٱلتركيبَ ٱلعصبيَّ ٱلخاصَّ في ٱلذهْنِ، ثُمَّ نموَّ هذا ٱلتركيبِ مَعَ ٱلحياةِ في طريقةٍ سَواءٌ هي وطريقةُ ٱلولادةِ ٱلْمُحيِيةِ ٱلتي مرجعُها كذلك إلى تركيبٍ خاصٍّ في أحشاءِ ٱلأنثى؛ ينمو، ثُمَّ يُدركُ ثُمَّ يعملُ عملَهُ ٱلمعجز؛ وإذا كانَ من كلِّ شيءٍ في ٱلطبيعةِ زوجان، فَٱلكلمةُ نصٌّ على أنَّ أذهانَ ٱلنوابغِ أذهانٌ مؤنَّثةٌ في طِباعِها ٱلتي بُنيَتْ عليها؛ وهذا صحيح، إذْ هيَ أقوى ٱلأذهانِ على ٱلأرضِ في ٱلحِسِّ بِالآلامِ وٱلمسرات، ومعاني ٱلدموعِ وٱلابتسام أسرعُ إليها من غيرِها، بلْ هيَ طبيعةٌ فيها؛ وهي وحدَها ٱلمُبْدِعةُ لِلْجمالِ وٱلْمُنْشِئَةُ لِلذوق، وعملُها في ذلك هو قانونُ وجودِها؛ ثُمَّ هي قائمةٌ على ٱلاحتمالِ وٱلإعطاءِ وٱلرضا بِٱلحرْمانِ في سبيلِ ذلك وإدمانِ ٱلصبرِ على ٱلتعبِ وٱلدقةِ وٱلاهتمام بِٱلتفاصيلِ وأساسُها ٱلحُبّ؛ وكلُّ ذلك من طِباعِ ٱلأنثى وهيَ ٱلنابغةُ فيه، بلْ هي ٱلنابغةُ بِه.

---

(١) أفضنا: زدنا أكثر ممّا هو مطلوب.

(٢) لتفضنّ: لتكشف وتفتح. (٣) مسدّها: مكانها.

فسِرُّ ٱلنبوغ في ٱلأدبِ وفي غيرِهِ هو ٱلتوليد، وسرُّ ٱلتوليدِ في نضج ٱلذهنِ ٱلمهيإِ بأدواتِهِ ٱلعصبيَّة، ٱلمتجهِ إلى ٱلمجهولِ ومعانيهِ كما تَتَّجِهُ كلُّ آلاتِ ٱلمرصدِ ٱلفلكيِّ إلى ٱلسماءِ وأجرامِها؛ وبذلك ٱلعنصرِ ٱلذهنيِّ يزيدُ ٱلنابغةُ على غيره، كما يزيدُ ٱلماسُ على ٱلزجاج، وٱلجوهرُ على ٱلحجر، وٱلفُولاذُ على ٱلحديد، وٱلذهبُ على ٱلنحاس؛ فهذه كلُّها نبغَتْ نبوغَها بِٱلتوليدِ في سِرِّ تركيبِها؛ ويتفاوتُ ٱلنوابغُ أنفسُهُم في قوَّةِ هذه ٱلمَلَكة، فبعضُهُم فيها أكملُ من بعض، وتمدُّ لهم في ٱلخِلافِ أحوالُ أزمانِهِم ومعايشِهِم وحوادثِهِم ونحوِها؛ وبهذه ٱلمُباينةِ تجتمعُ لِكُلٍّ منهم شخصيَّةٌ وتتَّسِقُ لَهُ طريقة؛ وبذلك تتنوَّعُ ٱلأساليب، ويُعادُ ٱلكلامُ غيرَ ما كانَ في نفسِه، وتتجدَّدُ ٱلدنيا بمعانيها في ذِهْنِ كلِّ أديبٍ يَفهمُ ٱلدنيا وتَتَّخِذُ ٱلأشياءُ ٱلجاريةُ في ٱلعادةِ غرابةً ليست في ٱلعادةِ ويرجعُ ٱلحقيقيُّ أكثرَ من حقيقتِه.

وقد سُئِل مصوِّرٌ مُبْدِعٌ بماذا يمزجُ ألوانَهُ فتأتي ولها إشراقُها وجمالُها ونبوغُ مبانيها وزهوُّ ٱلحياةِ بها في ٱلصورة، فقال: إنَّما أمزجُها بِمُخِّي. وهذا هذا، فإنَّ ٱلألوانَ عندَه ٱلناسُ جميعاً، ولكنَّ مُخَّهُ عندَهُ وحدَهُ ولَهُ تركيبُهُ ٱلخاصُّ بِهِ وحدَهُ وسِرُّ ٱلصناعةِ في توليدِ هذا ٱلدماغ فِكَأَنَّ ألوانَهُ في صِناعتِهِ جاءَتْ منه بِخُصوصِه، وكذلك كلُّ ما يتناولُهُ ٱلعبقريُّ فإنَّكَ لَتَجِدُ ٱلشعرَ في وزنٍ خاصٍ بِهِ يدلُّ عليهِ ويُتمِّمُ ٱلغرضَ منه ويُضيفُ إلى معانيهِ أنقاً مِنَ ٱلجمالِ وحُسنِهِ وإلى صوتِهِ نغماً مِنَ ٱلموسيقى وطربِها. فما أشبهَ ٱلجِهازَ ٱلعصبيَّ في دِماغِ كلِّ نابغةٍ أنْ يكونَ وزناً شعريًّا لهذا ٱلنابغةِ بخاصتِه. ألا ترى أنَّك لا تقرأُ ٱلأديبَ ٱلحقَّ إلَّا وجدْتَ كلَّ ما يكتبُهُ يجيءُ في وزنٍ خاصٍّ بِهِ حتى لا يخرجَ عنهُ مرَّة، أو تزيدُ أنت فيهِ وتُنقِصُ إلَّا ظهرَ لك أنَّه مكسور...؟

وٱلذهنُ ٱلعبقريُّ لا يتَّخذُ ٱلمعانيَ موضوعَ بَحْثٍ ونظرٍ وتعقُّبٍ يستخرجُ منها أو يتعلَّقُ عليها فهذا عملُ ٱلذهنِ ٱلذكيِّ وحدَهُ وهو غايةُ ٱلغاياتِ فيهِ يبحثُ وينظرُ ويتصفَّحُ ويجمعُ من هنا ويأخذُ من ثَمَّ ويعترضُ ويُصحِّحُ ويأتيكَ بِٱلمقالةِ يحسبُ فيها كلَّ شيءٍ وما فيها إلَّا أشياؤُهُ هو وأمثالِهِ. أمَّا ٱلذهنُ ٱلعبقريُّ فليسَ لَهُ منَ ٱلمعاني إلَّا مادةُ عملٍ فلا تكادُ تُلابسُهُ حتى تتحوَّلَ فيهِ وتتنوَّعَ وتتساقطَ لَهُ أشكالاً وصُوَراً في مثلِ خطراتِ ٱلبرْق، وربَّما غمرَ بِٱلمعنى ٱلواحدِ في جمالِهِ وسُمُّوِهِ وقوَّةِ تأثيرِهِ مقالاتٍ عِدَّةٍ لِأُولئك ٱلأذكياءِ فنسخَها نَسْخاً وجعلَها منه كٱلشموعِ ٱلمُوْقَدَةِ بِإزاءِ ٱلشمس. فإذا ذهبْتَ تُوازِنُ بينَ مثلِ هذا ٱلمعنى ومثلِ هذه ٱلمقالاتِ في ٱلروعةِ وٱلجَلَالِ ورأيْتَ عربدةَ ٱلمقالةِ وغرورَها لم تستطعْ إلَّا أنْ تقولَ لها: يا

حصاة ٱلمِيزانِ في إحدى كفتيهِ ألا يكفيكَ ٱلجبلُ في ٱلكَفَّةِ ٱلأخرى . . . ؟

وقد عرفَ ٱلأدباءُ جميعاً أنّ كاتِبَ فرنسا ٱلعظيمَ أناتول فرانس كانَ يكتبُ ٱلجملة، ثُمَّ يُنقِّحُها، ثُمَّ يُهذبُها، ثُمَّ يُعيدُها، ثُمَّ يرجعُ فيها، وهكذا خمسَ مراتٍ إلى ثمانٍ ويُقدِّمُ ويُؤخِّرُ من موضعٍ إلى موضعٍ ويحتسبون هذا تحكيكاً وتهذيباً، وما هو منها في شيءٍ ولا أحسبُ ٱلأوربيِّين أنفسَهم تنبَّهوا إلى سِرِّ هذه ٱلطريقة، وإنَّما سِرُّها من جِهازِ ٱلتوليدِ في رأسِ ذلك ٱلكاتبِ ٱلعظيم فإذا قرأ كتابَةً حوَّلَها فكرُهُ وأبدعَ لَهُ منها من غيرِ أنْ يعملَ في ذلك أو يتكلَّفَ لَهُ إلَّا ما يتكلَّفُ مَنْ يهزُّ إليهِ بِجذعِ ٱلشجرةِ لِتُساقطَ عليه ثمراً ناضجاً حُلْواً جَنِيًّا. فكلَّما قرأَ ولَّدَ ذِهنُهُ فيُثبتُ ما يأتيهِ فلا تزالُ صورةٌ تخرجُ من صورةٍ حتى يجيءَ ٱلمعنى في ٱلنهايةِ وإنَّهُ لأَغربُ ٱلغرائبِ لا يكادُ ٱلعقلُ يهتدي إلى طريقتِه وسِياقِ ٱلفِكْرِ فيهِ إذْ كانَ لم يأتِ إلَّا محوّلاً عن وجهِهِ مراتٍ لا مرةً واحدة.

فجِهازُ ٱلتوليدِ متى ٱستمرَّ وٱستحكَمَ في إنسانٍ أصبحَ لَهُ بمقامِ مَلَكِ ٱلوحيِّ مِنَ ٱلنبيِّ وهو عندَنا دليلٌ من أقوى ٱلأدلَّةِ على صِحَّةِ ٱلنبوَّةِ وحدوثِ ٱلوحي وإمكانِهِ إذْ لا تتصرَّفُ بِهِ إلَّا قوَّةٌ غيبيَّةٌ لا عملَ لِلْإنسانِ فيها، بلْ هيَ تُبدِعُ إبداعَها وتُلْقِي عليهِ إلقاءً. وليسَ كلُّ مَنْ تعرَّضَ لها أدركَ منها، ولا كلُّ مَنْ أدركَ منها بَلَغَ بها، بلْ لا بُدَّ لها مِنَ ٱلجِهازِ ٱلعَصبيِّ ٱلمُحكَم كجِهازِ ٱللاسلكيِّ ٱلدقيقِ ٱلمصنوعِ لِتلقِّي أبعدِ ٱلأمواجِ ٱلكهربائيَّةِ وأقواها. وهذهِ ٱلقوَّةُ إنْ أرادَتْ معانيَ ٱلجمال أخرجَتِ ٱلشاعرَ وإنْ أرادَتْ كَشْفَ ٱلسرِّ عنِ ٱلأشياءِ أخرجَتِ ٱلأديبَ وإنْ أرادَتْ حقائقَ ٱلوجودِ أخرجَتِ ٱلحكيم. فإنْ كانَ ٱلآمرُ أكبرَ من هذا كلِّهِ وكانَ أمرَ تغييرِ ٱلحياةِ وصَبِّ أزمانٍ جديدةٍ لِلْإنسانيةِ وٱلوثوبِ بِهذه ٱلدنيا درجةً أو درجاتٍ في ٱلرقيِّ - فهنا تكونُ ٱلوصيلةُ أكبرَ مِنَ ٱلبصيرة، فليسَ لها من قوةِ ٱلغيبِ إلَّا ٱلوحي، ويكونُ ٱلغرضُ أكبرَ مِنَ ٱلشاعرِ وٱلأديبِ وٱلحكيم، فلا يختارُ إلَّا ٱلنبيّ، ثُمَّ لا يُوحى إليهِ إلَّا وهو في حِسٍّ لِساعةِ ٱلوحي وحدَها، وهي ساعةٌ ليسَتْ مِنَ ٱلزمنِ بلْ مِنَ ٱلروحِ ٱلمنصرفِ عنِ ٱلزمنِ وما فيهِ ليتلقَّى عن روحِ ٱلخُلْد؛ وقريبٌ من ذلك خَلْوةُ ٱلنابغةِ بنفسِهِ في ساعةِ ٱلتوليد؛ فَسِرُّ ٱلنبوغِ من سِرِّ ٱلوحي، لا ريبَ في ذلك، وما أسهلَ سرَّ ٱلوحي وأيسرَ أمرَهُ، ولكنْ في ٱلأنبياءِ وحدَهم، وهنا كلُّ ٱلصعوبة. . . «أنْ نكونَ أو لا نكون؛ هذه هيَ ٱلمسألة». .

* * *

نقدُ الشعرِ وفلسفتُه

الشاعرُ في رأينا هو ذاك ٱلذي يرى ٱلطبيعةَ كلَّها بعينينِ لهما عِشْقٌ خاصٌّ وفيهما غَزَلٌ على حِدَةٍ، وقد خُلِقتَا مُهيَّأتين بِمجموعةٍ لِنفسِ ٱلعصبيَّةِ لِرؤيةِ ٱلسِّحرِ ٱلذي لا يُرَى إلَّا بهما، بلِ ٱلذي لا وجودَ لَهُ في ٱلطبيعةِ ٱلحيةِ لولا عينا ٱلشاعر، كما لا وجودَ لَهُ في ٱلجمالِ ٱلحيِّ لولا عينا ٱلعاشِق.

فإذا كانَ ٱلشاعرُ ٱلعظيمُ أعمى كهوميروس ومِلْتون وبَشَّارٍ وٱلمعرّي وأضرابِهم، ٱنبعثَ ٱلبصرُ ٱلشعريُّ من وراءِ كلِّ حاسَّةٍ فيه، وأبصَرَ من خواطرِهِ ٱلمنبثَّةِ في كلِّ معنًى، فأدَّى بِٱلنفس في ٱلوجودِ ٱلمُظْلِمِ أكثرَ ما كانَ يُؤدِّيهِ بِهذهِ ٱلنفسِ في ٱلوجودِ ٱلمُضِيء، وقصَّرَ عنِ ٱلمُبصِرينَ في معانٍ وأربى عليهم في معانٍ أخرى، فيجتمعُ لِلشعرِ من هؤلاءِ وأولئكَ مَدُّ ٱلنفسِ ٱلمُلْهَمَةِ مِمَّا بينَ أطرافِ ٱلنورِ إلى أغوارِ ٱلظُّلمة.

وٱلشعرُ في أسرارِ ٱلأشياءِ لا في ٱلأشياءِ ذاتِها، ولِهذا تمتازُ قريحةُ ٱلشاعرِ بِقدرتِها على خَلْقِ ٱلألوانِ ٱلنفسيَّةِ ٱلتي تصبغُ كلَّ شيءٍ وتُلَوِّنُهُ لِإظهارِ حقائقِهِ ودقائقِهِ حتى يجريَ مجراهُ في ٱلنفسِ ويجوزَ مَجَازَهُ فيها؛ فكلُّ شيءٍ تَعَاوَرَهُ ٱلناسُ من أشياءِ هذه ٱلدنيا فهو إنَّما يُعطيهم مادَتَهُ في هيئتِهِ ٱلصامتة، حتى إذا ٱنتهى إلى ٱلشاعرِ أعطاهُ هذه ٱلمادةَ في صورتِها ٱلمكتملة، فأبانَتْ عن نفسِها في شعرِهِ ٱلجميلِ بِخصائصَ ودقائقَ لم يكنْ يراها ٱلناسُ كأنَّها ليسَتْ فيها.

فَبِٱلشعرِ تتكلَّمُ ٱلطبيعةُ في ٱلنفسِ وتتكلَّمُ ٱلنفسُ لِلْحقيقةِ وتأتي ٱلحقيقةُ في أظرفِ أشكالِها وأجملِ مَعَارِضِها، أي في ٱلبيانِ ٱلذي تصنعُهُ هذه ٱلنفسُ ٱلمُلْهَمَةُ حين تتلقَّى ٱلنورَ من كلِّ ما حولَها وتعكسُهُ في صِناعةٍ نورانيةٍ متموِّجةٍ بِٱلألوانِ في ٱلمعاني وٱلكلماتِ وٱلأنغام.

وٱلإنسانُ مِنَ ٱلناسِ يعيشُ في عمرٍ واحد، ولكنَّ ٱلشاعرَ يبدو كأنَّهُ في أعمارٍ كثيرةٍ من عواطفِه، وكأنَّما ينطوي على نفوسٍ مختلِفةٍ تجمعُ ٱلإنسانيَّةَ من أطرافِها،

وبذلك خُلِقَ لِيُفيضَ من هذه ٱلحياةِ على ٱلدنيا، كأنَّما هو نبعٌ إنسانيٌّ لِلإحساسِ يغترفُ ٱلناسُ منهُ لِيزيدَ كلُّ إنسانٍ معانيَ وجودِهِ ٱلمحدودِ ما دامَ هذا ٱلوجودُ لا يزيدُ في مُدَّتِه، ثُمَّ لِيُرهِفَ[1] ٱلإنسانُ بذلك أعصابَهُ فتُدركَ شيئاً مِمَّا فوقَ ٱلمحسوس، وتكنَنَهُ[2] طرفاً من أطرافِ ٱلحقيقةِ ٱلخالدةِ ٱلتي تَتَّسِعُ بِٱلنفسِ وتُخرجُها من حدودِ ٱلضروراتِ ٱلضيِّقةِ ٱلتي تعيشُ فيها لِتصلَها بِلذاتِ ٱلمعاني ٱلحرَّةِ ٱلجميلةِ ٱلكاملة؛ وكأنَّ ٱلشعرَ لم يجيءْ في أوزانٍ إلَّا ليحملَ فيها نفسَ قارئِهِ إلى تلك ٱللَّذاتِ على ٱهتزازاتِ ٱلنغم؛ وما يُطرِبُ ٱلشعرُ إلَّا إذا أحسسْتَهُ كأنَّما أخذَ النفسَ لحظةً وردَّها.

وٱلشاعرُ ٱلحقيقُ بهذا ٱلاسم ـ أي ٱلذي يَغلبُ على ٱلشعرِ ويفتتِحُ معانيَهُ ويهتدي إلى أسرارِهِ ويأخذُ بِغايةِ ٱلصنعةِ فيه ـ تراهُ يضعُ نفسَهُ في مكانِ ما يُعانيهِ مِنَ ٱلأشياءِ وما يتعاطى وصفَهُ منها، ثُمَّ يُفكِّرُ بعقلِهِ على أنَّهُ عقلُ هذا ٱلشيءِ مُضافاً إليهِ ٱلإنسانيَّةُ ٱلعالية، وبهذا تنطوي نفسُهُ على ٱلوجودِ فتخرجُ ٱلأشياءُ في خِلْقةٍ جميلةٍ من معانيها وتُصبحُ هذه ٱلنفسُ خليقةً أخرى لِكُلِّ معنًى داخلَها أوِ ٱتَّصلَ بها؛ ومن ثَمَّ فلا ريبَ أنَّ نفسَ ٱلشاعرِ ٱلعظيمِ تكادُ تكونُ حاسَّةً من حواسِّ ٱلكون.

ولو سُئِلَتْ أزمانُ ٱلدنيا كيف فَهِمَ أهلُها معانيَ ٱلحياةِ ٱلساميةِ وكيف رأَوْها في آثارِ ٱلألوهيَّةِ عليها، لَقَدَّمَ كلُّ جِيْلٍ في ٱلجوابِ على ذلك معانيَ ٱلدينِ ومعانيَ ٱلشعر.

وليسَتِ ٱلفكرةُ شعراً إذا جاءَتْ كما هي في ٱلعِلْم وٱلمعرفة، فهيَ في ذلك عِلْمٌ وفلسفة، وإنَّما ٱلشعرُ في تصويرِ خصائصِ ٱلجمالِ ٱلكامنةِ في هذه ٱلفكرةِ على دِقَّةٍ ولَطَافةٍ كما تتحوَّلُ في ذِهْنِ ٱلشاعرِ ٱلذي يُلوِّنُها بِعملِ نفسِهِ فيها ويتناولُها من ناحيةِ أسرارِها.

فٱلأفكارُ مِمَّا تُعانيهِ ٱلأذهانُ كُلُّها ويتواطأُ[3] فيهِ قلبُ كلِّ إنسانٍ ولِسانُه، بَيْدَ أنَّ فنَّ ٱلشاعر هو فنُّ خصائصِها ٱلجميلةِ ٱلمؤثِّرة، وكأنَّ ٱلخيالَ ٱلشعريَّ نِحْلةٌ مِنَ ٱلنحلِ تُلِمُّ بِٱلأشياءِ لِتُبدعَ فيها ٱلمادةُ ٱلحلوةُ لِلذوقِ وٱلشعور، وٱلأشياءُ باقيةٌ بعدُ كما هيَ لم يغيِّرْها ٱلخيال، وجاءَ منها بِمَا لا تحسبُهُ منها؛ وهذه ٱلقوَّةُ وحدَها هيَ ٱلشاعريَّة.

فٱلشاعرُ ٱلعظيمُ لا يُرسلُ ٱلفكرةَ لِإيجادِ ٱلعِلْم في نفسِ قارئِها حَسْبُ، وإنَّما هو يصنعُها ويَحْذُو ٱلكلامَ فيها بعضَهُ على بعضٍ، ويتصرَّفُ بها ذلك ٱلتصرفَ

---

(١) يُرهف: يرقق ويلطّف.

(٢) تكننه: تقرّه.

(٣) يتواطأ: يجتمع.

لِيُوجِدَ بِهَا ٱلعِلْمَ وٱلذوقَ معاً؛ وعبقريَّةُ ٱلأدبِ لا تكونُ في تقريرِ ٱلأفكارِ تقريراً عِلْميًّا بَحْتاً، ولكنْ في إرسالِها على وجهٍ مِنَ ٱلتسديدِ لا يكونُ بينَهُ وبين أنْ يُقرَّها في مكانِها منَ ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّةِ حائلٌ. وكثيراً ما تكونُ ٱلأفكارُ ٱلأدبيَّةُ ٱلعاليةُ ٱلتي يُلْهَمُهَا أفذاذُ ٱلشعراءِ وٱلكتابِ هِيَ أفكارَ عقلِ ٱلتاريخِ ٱلإنسانيِّ، فلا تَفْصِلُ عنهُمُ ٱلفكرةُ في أسلوبِها ٱلبيانيِّ ٱلجميلِ حتى تتَّخذَ وضْعَها ٱلتاريخيَّ في ٱلدنيا، وتقومَ على أساسِها في أعمالِ ٱلناس، فتتحقَّقُ في ٱلوجودِ ويُعملُ بها؛ وهذا طَرَفٌ مِمَّا بينَ ٱلأدبِ ٱلعالي وبينَ ٱلأديانِ مِنَ ٱلمشابهة.

ومتى نُزِّلَتِ ٱلحقائقُ في ٱلشعرِ وجبَ أنْ تكونَ موزونةً في شكلِها كوزنِه، فلا تأتي على سَرْدِها[1] ولا تُؤْخذُ هَوْناً كٱلكلام بِلا عملٍ ولا صِناعة، فإنَّها إنْ لم يجعلْ لها ٱلشاعرُ جمالاً ونَسَقاً مِنَ ٱلبيانِ يكونُ لها شبيهاً بِٱلوزنِ، ويضعُ فيها روحاً موسيقيَّةً بحيثُ يجيءُ ٱلشعرُ بها ولَهُ وزنانِ في شكلِهِ وروحِه ـ فتلك حقائقُ مكسورةٌ تلوحُ في ٱلذوقِ كٱلنظمِ ٱلذي دخلَتْهُ ٱلعِلَلُ فجاءَ مُخْتلّاً قد زاغَ أو فسد.

وٱلخيالُ هو ٱلوزنُ ٱلشعريُّ لِلْحقيقةِ ٱلمُرسَلَة، وتخيُّلُ ٱلشاعرِ إنَّما هو إلقاءُ ٱلنورِ في طبيعةِ ٱلمعنى لِيشِفَّ[2] بِهِ، فهو بِهذا يرفعُ ٱلطبيعةَ درجةً إنسانيَّة، ويرفعُ ٱلإنسانيَّةَ درجةً سماويَّة؛ وكلُّ بَدائع ٱلعُلماءِ وٱلمخترعينَ هيَ منه بهذا ٱلمعنى، فهو في أصلِهِ ذكاءُ ٱلعِلْم، ثُمَّ يسمو فيكونُ هو بصيرةَ ٱلفلسفة، ثُمَّ يزيدُ سُموُّهُ فيكونُ روحَ ٱلشعر؛ وإذا قلبْتَ هذا النسقَ فٱنحدرْتَ بِهِ نازلاً كما صعدْتَ بِه، حصلَ معك أنَّ ٱلخيالَ روحُ ٱلشعر، ثُمَّ ينحطُّ شيئاً فيكونُ بصيرةَ ٱلفلسفة، ثُمَّ يزيدُ ٱنحطاطاً فيكونُ ذكاءَ ٱلعِلْم، فٱلشاعرُ كما ترى هو ٱلأولُ إنِ ٱرتقَتِ ٱلدنيا، وهو ٱلأولُ إنِ ٱنحطَّتِ ٱلدنيا؛ وكأنَّما إنسانيَّةُ ٱلإنسانِ تبدأُ منه.

إذا قرَّرْنا لِلشعرِ هذا ٱلمعنى وعرفْنا أنَّهُ فنُّ ٱلنفسِ ٱلكبيرةِ ٱلحسَّاسةِ ٱلمُلْهَمَةِ حين تتناولُ ٱلوجودَ من فوقِ وجودِهِ في لُطْفٍ روحانيٍّ ظاهرٍ في ٱلمعنى وٱللغةِ وٱلأداءِ ـ وجبَ أنْ نعتبرَ نقدَ ٱلشعرِ بِٱعتبارٍ مِمَّا قرَّرناه، وأنْ نُقيمَهُ على هذه ٱلأصول؛ فإنَّ ٱلنقدَ ٱلأدبيَّ في أيامِنا هذه ـ وخاصةً نقدَ ٱلشعر ـ أصبحَ أكثرُه، مِمَّا لَا قِيمةَ له، وساءَ ٱلتصرُّفُ بِه، ووقعَ ٱلخَلْطُ فيه، وتناولَهُ أكثرُ أهلِهِ بِعِلْمٍ ناقص، وطبعٍ ضعيف، وذوقٍ فاسد، وطَمِعَ فيه مَنْ لا يُحصِّلُ مذهباً صحيحاً، ولا يتَّجِهُ

---

(١) سردها: روايتها.

(٢) ليشفّ: ليظهر ويرق.

لِرأيٍ جيِّد، حتى جاءَ كلامُهُم وإنَّ في ٱللغوِ وٱلتخليطِ ما هو خيرٌ منه وأخفُّ مَحْمَلاً، فإنَّكَ من هذينِ في حقيقةٍ مكشوفةٍ تعرفُها تخليطاً ولغواً، ولكنَّكَ من نقدِ أولئك في أدبٍ مُزَوَّرٍ ودعوًى فارغةٍ وزوائدَ مِنَ ٱلفضولِ وٱلتعسُّفِ يتزيَّدون بِها لِلنفخِ والصَّوْلَةِ وإيهامِ ٱلناسِ أنَّ ٱلكاتبَ لا يرى أحداً إلَّا هو تحت قدرتِهِ. . . على أنَّ جهدَ عملِهِ إذا فَتَّشْتَهُ وٱعتبرْتَ عليهِ ما يخلطُ فيه، أنَّهُ يكتبُ حيث يُريدُ ٱلنقدُ أنْ يُحقِّق، ويملأَ فراغاً مِنَ ٱلورقِ حيث يقتضِيهِ ٱلبحثُ أنْ يملأَ فراغاً مِنَ ٱلمعرفة.

وقد قُلْنا في كِتابِنا (تحتَ رايةِ ٱلقرآن): إنَّ أستاذَ ٱلآدابِ يجبُ أنْ يجمعَ إلى ٱلإحاطةِ بتاريخِها وتقصِّي موادِّها - ذَوْقاً فنيًّا مهذَّباً مصقولاً، وليس يُمكنُ أنْ يأتيَ لَهُ هذا الذوقُ إلَّا من إبداعٍ في صناعتي ٱلشعرِ وٱلنثر، ثُمَّ يجمعُ إلى هذين (أي ٱلإحاطةِ وٱلذوقِ) تلك ٱلموهبةَ ٱلغريبةَ ٱلتي تلفُّ بينَ ٱلعِلْمِ وٱلفكرِ وٱلمُخيِّلةِ فتُبدعُ مِنَ ٱلمؤرخِ ٱلفيسلوفِ ٱلشاعرِ ٱلعالمِ شخصاً من هؤلاءِ جميعاً هو ٱلذي نُسميهِ ٱلناقِدَ ٱلأدبيّ.

هذه هي صِفاتُ ٱلناقدِ في رأينا؛ فٱنظرْ أينَ تجدُهُ بين هؤلاءِ ٱلأساتذةِ ٱلمختصرين. . . في أدبِهِم، ٱلمطوَّلين. . . في ٱلقابِهم، وإنَّهم لَيَتعاطَوْنَ ٱلنقدَ وليسَ لهم وسائلُهُ إلَّا ما كانَ ضعفةً وقِلَّةً وإدباراً، وقد فاتَهُم ما لا تحملُهُ أقدارُهُم ولا تبلغُهُ قواهم، وجَهِلوا أنَّ ٱلناقدَ ٱلأدبيَّ إنَّما يُلقي درساً عالياً لا يُدَلُّ فيهِ على ٱلعيوبِ ٱلفنيَّةِ إلَّا بإظهارِ ٱلمحاسنِ ٱلتي تُقابِلُها في أسمى ما ٱنتهى إليهِ ٱلفنُّ من آثارِ تاريخِه، فيكونُ ٱلنقدُ تهذيباً وتلخيصاً لِفنونِ ٱلأدبِ كلِّها؛ وهو بهذه ٱلطريقةِ يجلوها على ٱلناسِ ويُبدعُ فيها ويزيدُ في مادتِها ويُسهلُها على ٱلقرَّاءِ ويُحصِّلُها لهم تحصيلاً لا يبلغونه بِأنفسِهِم، ويُعطِيهِم من كلِّ ضعيفٍ ما هو قويّ، ومن كلِّ قويٍّ ما هو أقوى.

ورأيناهم في نقدِ ٱلشعرِ لا يزيدونَ على أنْ يُعلِّقوا على كلامِ ٱلشاعر، فيجيءُ عملُهُم في ٱلجملةِ كأنَّهُ تُصنيفٌ من هذا ٱلشعرِ وشرحٌ لَهُ وتَصفُّحٌ على بعضِ معانيه، وبهذا يرجعُ ٱلشاعرُ وإنَّهُ هُوَ ٱلمتصرِّفُ في ناقدِهِ يُدِيرُهُ كيف شاء، ويجيءُ هذا ٱلناقدُ زائداً متطفِّلاً، فتأتي كِتابتُهُ وإنَّها لَضَرْبٌ من سُخريةِ ٱلمنقودِ بِناقدِه، ويُصبحُ وضعُ ٱلكلامِ على ٱلعكس، فَٱلشاعرُ ٱلمنقودُ لم يتكلَّمْ ولكنَّهُ أبانَ قصورَ ٱلناقدِ وجهْلَه، فهوَ ٱلناقدُ وإنْ سكت، وذاك هو ٱلمنقودُ وإنْ تكلَّم!

وهذا ٱلمتعلِّقُ على أخبارِ ٱلشاعرِ وشِعْرِهِ كتعلُّقِ ٱلتلخيصِ على أصلِهِ ٱلمطَّولِ وٱلشرحِ على متنِهِ ٱلموجزَ، إنَّما هو كاتبٌ يجدُ من ذلك مادَّةً إنشائيَّةً فيتصرَّفُ بها

لِيكتب؛ ولا يُرادُ مِنَ ٱلنقدِ أنْ يكونَ ٱلشاعرُ وشِعْرُهُ مادةَ إنشاء، بلْ مادةَ حِسابٍ مُقدَّرٍ بِحقائقَ معيَّنةٍ لا بُدَّ منها؛ فنقدُ ٱلشعرِ هو في ٱلحقيقةِ عِلْمُ حِسابِ ٱلشعر، وقواعدُهُ ٱلأربعُ ٱلتي تُقابلُ ٱلجمعَ وٱلطرحَ وَٱلضربَ وَٱلقِسمة: هيَ ٱلاطلاعُ وَٱلذوقُ وَٱلخيالُ وٱلقريحةُ ٱلمُلْهَمَة.

وثُمَّ ضَرْبٌ آخرُ من تعلُّقِ ٱلضعفاء، يتناولُ ٱلشاعرَ بِٱعتبارِهِ رجلاً لَهُ موضِعُهُ مِنَ ٱلناسِ ومنزلُهُ مِنَ ٱلحياة، ثُمَّ لا يعدو ذلك وهو تزويرٌ لِلْمؤرِّخِ بِجَعْلِهِ ناقداً، وتزويرٌ لِلْناقدِ بِردِّهِ مؤرِّخاً؛ على أنَّ هذا لا بُدَّ منه في ٱلنقدِ ٱلصحيح، ولكنَّهُ لا يقومُ بِنفسِهِ ولا تنفُذُ بِهِ بَصيرةُ ٱلنقد، إذِ ٱلشاعرُ لم يكنْ شاعراً بِأنَّهُ رجلٌ مِنَ ٱلناسِ وحيٌّ في ٱلأحياءِ وعمرٌ مِنَ ٱلحوادثِ ٱلمؤرَّخة، ولكنْ بِمَوْضُوعِهِ من أسرارِ ٱلحياةِ وصِلَةُ نفسِهِ بِها وقدرةُ هذه ٱلنفسِ على أنْ تنفذَ إلى حقائقِ ٱلطبيعةِ في كائناتِها عامَّةً، وفي إنسانِها خاصَّة، ثُمَّ بِقدرةٍ مثلِ هذه في ٱلنفاذِ إلى أسرارِ ٱللغةِ ٱلشعريَّةِ ٱلتي هيَ ٱلوجودُ ٱلمعنويُّ لِكُلِّ ذلك، وَٱلتَصرُّفُ بها على طبقاتِ معانيهِ حتى لا تُقصِّرَ عنِ ٱلغايةِ ولا تقعَ دونَ ٱلقصْد، فإنَّ ٱلشعْرَ إنْ هو هو إلَّا ظهورُ عَظمةِ ٱلنفسِ ٱلشاعرةِ بِمظهرِها ٱللغويّ، ولئنْ كانَ في نقدِ ٱلشعرِ تاريخٌ لا يتمُّ ٱلنقدُ إلَّا بهِ، فهو تاريخُ ٱلشعْرِ في نفسِ قائِله، ثُمَّ تاريخُ هذه ٱلنفسِ في معاني ٱلشعرِ من عصرِها، ثُمَّ أدبُ هذا ٱلشاعرِ مِنَ ٱلوجودِ ٱلأدبيّ لِلغةِ ٱلتي نظمَ بها؛ وذلك لا بُدَّ أنْ يقعَ فيهِ تاريخُ ٱلشاعرِ نفسِهِ مُحَصَّلاً من نواحيهِ في جِهاتِ ٱلحياة، مُتَعمِّقاً فيهِ بِٱلاستقصاءِ، مُتغلغِلاً إليهِ بِٱلنقد...

* * *

وإنَّ لنا رأياً بَسطْناهُ[1] مِراراً، وهو أنَّهُ لا ينبغي أنْ يعرضَ لِنقدِ ٱلشاعرِ وَٱلكلامِ عنهُ إلَّا شاعرٌ كبيرٌ يكونُ ذا طبيعةٍ في ٱلنقد، أو كاتبٌ عظيمٌ يكونُ ذا طبيعةٍ في ٱلشعر؛ أي لا بُدَّ مِنَ ٱلأدبِ وَٱلشعرِ معاً لِنقدِ ٱلشعرِ وحدَهُ فيأتي ٱلكلامُ فيهِ مِنَ ٱلعِلْمِ وَٱلذوقِ وَٱلإحساسِ وَٱلإلهامِ جميعاً، فيتبينُ ٱلناقدُ وجوهَ ٱلنقصِ ٱلفنِّي، ويعرفُ بِمَ نقصَتْ وما ذا كانَ ينبغي لها وما وجهُ تمامِها، ثُمَّ يعرفُ مِنَ ٱلكمالِ ٱلفنيِّ مثلَ ذلك، ويُحِسُّ على ٱلحالتينِ بِٱلمعاني ٱلتي أحسَّها ٱلشاعرُ حينَ ٱنتزعَ شعرَهُ منها، وما كانَ يَتَخالجُهُ[2] وقتئذٍ مِنَ ٱلفكرِ ويتمثَّلُ لَهُ مِنَ ٱلصورِ ٱلمعنويَّةِ ٱلتي

---

(١) بسطناه: أظهرناه وأوضحناه.

(٢) يتخالجه: يعتمل في نفسه ويحسّه.

ألهمتْهُ إلهامَها؛ فإنَّ ٱلمعانيَ ٱلمكتوبةَ هيَ شعرُ ٱلشاعر، ولكنَّ تلك ٱلمعاني ٱلمحسوسةَ هيَ شعرُ ٱلشعر، وإنَّما يُوقَفُ عليها بِٱلتوهُّم وَٱلاسترسالِ إلى ما وراءِ ٱلشعرِ من بواعثِه، وما تموّجَتْ بِهِ روحُ ٱلشاعرِ عندَ عملِه، وما عرَضتْ لَهَا بِهِ طَبائعُ ٱلمعاني؛ وهذا كلُّهُ لا يُحسِّهُ ٱلناقدُ إنْ لم يكنْ شاعراً في قُوةِ مَنْ ينقدُهُ أو أقوى منهُ طبيعةَ شعرٍ.

وَٱلنقدُ إنَّما هو إعطاءُ ٱلكلامِ لِساناً يتكلَّمُ بِهِ عن نفسِهِ كلامَ مُتَّهمٍ في محكمةٍ لِيُقيمَ أو يُزيحَ شُبهةً أو يُقِرَّ حقيقةً أو يبسطَ معنًى أو يُوجِّهَ عِلَّةً أو يكشِفَ خافياً أو يُثبتَ نقيصةً أو يُظهِرَ إحساناً؛ وبِٱلجملةِ فهو نَفْضُ ٱلسيئةِ وَٱلحسنة، ووقوعُ أدلَّةِ ٱلعِلْمِ وَٱلفنِّ وَٱلذوْقِ مواقعَها، وتكلُّمُ ٱلكلامِ بِذاتِ نفسِهِ ما تُنكِرُ منه وما تستجيد؛ وٱلشاعرُ وٱلناقدُ يلتقيانِ جميعاً في ٱلقارىءِ فوجبَ من ثَمَّ أنْ يكونَ ٱلناقدُ قوَّةً تكشِفُ قوَّةً مثلَها أو دونَها لِيُصَحِّحَ فنٌّ فنّاً مثلَهُ أوْ يُقِرَّهُ أو يَزيدَ عليهِ فضلَ بيانٍ ومزيَّةَ فِكْرٍ؛ وبهذا يُصبحُ ٱلقارىءُ كَٱلسائحِ ٱلذي معهُ ٱلدليلُ وأمامَهُ ٱلمنظر، أي معهُ ٱلتاريخُ ٱلناطقُ وبإزائِهِ ٱلتاريخُ ٱلصامت. وإذا كانَ ٱلشاعرُ وشِعرُهُ إنَّما هما ٱلنفسُ ٱلممتازةُ وحوادثُها ومعاني ٱلحياةِ فيها، فليسَ يَتَّجِهُ أنْ يكونَ ٱلناقدُ تامّاً إلَّا بنفسٍ من نوعِها في دِقَّةِ ٱلحِسِّ ولُطْفِ ٱلنظرِ وَٱلاستشفافِ وقوَّةِ ٱلتأثرِ بمعاني ٱلحياةِ وسُمُوِّ ٱلإلهامِ وَٱلعبقريَّة: وبذلك يجيءُ ٱلنقدُ ٱلصحيحُ بياناً خالِصاً منخولاً كأنَّهُ شَرحُ نفسٍ لِنفسٍ مثلِها.

وليسَ ٱلأنفُ هُوَ ٱلذي ينقدُ ٱلوردةَ ٱلعَطِرةَ ٱلفيَّاحةَ، وإنَّما تنقدُها ٱلحاسَّةُ ٱلتي في ٱلأنف، وناقدُ ٱلشعرِ إنْ لم يكنْ شاعراً فهو أنفٌ صحيحُ ٱلتركيب، ولكنْ بِٱلجِلْدِ وَٱلعظمِ دون تلكَ ٱلحاسَّةِ ٱلتي هيَ روحُ ٱلعَصَبِ ٱلمنبثِّ في هذا ٱلتركيبِ وَٱلمتَّصِلِ بِما وراءَهُ من أعصابِ ٱلدماغ، فهذا ٱلأنف... يستطيعُ أنْ يتناولَ ٱلوردة، ولكنْ بِحسٍّ غليظٍ مَحَقتْهُ[1] ٱلآفةُ كما يتناولُ حَجَراً أو حديداً أو خشباً أيَّها كان، فَٱلوردةُ عندَهُ شيءٌ مِنَ ٱلأشياءِ يمتازُ بِٱللينِ ويختصُّ بِٱلنعومةِ ويسطعُ بِٱلرونقِ ويزهو بِٱللون، ويذهبُ يتكلَّمُ في هذا كُلِّه، وهذا كُلُّهُ في ٱلوردة، ولكنَّهُ ليسَ ٱلوردة.

ومتى كانَ ٱلبحثُ هوَ ٱلبحثَ في ٱلسماءِ وأفلاكِها وأجرامِها فلا يستقلُّ بِهِ إلَّا ٱلناظرُ ٱلمركَّبُ أي ٱلذي معَهُ عينُهُ وتلسكوبُهُ وعِلْمُهُ جميعاً، إنْ نقصَ من ذلك

---

(١) محقته: محته.

فبقدرِ نُقصانِهِ يكونُ ضعفُه، وإنْ تَمَّ فبِقدرِ تمامِهِ يكونُ وفاؤه؛ ولو أمكنَ أنْ ينفصلَ ٱلشاعرُ من شعرِهِ فيقطعَ ما بينَهُ وبينَ ٱلمعاني من نسبِ نفسِه، ويبتعدَ عنِ ٱلشعرِ لِيراهُ جديداً عليهِ ويُميِّزَهُ من كلِّ جِهاتِه ـ لَكانَ هُوَ ٱلناقد؛ فناقدُ ٱلشعرِ هو ٱلشاعرُ نفسُهُ، ولكنْ في وضعٍ أتمَّ وأوفى، وحالةٍ أبْيَنَ وأبصر، أيْ كأنَّهُ ٱلشاعرُ نفسُهُ منقحاً تامّاً بغيرِ ضعفٍ ولا نقص.

ومن أجلِ ذلك ترى من آيةِ ٱلنقدِ ٱلبديعِ ٱلمُحْكَم إذا قرأْتَهُ ما يُخيِّلُ إليك أنَّ ٱلشعرَ يعرضُ نفسَهُ عليكَ عرْضاً ويُحصِّلُ لكَ أمْرَهُ ويُبيِّنُ حالتَهُ في ذِهْنِ شاعِرِه. وكيف توافَى وَٱئتلف، وكيفَ ٱنتزعَهُ ٱلشاعرُ مِنَ ٱلحياة، وما وقعَ فيهِ من قدرِ ٱلإلهام، وما أصابَهُ من تأثيرِ ٱلإنسانِ وما ٱتَّفقَ لَهُ من حظِّ ٱلطبيعةِ وَٱلأشياءِ وَبِٱلجملةِ يُوردُ ٱلنقدُ عليك ما ترى معهُ كأنَّ حركةَ ٱلدمِ وَٱلأعصابِ قد عادَتْ مرةً أخرى إلى ٱلشعر.

* * *

ألا وإنَّ شعرَنا ٱلعربيَّ ٱلجميلَ قد أصبَحَ ٱليومَ في أشدِّ ٱلحاجةِ إلى مَنْ يُعَلِّمُ ٱلقارىءَ كيف يذوقُهُ ويتبيَّنهُ ويخلصُ إلى سِرِّ ٱلتأثيرِ فيه، ويُخرِجُهُ مَخرَجاً سَرِيّاً في أنغامِهِ وألحانِهِ ويأتي بِهِ من نفسِ شاعرِهِ ومن نفسِهِ جميعاً؛ فقوَّةُ ٱلتمييزِ في هذا كلِّهِ على تسديدٍ وصوابٍ هيَ ٱلتي يُعطيها ٱلناقدُ لِقرَّائِه؛ وَٱلشعرُ فِكْرٌ وقراءتُهُ فِكْرٌ آخر، فإنْ قصَّرَ هذا عنْ أنْ يبلغَ ذاك لِيتَّصِلَ بِهِ ويتغلْغلَ فيهِ فلا بُدَّ لِلْفكرينِ من صِلَةٍ فكريَّةٍ هي كتابةُ ٱلناقدِ ٱلذي هو من ناحيةٍ كمالٌ لِلْطبيعةِ ٱلناقصة، ومن ناحيةٍ أخرى شرحٌ لِلْطبيعةِ ٱلكاملة، ومن ناحيةٍ ثالثةٍ هو بِذوقِهِ وفنِّهِ قانونُ ٱلانتظامِ ٱلدقيقِ ٱلذي يُبينُ بِهِ ما ٱستقامَ في ٱلكلامِ وما ٱعْوَجَّ.

وطريقتُنا نحن في نقدِ ٱلشعرِ تقومُ على رُكْنين: البحثُ في موهبةِ ٱلشاعر، وهذا يتناوَلُ نفسَهُ وإلهامَهُ وحوادثَه؛ وَٱلبحثُ في فنِّهِ ٱلبيانيّ، وهو يتناولُ ألفاظَهُ وسبكَهُ وطريقتَه، وسنقول فيهما معاً:

فأمَّا ٱلكلامُ في فنِّ ٱلشعر، فَٱلمُرادُ بِٱلشعر ـ أي نظمُ ٱلكلام ـ هو في رأينا ٱلتأثيرُ في ٱلنفسِ لا غير، وَٱلفنّ كلُّهُ إنَّما هو هذا ٱلتأثير، وَٱلاحتيالُ على رجَّةِ ٱلنفسِ لَهُ وٱهتزازِها بِألفاظِ ٱلشعرِ ووزنِهِ وإدارةِ معانيهِ وطريقةِ تأديتِها إلى ٱلنفس، وتأليفِ مادةِ ٱلشعورِ من كلِّ ذلك تأليفاً مُتلائماً مُسْتوياً في نسجِهِ لا يقعُ فيهِ تفاوتٌ ولا ٱختلال، ولا يُحمَلُ عليهِ تعسُّفٌ ولا ٱستكراهٌ؛ فيأتي ٱلشعْرُ من دِقَّتِهِ وتركيبِهِ

ٱلحيِّ ونَسَقِهِ ٱلطبيعيِّ كأنَّما يُقرَعُ بِهِ على ٱلقلبِ ٱلإنسانيِّ لِيفتحَ لِمعانيهِ إلى ٱلروح؛ وَٱلشعرُ ٱلعربيُّ إذا تمَّتْ لَهُ في صِناعتِهِ وسائلُ ٱلتأثيرِ وأُحكِمَ من كلِّ جِهاتِه، كانَ أسمى شعرٍ إنسانيٍّ فتراهُ يطَّردُ بِألفاظِهِ ٱلجميلةِ ٱلسائغةِ وكأنَّهُ لا يحملُ فيها معانيَ، بلْ يحملُ حركاتٍ عصبيَّةً ليسَ بينها وبينَ أنْ تنسابَ في ٱلدمِ حائل، فما يكونُ إلَّا أنْ يَغْمُرَكَ بِٱلطربِ ويهزَّكَ من أعماقِ ٱلنفسِ وُيوردَ عليك من نفحةِ ٱلروحِ ما إنْ تدبَّرْتَهُ في نفسِكَ وأفصحْتَ عَنهُ شُعورَكَ رأيْتَهُ في حقيقتِهِ وَجْهاً من نِسيانِ ٱلحياةِ ٱلأرضيَّةِ وَٱنتقالٍ إلى حياةٍ أخرى مِنَ ٱلسرورِ وَٱلاهتياجِ وَٱلألمِ وَٱلشجوِ يحياها ٱلدمُ ٱلثائرُ وحدَهُ غيرَ مُشارَكٍ فيها إلَّا مِنَ ٱلقلب.

وَٱلذين يجهلون ذلك من أمرِ ٱلشعرِ ٱلعربيِّ في مِزاجِهِ ٱلخاصِّ ـ فلا يَعتبرُونه حيّاً ذا طِباعٍ وخصائصَ لا بُدّ من مراعاتِها وَٱلنزولِ على حُكْمِها وتلقيِّها بِمَا يُوافقُها كما لا بُدّ من أشباهِ ذلك لاْمرأةٍ جميلة ـ تراهم يُخِلُّون بِقوانينِ صِناعتِهِ ٱلبيانيَّةِ ويُنزلونَ ألفاظَهُ دون منازلِها ويُرسلون معانيَهُ على غيرِ طريقتِها ٱلشعريَّةِ ويبتلونَهُ بِفضولٍ كثيرةٍ هي كَٱلآفاتِ وَٱلأمراض، فيأتونَ بنظمٍ تقرؤُهُ إذا قرأْتَهُ وأنت تتلَّوى كأنَّما يَقرعُ على قلبِك بِقبضةِ يدٍ أو يدقّ عليهِ بِحجرٍ... وقد فشا هذا ٱلنوعُ مِنَ ٱلشعرِ في هذه ٱلأيامِ وأصبحَ لِمَا فسدَ من ذوقِ ٱلأدبِ وما ٱلتاثَ[1] من أمرِ ٱللغةِ وما ٱعوجَّ من طرقِ ٱلفلسفةِ وما عَمَّتْ بِهِ ٱلبلوى مِنَ ٱلتقليدِ ٱلأوروبيّ، وكثيراً ما رأيْتُ ٱلقصيدةَ من هذا ٱلشعرِ كَٱمرأةٍ سُلِخَ وجهُها ووضِعَتْ لها جلدةُ وجهِ ميت... وَٱلناظمُ من هؤلاءِ لا يُصَرِّفُ ٱلشعرَ على حدودِهِ ٱلنفسيَّةِ ولا يُحكمُهُ فيها، بل تُصرِّفُهُ ٱلألفاظُ كيف ٱتَّفقتْ لَهُ على وجوهِها ٱلمُلْتويَّة، وتسوسُهُ ٱلمعاني سِياسةَ عمياءَ فقدَتْ باصرتَيْها[2] معاً، ويحسبونَ كلامَهُم مِنَ ٱلنورِ ٱلعقلي، ولكنَّهُ ٱلنورُ في قَطعِهِ ثمانينَ ألفَ ميلٍ في ٱلثانية، فلا يكادُ يُقالُ في هذا ٱلعالم، حتى يخرجَ منه ويُنسى ويُلحقَ بِٱللانهاية...

وهذا ٱلضربُ مِنَ ٱلصناعةِ ٱلفاسدةِ هو بعينِهِ ذلك ٱلنوعُ ٱلصناعيُّ ٱلذي أفسدَ ٱلشعرَ منذُ ٱلقرنِ ٱلخامس، غيرَ أنَّ ٱلقديمَ كانَ فساداً في ٱلألفاظِ يجعلُها كلَّها أو أكثرَها مُحالاً مِنَ ٱلصنعة، وَٱلحديثُ جاءَ فساداً في ٱلمعاني يجعلُها كلَّها أو أكثرَها مُحالاً مِنَ ٱلبيان.

---

(١) التاث: شوّه وتلوّث وفسد.
(٢) باصرتيها: نظرها.

ويزعمُ أصحابُ هذا ٱلشعرِ أنَّهم فلاسفة، ولكنَّهم كذلك في سَرِقةِ ٱلفلاسفةِ لا غير... ولو علموا لَعلموا أنَّ ألفاظَ ٱلشعرِ هيَ ألفاظٌ مِنَ ٱلكلامِ يضعُ ٱلشعرُ فيها ٱلكلامَ وَٱلموسيقى معاً، فتخرجُ بذلك من طبيعةِ ٱللغةِ ٱلقائمةِ على تأديةِ ٱلمعنى بِٱلدلالةِ وحدَها إلى طبيعةِ لغةٍ خاصةٍ أرقى منها تُؤَدِّي ٱلمعنى بِٱلدلالةِ وَٱلنَّغمِ وَٱلذوق، فكلُّ كلمةٍ في ٱلشعرِ تُجْتَلَبُ لِمعناها من تركيبِهِ، ثُمَّ لِموضعِها من نفسِه، ثُمَّ لَجَرْسِها في ألحانِه؛ وذلك كلُّهُ هو ٱلذي يجعلُ لِلْكلمةِ لَوْنَها ٱلمعنويَّ في جملةِ ٱلتصويرِ بِٱلشعر؛ وما يمرُّ ٱلشاعرُ ٱلعظيمُ بِلفظةٍ مِنَ ٱللغةِ إلَّا وهيَ كأنَّها تُكلِّمُهُ تقول: دعني أو خُذني.

وكما أنَّهُ لا بُدَّ لِلأَزْهارِ من جوِّ ٱلأشعة، كذلك لا بُدَّ لِلْمعاني ٱلشعريَّةِ من جوِّ ٱللغةِ ٱلبيانيَّة، فٱلبيانُ إنَّما هو أشعةُ معاني القصيدة؛ وقد يحسبون أنَّ ٱلصناعةَ ٱلبيانيَّةَ صِناعةٌ متكلِّفةٌ لا شَأْنَ لها في جمالِ ٱلشعرِ ودِقَّةِ ٱلتعبير، وما نُنكِرُ أنَّ مِنَ ٱلبيانِ ٱلجميلِ أشياءَ متكلفة، ولكنَّها تنزلُ مِنْ أساليبِ ٱلبلاغةِ ٱلعاليةِ منزلةً كمنزلةِ ٱلظرفِ وَٱلدَّلِّ وٱلخلاعةِ في ٱلحبيبةِ ٱلجميلة.

إنَّ هذه ٱلفنونَ ليست من جمالِ ٱلخِلْقةِ وَٱلتركيبِ في ٱلمرأَة، ولكنَّها متى ظَهرتْ في ٱلجمالِ ٱلفاتنِ أصبحَ بدونها ـ وهو جميلٌ دائماً ـ كأنَّهُ غيرُ جميلٍ أحياناً.

هنا صِناعةٌ هيَ روحُ ٱلحُسْنِ في ٱلحياة، وصِناعةٌ مثلُها هيَ روحُ ٱلحُسْنِ أحياناً في ٱلبلاغة، وما ٱلتراكيبُ ٱلبيانيَّةُ في مواضِعِها مِنَ ٱلشعرِ ٱلحيِّ إلَّا كَٱلملامحِ وَٱلتقاسيمِ في مواضِعِها مِنَ ٱلجمالِ ٱلحيِّ؛ وكثيراً ما يخيَّلُ إليِّ حينَ أتأمَّلُ بَلاغةَ ٱللفظِ ٱلرشيقِ إلى جانبِ لفظٍ جميلٍ في شعرٍ مُحْكَمِ ٱلسبك، أنَّ هذه ٱلكلمةَ من هذه ٱلكلمةِ كَحُبِّ رجلٍ متأنِّقٍ يتقرَّبُ من حُبِّ ٱمرأةٍ جميلة، وعطفِ أُمومةٍ على طفولة، وحنينِ عاطِفةٍ لِعاطفةٍ، إلى أشباهٍ ونظائرَ من هذا ٱلنَّسَقِ ٱلرقيقِ ٱلحسَّاس؛ فإذا قرأْتُ في شِعْرِ أصحابِنا أولئك رأيْتُ من لفظٍ كَٱلشرطيِّ أخذَ بِتلابيبِ لفظٍ كَٱلمجرم... إلى كلمتينِ هما معاً كَٱلضاربِ وَٱلمضروب... إلى همجٍ ورعاعٍ وهرجٍ ومرْجٍ وهيجٍ وفتنة؛ أمَّا ٱلقافيةُ فكثيراً ما تكونُ في شعرِهم لفظاً ملاكِماً... ليسَ أمامَهُ إلَّا رأسُ ٱلقارىء.

وكما يُهمِلونَ ٱختيارَ ٱللفظِ وَٱلقافيةِ يتسهَّلونَ في ٱختيارِ ٱلوزنِ ٱلمُلائمِ لِموسيقيةِ ٱلموضوعِ فإنَّ مِنَ ٱلأوزانِ ما يستمِرُّ في غرضٍ مِنَ ٱلمعاني ولا يستمرُّ في

غيره؛ كما أنَّ مِنَ ٱلقوافي ما يطَّردِ في موضوعٍ ولا يطَّردُ في سواه، وإنَّما ٱلوزنُ مِنَ ٱلكلام كزيادةِ ٱللحنِ على ٱلصوت: يُرادُ منهُ إضافةُ صِناعةٍ من طربِ ٱلنفسِ إلى صناعةٍ من طربِ ٱلفكر، فَٱلذين يُهمِلون كلَّ ذلك لا يُدركون شيئاً مِنْ فلسفةِ ٱلشعرِ ولا يعلمون أنَّهمُ إنَّما يُفسدونَ أقوى ٱلطبيعتينِ في صِناعتهِ؛ إذِ ٱلمعنى قد يأتي نثراً فلا يُنقصُهُ ذلك عنِ ٱلشعرِ من حيثُ هو معنًى، بلْ ربَّما زادَهُ ٱلنثرُ إحكاماً وتفصيلاً وقوَّةً بما يتهيَّأُ فيهِ مِنَ ٱلبسطِ وَٱلشرْحِ وَٱلتسلْسُل، ولكنَّهُ في ٱلشعرِ يأتي غِناء، وهذا ما لا يَستطيعُهُ ٱلنثرُ بِحالٍ مِنَ ٱلأحوال.

فإذا لم يستطعِ ٱلشاعرُ أنْ يأتيَ في نظمِهِ بِٱلرويِّ ٱلمونَقِ وَٱلنَّسجِ ٱلمُتلائمِ وٱلحَبْكِ ٱلمستوي وَٱلمعاني ٱلجيِّدةِ ٱلتي تخلُصُ إلى ٱلنفسِ خلوصَ طبيعةٍ إلى طبيعةٍ تُمازجُها، ورأيْتَهُ يأتي بِٱلشعرِ ٱلجافي ٱلغليظِ وَٱلألفاظِ ٱلمستوخِمةِ[1] ٱلرديئةِ وَٱلقافيةِ ٱلقلِقةِ ٱلنافرةِ وَٱلمجازاتِ ٱلمتفاوتةِ ٱلمضطربةِ وَٱلاستعاراتِ ٱلبعيدةِ ٱلممسوخة ـ فَٱعلمْ أنَّهُ رجلٌ قد باعدَهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلشعرِ وَٱبتلاهُ مع ذلك بزيغِ ٱلطبيعةِ وسرفِ ٱلتقليد، فما يجيءُ ٱلشعرُ على لِسانِهِ في بيتٍ إلَّا بعدَ أنْ يجيءَ ٱللَغوُ على لِسانِهِ في مائةِ بيتٍ أو أكثرَ أو أقلّ.

ذلك قولُنَا في فَنِّ ٱلشاعر، أمَّا ٱلكلامُ في موهبتِهِ ٱلتي بها صارَ شاعراً وعلى مِقدارِها يكونُ مِقدارُهُ وَٱتِّصالُ أسبابِهِ أوِ ٱنقطاعُها مِنَ ٱلشعر، فذلك بابٌ لا يُمكِنُ بَسْطُ ٱلمعنى فيهِ ولا تحصيلُ دقائقِهِ إلَّا إذا صُورِّتْ روحُ ٱلشاعرِ في تركيبِها ٱلدقيقِ ٱلمُعْجِزِ ووُزِنَتْ في مِيزانِها ٱلإلهيِّ وعُرِفَ نقصُها إنْ نقصَتْ وتمامُها إنْ تمَّت، وأمكنَ تتَبُّعُ مواقِعِها مِنْ أسرارِ ٱلأشياءِ ومساقطِها من منازلِ ٱلإلهام، وهذا ما لا سبيلَ إليهِ إلَّا بِٱلتوهُّم ٱلنفسيِّ، فإنَّ ٱلأرواحَ ٱلقويَّةَ يلمحُ بعضُها بعضاً، وقد تكونُ لمحةُ ٱلروحِ ٱلشاعرةِ لِروحٍ مثلِها هيَ تَدَبُّرُهَا ووزنها وإدراكُ ما تنطوي عليهِ كما ترى من وضعِ ٱلنورِ بإزاءِ ٱلنور، فإنَّ هذا ٱلوضعَ هو نفسُهُ وزنٌ لِكليهما في مِيزانِ ٱلبصرِ دونَ أنْ يكونَ ثَمَّةَ مُوازنةٌ إلَّا في ٱلتألُّقِ وٱلشعاع؛ فهما في هذه ٱلحالةِ نورانِ يُضيئان، ولكنَّهما أيضاً كلمتانِ يبيِّنانِ عمَّا فيهما مِنَ ٱلأكثرِ وَٱلأقلّ.

لهذا قلْنا: ٱلشاعرُ لا يتَّسعُ لِنقدِهِ ولا يُحيطُ بِهِ مَنْ كانت لَهُ روحٌ شعريَّة تُكافئُهُ

---

(١) المستوخمة: المستكرهة.

في وزنِها أو تربَّى على مقدارِه؛ فإنَّ هناك قُوًى روحيَّةً لإدراكِ ٱلجمالِ وخَلْقِهِ في ٱلأشياءِ خَلْقاً هو روحُ ٱلشعْرِ وروحُ فنِّه، وقوًى أخرى لِصِلةِ ٱلعواطفِ بٱلفِكْرِ صِلةً هيَ سِرُّ ٱلشعرِ وسِرُّ فَنِّه، وقوًى غيرُ هذه وتلكَ لِتحويلِ ما يُخالِجُ[1] ٱلنفسَ ٱلشاعرةَ تحويلَ ٱلمُبالغةِ ٱلتي هيَ قوَّةُ ٱلشعْرِ وقوَّةُ فنِّه؛ وبمجموعِ هذه ٱلقُوى كلِّها تمتازُ رُوحُ ٱلشاعرِ من غيرِ ٱلشاعر: أمَّا ما تمتازُ بِهِ هذه الروحُ من روحِ شاعرةٍ مثلِها فهو ما يكونُ من تَفاوتِ ٱلمقاديرِ ٱلتي يَهَبُها ٱللَّهُ وحدَه، فيخصُّ شاعراً بٱلزيادةِ وآخرَ بٱلنقص، ويَهبُ أسبابَها ٱلتي تكونُ عنها فيوُسِّعُ لِواحدٍ ويُضيِّقُ على ٱلآخر؛ وإذا تمَّتْ تلك ٱلقوى وٱستحكمَتْ تهيَّأَ منها لِلشاعرِ جِهازٌ عصبيٌّ خالصٌ هو جِهازُ ٱلتوليدِ لا يمرُّ بِهِ معنًى إلَّا تجسَّدَ فيهِ بِصورةٍ غيرِ صورتهِ.

وقدِ ٱستوْفينا ٱلكلامَ على ذلك في مقالِنا «سرُّ ٱلنبوغِ في ٱلأدب». وهو لا غيرُهُ سِرُّ العبقريَّة.

فأمثلُ ٱلطرقِ في نقدِ موهبةِ ٱلشاعرِ إدراكُها بِٱلروحِ ٱلشعريَّةِ ٱلقويَّةِ من ناحيةِ إحساسِها وَٱلنفاذِ إلى بصيرتِها، وَٱكتناهِ[2] مقاديرِ ٱلإلهام فيها، وتأمُّلِ آثارِها في ٱلجمال، وتدبُّرِ طبيعتِها ٱلموسيقيَّةِ في ٱلحِسِّ وَٱلفهْمِ وَٱلتعبير، وتبيُّنِ قُدرتِها على ٱلفرحِ وَٱلحُزْنِ بِأشجى وأرقِّ ما تهتاجُ في ٱلنفسِ ٱلحساسة، ومعرفةِ قوَّةِ ٱلتحويلِ في عواطِفِها لِلْمعاني ٱلإنسانيَّةِ وَٱلطبيعيَّةِ تحويلاً يجعلُ ٱلقوَّةَ أقوى مِمَّا تبلغ، وَٱلحقيقةَ أكبرَ مِمَّا تظهر، وتأتي بكلِّ شيءٍ ومعَه شيء؛ وليسَ ينتهي ٱلناقدُ إلى ذلك إلَّا بِٱلبحثِ في ٱلأغراضِ أي «المواضيع» ٱلتي نظمَ فيها ٱلشاعرُ وما يَصِلُهُ بِها من أمورِ عيشِهِ وأحوالِ زمنِهِ وكيفَ تناولَها من ناحيتِهِ ومن ناحيتِهَا وماذا أبدع، ثُمَّ في أيِّ ٱلمنازلِ يقعُ شعرُهُ من شِعْرِ غيرِهِ في تاريخ لغتِهِ وآدابِها، ثُمَّ نظرتِهِ ٱلفلسفيَّةِ إلى ٱلحياةِ ومسائِلِها وٱتساعِهِ لِأفراحِها وآلامِها وقوَّةِ أمواجِهِ ٱلروحيَّةِ في هذا ٱلبحرِ ٱلإنسانيِّ ٱلرجَّافِ[3] ٱلمتضرِّبِ ٱلذي يبلغُ في نفوسِ بعضِ ٱلشعراءِ أنْ يكونَ كَٱلأقيانوس[4] وفي بعضِها أنْ يكونَ كَٱلمستنقع . . . ثُمَّ دِقَّةِ فهمِهِ عن وحيِ ٱلطبيعةِ وَٱلإشرافِ على جليةِ معناها بِٱلهَمْسةِ وَٱللَّمْسة، وتسقُّطِ إلهامِ ٱلغيبِ منها بِٱلإيماءةِ وَٱللحظة؛ وهذا كلُّهُ لا يستوسقُ للناقدِ ٱلعظيمِ

---

(١) يخالج النفس: يداخلها ويوحي لها.
(٢) اكتناه: اكتشاف.
(٣) الرجّاف: المضطرب.
(٤) الأقيانوس: المحيط.

إِلَّا إذا كانَ مَعَ روحِهِ ٱلشعريَّةِ ٱلتي ٱختصَّ بها محيطاً بأَثارِ ٱلشعراءِ في لغتِه، بصيراً بمآخذِها، مُحْكِماً لأسبابِ ٱلموازنةِ بينَها، متصرِّفاً مع ذلك بأداةٍ قويَّةٍ من صناعةِ ٱللغةِ وَٱلبيانِ وفنونِ ٱلأدب.

وإذا كانَ من نقدِ ٱلشعرِ عِلْمٌ فهو عِلْمُ تشريحِ ٱلأفكار، وإذا كانَ منْهُ فنٌّ فهو فنُّ درسِ ٱلعاطفة، وإذا كانَ منه صِناعةٌ فهي صِناعةُ إظهارِ ٱلجمالِ ٱلبيانيِّ في ٱللغة...

فيلسوفٌ وفلاسفة...

أتأمّلُ ٱلآنَ هذا ٱلقلمَ في يدي ـ وأنا أفكِّرُ فيما سأكتبُهُ لِلزهراء ـ فأرى نِصابَ ٱلقلمِ أضلاعاً حُمْراً في لونِ ٱلمرجان، تنسرحُ قليلاً، ثُمَّ تستديرُ، ثُمَّ تستدِقُّ، ثُمَّ تخرجُ منها قادمةٌ سوداءُ كأنَّها قصبةُ ريشةٍ من جناح، وقد خُيِّلَ إليَّ أنَّ هذا ٱللونَ ٱلأحمَر ٱلمزْهُوَّ يقولُ لِلأسود: إنَّما غلطةُ ٱلذي صنعَني، فكيف أُلهِمَ فيَّ ٱلإلهامَ فوسَمَني[1] بهذا ٱلمَيْسِمِ من حُسْنٍ ولونٍ وتركيب، ثُمَّ ٱعترضَتْهُ ٱلغفلةُ فيكَ فأخطأ، وأدركَهُ ٱلعجزُ فلم يُميِّزْ، ودخلَ على رأيِهِ ٱلوَهَنُ[2] فإذا هو يصلُكَ بي كَٱلسّيئةِ بعدَ ٱلحسنة، ويُنزلُكَ منّي منزلةَ ٱلقُبحِ منَ ٱلجمال! فأين كانَتْ صِحَّةُ رأْيِهِ ٱلتي بلغَ بها في أحسنِ ما وُفِّقَ إليهِ حينَ بلغَ فيك أسوأَ ما يُمكنُ أنْ يصنع؟ فيقولُ ٱلأسود: إنَّما فيك أنت غلطةُ ٱلصانع وبك أخطأَ جِهَةَ ٱلفنّ، فلم يزِنْ منك ما كانَ وزَن منّي، ولا قدَّرَ لك مثلَ ما قدَّرَ لي، وجِئْتَ غليظاً غيرَ مقدود، وكنْتَ إلى ٱلعَرْضِ ولم تكنْ إلى ٱلطول، وكنْتَ أحمرَ ولم تكنْ أسود؛ وما أراكَ إلَّا فاسدَ ٱلحِسّ، مُتغيِّرَ ٱلذوْق، وما أراكَ صنعَكَ هذا ٱلرجلُ إلَّا في ساعةِ هَمٍّ قاربَتْ بين نفسِهِ ورأْيِه، فما زَجَّتْ[3] بينَ رأيِهِ وعملِه، فجمعَتْ بين عملِهِ وغلطِه.

ذلك منطقُ ٱللونينِ فيما أدركْتُ منهما، وكِلاهما مُخطِئٌ في جِهةِ ما هو مستدِلٌّ بِهِ أو متنظِّرٌ فيه؛ وَٱلحقيقةُ من ورائِهِما، إذِ ٱلحِكْمةُ ليسَتْ في أحدِهما لِحمرةٍ أوِ سواد، بلْ هي في ٱثنيهما جميعاً لائتلافِهِما جميعاً، فلا تنقسمُ عليهما قِسمةً ما؛ لِأنَّها آتيةٌ بِٱلمقابلةِ بينَ ٱثنيهما، وما لا يخرجُ أبداً إلَّا مِنَ ٱثنينِ فهو أبداً واحدٌ لا نِصفَ لَهُ؛ كَٱلطفلِ من أبويه: لن تعرفَ شطَرَهُ من أمِّهِ لِأنَّك لن تعرفَ شطَرهُ[4] من أبيه.

أفي ٱلأرضِ كلِّها مَنْ يستطيعُ أنْ يُقسِّمُ طفلاً واحداً فيجعلَهُ طِفلينِ تعتدلُ بهما

---

(١) وسمني: طبعني.
(٢) الوهن: الضعف.
(٣) زجّ: دخل بين شيئين بالقوّة والمكر.
(٤) شطره: جانبه.

ٱلحياةُ وتمدُّهُما بِروحينِ من روحٍ واحدة؟ إنَّكَ لَنْ تجَد هذا ٱلخالقَ ٱلأرضيِّ. . . إِلَّا في طائفتين: الأولى قومٌ من ذاهبي ٱلعقولِ يخلقون كلَّ شيءٍ لِأَنَّهم لا يخلقون شيئاً؛ وٱلثانيةُ قوم من جبابرةِ ٱلعقول. . . عندَنا تعرفُ لهم مِنَ ٱلخلْطِ وسُخْفِ ٱلرأي ما يُريدون أنْ يعلوا بِهِ على ٱلناس، إذْ كانَ الناسُ لا يجاوزون ٱلحقائق، فظنَّ هؤلاءِ أنَّهم إنْ جاوزوها وعَدَوا عليها خرجوا إلى طبقةٍ فوقَ ٱلعقلِ ٱلإنسانيّ. ولِلْجنونِ طرفان: أحدُهما ألَّا يعقلَ ٱلمجنونُ عنِ ٱلناس، وٱلآخرُ ألَّا يعقلَ ٱلناسُ عنِ ٱلعاقل: فذلك ذلك وهذا هذا؛ وكأنَّ في رأسِ كلٍّ منهما مُضْمَرَةً من قوَّةِ ٱلخَلْقِ تنطوي على محجوبةٍ إلٰهيَّة، فكلٌّ منهما يزيدُ في ٱلخلْقِ ما يشاء، وكلٌّ منهما فوقَ ٱلطبيعةِ لِأَنَّهُ من ذوي ٱلأسرارِ ٱلمجهولةِ ٱلتي لا تستبينُ عندَنا من خفائِها، ثُمَّ لا تخفى عندُهم مِن ٱستبانتِها.

يُضحكُني من جبابرةِ ٱلعقولِ هؤلاءِ أنَّهم يَرون ٱلدينَ مرَّةً عادة، وتارةً ٱختراعاً، وحِيناً خُرافة، وطوْراً ٱسْتعباداً؛ وكلُّ ذلك لهم رأي، وكلُّ ذلك كانوا يعقدونهُ بِٱلحجةِ ويشدوُّنه بِٱلدليل؛ فلمَّا جاءَ طاغورُ ٱلشاعرُ ٱلهنديُّ ٱلمتصوِّفُ إلى مِصْر، وجلسوا إليهِ وسمعوه، خرجوا يتكلَّمون كأنَّما كانوا في معبد، وكأنَّما تنزلَتْ عليهم حقيقتُهُ ٱلإلٰهيَّة، وكأنَّما ٱتضَّعَتْ هذه ٱلدنيا عنِ ٱلمكانِ ٱلذي جلسَ فيهِ ٱلرجل، فلا يعرفونه مِنَ ٱلأرض، ولا من هذا ٱلعالم؛ بلْ كانوا في غشيةٍ قد فرّوا لها وسكنوا إليها، وما أراهم صُرِفوا عن عقولِهم ولا صُرِفَتْ عقولُهم عنهم؛ ولكنَّ طاغورَ شاعرٌ فيلسوف، وهم يعرفون أنفسَهُم مِنَ لصوصِ كتُبِهُ وآرائِه، ويقعون منه موقعَ ٱلسفسطةِ[1] ٱلفارغةِ مِنَ ٱلبُرهانِ ٱلقائم، وإذا قيسوا إليهِ كانوا كَٱلذبابِ تزعمُ أنفسُها نسورَ ٱلمزابل، ولكنَّها لا تُكابِرُ في أنَّ مِنَ ٱلهزؤ بها قياسَها بِنُسورِ ٱلجوّ.

لقد ضربَهُم طاغور، لا بِأنَّه لمسَهُم، بلْ بأنَّهُم لَمسوه. . . وفضحَهُم فضيحةَ ٱللؤلؤةِ لِلزجاجِ ٱلمدَّعي أنَّه لؤلؤ، وأظهَر لنا تجمُّلَهُمُ ٱلعقليَّ كهذه ٱلأصباغِ في وجهِ ٱلشوهاء: تذهبُ تتصنَّعُ ولا تدري أنَّهُ إِنْ كانَ في أذهانِها وأصباغِها روحُ ٱلنقاشِ ففي وجهِها هي معنى ٱلحائط!

لقد قرأْتُ كلَّ ما كتبوا عن طاغورَ ألتمِسُ فيهِ هذه ٱلحقيقةَ لِأرى كيف يكونُ جبابرةُ ٱلعقولِ حين تنكشفُ عنهمُ ٱلمعاذيرُ وتنزاحُ ٱلعللُ وتُنهتكُ ٱلأستار، فإذا هم

---

(١) السفسطة: تخرصات الفلاسفة ومحاوراتهم.

في كلِّ ما كتبوه لا يُحسّون إلا هذه ٱلحقيقة، ولا يصفون إلا هذا ٱلحِسّ، فلم يُخزهم[1] عندنا إلَّا هذا ٱلوصف؛ لا جَرَمَ فكلُّ ما أثْنوا بِهِ على ٱلشاعرِ ٱلفيلسوفِ قرأْناه ذَمّاً لهم، وعرفْناه قَدْحاً فيهم، وأخذْناه تُهمةً عليهم، وكلُّ ما أعظمُوهُ من أمرِه صغَّرَ من أمرِهم، ولقد جعلوه إنساناً كأنَّما تنتهي قِمَّةُ هذه ٱلدنيا عندَ قَدمِه، وتبدأُ قَدمُهُ من قِمَّةِ ٱلدنيا. فما عرفْنا من ذلك قِياساً لِسموِّ طاغورَ وٱرتفاع نفسِه، بل قِياساً لٱنحطاطِ أنفسِهم وهَوانِ أمرِهم وقِلَّةِ خطرِهم؛ فإنَّ ٱلرجلَ ٱلمقلِّدَ ٱلمخدوعَ لا يزالُ يطولُ في تقليدِهِ، ولا يزالُ يتوعَّرُ في ٱلرأيِ ٱلذي يراهُ ويعتسفُ طُرُقَ ٱلعِلْم ٱعتسافاً؛ حتى يرميَهُ ٱللَّهُ بأَصلٍ من هذه ٱلأصولِ ٱلإنسانيَّةِ ٱلتي يُقلِّدُها؛ فإذا هو مُفْحَمٌ يتقاصرُ من طول، ويتسهَّلُ من وَعْر، ويهتدي من تعسُّف، وينحَطُّ إلى ٱلوهْدةِ بعدَ أنْ كانَ على ٱلجبل، ويُسلِّمُ في نفسِه، ويُذعِنُ[2] برأْيه، وينقادُ من حيثُ يأبى ومن حيثُ لا يأبى، ويُصبحُ وقد غمرَتْهُ تلك ٱلنفسُ أشبهَ بٱلظلِّ مِمَّا يرميهِ ويفيءُ به؛ فهو مِسخٌ في تمثيلِهِ ٱلصورة، وهو كذبٌ عليها بِما يطولُ ويقصر، وهو على كلِّ أحوالِهِ إبهامٌ سخيفٌ مُظلِمٌ لِحقيقةٍ شريفةٍ نيِّرة.

وأنت أفلا ترى هذا من جبابرةِ ٱلعقولِ كتلكِ ٱلشيمةِ في أخلاقِ ٱلعامَّة، إذْ لا يصلحون أبداً إلَّا أنْ يكونوا تَبَعاً، ولا عِلْمَ لهم إلَّا ما يربطُ في صدورِهم من فلانٍ وفلان، ثُمَّ يعملون بِلا تحقيق، ويحملون بِلا تمييز، ثُمَّ لا تكونُ نَهْمَةُ أنفسِهم معَ ٱلرجلِ ٱلعالم - إذا ٱجتمعوا بِه - إلَّا في ٱلتسليم لَهُ، وٱتقاءِ حقائقِه، وٱلنزولِ عن آرائِهم إلى رأيه، وٱلخروجِ من أنفسِهم إلى نفسِه!

لقد قلْنا من قبلُ إنَّ جبابرةَ ٱلعقولِ هؤلاءِ ٱلذين يأبَوْنَ إلَّا أنْ يكونوا عُلماءَنا وسادتنا لِيصرِّفوا عقولَنا ويُغيِّروا عقائدَنا ويُصلِحوا آدابَنا ويُدخلونا في مَساخِطِ ٱللَّهِ ويهجموا بنا على مَحارمِهِ ويُركبونا معاصيَه - إنْ هم في أنفسِهم إلَّا عامَّةٌ وجهلةٌ وحمقى إذا وُزنوا بِعلماءِ ٱلأُمَم وقِيسوا إلى حُكماءِ ٱلدنيا، وما يكتبون لِلأُمَّةِ في نصيحَتِها وتعليمِها إلا ما يتحوّلُ من كلماتٍ وجملٍ في ٱلصحفِ وَٱلكتبِ إلى أن يصيروا في ٱلواقع فُسَّاقاً وفجرةً ومُلْحِدِينَ وساخرينَ ومُفسدين؛ فَٱلمصيبةُ فيهم من ناحيةِ ٱلعِلْم ٱلناقصِ في وزنِ ٱلمُصيبةِ بِهِمْ من ناحيةِ ٱلخُلُقِ ٱلفاسد، وهاتانِ معاً في وزنِ ٱلمُصيبةِ ٱلكبرى ٱلتي يجنونَ بها على ٱلأُمَّةِ لِتهديمِها فيما يعملون، وتجديدِها فيما يزعمون. . .

---

(١) يخزهم: يشعرهم بالمهانة والعار. (٢) يذعن: يخضع.

لم أنخدعْ قطُّ في هؤلاءِ من فلاسفةٍ أو دكاترةٍ أو جبابرة، ولسْتُ أضعُ أمرَهم إلَّا على حَقِّه، فإنِّي لأَعرفُ أنَّ ٱلهرَّ من قبيلةِ ٱلأسد، ولكنَّ أسديَّتَهُ على الفأريةِ وحدَها. . . ولَعِلْمُ عاقبةِ ٱلجهلِ خيرٌ لِلأُمَّةِ من عواقبِ عِلْمِهِم وتخبُّطِهِم وحماقاتِهِم فإنَّهم قومٌ مُقلِّدون، ولهم طِباعٌ معتَّلةٌ زائغة، وعقولٌ لا مِساكَ[1] لها من دِينٍ أو ضمير؛ فما يجنحون إلَّا إلى بِدْعةٍ سيِّئة، أو آفةٍ محذورة، أو فِكْرةٍ مُتَّهمة؛ ولا يعملون إلَّا ما يُشبِهُ ٱلظنَّ بهم، وَٱلرأيُ فيهم؛ من تمدينِ ٱلأخلاقِ ٱلسافلةِ وإلحاقِها بِٱلعِلْمِ أوِ ٱلفلسفة، مع بقاءِ ٱلعقلِ ناضجاً صحيحاً يحكمُ على هذا ٱلخبيثِ كما كانَ يحكمُ على ذلك ٱلطيِّب؛ وليسَ من سبيلٍ إلى هذا إلَّا من جِهةِ تحويلِ ٱلأخلاق، فإنْ هيَ ٱستمسكَتْ ولم تتحوَّلْ فها هنا موضِعُ ٱلنزاع ومحلُّ ٱلخِلاف، ولا بُدَّ من حَرْبٍ منَّا كحربِ ٱلاستقلال، ثُمَّ حرْبٍ منهم كحرْبِ ٱلاستعمار. . .

فَٱلذي بينَنا وبينَهُم ليسَ ٱلقديمَ وٱلجديد، ولا ٱلتأخُّرَ وٱلتقدُّم، ولا ٱلجمودَ وٱلتحوُّل؛ ولكنْ أخلاقُنا وتجرّدُهم منها، ودينُنا وإلحادُهم فيه، وكمالُنا ونقصُهم، وتوثُّقُنا وٱنحلالُهم، وٱعتصامُنا بِما يُمكنُنا وتراخيهِم تراخي ٱلحبلِ لا يجدُ ما يشدُّه.

وَٱلآن أنظُرُ إلى قلمي فأرى شطرَهُ الأسودَ ما جُعِلَ كذلك إلَّا لِيزيدَ في جمالِ حُمْرتِهِ وبريقِها، ويُكسبُها لمعةً لا تأتيها إلَّا مِنَ ٱلسوادِ خاصَّة؛ وَٱلشرُّ خيرٌ إلَّا إذا بقيَ محصوراً في موضعِهِ ولم يتجاوزْه؛ فإذا تنبَّهَتِ ٱلأُمَّةُ لِجبابرةِ ٱلعقولِ هؤلاء، قُلْنا لا بأسَ بِٱلسوادِ ٱلمظلمِ إذا كانَتْ حِكمتُهُ حمراء. . .

* * *

(١) مساك: رابط.

شيطاني وشيطانُ طاغور . . .

طاغورُ هذا شاعرُ ٱلهند، مرَّ بمصرَ مرورَ شمسِ ٱلشتاءِ بِٱليوم ٱلمطير: لا يقعُ نورُها إِلّا في ٱلقلوبِ ممَّا تَستَخِفُّ وتستهوي، ومِمَّا تمتنعُ وتتأبَّى، ومِمَّا تَرِقُّ وتلطُف؛ وتنقدحُ بينَ ٱلسُّحُبِ ٱلهاميةِ فإذا لها مِنَ ٱلجمالِ وَٱلسحرِ وَٱلعجبِ ما يكونُ لِجمرةٍ تُخرِجُها ٱلسماءُ مُعجزةً لِلناسِ فيرَوْنَها تُرسِلُ ٱلشعاعَ مرَّةً وتُمطِرُ ٱلماءَ مرَّة.

لم ألقَ طاغورَ ولكنِّي أنفذْتُ إليهِ شيطاني وقلْتُ أُوصيهِ قبلَ أنْ يخرجَ لِوجهِه: قد علمْتَ أنَّ هذا ٱلرجلَ هنديّ، ولكنَّهُ إنسان، فما أرضٌ أولى بِهِ من أرض؛ وأنَّهُ شاعر، ولكنَّهُ مخلوق، فما طبيعةٌ أغلبَ عليهِ من طبيعةٍ؛ وأنَّهُ حكيم، ولكنَّهُ تركيبُ ما جُبِلَتْ لَهُ طينةٌ غيرُ ٱلطينة؛ وأنَّهُ سماويّ، غيرَ أنَّهُ سماويٌّ كعلماءِ ٱلفلك: سماؤُهُ في مِنظارٍ وكِتابٍ وقلم وحِبر . . . فٱذهَبْ إليهِ فداخِلْ شيطانَه، فإنَّك واجدٌ لَهُ من ذلك ما لِكلِّ ٱلشعراء، ورُبَّما عرفْتَ شيطانَهُ من ذوِي قرابتِكَ أو خالصةِ أهلِك، ثُمَّ ٱئتني كلامَهُ على جهةِ ما هو مفكِّرٌ فيه، لا على جِهةِ ما هو متكلِّمٌ به؛ وخذْ ما يهجسُ[1] على قلبِه، ودعْ ما يجري في لِسانِه؛ فإنَّ هذا سيأتي بِهِ إخوانُكَ من «مندوبي ٱلصحف» . . . وَٱعلمْ أنَّ كلَّ حكيم مهيِّءٌ لِمسائلَ من حَوْلِهِ كلاماً. غيرَ أنَّ معانيَ مَنْ حولَهُ مهيِّئةٌ لَهُ مسائلَ أخرىٰ يُفكِّرُ في كلِّ جوابٍ عليها ولا ينطِقُ بجوابٍ عليها.

* * *

فحدَّثني شيطاني بعدَ رجوعِهِ قال: حدثني شيطانُ طاغورَ قال: لَمَّا هَبَطَ طاغورُ هذا ٱلواديَ نظرَ نظرةً في ٱلشمس، ثُمَّ قال: أنتِ هنا وأنت هناك، تقربينَ بأثرٍ وتبعُدِين بِأثر، وتطلُعينَ بِجوٍّ وتغرُبين بجوّ، فلا تختلفين وتختلفُ بِكِ ٱلأقاليم، ثُمَّ تتغيَّرُ بِٱلأقاليم ٱلأُمَم، ثُمَّ تتغيَّرُ بِٱلأُمَم ٱلأفكارُ وَٱلمنازع، ثُمَّ تتغيَّرُ بِٱلأفكارِ وٱلمنازعِ أغراضُها ومصالحُها، ثُمَّ تتغيَّرُ بِمَصالِحِها وأغراضِها ٱلحقائقُ ٱلإنسانيَّة؛

---

(١) يهجس: يخطر بباله ويحادث به نفسه.

وإنَّما ٱلباطلُ وَٱلحقُّ فيما تستقبلُ هذه ٱلحقائقُ أو تستدبر[1]، وقد غلبَتِ ٱلسياسةُ على كلِّ شيءٍ حتى أصبحَتْ هذه ٱلحقائقُ ٱلإنسانيَّةُ جغرافيَّة، لها شعوبٌ ولها مستعمرات؛ فٱلإخاءُ في ٱلغربِ سِيادةٌ في ٱلشرق، وَٱلمُساواةُ هناك ٱمتيازٌ هنا، وَٱلحريَّةُ في مملكةٍ ٱستبعادٌ لمِملكة، وٱلتحيَّةُ في موضع صَفْعةٌ في موضِع، وَٱلضِّيافةُ في مكانٍ ٱستِئْكَالٌ في مكان؛ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، فلَنْ يتَّصِلَ ٱلناسُ بِٱلروحِ ٱلأعلى إلَّا مِنَ ٱلجِهةِ ٱلواحدةِ ٱلتي لم تتغيرْ ولنْ تتغيَّرَ فيهم، جِهةِ ٱلدموعِ ٱلتي لَا تختلفُ في أسودَ ولا أحمر، وَٱلتي لا تنبعِثُ إلَّا مِنَ ٱلرقةِ وٱلوجْدِ وٱلأحزانِ وٱلآلام، وهي بذلك نَسَبُ كلِّ قلبٍ إلى كلِّ قلْب، فلو غمرَ ٱلعالَمَ كلَّهَ بلاءٌ واحدٌ لا تحرزُ منه أرضُ أهلِها ولا تتحاجزُ ٱلأُممُ فيه، لاستلبَ مطامَع ٱلناسِ بعضِهِم في بعضٍ، وأرجعَ ٱلأنسانيَّةَ ٱلزائغةَ إلى مستقرِّها، فتجرَّدوا مِنَ ٱلدنيا وهم في ٱلدنيا، فٱتَّصلوا بِٱللانهايةِ وهم في ٱلنهاية؛ فإنْ لم يكنْ بلاءٌ عامٌّ ففِكرٌ عامٌّ في بَلاءٍ يُميتُ ٱلشهواتِ ٱلمتطلِّقةَ ويكونُ كَٱلداءِ تلبَّسَ بِٱلجنسِ ٱلإنسانيِّ كَٱلذي تَصِفُهُ ٱلأديانُ من جهنمَ وَٱلمصيرِ إليها وٱلحسابِ عندَها وٱلجزاءِ على ٱلشرِّ بها، حتى لا تبقى نفسٌ إلَّا وهيَ في وَثاقٍ من حلالِها وحرامِها، ولا يبقى شرٌّ يُتخيَّلُ أو يُشتهى إلَّا وهو كَٱلمتاعِ ٱلنفيسِ بينَ أربعةِ جدرانٍ تتساقطُ وتحترقُ لا يجدُ في كلِّ ٱللصوصِ لِصًّا، فإنْ لم يَكُنْ هذا ولا ذاك فٱلحُبُّ ٱلعامُّ حتى لا يبقى جيشٌ ولا سِلاحٌ ولا سِياسةٌ ولا دُوَل، ولا تكونَ ٱلممالكُ إلَّا بيوتاً إنسانيَّةً بين ٱلواحدةِ وَٱلكلِّ منَ ٱلشابكةِ وَٱللُّحمةِ ما بين ٱلكُلِّ وَٱلواحدة، وحتى تقولَ مِصْرُ لإنجلترا يا بنتَ عميّ. . . فإنِ ٱستحالَ كلُّ هذا فَٱلحريَّةُ ٱلعامَّةُ على أنْ تكونَ محدودةً من كلِّ جِهاتِها بِٱلشِّعر، وعلى أنْ يكونَ ٱلشعرُ محدوداً بِٱلطبيعةِ وَٱلطبيعةُ محدودةً بِٱلله، فينتزِعُ ٱلنومَ مِنَ ٱلأرضِ لِتتصِلَ ٱليقظةُ بِٱلحُلُم. . . من طريقٍ غيرِ ٱلنوم.

قالَ شيطانُ طاغور: ثُمَّ ٱبتأسَ طاغورُ وقال: كلُّ ذلك مستحيلٌ أو كَٱلمستحيلِ ولكنَّهُ في ٱلأملِ مُمْكِنٌ أو كَٱلمُمْكِن؛ ولِلفْظِ معنيان: أحدُهما ما يكون، وٱلثاني ما يحسنُ أنْ يكون؛ ذلك لا بُدَّ لَهُ مِنَّا لِأنَّهُ جانبَ ٱلنظامَ ٱلإلهيّ، وهذا لا بُدَّ لنا منهُ لِأنَّهُ جانبَ ٱلخيالَ ٱلإنسانيّ؛ ذلك مِنَ ٱلطبيعةِ ٱلتي تعملُ ولا تتكلَّم، وهذا مِنَ ٱلشعرِ ٱلذي يتكلَّمُ ولا يعمل. آه آه! إنَّما ٱلسلامُ ٱلعامُّ أنْ يكونَ

(١) تستدبر: تتراجع.

ٱلوجودُ شركةٌ إلٰهيَّةٌ إنسانيَّةٌ برضًى وَٱتفاقٍ بينَ ٱلطرفين. . . ولَعَمْري إنَّ كلَّ ٱلمستحيلاتِ مُمْكِنةٌ بِٱلإضافةِ إلى هذا ٱلمستحيل. ثُمَّ تبسَّمَ طاغورُ إذْ خطرَ لَهُ أنَّهُ شاعرٌ عليهِ أنْ يَصِفَ ٱلوردةَ ويقولَ فيها ما يجعلُها بيتَ شعرٍ في كتابِ ٱلطبيعةِ لَهُ وزنٌ ونغم، ولكنْ على ٱلطبيعةِ قبلَ ذلك أنْ تُنبتَها ناضِرةً عطِرَةً جميلةً تتميَّزُ عن غيرِها برائحةٍ ولَوْنٍ وشكل.

قالَ شيطانُه: ولَمَّا ٱنتهى من تأمُّلِهِ إلى هذه ٱلخاطرةِ قدّمَتْ لَهُ سيدةٌ هنديَّةٌ عقودَ ٱلزهر، وبيَنا هي تُقَلِّدُهُ إيَّاها قالَ في نفسِه: إنَّ هذه ٱلأزهارَ من معاني ٱلماءِ ٱلعذْب؛ فإذا ٱنطلَقْنا في أوهامِنا وراءَ ٱلحبِّ ٱلعامِّ وٱلسلامِ ٱلعامِّ فَلِمَنْ تكونُ معاني ٱلماءِ ٱلمِلْحِ، وهو ثلاثةُ أرباعِ ٱلأرض، ومن أزهارِهِ ٱلأسطولُ ٱلإنجليزيّ. . .

* * *

حدَّثَني شيطاني قال: حدَّثَني شيطانُ طاغورَ قال: ولَمَّا ٱستقرَّ طاغورُ في قصرِ شوقي بك ورآهُ في مثلِ حسنِ ٱلدينارِ ونقشِهِ ونفاستِه، قال: لا جَرَمَ هذه أُمَّةٌ أغنَتْ شاعِرَها، فما أُخطىءُ ٱلتقدير، وإنْ أخطأْتُهُ فلا أبعدُ عنِ ٱلمقارنةِ إذا حسِبْتُ أنَّ هذا ٱلشاعرَ يطبعُ لِهذه ٱلأُمَّةِ نِصْفَ مليونِ نسخةٍ من كلِّ ديوانِ شعرٍ أو دفترِ حِكْمةٍ أو كتابِ قصة، وليتني أعرفُ ٱلعربيَّةَ لِأَعرفَ كيفَ يُبدعُ هذا ٱلشعبُ فلسفَتَهُ في أغانيهِ ٱلمتَّصِلَةِ بِغيومِ ٱلسماءِ ٱلمتكلِّم بأحسنِ وأطهرِ ما يُمكنُ أنْ يكونَ ترجمةً لِلحقيقةِ ٱلخالدةِ ٱلتي يتوارثُها شعبٌ خالد.

ٱلشعرُ فِكْرةُ ٱلوجودِ في ٱلإنسان، وفِكرةُ ٱلإنسانِ في ٱلوجود، ولا يكفي أنْ يُخْلَقَ هذا ٱلإنسانُ مرَّةً واحدةً من لَحْمٍ ودم، بلْ لا بُدَّ أنْ يُخلَقَ مرَّةً أُخرى من مَعانٍ وألفاظ، وإلَّا خرجَ حيواناً أعجم؛ فَٱلشاعرُ يُبدعُ أُمَّةً كاملة، إنْ لم يخلقْها فإنَّهُ يخلقُ أفكارَها ٱلجميلةَ وحِكمتَها ٱلخالدةَ وآدابَها ٱلعاليةَ وسِياستَها ٱلموفَّقةَ وما أحسبُ ٱلنهضةَ ٱلمِصريَّةَ إلَّا بِٱلأغاني وٱلأناشيد، فتأتي من إنجلترا جنودٌ وتخرجُ لها من دورِ ٱلغناءِ وَٱلتمثيلِ جنودٌ أخرى؛ لقد كنْتُ مُلْهَماً حين قلْتُ مرة: «إنَّ ٱللَّهَ يُخاطبُ ٱلناسَ عن طريقِ ٱلموسيقى».

نعم عن طريقِ ٱلموسيقى، فكلُّ شيءٍ هو موسيقى في نفسِهِ حتى حينَ يتطاحنُ ٱلناسُ ويذبحُ بعضُهم بعضاً، فإنَّ صلصلةَ[1] ٱلأسلحةِ ودويَّ ٱلقنابلِ وأزيزَ ٱلرصاصِ

---

(١) صلصلة الأسلحة: قعقعة السلاح وأصواته.

وتصايُحَ ٱلجند ـ كلُّ ذلك لحنٌ أعَدَّهُ ٱللَّهُ جلَّتْ قدرتُه «وموسيقاه». . . لِجنازاتِ ٱلأُمَم.

* * *

حدَّثني شيطاني قال: حدَّثني شيطانُ طاغورَ قال: ولَمَّا رأى طاغورُ ٱلأستاذَ الفاضلَ مديرَ ٱلجامعةِ ٱلمصريَّة ـ وهيَ ٱلتي دَعَتْهُ إلى إلقاءِ مُحاضرتِه ـ قال: نعم وحُبًّا وكرامة، إنَّهُ لا يستقيمُ في ٱلعقلِ أنْ تدعُوَ هذه ٱلجامعةُ شاعِراً روحانيًّا مثلي إلَّا وهي فَلَكٌ نيّرٌ يُعدُّهُ ٱللَّهُ من نجومِه، وما أحسبُ أستاذَ آدابِها ٱلعربيةِ إلَّا تلك ٱلذَّرةَ ٱللؤلؤيةَ ٱلتي كانَتْ تُجاوِرُني في طِينةِ ٱلخَلْقِ ٱلأزليَّة، فلو أنَّ ٱلذراتِ ٱلثماني ٱلتي كانَتْ حولَنا خُلِقَتْ في عصرِنا هذا وتوزَّعَتْ على ٱلأُمَمِ ٱلفلسفيَّة لَكُنَّا وإيَّاها كوصايا ٱللَّهِ ٱلعَشْرِ في هذا ٱلعصرِ ٱلماديّ. . . وَلَمَلأْنا طَيَّاتِها إيماناً بِٱلله، ولَصارَ لِلَّهِ ـ تعالى ـ في أرضِه عَشرُ آلاتٍ سماويةٍ لاسلكيَّةٍ بينَهُ وبينَ ٱلخَلْق، تُباهي ٱلجامعةُ ٱلمِصْرِيَّةُ بأنَّ فيها إحداها. . . لقد نغَّصَ عليّ هذه ٱلشيخوخَةَ أنِّي لم أتعلَّم ٱلعربيَّة، وكيف لي بأنْ أُرتِّلَ أناشيدَ أستاذِ ٱلآدابِ في الجامعةِ ٱلمِصْرِيَّةِ لِأستمتِعَ بِألحانِهِ ٱلسماويَّةِ في شعرِهِ وأغانيه، وأسمعَ ٱلملائكةَ من هذه ٱلمئذنةِ ٱلإنسانيَّةِ في ٱلجامعةِ تهتفُ بكلمةِ ٱلإسلام ٱلرهيبةِ ضارخةً بحقيقةِ ٱلوجودِ في ٱلوجود: اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، أشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا الله. . .

قالَ شيطاني: وكانَ شيطانُ ٱلدكتور طه حسين أستاذِ ٱلجامعةِ حاضراً معنا، فلمَّا ألمَّ بِمَا في نفسِ طاغورَ قالَ لي: حقًّا إنَّ مِنَ ٱلخير أنْ لا يعرفَ هذا ٱلهنديُّ ٱللغةَ ٱلعربيَّة، لِأنَّهُ لو عرفَ ٱللغةَ ٱلعربيَّةَ لَمَا أَرضتْهُ ٱللغةُ ٱلعربيَّةُ ولا آدابُ اللغةِ ٱلعربيَّةِ ولا أستاذُ آدابِ ٱللغةِ ٱلعربيَّة! فقلْت: أُسكُتْ ويحكَ ودعِ ٱلرجلَ في أحلامِه، ولا تكنْ غيمةَ سمائِهِ ٱلمُشرقة؛ أمَا تراهُ يحلُم، أما سمْعتَهُ يقول: «وَٱلحقيقةُ من حيثُ هي جمالٌ ليسَ يعدِلُهُ جمال؛ ألسْتَ ترى إلى صورةِ هذه ٱلمرأَةِ ٱلعجوزِ أبدعَها فنانٌ ماهر، إنَّك تنظرُ إلى ٱلصورةِ فتُقرُّ بجمالِها، ولكنَّ ٱلمرأةَ ٱلعجوزَ ٱلتي فيها ليسَتْ على شيءٍ مِنَ ٱلجمال؛ لكنَّما جمالُ ٱلصورةِ أنَّها تمثِّلُ هذه ٱلمرأةَ ٱلعجوزَ على حقيقتِها فهذه كلماتٌ في سبحاتِ ٱلنور، وهيَ مِنْ لغةِ ٱلسماءِ ذاتِ ٱلكواكبِ لا من لغةِ ٱلنفس ذاتِ ٱلعواطف؛ وإلَّا فهل يصحُّ في ٱلعقلِ أنَّ تصويرَ ٱلعجوزِ ٱلتي ٱضطربَ مِيزانُ ٱلخَلْقِ فيها حتى لا يزِنُ منها إلَّا بقايا ٱلخِلْقةِ وأنقاضَ ٱلعُمْرِ وخرائبَ ٱلمرأة. . . يكونُ بما يظهرُ من شوهتِها وتهدُّمِها وتشننِ جِلْدِها وموتِ ظاهِرِها ـ جمالاً في ٱلصورةِ لِأنَّهُ قبيحٌ في ٱلأصلِ؟ أفليسَ لو كانَ

ذلك صحيحاً لَمُلِئَتِ ٱلمتاحفُ وٱلقصورُ بألواحِ ٱلعجائز، ولَمَا بقيَتْ على ٱلأرضِ عجوزٌ إلّا ذهبَتْ لِأحدِ ٱلمصورينَ تَقولُ لَهُ: اخلقْني! . . .

* * *

حدَّثني شيطاني قال: حدَّثني شيطانُ طاغورَ قال: وكانَ طاغورُ رطبَ ٱللِّسانِ في مُحاضرتِهِ كأنَّ غابةً من غاباتِ ٱلهندِ أمدَّتْهُ بِكُلِّ ما ٱعتصَرتْهُ ٱلشمسُ فيها ماءً وحياةً ونضرة، فهو في كلامِهِ ومعانيهِ ورقٌ وزَهْرٌ ونسيمٌ وظِلٌّ وحفيفٌ وتغريد، يسحِرُ ٱلناظرَ إذْ لا يرى ٱلناظرُ شكلَهُ ٱلإنسانيَّ فيه، بلْ يراهُ شيئاً من خيالِهِ كأنَّما ٱنفصلَ منه فتمثَّلَ بشراً سويًّا، ولو أنَّك ٱطلعْتَ يوماً في ٱلمرأَةِ فإذا خيالُكَ فيها يكلِّمُكَ ويستأنِسُكَ ويُلطِفُ لك، لَمَا أدهشَكَ من ذلك ولا أطربَك ولا ٱستخرجَ من عجبِكَ وذهولِكَ إلَّا كَٱلذي يعتري نفسَكَ حين يُكلِّمُكَ طاغور؛ وتراهُ يستخلِصُ آراءَهُ ٱلمتصرِّفةَ بِكلامِهِ من روحِ ٱلنواميسِ ٱلإلهيَّةِ ٱلمدبِّرةِ لِلْكون، فتُحسُّهُ يُضيفُ إليك زيادةً ليسَتْ فيك؛ فمَهما كَبُرَتْ بِهِ تصغرْ نفسُك عندَكَ بين يديه؛ ثُمَّ هو يَتَّصِلُ بروحِكَ مرَّةً في جلالِ حُبِّ ٱلأبِ لِطفْلِهِ، ومرَّةً في رِقَّةِ فرحِ ٱلطفلِ بِأَبيه؛ فإذا أنت منه بِمَوْقفٍ عجيبٍ من مُعْجزةٍ إنسانيَّةٍ تروعُكَ بِطفلٍ شيخٍ قَدِ ٱجتمعَ فيهِ طرفا ٱلعمرِ وجاءَ كأنَّهُ مظهرُ روحِهِ ٱلتي لا عمرَ لها.

إنسانٌ كهربائيٌّ يُحاولُ أنْ يزيدَ في تركيبِ ٱلناسِ عظْمةً من حديدٍ أو عصباً من سِلْك، لِتصِلَ بهم جميعاً تلك ٱلشعلةَ ٱلطائفة؛ فإذا هم خَلْقٌ آخرُ كَأَهلِ ٱلجنَّةِ ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾؛ ولكنَّهُ بصرٌ وهو خارجٌ مِنَ ٱلمسرحِ بإعلانِ ٱلسيما ٱلتي تُجاورُهُ وما عليهِ مِنَ ٱلتصاويرِ وَٱلتهاويل، فقالَ في نفسِه: بعدَ قليلٍ تجيءُ إلى هنا لندنُ وباريسُ ونيويوركُ وغيرُها من أرضِ ٱللَّهِ بناسِها وحيوانِها ونباتِها، يراها ٱلجالسونَ رأيَ ٱلعينِ ويتَّصلون بها ٱتِّصالاً بعيداً لا يجعلُهُم فيها ولكنَّهُ لا يُخليهِم منها؛ ويجبُ لِعُمرانِ هذه ٱلأرض أنْ يبقى أهلُ مِصْرَ في مصرَ فلا يدعوها جميعاً ليتَّصِلوا جميعاً بِمَا تشتاقُهُ أنفسُهُم من باريسَ أو غيرِ باريسَ من حقائقِ ٱلعالمِ ٱلكبرى، ولا يحسنُ هذا ٱلاتِّصالُ إلا إذا خصَّ ولم يعمّ، فيقومُ بِهِ ٱلواحدُ وَٱلاثنانِ وٱلجماعةُ وتبقى ٱلأُمَّةُ بما هيَ وكما هيَ لِأنَّها بذلك وحدَهُ أُمَّة، كما أنَّ ٱلناسَ بِطبائِعِهم ناس، وَٱلكونَ بِٱختلافِهِ كون، فهيهاتَ هيهاتَ ٱلحُبُّ ٱلعامُّ وَٱلسلامُ ٱلعامُّ وَٱلاتصالُ ٱلعامُّ بِٱلحقيقةِ ٱلروحيَّةِ ٱلعليا. ثُمَّ تبسَّمَ وقال: ما أشبهني بهذه ٱلسيما، غيرَ أنَّ شريطي لا يرى فيهِ ٱلناسُ رِوايةً من لندنَ وباريسَ، بلْ روايةً وقعَتْ حوادثُها في جنةِ ٱلخُلْد. . .

فلسفةُ ٱلقصة
ولماذا لا أكتبُ فيها..؟

لم أكتبْ في ٱلقصةِ إلَّا قليلاً، إذا أنت أردْتَ ٱلطريقةَ ٱلكتابيَّةَ ٱلمصطَلَحَ على تسميتِها بهذا ٱلاسم، ولكنِّي مع ذلك لا أراني وضعْتُ كلَّ كُتُبي ومقالاتي إلَّا في قصةٍ بِعينِها، هي قصةُ هذا ٱلعقلِ ٱلذي في رأسي، وهذا ٱلقلْبِ ٱلذي بين جنبيّ......

أنا لا أعبأُ بِٱلمظاهرِ وَٱلأغراضِ ٱلتي يأتي بها يومٌ وينسخُها يومٌ آخر، وَٱلقِبلةِ ٱلتي أَتَّجِهُ إليها في ٱلأدبِ إنَّما هيَ ٱلنفسُ ٱلشرقيَّةُ في دينِها وفضائِلِها، فلا أكتبُ إلَّا ما يبعثُها حيَّةً ويزيدُ في حياتِها وسموِّ غايتِها، ويُمكِّنُ لِفضائِلِها وخصائِصِها في ٱلحياة؛ ولذا لا أمسُّ مِنَ ٱلآدابِ كلِّها إلَّا نواحيَها ٱلعُلْيا؛ ثُمَّ إنَّهُ يُخيَّلُ إليَّ دائماً أنِّي رسولٌ لغويٌّ بُعِثْتُ لِلدفاعِ عنِ ٱلقرآنِ ولُغتِهِ وبَيانِه، فأنا أبداً في موقفِ ٱلجيشِ (تحتِ السلاح): لَهُ ما يُعَانيهِ وما يُكلَّفُهُ وما يُحاولُهُ ويفي بِه، وما يتحاماهُ[1] ويتحفّظُ فيهِ، وتاريخُ نَصرهِ وهزيمتِهِ في أعمالِهِ دون سِواها؛ وكيف ٱعترضْتَ ٱلجيشَ رأيْتَهُ فنَّ نفسِه، لا فَنَّك أنت ولا فنَّ سِواك؛ إذْ هو لِطريقتِهِ وغايتِهِ وما يتأدَّى بِهِ لِلحياةِ وَٱلتاريخ.

أَلَا ترى أنَّ تلك ٱلرواياتِ تُوضَعُ قصصاً، ثُمَّ تُقرأُ فتبقى قصصاً؟ وإنْ هيَ صنعَتْ شيئاً في قرَّائِها لم تزدْ على ما تَفعلُ ٱلمخدِّرات؛ تكون مُسَكِّناتٍ عصبيَّةً إلى حين، ثُمَّ تنقلبُ هيَ بنفسِها بعدَ قليلٍ إلى مهيِّجاتٍ عصبيَّة؟

وأنا لا أُنكرُ أنَّ في ٱلقصةِ أدباً عالياً، ولكنَّ هذا ٱلأدبَ ٱلعالي في رأيي لا يكونُ إلَّا بأخذِ ٱلحوادثِ وتربيتِها في ٱلروايةِ كما يربَّى ٱلأطفالُ على أسلوبٍ سَواءٌ في ٱلعِلْمِ وَٱلفضيلة؛ فَٱلقصةُ من هذه ٱلناحيةِ مدرسةٌ لها قانونٌ مسنون، وطريقةٌ

---

(١) يتحاماه: يتحاشاه.

مُمَحَّصة، وغايةٌ معيَّنة؛ ولا ينبغي أنْ يتناولَها غيرُ ٱلأفذاذِ[1] من فلاسفةِ ٱلفِكْر ٱلذينَ تُنصبُهُم مواهبُهم لإلقاءِ ٱلكَلِمةِ ٱلحاسِمَةِ في ٱلمشكلةِ ٱلتي تُثيرُ ٱلحياةَ أو تُثيرُها ٱلحياة؛ وَٱلأعلامُ من فلاسفةِ ٱلبيانِ ٱلذينَ رُزقوا من أدبِهم قوةَ ٱلترجمةِ عمّا بينَ ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّةِ وَٱلحياة، وما بين ٱلحياةِ موادِها ٱلنفسيَّةِ في هؤلاءِ وهؤلاءِ، تتخيَّلُ ٱلحياةُ فتُبدعُ أجملَ شِعْرِها، وتتأملُ فتُخرجُ أسمى حِكمتِها، وتُشرِّعُ فتضعُ أصحَّ قوانينِها.

وأمَّا مَنْ عداهم ممَنْ يحترفُون كِتابةَ ٱلقِصَص، فَهُمْ في ٱلأدبِ رِعاعٌ وهَمَج، كانَ من أثرِ قَصَصِهم ما يتخبَّطُ فِيهِ ٱلعالمُ ٱليومَ من فوضى ٱلغرائز، هذه ٱلفوضى ٱلمَمْقوتةُ ٱلتي لو حقَّقتَها في ٱلنفوسِ لَمَا رأيتْهَا إلَّا عاميَّةً روحانيَّةً منحطةً تتسكَّعُ فيها ٱلنفسُ مشَّردةً في طرقِ رذائلِها.

إذا قرأْتَ ٱلروايةَ ٱلزائفةَ أحسْسَت في نفسِكِ بأشياءَ بدأَتْ تَسْفُل، وإذا قرأْتَ ٱلرواية ٱلصحيحةَ أدركْتَ من نفسِكَ أشياءَ بَدَأَتْ تعلو؛ تنتهي ٱلأولى فيك بِأثرِها ٱلسيِّىء، وتبدأُ ٱلثانيةُ منك بأثرِها ٱلطيِّب؛ وهذا عندي هو فرقُ ما بينَ فنِّ ٱلقصة، وفنِّ ٱلتلفيقِ ٱلقصصيّ!!.

(١) الأفذاذ: النوابغ المتفوّقون.

شعر صبري

في ٱلحادي وٱلعشرينَ من شهرِ مارس من سنتِنا هذه نزعَ ٱلشعرُ ٱلعربيُّ عن رأسهِ عِمامةَ ٱلمشيخةِ ونشرَها لِلْموت، فكانَتِ ٱلكفنَ ٱلذي طُويَ فيه بقيَّةُ شيوخِ ٱلأدب: ٱلمرحومُ إسماعيل باشا صبري.

كانَ ـ رحمَهُ ٱللَّهِ ـ منَ ٱلرجالِ ٱلذين نشأُوا في تاريخٍ لا يُنشىءُ رجلا، وجاءُوا في غير زمنِهم لِيجيءَ بهم زمنُهم بعد؛ وهؤلاءِ إنْ لم يكنْ فيهم قوَّةٌ أكبرُ مِنَ ٱلقوَّة، فهم أقدارٌ وأحداثٌ تُولدُ وتنشأُ وتنمو في أسلوبٍ إنسانيٍّ لِيتمَّ بها شيءٌ كانَ نقصاً، ويُحسِّنُ شيئاً كانَ هجنةً، ويُوجِدُ أمراً كانَ عَدَماً؛ ثُمَّ لِيكونَ لْلزَمنِ منها حدودٌ يبَدأُ عندَ ٱلواحدِ منها فيتغيَّرُ فيهِ ويتحَوَّلُ بِهِ ويخرجُ معَهُ في بعضِ معانيهِ زمناً جديداً في رجلٍ جديد.

كذلك كانَ صَبري في مَنْحًى من مناحي ٱلشعر، وكانَ ٱلبارودي ـ رحمَهُما ٱلله ـ في منحًى آخر؛ فهما طرفا ٱلمِحْورِ ٱلذي ٱستدارَ عليهِ هذا ٱلفَلَكُ لِيبدأَ بعدَ تاريخِهِ ٱلميتِ تاريخاً حيًّا، ولِيخرجَ مِنَ ٱلجوِّ ٱلقاتم في أعراضِ ٱلأرضِ إلى ٱلفضاءِ ٱلمشرِقِ بِمَعاني ٱلسماء، ثُمَّ لِينفضَ عنه في مَهَبِّ ٱلرياحِ ٱلعلويَّةِ ما لصقَ بِهِ من طِباعِ أهلِهِ وأخلاقِهِم، ويُغلِقَ بِها ما فتحَ ٱلزمنُ عليهم من أبوابِ هذه ٱلحِرْفة، فكَانَ ٱلشِّعرُ في حاجةٍ إلى رِجلٍ كالمَلِك، فأصابَ رجلين؛ وعَلِمَ ٱللَّهُ ما رأيْتُ في كلِّ مَنْ رأيْتُهُم مِنَ ٱلشعراءِ نَفْساً تعدُّ معهما، ولا خُلُقاً يجري في أخلاقِهِما، ولا ظَرْفاً ولا رِقَّةً ولا أدباً ولا شيئاً يصلُحُ أنْ يكونَ شَرْحاً منهما أو توكيداً لِشيءٍ فيهما أو تقويةً لِمعنًى من معانيهِما، كأنَّما وُجِدا لِيكونَ أحدُهما مبدأً وٱلآخرُ نهاية، ولِينفردا ٱنفرادَ ٱلطرفينِ مِنَ ٱلمسافةِ بالغةً ما بلغَت.

كانَ ٱلشعرُ لِعَهْدِهِما بقيَّةً رثَّةً في معرضِ خَلْقٍ مِمَّا كانَ يُسميهِ أدباءُ ٱلأندلسِ بالأغراضِ ٱلمشرقيَّةِ وطريقةِ ٱلمشارِقة، وهم يعنونَ بذلك ٱلصناعةَ وَٱلتكلُّفَ لِلبديعِ وَٱلانصرافَ إلى ٱللفظِ وٱستكراهَهُ على ٱلوجهِ ٱلذي أرادوا، إلى ما يتشَّعبُ من ذلكَ

ويخرجُ أو يدخلُ في بابِه؛ وقد كانَ هذا ومثلُهُ ممَّا يُساغُ[1] ويُحتمَلُ في ٱلقرنِ ٱلثامن وأكثرِ ٱلتاسعِ لِلْهجرة، ثُمَّ في أيامٍ بعدَ ذلك؛ غيرَ أنَّهُ بَلِيَ وتهتَّكَ في مِصْرَ خاصةً ولم يبقَ منه إلى منتصفِ ٱلقرنِ ٱلثالثَ عَشَرَ إلَّا رقعٌ وخيوطٌ في قصائدَ ومقاطيع.

ثُمَّ كانَ أكثرُ ٱلشعراءِ يومئذٍ إنَّما يحترِفون فنَّ ٱلأدبِ صِناعةً كسائرِ ٱلمِهَنِ وٱلصناعاتِ ٱلتي بها قِوامُ ٱلعيشِ لِهولاءِ المستأكلينَ وَٱلمتكسبينَ مِنَ ٱلسوقةِ وَٱلمُرتزِقةِ.

* * *

ظهرَ ٱلبارودي ونبغَ في شعرِهِ قبلَ أنْ يقولَ صبري ٱلشعرَ بسنوات، ولكنَّ ٱلأدبَ ٱلفارسيَّ وٱلجزالةَ ٱلعربيَّةَ هما ٱللذان تحَولا فيه؛ ثُمَّ نبغَ صبري بعدَ ذلك بِزمن، فتحَّولَ فيهِ ٱلأدبُ ٱلأفرنجيُ وٱلرِّقَّةُ ٱلعربيَّة؛ وهذا موضعُ ٱلتفاوتِ في شِعْرِ ٱلرجلينِ ٱللذينِ ٱقتنصا ٱلخيالَ ٱلشعريَّ من طرفي ٱلأرض، وكِلاهما يذهبُ مذهباً ويرجعُ إلى طبعٍ ويروضُ شِعْرَهُ على وجه؛ فَٱلبارودي يستجزلُ ويجمعُ إلى سبكِهِ ٱلجيِّدِ قوَّةَ ٱلفخامةِ وشدّةَ ٱلجزالة، ثُمَّ يعترِضُ ٱلخيالَ من حيثُ يهبطُ على ٱلنفسِ في ممرِّ ٱلوحي؛ وصبري يسترقُّ ويُضيفُ إلى صفاءِ لَفظِهِ جمالَ ٱلتخيُّرِ وحلاوةَ ٱلرقَّة، ويُعارضُ ٱلفكرَ من حيثُ يتَّصلُ بالقَلب؛ وَٱلباروديُّ لا يرى إلَّا ميزانَ اللسانِ يُقيمُ عليهِ حروفَهُ وكلماتِه، وصبري لا يرى إلَّا ميزانَ ٱلذوق ٱلذي هو من وراءِ ٱللسان؛ وقد يُسِّرَتْ لِكِلَيْهِما أَسبابُ ناحيتِهِ في أحسنِ ما يتصرَّفُ فيه؛ فجاءَ ٱلباروديُّ حافظاً كأنَّهُ مجموعةٌ من دواوينِ ٱلعربِ والمُولدين، وجاءَ صبري مفكراً كأنَّهُ مجموعةُ أذواقٍ وأفكار؛ وهما يشتركانِ معاً في ٱلتلوُّم على صنعةِ ٱلشعرِ وٱلتأني في عملِهِ وتقليبِهِ على وجوهٍ مِنَ ٱلتصفُّح، وتمحَيصِهِ بِٱلنقدِ وَٱلابتلاءِ لفظاً لفظاً وجملةً جملة، ثُمَّ مُطاولةِ معانيهِ ومُصابرتِها كأنَّما ينتزعانِ محاسَنَها من أيدي ٱلملائكة؛ وأنا أعرفُ ذلك فيهما؛ وقالَ لي صبري باشا مرةً وقد جارَيْتَهُ في بعضِ هذا ٱلمعنى: إنَّهُ يعلمُ هذا مِنَ ٱلباروديِّ ومن نفسِه. قلْت: أفيبلغُ بِهِ ذلك أنْ يمحوَ بياضَ ٱليوم في سوادِ بيتٍ واحد؟ قال: وفي سوادِ شطرةٍ أحياناً!. وليسَ ينقصُهُما هذا ٱلأمرُ شيئاً، فإنَّ خبرَ زهيرٍ في حوليَّاتِهِ معروف، وقد عملَ سبعَ قصائدَ في سبعِ سنين: يحوكُ ٱلقصيدةَ منها في سنة.

ونقلوا عن مروانَ بْنِ أبي حفصةَ أنَّهُ قال: كنْتُ أعملُ ٱلقصيدةَ في أربعةِ

---

(١) يُساغ: يُقبل.

أشهر، وأحكِّكُها[1] في أربعةِ أشهر، وأعرضُها في أربعةِ أشهر، ثُمَّ أَخرجَ بها إلى الناس؛ فقيلَ هذا هو الحوليُّ ٱلمنقَّح.

كانَ مرجعُ ٱلباروديِّ إلى ٱلحِفْظ، فنبغَ في وثباتٍ قليلة؛ أمَّا صبري فٱحتاجَ إلى زمنٍ حتى ٱستحكمَتْ ناحيتُهُ وآتتهُ أسبابُهُ على ٱلإجادة، لِأنَّ مرجعَهُ إلى ٱلذوق، وهذا يُكتسبُ بِٱلمرانِ وينضجُ عندَ نضوجِ ٱلفِكْرِ ولا يأتي بِٱلماء وَٱلرونقِ حتى تَأْتيَ لَهُ أسبابٌ كثيرة؛ وأنت تعرفُ ذلك في ٱلرجلينِ من أوائلِ شِعْرِهما، فقد رثى ٱلبارودي أباه في سِنِّ ٱلعِشْرينَ بِأَبياتِهِ ٱلدِاليَّةِ ٱلشهيرةِ ٱلتي مطلعُها:

لا فارسُ ٱليومَ يحمي ٱلسّرحَ بِٱلوادي طاحَ ٱلرَّدى بِشهابِ ٱلحيِّ وَٱلنَّادي

وهي ثمانيةَ عَشَرَ بيتاً، وجيدُها جيد، وكأنَّها خرجَتْ من لِسانِ أعرابيّ؛ وإنَّما جاءَتْهُ من صنعةِ ٱلحفظ، كَٱلذي ٱتَّفقَ لِلشريفُ ٱلرضيّ في أبياتِهِ ٱلخائيةِ ٱلتي كتب بها إلى أبيهِ وعمرُهُ أربعَ عَشْرَةَ سنة، وكانَ أبوهُ معتَقلاً بِقلعةِ شيرازَ ومطلعُها.

أَبْلِغا عنِّي ٱلحُسَيْنَ ٱلوكاَ[2] إنَّ ذا ٱلطوْدَ[3] بعدَ بُعْدِك ساخا[4]
وَٱلشهابَ ٱلذي ٱصْطَليْتَ لَظَاهُ عكسَتْ ضوءَهُ ٱلخطوبُ[5] فباخا

هذا على أنَّ ٱلبِدايةَ كما يُقال مزلَّه؛ وقد وفقْنَا إلى ٱلوقوفِ على أولِ ما نُشِرَ من شعرِ صبري باشا، وذلك قصيدتانِ نُشرَتا في مجلةِ روضةِ ٱلمدارسِ في مدحِ إسماعيل باشا، فنُشرَتِ ٱلأولى في ٱلعددِ ٱلصادرِ في غايةِ شوالَ سنة ١٢٨٧ لِلهجرة ـ ١٨٧٠ لِلميلاد؛ ونُشِرَتِ ٱلثانيةُ في عددِ شهرِ ربيعِ ٱلآخرِ من سنة ١٢٨٨هـ ـ ١٨٧١م؛ وبينَهما خمسةُ أشهر، كانَتْ وثبتُهُ فيها ضعيفةً متقاصِرَة، مِمَّا يدلُّ على بطْءِ نُضْجِهِ بِطبيعةِ ٱلأَسبابِ ٱلتي تسبَّبُ بها إلى ٱلشعر؛ وكانَتِ ٱلروضةُ يومئذٍ تنشرُ لِطائفةٍ من فحولِ دهرِهِم: كَٱلسيدِ صالح مجدي، ورَفاعةَ بك رافع، ومحمد أفندي قدري «ونابغةِ ٱلزمانِ محمد أفندي رضوان»، وغيرِهم. وكانَت تُستقبلُ قصائدُهُم بِسَجعاتٍ داويةٍ مفرقِعة، هيَ لذلك ٱلعهدِ أشبَهُ ٱلأشياءِ بِطلقاتِ مدافعِ ٱلتحيَّةِ لِلْملوكِ وَٱلأُمراء؛ فلمَّا نَشرَتْ لِصبري قالَتْ في ٱلقصيدةِ ٱلأولى تهنئة بِٱلعيدِ ٱلأكبر لِلْخديو ٱلأعظم بقلم إسماعيل صبري أفندي». وقالتْ في ٱلثانية «قصيدةٌ رائيَّةٌ في مدحِ

---

(١) أحكِّكها: أنقحها.
(٢) ألوكاً: رسالة.
(٣) الطود: الجبل الشامخ.
(٤) ساخا: ذابا.
(٥) الخطوب: المصائب.

الحضرةِ الخديويةِ من نظمِ الشابِ النجيبِ إسماعيلَ صبري أفندي من تلامذةِ مدرسةِ الإدارة». ومطلعُ القصيدةِ الأولى:

سَفَرَتْ[1] فلاحَ[2] لَنَا هِلالُ سعودِ وَنَما الغرامُ بِقَلْبيَ المعمودِ[3]

ولا شيءَ فيها أكثرُ من حروفِ المطبعة. ومطلعُ الثانية:

أغُرَّتُكَ الغَرَّاءُ أمْ طلعةُ البَدْرِ وقامتُكَ الهيفاءُ أم عادلُ ٱلسُّمرِ

وفي هذه القصيدة بيتٌ وقفْتُ عندَهُ أرى صبري باشا في صبري أفندي كأنهُ خيالٌ مولودٌ يَسْتَهِلّ، وذلك قولُه:

فطوِّلْ من الهجرانِ علَّ وقوفَنا يطولُ معاً - يا قاتلي - ساعةَ ٱلحشْرِ

ويكادُ هذا البيت يكونُ أولَ انقلابٍ لِلفكرةِ فيه: وهو غريب، والتأمُّلُ فيهِ أغرب، ولكنه يدلُّ على خيالٍ سَيَثِبُ يوماً على أقطارِ السموات.

وفي ذلك الزمنِ عينِه كانَ الباروديُّ شِهاباً يتلهَّبُ، وكانَ قد بلغَ مبلغَهُ وٱستجمعَ أسبابَ نِهايتِه، بلْ هو نظمَ قبلَ ذلك بستِ سنواتٍ قصيدَته الشهيرة:

أخذَ ٱلكرى[4] بِمَعَاقِدِ ٱلأَجْفانِ وهفا[5] ٱلسُّرى[6] بِأَعِنَّةِ ٱلفُرْسانِ

فلم يكنْ لِيذهبَ وجهُ الشعرِ عن صبري، ولم يكن لِيغضى عنِ ٱحتذاءِ هذه الصنعةِ البارعةِ ويأخذَ في غيرِها لولَا أنَّ فيهِ طَبْعاً مستقِّلاً يذهبُ إلى كمالِهِ في أسلوبٍ آخرَ كَأُسلوبِ كلِّ زهرةٍ في غُصنِها؛ وأخصُّ أحوالِ صبري أنَّهُ لم يُرِدْ أنْ يكونَ شاعراً فجاءَ أكبرَ من شاعر، وكانَ السببُ الذي صرفَهُ من ناحيةٍ هو نَفَسُهُ الذي جاءَ بهِ من ناحيةٍ أخرى.

* * *

ينبغُ الشاعرُ بأربعةِ أشياءَ لا بدَّ منها: طريقةُ ٱلدرس ٱلتي عالجَ بها ٱلشعر، وكتبُ هذه ٱلطريقة، وٱلرجالُ ٱلذين هم أمثلَتُها في نفسِه. ثُمَّ... ويا للّهِ من ثَمَّ هذه، فهي ٱللمحةُ ٱلسماويَّةُ التي تُشرِقُ على فؤادِ ٱلشاعرِ من وجهٍ جميل، وٱلثلاثُ ٱلأولى تُنشِىءُ نبوغاً معروفاً في نوعِهِ ومِقْدارِه، ولكنَّ ٱلأخيرةَ هي طريقُ ٱلقدرِ ٱلتي لا يُعرفُ آخرُها؛ وإذا تجدَّدَتْ في حياةِ ٱلشاعرِ أوِ ٱتصلَتْ تَجدَّدَ بها نبوغُهُ أوِ

(١) سفرت: كشفت عن وجهها.
(٢) لاح: بدا وظهر.
(٣) المعمود: المتيّم.
(٤) الكرى: النعاس.
(٥) هفا: خفّ.
(٦) السّرى: السير في الليل.

اتَّصل، فعلى قدْرِ ما يُحبُّ تَحبوهُ[1] السماءُ من أسرارِ ٱلجمال، وهي نفسُها أجملُ أسبابِ ٱلشعرِ وأجملُ معانيهِ وأجملُ غاياتِه، فهي هي ٱلمادةُ ٱلتي تُؤَلِّفُ بينَ نفسِ ٱلشاعرِ وبينَ معنى ٱلجمالِ الشعريِّ في هذا ٱلكونِ كلِّهِ؛ وإذا أنت نزعْتَ ٱلنظرةَ وَٱلابتسامة ـ وهما عنصرا تلك ٱلمادة ـ من حياةِ ٱلشاعر، نزعْتَ ٱلحياةَ نفسَها من شعرِهِ فما يبقى منه إلَّا أنَّهُ مقبرةٌ لِلألفاظِ وَٱلمعاني، وتسمعُ شعرَهُ فلا تَجزيهِ[2] بهِ أحسنَ من قولِك: يرحمُك ٱللهُ. . . وصبري لم يدرسِ ٱلشعرَ في ٱلكتبِ أكثرَ مِمّا درسَهُ في ٱلوجوهِ وَٱلعيون، وقد عالجَ هذا ٱلشعرَ في بِدايتِهِ لِيتأتّى إليهِ من طُرُقِهِ ٱلبعيدة؛ أمَّا ٱلرجالُ الذين كانوا أمثلَتَهُ فكانوا رجالَ ٱلظرْفِ وَٱلرِّقَّةِ وٱلنكتةِ ٱلمِصْريَّةِ ٱلشهيرةِ ٱلتي ٱنفردَ بها ٱلطبعُ ٱلمِصْرِيُّ ونصَّ عليها علماءُ ٱلبلاغة، كَٱلسَّكاكي وغيره؛ بلْ كانَ عصرُهُ كلُّهُ عصرَ هذه ٱلنكتةِ، فتحوَّلَتْ في طبعِهِ ٱلرقيقِ ٱلمُبتكرِ تَحوُّلاً رقيقاً مبتكراً أرجعَها إلى ٱلظرفِ ٱلمحضِ ٱلذي ٱجتمعَتْ فيهِ كلُّ طِباعِهِ كما يجتمعُ ٱلسحابُ منَ ٱلماء.

ولقد كانَ في شعرِهِ أحقُّ ٱلناسِ بقولِ ٱبنِ سعيدٍ ٱلمغربيّ:

أسكانَ مصرَ جاوَرَ ٱلنيلُ أرْضَكُمْ ... فأكسبَكُمْ تلكَ ٱلحلاوةَ في ٱلشِّعْرِ
وكانَ بتلكِ ٱلأرضِ سِحْرٌ فما بقي ... سوى أثرٍ يبدو على ٱلنظمِ وٱلنثرِ

وإنِّي أعلمُ أنَّهُ كانَ دائمَ ٱلحُبِّ: يمزجُ ذكرى ماضيهِ بحاضرِهِ فيخرجُ منهما حُبًّا جديداً؛ وكان الرجلُ كأنَّهُ مجروحُ ٱلقَلْب، فلا يزالُ يَئِنُّ حتى في بعضِ أنفاسِهِ، إذْ يُرسِلُ ٱلنفسَ ٱلطويلَ بين هنيهةٍ وأخرى كأنَّهُ يُريدُ أنْ يُطْمَئِنَ أنَّ نفسَهُ فيه، أو أنَّ شيئاً باقياً في نفسِه؛ وتلك همهمةٌ لا تكونُ في شاعرٍ مِنَ ٱلشعراءِ بِغيرِ معنًى.

كانَتِ ٱلنظرةُ وٱلابتسامةُ تتمثَّلُ لَهُ حيثُ شاءَ وتعترضُهُ حيْثُ أرادَ أنْ يَراها، فيَجِدُ في كلِّ شيءٍ روحاً مِنَ ٱلشعر، ويقرأُ لَمَحاتِها متى ٱلتمعَتْ[3]، وكانَ يعيشُ في ذاتِ نفسِهِ كأنَّهُ معنًى في قصيدةٍ هو أميرُ أبياتِها.

فشاعرُنا هذا أخرجَهُ ٱثنان: ٱلظرفُ وٱلجمالُ؛ وهذا سرُّ إبائِهِ أنْ يُعدَّ مِنَ ٱلشعراءِ لِأنَّهُ أرفعُ من أنْ يدخلَ بينَهم في هذه ٱلمِحْنةِ وٱلبَلْوى ٱلتي ٱبتلُوا بها. . .

ولقد هَمَّ صبري في أواخرِ عمرِهِ بِمحوِ شعرِهِ لو أنَّهُ كان في مِنالِ يدِهِ، على

---

(١) تحبوه: تعطيه.
(٢) تجزيه: تحسن إليه.
(٣) التمعت: خطرت على باله.

أنَّهُ محا منه بإهمالِهِ أكثرَ مِمَّا أثبَت؛ وعَلِمْتُ منه أنَّهُ لم يُدوِّنْ شيئاً، وأنَّهُ ينسى ما يقولُه، فكأنَّهُ يُوجِدُ بسببٍ واحدٍ ويمحقُ بسببين؛ وقديماً كانَ كِبارُ ٱلعلماءِ متى ٱنتهَوْا إلى ٱلتحقيقِ رأَوْا عمرَهم كُلَّهُ بدايةً ورأَوْا ما فعلوا باطِلاً فغسلُوا كُتبَهُم أو أحرقوها، ولكنَّا لم نعرفْ هذه ٱلطبيعةَ في شاعرٍ بعدَ عصرِ ٱلكتابةِ وٱلتدوين، وإنْ كانَ بعضُهُم يأنفُ لِنفسِهِ أنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلشعراءِ وهو مع ذلك يجمعُ يدَهُ على شعرِهِ، كٱلشريفِ ٱلرضي ٱلذي يقول:

مالَكَ ترْضَى أنْ تُعَدّ شاعراً ... بُعداً لَهَا مِنْ عَدَدِ ٱلفضائِلِ

ويقولُ في مدحِ أبيه:

إنِّي لأَرضَى أنْ أرَاكَ مُمَدَّحاً ... وعُلَاكَ لا ترضى بِأَنِّي شاعرُ

ومثلُهُ أبو طالبِ ٱلمأمونيُّ وآخرون يدَّعونَ ذلك دعوى وفي ألسنتِهِم ما ليسَ في قلوبِهِم.

ولإفراطِ صبري في ٱلظرْفِ وٱلجمالِ وقِيامِ شعرِهِ على هذينِ ٱلركنين، جاءَ مُقِلّاً من أصحابِ ٱلقِصار، وزادَ إقلالُهُ في قِيمةِ شعرِه، فخرجَتْ مقاطيعُهُ مخرجَ ٱلشيءِ ٱلطريفِ ٱلذي يُتعجَّبُ منه في وجودِهِ أكثرُ مِمَّا يُتعجَّبُ منه لِقِلَّةِ وجودِه؛ وبذلك ربحَ تعبَ ٱلمُكْثرينَ وٱلمُطيلين، إذْ كانَ لا يقولُ إلَّا فيما تُؤَاتيهِ ٱلسجيَّةُ[1] وينزعُ لَهُ ٱلطبع، فيدنو مأخذُهُ ويكثرُ بِقليلِه ويرمي منه بِمثلِ ٱلحُجَّةِ وٱلبُرْهان، فيطمِسُ بِهِما على كلامٍ طويلٍ وجَدَلٍ عريض.

ولا يعيبُ ٱلمُقِلّ أنَّهُ مُقِلٌّ إذا كَثُرَتْ حسناتُه، بلْ ذلك أعونُ لَهُ على ٱلقلوبِ وٱلنفوسِ إذا أصابَتْ في شعرِهِ ما يُغريها بِطَلَبِ ٱلمزيدِ منه؛ وقد عدُّوا بينَ ٱلمُقلينَ في ٱلجاهلية: طرفةَ بْنَ ٱلعبد، وعبيدَ بْنَ ٱلأبرص، وعلقمةَ ٱلفحل، وعديَّ بْنَ زيد، وسلامةَ بْنَ جَنْدل، وحصينَ بْنَ ٱلحُمام، وٱلمتلمس، وٱلحارثَ بْنَ حِلِّزة، وٱبْنَ كلثوم، وغيرَهم أتينا على أسمائِهِم في ٱلجزءِ ٱلثالثِ من (تاريخُ آدابِ ٱلعرب)؛ ومن أولئكَ مَنْ يُعْرَفُ بِٱلقصيدةِ ٱلواحدةِ: كطرفة، ومنهم مَنْ يُعرفُ بثلاثِ قصائد: كعلقمة، أو بأربع: كعدي بْن زيد؛ ومنهم مَنْ يُعرفُ بِالأبياتِ ٱلمتفرِّقة، ولا عِبرةَ بِمَا يُنسبُ إليهم عندَ غيرِ ٱلمصححين وأهلِ ٱلتحقيق، فإنَّ ٱلحملَ على شعراءِ ٱلجاهليَّةِ كثير؛ وقد يعرفونَ ٱلشاعرَ بِٱلبيتِ ٱلفَرْد، لِأنَّ ٱلعربَ

---

(١) السجية: الطبعية دون تصنّع.

إنَّما يعتبرون ٱلشعرَ بِمقدارِ ما يُحرِّكُ من ميزانِهِ ٱلطبيعيِّ ٱلذي هو ٱلقلْب، لا بِٱلطولِ ولا بِٱلقصر، وقد قالوا في بيتِ ٱلنابغة:

ولَسْتَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ ... على شَعَثٍ، أيُّ ٱلرجالِ ٱلمهذَّبُ؟

إنَّهُ لا نظيرَ لَهُ في كلامِ ٱلعرب؛ وما ذلكَ إلَّا على ٱلاعتبارِ ٱلذي أشرْنَا إليه. وكانوا يسمون ٱلبيتَ ٱلواحد: يتيماً، فإذا بلغَ ٱلبيتينِ والثلاثةَ فهيَ نتفة، وإلى ٱلعشرةِ تُسمَّى قطعة، وإذا بلغَ ٱلعشرينَ ٱستحق أنْ يُسمَّى قصيداً.

وكانَ مِنَ ٱلشعراءِ مَنْ يعتمدُ أنْ لا يجيءَ في شِعرِهِ ٱلجيِّدِ بِغيرِ ٱلبيتينِ وٱلثلاثةِ إلى ٱلقطعِ ٱلصغيرة، كشاعرِنا صبري باشا؛ ومنهم عقيلُ بْنُ عُلَّفة: كانَ يقصرُ هِجاءَهُ ويقول: يكفيكَ مِنَ ٱلقِلادةِ ما أحاطَ بِٱلعنق. ومنهم أبو ٱلمهوّس، وكان يحتجُّ لذلك بأنَّهُ لم يجدِ ٱلمثلَ ٱلنادرَ إلَّا بيتاً واحداً، ولم يجدِ ٱلشعرَ ٱلسائرَ إلَّا بيتاً واحداً؛ ومنهُمُ ٱلجمّاز: قالَ لَهُ بعضُهُم وقد أنشدَهُ بيتين: ما تَزيدُ على ٱلبيتِ وٱلبيتين؟ فقال: أردْتُ أنْ أُنشدَكَ مُذارعة؟؟؟ وٱبنِ لَنككِ ٱلمصريِّ، وٱبنِ فارس، ومنصورِ ٱلفقيهِ ٱلذي كانَ يُقالُ فيه: إذا رمحَ بزوجيهِ قتل. ولا نستقصي في هذا فَلْندعْهُ فإنَّ لَهُ موضعاً.

غيرَ أنَّ صبري كانَ لَهُ مع جُودةِ ٱلمقاطيعِ جودةُ ٱلقصيدِ إذا قصَّد، كقوم عُرفوا بذلك في ٱلتاريخ، منهُمُ ٱلعباسُ بْنُ ٱلأحنفِ وسِواهُ، وكانَ من أسبابِ إقْلالِهِ ما أعلمَني بِهِ من أنَّ طريقتَهُ في أكثرِ ما ينظمُ معارضةُ معنًى يقفُ عليه، أو تضمينُ حِكمة، أو ضَرْبُ مَثَلٍ على طريقةِ ٱلنظرِ وٱلملاحظة، أو تدوينُ خَطْرةٍ عرضَتْ لَهُ، أو لمحةٍ أُوحيَتْ إليه؛ وهو ينزلُ في ذلك على ٱلنصفةِ وٱلمعدلةِ فلا ينتحلُ شيئاً ليسَ لَهُ، بلْ يدلُّكُ بنفسِهِ على ٱلأصلِ ٱلذي منه أخذَ أوِ ٱلمثالِ ٱلذي عليهِ ٱحتذى.

قالَ لي مرةً إنَّ ٱلبستانيَّ عقدَ حِكمةً فارسيةً في قولِه:

قضيْتَ إلهي بِٱلعذابِ فيا تُرى ... بأيِّ مكانٍ بِٱلعذابِ تُدينُ[1]
وليسَ عذابٌ حيثما أنت كائنٌ ... وأيُّ مكانٍ لَسْتَ فيهِ تكونُ؟

ثُمَّ قال: فأخذْتُ من هذا ٱلمعنى وقلْت:

يا ربِّ أينَ تُرى تُقامُ جهنمُ ... لِلظالمينَ غداً ولِلأَشرارِ

---

(١) تدين: تحكم وتقضي.

لم يُبقِ عفوُكَ في ٱلسمواتِ ٱلعُلَى ... وٱلأرضِ شِبْراً خالياً لِلنارِ
يا ربِّ أهِّلْني لِفضلِكَ وٱكفِني ... شَطَطَ ٱلعقولِ[1] وفتنةَ ٱلأفكارِ
ومُرِ ٱلوجودَ يشفَّ عنكَ لكي أرى ... غَضَبَ ٱللطيفِ ورحمةَ ٱلجبَّارِ
يا عالِمَ ٱلأسرارِ حسبيَ مِحْنَةً ... عِلْمي بِأنَّكَ عالِمُ ٱلأسرارِ

وٱلفرقُ بين ٱلشعرين أنّ ٱلبستانيَّ جاءَ بكلامِهِ على طريقةِ ٱلمتصوِّفةِ ٱلتي يسمونَها طريقةَ أهلِ ٱلتحقيق، كأبنِ ٱلعربي وٱلشُّشتري؛ وأما صبري فَٱنظرْ كيف ٱستوفى وكيف لأَءَمَ ٱلمأخذَ ٱلدقيقَ ٱلذي لا ينتبِهُ لَهُ إلّا المُطَّلِعُ ٱلحاذقُ بِصِناعةِ ٱلكلام، كقوله:

إذا ما صديقٌ عَقَّني[2] بِعَدَاوةٍ ... وفوَّقْتُ يوماً في مقاتلهِ سَهمي
تعرَّضَ طيفُ ٱلوُدِّ بيني وبينَهُ ... فَكَسَّرَ سهمي فٱنثنيْتُ ولم أرمِ

فهذا ينظرُ إلى قول الحارثْ بنِ وَعلة:

قومي هُمُ قتلوا أُميمَ أخي ... فإذا رَمَيْتُ يُصيبُني سَهْمي

ولكنَّهُ ليسَ بذاك؛ فإنَّ أساسَ ٱلمعنى قولُهُ: «تعرَّضَ طيفُ ٱلودِّ بيني وبينَه» وهو من قولِ ٱلعباسِ بْنِ ٱلأحنف:

وإذا مَدَدْتُ طَرْفي[3] إلى غيـ ... ـرِكَ مُثِّلتَ دونَهُ فأراكا

فتأملْ كيفَ أبدعَ في ٱنتزاعِ ٱلمعنى وكيفَ جعلَ لَهُ معرضاً جديداً وكيفَ أدَّاهُ أحسنَ تأديةٍ في ألطفِ وجهٍ كأنَّه شيءٌ مخترَع.

ومن شعرِهِ ٱلسائرِ قولُهُ في ٱلعِناقِ وتلازمِ ٱلحبيبين:

ولمَّا ٱلتقَيْنا قرَّبَ ٱلشوقُ جُهْدَهُ ... شجيَّينِ[4] فاضا لوعةً وعِتَابا
كأنَّ صديقاً في خِلالِ صديقِهِ ... تَسرَّبَ أثناءَ ٱلعِناقِ وغابا

وهذا ٱلمعنى على إبداعِهِ فيهِ متداول، وأصلُهُ لبشار ـ أظنُّ ـ في قولِهِ:

وبِتْنَا جميعاً لو تُراقُ زجاجةٌ ... مِنَ ٱلخمرِ فيما بينَنَا لم تَسرَّبِ[5]

فأبدعَ صبري في أخذِهِ وجعلَ من هذه ٱلزجاجةِ ٱلمنصدعةِ جوهرةً تتألَّق؛

---

(١) شطط العقول: خروجها ومغالالتها وبعدها عن المألوف.
(٢) عقّني: تركني وأنكر صحبتي وحقي عليه.
(٣) الطَّرْف بتسكين الراء: النظر.
(٤) شجيين: مشغولين.
(٥) لم تسرّب: لم تسل لتلاصقهما.

على أنّي لا أستحسنُ قولَهُ: «كأنَّ صديقاً. . .» فما هذا بِعِناقِ ٱلأصدقاء، ولو كانَ ٱلصديقُ راجعاً من سَفَرِ ٱلآخرة؛ وإذا غابَ واحدٌ في ٱلآخر، فٱلآخرُ حاملٌ به. . .
وقد أخذْتُ أنا هذا ٱلمعنى منه، ولولاهُ ما ٱهتديْتُ إليه، فقلْتُ في ذلك:

ولَمَّا ٱلتقَيْنا ضَمَّنا ٱلحُبُّ ضَمَّةً بها كلُّ ما في مهجتَينا مِنَ ٱلحُبِّ
وشدَّ ٱلهوى صدراً لِصَدْرٍ كأنَّما يُريدُ ٱلهوى إنفاذَ قلْبٍ إلى قَلْبِ

* * *

وأحسنُ ما تجدُ شعرَ صبري في ٱلغزلِ وٱلنسيبِ وٱلوصفِ وٱلحِكْمة، فهي عناصرُ قلبِهِ وذوقِهِ، ولا يتصرَّفُ معَهُ أقوى ما يتصرَّفُ إلَّا في هذه ٱلأغراض، ولعلَّهُ إنْ جاوزَها[1] قصَّرَ معه شيئاً ما وضعُفَتْ أداتُهُ ضعفاً ما، لِأنَّهُ يكونُ شاعرَ ٱلصنعةِ وهو يأباها ويكرَهُ أنْ يكونَ شاعراً من أجلِها؛ وقلَّما يُجاريهِ أحدٌ في تلك ٱلأغراض، وهو ٱلذي فتحَ أبوابها؛ وحسبُكَ أنَّهُ ٱلمِثالُ ٱلذي ٱحتذى[2] عليهِ شوقي بك؛ وقد ينقسمُ ٱلمعنى ٱلواحدُ في رجلينِ حينَ يقدر، فإذا لم يُوجِدْ أحدَهما لم يوجِدِ ٱلآخر، وأنا أرى وأعلمُ أنَّهُ لولا صبري لَمَا نبغَ شوقي، وكانَ هذا يختلفُ إليهِ يعرضُ عليهِ شِعْرَهُ ويرجعُ بآثارِ ذوقِهِ فيه، وكذلك كانَ يفعلُ خليفةُ ٱلباروديّ حافظُ بك إبراهيم: وٱسترفدَ شوقي من صبري باشا هذا ٱلبيتَ ٱلسائر:

صونـي جَمَالَـكِ عنَّا إنَّنـا بَشَـرٌ مِنَ ٱلترابِ وهذا ٱلحسنُ روحاني

فهو لِصبري باشا، وٱلمرافدةُ سُنَّة معروفةٌ من قديم، وهي غيرُ ٱلانتحالِ وغيرُ ٱلسرقةِ وما يُسمَّى إغارةً وغَصْباً؛ وقدِ ٱسترفَد ٱلنابغةُ زهيراً فأمرَ ٱبنَهُ كعباً فرفدَهُ، وٱلحكايةُ في ذلك مشهورةٌ عنه وعنْ سواه.

ولم يكنْ في مِصْرَ ممَّنْ يُحسنُ ذوقَ ٱلبيانِ وتمييزَ أقدارِ ٱلألفاظِ بعضِها من بعضٍ وألوانِ دلالتِها كٱلباروديِّ وصبري وإبراهيمَ ٱلمويلحيِّ وٱلشيخ محمد عبده، رحمهم الله جميعاً ـ؛ وٱلباروديُّ يذوقُ بٱلسليقة، وصبري بٱلعاطفة، وٱلمويلحيُّ بٱلظرف، وَٱلشيخُ بٱلبصيرةِ ٱلنفَّاذة؛ وذلك شيءٌ ركَّبهُ ٱللَّهُ في طبيعةِ صبري لم يُحصِّلْهُ بِٱلدرسِ أكثرَ مِمَّا حصَّلَهُ بٱلحسّ، ومن أجلِهِ كانَ يفضلُ ٱلبحتريَّ على غيرِه، وهو بلا نِزاعٍ بُحتريُّ مِصْر، كما لقبوا ٱبنَ زيدون بحتريَّ ٱلمغرب؛ وإنَّك لَتَجِدُ بعضَ ٱلألفاظِ في شعرِ ٱلرجلِ كأنَّها شِعْرٌ مَعَ ٱلشعر، فتقفُ على ٱلعِبارةِ منها

---

(١) جاوزها: تخطّاها.

(٢) احتذى: قلّد ونحا نحوه

وقلبُكَ يتنفسُ عليها كأنَّها إنَّما وُضِعَتْ لِقَلْبِكَ خاصَّة، فهي تغمزُ عليهِ غمزاً وكأنَّها نفثةُ مَلَكٍ مِنَ ٱلملائكةِ جاءَتْكَ في نفسٍ من أنفاسِ ٱلجنة.

ويمتازُ نسيبُهُ بأنَّهُ يكادُ يكونُ في طهارتِهِ وعِفَّتِهِ ضوءاً من جمالِ ٱلشمسِ وٱلقمر، وهو عندي أنسبُ مِنَ ٱلعباسِ بْن ٱلأحنفِ ٱلذي صَرَفَ كلَّ شعرِهِ إلى هذا ٱلمعنى؛ ولو أنَّ عصرَهُ كانَ عصرَ أدبٍ صحيحٍ لَأَخملَ كلَّ شعراءِ هذا ٱلبابِ، مِنِ ٱبنِ أبي ربيعةَ إلى طبقةِ عُشاقِ ٱلعربِ إلى أئمةِ ٱلطريقةِ ٱلغراميَّةِ لِآخرِ ٱلقرنِ ٱلسابع.

ومن غزلِهِ ٱلبديعِ قولُه:

يـا مَـنْ أقـامَ فـؤادي إذْ تـمـلَّـكَـهُ ... ما بينَ نارينِ من شوقٍ ومن شَجَنِ[1]
تفديك أعينُ قومٍ حولَكَ ٱزدحَمَتْ ... عطَشى إلى نَهلةٍ من وجهِكَ ٱلحَسَنِ
جـرَّدْتَ كُـلَّ مَـلِـيْـحٍ مِـنْ مَـلَاحَـتِـهِ ... لـم تـتَّـقِ فـي ظـبـي ولا غُـصُـنِ

وقولُه:

أَقْصَرَ فُؤادي فما ٱلذكرى بنافِعَةٍ ... ولا بِـشَـافِـعَـةٍ فـي رَدِّ مـا كَـانَـا
سَلَا ٱلفؤادَ ٱلذي شاطرتَهُ[2] زَمَناً ... خَفَقُ ٱلصبابَةِ فٱخفِقْ وَحْدَكَ ٱلآنَا

ويا رحمةَ ٱللَّهِ لِلقلبِ ٱلذي يفهمُ هذا ٱلبيت، فإنَّهُ لَيُجنُّ بِهِ مَنْ يكونُ فيهِ ٱستعدادٌ لِهذا ٱلنوعِ مِنَ ٱلجنون.

ومن قلائدِهِ ٱلغراميَّةِ قولُه:

يا آسِيَ ٱلحيّ هَلْ فتَّشْتَ في كبدي ... وَهَـلْ تـبـيَّـنْـتَ داءً فـي زَوَايـاهَـا
أَوّاهُ مِـنْ حُـرَقٍ أَوْدَتْ بِـمُـعْـظَـمِـهَـا ... ولَـمْ تَـزَلْ تَـتَـمَـشَّـى فـي بَـقَـايَـاهَـا
يا شَوْقُ رِفْقاً بِأَضْلَاعٍ عَصَفْتَ بِهَا ... فَٱلقَلْبُ يَخْفُقُ ذُعْراً[3] في حَنَايَاهَا[4]

ولهُ قصيدةٌ (تمثالُ جمال) وقد نظمَها لِتُنْقَلَ إلى ٱلفرنسيَّة، ومن عيونِها قولُه:

وٱبْـتـسـمـي، مَـن كـانَ هـذا ثـغـرُهُ ... يـمـلأُ ٱلـدنـيـا ٱبـتـسـامـاً وٱزْدهـاءْ
لا تـخـافـي شَـطَـطـاً مـن أنـفـسٍ ... تـعـثـرُ ٱلـصـبـوةُ فـيـهـا بِـٱلـحـيـاءْ
راضَـتِ ٱلـنـخـوةُ مـن أخـلاقِـنـا ... وٱرتـضـى آدابَـنـا حـسـنُ ٱلـولاءْ[5]

---

(١) شجن: حزن.
(٢) شاطرته: شاركته.
(٣) ذعراً: رعباً.
(٤) حناياها: جنباتها وأضلاعها.
(٥) الولاء: الصحبة.

فـلـو ٱمـتـدَّتْ أمـانـيـنـا إلـى مـلـكٍ مـا كـدَّرَتْ ذاك ٱلـصـفـاء

والشعراءُ من أولِ تاريخِ ٱلأدبِ إلى ٱليومِ يقولون في معنى قولِهِ «لا تخافي شططاً» الأبيات، وما منهم مَنْ وُفِّقَ إلى مثلِ هذا ٱلبيتِ الأخير، وإنْ كانَ بعضُهُم بلغَ ٱلغاية، كابنِ نباتةَ ٱلسعديِّ والسري ٱلرفَّاء وغيرِهما.

ومن أبدعِ ما ٱتَّفقَ لَهُ في ٱلوصفِ أبياتٌ في ٱلدواةِ تخلَّصَ في آخرها إلى مدحِ ٱلنبيِّ ﷺ، وهو تخلُّصٌ ليسَ في ٱلشعرِ ٱلعربيِّ كلِّهِ مثلُهُ في ٱلإبداعِ وحُسْنِ ٱلاختراع، يقولُ فيها:

أكرمي ٱلعِلْمَ وٱمنحي خادميهِ مـاءَكِ ٱلـغـالـي ٱلـنـفـيسَ ٱلـثـمـيـنَـا
وٱبذلي ٱلصافي ٱلمطهَّرَ منهُ لِـهُـداةِ ٱلـسـرائـرِ ٱلـمُـرْشِـديـنَـا
وإذا ٱلظلمُ وٱلظلامُ ٱستعانا يـومَ نَـحْـسٍ بـأجـهـلِ ٱلـجـاهـلِـيـنَـا
وٱستمدّا مِنَ ٱلشرورِ مداداً فـٱجـعـلـيـه من قِـسْـمَـةِ ٱلـظـالـمـيـنَـا
وٱقذفي ٱلنقطةَ ٱلتي باتَ فيها غـضـبُ ٱلـقـاهـرِ ٱلـمـذلِّ كـمـيـنَـا
لِيراعٍ[1] ٱمرئٍ إذا خطَّ سطراً نبذَ ٱلحقَّ وٱرْتَضَى ٱلْمَيْنَ[2] دِينا
وإذا كانَ فيكِ نقطةُ سوءٍ كـوِّنـتْ مـن خـبـاثـةٍ تـكـويـنَـا
فٱجعَليها قِسْطَ ٱلذينَ ٱستباحوا فـي ٱلـسـيـاسـاتِ حُـرْمَـةَ ٱلأضـعـفـيـنَـا
وإذا خِفْتَ أنْ يكونَ مِنَ ٱلصخـ ـرِ جـلامـيـدُ تـرجـمُ ٱلـسـامـعـيـنَـا
فٱبخلي بِٱلمِداد بُخْلاً وإنْ أعطيـ ـتِ فـيـهِ ٱلـمـئـيـنَ ثُـمَّ ٱلـمـئـيـنَـا
فـإذا أعْـوَزَ ٱلـمِـدادُ طـبـيـبـاً يَـصِـفُ ٱلـداءَ دائـبـاً مـسـتـعـيـنَـا
فٱمنَحيهِ ٱلمُرادَ مَناً وعُرْفاً وٱسـتـطـيـبـي مـعـونـةَ ٱلـمُـحْـسِـنِـيـنَـا
وإذا مهجةُ ٱلحمائمِ أَسْدَتْ[3] نُـقْـطَـةً سَـرَّهـا ٱلـزكـيُّ ٱلـمـصـونَـا
فٱجعليها على ٱلمودَّاتِ وقفاً وَهَـبِـيـهـا رسـائـلَ ٱلـشَّـيِّـقـيـنَـا
فـإذا لـم يـكـنْ بِـقَـلْـبِـكِ إلَّا مـا أعـدَّ ٱلإخـلاصُ لِـلْـمُـخْـلـصـيـنَـا
فـٱجـعـلـيـهِ حـظِّي لِأَكْـتُـبَ مـنـهُ شـرحَ حـالـي لِـسـيِّـدِ ٱلـمـرسـلـيـنَـا

هذا واللّهِ هوَ ٱلشعر، وما وُفِّقَ إلى مثلِهِ أحدٌ كائناً مَنْ كانَ في هذا ٱلعصر.

❊ ❊ ❊

(١) اليراع: القلم.
(٢) المين: الظلم.
(٣) أسدت: قدّمت.

ولا نُطيلُ بِٱلنقلِ من شعرِهِ وتتبُّع أغراضِهِ، فهو كٱلألماسِ في ٱلشمس: يَشِعُّ من كلِّ جِهة، ولا يختلفُ ضوءُهُ إلَّا في بعضِ ٱللونِ مِمَّا يكونُ ٱلأجملَ فيما كلُّهُ جمال، ويمجُّ[1] مِنَ ٱلشعاعِ ما لا تجدُ حُسْنَهُ في ٱلشعاعِ نفسِه، وأحياناً يرِقُّ كبعضِ ٱلبلورِ فيمتصُّ حرارةَ ٱلشمسِ ويستوقِدُ بها في ذاتِهِ لِيُضْرِمَ ما وراءَ قلبِه، وما وراءَهُ إلَّا قلوبُنا ٱلحزينةُ عليهِ ـ رحمَهُ الله ـ!.

* * *

(١) يمج: يحتسي مجًّا.

حافظ إبراهيم

فرغْتُ ٱلآنَ من قراءةِ شِعْرِ حافظٍ بعدَ أنْ لم يَعُدْ حافظٌ بينَنَا إلَّا شعرُهُ ونثرُهُ، فبِٱللَّهِ أحلفُ ما نظرْتُ في صفحةٍ مِمَّا بين يديَّ إلَّا وأحسْستُ أنَّ ذلك ٱلشاعرَ ٱلعظيمَ يقولُ في بيانِهِ ٱلرائعِ وصِناعتِهِ ٱلبديعة: أنا هُنا!

ولغةُ هذا ٱلشعرِ ٱلمتدفِّقةُ بِٱلحياةِ كأنَّ كلماتِها ٱلقويَّةَ عروقٌ في جِسمٍ حيٍّ متوثِّبٍ ـ لم تخرجْ عن أنْ تكونَ هيَ ٱلعربيَّةَ ٱلمُبينةَ في جزالتِها ونَصاعتِها ودِقَّةِ تركيبِها ٱلبيانِيّ، ومعَ ذلك فليسَ في هذا ٱلعصرِ كلِّهِ مَنْ يُكابرُ أو يُماري في أنَّها هيَ لغةُ حافظٍ وحدَه، كأنَّهُ أرغمَ ٱلتاريخَ أنْ يحتفِظَ بِهِ في أجملِ آثارِهِ.

وأنا أعرفُ في شعرِهِ مواضعَ مِنَ ٱلاضطرابِ وٱلضَّعْفِ وٱلنقصِ سأُشيرُ إلى بعضِها، ولكنِّي على ما أعرفُهُ أجدُ هذا ٱلشعرَ كَٱلتيَّارِ يعُبُّ عُبابُهُ[1] لا يُبالي ما تناثرَ منهُ وما ركدَ وما وقعَ في غيرِ موقعِه، إذْ كانَتْ عظمتُهُ في ٱجتماعِ مادتِهِ لا في أجزاءٍ منها، وفي ٱلسرِّ ٱلذي يدفعُها في كلِّ مَوْضِعٍ لا في ٱلمظهرِ ٱلذي تكونُ بِهِ في مَوْضعٍ دون مَوْضِعٍ؛ فهو أبداً يقولُ لِمَنْ يتصفَّحُ عليهِ أو ينتقِدُه: ٱنظرْ لِمَا بَقِي.

* * *

ترجعُ صداقتي لِحافظٍ ـ رحمَهُ الله ـ إلى سنة ١٩٠٠، أولِ عهدي بِالأَدبِ وطلبِه، وقد شَهِدْتُ من يومئذٍ بِناءَهُ ٱلأدبيَّ عالياً فعالياً إلى ٱلذروةِ ٱلتي ٱنتهى إلَيها، وأخلصَ لي ثِقتَهُ وأَصْفاني مودَّتَه، وكان هَمَّكَ من أخٍ كريم، ولَهُ في نفسي مكانٌ لم يُنكرْهُ مذْ عرفْتُه، ولم يضقْ بِمَحبتِهِ منذُ ٱتَّسعَ لها. وكنْتُ وإيَّاهُ يرى أحدُها ٱلآخرَ من هذه ٱللغةِ كٱلجانبينِ لِصورةٍ واحدة: لا يتهيَّأُ في ٱلطبيعةِ أنْ يختلفا وٱلصورةُ بعدُ قائمة، ولا أنْ يضطرِبَ ما بينَهما وٱلصورةُ منهما على وزنٍ وتقدير.

ولكنَّ هذا لا يمنعُني أنْ أقرِّرَ أنَّهُ كانَ عندي أكبرَ من شعرِهِ ـ ولعلَّهُ كذلكَ عندَ كلِّ مَنْ خلطُوهُ بِأنفسِهِم ـ فإنَّهُ يتعاظمُكَ بِنفسِهِ ٱلقويَّةِ وبِٱلمعنى ٱلذي تُحسُّهُ في

---

(١) العباب: اليمّ.

العبقريّ ولا تدري ما هو؛ وذلك من سِحْرِ ٱلعبقريّين وأثرِهِم في نفسِ مَنْ يتّصلُ بِهِم، فيتّسقُ لهم أمرانِ من أمرٍ واحد، وحظّانِ بِحظٍّ، ونصيبانِ بِنصيب؛ لِأنَّ مَعَ ٱلإعجابِ بِآثارِهم إعجاباً آخرَ بِٱلقوّةِ ٱلتي أبدَعَتْ هذه ٱلآثار؛ ففي ذواتِهِمُ ٱلمحبوبةِ يستمرُّ ٱلإعجابُ كٱلسائرِ على طريقٍ لا مَوْقِفَ عليه، وفي آثارِهِم يكونُ ٱلإعجابُ في موقفٍ قدِ ٱنتهتِ ٱلطريقُ بِهِ فوقفَ على حدٍّ إنْ بَعُدَ وإنْ قرُب.

لا جَرَمَ كانَ شاعرُنا عبقريًّا عجيبَ ٱلصنعةِ قويَ ٱلإلهام بليغَ ٱلأثرِ في عصرِه، يُشبهُ تحوُّلاً وقعَ في صورةٍ من صورِ ٱلتاريخ، ولكنَّهُ كذلك في مذاهبَ[1] مِنَ ٱلشعرِ دون غيرِها، فلم يكنْ معَهُ مِنَ ٱلتمامِ في فنونِ ٱلشعرِ ما يكونُ بِهِ ٱلشاعرُ ٱلتامُّ أوِ ٱلأديبُ ٱلكاملُ ٱلأَداة؛ وكم من مرّةٍ كَلَّمْتُهُ في ذلك ونبهتُهُ إلى أنَّهُ كٱلنمطِ ٱلواحد، وأنَّهُ يجبُ أنْ يترسَّلَ شعرُهُ بينَ ٱلنفوسِ ٱلإنسانيَّةِ وأغراضِها ٱلكثيرةِ ٱلمختلِفة، فإذا كانَتِ ٱلسياسةُ مِنَ ٱلحياةِ فليسَتِ ٱلحياةُ هيَ ٱلسياسة، ولا ينبغي أنْ يكونَ شعرُهُ كلُّهُ كشمسِ ٱلصيف، فإنَّ لِلربيعِ شمساً أجملَ منها وأحَبَّ كأنَّها مجتمعةٌ من أزهارِهِ وعِطْرِهِ ونسيمِهِ.

ولقد كانَ يفخرُ بأنَّهُ (ٱلشاعرُ ٱلاجتماعيُّ)، وهذا لقبٌ ميَّزهُ بِهِ صديقُنا ٱلأستاذُ محمدُ كرد علي أيامَ كانَ في مِصْرَ قديماً، فتعلَّقَ بِهِ حافظٌ ورآهُ تعبيراً صحيحاً لِمَا في نفسِهِ ولِلْمَلَكةِ ٱلتي ٱختُصَّ بها، قالَ لي يوماً في سنةِ ١٩٠٣: أنا لا أَعُدُّ شاعراً إلّا مَنْ كانَ ينظمُ في ٱلاجتماعيَّات. فقلْتُ لَهُ: وما لَك لا تقولُ بِٱلعِبارةِ ٱلمكشوفة: إنَّك لا تَعُدُّ ٱلشاعرَ إلّا مَنْ ينظمُ مقالاتِ ٱلجرائِد..

ولا بُدَّ لي أنْ أُبَسِّطَ هذا ٱلمعنى في هذا ٱلفصل، فإنَّهُ كانَ يُخيَّلُ إليَّ دائماً أنَّ شاعرَنا (حافظ) خُلِقَ لِلتاريخ في أصلِ طبيعتِه، ثُمَّ زِيدَتْ فيهِ موهبةُ ٱلشعرِ لِيكونَ مُؤَرخاً حيَّ ٱلوصفِ بليغَ ٱلتأثيرِ قَوِيَ ٱلتصرُّف؛ ومن ثَمَّ جاءَ أكثرُ ما نظمَهُ وأساسُهُ ٱلتاريخُ وٱلسياسة، وصحَّ لَهُ بِهذا ٱلاعتبارِ أنْ يقولَ إنَّهُ ٱلشاعرُ ٱلاجتماعيّ، ولكنَّ مادةَ ٱلشعرِ غيرُ روحِ ٱلشعر، فإذا كانَ في ٱلمادةِ ٱجتماعيٌّ وسياسيٌّ فليسَ في ٱلروحِ إلّا ٱلشاعرُ على إطلاقِهِ؛ وٱلاجتماعياتُ ليسَتْ كلَّ حقائقِ ٱلحياة، وهيَ بعدَ ذلك معانٍ خاصةٌ محصورةٌ في زمنِها ومكانِها؛ على أنَّ ٱلحقائقَ ليسَتْ هيَ ٱلشعر، وإنَّما ٱلشعرُ تصويرُهَا وٱلإحساسُ بِها في شكلٍ حيٍّ تلبسُهُ ٱلحقيقةُ مِنَ ٱلنفس، فَٱلشاعرُ

(١) مذاهب: ضروب، أنواع.

ٱلاجتماعيُّ شاعرٌ في حيِّزٍ محدودٍ من وجوهِ ٱلشعرِ ومذاهبِه، وإذا كانَ ٱلاجتماعُ كلَّ شعرِهِ فلا يُسمَّى شعرُهُ فنًّا، إذْ كانَ ٱلفَنُّ إنسانيًّا وكانَ شاملاً عامًّا؛ والمقاييسُ ٱلتي يطَّرِدُ عليها ٱلفنُّ ٱلأدبيُّ لا تكونُ في ٱلزمنِ ولا في ٱلموضع، بلْ في ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّةِ ٱلتي لا تُخَصُّ بِوَقتٍ ولا مكان، فإذا لم يكنِ ٱلشعرُ إنسانيًّا عامًّا يُولَدُ كلَّ جيلٍ مِنَ ٱلناسِ فيجدُهُ كأنَّما وُضِعَ لَهُ وأرتهنَ[1] بأغراضِهِ وحقائقِه، فهو شعرٌ (كالأَخْبَارِ ٱلمحلِّيَّة)، وهذا وجهُ ٱلشبهِ بينهُ وبينَ ما أشرْتُ إليهِ آنفاً من نظمِ مقالاتِ ٱلجرائد.

فمقالاتُ ٱلجرائدِ هذه لا تأْتينا بِٱلأشياءِ ٱلتي نحنُ منها في ٱلإنسانيَّةِ وٱلطبيعةِ وٱلجمالِ وحقائقِ ٱلحياةِ وٱلموْت، بلِ ٱلتي يكونُ منها يومُنا ٱلمرقومُ بأنَّهُ يومُ كذا من شهرِ كذا من سنةِ كذا. . . فإذا ماتَ ٱليومُ ماتَتِ ٱلجريدة، ثُمَّ تُولَدُ ثُمَّ تموت؛ وقد أدركَ ٱلمتنبيّ سِرَّ ٱلشعْرِ وأنَّهُ قائمٌ على تحويلِ ٱلشعورِ ٱلإنسانيِّ إلى معرفةٍ إنسانيَّة، فخلَّدَ شعرَه، فلا يُمكنُ أنْ يمَّحيَ مِنَ ٱلعربيَّةِ مَا بقيَت. وهذا على ما يقدحُ من وجوهِ ٱلاعتراضِ وٱلنقْصِ، وعلى أنَّ ٱلمتنبيَّ كان ضعيفاً في ناحيةِ ٱلجمالِ وٱلحُبِّ ضَعْفاً ظاهراً كضعفِ شاعرِنا حافظٍ في هذا ٱلمعنى، ولكنَّ حِكمتَهُ ٱلإنسانيَّةَ ودِقَّةَ أوصافِهِ وإقامتَهُ ٱلفضائلَ وٱلرذائلَ في كمالِها ٱلفنيِّ مَقامَ تماثيلَ بارعةٍ مِنَ ٱلجمال، كلُّ ذلك ترك شِعرَهُ مستمرًّا بِٱستمرارِ ٱلحياةِ وبِٱستمرارِ ٱلإنسانيَّةِ وبِٱستمرارِ ٱلذوق.

إنَّ هذا ٱلكوْنَ مبنيٌّ في نفسِهِ مِمَّا يعلمُ ٱلعِلْمُ تركيبَهُ ولا يعلمُ سِرَّ تركيبِهِ إلَّا ٱللَّهُ وحدَه، ولكنَّهُ مبنيٌّ في أنفسِنَا من عمل ٱلحواسّ، ثُمَّ مِنَ ٱلتعليلَ وٱلتفسير؛ أمَّا ٱلحواسُّ ففي كلِّ حيّ، لا تُخلَقُ بِصناعةٍ ولا عمل؛ وأمَّا ٱلتعليلُ وٱلتفسيرُ فهما من صِناعةِ ٱلشاعرِ وٱلأديب، فكِلاهُمَا يُخلقُ لإتمامِ ٱلخَلْقِ في ٱلحقيقة، وهي منزلةٌ لا أدري كيف يُمكنُ أنْ تمسخَ حتى تقتصرَ على معنى الشاعرِ ٱلاجتماعيِّ أوِ ٱلسياسيّ، فترجعُ بِهِ نمطاً واحداً، مَعَ أنَّ ٱلآثارَ ٱلأدبيَّةَ وفي جُملتِها ٱلشعر ـ إنْ هيَ إلَّا قوى ٱلفِكْرِ وإلهامُ ٱلنفسِ وبصيرةُ ٱلروح مسجلةً كلُّها في بواعِثِها وأسبابِها من نفسٍ عاليةٍ مُمتازة؛ وهذه ٱلقوى كثيرةُ ٱلتحوّل، فيجبُ ضرورةً أنْ تكونَ آثارُها كثيرةَ ٱلتنوع، وتنوعُ ٱلصورِ ٱلفكريَّةِ في آثارِ ٱلشاعرِ أوِ ٱلأديبِ ومجيئُها متوافرةً مُتتابِعةً هو مِعيارُ أدبِهِ وقِياسُ نُبوغِهِ عالياً أو نازلاً، ومُتَّبِعاً أو مُبْتكراً، وفيما يُضيءُ من نواحيهِ وما ينطفىء.

على أنَّ شاعرَنا ٱلاجتماعيَّ (كما كانَ يجبُ أنْ يُوصَفَ ـ رحمه الله ـ) وإنْ

---

(١) ارتهن: ارتبط وتقيّد.

كانَ قد نفخَ في روحِ ٱلشعبِ أنفاساً إلٰهيَّة، وأحسنَ في وصفِ حوادثِهِ وآلامِهِ وعيوبِه، وأبلغَ ٱلبيانَ في كلِّ ذلك ـ فإنَّهُ نزلَ في هذه ٱلمرتبةِ عن وضعِهِ ٱلصحيح، فكانَ في منزلتِهِ بمكانِ ٱلشرطيِّ في ٱلطريق: يقفُ لِلْجرائمِ وٱلحوادث، على حينِ أنَّ مقامَهُ ٱلاجتماعيَّ مِنَ ٱلشعبِ مقامُ ٱلمُعلِّم في مدرستِه: يجلسُ لِلطباعَ وٱلأخلاق. ليسَ ٱلشأنُ أنْ تجدَ في شعرِ ٱلشاعرِ حوادثَ عصرِهِ أكثرَها أو أقلَّها، فإنَّ فوقَ هذه منزلةً أعلى منها، وهيَ أنْ تُوجَدَ حوادثُ ٱلنهضةِ بِشعرِ ٱلشاعر، وأنْ يكونَ في شعرِهِ ٱلعنصرُ ٱلناريُّ مِنَ ٱللغةِ ٱلشعبيَّة.

على أنَّ (حافظ) ـ رحمه الله ـ أدركَ كلَّ هذا في آخرِ عهدِه، فكانَ يُريدُ أنْ يُميتَ ديوانَهُ ويستخرجَ منه جزءاً صغيراً يختارُ فيهِ ألفَ بيتٍ ويُسقِطُ ما عداها وإن... وإنْ كانَ فيهِ شعرٌ ٱجتماعيّ... ومع هذا ٱلنقصِ ٱلذي بعثَتْ عليهِ طبيعةُ ٱلزمنِ وطبيعةُ ٱلشاعرِ معاً، فإنَّ تمام حافظ في مذهبِهِ ٱلاجتماعيِّ ٱلذي نبغَ فيه جاءَ من وراءِ ٱلقوَّةِ وفوقَ ٱلطاقة، لا يُجاريهِ فيهِ شاعرٌ آخر، بحيثُ دلَّ على أنَّ ٱلنابغةَ قدَرٌ إلٰهيٌّ لا ينقصُ من عظمتِهِ أنْ يكونَ حادثةً واحدةً تدوِّي دويَّها في ٱلدنيا، فهو مُيَسَّرٌ منذ نشأتِهِ لِمَا خُلِقَ لَهُ من ذلك، فأَحكمَتْهُ ٱلمدرسةُ ٱلحربيَّة، ثُمَّ قيَّدهُ ٱلجيش، ثُمَّ تقاذَفَهُ ٱلسودان، ثُمَّ قذفَ بِه ٱلظلْم، ثُمَّ تولَّاهُ إمامُ عصرِهِ ٱلشيخُ محمدٌ عبده، وهو كذلك في غاياتِهِ ٱلوعِرةِ ومقاصدِهِ ٱلعُمرانيةِ ومعاناتِهِ لإصلاح ـ مدرسةٌ حربيةٌ وجيشٌ وفلاة، فلم يكنْ حافظٌ إلَّا ٱلصوتَ ٱلإنسانيَّ ٱلذي أُعِدَّ بِخصائصِهِ لِلتعبيرِ عن حوادِثِ أُمّتِهِ وخصائصِها، وكأنَّهُ في نقلتِهِ مِنَ ٱلسودانِ إلى مِصْرَ قدِ ٱنتقلَ من جيشٍ يُحاربُ ٱلأقوامَ ٱلأعداءَ لِأُمَّتِهِ، إلى جيشٍ آخرَ يُحارِبُ ٱلمعانيَ ٱلأعداءَ لِأُمَّتِه.

* * *

ولد حافظُ إبراهيم سنةَ ١٨٧١، وكانَ ٱلكتابُ ٱلأولُ ٱلذي هداهُ إلى سِرِّ ٱلأدبِ ٱلعربيّ وأرهفَ ذوقَهُ وأحكمَ طبيعتَهُ، هو كتاب «ٱلوسيلةُ ٱلأدبيَّة» لِلشيخ حسين ٱلمُرصفي، ٱلمطبوعَ في مِصْرَ لِخمسٍ وخمسينَ سنة؛ ففي هذا ٱلكتابِ قرأَ حافظٌ خلاصةً مختارةً محققةً من فنونِ ٱلأدبِ ٱلعربيّ في عصورِهِ ٱلمختلفةِ ودرسَ ذوقَ ٱلبلاغةِ في أسمى ما يبلغُ بِها ٱلذوْق، ووقفَ على أسرارِ تركيبِها، وعرفَ منهُ ٱلطريقَةَ ٱلتي نبغَ بها ٱلباروديّ، وهيَ قراءتُهُ دواوينَ فُحولِ ٱلشعراءِ مِنَ ٱلعربِ ومَنْ بعدَهم، وحِفظُهُ ٱلكثيرَ منها؛ فبنى شاعرُنا من يومئذٍ قريحتَهُ على ٱلحِفْظ، ولم يزلْ يحفظُ إلى آخرِ عمرِه؛ إذْ كانَتْ قريحتُهُ كآلةِ ٱلتصوير: لا تُنَبَّهُ لِشيءٍ إلَّا عَلِقَتْهُ وهذا

سببٌ من أسبابِ ضعفِ خيالِه، ولكنَّه ردَّ عليهِ مِنَ ٱلقوَّةِ في ٱللغةِ ما تناهى فيهِ إلى ٱلغاية.

وٱتَّفقَ لذلك ٱلعهدِ أنْ طُبِعَتْ لُزومياتُ ٱلمعرِّي في مِصْرَ، فتناولَها حافظٌ وٱستظهرَ أكثرَها، فكانَتْ بَاعِثَ ميلِهِ ونزعتِهِ إلى ٱلشعرِ ٱلاجتماعيّ؛ وٱلفرقُ بين حافظٍ وبينَ ٱلمعرِّيّ في ٱلموهبةِ ٱلفلسفيَّةِ هوَ ٱلذي نفذَ بِٱلمعرّي إلى أسرارٍ كثيرةٍ ووقفَ بِحافظٍ عندَ ٱلظاهرِ وما حوْلَه، يطيرُ هناك ويقع.

وقد كانَ صاحبُنا ضعيفاً من هذه ٱلناحية، فٱستصعبَتْ عليهِ أسرارٌ وٱستغلقَتْ أخرى من أسرارِ ٱلخيرِ وٱلشرِّ في ٱلحياة، وٱلجمالِ وٱلحُسْنِ في ٱلخليقة، وٱلجلالِ وٱلإبداعِ في ٱلكونِ، وٱلإقرارِ وٱلشكِّ في كلِّ ذلك؛ وقد بلغَ ٱلمعريُّ من هذا مبلغاً لا بأسَ به، إلَّا أنَّهُ لم يُصَفَّ كما تُصَفَّى ٱلأشياءُ في عينٍ مُبْصِرة؛ فخبطَ وخلَط؛ ووضعَ من أغراضِ نفسِهِ ٱلمريضةِ على ٱلصحيحِ وٱلمريضِ جميعاً. وتابعَهُ حافظٌ في طريقةٍ أخرى سنُشيرُ إليها بعد.

وفُتِنَ شاعرُنا بِما قرأَ في «ٱلوسيلة» من شعرِ ٱلباروديّ، فأصبحَ من يومئذٍ تلميذَه، وسارَ على نهجِهِ في قوَّةِ ٱللفظِ وجزالةِ ٱلسبكِ ومتانةِ ٱلصنعةِ وجودةِ ٱلتأليفِ على نغمِ ٱلألفاظِ وأجراسِ ٱلحروف، ولكنَّهُ لم يُدركْ شأوَ ٱلباروديِّ في ذلك؛ لِأنَّ هذا جمعَ من دواوينِ ٱلشعراءِ وكتبِ ٱلأدبِ ما لم يَتَّفق لِغيرِهِ في عصره، وأدخلَ في شعرِهِ أحسنَ ما صنعَتِ ٱلدنيا في ألفِ سنةٍ من تاريخِ ٱلبلاغةِ ٱلعربيَّة؛ ولذا ٱنتقلَ عنه حافظٌ إلى طريقةِ مسلمِ بْنِ ٱلوليدِ في ٱلتصنيعِ ولزمَها إلى آخرِ مدتِه.

وٱبتدأَ يُعالجُ ٱلشعرَ في ٱلسودانِ وينظمُ في جنسِ ما هو بِسبيلِهِ مِن وصفِ ٱلهمِّ ٱلمستولي عليهِ من جميعِ جِهاتِه؛ إذْ كانَ يتيماً فقيراً مُشرَّداً، ويرى نفسَهُ شاعراً تَصدُّهُ ٱلحياةُ عن منزلةِ ٱلشاعرِ وعن أمكنةِ ٱلشعر، كٱلذي غُصِبَ مِيراثَهُ من عَرْشٍ ومُلْك، ونُفِيَ إلى غيرِ أرضِه، ووضِعَتْ روحُهُ بإزاءِ روحِ ٱلفَقْرِ وقيل لها: عدوٌّ ما من صداقتِهِ بُدٌّ.

ثُمَّ جاءَ إلى مِصْرَ وٱتَّصلَ بِٱلإمامِ ٱلشيخِ محمد عبده، وٱستقالَ مِنَ ٱلجيشِ وفرغَ لِلأدب؛ فبدأَ من ثَمَّ تكوينُهُ ٱلأدبيُّ ٱلمندمجُ ٱلمُحْكَم، أمَّا قبلَ ذلك إلى سنة ١٩٠١ التي طبعَ فيها ٱلجزءَ ٱلأولَ من ديوانِه، فكانَ شعرُهُ قليلاً ظاهرَ ٱلتكلُّف، وأكثرُهُ يدلُّ على طريقةٍ مضطربةٍ لم تستحكِم، وفِكْرٍ لم ينضُج، وموهبةٍ في ٱلتوليدِ ٱلشعريِّ بينَها وبينَ ٱلاستقلالِ أمدٌ قريب.

ودرسَ في مدرسةِ ٱلشيخ محمدِ عبده من سنة ١٨٩٩ إلى سنةِ ١٩٠٥، وهذا ٱلإمامُ ـ رحمهُ اللَّهُ ـ كانَ من كلِّ نواحيهِ رجلاً فذًّا، وكأنَّهُ نبيٌّ تأخَّرَ عن زمنِه؛ فأُعطي ٱلشريعة، ولكنْ في عزيمتِه، ووُهبَ ٱلوحيَ ولكنْ في عقلِهِ، وٱتَّصَلَ بِٱلسرِّ ٱلقدسيِّ ولكنْ من قلبِه؛ ولولا هو ولولا أنَّهُ بهذا ٱلخصائص، لَكَانَ حافظٌ شاعراً مِنَ ٱلطبقة ٱلثانية، فإنَّهُ مِنَ ٱلشيخ وحدَهُ كانَتْ لَهُ هذه ٱلقوَّةُ ٱلتي جعلتْهُ يُصيبُ ٱلإلهامَ من كلِّ عظيم يعرفُه، وكَانَ لهُ من أثرِها هذا ٱلشعرُ ٱلمتينُ في وصفِ ٱلعظماءِ وٱلعظائم وهوَ أحسنُ شعرِه.

ولم يجدْ حافظٌ من قومِهِ ما يجعلُهُ لسانَهُم حتى تُنْطِقَهُ بِٱلوحي نفسيَّتُهُمُ ٱلتاريخيَّةُ ٱلكُبْرى، ولا تولَّاهُ مَلِكٌ أو أميرٌ يرغبُ في أدبِهِ رغبةَ أديبِ مَلِك، أو أديبِ أمير، لِيُظهِرَ منه عبقريَّةً جديدةً في ٱلتاريخ؛ ولا عرفَ ٱلحُبَّ ٱلذي يجعلُ لِلشاعرِ من سِحْرِ ٱلحبيبِ ما يجمعُ ٱلنفسيَّةَ ٱلتاريخيَّةَ وٱلملكيَّةَ معاً ويزيدُ عليهما؛ وهذه ٱلثلاثةُ ٱلتي لم تتفقْ لِحافظ، هِيَ ٱلتي لا ينبغُ ٱلشاعرُ نبوغاً يُفردُهُ ويُميِّزُهُ إلَّا بِواحدٍ منها أو بِٱثنينِ أو بها كلِّها؛ غيرَ أن (حافظ) وجدَ في ٱلإمام ما هو أسمى من كلِّ هؤلاءِ في ٱلنفسَ وٱلجاذبيَّة، وعرفَ فيهِ من ذوقِ ٱلأدبِ وٱلبَلاغةِ ما لم يعرفْ شاعرٌ في ملكٍ ولا أَمير؛ وقد حضرَ درسَهُ في المنطقِ وأسرارِ ٱلبلاغةِ ودلائلِ ٱلإعجاز، وخرجَ منها بِذوقِهِ ٱلدقيق وأسلوبِهِ ٱلمتمكِّن، وحضرَ مجالِسَهُ وخرجَ منها بمواضيعِهِ ٱلاجتماعيَّةِ وأغراضِهِ ٱلوثَّابة، وحَضَرَ نظراتِ عينيهِ وخرَج منها بروحانيَّةٍ قويَّةٍ هيَ ٱلتي تنضرمُ في شعرِهِ إلى ٱلأبد؛ فحافظٌ إحدى حسناتِ ٱلشيخ على ٱلعالم ٱلعربيِّ، وهو خُطةٌ من خُططِهِ في عملِهِ لِلْإصلاح ٱلشرقيِّ ٱلإسلاميِّ وٱلنَّهضةِ ٱلمِصْريَّةِ ٱلوطنيَّةِ وإحياءِ ٱلعربيَّةِ وآدابها؛ وإذا ذُكِرَتْ حسناتُ ٱلشيخ أو عُدَّتْ لِلتاريخِ، وجبَ أنْ يُقال: أصلحَ وفعلَ وفعلَ وفسَّرَ ٱلقرآنَ وأنشأ حافظ إبراهيم. . .

ومضى شاعرُنا مُوجَّهاً بِفكرةِ ٱلإمام وروحِه، وٱستمرَّ في ذلك بعدَ موتِ ٱلشيخ كما يستمرُّ ٱلنهرُ إذا ٱحتفر مجراه: لا يستطيعُ أنْ يخرجَ عنه ما دامَ يجري إلى مَقَارِّه[1].

* * *

وكانَ حافظٌ في بَديعِهِ وصِناعتِهِ على مذهبِ مسلم بْنِ ٱلوليدِ كما قلْنا، وهو مثلُهُ إبطاءً في عمل ٱلشعر، وتلَوُّماً على حَوْكِهِ[2]، وٱنفراداً بِكلِّ لفظةٍ منه، وتقليباً

---

(١) مقارّه: حيث يصل إلى نهاية رحلته. (٢) حَوْكه: صياغته.

لِلنظرِ فيما بينَ ٱلكلمةِ وٱلكلمة، وٱعتبارِ كلِّ بيتٍ كٱلعروس: لها معْرضٌ وحِلْيَةٌ وزِينة؛ فإذا عملَ شعراً ٱنبثَّتْ خواطرُهُ في كلِّ وجه، وذهبَ وراءَ ٱلألفاظِ وٱلمعاني، وتركَ هاجِسَهُ (العقل الباطن) يعملُ عملَهُ فيما ٱلتوى عليهِ أو ٱستصعَب، وهو واثقٌ أنَّهُ سينقادُ ويَتَسَهَّلُ بِقوَّةٍ إنْ لم تكنْ فيهِ الآنَ فستكونُ فيه؛ ثُمَّ ينظمُ ما يتسمَّحُ إنْ جاءَ في موضعِهِ مِنَ ٱلقصيدةِ أو في غيرِ موضعِه، فلا يتبعُ فيها نَسَقاً بِعينِه، وإنَّما ٱلقصيدةُ عندَهُ كلٌّ سيجتمعُ من بعد، تتهيَّأُ أجزاؤُهُ مُتَّسقةً ومُبعثرةً كما يجيءُ بها ٱلإلهامُ وأسبابُ ٱلاتِّفاق؛ فالقصيدةُ أولاً في أبياتِها، ثُمَّ تكونُ أبياتُها فيها، أيْ ثُمَّ تُرتَّبُ ٱلأبياتُ وتُنزَّلُ في منازلِها، ولا ينظمُ إلَّا متغنياً، يَرُوضُ[1] ٱلشعرَ بذلك، لِأنَّ ٱلنفسَ تتفتَّحُ لِلْموسيقى فتسمحُ وتَنْقاد، وهو يتبَّعُ في ذلك طريقةً معروفةً ذكرَها ٱبنُ حجةَ الحمويُّ في كتابِهِ «خزانةُ الأدب»، وهيَ من وصيةِ أبي تمامِ ٱلبحتريّ، وكانَ ٱلمتنبِيُّ يعملُ عليها؛ وبِٱلجملةِ فإنَّ (حافظ) يرتهنُ فكرُهُ بِٱلقصيدةِ ٱلتي ينظمُها ويتوفرُ عليها وعلى أسبابِها، لا كما يفرُغُ الشاعرُ لِلشعْر، ولكنْ كما يتوفَّرُ ٱلمؤلِّفُ ٱلعظيمُ على كتابٍ يُؤلِّفُه؛ وهو كذلك يُبطىءُ في نثرِهِ أكثرَ مِمَّا يُبطىءُ في ٱلشعر، دلَّني بنفسِهِ ـ رحمه الله ـ على صفحةٍ في ٱلجزءِ ٱلثاني من ترجمةِ ٱلبؤساء، وقال: إنَّهُ ترجمَها بخمسةَ عشرَ يوماً.

وحضرْتُهُ مرَّةً يُترجِمُ أسطراً مِنَ ٱلجزء ٱلأولِ (في قهوةِ ٱلشيشةِ) يخطُّها في دفترٍ صغيرٍ دونَ حجم ٱلكف، فٱجتمعَتْ لَهُ ثلاثةُ أسطرٍ في ثلاثِ ساعات، وهذا لا يَعيبُهُ ما دامَ يُريدُ قِسْطَ ٱلفنّ، وما دامَ يُحاولُ أنْ يُخرجَ ٱلكلماتِ من عالمِها إلى عالمِهِ هو ٱلمتموِّج مِنَ ٱلألفاظِ وٱلعباراتِ بمثلِ ٱلكواكبِ في ٱلاستواءِ وٱلجاذبيَّةِ وٱلشعاعِ وٱلرونقِ وٱلجمالِ.

ويرى مَعَ ٱلصناعةِ أنْ يكونَ سبكُ شِعْرِهِ سبكَ ٱلبدويِّ ٱلمطبوع: جَزْلاً سَهْلاً مُشرِقاً مُمْتلِئاً مُتعادلَ ٱلأجزاءِ وٱلتقاسيم، يرنّ رنيناً كأنَّما قَذَفَتْ بِهِ سليقةُ أعرابيٍّ فصيح، تحتَ ضَوْءِ كواكبِ ٱلبادية، على بَرْدِ ٱلرمل، في نسماتِ ٱلليل، حين تمتلىءُ تلك ٱلنفسُ ٱلبدويَّةُ بِحنينِ ٱلحُبِّ، أو شَوْقِ ٱلجمال، أو عظمةِ ٱلقوَّة؛ وهذا هو ٱلأصلُ ٱلذي ٱتَّبعهُ، وقفني عليه هو بنفسِهِ في سنة ١٩٠٢، وقرَّظني بِهِ في ٱلجزءِ ٱلأولِ من ديواني فقال:

أنْـتَ وٱلـلَّـهِ كـاتـبٌ حـضـريٌّ   إنْ عَـدَدْنَـاكَ شـاعـراً بـدويَّـا

---

(١) يروض: يجعله سهلاً ليّناً.

ولو أنَّكَ أجريْتَ شعرَ حافظٍ في أبلغِ ما قالَهُ ٱلمطبوعونَ مِنَ ٱلأعرابِ وشعراءِ ٱلقرنِ ٱلأولِ، ٱلتأم بِهِ وزادَ عليهِ في ٱلصناعةِ وبعضِ ٱلمعنى؛ وقلَّ أنْ تجدَ في شعرِهِ كلمةً ينبُو بها مكانُها، إلَّا ألفاظاً قليلةً كانَ يستكرِهُها، يحسبُ أنَّه يستطرِفُ منها ويرى في غرابتِها شيئاً جديداً؛ وهذا من خطأ رأيِهِ في ٱلأسلوبِ لأنَّهُ معَ بلاغتِهِ كانَ ينقصُهُ أنْ يكونَ فيلسوفاً في ٱلبَلاغة، وأنا أرى أنَّهُ لو تمَّتَ لهُ ٱلموهِبةُ ٱلفلسفيَّةُ لَمَا جاراهُ شاعرٌ آخر، ولكنَّ ٱلكمالَ عزيزٌ[1] في ٱلبشريةِ؛ وقد عرفْتُ رأيَهُ في ٱلأسلوبِ في سنة ١٩٠٦، إذْ نشرَتْ لَهُ مجلةُ ٱلأقلامِ ٱلتي كانَ يُصدِرُها صاحبُنا ٱلأديبُ جورج طنوس كلماتٍ كانَ يُريدُ أنْ يُضمِّنها كتابَهُ (ليالي سطيح)، أظهرَ فيها رأيَهُ في ٱلشعراء، فقال في إسماعيل صبري: يقولُ ٱلشعرَ لِنفسِهِ لا لِلناس. وفي شوقي: أرقُّ ٱلشعراء، طبعاً وأسماهم خيالاً وفي مطران: أسرعُهُم بديهةً وأقدرُهمُ ٱبتكاراً. وقال فيَّ - ولم يكن مضى عليَّ إلَّا ستُّ سنينَ في طلبِ ٱلأدب - مِكْثارٌ راقي ٱلخيالِ بعيدُ ٱلشوْطِ في ميادينِ ٱلأدب، غيرُ ناضجِ ٱلأسلوب. فلمَّا ٱجتمعْتُ بِهِ فاتحتُهُ في ذلك وسألْتُهُ رأيَهُ في ٱلأسلوبِ ٱلناضج، فلَمْ أرَ عندَهُ طائلاً، وكلُّ ما قالَهُ في ذلك: أنَّ ٱلشيخَ عبدَ ٱلقاهرِ ٱلجرجانيّ قررَ أنّ ٱلبلاغةَ ليسَتْ في ٱللفظِ ولا في ٱلمعنى، ولكنَّها في ٱلأسلوب. وعبدُ ٱلقاهرِ لم يقلْ هذا ولا قالَهُ غيرُه، فإنَّ ٱلأسلوبَ عندَهُ «طريقةٌ مخصوصةٌ في نسقِ ٱلألفاظِ بعضِها على بعضٍ لِترتيبِ ٱلمعاني في ٱلنفس وتنزيلِها»، و«أنَّ ٱلمَنزِلةَ من حيّزِ ٱلمعاني دونَ ٱلألفاظ، وأنَّها ليسَتْ لك حيثُ تسمعُ بأذنِك، بلْ حيثُ تنظرُ بِقلبِكَ وتستعينُ بِفكرِك».

وقد قررْتُ لَهُ أنَّ لِلألفاظِ ما يُشبهُ ٱلألوان، فليسَتْ كلُّها زرقاءَ ولا صفراءَ ولا حمراءَ، وَرُبَّ لفظةٍ رقيقةٍ تقعُ ضعيفةً في موضعٍ فيكونُ ضَعْفُها في موضعِها ذاك هو كلَّ بلاغتِها وقوَّتِها، كفترةِ ٱلسكوتِ بين أنغامِ ٱلموسيقى: هيَ في نفسِها صَمْتٌ لا قِيمةَ لَهُ: ولكنَّها في موضعِها بينَ ٱلأنغامِ نغمٌ آخرُ ذو تأثيرٍ بِسكونِهِ لا بِرنينِه؛ وهذا من روحِ ٱلفنِّ في ٱلأسلوب.

وأدركَ شاعرُنا من يومئذٍ ما سمَيَّتُهُ «قوَّةَ ٱلضعف»، ولعلَّ هذا هو ٱلسببُ في أنَّ طبعَهُ رجعَ يعدلُ بِهِ إلى ٱلتسهيل، حتى إنَّهُ لَتقعُ في شعرِهِ أبياتٌ مُتهافِتةٌ فيأتي بها ولا يُنكرُها؛ ولقيني مرة فأنشدني قول ٱلشاعر:

أنـــا لـــم أُرزَقْ مـــحـــبـــتَـــهـــا ... إنَّـــمـــا لِـــلْـــعـــبـــدِ مـــا رُزِقـــا

---

(١) عزيز: نادر صعب المنال.

وجعلَ يُعَجِّبني من بلاغةِ قولِهِ (لم أرزق) وأنَّها مع ذلك ضعيفةٌ مُبْتَذلةٌ تجري في منطقِ كلِّ عاميّ، قلْت: ولكنَّ (محبتَها) جعلتْها كمحبتِها. . .

* * *

وضعفُ ٱلموهبةِ ٱلفلسفيَّةِ في حافظٍ عوَّضَهُ ناحيةٌ أخرى من أقوى ٱلقوَّةِ في ٱلشعر، وهيَ ٱهتداؤُهُ إلى حقيقةِ ٱلغرضِ ٱلذي ينظمُ فيه، وتركُهُ ٱلحواشي والزيادات، وٱنصرافُ قُواهُ إلى دِقَّةِ ٱلوصفِ حينَ يصِف، وتعويلُهُ على إحساسِهِ أكثرَ من تعويلِهِ على فِكْره؛ فزادَ ذلك في رونقِ شعرِهِ ومائهِ، ونحا بِهِ منحى ٱلمطبوعين، فخرجَ يتدفَّقُ سلاسةً وحلاوةً، مُمْتَلِئاً من صوابِ ٱلمعنى وبلاغةِ ٱلأداءِ وقوَّةِ ٱلتأثير؛ وبهذا نبغَ في ٱلرثاءِ ووصفِ ٱلفجائعِ نبوغاً ٱنفردَ بِهِ، حتى لأحسبُ أنَّ هناك رُوحاً يُمِدُّهُ في هذه ٱلمواقف، وأنَّ ٱلحقيقةَ تتبرَّجُ[1] لهُ في هذه ٱلعظائم خاصةً لِيرى منها ما لا يراهُ غيرُه؛ وهو يتَّحِدُ بِٱلعظيمِ ٱلذي يرثيهِ فيُجيدُ فيمَنْ يعرفُهُ إجادةً منقطعةَ ٱلنظير، تتبينُ ٱلفرقَ بينها وبينَ شعرِه فِيمَنْ لا يعرفُهُ تلك ٱلمعرفة؛ وأحسبُهُ يسألُ روحَ ٱلعظيمِ ٱلذي يصفُهُ أو يرثيه: أين ٱلمعنى ٱلذي فيهِ حقيقتُك؟ وأينَ ٱلحقيقةُ ٱلتي فيها معناك؟

وٱلفلسفةُ ٱلشعريَّةُ كلُّها أنْ يحلَّ في ٱلشاعرِ ٱلمُلْهَم ذلك ٱلسرُّ ٱلجميلُ ٱلجاذبُ وٱلمُنجذبُ معاً، ٱلمستقرُّ وٱلمتحوِّلُ جميعاً، ٱلباطنُ وٱلظاهرُ في وقت؛ فيكتنِهُ ٱلشاعرَ ما لا يُدركُه غيرُه، فيقفُ على ٱلجمالِ وٱلحسنِ وٱلرقة، ويُلهَمُ ٱلحِكْمةَ وٱلبصيرة، ويتناولُ ٱلأغراضَ بِٱلتحليلِ وٱلتركيب، ويُؤْتَى ٱلتعبيرَ عنْ كلِّ ذلك في طريقةٍ خاصَّةٍ بِهِ هِيَ أسلوبُهُ، وهذا لم يتَّفِقْ على أتمِّهِ وأحسنِهِ في حافظ، فقصَّرَ بِهِ في توليدِ ٱلمعاني ٱلمبتكرَة، ونزلَ بِهِ في ٱلغزلِ ووصفِ ٱلجمال؛ بيدَ أنَّهُ ٱتَّفَقَ لهُ مثلُ هذا ٱلجلالِ بِعينِهِ في (ٱلجانبِ ٱلمتألِّم من شعره)، أي ٱلرثاءُ وٱلشكوى ووصفُ ٱلفجيعة؛ ولو ذهبْتَ تستعرِضُ ٱلمراثيَ في ٱلشعرِ ٱلعربي، ومثَّلْتَ بينَها وبين رثاءِ حافظٍ لِلْعُظماءِ ٱلذين خالطهم، كٱلأستاذِ ٱلإمام، وٱلباروديّ، ومصطفى كامل، وثروت، لَرَاعَكَ[2] أنَّكَ واجدٌ لِلشعراءِ ما هو أسمى من معانيه وأقوى مِن خيالِه، ولكنَّكَ لا تجدُ ٱلبتَةَ ما هو أفخرُ وأدقُّ مِمَّا جاءَ بِهِ في هذا ٱلباب، كأنَّه منفردٌ في ٱلعربيَّةِ بهذه ٱلخاصة.

---

(١) تتبرّج: تتزيّن.

(٢) لراعك: لأدهشك.

وهذا المعريُّ يقول:

ولَـوْلا قـولُـكَ ٱلـخـلَّاقُ ربِّـي ... لَـكَـانَ لَـنَـا بِـطَـلْـعَـتِـكَ ٱفْـتِـتَـانُ

ويقولُ في شعرٍ آخر:

أسْـهـبَ فـي وصـفِـهِ عـلاكَ لـنـا ... حتَّى خشيْنا ٱلنفوسَ تعبُدها

وهذان البيتانِ تراهما صعلوكينِ إذا قِسْتَهُما بقولِ حافظٍ في رثاءِ ٱلشيخِ محمد عبده:

فلا تَنْصِبُوا للنَّاسِ تِمْثَالَ (عبده) ... وإنْ كـانَ ذكـرى حِـكْـمَـةٍ وثـبـاتِ

فإنِّي لأَخشى أنْ يَضِلُّوا فيُومِئُوا ... إلـى نـورِ هـذا ٱلـوجـهِ بِٱلسَّجدَاتِ

مَعَ أنَّ معنى حافظٍ مأخوذٌ منهما، ولكنِ ٱنظرْ كيفَ جاءَ بِهِ؟ ويقول ٱلمعريُّ في رثاء أبيهِ

ولـو حفَـروا فـي دُرَّةٍ مـا رضيْتُـهـا ... لـجِسْمِكَ إبقاءً عليكَ مِنَ ٱلدفْنِ

ويقولُ في رثاءِ غيرِه:

واخبُـوَاهُ ٱلأكـفـانَ مـن ورقِ ٱلـمـصـ ... ـحـفِ كـبـراً عـن أنـفـسِ ٱلأبـرارِ

وهذانِ أيضاً كٱلصعاليكِ عندَ قولِ حافظٍ في ٱلبارودي:

لـو أنـصفـوا أودَعُـوهُ جـوفَ لـؤلـؤةٍ ... من كـنـزِ حِكْـمَـتِـهِ لا جَـوْفَ اخْدُودِ

وكَـفَّـنُـوهُ بِـدَرْجٍ مـن صـحـيـفـتِـهِ ... أو واضحٍ من قميصِ ٱلصبحِ مَقْدُودِ

مع أن (حافظ) ألَمَّ بقولِ ٱلمعريّ. ومن بديعِ ما ٱتَّفقَ لَهُ في قصيدةِ (الأمَّتانِ تتصافحانِ) قولُهُ يصفُ ٱلسوريين:

رادوا[1] ٱلمناهلَ في ٱلدنيا ولو وجَدوا ... إلـى ٱلـمـجـرَّةِ رَكْـبـاً صـاعـداً ركِـبـوا

أو قيلَ في ٱلشمسِ للراجينَ منتجَعٌ ... مَدُّوا لـهـا سـبـبـاً في ٱلـجـوِّ وٱنـتـدبـوا

فاقرأْ هذين واقرأْ بعدَهما قولَ ٱلمتنبي في سيفِ ٱلدولة:

وَصُولٌ إلى ٱلمُسْتَصْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ ... فـلـوْ كـانَ قـرنُ ٱلـشـمـسِ مـاءً لأَوردا

فإنَّكَ تجدُ بيتَ ٱلمتنبي صعلوكاً على بيتي حافظ، مع أنَّهُ ٱلمبتدِعُ ٱلسابق.

وأعجبُ ما عَجِبْتُ لَهُ هذا ٱلبيتُ من شعرِ صاحبِنا في مقطوعةٍ يُخاطبُ

(١) رادوا: سلكوا.

بها ٱلأمريكان، نشرها في ٱلمقطم من ثلاثِ سنواتٍ أو نحوِها، قال:

وتَّخَذْتُم موجَ ٱلأثيرِ بريداً ... حين خِلْتُمْ أنَّ ٱلبروقَ كُسالى

وٱتّفق يومئذٍ أنْ كنْتُ جالساً في زيارةِ ٱلصديقِ ٱلأستاذِ فؤادِ صروف محررِ ٱلمقتطَف، فجاءَ حافظ، فلم يكدْ يُصافِحُني حتى قال: كيف ترى هذا ٱلبيت: وتَّخذْتُمْ موجَ ٱلأثيرِ بريداً... إلخ؟ فأثنيْتُ عليهِ ٱلذي يهوى، وهنأْتُهُ بهذا ٱلمعنى، وأظهرْتُ لَهُ ما شاءَ مِنَ ٱلإعجابِ، ولكنّي أضمرْتُ عجبي من حُسْنِ ما ٱتّفقَ لَهُ فإنَّ ٱلجمالَ ٱلشعريَّ في ٱلبيتِ إنَّما هو في ٱستعارةِ ٱلكسلِ لِلْبروق، وهذا بعينِهِ من قولِ ٱبنِ نباتةَ ٱلسعديِّ في سيفِ ٱلدولة.

وما تمهَّلَ يوماً في ندًى وردًى[1] ... إلَّا قضيْتُ لِلَمْحِ ٱلبرقِ بِٱلكَسَلِ

غير أنَّ (حافظ) نقلَ ٱلمعنى إلى حقِّه، ومكَّن لَهُ أحسنَ تمكينٍ في صدرِ كلامِه، وأتمَّ جمالَهُ في قولِهِ (حين خِلْتُم)، فٱقتطَعَ ٱلمعنى وٱنفردَ بهِ، وعادَ معنى ٱلسعديِّ كَٱلصعلوكِ على بابِ بيتِه؛ وكانَتْ هذه ٱلمُقابَلةُ في ٱلمقتطفِ آخرَ عهدي بِحافظ، فلم أرهُ من بعدِها؛ رحمه الله!

وما مرّ بكَ إنَّما كانَ من صِناعةِ ٱلشاعرِ في غيرِ ٱلجزءِ ٱلأولِ من ديوانِهِ بعدَ أنِ ٱستفحلَ وتخرّجَ في مدرسةِ ٱلإمام، أمَّا في ٱلجزءِ ٱلأولِ فلَهُ هو صعاليك... كقوله في ٱلخمر:

خمرةٌ قِيلَ إنَّهُمْ عصروها ... من خدودِ ٱلمِلاحِ في يومِ عُرْسِ

فهذا ٱلبيتُ صعلوكٌ عندَ قولِ ٱبنِ ٱلجهم:

مُشَعْشَعَةٌ من كفِّ ظبيٍ كأنَّما ... تناولَها من خَدِّهِ فَأَدارَهَا

وقولُ حافظِ (عصروها من خدودِ ٱلملاحِ) كلامُ مَنْ لم ينضجْ في ٱلبيانِ ولا ٱلذوق، لا يكادُ يتوّهمُ مَعهُ إلَّا أنَّ في خدودِ ٱلمَلاحِ (خراجاتٍ) عُصرت...

وعلى ضدِّ هذا قولُ ٱبنِ ٱلجهمِ) تناولها من خدِّهِ)، فهي كلمةٌ أكثرُ نعومةً من ذلك ٱلخدِّ وأجملُ نضرة:

وقولُ حافظٍ في مدح ٱلخديو:

يا مَنْ تَنافَسُ في أوصافِهِ كلمى ... تنافُسَ ٱلعربِ ٱلأمجادِ في ٱلنَّسَبِ

---

(١) ردى: موت.

فهو صعلوك على بيتِ أبي تمام:

تَغَايَرَ ٱلشعرُ فيهِ إذْ سهِرْتُ لَهُ ... حتَّى ظننتُ قوافِيَهُ ستَقْتَتِلُ

ولا نُطيلُ ٱلاستقصاء، فإنَّما نُريدُ ٱلتمثيلَ حسْبُ.

وكانَ ٱلشاعرُ أولَ نشأتِهِ يأخذُ في طريقةِ ٱلمعريِّ ٱلذي عميَ عنِ ٱلطبيعةِ فجعلَ يخلقُها من فكرِهِ ومحفوظِهِ بِمُبالغاتٍ كاذبةٍ يُغرقُ فيها يحسبُ أنَّه بذلك يعظِّمُ ٱلحقائقَ فتخرجُ لَهُ ٱلأخيلةُ ٱلكبيرة، وما يدري أنَّهُ بهذا ٱلغلوِّ لا يجيءُ إلَّا بِالأباطيلِ ٱلكبيرة. . ولكنَّ حافظ في مزاجِهِ وتركيبِهِ ونشأتِهِ كانَ رجلاً مبنيًّا على ٱلوضوحِ وٱلقَصْد. فلم يُفْلِحْ في طريقةِ ٱلمعريّ؛ ووضوحُهُ كذلك باعَدَهُ مِنَ ٱلفلسفةِ وإبهامِها، ومنَ ٱلطبيعةِ وألغازِها، ومِنَ ٱلغزلِ وَوَساوسِهِ؛ وهو ٱلذي أداهُ إلى ٱلشغف بِٱلحقيقةِ وٱستخلاصِها في كلِّ أغراضِهِ ٱلتي أجادَ فيها؛ ومِنْ ثَمَّ خلا شعرُهُ أو كأنَّهُ خلا. . . . من أوصافِ ٱلطبيعةِ في جمالِها بِلُغةِ ٱلفِكْرةِ ٱلمتأمِّل، ومن أوصافِ ٱلجمالِ في سِحرِهِ بلغةِ ٱلقلْب ٱلعاشق.

* * *

وأنت فلا تحسبَنَّ ٱلشاعرَ يُجيدُ في ٱلغزلِ وٱلنسيب من أنَّهُ شاعرٌ يُحسنُ ٱلصنعةَ ويُجيدُ ٱلأسلوبِ، فيكونَ غرضٌ مِنَ ٱلشعر سبيلاً إلى غرض، وفنٌ عوناً على فنّ، وتكونَ رقةُ ٱلألفاظِ وهَلْهَلَةُ[1] ٱلنسج، وقلبي، وكبدي، ويا ليلةً ويا قمراً، ويا غزالاً. . . وأشباهُ ذلك ـ غزلاً ونسيباً؛ كلَّا ثُمَّ كلَّا، وٱلثالثةُ كلَّا أيضاً. . .

إنَّ ٱلغزلَ وأوصافَ ٱلجمالِ موهبةٌ في ٱلشاعرِ أوِ ٱلكاتبِ تُسْخَّرُ لها قوًى هيَ أشبهُ في مُعْجِزاتِها بِما سُخِّرَ لِسليمانَ من قوى ٱلجنِّ وٱلريح، غيرَ أنَّها قوى آلامٍ ولذاتٍ ووساوسَ؛ تلك عظمةٌ في بعضِ ٱلنفوسِ ٱلشاعرةِ كعظمةِ ٱلملوكِ وٱلأبطال، غيرَ أنَّها لا تكملُ إلَّا خائبةً أو مغلوبة، فإذا ٱنتصرَتْ سقطَتْ فلا بُدَّ لها من تاريخ وحوادثَ ومِزاجٍ عصبيٍّ يُهيَّأُ لها بِروحانيةٍ شديدةِ ٱلحِسِّ شديدةِ ٱلفَوْرَةِ ثائرةٍ أبداً لَا تهدأُ إلَّا على توليدِ معنًى بديع في جمالِ مَنْ تُحبُّهُ أو كجمالِه؛ ثُمَّ إذا هدأَتْ بذلك أثارَها أنَّها هدأَت، فتعودُ إلى ٱلتوليد، فلا تزالُ تبتدِعُ وتَصِفُ كأنَّها آلةُ تعبيرٍ تدورُ بِقَلْبٍ وعَصَب؛ هناك قوتان: إحداهما تؤتى ٱلحُبَّ كما يصلحُ غراماً وعِشْقاً، وٱلأخرى فوقَ هذه تُؤتى ٱلحُبَّ كما يصلحُ فِكْراً وتعبيراً؛ وٱلأولى تجعلُ صاحبَها

(١) هلهلة: ركاكة.

عاشقاً يُحِبُ ويُدركُ ليس غير، وٱلثانيةُ تجعلُهُ مُحِبًّا عملَهُ أنْ ينقلَ من لغةٍ ما في نفسِهِ إلى ما حولَه، ومن لغةٍ ما حولَهُ إلى ما في نفسه؛ فهو مترجِمُ ٱلنفسِ إلى ٱلطبيعة، ومترجِمُ ٱلطبيعةِ إلى ٱلنفس؛ وٱلذي أعرفُهُ أنَّ (حافظ) لم يُرزقْ لا هذه ولا تلك، فلا طبيعةَ فيهِ لِلْغزلِ وفلسفةِ ٱلجمال؛ ثُمَّ إنَّ ٱلتاريخَ حصرَهُ في (ٱلشاعرِ ٱلاجتماعيِّ) ٱلذي اختارَ أنْ يمتازَ به، فهو في أكثرِ شعرِهِ كانَ ليسَ فيهِ شخص، بلْ فيهِ شعبٌ مأسورٌ غفلَ عنِ ٱلجمالِ وعنِ ٱلطبيعةِ وعنِ ٱلنشوةِ بهما؛ إذْ يعيشُ في مُعاناةِ ٱلحريَّةِ لا في ٱلتأمُّلِ ٱلجميل، وفي أسبابِ ٱلقوَّةِ لا في أسبابِ ٱلرقَّة، ويُريدُ أنْ يعملَ لِيُوجِدَ حقيقتَهُ قبلَ أنْ يعملَ لِيُبدِعَ خيالَه.

ومعَ ذلك فقد جاءَ في ديوانِ حافظ غزلٌ قليلٌ كانَ كلُّهُ متابعةً وتقليداً في فنٍّ يَحسُنُ ٱلتقليدُ إلَّا فيهِ خاصَّة؛ عملَ صدراً لِقصيدةٍ مدحَ بها ٱلخديو مطلَعها:

كَمْ تَحْتَ أَذيالِ ٱلظَّلامِ مُتيَّمُ دامي ٱلفؤادِ وليلُهُ لا يعلمُ...

وقلَّدَ ٱبنَ أبي ربيعةَ في حِكايةِ حُبٍّ لفَّقَها تلفيقاً ظاهراً، ثُمَّ زعمَ أنَّ ٱلحبيبة قالَتْ لَهُ في آخرِها:

فٱذهَبْ بِسِحرِكِ قد عرفْتُكَ وٱقتصدْ فيما تُزيِّنُ لِلْحِسَانِ وتُوهِمُ

وكلمة صاحبةِ ٱبنِ أبي ربيعة:

أهذا سِحْرُكَ ٱلنسْوا نَ قَدْ عَرَّفْتَنِي ٱلخَبرا

أهذا سحرُكَ ٱلنسوان؟... هذه كلمةٌ لا تخرجُ إلَّا من فمِ حبيبتِهِ آيةً في ٱلظرف، وفيها تجاهُلُها وعِرْفانُها وٱبتسامُها وإشراقُ وجنتيْها، وأكادُ - وٱللَّهِ - أرى فيها تلك ٱلجميلةَ وهي تدقُّ بيدِها على صدرِها دقَّةَ ٱلاستفهام ٱلمتدلِّلِ ٱلمتظاهِرِ بٱلدهشةِ لِيتنَّهدَ فيهِ ٱلكلامُ وٱلمتكلِّمَ معاً، أمّا قولُ حبيبةِ حافظ ٱلخشبيَّة، أوِ ٱلحجريَّة... أذهب... قد عرفْتُكَ وٱقتصْد.... فهذا خليقٌ أنْ يكونَ من فمِ قاضٍ وهو ينصحُ ٱلمتهَم بعدَ ٱلأمرِ بٱلإفراجِ عنه... أو مأمورِ قسمٍ عندَ ضبطِ ٱلحادثة!

أكبرُ ظنِّي أنَّ روحَ حافظٍ نفسِهِ هيَ ٱلتي أوحَتْ إليَّ ٱلآنَ هذه (النكتة)، فإنَّهُ - رحمَهُ ٱللَّهُ - كانَ آيةً في ٱلباب، ولَهُ مِنَ ٱلنوادرِ محفوظةً ومخترَعةً ما لا يُلحقُ فيه؛ ولو كانَ كاتباً على قدرِ ما كانَ شاعراً، وزاولَ ٱلنقدَ وٱستظهرَ لِلْكتابةِ فيهِ بتلك ٱلمَلَكةِ ٱلمُبدِعةِ في ٱلتندُّرِ وٱلتهكّم، مع ما أُوتيَ مِنَ ٱلقوَّةِ في ٱللغةِ وٱلبيان - لَكانَتِ

ٱلنعمةُ قد تمَّتْ بِهِ على ٱلأدبِ ٱلعربيّ، ولقُلْنا في شعرِهِ وكتابتِهِ وأدبِهِ ما قال هو في ٱلأستاذِ الإمام، فأطلعْتَ نوراً من ثلاثِ جهات.

وما دُمْنَا قد ذكرْنا ٱلنقدَ فمِنَ ٱلوفاءِ لِلتاريخ ٱلأدبيِّ أنْ نذكرَ مذهبَ شاعرِنا فيه: فلم يكنْ عندَهُ منه إلَّا ذوقُ ٱلكلام، وإدراكُ ٱلنَّفْرَةِ وٱلنَّبْوةُ في ٱلحرف، وٱلغلِظُ وٱلجَسْأةُ[1] في ٱللفظ، وٱلضعفُ وٱلتهافتُ في ٱلتركيب، ثُمَّ ما يجيشُ في ٱلخاطرِ أو يتلجْلَجُ في ٱلفكرِ من ذوقِ ٱلمعنى وإدراكِ كُنْهِهِ وٱلنفاذِ إلى آثارِ ٱلنفسِ ٱلحيَّةِ فيه؛ فكأنَّ ٱلنقدَ هو ٱلحِسُّ بِٱلكلام كما تلمسُ ٱلحارَّ وٱلباردَ وما بينهما؛ ووصفَ لي مرةً إسماعيل صبري باشا وأرادَ أنْ يُبالغَ في دِقَّةِ تمييزِهِ وحُسْنِ بصرِهِ بِٱلشعرِ وإدراكِهِ دقائقَ ٱلمعاني، فقال: «ذوَّاقٌ يا مصطفى» ولم يزد.

ومذهَبُ ٱلحِسِّ بِٱلكلام هذا وإنْ صلُحَ أنْ يكونَ من بعضِ معاني ٱلنقد، فلا يتهيَّأُ أنْ يكونَ هو ٱلنقدَ بِمَعْنَاهُ ٱلفلسفيِّ أوِ ٱلأدبيّ، وهو في جملةِ أمرِهِ كقولِكَ حسنٌ حسن؛ ورَدِيء رَدِيء، أمَّا كيف كانَ حَسَناً أو رَدِيئاً، وبِمَاذا ولِمَاذا، فذلك ما لا سبيلَ إليهِ من مذهب (ذوّاق)... ولا وسيلةَ لَهُ إلَّا ٱلعِلْمُ ٱلمستفيض، وٱلاطلاعُ ٱلواسع، وٱلحِسُّ ٱلمُرْهَف، وٱلقُدْرَةُ ٱلمتمكِّنة، مُضافةً كلُّها إلى ٱلأدبِ ٱلبارعِ وفلسفتِهِ ٱلدقيقة؛ ولا نعرفُ لِحافظِ كِتابةً في ٱلنقدِ ألبتة، وقد كانَ حاولَ شيئاً من هٰذا في مقدمةِ كتابِهِ (ليالي سطيح)، فتناولَ بعضَ خصومِهِ بِكلماتٍ رأى هو أنْ يمحُوَها بعدَ أنْ طُبِعَت ٱلكراسةُ الأولى، فأسقطَها وأعادَ كتابةَ ٱلمقدمةِ وطبعَها مرَّةً ثانية، وكانَتْ عندي ٱلنسخةُ التي محاها، وهذا ما لا أظنُّ أحداً يعرفُهُ ٱلآن؛ رحمَ ٱللَّهُ شاعراً كانَ أصفى مِنَ ٱلغمامِ، وكانَ شعرُهُ كأنَّهُ ٱلبرقُ وٱلرعد...

* * *

---

(١) الجسأة: القسوة والغظ.

كلماتٌ عن حافظ

ذهبْتُ بِقلْبي إلى كلِّ مكانٍ فوجَدتُ أمكِنَةَ ٱلأشياءِ ولم أجدْ مكانَ قلبي؛ أيُّها ٱلقلبُ ٱلمِسكينُ، أين أذهبُ بك؟

هذا ما أجبْتُ بِهِ (حافظ) حين سألَني مرةً: مالَكَ لا ترضى ولا تهدأُ ولا تستقرّ؟ وكان يُخيَّلُ إليَّ أنَّهُ هو راضٍ مستقرٌ هادىء، كأنَّما قضى مِنَ ٱلحياةِ نَهْمَتَهُ[1] ولم يبقَ في نفسِهِ ما تقولُ نفسُهُ ليت ذلك لي!. وكنْتُ أعجبُ لِهذا ٱلخُلُقِ فيهِ ولا أدري ما تعليلُهُ إلَّا أنْ يكونَ قد خُلِقَ مطبوعاً بِطابَعِ ٱليُتْم فلم يعرفْ منذُ أدركَ إلَّا أنَّهُ ٱبنُ ٱلقَدَر: تأتيهِ ٱلأفراحُ وَٱلأحزانُ من يدٍ واحدةٍ مُقبِّلَةٍ كما تنالُ ٱلصبيَّ ألطافُ أبيهِ ولَطَماتُ أبيه...

وقدْ قلْتُ لَهُ مرة: كأنَّك يا حافظُ تنامُ بِلا أحلام! فضحكَ وقال: أوْ كأنَّني أحلمُ بغيرِ نوم...

ولقد عرفْتهُ منذُ سنة ١٩٠٠ إلى أنْ لَحِقَ بربِّهِ في سنةِ ١٩٣٢، فما كنْتُ أراهُ على كلِّ أحوالِهِ إلَّا كاليتيم: محكوماً بِروحِ ٱلقبر، وفي ٱلقبرِ أولُهُ؛ ولَمَّا أزْمَعَ ٱلسفَرَ إلى ٱليونانِ قلْتُ له: ألا تخشى أنْ تموتَ هناك فتموتَ يونانياً... فقال: أوَ تراني لم أمتْ بعدُ في مصر؟... إنَّ ٱلذي بقيَ هيِّن!

* * *

ومن عجائبِ هذا ٱليتيم ٱلحزينِ أنَّهُ كانَ قويَّ ٱلملَكةِ في فنِّ ٱلضحِك، كأنَّ ٱلقَدَرَ عوَّضَهُ بِهِ لِيُوجِدَهُ في ٱلناسِ عطفَ ٱلآباءِ ومحبَّةَ ٱلإخوة. ولم يَخْلُ مع فقرِهِ من ذريعةٍ قويَّةٍ إلى ٱلجاه، ووسيلةٍ مُؤَكَّدةٍ إلى ما هو خيرٌ مِنَ ٱلغِنى؛ فكانَتْ أسبابُهُ إلى ٱلأستاذِ ٱلإمامِ ٱلشيخِ محمدِ عبده، ثُمَّ حِشْمَتْ باشا، ثُمَّ سعدِ باشا زغلول؛ وهذا نِظامٌ عجيبٌ في زمنِ (حافظٍ) يُقابلُ ٱلاختلالَ ٱلعجيبَ في نفسِ حافظ؛ فَٱلرجلُ كَٱلسفينةِ ٱلمتكفِّئَةِ: تميلُ بِها موجةٌ وتَعْدِلُها موجة، وهي بهذه وبهذه تمرُّ وتسير.

---

(١) نهمته: جوعه.

وأولئك ٱلرؤساءُ ٱلعظماءُ ٱلذينَ جعلَهُمُ ٱلقَدَرَ نِظاماً في زمنِ حافظ، كانوا من أفقرِ ٱلناسِ إلى ٱلفُكاهةِ وَٱلنادرة، فكانَ لهم كَٱلثروةِ في هذا ٱلباب، ووقعَ إصلاحاً في عيشِهم وكانوا إصلاحاً في عيْشِه؛ ولو أنَّ ٱلأقدَارَ تُشَبَّهُ بِٱلمدارسِ ٱلمختلفة، لَقلْنا إنَّ (حافظ) تخرّجَ منها في مدرسةِ ٱلتجارةِ ٱلعليا... فهو كانَ أبرعَ مَنْ يتاجرُ بِٱلنادرةِ.

* * *

وهذه ٱلنوادرُ كأنَّها هيَ أيضاً صنعَتْ (حافظ) في شكلِ نادرة؛ فكانَ فقيراً، ومع هذا كانَ لِلْمالِ عندَهُ مُتَمّم، هو إنفاقُهُ وإخراجُهُ من يدِه؛ وكانَ يتيماً، ولكنَّهُ دائماً مُتودّد؛ وكان حزيناً، ولكنَّهُ أنيسُ ٱلطَّلْعة؛ وكانَ بائساً، ولكنَّهُ سليمُ ٱلصدر، وكانَ في ضِيقٍ، ولكنَّهُ واسعُ ٱلخُلُق؛ وتمامُ ٱلنادرةِ[1] فيهِ أنَّهُ كانَ طوالَ عمرِهِ مُتَبسِّطاً مهتزاً كأنَّ لَهُ زمناً وحدَهُ غيرَ زمنِ ٱلناس، فتتراكمُ عليهِ ٱلهمومُ وهو مُسْتَنيمٌ إلى ٱلراحة، ويعتريهِ مِنَ ٱلجوعِ مثلُ مَكْسَلةِ ٱلشِّبَعِ ويَسْتَرسلُ إلى ٱلبَطَالةِ وكأنَّهُ مُشَمِّرٌ لِلْجِد، ويستمكنُ ٱلحزنُ منه في ساعةٍ فيتَهَدَّدُ حُزنَهُ بِٱلساعةِ ٱلتالية...

رأيْتَهُ في أحدِ أيام بُؤْسِهِ ٱلأولى قبلَ أنْ يتَّصلَ عيشُه، وكانَ يَعُدُّ قروشاً في يدِهِ، فقلْت: ما هذه ٱلقروش؟

قال: كنْتُ أُقامِرُ ٱلساعةَ فأضعْتُ ثلاثينَ قِرشاً ولم يبقَ لي غيرُ هذه ٱلقروشِ ٱلملعونة، فهلُمّ نتعشّ. ودخلَ إلى مطعم كانَ وراءَ حديقةِ ٱلأزبكيَّة، فزعَمْتُ لَهُ أنّي تعشَّيْت... فأكلَ هو ودفعَ ثمنَ طعامِهِ ثلاثةَ قروش؛ وكنْتُ أُطَالِعُ في وجهِهِ وهو يأكل، فما أتذكُرُهُ ٱلآنَ إلَّا كما طالعْتُهُ بعدَ عشرينَ سنةً من ذلك ٱلتاريخ حينَ دعاني (حافظ) إلى مطعم بار ٱللواءِ وقد فاضَتْ أناملُهُ ذهباً وفِضَّة، وكانَ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ قد أصدرَ ٱلجزءَ ٱلثاني مِنَ (ٱلبؤساء) ورآني في ٱلقاهرةِ فأمسكَ بي حتى قرأْتُ معَهُ ٱلكتابَ كلَّهُ فيما بينَ ٱلظهرِ وَٱلمغرب؛ وركِبْنَا في الأصيلِ عربةً وخرَجنَا نتنزَّهُ، أي خرجْنَا نقرأ...

وكانَ على وجهِ (حافظ) لونٌ مِنَ ٱلرضى لا يتغيَّرُ في بُؤْسٍ ولا نعيم، كبياضِ ٱلأبيضِ وسوادِ ٱلأسود؛ وهذا من عجائبِ ٱلرجلِ ٱلذي كانَ في ذاتِ نفسِهِ فنّاً مِنَ ٱلفَوْضى ٱلإنسانيّة، حتَى لَكَأنَّهُ حُلْمٌ شعريٌّ بَدَأَ من أبويهِ ثُمَّ ٱنقطعَ وتُرِكَ لِتُتَمِّمَهُ ٱلطبيعة!

ومَنْ نظرَ إلى (حافظ) على أعتبارِ أنَّهُ فنٌّ مِنَ ٱلفوضى ٱلإنسانيَّةِ رآهُ جميلاً

---

(١) النادرة: النكتة.

جمالَ ٱلأشياءِ ٱلطبيعيَّةِ لا جمالَ ٱلناس؛ ففيهِ مِنَ ٱلصحراءِ وٱلجبالِ وٱلصخورِ وٱلغِياضِ وَٱلبرقِ وَٱلرعدِ وأشباهِها؛ وكنْتُ أنا أراهُ بهذه ٱلعين فأستجملُه، ويبدو لي جَزْلاً مُطهَّماً، وأرى في شكلِهِ هندسةً كهندسةِ ٱلكَوْن؛ تُتَمِّمُ مَحاسنَها بِمَقَابِحِها وكم قلْتُ له: إنَّكَ يا حافظُ أجملُ مِنَ ٱلقَفر...

أمَّا هو فكانَ يرى نفسَهُ دَميماً شنيعَ ٱلمرْآةِ متَفَاوتَ ٱلخَلْقِ كأنَّهُ إنسانٌ مغلوطٌ في تركيبه...

وقد سألْتُهُ مرة: هل أحَبّ؟

فقال: ٱلنساءُ ٱثنتان: فإما جميلةٌ تنفرُ من قُبْحي، وإمَّا دميمةٌ أنفرُ من قبحِها! ولهذا لم يُفلحْ في ٱلغزلِ وٱلنسيب، ولم يُحسنْ من هذا ٱلبابِ شيئاً يُسمَّى شيئاً؛ وبقِيَ شاعراً غيرَ تامٍّ، فإنَّ ٱلمرأةَ للشاعرِ كحواءَ لآدمَ: هيَ وحدَها ٱلتي تُعطيهِ بِحُبِّها عالماً جديداً لم يكنْ فيه، وكلُّ شرِّها أنَّها تتخطَّى بِهِ ٱلسمواتِ نازلاً...

* * *

وتهدّمَ حافظٌ في أواخرِ أيَّامِهِ من أثرِ ٱلمرضِ وَٱلشيخوخة، وكانَ آخرَ ٱلعهدِ بِهِ أنْ جاءَ إلى إدارةِ (ٱلمقتطَفِ) وأنا هناك، فلم يرني حتى بادرني بِقولِهِ: ماذا ترى في هذا البيتِ في وصفِ الأمريكان:

وَتَّخَذْتُم مَوْجَ ٱلأثيرِ بَريداً ⁂ حينَ خِلتُم أنَّ ٱلبُرُوقَ كُسالى

فنظرْتُ إلى وجهِهِ ٱلمعروقِ ٱلمتغضِّنِ وقلْت له: لو كانَ فيك موضعُ قُبلةٍ لقبَّلْتُكَ لهذا ٱلبيت!. فضحكَ وأدارَ لي خدَّه؛ ولكنْ بقي خُدهُ بِلا تقبيل.

* * *

وشهرةُ هذا ٱلأديبِ ٱلعظيم بِنَوادرِهِ ومحفوظاتِهِ من هذا ٱلفنِّ أمرٌ مُجمعٌ عليه؛ وكانَ يتقصَّصُ ٱلنوادرَ وٱلفُكاهاتِ ومُطارحاتِ ٱلسَّمَرِ من مَظانِّها[1] في ٱلكتبِ ورجالِ ٱلأَدبِ وأهلِ ٱلمُجون، فإذا قصَّها على مَنْ يُجالسُهُ زادَ في أسلوبها أسلوبَهُ هو، وجعلَ يُقلِّبُها ويتصرَّفُ فيها ويُبينُ عنها أحسنَ ٱلإنابةِ بِمَنْطِقهِ ووجهِهِ ونبراتٍ في لِسانِهِ ونبراتٍ في يدِه.

وهو أصمعيُّ هذا ٱلبابِ خاصَّة، يروي منه رِوايةً عريضة، فإذا ٱستهلَّ سَحَّ[2] بِٱلنوادرِ سَحّاً كأنَّها قوافي قصيدةٍ تدعو ٱلواحدةُ منها أختَها ٱلتي بعدَها.

---

(١) مظانها: أماكنها.

(٢) سحّ: انهمر وسال.

وقد أذكرتْني (ٱلقوافي) مجلساً حَضرتُهُ قديماً في سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠، وكانَ (مصباحُ ٱلشرقِ) قد نشرَ قصيدةً رائيةً لابْنِ ٱلروميّ، فتعجَّبَ ٱلمرحومُ ٱلشيخُ محمدٌ ٱلمهديُّ من بسطةِ ٱبنِ ٱلروميِّ في قوافيه، فقالَ لَهُ (حافظ): هلمَّ نتساجلْ في هذا ٱلوزنِ حتى ينقطِعَ أحدُنا؛ وكانَتِ ٱلقافيةُ من وزن: قدَّرَها، أحمرَّها، أخضرَّها. . . إلخ، وجعلْتُ أنا أُحصي عليهما؛ فلمَّا ضاقَ ٱلكلامُ كانَ ٱلشيخُ ٱلمهديُّ يُفكرُ طويلاً ثُمَّ ينطِقُ بِٱللفظِ، ولا يكادُ يفعلُ حتى يرميَهُ حافظٌ على ٱلبديهة، فيعودُ ٱلرجلُ إلى ٱلإطراقِ وَٱلتفكير؛ ثُمَّ ٱنقطعَ أخيراً وبَقِيَ حافظٌ يسرُدُ لَهُ من حِفظِهِ ٱلغريب.

أمَّا في ٱلنوادرِ فَٱلعجيبةُ ٱلتي ٱتَّفقَتْ لَهُ في هذا ٱلبابِ أنَّهُ جاءَ إلى طنطا في سنة ١٩١٢ ومديرُها يومئذٍ ٱلمرحوم «محمد محب باشا»، وكانَ داهيةً ذَكيّاً وظريفاً لَبِقاً، وكنْتُ أُخالِطُهُ وأتَّصلُ بهِ، فدعا (حافظ) إلى ٱلعشاءِ في دارِه؛ فلمَّا مُدَّتِ ٱلأيدي قالَ ٱلباشا: لي عليكَ شرطٌ يا حافظ. قال: وما هو؟ قال: كلُّ لقمةٍ بِنادرة!

فتهلَّلَ حافظٌ وقال: نعم، لك عليّ ذلك، ثُمَّ أخذَ يقصُّ ويأكلُ، وَٱلعشاءُ حافلٌ، وحافظٌ كانَ نَهِماً، فما ٱنقطعَ ولا أخلَّ حتى وفَّى بِٱلشرط؛ وهذا لا يمنعُ أنَّ ٱلباشا كانَ يتغافلُ ويتغاضى ويتشاغلُ بِٱلضحك، فيُسرعُ حافظٌ ويُغالِطُ بِفمِه. . .

* * *

ولكنَّ هذه ٱلمَضحكاتِ أضحكَتْ من (حافظ) مرةً كما أضحكَتْ به؛ فلمَّا كان يُترجمُ (مكبث) لِشَكسبير ـ وهي كأعمالِهِ ٱلناقصةِ دائماً ـ دعَوْهُ لإلقاءِ (محاضرة) في نادي ٱلمدارسِ ٱلعليا، وَٱلنادي يومئذٍ يجمعُ خيرَ ٱلشبابِ حميةً وعِلْماً وكانَ صاحبُ ٱلسرِّ فيهِ (السكرتير) زينةَ شبابِ ٱلوطنيَّةِ ٱلمرحومَ أمين بك ٱلرافعيّ؛ فقامَ حافظٌ فأنشدَهُم بعضَ ما ترجَمَهُ نَظْماً عن شكسبير، ومثَّلَهُ تمثيلاً أفرغَ فيهِ جُهْدَه، فأطربَ وأعجب: ثُمَّ سألوه (ٱلمحاضرةَ) فأخذَ يُلقي عليهم من نوادرِه، وبدأ كلامَهُ بِهذه ٱلنادرة: عُرِضَتْ على ٱلمعتصم جاريةٌ يشتريها، فسألَها: أنت بكرٌ أم ثيِّب؟ فقالت: كثُرتِ ٱلفُتوحُ على عهدِ ٱلمعتصم. . .

ونظرَ حافظٌ إلى وجوهِ ٱلقوم فأنكرَها. . . وبقيَتْ هذه ٱلوجوهُ إلى آخرِ ٱلمحاضرةِ كأنَّها تقولُ له: إنَّك لم تُفلِح!

ولقد كانَ هذا من أقوى ٱلأسبابِ في تنبُّهِ (حافظ) إلى ما يجبُ لِلشبابِ عليهِ إنْ

أرادَ أنْ يكونَ شاعِرَه، فأقبلَ على ٱلقصائدِ ٱلسياسيَّةِ ٱلتي كسبَهُمْ بها من بعد؛ ونادرةُ ٱلمعتصم كٱلعورةِ ٱلمكشوفة؛ ولسْتُ أدري أكانَ حافظٌ يعرفُ ٱلنادرةَ ٱلبديعةَ ٱلأخرى أم لا؛ فقد عُرِضَتْ جاريةٌ أديبةٌ ظريفةٌ على ٱلرشيدِ فسألَها: أنت بكرٌ أم إيش؟

فقالَت: أنا (أمُّ إيش) يا أميرَ ٱلمؤمنين . . .

* * *

وفنُّ (ٱلشعرِ ٱلاجتماعيِّ) ٱلذي عُرِفَ بِهِ حافظ، لم يكنْ فنَّه من قبل، ولا كانَ هو قد تنبَّهَ لَهُ أو تحرّاهُ في طريقتِه؛ فلمَّا جاءَتْ إلى مِصْرَ ٱلإمبراطورةُ (أو...ينى) نظمَ قصيدتَهُ ٱلنونيَّة ٱلتي يقولُ فيها:

فٱعذُرينا على ٱلقصورِ، كِلانا غيَّرتْهُ طوارئُ ٱلحدثانِ[1]

ولقيتُهُ بعدَها فسألَني رأيي في هذه ٱلقصيدة، وكانَ بها مُدِلاً مُعجِباً، شأنُهُ في كلِّ شعرِه؛ فٱنتقدْتُ منها أشياءَ في ألفاظِها ومعانيها، وأشرْتُ إلى ٱلطريقةِ ٱلتي كانَ يَحسُنُ أنْ تُخاطَبَ بها ٱلإمبراطورة؛ فكأنَّني أغضبْتُه؛ فقال: إنَّ ٱلشيخَ محمد عبده، وسعد زغلول، وقاسم أمين ـ أجمعوا على أنَّ هذا ٱلنمطَ هو خيرُ ٱلشعرِ، وقالوا لي: إذا نظمْتَ فٱنظمْ مثلَ هذا «ٱلشعر الاجتماعيّ»، ثُمَّ كأنَّهُ تنبَّهَ إلى أنَّها طريقةٌ يستطيعُ أنْ ينفرِدَ بها، إنَّ كلَّ قصائدِ شوقي ٱلآنَ غزلٌ ومدح، ولا أثرَ فيها لِهذا ٱلشعر، على أنَّهُ هو ٱلشعر.

وتتابعَتْ قصائدُهُ ٱلاجتماعيَّة، فلقيَني بعدَها مرَّةً أخرى فقالَ لي: إنَّ ٱلشاعرَ ٱلذي لا ينظمُ في ٱلاجتماعيَّاتِ ليس عندي بِشاعر. وأردْتُ أنْ أُغيظَهُ فقلْتُ لَهُ: وما هي ٱلاجتماعيَّاتُ إلَّا جعلُ مُقالاتِ ٱلصحفِ قصائد؟ . . .

فٱلأستاذُ ٱلإمامُ وسعدُ زغلول وقاسم أمين: أحدُ هؤلاءِ أو جميعُهم أصلُ هذا ٱلمذهبِ ٱلذي ذهبَ إليهِ حافظ، وهو كثيراً ما كانَ يقتبِسُ مِنَ ٱلأفكارِ ٱلتي تعرضُ في مجلسِ ٱلشيخُ محمد عبده، من حديثِهِ أو حديثِ غيرِهِ، فيبني عليها أو يُدخِلُها في شعره، وهو أحياناً رديءُ ٱلأخذِ جدّاً حينَ يكونُ ٱلمعنى فلسفيّاً؛ إذْ كانَتْ ملكةُ ٱلفلسفةِ فيهِ كَٱلمعطَّلة، وإنَّما هيَ في ٱلشاعرِ من مَلَكةِ ٱلحُبِّ، وإنَّما أولُها وأصلُها دخولُ ٱلمرأةِ في عالمِ ٱلكلامِ بِإبهامِهَا وثرثرتِها . . .

* * *

---

(١) الحدثان: المصائب.

وكنْتُ أولَ عهدي بِٱلشعرِ نَظَمْتُ قصيدةً مدحْتُ فيها ٱلأستاذَ ٱلإمامَ وأنفذْتُها إليه، ثُمَّ قابلْتُ حافظ بعدَها فقالَ لي: إنَّهُ هو تلاها على ٱلإمام، وإنَّهُ ٱستحسَنَها؛ قُلْت: فماذا كانَتْ كلمتُهُ فيها؟ قال: إنَّه قال: لا بأسَ بها...

فٱضطربَ شيطاني مِنَ ٱلغضب، وقلْتُ له: إنَّ ٱلشيخَ ليسَ بِشاعر، فليسَ لِرأيِهِ في ٱلشعرِ كبيرُ معنًى!. قال: ويحَك!. إنَّ هذا مَبْلَغُ ٱلاستحسانِ عنده.

قلْت: وماذا يقولُ لك أنت حين تُنشدُه؟ قال: أعلى من ذلك قليلاً... فأرضانيَ ـ وٱللهِ ـ أنْ يكونَ بيني وبينَ حافظ (قليل)، وطمعْتُ من يومئذٍ.

وأنا أرى أنَّ (حافظ إبراهيم) إنْ هو إلَّا ديوانُ (ٱلشيخِ محمد عبده): لولا أنَّ هذا هذا، لما كان ذلك ذلك.

ومن أثرِ ٱلشيخِ في حافظٍ أنَّهُ كانَ دائماً في حاجةٍ إلى مَنْ يَسمعُه، فكانَ إذا عملَ أبياتاً ركَبَ إلى إسماعيل باشا صبري في ٱلقصر ٱلعِيني، وطافَ على ٱلقهواتِ وٱلأنديَّةِ يُسمعُ ٱلناسَ بِٱلقوَّة... إذْ كانَتْ أذُنُ ٱلامامِ هيَ ٱلتي رَبَّتِ ٱلمَلَكةَ فيه؛ وقد بيَّنا هذا في مقالِنا في (المقتطَف).

وكانَ تمامُ ٱلشعرِ ٱلحافظي أنْ يُنشدَهُ حافظٌ نفسَه؛ وما سمعْتُ في ٱلإنشادِ أعربَ عربيَّةً مِنَ ٱلبارودي، ولا أعذبَ عذوبةً منَ ٱلكاظميّ، ولا أفخمَ فخامةً من حافظ ـ رحَمهُمُ ٱللَّهُ جميعاً ـ.

وكانَ أديبُنا يُجلُّ ٱلبارودي إجلالاً عظيماً، ولَمَّا قالَ في مدحِه:

فمُرْ كلَّ معنًى فارسيٍّ بِطاعتي وكلَّ نفورٍ منهُ أنْ يتودَّدا

قلْتُ لَهُ: ما معنى هذا؟ وكيف يأمرُ ٱلباروديُّ كلَّ معنًى فارسيّ وما هو بِفارسيّ؟

قال: إنَّهُ يعرفُ ٱلفارسيَّة، وقد نظمَ فيها، وعندَهُ مجموعةٌ جمعَ فيها كلَّ ٱلمعاني ٱلفارسيَّةِ ٱلبديعةِ ٱلتي وقفَ عليها؛ قلْت: فكانَ ٱلوجهُ أنْ تقولَ له: أعِرْني ٱلمجموعةَ ٱلتي عندَك...

أمَّا ٱلكاظميُّ فكانَ يُجافيهِ ويبُاعِدُهُ، حتى قالَ لي مرةً وقد ذكَّرْتُهُ به: «عَقَقْناهُ يا مصطفى!».

وما أنسى لا أنسى فرَحَ حافظٍ حينَ أعلَمتُهُ أنَّ ٱلكاظميَّ يحفظُ قصيدةً من قصائدِه، وذلك أنَّهُمْ في سنة ١٩٠١ ـ على ما أذكرُ ـ أعلنوا عن جوائزَ يمنحونها

مَنْ يُجيدُ في مدحِ ٱلخديو، وجعلوا ٱلحُكْمَ في ذلك إلى ٱلباروديّ وصبريَ وٱلكاظميّ، ثُمَّ تخلَّى ٱلباروديُّ وصبري، وحكمَ ٱلكاظميُّ وحدَه، فنالَ حافظٌ ٱلمداليةَ ٱلذهبيَّة، ونالَ مثلَها ٱلسيدُ توفيقٌ ٱلبكريّ.

ولَمَّا زُرْتُ ٱلكاظميَّ وكنْتُ يومئذٍ مبتدئاً في ٱلشعرِ ولا أزالُ في ٱلغَرْزَمَةِ[1] قال: لِماذا لم تدخلْ في هذه ٱلمُباراة؟ قلْت: وأين أنا من شوقي وحافظٍ وفلانٍ وفلانٍ فقال: «لِيْه تِخَلِّي هِمِّتَكْ ضعيفة؟» ثُمَّ أسمعني قصيدةَ حافظٍ وكانَ مُعْجَباً بِها، فنقلْتُ ذلك إلى حافظ، فكادَ يطيرُ عن كرسيهِ في ٱلقهوة.

* * *

وكانَ تعنُّتُ حافظٍ على ٱلكاظميِّ لِأَنَّهُ غيرُ مِصْريٍّ، ففي سنةِ ١٩٠٣ كانَتْ تصدرُ في آلقاهرةِ مجلةٌ ٱسمها (الثريا)، فظهَر في أحدِ أعدادِها مقالٌ عنِ ٱلشعراءِ بِهذا التوقيع، وٱنفجرَ هذا ٱلمقالُ ٱنفجارَ ٱلبركان، وقامَ بِهِ ٱلشعراءُ وقعدوا، وكانَ لَهُ في ٱلغارةِ عليهم كزَفيفِ[2] ٱلجيشِ وقَعْقَعَةِ ٱلسلاح، وتناولتْهُ ٱلصُحفُ ٱليوميَّة، وَٱستمَّرتْ رجفتُهُ ٱلأدبيَّةُ نحوَ ٱلشهر؛ وَٱنتهى إلى ٱلخديو؛ وتكلَّمَ عنهُ ٱلأستاذُ ٱلإمامُ في مجلسِه، وٱجتمعَ لَهُ جماعةٌ من كِبارِ أساتذةِ ٱلعصرِ ٱلسوريِّين، كَٱلعلامةِ سليمانَ ٱلبستاني، وأديبِ عصرهِ ٱلشيخ إبراهيمَ ٱليازَجيّ، وَٱلمؤرخِ ٱلكبيرِ جورجي زيدان ـ إذْ كانَ صاحبَ ٱلمجلةِ سوريّاً ـ وجعلوا ينفذونَ إلى صاحبِ ٱلمجلةِ دسيساً بعدَ دسيسٍ[3] لِيعلموا من هو كاتبُ ٱلمقال.

وشاعَ يومئذٍ أنِّي أنا ٱلكاتبُ لَه؛ وكانَ ٱلكاظميُّ على رأسِ ٱلشعراءِ فيهِ؛ فغضِبَ حافظٌ لِذلك غَضَباً شديداً، وما كادَ يراني في ٱلقاهرةِ حتى ٱبتدرَني بِقولِه: وربِّ ٱلكعبةِ أنت كاتبُ ٱلمقال، وذِمَّةِ ٱلإسلامِ أنت صاحبُه!

ثُمَّ دخلْنا إلى «قهوة الشيشة»، فقالَ في كلامهِ: إنَّ ٱلذي يُغيظُني أنْ يأتيَ كاتبُ ٱلمقالِ بِشاعرٍ من غيرِ مِصْرَ فيضعَهُ على رؤوسِنا نحن ٱلمصريين!. فقلْت: ولعلَّ هذا قد غاظَكَ بِقدرِ ما سرَّكَ ألَّا يكونَ ٱلذي على رأسِكَ هو شوقي...

وغضبَ ٱلسيدُ توفيقٌ ٱلبكريُّ غضباً من نوعٍ آخر، فٱستعانَ بِٱلمرحومِ ٱلسيدِ مصطفى ٱلمنفلوطي ٱستعانةً ذهبيَّة... وشمَّرَ ٱلمَنفلوطيُّ فكتبَ مقالاً في (مجلة

(١) الغرزمة: المحاولات الأولى في إنشاد الشعر.
(٢) زفيف الجيش: صوته أثناء تقدّمه. (٣) دسيس: جاسوس.

سركيس) يُعارضُ بِهِ مقالَ (ٱلثريا)، وجعلَ فيهِ ٱلبكريَّ على رأسِ ٱلشعراء. . . ومدحَهُ مَدْحاً يَرِنُّ رنينا.

أمَّا أنا فتناولَني بِمَا ٱستطاعَ مِنَ ٱلذمّ، وجرّدَني مِنَ ٱلألفاظِ وَٱلمعاني جميعاً، وعدّني في ٱلشعراءِ لِيقولَ إنّي لسْتُ بِشاعر. . . فكانَ هذا ردَّ نفسِهِ على نفسِه.

وتعلَّقَ مقالُ ٱلمنفلوطيِّ على ٱلمقالِ ٱلأولِ فٱشتهر بِهِ لا بِٱلمنفلوطيّ؛ وغَضِبَ حافظٌ مرَّةً ثانية، فكتبَ إليَّ كِتاباً يذكرُ فيهِ تعسُّفَ هذا ٱلكاتبِ وتحاملَه، ويقول: قد وكَّلْتُ إليكَ أمرَ تأديبِهِ. . .

فكتبْتُ مقالاً في جريدةِ (ٱلمنبر)، وكانَ يُصدرُها ٱلأستاذانِ محمد مسعود وحافظ عوض، ووضعْتُ كلمةَ ٱلمنفلوطيِّ ٱلتي ذمَّني بها في صدرِ مقالي أُفاخِرُ بِها. . . وقلْت: إنّي كذلك ٱلفيلسوفِ ٱلذي أرادوهُ أنْ يشفعَ إلى مَلِكِه، فأكبَّ على قدمِ ٱلملكِ حتى شفَّعَه؛ فلمَّا عابوهُ بأنَّهُ أذالَ حُرْمةَ ٱلفلسفةِ بٱنحنائِهِ على قدمِ ٱلملكِ وسجودِهِ لَهُ، قال: ويحكُم!. فكيف أصنعُ إذا كانَ ٱلمَلِكُ قد جعلَ أُذُنيهِ في رِجليه. . .

* * *

ولم يكنْ مضى لي في معالجةِ ٱلشعرِ غيرُ سنتينِ حينَ ظهَر مقالُ (الثريا)، ومع ذلك أصبَح كلُّ شاعرٍ يُريدُ أنْ يعرفَ رأْيي فيه؛ فمرْرتُ ذاتَ يوم (بحافظ) وهو في جماعةٍ لا أعرفُهُم، فلمَّا ٱطمأَنّ بِيَ ٱلمجلسُ قالَ حافظ: ما رأْيُكَ في شعرِ ٱليازجيّ؟ فأجبْتُه، قال: فَٱلبستانيّ؟ فنجيبِ ٱلحداد؟ ففلان؟ ففلان؟ فداود عمون؟ قلْت: هذا لم أقرأْ لَهُ إلَّا قليلاً لا يَسُوغُ معَهُ ٱلحكمُ على شعرِهِ. قال: فماذا قرأْتَ لَهُ؟ قلْت: رَدَّهُ على قصيدتِكَ إليه:

شَـجَـتْـنَـا مَـطَـالِـعُ أقـمـارِهـا

قال: فما رأْيُك في قصيدتهِ هذه؟ قلْت: هيَ مِنَ ٱلشعرِ ٱلوسطِ ٱلذي لا يعلو ولا ينزل.

فما راعني إلَّا رجلٌ في ٱلمجلسِ يقول: أنصفْتَ ـ وٱلله ـ!. فقالَ حافظ: أقدّمُ لك داود بك عمون!. . .

رحمَ ٱلله تلك ٱلأيام!.

شـوقـي

هذا هو ٱلرجلُ ٱلذي يُخيَّلُ إليَّ أنَّ مِصْرَ ٱختارَتْهَ دونَ أَهلِها جميعاً لِتضعَ فيهِ رُوحَها ٱلمُتكلِّم، فأوجبَتْ لَهُ ما لَمْ تُوجِبْ لِغيرِهِ، وأعانَتْهُ بِما لم يتَّفِقْ لِسواه، ووهَبَتْهُ مِنَ ٱلقُدْرةِ وَٱلتمكين وأسبابِ ٱلرياسةِ وخصائصِها على قدرِ أمَّةٍ تُريدُ أنْ تكونَ شاعرةً، لا على قدرِ رجلٍ في نفسِه؛ وبِهِ وحدَهُ ٱستطاعَتْ مِصْرَ أنْ تقولَ للتاريخ: شعري وأدبي!

شوقي: هذا هوَ ٱلاسمُ ٱلذي كانَ في ٱلأدبِ كَٱلشمسِ مِنَ ٱلمشرق: متى طلعَتْ في مَوْضِعٍ فقد طلعَتْ في كلِّ مَوْضِعٍ، ومتى ذُكِرَ في بلدٍ من بلادِ ٱلعالَمِ ٱلعربيِّ ٱتَّسعَ معنىً ٱسمِهِ فدلَّ على مِصْرَ كلِّها كأنَّما قِيلَ ٱلنيلُ أوِ ٱلهرمُ أوِ ٱلقاهرة؛ مترادفاتٌ لا في وضعِ ٱللغةِ ولكنْ في جلالِ ٱللغة.

رجلٌ عاشَ حتى تَمَّ، وذلك برهانُ ٱلتاريخِ على ٱصطفائِهِ لِمصر، ودليلُ ٱلعبقريَّةِ على أنَّ فيهِ ٱلسرَّ ٱلمتحرِّكَ ٱلذي لا يقفُ ولا يَكِلُّ ولا يقطعُ نظامَ عملِه، كأنَّ فيهِ حاسَّةَ نحلةٍ في حديقة، ويكبرُ شعرُهُ كلَّما كَبُرَ ٱلزمن، فلم يتخلَّفْ عن دهرِه، ولم يقعْ دونَ أبعدِ غاياتِه، وكأنَّهُ مَعَ ٱلدهر على سياقٍ واحد، وكأنَّ شعرَهُ تاريخٌ مِنَ ٱلكلامِ يتطوَّرُ أطوارَهُ في ٱلنموِّ فلم يجمُدْ ولم يرتكِسْ[1]، وبقِيَ خيالُ صاحبِهِ إلى آخرِ عمرِهِ في تدبيرِ ٱلسماءِ كَعَرَّاضِ ٱلغمامة، سحابُهُ كثيرُ ٱلبرقِ مُمْتلىءٌ مُمْطرٌ ينصبُّ من ناحيةٍ ويمتلىءُ من ناحية.

وٱلناسُ يُكتبُ عليهِمُ ٱلشبابُ وَٱلكهولةُ وَٱلهرَم، ولكنَّ ٱلأديبَ ٱلحقَّ يُكتبُ عليهِ شبابٌ وكهولةٌ وشباب؛ إذْ كانت في قلبِهِ ٱلغاياتُ ٱلحيَّةُ ٱلشاعرة، ما تنفكُّ يَلِدُ بعضُها بعضاً إلى ما لا ٱنقطاعَ لَهُ، فإنَّها ليسَتْ من حياةِ ٱلشاعرِ ٱلتي خُلِقَتْ في قلبِه، ولكنَّها من حياةِ ٱلمعاني في هذا ٱلقلب.

* * *

---

(١) يرتكس: يتراجع.

أقرُ هذا في شوقي ـ رحمهُ ٱللهُ ـ، وأنا من أعرفِ ٱلناسِ بِعُيوبِهِ وأماكنِ ٱلغميزةِ في أدبِهِ وشعرِه؛ ولكنَّ هذا ٱلرجلَ ٱنْفَلَتَ من تاريخِ ٱلأدبِ لِمِصَر وحدَها كَٱنفلاتِ ٱلمطْرةِ من سحابِها ٱلمتسايرِ في ٱلجوّ، فأصبحتْ مِصْرُ بِهِ سيِّدةَ ٱلعالمِ ٱلعربيِّ في ٱلشعر، وهيَ لم تُذْكرْ قديماً في ٱلأدبِ إلَّا بِٱلنكتةِ وٱلرقَّةِ وصِناعاتٍ بديعيَّةٍ مُلَفَّقَة، ولم يَسْتَفِضْ لها ذِكْرٌ بنابغةٍ ولا عبقريٍّ، وكانَتْ كَٱلمستجديَّةِ من تاريخِ ٱلحواضرِ في ٱلعالم، حتى إن أبا محمدٍ ٱلملقبَ بولي ٱلدولةِ صاحبَ ديوانِ ٱلإنشاءِ في مِصْرَ للظاهرِ بْن ٱلمستنصر (وقد توفي سنة ٣٤١هـ)، وكانَ رِزقُهُ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ في ٱلسنةِ غيرَ رسومٍ يستوفيها على كلِّ ما يكتُبه ـ سلَّمَ لِرسولِ ٱلتجارِ إلى مِصْرَ من بغدادَ جزءين من شعْرِهِ ورسائلِهِ يحملُهُما إلى بغدادَ لِيعرضَهُما على الشريفِ المرتضى وغيرِهِ من أدبائِها، فيستشيرَهم في تخليدِ هذا ٱلأدبِ ٱلمِصْريِّ بِدارِ ٱلعِلْمِ إنِ ٱستجادوهَ وَٱرتَضَوْه، كأنَّ حِفْظَ ديوانٍ من شعرِ مِصْرَ ونشرها في مكتبةِ بغدادَ قديماً يُشبهُ في حوادثِ دهرِنا ٱستقلالَ مِصْرَ وقبولَها في عصبةِ ٱلأُمم. . .

وهذا أحمدُ بْنُ عليٍّ ٱلأسوانيُّ إمامٌ من أئمةِ ٱلأدبِ في مِصْرَ (توفي سنة ٥٦٢)، وكانَ كاتِباً شاعراً يجمعُ إلى علومِ ٱلأدبِ ٱلفِقْهَ وَٱلمنطقَ وٱلهندسةَ وٱلطِّبَّ وَٱلموسيقى وَٱلفَلَك ـ أرادَ أنْ يُدوِّنَ شعْرَ ٱلمِصْريين، فجمعَ من شعرِهِم (وشعر من طرأَ عليهم) أربعَ مجلدات، كأنَّ ٱلشعرَ ٱلمِصْريَّ وحَدهُ إلى آخِرِ ٱلقرنِ السادسِ للهجرة، في ٱلعهد ٱلذي لم يكنْ ضاعَ فيهِ شيءٌ مِنَ ٱلكتبِ وٱلدواوين لا يملأُ أربعَ مجلدات. . على ٱختلافِهِم في مِقْدارِ ٱلمجلَّدة، فقد تكونُ جزءاً لطيفَ ٱلحجم؛ وَٱلأسونيُّ نفسُهُ يبلغُ ديوانُهُ نحوَ مئةِ ورقة.

وأخوه ٱلحسنُ ٱلمعروفُ بِٱلمهذَّبِ (الأسوانيّ ٱلمتوفى سنة ٥٦١) قالَ ٱلعمادُ ٱلكاتبُ إنَّهُ لم يكن بِمِصْرَ في زمنِهِ أشعرُ منه، وسارَتْ لَهُ في ٱلناسِ قصيدةٌ سمَّوْها ٱلنواحةِ، وصفَ فيها حنينهُ إلى أخيهِ وقد رحلَ إلى مكةَ وطالَتْ غيبتُهُ بِها وخِيفَ عليه؛ فَٱلرجلُ أشعرُ أهلِ مِصْرَ في زمنِه، وحادثةُ ٱلنواحةِ تجعلُهُ في هذا ٱلمعنى أشعرَ من نفسِه، على أنَّهُ مع هذا لم يقلْ إلَّا من هذا:

يا ربعُ أنْ نَرَى ٱلأَحِبَّةَ يَمَّمُوا ... هلْ أنجدوا من بعدِنا أمْ أتْهَمُوا
رَحَلُوا وفي ٱلقَلْبِ ٱلمعنَّى[1] بعدَهُمْ ... وَجْدٌ[2] على مَرِّ ٱلزمانِ مُخَيِّمُ

---

(١) المعنّى: المقيّد (٢) وجد: حبّ.

وتعوّضتْ بِٱلأُنسِ نفسي وَحْشَةً		لا أوحشَ ٱللّهُ ٱلمنازلَ منهُمُ. . .

ولولا ٱبْنُ ٱلفارضِ وَٱلبهاءُ زهيرٌ وَٱبْنُ قلاقس ٱلإسكندريُّ وأمثالُهم، وكلُّهم أصحابُ دواوينَ صغيرةٍ، ولَيسَ في شعرِهم إلّا طابعُ ٱلنيل، أي ٱلرقةُ وٱلحلاوةُ ـ لولا هؤلاءِ في ٱلمتقدمينَ لأجدبَ تاريخُ ٱلشعرِ في مِصْر؛ ولولا ٱلباروديُّ وصبري وحافظٌ في ٱلمتأخرين؛ وكلُّهُمْ كذلك أصحابُ دواوينَ صغيرة، لَمَا ذُكِرَتْ مِصْرُ بِشعرِها في ٱلعالم ٱلعربيّ؛ على أنَّ كلَّ هؤلاءِ وكلَّ أولئك لم يستطيعوا أنْ يضعوا تاجَ ٱلشعرِ على مِفْرقِ مِصْر، ووضعَهُ شوقي وحدَه!

وَٱلعجبُ أنَّ دواوينَ ٱلمُجيدينَ من شعراءِ ٱلمصريين لا تكونُ إلّا صغيرة، كأنَّ طبيعةَ ٱلنيلِ تأخذ في ٱلمعاني كَأَخذِها في ٱلمادَّة، فلا فيضَ ولا خِصْبَ إلّا في وقتٍ بعدَ أوقات، وفي ثلاثةِ أشهرٍ من كلِّ ٱثني عَشَرَ شهراً؛ ومن جمالِ ٱلفراشةِ أنْ تكونَ صغيرة، وحسبُها عندَ نفسِها أنْ أجنحتَها منقَّطةٌ بِٱلذهب، وأنَّها هيَ نُكتةٌ من بديع ٱلطبيعة!

على أنَّكَ واجدٌ في تاريخ ٱلأدبِ ٱلمِصْريِّ عجيبةً من عجائبِ ٱلدنيا لا تُذكرُ معها ٱلإلياذةُ ولا ٱلانيادة ولا ٱلشاهنامةُ ولا غيرُها، ولكنَّها عجيبةٌ ملأَتْها روحُ ٱلصحراءِ إنْ كانَتْ تلك ٱلدواوينُ ٱلصغيرةُ من روحِ ٱلنيل؛ وهيَ قصيدةٌ نظمَها أبو رجاءٍ ٱلأسوانيُّ المتوفى سنة ٣٣٥هـ، وكان شاعراً فقيهاً أديباً عالماً كما قالوا، وزعموا أنه ٱقتصَّ في نظمِهِ أخبارَ ٱلعالم وقصصَ ٱلأنبياءِ واحداً بعدَ واحد، قالوا وسئلَ قبلَ موتِهِ كم بلغَتْ قصيدتُك؟ فقالَ: ثلاثينَ ومائة ألف بيت. . . وما أشكُّ أنَّ هذا ٱلرجلَ وقَع لَهُ تاريخُ ٱلطبريُّ وكُتُبُ ٱلسيرِ وقصصُ ٱلإسرائيلياتِ فنظمَها مُتُوناً مُتُوناً. . . وأفنى عمرَهُ في ١٣٠ ألفِ بيتٍ حوَّلَها ٱلتاريخُ إلى خبرٍ مُهْمَلٍ في ثلاثةِ أسطر!

* * *

كلُّ شاعرٍ مِصْريٍّ هو عندي جزْءٌ من جزْء، ولكنَّ شوقي جزْءٌ من كلّ؛ وَٱلفرْقُ بينَ ٱلجزءينِ أنَّ ٱلأخيرَ في قوَّتِهِ وعظمتِهِ وتمكُّنِهِ وَٱتّساعِ شعرِهِ جزءٌ عظيمٌ كأنَّهُ بِنفسِهِ ٱلكلُّ؛ ولم يتركْ شاعرٌ في مِصْرَ قديماً وحديثاً ما تركَ شوقي، وقدِ ٱجتمعَ لَهُ ما لم يجتمعْ لِسواه؛ وذلك مِنَ ٱلأدلةِ على أنَّهُ هُوَ ٱلمُختارُ لِبلادهِ، فساوى ٱلممتازينَ من شعراءِ دهرِهِ وٱرتفعَ عليهم بأمورٍ كثيرةٍ هيَ رزقُ تاريخِهِ مِنَ ٱلقوَّةِ ٱلمدبِّرةِ ٱلتي لا حِيلةَ لِأَحدٍ أنْ يأخذَ منها ما لا تُعطي، أو يزيدَ ما تُنقصُ، أو يُنقِصُ

ما تَزيد؛ وقد حاولوا إسقاطَ شوقي مِراراً فأراهم غُبارَهُ ومضى متقدِّماً، ورجعَ مَنْ رجعَ منهم ليغسلَ عينيه. . . ويرى بِهما أنَّ شوقي مِنَ ٱلنفسِ ٱلمِصْرِيَّةِ بِمنزلةِ ٱلمجدِ ٱلمكتوبِ لها في ٱلتاريخِ بِحرْبِ ونصر، وما هو بِمنزلةِ شاعرٍ وشعره.

وُلِدَ شاعُرنا سنة ١٨٦٨ في نعمةِ ٱلخديو إسماعيلَ باشا، ونثرَ لَهُ ٱلخديو ٱلذهبَ وهو رضيعٌ في قصةٍ ذكرَها شوقي في مقدمةِ ديوانِهِ ٱلقديم، ثُمَّ كفَّلَهُ ٱلخديو توفيقٌ باشا وعلَّمَهُ وأنفقَ عليهِ من سَعَة، وأنزلَ نفسَهُ منهُ منزلةَ أبٍ غنيٍّ كما يقولُ شوقي في مقدمتِه، ثُمَّ تولَّاهُ ٱلخديو عباسٌ باشا وجعلَهُ شاعِرَهُ وتركَهُ يقول:

شاعرُ ٱلعزيزِ وما بِٱلقليلِ ذا ٱللقبُ

وإذا أنت فسَّرْتَ لقبَ شاعرِ ٱلأميرِ هذا بِٱلأميرِ نفسِهِ في ذلك ٱلعهد، خرجَ لك منَ ٱلتفسير: شاعرٌ مُرْهَفٌ مُعانٌ بِأسبابٍ كثيرة، لِيكونَ أداةً سياسيَّةً في ٱلشعبِ ٱلمِصْري، تعملُ لإِحياءِ ٱلتاريخِ في ٱلنفسِ ٱلمِصْرِيَّة، وتبصيرِها بِعَظَمتِها، وإِقْحامِها في معاركِ زمنِها، وتهيئتِها لِلمدافعة، وتَصلُ ٱلشعرَ بِٱلسياسيَّةِ ٱلدينيَّةِ ٱلتي توجَّهَتْ لها ٱلخلافةُ يومئذٍ لِتَضرِبَ فكرةَ أوروبا في تقسيمِ ٱلدولةِ بِفكرةِ ٱلجامعةِ ٱلإسلاميَّة؛ ولا يخرجُ لك شوقي من هذا ٱلتفسيرِ على أنَّهُ رجلٌ في قدْرِ نفسِه، بلْ في قدْرِ أميرِهِ ذلك؛ وكان مُمْتلِئاً شباباً يغلي غلياناً، ومُعدّاً يومئذٍ لِمطامعَ بعيدةٍ ملففةٍ حشوُها ٱلديناميتُ ٱلسياسيّ. . .

كنْتُ ذاتَ مرَّةٍ أُكلِّمُ صديقي ٱلكاتبَ ٱلعميقَ فرح أنطون صاحبَ (ٱلجامعة) وكان مُعجباً بِشوقي إعجاباً شديداً، فقالَ لي: إنَّ شوقي ٱلآنَ في أفقِ ٱلملوكِ لا في أفقِ ٱلشعراء! قلْت: كأنَّكَ نفيْتَهُ مِنَ ٱلملوكِ وَٱلشعراءِ معاً؛ إذْ لو خرجَ من هؤلاءِ لم يكَنْ شيئاً، ولو نفذَ إلى أولئك لم يُعَدَّ شيئاً، إنَّما ٱلرجلُ في ٱلسياسةِ ٱلملتويَّةِ ٱلتي تصلُهُ بِٱلأمير، هو مرَّةً كوزيرِ ٱلحربيَّة، ومرَّةٍ كوزيرِ ٱلمعارف.

وهذه ٱلسياسةُ ٱلتي ٱرتاضَ بها شوقي ولابَسها من أولِ عهدِه، وَٱتَّجَه شِعرُهُ في مذاهبِها، مِنَ ٱلوطنيَّةِ ٱلمصريَّةِ، إلى ٱلنزعةِ ٱلفرعونيَّة، إلى ٱلجامعةِ ٱلإسلاميَّةِ، فكانَتْ بهذا سببَ نُبُوغِهِ ومادةَ مجدِهِ ٱلشعريّ ـ هيَ بِعينِها مادةُ نقائِصِه؛ فلقدِ ٱبتلَتْهُ بِحُبِّ نفسِهِ وحُبِّ الثناءِ عليها، وتسخيرِ ٱلناسِ في ذلك بِمَا وسِعَتْهُ قوَّتُه، إلى غيرةٍ أشدَّ من غيرةِ ٱلحسناءِ تقشعِرُ كلُّ شعرةٍ منها إذا جاءَها ٱلحُسْن بِثانية، وهيَ غَيرةٌ وَإنْ كانَتْ مذمومةً في صِلَتِهِ بِٱلأدباءِ ٱلذينَ لَذَّعُوهُ بِٱلجمر. . . ونحن منهم، غيرَ أنَّها

ممدوحةٌ في موضِعِها مِنْ طبيعتِهِ هو؛ إذْ جعلَتْهُ كَٱلجوادِ ٱلعتيقِ ٱلكريمِ يُنافِسُ حتى ظِلَّه، فعارضَ ٱلمُتقدمينَ بِشعرِهِ كأنَّهُمْ معَهُ، ونافسَ ٱلمُعاصرينَ ليجعَلَهُم كأنَّهُمُ ليسوا معَه، ونافسَ ذاتَهُ أيضاً لِيجعلَ شوقي أشعرَ من شوقي؛ وعندي أنَّ كُلَّ ما في هذا ٱلرجلِ مِنَ ٱلمتناقضاتِ فمرجعُهُ إلى آثارِ تلكَ ٱلسياسةِ ٱلملتويةِ ٱلتي رُدَّتْ بِطبيعةِ ٱلقوَّةِ عِن وجوهِها الصريحة، فجعلَتْ تضطربُ في وجوهٍ مِنَ ٱلحيلِ وَٱلأسبابِ مُدْبِرَةً مُقْبِلةً، مُتَهَدِّيةً في كلِّ مجاهلِها بإبرةٍ مغناطيسيَّةٍ عجيبةٍ لا يُشْبِهُها في ٱلطبيعةِ إِلَّا أنفُ ٱلثعلبِ ٱلمُتَّجِهِ دائماً إلى رائحةِ الدجاج.

ومؤرخُ ٱلأدبِ الذي يُريدُ أنْ يكتبَ عَنْ شَوقي لا يَصنعُ شيئاً إنْ هُوَ لم يَذكرْ أنّ هذا ٱلشاعرَ ٱلعظيمَ كانَ هديَّةَ ٱلخديو توفيق وَٱلخديو عباسٍ لِمِصْر، كالدلتا بين فرعي ٱلنيل؛ وما أصابَهُ ٱلمتنبي من سيفِ ٱلدولةِ مِمَّا ٱبتعثَ قَرِّيحتَهُ وراشَ أجنحتَهُ ٱلسماويَّةَ وأضفى ريشَها وَٱنتَزَى بِها على ٱلغاياتِ ٱلبعيدةِ في تاريخ ٱلأدب ـ أصابَ ـ شوقي من سُمُوِّ ٱلخديو عباسٍ أكثرَ منه، فكان حقيقاً أنْ يُساويَ ٱلمتنبي أو يتقدَّمَه، ولكنَّهُ لم يبلغْ منزلتَه، لِأنَّ ٱلخديو لم يكنْ كسيفِ ٱلدولةِ في معرفتِهِ بِٱلأدبِ ٱلعربيِّ ورغبتِهِ فيه؛ وسرُّ ٱلمتنبي كانَ في ثلاثةِ أشياء: في جِهازِهِ ٱلعصبيِّ ٱلعجيبِ ٱلذي لا يَقِلُّ في رأيي عمَّا في دماغ شكسبير، وفي ممدوحِهِ ٱلأديبِ ٱلملكِ ٱلذي ينزِلُ من هذا ٱلجهازِ منزلةَ ٱلمهندسِ ٱلكهربائيِّ من آلةٍ عظيمةٍ يُديرُها بِعِلْم ويقومُ عليها بِتدبيرٍ ويحوطُها بِعِناية، ثُمَّ في أفقِ عصرِهِ ٱلمتألِّقِ بنجوم ٱلأدبِ ٱلتي لا يُمكنُ أنْ يظهرَ بينَها إِلَّا ما هو في قَدْرِها، ولا يتميَّزُ فيها إِلَّا ما هو أكبرُ منها، ولا يتركُها كَٱلمنطفئَةِ إِلَّا شمسٌ كشمسِ ٱلمتنبي تتفجَّرُ على ٱلدنيا بِمُعْجِزاتِها ٱلنورانيَّة.

ولقد وٱللَّهِ كانَ هذا ٱلمتنبي كأنَّهُ يُوزِّعُ ٱلشرفَ على ٱلملوكِ وَٱلرؤساء؛ وهلْ أدلُّ على ذلك من أنَّ أبا إسحاقَ ٱلصابي شيخَ ٱلكُتَّابِ في عصرِهِ يُراسلُهُ أنْ يمدحَهُ بِقصيدتين ويُعطيَهُ خمسةَ آلافِ درهم، فيُرسلُ إليهِ ٱلمتنبي: ما رأيْتُ بِٱلعراقِ من يستحقُّ ٱلمدحَ غيرَك، ولكنِّي إنْ مدحْتُكَ تنكَّرَ لك ٱلوزيرُ (يعني ٱلمهلَّبيَّ) لِأنِّي لم أَمدحْهُ، فإنْ كنْتَ لا تُبالي هذا ٱلحالَ فأنا أُجيبُكَ ولا أُريدُ منك مالاً ولا من شِعري عِوَضاً! فأين في دهرِنا من تُشعِرُهُ عِزَّةُ ٱلأدبِ مثلَ هذا ٱلشعورِ ليأتيَ بِٱلشعرِ من نفسٍ مستيقنةٍ أنّ ٱلدنيا في ٱنتظارِ كلمتِها؟

على أنَّ شوقي لم يكنْ ينقصُهُ بِٱعتبارِ زمنهِ إِلَّا (ٱلجمهورُ ٱلشعريُّ)، وكلُّ بلاءِ ٱلشعرِ ٱلعربي أنَّهُ لا يجدُ هذا ٱلجمهورَ، فٱلشاعرُ بذلك مُنصرِفٌ إلى معانٍ فرديَّةٍ من

ممدوح عظيم أو حبيبٍ عظيم أو سقوطٍ عظيم... حتى ٱلطبيعةُ تظهرُ في ٱلشعرِ ٱلعربيِّ كأنَّها قِطَعٌ مبتورةٌ مِنَ ٱلكَوْنِ داخلةٌ في ٱلحدودِ لابسةٌ ٱلثياب؛ ومن ذلك ينبغُ ٱلشاعرُ وليسَ فيهِ مِنَ ٱلإحساسِ إلَّا قدْرُ نفسِهِ لا قدْرُ جمهورِه، وإلَّا ملءَ حاجاتِهِ لا ملءَ ٱلطبيعة؛ فلا جَرَمَ يقعُ بعيداً عنِ ٱلمعنى ٱلشاملِ ٱلمتَّصلِ بٱلمجهول، ويسقطُ بشعرِهِ على صورٍ فرديَّةٍ ضيقةِ ٱلحدود، فلا تجدُ في طبعِهِ قوَّةَ ٱلإحاطةِ وَٱلتبسُّطِ وَٱلشمولِ وَٱلتدقيق، ولا تُؤاتيهِ طبيعتُهُ أنْ يستوعبَ كلَّ صورةٍ شعريَّةٍ بخصائصِها، فإذا هو على ٱلخاطرِ ٱلعارضِ يأخذُ من عَفوِهِ ولا يُحسنُ أنْ يُوغِلَ[1] فيه، وإذا هو على نزواتٍ ضعيفةٍ مِنَ ٱلتفكيرِ لا يطولُ لها بحثُهُ ولا يتقدَّمُ فيها نظرُهُ، وإذا نفسُهُ تمرُّ على ٱلكَوْنِ مرًّا سريعاً، وإذا شعرُهُ مقطَّعٌ قِطَعاً، وإذا آلامُهُ وأفراحُهُ أوصافٌ لا شعور، وكلماتٌ لا حقائق، وظِلٌّ طامسٌ ملقًى على ٱلأرضِ إذا قابَلْتَهُ بتفاصيلِ ٱلجسمِ ٱلحيِّ ٱلسائرِ على ٱلأرض.

وَٱجتمعَ لِشوقي في ميراثِ دمِهِ ومجاري أعراقِهِ عنصرٌ عربيٌّ، وآخرُ تركيٌّ، وثالثٌ يونانيٌّ، ورابعٌ شركسيٌّ؛ وهذه كثرةٌ إنسانيةٌ لا يأتي منها شاعرٌ إلَّا كانَ خليقاً أنْ يكونَ دولةً من دولِ ٱلشعر، وإلى هذا وُلِدَ شاعرُنا بٱختلالِهِ ٱلعصبيِّ في عينيه، كأنَّ هذا دليلٌ طبيعيٌّ على أنَّ وراءهُما عينينِ لِلمعاني تُزاحمانِ عيني ٱلبصر؛ وما لم يكنِ ٱلتركيبُ ٱلعصبيُّ في ٱلشاعرِ مُهيَّأً لِلنبوغ، فَٱعلمْ أنَّهُ وقعَ من تقاسيمِ ٱلدنيا في غيرِ ٱلشعر، وليسَ في ٱلطبيعةِ ولا في ٱلصناعةِ قوةٌ تجعلُ حُنجرةَ ٱلبلبلِ في غيرِ ٱلبلبلِ؛ ومعَ كلِّ ما تقدَّمَ فقدْ أُعينَ شوقي على ٱلشعرِ بفراغِهِ لَهُ أربعاً وأربعينَ سنة، غيرَ مشتركِ ٱلعمل، ولا مُتقَسَّمِ ٱلخاطر، على سَعَةٍ في ٱلرزقِ وبَسْطةٍ في ٱلجاهِ وعلوٍّ في ٱلمنزلة، وبين يديهِ دواوينُ ٱلشعرِ ٱلعربيِّ وٱلأوربيِّ وٱلتركيِّ وٱلفارسيِّ؛ وإنْ تنسَ فلا تنسَ أنَّ شاعرَنا هذا خُصَّ بنشاطِ ٱلحياة، وهو روحُ ٱلشعرِ لا روحَ لِلشعرِ بدونِه، فسافرَ ورحلَ وتقلَّبَ في ٱلأرض، وخالطَ ٱلشعوبَ وَٱستعرضَ ٱلطبيعةَ يتخلَّلها بِبَصَرِهِ ما بينَ ٱلأندلسِ وَٱلأستانة، وظهيرُهُ على ذلك مالُهُ وفراغُهُ؛ وإنَّما قوةُ ٱلشعرِ في مساقطِ ٱلجوِّ، ففي كلِّ جوٍّ جديدٍ روحٌ لِلشاعرِ جديدة؛ وَٱلطبيعةُ كَٱلناس: هيَ في مكانٍ بيضاءُ وفي مكانٍ سوداء، وهيَ في موْضِعٍ نائمةٌ تحلُمُ وفي موضِعٍ قائمةٌ تعمل، وفي بلدٍ هيَ كَالأنثى ٱلجميلة، وفي بلدٍ هيَ كالرجلِ

---

(١) يُوغل: يدخل إلى أقصى ما يمكن.

ٱلمُصارع؛ ولن يجتمعَ لك روحُ ٱلجهازِ ٱلعصبيِّ على أقواهُ وأشدِّهِ إلَّا إذا أطعَمْتَهُ مع صنوفِ ٱلأطعمةِ ٱللذيذةِ ٱلمفيدة، ألوانَ ٱلهواءِ ٱللذيذ ٱلمفيد.

وعندي أنَّهُ لا أملَ أنْ ينشأ لِمِصْرَ شاعرٌ عظيمٌ في طبقةِ ٱلفحولِ من شعراءِ ٱلعالم، إلَّا إذا أُعيدَ تاريخُ شوقي مُهَذَّباً مُنَقَّحاً في رجلٍ وهبَهُ ٱللَّهُ مواهبَه، ثُمَّ تَهبُهُ ٱلحكومةُ ٱلمصريَّةُ مواهبَها.

* * *

وَٱلكتابُ ٱلأولَ ٱلذي راضَ خيالَ شوقي وصقلَ طبعَهُ وصحَّحَ نشأتَهُ ٱلأدبيَّة، هو بعينِهِ ٱلذي كانَتْ منه بصيرةُ حافظ وذكرناهُ في مقالِنا عنه، أي كتابُ «ٱلوسيلةِ ٱلأدبيَّةُ» لِلمرصفي؛ وليسَ ٱلسرُّ في هذا الكتاب ما فيهِ من فنونِ ٱلبلاغةِ ومختاراتِ ٱلشعرِ وَٱلكتابة، فهذا كلُّهُ كانَ في مِصْرَ قديماً ولم يُغْنِ شيئاً ولم يُخرجْ لها شاعراً كشوقي، ولكنَّ ٱلسرَّ ما في ٱلكتابِ من شعرِ ٱلباروديِّ لِأنَّهُ معاصر، وَٱلمعاصرةُ ٱقتداءٌ ومُتابعةٌ على صوابٍ إنْ كانَ ٱلصواب، وعلى خطإٍ إنّ كانَ ٱلخطأ؛ وقد تصرَّمَتِ[1] ٱلقرونُ ٱلكثيرةُ وَٱلشعراءُ يتناقلونَ ديوانَ ٱلمتنبي وغيرِه، ثُمَّ لا يجيئونَ إلَّا بشعرِ ٱلصناعةِ وَٱلتكلُّف، ولا يُخَلِّدُ ٱلجِيلُ منهم إلَّا لما رأى في عصرِهِ، ولا يستفتحُ غيرَ ٱلبابِ ٱلذي فُتِحَ لَهُ، إلى أَنْ كانَ ٱلباروديُّ، وكانَ جاهِلاً بِفنونِ ٱلعربيَّةِ وعلومِ ٱلبلاغة، لا يُحسِنُ منها شيئاً، وجهلُهُ هذا هو كلُّ ٱلعِلْمِ ٱلذي حوَّلَ ٱلشعرَ من بعد؛ فيا لها عجيبةً مِنَ ٱلحِكمة! وهيَ دليلٌ على أنَّ أعمالَ ٱلناسِ ليسَتْ إلَّا خضوعاً لِقوانينَ نافذةٍ على الناس. وأكبَّ ٱلباروديُّ على ما أطاقَهُ، وهو ٱلحِفْظُ من شِعْرِ ٱلفحول؛ إذْ لا يحتاجُ ٱلحِفْظُ إلى غيرِ ٱلقراءة، ثُمَّ ٱلمعاناةِ وَٱلمزاولة؛ وكانَتْ فيهِ سليقة، فخرجَتْ مخرجَ مِثلِها في شعراءِ ٱلجاهليَّةِ وَٱلصدرِ ٱلأولِ مِنَ ٱلحِفْظِ وَٱلرواية، وجاءَتْ بذلك ٱلشعرِ ٱلجزْلِ ٱلذي نقلَهُ ٱلمرصفي بإلهام مِنَ ٱللَّهِ ـ تعالى ـ لِيُخرجَ بهِ لِلعربيةِ حافظ وشوقي وغيرَهما، فكلُّ ما في ٱلكتَّابِ أنَّهُ ينقلُ روحَ ٱلمُعاصرةِ إلى روحِ ٱلأديبِ ٱلناشيء، فتبعثُهُ هذه ٱلروحُ على ٱلتمييزِ وصِحَّةِ ٱلاقتداء، فإذا هو على ميزةٍ وبصيرة، وإذا هو على ٱلطريقِ ٱلتي تنتهي بهِ إلى ما في قوَّةِ نفسِهِ ما دامَ فيهِ ذكاءٌ وطبع؛ وبهذا ٱبتدأ شوقي وحافظ من موضعٍ واحد، وَٱنتهى كلاهُما إلى طريقةٍ غيرِ طريقةِ ٱلآخر، وَٱلطريقتانِ معاً غيرُ طريقةِ ٱلباروديّ.

---

(١) تصرَّمت: انقضت.

تحوَّلَ شوقي بهذا ٱلشِّعرِ لا إلى طريقةِ ٱلباروديّ، فإنَّهُ لا يُطيقُها ولا تتهيَّأُ في أسبابِه، وخاصةً في أولِ عهدِهِ، وكأنَّ لغةَ ٱلباروديّ فيها من لقبِه، أي فيها ٱلبارود. . . ولكنّ تحوُّلَ نابغتِنا كانَ عن طريقةِ معاصريهِ من أمثالِ ٱلليثي وأبي ٱلنصر وغيرِهما، فتركَ ٱلأحياءَ وَٱنطلقَ وراءَ ٱلموتى في دواوينِهِمُ ٱلتي كانَ من سعادتِهِ أنْ طُبِعَ ٱلكثيرُ منها في ذلك ٱلعهد: كَٱلمتنبي وأبي تمَّام وَٱلبحتريّ وَٱلمعريّ: ثُمَّ أهلِ ٱلرقَّةِ أصحابِ ٱلطريقةِ ٱلغراميَّة: كَٱبنِ ٱلأحنفِ وَٱلبهاءِ زهيرٍ وَٱلشابِّ ٱلظريفِ وَٱلتلَعْفَري وَٱلحاجري، ثُمَّ مشاهير ٱلمتأخرين: كَٱبنِ ٱلنحاسِ وَٱلأميرِ منجكٍ وٱلشرقاوي. وقد حاولَ شوقي في أولِ أمرِهِ أنْ يجمعَ بين هذا كلِّه، فظهرَ في شعرِهِ تقليدُهُ وعملُهُ في محاولةِ ٱلابتكارِ وَٱلإبداعِ وإحكامِ ٱلتوليد، مَعَ ٱلسهولةِ وَٱلرقَّةِ وتكلُّفِ ٱلغزلِ بِٱلطبعِ ٱلمتدفِّقِ لا بِٱلحُبِّ ٱلصحيح.

وأنا حينَ أكتبُ عن شاعرٍ لا يكونُ همِّي إلَّا البحثَ في طريقةِ ٱبتداعِهِ لِمَعانيهِ، وكيفَ ألمَّ وكيفَ لَحَظَ، وكيف كانَ ٱلمعنى مَنْبَهَةً لَهُ، وهلْ أبدعَ أم قلَّد، وهلْ هو شَعرَ بِٱلمعنى شعوراً فخالطَ نفسَهُ وجاءَ منها، أمْ نقلَهُ نَقلاً فجاءَ مِنَ ٱلكتب؛ وهلْ يَتَّسِعُ في ٱلفكرةِ ٱلفلسفيَّةِ لِمعانيه، ويُدقِّقُ ٱلنظرةَ في أسرارِ ٱلأشياء، ويُحْسِنُ أنْ يَسْتَشِفَّ هذه ٱلغيومَ ٱلتي يسبحُ فيها ٱلمجهولُ ٱلشعريُّ ويتَّصِلُ بها ويستصحب للناسِ من وحيها؛ أم فكرُهُ ٱسترسالٌ وترجيمٌ في ٱلخيالِ وأخذٌ لِلموجودِ كما هو موجودٌ في ٱلواقع؟ وبِٱلجملةِ هلْ هو ذاتيةٌ تمرُّ فيها مخلوقاتُ معانيهِ لِتُخلقَ فتكونَ لَهَا مَعَ ٱلحياةِ في نفسِها حياةٌ من نفسِه، أَمْ هو تَبَعيَّةٌ كَٱلسمسارِ بينَ طرفين: يكونُ بينَهما، وليسَ منهما ولا من أحدِهما؟ في هذه ٱلطريقةِ مِنَ ٱلبحثِ تاريخُ موهبةِ ٱلشاعر، ولا يؤديِّكَ إلى هذا ٱلتاريخ إلَّا ذلك ٱلمذهبُ إليهِ إنْ أَطقتَه، أمَّا تاريخُ ٱلشاعرِ نفسِهِ فما أسهلَه؛ إذْ هو صورةُ أيَّامِهِ وصِلتِهِ بِعصرِه، وليسَ في تأريخِ ما كانَ إلَّا نقلَهُ كما كان.

وإذا عرضْنَا شوقي بتلكَ ٱلطريقةِ رأيْنَاهُ نابغةً من أولِ أَمرِه، ففيهِ تلك ٱلموهبةُ ٱلتي أُسميها حاسَّةَ ٱلجو؛ إذ يتلمَّحُ بها ٱلنوابغُ معاني ما وراءِ ٱلمنظور، ويستنزلونَ بها من كلِّ معنًى معنًى غيرَه.

انظرُ أبياتَهُ ٱلتي نظمَها في أولِ شبابِهِ وسِنُّهُ يومئذٍ ٢٣ سنةً على ما أظنّ، وهي من شعرِهِ ٱلسائر:

خـدَعـوهـا بِـقَـوْلِـهِـمْ حَـسْـنَـاءُ ‌ ‌ ‌ وَٱلـغـوانـي يـغـرُّهـنّ ٱلـثَّـنَـاءُ

مـا تـراهـا تَـنَـاسَـتْ ٱسـمـيَ لَـمَّـا　　كَـثُـرَتْ فـي غـرامِـهـا ٱلأسـمـاءُ
إنْ رأتـنـي تـمـيـلُ عَـنِّـي كـأنْ لـم　　تَـكُ بـيـنـي وبـيـنَـهـا أشـيـاءُ
نـظـرةٌ فَـٱبـتـسـامـةٌ فَـسَـلامٌ　　فَـكَـلامٌ فـمَـوْعِـدٌ فَـلِـقَـاءُ

دعْ غلطَتُه في قولِه (تميل عني)، فإنَّ صوابها: تَمِلْ؛ إذْ هيَ جوابُ إنِ ٱلشرطية؛ ولكنْ تأملْ كيف ٱستخرجَ معانيَه؛ وأنا كنْتُ دائماً وما أزالُ مُعْجَباً بِٱلبيتينِ ٱلثاني وَٱلرابع، لا إكباراً لِمعناهما، فهما لا شيءَ عندي، ولكنْ إعجاباً بِموْهِبةِ شوقي في ٱلتوليد، فإنَّهُ أخذَ ٱلبيتَ ٱلثاني من قولِ أبي تمَّام:

أَتَـيْـتُ فـؤادَهـا أشـكـو إلـيـهِ　　فـلـم أخـلـصْ إلـيـهِ مِـنَ ٱلـزحـام

فمرَّ ٱلمعنى في ذِهْنِ شوقي كما يمرُّ ٱلهواءُ في روضِه، وجاءَ نسيماً يترقْرقُ بعدَما كانَ كَٱلريحِ ٱلسافيةِ بِترابِها؛ لِأنَّ ٱلزحامَ في بيتِ أبي تمام حقيقٌ بِسوقٍ قائمةٍ لِلبيعِ وَٱلشراء، لاَ بِقَلْبِ ٱمرأةٍ يُحبُّها، بلْ هو يجعلُ قلبَ ٱلمرأةِ شيئاً غريباً كأنَّهُ ليس عضواً في جسمِها، بلْ غرفةٌ في بيتِها... وقد سبقَ شاعرُنا أبا تمامٍ بمراحلَ في إبداعِهِ وذوقِهِ ورِقَّتِه.

وَٱلبيتُ ٱلرابعُ من قولِ ٱلشاعرِ ٱلظريف:

قِفْ وٱسْتَمِعْ سيرةَ ٱلصبِّ ٱلذي قَتَلُوا　　فَمَاتَ في حُبِّهِمْ لم يبلغِ ٱلغَرَضَا
رَأَى فَحَبَّ فَسَامَ[1] ٱلوصلَ فَٱمْتَنَعُوا　　فرامَ[2] صبراً فأعيا نيلُهُ فقضى

وهذه «فاءَات» تجرُّ إلى ٱلقبرِ ونَعُوذُ بِٱللَّهِ منها... ومِمَّا كنْتُ أَعيبُهُ على شوقي ضَعفُهُ في فنونِ ٱلآدب، فإنَّ ٱلمويلحيَّ ٱلكاتبَ ٱلشهير ٱنتقدَ في جريدتِهِ «مِصباحُ الشرق» أبياتَ (خدعوها) عندَ ظهور ٱلشوقيَّاتِ في سنةِ ١٨٩٩، فٱرتاعَ شوقي وتحمَّلَ عليهِ لِيُمْسِكَ عنِ ٱلنقد، معَ أَنَّ كلامَ ٱلمويلحيِّ لا يُسقطُ ذبابةً مِن ٱرتفاع نصفِ متر... ومن مُصيبةِ ٱلأدب عندَنا، بلْ من أكبرِ أسرارِ ضَعفِه، أَنَّ شعراءَنا لا طاقةَ لهم بِٱلنقد، وأنَّهمْ يفرُّونَ منه فِراراً ويعملون على تفاديهِ وأنَّهُم لا يُحسنون غيرَ ٱلشعر؛ فلا ٱلباروديُّ ولا صبري ولا حافظٌ ولا شوقي كان يُحسِنُ واحدٌ منهم أنْ يدفعَ عن نفسِهِ أو يكتبَ فصلاً في ٱلنقدِ ٱلأدبيِّ، أو يُحقِّقَ مسألةً في تاريخِ ٱلأدب.

---

(١) سام: طلب وعانى في الحصول على ما أراد.
(٢) رام: طلب وقصد.

ومن معاني شوقي ٱلسائرة:

لَكَ نُصْحي وما عليكَ جِدالي ... آفةُ ٱلنصحِ أنْ يكونَ جِدالا

وكرَّره في قصيدةٍ أخرى فقال:

آفةُ ٱلنصحِ أنْ يكونَ جِدالاً ... وأذى ٱلنصحِ أنْ يكونَ جِهارا

وَٱلبيتانِ من شعرِ صِباهُ أيضاً، وهما من قولِ ٱبنِ ٱلروميّ:

وفي ٱلنصحِ خيرٌ من نصيحٍ مُوادعٍ ... ولا خيرَ فيهِ من نصيحٍ مواثبِ

فصحَّحَ شوقي ٱلمعنى وأبدلَ ٱلمُواثبةَ بِٱلجِدال، وذلك هو ٱلذي عجِزَ عنهُ ٱبنُ ٱلروميّ؛ ومن إبداعِهِ في قصيدتِهِ (صدى ٱلحرب) يصفُ هزيمةَ اليونان:

يَكادونَ من ذُعرٍ تَفِرُّ ديارُهُمْ ... وتنجو ٱلرواسي[1] لَوْ حَواهُنَّ مَشْعَبُ

يكادُ ٱلثَّرى مِنْ تحتِهِم يَلِجُ[2] ٱلثَّرى ... وَيَقْضِمُ بَعْضُ ٱلأَرْضِ بَعْضاً وَيَقْضِبُ

وهذا خيالٌ بديعٌ في ٱلغاية، جعلَ هزيمتَهُمْ كأنَّها ليسَتْ من هولِ ٱلترك، بلْ مِن هولِ ٱلقِيامة؛ وهو مع ذلك مولَّدٌ من قولِ أبي تمَّامٍ في وصفِ كرمِ ممدوحِهِ أبي دُلف:

تكادُ مَغانيهِ تهشُّ عِراصُها[3] ... فتركبُ من شوقٍ إلى كلِّ راكِبِ

فقاسَ شاعرُنا على ذلك؛ وإذا كادَتِ ٱلدارُ تركبُ إلى ٱلراكبِ إليها من فرحِها، فهي تكادُ تفرُّ مَعَ ٱلمنهزم من ذعرِها؛ ولكنَّ شوقي بنى فأحكمَ وسما على أبي تمَّامٍ بِٱلزيادةِ ٱلتي جاءَ بها في ٱلبيت الثاني:

ومن أحسنِ شعرِهِ في ٱلغزل:

حَوَتِ ٱلجمالَ فلو ذَهَبْتَ تَزيدُها ... في ٱلوهْمِ حُسْناً ما ٱستطعْتَ مَزيدا

وهو من قولِ القائل:

ذاتُ حُسَنٍ لوِ ٱستزادَتْ مِنَ ٱلحُسْـ ... ـنِ إليهَا لَمَا أصابَتْ مَزيدا

غيرَ أنَّ شوقي قال: لو ذَهَبْتَ تزيدُها في ٱلوهم... وَٱلشاعِرُ قال: لَوِ ٱستزادَتْ هي؛ فلو خلا بيتُ شوقي من كلمة (في الوهْم) لَمَا كانَ شيئاً، ولكنَّ هذه ٱلكلمةَ حقَّقَتْ فيهِ ٱلمعنى ٱلذي تقومُ عليهِ كلُّ فلسفةِ ٱلجمال؛ فإنَّ جمالَ ٱلحبيبِ

---

(١) الرواسي: الجبال.

(٢) يلج: يدخل.

(٣) عراصها: مفرده عرصة وهي الربوة.

ليسَ شيئاً إلَّا ٱلمعاني ٱلتي هي في وهْم مُحِبِّه؛ فَٱلزيادةُ تكونُ مِنَ ٱلوهْم، وهو بِطبيعتِهِ لا ينتهي؛ فإذا لم تبقَ فيهِ زِيادةٌ في ٱلحُسْنِ فما بعدَ ذلك حُسْن. وقد بسطْنا هذا ٱلمعنى في صُورٍ كثيرةٍ في كتبِنا: «رسائلُ الأحزان»، و «ٱلسحابُ الأحمر»، و «أوراقُ الود»؛ فانظرْه فيها.

ومِمَّا يُتمِّمُ ذلك ٱلبيتَ قولُ شوقي في قصيدةِ ٱلنفس:

يـا دمـيـةً لا يُـسـتـزادُ جَـمَـالُـهـا   زِيـديـهِ حُسْـنَ ٱلـمُـحْـسِـنِ ٱلـمُـتَـبَـرِّعِ

وهذا ٱلمعنى يقعُ من نفسي مَوْقِعاً ولَهُ من إعجابي محلّ؛ فهذه ٱلزيادةُ ٱلتي فيهِ كزيادةِ ٱلعمر لو أمكنَتْ، وهيَ في موضعِها كما ينقطعُ ٱلحظُّ ثُمَّ يتَّصِل، وكما يستحيلُ ٱلأملُ ثُمَّ يتَّفِقُ ويسهل؛ وقد علمْتُ مأخذَ ٱلشطرِ ٱلأول، أمَّا ٱلثاني فهو من قولِ ٱبنِ ٱلرومي:

يـا حَـسَـنَ ٱلـوجـهِ لـقـد شِـنـتَـهُ   فَـٱضْـمُـمْ إلـى حُـسـنِـكَ إحْـسـانَـا

وفي ٱلقصيدةِ ٱلتي رثى بها ثروت باشا وهي من أحسنِ شعرِهِ تجدُ من أبياتِها هذا ٱلبيتَ النادر:

وقـد يـمـوتُ كـثـيـرٌ لا تـحـسُّـهـمـو   كـأنَّهم من هوانِ ٱلخَطْبِ ما وُجِدُوا

وشوقي يُعارضُ بهذه ٱلقصيدةِ أبا خالد ٱبْنَ محمدٍ ٱلمُهلبيَّ في داليَّتِهِ ٱلتي رثى بها ٱلمتوكل، وكانَ ٱلمهلبيُّ حاضِراً قتلَهُ هو وَٱلبحتريُّ، فرثاهُ كلٌّ منهما بقصيدةٍ قالوا: إنَّها من أجودِ ما قِيلَ في معناها؛ وبيتُ شوقي مأخوذٌ من قول ٱلمهلبيّ:

إنَّـا فَـقَـدْنَـاكَ حـتَّـى لا ٱصْـطَـبـارَ لَـنَـا   وَمَـاتَ قَـبْـلَـك أقـوامٌ فـمـا فُـقِـدُوا

أي لم يُحسَّ موتَهُم أحد؛ ولكنَّ ٱلبيتَ غيرُ مستقيم، لِأنَّ ٱلذي يموتُ فلا يفقدُ هو ٱلخالدُ ٱلذي كأنَّهُ لم يمُتْ؛ فٱستخرجَ شوقي ٱلمعني ٱلصحيحَ وجعلَ ٱلعَدَمَ ٱلذي هو آخرُ ٱلوجودِ في ٱلناس، أولَ ٱلوجودِ ووسطَهُ وآخرَهُ في هؤلاءِ ٱلذين هانوا على ٱلحياةِ فَوُجدوا وماتوا كأنَّهم ماتوا وما وُجدوا.

* * *

وإلى ما علمْتَ من قوَّةِ هذهِ ٱلشاعريَّة، ودِقَّتِها فيما تتأتَّى لَهُ، ومجيئِها بِٱلمعاني ٱلنادرةِ مستخرَجَةً ٱستخراجَ ٱلذهب، مصقولةً صقلَ ٱلجوهر، معدَّلَةً بِٱلفكرِ، موزونةً بِٱلمنطق ـ تجدُ لها تَهافُتاً كَتهافُتِ ٱلضعفاء، وغِرَّةً كَغِرَّةِ ٱلأحداث؛ حتى لتحسبُ أنَّ طفولةَ شوقي كثيراً ما تنبعِثُ في شعرِهِ لاعبةً هازِلة، أو كأنَّ

لِلرجلِ شخصيتينِ كما يقولُ ٱلأطباء، فهما تتعاورانِ شعرَهُ كمالاً ونقصاً، وعُلُوًّا ونزولاً، أو قلْ هيَ ٱلعربيَّةُ وَٱليونانيَّةُ في ناحيةٍ من نفسِه، وَٱلتركيَّةُ وٱلشركسيَّةُ في ناحيةٍ أخرى: لِتلكَ ٱلابتكارُ وٱلبلاغةُ وٱلمنطق، ولهذهِ ٱلتهويلُ وَٱلمُبالغةُ وٱلخلط؛ وشوقي هو بهما جميعاً؛ تفتنُهُ ٱلقويَّةُ منهما فيُعجبُ بها إعجابَ ٱلقوَّة، وتخدعُهُ ٱلضعيفةُ فيُعجبُ بها إعجابَ ٱلرقَّة؛ ما أُعجبَ ببيتِهِ ٱلذي قالهُ في ٱلحنينِ إلى ٱلوطن من قصيدتِهِ ٱلأندلسيَّةِ ٱلشهيرة:

وطَني لوْ شُغِلْتَ بِٱلخُلدِ عنهُ نازعَتْني إليهِ في ٱلخُلْدِ نفسي

وهذا ٱلبيتُ مِمَّا يتمثَّلُ بهِ ٱلشبانُ وكتابُ ٱلصحافة، ولم يفطنْ أحدٌ إلى فسادِهِ وسخافةِ معناه؛ فإنَّ ٱلخُلْدَ لا يكونُ خُلْداً إلَّا بعدَ فناءِ ٱلفاني مِنَ ٱلإنسانِ وطبائعِهِ ٱلأرضيَّة، وبعدَ أنْ لا تكونَ أرضٌ ولا وطنٌ ولا حنينٌ ولا عصبيَّة؛ فكأنَّ شوقي يقول: لو شغلْتُ عنِ ٱلوطنِ حينَ لا أرضَ ولا وطنَ ولا دولَ ولا أُمَمَ ولا حنينَ إلى شيءٍ من ذلك ـ فإني على ذلك أحنّ إلى ٱلوطنِ ٱلذي لا وجودَ لَهُ في نفسي ولا في نفسِه... وهذا كلُّه لغوٌ... وَٱلمعنى بعْدُ من قولِ ٱبنِ ٱلرومي:

وحَبَّبَ أوطانَ ٱلرجالِ إليهمو مآربُ[1] قضَّاها ٱلشبابُ هنالِكَا
إذا ذكروا أوطانَهُم ذكَّرتْهمو عهودَ ٱلصِّبي فيها فحنُّوا لِذلِكَا

ومنازعةُ ٱلنفسِ هيَ ٱلحنين، ومعنى ٱبنِ ٱلرومي وإنْ كان صحيحاً غيرَ أنَّهُ لا يصلُحُ لِفلسفةِ ٱلوطنيَّةِ في زمنِنا.

وإنَّ في شوقي عيبينِ يذهبانِ بِكثيرٍ من حسناتِه: أحدُهما ٱلمبالغاتُ ٱلتركيَّةُ ٱلفارسيَّةُ مِمَّا تنزعُهُ إليهِ تُركيتُه ولا مبالَغةَ في ٱلدنيا تُقاربُها، كقولِ بعضِ شعرائِهِم إنَّ ٱلنملة بزفرتِها جففتِ ٱلأبحرَ ٱلسبعة... وهو إغراقٌ سخيفٌ لا يأتي بِخيالٍ عجيبٍ كما يتوهمَّون، بلْ يأتي بِهَذَيانٍ عجيب؛ وإذا كانَ ٱلصدقُ يأنفُ مِنَ ٱلكذِب، فإنَّ ٱلكذبَ نفسَهُ يأنفُ من هذا ٱلإغراق؛ ومن هذه ٱلتركيةِ في شوقي إضافاتٌ وهميَّة، هي من تلك ٱلمبالغاتِ كذيلِ ٱلحمارِ من ٱلحمار: قطعةٌ فيهِ ودليلٌ عليهِ وآخرُ لِأولهِ ولا محلَ لها في ذوقِ ٱلبلاغةِ ٱلعربيَّة، كقولِه:

(عيسى ٱلشعورِ) إذا مشى ردّ ٱلشعوبَ إلى ٱلحياةِ

---

(١) مآرب: غايات ومقاصد.

وقولهِ فِي سعد باشا في حادثةِ ٱلاعتداءِ عليه:

ولو زُلْتَ غُيِّبَ (عمرُو الأمورِ) وأخلى المنابرَ سَحْبانُها

ويدخلُ في جناياتِ هذه ٱلتركيَّةِ على شعرِهِ تكرارُهُ ٱلأسماءَ ٱلمقدسَّةَ وَٱلأعلامَ ٱلتاريخيَّة: كيوشعَ وعيسى وموسى وخالدٍ وبدرٍ وسيناءَ وحاتم وكعْبٍ وغيرِها مِمَّا هو شائعٌ في نظمِه ولا تجدُهُ أكثرَ ما تجدُهُ إلَّا ٱلسحرَ كلَّهُ وٱلبلاغَةَ كلَّها، على شرطِ أنْ يكونَ ٱلقلْبُ هو ٱلذي وضعَها في موضعِها، وأنْ لا يضعَها إلَّا على هيئةٍ قلبيَّة، فيكونُ كأنَّهُ وضعَ نفسَهُ في ٱلشعرِ لِيخفِقَ خفقانَهُ ٱلحيَّ في بِضعةِ ألفاظ، وهذا ما لم يُحسنْهُ شوقي - وَٱلعيبُ ٱلثاني أنَّ ألفاظَ شاعرِنا لا يثبتُ أكثرُها على ٱلنقد؛ لضعفِهِ في ٱلصناعةِ البيانيَّة، ثُمَّ لِضعفِ ٱلموهبةِ ٱلفلسفيَّةِ فيهِ وٱعتبارِهِ ٱلتهويلَ شعراً وٱلمبالغةَ بلاغةً وإنْ فسدَتْ بِهما ٱلبلاغةُ وٱلشعر؛ انظرْ إلى قولِهِ من قصيدتِهِ ٱلشهيرة ٢٨ فبراير:

قالوا: ٱلحمايةُ زالَتْ قلْتُ لا عجبٌ قد كانَ باطِلُها فيكم هو ٱلعجبَا

رأسُ ٱلحِمايةِ مقطوعٌ فلا عِدَمتْ كِنانةُ ٱللَّهِ حزْماً يقطعُ ٱلذُنبَا

قلْنا: فإذا قطعَ (رأسُ ٱلحمايةِ) وبقيَتْ منها بقيةٌ ما ذنبٌ أو يدٌ أو رِجل؛ فإنَّ هذه ٱلبقيةَ في لغةِ ٱلسياسةِ ٱلتي تنقذُ ٱلألفاظَ وحروفَها ونقطَ حروفِها... لنْ تكونَ ذنباً ولا يداً ولا رِجلاً، بلْ هي (رأسُ ٱلحِمايةِ) بِعينِه... على أنَّ شوقي إنَّما عكسَ قولَ ٱلشاعر:

لا تقطعَنْ ذنبَ الأفعَى وتُرسلْها إنْ كُنْتَ شَهْماً فأَتْبِعْ رأْسَها ٱلذنبَا

وهذا كلامٌ على سياقِهِ مِنَ ٱلعقل، فما غناءُ قطعِ ذنبِ ٱلأفعى إذا بقيَ رأسُها، وإنَّما ٱلأفعى كلُّها هي هذا ٱلرأس.

ولقد ظهرَ لي من درسِ شوقي في ديوانِهِ أمرٌ عَجِبْتُ لَهُ؛ فإنِّي رأيْتُهُ يأخذُ من أبي تمامٍ وَٱلبحتريِّ وٱلمعريِّ وٱبنِ ٱلروميِّ وغيرِهم؛ فربَّمَا ساواهم وربَّما زادَ عليهم، حتى إذا جَاء إلى ٱلمتنبي وقعَ في ٱلبحر وأدركَهُ ٱلغرق؛ لِأَنَّهُ نشأَ على رهبةٍ منه كما تُشيرُ إليهِ عبارتُهُ في مقدمةِ ديوانِهِ ٱلأول؛ وقد وصفَ خيلَ ٱلتركِ في قصيدةِ أنقرة بِقولِه:

وَٱلصبرُ فيها وفي فرسانِها خُلُقٌ تَوارثُوهُ أباً في ٱلروعِ بعدَ أبِ

كما وُلِدتُمْ على أعرافِها وُلِدَتْ في ساحةِ ٱلحربِ لا في بَاحةِ ٱلرحَبِ

وشعرُهُ هذا كأنَّهُ يرتعدُ أمامَ قولِ ٱلمتبي:

أَقْبَلْتها غُرَرَ ٱلجيادِ كأنَّما أيدي بني عِمْرانَ في جَبَهَاتِها

ٱلـثـابـتـيـنَ فـروسـةً كَـجُـلُـودِهَـا ... فـي ظـهـرِهـا، وَٱلـطـعـنُ فـي لَـبَّـاتِـهـا

فـكـأنَّـهـا نُـتِـجَـتْ قِـيـامـاً تـحـتـهـم ... وكـأنَّـهُـمْ وُلِـدوا عـلـى صَـهـواتِـهَـا

فٱنظرُ أين صِناعةٌ من صناعةٍ وأين شعرٌ من شعر؟ وقالُ في (صدى ٱلحرب) يصفُ مدافعَ ٱلدردنيل:

قذائفُ تخشى مهجةُ ٱلمشي كلَّما ... عـلَـتْ مُـصْـعِـداتٍ أنَّـهـا لا تـصـوَّبُ

إذا هَبَّ حاميها على ٱلسفُن ٱنْثَنَتْ ... وغانِمُها ٱلناجي فكيفَ ٱلمُخيَّبُ

وهذا ٱلاستفهامُ (فكيف ٱلمخيَّبُ) ٱستفهامٌ مُضحِك؛ لِأنَّهُ إذا كانَ ٱلناجي غانماً، فَٱلمخيَّبُ خاسرٌ بلا سؤالٍ ولا فلسفة؛ وَٱلكلمةُ ٱلشعريَّةُ في هذا كلِّهِ هيَ قولُهُ (وغانمُها ٱلناجي)، وهي كَٱلهاربةِ تتوارى[1] خوفاً من بيتِ أبي ٱلطيِّب:

أغــرُّ أعــداؤُهُ إذا ســلِــمــوا ... بِـٱلـهـربِ ٱسـتـكـبـروا ٱلـذي فَـعَـلُـوا

فهذا هوَ ٱلشعرُ لا ذاك؛ على أنِّي أشهدُ أنَّ في قصيدة (صدى ٱلحرب) أبياتاً هي من أسمى ٱلشعر، وكأنَّ شوقي ـ رحمَهُ ٱلله ـ كانَ ينظمُ هذه ٱلقصيدةَ من إيمانِهِ ومن دمِهِ ومن كلِّ مطامعِ دُنياهُ وآخرتِهِ، يبتغي بها ٱلشهرةَ ٱلخالدةَ في ٱلناس، وَٱلمنزلةَ ٱلساميةَ عندَ ٱلخديو، ونباهةَ ٱلشأنِ عندَ ٱلخليفة، وٱلثوابَ عندَ ٱللّٰهِ تعالى؛ ولو هو في أثناءِ عملِها أسقطَ نصفَها أو أكثرَ لَجاءَتْ فريدةٌ في ٱلشعرِ ٱلعربيّ، غيرَ أنَّ ٱلحِرْصَ كانَ يغترُّه، وكانَ طولَ عمرِهِ مفتوناً بِشعرِهِ؛ فجاءَ في هذا ٱلشعرِ بِٱلطَّمِّ وَٱلرِّمِّ[2] كما يقولون؛ ولَهُ كثيرٌ مِنَ ٱلكلامِ ٱلرذلِ ٱلساقطِ بِضعفِهِ وتهافتِهِ؛ ولولا تلك ٱلتركيَّةُ ٱلفارسيَّةُ وضَعفُهُ ٱلبيانيّ، لما رضيَ أنْ يكون ذلك في شعره؛ وليتَ شِعري كيف غابَ عن مثلِهِ أنَّ ٱلتهويلَ وَٱلإغراقَ وٱلإحالةَ مِمَّا يُهَجِّنُ[3] ٱلشعرَ ويذهبُ بِأثرِهِ في ٱلنفس ويُحيلُهُ إلى صِناعةٍ هيَ شرٌّ مِنَ ٱلصناعةِ ٱلبديعيّة؛ لِأنَّ هذه تكونُ في ٱلألفاظ؛ وَٱلألفاظُ تحتملُ ٱلعبثَ ٱلبديعيَّ ويخرجُ بها ٱلأمرُ إلى أنْ تكونَ ضرباً مِنَ ٱلرياضةِ كمعاناةِ بعضِ ٱلمسائل في ٱلجبر وَٱلهندسةِ تركيباً وحلّاً؛ ولكنَّ ٱلمعانيَ لا تحتملُ ذلك؛ إذْ هي تفكيرٌ لا يلتوي إلَّا فسد، وَٱلمعاني ٱلتي يأتي بها ٱلشاعرُ يجبُ أنْ تكونَ فيها مزيةٌ بِخاصَّتِها مِنَ ٱلجمالِ وَٱلبيان، وأنْ تكونَ أخيلتُها هيَ ٱلحقائقَ ٱلتي أولُ مواضِعِها فوقَ حقائقِ ٱلبشر.

---

(١) تتوارى: تختفي.

(٢) الطمّ والرمّ: بقايا ما ينتج من الدمار. (٣) يهجن: يكره ولا يقبل.

وهناكَ ضربٌ آخرُ مِنَ ٱلمبالغةِ يجيءُ من سقوطِ ٱلخيالِ؛ لِأنَّ في ٱلأسفلِ مبالغةً كما في ٱلأعلى، وإنْ كانَتْ مبالغةُ ٱلأسفلِ زيادةً في ٱلسخريةِ منه وَٱلهزءِ بهِ؛ وهذه ٱلمبالغةُ تأتي من جمعِ أشتاتٍ مختلفةٍ وإدماجِها كلِّها في معنًى واحد، كهذا ٱلذي حاولَ أنْ يدمجَ ٱلطبيعةَ كلَّها في حبيبتِهِ فزعَم أنَّ فيها من كلِّ شيء، ونسيَ أنَّ كلَّ قبيحٍ وكلَّ بغيضٍ هو من كلِّ شيء...

إنَّ ٱلخيالَ ٱلشعريَّ يزيغُ[١] بِٱلحقيقةِ في منطقِ ٱلشاعرِ لا ليقلبَها عن وضعِها ويجيءَ بها ممسوخةً مشوَّهة، ولكنْ لِيعتدلَ بِها في أفهامِ ٱلناسَ ويجعلَها تامَّةً في تأثيرِها؛ وتلك من مُعْجِزاتِه؛ إذْ كانَتْ فيهِ قوَّةٌ فوقَ ٱلقوَّةِ عملُهَا أن تَزيدَ ٱلموجودَ وجوداً بِوضوحِهِ مرةً وبغموضِهِ أخرى.

ولِعلماءِ ٱلأدبِ ٱلعربيِّ كلمةٌ ما أراهم فَهِمُوها على حَقِّها ولا نفذوا إلى سرِّها؛ قالوا: أعذبُ الشعرِ أكذبُهُ! يعنونَ أنَّ قِوامَ ٱلشعرِ ٱلمبالغةُ وٱلخيال: ولا ينفذونَ إلى ما وراءِ ذلك، وما وراءَهُ إلَّا ٱلحقيقةُ رائعةً بصِدقِها وجلالِها؛ وفلسفةُ ذلك أنَّ ٱلطبيعةَ كلَّها كذبٌ على ٱلحواسِّ ٱلإنسانيَّة، وأنَّ أبصارَنا وأسماعَنا وحواسَّنا هي عملٌ شِعريٌّ في ٱلحقيقة؛ إذْ تنقلُ ٱلشيءَ على غيرِ ما هو في نفسهِ لِيكونَ شيئاً في نفوسِنا، فيُؤثِّرَ فيها أثرَهُ جمالاً وقُبْحاً وما بينَهما؛ وما هي خمرةُ ٱلشعرِ مثلاً؟ هي رُضابُ ٱلحبيبة؛ ولكنَّ ٱلعاشقَ لو رأى هذا ٱلرُّضابَ تحتَ ٱلمجهر لَرأى... لَرأى مستنقعاً صغيراً. ولو كانَ هذا ٱلمجهرُ أضعافَ ٱلأضعافِ مِمَّا يَجهرُ بِهِ لرأيْتَ ذلك ٱلرُّضابَ[٢] يعجُّ[٣] عجيجاً بِٱلهوامِّ وَٱلحشراتِ ٱلتي لا تخفى بنفسِهَا ولكنْ أخفاها ٱلتدبيرُ ٱلإلهيُّ بأنْ جعلَ رُتبتَها في ٱلوجودِ وراءَ ٱلنظرِ ٱلإنسانيّ، رحمةً مِنَ ٱللَّهِ بِٱلناس؛ فأَعذبُ ٱلشعرِ ما عَمِلَ في تجميلِ ٱلطبيعةِ كما تعملُ ٱلحواسُّ ٱلحيَّةُ بسَرِّ ٱلحياة؛ ولهذا ٱلمعنى كانَ ٱلشعراءُ ٱلنوابغُ في كلِّ مجتمعٍ هم كَٱلحواسِّ لِهذا ٱلمجتْمع.

ومن سخيفِ ٱلإغراقِ في شعرِ شوقي قولُهُ في رثاءِ مصطفى باشا كامل، وهيَ أبياتٌ يظنُّ هو أنَّه أوقعَ كلامَهُ فيهَا موْقِعاً بديعاً مِنَ ٱلإغراب:

فلو أنَّ أوطاناً تُصوَّرُ هيكلاً ... دفنوك بينَ جوانحِ ٱلأوطانِ
أو كانَ يُحملُ في ٱلجوارحِ ميتٌ ... حملوك في ٱلأسماعِ وٱلأجفانِ

---

(١) يزيغ: يحيد ويميل.
(٢) الرضاب: الريق.
(٣) يعجّ: يمتلىء.

أو كـانَ لـلـذكـرِ ٱلـحـكـيـمِ بـقـيَّـةٌ لـم تـأتِ بـعـدُ ـ رُثـيْـتَ فـي ٱلـقـرآنِ

فهذه فروضٌ فوقَ ٱلمستحيلِ بأربعِ درجات... وتصورْ أنت ميتاً يُحملُ في ٱلجوارحِ فيترمَّمُ فيها ويبلى... وما زالَ ٱلشاعرُ في أبياتِهِ يخرجُ من طامَّةٍ[1] إلى طامَّة، حتى قال: رثيْتَ في ٱلقرآن، ولو سئلْتُ أنا إعراب (لو) في هذه ٱلأبياتِ لقلْتُ: إنَّها حرفُ نقصٍ وتلفيقٍ وعجز... وكيف يَسوغُ في ٱلفرضِ أنْ تكونَ لِلقرآنِ بقيةٌ لم تنزل، وَٱللَّهُ تعالى يقول فيه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ وٱلأمرُ أمرُ دينٍ قد تَمَّ، وكتابٍ مقدَّسٍ خُتم، ونبوَّةٍ ٱنْقَضَتْ؛ وٱلشاعرُ ماضٍ في غفلتِهِ لم يتنبهْ لِشيءٍ ولم يدرِ أنَّهُ يَفرضُ فرضاً يهدمُ ٱلإسلامَ كلَّه، بلْ حسِبَ أنَّهُ جاءَ بخيالٍ وبلاغةٍ فارسيَّة؛ وشَوقي في ٱلحقيقةِ كاملٌ كناقص، وإنَّ من معجزاتِ هذا ٱلشاعرِ أنْ يكونَ ناقصاً هذا ٱلنقصَ كلَّهُ ويُكمل.

وفي ٱلشوقيَّاتِ صفحاتٌ تكادُ تُغرِّدُ تغريداً، وفيها صفحاتٌ أخرى تَنِقُّ نقيقَ ٱلضفادع؛ وفي هذا ٱلديوانِ عيوبٌ لا نُريدُ أنْ نقتصَّها؛ فإنَّ ذلك يحتاجُ إلى كتابٍ برأْسِهِ إذا ذَهَبْنَا نأتي بها ونشرحُ ٱلعِلَّةَ فيها ونُخرجُ ٱلشواهدَ عليها، ولكنْ من عُيُوبِهِ في ٱلتكرارِ أنَّ لَهُ بيتاً يدورُ في قصائدِهِ دورانَ ٱلحِمَارِ في ٱلساقية، وهو هذا البيت:

وإنَّـمـا ٱلأمـمُ ٱلأخـلاقُ مـا بـقَـيـتْ فـإنْ هُـمُـو ذهـبَـتْ أخلاقُـهُـم ذهـبـوا

بلْ هذا البيت:

وإنَّـمـا ٱلأمـمُ ٱلأخـلاقُ مـا بـقَـيـتْ فإن تـولَّـتْ مَضَـواْ على آثارِها قُدُما

بلْ هو هذا:

كذا ٱلناسُ بِٱلأخلاقِ يبقى صلاحُهُمْ ويـذهـبُ عـنـهـم أمرُهـم حيـنَ تَـذْهَـبُ

بلْ هو هذا ٱلبيت:

ولا ٱلمصائبُ إذْ يُرمى ٱلرجالُ بها بِـقـاتِـلاتٍ إذا ٱلأخـلاقُ لـم تُـصَـبِ

وقد تكرَّرَ (فيما قرأتُهُ من ديوانِهِ) ثلاثَ عَشْرَةَ مرة، فعادَ ٱلمعنى كَطيلسانِ ٱبنِ حربٍ ٱلذي جعلَ ٱلشاعرُ يُرقّعُهُ ثُمَّ يُرقِّعُهُ حتى ذهبَ ٱلطيلسانُ وبقيَتِ ٱلرُّقع... وَٱلبيتُ ٱلأولُ مِنَ ٱلعَيْنِ ٱلنادر، ولكنْ أفسَدهُ في ٱلباقي سوءُ ملكةِ ٱلحِرْصِ في شوقي، أو ضعفُ ٱلحِسِّ ٱلبيانيّ، أوِ ٱبتذالُهُ ٱلشعرَ في غيرِ موضِعِه، أو وهنُ فكرتِهِ

---

(١) طامة: مصيبة.

ٱلفلسفيَّةِ من جوانبَ كثيرة؛ وهذه الأربعةُ هيَ ٱلأبوابُ ٱلتي يقتحمُ منها ٱلنقدُ على شعرِ صاحبِنا، ولو هو كانَ قد حَصَّنَها بِأَضدادِها لَكَانَ شاعرَ ٱلعربيَّةِ مِنَ ٱلجاهليَّةِ إلى ٱليوم، ولَكانَ عسى أنْ ينقلَ ٱلشعرَ إلى طوْرٍ جديدٍ في ٱلتاريخ؛ ولكنَّ ٱلفوضى وقعَتْ في شوقي من أولِ أمرِه؛ فأُرسلَ إلى أوروبا لِدرسِ ٱلحقوقِ وكانَ ٱلوجْهُ أنْ يُرسَلَ لِدرسِ ٱلآدابِ وٱلفلسفة، وغامَرَ في سياسةِ ٱلأرض، وكانَ ٱلحقُّ أنْ يشتغلَ بِسياسةِ ٱلسماء، وتهالَكَ في مادةِ ٱلدنيا، وكانَ ٱلصوابُ أنْ يتهالَكَ في معانيها.

إِنَّ ٱلفوضى ذاهبةٌ بنا مذاهبَها في ٱلأدبِ وَٱلشعْر، فكلُّ شاعرٍ عندَنا كمؤلفٍ يضعُ روايةً ثُمَّ يُمثلُها وحْدَهُ وعليهِ أنْ يمثلَها وحدَه، فهو يخرجُ على ٱلنظارةِ في ثيابِ ٱلمَلكِ فيُلقي كلاماً ملكيّاً، ثُمَّ ينفتلُ فيجيءُ في ثوبِ ٱلقائدِ فيُلقي كلاماً حربيّاً، ثُمَّ ينقلبُ فيعودُ في هيئةِ ٱلتاجرِ فيُلقي كلاماً سوقيّاً، ثُمَّ يروغُ فيرجعُ في مباذلِ ٱلخادم، ثم... ثم... يتوارى فيظهُر في جلدةِ بربريّ... وهذه ٱلفوضى ٱلتي أهملَتْها ٱلحكومةُ وأهملَها ٱلأمراءُ وَٱلكبراءُ هي حقيقةٌ مُؤْلِمة، ولكنْ هيَ ٱلحقيقة!

***

وشوقي على كلِّ هذا هو شوقي: أولُ مَنِ ٱحتفى بِتاريخِ مِصْرَ مِنَ ٱلشعراءِ، وأولُ مُنْ توسَّعَ في نظمِ ٱلروايةِ ٱلشعريَّةِ فوضعَ منها ستَّ روايات، وهو صاحبُ ٱلآياتِ ٱلبديعةِ في ٱلوصف، وهذه ٱلناحية هيَ أقوى نواحيه، ولقد ألهمْتني قراءةُ ٱلبارع من شعرِهِ في أغراضِهِ وفنونِهِ ٱلمختلفةِ أنَّ ٱللهَ تعالى يُنعمُ على ٱلآدابِ ٱلجميلةِ بأفرادٍ ممتازينَ في جمالِ أرواحِهِم وقوَّتِها، تجِدُ ٱلآدابُ لذَّتَها فيهم وسُموَّها بِهِم، كأنَّ ٱلأمرَ قِياسٌ على ما يقعُ من عِشقِ ٱلناسِ لِبعضِ ٱلمعاني، فيكونُ في ٱلمعاني ما يعشقُ بعضُ ٱلناس، ومتى بلغَ عِشقُ ٱلمعنى لإنسانٍ مبلغَ ٱلاختصاصِ وَٱلوجْدِ ظهَرَ الفنُّ أبدعَ ما يُرى، كأنَّ ٱلمعنى ٱلأدبيَّ يتجمَّلُ ويتحبَّبُ لِيستميلَ هذا ٱلإنسانَ ٱلحاكمَ عليهِ حكمَ ٱلحُبّ.

فيا مِصْرُ، لقد ماتَ شاعرُكِ ٱلذي كانَ يُحاولُ أنْ يخرجَ بِٱلجيلِ ٱلحاضرِ إلى ٱلزمنِ الذي لم يأتِ بعد، فإذا جاءَ هذا ٱلزمنُ ٱلزاخرُ بفنونِهِ وآدابِهِ ٱلعالية، وذكْرتِ مجدَ شِعرِكِ ٱلماضي، فلْيقُلْ أساتذتُكِ يومئذ: كانَ هذا ٱلماضي شاعراً ٱسمُهُ شوقي!

بعدَ شوقي

كانَ يتوجَّهُ ٱلظَّنُ على شوقي ـ رَحَمُه ٱللهُ ـ فيزعمُ ٱلزاعمُ أنَّ شوقي هو يُحيي شِعْرَه، وهو يرفعُ منه، وهو يُشيعُ حولَهُ قوَّةَ ٱلجذبِ من مغناطيسِ ٱلثروةِ وَٱلمكانة، وأنَّ ٱلرجلَ ما أوفى على ٱلشعراءِ جميعاً لِأَنَّهُ أفضلُهُم، بل لأنَّهُ أغناهم؛ ولا من أنَّهُ أقواهم قوَّةً، بلْ لِأَنَّهُ أقواهم حِيْلة؛ وأنَّ ٱلشاعرَ لو جاءَ يومُهُ لَبطلَ ٱلسحرُ وَٱلساحر، فترجعُ ٱلعصا وهيَ عصاً بعدَ أنِ ٱنقلبَتْ حيَّة، ويئُولُ هذا ٱلشعرُ إلى حقيقتِه، وتتَّسِمُ ٱلحقيقةُ بِسِمَتِها؛ كَأَنَّ شوقي كانَ يعملُ لِشعرِهِ بِقوَّةِ ٱلسمواتِ وَٱلأرضِ لا بِقوَّةِ رجلٍ مِنَ ٱلناس.

فقد ذَهَبَ ٱلرجلُ إلى ربِّه، وخلا مكانُه، وبطلَتْ كلُّ وسائِله، ونامَ عن شعرِهِ نوْمَةَ ٱلأبديَّة، وتركَهُ لِمَا فيهِ يحفظُهُ أو يُضيعُهُ إنْ كانَ فيهِ حقٌّ مِنَ ٱلشعرِ أو باطل، وأصبحَ ٱلشاعرُ هو ومالُهُ وجاهُهُ وشعرُهُ في حُكم ٱلكلمةِ ٱلتي يقولُها ٱلزمن، ولم تعدْ هذه ٱلكلمةُ في حُكمِه؛ فهلْ أثبتَهُ ٱلزمنُ أو نفَاه، وهلْ سَلَّمَ لَهُ أو كابَرهُ، وهلْ ردَّهُ في أغمارِ ٱلشعراءِ أو جعلَ ٱلشعراءَ بعدَهُ أَدِلَّةً من أدلتِه؟

* * *

أولُ ما ظهَر لي أنَّ ٱلزمنَ بعدَ شوقي أصبحَ أقوى في ٱلدلالةِ عليهِ وأصدقَ في ٱلشهادةِ لَه، كما تكونُ ٱلظُّلْمةُ بعدَ غِيابِ ٱلقمرِ شرحاً طويلاً لِمعنى ذلك ٱلضياء، وإنْ سطعَتْ فيها ٱلكواكبُ وتوقَّدَ منها شيءٌ وتلألأَ شيء؛ فقد دلَّ ٱلزمنُ على أنَّ ذلك ٱلشأنَ لم يكنْ لِشاعرٍ كَٱلشعراءِ يُقالُ في وصفِهِ إنَّهُ مُفتنٌّ مُجيدٌ مُبدِع؛ ولكنَّهُ للذي يُقالُ فيهِ إنَّهُ صوتُ بِلادِهِ وصيحةُ قومِه.

كانَتْ تحدُثُ ٱلحادثةُ، أو يتخالجُ ٱلناسَ معنًى مِنَ ٱلهمِّ ٱلذي يعمُّهم، أو يستطيرُهم فرحٌ من أفراحِ ٱلوطن، أو يزولُ عظيمٌ مِنَ ٱلعُظَماءِ فيزيدُ صفحةً في ٱلتاريخ، أو ينشأُ كونٌ صغيرٌ من أكوانِ ٱلحضارةِ في ٱلشرقِ كبنكِ مِصْر، أو ترتجُّ زلزلةٌ في ٱلحياةِ ٱلعربيَّةِ أينما ٱرتجَّت، فإذا كلٌّ قد وقعَ في ٱلدنيا بهيئتينِ: إحداهُما

في ذهن شوقي، فيرسلُ قصيدتَهُ ٱلشرودَ ٱلسائرةَ داويةً مجلْجِلَة، فلا تكادُ تظهرُ في مِصْرَ حتى تلتقيَ حولَها ٱلأفكارُ في ٱلعالمِ ٱلعربيِّ كلِّه، فتكونَ شعراً من أسرى ٱلشعرِ وأحسنِه، ثُمَّ تُجاوزُهُ فإذا هي صِلَةٌ من أقوى ٱلصّلاتِ ٱلذهنيَّةِ بينَ أدباءِ ٱلعربيَّةِ وأوثقِها، ثُمَّ تجاوزُها فإذا هيَ عاطفةٌ تجمعُ ٱلقلوبَ على معناها، ثُمَّ تسمو فوقَ هذا كلِّهِ فإذا هيَ من هذا كلِّهِ زعامةُ مِصْرَ على ٱلشعرِ ٱلعربيّ.

وَٱليومَ يقعُ مثلُ ذلك فتتطايرُ بعضُ ٱلفقاقيعِ ٱلشعريَّةِ من هنا وثَمَّ ملونةً منتفِخةً ماضيةً على قانونِ ٱلفقاقيعِ في ٱلطبيعة: من أنَّ لحظةَ وجودِها هيَ لحظةُ فنائِها، وأنَّ ظهورَها يكونُ لِتظهرَ فقد لا لتنفع.

ولسْتُ أُماري في أنَّ بيننا شعراءَ قليلينَ يُجيدون الشعر، ولهم فكرٌ وبيانٌ ومذهبٌ وطريقة: ولكنْ ما منهم أحدٌ إلَّا وهو يشعرُ من ذاتِ نفسِهِ أنَّ ٱلحوادثَ لم تخترْهُ كما ٱختارَتْ شوقي، وأنَّهُ في ٱلحياةِ كَٱلواقفِ على بابِ ديوانٍ ينتظرُ أنْ يُعهدَ إليه، وأنْ يخرجَ لَهُ ٱلتقليد؛ فهو ينتظِرُ وسينتظِر.

وهذا عجيبٌ حتى كأنَّهُ سحرٌ من سحرِ ٱلزمنِ حينَ تفصلُ ٱلدنيا بينَ ٱلعبقريِّ ٱلفَذِّ وبينَ مَنْ يُشبهونَهُ أو يُنافسونَه ـ بِضروبٍ خفيَّةٍ مِنَ ٱلصَّرْفةِ وَٱلعوائِق، لا هي كلُّها من قوَّةِ ٱلعبقريّ، ولا هيَ كلُّها من عجزِ ٱلآخرين.

وأعجبُ من ذا أنْ (شوقي) كانَ في ٱلعالمِ ٱلعربيِّ كأنَّهُ عملٌ تاريخيٌّ متميِّزٌ من أعمالِ مِصْر، غيرَ أنَّهُ مسمًّى بٱسمِ رجل؛ وكانَ على ٱلحقيقةِ لا على ٱلمجاز ـ كأنَّ فيهِ شيئاً من هذه ٱلروحِ ٱلتاريخيَّةِ ٱلمتغلِّبَةِ ٱلتي تَخْلُدُ بِأسماءِ ٱلآثارِ ٱلفنيَّةِ وتُكْسِبُها ٱلعَظمةَ في ٱلوجودَين: مِنْ محلِّها ومن نفسِ ٱلإنسان.

وأعجبُ من هذا وذلك أنّي لم أرَ شعراً عربيّاً يحسُنُ في وصفِ ٱلآثارِ ٱلمِصريَّةِ ما يَحْسُن في وصفِها شعرُ شوقي، حتى لَأَسألُ نفسي: هلْ تختارُ بعضُ ٱلأشياءِ ٱلعظيمةِ وصفَها ومفسِّرَ عظمتِها، كما تختارُ ٱلمرأةُ ٱلجميلةُ عاشقَها ومُسْتَجلي حسنِها؟

* * *

وما بانَ شوقي على غيرِهِ إلَّا بِأنَّهُ رجلٌ أُفرغَ في رأسِهِ ٱلذهنُ ٱلشعريُّ ٱلكبير، فكانَ في رأسِهِ مَصْنعٌ عمَّالُهُ ٱلأعصاب، ومادتُهُ ٱلمعاني، ومهندسُهُ ٱلإلهام؛ وٱلدنيا تُرسِلُ إليهِ وتأخذُ منه؛ وعلامةُ ذلك من كلِّ شاعرٍ عظيمٍ أنْ تَضَعَ دُنياهُ على ٱسمِهِ

شهادتَها لَه؛ ولـهذا ما يكونُ بعضُ ٱلشعراءِ كأنَّ ٱسمَهُ في وزنِ ٱسمِ مملكة، فإذا قلْت: شكسبير وإنجلترا، فهما في ٱلعظمةِ ٱلنفسيَّةِ من وزنٍ واحد، وكذلك ٱلمتنبي وَٱلعالمُ ٱلعربيُّ، وكذلك شوقي ومصر.

قالوا: كانَ ٱلفرزدقُ يُنقِّحُ ٱلشعر، وكانَ جريرٌ يَخْشُبُ (أي يُرسلُ شعرَهُ كما يجيءُ فلا يتنوَّقُ فيهِ ولا يُنقِّحُه)؛ وكانَ خَشْبُ جريرٍ خيراً من تنقيحِ ٱلفرزدقِ ولم يتنبهْ أحدٌ إلى ٱلسرِّ في ذلك؛ وما هو إلَّا ٱلسرُّ ٱلذي كانَ في شوقي بِعينِهِ، سِرُّ ٱلامتلاءِ ٱلروحيِّ قد أُمدَّ بِٱلطبع، وأُعينَ بِٱلذوق، وأُوتيَ ٱلقوَّةَ أنْ يتحوَّلَ بِآثارِهِ في ٱلكلام؛ فكلُّ ما كانَ منْهُ فهو منه: يجيءُ دائماً قريباً بعضُهُ من بعضِه، ولا يكادُ ينفذُ إلى شعورٍ إلَّا اتَّحدَ بِه.

وقد كانَ عمرُو بْنُ ذَرّ ٱلواعظُ ٱلبليغُ إذا تكَلَّمَ في مجلسِهِ نَشَرَ حولَهُ جوّاً من روحِهِ، فيجعلُ كلَّ ما حولَهُ يتموّجُ بأمواجِ نفسيَّة؛ فكانَ كلامُهُ يعصِفُ بِٱلناسِ عَصْفَ ٱلهواءِ بِٱلبحرِ يقومُ بِهِ ويقْعُدُ، وكانَ مِنَ ٱلوُعَّاظِ مَنْ يُقلِّدُهُ ويحكيهِ ولا يدري أنَّهُ بذلك يعرضُ ٱلغلطةَ على ردّها وصوابِها، فقالَ بعضُ مَنْ جالسَهُ وجالسَهُم: ما سمعْتُ عمَرو بْنَ ذرٍّ يتكَلَّم إلَّا ذكرْتُ ٱلنفخَ في ٱلصُّور، وما سمعْتُ أحداً يحكيهِ إلَّا تمنيْتُ أنْ يُجلدَ ثمانين. . .

فَٱلفرقُ روحانيٌّ طبيعيٌّ كما ترى، لا عملَ فيهِ لِأَحدٍ ولا لِصاحبِه، وهو يُشبهُ ٱلفرقَ بين عاصفةٍ مِنَ ٱلهواءِ وبينَ نسيمٍ مِنَ ٱلريحِ يُرسَلانِ على جهتينِ في ٱلبحر؛ ففي ناحيةٍ يلتجُّ ٱلماءُ ويثبُ ويتضرّبُ ويَقصِفُ قصفَ ٱلرعد، وفي ٱلأخرى يترجرجُ ويتزحَّفُ ويقشعرُّ ويهمسُ كَوسواسِ ٱلحلى.

وٱلشأنُ كلُّ ٱلشأنِ لِلكميَّةِ ٱلواجدانيَّةِ في ٱلنفسِ ٱلشاعرةِ أوِ ٱلممتازة؛ فهي ٱلتي تُعيّنُ لِهذه ٱلنفسِ عملَهَا على وجهٍ ما، وتهيئُها لِمَا يُرادُ منها بقدرٍ ما، وتُقيمُها على دأْبِها إلى زمنٍ ما، وتخصُّها بِخصائصِها لِغرضٍ ما؛ وإذا أنْتَ حقَّقْتَ لم تَجِدِ ٱلفروقَ بينَ ٱلنوابغِ بعضِهِم من بعضٍ إلَّا فروقاً في هذه ٱلكميَّةِ ذاتِها مِقداراً من مِقدار؛ ولولا ذلك لكانَ أصغرُ ٱلعلماءِ أعظمَ من أكبرِ ٱلشعراء؛ فقد يكونُ ٱلشاعرُ كأنَّهُ تمليذٌ في ٱلعِلْم، ثُمَّ يكونُ ٱلعِلْمُ كأنَّهُ تلميذٌ لِقلبِ هذا ٱلشاعرِ وعواطفِه؛ ولئنْ عجزَ ٱلنقدُ ٱلعِلْميُّ أنْ ينالَ مِنَ ٱلشاعرِ ٱلعبقريّ، لقديماً عجزَ في كلِّ أمّة.

وقد كانَ فيمَنْ حاولوا إسقاطَ شوقي مَنْ هو أوسعُ منهُ ٱطِّلاعاً على آدابِ

ٱلأُمَم، وأبصرُ بِأغراضِ ٱلشعرِ وحقيقتِه، وكانَ مع ذلك حاسِداً شانئاً قد ثَقَبَ في قلبِهِ ٱلحِقْد؛ وَٱلحاسدُ ٱلمبغضُ هو في ٱتِّساعِ ٱلكلامِ وطُغيانِ ٱلعِبارةِ أخو ٱلمُحِبِّ ٱلعاشق؛ فكِلاهُما يدورُ ٱلدمُ في كبدِهِ معانِيَ ووساوس، وكلاهما يجري كلامُهُ على أصلٍ مِمَّا في سريرتهِ، فلا تجدُ أحدَهما إلَّا عالياً بمَنْ يُحِبّ، ولا تَجِدُ ٱلآخرَ إلَّا نازلاً بِمَنْ يُبْغِض؛ وكانَ هذا ٱلناقدُ شاعراً، فَٱنصافَ شعرُهُ إلى حسِده، إلى بُغضِهِ، إلى ذكائِه، إلى ٱطِّلاعِهِ، إلى جُهدِه، إلى طولِ ٱلوقتِ وتراخي ٱلزمن؛ وهذه كلُّها مفَرقعاتٌ نفِسيَّة... بعضُها أشدُّ من بعضٍ كَٱلبارود، إلى ٱلديناميت، إلى ٱلميلينيت؛ ولكنَّ شوقي كانَ في مرتقًى لم يبلغْهُ ٱلناقد، فَٱنقلبَ جُهْدُ هذا عجزاً، وأصبحَ ٱلبارودُ وٱلترابُ في يدِهِ بمعنًى واحد...

* * *

ومن أعجبِ ما عجْبتُ لَهُ من أمرِ هذا ٱلناقد، أنِّي رأيْتُهُ يُقرِّرُ للِناسِ صوابَ ٱلحقيقةِ بزعمِه، فإذا هو يُقرِّرُ غلطَهُ وجهلَهُ وتعسُّفَهُ؛ وهو في كلِّ ما يكتبُ عن شوقي يكونُ كَٱلذي يرى ٱلماءَ ٱلعذْبَ وعملَهُ في إنباتِ ٱلروضِ وتَوْشِيَتِهِ[1] وتلوينهِ، فيذهبُ يَعيبُهُ لِلْناسِ بأنَّهُ ليس هو ٱلبنزين... ٱلذي يُحِّركُ ٱلسياراتِ وَٱلطيارات!

تناولَ شوقي بعَد موتِهِ فجردَهُ[2] مِنَ ٱلشخصيَّة، أي من حاسَّةِ ٱلشعر، ومن إدراكِ ٱلسرِّ لا يُخلَقُ ٱلشاعرُ ٱلحقُّ لإدراكِهِ وٱلكشفِ عن حقائقِه؛ وكانَ فيما ٱستدلَّ بِهِ على ذلك أنَّ شوقي لا يُحسِنُ وصفَ ٱلربيعِ بمثلِ ما وصَفُه ٱبنُ ٱلرومي في قولِه:

تجدُ ٱلوحوشُ بِهِ كِفَايتَها ... وَٱلطيرُ فيهِ عتيدةُ ٱلطُّعُمِ

فظِباؤُهُ تُضحي بِمُنْتَطَحٍ ... وحمامُهُ يُضحي بِمُخْتَصَمِ

وزعمَ أنَّ ٱبنَ ٱلرومي قد وُلدَ بِحاسَّةٍ لم يُولدْ بِها شوقي، ولهذه ٱلحاسَّةِ ٱنْدَمج في ٱلطبيعةِ فأدركَ سِرَّ ٱلربيع، وأنَّهُ غليَانُ ٱلحياةِ في ٱلأَحياء، فَٱلظباءُ تنتطِحُ مِنَ ٱلأَشَرِ إلخ وبنى على ذلك ناطحةَ سحاب... لا ناطحةَ ظِباء.

أمَّا شوقي ٱلشاعرُ ٱلضعيفُ ٱلعاجزُ لم يُولدْ بمثلِ تلك ٱلحاسَّة، فلو أنَّهُ شهدَ ألفَ ربيعٍ لَمَا أحسَّ هذا ٱلإحساس، ولا ٱستطاعَ أنْ يجيءَ بِهذا ٱلقولِ ٱلمُعْجِز؛ وكلُّ ذلكَ من هذا ٱلناقدِ جهلٌ في جهلٍ في جهل، وأعاليلُ بأضاليلَ بِأباطيل؛ فٱبنُ ٱلروميّ في هذا ٱلمعنى لِصٌّ لا أكثرَ ولا أقلّ، فلم يُحسَّ شيئاً ولا ٱبتدعَ ولا ٱخترع.

---

(١) توشيته: تجيله.

(٢) جرّده: عرّاه.

قالَ ٱلجاحظ: يُقالُ في ٱلخِصْبِ (أي ٱلربيع): نفَشَتِ ٱلعنزُ لأَختِها؛ وخلَّفْتُ أرضاً تَظَالَمُ مِعْزاها (أي تتظالم)؛ قال: لأنَّها تنفشُ شعرَها وتَنْصِبُ رُوقَيْها في أحدِ شِقَّيها فتنطحُ أختَها، وإنَّما ذاك مِنَ ٱلأَشر، (أي حينَ سَمِنَتْ وأخصبَتْ وأعجبتْها نفسُها).

فأنت ترى أنَّ ٱبْنَ ٱلروميِّ لم يصنعْ شيئاً إلَّا أنَّهُ سرقَ ٱلمعنى وٱللفظ جميعاً، ثُمَّ جاءَ للقافيةِ بهذه ٱلزيادةِ ٱلسخيفةِ ٱلتي قاسَ فيها ٱلحمامَ على ٱلظباءِ وَٱلمِعزى... فٱستكرَهَ ٱلحمامَ على أنْ يختصِمَ في زمنٍ بِعينِهِ وهو يختصمُ في كلِّ يوم؛ وإنَّما شرطُ ٱلزيادةِ في ٱلسرقةِ ٱلشعريَّةِ أنْ تُضافَ إلى ٱلمعنى فتجعلَهُ كَٱلمنفردِ بنفسِهِ أو كَٱلمخترَع.

ولَعَمْري لو كانَ لِلطبيعةِ مائةُ صورةٍ في ٱلخيالِ ٱلشعريّ، ثُمَّ قدَّمَ شوقي لِلناسِ تسعاً وتسعينَ منها، لَقالَ ذلك ٱلناقدُ ٱلمتعنِّتُ: لا، إلَّا ٱلصورَةَ ٱلتي لم يقدِّمْها...

* * *

وكانَ شعرُ شوقي في جزالتِهِ وسلاستِهِ كأنَّما يحملُ ٱلعصا لِبعض ٱلشعراءِ يردّهُم بها عنِ ٱلسفْسفةِ[1] وَٱلتخليطِ وَالاضطرابِ في ٱللفظِ وَٱلتركيب؛ فكثُرَ ٱلاختلالُ في ٱلناشئينَ من بعدِه، وجاؤُوا بِٱلكلامِ ٱلمخَلَّطِ ٱلذي تبعثُ عليهِ رخاوةُ ٱلطبعِ وضعفُ ٱلسليقة، فتراهُ مكْشوفاً سَهْلاً ولكنَّ سهولتَهُ أقبحُ في ٱلذوقِ من جَفْوةِ ٱلأَعرابِ على كلامِهِم ٱلوحشيِّ ٱلمتروك.

وَٱلآفةُ أنَّ أصحابَ هذا ٱلمذهبِ يفرضونَ مذهبَهُم فرضاً على ٱلشعرِ ٱلعربيّ، كأنَّهُم يقولونَ لِلناس: دَعُوا ٱللغةَ وخذونا نحن! وليسَ في أذهانِهِم إلَّا ما ٱختلطَ عليهِم من تقليدِ ٱلأدبِ ٱلأوروبيّ، فكلٌّ منهم عابدُ ٱلحياة، مندمجٌ في وحدةِ ٱلكون، يأخذُ ٱلطبيعةَ من يدِ ٱللّهِ ويُجاري ٱللانهاية، ويَفْنَى في ٱللذة، ويُعانقُ ٱلفضاء، ويُغنِّي على قِيثارتِهِ لِلنجوم؛ وبِٱلاختصار: فكلٌّ منهم مجنونٌ لُغَويٌّ...

وأنا فلسْتَ أرى أكثرَ هذا ٱلشعرِ إلَّا كَٱلجِيَف، غيرَ أنَّهُم يقولونَ: إنَّ ٱلجيفةَ لا تُعدُّ كذلك في ٱلوجودِ ٱلأعظم، بلْ هِيَ فيهِ عملٌ تحليليٌّ عِلْميٌّ دقيق؛ لقد

---

(١) السفسفة: الانحطاط.

صدقوا؛ ولكنْ هل يكذبُ من يقول: إنَّ الجيفةَ هيَ فسادٌ ونتنٌ وقَذَرٌ في ٱعتبارِ وجودِنا ٱلشخصيّ، وجودِ ٱلنظرِ وَٱلشمّ، وَٱلانقباضِ وَٱلانبساط، وسلامةِ ٱلذوقِ وفسادِ ٱلذوق!

وكانَ حاسدو شوقي يحسبونَ أنَّهُ إذا أُزيحَ من طريقِهِمْ ظَهرَ تقدُّمُهم؛ فلمَّا أُزيحَ مِنَ ٱلطريقِ ظهرَ تأخرُهم... وهذه وحدَها من عجائبِه ـ رحمه الله ـ.

وقد كان هذا ٱلشاعرُ ٱلعظيمُ هِبةَ ثلاثةِ ملوكٍ لِلشعب، فهيهاتَ ينبغُ مثلُهُ إلَّا إذا عملَ ٱلشعبُ في خِدمةِ ٱلشعرِ وَٱلأدبِ عملَ ثلاثةِ ملوك... وهيهات!

الشعرُ ٱلعربيُّ
في خمسينَ سنة

إذا ٱعتبرْتَ ٱلشعرَ ٱلعربيَّ قبلَ خمسينَ سنةً خَلَتْ (أي قبلَ إنشاءِ ٱلمقتطَف) وتأملْتَ حِلْيَتَهُ ومَعْرِضَه، ونظرْتَ في منهاجِهِ وطريقتِهِ، وتصفَّحْتَ معانِيَهُ وأغراضَهُ ـ لم ترَ منه إلَّا شبيهاً بِما تراهُ من بقايا ٱلورقِ ٱلأخضرِ في شجرةٍ ثَقُلَ عليها ٱلظِّلُّ فهو جامدٌ مُسْتَوْخَم، وحُمَّ في ظلِّها شعاعُ ٱلشمسِ فهو باردٌ يرتعِد[1]، فَٱلحياةُ فيها ضعيفةٌ متهالِكة، لا هي تموتُ كَٱلموتِ ولا هي تحيا كَٱلحياة، وما ثَمَّ إلَّا ماءٌ ناشفٌ ورونقٌ عليلٌ ومنظرٌ مِنَ ٱلشجرةِ ٱلواهنةِ كأنَّهُ جسمُ ٱلربيعِ ٱلمعتلِّ بدَتْ عروقُهُ وعظامُه.

وكانَ ذلك ٱلشعرُ فاسدَ ٱلسبْك، مُتَخَلِّفَ ٱلمنزلَة، قليلَ ٱلطلاوة، بينَ مديحٍ قد أُعيدَ كلُّ معنًى من معانيهِ في تاريخِ هذه ٱللغةِ بِما لا يُحْصِيهِ[2] إلَّا ٱلملائكةُ ٱلموكلونَ بإحصاءِ ٱلكذب، وبين هجاءٍ ساقطٍ هو بعضُ ٱلموادِ ٱلتي تشتعِلُ بِها نارُ ٱللَّهِ يومَ تَطَّلِعُ على ٱلأفئدة، وبينَ غزلٍ مسروقٍ مِنَ ٱلقلوبِ ٱلتي كانَتْ تُحِبُّ وتعشق، وبين وصفٍ لا عيبَ لِموصوفِهِ سواهُ، وشكوى مِنَ ٱلدهرِ يشكو ٱلدهرُ منها، وتحزّنٍ ويأسٍ وندبٍ تجعلُ ديوانَ ٱلشاعرِ كما سمَّى أحدُ ظرفاء ٱلقرنِ ٱلثاني عَشَرَ لِلهجرةِ ديوانَ أحدِ أصحابِه «بالملطمة . . .»، ورثاءٍ كقراءةِ ٱلقرَّاءِ في جِنازاتِ ٱلموتى، لا فيها عِظَةُ السكوتِ ولا فائدةُ ٱلنطق، وتغمرُ كلَّ ذلك أنواعٌ مِنَ ٱلصناعةِ بيِّنَةِ ٱلتعسُّف، ضعيفةِ ٱلتقليد، لا ترى ٱلمتأخِّرَ فيها معَ ٱلمتقدمِ إلَّا قريباً مِمَّا يكونُ عملُ ٱللصِّ في أخذِ ٱلمال، من عملِ صاحبِ ٱلمالِ في جمعِهِ؛ وَٱلعجيبُ أنَّكَ إذا ٱعترضتَ ٱلشعرَ مِنَ ٱلقرنِ ٱلعاشرِ لِلْهجرةِ إلى ٱلقرنِ ٱلثالثَ عَشَرَ (السادسَ عَشَرَ لِلْميلادِ إلى ٱلتاسعَ عَشَرَ) رأيْتَهُ نازلاً من عصرٍ إلى عصرٍ بتدريجٍ مِنَ ٱلضعيفِ إلى ٱلأضعف، حتى كأنَّما ينحطُّ بِقوةٍ طبيعيَّةٍ كقوةِ ٱلجذبِ، كلَّما هبَطَتْ شيئاً أسرعَتْ

---

(١) يرتعد: يرتجف.　　(٢) يحصيه: يعده.

شيئاً إلى أنْ تلصقَ بٱلأرضِ، وبعضُهُم يُسمِّي هذه ٱلعصور بٱلعصورِ ٱلمظلمة، ولم يتنبهْ أحدٌ إلى أنَّ في ٱلأدبِ ناموساً[1] كناموسِ ردِّ ٱلفعل، يُخرجُ أضعفَ ٱلضعفِ من أقوى ٱلقوَّةِ، وأنَّ ٱنحطاطَ ٱلشعرِ في تلك ٱلعصور ـ على أنَّهُ لم يكنْ إلَّا صِناعةً بديعيَّة ـ إنَّما سببُهُ ٱلقوَّةُ ٱلصناعيَّةُ ٱلعجيبةُ ٱلتي كانَتْ لِلشعرِ منذُ ٱلقرنِ ٱلسادسِ إلى ٱلعاشر، بعدَ أنْ نشأَ ٱلقاضي ٱلفاضلُ ٱلمتوفى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م)؛ وكانَ رجلاً مِنَ ٱلرجالِ ٱلذينَ يخلقونَ حدوداً لِلْحوادثِ تبدأُ منها أزمنةٌ وتنتهي عندَها أزمنة؛ ففتنَ ٱلناسَ بِأدبِهِ وصِناعتِه، وصرفَ ٱلشعرَ وَٱلكتابةَ إلى أساليبِ ٱلنكتةِ ٱلبديعيَّة؛ وظهرَتْ من بعدِهِ عِصابتُهُ ٱلتي يُسمونَّها ٱلعصابةَ ٱلفاضليَّة، وما منهم إلَّا إمامٌ في ٱلأدبِ وعلومِه، فكانَ في مِصْرَ ٱلقاضي ٱبْنُ سناءِ ٱلملك، وسراجُ ٱلدينَ ٱلوراق، وأبو ٱلحسينِ ٱلجزار، وأضرابُهم؛ وكانَ في ٱلشام عبدُ ٱلعزيز ٱلأنصاريُّ، وٱلأميرُ مجيرُ ٱلدين بْنُ تميم، وبدرُ ٱلدين يُوسفُ بْنُ لؤلؤِ ٱلذهبيُّ، وأمثالُهم؛ فهذه ٱلعِصابةُ هيَ ٱلتي تُقابلُ في تاريخِ ٱلأدبِ ٱلعربي عِصابةَ ٱلبديعِ ٱلأولى: كمسلم، وَأبي تمَّام، وَٱبنِ ٱلمعتز، وغيرِهم؛ وكلتا ٱلفئتينِ ٱستبدَّتْ بِٱلشعرِ وصرَّفَتْهُ زمناً، وأحدثَتْ فيهِ ٱنقلاباً تاريخيَّاً متميِّزاً؛ بيدَ أنَّ ٱلعِصَابةَ ٱلفاضليَّةَ بلغَتْ مِنَ ٱلصنعةِ مبلغاً لا مطمعَ في مثلِهِ لِأَحدٍ من بعدِها، حتى كأنَّهُم لم يدعوا كلمةً في ٱللغةِ يجرى فيها نوعٌ من أنواعِ ٱلبديعِ إلَّا جاؤُوا بِها وصنعُوا فيها صنعة؛ وكانَ بعضُهُم يأخذُ من بعضٍ ويزيدُ عليه، إلى آخرِ ٱلمائةِ ٱلثامنة، فلم يتركوا باباً لِمَنْ يأتي بعدَهُم إلَّا بابَ ٱلسرَقةِ بِأساليبِها ٱلمعروفةِ عندَ علماءِ ٱلأدب.

ولهذا لا تكادُ تجدُ شعراً عربيّاً بعدَ ٱلقرنِ ٱلتاسعِ إلى أولَ ٱلنهضةِ ٱلحديثة، إلَّا رأيْتَهُ صُوَراً ممسوخةً مِمَّا قبلَهِ؛ وكلُّ شعراءِ هذه ٱلقرونِ ليسوا مِمَنْ وراءَهُم إلَّا كَٱلظلِّ مِنَ ٱلإنسان: لا وجودَ لَهُ من نِفسِه، وهو ممسوخٌ أبداً إلَّا في ٱلندرةِ حينَ يسطعُ في مِرآةٍ صافية؛ ومتى كانَ ٱلشعراءُ لا يُنشئون إلَّا على فنونِ ٱلبلاغةِ وصِناعاتِها، وكانَتْ هذه كلُّها قد فرغَ منها ٱلمتقدِّمون؛ فما ثَمَّ جديدٌ في ٱلأدبِ وَٱلفنِّ إلَّا وِلادةُ ٱلشعراءِ وموتُهُم، وإلَّا تغيرُ تواريخِ ٱلسنين... وهذا إذا لم نعدَّ مِنَ ٱلأدبِ تلك ٱلصناعاتِ ٱلمستحدثةِ ٱلتي ٱبتدعَها ٱلمتأخرون مِمَّا سنُشيرُ إلى بعضِه: كَٱلتاريخِ ٱلشعريِّ وغيرِه.

* * *

---

(١) ناموساً: قانوناً.

إنَّ ٱلفكرَ ٱلإنسانيَّ لا يسيِّرُ ٱلتاريخ، ولا يُقدِّرُ قَدَراً فيه، ولا ينقلُهُ من رسم إلى رسم؛ لِأَنَّهُ هو نفسُهُ كما خُلِقَ مُصْلِحاً خُلِقَ مُفْسِداً وكما يستطيعُ أنْ يُوْجدَ يستطيعُ أنْ يفنى، وكما تَطَّردُ بِهِ سبيلٌ تلتوي بِهِ سبيلٌ أخرى؛ وما أشبهَ هذا ٱلفكرَ في روعتِهِ بِقِطارِ ٱلحديد: يطيرُ كَٱلعاصفةِ ويحملُ كَٱلجبلِ ويُدهِشُ كَٱلمعجزة، وهو مع كلِّ ذلك لا شيءَ لولا ٱلقضيبانِ ٱلممتدانِ في سبيلهِ، يحرفانهِ كِيف ٱنحرفا، ويسيرانِ بِهِ أين ٱرتميا، ويقِفانِ بِهِ حيثُ ٱنتهيا؛ ثُمَّ هو بِجُملتِهِ ينقلبُ لِأَوهى ٱختلالٍ يقعُ فيهما.

لا جَرَمَ كانَتِ ٱلعصورُ مرسومةً معينةَ ٱلنمطِ ذاهبةً إلى ٱلكمالِ أو مُنْحَدِرةً إلى ٱلنقص، حسبَ ٱلغاياتِ ٱلمحتومةِ ٱلتي يسيرُ بها ٱلفكرُ في طريقِ ٱلقدَرِ ٱلذي يقودُه.

فهذه علومُ ٱلبلاغةِ ٱلتي أحدثَتْ فنّاً طريفاً في ٱلأدبِ ٱلعربيّ، وأنشأَتِ ٱلذوقَ ٱلأدبيَّ نشأَتهُ ٱلرابعةَ في تاريخ هذه ٱللغة، بعد ٱلذوقِ ٱلجاهليّ، وَٱلمُحدَثِ، وَٱلمولَّد - هي بعينِها ٱلتي أضعفَتِ ٱلأدبَ وأفسَدتِ ٱلذوقَ وأصارتْهُ إلى رأينا في شعرِ ٱلمتأخرين، كأنَّما ٱنقلبَتْ عليهم علوماً مِنَ ٱلجهل، حتى صارَ ٱلنمطُ ٱلعالي مِنَ ٱلشعرِ كأنَّهُ لا قِيمةَ لَه؛ إذْ لا رغبةَ فيه، ولا حَفْلَ به؛ لِمُباينتِهِ لِمَا أَلِفوا وخُلُوِّهِ مِنَ ٱلنكتةِ وَٱلصناعة؛ وحتى كانَ في أهلِ ٱلأدبِ ومدرِّسِيهِ مَنْ لا يعرفُ ديوانَ ٱلمتنبي!

ولا يصفُ لك معنى ٱلشعرِ في رأي أدباءِ ذلك ٱلعهدِ كقولِ ٱلشيخِ ناصيف ٱليازجي ٱلمتوفى سنةَ ١٨٧١:

مَلَلْتُ مِنَ ٱلقريضِ وقلْتُ يكفي — لِأَمرٍ شابَ قُوَّتَهُ بِضَعْفِ
أُحاوِلُ نكتةً في كُلِّ بَيْتٍ — وذلك قد تُقَصِّرُ عنهُ كفِّي
أَجَلُّ ٱلشعرِ ما في ٱلبيتِ مِنْهُ — غرابةُ نُكْتَةٍ أو نوعُ لُطْفِ

يُريدُ ٱلنكتةَ ٱلبلاغيَّةَ وأنواعَ ٱلبديع، وذلك ما قصَّرَتْ عنهُ كفُّهُ وكفُّ غيرِهِ، لِأَنَّهُ شيءٌ مفروغ منه، حتى لا يأتيَ ٱلمتأخرُ بِمثالٍ فيهِ إلَّا وجَدْتَهُ بِعَينِهِ لِمَنْ تقدَّمُوهُ على صورٍ مختلفةٍ ينظرُ بعضُها إلى بعضٍ وما يأتي ٱختلافُها إلَّا من ناحيةِ ٱلحِذْقِ[1] في إخفاءِ ٱلسرقةِ بِٱلزيادةِ وَٱلنقص، وَٱلإلمام وَٱلملاحظةِ وٱلتعريضِ وَٱلتصريح وغيرِها مِمَّا يعرفُهُ أئمةُ ٱلصناعة، ولا يتسببُ إليهِ بأقوى أسبابِهِ إلَّا مَن رُزِقَ ٱلقوَّةَ على ٱلتوليدِ وَٱلاختراع.

---

(١) الحذق: المهارة.

إذا عرفْتَ ذلك ٱلسرَّ في سقوطِ ٱلشعرِ وَٱضطرابِهِ وسفسفتِهِ[1]، لم تَرَ غريباً ما هو غريبٌ في نفسِه، من أنَّ بدءَ ٱلنهضةِ ٱلشعريَّةِ ٱلحديثةِ لم يكنِ ٱلعِلْمَ ٱلذي يُصحِّحُ ٱلرأي، ولا ٱلاطلاعَ ٱلذي يُؤْتي ٱلفِكْر، ولا ٱلحضارةَ ٱلتي تُهذِّبُ ٱلشعور، ولا نظامَ الحكم ٱلذي يُحدِثُ ٱلأخلاق؛ وإنَّما كانَ ضرْباً مِنَ ٱلجهلِ وقفَ حَدّاً منيعاً بينَ زمنِ فنونِ ٱلبلاغةِ وبين زمانِنا؛ وكانَ كَٱلساحلِ لذلك ٱلموج المتدفِّع ٱلذي يتضرَّبُ على مدّ ثمانمائةِ سنةٍ مِنَ ٱلقرنِ ٱلسادسِ إلى ٱلرابعَ عَشَرَ لِلْهجرة؛ ولِلَّهِ أسرارٌ عجيبةٌ في تقليبِ ٱلأمورِ وخَلْقِ ٱلأحداثِ ودفعِ ٱلحياةِ ٱلفكريَّةِ من نمطٍ إلى نمط، وإخراجِ ٱلعقْلِ ٱلمبتدعِ من هيئةٍ إلى هيئة، وجعلِ بعضِ ٱلنفوسِ كَالينابيعِ لِلتيارِ ٱلإنسانيِّ في عصرٍ واحدٍ أو عصورٍ مُتَعاقِبة، وإقامةِ بعضِ ٱلأشخاصِ حُدوداً على ٱلأزمنةِ وٱلتواريخ؛ فكانَ ٱلذي أحدثَ ٱلانقلابَ ٱلرابعَ في تاريخِ ٱلشعرِ ٱلعربيّ، وأنشأَ ٱلذوقَ نشأتَهُ ٱلخامسة، هُوَ ٱلشاعرَ ٱلفحلَ محمود باشا ٱلبارودي، ٱلذي لم يكنْ يعرفُ شيئاً ألبتةَ من علوم ٱلعربيَّةِ أو فنونِ ٱلبلاغة؛ وإنَّما سَمَتْ بِهِ ٱلهِمَّةُ لِأنَّهُ حادثةٌ مرسلةٌ لِلْقلبِ وَٱلتغيير، فأبعدَهُ ٱللَّهُ من تلك ٱلعلوم، وأخرجَهُ لنا من دواوينِ ٱلعرب، كما نشأَ مثلُ ٱبنِ ٱلمقفعِ وَٱلجاحظِ من فُصحاءِ ٱلأعراب، ويسَّرَ لَهُ من أسبابِ ذلك ما لم يتَّفِقْ لِأحدٍ غيرِهِ مِمَّا لا محلَّ لِبَسطِهِ هنا، ولا تكادُ تجدُ شعرَ أديبٍ متأخرٍ يستقيمُ لَهُ أنْ يذكرَ في شعرِ كلِّ عصرٍ من لدنِ زمنِنا إلى صدرِ ٱلإسلامِ ثُمَّ لا تنحطُّ مرتبتُهُ - غيرَ كلام ٱلباروديِّ هذا؛ وهو وحْدهُ ٱلذي يُقابلُ ٱلقاضيَ ٱلفاضلَ في أدوارِ ٱلتاريخِ ٱلأدبيِّ، على بعدِ ما بينهما؛ لِأَنَّ شعرَهُ هو ٱلذي نسخَ آيةَ ٱلصناعة، ودارَ في ألسنةِ ٱلرواة، وكانَ ٱلمثلَ المحتذى في القوّةِ وَٱلجزالةِ ودِقَّةِ ٱلتصويرِ وتصحيحِ ٱللغة؛ ولم يشأ ٱللَّهُ أنْ يسبقَهُ إلى ذلك أحد؛ لِأنَّ ٱلنهضةَ ٱلاجتماعيَّةَ في هذا ٱلشرقِ ٱلعربيِّ كانَتْ في عِلْمِ ٱللَّهِ مرهونةً بِأوقاتِها وأسبابِها؛ ولولا ذلك لَسبَقَهُ شاعرُ ٱلقرنِ ٱلحادي عَشَرَ ٱلأميرُ منجكُ ٱلمتوفى سنة ١٠٨٠هـ (١٦٦٩م)؛ فقدِ ٱتَّفقَتْ لِهذا ٱلأميرِ نشأةٌ كنشأةِ ٱلباروديّ، فكانَ كثيرَ ٱلحِفْظِ من دواوينِ ٱلعصورِ ٱلأولى، وكانَ يُقلِّدُ أبا فِراسٍ ٱلحمدانيَّ ويحتذي على مِثالِهِ؛ ولكنَّ عصرَهُ كانَ في ٱلعصورِ الهالكة، فخرجَ ٱلشاعرُ ضعيفاً كما يخرجُ كلُّ شيءٍ في غيرِ وقتِهِ ولِغيرِ تَمامِهِ وبِغيرِ وسائلِهِ ٱلطبيعيَّة.

---

(١) سفسفة: انحطاط.

ونشأتِ ٱلعِصابةُ ٱلبارودِيَّةُ وفيها إسماعيلُ صبري وشوقي وحافظٌ ومطرانُ وغيرُهُم، وأدركوا ما لم يُدركْهُ ٱلبارودِيُّ وجاؤوا بِمَا لم يجىءْ بِه، وَٱتَّصلَ ٱلشعرُ بعضُهُ ببعض، وسارَتْ بِهِ ٱلصحف، وتناقلتْهُ ٱلأفواهُ، وأُنسى ذكرُ ٱلبلاغةِ وفنونِها بِٱلنشأةِ ٱلمدرسيَّةِ ٱلحديثةِ ٱلتي جعلَتْ من تركِ ٱلبلاغةِ بلاغة؛ لِأَنَّها صادفَتْ أوائلَ ٱلانقلابِ ليسَ غير؛ وبذلك بطلَ في مِصْرَ عصرُ أبي ٱلنصرِ وَٱلليثي وَٱلساعاتي وَٱلنديم وطبقتِهم، وفي ٱلشام عصرُ ٱليازجيِّ وَٱلكستي وَٱلأنسي وَٱلأحدب وأضرابِهِم، وفي ٱلعراق عهدُ ٱلفاروقيِّ وَٱلموصليِّ وٱلتميميِّ وسواهم؛ وٱستقلَّ ٱلشعرُ عربياً وخرجَ كما يخرجُ ٱلفكرُ ٱلمخترعُ ماضياً في سبيلٍ غيرِ محدودة.

* * *

لا ريبَ في أنَّ ٱلطرقَ ٱلتي تُتَّبَعُ في تربيةِ ٱلأُمَّةِ وتكوينِ رُوحِها ٱلعالميَّة لا بُدَّ أنْ يكونَ لها أثرٌ بَيِّنٌ في شعر شعرائِها؛ فإنَّما ٱلشعرُ فكرٌ يَنبضُ وعاطفةٌ تختلِج، وما أرى ٱلشاعرَ ٱلحقَّ من أُمَّتِهِ إلَّا كَٱلزهرةِ ٱلصغيرةِ من شجرتها: إنْ لم تكنْ خُلاصةُ ما فيها مِن ٱلقوَّة، فهي خُلاصةُ ما في ٱلشجرِ من معنى ٱلجمالِ ولونِهِ وملمسِه، ولا تَعدَمُ مَعَ هذه ٱلصفةِ أنْ تكونَ وحدَها الكوكبَ ٱلساطِعَ في هذا اٱلأفقِ ٱلأخضرِ كُلِّه.

ولقد ٱطَّرَدَتِ ٱلنهضةُ منذُ خمسينَ سنةً أو حولَها، في ٱلأدبِ وَٱلعِلْم؛ وفي ٱلفِكْرِ وَٱلفنِّ وَٱلصناعة؛ وَٱستوى لنا من ذلك ما لم يتَّفِقْ لِهذهِ ٱلأُمَّةِ في عَصْرٍ مِنْ عصورِها، حتى بلغْنا من ذلك أنْ صِرْنا كأنَّما فتحْنَا أرضاً من أوربا وتغلَّبْنَا عليها، أو أنشأْنا أوربا عربيةً وما نزال نُعمرُها وننقلُ إليها ٱلعلومَ وَٱلفنونَ وٱلآداب، ونستخرجُ لها ٱلأمثلَة وَٱلأساليب؛ غيرَ أنَّ ٱلشعرَ ٱلعربيَّ مع هذا كلِّه لم يوفَّ قِسْطَهُ ولم يبلغْ مبلَغُه في مُجَاراةِ هذه ٱلنهضةِ قُوَّةَ ٱبتكارٍ وسلامةَ ٱختراع وحُسْنَ تنوّع، لسببين: الأولُ أنَّهُ لا يزالُ كما كانَ منذُ فسدَتِ ٱللغةُ ٱلعربيَّة: شعرَ فِئةٍ لا شعرَ أُمَّة، فهو يُوضعُ لِلْخاصَّةِ لا لِلشعب. ويدورُ مَعَ ٱلأغراضِ وٱلحاجاتِ لا مَعَ ٱلطبائعِ وَٱلأذواق؛ وذلك لو تأملْتَ، هو من بعضِ ٱلأسرارِ في سموِّ هذا ٱلشعرِ وقُوَّةِ إحْكامهِ وإبداع تنسيقِهِ وجمالِ توشيحِهِ منذُ ٱلدولةِ ٱلعباسيَّةِ إلى ٱلقرنِ ٱلخامس؛ ثُمَّ ٱنحطاطِهِ بعدَ ذلك وتدنِّيهِ شيئاً فشيئاً حتى بلغَ ٱلدركَ ٱلأسفلَ في ٱلعصورِ ٱلمتأخرة؛ إذْ كانَتِ ٱلفِئةُ ٱلتي يُوضَعُ لها ويصفُ أهواءَها وأغراضَها وتتقبَّلُهُ وتُثيبُ[1] عليهِ وتُحسِنُ وزنَهُ ونقدَهُ، هي في ٱلناحيتينِ كما ترى من طرفي ٱلمنظارِ ٱلذي يُقرِّبُ

---

(١) تُثيب: تكافىء.

ٱلبعيد، فهي بِٱلنظر في أولِهِ واضحةٌ جليَّةٌ مُترامِيَةٌ إلى ٱلجهات، وبِٱلنظرِ في آخرِهِ ضئيلةٌ مَمْسُوحَةٌ لَا تَكادُ تُعرَف. وما أقضى ٱلعجبُ من غفلةِ بعضِ ٱلكُتَّابِ في هذا ٱلزمنِ إذْ يُناهِضونَ ٱلعربيَّةَ ويزْرَوْنَ على ٱلفصاحةِ ويعملونَ على ٱنكماشِ سوادِها وتقليلِ أهلِها. وما يدرون أنَّهم بِذلك يُسقطونَ ٱلشعرَ قبلَ ٱلكتابةِ على خطإٍ أو عَمْدٍ وقَلَّما تجدُ واحداً من هؤلاءِ يُحسِنُ مُعالجةَ ٱلشعر، فإنْ أصَبْتَ لَهُ شعراً وجدْتَهُ لا غَناءَ فيهِ أو في أكثرِه، وأين وضعْتَ يدَك منهُ لم تُخطِىءْ أنْ تقعَ على مَثَلٍ مِمَّا يُمثَّلُ بِهِ لِعيبٍ من عيوبِ ٱلبلاغة.

وهذه ٱلنهضةُ ٱلتي نحن في صددِ ٱلكلام عنها أوسعُ مدًى وأوفرُ أسباباً من تلك ٱلتي كانَتْ في ٱلدولة ٱلعباسيَّة، بِمَا دخلَها من أدبِ كلِّ أُمّة، وما ٱتّصلَ بها من أساليبِ ٱلفكر: ولكنْ أينَ رِجالُ ٱلفصاحةِ ٱلمتمكِّنون منها، ٱلمتعصِّبون لها ٱلعاملون على بَثِّها في ٱلألسنة، مَعَ أنَّ عصرَهم أوسعُ من عَصْرِ ٱلرواة، بِكثرةِ ما أخرجَتِ ٱلمطابعُ من أُمَّهاتِ ٱلكتبِ وَٱلدواوين، حتى أغنَتْ كَلُّ مطبعةٍ أدبيَّةٍ عن راوِيةٍ من أئمةِ ٱلرواة.

وَٱلسببُ ٱلثاني ٱلذي من أجلهِ لا يزالُ ٱلشعرُ متخلِّفاً عن منزلتِهِ ٱلواجبةِ لَهُ ـ سقوطُ فَنِّ ٱلنقدِ ٱلأَدبيِّ في هذه ٱلنهضة؛ فإنَّ من أقوى ٱلأسبابِ ٱلتي سَمَتْ بِٱلشعرِ فيما بعدَ ٱلقرنِ ٱلثاني وجعلَتْ أهلَهُ يُبالِغون في تجويدِهِ[1] وتهذِيب، كثرةَ ٱلنقَّادِ وٱلحُفَّاظ. وتتَّبعُهم على ٱلشعراء، وَٱعتبارَ أقوالِهِم، وتدوينَ ٱلكتبِ في نقدِهِم، كَٱلذي كانَ في دروسِ ٱلعلماء وحلقاتِ ٱلروايةِ ومجالسِ ٱلأدب، وَكَٱلَّذي صنَّفَهُ مهلهلُ بْنُ يموتٍ في نقدِ أبي نُواسٍ وأحمدَ بْنِ طاهر، وٱبنُ عمَّارٍ في أبي تمَّام، وبشرُ بْنِ تميم في ٱلبحتريِّ، وَٱلآمدْيُّ في ٱلموازنة، وَٱلحاتميُّ في رسَالتِهِ، وَٱلجُرجانيُّ في ٱلوساطة، وما لا يُحصى من مثلِ هذه ٱلكتبِ وٱلرسائل، وأنت مِنَ ٱلنقدِ في هذه ٱلنهضةِ بينَ ٱثنين: صديقٍ هُوَ ٱلصديقُ أو عدوٍّ هو ٱلعدوّ... فإنِ ٱبتغيْتَ لهما ثالثاً فكاتبٌ لا تتعادلُ وسائلُ ٱلنقدِ فيهِ فلا خيرَ في كلامِهِ، أمَّا ٱلناقدُ ٱلذي ٱستعرضَ عِلْمَ ٱلعربيَّةِ وآدابَها، وكانَ شاعراً كاتباً قويَ ٱلعارضَةِ[2]، دقيقَ ٱلحِسِّ ثاقِبَ ٱلذهن، مستويَ ٱلرأي بصيراً بِمذاهبِ الأدبِ متمكِّناً من فلسفةِ ٱلنقدِ مبرِّزاً في ذلك كلِّه ـ فهذا ٱلخيالُ يُذكرني كلمةً قلْتُها يوماً لِلباروديِّ إذْ قلْت لَهُ: إنَّ

---

(١) تجويده: تحسينه وإتقانه.

(٢) قوي العارضة: متمكن من ملكته الشعرية الفنية وحجته.

الشاعرَ لا يكونُ لِسانَ زمنهِ حتى يُوجَدَ معَهُ ٱلناقدُ ٱلذي هو عقلُ زمنِه؛ فقال: ومَنْ ناقدُ ٱلشعرِ في رأيك؟ قُلْت: الكاتبُ وهو شاعر، وَٱلأديبُ وهو فيلسوف، وٱلمُصلِحُ وهو موفَّق؛ فكأنَّما هوَّلْتُ عليه حتى قال ـ رحمهم الله ـ «فين دا كلّه؟» قُلْت: فلعلّهُ لا يُنشىءُ لنا هذا ٱلعقلَ ٱلملتهبَ إلّا ٱلعصرُ ٱلذي يُوجِدُ لنا أسطولاً كأُسطولِ إنجلترا.

* * *

وعلى ما نزلَ بِٱلشعرِ ٱلعَصْرِيِّ من هذينِ ٱلسببينِ فقدِ ٱستقلَّتْ طريقتُهُ وظهَرَ فيه أثرُ ٱلتحوُّلِ ٱلعِلْمِيِّ وَٱلانقلابِ ٱلفكري، وعَدَلَ بهِ أهلُهُ إلى صُوَرِ ٱلحياةِ بعدَ أنْ كانَ في أكثرِهِ صُوَراً مِنَ ٱللغة، وأضافوا بِهِ مادةً حسنةً إلى مجموعةِ ٱلأفكارِ ٱلعربيَّة، ونوَّعوا منه أنواعاً بعدَ أنْ كانَ كَٱلشيءِ ٱلواحد، وٱتَّسعَتْ فيهِ دائرةُ ٱلخيالِ بما نقلوا إليهِ مِنَ ٱلمعاني ٱلمترجَمَةِ من لغاتٍ مختلفة، وهو من هذه ٱلناحيةِ أوسعُ من شعرِ كلِّ عصرٍ في تاريخ هذه ٱللغة: إذْ كانَ ٱلأولون إنَّما يأخذونَ مِنَ ٱليونانيَّةِ وَٱلفارسيَّة، ثُمَّ أخذَ ٱلمتأخِّرونَ قَليلاً قليلاً مِنَ ٱلتركيَّة؛ أمَّا في ٱلعهدِ ٱلأخيرِ فيكادُ ٱلعقلُ ٱلإنسانيُّ كلُّهُ يكونُ مادةَ ٱلشاعرِ ٱلعربيِّ، لولا ضعفُ أكثرِ ٱلمُحْدثينَ من ٱلنشءِ ٱلجديدِ في ٱلبيانِ وأساليبِهِ، وبُعدُهُم من ذوقِ ٱللغةِ وَٱعتياصِ[1] مرامِها عليهم، حتى حَسِبُوا أنَّ ٱلشعرَ معنًى وفكر، وأنَّ كلَّ كلام أدَّى ٱلمعنى فهوَ كلام، ولا عليهم مِنَ ٱللغةِ وصناعتِها، وَٱلبيانِ وحقيقَتِهِ؛ وحَتَى صِرْنَا ـ وٱللّهِ ـ من بعضِ ٱلغثاثةِ وَٱلركاكةَ وٱلاختلالِ في شرٍّ من توعُّرِ نظم ٱلجاهليَّة وجفاءِ ألفاظِهِ وكزازةِ معانيهِ؛ وهلَ ثَمَّ فرقٌ بين أنْ تنفرَ ٱلنفسُ مِنَ ٱلشعرِ لِأنَّهُ وعرُ ٱلألفاظِ عسيرُ ٱلاستخراج شديدُ ٱلتعسُّف، وبينَ أنْ تمجَّهُ لِأنَّهُ ساقطُ ٱللفظِ، متسوِّلُ ٱلمعنى، مضطربُ ٱلسِّياق؟ ثُمَّ تراهم يُنجزون ٱلشعرَ كلَّهُ على ٱختلافِ أغراضهِ نمطاً واحداً من تسهيل ٱللفظِ ونزولهِ، حتى كأَنَّ هذه ٱللغةَ لا تنوُّعَ في ألفاظِها وأجراسِ ألفاظِها[2]، معَ أنَّ هذا ٱلنوعَ من أحسنِ محاسِنِها وأخصِّ خصائِصها دونَ غيرِها مِنَ ٱللغات، كما أنَّ كلَّ تنوُّعٍ هو من أبدعِ أسبابِ ٱلجمالِ وَٱلقوَّةِ في كلِّ فنٍّ؛ ولا يدري أصحابُنا أنَّ كلَّ ذلكَ من عملِهِم عبثٌ في عبثٍ[3] إذا هم لم يُعطوا ٱلشعرَ حقَّهُ من صِناعةِ ٱللغة؛ وهذا شاعرُ ٱلفُرْسِ ٱلشهيرُ مصلحِ ٱلدينِ ٱلسعديُّ ٱلشيرازيُّ

---

(١) اعتياص: صعوبة.
(٢) أجراس ألفاظها: موسيقاها.
(٣) عبث: لعب، لا طائل منه.

إمامٌ من أئمةِ ٱلبلاغةِ في قومِهِ لا يدفعُ مكانهُ وشعرَهُ مثَلٌ من أسمى ٱلأمثلةِ في جمالِ ٱلمنطقِ ٱلروحيّ، وليسَ في ٱلناسِ إلّا من يُسلِّمُ لَهُ هذا ٱلمحلَّ مِنَ ٱلنبوغ، وهو مع ذلك حينَ نظمَ ٱلشعْرَ لم تنفعْهُ نافعةٌ من حِكمةٍ أو خيالٍ أو فِكْر، وذهبَ في ٱلتعسُّفِ كلَّ مذهب، وحملَ على كلامِهِ مِنَ ٱلعيوبِ ما لم يسلَمْ معهُ إلّا صِحّةُ ٱلوزن، كقولِهِ في وصفِ نكبةِ بغدادَ وتخريبِها:

فَقَدْ ثُكِلَتْ أمُّ ٱلقُرى[1] ولكعْبةِ ... مدامعُ في ٱلميزابِ[2] تُسْكَبُ في ٱلحجرِ
علـى جُدُرِ ٱلمستنصريَّة ندبةٌ ... على ٱلعلماءِ الراسخينَ ذوي ٱلحجرِ
نوائبُ[3] دَهْرٍ لَيْتَني مِتُّ قبلَهَا ... ولم أرَ عدوانَ ٱلسفيهِ على ٱلخَبَرِ
محابرُ تبكي بعدَهُمْ بِسَوادِها ... وبعضُ قلوبِ ٱلناس تألفُ بِٱلغدرِ
لحى اللَّهُ[4] مَنْ تُسدي[5] إليهِ بنِعْمَةٍ ... وعندَ هُجومِ ٱليأسِ أخلَكَ من حَبَرِ

فٱنظرْ أي شعر هذا في ٱلركاكةِ وٱلهذيانِ وٱلسُّخْفِ، وفي خمودِ ٱلفِكْرِ وضعفِ ٱلروحِ وذهابِ ٱلرونَق[6]، وتأمَّلْ كيف هوى بهِ ٱلسعديُّ من مكانتِهِ ٱلتي بوَّأهُ إياها أدبُهُ ٱلعالي، وكيفَ سقطَ إلى حيثُ ترى، مَعَ أنَّهُ في مِحرابِ ٱلفكرِ إمامٌ وراءَهُ صفوفٌ من عصورِ ٱلبلاغةِ.

ومن هٰهنا نشأَ في أيامِنا ما يُسمُّونَهُ «ٱلشعرُ ٱلمنثور»، وهي تسميةٌ تدلُّ على جَهْلِ واضعِها ومَنْ يرضاها لِنفسِه؛ فليسَ يضيقُ ٱلنثرُ بِٱلمعاني ٱلشعريَّة، ولا هو قد خلا منها في تاريخ ٱلأدب؛ ولكنَّ سرَّ هذه ٱلتسميةِ أنَّ ٱلشعرَ ٱلعربيَّ صِناعةٌ موسيقيَّةٌ دقيقةٌ يظهرُ فيها ٱلاختلالُ لِأوهى عِلَّةٍ وَلِأيسرِ سبب، ولا يُوَفَّقُ إلى سبكِ ٱلمعاني فيها إلّا من أمدَّهُ ٱللَّهُ بِأصحِّ طبعٍ وأسلمِ ذَوْقٍ وأفصحِ بَيان؛ فَمِنْ أجلِ ذلك لا يَحتملُ شيئاً من سخفِ ٱللفظِ أو فسادِ ٱلعِبارةِ أو ضعفِ ٱلتأليف، ولا تستوي فيهِ أسمى ٱلمعاني مع شيءٍ من هذه ٱلعِلَلِ وأشباهِها، وتراهُ يُلقِي بِمثلِ (ٱلسعديّ) مِنَ ٱلفلكِ ٱلأعلى إلى ٱلحضيض، لا يُقيمُ لَهُ وزناً ولا يرعى لَهُ مَحَلاً ولا يقبلُ فيهِ عذراً ولا رُخْصة؛ غيرَ ٱلنثرِ يحتملُ كلَّ أسلوب، وما من صورةٍ فيه إلّا ودونَها صورةٌ إلى أنْ تنتهيَ إلى ٱلعاميِّ ٱلساقطِ وٱلسوقيِّ ٱلبارد؛ ومن شأنِهِ أنْ ينبسطَ وينقبِضَ على ما

---

(١) أم القرى: مكة.
(٢) الميزاب، جمعه ميازب،. وهو أنبوب تجري فيه المياه.
(٣) نوائب: مصائب.
(٤) لحى الله فلاناً: قبّحه ولعنه.
(٥) تُسدي: تقدّم.
(٦) الرونق: الطلاوة.

شِئْتَ منه، وما يتَّفِقُ فيهِ مِنَ ٱلحُسْنِ ٱلشعرِيِّ فإنَّما هو كَٱلذي يتَّفِقُ في صوتِ ٱلمطربِ حينَ يتكلَّمُ لا حينَ يُغني: فمَنْ قال: «الشعرُ المنثور» فٱعلَمْ أنَّ معناهُ عجزُ ٱلكاتبِ عنِ ٱلشعرِ من ناحيةٍ وٱدّعاؤُهُ من ناحيةٍ أخرى.

* * *

وَٱلذي أراهُ جديداً في ٱلشعرِ ٱلعربيِّ مِمَّا أبدعتْهُ هذه ٱلنهضةُ أشياء:

أولاً: هذا ٱلنوعُ ٱلقصصيُّ ٱلذي تُوضعَ فيهِ ٱلقصائدُ ٱلطوال، فإنَّ ٱلآدابَ ٱلعربيَّةَ خاليةٌ منه؛ وكانَ ٱلعربُ ومَنْ بعدَهم إذا ذكروا ٱلقصةَ ألمُّوا بها ٱقتضاباً[1] وجاءُوا بها في جملةِ ٱلسياقِ على أنَّها مثلٌ مضروبٌ أو حِكمةٌ مرسَلَةٌ أو بُرهانٌ قائمٌ أوِ ٱحتجاجٌ أو تعليلٌ وما جرى هذا ٱلمجرى مِمَّا لا تَرِدُ فيهِ ٱلقصةُ لِذاتِها ولا لِتفصيلِ حوادثِها، وهو كثيرٌ في شعرِ ٱلجاهليِّينَ وٱلإسلاميِّين، وٱلجيِّدُ منه قليلٌ حتى في شعرِ ٱلفحول؛ فإنَّ طبيعةَ ٱلشعرِ ٱلعربيّ تأباه؛ وَٱلذينَ جاءُوا بِهِ مِنَ ٱلعصريِّينَ لا يجّدون منه إلاَّ قطعاً تعرضُ في ٱلقصيدةِ وأبياتاً تتَّفِقُ في بعضِ معانيها وأغراضِها مِمَّا يجري على أصلِهِ في سائرِ ٱلشعرِ طالَ أو قَصُر؛ وَٱلسببُ في ذلك أنَّ ٱلقصةَ إنَّما يتمُّ تمامُها بِٱلتبسُّطِ في سردِهَا وسياقةِ حوادثِها وتسميةِ أشخاصِها وذكرِ أوصافِهِم وحِكايةِ أفعالِهِم وما يداخلُ ذلك أو يتَّصلُ بهِ، وإنَّما بُنِيَ ٱلشعرُ ٱلعربيَّ في أوزانِهِ وقوافيهِ على ٱلتأثيرِ لا على ٱلسرْد، وعلى ٱلشعورِ لا على ٱلحِكاية؛ ولا يُريدونَ منهُ حديثَ ٱللسانِ ولكنْ حديثَ ٱلنفس؛ فهو في ٱلحقيقةِ عندَهم صِناعةٌ روحيَّةٌ يصنعون بِها مقاديرَ مِنَ ٱلطرَبَ وٱلاهتزازِ وٱلفرحِ وٱلحزنِ وَٱلغَضبِ وٱلحميَّةِ وَٱلفخرِ وَٱلاستطالةِ ونحوِها مِنَ ٱلمعاني ٱلتي هيَ بسببٍ مِنْ أسبابِ ٱلانفعالِ وَٱلنزعة؛ فلا جَرَمَ كانَ سبيلُهُم إلى ذلك هو ٱلتحديدَ لا ٱلإطلاق، وضبطَ ٱلمقاديرِ لا ٱلإسراف؛ إذْ كانَ من شأنِ هذه ٱلأمورِ في طبيعةِ ٱلنفسِ أنَّ ما زادَ منها عن مِقدارِهِ تحوّلَ وَٱنقلبَ في تأثيرِه، وذلك هو ٱلسببُ أيضاً في أَنَّ هذا ٱلشعرَ ما لم يكُنْ قائماً على ٱختيارِ ٱللفظِ وصنعةِ ٱلعِبارةِ وتصفيتِها وتهذيبِها وٱختيارِ ٱلوزنِ للمعنى وإدارةِ ٱلفِكْرِ على ما يلفِتُ من ضروبِ ٱلمجازِ وَٱلاستعارةِ ونحوِها ـ سقطَ وركَّ بِمِقْدَارِ ما ينقصُهُ من ذلك؛ وليسَ ٱلشأنُ في إطالةِ ٱلقصيد؛ فمِنَ ٱلشعراءِ مَنْ نظمَ رويًّا واحداً في أربعةِ آلافِ بيت، ومنهم مَن نظمَ تفسيرَ ٱلقرآنِ كلِّه؛ ولكنَّ

---

(١) اقتضاباً: اختصاراً.

عيبَ مثلِ هذا ٱلشعرِ في ٱلعربيَّةِ أنَّهُ شعر. . . وما أخملَ ٱبنَ ٱلرومي على جلالةِ محلِّهِ إلاَّ طولُ قصائِدِهِ وسياقُهُ ٱلكلامَ فيها مع ذلك على ما يُشبهُ أسلوبَ ٱلحِكايةِ وخروجِها مخرجَ ٱلمقالةِ يتحدَّثُ بها، فلم تحيَ لَهُ إلاَّ مقطعاتٌ وأبياتٌ وماتَ سائرُ شعرِهِ وهو حيٌّ وميتٌ على ٱلسواء، حتى قالَ فيهِ صاحبُ ٱلوساطة: «ونحن نستقرىءُ ٱلقصيدةَ من شعرِهِ وهيَ تُناهِزُ ٱلمائةَ أو تُربي أو تضعف، فلا نعثرُ فيها إلاّ بِٱلبيت ٱلذي يروقُ أو ٱلبيتين، ثُمَّ قد تنسلخُ قصائدُ منه وهيَ واقفةٌ تحتَ ظلِّها جاريةٌ تحت رَسَلِها لا يحصلُ منها ٱلسامعُ إلاَّ على عددِ ٱلقوافي. . .».

وَٱلعجيبُ أنَّ بعضَ ٱلكُتَّابِ في عصرِنا ممَنْ لا تحقيقَ لهم في مثلِ هذه ٱلمسائل، يعدّون أحسنَ محاسنِ ٱبْنِ ٱلرومي ما هو أقبحُ عيوبه، وقاتلَ ٱللَّهُ صِناعةَ ٱلكتابة، فكما أنَّها لِمَلْءِ ٱلفراغِ هي كذلكِ لإفراغ الملآن. . .

ثانياً: صِياغةُ بعضِ ٱلشعرِ على أصلِ ٱلتفكيرِ في ٱلإنجليزيَّةِ أو ٱلفرنسيَّةِ أو غيرِهِما من لُغاتِ ٱلأُمَم، فيخرجُ ٱلشعرُ عربيًّا وأسلوبُهُ في تأديةِ ٱلمعنى أجنبيّ؛ وأكثرَ ما يأتي هذا ٱلنوعُ من أمريكا، وأنا أعجبُ بِكثيرٍ منه لِمَا فيهِ مِنَ ٱلغرابةِ وَٱلحُسْن.

وما زالَتْ أجناسُ ٱلأُمَم يضيقُ بعضُها بأشياءَ ويتَّسعُ بعضُها بأشياءَ فلسْنَا مُقيدينَ بِٱلفكرِ ٱلعربيِّ ولا بطريقتِه، وعلينا أنْ نُضيفَ إلى محاسِنِ لغتِنا محاسنَ ٱللغاتِ ٱلأخرى؛ ولكنْ من غير أنْ نُفسِدَها أو نحيفَ عليها أو نبيعَها بيعَ ٱلوَكْسِ[1]؛ ومتى كانَ هذا ٱلنوعُ مِنَ ٱلشعرِ رَصِيناً مُحْكماً جيدَ ٱلسبكِ رشيقَ ٱلمعرض، كانَ في ٱلنهاية مِنَ ٱلرقَّةِ وٱلإبداع؛ ولم يأتِ التجديدُ في هذه ٱللغةِ إلَّا من هذه ٱلناحية، كَٱلذي تَراهُ فيما أخذَ عبدُ ٱلحميدِ وٱبنُ ٱلمقفعِ من نمطِ ٱلأداءِ في ٱللغةِ ٱلفارسيَّة.

ثالثاً: ٱلانصرافُ عن إفسادِ ٱلشعرِ بِصِناعةِ ٱلمديح وَٱلرثاء، وذلك بِتأثيرِ ٱلحريَّةِ ٱلشخصيَّةِ في هذا ٱلعصر؛ وَٱلمدحُ إذا لم يكنْ باباً مِنَ ٱلتاريخ ٱلصحيح لم يدلَّ على سُمُوِّ نفسِ ٱلممدوح، بل على سقوطِ نفسِ ٱلمادح؛ وتراهُ مَدْحاً حينَ يُتلى على سامِعِه، ولكنَّهُ ذمٌّ حينَ يُعْزَى إلى قائلِه! وما ٱبْتُلِيَتْ لغةٌ من لُغاتِ ٱلدنيا بِٱلمديحِ وَٱلرثاءِ وٱلهجاءِ ما ٱبتليَتْ هذه ٱلعربيَّة؛ ولِذلك أسبابٌ لا محلَّ لِتفصيلِهَا.

---

(١) الوكس: النقصان والتنقيص.

رابعاً: الإكثارُ مِنَ ٱلوصفِ وَٱلإبداع في بعضِ مناحيهِ وٱلتفنُّنِ في بعضِ أغراضِهِ ٱلحديثة: وذلك من أسمى ضروبِ ٱلشعر، لا تتَّفِقُ ٱلإجادةُ فيهِ وَٱلإكثارُ منه إلاَّ إذا كانَ ٱلشعرُ حيًّا، وَكانَتْ نزعةُ ٱلعصرِ إليهِ قويَّة، وكانَ ٱلنظرُ فيهِ صحيحاً؛ ولمَّا وصفَ ٱلشيخُ أحمدُ ٱلكرديُّ (من شعراءِ ٱلقرنِ ٱلثاني عَشَرَ) ٱلسفينةَ وَٱستهلَّ بهذا ٱلوصفِ مدحَ ٱلوزيرِ راغب باشا، عدُّوا ذلك حادثةَ من حوادثِ ٱلأدبِ في عصره، فتأمل!

خامساً: إهمالُ ٱلصناعاتِ ٱلبديعيَّةِ ٱلتي كان يُبنى عليها ٱلشعر، فيُنظمُ ٱلبيتُ لِيكونَ جناساً أو طِباقاً أوِ ٱستخداماً أو تورية الخ، أو ضَرْباً آخرَ من صِناعةِ ٱلعددِ وَٱلحِساب، كٱلتاريخ ٱلشعريِّ بِأنواعه؛ أو صِناعةِ ٱلحرف، كَٱلمقلوبِ وَٱلمهملِ وغيرِهما: أو صِناعةِ ٱلفِكْر، كَٱللغزِ وَٱلمعمَّى؛ أو صِناعةِ ٱلوضع كَٱلتشجيرِ وَٱلتطريز، إلى ما يلتحِقُ بِهذا ٱلبابِ ٱلذي ذهبَ أهلُهُ فلا يتيَّسرُ لِأَحدٍ من بعدِهِم أنْ يُجاريَهُم فيه، وكانَتْ لهم في كلِّ ذلكِ عجائبُ ٱستقصيْناها بِٱلتدوينِ في موضعِها من (تاريخُ آدابِ ٱلعرب)؛ بيدَ أنَّ إهمالَ صِناعةِ ٱلبديعِ شيءٌ وإهمالَ فنِّ ٱلبديعِ نفسِهِ شيءٌ آخر؛ ومن هنا جاءَ ما نَراهُ في بعضِ ٱلشعرِ ٱلحديث «والشعرِ ٱلمنثورِ» مِنَ ٱلإغراقِ ٱلسخيفِ ٱلذي لا يقومُ على أصل، مِنَ ٱلتعدّي في ضروبِ ٱلاستعارة، وَٱلبعدِ في ٱلمجاز، وٱلإحالةِ في ٱلوضع، ونحوِها مِمَّا يرجعُ إلى ٱلجهلِ بطبيعةِ ٱلبلاغة، وممَّا لا نَعدُّهُ إلاَّ ضرباً مِنَ ٱلفسادِ يلتحِقُ بِما كانَ في ٱلعصورِ ٱلماضيةِ وإنْ كانَ على ٱلضدِّ منه.

سادساً: ٱلنظمُ في ٱلشئونِ ٱلوطنيَّةِ وَٱلحوادثِ ٱلاجتماعيَّة، مِمَّا يجعلُ ٱلشعرَ مُحيطاً بِروحِ ٱلعصرِ وفِكْرِهِ وخيالِه، وهو بابٌ لا ينهضُ بِهِ إلاَّ قلائل، ولا يزالُ ضعيفاً لم يستحكِم[1]؛ وقد قالوا: إنَّ للقَاضي ٱلفاضلِ ٱثنيَ عَشَرَ إلفَ بيتٍ في مدحِ ٱلوطنِ وٱلحنينِ إليه، ولكنْ لا أحسَبُ أنَّ فيها مائةً من نحوِ ما يُنظمُ في هذا ٱلعصرِ مِمَّا أدَّى بِٱلشعرِ إلى أنْ يدخلَ في بابِ ٱلسياسةِ ويُعدَّ من وسائلِها، وفي طرقِ ٱلتربيَّةَ ويُعَدَّ من أسبابِها.

سابعاً: ٱستخراجُ بعضِ أوزانٍ جديدةٍ مِنَ ٱلفارسيَّةِ وٱلتركيَّة، وهو قليل، جاءَ بِهِ شوقي في قصيدتينِ ولم يتابعْهُ أحد، لإفراطِ ذلك ٱلوزنِ في ٱلخِفَّةِ حتى رجعَ إلى

---

(١) لم يستحكم: لم يتقن ويقوَ.

ٱلثقل. . . ثُمَّ نظمَ بعضَ ٱلشعرِ من أوزانٍ مختلفةٍ قريبةِ ٱلتناسقِ على قاعدةِ ٱلموشح، ولكنَّهُ شعرٌ لا تَوْشيح، كما ينظمُ بعضُ شعراءِ أمريكا وسوريا؛ ولم يحدثْ مثلُ ذلك في ٱلعربيَّة، فإِنَّ ٱلقصيدةَ كانَتْ تُنظَمُ من بحرٍ واحد، وقد يخرجُ منهُ وزنٌ آخر: ولا نعرفُ في تاريخِ الأدبِ قصيدةً تتألفُ من وزنينِ إلاَّ الَّذي، قالوا إنَّ حسينَ بْنَ عبدِ ٱلصمدِ المتوفى سنة ٩٨٤هـ (١٥٧٦م) قدِ ٱخترعَهُ ونظمَ فيهِ أبياتَهُ ٱلتي مطلَعها:

فَاحَ عَرْفُ ٱلصَّبا وصاحَ ٱلديكْ ... وَٱنثنى ٱلبانُ يشتكي ٱلتحريكْ
قُمْ بِنَا نجتلي مشعشعةً ... تاهَ مِنْ وَصْفِهِ بها ٱلنِسِّيكْ[1]

وعارضَها ولدُهُ ٱلإمامُ ٱلشهيرُ بهاءُ ٱلدينِ ٱلعامليُّ صاحبُ ٱلكشكولِ بأبياتٍ قالوا: إنَّها سارَتْ في عصرِهِ مسيرَ ٱلمثل، ونسجَ عليها شعراءُ ذلك ٱلعصر، كَٱلنابلسي وغيرِه، ومطلعها:

يا نديمي بِمُهْجتي أفديكْ ... قُمْ وهاتَ ٱلكئوسَ مِنْ هاتيكْ
خمرةٌ إنْ ضلَلْتَ ساحَتَها ... فسنا[2] نورِ كأسِها يَهديكْ

على أنَّ هذا ٱلوزنَ بِشطريهِ مستخرجٌ مِنَ ٱلخفيف، فليسَ بٱختراعٍ كما زعموا، وإنَّما هُوَ ابتداعٌ في ٱلتأليفِ ٱلشعريّ؛ وقدِ ٱجتزأْنا بما مرَّتِ ٱلإشارةُ إليه، فإنَّه كلُّ ما تغَيَّرَ بِهِ ٱلرسمُ في هذه ٱلصناعة؛ وتركْنَا ٱلأمثلةَ تفادياً من ٱلإطالة.

* * *

وبعدُ فلا ريبَ أنَّ ٱلنفسَ ٱلبشريَة في حاجةٍ أبداً معَ دينِها ٱلروحيِّ إلى دينٍ إنسانيٍّ يقومُ على ٱلشعورِ وَٱلرغبةِ وَٱلتأثير، فيُفسِّرُ لها حقائقَ ٱلحياة، ويكونُ وسيلةً من وسائلِ تغييرِها؛ لِيجعَلَها ألطفَ مِمَّا هي في ٱللطف، وأرقَّ مِمَّا تكونُ في ٱلرقَّة، وأبدعَ مِمَّا تتَّفِقُ في ٱلإبداع؛ ذلك ٱلذي يصِلُ بِظهورِهِ وإبهامِهِ بينَ ٱلواضحِ وَٱلغامضِ، وَٱلخالدِ وٱلفاني؛ ذلك ٱلذي لا يجمُلُ ٱلجمالُ إلَّا بهِ، ولا تسكنُ ٱلنفسُ إلَّا إليه؛ ذلك هو ٱلشعر!

صروفُ اللغويّ

كانَ شيخُنا هذا رجلاً حَصِيفاً[3] جيِّدَ ٱلمنزعةِ حسنَ ٱلرأي، مُمَكَّناً لَهُ فيما كانَ

---

(١) النِّسِّيك: العابد.

(٢) سنا: ضوء.

(٣) حصيفاً: ذكياً أريباً.

يعترضُهُ من مسائلِ ٱللغة، قويًا على ٱلأحوالِ ٱلتي تجري لَهُ من أوضاعِها فيما يُعانيهِ مِنَ ٱلنقلِ ويُزاولُهُ مِنَ ٱلترجمةِ على ٱختلافِ مناحيها وكثرةِ فنونِها، وعلى أنَّها لا تزالُ كلَّ يوم تنبعثُ من عِلْم وتحتفِلُ من رأيٍ وتمدُّ مدَّ ٱلسيلِ كأَنَّها دنيا عقليَّةٌ لا يبرحُ عقلُ ٱلإنسانِ دائباً يُحَلِّقُ فيها ويبنيها من معاني ٱلكَوْنِ وأسرارِه، فلا ٱلكونُ ينفدُ لِتتمّ، ولا هي تَتِمُّ قبلَ أنْ ينفدَ ٱلكوْن.

وثبتَ شيخُنا على ذلك عمرَ دولةٍ مِنَ ٱلدولِ في خمسينَ سنةً ونيِّف، يضرِبُ قلمُه في ٱلسهلِ وٱلصعْب، وفي ٱلمُمْكِنِ وٱلمُمْتَنع؛ وإنَّهُ لَيَمرُّ في كلِّ ذلك مرًّا لا ينثنى، ويحذو حَذْواً لا يختلِف، كأَنَّ ٱلصعْبَ عندَهُ نسقُ ٱلسهل، وَٱلممتنِعَ صَوْغُ ٱلمُمْكِنِ؛ فلو قلْتُ: إنَّه بُنيَ في أصلِ خَلْقِهِ وتركيبِهِ على أنْ يكونَ قوَّةً من قُوى ٱلتحويلِ لِتحقيقِ ٱلمُشابهةِ ٱلعقليَّةِ بينَ ٱلشرقِ وَٱلغَربِ لمَا أبعدْتُ، ولو زعمْتُ أنَّ ذلك ٱلقلمَ ٱلحيَّ لم يكنْ إلَّا عِرْقاً في جسمِ ٱلإنسانيَّةِ لَكانَ عسى...

وَٱنتهى شيخُنا في ٱلعهدِ ٱلأخيرِ إلى أَنْ صارَ يُعَدُّ وحدَهُ حُجَّةَ ٱللغةِ ٱلعربيَّةِ في دَهْرٍ من دهورِها ٱلعاتية، لا في ٱلأصولِ وَٱلأقيسةِ وَٱلشواذِّ وما يكونُ من جِهَةِ ٱلحِفْظِ وَٱلضبْطِ وَٱلإتقان، بلْ فيما هو أبعدُ من ذلك وأردُّ بِٱلمنفعةِ على ٱللغةِ وتاريخِها وقومِها، بلْ فيما لا تنتهي إليهِ مَطمعةُ أحدٍ من علمائِها وكُتَّابِها وأُدبائِها؛ إذْ وقَعَ ٱلإجماعُ على أنَّهُ ٱنفردَ في إقامةِ ٱلدليلِ ٱلعمليِّ على سَعَةِ ٱلعربيَّةِ وتصرُّفِها وحسنِ ٱنقيادِها وكِفايتِها، وأنَّها تؤاتي كلَّ ذي فنٍّ على فنِّه، وتمادُّ كلَّ عصرٍ بمادتهِ؛ وأنَّها من دِقَّةِ ٱلتركيبِ ومُطاوعَتِهِ معَ تمام ٱلآلاتِ وَٱلأدواتِ بِحيثُ ينزلَ منها رجلٌ واحدٌ بِجهدِهِ وعملِهِ منزلةَ ٱلجماعاتِ ٱلكثيرةِ في ٱللغاتِ ٱلأُخرى، كأنَّها آخرُ ما ٱنتهتْ إليهِ ٱلحضارةُ قبلَ أنْ تبدأ ٱلحضارة.

ولا يذهبَنّ عنك ٱلفرْقُ بين رجلٍ حافظٍ وٱلكتابُ أحفظُ منه، وهو منَ ٱلكتابِ خَرجَ وإلى ٱلكتابِ يرجع؛ وبين رجلٍ يكونُ تُرجماناً من تراجمةِ العقلِ ٱلإنسانيِّ ٱلمعنيِّ[1] بِتأويلِ ٱلكوْنِ وتفسيرِه، وٱلطائرِ بِٱلألفاظِ ٱلإنسانيَّةِ على أجنحةِ ٱلعلومِ وَٱلفنونِ وٱلمُخترعاتِ وٱلمعاني؛ فإنَّ ذاكَ ينقلُ عنِ ٱلواقعِ ثُمَّ لا يتعدّى هذه ٱلمنزلةَ ولا يتجاوزُ مُتُونَ ٱلألفاظ، وأمَّا هذا فلا يزالُ يضطربُ معَ ٱلألفاظِ ومعانيها يُجاذِبُها ويُدافعُها، ثُمَّ لا يزالُ يضعُ يَدَهُ في ٱلنسيجِ ٱللغويِّ يُسَدّي ويُلْحِم، فهو مدفوعٌ إلى

(١) المعني: المهتمّ.

ٱلمسالكِ ٱلدقيقةِ من مذاهبِ ٱلوضعِ وطرقِه، وأساليبِ ٱلأخذِ وٱلانتزاع؛ وهو مُقيَّدٌ أبداً بِخاصِّ ٱلمعنى وخاصِّ ٱللفظِ على ٱلتعيينِ وٱلتحديد، لا يجدُ فُسحةً من ضيقين؛ فإنْ لم يكنْ مثلُ هذا في منزلةِ ٱلواضعِ فهو في المنزلةِ بعدَهُ ولا ريب.

إنَّما ٱللغويُّ ٱلأكبرُ عندي هو هذا ٱلكوْنُ، وما ٱلعالمُ بِٱللغةِ وفُنونِها إلَّا وسيلةٌ لِتهذيبِ ٱلطريقةِ تهذيباً عقليًّا، فيجبُ من ثَمَّ أنْ يكونَ للغويِّ رأيٌ وعِلْمٌ وذكاءٌ وبصر، ويجبُ أنْ يُطابِقَ ٱلنواميس، فلا يتعادَى ما بينَهُ وبينَها، لِأَنَّهُ وسيلةُ إنطاقِها ليسَ غير؛ ومن ذلك أرى ٱلدكتور صرُّوف في ٱلغاية، فقد كانَ ينزعُ في مذهبِهِ ٱللغويِّ منازعَ عِلْمِيَّةً دقيقةً تُوزَنُ وتُقاسُ وتُختبر، في حينِ لا تريغُ ولا تَهِنُ ولا تختلّ، وتراها تنطلقُ وهيَ مقيَّدة، وتتقيَّدُ وهيَ مطْلَقة؛ إذْ كانَ لا يعتدُّ ٱللغةَ عربيَّةً لِلْعرب، بلْ عربيَّةً لِلْحياة؛ وما تهدمُهُ وتبنيهِ وما تُحدِثُهُ وتنسخُهُ فهيَ على أصولِها فيمَنْ قبلَنا، ولكنَّ فروعَها فينا نحن وفيمَنْ يلينا وفيمَنْ بعدَ هؤلاء، فلنا أنْ نتولّاها على تلكَ ٱلأصولِ وعلى ما يُشبهُها في ٱلطريقةِ حين تنتقلُ ٱلحالُ ويتغيَّرُ ٱلرسم، ولِعِلَّةٍ إنْ وجبَتْ، ولِقياسٍ إنْ جاز. وٱلدكتورُ بهذا ٱلاعتبارِ يشتدُّ في ٱلتمسُّكِ بِٱلقواعدِ وَٱلضوابطِ ولا يترخصُ[1] في شيءٍ منها غيرَ أنَّهُ لا يكونُ كَأقوام يَرَوْنَ ٱلفروعَ مِنَ ٱلجذوعِ قد خرجَت، فيحسبون ٱلثمراتِ سبيلَها مِنَ ٱلجذوعِ أيضاً. . . وإنْ لم تجىءْ منها فستجيءُ منها.

عرضَ لي يوماً أحدُ هؤلاءِ ٱللغويِّين فَٱنتقدَ في ٱلمقطَّم قصيدةً مِنَ ٱلقصائدِ ٱلتي رفعْتُها إلى ٱلملكِ فؤاد، وتمحَّلَ في نقدِهِ ودلَّلَ بِبعضِ ما نقلَهُ من كتبِ ٱللغة، فكانَ فيما تكلَّمَ فيهِ لفظا (الأزاهر والورود)، فقالَ إنَّهما ليسا مِنَ ٱللغةِ ولم يجريا في كتبها؛ وكانَ من ردّي عليه أنْ قلْتُ لَهُ: إنَّ ٱلعربَ جَمعوا ٱلجملَ ستةَ جموع، وجمعوا ٱلناقةَ سبعةً لِأَنَّها أكرمُ عليهم منه، وإنَّ لِكُلِّ حياةٍ صُورَها ٱلدائرةَ في ألفاظِها، فَٱلزهْرُ وَٱلوردُ عندَ ٱلمولَّدينَ وَٱلمحدثينَ أكرمُ مِنَ ٱلجملِ وَٱلناقةِ عندَ ٱلعرب، أو هذانِ كهذين؛ ثُمَّ هما من خاصِّ ٱلألفاظِ المولَّدة، فلَنا أن نجمعَهما على كلِّ صُوَرِ ٱلجمعِ ٱلتي يُسوِّغُها ٱلقِياس، لِأَنَّ هٰهنا العِلَّةِ المُوجِبَةَ ٱلتي لم تكنْ مَعَ ٱلعربِ فيهما؛ فمنَ ٱلصحيحِ أنْ تقول: زهور، وأزهار، وأزاهر، وأزاهير الخ، فلمَّا لقيْتُ ٱلدكتور بعدَ نشرِ هذا ٱلردِّ هنَّأني بِهِ، ثُمَّ قال فيما قال: يحسبون أنَّ

---

(١) يترخص: يسمع ويتساهل.

ٱلعربَ همُ ٱلجملُ وٱلناقةُ وليس غيرُ ما ٱستجملَ وما ٱستنوق. . . أمّا هذا ٱلدهرُ ٱلطويلُ ٱلعريضُ فليسَ عندَهم شيئاً، وهم يستطيعون أنْ يُنكروا على ٱلمولَّدينَ ألفَ كلمة، ولكنْ هلْ في ٱستطاعتِهِم أنْ يُنكروا على ٱلتاريخِ ألفِ سنة؟ فذكرْتُ لَهُ ٱلأصلَ ٱلذي قرَّرَهُ أبو علي ٱلفارسيُّ في ٱلعربي ٱلصحيحِ نفسِه: من أنَّهُ ليسَ كلُّ ما يجوزُ في ٱلقياسِ يجبُ أنْ يخرجَ بِهِ سماع، فإذا أخذَ إنسانٌ على طريقةِ ٱلعربِ وأمَّ مذهبَهُم فَلا يُسألُ ما دليلُهُ وما أسماعُهُ وما روايتُه، ولا يجبُ عليهِ من ذلك شيءٍ، حتى قالَ أبو عليّ: لو شاءَ شاعرٌ أو متَّسعٌ أنْ يبنِيَ بإلحاقِ ٱللام ٱسماً وفِعْلاً وصِفةً لَجازَ لَهُ، ولَكانَ ذلك من كلامِ ٱلعرب؛ وذلك نحوُ قولِك: خَرْجَجٌ أكثرُ من دخْلَل، وضرْبَبَ زيدٌ عمراً، ومررْتُ برجلٍ ضرْببٍ وكرُمم، ونحوِ ذلك. قال تلميذُهُ ٱبنُ جنيّ: فقلْتُ له: أترتَجَلُ ٱللغةُ ٱرتجالاً؟ قال: ليس بٱرتجالٍ لكنَّهُ مقيسٌ على كلامِهِم فهو إذاً من كلامِهِم.

وسألني مرةً عن وجهِ ٱلخِلافِ بينَ ما يُسمُّونهُ ٱلقديمَ وَٱلجديدِ، فقلْتُ له: إنَّ ٱلخِلافَ ليسَ على جديدٍ ولا قديم، ولكنْ على ضعفٍ وقوّة؛ فإنَّ قوماً يكتبون وينظمون ولكنْ لم تُقسم ٱلفصاحةُ وٱلبلاغةُ على مقدارِ ما يُطيقونُه من ذلك، ولا يتّسعُ ٱلصحيحُ لِآرائِهِم في ٱللغةِ وَٱلأدب، وقد أرادوا أنْ يسعُوا كلَّ ذلك من حيثُ ضاقوا، ويُطاولُوه من حيثُ تقاصَروا، وينالوه من حيثُ عجزوا؛ فظَنُّوا بٱلأمرِ ما يظنُّ إنسانٌ يمشي على الأرضِ ويعرفُ أنَّها تدور، فيؤوِّلُ ذلك بِأنَّهُ هوُ يُديرُ ٱلأرضَ على مِحْورِها بِحركةِ قَدَمَيهِ. . . نحن نقول: أسلوبٌ ركيك، فيقولون: لا بلْ جديد، ونقول: لغةٌ سقيمة، فيقولون: بلْ عصريَّة، ونقول: وجهٌ من ٱلخطأ، فيقولون: بلْ نوعٌ منَ ٱلصواب، وهلمَّ جرا أو سحْباً. . . ثُمَّ قلْتُ له: أفتجِدُ أنت ٱلركاكةَ وَٱللحنَ وٱلخَطأَ وٱلغَثاثةَ[1] وإنَّ وأخواتِها باباً جديداً أو أمراً مبتدَعاً أو شيئاً يحتاجُ إلى ٱسم جديدٍ غير آسمِهِ ٱلعربيّ؟ قال: لا، وأنا معك في هذا، وطريقتي في المقتطَفِ أنَّ ٱللغة في قواعدِها عربيَّة، ولكنْ من قواعدِها أنَّ لِكلِّ مقام مقالاً، فنحن نكتبُ كتابةً صحيحةً ونُريدُ بها أنْ ترفعَ ٱلعامَّةَ ولا تنزِلَ بِٱلخاصَّة، فنخدُمُ ٱلعربيةَ مِنَ ٱلجهتين.

ثُمَّ نشرَ بعْد ذلك في عددِ شهرِ مايو سنة ١٩٢٧ مقالاً جعلَ عنوانَهُ (أسلوبُنا

---

(١) الغثاثة: التفاهة والركاكة.

في ٱلترجمةِ وَٱلتعريب) وٱبتدأَهُ بِهذه ٱلعبارة: «اللغةُ جسمٌ حيٌّ نام، وشأنُ مَنْ يُحاولُ منعَها منَ ٱلنموِّ شأنُ ٱلصينيِّين ٱلذين يربطونَ أقدامَ بناتِهِم لكي لا تنمُوَ وتبلغَ حدَّها ٱلطبيعيّ، ولكنْ إذا كانَ ٱلنموُّ مُشوَّهاً فلا بُدَّ من تقييدِهِ وتهذيبِهِ»؛ وكلُّ ما نقولُهُ نحن هو ٱلتقييد وَٱلتهذيب وَٱتّقاء ٱلشّوهةِ أنْ تُلِمَّ بِٱللغةِ وأساليبِها فتترادفُ على محاسنِها بِمعايبِها، وتُطمَسُ[1] مفاتنُها بِمَقابِحِها[2]؛ فإنَّ هذه ٱلمعايبَ وَٱلمقابِحَ إذا هيَ ٱستجمَعَتْ وٱنساغَتْ في لغةٍ مِنَ ٱللغاتِ لبستْها بِأشكالِها فلا تزالُ تنكرُ منها حتى لا تُبقي لها وَصْفاً يُعرف، وٱلحسنُ وحدَهُ هو ٱلذي يُحَدُّ بِٱلأوصافِ وَٱلتعاريف، وهو ٱلذي يُدقَّقُ فيهِ ويُبالغُ في قِياسِهِ وتقديرِه، فإنْ وقعَ فيهِ ٱلفضولُ وَٱختلطتِ ٱلحدودُ وضعُفَتِ ٱلمُلاءَمةُ وجرى ٱلوصفُ ناقِصاً وزائداً فقد خرجَ إلى ٱلقبح، وإنْ خرجَ إلى ٱلقبح لم يَعْدِ ٱلناسُ يحدُّون لَهُ حدًّا أو يعبأون[3] لَهُ بقاعدة، ووجدوا فيهِ كلَّ ٱلأوصافِ ٱلجميلةِ مقلوبةً مُنكَّرة، لِأَنَّهُ هو جمالٌ مقلوب؛ (فتقييدُ ٱلتشويهِ وتهذيبُهُ) كلمتانِ فيهما ٱلكلامُ كلُّه، أو هما ٱلمِصراعانِ لهذا ٱلباب؛ ومن أجلِ ذلك كنَّا نعدُّ ٱلدكتورَ من حجتِنا على أصحابِ ٱلجديد، لِأَنَّهُ أوسعُهُم إحاطةً وأكثرُهم عِلْماً وأمدّهُم عملاً، ثُمَّ لن يُدانيَهُ أحدٌ منهم إِلَّا إذا جمعَ لِنفسِهِ عمرين، وهلْ في ٱلجديدِ رجلٌ ذو عمرين؟...

قلْنا: إنَّ ٱلشيخَ كان في ٱلمنزلةِ ٱلتي تلي منزلةَ ٱلواضع، وقد دفَعَتْهُ ٱلعلومُ إلى ذلك دفْعاً، لِأَنَّهُ مقيدٌ بِخاصِّ ٱلمعنى في كلِّ ما يُترجِمُ أو يُعرّب، ثُمَّ بِٱلخصائص ٱلعِلْميَّةِ ٱلدقيقةِ ٱلتي لا تحتملُ في أدائِها ما تحتملُ ٱلمعاني ٱلأدبيَّة؛ وقد تصدَّرَ لِلكتابةِ وَٱلترجمةِ منذُ شابَ هذا ٱلعصر، ومنذُ بدأَ ٱلناسُ يقرأونَ ٱلعلومَ ٱلحادثَةَ في ٱلشرق؛ فلا جَرَمَ لم يكنْ لُغويًّا كأبي عمرٍو وأبي زيدٍ وٱلخليلِ وَٱلأصمعيّ وأبي حاتم وأبي عُبيدَةَ وأضرابِهِم مِمَّنْ يَحملون عنِ ٱلعربِ ويُؤدُّون ما حملوه، ولا كانَ لغوياً في طريقةِ سيبويهِ وٱلكسائيّ وٱلزّجاج وَٱلأخفشِ وَٱليزيديّ وأشباهِهِم مِمَّنْ ينظرونَ في ٱللغةِ وعِلَلِها وأقيستِها وشواذِّها؛ ولكنَّهُ لغويٌّ فيما يعمرُ بينَ ٱلشرقِ وَٱلغرب، يحمل بِلسانٍ ويُؤَدّي بِلسانِ غيرِهِ ويُوافِقُ بين ٱلمعاني ٱلجديدةِ وَٱلألفاظِ ٱلقديمة، ويُشابِكُ بين خيوطِ ٱلتاريخِ في هذه وهذه، ويأخُذُ ٱللغةَ لِلاستعمالِ لا

---

(١) تطمس: تغطّى وتمحى.
(٢) مقابحها: بشاعتها.
(٣) يعبأون: يهتمون.

لِلحفظِ ولِلتعليم لا لِلتدوينِ ولِلمنفعةِ لا لِلمباهاةِ ولِلفائدةِ لا لِلتنبُّل؛ ويُترجِمُ وإنَّ في خيالِهِ ٱلعالَمَ ٱلواسعَ ٱلذي ينقلُ عنه بِعلمائِهِ وأدبائِهِ وكُتُبِهِ ومجلَّاتِهِ ومصطلحاتِه، ويكتبُ وإنَّ لَهُ تلك ٱلمَلَكةَ ٱلدقيقةَ ٱلتي كَوَّنتْها ٱلعلومُ ٱلرياضيَّةُ وَٱلطبيعيَّةُ وَٱلفلسفيَّةُ وغيرُها؛ فلم يكنْ بُدٌّ من أنْ يبتدِع، وأنْ تكونَ لَهُ طريقةٌ يُوافقُ فيها ويُخالِف، وقد بَسَطَ هو ٱلقواعدَ ٱلتي أخذَ بها وجرى عليها، فكتَب فيها مقالاً في «المقتطَف» شهرَ يوليو لِسنةِ ١٩٠٦، وأعادَ نشرَهُ في عددِ شهرِ مايو لِسنةِ ١٩٢٧، وهو يُوافِقُ فيهِ أكثرَ ٱلعلماء، وخاصَّةً ٱلإمامَ ٱلجاحظ؛ ومعَ أنَّ قاعدةَ ٱلجاحظِ لم تكن يومئذٍ معروفة، ولكنْ كِلا ٱلشيخينِ حصيفُ ٱلرأيِّ[1] تامُّ ٱلإدارةِ في عملِهِ، قويُّ ٱلحِسْبةِ وٱلتدبيرِ فيما يأخذُ وما يدع؛ وخلاصةُ رأي ٱلدكتور أنَّهُ ينظرُ في ٱلكلمةِ ٱلأعجميَّة، فإنْ أصابَ لها مُرَادِفاً في ٱلعربيَّةِ يحدِّدُها ويفي بها فذاك، وإلَّا أمرَّها في كتابتِهِ وهو مُقيدٌ بقاعدةِ ٱلقارىءِ وما هو أخفُّ على قارئِهِ في ٱلمئونةِ وأبيْنُ لَهُ في ٱلدلالة، فإنْ كانَتْهُ ٱللفظةُ ٱلأعجميَّةُ أوفى وأشيعَ في ٱلاستعمالِ عَدَلَ إليها[2]، قال: وغنيٌّ عنِ ٱلبيانِ أنَّنا ٱلتزمْنا أنْ نُجاريَ ٱلعلماءَ في ٱلمصطلحاتِ ٱلعِلْمِيَّةِ ٱلتي تفقدُ دلالتَها بتعريبِهَا: كَٱلحامضِ ٱلكبريتوس وٱلكبريتيك الخ، فإنَّ لِكلٍّ من هذه ٱلملحقاتِ وٱلزوائدِ ٱلتي فيها، معنًى خاصًّا يدلُّ على تركيبِ ٱلحامضِ ٱلمرادِ كما يعلمُ دارسو ٱلكيمياء؛ قال: فمَنْ يُسمِّي ٱلحامضَ ٱلكبريتيك بِٱلحامضي ٱلكبريتي كمَنْ يُسمِّي ٱلفرسَ حِماراً لِأنَّ لِكلٍّ منهما رأساً وذنباً. . .

وَٱلجاحظُ يقول في مثلِ ذلك: إنَّ رأيي في هذا ٱلضربِ من هذا ٱللفظِ أنْ أكونَ ما دمْتُ في المعاني ٱلتي هي عبارتُها وَٱلمادةُ فيها على أنْ ألفِظَ بِٱلشيءِ ٱلعتيدِ ٱلموجودِ (يعني ٱللفظ ٱلعِلْمِيَّ ٱلاصطلاحيَّ) وأَدعَ ٱلتكلُّفَ لِمَا عسى ألَّا يسلسَ ولا يسهُلَ إلَّا بعدَ ٱلرياضةِ ٱلطويلة. . . ولِكُلِّ صناعةٍ ألفاظٌ قد جُعِلَتْ لِأَهْلِها بعدَ ٱمتحانِ سِواها، فلم تلزقْ بِصناعتِهِم إلَّا بعدَ أنْ كانَتْ بينَها وبينَ معاني تلك ٱلصناعةِ مشاكلات.

فأنت ترى ٱلجاحظَ لا يمتنعُ مِنَ ٱلألفاظِ ٱلأعجميَّةِ وٱلعاميَّةِ كما هي ما دامَتِ ٱلمعاني قائمة، وقاعدتُهُ هيَ ٱلأخفُّ وٱلأدلُّ والأفْهَمُ وَٱلأشيع، وهذا بِعينِهِ يقولُ ٱلدكتورُ فيه: «يُشترطُ في حسنِ ٱلتعبير أنْ يُؤَدِيَ ٱلمعنى ٱلمُرادَ إلى ذهنِ ٱلسامعِ بِأقلِّ ما يكونُ مِنَ ٱلوقتِ وَٱلكِلْفةِ وٱلإسرافِ في ٱلقوةِ ٱلعصبيَّة».

---

(١) حصيف الرأي: صائبه.

(٢) عدل إليها: مال إليها.

وقد كلَّمَني بعضُهُم في خطأ ٱلدكتور من ناحيةِ ٱلألفاظِ ٱلأعجميَّةِ وإقحامِها[1] فِي كتابتِه، وأنَّهُ يجنحُ إلى ذلك بأوهى سبب؛ ولا أراهُ خطأً، بلْ أنا أردُّ ذلك إلى ما بيَّنتُهُ آنفاً من أمرِ ٱلناقلِ وَٱلواضعِ ولا يُعجِزُنا أنْ نجدَ لِصنيعِ ٱلدكتورِ نصًّا يقومُ بِهِ وينهضُ بِحُجَّتِهِ؛ فقد قالَ أبو عليٍّ ٱلفارسيّ: إنَّ ٱلعربَ إذا ٱشتقَّتْ مِنَ ٱلأعجميِّ خلطَتْ فيه، فإذا كانَ هذا في ٱلأشتقاقِ وهو لا يكونُ إلَّا من أصلٍ، فكيفَ بِٱلتعريب؟ على أنَّهُ لا خلطٌ ولا ٱضطراب، إنَّما هو سبيلُ ٱلوضعِ، وحِكمةُ ٱلدلالةِ وأنّ ٱللغةَ هكذا تجيء، ثمَّ يأتي بعدَ ذلك ٱلنحويُّ يقولُ لِماذا ولأنَ. . .

وقد أعجبَني حسنُ تقسيمِ ٱلدكتور لقواعدِهِ ٱلتي بَسَطَها في مقالِهِ ٱلمستفيض[2]، حتى إنِّي لأَراهُ باباً جديداً في ٱلتقسيمِ ٱلمعروفِ عندَ علماءِ ٱلبلاغةِ وٱللغةِ لابتذالِ ٱلألفاظِ وغرابتِها، إذْ لم يبقَ عندَنا غريبٌ ومبتذَلٌ ولا بينَنا عربٌ ومحدثون.

بيدَ أنَّ من تلك ٱلقواعدِ أنَّ ٱلأستاذَ يترخَّصُ في ٱلألفاظِ ٱلعاميَّةِ وهو يجدُ فصيحَها، ويقولُ في ذلك: «إذا أسمعْتُ ٱلفلاحَ ٱلمِصْرِيَّ كلمةَ بِذارٍ مرةً في ٱلأسبوع أو في الشهر، سمع كلمة (تقاوى) مائةَ مرةٍ وألفَ مرة، فرأَيْنا أنَّ محاولةَ تغييرِ لغةِ ٱلعامَّةِ في هذه ٱلكلماتِ وأمثالِها ضربٌ مِنَ ٱلعبثِ وإضاعةٌ لِلْوقت وتضييعٌ لِلفائدة، فجاريناهم فيما نكتبُهُ لهم». وهذا ما كنْتُ أُجادِلُهُ فيهِ ولا أُسلِّمُ لَهُ بشيءٍ منه، لِأَنَّهُ أغفلَ أصلاً اجتماعيًّا عظيماً، فإنَّ عامِّيَّتنا غيرُ منقطعةٍ مِنَ ٱلعربيَّةِ ٱلفصحى، ولا يزالُ فيهم مِيراثُها مِنَ ٱلقرآنِ وٱلحديثِ وكلامِ ٱلعلماءِ في أمورِ دينِهِم، وهذه هي وسائلُ مزجِهِم بٱلفصيح وردِّهِم إليه، ولا تزالُ هذه ٱلوسائلُ تفعلُ ما تفعلُهُ ٱلنواميسُ ٱلمحتومةُ ولولاها لَمَا بَقِيَ لِلْفصحى بقيَّةٌ بعد.

وقد كانَ جاءَ إلى مِصْرَ من بضعِ سنينَ رجلٌ من أمريكا هو من تلاميذِ ٱلدكتور ٱلقدماء، فنزحَ إلى ذلك ٱلبرِّ فٱتَّجرَ فأَثرى وفَشَتْ لَهُ نِعْمَةٌ عظيمة؛ ولَمَّا لقيْتُهُ لقيتُ في يدِهِ صحيفةً وَضعَ فيها مسائلَ في ٱللغةِ وٱلنحو، وكانَ أعدَّها لِيسألَ عنها؛ وفي أولِها هذا السؤال: لِماذا يُقالُ فَصُحَ ٱلرجلُ فصاحةً فهو فصيح، ثُمَّ يقول: شعرَ شعراً فهو شاعر؟ ألم يكنِ ٱلقياسُ أنْ يُقالُ شعُرَ شَعارةً فهو شعيرٌ، وَٱلفصاحةُ وٱلشعرُ من بابٍ واحد؟

وهذا ٱلسؤالُ وإنْ كانَ في ظاهرِ ٱلرأي لَغْواً وعَبَثاً ولكنَّهُ دقيقٌ في تاريخِ ٱللغةِ

---

(1) إقحامها: حشرها.

(2) المستفيض: المشبع بحثاً ودراسة.

وأقيستِها، ولا محلَّ لِبسطِ ٱلكلام عليهِ في هذا ٱلموضِع، غيرَ أنيَّ أنهيْتُ ٱلخبرَ للدكتورِ صَرُّوف وقلْتُ لَهُ: إنَّ صاحبَك هذا يضعُ قواعدَ ٱللغةِ في ٱلميزانِ ٱلذي في حانوتِهِ. . . وأنت كذلك تُعَالِجُ بعضَ ٱلألفاظِ أحياناً ببعضِ ٱلغازاتِ وٱلحوامض.

قلْت هذا لِأَنِّي لم أُسلِّمْ لَهُ قطُّ فيما كانَ يراهُ في مثل ٱلبذارِ وٱلتقاوي، على أنَّهُ قيَّدَ ٱلكلامَ بِقولِهِ (فيما نكتبُه لهم)، وهذا ٱحتراسٌ يُدافِعُ عنَهُ بِقوَّةٍ كما ترى.

ولا يمتري أحدٌ في أنَّ هذه ٱلنهضةَ ٱللغويَّةَ ٱلتي أدركْناها وعملْنا فيها لم تكنْ سوى نموٍّ طبيعيٍّ لِعملِ رِجالٍ أفذاذٍ نظنُّ ٱلدكتور صروف في طليعتِهِم، لِأَنَّهُ كانَ أطولَهمُ جِهاداً وأكثرهم عملاً وأظهرَهم أثراً؛ وكانَ ٱلمقتطفُ يجيءُ لها كلَّ شهرٍ كأنَّهُ قِطعةٌ زمنيَّةٌ مسلَّطةٌ بِناموسٍ كناموسِ ٱلنشوءِ، حتى لألَمَّ هذا ٱلمقتطفُ أنْ يكونَ عصراً مِنَ ٱلعصورِ قد خرجَ في شكلِ ٱلكتابة؛ ولقد كاشفني ٱلدكتورُ في آخرِ أيامِهِ أنَّهُ كانَ يودُّ لو خَتمَ عملَهُ بوضعِ معجمٍ في ٱللغةِ يصلحُ أنْ يُقالَ فيهِ إنَّهُ معجمُ ٱلشعبِ، وفصَّلَ لي طريقتَه، إذْ كنْتُ أُكلِّمُهُ في كتابٍ لُغويٍّ ٱفتتحْتُ ٱلعملَ فيهِ من زمنٍ ولا يعرفُ أحدٌ من أمرِهِ خبراً فقالَ لي: خذْ بين طريقتي وطريقتِك، وٱمضِ أنت في هذا ٱلعملِ؛ فإنِّي لو وجدْتُ فراغاً لَمَا عَدَلْتُ بهذا ٱلأثرِ شيئاً، وما كلُّ سهلٍ هو سهل. . .

على أنَّ شيخَنا هذا لو قد كانَ تفرَّغَ لِلغةِ وتوفرَ عليها وٱجتمعَ لَهَا بذلك ٱلعمرِ وتلك ٱلعلوم وَٱلأدوات، لَكَان فيها بأُمَّةٍ مِنَ ٱلأشياخِ ٱلماضينَ من لدُنْ أبي عمرو بْن ٱلعلاءِ إلى ٱلدكتورِ يعقوبَ صروف، ولكنْ لعلَّ ٱلدهرَ أضيقُ من أنْ يَتَّسِعَ أو هو أوسعُ من أَنْ يضيق. . . لِإمام آخرَ كأبي عليّ ٱلفارسيِّ، يُفرغُ سبعينَ سنةً لِفرعٍ واحدٍ من علومِ ٱللغةِ هو عِلْمُ ٱلقِياسِ وَٱلاشتقاقِ وَٱلعِلَلِ ٱلصرفيَّةِ ويجعلُهُ هَمَّهُ وسدَمَهُ على ما قالَ تلميذُهُ ٱبْنُ جنيٍّ: «لا يعتاقُهُ عنه ولد، ولا يُعارضُهُ فيه متجر، ولا يسومُ بِهِ مَطْلَباً، ولا يخدمُ بِهِ رئيساً؛ فكأنَّهُ إنَّما كانَ مخلوقاً لَهُ».

وكانَتْ للدكتورِ طريقةٌ جريئةٌ في ردِّ ٱلألفاظِ ٱلعربيَّةِ إلى أصولِها وَٱلرجوعِ بها إلى أسبابِ أخذِها وٱشتقاقِها وتصاريفِها من لغةٍ إلى لغة، وأعانَهُ على ذلك ثقوبُ فِكرِهِ[1] وَسَعةُ علمِهِ ودِقَّةُ تَميزِهِ وميلُهُ ٱلغالبُ عليهِ في تحقيقِ ناموسِ ٱلنشوءِ وتَبيُّنِ آثارِهِ في هذه ٱلمخلوقاتِ ٱلمعنويَّةِ ٱلمسماةِ بِٱلألفاظ؛ وكانَ معجَباً بِكلِّ ما جاءَهُ من هذا

---

(١) ثقوب فكره: سداده.

ٱلبابِ ولو كانَ من خطإٍ؛ لأَنَّهُ إلى ٱلرأي يقصِدُ ولِلطريقةِ يُمكِّنُ ومعَ ٱلحاضرِ يجري.

وهذا بابٌ يحتاجُ إلى ٱلتسمُّحِ وَٱلتساهُلِ؛ إذْ لا يُمكنُ تحقيقُه، ولا تتَّفِقُ ٱلحِيطةُ فيهِ، وليسَ إلَّا أنْ يتلوَّحَ شيءٌ منه ويسنَحُ شيءٌ وتتلامَحَ عِلَّةٌ ويعرضَ سبب؛ ثُمَّ هو في ٱلدكتورِ في بعضِ ٱلدلالةِ على ٱستحكامِ مَلَكَةِ ٱلوضْعِ فيه، ونزوعِهِ إلى أنْ يقتاسَ بِقِياسِهِ ويستخرجَ من عِلَلِه؛ وقد تراهُ يبعدُ في ذلك فينصبُ لك ٱلدليلَ من وراءِ بضعةِ آلافِ سنة، وأنا ٱلساعةَ أُعانُ ذاكرتي وأُديرُها من هٰهنا وهٰهنا لأجِد، كلمةً، قالَ لي مرَّةً في تاريخها: إنَّ ٱلعربَ أخذوها عنِ ٱليونانِ حينَ كانَتْ مكةُ نفسُها جاريةً في حكمِهِم، ولكنْ أُنسيْت هذه ٱلكلمة، إذْ لم أرتبطْها، وإذْ كنْتُ لا أرى هذا ٱلمذهبَ ولا أُحسِنُ أنْ أقولَ فيهِ قوْلاً، وأعدُّ كلَّ ما يُقالُ فيهِ من بابِ تلفيقِ ٱلأدلة، كأَنَّهُ ذئبُ ذلك ٱلأعرابيِّ ٱلذي يُريدُ أنْ يجعلَ في ٱلناسِ منه مثلَ غرائزِ ٱلغنم... فيقول: «إلّا ترَهْ تظنَّهْ».

وٱلدكتور صروف رجلٌ ماليٌّ في ٱلمالِ وفي ٱللغة جميعاً. فمذهبُهُ ٱلقصْدُ[1] في ٱلدلالةِ وٱلقصْدُ في ٱلوقتِ وٱلقصْدُ في ٱلقوَّة، وقد صرفَتْهُ ثلاثتُها عنِ ٱلشعرِ وعمَّا كانَ في حكمهِ من تحبيرِ ٱلنثرِ وتوشيَّتِهِ، على أَنَّهُ يُحسنُهَما لو أرادَ ولو سخَتْ نفسُهُ بِٱلوقتِ يُنفقُهُ ولا يتعرَّفُ قدرَ ما مضى منه في هذه ٱلساعات، بلْ في ساعةِ ٱلكونِ ٱلكبرى ٱلتي يتعاقبُ فيها عقربا ٱلنهارِ وٱلليل، كما كانَ يُنفقُ ٱلباروديُّ يوماً في بيتٍ أو بيتين..

وكانَ شيخُنا في آخرِ مجالسي مَعهُ قبلَ وفاتِهِ بِشهرٍ أو نحو، أطلَعَني على كلِّ ما نشَرهُ في مجلداتِ «ٱلمقتَطَفِ» من شعرِه، فأُعجبْتُ بِأشياءَ منه، وأشَرْتُ على صديقِنا ٱلأستاذِ فؤاد صروف أنْ يُعيدُ نشرَ قصيدةِ ٱلرفَّاشِ ٱلتي ترجَمَها ٱلدكتورُ عن ٱلإنجليزيَّة في نسقٍ سَلِسٍ موشَّحِ ٱلقوافي، وٱلتي يقولُ فيها صاحبُها يصفُ مخازي ٱلمدنيَّة:

مخازٍ توالَتْ فَصَالَتْ وَصَارَتْ على ٱللحمِ دوداً وفي ٱلعَظْمِ سوسَا

وسألني ٱلدكتورُ بعدَ أنْ فرغْتُ من شعرِهِ: في أي طبقةٍ تعدّني من شعرائِهِم؟ ففكرْتُ قليلاً ثُمَّ قلْتُ لَهُ: في طبقةِ ٱلدكتورِ صروف!. فضحكَ لها كثيراً.

وكانَتْ لَهُ آراءُ في ٱلشعرِ ٱلعربيِّ غيَّرَ بعضَها في آخرِ عهدِه، ومِمَّا قالَهُ لي مرة: إنَّ ٱلذي يُريدُ أنْ يَخلُدَ ذكرُهُ في هذا ٱلشرقِ فلا يُنسى، لا ينبغي لَهُ أنْ يطمعَ

(١) القصد: الاعتدال والاقتصاد.

في هذا إلّا إذا بنى هَرماً كهرمِ ٱلجيزة!. وهي كلمةٌ فلسفيَّةٌ كبيرةٌ تنطوي على شرحٍ طويلٍ يعرفُهُ مَنْ يعرفُه.

وقد كادَتْ قاعدةُ ٱلقصدِ ٱلتي أومأْتُ[1] إليها تنتهي بهِ في آخرِ مُدَّتِهِ إلى ٱلقولِ بإسقاطِ ٱلإعرابِ بتةً، وأظنُّ ذلك خاطراً سَنَحَ لَهُ فأَخذَ بأوَّلِهِ وتركَ أنْ ينظرَ في أعقابهِ، فزرتُهُ مرةً في شهر يناير لِسنة ١٩٢٧، وكانَ يُصحِّحُ تسويدة جوابٍ كتبَهُ عن سؤالٍ وردَ عليهِ في هلْ يُمكنُ ٱلرجوعُ إلى ٱللغةِ ٱلفصحى في ٱلقراءةِ وَٱلتكلُّم وما ٱلفائدةُ من ذلك؟ فلمَّا أمرَّ بٱلجوابِ على نظرِهِ دفَعهَ إليَّ فقرأتُه، فإذا هو يرى أنَّ كلَّ حركةٍ من حركاتِ ٱلإعرابِ وٱلبناءِ يتهوّرُ فيها وقتٌ ما؛ قال: فإذا قضيْنَا على أبناءِ ٱلعربيَّةِ ألَّا يتكلموا إلَّا كلاماً معرباً نكون قد أضعْنَا عليهم ثلثَ ٱلوقتِ ٱلذي يقضونَهُ في ٱلتكلُّمِ من غيرِ فائدةٍ تُجنَى.

ولقد جادلْتُهُ في ذلك ولججْتُ[2] في ٱلخِلافِ معَه، وقلْتُ لَهُ: إنَّ هذه قاعدةٌ مالية، ثُمَّ إنَّك أغفلْتَ أمرَ ٱلعادةِ وما تيسِّرُه، وفي ٱلكلام إيجازٌ يقومُ مَعَ ٱلإعرابِ، هذا ٱلمقامَ حينَ لا يكونُ مِنَ ٱلإيجازِ بُدٌّ، وفي ٱللهجاتِ ٱلعاميَّةِ مِنَ ٱلحشوِ ومطِّ ٱلصوتِ وفسادِ ٱلتركيبِ ما يذهبُ بِأكثرَ من ثُلُثِ ٱلوقت؛ فأحسبُهُ اقتنَع وإنْ كنْتُ رأيْتُهُ لم يقتنع.

وإنَّهُ لَيحضرُني بعدَ هذا كلامٌ كثيرٌ في فضائلِ ٱلدكتور وآدابِهِ وشمائلِ نفسِهِ ٱلزكيَّةِ ومنزعِهِ في ٱلأخلاقِ ٱلطيِّبةِ ٱلكريمة، ولو ذهبْتُ أُفصِّلُ لَخرجْتُ إلى ٱلإفاضةِ في فنونٍ مختلِفة، ولكنِّي أَجترىءُ من كلِّ ذلك بِأنَّهُ كانَ يَظهرُ لي دائماً كأنَّهُ في ظِلٍّ من محبةِ ٱلله.

---

(١) أومأت: أشرت.

(٢) لججت: ألححت إلى آخر حدّ ممكن.

ٱلشيخُ ٱلخُضَريّ

تحوّلَ ٱلكاتبُ إلى كتاب، ورجَعَ ٱلمُفَكِّرُ إلى فِكرة، وأصبحَ مَنْ كانَ يُدارسُ ٱلناسَ فإذا هو درسٌ يُذكرُ أو يُنسى، وتناولَ ٱلتاريخُ عالماً، من علمائهِ فجعلَهُ نبأً من أنبائهِ، وكانَ يبنيهِ فوضعَهُ في بنائِه، وقيل: ماتَ ٱلشيخُ ٱلخضريّ!

آه لو يرجعُ إنسانٌ واحدٌ من طريقِ ٱلموتِ ٱلتي أولُها هذه ٱلنقطةُ ٱلصغيرةُ ٱلمسماةُ بِٱلكرةِ ٱلأرضيَّة، وآخرُها حيثُ تجدُ كلمة: «الآخرة» بِلا معنًى لا محدودٍ ولا مظنون! وآهِ لو ٱستطعْنا أنْ نتكلَّمَ عنِ ٱلميتِ كأنَّهُ حيٌّ بيننا، ونحن كثيراً ما نتكلَّمُ عنِ ٱلحيِّ كأنَّهُ ماتَ من زمن! إنيِّ لأكتبُ هذه ٱلكلماتِ وكَأَنيِّ أنظرُ إلى وجهِ أبي ـ رحمَهُ ٱللهُ ـ وأشهدُ ذلك ٱلسمتَ ٱلعجيب، وذلك ٱلوقارَ ٱلذي يغمرُ ٱلنفسَ هيبةً وجلالا، وأستروِحُ ذلك ٱلحُبَّ ٱلذي هو أحدُ ٱلطرُقِ ٱلثلاثِ ٱلمنتهيةِ مِنَ ٱلأرضِ إلى ٱلسماء، ومِنَ ٱلمخلوقِ إلى ٱلخالق، وَٱلمبتدئةِ مِنَ ٱلسماءِ إلى ٱلأرض، ومِنَ ٱلخالقِ إلى المَخلوق: طريقِ ٱلأُمّ، وطريقِ ٱلأَب، وطريقِ ٱلإنسانيَّة؛ أكتبُ وكأنَّ يداً من وراءِ ٱلمادةِ تمسحُ على قلبي فأجدُ ثِقْلةً وفَترةً، وأستشعِرُ حنيناً وشوقاً، وأُحِسُّ هذا ٱلقلبَ يُنازعني إلى قوم ذهبوا بِلا رجعة، وفارقُوا بِلا وداع، وغابُوا عنَّا بِلا خبر؛ دخلُوا إلى أنفسِنا ولا تحْويهم، وخرجوا منها ولا تخلُو منهم؛ فما دخلوا ولا خرجوا، وهذه هيَ ٱلحَيْرةُ ٱلتي يتركها ٱلميتُ ٱلعزيزُ لِلْحيِّ ٱلمتفجعِ كيما يعرفَ بِأمواتِهِ ما هو ٱلموت!.

* * *

كنَّا منذُ بِضع وثلاثينَ سنةً في مدينةِ ٱلمنصورة، وكانَ أبي يومئذٍ كبيرَ قضاةِ ٱلشرعِ في ذلك ٱلإقْليم، فإنِّي لألعبُ ذاتَ يوم في بهوِ دارِنا إذْ طُرِقَ ٱلباب، فذهبْتُ أفتحُ فإذا أنا بشيخ لم يبلغْ سِنَّ العَمَامة، ولمْ أُميِّزْ من هيئتِهِ أهو طالبُ عِلْم أو هو عالم، فكان حَدَثاً لكنَّهُ يتَّسِمُ بِسِمةِ ٱلجِدّ؛ ورأيْتُهُ لا تموجُ بِهِ ٱلجنَّةُ كَٱلعلماء، غيرَ أنَّها لا تمجُّهُ كَٱلطلبة؛ وكانَ في يدِهِ مجلدٌ ضخمٌ لو نطقَ لقَالَ لَه: دعني لِمَنْ هو أسنُّ منك! فما قدَّرْتُهُ يزنُ عشرينَ مجلداً من مثلِه، ونظَرَ إليّ نظرةً كأنيِّ لا أزالُ

أزاها في عينِهِ إلى ٱلساعة، فسلَّمْتُ عليه فقال: أين ٱلشيخ؟ يعني ـ ٱلوالد ـ قلْت: خرجَ آنفاً؛ قال: فٱدفعْ إليهِ هذا ٱلكتاب، وقلْ لَهُ جاءَ بِهِ ٱلخضريّ.

ثُمَّ أغلقْتُ ٱلبابَ وَٱنتحيْتُ جانباً وفتحْتُ ٱلمجلد، فإذا هو جزءٌ مِنَ ٱلتفسيرِ ٱلكبيرِ لِلْفخرِ ٱلرازي، كانَ قد ٱستعارَهُ من مكتبتِنا؛ وعرفْتُ ٱلشيخَ من يومئذٍ، وكانَ أَستاذاً لِلْعربيةِ في مدرسةِ ٱلصنائع، يضعُ كتابَ ٱلنحوَ وَٱلصرفِ معَ ٱلمطرقةِ وَٱلمنشارِ وَٱلقَدوم، فيذهبُ شيءٌ في شيء، وكأَنَّهُ لا يُعَلِّمُ شيئاً؛ وقلَّما كنَّا نذكرُهُ في مدرستِنا، إذْ كانَ لنا شيخٌ فحْلٌ ثِقةٌ من رجالِ ٱلأزهر، غيرَ أنَّ ٱلخضريَّ كانَ لَهُ موضِعٌ في كلِّ مجلس، وكانَ يُداخِلُ قوْماً مِنَ ٱلخاصَّةِ يُعنونَ بِٱلمسائلِ ٱلإسلاميَّةِ وفلسفتِها وتقريبِها مِنَ ٱلعامَّةِ وٱلدهماء، وبإشارةٍ من بعضِ هؤلاءِ وضعَ أولَ كتبهِ: «نورُ ٱليقينِ في سِيرةِ سيدِ ٱلمرسلين»[1]، ويكادُ هذا ٱلاسمُ يدلُّ على وزنِ ٱلأستاذِ في أولِ عهدِهِ، وأنَّهُ لا يزالُ وراءَ ٱلسجعةِ ٱلآتيةِ مِنَ ٱلقرونِ ٱلأخيرةِ لم يمضِ على وجهٍ لم يُعرفْ بمذهب.

* * *

إنَّ ٱلَّذي يُريدُ أنْ يقولَ: قوْلاً صحيحاً في هذا ٱلفقيهِ ٱلعالِمِ ٱلمؤرخِ ٱلأديبِ ٱلمربي، يجبُ أنْ يرجعَ بتيارِهِ إلى منبعِهِ ليعرفَ مبلغَ ٱنبعاثِهِ وقوَّةَ جَرْيَتِهِ ومَدَّ عُبابِه؛ فما كانَ ٱلخُضريُّ شيئاً قبلَ أنْ يتعلَّقَ بمدارِ ذلك ٱلنجمِ ٱلإنسانيِّ ٱلعظيمِ ٱلذي أهدَتْهُ ٱلسماءُ إلى ٱلأرضِ وسُمِّي، في أسمائِها «محمد عبده»، لقد أخرجَتْهُ دارُ ٱلعلوم كما أخرجَتِ ٱلكثيرين، ولكنَّ دارَ علومِهِ ٱلكبرى كانَتْ أخلاقَ ٱلأستاذِ ٱلإمام وشمائلَهُ وآراءَهُ وبلاغتَهُ وهِمَّةَ نفسِه. ألَّا إنَّهُ لا بُدَّ من رجلٍ واحدٍ يكونُ هُوَ ٱلواحدَ ٱلَّذي يبدأُ منه ٱلعددُ في كلِّ عصر، وأنت فكيف تأملْتَ ٱلخضريَّ فَٱعلمْ أنكَ بإزاءِ معنًى من معاني ٱلشيخِ محمدِ عبده، على فرْقِ ما بينَ ٱلنفسين، بلْ أنت مِنَ ٱلخضريِّ كأنَّكَ ترى ٱلشيخَ سارياً في مظهرٍ من مظاهرِ ٱلزمن.

كانَ يحضرُ دروسَ ٱلشيخ، ويختلفُ إلى ناديهِ، ويُناقلُهُ بعضَ ٱلرأيِ، ويُعارِضُ[2] مَعه بعضَ ٱلكتبِ ٱلتي كانَ يُرجعُ إلى ٱلشيخ في تصحيحِها أوِ ٱلإشرافِ على طبعِها؛ فنفذَ ٱلشيخُ إلى نفسِهِ ووجَدَ ٱلسبيلَ إلى ٱلاستقرارِ فيها، فهو من بعدُ حريصٌ على وقتهِ، مُجِدٌّ في عمله، دائبٌ على طريقِه، آخذٌ بِٱلأخلاقِ ٱلفاضلة،

(١) الدهماء: الرعاع والسوقة.
(٢) يعارض معه بعض الكتب: يقرأ عليه.

مُصْلحٌ مُربٌّ غيور؛ وكلٌّ ذلكَ في سمتٍ وهيبة، وجزالةِ رأْي، وشرفِ هِمَّةٍ، وإخلاصٍ حقَّ ٱلإخلاص؛ وما أرى فوضى عصرِنا هذا وٱنحطاطَهُ وإسفافَهُ وسخافةَ قولِهِم: جديدٌ وقديم، وجريءٌ ورجعيّ، وحرٌّ وجامد ـ إلّا مِنْ خلاءِ ٱلعصرِ وفراغِهِ مِنَ ٱلنفسِ ٱلكبيرة، وحاجتِهِ إلى إمام عظيم؛ ومتى أَصبحْنا نضربُ في دائرةٍ لا مركزَ لها، فهيَ ٱلمربَّعُ وهيَ ٱلمستطيلُ وهيَ كلُّ شكلٍ إلّا نْ تكونَ ٱلدائرة؛ وَٱلّذين رأَوْا طاغوَر ٱلشاعرَ ٱلهنديَّ ٱلمتصوِّفَ حينَ نزلَ بِمِصْر، ورأَوْا سحرَهُ وتحويلَهُ كلَّ جديدٍ مدَّةَ أيام إلى قديم، وإخراسَهُ هذه الألْسنةَ عن نقدِهِ ومعارضتِهِ، وعن مُعاندةِ ٱلحقِّ طَيْشاً ونزقاً وضلالاً وتجديداً. . . يستطيعون أنْ يُدركوا ما أومأْنا إليه، ويتبيَّنوا ٱلسرَّ فيما نحنُ فيه، ويتمثلوا ما كانَ لِلشيخِ محمد عبده في عصرِه، بلْ في خَلْقِ عصرِه.

* * *

وٱنتهى ٱلخضريُّ إلى مدرسةِ ٱلقضاءِ ٱلشرعيّ، فألفَ كتابَهُ في ٱلأصول، ٱختصرَ فيهِ وهذَّبَ وقارب، فهو كتابٌ في هذا ٱلعِلْمِ لا كتابُ هذا ٱلعِلْم، وأساتذةُ ٱلأصولِ قومٌ آخرون لو أنت منهم مثلُ ٱلشيخِ ٱلرافعيّ ٱلكبير، لرأيْتَ ٱلبحرَ ٱلذي يذهبُ في ساحلِه نصفُ طولِ ٱلأرض، وقد بعثَ ٱلخضريَّ على ذلك أنَّ جماعةً يومئذٍ كانَ منها صديقُنا ٱلمرحومُ حفني ناصف، وٱلشيخُ ٱلمهديّ، وغيرُهما، ٱجتمعوا على إبداعِ نهضةٍ في ٱلتأليف، فذهبَ ثلاثةٌ منهم بحُصَّةِ ٱلأدب، وفرغَ ٱلخضريُّ لِلأُصول؛ أخبرَني بذلك حفني بك ـ رحمهُ الله ـ ثُمَّ لَمَّا ٱختارَ ٱلقائمونَ على ٱلجامعةِ ٱلمصريَّةِ ٱلقديمةِ صديقَنا ٱلعلامة ٱلمؤرّخَ جورجي زيدان لِدرسِ ٱلتاريخِ ٱلإسلاميِّ فيها. طارَ ٱلخبرُ في ٱلأُمَّةِ بأنَّهم ٱختاروا ٱلقنبلة. . . وشعرَ ٱلناسُ بمعنى ٱلهدم قبلَ أنْ يتهدَّمَ شيء، فٱضطرَّتِ ٱلجامعةُ إلى أنْ تُنحيَهُ، وعهِدَتْ في ٱلدرسِ إلى ٱلأستاذِ ٱلخُضريّ، فألقى دروسَهُ ٱلتي جمعَها في كتابِهِ (تاريخُ ٱلأممِ الإسلاميَّة). وقالَ في مقدمةِ هذا الكتاب: «أرجو أنْ أكونَ قد وُفِّقْتُ لِتذليل صعوبةٍ كبرى. وهي صعوبةُ ٱستفادةِ ٱلتاريخِ العربي من كتبِه»؛ نقول: وعلى أنّ ٱلشيخَ أحسنَ في كتابه، وجاءَ بِمادَّةٍ غزيرةٍ من فكرِهِ ورأيِهِ، وبسطَ وٱختصر، وباعدَ وقرَّب، فإنَّ كلمتَهُ هذه إمَّا أنْ تكونَ أكبرَ مِنَ ٱلتاريخ أو أكبرَ من كتابِه.

وردَّ في ٱلسنةِ ٱلماضيةِ على كتابِ «ٱلشعر ٱلجاهليّ» للدكتور طه حسين، وكان ردُّه خطاباً أرادَ أنْ يُحاضِرَ بِهِ طلبةَ ٱلجامعة، لِأَنَّهُ أستاذُ أستاذِهِم؛ فكأنَّهُ أرادَ

جعلَ أستاذِهِم هذا تلميذاً معَهم، وأبَتْ عليهِ ٱلجامعةُ ما أراد، ولعلَّها فَطِنَتْ[1] إلى هذا ٱلغرض؛ ولَمَّا عَلِمَ أنّي شرعْتُ في طبع ردّي على ٱلدكتور طه، كلمَني في ٱستلحاقِ مقالِهِ وجعلِه ذيلاً[2] في ٱلكتابِ، وقدرّناهُ يومئذٍ في نحوِ خمسينَ صفحةً أو دونها، وقد سألْتُهُ أنْ ينفيَ منه ما كانَ في مقاديرِ ٱلرصاصِ ويقتصرَ على ما هو في وزنِ ٱلقنابلِ، فقال: «كلُّهُ قنابل»!. ثُمَّ ٱتَّسعَ كِتابي وجاورَ مقدارُهُ إلى ٱلضعف، فوسَّعَ هو ردَّه وزادَ فيهِ وطبَعهُ في قريبٍ من ضِعفِهِ على حِدة.

دعْ كتابَهُ ٱلمشهورَ (مُهَذَّبُ ٱلأغاني)، فهذا لا يُقالُ: إنَّ ٱلشيخَ أَلَّفهُ، بلْ أَلفتْهُ خمسَ عَشْرَةَ سنة؛ وأظنُّ كلَّ ذلك لا يُذكرُ في جنبِ ٱلكتابِ ٱلذي كانَ يعملُ فيهِ أخيراً، وهو كتاب «الأدبُ ٱلمصريّ»، أخبرَني أنَّهُ في جزءين ودعاني إلى دارِهِ لِأَرى (المكتبة الخُضريَّة)؛ ولِأَطَّلِعَ على هذا ٱلكتاب، فوعْدتُهُ ولم يُقدرْ لي؛ وقد حدَّثني أنَّهُ معنيٌّ أشدَّ ٱلعنايةِ بٱستجماع ٱلفروقِ ٱلتي يتمازُ بها ٱلأدبُ ٱلمِصْريُّ عن ٱلأدبِّ ٱلحِجازيِّ وَٱلشاميِّ وٱلعِراقيِّ وٱلأندلسيّ، وأنّهُ أصابَ من ذلك أشياءَ متميِّزةً منذُ ٱلدولةِ ٱلطولونية، يحقُّ لِمِصْرَ أنْ تقولَ فيها: هذا أدبي؛ وكانَ يكتمُ خبرَ هذا ٱلكتاب، حتى إنَّ صديَقنا ٱلأستاذَ حافظ بك عوض صاحبَ جريدةِ «كوكبُ ٱلشرق»، ٱقترحَ عليهِ أنْ يكتبَ فصلاً في ٱلشعراءِ ٱلمِصْرِيِّينَ وأدبِهِم يعقدُهُ لِكتابِ حفلةِ تكريمِ شوقي بك؛ ثُمَّ لَقِيَهُ بعدَ ذلك فقالَ لَهُ ٱلشيخ: إنَّ ٱلبحثَ سائرٌ على أحسنِ وجوهِه!

* * *

كانَ ٱلخُضريُّ يَفرحُ لِلقائي ويهشُّ لي، وكنْتُ أتبيَّنُ في وجهِهِ أشعةَ روحِهِ ٱلصافية، ولعلّهُ كانَ يرى بي في نفسِهِ ذلك ٱلشيخَ ٱلذي أعطاني ٱلمجلَّد، كما كنْتُ أرى بِهِ في نفسي ذلك ٱلتلميذَ ٱلذي أَخَذَ ٱلمجلدَ منه! على أنَّ مرجعَ ذلك في ٱلحقِّ إلى سَعَةِ صدرِه، وفُسْحةِ رأيِهِ، وبَسْطَةِ ذرعِه، وسموِّ أدبِهِ وإنصافِه؛ فلا يحقِدُ ولا يحسد، ولا يتجاوَزُ قَدْرَهُ، ولا ينزِلُ بأحدٍ عن قدرِه، ولا يدّعي ما لا يُحسن؛ وقد عرفَ قُرَّاءُ «ٱلمقتطَفِ» مثلاً من أخلاقِهِ هذه أو أكثرِها حتى ٱنتقدَهُ صديقُنا ٱلأستاذُ عبدُ ٱلرحيم بْنُ محمود، وتناولَ ٱلجزءَ ٱلأول من كتابِهِ (مُهَذَّبُ ٱلأغاني) وراحَ يتقلقلُ لَهُ كَجلمودِ صخر... فوسِعَهُ ٱلشيخُ وعنيَ بِهِ وردَّ عليهِ في «ٱلمقتطَف»، ونعتَهُ بِٱلأستاذِ ٱلجهبذِ وَٱنتصفَ منه[3]، وأنصفَهُ معاً. ولقدِ ٱقترحْتُ عليه مرَّةً أنْ

(١) فطنت: تذكّرت وانتبهت.

(٢) ذيلاً: تعليقاً تالياً.

(٣) انتصف منه: أخذ حقه منه.

يضعَ كِتاباً في حكمةِ ٱلتشريعِ ٱلإسلاميِّ وفلسفتهِ، فقالَ لي: «مُشْ قَدَّهْ» يعني أنّ ٱلعملَ أكبرُ منه، ولكنَّ هذا نبهَهُ إلى وضعِ كتابِهِ في تاريخِ ٱلتشريعِ ٱلإسلاميّ.

ولَمَّا أصدرْتُ ٱلجزءَ ٱلأولَ من (تاريخ آداب العرب) في سنة ١٩١١، لم أهدِهِ إلى ٱلشيخ، فاشتراهُ وقرأهُ، ثُمَّ لقيْتُهُ وسألتُهُ رأيَهُ فيه، فقال: (جدًا كويس) فكان تقديم (جدًا) تقريظاً، و(كويس) تقريظاً آخر؛ وهو يقولُ هذا على حينِ كانَ بعضُ إخوانهِ ٱلشيوخِ يكادُ يموتُ غمًّا بهذا ٱلكتابِ وما كُتِبَ عنه، وعلى حينِ كلَّمَني بعضُهُم مرتينِ في تركِ هذا ٱلعملِ ونفضِ يدي منه، لِأَنَّهُ ـ زعم ـ عملٌ شاقٌّ بِلا فائدة...

وقد زرْتُ ٱلأستاذَ ٱلخضريَّ في وزارةِ ٱلمعارفِ في ٱلسنةِ ٱلماضية، فبعدَ أنْ جلسْتُ إلى جانبِهِ نهضَ مرةً ثانيةً وجعلَ يُثبتُني بِقوَّةٍ في ٱلكرسي، كأنَّه لم يطمئنَّ بعدُ إلى أنيَّ جلسْت، ثُمَّ فاضَ بِكلام كثير، فكانَ فيما قاله: «أنا ٱلآنَ أعيشُ في غيرِ زمني!»، وكأنَّما كانَ ينعي إليَّ نفسَهُ بهذهِ ٱلكلمةِ من حيثُ لا يدري ولا أدري، وقالَ لي: إنَّهُ يجلسُ إلى مكتبهِ في كلِّ يوم ستَّ ساعات، يقرأُ ويُؤلفُ أو ينسخ؛ لِأَنَّ كلَّ كتبهِ ٱلمخطوطةِ هو ناقلُها وناسخُها ومصحِّحُها، وأنَّه يتلو كلَّ يوم أربعةَ أجزاءٍ مِنَ ٱلقرآنِ ٱلكريم. قال: ولا يتعريهِ ٱلبردُ ولا مرضٌ من أمراضِهِ، لِماَ ٱعتادَ من رياضةِ صدرِهِ بهذه ٱلتلاوة، وقال: إنَّ كلَّ ما هو فيهِ إنَّما هو من بركةِ ٱلقرآن.

* * *

وَلْنمسِكْ عندَ هذا ٱلحدّ؛ فإنَّ لِلذكرى غمزاً على ٱلقلْب؛ وبِٱلجملةِ فقد كانَ ـ رحمه الله ـ عالِماً كَٱلكتَّاب، وكاتِباً كٱلعلماء؛ فهو من هؤلاءِ وأولئك يلفُّ ٱلطبقتين، وهو وحدَهُ منزلةٌ بين ٱلمنزلتين؛ وبذلك تميَّزَ وظهر، فإنَّهُ في إحدى ٱلجهتينِ عقلٌ جريءٌ تمدُّهُ روايةٌ واسعةٌ في علوم مختلفة، فتراهُ يبعثُ من عقلِهِ ٱلحياةَ إلى ٱلماضي حتى كأنَهُ لم يمض، وهو في ٱلجهةِ ٱلأخرى عِلْمٌ مستفيضٌ لا يقفُ عندَ حدِّ ٱلصحيفةِ أوِ ٱلكِتاب، بلْ لا يزالُ يلتمِسُ لَهُ عقلاً يُخرجُهُ ويتصرّفُ بِه، حتى يكبُرَ عن أَنْ يكونَ قديماً بَحْتاً فينتظِمُ ٱلحاضرُ إلى ماضيهِ ويطلقُهُما إطلاقاً واحداً. لم يكنِ ٱلشيخُ جديداً إِلَّا بِٱلقديم، ولا قَدِيماً إِلَّا بِٱلجديد؛ فإنَّنا لا نعرفُ قديماً مَحْضاً ولا جديداً صِرْفاً، ولا نُقيمُ وزنَ أحدِهِما إِلَّا بوزنِ مِنَ ٱلآخرِ إذا أردْنَا بِهما سُنَّةَ ٱلحياة؛ وأنت لَنْ تجدَ حيًا منقطِعاً مِمَّا وراءَهُ، بلْ أنت تَرى ٱلطبيعةَ قيّدَتْ كلَّ حيٍّ جديدٍ إلى أصلينِ مِنَ ٱلقديم لا أصلٍ واحدٍ هما أبواهُ فمنهما يأتي ومنهما

يستمِدُّ وهما أبداً فيهِ وإنْ كانَ على حدّة؛ وبعدُ، فلو جاريْتَ ٱلسخافةَ ٱلعصريَّةَ ٱلمشهورةَ لقُلْتَ: إنَّ المذهبَ ٱلقديم... قدِ ٱنهدّ ركنٌ من أركانهِ، ونقصَ قِنطارُ كتبٍ من مِيزانِهِ؛ ولكنَّ هذه ٱلسخافةَ في رأيي كما ترى من جماعةٍ ٱئتَلَوْا[1] أنْ يُطفِئوا نجماً في ٱلسماءِ لِأَنَّهُ قديم، فٱتَّفقُوا على ذلك وأجمعُوهُ بينَهم وفرغوا من أمرِهِ، وأقبلَ بعضُهُم على بعضٍ يتساءلون كيف يُهيِّئون ٱلعرباتِ وٱلمضخاتِ ٱلتي تحملُ إلى ٱلسماءِ بِضعة أبحرٍ لِيصبّوها على ٱلنجم...

(١) ائتلوا: أجهدوا أنفسهم.

رأيٌ جديدٌ
في كتبِ ٱلأدبِ ٱلقديمة

أدبُ ٱلكاتبِ لأبْنِ قُتيبةَ مِنَ ٱلدواوينِ ٱلأربعةِ ٱلتي قالَ ٱبْنُ خلدونَ فيها من كلامِهِ على حَدِّ عِلْمِ ٱلأدب: «وسمعْنا من شيخوخِنا في مجالسِ ٱلتعليم أنّ أصولَ هذا ٱلفنِّ وأركانَهُ أربعةُ دَواوين: وهيَ «أدبُ ٱلكاتبِ» لأبْنِ قتيبة، و «كتابُ ٱلكاملِ» لِلْمبرِّد، و «كتابُ ٱلبيانِ وٱلتبيينِ» لِلجاحظ، وكتابُ «ٱلنوادرِ» لِأبي علي ٱلقالي ٱلبغداديّ؛ وما سِوى هذه ٱلأربعةِ فتبعٌ لها وفروعٌ عنها».

وقد يظنُّ أدباءُ عصرِنا أنَّ كلمةَ ٱبنِ خلدونَ هذه كانَتْ تصلُحُ لِزمنِهِ وقومِهِ، وأنَّها تتوجَّهُ على طريقةِ مَنْ قبلَهُم في طبقةٍ بعدَ طبقةٍ إلى أصولِ هذه ٱلسلسِلَةِ ٱلتي يقولون فيها: حدثّنا فلانٌ عن فلانٍ إلى ٱلأصمعيِّ أو أبي عُبيدةَ أَو أبي عمرِوْ بنِ ٱلعلاءِ وغيرِهم من شيوخِ ٱلروايةِ ونَقَلَةِ ٱللغة. ولكنّها لا تستقيمُ في آدابنا ولا تُعدُّ من آلاتِنا ولا تقعُ من معارِفنا؛ بل يكادُ يذهبُ مَنْ يَتغرَّرُ منهم بِٱلآراءِ ٱلأوربيَّةِ ٱلتي يُسمِّيها عِلْمَه... ومَنْ يَسْترسِلُ إلى ٱلتقليدِ ٱلذي يُسمِّيهِ مذهبَهُ... إلى أنَّ تلك ٱلكتبَ وما جرى في طريقتِها هيَ أمواتٌ مِنَ ٱلكتب، وهيَ قبورٌ مِنَ ٱلأوراق، وأنَّهُ يجبُ أنْ يكونَ بينَنا وبينَها مِنَ ٱلإهمالِ أكثرُ مِمَّا بينَها وبينَنا مِنَ ٱلزمن، وأنَّ بعثَ ٱلكتابِ منها وإحياءَهُ يُوشِكُ أنْ يكونَ كبعثِ ٱلموتى: علامةً على خرابِ ٱلدنيا...

فأمَّا أنْ يكونَ ذلك علامةً على خرابِ ٱلدنيا، فهو صحيحٌ إذا كانَتِ ٱلدنيا هي محررَ جريدة... من أمثالِ أصحابِنا هؤلاء، وأمَّا تلك ٱلكتبُ فأنا أحسَبُها لم تُوضَعْ إلَّا لِزمَنِنا هذا ولِأدبائِهِ وكُتَّابِهِ خاصَّةً، وكأنَّ ٱلقدرَ هو أثبتَ ذلك ٱلقولَ في مَقدمةِ ابْنِ خَلدونَ لِينتهيَ بِنَصِّهِ إلينا فنَسْتَخرِجُ منه ما يُقيمُنا على ٱلطريقةِ في هذا ٱلعصرِ ٱلذي وقَعَ أدباؤُهُ في متَّسَعٍ طويلٍ من فنونِ ٱلأدبِ ومُضْطَرَبٍ عريضٍ من مذاهبِ ٱلكتابةِ وأُفُقٍ لا تَستقرُّ حدودُهُ مِنَ ٱلعلومِ وَٱلفلسفة... فإنَّ هذه ٱلمادَةَ ٱلحافلَةَ مِنَ ٱلمعاني تُحيي آدابَ ٱلأممِ في أوربا

وأمريكا، ولكنها تكادُ تَطمسُ آدابَنا وتَمَحقُنا[1] مَحْقاً تذهبُ فيهِ خصائصُنا ومقوّماتُنا، وتُحيلُنا عن أوضاعِنا ٱلتاريخيَّة، وتُفسدُ عقولَنا ونزعاتِنا، وترمي بِنا مرَامِيَهَا بينَ كلِّ أُمَّةٍ وأُمَّةٍ، حتى كَأَنْ ليسَتْ مِنَّا أُمَّةٌ في حَيزها ٱلإنسانيِّ ٱلمحدودِ من ناحيةٍ بِٱلتاريخ ومن ناحيةٍ بِٱلصفاتِ ومن ناحيةٍ بِٱلعلومِ ومن ناحيةٍ بِٱلآداب؛ ومن ذلكَ ٱبْتُلِيَ أكثرُ كُتَّابِنَا بِٱلانحرافِ عنِ ٱلأدبِ ٱلعربيِّ وِ ٱلعصبيَّةِ عليهِ أو ٱلزِّرايةِ لَه، ومنهم مَنْ تحسبُهُ قد رُمِيَ في عقلِهِ لَهَوسِهِ وحَماقتِه، ومنهم مَنْ كأنَّهُ في حِقْدِهِ سُلِخَ قلبُه، ومنهمُ ٱلمُقَلِّدُ لا يَدْرِي أعلى قَصْدٍ هو أمْ جَوْر، ومنهُمُ ٱلحائرُ يذهبُ في مذهبٍ ويجيءُ من مذهبٍ ولا يتَّجِهُ لِقصدٍ، ومنهم مَنْ هو منهم وكفى. . .

وقلَّما تَنَبَّهَ أحدٌ إلى ٱلسببِ في هذا؛ وٱلسببُ في حقارتِهِ وضعفِهِ «كالمكروب»: بِذرةٌ طامِسةٌ لا شأنَ لها، ولكنْ متى تُنْبِتْ تُنبتْ أوجاعاً وآلاماً وموْتاً وأحزاناً ومصائبَ شتَّى.

السببُ أنَّ أولئك ٱلأدباءَ كلَّهم ثُمَّ مَن يَتَشَيَّعُ[2] لهم أو يأخُذُ برأيِهم، ليس منهم واحدٌ تُرَى في أساسِهِ ٱلأدبيِّ تلك ٱلأصولُ ٱلعربيَّةُ ٱلمحضَةُ ٱلقائمةُ على دراسةِ ٱللغةِ وجمعِها وتصنيفِها وبيانِ عِلَلِها وتصاريفِها ومَطارح ٱللسانِ فيها، وٱلمتأديةُ بِذلك إلى تمكينِ ٱلأديبِ ٱلناشئِ من أسرارِ هذه ٱللغةِ وتَطويعِها لَه، فيكونُ قَيِّماً بِها وتكونُ هيَ مُسْتجيبَةً لِقلَمِهِ جاريةً في طبيعتِهِ مُسَدَّدَةً في تَصرُّفِهِ، حتى إذا نشأَ بها وٱستحكَمَ فيها أحسَنَ ٱلعملَ لَها وزادَ في مادَّتِها وأخذَ لَها من غيرِها وكانَ خَلِيقاً أنْ يَمُدَّ فيها ويُحْسِنَ ٱلمُلاَءَمَةَ بينَها وبينَ ٱلآدابِ ٱلأخرى ويجعلَ ذلك نَسْجاً واحداً وبياناً بعْضُهُ من بعضِه، فيَنْمُو ٱلأدبُ ٱلعربيُّ في صَنيعِهِ كما تنمو ٱلشجرةُ ٱلحيَّة: تأخذُ من كلِّ ما حولَها لِعُنْصُرِها وطبيعَتِها وليسَ إلا عنصُرُها وطبيعتُها حَسْب.

إنَّ «أدبُ ٱلكاتبِ» وشرحَهُ هذا لِلإمامِ ٱلجواليقيّ وما صُنِّفَ من بابِهِما على طريقَةِ ٱلجمع مِنَ ٱللغةِ وَٱلخبرِ وشعْرِ ٱلشواهِدِ وٱلاستقصاءِ[3] في ذلك وٱلتبَسُّطِ في ٱلوجوهِ والعِلَلِ ٱلنحويَّةِ وَٱلصرفيَّةِ وَٱلإمعانِ في ٱلتحقيق، كلُّ ذلك عملٌ ينبَغي أنْ يُعرفَ على حقِّهِ في زَمَنِنا هذا؛ لهو ليسَ أدباً كما يُفْهَمُ مِنَ ٱلمعنى ٱلفلسفيِّ لِهذه ٱلكلمة، بلْ هو أبعدُ ٱلأشياءِ عن هذا ٱلمعنى؛ فإنَّكَ لا تجدُ في كتابٍ من هذه

---

(١) تمحقنا: تسحقنا.

(٢) يتشيّع: يتحزّب.

(٣) الاستقصاء: المتابعة.

ٱلكتبِ إلَّا ٱلتأليفَ ٱلذي بين يديك، أمَّا ٱلمؤلِّفُ فلا تجدُهُ ولا تعرفُهُ منها إلَّا كٱلكلمةِ ٱلمحبوسةِ في قاعدة... وكأنَّهُ لم يكنْ فيهِ روحُ إنسانٍ بلْ روحُ مادَّةٍ مُصْمَتة، وكأنَّهُ لم ينشأْ لِيعملَ في عصرِهِ بل لِيعمَلَ عصرُهُ فيه، وكأنْ ليسَ في ٱلكتابِ جهةٌ إنسانيَّةٌ متعيِّنَة، فثمَّ تأليفٌ ولكن أين ٱلمُؤلِّف؟ وهذا كتابُ ٱبْنِ قتيبة، ولكن أينَ ٱبْنُ قتيبةَ فيه؟

وما أخطأَٱلمتقدِّمون في تسْميتَهِم هذه ٱلكتبَ أدباً؛ فذلك هو رسمُ ٱلأدبِ في عصرهِم، غيرَ أنَّ هذا ٱلرسمَ قدِ ٱنتقلَ في عصرِنا نحن، فإنَّا نحن ٱلمخطئون ٱليومَ في هذه ٱلتسمية، كما لو ذهبْنَا نُسمِّي ٱلجملَ في ٱلباديةِ «ٱلاكسبريس»، وٱلْهَوْدَجَ عربةَ «بولمان».

ومن هذا ٱلخطأ في التسميةِ ظهرَ ٱلأدبُ ٱلعربيُّ لِقصارِ ٱلنظرِ كأنَّهُ تكرارُ عصرٍ واحدٍ على ٱمتدادِ ٱلزمن، فإنْ زَادَ ٱلمتأخِّرُ لم يأخذْ إلَّا مِنَ ٱلمُتقدِّم؛ وصارَتْ هذه الكتبُ كأنَّها في جملتِها قانونٌ من قوانينِ ٱلجنسيَّةِ نافِذُ ٱلجنسيَّةِ نافذٌ على ٱلدهر، لا ينبغي لِعصرٍ يأتي إلَّا أنْ يكونَ من جنسِ ٱلقرنِ ٱلأول.

هذه ٱلكتبُ من هذه ٱلناحيةِ كٱلخلّ: يُسَمَّى لك عسلاً ثُمَّ تذوقُهُ فلا يجني عليهِ عندَك إلَّا ٱلاسمُ ٱلذي زوِّرَ لَه؛ أمَّا هو فكما هو في نفسِهِ وفي فائدتِهِ وفي طبيعتِهِ وفي ٱلحاجةِ إليه، لا ينقصُ من ذلك ولا يتغيَّر.

ٱلحقيقةُ ٱلتي يُعيِّنُها ٱلوضعُ ٱلصحيحُ أنَّ تلك ٱلمؤلفاتِ إنَّما وُضعِتْ لِتكونَ أدباً، لا من معنى أدبِ ٱلفِكْرِ وفنِّهِ وجمالِهِ وفلسفتِه، بلْ من معنى أدبِ ٱلنفسِ وتثقيفِها وتربيتِها وإقامتِها، فهي كتبُ تربيةٍ لُغَوِيَّةٍ قائمةٌ على أصولٍ مُحْكَمةٍ في هذا ٱلباب، حتى ما يَقرؤُها أعجميٌّ إلَّا خَرجَ منها عربيًّا أو في هوَى ٱلعربيَّةِ وَٱلميلِ إليها؛ ومن أجلِ ذلك بُنِيَتْ على أوضاعٍ تجعلُ ٱلقارىءَ ٱلمتبصِّرَ كأنَّما يُصاحِبُ مِنَ ٱلكتابِ أعرابيًّا فصيحاً يسألُه، فيُجيبُهُ ويستهديهِ فيُرشِدُه؛ ويُخرِّجُهُ ٱلكتابُ تصفحاً وقراءةً كما تخرّجُهُ ٱلباديةُ سماعاً وتلقيناً؛ وٱلقارىءُ في كلِّ ذلك مُسْتَدْرَجٌ[1] إلى ٱلتعريبِ في مَدْرجةٍ مدرجةٍ من هوى ٱلنفس ومحبتِها، فتصنعُ بِهِ تلك ٱلفصولُ فيما دُبِّرَتْ له مثلَما تصنعُ كتبُ ٱلتربيةِ في تكوينِ ٱلخُلُقِ بِٱلأساليبِ ٱلتي أُديرَتْ عليها وٱلشواهد ٱلتي وُضِعَتْ لها وٱلمعالمِ ٱلنفسيَّةِ ٱلتي فُصِّلَتْ فيها.

---

(١) مستدرج: مدفوع بإغراءات ما.

ومن ثَمَّ جاءَتْ هذهِ ٱلكتبُ ٱلعربيَّةُ كلُّها على نَسَقٍ واحدٍ لا يختلفُ في ٱلجملة، فهي أخبارٌ وأشعارٌ ولغةٌ وعربيَّةٌ وجمعٌ وتحقيقٌ وتمحيص، وإنَّما تتفاوَتُ بِٱلزيادةِ وٱلنقصِ وٱلاختصارِ وٱلتبسُّطِ وٱلتخفيفِ وٱلتثقيلِ ونحوِ ذلك مِمَّا هو في ٱلموضوعِ لا في ٱلوضع، حتى لَيُخيَّلُ إليك أنَّ هذه كتبُ جغرافيَّةٌ لِلغةِ وألفاظِها وأخبارِها؛ إذْ كانَتْ مثلَ كتبِ ٱلجغرافية: متطابقةً كلُّها على وصفِ طبيعةٍ ثابتةٍ لا تتغيرُ معالمُها ولا يخلقُ غيرَها إلَّا ٱلخالقُ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ.

وإذا تدبرْتَ هذا الذي بيَّناهُ لم تُعجبْ كما يُعجبُ ٱلمُتطفِّلون على ٱلأدبِ العربيِّ وٱلمُتخبِّطون فيهِ من أنْ يَرَوْا إيمانَ ٱلمؤلفينَ مُتَّصِلاً بكتبِهِم ظاهرَ ٱلأثرِ فيها، وأنَّهُم جميعاً يُقرِّرون أنَّما يُريدون بها ٱلمنزلةَ عندَ ٱللَّهِ في ٱلعَملِ لِحياطةِ هذا ٱللسانِ ٱلذي نزلَ بِهِ ٱلقرآنُ ٱلكريمُ وتأديتِهِ في هذه ٱلكتبِ إلى قومِهِم كما تُؤَدَّى ٱلأمانةُ إلى أهلِها، حتى لولا ٱلقرآنُ لَمَا وُضِعَ من ذلك شيءٌ ألبتة.

وأنا أتَلَمَّحُ دائماً ٱلعاملَ ٱلإلهيَّ في كلِّ أطوارِ هذه ٱللغة، وأراهُ يُديرُها على حفظِ ٱلقرآنِ ٱلذي هو معجزتُها ٱلكبرى، وأرى من أثرِهِ مجيءَ تِلكَ الكتبِ على ذلك ٱلوضع، وتسخيرَ تلك ٱلعقولِ ٱلواسعةِ مِنَ ٱلرواةِ وٱلعلماءِ وٱلحفَّاظِ جيلاً بعدَ جيل في ٱلجمعِ وٱلشرحِ وٱلتعليقِ بِغيرِ ٱبتكارٍ ولا وضعٍ ولا فلسفةٍ ولا زَيْغٍ عن تلك ٱلحدودِ الموسومةِ ٱلتي أومأنا إلى حِكمَتِها؛ فلو أنَّهُ كانَ فيهم مجددونَ من طِرازِ أصحابِنا من أهلِ ٱلتخليط، ثُمَّ تُرِكَ لها هذا ٱلشأنُ يُتولَوْنه كما نرى بِٱلنظرِ ٱلقصيرِ وٱلرأي ٱلمعانِدِ وٱلهوى المُنحرفِ وٱلكِبرياءِ ٱلمُصَمِّمةِ وٱلقولِ على ٱلهاجسِ وٱلعِلْم على ٱلتوهُّمِ ومجادلةِ ٱلأستاذِ حيصٍ للأستاذِ بيص... إذَن لَضربَ بَعضُهُم وجهَ بعضٍ وجاءَتْ كتُبُهم مُتدابِرة، ومُسِخَ ٱلتاريخُ وضاعَتِ ٱلعربيةُ وفسدَ ذلك ٱلشأنُ كلُّه، فلم يتّسقْ منه شيء.

وممَّا تَردُّهُ على قارئِها تلك ٱلكتبُ في تَربيتِهِ لِلعربية، أنَّها تُمكِّنُ فيهِ لِلصبرِ وَٱلمُعاناةِ وَٱلتحقيقِ وَٱلتورُّكِ في ٱلبحثِ وَٱلتدقيقِ في ٱلتصفُّح، وهيَ ٱلصفاتُ ٱلتي فقدَها أُدبَاءُ هذا ٱلزمن، فأصبحوا لا يتثبَّتون ولا يُحقِّقون، وطالَ عليهِم أنْ ينظروا في ٱلعربيَّة، وثَقُلَ عليهم أن يستبطِنوا كتبَها؛ ولو قد تربَّوْا في تلك ٱلأسفار، وبذلك ٱلأسلوبِ ٱلعربيِّ لَتمَّتِ ٱلمُلاءَمَةُ بينَ ٱللغةِ في قوَّتِها وجزالتِها وبين ما عسى أنْ يُنكِرَهُ منها ذوقُهُم في ضعفِهِ وعامِّيتِهِ وكانوا أحقَّ بها وأهلَها.

وذلك بِعينِهِ هوَ ٱلسرُّ في أنَّ مَنْ لا يقرون تلك ٱلكتبَ أولَ نشأتِهِم، لا تراهُم يكتبون إلَّا بأسلوبٍ منحطٍّ، ولا يجيئونَ إلَّا بِكلام سقيم غَثّ، ولا يرونَ في ٱلأدبِ ٱلعربيِّ إلَّا آراءَ مُلْتَوِيَة؛ ثُمَّ هم لا يستطيعون أنْ يُقيموا على درسِ كتابٍ عربيّ. فيُساهِلونَ أنفسَهُم ويحكمون على ٱللغةِ وَٱلأدبِ بِما يشعرونَ بِهِ في حالتِهِم تلك، ويتورَّطون في أقوالٍ مُضْحِكة، وينسَوْنَ أنَّهُ لا يجوزُ ٱلقطعُ على ٱلشيءِ من ناحيةِ ٱلشعور ما دامَ ٱلشعورُ يختلفُ في ٱلناس بِٱختلافِ أسبابِهِ وعوارضِه، ولا من ناحيةِ يجوزُ أَنْ يكونَ ٱلخطأُ فيها؛ وهم أبداً في إحدى ٱلناحيتينِ أو في كلتيهما.

* * *

وهذا شرحُ ٱلجواليقيِّ من أمتعِ ٱلكتبِ ٱلتي أشرْنا إليها، وصاحبُهُ هو ٱلإمامُ أبو منصورٍ موهوبُ ٱلجواليقيُّ ٱلمولودُ في سنةِ ٤٦٥ لِلهجرة، وٱلمتوفى سنةَ ٥٤٠، وهو من تلاميذِ ٱلإمامِ ٱلشيخِ أَبي زكريا ٱلخطيبِ ٱلتبريزيّ؛ أولِ مَنْ درَّسَ ٱلأدبَ في ٱلمدرسةِ ٱلنظاميةِ بِبغدادَ وقرأ ٱلجوليقيُّ على شيخِهِ هذا سبعَ عَشْرَةَ سنة، ٱستوفى فيها علومَ ٱلأدبِ مِنَ ٱللغةِ وَٱلشعرِ وٱلخبرِ وٱلعربيَّةِ بفنونِها، ثُمَّ خلفَ شيخَهُ على تدريسِ ٱلأدبِ في ٱلنظاميَّةِ بعدَ علي بْنِ زيدٍ ٱلمعروفِ بِٱلفصيحيّ.

وما نشكُّ أنَّ هذا ٱلشرحَ هو بعضُ دروسِهِ في تلك ٱلمدرسة، فأنت من هذا ٱلكتابِ كأنَّكَ بإزاءِ كرسي ٱلتدريسِ في ذلك ٱلعهد، تسمعُ من رجلٍ ٱنتهَتْ إليهِ ممّا هو بسبيلِهِ مِنَ ٱلشرح، معنيٌّ بِٱلتصريفِ ووجوهِهِ مِمَّا ٱنتهى إليهِ من أثرِ ٱلإمامِ ٱبْنِ جنيٍّ فيلسوفِ هذا ٱلعِلْمِ في تاريخِ ٱلأدبِ ٱلعربي، فَإنَّ بين ٱلجواليقيِّ وبينَهُ شيخَينِ كما تعرفُ من إسنادِهِ في هذا ٱلشرح.

وقد قالوا: إنَّ أبا منصورٍ في ٱللغةِ أمثلُ منه في ٱلنحو، على إمامتِهِ فيهما معاً؛ إذْ كانَ يذهبُ في بعضِ عِلَلِ ٱلنحوِ إلى آراءٍ شاذَّةٍ ينفرِدُ بها، وقد ساقَ منها عبدُ ٱلرحمنِ ٱلأنباريُّ مثلينِ في كتابِهِ «نزهةُ ٱلألبَّاء»، ولكنَّ هذا ٱلشذوذَ نفسَهُ دليلٌ على ٱستقلالِ ٱلفِكْرِ وسَعتِهِ ومُحاولتِهِ أنْ يكونَ في ٱلطبقةِ ٱلعُلْيا من أئمةِ ٱلعربيَّةِ وهو على ذلك رجلٌ ثِقةٌ صدوقٌ كثيرُ ٱلضبطِ عجيبٌ في ٱلتحرِّي(١) وَٱلتدقيق؛ حتى كانَ من أثرِ ذلك في طِباعِهِ أنِ ٱعتادَ ٱلتفكيرَ وطولَ ٱلصمتِ فلا يقولُ قوْلاً إلَّا بعدَ تدُّبرٍ

(١) لا ينِدّ: لا يُفلت.

(٢) التحري: التفتيش والتقصّي.

وفِكْرٍ طويلٍ، فإنْ لم يهتدِ إلى شيءٍ قال: لا أدري، وكثيراً ما كانَ يُسألُ في ٱلمسألةِ فلا يُجيبُ إلّا بعدَ أيام.

وكانَ وَرِعاً قويَّ ٱلإيمان، انتهى بِهِ إيمانُهُ وعلمُهُ وتقواهُ إلى أنْ صارَ أستاذَ ٱلخليفةِ ٱلمقتفي لأمرِ ٱلله، فٱختصَّ بإمامتِهِ في ٱلصلوات، وقرأَ عليهِ ٱلمقتفي شيئاً مِنَ ٱلكتب، وَٱنتفعَ بذلك وبانَ أثرُهُ في توقيعاتِهِ كما قالوا.

وٱلذي يتأملُ هذا ٱلشرحَ فضلَ تأملٍ يرى صاحبَهُ كأنَّما خلقَهُ ٱللَّهُ رجلَ إحصاءٍ في ٱللغة، لا يفوتُهُ شيءٌ مِمَّا عُرِفَ إلى زمنِه، وهو ولا ريبَ يجري في ٱلطريقةِ ٱلفكريةِ ٱلتي نهجَها ٱبنُ جنّي وشيخُهُ أبو علي ٱلفارسيّ؛ ومن أثرِ هذه ٱلطريقةِ فيهِ أنَّهُ لا يتحجَّرُ ولا يمنعُ ٱلقياسَ في ٱللغة، ويُلْحِقُ ما وضعَهُ ٱلمتأخرون بِما سُمِعَ مِنَ ٱلعرب، ويروي ذلك جميعَهُ ويحفظُهُ ويُلقيهِ على طلبتِهِ؛ ومن أمتعِ ما جاءَ من ذلك في شرحِهِ قولُهُ في صفحة ٢٣٥، وهو بابٌ لم يستوفِهِ غيرُهُ ولا تجدُهُ إلّا في كتابه، وهذه عبارته:

قولهم: يدي من ذلك فَعِلة: المسموعُ منهم في ذلك ألفاظٌ قليلة، وقد قاسَ قومٌ من أهلِ ٱللغةِ على ذلك فقالوا: يدي مِنَ ٱلإهالةِ سَنِخَةٌ، ومِنَ ٱلبيضِ زهِمَةٌ، ومِنَ ٱلترابِ تَرِبَةٌ، ومنَ ٱلتينِ وَٱلعنبِ وَٱلفواكهِ كَتِنةٌ وكَمِدةٌ ولَزِجَة، ومِنَ ٱلعشبِ كِتَنةٌ أيضاً، ومنَ ٱلجبْنِ نَسِمةٌ، ومِنَ ٱلجِصِّ شَهِرةٌ، ومِنَ ٱلحديدِ وَٱلشبهِ وٱلصُّفْرِ[1] وَٱلرصاصِ سَهِكةٌ وصدِئةٌ أيضاً، ومِنَ ٱلحمأةِ رَدِغَةٌ ورزغَة، ومِنَ ٱلخِضابِ رَدِعة، ومِنَ ٱلحِنْطةِ وَٱلعجينِ وَٱلخبزِ نَسِغةَ، ومنَ ٱلخَلِّ والنبيذِ خَمِطَة، ومِنَ ٱلدبسِ وَٱلعسلِ دَبِقَةٌ ولَزِقَةٌ أيضاً، ومِنَ ٱلدم شَحِطَةٌ وشَرِفَةٌ ومِنَ ٱلدهنِ زَنِخَةٌ، ومِنَ ٱلرياحينِ ذَكِيَّة، ومِنَ ٱلزهرِ زهِرَةٌ، ومنَ ٱلزيتِ قَنِمةٌ، ومِنَ ٱلسمكِ سَهِكةٌ وصَمِرة، ومِنَ ٱلسمنِ دَسِمَةٌ ونَسِمَةٌ ونَمِسةٌ، ومِنَ ٱلشهدِ[2] وَٱلطينِ لَثِقةٌ، ومِنَ ٱلعِطْرِ عَطِرةٌ، ومِنَ ٱلغاليةِ عَبِقَة، ومِنَ ٱلغسلةِ والقِذْرِ وحِرَة، ومنَ ٱلفِرصادِ[3] قَنِئَة، ومِنَ ٱللبنِ وَضِرَة، ومِنَ ٱللحمِ وَٱلمرقِ سَمِرة، ومِنَ ٱلماءِ بَلِلَةٌ وسَبِرَةَ، ومِنَ ٱلمسكِ ذَفِرةٌ وعبِقة، ومِنَ ٱلنَّتنِ قَنِمَةٌ، ومِنَ ٱلنفطِ جَعِدةٌ». انتهى.

فٱلمسموعُ من هذه ٱلألفاظِ عنِ ٱلعربِ لا يتجاوزُ سبعاً فيما نرى، وٱلباقي

---

(١) الصُّفَر: النحاس.

(٢) الشهد: العسل.

(٣) الفِرصاد: القصدير.

كلُّهُ أجراهُ علماءُ ٱللغةِ وأهلُ ٱلأدبِ على ٱلقِياس، فأبدعَ ٱلقِياسُ منها أربعاً وثلاثينَ كلمة: ولو تدبَّرْتَ كيفيَّةَ ٱستخراجِها ورجعْتَ إلى ٱلأصولِ ٱلتي أُخِذَتْ منها لأَيقنْتَ أنَّ هذه ٱلعربيَّةَ هيَ أوسعُ ٱللغاتِ كافّة، وأنَّها من أهلِها كَالنبوَّةِ ٱلخالدةِ في دِينِها ٱلقويّ: تَنتظرُ كلَّ جيلٍ يأتي كما ودَّعَتْ كلَّ جيلٍ غَبَرَ لِأَنَّها ٱلإنسانيَّة، لِهؤلاءِ وهؤلاء.

إنَّ ظهورَ مثلِ هذا ٱلشرحِ كَٱلتوبيخِ لِأكثرِ كُتَّابِ هذا ٱلزمنِ أن ٱقرءوا وٱدرسوا وخصُّوا لغتَكم بِشَطْرٍ من عِنايَتِكُم، وتربَّوْا لها بِتربيتِها في مدارسِكِمُ ومعاهِدِكم، وٱصبروا على مُعاناتِها صبرَ ٱلمُحِبِّ على حبيبتِه، فإنْ ضعُفتُمْ فَصبرَ ٱلبارِّ على مَنْ يُلزِمُهُ حَقُّه؛ فإنْ ضَعَفْتُمْ عن هذا فَصبرَ ٱلمتكلِّفِ ٱلمتَجمِّلِ على ٱلأقلّ!

* * *

أميرُ ٱلشعرِ في ٱلعصرِ ٱلقديم

الوجهُ في إفرادِ شاعرٍ أو كاتبٍ مِنَ ٱلماضين بٱلتأليف، أنْ تصنعَ كأنَّك تُعيدُهُ إلى ٱلدنيا في كتابٍ وكانَ إنساناً، وتُرجعُهُ درساً وكانَ عمراً، وتردُّهُ حِكايةً وكانَ عملاً، وتنقلُهُ بزمنِهِ إلى زمنِك، وتعرضُهُ بقومِهِ على قومِك، حتى كأنَّهُ بعدَ أنْ خلقَهُ ٱللَّهُ خِلقةَ إيجادٍ يخلقُهُ ٱلعقلُ خِلقةَ تفكير.

من أجلِ ذلك لا بُدَّ أنْ يتقصَّى[1] ٱلمؤَلِّفُ في ٱلجمعِ من آثارِ ٱلمترجَمِ وأخبارِه، وأنْ يحملَ في ذلك مِنَ ٱلعَنَتِ ما يحملُهُ لو هو كانَ يجري وراءَ مَلَكَيْ مَنْ يُتَرْجِمُهُ لِقراءةِ كتابِ أعمالِهِ كِتابٌ في يديهما... ولا بُدَّ أنْ يُبالِغَ في ٱلتمحيصِ وَٱلمُقابلة، ويُدَقِّقَ في ٱلاستنباطِ وَٱلاستخراج، ويُضيفَ إلى عامَّةِ ما وَجَدَ من ٱلعِلْمِ وَٱلخبر خاصَّةَ ما عندَهُ مِنَ ٱلرأي وٱلفِكْر، ويعملَ على أنْ يُنَقِّحَ ما ٱنتهى إليهِ ٱلماضي في أدبِهِ وعِلْمِهِ بِمَا بَلَغَ إليهِ ٱلحاضرُ في فنِّهِ وفلسفتِه؛ وذلك من عملِ ٱلعقلِ ٱلمتجدِّدِ أبداً والمترادفِ على هذه ٱلحياةِ بِمذاهبِهِ ٱلمختلِفة، يُشبِهُ عملَ ٱلدهْرِ ٱلمتجدِّدِ أبداً وٱلمترادفِ بٱلليلِ وٱلنهارِ على هذه ٱلأرض، كلَّ نهارٍ أو ليلٍ هو آخرُ وهو أول، وكذلك ٱلعقولُ كلُّها آخِرُ من ناحيةٍ وأولُ من ناحية.

وَٱلتجديدُ في ٱلأدبِ إنَّما يكونُ من طريقتين: فأمَّا واحدةٌ فإبداعُ ٱلأديبِ ٱلحيِّ في آثارِ تفكيرِهِ بِما يخلقُ مِنَ ٱلصورِ ٱلجديدةِ في ٱللغةِ وَٱلبيان، وأمَّا ٱلأخرى فإبداعُ ٱلحيِّ في آثارِ ٱلميتِ بِما يتناولُها بِهِ مِنْ مذاهبِ ٱلنقدِ ٱلمستحدَثةِ وأساليبِ ٱلفنِّ ٱلجديدةِ وفي ٱلإبداعِ ٱلأولِ إيجادُ ما لم يُوجد، وفي ٱلثاني إتمامُ ما لم يَتِمّ؛ فلا جَرَمَ كانَتْ فيهما معاً حقيقةُ ٱلتجديدِ بِكُلِّ معانيها، ولا تجديدَ إلا من ثَمَّةَ، فلا جديد؛ إلَّا معَ ٱلقديم.

وإذا تبينْتَ هذا وحقَّقْتَهُ أدركْتَ لِماذا يتخبَّطُ منتحلو ٱلجديدِ بينَنا وأكثرُهُم يدَّعيهِ سَفاهاً ويتقلَّدُهُ زُوراً، وجملةُ عملِهِم كوضعِ ٱلزنجيِّ ٱلذَّرورَ ٱلأبيضَ (البودرة)

---

(١) يتقصّى: يتحرّى ويتابع التمحيص: التقصّي والتحرّي.

على وجهِهِ ثُمَّ يذهبُ يدّعي أنَّهُ خرجَ أبيضَ من أمِّهِ لا منَ ٱلعُلْبة. . . . فإنَّ منهم مَنْ يصنعُ رسالةً في شاعرٍ وهو لا يفهمُ ٱلشعرَ ولا يُحسِنُ تفسيرَهُ ولا يجدُهُ في طبعِه، ومنهم مَنْ يدرسُ ٱلكاتبَ ٱلبليغَ وقد باعدَهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلبلاغةِ ومذاهبِها وأسرارِها، ومنهم مَنْ يُجدّدُ في تاريخِ ٱلأدب، ولكنْ بِٱلتكذُّبِ عليهِ وَٱلتقحُّم فيهِ وٱلذهابِ في مذهبِ ٱلمخالفة، يضربُ وجهَ ٱلمُقْبلِ حتى يجيءَ مُدْبِراً، ووجهَ ٱلمُدْبِرِ حتى يعودَ مُقْبِلاً، فإذا لِكلّ فريقٍ جديد، وينسى أنَّ جديدَهُ بِٱلصنعةِ لا بِٱلطبيعةِ وبِٱلزورِ لا بِٱلحقّ.

ألا إنَّ كلَّ مَنْ شاءَ ٱستطاعَ أنْ يطبَّ لِكلِّ مريض، لا يكلِّفُهُ ذلك إلَّا قولاً يقولُهُ وتلفيقاً يُدبرُه، ولكنْ أكذلك كلُّ مَنْ وصفَ دواءً ٱستطاعَ أنْ يشفي بِه؟

وبعدُ؛ فقد قرأتُ رسالةَ ٱمرىءِ ٱلقيسِ ٱلتي وضعَها ٱلأديبُ ٱلسيدُ محمد صالح سمك، فرأيْتُ كاتبَها ـ مع أنَّهُ ناشىءٌ بعد ـ قد أدركَ حقيقةَ ٱلفنِّ في هذا ٱلوضعِ من تجديدِ ٱلأدب، فٱستقامَ على طريقةٍ غيرِ ملتوية، ومضى في ٱلمنهجِ ٱلسديدِ ولم يَدَعِ ٱلتثبُّتَ وإنعامَ ٱلنظرِ وتقليبَ ٱلفكرِ وتحصينَ ٱلرأي، ولا قصَّرَ في ٱلتحصيلِ وَٱلاطِّلاعِ وٱلاستقصاء، ولا أراهُ قد فَاتَهُ إلَّا ما لا بُدَّ أنْ يفوتَ غيرَهُ مِمَّا ذهبَ في إهمالِ ٱلرواةِ ٱلمتقدمينَ وأصبحَ ٱلكلامُ فيهِ من بعدِهم رَجْماً بِٱلغيبِ وحُكْماً بِٱلظنّ.

فإنَّ ٱمرأ ٱلقيسِ في رأيي إنَّما هو عقلٌ بيانيٌّ كبيرٌ منَ ٱلعقولِ ٱلمفردةِ ٱلتي خَلقَتْ خلقتَها في هذه ٱللغة، فوضعَ في بيانِها أوضاعاً كانَ هو مبتدعَها وٱلسابقَ إليها، ونهجَ لِمَنْ بعدَهُ طريقتَها في ٱلاحتذاءِ عليها وٱلزيادةِ فيها وٱلتوليدِ منها؛ وتلك هي منقبتُهُ ٱلتي ٱنفردَ بها وٱلتي هيَ سِرُّ خلودِهِ في كلِّ عصرٍ إلى دهرِنا هذا وإلى ما بَقيَتِ ٱللغةُ؛ فهو أصلٌ منَ ٱلأصولَ، في أبوابٍ مِنَ ٱلبلاغةِ كٱلتشبيهِ وٱلاستعارةِ وغيرِهِما، حتى لَكَأنَّهُ مصنعٌ من مصانعِ ٱللغةِ لا رجلٌ من رجالِها؛ وكما يُقالُ في أيّامنا في أمم ٱلصناعة: سيارةُ فورد وسيارة فيات، يُمكنُ أنْ يُقالَ مثلُ ذلك في بعضِ أنواعِ ٱلبلاغةِ ٱلعربية: ٱستعارةُ ٱمرىءِ ٱلقيسِ، وتشبيهُ ٱمرىءِ ٱلقيس.

ولكنَّ تحقيقَ هذا ٱلبابِ وإحصاءَ ما ٱنفردَ بِهِ ٱلشاعرُ وتأريخَ كلماتِهِ ٱلبيانيَّةِ مِمَّا لا يستطيعُهُ باحثٌ وليسَ لنا فيهِ إلَّا ٱلوقوفُ عندَ ما جاءَ بِهِ ٱلنصّ.

ولقد نبهْنا في (إعجاز القرآن) إلى مثلِ هذا؛ إذْ نعتقدُ أنَّ أكثرَ ما جاءَ في ٱلقرآنِ ٱلكريم كانَ جديداً في ٱللغة، لم يُوضَعْ من قبلِهِ ذلك ٱلوضعَ ولم يجرِ في

ٱستعمالِ ٱلعربِ كما أجراهُ، فهو يَصُبُّ ٱللغةَ صبًّا في أوضاعِهِ لِأَهلِها لا في أوضاعِ أهلِها؛ وبذلك يُحقِّقُ من نحوِ ألفٍ وأربعمائةِ سنةٍ ما لا نظنُّ فلسفةَ ٱلفنِّ قد بلغَتْ إليهِ في هذا ٱلعصر؛ إذْ حقيقةُ ٱلفنِّ على ما نرى أنْ تكونَ ٱلأشياءُ كأنَّها ناقصةٌ في ذاتِ أنفسِها ليسَ في تركيبِها إلّا ٱلقوَّةُ ٱلتي بُنِيَتْ عليها، فإذا تناولَها ٱلصَّنَعُ ٱلحاذِقُ ٱلمُلْهَمُ أضافَ إليها من تعبيرِهِ ما يُشعرُكَ أنَّهُ خَلقَ فيها ٱلجمالَ ٱلعقليّ، فكأنَّها كانَتْ في ٱلخِلْقةِ ناقصةً حتى أتمَّها.

وهذا ٱلمعنى ٱلذي بيَّنَّاهُ هو ٱلذي كانَ يحومُ عليهِ ٱلرواةُ وٱلعلماءُ بِٱلشعرِ قديماً، يُحِسُّونَهُ ولا يجدون بيانَهُ وتأويلَه، فترى ٱلأصمعيَّ مثلاً يقولُ في شعرِ لبيد؛ إنَّهُ طيلسانٌ طَبَري. أي مُحْكَمٌ متين، ولكنْ لا رونقَ لَه؛ أي فيهِ ٱلقوَّةُ وليسَ فيهِ ٱلجمال؛ أي فيهِ ٱلتركيبُ وليسَ فيهِ ٱلفنّ.

وٱلعقلُ ٱلبيانيُّ كما قلْنا في غير هذه ٱلكلمة، هو ثروةُ ٱللغة، وبِهِ وبِأمثالِهِ تَعامَلَ ٱلتاريخ، وهوَ ٱلذي يُحقِّقُ فيها فنَّ ألفاظِها وصورِها؛ فهو بذلك ٱمتدادُها ٱلزمنيُّ وٱنتقالُها ٱلتاريخيُّ وتخلُّقُها معَ أهلِها إنسانيَّةً بعدَ إنسانيَّةٍ في زمنٍ بعدَ زمن، ولا تجديدَ ولا تطوُّرَ إلّا في هذا ٱلتخلُّقِ متى جاءَ من أهلِهِ وٱلجديرينَ به؛ وهو ٱلعقلُ ٱلمخلوقُ لِلتفسيرِ وٱلتوليدِ وتلقِّي ٱلوحيِّ وأدائِهِ وٱعتصارِ ٱلمعنى من كلِّ مادَّةٍ وإدارةِ ٱلأسلوبِ على كلِّ ما يَتَّصِلُ بِهِ منَ ٱلمعاني وٱلآراء، فينقلُها من خِلْقَتِها وصِيغِها ٱلعاليةِ إلى خَلقِ إنسانٍ بِعينِه، هو هذا ٱلعبقريُّ ٱلذي رُزِقَ ٱلبيان.

ولِلسببِ ٱلذي أومأْنا إليهِ بَقِيَ ٱمرؤُ ٱلقيس كَٱلميزانِ ٱلمنصوبِ في ٱلشعرِ ٱلعربيِّ يبينُ بِهِ ٱلناقصُ وَٱلوافي؛ قالَ ٱلباقلّانيُّ في كتابِهِ (الإعجاز): وقد ترى ٱلأدباءَ أولاً يُوازنون بشِعرِهِ (يُريدُ ٱمرأَ ٱلقيس) فلاناً وفلاناً ويضمُّون أشعارَهم إلى شعرِه، حتى ربمّا وازنوا بين شعرِ مَنْ لقيناهُ (توفي ٱلباقلاني سنة ٤٠٣ لِلهجرة) وبين شعرِهِ في أشياءَ لطيفةٍ وأمورٍ بديعة، وربمَّا فضّلوهُم عليهِ أو سوَّوا بينَهُم وبينَهُ أو قرَّبوا موضعَ تقدُّمِهِ عليهم وبرّوزُهُ بين أيديهم، اهـ.

ومعنى كلامِهِ أنَّ ٱمرأَ ٱلقيسِ أصلٌ في ٱلبلاغة، قد ماتَ ولا يزالُ يُخْلَق، وتطوَّرَتِ ٱلدنيا ولا يزالُ يجيءُ معها، وبلغَ ٱلشعرُ ٱلعربيُّ غايتَهُ ولا تزالُ عربيَّتُهُ عند ٱلغاية.

وعَرَضَ ٱلباقلَّانيُّ في كتابِهِ طويلةَ ٱمرىءِ ٱلقيسِ فَٱنتقدَ منها أبياتاً كثيرة، لِيدلَّ

بذلك على أنَّ أجودَ شعرٍ وأبدعَهُ وأفصحَهُ وما أجمعوا على تقدُّمِهِ في ٱلصناعةِ وَٱلبيان، هو قبيلٌ آخرُ غيرُ نظمِ ٱلقرآنِ لا يمتنِعُ من آفاتِ ٱلبشريَّةِ ونقصِها وعُوَارِها؛ فركِبَ في ذلك رأسَهُ ورجليهِ معاً. . . فأصابَ وأخطأ، وتعسَّفَ وتهدَّى، وأنصفَ وتحامل؛ وكلُّ ذلك لِمكانةِ ٱمرىءِ ٱلقيسِ في ٱبتكارِهِ ٱلبيانيِّ ٱلذي لا يُمكنُ أنْ يدفعَ عنه؛ ولما ٱنتقدَ قولَه:

وبـيـضـةُ خُـدْرٍ لا يُـرامُ خِـبـاؤُهـا   تـمتَّعْتُ من لَـهْـوٍ بـهـا غيـرَ مُـعجَـلِ

قال: «فقد قالوا: عَنَى بذلك أنَّها كبيضةِ خِدْرٍ في صفائِها ورِقَّتِها، وهذه كلمةٌ حسنةٌ ولكن لم يَسبقْ إليها بلْ هي دائرةٌ في أفواهِ ٱلعرب». ألا ليت شعري هلْ كانَ ٱلباقلانيُّ يسمعُ من أفواهِ ٱلعربِ في عصرِ ٱمرىءِ ٱلقيسِ قبلَ أنْ يقولَ (وبيضةُ خدر)؟

على أنَّ ٱلكِناية عنِ ٱلحبيبةِ (بيضةُ الخدر) من أبدعِ ٱلكلام وأحسنِ ما يؤتَى ٱلعقلُ ٱلشعريّ، ولو قالَها ٱليومَ شاعرٌ في لندن أو باريسَ بِٱلمعنى ٱلذي أرادَهُ ٱمرؤُ ٱلقيس ـ بما فسَّرَها بِهِ ٱلباقلانيُّ ـ لاَستُبدِعَتْ من قائلِها ولأَصبحَتْ مَعَ ٱلقُبْلَةِ على كلِّ فمٍ جميل؛ بلْ هم يمرونَ في بعضِ بيانِهِم من طريقِ هذه ٱلكلمة، فيُكنونَ عنِ ٱلبيتِ ٱلذي يتلاقى فيه ٱلحبيبان (بِٱلعُشّ)، وما يُتَّخذُ ٱلعُشُّ إلَّا للبيضة. إنَّما عنى ٱلشاعرُ ٱلعظيمُ أنَّ حبيبتَهُ في نُعُومَتِها وترفِها ولِينِ ما حولَها، ثُمَّ في مَسِّها وحرارةِ ٱلشبابِ فيها، ثُمَّ في رقتِها وصَفاءِ لونِها وبَريقِها، ثُمَّ في قِيامِ أهلِها وذويها عليها ولزومِهِم إيَّاها، ثُمَّ في حذرِهِم وسهرِهِم، ثُمَّ في ٱنصرافِهِم بجملةِ ٱلحياةِ إلى شأنِها وبجملةِ ٱلقوَّةِ إلى حِياطَتِها[1] وٱلمُحاماةِ عنها ـ هيَ في كلِّ ذلك منهم، ومن نفسِها كبيضةِ ٱلجارحِ في عشِّه، إلَّا أنَّها بيضةُ خِدْر، ولذلك قالَ بعدَ هذا ٱلبيت:

تَـجَـاوَزْتُ أحـراسـاً إلـيـهـا ومَـعْـشـراً   عـلـيّ حِـراصـاً لَـوْ يُـسِـرُّونَ مَـقْـتَـلـي

فتلك بعضُ معاني ٱلكلمةِ وهيَ كما تَرى، وكذلك ينبغي أنْ يُفسَّرَ ٱلبيان. . .

---

(١) حياطتها: حمايتها.

البؤساء

ترجمَ حافظٌ هذا ٱلجزءَ ٱلثاني مِنَ ٱلبؤساءِ فطوى بِهِ ٱلأول، وكانوا يحسبونَ ٱلأولَ قد عَقِمَتْ بمثلِهِ ٱلبلاغةُ فلا ثانيَ لَه. وبين ٱلجزئين زمنٌ لَو ٱتَّسعَ بِهِ أديبُ في قراءةِ كتبِ ٱلأدبِ لٱستوعَبَها كلَّها، فكأنَّ ٱرتفاعَ ٱلسنِّ بِحافظٍ في هذه ٱلمدةِ جعلَ منه في قوَّةِ ٱلأدبِ حافظين يُترجمانِ معاً.

وما ٱلبؤساءُ في ترجمتِهِ إلَّا فكرُ فيلسوفٍ تعلَّقَ في قلمِ شاعرٍ فٱنعطَفتْ عليهِ حواشي ٱلبيانِ من كلِّ نواحيه، وجاءَ ما تدري أشعراً مِنَ ٱلنثرِ أم نثراً مِنَ ٱلشعر، وخرجَتْ بِهِ ٱلكِتابةُ في لَوْنٍ مِنَ ٱلصفاءِ وَٱلإشراقِ كأنَّما تنحلُّ عليهِ أشعةُ ٱلضحى.

ترجمَ حافظٌ فوضعَ ٱللغةَ بين فكرِهِ ولِسانِه، ووقفَ تحت سحابةٍ مِنَ ٱلسُّحُبِ ٱلتي خفقَ عليها جناحُ جبريل، فما تخلو كتابتُهُ من ظِلٍّ يتنفَّسُ عليك برائحةِ ٱلإعجاز؛ وتراهُ يتحدّرُ مَعَ ٱلكلام ويتناولُ منه ويدع، فما نزعَ بِهِ ٱلكلامُ منزعاً إلَّا وجدَهُ متمكِّناً منه وأصابَهُ حيثُ أصابَهُ كَٱلتيَّارِ جملةً واحدةً تلفُ أولَ ٱلنهرِ وآخرَهُ على مدِّ ما يجري؛ فهو حيثُ كانَ في ٱلسهْلِ وفي ٱلصعْب، غيرَ أنَّهُ يستسِرُّ في موضعٍ ويستعلِنُ في موضِع، ويجيشُ ويهدرُ ويترامى في ٱلعمقِ فيدوِّي دويًّا.

ومن هنا يحسبُهُ بعضُهُم يجنحُ إلى ما يستجفي مِنَ ٱلكلام، وإلى ٱستكراهِ بعضِ ٱلألفاظِ وَٱلتكلُّفِ لِبعضِها؛ وإنَّما ذاك وضعٌ من أوضاع ٱللغةِ ومذهبٌ من مذاهبِ ٱلبلاغة، ولا بُدَّ أنْ يشتدَّ ٱلقولُ ويلين، وأنْ يكونَ في أجراسِ ٱلحروفِ ما في نغمِ ٱلإيقاع؛ وما أشبَه هندسةَ ٱلبيانِ بِهندسةِ ٱلطبيعةِ ٱلتي تعمزُ ٱلنهرَ وترمي بِٱلبحر وتقذفُ بِٱلجبلِ ٱلأشمّ؛ وما ٱلجبلُ لو حققْتَ في وجوهِ ٱلتناسبِ ٱلطبيعيِّ إلَّا بحرٌ قد تحجَّرَ فٱنتثرتْ أمواجُهُ من صخورِهِ، وكلا ٱثنيهما على ما بين ٱلصلابةِ وَٱللِّينِ تعبيرٌ في أساليبِ ٱلقوَّةِ عن ٱلقوة، وتوضيحٌ لِأقوى ما لا يُمكنُ أنْ يظهر، بِأقوى ما لا يُمكنُ أنْ يخفى.

يُخطىءُ ٱلضِّعافُ مِنَ ٱلكتَّابِ وبِخاصةٍ في أيامِنا هذه... إذا حَسِبوا ٱلفصاحةَ

ٱلعربيَّةَ قبيلاً واحداً مِنَ ٱللفظِ ٱلرقيقِ ٱلمأنوس؛ ولقد تجدُ بعضَ هؤلاءِ ٱلضعفاءِ وإنَّهُ ليرى في ٱلكلامِ ٱلجزْلِ ٱلمتفصِّحِ ما يرى في جمجمةِ ٱلأعاجِم إذا نطقوا فلم يُبينوا؛ وإنَّما هيَ ٱلعربيَّة، وإنَّما فصاحتُها في مجموعِ ما يطَّردُ بِهِ ٱلقول؛ وَٱلفصاحةُ في جملتِها وتفصيلِها إحكامُ ٱلتناسبِ بينَ ٱلألفاظِ وَٱلمعاني، وَٱلغرضِ ٱلذي يتَّجهُ إليهِ كِلاهُما؛ فمتى فُصِلَ ٱلكلامُ على هذا ٱلوجهِ وأُحكِمَ على هذه ٱلطريقة، رأيْتَ جمالَهُ واضحاً بيِّناً في كلِّ لفظٍ تقومُ بِهِ ٱلعِبارة، مِنَ ٱلنسجِ ٱلمهلْهلِ ٱلرقيق، إلى ٱلحَبْكِ ٱلمُحْكَمِ ٱلدقيق، إلى ٱلأسلوبِ ٱلمندمجِ ٱلموثَّقِ ٱلذي يُسرَدُ في قوَّةِ ٱلحديد؛ إذْ يكونُ كلُّ حَرفٍ لِموضِعِه، ويكونُ كلُّ موضعٍ لِحرفِه، ويكونُ كلُّ ذلك بِمقدارٍ لا يُسرف، وقِياسٍ لا يُخطىء، ووزنٍ لا يختلف؛ وهذه هي طبيعةُ ٱلفصاحةِ ٱلعربيَّةِ دون سائرِ ٱللغات، وبها أمكنَ ٱلإعجازُ في هذه ٱللغةِ ولم يُمكنْ في سواها.

ومترجِمُ ٱلبؤساءِ أحدُ ٱلأفرادِ ٱلمعدودينَ ٱلذين أحكموا هذه ٱلطريقةَ ونفذوا إلى أسرارِها، ففي كلِّ موضعٍ من كتابتِهِ موضِعُ روعة، حتى ما تدري أيكتبُ أم يصوغُ أم يُصوِّر، وكأنَّهُ لا ينقلُ من لِسانٍ إلى لِسان، بلْ من فِكْرٍ إلى فِكْر، فترى أكثرَ جملهِ كأنَّها تُضيءُ فيها ٱلمصابيح.

ومِنَ ٱلخواصِّ ٱلتي ٱنفردَ بها حافظٌ أنَّهُ ظاهرٌ في صَنعةِ ألفاظِهِ ظهورَ هيجو في صنعةِ معانيه؛ إذْ لا تجدُ غيرَهُ مِنَ ٱلمترجمينَ يتَّسِعُ لِهذا ٱلأسلوبِ أو يُطيقُه؛ وأكثرُ ٱلكتبِ ٱلمترجَمةِ إلى ٱلعربيَّةِ إنَّما تطمِسُ على ٱسمِ ٱلمترجمِ قبلَ أنْ تكشِفَ عنِ ٱسمِ ٱلمؤلِّف، فلا يحيا ٱلميتُ إلَّا بموتِ ٱلحيّ؛ وهم في أكثرِ ما يصنعون لا يعدون أنْ يُصحِّحوا ٱلعاميةَ أو يُفصِّحوا بها قليلاً، فيستوي في صنعةِ ٱلبيانِ أنْ يكونَ ناقلُ ٱلكتابِ هذا أو ذاك أو ذلك، لِأنَّهُم سواسية، ولا تُؤْتيكَ كتبهُمُ أكثرَ مِمَّا يُؤتيكَ ٱلاسمُ ٱلمعلَّقُ على مُسَمّاه.

غيرَ أنَّك في ٱلبؤساءِ ترى معَ ٱلترجمةِ صنعةً غيرَ ٱلترجمة، وكأنَّما ألَّفَ هيجو هذا ٱلكتابَ مرَّةً وألَّفهُ حافظٌ مرتين، إذْ ينقلُ عنِ ٱلفرنسيَّة؛ ثُمَّ يفتنُّ في ٱلتعبيرِ عمَّا ينقل، ثُمَّ يُحكِمُ ٱلصنعةَ فيما يفتنّ، ثُمَّ يُبالِغُ فيما يُحكِم؛ فأنت من كتابهِ في لغةِ ٱلترجمة، ثُمَّ في بيانِ ٱللغة، ثُمَّ في قوَّةِ ٱلبيان؛ وبِهذا خرَجَ ٱلكتابُ وإنَّ مترجمَهُ لَأَحقُّ بِهِ في ٱلعربيَّةِ من مؤلِّفه، وجاءَ وما يستطيعُ أحدٌ أنْ ينسى أنَّهُ لِحافظٍ دونَ سِواه.

وتلك طريقةٌ في ٱلكتابةِ لا يُستعانُ عليها إلَّا بِٱلأدبِ ٱلعزير، وَٱلذوقُ ٱلناضج،

وَٱلبيانِ ٱلمطبوع؛ ثُمَّ بِٱلصبرِ على مُطاولةِ ٱلتعَبِ ومعاناةِ ٱلكَدِّ في تخيُّرِ ٱللفظِ وتجويدِ ٱلأسلوبِ وتصفيةِ ٱلعِبارة؛ فلقدْ يُنفِقُ ٱلكاتبُ وقتاً في عمرِ ٱلليلِ لِيُخرِجَ من آخرِهِ سطراً في نورِ ٱلفجر، وبهذا ٱلصنيعِ جاءَتْ صفحاتُ ٱلبؤساءِ على قِلَّتِها كشبابِ ٱلهوى؛ لِكلِّ يومٍ منه فجرُهُ وشمسُه، ولِكلِّ ليلةٍ قمرُها ونجومُها.

* * *

وٱلذي نغتمزُهُ[1] في هذه ٱلترجمةِ أنَّ ٱلضَجرَ يستبِدُّ أحياناً بِصاحِبِنا فيستكرِهُهُ على غيرِ طبعِهِ، ويردُّهُ إلى غيرِ مألوفِه؛ ومن ثَمَّ يضطربُ ذوقُهُ وسليقتُهُ أو يذهبُ بِهِ عنهما، فيعدِلُ بِٱلمعنى عن لفظِهِ ٱلمعروفِ ٱلذي ٱستعملَهُ ٱلأدباءُ فيه، كٱستعمالِهِ قارنْ بينَ كذا وكذا، وإنَّما يستعملون مَثِّلْ بينهما، أو يُخلُّ بوزنِ ٱلكلمةِ في ميزانِ ٱلذوق، فترى ٱلعِبارةَ ٱليابسةَ في ٱلجملةِ ٱلخضراءِ ٱلتي ترِفُّ؛ وذلك ما لا مطمعَ لِأَحدٍ أنْ يَسْلَمَ منه؛ لِأَنَّهُ أثرُ ٱلضعفِ ٱلإنسانيِّ فِيمَنِ ٱرتهنوا أنفسَهُم بِمُلابَسةِ ٱلقوَّةِ ٱلعليا في هذه ٱلإنسانيَّة.

ولم يُتنزَّهْ عنهُ كتابٌ إِلَّا ذلك ٱلكتابُ ٱلعزيزُ ٱلذي ٱهتزَّتْ لَهُ ٱلسمواتُ ٱلسبعُ وٱلأرضُ ومَنْ فيهِنَّ.

* * *

---

(١) نغتمزه: نجده مغمزاً للانتقاص من قدره.

المَلاحُ ٱلتائه

إذا أردتُ أنْ أكتبَ عن شعرٍ فقرأْتُه، كانَ من دَأَبي[1] أنْ أقرأَهُ متثبتاً أتصفحُ عليهِ في ٱلحرفِ وَٱلكلمة، إلى ٱلبيتِ وَٱلقصيدة، إلى ٱلطريقةِ وَٱلنهج، إلى ما وراءِ ٱلكلام من بواعثِ ٱلنفسِ ٱلشاعرةِ ودوافع ٱلحياةِ فيها، وعن أيِّ أحوالِ هذه ٱلنفسِ يصدرُ هذا ٱلشاعر، وبأيِّها يتسبَّبُ إلى ٱلإلهام، وفي أيِّها يَتَّصِلُ ٱلإلهامُ به، وكيف يتصَرَّفُ بمعانيه، وكيفَ يسترسِلُ إلى طبعِه، ومن أين ٱلمأتى في رديئِهِ وسقطِه، وبماذا يسلُكُ إلى تجويدِهِ وإبداعِه.

ثُمَّ كيف حِدَّةُ قريحتِهِ وذكاءُ فِكْرِهِ وَٱلمَلَكَةُ ٱلنفسيَّةُ ٱلبيانيَّةُ فيه، وهلْ هيَ جبَّارةٌ متعسِّفةٌ تملِكُ ٱلبيانَ من حدودِ ٱللغةِ في ٱللفظِ إلى حدودِ ٱلإلهام في ٱلمعنى، ملكةَ ٱستقلالٍ تنفذُ بِٱلأمرِ وَٱلنهي جميعاً، أو هي ضعيفةٌ رِخوةٌ ليسَ معَها إلَّا ٱلاختلالُ وَٱلاضطراب، وليسَ لها إلّا ما يحمِلُ ٱلضعيفَ على طبعِهِ ٱلمكدودِ كلَّما عَنُفَ بِهِ سقطَ به؟

أتبيَّنُ كلَّ هذا فيما أقرأُ مِنَ ٱلشعر، ثُمَّ أزيدُ عليهِ ٱنتقادَهُ بما كنْتُ أصنعُهُ أنا لو أنَّي عالجْتُ هذا ٱلغَرَضَ أو تناولْتُ هذا ٱلمعنى، ثُمَّ أُضِيفُ إلى ذلك كلِّهِ ما أَثبتُّهُ من أنواعِ ٱلاهتزازِ ٱلَّتي يُحدِثُها ٱلشعرُ في نفسي؛ فإنِّي لأطَرَبُ لِلشعرِ ٱلجيِّدِ ٱلوثيقِ أنواعاً مِنَ ٱلطربِ لا نوعاً واحداً، وهيَ تُشبِهُ في ٱلتفاوتِ ما بينَ قطرةِ ٱلندى ٱلصافيةِ في ورقِ ٱلزنبقةِ وقطرةِ ٱلشعاعةِ ٱلمتألِّقةِ في جوهرِ ٱلماسةِ وموجةِ ٱلنورِ ٱلمتألِّهةِ في كوكبِ ٱلزهرة.

وأكثرُ ٱلشعرِ ٱلذي في أيامِنا هذه لا يتَّصلُ بنفسي ولا يخفُّ على طبعي، ولا أراهُ يقعُ مِنَ ٱلشعرِ ٱلصحيحِ إلَّا من بعد، وهو مني أنا كَٱلرجلِ يمرُّ بي في ٱلطريقِ لا أعرفُه: فلا ينظرُ إليَّ ولاَ أنظرُ إليه، فما أُبصرُ منه رجلاً وإنسانيَّةً وحياةً أكثرَ مِمَّا أراهُ ثوْباً وحِذاءً وطربوشاً! وٱلعجيبُ أنَّهُ كلما ضَعفَ ٱلشاعرُ من هؤلاءِ قوِيَ على

(١) دأبي: عادتي.

مِقدارِ في ٱلاحتجاجِ لِضعفِه، وأُلِهَمَ مِنَ ٱلشواهدِ وَٱلحُججِ ما لو أُلْهِمَ بِعددِهِ مِنَ ٱلمعاني وٱلخواطرِ لَكانَ عسى. . .

فإذا نافَرتِ ٱلمعاني ألفاظَها وٱختلفَتِ ٱلألفاظُ على معانيها قال: إنَّ هذا في ٱلفنّ. . . هو ٱلاستواءُ وٱلاطرادُ وٱلمُلاءمةُ وقُوَّةُ ٱلحبْك؛ وإذا عوَّضَ وخانَهُ ٱللفظُ وٱلمعنى جميعاً وأساءَ لَيتكلَّفُ وتساقطَ لَيتحذلقُ وجاءَكَ بِشعرِهِ وتفسيرِ شِعرِهِ وٱلطريقةِ لِفهم شعرِهِ قال: إنَّهُ أعلى من إدراكِ مُعاصِريه، وإنَّ عجرفةَ معانيهِ هذه آتيةٌ من أنّ شِعرَهُ من وراءِ ٱللغة، من وراءِ ٱلحالةِ ٱلنفسيَّة، من وراءِ ٱلعصر، من وراءِ ٱلغيب: كأنَّ ٱلموجودَ في ٱلدنيا بين ٱلناسِ هو ظلُّ شخصِهِ لا شخصُه، وٱلظِّلُّ بِطبيعتِهِ مطموسٌ مبهمٌ لا يُبينُ إبانةَ ٱلشخصَ. وإذا أهلكَ ٱلشاعرُ ٱلاستعارةَ وأمرضَ ٱلتشبيهَ وخنقَ ٱلمجازَ بحبلٍ ـ قال لك: إنَّهُ على ٱلطريقةِ ٱلعصريَّةِ وإنَّما سَدَّدَ وقاربَ وأصابَ وأحكَم. وإذا سمَّى ٱلمقالة قصيدة. . . وخَلَطَ فيها خَلْطَهُ وجاءَ في أسوإ معرضٍ وأقبحِهِ وخرجَ إلى ما لا يُطاقُ مِنَ ٱلركاكةِ وَٱلغثاثة ـ قالَ لك: هذه هيَ وحدةُ ٱلقصيدة، فهيَ كلٌّ واحدٌ أفرغَ إفراغَ ٱلجسمِ ٱلحيّ: رأسُهُ لا يكونُ إلّا في مَوْضِعِ رأسِهِ ورجلاهُ لا تكونُ إلّا في مَوْضِعِ رِجْليه. . .

تلك طبقاتٌ مِنَ ٱلضعفِ تظاهَرتِ ٱلحُجَجُ من أَصحابِها على أنَّها طبقاتٌ مِنَ ٱلقوَّة، غيرَ أنَّ مِصْداقَ ٱلشهادةِ لِلأقوياءِ عظامُهُمُ ٱلمشبوحة، وعضلاتُهُمُ ٱلمفتولة، وقلوبُهُمُ ٱلجريئة، أمَّا ٱلألْسِنَةُ فهيَ شهودُ ٱلزورِ في هذه ٱلقضيَّةِ خاصَّة.

* * *

هناك ميزانٌ لِلشاعرِ ٱلصحيحِ وَللآخرِ ٱلمتشاعر: فَٱلأولُ تأخذُ من طريقتِهِ ومجموعِ شعرِهِ أنَّهُ ما نظمَ إلَّا لِيُثبتَ أنَّهُ قد وضعَ شعراً، وٱلثاني تأخذُ من شعرِهِ وطريقتِهِ أنَّهُ إنَّما نظمَ لِيُثبتَ أنَّهُ قرأَ شعراً. . . وهذا ٱلثاني يُشعرُكَ بِضعفِهِ وتلفيقِهِ أنَّهُ يخدمُ ٱلشعرَ لِيكونَ شاعراً، ولكنَّ ٱلأولَ يُريكَ بِقوَّتِهِ وعبقريَّتِهِ إلى ٱلشعرِ نفسِهِ يخدمُهُ لِيكونَ هو شاعَره.

أمَّا فريقُ ٱلمتشاعرينَ فَلْيُمثِلْ لَهُ ٱلقارِىءُ بِمَنْ شاءَ وهو في سَعَة. . . وأمَّا فريقُ ٱلشعراءِ ففي أوائلِ أمثلتِهِ عندي ٱلشاعرُ ٱلمهندسُ علي محمود طه. أشهد: أنّي أكتبُ عنهُ ٱلآن بِنوعٍ مِنَ ٱلإعجابِ ٱلذي كتبْتُ بِهِ في «ٱلمقتطَف» عن أصدقائي ٱلقدماء: محمود باشا ٱلبارودي، وإسماعيلَ باشا صبري، وحافظ، وشوقي ـ

رحَمهُمُ ٱللهُ وأطالَ بقاء صاحبِنا ـ فهذا ٱلشابُ ٱلمهندِسُ أُوتيَ من هندسةِ ٱلبِناءِ قوَّةَ ٱلتمييزِ ودِقَّةَ ٱلمُحاسبة، ووُهِبَ مَلَكةَ ٱلفصْلِ بينَ ٱلحُسْنِ وَٱلقُبْحِ في ٱلأشكالِ مِمَّا عِلَّتُهُ مِنَ ٱلعِلْمِ وما عِلَّتُهُ مِنَ ٱلذوقِ وهذا إلى جلاءِ ٱلفِطْنَةِ وصِقالِ ٱلطبعِ وتمَوُّجِ ٱلخيالِ وَٱنفساحِ ٱلذاكرةِ وَٱنتظام ٱلأشياء فيها؛ وبهذا كلِّهِ ٱستعانَ في شعرِهِ وقد خُلقَ مُهندِساً شاعراً، ومعنى هذا أنَّهُ خُلِقَ شاعراً مُهندِساً؛ وكأنَّ ٱللهَ ـ تعالى ـ لم يقدِّرْ لهذا ٱلشاعرِ ٱلكريم تَعَلُّمَ ٱلهندسةِ ومُزاولَتَها وَٱلمَهارةَ فيها إلَّا لِمَا سبقَ في عِلْمِهِ أنَّهُ سينبُغُ نُبوغَهُ لِلْعربيَةِ في زمنِ ٱلفوضى وعَهْدِ ٱلتقلُّل، وحينَ فسادِ ٱلطريقةِ وتخلُّفِ ٱلأذواقِ وتراجُعِ ٱلطبعِ ووقوعِ ٱلغَلَطِ في هذا ٱلمنطقِ لاَنعكاسِ ٱلقضيَّة، فيكونُ البرهانُ على أنَّ هذا شاعرٌ وذاك نابغةٌ وذلك عبقريّ ـ هو عينُهُ ٱلبرهانُ على أنَّ لا شعْرَ ولا نُبوغَ ولا عبقريَّة؛ وهذه فوضى تحتاجُ في تنظيمِها إلى (مصلحة تنظيم) بِٱلهندسةِ وآلاتِها وٱلرياضةِ وأُصولِها وَٱلأشكالِ وَٱلرسوم وفُنُونِها، فجاءَ شاعرُنا هذا وفيهِ ٱلطِّبُّ لِمَا وصَفْنا؛ فهو ينظمُ شَعرهُ بِقريحةٍ بيانيَّةٍ هندسيَّة، أساسُها ٱلاتزانُ وٱلضبْط، وصوابُ ٱلحِسْبَةِ فيما يقدِّرُ لِلْمعنى، وإبداعُ ٱلشكلِ فيما يُنشىءُ مِنَ ٱللفظ، وألَّا يترُكَ ٱلبناءَ ٱلشعريَّ قائماً لِيقع إذْ يكونُ واهناً في أساسِهِ مِنَ ٱلصناعة، بلْ لِيثبتَ إذْ يكونُ أساسُهُ مِنَ ٱلصناعةِ في رسوخٍ وعلى قدْر.

وديوان «الملاحُ التائه» ٱلذي أخرَجهُ هذا ٱلشاعرُ لا ينزلُ بِصاحبِهِ من شعرِ ٱلعصرِ دون ٱلموْضِعِ ٱلذي أوْمَأْنا إليه؛ فما هو إلَّا أنْ تقرأَهُ وتعتبرَ ما فيهِ بشعرِ ٱلآخرين حتى تجدَ ٱلشاعرَ ٱلمهندسَ كأنَّهُ قادمٌ لِلْعصْرِ محمَّلاً بِذهنِهِ وعواطفِهِ وآلاتِهِ ومقاييسِهِ لِيُصْلِحَ ما فسد، ويُقيمَ ما تداعى، ويُرممَّ ما تخرَّب، ويهدمَ ويبني.

* * *

ديوانُ ٱلشاعرِ ٱلحقِّ هو إثباتُ شخصيتِهِ ببراهينَ من روحِه، وهٰهنا في «الملاحُ التائه» روحٌ قويَّةٌ فلسفيَّةٌ بيانيَّة، تُؤتيكَ ٱلشعرَ ٱلجيِّدَ ٱلذي تقرؤُهُ بِٱلقلْبِ وَٱلعقْلِ وَٱلذوْق، وتراهُ كَفَاءَ أغراضِهِ ٱلتي ينظمُ فيها؛ فهو مُكْثِرٌ حين يكونُ ٱلإكثارُ شعراً، مُقِلٌّ حين يكونُ ٱلشعرُ هوَ ٱلإقلال؛ ثُمَّ هو على ذلك متينٌ رَصين، بارعُ ٱلخيال، واسعُ ٱلإحاطة، تراهُ كَٱلدائرة: يصعَدُ بِكَ محيطَها ويهبِطُ لا من أنَّهُ نازلٌ أو عالٍ، ولكنْ من أنَّهُ مُلْتفٌ مُنْدَمِج، موزونٌ مقدّر، وُضِعَ وضْعَهُ ذلك لِيطوِّحَ[1] بِك.

---

(١) يطوّح بك: يأخذك في كل اتجاه.

هو شعرٌ تعرفُ فيهِ فنيَّةَ ٱلحياة، وليسَ بِشاعرٍ مَنْ لا ينقلُ لَكَ عنِ ٱلحياةِ نقلاً فنيّاً شعريّاً؛ فترى ٱلشيءَ في ٱلطبيعةِ كأنَّهُ موجودٌ بِظاهرهِ فقط، وتراهُ في ٱلشعرِ بِظاهرِهِ وباطنِهِ معاً؛ وليسَ بِشعرٍ ما إذا قرأْتَهُ، وَٱسترسَلْتَ إليهِ لم يكنْ عندكَ وجهاً من وجوهِ ٱلفهمِ وَٱلتصويرِ لِلْحياةِ وٱلطبيعةِ في نفسٍ ممتازةٍ مُدْرِكةٍ مصورة.

ولهذا فليسَ مِنَ ٱلشرْط عندي أنْ يكونَ عصرُ ٱلشاعرِ وبيئتُهُ في شعرهِ، وإنَّما ٱلشرطُ أنْ تكونَ هناك نفسُهُ ٱلشاعرةُ على طريقتِها في الفهمِ وَٱلتصوير، وأنت تُثبتُ هذه ٱلنفسَ بهذه ٱلطريقةِ أنَّ لها أنْ تقولَ كلمتَها ٱلجديدة، وأنَّها مُخَوَّلةٌ لَهُ ٱلحقَّ في أنْ تقولَها، إذْ هي لِلْعقولَ وَٱلأرواحِ أختُ ٱلكلمةِ ٱلقديمة: كلمةِ ٱلشريعةِ ٱلتي جاءَتْ بها ٱلنبُوَّةُ من قبل.

وليسَ في شعرِ على طه من عصرياتِنا غيرُ ٱلقليل، ولكنَّ ٱلعجيبَ أنَّهُ لا ينظمُ في هذا ٱلقليلِ إلَّا حينَ يخرجُ ٱلمعنى من عصرهِ ويلتحقُ بِٱلتاريخ، كرثاءِ شوقي، وحافظ، وعدلي باشا، وفوزي ٱلمعلوف، وٱلطيارينِ دوس وحجاج، وٱلملكِ ٱلعظيمِ فيصل؛ فإنْ يَكُنْ هذا ٱلتدبيرُ عن قصدٍ وإرادةٍ فهو عجيب، وإنْ كانَ ٱتِّفاقاً ومصادفةً فهو أعجب؛ على أنَّهُ في كلِّ ذلك إنَّما يرمي إلى تمجيدِ ٱلفنِّ وٱلبطولةِ في مظاهرِها، متكلِّمة، وسياسيَّة، ومُغامِرَة، ومالِكة.

أمَّا سائرُ أغراضِهِ فإنسانيَّةٌ عامة، تتغنَّى ٱلنفسُ في بعضِها، وتمرحُ في بعضِها، وتُصلِّي في بعضِها؛ وليسَ فيها طيْشٌ ولا فُجورٌ ولا زندقةٌ إلَّا... ظلالاً من ٱلحَيْرةِ أوِ ٱلشَّكّ، كتلك ٱلتي في قصيدةِ «اللَّهُ وَٱلشاعر»، وأظنُّهُ يُتابعُ فيها ٱلمعريّ؛ ولسْتُ أدري كم ينخدعُ ٱلناسُ بِٱلمعرِّي هذا، وهو في رأيي شاعرٌ عظيم، غيرَ أنَّ لَهُ بِضاعةً مِنَ ٱلتلفيقِ تعدِلُ ما تُخرجُهُ «لا نكشير» من بضائعِها إلى أسواقِ ٱلدنيا.

ومِمّا يُعجبُني في شعرِ علي طه أنَّهُ في مناحي فلسفتِهِ وجهاتِ تفكيرِهِ يُوافِقُ رأييَ ٱلذي أراهُ دائماً، وهو أنّ ثورةَ ٱلروحِ ٱلإنسانيَّةِ ومعركتَها ٱلكبرى مَعَ ٱلوجود ـ ليستا في ظاهرِ ٱلثورةِ ولا ٱلعِراكِ مَعَ ٱللَّهِ كما صنعَ ٱلمعرّيُّ وأضرابُهُ في طيشِهِم وحماقتِهِم، ولكنَّهما في ٱلهدوءِ ٱلشعريِّ لِلروحِ ٱلمتأمِّلَة، ذلك ٱلهدوءِ ٱلذي يجعلُ ٱلطبيعةَ نفسَها تبتسِمُ بِكلامِ ٱلشاعرِ كما تبتسمُ بأزهارِها ونجومِها، ويجعلُ ٱلشاعرَ أداةً طبيعيَّةً متخذةً لِكشفِ ٱلحِكْمَةِ وتغطيتِها معاً؛ فإنَّ ٱلعجيبَ ٱلذي ليسَ أعجبَ منه في ٱلتدبيرِ ٱلإلهيِّ لِلنفوسِ ٱلحسَّاسة ـ أنَّ زخرفةَ ٱلشعرِ وما يجري مَجراهُ في

ٱلفنِّ إنَّما هيَ ضربٌ من زُخرفِ ٱلطبيعةِ حين تبتدِعُ ٱلشكلَ ٱلجميلَ لِتُتمِّمَ أغراضَها من ورائِهِ؛ ولو ثارَتِ ٱلأزهار ـ مثلاً ـ على ٱلوجودِ وخالقِهِ ثورةَ أولئك ٱلشعراءِ لَمَا صنعَتْ شيئاً غيرَ إفسادِ حِكمتِها هيَ وما يَتَّصِلُ بهذه ٱلحِكْمةِ مِنَ ٱلمصالحِ وَٱلمنافع، ولن تنتصرَ إلَّا ببقائِها أزهاراً، فذلك حربُها وسِلْمُها معاً.

* * *

وأسلوبُ شاعرِنا أسلوبٌ جَزْل، أو إلى ٱلجزالة، تبدو ٱللغةُ فيهِ وعليها لونٌ خاصٌّ من ألوانِ ٱلنفسِ ٱلجميلةِ يزهو زهْوهُ فيكثرُ منه في ٱلنفسِ تأثيرُها وجمالُها، وهذه هي لغةُ ٱلشعرِ بخاصَّتِه؛ ولا بُدَّ أنْ نُنبِّهَ هنا إلى معنًى غريب، وذلك أنَّكَ تجِدُ بعضَ ٱلنظامينَ يُحسنونَ مِنَ ٱللغةِ وفنونِ ٱلأدب، فإذا نظمُوا وخلا نظمُهُم من روحِ ٱلشعر ـ ظهَرتِ ٱلألفاظُ في أوزانِهِم وكأنَّها فقدَتْ شيئاً من قِيمتِها، كأنَّ موضِعَها ثمَّ هو ٱلذي أعلنَ إفلاسَه، إذْ أقامَهُ مقامَ ٱلذي يُريدُ أنْ يُعطيَ ثُمَّ هو إذا وقفَ لا يصنعُ شيئاً إلَّا أنْ يعتذِرَ بأنَّهُ لم يجدْ ما يُعطيه... فهذا كانَ رجلاً مِنَ ٱلناس، وكانَ في سِتْرٍ وعافية، فلمَّا وقفَ موقِفَهُ ٱنقلبَ مُدَلِّساً كاذباً مدَّعياً فٱختلفَتْ بهِ ٱلحالُ وهو هو لم يتغيَّر.

وما ٱلأسلوبُ ٱلبيانيُ إلَّا وسيلةٌ فنيَّةٌ لِمضاعفةِ ٱلتعبير، فإنْ لم يكنْ هذا ما يُعطيهِ كانَ وسيلةً فنيَّةً أخرى لِمضاعفةِ ٱلخيبة؛ وهذا ما تُحِسُّهُ في كثيرٍ من شعرِ ٱلنظامينَ أوِ ٱلبديعيينَ في العصورِ ٱلميتة، وتُحسُّهُ في ٱلشعرِ ٱلميتِ ٱلذي لا يزالُ يُنشرُ بيننا.

وعلي طه إذا حرصَ على أسلوبِهِ وبالغَ في إتقانِهِ وٱستمرَّ بِجريهِ على طريقتِهِ ٱلجيِّدةِ مُتقدِّماً فيها، مُتعمِّقاً في أسرارِ ٱلألفاظِ وما وراءَ ٱلألفاظ، وهي تلك ٱلروعةُ ٱلبيانيَّة ٱلتي تكونُ وراءَ ٱلتعبيرِ وليسَ لها ٱسمٌ في ٱلتعبير، مُعْتبِراً ٱللغةَ ٱلشعريَّة ـ كما هيَ في ٱلحقيقة ـ تأليفاً موسيقياً لا تأليفاً لغوياً... فإنَّهُ ولا ريبَ سيجدُ من إسعافِ طبعِهِ ٱلقويّ، وعونِ فِكْرِهِ ٱلمشبوب، وإلهامِ قريحتِهِ ٱلمولِّدة ـ ما يجمعُ لَهُ ٱلنبوغَ من أطرافِه، بِحيثُ يُعدُّهُ ٱلوجودُ من كِبارِ مصوريه، وتتَّخذُهُ ٱلحياةُ من بُلغاءِ ٱلمعبِّرينَ عنها في ٱلعربية؛ ومن ثَمَّ تُنظمُهُ ٱلعربيَّةُ في سِمْطِ[1] جواهرِها ٱلتاريخيَّةِ ٱلثمينة، ويصلُهُ ٱلسلْكُ بِشوقي وحافظِ وٱلباروديِّ وصبري، إلى ٱلمتنبي وٱلبحتريِّ

(١) سمط: عقد.

وأبنِ ٱلروميّ وأبي تمّام، إلى ما وراءِ ذلك، إلى ٱلجوهرةِ ٱلكبرى المُسماةِ جبلِ ٱلنورِ ٱلبيانيّ، إلى ٱمرىء ٱلقيس.

وليس هذا ببعيدٍ على مَنْ يقولُ في صفةِ ٱلقلْب:

يـا قـلـبُ عِـنْـدَكَ أيُّ أسـرارِ	مـا زِلْـنَ فـي نَـشْـرٍ وفـي طَـيِّ
يـا ثـورةَ مـشـبـوبـةَ ٱلـنَّـارِ	أقْـلَـقْـتَ جِـسْـمَ ٱلـكـائـنِ ٱلـحـيِّ
حَـمَّـلْـتَـهُ ٱلـعِـبْءَ ٱلـذي فَـرِقَـتْ	مِـنْـهُ ٱلـجِـبـالُ وَأشْـفَـقَـتْ[1] رَهَـبَـا
وَأثَـرْتَ مِـنْـهُ ٱلـرُّوحَ فـٱنـطَـلـقَـتْ	تَـحْـسو[2] ٱلـحـمـيـمَ[3] وتـأكـلُ ٱللَّـهَـبَـا
وَعَـجِـبْـتُ مِـنْـكَ ومِـنْ إبـائِـكَ فـي	أسـرِ ٱلـجـمـالِ وربْـقَـةِ ٱلـحُـبِّ
وَتَـلَـفُّـتِ ٱلـمُـتَـكَـبِّـرِ ٱلـصَّـلْـفِ	عَـنْ ذِلَّـةِ ٱلـمَـقْـهُـورِ فـي ٱلـحَـرْبِ
وَوَهِـمْـتُ نـاراً ذاتَ إيـمـاضِ	فَـبَـسَـطْـتَ كَـفَّـكَ نَـحـوَهـا فَـزِعَـا
مَـرَّتْ بِـعَـيْـنِـكَ لـمـحـةُ ٱلـمـاضـي	فَـوثَـبْـتَ تُـمْـسِـكُ بـارقـاً لَـمَـعَـا
وَٱلأرضُ ضـاقَ فـضـاؤُهـا ٱلـرَّحْـبُ	وَخَـلَـتْ فَـلا أهـلٌ وَلا سَـكَـنُ
حَـالَ ٱلـهَـوَى وَتَـفَـرَّقَ ٱلـصَّـحْـبُ	وَبَـقِـيْـتَ وَحْـدَكَ أنـت وَٱلـزَّمَـنُ

ولو ذهبنْا نختارُ من هذا ٱلديوانِ لٱخترْنا أكثرَه، فقصائدُهُ ومقاطيعُهُ تتعاقَب، ولكنْ تعاقبَ ٱلشمسِ على أيامِها: تَظهرُ جديدةَ ٱلجمالِ في كلِّ صَباح، لأنَّ وراءَ ٱلصباحَ مادَّةَ ٱلفجر، وكذلك تأتي ٱلقصائدُ من نفسِ شاعرِها.

* * *

---

(١) أشفقت: خافت.

(٢) تحسو: تتجرّع وتشرب.

(٣) الحميم: الملتهب.

المقتطَفُ وٱلمتنبي

المقتطفُ شيخُ مجلّاتِنا؛ كلُّهُنَّ أولادُهُ وأحفادهُ؛ وهو كَٱلجَدِّ ٱلأكبر: زمنٌ يجتمع، وتاريخٌ يتراكم، وٱنفرادٌ لا يُلحق، وعِلْمٌ يزيدُ على ٱلعِلْم بِأنَّهُ في ٱلذاتِ ٱلتي تفرضُ إجلالَها فرضاً وتجبُ لها ٱلحرمةُ وجوباً ويتضاعفُ منها ٱلاستحقاقُ فيتضاعفُ لها ٱلحقّ.

وهلِ ٱلجَدُّ إلّا أبوَّةٌ فيها أبوةٌ أخرى. وهلْ هو إلّا عرشٌ حيٌّ درجاتُهُ ٱلجيلُ تحتَ ٱلجيلِ، وهلْ هو إلّا ٱمتدادٌ مسافاتُهُ ٱلعصرُ فوقَ ٱلعصر؟

وَٱلمقتطَفُ يكبرُ ولا يهرَم، ويتقدَّمُ في ٱلزمنِ تقدُّمَ ٱلمخترعاتِ ماضيةً بِٱلنواميس إلى ٱلنواميس، مقيدةً بِٱلمبدإِ إلى ٱلغاية؛ وهو كَٱلعقلِ ٱلمنفردِ بِعبقريتِه: واجبُهُ ٱلأولُ أنْ يكونَ دائماً ٱلأول؛ فلقد أُنشِىءَ هذا ٱلمقتطَفُ وما في ٱلمجلّاتِ ٱلعربيَّةِ ما يُغني عنه، ثُمَّ طوى في ٱلدهرِ سبعةً وثمانينَ مجلداً أقامَها سبعةً وثمانينَ دليلاً على أنْ ليسَ ما يُغني عنه؛ ثُمَّ أَسفَّتِ[1] ٱلدنيا حولَهُ بِأخلاقِها وطِباعِها، وتحوَّلتْ مجلاتٌ كثيرةٌ إلى مثلِ ٱلراقصاتِ وَٱلمغنيّاتِ وَٱلمُمَثِّلات... وبقيَ هو على وفائِهِ لِمبدئِهِ ٱلعِلْميِّ وٱلسموِّ فيهِ وَٱلسموِّ به، كأنَّما أُخِذَ عليهِ في ٱلعِلْمِ وَٱلأدبِ مِيثاقٌ كميثاقِ ٱلنبيِّينَ في ٱلدينِ وَٱلفضيلة؛ فبينَ يديهِ ٱلواجبُ لا ٱلغرضُ، وهمُّهُ ٱلإبداعُ بِقوى ٱلعقلِ لا ٱلاحتيالُ بها، وهَديُهُ ٱلحقيقةُ ٱلثابتةُ في ٱلدنيا لا ٱلأحلامُ ٱلمتقلِّبةُ بهذه ٱلدنيا، وطريقُهُ في كلِّ ذلك طريقُ ٱلفيلسوف، من هدوءِ نفسِهِ لا من أحوالِ ٱلدهر، فهو ماضٍ على ٱليقين، نافذٌ إلى ٱلثقة، مُتنقِّلٌ في منزِلةٍ منزِلةٍ من يقينِهِ إلى ثقتهِ، ومن ثقتِهِ إلى يقينِه.

وقد بدأَ ٱلمقتطَفُ مجلّدَهُ ٱلثامنَ وٱلثمانينَ بِعددٍ ضخم أفردَهُ لِلْمتنبي. ولَئِنْ كانَتِ ٱلأنديةُ وَٱلمجلّاتُ قد ٱحتفلَتْ بهذا ٱلشاعرِ ٱلعظيم، فما أحسبُ إلّا أنَّ روحَ ٱلشاعرِ ٱلعظيمِ قدِ ٱحتفلَتْ بهذا ٱلعددِ مِنَ ٱلمقتطَف.

---

(١) أسفت: انحطت.

ولسْتُ أَغلو إذا قلْتُ: إنَّ هذه ٱلروحَ ٱلمتكبِّرةَ قد أظهَرتْ كِبرياءَها مرَّةً أخرى، فَٱعتزلَتِ ٱلمشهورينَ مِنَ ٱلكتَّابِ وَٱلأدباء، ولزمَتْ صديقَنا ٱلمتواضعَ ٱلأستاذَ محمود شاكر مدةَ كتابتِهِ هذا ٱلبحثَ ٱلنفيسَ ٱلذي أخرَجهُ ٱلمقتطَفُ في زُهاءِ ستينَ ومائةِ صفحة، تدلُّهُ في تفكيرِه، وتُوحي إليهِ في ٱستنباطهِ، وتُنبهُهُ في شعورِه، وتُبصِّرُهُ أشياءَ كانَتْ خافية، وكانَ ٱلصدقُ فيها، لِيردَّ بها على أشياءَ كانَتْ معروفة، وكانَ فيها ٱلكذب، ثُمَّ تُعينَهُ بكُلِّ ذلك على أنْ يكتبَ ٱلحياةَ التي جاءَتْ من تلك ٱلنفسِ ذاتِها، لا ٱلحياةِ ٱلتي جاءَتْ من نفوسِ أعدائِها وحُسَّادِها.

ولقد كانَ أولَ ما خطَرَ لي بعدَ أنْ مضَيتُ في قراءةِ هذا ٱلعددِ ـ أنَّ ٱلمؤلِّفَ جاءَ بِما يصحُّ ٱلقولُ فيهِ إنَّه كَتبَ تاريخَ ٱلمتنبي ولم ينقلْه؛ ثُمَّ لم أكدْ أُمعِنُ في ٱلقراءةِ حتى خُيِّلَ إليَّ أنَّهُ قد وضَعَ لِشعرِ ٱلمتنبي بعدَ تفسيرِ ٱلشرّاحِ ٱلمُتقدِّمينَ وَٱلمُتأخِّرينَ تفسيراً جديداً مِنَ ٱلمتنبي نفسِه؛ وما ٱلكلمةُ ٱلجديدةُ في تاريخِ هذا ٱلشاعرِ ٱلغامضِ إلَّا ٱلكلمةُ التي نشرَها ٱلمقتطَفُ ٱليوم.

إنَّ هذا ٱلمتنبي لا يفرغُ ولا ينتهي، فإنَّ ٱلإعجابَ بِشعرِهِ لا ينتهي ولا يفرغُ وقد كانَ نفساً عظيمةً خلقَها ٱللَّهُ كما أراد، وخلقَ لها مادَّتَها ٱلعظيمةَ على غيرِ ما أرادتَ، فكأنَّما جعلَها بذلك زمناً يمتدُّ في ٱلزمن.

وكانَ ٱلرجلُ مطويّاً على سِرٍّ أُلقيَ ٱلغموضُ فيهِ من أولِ تاريخِه، وهو سِرُّ نفسِه، وسِرُّ شعرِه، وسِرُّ قوَّتِه؛ وبهذا ٱلسرِّ كانَ ٱلمتنبي كَٱلمَلِكِ ٱلمغصوبِ ٱلذي يرى ٱلتاجَ وَٱلسيفَ ينتظرانِ رأسَهُ جميعاً، فهو يتَّقي ٱلسيفَ بِٱلحذرِ وَٱلتلفُّفِ وٱلغموض، ويطلبُ ٱلتاجَ بِٱلكِتْمانِ وَٱلحِيلةِ وَٱلأمل.

ومن هذا ٱلسرِّ بدأَ كاتبُ ٱلمقتطَف، فجاءَ بحثُهُ يتحدَّرُ في نسقٍ عجيب، متسلسِلاً بِٱلتاريخ كأنَّهُ وِلادةٌ ونموٌّ وشباب؛ وعرضَ بين ذلك شعرَ أبي ٱلطيِّبِ عرْضاً خُيِّلَ إليَّ أنَّ هذا ٱلشعرَ قد قيلَ مرةً أخرى من فم شاعرِهِ على حوادثِ نفسِهِ وأحوالِها؛ وبذلك ٱنكشفَ ٱلسرُّ ٱلذي كانَ مادَّةَ ٱلتهويلِ في ذلك ٱلشعرِ ٱلفخم، إذْ كانَتْ في واعيةِ ٱلرجلِ دولةٌ أضخمُ دولة، عجزَ عن خلقِها وإيجادِهَا فخلقَها شعراً أضخمَ شعر، وجاءَتْ مبالغاتُهُ كأنَّها أكاذيبُ آمالِهِ ٱلبعيدةِ متحققةً في صورةٍ من صورِ ٱلإمكانِ ٱللغويّ.

ومن أعجبِ ما كشفَهُ من أسرارِ ٱلمتنبي سِرُّ حبِّه، فقال: إنَّهُ كان يُحبُّ خَوْلَةَ

أختَ ٱلأميرِ سيفِ ٱلدولة، وكتبَ في ذلك خمسَ عَشَرَةَ صفحةً كبيرة، وكأنَّها لم تُرضِهِ فقالَ: إنَّهُ كانَ يُؤمِّلُ أنْ يكتبَ هذا ٱلفصلَ في خمسينَ وجهاً مِنَ ٱلمقتطَف؛ وهذا ٱلبابُ من غرائبِ هذا ٱلبحث، فليسَ من أحدٍ في ٱلدنيا ٱلمكتوبةِ (أي ٱلتاريخ) يعلمُ هذا ٱلسرَّ أو يظنُّه، وَٱلأدلةُ ٱلتي جاءَ بها ٱلمؤلِّفُ تَقِفُ ٱلباحثَ ٱلمدقِّقَ بينَ ٱلإثباتِ وَٱلنفي؛ ومتى لم يستطعِ ٱلمرءُ نفياً ولا إثباتاً في خبرٍ جديدٍ يكشفُهُ ٱلباحثُ ولم يهتدِ إليهِ غيرهُ، فهذا حسبُكَ إعجاباً يُذكر، وهذا حسبُهُ فوزاً يُعدّ.

ولَعَمْري لو كنْتُ أنا في مكانِ ٱلمتنبي من سيفِ ٱلدولة لقلْتُ إنَّ ٱلمؤلِّفَ قد صدق... فهناكَ موضِعٌ لا بُدَّ أنْ يبحثَ في ٱلقلبِ ٱلشاعرِ ٱلذي وَضَعتْ فيهِ ٱلدنيا حِكمتَها، وطَوَتْ فيهِ ٱلقوَّةُ سِرَّها، وبثَّ فيهِ ٱلجمالُ وحيَه؛ وأصغرُ هذه ٱلثلاثِ أكبرُ مِنَ ٱلملوكِ وَٱلممالك، ولكنَّ ٱلحبيبةَ أكبرُ منها كلِّها...

* * *

محمد

عملُ ٱلأستاذِ توفيقِ ٱلحكيم في تصنيفِ هذا ٱلكتابِ أشبهُ شيءٍ بعملِ «كريستوف كولمب» في ٱلكشفِ عن أمريكا وإظهارِها مِنَ ٱلدنيا لِلدنيا: لم يخلقْ وجودَها، ولكنَّهُ أوجدَها في ٱلتاريخِ ٱلبشري، وذهبَ إليها فقيلَ جاءَ بها إلى ٱلعالم، وكانَتْ معجزتُهُ أنَّهُ رآها بِٱلعينِ ٱلتي في عقلِه، ثُمَّ وضعَ بينَهُ وبينَها ٱلصبرَ وٱلمُعاناةَ وٱلحِذْقَ وَٱلعِلْمَ حتى ٱنتهى إليها حقيقةٌ ماثلة.

قرأَ ٱلأستاذُ كُتُبَ ٱلسيرةِ وما تناولَها من كتبِ ٱلتاريخِ وَٱلطبقاتِ وَٱلحديثِ وَٱلشمائل، بِقريحةٍ غيرِ قريحةِ ٱلمؤرِّخ، وفكرةٍ غيرِ فكرةِ ٱلفقيه، وطريقةٍ غيرِ طريقةِ ٱلمحدِّث، وخيالٍ غيرِ خيالِ ٱلقاصّ، وعقلٍ غيرِ عقلِ ٱلزندقة، وطبيعةٍ غيرِ طبيعةِ ٱلرأي، وقصْدٍ غيرِ قصدِ ٱلجدَل؛ فخلُصَ لَهُ ٱلفنُّ ٱلجميلُ ٱلذي فيها، إذْ قرأَها بِقريحتِهِ ٱلفنيَّةِ ٱلمشبوبَة، وأمرَّها على إحساسِهِ ٱلشاعرِ ٱلمتوثِّب، وَٱستلَّها[1] مِنَ ٱلتاريخِ بهذه ٱلقريحةِ وهذا ٱلإحساسِ كما هيَ في طبيعتِها ٱلساميةِ مُتَّجِهةً إلى غرضِها ٱلإلهيِّ مُحَقِّقةً عجائبَها ٱلروحانيَّةَ ٱلمُعجزة.

وقد أمدَّتْهُ ٱلسيرةُ بِكلِّ ما أراد، وتطاوعَتْ لَهُ على ما ٱشتهى، ولانَتْ في يدِهِ كما يلينُ ٱلذهبُ في يدِ صائغِه؛ فجاءَ بها من جوهرِها وطبيعتِها ليسَ لَهُ فيها خيالٌ ولا رأيٌ ولا تعبير، وجاءَتْ مع ذلك في تصنيفِهِ حافلةً بأبدعِ ٱلخيال، وأسمى ٱلرأي، وأبلغِ ٱلعِبارة؛ إذْ أدركَ بنظرتِهِ ٱلفنيَّةِ تلك ٱلأحوالَ ٱلنفسيَّةَ ٱلبليغة، فنظمَها على قانونِها في ٱلحياة، وجمعَ حوادثَها ٱلمدوَّنَةَ فصوَّرها في هيئةِ وقوعِها كما وقَعَت، وٱستخرجَ ٱلقِصَصَ ٱلمُرسَلَةَ فأدارَها حواراً كما جاءَتْ في ألسنةِ أهلِها؛ وبهذه ٱلطريقِ أعادَ ٱلتاريخَ حيّاً يتكلَّمُ وفيهِ ٱلفكرةُ وملائكتُها وشياطينُها، وكشفَ ذلك ٱلجمالَ ٱلروحانيَّ فكانَ هُوَ ٱلفنَّ، وجلا تلك ٱلنفوسَ ٱلعاليةَ فكانَتْ هيَ ٱلفلسفة، وأبقى على تلك ٱلبلاغةِ

---

(١) استهلها: ابتدأها.

فكانَتْ هيَ ٱلبيان. كانَتِ ٱلسيرةُ كَاللؤلؤةِ في ٱلصدفة، فٱستخرجَها فجعلَها ٱللؤلؤةَ وحدَها.

* * *

إنَّ هذا ٱلكتابَ يفرضُ نفسَهُ بهذه ٱلطريقةِ ٱلفنيَّة ٱلبديعة، فليسَ يُمكِنُ أنْ يُقالُ إنَّهُ لا ضرورةَ لِوجودِه؛ إذ هو ٱلضروريُّ مِنَ ٱلسيرةِ في زمنِنا هذا، ولا يُغْتَمَزُ فيهِ أنَّهُ تخريفٌ وتزويرٌ وتلفيق؛ إذْ ليسَ فيهِ حرفٌ من ذلك، ولا يُرَدُّ بأنَّهُ آراءٌ يُخطِىءُ ٱلمُخطِىءُ منها ويُصيبُ ٱلمُصِيب؛ إذْ هو على نصِّ ٱلتاريخ كما حفظَتْهُ ٱلأسانيد، ولا يُرمى بِٱلغثاثةِ وَٱلركاكةِ وضعْفِ ٱلنسق؛ إذْ هو فصاحةُ ٱلعربِ ٱلفُصحاءِ ٱلخُلَّص كما رُويَتْ بِألفاظِها؛ فقد حصَّنَهُ ٱلمؤلِّفُ تحصيناً لا يُقتحمُ، وكانَ في عملِهِ مُخلِصاً أتَمَّ ٱلإخلاص، أميناً بأوفى ٱلأمانة، دقيقاً كلَّ ٱلدقَّة، حَذِراً بِغايةِ ٱلحذر.

ومن فوائدِ هذه ٱلطريقةِ أنَّها هيَّأَتِ ٱلسيرةَ لِلترجمةِ إلى ٱللغاتِ ٱلأخرى في شكلٍ من أحسنِ أشكالِها يُرغِمُ هذا ٱلزمنَ على أنْ يقرأَ بِٱلإعجابِ تلك ٱلحكايةَ ٱلمُنفرِدةَ في ٱلتاريخ ٱلإنسانيّ؛ كما أنَّها قرَّبَتْ وسهَّلتْ فجعلتِ ٱلسيرة، في نصِّها ٱلعربيِّ كتاباً مدرسيّاً بَليغاً بلاغةَ ٱلقلبِ وَٱللسان، مُربِّياً لِلروح، مُرهِفاً لِلذوق، مُصحِّحاً لِلمَلَكةِ ٱلبيانيَّة.

وحسبُ ٱلمؤلفِ أنْ يُقالَ بعدَ ٱليوم في تاريخ ٱلأدبِ ٱلعربيّ: إنَّ ٱبنَ هشام كانَ أولَ مَنْ هذَّبَ ٱلسيرةَ تهذيباً تاريخيّاً على نظمِ ٱلتاريخ، وأنَّ توفيقَ ٱلحكيمَ كانَ أولَ مَنْ هذبَها تهذيباً فنيّاً على نسقِ ٱلفنّ.

* * *

ديوانُ ٱلأعشاب

أبو ٱلوفاءِ شاعرٌ مِلْءُ نفسِه، مافي ذلك شَكّ، مذهبُهُ ٱلجمالُ في ٱلمعنى يُبدعُهُ كأنَّما يُزهِرُ بهِ، وَٱلجمالُ في ٱلصورةِ يُخرجُها من بيانِهِ كما تخرجُ ٱلغصونُ وٱلأوراقُ من شجرتِها، ولَهُ طبعٌ وفيهِ رِقَّة، وهو يجري مِنَ ٱلبيانِ على عِرْق، وسليقتُهُ تجعلُهُ ألزمَ لِعمودِ ٱلشعرِ وأقربَ إلى حقيقتِه، حتى إنَّهُ لَيُعدُّ أحدَ ٱلذين يعتصمُ ٱلشعرُ ٱلعربيُّ بهم، وهم قليلٌ في زمنِنا، فإنَّ ٱلشعرَ مُنحدِرٌ في هذا ٱلعصرِ إلى ٱلعاميَّةِ في نسقِهِ ومعانيه، كما ٱنحدرَ ٱلتمثيل، وكما ٱنحدَرَتْ أساليبُ ٱلكتابةِ في بعضِ ٱلصحفِ وٱلمجلات.

ولِلعاميَّةِ وجوهٌ كثيرةٌ تنقلِبُ فيها ٱلحياة، ومرجعُها إلى روحِ ٱلإباحةِ ٱلذي فشا بينَنا ونشأ عليهِ ٱلنشءُ في هذه ٱلمدنيَّةِ ٱلتي تعملُ في ٱلشرقِ غيرَ عملِها في ٱلغرب، فهيَ هناك رخصٌ وعزائم، وهيَ هنا تسمُّحٌ وترخُّص، في ظلٍّ ضعيفٍ مِنَ ٱلعزيمة؛ وإهمالُ ٱلبلاغةِ ٱلعربيةِ ٱلجميلةِ كما هيَ في قوانينِها ليسَ إلَّا مظهراً لِتلكَ ٱلروحِ تُقابلُهُ ٱلمظاهرُ ٱلأخرى، من إهمالِ ٱلخُلُق، وسقوطِ ٱلفضيلة، وتخنُّثِ ٱلرجولةِ، وزيغِ ٱلأنوثة، وفسادِ ٱلعقيدة، وٱضطرابِ ٱلسياسة، إلى ما يجري هذا ٱلمجرى مِمّا هو في بلاغةِ ٱلحياةِ ٱلمبيَّنةِ كٱلمرذولِ وٱلمطَّرِحِ وٱلسفسافِ في بلاغةِ ٱلكلامِ ٱلفصيح؛ كلُّ ذلك في مواضعِهِ، تحلُّلٌ مِنَ ٱلقيودِ وإباحةٌ وتسمحٌ وترخُّص، وكلُّ ذلك عاميَّةٌ بعضُها من بعض، وكلُّ ذلك لحنٌ في ٱلبلاغةِ وٱلخُلُقِ وٱلفضيلةِ وٱلرجولةِ وٱلأنوثةِ وٱلعقيدةِ وٱلسياسة.

وٱلشعرُ ٱليومَ أكثرُهُ (شعرُ ٱلنشر) في ٱلجرائد، على طبيعةِ ٱلجرائدِ لا على طبيعةِ ٱلشعر؛ وهذهِ إباحةٌ صحافيَّةٌ غمرَتِ ٱلصحف، وأخضعَتْ أذواقَ كُتَّابِها لِقوانينِ ٱلتجارة، فإنَّهم لَينشرونَ بعضَ ٱلقصائدِ كما تُنشَر (الإعلانات): لا يكونُ ٱلحكمُ في هذه ولا هذه لِبيانٍ أو تمييزٍ أو منفعة، بلْ على قدرِ ٱلثمنِ أو ما فيهِ معنى ٱلثمن!

ومن ماديةِ هذا ٱلعصرِ وطُغيانِ ٱلعاميَّة عليه، أنَّنا نرى في صدرِ بعضِ ٱلجرائدِ

أحياناً شعراً لا يكونَ في صِناعةِ ٱلشعرِ ولا في طبقاتِ ٱلنظمِ أضعفُ ولا أبردُ منه، ولا أدلُّ على فسادِ ٱلذوقِ ٱلشعريّ، ولكنَّهُ على ذلك ٱلأصلِ ٱلذي أومأْنا إليهِ يُعدُّ كلاماً صالحاً لِلنشر، وإنْ يكنْ صالحاً لِلشعر.

وهكذا أصبحَتِ ٱلعاميَّةُ في تمكُّنِها تجعلُ مِنَ ٱلغفلةِ حِذْقاً تجاريًّا، ومنَ ٱلسقوطِ عُلُوًّا فلسفيًّا، ومِنَ ٱلركاكةِ بلاغةً صحفيَّة، ومتى تغيَّرَ معنى ٱلحِذْق، ودخلَتْهُ ٱلإباحة، ووقعَ فيهِ ٱلتأويل، وأُحيطَ بِٱلتمويهِ وٱلشبه ـ فٱلريبةُ حينئذٍ أختُ ٱلثقة، وٱلعجزُ بابٌ مِنَ ٱلاستطاعة، وٱلضعفُ معنًى مِنَ ٱلتمكين، وكلُّ ما لا يقومُ فيهِ عذرٌ صحيحٌ كانَ هو بِطبيعةِ ٱلتلفيقِ عذرَ نفسِه.

وأكثرُ ما تنشرُهُ ٱلصحفُ مِنَ ٱلشعرِ هو في رأيي صِناعةُ ٱحتطابٍ مِنَ ٱلكلام... وقد بطلَ ٱلتعبُ إلَّا تعبَ ٱلتقشُّشِ وٱلحمل، فلم تعدْ هناك صِناعةٌ نفسيَّةٌ في وشي ٱلكلام، ولا طبعٌ موسيقيٌّ في نظمِ ٱللغة، ولا طريقةٌ فكريَّةٌ في سبكِ ٱلمعاني، وبهذه ٱلعاميَّةِ ٱلثقيلةِ أخذَ ٱلشعرُ يزولُ عن نهجِه، ويضلُّ عن سبيلِه، ووقعَ فيهِ ٱلتوعُّرُ ٱلسهل... وٱلاستكراهُ ٱلوحشيُّ في أيامِ ٱلجاهليَّة؛ فما دامَ ٱلكلامُ غريباً، وٱلنظمُ قَلِقاً، وٱلمَأْتى بعيداً، وٱلمعنى مستهلَكاً، وٱلنسجُ لا يستوي، وٱلطريقةُ لا تتشابَه ـ فذلك كلُّهُ مسخٌ وتشويهٌ في ٱلجملةِ وإنِ ٱختلفَتِ ٱلأسبابُ في ٱلتفصيل، وإذا كانَ ٱلمسخُ جاهليًّا بِٱلغريبِ مِنَ ٱلألفاظ، وٱلنافرِ مِنَ ٱللغات، وٱلوحشيِّ مِنَ ٱلمعاني؛ وكانَ عصريًّا بِٱلركيكِ مِنَ ٱلألفاظ، وٱلنازلِ مِنَ ٱلتعبير، وٱلهجينِ مِنَ ٱلأساليب، وٱلسخيفِ مِنَ ٱلمعاني؛ ثُمَّ بِٱلسقطِ وٱلخلْطِ وٱلاضطرابِ وٱلتعقيد ـ فهل بعضُ ذلك إلَّا من بعضِه؟ وهلْ هو في ٱلشعرِ ٱلجميلِ إلَّا كَسَلْخِ ٱلإنسانِ ٱلذي مسخَهُ ٱللَّهُ فسلخَهُ من معانٍ كانَ بِها إنساناً، لِيضعَهُ في معانٍ يصيرُ بها قِرْداً أو خِنزيراً ليسَ عليه إلَّا ظاهرُ ٱلشبه، وليسَ مَعَهُ إلَّا بقيَّةُ ٱلأَصل؟

فٱلقِرديَّةُ ٱلشعريَّة، وٱلخنزيريَّةُ[1] ٱلشعريَّة، مُتحقِّقانِ في كثيرٍ مِنَ ٱلشعرِ ٱلذي يُنشرُ بينَنا؛ ولكنَّ أصحابَ هذا ٱلشعرِ لا يرونَهُما إلَّا كمالاً في تطوّرِ ٱلفنِّ وٱلعِلْمِ وَٱلفلسفة؛ وأنت متى ذهبْتَ تحتجُّ لِزيغِ ٱلشعرِ من قِبلِ ٱلفلسفة، وتدفعُ عن ضعفِهِ بِحُجَّةِ ٱلعِلْم، وتعتلُّ لِتصحيحِ فسادِهِ بِٱلفَنّ ـ فذلك عينُهُ هو دليلُنا نحن على أنَّ هذا ٱلشعرَ قِرديٌّ خنزيريّ، لم يستوِ في تركيبِه، ولم يأتِ على طبعِه، ولم يخرجْ في

---

(١) الخنزيرية: نسبة إلى الخنزير.

صورتِه؛ وما يكونُ ٱلدليلُ على ٱلشعرِ من رأيِ ناظمِهِ وٱفتتانِهِ بهِ ودِفاعِهِ عنه، ولكنْ من إحساسِ قارئِهِ وٱهتزازِهِ لَهُ وتأثُّرِهِ به.

* * *

وٱلشاعرُ أبو ٱلوفا جيّدُ ٱلطريقة، حسنُ ٱلسَّبك، يقول على فِكْرٍ وقريحة، ويرجعُ إلى طبعٍ وسلِيقَةٍ، ولكنَّ نفسَهُ قلِقةٌ في موضعِهِ ٱلشعريِّ مِنَ ٱلحياة؛ وفي رأيي أنَّ ٱلشاعرَ لا يتمُّ بِأَدبِهِ ومواهبِهِ حتى يكونَ تمامُهُ بِمَوْضِعِ نفسِهِ ٱلشعريِّ ٱلذي تضعُهُ ٱلحياةُ فيه؛ وٱلكلامُ يطولُ في صِفةِ هذا ٱلموضِع، ولَكنَّهُ في ٱلجملةِ كمنبتِ ٱلزهرة: لا تزكو زكاءَها ولا تبلغُ مبلغَها إلَّا في ٱلمكانِ ٱلذي يَصِلُ عناصرَها بِعَناصِرِ ٱلحياةِ وافيةً تامَّة، فلا يقطعُها عن شيءٍ ولا يردُّ شيئاً عنها؛ إذْ هيَ بِما في تركيبِهَا وتهيئتِها إنَّما تَتِمُّ بِمَوْضِعِها ذاك لِتهيئتِهِ وتركيبِهِ، فإنْ كانَتِ ٱلزهرةُ على ما وصفْنَا، وإلَّا فما بُدٌّ من مرضِ ٱللون، وهرمِ ٱلعِطْر، وهُزالِ ٱلنُّضرة، وسقمِ ٱلجمال.

ولولا أنَّ ٱلحِكْمةَ وقتِ ٱلأستاذَ أبا ٱلوفا قِسْطَهُ[1] مِنَ ٱلألم. ووهَبَتْهُ نَفْساً متألِّمَةً حصرَتْها في أسبابِ ألمِهَا حَصْراً لا مفرَّ منه ـ لَفقدَتْ زهرتُهُ عنصرَ تلوينِها، وَلَخرَجَ شعرُهُ نظماً حائلاً مضطرِباً منقطِعَ ٱلأسبابِ مِنَ ٱلوحيّ؛ غيرَ أنَّ جِهَةَ ٱلألمِ فيهِ هِيَ جِهةُ ٱلسماءِ إليه. ولو هو تكافأتْ[2] جهاتُهُ ٱلمعنويَّةُ ٱلأُخرى، وأُعطيَتْ كلُّ جهةٍ حقَّها، وتخلَّصَتْ مِمَّا يُلابِسُها ـ لٱرتفعَ من مرتبةِ ٱلألمِ إلى مرتبةِ ٱلشعورِ بِٱلغامضِ وٱلمُبْهَم، ولكانَ عقلاً مِنَ ٱلعقولِ ٱلكبيرةِ ٱلمولِّدةِ ٱلتي يحيا فيها كلُّ شيءٍ حياةً شعريَّةً ذاتَ حِسّ.

ولكنْ ما دامَت ٱلحياةُ قد وُزِنَتْ لَهُ بِمِقْدار، وطُفِّفَتْ[3] مع ذلك وبُخِسَت[4]، فقد كانَ يحسُنُ بِهِ أنْ يقصُرَ شعرَهُ على أبوابِ ٱلزفرةِ وٱلدمعةِ وٱللَّهفة، لا يعدُوها، ولا يزاولُ مِنَ ٱلمعاني ٱلأخرى ما ضُعفَتْ أداتُهُ مَعَهُ أنْ تتصرَّف، أوِ ٱنقطعَتْ وسيلتُهُ إليهِ أنْ تبلغ؛ ويظهرُ لي أنَّ أبا ٱلوفاءِ يحذو على حذوِ إسماعيلَ باشا صبري، وهو شبيهٌ بِهِ في أنَّهُ لم تفتحْ لَهُ على ٱلكونِ إلَّا نافذةٌ واحدة؛ غيرَ أنَّ صبري أقبلَ على نافذتِهِ ونظرَ ما وَسِعَهُ ٱلنظر، أمَّا أبو ٱلوفا فيُحاولُ أنْ ينقُبَ في ٱلحائطِ لِيجعلَهُما نافذتين.

---

(١) قسطه: خطّه.

(٢) تكافأت: تساوت.

(٣) طفِّفت: أُخسرت في وزنها.

(٤) بُخست: أنقصت حقّها.

أما إنَّهُ ليسَ مِنَ ٱلشعر أنْ تنزلَ ٱلحَيرَةُ ٱلفلسفيَّةُ عن منزلتِها بينَ ٱليقينِ وٱلعقل، أوِ ٱلمشهودِ وٱلمحجوبِ، أوِ ٱلواقع وٱلسبب، أوِ ٱلرسم وٱلمعنى ـ فتنقلبُ حيرةً معاشيةً تَسِمُ ٱلأشكالَ وٱلمعاني بسمتِها ٱلماديةِ ٱلترابية، وتقعُ في ٱلشعر فتقحمُ بينَ شعرِ ٱلقلْبِ ٱلعاشق، وشعرِ ٱلفِكْرِ ٱلمتأمِّل ـ شعرَ ٱلمعدةِ ٱلجائعة، وتضعُ بينَ أشواقِ ٱلكوْنِ شوقَها هيَ إلى ٱلطعامِ وٱلثيابِ وٱلمال . . .

على أنَّهُ كانَ ٱلأمثلُ في ٱلتدبير، وٱلأقربُ إلى طريقةِ ٱلنفسِ ٱلشاعرةِ أنْ يصرفَ أبو الوفا هذا ٱلشعورَ ٱلماديَّ ٱلذي يتلذَّعُ[1] بهِ، فيحولَهُ فيجعلَهُ باباً من حكمةِ ٱلسحْرِ ٱلشعريِّ بِٱلدنيا وأهلِها وحوادثِها، كما صرَفَهُ ٱبنُ ٱلروميّ من قبلُ فأخطأَ في تحويلِه، فجعلَهُ مرَّةً باباً مِنَ ٱلمدحِ وٱلنفاق، ومرَّةً باباً مِنَ ٱلهِجاءِ وٱلإقذاع .

ولو بذلَ ٱلشاعرُ أبو ٱلوفا مجهودَهُ في ذلك، وٱتَّهمَ ٱلدنيا ثُمَّ حاكَمَها، ونصَّ لها ٱلقانون، وأجلسَ ٱلقاضِي، وٱفتتحَ ٱلمجلس، ورفعَها قضيَّةً قضية، ثُمَّ أخذَها حُكْماً حُكْماً، تارةً في نادرةٍ بعدَ نادرة، ومرَّةً في حِكمةٍ إلى حِكمة، وآونةً في سخريةٍ معَ سخرية ـ إذن لٱهتدى هذا ٱلمتألمُ ٱلرقيقُ إلى ٱلجانبِ ٱلآخرِ من سِرِّ ٱلموهبةِ ٱلتي في نفسِه، فأخرجَ مكنونَ هذه ٱلناحيةِ ٱلقويَّةِ منها، فكانَ ولا ريبَ شاعرَ وقتِهِ في هذا ٱلباب، وإمامَ عصرِهِ في هذه ٱلطريقة .

على أنَّ في صفحاتِ ديوانِهِ أشياءَ قليلةً تُومىء إلى هذه ٱلمَلَكَة، ولكنَّها مبثوثةٌ في تضاعيفِ شعرِه، وٱلوجهُ أنْ يكونَ وجهُهُ في تضاعيفِها؛ وإنَّهُ لَيأتي بِأسمى ٱلكلامِ وأبدعِه، حين يعمدُ إلى ذلك ٱلأصلِ ٱلذي نبَّهْنا إليه، فيصرفَ لهفةَ نفسِهِ إلى بعضِ وجوهِها ٱلشعريَّة، كقولِهِ في «حُلُمُ ٱلعذارى»، وهي من بدائِعهِ ومحاسنِ شعرِه :

هـا هُـمـا عـيـنـاكِ تُـغـريـ	ـنـي عـلـى شـتَّـى ٱلـظـنـونْ
فـيـهـمـا بـحـرٌ ومـوجٌ	وسُـهـولٌ وحُـزونْ
ووضـوحٌ وغـمـوضٌ	وٱضـطـرابٌ وسُـكُـونْ
ومـعـانٍ بـيِّـنـاتٌ	ومـعـانٍ لا تـبـيـنْ
وتـهـاويـلُ فـنـونٍ	مِـنْ رَشـادٍ وجُـنـونْ

---

(١) يتلذّع : يتألّم .

وأشِـــعَّـــاتٌ حـــيـــارى   مــن مُــنــى أو مــن حَــنِــيــنْ
لَــيْــت شــعْــري أيُّ سِــرٍّ   خَــلْــفَ هــاتــيــكَ ٱلــجُــفــونْ
آهِ إنَّ ٱلــسِّـــرَّ أنــبــا   عَــيْــنُــهُ ذانِ ٱلــطــائــرانْ
حــيــنــمــا مــا لا عــلــى غــصــ   ــنــيــهِــمَــا يــعْــتَــنِــقــانْ. . .

فهذه أبياتٌ في شعرِ ٱلجمالِ كاٱلمحرابِ ملؤهُ عابدُه. . .

النجاحُ وكتابُ سرِّ ٱلنجاح

ما خلقَ ٱللَّهُ ذا عقلٍ من بني آدمَ إلَّا أودعَ في تركيبِهِ شيئينِ كٱلمُقدِّمةِ وٱلنتيجة، وأعطاهُ بِهِما ٱلقُدرةَ على ٱلوسيلةِ وٱلغاية، «لِيحيا من حيي عن بيِّنةٍ ويهلَكَ من هلكَ عن بيِّنة»، ففي تركيبِ ٱلإنسانِ قوَّةُ ٱلرغبةِ في ٱلنجاحِ وأنْ يتأتَّى إلى سِرِّهِ أو يبلغَ منه أو يُقارِبَهُ، وفي هذا ٱلتركيبِ عينِه ما يهتكُ بِهِ هذا ٱلحِجابَ ويُفضي[1] منه إلى هذا ٱلسرِّ ويجمعُ بك عليه، وما أُنكرُ أنَّ ٱلنّجاحَ قَدَرٌ مِنَ ٱلأقدار، ولكنَّهُ قَدَرٌ ذو رائحةٍ قويَّةٍ خاصَّةٍ بِهِ يستروحُها مَنْ تحتَ ٱلسماءِ وهو لا يزالُ في ٱلسماءِ وبينَهُ وبينَ ٱلأرضِ أمدٌ ودهرٌ وأسبابٌ وأقدارٌ كثيرة؛ ولولا أنَّ هذه ٱلخاصيَّةَ فيهِ وفي ٱلإنسانِ منهُ لَمَا توفَّرَتْ رغبةٌ في عملٍ ولا صحَّ نشاطٌ في ٱلرغبةِ ولا توجَّهَ عزمٌ إلى ٱلنشاطِ ولا توثَّقَتْ[2] عُقْدةٌ على ٱلعزم.

غيرَ أنَّ في ٱلإنسانِ كذلك ما يُفسدُ هذه ٱلخاصيَّةَ أو يُضعِفُها أو يُعطِّلُها تعطيلاً، فإذا هي تَضِلُّ ولا تهدي وكانَتْ تهدي ولا تَضِلّ، وإذا هي زائغةٌ عنِ ٱلحقِّ ملتويةٌ عنِ ٱلقصدِ وكانَتْ هِيَ ٱلسبيلَ إلى ٱلحقِّ وهي ٱلدليلَ على ٱلقَصْد؛ وما ينالُ منها شيءٌ إلَّا واحدٌ من ثلاث: ٱلعجْز، وضعْفُ ٱلهِمَّة، وٱضطرابُ ٱلرأْي.

فأمَّا ٱلعجْزُ فمنزلةٌ تجعلُ ٱلإنسانَ كٱلنباتِ يرتفِعُ عنِ ٱلأرضِ بِعُودِهِ ولكنَّهُ غائرٌ فيها بأصولِ حياتِهِ، وأمَّا ضعفُ ٱلهِمَّةِ فمنزلةُ ٱلحيوانِ ٱلذي لا هَمَّ لَهُ إلَّا أنْ يُوجَدَ كيفما وُجِدَ وحيثما جاءَ موضعُهُ مِنَ ٱلوجود، إذْ هو يُولدُ ويكْدحُ ويكِدُّ لِيكونَ لَحْماً وعَظْماً وصُوفاً ووبراً وشَعْراً وأثاثاً ومتاعاً، وكأنَّهُ ضرْبٌ آخرُ مِنَ ٱلنباتِ إلَّا أنَّهُ نوعٌ آخرُ مِنَ ٱلمنفعة.

وأمَّا ٱضطرابُ ٱلرأْي فمنزِلةٌ بينَ المنزلتينِ ترجعُ إلى هذه مرَّةً وإلى هذه مرَّةً وتقعُ من كلتيهِمَا موقِعَها، وٱلعجزُ وضعفُ ٱلهِمَّةِ وٱضطرابُ ٱلرأْيِ في لغةِ ٱلعقلِ

---

(١) يُفضي: يُوصل، يُؤدّي.

(٢) توثقت: ارتبطت وقويت.

معانٍ ثلاثةٌ لِكلمةٍ واحدةٍ هِيَ ٱلخيبة، وما أسرارُ ٱلنجاحِ إلَّا الثلاثةُ ٱلتي تُقابِلُها وهِيَ ٱلقوَّةُ وٱلعزيمةُ وٱلثبات.

ولكنَّ في هذا ٱلإنسانِ طفولةً وشباباً، وهما حالتانِ لا بُدَّ منهما، وهما مِنَ ٱلضعفِ وٱلنزقِ بِطبيعتِهِما، وفيهما يتثاقلُ ٱلإنسانُ إلى أغراضِه، ويرتدُّ عن صِعابِها، وينخذلُ[1] دون غاياتِها؛ وليسَ يأتي للطفلِ أنْ يُدرِكَ ٱلرجلَ في معانيه، ولا للشابِّ أنْ يبلغَ ٱلحكيمَ في كمالِه؛ فكأنَّ هذينِ ليسَ لهما أملٌ في أسبابِ ٱلنجاح، وكأنَّ كليهما لا يُحسِنُ أنْ يَطويَ فؤادَهُ على شيءٍ ولا أنْ يَجمعَ رأيَهُ على أمر، غيرَ أنَّ من حِكمةِ ٱللَّهِ ورحمتِه أنَّهُ أرصدَ من نواميسِهِ ٱلقويَّةِ لِضعفِ ٱلطفولةِ ونزقِ ٱلشبابِ ما هو سِنادٌ يمنع، وموئلٌ[2] يعصم[3]، وقوَّةٌ تُصلِح؛ وهو ناموسُ ٱلقُدوةِ ٱلذي يتمثَّلُ في ٱلأبِ وٱلأمِّ وٱلصاحبِ وٱلعشيرِ وٱلمُعَلِّمِ وٱلكِتاب؛ لِأنَّ ٱللَّهَ جَلَّتْ قُدرتُهُ يَبُثُّ ٱلحياةَ كلَّها إنَّما هِيَ مُمارسَةٌ لِفضيلةِ ٱلإيمانِ بِهِ من حيثُ يَدري ٱلإنسانُ أو لا يدري.

و«كتابُ سرِّ ٱلنجاحِ» ٱلذي ترجمَهُ أستاذُنا ٱلعلامةُ ٱلدكتورُ يعقوبُ صروف في سنةِ ١٨٨٠، وظهرَتْ طبعتُهُ ٱلرابعةُ في هذه ٱلأيام، هو ـ وٱللَّهِ ـ في بابِ ٱلقُدوةِ ناموسٌ على حِدة، وما رأيْتُ كِتاباً تلاءَمَ نسجُهُ وٱستوَتْ أجزاؤُهُ ووُضِعَ آخِرُهُ على أولِهِ وٱنصبَّ كلُّهُ إلى ٱلغرضِ ٱلذي كُتِبَ فيهِ وجاءَ مَقْطَعاً واحداً في معناهُ وفائدتِه ـ كهذا ٱلكتابِ ٱلذي يُعَلِّمُ ٱلضعيفَ كيف يقوى، وٱلعاجزَ كيف يعتمِد، وٱلمضطرِب كيف يَثبُت، وٱلمحزونَ كيف يأمَل، وٱليائسَ كيف يثِق، وٱلمُنهزِم في ٱلحياةِ كيف يُقبِل، وٱلساقطَ كيف ينتهض؛ ويُعلِّمُك مع ذلك كيف تُريحُ ٱلكدَّ بِٱلكدّ، وكيف تُسقطُ ٱلتعبَ بِٱلتعب، وكيف تمضي عزيمتُكَ وتعتقدُها وتضرِبُ كرةَ ٱلأرضِ بِقدميكَ وإنْ لم تكنْ مَلِكاً ولا قائداً ولا فاتحاً، وإنْ كُنْتَ من صميمِ ٱلسوقة، وإنْ كنْتَ من فقرِكَ وراءَ عتبةٍ واحدة؛ لا أقولُ: إنَّ هذا ٱلكتابَ عِلْم، فإنَّ هذا ٱلقولَ يسقطُ بِهِ دونَ منزلتِهِ ولا يعدو في وصفِهِ أنْ يجعلَهُ مجموعاً مِنَ ٱلورقِ ٱلصقيلِ على طبعٍ جيد، معَ أنَّهُ مجموعٌ مِنَ ٱلأرواحِ وٱلعزائمِ وأعصابِ ٱلقلوب؛ ولكنِّي أقولُ في وصفِهِ ٱلعِلْميِّ إنَّ ٱلمدارسَ تُخرِّجُ مِنَ ٱلكتبِ تلاميذ. . . وهذا ٱلكتابُ يُخرِّجُ مِنَ ٱلتلاميذِ رِجالاً أقوياءَ أشدَّاءَ معصوبينَ عصيبَ جذوعِ ٱلشجرِ ٱلعاتي، من قوَّةِ ٱلنفسِ

---

(١) ينخذل: يتراجع وينهزم.

(٢) موئل: ملجأ.

(٣) يعصم: يحمي ويمنع.

وصلابتِها وصِحَّةِ ٱلعزيمةِ ومضائِها، وتصميم ٱلرأْيِ ونفاذِه؛ ومِمَّا يُعطي من قوَّةِ ٱلصبرِ وٱلثباتِ ومُطاولةِ ٱلتعبِ إلى أبعدِ حدودِ ٱلطاقةِ ٱلإنسانيَّة.

وما تقرؤُهُ حقَّ قراءتِهِ وتستوفيهِ على وجهِهِ مِنَ ٱلتدبيرِ وٱلإمعانِ إلَّا خرجْتَ منه وقد وضعَ في نفسِكَ شيئاً أعظمَ من نفسِكَ كائناً مَنْ كُنْتَ وكيف كُنْتَ، فإنْ تكُنْ طفلاً خرجْتَ رجلاً، وإنْ كنْتُ رجلاً خرجْتَ حكيماً، وإنْ كنْتُ حكيماً ٱستحدث في نفسِك ما يجعلُكَ بٱلحِكْمةِ فوقَ ٱلدنيا وكنْتَ بها في ٱلدنيا.

قالَ ٱلأستاذ ٱلمُترجِمُ في مقدمته: «أشهدُ لِأبناءِ وطني أنَّني لم أنتفعْ بِكتابٍ قدرَ ما ٱنتفعَتُ بهذا ٱلكتاب». وهذه هيَ ٱلكلمةُ ٱلَّتي لا يقولُ غيرَها مَنْ يقرأُ «سِرُّ ٱلنجاح»، ولا يُمكنُ أنْ يقولَ غيرَها؛ إذْ هو مبنيٌّ في وضعِ من فائدةِ ٱلنفسِ وما يُرهِفُ حدَّها ويبتعِثُ مَلَكَاتِها ويستنهِضُ قُواها ويستنفِذُ وسائلَها على ما يُشبِهُ ٱلقواعدَ ٱلَّتي لا تُؤدِّي إلَّا إلى نتيجةٍ واحدةٍ من أينَ ٱعتبرْتَها، كٱثنانِ وٱثنانِ أربعة، وثلاثةٍ وواحدٍ أربعة، وأربعةِ وحداتٍ أربعة، وهلمَّ جرًّا. . .

تلك شهادةُ ٱلمُترجِم، أمَّا أنا فأشهدُ لقد عرفْتُ منذُ زمنٍ طالباً في الأزهر، فلمَّا تعرّفَ إليَّ جعلَ يشكو ويتبرَّمُ[1] وينفضُ لي نفسَهُ ويقول: الأزهرُ وعلومُهُ وفنونُهُ ومسائلُهُ ومشاكلُه، وٱلمتونُ وما فيها، وٱلشروحُ وما إليها، وٱلحواشي وما يَرُدُّ ويعترضُ ويُجابُ بِهِ ويُقالُ فيه، وكلُّ كلمةٍ بِساعةٍ مِنَ ٱلعمر، وكلُّ سطرٍ بيوم، وكلُّ جزءٍ بِسنة، وتركْتُ ورائي كذا وكذا فدَّاناً وأقبلْتُ على كذا وكذا عِلْماً، فلا حصَلْتُ من هذه ولا من تلك! قلْت: وما يُمسكُكَ وٱلبابُ مفتوحٌ ولا يسألُكَ ٱلأزهرُ إلى أين ولا تسألُكَ ٱلدنيا إذا خرجْتَ إليها مِنْ أين؟ قال: وٱللَّهِ ما ربطني إلى هذه ٱلأعمدةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سنةً كاملةً على يأْسٍ ومَضَضٍ إلَّا كتابُ «سرُّ ٱلنجاح» وما أمضيْتُ نِيّتي مرَّةً على وجهٍ من وجوهِ ٱلعيشِ إلَّا رأيْتُ هذا ٱلكتابَ قد ضربَ وجهَ هذهِ ٱلنيَّةِ فردَّهَا إلى هذا ٱلمكان وألقاها في هذا ٱلمستقرّ، وما همَمْتُ بِتركِ ٱلأزهرِ إلَّا ٱنتصَبَ في وجهي كلُّ ٱلأبطالِ ٱلذين قرأْتَ أخبارَهُم فيهِ وأمسكوني، لا من يدي ولا من رِجلي، ولكنْ مِنِ ٱعتقادي وإيماني وأملي!

قلْت: فَوٱللَّهِ لا يدعُكَ حتى تنجح، وما ربطَ ٱللَّهُ على قلبِكَ بِهذا ٱلكتابِ وثبَّتَ فؤادَكَ بِٱليقينِ ٱلذي فيه إلَّا وقد كتبَ لك ٱلخيرَ كلَّه.

---

(١) يتبرّم: يظهر الضجر والملل.

أبو تمَّام ٱلشاعرُ
تحقيقُ مدّةِ إقامتِه بِمِصْر

لم يَبقَ بُدٌّ من أنْ نبلغَ بِٱلكلامِ في هذا ٱلمعنى إلى مقطعِ ٱلحقِّ فيه، وأنْ ننفذَ بِتحقيقِهِ إلى خاصَّتِه، وننتهيَ من خاصَّتِهِ إلى بُرهانِه؛ فإنَّ علماءَ ٱلأدباءِ قديماً وحديثاً أَلقَوْا خبرَ أبي تمام كلاماً مُرْسَلاً يجري في ٱلروايةِ على طرقِها ٱلمختلِفة، لا على ٱلتاريخِ في وجهِهِ ٱلمتعيّن، ويُؤخَذُ على أنَّه خبرٌ كٱلأخبارِ إنْ صدقَ فقد صدقَ وإنْ كذب فهو على ما يجيء، إذْ لم يكنْ يَعنيهم مِنَ ٱلشاعرِ إلَّا شعرُه، يحملونه عنهُ أو يأخذونَهُ من رواتِهِ أو يجدونَهُ في ديوانِه؛ أمَّا أخبارُ ٱلشاعرِ فهيَ لا تتّصِلُ بِٱلكتابِ ولا بِٱلسُّنة، فتجتمِعُ لهم كما تجتمِعُ ويتناولونَها كما ٱتَّفقَتْ بما دخلَها مِنَ ٱلكذبِ وٱلتزيُّدِ وٱلتلفيق، وما يكونُ فيها مِمَّا يُظاهِرُ بَعْضُهُ بعضاً أو ينقضُ بعضُهُ على بعض؛ وٱلمُحققُ منهم مَنْ يروي ٱلصدْقَ وٱلكذِبَ معاً لِيخرجَ مِنَ ٱلتبعة، فلا بُدَّ مِنْ تبعةٍ في أحدِ ٱلنقيضين؛ وليبرأ بِصِدقِ أحدِهما من كذِبِ أحدِهما كما صنعَ ٱبنُ خِلِّكانَ في سِياقِهِ خبرَ أبي تمَّام وهذا نصُّ عبارتِهِ:

كانَتْ وِلادةُ أبي تمَّام. . . بجاسم وهيَ قريةٌ بينَ دِمَشْقَ وطبرية، ونشأَ بِمِصْر، قيلَ: إنَّهُ كانَ يسقي ٱلماءَ بِٱلجرَّةِ في جامعِ مِصْر، وقيلَ كانَ يخدمُ حائكاً يعملُ عندَهُ بِدِمَشْقَ وكانَ أبوه خمَّاراً بها.

وٱلذين يعرفون طرقَ ٱلروايةِ ومصطلحاتِها يُدركون من هذه ٱلعبارةِ أنَّ ٱبنَ خِلِّكانَ ينتفي من أنْ تكونَ عليهِ تبعةُ أحدِ ٱلخبرين أو كليهما؛ فإنَّ ٱلروايةَ متى ٱفتتحَ ٱلخبرُ (بقيل أو يقال) فقد دلَّ على أنَّ هذا ٱلخبرَ غيرُ مقطوعٍ بهِ؛ إذ تُسمَّى هذه ٱلصيغةَ عندَهم صيغةَ ٱلتمريض، فهيَ لا تُفيدُ ٱلصحَّةَ ولا ٱلجزْمَ بِها؛ وظاهرٌ أنَّ أبا تمَّامٍ لا يُمكنُ أنْ يكونَ قد نشأَ بِمِصْرَ وبِدِمشقَ في وقتٍ معاً.

وٱبنُ خِلِّكانَ قد وَقفَ على ٱلكتابِ ٱلذي عملَهُ ٱلصولي في أخبارِ أبي تمَّامٍ ونقلَ عنه، وهو ٱلمرجعُ في هذا ٱلباب؛ فلا بُدَّ أنْ يكون هذا ٱلكتابُ قد خلا مِنَ

تحقيقِ هذه ٱلرواية، بلْ نحن نُرجِّحُ أنَّهُ قد خلا منها بتَّة، فلم يذكرْ أنَّ نشأةَ أبي تمَّام كانَتْ بِمِصْرِ؛ لِأَنَّ صاحبَ ٱلأغاني أغفلَها ولم يُشرْ إليها بِحرف، مَعَ أنَّهُ ينقلُ عنِ ٱلصولي نفسِهِ ويقولُ في كتابِهِ (أخبرني ٱلصُّولي)، وكذلك أهملَها صاحبُ «مروجِ ٱلذهب»، وهو ينقلُ أيضاً عنِ ٱلصُّوليّ؛ وهذا يُثبتُ لنا أنَّ ٱلخبرَ لم يكنْ معروفاً يومئذٍ، وإلَّا هو ٱلتاريخُ عندَ أبي ٱلفرجِ وٱلمسعوديِّ إنْ لم يكنْ هو هذا؟

ولكنْ ذُكرَتِ ٱلروايةُ في كتاب الأنباري (طبقاتُ الأدباء)، وٱقتصرَ ناقلُها على أنَّ أبا تمَّام نشأَ بِمِصْر، وأنَّهُ كانَ يسقي ٱلماءَ بها، ولم يذكرْ روايةَ عملِهِ بِدمشق؛ وٱلأنباريُّ متأخرٌ توفي سنةَ ٥٧٧، فهو بعدَ موتِ أبي تمَّام بثلاثةِ قرونٍ ونصف، فلا قِيمةَ لِروايتِه، وشأنُهُ شأنُ غيرِهِ مِنَ ٱلناقلين؛ ونحن نرى أنَّ هذه ٱلروايةَ قد صُنِعَتْ في مِصْرَ نفسِها لِلغضِّ[1] من أبي تمَّام وٱلزرايةِ عليه، وبقِيَتْ مرويَّةً فيها ثُمَّ حُمِلَتْ كما تُحملُ كلُّ روايةِ لِذاتِها لا لِتحقيقِها، سواءٌ أكانَتْ موجَّهةً على ٱلحقِّ أمْ معدولاً بها عنه؛ ولا أوضعَ في ٱلمهنةِ من سِقايةِ ٱلماءِ في ٱلجامع بِٱلجرة، ولَعَمْري ما ذُكِرَتِ (ٱلجرةُ) هنا عبثاً؛ وٱلغلوُّ في ٱلتحقيرِ هو بعينِهِ ٱلدليلُ على ٱلكذب، فهذهِ ٱلكلمةُ كأثرِ ٱلمجرمِ في جريمتِهِ. . .

وبعدُ، فإنَّا نُقرِّرُ أنَّ هذا ٱلشاعرَ ٱلعظيمَ لم ينشأْ بِمَصْر، وأنَّهُ وُلِدَ وتأدَّبَ في ٱلشام ثُمَّ قَدِمَ إلى مِصْرَ شاعراً ناشئاً يتكسَّبُ بِأدبِهِ كما قَدِمَ عليها غيرُهُ مِنَ ٱلأندلسِ وٱلمغربِ وٱلشام، وٱلعراق، وأنَّه لم يأتِ إلى مِصْرَ إلَّا في ولايةِ عبدِ ٱللَّهِ بْنِ طاهرِ ٱلأديبِ ٱلشاعرِ ٱلقائدِ ٱلعظيم، وقد جُعِلَتْ لَهُ وِلايةُ مِصْرَ وٱلشام وٱلجزيرةِ في سنة ٢١٠ أو ٢١١ على خِلافٍ بينَ ٱلمؤرِّخين، وكانَتْ سِنُّ أبي تمَّام يومئذٍ بين ٢١ و٢٣ سنة؛ وقد كانَ ٱبْنُ طاهرٍ مغناطيساً لِلشعراءِ في كلِّ مكانٍ ينزلُه، حتى قالَ فيه بعضُهُم وعزمَ على ٱلهجرةِ إلى مِصْر:

يقولُ رِجالٌ إنَّ مِصْرَ بعيدةٌ	وما بَعُدَتْ مصرُ وفيها ٱبْنُ طاهرِ
وأبعدُ من مِصْرَ رجالٌ نراهُمُ	بِحضْرتِنا معروفُهُمْ غيرُ ظاهرِ
عنِ ٱلخيرِ موتى ما تُبالي أزُرتَهُم	على طمعٍ أم زُرْتَ أهلَ ٱلمقابرِ

وقد قصدهُ أبو تمَّام إلى مِصْر، كما قصدَهُ بعدَ ذلك إلى خراسانَ في سنةِ ٢٢٠، وهيَ ٱلسنةُ ٱلتي وَضَعَ فيها أبو تمَّامٍ أو في ٱلتي تليها كتابَ «ٱلحماسة» كما حققْنَاهُ ولا محلَّ لِذكرِهِ هنا.

---

(١) للغضّ: للانتقاص.

ونحن نسوقُ أدلَّتَنا على صِحَّةِ ما ذهبْنَا إليهِ في نفي أنْ يكونَ أبو تمَّام قد نشأَ بِمِصْرَ أو جاءَنا طفلاً. أو تكونُ منها طبيعتُهُ في ٱلشعر، أو يكونُ لها أثرٌ في عبقريَّته:

١ ـ المُجمعُ عليهِ بِلا خِلافٍ أنَّ ٱلشاعرَ وُلِدَ في ٱلشام، وما دامَ كذا لقد قالَتِ ٱلطبيعةُ كلمتَها في أصلِ نبوغِهِ وعبقريتِهِ، فإنَّ ٱلأديبَ يُولَدُ ولا يُصنعُ كما يقولُ ٱلإنجليز؛ وكلُّ ٱلعلماءِ يعرفونه بٱلطائيّ! ولا يطعنُ في نسبِهِ إلَّا مَنْ لا يُحقِّق، وهو نفسُهُ يُباهي بِطائيَّتِه، وذلك كٱلشرح على كلمةِ ٱلطبيعةِ في أسبابِ نبوغِهِ ٱلوراثيَّة؛ وقد تنقّلَ ٱلرجلُ بينَ مِصْرَ وٱلشامِ وٱلعِراقِ وخُراسانَ وأرمينيا وغيرِها، فما بلدٌ أولى من بلدٍ بِأنْ يكونَ مثارَ عبقريتِهِ.

٢ ـ إنَّ ٱلشاعرَ إنَّما يتكسَّبُ من شعرِهِ يمدحُ مَنْ يهتزُّ لَهُ أو يُعطي عليه، ولم يمدحْ أبو تمَّام أحداً من أهلِ مِصْر؛ فإنْ كان مدحَ فيها عبدَ ٱللَّهِ بنَ طاهرٍ فإنَّما إليهِ قصدَ ولهُ جاءَ؛ وٱبنُ طاهرٍ ليسَ مِصْريًّا، وقد جاءَ إلى مِصْرَ ورجعَ منها قبلَ أنْ يحولَ عليهِ ٱلحوْل، فلو أنَّ نشأةَ هذا ٱلشاعرِ كانَتْ بِمِصْرَ وتأدبَهُ كانَ فيها لأصبْنا لَهُ مَدْحاً كثيراً في أعيانِها وعلمائِها؛ إذْ هو متى قالَ ٱلشعرَ لا يتكسَّبُ إلَّا منه؛ وفي ديوانِ ٱلشاعرِ هجاءٌ لٱبنِ ٱلجلودي نظمَهُ في مِصْر، ولكنَّ ٱبنَ ٱلجلودي ليسَ مِصْريًّا، بلْ هو قائدٌ من قوَّادِ ٱلمأمون، ولَّاهُ محاربةَ ٱلزطِّ سنة ٢٠٥، ثُمَّ أقدمَ بعد ذلك مصر، ثُمَّ وَلِيَ عليها في سنةِ ٢١٤؛ فكلُّ ٱلمِصْريَّةِ في شعر أبي تمَّام هيَ في هجائِهِ لِلشاعرِ ٱلمصريّ يوسفَ ٱلسراجِ، ولعلَّها في بعضِ مقاطيعَ أخرى مِنَ ٱلغزلِ أوِ ٱلوصف.

٣ ـ ولدَ أبو تمَّام في سنةِ ١٨٨ أو ١٩٠، ومِنَ ٱلثابتِ أنَّه كانَ بِمِصْرَ في سنةِ ٢١٤، حينَ نظمَ قصيدَتَه ٱلداليةَ وٱلنونيَّةَ في رثاءِ عمير بْنِ ٱلوليد ـ وعميرٌ هذا ليس مِصْريًّا، بلْ هو مِن خُراسان، وكانَ بِمِصْرَ عاملاً لأبي إسحاقَ ٱلمعتصم ٱبنِ ٱلرشيد ـ فلو كانَ أبو تمَّام قد جاءَ إلى مِصْرَ طِفلاً كما يُقالُ لَكانَتْ مُدَّةُ قولِهِ ٱلشعرَ فيها لا تَقِلُّ عن عشرِ سنوَات، معَ أنَّ كلَّ ما نظمَهُ وهو فيها لا يبلغُ عشرَ قصائد؛ وهذا ديوانُهُ بين أيدينا وإليهِ وحدَهُ ٱلمرجِعُ في ٱلدلالةِ على صاحبِه.

٤ ـ روى ٱلمرزبانيُّ في «ٱلموشح» عنِ ٱلعباسِ بْنِ خالدٍ ٱلبرمكيِّ قال: أولَ ما نبغ (أي قال الشعر) أبو تمّام الطائيُّ أتاني بِدِمشقَ يمدحُ محمدَ بْنَ ٱلجهم فكلمْتُهُ فيهِ فأذِنَ له؛ فدخلَ عليهِ وأنشَده، ثُمَّ خرجَ فأمرَ لَهُ بِدراهمَ يسيرة، ثُمَّ قال: إنْ عاشَ هذا ليخرجَنَّ شاعراً.

فهذا نصٌّ على أنَّ ٱلشاعرَ لم يكنْ يومئذٍ إلّا في ٱبتداءِ ٱلشعر، ولم يكنْ قد خرجَ شاعراً بعْدُ وكانَ شعرُهُ مِنَ ٱلطبقةِ ٱلتي يُثابُ عليها (بدراهمَ يسيرة). وأبو تمّام بعدَ ذلك هو نفسُهُ ٱلذي نثرَ عليهِ عبدُ ٱلله بْنَ طاهرٍ ألفَ دينار فترفّعَ أنْ يمسَّهَا وتركَ ٱلخَدَمَ ينتهبونها، وكانَ ذلك سبباً في تغيُّرِ ٱبنِ طاهرٍ عليه.

٥ ـ نقلَ ٱبنُ خِلِّكانَ في ترجمةِ ديكِ ٱلجنِّ ٱلشاعرِ ٱلحمصيِّ ٱلمشهور، عن عبدِ ٱللَّهِ بْنِ محمدِ بْنِ عبدِ ٱلملكِ ٱلزبيديّ قال: كنْتُ جالساً عندَ ديكِ ٱلجِنّ، «يعني بِحِمْص»، فدخلَ عليهِ حدثٌ فأنشدَهُ شِعْراً عملَه، فأخرجَ ديكُ ٱلجِنّ من تحتِ مصلّاهُ دُرْجاً كبيراً فيهِ كثيرٌ من شعرِهِ، فسلَّمَهُ إليهِ وقال: يا فتى تكسَّبْ بهذا وٱستعنْ بهِ على قولِك. فلمّا خرجَ سألْتُهُ عنه فقال: هذا فتَى من أهلِ جاسم، يَذكرُ أنَّهُ من طيىء، يُكنى أبا تمّام، وٱسمهُ حبيبُ بْنُ أوس، وفيهِ أدبٌ وذكاءٌ ولَهُ قريحةٌ وطبع. فهذا نصٌّ آخرُ على أنَّ أبا تمّام كانَ يومئذٍ حَدَثًا ـ أي غلاماً ـ وكانَ لا يزالُ يطلبُ ٱلأدب، وقد أعانَهُ أستاذُه بِنُسخٍ من قصائدِهِ يتخرَّجُ بِها ويحذو عليها؛ فهو قد نشأَ في ٱلشامِ وتأدَّبَ فيها.

٦ ـ نظمَ أبو تمّام قصيدَتَهُ ٱللاميَّةَ «أصب بحميا كأسها مقتل العذل» يصف تقتيرَ ٱلرزقِ عليهِ بِمِصْرَ وخيبةَ أملِهِ ٱلذي أملَهُ مِنَ ٱلمال، وفي هذه ٱلقصيدةِ يحنُّ إلى ٱلشامِ ويستسقي لها ويذكرُ أرضَ ٱلبقاعينِ وقرى ٱلجولانِ ٱلتي نشأَ فيها: ولا يحنُّ ٱلشاعرُ لِأَرضٍ إلّا إذا كانَ فيها حبُّهُ أو شبابُهُ وأدبُه، أمّا ٱلطفولةُ فمنسيةٌ بِآثارِها، إذ لا آثارَ لَها في ٱلنفسِ متى شبَّ ٱلمرءُ إلّا بعيداً بعيداً، وإنَّما ٱلحنينُ لِمَا تتعلَّقَ بِهِ ٱلغريزةُ ٱلمميِّزة.

٧ ـ في هذه ٱلقصيدةِ يقولُ أبو تمّام يُخاطِبُ أحبابَه:

عدَتْني عنكم مُكْرَهاً غُرْبَةُ ٱلنَّوى لَهَا وطَرٌ[1] في أنْ تمرَّ ولا تُحْلي

وٱلنوى في لغةِ ٱلشاعرِ هي رحيلُهُ لِلتكسُّبِ بِشعرِه؛ ولمّا رجعَ عوفُ بْنُ مُحَلّم ٱلشيبانيُّ إلى وطنِهِ بعدَ وفادتِهِ على عبدِ ٱللَّهِ بْنِ طاهرٍ في خُراسانَ؛ سُئلَ عن حالِهِ فقال: رجعْتُ من عندِ عبدِ ٱللَّهِ بِٱلغنى (وٱلراحةِ مِنَ ٱلنوى)؛ ويُؤيِّدُهُ قولُ أبي تمّام في قصيدتِهِ تلك:

نَأَيْتُ[2] فَلَا مالاً حَوَيْتُ ولم أقُمْ فأُمَتَّعَ، إذْ فُجِعْتُ بِٱلمالِ وٱلأهْلِ

---

(١) وطر: غاية ونيّة.

(٢) نأيت: بعدت.

يعني أنَّهُ ٱغتربَ مُكْرَهاً يطلبُ ٱلكَسْبَ لا غير، ولا كَسْبَ لِلشاعرِ إلَّا من شعرِهِ، فهو بنصِّ كلامِهِ عن نفسِهِ قدمَ إلى مِصْرَ شاعراً يتكسَّبُ ويتعرَّضُ لِلغِنى كما يصنعُ غيرُه.

٨ ـ في هذه ٱلقصيدةِ ٱللاميَّةِ يُقدِّمُ لنا أبو تمَّام ـ رحمهُ ٱللَّهُ ـ دليلاً يأكلُ ٱلأدلَّة، كأنَّما أُلهِمَ من وحي ٱلغيبِ أنَّنا سنحتاجُ إلى هذا ٱلدليلِ يوماً لِندفعَ بهِ عنه؛ فهو يَحِنُّ إلى حبيبٍ لهُ في ٱلشام، ويقولُ: إنَّ غربةَ ٱلنوى ٱلتي وصفَها:

أتَتْ بَعْدَ هَجْرِ ٱبْنِ حبيبٍ فحرَّكَتْ ... صَبَابةَ ما أبقى ٱلصدودَ مِنَ ٱلوَصْلِ
أخمسةُ أحوالٍ مَضَتْ لمغيبِهِ؟ ... وشهرانِ بلْ يومانِ تُكْلٌ مِنَ ٱلثُّكلِ!

يعني أنَّه قالَ هذا ٱلشعرَ وقد مضى على إقامتِهِ في مِصْرَ خمسُ سنوات، وكانَ قد جاءَ مِنَ ٱلشام عاشِقاً ذلك ٱلعِشْقَ ٱلذي فيهِ (ٱلصدودَ وٱلوصل)، وٱلطفلُ لا يُحبُّ مثلَ هذا ٱلحُبِّ ولا يحِنُّ ذلك ٱلحنين؛ فإذا كانَ ٱلشاعرُ قَدِمَ إلى مِصْرَ في سنةِ ٢١٠، كما رجَّحْنَاه، وسنُّهُ بين ٢١ و٢٣ سنة، فيكونُ قد نظمَ هذه ٱلقصيدةَ في سنةِ ٢١٥، وعمرُهُ يومئذٍ بين ٢٦ و٢٨ سنة؛ فلو أنَّ أبا تمَّام جاءَ مِنَ ٱلشام طفلاً صغيراً فكيفَ لِلطفلِ أنْ يقولَ مثلَ هذا ٱلشعرِ بعدَ خمسِ سنوات؟ وما هجرُ ٱلحبيبِ «وصبابةُ ما أبقى ٱلصدودُ مِنَ ٱلوصل»؟

٩ ـ مدحَ شاعرُنا محمدَ بْنَ حسانٍ ٱلضبيَّ بِقصيدةٍ نونيَّةٍ يذكرُ فيها تنُقّلَهُ في ٱلبلادِ فقالَ فيها:

بٱلشَّام أهلي، وبغدادَ ٱلهوى، وأنا ... بٱلرقمتين، وبٱلفُسْطاطِ[1] إخواني
وما أظنُّ ٱلنوى[2] ترضى بِما صنَعَتْ ... حتى تُشافِهَ بي أقصى خراسانِ!

فأنت ترى أنَّهُ جعلَ أهلَهُ بٱلشام، وجعلَ أصدقاءَهُ بِمِصْر؛ فلو أنَّهُ كانَ قد نشأَ بِها لَجعلَ بها أهلَه؛ إذْ لا ينشأُ إلا مَعَ أبيهِ وأُمِّه؛ وٱلبيتُ ٱلثاني دليلٌ منه هو على أنَّهُ لم ينزِلْ بِمِصْرَ مُقيماً ولا مُتوطِّناً، بلْ مُتنقِّلاً كما نزلَ بِغيرِها.

١٠ ـ تقولُ كُتبُ ٱلأدبِ في مدارسِ ٱلحكومة: إنَّ أبا تمَّام نُقِلَ إلى مِصْرَ صغيراً فنشأ بها (وقد بيَّنا فسادَ ذلك)، ثُمَّ خرجَ إلى مقرِّ ٱلخلافةِ فمدحَ ٱلمعتصم؛ وهذا غيرُ صحيح؛ فإنَّ أبا تمَّامٍ خرجَ من مِصْرَ قبلَ أنْ يدخلَها ٱلمأمونُ في سنةِ

---

(١) الفسطاط: مصر القديمة. (٢) النوى: البعد.

٢١٦، حين جاءَها وقتلَ بها عبدوساً ٱلفَهْرِيّ؛ فلو كانَ ٱلشاعرُ يومئذٍ لَمَدحَ ٱلمأمونَ وذكرَ هذه ٱلواقعة؛ وٱلمعتصمُ وليَ ٱلخلافةَ سنة ٢١٨، وديوانُ أبي تمَّام يُثبِتُ أنَّهُ في سنةِ ٢١٧، كانَ بِٱلعراق، وقد مدحَ ٱلمأمونَ بِقصيدتِهِ ٱلميميَّة، وذكرَ في مدحِهِ وقعةَ ٱلروم، وهذه كانَتْ في تلك ٱلسنة.

يُخلَصُ من كلِّ ما تقدَّمَ أنَّ أبا تمَّام وُلِدَ في ٱلشام وتأدَّبَ فيها، وقَدِمَ إلى مِصْرَ كبيراً يتكسَّبُ بِٱلشعر، فأقامَ بها بينَ خَمسِ سنينَ وستٍّ، ولم يجدْ لَهُ عيشاً بها بعدَ قتل عميرِ بْنِ ٱلوليدِ ٱلذي قُتلَ في سنةِ ٢١٤؛ فإنَّهُ كانَ يعيشُ في كنفِه، وقد صرَّحَ في قصيدتِهِ ٱلنونيَّةِ ٱلتي رثاهُ بها أنَّهُ يأمُلُ من بعدِهِ في ٱبنِه محمد.

فقدومُ ٱلشاعرِ إلى مِصْرَ كانَ في سنةِ ٢١٠ أو حواليها، وخروجُهُ منها كانَ في سنةِ ٢١٥ أو حواليها، وٱللَّهُ أعلم.

القديمُ وَٱلجديد

أقولُ لِلأستاذِ ٱلفاضلِ ٱلدكتور طه حسين «في رفقٍ ولين» وفي عجلةٍ أيضاً: إنِّي في هذه ٱلأيام ضنينٌ[1] بِما أملكُ من وقتي أشدَّ الضنّ، أحسبُ ٱلسماءَ تتفجَّرُ من يومي في ساعةٍ كَٱلفجَر، فلا يصرفُني عن تلك الساعةِ شيءٌ ولا يصرفُها عنِّي شيء؛ إذْ بين يدي كتابٌ في ٱلرسائلِ أعملُ فيهِ وَأستعينُ ٱللَّهَ على ٱلفراغ منه في وقتٍ معيَّن، وقد أظلُّ أو كاد؛ فلا يرينَّ ٱلأستاذُ أنِّي أستطيرُ هذه ٱلمرةَ كَٱلطيرةِ ٱلأولى، فإنَّ جناحي في فضاءٍ آخر، وإنَّ هذا ٱلكتابَ ٱلذي أُعالجُهُ لا يُجشمني[2] عرقاً مِنَ ٱلقِرْبةِ كما قالوا قديماً، بلْ لعلَّهُ في ٱلمِهِ أشبهُ «بعمليَّة» تشريحٍ في ٱلقلْب، وستذهبُ ٱلدقائقُ ٱلتي أكتبُ فيها هذه ٱلكلمةَ مأسوفاً عليها، لأنَّها ذاهبةٌ بِصفحتينِ من كتابي.

وأمَّا بعدُ، فلا أرى مِنَ ٱلإنصافِ أنْ يعمدَ ٱلدكتورُ إلى جُمَلٍ يقتضبُهُنَّ[3] من مقالي في مجلةِ ٱلهلالِ ثُمَّ يهدفُها للردّ، وكانَ عسى أنْ يدفَعَ عنها شيءٌ مِمَّا قبلَها أو ما بعدها أو يشدُّ منها بعضَ جِهاتِها أو يأتي بِها في سِياقٍ يُبينُ عن معناها.

وزعمَ ٱلأستاذُ أنَّهُ لا يفهمُ من كلامي هذه ٱلجملةَ «وأنت تعلم أنَّ ٱلذوق، ٱلأدبيَّ في شيءٍ إنمَّا هو فهمُه، وأنَّ ٱلحكم على شيءٍ إنَّما هو أثرُ ٱلذوقِ فيه، وأنَّ ٱلنقدَ إنَّما هو ٱلذوقُ وَٱلفهمُ جميعاً. . .»، ثُمَّ دارَ بِهذه ٱلكلماتِ دورةَ ٱلعاصفةِ وجعلها مسألةً كمسألةِ ٱلدورِ وَٱلتسلسلِ ٱلمشهورة، بلْ جعلَها من قبيلِ «قصةٌ وقضية». . . فتراه يقول: ذوقٌ هو ٱلفهم، وفهمٌ هو ٱلذوق، وفهمٌ ليسَ بِٱلذوق، وذوقٌ ليسَ بِٱلفهم، وهلُمَّ صاعداً ونازلا؛ وضربَ لنا مثلا بِٱلموسيقى فقال: «ما نظنُّ أنَّ ٱلذين يذوقونَ ٱلموسيقى ويُطربونَ لها يفهمونَها جميعاً». وأنا أفسرُ كلامي بهذا ٱلمثلِ نفسِه، أقتصرُ عليهِ ولا أعدوه.

---

(١) ضنين: بخيل.

(٢) يجشمني: يرهقني ويتعبني.

(٣) يقتضبهن: يقتطعهن.

نأتي ٱلآنَ بِأستاذٍ قد برعَ في ٱلموسيقى وخالطَتْ أعصابَهُ ولحمَهُ ودمَه، وندفعُ إليهِ قِطعةً ملحَّنةً ونقولُ لَه: إسمعْ وٱفهمْ وٱحكمْ وٱنتقد؛ يسمعُها مرةً بعقلِهِ أو لِعقلِهِ يتبينُ ما يكونُ فيها صواباً وما يكونُ خطأً، ثُمَّ ما يعلو عنِ ٱلصوابِ مِنَ ٱلإجادةِ وَٱلإتقان، وما ينحطُّ عنِ ٱلخطأ مِنَ ٱلإساءةِ وَٱلتخليط؛ فهذا هو ٱلفهم.

ويسمعُها مرَّةً ثانيةً بِحِسِّهِ أو لِحِسِّهِ، فيرى أثرَ ما فهم، ويُديرُها في ذوقِهِ لِيعرفَ كيف موقعُها مِنَ ٱلغرَضِ ٱلذي وُضِعَتْ لَهُ، فإنَّها لم تُوضَعْ لِتكونَ أصواتاً، بلْ لِتخلُقَ مِنَ ٱلأصواتِ شيئاً؛ فهذا هو ٱلذوق، وهو كما تراهُ بعدَ ٱلفهْمِ، وناشىءٌ عنه. ومثلُ ٱلأستاذِ طه حسين لا يخفى عليهِ أنَّ مَنْ يقول: إنَّ ٱلذوقَ في شيءٍ إنَّما هو فهمُه، أو إنَّما هو عن فهمِه، أو إنَّما ينشأُ عن فهمِه، فَٱلعِبارةُ في بابِ ٱلمجازِ واحدةٌ لا تختلف.

ثُمَّ إنَّ أستاذَ ٱلموسيقى وقد سمعَ ٱلقطعةَ مرَّتين، أو مرَّةً كمرتينِ إنْ بلغَ أنْ يكونَ لَهُ في كلِّ أُذُنٍ واحدةٍ أُذنان، يستفتي ذَوْقَهُ ٱلفنيَّ ويَحكمُ لِلقطعةِ أم عليها؛ فهذا هو أثرُ ٱلذوق.

الآنَ قد حكمَ ٱلأستاذُ وٱنتقدَ وجزمَ بِرأْيه، فنُدِبَ لَهُ فلانٌ يقول: أخطأْتَ وأسأْتَ وجَهِلْتَ وغَفَلْت، أو تعصَّبْتَ وحططْتَ في هوى صاحبِ ٱللحن؛ فمِنْ أين جاءَ هذا ٱلخِلافُ وكيف وقعَ هذا ٱلقوْل؟ بلْ كيف ساغَ لِلثاني أنْ يُجهِّلَ ٱلأولَ ويرى غيرَ رأْيِهِ ويحكُمَ غيرَ حُكمِه، إلَّا إذا كانَ قد فهِمَ غيرَ فهمِهِ فأنشأَ لَهُ ٱلفهمُ ذَوْقاً وأحدثَ لَهُ ٱلذوقُ حُكْماً وجاءَتْ من هذه ٱلمقدماتِ تلك ٱلنتيجةُ ٱلتي نُسمِّيها ٱلنقد، وما هيَ في ٱلحقيقةِ إلَّا ٱلذوقُ وٱلفَهْمُ جميعاً. فٱلذين يَذُوقونَ ٱلموسيقى ويُطربون لَها ولا يفهمونها فقد فهموها على مِقدارِ ما ٱستقرَّ في نفوسِهم من أساليبِ ٱلتطريبِ وما فيهم مِنَ ٱلمُطاوعةِ لِهذهِ ٱلعاطفة؛ أو لا تراهُم يقولونَ في أمثالِ هؤلاءِ: إنَّ لهم آذاناً موسيقية؟ فهذه الأُذُنُ هيَ ٱلفهمُ بعينِه، لِأنَّها حاسَّةٌ ٱجتمَعَتْ من مِرانٍ طويل، وقد تقومُ في بعضِ ٱلناسِ على جهلِهِ بِٱلموسيقى مَقامَ عِلْمٍ برأْسِه.

ويقولُ ٱلأستاذُ طه: إنَّهُ قد يقرأُ كلامي ويفهمُهُ ولا يذوقُه، ولكنَّ عدمَ ٱلذوقِ هنا هُوَ ٱلذوق؛ وليت شعري ما معنى قولِ ٱلمتنبي: «ومَنْ يَكُ ذا فمٍ مرٍ.....».

ولو كانَ ٱلأستاذُ وأمثالُهُ هم في هذا ٱلقِياسِ ٱلمترِ وَٱلكيلومتر، لَوَجَبَ ألَّا أجدَ مَنْ يذوقُ كلامي ويعجبُ بِهِ ويُغَالي فيهِ ويكونُ ذنباً من ذُنُوبي عندَ ٱللَّهِ بِإسرافِهِ في

ٱلمُغالاة، وأنا واجدٌ بِكُلِّ واحدٍ مِثْلِ ٱلأستاذِ طه عشرةً ومائةً من غيرِه، ولو خرج هو إلى ٱلعالَمِ لَرأى وسَمِع، وفيهم مَنْ هم أعلى منه كعباً وأمدّ عُنُقاً وأضخمُ هامةً وأبدع بديعاً وأبلغُ وأزكى وأعلمُ إلى عددٍ من هذه الواوات.

وعجِبْتُ للدكتورِ يريدُ أنْ لا يفهَم من عبارتي كما يقولُ إلَّا أنَّ «الذوقَ هو نفسُ ٱلفهمِ، فَٱللفظانِ يدلَّانِ على معنًى واحد، وإذن وإذن وإذن وإذن. . .».

فهلْ يرى إذا قلْتُ لَهُ: رأيْتُ ٱلقمرَ وفلانَةَ ليلْةَ كذا فكانَتْ إنَّما هيَ ٱلقمر ـ أنِّي أقصدُ بِهِما معنًى واحداً فيقولُ لها: «وإذن» فليسا شيئينِ مختلفين وإنَّما هو شيءٌ واحد، وإذن فكيفَ صارَ لها وجهٌ في ٱلسماءِ ووجهٌ في ٱلأرضِ وبقيَتْ مَعَ ذلك ٱمرأةً مِنَ ٱلإنس؛ وإذن فهذا كلامٌ لا يُفهم. . .

قالَ بعضُهُم إنَّ «لو» تفتحُ عملَ ٱلشيطان، يُريدُ أنَّها أداةُ ٱلتمنِّي، وَٱلمذهبُ ٱلجديدُ سيضم «إذن» إلى «لو»، ثُمَّ ما هي ٱلكلمةُ ٱلثالثةُ يا ترى؟

أنا ـ مَعَ إعجابي بِٱلدكتورِ ٱلفاضل ـ أرى أنَّهُ مُسْتهترٌ بأشياء، وأنَّ من خُلُقِهِ أنْ ما لا يرضى عنه وما لا يفهمُهُ «ليسا شيئين مختلفين». فإذا لم يكنْ مِنَ ٱلفهم بُدٌّ قالَ: إنَّهُ لا يقتنع، فإذا ضايقْتَهُ وضيقْتَ عليهِ لم يبقَ إلَّا ما يقولُ ٱلنحاةُ في «أيّ» ٱلتي حيرَهم إعرابُها وبناؤُها: أيْ كذا خُلِقَتْ. . .

وأنا وأمثالي إنَّما نحرِصُ أشدَّ ٱلحِرْصِ على هذه ٱللغةِ لِأنَّها أساسُ ٱلأُمَّةِ ٱلإسلاميَّةِ فلا نرضى إلَّا أنْ يكون هذا ٱلأساسُ ثابتاً متيناً لا يُزعزعُهُ شيءٌ ولا يثلمُهُ شيءٌ ولا يُضعِفُهُ شيء؛ وَٱلدكتورُ وأمثالُهُ لا يُبالون أنْ تكونَ هذه ٱلأُمَّةُ كبيوتِ أمريكا ٱلمتحركة. . .

لسْتُ أُنكِرُ ٱلتجديدِ، بلْ لعلَّ ٱلدكتورَ يذكرُ مُناقشتي إيَّاهُ في (ٱلجريدة) وإصرارَهُ يومئذٍ أنْ ليسَ لِأَحدٍ أنْ يُدخِلَ في ٱللغة كلمة، وأنَّ قولَ ٱلناسِ تنزُّهٌ ومُتنزهٌ ونُزهةٌ إلخ كلُّها مِنَ ٱلكلام ٱلعاميّ، وتعلُّقُهُ بِنصِّ ٱبنِ سيدَهْ في ذلك، وٱستخراجي لَهُ نصَّ ٱبنِ قُتيبةَ وكلَاماً كثيراً مِن ٱستعمالِ ٱلعلماء، ثُمَّ قولَهُ أحسنْت، ولكنْ لو جِئْتَني بِٱللفظةِ في كلام ٱلمبردِ وَٱلجاحظِ وفلانٍ وفلانٍ ما ٱقتنعْت.

إنَّما أُنكِرُ شيئاً واحداً، وهو أنْ يُقالَ مذهبٌ قديمٌ ومذهبٌ جديد؛ فقد وسَّعَ ٱللَّهُ على ٱلناسِ فيما عَلِموا وفيما جَهِلوا، ولكنَّ أصحابَنا يُريدون ألَّا نكتبُ إلَّا نمطاً بِعينِهِ، ولا نذهبَ إلَّا مذهباً بِعينِهِ؛ لِأَنَّ كلَّ ذلك هُوَ ٱلجديد؛ فأيُّهُما خيرٌ لنا ولهم

وللذينَ سيُخرجونَ تاريخَهُم من قبورِنا: أنْ نعتدَّ ٱللغةَ وَٱلأدبَ كلَّ ما ٱجتمعَ من قديم وجديدٍ ونُحكِمَ هذه ٱللغة ونحفظها وندفعَ عنها ونجعلَ تجديدَها كتجددِ ٱلحسناءِ في أثوابِها وفي ألوانِها دونَ تشويهٍ ولا مسخ ولا مسِ ٱلجسم ٱلجميل، أمْ نقول: هذه ٱلشفةُ وهذا ٱلأنفُ وهذا ٱلموضِعُ ٱلممتلِىءُ ٱلخدِلُ وهذا ٱلموضِعُ ٱلهضيمُ ٱلناحِلُ وتعالَ يا دكتور هاتِ ٱلمِبْضعَ وَٱلمِشرطَ وَٱلمِقصَّ وَٱلمِنشارَ وَٱلإبرةَ وَٱلخيطَ وإذن. . . . . ؟

لقد أذكرُ أنّي رأيْتُ في بعضِ مقالاتِ ٱلأستاذِ طه حسين أو في بعضِ ما يُقرِّظُ[1] بِهِ ٱلكتبَ أنَّهُ قال: إنَّ ٱلقديمَ قد أثبتَ دائماً أنَّهُ أقوى وأمتنُ وأصحّ؛ فهلْ رحلَ عن هذا ٱلرأي أمْ ظَهرَ لَهْ في ٱلجديدِ ما هو أقوى وأمتنُ وأصحّ؟ ثُمَّ يا أيُّها ٱلملأُ أفتوني ما هو هذا ٱلجديد؟ أهو ذاك ٱلخيالُ ٱلشاردُ ٱلمجنون، أمْ تلك ٱلشهواتُ ٱلمتوثِّبةُ ٱلمتلهِّفة، أمْ ذلك ٱلأسلوبُ ٱلفجُّ ٱلمستوخِم، أم ٱلعاميَّةُ ٱلسقيمةُ ٱلملحونة؛ أمْ هو في ٱلحقيقةِ بينَ رغبةٍ في ٱلنبوغِ قبلَ أنْ تَتِمَّ ٱلأداةُ وتستحكمَ ٱلطريقة، كما هو شأنُ فريقٍ مِنَ ٱلكُتَّاب، فيختصرون ٱلطريقَ بكلمةٍ واحدةٍ هيَ ٱلمذهبُ ٱلجديدُ ـ وبين رغبةٍ في ٱلتعصُّبِ لِلآدابِ ٱلأجنبيَّةِ كما هو شأنُ فريقٍ آخر ـ وبينَ رغبةٍ في ٱلحطِّ من قيمةِ بعضِ ٱلناسِ ورميهم بِٱلجهْلِ وَٱلسخْفِ وأنَّهُ لا قِيمةَ لِما يجيئونَ به، كلُّ ذلك في تعبيرِ عِلْميٍّ يصِحُّ أنْ يكونَ نظريَّةً عِلْمِيَّة. . . وقبلَهُم قالَها ٱلعربُ في ٱلقرآنِ ٱلكريم: «لو نشاءُ لقلْنا مثلَ هذا، إنْ هذا إلَّا أساطيرُ ٱلأولين»! فقدْ شاءُوا فلم يقولوا؛ ولو أنَّ ٱلمذهبَ ٱلجديدَ فسَّرَ ٱلقرآنَ يوماً. . . لَقالَ في معنى أساطيرِ ٱلأولينَ إنَّهم أرادوا ٱلمذهبَ ٱلقديم. . .

ويقولُ ٱلدكتورُ طه: إنَّ هناكَ قوماً ينصرونَ ٱلمذهبَ ٱلجديدَ وليسَ لهم مِنَ ٱللغاتِ ٱلأجنبيَّةِ وآدابِها حظٌّ، وحظهُم مِنَ ٱللغةِ ٱلعربيةِ وآدابِها موفور؛ ثُمَّ طلبَ رأيي في هؤلاءِ وما أصلُ مذهبِهِمُ ٱلجديد؛ فأقول: إنّي أعرفُ بعضَهُم، وأعرفُ أنَّ أدمغتَهُمْ لا يُشبِهُهَا شيءٌ إلَّا جلودُ بعضِ ٱلكتبِ ٱلتي ليسَ فيها إلَّا مَتْنٌ وشرحٌ وحاشية: جلْدٌ ملفوفٌ على ورق، وورقٌ ينطوي على قَواعدَ محفوظة، وهم أفقرُ ٱلناسِ إلى ٱلرأْي؛ وهذه عِلَّةُ حُبِّهم لِلأساليبِ ٱلجديدةِ ٱلقائمةِ على ٱلترجمةِ ونقلِ ٱلآراءِ مِنَ ٱلغربِ إلى ٱلشرق، وبِٱلمعنى ٱلصريحِ ٱلمكشوف: مِنَ ٱلأدمغةِ ٱلمَمْلوءَةِ

(١) يقرّظ: يثني ويمدح ما يراه جيّداً.

إلى ٱلأدمغةِ ٱلفارِغة، وفيهم بعضُ أذكياء، ولكنَّ ذكاءَهُم في حواسِّهِم، فإِنْ لم يكُنْ هذا فَلْيقولوا هم لماذا؟

ولو أنَّكَ سألْتَ ٱلعنكبوت: ما هيَ ٱلظبيةُ ٱلحوراءُ ٱلعيناءُ ٱلتي تطمعينَ فيها وتنصبينَ لها كلَّ هذه ٱلأشراكِ وٱلحبائل؟ لَقالَتْ لك: مَهْلاً حتى تقعَ فتراها! فإذا وقَعَتْ رأيْتَها ثَمَّةَ ورأيْتَها ذبابة...

ولكن ماذا يقولُ ٱلدكتورُ في ٱلأستاذِ ٱلإمامِ ٱلكبيرِ ٱلشيخ محمد عبده؟ أكانَ يدعو إلى مذهبٍ جديدٍ في ٱللغةِ وٱلأدبِ ويفتتِنُ بِٱلرواياتِ ٱلغراميَّةِ وبِأُسلوبِ «إميل زولا» في روايتِهِ ٱلمعروفةِ وبمثلِ رواية (ألا جَرسُون).

إنْ كانَ ٱلناسُ عندَ ٱلدكتورِ من بعضِ ٱلحججِ فإِنَّ الشيخَ وحدَهُ بِأُمَّةٍ كاملةٍ مِمَنْ يعنيهِم.

وأختتمُ هذه ٱلكلمةَ بِٱلشكرِ لِلأستاذِ طه حسينَ وٱلثناءِ عليه، ثُمَّ إنِّي مسترسلٌ في عملي، وهذا عذري إليه.

* * *

المرأةُ وَٱلميراث

قرأَتُ في «ٱلمقطم» كلمةَ ٱلكاتبِ ٱلمعروفِ سلامةَ موسى فيما يزعَمُهُ إجاباتٍ مختصرةً عنِ ٱعتراضاتٍ تهافَتَ[1] بِها رأيُهُ في ٱلدعوةِ إلى مُساواةِ ٱلمرأةِ بِٱلرجلِ في ٱلمِيراث، وهو ينصحُ لِمَنْ يُريدُ أنْ يُناقشَهُ أنْ يقرأَ نصَّ مُحاضرتِهِ في «ٱلسياسةِ ٱلأسبوعيَّة».

وقد رجَعتُ إلى نصِّ ٱلمُحاضرةِ فإذا ٱلكاتبُ هو هو في ضعفِ تفكيرِهِ وسُوءِ تقليدِه، يكادُ لا يُميّزُ بينَ ٱلرأي ٱلصحيحِ ٱلثابتِ في نفسِهِ لِأَنَّهُ قائمٌ على حِكمتِهِ ٱلباعثةِ عليه، وبينَ ٱلرأيِ ٱلمتغيِّرِ في كلِّ نفسٍ بِحسبِها لِأَنَّهُ قائمٌ على منزعٍ أو غفلةٍ أو مرضٍ في ٱلنفس.

ترى ٱلكاتبَ لا يدعو إِلَّا إلى تقليدِ أوربا، وتكادُ عِباراتُهُ في ذلك لا تُحصى ويقولُ: إنَّ «ٱلمُصْلِحَ ٱلمثمرَ عندَنا هو مُقلِّدٌ لِأوربا لا غشَّ في تقليده»، فليسَ إِلَّا أوربا وتقليدُها وإذا لم يكنْ في أوربا قرآنٌ ولا إسلامٌ فالإصلاحُ ٱلمثمرُ عندَ ٱلكاتبِ أَلّا يبقى من ذلك شيء. . .

«مُقَلِّدُ أوربا لا غِشَّ في تقليدِهِ»، وما هو ٱلغِشُّ في ٱلتقليد؟ هو أنْ تستعملَ رأيَكَ وفكرَكَ فتَدعُ وتأخذُ على بيِّنةٍ في ٱلحالين، وأنْ تأبى أنْ تُحملَ على طبيعتِكَ ٱلشرقيَّةِ ما لا تَصلُحُ عليهِ ولا تقومُ بِه؛ وإذا ٱنقلَبَتْ أوربا شيوعيَّةً أو إباحيَّةً وجبَ أَلَّا نغشَّ في ٱلتقليد. . . وإذا كَانَتِ ٱلشمسُ لا تطلعُ ستةَ أشهرٍ في بعضِ جهاتِ أوربا وتطلعُ في مِصْرَ كلَّ يومٍ وجبَ أنْ يكونَ ٱلمِصْريُّ أعمى ستةَ أشهر. . .

وَٱلظاهرُ أنَّ ٱلكَاتَبُ يقولُ بِٱلتقَّيدِ لِأَنَّهُ طبيعيٌّ فيه. . . ورأيُهُ في ٱلميراثِ أنَّما هو ترجمة. . . لِعمل مصطفى كمال؛ وإِنْ كانَ مصطفى كمال قد أصلحَ ٱلتركَ في سنواتٍ كما يقولون: فبرهانُ ٱلتاريخ لا يخضعُ لِلْمشنقةِ ولا لمحاكمِ ٱلاستقلالِ ولا يأتي إِلَّا في وقتِهِ ٱلذي سيأتي فيه، وسيرى ٱلناسُ يومئذٍ ما يكونُ وهْماً مِمَّا يكونُ حقيقة.

---

(١) تهافت: تهاوى ضعفاً.

ويردُ ٱلكاتبُ على رأي ٱلأستاذِ ٱلأخلاقيّ رئيس تحرير «المقطَّم» في خشيتِهِ أنْ يقتصِرَ ٱلأصلاحُ على ٱلقشورِ دونَ ٱللُّباب، فيقولُ: إنَّهُ «معتقدٌ أنَّ ٱلأُمَّةَ ٱلتي تُشرِّعُ في ٱتخاذِ ٱلمدنيَّة، ٱلحديثةِ يجبُ أنْ تبدأ بِٱلقشور... لِأنَّها أسهلُ عليها مِنَ ٱللُّبابِ بلْ هيَ لا تستطيعُ غيرَ ذلك». أكذلك بدأَتِ ٱليابان؟. وهلْ كلُّ ٱلطباع كطبيعةِ بعضِ ٱلناس، تستطيعُ أنْ تعتلِفَ[1] قشورَ ٱلمدنيَّة... وتنصرفَ إلى مداقِها وسفاسفِها؟

ولا ريبَ أنَّ حضرتَهُ لا يفهمُ ٱلدينَ ٱلإسلاميَّ لِأنَّهُ ليسَ من أهلِه، فهو يُقرُّنا على ذلك، وهو بذلك يُقرُّنا على أنَهُ مُتطَفِّلٌ في ٱقتراحِه؛ وإنَّ ٱلذي يقرأُ في مُحاضرتِهِ قولَه: «إنَّ ٱلطبقة ٱلغنيَّة في ٱلأُمَّةِ هيَ ٱلتي تُقرِّرُ ديانةَ ٱلأُمَّة...» يستيقنُ أنَّهُ لا يفهمُ ديناً مِنَ ٱلأديان، وأنَّهُ قصيرُ ٱلنظرِ في أمورِ ٱلاجتماع وأبوابِ ٱلسياسة؛ وأنَّ يمينَهُ وشِمالَهُ وأمامَهُ ووراءَهُ إنْ هيَ إلَّا جِهاتُ ٱلزمامِ ٱلذي ينقادُ فيه؛ فلا شخصيَّةَ له، وإنَّما يُتابعُ وينقادُ لِلآراءِ ٱلتي يُترجِمُ منها بِلا نقْدٍ ولا تمييز.

إنَّ مِيراثَ ٱلبنتِ في ٱلشريعةِ ٱلإسلاميَّةِ لم يُقْصَدْ لِذاتِه، بلْ هو مُرتَّبٌ على نِظامِ ٱلزواجِ فيها، وهو كعمليَّةِ ٱلطرح بعدَ عمليَّةِ ٱلجمعِ لِإخراجِ نتيجةٍ صحيحةٍ مِنَ ٱلعمَلينِ معاً، فإذا وَجَبَ لِلْمرأةِ أنْ تأخذَ من ناحيةٍ وَجَبَ عليها أنْ تدعَ من ناحيةٍ تُقابلُها؛ وهذا ٱلدينُ يقومُ في أساسِهِ على تربيةٍ أخلاقيَّةٍ عاليةٍ ينشىءُ بها طِباعاً ويعدِلُ بها طِباعاً أخرى، كما بيَّناهُ في مقالِنا ٱلمنشورِ في «مقتطَفِ» هذا ٱلشهر ـ فهو يربأُ بِٱلرجل أنْ يطمعَ في مالِ ٱلمرأةِ أو يكونَ عالةً عليها؛ فمِنْ ثَمَّ أوجبَ عليهِ أنّ يمهَرَها وأنْ يُنفقَ عليها وعلى أولادِها، وأنْ يدعَ لها رأيَها وعملَها في أموالِها، لا تُحَدُّ إرادتُها بِعملِهِ ولا بأطماعِهِ ولا بِأهوائهِ؛ وكلُّ ذلك لا يُقصدُ منه إلَّا أنْ ينشأَ ٱلرجلُ عاملاً كاسِباً معتمِداً على نفسِهِ مشاركاً في محيطِهِ ٱلذي يعيشُ فيه، قويًّا في أمانتِه، منزَّهاً في مطامِعِه، متهيِّئاً لِمعالي ٱلأمور، فإنَّ ٱلأخلاقَ كما هو مقرَّرٌ يدعو بعضُها إلى بعض، ويُعينُ شيءٌ منها على شيءٍ يُماثلُهُ، ويدفعُ قويُّها ضعيفَها، ويأنفُ عاليها من سافلِها؛ وقد قُلْنا مِراراً إنَّهُ لا يجوزُ لِمُتكلِّم أنْ يتكلَّمَ في حِكمةِ ٱلدينِ ٱلإسلاميِّ إلا إذا كانَ قويَّ ٱلخُلُق، فإنْ مَنْ لا يكونُ ٱلشيءُ في طبعِهِ لا يفهمُهُ إلَا فهمَ جَدَلٍ لا فهمَ ٱقتناع.

لِلْمرأةِ حقٌّ واجبٌ في مالِ زوجِها، وليسَ لِلرجل مثلُ هذا ٱلحقِّ في مالِ

---

(١) تعتلف: تجعله علفاً تأكله.

زوجهِ؛ وَٱلإسلامُ يحثُّ على ٱلزواج، بلْ يفرضُه؛ فهو بِهذا يُضيفُ إلى ٱلمرأةِ رجلاً ويُعطيها به حقًّا جديداً، فإنْ هيَ ساوَتْ أخاها في ٱلمِيراثِ معَ هذه ٱلمِيزةِ ٱلتي ٱنفردَتْ بها ٱنعدَمتِ ٱلمُساواةُ في ٱلحقيقة، فتزيدُ وينقص؛ إذْ لها حقُّ ٱلمِيراثِ وحقُّ ٱلنفقةِ وليسَ لَهُ إلَّا مثلُ حَقِّها في ٱلميراثِ إذا تساويا.

فإنْ قلْتَ كما يقولُ سلامةُ موسى: إنَّ في ٱلحقِّ أنْ تُنفِقَ ٱلمرأةُ على ٱلرجلِ وأنْ تدفَع لَهُ ٱلمهَرَ ثُمَّ تُساويَهُ في ٱلمِيراث، قلْنا: إذا تقرَّرَ هذا وأصبحَ أصلاً يُعملُ عليهِ بطلَ زواجُ كلِّ ٱلفقيراتِ وهُنَّ سوادُ ٱلنِّسوة، إذْ لا يَملِكْنَ ما يمهُرْنَ بِهِ ولا ما يُنفِقْنَ منه؛ وهذا ما يتحاماهُ ٱلإسلامُ لِأَنَّ فيهِ فسادَ ٱلاجتماعِ وضَياعَ ٱلجِنسينِ جميعاً؛ وهو مُفْضٍ[1] بطبيعتِهِ ٱلقاهرةِ إلى جعلِ ٱلزواجِ لِلساعةِ ولِليومِ ولِلوقتِ ٱلمحدود... ولِإيجادِ لُقطاءِ ٱلشوارع، بَدَلاً من أنْ يكونَ ٱلزواجُ لِلْعمرِ ولِلواجبِ ولِتربيةِ ٱلرجلِ على ٱحتمالِ ٱلمسؤوليَّةِ ٱلاجتماعيَّةِ بإيجادِ ٱلأسرةِ وإنشائِها وَٱلقِيامِ عليها وَٱلسعيِ في مَصالِحها.

من هنا وجبَ أنْ ينعكِسَ ٱلقِياسُ إذا أُريدَ أنْ تستقيمَ ٱلنتيجةُ ٱلاجتماعيَّةُ ٱلتي هيَ في ٱلغايةِ لا من حقِّ ٱلرجلِ ولا من حَقِّ ٱلمرأةِ بلْ مِنْ حَقِّ ٱلأُمَّة؛ وما نِساءُ ٱلشوارعِ ونِساءُ ٱلمعاملِ في أوربا إلَّا من نتائجِ ذلك ٱلنظامِ ٱلذي جاءَ مقلوباً، فهُنَّ غلطاتُ ٱلبيوتِ ٱلمتخرِّبةِ وَٱلمسؤوليَّةِ ٱلمتهدِّمة، وهُنَّ ٱلواجباتُ ٱلتي ألقاها ٱلرجالُ عن أنفسِهِم فوقعَتْ حيثُ وقعَت!

وإذا ٱنزاحَتْ مسؤوليَّةُ ٱلمرأةِ عنِ ٱلرجل ٱنزاحَتْ عنه مسؤوليَّةُ ٱلنسْل، فأصبحَ لِنفسِهِ لا لِأُمَّتِه؛ ولو عمَّ هذا ٱلمَسْخُ ٱلاجتماعَ وَأسرعَ فيهِ ٱلهرمُ وأتى عليهِ ٱلضعف، وأصبحَتِ ٱلحكوماتُ هيَ ٱلتي تستولِدُ ٱلناسَ على ٱلطريقةِ ٱلتي تُستنتجُ بِها ٱلبهائم، وقد بدأَ بعضُ كُتَّابِ أُوربا يدعونَ حكوماتِهِم إلى هذا ٱلذي ٱبتلُوا بِهِ ولا يدرون سبَبَهُ وما سببُهُ إلَّا ما بيَّنا آنفاً.

ثُمَّ إنَّ هناكَ حكمةً سامية، وهيَ أَنَّ ٱلمرأَةَ لا تدعُ نِصْفَ حَقِّها في ٱلمِيراثِ لِأخيها يفضلُها بِه ـ بعدَ ٱلأصلِ ٱلذي نَبَّهْنا إليهِ ـ إلَّا لِتُعينَ بهذا ٱلعمل في ٱلبِناءِ ٱلاجتماعيِّ؛ إذْ تتركُ ما تتركُهُ على أنَّهُ لِٱمرأةٍ أخرى، هيَ زوجُ أخيها؛ فتكونُ قد أعانَتْ أخَاها على ٱلقِيامِ بِواجبِهِ لِلأُمَّة، وأسدَتْ لِلأُمَّةِ عملاً آخرَ أسمى منه بتيسيرِ زواجِ ٱمرأةٍ مِنَ ٱلنساء.

---

(١) مفضٍ: مؤادٍ.

فأنت ترى أَنَّ مسألة ٱلمِيراثِ هذه متغلْغِلةٌ في مسائلَ كثيرةٍ لا منفردةٌ بِنفسها، وأنَّها أحكمُ ٱلحِكْمةِ إذا أُريدَ بِٱلرجلِ رجلَ أُمَّتِهِ وبِٱلمرأةِ ٱمرأةَ أُمَّتِها، فأمَّا إذا أُريدَ رجلُ نفسِهِ وٱمرأةُ نفسِها، وتقرَّرَ أنَّ ٱلاجتماعَ في نَفسِهِ حماقة، وأنَّ ٱلحكومةَ خُرافة، وأنَّ ٱلأُمَّةَ ضلالة، فحينئذٍ لا تنقلِبُ آيَةُ ٱلمِيراثِ وحدَها بلْ تنقلِبُ ٱلحقيقة.

ومِمَّا نعجبُ لَهُ أَنَّ سلامةَ موسى يتكلَّمُ في مُحاضرتِهِ كأنَّ كلَّ ٱلوالدينَ ذوو مالٍ وعَقار، فنِصفُ ٱلأُمَّةِ على هذا محرومٌ نصفَ حقِّهِ وكأنَّهُ لا يعرفُ أنَّ ٱلسوادَ ٱلأعظَمَ مِنَ ٱلناسِ لا يتركُ ما يُورَث، لا على ٱلربعِ ولا على ٱلنصف؛ وأنَّ كثيراً مِمَّنْ يموتون عن مِيراثٍ لا يحيا مِيراثُهُم إلَّا أياماً من بعدِهِم، ثُمَّ يذهبُ في ٱلديون، إذْ لا تَركَةَ معَ دين، وكثيرون لا يُسمِنُ ميراثُهُم ولا يُغني، فلم تبقَ إلَّا فتاتٌ معيَّنةٌ من كلِّ أمةٍ لا يجوزُ أنْ تنقلِبَ من أجلِها تلك ٱلحِكْمةُ ٱلاجتماعيَّةُ ٱلتي هي من حظِّ ٱلأُمومةِ كلِّها لِقيامِ بعضِ ٱلأخلاقِ عليها كما بَسطْناه.

ومِمَّا تشمئزُ لَهُ ٱلنفوسُ ٱلكريمةُ قولُ ٱلمُترجِمِ في مُحاضرته: فلو كانَتِ ٱلفتياتُ يرِثْنَ مثلَ إخواتهِنَّ ٱلذكور، لكانَ (في ثروتِهِنَّ) إغراءٌ لِلشبانِ على ٱلزواج...

إنَّ ٱلدينَ الإسلاميَّ لا يعرفُ مثلَ هذا ٱلإسفافِ[1] في ٱلخُلُقِ ولا يُقرُّه، بلْ هو يهدمُهُ هَدْماً ويُوجِبُ على كلِّ رجلٍ أنْ يحملَ قِسطَهُ[2] مِنَ ٱلمسؤوليَّةِ ما دامَ مُطيقاً إنْ كَرِهَ أو رَضِي، ولَعَمْري، إنَّ تلك ٱلكلمةَ وحدَها من كاتبِها لَهِيَ أدلُّ مِنِ ٱسمِ ٱلمحلِّ على بِضاعةِ ٱلمحل...

* * *

(١) الإسفاف: الإنحطاط.

(٢) قسطه: حظه.

كلمةٌ مؤمنةٌ
في ردِّ كلمةٍ كافرة

تلقيْتُ كتاباً هذه نسختُه:

أكتبُ إليك متعجِّلاً بعدَ أنْ قرأْت «كلمةً كافرة» في «كوكبِ ٱلشرقِ» الصادرِ مساءَ ٱلجمعةِ ٢٧ من أكتوبر؛ كتبَها متصدِّرٌ من نوعِ قولِهم؛ حبذا ٱلإمارةُ ولو على ٱلحِجارة. . . وسمَّى نفسَهُ «السيد»، فإنْ صدقَ فيما كتبَ صدقَ في هذه ٱلتسمية.

طَعَنَ ٱلقرآنَ وكفرَ بفصاحتِه، وفضَّلَ على آيةٍ من كلامِ ٱللَّهِ جملةً من أوضاعِ ٱلعرب، فعقدَ فصلَهُ بعنوان «ٱلعَثَرات» على ذلك ٱلتفضيل، كأَنَّ ٱلآيةَ عثرةٌ من عثراتِ ٱلكتابِ يُصحِّحُها ويقولُ فيها قولَهُ في غلطِ ٱلجرائدِ وَٱلناشئينَ في ٱلكتابة؛ وبرقعَ وجهَهَ وجَبُنَ أنْ يستعْلِن، فأعلنَ بزندقتِهِ أَنَّهُ حديثٌ في ٱلضلالة.

غلى ٱلدمُ في رأسي حينَ رأيْتُ ٱلكاتبَ يلجُّ في تفضيلِ قولِ ٱلعربِ: «القتلُ أنفى لِلقتل» على قولِ ٱلله ـ تعالى ـ في كتابِهِ ٱلحكيم: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، فذكرْتُ هذه ٱلآيةَ ٱلقائلة: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ وهذه الآية: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ ثُمَّ هَمَمْتُ بِٱلكتابةِ فٱعترضني ذكرُك، فألقيْتُ ٱلقلَمَ لِأتناولَهُ بعدَ ذلك وأكتبَ بِهِ إليك.

ففي عنقِكَ أمانةُ ٱلمسلمينَ جميعاً لتكتبَنَّ في ٱلرَّدِّ على هذه ٱلكلمةِ ٱلكافرةِ لإظهارِ وجهِ ٱلإعجازِ في ٱلآيةِ ٱلكريمة، وأينَ يكونُ موقعُ ٱلكلمةِ ٱلجاهليَّةِ منها؛ فإنَّ هذه زندقةٌ إنْ تُركَتْ تأخذُ مأخذَها في ٱلناس؛ جعلَتِ ٱلبرَّ فاجراً، وزادَتِ ٱلفاجرَ فجوراً: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

وَٱعلمْ أَنَّهُ لا عذرَ لك. أقولُها مخلصاً، يُمليها عليَّ ٱلحقُّ ٱلذي أعلمُ إيمانَكَ بِهِ، وتفانيك في إقرارِهِ وَٱلمدافعةِ عنهُ وَٱلذودِ عن آياتهِ؛ ثُمَّ أعلمُ أَنَّك مَلجأٌ يَعتصِمُ

بِهِ ٱلمؤمنون حين تُناوشُهُم[1] ذئابُ ٱلزندقةِ ٱلأدبيةِ ٱلتي جعلَتْ همَّها أنْ تَلِغَ ولوغَها في ٱلبيانِ ٱلقرآنيّ.

ولسْتُ أزيدُك، فإنَّ موقفي هذا موقفُ ٱلمُطالبِ بِحقّهِ وحقِّ أصحابِهِ مِنَ ٱلمؤمنينَ وأذكرُ حديثَ رسولِ ٱللَّهِ ﷺ: «مَنْ سُئلَ عِلماً عَلِمَهُ فكتمَهُ جاءَ يومَ ٱلقِيامةِ مُلْجَماً[2] بِلِجامٍ من نار!» أو كما قال...

وٱلسلامُ عليكم ورحمةُ ٱلله.

م. م. ش

* * *

قرأتُ هذا ٱلكتابَ فَٱقشعرَّ جِسْمِي لِوعيدِ ٱلنبيِّ صلى ٱللَّهُ عليهِ وسلَّم، وجعلْتُ أُردِدُ ٱلحديثَ ٱلشريفَ أستكثِرُ منه وأملأُ نفسي بِمعانيه، وإنَّهُ لَيكثرُ في كلِّ مرَّة، فإذا هو أبلغُ تهكُّم بِٱلعلماءِ ٱلمتجاهلين، وَٱلجهلاءِ ٱلمُتعالمين؛ وإذا هو يُؤخَذُ من ظاهرِهِ أنَّ ٱلعالِمَ ٱلذي يكتمُ عِلْمَهُ ٱلنافعَ عنِ ٱلناسِ يجيءُ يومَ ٱلقِيامةِ مُلْجماً، ويُؤخذُ من باطنِهِ أنَّ ٱلجاهلَ ٱلذي يبثُّ جهلَهُ ٱلضارَّ في ٱلناسِ يجيءُ يومَ ٱلقيامةِ مُلجماً مُبَرْذَعاً... أي: فهذا وهذا كلاهما من حميرِ جهنَّم!

وَٱلتمسْتُ عددَ «ٱلكوكب» الذي فيهِ ٱلمقالُ وقرأتُهُ، ولم أكُنْ أصدِّقُ أنَّ في ٱلعالم أديباً مميَّزاً يضعُ نفسَهُ هذا ٱلموضِعَ مِنَ ٱلتصفحِ على كلامِ ٱللَّهِ وأساءَ ٱلأدبَ في وضعِ آيةٍ منه بينَ عثراتِ[3] ٱلكتاب، فضلاً عن أنْ يسموَ لتفضيلِ كلمةٍ من كلامِ ٱلعربِ على الآية، فضلاً عن أنْ يلجَّ في هذا ٱلتفضيل، فضلاً عن أنْ يتهوَّسَ[4] في هذه ٱللجاجة؛ ولكنَّ هذا قد كان، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بِٱلله!

ولَعَمْري وعمرِ أبيكِ ـ أيُّها ٱلقارئُ ـ، لو أنَّ كاتباً ذهبَ فأكلَ فخلط فتضلَّعَ فنامَ فٱستثقلَ فحَلُمَ... أنَّهُ يتكلَّمُ في تفضيلِ كلمةِ ٱلعربِ على تلك ٱلآية، وٱجتهدَ جُهدَهُ وهو نائمٌ ذاهبُ ٱلوعي فلم يألُ تخريفاً وٱستطالة، وأخذَ عقلُهُ ٱلباطنُ يكنسُ دِماغَهُ ويُخرجُ منه (الزبالةَ ٱلعقليَّة) لِيلقيَهَا في طريقِ ٱلنسيانِ أو في طريقِ ٱلشيطان ـ لَمَا جاءَ في شأوِهِ بأسخفَ ولا أبردَ من مقالةِ «السيد» فسواءٌ أوقعَ هذا ٱلتفضيلُ من جهةِ ٱلهذيانِ وَٱلتخريفِ كما فعلَ كاتِبُ ٱلنوم، أمْ وقعَ من جِهةِ ٱلخلْطِ وَٱلخبْطِ ما فعلَ كاتبُ ٱلكوكب ـ فهذا من هذا، طِباقُ سخافةٍ بِسخافة...

---

(١) تناوشهم: تناقشهم وتجادلهم وتصاولهم.
(٢) ملجماً: مربوطاً بلجمام في رأسه كالدابة.
(٣) عثرات: أخطاء.
(٤) يتهوّس: يتجنن.

نعمْ إنَّ مقالةَ «ٱلكوكب» أفضلُ من مقالةِ ٱلكاتبِ ٱلحالِم. . . ولكنَّ قليلَ ٱلزيت في ٱلزجاجةِ ٱلتي أُهديَتْ لِجُحا لا يُعَدُّ زيتاً ما دامَ هذا ٱلقليلُ يطفُو على ملءِ ٱلزجاجةِ من. . . مِنَ ٱلبول!

ولقد تنبأَ ٱلقاضي ٱلباقلانيُّ قبلَ مئاتِ ٱلسنينَ بِمقالةِ ٱلكوكبِ هذه فأسفلَها ٱلردَّ بِقولِه:

«فإنِ ٱشتبَهَ على مُتأدِّبٍ أو مُتشاعرٍ أو ناشيءٍ أو مُرمَّدٍ فصاحةُ ٱلقرآنِ وموقِعُ بَلاغتِهِ وعجيبُ بَراعتِهِ فما عليك منه، إنَّما يُخبِرُ عن نفسِه، ويدلُّ على عجزِه، ويُبينُ عن جهلِه، ويُصرِّحُ بِسخافةِ فهمِهِ وركاكةِ عقلِه» ما علينا. . .

يقول كاتبُ ٱلكوكبِ بِٱلنَّص:

قالَتِ ٱلعربُ قديماً في معنى ٱلقصاص: (القتلُ أنفي للقتل)، ثُمَّ أقبلَ ٱلقرآنُ ٱلكريمُ على آثارِ ٱلعرب (هكذا) فقال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وقد مضتْ سُنَّةُ ٱلعلماءِ من أساطينِ ٱلبيانِ أنْ يعقدوا ٱلمُوازنةَ بينَ مقالةِ ٱلعربِ هذه وبينَ ٱلآيةِ ٱلحكيمةِ أيتُهما أشبهُ بِٱلفصاحةِ (هكذا)، ثُمَّ يَخلُصون منها إلى تقديم ٱلآيةِ وٱلبيانِ ٱلقرآني. . . ثُمَّ قال: من رأي كاتبِ هذه ٱلكلمةِ تقديمُ ٱلكلمةِ ٱلعربيَّةِ على الآيةِ ٱلغرّاء، (اللهم غفراً) على ثلجِ ٱلصدْرِ بإعجازِ ٱلقرآنِ (كلمة لِلوقاية مِنَ ٱلنيابة. . . وإلَّا فماذا بقيَ مِنَ ٱلإعجازِ وقد عجزَتِ ٱلآية؟ زِهْ زِهْ يا رجل. . .).

ثُمَّ قال: إنَّ فيما تُقَدَّمُ بِهِ ٱلكلمةُ ٱلعربيَّةُ على ٱلآيةِ ٱلحكيمةِ (اللهمَّ غفراً) مزايا ثلاثاً: أُولى هذه ٱلمزايا الثلاث، هذا الإيجازُ ٱلساحرُ فيها؛ ذلك أنَّ: «القتلُ أنفى للقتل» ثلاثُ كلمات لا أكثر، أمَّا الآيةُ فإنَّها سبعُ كلماتٍ (كذا) وعلى تلك فهيَ أقدمُ عَهْداً وأسبقُ مِيلاداً من آيةِ ٱلتنزيل (تأمَّلْ) حاشا كلامَ ٱللَّهِ ٱلقديم، وَٱلإيجازُ مِيزةٌ أيةُ ميزة؛ ٱلميزةُ ٱلثانيةُ لِلْكلمةِ ٱلاستقلالُ ٱلكتابيُّ وفقْدُ ٱلتعاقدِ بينها وبين شيءٍ آخرَ سابقٍ عليها، حتى إنَّ ٱلمُتمثِّلَ بِها ٱلمستشهدَ يبتدىءُ بها حديثاً مستَتِمًّا ويختتِمُهُ في غيرِ مزيدٍ ولا فضل، فلا يتوقَّفُ ولا يستعينُ بِغيرِها، أمَّا ٱلآيةُ فإنَّها منسوقةٌ معَ ما قبلَها بِٱلواو، فهيَ متعاقِدَةٌ مترابِطةٌ معَه، لا يتمثَّلُ بها ٱلمتمثِّلُ حتى يستعينَ بِشيءٍ سِواها، وليسَ ٱلذي يعتمدُ على غيرِهِ فلا يستقلُّ كَٱلذي يعتمدُ على نفسِهِ فيستقلّ؛ ٱلميزةُ ٱلثالثةُ أنَّ ٱلكلمةَ ليسَتْ مُتَّصِلةً في آخرِتِها بفضلٍ مِنَ ٱلقولِ تُغني عنه، على حينِ تتَّصِلُ الآيةُ بما تُغني عنَهُ مِنَ

ٱلقول. ويُعتدُّ كَٱلفصلِ وهو كلمتا ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وإنْ كانَ لا زيادةَ في ٱلقرآنِ ولا فضول.

ثُمَّ قال: إنَّ مدرساً جاءَهُ بِٱلفصلِ ٱلذي عقدَهُ ٱلإمامُ ٱلسيوطيُّ في كتابِهِ «الإتقان» لِتفضيلِ ٱلآيةِ على ٱلكلمةِ وفيهِ قرابةُ خمسةٍ وعشرينَ حُجَّة؛ قال: إنَّها ٱنحطتْ بعدَ أنْ رماها بِنظرِهِ ٱلعالي إلى إربع: «أما الباقياتُ فَمِنْ نسج ٱلانتحالِ وَٱلتزيُّد»، قال: وأولاها أنَّ الآيةَ أوجزُ لفظاً، والكاتبُ يرى الآية: «سبعَ كلماتٍ في تحديد ودِقَّة»، قال: إذاً لقد بطلَتْ حُجَّةُ ٱلإيجازِ في ٱلآية» (اللهم غفراً)، قال: وٱلثانية: «أنّ في ٱلكلمةِ ٱلعربيَّةِ تكراراً لِكلمةِ ٱلقتلِ سَلِمَتِ ٱلآيةُ منه»، وردَّ ٱلكاتبُ أنَّ هذا ٱلتكرار: «يتحلّل طلاوةً ويقطرَ رِقَّة، (قال): وهذا فمي فيهِ طعمُ ٱلعسل»، (قلْنا: وعليهِ ٱلذبابَ يا سيدَنا. . .)، وَٱلثالثةُ أنَّ في ٱلآيةِ ذكراً لِلقِصاصِ بلفظِهِ على حين لا تذكرُ ٱلكلمةُ إلَّا ٱلقتلَ وحدَه، وليس كلُّ قتلٍ قِصاصاً؛ ودفعَ ٱلكاتبُ هذا بِأنَّ ٱلكلمةَ ٱنطوَتْ على قتلينِ أحدُهما ينفي صاحبَه، فذاك هو ٱلقِصاص؛ قال: «إذن فَٱلكلمةُ وَالآيةُ في قصدِ ٱلقِصاصِ يلتقيانِ فرسي رِهان»؛ وَٱلرابعةُ أنَّ ٱلقِصاصَ في ٱلآيةِ أعمُّ يشملُ ٱلقتلَ وغيرَه. وأقَرَّ ٱلكاتبُ أنَّ لِلآيةِ فضلاً على ٱلكلمةِ من هذه ٱلناحية، ولكنَّ ٱلكلمةَ حِكمةٌ لا شريعة، وهيَ من قضاءِ ٱلجاهليَّة، فليسَ عليها أنْ تُبيِّنَ ما لم يعرفْهُ ٱلعربُ ولم يُخلَقْ بعد، قال: «إذن فليسَتِ ٱلكلمةُ مُقصِّرةً عن بيان، متبلدةً عن إحسان».

* * *

هذا كلُّ مقالِهِ بِحروفِهِ بعدَ تخليصِهِ مِنَ ٱلركاكةِ وَٱلحَشْوِ وما لا طائلَ تحته، ونحن نستغفرُ ٱللَّهَ ونستعينُهُ ونقولُ قولَنا، ولكنَّا نُقدِّمُ بين يدي ذلكَ مسألة، فمِنْ أين لِلكاتبِ أنَّ كلمةَ: «القتلُ أنفى لِلقتل» مِمَّا صَحَّتْ نسبتُهُ إلى عربِ ٱلجاهليَّة، وكيف لهُ أنْ يُثبِتَ إسنادَها إليهم وأنْ يُوَثِّقَ هذا ٱلإسنادَ حتى يستقيمَ قولُه: إنَّ ٱلقرآنَ أقبلَ على آثار ٱلعرب؟ . . .

أنا أُقرِّرُ أنَّ هذه ٱلكلمةَ مولَّدةٌ وُضِعَتْ بعدَ نزولِ ٱلقرآنِ ٱلكريم وأُخِذَتْ مِنَ الآية، وَٱلتوليدُ بَيِّنٌ فيها، وأثرُ ٱلصنعةِ ظاهرٌ عليها؛ فعلى ٱلكاتبِ أنْ يدفعَ هذا بِما يُثبِتُ أنَّها مِمَّا صَحَّ نقلُهُ عنِ ٱلجاهليَّة؛ ولقد جاءَ أبو تمامٍ بابدعَ وأبلغَ من هذه ٱلكلمةِ في قولِهِ:

وأخافَكُم كي تُغْمِدوا أسيافَكُمْ ... إنَّ ٱلدَّمَ ٱلمُغْبَرَّ يَحْرُسُهُ ٱلدَّمُ

(الدمَ يحرُسُهُ ٱلدم)، هذه هيَ ٱلصناعةُ وهذه هيَ ٱلبلاغةُ لا تلك، ومعَ هذا فكلمةُ ٱلشاعرِ مولَّدةٌ مِنَ ٱلآية، يدلُّ عليها ٱلبيتُ كُلُّهُ؛ وكأنَّ أبا تمَّام لم يكنْ سمعَ قولَهم: «القتلُ أنفى لِلقتل»، وأنا مستيقِنٌ أنّ ٱلكلمةَ لم تكنْ وُضِعَتْ إلى يومئذٍ.

ولو أنَّ مُتَمَثِّلاً أرادَ أنْ يتمثَّلَ بِقولِ أبي تمَّام فَٱنتزعَ منه هذا ٱلمثلَ «الدمُ يحرسُهُ ٱلدم»، أيكونُ حتماً مِنَ ٱلحتم أنَ يُقال لَهُ: كلا يا هذا فإنَّ ٱلبيتَ سبعُ كلماتٍ فلا يصحُّ ٱنتزاعُ ٱلمثلِ منه ولا بُدَّ من قِراءةِ ٱلبيتِ بِمصراعيهِ كما يقولُ كاتبُ ٱلكوكبِ في ٱلآيةِ الكريمةِ لِيزعمَ أنَّها لا تُقابلُ ٱلكلمةَ ٱلعربيَّةَ في ٱلإيجاز؟

إنَّ ٱلذي في معاني ٱلآيةِ ٱلقرآنيَّةِ مِمَّا ينظرُ إلى معنى قولِهم: «ٱلقتلُ أنفى للقتلِ» كلمتانِ ليسَ غير، وهما «القِصاص، حياة»؛ وَٱلمُقاتلةُ في ٱلمعاني ٱلمتماثلةِ إنَّما تكونُ بِٱلألفاظِ ٱلتي تُؤَدِّي هذه ٱلمعاني دونَ ما تعلَّقَتْ بِهِ أو تعلَّقَ بها مِمَّا يَصِلُ ٱلمعنى بِغيرِهِ أو يَصِلُ غيرَهُ به؛ إذِ ٱلمُوازنةُ بين مَعنيينِ لا تكونُ إلَّا في صِناعةِ تركيبِهِما، ويُخَيَّلُ إليَّ أنَّ ٱلكاتبَ يُريدُ أنْ يقولَ إنَّ باقي ٱلآيةِ ٱلكريمةِ لَغْوٌ وحَشْو، فهو حَميلةٌ على ٱلكلمتين: ٱلقصاصُ حياةٌ، يُريدُ أنْ يقولَها، ولكنَّهُ غصَّ بها، وإلَّا فلِماذا يلجُّ في أنَّهُ لا بُدَّ في ٱلتمثل، أي لا بُدَّ في المقابلة، من رَدِّ ٱلآيةِ بِألفاظِها جميعاً؟

فإذا قيل: إنَّهُ لا يجوزُ أنْ يتغَيَّرَ ٱلإعرابُ في الآية، ويجبُ أنْ يكونَ ٱلمثلُ منتزَعاً منها على ٱلتلاوة، قلْنا: فإنَّ ما يُقابلُ ٱلكلمةَ منها حينئذٍ هو هذا. «في ٱلقِصاصِ حياة»، وجملتُها آثنا عَشَر حرفاً، مَعَ أنَّ ٱلكلمةَ ٱلعربيَّةَ أربعةَ عَشَرَ؛ فَالإيجازُ عندَ المقابلةِ هو في ٱلآيةِ دونَ ٱلكلمة.

وأما قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لو كانَ ٱلكاتبُ من أُولي الألبابِ لَفهِمَها وعرفَ موقِعَها وحِكمتَها، وأنَّ إعجازَ ٱلآيةِ لا يَتِمُّ إلَّا بها، إذ أُريدَ أنْ تكونَ معجزةً زمنيَّةً كما سنُشيرُ إليه، ولكنْ أنَّى لَهُ وهو مِنَ ٱلفنِّ ٱلبيانيِّ على هذا ٱلبعدِ ٱلسحيق، لا يعلمُ أنَّ آياتِ ٱلقرآنِ ٱلكريم كَالزمنِ في نسقِها: ما فيهِ من شيءٍ يُظهِرُهُ إلَّا ومن وارئِهِ سرٌّ يُحققُه.

ثُمَّ إنَّ ٱلإيجازَ في ٱلكلمةِ ٱلعربيَّةِ ليسَ مِنَ «ٱلإيجاز ٱلساحر» كما يصفُهُ ٱلكاتب، بلْ هو عندَنا مِنَ ٱلإيجازِ ٱلساقط؛ وليسَ من قبيلِ إيجازِ ٱلآيةِ ٱلكريمةِ ولا يتعلَّقُ بِهِ فضلاً عن أنْ يُشبَهَه، إذْ لا بُدّ في فَهْم صيغةِ ٱلتفضيلِ من تقدير ٱلمُفضَّلِ عليه، فيكونُ ٱلمعنى «القتلُ أكثرُ نفياً للقتل من كذا»، فما هو هذا «الكذا» أيُّها ٱلكاتبُ ٱلمتعثِّر؟

أليسَ تصوُّرُ معنى ٱلعبارةِ وإحضارُهُ في ٱلذهبِ قد أسقطَها ونزلَ بِها إلى ٱلكلام ٱلسوقيِّ ٱلمُبتذلِ وأوقعَ فيها ٱلاختلال؟ وهلْ كانَتْ إلَّا صِناعةً شعريَّةً خياليَّةً مُلفقةً كما أومأْنا إلى ذلك آنفا، حتى إذا أجريْتَها على منهجِها مِنَ ٱلعربيَّةِ رأيْتَها في طريقةِ هذا ٱلكلام ٱلعربيِّ ٱلأمر يكانيِّ كقولِ ٱلقائل: «الفرحُ أعظمُ مِن ٱلترح»، «الحياةُ هيَ ٱلتي تُعطَى لِلحياة»...؟

بهذا ٱلردِّ ٱلموجزِ بطلَتِ ٱلمِيزاتُ ٱلثلاثُ ٱلتي زعمَها ٱلكاتبُ لِتِلكَ ٱلكلمة، وإنَّ ٱلكلمةَ نفسَها لَتبرأُ إلى ٱللَّهِ من أنْ تكونَ لها على الآيةِ مِيزةٌ واحدةٌ فضلاً عن ثلاثة.

ولْنفرضْ «فرضاً» أنَّ ٱلكلمةَ وثيقةُ ٱلإسنادِ إلى عربِ ٱلجاهليَّةِ وأنَّها من بيانِهِم، فما ٱلذي فيها؟

١ ـ إنَّها تُشبهُ قولَ مَنْ يقولُ لك: إنْ قتلْتَ خصمَك لم يقتُلك. وهلْ هذا إلَّا هذا؟ وهلْ هو إلَّا بلاغةٌ مِنَ ٱلهذيان؟

٢ ـ يخرجُ لِشأنِهِ إلَّا مُقرِّراً في نفسِهِ أنَّهُ إمَّا قاتلٌ أو مقتول، ولذلك تكرَّرَ فيها ٱلقتلُ على طرفيها، فهو من أشنعِ ٱلتكرارِ وأفظعِهِ.

٣ ـ إنَّ فيها ٱلجهْلَ وَٱلظلْمَ وٱلهمجيَّة، إذْ كانَ من شأنِ ٱلعربِ ألَّا تُسَلِّمَ ٱلقبيلةُ ٱلعزيزةُ قاتلاً منها، بلْ تحمِيهُ وتمنعُهُ، فتنقلبُ ٱلقبيلةُ كلُّها قاتلةً بهذه ٱلعصبيَّة؛ فمِنْ ثَمَّ لا ينفي عارَ ٱلقتلِ عن قبيلةِ ٱلمقتولِ إلَّا ٱلحربُ وٱلاستئصالُ قتْلاً قتْلاً وأكلُ ٱلحياةِ لِلْحياة، فهذا من معاني ٱلكلمة: أي ٱلقتلُ أنفى لِعارِ ٱلقتل، فلا قِصاصَ ولا قضاءَ كما يزعمُ ٱلكاتب.

٤ ـ إنَّ ٱلقتلَ في هذه ٱلكلمةِ لا يُمكنُ أنْ يُخصَّصَ بِمعنى ٱلقِصاصِ إلَّا إذا خصصَتْهُ ٱلآيةُ فيجيءُ مُقْترِناً بِها، فهو مُفتقِرٌ إليها في هذا ٱلمعنى، وهِيَ تُلبسُهُ ٱلإنسانيَّةَ كما ترى، ولن يَدخلَهُ ٱلعقلُ إلَّا من معانيها؛ وهذا وحدَهُ إعجازٌ في الآيةِ وعجزٌ مِنَ ٱلكلمة.

* * *

وقبلَ أنْ نُبيِّنَ وجوهَ ٱلإعجازِ في الآيةِ ٱلكريمةِ ونستخرجَ أسرارَها، نقولُ لهذا ٱلطفيليِّ: إنَّه ليسَ كلُّ مَن ٱستطاعَ أنْ يُطيِّر في الجو ورقَةً في قصبةٍ في خيطٍ ـ جازَ لَهُ أنْ يقولَ في تفضيل ورقتِهِ على مِنطادِ زبلين، وأنَّ فيما تتقدَّمُ بِهِ على ٱلمِنطادِ ٱلكريمِ مِيزاتٍ ثلاثاً: ٱلذيل، وٱلورقُ ٱلملوَّنّ، وٱلخيط...

يقولُ ٱللَّهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾.

١ ـ بدأَ الآيةَ بقولِهِ (ولكم)، وهذا قيدٌ يجعلُ هذه الآيةَ خاصَّةً بِالْإنسانيَّةِ ٱلمؤمنةِ ٱلتي تطلُبُ كمالَها في ٱلإيمان، وتلتمِسُ في كمالِها نِظامَ ٱلنفس، وتُقرِّرُ نِظامَ ٱلنفسِ بِنظامِ ٱلحياة؛ فإذا لم يكنْ هذا مُتحقِّقاً في ٱلناسِ فلا حياةَ في ٱلقِصاص، بلْ تصلحُ حينئذٍ كلمةُ ٱلهمجيَّة: القتلُ أنفى لِلقتل، أي ٱقتلوا أعداءَكم ولا تدعوا منهم أحداً، فهذا هو ٱلذي يُبقيكُم أحياءً وينفي عنكُمُ ٱلقتل؛ فٱلآيةُ ٱلكريمةُ بِدلالةِ كلمتِها ٱلأولى موجَّهةٌ إلى ٱلإنسانيَّةِ ٱلعالية، لِتوجِّهَ هذه ٱلإنسانيَّةَ في بعضِ معانيها إلى حقيقةٍ من حقائقِ ٱلحياة.

٢ ـ قال: ﴿فِي ٱلۡقِصَاصِ﴾ ولم يقلْ في ٱلقتل، فقيَّدَهُ بهذه ٱلصيغةِ ٱلتي تدلُّ على أنَّهُ جزاءٌ ومؤاخذة، فلا يُمكِنُ أنْ يكونَ منهُ ٱلمبادأةُ بِٱلعُدوان، ولا أنْ يكونَ منه ما يخرجُ عن قدْرِ ٱلمُجازاةِ قلَّ أو كَثُر.

٣ ـ تُفيدُ هذه ٱلكلمةُ «القِصاص» بِصيغتِها (صيغةِ المُفاعلَة) ما يُشعِرُ بِوجوبِ ٱلتحقيقِ وتمكينِ ٱلقاتلِ مِنَ ٱلمُنازعةِ وٱلدفاع، وألَّا يكونَ قِصاصٌ إلَّا بِٱستحقاقٍ وعدل؛ ولذا لم يأتِ بِٱلكلمةِ مِنِ ٱقتصَّ معَ أنَّها أكثرُ ٱستعمالاً، لِأنَّ ٱلاقتصاصَ شريعةُ ٱلفرْد، وٱلقِصاصَ شريعةُ ٱلمجتمع.

٤ ـ من إعجاز لفظةِ ٱلقِصاصِ هذه أنّ ٱللَّهَ ـ تعالى ـ سَمَّى بها قتْلَ ٱلقاتل، فلم يُسمِّهِ قتلاً كما فعلَتِ ٱلكلمةُ ٱلعربيَّة، لِأنّ أحدَ ٱلقتلينِ هو جريمةٌ وٱعتداء، فنزَّهَ ـ سبحانه ـ ٱلعدْلَ ٱلشرعيَّ حتى عن شَبَهِهِ بِلفظِ ٱلجريمةِ؛ وهذا منتهى ٱلسمُوِّ ٱلأدبيِّ في ٱلتعبير.

٥ ـ ومن إعجازِ هذه ٱللفظةِ أنَّها بِٱختيارِها دونَ كلمةِ ٱلقتل تُشيرُ إلى أنَّهُ سيأتي في عصورِ ٱلإنسانيَّة ٱلعالِمةِ ٱلمتحضِّرةِ عصرٌ لا يرى فيهِ قتلَ ٱلقاتلِ بِجنايتِهِ إلَّا شرًّا من قتلِ ٱلمقتول؛ لِأنَّ ٱلمقتولَ يهلكُ بِأسبابٍ كثيرةٍ مختلِفة، على حينِ أنَّ أخذَ ٱلقاتل لِقتلِهِ ليسَ فيهِ إلَّا نيَّةُ قتلِه؛ فعبّرتِ ٱلآيةُ بِٱللغةِ ٱلتي تُلائِمُ هذا ٱلعصرَ ٱلقانونيِّ ٱلفَلسفيّ، وجاءَتْ بِٱلكلمةِ ٱلتي لن تجِدَ في هذه ٱللغةِ ما يُجزِىءُ عنها في ٱلاتِّساعِ لِكُلِّ ما يُرَادُ بِها من فلسَفةِ ٱلعقوبة.

٦ ـ ومن إعجازِ ٱللفظةِ أنّها كذلك تحمِلُ كلَّ ضروبِ ٱلقِصاصِ مِنَ ٱلقتلِ فما دونَه، وعجيبٌ أنّ تكونَ بِهذا ٱلإطلاقِ مع تقييدِها بِٱلقيودِ ٱلتي مرَّتْ بك؛ فهيَ

بذلك لُغةُ شريعةٍ إلٰهيةٍ على ٱلحقيقة، في حين أَنَّ كلمةَ ٱلقتلِ في ٱلمثلِ ٱلعربيِّ تنطِقُ في صراحةٍ أنَّها لغةُ ٱلغريزةِ ٱلبشريَّةِ بأقبحِ معانيها؛ ولذلك كانَ تكرارُها في ٱلمثلِ كَتكرارِ ٱلغلطة؛ فالآيةُ بلفظةِ (ٱلقِصاص) تضحَكُ أمامَ ٱلألوهيَّةِ بِعدْلِها وكمالِها، وٱلمثلُ بِلفظةِ (ٱلقتل) يضحُكَ أمامَ ٱلبشريَّةِ بنقصِها وظُلْمِها.

٧ ـ ولا تنسَ أنَّ ٱلتعبيرَ بِٱلقصاصِ تعبيرٌ يدعُ ٱلإنسانيَّةَ محلَّها إذا هيَ تخلَّصَتْ من وحشيتِها ٱلأولى وجاهليَّتِها ٱلقديمة، فيشملُ ٱلقِصاصُ أخذَ ٱلدِّيةِ وَٱلعفوَ وغيرَهما؛ أمَّا ٱلمثلُ فليسَ فيهِ إِلَّا حالةٌ واحدةٌ بِعينِها كأنَّهُ وحشٌ ليسَ من طَبعِهِ إِلَّا أنْ يفترس.

٨ ـ جاءَتْ لفظةُ ٱلقِصاصِ مُعرَّفةً بأداةِ التعريف، لِتدُلَّ على أنَّهُ مقيَّدٌ بِقيودِهِ ٱلكثيرة؛ إذْ هو في ٱلحقيقةِ قوَّةٌ من قُوى ٱلتدميرِ ٱلإنسانيَّةِ فلا تصلُحُ ٱلإنسانيَّةُ بِغيرِ تقييدِها.

٩ ـ جاءَتْ كلمةُ (حياة) منوّنة، لِتدلَّ على أنَّ هٰهنا ليسَتْ حياةً بعينِها مُقيَّدةً بِٱصطلاحٍ معيَّن؛ فقد يكونُ في ٱلقِصاصِ حياةٌ ٱجتماعيَّة، وقد يكونُ فيهِ حياةٌ سياسيَّة، وقد تكونُ ٱلحياةُ أدبيَّة، وقد تعظمُ في بعضِ ٱلأَحوالِ عنْ أنْ تكونَ حياة.

١٠ ـ إنَّ لفظَ (حياة) هو في حقيقتهِ ٱلفلسفيَّةِ أعمُّ مِنَ ٱلتعبيرِ (بنفيِ ٱلقتل)، لِأنَّ نفيَ ٱلقتل إنَّما هو حياةٌ واحدة، أي تركُ ٱلروحِ في ٱلجسم، فلا يحتملُ شيئاً مِنَ ٱلمعاني ٱلسامية، وليسَ فيهِ غيرُ هذا ٱلمعنى ٱلطبيعيِّ ٱلساذج؛ وتعبيرُ ٱلكلمةِ ٱلعربيَّةِ عن ٱلحياةِ (بنفيِ ٱلقتل) تعبيرٌ غليظٌ عاميٌّ يدلُّ على جَهْلٍ مُطْبِقٍ لا محلَّ فيهِ لِعِلْمٍ ولا تفكير، كَٱلذي يقولُ لك: إنَّ ٱلحرارةَ هيَ نفيُ ٱلبُرودة.

١١ ـ جعْلُ نتيجةِ ٱلقتلِ حياةً تعبيرٌ من أعجبِ ما في ٱلشعرِ يسمو إلى ٱلغايةِ مِنَ ٱلخيال، ولكنّ أعجبَ ما فيهِ أنَّهُ ليسَ خيالاً، بلْ يتحوَّلُ إلى تعبيرٍ عِلْمِيٍّ يسمو إلى ٱلغايةِ مِنَ ٱلدقَّة، كأنَّهُ يقولُ بِلسانِ ٱلعِلْم: في نوعٍ من سَلْبِ ٱلحياةِ نوعٌ من إيجابِ ٱلحياة.

١٢ ـ فإذا تأملْتَ ما تقدَّمَ أنعمْتَ فيهِ تحقَّقْتَ أنَّ ٱلآيَةَ ٱلكريمةَ لا يَتِمُّ إعجازُها إِلَّا بِما تَمَّتْ بِهِ من قولِه: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، فهذا نِداءٌ عجيبٌ يسجدُ لَهُ مَنْ يفهمُه، إذْ هو موجَّهٌ لِلعربِ في ظاهرِهِ على قدرِ ما بلغوا من معاني ٱللّب[1]، ولكنَّهُ في

---

(١) اللب: العقل والقلب.

حقيقتِهِ موجَّهٌ لإقامةِ ٱلبُرهانِ على طائفةٍ من فلاسفةِ ٱلقانونِ وٱلاجتماع، هم هؤلاءِ ٱلذين يَرَوْن إجرامَ ٱلمُجرمِ شذوذاً في ٱلتركيبِ ٱلعصبيّ، أو وِراثةً محتومَة، أو حالةً نفسيَّةً قاهِرة، إلى ما يجري هذا ٱلمجرى؛ فمِنْ ثُمَّ يَرَوْنَ أنْ لا عِقابَ على جريمة، لأنَّ ٱلمُجرمَ عندَهم مريضٌ لَهُ حكمُ ٱلمرضى؛ وهذه فلسفةٌ تحملُها ٱلأَدمغةُ وٱلكتب، وهيَ تُحوِّلُ ٱلقلبَ إلى مصلحةِ ٱلفرْدِ وتصرِفُهُ عن مصلحةِ ٱلمجتمع، فنَبَّهَهُمُ ٱللَّهُ إلى ألبابِهِم دون عقولِهِم، كأنَّهُ يُقرِّرُ لهم أنَّ حقيقةَ ٱلعِلْم ليسَتْ بِٱلعقلِ وَٱلرأْي، بلْ هيَ قبلَ ذلك بِٱللبِّ وَٱلبصيرة، وفلسفةُ ٱللبِّ هذه هيَ آخِرُ ما ٱنتهَتْ إليه فلسفةُ ٱلدنيا.

١٣ ـ وَٱنتهَتِ ٱلآيَةُ بِقولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وهيَ كلمةٌ من لغةِ كلِّ زمن، ومعناها في زمنِنا نحن: يا أولي الألباب، إنَّهُ برهانُ ٱلحياةِ في حِكمةِ ٱلقِصاصِ تسوقُهُ لكم، لعلَّكُمْ تتَّقون على ٱلحياةِ ٱلاجتماعيَّةِ عاقبةَ خِلافِه، فٱجعلوا وُجهَتكُم إلى وِقايةِ ٱلمجتمعِ لا إلى وقايةِ ٱلفرْد.

* * *

وبعدُ، فإذا كانَ في الآيةِ ٱلكريمة ـ على ما رأيْتَ ـ ثلاثةَ عَشَرَ وجهاً من وجوهِ ٱلبيانِ ٱلمعجزِ، فمعنى ذلك من ناحيةٍ أخرى أنَّها أسقطَتِ ٱلكلمةَ ٱلعربيَّةَ ثلاثَ عَشْرَةَ مرَّة.

* * *

القتل أنفى للقتل

ليست مترجمة

بعدَ أن نَشرْتُ مقالَة (الكلمةُ المؤمنة) في (البلاغ)، كتبَ ٱلأديبُ ٱلفلسطينيُّ ٱلأستاذُ إسعافُ ٱلنشاشيبي: إنَّ هذه ٱلكلمةَ مترجمةٌ عنِ ٱلفارسيَّة، وقد نقلَها الثعالبيُّ في كتابِهِ (ٱلإيجازُ وَٱلإعجاز)، فنشرنا في «البلاغ» هذا التعليق:

* * *

قالَ ٱلأستاذُ ٱلكبيرُ محمد إسعاف النشاشيبي في كلمتِهِ لِلْبلاغ إنَّ عبارةَ «القتلُ أنفى للقتل»، ليست بِعربيَّةٍ ولا مولَّدة، بلْ هي مترجمة؛ أي فهي مطموسة ٱلوجهِ من كونِها أعجميَّةً وقعَ ٱلخطأُ في نقلِها إلى ٱلعربيَّة، فكانَتْ غلطةً من جهتين.

وإنَّه لَيسُرني أنْ تكونَ فوقَ ذلك زنجيَّةً نُقِلَتْ إلى ٱلمالطيَّة، ثُمَّ تُرجِمَتْ إلى ٱلعربيَّة، فتكونُ غلطةً من أربعِ جِهات، لا من جِهتينِ فقط. . . ولكنَّ هذه ٱلكلمةَ لم يُشْرْ إلى أَصلِها غيرُ (ٱلثعالبيّ)، وهو مع ذلك لم يقطعْ فيها برأْيٍ، بلْ أشارَ إلى ترجمتِها في صِيغةٍ من صِيغِ ٱلتمريضِ ٱلمعروفةِ عند ٱلرواةِ فقال: «يُحكى أنَّ فيما تُرجمَ عن أزدشير. . .» و(يحكى) هذه ليسَتْ نصًّا في بابِ ٱلرواية، وقد يكونُ هذا ٱلإمامُ ٱتّقى ٱللَّهَ فٱبتعَدَ بِٱلكلمةِ وَطوّحَ بها إلى ما وراءِ بلادِ ٱلعرب، أو تكونُ ٱلكلمةُ أُلقِيتْ إليهِ على أنّها مُشْتبَهٌ في نِسبتِها؛ ولو كانَتِ ٱلعِبارةُ مترجمةً لتناقلَها ٱلأئمةُ مُعزوَّةً إلى قائلِها أو لُغتِها ٱلتي قِيلَتْ فيها.

ولقد ذكرَها ٱلعسكريُّ في كتابِهِ (الصناعتين) على أنَّها (من قولِهِم)، أي ٱلعربِ أوِ ٱلمولَّدين؛ ونقلَها ٱلرازيُّ في تفسيرِه، فقال: إنّ لِلعربِ في هذا ٱلمعنى كلماتٍ منها «قتلُ ٱلبعض إحياءٌ لِلجميع»، وأحسنُها «القتل أنفى لِلقتل»؛ وكذلك جاءَ بِها ٱبنُ ٱلأثيرِ في كتاب «المثلُ السائر» ولم يَعْزُها؛ وقال مُفَسِّرُ ٱلأندلسِ أبو حيَّانَ في تفسيره: إنَّها تُروى بِروايةٍ أخرى وهي: «القتلُ أوقى للقتل»، وكلُّ ذلك صريحٌ في أنَّ خبرَ ٱلترجمةِ قدِ ٱنفردَ بِهِ ٱلثعالبيّ.

ولا يقومُ ٱلدليلُ على ترجمتِها إلَّا بظهورِ أصلِها ٱلفارسيّ، فإنْ كانَ عِلْمُ ذلك عندَ أحدٍ فَلْيتفضلْ بِهِ مشكوراً مأجوراً.

(تنبيه): نشرْنا هذه ٱلكلمةَ ومَضَتْ بعدَها سنواتٌ ولم يقفْ أحدٌ على أنَّ لِلعبارةِ أصلاً فارسيًّا، فلم يبقَ عندَنا رَيبٌ[1] أنَّها من صنيعِ بعضِ ٱلزنادقةِ وقد ولَّدَها مِنَ ٱلآيةِ ٱلكريمةِ ليُجريَها في مَجرى ٱلمُعارضة[2]؛ وقد كتبَ ٱلأستاذُ ٱلكبيرُ عبدَ ٱلقادرِ حمزة صاحبُ جريدةِ (البلاغ) أنَّ تلك ٱلعِبارةَ حِكْمةٌ مِصْرِيَّةٌ قديمة؛ ولا نمنعُ أَنْ يكونَ هذا، فإنَّ بعضَ ٱلحِكَم مِمَّا تَتَوَارَدُ عليهِ ٱلعقولُ ٱلإنسانيَّةُ ٱلنابغة؛ إذْ كانَتِ ٱلطبيعةُ ٱلبشريَّةُ كأنَّها تُمْليه؛ غيرَ أنّ ٱلعِبارةَ ليسَتْ في كلام ٱلجاهليَّةِ ٱلقديمةِ ولا ٱلحديثة، وألفاظُ ٱلمصريَّةِ غيرُ ألفاظِ ٱلعربيَّة، فلم يبقَ إلَّا تواردُ ٱلخواطر، وَٱللَّهُ أعلم.

---

(١) ريب: شكّ.

(٢) المعارضة: المقارنة.

القتل أنفى لِلقتل

ليسَتْ جاهلية

وبعدَ كلمتِنا تلك عنِ ٱلترجمةِ نشرَ أديبٌ في ٱلبلاغِ أنَّ ٱلكلمةَ جاهليَّة، فتعقبْناهُ بهذا ٱلتعليق:

* * *

أثبَتَ ٱلأستاذُ عبدُ ٱلعزيزِ ٱلأزهريُّ فيما نشَرهُ في «البلاغ» أنَّ هذه ٱلكلمةَ عربيَّةٌ في دعواه، وَٱحتجَّ لذلك بِحُجَج، أقواها زعمُه: «أنها وردَتْ بين ثنايا عهدِ ٱلقضاءِ ٱلذي بعثَ بِهِ سيدُنا عمرُ إلى أبي موسى ٱلأشعري؛ ولا ندري أين وجدَ ٱلكاتبُ كلمة: «القتل»، فضلاً عن: «القتلُ أنفى للقتل» ـ في ذلك ٱلعهدِ ٱلمشهورِ ٱلمحفوظ، وقد رواهُ ٱلجاحظُ في «البيان والتبيين»، وجاءَ بِهِ ٱلمبرِّدُ في «الكامل»؛ ونقلَهُ ٱبنُ قتيبةَ في «عيونُ الأخبار». وأورَدهُ ٱبنُ عبدِ ربه في «العقدُ الفريد»، وساقَهُ ٱلقاضي ٱلباقلانيُّ في «الإعجاز»؛ وفي كلِّ هذه ٱلرواياتِ ٱلموثَّقةِ لم تأتِ ٱلكلمةُ في قولِ عمر، بلْ لا محلَّ لها في سِياقِه، وإنَّما جاءَ قولُه: «فإنْ أحضرَ بيِّنَةَ أخذْتَ لَهُ بِحقِّهِ وإلَّا وجَّهْتَ عليهِ ٱلقضاء، فإنَّ ذلك أنفى لِلشَّكَكّ».

أمَّا سائرُ حُججُ الكاتبِ فلا وزَن لها في بابِ ٱلروايةِ ٱلتاريخيَّةِ وقد أصبحَ عاليها سافِلَها كما رأيْت.

وٱلذي أنا واثقٌ منه أنَّ ٱلكلمةَ لم تُعرفْ في ٱلعربيةِ إلى أواخرِ ٱلقرنِ ٱلثالثِ مِنَ ٱلهجرة، وهذا ٱلإمامُ ٱلجاحظُ يقولُ في موضعٍ من كتابه (البيانُ والتبيِّين)، في شرح قولِ علي ـ كرَّم ٱللهُ وجهَه ـ: «بقية ٱلسيفِ أنْمَى عدداً وأكثرُ ولداً»، ما نصّه: «ووجدَ ٱلناسُ ذلك بِالعيانِ للذي صارَ إليهِ ولدُهُ من نهكِ ٱلسيفِ وكثرةِ ٱلذرءِ وكرم ٱلنجل؛ قالَ ٱللَّهُ ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ وقال بعضُ الحُكماء: «قتل البعضِ إحياءٌ لِلجميع».

ولم يزدِ ٱلجاحظُ على هذا، ولو كانَتِ ٱلكلمةُ معروفَةً يومئذٍ لَمَا فاتَتْهُ كما هو

صنيعُهُ في كتبهِ، خُصوصاً وهي أوجزُ وأعذبُ مِمَّا نسبَهُ لِبعضِ ٱلحُكماء؛ وهذه ٱلعِبارةُ ٱلأخيرةُ (قتلُ البعض. . .) هي ٱلتي زعمَ ٱلرازيُّ في تفسيرهِ أنَّها لِلعرب. . . فلا عِبرَةَ في هذا ٱلبابِ بِكلامِ ٱلمُفسرينَ ولا ٱلمُتأخرين من علماءِ ٱلبلاغة، وإنّما ٱلشأنُ لِلتحقيقِ ٱلتاريخيّ.

ونصَّ ٱلجاحظُ في كتاب «حججُ النبوّة» على أنَّ قوْماً منهم ٱبنُ أبي ٱلعوجاء، وإسحاقُ بْنُ ٱلوت، وَٱلنعمانُ بْنُ ٱلمنذر: «أشباهُهُم مِنَ ٱلأرجاسِ ٱلذين ٱستبدَلوا بٱلعزِّ ذُلّاً، وبٱلإيمانِ كُفراً، وبٱلسعادةِ شِقوة، وبِٱلحُجَّةِ شُبهة، كانوا يصنعونَ ٱلآثار، ويُولِّدون ٱلأخبار، ويبثُّونها في الأَمصار، ويطعنونَ بِها على ٱلقرآن»؛ فهذا عندَنا من ذاك.

وإنْ لم ينهضِ ٱلدليلُ القاطعُ على أنَّ ٱلكلمةَ مترجمةٌ عنِ ٱلفارسيَّة بِظهورِ أصلِها في تلك ٱللغةِ ورجوعِهِ إلى ما قبلَ ٱلإسلام، فهي ولا ريبَ مِمَّا وُضِعَ على طريقةِ ٱبنِ ٱلراوندي ٱلزنديقِ ٱلمُلْحِدِ ٱلذي كانَ في منتصفِ ٱلقرنِ ٱلثالثِ وأَلَّفَ في ٱلطعْنِ على هذه ٱلطريقة: «إنَّا نجدُ في كلامِ ٱلعرب شيئاً أبلغَ من ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾».

وهؤلاءِ ٱلمتطرِّفون على ٱلقرآنِ ٱلكريم إنَّما يُريدون بما يصنعونَهُ من مثلِ هذه ٱلكلمةِ أنْ يُوجِدوا لِلعامةِ وأشباهِهِم مِنَ ٱلأحداثِ وٱلأغرارِ وأهلِ ٱلزيغِ وَٱلضعفاءِ في ٱلعِلْم ـ سبيلاً إلى ٱلقوْلِ في نقضِ ٱلإعجاز، ومَسَاغاً إلى ٱلتهمةِ، في أنَّ ٱلقرآنَ تنزيل؛ وٱلخطأُ في مثلِ هذا يتجاوزُ معنى ٱلخطأ في ٱلبيانِ إلى معنى ٱلكفْرِ في ٱلدين، وذلك ما يرمون إليه؛ وهذه بِعينِها هيَ طريقةُ المبشِّرينَ ٱليوم، فكأنَّ إبليسَ من عهدِ أولئكَ ٱلزنادقةِ إلى عهدِ ٱلمُبشرينَ لم يستطعْ إنْ يتغَيَّر، ولا أنْ يكون. . . أن يكونَ مُجَدِّداً. . .

* * *

فهرس المحتويات